أسست عام ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٨١) محرم ١٤٣٥ هـ / نوفمبر - ديسمبر ٢٠١٣ م

هدية العدد: التقويم الهجري



أمة «اقرأ»
واقع مؤلم
وطموحات خلاقة

- التعامل مع الوعود الربانية بين التصديق والتضييق
- آثار المعصية في الفرد والمجتمع
- أطلس الوقف .. يوثق أوقاف الكويت
- مالك بن نبي وأسئلة الاستعمار والنهضة

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م
الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

كل عام وأنتم بخير

جديد إصداراتنا



صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ - الكويت هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
البريد الالكتروني: info@alwaei.com

الافتتاحية

التربية والتعليم

أسرة التحرير

تعد التربية من الأساسات العلمية والاجتماعية والإنسانية المهمة في أي مجتمع متحضر، ولاشك أن الرديف الأبرز لعملية التربية الناجحة هو التعليم المتميز، ولهذه القيمة البالغة كان قطب التربية والتعليم صاحب الصدارة في أولويات الدول التي تنشد لبلادها الرقي والتقدم. وما من مجتمع ينشد الرفعة والسبق إلا وله منهاج تربوي فريد؛ يتحرك وفق معالمه، ويسير على هداه؛ فإذا اختل البناء التربوي وانفصمت عراه؛ اضطربت مسيرة المجتمع وتخلف بناؤه.

والتربية -كما هو معلوم- تعهد الشيء ورعايته بالزيادة والتنمية والتقوية، والأخذ به في طريق النضج والكمال الذي تؤهله له طبيعته.. وهي في الإسلام تجمع بين تأديب النفس، وتهذيب الروح، وتثقيف العقل، وتقوية الجسم، بلا طغيان جانب منها على آخر، ولها وسائل جمة، منها: التربية بالقدوة؛ إذ هي أكثر الوسائل فعالية وأقربها إلى النجاح، فمن السهل -كما يقول أحد العلماء- تأليف كتاب في التربية، ومن السهل تخيل منهج، وإن كان في حاجة إلى إحاطة وبراعة وشمول، ولكن هذا المنهج يظل حبرًا على ورق ما لم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض.

وعلى هذا فالمعلم القدوة يأخذ بيد تلميذه بلا معاناة إلى جميع الخلال الحسنة والآداب الكاملة، ونظرًا لأهميته وتأثيره في زرع الخير في قلوب الناشئة، فقد لجأ كثير من أصحاب الجاه والسلطان إلى الاستعانة بذوي القدوات الصالحة لتربية أبنائهم وتعليمهم. روى الجاحظ أن عقبة بن أبي سفيان لما دفع ولده إلى المؤدب قال له: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بُنَيَّ إصلاح نفسك؛ فإن أعينهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت، وعلمهم سير الحكماء، وأخلاق الأدباء».

ومن وسائل التربية: الموعظة الحسنة؛ إذ في النفس استعداد للتأثر بما يلقى إليها من كلام، وهو استعداد مؤقت في الغالب، ولذلك يلزمه التكرار، فالموعظة تؤثر في السامع وتفتح طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان وتهزه هزا، ولكنها إذا تركت تترسب من جديد، ويخمل مفعولها، ومن أسباب نجاحها: تنويع طرائقها؛ فمرة بالقصة، ومرة بالترغيب، وثالثة بالترهيب، وهكذا...

وإذا صلحت سبل التربية؛ صلح أمر التعليم ولابد، والعكس بالعكس، ولهذا اتبع المفسدون سياسة طويلة النفس في تدمير العملية التربوية والتعليمية في بلاد المسلمين؛ والتي تمثلت في التغريب الثقافي للعلم والتعليم؛ من خلال ما يعرف بحركة الاستشراق التي مهدت للاستعمار، واحتلال البلاد الإسلامية، وتنفيذ المخطط الذي قام على صنع أجيال رجعت عن الإسلام، ومكرت به، وفق الطريقة التي رسمها الأعداء، وذلك بإخراج المسلم من الإسلام؛ ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، ومن ثم لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (يوسف:٢١).

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨١ | محرم ١٤٣٥ هـ
العام الواحد وخمسون
نوفمبر - ديسمبر ٢٠١٣ مـ

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان: ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع
دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية
- المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



التعلم بوابة نهضة الأمة، به نستعيد دورنا الحضاري، ونسابق الأمم في مضمار عصر المعلوماتية فلا نبقى عالة على المنجزات بل إضافة تليق بوجه ديننا السمح المبنى على«اقرأ»

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦-٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩ (٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١ (٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع الصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا - شركة المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

الكويت : ٥٠٠ فلس ● السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ● الأردن: دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ● اليمن : ١٠٠ ريال ● لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠ دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ● تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

كلمة العدد

صناعة التعليم

التعليم مفتاح الرقي الحضاري والتقدم العلمي لجميع الشعوب والأمم، وبات في العصر الحديث صناعة لها آلياتها وسبلها القائمة على الإبداع والابتكار في الوسائل والمناهج العلمية.

والتعليم وسيلة مؤثرة تساهم في تحقيق الأهداف والطموحات، وركيزة أساسية لتكوين الرؤى الواضحة لبناء الأجيال التي تلبي متطلبات النمو الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في مجتمعاتنا، وذلك من خلال بناء منظومة تعليمية متكاملة.

ولعل صناعة التعليم تؤسس منهجًا يحقق الدافعية لدى أبنائنا، نحو حب التعلم والتحصيل العلمي، وربط مخرجات التعليم بقدراتهم وميولهم، وباحتياجات المجتمع من حولهم.

فلابد أن تكون مخرجاتنا التعليمية فاعلة منتجة في بناء المجتمع وخدمة الوطن، بالإضافة إلى بحث أوجه الخلل في المنظومة التعليمية الحالية، ومن ثم الوصول إلى الحلول المناسبة.

ولن تتحقق النهضة للأمم إلا من خلال غرس المثل العليا في فلذات أكبادنا، وتربيتها بالحكمة والموعظة الحسنة، لبناء جيل متزن واع، قادر على اتخاذ القرار والمشاركة المجتمعية.

إذ إن المربي صانع الحضارات الحقيقي، ومدرسة الأجيال، والذي يساهم في نهضة الأمة وتقدمها، فالقدوة الحسنة وتطابق القول والعمل؛ تلك صفات لا يتحلى بها إلا المؤثرون في مجتمعاتهم..

وينبغي على المسؤولين ومتخذي القرار في بلادنا تغيير فلسفة التعليم، والانتقال برسالة الدراسة من مجرد الحصول على الشهادة أو الوظيفة إلى بناء كوادر مؤهلة ذات كفاءة عالية من المعرفة والمهارة.

لقد أصبح بناء الأجيال الواعية المؤهلة هو التحدي الرئيسي لمجتمعاتنا اليوم.. أجيال تأخذ على عاتقها مسؤولية الإسهام في بناء الوطن، وتنمية المجتمع، وتحقيق أهداف المستقبل.

التحرير

الاشتراكات

● داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارا كويتيا
● الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
● دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارا كويتيا (أو ما يعادلها).
● للمؤسسات: ٢٥ دينارا كويتيا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

دراسة المستقبل.. أولوية شرعية

د.إدريس مقبول
أكاديمي مغربي

لا شك أن استبصار المستقبل أو استشرافه هو من قبيل النظر في الآفاق الذي أمر الله تعالى به عباده تخطيطًا لما يستقبلهم من عاديات الزمن وتحسبًا لأزماته وترقبًا لمفاجآته، ولا يدخل هذا التخطيط في مسمى الكهانة(١) ولا الاستقسام(٢) ولا الرجم بالغيب(٣) ما دام لا يتوسل بما نهى الشرع عن تعاطيه من ضروب السحر والشعوذة والخط(٤).

لقد رفض الإسلام استشراف الغيب من طريق غير مشروع يدعي فيه المستشرف إمكان معرفته بما استقل الله تعالى بعلمه قبل وقوعه بالإطلاق، لكنه لم يرفض ما جاء من طريق الدراسة العلمية التجريبية أو الميدانية «فهذه الدنيا قائمة على سنن، منها ما يسير به الكون ومنها ما يسير به التاريخ، سنن في الطبيعة وسنن في المجتمع، والذي يتعرف إلى هذه السنن يستطيع أن يتنبأ بالنتائج إذا وجدت أسبابها دون أن يكون ذلك علمًا بالغيب أو مزاحمة لله في علمه، فالله الذي أذن للإنسان أن يتعرف على الكون وعلى نفسه، هو الذي أذن له أن يتعرف على حركته ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا، وتبقى الفروق ثابتة بين علم الله المحيط وعلم الإنسان المحدود، بين علم الله المطلق وعلم الإنسان النسبي»(٥).

والمسلمون اليوم تأسيًا بما علمهم رسول الله ﷺ في سيرته العطرة مدعوون للأخذ بأسباب استشراف المستقبل بما ترشحه وسائل العصر الحديث من إحصائيات وحسابات ودراسات مدققة في اتجاه الرقي بالعمل الإسلامي وحفظه مما يمكن أن يأتي عليه بالهدم والنقض أو العرقلة والتعطيل.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: ١٠٨)، (٦) يبين لنبيه ﷺ كيف يكون عرض الدعوة في وضوحها وقوتها وجاذبيتها، وتركيزنا في هذا الموضع على «البصيرة» من البصر، ومادة (ب ص ر) في اللغة مدارها على معنى: العلم بالشيء، يقال فلان بصير بالشيء: أي عليم به، وقيل البصيرة: البرهان، وهو من الوضوح. ولعل من معاني الدعوة على بصيرة مفهوم الاستبصار، وهو بالمناسبة من مشتقات نفس الجذر (بصر)، ويأتي بمعنى النظر البعيد الأفق نحو المستقبل، والدعوة على بصيرة تحتاج إلى فقه تخطيط لما يحتاجه المخاطبون المستهدفون بالدعوة، وإلى فقه استشراف لما تميل إليه أفئدتهم وعقولهم ومشاعرهم حتى يحسن الدخول عليهم من أوسع الأبواب وأصلحها انطلاقًا من فقه نفوسهم وما يتطلعون إليه.

إن الدارس لسيرة النبي ﷺ يجد أن خطواته المباركة في كل مرحلة من المراحل الدعوية تسير وفق خطة محكمة مستبصرة تستهدف تنمية فعالية(٧) وكفاءة(٨) العمل والعاملين من الصحابة معه، وذلك لما يتطلبه النجاح والنمو السريع لأي نشاط من تضافر الفعالية والكفاءة العاليتان.

والعمل الإسلامي اليوم يتطلب أن يتجاوز العقل المسلم واقعه القريب إلى استشراف المستقبل البعيد، وأن تكون للمسلمين دراسات مستقبلية يتوقعون فيها ما يمكن حدوثه أو يحصل تغيره، من باب النظر المصلحي(٩)، ثم وضع برامجهم الإصلاحية والتنموية مراعين ما يلزم لذلك من احتياطات واستعدادات تكون سياجًا آمنًا من مفاجآت المستقبل ومتغيرات الزمان.

وليس في ذلك ادعاء للغيب أو تجاوز للشرع، بل إن ذلك معتبر ضمن ما سماه بعض الفقهاء بقاعدة اعتبار المآلات(١٠)، إذ النواميس التي وضعها الله- عز وجل- في الأنفس والمجتمعات والكون ثابتة لا تتغير ومحكمة لا تتبدل إلا إذا شاء الله- عز وجل- ذلك، فإذا اكتشف العقل المسلم نظام هذه النواميس والسنن، وسار ضمن قانونها العام فإنه لن يعدم خيرًا، إذ قد استفرغ الوسع في تحقيق أغراض الخير ودفع معاول الشر بحسب المتاح والممكن.

وإذا كان واقع المسلمين المتخلف مع ثقل ما يحملونه



من ركام التأخر التاريخي يعطل مسيرتهم نحو التقدم، فإنهم اليوم لا يعطون لاستشراف المستقبل كبير اهتمام مع ضرورته في وقتنا المعاصر. فإننا نجد كثيرًا من دول العالم الغربي، ومنذ زمن بعيد قد اهتمت بذلك الأمر اهتمامًا بالغًا جعل من دولة السويد أن تضع حقيبة وزارية في حكومتها للاهتمام بالمستقبل منذ عام ١٩٧٣م، وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ستمائة مؤسسة لدراسة المستقبل(١١)؛ إلى غيرها من مؤسسات الاستشراف الكثيرة في الغرب والشرق الأسيوي في حين يفتقد عالمنا العربي والإسلامي إلى مثلها، وهو يحمل الكثير من الهموم والمشكلات المتجذرة التي تستلزم حلولاً بعيدة وعلاجات طويلة الأمد.

الهوامش

١- سأل معاوية السلمي النبي ﷺ عن الكهان، فقال له: لا تأتوهم، رواه مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، حديث رقم٢٢٢٧.

٢ – يقول الرسول ﷺ: «لن ينال الدرجات العلى من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر تطيرًا»، رواه الطبراني عن أبي الدرداء، ورجاله ثقات.

٣ – يقول الرسول ﷺ: «من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»، صححه النووي في رياض الصالحين،٥١٤/٤. وأخرجه أحمد (٣١١/١، رقم ٢٨٤١).

٤ – قال النبي ﷺ: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت»، (ابن سعد، وأحمد، والطبراني عن قطن بن قبيصة عن أبيه، قال المناوي: وإسناد أحمد جيد).

٥ – الفكر الإسلامي والمستقبل: عزالدين توفيق، ضمن مجلة البيان، ع٨٤، س٩، ١٩٩٥، ص٩٤.

٦ – يوسف: ١٠٨.

٧ – الفعالية Efficiency هي عمل الأشياء بطريقة صحيحة، وذلك من خلال إدارة ممتازة تتعامل بإتقان مع نقاط القوة والضعف الموجودة في المجتمع أو المؤسسة. فالفعالية هي عمل الأشياء بصورة صحيحة أي إتقان العمل، وهي ما نسميه في الحديث بـ(الإحسان).

٨ – الكفاءة Effectiveness هي عمل الأشياء الصحيحة من خلال تعامل واع وحكيم مع الفرص المتاحة والتهديدات الموجودة في البيئة الخارجية.

٩ – ذلك أن الشريعة في الأصل جاءت لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل ودرء المفاسد عنهم كما قرر الشاطبي في الموافقات،٩/٢.

١٠ – يقول الشاطبي: «النظر فى مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعًا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام، أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل مشروعًا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعًا من إطلاق القول بالمشروعية، وكذلك إذا أطلق القول فى الثاني بعدم مشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد إلا أنه عذب المذاق محمود الغب، جار على مقاصد الشريعة» الموافقات،١٨٧/٥–١٨٨.

١١ – يراجع: مدخل إلى التنمية المتكاملة، عبدالكريم بكار، ص١٥٥.

التعامل مع الوعود الربانية بين التصديق والتضييق

د. محمد علي يوسف
باحث دراسات إسلامية

تعالت الصيحات في شعاب مكة وطرقاتها الضيقة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ (الروم: ٢-٤).

- من هذا؟!

- الصوت ليس غريبًا.

- لماذا يصيح ابن أبي قحافة بهذا الشكل؟

- وكيف علم أن الروم قد غلبت؟

- إن بيننا وبين الفرس والروم ومعاركهم مئات الأميال!

- وكيف علم أنهم سيُغلبون من جديد بعد بضع سنين؟

- لابد أنها تلك الكلمات التي يرددها صاحبه على مسامعه صباحا ومساء ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ...﴾ (الروم: ٢-٤).

استمرت الصيحات تجلجل بثقة في أرجاء مكة.. كرر الصديق أبوبكر رضي الله عنه صيحاته المستبشرة بالآية الكريمة في طرقات مكة، والملأ من المشركين يضربون كفا بكف.. كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرة للروم، وكانت قريش تحب ظهور فارس، لأنهم وإياهم قوم وثنيون ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ولا نشور، لذا فقد وقفوا لأبي بكر مشككين يقولون: فذلك بيننا وبينكم.. زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين.. أفلا نراهنك على ذلك؟

قال بيقين المؤمن المصدق بموعود الله الذي لا يهزه تشكيك ولا يزعزعه مراء أو تسفيه: بلى.

قبل الصديق رهانهم، وكان ذلك قبل تحريم الرهان، فتراهن أبوبكر والمشركون وتواضعوا قيمة الرهان، لكنهم طلبوا منه تحديدا قاطعا يجزم فيه بالعام الذي تنتصر فيه الروم على عدوها.. وهنا كانت الزلة ولا معصوم إلا الأنبياء.. لقد كان الوعد الرباني في الآية على التراخي ولم يكن على التعيين، لكن أبا بكر رضي الله عنه سمى أجلا وحدد موعدا، وما كان له أن يفعل، لكن يقدر الله أن يزل تلك الزلة، ليتعلم المسلمون درسًا ما أعظمه.. لقد حدد البضع هنا بست سنين، وراهنهم الصديق على ذلك،

ومضت الأعوام، وحدثت المتغيرات، ووقعت الوقائع، ثم جاء أجل الرهان، ولم تنتصر الروم رغم مضي الأعوام الستة كما وعد أبوبكر.

تهلل المشركون وظنوا أن قد أثبتوا خللا في وعد الله، فأخذوا رهان أبي بكر فرحين بباطلهم، مستبشرين بتكذيبهم، ودخل على الصديق يومئذ غم عظيم، لكن اليقين بموعود الله أبدا لم يهتز.. إن الذي زل هو الصديق وهو بشر يخطئ ويصيب، على مكانته وقدره، ولعله تسرع لشدة يقينه وتصديقه، لكن المسلمين- كما في رواية الأثر عند الترمذي بسند صحيح- قد عابوا عليه تحديده، فما هكذا تعامل الوعود الربانية والبشريات النبوية، خصوصًا تلك التي بغير تعيين وتحديد وقد جاءت على التراخي، صحيح أنه ما دخلت السنة السابعة إلا وقد ظهرت الروم على فارس، وتحقق موعود الله، وآمن خلق كثير بعد تلك الآية والنبوءة القرآنية المتحققة، لكن ما يعنينا هنا أن أبا بكر كان قد وعى الدرس.

تمر الأعوام ويأتي موقف الحديبية، ويعلن وعد نبوي آخر بالاعتمار، ويستبشر المسلمون، وتتهلل أساريرهم، ها قد حان الوقت لنرى بيت الله الحرام وكعبته المشرفة من جديد، ها قد آن الأوان لنلبي النداء ونهل محرمين مكبرين مهللين، ولنطوف بالبيت العتيق، ونسوق الهدي، وتتسابق قلوبنا لتهفو إلى أم القرى.. لكن جاء المنع، وعاند أئمة الكفر، ثم كان الصلح في الحديبية.. لا عمرة إذن هذا العام!

- «أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟»

هكذا صاح الفاروق عمر في صاحبه ورفيق كفاحه الصديق.. ألم يعدنا رسول الله ﷺ أن نأتي البيت محرمين محلقي رؤوسنا ومقصرين؟ فيجيب بيقين الواثق الذي وعى الدرس، وفهم كيفية التعامل مع الوعود والبشريات:

بلى، أفأخبرَك أنك تأتيه العام؟
- لا.
أجاب عمر نافيا التحديد.. هنا صدع بها أبوبكر بحسم لا يساوره الخلل ولا يأتيه الملل ولا الزلل: «فإنك آتيه ومطوف به».. وهكذا يعامل الوعد.. تصديق ويقين ولو بعد حين.. كم من وعد أطلق في القرآن بتمكين المؤمنين وعز الموحدين.. لكن هل قيل متى؟
﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر: ٤٥) وعد قاطع لاشك فيه، لكن متى هو؟
﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: ٤٧) لكن متى هو؟
﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨) ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٥)
﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ (الصف: ١٣) متى هو؟!
العلم عند الله، والتكليف: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٣) . إن وعود الله ينبغي أن تصدق، وواجب المؤمن تجاهها أن يوقن بها، وأن يبشر ويستبشر، بل واجب الوقت عند البلاء والكرب أن يبشر المؤمنين والصابرين والمخبتين والمحسنين ويثبتهم ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥) .
لكن إياك أن تتكلف وتتقعر وتقطع وتجزم بما لم يحدده الله جل وعلا، إياك أن تتألى على غيب، أو تُضيق واسعا، أو تقطع بما لا تعلم.. التبشير يكون مطلقا كما علمنا الله وعلمنا رسوله ﷺ، وإن الاستثناء لهو التحديد بزمان أو لشخص معين.. إن موقف النبي ﷺ مع سراقة بن مالك ووعده شخصيا بسواري كسرى ليس هو الأصل، إنما هو آية وبشارة استثنائية، لكن جل الوعود القرآنية والنبوية تأتي بصيغة الإطلاق الزماني والعيني، مثال ذلك وعده لخباب بن الأرت بتمام هذا الأمر، لم يذكر له متى يتم الله هذا الأمر، لكنه سيتم، ولقد صدّق خباب وصدّق المؤمنون، ودائما ما كانوا يصدقون حتى في أحلك الظروف وأقسى اللحظات، لقد كان شعارهم دوما كشعارهم يوم رأوا الأحزاب وزلزلوا زلزالا شديدا، فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢).. إنه يقين لا يهتز في زلزال البلاء، وتصديق لا يرتجف بين رياح الأنواء، وتسليم لا يذوب في أتون المعارك ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (يونس:٥٣)، عقيدة ثابتة لا تتغير ولا تتلون ولا تتبدل بتبدل الظروف والمؤثرات، وفارق من أعظم الفوارق بين المؤمن الصادق والمنافق الكاذب، فهذا الأخير لا يصدق إلا ما تلمسه يداه ولا يوقن إلا بما يراه، لذا تجده متربصا، إن جاءت الريح في مصلحته ركبها، وأمعن في الانتفاع منها، وإن جاءت بما لا تشتهي سفنه شكك وكذب، وكان لسان حاله ومقاله كمن قالوا يوم الأحزاب: ﴿ ..مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الأحزاب: ١٢).
أما المؤمن فاعتقاده بمعزل عن مصلحته العاجلة، ويقينه منفصل عن أهوائه وشهواته الآنية، وحيث إنه لا ارتباط بين المتغيرات وبين ما يصدقه، لذلك تجد منحنى اليقين والتصديق والأمل لديه ثابت، سواء رأى أو لم ير ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (الرعد: ٤٠).
الاحتمالان قائمان إذن.. أن ترى.. أو لا تعيش لترى، لكن التصديق ليس خاضعا للاحتمال، وقد وُعدت خديجة بين المؤمنين، لكنها ماتت في الشِّعب ولم تشهد أي فتح أو نصر، ومات مصعب وحمزة في أُحُد دون أن يريا تمكينا أو فتحا لمكة، ومع ذلك ظل اليقين وظل العمل والثبات والتصديق بموعود الله حتى إدراكه أو الممات، وهكذا تُعامل الوعود الربانية.. يقين وتصديق بغير اشتراط أو تكلف تعيين، وهذا اليقين هو الذين يهون به الله على المرء مصائب الحياة، ويعينه على تقلبات الأحداث، ويعطيه الرصيد النفسي الذي يدفعه لإكمال الطريق دون استعجال الثمرة أو التململ أثناء طريقها.. تأمل حال نوح عليه السلام.. ألف سنة إلا خمسين عامًا يتعرض للسخرية والإهانة والتكذيب، ومع ذلك يكمل دون تململ أو تأفف أو استعجال.. إنه اليقين والتصديق، وكذا حال إخوانه الأنبياء..
إن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه إلا رجل أو رجلان، ومنهم من يأتي ليس معه أحد، ومع ذلك فالتصديق كما هو، واليقين ثابت، والعمل مستمر.. اليقين هو الذي يعين المرء على كل عمل من أعمال الدين، لأنه يثق أن هناك ثمرة إن لم يدركها في الدنيا فسيدركها غيره، وسيدرك هو ثمرة الآخرة وهي خير وأبقى من هنا.. إن قامت القيامة وفي يده فسيلة فسيغرسها.. لن يرى ثمرتها، ولكنه سيغرسها، لأنه مصدق موقن أن هنالك وعدًا، وأن وعد الله حق، وأنه لا يخلف الله وعده، وهكذا في وعود نصر الأمة وتمكينها، بشرط ألا يتقول المرء على الله، ألا يحدد ويشترط أو يسمي أجلا لم يُسمَّ، وألا يستعجل، فالميعاد غيب مطلق لا يعلمه إلا الله، بينما الوعد حق قطعي وقول إلهي، ومن أصدق من الله قيلا، واليقين في هذا الحق والثقة في هذا القول عقيدة ثابتة راسخة ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (غافر: ٧٧).
أما فيمن يتحقق الوعد، ومن يستحقون تلك البشرى، فلذلك مقام آخر لعلنا نكمله في المقال المقبل إن يسر الله لنا وأذن.



شبكة ملتقى الخطباء

التحرير

تمر الأمة اليوم بمنعطفات تاريخية؛ حيث ارتقت وسائل الإفساد، وتنوعت طرق الإغراء والإغواء، وتعاظمت الفتن في الشهوات والشبهات، وأضحت التربية مخترقة يشترك فيها المصلح والمفسد، ويتعاظم نفوذ الوسائل المفسدة حتى تصحب الإنسان في هاتفه، وحاسوبه، وشاشة تلفازه، وكان المد هائلًا.

وفي خضم التخطيط الدقيق للإفساد تفتقر قطاعات عريضة في الأمة إلى تخطيط دقيق بعيد المدى للإصلاح ومقارعة الفساد التربوي والأخلاقي الذي يجتال المجتمعات الإسلامية، ومن ضمن هذه القطاعات خطبة الجمعة ورسالة المسجد التي هي الرسالة التربوية الأولى، فلا زالت الخطبة على نسقها السابق دون تطوير أو تنويع مواكب للتحدي العظيم.

وبناء على هذه المعطيات، وشعورًا بالمسؤولية في هذا المنعطف التاريخي، وحيث لم ير لخدمة هذه الشعيرة مشروع متكامل يفردها بالخدمة، ويشمل العناصر الفاعلة فيها من حيث الخطبة والخطيب والمادة العلمية، جاءت فكرة: (شبكة ملتقى الخطباء)، حاملة رسالة: (تجديد خطبة الجمعة، وتفعيل أثرها في حياة المسلمين).

أسباب إنشاء المشروع:

وقد دعا إلى هذا المشروع دواع عدة، كان من أبرزها:

١- مكانة خطبة الجمعة في دين الإسلام، حيث تتبوأ مكانة عالية، فهي شعيرة تتكرر في كل أسبوع، وتقام في كل قطر يقع فيه المسلمون، ويحضرها المقصرون في صلوات الأسبوع كلها، وهم ملزمون ديانة بالاستماع لها، والإنصات لما يلقى فيها، والكف عن الكلام في أثنائها، حتى عن نصيحة الغير، ويلمح من هذه الخصائص الشرعية مكانة هذه الشعيرة، وكونها من ركائز الإصلاح وضرورة اعتناء الأمة بها، وتضافر الجهود في خدمتها.

٢- لم يوقف على مشروع عالمي متكامل يعتني باستغلال هذه الشعيرة وتوظيفها في الإصلاح بطريقة مدروسة ومعتنى بها، مع أهمية هذا المشروع، وكونه أشبه بفروض الأعيان على الأمة، مما حفز إلى المبادرة بالقيام بهذه الفريضة والمسارعة بالاعتناء بها.

٣- ثبت أن كثيرًا من خطباء العالم الإسلامي يستخدمون التقنية الحديثة والشبكة العالمية في

إعدادهم لخطبهم، والأجيال القادمة من الخطباء مرشحة للتعامل الأوسع مع الشبكة العالمية، وهذا يؤيد فكرة استغلال هذه الوسيلة في الإصلاح، ويسهل مهمة استقطاب أكبر عدد ممكن من المستفيدين والمؤثرين.

٤- لا يوجد على الشبكة العالمية موقع متخصص في خطبة الجمعة، إلا موقع وحيد هو موقع: (المنبر) وهو موقع رائد وسابق لغيره في هذا المجال يستحق أن يقال فيه ما قاله ابن مالك في ألفيته:

وهو بسبق حائز تفضيلًا

مستوجب ثنائي الجميلا

ولا شك أن شعيرة بمنزلة خطبة الجمعة تستحق أكثر من موقع.

وطريقة موقع (المنبر) تقتصر على الخطب التي يستقبلها من المرسلين، فمشروعهم انعكاس لمستوى الخطباء، وصورة لنتاجهم، وملتقى الخطباء بحاجة إلى العمل في صعيد مواز، وهو الارتقاء والتوجيه والتخطيط والإعداد للخطباء، وهذا ما يركز عليه، فهو يعمل على تلمس حاجات المجتمع، ومواضع الضعف عند الخطباء، ثم إفرادها بالخطب، والملفات.

٥- لم يقف موقع ملتقى الخطباء على جهة تعتني بدراسات التخطيط الاستراتيجي للخطاب الدعوي، وفي الوقت ذاته يرى القائمون عليه تقصير الكثير من الخطباء في التخطيط الطويل للخطبة، وحسن الارتقاء بها وبالمستهدفين بها، مع أن المجتمعات والتحديات التي يعالجها الخطباء في الوقت الحاضر لم تعد بالبساطة التي كانت عليه في السابق، والمشروع الذي يضطلع به الملتقى في محور (استراتيجية الخطيب) يأخذ على عاتقه بث الفكر التخطيطي، ويقوم بتحديد الأولويات الاستراتيجية للخطباء، ويخدمها بالملفات والخطب التي يعدها.

٦- من خلال التأمل في المشاريع الدعوية، والتعامل مع الشبكة العالمية لم يجد الملتقى مشروعًا تفاعليًا للخطباء يكون بمثابة الرابطة لهم، يكتبون فيه أفكارهم، ويتشاورون فيه في نوازلهم، ويعرضون فيه خطبهم عند النوازل، وإنشاء شبكة ملتقى الخطباء في زاوية (الملتقيات) يهدف إلى تكوين هذه الرابطة، ويوفر هذه الخدمة.

٧- مشروع الملتقى من المشاريع الاستراتيجية الهامة من حيث نفاذ التأثير، وعدد المستفيدين، فإن الموقع يوجه خطابه من حيث الأساس للخطباء لأنهم يملكون منبرًا إعلاميًا من أعظم منابر التأثير في المجتمعات الإسلامية، ألا وهو منبر الجمعة. ومن وراء هؤلاء الخطباء جماهير غفيرة من عموم الأمة، ومن هنا يستطيع إيصال رسالته إلى أعداد كبيرة ربما تفوق ما يتصور ابتداء.







الحمد لله حمدًا يليق بجلاله، والصلاة والسلام على المبعوث بالهدى والرشاد.. أما بعد:

ففي الورقات التي بين أيديكم بعض من جهد عام كامل لمؤسسة ملتقى الخطباء، من السعي الدؤوب في مشروعنا الخطابي المتكامل؛ حيث العطاء المنهمر، على صعيد منابر رجال الدعوة والنذارة..

فنسأل الله أن يهدينا لإخراج هذا التقرير بصورة تسر الناظرين، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

المدير العام

ماجد بن عبد الرحمن آل فريان

أهداف المشروع:

يمكن تلخيصها في ثلاثة أهداف كبرى، يندرج تحت كل منها أهداف أصغر منها، وسياسات وإجراءات مختلفة ترمي إلى تحقيق هذه الأهداف وتفعيلها.

والأهداف الكبرى هي:

الهدف الأول: توحيد الجهود الخادمة لخطبة الجمعة.

الهدف الثاني: الارتقاء بالخطاب الدعوي، والإصلاحي.

الهدف الثالث: تطوير مستوى الخطباء علميًا ومهاريًا.

د.سعد الحلواني أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر:

صراع الحضارات أصله عقائدي وفروعه دنيوية!

محمد حبيب
القاهرة- دار الإعلام العربية



أكد د.سعد الحلواني أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر وعضو اتحاد المؤرخين العرب أن الصراع بين المسلمين والآخر صراع قائم وممتد ومستمر.. وأوضح في حديثه مع «الوعي الإسلامي» أن الدولة الإسلامية في بواكيرها ظلت قوية متماسكة فتية، ولم يصبها الضعف والتخاذل إلا بعد أن ذاق المسلمون في العصور التالية رغد العيش والحياة المترفة.. إلى التفاصيل.

● نموج في عصر تكتنفه الضغائن والصراعات.. فإلى أي مدى استطاع التاريخ الإسلامي أن ينتصر لفكرة التعايش مع الآخر ومدى إسقاط ذلك على واقعنا المعاصر؟

- التاريخ الإسلامي يبدأ منذ بزوغ فجر الإسلام، وفي تلك الأثناء كانت معظم شعوب العالم تتعامل إزاء منظومة الفكر الغربي وبحكم من يستطيع أن يستولي على خيرات الشعوب الأخرى ويستعمرها، ويحتلها، فكان له أن يفعل، وكانت تلك الآلية هي السائدة آنذاك، لكن عندما جاء المسلمون استطاعوا أن ينظموا بنيان دولة متكاملة تتعامل بشريعة ربانية ذات معالم إنسانية، وبدأ المسلمون في فترة وجيزة جدا يبسطون سلطان الإسلام على نصف أرجاء المعمورة في آسيا، إفريقيا، أوروبا، ولم تتعد هذه الفترة ١٥٠ عاما تقريبا، واستطاعوا أن يروجوا لثقافاتهم، ويرسخوا عاداتهم وتقاليدهم في جميع مناطق حكمهم، ومنذ ذلك الوقت أصبح للمسلمين تاريخ عريق وحضارة باذخة، على الرغم من تخلل هذا التاريخ كثير من فترات الفتن والمآسي والمعارك والإخفاقات، فهذه سنة بشرية، فالبشرية إنما خلقت على التفاوت والاختلاف، والتاريخ الإسلامي في ميزان المقاييس البشرية يعد تاريخا حافلا وسويا، ولكل منا فهمه واجتهاده وتصوراته للأحداث وللشريعة نفسها، وكل يفهم حسب ما أعطاه الله من علم وذكاء ودهاء، لذا فقد كان طبيعيا أن يكون هناك اختلاف بين هؤلاء وهؤلاء، وفي كل المواقف التاريخية التي جمعت المسلمين مع المسيحيين أو اليهود انتصرت الشريعة الإسلامية لمبدأ التعايش معهم، وحفظ كامل حقوقهم دون مزايدة أو تدليس.

● إذن.. كيف يرد الإسلام على ما يوجه إليه من مزاعم انتشاره بحد السيف؟

- هذا الكلام مخالف لكل النصوص التاريخية، ما يحدث يندرج تحت إطار أن المسلمين منذ عهد الرسول ﷺ كانوا يبعثون برسائلهم إلى قيادات الأمم من الأباطرة والحكام، وكانت تلك الرسائل تحمل دعوات وبشريات التوحيد إلى شعوبهم، دون أدنى إجبار لأحد على اعتناق الإسلام، وحين رفض هؤلاء الأباطرة والحكام توصيل رسالة المسلمين إلى شعوبهم بطريقة سلمية، هنا كان لابد من وقفة للمسلمين من أجل توصيل رسالتهم لهذه الشعوب، حينئذ بدأ المسلمون في التحرك العسكري من خلال الجيوش والإصرار على توصيل رسالتهم، كما أن الجهاد لا يكون في الإسلام إلا لدرء العدوان والاعتداء على بلاد المسلمين.

> **البشرية خلقت على التفاوت والاختلاف.. وتاريخنا الإسلامي حافل بالإنجازات**

● وماذا عن فكرة الغزو الإسلامي لفتح دول ومناطق بعينها لتمكين الإسلام من دخولها؟

- لم تحدث فكرة الغزو إلا من أجل الدفاع عن البلدان الإسلامية والعقيدة الإسلامية فقط، وهذا ما حدث خلال الفترات الأولى لصدر الإسلام في عهد الخلفاء والدولة الأموية والعباسية.

● وما موقف الشريعة الإسلامية من التعددية؟

- الشرع يدعم فكرة الأمة الواحدة غير المتفرقة وغير المنقسمة على نفسها قولا واحدا، لكنه ترك الفرصة للبشر أن يتفكروا، ويتدبروا، هذا التدبر خلق أفكارا متنوعة ومتعددة، فقد جاء الإسلام بالقرآن، وقد فسره الرسول محمد ﷺ في ضوء منهج التيسير على أمته لا في ضوء التشديد، حتى حين كانوا يسألونه ﷺ في مناسك الحج مثلا كان يقول: افعل ولا حرج، افعل ولا حرج، وقد بدأت هذه الخلافات تضرب بجذورها في التاريخ الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ وقدوم الخلفاء الراشدين، فالعقول مختلفة والتفكير غير متشابه، فبعض العلماء كان متشددا والبعض كان لينا رفيقا؛ اقتداء بالرسول ﷺ في ذلك، وهذه هي الحضارة الإسلامية التي تعطي للمسلمين مساحة للتفكر والإبداع وإعمال العقل بدلا من تحجره، ومن هنا كان انطلاق قضية فهم الكون والطبيعة وقضية الخلق.

● وماذا عن أحلك الفترات في التاريخ الإسلامي؟

- كان هناك العديد من الأحداث التي أثرت على تفوق المسلمين بعد ذلك، وكان لها الأثر السلبي في تقدمهم لسنوات طويلة بلغ مئات السنين، وأول هذه الأحداث هو الخلاف القائم آنذاك بين أم المؤمنين عائشة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وعندما طعن عثمان وتولى علي بن أبي طالب الخلافة نصحه مستشاروه بأن يعزل كل الولاة في كل الإمارات الإسلامية، فعندما أصدر قرارا بعزلهم انصاعوا جميعهم طاعة للقرار، إلا معاوية بن أبي سفيان الذي كان يحكم بلاد الشام، فأرسل إلى علي أنه لن يطيعه في العزل إلا بعد أن يأتي له بقتلة خاله عثمان رضي الله عنه، فقامت الحرب بين جيش من قبل علي قاده عبيدة بن الجراح وجيش من قبل معاوية قاده عمرو بن العاص، فانتصر جيش علي، وكانت هذه الأحداث هي البداية الحقيقية لظهور الشيعة في معركة صفين عندما تشيع الناس لعلي في مواجهة الخوارج الذين خرجوا عليه، وشيعة علي، أي مناصروه أو مؤيدوه، والخوارج هم من خرجوا عليه، ثم ظهر بعدها ما يعرف بالمعتزلة، ومن هنا كانت البداية الحقيقية لظهور الفرق وتفتيت عضد المسلمين.

● هذا عن موقف التشريع الإسلامي فماذا عن موقف التاريخ؟

- هذا سؤال رائع، كثير من المؤرخين أيدوا عليا في موقفه؛ لأنه كان أمير المؤمنين وطاعته واجبة لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾(النساء:٥٩). فمن هذا المنطلق كان علماء التاريخ ممن جاءوا بعد هؤلاء يميلون إلى موقف علي على حساب موقف معاوية، لكن هذا لا يمنع من أن هناك علماء آخرين رجحوا موقف معاوية على حساب علي وهم الأقل.

● هل يمكن اعتبار هذه الواقعة هي البداية الحقيقية؛ لتغيير المدار الإسلامي إلى منحى غير صحيح؟

- التاريخ لا يقاس بهذا الشكل، لكن لابد من أن نذكره بما حدث، وليس بما كان ينبغي أن يحدث، فنحن لا نستطيع عادة صياغة التاريخ مرة أخرى، ولكن ما يمكن أن نقوله أنها كانت بداية حقيقية لظهور الفتن والمصائب التي ألمت بالمسلمين وانقسامهم على أنفسهم بعد ذلك.

● وماذا عن أهم الفوارق الجوهرية بين الرعيل الأول من المسلمين صناع الحضارة الإسلامية، وبين من جاءوا بعدهم وأضاعوا بعض ملامحها؟

- الرعيل الأول من الحكام كانوا يقودون الجيوش الإسلامية الجهادية التي تدافع عن المسلمين وعن بلدانهم بأنفسهم، وكانت تعيش الدولة الإسلامية أزهى عصورها التوحيدية، وأعطت للعالم نموذجا صارخا في كل مفاهيم العدل والإخاء والمساواة والكرامة وحقوق الإنسان والحيوان، وبعدما بدأ المسلمون يحصلون على رغد العيش والحياة المترفة، ويتنعمون بها، حينئذ ضعفت الدولة الإسلامية وجيوشها، وحل محلهم غيرهم من الجبابرة أمثال المجوس الذين جاءوا من قبائل منعدمة الحضارة والثقافة، واستطاعت أن تهجم على الدولة العباسية، وتدمرها.

● برأيك.. هل يدير الغرب ومن يواليه صراعا خفيا مستترا على الإسلام تحت زعم الحريات وحقوق الإنسان؟

- هذه حقيقة راسخة ومؤكدة لاشك فيها، ولدينا من قول الله تعالى ما يؤكد لنا ذلك: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾(البقرة:١٢٠). وهذه قاعدة لا نقاش ولا جدال فيها، فالصراع بين الحضارات هو صراع ديني عقائدي في أصله، ينشأ عنه صراعات اقتصادية ودنيوية، ولا يمكن أن ينكر أحد هذه الجوانب، ولا عجب في ذلك، فقد أعلن الغرب عن هذا صراحة في أكثر من موقف، وقد تم طرد المسلمين من بلاد أوروبا، خاصة بلاد الأندلس، وتمت ملاحقة المسلمين ومحاصرتهم من خلال لجان للتفتيش كانت تترصدهم في كل موضع يصلون إليه فارين من اضطهاد الغرب لهم، ومن هنا كون أنصار الأندلس دولتين هما إسبانيا والبرتغال، ومن خلالهما بدأوا يهاجمون المسلمين في بلادهم.

● نعود إلى الجانب الأكاديمي.. ما أهم الضوابط التي يجب الالتزام بها عند كتابة التاريخ؟

- من يكتب التاريخ يجب أن يعتمد على مصادر صحيحة تتمثل فيمن يكون شريكا في الحدث التاريخي المتناول، إما أن يكون قريبا منها، أو سمع نصا ممن شاركوا في الحدث، ولابد للمؤرخ أن يكون عارفا وعالما بلغة الأمة التي يكتب عنها، ودارسا لبعض جوانب العلوم المساعدة لكتابة التاريخ، وملما إلماما كافيا بالوثائق المرتبطة بالحدث ومصادرها المختلفة، بالإضافة إلى ضرورة توافر صفة الحيدة والنزاهة لدى المؤرخ، وينقل بموضوعية متناهية ما تعرض له من متعلقات بالحدث.

• وما العراقيل التي يمكن أن تواجهها كتابة التاريخ بشكل عام؟

- العراقيل تتمثل في أن بعض ممن يكتبون التاريخ يكتبونه؛ رغبة ورهبة، فإما يرغبون في عطاءات الحكام أو أصحاب الحدث الذي يتناولونه، فيجاملون، ويحابون، ويسوغون الحدث على هذه الشاكلة، فلا يتم مراعاة الضوابط السالف ذكرها؛ لتتوافر المصداقية الكافية، وذلك تملقا لأصحاب هذه الأحداث، إما طمعا في مال أو جاه أو سلطان، وهناك من يكتبونه رهبة من الحكام، فهم يعرفون الحقيقة السلبية عن الحكام وعن أصحاب الأحداث، ولا يستطيعون نقلها؛ خوفا من البطش والخسران المادي أو الأدبي، والأمانة المهنية لابد أن تسمو فوق أي اعتبار.

• إلى أي مدى تتطابق هذه المعايير مع صحة كتابة الحديث عن الرسول ﷺ من قبل البخاري ومسلم وكذا التفسير القرآني؟

- مازلت أقول: إن الدقة في كتابة الحديث واعتمادها كانت كاملة ومتكاملة فيما نعلم، على عكس كتابة التاريخ تماما، كالذي صنعه الإمام الطبري، كان يكتب في مؤلفاته روايتين متعارضتين ومتناقضتين في نفس الصفحة، وهو بذلك قد ترك للباحثين الأكاديميين الذين جاءوا بعده بسبعمائة سنة أن يتخذوا موقفا تحليليا إزاءها لترجيح إحداهما على الأخرى، والحديث لم يجمع في حياة الرسول ﷺ؛ لأنه نهى أصحابه عن كتابته، خشية أن يختلط بآيات القرآن الكريم، فلم تكتب سوى كتابات بسيطة جدا، ولم يجمع الحديث إلا في عهود تالية للصحابة، ابتداء من عهد مالك بن أنس، ولم يجمع سوى أحاديث قليلة، ثم جاء بعده البخاري، ولما كثر الرواة بتعاقب الأزمنة بدأ علماء الحديث ينقبون عن تاريخ هؤلاء الرواة؛ ليفتشوا في سيرتهم ليعلموا من الصادق منهم، ومن ليس أهلا للنقل عن الرسول ﷺ؛ ليستبعدوا ما نقله من حديث برمته، ووفقا لمثل هذه المعايير لم يعترف ويكتب البخاري سوى بأربعة آلاف حديث من بين أربعين ألفا، ولقد جمعت الأحاديث من خلال الرواة من الصحابة الذين سمعوا مباشرة من الرسول ﷺ وهو يتحدث بها، أو نقلت عنه، ولم ينطقها لأنه -مثلا- إذا ذكر الصحابي أن الرسول ﷺ قد سكت عن أمر ما فيعد ذلك حديثا، وإذا قيل إنه كان يفعل كذا أو كذا على الرغم من أنه لم يتحدث فيعد ذلك حديثا، فعندما كثر الرواة، وبعُد موت الصحابة رضي الله عنهم، كان السؤال: كيف نأتي بالأحاديث وهي ليست مكتوبة؟، وفئة قليلة من الصحابة هم الذين كانوا يحفظون القرآن، فلما جاءت حروب الردة، واستشهد فيها قرابة الأربعين صحابيا من حفظة القرآن، وخشية اندثار القرآن بموتهم، قام من هم على قيد الحياة آنذاك بنسخ نسخة وضعت عند أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ثم تركت عند عثمان بن عفان، ثم بعد ذلك بدأ المسلمون في نسخ القرآن بشكل أو بآخر.

لم تضعف الدولة الإسلامية إلا بعد أن حصل المسلمون على رغد العيش والحياة المترفة

بطاقة شخصية

د.سعد بدير سعد الحلواني، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر جامعة الأزهر بمصر والملك خالد والملك سعود بالمملكة العربية السعودية، وكلية التربية بصلالة عمان.

عضو باتحاد المؤرخين العرب والجمعية المصرية للدراسات التاريخية واتحاد الآثاريين العرب.

له العديد من المؤلفات والأبحاث، منها: التاريخ السعودي الحديث والمعاصر حتى نهاية القرن العشرين، العلاقات بين مصر والحجاز ونجد، تعمير مكة المكرمة، تعمير المدينة المنورة، حاضر العالم الإسلامي بالاشتراك مع د.محمد جمعان دادا الغامدي، القاهرة، البعثات العلمية السعودية إلى مصر، عهد الملك سعود في ضوء الوثائق السعودية.

التسامح في التصور الإسلامي

د. أمان قحيف
باحث أكاديمي

اقتضت طلاقة قدرة الله تبارك وتعالى أن يتحرك التاريخ الإنساني - في قضاياه الكبرى- وفق مراد الله عزّ وجلّ لا وفق مراد الإنسان ورغباته وتطلعاته، ولأن العقل البشري عاجزٌ بطبيعته وتكوينه عن الوقوف على حكمة الله تبارك وتعالى في كل شيء، فقد لا يتعجب المرء من شيء قدر تعجبه من أحداث الدنيا ومسيرة التاريخ، وكم هي عجيبة تقلبات الحياة وتحولاتها إذا نظرنا إليها من خلال زوايا رؤيتنا البشرية المحدودة، بقدراتنا الذهنية وإدراكاتنا العقلية، وليس من المنتظر أو المتوقع أن تأتي تلكم التقلبات والتحولات وفق المنطق الإنساني والتفكير البشري القائم على أسس المعرفة الإنسانية وحساباتها بشكل دائم ومستمر، وإلا ما كانت تقلبات أو تحولات بل تكون -عندئذ- تطورات طبيعية، ومسيرة حياتية، وحركة آلية للتاريخ انبثقت من تفاعلات اجتماعية مدروسة، وسلوكيات إنسانية معلومة ومفهومة ومتحقق من ديمومتها، وصيرورتها، وأهدافها، وغاياتها، يبدو أن الواقع يؤكد أنه كثيرًا ما تفاجئنا الأحداث بما لا نتوقعه، وتداهمنا الظروف بما لم نحسب حسابه، أو نستشرف قدومه بحال من الأحوال.

والحق أن دراسة مسار الحضارات وتاريخ الأمم تكشف لنا النقاب عن وقوع العديد والعديد من التحولات الطارئة والتقلبات المفاجئة في حركية المجتمعات وتفاعلاتها، حتى ليكاد المرء يخال أن المفاجآت التاريخية هي من سنن الله تبارك وتعالى التي لا تجد لها تبديلًا ولا تجد لها تحويلًا: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣)، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ (الأحزاب: ٦٢).

وكثيرًا ما يظن صاحب الحق أن أحداث التاريخ قد سارت أو تحركت وفق مراد خصومه أو منافسيه، فيتألم لذلك أشد التألم ويحزن لذلك أشد الحزن، وربما يكره الظروف والأحداث التي جاءت - بحسب ظنه - مخالفة لرؤاه وتصوراته وتطلعاته وحقوقه ومستحقاته، وربما يجزم بأنها تعاطفت مع خصومه أو منافسيه.

التمسك بالرأي

ولنا أن ندرك أن أحداث الدنيا وتحركات التاريخ لن تأتي دائمًا وفق هوانا، أو متطابقة مع تطلعاتنا.. بالتالي فهي غير مضمونة المسار وغير معروفة التوجه، وإلا ما سميت تقلبات وتحولات مفاجئة وغير منطقية بحسب التفكير الإنساني، بينما الواقع أن لها قانونها الذي يرجع في الأصل إلى إرادة الله الذي قد تغيب عنا حكمته في تلك الأحداث لبعض الوقت الذي قد يطول وقد يقصر.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما أفضل كيفية يمكن للمرء أن يتعامل بها مع مثل تلك المواقف والأحداث؟ هل يجب أن يتمسك برأيه ورؤيته ويصرّ على أنها الأصح والأصوب طوال الوقت؟ وبالتالي يتشدد لوجهة نظره وموقفه زاعمًا أنه على صواب

والآخرين على خطأ؟ أم يجب أن يتحلى بالتسامح ويقدر الظرف الذي يمر به الآخر، والصعوبات التي تواجهه، والضغوط التي تمارس عليه من هنا وهناك وبالتالي يلتمس له العذر؟

قد يكون من المتوافق عليه أن من حق كل طرف أن يحافظ على حقوقه ويتمسك بالدفاع عنها والذب عن حماها ما استطاع إلى ذلك من سبيل بالطرق الشرعية والمشروعة التي لا تدينه ولا تجعله يتجاوز الحد المسموح به دينيًا وقانونيًا وأخلاقيًا.. إن الدفاع عن الحق أمر مكفول للجميع لا مرية في ذلك ولا شك، لأن الدفاع عن الحق هو السبيل الوحيد إلى استعادته والمحافظة عليه؛ لذلك قيل: لا يضيع حق وراءه مطالب، غير أن هذا الدفاع له سبله وضوابطه التي لا يجب تجاوزها بأية حال من الأحوال، أو أية صورة من الصور، لأن الخروج عن تلك الضوابط أو تجاوزها يؤدي إلى ضياع هذا الحق، أو على الأقل يعطي للآخرين مبررًا لرفضه أو الاجتراء عليه، مستغلين في ذلك حياد صاحب الحق عن المنهج القويم في المطالبة بحقه عند محاولته استرداد ما هو له.

آلية التوافق

وإذا كان من حق المرء أن يدافع عن حقه ومطالبه فإن الأمر يقتضي الوعي بالمدى الذي يمكن أن يصل إليه هذا الدفاع كي لا تتطور الأمور والأحداث إلى مراحل أو أشكال يكون من شأنها إحداث ضرر أكبر - من حيث القيمة والمقدار - من الحق المطلوب إرجاعه أو الهدف المطلوب الوصول إليه.

وأيًا ما كان الأمر فإن ثمة آلية قد وضعها الدين الإسلامي الحنيف للوصول إلى درجة من التوافق المجتمعي، وجعلها أداة لرفع التناقضات وفض الاشتباكات بين المجتمعات والأفراد والأمم.. ولقد جعل الإسلام تلك الآلية من قيمه العليا ومبادئه الأخلاقية السامية.. إنها «العفو والصفح والتسامح».

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في أكثر من موضع، نذكر منها أن الله عز وجل امتدح المتسامحين واعتبرهم من المخلصين لدينهم وعقيدتهم، حيث قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤).. من ثم فأهل العفو والتسامح في الإسلام هم من أهل الإحسان الذين يحبهم الله عز وجل، ومن أحبه الله تعالى أكرم نزله، وأحسن مثواه، وأنزله منازل أهل البر والتقوى.. وورد في القرآن الكريم أيضًا قول ربنا سبحانه وتعالى في حض المؤمنين على العفو والتسامح: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٩).. وحتى أولئك الذين خانوا ولم يدركوا جوهر العقيدة وقصروا في أداء ما عليهم من واجبات تجد القرآن الكريم يوصي النبي ﷺ ومن بعده المسلمين جميعًا بالصفح عنهم وعدم الإصرار على معاقبتهم أو الانتقام منهم، قال عز وجل: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:١٣).. ثم إن الله تبارك وتعالى يكرر الأمر لنبيه صلى الله عليه وسلم بالعفو في موضع، آخر حيث يقول له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

ويزاد على ذلك أن الله عز وجل أكد على الأخذ بمبدأ العفو والصفح عمن أساء لنا، وربط بين التسامح والعفو من جهة، وبين مغفرته سبحانه وتعالى لذنوب عباده وسيئاتهم من جهة أخرى، قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢).

هي دعوة إذن إلى اجتناب الانتقام وتقليد سلوك الآخرين في التطاول على الناس أو الإساءة إليهم.. ويتم هذا الأمر باجتناب السير وفق منهجهم أو التعامل وفق طريقتهم، وللمسلم أن يلجأ إلى العفو والتسامح - حتى وإن كان صاحب حق - سيما إذا كان هذا التسامح لن يؤثر على دينه وقيمه الإسلامية الرفيعة.. أما إن كان هذا العفو سيؤدي إلى ضياع بعض الحقوق الدنيوية والمكاسب الحياتية فإن الأمر يعد - من الوجهة الشرعية - هينًا ويمكن التغاضي عنه سيما إذا أدركنا أن الدنيا برمتها لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة، ولو كانت تساوي ذلك ما سقى الكافر منها شربة ماء. كما علمنا ذلك رسول الله ﷺ.

وقال ربنا سبحانه وتعالى في حض المؤمنين على العفو والتسامح، منبهًا إلى أن صاحب الحق الذي يعفو ويصفح لن يتركه الله تبارك وتعالى، ولن يتخلى عنه، لأن الله - عزّ وجل - من أسمائه «العدل»، لذلك فهو سبحانه وتعالى له تصاريفه في كونه التي قد تخفى علينا ولا ندركها، لأنها تتحرك وفق القانون الإلهي الرباني لا وفق قانون البشر المحدود بإمكاناتهم العقلية، قال تعالى فيما يشير إلى هذا المعنى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٩).

وإذا كان القرآن الكريم قد حض المسلمين على العفو والصفح والتسامح فإنه أكد في ذات الوقت - وفي أكثر من موضع - أن الله تبارك وتعالى عفو غفور، ومن أسمائه الحسنى «العفو» و«الغفور»، يقول ربنا: ﴿ إِنَّ

﴿ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: ٤٣)، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(النساء: ٩٩).. وتلك مسألة من شأنها الأخذ بيد المسلمين جميعًا إلى الاتجاه صوب ممارسة العفو والصفح والتسامح مع الآخر حتى وإن تطاول وتجاوز حده. وإلا عن ماذا سيكون الصفح وعن أي شيء سيكون العفو؟

وهكذا تقوم فلسفة التسامح في الإسلام على ممارسة اللين مع من أساءوا، وممارسة العفو عمن أخطأوا؛ وذلك لأن في التسامح دلالة على سعة الأفق ورحابة الصدر، وفي العفو قدرة على ضبط الانفعالات الانتقامية.. وتلك مسائل وضعها الإسلام ضمن منظومته القيمية والأخلاقية.

من هنا نستطيع أن نقرر أن الإسلام حض المسلمين في كل مكان وزمان على اعتماد التسامح كمنهج وأسلوب ناجع في حل المشكلات ورفع التناقضات بين الجميع، وتلك هي شيمة كل الرسالات السماوية الكبرى، حيث يقف المرء في العهدين القديم والجديد على العديد من النصوص التي تؤكد على ضرورة الأخذ بمنهج العفو والصفح والتسامح وتبرز عظمة توجيهات الإسلام، غير أن عشاق التشدد وأصحاب الميول الإقصائية هم من ذهبوا إلى زعم أن الأديان لا تحض على التسامح والتآخي الإنساني، وزعموا أن بعضها يعمل على إقصاء بعضها الآخر، وما قالوا بذلك وما زعموه إلا ليجدوا تربة مناسبة لنشر فكرهم المادي وتياراتهم الإلحادية.. ومعلوم أن تلك الأمور لا تسود ولا تنتشر إلا في ظل غياب الدين الصحيح والتدين الوسطي المعتدل.

وثمة أهمية لأن نشير في هذا السياق إلى بعض العوامل التي من شأنها دفع الإنسان إلى ممارسة التسامح على مستوى الفكر والممارسة أو القول والعمل:

أولاً: الحرص على مرضاة الله تبارك وتعالى، فالله عز وجل قد حض على التسامح وحبب الناس فيه، بل أمرهم به من خلال العديد من الآيات القرآنية التي أشرنا إليها.. ونشير إلى أن الأحاديث النبوية أكثر من أن تحصى في هذا السياق، وسيرة رسول الله ﷺ نموذج يحتذى في العفو والصفح والتسامح مع الآخرين، والمعلوم أننا أمرنا بالتأسي به ﷺ في كل شيء، فهو القدوة الحسنة والمثل الطيب في السلوكيات للمسلمين جميعًا بل ولغير المسلمين من ذوي العقول الناضجة والبصائر المستنيرة.. قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

مراد الله

ثانيًا: الثقة في أن تحول الدهر وتبدل الزمن لا يحدث إلا وفق مراد الله تعالى، فلا يقع في كون الله إلا ما يريد، مع الثقة بأن لله تعالى في كل قضاء حكمة.. إن إدراك المسلم لهذا المعنى يجعله يتسامح ويعفو من دون إحساس بأنه قد سلب حقه أو نهب مستحقه.. فتصاريف الله في الكون تخضع لمشيئته ومراده سبحانه وتعالى، وليس بالضرورة أن يتوافق ذلك مع مرادات البشر ورغباتهم أو مشيئتهم.. وصدق قول من قال: أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

ثالثًا: الوعي بأن اللحظة الراهنة ليست آخر اللحظات، والفرصة المتاحة الآن ليست نهاية التاريخ، مع إدراك أن الزمن لن يتوقف على حادث معين، أو أن قوانين الوجود ستختل إذا تسامحنا، أو أن الكرة الأرضية ستكف عن الدوران، إذا تجاوزنا عن خطأ الآخرين.

ويجب أن يرتبط ذلك بالوعي بأن التعويض ممكن إذا توافرت أسبابه وعوامله – التي من أبرزها الإخلاص والاجتهاد – الأمر الذي من شأنه تخفيف حدة الألم عن النفس الإنسانية إذا ضاعت عليها فرصة أو أخفقت في تحقيق أهدافها ونجح غيرها في ذلك.

رابعًا: التعلم من التاريخ وقراءته بدقة ووعي وتأمل وتدبر، امتثالا لقول الله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾(الحشر: ٢)، وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ (إبراهيم: ٥).

خامسًا: الثقة بأن نتائج التسامح أفضل بكثير من النتائج التي تترتب على التشدد والتزمت وعدم المرونة.. إذ لم يثبت التاريخ عبر كل مراحله الطوال أن تغييب التسامح والصفح أتى بنتيجة إيجابية، بل كل المواقف التاريخية والحياتية تثبت عكس ذلك تمامًا.

سادسًا: إدراك أهمية الحوار: فالتسامح هو وليد التفاهم، الذي يؤدي بدوره إلى إيجاد حوار حضاري بين طرفي كل نزاع، والحوار هو آلة العقل الأولى في حل المشكلات وتقريب وجهات النظر، إذا ما قام على الموضوعية والحيادية وتخلص من آفاته المتمثلة في الجدل البيزنطي والتماحكات اللفظية.

العقل الراشد

سابعًا: الوعي بأن التسامح فعل إنساني صرف، فالإنسان أو التيار الفكري الذي ينتهج التسامح منهجا وطريقا في تعامله مع القضايا والأحداث هو تيار إنساني بامتياز، لأن التسامح صفة العقول الراقية والأذهان الناضجة، أما العقول الضيقة العاجزة عن الانفتاح فهي عقول أقل قدرة على ممارسة التسامح مع الآخرين، لأن العفو والصفح يمثلان الترجمة الحقيقية والفعلية لقبول الآخر والاقتناع بحقه في الحياة والوجود بجانب الأنا أو الذات.. وإذا اقتنع المرء بحق الآخر في الوجود فسيقتنع بالضرورة بحقه في أن يصيب ويخطأ.. وما دام الخطأ واردًا فإن العقل الرشيد يقول بضرورة ممارسة التسامح، وهذا بالضبط ما أراده الإسلام.

ثامنًا: توافر الجو العام الذي يحض على التسامح ويعرف للمتسامحين حقهم ونبل أخلاقهم.

المعلم القدوة

رشيد ناجي الحسن
باحث دراسات إسلامية

التعليم أسمى وظيفة يمكن أن يعمل بها إنسان، إن لم تكن هي الوظيفة الأهم على الإطلاق.

ومن يتصدى لهذه الوظيفة، أعني التعليم، لابد أن يكون نموذجًا مثاليًا فيما يظهر للمتعلمين. ويمكن توضيح هذا النموذج واختصاره في ثلاثة أركان، هذه الأركان هي: أولا: استيعاب المادة التي يدرسها. ثانيا: امتلاك وسائل الاتصال. ثالثا: صلاحيته لأن يكون قدوة.

إن المعلومات والقواعد التي يتلقاها الأبناء في محاضن التربية وأماكن التعليم، تبقى رسومًا جامدة لا حياة فيها ولا حراك، فإذا هيأ الله لها من ينفخ فيها روح التطبيق من أب أو أخ كبير، آتت ثمارها وظهرت آثارها، ورسخت في أذهان الطلاب وعقولهم رسوخ الجبال الراسية، وأما إذا كان المعلمون يبنون كل يوم لبنة. وهي للأسف ضعيفة. ثم يهدم المجتمع ألف لبنة بما يراه المتعلم عليهم من مخالفات لما تعلمه، فأنى لبنيان العلم يومًا أن يقوم ويرتفع؟ وكيف لصرح الأخلاق والآداب أن يصلب ويشتد.

وللمعلم أثر كبير في نفس الطالب، فهو يقوم مقام الأب في البيت.. بل قد يفوقه أثرًا لأن مادته العلم وهو غذاء الروح الذي يفوق غذاء الجسد الذي يقدمه الأب لأفراد أسرته.. ولذلك لا يفوق الأب المعلم في دوره إلا إذا كان يقدم لأبنائه الغذاء المادي للجسد والغذاء الروحي للنفس..

يقول مدرس لمادة التربية الإسلامية تعودت وضع الساعة في يدي اليمنى خلافا لعادة الناس في وضعها في اليد اليسرى، وذلك حتى تأخذ اليد اليسرى راحتها في الحركة عندما أكتب بها على السبورة، ولئلا ينشغل الطلاب بالنظر إلى الساعة أثناء الكتابة، فجاءني طالب بعد فترة من بداية العام الدراسي وقال: يا أستاذ جرى نقاش بيني وبين بعض الزملاء حول لبس الساعة في اليد اليمنى أو اليسرى، فقلت لهم: إن لبسها في اليد اليمنى هو السنة، وقالوا: ليس في ذلك سنة، بل تلبس في إحدى اليدين، فرددت عليهم: بأن أستاذنا يلبس الساعة في يده اليمنى اتباعا للسنة، ففوجئت باستدلاله بي في حجته على زملائه، ثم ابتسمت وبينت له سبب لبسي لها في اليد اليمنى، ثم سألته مداعبا له: الرسول ﷺ لبس الساعة في اليد اليمنى أم اليسرى؟ ففكر ثم ابتسم وانصرف.

علمًا أن قاعدة الشرع كما ذكر الإمام النووي - رحمه الله - أن ما كان من باب التكريم والتزيين استحب فيه التيامن، وما كان بضد ذلك استحب فيه التياسر.

فهل أدركت أيها المربي الفاضل إلى أي درجة أنت تحت مجهر أعين الطلاب، بل وربما سائر أفراد المجتمع.

إنه ما لم يكن هناك توافق بين العلم والعمل، وتناغم بين التنظير والتطبيق، وبيئة داخل المدرسة وخارجها يتهيأ للمتعلم فيها شواهد حية على إمكانية تحقق ما تعلمه واقعًا ملموسًا، فلن يزيدنا التعلم حينئذ إلا مقتًا لأنفسنا، وشاهد ذلك في كتاب ربنا، حيث يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾. (الصف: ٢- ٣).

وحين يكون المعلم هو أول الهادمين، بما يلحظه طلابه من فرق بين ما يقوله في المدرسة وما يعمله خارجها، وبما يرونه من مفارقات بين أوامره المثالية معلما في الفصل، وتصرفاته المغايرة مواطنا يمشي في الشارع أو في السوق، وكأنه لا يعرف مما كان يلقيه في دروسه شيئًا، فتلك هي أكبر خطيئة يرتكبها في حق مجتمعه، وأعظم ذنب يقترفه ويهون على طلابه اقترافه:

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا
كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا
أبدًا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى
بالعلم منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

أساتذتنا من القرون المفضلة خرجوا إلى الشعوب الإسلامية في إندونيسيا وماليزيا فبلغوا دعوة الله بأعمالهم قبل أقوالهم، لذا فإنا ندعوك أيها المعلم الفاضل في هذا العام الدراسي إلى أن تقدم للشبيبة المسلمة علمًا نافعًا، وعملا صالحًا ورسالة خالدة، وكلاما مؤثرا، وأن تتقي الله عز وجل في هذا النشء، الذي ينتظر منك النصح.. إنهم عطشى أمامك، فاسكب على قلوبهم من فيض حنانك وودك ما يكون بإذن الله بلسمًا شافيًا.

إنك تبني عقولا ورجالا لخدمة المجتمع، تستطيع أن تؤثر في طلابك بما يخدم المجتمع في شتى المجالات بتعليمهم كيف يستفيدون من أوقاتهم.



التعليم.. بوابتنا للنهضة

السنوسي محمد السنوسي
باحث مصري

الحديث عن التعليم وهمومه والآمال المعلقة عليه، حديث له مذاق خاص، إذ هو لا يتعلق فقط بالحاضر بل بالمستقبل أيضًا، فمن ينخرطون اليوم في العملية التعليمية من الأجيال الناشئة هم من سيتولون دفة الأمور في المستقبل القريب.

وغني عن البيان أننا بقدر ما نحسن تشكيل هؤلاء الشباب وصقلهم وإمدادهم بالخبرات اللازمة، فإن المستقبل سيكون أكثر نضجًا وثراءً وإشراقًا.

وموضوع «التعليم والأمة الإسلامية» هو موضوع متعدد الزوايا، ومتشعب الإشكاليات.. ولذلك سأكتفي بإلقاء الضوء على بعض هذه الإشكاليات التي أراها مهمة وضرورية في هذا الملف الحيوي.

التعليم والتربية

معظم الوزارات التي تتولى أمر التعليم في دولنا تسمى «وزارة التربية والتعليم»، وهذا أمر محمود بلا شك، إذ جمع العنوان بين أمرين مهمين، وقدم التربية على التعليم. لكننا نلاحظ- للأسف- أنه قد حضر التعليم وغابت التربية! بمعنى أنه تم التركيز بشكل أساسي على «التعليم»، طبعًا بمفهومه القاصر، وهو حشو الذهن بالمعلومات وتلقين الطالب وتعويده على الحفظ، وكأننا في سباق لملء العقول كميًا لا كيفيًا.

بينما يتم تجاهل «التربية»، ولا نعمل بالقدر الكافي على أن تتحول هذه المعلومات إلى قيم ومفاهيم راسخة عند الطالب، مما ينعكس إيجابًا على سلوكه وأخلاقه، وعلى طريقة فهمه لدوره في وطنه، وفي الحياة بشكل عام.

الإنسان في معادلة «تعليم بلا تربية» هو أشبه بالآلة الصماء، لا روح فيها ولا إحساس لها، وبالتالي لا تنتظر منه دورًا فاعلًا في الحياة!

بل الأخطر من ذلك، أن يتحول العلم في هذه الحالة إلى وسيلة دمار وشقاء، بدل أن يكون سببًا للنفع والسعادة، فالتربية الراسخة في الإنسان هي التي تحول بينه وبين الاستخدامات الضارة للعلم.

التعليم والأهداف الثلاثة

ويرتبط بالنقطة السابقة أن العملية التعليمية لها أهداف ثلاثة، يحرص المدرسون على ذكرها في «دفتر التحضير» مع كل درس.. وهذه الأهداف هي: الهدف المعرفي، والهدف المهاري، والهدف الوجداني.

فالهدف المعرفي هو أن يلم الطالب بعناصر ومفردات الموضوع ويستوعبها جيدًا، والهدف المهاري هو أن يتعلم ويتقن المهارات المرتبطة به، أما الهدف الوجداني فهو أن يستشعر الطالب أهمية الموضوع، ويتحلى بالقيم التي يعكسها.

هذا الثلاثي الذهبي (المعرفة، المهارة، الوجدان) لو أنه تحقق في تعليمنا بالشكل المطلوب، لرأينا أجيالنا الناشئة خلقًا آخر، ولكنا بحق أمام إنسان متكامل الجوانب والأركان.

أما نتيجة الانفصام الذي حدث بين أركان هذا المثلث الذهبي فهي ما نراه ونعانيه من أجيال تحفظ ولا تفهم، وتعرف ولا تطبق- فضلا عن أن تخترع وتبدع- وتُحشى بالمعلومات دون أن تنطبع على أخلاقها وسلوكها!

إن وقوفنا عند الهدف الأول- وهو الهدف المعرفي- جعل أمتنا تتخلف عن ركب الحضارة، وتتحبس مسيرتها وتطورها بين سطور الكتب، ولا تحسن أن تحول المعارف النظرية إلى تكنولوجيا واختراعات، وهذا بخلاف الحضارة الغربية التي استفادت مطلع عصر نهضتها من حضارتنا التي كانت حينئذ في مرحلة أفول، وتجمد فيها العلم وانحبس بين السطور، وحدثت قطيعة بين المعرفة والعلوم من جهة، والواقع المزري من جهة أخرى، حتى بدا واقعنا كأنه لم يذق طعم الحضارة والمدنية يومًا ما!

فقد ذكر المؤرخ المصري «الجبرتي» في تاريخه أن والده «الجبرتي الكبير» كان عالمًا ملمّا بأنواع كثيرة من العلوم والمعارف والصناعات، وأنه «حضر إليه طلاب من الإفرنج، وقرأوا عليه علم الهندسة، وذلك في سنة (١١٥٩هـ/ ١٧٤٦م) وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت، وأخرجوه من القوة إلى الفعل، واستخرجوا به الصنائع البديعة، مثل: طواحين الهواء، وجر الأثقال، واستنباط المياه، وغير ذلك»(١).

فطلائع المستشرقين حين كانوا يجوبون بلادنا بحثًا عن المخطوطات النفيسة، وعن العلم المبثوث في صدور نفر قليل من العلماء، جمعوا ذلك كله وحولوه من «القوة إلى الفعل»- بعبارة الجبرتي- أي من المعرفة إلى التكنولوجيا، وهذا هو سر تطور الحضارة، فالمعرفة النظرية وحدها لا تقيم بنيانًا، ولا تشيد حضارة.

كما أنه حين غاب الهدف الثالث- وهو الهدف الوجداني- عن عمليتنا التعليمية، صار عقل الطالب كأنه آلة تسجيل، لا يعيش ما يتعلمه، ولا ينفعل به ومعه! حتى طريقتنا في تدريس العلوم الدينية، صارت طريقة جافة، تخاطب العقل والذاكرة لا الروح والقلب، ولا تغرس في الشباب معاني الإسلام وقيمه، ولا تصلهم بتراثهم وحضارتهم، بحيث يذوبون فيها، ويعتزون بها، ويتخذونها أساسًا وسلمًا نحو وصل ما انقطع من تاريخ مجيد، وحضارة زاهرة.

التعليم الفني

نتيجة لحالة التدهور الحضاري التي ضربت مجتمعاتنا، صارت الألقاب عندنا أهم من الحقائق! وأصبح كل شاب يتوق إلى مكتب مكيف وسيارة فارهة ويأنف من العمل اليدوي، ومن ثم يفضل التعليم النظري على التعليم الفني، بحيث لا يلجأ إلى الأخير إلا ضعاف الطلاب، لا النبغاء والموهوبون، بالرغم من أن التعليم الفني- كما هو مشاهد في الغرب- أصبح يقوم بدور مهم في تخريج الكوادر الفنية التي تقوم عليها الصناعات الثقيلة والدقيقة، بعد تعليم وتدريب مكثفين.

أما عندنا، فمن الممكن أن يتخرج الطالب مثلًا في معهد فني، قسم النجارة، دون أن يحسن صناعة باب أو شباك!

ومن الطريف أن نذكر هنا أن اليابان حين أرسلت أحد أبنائها لألمانيا ليتعلم الميكانيكا العلمية، فإنه عاد صفر اليدين من شهادة الدكتوراه التي ابتعث من أجل الحصول عليها! لكنه عاد بأعظم هدية لليابان، وهي فك شفرة «الموتور»، مما كان أساسًا قامت عليه اليابان في نهضتها الحديثة(٢).

فهل يعتبر على صواب الذين يجرون خلف شهادات نظرية لا تقدم ولا تؤخر لمجتمعهم، ويأنفون من تعليم يمثل الأساس للرقي والتمدن؟!

بل إنني أذكر أيضًا بأسف أنه في فترة من الفترات كان بعض الطلاب- اندفاعًا من فهم خاطئ لمفهوم «العلم الشرعي»- ينسحبون من كليات الطب والهندسة بعد التحاقهم بها، لينخرطوا في كليات أصول الدين والشريعة!

فهل سأل هؤلاء أنفسهم: ماذا لو فعل كل الطلاب مثل ذلك، من يعالج

المرضى ويبني البيوت والمصانع؟ وهل يمكن حينئذ أن نواجه «التحدي الحضاري» الذي يتخذه الغرب وسيلة لخداع شبابنا بثقافاته وآدابه، زاعمًا أن حضارته المادية والمعنوية هي الأجدر بالبقاء؟!

وأقصد بالتعليم الفني: تلك المرحلة المتوسطة التي تخرج الكوادر الفنية، لا الكليات التي تمنح الشهادات العليا، فالمعاهد الفنية لا تستغرق الدراسة فيها وقتًا طويلا، وبإمكانها أن تفي بحاجة سوق العمل لأيد مدربة ماهرة(٣).

البيئة العلمية

تشير الدراسات المرتبطة بتنظيم وتطوير العملية التعليمية إلى أن هذه العملية تقوم على مجموعة من الأسس: (الطالب، المعلم، المنهج، المدرسة) إضافة إلى توافر البيئة العلمية الحاضنة لذلك، والتي توفر الظروف المناسبة حتى يحدث التفاعل الجيد بين هذه العناصر.

واختلاف البيئات التعليمية الحاضنة هو الذي يجعل أداء هذه العناصر الأربعة مختلفًا من حالة لأخرى، ولذلك ليس غريبًا أن يتفوق الطلاب العرب والمسلمون في الجامعات الغربية ويتبوأوا أعلى المناصب العلمية فيها، بل يكونون أعضاء بارزين في فرق البحث العلمي المميزة هناك ومتفوقين على أقرانهم الغربيين.. لأنهم وجدوا بيئة علمية حاضنة ومشجعة، بينما لو ظلوا في دولهم لربما لم يسمع عنهم أحد، وما حالات فاروق الباز وأحمد زويل ومجدي يعقوب عنا ببعيد!

وإذا كانت إسرائيل تنفق على البحث العلمي ٤,٧٪ من الناتج القومي، أي ما يعادل ما تنفقه في هذا المجال الدول العربية جميعًا، فليس غريبًا أن تسجل الجامعات الإسرائيلية عددًا من براءات الاختراع أضعاف ما تسجله الجامعات العربية، وليس غريبًا أيضًا أن تأتي الجامعات الإسرائيلية في المراكز الأولى في قائمة الجامعات المتقدمة على مستوى العالم، بينما موقع الجامعات العربية لا يكاد يذكر في القائمة!

ففي عام ٢٠١٢، بلغ عدد طلبات حقوق الملكية الفكرية التي قدمتها إسرائيل للمنظمة العالمية للحقوق الفكرية (ويبو WIPO) ١٣٧٧ براءة اختراع، مقابل ٤٩١ لكل ما قدمته الدول العربية، أي ١ : ٣ (٤).

وبحسب «تصنيف شنغهاي» عام ٢٠٠٥، الذي يعده معهد التعليم العالي في جامعة شنغهاي، فإن الجامعات العربية كانت خارج ترتيب الجامعات الخمسمائة الأولى في العالم، بينما احتل موقع المائة جامعة الأولى كل من (فرنسا، ألمانيا، كندا، السويد، سويسرا، هولندا، أستراليا، إيطاليا، إسرائيل، النمسا، الدانمارك، النرويج، فنلندا، روسيا) (٥).

والخلاصة، إننا نحتاج لتحقيق البيئة الحاضنة والمشجعة إلى زيادة معدلات الإنفاق على البحث العلمي، وإلى إذكاء روح المنافسة بين الباحثين- عن طريق رصد جوائز مثلا- إضافة إلى تدعيم مكانة العلم والعلماء في المجتمع، والتي باتت تزاحمها بل تتفوق عليها مكانة لاعب كرة أو ممثل سينمائي!

إن الانشغال بهموم التعليم وسبل الارتقاء به ليس ترفًا نملك الاستغناء عنه أو تأجيله، فالتعليم مسألة حياة أو موت للأمم والحضارات، وهو بوابتها للمستقبل والتنمية والحضارة والنهضة.

الهوامش

١- نقلًا عن العلامة محمود شاكر، «في الطريق إلى ثقافتنا»، ص:١٢١، دار الهلال، ط٣، ١٩٩١م.

٢- راجع قصة الطالب الياباني «تاكيو أوساهيرا»، في كتاب د. محمود محمد سفر «دراسة في البناء الحضاري.. محنة المسلم مع حضارة عصره»، على الرابط: HYPERLINK«http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=6&ChapterId=6&BookId=221&CatId=201&startno=0»http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=6&ChapterId=6&BookId=221&CatId=201&startno=0

ويلفت «أوساهيرا» أنظارنا إلى أهمية ارتباط المعرفة النظرية بالتدريب العملي لتنمية المهارات، وصولا إلى الإبداع والاختراع، فيقول عن تجربته: لو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألماني الذي ذهبت لأدرس عليه، في جامعة هامبورج، لما وصلت إلى شيء، كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية، كنت أحلم بأن أتعلم كيف أصنع محركا صغيرًا.. كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى «موديل»، هو أساس الصناعة كلها، فإذا عرفت كيف تصنعه، وضعت يدك على سر هذه الصناعة كلها. وبدلا من أن يأخذني الأساتذة إلى معمل، أو مركز تدريب عملي، أخذوا يعطونني كتبًا لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها، ولكنني ظللت أمام المحرك، أيًا كانت قوته، وكأنني أقف أمام لغز لا يحل، وفي ذات يوم، قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع، كان ذلك أول الشهر، وكان معي راتبي.. وجدت في المعرض محركًا قوة حصانين، ثمنه يعادل مرتبي كله، فأخرجت الراتب ودفعته، وحملت المحرك، وكان ثقيلًا جدا، وذهبت إلى حجرتي، ووضعته على المنضدة، وجعلت أنظر إليه كأنني أنظر إلى تاج من الجواهر. وقلت لنفسي: هذا هو سر قوة أوروبا، لو استطعت أن أصنع محركًا كهذا، لغيرت اتجاه تاريخ اليابان.

٣ - راجع المزيد عن أهمية التعليم الفني، في مقال د.حسن أبوسعدة «التعليم الفنى.. أساس نهضة الدولة»، على موقع: «http://www.alwafd.org»

4 - http://www.aleqt.com/2013/03/20/article_740832.html

5 - انظر مقال محمد مرعي «الجامعات العربية.. لماذا هي خارج الترتيب العالمي؟» على الرابط:
http://www.alarabimag.com/Article.asp?ART=8793ID=80.



ثمار التعليم في عالمنا العربي...

د. آندي حجازي
أستاذة أردنية في التعلم والتعليم

في عام ١٩٥٧م قام الاتحاد السوفيتي- كما كان يسمى آنذاك- بإطلاق قمر صناعي سبوتنك(Sputnik) في إطار الحرب العالمية الباردة التي كانت سائدة ما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، فأثار هذا السبق غضب الولايات المتحدة الأمريكية، إذ شعرت بتفوق العدو المقابل لها، وسيطر على العقول الأمريكية شعور عام بالهزيمة أمام الأدمغة السوفييتية، فقررت أن تعيد التفوق لها وتعود لمقدمة الأمم والشعوب، ولكن السؤال الذي طرحته: من أين تبدأ؟ فخلصت إلى أن عليها التوجه نحو التعليم.. فمن هنا تبدأ، فشرع الساسة والمسؤولون بتحميل القائمين على التربية والتعليم والتربويين اللوم على هذا التراجع، فدقوا طبول الخطر.. وانطلقت جهود القادة التربويين لعقد المؤتمرات التربوية، وجمع المخصصات من أجل تطوير التعليم، والتركيز على التعليم الحقيقي المرتكز على حل المشكلات وعلى التفكير الإبداعي، والتفكير المنتج.. وبالفعل وخلال أقل من خمس سنوات استطاعت الولايات المتحدة غزو الفضاء الخارجي، وإطلاق الصواريخ، وإنزال أول مركبة فضائية على القمر عام ١٩٦٢م، ما جعلها تشعر بالتفوق والنصر في حرب النجوم التي كانت دائرة آنذاك!

فالولايات المتحدة أدركت أن التفوق الحقيقي لها على باقي الأمم والشعوب ومصدر قوتها هو في العلم والعلماء، والاهتمام بالتعليم، فصبوا جل اهتمامهم على التعليم المتميز، وخاصة مناهج العلوم والرياضيات واللغات.. لتطوير التفكير، فتحقق ما أرادوا... فالتعليم المتميز هو المؤدي إلى التطوير والإبداع، وإلى رفع مستوى إدراك الفرد ومدى قدرته على توظيف ما ناله من معلومات وخبرات في واقع الحياة، وفي حل المشكلات التي تعتريه، وفي البحث عن حلول مفيدة معينة على اتخاذ القرارات الصائبة، سواء على مستوى الفرد ذاته أو المجتمع.

إن التعليم المصبو إليه في عالمنا العربي هو التعليم القادر على إعلاء مستوى الوعي الحقيقي لدى الفرد، وتحسين سلوكاته وأفكاره وطريقة تفكيره، وهو القادر على النهوض بالأمة وأخذها نحو التقدم والتنمية والتنافس مع باقي الأمم والشعوب، وهو المعين على تمييز الغث من الثمين، والحق من الباطل، والزيف والضلال من النبع الصافي، وهو المعين على حل الأزمات السائدة في المجتمع (الحالية والمتوقعة)، فلا يخلو مجتمع من أزمات، تزداد حدتها وتنقص وفق المتغيرات السائدة. فليس التعليم المرغوب فيه هو القائم على حفظ واستذكار المعلومات وتخزين الكثير منها في الذاكرة لتفريغها على ورقة الاختبار لتفريغ الذاكرة، ثم الانطلاق إلى عالم الواقع بعقلية فارغة لا تمت بصلة لما يتم تعليمه في المدارس والجامعات! وحين تعصف بواحدة من بلداننا عاصفة يقتل بعض أبنائها بعضًا!

فلماذا تعليمنا لم يقد إلى تحسين مستوى وعي الفرد العربي لما يجري حوله، وإلى إدراك دقائق الأمور وما يحاك من خطط وتدابير؟ ولماذا لم يعمل على حقن الدماء ومراعاة حرمة الدم والعرض للمسلمين وغيرهم؟ ولماذا شارك في إضاعة الجهود وتنمية الجهل وحرمان قطف ثمار الثورات الشعبية؟ وكيف لم يقد إلى إعمار البلاد ودرء الفتن والشقاق والنزاع، والحفاظ على الممتلكات العامة والبنى التحتية؟ ولماذا لم يلب حاجات أبناء أمتنا وطموحاتهم؟ ولم يحقق لنا الرفعة والرفاهية؟ فأي تعليم هذا؟! وأي مستقبل نرجوه؟

وتزيد وسائل الإعلام الواقع مرارة حينما تبث السم مع العسل، وتتلاعب بنا؛ فتجعل الحق باطلا والباطل حقًا.. فعندها تظهر ثغرات التعليم الذي تلقيناه في مدارسنا وجامعاتنا! فلو كنا خرجنا من رداء الجهل الحقيقي؛ فإنه لابد وأن نميز ما يدور حولنا ونفهم ما يخطط لنا! فالوعي الحقيقي الذي نرجوه هو السلاح الفاعل للإنسان في مواجهة المشكلات التي تعتري مجتمعاتنا اليوم.

إن الرائي لحال التعليم في مدارسنا العربية وجامعتنا يجد أن تعليمنا لا يعدو كونه تفريغا لما في جعبة المعلم من معلومات في جعبة الطالب، مع الاهتمام بوضع الخطوط تحت المعلومات التي يعتقد المعلم أهميتها من أجل إعانة الطالب على حفظ أكبر كمية منها، دون أدنى اهتمام بكيفية الاستفادة من هذا العلم في واقع الحياة، وفي مستقبل هذا المتعلم، وفي تحسين سلوكاته ومستوى تفكيره! فالتعليم الجاد هو القائم على التدريب والتطبيق لما تم تعلمه على أرض الواقع حين الحاجة إليه.

فتعليمنا لابد من أجل إصلاحه والاستفادة منه في واقع حياتنا من بذل الجهود الجادة لتحسينه، ونقترح الجوانب التالية المعينة على قطف ثمار التعليم في بلادنا العربية:

أولًا: إعادة النظر في مناهجنا اليوم والتفكير بمضمونها؛ فهل أدت بالفعل إلى تعليم الطلبة والإسراع بعقولهم خطوات وقفزات نحو الأمام؟.. لو كانت مناهجنا على خير ما يرام، فلماذا إذن سبقتنا اليابان؟ وكوريا الجنوبية؟ وسنغافورة؟ والولايات المتحدة؟ وألمانيا؟ وفرنسا؟ والسويد؟ ودول أوروبا كلها؟.. بعد أن كنا قادة العالم، ألم يكن العلم الحقيقي آنذاك مصدرًا أساسيًا من مصادر قوتنا؟ ألا يعتمد الساسة والحكام



في كل العصور على عقول العلماء والمفكرين لابتداع وسائل تعين على النصر والتقدم والتفوق على باقي الشعوب؟ حيث النصر لا يتحقق في المعارك فقط، بل قد تأتي القوة والنصر من قوة العلم المؤدي للاختراع، والإبداع، وتحسين البلاد.. وهكذا نؤكد ما بدأنا به أن الحرب الباردة بين الدولتين الأقوى في العالم في ستينيات القرن الماضي كانت صراعًا فكريًا وعلميًا أدى للتسلح الأقوى والسيطرة على العالم اليوم، لأن المسيطر دائمًا هو من يملك مصادر القوة، وهذا هو المبدأ الأساسي في عالم السياسة!

ثانيًا: ضرورة الاهتمام في مدارسنا وجامعاتنا بتعليم الحوار، وأساليب الحوار، ومهارات النقاش، وتدريب الاستماع الجاد للطرف الآخر ووجهة النظر الأخرى وتقبلها، وتدريب كيفية اتخاذ الحوار أسلوبًا للوصول إلى الحلول والنتائج، لا أسلوبًا للجدال العقيم، واستعراض القوة، وزيادة الصراعات وتأجيجها دون الوصول إلى نتائج حقيقية تعين على الإصلاح والتحسين والتطوير.. فالكثير من مشاكلنا العربية اليوم كان يمكن لها أن تحل لو تم الجلوس إلى طاولة الحوار المتزن الجاد منذ البداية، وقبل التعرض للكثير من الخسائر التي يصعب حصرها اليوم!

ثالثا: لابد للقائمين على التربية والتعليم من تدريب الطلبة على أساليب ومهارات التفكير العلمي والمنطقي، والتفكير الناقد، والتفكير الإبداعي، وتفكير حل المشكلات.

رابعًا: الاهتمام بالأساليب والأنشطة التعليمية، والوسائل التي تزيد من وعي الطلبة وقيمهم، وتفتح عقولهم وأذهانهم، وتنمي مستوى إخلاصهم لأوطانهم، بحيث تجعلهم يغلّبون المصلحة العامة على المصلحة الشخصية، وتجعلهم يبحثون عن سبل تطوير بلدانهم ومجتمعاتهم، وتحسين الإنتاج والدخل القومي لها، وتطوير

البعض يردد شعارات الدول الغربية دون فهم عميق لمحتواها

الاقتصاد، والزراعة، والصناعة، والبنى التحتية، والصحة والتكنولوجيا... ويجعل المسؤول – مهما كان موقعه- يحكّم قدراته العقلية من أجل تغليب المصلحة العامة على مصالحه وأهدافه الشخصية، الطامحة عادة في السلطة لا في البناء والتعمير والتطوير لوطنه! وفي المقابل، تجد أن الواقع يقول أن الكثير من تعليمنا يؤدي إلى التجهيل والتراجع، لأنه قائم على العلم النظري لا العملي والبحثي، فهو تعليم لا يفتح العقول ولا ينقلها نقلة نوعية! بل مكانك سر، إن لم ترجع للوراء!

خامسًا: تطبيق ما يتم تداوله والاتفاق عليه من مفاهيم وشعارات تربوية كبيرة تطرح في المؤتمرات، واجتماعات وزارات التربية والتعليم العربية، وتوضع أهدافا لمناهجها التعليمية، مثل: «التعليم القائم على التنمية المستدامة»، و«التعليم القائم على الاقتصاد المعرفي».

سادسًا: لابد من الارتكاز في التعليم لأبنائنا الطلبة في المدارس والجامعات على مبادئ ديننا الإسلامي العظيم الصالح لكل زمان ومكان، والاهتمام بإيصال مفاهيمه بشكل ذي معنى يجعل الفرد يوظفه في أمور حياته اليومية، لا سردا فقط لمعلوماته وحفظا مؤقتًا لها، ثم عند الواقع يتم نسيانها تماما وكأنه لا وجود لها، فالدين الإسلامي دين تطبيقي مليء بالتعاليم المعينة على الحياة، فهو دين للحياة برمتها، فهو –على سبيل المثال- «يحرم القتل بلا سبب، وقتل المسلم لأخيه المسلم، والاعتداء على الآخرين، وتخريب وسرقة الممتلكات، والظلم والتعذيب للغير، وقتل النساء والأطفال...»، فالانطلاق الصحيح للتعليم ينبغي أن يبنى على أسس العقيدة الإسلامية، والمستقى من مصادره الأصيلة (القرآن الكريم، والسنة النبوية)، لأنه الدين الإلهي المتكامل القادر على تنمية الإدراك الحقيقي المرغوب به لدى الشخص. فحيثما وقع المسلم في مشكلة ما أو خلاف مع أحد؛ فإن مرجعيته لابد وأن تكون للدين وتعاليمه، فهو خير معين على العدل في الحكم، وتجنيب الأفراد الكثر من الصراعات والمشاكل، وامتثالاً لأمر الله تعالى القائل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤)، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٧)، أي الخارجون عن جادة الصواب.

والفجوة الظاهرة اليوم في تعليمنا أننا لم نعلم علوم الدنيا بشكل صحيح، ولم نعلم علوم الدين الإسلامي كذلك بشكل سليم، فلم نفلح في هذا ولا ذاك! فأخرجنا جيلًا تائهًا في أغلب الأحيان عند مواجهة المشكلات، لا يميز الحق من الباطل، ولا الخير من الشر، ولا يحاكم عقله ودينه! ومرجعيته الرأي والرأي الآخر، مرة مع القرار ومرة ضده! مرة مع الحق ومرة عكسه! حجته الكلام والجدال، وليس المنطق أو تحكيم العقل والدين وتقوى الله تعالى، وقد قال عز وجل: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (النور: ٤٨-٤٩). فهذه دعوة فكرية لجعل التعليم في عالمنا العربي حقيقيا واقعيا هادفا بأهداف راقية.

أدوار المعلم في عصر المعلوماتية

محمد عباس عرابي
باحث متخصص في الشؤون التربوية

يشهد العصر الحالي تغيرات متسارعة في شتى المجالات، وعجلة الزمن تدور بالإنسان في اتجاه العصر التقني والمعلوماتي والرقمي في تسارع مذهل، كما أن المقدار الكمي للمكتشفات العلمية، والحجم الهائل للتطور التقني والرقمي في مصادر المعلومات وأدواتها، وظهور ما يسمى بالمجتمع الإلكتروني وعصر المعلومات، كل ذلك ينبئ عن تطورات أعظم ونتائج أكبر في المستقبل الآتي، مما يجعلنا أمام تيار كاسح لا نستطيع مقاومته، وأمام تحدٍّ أكبر يستدعي منا التكيف المرن، والتجاوب المستمر مع متطلبات هذا العصر من جهة، والمحافظة على قيمنا الإسلامية، وهويتنا وشخصيتنا العربية من جهة أخرى.

ولاشك أنه بمجرد نظرة سريعة لشتى نواحي حياتنا نستطيع أن نلمس من خلالها التغيرات التي حدثت في المجالات الثقافية والاجتماعية والتربوية، خاصة في الجيل الجديد، مما يتطلب منا مراجعة أدبيات التربية وأساليب التعليم التي تمارس في مدارسنا، لأن هذه التغيرات تفرض على التربية ضرورة المواجهة والاستعداد والتكيف والمواكبة لما يسمى بعصر مجتمع المعلومات، بل علينا أن نضع خططا مستقبلية تتناسب مع هذه التغيرات المتسارعة؛ استشرافا للمستقبل الذي ننشده.

وتتعدد جوانب دور المعلم وتتغير بتغير المواقف التي تفرضها العولمة وثورة الاتصالات والمعلوماتية والتقدم العلمي والتطور التقني والتجديد التربوي.. وهذا ما يؤكده وول فولك Folk بقوله: «إن هناك جوانب كثيرة لدور المعلم المعاصر بقدر ما تضيفه المستحدثات الجديدة في المجالات التربوية»، أي أن دوره تتعدد جوانبه بحسب ما تضيفه المستحدثات التربوية التي تعد مرآة عاكسة للتغيرات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية، التي يفرزها النظام العالمي الجديد، باعتبار أن النظام المحلي جزء من النظام العالمي..

ولهذا ليس من السهل تحديد جوانب أدوار المعلم التي يجب أن يؤديها؛ لأنها متجددة ومتغيرة باستمرار، بالإضافة إلى أنها متشابكة مع بعضها البعض، ويكمل بعضها البعض، وقد يقوم المعلم بأداء أكثر من جانب في وقت واحد.

ومن أبرز أدوار المعلم في عصر المعلوماتية ما يلي:

المحافظة على الثقافة الإسلامية مع الانتفاع بالمعرفة العالمية..

ولكي يقوم المعلم بهذا الدور «يجب أن يميز بين أسلوبين في التعليم، التعليم من أجل الحفاظ على ما هو قائم Maintenaince Instruction، والتعليم من أجل التجديد Innovative Instruction، فالتعليم المحافظ مهم ولا غنى عنه، إلا أنه لم يعد كافيًا، وأصبح التعليم من أجل التجديد واستشراف المستقبل مطلبًا حيويًا، إذا ما أراد إنسان هذا العصر مواجهة ما سوف يحمله له المستقبل من تحديات وأعباء، وما تحمله المتغيرات السريعة من مفاجآت».

والصمود أمام تلك التحديات يتطلب التمسك بالثقافة الإسلامية عقيدة ولغة وقيمًا وأخلاقًا وإنجازًا، ودعوة الأمة الإسلامية إلى قراءة الإسلام قراءة صحيحة من خلال مبادئه الأصيلة وقيمه الخالدة، وتحديث الثقافة الإسلامية والربط بينها وبين قضايا العصر، والمحافظة على خصوصية الهوية مع الانتفاع بالمعرفة العالمية المفيدة..

والتعايش مع التعددية الثقافية داخل هذه القرية الكونية واجب على التعليم القيام به من خلال المعلم، الذي لابد وأن يغرس في تلاميذه التمسك بالثقافة الإسلامية، والاعتزاز بالتراث الثقافي والاجتماعي للأمة الإسلامية، واحترام ثقافات الشعوب الأخرى، وأن يعودهم الثقة



بالنفس وتقبل الرأي الآخر، والموازنة في التعامل والمعاملة بين عناصر التأثير الداخلي وعناصر التأثير الخارجي، والأخذ بالأفضل والنافع.

حب الوطن والانتماء إليه لدى الطلاب

حب الوطن والشعور بالانتماء إليه والولاء له والوفاء بحقوقه من أهم القيم التي تبث في الطلاب، وترسخ في نفوسهم منذ الصغر.. وللمعلم دور كبير في ترسيخ حب الوطن والانتماء إليه لدى الطلاب، فهو ينمي فيهم مشاعر الحب والولاء لهذا الوطن، ويحثهم على الحرص عليه والدفاع عنه ضد كل معتد أثيم.

تعليم الطلاب لغة الحوار

يعد تعليم الطلاب كيفية الحوار مع الآخرين من الجوانب المهمة في دور المعلم، حيث يدرب طلابه على استخدام الكلمات التي تسمح بالتواصل مع أفكار الآخرين، من خلال استخدام طرق التدريس المختلفة كالتعلم التعاوني وغيرها، ونقصد بهذه الكلمات:

من المحتمل، من الممكن، يبدو أن، ربما، هل عندك رأي أخر؟.. الخ. ويعلم طلابه أيضًا ألا يكونوا أحاديي الرؤية، وهكذا يتعلم الطلاب جانبًا سلوكيًا مهمًا في حياتهم.

ربط المدرسة بالمجتمع

يعد المجتمع أساسًا من الأسس المهمة التي تبنى عليها المناهج الدراسية، فأساس وجود المدرسة هو رغبة المجتمع في إعداد أفراد صالحين له، فالمدرسة مؤسسة اجتماعية أوجدها المجتمع لإعداد الفرد الصالح لهذا المجتمع، وحيث إن أهداف التربية تشتق من فلسفة المجتمع، فإن على المناهج المدرسية، وعلى المعلمين وعلى كل من يعمل بالمدرسة محاولة تحقيق هذه الأهداف التربوية.

ولذا، فإن دور المعلم ربط ما يدرسه لطلابه بما يوجد في مجتمعهم، أي توظيف ما يتعلمه هؤلاء التلاميذ من معلومات ومهارات وخبرات في حياتهم الاجتماعية.



المعلم داع إلى السلام

للسلام مكانة مهمة في الإسلام، وفي التربية رصيد لا غنى عنه في محاولتها لتحقيق قيم السلام والحرية والعدالة الاجتماعية، وفيها أمل لتنمية بشرية أكثر انسجامًا وعمقًا لاستبعاد شبح الحروب والتوترات، وإحلال السلام بدلًا منها.

وعلى المعلم- كقدوة وكداع للسلام- أن يشعر طلابه بالأمان والحب والتقدير لذاتهم وللآخرين، ويذكرهم بأن السلام في حاجة إلى قوة تحميه، وبدون هذه القوة قد ينقلب إلى استسلام.. فلقد أمرنا ديننا الحنيف أن نكون أهل سلام، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ (الأنفال: ٦١)، كما أمرنا- عز وجل- أن نستعد للحرب بكل ما نستطيع من قوة، فقال سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وهذا جزء من القوة التي ينبغي الاستعداد بها، إضافة إلى قوة الشخصية وقوة الإيمان وقوة الترابط الاجتماعي: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

المعلم داع إلى التسامح

إن من أهداف التربية تكوين أفراد مؤمنين؛ ليعيشوا في مجتمع مؤمن لا تقوم المعاملة بين أفراده على المؤاخذة والمحاسبة والانتصار للذات والإنصاف لها في كل كبيرة وصغيرة، وإنما تقوم فيه المعاملة بين الأفراد على التسامح والتغاضي والصفح والصبر. وهذا ما دعت إليه عقيدة الإسلام، وحض عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾(فصلت: ٣٤-٣٥).

ولغة التسامح لابد أن يتعلمها الطالب منذ نعومة أظفاره؛ حتى يشب على التسامح واحترام الآخر.. وإذا كان للأسرة دور كبير في هذا المجال، فإن للمدرسة دورًا لا يقل أهمية عن دور الأسرة، وهنا يأتي دور المعلم في تنمية قيمة التسامح لدى طلابه.

المراجع

١-الأحمدي، عمر وآخرون (١٤٢٨): الكفايات اللازمة للقيام بالدور القيادي التربوي للمشرف التربوي ومدير المدرسة والمعلم في ضوء الاتجاهات التربوية المعاصرة، بحث مقدم إلى لقاء مديري الإشراف التربوي ومديري المراكز المقام في مدينة تبوك - السعودية خلال الفترة من ٢٦/ ٤ إلى ٢٨/ ٤/ ١٤٢٨هـ.

٢- بشرى بنت خلف العنزي (١٤٢٨): تطوير كفايات المعلم في ضوء معايير الجودة في التعليم العام، للقاء السنوي الرابع عشر، الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية (جستن)، أقامته بفرعها في القصيم يومي الثلاثاء والأربعاء ٢٨-٢٩ ربيع الآخر ١٤٢٨هـ، الموافق ١٥-١٦مايو٢٠٠٧م بعنوان «الجودة في التعليم العام».

٣- فاروق البوهي وعنتر لطفي: مهنة التعليم وأدوار المعلم، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٩م.



أمة اقرأ..
واقع مؤلم وطموحات خلاقة

مياسة النخلاني
كاتبة يمنية

عاش سيدنا محمد ﷺ أربعين عاما بين قومه، وحين اصطفاه الله تعالى للرسالة أرسل له جبريل في غار حِراء ليلقي عليه أول كلمات الوحيِ ﴿اقْرَأْ..﴾.

إذن، فلم يكن أول أوامر الله تعالى لرسوله بأن يعبده أو يدعو قومه أو أن يصلي أو يصوم أو غيرها من العبادات الجوهرية في ديننا الحنيف، بل كان أمره الأول أن يقرأ.. وفي ذلك حكمة عظيمة.

أزمة تعليم وثقافة

في أغلب مجتمعاتنا العربية ما إن يبدأ الطفل النطق والحركة وتقليد من حوله حتى تسمع الجميع يمدحونه بأنه ذكي ونبيه وسريع التعلم والاكتساب، وتستمر إبداعات الطفل التي تبهر من حوله بشكل لافت حتى يبدأ المقربون وغير المقربين يتنبأون له بالمستقبل الباهر.

يغادر الطفل عالمه الصغير وكغيره من الأطفال يبدأ مسيرة الألف ميل، ابتداء من الروضة، وصولا لشهادة البكالوريوس والماجستير، وأحيانا الدكتوراه، مارا بسنوات طويلة من التحصيل العلمي والأكاديمي وإحراز المراكز والشهادات.

لكن.. تظل تلك الملاحظة عليه

-خاصة منذ مغادرته لسنوات الحضانة- بأنه صار أكثر هدوءًا وأقل ضجيجا، أكثر حفظا، لكن أقل حركة ونشاطا، وبالتالي أقل قدرة على الإبداع والإبهار كما كان في بداية طفولته، لنجد أنفسنا إزاء الحقيقة المفجعة، فقد تم تحويله خلال سنوات دراسته من طفل يفهم ويدرك ما يريد إلى طفل يحفظ ما يتم تلقينه.

بقسوة يتم قتل روح الطفل الذكي والمبدع، ليحل محله لوح أبيض يتم ملؤه خلال كل عام دراسي -حد التشبع- بكل ما تحتويه كتب المناهج من آلاف الكلمات، والتي يتم تفريغها خلال فترة الإجازة الصيفية، ليكون بالإمكان ملؤها مجددا العام القادم، وهكذا...

فما إن تنتهي سنوات الدراسة التي أصبحت تمثل للطلاب سنوات تعذيب، يحلمون بالتخلص منها، حتى يلغوا من قواميسهم شيئا اسمه اطلاع أو قراءة أو تعلم واكتساب، ويستمر قانون الحظر إلى ما لا نهاية.

لكن لماذا نلومهم ومنذ التحاقهم بالمدارس وجل يومهم يقضونه وهم متكورون على كراسي خشبية في فصول مغلقة، يمثلون دائما دور المتلقي والمستمع، الدور الذي لا يتبدل مهما تبدلت فصول السنة ومهما تغيرت وجوه وأسماء المعلمين، أو حتى المدارس، ومهما ارتقوا في مستوياتهم الدراسية، فهم مجبرون على حشو أدمغتهم بكل المواد التي يحبونها والتي لا يحبونها، التي يفهمونها والتي لا يقدرون على استيعابها، على الأقل حتى انتهاء مرحلة الثانوية العامة، هم ليسوا أغبياء ليقفوا أمام بعض المواد عاجزين عن فهمها واستيعابها، لكن لكل شخص ميول واهتمام معين، فمن الاستحالة أن يبدع شخص في كافة المجالات.

لا يسلمون من العقاب والتوبيخ في حال تقصيرهم المقصود وغير المقصود، كيف لشخص أن يبدع في مجال لا يتقبله عقله، ومن أين للإبداع

إلام نسلم بالأمر الواقع ونستفيد فقط من اكتشافات الآخرين

أن يجد له طريقا وهو يقضي ما يربو عن الخمس ساعات وهو قابع على كرسيه باستثناء دقائق الاستراحة التي تتحول غالبا إلى ساحات عراك يفرغ خلالها الطلاب تلك الطاقات المكبوتة لساعات طويلة!

تنتهي الساعات الدراسية ليعود كل طالب إلى البيت مثقل الرأس والجسم لا ليرتاح وإنما ليبدأ رحلة عذاب جديدة مع واجبات وفروض منزلية لا تنتهي، فكل معلم طلب منه أن ينسخ صفحات الكتاب للدفتر، دون التفكير في الجدوى التي سيحصل عليها الطالب من نسخ فقرات أو صفحات بخط يده؟

يكبر الطفل وهو في هذا الحال حتى ينسى كل شيء إلا الحفظ، يحفظ لينجح، ويحفظ ليتفوق، ويحفظ لينهي دراسته، ويحفظ ليحقق حلمه بالتخرج حتى لا يكون ملزما بالقراءة أكثر، ولا النسخ أكثر، ولا تسميع مزيد من الصفحات الطويلة التي لا يفهم أغلبها!

وهذا ما يحدث، فما إن يحصل على شهادته ويكرمه الله بوظيفة حتى يفسخ العقد الطويل الذي كان بينه وبين التعلم، فيكفيه أنه يتقن عمله الذي لا يخرج غالبا على النمط الروتيني المكرر.. وهنا تنتهي الأحلام والطموحات التي لم يجد الوقت الكافي ولا البيئة المناسبة التي تساعده على صياغتها بشكل أوسع، والسعي لتحقيقها، فهو في الأساس درس وتعلم كي يحصل على وظيفة، حقق حلمه أخيرا، توظف وكون عائلة

فماذا بعد؟ لا شيء أكثر.. فأين «اقرأ» من حياته وأيامه؟!.. للأسف لا وجود لها، لأنه كان يقرأ فقط لينجح لا ليكتسب مزيدا من العلم والمعرفة، ولا ليتميز ولا ليبدع، وصدق من قال «إن شئت ألا يسرق منك شيء فضعه في كتاب.. فهذه أمة تخاف فتح الكتب»، نحن لا نتحدث عن وضع شاب أو اثنين، بل أجيال كاملة من أمة اقرأ، إلا من رحم ربي.

فالمؤسسة التعليمية في الدول العربية تعاني من مشاكل وصعوبات وتحديات لا حصر لها، مما يعمق من الفجوة التي تفصل بيننا وبين التنمية الحقيقية.

لكن، هل يعني هذا أن الأمر انتهى وأن العملية التعليمية في بلادنا العربية محكوم عليها بالفشل التام؟.. وهل يعني هذا ألا مستقبل لنا ولا مجال لنكمل مسيرة الإنجازات التي حققها أجدادنا الأولون؟.. هل سنظل دائما في الخلف، نستجدي من الآخرين آخر الاكتشافات والاختراعات وكل ما هو جديد حتى الثياب التي نلبسها!!

هل نسلم بالأمر الواقع ونقول: هو قدرنا ولا نملك من خيار آخر!

تحدي الواقع

يبدو الأمر محبطا حتى الآن.. ربما! في الواقع علينا أن ندرك جيدا أن كل الصعوبات والمعوقات التي يعاني منها قطاع التعليم في وطننا العربي وبدرجات متفاوتة تشتد في بعض البلدان وتخف في أخرى؛ إلا أن التغلب عليها أمر ليس بالمستحيل.. فبقليل من الصبر وكثير من الدعم للطفل طوال مسيرته التعليمية، خاصة في البداية، يمكن أن نساعده على تجاوز تلك التحديات، ونكفل له الخروج الآمن من متاهات تدمير الإبداع الذاتي.

إذن، هناك أمل لكنه بحاجة إلى تكاتف وتعاون من الأسرة والمدرسة، يشارك فيه الأب والأم والمعلم والإدارة

المدرسية، وحتى الطالب نفسه، لكسر حواجز أمية التعليم التي يعاني منها شباب أمتنا، ببساطة علينا أن نتوقف عن البحث عن شماعة نلقي عليها تخاذل الجميع بالأخذ بمسؤوليتهم تجاه الأجيال الصاعدة، فلن يجدي نفعا إلقاء الملامة كاملة على المؤسسات التعليمية.

إذا وقف كل أب وأم بجانب أطفالهم فبكل تأكيد يمكن إيصالهم إلى بر الأمان، متجاوزين كافة المعوقات التي تواجههم أثناء مسيرتهم التعليمية، والأمثلة حولنا كثيرة لأطفال -بتوفير البيئة المناسبة لهم في البيت والمدرسة- تمكنوا من هزيمة كافة العراقيل والوصول إلى أعلى المستويات، منهم على سبيل المثال لا الحصر.

أصغر قاصة

دخلت القاصة التونسية سمر المزغني موسوعة «غينيس» للأرقام القياسية مرتين «كأصغر كاتبة قصة قصيرة في العالم» و«الكاتبة الغزيرة الإنتاج الأصغر في العالم» في عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٢.

بدأت الكتابة وعمرها سبع سنوات، نشرت أول قصة لها عام ١٩٩٧ ليصل نتاجها الأدبي في عام ٢٠٠٦ إلى نحو١٠٠ قصة، تبرعت بريع بعضها إلى «أرامل وأيتام شهداء الانتفاضة الفلسطينية».

ونشر نتاجها الأدبي فيما يزيد عن مائتي جريدة ومجلة تونسية وعربية.

الرخصة الدولية لقيادة الحاسب الآلي (ICDL) حصل الطفل «ضياء الدين شغالة» البالغ من العمر ٨ سنوات مواليد حلب على الرخصة الدولية لقيادة الحاسب الآلي (ICDL)، ليصبح أصغر طفل في العالم يحصل على هذه الرخصة من منظمة «اليونسكو».

وتؤكد الرخصة الدولية لقيادة الحاسب الآلي لأصحاب العمل أن المتقدم للعمل على معرفة تامة باستخدام شبكة الإنترنت، والبريد الإلكتروني، ومعالجة النصوص، وإعداد العروض، والجداول المحاسبية، وقواعد البيانات، وكل ذلك على جهاز الحاسب الآلي باستخدام البرمجيات المتعارف عليها، إضافة إلى ذلك، هذه الرخصة تثبت لأصحاب العمل أن المرشح قد اجتاز الاختبارات العالمية، وتتمثل في سبعة اختبارات عملية لتقييم كفاءته في استخدام الحاسب الآلي الشخصي، ومدى معرفته لتطبيقات برمجيات الحاسب المتعارف عليها.

أصغر إعلامية

يعد تقديم برنامج تليفزيوني هو الحلم الذي انطلقت وراءه منة، الطالبة بالصف السادس الابتدائي، وعلى الرغم من صغر سنها فإنها تتعامل مع حلمها بكل نضج، فهي تدون أفكارها الخاصة بالبرامج التي تتمنى تقديمها على شاشة التليفزيون، ليس هذا فحسب بل تقوم بكتابة إسكريبت لحلقات البرنامج، فتحدد الفقرات وتضع أسئلة كل فقرة، بالإضافة إلى اختيار الضيوف معتمدة على نفسها في إعداد هذه الخطوات، وذلك طبقا لما ذكرت صحيفة روز اليوسف المصرية، وقد شاركت في المسابقة الأولى للبرامج الحوارية بتنظيم من ساقية الصاوي، أعدت الحلقة وتواصلت مع الضيوف، اختارت أن تقدم برنامجا حواريا باسم «منة مننا» تناقش من خلاله قضايا الشباب في سن المراهقة وقدمت حلقة تجريبية من خلال المسابقة تناولت فيها موضوع الموضة، وعلى الرغم من كونها أصغر المشتركين بالمسابقة فإنها حصلت على المركز الأول.

لعبت أسرة منة دورا إيجابيا في تقدمها وتكوين شخصيتها، فقد تعاملت والدتها مع قدراتها بكل احترام، وتركت لها حرية التجربة وآمنت بموهبتها ولم تهملها.

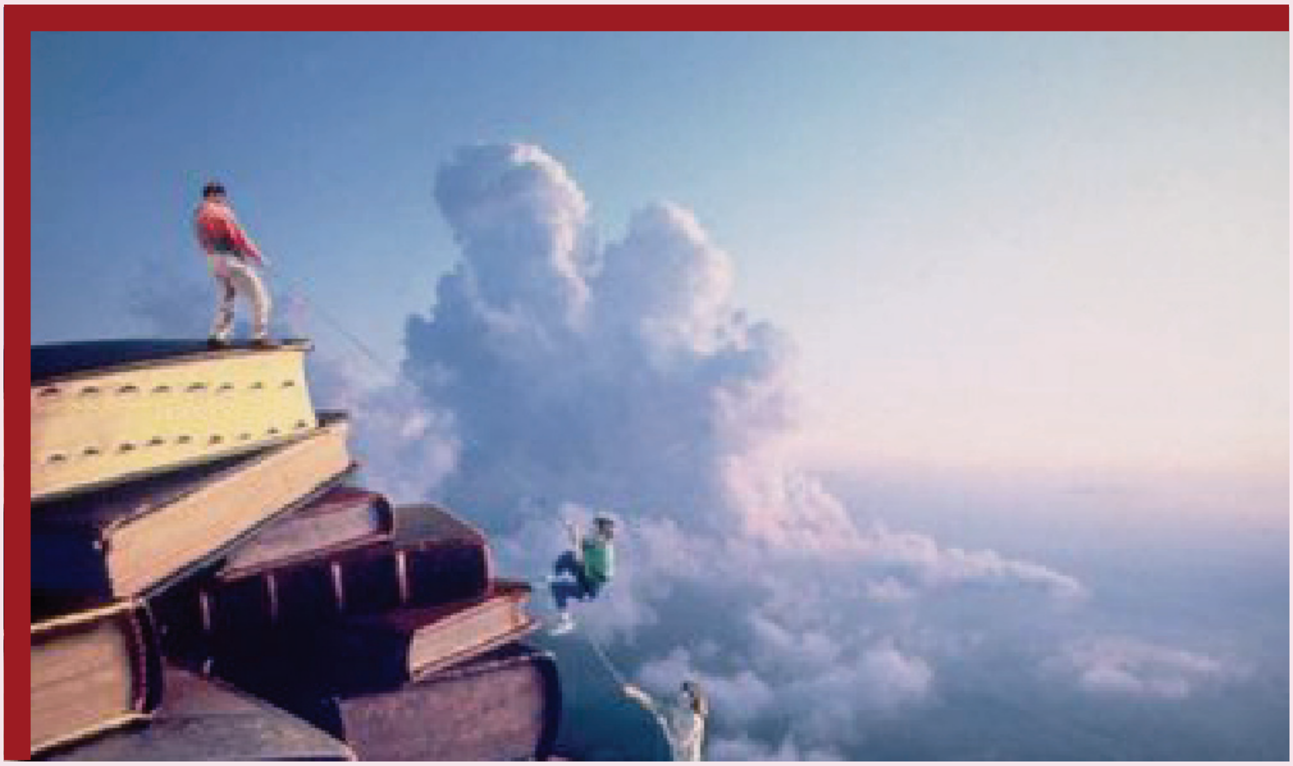
المخترعون الصغار قدموا تجارب أذهلت علماء العالم

ريحانة العطاء والإرادة الفلسطينية

الطفلة «هبة سامر أشتية» رقيقة الحس والقلب، استحقت لقب «ريحانة العطاء والإرادة الفلسطينية»، بعدما سطرت ببراءة الخواطر والقصص التي تصور واقع بلادها الأليم، فشاركت في مسابقة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) لتحصل على المركز الأول كأفضل إنتاج أدبي للأطفال في العالم الإسلامي.

مهندس معماري

أصبح الصبي الموهوب «أحمد الأنصاري» (١٧ عاما) مهندسا معماريا، وهو لم يدرس الهندسة المعمارية، فهو يمتلك عددا من



التصميمات الهندسية المعمارية المتميزة، وهو ما يزال في الثانوية العامة.

ومن أهم التصميمات الهندسية التي يمتلكها «أحمد» -الذي يعيش بمدينة العين الإماراتية- تصميم متميز لبرج تجاري دائري الشكل، بحيث تكون الطوابق الثلاثة الأولى في البرج بمثابة مجمع تجاري فندقي.

وله تصميم آخر عبارة عن برجين متصلين من الأسفل بسوق خاص ومطاعم لسكان البرجين ومن الخلف قاعة حفلات، إضافة إلى ناد صحي على شكل هرم زودته بفتحة علوية في السقف مثل فتحة السيارة، وحسب الطلب يفتح إذا كان الجو مشمسا ويقفل إذا كان مظلما.

أصغر عالم

منح علماء من أوروبا الطفل الفلسطيني «براء إبراهيم شراري» الذي يبلغ من العمر ٨ سنوات درجة عالم، ليكون أصغر عالم في العالم، بعدما تمكن من إثبات نظرية جديدة في علم الرياضيات، تتلخص في اختزال عمليات الضرب الطويلة، ليتم حلها في ثوان معدودة ودون الحاجة إلى القلم والورقة أو الحاسبة الآلية.

وقام ثلاثة من كبار علماء الرياضيات في بريطانيا وألمانيا وفرنسا باختبار النظرية وقد تبين لهم أن الطفل براء يستحق لقب عالم، لأن النظرية لم تعرف من قبل، وبناء عليه قررت اللجنة إعطاءه لقب عالم في الرياضيات بسبب اكتشافه نظرية لم يسبقه أحد إليها، فيما قامت جامعة «أكسفورد» البريطانية، بتبني موهبة «براء» العلمية ليكمل دراسته في الجامعة.

وللدعوة نصيب

اعتبر الطفل المصري «مسلم سعيد» أصغر داعية إسلامي على مستوى العالم، فرغم كونه في السابعة من عمره، فإن دروسه الدينية تنتشر في أنحاء مصر بعد إصدار شريط كاسيت له مصرح به من إدارة البحوث والتأليف والترجمة بمجمع البحوث الإسلامية.

وتعلم «مسلم» على يد أبيه الذي يعمل في مركز «العزيز بالله» الإسلامي بالقاهرة، أصول الدين وفن الخطابة.

المبدع الصغير

نجح المصور عبدالرحمن الفاروق من نيل الجائزة البرونزية من المهرجان العربي الأوروبي السادس للصور الفوتوغرافية الذي أقيم في ألمانيا، وسط ٨٠٠٠ صورة، وبالتنافس مع ٣٦٤ مصورا ومصورة من ٢٣ دولة عربية وأوروبية، وذلك رغم أن عمره لا يتعدى ٨ أعوام فقط.

عبدالرحمن أصغر مشارك في المهرجان اعتاد مرافقة والده في جلسات التصوير منذ أن كان في الخامسة من عمره، بدأت رحلة الأب في نقل تجربته لابنه حينما كان يستمتع بصحبته في جلسات التصوير التي كانت بمثابة وسيلة تربوية ناجحة تمكن من خلالها تعليمه الانضباط، فهو «يستيقظ قبل الشروق لالتقاط صورة بجانب إمداده بالكثير من المعلومات التاريخية المهمة، من خلال زيارة الأماكن الأثرية لتصويرها».



التعليم المحظور في بلادنا

محمد إلهامي
باحث مصري

تقول القاعدة التاريخية البسيطة: إن كل تقدم علمي لا ينعكس أثره على التقدم العسكري يعتبر غير مؤثر في مسار التاريخ – التاريخ السياسي على الأقل – فكم استطاعت أمم متخلفة أن تقهر أممًا أرقى منها علمًا وحضارة وثقافة؛ لأنها كانت أقوى منها في المجال العسكري.

هكذا اجتاح المغول – وهم رعاع أجلاف – عواصم الحضارة الإسلامية الزاهرة، من بلاد ما وراء النهر مرورًا ببلاد طبرستان وفارس والعراق، حتى أوقفهم رجل كان قد استطاع إعداد العدة في أرض الشام.

وقبلهم اجتاح النورمان – وهم بدو أوروبا الأجلاف – دولة الإسلام في صقلية، واحتلوا أجزاء من الساحل الشمالي الإفريقي أيضا، وبين الحادثتين تقع النكبة الأشهر في تاريخ المسلمين.. نكبة سقوط الأندلس على يد قوم لم يكن لهم ولا عشر معشار ما لدى المسلمين من تفوق علمي.

ماذا يعني هذا؟

يعني أننا نواجه مشكلتين في لحظة واحدة، الأولى: مشكلة التخلف العلمي، والثانية: ضرورة انعتاقنا من الأسر الحضاري لأعدائنا.

غير أن المهم، وهذا هو هدف المقال، أن كلتا المشكلتين لا يمكن حلهما بالتدرج أو التتابع، بل لابد من مواجهتهما معًا، وإلا ذهبت كل المجهودات أدراج الرياح.

المشكلة الحضارية

تأسست الحضارة الغربية على الفكرة المادية، واستبعدت وجود إله، ومن لم يستبعد وجود الإله جعل إلهه كإله أرسطو «كصانع الساعة، أودع فيها قوانين الحركة ثم تركها فلا يدبر أمرها»، ومن هذه الفكرة المادية نشأت «فلسفة العلوم الغربية».

مثلا: يتأسس «علم الاقتصاد» على قواعد، منها أن «الموارد تنضب»، وأن «البشر أكثر مما تحتمله الموارد»، ومن ثم يكون مفهومًا أن يقول مالثوس – وهو مؤرخ واقتصادي وقس وصاحب نظرية التكاثر السكاني – بأن الحروب والنزاعات إنما هي حلول تعيد الطبيعة بها تنظيم نفسها ومواردها، وأن الجوع والمرض والموت إنما هي «موانع إيجابية» في مقابل «الموانع السلبية» كتأخير الزواج والشذوذ!! وهكذا أعطى مبررًا قويّا للحروب وعمليات الإبادة، فهي – بهذا – «قدر محتوم» و«قانون تنظم الطبيعة به نفسها».

واقترح مالثوس ألا تتجاوز أجرة العامل الحد اللازم لعيش الكفاف؛ حتى لا يتكاثر كما يحلو له، واقترح أنه لا داعي لزيادة الإنفاق على العاطلين؛ كي لا يؤدي هذا إلى الكسل وتضاعف عدد الأسرة فتتضاعف الأفواه، وطالب بوقف إعانات الفقراء، ووضع العوائق أمام الزواج المبكر لخفض نسبة المواليد!!

وكانت مثل هذه الاقتراحات مبررات ذهبية للبرلمان البريطاني – حينئذ – ليبرر تخفيض إعانات الفقراء، وإعانات البطالة وإعانات المرضى والمحتاجين، ولأصحاب المصانع للحفاظ على حد أدنى للأجور، لقد تلقوا آراء مالثوس – كما يقول ول ديورانت – «كوحي إلهي مقدس»(١).

بينما نجد أن الأساس الإسلامي لعلم الاقتصاد قائم على أن الله هو الرزاق، وأن كل دابة في الأرض إنما على الله رزقها، وأنه ما يظهر من فساد في الموارد فإنه بما صنعت أيدي البشر، وأن السموات والأرض مكنوزة بالثروات ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾(الأعراف: ٩٦)، ولا يتصور المسلم أن الله العليم الخبير الحكيم يخلق خلقا ولا يجعل لهم رزقا.

وقس مثل هذا على سائر علوم الاجتماع والإنسانيات، بل على كل العلوم- بما فيها العلوم البحتة- إذ إن العقول التي تعمل في حقل العلم تؤثر في اتجاهه وتطبيقاته، فثمة عقل لا يرى في الطبيعة إلا «ملكية خاصة» تمثل «مخزنًا لثرواتنا، ومستودعًا لنفاياتنا»(٢)، وثمة عقل يؤمن بأنه «مستخلف فيها» بحيث لا يعمل فيها إلا بأمر الله ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، وبنهيه ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦).

المشكلة الثانية: ردم الفجوة العلمية بفاعلية

ونقول «بفاعلية» لأن العلم قد ينصرف إلى ما ليس يفيد الأمة، وهاهي ألمانيا واليابان تحققان أقصى درجات التقدم العلمي والازدهار الاقتصادي، لكنهما بلا أي ثقل في الميزان السياسي، لأنهما بلا جيش، وكما ذكرنا من قبل: فكل تقدم علمي لا ينعكس على التقدم العسكري ليس بمؤثر، ولايحمي الأمة من الاجتياح والسقوط، وذكرنا أشهر الأمثلة على ذلك.

وعلى غير ما قد يظن الناس، فإن ردم الفجوة العلمية هذا يحتاج وقتًا من الهدوء والاستقرار، ويخبرنا التاريخ بأن هذا الردم لم تقم به الأمة إلا في لحظات المقاومة والمواجهة، أو بعبارة الراحل الكبير جلال كشك: «تجربة التاريخ كله لا تثبت حالة واحدة استحال فيها على شعب متخلف اكتساب التكنولوجيا والتفوق فيها.. شرط أن يختار القتال»(٣).

سؤالان متلازمان: كيف تنظر إلى العلم؟ وكيف تطبقه بفاعلية؟

لقد اندهش الفرنسيون من مقاومة الأهالي المصريين، الذين استطاعوا إنشاء معمل للبارود، واستطاعوا إعادة تصنيع واستعمال ما بقي من المدافع التالفة، واستعملوا الأدوات البدائية من حجر وأخشاب ومثاقيل الموازين، وما ضرب عليهم من قنابل الفرنسيين ليعيدوا صناعتها كقنابل تطلق من المدافع، وكان أبطال المشهد هم أصحاب الحرف من السباكين والنجارين والحدادين «والعربجية»، حتى ليقول ضابط فرنسي: «لقينا مقاومة لا قبل لنا بشراستها وتنظيمها من قبل»، ويشهد أحد مهندسي الحملة بأن ما فعله سكان القاهرة «لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل، فقد صنعوا البارود وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع، وفعلوا ما يصعب تصديقه- ومن رأى ليس كمن سمع- ذلك أنهم صنعوا المدافع»، بل يشهد كليبر- قائد الحملة الفرنسية آنذاك- بأنه لم يكن يتصور الوضع على هذه الدرجة من الخطورة(٤).

أما التوهم بأن نقل العلم قد يتم بين الأعداء بالرضا في لحظات الهدوء والصفاء، فذلك يدل على سذاجة وجهل، فذلك مينو- القائد الثالث للحملة الفرنسية- حين فكر في إقامة مصنع للجوخ في مصر لسد حاجة الجيش منه، في ظل الحصار البحري المفروض عليهم، جاءته التقارير توصيه بألا يعمل في المصنع مصري، ذلك «أن مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية»، وقد كان!

وهذا الأمر مطّرد عبر التاريخ، قديمًا وحديثًا، وانظر إلى الحركات التي هادنت المستعمر.. هل استطاعت أن تكتسب من علمه شيئًا؟

ثم انظر إلى الحركات التي قاومته، إلى أين وصلت؟ وكيف أوجعته؟

لقد ظلت إسرائيل نحو عشر سنوات تحاول مقاومة صواريخ فصائل المقاومة، وهي حتى الآن لم تنجح نجاحًا كاملا، رغم الفارق الرهيب بين الطرفين في كل شيء، بينما لم ينجح من هادنوها في أي شيء!!

وحين وقف وزير الحرب الإسرائيلي يبرر عجزه قائلا: «إن أجهزة رصد الصواريخ التي لدينا عاجزة عن التقاط هذا النوع؛ لأنه أقل تطورًا من أن ترصده»، رد عليه أحد أعضاء الكنيست بعبارة ساخرة ولكنها حقيقية جدا: «إذن فلنصدر لهم صواريخ متطورة لكي نستطيع صدها»!!

إن نظام التعليم إذا لم يتدارك هاتين المشكلتين: كيف ننظر إلى العلم؟ وكيف نطبقه بفاعلية؟ فإنه سيظل دائرًا في الفراغ، أو بالأحرى: دائرًا تحت رقابة الأعداء.

الهوامش:

١- ول ديورانت: قصة الحضارة ٤٢/٢٥١-٢٥٣، ٤٢/ ٣٨١- ٣٨٩. وانظر: رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني: البيئة ومشكلاتها ص١١٢، جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ص٢٧.

٢- جارودي: وعود الإسلام ص٢٠.

٣- جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، ص٣٠٥.

٤- الجبرتي: عجائب الآثار ٢/٣٢٦ وما بعدها، وانظر جوزيف ماري مواريه: مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر ص١٥٥ وما بعدها، الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم، ٢/١٧٣.

النشء المسلم..
أين موقعه في مناهج التعليم؟!



هالة عبدالحافظ، منار محمد
القاهرة- دار الإعلام العربية

الطفل هدف أساسي للعملية التعليمية، لذا تعتبر مرحلة رياض الأطفال (التعليم ما قبل سن المدرسة)، عالما مستقلا بذاته، له خصائص وقوانين، يعمل على تهيئة الطفل وإعداده، وفق قيم اجتماعية متباينة، يفترض أن تكون قويمة ومازجة بين الأصالة والحداثة؛ ليستقبل الطفل حياته التعليمية والاجتماعية برصيد جيد من الثقافة والخبرات البسيطة.. إلا أن واقع التعليم العربي الإسلامي، ربما لا يكون طموحا أو ناجعا مع تباين مناهج التربية والتعليم ومخرجاتها في مرحلة رياض الأطفال.. «الوعي الإسلامي» تطوف معكم بعدد من التجارب، وتلتقي عددا من المعلمين والتلاميذ والمختصين؛ لنتعرف إلى واقع أطفالنا في سن الروضة.

سعيا وراء الارتقاء بمستوى الناشئة في مرحلة رياض الأطفال، سعت دولة الكويت أخيرا إلى إجراء تعديلات في المناهج المقدمة لمرحلة رياض الأطفال، ولهذا قررت إيقاف التوسع في تجريب مناهج العربي والإنجليزي ومفاهيم الرياضيات، خلال العام الدراسي الحالي ٢٠١٣/٢٠١٤، واستعانت وزارة التربية والتعليم بخبراء في مرحلة رياض الأطفال، طالبوا بعدم تدريس المناهج لطلبة الرياض بطريقة فردية، أي كل مادة على حدة، بل بطريقة متكاملة.. الأمر الذي استوجب تعديل المناهج التي يجري تجريبها في رياض الأطفال منذ سنوات، كي تدرس المواد بشكل متكامل.

في الإمارات، كشفت وكيل وزارة التربية والتعليم المساعد للعمليات التربوية فوزية حسن غريب، أن الوزارة بصدد إعادة هيكلة مرحلة رياض الأطفال، ودراسة مناهجها؛ لردم الفجوة بين هذه المرحلة والتعليم الأساسي، معتبرة أن تطوير تعليم رياض الأطفال مُبادرة لأحد أهداف الوزارة الاستراتيجية ٢٠١٠-٢٠٢٠.

ومن واقع نتائج دراسة رياض الأطفال بدولة الإمارات العربية المتحدة «الواقع والتطلعات»، أكدت

«غريب» على أن الدراسة أوصت بمراجعة وثيقة المنهج، وإدخال الإضافات اللازمة في ضوء توصيات الدراسة والمعايير العالمية، وإثراء المنهج بعدد من الوحدات التعليمية، والموضوعات الشائقة والمرتبطة بحياة الطفل وواقع مجتمعه، واعتماد معايير عالمية؛ لتقييم وإعداد خطط شاملة تحتوي على إرشادات واضحة، تيسر على المعلمة التطبيق الفعلي والتقييم المرحلي الموضوعي لمستويات الأطفال، وإعداد وثيقة وطنية خاصة بمعايير اللغة الإنجليزية، بما يتلاءم مع طبيعة مجتمع الإمارات، وإعداد وحدات ومصادر تعليم مرتبطة بهذه الوثيقة، والعمل على توفير برامج تدريبية للهيئة الإدارية والتعليمية، وفق أفضل الممارسات العالمية، وبصورة مستمرة، ووضع استراتيجية جديدة للتدريب والتأهيل، واعتبار الوثيقة الوطنية مصدرا أساسيا ومساندا لمعلمة الروضة أثناء تطبيق المنهج.

ووفقا لما كشفت عنه حقائق ومؤشرات الدراسة على مدار ٤٠ عاما من ١٩٧٣-٢٠١٣، ارتفع عدد رياض الأطفال من ٧ روضات ليصل إلى ١٢٤ روضة، وارتفاع عدد الأطفال من ٢١٣٥ إلى ٢٩ ألفا و٥٤١ طفلا إماراتيا، وعدد المعلمات من ٧٣ إلى ٢٣٠٤ معلمة، وبلغت نسبة التحاق الأطفال ٨٥٪، ونسبة المواطنات من معلمات رياض الأطفال ٧٩٪، الجامعيات منهن ٩٨٪، و٩٥٪ من المديرات مواطنات، ٧٩٪ من المعلمات تخصص رياض الأطفال، وبلغت نسبة الموجهات المواطنات ١٠٠٪، ولم تتوفر نسبة دقيقة للأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة.

وقالت مدير إدارة الدراسات والبحوث التربوية بالإنابة د.فوزية بدري، إن مشروع تطوير مرحلة رياض الأطفال تضمن إعداد المنهج المطور، وإقامة مراكز التطوير، وتدريب وتأهيل المديرات والمعلمات بواقع ٧٨٤ معلمة

الكويت تلجأ إلى المناهج التكاملية.. والإمارات تعتبر التطوير هدفا استراتيجيا

و٦٤ مديرة و٢٤ موجهة، فضلا عن تهيئة البيئة التربوية، ووضع آلية للتقييم (أدوات التقييم وقياس الأداء)، وإعادة تنظيم البرنامج اليومي، وتطوير الهيكل التنظيمي، وصياغة الأنظمة واللوائح (القيد والقبول، الانتقال، الترقية)، وإعادة هندسة تصميم المبنى، وإدخال برامج إثرائية (اللغة الإنجليزية، التنمية اللغوية)، وتعديل برامج إعداد المعلمات.

رؤية ثانية

وفي المملكة العربية السعودية، أطلق مشروع الملك عبدالله بن عبدالعزيز؛ لتطوير التعليم العام، من خلال تطوير الخدمات التعليمية، المرحلة الثانية من مشروع تطوير مناهج رياض الأطفال، والذي يطبق في (٥٠) روضة على مستوى المملكة.

وأوضح مدير عام المحتوى والمعايير والتقويم في تطوير الخدمات التعليمية د.منصور بن سلمة، أن العمل من خلال هذا البرنامج الذي يُطبّق حاليا في الرياض، والمنطقة الشرقية، ومحافظة جدة، ومنطقتي القصيم وحائل، على اختيار المناهج الأنسب لمرحلة رياض الأطفال على جميع المستويات، بمنهج يتواءم مع ثقافة المجتمع السعودي، وقيمه وعاداته، وخصائص الطفل السعودي، ويتوافق مع التوجهات العالمية في مجال الطفولة المبكرة.. فكان التركيز على الاستعانة بخبرات وطنية وعالمية؛ للمشاركة في تنفيذ المشروع.

كذلك عقد برعاية نائب وزير التربية والتعليم السعودي لشؤون البنات نورة الفايز، أخيرا اللقاء التعريفي لمشروع «تطوير مناهج رياض الأطفال» لمشرفات رياض الأطفال، ومديرات الروضات، بمشاركة مساعدات مدراء التربية والتعليم للشؤون التعليمية في مناطق الرياض، وحائل، والقصيم، والشرقية، وجدة..

تقليد أعمى

ومن قطر، أوضح أستاذ استراتيجيات تطوير المناهج د.المكاشفي عثمان دفع الله محمد، أن التربية كالثياب، ومن حق كل أمة أن تفصل ثيابها على مقاسها وليس على مقاس أمم أخرى، ومن حق كل أمة على بقية الأمم أن ترى منها ما يسر، أو على الأقل لا ترى منها ما يغم ويؤذي العيون والقلوب.. مؤكدا على أن الأقطار العربية لا تختلف عن غيرها، في أن أغلبها تُقلد الغرب تقليدا أعمى في كل شيء، مشددا على أن استيراد الفكر الحضاري من الاتجاه الخارجي، يكمن فيه الخطر كله.

وأضاف أن الثورة التكنولوجية الثالثة، لن تكون حكرا على المجتمعات الكبيرة أو القوية، إنما يمكن لجميع الشعوب أن تخوض غمارها، إذا ما أحسنت إعداد أبنائها تربويا وتعليميا.

حصانة روحية

وفي الجزائر، تعتبر «الكتاتيب القرآنية» حصانة روحية ودعامة أساسية في تعليم النشء وتربيته، حيث تلعب الكتاتيب القرآنية التي انتشرت بكم هائل في الآونة الأخيرة وبطريقة مرخصة، دورا تربويا وتعليميا كبيرا يتمثل في تربية وتكوين الناشئة تكوينا إسلاميا، يرتكز على تعليم الأطفال المبادئ الأولية والكتابة، مع تحفيظهم ما تيسر من كتاب الله العزيز، وتلقينهم مبادئ الدين الإسلامي، وتنشئتهم تنشئة إسلامية رفيعة، بناء على أسس وقواعد الدين الإسلامي

الحنيف، إذ إن دورها لا يقتصر على تعليم فئة الصغار من الفئة الذكورية فقط، بل حتى الفتيات لهن نصيب من التعلم والحفظ.. وبحسب الصحفية «سهيلة بركو»، فإن المدارس والكتاتيب القرآنية المنتشرة في كامل الجزائر، والتي بها يُحافظ الطالب على أصالته الإسلامية، بحفظ السور القرآنية من كتاب الله العزيز، وتعليم الناشئة العلوم والمعارف العربية والإسلامية، قبل التحاقهم بالمدارس والمراكز التعليمية.

النشء المسلم عماد الأمة

أما في مصر، فأكد العديد من الخبراء أن النشء المسلم هم عماد الأمة في كل العصور، وأن الشريعة حرصت على ترسيخ التعاليم والقيم الاسلامية، حتى يكون الشباب المسلم واعيا محبا لدينه ووطنه.

وبحسب عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة د.محمد أبوزيد الأمير، فإن الأزهر الشريف يُولي اهتماما بالغا بالنشء؛ لأنهم نواة المجتمع وجيل المستقبل، لذا حرص كل الحرص على الاهتمام بالطلائع، وتعليمهم ثوابت وركائز صحيح الدين، وأضاف أن بناء وتربية الأجيال أمر من الأمور المهمة في الحياة، وهذه التربية لابد أن تقوم على أساس قوي من المنهج السليم والعقيدة الصافية، مشيرا إلى أن تربية الأجيال لها عدة أطراف لابد أن تجتمع لتحقق هذا الهدف، وهو إخراج الجيل الفريد، وهذه الأطراف هي الأسرة والمدرسة والمعلم، وإن اختل أحد هذه الأركان أو ظهر القصور فيه أثر سلبا على عملية بناء وتربية الجيل المسلم.

مناهج المرح

وعلى أرض الواقع، انتقلت «الوعي الإسلامي» إلى مدرسة النور الإسلامية بأرض اللواء محافظة الجيزة، والتقينا الأستاذ حسين عبدالوهاب ناظر المدرسة، الذي أكد أن تجارب الطفل التي يعيشها أثناء السنوات القليلة الأولى تُحدد مستوى نمائه الإدراكي وارتباطه العاطفي الآمن بالآخرين، فضلا عن تحديد الطريقة التي يتفاعل بها الطفل مع الآخرين، ومع العالم من حوله.. ولفت إلى أن طفل الروضة يحتاج بشكل أساسي إلى ما يُعرف بصناعة عالم مرح متكامل، يوفر للأطفال أفضل فرص النمو الشامل المتوازن.. ففي المناهج الحديثة يُعتبر المرح واللعب والنشاط الحركي أحد مكونات حياة الطفل الأساسية، يميل إليها بفطرته، وينجذب إلى ممارستها بتلقائية وعفوية، لذلك أصبح التربويون ينادون باعتماده مدخلا رئيسيا من مداخل التربية والتوجيه والتعليم.

محاور أساسية

أما مدرس الرياضيات محمد مصطفى عبدالرحيم في المدرسة ذاتها، فأكد على أنه في كثير من الأحيان لا يتم تطوير المناهج، إنما يتم تغيير شكل الكتاب دون

السعودية تتبنى مناهج تتواءم مع ثقافة المجتمع وقيمه وعاداته وخصائص أطفاله

محتواه، لكن إذا أردنا تطوير المناهج فلابد أن نستند على عدة محاور أساسية، وهي روضة أو مدرسة فعالة، تقدم تعليما عالي الجودة لكل مُتعلم في بنية تعليمية، غير تقليدية ترتكز على المتعلم، وتقوم على وسائل وأساليب التعلم النشط، واستخدام التكنولوجيا بما يمكّن المتعلم من التزود بمهارات العلم الذاتي، والتفكير الناقد، والمهارات الحياتية، ويستلزم ذلك أبنية تعليمية متكاملة، ومعلما أو مدرسة روضة على مستوى عال من المهنية والخبرة التي تمكنه من القيادة التربوية والتخطيط الجيد، والتفكير المُتكامل، وتجعل منه عنصرا فعالا في التغيير والتطوير.

وأكدت مدرسة اللغة الإنجليزية مروة حسن، على عدم مواءمة المناهج للواقع الحالي، مشددة على ضرورة أن تصمم على أساس طرفي العملية التعليمية الأساسيين، وهما التلميذ والمعلم، وشددت على أن غالبية طرق التدريس المطبقة حاليا ليست حديثة بالدرجة الكافية التي تواكب روح العصر أو حتى الأجهزة التقنية التي يستخدمها الطفل، قبل دخوله رياض الأطفال، ما يُحدث خللا لدى الطفل بين ما يعيشه في الواقع، وبين ما يتعلمه في الروضة أو المدرسة.

طفرة منهجية

أما سامية مصطفى حسن، ولية أمر لثلاثة تلاميذ، إحداهن في الروضة والثاني في الصف الثاني الابتدائي، والثالثة في الصف السادس، فتؤكد على أن جيل اليوم لم تعد تصلح معه مناهج الجيل الذي سبقه، فضلا عن أن نستخدم في تعليمه تلك المناهج

والوسائل التي استخدمها جيل الآباء والأمهات، موضحة أن المتغيرات العصرية المتسارعة يجب أن يتم مراعاتها في المناهج، خاصة بالنسبة للنشء في مرحلة رياض الأطفال والابتدائي.. وأكدت على أن ابنتها الصغيرة «أيسل»، ذات الأربعة أعوام، تُفاجئها دوما بأسئلة وطاقات ذهنية، تؤكد على حاجة هذا الجيل إلى طفرة منهجية غير محدودة، لكن بما يتوافق مع قيم المجتمع والهوية الإسلامية والحضارة العصرية.

في المقابل، قالت معلمة رياض الأطفال عايدة جمال: «المناهج الدراسية والأنشطة التربوية التي تُدرس منذ ثلاث سنوات بعد تطويرها تساعد بدرجة كبيرة على محو الفجوة بين هذه المرحلة والتعليم الأساسي».

موضحة أن المنهج الجديد يرفع شعار «من حقي ألعب وأتعلم وأبتكر»، حيث تم إثراء المنهج بموضوعات مهمة مرتبطة بحياة الطفل وواقعه المجتمعي، فضلا عن أن المنهج يُلبي حاجة طفل الروضة، الذي تتبلور فيها شخصيته، وتنعكس على مشواره التعليمي، ويجعلنا نؤسس جيلا قادرا على مجاراة كل ما هو متطور.

زرع الثقة بالنفس

بدورها، أكدت الخبيرة في مجال الطفولة وفاء المستكاوي، على أهمية زرع الثقة بالنفس في نفوس أطفالنا في تلك المرحلة العمرية الحرجة، لأن الثقة تنعكس على دراسة الطفل، وتعاملاته، وعلاقاته، وآرائه، وحديثه، ولغته.. لذلك لابد من تدعيم ثقته بنفسه، من خلال التعاملات اليومية، وضرورة إكسابه الاستقلالية في سن مبكرة، بحيث نجعله دائما يشعر بالأمن والأمان.. فالطفل في مرحلة الرضاعة إذا كانت أمه هادئة تحيا حياة مستقرة خالية من التوتر، ينعكس ذلك عليه، فيشعر بالأمان والدفء، وهذه قاعدة أساسية، تطبق على مراحل تعليمه المختلفة.



تأهيل نفسي

إلى ذلك، أوضح أستاذ المناهج وطرق التدريس وتكنولوجيا التعليم بكلية التربية جامعة قناة السويس د.مصطفى رجب سالم، أن إعادة هيكلة مرحلة رياض الأطفال، لا تتطلب تقديم أو تغيير مناهج، بل تحتاج إلى أنشطة تربوية، تعمل على تأهيل الطفل نفسيا ليصبح محبا للتعليم، لأن العلم في هذه المرحلة يُدرس من خلال أنشطة مختلفة، فضلا عن أن الطاقة الاستيعابية للطفل، قادرة على التعلم والنجاح.

وأكد على أن غرس المبادئ الدينية، لا يتم إلا عن طريق القدوة الحسنة، التي تعلمه حسن الخلق، وعفة اللسان وطهارته، وتجعل لسانه دائما عطرا بذكر الله، وذلك من خلال ممارسة الأنشطة المختلفة عن طريق العمل التعاوني، واستراتيجيات تعاون جديدة.

هيئة خاصة

أما الخبير التربوي ورئيس الجمعية المصرية للمناهج والتدريس، د.محمود الناقة، فيعتبر مرحلة رياض الأطفال من أصعب وأهم المراحل، حيث ترجع أهميتها إلى أن عقول الناشئة لم تزدحم بعد، فضلا عن أنها نشطة، وخلاياها غير ملوثة، فلابد أن يكون لمرحلة رياض الأطفال قطاع متخصص في وزارة التربية والتعليم؛ لأنها تعتبر مرحلة الغرس، التي تبنى عليها المراحل التعليمية الأخرى.

وأكد على أن هذه المرحلة ليست في حاجة إلى كتاب أو تلقين أو حفظ، إنما في حاجة إلى ممارسة أنشطة كافية، كالحكايات والقصص والتعامل مع الإلكترونيات، لكن بشرط أن تكون محددة الأهداف والنتائج أيضا، الأمر الذي يجعلنا نتأكد جيدا من الجرعات المطلوبة من هذه الأنشطة، وتوزيعها بشكل متساو، حتى لا ينجرف الطفل إلى اتجاه معين، ولا يأخذ من النشاط سوى عيوبه، ويتعود عليه، مثل استخدامه لجهاز الحاسب الآلي فقط، فالأمر هنا في حاجة إلى آلية وتنظيم، وتخطيط علمي.

ودائع الله

أخيرا، يستشهد الشيخ معوض عوض إبراهيم (من كبار علماء الأزهر وعضو لجنة الفتوى في الأزهر سابقا) بقول الرسول الكريم ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، في كتابه «الأولاد ودائع الله عندنا»، مؤكدا على أن الأطفال في مراحلهم التعليمية الأولى عود غض طري، وممارسة الحياة مازالت في أول الطريق، وهو مناخ تنمو فيه المخاطر، لذا فلا يجب استهواء الأطفال؛ من خلال أنشطة لا تنفعهم، أو محاولة التأثير عليهم، وصرفهم عن مقتضيات الفطرة، التي فطرهم الله عليها، وهي فطرة الإيمان وتوحيد الله، والالتزام بأوامره، واجتناب نواهيه.



آثار المعصية في الفرد والمجتمع

| مختار محمد لوح |
باحث تربوي

ولاء الله تعالى للمؤمنين يقتضي حدودًا يضعها لهم ضمانًا لفوزهم، كما أن براءته من الكافرين توجب خذلانه لهم تحقيقًا لعدالته ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ (محمد: ١١)، فيكون موقفه من الفريق الأول توجيهًا وزجرًا حين عجل عقوبتهم ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ (الروم: ٤١)، وجزاء وعذابًا للفريق الثاني حين أجل هذه العقوبة ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ (إبراهيم: ٤٢).

قبل تفصيل الموقف الأول- الذي يعنينا هنا- نذكر بأن صلح المسلم مع ربه، يكون بمقدار طهارة روحه، فكلما هجر الرجس وأحسن تطبيق العبودية لله واجتهد في ذلك، ازدادت السبيل وضوحًا، وعاين نتائج عمله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (العنكبوت: ٦٩)، أما إذا آثر الحياة الدنيا ولبى طلبات النفس الأمارة بالسوء، وارتكب المعاصي بغير توبة، فسيتحول بعضها منغصات ذات انعكاسات سلبية على حياته.

وسنسوق في الفقرات التالية أدلة نقلية ومواقف تاريخية تؤكد صحة هذه الأطروحة، كما سنتطرق إلى آثار روحية ومادية ذات صلة بمعاصي الفرد والمجتمع.

١- الأدلة النقلية: نذكر منها ما يلي:

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الشورى: ٣٠).

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾(المطففين: ١٤).

يعلق الطبري على الآية الأولى: يقول تعالى ذكره: وما يصيبكم أيها الناس من مصيبة في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم فبما كسبت أيديكم، يقول: فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من الله لكم بما أجرمتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم، ويعفو لكم ربكم عن كثير من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها. وعن النبي ﷺ: «لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر»(١).

وعن الران المذكور في الآية الثانية، قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل منها، فإن عاد عادت حتى تعظم في قلبه، فذلك الران الذي قال الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»(٢).

قد يقول قائل: إن الآية ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ ...﴾ امتداد لسياق موجه إلى الكفار المكذبين بيوم الدين والمستهزئين بالقرآن، لقوله تعالى قبل ذلك ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾(المطففين:٧)، فكيف يقصد به نكتة في قلوب عاصين من المسلمين بدل قلوب الكافرين؟

إن الران يجوز أن يكون في قلوب الكافرين بسبب كفرهم، كما يجوز أن يكون في قلوب المؤمنين بسبب ذنوبهم، وإن كانت درجات النكتة متفاوتة، وبذلك تكون المقابلة متوازنة بين مرض القلوب الذي كان سببه النفاق والكفر، والقلوب المغطاة بالران بسبب (مَا كَانُوا يَكْسِبُون) بل الحديث المذكور حجة داحضة.

٢- أدلة من المواقف التاريخية

من ينظر في التاريخ الإسلامي على تعدد مراحله، يجد آثار المعصية واضحة، سواء في صدر الإسلام أو ما بعده من أحداث، وسنكتفي ببعضها فيما يأتي:

- معاصي ثلة من المسلمين في صدر الإسلام

لما حاصر المسلمون بني قريظة ليالي عدة وأعياهم الحصار، طلبوا من الرسول ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة، ليستشيروه «... وقالوا له: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال، نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح. قال أبولبابة: فوالله مازالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله. ثم انطلق أبولبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده..»(٣).

أما أثر معصية أبي لبابة رضي الله عنه فواضح جدا تمثل في هذا الارتباط ست ليال حتى كانت زوجته هي التي تفكه ليتمكن من الوضوء والصلاة(٤).

كما نستدل بمعصية ذي الخويصرة التميمي الذي أساء الأدب مع الرسول بعد غزوة حنين، فقال عنه الرسول ﷺ: «فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية...»(٥) إعلانا لحتمية ردته كأثر لمعصيته. هذا بالإضافة إلى معصية كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع الذين سماهم القرآن بالثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك.

- موقف عمر بن الخطاب من المعصية

في معركة القادسية، أوصى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص أمير الجيش فقال: «...آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليست كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا، ولن نغلبهم بقوتنا..»(٦).

لعل الأدلة المذكورة وضحت آثار المعصية في حياة المسلم، وقد يصعب إحصاء هذه الآثار، لذا نقوم بعرض الآثار الروحية والمادية حيث تندرج تحتهما عناوين فرعية.

١- الآثار الروحية

نعني بها تلك الآثار التكاثرية التي تجعل القلب جاهزا لاستقبال المعاصي واستضافتها، وذلك الخسران المحتم بسبب حبوط عباداته، وتلك الآثار النفسية المؤقتة ذات القابلية للتغير بسبب التوبة والإنابة:

١- ١: تكاثرية المعاصي

حين نهي أبونا آدم عن الاقتراب من الشجرة وعصى، أثر ذلك في مضاعفة المعصية الواحدة إلى معاصي عدة، وإليكم الآثار في الجدول التالي:

المعاصي المرتكبة	الآثار الناتجة عنها	أدلة المعاصي
الاستماع إلى إبليس مع علمه بعداوته له	الإيمان بـ«نصيحة إبليس» وقبوله لها	﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ (طه: ١١٧)
الاقتراب من الشجرة	قطف ثمرها	﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ (الأعراف: ١٩)
الأكل منها	انكشاف السوءة	﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ (الأعراف: ٢٢)

يلاحظ في الجدول السابق كيف أن المعاصي متتالية بصورة تلقائية، فولدت السابقة اللاحقة، فأنتجت تلك الآثار على النحو الذي رأينا، وكيف أنه نسي التوبة أثناء المعصيتين الأوليين.

٢-١: حبوط الأعمال

هذا أخطر أثر تحدثه معصية الفرد المسلم، لأنه لا يشعر به وينسى التوبة إلا من رحم الله، وهناك ذنوب تسببه، منها:

أ- الشرك بالله: فهو معصية نتائجها وخيمة، لأنها الخسران المحتم في الآخرة، حيث لا أمل لمن مات على الشرك في النجاة من عذاب النار، لأنه يصل الآخرة بدون زاد، فإن كان طائعا فقد حبطت طاعاته ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥).

ب- الردة: وهي أيضا من المعاصي المحبطة للعبادات ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ...﴾ (البقرة: ٢١٧).

ج- سوء الأدب تجاه النبي ﷺ: وقد يكون إما برفع الصوت عند حضوره، وإنه لمعصية خافية لولا البيان القرآني الذي جعله يحبط الطاعات، سواء كان هذا الرفع في حضوره أو في غيابه، كتقديم كلام آخر على كلامه ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢)

وإما بمحاجته كما حدث في القصة السابقة مع ذي الخويصرة التميمي.

٢- الآثار النفسية

نقصد بها المعوقات التي تعوق الروح عن الصعود، وتخلد النفس في سفاسف الأمور وهي متعددة المظاهر: تلك الحالات التعسة التي تلحق بالمسلم هموما وغموما، وأحلاما مزعجة لا تكاد تفارقه ليلة، هذا الفتور الذي يصيبه في أكثر الأحايين بحيث يصبح هامدا ذابلا في الطاعات، ذاك الكسل الذي يلازمه عند الصلاة، ذلك الحرمان من الإحساس بالقيم الإسلامية، هذا الافتقار إلى الربانية في معاملاته، هذا الاحتساب المفقود لدى ممارسة الشعائر الدينية والأعمال العادية، هذه الغفلة التي لازمته، الغفلة عن المراقبة والعجز عن الخشوع حتى إذا انتهى من الصلاة نسي السورة التي قرأها! يقرأ القرآن ولا يتجاوز شفتيه ولا يستطيع معاينة الحسنات الجزيلة ولا الشعور بالدرجات المرفوعة، ولا الخطايا المنحطة عند خطوات المسجد أو انتظار الصلاة، لا يذكر الله تعالى إلا قليلا، وإذا ذكره يوما لا يحس بعظمة المذكور الذي شرفه بذكره، وذكره في ملأ أفضل.

يحسن أن يسأل هذا المسلم لماذا تحول كذلك؟ ولاشك أن هذه حالات شقاء وتصرفات ذل تصدر من النفس بسبب اتباع الهوى الذي يجعل الفرد في أحوال مسكنة وندامة وحسرة لا تزول إلا بصدق الإنابة والتوبة النصوح، وإلا يظل مثل الذي ﴿...أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ...﴾ (الأعراف: ١٧٦).

أما كون هذه الحالات تصدر بسبب اتباع الهوى، لأن جميعها جور، والجور يجلبه هوى النفس، وقد حذرنا الله منه حفاظا على العدل في المجتمع المسلم ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ...﴾ (النساء: ١٣٥) ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦).

إنه لهوى النفس الذي أمرنا بمخالفته ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠) هو الهوى الذي ألجم عقله وروحه وفكره، فصار كما قال الشاعر يؤنب نفسه:

طبعي اتباع الهوى وقلة الورع
والحرص والبخل في الأموال بالجشع
نفسي تقود حجاي الدهر كالفرس
ولم أقل فيه شيئًا مثل ذي الخرس
نفسي إلى الغير دون الخير داعية
كأنها حين تعصي الله داهية
تنام عيني وقلبي كل أزمنة

وهمتي للمعالي غير مركنة
حتى ذنوبي ونومي خففت زنتي
أستغفر الله من نومي ومن سنتي (٧)

إن مخالفة هذه المعصية، كما قال عنها سيد قطب رحمه الله: هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة، فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان وكل معصية، وهو أساس البلوى وينبوع الشر، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى، فالجهل سهل علاجه، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأجل لعلاجها(٨).

إن هذه المعصية لإله يعبده الغافل بغير شعور ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الفرقان: ٤٣)، لهذا كان الرسول ﷺ يصور غضب الله تعالى وبغضه للهوى فقال: «ما تحت أديم السماء إله يعبد من دون الله عز وجل أبغض إلى الله عز وجل من الهوى»(٩).

٣- الآثار المادية

إنها تلك الآثار المحسوسة التي يعاني منها الفرد أو المجتمع المسلم من نواح عديدة، وسنقتصر في الجانب الماليً مع الفرد والمجتمع:

أ- آثار المعصية المالية على الفرد

كم نرى موظفًا يتقاضى راتبًا قياسيًّا ولكنه يظل في ضنك من الحياة.. نفقات لا تغطي احتياجات الأسرة من الغذاء والكساء والدواء، وقد يبني قصرًا أو بيتًا فاخرًا ثم يخر عليه السقف من فوقه، أو يشتري سيارة ذات طراز نادر، ولكن لا يلبث أن تصطدم أو تسرق أو تتعطل كليًّا، وقد يصاب بمرض عضال يلزمه الفراش، ولا يستطيع الاستفادة من المال الذي جمعه وعدده.. تشتُّت الأسرة وانتشار العداوة والبغضاء والإحن وسوء التفاهم بين الأبناء والآباء والأمهات.. خصومات واشتباكات لانهاية لها، وقد تمتد آثار ذلك إلى الجيران والأصدقاء، بل إلى أماكن العمل أحيانًا.

كل هذه الآثار، إذا لاحظها المرء في حياته فليتهم نفسه، ولينظر إلى حاله، لعله يرى معصية ارتكبها لم يتب بعدها.. هل تعامل مع البنوك الربوية بغير عذر؟ هل تأخر أو غاب عن عمله بدون حجة معقولة؟ هل قام بفساد إداري في كهرباء المؤسسة أو مياهها أو تهويتها أو هواتفها؟ هل استهلك بنزينها لأغراض شخصية بإيصال مختلق؟ هل سافر باسم المؤسسة وزاد المسافة في ورقة الانتقال رغبة في تعويضات أكثر؟ هل استهلك الميزانية ثم بررها بفواتير وهمية؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾ (الأنفال: ٥٣).

ب- آثار المعصية المالية على المجتمع

إذا انتشرت المعاصي في قوم مع غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عمتهم آثارها، لهذا لا غرو أن تشهد المجتمعات المسلمة كوارث مالية وبيئية جماعية كالأسواق والمحلات التجارية المحترقة، المجهولة أسباب حريقها والتي تذهب بملايين الدولارات وتحصد العديد من الأرواح، كما نجد الآفات الزراعية التي تتمثل في القحط المتكرر أو غزوات الجراد، بعد ما ظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمر الله ليلا أو نهارا فجعلها حصيدا كأن لم تغن بالأمس.

والمدقق في هذه الأحداث يرى أن السبب الغالب يكمن في الزكوات المرفوضة، والحقوق المغصوبة وغيرها من المعاصي المسكوت عنها، فليس بدعًا إذن أن تتحول تلك المعاصي نارًا تعذب صاحبها في الدنيا كما ستعذبه في الآخرة ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾ (التوبة: ٣٥)، وهكذا يُرجع المفكر الإسلامي الكوارث إلى المعاصي والإعراض فيقول: «...كما يمكننا رصد العديد من الملمات والزلازل والأحداث والسيول والفيضانات والانهيارات والتفجيرات البركانية الهائلة التي مست التجمعات البشرية، والتي ترجع- حسب العرض القرآني- إلى الإعراض عن اتباع ذكر الله، والاستهزاء بذاته سبحانه وتعالى وبرسالاته لأنبيائه، والنكوص عن الوفاء بعهد أبينا آدم عليه السلام الذي قطعه أمام ربه بعد أن تاب عليه، والإفساد والطغيان والظلم والاستكبار والعلو بغير الحق في الأرض، وليس لها في القرآن تفسير غير هذا»(١٠).

وللتخلص من هذه الآثار، يتزود المسلمون بعزيمة الإقلاع عن الذنوب، لأنه «إذا ظهرت العزيمة على ترك المعاصي، وجد القلب قوة على زجر النفس، ورفض ما عزمت عليه، فانقمعت النفس وذابت، وسكن غليان الشهوة، وماتت اللذة، وسكنت العروق، ودرست صورة تلك المعصية عن الصدر»(١١).

الهوامش

١- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، ط ٢ (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م)، ص ٥٣٨.
٢- المرجع السابق- ص ٢٨٦.
٣- محمد بن إسحاق بن يسار- السيرة النبوية لابن هشام، مؤسسة علوم القرآن- بيروت- ط٢ (د ت) ص: ٢٣٦، ٢٣٧.
٤- سيرة ابن هشام، المرجع السابق، ص ٢٣٨.
٥- سيرة ابن هشام، المرجع السابق، ص ٤٩٦.
٦- موقع: www.al sahaaba.net.
٧- الشيخ أحمد بمبا السنغالي، تحفة الأواه في تخميس «أستغفر الله»، مطبعة الشيخ عيسى جنغ، دكار (٢٠٠٩) ص، ص١٢،١٠،٩، ١٣ بتصرف.
٨- علي لبن، من مبادئ الإسلام، دار التوزيع والنشر الإسلامية- مدينة نصر- ط١ (٢٠٠٣)- ص ١٢٩.
٩- محمد بن علي بن حسن الترمذي، رياضة النفس، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢ (٢٠٠٥)، ص ٤٧، نقلا من حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني.
١٠- د. أحمد عيساوي، الكوارث البيئية: استقراء وتحليل، مجلة الوعي الإسلامي- الكويت، العدد (٥٣٨) جمادى الآخرة ١٤٣١هـ- مايو/ يونيو- ٢٠١٠- ص ٢١.
١١- رياضة النفس- مرجع سابق ص ٣٧.



حضارتنا المتألقة في العصور الوسطى

د. أشرف صالح محمد
عضو هيئة التدريس
جامعة ابن رشد - هولندا

قدمت الحضارة الإسلامية نموذجًا رائعًا للوحدة والتنوع في إثمارها الحضاري، حيث هضمت فنون الأمم السابقة، وأعادت تمثيلها بعد تشذيبها وتهذيبها، وتصحيح اعوجاجها، وإكمال نقصها، ومن ثم إخراجها في حلة قشيبة، وكل ذلك في ظل عقلية تؤمن بالتكامل المعرفي للبشرية ومبدا الأخذ والعطاء، عقلية تبغض التقليد وتمجد التجديد، عقلية ترفض الإلغاء والإقصاء، والعصبية المقيتة، والإقليمية الضيقة. وبينما كان العالم الإسلامي يموج حضارة وتمدناً خلال عصور الخلافة الراشدة والأموية والعباسية والعثمانية،

كانت أوروبا تعيش في أتون الجهل والهمجية والبربرية والرق والعبودية. وهذه حقيقة لا ننكرها بل نقرها، فعلماء المسلمين في كل مشاربهم إبّان عصور حضارتنا الإسلامية التي غبرت لم يخلِّفوا لنا سوى أمجادهم وكتبهم وتراثهم الذي نهلت منه كل الروافد المعرفية العالمية، لأنه كان ثبتا اتسم بالمصداقية البحثية مما جعلهم مشاعل التنوير ودعاة الاستنارة، ومجددين ومبدعين للعلم، فظلت حضارتهم تروي الإنسانية عبر القرون الوسطى حيث كانت الهمجية تسود أوروبا.

الحضارة هي الجهد الذي يقدم لخدمة الإنسان في كل نواحي حياته، أو هي التقدم في المدنية والثقافة معًا، فالثقافة هي التقدم في الأفكار النظرية، مثل القانون والسياسة والاجتماع والأخلاق وغيرها، وبالتالي يستطيع الإنسان أن يفكر تفكيرًا سليمًا، أما المدنية فهي التقدم والرقي في العلوم التي تقوم على التجربة والملاحظة مثل الطب والهندسة والزراعة، وغيرها. وقد سميت بالمدنية، لأنها ترتبط بالمدينة، وتحقق استقرار الناس فيها عن طريق امتلاك وسائل هذا الاستقرار، فالمدنية تهدف إلى سيطرة الإنسان على الكون من حوله، وإخضاع ظروف البيئة للإنسان، ولابد للإنسان من الثقافة والمدنية معًا، لكي يستقيم فكر الأفراد وسلوكياتهم، وتتحسن حياتهم، لذلك فإن الدولة التي تهتم بالتقدم المادي على حساب التقدم في مجال القيم والأخلاق، دولة مدنية، وليست متحضرة، ومن هنا فإن تقدم الدول الغربية في العصر الحديث يعد مدنية وليس حضارة، لأن الغرب اهتم بالتقدم المادي على حساب القيم والمبادئ والأخلاق، أما الإسلام الذي كرم الإنسان وأعلى من شأنه، فقد جاء بحضارة سامية، تسهم في تيسير حياة الإنسان.

سمات الحضارة الإسلامية

لقد وصف المسلمون في العصور الوسطى بأنهم بالفعل أصحاب أعظم حضارة، والسبب في هذا أن الحضارة الإسلامية كانت عالمية المنبع والمصب، فقد استفاد المسلمون من تراث الأمم السابقة في صورة التراث اليوناني والفارسي والهندي، وخاصة اليوناني، ولم يجدوا مشكلة تعوقهم في ترجمة هذا التراث نظرا لازدهار العالم الإسلامي من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية.

فقد تألقت الحضارة بسبب اقتصادي، حيث وضع المسلمون أيديهم على منافذ خطوط التجارة العالمية، وسيطروا على مناطق من البحر المتوسط حتى سور الصين العظيم، والشمال الأفريقي، وجنوب غرب أوربا في صورة شبه جزيرة أيبيريا، وكذلك جزر البحر المتوسط، حيث نمت تجارة المسافات البعيدة، حتى إنه لقد صدرت البضائع من خراسان بعيدا إلى مصر وشمالي أفريقيا، وبذلك سارت في أيديهم أموال سائلة ضخمة لتمويل مشاريع الترجمة والتشييد والبناء، ومن حسن حظ المسلمين أنهم سيطروا على مراكز التراث القديم في الهند وفارس ومصر فكانت حضارتهم متألقة.

يذكر أن الحضارة الإسلامية كانت ذات بعد إنساني واضح، كما اتسمت بطابع التسامح ولم تعرف التعصب، فقد أشار كلود كاهن Claude Cahen (١٩٠٩م – ١٩٩١م): إلى أن روح التسامح تلك لم تشهدها الحضارات العالمية قديما أو حديثا. ويكفي أن عظماء الأطباء كان منهم المسيحيون واليهود، ومثال ذلك:«حنين ابن إسحق» (١٩٤ – ٢٦٠هـ/ ٨١٠ – ٨٧٣م) الذي أجاد اليونانية والسريانية والعربية، وأيضًا «موسى ابن ميمون» (١١٣٥م – ١٢٠٤م) وهو طبيب يهودي بارع وواحد من سبعة أطباء كانوا مرافقين شخصيين للسلطان الأيوبي صلاح الدين (١١٣٨م – ١١٩٣م). وبذلك التقى الإسلام والمسيحية واليهودية في حضن حضارة واحدة عالمية قامت بمشروع حضاري في العصور الوسطى عجزت أوربا عن القيام به، وإنما قامت بمشروع متعصب في صورة الحروب الصليبية.

مدن تاريخية ومتحفية

كان ازدهار الحضارة الإسلامية من خلال ازدهار المدن كالكوفة، والبصرة، وبغداد، ودمشق، والقاهرة، والفسطاط، والعسكر، والقطائع، والقيروان، وفاس، ومراكش، والمهدية، والجزائر وغيرها، وقد انعكس هذا الازدهار على المناطق الريفية. كما خلفت الحضارة الإسلامية مدنًا متحفية تعبر عن العمارة الإسلامية كإستانبول بمساجدها، والقاهرة بعمائرها الإسلامية، وبخارى، وسمرقند، ودلهي، وحيدر أباد، وقندهار، وبلخ، وترمذ، وغزنة، وبوزجان، وطليطلة، وقرطبة، وإشبيلية، ومرسية، وسراييفو، وأصفهان، وتبريز، ونيقيا وغيرها من المدن الإسلامية. وكانت هذه المراكز في تناقض واضح بالمقارنة بالمدن البائسة للعصور المظلمة في أوربا، وخصوصًا بين القرنين الخامس إلى العاشر الميلاديين، حيث أصيبت حضارة الغرب بالانحطاط في مختلف المجالات، ولم يبق من معارف الإغريق والرومان التي ازدهرت في أوربا سوى القليل محصورًا بين الأديرة والكاتدرائيات وبلاطات الحكام، وتميزت العصور المظلمة بتفشي الجهل، والتزّمت الديني الشديد، وتعاظم دور الكنيسة في مختلف مجالات الحياة.

حركة الترجمة

لقد كانت الترجمة هي أولى مراحل الحركة العلمية الإسلامية، وبداية التأريخ للعلوم في الحضارة العربية. وقد بدأت الترجمة بداية منظمة منذ بداية الدولة الأموية؛ فقد عمل الأمير الأموي خالد بن يزيد ابن معاوية (ت ٨٥ هـ) على نقل بعض الكتب في الطب والكيمياء إلى العربية، وقد استمر في الحكم ثلاثة شهور، ثم تخلى عن الخلافة لينصرف إلى العلم، وقد درس بعض المستشرقين جهوده، وتوصلوا إلى أنه أسهم في تاريخ العلم.

وكانت الترجمة من أهم الأنشطة

العلمية طوال العصر العباسي، لاسيما في عهود أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون، وظهر في تلك الفترة مترجمون رواد حملوا على عاتقهم عبء نقل التراث الإنساني الموجود آنذاك إلى اللغة العربية التي كانت لغة العلم في ذلك العصر، مما حدا بالعلامة «البيروني» إلى القول: «إن الهجاء بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية».

ومن رواد الترجمة حنين بن إسحاق وأولاده، ويوحنا بن ماسويه، وقسطا بن لوقا البعلبكي، وحبيش بن الحسن الدمشقي، واصطفن بن بسيل. ويذكر هنا أن العباسيين لم يتعصبوا للإسلام على نحو يجعلهم يتجنبوا التعامل مع علماء الديانات الأخرى، والدليل على التسامح حينذاك أن حركة الترجمة قامت على أكتاف العناصر المسيحية التي حققت إنجازا غير مسبوق، وفي حالة تعصب العباسيين رفضت هذه العناصر المساهمة في بناء الحضارة العربية الإسلامية.

ولم يقتصر دور العرب على الترجمة والنقل الأمين وحفظ العلوم من الضياع فقط، بل وقفوا موقف الدارس والشارح والمؤلف، فشرحوا الغامض، وصححوا الأخطاء، وأدخلوا الكثير من التعديلات والإضافات والتعليقات على أعمال الأقدمين. ولذلك فإن الحضارة الإسلامية تسمى «حضارة الجسر أو المعبر»، لأنها حملت التراث الكلاسيكي اليوناني وتراث الهند وإيران إلى أوربا، فكان التراث الإسلامي العامل الرئيس لبدء عصر النهضة الأوربية، وهذا ما اتفق عليه الكثير من مؤرخي العلم، فانتقال التراث الإسلامي -وخاصة العلوم والمعارف- إلى غرب أوربا خلال العصور الوسطى كان العامل الرئيسي لبدء عصر النهضة في أوربا وانتقالها من عصر الظلمات إلى عصر البحث والكشف العلمي.

صناعة الورق الإسلامية

الورق المعروف حاليًا يعود تاريخه إلى القرن الثاني الميلادي، ففي عام ١٠٥ بعد الميلاد صنع الصيني تسي آي لون ورقا من لحاء الشجر وشباك الأسماك، ثم توصل الصينيون إلى صنع الورق من عجائن لباب الشجر، فحلت بذلك مكان الحرير غالي الثمن، والغاب ثقيل الوزن اللذين قنع بهما الصينيون زمنا طويلا. وبعد ذلك طور الصينيون هذه الصنعة باستخدام مادة ماسكة من الغراء أو الجيلاتين مخلوطة بعجينة نشوية ليقووا بها الألياف، ويجعلوا الورق سريع الامتصاص للحبر.

ولكن الورق الصيني كان محدود الانتشار، ولم يذع خبره في العالم القديم أو الوسيط حتى القرن الثامن الميلادي، حين عرف العرب أسرار صناعة الورق الصيني بعد فتح سمرقند عام ٩٣هـ/ ٧١٢م. وأسس أول مصنع للورق في بغداد عام ١٧٨هـ/ ٧٩٤م، وأسسه الفضل بن يحيى البرمكي في عصر هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩م)، ثم انتشرت صناعة الورق بسرعة فائقة في كل أنحاء العالم الإسلامي، فدخلت سوريا ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا، وكان الناس يكتبون حتى ذلك الوقت على الرق والعسب واللخاف، ثم أمر هارون الرشيد، بعد أن كثر الورق، ألا يكتب الناس إلا في الكاغد (الورق الكتاني).

ويعتبر هذا الأمر إنجازا كبيرا، لأن المسلمين في ظل حضارتهم المزدهرة في العصور الوسطى كانوا أكثر أمة استهلاكا للورق، حيث انتشرت في أسواقهم دكاكين الوراقين، وكان أفضل أنواع الورق الصحف الدمشقية.

المنهج التجريبي

لقد قام العلم الإسلامي على أساس من الملاحظة والتجربة، فالمسلمين أول من تحدث عن المنهج التجريبي في العلوم في العصور الوسطى في وقت كانت فيه أوروبا لا تدري من أمرها شيئًا، وهو منهج مخالف تمامًا لما كان عليه اليونانيون أو الهنود أو غيرهم، فهذه الحضارات كانت تكتفي في كثير من الأحيان بافتراض النظريات دون محاولة إثباتها عمليًا، فكانت في أغلبها فلسفات نظرية، لا تطبيق لها في الكثير من الأحايين، حتى وإن كانت صحيحة، وكان يؤدي هذا إلى الخلط الشديد بين النظريات الصحيحة والباطلة، إلى أن جاء المسلمون فابتكروا الأسلوب التجريبي في تناولهم للمعطيات العلمية والكونية من حولهم، وهو ما أدى إلى تأسيس قواعد المنهج العلمي التجريبي، الذي ما زال العلم المعاصر يسير على هديه.

ومن العلماء المسلمين الذين كان لهم باع طويل في هذا المجال جابر بن حيان (ت ٨٠٣م)، والخوارزمي (ت ٨٤٠م)، والرازي (٨٦٤ - ٩٣٠م)، والحسن بن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٤٠م)، وابن النفيس (١٢١٣ - ١٢٨٨م)، وغيرهم كثير، وهناك بعض العلماء وضعوا كتب في الرحلة، فحرصوا على أمر المعاينة والمشاهدة، ومثال ذلك الطبيب والرحالة العراقي عبد

اللطيف البغدادي في كتابه «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأمر مصر»، ومعنى هذا أن البغدادي اتخذ من المعاينة وسيلة لتجربة الرحلة، لذا من حق المسلمين أن يفخروا بأنهم أوجدوا المنهج التجريبي قبل فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ – ١٦٢٦م) وغيره من علماء الغرب.

في الواقع لقد كان للنهضة الفكرية الإسلامية أثر ملحوظ في تطور العلوم الإنسانية والتطبيقية للأمم المجاورة التي نقل إليها هذا التراث، في حين انحصر التراث العربي الإسلامي في موطنه بين القراءات النقدية التحليلية وانضواء معظم دارسيه تحت جاهزية المعطيات العلمية والفكرية، بالرغم مما يحتويه هذا التراث من زوايا علمية تفرد بها دون تراث الأمم الأخرى، لاسيما ما يملكه من تنوع وخصوبة منهجية ونقدية، وكان من بين هذه العلوم:

علم النفس

علم النفس من العلوم التي كان للمفكرين العرب دور في إبداعها وتدوينها بشكل مميز لا يخلو من الجدلية والمعاصرة الملائمة لروح العصور المختلفة، وقد أدرج ضمن الدراسات الفلسفية والحكمة والطب حيث لم يكتسب استقلاله العلمي التخصصي، بل ظهر كجزء مكمل للأبحاث الكلامية والطبية الموسعة التي قام بها الفلاسفة العرب.

كذلك بوّب العلماء المسلمون النفس ضمن مصنفاتهم الفلسفية الشاملة بعد أن ملئت شروحا وانتقادا على ما هي عليه في اليونانية، ثم أفرد بعضهم لها فصولا في المؤلفات الطبية كأبي بكر الرازي (٢٥١ هـ – ٣١٣ هـ)، وابن سينا (٣٧٠ هـ – ٤٢٨ هـ)، وعليه أصبح للنفس منحى نظريا في المؤلفات الفلسفية، في حين أخذت طابعا آخرا في المؤلفات الطبية التي لا تهمل الارتكازات النظرية التي دونها الفلاسفة، وأصبحت النفس مبحث علم الأخلاق، فأبو بكر الرازي الطبيب الفيلسوف كان يؤمن «بمعالجة النفوس كما تعالج الأجسام، لما لها من تأثير في صحة ومرض الأجسام، ويرى أن يكون طبيب الجسم في الوقت نفسه عالما بطب النفوس».

يعتبر كتاب «الطب الروحاني» لأبي بكر الرازي والذي يسمى بكتاب «طب النفوس» أهم المصادر التراثية لعلم النفس، حيث أفرده لدراسة النفس من منظور تخصصي، يتكون الكتاب من عشرين فصلا، ورغم صغر حجمه فقد دون فيه الكثير من المعلومات النفسية فعرف فيه ماهية النفس والانفعال، الكآبة، الجنس، الإدمان، العادة وحتى عقدة النقص.

ذكر إخوان الصفا موجزا شاملا في علم الأصوات

كما أدلى الفقيه الأندلسي ابن حزم بدلوه في هذا الشأن، حيث تناول في كتابه «طوق الحمامة في الألفة والألاف» عاطفة الحب الإنسانية بالبحث والدرس، على قاعدة تعتمد على شيء من التحليل النفسي من خلال الملاحظة والتجربة، فيعالج ابن حزم في أسلوب قصصي هذه العاطفة من منظور إنساني تحليلي. والكتاب يحتوي على مجموعة من أخبار وأشعار وقصص المحبين، وقد وصف بأنه أدق ما كتب العرب في دراسة الحب ومظاهره وأسبابه، وقيل أنه توصل لأفكار تفوق ما توصل إليه عالم النفس النمساوي سيجموند فرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩م).

علم الصوت

اهتم الفلاسفة العرب بالبحث في الصوت، وألموا بالمعلومات الأساسية فيه، ولهم تصانيف في الموسيقى ضمنوها مباحث في منشأ الأصوات، وكيفية انتقالها، واختلاف بعضها عن بعض، وتناولوا كذلك بالبحث موضوعات يتناولها الآن علم الأصوات الحديث.

فقد ذكر إخوان الصفا (القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي) في رسائلهم موجزًا شاملا في علم الأصوات وعلم الموسيقى، وضمنوا هذه الرسائل خلاصة للآراء التي سبقتهم منذ عهد فيثاغورث (ت ٥٠٣ ق.م)، عرّفوا الصوت بأنه: «قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجرام، وذلك لأن الهواء لشدة لطافته، وسرعة حركة أجزائه، يتخلل الأجسام كلها، فإذا صدم جسم جسمًا آخر، انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات، وحدث من حركته شكل كروي، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل».

وقد قسموا الأصوات إلى أنواع منها الجهير، والخفيف و الحاد والغليظ، وعزوا ذلك إلى طبيعة الأجسام التي تصدر عنها هذه الأصوات، وإلى قوة تموج الأصوات بسببها، وفي اهتزاز الأوتار الصوتية وقفوا على العلاقة الكائنة بين طول الوتر وغلظه، وقوة شده أو توتره، وهذه التقسيمات التي صنفوا إليها الأصوات، تتفق وتقسيم الأصوات في العلم الحديث من حيث الجهر والهمس والشدة والرخاوة.

كما عللوا الصدى بأنه يحدث نتيجة لانعكاس الهواء المتموج من مصادمة جسم عال كحائط أو جبل أو نحوهما. وقد شرح الجلدكي (عز الدين أيدمر علي/ ت. ٧٤٣هـ) هذه الظاهرة شرحًا كيفيا وليس قياسيا،

فيقول في كتاب «البرهان في أسرار الميزان»: «ليس المراد منه حركة انتقالية من ماء أو هواء واحد بعينه، بل هو أمر يحدث بصدم بعد صدم، وسكون بعد سكون... والصدى يحدث عن انعكاس الهواء المتموج من مصادمة جسم عال كجبل أو حائط، ويجوز ألا يقع الشعور بالانعكاس لقرب المسافة، فلا يحس بتفاوت زماني الصوت وعكسه...».

ولعل أفضل عمل وصل من الفلاسفة العرب في الأصوات، رسالة لابن سينا (٣٧١ - ٤٢٨هـ) بعنوان «أسباب حدوث الحروف»، وقد قسمها إلى ستة فصول:

الأول في سبب حدوث الصوت، والثاني في سبب حدوث الحروف، والثالث في تشريح الحنجرة واللسان، والرابع في الأسباب الجزئية لحرف من حروف العرب، والخامس في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب، والسادس في أن هذه الحروف من أي الحركات غير المنطقية قد تسمع.

والصوت عند ابن سينا ينتج عن تموج الهواء دفعة وبقوة وسرعة، وسبب التموج عنده ما يسميه بالقرع والقلع، أي ما نسميه الآن بالتضاغط والتخلخل.

وقد وضع أحد الباحثين دراسة حديثة سجل فيها ريادة العرب في مجال علم الصوت، حيث عقد دراسة مقارنة بين نظرية الفونيم التي جاء بها العالم اللغوي الإنكليزي دانيال جونز في القرن العشرين، وبين نظرية الأصول والفروع في الأصوات عند ابن جني. وبعد عرض أصول النظريتين توصل عبر التحليل العلمي الصوتي لهما ريادة ابن جني في اكتشاف أصول نظرية الفونيم وتفاصيلها الدقيقة قبل دانيال جونز بقرون عديدة، كما تكشف الدراسة سبق الخليل بن أحمد الفراهيدي في بحث فيزيائية الصوت قبل علماء أوروبا معتمدا على حسه الصوتي المرهف وقدرته السمعية في تحليل الصوت.

علم الحيوان

علم الحيوان هو الفرع الثاني من فروع علم الحياة أو التاريخ الطبيعي، وهو علم يبحث في أحوال وخواص أنواع الحيوانات وعجائبها ومنافعها ومضارها. وموضوعه هو: جنس الحيوان البري والبحري والماشي والزاحف والطائر، وغير ذلك. والغرض منه: التداوي والانتفاع بالحيوانات، واجتناب مضارها، والوقوف على عجائب أحوالها وغرائب أفعالها.

كان اهتمام العرب بالحيوان وعنايتهم به، أمرًا طبيعيًا جبلوا عليه، خاصة أن المستأنس منها كان يمثل جزءًا لا يتجزأ من حياتهم بدوًا وحضرًا. فكانت الخيل والإبل والكلاب والشاء وغيرها عماد الحياة الاقتصادية والاجتماعية والجمالية لديهم؛ لذا عندما بدأت نهضتهم إبّان العصر العباسي، أضافوا إلى الأدب الملفوظ المحفوظ أدبيات صنفوها في كل نوع من أنواع الحيوان أليفة

أسماء الجواهر وردت لأول مرة في أمالي الإمام جعفر

ووحشية، ووصفوها وصفًا دقيقًا، وبينوا صفاتها وأشكالها وطبائعها وأسماءها وأسماء أصواتها.

ومن أشهر الذين ألفوا عن الحيوان النضر بن شميل (ت ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م). ومن آثاره كتاب الصفات في اللغة الذي يتكون من خمسة أجزاء، خصص الجزء الثالث منه للإبل، كما تناول الغنم والطير، وخلق الفرس من بين ما تناول في الجزأين الرابع والخامس. وكذلك أبو زياد بن عبدالله الكلابي (ت نحو سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م) وله كتاب الإبل، وهشام الكلبي (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م) ومن تصانيفه أنساب الخيل، وأبو عبيدة التيمي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٣م) ومن مؤلفاته في الحيوان: كتاب الفرس، كتاب الإبل، كتاب الحيات، كتاب أسماء الخيل، كتاب البازي. والأصمعي (ت ٢١٤هـ/ ٨٢٩م) ومن مصنفاته: خلق الفرس، الخيل، الإبل، الشاء، كتاب الوحوش. وابن السكيت (ت ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م)، ومن تصانيفه: كتاب الوحوش، كتاب الحشرات، كتاب الإبل. والدينوري (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) وله كتاب الخيل.

ومن المسائل التي سبق إليها العرب أثر البيئة في الحيوانات، فيورد الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م) عددًا غير قليل من الإشارات العلمية التي توضح فهمه لهذا الأمر، وهو أول من أشار إلى أثر الهجرة والمحيط في التغيرات التي تطرأ على حياة الحيوان، فبعضها يغير لونه أو سلوكه.

على الرغم من أن إسهام العرب في حقل الحيوان لم يكن واضحًا مثل إسهامهم في بقية العلوم، إلا أن لهم آراء سبقوا بها أفكار بعض المحدثين؛ فعلى سبيل المثال تنسب نظرية التكافل أو المشاركة

الحيوانية للفيلسوف الألماني جوته (١٧٤٩ – ١٨٣٢م)، وقد أخذ ذلك من عبارته الشهيرة في فاوست «إن روحين يسكنان صدري». إلا أننا نجد إشارات واضحة لدى كل من الجاحظ والقزويني (٦٠٥ – ٦٨٢هـ)، والدميري (٧٤٢ – ٨٠٨هـ) لهذه النظرية التي مفادها أن بعض الحيوانات التي تعيش في بيئة مكانية واحدة، قد يربط بينها نوع من المصلحة المشتركة، لذا تنشأ بينها مودة كأن يحط طائر البقر فوق البقرة ليلتقط منها الهوام، أو كأن ينظف طائر التمساح أسنان التمساح مما علق بها من بقايا اللحوم.

الأحجار الكريمة

يقول علماء الجيولوجيا: إن الأحجار الكريمة نوع من المعادن والعناصر النادرة، تتكون أساسا من مادة «السيليكا»، ويوجد نحو ٤ آلاف نوع معروف من المعادن الشائعة والموجودة في القشرة الأرضية، غير أن وصف «الأحجار الكريمة» لا ينطبق إلا على عدد ضئيل جدا من هذه المعادن بسبب ندرتها في الغالب، وهو أمر تحدده ظروف الطبيعة في المقام الأول.

وقد عرف العرب المعادن والأحجار الكريمة، وكانت كلمة المعدن في أول الأمر تعني لديهم المنجم. وأول من استخدم الكلمة لتدل على المعنيين هو القزويني في عجائب المخلوقات، وتحدث العلماء المسلمون عن المعادن والأحجار، وعرفوا خواصها الطبيعية والكيميائية، وصنفوها ووصفوها وصفًا علميا دقيقًا، كما عرفوا أماكن وجود كل منها. واهتموا بالتمييز بين جيدها ورديئها، ولعل عطارد بن محمد الحاسب (ت ٢٠٦هـ، ٨٢١م) كان أول من ألف كتابًا في الأحجار باللغة العربية. وهذا الكتاب هو كتاب «منافع الأحجار»، وفيه ذكر أنواع الجواهر والأحجار الكريمة، ودرس خواص كل منها، وقد ذكر الرازي هذا المؤلف في كتابه الحاوي. وهناك من العلماء من يعزو كتاب «الأحجار» لأرسطو إلى أصل سوري أو فارسي، وكتبت النسخة بالعربية منه في أخريات القرن الثاني الهجري، وعلى الرغم من قلة المادة العلمية فيه، إلا أنها تعكس آراء المسلمين عن المعادن في ذلك الوقت.

لعل أقدم نص احتوى على أسماء الجواهر التي تعدن من الأرض، هو ما جاء في أمالي الإمام جعفر بن محمد المسماة التوحيد، نذكر منها الجص (أكسيد الكالسيوم)، والكلس (كربونات الكالسيوم)، والمرتك (أكسيد الرصاص)، والذهب، والفضة، والياقوت، والزمرد، والقار، والكبريت، والنفط. ثم جاء جابر بن حيان تلميذ جعفر الصادق ليضيف بعض الجواهر والمعادن مثل الأسرب (نوع من الرصاص)، والمرقيشيا والياقوت الأحمر. وأضاف إخوان الصفا (٣١) جوهرًا جديدًا منها: (الطاليقوني، والإسرنج، والزاجات، والشبوب، وبواسق الخبز والعقيق والجزع). ثم أضاف البيروني الزفت واليشم والخارصين. وبالجملة نجد أنهم عرفوا من المعادن حتى عصر البيروني نحوًا من (٨٨) جوهرًا مختلفًا مما يستخرج من الأرض.

وقد اهتم العرب والمسلمون باستغلال المعادن والأحجار الكريمة بالقدر نفسه الذي أولوه لدراستها، فتكلم المؤلفون عن المناجم والمحاجر التي يستخرج منها الذهب والزمرد وغيرهما. وقد كانت لصياغة الحلي والأحجار الكريمة في عهد العباسيين منزلة كبيرة، فكان الذهب، والفضة، والزمرد، وأنواع الياقوت، واللازورد، والآزوريت، واللؤلؤ يجلب من خراسان وإيران والبحرين ونيسابور وصنعاء ولبنان والهند وسيلان والسودان. ومن الأسماء التي اشتهرت بالخبرة في التعدين في أواخر الدولة الأموية والدولة العباسية: عون العبادي، وأيوب البصري، وبشر بن شاذان، وصباح جد يعقوب بن إسحاق الكندي، وأبو عبدالله بن الجصاص، وابن البهلول، وغيرهم كثيرون.

علم الأرصاد الجوية

علم الأرصاد الجوية يعنى بدراسة جو الأرض، والتغيرات الجوية، التي يتألف منها المناخ، ويقيس علماء الرصد الجوي الرياح، ودرجة الحرارة، ومدى الرؤية، والضغط الجوي، والأحوال الجوية الأخرى، وكذلك يقيسون المواد الكيميائية الموجودة في الجو والتي تؤثر على المناخ مثل الكربون، وثاني أكسيد الكربون، والأوزون. وغالبًا ما يتمكن هؤلاء العلماء من التنبؤ بالحالة الجوية، من خلال تحليل المعلومات المتوافرة عن الجو.

وقد حقق المسلمون في هذا المجال إسهامات كبيرة، فتكشف لنا كتب الرحالة والجغرافيين عن إدراك كامل لدورة الرياح، وأنواع الرياح سواء الجافة أو المطيرة، واتجاهات الرياح، سواء على مناطق اليابس أو البحار، وقد استفاد العرب من ذلك في حركة التجارة التي كانت تعتمد على السفن الشراعية، كما أدركوا أيضا تأثير القمر على حركة المد والجزر.

وهكذا ساهمت الحضارة الإسلامية في العديد من العلوم في عصر تألقها، إلا أن إسهاماتها لم تستمر على المستوى نفسه، فقد تعرضت للانتكاسات التي أتت من الهجمات الخارجية في صورة الغزو الصليبي والمغولي، فدمرت إنجازات الحضارة الإسلامية، وأصيبت في مقتل على حد قول المؤرخ الأمريكي ويل ديورانت، إلا أن الباحثين الغربيين المنصفين يؤكدون أن الحضارة الإسلامية مثلت الأساس الذي بنى عليه الغرب حضارته المعاصرة، حينما قام بنهضته الكبرى في العصور الوسطى في القرن الثاني عشر الميلادي.

الـشركات في الفقه الإسلامي

د.صالح سالم النهام
اختصاصي أول دراسات إسلامية

اعلم أن تشريع الشركات في ديننا الإسلامي جاء سدّا لحاجات الناس، وتنمية لأموالهم، وتحقيقًا لمبدأ التعاون البناء بين أفراد المجتمع.. ولا ريب أن هناك مِن الناس مَن لا يمكنه الخوض بنفسه في مجال الاتجار؛ وذلك لافتقاره لعنصر الخبرة، الأمر الذي يجعله يبحث عن شريك ذي خبرة وقدرة على العمل؛ لأنه بهذا التعاون المشترك يتحصل على المطلوب، ومن ثم تنعكس هذه الشراكة على تطوير الحركة الاقتصادية في المجتمع.



أولًا: تعريف الشركة لغةً واصطلاحًا

١- الشركة لغةً: هي الاختلاط، سواء كان بعقد أو بغير عقد، وسواء كان في الأموال أو في غيرها.

٢- الشركة اصطلاحًا: لقد عرفت الشركة بتعاريف عدة، إليك منها ما جاء عن الحنفية، حيث عرفوها بأنها عبارة عن: عقد بين المتشاركين في الأصل والربح.

ثانيًا: مشروعية الشركة

لقد ثبتت مشروعية الشركة من خلال أدلة عدة، جاءت في الكتاب والسنة والإجماع.

١- القرآن الكريم:

قال سبحانه في ميراث الإخوة من الأم: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ (النساء/١٢)، وقال- عز وجل- في قصة داود مع الخصمين: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (ص:٢٤)، والخلطاء هم الشركاء.

٢- السنة النبوية:

لقد وردت فيها أحاديث عدة منها: الحديث القدسي الذي رواه نبينا الكريم- عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- عن ربه- عز وجل- حين قال: «أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإن خان خرجت من بينهما» (أخرجه أبو داود والحاكم وصحح إسناده).

وقد رأى النبي ﷺ الناس يتعاملون بالشركة، فلم ينكر عليهم ذلك. ويدل على ذلك خبر السائب بن أبي السائب صيفي ابن عائذ المخزومي رضي الله عنه أنه كان شريك النبي ﷺ قبل المبعث في التجارة، فلما جاء إليه يوم الفتح قال: «مرحبًا بأخي وشريكي، لا يداري ولا يماري (أي لا يخالف ولا ينازع)» (أخرجه الإمام أحمد: ١٥٥٩٠).

الإجماع: لقد أجمع المسلمون على جواز الشركة في الجملة، ولكنهم اختلفوا في جواز أنواع منها.

الحنفية والشافعية أجازوا بيع الشريك في شركة الملك نصيبه لغير شريكه

ثالثًا: أقسام الشركة

القسم الأول: شركة الملك

وهي أن يختص اثنان فصاعدًا بشيء واحد، أو ما هو في حكمه، وهو المتعدد المختلط بحيث يتعذر تفريقه.. كالدار الواحدة، والأرض الواحدة تثبت فيهما شركة الملك، فإذا اشترى اثنان أرضًا أو دارًا كانت شركة بينهما، وأيضًا الوصية والهبة والصدقة على أكثر من واحد، فهم شركاء في الوصية والهبة والصدقة، والكيسان من الدنانير ذات الصكة الواحدة يخلطان معًا طواعيةً أو اضطرارًا، وكذلك الإردبّان من القمح يخلطان معًا طواعية أو اضطرارًا، وحكمها الجواز باتفاق الفقهاء.

أنواع شركة الملك

النوع الأول: اختيارية

وهي التي تكون بإرادة الشريكين أو الشركاء، سواء كانت بواسطة عقد أو بدونه، وسواء وقع العقد مشتركًا منذ بدايته أو طرأ الاشتراك في المال بعد العقد، ومثال ما كان بواسطة عقد مشترك منذ البداية: ما لو اشترى اثنان بضاعة يتجران فيها، وكالشراء قبول الهبة والوصية والعطية. ومثال ما كان بواسطة: عقد طرأ اشتراكه في المال بعده، كأن يقع الشراء أو قبول الهبة أو العطية من واحد، ثم يشرك معه آخر بعوض، أو بدون عوض، ومثال ما كان بدون عقد: كما لو خلط اثنان ماليهما، أو أحييا أرضًا مواتًا.

النوع الثاني: إجبارية

وهي التي تكون بدون إرادة الشريكين أو الشركاء، كما لو انفتقت الأكياس، واختلط ما فيها، مما يتعذر فصل بعضه عن بعض لتتميز أنصباؤهم؛ كبعض الحبوب، والنقود ذات السكة الواحدة، وكالمال الموروث بأكثر من واحد.

الأحكام المترتبة على شركة الملك

١- ليس لشريك الملك في نصيب شريكه شيء من التصرفات التعاقدية.. كالبيع، والإجارة، والإعارة.. وغيرها، إلا أن يكون ذلك بإذن شريكه، فإن فعل شيئًا من ذلك فلشريكه تضمينه حصته.

٢- لكل شريك في شركة الملك أن يبيع نصيبه لشريكه، أو يملِّكه لشريكه بأي وجه من أوجه التملك، كالوصية، والهبة، والعطية، والبيع.

٣- ذهب الحنفية والشافعية إلى أن للشريك في شركة الملك أن يبيع نصيبه لغير شريكه في غير

الضرر دون إذن شريكه، أما في حالة الضرر فلا يجوز، كأن يبيع الشريك الحصة الشائعة في البناء أو الميراث أو الثمر أو الزرع منفردًا عن الأرض، بأن شرط المشتري هدم البناء وقلع الغراس، فلا يتأتى دون هدم وقلع حصة الشريك الذي لم يبع لمكان الشيوع، وذلك ضرر لا يجوز.

٤- ذهب الفقهاء إلى أنه في حضور الشريك في شركة الملك لا ينتفع شريكه الآخر إلا بإذنه؛ لأنه بدون الإذن يكون غصبًا، وأما في حالة غيبة الشريك أو موته يكون لشريكه الحاضر أن ينتفع بالمشترك انتفاعًا لا يضرُّ به.

القسم الثاني: شركة العقد

وهي ثلاثة أنواع: (شركة أموال- شركة أعمال- شركة وجوه).

النوع الأول: شركة الأموال

ما روي عن أبي المنهال أن زيد ابن الأرقم، والبراء بن عازب كانا شريكين، فاشتريا فضة بنقد ونسيئة، فبلغ الأمر النبي ﷺ فأمرهما: «أن ما كان بنقد فأجيزوه، وما كان بنسيئة فردوه» (أخرجه أحمد والبخاري بمعناه).

المعنى العام للحديث

دل هذا الحديث على أن بيع الفضة بنسيئة لا يصح، وما كان بنقد وتقابض في المجلس فصحيح؛ لما جاء في البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «ما كان يدًا بيد فليس به بأس، وما كان نسيئة فلا يصح»، وهذا الحديث دليل على مشروعية الشركة في الأموال، وذلك بأن يكون رأس مالها نقودًا.

تعريف شركة الأموال

عرفها الفقهاء بأنها: عقد بين اثنين فأكثر، على أن يتجروا في رأس مال لهم، ويكون الربح بينهم بنسبة معلومة، كالنصف، أو الربع، سواء شرطوا أن يشتركوا جميعًا في كل شراء وبيع، أو شرطوا أن ينفرد كل واحد بصفقات، أو أطلقوا (أي: لم يشترطوا).

حكم شركة الأموال

اتفق الفقهاء على جواز الشركة بالدراهم والدنانير.

الأحكام المترتبة على شركة الأموال:

١- لابد أن يكون نقد كل واحد من الشركاء مثل نقد صاحبه، ثم يخلطوا ذلك؛ حتى لا يتميز، ثم يتصرفوا جميعًا، إلا أن يقيم كل واحد منهم الآخر مقام نفسه.

٢- اختلف الفقهاء فيما إذا كانت الدنانير من أحدهم، والدراهم من الآخر، فذهب الحنفية والحنابلة إلى جواز الشركة، على أن تكون الدراهم من أحدهم، والدنانير من الآخر.

٣- ذهب أكثر العلماء إلى أن شركة الأموال تصح وتجوز في غير النقدين من كل ما يتملك من عروض، ودنانير، ودراهم.. وغيره.

وشركة الأموال هذه تنقسم عند الحنفية إلى:

(أ) شركة المفاوضة، ويشترط فيها ما يأتي:

١- أن يتساوى الشركاء في رأس مال الشركة الشامل لكل ما للشريكين صالح للشركة.

٢- يجوز للشركاء كل تصرف تجاري (تفويض) في رأس مال الشركة.

٣- الربح بينهم يكون معلومًا.

٤- كفالة ما يلزم كلًّا من الشريكين من دَيْن الشركة.

(ب) شركة العنان: وهذه لا يشترط فيها كل الشروط السابقة، بل أطلق كل منهم العنان لشريكه.

النوع الثاني: شركة الأعمال (الصنائع – الأبدان)

عن أبي عبيدة عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنهما- أنه قال: «اشتركت أنا وعمار وسعد فيما نصيب يوم بدر، فجاء سعد بأسيرين ولم أجئ أنا وعمار بشيء» (أخرجه أبو داود: ٣٣٨٨، والنسائي: ٣٩٤٧).

المعنى العام للحديث

دل هذا الحديث على مشروعية شركة الأعمال؛ وذلك بأن يتعاقد اثنان فأكثر على أن ما يحصل عليه أحدهم من غنيمة أو أسير أو سلب فهو شركة بينهم، فجاء سعد بأسيرين ولم يجئ عبدالله بن مسعود وعمار بشيء، فأشركهما في ملكيتهما.

تعريف شركة الأعمال

عرفها الفقهاء: بأن يتعاقد اثنان فأكثر على أن يتقبلوا نوعًا معينًا من العمل، أو غير معين، وأن تكون الأجرة بينهم بنسبة معلومة، كالصباغة، والبناء، والنجارة، أو كل ما يتقبل، ولابد من التعاقد قبل التقبل، وتسمى شركة الأبدان، وشركة الصنائع، وشركة العنان، وشركة المفاوضة.

● حكم شركة الأعمال:

ذهب جمهور العلماء من الحنفية والمالكية والحنابلة إلى جوازها، وقد اشترط الإمام مالك اتحاد الصيغة، أما الشافعية فعندهم باطلة؛ لأن كل واحد منهم متميز ببدنه ومنافعه فيختص بالفوائد.

● الأحكام المترتبة على شركة الأعمال:

١- قابلية التصرف المتعاقد عليه للوكالة؛ ليتحقق مقصود الشركة وهو الاشتراك في الربح؛ لأن كل واحد من الشريكين وكيل عن صاحبه في نصف ما تصرف فيه، وأصيل في نصفه الآخر، والمتصرف عن الغير لا يتصرف إلا بولاية، أو وكالة، فلابد من أهلية كل شريك للتوكيل والتوكل.

٢ – أن يكون الربح معلومًا بالنسبة؛ كالنصف أو الربع، فإذا تم العقد على أن يكون للشريك حصة من الربح من غير بيان المقدار فالعقد فاسد؛ لأن الربح مقصود الشركة فتفسد بجهالته.

٣ – أن يكون محلها عملًا؛ لأن العمل هو رأس المال في هذه الشركة، فإذا لم يكن من أحد الشريكين عمل لم تصح الشركة، ولكن يكفي لتحقق هذا العمل أن يتعاقدا على التقبل، سواء أجعل التقبل لكليهما أو لأحدهما عمليًا، وإن كان لآخر نظريًا.. فإذا تقبل العمل أحد الشريكين بعد قيام الشركة وقام به وحده، كأن تقبَّل الثوب للخياطة وقطَّعه وخاطه، فالأجرة بينه وبين شريكه مناصفةً، إن كانت الشركة مفاوضةً، وعلى ما اتفقا إن كانت عنانًا.

٤- أن يكون العمل المشترك فيه يمكن استحقاقه بعقد الأجرة، كالصباغة، والحدادة، والنجارة، أما ما لا يستحق بعقد الإجارة فلا تصح فيه الشركة، كالنياحة على الميت، والأغاني الخليعة.

النوع الثالث: شركة الوجوه (شركة المفاليس – شركة الذمم)

● عرفها الفقهاء القائلون بجوازها أن يشترك اثنان أو أكثر ممن ليس لهم رأس مال، على أن يشتروا بالنسيئة أو بأجل، ثم يبيعوا ما يشترونه، على أن يكون الربح بينهم بنسبة ضمانهم للثمن، ويقال لها: «شركة الوجوه أو المفاليس»؛ وذلك لعدم رأس المال، أو «شركة الذمم»؛ وذلك لعدم دفع ما يشترون به، بل يبقى الثمن في ذمتهم إلى حين البيع.

الحنابلة والحنفية رأوا جواز شركة الوجوه في سائر الأمصار

حكم شركة الوجوه

أ – يرى الحنفية والحنابلة جوازها بسبب:

١- إجماع الناس على التعامل بشركة الوجوه في سائر الأمصار من غير إنكار عليهم، وقد قال الرسول ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة» (جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر: ١/٧٥٩)، (والكنى والأسماء للدولابي: ٢/٥١٥).

٢- شركة الوجوه تشتمل على الوكالة والكفالة، فكل شريك وكيل وكفيل عن غيره من الشركاء، وكل من الوكالة والكفالة جائزة، والقاعدة تقول: إن المشتمل على الجائز جائز.

٣- شركة الوجوه تنطوي على عمل من الأعمال من جانب الشركاء، وهذا جائز أن تتفق عليه الشركة.

(ب) ويرى المالكية والشافعية بطلانها للآتي:

١- أنها من باب: تَحمَّل عني، وأتحمَّل عنك، وهذا ضمان بجعل، وهو غير جائز.

٢- باطلة عند المالكية لأن فيها شبهة السلف الذي يأتي بمنفعة والكفالة المأجورة.

٣- باطلة عند الشافعية لأجل عدم وجود المال الذي يقدمه الشركاء، والذي يتحقق به الملك المشترك والخلط.

الأحكام المترتبة على شركة الوجوه

١- لابد أن يكون الربح بين الشريكين بنسبة ضمانهما للثمن.

٢- إذا شرط لأحد الشريكين في الربح أكثر أو أقل ما عليه الضمان، فهو شرط باطل، وهو مذهب كل من الحنفية والحنابلة.

٣- إن الربح في شركة الوجوه على حسب ما اتفقا عليه؛ لأن الشريكين في شركة الوجوه يتجران، والتجارة عمل يتفاوت كيفًا، كما يتفاوت كمّا.

قصة وقصيدة (١)

د. عبدالرحمن راشد الحقان
باحث كويتي

حضـرت في صغري موعظة لوالدي الشيخ راشـد أحمد الحقان -حفظه الله-، وشـدني إذ ذاك مثل نبوي سـاقه مع قصيدة قيلت معه لأحد الصحابة رضوان الله عليهم، والشعر له وقع في النفس بما تضمنه من جرس، ثم قرأت ذات القصيدة في كتاب من كتب الحديث المشهورة، وهو كتاب الأمثال للإمام الرَّامَهُرْمُزِيِّ صاحب كتاب المحدث الفاصل، ثم مرت بي القصيدة تلو الأخرى، والجامع بينهن اقتران القصيدة بقصة مؤثرة لا تخلو من عبرة أو موعظة.

فأحببت أن يشاركني إخوتي من قراء مجلة «الوعي الإسلامي» -مفخرة الكويت مع أختها مجلة العربي- متعة قراءة هذه القصص وقصائدها، فعرضت على أخي الشيخ فيصل العلي، وفقه الله، فكرة سلسلة يخصص كل مقال منها لذكر قصة وقصيدتها، واخترت لهذه السلسلة عنوان «قصة وقصيدة»، فرحب مشكورا وشجعني، ثم واصل متابعته لي حاضا إياي على المشاركة وإنهاء المقال، فجزاه الله خيرا.

وقد خصصت باكورة المقالات للقصيدة التي ذكرها الإمام الـرَّامَـهُـرْمُـزِيُّ، والقصد من ذكر القصة وقصيدتها أخذ العظة والعبرة، بالإضافة إلى متعة القراءة، لذلك لن أطيل في التعليق على القصيدة، ولـن أضبط إلا المشكل منها، وسأكتفي بتخريجها من بعض الكتب التي ذكرت فيها، كما ذكرت خشية الإطالة ودفعا لتزيد لا طائل منه، وهذا أوان الشروع فيما صنع المقال له:

أخرج الإمـام الـرَّامَـهُـرْمُـزِيُّ -رحمه الله- في كتابه أمثال الحديث(١)، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «قال رسول الله ﷺ يوما لأصحابه: أتدرون ما مثل أحدكم ومثل أهله وماله وعمله؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «إنما مثل أحدكم ومثل ماله وأهله وولـده وعمله كمثل رجل له ثلاثة إخوة، فلما حضرته الوفاة دعا بعض إخوته فقال: إنه قد نزل بي من الأمر ما ترى، فما لي عندك وما لي لديك؟ فقال: لك عندي أن أمرضك ولا أزايلك(٢) وأن أقوم شأنك، فإذا مت غسلتك وكفنتك وحملتك مع الحاملين، أحملك طورا(٣) وأميط(٤) عنك طورا، فإذا رجعت أثنيت عليك بخير عند من يسألني عنك، هذا أخوه الذي هو أهله، فما ترونه؟ قالوا: لا نسمع طائلا(٥) يا رسول الله!

ثم يقول للأخ الآخر: أترى ما قد نزل بي فما لي لديك وما لي عندك؟ فيقول: ليس لك عندي غناء(٦) إلا وأنت في الأحياء، فإذا مت ذهب بك في مذهب(٧) وذهب بي في مذهب، هـذا أخوه الـذي هو ماله، كيف ترونه؟ قالوا: لا نسمع طائلا يا رسول الله!

ثم يقول لأخيه الآخر: أترى ما قد نزل بي، وما رد علي أهلي ومـالـي، فما لي عندك ومـا لـي لـديك؟ فيقول: أنا



صاحبك في لحدك وأنيسك في وحشتك، وأقعد يوم الوزن في ميزانك فأثقل ميزانك، هذا أخوه الذي هو عمله، كيف ترونه؟ قالوا: خير أخٍ، وخير صاحب يا رسول الله! قال: فإن الأمر هكذا».

قالت عائشة: فقام إليه عبدالله بن كرز(٨) فقال: يا رسول الله! أتأذن لي أن أقول على هذا أبياتا؟ فقال: نعم، فذهب فما بات إلا ليلة حتى عاد إلى رسول الله ﷺ فوقف بين يديه واجتمع الناس وأنشأ يقول: (من الطويل)

وإني وأهلي والذي قدمت يدي
كداع إليه صحبه ثم قائل
لإخوته إذ هم ثلاثة إخوة
أعينوا على أمر بي اليوم نازل
فراقٌ طويل غير متق به
فماذا لديكم في الذي هو غائل
فقال امرؤ منهم أنا الصاحب الذي
أطيعك فيما شئت قبل التزايل
فأما إذا جد الفراق فإنني
لما بيننا من خلة غير واصل
فخذ ما أردت الآن مني فإنني
سيُسلك بي في مهيل من مهائل
فإن تبقني لا تبق فاستنفدنني
وعجل صلاحا قبل حتف معاجل
وقال امرؤ قد كنت جدا أحبه
وأوثره من بينهم في التفاضل
غنائي أني جاهدٌ لك ناصحٌ
إذا جد جد الكرب غير مقاتل
ولكنني باك عليك ومعولٌ
ومثن بخير عند من هو سائل
ومتبع الماشين أمشي مشيعا
أعين برفق عقبة كل حامل
إلى بيت مثواك الذي أنت مُدْخلٌ
وأرجع مقرونا بما هو شاغلي
كأن لم يكن بيني وبينك خلةٌ
ولا حسن ود مرة في التبادل
فذلك أهل المرء ذاك غناؤهم
وليس -وإن كانوا حراصا- بطائل
وقال امرؤ منهم أنا الأخ لا ترى
أخا لك مثلي عند كرب الزلازل
لدى القبر تلقاني هنالك قاعدا
أجادل عنك القول رجع التجادل
وأقعد يوم الوزن في الكفة التي
تكون عليها جاهدا في التثاقل
فلا تنسني واعلم مكاني فإنني
عليك شفيقٌ ناصحٌ غير خاذل
فذلك ما قدمت من كل صالح
تلاقيه إن أحسنت يوم التواصل

فبكى رسول الله ﷺ وبكى المسلمون من قوله(٩)، وكان عبدالله بن كرز لا يمر بطائفة من المسلمين إلا دعوه واستنشدوه، فإذا أنشدهم بكوا(١٠).

وللمثل أصل في الصحيحين، فعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد: يرجع أهله وماله، ويبقى عمله» (متفق عليه).

ورحم الله القائل: إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر في ماذا يقيمك، أي: إذا أردت أن تعرف مكانتك عند ربك فانظر فيما أنت مشغول فيه، فإن كنت مشغولا فيما يحب من طاعته فاحمده على ذلك، وإلا فانتبه لنفسك.

الهوامش:

(١) الرَّامَهُرْمُزِيُّ، أبومحمد، الحسن بن عبدالرحمن، كتاب أمثال الحديث، حققه وعلق عليه أمة الكريم القرشية، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول، تركيا.
(٢) أفارقك (القاموس: ز ي ل) ومنه قوله سبحانه ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: ٢٨).
(٣) تارة (القاموس: ط و ر).
(٤) أزيل (القاموس: م ي ط).
(٥) غنىً (القاموس: ط و ل).
(٦) بالفتح النفع، وبالكسر من السماع (اللسان: ذ هـ ب).
(٧) مصدر ميمي دال على المكان، ولعل المراد سِيرَ بي في جهة وسير بك في أخرى.
(٨) الليثي كما في الإصابة، وذكر القصة والأبيات ومن خرجها، ولم يذكر سنة وفاته.
(٩) قال ابن حجر: فما بقي عند النبي ﷺ ذو عين تطرف إلا دمعت عيناه.
(١٠) قال الرَّامَهُرْمُزِيُّ: فيه عبدالله بن عبدالعزيز الليثي عن محمد بن عبدالعزيز الزهري: ضعيفان.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (15)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

لا خفاء أن حذاق اللغة وجلتهم المشبلون عندما يحرصون على صيانة اللغة عما يقترف فيها من شائنات؛ إنما يسعون إلى إرجاع الأمر إلى نصابه ومستقره، لأن الذي يسمح لنفسه أن تنام عيناه ملء جفنيهما على فشو وباء اللحن، يكون كمن يبصر نارًا تشب في غابة، ثم ينكص على عقبيه من دون أن يفعل أي شيء لإخمادها، أو أن يدل الناس عليها، فينتهي به الحال إلى عض إبهامه حسرة على تفريطه، ولات حين ندم. لأجل ذلك فإن أحسن جابة عن هذه الخلية السرطانية التي تنمو وتتسع في العربية لأجل النمو العبثي، تتمثل في قرع ظنبوب الاجتهاد لإبادة نوابت الفساد، ولاسيما أن سيرة نبينا محمد ﷺ قد علمتنا أنه لم يسكت قط عن خطأ، قائلًا عندما لحن أحدهم في حضرته: «أرشدوا أخاكم فقد ضل»، كما قال ﷺ: «رحم الله امرأ أصلح من لسانه» فتابعه خليله أبوبكر الصديق رضي الله عنه عندما أعلن: «لأن أقرأ فأسقط، أحب إلي من أن أقرأ فألحن». هذا هو ديدن الرسول ﷺ والخلفاء والبصراء بأفانين العربية من بعده، لا تظهر نبتة شر إلا استأصلوها، ولا يسمع لحن إلا بادروا لتصحيحه خوفًا من أن يندس إلى لغة القرآن العظيم ما لا ترضاه، وما لا يتوافق مع حكمتها وبراعتها وخلابتها التي جعلت الخزامى في أنف كل مفوه قوال؛ ولأنهم أدركوا بحصافة



ألبابهم أن تصور مفهوم الأمة من دون لغة موحدة وموحدة ضرب من الوهم، لأن الأمة التي لا تعيش بلغة واحدة، تكبر أمرها وتعلي شأنها، وتصنع بها أشياءها وتربي عليها ناشئتها وتصرف عنها مكائد غيرها؛ أمة ضائعة حائرة لا يوزن لها رأي، ولا يحسب لها حساب، ولا يجمعها أي شيء سوى جمع تبديد وتنافر يشعل الفتن ويذكي الصراعات؛ ولا ريب فالناس - عند التحقيق - لا يقتتلون إلا عندما يسيئون استعمال ما تقوله ألفاظ لغتهم بغيًا بينهم.

لذا ليس من الأسلم لنا ولا للغتنا العربية التي أعلن الرسول ﷺ حبه لها لأنه عربي، ولأن القرآن العظيم عربي، ولأن كلام أهل الجنة عربي؛ ليس من الأسلم أن نترك هذا التلوث اللغوي الذي بلغ مبلغه في التكاثر والخبل من دون البحث عن ترياق مضاد ينجينا وينجي لغتنا من هذا السم الزعاف الذي تقذف به وسائل اتصالنا وتواصلنا عوجًا غير مسدد طعنًا في الفصحى، التي تعد بلا امتراء عسل العروبة الذي لابد أن تتلمظه الأفواه لتذوق حلاوة طعمه، فتدرك مبلغ طاقته في إبادة الأسقام التي تحول بيننا وبين لغتنا الجميلة؛ اقتداءً بمنهج أسلافنا الذين كانوا يوقنون أن العربية الفصحى المعافاة هي جوهر المشروع الوجودي للأمة العربية، وهي الخميرة التي تضمن نضج عقول أبنائها، فتجعلها مدركة لحاجاتها، ومتممة لما لم تمتد إليه جهود الآخرين، فترتاد الآفاق ويتوسع التفكير وتستثار العقول وتتجدد مطارف اللغة؛ بما يضيفه إليها علماؤها ومفنوها ونطاسيوها من كلمات واصطلاحات لم يلهجها السابقون في زمانهم، فتكون تلك الإضافات وقودًا لضمان الاشتعال في صناعة المعرفة العربية المفيدة كما صنعها أسلافنا الذين بلغوا في العلم بالعربية قرن الكلإ.

هذا هو دأب أجدادنا. فما بال عقولنا لا تبتغي أن تتحرر من الاتباع الأصم للكلام المرذول المخسول الخارج عن أنظمة الصحة والسلامة، وما بال ألسنتنا تشرح صدرًا بالصدود عن الفصحى، وتتنكب السبيل الجدد المهيع؟! أسئلة عديدة تدعونا إلى مساءلة أسباب بعدنا وازورارنا عن القواعد والنواميس التي ضمنت للعربية سلامتها، كما تدعونا إلى البحث عن دوافع ضآلة المنجز التصحيحي بالنسبة إلى ما ينشر في صحفنا ومجلاتنا وكتبنا، وما تتفوه به ألسنتنا غير الفصاح، وما ينشر من كلام رقمي مخسول على الشابكة، ناهيك عن النظر إلى التصحيح اللغوي بنظرات الضرائر، وبعقليات الضيق وهز الأكتاف سخرية واستهزاءً، علمًا أن من صحح لفظة أو مفهومًا فكأنه صحح النظرة إلى الحياة والوجود، ولاسيما إذا كان الأمر يخص قضية «التذكير والتأنيث» في العربية؛ لأن الذي يذكر مؤنثًا ويؤنث مذكرًا يقلب الحقائق ويغمض الفكر ويفسد المعاملات، ولذلك جعل علماء العربية معرفة المذكر والمؤنث من تمام معرفة النحو والإعراب. قال ابن الأنباري: «إن من تمام معرفة النحو والإعراب، معرفة المذكر والمؤنث، لأن من ذكر مؤنثًا أو أنث مذكرًا كان العيب لازمًا له كلزومه من نصب مرفوعًا، أو خفض منصوبًا، أو نصب مخفوضًا»(١) لذا فإن المرء يعجب ويعمد من مثل هذه العبارات التي تظهر عدم إلف قائليها بلغة القرآن المعجز، والشعر العربي البليغ على هذه الشاكلة: هنيئًا لدولة البرازيل التي فازت بكأس العالم للشبان. لا ريب أن هذه العبارة من السوءة الصلعاء التي يجب أن نرميها في سفط السقط، لأنها تنكبت سبيل الفصحى من عدة أوجه؛ فهي قد ذكرت لفظة الكأس، وهي مؤنثة كما نطق بذلك القرآن الكريم والشعر العربي البليغ على هذه الشاكلة: قال تعالى من سورة الإنسان آية ١٧:

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾

وقال الشاعر عبيد بن الأبرص:

حتى سقيناهم بكأس مرة

فيها المثمل ناقعًا فليشربوا

ناهيك أن الكأس لا تطلق على الزجاجة إلا إذا كانت مملوءة، أما إذا كانت فارغة فهي إما زجاجة أو كوب أو قدح. وكذلك لفظة «المائدة» لا تسمى مائدة إلا إذا كان عليها طعام، وإلا فهي خوان وخُوان أو طاولة، وكذلك «العهن» لا يسمى عهنًا إلا إذا كان مصبوغًا وإلا فهو صوف، و«الثرى» لا يقال له ذلك إلا إذا كان نديًا وإلا فهو تراب، ولا يقال للإسراع في السير «إهطاع» إلا إذا كان معه خوف، ولا «إهراع» إلا إذا كان معه رعدة(٢). لكن المعاصرين لا يعبأون بهذه الفروق اللغوية الدقيقة التي أوردها القرآن الكريم، والتي أشبعها القدامى بحثًا وتمحيصًا، فأكثرنا من التجوزات التي لا توجبها ضرورة، حتى اعتاص علينا التعبير الدقيق عن المراد بوضوح تام. وما ذلك إلا من تداني هممنا عن تدبر وتثوير القرآن الكريم، وعدم إلفنا بلغة الشعر العربي البليغ، حتى كاد أن يضرب بيننا وبين هذين المصدرين بسور لا قبل لنا بتوقله.

وبعد. هذا رأس الكلام الذي بدت عليه مخايل البراعة. أرجو ألا يكون عملي دون ما يطمح إليه أملي في التصحيح بعقلية استبصارية غير محصورة في القوالب اللغوية الجامدة، التي لا تمزج الإنارة بالإثارة.

الهوامش

١ - المذكر والمؤنث. أبوبكر محمد بن القاسم الأنباري. تحقيق طارق عبدعون الجنابي. ص ٨٧. بغداد ١٩٧٨م.

٢ - الصاحبي. أبوالحسن أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق السيد أحمد صقر. (ينظر باب الأسماء التي لا تكون إلا باجتماع صفات وأقلها ثنتان. ص ١١٨و١١٩). دار إحياء الكتب العربية. كما ينظر كتاب: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. للعلامة عبدالرحمن جلال الدين السيوطي. شرح وتعليق محمد جاد المولى بك ومحمد أبوالفضل إبراهيم وعلي البجاوي. النوع الثلاثون «معرفة المطلق والمقيد» الجزء الأول. ص ٤٤٩ وما بعدها. ط ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.



الندم.. بين الشريعة والأدب

مصطفى قاسم عباس
باحث دراسات لغوية

كل واحد منا قد يندم على فعل أمر ما، أو على فوات أمر ما، فتراه يكثر من قوله: ليتني فعلت كذا، ولو فعلت كذا لما حصل معي كذا.

فنقول له: هون على نفسك، وقل: قدر الله وما شاء فعل، وتذكر دائما أنه: ما كل ما يتمنى المرء يدركه.. وكم من أمر ندم الإنسان على فواته فكان فواته خيرا له!، وكم من متمن كانت منيته في أمنيته، فما عليك إلا أن تكرر هذه الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (البقرة: ٢١٦). ثم إن ارتشاف الندم، وتجرع الحسرات، ولهيب الآهات، وجمر الزفرات، لا يفيد في أي شيء، وهي أشياء لا تزيد صاحبها إلا أسى ولوعة، وأشجانا وانتحابا، لأنها لن تغير من قضاء الله وقدره أي شيء، فكل مصيبة مقدرة في كتاب عند الله قبل وجودها، سواء أكانت المصيبة في النفس أم في الأرض، وسواء أرضي الإنسان بها أم سخط، لذلك قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ (الحديد: ٢٢)، وعلى الإنسان العاقل أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما قال كعب بن أبي لابن الديلمي: «ولو أنفقت جبل أحد ذهبًا في سبيل الله عز وجل، ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»(رواه أحمد في المسند).

ومن أجمل الوصايا التي يجب على المرء أن يأخذ بها، ويعلمها لمن يحب، تلك الوصية الخالدة التي أوصى بها النبي ﷺ ابن عباس، يقول الراوي ابن عباس: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»(رواه الترمذي: وقال: حسن صحيح).

فالإنسان المؤمن يقينا بالقدر لا يقلب كفيه على ما فاته من الأمور، ولا يتبع الأمر الفائت بـ «ليت، وهلا» ويتمثل قول القاضي الجرجاني:

وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبت
أقلب كفي إثره متندما
ولكنه إن جاء عفوا قبلته
وإن مال لم أتبعه هلا وليتما(١)

ثم إن العجلة، واتباع الهوى، وتسويل النفس، ووساوس الشيطان هي المطايا التي توصل من امتطى متنها إلى بيداء الندامة، فقابيل ما ارتكب جريمة القتل إلا بعد أن سولت له نفسه، ثم أصبح فيما بعد من النادمين، ولكن بعد ماذا؟! بعد ما ارتكب جريمة القتل العمد، وليته ندم على ارتكابه جريمة القتل، بل ندم لأنه لم يعرف ماذا يفعل بسوءة أخيه، وكيف يواريها بعد أن تعب من حمل أخيه ميتا كما في بعض التفاسير، وانظر كيف صور الله

سبحانه وتعالى لنا هذا المشهد: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾ (المائدة: ٣٠ – ٣١) وكذلك فعل القتال الكلابي عبيد بن مجيب بن المضرحي، ندم، ولكن بعد أن قتل، واحمرت يده من الدماء، وماذا ستنفع الندامة؟ قال:

فلما رأيت أنه غير منته
أملت له كفي بلدن مقوم
فلما رأيت أنني قد قتلته
ندمت عليه، أي ساعة مندم(٢)

هذا في عيون الشريعة الغراء، لكن الأمر قد يختلف بعض الشيء في عيون الشعراء وأهل الأدب والأمثال، فهم فقط يهتمون بجانب النحيب والحسرات، وإظهار التندم على ما فات، وقليلا ما يذكر أحدهم أن ما تم من أمور هو بقضاء من الله وقدر، وذلك كما فعل الإمام الشافعي في مطلع قصيدته المشهورة، حيث يقول:

دع الأيام تفعل ما تشاء
وطب نفسًا إذا حكم القضاء

وهذا طبعًا لأن الإمام الشافعي هو إمام في الشريعة، بل وصاحب مذهب، وهو كذلك يعتبر أن الشعر يزري بالعلماء، ولولا ذلك لكان أشعر من لبيد كما قال!.

وفي كتب الأدب نرى أن هناك شخصا كلما ذُكر الندم يذكر معه، وهو ممن اشتهر بندمه حتى ضرب به المثل، وهذا الشخص اسمه: «الكسعي»، حتى قيل في المثل: أندم من الكسعي. وقيل أيضا: ندم ندامة الكسعي، فمن هو هذا الرجل؟ وما قصته؟

إنه محارب بن قيس، ومن حديثه كما ذكروا:

أنه كان يرعى إبلا له، فبصر بنبعة (شجرة) في صخرة، فأعجبته؛ وقال:

ينبغي أن تكون هذه قوسا، فجعل يتعهدها ويرقبها، حتى إذا أدركت، قطعها وجففها؛ فلما جفت اتخذ منها قوسا وأسهما... ثم خرج حتى أتى غرة على موارد حمير وحش، فكمن ليلا فيها، فمر قطيع منها، فرماه، فمرق منه السهم، فظن أنه أخطأ، ثم لم يزل يفعل ذلك حتى أفنى الأسهم الخمسة في أعيار خمسة، وقد أصابها كلها، ومرق منها سهمه، فأصاب الصخرة فأجج نارا، وهو يظن أنه أخطأها..

ثم عمد إلى القوس، فضرب بها حجرا، وكسرها ونام.

فلما أصبح نظر إلى الأعيار مصرعةً حوله، ونظر إلى أسهمه مضرجةً بالدم؛ فندم على كسر القوس، فشد على إبهامه، فقطعها، وأنشأ يقول:

ندمت ندامةً لو أن نفسي
تطاوعني، إذن لقطعت خمسي
تبين لي سفاه الرأي مني
لعمر أبيك حين كسرت قوسي

وسارت ندامته مثلا في كل نادم على ما جنته يداه (٣).

لذلك قال الشاعر مخاطبا أحد النادمين:

ندمت ندامة الكسعي لما
رأت عيناك ما صنعت يداكا (٤)

وكذلك عندما طلق الفرزدق زوجته النوار قال أيضا:

ندمت ندامة الكسعي لما
مضت مني مطلقةً نوار
وكانت جنة فخرجت منها
كآدم حين أخرجه الضرار
وكنت كفاقئ عينيه عمدا
فأصبح ما يضيء له النهار
ولو ضنت يداي بها ونفسي
لكان علي للقدر الخيار
وما فارقتها شبعا، ولكن
رأيت الدهر يأخذ ما يعار(٥).

ولكن، وحتى نعالج هذا الأمر بإنصاف فإننا نقول: على الإنسان أن يندم أحيانا، وأحيانا عليه أن لا يشعر بالندم، فكيف ذلك؟

يأتي الجواب كالتالي:

إذا كان الأمر فوق طاقة الإنسان، ومن الأمور الغيبية المقدرة عليه، فلا ندامة ولا حسرات، لأن ذلك لن يغير من القدر شيئا، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وذلك كالموت والأمراض، وما يعتري الإنسان من آفات جراء الزلازل والبراكين، وباختصار: كل ما لا طاقة للإنسان فيه.

وأما إذا كان الأمر الذي لا يريده المرء قد حصل بسبب تقصير منه، وعدم أخذه بالأسباب، ولولا تقصيره لما حصل له ما يكره، كطالب رسب في الامتحان لأنه لم يدرس جيدا فلا مانع من الندم في هذه الحالة وأمثالها، لأن الندم في مثل هذه الحالات يشحذ الهمم، ويمضي بأصحابها في دروب التقدم والطموح.

وكذلك العبد الذي عصى ربه يوما ما، فإن الندم في مثل هذه الحالة واجب عليه شرعا، وعليه أن يسرع في الندم قبل أن يغرغر، لأن عليه أن يتوب، وقد قال النبي ﷺ: «الندم توبة»(رواه أحمد في المسند، وانظره في المعجم الصغير للطبراني: ١/٨٣).

وختاما نقول: اللهم لا تكلفنا ما لا طاقة لنا به، والطف بنا في ما جرت به المقادير، ولا تجعلنا من النادمين، يوم لا ينفع ندم، ولا مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

الهوامش

١- التذكرة السعدية، العبيدي، ١/٣٧.
٢- الحماسة البصرية، أبوالحسن البصري ١/١٥.
٣- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي ١/٤١. وانظر الكتاب: كتاب جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري الطبعة الثانية، ١٩٨٨ تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش ٢/٣٢٥- ٣٢٦.
(٤) حياة الحيوان الكبرى، الدميري ٢/١٣٢.
(٥) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي ١/٤٢.



الأدب حياة

التحرير

أقام منتدى الأدب الإسلامي بالمركز العالمي للوسطية مجلسه الأدبي الشهري تحت عنوان «الأدب حياة» للدكتور محمد مصطفى الكنز في محاولة لتعزيز فرص التواصل مع جمهوره العريض، والارتقاء برسالة الأدب الإسلامي الهادف مجتمعيًا، وتسليط الضوء على دوره المتميز في نشر القيم العليا.

استهل د. الكنز محاضرته بالتأكيد على دور الكلمة الطيبة والأدب الرفيع كعنوان لشخصية كاتبها وتعبيرًا مثاليًا عن وجدانه وذاته، مبينًا كيف أن الله تعالى اختص الإنسان بميزة البيان وفصل الكلام كونه خليفة الله في أرضه، وبسط له من الأدوات والوسائل، وعلى رأسها البيان، ليقوم بواجبات الاستخلاف.

وخلص «الكنز» إلى أن الأدب هو الوعاء الذي يعبر عما يجيش في نفوسنا من الصراعات الداخلية والخارجية من مشاعر وأمزجة وطباع.

وأوضح العلاقة الوثيقة ما بين الأدب والدين، فكما أن الدين ضرورة ماسة في حياة الإنسان فالأدب نوع من الأساليب لبناء حياة تصلح لأن تكون ملاذا للهاربين من سطوة المادة وقسوتها.



وأشار إلى وجود التضارب الكبير بين الأدب والسياسة وانقطاع الصلة ما بين الأديب والسياسي للاختلاف الجوهري في القواعد، وأهمها إقصاء السياسي للجانب الإنساني الذي يتوافر لدى الأديب، واعتباره ضمن أدواته إلى جانب الطابع العنصري والتحيز للأجناس لدى السياسي، والذي لا يوجد عند الأديب.

وعرف «الكنز» بعض معاني مصطلح الأدب، وبين بعضًا من تلك التعريفات، والتي تلخصت وتماشت في مجملها مع معاني الدعوة والتعاطف وحب الخير، وكيف تعددت واتسعت علوم الأدب عند القدماء لتشمل العديد من الصنوف والأنواع، وكيفية انحسار المفهوم حديثا ليتطور ويقتصر على الشعر وفنون النثر الفني.

وقال: إن الأدب قادر على أن يبعث في النفس إنسانيتها، ويبث في الروح مباهجها، ويصفي الوجدان، لذا من الضروري أن يكون أدبًا سويًا غير مفرغ من معاني الإنسانية، بعيدًا عن العنصرية والطغيان.

وانتهى «الكنز» إلى أن الأديب روح أمته وضميرها النابض الذي يسري عبر الأجيال، والأديب الحق الذي يثري وجدانها ويحرك مشاعرها.



سوريا

وليد الخطيب

يأتي الربيع إذا ما اشتد ساعدنا
وساد أوطاننا من خاف بارينا

ولم يكن بيننا خب يضيعنا
ولا منافق يخفي الشر يغرينا

لابد آت بإذن الله إن طهرت
منا القلوب وكنا إخوة دينا

إن يعلمِ الله منا صدق نيتنا
يقض بنصر لنا يخز أعادينا

هذي الشآم بخطوات له سلكت
لن ترجع القهقرى حتى يوافينا

يأتي الربيع لقوم يعملون له
إن أحسنوا الزرع ما باتوا مساكينا

ضاق التصحر ذرعا من سواعدنا
وذاق طعم الأسى من كان ساقينا

الظلم ولى وجاء الخير مبتسما
سينعم الناس في أفيائه حينا

وتحت أقدامنا اخضرت مرابعنا
وأزهر الروض ما أحلا مغانينا!

في ظل رايتنا عدل ومرحمة
والخلق في ظلها عاشوا سلاطينا

من لم ير الشمس في دنياه طالعة
فالموت أولى به من مكثه فينا



مقالات أدبية

أحلام شاب عزب

عبدالكريم إبراهمي
ناقد أدبي



كثيرون هم الذين يظنون أن اللذة إنما تدرك حينما يصيب زيد من الناس ما يشتهيه، وذلك كاللذة في زيارة مكان طبيعي خلاب، ومثلها في مسامرة الأحباب، ومثلها في إراحة البدن وإزالة الدرن. ولكن قليلون هم الذين يصيبون اللذة حينما يفتقدون ما يشتهون.

ولتسمحوا لي أيها السادة أن أشرح هذه الفلسفة الغامضة، وأفك هذه الطلاسم المعقدة، وخير ما أشرحها به، أن أحدثكم بشيء أشقه من صدري حتى يأتي الحديث وقد غذي بلبان الصدق، فإن الكلام ما ينفع أبدا إذا خلا من الصدق، ولقد قال الحكيم: كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز.

أنا يا سادة شاب عزب، مقبول الصورة، موفور الصحة، ميسور الحال، لم يمنعني من الزواج مانع، إلا أني لم أجد بعدُ تلك الفتاة التي أحلم بها، وأنا أبحث عنها، وأود لقاءها اليوم قبل الغد، وأنا أتعجل معرفة صورتها، وما اسمها؟ ومن أين هي؟

ثم إن حالتي هذه، قد تضطرني بين الفينة والأخرى، إلى أن أنزعج من طول الانتظار، وأعاني شقاء البحث والسؤال، فأحس الكآبة في قلبي، لأنه لم يعرف بعد أليفه، ولذلك يخيل إلي أن الغيب عذاب للقلب، حتى كأنه جبل يجثم عليه.

ولكن، سرعان ما ينطلق بي الخيال وقد مزق حجب الغيب، يسبح بي في الفضاءات الواسعة، وتجدني قد انتقلت من حال إلى حال، وإذا الغيب الذي كان جحيما صار الآن جنة ونعيما، وإذا بي أزور العالم ولم أتحرك. وإذا بي أرفل في لذة لا هي كاللذات، وقد كان مبدؤها أنني لم أدرك ما أشتهيه، ألا وهو معرفة الفتاة التي تكون زوجتي.

فانظروا – يا رعاكم الله . كيف أني أصبت هذه اللذة من حيث فقدت معرفة الغيب، وذلك أن ما منحني إياه الخيال في لحظة الاكتئاب قد لا يمنحني القدر إياه وإن القدر خير من الخيال، لأن القدر من الحكيم الخبير، وما الخيال إلا أحاديث النفس تلهي بها الروح وتمنيها، ولكنها أيضا نعمة الله إلى المنكوبين.

كنت أتعجل معرفة الفتاة التي تكون زوجتي، والتي أخلص لها حبي ومودتي، فأسرع إلى باب بيتها أطلب يدها من ولي أمرها. ولكن.. إذا بالخيال يفتح إلي أبواب العشرات من الفتيات، لأتخير منهن من أريد وأيهن أريد؟

أأريد التي اسمها ليلى وسعدى، وغيرهما من صواحب أسماء الصبابة والحب. وكأن الصبابة لم تعرف من الأسماء إلاها، وكأن من لم يكن اسمها ليلى أو سعدى فليس للحب فيها رغبة وطمع، حتى توهم ذلك شاعرنا فسمى كل محبوبة ليلى، فقال:

كل يغني على ليلاه متخذا
ليلى من الناس أو ليلى من الخشب

كلا.. ليس الحب حكرا على ليلى وسعدى، وإنما هو كالغيث يصيب ماؤه كل من كان تحته على الأرض، ما لم يتخف، ولذا، فهو لا يصيب إلا الكرماء، أو هو كالقمر يجد نوره كل من سرى ليلا.

ومن أريد أيضا؟

أأريد التي كالحورية، لها أطيب ثغر ريحا، كأنه من أفواه الظباء، وعيناها ترنو كالمهاة، وشعرها ليل أسود مظلم، وهلم جرا.. إلى غير ذلك من أوصاف الغادة الحسناء. وكأن الحب مسابقة، ما لم تتوافر شروطها فلا مسابقة.

كلا.. فليس الحسن شرطا في الحب، إنما شرطه أن يسر الحبيبان بعضهما، ولو أن الأمر كذلك لاجتمع هوى الألف والألفين في حب الواحدة، ولو أن الأمر كذلك لأحب قيس مهاة وما أحب ليلاه.

وماذا أريد أيضا؟

أأريد أن أقلد قيسا العامري حين أحب ليلى العامرية ابنة عمه، أو عنترة حين أحب عبلة ابنة عمه، وكأن الود ما يصفو بين الإلفين إلا إذا نمت القرابة بينهما واتصلت، فلا يتحقق إلا بالقرابة في الأنساب.

كلا.. وإنا لو سألنا قيسا: أما أحببت ليلى إلا لأنها ابنة عمك؟ لأجابنا قيس: وهل الحب ميراث؟ نعم. ما الحب كالميراث، لا ينتقل من هذا إلى هذا إلا بعد أن يكون بينهما قرابة ونسب، وإنما هو استئناس يجده الصب في قلبه كلما رأى إلفه، أو ذكر له اسمه أو ما يتصل به، إنما أنت قتيل من أحببت.

ومن أريد أيضا؟ وهل بيدي أن أشتهي؟ هل بيدي أن أقول: هذه تصلح وهذه لا تصلح.

وأروح أصنف النساء فأجعل منهن صنفين: ما يصلح وما لا يصلح، وكأني صاحب أخبار النساء، أو كأن النساء تمر وأنا فلاح يميز جيده من حشفه.

كلا.. ما أنا وأنتم بأصحاب الرأي في اختيار أزواجنا، وإنما صاحب الرأي من خلق الرأي.

عذرا يا سادة إن كنت قد صدعت رؤوسكم بما أشتهي وما لا أشتهي، ولا تحملوا مقالتي على محمل الجد، فما هي إلا أحلام شاب عزب، مل أن يعيش وحيدا.

من وجوه الإعجاز في الذكر الحكيم

ظاهرة المثلث القرائي

أ.د خالد فهمي
كلية الآداب- جامعة المنوفية



لقد استقر في النظر العلمي على امتداد تاريخ العناية بالذكر الكريم وصفه بالكتاب المعجز الذي لا قبل للطاقة البشرية على الإتيان بشيء من مثله.

وقد تنوعت نظريات تفسير إعجاز هذا الذكر الحكيم، واستقلت تآليف متنوعة لفحص هذا الأمر إلى يوم الناس هذا.

وقد كان الانطلاق من تحليل أسلوبه، وفحصه، أساسًا أصيلا على طريق الكشف عن بنيات هذا الإعجاز، وقد جمع الدكتور حسين نصار في كتابه إعجاز القرءان، مكتبة مصر ١٩٩٩م ص: ٢ أقوالا كثيرة جدًا تعول على تفرد أسلوب القرآن الكريم، وبراعته طريقًا للكشف عن إعجازه.

قد استطاع الراحل الكريم الدكتور محمد عبدالله دراز أن يلخص ويوجز هذا المدخل في عبارة مهمة وموفقة قال فيها: إن القرآن الكريم معجزة لغوية على ما قرره في كتابه (النبأ العظيم).

والحق أن تفاصيل هذا الحكم العام ربما أمكن أن نقرر أنها متشعبة لا سبيل إلى الإحاطة بها.

وطبيعة كون الكتاب العزيز كتابًا خاتما منزلا للزمان القادم كله يرشح لفكرة أن كل جيل ادخر له الله تعالى ما يناسب زمانه من وجوه الإعجاز التي تعيد صلته بالذكر الحكيم غضة طرية.

وأعتقد أن قراءة ظاهرة: المثلث القرائي من بوابة الإعجاز يمكن أن تسلكها في إطار وجوه الإعجاز اللغوية التي تدعم حقيقة تزاحم معاني هذا النص العزيز.

٢ - مفهوم المثلث القرائي

المثلث اللغوي ظاهرة معجمية بامتياز، تضم عددًا من الألفاظ التي ينطبق أحد حروف بنيتها ولا سيما الأول منها بالحركات الثلاثة، وهو ينقسم قسمين، أولهما ينتج عن تغاير الحركات تغاير المعاني، وهو الذي يسمى باسم المثلث اللغوي المختلف المعنى، وآخرهما يثبت مع تغاير الحركات أمر المعنى وهو الذي يسمى باسم المتفق أو المؤتلف المعنى.

وقد عرفت المعجمية العربية التراثية عددًا من مصنفات هذه الظاهرة اللغوية من مثل:

- المثلثات لقطرب، ت ٢٠٦هـ.
- المثلث، لابن السيد البطليوسي ٥٢١ هـ.
- إكمال الإعلام بتثليث الكلام، لابن مالك، ت ٦٧٢هـ.
- المثلث اللغوي ذو المعنى الواحد للبعلي ت ٧٠٩هـ.
- الدرر المبثّة في الغرر المثلّثة للفيروزآبادي ت ٨١٦هـ.

ولما روي في الذكر الحكيم بعض من الألفاظ المعربة بالحركات الثلاث في الموضع الواحد تبعًا لقراءات مختلفة، نشأت الحاجة إلى تسمية أمثال هذه الألفاظ مثلثة الإعراب فاستعير المصطلح اللغوي، الذي هو المثلث اللغوي، لإطلاقه على الظاهرة مع تعديل مناسب، ليكون المثلث القرائي، أو ما قرئ بالتثليث من كلمات القرآن.

وبهذا يكون مصطلح المثلث من المصطلحات الرحالة، انتقلت من الجهاز الاصطلاحي اللغوي إلى الجهاز الاصطلاحي في علوم القرآن الكريم، بعد تعديل في مفهومه، ليدل على الكلمة القرآنية التي تقرأ بثلاث حركات، أو تروى بثلاث إعرابات، وهو ما يعبر عنه الرعيني ت ٧٧٩ هـ في مقدمة كتابه (تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث من حروف القرآن) ص٣ بقوله: «إني رأيت من القراءات ما جاء مثلث اللفظ».

٣ - العناية بالمثلث القرائي في التراث العربي

إن تأمل مسألة العناية بالمثلث القرائي تكشف عن وجوه وقفت عليها عدد من المؤلفات المنتمية لعلوم مختلفة، فقد اعتنى بهذه الظاهرة، وبأمثلتها أصناف الكتب التالية:

أ- كتب إعراب القرآن الكريم الموسعة، ولا سيما التي تعنى بإيراد الوجوه الإعرابية المختلفة والتوسع فيها، من مثل الدر المصون، للسمين الحلبي.

ب- كتب التفسير الموسعة ولا سيما التي تعنى بالقراءات وتوجيهها، كالكشاف للزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.

ج - كتب توجيه القراءات.

د- كتب النحو الموسوعية والتعليمية.

وقد ظهر نوع عناية بهذه الظاهرة القرآنية تمثل في ظهور تأليف مستقل، عني بتحرير مفهومها، وجمع أمثلتها من الذكر الحكيم، وبيان ما فيها من وجوه وأعاريب.

وهذا الكتاب هو: (تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث من حروف القرآن).

لأبي جعفر أحمد بن يوسف الرعيني المتوفى ٧٧٩ هـ، يقول محققه الدكتور علي حسين البواب ص٥ من مقدمة التحقيق: «وإذ كان التأليف في المثلث معروفًا وكتبه ومادته مجموعة ومبوبة»، فإن هذا الكتاب ينفرد بأمرين:

أولهما: أنه وجه عنايته للقرآن الكريم، وخص الكتاب بمثلثاته.

ثانيهما: أنه خالف مفهوم التثليث عند أهل العربية (اللغة)».

ومنهج الكتاب جامع بين منهجية الترتيب الألفبائي، ومنهجية الترتيب المصحفي، بمعنى أن الكلمات جاءت مرتبة ألفبائيًا مع مراعاة موضع التثليث على ترتيب

الهمزة والباء والتاء إلخ، ثم مراعاة ترتيب المصحف والسور الكريمة في داخل كل باب.

ففي باب الهمزة مثلًا، جاءت الكلمات المثلثة القرائية التالية: (شُرَكَاء)(سورة يونس)، و(سوَاء) (سورة فصلت).

وفي باب الباء جاءت الكلمات المثلثة القرائية التالية:

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة الفاتحة)،﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾(سورة الأنعام)، ﴿ بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾(سورة الصافات).

ويبدو أن السر وراء انتهاج هذه المنهجية هو طلب التيسير، وهو الأمر الذائع في التوصل إلى هذه المنهجية، يقول الرعيني ص٣: «فلما يسر الله جمع ذلك كتبته، ليكون تذكرةً للبيب، وتنبيهًا للأريب، ورتبته على حروف المعجم، ليكون أسهل للناظر وأجمع للخاطر».

ومسألة التيسير يكمن وراءها كذلك نوع منهجية تتوخى الجمع وسهولة الاسترجاع.

٤- أسرار ظاهرة المثلث القرائي في الذكر الحكيم

القرآن الكريم كتاب مكتنز بالحكمة، وقضية الاكتناز بالحكمة المدعومة بكونه الكتاب الخاتم للزمن القادم تحتاج إلى قانون أو معيار يتعاطى مع هذه الطبيعة الخاصة، وهو ما أخرج المعيار الذي يقرر أن القرآن الكريم مبني على تزاحم المعاني، بمعنى أنه يلجأ إلى تقنيات بعينها ليستوعب تنوع المعاني وتعددها.

وقد أورث هذا المعيار الذي أطلق عليه معيار تزاحم المعاني في الذكر الحيكم عددًا من التجليات على مستوى البنية ابتداء.

كان من أظهرها وجود كلمات قرآنية قرئت بحركات مختلفة طلبًا لاجتماع المعاني وتنوعها وتعددها.

وبذلك تكون ظاهرة المثلث القرائي القائم على قراءة عدد من الكلمات القرآنية، في الموضوع الواحد بحركات ثلاث توسيعًا للناتج من معناها، وتشعيبًا للمراد من فحواها أساسًا، أو وجهًا جديدًا من وجوه الإعجاز، وبذلك تسهم هذه الظاهرة في الكشف عن أسرار القرآن الكريم، ومرونته واكتنازه وتدفقه بالمعنى.

ومن أمثلة ما جاء في ذلك الكتاب الكلام على إعراب قوله تعالى:

﴿ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ بتحريك همزة سواء بالحركات الثلاثة، وتمام الآية.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾(سورة فصلت:١٠).

و توزيع الإعرابات الثلاثة كما يلي:

أ- إعراب النصب في قراءة السبعة على تقدير كون﴿سَوَآءٗ ﴾ بمعنى استواء على المصدرية، أي استوت استواء، أو على الحالية من الأرض، أو من الأقوات.

ب -إعراب الرفع في قراءة أبي جعفر من العشرة، وهي إذن خبر لمبتدأ محذوف: أي هي سواء.

ج- إعراب الجر في قراءة زيد بن علي، والحسن وغيرهما وتقديرها أنها نعت لأربعة أيام.

وبهذا تكون الوجوه الإعرابية كفلت لاستواء: للأرض، والأقوات، وللظرفية(فيها)، وللأربعة الأيام، ولمجموع ما ذكر، ولم يكن من الممكن تحقيق هذا التوزيع الشامل للاستواء من دون استعمال هذا التثليث القرائي.

ومن أمثلة ذلك أيضًا الكلام على إعراب قوله تعالى:﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾ (سورة الأنعام:٢٣).

إذ رويت كلمة ربنا بالإعرابات الثلاثة:

النصب في قراءة حمزة والكسائي على تقدير النداء، أي: يا ربنا، أو تقدير فعل: أمدح، والله يا ربنا، أو والله نمدح ربنا ونقدسه.

والجر في قراءة باقي السبعة على أنها نعت لله تعالى، أو بدلا، أي والله الذي هو ربنا.

ج- والرفع في قراءة عكرمة على تقدير أن الله مبتدأ وربنا خبره، والتنوع هنا محقق لما سميناه بتزاحم المعاني، واكتنازها، وانجماعها لتحقق أكبر قدر ممكن من المعاني من مثل:

أولًا - تحقيق الاعتراف بالإقبال على الله تعالى، والانكسار بين يده على تقدير النداء.

ثانيًا - تحقيق التمجيد لله سبحانه والدينونة له بتقدير امتداحه والثناء عليه.

ثالثًا- تحقيق كمال التوحيد بالاعتراف له بالألوهية، التي هي استحقاق بالعبودية وحده، وبالربوبية التي هي الاعتراف له بفضله ومنته وتربيه للخلق، وهو المعنى المستفاد من الإعراب المعتمد للنعت والبدلية.

رابعًا - الاعتراف بالإيمان والتعليل للابتعاد عن الشرك في قراءة من قرأ بالرفع، أي أننا لسنا مشركين، لأننا نقر على أنفسنا أن الله ربّنا.

والتثليث القرائي هنا، بما هو وجه إعجازي يحقق هذه المعاني جميعًا، فيحقق مطالب الاعتقاد والعبادة والأخلاق باجتماع الإعرابات - يعني أن لغة الذكر الحكيم ما تزال غضة طرية- تحتاج إلى مواصلة الجهد في تتبع ظواهرها، وتفسيرها خدمة لهذه المعجزة الخالدة الباقية على امتداد الزمان.



أطلس الوقف.. يوثق أوقاف الكويت في ١٨٥ عامًا

السيد المخزنجي
عضو اتحاد كتاب العرب

في إطار مشروعات الدولة المنسقة لجهود الوقف، وبالتعاون والتنسيق مع المجلس التنفيذي لمؤتمر وزراء الأوقاف والشؤون الإسلامية.. صدر كتاب جديد بعنوان «أطلس الأوقاف.. دولة الكويت» عن الأمانة العامة للأوقاف، بإدارة المعلومات والتوثيق، مكتبة علوم الوقف، وهو الطبعة الأولى، عام ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

يقع الكتاب، أو بالأحرى «أطلس الأوقاف.. دولة الكويت» في مائة واثنتين وخمسين صفحة من المقاس الطويل (٢٣ × ٣٥سم)، ويحتوي على صفحة تتضمن أسماء كل من المشرف العام للمشروع، ورئيس المشروع، ورئيس تحرير الأطلس، والكاتوجرافيا والكمبيوتر، والتصوير الفوتغرافي، وهيئة المتابعة والتدقيق، والتصميم والإشراف على الطباعة، ثم الإخراج الفني والطباعة، وصفحة تتضمن محتويات الأطلس.

موضوعات الأطلس

أما الموضوعات التي يحتويها الكتاب (الأطلس) فتشمل: مقدمة تتضمن نبذة تعريفية عن الأطلس - وهو من الأطالس التوثيقية والتاريخية التي تهتم بالمكان والزمان، أو «الزمكانية» كما يسميها البعض- حيث لم يكتف بتبيان المعلومات الجغرافية المتعلقة بالأعيان الوقفية، بل قدم سردًا لأهم الأحداث والوقائع والأعمال التي حدثت خلال السنوات التي تم فيها وقف هذه العقارات، وتحديدًا من عام ١٨٢٥: ٢٠٠٩م.

يبدأ الأطلس بالحديث عن نشأة دولة الكويت، ويعرض ثمانية موضوعات وهي: أنواع الوقف في دولة الكويت، العقارات الوقفية في

دولة الكويت، توزيع الأعيان الوقفية في محافظة العاصمة، توزيع الأعيان الوقفية في محافظة حولي، توزيع الأعيان الوقفية في محافظة الأحمدي، توزيع الأعيان الوقفية في محافظة الفروانية، ونماذج من الحجج الوقفية الشرعية، ثم قائمة المصادر والمراجع باللغتين العربية والإنجليزية.

مكتبة علوم الوقف

نظرًا لأهمية الأطلس، بوصفها أحد أهم الأعمال الموسوعية والعلمية التي يعتمد عليها الباحثون والقراء.. ارتأت «مكتبة علوم الوقف» أهمية إصدار أطلس يتيح لهؤلاء الباحثين والمهتمين معرفة أماكن وجود تلك الأعيان الوقفية، وما يتعلق بها من معلومات، سواء أكانت جغرافية أم غيرها، مما يهم المستفيدين في هذا الصدد.

ويعد هذا الأطلس الأول من نوعه، حيث يوثق نموذجًا مهمّا من نماذج وأشكال العمل الخيري في دولة الكويت، وهو «الأوقاف» بمفهومها العام المتكامل.

ويتميز هذا الأطلس بسرده لأهم الأحداث والوقائع والأعمال التي حدثت خلال السنوات التي تم فيها وقف العقارات، كالاتفاقيات الدولية بجميع أشكالها، وإنشاء المؤسسات والوزارات والهيئات الحكومية والأهلية، والشخصيات والزوار المميزين الذين زاروا الكويت خلال تلك السنوات، واكتشاف آبار وحقول النفط، واتفاقياته، لما لذلك من أثر مباشر وغير مباشر على تطور حركة الأوقاف بالكويت، والكوارث الطبيعية والبشرية التي صاحبت سنوات الوقف.. إضافة إلى ذلك، فإن الأطلس يحقق اعتبارات عدة، من أهمها إطلالة دولة الكويت على العالم الخارجي، خاصة العالم الإسلامي، وهي إطلالة صادقة تعبر عن حب أهالي الكويت لتقديم الخير ويد العون للمحتاجين على مر الزمان.

مصادر الأطلس العلمية

لقد اعتمد فريق الأطلس، في عملهم وإنجازهم لهذا السفر العلمي المعلوماتي التوثيقي الوقفي، على العديد من المصادر ذات الصلة ومنها: الأرشيف التاريخي والقانوني للأوقاف، الموجود بالأمانة العامة للأوقاف، إلى جانب ما توافر من الدراسات الميدانية للأمانة.. وكذلك المصادر منقطعة الصلة بموضوع الأطلس، ثم الاستناد إلى المراجع التاريخية والتوثيقية باللغتين العربية والإنجليزية (راجع ص١٤٦– ١٤٨ من الأطلس).

وقد قام العمل في الكتاب على أُسس منهجية وموضوعية تتمثل في:

بيان التوزيع الجغرافي والمكاني للأعيان (الموقوفة)، والتزام الترتيب الزمني (من الأقدم إلى الأحدث) للأوقاف على مستوى دولة الكويت، أما الثالث، فكان عبارة عن وصف لتلك الأعيان ونوعها وحالتها الكائنة عليها.

كما يبرز الأطلس أهم الجوانب التي تؤكد الهوية الإيمانية والخيرية لأهالي دولة الكويت، حيث تم توثيق وتسجيل أهم الأحداث خلال السنوات التي واكبت عمليات وقف الأعيان، خلال فترة زمنية طويلة بلغت ١٨٥عامًا، فيما بين عامي ١٨٢٥ و٢٠١٠م (ص١٨ من الكتاب).

محتويات الأطلس

يحتوي أطلس الأوقاف.. دولة الكويت، إلى جانب ما عرضنا له، على ٥٣ خريطة حديثة لتوزيع الأعيان الوقفية بحسب الموضوع، وعلى ٢١ خريطة تاريخية وعامة لدولة الكويت، وعلى ١٥ رسمًا بيانيّا توضيحيّا لتلك الأوقاف، وعلى ٥ جداول إحصائية، وعلى ٢٠٣ صور حديثة للأعيان الوقفية، كما اشتمل على ٢٣ صورة للحجج الشرعية. بالإضافة إلى ٨ صور قديمة وحديثة لمناطق في الكويت، أي ما مجموعه ٣٢٨ وسيلة إيضاح مختلفة، تساعد على تدعيم المحتوى العلمي للأطلس.

> **القضاة الشرعيون كرسوا وقتهم وجهدهم لتوثيق حجج الواقفين بالكويت**

موقع دولة الكويت ونشأتها

يوضح الأطلس موقع دولة الكويت بالنسبة للعالم الإسلامي، حيث تقع في الركن الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة العربية.. ويحدها من الشرق الخليج العربي، ومن الشمال والشمال الغربي دولة العراق، والجنوب والجنوب الغربي المملكة العربية السعودية، ومع أن نشأة الكويت الحالية ترجع إلى عام ١٦١٣م، فإنه لا توجد معلومات كافية عن تلك الفترة حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي.

وتفيد المصادر التاريخية بأنه كان هناك جماعة من الأسر والقبائل أطلق عليهم اسم «العتوب» استقر بهم المقام بأرض الكويت، وكانوا قد قدموا من نجد، وهم ليسوا من قبيلة واحدة، بل هم مجموعة من الأسر، فوضوا أمرهم إلى آل صباح ليتولوا حكم البلاد، وأول من اشتهر منهم وورد اسمه في المصادر التاريخية هو الشيخ صباح بن جابر (١٧١٨– ١٧٧٦م) والذي يطلق عليه صباح

نصف أعداد الأوقاف للمساجد بمحافظة الأحمدي.. والنصف الآخر للوقفين الخيري والمشترك

الأول، وقد ذكر الكتاب أيضًا أسماء الشيوخ الذين توالوا على حكم دولة الكويت، وهم خمسة عشر حاكمًا من أسرة آل الصباح، منذ عام ١٧١٨ وحتى عام ٢٠٠٦م (ص٢٣ من الكتاب).

أنواع الوقف في الكويت

ينتقل الكتاب (الأطلس) بعد ذلك لبيان أنواع الوقف بدولة الكويت، فيبدأ بتعريف الوقف لغة، واصطلاحًا، والفرق بين التبرع والوقف، حيث إن الوقف تبرع دائم؛ لأن المال الموقوف ثابت لا يجوز بيعه، ولا التصدق به، ولا هبته، وإنما يتم التبرع فقط بغلته وريعه الذي يصرف في الجهات التي حددها الواقف. أما التبرع فهو بذل المال أو المنفعة للغير بلا عوض، بقصد البر والمعروف، والوقف يختلف باختلاف الموقوف عليه، وينقسم إلى ثلاثة أنواع: الوقف الأهلي (الذري)، الوقف الخيري، والوقف المشترك: وهو ما يجمع بين الوقفين الأهلي والخيري.

ويرجع تاريخ الوقف بدولة الكويت إلى بدايات نشأتها في القرن السابع عشر الميلادي، والمتمثل في وقف مسجد ابن بحر، الذي يرجع تاريخ بنائه إلى عام ١٦٧٠م.

يستعرض الكتاب أيضًا أوجه الوقف الخيري في دولة الكويت، ويأتي في مقدمتها الوقف على بناء المساجد، والتي شملت- لدى أهل الكويت الخيّرين- الوقف لصالح الإمام والمؤذن، وتعمير المسجد، ومسكن للإمام والمؤذن، والأدوات التي يحتاجها المسجد، ومدرسة لتحفيظ القرآن، ووقف إفطار الصائمين، ووقف عام على المسجد.

وهناك الأوقاف في مختلف وجوه البر والخير، ومنها: الوقف على عموم الخيرات ووقف الأضاحي، والوقف على المبرات، والوقف على الفقراء والمساكين، والوقف على طلبة العلم، والوقف على القرآن الكريم، والوقف على تسبيل المياه (أي جعل الماء متاحًا للجميع في الطرق العامة)، والوقف على تغسيل الموتى وتجهيزهم ودفنهم.

وقد أشار الكتاب إلى وجود أوقاف خيرية تقوم الأمانة العامة للأوقاف بالكويت بمهمة النظارة عليها، وأخرى تقوم الأمانة بالنظارة عليها بالاشتراك مع أحد أقارب الواقف، وأوقاف أخرى لها نظارة منفردة من ذرية الواقف.

وأوضح الكتاب أن معظم الأعيان الوقفية تتركز بشكل عام في محافظة حولي، حيث بلغت نسبة الأعيان فيها نحو ٧٨٪ من جملة أعداد الأعيان التابعة للأمانة العامة للأوقاف بدولة الكويت، والبالغة ٢٢٠ عينًا، ويعلل ذلك بوجود العديد من الأسر الكويتية التي تمتلك مساحات كبيرة من الأراضي في محافظة حولي منذ القدم.

تعقيب وملاحظات

من فوائد وإيجابيات هذا «الأطلس» أنه يقدم خريطة «بانورامية» للوقف على مستوى دولة الكويت، بمحافظاتها وأشخاصها الواقفين المحسنين من أهل الخير في وطنهم الحبيب، وكذلك بيانه، أو بالأحرى تحديده بدقة علمية، كأماكن وجود الأعيان الوقفية، وما يتعلق بها من معلومات، سواء أكانت جغرافية أم نوعية- تصنيفية، أو أرقام ومعلومات وأحداثا تاريخية، يجسد خلالها الوقف المكان والزمان معًا لحقبة من تاريخ الكويت القديم والمعاصر على السواء، ودورهما في العطاء والوفاء لهذا الوطن، ولما يتضمنه من سرد لأهم الأحداث والوقائع والأعمال التي حدثت خلال السنوات التي تم فيها الوقف لتلك العقارات، عمارة أو بناية أو مجمعا تجاريا، أو محلا أو دكانا، أو فيلا سكنية، أو حوطة (مساحة من الأرض فضاء) (ص ٣٥ من الكتاب)، حيث امتدت تلك السنوات من ١٨٨٥-٢٠١٠م، وهي الفترة التي شملها الأطلس، لتكون دليلًا وشاهدًا حيّا على هذا الإنجاز العلمي المفاخر به.

الحقيقة الأخرى أن هذا الأطلس، فيما يتعلق برصده للمواقع الجغرافية التي شهدت تدنيًا ظاهرًا في حجم ونوعية الأوقاف ومجالاتها المختلفة في كل محافظة من محافظات الكويت، يمكن له أن يكون مرشد عمل ودليل تقويم لإدارة مهمة من إدارات الأمانة العامة للأوقاف بالكويت، وهي إدارة الإعلام والتنمية الوقفية، فيما يختص بأنشطتها وخططها التشغيلية، التي يجب أن تركز على تلك «المناطق» والأماكن المتدنية في حجم الوقف، والأفراد، بالدعوة إلى الوقف، وتكثيف حملاتها الإعلامية والتسويقية، بل وطرح خطة إعلامية تسويقية مدروسة تستهدف- في نهاية المطاف- استقطاب أكبر عدد ممكن للأوقاف في تلك المناطق بتلك المحافظات، وبذلك تسد ثغرة ظاهرة بالنسبة للدور الذي يجب أن تقوم به، من حيث تعزيز ثقافة الوقف وتنميته والنهوض به، والعمل على زيادته من خلال الاستفادة بجهود وطاقات موظفيها الشباب، بإنشاء مكاتب أو مراكز إعلامية دعوية للوقف، وكونه سنة نبوية، والتعريف بأهميته وفوائده للمجتمع، وذلك تحت مسمى «المركز الإعلامي للأمانة العامة للأوقاف» بمحافظة كذا.. ويمكن أن تنجح الفكرة بتحفيز هؤلاء الموظفين- وإلى جانبهم المتطوعين بالمشاركة- في الحث على الوقف والدعوة إليه ماديّا ومعنويّا.

لقد أحسنت «هيئة تحرير الأطلس» و«إدارة المعلومات والتوثيق» بالأمانة العامة للأوقاف، حينما أعربتا عن استعدادهما للتزود بكافة الآراء والاقتراحات والتصويبات؛ من أجل استدراك القصور، وتصحيح الأخطاء في الإصدارات القادمة (الطبعة التالية) للأطلس.

التفاعل الاجتماعي وتشكيل الشخصية



الزبير مهداد
كاتب مغربي

كان جمهور المسرح الإغريقي يستدل على الممثل بالقناع الذي يضعه على وجهه، فكان المشاهد يتخيل شخصية الممثل، ويتوقع المواقف والاستجابات التي ستصدر عنه، وعلاقاته بسائر الممثلين، الذين كانوا أيضًا يضعون أقنعة تحدد سماتهم العامة وطبيعتهم.. فوضع قناع ما، يقتضي من الممثل أن يؤدي وفق أنموذج محدد بناء على نوع القناع، وينظم صفاته الجسمية والعقلية والأخلاقية، بما يناسب الصورة التي يتوقعها المشاهد منه.

هذا القناع المسرحي كان يسميه الإغريق Persona وتأسيسًا عليه، صاغ علماء النفس مفهوم الشخصية Personalit وحددوا معناها في مجموع الخصائص النفسية والعقلية والجسمانية التي تكون الفرد، وبخاصة كما يراه الآخرون، هذه الخصائص يربط بينها تنظيم داخلي ديناميكي للدوافع والانفعالات والإدراك والتذكر، تتجلى في عادات واهتمامات نحو قيم وسمات عامة، تحدد في النهاية مميزاته عن غيره من الأفراد. فالشخصية ليست مجرد صفات، بل هي وحدتها الديناميكية، وتماسكها وانسجامها، أي التنظيم الذي يحكم هذه الصفات.

وللشخصية جانب ذاتي، وهو شعور الفرد بذاته، ويتكون تدريجيا عبر ثلاث مراحل، أولها الشعور بالذات الجسمية، ثم الذات النفسية، فالذات الاجتماعية.. وجانب موضوعي يتألف من مجموعة السمات التي تتيح للفرد أن يسلك إزاء الآخرين سلوكًا موسومًا بطابعه، وتسمح اختبارات الشخصية بتقدير هذه السمات.

ويميز علماء النفس عادة بين نموذجين من الشخصية: النموذج الانطوائي Introvert، وفيه تتجه اهتمامات المرء نحو الذات والخبرات الذاتية أكثر مما تتجه إلى ما هو خارج عن الذات، وتتميز الشخصية الانطوائية بالانكفاء على النفس، واجتناب الاتصال بالناس، والحذر من الغرباء، وعدم المشاركة في النشاطات الاجتماعية.. والنموذج الانبساطي Extrovert، وفيه تتجه اهتمامات المرء إلى ما هو خارج عن الذات بأكثر مما تتجه نحو الذات والخبرات الذاتية.. وتتميز الشخصية الانبساطية بالدينامية المنتجة، وبالنزوع إلى الاختلاط بالناس، والمشاركة في النشاطات الاجتماعية.

وبين الانبساط والانطواء بون شاسع، وقد يكون المرء انبساطيا أو انطوائيا، وهو أمر طبيعي ومقبول ما دام في حدود السواء، أما إذا اشتدت انطوائيته إلى حد مقاطعة غيره، أو انبساطيته إلى حد إهمال ذاته، فإن الأمر يصبح ضارا به وبغيره، ويؤشر لشخصية غير سوية تفتقد الاتساق.

اتّساق الشخصية

فاتساق الشخصية يعني تكامل عناصرها، بالحد من التضارب بين دوافع وبواعث الفرد وقيمه، حتى تتحقق وحدة الشخصية بانسجام المواقف العقلية والانفعالية، والاستجابات السلوكية الصادرة عنها(١)، ويلعب التفاعل الاجتماعي دورًا هاما في تحقيقها.

التفاعل علاقة متبادلة بين طرفين أو أكثر، تقوم على تقارب الأطراف وتفاهمها، وبفضله يسلك الأفراد آخذين

انعزال الطفل مؤشر للتربية الخاطئة

في الاعتبار أعمال الآخرين ونواياهم وأفكارهم وطبيعتهم، كما أنه يؤدي إلى نمو العلاقات الاجتماعية.. فالعلاقات الاجتماعية في معظم الأحيان تتضمن التفاعل، ومن ثم يصبح التفاعل أصل العلاقة؛ فهو يأتي على الدوام بدرجة معينة من الاكتساب والتعاون، بينما ينطوي الانعزال على درجة الصفر في منظور التفاعل الاجتماعي(٢).

وفي مجتمعنا الإسلامي، تحظى الحياة الجماعية بأهمية خاصة، فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم» (رواه أحمد).

وقال الإمام الغزالي: اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة.. فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة، وفواته من آفات العزلة(٣).

والعلاقات الشخصية المتبادلة هي القنوات الواصلة للروابط والوشائج والعواطف التي تربط بين الأفراد، سواء أفراد الأسرة، أو الأقران، أو رفاق الحي. والتفاعلات والعلاقات تكون متينة قوية كلما كان الفرد قادرًا على تعرف احتياجات غيره، مع الإدراك المسبق لردود فعلهم المتوقعة من مواقفه أو استجاباته السلوكية نحوهم، ولما يحبونه أو يكرهونه منها.

إلا أن التفاعل الاجتماعي في مجتمعنا يواجه عوائق، ناشئة في الغالب عن أساليب التربية الخاطئة التي يستخدمها الوالدان، دافعهما الحرص على حماية الطفل، والتدخل في علاقاته مع غيره، نتيجة جهلهما بطبيعة الطفولة، وبمتطلبات النمو الاجتماعي.. الأمر الذي يوقعهما في أخطاء تربوية، ففضلًا عن سلوك اتجاهات تربوية خاطئة، كالتدليل أو الحماية الزائدة أو التسلط أو الإهمال أو غيره، فإن استجابات تصدر عن الوالدين أحيانًا- في مواجهة بعض المواقف الطفولية- تنتج عنها تأثيرات سلبية، يكون لها وقع سيئ على تفاعل الطفل ونموه الاجتماعي ثم شخصيته.

معيقات التفاعل السليم

غالبًا ما يحظى النمو البدني للطفل بتتبع الوالدين، وقد ينتبهان لنموه العقلي أو اللغوي، أما النمو الاجتماعي فيتم التغافل عنه إلا في النادر، بحيث يترك أمر هذا النمو للظروف تصنع به ما تشاء.

والطفل في حالة نمو اجتماعي منذ ولادته، بحيث يبدأ تفاعله مع المحيطين به، منذ أيامه الأولى، بطرق وأساليب تتطور وتتضح مع تقدمه في العمر.. فسواء كان الطفل منفتحًا على الآخرين، أم ملتزمًا جانب الحذر في علاقاته بغيره، فإنه يرتبط بعلاقات مع الآخرين، بدءًا من والديه وإخوته، ثم أقاربه، فجيرانه وأصدقائه.

لا ينكر أحد قيمة وأهمية علاقاته بوالديه وإخوته، التي تلبي حاجاته النفسية، وتوفر له إشباعًا عاطفيا، إلا أن علاقاته برفاقه تكتسي أهمية خاصة، لأنه من خلالها يتلقى درسًا حتميا في الحياة، ويدرك أنه ليس مركز الكون، وبأن ثمة أطفالا آخرين يقولون نحن موجودون. خاصة وأن الطفل في مرحلة الطفولة الأولى التي تمتد إلى سن السادسة، يربط علاقاته مع الآخرين على أساس الفائدة التي يمكن أن يحصل عليها منهم، لأن الطفل دائم الحاجة إلى شريك في اللعب واللهو، فالاشتراك في اللعب يكون مصدر متعة وبهجة وسرور لكل المشاركين، ولو كان عددهم ضئيلا.

هذا الأمر التفت إليه المربون المسلمون منذ القدم، فكانوا يحبذون التعليم الجمعي على التعليم الفردي، مبرزين مزاياه النفسية والاجتماعية وأهميته لنمو الأطفال، ومن هؤلاء المربين ابن

سينا الذي يقول في إحدى رسائله التربوية: الصبي عن الصبي ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس.. ثم يحادث الصبيان والمحادثة تفيد انشراح العقل وتحل منعقد الفهم.. ثم إنهم يترافقون ويتعارضون الزيارة ويتكارمون ويتعاوضون الحقوق، وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة، وفي ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لهممهم وتمرين لعاداتهم(٤).

هذا التفاعل يكسب الطفل طباعًا جديدة، ويهذب أنانيته، ويعلمه الاعتماد على النفس في خاصة أموره. وإذا حدث أن أحد أصدقائه لم يلب له حاجته فإنه يستغني عنه فورًا، فعلاقات الأطفال ببعضهم لا يمكن أن تكون صافية تمامًا.. واشتراك الأطفال في اللعب لا يخلو من الشجار لسبب أو لآخر، فالشجار بين الأطفال يمثل وجهًا من أوجه الجهود التي يبذلونها للتوصل إلى التصرف الصحيح.

ولذا فعلى الوالدين أن يقفا محايدين في مواجهة الخصومات، وألا ينتصرا لطفلهما، لأن هذا الخصام لا يدعو للقلق، بل هو ضرورة من ضرورات النمو، ثم إن المشاجرات في هذه المرحلة تكون قصيرة الأمد، ولا تترك آثارًا في نفسية الأطفال، والنزاع في حد ذاته يعلم الطفل كيف يحل مشكلاته فيما بعد، فهو ينمي مهارات التصرف لديه؛ وأسوأ ما قد يصدر عن الوالدين في مواجهة مثل هذه الخصومات، هو أن يأمروا أبناءهم بمقابلة العنف الذي يستهدفهم من أقرانهم بعنف آخر، وأن يقتصّوا لأنفسهم بمثل ما تعرضوا له من سوء معاملة، متغافلين عن قيمة وأهمية سلوك الصفح والتسامح في ديننا الإسلامي السمح، ومساوئ الانتقام وتأثيره السيئ على نفسية الطفل وعواطفه وتفاعله الاجتماعي، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، وروي عن رسول الله ﷺ قوله: «حرم على النار كل هين لين سهلٍ قريبٍ من الناس» (رواه أحمدً).

كما قد يلاحظ الوالدان أحيانًا وباستغراب، أن أطفالهما- خلال تفاعلهم مع غيرهم- تصدر عنهم استجابات سلوكية غير معتادة ولا متوقعة، وهذا أمر لا غرابة فيه، ولا ينبغي للوالدين التدخل لإجبار الطفل على ترك سلوكه الذي لا يتوقعانه؛ لأن الطفل يحرص في تفاصيل علاقته الاجتماعية أن يسلك بشكل يسهم في دمجه في جماعته، وانخراطه في أنشطتها، والابتعاد عن كل ما يجعله مختلفًا عن أفرادها، مثيرًا لسخريتهم أو استهجانهم، حتى لو استبدل عاداته وسلوكه.

والتفاعل بين أفراد المجموعة كما يؤدي إلى ظهور القيادات، فإنه يؤدي إلى بروز الأفراد الذين يحظون بالمحبة، أو العدوانيين، أو الزعامات، ويحبذ بعض الآباء والأمهات أن يتولى أبناؤهم أدوارًا قيادية ضمن جماعات أقرانهم، وفي ظنهم أن ذلك خير لابنهم ومن مصلحته، ومبعث فخرهم، ويرفضون أن يخضع أبناؤهم لسلطة أو هيمنة طفل آخر يتزعم الجماعة، ويدفعون بالتالي أبناءهم إلى تولي زعامة المجموعة وقيادتها، ويتنافسون في ذلك ويتباهون، حتى ولو لم يكن الطفل راغبًا في أداء هذا الدور الذي لا يلائم ميوله.

فالاختلافات بين الأطفال تظهر خلال مراحل نموهم الاجتماعي من خلال تفاعلهم مع أقرانهم خاصة، وما ينبغي على الوالدين هو ملاحظة مؤشرات السلوك الضار، كالعدوانية، والسلبية أو الاتكالية، والتصدي لها، ومساعدة الطفل على التخلص منها، فحين يظهر الطفل في عامه الثاني أو الثالث عنفًا مبالغًا فيه، أو إعراضًا عن اللعب مع أقرانه، فيجب الانتباه لحالته، وعرضها على المختص، أما السلوك القيادي أو الانقيادي داخل جماعة الأقران، فلا ضرر منه، ولا لزوم لإكراه الطفل على تبديله.

ومع اقتراب مرحلة البلوغ يبدي غالبية الأطفال ميلا نحو العزلة والانطواء، مصحوبًا بضعف التواصل بالآخرين، وافتقار إلى الشعور بالانتماء للجماعة.. فمن الطبيعي جدا أن تميل البنت في هذه الفترة إلى اعتزال الجماعة، وتنسحب من مجالس الأسرة وتفضل الهدوء والعزلة، أو تكتم أسرارها ولا تبوح بها لأمها، كما كانت تفعل من قبل وهي في سن صغيرة، هذه ظاهرة طبيعية لا ضرر ولا خوف منها، لأنه سرعان ما يترك الأطفال ذلك بعد تجاوز أزمة المراهقة، ويعودون إلى علاقاتهم الاجتماعية، وتفاعلاتهم مع أقرانهم وأسرهم، ليكتسبوا معالم شخصية ذات سمات واضحة تعبر عن السواء، إذا ما تربوا على الثقة في النفس والاعتماد عليها، والطموح والتعاون والانفتاح على الآخر، وتقدير المسؤولية، أما إذا غابت هذه السمات، وكان الناشئ انعزاليا أو غير مقدر لمسؤولياته، اتكاليا غير معتمد على ذاته التي لا يثق فيها، أو إذا اختلفت مواقفه وقيمه وأفعاله، وكان بأقواله مناقضًا لسيرته وأفعاله، كمن يضع أقنعة متعددة متناقضة.. فذلك مؤشر لتربية خاطئة.

الهوامش

١- لمزيد من التوسع راجع: نبيل سفيان: المختصر في الشخصية والإرشاد النفسي، القاهرة، إيتراك للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤.

٢- زكي يونس: مقال في مجلة عالم الفكر، عدد ١ مجلد ١٠ (يونيو ١٩٧٩) ص٢٦٦.

٣- الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، الجزء ٢ ص٢٣٤.

٤- ابن سينا: كتاب السياسة، نشر: هشام نشابة ضمن التراث التربوي في خمس مخطوطات. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٨ ص٤١.



زوجك جنتك أو نارك

شيماء فريج
كاتبة صحفية

أختي الفاضلة السلام عليك ورحمة الله وبركاته، في بداية هذا المقال أحب أن أسألك سؤالاً مهمًا: هل تحبين يا أختي الكريمة أن تكوني بإذن الله من أهل الجنة؟ هل تحبين أن تنعمي بحياة تزدان برضا الله عنك؟ أعلم إجابتك يا أختي الفاضلة فمن منا لا يطمع في الجنة؟ ومن منا لا يطمع في رضا الله عز وجل؟ بل ومن منا يجرؤ على سخط الله؟ اعلمي يا أختي الكريمة أن رضا الزوج من أهم الأعمال التي تتقربين بها إلى الله جل جلاله، قد تكونين من المصلين، قد تكونين من المستغفرين بالأسحار، قد تكونين ممن يتصدقون بأموالهم لكي تساعدي في رفع المعاناة عن المحتاجين، ولكن هل لهذه العبادات فائدة في غياب رضا الزوج عن زوجته؟ أختي الغالية أنا امرأة منَّ الله- عز وجل- عليَّ بالزواج، لسنا من الأثرياء أنا وزوجي وابنتي، نحن ولله الحمد في كل وقت نعيش حياة عادية نمتلك فيها بفضل الله ما لا يحوجنا للسؤال، شأننا شأن الكثيرين ممن يسعون وراء لقمة العيش، ولكني أقسم لك بالله إنني في نفس الوقت أغنى نساء الأرض، أو أكون كذلك عندما أرى في عيون زوجي نظرة رضا على شيء قمت بفعله، لمسة أضفيتها على بيتي، كلمة قلتها له فانشرح لها صدره، مزحة مني رسمت ابتسامة على وجهه، كلها أشياء بسيطة ولكن نتائجها تضمن لكي أغلى ما في الوجود (رضا الله) اعلمي يا أختي الغالية أن الإنسان برضا الله أغنى من على الأرض حتى إن كان لا يمتلك قوت يومه، وبسخط الله هو أفقر خلق الله حتى وإن كان يمتلك القصور، عليك أن تحاولي بكل جهدك إرضاء زوجك، قد تقول إحدانا، وماذا عن زوجي فهو قاسي القلب ولا يترك لي مجالاً لأن أكون قريبة منه، أقول لك إن كل لحظة تحاولين فيها إرضاء هذا الزوج هي بمثابة الجهاد في سبيل الله، بل إن أجرك عند الله- بإذن الله- عظيم، حاولي دائمًا يا أختي الفاضلة، حاولي مرات ومرات، بل لابد أن تعلمي أن ذلك لن ينقص أبدًا من قدرك، ولا تصدقي أحدًا قال لك إن محاولتك إرضاء زوجك واحتوائك له قد يهدر من كرامتك لا سمح الله، بل إن استماعك لنصائح البعض بتجاهل الزوج والتعامل معه بالندية هو قمة إهدار الزوجة لكرامتها، لا تستمعي إلى أي شيء قد يدفعك إلى إهمال زوجك أو الابتعاد عنه، واعلمي أن من يطلب منك ذلك فهو إما شيطان من شياطين الإنس يكن لك الكره والحقد، أو شيطان من أبناء إبليس اللعين قد تسلمينه مفاتيح عقلك الذي منَّ الله به عليك، إن أي لحظة تمر عليك في إرضاء زوجك هي خطوة تتقربين بها إلى الله، وكلما ازدادت هذه اللحظات، كلما كنت إلى الله أقرب، واعلمي أيضًا أن إرضائك لزوجك يسهم في نجاحه الذي تكونين فيه بمثابة الشريك الأساسي، أختي الفاضلة كلمات بسيطة لم أبتغ منها إلا أن يمن الله بها علينا جميعًا برضاه لننعم بحياة كريمة نتقرب فيها إلى الله، ونزين بها عباداتنا بالرضا والنور. أستودعك الله أختي الغالية، راجية من الله متوسلة إليه أن تنفعك كلماتي وأن تنفعني معك، فنحن برضا الله نمتلك كل شيء، وبسخطه والعياذ بالله نخسر كل شيء.



الإدمان في الأسرة

محمود حسانين
باحث تربوي

تتعدد الإحصاءات وتنتشر حالات الإدمان وتتنوع في انتشارها، وقد أخذ الإدمان أشكالا ومضامين أخرى مع نهايات القرن العشرين إلى يومنا هذا، وقد وجد أن أنواع الإدمان صارت متنوعة متشعبة، وصارت كل أنواعه تنتمي إلى المفهوم المعرف بأنه اضطراب سلوكي من قبل الفرد، بغض النظر عن العواقب الضارة بصحة الفرد أو حالته العقلية أو حياته الاجتماعية. ويكون الإدمان إما عن حالة بيولوجية أو دوائية أو اجتماعية, ويوجد أنواع من الإدمان الجسدي، تسبقه ، الحالة الدوائية، فيأتي عن طريق الإفراط في تناول العقاقير والمنشطات والمهدئات، وما شابهها من أدوية قد يساء في آخر الأمر التصرف بها.

الإدمان النفسي تسبقه حالة بيولوجية، فيكون الفقر أو التشرد أو عدم الاستقرار هو العامل القوي في حدوث مثل ذلك الخطر، فينتج عنه إرهاق في الأعصاب، قد يؤدي إلى الانهيار أو الكآبة، ويأتي من خلال المرض النفسي إدمان المشاهدة، وتسبقه حالة اجتماعية، تتوالد من حالات الفراغ وعدم الانشغال، والتي تأتي من عدم توافر فرص العمل، أو من الكسل الدائم لدى الفرد، أو عن طريق عدد ساعات الفراغ التي تعقب ساعات العمل.

إدمان الإنترنت، تسبقه حالة ترفيهية، ينتج منها الولوج والانجذاب إلى العالم المعلوماتي والانشغال به إلى حد الهوس، حتى

نكاد نرى الكثير في المواصلات العامة يستخدم الهواتف والمحمول في الدخول على الإنترنت، إلى الحد الذي دفع الكثير إلى التفرغ الكامل للإنترنت، وقد جمعت كلها تحت سيطرة السلوك فمن خلاله يتم التقييم وطرق العلاج لكل حالات الإدمان.

الأسرة والإدمان

الزواج من عوامل الاستقرار التي تقلل من نسب حدوث الإدمان، فالمتزوجون عموما أقل إدمانا وأفضل التزاما بالعلاج إن أدمنوا، وأقل عودة بعد العلاج من غير المتزوجين، ولقد كانت عواقب الإدمان في الحياة الأسرية كبيرة الحجم كثيرة المشاكل، وقد تبين أن الاختلاط الدوائي بالمنزل من أخطر الأسباب في حدوث مكروه لأفراد الأسرة، إذ هو الذي يدفع الأم إلى أن تتناول أقراصا مخدرة عن طريق الخطأ، أو يتناول الطفل المخدر الذي يتناوله والده أسوة به، أو يكون الأب قد خبأ المخدر في علب الحلوى أو ما شابه، وينتج عن ذلك إصابة أفراد الأسرة بالأمراض إلى جانب سقوط الحاجز التربوي والمعنوي لدى أفرادها، مما ينتج السلوك العدواني، وسوء استعمال الدواء المخدر غير المضبوط، وهذا بدوره يؤدي إلى مضاعفات خطيرة، قد تودي بحياة الفرد، إن مكونات أنواع الإدمان الصعبة تحتاج إلى تعميق الاستكشاف والفهم من الناحية العصبية وغير العصبية، فالواجب على كل أفراد الأسرة أن يتوخوا الحذر من تعاطي الأنواع المخدرة؛ سواء أكانت للعلاج أو كان أحد أفراد الأسرة مصابا بالإدمان. وفي محيط الأسرة نجد الكثير جدا من حالات إدمان المشاهدة والإنترنت، وسنوضح تاليا بعض الأسباب.

إدمان المشاهدة

هي حالة من الانجذاب السمعي والبصري، والتي ترسل إشارات للمخ تدخل المشاهد في الحدث، فإذا كان هناك دموع وحزن صار هو الآخر يبكي، وإذا كان هناك جريمة فربما يكون الشرطي، لأن المشاهدة ما هي إلا حالة من الإثارة السمعية والبصرية تدخل المخ في حالة من الاندماج، على الرغم من عدم مصاحبتها لنشاط حركي، وفي إحدى الدراسات وجد أن إدمان التلفاز يعد أحد أهم الأسباب التي تنتج حالة من التشتت وعدم الانتباه لدى الأطفال حينما يطلب منهم أداء واجباتهم المدرسية، إذ نجدهم أبعد ما يكونون عن الاستجابة، لا لمجرد أن ذهنه مشغول ولديه رغبة في ترك دروسه من أجل متعة المشاهدة فحسب، ولكن لأن هذا الوقت الذي قضاه أمام التلفاز ومع حالات الانفعال التي بذلتها الأعصاب يحدث نوع، من الاضطراب في الانتباه، ويؤثر على التركيز وينهك وظائف المخ.
لذا يكون المخ بحاجة لاستعادة نشاطه الذي استهلكه في مشاهدة التلفاز، إن التأثير لا يكون تأثيرا نفسيا فقط، بل يتعداه ليصبح تأثيرا عضويا ونفسيا؛ فإن ناديت على من يشاهد التلفاز ستجده لا يستجيب، وهو أيضا لا يتجاهل الرد، بل هو لا ينتبه أيضا، وهذا بسبب انتباه كل الحواس إلى المشاهدة فقط.

إدمان الإنترنت

يؤدي إلى اضطرابات في السلوك. وهو ظاهرة قد تكون منتشرة تقريبا لدى جميع المجتمعات في العالم، بسبب توفر الخدمة المفتوحة في كثير من البلدان، إلى جانب أجهزة الحواسيب التي في كل بيت، وإن لم يكن الحاسوب موجودا في كل بيت فيكفي للفرد الهواتف الداعمة للشبكة العنكبوتية أو الذهاب إلى أحد المقاهي المنتشرة في كل مكان، والتي توفر لهُ استخدام الإنترنت.
وترجع ظاهرة الإدمان لعدة أسباب: الانجذاب إلى العالم، المعلومات، الملل، الفراغ، الوحدة، أو المغريات التي يوفرها الإنترنت للفرد، وغيرها الكثير، حسب ميول الفرد.





السعادة على أنقاض الآخرين

تحقيق : منير أديب

كثيرًا ما نقابل في حياتنا نماذج غريبة من البشر تبني سعادتها فوق تعاسة الآخرين دون أن تشعر بذنب أو وخز ضمير، فهذا رجل يحيك المؤامرات لزميله حتى يطيح به من منصبه ويستولي عليه لنفسه، وهذه امرأة تنسج الأكاذيب والافتراءات حول ابنة زوجها حتى يتم طردها ويخلو لها البيت غير مبالية بما لحق البنت من أذى أو تشرد، وذلك الأخ ينجح في حرمان شقيقه من ميراث والده ويستحوذ عليه لنفسه، وتلك الفتاة تغدر بصديقتها وتستولي على خطيبها بعد أن تبوح له بأسرار ائتمنتها عليها، وغير ذلك من النماذج الشريرة التي لا تتوانى عن إلحاق الأذى بالغير طالما تحققت لها السعادة!

في هذا التحقيق نناقش تفاصيل الحالة النفسية لهذه النوعيات من البشر، هل هم مرضى نفسيون أم ضحايا لمؤامرات سابقة أرادوا الانتقام؟ لماذا لا يشعرون بتأنيب الضمير؟ أليس لهم طرق أخرى لتحقيق السعادة بعيدًا عن تعاسة الآخرين؟ وما ردود أفعالهم إذا وقعوا ضحايا لبشر ينتمون إلى الفصيل نفسه؟

فإلى نص التحقيق..

سعادة فوق تعاسة

يقول سامي محفوظ: النماذج التي تريد أن تبني سعادتها على تعاسة الآخرين منتشرة في المجتمع بشكل عجيب، فأينما ذهبت تجدهم في العمل والشارع وحتى في النادي وداخل المنزل.

ويضيف: بعضهم يتودد إلى مدير العمل، ويقوم بنقل أخبار باقي الموظفين من أجل أن يكتسب ثقته وتصبح علاقته به أقوى من علاقة باقي الموظفين، وهذه النوعية بلا شك يكون لها ضحايا، لأنها نجحت في بناء سعادتها على تعاسة الآخرين.

وذكر أن هذه النوعية من البشر لا يجدون ما يقدمونه لبناء سعادتهم غير التقرب لمديري العمل على حساب تعاسة الآخرين، وهذه النماذج من كثرتها لم تعد غريبة، فأصبحت منتشرة في كل مكان.

وقالت وفاء محمود: هؤلاء التعساء الذين يبنون سعادتهم على تعاسة الآخرين، رغم سعادتهم التي تبدو للبعض فإنهم تعساء، وأهم علامات تعاستهم أنهم لا يشعرون بوخز الضمير أو تأنيبه، وبالتالي يتمادون في أفعالهم التي تخلق بينهم وبين الناس حاجزًا كبيرًا.

وأضافت أنها تعرضت لموقف مؤلم من زميلتها في العمل والتي كانت تتقرب لمديرها باستجابتها الدائمة لابتزازه حتى تم ترقيتها، وبدأت من وقتها تمارس عادتها السيئة في نقل أخبارنا، فكلما نقلت أخبارًا عنا ضيق ذلك علينا، وبنى لها مكانة عند رئيسها في العمل.

ولفتت إلى أن الافتراءات التي كانت تنسج يومًا بعد الآخر حولنا أغلبها لم يكن حقيقيًا، غير أن هدفها كان معروفًا بالنسبة لنا، هو أن تلك الزميلة تريد لنفسها مكانًا ومكانة عند مديرها على حساب تعاسة باقي زملائها ولا يقلقها ما تعرضنا ونتعرض له جراء ما تصنعه بنا.

تقول سمية عبدالرحمن: تعرضت لموقف ترك أثرًا بداخلي، فرغم مرور الأيام لا أستطيع أن أنساه، وكان

امـرأة تنسج المؤامرات كي تتخلص من ابنة زوجها وآخر يحرم أشقاءه من الميراث وفتاة تغدر بصديقتها وتستولي على خطيبها

ملخصه أن والدي تزوج بامرأة غير والدتي التي وافتها المنية، ولكن للحظ العاثر كانت هذه المرأة تحاول إيذائي معنويًا، وعزمت على طردي من البيت، فكنت أفاجأ يومًا بعد الآخر أنها تنسج الأكاذيب التي دفعت والدي لأخذ قرار بأن أذهب لجدتي كي أعيش معها.

وأضافت: كنت في سن مبكرة، ولم أعرف شكل ولا حجم المؤامرات، ولكنني أدركتها بعد ذلك، وعندما فاتحت والدي فيما كانت تفعله زوجته نهرني، ومن بعدها قررت ألا أعود إليها مرة ثانية، فما حدث ترك جراحًا عظيمة بداخلي لم يداوها الوقت.. فكيف لزوجة والدي أن تبني سعادتها على تعاستي؟ وكيف لوالدي أن يصدقها؟ فأظلم من أقرب الناس لي.

يقول سامح عوض: تعرضنا للتعاسة منذ كنا صغارًا عندما مات والدنا، فسيطر أخونا الأكبر على كل شركاته، ومنذ بدأنا نعي الحياة رفض أن يعطينا حقوقنا بدعوى أنه الذي بناها بعرقه ودمه، وأن والده لم يترك إلا القليل من المال، فترك أصول الشركات من أرض وخلافه ولم يترك مالاً.

وذكر: منعنا من الحصول على ميراث والدنا، ولم نأخذ سوى الفتات، فرغم أن أخانا معه ملايين الجنيهات ويعيش في أقصى درجات السعادة فإننا نعيش في تعاسة بعدما منع هذه الأموال عنا، فبنى سعادته وسعادة أولاده على تعاستنا.

وذكر أن هذه النوعية من البشر موجودة في كل مكان، فكما أن هناك من يطمع في الكثير، فإن هناك من يطمع في القليل، فيبنون سعادتهم على تعاسة الآخرين حتى وإن كانوا أقرب الناس إليهم.

ومن النماذج الشريرة، ما حدث بين صديقة وأخرى، كما تحكي أميرة صادق بقولها: كانت لي صديقة أحكي لها كل شيء في حياتي فائتمنتها على كل كبيرة وصغيرة، ومن ضمن ما حكيته لصديقتي عزم أحد الأطباء في المستشفى التقدم لخطبتي.

وأضافت: تقدم زميلي للخطبة ووافقت بالفعل، وحدث ما حدث من مواقف عندما تقدمت أسرته، وكنت أحكيها لصديقتي التي فوجئت بها تنسج خيوطها حوله وتنقل ما أحكيه له، حتى فسخ الخطوبة معتبرًا أنني أنقل أسراره، وعندما واجهتها بما فعلت أنكرت في البداية، حتى إنها بدأت تقول لي إنه يحبها وقد عرض عليها الخطوبة.

ولفتت إلى وجود أمور خاصة في الحياة من الصعوبة أن يحكيها الإنسان لغيره حتى لا يستخدمها ضده مهما كانت علاقته بهذا الشخص من الحميمية، فالنفس أمارة بالسوء والناس تريد أن تخطف ما في أيدي الآخرين، فتتحول هذه العلاقة القوية إلى علاقة دميمة بسبب أن أحد طرفي العلاقة يريد أن يأخذ ما في يد الطرف الآخر.

تقول سلام عبدالستار: صديقتي تعرضت لمؤامرات كثيرة في حياتها، وكانت تحكي لي ما تعرضت له، وكنت أشفق عليها من حجمها وتأثيرها على حياتها، والأغرب أنني فوجئت بصديقتي التي تعرضت للمؤامرات تستخدمها ضدي، وكأنها لم تصب بمؤامرات من قبل، وهذا إن دل فإنما يدل على طبيعة نفسيتها المريضة.

وتضيف: اكتشفت أنها تعاني من مرض نفسي يدفعها دائمًا للتبرير والانتقام من الآخرين، رغم أنها تعرضت لظلم عظيم، من المفترض معه ألا تظلم الآخرين أو تعاملهم بالطريقة التي عوملت بها وتألمت بها كثيرًا.

وأكدت أنها راعت ظروفها النفسية وحجم الآلام التي تعرضت لها، وبالتالي لم ترد على انتقامها بانتقام آخر، وفضلت أن تكون مستقبلة للآلام فقط، رغم أنها لم يكن لها أي ذنب فيما لحق صديقتها على مر الزمان من باب التخفيف عنها، وحتى لا تزداد حالتها النفسية سوءًا على ما هي عليه.

الجزاء من جنس العمل

يقول الشيخ جمال قطب، رئيس لجنة الفتوى الأسبق بالأزهر الشريف: إن الأشخاص الذين يبنون سعادتهم على تعاسة الآخرين أولئك يملأهم الحقد والأنانية وكره غيرهم، وهذه صفات مذمومة في الإسلام وغالبًا ما يكونون تعساء في حياتهم، يتوهم غيرهم أنهم سعداء، ولكنهم في الحقيقة تعساء بسبب أفعالهم التي تخلق حاجزًا بينهم وبين الناس، بل تخلق حاجزًا بينهم وبين خالقهم، فيحرمهم من السعادة كما تسببوا في حرمان غيرهم.

ويضيف: إن الله وعد في قرآنه الكريم بأن من يؤذي المؤمنين في شيء فقد حمل بهتانًا وظلمًا مبينًا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾(الأحزاب: ٥٨)، وينطبق ذلك على أولئك الذين يتوهمون أنهم يصنعون سعادتهم على تعاسة الآخرين، وهي تعاسة وبهتان، فيحرم منها في الدنيا وله عقاب في الآخرة.

وأنهى كلامه بأن السنن الكونية والإلهية تحث الناس على صناعة الخير في أهله وليس الشر، فمن يصنع خيرًا في الناس يجده أضعافًا مضاعفة، ومن يفرج كربة من كرب الدنيا يفرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يكن في عون عباده يكن الله في عونه ويجزل له العطاء.

الحب لغة الإسلام

د. عمر تدرارني
المملكة المغربية

حاشاه كيف يكون دين عنف أو إرهاب للناس أو كره أو حقد، وهو بكل وضوح يربي أتباعه على الخير والحب والدفع بالتي هي أحسن، يقول سبحانه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾(فصلت: ٣٤-٣٥)، هو دين يدعو إلى الإحسان للناس وللحيوان والبيئة والكون كله، بل حتى في موقع القصاص يدعو إلى الرحمة في تنفيذ الحكم، وينهى عن المثلة في الحرب أو تعذيب الأسرى، ويوصي أهله بإحسان القتلة والذبحة، يقول ﷺ مبينا رحمة الإسلام في الذبح والقتل: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»(صحيح مسلم).

إن هذا الدين الذي ارتضاه الله لنا يقوم على الحب ويقصد إليه في كل تشريعاته، وفي دعوته الناس إلى اتباعه ينطلق من الحب ليصل إلى الحب، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران:١٥٩). ومن عرف الإسلام حق المعرفة يستحيل أن يعرف معنى للبغض، بل علمنا هذا الدين العظيم أن نحقد على معاصي الناس وليس على الناس.

والذي بعثه الله رحمة للناس لا يمكن أن يكون عذابا يحمل في قلبه حقدا وبغضا لهم، والذي يحرص على الناس أن يدينوا بدين الإسلام ويدعوهم إليه لا يمكن إلا أن يكون صاحب قلب كبير يسع الجميع، عربهم وعجمهم صغيرهم وكبيرهم الطائع منهم والعاصي.

الدعوة إلى الله هي الحب

إن حب الجنة للناس هي منطلق الدعوة إلى الله، فالداعية إلى الله ليس قاضيا يحاكم الأفراد والجماعات ويحاسبهم على سرهم وعلنهم، ولا جلادا يتمنى أن يرى الناس صرعى بين يديه، بل يسعى جاهدا أن ينقذ الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

والـذي قـال عنـه تعـالـى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾(التوبة: ١٢٨)، لا يمكن له إلا أن يوجه أتباعه أن يقتدوا به ويسيروا على نهجه، فهو منبع الرحمة والحب، فقلبه لا يعرف عليه الصلاة والسلام كرها أو حقدا على أحد من الناس.

فتح القلوب قبل فتح البلدان

ذلك هو منهجه عليه الصلاة والسلام في دعوة الناس إلى دين الله، حتى وفدوا عليه أفواجا يهللون ويكبرون، وقريش بكبار مجرميها بين يديه، كانت تعرف مدى سعة قلبه، إذ لما سألهم يوم الفتح: ما ترون أني فاعلٌ بكم؟ قالوا بلا تردد: أخ كريم وابن أخ كريم، وهم أدرى الخلق به، فرغم ظلمهم له وعدوانهم عليه وعلى أصحابه، لا يجيبهم إلا ب: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»(١)، ونظن اليوم أن أحدنا لو ظلم ظلما شديدا مثل ما ظلم عليه الصلاة والسلام لن يكون جوابه في مثل ذلك المقام إلا القصاص، وهذا في أحسن الحالات، ولكنه محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام، الذي جاء بهذا الدين واستوعب كل معانيه حتى أصبح قرآنا يمشي على الأرض.

وهناك مثال واضح بين على ذلك القلب الذي لا يعرف الحقد، في قصة عودته من الطائف لما اعتدوا عليه وسلطوا عليه ذراريهم وسفهائهم، إذ أرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق عليهم الأخشبين، لكنه ﷺ يجيب بجواب عظيم، يحمل أسمى معاني الحب الذي يحتاجه اليوم الأفراد والجماعات لينعموا بالخير كله، في الدين والدنيا، إذ قال: «لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئا»(٢).

حب الناس يعني حب الخير لهم

إن دعوة الإسلام جاءت لإخراج الناس من الظلم والظلمات إلى فضاء العدل والنور، عدل ينطلق من حب الخير وبسطه بين أفراد المجتمع، عدل يقوم على أساس الحب ونبذ البغض، ونور نبلغه بفضل حب الله وحب رسوله وحب الناس.

ومحمد ﷺ معين لا ينضب من الحب، فكل من عاشره أحبه لأنه صادق في حبه للعالمين، وفيه تحقق قوله «يأيها الناس إنما أنا رحمة مهداة»(٣)، وكفى العالمين موعظة قوله ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»(البخاري).

هل من علم الناس هذا الخلق وجعل مقاطعتهم وعدم الحديث معهم من المحرمات يعرف معنى الكره والبغض –معاذ الله– أن يكون الذي اصطفاه ربه كذلك، وخلقه العظيم الذي وسع به الناس يمنعه من ذلك، وقد زكاه تعالى من فوق سبع سموات لما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم: ٤).

حكى القاضي عياض أن النبي ﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شقا شديدا وقالوا: لو دعوت عليهم فقال: «إني لم أبعث لعاناً، ولكني بعثت داعيًا ورحمةً، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»(٤).

حب الأهل من الإسلام

إن الذي شمل حبه الناس ومنع نفسه عن أذاهم، لابد أن يكون الذي بين جوانحه قد ملأ بيته وأهله قبل غيرهم، ولا يخفي ﷺ حبه لأهله، بل يجاهر به ليعلمنا معاني تخفى على الكثير منا.

يقول الصحابي الجليل عمرو بن العاص: بعثني رسول الله ﷺ على جيش ذي السلاسل، وفي القوم أبوبكر وعمر، فحدثت نفسي أنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمنزلة لي عنده، فأتيته حتى قعدت بين يديه، فقلت يا رسول الله، من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة قلت: إني لست أسألك عن أهلك، قال: فأبوها، قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر، قلت: ثم من؟ حتى عد رهطا، قال: قلت: في نفسي لا أعود أسأل عن هذا(٥).

وفي حب الأبناء والأحفاد نجده ﷺ الأب الرحيم والجد العطوف الذي لا يستحيي أن يظهر حبه الشديد لذويه، رأى الأقرعُ بن حابس النبي ﷺ يقبل الحسن رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، لي من الولد عشرة، ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»(٦).

تعليمه ﷺ أتباعه معاني الحب

القلب الذي لا يعرف إلا الحب قلب محظوظ مأجور، وعكسه مذموم تائه مأزور، كان محمد عليه الصلاة والسلام يعلم الناس المحبة ليسود الوئام والود بين أفراد المجتمع، بل يأمر الواحد منهم إذا أحب أخا له أن يخبره، قال ﷺ: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه»(سنن أبي داود).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أيضا أن رجلا كان عند النبي ﷺ فمر به رجل، فقال: يا رسول الله، إني لأحب هذا. فقال له النبي ﷺ: «أعلمته»؟ قال: لا. قال: «أعلمه». قال: فلحقه فقال: إني أحبك في الله. فقال: أحبك الذي أحببتني فيه(مسند أحمد).

حب الكون

لم يقتصر الحب في الإسلام على الإنسان فقط، بل تجاوزه إلى الأوطان، لقد أشار ﷺ إلى تلك المحبة لما أخرجه القوم من بلاده التي يحبها مهاجرا إلى المدينة المنورة فقال: «اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إلي، فأسكني أحب البلاد إليك». فأسكنه الله المدينة(٧)، والأعظم من هذا كله لما تجد النبي ﷺ يحب بعض الأماكن ويخصها بالذكر ويعلنها لصحابته الكرام، يقول مثلا في أحد: «وهذا أحد وهو جبل يحبنا ونحبه»(٨).

الهوامش

١- السيرة النبوية، تهذيب ابن هشام ٤١/٤.
٢ - مختصر زاد المعاد، محمد بن عبدالوهاب ص ١٠٤.
٣ - المستدرك للحاكم، كتاب الإيمان (صحيح على شرط الشيخين).
٤ - الشفا للقاضي عياض ٢٢١/١.
٥ - دلائل النبوة للبيهقي ١٠٤/٤.
٦ - السيرة الحلبية ٢١٩/٣.
٧- دلائل النبوة ٥١٩/٢.
٨ - دلائل النبوة ٢٣٩/٥.



اختبار كاشف الأسرار!

هنادي الشيخ نجيب
باحثة لبنانية

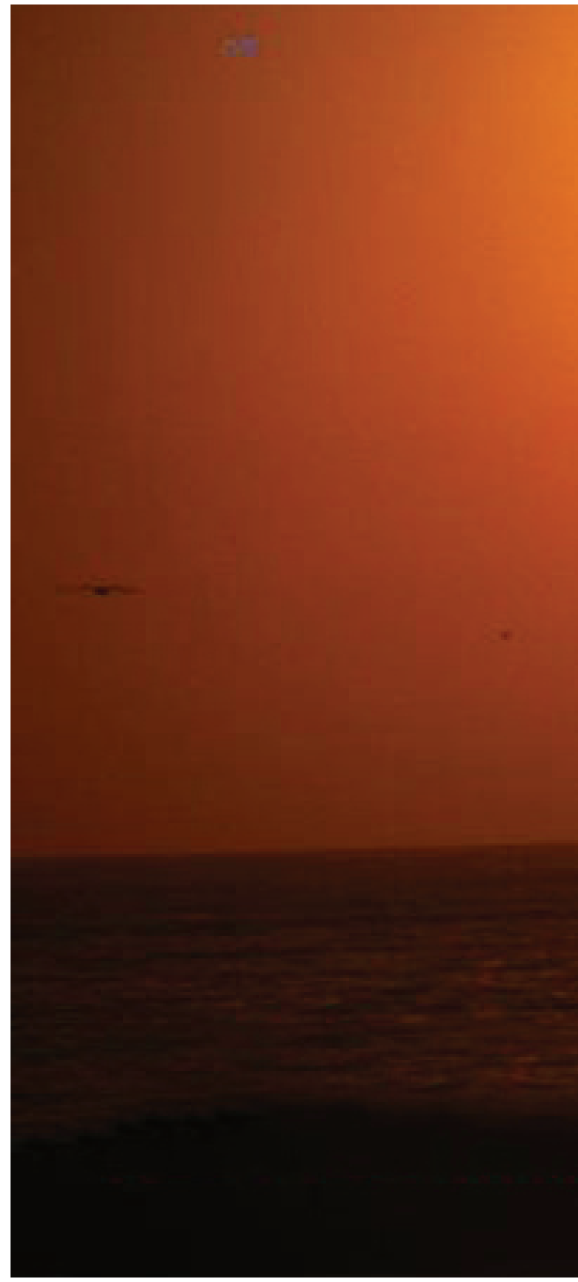
حالة عجيبة تعترينا، منذ فترة طويلة؛ لكنها استأسدت علينا، ولم نعد نجد للخلاص منها وسيلة! وقد انتهزت شياطين الإنس والجن الفرصة، فوسوست، ونفخت سمومها، لتزيد في قلوبنا الغصة! كل القصة أننا نشاهد ليل نهار، على الفضائيات وبقية وسائل التواصل الاجتماعي، جملة من الأخبار، يشيب منها الولدان، وتدمع لها العينان، ويعجز لفظاعتها اللسان، وتغشانا جراءها الحيرة، فينتهك قلعة توحيدنا التشكيك، وتستنهضنا الغيرة، لكن أوصالنا قد بترها التردد والتفكيك!

رأينا الأطفال يذبحون، والشيوخ يعذبون ويقتلون، ولا يحفظ للنساء أي ستر، وتصير أمنية الواحدة منهن قبرا! وبينما تلفنا قلة الحيلة، ويخنقنا الضعف، يدور في أذهاننا هذا السؤال المخيف: لماذا يا رب؟ أين الحكمة يا الله؟، ثم تمتد يد المستتكر علينا، ويوقظنا بكلماته: أفي الله شك؟!، فننتبه ونجيب: كلا، أبدا، حاشا لله، قيوم السموات والأرض.

لكننا نريد- يا إخوتي- أن تطمئن قلوبنا، وتشفى من شكها صدورنا، وتنزع الريبة من عقولنا، فكيف السبيل إلى مطلبنا؟ هاتوا برهانكم وأنقذونا من دوامتنا!

وكيف نقنع من وصل بهم الأمر إلى التشكيك بربنا وخالقنا، بسبب عدم إدراكهم للحكمة مما يجري لنا ولأمتنا؟!

الموقف- قراءنا الكرام- ليس



يسيرا، والخوض فيه سيكون عسيرا، لكن الواجب يقتضي أن نوغل فيه برفق وروية، وأثارة من علم رباني ينجي من الضلالة، ويقي من الحور بعد الكور..

أحب أن أبدأ بقصة قصيرة تقرب المقصود، وتسهل علينا تحليل عناصر القضية.

ذهب رجل إلى الحلاق ليقص شعر رأسه، ويهذب لحيته، وما إن بدأ الحلاق بمزاولة عمله، حتى صار ينتقل من حديث إلى حديث، ومن موضوع إلى موضوع، ووصل إلى الكلام عن وجود الله تعالى.

قال الحلاق: أنا لا أؤمن بوجود الله!

استفهمه الزبون: ولماذا تقول ذلك؟!

أجاب الحلاق: يكفي أن تخرج إلى الشارع وتراقب الناس، لتدرك أن الله غير موجود! قل لي: إذا كان الله موجودا، فلماذا يسمح بهذه الأعداد الغفيرة من الأطفال المشردين والمقهورين؟! ولماذا ترى أناسا مرضى، وشيوخا معذبين؟! أنا لا أتصور كيف يسمح إله بمثل هذه الآلام والأوجاع!

فكر الزبون للحظات، ثم لاذ بصمت عميق، ولم يرد على الحلاق، حتى لا يحتد النقاش، ويخرج الأمر عن السيطرة، ويصل إلى ما لا تحمد عقباه!

وبعد أن أنهى الحلاق عمله وأخذ حسابه، خرج الزبون من المحل، فشاهد في الشارع رجلا طويل شعر الرأس كأنه ليفة، كث اللحية، قذر المنظر، أشعث أغبر، فرجع من فوره إلى صالون الحلاقة وقال لصاحبه وهو يشده إلى الخارج: هل تعلم أنه لا يوجد حلاق أبدا؟! أجابه الحلاق متعجبا: كيف تقول ذلك! وأنا... ماذا أفعل هنا؟! ألم أحلق لك قبل دقائق؟!

قال الزبون: لو كان هناك حلاق، لما وجد هذا الرجل بشع الهيئة وأمثاله يتجولون في الطرقات! علق الحلاق على كلام الزبون موضحا: بل الحلاقون موجودون، وإنما حدث مثل الذي رأيته عندما لا يأتي هؤلاء إلي لكي أحلق لهم! هز الزبون رأسه واستأنف الحديث:

وهذا التفسير ينطبق تماما على كلامك المتعلق بوجود الله؛ فالله تعالى موجود، ولكن يحدث الذي ذكرته من المآسي عندما يعرض الناس عن ربهم، ولا يهتدون بتعاليمه في حياتهم، ويعارضون مشيئته، ويحيدون عن سبيله.. ولا يكون اللجوء إليه بالدعاء فحسب، بل يكون بحسن الظن وجميل التوكل، والاطمئنان لمقاديره في خلقه!.

قراءنا الأفاضل، لقد ثبت لدينا بالدليل القاطع، أنه لابد للصنعة من صانع.. فمن رأى السماء مرفوعة، والأرض موضوعة، وشاهد الآيات المحكمة في نفسه وجسده، وفي كل شيء حوله، أقر دون أدنى شك أن المبنى يحتاج إلى بانٍ.. لكن العقل يتطلع دائما لمعرفةٍ جميع حكم الله في كونه، فإذا لم يتبين له، وقف متحيرا متسائلا، ولربما نفث الشيطان في روعه، وأدخله مداخل التشكيك بربه!

فإذا شرد أحدهم عن الطريق القويم، من أين علينا أن نبدأ التقويم؟!

إن الله تعالى يريد اختبارنا ليعرف أسرارنا ويمتحن إيماننا.. وبالتوكل- وهو صنو الإيمان- يستقر إسلامنا، وتسكن أرواحنا، وتطمئن قلوبنا.

فالتوكل هو نفي الشكوك، والتفويض إلى ملك الملوك.. وهو الثقة بالله، والسكون إليه، والاسترسال مع الله وفق ما يريد.

سئل أحد التابعين عن التوكل، فقال: قلب عاش مع الله بلا علاقة أخرى!

وسئل آخر: متى يكون الرجل متوكلا؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلا.

خلاصة القضية -إخوتي وأخواتي- أن الله تعالى يمهل، فنرى يد البغاة مطلقة كأنه لا مانع، ثم يأخذ أخذ جبار، وإنما كان الإمهال ليبلو صبر الصابر، وليملي للظالم، فيثيب هذا على صبره، ويحاسب ذاك على قبيح فعله!

ورحم الله الإمام الحسن البصري، فهو القائل: كان الناس يتساوون في النعم، فإذا نزل البلاء تباينوا.

إن المطلوب منا أن نتباين ونتمايز بقوة إيماننا، وعظيم توكلنا، وحسن ظننا واطمئناننا لأقدار الله فينا، وأن نعمل عقولنا على قدر قوتنا في مطالعة ما يظهر لنا من الحكم، ونسلم فيما يخفى علينا، فحقيق بذي البصر الضعيف ألا يغالب نور الشمس، كما قال ابن الجوزي. وحسبنا قبل ذلك وبعده قوله جل من قائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾(آل عمران:١٥٩).



تحقيق ميداني من قلب القاهرة:

حكاية الشجرة الملعونة في حارة اليهود

تحقيق : بسمة رمضان
صحفية مصرية

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله إلا «الغرقد» فإنه من شجر اليهود» (رواه مسلم).

وشجرة «الغرقد» كما ذكرها رسول الله ﷺ في حديثه هي شجرة يقوم اليهود بزراعتها في الأماكن التي يمارسون فيها طقوسهم الدينية، خوفًا من قتال المسلمين قبيل يوم القيامة، ومن هذه الأماكن بعض المعابد القديمة التي مازالت تمتلكها الطائفة اليهودية في مصر، وتحديدا في «حارة اليهود» بحي الجمالية، وقد أطلق عليها هذا الاسم حيث كانت مكان تجمع اليهود المصريين منذ عام ١٨٨٤م الذين اشتهروا بأعمال النحاس والزخرفة، وظلوا بها حتى حرب ١٩٤٨م.

وبعد رحيل معظم اليهود عنها تبقت بعض معالمهم الدينية، ومنها معبد «حاييم كابوس» الذي يقع بحارة اليهود، وهو المعبد الذي يوجد بداخله شجرة ضخمة، قيل إنها إحدى أنواع شجر «الغرقد» اليهودي.

ولهذه الشجرة قصة مثيرة، فهي مزروعة في حوش المعبد وتخرج أغصانها منه، لدرجة أنها تظلل أجزاءً من المنازل المجاورة للمعبد، وهو ما دفع بعض أهل المنطقة إلى دخول المعبد، وقص فروع هذه الشجرة، بل قام بعضهم بجزها، ولكنها ما تلبث أن تنبت من جديد، وتعود إلى حجمها الكبير.

«الوعي الإسلامي» زارت حي الجمالية، وتحديدا «حارة اليهود» التي تتكون من العديد من الأزقة الضيقة، وتمتلئ بمحلات تجهيز العرائس وبيع الذهب الصيني، وتوجهت إلى معبد «حاييم كابوس» لاستطلاعه كأثر تاريخي عمره حوالي ١٢٠ عامًا، أطلق عليه سكان المنطقة «المعبد المهجور». وعند وصولنا وجدنا المعبد محاطا بأكوام من القمامة،

المعبد اليهودي مهجور والعامة يتحدثون عن أرواح تحميه

ورأينا شجرة كبيرة تطل من داخله، وتعلوه قبة كبيرة، وبعد استئذان سكان المنزل المواجه للمعبد صعدنا إلى سطح المنزل وصورنا المعبد، ثم تحدثنا مع بعض أهالي المنطقة حول قصة هذا المعبد وشجرته الضخمة.

عم «صالح» صاحب مقهى مواز للمعبد وأحد المخضرمين بالمنطقة، يقول: منذ سنوات كان المعبد عليه حراسة مشددة، وكان من الممنوع السير أمامه.. ولكن في الأعوام الأخيرة اختفى الوجود الأمني، وأصبح المكان مقصدا لإلقاء القمامة، ومع ذلك مازال هناك بعض اليهود يقبلون عليه في أعيادهم يوم ٢٢ ديسمبر، بسبب الشجرة التي بداخله، فبعض اليهود يزعمون أنهم يأتون إليها لكي يحدثوها وتحدثهم، ويزعمون أنها شجرة مباركة.

وساعدهم على ترويج هذه الرواية قيام بعض أهالي المنطقة بقطع الشجرة عدة مرات، ولكنها تعود مرة أخرى سريعًا لحجمها، وهو ما أثار دهشة جميع أهالي الجمالية.

وبالحديث مع «نجيب عبدالملاك»، مهندس معماري وأحد رواد المقهى، قال: هذه الشجرة هذه إحدى خرافات اليهود، مثل حائط المبكى بالضبط، يعني «يكذبون الكذبة ويصدقونها»، والحقيقة العلمية أنا أعلمها تمامًا، وهي أنه كان هناك منذ زمن طويل فرع من نهر النيل يبدأ من شارع الأزهر وينتهي عند

«قصة حارة اليهود»

«حارة اليهود» حي بجوار شارع الموسكي بالقاهرة، والآن أصبحت تابعة لحي الجمالية، وتلك الحارة لم تكن صغيرة كما قال البعض، فهي لم تكن أبدًا حارة بالمعنى اللفظي للكلمة، وإنما حي كامل يضم حوالي ٣٦٠ حارة متصلة ببعضها كما يؤكد السكان.

وقسم يهود مصر تلك الحارة إلى ثلاث شياخات هي: شياخة اليهود الربانيين، وشياخة اليهود القرائين، وشياخة «اليهود المغاربة»، وهم الذين يعتنقون الديانة اليهودية، وعلى الرغم من أن العديد منهم قد هاجر إلى «إسرائيل» فإنهم مازالوا يحتفظون بمعابدهم الدينية الأثرية، بالإضافة إلى الأحياء القديمة التي كانوا يعيشون فيها، ومنها الحي اليهودي بوسط المدينة القديمة بالدار البيضاء، وهذا الحي يضم أكثر من ٣٠ بيتًا كان يعيش فيه العديد من المغاربة اليهود، وهذا الحي قديم جدا محاط بالأسوار وله عدة منافذ، وكان قديمًا ومخصصًا لليهود الذين هجروه فيما بعد.

وذلك المكان له طابع خاص بالمقارنة مع الأحياء الأخرى، حيث يتميز بأجوائه الحيوية التي يحدثها التجار والباعة المتجولون في أزقته التي تعج بالزبائن.

وفي هذا المكان يقع معبد حاييم كابوس الذي ينسب إلى الحاخام الذي توفي في مصر عام ١٦٣١، ودفن بمنطقة حوش الموصيري بالبساتين.

واعتاد اليهود أن يزوروا مقبرته يوم «عيد الغفران» ويبيتوا فيه عدة ليالٍ كل عام، لأنه كان يحظى بمكانة روحية كبيرة عندهم، حيث كانٌ دائم الصلاة وقراءة التوراة حتى فقد بصره، وظل مستمرًا في روحانياته حتى عاد بصره مرة أخرى- كما يقولون.

ويتميز المعبد عن غيره بأنه شُيد على طراز المعابد الإيطالية، حيث زينت قاعاته من كل جهة بأعمدة رخامية يتوسطها دولاب خشبي لحفظ أسفار التوراة، وينقسم من الداخل إلى مستويين: الأول أرضي، وكان يستخدم كقاعة مركزية وبه الهيكل والمنصة. أما المستوى الثاني فكان يستخدم كمصلى للسيدات.

والمعبد حاليا مغلق بمعرفة الطائفة اليهودية، ولا تقام به أي شعائر دينية منذ سنوات.

والجدير بالذكر أنه من المقرر أن يبدأ المجلس الأعلى للآثار في ترميمه، حيث تم وضعه في قائمة المعابد التي يجري إعداد مشروع الترميم لها، خاصةً أن حالته سيئة وبحاجة إلى الترميم الشامل في جدرانه وأرضياته وجميع عناصره المعمارية بعد أن تم تسجيله كأثر تاريخي بالقرار الوزاري رقم ١٨ لسنة ١٩٧٨.

ولكن الغريب في الأمر أن اليهود مازالوا يتوافدون عليه من جميع أنحاء العالم بسبب الشجرة العملاقة الموجودة بداخله.

فهذه الشجرة لا ساق لها كباقي الأشجار وإنما هي شجيرة جاثية على الأرض متشابكة العروق والأطراف بها شوك، ولها رائحة كريهة بعض الشيء ولا ثمار لها، كما هي بالصور.

«معبد موسى بن ميمون»

بالمرور داخل الأزقة وجدنا معبدًا آخر لليهود، له قصة مختلفة، هذا المعبد يسمى «معبد موسى بن ميمون»، ويقع على بعد أمتار قليلة من دير مارجرجس التاريخي بحارة اليهود، وبجواره مدرسة العدوي الابتدائية التي كانت واحدة من ضمن أقدم مدرستين ابتدائيتين في حارة اليهود، وهو أقدم كنيس تم بناؤه في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي، وصاحبه من أشهر المفكرين اليهود، ولد في قرطبة بالأندلس، وعرف باسم «رم ربام»، وهي الحروف الأولى من اسمه، ولقبه الراب موشيه بن ميمون، ومن الأقوال المأثورة عنه بين اليهود قولهم: «لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلا موسى»، لبراعته في الطب والعلوم الرياضية والفلسفة، واضطر ابن ميمون للهجرة من قرطبة إلى فلسطين، ولكنه لم يستقر فيها، وإنما استقر في الإسكندرية، ثم الفسطاط، حيث كان يعمل طبيبًا خاصا لنورالدين علي أكبر أبناء صلاح الدين الأيوبي، وفي هذه الفترة ألف ابن ميمون معظم كتبه أثناء إقامته.

ومن أهمها كتاب «مشناة توراة» الذي ضم فيه تفسيرا للعهد القديم، وأهم كتبه كتاب «دلالة الحائرين» الذي كتبه باللغة العربية، وتُرجم إلى العبرية، وتكمن أهميته في شرح فكرة وحدانية الله، حيث حاول أن يوفق بين العقل والدين.

والجدير بالذكر أن هذا المعبد كانت حالته سيئة جدا، فلم يكن له سقف وجميع جدرانه وعناصره المعمارية كانت مهدمة، لذلك كان مغلقًا لعدة سنوات بمعرفة الطائفة اليهودية، ولم تُقم به أي شعائر دينية، وأعيد تجديده وافتتاحه أكثر من مرة في أعوام ١٨٨٧ و١٩٢٥ و١٩٦٧، وينقسم المعبد إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول يحتوي على البهو المخصص للصلاة وإقامة الشعائر الدينية، وهو عبارة عن قاعة مستطيلة، حوائطها مكسوة بالرخام ومكتوب عليها الوصايا العشر بالكتابة العبرية.

أما القسم الثاني فيحتوي على حجرة المقبرة التي دفن فيها ابن ميمون قبل نقل جثمانه إلى طبرية بفلسطين عام ١٢٠٤م بناء على وصيته، حيث فضل أن يدفن بجوار كبار الحاخامات الذين دفنوا هناك، وبجوار المدفن حجرة صغيرة اعتاد اليهود المرضى المبيت فيها طلبا للشفاء.

أما القسم الثالث فيتكون من بعض الحجرات التي كانت مخصصة لرجال الدين والمشرفين على إدارة المعبد بالإضافة إلى صحن مكشوف.

وفي نهاية مدخل المعبد بوابة حديدية على شكل عقد نصف دائري محاط بالرخام الأبيض، وتعلو الباب لوحة كبيرة تصور الوصايا العشر التي تسلمها موسى من الرب على جبل سيناء.

وقد استغرق ترميم المعبد سنتين، بدأت في يونيو ٢٠٠٨ وافتتح بعدها من قبل الطائفة اليهودية، وأعد قطاع المشروعات بهيئة الآثار ميزانية مشروع ترميم المعبد والتي بلغت ٥,٩ مليون جنيه لترميم جميع الشروخ التي ظهرت في جدران المعبد داخليا وخارجيا، وكذلك ترميم منصة الصلاة، وإصلاح جميع أرضيات المعبد.

حي الجمالية، يعني المنطقة كلها كانت عائمة على المياه، ومازالت حتى الآن، وهذا هو السبب الحقيقي وراء نمو الشجرة مرة أخرى بسرعة، حيث المياه الجوفية تحت الشجرة.

وقالت الحاجة «فاطمة خليل» نحن نسمع منذ زمن عن هذه الشجرة، وأنها تنبت من تلقاء نفسها، واليهود يقولون: إن المعبد به حوائط متهالكة وعمره حوالي ١٢٠ سنة، ولكن الشجرة هي السر في عدم سقوطه، كما يقولون إنها تعالج من بعض الأمراض المستعصية.

بينما قال «الأسطى خالد» صاحب ورشة خراطة: هذه الشجرة غريبة، يعني مهما عملنا بها تمر الأيام ونجدها تنبت مرة أخرى، وأنا كنت من الأهالي الذين دخلوا وقطعوا فروعها كلها، ووجدنا صعوبة في جزها، ثم وجدناها تنبت مرة أخرى، مما أثار دهشتنا، والعام الماضي وجدنا بعض اليهود في إحدى زياراتهم للمعبد يقومون بقطف ورق هذه الشجرة وجمعه في حقيبة، وبسؤال أحدهم قال: إن هذا هو نصيبه من هذه الشجرة المباركة!

«بدر علي»، صاحب أحد محلات الذهب الصيني، يقول: قام يهودي ممن كانوا يعيشون في مصر بوضع بذور هذه الشجرة- بعد أن أتى بها من فلسطين- في حوش المعبد، ويقال إنها بذور لا تسقى بالماء ولا تتوقف عن النمو، وكل عام يأتي إليها بعض اليهود لزيارتها.

«هيثم كمال» أحد شباب المنطقة يعمل بمحل ملابس يقول: منذ عدة سنوات كانت هناك حراسة




من عساكر الأمن المركزي على باب المعبد، وذهب أحدهم إلى حوش المعبد لقضاء حاجته، ففوجئ بأصوات غريبة تحدثه، فخرج مهرولًا وأصيب بحالة نفسية، وتم عزله من الخدمة!

وكل سنة نرى مجموعة يهود يأتون اليها ويتحدثون إليها ساعات طويلة.

وبالمرور داخل الأزقة وجدنا معبدًا آخر لليهود في نهاية الحارة، يسمى معبد «موسى بن ميمون»، وبه حوض كبير من المياه، تقوم سيدة يهودية تدعى «كرامات» بتجهيز الفتيات اليهوديات قبل ليلة الزفاف داخله بمياه تقرأ عليها نصوصًا معينة من التوراة، وقد تم ترميم هذا المعبد منذ فترة قريبة من قبل وزارة الثقافة المصرية.

ومن جانبه يقول المرشد السياحي للآثار القديمة محمد حمدي: ما يقال عن هذه الشجرة ليس صحيحًا، ولكن ابتدع اليهود هذه الشائعة حتى يكون لهم الحق في زيارة مصر، وفي أن يظل هذا الأثر ملكًا لهم، لأنهم ليس لهم حق في هذه الأماكن، وإذا نظرنا للتاريخ المصري سوف نجد أن حضارات

الأهالي يزعمون أن الشجرة تنمو بشكل غير طبيعي واليهود يحجون إليها كل عام

التاريخ المصري ليس بها حقبة تدخل في تاريخ اليهود، فتوجد الحضارة الإسلامية والمسيحية وحضارات ما قبل التاريخ، وتعتبر الحضارة الفرعونية هي أساس الحضارة المصرية، ولكن معبد حاييم كابوس كان في الأصل أحد المنازل التي كان يستأجرها اليهود، وحتى لا يتم هدمها أو تأميمها من قبل الحكومة المصرية تم اختلاق هذه الشائعة، ومازال اليهود حتى الآن يأتون إلى ذلك المكان اعتقادًا منهم أن الشجرة الموجودة بداخله شجرة مباركة، وأثر يدل على وجودهم داخل مصر، لكن الحقيقة عكس ذلك تمامًا، وليس لهم أي آثار تدل على أنهم كانوا يعيشون في مصر، لأن المصريين الذي كانوا يدينون باليهودية أسلم أحفادهم، ومازالوا يعيشون داخل مصر، وكان غرض الاحتلال الانجليزي تمكين اليهود من هذا المكان، فظل يردد الإشاعات بأن هذا الحي يسكنه اليهود فقط.

وظل أهل المنطقة يطلقون «حارة اليهود» على هذا المكان حتى الآن، لأن أجدادهم لم يكونوا على علم بحقيقة هذا المكان، لذلك لم يخبروهم بتلك الحقيقة وعن المعابد الذي يأتي إليها اليهود.

ومن جانبه أكد محسن ربيع مدير الآثار والمعابد اليهودية بوزارة الدولة لشؤون الآثار على أن الآثار اليهودية الموجودة في مصر هي آثار مصرية، بمعنى أن كل ما يقال عن المعابد اليهودية وما يحدث فيها مجرد خرافات.

وأوضح ربيع أن معبد حاييم كابوس سيتم ترميمه في الفترة المقبلة مثل معبد موسى بن ميمون، واستطرد قائلًا: اليهود يأتون كل عام لزيارة هذا المعبد، ثم يغلقونه مرة أخرى، لكن السبب ليس الشجرة، بل محاولتهم تسليط الأضواء على أن لهم معابد في مصر.



foto: Flickruser: mars_discovery_district

التوتر والقلق من أهم أسبابه..

ضغط الدم.. القاتل الصامت

منى الموجي
القاهرة - دار الإعلام العربية

ليس غريبا أن يسمى ارتفاع ضغط الدم بالقاتل الصامت، ذلك لأنه يصيب نحو ٢٠٪ من سكان العالم دون أن يدري غالبيتهم أنه يتوغل ويسيطر على أجهزتهم الحيوية، ليفاجئهم بضرباته المتوالية التي قد تفضي إلى الموت ما لم نتنبه له ونحسن ترويضه، ومن ذلك موازنة حياتنا من حيث الغذاء والدواء، لنحظى بحياة سعيدة وهانئة.. «الوعي الإسلامي» التقت عددًا من المختصين ليحدثونا عن المرض ومسبباته، وطرق تجنبه، ولماذا سمي بالقاتل الصامت، فإلى التفاصيل..

على الرغم من أن المعدلات العالمية لانتشار مرض ارتفاع ضغط الدم الذي سمي بالقاتل الصامت لسرعة تمكنه من الجسم دون ظهور أعراض واضحة، تبلغ نسبتها ٢٠٪، فإنها تتزايد في المجتمعات العربية، فقد أكدت دراسة أُجريت أخيرًا في مصر على أن نسبة المصابين بارتفاع ضغط الدم تجاوزت ٢٦٪، وأوضحت ارتباط معدل انتشار المرض بالتقدم في العمر، فنسبة الإصابة بين الفئة العمرية ٢٥ عامًا إلى ٣٤ عامًا وصلت إلى ٧,٨٪؛ لتبلغ النسبة ٥٦,٦٪ عند بلوغ الـ ٧٥ عامًا فيما أكثر، وتشير الإحصائيات على الصعيد العالمي إلى أن حالات الوفاة الناتجة عن ارتفاع ضغط الدم تُقدر بنحو ٧,٥ ملايين حالة وفاة سنويًا، وجاء البيان الصادر عن منظمة الصحة العالمية في الربع الأول من هذا العام ليؤكد أن من بين كل ثلاثة أشخاص هناك شخص مصاب بمرض ارتفاع ضغط الدم من الذين تزيد أعمارهم عن ٢٥ عامًا، أي نحو مليار شخص في العالم مصابون بهذا المرض، وتتزايد هذه النسبة مع التقدم في العمر، ودعت المنظمة إلى تكثيف الجهود للوقاية من المرض ومكافحته، مؤكدةً على أن من شأن هذه النسبة أن تتغير حال تغير نمط وأسلوب الحياة.

أعراض المرض

تتمثل أعراض ارتفاع ضغط الدم في الإصابة بالصداع، مع الشعور بالدوخة والإصابة بالإجهاد سريعًا والنهجان مع أقل مجهود، كما يتعرض البعض إلى نزيف الأنف، ولا تختلف أعراض المرض في مراحله الأولى عن المراحل المتقدمة، إلا في شدة الإصابة بهذه الأعراض، ما يتسبب في حدوث مضاعفات ارتفاع ضغط الدم.

ويتفق الأطباء على ضرورة القيام بتعديل نمط وأسلوب الحياة للحد من الإصابة بالمرض، من خلال الحرص على ممارسة الرياضة، والإقلاع عن التدخين والعادات الغذائية السيئة، والحد من تناول الأطعمة المملحة، والإكثار من تناول الخضروات والفاكهة، إضافةً إلى إنقاص الوزن الزائد، وتجنب تناول الوجبات السريعة والمياه الغازية، والإقلال من تناول الشاي والقهوة والمواد التي تحتوي على الكافيين، مع تجنب التعرض إلى الضغوط وكل ما يثير الانفعال.

د. نصر: الأسماك المملحة والدهون والوجبات السريعة تعزز احتمالية الإصابة

الاستسلام للأمر الواقع

يقول سمير طه- طالب بكلية التربية: إنه لم يكن يتوقع أن يُصاب بالمرض في هذه السن الصغيرة، مشيرًا إلى أن اتباع نصائح الطبيب للحفاظ على الضغط حتى لا يرتفع أكثر، تطلب منه مجهودًا كبيرًا للإقلاع عن عادات كان يظن أنه لا يمكنه العيش بدونها، كتناول الوجبات السريعة مع أصدقائه والتدخين.

ويقول أحمد حليم موظف: عندما أبلغني الطبيب بإصابتي بارتفاع ضغط الدم لم أصدق، وبقيت وقتًا طويلا أرفض تناول الدواء إنكارًا مني بأني مريض بضغط الدم، لكني في النهاية استسلمت للأمر الواقع، واتضح أن انفعالي المستمر وعصبيتي التي لا تنتهي كانت من الأسباب الرئيسية لإصابتي بهذا المرض، وقد نصحني الطبيب بالابتعاد عن كل ما يثير غضبي حتى لا يتفاقم الأمر.

مسببات

إلى ذلك، يؤكد استشاري أمراض القلب د.محمد نصر، أن كل ما يمثل ضغطًا على الإنسان قد يتسبب في إصابته بارتفاع ضغط الدم، وهناك بعض الأغذية التي يُنصح مرضى ارتفاع ضغط الدم بعدم تناولها، مثل الأسماك المملحة والأطعمة التي تزيد فيها نسبة الدهون، ومن بين العادات الغذائية الخاطئة التي يتبعها البعض حاليا تناول الوجبات السريعة بصورة شبه يومية، ما يؤدي إلى زيادة الوزن والإصابة بالسمنة، كما يزيد من احتمالية الإصابة بارتفاع ضغط الدم.

وراثة

ويشير استشاري أمراض القلب بمعهد القلب القومي المصري د.حسام الخبيري، إلى أن ارتفاع نسبة المصابين بالمرض ليس في مصر وحدها، إنما في العديد من الدول، مشيرًا إلى أن الكوليسترول منخفض الكثافة من أسباب انتشار المرض، والذي يؤدي أيضًا إلى ضيق شرايين الأطراف، وضيق الشريان التاجي، والإصابة بالجلطات والأزمات القلبية، مضيفًا أن النسبة الكبيرة من المصابين بارتفاع ضغط الدم تأتي بسبب الجينات الوراثية.

وأوضح أن خطورة المرض تأتي من غياب أعراض واضحة للإصابة به في أغلب الحالات، حيث يرتفع الضغط تدريجيا بشكل يتكيف معه المريض، لكن هناك حالات محدودة يحدث فيها هذا الارتفاع بشكل مفاجئ، لافتًا إلى أن ارتفاع ضغط الدم يصيب القلب بالضعف، ويتسبب في تضخم عضلة القلب، لما له من تأثير مباشر على صحة القلب، حيث يعاني القلب من مقاومة في ضخ الدم للشرايين، كما يؤثر على صحة

جدول يوضح حالة الضغط تبعا للقياس الدوري

عدد مرات قياس الضغط	الرقم السفلي	الرقم العلوي	الحالة
قياس كل سنة	(٨٠) أو أقل	(١٢٠) أو أقل	مبشرة
قياس كل سنتين	أقل من (٨٥)	أقل من (١٣٠)	متوسطة
قياس كل عام	٨٥- ٨٩	١٣٠- ١٣٩	متوسطة/ مرتفعة
قياس كل شهرين	٩٠- ٩٩	١٤٠- ١٥٩	ضغط مرحلة ١
استشارة الطبيب خلال شهر	١٠٠- ١٠٩	١٦٠- ١٧٩	ضغط مرحلة ٢
استشارة الطبيب فورًا خلال أسبوع	١١٠ أو أعلى	١٨٠ أو أعلى	ضغط مرحلة ٣

القلب، ويرتبط أيضًا بصحة الكلى والعيون.

وينصح الخبيري بضرورة قياس ضغط الدم بشكل دوري كل شهرين على الأقل، حتى إن كان الإنسان لا يعاني من المرض، وذلك حتى يسهل اكتشاف المرض في مراحله الأولى، بينما يجب على المصاب بالمرض المتابعة مع طبيب خاص بصفة مستمرة؛ لتجنب مضاعفات المرض، ويشدد على أهمية التقليل من استخدام الملح في الأطعمة التي نتناولها، فالملح سبب أساسي في ارتفاع ضغط الدم، وكذلك الطعام الدسم الذي يتسبب في ضيق الشرايين نتيجة ترسب الدهون بالشرايين.

طبيعة الطعام

بدوره، أكد اختصاصي أمراض القلب د.هاني عبدالرازق، على أن الإصابة بارتفاع ضغط الدم يعود إلى العديد من الأسباب، من بينها الجانب الوراثي وتاريخ إصابة العائلة به، وطبيعة الطعام الذي نتناوله، خاصة الذي يحتوي على نسبة عالية من الأملاح، والوجبات السريعة، كما ترتبط السمنة ارتباطا وثيقا بزيادة نسبة الإصابة بضغط الدم المرتفع.

ولفت إلى أن نسبة السمنة في النساء أعلى منها في الرجال، ورغم أن ارتفاع ضغط الدم يرتبط بشكل كبير بالتقدم في العمر، فإن المنطقة العربية تشهد ارتفاع نسبة المصابين من الشباب بهذا المرض، ويرجع السبب في ذلك إلى التوتر والشعور بالقلق والتفكير الدائم في المستقبل، إلى جانب غياب ممارسة الرياضة.

وحول المضاعفات التي قد يتعرض لها مريض ضغط الدم المرتفع أكد على أنها تصل إلى الإصابة بالسكتة الدماغية وتصلب الشرايين، والإصابة بالفشل الكلوي، وقسم مراحل الإصابة بالمرض إلى ثلاثة مراحل، بسيط: وقياسه من ١٤٠- ١٥٩ على ٩٠- ٩٩، ومتوسط: ١٦٠- ١٧٩ على ١٠٠- ١٠٩، وشديد: وهو الذي يتجاوز ١٨٠ على ١١٠.

كما أوضح أنه في المرحلة الأولى من الممكن عدم اللجوء إلى العلاج الدوائي، من خلال التأكيد على المريض أن يتجنب القلق والتوتر، ويحرص على ممارسة الرياضة بانتظام، خاصة في حالة إذا كان المصاب شابا، أما في الحالات المتقدمة فينصح المريض بتناول نوعين أو أكثر من الأدوية تحت إشراف الطبيب، ومراجعته بشكل دوري، وقد لا يُنظر إلى معدل ارتفاع الضغط بقدر النظر إلى عوامل خطورة أخرى مع المريض، من خلال التعرف على بعض الأمور الصحية، مثل: هل أصيب من قبل بسكتة دماغية؟ أو هل لديه مشاكل في الكلى أو القلب أو نسبة السكر في الدم والإصابة بالأمراض المزمنة؟ وغيرها من العوامل المُصاحبة.

نصائح عامة

- تنزيل الوزن الزائد والمحافظة على الوزن المثالي.
- تخفيف الصوديوم من الطعام بقدر ٢٥٠٠ ملج يوميا، وبمعدل ٦ جرامات من الملح.
- زيادة النشاط اليومي: المشي ٣٠ دقيقة أو أكثر يوميا.
- إضافة الفاكهة والخضروات في قائمة الطعام اليومية.
- إضافة الألبان قليلة الدسم كالحليب بمعدل حصتين يوميا.
- قراءة النشرة الخارجية عند شراء الطعام، حيث إن بعض الأطعمة تحتوي على أملاح بمعدلات زائدة، فيجب الحذر منها.
- معدل تناول الصوديوم للإنسان في هذه الأيام بين ٦٠٠٠- ٧٠٠٠ ملج يوميا.
- حمية الصوديوم أو حمية الملح تكون بين ٢٠٠٠- ٢٥٠٠ ملج يوميا.
- تناول دواء الضغط بانتظام وحسب نصيحة الطبيب.

الخطاط المغربي محمد أهري:

المجتمع المدني مكمل الدولة في تربية الأبناء



حوار: بشرى شاكر
الدار البيضاء

هو رجل عصامي، تعلم كتاب الله والتحق بالتعليم الابتدائي في سن متأخرة بقريته بامغران في إقليم ورزازات جنوب شرق المغرب، فرغبته بالعلم، جعلته يكمل تعليمه بجهوده الخاصة عن طريق المراسلة، ونمّى معارفه بمطالعة الكتب الدينية والفكرية، وأصبح موظفًا حكوميًا، وساهم في تعليم أبناء القرى المجاورة دينهم والتربية الصحيحة. «الوعي الاسلامي» التقته ودار هذا الحوار:

● ساهمتم مؤخرًا في كتابة المصحف الشريف كاملا بخط اليد، حدثنا أكثر عن ذلك؟

– أجل، قمت بذلك مرتين، المصحف الأول كتبته في سجل مسطر، أما الثاني فقد كتبته على أوراق منفردة غير مسطرة، حيث تعلمت الكثير في الضبط والرسم وعد الآيات، فضلًا عن التدبر فيما أكتبه والتفكر فيه، وكنت أبتغي في ذلك وجه الله الكريم، وأن يكون هذا المصحف لي– ولكل من يطلع عليه– قرينًا في الدنيا، وفي القبر مؤنسًا، ويوم القيامة شفيعًا، وعلى الصراط نورًا وإلى الجنة رفيقًا، وبيننا وبين النار سترًا وحجابًا، وإلى الخيرات كلها دليلًا وإمامًا.

وقد كتبتهما برواية الإمام ورش، بالرسم العثماني الذي كتب به الصحابة رضوان الله عليهم المصحف الشريف، وبالضبط المغربي الذي لا يختلف كثيرًا عن الضبط المشرقي إلا في أشياء قليلة، مثل نقطة الابتداء بهمز الوصل وصلته التابعة للحركة التي قبله، ونقطة الإمالة وتمييزها عن نقطة الإشمام والاختلاس.

● من قام بتدقيقهما؟ وهل فكرت في نشرها؟

– مسألة النشر والتداول تخضع لضوابط معينة تضعها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ولم يتسن لي شرف الاستفادة من توجيهات وملاحظات هذه اللجنة، لذلك فضلت أن أحتفظ شخصيًا بالنسخة الأصلية، وسأحاول استخراج نسخة منها لوضعها في مكتبة جمعية الإمام ورش لتحفيظ القرآن الكريم، ليستفيد الجميع من هذه التجربة ولحث الطلبة على الاجتهاد أيضًا.

أما من قام بالتدقيق، فهو الشيخ الفقيه المبجل السيد أحمد الشاهد إمام وخطيب المسجد الجامع بولماس بإقليم الخميسات.

● على ذكر جمعية الإمام ورش لتحفيظ القرآن الكريم، نعلم أنك أحد أعضائها.. ماذا تقدم للمجتمع؟

– نعم كنت دائمًا نشيطًا في العديد من الجمعيات المحلية، وآخرها جمعية الإمام ورش لتحفيظ القرآن الكريم، التي تأسست بفضل الله ثم بمبادرة من بعض المحسنين الواعين بأن المجتمع المدني عليه أن يكون مكملًا لعمل الدولة في تربية أبنائنا، وخاصة منهم الذين ينقطعون عن الدراسة.

ولقد تمكنت الجمعية بدعم من المبادرة الوطنية للتنمية البشرية ومساهمات بعض المحسنين أن تنجز في غضون ثلاث سنوات جناحًا للإناث وآخر للذكور، الأول يضم قاعة للدراسة ومرافق صحية بالإضافة إلى بهو مكشوف، يستقطب حاليًا حوالي ٤٥ مستفيدة، منهن من أتممن– بفضل الله– حفظ ٣٠ حزبًا من كتاب الله، والثاني يضم قاعة للدراسة ومكتبة ومكتبًا للمشرف ومرافق صحية بالإضافة إلى بهو مكشوف، يستقطب حاليًا حوالي ١٠ رواد في انتظار بناء مراقد لإيواء الطلبة الوافدين.

وقد جاء التفكير في تأسيس هذه الجمعية لما لاحظنا في أفق منطقة وادي درعة من فراغ مهول في مجال حفظ القرآن الكريم بعدما كانت من المناطق المغربية التي كان لها إشعاع علمي في تحفيظ القرآن وتلقين علومه، بحيث أنها شكلت عبر تاريخها الطويل المجيد خزانًا يزود ما حولها بأفواج من العلماء الأعلام ومشاهير القراء.

●● جل اهتمامك يصب في كتابة الآيات القرآنية.. فما الذي ترمي إليه من خلال ذلك؟

– نعم لي اهتمام بالخط العربي، وبالأخص بكتابة آيات قرآنية في لوحات، بهدف التذكير بمضمونها رغبة في عفو ربي ومغفرته ورضاه، وإلى الآن لم أعرض لوحاتي، ولكن أعرف عليها بعض الأصدقاء عبر الصفحات الاجتماعية التي أصبحت تساعد في إيصال المدارك والمعلومات.

إعداد: سلمان داود الكندري
كاتب ومدرب معتمد في التنمية البشرية

«أهل الجنة» ليسوا سعداء!

على مر العصور البشرية سعى الإنسان حثيثا ليصل إلى السعادة فجرب كل المتع المادية والحسية ليسعد، فاعتقد البعض أن السعادة بكثرة المال، والبعض الآخر اعتقد أن السعادة بالجاه، وبارتفاع مستوى الدخل، وبتوافر المسكن والملبس، وبالأولاد.

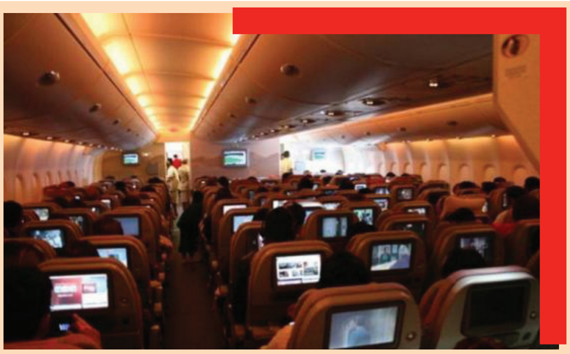
ولعل الأمر الذي جذبك لقراءة هذا المقال- عزيزي القارئ- هو عنوانه؛ لغرابته.. وهذا العنوان هو تحقيق صحفي لمقالين قديمين، والمقصود بـ«أهل الجنة» هم أهل السويد الذين يعيشون في مستوى اقتصادي يشبه الأحلام، فكأنهم لا يخافون فقرًا ولا جوعًا ولا بطالة، حيث لا تكاد تجد أحدًا يشتكي من قلة المادة.

والسبب في ذلك هو أن دخل الفرد في السويد يعتبر الأعلى في العالم، وكذلك تقدم الحكومة السويدية الإعانات للسكن والتعليم والمستشفيات، وتقدم قرضًا للعرسان للتأثيث بفائدة بسيطة، إضافة إلى أنها تقدم إعانات اجتماعية للأطفال، فهم يعيشون في جنة من الرفاهية والنعيم وحياة البذخ.

ولكن في المقابل تشير الدراسات والإحصاءات إلى أن السويد من أعلى الدول التي يلجأ شعبها إلى الانتحار بسبب الاضطراب والتوتر والألم والعذاب النفسي الذي يعيشونه من كل هذا النعيم.

فهل السعادة بكثرة المال؟!

اقتنص فرص الحياة



دخلت ذات يوم إلى إحدى صالات السينما لأشاهد الفيلم «shooter».. تأملت واندمجت في أحداث هذا الفيلم ذي التصوير الرائع، فلفت انتباهي مشهد أضاف لي فكرة في الحياة.. شاهدت القناص وهو يعد بندقيته والدربيل الخاص بها، ثم يختار المكان المناسب للتصويب، ويثبت سلاحه بطريقة معينة، ويقوم بحساب المسافة بينه وبين هدفه ليقتنصه، ثم يحسب سرعة الرياح ومعدل الرطوبة وأمورًا أخرى مرتبطة بحالة الطقس وجغرافية المكان، حتى يصل إلى هدفه بدقة متناهية ويقتنصه..

هذا المشهد وحده قد أضاف لي وأعطاني أفكارًا لأكتب في مواضيع متعددة منها (تحديد الهدف- توقع العوائق- التخطيط- الإعداد المسبق...)، وتخيلت أن الهدف الذي يحاول البطل اقتناصه هو عبارة عن فرصة في حياته، فاحتاج لتلك المهارات والأدوات من حساب الريح والإعداد والتخطيط حتى يقتنص هدفه، وكذلك أهدافنا والفرص التي في حياتنا تحتاج لهذا الإعداد.

وإليكم بعض المهارات والأدوات التي اخترنا لكم: :

١- سافر وأكثر من الرحلات

للسفر والرحلات- بالإضافة إلى المتعة والسياحة- فوائد عديدة، منها خلق الثقة في النفس، والرصانة، والاعتماد على النفس، واكتساب عادات وثقافات جديدة ووجهات نظر مختلفة، بها يستنير العقل، وتنير له آفاق، وتختزن في العقل الكثير من التجارب، فتظهر الفرص بكثرة، فما عليك سوى اقتناصها.

٢- قوة المعرفة

احرص على طرق أبواب المعرفة، وثقف نفسك، وابحث عن الأبواب التي تروق لك، وغذ عقلك، ووسع مداركك، واحرص كل الحرص على القراءة، فهي مفتاح العقول، حيث يوصي أحد خبراء التنمية البشرية بالقراءة لمدة ساعة يوميا، وكذلك استثمر أوقات القيادة في السيارة بسماع أشرطة تثقيفية وتدريبية حتى يكون العقل متوقدًا وجاهزًا للتعرف على الفرص إن جاءت فيقتنصها.. يقول إبراهام لينكولن: «سأدرس وأعد نفسي، فذات يوم ستأتي فرصتي»، فالإعداد الجيد والمسبق ضروري للتعرف على الفرص واقتناصها، فقم من اليوم وابدأ بالإعداد الجيد لنفسك من خلال المهارات التي أذكرها حتى تقتنص الفرص، وتكون في صفوف الناجحين.

كذلك الولايات المتحدة الأميركية مع ما تشهده من تطور تكنولوجي وعلمي هائل، ومن تيسير لأمور الحياة وتنظيم للأمور الإدارية، نجد أن ٨٠٪ من الشعب الأميركي يستعملون حبوبًا للاكتئاب ومهدئات للأعصاب، رغم كل هذه الملهيات والفضائيات، لكنهم لم يصلوا إلى السعادة الحقيقية.

فهل السعادة بالتطور العلمي والتكنولوجي!

إذن فما هي السعادة وكيف نحصل عليها؟

السعادة هي شيء معنوي لا يرى بالعين، ولا يقاس بالكَمّ، ولا يشترى بالمال.. والسعادة شعور في الإنسان بين جوانحه يبعث في النفس الطمأنينة والراحة والانشراح ويجعل الإنسان يعيش في جنة الأحلام.

قد نرى إنسانًا لا قيمة له في المقياس المادي، ويسكن في منزل متواضع، ومن أسرة فقيرة، ويلبس ثيابًا عادية، ومع ذلك فهو أسعد أهل الأرض، لأن النبي ﷺ قال: «من أصبح منكم معافى في جسده، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

وعلى النقيض قد نرى إنسانًا منعمًا مترفًا، ينام على الحرير والديباج، وحوله كل متاع الدنيا، وهو أتعس أهل الأرض.

ومع ذلك فإننا لا ننكر أن للجانب المادي أثرًا في سعادة الإنسان لأن النبي ﷺ يقول: «من سعادة ابن آدم الزوجة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح».

إن القلب الذي قد فجر الإيمان فيه ينبوعًا لا ينضب من السعادة، هو القلب الموصول بالله عز وجل، فعندما يقرأ المؤمن القرآن ويذكر الله تستريح نفسه، وتهدأ أعصابه، وتشع في روحه أنوار الطمأنينة والراحة النفسية، ويسعد كذلك في صلاته عندما يخلو الإنسان بربه فيناجيه في ظلمات الليل فتذرف عيناه تلك الدمعات.

سألت الليل كم بصدرك سر
أنبئني ما أروع الأسرار
قال ما أضاء في ظلامي نور
كدموع المنيب في الأسحار

وكذلك عندما جلس أحد الصالحين على نهر وبيده قطعة خبز قال لأصحابه بكل سعادة وطمأنينة: «والله إننا في عيش لو علم به الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليه بالسيوف».

نعم هذه هي السعادة تنبع من داخل الإنسان ولا تأتيه من الخارج ولو ملك الإنسان مثلما ملك قارون!



٣- خالط الناس

وهذه وصفة جربتها أنا شخصيا، فمخالطة الناس تفتح لك أبوابًا عديدة، تنهال منها الفرص، بل إن دخولي عالم الإعلام كان بسبب كثرة مخالطة الناس، حيث اقترح علي أحد الناس الدخول والعمل في إحدى الصحف اليومية، فكانت تلك بدايتي في عالم الإعلام.

إن مخالطة الناس أرض خصبة مليئة بالأفكار والفرص، حيث تقذف عقول الناس بعض الاقتراحات والأفكار والتجارب التي قد تكون الشرارة نحو انطلاقك في عالم النجاح والتميز.

٤- خدمة الغير

تقديم الخدمات للغير سلوك إسلامي نبوي، يعلمنا إياه رسولنا ﷺ الذي كان يقضي حوائج أصحابه، ويقدم لهم خدماته، فهي لمسة إنسانية تدخل السعادة في النفوس، فحاول أن تشترك في إحدى الجمعيات أو اللجان الخيرية أو الهيئات والمؤسسات المختلفة، فهي بالإضافة إلى العمل الإنساني وسيلة تظهر لك فيها الفرص وتتكاثر كالبكتريا النافعة، فقد تكون انطلاقتك الحقيقية منها.

٥- المشاركة في الدورات التدريبية

المشاركة في الدورات التدريبية من الأنشطة التدريبية التي أفضلها وأحبها لأن فيها صقلًا للشخصية ومنبعًا للأفكار التي تطور ذاتي، ولي أن أعتبرها مصنعًا وبحرًا للأفكار والفرص العظيمة، فكم من مشاريع أنجزتها وكانت فكرتها من هذه الدورات التدريبية فاقتنصتها حتى حققتها..

٦- المبادرة

هذه الصفة دائما ألاحظ وجودها في العظماء وصناع الحياة، وكذلك هي سلوك إسلامي تأصل في الجيل المسلم الذي تربى على يد الرسول ﷺ، بل إن المبادرة الشخصية هي السر في الترقيات التي يتلقاها الموظفون، وهذا ما أكده المديرون التنفيذيون في العديد من الشركات الناجحة والعريقة.

٧- اجعل لك مهارة وطورها

هل تجيد فنّا أو مهارة؟ إني أعرف العديد من الأصدقاء قد برعوا في مهارة مفيدة جعلتهم رموزًا في مجتمعهم، ومن هذه المهارات التي سأقترحها عليك ما قد يكون فرصة ففكر في اقتناصها والعناية بها «تأليف الكتب- الإنشاد- الفن- الخط العربي- التصوير- المشاريع الصغيرة- الرسم- الأدب...».

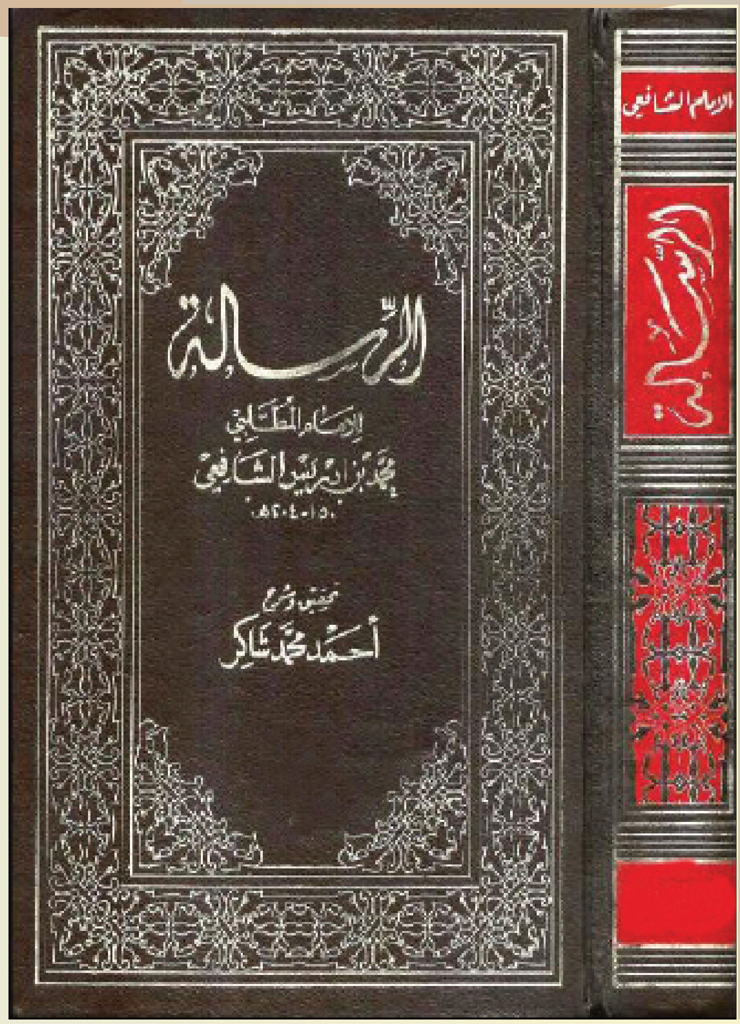
٨- قم بالأعمال المنتجة

حاول أن تجد لك عملًا منتجًا توسع فيه شبكة علاقاتك وتتعرف على خبرات جديدة، واهتم بالأعمال المنتجة التي لها أثر في المجتمع وتأثير جيد على الأفراد، فهو مكان جيد تتضافر فيه الأفكار والفرص.

- الجميع يفكر في تغيير العالم، ولكن لا أحد يفكر في تغيير نفسه.

إعداد : خالد خلاوي

الرسالة للإمام الشافعي



ترجع أهمية كتاب الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي إلى كونه أحد الكتب التي أسست لعلم جديد في العلوم الإسلامية، فقد أجمع عدد من العلماء والمحققين على أنه أول كتاب في علم أصول الفقه، بل وعده البعض أول كتاب في أصول الحديث أيضًا، قال الفخر الرازي في مناقب الشافعي: «كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه، ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كُلّي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة، وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه، ووضع للخلق قانونا كليًا يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع. فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسطوطاليس إلى علم العقل».

وتميزت الرسالة بأنها كتبت بلغة أدبية عرفت بها كتب الشافعي، يقول أحمد شاكر في مقدمة تحقيق الكتاب: «و(كتاب الرسالة) بل كتب الشافعي أجمع، كتب أدب ولغة وثقافة، قبل أن تكون كتب فقه وأصول، ذلك أن الشافعي لم تهجنه عجمة، ولم تدخل على لسانه لكنة، ولم تحفظ عليه لحنة أو سقطة».

تعريف بالإمام

الإمام محمد بن إدريس الشافعي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه نسبة المذهب الشافعي، ولد في مدينة غزة بفلسطين عام ١٥٠هـ الموافق ٧٦٧م، ولما بلغ سنتين قررت أمه العودة به إلى مكة، فأتم حفظ القرآن وعمره سبع سنين، وحفظ كتاب الموطأ للإمام مالك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، يقول الشيخ محمد أبوزهرة في ترجمته (وكان الشافعي يستمع إلى المحدثين، فيحفظ الحديث بالسمع، ثم يكتبه على الخزف أو الجلود، وكان يذهب إلى الديوان يستوعب الظهور ليكتب عليها، والظهور هي الأوراق التي كُتب في باطنها وتُرك ظهرها أبيض، وذلك يدل على أنه أحب العلم منذ نعومة أظفاره).

ثم رحلت به أمه إلى المدينة، فلازم الإمام مالكا ست عشرة سنة حتى توفي الإمام مالك سنة ١٧٩ هجرية، فانتقل الشافعي إلى بغداد واتصل بمحمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة وقرأ كتبه، وتعرف على علم أهل الرأي، ثم عاد بعدها إلى مكة وأقام فيها نحوا من تسع سنوات لينشر مذهبه من خلال حلقات العلم التي يزدحم فيها طلبة العلم في الحرم المكي ومن خلال لقائه بالعلماء أثناء مواسم الحج. وتتلمذ عليه في هذه الفترة

الإمام أحمد بن حنبل.
ثم عاد مرة أخرى إلى بغداد سنة (١٩٥ هجرية)، وكان له بها مجلس علم يحضره العلماء ويقصده الطلاب من كل مكان، وفي هذه الفترة ألف كتابه (الرسالة).
وقدم الشافعي مصر سنة ١٩٩هـ، فأعاد الشافعي النظر في بعض مسائل مذهبه، كما أخذ ينشر مذهبه الجديد، ويعلم طلاب العلم، حتى توفي في مصر سنة ٢٠٤ هـ.
ومن مؤلفاته رحمه الله: كتاب (جماع العلم)، دافع فيه عن السنة دفاعًا مجيدًا، وأثبت ضرورية حجية السنة في الشريعة. وكتاب (الأم)، و(اختلاف الحديث)، وغيرها.

سبب التأليف

ألف الإمام الشافعي الرسالة مرتين، ولذلك تُسمى: الرسالة القديمة والرسالة الجديدة، أما الرسالة القديمة فالراجح أنه ألفها في مكة، إذ كتب إليه أحد طلاب العلم وهو عبدالرحمن بن مهدي يطلب منه أن يضع له كتابًا فيه معاني القرآن. ويجمع قبول الأخبار فيه، وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة. فوضع له كتاب الرسالة.
وقال علي بن المدني: (قلت لمحمد بن إدريس الشافعي أجب عبدالرحمن بن مهدي عن كتابه، فقد كتب إليك يسألك، وهو متشوق إلى جوابك. قال: فأجابه الشافعي، وهو كتاب الرسالة التي كتبت عنه بالعراق، وإنما هي رسالته إلى عبد الرحمن بن مهدي). وأرسل الكتاب إلى ابن مهدي مع الحارث بن سريج النقال الخوارزمي ثم البغدادي، وبسبب ذلك سمي النقال، وأما كتاب الرسالة المعروف حاليًا فهو الكتاب الذي ألفه في مصر.

أبواب الكتاب

في سلسلة تراث الإنسانية التي أصدرتها وزارة الثقافة في مصر قام الدكتور محمد يوسف موسى باستعراض أبواب كتاب الرسالة باستفاضة، ولأهمية ما كتبه نورده هنا بإيجاز:
كان من الطبيعي والقرآن عماد الدين، وفيه بيان ما أراد الله بيانه من الأحكام- أن يبدأ الشافعي «الرسالة» بباب بيَّن فيه كيف بيان كتاب الله لما جاء به (ص٢١ وما بعدها) من أحكام العبادات والمعاملات لأن البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع.
فمن البيان في القرآن ما يكون نصًا لا يحتمل التأويل، وذلك كجمل ما فرضه الله من صلاة وزكاة ونحوهما، ومثل ما حرمه من أكل الميتة ولحم الخنزير ونحوهما. ومنه ما أحكم الله فرضه في الكتاب، ثم بين كيفه على لسان نبيه، مثل عدد الصلاة والزكاة وأوقاتها، ومنه ما سنه الرسول ﷺ مما لا نص فيه في الكتاب، ولكن الله فرض علينا في الكتاب طاعته. إلى آخر ضروب البيان التي ذكرها الشافعي.
وبعد أن عرض مراتب البيان الخمسة، تناولها بالإيضاح في أبواب خمسة (ص٢٦ وما بعدها) بذكر شواهد وأمثلة لكل منها. وجاء في الباب الأخير ما يدل على أن السنة قد تخصص الكتاب، ولهذا أتبع ذلك بأبواب: بيّن فيها ما فرضه الله من وجوب طاعة رسوله واتباع سنته.
وبعد الفراغ من ذلك أخذ يتكلم (ص١٠٦ وما بعدها) عن النسخ وحكمته، وعن الناسخ والمنسوخ، وأطال الكلام في فصول عدة في هذا الموضوع المهم. فهو يذكر أن الله فرض فرائض أثبتها، وأخرى نسخها تخفيفًا عن عباده، وأبان أنه نسخ ما نسخ من القرآن به وأن السنة لا تكون ناسخة له، بل هي تابعة له، لأن على الرسول اتباع ما يوحى إليه، وليس له تبديله من نفسه.
وأخذ بعد ذلك (ص١٧٦ وما بعدها) في بحث جمل الفرائض التي أحكم الله فرضها بكتابه، وبين كيف يكون القيام بها على لسان نبيه؛ وذلك مثل الصلاة والزكاة والحج، فكل هذا فرض بالقرآن، ولكن السنة هي التي بينت عدد الصلوات وعدد ركعات كل منها، وكيفية أدائها في الحضر والسفر، وبينت كذلك تفصيل أحكام جميع الفرائض.
ونجد بعد ذلك بابًا عنوانه (باب العلل في الأحاديث) (ص٢١٠ وما بعدها) تكلم فيه عن الأحاديث التي نجد في القرآن مثلها نصًا، وأخرى في القرآن نجد مثلها جملة.
ثم انتهى إلى الكلام على الإجماع وحجيته (ص٤٧١ وما بعدها) مبينًا أن عامة المسلمين لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله ﷺ، ولا على الخطأ.
وتناول بعده القياس باعتباره أصلا من أصول الفقه بعد الكتاب والسنة والإجماع (ص٤٧٦ وما بعدها)، مبينًا الأدلة على وجوب المصير إليه عند الضرورة، وشروط القياس الصحيح، ومن يجوز له شرعًا أن يقيس، ثم من يصح منه الاجتهاد في أحكام الله.
ومن المباحث المهمة التي تناولها الشافعي بعدئذ الاستحسان، فقد ذهب إلى إبطاله (ص٥٠٣ وما بعدها)؛ فذكر أنه حرام على أي إنسان أن يقول بالاستحسان إذا خالف الخبر من الكتاب أو السنة؛ لأن حلال الله وحرامه أولى ألا يقال فيها بالتعسف والاستحسان، وأنه لو قال أحد في هذا بلا خبر لازم أو قياس كان آثمًا.
وأخيرًا يختم الإمام رسالته ببيان أن أصول الفقه ليست في مرتبة واحدة، بل لكل منها مرتبة معلومة بحيث يجيء بعضها في أثر بعض فيقول: «نحكم بالكتاب والسنة المجتمع عليها التي لا اختلاف فيها، فنقول لهذا: حكمنا بالحق في الظاهر والباطن، ونحكم بالسنة قد رويت من طريق الانفراد. لا يجتمع الناس عليها، فنقول: حكمنا بالحق في الظاهر، لأنه قد يمكن الغلط فيمن روى الحديث، ونحكم بالإجماع ثم القياس، وهو أضعف من هذا، ولكنها منزلة ضرورة؛ لأنه لا يحل القياس والخبر موجود، كما يكون التيمم طهارة في السفر عند الإعواز من الماء، وإنما يكون طهارة في الإعواز، فكذلك يكون ما بعد السنة حجة إذا أعوز من السنة «أ.هـ».

المصدر: كتاب تراث الإنسانية



إعداد: د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

حكم الفتوى بالحيل

مر معنا في (العدد الماضي) أن الحيل أنواع: منها المشروع الجائز، ومنها الممنوع إجماعًا، ومنها المختلف فيه؛ لوجود الإشكال في تكييفه ووصفه.

ولأجل ذلك كان لزامًا على المفتي أن يتبحر في هذا النوع من مسائل العلم كي يعرف أسراره، ويكتشف أغواره؛ ليميز بين الجائز والممنوع منه، كما يجب عليه أن يعرف أحوال الناس وأمورهم إذا أراد الفتوى بشيء من ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله: «يحرم عليه (أي: المفتي) إذا جاءته مسألة فيها تحيل على إسقاط واجب، أو تحليل محرم، أو مكر، أو خداع: أن يعين المستفتي فيها، ويرشده إلى مطلوبه، أو يفتيه بالظاهر الذي يتوصل به إلى مقصوده؛ بل ينبغي له أن يكون بصيرًا بمكر الناس، وخداعهم، وأحوالهم، ولا ينبغي له أن يحسن الظن بهم؛ بل يكون حذرًا فطنًا فقيهًا بأحوال الناس وأمورهم، يوازره فقه في الشرع، وإن لم يكن كذلك: زاغ وأزاغ». «إعلام الموقعين» (٤/٢٢٩).

وعليه؛ فما كان من الحيل جائزًا.. جاز للمفتي أن يفتي به تسهيلًا على الناس، ورفعًا للحرج. وما كان محرمًا.. حرم على المفتي أن يفتي به، ووجب عليه تبيينه للناس تحذيرًا من الوقوع فيه.

ولذلك عد العلماء تتبع الحيل عبثًا وتساهلًا؛ قال الإمام ابن فرحون المالكي رحمه الله: «واعلم أنه لا يجوز للمفتي أن يتساهل في الفتوى، ومن عرف بذلك لم يجز أن يستفتى... وقد يكون تساهله وانحلاله بأن تحمله الأغراض الفاسدة على تتبع الحيل المحظورة، أو المكروهة،

منع البنت من الذهاب للمدرسة

(٢٠٠٧/٦/٧هـ)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: لقد منعني والدي من الذهاب إلى المدرسة؛ لأنني طلبت منه تأجيل لبس الحجاب إلى أن أتخرج من الثانوية؛ فرفض، فهل يحق له ذلك؟

فأجابت الهيئة بما يلي:

لا يجوز للأب منع ابنته من الذهاب للمدرسة إذا لم يكن في ذهابها إليها منكر، وأما مع المنكر، وهو تركها للحجاب إذا كانت بالغة أو مراهقة، فله منعها من الذهاب للمدرسة بسببه، ولكن الأولى به أن يقنعها بوجوب الحجاب، ثم يأذن لها بالذهاب إلى المدرسة إذا تحجبت. والله أعلم.

اختلاط الذكور بالإناث في التعليم

(٢٠٠٧/٤٣/٤)، (٢٠٠٦/٧١/١ع)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاءان التاليان:

الأول: أنا طالبة طب، وطبيعة الدراسة تفرض الاحتكاك بالحوار والنقاش، وأحيانًا باللمس في تناول الأدوات، والأجهزة، فما حكم ذلك؟

الثاني: ما حكم اختلاط الفتيان والفتيات من سن ١٢ و ١٣ سنة في الفصول الدراسية وفصول التقوية؟

فأجابت اللجنة بما يلي:

اختلاط الذكور بالإناث في التعليم لا يجوز، إلا إذا دعت إلى ذلك ضرورة أو حاجة ماسة، بشرط أن يراعى ما يأتي:

أولًا: أن يوجد انفصال جزئي داخل قاعات الدراسة وجميع القاعات التي يوجد فيها الطلبة والطالبات بحيث يكون الطلبة في جهة والطالبات في جهة أخرى من القاعة، ويفضل أن تكون الطالبات في مؤخرة القاعة والطلبة في مقدمتها اقتداء بالوضع الشرعي في الصفوف في صلاة الجماعة، ويفضل أن يكون لهن باب خلفي خاص بهن.

ثانيًا: أن يلتزم الطلبة والطالبات جميعا بالأحكام الشرعية، ولا سيما فيما يتعلق باللباس الشرعي للنساء، بحيث يجمع الأوصاف الآتية:

١- أن يكون ساترًا لجميع البدن ما عدا الوجه والكفين.

٢- أن لا يكون شفافًا يرى منه شيء من البدن.

٣- أن لا يكون ضيقًا يصف تقاطيع البدن.

٤- أن لا يكون زينة في نفسه.

٥- أن لا يشبه ملابس الرجال.

ثالثًا: عدم استعمال الطالبات للزينة اللافتة في الوجه والكفين، ولا يستعملن الأصباغ والعطور.

فإذا لم تتحقق هذه الشروط؛ فإن الاختلاط حرام لهذه الاعتبارات. والله أعلم.

تدريس الرجال للنساء الأجنبيات

(٢٠٠٧/٤٣/٣ع)



والتمسك بالشبه طلبًا للترخيص على من يروم نفعه، أو التغليظ على من يريد ضره...

أما إذا صح قصد المفتي، واحتسب في تطلب حيلة لا شبهة فيها، ولا تجر إلى مفسدة؛ ليخلص بها المستفتي من ورطة يمين أو نحوها.. فذلك حسن جميل». «تبصرة الحكام» (٧٤/١).

بل ربما أوقع المفتي نفسه- بتحيله في فتواه- في الكفر إذا استحل ذلك؛ فقد ذكر ابن القيم رحمه الله جملة من الحيل المحرمة، ومنها: لمن أراد أن يسقط عنه حد السرقة أن يدعي أن المال له، وأن له فيه شركة؛ فيسقط عنه القطع بمجرد دعواه، ثم قال: «فهذه الحيل وأمثالها لا يحل لمسلم أن يفتي بها في دين الله تعالى، ومن استحل الفتوى بهذه فهو الذي كفره الإمام أحمد وغيره من الأئمة؛ حتى قالوا: إن من أفتى بهذه الحيل فقد قلب الإسلام ظهرًا لبطن، ونقض عرى الإسلام عروة عروة» «إعلام الموقعين» (١٧٦/٣).

وأما تعريف المستفتي الطريق الذي ينال به الحلال، والاحتيال للتخلص من المأثم بطريق مشروع؛ فجائز ومباح، وهو الذي أشار إليه ابن القيم رحمه الله بقوله:«فأحسن المخارج ما خلص من المآثم، وأقبح الحيل ما أوقع في المحارم، أو أسقط ما أوجبه الله ورسوله من الحق اللازم». «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٢٢).

فمتى وجد المفتي للسائل مخرجًا في مسألته، وطريقًا يتخلص به؛ أرشده إليه، ونبهه عليه؛ كرجل حلف أن لا ينفق على زوجته، ولا يطعمها شهرًا، أو شبه هذا؛ فإنه يفتيه بإعطائها من صداقها، أو دينٍ لها عليه، أو يقرضها ثم يبرئها، أو يبيعها سلعةً ويبرئها من الثمن، وهذا ما نص عليه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» ص(٧٥٥).

ويدل على صحة تطلب الحيل الجائزة: قوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ (ص:٤٤)؛ لما حلف ليضربن امرأته مائة جلدة. ينظر: «صفة الفتوى» لابن حمدان (ص٣٢).

ومما ورد من فتاوى العلماء بالتمحل: ما رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (ص٧٥٧) بسنده عن حرملة بن يحيى أنه قال: «سمعت الشافعي، وسأله رجل؛ فقال: حلفت بالطلاق إن أكلت هذه التمرة أو رميت بها؛ قال: تأكل نصفها، وترمي بنصفها».

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: ما حكم تدريس الرجل للطالبات في المرحلة المتوسطة والثانوية؟

أجابت اللجنة بما يلي:

إن تدريس الرجال للنساء الأجنبيات عنه جائز بشرط أن لا تكون هناك خلوة، وتنتفي الخلوة بوجود رجل آخر أو امرأة أخرى أو بقاء الباب مفتوحًا أو نحو ذلك مما لا يؤمن معه دخول ثالث، ويجب على الدارسات التزام اللباس الشرعي والآداب الإسلامية، وعلى المدرس اجتناب النظر المحرم. والله أعلم.

نسخ الكتب والأشرطة بدون إذن

(٢/٧٣ع/٢٠٠٦)

عرض على اللجنة الاستفتاء المقدم بواسطة السيد/ محمد، ونصه:

أنسخ الأشرطة والكتب الصغيرة، وأوزعها مجانًا، دون إذن صاحبها من باب البر، فهل يجوز ذلك؟ وما حكم ما تم توزيعه سابقًا؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لا مانع من نسخ الأشرطة والكتب بدون إذن صاحبها، إذا كان ذلك للاستعمال الشخصي. وأما إذا كان النسخ للتجارة، فإنه لا يجوز إلا بإذن صاحبها، وكذلك الحكم إذا كان النسخ للتوزيع مجانًا من باب البر، فإنه لا يجوز إلا بإذن صاحبها. وأما ما تم نسخه وتوزيعه مجانا قبل ذلك من باب البر، دون إذن صاحبها؛ فأجره لصاحبه. والله أعلم.

الغش في الامتحان بداعي النسيان

الفتوى رقم (٦٢٩٠)

عرض على «اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» بالسعودية السؤال التالي: بعض الشباب المسلم يطالع كتبه ودروسه المقررة له، ولكنه ينسى، ويجلس بجانبه صديق له، فيعطي له الأجوبة الصحيحة، وإذا لم يساعده صديقه فإنه سيرسب لا محالة. فهل هذه المساعدة بين الصديقين في الامتحان تعتبر غشا؟ قال الرسول ﷺ: «من غشنا فليس منا»، وضحوا لنا هذه النقطة.. جزاكم الله خير الجزاء.

فأجابت بما يلي: يعتبر ذلك غشا وهو حرام؛ للحديث المذكور في السؤال، ولخطره على التعليم، وهبوطه بمستواه، ونشره الفوضى فيه، وضرره بالمجتمع الذي سيعمل فيه، ويتحمل مسؤولية ما يناط به من مصالح الأمة، ومع ذلك وغيره؛ فهو داخل في عموم الحديث المذكور: «من غشنا فليس منا» (رواه مسلم)، وعلى المسلم الرشيد أن ينظر إلى المصلحة العامة، ويؤثرها على المصلحة الجزئية الخاصة، مع أنها في هذه المسألة الجزئية مصلحة ظاهرًا، ولكنها في الحقيقة مضرة بمن نجح غشا وغيره؛ ممن قد يتولى شؤون الأمة. وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

الأرجل في القرآن الكريم

الرجل إن كانت راكبة لها أن تحرك الركاب لتحث الجواد على العدو، أو تضغط على دواسة البنزين لتسرع السيارة، أو تضغط على دواسة المكبح لتخفيف السرعة أو تتوقف.. ولها أن تدوّر دواسة الدراجة إلى حيث تريد، وقد تنيل صاحبها -إن كانت ماهرة صلبة في التدوير- الفوز بكأس معدن ثمين في سباق الدراجات!

وإن كانت الرجل عاملة، ناسجة: تدوس خشبة بأسفل النول، فتنفتح الخيوط للحائك ليتم الحياكة، أو تحرك قطعة من تحت مشطها لإدارة دولاب لتسوية صلصال، أو خزف، أو فخار، تحفة فاخرة وآنية نافعة! وإن كانت راجلة سهل عليها التسلق - تسلق الجدران وأعالي الجبال والقمم- والتزحلق، والتزلج، ودفع أمواج بحر أو مسبح، وعرقلة رجل منافسة لها، أو مصارعة، أو مخاصمة لإسقاطها.

ولها، لما يحترّ البدن، ويصاب بالفشل والإعياء، أن تتغطس في ماء بارد، أو ماء معدني حار إن أصيبت ببرد من الوصب، فتنتعش وتنعش سائر الأعضاء.

رِجْل الرَّجُل الأرجَل تأبى العار (لا يهم من أين نبع)، فالعار هو العار، والاستعباد هو الاستعباد، والردة هي الردة، لذا نرضى لها الحفاء- وإن تبعه جلد وفلقة، أو أغلال سلاسل فولاذية- فتلقي بنعلها على منبع الإذلال والغطرسة، وإن كان على رأس أعظم قوة في العالم!

ذلك صنف من الأرجل، ولا بد أن تعترضك رجل (وما أكثرها وأنشطها عينًا على عهدنا)، تصدمك أرجل ولا كالأرجل، تلونت بمساحيق ونقوش واهمة موهمة، غير

اللقيمات رجيم وطاعة

علم اللقيمات سنة نبوية سحرية، يجهلها كثيرون، يمكن أن يستفيد منها الراغبون في الحصول على الرشاقة وتنزيل الوزن، بدلا من اللجوء إلى عمليات جراحية معقدة، مثل عملية تحزيم المعدة، أو قص جزء من المعدة، أو إلى ما قد يعمد إليه البعض من تربيط للأسنان بحيث لا يأكل إلا القليل.

وفي تجارب عملية تبيّن أن المعدة تستوعب ما يخزن بها من طعام، فكلما تناول الشخص مزيدًا من الطعام تتكيف المعدة له، بحيث يمكنها أن تستطيل وتنتفخ وترخي العضلات لاستيعاب الطعام.

والشعور بالشبع هو رسالة ترسل من الدماغ للتوقف عن تناول الطعام، وهي بالمعدة تستغرق على الأقل خمس عشرة دقيقة حتى يصدر الأمر بالتوقف عن تناول الطعام، وهي مدة كافية للشخص على أن يأكل وجبات تفوق حاجته؛ إذًا نظام اللقيمات دليل على أن يأكل الشخص بما يناسب الحجم الطبيعي للمعدة، وهو اللتر الواحد وهو السبيل الطبيعي، الذي يستفاد من حديث اللقيمات في الرجيم والرشاقة.

قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه».

والحديث الشريف حدد الكمية بالضبط وهي ثلث المعدة للطعام، وثلث للشراب، وثلث فارغ للنفس، ولكن لم يستطع أحد تحديد مقدار ثلث المعدة، وبمتابعة أحدث الدراسات العلمية نتمكن من تحديد قياس ثلث المعدة، فقد تبيّن أن المتوسط يقدر بـ ١٢٠٠سم مكعب للحصول على وجبة مثالية مشبعة، أما الثلث فيكون ٤٠٠ سم، وبالتالي لا يجب أن تزيد الوجبة عن ٤٠٠ سم، وأطلق عليها وجبة «اللا محالة»، أو «الوجبة المفرحة»، وتعني أنه لا يجب زيادة الكمية المقررة- كما أنها أساسية- نظرًا للاعتماد على وجبات اللقيمات طول اليوم.

وجبة اللا محالة يتناولها الإنسان مرة واحدة فقط في اليوم في أي وقت، ولا يشترط خلالها تناول أصناف معددة من الطعام، حيث يعتمد نظام اللقيمات على الكمية، أما النوع فكل ما يحبه المرء يتناوله بدون حرمان على الإطلاق.

ويكون تطبيق رجيم اللقيمات من خلال تقسيم الوجبات اليومية إلى ٦ وجبات، وجبة أساسية متوسطة الحجم، وتسمى «لا محالة»، أو «الوجبة» المفرحة، بالإضافة إلى ٥ وجبات صغيرة من اللقيمات لتجديد الطاقة، فوجبة اللا محالة أو الوجبة المفرحة مرة واحدة في اليوم وليس لها وقت محدد، ويمكن تناولها ليلا، وتعتمد على حجم الوجبة، وهي عبارة عن: ٣٥٠ سم وجبة أساسية + ٥٠ سم حلويات.

الوجبة الأساسية: يتم تحديد



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

أنها، في الصميم: جبانة، متوانية، متخاذلة، مخادعة، متجسسة، متكبرة، متملقة، ساعية بالنميم، خائنة غادرة، تتمارى، فارة من سعي أرجل الرّجال الصيّد، متغافلة، متنكرة لنداء الله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم...﴾(الأحزاب من الآية ١٦).

والحق أنها غير واعية بأن الشر سيعود يومًا ما على فاعله، طال الدهر أم قصر، فالحكماء صدقوا في إثباتهم: «أتتك بخائن رجلاه»! وبعد... ألا يحق للأرجل، بعد هذا، أن توجب علينا التفاتة دارسة، واعتناء توعويًا داعمًا منهضًا؟

• **مصطفى بوهلال**

المعيار بكوب كبير حوالي ٢٢٠ سم، وهو مقدار كوب كبير بحيث تشمل النشويات والخضار والبروتين من أي نوع، وبعد أسبوعين من المواظبة على المعيار، من الممكن الاستغناء عن الكوب بعد تعود الجسم على مقدار وجبة اللا محالة.

بالإضافة إلى ٥ سم حلوى (حوالى ٢ ملعقة) لكي تزود الجسم بحاجته من السكريات المصدر السريع للطاقة.

رجيم اللقيمات يعطينا ١٥٠٠ سعرة في اليوم، ومعدل السعرات لدى السيدات ٢٠٠٠، وبذلك يمكن للمرأة توفير ٥٠٠ سعرة، وبذلك تضمن خسارة الوزن من نصف كيلو إلى ٢ كيلو في الأسبوع على حسب معدل الحرق لدى كل امرأة. أما الرجال فهم بحاجة لأكثر من ذلك، ويمكن لهم أن يحصلوا على المزيد من السعرات من خلال الوجبات الخمس المتفرقة.

• **إبراهيم علي أبو رمان**

الاستاذ الفاضل/ فيصل يوسف العلي
رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي - الكويت
تحية مباركة من عند الله طيبة وبعد

فتح الله عليك من علمه وبيانه الكثير والكثير، فقد أسعدتنا وأثلجت قلوبنا بكلماتك الطيبة التي تهدي إلى الإكثار من الحسنات، والبعد عن السيئات، واستغلال الأوقات فيما ينفع الأنفس والأقطار، ويبعد عنهم شر جحيم النار، فالإنسان لا يبقى معه في الخاتمة إلا الباقيات الصالحات، وبرحمة ربه ومغفرته تدخله فسيح الجنات، فالكل إلى فناء ويبقى ذو الجلال والإكرام.

لقد سبحت بنا سبحًا جميلًا في السيرة النبوية العطرة للمصطفى ﷺ ووصاياه الخالدة، وأن الناس سواسية أمام ربهم يتساوون في الحقوق والواجبات، وأن أكرمهم عند الله اتقاهم.

كذلك جعلتنا نتطلع للكعبة المشرفة، رأي العين وهي تتهيأ لاستقبال ضيوف الرحمن، وأوضحت هدف هذا النسك العظيم والسمات الواجب التحلي بها من خلق كريم وخصال حميدة.

إن القلم يعجز عن التعبير عما يجيش في صدري لأسطر الكلمات التي تعبر عن التقدير العميق والشكر الجزيل لشخصكم الكريم.

طيّب الله مسعاكم لنصرة الإسلام، وإلى مزيد من إمتاعنا وإسعادنا بكلماتكم الطيبة الهادفة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأتشرف بأن أرفق لسيادتكم: استقبال الحياة

تنفس الصباح الوضاء، فغردت الأطيار في أوكارها، وزقزقت العصافير في أعشاشها، وأشرقت الأرض بنور ربها، والشمس بضيائها، فقد أقبلت الحياة معلنة عن أفراحها بالحب والأمل والإيمان، ونحن لكي نسعد في الحياة وتسعد الحياة بنا، علينا أن ندرك القيمة الحقيقية لوجودنا فيها، ولكي نواجه الحياة، فعلينا أن نملأ قلوبنا بالإيمان العامر، فلقد خلق الله لنا ما يوفر لنا حياة رغيدة طيبة، إن تفاعلنا مع هذه الأشياء، وتفاعلها معنا لدليل قوي على أننا أدركنا حقيقة وجودنا وحقيقة وجودها، وهنا لا يجب على هذه الأشياء أن تلهينا عمن خلقها لنا لسعادتنا، فمع كل طلعة شمس ومغربها، ومع كل نفس نتنفسه علينا أن نشكر الله على أنعمه التي تنهمر علينا، تارة جلية لنا، وتارة خفية عنا، ولكننا ندركها بحواسنا بإيماننا، قال تعالى في كتابه العظيم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ (النحل: ١٨).

• **د. سعاد حسين**

إعداد: تركي النصر

«ابتسامة»

جاء رجل إلى أبي حنيفة فقال له: إذا خلعت ثيابي ودخلت النهر أغتسل فإلى القبلة أحول وجهي أم خلافها؟ فقال أبو حنيفة: الأفضل أن تحول وجهك إلى الجهة التي فيها ثيابك لئلا يسرقها أحد.

(روائع الدرر)

مستحقو الصفع

قال الشافعي رحمه الله تعالى:

أحق بالصفع في الدنيا ثمانية
لا لوم في واحدٍ منهم إذا صُفعا

للمستخف بسلطانٍ يحدثه
وداخل الدار تطفيلا بغير دُعا

ومتحفٍ لحديثٍ غير سامعه
وجالسٍ مجلسًا عن قدره ارتفعا

ومنفذٍ أمره من غير موضعه
وداخلٍ في حديث اثنين مُندفعا

وطالب العون ممن لا خلاق له
وطالب النصر من أعدائه طَمعا

(ديوان الإمام الشافعي)

علامات الجهل ثلاث

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن علامة الجهل ثلاث: العجب، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه، وأن ينهى عن شيء ويأتيه. **(جامع بيان العلم وفضله)**

قصة أم مدّوي

كان في العرب عجوز عاقلة و فصيحة، لها ابن أحمق، وقد أرادت يومًا أن تزوجه، فخطبت له فتاة من العرب، فجاءت أم الفتاة إلى أم الغلام تنظر إليه.

وفيما هي عند أمه دخل عليهما الفتى وسأل أمه: هل أدّوي؟ أي هل آكل الدواية، وهي قشطة اللبن، ولما كان ذلك يدل على الشراهة، أرادت الأم أن تشترّ حماقته، فقلبت سؤاله إلى معنى آخر، وقالت له: اللجام معلق بعمود الخيمة، والسرج بجانبه.

وبهذا الجواب أوهمت أم الخطيبة أن ابنها أراد أداة الفرس للركوب، فكتمت زلة ابنها عن ضيفتها.

ومن ذلك اليوم ضربت العرب المثل بأم مدّوي لمن يوري بالشيء عن غيره.

وهذا معنى قول الشاعر:

بدا منك غش طالما قد كتمته
كما كتمت داء ابنها أم مدّوي

(الحديقة لمحب الدين الخطيب رحمه الله)

من نمّ لك نمّ عليك

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

- من نمّ لك نمّ عليك، ومن نقل إليك نقل عنك، ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك، كذلك إذا أغضبته قال عنك ما ليس فيك.
- الوقار في النزهة سخف.
- من طلب الرياسة فرت منه، وإذا تصدّر الحدثُ فاته علم كثير.
- يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال: طول العمر، وسعة ذات اليد، والذكاء.

(توالي التأسيس لابن حجر)

الصبر وأقسامه

قال العلامة ابن القيم: «الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في (فتوح الغيب): لا بد للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

(عدة الصابرين لابن قيم الجوزية).

من عادة الكريم

قيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر. وقالوا: ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام. وقيل: من انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقه فلم يجب شكره، ولم يحمد في العالمين ذكره.
والعرب تقول: لا سؤدد مع الانتقام، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته، وإن كان لا بد من الانتقام فليرفق في انتقامه، إلا أن يكون حدًا من حدود الله تعالى.

(المستطرف للأبشيهي)

شماتة الأعداء

قال أحد الحكماء: «نقلت الصخور وحملت الحديد؛ فلم أر شيئًا أثقل من الديْن، وأكلت الطيبات وعانقت الحسان؛ فلم أر شيئًا ألذ من العافية».
ولو نزحوا البحار وكنسوا القفار؛ لوجدوها أهون من شماتة الأعداء، خصوصًا إذا كانوا مساهمين في نسب أو مجاورين في بلد، اللّهمّ إنا نعوذ بك من تتابع الإثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم.
وقيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان عليك في بلائك أشد؟ قال: «شماتة الأعداء».

(المستطرف للأبشيهي)

السعادة التامة

قال ابن حزم رحمه الله: «إذا نام المرء خرج من الدنيا، ونسي كل سرور وكل حزن، فلو رتب نفسه في يقظته على ذلك أيضًا لسعد السعادة التامة».
وقال رحمه الله: «من أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطهم، ومن كافأ من أساء إليه منهم فهو مثلهم، ومن لم يكافئهم بإساءتهم، فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم».

(مداواة النفوس لابن حزم)

العلم وفضله

- قال معاذ بن جبل: «عليكم بطلب العلم؛ فإن تعلمه خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد». (جامع بيان العلم لابن عبد البر).
- قال كعب الأحبار: «طالب العلم كالغادي الرائح في سبيل الله عز وجل». (أخرجه الديلمي في مسند الفردوس).
- قال سفيان بن عيينة: «من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل». (القول العلي للسفاريني).
- «وفضائل العلم وأهله أكثر من أن تذكر، وأشهر من أن تشتهر، وفي الإشارة ما يغني عن العبارة»

(القول العلي للسفاريني)

أخسر الناس صفقة

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: أخسر الناس صفقة: من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس.
في السنن من حديث أبي سعيد يرفعه: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا».
قوله: تكفر اللسان: قيل معناه تخضع له.

(الفوائد لابن القيم)

مسك الختام

«مالك بن نبي» وأسئلة الاستعمار والنهضة

محمد صديق
باحث دراسات إسلامية

ما تزال كلمة الاستعمار تتردد كثيرًا في أوساط المجتمعات العربية، وفي قصور المؤتمرات، وعلى ألسنة الصحفيين والسياسيين، وما تزال جراحه تنزف يوميا مئات من الأسئلة اللاهثة عن أسبابه.

وتولى طرح هذه الأسئلة والإجابة عنها كثير من المثقفين الذين رأوا في الاستعمار والمستعمر مادة دسمة للبحث وتحليل الأسباب والنتائج، وجاءت أطروحاتهم مختلفة أحيانا، ومتقاربة أحيانا أخرى، إلا أنه يبرز من بين كل هذه الأطروحات أطروحة مالك بن نبي، الذي رأى في أطروحات البعض نقصا في الأهداف والوسائل، مما جعلها غير فاعلة اجتماعيا، حيث انصبت بعض الأطروحات على إدخال شكليات في صميم الثقافة العربية، مما جعل حلولها مجرد «فوضى» لا تؤدي بالنتيجة إلى فاعلية، أما أطروحة بن نبي فكانت مبنية على إيقاظ العالم العربي إلى مشاكله الفكرية، قبل أن يصب اللوم على المستعمر المستغل، فكان مالك مفكرا أيقظ الفكر العربي والإسلامي على مشاكله الفكرية والاجتماعية والثقافية التي أنتجت البيئة الخصبة لقدوم الاستعمار.

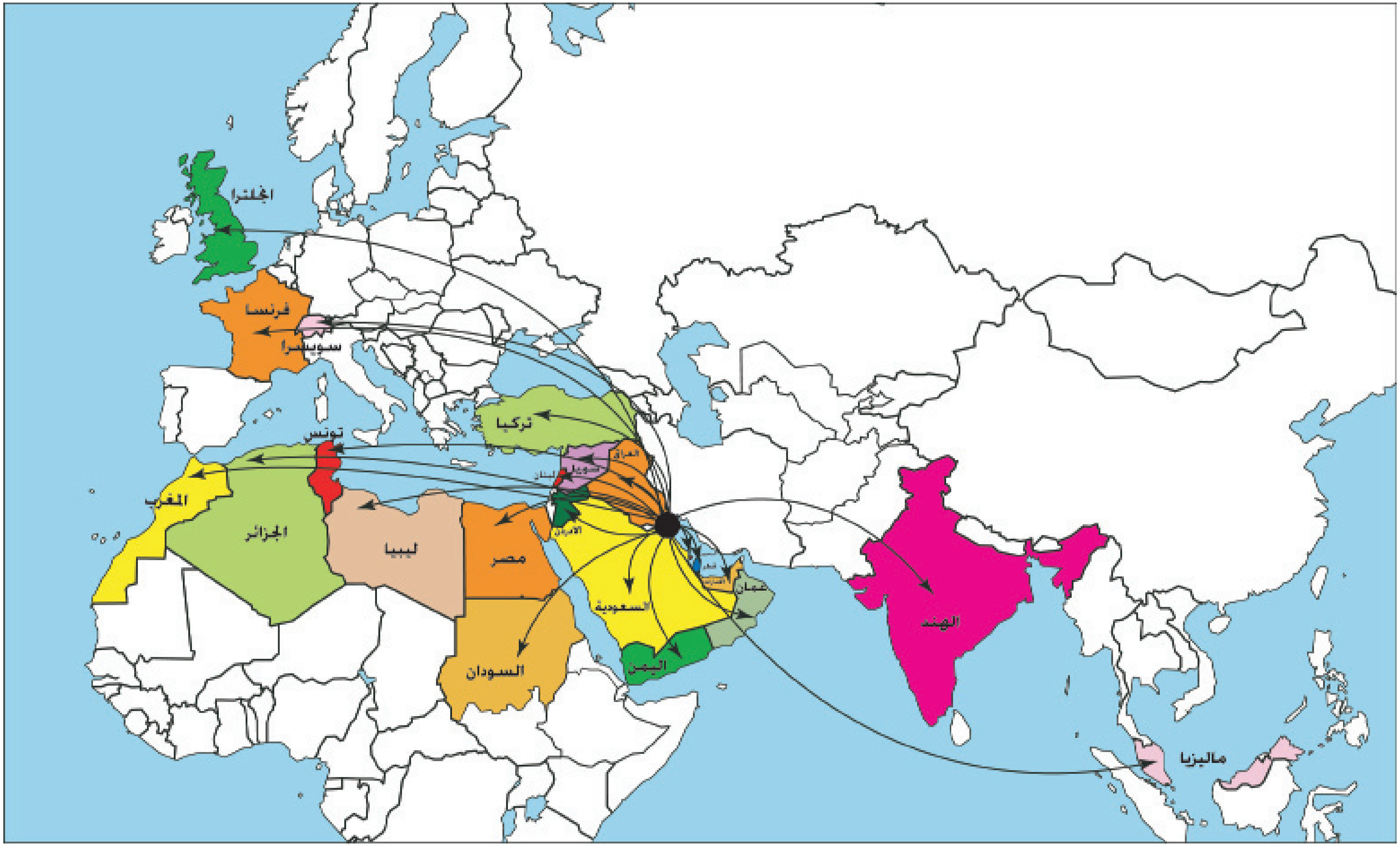
فالمشكلة برأيه ليست في الاستعمار- الذي يعلق به ويناط كل المشاكل- بل المشكلة في جوهرها مشكلة نفسية اجتماعية، مدللا على ذلك بأن بعض الدول العربية الأشد تخلفا لم تكن مستعمرة، ففي داخل المجتمعات العربية يجثم الخطأ، إنه القابلية للاستعمار، ليس فقط بشكله المادي، بل في شكله المعنوي أولا المتمثل في سريان الأفكار الخاطئة إلى محيطنا الثقافي.

وبعد توصيفه للمشاكل انطلق في إنتاج إطار عام يصف من خلاله العلل والأدوية لها بناءً على النتائج التي توصل إليها بعد المقارنة بين حضارة النبي عليه الصلاة والسلام في مدينته التي مثلت لدى بن نبي أنموذجا خالدا وكاملا من جهة، وبين مآلات المجتمعات العربية الرازحة تحت نير الاستعمار بأنواعه الفكري والمادي والثقافي، وحضارة المستعمر القائمة على إحياء الأفكار غير الأصيلة التي تعطيه المنفعة المادية التي يبتغيها، دون التركيز على القيم الأخلاقية التي تنتج الحضارة وتحميها، وكان دواؤه قائما على إحياء القيم الفكرية والخلقية التي مكنت مدينة النبي ﷺ من الانبعاث الحضاري وبناء الحضارة الإنسانية.

وفي توصيفه لخطط الاستعمار في مرحلة ما بعد التحرير حذر من الأمصال المضادة التي يصرّ المستعمر على حقنها في فكر الشعوب المتحررة، وجراثيمه هذه تتمثل في صراع الأفكار، حيث يعمد المستعمر- حسب رأي بن نبي- إلى بث الأفكار الهدامة التي من شأنها إيقاف عملية بناء الحضارة.

إن مدرسة مالك بن نبي التي أسسها تمثل مدرسة فكرية اجتماعية تنطلق من الواقع الاجتماعي المعاش، محاولة شده إلى الواقع الاجتماعي الذي عايشه من قبلنا إبّان التغيير الذي أحدثه القرآن، وهذا الواقع المأمول مبني على فكرة مفادها مأخوذ من قول الله تعالى:﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ (الأنفال: ٥٣).





أماكن توزيع مجلة الوعي الإسلامي في العالم

أسست عام ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٨٢) صفر ١٤٣٥هـ / ديسمبر ٢٠١٣م

٥٠ عاماً من العطاء

المرأة في الميزان

- المرأة والعمل
- زينب.. زوجة الأمراء
- موسوعة المرأة عبر العصور
- المرأة في الإسلام بين الماضي والحاضر
- هي.. قضية الشخصية الإسلامية بكل أبعادها

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

الافتتاحية

شقائق الرجال

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

خلق الله الخلق من ذكر وأنثى، وجعل بينهم مودة ورحمة، وجعل لكل خاصية تميزه عن الآخر، في الخَلق والخُلق، وفي النفس والبدن، مع وحدة الفطرة البشرية، والكرامة الإلهية، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ « والنساء شقائق الرجال».

فالمرأة شريكة الرجل في السراء والضراء، وأليفته في الرخاء والبأساء، ومع وجود هذه الحقائق، فالجاهلية اتبعت أهواءها وشهواتها، فلم تلتفت لتلك الفروق، وصادرت الحقوق، وحمَّلتها من التبعات والواجبات، بدعوى المساواة، فدور المرأة يشهد له التاريخ، عنصر حي مضحٍّ يرتاد المخاطر، ويقتحم الصعاب، ويستسهل المشاق، لا تعرف الخوف ولا الوهن، وساهمت المرأة في هذه الأحداث، وأوكل لها عملا يناسب طبيعتها ، لتعلم أن مسؤوليتها في هذا الدين لا تقل عن مسؤولية الرجل، فهي مكلفة بحمل الأمانة، واليوم ينبغي أن تتحقق فيها صفات الجيل الأول، وأن يسير عقلها مع قلبها، فتبلغ الكمال، وتنافس الرجال، في تأدية الواجب المفروض عليها بحكم طبيعتها، وأما التقليد الأعمى فذلك ما لا يجدي نفعا.

وصيانة المرأة وممارستها الحياة حسب طبيعتها، ليس اضطهادا لها، أو تحقيرا لشأنها، كما يدعي الجاهلون ، وإنما ذلك مبالغة في احترامها، وحرص على عفافها، أن تدنسه أيدي الآثمين، أو تسلبه منها زخارف المخادعين.

وهل كانت المرأة في نظر الشريعة السمحة، إلا كالوردة النضرة، لا تشتم بهجتها، ولا تستكمل محاسنها، إلا إذا بعدت عن لمس العابثين.

والإسلام قد رفع شأن المرأة، وأعلى من قدرها، ونقلها من بيئة الابتذال والمهانة، إلى منزلة الاحترام والعفاف والصيانة، وشرع لها من الآداب الحسنة، والشرائع المحكمة، ما يجعلها دائما موفورة الكرامة.

ودعوى مساواتهن بالرجال، على أساس أنها تصلح لكل ما يصلح له الرجل، مع اختلاف طباعهما، دعوى باطلة، تتعارض مع ما أنزل الرحمن، من قوله في القرآن ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ وقوله ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فما أبلغ هاتين الآيتين، ولا ينقص هذا الموقف ما تستحقه من التقدير والاحترام.

وصدق القائل:

سَعَتْ بالحق وافدة النساء ... إلى شمس الهداية والسَّناء

فقالت وهي في أدب تُناجي ... بحكمتها إمام الأنبياء

كلا الجنسين من ذكر وأنثى ... ندين له ونذعن بالولاء

فهل نُجزَى كما يُجزون حَقا ... ونُعطى مثلهم أجر الوفاء

أجلْ حسن التبعّل عند زوج ... يعادل كلَّ ذلك في الجزاء

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٢ | صفر ١٤٣٥ هـ
العام الواحد وخمسون
ديسمبر ٢٠١٣ مـ

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



قضية المرأة هي قضية الشخصية الإسلامية بكل أبعادها والتي تحتاج إلى إعادة بنائها

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦-٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠ (٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

كلمة العدد

قولي في المرأة

لقد كانت مسألة المرأة قبل زمان غير بعيد أعظم فارق بين الشرق والغرب والإسلام وغيره في المجتمع، حتى إنه لم يكن يخطر بالبال أن يجد الغرب في مرآته المكشوفة مقلدا من الشرق المسلم المشهور بغيرته على نسائه مهما قلد في غيرها، لكن للأسف فإن غيرته على نسائه زالت مع غيرته على إسلامه، وربما كان زوال الأولى جزء من الله تعالى في الدنيا على زوال الثانية.

ثم إن من نظر إلى مظاهر الغرب يحسب أهله يعبدون المرأة ويجلونها بهذا الحد، ومن هذه المظاهر اعتبرت المرأة الشرقية مقهورة منكودة الحظ، لكن الحقيقة أن الغربيين ومقلدتهم منا يعبدون هوى أنفسهم في عبادة المرأة، وما إجلال الرجل العصري المرأة وتقديمه إياها على نفسه إلا نوعا من الضحك على ذقنها لمخادعتها وجعلها أداة اللهو واللعب، كما أن إخراجها من خدورها وستورها معناه إنزالها من عرشها المنيع إلى أسواق الابتذال، حتى إن اشتراكها في أعمال الرجال الذي هو معدود من انتصارها وفوزها بالحقوق التي تخولها إياها مساواتُها المدعاة لها بالرجل، ما هو إلا احتمالها لأعباء الحياة القاسية التي لم يقم رجال الشرق بها بعد حق القيام فضلا عن نسائه، مع أن احتمالها لتلك الأعباء يقع بطريق مزاحمتها، فلا جرم أن عدم قهرها يكون مبنيا على مسامحة الرجال لها مقابل استفادتهم من أنوثتها، وفيه ابتذال المرأة، وقد كانت هي في الشرق خير عون للرجل، تساعده في داخل بيته، وتشترك معه في أعمال الحياة، هي ملكة دولة العائلة زوجة أو أما.

فلا تحسبوا أن الأولين مقلدون لآبائهم، وقائلون: إنا وجدنا آباءنا على أمة... الخ، والآخرين مستدلون ماشون في طريقة العقل والتفكير، ولو قالوا لكان لهم بعض المعذرة، حيث إن تقليد الآباء أقرب إلى المرشد من تقليد الأجانب، مع أن تقليدهم أعمى خالص العمى، في حين أن تقليد الأولين له من العقل والفضيلة نصيران.

مصطفى صبري

كتاب: قولي في المرأة

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

المراقبة فريضة غائبة



رسمي عجلان
كاتب صحفي

إن المراقبة فريضة غائبة، وهي: دوام علم الإنسان ويقينه باطلاع المولى عز وجل على ظاهره وباطنه، فالمولى عز وجل أقرب لعباده من حبل الوريد، لكنه يعاملهم معاملة الغائب البعيد، ليمحص المؤمنين، فقلوب الجهال تستشعر بعده فيقعون في المعاصي؛ إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر – سبحانه وتعالى – لكفوا عن الخطايا، أما من علموا قربه فسيطرت عليهم المراقبة فإنها تكفهم عن الشهوات والزلات، لأن المراقبة تدفع النفس للمجاهدة، وهي: فطام النفس عن الشهوات، ونزع القلب عن الهفوات والملذات، فتصبح المراقبة ظل كل إنسان قبل العمل وأثناء العمل وبعد العمل، في حله وترحاله، في حركاته وسكناته، في السر والعلانية، في الطاعة والمعصية، فالمراقبة في الطاعة تستوجب الإخلاص، وفي المعصية تستوجب التوبة والندم والإقلاع، والمراقبة في المباح تستوجب الأدب وشكر المنعم، فكل نعمة تربو مع الشكر، وكل بلية تتلاشى مع الصبر، فوجاء النفس المراقبة، ونجاتها في المحاسبة، ورياضتها المجاهدة..

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

إن من أسباب انتكاسة الأمة ذنوب الخلوات، وغياب خلق المراقبة ممن لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السموات، ولذا كان جواب رسول الله ﷺ عندما سأله معاذ بن جبل رضي الله عنه حين قال أوصني يا رسول الله، أن قال: «اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك من الموتى، واحفظ لسانك» (الترغيب: ٢/٥٢٣)، وقال ﷺ لابن عمه العباس: «احفظ الله يحفظك؛ احفظ الله تجده أمامك» (صحيح مسلم)، وهذه حقيقة لا مراء فيها: فمن كان الله معه فمم يخاف، ومن

لم يكن معه فمم يأمن...، فلو أن كل مسلم وكل مسلمة راقب رب البرية في السر والعلانية ما كان هذا حالنا اليوم، وما شمتت بنا الأعداء، فالمراقبة تدفع كل إنسان أن يعطي كل ذي حق حقه، وبغيابها تنتشر الفوضى ويعم الهرج، وإن للحرية شروطا وآدابا وضوابط، وحرية بلا مراقبة كالفرس الجامح بلا لجام، ولقد سأل حميد الطويل ذات يوم سليمان بن علي فقال له: عظني؟ قال سليمان: «لو كنت عصيت الله خاليا وأنت تعلم أنه يراك فلقد اجترأت على أمر عظيم، وإن كنت تظن أنه لا يراك فقد كفرت»(١) لذا قال عبدالواحد بن زيد: «إذا كان الله رقيبا علي فلا أبالي بغيره»(٢) وكان أبو عثمان المغربي يقول: «أفضل ما يلزم الإنسان نفسه به المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم»(٣) إن المراقبة سبب للسعادة في الدنيا والعتق من النار في الآخرة، ولنا في هذا الراعي أسوة حسنة، روى مالك بن دينار قال: خرجت مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا -والتعريس: النزول بليل- في بعض الطريق فانحدر علينا راع من الجبل، فقال له عمر: بعني شاة من هذه الغنم؟ فقال: إني مملوك، فقال له: قل لسيدك أكلها الذئب، فقال الراعي: فأين الله؟ فبكى عمر، ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه، وأعتقه وقال له: «أعتقتك هذه الكلمة – يقصد المراقبة – في الدنيا، وأرجو أن تعتقك – أي من النار – في الآخرة»(٤) وكان عمر كثيرا ما يردد كلمة الراعي في مجلس قضائه، فيقول للخصم «أين الله؟» فما أحوجنا أن نتذكر كلمة الراعي ونعمل بها في زمن الفوضى والبهتان! وقد بشر الحق سبحانه من خافه وراقبه بأن مثواه الجنة ومن أصدق من الله قيلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾(النازعات: ٤٠-٤١)، إن حقيقة المراقبة هي: ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه، ومراعاة جنابه، وابتغاء مرضاته، وهذه ثمرة معرفة قدر الرقيب، لأن معرفته تترك آثارا واضحة على القلب والجوارح، فمن راقب الله في خطراته حفظ الله جوارحه في سكناته وحركاته، أما آثاره في القلب فتبدأ بمراعاته -سبحانه- والانشغال به عمن سواه، وملاحظته إياه، والاستعداد ليوم لقياه، فإن استولت هذه الحالة على القلب صلح الجسد كله لقول نبينا الكريم ﷺ: «إن في الجسد مضغة لو صلحت لصلح الجسد كله ألا وهي القلب»(الترمذي)، فما أحوجنا إلى المراقبة على دوام الأوقات، وخاصة في الخلوات. فلو علم العباد أن الله لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون يوم الحساب، وتوزن عليهم مثاقيل الذرة في الحسنات والسيئات.. ما استخفوا بالرقيب، وما جعلوه أهون الناظرين إليهم، وما غرهم حلمه وكرمه، وأنه لا يأخذ بالجريرة، وللزموا المراقبة.. فمن حاسب نفسه في الدنيا خفف الله يوم القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، أما من لم يحاسب نفسه فقد دامت حسراته، وطالت في عرصات يوم القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي سيئاته، ولله در أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين ناصح الأمة بقوله: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم»(٥) ولقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتابا إلى أحد عماله، فجاء في خاتمة الكتاب ما يلي: «أن حاسب نفسك في الرخاء، قبل حساب الشدة، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء، قبل حساب الشدة، سهل عليه اللقاء وكان مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه، عاد أمره إلى الندامة والحسرة»(٦) كأن عمر ينظر إلينا اليوم ويخاطبنا واحدا واحدا ذكرا وأنثى، ويعظنا لعلنا نسمع أو نعقل، فمتى علمنا هذا، وجب علينا لزوم الطاعة للخروج مما نحن فيه من فوضى عارمة وأخلاق مهلهلة وأمة تهدم أركانها بأيدي أبنائها، ولنستيقظ من غفلتنا ونولي وجهنا وسواعدنا وأموالنا وأفكارنا شطر البناء والتشييد، فلنتق الله، ولتنظر كل نفس ما قدمت لغد، ماذا تقول عندما تسأل عن التكفير والتخريب والتدمير وقطع الطريق والمواصلات، وحرق المنشآت وهتك الأعراض وإراقة الدماء ونشر الفساد؟ فهل أحضرت الجواب أخي المسلم؟! فمتى تعود إلينا ضمائرنا، ومتى نعلم أن علينا رقيبا لا تأخذه سنة ولا نوم، ولله در الشاعر حين قال:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غدا للناظرين قريب

الهوامش:

١- إحياء علوم الدين: ٣٩٥/٤.
٢- إحياء علوم الدين: ٣٩٨/٤.
٣- إحياء علوم الدين: ٣٩٧/٤.
٤- إحياء علوم الدين: ٣٩٦/٤.
٥- محاسبة النفس لابن أبي الدنيا صـ٢٢.
٦- محاسبة النفس لابن أبي الدنيا صـ٢٩.

العميد السابق لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر د.عبدالغفار هلال:

التبعية والتحجر الفكري أبرز سلبياتنا



إسلام لطفي - القاهرة
دار الإعلام العربية

نُعاني كثيرا من مشكلات عدة كعرب ومسلمين منذ زمن بعيد، فنواجه عدوانا غربيا متواصلا ضد ديننا الإسلامي، ومحاولة تشويهه ووصفه بصفات لا تتفق أبدا مع سماحة الدين الخاتم، إضافة إلى إشكالية اندثار لغة الضاد -لغتنا العربية- لذلك كان لـ«الوعي الإسلامي» حوار مع العميد السابق لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، المفكر الإسلامي د.عبدالغفار هلال، الذي أبدى استياءه من حالة التمزق، واستنكر وضع اللغة العربية، فإلى نص الحوار..

■ يموج المجتمع الإسلامي والعربي حاليا بمتغيرات عديدة.. فكيف تقيِّم حال مجتمعنا المعاصر كمفكر إسلامي؟

للأسف في وقتنا هذا، بعض الدول الإسلامية انشغلت بحاجاتها ومشكلاتها الخاصة، دون غيرها من بقية دول العالم الإسلامي، كما نلاحظ أن البعض شغلتهم همومهم النفسية والمعيشية، وأمورهم الداخلية، عن المشاركة الحقيقية في الجسد الإسلامي، الذي يفترض فيه أن يكون أفراده وجماعاته كما وصفهم الرسول ﷺ إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، لكن وعلى الرغم من ذلك، نلاحظ عودة إلى التمسك بالدين، ما يعد عاملا مبشرا بالخير، إذ إنهم على تفرق ديارهم يجتمعون قلبا وقالبا، فاتجاههم وقبلتهم واحدة ويمثلون أمة واحدة، وإن فرقت بينهم السياسات أو الجغرافيا.

والمسلمون في الأصل أمة واحدة، كما جاء في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ

أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾(الأنبياء: ٩٢)، فهذه أمة القرآن، وحَّدها الله على كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فنحن نريد من الأمة أن تتكاتف وتتعاون، وأن يكون بينها تلاحم؛ للحفاظ على مقدراتها في كل مكان على وجه الأرض.

فعلى جميع الأقطار معاونة ومساندة بعضها البعض؛ للتخلص من الاضطرابات والمشكلات التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي، وأن يعود إلى الأمة تماسكها واستقرارها وطمأنينتها، لضمان عودة الصف الإسلامي الصحيح، كما قال الرسول ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمنينَ في تَوَادِّهِمْ وتراحمهم وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّى».

■ لكن.. ما أهم العوامل التي أدت إلى تمزق العالم العربي والإسلامي إلى هذا الحد؟

حب النفس والأنانية، إضافة إلى ما نُعانيه من النزعة القومية، بالرغم من إذابة الإسلام لتلك الفوارق، إضافة إلى التبعية للغرب، وعدم الالتفات إلى مؤامراته التي تُحاك ضد العالم العربي والإسلامي.

■ إلى أي طريق تسير الأمة العربية في ظل التحجر الفكري الذي نعاني منه؟

ذلك التحجر يؤدي بنا إلى الهاوية، إذ يخلق تحجرا اجتماعيا وصناعيا، ويصيبنا بالهلاك، ويمكن أن نتخلص من وضعنا هذا إذا نشطنا عالم الدين الإسلامي والمجتمع فكريا، إضافة إلى توظيف المنبر ومعالجة المشكلات التي تواجه المجتمع، لا الحديث فقط عن الجنة والنار والثواب والعقاب، فبتعميق العلم يزول التحجر، وتصل الأمة إلى أغراضها.

■ هل ترى أن الغرب يُدير صراعا خفيا على الإسلام تحت زعم الحريات وحقوق الإنسان؟

بالطبع، فالغرب يُدير معارك ومؤامرات ضد الإسلام، كما أنه يتصنع دور الصديق في الوقت الذي يقوم فيه بدور العدو، وتحريض الأطراف من خلف الستار؛ ليناوئ كل طرف الطرف الآخر؛ فالغرب يغذي الصراعات كلها ويساند القاتل والمقتول، ويقوي كلا منهما للحصول على أكبر الخسائر، ويكمن ذلك في كرهه للإسلام.

صورة مغلوطة

■ ما توصيف علاقة الغرب بالإسلام، والإسلام بالغرب.. كيف تصف هذه العلاقة الآن، لاسيما في اضطراباتها الأخيرة؟

هناك فهم ملتبس من الناحيتين، الغرب منذ القدم لديه صورة مغلوطة، وسيئة عن الإسلام، ونحن منذ أيام الاستعمار لدينا صورة سيئة عن الغرب، والغرب ليس هو الحكام فقط، فهؤلاء متغيرون، ويتبدلون، فيما أن البشر هناك في غالبيتهم طيبون، ولو فهموا الإسلام جيدا ربما أصبحوا كلهم مسلمين، لكن هناك من يعبث لجعل الصورة بذلك السوء؛ لترويج كل ما هو سيئ؛ ليصب في النهاية لصالحه، فلا يجوز لنا أن نتهم شعوب العالم الغربي أجمع بكراهية الإسلام، فهي تأخذ خلفياتها من وسائل الإعلام المسيطر عليها من قبل جهات لا تخفى على أحد، ومن مصلحتها تشويه صورة الإسلام، والمسلمين في عيون الغرب، والغربيين حتى تظل لها السيادة والريادة والكلمة العليا المسموعة.

■ هل ترى أن حالة الكراهية والاحتقان التي نشهدها ضد المسلمين من الممكن أن تتغير؟

لاشك في ذلك، فالاحتقان في العالم الغربي ليس شعبيا، وإنما احتقان حكام، فحكام أوروبا هم من يخلقون الكراهية، عن طريق وسائل الإعلام، ومن الملاحظ أن الحقيقة عند الأوروبي مجهولة، وأنه على استعداد أن يعتنق الإسلام لو علم حقيقته، لكن من المؤسف أن الإسلام يصله مشوها بعد وصفه بالإرهاب، وكثير من الصفات غير الصحيحة، والتي تتنافى تماما مع تعاليم الإسلام، وبالرغم من ذلك، لدينا المقدرة على تغيير هذه الصورة إذا استطعنا الوصول إلى تلك الشعوب مباشرة، ونشر كتيبات تتضمن حقيقة تعاليم الإسلام الصحيح، عن طريق التوظيف الجيد للمراكز الثقافية الإسلامية، مع مساندة السفارات الإسلامية في الغرب، بجانب مهمتها الأساسية ورعاية المصالح السياسية.

■ كمفكر إسلامي.. لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟

أنا أعزو هذه الظاهرة إلى سوء النظم وضعف التعليم والاكتفاء بالقشور، وعدم الاهتمام بالكفاءات، ووضع الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب، أيضا نجد المسلمين أغلقوا الأبواب على أنفسهم، وانعزلوا عن العالم، في حين أن الإسلام في مرحلته الحضارية الزاهية فتح الباب على مصراعيه لمختلف العقائد، حتى المخالفة له.

آليات النهضة الإسلامية

■ ما الآليات اللازم توافرها لقيام نهضة إسلامية؟

علينا الاهتمام بالفكر والعلم ومراعاة ضمائرنا في العمل، والسعي وراء

العـدل والابـتـعـاد عـن الأفكار الهدامة.

■ **كونك عميدا سابقا لكلية اللغة العربية.. كيف ترى وضع لغة الضاد في الوقت الحالي؟**

الوضع لا يرضي أحدا لتخلي الـعـرب عـن لـغـتـهـم، فالإنسان تبقى حياته ومقدراته إذا كان يؤمن بنفسه ورسالته وعقيدته، وعقيدتنا أن اللغة العربية هي لغة الإسلام والقرآن، لكننا وجدنا تحولا في المجتمع الإسلامي إلى صورة المجتمعات الغربية، ووجدنا العربي يفرط في مقدراته ولغته بحجة أنه يتعلم اللغة الأجنبية لكونها لغة العلم.

وأنـا لا أرى مـا يمنع أن تكون العربية لغة العلم، فقد كانت كذلك مع أول إنشاء جامعة مصرية عام ١٩٠٨م، فكان الطب يُدرس باللغة العربية بجامعة القاهرة، وكان مثمرا حينذاك، ومن المؤسف أن نجد كثيرا من العرب يجعلون العربية لغتهم الثانية بعد اللغة الإنجليزية التي يسمونها باللغة الحية، وقد كانت كلية اللغة العربية تسمى طب الأزهر لكثرة الإقبال عليها وعدم وجود كليات للطب بالأزهر، عكس ما نمر به الآن، لا يدخلها إلا ذو المجموع البسيط في الثانوية، ونجد الخريجين في وقتنا هذا لا يجيدون لغتهم، ولا التحدث بها؛ لعدم وجود الأهلية النفسية لتعلمها، وضعف نظرتنا الاجتماعية لها.

■ **كما تعلم أن اللغة إحدى المكونات الحضارية المهمة لأي أمـة.. فكيف نحيي لغتنا لتكون مكونا حضاريا للنهوض؟**

> **نريد من أمة الإسلام أن تتكاتف وتتعاون وتتلاحم للحفاظ على مقدراتها**

لابـد مـن أن نـعـود إلـى ثقافتنا العربية والإسلامية وأن نُعطي الاهـتـمـام الأكـبـر للغة العربية، وإنـشـاء مـؤسـسـات للترجمة والنشر في الجامعات، كما كان قديما، وترجمة علوم الآخرين إلى لغتنا، والاعتماد عليها في دراساتنا وعلومنا في جميع التخصصات، وعدم الاقتصار على اللغات الأجنبية، حتى لا نفصل الدارس عن بيئته.. علما بأننا نجد إسرائيل تستخدم لغتها العبرية في علومها، بالرغم من موتها منذ آلاف السنين، فهم يحيونها بالطريقة الأوروبية، ومع ذلك يُصرون على التحدث والتعامل بها، فنحن نريد أن نعود متمسكين بلغتنا لتعود العربية إلى قوتها، بتوظيف الإمكانات لها لتنطلق.

■ **هل نحن بحاجة إلى ثورة معرفية وثقافية؟**

بالطبع، فنحن الآن بحاجة إلى ثورة؛ لإرجـاع الناس إلـى الحق وتبصيرهم بالصواب، في ظل الـوضـع السيئ الـذي نمـر بـه، وكثرة الفتاوى والآراء التي تصدر مـن غـيـر المتخصصين، بحجة أن الإسـلام لا يـعـرف الرهبنة



ولا يـوجـد رجـل ديـن؛ ويقتضي على الـدول أن تدعم المؤسسات الإسلامية التي تـدرس الإسلام بالفكر والعلم والوعي ونشر الثقافة على المستوى المجتمعي، وليس لبضع طلاب فقط؛ للقضاء على الأفكار المتحجرة التي تجعل الفاسد يطغى على الصالح.

المرأة المسلمة

■ **يـرى الـبـعـض أن المـرأة المسلمة تعيش حالة من الإحـجـام عـلـى عكس مـا تمتعت بـه فـي صدر الإسلام.. ما سبب ذلك؟**

يكمن ذلك في أن بعض المتطرفين يحكمون عليها أحكامًا زائفة،



ويوجهونها إلى أشياء تجعلها تتقوقع في منزلها، بالرغم من أن الإسلام يُعطي المرأة كل المكانة، كما أن الرسول ﷺ كان يُراعي حقوق النساء، وأفرد لهن جزءا من خطبته في حجة الوداع، فقال ﷺ: «إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهنّ حق ألّا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيتكم إلا بإذنكم» إذن الإسلام لا يُهدر حق المرأة وإنما يجعل لها كيانا بحقوق كاملة.

■ ما السبب وراء تنامي الإسلاموفوبيا؟

الغرب يستغل وجود كثير من الأفكار غير الصحيحة المتشددة في مجتمعنا، خاصة الصادرة من المتطرفين لتشويه الإسلام، فكثير من المسلمين يؤذون الإسلام بأفكارهم المتشددة والمتطرفة.

الأزهر يقوم بدور المصارع للفكر الهدام منذ نشأته

■ ما السبب وراء ظهور الإلحاد؟

الأمية الدينية، ولو لم توجد تلك الأمية لوجدنا كل من يسمع فتوى غير صحيحة يردها، وهناك الكثير من يعتمد على الفتاوى غير الصحيحة، ويسلمون بها ويبنون عليها الكثير من الأمور على أسس غير سليمة.

■ ما تقييمك للأزهر عبر التاريخ وفي الآونة الأخيرة؟

الأزهر يقوم بدور المصارع للفكر الهدام منذ نشأته، فيحمل عبء رسالة كبرى؛ من أجل النهضة بالعالم العربي والإسلامي، كما أنه يأخذ بالأيدي المتعثرة، وقد كان قديمًا ذا مكانة عالية، حيث كان يولي الحكام أحيانًا، ثم مر بحالة من التقوقع، ثم بدأ يستعيد دوره في التفاعل مع الشأن العام.

السمنة وأمراضها



د. محمد عزيز الرحمن القاسمي
باحث في الطب النبوي



إذا اجتمع الشحم والدهن في بدن الإنسان بكمية كبيرة فإن هذا هو ما يسبب السمنة، ويُخشى أن تؤدي السمنة إلى أن يصاب الإنسان بالفالج في جسمه، كما يمكن أن تتولد منها أمراض أخرى عديدة، مثل ضغط الدم الذي يتسبب في أمراض القلب، مما يؤدي إلى تعقيدات ومشكلات في أي وقت من الأوقات، ولو يصعب العثور على بداية السمنة في المراحل الابتدائية، ولكن حين يزداد وزن الإنسان أكثر من ثلاثين في المئة من وزنه، بالنظر إلى قامته ووزنه، فإنه يعد مصابا بمرض السمنة أو البدانة.

إن السمنة تظهر دائما نتيجة الإكثار من الطعام، فالقوة الموجودة في الطعام إذا كانت أكثر من القوة المستخدمة والمستهلكة كل يوم، فإن الكمية الزائدة تتجمع في صورة الدهن والشحم في البدن، فلو بقيت هذه الحالة لمدة أطول تبتدئ الزيادة، وإن لم يستخدم الشحم والدهن الزائدان الموجودان في الجسم فإن الوزن يزداد أكثر فأكثر.

وقد اتفقت كلمة أطباء العالم أجمعين على أن الوزن الزائد والسمنة، أكثر ضررا للصحة الإنسانية من أي مرض آخر، ونسبة الموت في هذا المرض أكثر من الأموات الكائنة بسبب أمراض أخرى، فإن زاد وزنكم وكنتم تواجهون سمنة وبدانة، ومع ذلك لا تشعرون بضرورة تقليل الوزن وتخفيفه وأهمية ذلك، فأنتم بحاجة لنعرض لكم بعض الحقائق في هذا الصدد.

ووفقا لفحص طبي أجري على خمسة وعشرين رجلا أعمارهم ما بين ٣٠ إلى ٥٥ سنة، تبين أن الذين وزنهم أكثر ٢٠ في المئة حسب أعمارهم يواجهون أنواعا من الأمراض مثل مرض القلب، وإصابة الفالج، ومرض التنفس، والسكر، وأمراض أخرى لا تعد ولا تحصى. فإنكم إذا كنتم تحملون وزنا أكثر من ١٥ إلى ٢٠ في المئة على بدنكم

من الوزن المفروض فإنكم تواجهون سمنة خطرة إلى حد كبير، ويعني ذلك أن وزنكم إذا كان ينبغي أن يكون ١٣٠ أو ١٤٠ باوندا ولكنكم أقرب من ١٥٠ إلى ١٦٠ فأنتم تعدون في مثل هذه الحال من عداد الرجال السمناء الغلاظ، وأنتم على خطر المعاناة من الشؤون الصحية التالية:



١- ضغط الدم العالي.
٢- إمكانية شدة الشرايين في البدن.
٣- وجع المفاصل والسكر.
٤- أمراض القلب وإصابات الفالج.
٥- الإصابة بالحمى والنزلة الشديدة لمدة طويلة.

ووفقا لفحص طبي فإن الرجال السمناء يواجهون كل نوع من المخاطر المضرة بالصحة، لأن السمنة تجعل بدن الإنسان غليظا وتحوله إلى شكل بشع، بحيث إن بنية البدن وأعضاءه تكون غير متزنة وغير متناسبة، لأجل ازدياد الوزن، والقلب يجتهد أكثر من طاقته لإيصال الدم إلى كل جزء من أجزاء الجسم، وهو يضعف وينحل يوما بعد يوم، وأنابيب الدم الكبير الموجودة في بدن الإنسان تحتاج إلى جهود جبارة ومحاولات قوية ونشر أنفاسها ومواجهة صعوبات شديدة ومشقات كبيرة لإيصال كمية الدم إلى الأجزاء الشحيمة واللحيمة والسمينة، الأمر الذي يضر القلب بسببه ويقال لذلك القلب الموسع، ويتأثر بذلك جهاز التنفس أيضا، وتكبر المعدة أضعافا مضاعفة من بنيتها العادية، وينتفخ البطن حتى يصير مثل بالون، وتضطرب المعدة لأجل الثقل على قشرها، مما يؤدي إلى الغشيان والنفخ، وعندما يتوجه هذا الضغط إلى الفوق يفسد عمل القلب، وكذلك تتأثر بذلك الكبد واللبلبة كثيرا، مما يتولد منه مرض السكر والأمراض الأخرى. وعندما تكثرون من أكل الأطعمة الدهنية والشحمية تصل الشحوم المتصلة بها إلى شرايين الدماء بكمية، حيث يكون الدم غليظا وذا شحم كثير، الأمر الذي يسبب ضعف دوران الدم، وتجمد علقة صغيرة من الدم، تتوقف فجأة في مكان ما من الأمكنة التي يصل منها إلى شرايين الدم وأنابيبه، وهذه هي نوبة قلبية تميت الإنسان وتقتله، وهذه العلقة إذا مرت بعرق في الدماغ وتوقفت انشق عرق الدماغ، ويخاف أن ينتج من هذا مرض الفالج أو الغيبوبة الطويلة.

وقد ذكرنا بعض هذه الحقائق المدهشة لكم موجزة ومختصرة لتدرسوها وتفكروا فيها، وتنظروا إذا كان وزنكم أكثر وأزيد فابدأوا عملية تقليل الوزن وتخفيفه، وخلال المعالجة لابد من السيطرة على الغذاء قبل كل شيء، فمثلا تجنبوا من اللحوم، والسمن، وما يحدث الدهن والسكر، أما الرياضة البدنية فاجعلوها من عاداتكم المستمرة الدائمة على مدى الحياة، فإن الرياضة البدنية توصل الدم إلى كل جزء من أجزاء البدن بجانب مساعدتها في تقليل الوزن، وهذا هو مدار الصحة، ويسرع أيض الجسم بسبب الرياضة، وبذلك يتحول كثير من الحرارات إلى الدم الصالح الجيد بدل أن تكون شحما ودهنا.

إذا كانت امرأة تستخدم قوتها لمدة ساعة واحدة لشؤون البيت فإنها تستخدم ٢٤٠ حرارة من جسمها، وبالعكس من ذلك إذا كانت نفس المرأة جالسة تتحدث فإنها تستعمل ٨٤ حرارة فقط، أقلوا النوم واعملوا كثيرا، واصرفوا ٦ إلى ٨ ساعات من ٢٤ ساعة للنوم، فإنكم في النوم لا تستعملون حرارتكم كما تستعملونها إذا كنتم أيقاظا، وكنتم في الأعمال وزحمة الأشغال، ويجب للرجال ٢٨٢٠ إلى ٣٠٠٠ حرارة يوميا، أما النساء فهن بحاجة إلى ٢٠٨٠ إلى ٢٠٩٠ حرارة، وراعوا بعض الأمور في هذا الصدد.

كلوا الطعام على مهل، ويتم الشبع إذا أكلتم الطعام بمضغه جيدا، ولا تقربوا إلى شيء مما يؤكل إلا أن تكونوا جائعين أشد الجوع، وكلوا أقل من الجوع، وألقوا طعاما قليلا في قصعتكم لئلا ترغبوا في الإكثار من الطعام. وعودوا أنفسكم على شرب الماء جيدا قبل أكل الطعام بنصف ساعة، والماء يتوقف في الجسم بسبب الأشياء الأكثر ملحا، ويزداد الوزن، والطعام القليل الملح يقلل من رغبتكم في الطعام، ونتيجة ذلك أنكم تأكلون قليلا، وفي ملعقة صغيرة للشاي تكون ١٧ حرارة، فلو أن رجلا يلقي بمقدار ملعقتين من السكر ويشرب أربعة كؤوس من الشاي كل يوم فإنه يزيد في حرارته ١٤٤ حرارة يوميا، والسكر يفسد جلد الوجه بجانب الزيادة في الوزن، فقللوا من استعمال السكر، وأكثروا من استعمال النباتات العشبية، فإنها تقل فيها الحرارات، وقد علم من التجربة أن كثرة الشحم تزيد من سطح الكوليسترول.

أدوية لتقليل الوزن:

تشربون في الليل ملعقة من عصير التفاح وملعقة من العسل في نصف الكأس من الماء الحار، واسلقوا ٥ غرامات من الزيرة في الماء بمقدار الكأس واستعملوه صباح مساء قبل أكل الطعام.

٥ غرامات من السونف، و٥ غرامات من الأجوائن واغلوهما في الماء بمقدار الكأس، واشربوه بعد الطعام صباح مساء، فإن الشحم يتحلل بذلك، ويقل الوزن، إن شاء الله تعالى.

مسالك تقريب الخطاب الشرعي

د.أمينة مزيغة
باحثة مغربية

لما كان المخاطبون بأحكام الشريعة الإسلامية ليسوا على وزان واحد من حيث الفهم والإدراك، وكان التواصل ضرورة ملحة لتقريب مضامين الشرع الحكيم، والوقوف على موارده الصافية، كان من الضروري اعتبار مجموعة من المسالك تكون خادمة لهذا الهدف ومحققة له، ولعل أول ما ينظر إليه لتحقيق ذلك جملة أمور منها:

- النظر في المكلف وأحواله، باعتباره محور التشريع، والمقصود بالامتثال لأوامره واجتناب نواهيه.

- اعتماد لغة تكون مفهومة وميسرة تحقق قصد الإفهام والتفهيم.

- مراعاة الرفق واللين عند توجيه الخطاب المراد تقريبه.

- اعتبار الواقع ومقتضياته في التقريب.



لا يمكن الحديث عن تقريب مضامين الشريعة من المكلف أو المتلقي، إذا لم يتم مراعاة مجموعة من الاعتبارات فيه، حتى يكون هذا المكلف أولا مدركا ثم فاهما لما يوجه إليه من خطاب، وقادرا على أداء ما تم إدراكه وفهمه على أتم وجه.

وأول ما ينظر إليه عند المخاطبة «العقل» يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «المكلف وشرطه أن يكون عاقلا يفهم الخطاب..؛ لأن التكليف مقتضاه الطاعة والامتثال، ولا يمكن ذلك إلا بقصد الامتثال، وشرط القصد العلم بالمقصود، والفهم للتكليف، فكل خطاب متضمن للأمر بالفهم، فمن لا يفهم، كيف يقال له افهم؟ ومن لا يسمع الصوت كيف يُكلم؟ .. ومن يسمع قد يفهم فهما ما، لكنه لا يعقل ولا يثبت كالمجنون وغير المميز، فمخاطبته ممكنة، لكن اقتضاء الامتثال منه.. غير ممكن»(١).

فالقدرة على الفهم هي أساس التكليف، وبها تتحدد إمكانية مخاطبة الشخص أو عدم مخاطبته.

والذي يمكن أخذه مما سلف أن هناك خطابًا، وهناك بعده فهم، ثم تكليف فامتثال، أو بعبارة أخرى، لا امتثال دون تكليف، ولا تكليف دون فهم، ولا فهم دون عقل.

ثم هناك مسألة الاستعداد لتلقي ما يوجه إليه، ذلك أن المكلفين ليسوا على مستوى واحد من حيث القدرة على تطبيق ما تم فهمه؛ لاختلاف أحوال كل منهم حسب الزمان والظروف والقدرات، فليس الشاب كالشيخ، ولا الصحيح كالسقيم، ولا الذكر كالأنثى، فمراعاة الخطاب لأحوال المكلفين ومراتبهم في الفهم والتعقل، كل ذلك مما يُسهم في تقبل الخطاب، وتحقيق التواصل.

اللغة الميسّرة

من جهة أخرى هناك مسألة اللغة، باعتبارها أداة تتعدى وظيفتها التواصلية بين أطراف مختلفة من المجتمع، إلى وظائف أخرى تربوية، وتثقيفية، وعاطفية، وتفهيمية، ولتؤدي اللغة هذه الوظائف لابد أن تكون ميسرة، في متناول كل من يوجه إليهم الكلام، يقول الشاطبي رحمه الله: «إنما يصح- في مسلك الإفهام والفهم- ما يكون عامّا لجميع العرب، فلا يتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه بحسب الألفاظ والمعاني، فإن الناس ليسوا على وزان واحد ولا متقارب، إلا أنهم يتقاربون في الأمور الجمهورية وما والاها، وعلى ذلك جرت مصالحهم في الدنيا.. »(٢).

ويمثل لذلك بالتكاليف الاعتقادية التي أكد فيها أنه يجب «أن تكون من القرب للفهم، والسهولة على العقل، بحيث يشترك فيها الجمهور، من كان ثاقب الفهم، أو بليدًا، فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص لم تكن الشريعة عامة.،. فلابد أن تكون المعاني المطلوب علمها واعتقادها سهلة المأخذ»(٣).

مراعاة الرفق واللين

إن أي حديث أو كلام لن يلقى آذانا صاغية ولا قلوبا واعية، إذا لم يتم توصيله بطريقة تراعي الرفق واللين، وبكيفية محببة إلى نفوس المخاطبين، حتى لا ينفضوا ويديروا ظهورهم، ليس لعيب في مضمون الخطاب، بل فيمن يقدم هذا الخطاب، والكيفية التي يقدمه بها، ولاشك أن الناظر في كتاب الله- عز وجل- يلاحظ أن آياته لم تنزل للتضييق على الناس أو التشديد عليهم، بل «تنزل لهم بالتقريب والملاطفة والتعليم في نفس المعاملة به، قبل النظر إلى ما حواه من المعارف والخيرات»(٤)، و تبعا لذلك عدد الإمام الشاطبي- رحمه الله- جملة أمور يتميز بها كلام الله- عز وجل- عند مخاطبة عباده، منها:

- الإبلاغ في إقامة الحجة على ما خاطب به الخلق، فإنه تعالى أنزل القرآن برهانا على نفسه على صحة ما فيه.
- ترك الأخذ من أول مرة بالذنب، والحلم عن تعجيل المعاندين بالعذاب، مع تماديهم على الإباية والجحود بعد وضوح البرهان، وإن استعجلوا به.
- تحسين العبارة بالكناية ونحوها في المواطن التي يحتاج فيها إلى ذكر ما يستحيا من ذكره في عادتنا، حتى إذا وضح السبيل في مقطع الحق، وحضر وقت التصريح بما ينبغي التصريح فيه، فلا بد منه، وإليه الإشارة بقوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ (الأحزاب: ٥٣).
- التأني في الأمور، والجري على مجرى التثبت، والأخذ بالاحتياط(٥).

على هذا المنوال، وسيرًا على نهج القرآن، حري بكل من رام تقريب مضمون الخطاب أن يكون لين الجانب، معتدلا، واقعيا، منفتحا على ما يعيشه الناس من مشكلات، واحتواء ما يمرون به من أزمات، وإيجاد مخارج لهم في ضوء هدي الشرع الحكيم.

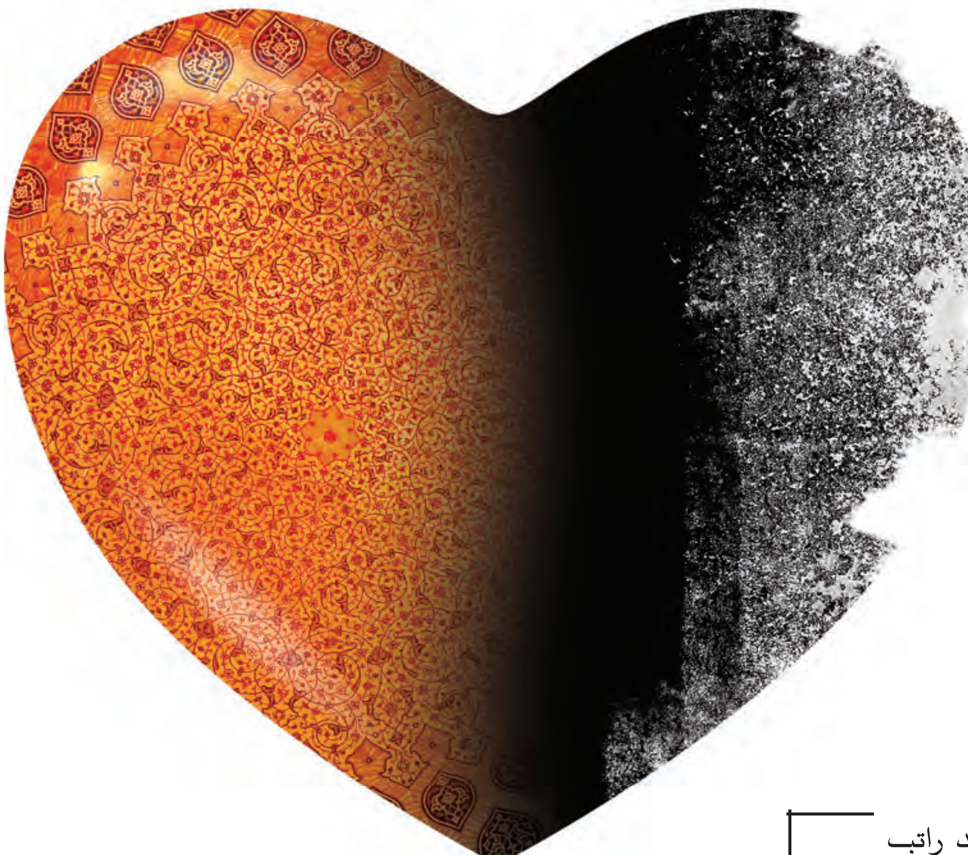
اعتبار الواقع

من المعلوم أنه قبل التفكير في تقريب مضمون أي خطاب، لابد من الإحاطة بواقع الناس، وفهمه بكل مكوناته، والتبصر بالأحوال والظروف المعاشة، وكذلك الإحاطة بمختلف القضايا الدينية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية، التي تحيط بالفرد والمجتمع، ذلك أن الواقع «ليس إلا مجموع الوقائع الفردية والجماعية، الخاصة والعامة، ومن ثم فإن فهم ذلك الواقع هو فهم تلك الوقائع، واستيعابها، وتبين طبيعتها، وخصائصها» (٦)، إذ لا معنى لشحن العقول بما لا علاقة للمتلقي به، وبما يضيق صدره به.

الهوامش

١- المستصفى١/١٥٨.
٢- الموافقات ٢/٦٥ .
٣- الموافقات ٢/٦٧.
٤- الموافقات ٣/٢٨٢.
٥- انظر الموافقات ٣/ ٢٨٢- ٢٨٣ .
٦- الاجتهاد المقاصدي، لنور الدين بن مختار الخادمي.

النفاق الاجتماعي وخطره على الأمة



د. خالد راتب
باحث سوري

ظهرت بعض الأمراض الاجتماعية التي تؤثر على مسار الأمة وحضارتها، وتتسبب في انهيار المجتمعات، وإصابتها بالخلل والشلل الذي يعوق تقدم وتطور حياة الناس، ومن أخطر هذه الأمراض الاجتماعية مرض النفاق الاجتماعي، ويظهر خطره في أن النفاق عمومًا مذموم ومنبوذ، والمنافقون مكروهون مزيفون.

وإذا نظرنا في مسيرة التاريخ الإنساني لوجدنا أن النفاق هو العامل الأخطر في تقويض الدولة الإسلامية؛ لأن النفاق يدب في جسد الأمة كما يدب السرطان في جسد الناس، ولا يشعرون به إلا وهم جثة هامدة، انهارت قواهم، وفقدوا مناعتهم، بما أحدثه من نقص في المناعة، وهذا بالضبط ما يحدثه النفاق في وحدة الأمة الإسلامية.. حيث يجعلها جثة هامدة عن طريق إحداث الفتنة والاضطرابات والفرقة، والعمالة مع أعداء الإسلام في هدم الإسلام والمسلمين.

ومن النفاق الاجتماعي التزلف للسلاطين من أجل الوجاهة الاجتماعية والمناصب ومتاع الدنيا الزائلة، ويظهر هذا النفاق الاجتماعي في التساهل في الفتيا بغير مستند شرعي، قال الإمام النووي رحمه الله: «ومن التساهل أن تحمله الأغراض الفاسدة على تتبع الحيل المحرمة أو المكروهة،

والتمسك بالشبه طلبًا للترخيص لمن يروم نفعه، أو التغليظ على من يريد ضره» (آداب الفتوى للنووي، ص: ٣٧).

كما يبرر المتملقون للحكام المنكرات، ويبيحون المحرمات، ويقننون للفساد، تبعًا للأغراض و الشهوات.

قال محدث المغرب أبو الفضل عبدالله ابن الصديق الغماري رحمه الله: «أما الذين يسارعون إلى إباحة بعض المحرمات، ويصدرون فتاوى يرضون بها رؤساء بعض الحكومات، وقد تختلف فتاواهم بالتحليل والتحريم حسب اختلاف الأغراض والشهوات، فهؤلاء مجتهدون في محو الدين، مجدون في تغيير أحكامه، ولن يفلتوا من عقاب الله تعالى، ولا من شديد انتقامه، وما الله بغافل عما يعملون» (خواطر دينية وبحوث غالية لابن الصديق الغماري، ص: ١٦١).

أصبح المتملقون والمنافقون هم أصحاب المكانة القريبة من المسؤولين، وأصبح المخلصون العاملون الجادون، الذين لا يجيدون العزف على وتر النفاق، ولا يحسنون الضرب على أعواد المداهنة.. أصبحوا لا نصيب لهم في المنح بل والوظائف، لأن الأمة تجامل على حساب المصلحة، والنفاق الاجتماعي أصبح أحد المؤهلات الضرورية للوصول إلى المناصب، والتقرب من الرؤساء، ومن لا يجيد هذا النوع من النفاق لا مكان له إلا في ذيل القائمة إذا وجد لها ذيل!!

والتمادي في هذا النوع من النفاق يؤدي إلى خرق السفينة، حيث يتصدر لكع ابن لكع المشهد، والنفاق الاجتماعي علامة من علامات قيام الساعة، قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع (يعني العبيد والسفلة من الناس)» (أخرجه البخاري) ، وتصدر هؤلاء لعظائم الأمور مع إبعاد من هم أحق تضييع للأمانة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: «أين السائل عن الساعة؟ قال: هأنا يا رسول الله، قال: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» (متفق عليه).

صاحب النفاق الاجتماعي أشر الناس؛ لأنه يتلون حسب الطلب، فيقابل هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه آخر، وقد ذم الإسلام ذا الوجهين، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» (متفق عليه).

إن أهل النفاق الاجتماعي لا يعيرون اهتمامًا لأصحاب الكفاءات، وإنما يعتمدون على من يطاوع نفاقهم، مما يؤدي إلى هجرة الكفاءات.. وهم محملون بالحقد على مجتمعهم الذي تربوا فيه، فتفقد الأجيال ولاءها وانتماءها للأوطان، ويرتمون في أحضان الأوطان التي هاجروا إليها، مما يتسبب في إحداث ازدواجية في الناشئة التي ستخرج من هذه الأجيال المهاجرة، بسبب أن المناصب القيادية في المؤسسات والهيئات لأهل التملق والنفاق، وهذا يؤدي إلى تفاقم الأزمات وظهور الفشل .

واجب الأمة تجاه ظاهرة النفاق الاجتماعي

يجب على الأمة تعرية هؤلاء المنافقين؛ لأنهم يبالغون في مدح الناس بالباطل من أجل المآرب والمصالح الشخصية، وقد يبالغون في المدح إلى حد الإطراء، فيصنع هؤلاء المنافقون فراعين يذلون الناس ويستعبدونهم، كما أنهم يمهدون لغيرهم صناعة الفراعين! فكلما رحل فرعون جاء فرعون جديد، يعتمد على سحرة أهل النفاق، عن طريق لحن القول وتزييف الحقائق، فتنزلق الأمم في الهاوية..

فمن الذي كوى الأمة كلها بنار الفرقة والتشرذم؟ ومن الذي قسم البلاد ووضع الحدود المصطنعة؟ ما حدث ذلك إلا بتمهيد ومباركة من أبناء عبدالله بن أبي بن سلول، المربي الأول لطابور النفاق على مر العصور، وهو الشخصية الحقيقية الرمزية بعد ذلك، والنموذج الذي يسير على دربه أحفاده، إنها ذرية بعضها من بعض، تتجمل وتتصنع بزخرف القول غرورًا، فيجب على الأمة بعد تعريتهم أن يفعلوا معهم فعل الرسول ﷺ حيث وضعهم في مكانتهم التي يستحقونها، وهي الوضاعة والخسة، بدلا من تمجيدهم وإضفاء الألقاب العالية عليهم، يقول ﷺ: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب» (رواه مسلم)، أي المبالغون في مدح الناس في وجوههم، والمادحون لهم بالباطل، وبما ليس فيهم .

ومن واجب الأمة كذلك تجاه خطر النفاق الاجتماعي تحذير الأجيال منهم، وتنشئة المجتمع تنشئة اجتماعية سليمة، بعيدة عن التملق والخداع؛ لأنه أسلوب انتهازي رخيص، وليس من أخلاق أهل الإيمان والشرف، فقد روي عنه ﷺ: «ليس من خُلُق المؤمن الملَق». والمَلَقُ هنا هو التملق. (حديث ضعيف)

ويجب على الأمة بيان خطر النفاق عن طريق إظهار خطره في الآخرة، فكما أن هذا اللون من النفاق يدمر صاحبه والمجتمع كذلك، فإنه يعرضه للعقاب الأليم، وذلك لأنه خائن لله ورسوله ﷺ، فقد ورد عند الحاكم وصححه عن ابن عباس- رضي الله عنهما- مرفوعا: «من استعمل رجلا على عصابة، وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين »، وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين».



النساء في الإسلام بين الماضي والحاضر

د. آندي حجازي
باحثة أكاديمية

في القرنين الخامس والسادس الميلادي، وكما تشير المعلومات التاريخية كانت الامبراطوريتان الرومانية والفارسية تحكمان العالم وتتصارعان على السلطة بشتى الطرق والوسائل، وكان مَن يحكم ويسيطر على العالم ويقود تلك الصراعات التي لا تنتهي هو الرجل، فالثقافة الذكورية السلطوية هي السائدة، ولم يكن للمرأة آنذاك شأن يذكر، أو أمل يرجى.. والأمر لم يختلف كثيرا عما كان سائدا في الجزيرة العربية، فالمعاملة واحدة، تُعامل النساء أسوأ أنواع المعاملة.. تُباع المرأة وتُشترى في سوق النخاسة، وتعامل معاملة العبيد، بل الحيوانات أحيانا، تُضرب وتُذل ولا يرتفع لها صوت أو رأي، ولا يُنظر إلى حالها، بل يُعد قدومها للحياة عارًا، فيقرر الوالد- في أحيان كثيرة- التخلص من هذا العار بزجّها في التراب وهي تنبض بالحياة منذ اللحظات الأولى لحياتها قبل أن يراها أحد أو ينظر في وجهها.. فالإناث كنّ في ذلك العالم وتلك الإمبراطوريات بلا حقوق إنسانية كالتعليم وامتلاك المال أو الإرث.. ما عليها سوى خدمة الرجل الذي هو النصف الثاني من العالم، والذي يستخدم قواه الجسدية من أجل سيادته على العالم.. فأي حضارة تلك التي كانت تسود العالم آنذاك؟ وأي ظلم عمّ البشرية لقرون طويلة؟

في ظل تلك الثقافات والأفكار والصور النمطية السلبية والقهرية السائدة حول المرأة ودورها في المجتمع برز فجر الإسلام، فجر دين جديد، حمل في ثناياه كل معاني الحب والتقدير والرفعة والعدالة الاجتماعية للمرأة، أعلى من شأن النساء وأعطاهن حقوقا، فأعاد التوازن للحياة الأسرية، وأول حق اعترف به ونادى به هو إنسانيتها، فليس الذكر وحده الإنسان، بل الأنثى تتشارك معه في ذلك، وليس الرجل وحده المكلف في هذا العالم، بل كلاهما (الرجل والمرأة) له حقوق وعليه واجبات، ومحاسب على أفعاله، قال الله تعالى:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

(النساء: ١٢٤). وجاء الحديث النبوي الشريف: «النساء شقائق الرجال، ما أكرمهنّ إلا كريم، وما أهانهنّ إلا لئيم» (رواه أحمد والترمذي والبيهقي)، فأعاد الإسلام للمرأة حريتها وكرامتها وإنسانيتها قبل أي شيء، فأصبح لها حرية التصرف وحرية العبادة وحرية اتخاذ القرار، بعد أن كانت تابعة تتحكم بها أهواء الرجال بلا أدنى رحمة أو مشاعر إنسانية.

فأي دين عظيم هذا الذي ربط طاعة الأم بطاعة خالق البشر وأمر بالإحسان إليها؟ وبدون الإحسان للأم وتكريمها فلا دخول لجنة الآخرة، فجعل الجنة تحت أقدامها.. فهل بعد هذا التكريم من تكريم وتقدير لدور المرأة في الحياة؟ وتأمل كيف سمى الله تعالى سورة كاملة باسم «النساء» بالقرآن الكريم ولم يسم سورة الرجال، وذلك تكريما للمرأة ومطالبة للرجل بإعطائها حقوقها، بل ذكر الله تعالى عددا من قصص النساء في القرآن الكريم، كمريم بنت عمران، وآسية زوجة فرعون، وامرأة العزيز.. فلم يعتبر القرآن الكريم اسم المرأة عورة لا يجب أن يذكر على لسان عباده، فالله خالقها وهو أرحم بخلقه.

الدين الإسلامي العظيم جعل المرأة في منزلة رفيعة مقدرة ذات دور عظيم في الحياة، فأعلن:

أولا: تكريم المرأة وأهمية دورها، فهي محضن البشرية ومربية أجيالها وسبب تكاثرها، فلولا وجودها لما استمرت الحياة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

ثانيا: تكليف المرأة ومحاسبتها، فخاطب الذكر والأنثى على حد سواء في الأمور الشرعية، فأوضح الإسلام أن المرأة مكلفة ومحاسبة على أعمالها كما الرجل، ومادة التنافس بينهما لدخول الجنة هي العمل الصالح، وهو معيار التفاضل عند الله تعالى بين بني البشر ذكورا وإناثا، أغنياء وفقراء، مهما اختلفت ألوانهم وأعراقهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقال تعالى مؤكدا المساواة في ذلك: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣٥).

ثالثا: مشاركة المرأة الرجل في النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل مشاورتها، فقال عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ (التوبة: ٧١)، فأي تقدير أعظم من هذا! جعل للمرأة كلمة مسموعة ورأيا ونصيحة، وليس كما يفعل البعض من محاولة إقصائها عن هذا الدور في الحياة.

ونرى موقف أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله عنها- في صلح الحديبية عندما أحس المسلمون بأن بنود الصلح بها إجحاف لهم وأنهم لن يعتمروا هذا العام، ولم ينفذوا أمر الرسول ﷺ بأن يتحللوا من الإحرام، فدخل الرسول ﷺ خيمته وهو يقول: «هلك المسلمون، أمرتهم فلم يمتثلوا» فشاورها، فأشارت عليه بأن يبدأ بنفسه، ويتحلل هو من الإحرام، وعندئذ سيفعل الجميع مثله.. فحلت المشكلة برأيها الحصيف!

رابعا: للمرأة حق في التعلم والتعليم، فلم يمنع الإسلام المرأة من حقها في الذهاب لأماكن التعلم ونيل حصتها من العلم، وقد كانت تحرم من ذلك قبل الإسلام، ويؤكد هذا الحق قول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» (رواه أحمد وأبوداود). فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يمنع النساء من القدوم للمسجد لحضور الدروس الدينية أو سماع الخطب في الجمع والأعياد، فكن يلتقين برسول الله ﷺ ويطرحن عليه الأسئلة من أجل التفقه بالدين.. فالإسلام حث على ذلك لأن الجاهل عدو نفسه، فكيف للأم أن تربي أبناءها تربية صالحة إن لم يكن لديها معلومات كافية تزوّد أبناءها بها، ففاقد الشيء لا يعطيه.

ومن أروع الأمثلة على حق المرأة في التعلم والتعليم ودورها في ذلك، هي السيدة عائشة أم المؤمنين- رضي الله عنها- التي كان الصحابة يرجعون إليها لأخذ العلم والأحكام الشرعية عنها، فكان الصحابة يسألونها عما كان يفعل رسول الله ﷺ في بيته، وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام كان كبار الصحابة كعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان.. يسألونها رأيها وما سمعت من رسول الله ﷺ في هذا الشأن أو ذاك، لأنهم يعلمون أنها ذات علم واسع، فلم يتحرجوا من العودة لامرأة، فكانت مصدر علم ليس للنساء فقط، بل للرجال أيضا، فهي من أكثر النساء حفظا للأحاديث النبوية، وهذه حكمة الله باختيارها زوجة لرسول الله ﷺ وهي صغيرة السن لتنقل عن رسول الله ما ترى وما تسمع بكل دقة.

وقد قال هشام بن عروة عن أبيه: «ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة». وقال أبوبردة بن أبي موسى عن أبيه: «ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علما». وقال الزهري: «لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع العالمين المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل» (كتاب: الإصابة في علم الصحابة). فتفكّر في هذه الشهادات، فهل من دِين رفع قدر المرأة كالدين الإسلامي؟

خامسا: حق التملك وامتلاك المال ونيل الإرث، فانظر كيف كانت السيدة خديجة بنت خويلد- رضي الله عنها- صاحبة مال وتجارة ولم ينزع منها الإسلام هذا الحق، بل استمر رسول الله ﷺ بعد الإسلام مُعينا وسندا لها في الاتجار بمالها وفقا لطلبها، وكانت في المقابل تدعمه وتدعم الدعوة الإسلامية بمالها.

وفيما يتعلق بالإرث فإن قال قائل إن الإسلام أعطى المرأة نصف ما أعطى الرجل من الميراث.. فكيف أعطاها حقها؟ فنحن نقول:

١- إنه قبل الإسلام لم تعطَ الإناث أيّ نصيب من المال، فيكفي أن الإسلام جعل لها نصيبا اعترافا بإنسانيتها.

٢- إن المرأة- في الحقيقة- ليست دائما ترث نصف الرجل، بل أحيانا

ترث نصف التركة، وأحيانا ثلثها، وأحيانا الثلثين، وأحيانا الربع، وأحيانا الثمن، وأحيانا السدس... وهكذا، فهناك تفاصيل كثيرة جاءت في القرآن الكريم من لدن حكيم عليم لتجعل نصيبا خاصا من الميراث للمرأة، فلم تكن تأخذ دائما نصف الرجل.

٣- وراثة المرأة في حالات معينة لنصف حصة الرجل هو تكريم لها وليس العكس، فقد جعل الله تعالى الإنفاق عليها وعلى أبنائها واجب الرجل، ولم يكلفها بذلك، فما سترثه هو لها وحدها فقط، بينما ما يرثه الرجل فسيُنفق على زوجته وأمه وأبنائه.. فلذلك كان من الواقعية أن ينال الرجل قسطا أكبر، فهذا من عدل الله تعالى وليس ظلما لها.

سادسا: حق المرأة في التحرر من العبودية والرق، فقد جاءت آيات كثيرة تحث على تحرير الرقاب، وجعل الإسلام الكثير من الكفارات بتحرير الرقاب، ولم تنص الشريعة على أن الرقبة التي ينبغي تحريرها يجب أن تكون من الذكور فقط، بل حث على التحرير بمطلقه للنساء والرجال، فلم تبق النساء تحت ظل العبودية وتحرر الرجال، قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (النساء: ٩٢)، فالشرط للتحرير الإيمان وليس الجنس.

سابعا: دورها الإيجابي في المجتمع والتفاعل مع قضاياه، فلم نكن نسمع عن دور للنساء قبل الإسلام، ولكن بعد انتشار الإسلام سمعنا عن الكثير من النساء وأدوارهن، فمثلا السيدة صفيه بنت عبدالمطلب عمة النبي عليه الصلاة والسلام التي ربت ابنها الزبير بن العوام على الجهاد فكان من العشرة المبشرين بالجنة، كان لها دور كبير في الدفاع عن بيوت المسلمين أثناء غزوة الخندق، فعندما أراد اليهود أن يتسللوا إلى الحصن الذى به بيوت نساء المسلمين في غياب الرجال في المعركة، قتلت بيدها اليهودي الذي تسلل إلى الحصن وألقت به على اليهود فظنوا أن هناك جيشا من الرجال داخل الحصن يحرس النساء، فتراجعوا خوفا.

والصحابية أم هانئ رضي الله عنها ودورها في فتح مكة، عندما أهدر الرسول ﷺ دم أحد الكفار وأمر بقتله استجار بها فأعطته جوارها، فقَبِل النبي ﷺ ذلك وقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»، وكان هذا سببا في إسلام الرجل. فهل كانت تحلم المرأة بهذه المكانة قبل الإسلام، وهي التي كانت تسودُ الوجوه لولادتها جهلا منهم بمكانتها.

والسيدة أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين دورها معروف في هجرة النبي ﷺ مع أبيها أبي بكر.

والسيدة زينب بنت رسول الله ﷺ كان لها دور عظيم في إسلام زوجها أبي العاص عندما استمر على الكفر مدة طويلة، واستمرت تدعوه إلى الإسلام، وعندما هاجرت وتركته ظلت صابرة إلى أن أتى إلى المدينة وظلت تدعوه حتى أسلم. فانظر كيف أصبح للنساء دور في الدعوة ودخول العديد من الرجال في الإسلام، وتأمل كيف احترم الإسلام حقوق المرأة في مشاركتها في كل نواحي الحياة التي ترغب بها ولم ينكر عليها أيا منها.

بين الغرب والشرق

استمرت المرأة المسلمة تأخذ حقوقها كاملة في ظل دول الخلافة الإسلامية المتلاحقة، فمثلا في القرون الوسطى، من الخامس عشر وصولا لنهاية القرن الثامن عشر، وبينما كانت النساء في أوروبا يعانين أشد أنواع الظلم والقهر والعبودية في عصور الظلام التي كانت سائدة في أوروبا آنذاك، كانت نساء المسلمين مكرمات يتمتعن بحقوق لا مثيل لها، تحفظ إنسانيتهنّ وكرامتهن وتعلي قدرهن.

ولكن اليوم، وبعد كل ما نالته النساء في الإسلام من حقوق وتكريم يأتي مناهضو الإسلام ليدّعوا أن الدين الإسلامي لم يعط المرأة حقوقها، والمرأة أحيانا تقتنع بهذا الكلام وترّدده، فيزعمون أن المرأة اليوم في مجتمعاتنا الإسلامية لم تأخذ حقها بالتعلم والدراسة في المدارس والجامعات وحقها في العمل.. وفي اختيار لباسها وكشف جسدها كما تشاء، أو قل كما يشاء أعداء الإسلام.

والحقيقة أن المرأة المسلمة في العصر الحالي لم تُمنع من حق من تلك الحقوق، بل إن جل البلدان الإسلامية خصصت لها أماكن للتعلم كالمدارس والجامعات والمعاهد.. ولم يقل حظها في ذلك عن الذكر بل أصبحت تنافسه وتتفوق عليه.. وإن قال قائل إن الكثير من تلك البلدان قد تأخر في ذلك، فإننا نقول إنه حتى البلدان الغربية التي تدّعي التقدم كالولايات المتحدة وأوروبا، تأخرت في السماح للنساء بالتعلم خارج البيت، فلم يسمح إلا للذكور بالذهاب للمدارس والجامعات حتى بدايات القرن الماضي، فلم تأخذ نساؤهن حقهن في ذلك إلا قبل عشرات السنين فقط وبمطالبات مُلحة وبمعاناة الأمريّن لأجل ذلك، وهذا موثق بتاريخهم. فالنساء لاقينَ اضطهادا حتى في الدول المتقدمة فلم يكن للنساء حق في المشاركة بأموالهن في أسواق البورصة العالمية، ولا حق لهن في نشر الكتب، فكن ينشرن بأسماء ذكورية حتى تقبل دور النشر مؤلفاتهن.. وهذا كله في القرن الماضي، وليس قبل قرون طويلة.. فأي حقوق تلك التي يقال إن المرأة حُرمت منها في ظل الإسلام؟

ولكن حقيقة ما ينادي به الغرب اليوم هو محاربة لدور المرأة المسلمة في بناء الأسرة المسلمة المتمسكة بتعاليم دينها، فلم يجد الغرب طريقة لإضعاف الإسلام في النفوس وزعزعة إيمان المسلمين وإبعادهم عن دينهم، غير صرّف المرأة عن دورها الحقيقي في تربية الأبناء وصناعة

الأجيال والحفاظ على استقرار الأسر الإسلامية وامتدادها.. لأنهم يعلمون تماما (من التاريخ) أهمية دور المرأة المسلمة في تنشئة أجيال مبدعة تقود الأمم نحو النهضة والتقدم.

تراجع دور الأمهات

ما نراه اليوم هو تراجع لدور النساء المسلمات في تربية أبنائهن وانشغالهن في أمور خاصة، فليت الأمر يتوقف على خروجهن من أجل التعلم أو العمل، فهذا يُفترض أن به فائدة لها ولأسرتها وهو من حقها، ولكن المشكلة عندما يكون الإهمال مقصودا من الأم ذاتها، بذهابها للأسواق مثلا، وقضاء جل وقتها في التسوق بلا طائل وبلا حاجة، بل لمجرد المتعة والتسلية وتمضية الوقت، أو قيامها بزيارات يومية لجاراتها وصديقاتها وقضاء ساعات كثيرة من وقتها في القيل والقال مع إهمال شؤون بيتها، أو قضاء ساعات وأيام من عمرها في متابعة المسلسلات التلفزيونية المختلفة، والجلوس لساعات طوال على مواقع التواصل الاجتماعي.. مع إهمال لقضايا التربية للأبناء، ودون أدنى اكتراث بها.

فما نرجوه لنسائنا المسلمات المربيات هو قضاء وقت نوعي وليس كمي مع الأبناء، فكم من الأمهات قد يمضين من الساعات الطويلة بجوار أبنائهن ولكن بلا فائدة تذكر، فلا توجيه ولا نصح ولا إرشاد ولا حتى لعب مع الأبناء.

التوازن مطلوب

وفي مقابل الأمثلة السابقة تجد أمهات مشغولات في عملهنّ خارج البيت، وعند عودتهن يتوافر لهن ساعات قليلة فقط لقضائها مع أبنائهن، ولكنها مليئة بالفائدة والمتابعة والحرص على تعليم الأبناء أمور دينهم ودنياهم، وتقويم سلوكاتهم وأخطائهم، وتشجيعهم على أمور ذات فائدة وإنتاج، فهذا هو الدور الحقيقي للأم مع أبنائها، والذي بدأ يقل في هذه الأيام بعد انتشار وسائل الحصول على المعلومات والتي باتت منافسا للوالدين في تقديم التربية للأبناء.

فهناك أمهات محتاجات للعمل، ولا يمكن أن نقول لهن اجلسنَ في البيت وسيأتيكن رزقكن رغدا، ولكن على الأم أن تتقي الله في أبنائها وتحاول الموازنة بين عملها وتربية أبنائها، فجهدها سيكون مضاعفا إن اختارت الذهاب للعمل، حيث عليها الموازنة والمساواة بين متطلبات عملها ومتطلبات أبنائها وتربيتهم، والذي من المفترض أن تكون تنشئتهم خير تنشئة من أولى أولياتها كما كان السلف الصالح، وهنا يدخل ما يسمى بـ«فقه الأولويات»، فكل أم هي حالة خاصة عليها أن تقدّر بنفسها أولوياتها وتعمل على مراعاة كل منها، فإن كانت قادرة على الموازنة بين حقوقها وواجباتها فإنها سترفد المجتمعات بأعظم الأفراد.

فالإسلام لا يمنع المرأة من الخروج للدراسة أو العمل، ولكن شريطة أن تقوم بدورها في رعاية أبنائها وتنشئتهم تنشئة صالحة، وهو الدور الذي اصطفاها الله تعالى له وكرمها به، فلا تترك أمور التربية لأبنائها على عاتق الخادمة التي غالبا لا تفقه شيئا من تعاليم ديننا وأساليب التربية، ولا تترك أبناءها لرفاق السوء يأخذون بأفكارهم يمنة ويسرة، ولا تتكل على الوسائل التكنولوجية كالهواتف النقالة والإنترنت والأجهزة المحمولة في الحصول على التربية اللازمة، فلا يكون مرجوعهم لمعلومات غير موثقة أو منحرفة أخلاقيا وسلوكيا نتيجة لانشغال الأم في أمورها الخاصة كما يحدث اليوم.

وأختم بهذه القصة التي وردت في موقع ويكيبيديا: في عام (٢٠٠٠) زار مؤتمر العالم الإسلامي بجدة وفد نسائي أمريكي برئاسة السيدة جينا أبر كرومبي (مستشارة الرئيس السابق بيل كلينتون، ومسؤولة في مجلس الأمن القومي الأميركي آنذاك)، وكان الوفد مهتما بمسألتين: (المرأة والديموقراطية)، فقالت جينا: «لقد حاولنا بأنفسنا التعرف على وضع المرأة في الإسلام فلم نستطع، واستعنا بأصدقائنا من العرب والمسلمين، فجاءت المعلومات ضعيفة.. فقررنا أن نأتي مباشرة إلى بلاد المسلمين، فماذا عندكم؟ وكان الرد: «إن المرأة أمّ المجتمع، ومصدر استقراره، وحارسة أمنه.. والأسرة: هي الوحدة الأساس من وحدات بناء المجتمع المدني السليم، بل هي المؤسسة المركزية الأولى بين مؤسسات المجتمع الحضاري الآمن، وإن الفرق بيننا وبينكم بشأن المرأة بدأ يوم أن قررتم- على نقيض منهج أجدادكم وعظمائكم- أن تلغوا دور الأسرة كمؤسسة من مؤسسات المجتمع، واستبدلتموه بالإباحية الاجتماعية، وأقمتم على هذا القرار فكرة تحرير المرأة من البيت، أي من ثقافة الأسرة إلى ثقافة اللا أسرة، أو ثقافة تعدد وتنوع الأسرة، وما يتعلق بذلك من سلوكات معروفة لدى الوفد الكريم.. أما نحن فلا نزال نصر على تمسكنا بمبدأ أن الأسرة التي عمادها المرأة والقائمة على الزواج الشرعي والقانوني هي الوحدة الأساس والمؤسسة المركزية بين مؤسسات المجتمع المدني المتحضر والآمن». فسألت جينا: «وهل تريدون أن أهجر عملي في مجلس الأمن القومي لبلدي وأعود للأسرة؟» وكان الرد: «لا.. ولكن عليك وعلى كل رجل وامرأة في أي مجتمع أن تقوم على العلاقة المتوازنة بين واجبات كل فرد في مؤسسة الأسرة وبين متطلبات المجتمع، وعلينا جميعا أن نؤمن بأن مؤسسة الأمن القومي الأولى لكل أمة هي الأسرة، وما يأتي بعدها من مؤسسات وأسباب ينبغي أن يكون امتدادا لها وليس إلغاءً لوجودها، ومسخا لرسالتها المقدسة».

هي.. قضية الشخصية الإسلامية بكل أبعادها

كثف القرآن الكريم من استخدام ألفاظ وتوظيف تسميات يعبر من خلالها عن المرأة؛ وضعا ووظيفة وما يمت إليها من قضايا وتقلبات، باعتبارها كائنا مستقلا من حيث الشخصية، يشكل مع الشق الآخر «الإنسان»، فنجد «النساء» و«نساء»، و«نسوة»، و«النسوة»، و«امرأة»، و«أنثى»...

د.محمد سعيد باه
أستاذ جامعي - السنغال

وفي أتون ملابسات خاصة كانت تتطلب تخليص العقول من بقية المفاهيم المتعفنة التي كانت الجاهلية الجهلاء تسور بها على المرأة حسا ومعنى، عقلا وروحا، جاء حديث رسول الله ﷺ:

«إنما النساء شقائق الرجال»(١).

لكننا قلبنا المعادلة، حين زاغ بصرنا عن النهج السديد الذي كان الإسلام قد اختطه لنا لنسير به على هدى من ربنا، فجعلنا منها مجرد تابع ذليل لأتفه الرجال ولو كان لا يصلح أن يكون قيم نفسه، بل ممن يحجر عليه، حتى بلغ بنا الحنق على المرأة أن تجادلنا عن حكم صوتها هل هو عورة أم لا؟ مع أننا لا نملك قطمير شبهة تبرر هذا التساؤل الأخرق لو أننا استفتينا النصوص ما جعل الشيخ الغزالي يستشيط غضبا ويرد بعنف عنه: «بل هو ثورة».

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١).

بعد قراءة هذه الآية التي تؤصل لمبدأ التكامل بين شقي الإنسان، يُنفى الاصطراع بقدر من التمعن، والتي تتناسق مع عشرات الآيات تتناثر عبر كتاب الله(٢)، يجب أن نعيد النظر في التصور الجانح الذي نحمّله الإسلام عن المرأة، وهو التصور الذي جعل خصومنا يصنفون فقهنا وفكرنا وثقافتنا بأنه كله ذكوري، أي إنه يقوم على المحاباة والتمييز السلبي ضد المرأة وقضاياها.

وبهذا، يخيل إلي أن بعض من يتعاطى قضية المرأة بالمعالجة من المنظور الإسلامي، يفترض أن المرأة عنصر إضافي للجنس البشري يمكن الاستفادة منه كما يمكن الاستغناء عنه ثم تستوي الحياة على مسارها، بخلاف الرؤية الإسلامية التي تتأسس على دعامة أن الإنسان مكون من شقيه الأنثى والذكر، ما يؤكد استحالة استمرارية الوجود وفق السنن الإلهية الحاكمة للجنس البشري في هذه الأرض دون أحدهما، بحيث يعني غياب أحد الشقين توقف الآخر عن الوجود بصورة تلقائية(٣).

وظف القرآن الكريم مصطلحات محددة للحديث عن المرأة -وفي ظل ذلك نلحظ التفريق بين قضيتين أدى الخلط بينهما إلى انحراف الزاوية التي ننظر إلى قضية المرأة من خلالها- ومن أهم ما يلفت النظر في هذا الحديث التفريق الواضح بين الوضع وبين الوظيفة(٤).

أخوف ما أخافه، إذا استمر وضع التيه الفكري الذي نضرب في بيدائه، أن

يأتي علينا حين آخر من الدهر نطرح فيه على المستوى ذاته من الحماس، قضية الرجل على بساط النقاش بعد أن نعتقد بأننا قد حسمنا مسألة المرأة، في الوقت الذي كنا فيه في الوقع نَجهد على خلق قضية لها لم تكن موجودة إلا في بعض الأدمغة المريضة التي تعاني من انفصام الرؤية، وتعجز دائما عن استيعاب كافة أبعاد الصورة.

من العلل المكبلة التي عانينا منها، حين يتعلق الأمر بمعالجة القضايا التي لها ارتباط بالمرأة، أن نسارع إلى استدعاء نص فرعي أو فتوى فردية تم إنتاجه في ظروف غير مواتية، قد تكون حالة أزمة حادة لا تتيح تطبيق مبدأ إنضاج التفكير والمعالجة بمنهجية معمقة توصل إلى رؤية كلية مستندة إلى تحقيق الحد الأعلى من المصلحة العامة، وفق ما يتوق إليه الشرع في جوامعه التي تتعامل مع كل الحالات والمتعلقات بما يضمن حالة من التوازن والانسجام في حركية المجتمع، والاستقرار في علاقاته الداخلية.

من الطبيعي أن تكون النتيجة هذه الثلمة الفكرية التي أفرزت الثغرة الضخمة التي تسلل عبرها من يحاولون النيل من الإسلام، حين وجدوا أن وضع المرأة عندنا في غاية التشوش فكريا، والهشاشة اجتماعيا، وأما على الصعيد العام فكانت قد فقدت كل المكتسبات الحضارية التي نتغنى بها حين نعدد مآثر الإسلام، ونورد النقلة الهائلة التي حظيت بها المرأة في ظل الإسلام، ويسر هذا الزوغان في الرؤية والتطبيق في كل قضايا المرأة للخصم تحويلنا إلى حالة الدفاع والتبرير إذا لم يكن التشكي والاجترار.

واجهت القيادات الإسلامية الفكرية التي برزت في مسارح الإصلاح عبر العالم الإسلامي هذه الحالة بصلابة، وحاولت طرح تصورات مجددة تستمد أصالتها من القدرة على استنطاق النصوص المؤسسة للفكر الإسلامي الأصولي، لكن العامل الأساس الذي عرقل هذه الجهود المخلصة حتى الآن، والتي كانت مرشحة لتخليص المرأة من براثن الردة الثقافية التي رانت على العالم الإسلامي، تمثل أساسا في سدنة الجمود الفكري الذين كانوا لا يزالون التيار المسيطر في الشارع العام الذي استقووا به لصد جهود الإصلاحيين(٥).

يتطلب منا وضع المرأة اليوم في العالم الإسلامي، بناء مشروع جديد لإعادة دمجها ضمن المنظومة الكلية للحياة في ظل المنهج الإسلامي، وليس التعاطي معها عن طريق الاجتزاء، ولتحقيق هذه الغاية لا مندوحة من أن يرتكز هذا المشروع على دعامات أساسية منها:

الكف عن معالجة ملف كل ما يتعلق بالمرأة وكأنها عنصر إضافي يمكن التخلص منه، وهذا المأخذ هو الذي يتجلى لنا حين نمعن النظر في كثير من الطروحات الفكرية التي نلقاها مثل الحديث عن أهمية المرأة، وعن دور المرأة، وموقف الإسلام من المرأة، ومشكلة المرأة، وهي في الحقيقة عناوين نعبر بها عن وجود أزمة فكرية أعمق تؤثر فينا بصورة سلبية، حتى ونحن بصدد معالجة الأزمة ومظاهرها، وبالأخص في الشق المتعلق بالمرأة.

التخلص من ضغط ثقل الواقع الاجتماعي الذي ظل لقرون يؤثر بصورة سلبية في كثير من المواقف التي نصدر عنها في كل مرة يطرح فيها موضوع المرأة على بساط النقاش، ما يجعل الموقف الذي نتبناه بقدر من الحساسية، بفعل الموروث الثقافي أو الاجتماعي، أكثر من كونها مواقف مؤصلة تعبر عن روح الإسلام في صلابته وشموليته اللتين يتعاطى بهما القضايا المحورية لحياة من يعيشون في ظل تشريعاته وتوجيهاته.

إيجاد حد فاصل بين تلك الموروثات الاجتماعية التي كبلت المرأة وعرقلتها، بل وسلبتها الحرية والقدرة على ممارسة حياتها في ظل الإسلام، وبين المفاهيم الكلية التي نجدها في مصادر الإسلام مع القدرة على إعادة قراءتها بعيدا عن معكرات التراث الفقهي الذي انتهت صلاحيته، لكن البعض يصر على النفخ فيه باستمرار ويستميت في جعله محور حياة المرأة باسم الإسلام.

من غير المنطقي أن نظل نثير جدلا عريضا حول قضايا تتعلق بالمرأة وحقوقها التي لا تقبل المساس بها، بينما قد اعتبرها القرآن من المسلمات المحسومة، ويمكن أن نطرح حشدا من الأمثلة تجلي هذه الحقيقة المرة التي كبدتنا خسائر ضخمة في كل مرة أردنا فيها تسويق نموذجنا الحضاري وفق قانون المقايسة التي تتفاضل بها المعروضات الحضارية.

الخلاصة

في الواقع ليست القضية قضية المرأة، رغم العويل الحاد الذي ظل يصك أسماعنا طيلة العقود المنصرمة، بل القضية هي قضية الشخصية الإسلامية بكل أبعادها، وهي التي نحتاج اليوم إلى إعادة بنائها بعد أن غامت ملامحها وتشوهت معالم تميزها بين الشخصيات الأخرى بفعل ما تعرضت له من خدوش شديدة.

الهوامش:

١- أوردته جماعة من الثقاة بمن فيهم أحمد والبيهقي والدار قطني وأبويعلى عن طريق أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها).

٢- مع التنبه بأن الإعجاز القرآني بلغ حد التفريق بين المرأة وبين الأنثى، وميز الرجل عن الذكر، كما نستشف معاني أخرى محورية حين نستنطق آي القرآن الكريم.

٣- كثيرا ما أضرب لطلابي هذا المثل البدائي ترسيخا لهذه الفكرة: لو ملأنا مدينة بأحد الشقين فقط، وزودناهم بكل ما يلزم لقوام الحياة، وعدنا إليهم بعد قرن لوجدنا أن يد الانقراض قد حصدتهم حصدا فقط لأن الشق الآخر غائب.

٤- لاحظ بعض دارسي القرآن الكريم بأنه تناول قضية الشق الثاني للعنصر البشري ضمن هذه الرؤية الوضعية والوظيفية، في الحالة الأولى استعمل «امرأة» بينما وظف مصطلح «زوج» حين تناوله من المنظور الوظيفي البيولوجي الذي غالبا ما حبسنا وضع ووظيفة المرأة في إطاره.

٥- حين وضع الشيخ أبوشقة (رحمه الله) مؤلفه الرائع «تحرير المرأة في عصر الرسالة» نهشته أقلام، عاد بعضها اليوم ليسطر في الاتجاه نفسه كلاما ما أنزل الله به من سلطان.



المرأة بين الإسلام والغرب
(تجارب من قلب المعاناة)

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

من المؤكد أن التعرف على الدوافع التي كانت وراء إسلام من أسلم من الغربيين، يمنحنا رؤية ثاقبة بحقائق ديننا، وعوامل تميّزه وتفرّده التي قد نجهلها –نحن الذين وُلدنا مسلمين– لطول الألفة والعشرة بها!

كما أن معرفة هذه الدوافع تقف بنا من ناحية أخرى، على عمق الأزمة التي أوصلت إليه الحضارةُ الغربية الإنسانَ المعاصر، وعلى النتائج الكارثية لهذه الحضارة المادية الإباحية، لأنها تجاهلت المعاني والغايات والقيم، واكتفت بالمادة وبريقها الزائف.

كثيرة تلك الأسباب التي تقف من وراء إسلام الغربيين.

● فقد تكون هذه الأسباب راجعة إلى صفاء العقيدة الإسلامية، ووضوحها، وخلوّها من الغموض والتعقيد اللذين يكتنفان العقائد الأخرى، كتلك التي تُطالب الإنسان بأن يعتقد وهو أعمى، لا عقل له، ولا تمييز لديه.

● وقد ترجع إلى قدرة الإسلام على إشباع حاجات الإنسان الروحية والجسدية معًا، والسمو به إلى درجات عليا من الصفاء النفسي، والألق الروحي.. ولا غرو، فالإسلام يلبي أشواق الروح ويعلو بها، دونما افتئات على قواعد العقل، وحقوق الجسد، ومقررات الفطرة السليمة، بعكس ما تدعو إليه الفلسفات والمذاهب التي تزعم أنها ترتقي بالروح، بينما هي في الحقيقة ترتكس بها إلى أسفل الدركات، حين تجعلها تهيم في عالم ليس له منطق، ولا تفكير يحكمه، إنما هي تُرّهات ومحض تهويمات!

● وقد تتمثل في عبقرية النظام الإسلامي وتفرده، سواء الاجتماعي منه أو الاقتصادي، فالإسلام في كليهما –كما في غيرهما– يراعي في اتزان ووسطية حقوق الفرد وحقوق المجتمع، سواء بسواء، فلا يبخس الفرد حقه، ولا يعطي المجتمع فوق ما يستحق، إنما يربط الفرد بالمجتمع في علاقة تكاملية، بحيث يعرف كل منهما ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

غير أن ما نريد أن نلفت النظر إليه في هذا المقام، هو أنه برغم الواقع المتدهور الذي يحيط بالمرأة في عالمنا العربي والإسلامي، بفعل عوامل كثيرة –قطعا– ليس من بينها الإسلام، وإنما هو سوء الفهم عن الإسلام!.. فإن رؤية الإسلام الناصعة للمرأة ولدورها في المجتمع، كانت من أهم العوامل التي دفعت الغربيين –والكثير منهم من النساء– لاعتناق الإسلام، وإعلان الولاء له، وجعلتهم يرون فيه المُنْقِذَ من الضلال، والهادي وسط الظلمات الحالكة.. وتلك مفارقة تستحق أن نقف معها وقفات!

تكامل الأدوار

إن الإسلام ينطلق في رؤيته للمرأة ودورها من كونها جزءًا أصيلا من المجتمع، فهي نصفه، وفي الوقت نفسه تلد النصف الآخر، وتقوم على تربيته.. فكيف يمكن إذن أن يتجاهل دورها المحوري والأساسي؟!

هو ابتداء يقرر وحدة الأصل للرجل والمرأة، لأنهما خُلقا من نفس واحدة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾(النساء: ١).

كما يقرر في وضوح أن النساء شقائق الرجال(١)، وأن المرأة مكلفة ومأمورة مثل الرجل، ولا تقل عنه في الحقوق والواجبات، وإنّ كان لكل منهما المجال الذي يتحرك فيه، مما يتناسب مع طبيعته النفسية والجسدية، ومع وظيفته الاجتماعية، فهما يتكاملان في الأدوار ولا يتناقضان في الأهداف والغايات، أما الاختلاف بينهما فيقع في الوسيلة التي يسلكها -أو ينبغي أن يسلكها- كل طرف منهما لأداء دوره المنوط به في تحقيق الاستخلاف وعمارة الأرض.

وقد جاءت النصوص في ذلك متواترة ومتضافرة، تقطع كلّ شك، وتزيل كلّ سوء تفسير وتأويل، ويكفي للدلالة على هذا قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾(آل عمران: ١٩٥)

وقوله سبحانه أيضا: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾(التوبة: ٧١).

أما في الغرب فإنهم كانوا يختلفون إلى وقت قريب في كون المرأة إنسانا، أو شيطانا، أو حيوانا؟! وهل لها روح مثل الرجل أم لا؟! ثم انتهوا بعد مناقشات ومجادلات إلى أن المرأة إنسان خُلق لخدمة الرجل، وليحصل منها التناسل فقط!

ولذلك ينبغي ألا ندهش كثيرا حين نرى المرأة في الغرب قد تحولت -أو بالأدق: حُولتْ- إلى سلعة تُباع وتُشترى، شأنها شأن أي سلعة مادية لا روح فيها، فامتُهن جسدها، واستُخفّ بعقلها، واستُغلّت أسوأ استغلال تحت ستار خادع من الشعارات البّراقة الزائفة!

تكريم معنوي ومادي

إن مطالعة شهادات الغربيين الذين أسلموا، أبلغ في الدلالة على رؤية الإسلام للمرأة، ولدورها الحضاري في نهضة الأمة، لأن شهادات هؤلاء الغربيين تجارب لها مصداقيتها ووزنها، باعتبار أنها وُلدت من «رَحِم المعاناة»، وتشكّلت من خلال معايشة الواقع الأليم ومصارعته، بجانب القراءات المستفيضة عن الإسلام وأيضا في الإسلام.. وهي بذلك شهادات جديرة بالاهتمام والرّصد والتحليل.

من هذه الشهادات شهادة السيدة الإنجليزية «أليسون محمود»، التي تتحدث عن تجربتها ورحلتها مع الإسلام فتقول: «كان أعظم ما عرفتُ، وضع المرأة في الإسلام، والمكانة الرفيعة التي تتمتع بها، وهي المكانة التي لم تَرْقَ إليها المرأة الغربية بعد، بلا أية مبالغة، يكفي أن نعلم أن للمرأة في الإسلام شخصية لها تقديرها، لقد سميت سورة باسمها وهي سورة «النساء»، وفيها ما يخص المرأة في الزواج، والإرث، والطلاق، وكيف يرعى الإسلام حقوق المرأة، التي هي شريكة للرجل في رحلة كفاحه»(٢).

وبالإضافة إلى التكريم «المعنوي» الذي قرره الإسلامِ للمرأة، وأعاد به إليها شخصيتها المُلغاة، فإنه كرّمها أيضا «ماديا»، فاعترف لها بذمتها المالية المستقلة، وأكدّ حقها في التملك، وممارسة البيع والشراء وسائر العقود المالية، بالرغم من أنه أوجب نفقتها في جميع حالاتها -سواء أكانت أما أم أختا أم زوجة أم بنتا- على الرجل -أبا كان أم أخا أم زوجا أم ابنا- وبالرغم أيضا من أنه جعل عمارة الأرض، بما تتطلبه من كدح وتعب ونصب، منوطة بالرجل وحده.. فكانت خِلْقَةُ الرجل -من قوة البدن، والقدرة على تحمّل المشاق، وغلبة العقل على العاطفة- مناسبة ومتماشية مع المهمة التي كُلّف بها، وأُنيطَتْ به دون المرأة.

ولذلك خاطب الله أبا البشرية آدم حين أخرجه مع أمّنا حواء من الجنة، مُعْلما إياه أنه وحده الذي تقع عليه مسؤولية التعب والشقاء، فقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾(طه: ١١٦- ١١٧).

ويؤكد المفكر الفرنسي «رجاء جارودي» تميزَ الإسلام في إعطاء المرأة حقوقها المالية، مقارنة بالغرب، فيقول: «إن القرآن منح المرأة حق امتلاك الأموال دون قيد أو شرط، بينما لم تنل هذا الحق في أغلب تشريعات الغرب إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين»(٣).

ولما سُئل الكولونيل «دونالدز روكويل» عما أعجبه في الإسلام ذكر أسبابا عدة، منها: «الإقرار الرائد بتقرير حق الملكية للمرأة»(٤).

ثمة شهادة أخرى مهمة في هذا الصدد، لأنها تُبدد بكلماتها الموجزة أوهاما، لطالما ألصقت زورا وبهتانا بالإسلام والمسلمين، وثار حولها منذ زمن بعيد لغطٌ كثير لم ينتهِ بعد، بل نراه يتجدد من حين لآخر، بمناسبة وبدون مناسبة! مثل: حق القوامة للرجل، وفريضة الحجاب على المرأة، ونصيب المرأة من التعليم، والمشاركة بفاعلية في الحياة بصفة عامة!

تقول الفتاة الفلبينية «أوليفا أبرازادور»: «لقد عرفتُ منهن (أي من

اختلاطها بالمسلمات) أن الإسلام قد كرّم المرأة، وأعطاها من الحقوق ما لم تحصل عليه المرأة في المجتمعات التي تدين بديانات أخرى، وأدركت تماما أن «القوامة» لا تعني انتقاص المرأة، بل هي تقدير لظروف أنوثتها وضعفها، لأنها تفرض على الرجل أعباء قد تعجز المرأة عن تحملها بحكم تكوينها الغريزي الأنثوي. كما أدركت أن «الحجاب» هو صون وعفاف للمرأة، وارتقاء بها وبروحها من أن تكون مجرد جسد تنهشه الذئاب البشرية.. وإنني أتذكر أن الطبيبة التي عالجتني حين مرضت، كانت امرأة مسلمة ومحجبة، ولم يمنعها الحجاب من دراسة الطب والتفوق فيه»(٥).

نقد الحضارة الغربية

ومما هو جدير بالتقدير فيما يتصل بشهادات الغربيين الذين أسلموا، أنها شهادات لم تقف عند بيان عظمة الإسلام والإشادة به، بل تعدّت ذلك إلى نقد الحضارة الغربية المعاصرة، وبيان زيفها وتهافتها، خاصة فيما يتصل بالمرأة والأسرة، تقول السيدة «حرفية بال حليم»: «ما حدث في الغرب هو أن تيار الأنوثة (تقصد: حركة تحرير المرأة) قد سلب المرأة حقوقها كامرأة، فقد أجبرها على الذهاب إلى العمل، وقلّ عدد الزيجات تدريجيا، وهذا أمر يقوم الإسلام بتوفير الحماية منه. وأشعر الآن بأنني أكثر حرية، فقد أصابني الاضطراب بشأن القيم التي يتمسك بها مجتمعنا، فهو يتوقع أن تكون المرأة رجلا وامرأة! وأن تكون مُغْرية وفاضلة! وأن تكون جميلة وذكية وأيّ شيء آخر!»(٦).

كما تؤكد السيدة البريطانية «ميشيل» -التي أسلمت وتسمت بـ«جميلة»- هذا المعنى، وتنصح المرأة المسلمة قائلة: «يجب أن تعرف المرأة المسلمة أن حرية المرأة في أوروبا ليست حرية حقيقية، فليس لها حقوق متساوية في الأجر والعمل مثل الرجل.. كما أن الرجل هنا لا ينظر إلى المرأة نظرة تقدير واحترام.. هو فقط ينظر إلى جمالها وفتنتها، ولا يفكر فيها إلا كشريكة في الفراش!»(٧).

فأين الذين ينادون في عالمنا العربي والإسلامي بحرية المرأة -وهم لا يريدون إلا حرية منفلتة من أية ضوابط- ويتخذون من الغرب قدوة لهم.. أين هم من هذه الحقائق، التي تُطلعنا بصدق وعمق على الواقع المرير الذي تحياه المرأة في الغرب؟!

الإسلام غيرُ المسلمين

على أنه يجب في هذا الصدد تأكيد أن واقع المرأة المتدهور في عالمنا العربي والإسلامي، هو أمر لا علاقة له بالإسلام وتعاليمه وحقائقه، لأنه -كما رأينا توا- ليس ثمة دين أنصف المرأة مثل الإسلام، وإنما يرجع هذا الواقع البئيس إلى الفهم المغلوط للإسلام، وإلى التطبيق الخاطئ لما شرع الله من أحكام وتوجيهات.. ولذلك يجب التفريق بين الإسلام كدين سماوي متكامل في أهدافه وتشريعاته، ومُنَزّه عن الخطأ والتحيز لجنس أو نوع، وبين واقع المسلمين كسلوك بشري قد يقترب أو يبعد قليلا أو كثيرا عن المبادئ والقيم التي يدعو إليها.

ثم إن تقدم وضع المرأة أو تراجعه إنما يرتبط ارتباطا وثيقا برقي المجتمع كله أو بتخلفه، إذ من غير المعقول أن تنال فئة واحدة حقوقها دون تقدم المجتمع بفئاته المتعددة، لأن المجتمع في المحصلة هو نسيج واحد تنتظم فيه جميع الفئات، وتسير في خطوط متوازية، يأخذ بعضها بأيدي بعض.

ويشير إلى هذه الحقيقة المستشرق المنصف «هستون سميث» بقوله: «أما حقوق المرأة المدنيّة في العلم والانتخاب والعمل، فالقرآن يفتح لها أبواب المساواة، التي تنالها كلما تقدمت الأمم الإسلامية في عاداتها ومعاملاتها، فإذا كانت المرأة المسلمة لم تنل تلك الحقوق بعد قرن أو بضعة قرون كما نالتها المرأة الأوروبية، فهذه أيضا -أي المرأة الأوروبية- لم تنل حقا منها قبل عصر الصناعة الحديثة، وإنما نالت هذه الحقوق من الديمقراطية لا من الدين فلم يَجُزْ -كما يقول المسلم- أن يكون الإسلام مسؤولا عن هذه الحال»(٨).

** ** **

أدري أن قضايا المرأة وإشكالياتها في عالمنا العربي والإسلامي، تدور في حلقة مُفْرغة، بفعل الدسائس والمكائد التي يجتمع عليها أعداءُ الداخل من العلمانيين والمغرضين، وأعداءُ الخارج من المتربصين، خاصة المنظمات الدولية ذات الدور المشبوه، ولذا ما يكاد ينتهي الجدل حول إحدى هذه القضايا حتى يتجدد وبسرعة حول قضية أخرى! وهكذا دواليك!

ولكني أردت أن أضع أمام المتغرّبين من بني جلدتنا، هذه الشهادات الناصعة للغربيين الذين أسلموا -التي كما ذكرتُ وُلدت من «رَحِم المعاناة»- لعلّ أن يكون في صدقها وواقعيتها وعمقها، ما يرشد الحائر، ويهدي الضّال، ويدل على الصواب.. ويقيم الحجّة على المعاندين.

الهوامش:

١- أخرج أحمد وأبوداود والترمذي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إن النساء شقائق الرجال».

٢- الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبدالصمد، ج ٣، ص١٠٣، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٩٥م.

٣- من كتابه «مبشرات الإسلام» نقلا عن مجلة «الأمة» القطرية، عدد (٢٤) ذي الحجة ١٤٠٢هـ، ص٢١.

٤- في الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين، المستشار محمد عزت الطهطاوي، ص ٢٠٠، دار التراث ط ١، ١٩٧٩م.

٥- الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، ج ٣، ص١٢١.

٦- صحيفة «الصنداي تليجراف» البريطانية نقلا عن مجلة «الرسالة» المصرية، عدد ٢، ص ٧٦، ذي الحجة ١٤٢٢هـ.

٧- الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، ج ٣، ص٧٠.

٨- نقلا عن «الإسلام دعوة عالمية» للأستاذ عباس محمود العقاد، ص١١٢، ط مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.

التجارة بالمرأة في الغرب

التحرير

يتغنى العالم الغربي بحقوق الإنسان، متخيرا حقوق المرأة خاصة ليرفع راية المظلومية التي لحقت بها، متناسيا أنه من حولها إلى سلعة في إعلاناته التجارية، وجعلها طعما مغريا يمده إلى أفواه المستهلكين؛ ليتجهوا إلى بضاعته.. يتناسى العالم الغربي أنه رمى بها إلى أتون العمل الشاق، بما لا يناسب طبيعة تكوينها الجسماني أو النفسي، والمدهش أن المرأة الغربية التي ابتلعت طعم التحرر والمساواة، هي التي تريد الآن العودة إلى ما نادى به الإسلام، من صيانة للمرأة في بيتها أو في عملها الذي يناسبها.

ويحدثنا مركز دراسات اللاجئين بجامعة أكسفورد في تقريره عن مكافحة تجارة الجنس، المعنون بـ«الاتجار بالنساء والأطفال»، طبعة مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٦م، يحدثنا عن أن ما بين ١١٣ إلى ٢٠٠ مليون امرأة في عداد «المفقودات»، حسب تقديرات الأمم المتحدة، وهؤلاء إما من ضحايا عمليات قتل المواليد «حيث يفضل البنون على البنات»، أو لأنهن لم يتلقين نفس مقدار الطعام والاهتمام الطبي المقدم للذكور من الإخوة والآباء والأزواج.

ويذكر المركز أن عدد النساء اللاتي يتم إجبارهن على الدعارة، أو يتم بيعهن في أسواقها يتراوح بين ٧٠٠,٠٠٠ و٤,٠٠٠,٠٠٠ في السنة على مستوى العالم، ومن بين هؤلاء الضحايا يتم بيع من ١٢٠,٠٠٠ إلى ٥٠٠,٠٠٠ للقوادين وبيوت الدعارة في أوروبا، ومن بينهن تم بيع ضحايا يتراوح عددهن ما بين ٢,٠٠٠ و٣,٠٠٠ إلى بيوت الدعارة في سويسرا، وتقدر الأرباح الناتجة عن الاسترقاق لأغراض الجنس بما يتراوح بين سبعة واثني عشر مليونا من الدولارات الأمريكية في السنة.

وبشكل عام، نجد النساء بين الخامسة عشرة والرابعة والأربعين يتعرضن للإصابة بالتشوه أو الموت لأسباب تتعلق بالعنف الذكوري أكثر من تعرضهن لنفس الإصابات بسبب السرطان والملاريا وحوادث المرور والحروب مجتمعة.

ويؤكد المركز أنه مازال العنف المنزلي ضد النساء منتشرا في الغرب، ففي سويسرا وحدها سعى ما يقرب من ٣,٠٠٠ امرأة في عام ٢٠٠٢م للجوء إلى بيوت حماية النساء، والمقدر أن شريحة ضئيلة فقط من الضحايا الإناث قمن بهذه الخطوة، وتقدر التكلفة الواقعة على الاقتصاد السويسري نتيجة للعنف المنزلي بما يزيد عن ٤٠٠ مليون فرنك سويسري في السنة حسب أقل التقديرات.

أما في النمسا، فإن ٥٠٪ من قضايا الطلاق ترجع لأسباب تتعلق بالعنف ضد النساء، هذا بينما أقرت ٢٢٪ من النساء الفنلنديات بتعرضهن للعنف من قبل شركائهن!! ومازال الاغتصاب الزوجي أكثر الجرائم شيوعا على المستوى العالمي.

يستخدم الاغتصاب المنظم كسلاح للإرهاب في كثير من الصراعات العالمية..

فكل امرأة يتم قتلها بيد بشر يقابلها عشرات ممن أصبن بجراح جسدية أو نفسية، ناهيك عن التشويه، هناك ما بين ٢ إلى ٣ ملايين حالة من حالات تشويه الأعضاء الجنسية فقط للإناث كل عام.

الخلاصة

إن المرأة قد جار عليها المجتمع قديما، وسلب منها كل شيء حتى إنسانيتها، فلما جاء الإسلام رد لها كل شيء، وارتفع بها حتى جعلها مساوية للرجل في جميع الحقوق والواجبات، إلا نزرا يسيرا رفعه عن كاهلها، لأن طبيعتها تأبى عليها تحمله.. فلها الغنم في كل حال.

والعدالة الإلهية فيصل في ذلك، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧).



زينب.. زوجة الأمراء

محمد إلهامي
باحث في التاريخ الإسلامي

اختزنت صفحات التاريخ الإسلامي كثيرا من المواقف الماجدة والمتألقة لإسهام النساء في الحضارة الإسلامية، حتى إن للمرأة في تاريخ الإسلام ما ليس مثله لا قبله ولا بعده، دليل ذلك أنه حين «انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان تعداد الأمة التي دخلت الدين الجديد وانخرطت في رعية الدولة الوليدة ١٢٤,٠٠٠ من المسلمين والمسلمات.. وعندما رصد علماء التراجم والطبقات أسماء الأعلام والصفوة والنخبة التي تربّت في مدرسة النبوة وتميز عطاؤها في مختلف ميادين العطاء، رصدوا أسماء نحو ثمانية آلاف من صفوة الصفوة، فكان من بينهم أكثر من ألف من النساء. أي إن التحرير الإسلامي للمرأة قد دفع إلى مراكز الريادة والقيادة أكثر من واحدة من بين كل ثمانية من الصفوة والنخبة إبان التحرير الإسلامي في أقل من ربع قرن من الزمان، وهي أعلى نسبة للريادات النسائية في أي ثورة من ثورات التحرير، أو نهضة من النهضات»(١).

ومنذ نشأت دولة الإسلام في المدينة اكتسبت المرأة منزلة جديدة، فبعدما تفاجأ عمر رضي الله عنه من أن زوجته تراجعه في الكلام، اندهش حين أخبرته بأن نساء النبي يراجِعْنَه أيضا، وقد تغاضبه الواحدة منهن اليوم كله، فكان مما قال: «كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار» (٢).

ثم لم يُقبض رسول الله ﷺ إلا وكانت المرأة تشير في السياسة، وتقاتل في الحرب وتعَلم الدين، ومنذ أخذ النبي ﷺ بقول أم سلمة يوم الحديبية لم يعد مستغربا أن نرى للمرأة مكانا في تاريخ الملوك والخلفاء، بل لم يعد يُستَنْكَر أن يقال على الرجل العظيم «غلبت عليه امرأته»، ولم تكن هذه سبة في حقه إلا أن يكون من المخذولين أمام العدو، أو ممن يرهق الرعية، أو ممن يقدم رضاها على مصلحة الأمة.

لذلك اشتهرت كثير من نساء الخلفاء، مثل الخيزران جارية المهدي، وزبيدة زوجة الرشيد، وصبح البشكنسية جارية الحكم المستنصر الأموي، وتركان خاتون زوجة ملكشاه السلجوقي، وعصمت الدين خاتون زوجة نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي، والزرقاء زوجة عبد المؤمن بن علي الموحدي، وشجرة الدر زوجة نجم الدين أيوب، والرميكية زوجة المعتمد بن عباد.. وهذا الأخير هو الذي كثر الطعن فيه لأجل حبه لزوجته، وما ذلك إلا لما جناه في ملكه على الأمة من ضعف وذلة أمام العدو، واستبداد واستكبار على الرعية وعلى المسلمين، فكان الطعن فيه طعنا في ضعفه، وسوء تدبيره على الحقيقة.. لا طعنًا في حبه.

وقد اخترنا من بين تلك الطبقة من النساء امرأة غير مشتهرة، لا سيما بين المشارقة، تلك هي زينب النفزاوية.. زوجة الأمراء والملوك، وزوجة الرجلين العظيمين: أبي بكر بن عمر اللمتوني ويوسف بن تاشفين، والتي لُقِّبت بـ «الساحرة»؛ لشدة ذكائها وحسن رأيها وتدبيرها ومشورتها.

في القرن الخامس الهجري كانت مناطق جنوب المغرب الأقصى تعيش جهالة كبرى، كأنما لم يصلها الإسلام قط، حتى ظهر فيهم متنبئون وضعوا لهم أديانا وتعاليم غريبة، وتوزعوا طوائف متفرقة متناحرة، وكان الرجل يتزوج النساء بلا عدد، وكانوا لا ينكرون زنا المحارم ولا ينكرون الزنا بالمتزوجة، حتى خرج رجل منهم إلى الحجّ فمرّ في طريقه بفقيه مغربي فأدرك ما عليه قومه من الجهالة، فعاد إلى قومه بطالب علم شاب اسمه عبد الله بن ياسين.

لكن عبد الله بن ياسين لم يفلح في دعوة القوم، الذين تحزبوا ضده حتى آذوه وطردوه ورفضوا ما جاء به، فسار جنوبا حتى نزل جزيرة يرجح أنها بالقرب من تنبكتو (في مالي) مع نفر قليل ممن استجاب له، وما زالوا يكثرون ويقومون بالدعوة حتى كانوا نواة الدولة المغربية العظيمة.. دولة المرابطين.

نمت دولة المرابطين، وبدأت رحلة توحيد بلاد المغرب تحت سلطانها، فكان من ضمن البلاد التي حاربتهم «تادلا» التي كان يحكمها لقوط بن يوسف المغراوي، فقُتِل في معاركه مع المرابطين، وكانت زينب النفزاوية هي زوجته.. وقد صارت الآن أرملته!

قبل زواجها بلقوط كانت زينب متزوجة من شيخ قبيلة «وريكة» لكن قومها هُزموا في المعارك القبلية أمام جيش لقوط، وبعد مقتل لقوط تزوجها أمير المرابطين: أبو بكر بن عمر اللمتوني، غير أن زواجها لم يدم إلا ثلاثة أشهر فقط؛ إذ جاءت الأخبار إلى أبي بكر بأن اضطرابات تجتاح الدولة في الجنوب حيث الصحراء- وأَصْل الدولة- فاضطر أبو بكر أن يخرج إلى هناك بنفسه، دون أن يستكمل توحيد المغرب، وقال لزوجته: «يا زينب، إني ذاهب إلى الصحراء وأنت امرأة جميلة بضة لا طاقة لك على حرارتها وإني مطلقك، فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف ابن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب»، وهو ما كان.

ولما تولى يوسف بن تاشفين بلاد المغرب أظهر من السياسة والقوة والحكمة ما جعله المؤسس الثاني والشخصية الأهم في دولة المرابطين، فاتسع ملكه واشتدت دولته، وتوحدت المغرب تحت سلطانه، بل ولجأت إليه الأندلس- التي كانت تئن تحت حكم ملوك الطوائف- بعدما سقطت طليطلة (أحصن مدن الأندلس) وتهددت إشبيلية (أكبر وأقوى مملكة أندلسية آنذاك)، فخرج بجيشه وخاض المعركة الخالدة «الزلاقة» التي أنقذ بها الإسلام في الأندلس لمائة عام على الأقل، ثم حين عاد ملوك الطوائف للتقاتل والتحالف مع الصليبيين ضد بعضهم، خاض معركته معهم، فتوحدت تحت سلطانه المغرب والأندلس معا، واستعاد المسلمون بذلك عزة غابت عنهم لنحو قرن من الزمان.

كانت زينب النفزاوية حاضرة طوال هذه المسيرة المجيدة، ويشهد المؤرخون بأنها «حازمة لبيبة ذات عقل رصين، ورأي متين ومعرفة بإدارة الأمور»، بل ينسبون مجد يوسف بن تاشفين وتوحيده بلاد المغرب إليها، فيقول ابن الأثير: «كانت من أحسن النساء، ولها الحكم في بلاده»، حتى كان العاقل ليتمنى الزواج بها، ويقول ابن خلدون: «كان لها رياسة أمره وسلطانه»، ويقول السلاوي: «كانت عنوان سعده، والقائمة بملكه، والمدبرة لأمره، والفاتحة عليه -بحسن سياستها- لأكثر بلاد المغرب»(٣)، وقد بالغ بعض أهل الأدب والتظرف فذكروا عنها ما لا يُصَدّق(٤).

وقد لا يعجب المرء من الخبرة السياسية لزينب، وهي التي تنقلت بين أربعة أزواج بفعل أعاصير السياسة والحروب.. ولذلك فقد استطاعت إنقاذ الدولة في لحظة عصيبة بمشورتها، كان ذلك حين رجع عمر بن أبي بكر إلى المغرب بعد أن استقر له أمر الصحراء، وكان ابن تاشفين قد أثمر إنجازات كبرى ما كان لابن عمه أن يفعلها، وكان من البديهي أن عودة أبي بكر تعني عودته أميرا وحاكما للدولة، وهو ما يهدد بزوال الثمرة التي أوشكت على الاكتمال، وكاد يوسف ابن تاشفين يجد حرجا، إذ إن تمسكه ببقائه حاكما يوحي بانقلابه وغدره ونكثه لعهده مع ابن عمه، مع احتمال نشوب حرب- أو انقسام شديد على الأقل- إن تمسك أبو بكر بحقه كأمير للدولة، بينما تنازله لابن عمه يهدد اكتمال إنجاز يوشك على التمام.

لكن زينب التي لم تعش مع أبي بكر سوى ثلاثة أشهر أشارت عليه بأن يتمسك ببقائه أميرا، ورغم أنها لم تعش مع أبي بكر إلا ثلاثة أشهر إلا أنها عرفت من طباعه الورع وحب الوحدة وخشية سفك الدماء، وأشارت عليه بأن يستقبل أبا بكر خارج المغرب لتجنب أية انشقاقات داخلية، وبأن يكلمه من موقع الندّ لا التابع، وأن يكون خروجه في جيش كبير، ومعه الهدايا الكثيرة التي يهديها لابن عمه «ليستعين بها على أمر الصحراء»، وقد كان ما أشارت به، وفهم أبو بكر المراد، وكان يستطيع أن يرجع بهدوء، لكنه- من شدة ورعه- كتب ليوسف بن تاشفين عهد تجديد واستمرار لولايته على المغرب، واستكمل هو طريق الدعوة وإكمال بناء الفرع الثاني من الدولة في الصحراء.

ولقد صحت رؤية زينب، فما أنجزه أبو بكر في الجنوب لا يكاد يُذكر بجانب الإنجاز الضخم ليوسف بن تاشفين في المغرب والأندلس، بل لم تعش دولة أبي بكر كثيرا، بينما ازدهرت دولة المرابطين وأنقذت الأندلس ووحدتها مع المغرب وأنزلت بالصليبيين هزيمة خالدة..

كما صحت رؤيتها في الطريقة التي اتبعتها لتوصيل الرسالة وإنهاء الأمر في هدوء، وبعيدا عن أعين الناس الذين قد يتسبب ظهور أبي بكر في انقسام بينهم يهدد وحدة الدولة، وصحت رؤيتها في فهم طباع أبي بكر وفي التعامل معه ومع رجاله بالرغبة (الهدايا) والرهبة (الجيش الكبير).

روى ابن الأثير أن ثلاثة اجتمعوا فتمنى الأول ألف دينار، وتمنى الثاني عملا يتولاه للمسلمين، وتمنى الثالث زوجة ابن تاشفين، فوصل خبرهم إلى ابن تاشفين فأعطى الأول ألف دينار والثاني بعض الأعمال، وأما الثالث فقال له: يا جاهل، ما حملك على تمني ما لا تصل إليه؟ ثم أرسله محبوسا، فأوصت زينب بأن يُطعم كل يوم من طعام واحد لثلاثة أيام، ثم أحضرته وقالت له: ما أكلت هذه الأيام؟ قال: طعاما واحدا، فقالت: فكل النساء شيء واحد، وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته.

وهنا نرى امرأة ذات تواضع، وذات حكمة.

الهوامش

١- د. محمد عمارة: التحرير الإسلامي للمرأة ص٢٠.

٢- البخاري (٢٣٣٦)، ومسلم (١٤٧٩).

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٩٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٧/٦٢، والسلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ٢/٢٠، ٢٣.

٤- النويري: نهاية الأرب ٢٤/٢٦٥، ٢٦٦.

المرأة والعمل•

هل للمرأة أن تشارك الرجل في الأعمال العامة؟
هل لها أن تعمل في منصب وزير أو رئيس للوزارة؟
أو تكون عضوا في المجالس النيابية؟
هل لها أن تتقلد الإفتاء أو القضاء؟
هل لها أن تزرع وتصنع وتتاجر؟
هل لها أن تعمل في المناجم والمحاجر، وفي الجيش والشرطة؟

هذه الأسئلة كلها مطروحة في كتاب «نظم العمل في الإسلام» لـ جمال الدين عيار الذي اخترنا كلماته العميقة كي نضمنها في ملف العدد..

يقول المؤلف: من غير شك قضية المرأة في هذا العصر، هي المحور الذي تدور عليه الحركات النسائية المعاصرة.. غير أن هذه الحركات إنما تنظر لهذه القضية في ضوء الغرب وتقاليده، تريد أن تقلده في كل شيء، ولو خالف المنطق والعقل السليم!

أما هذا الكتاب فإنما ينظر لهذه القضية في ضوء ساطع وهّاج، لا يترك من خبايا الأمر شيئًا إلا كشف عنه؛ ليقينا كل شر، ويصد عنا كل مكروه، هذا الضوء الحبيب لم يصنعه بشر يخطئ ويصيب.. إنما صنعه الله رب البشر الذي أحكم كل شيء صنعًا، إنما ينظر هذا الكتاب لقضية المرأة والعمل في ضوء الإسلام الحنيف.

وقد يبدو لبعض من سلطوا هذا الضوء الحبيب على قضية المرأة من قبل أني مخالفهم في شيء قل أو كثر.. وليس من شك في أن القارئ الكريم هو الحكم الفصل، فليقس الحجة بالحجة، والقول بالقول، ثم ليختر لنفسه من الرأي ما شاء.

قضية المرأة والعمل، قضية فرعية ليست من الأصول العامة أو القواعد الكلية.. فعلى ضوء هذه الأصول ينبغي أن نبحث الفرعيات، وفي حدود الكليات ينبغي أن نبحث الجزئيات.

فإذا استطعنا أن نوفق بين هذه الأصول وبين عمل من الأعمال أبحناه للمرأة، فإذا تعارض العمل مع الأصل العام أو تعارض الأصل العام مع العمل حرمناه على المرأة.. وإلا هدمنا الدين من أساسه، لنبني على أنقاضه!

ويقول: الأصول العامة التي نبحث في ضوئها قضية المرأة هي:

أولا: ضعفها.

ثانيا: وظيفتها الطبيعية.

ثالثا: الآداب التي فرضها الله عليها.

أما ضعفها، فإنه يحول بينها وبين العمل المرهق في المناجم والمحاجر مثلا، ولا يحول بينها وبين كثير من أعمال الرجال التي قامت بها المرأة الأوروبية في العصر الحديث دون أن تشكو إرهاقا.. فعندما نحرم اشتغال المرأة بالأعمال الشاقة، ونبيح لها من غير العمل الشاق ما يتفق مع وظيفتها الطبيعية والآداب التي فرض الله عليها، فإنا لا نخطئ!

وأما وظيفتها الطبيعية، فليست أكثر من أن تحمل وتلد وترضع.

أما تربية الولد فإنها من عمل الوالد كذلك، وليس نصيبه منها أقل من نصيب زوجه.. ومع ذلك فلم نسمع يومًا من يقول: إن اشتغال الوالد يعوقه عن تربية ولده.

ويوضح «عيار»:

وأما تدبير شؤون المنزل فإن أمره موكول في هذه الأيام إلى غير الزوجة، وليس على الزوجة من هذا الأمر إلا الإشراف والتنظيم.. وهو عمل لا يعوقها عن العمل الخارجي.. إن الخادمة هي التي تنظف المنزل وتنظمه، والغسل والكي وحياكة الملابس وغير ذلك من شؤون المنزل لا تقوم به الزوجة في غالب الأمر.. وكذلك طهي الطعام يستطيع أن يقوم به الطاهي أو الطاهية في المنزل أو المطعم ويعفي الزوجة من أعبائه.

كيف نفرض على النساء جميعًا هذه المهن البسيطة التي لا تفيد الوطن مثلما تفيده المهن الكبيرة التي تقوم على دراسات علمية منظمة؟ ألا نطمع أن ينبغ من نساء أمتنا امرأة واحدة تدفع بالإنسانية إلى الأمام؟ وكم نجني على البشرية عندما نقصر عمل النساء على الغسل والكي والطهي وتنظيف المنزل، ونقول إنها شؤون المنزل.. إنها وظيفة المرأة الطبيعية! فلنحرم إذن على الرجل أن يقوم بهذه الأعمال.. ولنقل إنها وظيفة المرأة الطبيعية!

فتدبير شؤون المنزل ليس وظيفة طبيعية للمرأة يتحتم القيام بها على النساء كافة، وبإمكانها أن تكلها لغيرها، وتتفرغ لما هو خير لها ولوطنها من العمل الخارجي.

• المقال منشور في كتاب: نظم العمل في الإسلام - جمال الدين عيار

وتربية الولد، وإن كانت من وظيفتها الطبيعية، لا تعوقها عن العمل الخارجي كما قدمنا، وإلا لعاقت الرجل!

ويضيف المؤلف:

كما أن المدارس والمعاهد تستطيع أن تكفي حاجة الولد من التربية والتعليم. يبقى الحمل والوضع والإرضاع.. وهي أمور استطاعت الدول الحديثة أن توفق بينها وبين العمل توفيقا لا يضر بصحة الأم أو صحة الطفل.

وأما الآداب التي فرضها الله تعالى على المرأة، فالقصد منها قطع أسباب الفساد الجنسي، فاختلاط المرأة بالرجل، وإبداء زينتها لمن لا يحل لها، وسفرها من غير محرم، وخلوتها بالأجنبي، وخضوعها بالقول، وكشفها لما أمر الله به أن يستر.. كل ذلك حرام حرام..

ويقول: وكل ما يجلب الحرام فهو حرام أيضًا.. فالإسلام لا يقر المرأة على عمل يدفعها إلى شيء من المحرمات.

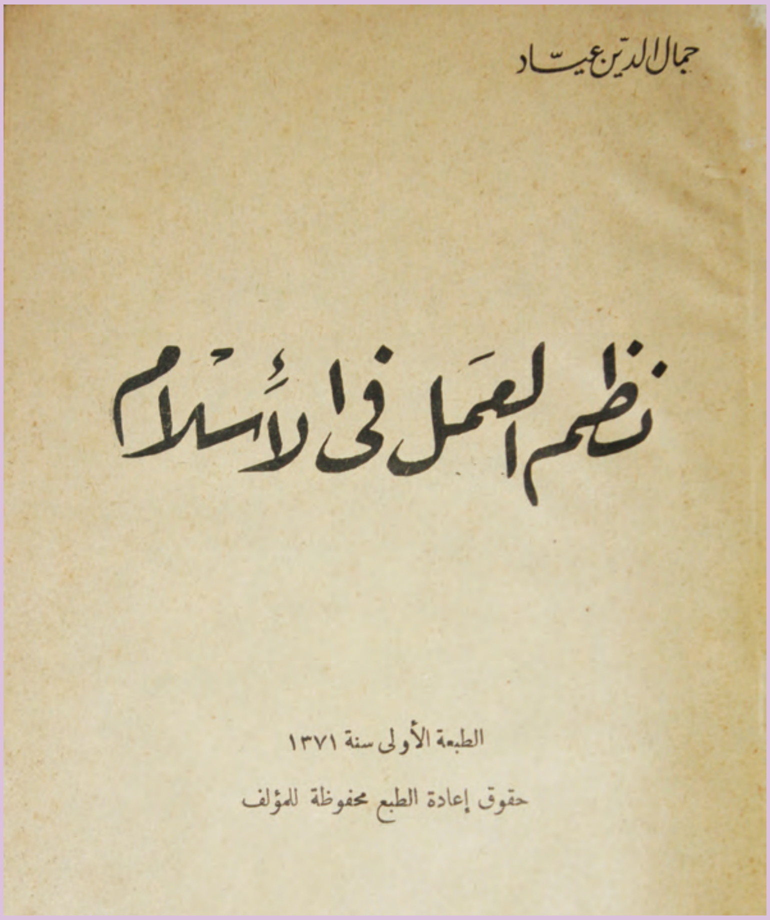
هذه هي الأسس الثلاثة التي نبحث في ضوئها قضية المرأة والعمل في الإسلام ولنبدأ بالولاية العامة كالخلافة والوزارة..

إن الخلافة والوزارة في النظام الإسلامي يفرضان على الراعي، خليفة كان أو وزيرا، أن يختلط بالرعية ويزاحمهم، ويجتمع بالسفراء ويخلو بهم، ويجوب البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

إن مسؤولية الراعي شاقة مرهقة، أشق مما أعفينا منه المرأة من العمل في المحاجر والمناجم مثلا. لقد كان عمر- مع قوته ونشاطه- يئن من الولاية العامة، ويخشى تبعاتها الجسام.. فكيف نكل للمرأة أشق المهام وأكثر الأعمال إرهاقا؟

بل كيف نبيح للمرأة أن تخالط الرجال من رعيتها وتخلو بالسفراء وتجوب البلاد ذهابا وجيئة؟

وإن قيل فإن السيدة عائشة- رضي الله عنها- كانت تخرج إبان الفتن السياسية، فكيف نمنع نساءنا الخروج إلى المعارك الانتخابية؟ إن قيل ذلك



فإنا نرد بما هو آت:

١- لم تكن السيدة عائشة فتاة يافعة يومذاك يطمع فيها الرجال أو يخشى منها الفتنة، وإنما كانت امرأة تخطو نحو الخمسين.

٢- السيدة عائشة ليست كأحد من النساء، إنها زوج الرسول الكريم، وهي أمّ للمؤمنين ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ (الأحزاب: ٦)، وما يجوز للأم لا يجوز لغيرها من النساء.

٣- وهي لم تكن تقود معركة سياسية، وإنما كانت تصلح بين الناس. ومن هم الناس؟ إنهم أبناؤها بنص القرآن الكريم، ولقد رأت من واجبها الروحي للمؤمنين أن تقوم بهذا العمل.

٤- ولقد كانت تطوف محجبة في هودجها، فهي لم تختلط بالرجال، إنما اختلط جملها بالرجال، ولعلك معي في أن الإسلام لا يحرم اختلاط الرجال بالجمال!

٥- ولقد أثبتت أنها تقصد الإصلاح حقا، إذ لما أنشب حكيم بن جبلة القتال مع جيش عائشة، واضطر هؤلاء أن يقاتلوا دفاعا عن أنفسهم كان مناديها ينادي في الناس أن كفوا عن القتال.

٦- ولئن كانت تفهم أن الخروج في الناس لإصلاح ذات البين واجب على الأنثى وجوبه على الذكر، لقد أدركت من بعد خطأها في هذا الرأي الذي أقدمت عليه، فلقد كانت إذا قرأت قوله تعالى ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (الأحزاب: ٣٣) تبكي بكاء مرا، كانت تبكي بسبب سفرها أيام الجهل كما يقول الفقهاء، ولقد روي أن عمارا قال لها: «إن الله قد أمرك أن تقري في منزلك!» فقالت: «مازلت قوّالا بالحق» فقال: «الحمد لله الذي جعلني كذلك على لسانك».

ويلفت المؤلف إلى أن شغل المرأة بالقضاء ليس كاشتغالها بالولاية العامة أو سعيها لعضوية المجالس النيابية، إنها لن تزاحم الناس أو تخالطهم أو تخلو بهم أو تلين لهم القول أو تجوب البلاد.. فإن عملها لا يزيد عن سماع القضايا والنطق بالحكم وهي تستطيع أن تفعل ذلك وهي بعيدة عن المتقاضين، لا تخالطهم أو تزاحمهم، وإن كانت تَسمعهم وتُسمعهم، كما كانت المرأة تَسمع رسول الله وخلفاءه في المسجد، وتُسمعهم ما يعنّ لها من قول، وهي جالسة في مؤخرة المسجد لا تخالط

الرجال ولا يخالطونها.

والإسلام يبيح للمرأة الإفتاء، لأن طبيعة علم المفتي لا تعارض الأصول الثلاثة التي نبحث في ضوئها قضايا المرأة، فهي ليست شاقة حتى يمنعها الضعف، وهي لا تحول بين المرأة وبين وظيفتها الطبيعية، كما لا يحول أي عمل آخر بينها وبين هذه الوظيفة مما قدمنا القول عنه، فإن الحكومة تستطيع أن توفق بين وظيفة الإفتاء ووظيفة الحمل والوضع والإرضاع.

أما اشتغال المرأة بحماية الأمن ومطاردة اللصوص فإنه لا يتفق وضعفها، ولا يلائم الآداب التي فرض الله عليها، بما يدفعها إليه من مزاحمة الرجال والاختلاط بهم.

ويضيف المؤلف:

وأما اشتغالها بتعليم النساء فليس مباحًا فحسب، وإنما هو ضرورة لا غنى عنها لمجتمع إسلامي.

١- فأزواج الرسول ﷺ كن معلمات لبنات جنسهن.

٢- والشفاء بنت عبدالله المهاجرة القرشية عملت مدرسة، وعلمت حفصة بنت عمر أم المؤمنين الكتابة والقراءة.

٣- وهناك من أبواب العلم ما يفضّل الدين أن تتصدى المرأة لتعليمه، حفاظا على حياء الرجل إذا علّمها.. وعلى حياء المرأة إذا تعلمت منه، كدراسة أعضاء المرأة، وأمراضها، وغير ذلك مما يؤهل لطب النساء.. فالرسول ﷺ استحى أن يعلم امرأة كيف تتطهر من الحيض! استحى أن يقول لها تتبعي أثر الدم! ووكل ذلك إلى زوجه عائشة.. أفلا يمنع الحياء أستاذ الطب أن يعلم تلميذاته طبيعة جسم الأنثى؟ أفلا يحق للمرأة أن تعلم بنات جنسها مثل هذه العلوم كما كانت تعلم عائشة بنات جنسها أحكام الطهارة!

٤- ثم كيف نأمن الرجال على البنات يعلمونهن، وقد يضطرهم العلم إلى الخلوة بالأستاذ في حجرته يسأله ما أشكل عليهن.. ومازالت تطن في آذاننا أخبار الفضائح الجنسية التي جاءت ثمرة اختلاط الأستاذ بتلميذاته وخلوته بهن. أليس خيرا للنساء أن يأخذن العلم على بنات جنسهن، واشتغال المرأة بطب النساء كاشتغالها بالتعليم تماما.. ليس مباحا لها فحسب وإنما هو ضرورة لا غنى عنها لمجتمع إسلامي.

١- فنساء الصحابة كن يداوين الجرحى ويضمدن الجراح.

٢- والرسول ﷺ الذي يكل لامرأته تعليم النساء يكل للمرأة من غير شك طب النساء.. فليس يحل للرجل أن ينظر إلى عورة امرأة يداويها مادامت هناك طبيبات.. إنما أبحنا للرجال طب النساء لما نجد من فقر إلى الطبيبات. فاشتغال الرجل بطب النساء محظور وإباحته ضرورة، كمثل لحم الخنزير يباح أكله عند خشية الهلاك من الجوع. فإذا كان ثمة لحم حلال في مكان ما، فهل يقعد الإنسان في مكانه ويأكل اللحم الحرام، أم يسعى إلى اللحم الحلال ويقطع السبيل إليه، كذلك طب النساء، يحرم اشتغال الرجال به، وتحله ضرورة الحاجة إليهم.. فإذا كان في الإمكان إعداد الطبيبات، وليس هذا بعسير، فهل نقعد عن هذه الغاية ونكل طب النساء إلى الرجال.

وثم عمل أبيحه للمرأة بل أراه ضرورة للمجتمع الإسلامي السليم وأرجو الله ألا ينتفض القارئ الكريم حين يسمع هذا العمل، فمن حقي عليه ألا ينتفض حين يقرأ حجتي فيما أقول: إن من الأعمال التي أراها ضرورة للمرأة في المجتمع الإسلامي عمل «كمساري» الترام!!

ويقول المؤلف:

وأكاد أشعر أن القارئ الكريم قد انتفض من مجلسه رغم ما أخذت عليه من عهد، ولكني واثق أنه لن يسمع حجتي فيما أقول حتى يعود إلى مجلسه هادئا، كأن شيئا لم يكن!

إن مجتمعا إسلاميا يقوم، إنما يقوم على أساس التفرقة بين الجنسين في كل شيء.. فإذا جعلنا للنساء قطارًا مستقلا أو سيارات خاصة لا يخالطهن فيها الرجال.. فكيف نأذن لرجل أن يزاحمهن ليجمع منهن النقود، أليس أحرى بالمرأة أن تقوم بهذا العمل في مجتمع إسلامي صحيح؟ إن قضية المرأة والعمل واضحة أيها القارئ الكريم..

وفي الختام يوضح المؤلف:

إنها قضية فرعية، كما قلت في أول الحديث، ليست من الأصول العامة أو القواعد الكلية.. فإذا استطعنا أن نوفق بين الأصول العامة التي وضعها الدين للمرأة وبين عمل من الأعمال أبحناه للمرأة.

وإذا تعارض العمل مع الأصول العامة حرمناه على المرأة.. وإلا هدمنا الدين من أساسه، لنبني على أنقاضه!

وإن ثمة من يعترض على اشتغال المرأة بصفة عامة.. ونحن ذاكرون هنا أهم ما يوجه من قول، وخير ما نراه من رد.

أولا: أثر اشتغال المرأة في عطل الرجال، فمن الناس من يقول إن اشتغالها مدعاة لهذا العطل.. والواقع غير ذلك.. فلقد قدمنا القول في أسباب البطالة وعلاجها، ووجدنا الإعراض عن فتح آفاق العمل أمام الجميع أهم أسبابها.

ثانيا: أثر اشتغال المرأة في تدهور الأخلاق، فقد اعترف كُتاب أوروبا أنفسهم، ودل الإحصاء الدقيق على أن المرأة كلما عملت ازدادت الأخلاق سوءا، وعمت الإباحية المجتمع، وتهدمت الأسر بكثرة الطلاق. ولكن هذا القول- مع صحته- مردود.. لأن الذي دفع إلى هذا الفساد ليس اشتغال المرأة، وإنما هو سفورها أثناء العمل، واختلاطها بالرجال، وخلوتها معهم، وكشفها عن مفاتنها وما يثير في الرجال غرائز الجنس، ويوقعهم في أحابيل الشيطان.. ولقد قدمنا القول في حرمة كل عمل يضطر المرأة إلى السفور والخلوة والاختلاط.. فقطعنا بذلك أسباب الفساد.



الاغتصاب جريمة أعجمية المنشأ

عبدالعزيز بن صالح العسكر
كاتب سعودي

بداية ليس في ديننا الإسلامي لفظ أو مصطلح «الاغتصاب» بمعناه واستعماله الموجود في قوانين الدول اليوم؛ وإنما الموجود هو لفظ «الزنى» فقط. وقد ورد في القرآن الكريم خمس عشرة مرة بألفاظ: يزنون ويزنين والزنى والزاني والزانية، وكل الألفاظ الخمسة عشر في سورة النور ماعدا ثلاثة؛ يزنون في سورة الفرقان، ويزنين في سورة الممتحنة والزنى في سورة الإسراء.

إن اللقاء الجنسي الممنوع بين رجل وامرأة لا يعرف له الإسلام إلا اسمًا واحدًا وهو «الزنى»، وهو محرم لأنه يخالف الشرع والعقل والذوق والشرف، ورتب عليه الإسلام حدودًا وعقوبات شرعية أثبتتها كتب الفقه، وطبقها ولاة أمور المسلمين على مر العصور، وبناء على ذلك فجماع الرجل لامرأة إما أن يكون حلالًا يعد عملًا صالحًا يثاب عليه الرجل والمرأة، وهو ما كان بزواج شرعي، أو حرامًا بأي اسم كان؛ وهو حرام وفاحشة سواء سمي: اغتصابًا أو متعة أو صداقة أو غيرها. وسواء تم باتفاق الطرفين أو بعدمه، وهو زنى وافقت عليه المرأة أو «غصبت» فهو جريمة وقذارة وخروج على الشرع، سواء حصل باتفاق أو بغيره.

ولم تعرف البلاد الإسلامية مصطلحًا آخر غير الزنى بالمرأة واللواط بالرجل. حتى جاء العصر الحديث، وأخذت قوانين بعض البلاد العربية من القوانين الشرقية والغربية، وجاءت معها تسميات الجرائم التي تعاقب عليها الدول، فوجدنا جريمة «الاغتصاب»، فلماذا وضع الشرقيون والغربيون لفظ «الاغتصاب» بدل لفظ «الزنى»؟! وما أثر تطبيقه في بلاد المسلمين؟

هذا ما أحاول الإجابة عليه بعون الله تعالى وتوفيقه.

لقد جاء لفظ «الاغتصاب» مأخوذًا من القوانين البشرية عند غير المسلمين ليحل محل الزنا عند المسلمين، فالعلاقة بين الرجل والمرأة تجيزها قوانين تلك الدول؛ كما تجيز كل ما يترتب على تلك العلاقة من حب وصداقة ولقاء وسفر وما يصل إلى الإنجاب، وكل ذلك سائغ مقبول ولا يحق لأحد أن يعترض عليه؛ فليس من حق الأب أن يعترض على علاقة ابنته بأي شخص تريد بأي شكل من أشكال العلاقة وزمانها ومكانها، كما لا يحق للزوج أن يعترض على علاقة زوجته بأصدقائها، كما أنه من حقه ألا تعترض عليه أن يصادق من يريد من النساء، غير أن قوانينهم تسمح بالصداقة فقط، ولا تسمح بالمعاشرة الجنسية للمتزوج.

كما لا تمنع العلاقة بين الرجل والمرأة، إلا ما كان أسلوبه الإكراه والإلزام والخطف فهو الممنوع فقط؛ ولذلك جاء منع الاغتصاب في أي زمان أو مكان حصل. والمنع هنا تنظيمي أمني فقط، هدفه البعد عن الخلافات والشقاق وإشغال المؤسسات الأمنية.

وكما أنه ليس بعد الكفر ذنب، فلا يمكن أن يسأل واضعو تلك القوانين عن سبب إباحة العلاقات بين الرجل والمرأة وتحريم تعدد الزوجات.

ولكن المؤسف والمحزن أن نجد بعض البلاد الإسلامية تطبق تلك القوانين الشرقية والغربية التي تخالف الإسلام؛ وتجعل لفظ «الاغتصاب» مكان لفظ «الزنا» فتحرم وتمنع الثاني وتبيح وتشجع على الأول، وتختفي عقوبات الزنا في الشريعة الإسلامية من واقع كثير من قوانين الدول الإسلامية، مما نتج عنه: تمرد النساء على الرجال وكثرة حالات الطلاق والخلع، بل والقتل، لأن بعض الرجال لا ترضى شيمته وخلقه أن يرى إحدى محارمه مع رجل آخر، مهما كان المكان والزمان والغرض، ولا تسل عما يحصل من ذلك الرجل الغيور من ضرب وقتل وهجر وغيرها، ونحن هنا لا ننكر أن الأمر يختلف شرعًا بين أن تكون المرأة راضية بفعل الحرام أو مكرهة بالقوة، ويقدر القاضي هذا الأمر بالاعتراف والشهود وقرائن الحال، وبناء عليه يكون مقدار العقوبة وتغليظها.

ولكن المقصود هنا أن الزنا جريمة وفاحشة ومنكر يعاقب عليه، حتى وإن حصل بتراضي الطرفين؛ فالتراضي لا يسقط العقوبة ولا يخففها، والتراضي في الواقع يأتي باحتيال وتعاون على الفحشاء والمنكر، وهذا ما يقتضي تغليظ العقوبة، لأن الفاحشة تصبح أمرًا مستساغًا تضيع بسببه الأعراض، وتنتهك الحرمات.

حمى الله بلادنا وأهلها وبلاد المسلمين من كل سوء وفاحشة ومصيبة إنه هو السميع العليم.

drawing from: Javad Alizadeh

«الوعى الإسلامي» ترصد

«كواليس مطاردة شبح الطلاق والعنوسة»

تحقيق : بسمة رمضان
القاهرة



هذه ليست قصصا من صنع الخيال، وإنما واقع نعيش فيه، خلف جدران منازلنا.. هذا التحقيق جميعنا مشاركون فيه.. بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولا أحد يخلو منزله من هذه المشاكل التي تشغلنا جميعا في كل صور حياتنا، ولا أحد ينكر أن ما نحن فيه الآن إنما هو بسبب ابتعادنا عن الله سبحانه وتعالى وانشغالنا بالحياة الدنيا..

وإن نظرة عابرة على الكتب والجرائد والمجلات والبرامج التلفزيونية والخبراء ودكاترة الطب النفسي ومواقع الإنترنت وجميع من يشرح أو يفسر الحياة الزوجية وكيفية تحقيق السعادة ستجعلك تشعر أن الشعوب العربية تعيش في حلم وردي.

لكن حينما نرى أخبار الحوادث والقضايا وحالات الطلاق الكثيرة التي تجاوزت جميع الحدود، والخيانة الزوجية وقضايا دعاوى النسب

الشباب: «الأهالي يكونون أحيانا السبب في الانفصال عن شريكة الحياة»

والخلافات الموجودة داخل كل منزل، والتي أصبح أغلبيتها ينتهي بقتل الزوج على يد صديقه، نعلم أن هناك شيئا غريبا يحدث داخل كل أسرة.
كل ذلك ووسائل الإعلام تبث على المستوى الدولي والإقليمي والمحلي العديد من القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، مهملة تماما ظاهرة الطلاق، التي لا تقل أهمية عن تلك القضايا، وهي الظاهرة التي باتت تهدد كيان المجتمعات الإنسانية بسبب معدلاتها المرتفعة.
لذلك قررت أن أقوم بجولة ميدانية أتحدث فيها مع بعض الأزواج والزوجات داخل هذا المجتمع لأتحاور معه حول رأيه في الأسباب المؤدية للطلاق والارتفاع المهول لنسبة العنوسة، ليس في مصر فقط، بل في الوطن العربي بأكمله.
بالإضافة إلى عزوف العديد من الشباب والفتيات عن الزواج لأسباب مجهولة، لا يعلمها سوى من يدخل إلى عالمهم المجهول الذي لا آخر له.
لذلك قررت أن أجعل مسبار «الوعي الإسلامي» يخترق عالم هؤلاء الشباب ليتعرف على مشاكلهم، وكيف ينظرون إلى مستقبلهم القادم.
في البداية نتحدث عن أبغض الحلال عند الله «الطلاق»
يقع حين تصبح الحياة مستحيلة بين الزوجين بوجود أو عدم وجود أطفال، وتصبح عملية الاستمرار أيضا غير مجدية من جميع النواحي، سواء كانت نفسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو جسدية.
وتحدث النزاعات الأسرية التي تصل إلى حد فقدان الشعور بالأمان، وفقدان الثقة بل وفقدان الاحترام بين الطرفين، والذي هو أهم عنصر من عناصر استمرار الحياة الزوجية.
بالإضافة إلى الشجار المستمر الذي ارتفعت حدته حتى بلغ الذروة، ومشاهد البكاء وصراخ الأطفال والضرب والإهانة.. كل ذلك ينتهي بترك الزوج للمنزل وطلب الزوجة للطلاق الذي تحول إلى عبارة عادية وربما يومية في مجتمعنا، دون أن يلتفت أحد إلى الأسباب المؤدية لذلك.
وبحسب دراسة صادرة عن مركز معلومات دعم واتخاذ القرار التابع لمجلس الوزراء في بداية هذا العام، ارتفعت معدلات الطلاق خلال الخمسين عاما الماضية من ٧٪ إلى ٤٠٪ مما يعني وقوع حوالي ٢٤٠ حالة طلاق، ووصل عدد المطلقات في مصر تقريبا حوالي (٢،٥) مليون مطلقة.
وهي الإحصائية التي جاءت صادمة لتحطم هيكل الحياة الزوجية والأسرية المستقرة التي عرفتها مصر قديما، واختفت اليوم في ظل مجموعة كبيرة من المشكلات الاجتماعية التي انعكست على العلاقات بين الزوجين، خاصة من الشباب في السنة الأولى التي لا تكتمل في معظم الأحوال، وفي النهاية تنتهي بتدخل المأذون حتى يُتم عملية الطلاق.
والجدير بالذكر أيضا أن العالم العربي يشهد حاليا عدة متغيرات حديثة أحدثت تغيرا هائلا في المفاهيم الاجتماعية الشرقية، بما تتميز به من ثبات وأصالة نابعة من شرعنا الإسلامي وتقاليد المجتمع العربي، وبما لها من خصوصية، فبعد أن كانت كلمة الطلاق أبعد ما تكون عن البيوت أصبحت الأسهل والأقرب بين الشباب حديثي الزواج، وكأنه الموضة الجديدة التي يتبعونها في وقتهم الحاضر.
وأشارت الدراسات أيضا إلى أن تنامي معدلات الطلاق بين حديثي الزواج في كثير من الدول العربية، ومنها مصر والسعودية والكويت والأردن واليمن والسودان وغيرها، حيث تصل نسبة المطلقات خلال العام الأول للزواج إلى أكثر من ٧٠٪، وترتب على ذلك ظواهر اجتماعية أخرى مثل تأخر سن الزواج والعنوسة وكثرة أعداد المطلقات وأبناء الطلاق.
لذلك قررنا رصد بعض من أسباب ظاهرة الطلاق المبكر في الوطن العربي وآثارها السلبية، وكيفية الحد من انتشارها للحفاظ على تماسك المجتمع.

حالات معينة

يقول الشيخ محمد البسطويسي نقيب الأئمة بالأزهر الشريف: إن الطلاق أبغض الحلال عند الله تعالى، لهذا شرعه الله في حالات بعينها، وحث الزوجين على استمرار الحياة، وتخطي الصعاب والصبر عليها بشتى الطرق، ونصح كلا من الزوج والزوجة بحسن الاختيار وعدم التسرع، مذكرا بحديث المصطفى ﷺ أهل الفتاة بقبول صاحب الدين والخلق: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه» وقال للشباب: «فاظفر بذات الدين تربت يداك» وهذا يدل على مدى أهمية الوازع الديني الذي يبني الحياة الزوجية على أساس سليم.
وأضاف: هذا الزمان كثرت فيه الفتن واختلت معايير الاختيار، فأصبح قائما على أساس الإعجاب الشكلي والإمكانات المادية والمستوى الاجتماعي، في الوقت الذي أهمل فيه الآباء تربية أبنائهم على القيم الأخلاقية السليمة، كالقناعة والتفكير العقلاني السليم والقدرة على تحمل المسؤولية، ومن ثم غاب عنهم المعنى الحقيقي للزواج، وظهرت حالات الطلاق بعد شهور، وربما أيام قليلة من ارتباط الزوجين.

الفتيات: «لا نريد رجلا مستبدا في طبعه بل حبا بصدق»

وأكد البسطويسي على أن سيطرة النمط الغربي من خلال وسائل الإعلام على الممارسات الحياتية للشباب جعل البعض منهم يتجاهل احترام الكيان الأسري عند الاختيار، بالإضافة إلى تفشي الاختلاط والانفتاح بين الشباب والفتيات من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، وأماكن الدراسة والعمل، وزيادة تحررهم من رقابة وسيطرة الأسرة، كل ذلك ساهم في وجود هذه الظاهرة، نظرا لتعدد المؤثرات عليهم.

ولذلك فإن الزيادة الواضحة في حالات الطلاق في وقتنا هذا ترجع لأسباب كثيرة، منها حالات الفقر الشديدة التي تلقي بظلالها على بيوتنا المصرية، وهذا سبب أساسي من أسباب زيادة نسبة الطلاق في مجتمعنا.

لذلك لابد من تدارك هذا الخطر لأنه يحدث خللا في المجتمع المصري، ويتسبب بتدهور وتفكك الأسر المصرية، وكل هذا يعود على الأسرة بالضرر.

ومن وجهة نظري أرى أن المسؤولين يجب أن يضعوا خطة محكمة للحد من زيادة النسبة بهذه الطريقة، عن طريق التوعية المستمرة، وتكوين مجموعات للتدخل وحل المشكلات الصعبة التي تواجه الأسر المصرية، وتبادر بحلها بدلا من تفاقم المشكلة للحد الذي يصل بها للطلاق.

ومن جانبه قال حسام المصري البالغ من العمر ٢٠ عاما: البنت طول حياتها تحلم بالزواج وحينما يتحقق هذا الحلم تهمل زوجها كثيرا، مما قد يدفع الزوج للخيانة، ويتم الطلاق على هذا الأساس.

٣ أسباب

لكن هشام صابر٢٢ عاما أوضح أن أسباب الطلاق تتلخص في الآتي: أولا، عدم التوعية الاجتماعية الجيدة. ثانيا، الجهل عند معظم الناس. ثالثا، خيانة الزوجات التي أصبحت في مجتمعنا هذا موضة.. كل ذلك يساعد على زيادة حالات الطلاق داخل مجتمعنا.

من جانبه قال محمد طارق ٢٨ عاما: إن مصر من أكثر الدول التي تنتشر بها حالات الطلاق بين الأزواج، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، أبرزها: ضعف العائد المادي والاقتصادي لدى رب الأسرة المصرية، خاصة في ظل تردي الأوضاع الاقتصادية، بالإضافة إلى ارتفاع أسعار معظم المواد الأساسية، لافتا إلى أن المصريين غير قادرين على مواجهة ظروف الحياة اليومية والمعيشية، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى حدوث حالات الانفصال والطلاق.

وأضاف طارق أن هناك معضلة تتعلق بالجانب الجنسي والتعامل الأمثل معه تسبب كثيرا من حالات الطلاق، خاصة أن المصريين ملتزمون إلى حد ما ببعض العادات والتقاليد التي ترى أن مجرد الحديث في هذه الأمور شيء معيب ولا يجوز.

وأشار إلى أنه من ضمن الأسباب عدم التكافؤ بين الزوجين في كثير من الأحيان، ويتمثل ذلك في الاختلاف الفكري والثقافي والاجتماعي.

وفيما يتعلق بمشاكل الشباب أكد طارق أن السبب الرئيسي لمشاكل معظم الشباب هو البطالة، وصعوبة إيجاد فرصة عمل مناسبة تساعدهم على توفير نفقات الحياة اليومية ومتطلباتها، لافتا إلى أن الشباب المصري فاض به الكيل لما يمر به من ظروف اقتصادية غاية في الصعوبة، في ظل وضع اقتصادي سيئ، الأمر الذي يدفع معظم الشباب إلى البحث عن أي عمل، حتى لو لم يناسب مؤهله أو تخصصه للتغلب على مشاكله المالية.

الأزهر الشريف: «هذا الزمان كثرت فيه الفتن واختلت معايير الاختيار»

ويقول محمد محمود البالغ من العمر ٣٠ عاما: إن أسباب الطلاق تتلخص في عدم التوافق بين الزوجين ويشمل ذلك التوافق الفكري وتوافق الشخصية والطباع والانسجام الروحي والعاطفي.

الإصرار على الرأي

وعلى نفس المنوال أكدت صابرين البالغة من العمر ٣٨ عاما على أن مشكلات التفاهم بين الأزواج وصعوبته هي من الأسباب المؤدية للطلاق.

وأضافت، صعوبات التفاهم هذه تكون في بعض الاتجاهات الشخصية، مثل العناد والإصرار على الرأي، وأيضا النزعة التنافسية الشديدة وحب السيطرة والاندفاعية والتسرع في القرارات، وفي ردود الفعل العصبية، مستشهدة بأن الإنسان يغضب وتستثار أعصابه بسرعة، مما يولد شحنات كبيرة من الكراهية التي يعبر عنها بشكل مباشر، من خلال الصياح والسباب والعنف، أو بشكل غير مباشر من خلال السلبية والتكشير والصمت وعدم المشاركة وغير ذلك.

كل ذلك يساهم في صعوبة التفاهم وحل المشكلات اليومية العادية، مما يجعل الطرفين يبتعد كل منهما عن الآخر في سلوكه وعواطفه وأفكاره.

وأكدت صابرين أيضا على أنه في هذه الحالات يمكن للكلمة الطيبة أن تكون دواء فعالا يراجع الإنسان من خلالها نفسه، ويعيد النظر في أساليبه، كما يمكن تعلم أساليب الحوار الناجحة وأساليب ضبط النفس التي تعدل من تكرار المشكلات، وتساعد على حلها بالطرق السلمية بعيدا عن الطلاق.

ويمكن أيضا لتدخل الآخرين وأهل الزوج أو أهل الزوجة وأمه وأمها أن دورا في الطلاق، وهذا ما يجب التنبه إليه وتحديد الفواصل والحدود بين علاقة الزواج وامتداداتها العائلية.

والتأكيد على أن الأهل دور الرعاية والدعم والتشجيع لأزواج أبنائهم

وبناتهم من خلال تقديم العون والمساعدة، وأن يقولوا خيرا أو يصمتوا إذا أرادوا خيرا.
وفي النهاية قالت صابرين: مع الأسف، ما يحدث في الوقت الراهن من قبل الرجل أو المرأة أصبح لا يعقل نهائيا، فمشاكلهم أصبحت لا تنتهي.

الشك الزائد

وعلى نفس المنوال قالت زينب السيد التي انفصلت عن زوجها بعد زواج استمر ثلاثة أشهر فقط: إن السبب الرئيسي وراء تركها لزوجها وانفصالها عنه يرجع إلى شكه الزائد في كل شيء، بالإضافة إلى غيرته التي لم ترها من قبل، ودائما كان يتهمها بخيانته، مع العلم أنه خلال الثلاثة أشهر هذه لم تخرج من البيت إلا وهي معه، لذلك رفعت دعوى قضائية ضده، وطلبت أن تنفصل منه نهائيا.
وأكدت على أنها أصبحت لا تريد أن تدخل في تجربة زواج مرة أخرى بسبب فشل الأولى، وما رأته في تلك التجربة جعلها تكره الزواج نهائيا، مع العلم أنها جامعية.
وأضافت زينب: لو كنت أعلم أن الرجل الذي أحببته سيتغير معي بتلك الطريقة البشعة لابتعدت نهائيا عن الحب والزواج.. أنا فعلا لم أفعل أي شيء له سوى أني كنت أحبه كثيرا، لكن مع الأسف هو الآن جعلني أكره كل شيء في حياتي، لذلك أنصح كل فتاة أن تختار شريك حياتها بشكل صحيح، في كل شيء، حتى لا تقع في غلطتي ويطلق عليها اسم مطلقة، والمجتمع ينظر إليها نظرة وكأنها الجانية، لكن ربنا وحده هو الذي يعلم أن تلك المطلقة مجني عليها وليست الجانية، كما يعتقد البعض.
والتقينا أيضا بمحمد علي الذي انفصل عن زوجته بعد زواج استمر عاما كاملا، وحب استمر ٧ سنوات، حيث قال: كنت أنا وزوجتي متحابين مخلصين، لكن تدخل الأهل الزائد في كل شيء هو ما أوصلنا إلى ما نحن فيه الآن، مع العلم أننا كنا نحاول تجنبهم بكل الطرق، لكن مع الأسف زوجتي كانت تسمع كلام والدتها كثيرا، لدرجة أنها عصّتها علي، وجعلتنا ننفصل، علما أن مشاكلنا كان من الممكن حلها، لنعيش أسعد زوجين، لكن الأهل هم السبب فيما نحن فيه الآن.
وأضاف محمد: لا أنكر أننا أنا وطليقتي كنا السبب الرئيسي في الطلاق.. لكن للحقيقة لقد بذلت الكثير لإرضاء أهلها، غير أن كل ذلك ذهب سدى ووصلنا للطلاق.
بعد أن رصدنا بعضا من الأسباب الرئيسية التي تسببت في انفصال الأزواج والزوجات عن بعضهم، بالرغم من الحب الشديد الذي كان بينهم.
بقي أن نرصد من خلال هذا التحقيق آراء بعض طلاب الجامعات الرافضين للزواج نهائيا، مع العلم أن الزواج هو اكتمال نصف الدين.
في البداية قالت بسمة: نحن في مجتمع لا يقدر معنى الحب نهائيا، ونحن في مجتمع لا يقدر أيضا أن المرأة يجب أن يكون لها دور في المجتمع، ويكون لها بصمة في كل مكان تعمل فيه، وحينما تكون المرأة مميزة داخل عملها يكره الرجل تلك الميزة ويبدأ بالغيرة، ليس عليها، لكن منها.
ويبدأ بالشجار معها حتى تختنق وتتركه نهائيا، ومع الأسف هناك العديد من الرجال لا يقدرون تميز المرأة نهائيا، ويبدأون بمقارنة أعمالهم بعمل المرأة، ومن هنا تنتهي قصص الحب بفشل كبير.
في النهاية يترك الرجل المرأة ويبحث عن غيرها، لذلك أنا كرهت الرجال لأنهم مزيفون في كل شيء، حتى في مشاعرهم مزيفون.
وأكدت بسمة على أنه ليس كل الرجال مزيفين، لكن الأغلبية العظمى منهم كذلك..
تقول: أنا أتمنى أن أعثر على شخص يحبني بجد، ويتمنى لي الخير في كل شيء، ويجب أن يمتلك الثقة في نفسه كثيرا، حتى يعلم جيدا أني امرأة وكيان في هذا المجتمع، ولست مهمشة كما يريد بعض الرجال فعله في النساء، وهو التهميش نهائيا، واقتصارها على تربية الأولاد.
ومن ناحية انتشار العنوسة في مصر تحديدا لخصها الشاب محمود في التالي: وهي الأوضاع الاقتصادية وعدم توفر السكن والبطالة والفقر وقلة الدخل وارتفاع الأسعار...الخ
وهناك أيضا أسباب أخرى اجتماعية، منها العادات والتقاليد المتعصبة، أما الأسباب الدينية فهذه هي المصيبة الكبرى، لأن الفتيان والفتيات الآن تركوا الدين نهائيا، وبدأوا يفكرون في أشياء أخرى مثل المظهر والنقود ونسوا الآخرة.. لذلك نحن أصبحنا بعيدين عن ربنا كثيرا.. وهذا الذي نحن فيه عقاب منه سبحانه.
وقال أستاذ الاجتماع بجامعة القاهرة دكتور حسن المرشد: إن الفتاة كلما تقدمت في السن تتنازل في شروطها لتصل إلى ٥٠ ٪، وهناك فتيات يتنازلن بدافع الأمومة أو الرغبة في التخلص من ضغوطات الأسرة، إلّا أن الفتيات غالبا ما يبحثن عن الزوج الذي يحترم المرأة ويعطيها حقوقها، ويحترم الأسرة، ومن أهم أسباب العنوسة المغالاة في المهور، وهناك رجال عقلاء وحكماء يرفضون ذلك، ويبحثون لبناتهم عن رجال ذوي دين وخلق، وعلى قدر من المسؤولية.
ومن هنا قالت سلوى سليمان دكتورة علم النفس بجامعة عين شمس: إن الفتاة «العانس» عادة ما تشعر بالوحدة، بالرغم من كثرة الناس حولها، حيث تعاني من الغربة والإحساس بالفراغ النفسي.. وللحرمان العاطفي من دفء الأسرة والأمومة دور كبير في أن تكون الفتاة عرضة للقلق والاكتئاب، وربما يصل إلى الاضطرابات الجسدية، بسبب الكبت النفسي والانفعالات الزائدة.



شابة برتبة عانس!!!

منى السعيد الشريف
باحثة تربوية

كانت كل الأحاديث حولي عن تفوقي الدراسي وهمتي الفريدة في مساعدة والدتي في شؤون المنزل ومهارتي في الطبخ، حتى إن أمي كانت تتباهى بي في كل محفل وعند كل وليمة نعدها بالمنزل للضيوف من الأقارب والأحباب، واتسمت من بواكير شبابي بسداد الرأي، فكان كل من بالبيت والعائلة يحرص دومًا على مشورتي في مجريات الأحداث وتلمس رأيي الشخصي، بل أذكر أن والدي لما كبرت صار يعمل لي ألف حساب عندما ينشب الشجار بينه وبين والدتي تقديرًا لشخصي واحترامًا لمشاعري، فهو يحاول أن يجذبني لصفه، ولا يصعد المشكلة لو تحاملت عليه ولمته على انفعاله، فلقد كنت ابنته الوحيدة وموضع فخره واعتزازه، وتوطدت الصداقة بيننا لما نجحت في الثانوية العامة، ودخلت كلية من كليات القمة التي تقاصرت قامات كثير من شباب العائلة والجيران عن الالتحاق بها، وفاتهم ما ظفرت أنا به بسبب درجة أو درجتين لا أكثر ولا أقل، وكان حتمًا عليهم لتدارك ما فات أن يدخلوا الجامعات الخاصة بلهيب أسعارها الذي يثقل كاهل أغنى الأسر.

كانت الدنيا كلها ملكي، وكنت أعيش بمعادلة واحدة «من جد وجد ومن زرع حصد» لكن مع دخولي في سن الزواج بدأت الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن.. حتى الآن لم يتقدم أحد لخطبتي، رغم أن رفيقاتي وقريباتي بدأن في دخول القفص الذهبي الواحدة تلو الأخرى، وانتبهت لأمور لم تخطر على بالي يومًا.. إني سمراء في مجتمع يعشق شبابه الشقراوات! والمجتمع يعاني من أزمة بطالة استعصت معها أمور الزواج وتكاليفه من شقة ووظيفة ومهر وميزانية تثقل كاهل أي شاب حديث العهد بمسؤوليات الحياة.

جرت السنون سراعًا، ودخلت على أعتاب الثلاثين، وبدأت كلمة «عانس» ترن في أذني وترد مرارًا على خاطري.. معقولة أنا عانس!..

يا إلهي.. بأي ذنب وجريرة؟ وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل أجدني فريسة مستباحة في المجتمع لأني بدون رجل، ووصل الأمر إلى تخوف بعض المتزوجات مني على أزواجهن! إن الأرض تكاد تمور من تحت قدمي، وأوشك أن أفقد توازني واستقراري النفسي الذي كنت أتمتع به.

لقد بدأت المعادلة التي كنت أعيش

بها تهتز، وأيقنت مع تجارب الأيام أنه ليس بحتم أن كل من جد وجد وليس كل من زرع حصد! وكم في السجن من مظاليم، وكم في الحياة من مساكين بلا جريرة تذكر، ولا خطيئة تؤثر، ولكنها الأقدار.

كانت مناسبات الزواج السعيدة من حولي أشبه بمأتم شخصي يذكرني بزوجي وفقيدي الذي لم يأت، وكانت تهنئة «عقبالك» كسكين يغرز في قلبي ووجداني، وأتمنى ساعتها لو انشقت الأرض وابتلعتني من شدة الإحراج الذي أحاول أن أدفعه بكل ما أوتيت من إرادة وعزيمة كي لا يبدو على قسمات وجهي.

كنت أحس بالغربة عندما أرى زوجة قد تعلقت بيد زوجها في الطريق وأمامهما طفلين جميلين أشبه بالعصفورين، وكنت كالصماء بين السيدات اللاتي يتحدثن عن أزواجهن وغيرتهم أو غضبهم أو حنانهم.

إن العنوسة عالم غريب دخلته رغمًا عن أنفي، وأغرب ما فيها أنني ما تصورتها بحياتي يومًا، ولا تخيلت أنني سأعيش كالمتهمة تلاحقني نظرات الشفقة حينًا، ونظرات التهمة حينًا آخر.

ولقد دفعني الفضول لأن أغوص في هذا العالم، وأتعرف على مكنوناته وأسراره، فوجدت أن المختصين قالوا: إن العانس قد تعاني من بعض السلوكات النفسية الغريبة كالانطوائية، أو الميل للعدوانية نحو النساء المتزوجات كنوع من التعبير عن الحقد عليهن، أو التعلق الزائد بالوالد (عقدة الكترا) لإرواء الحاجة بوجود رجل في حياتها، أو السخط على المجتمع عامة وأفراد الأسرة خاصة، وبالذات لو كان قرار الأب أو الأم عائقًا في تزويجها كغلاء المهر أو الانتماء القبلي أو تزويج الكبرى أولًا، أو غيرها من الآفات الاجتماعية التي توقع البنت المسكينة في شراك العنوسة بلا ذنب ولا جريرة.

وقالوا أيضًا: إن العانس تكون غارقة في أحلام اليقظة عن فتى الأحلام الذي تصبو نفسها إليه، مع النزعة التشاؤمية وفقدان المعنى من الحياة.

المؤمن يعيش بين قضاء وقدر ومخطوط قلم سبق

أما الفقهاء المسلمون فتناولوا الآفات الاجتماعية التي تعرقل الزيجات بما يعرف باسم «العضل»، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾ (النساء آية ١٩).

والطامة الكبرى «الطفولة» التي حرمت منها، ولفظة «أمي» التي طالما حلمت بها.. إن حبي للأطفال لا يصفه وصف ولا يحده حد، وكم كنت أتمنى أن يكون لي طفل أحتضنه وأشمه وأقبله وألاعبه، وأملأ به دنياي، لكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

لكني اليوم ومع طول خبرة في أيام العنوسة أدركت أنني كنت خاطئة بهذه المشاعر المبالغ فيها، إنني اليوم أكثر نضجًا مما مضى، وأكثر تفهمًا لطبيعة الحياة، فبعد استيعاب الصدمة وهدوء المشاعر والتفكير بواقعية وعقلانية أكثر تبين لي أن العنوسة لا تعدو كونها قدرًا وابتلاء ومحنة كسائر المحن، ومن منا استقامت له الحياة دومًا على دروب السعادة والهناء، إن لكل منا أزمته ومحنته مع اختلاف الصور والأشكال لا أكثر ولا أقل.

فكم من معاق أغلى أمانيه أن يرد الله له صحته، وكم من فقير تمنى أن يسد الله فاقته، وكم من سجين تمنى أن يفك الله حبسه، وكم من خائف تمنى أن يؤمن الله روعته، وكم من غريب تمنى أن ينهي الله غربته، وكم من مدين وتعيس وجاهل ومكروب ومأزوم.. والقائمة تطول.

وهل كل من تزوج سعيد؟! حتى لو اختار الزوجة الجميلة وعنده الطفل البريء والمسكن الهنيء.. كلا وألف كلا، فأين الزوج البخيل والشكاك وضعيف الشخصية والفاشل والمدمن والسلبي والحقود والغيور؟ وأين الزوجة الثرثارة وغير النظيفة والمتهورة والغبية والخائنة؟ أليست كلها مشكلات تعشش في القفص الذهبي؟ أليس من الأزواج من يتحسر على أيام الشباب والانطلاق، ويسخط على أيام زواجه وعظيم مسؤولياته؟ أليس من الزوجات من تصبح كل يوم على أمل أن يقبض الله روح زوجها لتستريح من ضربه المبرح أو إدمانه أو نزواته أو ألفاظه الجارحة وتصرفاته الخشنة؟!

إن المؤمن يعيش بين قضاء وقدر ووفق مخطوط قلم سبق، ومن العباد من إن أغناه الله فسد حاله، ومنهم من إن أفقره الله صلح حاله، ورسالة الإنسان الجوهرية ليست في الزواج وحسب، بل إن رسالته في أن يقيم العبودية، والصبر على الأقدار أحد مقاماتها، بل من أشرفها على الإطلاق، وهذا ما يميز المؤمن عن غيره، حتى صار مضرب المثل ومكمن العجب، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، فسبحان من يبتلي عباده ليكرمهم ويعظم أجرهم، فتلمس عوض الجليل والنعيم المقيم يهون كل بلاء وييسر كل عسير، ومن يرد الله به خيرًا يصب منه، ويبتلى المرء على قدر دينه.

أستاذة علم النفس في جامعة الكويت نورية الخرافي:

مطلوب مقرر تربوي لمواجهة الطلاق



● الحوار منشور في جريدة القبس الكويتية

أكدت د.نورية الخرافي الأستاذ المساعد في قسم علم النفس التربوي بكلية التربية في جامعة الكويت أن أسبابا عديدة وراء زيادة معدلات الطلاق في المجتمع الكويتي، ومن أبرز تلك الأسباب التي عزت إليها هذا الارتفاع غياب الوعي بالواجبات ومعرفة حقوق الطرف الآخر، ناهيك عن الجهل الديني في أمور الطلاق العديدة.

وأضافت الخرافي في لقاء مع «صحيفة القبس الكويتية» أن هناك العديد من الشباب لا يفضلون التقيد بسبب الزواج، بل يفضلون السفر على الزواج أحيانا، وقالت إن بعض الشباب يرسمون تصورات معينة للزواج ثم يصدمون بأنها لا تتحقق فيلجأون إلى الطلاق، ناهيك عن جعل الزواج وسيلة أو تقليدا مما يتسبب في فشله.

وطالبت الخرافي وزارة العدل بضرورة إدخال المقبلين على الزواج في دورات تدريبية تثقيفية لمعرفة جميع الحقوق والواجبات، بالإضافة إلى إدخال التربية الأسرية في مناهج التربية، ابتداء من رياض الأطفال، لغرس الثقافة الزوجية ومعرفة جميع الأساليب التي تؤدي لحياة زوجية ناجحة.

وشددت الخرافي على أن تدخل الأهل في حياة الزوجين يعتبر هادما للعلاقة أحيانا، وعلى الزوجين حل خلافاتهما بينهما عندما يكون تدخل الأهل سلبيا، إضافة إلى عدم انحياز الأهل لأبنائهم حتى إن كانوا على خطأ.

وفيما يلي نص اللقاء:

• برأيك ما سبب تزايد حالات الطلاق في البلاد؟

ـ الأسباب كثيرة ومتعددة.. فعلى حين أن المرء يتزوج بهدف تكوين أسرة للعيش والاستقرار، فإن الناس قبل الزواج ينقسمون إلى فئات، فئة تتسرع في الزواج وتتخذ القرار بلا دراسة، مع أنه مشروع حياة، ويفترض أن أي مشروع في الدنيا يخضع لدراسة جدوى، وهناك من يتزوجون وفي بالهم توقعات لا تتحقق فيصدمون بسببها، لأن الزواج لا يسير بحسب توقعاتهم، وفي حالة كهذه إما أن يتأقلم الزوجان بالزواج أو العكس، وخاصة في السنة الأولى.. وعليه فإنه ينبغي أن يكون هناك شفافية ووضوح قبل الزواج ليأتي الزواج على بصيرة من الأمر، وهناك فئة لا تعتبر الزواج هدفا بحد ذاته، بل هو في نظرها نوع من التقاليد أو المحاكاة المجتمعية، أو التخلص من بعض المشكلات، فيصبح الزواج وسيلة لشيء آخر وليس هدفا بحد ذاته، مما يتسبب في فشله.

• هل أدى تغير الحياة ونمط الزواج إلى زيادة عدد حالات الطلاق؟

ـ الزواج في السابق كان يتم بين عائلتين ولايزال كذلك لدى البعض، لكن في الوقت الحالي، كثير ممن يقبلون على الزواج لهم رأي مؤثر، فقد تفرض البنت أو يفرض الشاب شريكه على أسرته فرضا دون أدنى قناعة، فتولد من هذه النقطة الكثير من المشاكل، فضلا عن اقتحام وسائل التكنولوجيا لحياتنا وإساءة استخدامها، كما هو الحال مع المواقع الاجتماعية مثل فيسبوك وتويتر التي خلقت الكثير من الإشكالات وسط الأسر، حيث أصبحت هذه الوسائل مصدرا للتعاسة للعديد من المتزوجين، كذلك فإن البقاء على علاقات قديمة أيضا يعتبر سببا في ظهور المشاكل بين الزوجين.

• باعتقادك هل تؤدي الجهات المعنية دورها في الحد من ظاهرة الطلاق؟

ـ الطلاق تقع مسؤوليته على الزوجين بالدرجة الأولى، وعلى تفاعلهما فيما بينهما، وعلى مدى النضج الذي وصلا إليه، لأنه من الممكن أن يحول أي خلاف من خلاف هادم إلى خلاف بناء، فالتثقيف في المهارات السلوكية مطلب ضروري لتقوية العلاقات.. والوسائل موجودة، ومن المفترض أن يتثقف الزوجان لتنمية علاقة كل منهما مع الطرف الآخر، بما في ذلك التثقيف الجنسي، والإعداد النفسي للحياة الزوجية للجنسين، ومعرفة الصح والخطأ والواقع، ولا يختلف اثنان على أن للمؤسسات دورا لابد منه، ونتمنى أن نرى دورات تثقيفية قبل الزواج، ناهيك عن تضمين منهج العلاقات الأسرية من رياض الأطفال لتعليم الأطفال منذ الصغر احترام الآخر، ويكون إلزاميا على جميع المراحل، ناهيك عن اشتمال مقرر التربية الإسلامية على حسن العشرة والمعاملة الزوجية، بالإضافة إلى وجود مقرر إجباري في الجامعة لتوعيتهم بعكس المقرر الموجود الذي يعتبر اختياريا، فالزواج إن كان ناجحا تنتعش صحة الإنسان، فلابد أن نرى تعاونا من الجهات المعنية، والتربية أقرت مقررا في السابق على الإناث فقط، وكأن الذكور ليس لديهم ثقافة أسرية، علما بأن هذا المقرر جرى إلغاؤه، ونطالب أن نرى منهجا شاملا للجنسين لكي نخرج بجيل واع بواجباته الأسرية.

• هل لديكم دراسات أو توصيات لتوعية الشباب ومواجهة ظاهرة الطلاق؟

ـ هناك دراسات عديدة توصي بضرورة تثقيف الشباب المقبلين على الزواج، وإقرار دورة تدريبية من قبل وزارة العدل تعتبر كالفحص قبل الزواج، ويقدم كل مقبل على الزواج من الجنسين شهادة بهذه الدورات، لمعرفة حقوق وواجبات الزوجين تجاه بعضهما البعض، لتخريج أجيال متماسكة ومتفاهمة، كما أن هذه الدورات يجب أن تشمل حتى العلاقات بعد الطلاق، والواجبات وغيرها، ومستويات وأشكال الزواج، والحقوق المترتبة بعد الطلاق.

• هل الأجيال الشابة أكثر استهتارا بالكيان الأسري ومن ثم تستسهل الطلاق؟

ـ يوجد شباب كثيرون زواجهم ناجح، لكنّ المطلقين هم الظاهرون على سطح اهتماماتنا دائما، ولدينا شباب ناجح ولديه القدرة على تحمل المسؤولية، وهناك شباب ينعمون بزيجات كثيرة ناجحة.

• الزواج المبكر.. هل له علاقة بارتفاع معدلات الطلاق؟

ـ الزواج المبكر من سن ١٧ للولد و١٥ للبنت، والعمر العقلي أهم من العمر الزمني، والبنت الواعية والمهتمة بالمسؤولية ستنعم بعلاقة زوجية ناجحة، وكلما كان الإنسان ناضجا كان ناجحا في زواجه، وكلما كان طفلا في تفكيره سيفشل في زواجه، وأي إنسان عندما يكون مدركا لواجبات وحقوق الزواج ستكون علاقاته ناجحة بعيدة عن الفشل.

الأسرة القدوة

رشيد ناجي الحسن
باحث في وزارة الأوقاف الكويتية



الأولاد ثمار القلوب وعماد الخطوب، طفل يملأ العين قرة والقلب مسرة، محروس من العيون أن تصيبه، ومصون من الألسن أن تعيبه.
ونحن الآباءَ والمربين كثيرا ما نغفل عن هذا، بل ونجهل أهمية القدوة في حياة الفرد والمجتمع، فلا نراقب أفعالنا، ولا تصرفاتنا، ولا ننظم سلوكياتنا، وخاصة أمام من نقوم بتربيتهم، وإعدادهم، فلرب تصرف عابر غير مسؤول يودي بالعملية التربوية برمتها إلى الهاوية ... ويكون الثمن باهظا في أغلب الأحايين، ولات حين مناص.
لذا يتوجب على كل أب وأم أن يعلما بأن جميع التصرفات الصادرة عنهما تنعكس كالمرآة في طفلهما الصغير.
وبشكل خاص فإن الطفلة دائمًا ما تكون متتبعة لكل تحركات وتصرفات أمها، وتبدأ فعلا بتقليدها في حركاتها، وحتى في أسلوب تعاملها مع الآخرين، وكذلك فإن الابن يقلد والده في كل صغيرة وكبيرة. وبما أن شخصية الطفل تكتمل وتتبلور عند سنته الثالثة، فيجب أن يمد الأبوان طفلهما في هذه المرحلة بالذات بكل ما هو جيد من القيم والأخلاق.
وبحسب ما أكدته الأبحاث العلمية من أن سلوك الأبوين يؤثر في أبنائهما أكثر من كلامهما، فيجب أن يفكر الأبوان أكثر فيما يفعلانه لأطفالهما، من خلال سلوكياتهما وتصرفاتهما.
فالطفل منذ الولادة يبدأ في الملاحظة والتعلم والاكتساب من والديه، وغالبا لا يؤثر كلام الأبوين كثيرا في سلوك الطفل وتصرفاته، إن لم يكن الأبوان يفعلان ما ينصحان به الطفل.
كما أكدت الإحصائيات بأنه عندما يكون الأبوان نموذجا إيجابيا لأطفالهما، فهذا سيساعدهم على

لنكن أكثر جدية في بناء الأجيال ولننظر في مرآة ذواتنا أيها نعمل وأيها نقول

الاختيارات المناسبة في حياتهم، وهم غالبا ما يكونون متفوقين في دراستهم، ويتمتعون بتقديرهم لأنفسهم أكثر من غيرهم.
والجدير بالذكر أن الأم تلعب دورا كبيرا ومهما في تربية الطفل أكثر من الأب، بحكم أنها الأكثر تواجدا واحتكاكا معه، لهذا يتوجب عليها أن تكون نموذجا متحركا في أرجاء المنزل، تترجم كل ما تعلمته من الحياة إلى سلوك مادي يلمسه ويتحسسه طفلها، وأن تعكس حقيقة السلوك الذي تنادي به، لكي لا يقع الطفل في تناقضات خطيرة، فيختلط عليه الأمر، وتلتبس عليه الحقائق والمفاهيم، فلا يستطيع وقتها، بل لن يعود قادرا على التمييز بين الزائف والصحيح.
ولذلك قالوا: ما من مجتمع راق استطاع أن يصل إلى تحقيق المثل العليا إلا اشتركت في تحقيقه ورفع صرحه أم عظيمة)، وقالوا: (أم صالحة خير من مئة أستاذ).
لقد اهتم دين الإسلام بالإنسان صغيره وكبيره، ذكره وأنثاه، حفظ حقوقه، ورعى شؤونه من بدئه إلى منتهاه، اهتم به اهتماما بالغا من أجل إسعاده وإزالة مظاهر الظلم عنه وإبعاد ألوان الشقاء من طريقه.
ولقد امتن الله على عباده بنعمة الذرية، فرزقهم من أصلابهم بنين وحفدة يأتمرون بأمرهم، ويسعون في مرضاتهم، ويشدون بهم ظهورهم، ويحملون ذكرهم من بعدهم. ومن أعظم الدلائل على عظمة نعمة الذرية: حال من حرمها، فجعله الله عقيما لا يولد له فتراه يهرع إلى هنا وإلى هناك، يطلب علاجا، أو رقية لعله يرزق ولدا يحمل عنه بعض أعباء الحياة، ويمد في ذكره بعد الممات.
ومع أن نعمة الذرية نعمة عظيمة، إلا أنها فتنة كبيرة، واختبار عسير، ومسؤولية شاقة ، فكم من أب عقه أولاده فعصوه، وأذاقوه مرارة الحرمان، وعلقم الصبر، حتى يئس من الحياة، وتمنى أنه لم يتزوج، ولم يولد له، وتمنى لو أنه وضع جهد الرعاية والعناية في بهيمة، خير له من ولد لصلبه.
وكم من أب ساقته عواطف الأولاد والزوجة، بعيدا عن مسلك الأبرار، فألحوا عليه بالانحراف، وزينوا له الإنفاق فيما حرم الله، وجلب المال من حلال وحرام، وقعدوا به عن القيام بواجب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
فأصبح الأب يتأثر ولا يؤثر، ويقاد ولا يقود، ويأمر فيُعصى، في حين كان واجبه أن يكون في بيته قائدا لا مقودا، وسيدا لا مسودا؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم: (الرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول)، فكيف يكون دور الأب في بيته؟ وهل هو تنفيذ الأوامر، وإشباع الشهوات، وتحقيق المطالب؟ فكثيرا ما يعتذر الآباء عندما يُنكر عليهم تصرف معين، كأن يُنكر عليهم مثلا شراء شيء حرمه الله، أو أخذ أولادهم وأهلهم إلى مكان محرم، فيقول الأب معتذرا: «ماذا أفعل؟ الأولاد يريدون، وأم الأولاد تريد»، وكأنه لا

سلطان له، ولا كيان، ولا إرادة.
إن المسؤولية الكبرى التي حملها الله الآباء: لا مجال لأن يتفلتوا منها، أو أن يتغافلوا عنها، وقد وصف الله حال المفرطين في مسؤولياتهم تجاه أنفسهم وأهليهم فقال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

- وإن المتأمل في أسباب انحراف كثير من الشباب وضياعهم يجد أن أعظم هذه الأسباب وأخطرها: فقدان القدوة الصالحة في الآباء والمربين. إن التربية بالقدوة تعد من أهم وسائل التربية، بل هي أهم وسائلها على الإطلاق، وذلك لوجود تلك الغريزة الملحة في كيان الإنسان، تدفعه نحو التقليد والمحاكاة. والأولاد الصغار أشد تأثرا بالقدوة من الكبار. فهم يجدون في آبائهم المثل الأعلى، والنبراس الذي يهتدون به. فالأطفال الصغار يعتقدون أن كل ما يفعله الكبار، ويمارسونه صحيح فهم لا يدركون - في أول الأمر- الصواب من الخطأ، ولا يميزون بين الخير والشر، إنما هم ينظرون بأعين آبائهم ويحاكون طريقتهم في الحياة.

لهذا تجد في الغالب أن الأولاد الذين لا يصلون نشأوا في بيوت لا تقام فيها الصلاة، وكذلك الأولاد الذين يدخنون، لابد أنهم يقتدون بالمدخنين في البيوت، وهكذا تجد أن النشء ثمارُ تلك البيوت. إن الخطر على النشء من فقدان القدوة في البيت لا يكمن في كونهم ينشأون متلبسين ببعض الانحرافات الأخلاقية، إنما الخطر يحصل إذا كبِر هؤلاء الصغار، وعقلوا حقائق الأمور، وعلموا واقع المربين، وأن ما كانوا يسمعونه من عبارات الفضيلة، ونصائح، وأمر بحسن الخلق والبر، إنما هي عبارات جوفاء، لا واقع لها، ولا تطبيق، فإن هذا الصنف من الأطفال في العادة ينحرف انحرافا شديدا، ويرفض المجتمع، وتقاليده، وعاداته، وما فيه من خير وشر، ويحاول أن يبحث في مجتمعات أخرى عن قدوات، ورموز يقتدي بها في حياته الجديدة. وقد ثبت أن الأطفال الذين ينشأون في أسر متناقضة القيم والأخلاق، وتظهر فيها علامات النفاق، ومخالفة الأقوال للأعمال، فإن هذا الصنف من الأطفال يصبحون إذا كبِروا من أكثرِ الناس بعدا عن الالتزام بالآدابِ والأخلاق الإسلامية، وذلك لعمق الأثر الذي أوجده ذلك التناقض السلوكي في نفوسهم.

إن الناظر في أوضاع المجتمعات الإسلامية اليوم، يجد أن عقيدتنا، وأخلاقنا، وقيمنا تكاد تكون في ناحية، وحياتنا العملية الواقعية في ناحية أخرى، نقيضان لا يلتقيان، فكيف ينشأ مع هذا الوضع أطفال صالحون يرون ويشاهدون المتناقضات في حياة الأمة. إنهم مهما سمعوا من المربين، من عبارات الخير والفضيلة، والأخلاق الحميدة، فإنهم لن يحملوا في داخل أنفسهم إلا الصورة التي يرونها أمامهم، من أنواع وأنماط السلوك، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وقد أدرك السلف رضوان الله عليهم هذه المعاني الخطيرة، فهذا عمرو بن عتبة، ينصح معلم ولده فيقول له: « ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت ».

كثيرا ما يعتذر الآباء بالفساد الاجتماعي، ويحمّلون المجتمع فساد أولادهم. متخلين بذلك عن دورهم وواجبهم التربوي، إن للمجتمع ومؤسساته المختلفة دورا في التوجيه والتأثير ولا شك في هذا، ولكن ليعلم الآباء، ويوقنوا، أن أثر البيت الصالح، أبلغ وأقوى من كل أثر، فإن ما ينقشه الآباء في نفوس أولادهم من معاني الخير والفضيلة، بالعبارات الصادقة الحارة، والسلوك القويم، مع القدوة الصالحة، له أثره القوي الذي يبقى مع الولد، حتى وإن ظهر على الولد بعض انحراف في أول الأمر، بسبب ضغط المجتمع المنحرف، فإنه غالبا ما يرجع إلى الخير، وتكون عاقبته إلى الصلاح، فما كان الله ليضيع جهد الأب الصادق، الذي جاهد في سبيل إصلاح ولده واستقامته. ولو افترضنا ضياع الولد وانحرافه، مع ما بذله الأب في سبيل إصلاحه فإنه لا لوم على الأب، وقد أخذ بالأسباب، فإن لله في ذلك حكمة هو أعلم بها، وللأب الأجر والمثوبة على صلاح نيته، وبذل جهده.

فلنكن أكثر اهتماما، ولنراقب أنفسنا، ولنحاسبها قبل أن نحاسب. ولنكن أكثر جدية في بناء الأجيال، ولننظر في مرآة ذواتنا، أيها نعمل، وأيها نقول، وأيها نقدم لأولادنا وتلامذتنا ومتعلمينا، فهم الأمانة بين أيدينا، وهم الصفحات التي نخط عليها مستقبل الأمة، وهم الرجال الذين نتطلع إليهم لإعادة مجد الأمة .ولنكن خير قدوة لأبنائنا، يتشرفون بنا ونعتز بهم . فيبنون فوق بنياننا على أسس راسخة، فلا يتداعى البنيان، ولا تموت الأمة، ولا ينقطع الأمل، ولتكن مخافة الله نصب أعيننا وجل مبتغانا، ولنكن القدوة الحسنة، ولنكن منسجمين مع ذواتنا، مؤتلفين بين ما نقول وما نفعل، والله المستعان.



صدرت قبل ٩ سنوات وتناولت كل ما يخص الشأن النسوي في العالم:

موسوعة المرأة عبر العصور

علاء عبدالفتاح

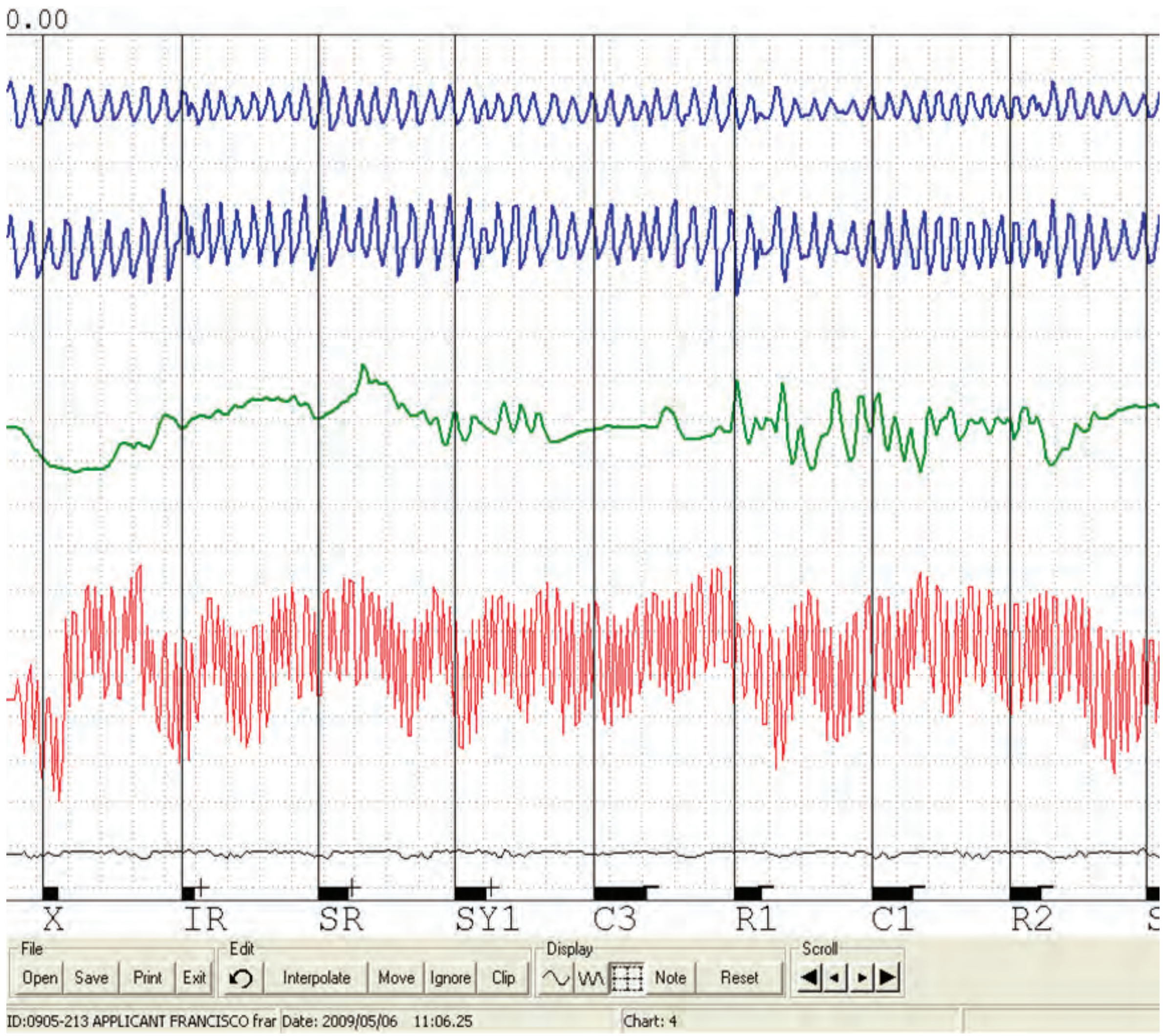
في موسوعة «المرأة عبر العصور» قدمت وزارة الثقافة المصرية -وتحديدا الهيئة العامة للكتاب- عشرة أجزاء من القطع المتوسط، تتضمن كل ما يخطر على البال ويخص المرأة في دول العالم.

كان ذلك قبل ٩ سنوات برئاسة الكاتب أنيس منصور، وتحرير ٢٤ كاتبا وكاتبة، وترجمة ١٥ آخرين.

تناولت الموسوعة في الجزء العاشر منها كشافا لمحتوياتها، ومن هذه المحتويات ما يخص المرأة في الديانات من تعدد الزوجات في الإسلام وتكريم المرأة ومساواتها مع الرجل، ثم تنظيم الإنجاب والحجاب، ثم ما يتعلق بأمهات المؤمنين وراويات الحديث.. وحق المرأة في القضاء وشهادتها، وعملها في الطب والتعليم ومكانتها، ونفس الأمر في الدين المسيحي والديانات الأخرى.

تعرضت الموسوعة أيضًا للعلوم الاجتماعية ودور المرأة فيها من حيث الاتحادات النسائية والبرلمان، ثم تعليم الفتيات في مختلف بلدان العالم، كما تعرضت للتمييز ضد المرأة بين الموروث الثقافي والقيم الإيجابية، ولم يفت القائمين على الموسوعة الحديث عن المرأة في الأمثال الشعبية والحكم والأقوال المأثورة.. إلى آخر الموضوعات.

وتعد موسوعة المرأة عبر العصور التي تقع في نحو ٢٥٠٠ صفحة من الأعمال الرائدة التي لا غنى عنها للباحث في الشأن النسوي، والعجيب أنها تناولت شخصيات نسائية معاصرة عابرة، مثل نوال مصطفى، الصحفية المصرية (مواليد ١٩٥٥)، صعودا إلى حائزات نوبل في مختلف الأفرع، إلى الشخصيات التاريخية مثل نسيبة بنت كعب الأنصاري، إلى الملكة نفرتيتي (١٣٦٩ قبل الميلاد).



تقنيات كشف الكذب في تشريع الإجراءات الجنائية الإسلامي

د. رضا عبد الحكيم
أستاذ القانون الجنائي

عرفت شريعتنا، إلى جوار نظامها العقابي، نظاما إجرائيا. واللذان يشكلان معا السياسة الجنائية الإسلامية، والنظام العقابي في الشريعة لا يعرف اجتهادا في الحدود الشرعية والقصاص والدية، أما في التعازير فقد شهد الواقع اجتهادات، تطلع بالتجريم والعقاب خارج حدود النصوص الشرعية، استجابة لضرورات الضبط الاجتماعي والجنائي لمواجهة المستجدات الإجرامية، مما أكسب التشريع الجنائي الإسلامي مرونة لا يعرفها ولن يصل إليها أي قانون وضعي لاتيني أو أنجلوسكسوني أو اشتراكي أو شيوعي شرقي أو غربي... أما النظام الإجرائي فقدرت له المرونة المتسعة، سيرا مع حركة التطور الحضاري، التي فرضت تعديلات جمة في الأنظمة القضائية، ذلك أن التنظيم القضائي الذي أسس زمن الرسالة ولحقه التعديل في العهود التالية قد شهد تطويرا في نظم السياسة والحكم والإدارة.

في السياسة الجنائية المعاصرة، ينظم قانون الإجراءات الجنائية التحقيق الجنائي، والأخير يتمثل في مجموعة أعمال تباشر من خلال جهاز معاون لقضاء الحكم، مخول له سلطة جمع الأدلة والقرائن والبراهين، متى وقعت الجريمة. وذلك في حدود ضوابط ينص عليها القانون منعا للافتئات على الحريات الشخصية.

في مواد جمع الأدلة، أدى التطور الحضاري والتقدم العلمي إلى استخدام سلطات التحقيق الجنائي في بعض الدول تقنيات متنوعة عدة، ولعل أشهرها، جهاز كشف الكذب، بغرض استجلاء كذب أو صدق المتهمين أو الشهود، فيما يدلون به من أقوال أثناء التحقيق الجنائي.

والدراسة تناقش مدى شرعية استخدام تقنيات كشف الكذب في التحقيقات الجنائية. ذلك أن التشريع الإجرائي الإسلامي، لا يعتد بالأدلة الناشئة عن استخدام وسائل الإكراه المادية والمعنوية من جانب سلطات التحقيق الجنائية.

تقنيات كشف الكذب

ثمة انفعالات نفسية تصاحب الجاني عند الاشتباه في أمره، فمنذ ٣٠٠ سنة قبل الميلاد، كان أرسطو يجس نبض الشخص عند استجوابه، فإذا بقي نبضه دون تغيير كان صادقا، وإن أسرع دل ذلك على كذبه، وفي الصين منذ آلاف السنين كانوا يطالبون المتهم بأن يلوك في فمه حفنة من الأرز النّيِّئ، ثم يلفظها، فإن وجد الأرز رطبا كان المتهم بريئا، أما إذا كان جافا فهو مذنب. وقد تنوعت الأساليب التي كان يلجأ إليها المحققون في الجرائم، في تلك الأزمنة الغابرة، وكان من ضمن أولئك عرب الجاهلية، الذين كان لهم تجربة في وضع الخبز الناشف (القديد)، لاستجلاء الكذب من الصدق كما فعل الصينيون وشعوب الأمم القديمة... في العام ١٨٩٥ م توصل العالم لومبروزو إلى وجود علاقة بين ضغط الدم، وتغيير نبض القلب، حينما كان يجري تجاربه على المجرمين، بهدف الكشف عن مدى الكذب والخداع عند استجوابهم.

مع مطلع القرن العشرين، ابتكر عالم النفس والمخترع «مارستون» آلة البوليجراف Polygraph التي تقيس ضغط الدم والنبض والناقلية الكهربائية للجلد وإشارات فيزيولوجية أخرى تستطيع تحديد ما إذا كان الشخص كاذبا. وحاليا أدخلت تطورات عدة تتمثل في ابتداع طرق تصوير للدماغ، تستهدف كشف حالات الذهن التي تعكس سلوكا صادقا. وأحدث التقنيات العاملة في هذا المجال، تقنية تعرف بـ«الرنين المغناطيسي الوظيفي»، حيث تمارس من خلال جهاز الـFMRI، المتخصص في كشف الكذب، باستخدام لوغاريتمية تحليلية معقدة تدعى مصنف الأنماط patterns classifier الباحثة في ذاكرة الإنسان، وتلك من ابتكار الباحثين في جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة. كما قام الباحثون في جامعة هارفارد العام ٢٠٠٩م بابتداع أسلوب مسح الدماغ بالحصول على صور توضح نشاط بعض مناطق الدماغ، التي تكشف عن مدى السلوك المخادع، بقياس الانفعال وصداه في قرارات الشخص.

حديثا قبل القضاء الأميركي بولاية تينسي، احتجاج هيئة الدفاع عن أحد المتهمين، والذي قدم تقريرا معتمدا من شركة متخصصة في استخدام جهاز الـFMRI فنظر القضاء في هذا التقرير، واعتبر أن نتيجة التقرير هي مجرد قرينة ولا ترقى إلى مستوى الدليل. وفي العام ٢٠١٠م سمح القضاء بولاية إيلينوي باستخدام الجهازFMRI خلال مرحلة المحاكمة في جناية قتل.. يذكر أن هناك شركتين رئيسيتين متخصصتين في أجهزة كشف الكذب عن طريق التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي، هما شركة No lie mri في كاليفورنيا و«سيفوس» Cephos في ولاية ماساشوستس.

بالنسبة لأسلوب المحقق في كشف الكذب، فإنه يوجه للمتهم عدة أسئلة للإجابة عنها، في الوقت الذي يقوم الجهاز بتسجيل الانفعالات التي تطرأ على المتهم أثناء الإجابة. حيث يعد المحقق بصفة مسبقة قائمة بالأسئلة، ويشترط على المتهم أن تكون إجابته بكلمة «نعم» أو «لا» وتبدأ الأسئلة بتوجيه أسئلة لا علاقة لها بالجريمة. وبذلك تكون الإجابات طبيعية والانفعالات تبعا لذلك طبيعية... ويستمر المحقق في توجيه أسئلته بشكل عادي، ثم ينقلب فجأة بتوجيه سؤال يتصل بالجريمة... ومن بعد يعود إلى أسئلة عادية، ثم التحول إلى سؤال في الموضوع. وهذا ما يطلق عليه Sandwich guestions. ومن خلال سيناريوهات الأسئلة والأجوبة، يكون الجهاز قد سجل الانفعالات، التي يأخذها المحقق بعين الاعتبار في توكيد الكذب أو الصدق.

تقييم نتائج الجهاز

يعتمد المحقق على معيار الانفعال والاضطراب والقلق، عند تقييم مدى كذب الشخص، بيد أن الانفعال في كثير من الأحيان، قد يصيب البريء، الأمر الذي يشكك في الأخذ بنتيجة استخدام الجهاز، ذلك أن هذا البريء قد ينتابه الخوف من الظلم أو من الشبهات أو الخشية من المجهول، مما يؤدي إلى انفعاله، شأنه شأن الكاذب، مما يلقي بظلال من الشك حول الاعتماد على معيار الانفعال، الذي يرصده الجهاز. إذ كيف يمكن التمييز بين انفعال الكذاب المتورط في الجريمة، وانفعال البريء الخائف؟!. إن طبيعة الشخص ذاته، ولأسباب راجعة إليه قد تلعب دورا فاعلا في أحداث الانفعال أو الاضطراب

أو حتى البلادة والبرود، كما في معاناة الشخص من اضطرابات عقلية أو عصبية أو لمرض القلب وارتفاع ضغط الدم، فيحدث الانفعال أو لا يحدث لمجرد هذه الأسباب، وليس لمجرد الموقف المراد تقييم انفعاله فيه. وبالتالي تكون نتائج فحص الجهاز مضللة ولا يمكن الاعتماد عليها.

أضف إلى هذا، أن طبيعة الاستجواب أثناء التحقيقات الطويلة وحتى مع الشخص الصحيح بدنيا ونفسيا وعصبيا تهيئ محركات الانفعال لديه، نتيجة القلق، أو الخوف مثلا من أن يفتضح أمر الشخص، وربما يكون متهما في قضية أخرى، أو على صلة بموقع الجريمة أو الجاني، ولكن لا دخل له في الواقعة الإجرامية مما يجعل من استخدام الجهاز آلية غير حاسمة.

ثم إن هناك أسبابا تجعل الشخص ذاته من النوع الذي لا يستجيب لأي مثير، كما الشخص الذي يستوي لديه انكشاف أمره أو لا، والشخص الذي لديه قدرة على التحكم الشعوري، أو ذلك الشخص الواقع تحت تأثير الصدمة أو تأثير تدفق الأدرنالين، أو ذلك الشخص الذي يرى في الجريمة تبريرا طبيعيا كمن يأخذ بالثأر، فالغبطة تأخذ مكان الانفعال لديه... وهكذا.

الحقوق الشرعية للمتهم

أعطت الشريعة المتهم حقوقا تعد محصلة الموازنة بين صيانة حقوقه الأساسية في سلامة جسده وعصمة دمه وحرماته وأسراره من ناحية، وحق المجتمع الإسلامي في العقاب على كل من يخل بأمن المجتمع وسلامة أفراده في أعراضهم وأموالهم ودمائهم... ولما كان الأصل في الإنسان عصمة الدم والمال، وكانت الجريمة أمرا شاذا في المجتمع، لذا يجب على من يدعي أو يتهم الغير بجريمة ما أن يثبت دعواه بالأدلة اللازمة لإثبات الجريمة.. وقبل إثبات الدعوى يبقى الأمر مجرد اتهام قد يكون قويا إذا اقترنت به قرائن قوية وقد يكون ضعيفا إذا أحاطت به قرائن ضعيفة. وفي هذه المرحلة تثبت للمتهم حقوق، وهي: حفظ الكرامة، وحق الدفاع، وللفقهاء أقوال في مسألة الإكراه على الكلام، منها: وجوب إحاطة المتهم علما بالتهمة الموجهة إليه، والمحافظة على أسرار التحقيق، وعدم أخذ المتهم بالشك، والمساواة بين جميع المتهمين، وتعويض المتهم عن الأضرار التي تحيق به جراء الدعاوى الكاذبة، كما نصت الشريعة على ضوابط معاملة المتهم في القبض أو الحبس، وأصول حمايته ضد الإهانة أو الإيذاء. وهكذا.

عند وقوع الجريمة، يتفق مع قواعد الشريعة، سرعة تدخل سلطات التحقيق لضبط الجريمة وأدلتها والجناة وعرضهم على قضاء الحكم، وهذه من وظائف الشرطة والحسبة، قال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٤). وقال ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وقال: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾(آل عمران: ١١٤).

إن سلطات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تمثل إجراءات قسرية، وتلك طبيعتها، التي تتفق مع الشريعة، والتي تستوعب «الضبط في ظل الشرع» قال تعالى ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾(طه: ١١٢- ١١٣).

وقال عز وجل ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٨). وعلى السلطات المختصة بالتحقيق الاحتياط في عدم تجاوز الشرع، واستخدام كل وسائل الكشف عن الحقيقة، بمراعاة أصول الإجراءات الجنائية في الشريعة، قال تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾(الحجرات: ٦).

ومن أهم المسائل الشرعية التي تتصل بموضوع تقانة كشف الكذب، من منطلق أن الأخيرة، تلجأ إليها سلطات التحقيق المهيمنة والمشرفة على كافة الإجراءات القسرية مسألة «الإكراه على الكلام»... فما هو حكم الشريعة في هذه المسألة؟

اختلف فقهاء الشريعة في هذه

المسألة، والراجح والله أعلم عدم جواز الإكراه على الكلام(١) خلافا، لما ذهب إليه بعض فقهاء الحنفية(٢)، وابن تيمية وابن القيم(٣)، حيث أجازوا الإكراه على الكلام بشروط.

ذكر أكثر أهل العلم على الإطلاق، أن إكراه المتهم على الإقرار بما اتهم به لا يجوز، وإن حصل منه إقرار فلا يعتد به ولا يكون وسيلة من وسائل الإثبات، وحجتهم في الذي ذهبوا إليه ما يلي:

أن قوما من الكلاعين(٤) سرق لهم متاع فاتهموا أناسا من الحاكة فأتوا النعمان بن بشير فحبسهم أياما ثم خلى سبيلهم، فأتوا النعمان فقالوا: خليت سبيلهم بغير ضرب ولا امتحان؟ فقال النعمان: إن شئتم أضربهم، فإن خرج متاعكم فذاك، وإلا أخذت من ظهوركم مثل ما أخذت من ظهورهم، فقالوا: هذا حكمك؟ فقال: هذا حكم الله وحكم رسوله.

قال عمر بن الخطاب(٥): ليس الرجل أمينا على نفسه إذا أجعته أو وثقته أو ضربته.

قال عراك بن مالك(٦): «أقبل رجلان من بني غفار حتى نزلا منزلا بضجنان من مياه المدينة وعندَها ناسٌ من غطفانَ معَهم ظهرٌ لهم فأصبحَ الغطفانيونَ قد أضلُّوا بعيرينِ من إبلِهم فاتَّهموا الغفاريينَ فأقبلوا إلى رسولِ الله ﷺ وذكروا أمرَهم فحبسَ أحدَ الغفارينَ، وقال للآخرِ: اذهبْ فالتمسْ فلم يكنْ إلا يسرًا حتى جاءَ بهما فقال النبيُّ ﷺ: لأحدِ الغفاريينَ حسبْتُ أنَّه المحبوسُ، استغفرْ لي فقال: غفرَ اللهُ لك يا رسولَ الله، فقال رسولُ الله ﷺ: ولكَ وقتلَكَ في سبيلِه، قالَ فقُتِلَ يومَ اليمامةِ».

كشف الكذب

إضافة إلى ما ذكر حول الشك في النتائج العملية المتحصلة من إخضاع المتهم لجهاز كشف الكذب، يعد

للمتهم قول ما شاء وللسلطات التحقيق دون استخدام جهاز كشف الكذب

استخدام مثل هذه التقنية ماسا بالحرية الذهنية للمتهم، لما يثيره من «اضطراب انفعالي» يجعل تحكمه في انفعالاته النفسية غير خاضع تماما لإرادته الحرة. والأصل في الإنسان حرية الإرادة وحرية الاختيار، وغير مقبول استخدام أي وسيلة قسرية لإجباره على الكلام، وهذا ما نصت عليه الشريعة قبل أن يحيط بذلك فلاسفة القانون الوضعي، قال تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾(الشمس: ٧- ١٠).

وقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾(الإنسان: ٢-٣).

وقال: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ ﴾(الاسراء: ١٥).

فلا مساس بملكة الاختيار للإنسان، وهناك توجيه صارم في هذه المسألة بنص القرآن، قال تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥ ﴾ (النحل: ١٢٥).

إن سبر غور أعماق الإنسان، هي محاولة مرفوضة، وتعد اعتداء على الحرية الشخصية، والشريعة قد وضعت لها كل الضمانات، ألم يقل ربنا في محكم تنزيله ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩ ﴾(الكهف: ٢٩).

فإذا كان للإنسان حريته في أن يؤمن أو يكفر، فإنه من باب أولى للمتهم أن يقول ما يشاء، وعلى سلطات التحقيق أن تستخدم وسائلها التخصصية، والتي ليس من ضمنها قطعا الوسائل سابرة الذهن البشري، المتخطية حدود مبدأ عدم التدخل في إرادة المتهم، الذي صاغته شريعة الحق بتحريم الإكراه كما نص على ذلك فقهاء الشريعة. من هنا يحظر شرعا استخدام تقنيات كشف الكذب، في مجال التحقيقات الجنائية، هذا والله أعلم.

وصدق ربنا حيث يقول ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢ ﴾.

الهوامش

١- تكملة حاشية ابن عابدين ٨/ ١٠٧، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٣/ ٣٩٧، والمهذب ٢/ ٣٤٤، والمغني ٥/ ١٥١.

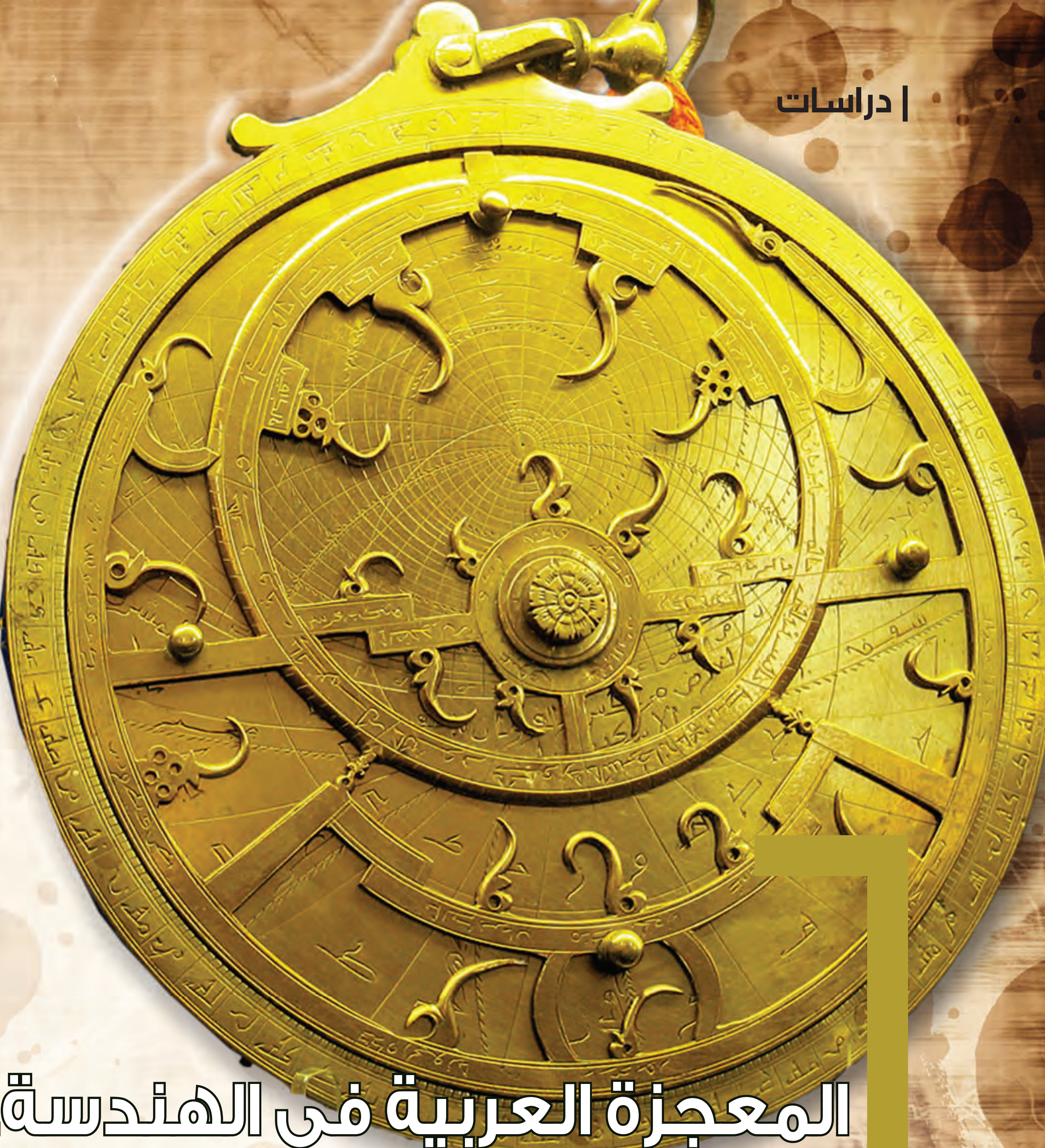
٢- حاشية ابن عابدين ٣/ ١٩٥.

٣- الطرق الحكمية/ ١٠٤ لابن القيم تحقيق محمد حامد فقي، دار الوطن.

٤ - سنن أبي داود رقم الحديث/ ٣٨٠٩.

٥ - مصنف ابن أبي شيبه ٩/ ٥٢٠ ومصنف عبدالرزاق ١٠/ ١٩٣.

٦ - مصنف عبدالرزاق ١٠/ ١٧/ ٢.



المعجزة العربية في الهندسة..

مصطفى يعقوب
كبير باحثين بهيئة المساحة المصرية

من أشهر التعبيرات المتداولة في أدبيات تاريخ العلم «المعجزة اليونانية» التي يفاخر بها الغرب العالم كله شرقه وغربه، وأغلب الظن أن المراد بهذا التعبير هو ترسيخ مفهوم أن العلم غربي المنشأ غربي التطور، وأن العالم كله مدين للحضارة اليونانية بما ينعم به الآن من خيرات العلم، فهي ـ في رأي مؤرخي العلم من الغربيين ـ الحضارة الأم التي ولدت من رحمها سائر الحضارات، وأنها معلّمة العباد التي لم تخلق مثلها في البلاد، وغيرها من تلك التعبيرات التي تتجاوز حدود الفخر بالأجداد إلى آفاق التعصب العرقي والعنصرية.

غير أن لنا ملاحظات ثلاثا حول هذا التعبير:

الملاحظة الأولى: أن الحضارة اليونانية لم تستمر سوى بضعة قرون، بينما استمرت الحضارة المصرية القديمة بضعة آلاف من السنين، فأيهما أجدى بلقب المعجزة.

الملاحظة الثانية: أن المعجزة اليونانية قامت على الفلسفة والمنطق والهندسة، وهي الروافد الرئيسية لها دون أن يكون للعمل اليدوي أو التجارب العملية أدنى نصيب، فقد «عجز الإغريق عن السير في طريق التقدم بعلوم الكيمياء والطبيعة والميكانيكا، لأنهم لم يعيروا أعمال العبيد الفنية أدنى التفات»(١). حتى إن أرشميدس الذي اشتهر باختراعاته «لم يقدر مخترعاته العملية كثيرا، وكان يرى أن الأعمال الميكانيكية أو أي نوع من الفن النفعي، أعمال حقيرة وغير شريفة، وهذا نموذج للتفكير اليوناني»(٢).

الملاحظة الثالثة: إذا كان هناك معجزة ما بالفعل، فهي المعجزة العربية التي أجهد مؤرخو العلم ومن تبعهم من المستشرقين أنفسهم في إسدال ستار من النسيان عليها، واجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد في الغض من شأنها، والادعاء - في صيغ شتى - بأن ما بلغته الحضارة العربية الإسلامية من علم إنما هو علم يوناني قد كتب باللغة العربية. ولهؤلاء نقول: هل من المعقول أن حضارة زاهية بكل المقاييس وهي الحضارة العربية الإسلامية التي وسع ملكها قارات العالم القديم من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غربا، وامتد زمنها ما يقرب من ثمانية قرون، وهو زمن ليس بالقليل في عمر الحضارات، وفرضت لغتها على بلاد المشرق والمغرب، وهي أمور لم تتحقق في الحضارة اليونانية، فهل من المعقول أن حضارة كهذه تكون عالة على حضارة أقصر عمرا وأقل علما، مع تقديرنا البالغ لما أسداه للبشرية أساطين فلاسفة وعلماء اليونان؟. غير أن الواقع وحقائق التاريخ يقولان أن هناك معجزة عربية بالفعل، لم يتحدث عنها العرب، كما فعل الغرب حيال الحضارة اليونانية، بل تحدث عنها المنصفون من مؤرخي العلم من الأوروبيين أنفسهم.

ولعله من المفيد في هذا الشأن أن نقتطف بعض ما قاله سارتون G. Sarton مؤرخ العلم الشهير في فصل خاص ضمن فصول كتاب «الشرق الأدنى»: «غزا العرب دول البحر المتوسط ودخلوها منتصرين، وفجأة وجد هؤلاء البسطاء من أبناء الصحراء - الذين لم يعرفوا إلا لغة واحدة - أنفسهم وجها لوجه أمام حكم شعوب تختلف تقاليدها وأديانها ولغاتها عن تقاليدهم ودينهم ولغتهم، لذا أدركوا أن هؤلاء الأجانب الذين هُزِموا أمامهم من إغريق وفرس ومِصريين وإسبان...الخ، يعرفون من أنواع الفنون ما لا يعرفونه هم أنفسهم، وهكذا احتاج العرب إلى معاونة هؤلاء وعلى أيدي الغرباء من إغريق وفرس وأقباط ومجوس وصابئة ويهود. ولم يمض وقت طويل حتى أدرك العرب أن ما لدى هذه الشعوب من امتياز ثقافي، يرجع في واقع الأمر إلى ما لديهم من علوم وفنون.

ومن هذه النقطة يبدأ ما يمكن أن نسميه بمعجزة العلم العربي. ومرة أخرى نستعمل كلمة «معجزة» لأن ما تحقق على أيدي العرب في ميدان العلوم لا يكاد يصدق، ولم يحدث قط في تاريخ الإنسانية أن تمكن قوم من العلوم هذا التمكن السريع إلا في حالة واحدة أخرى، هي ما حققه عصر موتسوهيتو Mutsuhito لليابان من علم وفن حديث، والحق أن بين هاتين الحالتين من النهضة الإنسانية شبها أساسيا.

لم تبدأ نشأة العلم العربي ونهضته التي لا تكاد تصدق، إلا في النصف الأخير من القرن الثاني للهجرة، وكان أعظم ما أحدثه العرب في الرياضيات والفلك وعلم الحساب الحديث وعلم حساب المثلثات، ومما يلفت النظر أن كلا من هذين العلمين قد بني على أساس من العلم الإغريقي والعلم السنسكريتي، كذلك اقترض العرب من الإغريق والهنود معارفهم في العلوم الطبية.

ويقول خصوم الثقافة العربية إن تعدد جهات الاقتراض ليس خيرا من الاقتراض من جهة واحدة، فليس في أي الحالين ما يدل على ذاتية علمية. وهذا النوع من الجدل مغالطة صريحة، خاصة فيما يتعلق بعلوم الرياضيات، فلم يقف دور الرياضيين العرب عند نقل التراث الإغريقي أو السنسكريتي، ولكنهم جمعوا هذا إلى ذاك ولقّحوا التفكير الإغريقي بالتفكير الهندي، وإذا لم يسم مثل هذا العمل ابتكارا علميا، فليس هناك ابتكار في أي علم، فما الابتكار العلمي إلا نسج الخيوط المختلفة وربط بعضها ببعض، أما الابتكار من العدم فلا وجود له»(٣).

بين اليونان والعرب

تعدّ الهندسة واحدة من مفاخر اليونان وركنا أصيلا من أركان شهرتها، وقد حفظ لنا التاريخ أسماء لامعة في هذا المجال، مثل فيثاغورس وأبولونيوس وإقليدس، وغيرهم ممن حفلت بهم الحضارة اليونانية، وسطروا بحروف من نور أسماءهم في تاريخ العلم. تلك حقيقة من الحقائق التي لا يماري فيها أحد، فاليونانيون محقّون في تلك المفاخرة، ولكنهم

غير محقين في أن فخرهم هذا يأتي على حساب من سبقهم أو من لحقهم من الأمم. والحقيقة أن الرياضيات في الحضارة الإغريقية قد استمدت روافدها من الحضارة المصرية القديمة، وكذلك الحضارة البابلية التي ازدهرت في بلاد ما بين النهرين، باعتراف الكثير من مؤرخي العلم. وعلى سبيل المثال فإن إقليدس وهو درة التاج اليوناني في الهندسة قضى شطرا من حياته في مصر أسوة بالكثير من أساطين العلم اليوناني مثل أرشميدس الذي «أمضى بعض الوقت في مصر، فقد كانت الإسكندرية إذ ذاك مركز العالم العلمي»(٤). وكذلك أبولونيوس الذي «أرسل في وقت مبكر للدراسة في الإسكندرية»(٥). أما إقليدس فيقول عنه سارتون: «يعتبر إقليدس من أقدم رجال العلم وأعظمهم الذين ارتبطوا بالإسكندرية، إننا ندعوه بإقليدس السكندري لأن الإسكندرية هي المدينة الوحيدة التي يمكننا أن نربطه بها»(٦)، أي إن الحضارة المصرية القديمة قد ألقت بظلالها على مؤلفات اليونان في الهندسة، مع فارق جوهري وملموس، وهو أن الهندسة في الحضارة المصرية القديمة قد استخدمت في البناء والتشييد، فالأهرامات والمسلات والمعابد وحتى النقوش الجدارية تمثل النموذج الأمثل في تطبيقات النظريات الهندسية المختلفة، بينما كانت الهندسة في الحضارة اليونانية نوعا من الترف الذهني والرياضة العقلية المجردة التي غالبا ما تكون وليدة التأمل والتفكير، أسوة بالفلسفة والمنطق، وهما من الأمور التي اشتهرت بها الإغريق دون غيرهم من الأمم. وكعادة جمهرة كبيرة من المستشرقين ومؤرخي العلم في التقليل من شأن العرب في مجال العلوم نجد مؤرخا مثل كراوذر Krawther يقول: «ولم يحدث أي تقدم في الهندسة في الإسلام، وقد يكون هذا أهم تعليل لعدم تقدم الطبيعة»(٧). وأغلب الظن هنا أنه يقصد الهندسة التي جاءت على نهج إقليدس وفيثاغورس وأضرابهما من رياضيي اليونان والتي - بالطبع - يعتبرها أنها المثل الأعلى في علم الهندسة. وقد فند عدد من المستشرقين الذين اطلعوا على نتاج العرب العلمي في الرياضيات بوجه عام وفي الهندسة بوجه خاص ذلك الادعاء جملة وتفصيلا، وبيّنوا دور العلماء العرب في الارتقاء بالهندسة في شتى المناحي العملية.

يقول Sediolet: «وزُعِم أن العرب لم يصنعوا غير استنساخ مؤلفات اليونان، ولا يؤيد مثل هذا الزعم في الوقت الحاضر غير جاهل ضال، فالعرب قد أدخلوا التماس على الحساب واستبدلوا بالطرق القديمة حلولا أكثر بساطة حين وضعوا بضع قضايا تعد أساسا لعلم المثلثات في الوقت الحاضر»(٨). كما أن العرب قد طبقوا الجبر على الهندسة، فقد حلّت معادلات الدرجة الثالثة حلا هندسيا(٩). ويؤيده في هذا المستشرق جاك ريسلر J. Ressler في كتابه الحضارة العربية بقوله: «كان البيروني الذي أنشأ بحق حساب المثلثات الحديث، قد أحل محل التحليلات المربعة الزوايا لبطليموس، التحليلات المثلثة الزوايا وأدخل خطوط التماس، وأسس النسب الحسابية المثلثة الهامة في الشكل الذي نستخدمها اليوم، لذا يمكن أن نثق في مؤرخي العلوم الذين يثبتون أن العرب هم الذين كانوا أساتذة الرياضيات في عصر حضارتنا، لا اليونانيين»(١٠).

وللدلالة على أن الهندسة قد تحولت على أيدي العرب من مجرد نظريات هندسية مجردة إلى تطبيقات عملية مفيدة في شتى المجالات، فإن العلامة المحقق أحمد تيمور باشا يشرح لنا كيف تحولت الهندسة من مجرد خطوط ودوائر ومثلثات على الورق يدرسها طلاب المدارس الإعدادية والثانوية، إلى علم مفيد للبشرية حيث يقول: إن ما يزعمه من أعمت الشعوبية بصائرهم من قصور العرب في غير الشرعيات واللسانيات من العلوم، واستدلالهم على قصورهم في الهندسة باستعانة الوليد بن عبدالملك في أبنيته بصناع الروم لهو زعم لا نصيب له من الصحة، لأن العرب في صدر دولتهم كانوا قوما متبدّين، شغلهم الفتح عن الالتفات إلى وسائل التحضر، فما يروى عن استعانتهم بمعاصريهم في بعض الفنّيّات، لم يكن إلا عن تلك الحالة الملازمة بالضرورة لكل قوم حديثي الانتقال من البداوة، ولكنهم لمّا ألقوا عصا التسيار واطمأنت بهم الدار نشطوا للفتح الثاني؛ وهو الفتح العلمي، فأتوا في الفتحين على قصر المدة بما لم يسبق له في الأمم السالفة، وكان من ذلك أنهم ملكوا ناصية العلم كما ملكوا ناصية العالم، وأحدثوا لهم مدنية خاصة صبغوها بصبغتهم في كل مظهر من مظاهرها، فكان للهندسة من هذا الأثر تجليها في فرع البناء بذلك الطراز العربي البديع، وكآيات الصناعة المدهشة الباقية إلى اليوم في قصر الحمراء بغرناطة، وهو الذي شهد به الإفرنج أنفسهم، ونقوشه مبتدع على غير مثال سابق. كما حفظت لنا التواريخ طائفة صالحة من أعمالهم كشقّ الأنهار وبناء القناطر وإجراء الماء إلى المدن من المسافات الشاسعة. بل إن أهل بلنسية بالأندلس مازال معولهم إلى اليوم في أنهارهم على ما وضعه العرب من النظام المحكم لتوزيع الماء حتى قال بعض

منصفيهم: «لولا ما أقام لنا العرب من القناطر والجسور لمتنا وماتت أراضينا ظمأً»(١١).

ليس هذا فحسب، بل تبلغ العبقرية العربية أقصى مراتبها عندما تحيل تلك الأشكال الصماء الجرداء من خطوط ومثلثات ودوائر هي كما هو معروف بأنها أركان الهندسة الإغريقية، إلى لوحات فنية جميلة قد غزت العالم كله من شرقه إلى غربه، دالة على معجزة عربية تمثلت في تحويل علم هو أبعد ما يكون عن الفن والجمال إلى لوحات تتضح بالفن والجمال. فمن المصطلحات الأجنبية في لغات العالم الدالة على العربية، مصطلح «الأرابيسك» Arabesque، الذي يعني فن الزخرفة العربية، وهو مصطلح قد يبدو لأول وهلة أبعد ما يكون عن المصطلحات المنتمية لعلم الرياضيات والتي نحن بصدد الحديث عنها، بل هو أقرب ما يكون إلى المصطلحات الفنية.

وإذا تأملنا في حقيقة هذا المصطلح أي، الأرابيسك، سوف نجد أنه التطبيق العملي للمعطيات الهندسية من الخطوط والزوايا والأشكال الهندسية المختلفة، على الفن التشكيلي في لوحات زخرفية. يقول د.عمر فروخ: «ويلحق بالهندسة فن الزخرفة العربية الذي عرف حديثا في أوروبا باسم Arabesque. ويقوم هذا الفن على ترتيب هندسي متناسق لخطوط متداخلة متشابكة أو لأشكال هندسية مرسوم بعضها فوق بعض، «كالنجم المثمن مثلا فإنه يتألف من تقاطع مربعين» ولقد دفع العرب إلى ابتداع هذا الفن الزخرفي أن الصور والتماثيل محرمة في الإسلام في بعض الأقوال، ولذلك انصرفت عبقرية أسلافنا إلى هذا الضرب من الزخرف الجميل الذي أصبح فيما بعد فنا عظيما في الشرق والغرب معا»(١٢). وإذا كان لنا من تساؤل بهذا الشأن، فهل يمكننا أن نقول: إن العرب هم أول من أدخلوا الأشكال الهندسية المختلفة من مربعات ومثلثات وخطوط ودوائر، في لوحات الفنون التشكيلية كإطار هندسي في جماليات وزخرفة الفن التشكيلي؟.

وهذا التساؤل يقودنا ـ بطبيعة الحال ـ إلى سؤال على قدر كبير من الأهمية، نرجو من الباحثين في تاريخ الفن أن يلقى شيئا من عنايتهم، وهذا السؤال هو: هل يمكن القول بأن فن الزخرفة العربية «الأرابيسك» كان وحيا ـ مباشرا أو غير مباشر ـ لأصول ومعطيات المدرسة التكعيبية، تلك المدرسة الذائعة الصيت في عالم الفنون التشكيلية؟ أو أن المدرسة التكعيبية قد استلهمت بعضا من أصولها وموادها من فن الزخرفة العربية «الأرابيسك»؟

ولعل الدافع لمثل هذا التساؤل وهذا السؤال، أن المستشرقين على اختلاف مذاهبهم ومقاصدهم من الحضارة العربية الإسلامية قد لفت أنظارهم مدى التأثير الكبير الذي أحدثته الفنون الإسلامية والتي من بينها الأرابيسك ـ بطبيعة الحال ـ في الفنون الأوروبية على اختلاف مدارسها، وعلى سبيل المثال يقول بريجز M. S. Briggs في الفصل الخاص الذي كتبه عن العمارة الإسلامية، والذي جاء ضمن فصول كتاب «تراث الإسلام»: «واسم أرابيسك الذي يطلق على الموضوعات الزخرفية التقليدية التي كانت ترسم بارزة بروزا بسيطا في إنجلترا منذ عصر الملكة إليزابث، نقول إن هذا الاسم يدل على أننا مدينون بهذه الزخارف للعرب في القرون الوسطى»(١٣). وفي موضع آخر يقول: «ولاشك أيضا في أن الغرب مدين للمسلمين باستعمال الزخارف الهندسية. والواقع أن المسلمين كانوا مصدر كثير مما وصل إلى الغرب من علم الهندسة، أو كانوا على الأقل القنطرة التي وصل إلى الغرب عن طريقها كثير من هذا العلم»(١٤).

وإذا كان ما سبق يصب في الدلالة على عبقرية العرب في تحويل النظريات الهندسية الصماء إلى أعمال حيوية ـ إن صح التعبير ـ تهم الواقع الحياتي للبشر، فإن هناك أمرا ثالثا لم يتطرق إليه أحد رغم أهميته البالغة قد كشفت عنه مخطوطة منسية ضمن آلاف المخطوطات التي لم يكشف النطاق عنها بعد والقابعة في زوايا النسيان في حواضر ومكتبات الغرب. وهذه المخطوطة هي كتاب «ما يحتاج إليه الصانع في علم الهندسة» وهو من تأليف أبوالوفا البوزجاني (٣٢٨ ـ ٣٨٨هـ). وهذا الكتاب غير مسبوق أو ملحوق في بابه وموضوعه، إذ يتطرق إلى ما يمكن أن نسميه في لغتنا المعاصرة «الواجبات الوظيفية لمن يزاول مهنة الهندسة». وقد خلصت الدراسة التي أجريت على الكتاب إلى تناول مؤلفه الموضوعات التالية:

١ ـ أهمية الدربة بهدف الإحاطة بتطبيقات العلم.

٢ ـ أهمية معرفة الأساس النظري لحرفة ما للتميز بممارستها.

٣ ـ الحساسية المرهفة والأبدية بين المهندس والصانع والتي مازلنا نتلمس آثارها في العصر الحاضر.

٤ ـ أهمية معرفة تطبيق العلم على الصناعة والترابط الحيوي بين طرفي العلاقة.

٥ ـ ضرورة التزاوج بين الصناعة والهندسة، أي بين العلم التطبيقي والعلم النظري للترقي بنوعية المنتج(١٥).

ولعلنا لا نجاوز الصواب إن قلنا إن

ما جاء في هذا الكتاب الذي كُتِب منذ ألف سنة أو تزيد يصلح لأن يكون دستورا دائما لمن يزاول مهنة من المهن.

شاهد من أهلها

ولأن تاريخ العلم لا يعدم من بين باحثيه باحثا منصفا، متجردا من الهوى والتعصب، فقد برز من بين هؤلاء الباحثين المنصفين الدكتور «دونالدهيلD. Hiell» المستشرق الإنجليزي الذي ألف كتابا مهما في تاريخ التقنية الخاص بالحضارة العربية الإسلامية فقط، بعنوان «العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية». يقول الدكتور أحمد فؤاد باشا مترجم الكتاب في معرض تقديمه له: «والكتاب الذي بين أيدينا شهادة إنصاف في حق الحضارة العربية الإسلامية، ودورها الرائد في تأسيس كثير من العلوم والتقنيات التي تجني البشرية ثمارها اليوم».

والدكتور دونالد هيل أول من نبه إلى ما أسماه «التقنية الإسلامية» بعد أن نشر الترجمة الإنجليزية الكاملة - مزودة بشروح وتعليقات - لكتاب ابن الرزاز الجزري الجامع بين العلم والعمل في عام ١٩٧٤ ثم أعقبه بعمل مماثل لـ «كتاب الحيل» لبني موسى في عام ١٩٧٩ وتعددت مؤلفاته ومقالاته المتخصصة بعد ذلك في «تراث الكيمياء العربية» و«الهندسة الميكانيكية العربية» و«الساعات المائية العربية» وغيرها...الخ(١٦).

ومن أوضح الشواهد التي تؤيد هذا الرأي كتاب «الجامع بين العلم والعمل» الذي ألفه عالم عربي مسلم شاء حظه أن يكون منسيا بين العلماء، فلم يكتب عنه أو يترجم له أحد. وهذا العالم هو «أبوالعز بن إسماعيل الرزاز الجزري» الذي عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري وحتى بداية القرن السابع الهجري.

وعن هذا الكتاب يقول الدكتور دونالد هيل: «ومن الأعمال بالغة الأهمية في الهندسة، على مدى العصور الثقافية قبل عصر النهضة الأوروبية، يبرز كتاب الآلات لابن الرزاز الجزري الذي أنجزه في سنة ١٢٠٦م والذي لا نعلم شيئا عن حياته عدا ما أخبرنا به في مقدمة هذا الكتاب. ويلخص الكتاب معظم المعارف المتراكمة عن الهندسة الميكانيكية حتى ذلك الوقت، مع تطويرات وإبداعات للجزري نفسه. وتكمن أهمية هذا الكتاب فيما تضمنه من وصف لآلات ومكونات وأفكار. وبالقدر نفسه من الأهمية تبدو حقيقة أن الجزري صنف كتابه مع إصرار على تمكين الصناع من بعده من إعادة تركيب آلاته، حيث قدم وصفا دقيقا لكل من الخمسين آلة يتضمن صناعتها وتركيبها، والأجزاء المكونة لها، وزودنا بثروة من المعلومات المتعلقة بطرق ومناهج المهندسين الميكانيكيين في العالم الإسلامي. وقد وزعت محتويات الكتاب على ستة موضوعات هي: الساعات - الأوعية البارعة - أوعية استطراق السوائل وأدوات قياس الفصد - النافورات وآلات موسيقية ذاتية التحكم - آلات رفع المياه - آلات متنوعة...الخ (١٧).

خاتمة

لعل مثال الهندسة يبيّن جانبا من جوانب المعجزة العربية، فالعرب لم تكن لهم أدنى معرفة بالهندسة، خلافا للطب أو الجغرافيا أو الفلك وغيرها من العلوم التي تشترك فيها الأمم بدرجات متفاوتة حسب الحاجة إليها. ولم يلبث هؤلاء القوم الذين خرجوا من رحم البداوة، بعد أن ترجمت كتب الهندسة اليونانية التي لا تعدو عن كونها نظريات وتمارين رياضية، مكانها مقاعد الدراسة في المرحلة الإعدادية والثانوية، أن أحالوا تلك النظريات الصماء إلى علم مفيد للبشرية من حيث التطبيقات العملية النافعة، والتي مازال العالم ينعم بخيراتها إلى الآن دون أن يدري من أصولها العربية شيئا.

الهوامش

١- صلة العلم بالمجتمع، ج.ج. كراوذر، ترجمة حسن خطاب، ص٦٥.

٢ - تاريخ العلم، جورج سارتون، ترجمة لفيف من الأساتذة، ج٤، ص١٣٧.

٣ - الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته، ت. كويلرينج، ترجمة د.عبدالرحمن محمد أيوب، ص١٢٤.

٤ - تاريخ العلم، مصدر سابق، ج٤، ص١٣٨.

٥ - المصدر السابق، ص١٦٠.

٦ - المصدر السابق، ص٨٢.

٧ - صلة العلم بالمجتمع، مصدر سابق، ص ١٧٣.

٨ - تاريخ العرب العام ل. أ. سيديو، ترجمة عادل زعيتر، ص٣٦٠.

٩ - المصدر السابق، ص٣٦١.

١٠ - الحضارة العربية، جاك ريسلر، ترجمة غنيم عبدون، ص١٧٥.

١١ - أعلام المهندسين في الإسلام، أحمد تيمور باشا، ص١٠.

١٢ - عبقرية العرب في العلم والفلسفة، د.عمر فروخ، ص٧٩.

١٣ - تراث الإسلام، مجموعة مؤلفين، ترجمة د.زكي محمد حسن، ج٢ ص١٥٤.

١٤ - المصدر السابق، ص١٥٩.

١٥ - كتابان نادران في الرياضيات التطبيقية، د.مصطفى موالدي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٤٨، الجزآن ١ و٢، نوفمبر ٢٠٠٤، ص١٤٥.

١٦ - العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، دونالد هيل، ترجمة د.أحمد فؤاد باشا، ص٩.

١٧ - المصدر السابق، ص ١٦٦.



وقفات مع عقد الحوالة

د. صالح النهام
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

لا ريب أن من مقاصد الشريعة الإسلامية مراعاة مصالح العباد، ومن تلك المصالح: الحاجة إلى تسهيل المعاملات بين الناس، من خلال إبراء ذمة المحتاج من حق الغريم، أو استيفاء حقه من مدين له، لاسيما إذا كان الغريم في بلد والمحال إليه في بلد آخر، وقد يكون نقل المال غير ميسر؛ وذلك إما لمشقة حمله، أو لبعد المسافة، أو لكون الطريق غير آمن، ولهذا شرع المولى- جل وعلا- عقد الحوالة، الذي يعد من عقود التوثيقات أو التأمينات التي يكون الغرض منها تأمين الدائن على دينه قبل المدين؛ ومثله عقد الكفالة وعقد الرهن.

الوقفة الأولى: التعريف بالعقد

العقد لغة(١): الجمع بين الشيئين والربط بينهما، حسيّا كان هذا الربط أو معنويّا، كقولك: (عقدت الحبل، وعقدت العقد)، ومن هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ (المائدة: ١).

العقد اصطلاحًا(٢): لقد اختلف الفقهاء في تعريف العقد على اتجاهين:

الاتجاه الأول: قال المالكية والشافعية والحنابلة: إن العقد يطلق على التصرف الذي يتم بإرادتين، كالبيع والوكالة والإجارة ونحو ذلك، وأما التصرف الذي يتم بالإرادة المنفردة فإنه لا يسمى عقدًا عندهم.. وإنما يسمى تصرفًا أو التزاما، وذلك كالوصية والطلاق.

الاتجاه الثاني: يرى الحنفية أن العقد يطلق على كل تصرف يترتب عليه حكم شرعي، سواء تم بإرادتين أو بإرادة واحدة.

الوقفة الثانية: التعريف بالحوالة

الحوالة لغةً(٣): هي بفتح الحاء وكسرها، والفتح أفصح، وهي التحول والانتقال، يقال: حول الشيء من مكانه، أي: نقله منه إلى مكان آخر، وحول وجهه: لفته إلى جهة أُخرى.

وقيل: هي النقل، ومنه التحويل، وهو نقل الشيء من محل إلى محل.

الحوالة اصطلاحًا(٤): هي نقل الدين من ذمة إلى ذمة أُخرى تبرأ بها الأولى بمثله.

وقيل: هي نقل الدين من ذمة المحيل إلى ذمة المحال عليه مع المطالبة؛ وقيل: نقل المطالبة فقط، وكما قيل: إن المكفول لا يبرأ وإنما تضاف الذمم إلى بعضها، ومن هنا كان تعريف الحوالة: ضم ذمة إلى ذمة أخرى.

الوقفة الثالثة: أركان الحوالة

وقبل أن أبين تلك الأركان، إليك المقدمات التالية:

الركن: هو ما يتوقف الشيء على وجوده، وهو داخل في ماهيته.

الشرط: هو ما يتوقف وجود الشيء عليه، وهو خارج عن ماهيته.

كلمة حكم تطلق على ثلاثة معان:

المعنى الأول: حكم الشيء، أي: من ناحية الواجب والمندوب.. إلخ، كأن يكون الحكم فرضًا أو غيره.

المعنى الثاني: الحكم، كالصحة والفساد، بمعنى وصف الأداء.

المعنى الثالث: ويطلق الحكم أيضًا ويراد به الثواب عند الله تعالى، بمعنى الأثر الأخروي للأداء.

وكلمة حكم الحوالة: بمعنى الآثار المترتبة عليها.

أما أركان الحوالة فهي أربعة(٥): مع العلم أن هذه التسمية قال بها الجمهور، بينما هي عند الحنفية شروط أو عناصر.

١) المحيل: وهو المدين، وقيل: غالبًا ما يكون مدينًا.

٢) المحال: وهو الدائن، أو المحتال.

٣) المحال عليه: وهو الذي قبل نقل الدين من ذمة المحيل إلى ذمة المحال، وهو المليء الغني.

٤) الصيغة: وهي المحال به، وكذلك هي الإيجاب والقبول.

ففي حال وجود الدين نكون نقلنا حق المطالبة من ذمة المحيل إلى ذمة المحال عليه دون الدين، وفي حال عدم وجود الدين؛ فهنا يكون حق نقل المطالبة فقط من ذمة المحيل إلى ذمة المحال عليه، ثم يرجع المحال عليه على المحيل، وهنا يستوجب رضا المحال عليه عند الشافعية كالحنفية.

الوقفة الرابعة: شروط الحوالة

١- أن يكون المحيل والمحال عليه جائزي التصرف.

٢- أن يكون المحال عليه مدينًا للمحيل.

٣- أن يكون الدين المحال عليه قد حلّ.

٤- أن يكون الدين المحال مساويًا للمحال عليه في المقدار والجنس والصفة.

٥- الإيجاب والقبول بين المحيل والمحال حسب العرف.

الوقفة الخامسة: شروط المحيل

- البلوغ، أما الصبي فله حالتان: الأولى: إن كان غير مميز -وهو ما دون الست سنوات- فتصرفاته ملغية، والثانية: إن كان مميزًا فله ثلاثة تصرفات: (تصرف سليم يقبل- تصرف ضار مرفوض- تصرف بين الاثنين موقوف على الإجازة).

- العقل، وضده الجنون.

- رضا المحيل، وضده الإكراه؛ لأن الحوالة لا تصح بالإكراه. والإكراه يكون إما: بإزهاق روح أو تهديد بحبس أو بقطع عضو، وأن يكون المكره أهلًا لهذا التهديد.

وما ليس بشرط:

١- الحرية؛ لجواز حوالة العبد، مأذونًا كان أو محجورًا أي غير مأذون له؛ لأن العبد لا يملك الكفالة؛ لأنها تبرع، ولذلك لا تصح الأجرة على الكفالة؛ لأنها ربا، وهذا عند جمهور الفقهاء.

٢- الصحة؛ وهي تنافي مرض الموت؛ لأن المحيل لا يكون متبرعًا، وحينئذ تصح حوالة المريض.

الوقفة السادسة: دليل مشروعية عقد الحوالة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «مطل الغني ظلم وإذا أُتبع أحدكم على مليء فليتبع» (رواه البخاري ومسلم).

ورواية لأحمد: «ومن أُحيل على مليء فليحتل» (رواه أحمد).

والإجماع منعقد على مشروعية الحوالة(٦).

الوقفة السابعة: المعنى العام للحديث

دل هذا الحديث على أنه إذا أُحيل أحدكم بحقه أو بماله على غني فليحتل عليه وليطالبه بحقه، فإن ذلك تعاون بين الناس بالمعروف

وتيسير في أداء الحقوق؛ لقوله جل شأنه: : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة:٢)، ولقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ (البقرة:١٧٨).

الوقفة الثامنة: مفردات الحديث

١) مَطْلُ الغني: والمَطْلُ لغةً هو: المد، يقال: مطلت الحديدة مطلًا، أي: مددتها وطولتها، وكل ممدود فهو ممطول، ومنه مَطَلَهُ بدينه إذا سوّفه بوعد الوفاء مرة بعد أخرى وامتنع عن أدائه لصاحبه، ومطل الغني من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: مَطَلَ الغنيُ غريمه، ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: مَطَلَ الغريمَ الغنيُ.

٢) المليء: هو الغني الذي يملك مالًا، أما المليُ بدون همزة فكالغني لفظًا ومعنًى.

وقيل: إن حدود الملاءة: الاستطاعة بدفع الدين، وعند قبول الوصي الحوالة يشترط ألا يقبل الحوالة؛ حتى يكون المحال عليه أغنى من المحيل.

٣) التبيع: هو الذي يتبعك بحق ويطالبك به، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ (الإسراء: ٦٩)، أي: تابعًا ومطالبًا يطالبنا بأن نصرف عنكم العذاب.

الوقفة التاسعة: الأحكام التي تؤخذ من الحديث(٧)

أولًا: دل الحديث على تحريم المطل من الغني، والمراد به هنا: تأخير ما استُحق أداؤه بغير عذر من قادر على الأداء، فيجب عليه الوفاء بالدين ولو كان مستحقه غنيًا، فلا يكون غناه سببًا لتأخير حقه، وإذا كان ذلك في حق الغني ففي حق الفقير أولى، والمطل كبيرة يفسق صاحبه بعد الطلب؛ لأن المطل لا يكون إلا بعد الطلب، ويشمل المطل كل من لزمه حق ولو كان الحق للزوجة.

ثانيًا: دل الأمر في الحديث على وجوب قبول الحوالة؛ لأنه أمر، والأمر يُحْمَلُ على ظاهره وهو الوجوب، وهذا قول بعض الفقهاء.

أما قول الجمهور: فالأمر للندب وليس للوجوب؛ لأن أهل الملاءة والغنى قد يكون فيهم المطل بالحقوق، وهو ضرر لا يأمر الشارع بتحمله، بل بالتباعد عنه واجتنابه.

وقال بعض العلماء: يسن قبول الحوالة إذا كان المليء مُقرًا باذلًا، ولا شبهة في ماله، فقبول الحوالة على الإباحة.

وقال بعض آخر من العلماء: يحرم قبول الحوالة إذا كان المليء ماله حرام، أو فيه شبهة.

ثالثًا: مطل العاجز عن أداء الحق لا يدخل في الظلم، ولا يسمى مماطلًا، وكذلك الغائب عن ماله كالمعدوم، فلا يطالب حتى يوسر..

وقال الشافعي: لو جازت مؤاخذته لكان ظالمًا، والغرض أنه ليس بظالم.

رابعًا: إذا تم عقد الحوالة صحيحًا برأت ذمة المحيل من المطالبة بالدين، ولا يرجع المحال على المحيل بالدين الذي عنده، وإن أفلس المحال عليه بعد الإحالة، أو جحد الحق الذي عليه، أو مات، وهذا ما ذهب إليه الجمهور: إلا إذا شرط المحال على المحيل غنى المحال عليه، فإن ظهر أن المحال عليه مفلس، رجع على المحيل عند الجمهور؛ لأنه قبل الحوالة بشرط أن المحال عليه مليء، فبان بعد الحوالة مفلسًا، لقول رسول الله ﷺ «المسلمون على شروطهم» (رواه أبوداود والترمذي).

وقال أبو حنيفة: تبطل الحوالة في حالين ويرجع المحال على المحيل بدينه: إذا مات المحال عليه مفلسًا بلا مال يستوفى منه ولا كفيل، كما تبطل بإجحاد المال المحال عليه ولا بينة، وتوجهت إليه اليمين فحلف، إذ لا وسيلة إلى إلزامه حينئذ بأداء الدين، وبهذا تصير الحوالة كأنها لم تكن، وتعتبر باطلة.

والراجح ما ذهب إليه الجمهور: من أن الحق متى انتقل إلى المحال عليه ورضي المحال (صاحب الدين) ولم يشترط اليسار للمحال عليه، لم يعد الحق إلى المحيل أبدًا، سواء أمكن استيفاؤه، أو تعذر لمطل، أو فلس، أو موت، أو غير ذلك؛ لما روي أن حزنًا جد سعيد بن المسيب كان له على علي رضي الله عنه دين فأحاله به، فمات المحال عليه فأخبره- أي أخبر عليًا بموته- فقال علي رضي الله عنه: «اخترت علينا أبعدك الله»(٨)، وفي هذا الأثر بيان على أنه قبل الحوالة، ولم يشترط الرجوع.

خامسًا: وهذا الحديث دليل على مشروعية الحوالة، وأنها ليست مستثناة من بيع الدين بالدين، ولا هي قياس على الضمان، والوكالة، والنيابة.. وإنما هي بهذا الحديث مستقلة للدليل على جوازها.

هوامش

١- انظر: المصباح المنير، مختار الصحاح.
٢- انظر: تفصيل ذلك في كتاب نظرية العقد في الفقه الإسلامي: (ص:٣-٤) للأستاذ الدكتور: محمود محمد حسن، ط٢: (١٤١٤هـ-١٩٩٤م).
٣- انظر: المصباح المنير، مختار الصحاح.
٤- انظر: البدائع: (١٧/٦)، مغني المحتاج:(١٩٣/٢)، شرح منتهى الإرادات: (٤١٦/١).
٥- ومنهم من جعل الأركان خمسة حيث أضاف: المحال به: وهو دين المحال على المحال عليه. انظر: فتح القدير:(٤٥٥/٥)، الخرشي على خليل: (٢٣٣/٤)، مغني المحتاج: (١٥/٢)، الفروع:(٤٦/٢).
٦- انظر: مطالب أولي النهى:(٣٢٤/٣).
٧- انظر: البدائع:(١٧/٦)، بداية المجتهد: (٣٠٠/٢)، مغني المحتاج: (١٩٣/٢)، شرح منتهى الإرادات: (٤١٦/١).
٨- انظر: العناية على الهداية:(٤٧٧/٥)، المجموع شرح المهذب: (٤٣٦/١٣)، المغني على الشرح الكبير: (٦١/٧)، المحلّى: (١٠٩/٥).

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (١٦)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

قبل أن تقف هذه الحلقة اللغوية على الأرض الصلبة المكينة التي تهدي السالكين إلى كل مرشدة، لابد من تذكير المُخَضْرِبِينَ من أمتنا العربية، أن وظيفة الفصحى والفصيحة في مجتمعاتنا العربية- ولاسيما بعد ما عاينته في إمارة دبي خلال المؤتمر الدولي للغة العربية، شهر مايو ٢٠١٣م - ووضعها الاقتصادي والعلمي والاجتماعي والسياسي والرمزي؛ يؤكد بما لا يدع رسيسا من الريب أن أزماتنا الوجودية يرجع بعضها إلى إخفاقنا في إنتاج الوجود اللغوي العربي المعافى، فانتشرت نار اللحن وجيوش ألفاظ اللغات الأجنبية في هشيم الفصحى، انتشارا لم تتمكن جل المحاولات التصحيحية التي تسمع هنا وهناك من إخماد لهيبها المستعر شرقا وغربا. وعلى الرغم من إدراكي أن الاستقرار والسلم اللغوي في مجتمعات المعرفة، وما تقذف به التقنيات المعاصرة عبر الشابكة من معارف، أضحى من المقولات التي تُعدُّ أعزَّ منْ بَيْضِ الأَنُوق، لأن الاستقرار الشامل لا ينعم به في عصرنا الحاضر إلا الموتى في مقابرهم، على الرغم من الانتباه لهذه الحقيقة، فإن ما يقترف من شائنات في جسد العربية يدعو أولي العزم من هذه الأمة إلى تدبير تخطيط لغوي متوازن؛ يؤسس لحلول اجتهادية تضع الهناء مواضع النقب، ويركز على الفعل الإنجازي الدقيق الذي يطيح بالأوراق الميتة من شجرة الفصحى، ويبقي على العناصر التي تضمن لها نضارتها



وجناها، لكي لا نعيد الإخفاقات ذاتها التي تجعل أصواتنا وكتاباتنا بلا أثر في محو هذا الليل الأليل؛ الذي ترك لغتنا العربية الجميلة على مقرف الصَّمْغَة، مكتفية ببسط ما تبقى لها من سلطان آخذ في الضمور والانحسار- مع كرور الملوان - على المنابر والزوايا والأضرحة وبعض منتقرات الأدب. وهل هناك ما هو أجدى وأنفع للأمة العربية من تربية ناشئتها على مشروع لغوي عربي صميم، يضاهي في دقته خطط المركبات الفضائية العالمية؟!

الخطة البزلاء التي تعصمنا من أن نركب الفرس السُّكَيْتَ في حلبة السباق العلمي والتقني العالميَّيْن، تبدأ بالإلحاح على العلم بلغة العرب، ونقل ذلك العلم إلى الشداة بأيسر الطرق التي تجعل الفصحى محيطة بكل موجودات الحياة المعاصرة إحاطة السوار بالمعصم، بما يحقق التصوير الدقيق الذي يضمن الانغماس في الأجواء الحياتية بكل تفاصيلها وتعقيداتها العلمية والمعرفية. فكل غياب عن زيادة تقوية فرص الفصحى والفصيحة لِعَوْرَبَة الحياة العربية الخاصة والعامة، يدفع المواكب العربية إلى البحث عن إشباع الحاجات النفسية والاجتماعية والعلمية في شوب العاميات وأمشاج اللغات الأجنبية، الذي يفضي إلى استصغار أمر العربية. هذا هو الدرس المقدم الذي يجعلنا نحقق قَوْمَةً عربية تستفيد من تجارب الأمم المتقدمة التي جعلت إتقان لغتها واجب الوجود، من خلال السعي إلى تطوير وتحديث طرائق تعلمها، وضبط أدوات قياس درجات التحكم في الكفايات التواصلية والمعرفية والوجدانية والمنهجية الضرورية لبلوغ شأوها المُغَرَّب؛ الذي يوصلنا إلى الولاء الخالص للفصحى، ويفرض على السلطات العربية الحاكمة إعلان قرار سياسي صادق يقوي النسق العربي المبين على باقي الأنساق اللغوية المتغولة على العربية.

هذا هو التدبير الاجتهادي الذي يعمق البحث في اللغة الفصحى، ويبرز طاقاتها، ويجعلها آخذة من العلم بالسبب الأقوى، فيبتعد عنها قالة السوء، وشياطين الدفاع عن العاميات واللغات الأجنبية. لا يَتَصَعَّدُنا أن نتواصل بالفصحى ويفهم بعضنا بعضا، ونصنع بها المعارف والمهارات الضرورية لبلوغ آفق المراتب، ونفهم بها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة والشعر العربي البليغ، من دون أن نَقْفُوَ معرفة كل ما قالته العرب من عُقْميِّ الكلام الغريب الوحشي المرتبط بصفات الإبل والدواهي والفيافي، وما أوثر عنهم من غرائب الصيغ والأبنية والألفاظ البالية كأنها الأزل الذي لا يتبدل. أما العَلَقُ النفيس من الألفاظ التي تحدث بها القرآن العظيم مثل: الثبَةُ والعِزَةُ واللبْدَةُ أي: الجماعة من الناس، والبَحيرة والسائبة والوصيلة والحَامُ أي: الأنعام، والضِّغْثُ والأبُّ والمِنْسَاة والغَوْلُ وغيرها مما يرهق ذكره، فهي جواهر يجب أن تكون فكرة إحيائها فكرة أمة، قبل أن تكون فكرة بعض الفضلاء الآحاد. وعلى الرغم من أن مناحي التعبير عن المعنى الواحد في العربية واسع النطاق، فإن جريرة الجهل دفعت المعاصرين إلى قول كل ما يعرض لهم على شاكلة هذه العبارة التي تنكبت سبيل الهداية إلى المراد، حيث قصد قائلها الإخبار بأن الغيث قد نزل بأرضهم البارحة قائلا: «أمْطِرَتْ بلدتنا البارحة» إن أبلغ الأمور في جبر نقيصة هذه العبارة، التي يبدو فيها صوت الجهل بالفروق اللغوية أقوى من صوت المعرفة بها، تتمثل في الدعوة إلى مراعاة الحسِّ اللغوي الذي حَرَصَ عليه القرآن الكريم عندما عدَّد التنويعات اللغوية بالنسبة إلى ألفاظ رَيِّ الأرض، مشيرا إلى أن الماء المنزل من السماء إذا كان للخير فهو «الغيث أو الطل أو الوابل أوالصَّيِّب»، أما إذا كان للشر فقد عبر عن ذلك بلفظة «أمطر»، تماما كما هو الشأن بالنسبة إلى لفظة «الخلْف» بسكون اللام التي يراد بها «الفاسد» و «الخَلَف» بفتح اللام التي يقصد بها «الصالح»، كما استعمل القرآن لفظ «تَحَسَّس» لمطلق البحث عن الأخبار، و«تجسَّس» للبحث عن الأخبار السيئة، واستعمل لفظ «الشَوْب» لمطلق الخلط في الأشياء، و«الشَيْب» للخلط في الشعر بين البياض والسواد. وغيرها من الألفاظ طويلة الذيل قليلة النيل، مثل «الكِسْف» بسكون السين للعذاب، و«الكِسَف» بفتح السين لقطع السحاب. ناهيك عن بعض العبارات المستفرهة التي تخلب الأذهان مثل: «جُعِلوا أحاديث» التي تعني: «نُكِّل بهم» و«سُقِط في يَدِه» أي «ندم» و«فُزِّعَ عن قلوبهم» أي ذهب عنهم الفزع، و«أولى» للتهديد والوعيد. قال الشاعر زهير بن أبي سلمى:

أَوْلَى لَكُمْ ثُمَّ أَوْلَى أَنْ تُصِيبَكُمُ
مِنِّي نَوَاقِرُ لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ

و«السارب» للماضي في حاجته في النهار خاصة. قال ابن فارس: «للعرب كلام بألفاظ، تختص به معان لا يجوز نقلها إلى غيرها، يكون في الخير والشر، والحسن والقبح وغيره، وفي الليل والنهار، وغير ذلك»[1] ومن ذلك قولهم «التتايع» أي التهافت في الشر، ومنه قول الرسول ﷺ: «ما حَمَلَكُمْ على أنْ تَتَتَايَعُوا في الكذب كما يَتَتَايَعُ الفراش في النار».

تلك لفتة شائعة شيوع النور في الفضاء، وذلك شأو لم تحلق فيه أجنحة المتكلمين المعاصرين الذين ألفوا الركون إلى الشائع الذائع من العبارات المخسولة الشائنة. والحق أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي هي المصادر التي بَذرتْ بَذْرَة هذا الطراز التعبيري، ثم جاء أبْنَاء الكلام العربي فأظهروا تلك الألفاظ والعبارات في حُلل مُنَشَّرة، تدعونا أن نَعُدَّ جهود تلك المصادر مرايا تجعلنا ممن يرى أطايب الكلام فيتبعون أحسنه.

الهوامش

١ ـ الصاحبي. أبوالحسن أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق السيد أحمد صقر. ص ٤٤٦. دار إحياء الكتب العربية.

الأديب جابر قميحة (رحمه الله) اسم إسلامي بارز في عوالم الشعر، وتدريس الأدب، والكتابة الصحفية، والقانون والشريعة... ويمثل واحدا من أهم الأصوات الأدبية والنقدية المنتمية للتصور الإسلامي للكون والحياة، فهو أديب ناقد وأكاديمي متحيز لموقف، متعاطف مع تصور نبيل، منتصر لمبادئ الفكرة الإسلامية فيما يصدر من إبداع.

رؤيةجابر قميحة في الأدب الإسلامي

محمد عباس عرابي
باحث دراسات إسلامية

لقد كان يرحمه الله دمث الخلق، علاوة على التزامه بقواعد وأصول القصيدة العربية الخليلية، وعلى الرغم من ذلك فلم يكن منغلقا، بل كان منفتحا على الثقافات الأخرى، ينتقي منها ما يتناسب وروح الإسلام، كما أن شهرته وصلت عددا كبيرا من البلاد العربية والإسلامية، حيث برز في مجالات المعاجم والترجمات والنقد، كما كان شاعرا مبرزا وكاتبا مسرحيا مميزا.. وقد تنوع إنتاجه ما بين الشعر والمسرح والنقد والدراسات الدينية والاجتماعية، وله الكثير من المؤلفات والكتب في المجال الأدبي، فمن مؤلفاته: منهج العقاد في التراجم الأدبية، أدب الخلفاء الراشدين، التقليدية والدرامية في مقامات الحريري، أدب الرسائل في صدر الإسلام، الشاعر الفلسطيني الشهيد عبدالرحيم محمود، التراث الإنساني في شعر أمل دنقل، صوت الإسلام في شعر حافظ إبراهيم، الأدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرف، رواية وليمة لأعشاب البحر في ميزان الإسلام والعقل والأدب، كما أن له عددا من الدواوين الشعرية التي أثرت في أجيال كثيرة من الشعراء والأدباء.

إنه من الأقلام القليلة التي نستمتع بالقراءة لها، ونتعلم منها، تماما كما نتحاور معها أو نسمعها، فالقارئ لمؤلفاته يلمس في كتاباته وكذلك في حواراته سلامة اللغة، وروعة البيان، وجمال الأسلوب، والروح المرحة الساخرة، والذهن الحاضر الوقاد، والبديهة السريعة.

قدم الأدب الذي يتبنى نظرية الشعر الإرسالي

وجابر قميحة الناقد، يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وربما كان لدراسته في دار العلوم دور في ذلك؛ حيث لم تنجرف أدواته النقدية إلى ما انجرف إليه نقاد كبار من إغراق في المعميات النقدية التي تجعل القارئ ينفر من النقد والأدب معا.

والدكتور جابر من النقاد المعدودين الذين اهتموا بتقديم شباب المبدعين لجمهور القراء، وتناول أعمالا إبداعية متميزة لهؤلاء الشباب، منها ما فاز بجوائز إبداعية كبيرة، كجائزة البابطين، وذلك مؤشر على مدى حساسية الذائقة النقدية للدكتور جابر في اكتشاف المواهب وتقديمها.

والدكتور جابر قميحة الكاتب المثقف يتميز في طريقته عن كثير من أقرانه ممن يهتمون بالشأن العام، فهو يكتب في القضايا الحياتية بوصفه خبيرا بمجتمعه، يشعر بمعاناة الناس حوله، كل ذلك بأسلوب الأديب المبدع، فيصبح المقال الاجتماعي أو السياسي ثريا بالاستشهادات الشعرية، والطرائف الأدبية ذات المغزى الرمزي؛ ما يجذب القارئ مهما اختلف مستواه الفكري أو المعرفي.

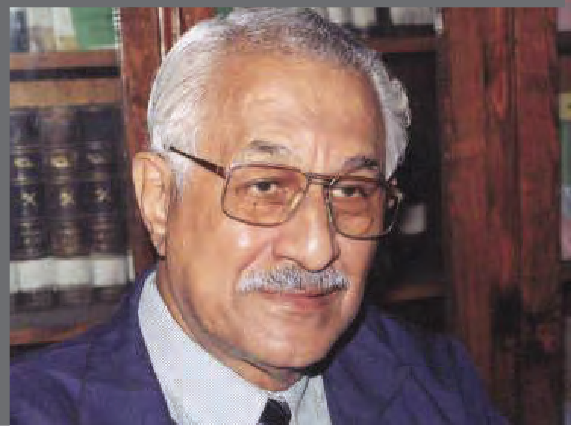
والتوثيق من الميزات التي تقف أمامها معجبا بقدرة الدكتور جابر، على الرغم من بعْد العهد بالمصادر التي يوثق منها؛ كونها صحفا يومية أو أسبوعية.. فروح الباحث العلمي لم تغب عنه في مقالاته العميقة أو الخفيفة؛ حيث كثيرا ما يستدعي نصوصا من مجلات وصحف مرت عليها سنوات، حتى إن أصحاب الكلام أنفسهم ربما لا يتذكرونه، ونجد الدكتور جابر يستدعي نصوصا من الماضي؛ ليضعها جنبا إلى جنب مع الحاضر، فتظهر المقارنة تصريحات زائفة لمسؤول من الثقلاء، أو وعودا

وهمية لكبير من الكبراء، أو كذبا صراحا لكاتب من الأجراء... إلخ. ويعد جابر قميحة (رحمه الله) واحدا من كبار الأكاديميين الذين كتبوا في الأدب من منظور إسلامي، كما أنه صاحب نظرية كاملة في «الشعر الرسالي»، فقد قدم الأدب الذي يتبنى رسالة إنسانية راقية، والدكتور جابر (رحمه الله) شاعر، له إبداع متميز، حمل لواء الدفاع عن قضايا الأمة الإسلامية، شعره يدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق، وينتصر للمظلومين والمضطهدين، إنه شاعر للدعوة الإسلامية، وهب حياته لمبادئه، ويمثل قلمه خط دفاع متقدم، يحرس به ما يعتقده من أفكار.. فهو يستحق عن جدارة لقب شاعر الدعوة. تقول عنه الشاعرة نوال مهني: الراحل الكبير كان من الكتاب والأدباء المشهود لهم بالأصالة والغيرة على الإسلام واللغة العربية وآدابها، وكان له جهد مشكور في تنمية وتطوير رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة، خاصة في بداية نشاطاتها وتكوينها، وكانت له مساهماته الفعالة وحضور المؤتمرات ومساعدته للشباب ممن يلجأون لمشورته فيما يكتبون.

الأديب جابر قميحة قارئا

كان الأديب والكاتب جابر قميحة (رحمه الله) موسوعة دينية وعلمية وأدبية وشعرية كاملة، نعم ولم لا! فقد عشق القراءة والكتب، يؤكد ذلك قوله:إنني بحمد الله نشأت محبا للعلم، مريضا بالقراءة، حتى إنني كنت وأنا في المرحلة الابتدائية أجلس إلى والدي - وكان أميا- أقرأ عليه بعض قصص ألف ليلة وليلة. وكان والدي يشفق علي من كثرة انشغالي بالقراءة والكتب، فكان أحيانا ينزع مني الكتاب ويأمرني بالنوم حتى لا أجهد عيني في القراءة، وأستجيب له ظاهريا، وبعد أن أشعر بأنه استغرق في النوم أستأنف القراءة والاطلاع.

ومما يدل على حبه للقراءة أن مكتبته تضم عشرات الآلاف من الكتب



والدوريات، حتى أصبحت مكتبته تشغل نصف مساحة الشقة التي يقيم فيها، وزحفت الكتب إلى حجرة النوم، وإلى حجرة الصالون. وكان دائما يقول: أنا لو فارقت الدنيا إلى العالم الآخر فلن أحزن إلا على كتبي التي لم أترك في أبنائي من يحسن قراءتها؛ لأن كل تخصصاتهم علمية بعيدة عن نوعية ما أقرأ.

وكانت له قدرة عجيبة على حفظ أماكن الكتب، وعلى سبيل المثال يطلب كتابا معينا، قائلا: «أحضروا لي من الرف العلوي كتاب كذا، وهو رقم ٣ في هذا الرف». أي إنه يرسم في ذهنه خريطة لآلاف الكتب وأماكنها.

ولحبه للقراءة فقد أصبح القلم هو سلاحه الحاسم الذي ينتصر به للحق، والكلمة الحرة في مقالاته وشعره وكتبه. وكثيرا ما كان يتمثل بالتراثيات في تجذير أفكاره وتأكيدها، كقول ابن المعتز في حديث له عن القلم: «القلم مجهز لجيوش الكلام ، يخدم الإرادة ولا يمل استزادة، يسكت واقفا، وينطق سائرا، على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء...» ويقصد ابن المعتز بالأرض ذات البياض المظلم: الصفحات البيضاء التي تخلو من علم يخطه القلم، فلا يحمل بياضها إلا ظلام الجهل، أما السواد المضيء، فهو سواد الحبر، تصوغه الأقلام على بياض الصفحات علوما وحقائق، تنير الطريق، وتغذي العقول والأرواح، وتنهض بالأفراد والأمم.

ومن عجب أن يأتي المفكر الغربي الشهير: ول. ديورانت فيردد فكرة ابن المعتز فيقول «إن شمس الحضارة لا تشرق إلا من سواد الأوراق».

وقد قال الشاعر أبوالفتح البستي:

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم
وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزا ورفعة
مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

ويقول رحمه الله: لي طريقة في القراءة قد تبدو غريبة عند الآخرين، وأنا أسميها «طريقة الحكم على الذات»، بمعنى أنني إذا سمعت من يقول: «إن الكتاب الفلاني صعب الفهم» تحديت الكتاب وأصررت على قراءته وفهمه. ولا أنسى أنه وقع في يدي مجلد كبير لإسماعيل مظهر بعنوان: «نظرية النشوء والارتقاء وأثرها في الفكر الحديث». حكمت على نفسي بضرورة قراءته، وقرأته.

ويقول رحمه الله: قد يكون اتجاهي إلى القراءة والكتابة عن العقاد أنني على سبيل التحدي الذاتي . وأنا أسمعهم يقولون . إن العقاد معقد، فدفعني ذلك إلى قراءة عبقرياته وكل ما كتب. كل ذلك وأنا طالب في المرحلة الثانوية. كما أنني أقرأ بطريقة «الوحدة الموضوعية» بمعنى أن أقرأ كل ما كتب عن أبي العلاء المعري، ثم أوحد القراءة عن المتنبي فأقرأ كل ما كتب عنه. وفيما يلي محاولة لإلقاء الضوء على آراء جابر قميحة في الأدب الإسلامي واللغة العربية.

أولا: رأي جابر قميحة في الأدب الإسلامي

لجابر قميحة (رحمه الله) رأي في الأدب الإسلامي، فقد سئل (رحمه الله) هل تعتقد أن الأدب الإسلامي غادر محطة التعريف بنفسه؟ إذ يلاحظ في كل حوار أو حديث مع أحد أقطابه أن هذا الحوار لا يخلو من تعريف للأدب الإسلامي وكأنه شيء مستحدث وطارئ في حياة العرب والمسلمين؟

فقال: نحن - الكتاب الإسلاميين - حاولنا ونحاول أن نتقدم بمجموعات شعرية ونثرية ومسرحية نجحت الرابطة في إبرازها للعالم، في ندوات

ومطبوعات، وأذكر في هذا السياق أنها طبعت لي ديوان «حديث عصري لأبي أيوب الأنصاري».

هناك أدب ملتزم وذو قيمة يصدر بلغات مثل الأردية والفارسية والسواحلية في إفريقية، وأصحابه يظنون أنهم مظلومون، وأن العرب المسلمين لا يتحمسون لإبداعاتهم.. وسئل كيف يمكن معالجة ذلك وأنت المهتم بقضايا الأدب الإسلامي؟

فأجاب:

المعالجة تتلخص في محاولة الانتصار لهذه الآداب، فهي مظلومة فعلا، وأذكر في هذا السياق أدب محمد إقبال.

فوسائل إعلامنا قوية الذاكرة أمام أعياد ميلاد الفنانين، والفنانات، أو ذكرى وفاتهم ووفاتهن. وأشهد كذلك أنها مصابة بالغفلة والتغافل، وبالنسيان والتناسي، وأكاد أقول بالشلل التام تجاه المناسبات المتعلقة بالعظماء الحقيقيين من مصريين وعرب ومسلمين

ومن مظاهر الحول - بل العور وأكاد أقول العمى - أن عيوننا وهوانا وكل حواسنا مفتوحة على الغرب؛ فالعرب والمسلمون منفتحون في أفكارهم على أمثال: غاندي، وأنديرا غاندي، ونهرو، وطاغور، ولكن عيون العرب والمسلمين لا ترى وجودا لشاعر عالمي مسلم اسمه محمد إقبال، وبهذه المناسبة أذكر الحكاية اللطيفة الآتية، وخلاصتها: أن مدرس اللغة العربية بإحدى مدارس البنات كتب على السبورة البيتين الآتيين:

إذا الإيمان ضاع فلا أمــــان
ولا دنيا لمن لم يحي دينـا
ومن رضي الحياة بغير ديــن
فقد جعل الفناء لها قرينـا

وذكر أن القائل هو إقبال وأخذ يسأل التلميذات بعض الأسئلة:

س: من تعرف شيئا عن إقبال؟

فكان جواب إحدى التلميذات: أنا يا أستاذ، «أبلة إقبال التي كانت تدرس لنا من عدة سنوات»، ولا عجب في ذلك.. على مستوى الجامعات والصحف والإعلام.. لقد عاش إقبال مظلوما حتى عند من تناولوه بالكتابة، خصوصا شعره، فشوهوه وأساءوا إليه، فأحد الأساتذة الكبار الذين ترجموا شعره كان حريصا على أمرين هما:

أن تكون الترجمة بالشعر الموزون المقفى، الحرص التام على المضمون الفكري.

ثانيا: رأي جابر قميحة في اللغة العربية

يقول (رحمه الله) - في أسى - إن اللغة العربية حاليا في حالة انحدار وانهيار، والمظاهر الدالة على ذلك كثيرة جدا، نكتفي منها بالقليل دون الكثير:

فما أكثر المواقف التي تعرضت اللغة العربية فيها للإيذاء، بل للحرب الضروس، من جهات متعددة، وشخصيات لها فعاليتها على مستوى الدولة والمؤسسات والعالم: منهم مستشرقون، ومنهم مصريون . أو إن شئت فقل: متمصرون . منهم من يدعو إلى اتخاذ العامية لغة كتابة، ومنهم من يدعو إلى إلغاء النحو، ومنهم من يدعو إلى إلغاء نون النسوة، ومنهم من يدعو إلى تسكين أواخر الكلمات... الخ.

ومن أشد عوامل الإضرار بالعربية والإساءة إليها وسائل الإعلام المصرية، خصوصا التلفاز، وهو تكية التليفيزيين، والتليفيزيات.

وقد كتبنا كثيرا عن لغة «أهل التليفزيون» المصري بقنواته الفضائية والمحلية... الحكومية والخاصة، وما تزخر به من أخطاء نحوية وأسلوبية، وما يتميز به بعضهم من «عيوب» في النطق ذاته: فلانة يسميها الجمهور «المدفع الرشاش»، وأخرى عندها قدرة سبك الحروف والكلمات كلها في نفخة متواصلة بلا تفريق بين مخارج الحروف، وثالثة ألغت الصاد والقاف والطاء والثاء والذال والضاد والظاء من معجم العربية. فكلمات مثل: «صدقني - القيادة - الطرب - الثقوب - الذمة - الضمير - يظهر» تتحول بجهل جاهل أو جاهلة إلى: «سدأني - الكيادة - الترب - السكوب - الزمة - الدمير - يزهر».

ورأيت واحدا منهم يقرأ من ورقة «... ومن أبطال هذه المعركة عمرو فارس زيد... وكان عنده سيف اسمه: «الصمصا أمة» والصحيح أنه عمرو ابن معديكرب فارس زبيد - وزبيد قبيلته اليمنية التي ينتسب إليها. واسم سيفه «الصمْصامة».

ومن مظاهر الانهيار -وهو مظهر مؤسف جدا- إلغاء همزة الوصل، وتحويلها إلى همزة قطع. على النحو التالي: «وقد - استغرق - ألإجتماع - ألحزبي - ألموسع- في - ألقاهرة...» مع أن النطق الصحيح «وقد استغرق الاجتماع الحزبي الموسع في القاهرة...».

وتشبه همزة الوصل الحرف الصامت في الإنجليزية، كما نرى في الفعل (Know) - أي (يعرف) فحرف- K- لا ينطق.

هذا بعض من «بدايات النحو» يجهله التلفازيون والتلفازيات، قصدت أن أقدمه لأقول: ابدءوا يا هؤلاء من الصفر بدلا من تضييع الوقت في التظرف المرفوض، وحشر الأجساد في «الجنز» الخانق.

كيف يمكن للغة أن تصبح عنصرا للنهضة أو التخلف؟

إن اللغة هي هوية الأمة، فلا شخصية لأمة لا تعتز بلغتها، خصوصا إذا كانت لغة شريفة مثل اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم. وأحيلك إلى كتاب «شمس الله تشرق على الغرب» لزغريد هونكه، الذي تحدثت فيه عن عظمة اللغة العربية، وكيف أنها واكبت النهضة العلمية والاجتماعية في الأندلس بصفة خاصة. رحم الله الأديب جابر قميحة جزاء ما قدم للأمة في مجال الأدب واللغة.

الكريم

مياسة النخلاني
قاصة يمنية

«سيدي أطفالي يموتون من الجوع.. أرجوك.. ساعدني لأجد عملا، سأعمل ما تريد، سأعمل أربعا وعشرين ساعة متواصلة، فقط ساعدني أرجوك» قالها متوسلا وهو يتشبث بنافذة السيارة الفارهة بيدين مرتعشتين «هؤلاء الـ... لماذا يتزوجون وينجبون الأطفال وهم عاجزون عن تحمل مسؤوليتهم» رددها في أعماقه وهو يشير للسائق أن يصرف الرجل بعيدا ويعطيه أي شيء، وقبل أن تنطلق السيارة مجددا رمق الفقيرَ بطرف عينه ، بينما انشغل الأخير بتفحص العملة المعدنية التي وضعت في راحة يده بنظرات شاردة.

«وصلنا يا سيدي»

قالها السائق وهو يفتح باب السيارة.. وغير بعيد كان شيخ الحي بانتظاره بابتسامة عريضة، وبعد أن رحب به الترحاب الذي يليق بقدره، أشار بيده نحو أرض واسعة وهو يقول: «هذه الأرض التي سنبني عليها المسجد يا سيدي» تطلع السيد نحو قطعة الأرض الكبيرة التي أشار إليها شيخ المنطقة وهو يهز رأسه بإعجاب.

«تبدو جيدة، أريده أن يكون جامعا مثاليا، يتحدث عنه الكبير والصغير»

«حاضر» «لا تنس أن تضع على مدخله لافتة كبيرة باسم عائلتي، أريدها أن توضع بشكل بارز يقرأها كل من يمر بجانب الجامع» «لك ما تريد» أوشك على المغادرة قبل أن يتوقف فجأة.

«ما ذاك؟!»

قالها وهو يشير نحو كوخ من الصفيح بني بمحاذاة سور الأرض من الداخل

«هذا يا سيدي...»

ابتلع الشيخ ريقه وهو يمسح حبات العرق التي بردت على جبينه بمنديله قبل أن يكمل بصوت متقطع:

«رجل فقير من الحي طرده مالك البيت هو وأمه المريضة، لعدم قدرته على دفع الإيجار، فاستأذن مني بالبقاء هناك ريثما يجد سكنا آخر»

«وماذا إن اكتمل بناء الجامع ولم يجد سكنا بعد!» «إنه رجل فقير وأمه تمـ...»

قاطعه بصوت صارم: «عليك أن تتصرف حالا، فأنا لم أدفع كل ذلك المال لأبني ملجأ لكل من يتهرب من دفع الإيجار.. إن سمحت له فبعد أيام أو شهور ستمتلئ باحة المسجد بأمثاله» «سأطلب منه أن يبحث له عن مكان آخر»

«الليلة!»

«حسنا الليلة»

حدق في كوخ الصفيح باشمئزاز وغادر وهو يتمتم ببعض الشتائم.



اللغة العربية صورة لقيمة الأمة

سالم بن عميران
أديب وباحث يمني

اللغة أداة للتفكير، وصلة بين الإنسان والفكر والعلم والأدب؛ إذ تتكون الأفكار في عقل الإنسان فيعبر عنها باللغة، ثم يتوصل في تفكيره إلى مرحلة الإبداع، فهي الوجه الآخر للتفكير، لذلك يقول «فنك»: «لا يجب أن ننظر إلى اللغات إلا بوصفها آثارًا معبرة عن عقل الشعوب، ولكي نقوم بدراسة دقيقة ينبغي ألا نبدأ باللغة التي ليست إلا نتيجة، بل من العقل الذي يخلق اللغة»(١).

ولما كانت اللغة العربية لغة أمة ذات رسالة وحضارة استطاعت أن تقوم بوظيفتها في سائر الميادين العلمية والطبية، ولما انهارت الأمة بعد العصور الذهبية انحط كذلك قدر اللغة في نفوس الأعداء والخصوم، وأصبح القصور الفكري، وضعف الشخصية الاجتماعية هو مسألة المسائل، وصارت اللغة العربية سجينة نطاق ضيق في استعمالها الأدبي والفقهي والتاريخي، وفي بعض العلوم كالحساب البسيط والنجوم... وهلم جرا، وهذا يثبت أن قيمة اللغة وقدرتها أو فعاليتها كقيمة الأمة ومسيرتها سواء بسواء(٢)، فقيمة اللغة صورة لقيمة الأمة، وحياة اللغة تابعة لوعي الفكر في المجتمع، ومواتها نتيجة لموت الأمة.

واللغة العربية تقدمت في أنواع المعرفة، وانتشرت في العالم الشرقي والغربي، خاصة في ميدان العلوم والتجارة حتى إنها خلفت لنا تراثًا لغويًا عظيمًا (٣)، وهناك شواهد تاريخية كثيرة تدل على ذلك منها: ما ذكره د.برنارد لويس «إنه بعد أن استعاد المسيحيون سيادتهم على إسبانيا ظلت العلوم العربية مزدهرة مدة من الزمن، وكان من الملوك المسيحيين من يتكلم العربية، ويؤازر علماء العرب، وكان المسيحيون الذين يتكلمون العربية من أهل إسبانيا يتمتعون بنفوذ قوي»(٤). وذكر أيضًا أن «أولاد» وهو أول علماء الغرب الذين قاموا بنشر الثقافة العربية في الغرب قال: «أنا سأدافع عن مذهب العرب ولست أعبر عن رأيي الشخصي»، وهو يصر على تفوق الطريقة العربية، وترجم عددًا من المؤلفات العربية في علم الفلك والعلوم الرياضية، وبذلك وسع نمو هذه العلوم في أوروبا(٥).

وفطن «جورج الثاني» ملك انجلترا والسويد والنرويج عندما بعث إلى خليفة المسلمين في الأندلس «هشام الثالث» بعثة من فتيات الأشراف الإنجليزيات ليتعلمن العربية في بلاطه، وكان الهدف من وراء تعلم هذه اللغة هو اقتباس نماذج من الرقي العظيم في العلم والصناعات، ولنشر أنواع من العلم في بلادهم التي قال ملكها: «إن الجهل كان يحيط بها من أركانها الأربعة»(٦) .

وقد أورد د.غوستاف لوبون، في كتابه «حضارة العرب» عددا من الألفاظ التي أخذها الغرب في عصر تخلفه عن اللغة العربية، يقول: «ومن الطبيعي أن تقتبس فرنسة وإيطالية من العرب الذين كانوا سادة البحر المتوسط منذ القرن الثامن من الميلاد أكثر الاصطلاحات البحرية، مثل: Exadre -Amir -Boussole (البوصلة) التي عُزي أمرها إلى أهل الصين على غير حق، وأن تقتبس جيوشهما- أي فرنسا وإيطاليا- ألقاب ضباط جيوش المسلمين، وتعابير وغى الحرب، واستعمال بارود المدافع والقنابل والحراقات والقذائف، وأن تأخذ عن حكومة بغداد وقرطبة التعابير الإدارية مثل: ((Cyadic Aides))، وأن يقلد ملوك الأسرة الثالثة الفرنسية العرب فيأخذوا عنهم معظم اصطلاحات العلوم التي اقتبسناها من العرب، فعلم الفلك عندنا مملوء بالتعابير العربية مثل: (Azimuts) و(Nadir)، وبالاصطلاحات العربية لأجزاء الاسطرلاب مثل: (Alancabuth) و(Alidocle)، وبأسماء الكواكب مثل: (Aldebaran) و(Rigel)، وقل مثل ذلك عن الرياضيات حيث أخذنا عن العرب الاصطلاحات مثل: (Chiffres) و(Zero) و(Algeber)، وعن الكيمياء حيث أخذنا عن العرب الاصطلاحات (Alchimie) و(Alcool)، وعن التاريخ الطبيعي والطب حيث أخذنا عنهم الاصطلاحات مثل: (Bol) و(Elixir) و(Sirops)، واللغة العربية غنية جدًا، وزاد غناها بما أضيف إليها دائمًا من التعابير الجديدة التي تسربت من اللهجات التي اتصلت بها»(٧).

وعندما وصلت الأمة العربية إلى أقصى درجات التخلف انحط مستوى لغتهم وانحسر مجال استعمالها، وإذا أردنا- فعلا- التقدم واللحاق بركب الأمم المتقدمة فعلينا التمسك بهذه اللغة وهي التي تعد روحًا ووعاءً للحضارة، واللغة العربية قد أغنت العالم بالعلوم والمعارف، وأثبتت قدرتها على الانتشار والتوسع والاستيعاب والتواصل.

الهوامش

١- د. جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، «سلسلة عالم المعرفة» الكويت، ١٤١٠هـ- ص١٥٨.

٢- انظر: د.المهدي بن عبود، «ارتسامات حول اللغة العربية وفعاليتها في الحقل العلمي»، مجلة دعوة الحق (الرباط: العدد الثالث: ١٣٨٤- ١٩٦٥م)- ص٣٤- ٣٥.

٣- انظر: المرجع نفسه، ص٣٣.

٤- د.برنارد لويس، تاريخ اهتمام الانجليز بالعلوم العربية، ط٢، ص ٤.

٥- ينظر: المرجع نفسه: ص ٤ -٥.

٦- ينظر: د.محمد أمين توفيق، «اللغة العربية مسموعة ومرئية»، مجلة الأدب الإسلامي- عدد ١٤ شوال- ذو القعدة- ذو الحجة ١٤١٧هـ، ص٦٤- ٦٥.

٧- د.غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، بيروت: مطبعة البابي الحلبي، ص٤٤١- ٤٤٢، وانظر أيضًا كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» للمستشرقة زيغريد هونكة، ذكرت فيه ألفاظًا كثيرة أخذها الغرب من اللغة العربية.

حدث ذات صباح في حافلة

محمد ثابت توفيق
باحث مصري

تحركت الحافلة بالفعل بينما يد الأم التي هبطت في زحام العشرات بدون ابنتها تحاول الإمساك بباب الخروج، أما الطفلة الصغيرة فكانت ما تزال تمد قدمًا في حركة وهمية للأمام، إذ إن تحرك الحافلة البطيء يخيفها، وسط اندفاع من الهابطين الذين لم يستطيعوا التحرك في الوقت المناسب، والصاعدين الذين يريدون تعويض مجزوء الثواني الذي فاتهم في حركة السائق السريعة بالتوقف في المحطة ثم العدول عنها.

مشاعر الألم كانت بادية بوضوح تزيح البراءة الطبيعية عن وجه الصغيرة، فيما قد غلب الصراخ وعدم القدرة المتزايدة على الأم.. تملكها العجز.. فكل ثانية تؤذن بأن يأخذ السائق أهبته الكاملة، رويدًا رويدًا، ثانية بعد أخرى، وربما أسرع حتى تتحقق له السرعة القصوى للحافلة، وهذا يتوقف على سرعة انزياح السيارات من أمامه، وهنا ستصير الابنة التي لا يتعدى عمرها الخمس سنوات بعيدة تمامًا عن عالم الأم، وفي مدينة كبرى مثل القاهرة تصبح مفقودة تمامًا، وكم من صغار تاهوا للأبد عن أهاليهم بمثل هذه الطريقة.. من رحمة الله أن بعض السيارات كانت بطيئة في المحطة التي تراجع السائق عن التوقف الكامل فيها كما تقتضي



قواعد السلامة، إذ كانت الإشارة الضوئية مغلقة ثم فتحت..
قدرتُ الموقف وتألمتُ بشدة لحال أم تكاد ابنتها تقفز فيما الحافلة تمضي، ومَنْ حولها غافل عنها، وإن لم أفهم معنى صرخات الأم بكلمات أقرب للهجة العامية المختلطة بلغة أجنبية خاصة بالمنطقة الجغرافية التي تقطن فيها من وطننا العربي، وهي للأسف غير مفهومة تمامًا في بلدي، إذ صار جزء الأمة الذي أسكنه بلدًا منفصلًا عن جزء الأمة الذي تسكنه هذه السيدة الملتاعة الخائفة من فقد قرة عينها، إذ كانت بلدي وبلدها بلدًا واحدًا حتى أقل من قرن واحد فحسب؛ وفيما كانت الدموع تأخذ مجراها الطبيعي للهبوط من عيني الصغيرة.. بدأت الأم تشير بيدها للسائق كي يتمهل غير مقدرة أنه لم يكن ليراها، خاصة أنه على الطرف المقابل تمامًا من حيث تهرول، ولو كان له أن يراها في غير هذا الظرف لما رآها الآن للزحام الشديد من الركاب والسيارات، أخذت السيدة تجري أكثر وتشير وتفغر فاها ناظرة إلينا في استنفار ضد السائق الذي ربما خيل إليها أنه يتعمد ما يفعل معها.
خطر على بالي حل سريع.. أمسك بالصغيرة من معصمها تمهيدًا لحملها على يدي ثم الهبوط بها لأمها، فأصوات من انتبهوا من الركاب لم تصل- للآن- للسائق الذي يريد تجنب جزء من الزحام، بل الاختناق الصباحي للعاصمة، ولا يهمه في المنتصف- ما بين تأخره وما بين الطريق وآلاف السيارات- إهدار مشاعر مثل هذه الأم، أو الحالات الخاصة التي لا تكفيها خمس ثوان، بالكاد، من التوقف لدى كل محطة.. لينزل من ينزل، ويركب من يركب، في فوضى ما تزيد إلا من اختناق من بالداخل من الحافلة العامة، وشعور الواحد منا بالانسحاق ما بين طوفان الآلات المحيطة به في كل مكان.
ما كدت أمسك بمعصم الصغيرة أجذبها لأحملها.. فيما يدي الأخرى تتحسس طريقها لشيء بارز من باب الحافلة.. أقبض عليه لأهبط بها منهيًا هذه المأساة، فمازالت سرعة الحافلة لم تتجاوز حد الخطورة مع من اعتاد الركوب فيها، وإن كانت تتزايد بسرعة.. وفيما لسعت يدي دموع الصغيرة، قدرت أنها لا تتجاوز ست سنوات بحال من الأحول، ولمستُ حقيبتها المدرسية تتطوح خلف ظهرها، فوجئت بالأم، وفي قوة جبارة وهبها إياها الشعور بالخطر الشديد، فوجئت بها- وقد لحقت بالحافلة- تضرب يدي في قسوة.. فيما كان صوتها قد تحول للصراخ تمامًا.
تذكرتُ أني تعودت على رؤيتهما معًا كل صباح، فقد اعتدت ركوب هذه الحافلة متجهًا لعملي، لأن ميعادها مناسب له، ولأن مكان إقامتي، فيما يبدو، كان الأبعد عن مكان السيدة السمراء اللون، فكان من الطبيعي أن تهل الحافلة عليهما فيما أكون فيها.. حيث أصعد إليها من قبلهما.
ومع الأيام صارت ألفة بيني وبين الصغيرة.. ألفة من ذلك النوع الذي يخلقه التعود بيننا وبين الآخرين، حتى صرت أنتظر ركوبهما، لأفسح لهما مكانًا مناسبًا أو أترك مكاني بالكلية لهما ليجلسا، ولكن لم يخْفَ عليّ أن الأم كانت تنظر لهذه الأمور التافهة في توجس، ويومًا بعد يوم كانت إن رأتني تقبض على يد الصغيرة أكثر فيما ترتعش يداها، وكنت ألاقي هذا بهدوء مستشعرًا افتقاد، أو نواة افتقاد الأمان التي تجعل من المقيمين بأي من طرفي الأوطان في أمتنا اليوم غرباء إن زار بعضهم بعضًا، والعالم الواقعي يختلف تمامًا عن أمنياتنا على الورق، وعالم الأفكار والرؤى الصحيحة لا تجد لها متنفسًا لتنفذ، من أسف شديد.. كنت أقابل قلق الأم بالاندفاع في اتجاه غير اتجاهها واتجاه ابنتها كل مرة.
تركت الصغيرة في حرص كما كانت، فيما ازدادت دموعها انحدارًا خلته التهابًا، وتعجبت من فعل الأم ومن طوفان الصراخ الهستيري الذي بدأ يصدر من فمها، حتى إنني فهمت أنها تتهمنا جميعًا بالاستيلاء على الصغيرة، فيما كنتُ مثلها أحاول البحث لها عن مخرج.
نجحتْ في جذب ابنتها بشدة في اللحظة التي بدأ السائق فيها يتمهل في مؤشر على أن صوت الركاب المتنامي- برجاء التوقف لثوان- قد وصل لمسامعه فاستجاب.
لم تنتظر الأم توقف الحافلة تمامًا، وكانت توقفت بالفعل بعد ثوان معدودة، ولم أدرِ كيف فهمت المرأة الأمر.. لأنها باختصار شديد جذبت ابنتها بقوة من ذراعها فسقطت على الأرض، وفيما خيط من الدماء يسيل من فم الصغيرة كانت الحافلة قابعة في الزحام لا تتحرك.. سادّةً نهر الطريق من خلفها بالكلية.. والأم مندفعة في مزيد من الصراخ الأكثر من هستيري الذي يشي بأنها قد صارت خارج مدار العقل، بل بدا واضحًا أنها تسبنا جميعًا.
حينها فهمت تمامًا أننا نفتقد أحيانًا الأمان ومشاعر السلام ما بيننا كأبناء لغة ودين وثقافة، بل وجه متقارب المعالم.



صورة المسلمين في رحلة الجاسوس برترندون دي لابروكييه

د. عمرو عبدالعزيز منير
باحث أكاديمي

رغم أن المشروع الصليبي على الأرض العربية قد فشل بسقوط عكا سنة ١٢٩١م؛ فإن إعادة الاستيلاء على المنطقة ظل سرابًا يجذب الأوربيين تجاهه كل حين، وتجلت هذه الحقيقة في تلك المشروعات والخطط الكثيرة التي قدمها أصحابها من السفراء، والمغامرين، ورجال الكنيسة الكاثوليكية إلى أصحاب القرار من الكنسيين والعلمانيين في أوروبا الغربية، وتلك الرحلات الكثيرة التي تدفقت على المنطقة العربية على مدى القرون التالية، والتي كان عدد كبير منها بقصد التجسس ومعرفة مواطن الضعف، وكيفية تحقيق أهداف المشروعات الصليبية الاستيطانية المتأخرة، ولتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تطور «الآخر» في وجدان الأوروبيين بشكل عام، حملت الكثير من مظاهر العداء والكراهية ضد الإسلام والمسلمين.

وتمثل رحلة الفارس «برترندون دي لابروكييه» إلى بلاد الشام (١٤٣٢ - ١٤٣٣م) مثالا لرحلات التجسس التي مولها دوق برجنديا فليب الطيب (١٤١٩ - ١٤٦٧م)، تمهيدًا للقيام بحملة صليبية جديدة لتحقيق أعز أمانيه في استرجاع الأراضي المقدسة.

وصل برترندون دي لابروكييه إلى الشرق الأدنى الإسلامي وهو متحامل على سكانه، شأن أكثر حجاج العصور الوسطى الأوروبيين، ولا يخفي بروكييه هذا، بل لا يحاول أن يتستر عليه، فنراه يعبر عن هذا الشعور في أكثر من مناسبة فيقول مثلًا: «ولما أوصيت بألا أثق بالعرب من هذه الملة الضالة»، وفي مكان آخر يصف أهل دمشق بقوله: «وأسوق هذه الحادثة لأوضح أن سكان دمشق قوم أشرار، وعلى الإنسان أن يتجنب المشاجرة معهم». ويرجع هذا التحامل إلى حد كبير إلى كتابات الحجاج وعما يلاقونه من مصاعب خلال زياراتهم للأماكن المقدسة، كما يعود إلى وصية رئيس الفرنسيسكان للحجاج قبيل مغادرتهم الرملة إلى القدس باللاتينية والإيطالية، وكانت هذه الوصية تتضمن قواعد وإرشادات للحجاج عليهم اتباعها خلال إقامتهم في الأماكن المقدسة، وأوصاهم بأن لا يثقوا بالعرب حتى بمن تودد إليهم منهم.

لكن لا يلبث بروكييه أن يمتدح كرم العرب وحسن استضافتهم للغريب بعد أن جرب ذلك بنفسه عندما نزل ضيفًا على بعض العرب في طريقه إلى غزة. ويشير إلى أن العربي الذي كلف بالاعتناء به بالغ في السهر على راحته، ويضيف إلى ذلك أن العرب لم يسلبوه ماله وأمتعته كما كان يشاع. ويشرح تفاصيل استضافة عربي له في طريقه إلى طبرية ولكنه لم يكن يدرك أن استقبال العربي له كان بدافع كرم لا لأنه رأى ما يحمله بروكييه من النبيذ.

ويستطيع القارئ لرحلة بروكييه أن يلحظ فرقًا بين معاملة الجهات الرسمية للحجاج الأوروبيين وبين معاملة الأفراد لهم؛ فيذكر ما لقيه من عدل نائب غزة وحمايته له من المكارين الذين حاولوا إجباره على استئجار دوابهم، كما ينوه بما لقيه من عدل حاكم دمشق الذي أطلق سراحه عندما قبض عليه.

ويسهب بروكييه في وصف قافلة الحج العائدة من مكة إلى دمشق، ويذكر أنها تتألف من ثلاثة آلاف جَمل، ويظهر أن بروكييه استقى معلوماته عن الحج من المملوك عبدالله الذي تعرف إليه في دمشق، فقد ذكر له المملوك أن عدد أفراد قافلة الحج يبلغ سبعمائة ألف. وفي هذا الرقم مبالغة كبيرة، فمحمل

الحج الذي كان يخرج من دمشق لم يكن يمثل العالم الإسلامي كله، فقد كانت تخرج من العالم الإسلامي أربع محامل سلطانية من القاهرة ودمشق وبغداد وتعز، كل على انفراد رغم قلة معلومات بروكييه عن تفاصيل شعائر الحج والأماكن المقدسة الإسلامية، فإن معلوماته ووصفه لطريقة استقبال المحمل تتسم بالدقة، فيلاحظ الفرق بين الجمل الذي يحمل الكسوة وبين المحفة التي كانت تحمل في العادة على جملين أو بغلين.

ويظهر بروكييه اهتمامًا كبيرًا بالخيول العربية الأصيلة، ومعلوماته عنها دقيقة، فهو يؤكد اهتمام العربي بالخيل، ويذكر أن الأغنياء من العرب يتحدثون مع ضيوفهم في الإسطبل الأمر الذي يحرصون من أجله على نظافته ورطوبته، وكان هذا أمرًا طبيعيًا في عصر كعصر المماليك اعتمد فيه على الخيل في الحرب. ونجد أن الإسطبلات السلطانية كانت تحت إدارة خاصة عرفت باسم «الركاب خاناه»، وكان «ناظر الإسطبلات» من الوظائف المهمة في الدولة، وذكرها المقريزي بقوله: «إن هذه الوظيفة جليلة القدر»، ويذكر بروكييه أن ثمن الحصان كان يبلغ مئة وخمسين دوكة، ولكن أثمان الخيول الكريمة كانت تبلغ أضعاف هذا المبلغ، ويذكر المقريزي أن ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا بلغ الستين ألف درهم والسبعين ألف درهم، وكان السلطان يخلع الخيول على الأمراء والمقربين إليه مرتين في السنة: الأولى عند خروجه إلى مرابط خيوله، والثانية عند لعبه الكرة في الميدان.

ويهتم بروكييه بألبسة المسلمين اللذين لقيهما في طريقه إلى طبرية، فيصف بدقة «الكلوتة» التي كان كل منهما يلبسها على رأسه بدون عمامة، وهي ذات قرنين منعطفين إلى أسفل عينيه ومصنوعة من الصوف الأحمر، ويذكر المقريزي أن هذه الكلوتات عرفت بالكلوتات الجركسية، ويظهر أن هذين المسلمين كانا من العساكر العاديين لأنه يذكر أن أكمام قباءيهما كانت عريضة، فقد كان الأمراء والمقدمون وأعيان الجند يتميزون بلبس أقبية قصيرة الأكمام.

كان الغرض الأساسي من رحلة بروكييه إلى الشرق الأدنى الإسلامي هي جمع المعلومات اللازمة لإعداد حملة لغزو البلاد والاستيلاء على القدس والأماكن المقدسة، ومن أجل هذه المهمة المقدسة نراه يهتم اهتمامًا خاصًا بوصف الموانئ والمدن التي يمر بها وتحصيناتها ودرجة مناعتها في وجه الغزو. ثم يصف الأسلحة التي يراها ويحاول إثارة الغربيين لنجدة إخوانهم المسيحيين في الشرق الذين يصيبهم ظلم العرب، ولتخليص الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين بسبب ما يلقاه الحجاج إلى هذه البلاد من معاملة قاسية.

ومعلوماته فيما يختص بالموانئ والمدن ذات قيمة كبيرة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية، فيذكر بصدد الموانئ ما إذا كان الميناء صالحا لاستقبال السفن، ثم يصف تحصيناته إن كانت هناك تحصينات «فميناء عكا يصلح لرسو السفن؛ عميق وغير مسور»، «وميناء يافا ضحل سيئ»، ويهتم فيما يختص بالمدن وأسوارها وفنادقها وقلاعها، ومما يدل على بالغ اهتمامه بالقلاع تتبعه أخبار قلعة دمشق، فلم يفته أنها تخضع للسلطان مباشرة وأن نائبها مستقل عن نائب دمشق، وأنه لا يسمح لنائب دمشق بدخولها، ويتفق في معلوماته هذه مع وضع قلعة دمشق عند مؤرخي هذه الفترة، فيذكر القلقشندي: «أن نائبها لم يكن يمكن أحدًا من طلوعها».

ويبدو اهتمام بروكييه بالأسلحة في إطالته في وصف سيوف دمشق التي «هي خير السيوف وأفضل ما يصنع في سورية»، فيصف طريقة صقلها، كما يصف مرايا الفولاذ التي تعكس الضوء فتولد النار في الأشياء. كما يبدي اهتمامًا بالغًا بالمقذوفات النارية التي كان أهل بيروت يطلقونها احتفالاً بالعيد، فتحرى عن صانعها وعن طريقة صنعها، وألح على الصانع أن يوقفه على طريقة صنعها، وقدم له رشوة من أجل هذا الطلب، فوقف على السر وأخذ معه إلى أوروبا نموذجًا من هذه المقذوفات، كما اجتذب القوس اهتمامه فتحرى عن استعماله.

ويشير بروكييه إلى الظلم الذي كان يقع على النصارى من أهل البلاد والقسوة التي كان الحجاج يعاملون بها في البلاد المقدسة، ويحاول بهذا إثارة الغربيين لنجدة إخوانهم في الدين بالاستيلاء على الأماكن المقدسة، فهو يرى: «أن خضوع القدس لحكم العرب القاسي يلحق العار بالعالم المسيحي ويحزنه».

وتلقي رحلة بروكييه ضوء على فئة التراجمة والأدلاء الذين كانوا يقدمون خدمات كبيرة للحجاج، تصل أحيانا إلى تعريض أنفسهم للموت في سبيل القيام بواجبهم نحو المسافرين بسبب جشع الموظفين وبعض اعتداءات قطّاع الطرق، ونجد في تقارير العديد من الرحالة الأجانب ما يدل على أن التراجمة على العموم كانوا كرماء في معاملتهم للمسافرين، ورغم ذلك لا يزجي بروكييه الكثير من الثناء على خدمات هؤلاء بسبب ما كان يحمله من فكرة مشينة عن أهل البلاد بوجه عام، وبسبب ما كان يقوم به المكارون وأصحاب الدواب أحيانا من محاولات للحصول على مبلغ من المال أكبر من المتفق عليه. ورغم الموقف العدائي المسبق للجاسوس بروكييه إلا إن رحلته تكشف لنا أنه رغم أن الحروب الصليبية قد ألهبت المشاعر العدائية على الجانبين بالفعل، ولكنها كشفت أيضا لكل من الجانبين أن «الآخر» إنسان، وأنه يحمل من الخصائص والخصال الإنسانية الحقيقية ما يجعل التعامل معه أمرًا ممكنًا. وأن الناس في حياتهم اليومية لا يكونون على الدوام أسرى الأفكار والرؤى الأيديولوجية التي يروجها أبناء النخبة الذين يربطون أنفسهم عادة بمصالح الحكم وطموحاته وإنما يبحثون عن ما ينفعهم.

أبو القاسم

جاك صبري شماس
شاعر سوري

آثرت من شغفت به العلياء
وتكلمت بشموخه الأصداء

والكون كبر بالرسول مبشرا
وتدفقت بغمامه النعماء

وهفا أريج الشرع معسول الندى
وتضوعت حلل الثرى وسماء

وسرى بيان النور يسكب فيضه
وانجابت الفحشاء والظلماء

هذا «محمد» إن تسل عن وحيه
فخرا تجبك الأنجم الزهراء

طافت به الدنيا تروم مقامه
ويهل في نبل المقام.. ضياء

وهوت عروش الكفر في حفر الردى
وانزاح ليل جائر ودهاء

وخمائل العرفان تبسط يمنها
وتفيأت بالنشوة الأحياء

والضاد في برد العروبة درة
عرباء طرز بردها الآلاء

وزهت فتوحات توضأ دربها
وشدا على درب الفتوح دعاء

واختال نور الله في حلل التقى
وامتد طهر في الدنى وبهاء

وصحائف التاريخ أفرد حسنها
زهو الحروف وكلمة سراء

هي خير ما أبلى الكماة وأثمرت
كف الجهاد وما أجاد بلاء

لا يأبه النور العظيم من الدجى
مهما استبدت ليلة سوداء

أغروك في مال وسيب مناهل
لم يجد إغواء ولا إغراء

ومضيت بالنهج القويم مجاهدا
يحدوك صبر همة وذكاء

قلمت أنيابا تطاول لؤمها
وانهار شرك طغمة ورياء

والمجد أورق عزة ومهابة
واخضر في حقل الأنام إباء

في أمة «وسط» تبارك شرعها
وبها تجل فريضة، وأداء

وغدا رسول الله في شفة المدى
غيثا تشهت ثغره البيداء

فلأنت أبلغ من ملاحم «عبقر»
وبكل ما أسدى به الحكماء

لله أنت بكل قول خصلة
مثلي يحاكي نبلها العظماء

يا سيدي عذرا إذا شط النهى
وتباينت في معجمي الآراء

قلق أنا تبكي المراثي في دمي
ويهز شاهدة الضريح بكاء

المسجد الأقصى يحز وريده
بغي وترتع بالتقى الأرزاء

والساح قد خليت يشاغل سيفها
رقص وتدبك بالنزال إماء

والقدس مازالت تئن من الشجا
يلهو بعقر حياضها الدخلاء

والغرب يضمر للعروبة حقده
وتحاك فيه دسائس نكراء

كيف المسرة والحراب بظهرنا
وكأننا في أرضنا غرباء؟

لا تصلح الدنيا إذا انحرف الهوى
واختل في كف الطغاة قضاء

خلعت مطارفها الشكيمة والندى
وتدثرت بالذلة الهيجاء

لولا انحناء الهام ما جثم الخنا
وجثا الهوان وخيبة وجفاء

«والظفر لم يهجر رضاء لحمه»
إلا إذا خذل الحمى القرباء

يا سيدي مسك الختام بأمة
عظمى ترصع صدرها الأضواء

مهما الشدائد أعولت وتكالبت
فلأنت مشكاة الورى ورجاء

التمتع بالطاعة

محمد فتحي النادي
باحث في الفكر الإسلامي

الإنسان الحر المكلّف هو القادر على إتيان الخير والشر.. ووقوع الإنسان في المعاصي أصل مركوز فيه؛ لما رُكب فيه من الشهوة، ولإحاطة الشياطين به بتزيينها وإغوائها.. فآدم عليه السلام عصى ربه وأكل من الشجرة، هذا الإنسان الذي سجدت له الملائكة، ورأى خلْقَ زوجه منه، ودخل الجنة هو وزوجه يأكلان منها رغدا حيث شاءا.. رغم كلّ هذا يواقع المعصية، ويستمع لوساوس إبليس.. ولكن ميزة آدم عليه السلام أنه ندم وتاب عما اقترف في حق نفسه..

وقد صور ربنا ذلك في أكثر من موضع فقال جل جلاله:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة: ٣٥-٣٧).

لقد كان للذنب الأول عنده رهبة وخوف شديد منه؛ لذا بادر بالتوبة..

وهذا ما لم نتعلمه من أبينا آدم، فنأتي الذنب وقد نندم عليه، لكنه ندم مصطنع وليس حقيقيا؛ لأنه لو كان حقيقيا لأقلعنا عنه، وتبنا منه..

لكننا نُظهر بعض الأسى والندم، ثم نعاود مواقعة الإثم نفسه..

الوجل والخوف الذي كان في القلب يخف مرة بعد مرة كلما اقترفنا ذلك الإثم، وفي النهاية نُقدم على الإثم بلا خوف أو وجل، ننسى الرقيب.. ننسى العقاب من ربنا، أو حتى العتاب.

إلى جانب ما سبق، فإن اللذة التي تحدث عند اقتراف المعصية نبدأ في فقدانها كلما أكثرنا منها، يقول ابن قيم الجوزية: «إن كثيرًا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ولا داعية إليها إلا لما يجد من الألم بمفارقتها».

وهذا ما يسمى إلف المعصية، حيث أصبحت قلوبنا لا تتمعر من رؤيتها، أو النفور من مرتكبيها، أو التأثم والتحرج من مواقعتها وإتيانها.

وكما أن هناك إلفًا للمعصية بألا يستشعر المرء وخز الضمير من كثرة إتيانه للمعاصي، فتتبلد مشاعره، ويموت قلبه.. كذلك أرى أن هناك إلفًا للطاعة.. فالإنسان قد يؤدي الطاعات بطريقة ميكانيكية آلية، ولا يترتب على طاعته تغيير في سلوكه، أو حلاوة في قلبه..

فعندما كنّا ملتزمين في مقتبل العمر كان للصلاة حلاوة، وللقرآن حلاوة، وللأُخُوّة حلاوة ...إلخ.

فنحن نحتاج إلى حضور القلب، والتمتع بالطاعة، والإقبال على الله، كالطفل الذي فقد أهله، فشعر بالضياع، وعندما وجد أمّه أقبل عليها يجري مناديًا لها، داخلاً في أحضانها..

فنحن نحتاج بين وقت وآخر أن نذكر أنفسنا بحلاوة ولذة الطاعة والانتباه لها؛ لأن كثرة المخالطة للأعمال وكذلك للمشاهد يفقدنا الإحساس بها وتذوقها..

فنحن نعيش في هذا الكون البديع المتسق المعجِز، ونرى الآيات الكونية الدالة على عظم الخالق، ورغم ذلك لا نتأثر لمشاهدتها، يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: ١٠٥).

فالألفة حجاب..

فلننزع هذا الحجاب حتى تتكشف لنا المعارف والأذواق والمشاهد والتجليات..

اللهم ارزقنا حلاوة للطاعة.. وقربا منك.. وإقبالا عليك.



الذبّ عن مذهب مالك

في شيء من أصوله، وبعض مسائل من فروعه، وكشف ما لَبَّس به بعض أهل الخلاف وجهله من مَحَاجِّ الأسلاف للإمام محمد بن أبي زيد القيرواني

إعداد: د. الطاهر خذيري
باحث في وزارة الأوقاف الكويتية

التعريف بالكتاب:
الفن: الفقه المقارن.
سنة النشر: 1432هـ/2011م.
رقم الطبعة: الأولى.
عدد المجلدات: مجلدان.
إصدار: الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب.
تحقيق: د.محمد العلمي

كتاب «الذّبّ عن مذهب مالك»، لمالك الصغير أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، نقدمه للباحثين والمهتمين بعد أحد عشر قرنًا من تأليفه، ولا تخفى على الباحثين قيمته العظيمة، باعتباره أحد أهم مصادر البحث الفقهي المالكي المقارن؛ فهو كتاب يعرّفنا بمرحلة مغمورة من تاريخ الجدل الفقهي في المذهب المالكي بالغرب الإسلامي؛ إذ المعروف المقرر أن مالكية المغرب والأندلس والقيروان إنما اختصوا بالاجتهاد الفقهي لتفريع المسائل وتخريجها، وتطبيقها في الجوانب العلمية والاجتماعية؛ كالفتاوى والنوازل والقضاء والأحكام، والوثائق والشروط، والسياسة الشرعية، إضافة إلى مصنفات يصعب حصرها فيما فرضته حاجات الناس، من مسائل أفردها العلماء بالتأليف في العبادات؛ كالمواقيت والزكاة والمناسك، وفي المعاملات؛ كالأنكحة والبيوع والالتزامات، والتبرعات، من وصايا وهبات وأحباس، وفي الفرائض والحساب، وغيرها.

ولهذا يمكن القول: إن مالكية المغرب لم يشتهروا بالجدل المذهبيّ والتأصيل الفقهيّ للمسائل، على غرار نظرائهم من مالكية العراق، الذين برّزوا في ذلك، وعُرفوا به أكثر من مدارس المذهب المالكيّ الأخرى آنذاك.

وبناء عليه، فهذا الكتاب النادر النفيس قَبَس مما ألفه مالكية المغرب الإسلامي في مجال الاستدلال والحجة والتأصيل والجدل الفقهي مع المذاهب المخالفة، وهو يحتوي حوالي أربعين قضية من مسائل الخلاف بين المالكية والمذهب الظاهري، بسط فيها الإمام ابن أبي زيد القيرواني الحجج والقواعد والأدلة الشرعية عليها، وتفنن في بيان الوجوه والعلل والمعاني التي عليها بنى الإمام مالك اختياره فيها، كما صدّر كتاب الذبّ بمقدمات عامة، خصصها لتوضيح المفاهيم الأساسية المتعلقة بالرأي والاجتهاد والتمذهب، والقواعد والآداب اللازم احترامها عند الاختلاف بين العلماء بما يجعله للأمة كما ورد في الآثار.

وإضافة إلى قيمة كتاب الذب عن مذهب مالك العلمية، ومنزلة مؤلفه في المذهب المالكي، فإنه وثيقة فقهية قديمة ونفيسة، كانت معرضة للضياع، بسبب أنه لم يصلنا منه سوى مخطوطة فريدة محفوظة بمكتبة تشستربيتي بدبلن عاصمة آيرلندا، وهي المخطوطة التي تجنب الباحثون والدارسون تحقيقها، لسببين: ما اعتراها من الطمس الكثير في جلِّ أوراقها، بحيث يُخيّل للمطلع عليها أن إخراجها وتحقيقها متعذّر، وثانيهما: أن موضوعها هو الفقه المالكي، وحججه، وعلله، وتفاصيل مسائله الموزعة في كل أبواب الفقه، بحيث لا يتيسر لغير الممارس المتمكن من المذهب المالكي معاناة تحقيقه وإخراجه على الوجه الصحيح.

ومما يستوجب التنويه، ما بذله محقق الكتاب د.محمد أحمد العلمي من جهود مضنية في سبيل تحقيق الكتاب وضبط نصوصه، وقد أمضى في سبيل ذلك سبع سنوات من العمل الدؤوب، تمكن فيها من قراءته وتوثيقه وتقريبه للباحثين والقراء، متغلبًا على الصعوبات التي منعت من تحقيقه فيما سلف.

وكتاب «الذب»، ألفه ابن أبي زيد رحمه الله؛ ردًّا على كتاب لأحد فقهاء الظاهرية ينتقد فيه مذهب الإمام مالك، وينقض مسائل مذهبه، سماه:

«التنبيه والبيان عن مسائل اختلف فيها مالك والشافعي».. وقد اعترض فيه على الإمام مالك في بعض أصوله، وفي سبع وثلاثين مسألة من فروعه، ودارت هذه الردود على لمز مالك وثلبه بمخالفة السنة والإجماع والسلف، وبتشريع ما لم يأذن به الله! فتصدى ابن أبي زيد القيرواني، رحمه الله، في هذا الكتاب لتفنيد ما جاء به الظاهري المذكور من أقاويل وشبهات، وكشف ما فيه من زيغ وضلالات، وحاذى ما ذكره في كتابه مسألة مسألة، وقضية قضية، وشبهة شبهة، واعتراضا اعتراضا، فجاء كتابه على وزان «التنبيه والبيان» في الترتيب، إلا أنه صدره بثماني مقدمات للردود الأصلية عليه، قبل التفصيل معه في المسائل التي رد فيها على مالك، لينقضها عليه كاملة مفصلة.

وقد أبان كتاب الذب عن قوة عارضة الشيخ ابن أبي زيد في الجدل المذهبي واختلاف العلماء، ودرايته الراسخة بأساليب الخلافيات وأصولها ومسالك الاعتراض والانفصال والمعارضة، مع فحولته المعروفة في تحقيق المذهب وتخريج مسائله على أصولها.

ومن الغريب أن ابن أبي زيد لم يحظ منه صاحب (التنبيه والبيان) بشرف ذكر اسمه، ولا بأي شيء يعرّف به ،أو يرفع الجهالة عنه، وبابن أبي زيد اقتدى الناس، فلم يذكره أحد من أهل المذهب ولا أصحاب الخلاف ولا المؤرخين أصحاب التراجم ولا أصحاب الفهارس والمشيخات، وصنيع المالكية مع صاحب التنبيه والبيان هذا قريب مما سلكوه مع رجل آخر بعده بقليل، وهو شافعي من أهل الأندلس، ألف رسالة ردّ فيها على مالك وتهجم عليه، ووقع فيه وانتقص منه، فرد عليه ابن الفخار الحافظ (ت ٤١٩) في رسالته المشهورة بـ «الانتصار»، وبالغ منذ العنوان في تجهيل هذا الرجل فسماه كما ورد في بعض المصادر: «الانتصار لمالك من اعتراض حائك يقال له قرمور، وما هو معروف بالعلم ولا مشهور».

وهذا السلوك من ابن أبي زيد وابن الفخار وأهل المذهب من بعدهما، ينبئ عن معاملتهم للناقد بنقيض مقصوده، وتنبيه خفي على أن ثلب الأئمة ليس طريقا ممهدًا إلى الشهرة وانتشار الذكر، فهم يردون على الناقد أولا، ثم يلبسونه سرابيل الجهالة وإخمال الذكر بعد ذلك.

وبخصوص الخطوط العامة لعمل المحقق في تحقيق كتاب (الذب عن مذهب مالك)، فقد قسم دراسة الكتاب إلى ثلاثة فصول، هي:

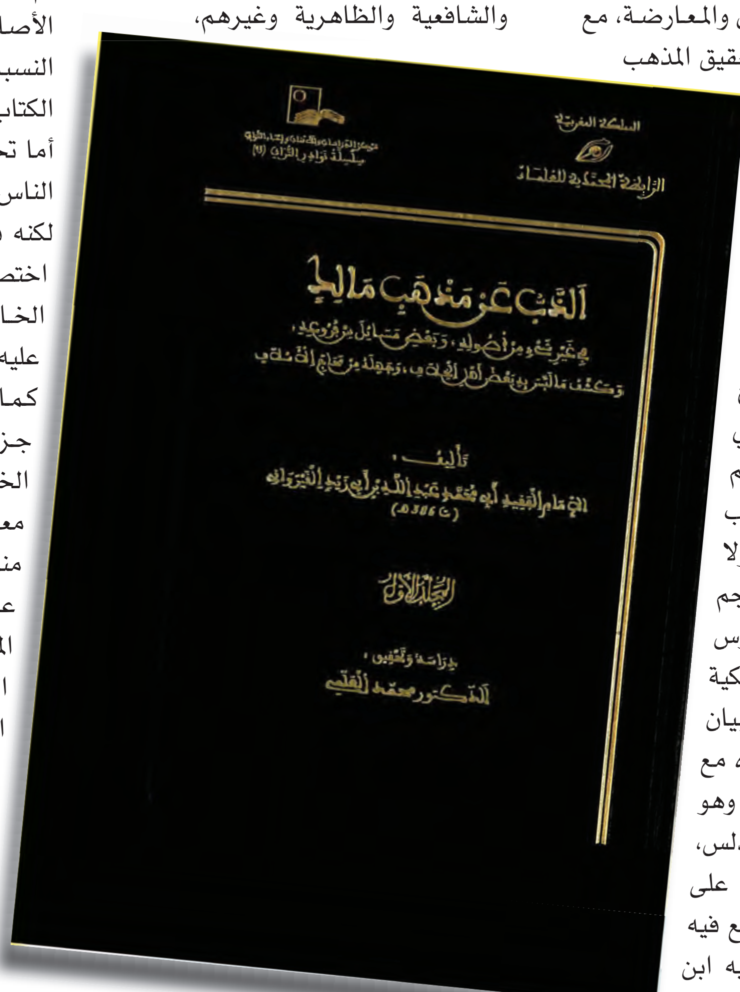
الفصل الأول: في بيان موضوع الكتاب، تعرض فيه للتعريف بجهود المالكية في موضوع (الذب عن مذهب مالك)؛ فذكر المؤلفات التي احتوت هذا الجانب، وهي مؤلفاتهم في الرد على الحنفية والشافعية والظاهرية وغيرهم، ومؤلفاتهم في نصرة المذهب وترجيحه وفضائل الإمام مالك والمدينة، ومؤلفاتهم في أدب الجدل وقواعده، ومؤلفاتهم في مسائل الخلاف، ثم تعرض فيه لصلة المالكية بأهل الظاهر في مدارس مذهبهم الكبرى، وما أنتجه من مناقشات ومؤلفات.

الفصل الثاني: في ترجمة ابن أبي زيد؛ حيث عرّف به بالطريقة المعهودة، ولم يقصد إلى التوسع والاستقصاء، إلا أنه اجتهد في تتبع تلاميذه الأندلسيين، طمعًا في العثور على ترجمة لناسخ المخطوط، ومن سمعه وقابله.

الفصل الثالث: التعريف بكتاب الذب عن مذهب مالك، وبطريقة عمله في إخراجه، وقام في هذا الفصل بالتعريف بمحتوى كتاب الذب عن مذهب مالك، ومنه لخّص محتوى كتاب التنبيه والبيان الذي يرد عليه ابن أبي زيد في الذب، وفصَّل في هذا المبحث مضمون الكتابين وطريقتهما ومنهج مؤلفيهما فيهما.

ثم عرّف بالنسخة المصورة عن المخطوطة الأصلية، وما يصحب ذلك من توثيق النسبة وبيان اصطلاحاته في قراءة الكتاب وإخراجه.

أما تحقيق الكتاب فلم يخرج عن معهود الناس في قراءة المخطوطات وإخراجها، لكنه في كتاب الذب عن مذهب مالك اختص بصعوبات جعلته ينتهج طريقته الخاصة في إخراج النص والتعليق عليه؛ فالنسخة الوحيدة كثيرة الطمس كما سبق، ومضطربة الترتيب في جزئها الثالث، وموضوعها- وهو الخلافيات- قليل عند المالكية كما هو معروف، وما هو مخطوط أو مطبوع منها نزر يسير؛ لذلك ركَّز المحقق على التغلب على الطمس، وترميم المتن، بكل ما يستطيع، بحيث كانت العقبة الكؤود والمهمة العسرى هي استنقاذ الكتاب، والتغلب على ما فيه من انبهام وطمس، تجعل قراءته متراوحة بين الصعوبة والاستحالة.



• عرض الكتاب مقتبس من مقدمة تحقيق الكتاب.

منطق العمران بين التأنس والتوحش

د. هبة رءوف عزت
باحثة أكاديمية

نحتاج اليوم أن نتوقف طويلا أمام فكرة ابن خلدون عن مدار التاريخ وتحولات الاجتماع، قبل أن نتحدث عن تغيير مأمول أونهضة منشودة في واقعنا العربي والإسلامي، وإذا كان تأسيس المُلك على العصبية ومراحل صعود وهبوط الدول هي أهم ما انشغل به الباحثون في فكر ابن خلدون؛ فإن هذا المقال ينطلق من فكرة مركزية غابت عن البحث والتحليل، ألا وهي منطق دوران المجتمعات «بين التوحش والتأنس»، وهو ما ذكره القرآن من تغير الأنفس بالإعراض عن المنهج واتباع الهوى الذي يورث سلب النعمة.. أو رفع البلاء بتغيير الأنفس وإصلاح القلوب.. ويذهب هذا المقال إلى الحاجة الماسة للانتقال في التفكير في النهضة من أولوية السياسي /الدولة/ المؤسسي إلى مبدئية العمراني / الإنساني / النفسي، في فهم مفاتيح التغيير ومناط التحولات التي شهدناها ونشهدها في مجتمعاتنا العربية الراهنة، وذلك في ضوء بعض مداخل مقدمة ابن خلدون.. ثم ينظر في درس المنهج وأهمية تجديد التفكير في مداخل التغيير.

يقول ابن خلدون:

«اعلم أن حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر، بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال». وهنا يشير ابن خلدون إلى حقيقة التاريخ بلفظة «الاجتماع الإنساني»، فهو يشير إلى أن قراءته أشمل وأوسع من النظرة المعتادة لـ«التاريخ» باعتباره رصدا للأحداث السياسية، أو التاريخ العسكري وسقوط الأمم، أو علوّ شأنها، بقدر ما يعني في جوهره «أحوال الاجتماع الإنساني» ككل، بما يطرأ على أفراده من تغير في مبادئهم الإنسانية وأخلاقهم وأثر ذلك على النهضة والسقوط. بما يذكرنا بحديث رسول الله ﷺ حين سُئل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم.. إذا كثر الخَبَث».

وفي استخدام ابن خلدون لتعبير

«التوحش والتأنس» دقة بالغة في وصف التغيرات التي قد تطرأ على الأحوال الاجتماعية للأمم، حيث إن التمسك بالمعايير الأخلاقية هي عملية متغيرة تميل إلى الصعود والهبوط، متأثرة بما يجدّ على الواقع من أحداث وظروف، وليست نعتا ثابتا أو وصفا لصيقا، لا يتغير لأية أمة مهما بلغت، فقد قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقال الله: إنهم بشر ممن خلق، وقرن خيرية أي أمة بالعمل، ثم قال: وإن تتولوا.. يستبدل..

وفي التاريخ أمثلة كثيرة لأمم انتكست فيها القيم الأخلاقية، فارتكست حضاراتها، لذا نحتاج لفهم أعمق لما كان يعنيه ابن خلدون بأهمية دراسة علم الاجتماع الإنساني، تفاديا للصور النمطية المثبتة عن المجتمعات، كأن توصف بالتمدن والحضارة رغم تنامي معدلات التوحش والعنف الاجتماعي، أو توصم إحدى الشعوب بميلها إلى العبودية أو اللاأخلاقية رغم تطورها وتنامي الالتزام بالفضائل الدينية والمدنية لديها.. فنسقط بذلك في مستنقع العنصرية البغيض.

كان ابن خلدون يرى مثل روسو الذي جاء بعده بقرون أن الخير في الإنسان مقترن بتكوينه الفطري الأول، وبنمط حياته البدائي الطبيعي. وأي بعد عن خصائص وصفات البراءة الأصلية للفطرة الإنسانية في تاريخها الأول، قبل تأسيس الدول والكيانات المؤسسية الهرمية، يؤدي حتما إلى إصابة الطبيعة البشرية -الخيرة أساسا- بآفات تأسيس المُلك وسكنى الحضر والبعد عن الطبيعة، ومن ثم يأتي تحول الطبيعة الإنسانية إلى طبيعة أنانية، وتغطي الفطرة النقية طبقات من التعقيدات التي تحجبها عن أصلها وذاتها، ثم تفسد الأخلاق وتضعف القيم، وعندما تصير هذه ظاهرة اجتماعية في مجتمع أو حضارة فلا يتناهون عن منكر فعلوه، فإن التفكك والانهيار يصبح المصير المحتوم لهم.

النفوس البشرية على ثلاث أصناف: حس وإدراك واصطفاء

وساهم ابن خلدون في تحليل الأخلاق في سياق نظرته للعمران، فربط بعضها بالمناخ والجغرافيا، وفي تفسيره لعلم النفس الاجتماعي والبنية النفسية للمجتمع تحدث ابن خلدون عن اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع، وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان الخلق وأخلاقهم، فالظروف المحيطة بالإنسان تؤثر على رؤيته للقبيح والحسن، فتُعِين أو تخذل الفطرة الأولى، وهو أمر غفل عنه الكثير من العاملين في حقل الدعوة في سياقنا المعاصر، فظنوا أن محض إرادة الفرد تغير سلوكه، غافلين عن الشرط الموضوعي، وعلاقات القوة والسلطة المحيطة به، لذا كانت غاية الإسلام تغيير الفرد بالتوازي من تغيير أبنية القوة والسلطة وموازين الأحكام وشبكات المصالح ومعايير المكانة الاجتماعية، بخلق مساحات للمجال العام وكسر اقتران المكانة الاجتماعية بالعصبية القبلية، أو الجنس، أو اللون، وإعادة توزيع الثروة، وبث روح جديدة بالتآخي بعد الهجرة، وتأسيس دولة مدنية على دستور سياسي وأخلاقي.

- وتميز تحليل ابن خلدون بأنه ميز بين أمزجة البشر وقدراتهم، لأن ذلك مدخل مهم لمعرفة قدراتهم النفسية وحدود تعاملهم مع الواقع ومداخل تغييرهم ومخاطبتهم وتفعيل وعيهم، وهو ما يتسق مع المنهج القرآني الذي خاطب أصناف الناس بأساليب شتى، والمنهج النبوي الذي راعى نفوس البشر وخصوصية الفردية في كثير من المواقف، من تنوع الإجابات على نفس السؤال لمعرفته بحال صحابته، إلى وصفهم بصفات وسمات متنوعة لإدراكه لنقاط قوة وضعف كل واحد منهم، إلى معرفة نفسية أبي سفيان في الفتح وأنه رجل يحب الفخر، فمنح داره مجال الأمان.. وهكذا.

يقول ابن خلدون: إن النفوس البشرية على ثلاثة أصناف: صنف قدراته تنحصر في المدارك الحسية والخيالية.

وصنف يتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول للبشر، لفضاء الوجدان، وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم الدينية والمعارف الربانية، أما النوع الثالث فهم المصطفون الذين هيأ لهم الله أرواحهم وأبدانهم لتلقي الوحي الكريم، وهم الأنبياء.

كما راعى اختلاف أثر التجربة واللحظة التاريخية على منهج التفكير حين تحدث عن اختلاف الأجيال، واختلاف الأفهام لاختلاف طرق العيش والحرف والصنائع فقال: «اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم في المعاش... ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد

على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها، وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر، ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت، واستجادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها، من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالاة البيوت والصروح». فالتحولات السكانية والعمرانية وطبيعة الأعراف والتقاليد التي تنشأ، تؤثر على مسارات السلوك الإنساني والاجتماعي، والوعي بالحقيقة والحقوق، وشبكات المصالح ونسيج التضامن المجتمعي، وتغير سياقات الفعل وحدوده، فالأبعاد المتعلقة بالمكان وبالمساحات وما ينبثق عنها من أحوال وعادات مهمة في فهم سبل ومداخل التغيير والنهضة، وكيفية استعادة القيم الفطرية والخيرية في مواجهة منظومات العيش في الحضر وغلبة المادية والنفعية.

ومن هنا كان الوقوف على ما قد يشمله مفهوم «التعقيد المؤسسي» بعلم الاجتماع والعمران من ظواهر، والتمييز بين الريف والحضر والبادية في مناهج التغيير، وفهم الثقافة المحلية والمكانية كمفتاح للتعامل مع تفاصيلها الساكنة في الحياة اليومية، وفي إطارها يتم التراوح بين الإنسانية.. والتوحش، أو الخيرية الفطرية.. والجاهلية.

فقد رأى ابن خلدون مثلا أن «أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر، والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم، والحاكم الذي يسوسهم، والحامية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم، والحرز الذي يحول دونهم، فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد، فهم غازون آمنون، قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال... ويستكمل: إن معاناة أهل الحضر للأحكام (أي الخضوع لحكم مؤسسي) مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم».

والقراءة المتأنية لابن خلدون تكشف عن فهم عميق للسنن ولمعنى الدورات التاريخية، وتكشف عن جوهر التحدي الذي يواجهه الإنسان في هذا العالم، فالعصبية تسير نحو الملك وتأسيس الدولة والانتقال من البداوة للحضر، وبها تقوم النهضة، لكن هذه في ذاتها تنزع عن الإنسان خصال الفطرة الأولى الرابطة بالكون الطبيعي، وتضع بينه وبين العالم الواسع وبين نفسه التي بين جنبيه الحواجز والعوائق وتغير النفوس والطباع، وهذا هو التعبير الواضح عن الاغتراب كظاهرة تقترن بعملية التحضر التي لا يمكن وقفها أو تعويقها، ومن هنا كان الدين هو العاصم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الروافع التي تحمي من السقوط في الزلل، وتعين على الحق والصبر عليه. هذه الجدلية الدائرة عبر الحياة الإنسانية والتواريخ البشرية بين شروط النهضة وعوامل السقوط، هي الكدح الذي وصفه القرآن، وهي السعي الذي كتبه الله على بني آدم.. أفرادا وجماعات.

وابن خلدون يدرك المادي لكنه يقرنه بالأخلاقي، ويدرك صلتهما بالسياسي وموازين السلطة: فيقول: «النسب متوقف على الخصال، وكأن شرف النسب يحدده شرف المروءة والأخلاق المتواترة في العوائل، لا الأعراق المتوارثة في القبائل، وعليه يكون مناط الحكم والاحتكام فيها، ولو كان شرف النسب بحد السيف لأصبح «حكم المتغلب» لا غير».

وهو ما يذكرنا بحوار سقراط عن العدالة في الكتاب الأول من جمهورية أفلاطون، أن العدل ليس حكم القوي بل هو دور من يحكم في رعاية مصالح العباد، لكن ابن خلدون أدرك أن القوة وحدها لا تصلح، وأن الواقع النفسي والاجتماعي هو الأساس، وفي ذلك يخالف الفارابي الذي قرن المدينة الفاضلة بطبيعة الرئاسة فيها، وشبه الرئيس في الدولة بالخالق في الكون القائم على رعاية العالم، وهو تشبيه يدفع لتركز فكرة الإصلاح في رأس الهرم، ويخلق منظومة تراتبية في حين أن التصور الإسلامي عند ابن خلدون أكثر حيوية وفعالية، ويستوعب دوائر الاجتماع ومنطق العمران الذي أنتج نظم الحكم وسبل التغيير الممكنة نحو التجديد والنهضة.

يمكننا أن نسرد الكثير من الأفكار والاقتباسات من عالم الفلسفة الإسلامية وكتابات

الشوامخ من علماء القرون وفقهاء التراث، لكن الأهم هنا في استعادة الوعي بالبعد الإنساني والاجتماعي في التجديد والنهضة، هو أمران: أولا: استيعاب التاريخ في حركته ومنطقه، وليس في أحداثه ومحاكاتها، وفهم تاريخ العالم، وسنن الله في الأنفس، واستعادة الوعي بالبشرية، فالعقل العربي بقي لعقود طويلة في أسر تصورات نظرية بالغة العمومية عن النهضة، وانفرد المفكرون والمصلحون بالحديث عن النهضة، في حين انشغل الخبراء في المجالات المختلفة بالعمل في مواجهة الهيمنة الغربية على العقل العلمي.. ونظرا لأن الجدل حول العلوم الطبيعية يقل فيه البعد الحضاري ويغلب بعد التسابق إلى الأحدث من الاكتشافات والنظريات العلمية، فقد بقي الجدل الفكري «أيديولوجيا» وليس عمرانيا بدرجة كبيرة.

ويكاد المطالع لكتابات المفكرين العرب في القرن الماضي بطوله لا يجد حديثا عن نماذج النهضة غير العربية، فقد نظر الناس تحت أقدامهم ثم نظروا لأوروبا الاستعمارية بعد صدمة الإمبريالية، وكفى.

لذا سيكون من المهم التوجه شرقا وجنوبا للبحث في نماذج متنوعة من التنمية والنهضة، وتصورات العلاقة بين السياسي والاقتصادي والدولي والقومي، والدولة والمجتمع الغائب، لنستقي دروسا ونتعلم كيف نهضت بعض النماذج وتعثرت نماذج أخرى، وتراوحت ثالثة بين هذا وذاك.

ولعل البدء يكون بمحاور هي: أولا: البناء الفكري يكون نقطة بداية جيدة، فلا يوجد نموذج للنهضة يمكن أن يستغني عن رؤية واضحة للهدف والغاية، ولا للمنطلق والإرث الحضاري، ثم محور ثان: هو الدور الفاعل للقيادة، الفردية والجماعية والشعبية المحلية.

التاريخ وعاء لتفسيرات البشر في الأزمنة

المحور الثالث: هو تنوع صيغ علاقة الدولة بالمجتمع، وأخيرا علاقة مشروع النهضة بالسياق الدولي وتحديات الهيمنة وبناء التحالفات.

ثانيا: الموسوعية والبنية العلمية: فلم يعد يكفي أن يكتب مفكر أو فقيه في النهضة، بل صارت العلوم والخلفيات المتنوعة العلمية والشرعية والاجتماعية واللغوية والتاريخية والقانونية والجغرافية والاستراتيجية، كلها ضرورية كي يتم نسج رؤية متكاملة ومعقدة للنهضة ومساراتها ومستوياتها، وإلا اختلت الأولويات وتعارضت المسارات، ولنا في التحولات الأخيرة في العالم العربي دليل على مشقة السبيل وحتمية التكامل والاجتهاد الجماعي.

وبالنظر إلى ماهية «علم العمران» عند ابن خلدون سنجد أنه ليس ما يُعرف حاليا بـ«علم الاجتماع»، فإن لفظة العمران أشمل وأوسع لاحتواء المعنى الإنساني المقصود، والذي يشمل في سياقاته الزمانية والمكانية المختلفة التعرف على أنماط مختلفة بكل من التعامل والتفكير والمبادئ والعادات والملك والسلطة، أو حتى ما قد يصيب الفرد والجماعة من آفات نفسية، بدنية أو أخلاقية تختلف كلها باختلاف المجتمعات والشعوب محل الدراسة.

لذا تطرق «ابن خلدون» لفكرة «تأسيس العلم»، ففي البدايات ينفتح العقل على معارف شتى ثم يبدأ من بعد في تصنيف فروعها وتخصيص مذاهبها إلى موضوعات، لكلٍ منها أدواته ومناهجه.. ثم العودة إلى المعرفة الموسوعية.

إن «التاريخ» في ذاته هو وعاء احتوى تجارب وتفسيرات البشر في «الأزمنة» و«الأمكنة» المختلفة، ومن هنا تنبع أهميته.

وهنا تتجلّى قيمتا «السّير» و«النظر» اللتان تعدان من لوازم «الوعي».. وعندما نتكلّم عن «الوعي» فإننا لا نعني «المعرفة»، لكن نعني «التّنبه» و«الإدراك» لهذه المستويات المفسرة للتاريخ.

بقي أن نؤكد أن هذا المنهج في التعامل مع التاريخ هو اعتبار النفس الإنسانية والذات الفاعلة هي المحرك له، والشروط الموضوعية سياق لازم، ولأن هذا الفهم من لوازم الاستخلاف وبناء النهضة، فهو ضرورة دينية إذن.. لأن مهمة الإنسان الإصلاح في هذه الأرض، ودفع الباطل فيها وإقامة الحق، وهذا لا يمكن أن يتم حتى نجمع بين النظر في الوحي (الكتاب المسطور)، والعقل (الذي محله قلب يقرأ بسم الله)، وسنن الكون (كتاب الله المنظور أو المنشور وسنن الآفاق)، وذلك كله أثناء «سير» و«سعي» متجدد للحفاظ على الفطرية واستعادة الخيرية للفرد والأمة.. ودفع البغي وإفشاء السلام.. وإقامة موازين العدل.. وحفظ قيم التمدن الإسلامي.. لتتحقق النهضة. والله أعلم.



هل تغيرنا كما تغير عمر؟

محمد صديق- طالب دكتوراه
في جامعة نجم الدين أربكان

يطيب لكثير من الباحثين والمفكرين الحديث عن التغيير الذي أحدثه الإسلام في المجتمع الجاهلي كتجمع أشخاص، وفي أفراد هذا المجتمع كشخصيات بدلت حياتها من مسار تحكمه العادات والتقاليد والولاء للقبيلة إلى مسار يحكمه فقط الولاء للحق دون الأشخاص.. شخصيا تجذبني شخصية عمر بن الخطاب من بين هذه الشخصيات للدخول إلى أعماقها وسبر أغوار هذه الشخصية الفذة، التي صنعت عبر حياتها كثيرا من المفاصل التاريخية التي أثرت في سير الأحداث على عالمها والعالم الذي تلاها.. وعندما يذكر اسم عمر يتبادر إلى الذهن كثير من القيم التي ينشدها أي مصلح أو أي مجتمع يبحث عن حالة من الأمن والعدل والاكتفاء و... و... ولا يغيب عن الذاكرة أثناء استحضار شخصية عمر تاريخه بامتداده الجاهلي الذي قال الناس عنه: لا يسلم ابن الخطاب حتى يسلم حماره(١). معبرين بهذا الجملة عن يأسهم من إسلامه وسخريتهم من مجرد احتمال تفكيره به، وفي الوقت نفسه من عناده وبطشه الشديدين(٢).

وتحكي قصص السير أن عمر كان في طريقه إلى قتل محمد ﷺ لكنه عدل عن ذلك لما أخبر بإسلام أخته وزوجها لتنتهي رحلته في دار الأرقم مسلما بعد ما قرأ بضع آيات من سورة طه، هزت كيانه الإنساني الذي كاد أن يموت بفعل الجاهلية التي كان يغذو بها نفسه(٣).

لا يختلف اثنان أن التغير الذي حدث في داخل هذه الشخصية تغير ناجح لأنه أنتج حالة جديدة من السلوك والفعل والثقافة جعل منه رمزا لمعاني العدل والأمان والاكتفاء والقوة.. وأصبح عمر بحضوره التاريخي قدوة لا تغيب عن بال المجتمعات الطامحة لحالة أفضل.. ولابد من الوقوف عند حيثيات هذا التغير واستنطاق مسكوته ومعرفة شروطه التي أنتجت هذه الحالة، وخصوصا في زمننا الذي أصبح التغيير العنوان العريض لكل حزب سياسي أو مصلح اجتماعي أو... أو...

ومن أهم شروط هذا التغيير وجود خطاب يدعم التغيير.. خطاب قائم على أسس عقلانية ممزوجة بعواطف النفس مما يحدث- حال قراءته- حالة أشبه ما تكون بالصدمة التي لا يستطيع القارئ حيالها إلا أن ينطق بالحق.. وهذا ما حدث لكثير من المشركين الذين استمعوا لآيات القرآن الكريم.

الشرط الثاني: وجود بيئة تدعم هذا التغيير وترحب به في آن واحد، حيث إن من أهم أسباب الإحجام عن التغيير الخوف من انتقاد المجتمع الجامد، أما حين تتوافر البيئة التي تدعم التغيير وترحب به فإن فرص الشخصيات في التغيير يكون أكثر.

الشرط الثالث: وجود قابلية داخلية في النفس البشرية، حيث يكون لهذه القابلية دور الزناد الذي يخلط الكل في عملية تنتج في النهاية التغيير المطلوب، ولا يجب غض البصر عن هذا الشرط، فكثير من المشركين عاشوا في البيئة التي عاشها عمر ولم يتغيروا، وأظن أن هذا راجع إلى هذا الشرط، فمثلا كان من أهم موانع إسلام أبي جهل التكبر الذي امتزج مع شخصيته ومنعه من الإذعان إلى الحق، وهذا واضح في كثير من إعلاناته، ونلمس هذا أيضا في قول الله تعالى على لسان المشركين: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١).

الشرط الرابع: (وهذا الشرط راجع إلى منتج الخطاب ومؤيديه) الصبر على المعارضة النابعة من سدنة العادات والتقاليد إلى حين تمكن الخطاب الجديد من فعل فعله في عقولهم، فعمر لم يسلم إلا بعد فترة، ولكن طوال هذه الفترة كان يرى أمامه الخطاب الجديد متمثلا في سلوك المسلمين الجدد، ولربما كان هناك عراك فكري داخل شخصيته بين ما يشاع عن محمد وأصحابه وبين ما يراه أمام عينه، وهذا كان له دور في تشكيل صورة خلفية إيجابية عن الإسلام أدى بالنهاية إلى إسلامه.. وفي هذا الصدد نسائل أنفسنا- نحن المسلمين- أين التغيير الذي كان من المفترض أن يحدثه فينا القرآن؟ فالقرآن لا يكتفي منا بترديد آياته والإكثار من تكرار ختمه طمعا بعشر حسنات من وراء كل حرف نقرأه فقط، بل لابد من التدبر والتفكر والاتعاظ ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ (ص: ٢٩) فالتدبر هو المقصد، والثواب المترتب على القراءة هو بمثابة الدافع والمحفز للقراءة، وبتعانق التدبر والقراءة نتنج أمثال عمر وغيره من الصحابة الذين غير القرآن حياتهم..

القرآن بكل حروفه وآياته وسوره يصب في صالح تغيير الإنسان ومجتمعه إلى حال يكون فيه الإنسان أقرب إلى سعادة الدنيا والآخرة.

الهوامش

١- رواه الطبراني في المعجم الكبير رقم: ٤٧، والهيثمي في مجمع الزوائد: ٥/ ٤٤٠ .
٢- انظر السيرة الحلبية: ٢/ ٢٠٤.
٣- السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٤١.

أبي.. لسنا في ثكنة عسكرية

عبدالرحمن ضاحي
باحث متخصص في التربية

دخلت الرياح والشمس في تحد.. أيهما يستطيع إزالة معطف رجلٍ يمشي في الطريق، فبدأت الرياح تصدر أصواتا مخيفة وتهيج وتشتد وتزيد من سرعتها لتنزع معطف الرجل، وكلما ازدادت تمسك الرجل بالمعطف أكثر، وبعدما استنفدت كل سرعتها، أمسك الرجل بشجرة واحتمى بها، فاستسلمت الرياح.

وبعد إعلان الرياح استسلامها ابتسمت الشمس، وطلعت بهدوء، وأرسلت أشعتها إلى المكان حتى ملأه الدفء، فبدأ الرجل يشعر بالحر ويتصبب عرقا، وبالفعل خلع معطفه.. وكسبت الشمس التحدي!

وبإسقاط ذلك المثال على أرض الواقع في المجال التربوي نجد أن بعض المربين يختار الأسلوب الشاق الصدامي في التوجيه «أسلوب الرياح» فتجد صدودا عن الأمر وعدم تنفيذ إلا تحت التهديد.. تاركا الأسلوب الأسهل والأيسر في التوجيه، القائم على الإقناع والحوار «أسلوب الشمس» الذي يخلق الاستجابة الفورية للأوامر دون أدنى مشقة.

فأغلب الآباء للأسف يفتقد أسلوب الإقناع والحوار في تربيتهم لأبنائهم، فيتعامل كأنه في معسكر للجيش تعاملا يقوم على الأوامر المنزوعة من السببية أو المناقشة، فأغلب الأوامر تصدر جافة «قم صل»، «لا تستمع إلى الأغاني»، «لا تضيع وقتك» حتى لم يعد فرق بين أولاده وبين الجنود المنفذين للأوامر بلا إعمال للعقل.

التربية بالإقناع.. لماذا؟

واعلم أيها المربي أن استخدامك لذلك السلاح التربوي فيه بناء وتنمية للعقلية السببية لطفلك تعوده منذ الصغر أن يربط بين الظواهر وأسبابها والنتائج ومقدماتها، وتساعده على النجاح في حياته فجميل جدا أن يقتنع الطفل، أو الشاب، أو الإنسان الناضج، بحكمة ما يفعل، فإن ذلك أيسر للتنفيذ القلبي، وأرجى للثمرة من التنفيذ بغير اقتناع» (١).

كما أن استخدام أسلوب الإقناع والحوار مع المتربي فيه حفاظ على كرامته، إذ إن الشرح ينطوي على اعتراف بأهمية المتربي، ويبعدنا عن إخراج نمط «الإمعة» الذي يتصرف كالتابع الذليل، فنحن نريد أن نربي رجلا مستقل الشخصية، متميز الكيان، يعمل ما يقتنع به، فكما قال الأستاذ محمد قطب إنه «لا يجوز فرض الأوامر فرضًا على الطفل دون اقتناع منه بأدائها؛ لأن ذلك يولد في نفسه كبتا ويفسد شخصيته».



كما أن التربية بالإقناع تنمى المبادرة الذاتية عند المتربي فتجده تلقائيا يتجنب الخطأ ويفعل الصحيح بدون رقابة عليه «فإن فرض الأوامر على الطفل دون اقتناع منه بأدائها يشعره بأن ذلك العمل عبء ثقيل عليه، فيحاول التهرب منه، وواجب المربي هو محاولة احترام الطفل من خلال إقناعه بالأمر، كأن يبين للطفل فائدة قيامه بالعمل، ويحليه في عينيه، وعليه ألا يوجه نواهيه إليه بطريقة استفزازية» (٢)، فإهمال التربية بالإقناع خطأ جسيم يقع فيه الكثيرون للأسف، مما يخلف خبثا في نفوس الأبناء، وتفلتا وتهربا ماداموا بعيدين عن الرقابة.

الإقناع والحوار منهج رباني

وبالتأمل في الخطاب القرآني ستجد أنه يعتمد في كثير من المواضع على أسلوب الإقناع وتنشيط العقلية السببية، بالرغم من أنه كان من الممكن أن يكتفي بأمر طاعة الرسول وإظهار معجزاته، ولكن بيان الحكمة يزيد الفاعل قناعة وتمسكا بما يفعل.

يقول الله تعالى في تحريم الخمر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩٠ –

٩١)، وقال في موضع آخر ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة: ٢١٩).
بين الله حرمة الخمر بالإقناع فقال:

١. ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾.
٢. ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾.
٣. ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾.

أما بخصوص الخلق والإحياء فقال في شأن من استنكر خلق عيسى بدون أب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩). فيوجه الله اللوم لمن أنكر مولد عيسى عليه السلام، كيف تنكرون مولده بدون أب وأنتم تؤمنون بمن هو أعجب منه خلقة، فآدم خلق من تراب وبدون أب وأم.

الإقناع والحوار منهج الأنبياء والصالحين

وبالتأمل في أسلوب توجيه الأنبياء لأبنائهم ستجده مفعمًا بأساليب الإقناع والحوار، فعلى سبيل المثال، حين جاء أمر الذبح لسيدنا إبراهيم عليه السلام، جاء إلى ولده إسماعيل ليصارحه ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (الصافات: ١٠٢).

استخدم سيدنا إبراهيم أسلوب الحوار والإقناع مع ولده اسماعيل عليه السلام، رغم أن إبراهيم غير مأمور بذلك، ولو ذبح إسماعيل على حين غرة فليس عليه ذنب أو إثم، ولكنه فضل أسلوب الحوار، فلما قال له ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ وزين أسلوبه ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾، جاءه الرد بمبادرة إسماعيل أن ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾ (الصافات: ١٠٢).

كما تؤكد السنة النبوية على هذا المعنى التربوي المفقود، فحين جاء إلى النبي ﷺ ذلك الشاب الذي يستأذنه في الزنى رد عليه معلم البشرية ﷺ: «ادنُه» وجعل النبي- عليه الصلاة والسلام- يحاوره ويقول له: «أتحبه لأمك»؟ قال الفتى: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابنتك»؟ قال: «لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك»، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أفتحبه لأختك»؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: أتحبه لعمتك؟، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال: أتحبه لخالتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه»، قال: فلم يكن بعدُ ذلك الفتى يلتفت إلى شيء».

فاعتمد النبي ﷺ على أسلوب الإقناع والحوار في معالجة مشكلة الشاب، واستطاع تغيير قناعاته بمجرد استخدام الحوار العقلي في النقاش معه.

مخاطر عدم استخدام التربية بالإقناع في أمور الشرع

لعلك انبهرت يوما ما من تدين رجل أجنبي دخل في الإسلام حديثا، كيف أنه يصلي الفروض في أوقاتها، وكيف أنه سريع الاستجابة لأوامر الله، وتنعت إسلامه دوما بأنه أحسن من بني جلدتك، أتدري ما السر؟ إنه «الاقتناع».. كيف نساوي من تعلم دينه عن «اقتناع» بمن تم تلقينه عدة حركات وعدة كلمات يتفوه بها دون علم بمعناها؟

فعندما نوجه أولادنا لأمر شرعي يجب علينا ذكر الدليل وتفهيمه له قدر المستطاع كي لا يصلي من أجل «أوامر أبي»، وكي لا يترك الخطأ من أجل «تعليمات أمي»، لأنه بمجرد غياب الأب والأم وغياب الرقابة عليه ستجده يرتكب الخطأ، أما الذي تربى على الإقناع وإظهار الدليل، وتربى على عقيدة صحيحة بأن هناك إلهًا يجب أن يطاع وتنفذ أوامره وهو مطلع علينا في كل وقت.. من الصعب أن يزل في حالة غياب الرقيب من البشر.

وللأسف تجد مغبة إهمال التوجيه بالإقناع في الأمور الشرعية ظاهرا على الأولاد، وقد خلف خبثا في نفوسهم، وصاروا متفلتين ماداموا بعيدين عن الرقابة، أما الطفل الذي تربى بالإقناع في الأمور الشرعية يكون عنده مبادرة ذاتية لتجنب الحرام تلقائيا، وستكون نفسه سوية فيغير من نفسه ويغير من الآخرين.

التربية بالإقناع لها حدود

إن النفوس البشرية مختلفة، والأبناء منهم من تستنفد معه وسعك في إقناعه بالأمر حتى يفعله ويرفض، لذا يجب أن نوضح أن عنصر الإقناع في العملية التربوية له حدود، وإلا فما العمل حين تكون الأرض كلها اجتمعت على أمر معين ولكن الطفل غير مقتنع بذلك، فمن اللازم بيان الحكمة في بداية الأمر، فإن عاند وأظهر عدم الاقتناع فهناك أساليب أخرى يمكن أن تصل إلى العقاب.

الهوامش

١- منهج التربية الإسلامية: محمد قطب.
٢- موسوعة التربية العملية للطفل: هداية الله أحمد شاش.



مضايقات مواقع التواصل الاجتماعي.. صداع المراهقين

تحقيق : منير أديب

تحولت مواقع التواصل الاجتماعي، فيس بوك وتويتر وسكايب والواتس آب.. وغيرها، من وسائل للتواصل والتعارف إلى ميادين للمعاكسات بين الشباب والفتيات، فخرجت عن قواعد الذوق والأدب، بفضل ما يطلقه البعض من عبارات وجمل غير مهذبة وكلمات مخجلة، حتى لو كانت على سبيل المزاح، في ظاهرة سلبية أزعجت من استخدموها لغرض التعارف بعفوية أو بنوايا حسنة، وجعلت بعض المتواصلين والمتواصلات يقاطعون تلك المواقع على خلفية ما لحق بهم من متاعب.

نرصد من خلال التحقيق التالي أسباب السلوك غير المهذب، والطريقة التي تضمن تعارفًا حسنًا، بعيدًا عن المبالغة أو تجاوز الحدود، ويطرح التحقيق تساؤلًا عن الطريقة والوقت التي يكف بها الشباب عن استخدام هذه الوسائل، والوقت الآخر الذي يستخدمها فيه الشباب؟

ثم نعرض الأغراض النبيلة لمواقع التواصل الاجتماعي.

معاكسات

يقول أمير طاهر: أعداد الذين يستخدمون مواقع التواصل الاجتماعي من أجل المعاكسات أو يسخرونها لهذا الغرض قليلة للغاية، وبالتالي من الخطأ تعميم هذه الظاهرة، أو إعطاؤها أكبر من حجمها.

وأضاف، هناك من يستخدم مواقع التواصل الاجتماعي بشكل مبالغ فيه، فتؤدي هذه الطريقة إلى تعدي الحدود اللائقة في الاستخدام، ومضايقة الفتيات، ونفاجأ بعد ذلك بعدم استخدامها إلا في هذا الغرض.

وتابع: ترفض كثير من الفتيات أن يتعرفن إلى شاب من خلال هذه المواقع، لأنهن يدركن أنّ هذا النوع من التعارف لن يكون مجديا، وأن هدف الشباب هو المعاكسة فقط.. دون وجود تعارف حقيقي.

تقول آية عبدالله: وسائل التواصل فتحت آفاقًا كبيرة للتعارف المتبادل، خاصة إذا لم يكن الصديقان أبناء وطن واحد، وبالتالي تكون هناك فرصة للتعرف على الثقافات المختلفة لكل منهما.

وتضيف، الاستخدام المفرط لوسائل التواصل الاجتماعي يدفع الشباب للطمع في الفتيات ومحاولة مضايقتهن، وهناك نوعية من الشباب تقوم بمعاكسة الفتيات الجديدات، مع تعمد عدم معاكسة الصديقات خشية أن يتسببن في فضحهم.

وأكدت أنّ دور الفتاة كبير في الحد من هذه المعاكسات، فيجب ألا تستخدم وسائل التواصل الاجتماعي بطريقة مبالغ فيها، أو أن تستفز الشباب لمعاكستها، وعليها أن تعتزل

برامج الدردشة، لو كانت سببًا رئيسيًا في المعاكسة، لقطع الطريق أمام الشباب المتسكع على صفحات الفيس بوك وغيره.

يقول محمود التهامي: أنا لن أدافع عن مواقع التواصل الاجتماعي واستخدام الشباب لها، ولن أهاجمها أيضًا، ولكن ما أستطيع أن أقوله: إنها وسيلة، حلالها حلال وحرامها حرام، ولكنها مهمة للتعارف بين الأشخاص، والتعرف على الثقافات المختلفة، وبالتالي فهي مهمة.

وأضاف، دائمًا ما نجد أولياء الأمور- لأنهم لا يستوعبون وسائل التكنولوجيا الحديثة- يسعون إلى شيطنتها، ووصفها بصفات سيئة، في محاولة لصرف أبنائهم عنها، وهذه طريقة خاطئة وعبثية.

وأكد، أنّ كل الأدوات التكنولوجية لها استخدام حسن وآخر سيئ، وبالتالي فإن الفارق في هذا الأمر هو طريقة الاستخدام، فكلما كان الاستخدام راشدًا نأى صاحب الشيء بنفسه عن الاستخدام السيئ.

وتقول هدير محسن: اضطررت لغلق حسابي على الفيس بوك، لأنني أتعرض لمطاردات ليل نهار ومعاكسات من أشخاص لا أعرفهم، فرغم أنني لم أضع صورتي على البروفايل ولا أيًا من بياناتي الخاصة، فإن هذه المطاردة استمرت حتى أخذت قرارًا بغلق الحساب.

وتضيف: بعض الشباب خصص نفسه للمعاكسات والمشاكسات دون أي كلل أو ملل، أو دون مراعاة لأي أخلاق أو حتى قيم، وهو ما يسبب ألما وحزنا لكل الفتيات، ويدفعهن لاعتزال استخدام هذه الوسائل التكنولوجية.

وأكدت أنّ بعض المعاكسات يقوم بها بعض الفتيات اللائي يتقمصن شخصية رجل، ويقمن بمعاكسة زميلاتهن ومضايقتهن بما لا يحببن سماعه.

ويقول محمود بسيوني: مرات أحاول التعرف على فتيات، فأجدهن يتصدين لي ويرددن بردود لم أكن أتخيلها، وألتمس لهن العذر، ومرات أقوم بتسجيل أصدقاء وصديقات لي في العمل، فتتأخر الموافقة على قبول الصداقة، ويبالغن في ذلك نتيجة ما تعرضون له، وخشية مما قد يتعرضن له.

فتيات يطالبن بترشيد الاستخدام ووضع ضوابط حتى لا يقعن فريسة

وأضاف، بعض الخوف والقلق مشروع، ولكن هناك قلقًا غير مشروع على الإطلاق، في أن يكون هناك تأثير لهذه المواقع على قبول صداقات جديدة، أو وضع النّاس كلهم في سلة واحدة.

وأكد على ضرورة أن يكون الإنسان مرنًا، فلا يكون لينا فيعصر ويتعرض للمتاعب والمشاكل، ولا يكون صلبًا فيرفضه الآخر ويخاف منه، ويتسبب ذلك في حصاره.

تقول سها محمود ولية أمر: دائما بناتي يشتكين من استخدام مواقع التواصل الاجتماعي، وقد قمن بترشيد هذا الاستخدام؛ حتى يبتعدن عن المعاكسات وما تسببه لهن من مشاكل اجتماعية.

وأضافت: قد شاركتهن في هذا القرار، وشجعتهن على أخذه، لأنه يؤثر بشكل كبير على حياتهن، ويسبب لهن مضايقات كثيرة، دون معرفة مصدر هذه المضايقات التي تبعث إليهن فجأة، مع العلم أنّ كثيرا ممن يظهرون على هذه المواقع يظهرون بأسماء مستعارة وغير حقيقية.

وطالبت بضرورة تقليل استخدامها والاعتماد عليها في التعارف، فكثير من النّاس يراها طريقة مزيفة وليست حقيقية، فضلًا عن أنّ الإنسان لا يستطيع التعبير عن مشاعره من خلالها بشكل حقيقي وصحيح.

ويقول محمود الجارحي ولي أمر: أولادي يستخدمون مواقع التواصل الاجتماعي بطريقة جنونية، وربما يقضون الساعات الطويلة في استخدامها، وفوجئت أنها تنقل الكثير من الفيروسات، فضلًا عن تضييع الوقت، ويستخدمها أبنائي في التعرف على الفتيات ومعاكستهن، فاضطررت لإلغائها تمامًا، وقللت من استخدامهم لجهاز الكمبيوتر في البيت.

ويضيف قائلا: إنّ أغلب استخدام مواقع التواصل الاجتماعي بالنسبة للشباب محصورة في معاكسة الفتيات، وهو ما يسبب لي المتاعب بعد ذلك، إما من شكوى ولي أمر، أو من، مباحث التليفونات.

ويحكي، أنّ ابنه وقع في مشكلة كبيرة، وقامت أجهزة الأمن بالتعرف عليه، وقاموا بإلقاء القبض عليه، بسبب معاكسة فتاة على الإنترنت، وهو ما اضطرني للذهاب لوالد الفتاة واستسمحته حتى لا يضيع مستقبل ابني.

البيئة الاجتماعية

تقول الخبير الاجتماعي د.سامية خضر: على أولياء الأمور أن يتعاملوا مع أبنائهم وبناتهم بذكاء شديد، فكلما حاولوا منعهم من استخدام مواقع التواصل الاجتماعي، أو وسائل التكنولوجيا على العموم تسبب ذلك في تمسك الشباب بهذه المواقع وفقد أولياء الأمور السيطرة عليهم.

وأضافت، لابد أن يستوعب أولياء الأمور استخدام أبنائهم لهذه الوسائل، وأن يشجعوهم عليها.. ولكن بشرط أن يضعوا حدودا ومحاذير على هذا الاستخدام، وأن تكون غير مباشرة، حتى لا يحدث العكس، فيصر الشباب على استخدامها.

ولفتت إلى أن تعليق أولياء الأمور يكون مقصورا فقط على الاستخدام السيئ، أما بالنسبة للاستخدام عمومًا، فلابد للشباب أن يضعوا المحاذير بأنفسهم، وأن يرسموا ضوابط للاستخدام حتى لا يقعوا فريسة لأحد.. وإذا حدث، فلابد أن تكون لديهم آلية للتعامل مع المضايقات التي يسببها البعض.

وتابعت، وضع ضوابط من عدمه على استخدام الشباب يختلف من عينة لأخرى، ومن بيئة لأخرى.. حسب تربية كل واحد، فهناك من يرفض ذلك رفضًا باتا، وهناك من يقبله بحدود، ولذلك من المهم التفاهم حول صيغة لا تسبب التصادم بين الأبناء وآبائهم، وتكون إرشادية في نفس الوقت، لتمنع عنهم المضايقات التي قد تؤذيهم.

عسل النحل..

فوائد غذائية وعلاجية لا حد لها

منى الموجي - القاهرة
دار الإعلام العربية



يمتلك خصائص لمقاومة الجراثيم تجعله بديلا لكثير من المضادات الحيوية

يحظى عسل النحل بمكانة مهمة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، لما له من فوائد غذائية وعلاجية، فنجد سورة كاملة في القرآن باسم «النحل»، هذه الحشرة متعددة الفوائد،

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (النحل: ٦٨ - ٦٩) وبين العادات اليومية والآراء العلمية المتخصصة نبقى وهذه التفاصيل عن فوائد عسل النحل..

اهتمت العديد من الأبحاث والدراسات بإثبات الفوائد العلاجية للعسل، من بينها دراسة أظهرت أن العسل يملك خصائص يستطيع من خلالها مقاومة الجراثيم، كما أظهر فعالية ضد البكتيريا المقاومة للمضادات الحيوية، والتي طورّت أجهزتها المناعية لمقاومة المضادات، ما جعل مقاومتها بالأدوية العادية أمرًا صعبًا، وأوضحت الدراسة التي أجرتها جامعة سيدني الاسترالية أن العسل يمكن أن يحل محل كثير من المضادات الحيوية المستخدمة في معالجة الجروح كالمراهم والكريمات المختلفة، كما أن استخدامه كوسيلة مساعدة للعلاج يزيد من عمر المضادات الحيوية.

مثالي للأطفال

وبحسب القائمين على الدراسة، فإن العسل يعتبر من أكثر المواد تعقيدًا في تركيبته، إذ يحتوي على ما يقارب الـ٨٠٠ مركّب، وهذا التعقيد يجعل من الصعب على العلماء أن يدركوا تمامًا الآلية التي يقوم من خلالها بمقاومة البكتيريا وقتلها.

كما أكدت دراسة أخرى أجراها المركز القومي المصري للبحوث على أن عسل النحل أثبت فاعليته في علاج كثير من أمراض الأطفال، وأنه يفيد في علاج حالات الدوسنتاريا والتقلصات المعوية للرضع، وكذلك الإسهال الحاد، حيث يمتص السموم ويقتل البكتيريا، كما أنه يفيد في منع التبول اللاإرادي، كما أكد أستاذ المناعة بالمركز والمشرف على الدراسة د.أحمد جعفر حجازي على أن العسل يساعد على نمو العظام والأسنان، ووقاية الأطفال من خطر الكساح؛ لاحتوائه على الكالسيوم والفوسفور، كما أنه يعالج التهابات اللثة واللسان وتسوس الأسنان وتشقق الشفاه؛ لاحتوائه على مادة الفلور.. أيضًا يعالج ضعف البنية لدى الأطفال وفقر الدم والأنيميا؛ لاحتوائه على فيتامينات C،B١، كما يعمل على زيادة نسبة الهيموجلوبين بالدم ويقوي المناعة، خاصة للأطفال الرضع، ويساعد أيضًا في عملية هضم البروتين، كما أنه مهدئ جيد للسعال الجاف، وذو تأثير ملطف لالتهاب اللوزتين والحلق، ويفيد في حالات صعوبة الابتلاع وجفاف الحلق، كما أن العسل أكثر ما يحتاج إليه الطفل

يقي من خطر الكساح ويعالج التهابات اللثة واللسان

يعالج الدوسنتاريا والتقلصات المعوية للرضع ويقتل البكتيريا

الرياضي، فهو يعوض جسمه مما فقده بسبب المجهود الجسماني أو الذهني، كما أنه مصدر جيد للطاقة والفيتامينات.

ويقول أكرم أحمد (طالب) إنه حريص على تناول ملعقة من عسل النحل يوميًا بعد أن نصحه مدربه لكرة القدم على جعل هذا الأمر عادة لا تنفصل عن حياته، خاصة إذا أراد أن يحترف المجال الكروي، لما لعسل النحل من فوائد كثيرة، إلى جانب إمداده بالنشاط والحيوية.

شباب متجدد

بينما يؤكد حسام عربي أن هذه العادة تصاحبه منذ أكثر من ثلاث سنوات، حيث اعتاد أن يتناول ملعقة عسل نحل يوميًا، أو ملعقتين من العسل الأسود، مع إضافة قليل من عصير الليمون كمطهر للمعدة.

في حين ترفض سلوى محمد تناول العسل، موضحة إلى أنه من الأطعمة التي لا تحب أن تتناولها على الرغم من معرفتها بفوائده الغذائية والعلاجية، ومع ذلك تؤكد أنها حريصة على تقديمه لأطفالها، إدراكا منها بأهمية عسل النحل في تقوية الجهاز المناعي، خاصة بالنسبة لصغار السن.

بينما يؤكد مدحت العطار أنه تجاوز من العمر ٦٥ عامًا، ومع ذلك يشعر بحيوية ونشاط رجل في الأربعين من عمره، ويرد ذلك

يقوي الجهاز المناعي عند الأطفال

بأنه تعود منذ صغره على تناول عسل النحل كوجبة أساسية يوميًا إما في الإفطار أو في العشاء، مؤكدًا أنه بلا شك وصفة لا تخيب للحيوية والشباب المتجدد.

ينظّم مستوى السكر

إلى ذلك، يؤكد رئيس قسم الأغذية وعلوم الأطعمة بكلية الاقتصاد جامعة حلوان د.عبدالرحمن عطية على أن للنحل فوائد عديدة من حيث مقاومة الأمراض، فمن منتجات مملكة النحل: العسل، والصمغ، والشمع، وحبوب اللقاح، وإذا تحدثنا عن العسل فيفضل شرب العسل كما هو أو تخفيفه بماء بسيط دون تسخينه، كما يفضل البعض شربه مع الحليب.

ويشير إلى احتواء العسل على المركب الأساسي سكر الفركتوز، وعند تناول الإنسان للعسل فإن هذا السكر يمتاز بأنه بطيء الامتصاص، ويعمل على حفظ مستوى السكر في الدم، وبالتالي، فإن مريض السكر لا يخشى من تناول عسل النحل الطبيعي، لكن دون أن يفرط في تناوله، موضحًا أن مريض السكر يكفيه نصف ملعقة صباحًا، كما يحتوي العسل على هرمون يشبه الأنسولين ما يؤدي إلى تنظيم مستوى السكر في الدم، فضلا عن أنه يحتوي على نسبة عالية من السكر، فينشط البنكرياس لإفراز الأنسولين.

ولفت أيضا إلى احتواء العسل على مواد مؤكسدة مثل الكتالاز التي تجعل هذا السكر أكثر سهولة في الجسم، فلا يتسبب في ارتفاع نسبة السكر، بل يمد الجسم بالطاقة والنشاط، ويعمل على تنشيط الأمعاء ومقاومة عملية التخمر فيها، ويمنع الإمساك، ويسهل عملية الإخراج، كما يزيد من نسبة الهيموجلوبين في الدم، ومن هنا تأتي أهميته للأطفال الصغار الذين يعانون من انخفاض نسبة الهيموجلوبين.

وبحسب عطية، فإن تناول ملعقة من العسل صباحًا يساعد الإنسان على النوم الهادئ مساء، ويقلل من إحساسه بالقلق، مشددًا على أن العسل بتركيزه العالي من السكريات وانخفاض نسبة الرطوبة فيه يؤدي إلى إيقاف نشاط ونمو الميكروبات المرضية، وبالتالي لا تعيش هذه الميكروبات في العسل، فهو مادة مضادة للبكتيريا.. كما أن احتوائه على بعض العناصر المعدنية ذات التأثير الحامضي والقلوي يقلل من قرحة المعدة.

مرطّب للجلد والبشرة

بينما يشير استشاري التغذية العلاجية د.عبدالعزيز حجازي إلى أن عسل النحل أحد أنواع ومصادر سكر الجلوكوز التي يصعب على الجسم تحويلها إلى دهون، حيث يتم تحويل معظمه إلى طاقة، لذلك هو من نوع السكريات المسموح لمرضى السكر بتناوله، إضافة إلى أنه لا يتسبب في الإصابة بالسمنة، طالما هناك حركة تقابل تناوله.

كما أن تكوين عسل النحل يحتوي على كثير من العناصر التي تزيد من كفاءة جهاز مناعة الجسم، ويعتبر علاجًا مثاليًا لاضطرابات القولون والمعدة، وهناك العديد من الأبحاث التي تؤكد على احتوائه على مضادات البكتيريا التي تساعد الجسم على التخلص من اضطرابات الأمعاء والتهابات المعدة.

وصفة لا تخيب للحيوية والشباب المتجدد

وأوضح حجازي أن عسل النحل يختلف عن معظم السكريات، حيث إنه من الصعب أن يتسبب في إصابة المعدة بحموضة بعد تناوله، لأنه ليس من المواد التي تؤدي إلى تهيج جدار المعدة مثل معظم السكريات.. كما أن للعسل فائدة كبيرة في التئام الجروح والحروق والقرح، إضافة إلى ترطيب الجلد ومقاومة الجفاف الذي قد يصيب البشرة.

فيه شفاء للناس

من المواضع التي ذكر فيها العسل في القرآن الكريم ما جاء في سورة «محمد» حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(النحل: ٦٨ - ٦٩)

عند تنفيذ الخطط لتحقيق الأهداف:

تذكر أنك بشر

د. سلطان السهو المطيري
دكتوراه في المحاسبة

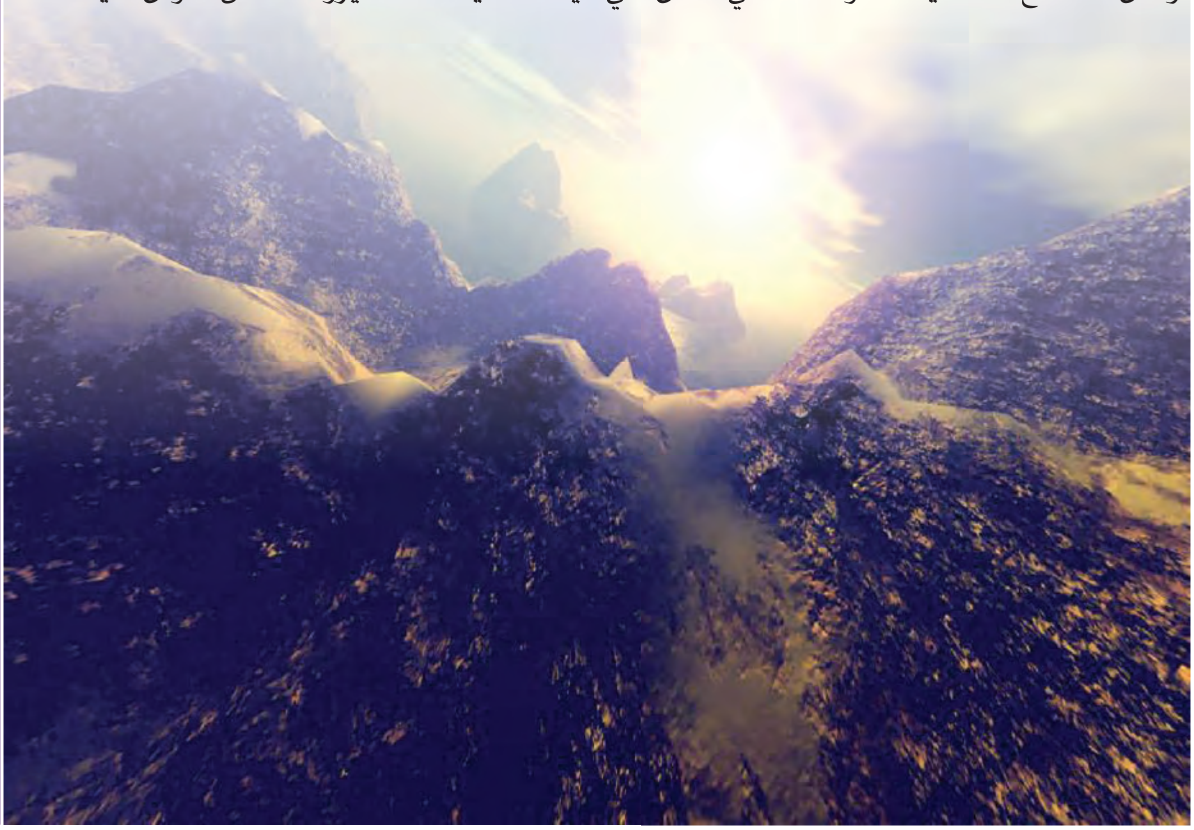
قد يقوم الإنسان بعمل مخطط كامل للأهداف، ويضع له جدولا زمنيا لتحقيقها وتنفيذها، ويستقرئ النتائج كما خُطط لها.

وفي الوقت ذاته لابدَّ له أن يعلم بأن الله العزيز المجيد- الذي يفعل كل ما يريد، وبالكيفية التي يريد، وفي الوقت الذي يريد- هو الذي يهيئ الأمور، ويسبب الأسباب.

ولعل الدافع للتخطيط، هو طبيعة الإنسان الذي خلق عجولا، ونسيانه حكمة الله في الأشياء، وأن كل شيء بقدر.

من أجل ذلك ولكي يكون العمل نافعا ناجعا، فإنه يجب على الإنسان عند إرادته للعمل، التوكل على الله، وطلب العون والتيسير منه، مع التخطيط والعمل بجد، من باب الأخذ بالأسباب، علما بأن ثقافة الأخذ بالأسباب هي أصل في ديننا الحنيف، فهذا خير البشر رسول الله محمد ﷺ، وهو المسدد من الله تعالى، عندما أراد الهجرة من مكة إلى المدينة وضع خطة محكمة، واتخذ دليلا يدله على الطريق.

وختاما: إن من التوكل على الله الرضا بالنتائج مهما كانت، لأنك بذلت الأسباب وتوكلت على مسببها.. نسأل الله أن يرزقنا حسن التوكل عليه.



إعداد : سلمان داود الكندري
كاتب ومدرب معتمد في التنمية البشرية

فنون القراءة

قد يرجع بعض الناس بعدهم عن القراءة إلى قلة الوقت، وهو أمر غريب، لأنهم يجدون أوقاتا للطعام، والشراب. والسينما، ومشاهدة التلفاز، والجلوس في المقاهي، فمن كان حريصا فعلا على القراءة يمكنه أن يجد وقتا كافيا لها، وعليه فلنجعل للقراءة جزءًا من الجدول اليومي بحيث تصبح هذه الملكة عادة يومية كالطعام والشراب، وسأسوق بعض الأفكار والتقنيات لكيفية القراءة والاستفادة القصوى مما نقرأ:

خصص وقتا للقراءة

يروى أن العالم إسحاق نيوتن كان ينام بشكل متقطع، ينام الساعتين ثم يستيقظ ليقرأ ويعمل، وإذا ما أحس بالملل نام ساعتين أخريين، وقام مجددا ليقرأ، فتخصيص وقت للقراءة أمر مهم جدا.

استغل أوقات الانتظار

هنالك أوقات كثيرة تضيع هدرا أثناء الانتظار، في السيارة مثلا، أو في الدوائر الحكومية، أو في الطائرة أثناء السفر، فحاول أن تصطحب معك كتيبا صغيرا تقرأ منه في هذه الأوقات الضائعة بدلا من القلق والتفكير في الانتظار، فكم من أناس ألفوا كتبا وصنعوا مشاريع من هذه الأوقات البسيطة التي قد نحتقرها.

ارتباط القراءة بقيام الحضارات

(١) الحضارة اليونانية

رغم قدم الحضارة اليونانية، كونها ترجع إلى ما قبل الميلاد، فإن آثار هذه الحضارة وإنتاجها الفكري والأدبي الغزير لا تزال مؤثرة في العديد من الناس اليوم، فقد عرف عن كثير من اليونانيين حب القراءة بشكل كبير جدا، كأفلاطون وأرسطو وسقراط.

(٢) الحضارة الإسلامية

عندما نتحدث عن الحضارة الإسلامية العريقة أقف إجلالا لهذه الحضارة العظيمة التي انطلقت من دستور رباني: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، حيث بلغت هذه الحضارة من الرقي والعمران ما أذهل كل الحضارات، كالقصور الأندلسية وهندستها الإسلامية التي لا تزال آثارها شاهدة اليوم في غرناطة وإشبيلية وقرطبة، فعلماء المسلمين الذين انكبوا على القراءة والمطالعة في العلوم المختلفة استفاد منهم الأوربيون اليوم في بناء جامعاتهم وحضارتهم.



وشهد شاهد من أهلها

يقول المستشرقان (هارولد جولد وايت) و(كاتي كوب) في كتابهما إبداعات الفكر: «كان المسلمون مفعمين بالحياة أنقياء، وكانوا أناسا تواقين متحمسين للفكر.. فالديانة الإسلامية تتطلب من الأشخاص أن يفهموا القرآن من أجل أنفسهم.. وقد ترجم هذا التشديد على القراءة والكتابة إلى الاهتمام بكل الحرف الفكرية».

خصص لك مكانا جيدا للقراءة

اجلس في مكان مريح وتحت إضاءة مريحة للعين، بعيدا عن الإزعاج، حتى تتعود وتعيش أجواء القراءة السليمة بدون مقاطعات، وأنا شخصيا أفضل القراءة في المسجد، أو على البحر، أو في الحديقة، أو في أحد المقاهي الهادئة.

الساعة البيولوجية

كل إنسان فينا لديه ساعة معينة من اليوم يبلغ فيها نشاطه العقلي ذروتــه، وينصح العلماء والباحثون بشدة باستغلال هذا الوقت بأعمال تحتاج لتركيز عالٍ كالقراءة مثلا، حتى تستفيد أقصى درجة ممكنة مما تقرأه، ولعل أفضل ساعة للقراءة هي بعد صلاة الفجر، لحديث الرسول ﷺ: «اللهم بارك لأمتي في بكورها».



كيف تختار الكتاب الجيد؟

(١) اختر كتابا نافعا

كثير من الناس يشترون الكتب بناءً على أغلفتها الجذابة، وهذا أمر غير صحيح، فحاول أن تختار كتابا بناء على حاجاتك للمعرفة.

(٢) نظرة متفحصة على الكتاب

طالع الكتاب واقرأ المقدمة والمحتويات، ودار النشر، والفصول، وحجم الخط المناسب بسرعة وبدقائق معدودة، وكذلك اقرأ قليلا لتتعرف على أسلوب الكتاب وطريقته.

(٣) استخدم أسلوب التلخيص

لتحقيق أقصى درجة من الاستفادة من الكتاب لخص كل فصل قمت بقراءته على ورقة ملصقة داخل الكتاب بحيث إذا أردت أن ترجع للكتاب فترجع للملخصات فقط دون الحاجة إلى قراءة الفصل بأكمله، وهذه هي الطريقة التي أتبعها في قراءة الكتب.

(٤) استخدم البطاقات

اجعل بجانبك أثناء القراءة بطاقات صغيرة دوّن فيها الأفكار الجيدة والأقوال والحكم، والتمارين التي تفيدك في مشروع قادم، كتأليف كتاب، أو إعداد صفحة مثلا، أو لإلقاء كلمة جماهيرية، أو لاستخدامها أثناء حديثك.



(٣) الحضارة اليابانية

اليابان هذا البلد الصغير جغرافيًا الذي يعاني من شح موارده الطبيعية لكنه غني بعناصره البشرية، وبعد الدمار الذي حل باليابان بعد الحرب العالمية الثانية بإلقاء القنبلة الذرية قامت اليابان من الصفر، وأخرجوا من ركام الحرب حضارة راقية أصبحت من القوى الصناعية الضاربة في العالم.

إحصائيات مزعجة

■ متوسط القراءة في العالم العربي ٦ دقائق في السنة، بينما متوسط القراءة في إحدى الدول الأوروبية ٢٠٠ دقيقة في السنة!

■ توجد في الكويت مكتبة واحدة فقط لكل ٣٠ ألف نسمة!

■ ما تطبعه كل دور النشر العربية أقل من نصف ما تطبعه إسرائيل في الفترة نفسها!

■ يصدر كتاب لكل ربع مليون مواطن عربي، بينما يصدر كتاب لكل ١٥ ألف مواطن في العالم المتقدم.

أفكار

● من اليوم كوّن لك مكتبة خاصة في منزلك وانتقِ الكتب الجيدة التي تغذي العقل إيجابا وابتعد عن كل ما هو سلبي.

● ضع لك قائمة شهرية وسنوية بالكتب التي ستقرأها وخصص لنفسك معدلا معينا للقراءة يوميا.

■ كون لك مجموعة القراءة من عدة أشخاص، بحيث تتفقون على كتاب معين لهذا الشهر، ثم تتناقشون في الكتاب وتبدون الملاحظات والأفكار حول هذا الكتاب، وهذه من أعظم الطرق للتحفيز على القراءة في جو تنافسي جميل.

● احمل معك كتيبات صغيرة في السيارة أو في جيبك واقرأها بين الحين والآخر في ساعات الفراغ وأوقات الازدحام والانتظار.

● اطلع على كل ما هو جديد في الكتب والمجلات، واقرأ حتى تواكب التطور الرهيب في الثقافة والفكر.



إعداد : خالد خلاوي

طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي

يعد كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي على رأس قائمة كتب التراجم الأدبية، وأول كتاب في النقد الأدبي وتاريخ الشعر العربي، وقد عني الدارسون والباحثون بهذا الكتاب عناية فائقة قديما وحديثا، فصدرت عنه العديد من الكتب والدراسات الأدبية ورسائل الماجستير والدكتوراه.

وقد جمع ابن سلام في كتابه آراء الأدباء والعلماء في الشعر والشعراء، ودرسها دراسة نقدية علمية من حيث الشرح والتحليل، وذكر الأسباب والمسببات ومن ثم قسم الشعراء بناء على قواعد محددة إلى طبقات(مستويات) في قسمين رئيسيين:

القسم الأول: في الشعراء الجاهليين وأصحاب المراثي، ووضعهم في عشر طبقات، وشعراء القرى العربية.

والقسم الثاني: وهم الشعراء الإسلاميون، ووضعهم أيضا في عشر طبقات، يذكر أسماء الشعراء وأنسابهم وأخبارهم وشيئا من أشعارهم ومروياتهم الشعرية.

وعن مفهوم الطبقة يقول شيخ محققي العربية الأستاذ محمود محمد شاكر الذي حقق الكتاب في مقدمته:

«إن كلمة طبقة موجودة في كلام العرب منذ القديم، وقدمها قدم اللغة ذاتها، ولكنها تطورت مع الزمن وأخذت مدلولات متعددة في حياة العرب، لكن صار لهذه الكلمة مجاز آخر عند الكتاب والمؤلفين حين جاء عصر التدوين، فتناوله المؤلفون والكتاب في مختلف العلوم والفنون إلى أن وصلنا لهذا المعنى المعروف المتداول (١).

محمد بن سلام ومكانته

ومؤلف الكتاب هو محمد بن سلّام بن عبدالله بن سالم، أبوعبدالله البصري، ولد بالبصرة في سنة ١٣٩هـ في بيت علم ولغة، فأبوه سلام بن عبدالله، وأخوه عبدالرحمن بن سلام أحد رواة الحديث الذين روى عنهم مسلم.

تنقل ابن سلام بين عدة بلدان لطلب العلم، وتردد على شيوخ عصره وسمع من كبار النحاة واللغويين، ومنهم: المفضل الضبي، والأصمعي، ويونس بن حبيب، وأبوزيد الأنصاري، وأبوعبيدة معمر بن المثنى... وغيرهم.

وروى عنه أحمد بن يحيى ثعلب، وأبوحاتم، والرياشيّ، والمازني، والزياديّ، وأحمد بن حنبل وابنه عبدالله.

ومن مؤلفاته:

- كتاب غريب القرآن
- كتاب الفاصل في مُلح الأخبار والأشعار
- بيوت العرب
- طبقات الشعراء الجاهليين
- كتاب طبقات الشعراء الإسلاميين
- كتاب الحلاب وأجر الخيل

عاش ابن سلام في بغداد معظم حياته، وتوفي فيها سنة ٢٣١هـ=٨٤٦م.

بين النقد والتاريخ

يرى الناقد الأدبي الدكتور مصطفى مندور(٢) أن كتاب «طبقات الشعراء» لمحمد بن سلام هو أحد النماذج المنتخبة التي يختلط فيها المنهج

النقدي بالمنهج التاريخي، والتي تمثل مرحلة مبكرة في تاريخ أدبنا العربي.
و مهمة ابن سلام في تصنيف الشعراء إلى طبقات تكشف عن أن المؤلف كان يتخذ لنفسه مقاييس نقدية حدد في ضوئها الطبقة التي يضع فيها الشاعر، وقد كانت أحكام الناس المنتشرة مما دخل في اعتباره، ثم كانت كثرة الأغراض الشعرية التي أنشد فيها الشاعر ثم كانت كثرة القصائد الطيبة التي تروى عن الشاعر.
وإلى جوار هذه العوامل كان أيضا عنصر الزمان والمكان، فقد قسمهم إلى جاهليين وإسلاميين، ثم ذكر طبقات شعراء القرى. وبقي بعد ذلك عنصر الفن الشعري الذي في ضوئه كتب طبقة أصحاب المراثي.
ومع هذه المقاييس النقدية نستطيع أن نجد إلى جانب تاريخ الأدب، صورة لما كانت عليه الاتجاهات النقدية حتى أوائل القرن الثالث للهجرة، والتي يمكن أن نلخصها في اتجاهات أربعة وهي:

الاتجاه الأول

وهو أقدمها زمانيا، وكان يكتفي في أحكامه النقدية بتقرير أفكار عامة دون تعليل أو تبرير، كقولهم: إن أشعر الجاهليين المرقش وأشعر أهل الإسلام كثير، أو مثل موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يقدم فيه النابغة الذبياني على سائر الشعراء لأنه قال:

فلست بمستبق أخا لا تلمه -- على شعث أي الرجال المهذب

وأمثلة هذه الأحكام التي لا تخضع لمحاولات تبررها منتشرة في طيات الكتب، وهي تمثل دون شك المرحلة الفطرية التي كان الانفعال بطاقة البيت أو الشاعر هو الباعث الأساسي على إصدار الحكم (انظر ص ٤٤ من الكتاب).

الاتجاه الثاني

وفيه بدأت بوادر تحليل الحكم النقدي ورده إلى أسباب ترتبط بالنص أو بالشاعر، فالذين قدموا امرأ القيس فعلوا ذلك لأنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها؛ استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء منها: استيقاف صحبه والبكاء على الديار، ورقة النسيب.. وقرب المأخذ، وشبه النساء بالظباء والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد وأجاد في التشبيه وفصل بين النسيب والمعنى (ص ٤٦).

الاتجاه الثالث

وكان يذهب فيه فريق من النقاد الأدباء إلى معالجة صياغة القصيدة وما فيها من أخطاء أو سرقات، وكذلك الحديث عن عيوب الشعر الأربعة: الزحاف والسناد والإبطاء والإقواء(ص٥٥) ويذكر ابن سلام أن الإقواء في شعر العرب كثير، وهو فيمن دون الفحول من الشعراء أكثر (ص ٥٩).

الاتجاه الرابع

وفيه نلمس بوضوح بداية النقد المنهجي والنقد الفني، ومحاولة الكشف عن أثر البيئة في الشعر، وعلى سبيل المثال الشاعر عدي بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف، (فلان لسانه وسهل منطقه (ص١١٧). وكما أثرت البيئة المدنية أثرت العلاقات القبلية والاجتماعية.
هذه اتجاهات أربعة قد صب ابن سلام فيها ما كان شائعا في عصره، وإن تفاوتت أهميتها بالنسبة له أو لمن بعده، وبقي إلى جوارها أمثلة عديدة من الأحكام النقدية التي يمثل بعضها ذوق صاحبنا، ويمثل البعض الآخر ذوق عصره وعلمائه، وكلها تردنا إلى ما قلنا عن أهمية منهج ابن سلام الذي يخلط فيه بين تاريخ الأدب وتاريخ النقد، والنقد التطبيقي.

قطوف من الكتاب

من المقدمة:
يقول ابن سلام: ذكرنا العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم، ولا يستغني عن علمه ناظر في أمر العرب، فبدأنا بالشعر (ص٥٠).
ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام، والمخضرمين، فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال فيه العلماء.
وقد اختلف الناس والرواة فيهم، فنظر قوم من أهل العلم بالشعر، والنقاد في كلام العرب، والعلم بالعربية.
إذن، اختلف الرواة، فقالوا بآرائهم، وقالت العشائر بأهوائها، ولا يقنع الناس مع ذلك إلا الرواية عمن تقدم.
فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط كل طبقة، متكافئين معتدلين (ص٢١-٢٢).

قضية انتحال الشعر:

قال ابن سلام: لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أنْ يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت، وليس يُشكل على أهل العلم زيادة ذلك، ولا ما وضع المولدون. وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء، أو الرجل ليس من ولدهم، فيُشكل ذلك بعض الإشكال ص (٣٩- ٤٠).

المصادر:

- مقدمة كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ط٢، ج١- القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٧٤م، ص٦٦.
- سلسلة تراث الإنسانية، كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، د.مصطفى مندور، المجلد الأول ص ٦٥٤ وما بعدها بتصرف، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ.



إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

المرأة ومنصب الإفتاء

النساء شقائق الرّجال؛ ولهنّ في أحكام الشّريعة ما للرّجال، إلّا ما ورد الدّليل فيه بتخصيص المرأة بحكم تَنفرد فيه، كما قـرّره العلماء في مَواضعه من العبادات والمعاملات.

والمرأةُ كالرجل في طلب العلم، والقراءة، والتّأليف، وغيرها، لا فرق بينها وبين الرّجل إلا فيما خصّه الدّليل، كالقضاء ومنصب الإمامة.

وإذا كان للمرأة طلب العلم والكتابة.. فلها الإفتاء وتعليم النّاس كذلك، ذلك أنّ أحدًا من العلماء لم ينقل شرطَ الذّكورة في المجتهد والمفتي.

وورد في حديث الشّفاء بنت عبدالله رضي الله عنها ما يدلّ على جواز تعليم النّساء العلم والكتابة، حيث قالت: «دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وأنا عند حفصة؛ فقال لي: ألا تعلمين هذه رُقية النَّملة؛ كما علمتيها الكتابة»، (رواه أحمد ٣٧٢/٦ وأبوداود ٣٨٨٨).

قال الإمام الونشريسي رحمه الله: «وإنّما اتّفق العلماء على قبول رواية المرأة عن النّبيّ ﷺ، وفتواها في الحلال والحرام، وغير ذلك من النّوازل والأحكام؛ إذا كانت من أهل الاجتهاد والأحكام». (عدة البروق، ص١٩٦).

وقد خاطب الله تعالى النساء بالإيمان، والمعرفة، والأعمال الصّالحة في العبادات والمعاملات كما خاطب الرّجال. وجعل لهنّ عليهم مثل ما جعل لهم عليهنّ، وقرن أسماءَهن في آيات كثيرة، وبايع النّبيّ ﷺ المؤمنات، كما بايع المؤمنين،

تسافر إلى أهلها بمفردها بالطائرة

١٢/١ع/٨٤

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التّالي:

هل يجوز لزوجتي أن تسافر بمفردها من النرويج متوجهة إلى أهلها في المغرب؟ مع العلم بأن المسافة في الطائرة لن تستغرق أكثر من عشر ساعات (من الصباح إلى المساء)، وأنّها لن تبيت إلا في بيت أهلها.

أجابت اللجنة بما يلي:

إن المَحْرَمَ أو الزوج يشترط أحدهما للمرأة لحالة السفر فقط، (ولا يشترط وجوده في بلد إقامة المرأة)، ومع ذلك إذا تعذّر أو شقّ أن يصحبها في حالة السفر زوجٌ أو محرَمٌ، وكان السفر مأمونا (كما هو الحال في السفر بالطائرة في رحلة مباشرة من بلدها الأصلي إلى بلد العمل أو عكسه، مع تقليل تعرضها للانفراد، وذلك بأن يصحبها الزوج أو المحرم إلى مطار المغادرة، ويتلقاها أحدهما في مطار الوصول) ولا تزيد مدة السفر عن يوم وليلة، فإن سفرها حينئذ يكون مباحا؛ ولذلك تجيب اللجنة بخصوص الحالة المذكورة في السؤال أن ذلك لا بأس به. والله أعلم.

هل تسافر الطالبة الجامعية دون محرم؟

١٦/٦ع/٨٤

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التّالي:

هل يجوز للطالبة الجامعية أن تسافر في رحلات علمية أو سياحية خارج البلاد سواء إلى الدول الأوروبية أو غيرها، (دون محرم)؟ وما حكم الجمعيات العلميّة في الجامعة التي تيسّر لهنّ السفر، ولا تشترط عليهن اصطحاب المحرم؟

أجابت اللجنة بما يلي:

نَهَت الشريعة عن سفر المرأة سفرا طويلا ما لم يكن معها زوجها أو ذو محرم منها، وذلك لقول النبي ﷺ فيما صح عنه: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا يكون ثلاثة أيام فصاعدا إلا ومعها أبوها، أو ابنها، أو زوجها، أو أخوها، أو ذو محرم منها»، وهذا حرص من الشريعة على صيانة المرأة درءًا للفتنة عنها، ولضمان عدم تعرضها لما يخدش عرضها أو يمتهن كرامتها، ولا يجوز مخالفة هذا الحكم الشرعي إلا في حالات الاضطرار، كمن توفي محرمها في السفر وأرادت العودة إلى بلدها، أو للمعالجة من مرض شديد لابد لها من السفر لأجله، وليس لها زوج أو محرم، وقد يكون مما تحتاج إليه المرأة، والحاجة قد تنزل منزلة الضرورة، ولكن تقدر بقدرها، وتعتبر ذلك حكما استثنائيا ينبغي الاحتياط في تطبيقه على أن يراعى أخذ الاحتياط في شأن السّكن والتنقل، وأثناء الدّراسة يجب اتخاذ الملابس الشرعية المحتشمة. والله أعلم.

إنفاق المرأة على والديها

٣/٢١/٨٣

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التّالي:

هل تكلف البنت شرعا بإعالة والدتها الأرملة أو المطلقة إذا



وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهم، وأجمعت الأمة على ما مضى به الكتاب والسنة من أنهن مجْزيَّات على أعمالهنّ في الدّنيا والآخرة.. أفيجوز بعد هذا كله أن يُحْرَمْنَ من العلم بما عليهنّ من الواجبات، والحقوق لربهن ولبعولتهن ولأولادهن ولذي القربى وللأمة والملة؟

والناظر في تاريخ الأمة الإسلامية يرى كثيرًا من نساء المؤمنين من عهد الرسول ﷺ إلى يومنا هذا ممّن اشتهرن بالعلم والفتوى والتعليم؛ ومنهن:

١- عائشة بنت الصديق رضي الله عنها؛ فقد قال عروة بن الزبير رحمه الله: «ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا طب ولا بشعر من عائشة رضي الله عنها»(الاستيعاب ٤٣٥/٤).

٢- أمّ الدرداء؛ خيرة بنت أبي حدرد الأسلمي رضي الله عنها؛ كانت تحفظ العلم عن رسول الله ﷺ وعن زوجها أبي الدرداء رضي الله عنهما.

٣- عائشة بنت عجرد التابعية رحمها الله؛ روت عن الصحابة رضي الله عنهم، وعن أبي حنيفة رحمه الله.

٤- كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية؛ الشيخة العالمة المسندة؛ أم الكرام؛ روت صحيح البخاري، وأخذ عنها العلماء.

٥- فاطمة بنت محمد بن علي البزازية البغدادية، أخذ عنها جماعة من أهل العلم؛ منهم: ابن قدامة المقدسي رحمه الله تعالى.

٦- ست الدار بنت عبدالسلام ابن تيمية؛ الشيخة الصّالحة بنت العلامة مجد الدين؛ روى عنها جماعة؛ منهم ابن أخيها شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى.

٧- مريم بنت أحمد بن محمد الأذرعية المصرية الحنفية؛ أخذ عنها جماعة من أهل العلم؛ منهم: ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى.

٨- جدة الإمام عبدالكريم الرافعي الشّافعي؛ جاء في ترجمته أنَّ جدَّتَه هذه كانت تفتي النّساء.

وغيرهن كثير!!

وما أحوج الأمة اليوم إلى أمثال هؤلاء النّساء؛ كي يقمن بنشر العلم، وتبليغ الدِّين الصّحيح، وسدِّ حاجة مجتمع النّساء في الإفتاء والوعظ والتّدريس والتّوجيه.

كانت والدتها لا تستطيع الكسب؟ ومن هو العائل الشرعي للوالدين وكيف يتحقق؟

أجابت اللجنة بما يلي:

إنّ البنت تُكلَّف شرعا بإعالة والدتها الأرملة أو المطلقة إذا كانت والدتها ليست ذات مال، ولا تستطيع الكسب، وذلك إذا كانت البنت ذات مال أو تستطيع التكسب بغير مانع شرعي.

أمّا العائل الشرعي للوالدين فهو الولد ذكرا كان أو أنثى، إذا كان الوالدان عاجزين عن التكسب، وكان الولد غنيا ذا مال أو قادرا على التكسب، فإن عجز انتقل واجب الإنفاق إلى أقرب وارث للوالدين، على أن يُراعى عند تقدير النفقة حال اليسار بالنسبة لمن تجب عليهم النفقة. والله أعلم.

العقد على حامل من الزنا

٧٩/٧١/٥

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التّالي: ما حكم العقد على امرأة حامل من الزّنا تبيَّن حملُها؟ وإذا كان العقد غيرَ صالح؛ فهل يجدد بعد الوضع؛ علمًا بأن العاقد لم يمسّها مدة الحمل؟

أجابت اللجنة بما يلي:

بعدم صحّة العقد على المرأة الحامل من الزّنا، ويجدد العقد بعد الوضع، والله أعلم.

ما يحل للمعتدة وما يحرم عليها

٤/٢٩ح/٨٤

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التّالي: سيدة توفي عنها زوجها، وتسأل: هل يجوز أن تضع الحناء على رأسها للضرورة؟ وهل يجوز أن تلبس حجابا جديدا على رأسها؟ وهل يجوز لها أن تضع بخورا طبيا؟

أجابت اللجنة بما يلي:

الحناء إذا كان وضعه للعلاج فلا بأس به، وأما إذا كان للزينة، وهو ما يوضع في اليد أو الرجل غالبا، فلا يجوز في حال العدة، وأما وضع حجاب جديد فجائز، وكذلك البخور الطبي. والله أعلم.

خروج المعتدة للعمل

٧٩/٦١/٥

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التّالي: أحد بنود قانون الخدمة المدنية والذي يدور حول عدة المرأة الموظفة المتوفى عنها زوجها حاملا كانت أو غير حامل.. هل يجوز لها الاستمرار في العمل أو الانقطاع طيلة مدة العدة.

أجابت اللجنة بما يلي:

إن المتوفى عنها زوجها لا يجوز لها الخروج من بيتها إلَّا لضرورة، فمثلا يباح لها أن تخرج بالنهار لعملها المعتاد على ألا تتزين بأي نوع من أنواع الزينة، سواء باللباس أو غيره، وعلى أن تبيت في منزل الزوجية الذي كانت فيه عند الوفاة، وذلك مدّة العدّة، وهي مدة الحمل لمن كانت حاملا أو أربعة أشهر وعشر إن لم تكن حاملا. والله أعلم.

بيان توضيح

في عدد ٥٧٤ بتاريخ جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ أبريل- مايو ٢٠١٣م من مجلة «الوعي الإسلامي» القيمة، جاء في العدد استطلاع للأخ/ علاء عبدالفتاح كتب فيه عن أحوال وأخبار الجمعيات والمساجد بألمانيا- فرانكفورت، ووصف فيه ما تعانيه بعض المساجد من نقص في الإمكانات ونحو ذلك، وأشار إلى السبب الأساسي، وهو نقص الدعم المادي لهذه المساجد وتلك الجمعيات، وذكر أيضا نماذج لمساجد تقوم بأنشطة عديدة ومساجد أخرى ظروفها صعبة ونشاطاتها ضعيفة، ومن بين تلك المساجد التي جاء ذكرها في الاستطلاع مسجد «أبوبكر الصديق» والذي جاءت صورته متصدرة هذا الاستطلاع، فذكر الكاتب أن المسجد به مئذنة تشق سماء فرانكفورت، وأن نظافته وترتيبه يليقان بضاحية المدينة، لكن النشاط يبدو بسيطا، فلم نلمح سوى مجموعة صغيرة من الأطفال والسيدات يصعدن الطابق الثاني لتعلم بعض قواعد اللغة العربية.

هذا ما ذكره الأخ كاتب الاستطلاع، وما قاله صحيح إجمالا، ونحن في المسجد إدارة وإماما وروادا لدينا شعور ملازم بالتقصير، وننشد الأفضل ونسأل الله أن يعيننا، ويغفر تقصيرنا، ولكن أحب أن ألحق إلى الاستطلاع- لو تكرمتم- أن هذا المسجد -مسجد أبوبكر- يحضره العشرات من المصلين في الصلوات اليومية، وذلك في الأيام العادية، أما في يومي السبت والأحد باعتبارهما يومي إجازة، فيحضر الصلاة ما يصل إلى مائة ومئتين، بل وأكثر من ذلك أحيانا، ويحضر الجمعة ما بين ٥٠٠ إلى ألف، أو أكثر من ألف في المناسبات، من الرجال والنساء والأطفال، ومن بين النشاطات التي يقوم عليها المسلمون في المسجد:

- مدرسة لتحفيظ القرآن تضم أكثر من ١٠٠ تلميذ وتلميذة يقوم عليها شيخ معلم.
- ودروس يومية في مختلف العلوم الشرعية.
- ومدرسة للغة العربية تضم أكثر من ٥٠ تلميذا وتلميذة.
- وفصل خاص بالبنات الكبار لتحفيظ القرآن الكريم، تقوم عليه معلمة.
- نشاطات خاصة بالشباب، كالمبيت الشهري، وبه برنامج جيد.
- إضافة إلى الندوات والملتقيات.
- والمسجد قبلة للألمان الذين يريدون التعرف على الإسلام، ولا يمر تقريبا شهر إلا ويدخل واحد أو أكثر من الألمان في الإسلام، ولله الحمد.

نقول هذا لا لنمن على ربنا، أو نحصي على ديننا -حاشا الله- فنحن نحس بأن دور المسجد أكبر من ذلك، ويستوعب نشاطات أخرى كثيرة، ولكننا نحس بالعجز لضعف الإمكانات المادية والأدبية -أحيانا- فقط، أردت تبيين حقيقة الوضع من ناحية، وتبشير المسلمين من ناحية أخرى، مع اعترافنا بالقصور الذي لا تخفى عليكم أسبابه. وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

حماد كامل

لا شكر على واجب

يطيب لي أن أتقدم بجزيل الشكر وجميل العرفان إلى أسرة تحرير مجلة «الوعي الإسلامي» على نشرها لمقالي المتواضع تحت عنوان «نستميحكم عذرا» في العدد ٥٨٠، كما أرفع إليكم وافر الامتنان من أعمق الوجدان على دعوتكم الكريمة لنا للمشاركة في تحرير مقالات مجلتنا الرائدة، فقد لاقت هذه الدعوة الطيبة منكم هوى في نفسي.

وإن الأمل يحدونا أن نرى ما تخطه أيدينا من مقالات فكرية وقصائد شعرية منشورة بين دفتي مجلتنا «الوعي الإسلامي»، زادها الله تعالى تألقا وريادة، وبارك في عمرها المديد الذي تقضيه في



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

فضل العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خير مبعوث للعالمين، سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين.. الأستاذ الفاضل فضيلة الشيخ المفكر فيصل يوسف العلي، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سيدي الفاضل، كان لما قرأت في رثائكم لوالدي المرحوم بإذن الله الشيخ علي الراوي وقع كبير في نفسي وأسرتي، فأشكركم شكرا جزيلا على تلكم الكلمات الرقيقة النقية بنقائكم وطهر سريرتكم وطيب منبعكم، والله أسأل أن يوفقكم لما يحبه ويرضاه، ويحفظكم من كل سوء، ويزيدكم من علمه وفضله، إنه سميع الدعاء.. ابنكم محمد علي الراوي الرفاعي - الموصل.

التحرير: جزاكم الله خيرا، لم نكتب إلا ما أملاه علينا عرفاننا بفضائل والدكم الشيخ علي الراوي أسكنه الله جناته مع الصالحين وحسن أولئك رفيقا.

صومعة الإعلام الإسلامي الهادف.

خالد برادة

التحرير: نشر المقالات الجيدة واجب لا نستحق عليه شكرا، فالهدف هو إيصال كل ما هو مفيد للقارئ، لعل الفائدة تعم إن شاء الله. نشكركم وفي انتظار مزيد من مساهماتكم.

الحق أحق أن يتبع

ليس من الضروري أن يكون الأساس في الحوار هو الخلاف، ولكنه، للأسف، أصبح ثقافة تبنى عليها كثير من محاوراتنا، فليس من الضروري أن يكون الحق في صفي أو في صفك، المهم هو وجود الحق، وأن نتبعه أنا وأنت حين يظهر لنا.. ليس من الضروري أن تنتهي جدالاتنا بخصام وقطيعة، لا لشيء إلا لأني تبنيت رأيا مخالفا لرأيك.

الحياة عبارة عن مرحلة وجسر يعبر به إلى الآخرة، وليست مكانا للملمة الأحقاد في القلوب وتصور الأمور على غير مرادها، كما أنها ليست مجرد نزهة تنتهي بانتهائها عبر ركوب مركب الموت والانتقال للدار الآخرة، دون إدراك أن كل ما جرت به المقادير وكسبته القلوب والعيون والأيادي هو عبارة عن حصيلة مسؤول عنها من اكتسبها أمام أعدل العادلين رب العالمين.

إن في الحياة متسعا للآراء، كما أنه بها متسع لدراستها وتبيان حقيقتها طالما انضبطت بضوابط الشرع، وكانت أساسا يراد منه الخير والإصلاح، كما أن حكر التفكير على فئة دون فئة ومصادرة جميع الآراء المخالفة عبر ديكتاتورية مقيتة مشابه لتلك الظروف التي عايشتها مجتمعاتنا لأكثر من ٦٠ سنة.. كما أن ربط الفشل بغير مسبباته ومحاولة التملص من المسؤوليات كان حاضرا وكفيلا بصناعة ثقافة الرجل الواحد الذي يجب على الكل أن يقتدي برأيه.

إن حقيقة القبول بالآخر مهما كانت درجة اختلافنا معه تظل هي الحقيقة التي ينبغي ألا تغيب عن أحد.. هذه الحقيقة قد لا يدركها الكثيرون، ولكنها واقع يجب أن ندركه إن أردنا تكوين مجتمع قوي قادر على تغيير حاله للأفضل مستقبلا، كما أنها السبيل الأمثل لحياة يتقبل فيها الإنسان أخاه الإنسان، وفقا لما أمر الله تعالى به، كما أنها نبراس يمكن من خلاله أن تتحطم صخرة الجمود التي ارتأى الكثيرون أنها السبيل الأمثل للحياة.

محمد سعود البنوان

المحرر: إن الكبر الذي يحرم أصحابه من دخول الجنة إذا استقر في القلب هو الداء، ولو استطعنا أن نخضع أنفسنا للتواضع والتسامح وحب الحق لذاته لتواصلنا ولعمت الفائدة.. أحسنت أخي الكريم.. ندعو الله أن ينفع الأمة بكلماتك.

إعداد: تركي النصر

الغنيمةُ الباردة

– قال رسول الله ﷺ: «الصوم في الشتاء، الغنيمة الباردة» (رواه أحمد).

– وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الشتاء غنيمة العابدين» (رواه أحمد في الزهد).

حياءُ القادر

دخل رجلٌ على الأمير المجاهد قتيبة بن مسلم الباهلي، فكلمه في حاجة له، ووضع الرجل نصل سيفه على إصبع الأمير (من غير قصد)، وجعل يكلمه في حاجته وقد أدمى النصلُ إصبعه.

فلما فرغ الرجل من حاجته وانصرف، دعا قتيبة بن مسلم بمنديل فمسح الدم من إصبعه وغسله.

فقيل له: ألا نحيت رجلك، أصلحك الله، أو أمرت الرجل برفع سيفه عنها؟

فقال: خشيتُ أن أقطع عنه حاجته.

.. فتأمّل.

(الحديقة لمحب الدين الخطيب ٣/١٣١٠)

علامات الجهل

قال أبو الدرداء: إن علامة الجهل ثلاث: العجب، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه، وأن ينهى عن شيء ويأتيه.

(جامع بيان العلم وفضله)

داء الحرص عند العلماء

لا يُنكر أن الطباع تحبُّ المال؛ لأنه سبب بقاء الأبدان، لكنه يزيد حبه في بعض القلوب، حتى يصير محبوبًا لذاته، لا للتوصل به إلى المقاصد! فترى البخيل يحمل على نفسه العجائب، ويمنعها اللذات، وتصير لذاته في جمع المال! وهذه جِبِلَّة في خلق كثير، وليس العجب أن تكون في الجهال، بل العجب أن تكون في أهل العلم.

وينبغي أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع ومخالفته، خصوصًا في الأفعال اللازمة في جمع المال، فأما أن يكون العالم جامعًا للمال من وجوه قبيحة، ومن شبهات قوية، وبحرص شديد، وبذل في الطلب، ثم يأخذ من الزكوات، ولا تحل له مع الغنى، ثم يدخره، ولا ينفع به: فهذه بهيمية تخرج عن صفات الآدمية، بل البهيمية أعذر؛ لأنها بالرياضة تتغير طباعها، وهؤلاء ما غيرتهم الرياضة، ولا أفادهم العلم!

(صيد الخاطر ١/٣٠٤)

لماذا يأخذ العبدُ ما حرَّم الله عليه؟!!

قال الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى:

«ما أخَذَ العبدُ ما حُرِّم عليه إلّا من جهتين:

إحداهما: سوءُ ظنِّه بربِّه، وأنَّه لو أطاعه وآثره لم يعطه خيرًا منه حلالًا.

والثّانية: أن يكونَ عالمًا بذلك، وأنّ مَن ترَك لله شيئًا أعاضه خيرًا منه، ولكن تغلِبُ شهوتُه صبرَه، وهواه عقله.

فالأوّل مِن ضعف علمِه، والثّاني من ضعف عقلِه وبصيرتِه».

(الفوائد ص: ٦٣)

السّلامة.. لا يعدلها شيء!!

قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «كيف يَسلَمُ من له زوجةٌ لا ترحمُه، وولدٌ لا يعذرُه، وجارٌ لا يأمنُه، وصاحبٌ لا ينصحُه، وشريكٌ لا يُنصفُه، وعدوٌّ لا ينام عن معاداته، ونفسٌ أمّارة بالسُّوء، ودنيا متزيِّنة، وهوى مُرد، وشهوةٌ غالبةٌ له، وغضبٌ قاهر، وشيطان مزيِّن، وضعفٌ مستَولٍ عليه؟!!

فإن تولاه الله، وجذبه إليه؛ انقهرت له هذه كلها، وإن تخلّى عنه، وَوَكَلَه إلى نفسه؛ اجتمعت عليه فكانت الهلكة»

(الفوائد: ص ٦٤)

الصّديق

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:

- «ما الدخان على النار بأدلّ من الصاحب على الصاحب».
- قال الخليل بن أحمد: الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال.
- قيل للخليل: استفساد الصديق أهون من استفساد العدو؟ فقال نعم، كما أن تخريق الثوب أهون من نسجه.
- قال ميمون بن مهران: صديق لا تنفعك حياته؛ لا يضرك موته.
- قيل لابن المقفع: الصديق أحب إليك أم القريب؟ فقال: القريب أيضًا يجب أن يكون صديقًا.

(الحديقة لمحب الدين الخطيب ١٣٠٢/٣)

ميزان الرّجولة

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله:
«لا يغرّك من الرّجل طنطنَتُه (أي: صخبه، وارتفاع صوته)، وما تراه يفعل من صلاة، وصوم، وصدقة، وعزلة.. إنّما الرّجل هو الذي يراعي شيئين: حفظَ الحدود، وإخلاصَ العمل».
(صيد الخاطر ص ٥٣٧).

الظاهرية البحتة

قال العلامة ابن القيم رحمه الله:
«ودع الظاهرية البحتة؛ فإنها تقسي القلوب، وتحجبها عن رؤية محاسن الشريعة وبهجتها، وما أودعته من الحكم والمصالح والعدل والرحمة».
(تهذيب السنة لابن القيم ١٨٠/١)

متى تجدُ المشقة في ترك اللذة المحرّمة؟!

قال الإمام ابن قيّم الجوزيّة رحمه الله:
«إنّما يجد المشقّة في ترك المألوفات والعوائد مَن تركَها لغير الله.. فأمّا مَن تركها صادقًا مخلصًا من قلبه لله؛ فإنّه لا يجد في تركها مشقّة إلّا في أوّل وهلة؛ ليمتحن: أصادقٌ هو في تركها، أم كاذب فإن صَبرَ على تلك المشقّة قليلًا؛ استحالت لذّة (أي تحولت لذة)!!».

(الفوائد: ص ١٠٧).

جنود الطاعة.. وجنود المعصية

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «ولايزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها؛ حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تأزّه إليها أزّا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها.
ولايزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها، حتى يرسل الله إليه الشياطين فتأزّه إليها أزّا.
فالأول: قوَّى جند الطاعة بالمدد؛ فكانوا أكثر من أعوانه.
وهذا: قوَّى جند المعصية بالمدد؛ فكانوا أعوانا عليه».

(الداء والدواء: ١٤٠)

إيّاك أن تكونَ على هذه الحال!!

قال الإمام ابنُ الجوزيِّ رحمه الله:
«أعظم المعاقَبة: ألا يَحسّ المعاقَبُ بالعقوبة. وأشدُّ من ذلك: أن يقعَ السّرورُ بما هو عقوبة؛ كالفرح بالمال الحرام، والتّمكن من الذنوب.
ومَن هذه حالُه.. لا يفوزُ بطاعة».

(صيد الخاطر: ص ٢).

مسك الختام

«أزمة الفعالية».. وأمتنا

أحمد عبدالجواد زايدة
باحث دراسات إسلامية

لا تزال كبرى أزمات أمتنا التي عاشتها قديمًا وتعيشها حاضرًا- وقد تعيشها مستقبلا- هي أزمة «الفعالية» التي أُنيطت بها هذه الأمة، متمثلة في راية «الشهود» المنصوص عليها في قول الله- تبارك وتعالى- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وهي المتمثلة كذلك في ركيزة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠).

فإخراج الأمة ووجودها مرتبط ومعلل بمهمة القيام بمقام الشهادة، وتولي مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بما يعنيه من إقامة مقاصد الدين وتنزيل شريعة الله، بما يضمن تحقيق المصالح المعتبرة في العاجل والآجل للعالمين، وفعل كل ما يؤدي إلى هذا، ومدافعة كل ما ينافي تحقيق هذا ويقف حائلا أمامه، وعائقا في سبيل تحقيقه وتنزيله.

أدوار هذه «الفعالية» وواجبات هذه «الخيرية» ومضامين وسبل هذا «الشهود» يمثله ما ذكره الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، حين تحدث عن «فيما يحق أن يكون غرض المفسر»، فتحدث عن الصلاح الفردي والصلاح الجماعي والصلاح العمراني، مع ما يشتمله كل بند منهم من مضامين تتعلق ببناء الأمة وفعالية إنسانها، لتنزيل وتحقيق مقاصد هذا الدين في العالم والكون، لتحقيق الشهود على الناس.

إن كبرى أزمات هذه الأمة أن مصلحيها صالحون! وليسوا مصلحين.. أي أن صلاحهم محدود وليس متعديا، وبالتالي فإن فعاليتهم لا تتوازى ولا تتناسب مع مقاصد هذا الدين، الذي يجب على من يعتنقه ويحمل رسالته أن يسعى إلى تجسيدها وتفعيلها وتنزيلها في عالم الشهادة، بما يستلزمه من رؤية واضحة واستراتيجيات متعددة وخطط تنزيلية تدرك وتفهم وتميز بين الخطط المرحلية قصيرة الأجل.. والخطط متوسطة المدى والخطط بعيدة الأجل، وكيف يمكنها أن توازي بينهم بحيث تدور كل واحدة في أفق الأخرى بتراكم وتكامل، لا بتعارض وتضاد..

يقابل هذا أن قوى الشر والفساد هي في الحقيقة قوى (صناعة الشر)، تعمل بحرفية ومؤسسية وتكامل، ففسادها ليس كامنا في ذاتها فقط، بل هو متعد بما يصل لمراتب الإفساد وصناعته ونشره بكافة الأساليب والوسائل والجهود.

كبرى أزمات هذه الأمة أن (مصلحيها) صالحون لا مصلحون؛ في حين أن (مفسديها) مفسدون لا فاسدون فحسب؛ توقف فعالية الخير ليبقى في حدوده، مع بقاء فعالية الشر خارج حدوده، فينتفي التدافع الحقيقي.. وشتان شتان بين المرتبتين.




الوعي الشبابي
www.alwaeialshababy.com
• مواضيع حيوية ومعاصرة
• حوارات حصرية مع الشباب المبدعين
• مقالات لأبرز الكتاب الشباب
«الوعي الشبابي» مجلة شبابية
إلكترونية تصدر عن مجلة «الوعي الإسلامي»
رئيس التحرير : فيصل يوسف العلي
www.alwaeialshababy.com
Shabab alwaei
@alwaeialshababy



العدد (٥٨٣) ربيع الأول ١٤٣٥هـ / يناير ٢٠١٤م

أسست عام ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

50 عاماً من العطاء

الدين والعلم



قصة التاريخ الهجري

أجوبة لطيفة عن أربع سؤالات شريفة

التكافؤ الاقتصادي بين الربا والتورق

الاعتذاريات النبوية بين عصرين من الشعر

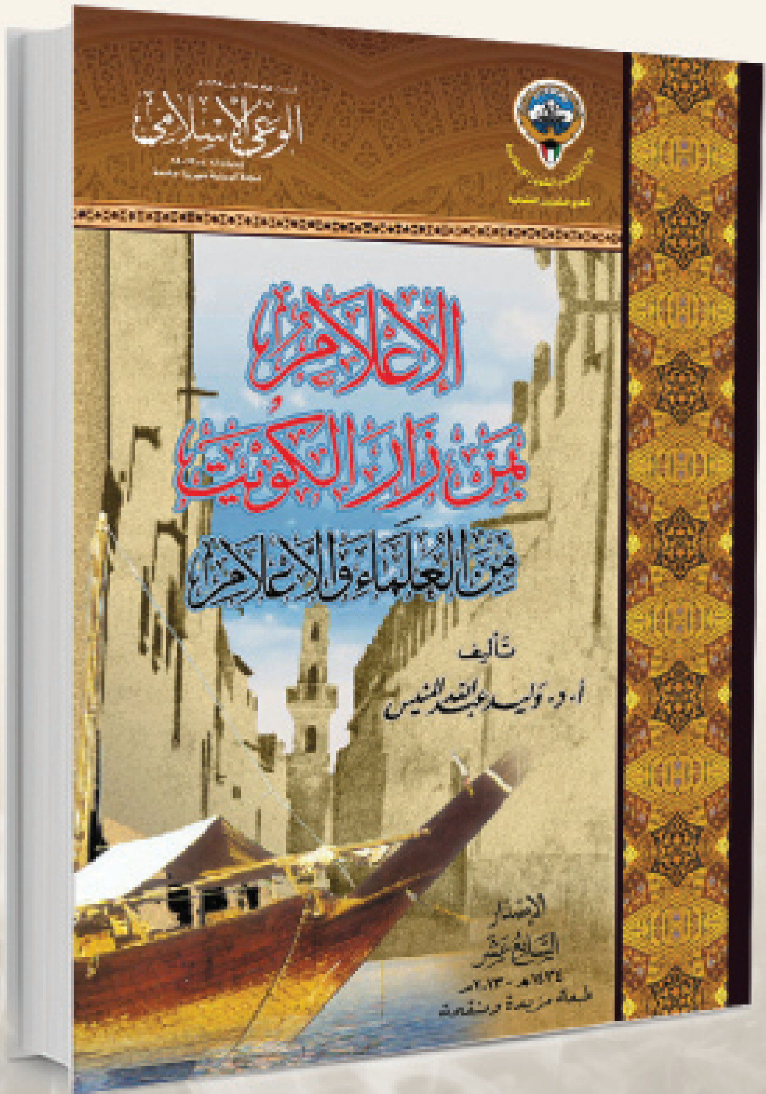
قراءات في الأعمال الرشدية الصادرة بالألفية الثالثة

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

مجلة

الوعي الإسلامي

تهديكم جديد إصداراتها



طبعة مزيدة ومنقحة من كتاب «الإعلام بمن زار الكويت من العلماء والأعلام» للدكتور وليد عبدالله المنيس، قدم إضافة جديدة ونوعية للقراء وطلبة العلم والباحثين

صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ الكويت هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
البريد الالكتروني: manager@alwaei.com - info@alwaei.com

الافتتاحية

أنتم أعلم بأمور دنياكم

لا تضاد بين العلم والدين، ولا خصومة بين القديم والجديد، والقول بالتنافر قول مخالف للواقع، فإن الديانات المختلفة متفقة على هذا الأمر، والتي ينتسب إليها ويؤمن بها عدد كبير من رجال العلم والمعرفة في جميع الأزمنة والأمكنة، ولا يشك أحد في قدراتهم وإبداعاتهم العلمية.

ويحاول دعاة الإلحاد والمشككون في الديانات أن يوهموا الناس بأن الدين ينبذ العلم، بكلام يزخرفونه، وأوهام يدسونها، ومتى آنسوا من الناس غفلة، ومن حماة الدين هجعة، كانت لهم صولة وجولة، ولكن الله وهب للناس العقول، ليفرقوا بين الحقيقة والمجهول، وبين العلم الصادق والوهم الكاذب، فالإسلام يحتوي أسمى التعاليم وأكمل الوصايا والإرشادات الكفيلة بتقدم الأمم وارتقائها، وإن تأخر المسلمين ناتج من عدة أسباب، سياسية واقتصادية وأخلاقية واجتماعية، وهي في مجموعها ترجع إلى إهمال القانون الأساسي الذي يجمع بين مصالح الدين والدنيا، كما يجب التنبيه على الفرق بين الإسلام في مصادره وبين المسلمين في أنفسهم وبحالتهم التي هم عليها، فقد ضل كثير من الغرب حين ظنوا أن التخلف والتأخر ناتج عن عمل المسلمين بدينهم، وأن الإسلام هو العلة، فلم يفرقوا بين الإسلام في ذاته بقطع النظر عن أتباعه، وبين واقع المسلمين الماثل، لذا فالواجب على المسلمين أن يستفيدوا من الحضارة الجديدة بما لها وما عليها، ويدرسوا تجاربهم، فلا معنى أبدًا لأن نتجاهل الجهود الإنسانية التي بذلت في إبداع هذه الحضارة..

وعلينا أن نطلع على ما لدى الآخرين من علم وإبداع وكل مفيد، كما ينبغي ألا نرفض حكمة جاءت من عدو، ولا نبخس حصاد الذكاء البشري مهما كان موطنه، لنستقبل الجديد من عوامل الإبداع، شرط ألا ينسينا أصولنا وثوابتنا، والدين لم يترك شيئا من الأمور المدنية ولا الدينية العامة ولا القواعد الكلية.. أما الجزئيات فتركها ليستنبطها العلماء باجتهادهم على حسب الزمان والمكان واحتياجاتهم، وفي تاريخنا الثقافي والإبداعي نفائس ودرر اختفت في ركام عهود الانحلال والضلال، مما يجعل التركة علينا ثقيلة في البحث والتنقيب عنها، والإبداع من خلالها، والله المستعان.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٣ | ربيع الأول ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
يناير ٢٠١٤ م

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



الدين الإسلامي يشجع على اكتساب العلم ويحتضن العلماء وهو براء مما خلفه مسلمون تكاسلوا بعدما بلغوا مراتب عليا.









التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذبية . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

كلمة العدد

إنما بعثت معلمًا

أثبت التاريخ أن رسول الله ﷺ كان معلما وأي معلم؟ فنظرة يسيرة إلى ما كانت عليه البشرية قبل رسول الله ﷺ، وإلى ما آلت إليه البشرية بعد رسالته، تعطينا أوضح شاهد ودليل على ثبوت ذلك.

وإذا لاحظنا النماذج المعلمة الهادية من النوع الإنساني، التي شاهدتها البشرية بعد الرسول المعلم ﷺ رأيناها تدل أقوى الدلالة على عظم هذا المعلم المربي الكبير، الذي تتقاصر أمامه أسماء كل الكبار الذين عرفوا وذكروا في عالم التعليم والتربية وتاريخهما.

فأي معلم من المربين تخرج على يديه عدد أوفر وأهدى من هذا الرسول الكريم، الذي تخرج به هؤلاء الأصحاب والأتباع؟ فكيف كانوا قبله؟ وكيف صاروا بعده؟ إن كل واحد من هؤلاء الأصحاب دليل ناطق على عظم هذا المعلم المربي الفريد الأوحد. وهذا يذكرنا بكلمة طيبة جدا لبعض الجهابذة الأصوليين، يقول فيها: لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه، لَكَفَوْه لإثبات نبوته.

ولا غرابة أن يتخرج على يديه ﷺ هذا العدد الجم الغفير من الناس، في فترة وجيزة من الزمن، فإنه قد سلك بهم ﷺ مسلك التعليم الجماعي المستنفر، ودفعهم إلى محو العامية دفعا، وحضهم على ذلك وندبهم إليه، وحذرهم من الفتور فيه تحذيرا شديدا.

المرجع: الرسول ﷺ المعلم

الاشتراكات

- داخل الكويت: للأفراد ٧,٥ دنانير - للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم: للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية: للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

قراءات في الأعمال الرشدية الصادرة بالألفية الثالثة



تقرير: بشرى شاكر- المغرب

نظمت الجمعية المغربية للبحث في الفلسفة الإسلامية برنامجا دراسيا حول المنجز المغربي في البحث بالفلسفة العربية الإسلامية، وذلك خلال شهر نوفمبر الماضي بحضور ثلة من الأكاديميين والباحثين والمتخصصين.

وتناولت الدورة الأولى من البرنامج عنوان «الأعمال الرشدية الصادرة في الألفية الثالثة» نظرا للتراكم النسبي كما وكيفا الذي حققته الدراسات والتحقيقات الرشدية في المغرب، وهي الدراسات التي بدأت بقوة في سبعينيات القرن الماضي، وتناولت قضايا مثل الميتافيزيقية كالواحد والوجود والذات والغير وقضايا الفلسفة الطبيعية.

وناقشت الفعالية سبعة كتب لباحثين مغاربة، من بينها ثلاثة مؤلفات لمحمد المصباحي وهي: «مع ابن رشد»، «من الوجود إلى الذات»، «الوحدة والوجود عند ابن رشد»، ومؤلف «ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية» لمحمد بن شريفة، وكتاب «الفقة والفلسفة في الخطاب الرشدي» لإبراهيم بورشاشن، وكتاب «تمثيلات واستعارات ابن رشد» لفؤاد بن أحمد، وكتاب «العالم بين التناهي واللاتناهي لدى ابن رشد» لمحمد مساعد.

ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية

كانت البداية مع قراءة نقدية لكتاب شيخ المحققين المغاربة محمد بن شريفة «ابن رشد الحفيد، سيرة وثائقية»، وهو الكتاب الثاني المكتوب بالعربية بعد كتاب «المتن الرشدي» للمرحوم جمال الدين العلوي، والذي صدر عن مطبعة النجاح بالدار البيضاء سنة ١٩٩٩م.

يقول فؤاد بن أحمد: «إن الطبيعة التوثيقية للكتاب هي الهوية المعلنة في عنوانه، فلا توجد دراسة تتناول ابن رشد إلا وكان ضمن لائحة مراجعها، بل هناك مقالات فرنسية حديثة الصدور ترجمت لمحتويات الكتاب».

ابن شريفة وضع في كتابه وثائق جديدة تبين أن ابن رشد ليس فقط محط حقد البعض، بل أيضا محط دفاع وإعجاب وثناء الكثيرين من معاصريه، ومن ذلك شهادة ابن طملوس، ما يجعلنا نعيد النظر في التصورات الشائعة حول موقف أهل عصره منه، وبذلك يختلف عن السير المعروفة السابقة عن ابن رشد.

الكتاب الذي يقدمه محمد بن شريفة على أنه عمل متواضع جاء في ذكرى احتفال العالم بسنة ابن رشد، يضم مواد ونصوصا مفصلة وموثقة لأبي الوليد ما تزال في حاجة إلى البحث والدراسة والكشف والإبانة، وقد بذل ابن شريفة جهدا كبيرا في تتبع النصوص التي توثق لسيرة ابن رشد، وجمعها من مصادر متعددة ومراجع مختلفة، وبعضها يؤخذ لأول مرة فيما أعيد نشر البعض الآخر مع تحقيقات وتعريفات.

للكتاب عشر خصائص يعلن عنها المؤلف بنفسه، ومن بينها أنه يقف عند حدود السيرة ولا يتجاوزها إلى الغوص في عقل ابن رشد أو في أثره، أيضا حرصه على جمع أقصى قدر من المادة المتعلقة بحياة ابن رشد وسيرته، وتوثيقه لهذه المادة، وذلك بنسبة كل مادة إلى مصدرها وصاحبها، والسيرة لا تترك اسما أو علما من الأسماء الذين يجري ذكرهم دون الإحالة على مواطن تراجمهم أو التعريف بهم، وتشتمل السيرة على مواد جديدة وعناصر مجهولة في سيرة ابن

رشد، وتلقي شيئا من الضوء على نشأة ابن رشد وبدايته، كما تقدم هذه السيرة لأول مرة شهادات في الدفاع عن ابن رشد.

وتضمن ملحق الكتاب شجرة جينيالوجية لابن رشد تعرف لأول مرة لآل بن رشد، وقد حوى ثمانية عشر علما، ابتداء من الجد الأعلى رشد وانتهاء بعبد الرحمن آخر المعروفين من الأسرة الرشدية.



إبراهيم بور شاشن

فقهية عبر منها هذا الفيلسوف إلى الفلسفة بدءا بالتربية الفقهية والعلمية، وتتلمذه بفكر جده الذي كان من المتحدثين إلى الخروج من شرنقة التكرار والحفظ التي تخندق فيها الوعي الفقهي، وكذا بتفاعله مع الفكر الفقهي للغزالي، ثم مع فكر إمام الحرمين الجويني، وصولا إلى ربط تجليات الهاجس الاجتهادي لدى بعض ممثلي المدرسة الفقهية التي ترعرع فيها أبو الوليد، وهي مدرسة علمية تجمع بين الفقه والحديث وتحتفي بالاجتهاد.

الفقه والفلسفة في الخطاب الرشدي

كتاب «الفقه والفلسفة في الخطاب الرشدي» لإبراهيم بورشاشن، وقام بتعريفه الباحث نبيل فازيو، وإن أهم ما تميز به عن غيره هو بحثه في الخطاب الفقهي لابن رشد المتكلم والفيلسوف، ورغم أن عنوان الكتاب يوحي بأن مدار حديثه على العلاقة التي ما انفكت تجمع القول الفقهي بالقول الفلسفي في الإطار الرشدي، ورغم ما توحي مقدمته من رغبة في الخوض في سجال بات كلاسيكيا بين الرشديين حول طبيعة العلاقة التي تربط الفقه والفلسفة في الخطاب الرشدي، فإن الناظر في الكتاب يدرك أن الهم الرئيسي تجلى في وضع اليد على الوحدة الحاكمة في خطاب ابن رشد.

إن ما حمل المؤلف على خوض مجازفة القراءة التركيبية للمتن الرشدي رغبة تتجاوز الحدود الضيقة للعمل الأكاديمي المحض إلى رغبة في امتلاك ابن رشد العربي المسلم، أو إعادته إنسانيا إلى جسم الثقافة العربية المسلمة التي نشأ فيها فقيها وترعرع فيها فيلسوفا.

يضيف فازيو: بقدر ما يقدم هذا الكتاب فهما رصينا للخطاب الرشدي فإنه يرسم معالم قراءة جديدة ومغايرة لتراث أبي الوليد، ويصطف المؤلف بطرحه هذا إلى صف المدافعين عن وحدة المتن الرشدي، وعلى رأسهم المرحوم جمال الدين العلوي، بل إننا نجد في هذا المؤلف نوعا من الاستمرارية لكتاب المتن الرشدي.

الكتاب يضعنا أمام أفق منفتح لفهم منابع الفكر الرشدي وتفاعل مكوناته لتتكامل فيه صورة ابن رشد القاضي مع صورته كفقيه وكفيلسوف.

وقد خصص المؤلف حيزا كبيرا من كتابه للنظر بما يمكن وصفه بالمنطلقات الفقهية لفكر ابن رشد لإثبات الدور الكبير الذي لعبه التكوين الفقهي والأصولي في تشكل الفكر الرشدي.

لقد قدم المؤلف صورة واضحة المعالم للتكوين الفقهي الذي تلقاه فيلسوف قرطبة، لذلك كان عليه أن يتحدث عن جسور

من الوجود إلى الذات

قال الباحث إبراهيم بورشاشن عن كتاب «الوجود إلى الذات» للمؤلف محمد المصباحي: يشكل الكتاب حلقة من سلسلة بحوث ودراسات حول ابن رشد، وجعلت منه أحد الرشديين الكبار في العالم العربي، لاسيما أن المدرسة المغربية الرشدية تقدم الجديد، سواء من حيث المواضيع أو من حيث التناول.

ويقدم الكتاب من خلال عنوانه مسارات معالجاته، فهو يذهب من الوجود إلى الذات، أو بالأحرى يوقفنا على رحلة ابن رشد من الوجود المشار إليه إلى الماهية، إنها رحلة البحث عن الذات من خلال البحث عن الوجود، حيث إن الباحث يريد أن ينبه الدارس إلى طبيعة ما يسمى الفلسفة الوسيطية، والتي تختلف عن الفلسفة الحديثة، فإذا كانت هذه الأخيرة قد تأسست على الذات أولا مع ديكارت، فإن فلسفة ابن رشد وهي جزء من الفلسفة القديمة ما كان لها أن تفكر بهذا الأفق، فقد كان أفقها أرسطيا بالدرجة الأولى، وهذه الرحلة الرشدية للبحث عن الذات تتحرك في هذا الأفق الأرسطي، ولا تتحرف عنه إلا لماما.

المتابع للمؤلف المصباحي من خلال الكتاب، يجد أن الرجل وقاف عند ابن رشد، فلا يكاد يخرج عنه في تأويل لن يرجع إليه، غير أنه ليس عملا إنشائيا كما نجد في العديد من الكتابات عن ابن رشد، بل هو عمل يثير الإشكالات ويبحثها ويثير الصعوبات ويتخطاها، عمل ينصت إلى ابن رشد وهو يخوض غمار الميتافيزيقا ويقتحم لججها، وهو عمل يحاول من خلال هذه الإشكالات والصعوبات أن يبني قولا متماسكا ما وسعه ذلك من خلال أربعة أبواب، ولكل باب فصول، ولكل فصل جمل، والأطروحة التي يعالجها الكتاب هي «كيف كانت رحلة ابن رشد الفلسفية؟»، «من الوجود إلى الجوهر، ومن الجوهر إلى الذات، ومن الصورة إلى الذاتية بصفتها ماهية الماهية، ومن الصورة إلى أعراضها الطبية وغير الطبية».

القيم في الإسلام..
سورة الحجرات نموذجا

د.مراد زهوي
باحث في الدراسات الإسلامية

تقرر عند علماء الأمة أن مكونات الدين ثلاثة: العقيدة، والأحكام (الشريعة)، والأخلاق والآداب (القيم)، وتعد الأخيرة عنوانا للتدين الصحيح، فتمثلها والتحلي بها دلالة على تفهم معاني الدين وإدراك ما يقتضيه، ومخالفة ذلك منافاة لكماله.

يشهد لهذه المعاني الأحاديث الصحاح الكثيرة، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن!» قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه (شروره)» (رواه البخاري)، وفي لفظ مسلم: «لا يدخل الجنة من



لا يأمن جاره بوائقه». وحديث أبي هريرة رضي الله عنه الآخر قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (رواه مسلم)... وغيرها من الأحاديث التي تفيد المعنى المتقدم.

وقد اعتنى الإسلام أيما عناية بهذا الركن الركين والأساس المتين من الدين، حتى خص سورة من سور القرآن الكريم لبيان حقائق التربية الخالدة، وأسس المدنية الفاضلة، إنها سورة الحجرات، هذه السورة التي سماها بعض المفسرين بسورة الأخلاق، وهي محور حديثي في هذه المقالة.

جعل الله تعالى من المقاصد الكبرى والغايات الأسمى لبعثة محمد ﷺ إتمام صالح الأخلاق ومكارمها.. وقبل أن يبعثه اصطفاه ورباه ورعاه وزكّاه، حتى وصفه في كتابه بأنه على خلق عظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم: ٤) أي: وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم، وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيه الفضائل والكمالات. قال ابن عباس- رضي الله عنهما-: «أي وإنك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام»، وهذا أيضا يؤكد القاعدة التي انطلقت منها في بناء هذه المقالة.

وسئلت أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- عن خلقه ﷺ فقالت للسائل: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: « فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن» (رواه مسلم). وكان كذلك ﷺ، فمن أخلاقه- عليه الصلاة والسلام- العلم والحلم والحياء وكثرة العبادة والسخاء والصبر والشكر والتواضع والزهد والرحمة والشفقة وحسن المعاشرة والأدب.. كان ﷺ أحسن الناس خلقا وخلقا، ومعنى هذا كله أن امتثال القرآن- أمرا ونهيا- صار سجية له ﷺ وخلقا تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم.

ومن المعلوم ضرورة أن الله تعالى تعبدنا بالاتباع والاقتداء برسوله ﷺ، وهذا من مقتضيات الشهادة له بالرسالة (وأشهد أن محمدا رسول الله). يقول جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١)، ويقول سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، ومما يتأكد فيه الاقتداء أخلاقه وآدابه ﷺ (القيم).

في سورة الأخلاق

إن سورة الحجرات على وجازتها وقصرها تضمنت- كما تقدم- حقائق التربية الإسلامية الراشدة، وأسس الحضارة والمدنية الفاضلة. وسأقف مع كل حقيقة وأساس من هذه الحقائق والأسس الجمة على حدة.

الأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ

يجب التعظيم كل التعظيم لله تعالى، وعدم التعدي على حدوده وحرماته، ويجب لرسوله ﷺ التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام؛ فلا تعتقد ولا تفعل ولا تتحدث خلاف كتاب الله تعالى وخلاف سنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ (الحجرات: ١).

التثبت من الأخبار

يجب التثبت من الأخبار المتناقلة، لاسيما إن كان الحامل لها والمروج لها فاسقا غير موثوق بصدقه وعدالته، فلابد من التأكد من صحة الخبر حتى لا نؤذي الناس، ونحن جاهلون حقيقة الأمر، فنصبح نادمين أشد ما يكون الندم على صنيعنا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾(الحجرات:٦).

الاستهزاء من الآخر

يجب تجنب السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴿١١﴾﴾ (الحجرات: ١١). وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق وغمط الناس» (رواه مسلم).

قال القاضي عياض- رحمه الله-: «.. وأما بطر الحق، فهو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا» (١). وقال ابن كثير- رحمه الله -: «والمراد من ذلك (غمط الناس): احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له..»(٢).

الهمز واللمز

يجب تجنب الهمز واللمز، أما الهمز فيكون بالقول، وأما اللمز فيكون بالفعل. فلا يجوز الازدراء بالناس، والانتقاص منهم، واحتقارهم والطعن عليهم لا بالقول ولا بالفعل. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (الحجرات: ١١).

التنابز بالألقاب

يجب الابتعاد عن التنابز بالألقاب(٣)، وهو التداعي بالألقاب التي لا يحب المخاطب سماعها ومناداته بها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ (الحجرات: ١١)، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في بني سلمة، فعن أبي جبيرة بن الضحاك قال: «فينا نزلت في بني سلمة.. قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعي أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾» (صححه الألباني).

إذن فالتنابز فعل قبيح شنيع ذميم، فهو فسق، وفاعله فاسق، ولذلك قال تعالى عقب النهي عن هذا الخلق ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾، قال الإمام البيضاوي- رحمه الله-: «وفي الآية دلالة على أن التنابز فسق، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح»(٤).

سوء الظن

يجب تجنب الكثير من الظن، والظن هو أن يكون عند الإنسان احتمالان ترجح أحدهما على الآخر. وهنا عبر الله تعالى بقوله: ﴿كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ﴾ ولم يقل سبحانه: اجتنبوا الظن كله، لأن الظن ينقسم إلى قسمين: الأول منهما ظن الخير بالإنسان، وهذا مطلوب ما دام الإنسان أهلا لذلك، وهو المسلم الذي ظاهره العدالة، فإن هذا يظن به خيرا، ويثنى عليه.

الثاني منهما: ظن السوء، وهذا يحرم بالنسبة لمسلم ظاهره العدالة، فإنه لا يحل أن يظن به ظن السوء كما نص على ذلك العلماء. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه وأن نظن به إلا خيرا»(سنن ابن ماجه)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث.. » (رواه البخاري).

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرا، وأنت تجد لها في الخير محملا».

التجسس

يجب تجنب التجسس، فلا تبحث أيها المسلم عن عورات المسلمين، ولا تتتبع عيوبهم، فمن تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في قعر داره. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. وقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «.. ولا تحسسوا ولا تجسسوا.. ».

قال بعض العلماء: «التحسس بالحاء الاستماع لحديث القوم، وبالجيم البحث عن العورات، وقيل بالجيم التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، والجاسوس صاحب سر الشر، والناموس صاحب سر الخير، وقيل بالجيم أن تطلبه لغيرك، وبالحاء أن تطلبه لنفسك.. وقيل هما بمعنى، وهو طلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال..» (٥).

الغيبة

يجب تجنب الغيبة، وهي: كما قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»(رواه مسلم). قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾. والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة» (رواه البخاري)، وكقوله لفاطمة بنت قيس- وقد خطبها معاوية وأبو الجهم-: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه» (رواه مسلم).. وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، أي: كما تكرهون هذا طبعا، فاكرهوا ذاك شرعا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها.

فهذا غيض من فيض من القيم الرفيعة والأخلاق السنية التي حكمت سلوك المسلمين على تعاقب الأزمنة والسنين، منذ بعثة النبي ﷺ وإلى يومنا هذا، تدل على رفعة هذا الدين وسموه وشموليته وعالميته، وأنه بحق الدين الذي يستحق أن يختم الرسالات، وأن يخلد إلى قيام الناس لرب السموات.. فكل ما تعانيه المجتمعات الإسلامية اليوم في جانب القيم هو نتيجة حتمية للقطع مع هذه القيم الربانية والحقائق التربوية الخالدة.. فهلا عدنا- والعود أحمد- إلى تمثلها حتى نحيا حياة طاهرة طيبة صافية نقية؟

الهوامش:

١- شرح النووي على صحيح مسلم، لمحيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي: ٣٤٥/١.

٢- تفسير القرآن العظيم، لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي: ٤٦٠/٦.

٣- الألقاب جمع لقب، وهو الاسم الذي يشعر بذم أو مدح، يذكر تارة للتعريف وتارة للتنقص. وإذا كان للتنقص، وكان ذلك المسمى به يكرهه، فلا يجوز أن يذكر به، فينادى بكنيته ولا ينادى بلقبه.

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي: ٣٧٣/٣.

٥- شرح النووي على صحيح مسلم: ٣٤٣/٨.



د. محمد علي يوسف
طبيب وباحث مصري

﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ (طه: ٧٢).
﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ (الشعراء: ٦٢).

جملتان قرآنيتان مثلت كل منهما رد فعل مختلف تماما لتيقن الأذى ومعاينة البلاء..

الأولى مثلت رد فعل السحرة على وعيد فرعون، بينما كانت الثانية إجابة موسى على من قالوا: إنا لمدركون، حين رأوا جيش فرعون في الأفق يكاد يلحق بهم والبحر من أمامهم.

ثمة فارق ظاهر بين كل رد فعل منهما..

فمع اعتبار فارق مقام النبوة إلا أن موسى عليه السلام كان لديه وعد قطعي محدد، فيه جزمٌ بأن الله تعالى معه هو تحديدا ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه: ٤٦)، وأنه لا محالة غالب عدوه ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ (القصص: ٣٥).

لذلك كان رد فعله يقينا قاطعا في وعد محدد له هو بعينه وفي حياته..

هنا قال للمشككين والمهتزين والمرجفين بجزم قاطع: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾(الشعراء: ٦٢)..

قضية منتهية لا يوجد لديه ذرة شك فيها..

أما السحرة فلم يكن لديهم مثل ذلك الوعد القطعي المحدد لأعيانهم، والذي يقطع لهم من الله بالنجاة الدنيوية من قبضة الطاغية.. لكن مع ذلك كان رد فعلهم الصدع بالحق والثبات عليه ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ (طه: ٧٢) جنبا إلى جنب مع التسليم الكامل لقضاء الله في عزة واستعلاء على الباطل بلا أدنى ذلة أو استكانة أو وهن.. ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ (طه: ٧٢)، بل تراهم ثبتوا وأقدموا وأمَّلوا خيرا عند من هم إليه راجعون معلنين: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠﴾ (الشعراء: ٥٠)، ثم أعلنوا الرغبة فيما عند الله والاستبشار بوعده الأخروي الذي هو خير وأبقى ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ (طه: ٧٣).

لكن الملاحظ أنهم لم يجزموا بنجاتهم في الدنيا، بل التزموا

حدودهم البشرية، ولم يتألوا على رب البرية، بأن ينسبوا إلى أنفسهم ما لم ينسب لها، أو يخصوها بخصوصية زائدة، أو يقيدوا وعدا أطلقه الله سبحانه.. وتلك هي الاستراتيجية الثالثة للتعامل مع الوعود الربانية..

فبعد أن تحدثنا في مقال سابق عن التعامل مع الوعود الربانية أولا بتصديق، وثانيا بغير تضييق، وبينّا أن أساس ذلك التعامل يكون بالإجابة على سؤالين رئيسيين هما:

- أحق هو؟
- ومتى هو؟

وأوضحنا أن الإجابة النموذجية على هذين السؤالين المحوريين تكون من خلال استقراء النصوص القرآنية والنبوية، بالتصديق الكامل واليقين الجازم أولا ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ (يونس: ٥٣).

والاستبشار مع عدم التضييق والتألي على الله بتحديد ما لم يحدده، وبتقييد ما أطلقه ثانيا ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١﴾ (الإسراء: ٥١).

يأتي بعد ذلك السؤال المحوري الثالث الذي ينبغي على متأمل الوعود والبشريات الربانية أن يسأل نفسه عن إجابته:

- لمن هي؟

لمن تكون تلك الوعود؟ ومن هو المستحق لهذه البشريات؟

إن وعود القرآن وبشرياته- بشكل غالب- هي وعود مطلقة لا تقيد بزمان- كما أسلفنا- والأصل أيضا أنها لا تقيد بأعيان وأشخاص إلا في حالات نادرة، كما حدث مع سراقة ابن مالك ووعده بسواري كسرى، وهي حالة استثنائية، لا تنفي أن الأصل المطرد هو طلاقة الوعود وعدم خصوصيتها بأشخاص معينين، إلا أنه عند الحديث عن صفات المستحقين فإن تلك الوعود ليست مطلقة، فالقضية ليست مجاملات أو محاباة لشخوص بعينهم.. ليست بحفظ الناس لبُشريات، وتذكيرهم أنفسهم بوعود وأمنيات، دون أن يسأل كثير منهم أنفسهم.. لمن هي؟!

لمن هذه الوعود؟ ومن يستحق تلك البشريات؟

بل هي خصائص وخصال ينبغي أن تكون موجودة في الجيل والطائفة التي يتحقق لها الوعد وتتحقق لها البشرى..

تلك هي خلاصة القصة، وإنها كذلك لحقيقة الحياة، وما تعارف عليه الناس في دنياهم.. في الدنيا تجد المُجدَّ المجتهد يلمح بطرفه مآل اجتهاده وعاقبة صبره نجاحا وفلاحا، فيرنو إلى تلك الغاية، ويبذل الجهد للوصول إليها.. بينما يقف معدوم الطموح ساكنا متكاسلا، ثم يبتغي بعد ذاك التكاسل وهذا التقصير لحاقا بالآخر المجتهد!

حاشا وكلا..

لا يظلم ربك أحدا..

ولا يحابي أو يجامل أحدا..

هذا النموذج البشري يعرفه كل منا، ويدرك لامنطقيته التي هي مثال صارخ يوضح خطورة انفصال الظن عن الواقع والتعلق بأهداب الأمل دون العمل.. كحال طالب قضى عامه الدراسي في اللهو واللعب، وفعل كل ما يشتهيه، فلم يترك لذة إلا وقد سارع إليها، ولم يبذل أدنى مجهود، ولم يحرم نفسه من أية متعة.. لم ينفق وقته وجهده إلا على اللهو والتلذذ بكل سبيل..

وحين اقترب الامتحان لم يغير شيئا من عاداته أو يقلل من ساعات نومه الطويلة، ولم يفق من غفلته الثقيلة.. ظل كما هو لاعبا لاهيا لاغيا، فلما جاءت ساعة الحسم تلقى ورقة الأسئلة والإجابة، ومر الوقت ثقيلا دون أن يخط شيئا يذكر، وظلت ورقة إجابته أشد بياضا من الثلج حين لم يجد ما يسطره فيها، وحين أعلنت النتيجة رأى بذله واستحقاقه ماثلا أمام عينيه..

هل يملك حينئذ ترف الدهشة وحق الاستنكار؟!

هل كان يظن أن يجني الثمر دون أن يبذر الحب؟

هل كان يحسب أن طريقه الذي سلك وسبيله الذي اختار لهما نهاية مختلفة عما يراه؟

أي منطق هذا؟

إن مثل هذا الطالب كان يدرك جيدا مآل ما صنع، ورغم ذلك سلك بإرادته طريقا يلوح في أفقه ما هو فيه الآن.. ففيم إذن الدهشة والعجب؟!

هكذا جرت السنن.. من جد وجد، ومن زرع حصد، وهو ما زرع ولا بذر ولا جد، فما وجد وما حصد..

إن هذا هو المنطق المتعارف عليه في أمور الدنيا، فلماذا يصر البعض على التفريق بينه وبين استحقاق وعود الله؟

وإن المتأمل في تلك الوعود القرآنية سيجدها غالبا مخصوصة بصفات ومرتبطة بخصال معينة.. سيجد مثلا بعد الحديث عن أولياء الله الصالحين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ (يونس: ٦٣) تخصيصا لهم بالبشارة في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ

ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ (يونس: ٦٤)

وسيجد الأمر بالتبشير مرتبطا بالإيمان والمؤمنين في عدة مواضع من كتاب الله، كما في قوله تعالى ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الصف: ١٣).

وقوله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ (البقرة: ٢٢٣).

وقوله ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (التوبة: ١١٢).

وسيجده مخصوصا بالمؤمنين أيضا في وصية الله لموسى عليه السلام بتبشير قومه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (يونس: ٨٧).

وجاءت البشرى كذلك لمن حقق الإسلام لله تعالى كما في قوله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (النحل: ٨٩).

وفي سورة البقرة نلاحظ أن الأمر بالبشرى خاص بالصابرين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ (البقرة: ١٥٥).

وفي سورة الحج نجد ترابطا بين البشارة وبين مقام الإحسان، وذلك في قوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (الحج: ٣٧).

وأيضا في سورة الأحقاف نجد التلازم بين البشرى وبين الإحسان ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ (الأحقاف: ١٢).

والمخبتون كذلك لهم نصيبهم من البشرى كما في قوله: ﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الحج: ٣٤).

وهكذا في جُل البشريات والوعود القرآنية، إن لم تكن مخصوصة بشخص أو طائفة بعينها، فإنها تكون مرتبطة بصفات وخصائص من حققها استحق أن تشمله تلك البشرى.. إيمان وعمل وصبر وإخبات وإحسان وتقوى وإسلام لله جل وعلا.

صفات وخصائص حري بمن حققها أن ينتصر ويمكَّن له..

ولأن الجزم بنسبة تلك الصفات لشخص أو طائفة بشرية بعينها يعد نوعا من تزكية النفس التي نهى الشرع عنها ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ (النجم: ٣٢).

فإن الجزم كذلك بتحقق الوعود والبشريات الناتجة عن تلك الصفات هو أيضا لون من التزكية والتألي على الله.. لكن الواجب على المسلم بصدد تلك الوعود والبشريات هو السعي الحثيث لتطبيق أعمالها وتكليفاتها وتحقيق شروطها، والبذل الصادق لنيل هذه الاستحقاقات، دون أن يقطع بكونها تحققت فيه أو في جماعته البشرية وطائفته المعاصرة.

فبين بذل وعمل ورجاء وأمل يدور المؤمن، فلا هو اكتفى بآمال مفرغة عن الأعمال، أو تعلق بأهداب التزكية الخالية من حقيقة، ظنا منه كما ظن قوم أنهم أبناء الله وأحباؤه، ولا هو في الوقت نفسه فقد الرجاء في تحقق الموعود، وتعامل مع الأمور بنظرة مادية جافة.. بل أحسن الظن- جنبا إلى جنب- مع إحسان العمل، وصدق الوعد ساعيا لنيل استحقاقه وبشارته، واضعا نصب عينيه سؤالا يسعى جاهدا أن تكون إجابته متجسدة في واقعه وحاله ومآله.

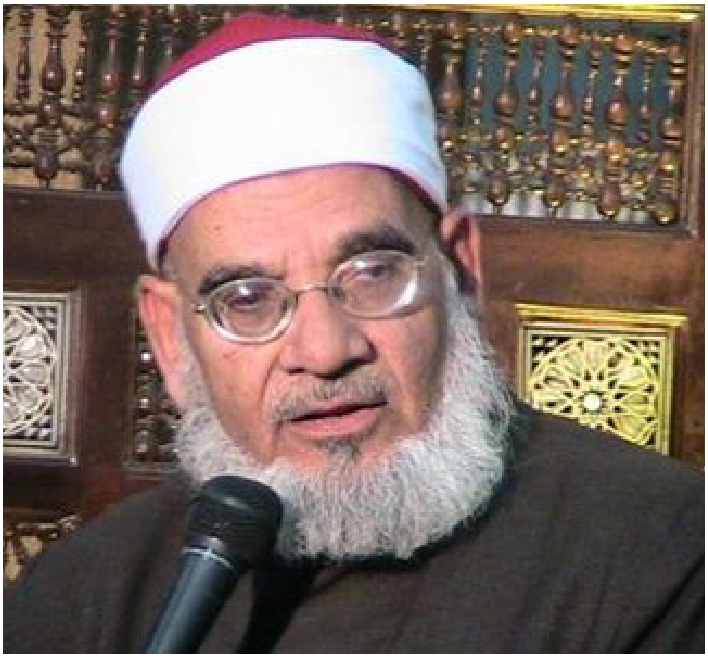
سؤال فحواه: لمن يكون الوعد، وفيمن تتحقق البشرى؟



أستاذ الدراسات العليا بجامعة الأزهر د. مختار المهدي:

تغليب المصلحة العامة يعيد للأمة ترابطها

إسلام لطفي
القاهرة-دار الإعلام العربية



شدد أستاذ الدراسات العليا بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية والرئيس العام للجمعيات الشرعية بمصر الدكتور محمد المختار المهدي، على ضرورة وحدة الأمة الإسلامية على هدف واحد، والخروج من حالة الفرقة والاختلافات التي نعيشها في وقتنا الحالي، وقال في حواره مع «الوعي الإسلامي»: إن التمزق من أهداف أعداء الإسلام الذين يعتمدون على التخويف من الإسلام فيما يعرف بال «إسلاموفوبيا»، وإلى نص الحوار..

- نعيش في مجتمع عربي وإسلامي يفتقد الترابط.. فما تقييمك لوضع المسلمين في الوقت الحالي؟

المجتمع الإسلامي يعاني من الفرقة وكثرة الاختلافات، ما أدى إلى ضعف شديد استغله أعداؤنا في تنفيذ مخططاتهم؛ لإلحاق المزيد من الضعف بأمتنا، وللأسف الأمة غفلت عن توجيهات الله- عز وجل- الذي حدد العدو الحقيقي للأمة الإسلامية وهم اليهود، حيث قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ (المائدة: ٨٢)، ولذلك نجد كلمة «لتجدن» تعبيرا للمستقبل منذ نزول القرآن، ما يعني أن العداوة دائمة ومستمرة.

واستحضار هذه العداوة هو الأساس في تجمع المؤمنين والمسلمين حول هدف واحد، لكن أراد العرب إنهاء هذه القضية على أساس التعايش السلمي مع جميع الشعوب، والإسلام يريد ذلك، لكن مع عدم الغفلة عن وجود عدو، ثم حددوا الإسلام كعدوهم الأخطر.. لذلك نجد الإسلاموفوبيا يتنامى بقوة في أوروبا، إضافة إلى أنه أصبح منتشرًا في العالم الغربي..

فيجب على الأمة الإسلامية أن تستحضر هدفًا لاستعادة قوتها، والالتفات إلى المكيدة التي مازالت تروج لها إسرائيل في أن أرضها من الفرات إلى النيل، فعلى المسلمين القضاء على كل ما يفتت طاقاتهم وقوتهم؛ لتأتي الوحدة وإعلاء شأن الحضارة، وعودتنا إلى المسار الطبيعي، ونكون خير أمة.

- هل ترى أننا نعيد وضع عصور الظلام في الوقت الحالي؟

هذه هي المشكلة القائمة حاليًا في سبيل انتشار الإسلاموفوبيا، فهو مصطلح مشبوه صدقه بعض الناس فصاروا يكرهون الدين الإسلامي، فأعداؤنا يقولون: إن هناك العصور الوسطى المظلمة التي كانت في أوروبا من ذي قبل، وكان حينها العالم الإسلامي يعيش عصور الحضارة، لذلك يشيرون إلى أنها كانت مظلمة بالنسبة لهم لتقدم المسلمين، فلو استعدنا هذه العصور فستكون مضيئة للجميع.

- هناك جدل حول الإسلام كونه دين أمة أم دين دولة؟ ما الفرق بين الوصفين في تقديرك؟

هذا يعد أيضًا ضمن تلبيس إبليس، فلدى الغرب في دياناتهم تجد العلاقة بين الإنسان وربه فقط دون النظر إلى علاقته مع المجتمع وكيفية تنظيمها، لكن الإسلام يختلف تمامًا، فلديه ضوابط ونواه، ويتدخل في

أمور الحياة لضبطها، كما طبقت في عهد النبي محمد ﷺ والصحابة، فهو يشمل جميع نواحي الحياة.

ونجد أن الغرب كثيرًا ما يتحدثون عن الثيوقراطية وتحكم علماء الدين في أمور الحياة، وكل هذا يقصدون به الحاخامات والقساوسة في عصور الظلام، عندما كان القس يتحكم في عقاب الناس وإدخالهم الجنة أو النار، فليس هذا إطلاقًا من شأن الإسلام، فنجد الكفاءة في تسيير الأمور بالتخصص، لكن تحكمها المبادئ والقيم الإسلامية والقرآن الكريم، فالمشكلة أن الغرب يخلطون بين الإسلام والمسيحية، فالمسيحية تقول: إن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، بمعنى أن الحكم شيء، والدين شيء آخر.

- وما الأسباب الداعمة لحالة التمزق لهذا الحد؟

التمزق الذي يعيشه المسلمون من أهداف اليهود، والقرآن الكريم كثيرًا ما حدثنا عن أن شياطين الإنس يسعون في الأرض فسادًا، ويريدون التصادم بين فئات الأمة الإسلامية؛ حتى لا نجتمع ضد فسادهم، وكلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله، فاليهود يتعمدون إثارة الاختلافات والتفرقة العنصرية، فنجد أول من أنشأ حالة الفرقة هو إبليس: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف: ١٢).

فالوضع الحالي نتيجة لعدم الانتباه لما يكيده لنا أعداؤنا، ونسيان الإخاء والمودة والوحدة النابعة من توحيدنا لله عز وجل، وأنه «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

- وإلى أي طريق تسير الأمة في ظل التحجر الفكري الذي نعاني منه الآن؟

لو استمر هذا الوضع لضاعت أمتنا، لكننا على ثقة تامة أن الله يرعى ويحمي أمة الإسلام، وسيمحو منها من ينقذها ويوحدها، ونجد المصالح الشخصية هي المتحكم في هذا التحجر.. ولو أن الجميع ينطوي تحت المصلحة العامة ويضحي بمصالحه الخاصة لتقدمنا جميعًا بتقدم الأمة.

- اللغة هي أحد المكونات الحضارية المهمة لأي أمة.. فما أسباب إهمال اللغة العربية في مجتمعاتنا؟

المشكلة تكمن في الاحتلال الأجنبي، حينما كان يحتل أي بلد كان يهتم كثيرًا بلغته وتشييع فكره في المجتمع الذي يحتله؛ ليكون انتماؤه لأصحاب هذه اللغة، وبناء على ذلك كان التركيز على كراهية اللغة العربية وإهمال الكتاتيب التي كانت حارسًا للغة القرآن، إذ إن الطفل في صغره كالحجر ننقش عليه ما يستمر طوال عمره، فكان يعتمد على حفظ القرآن باللغة العربية الفصحى، فيعتمد على الكلام الفصيح، ولكن نجد المجتمع العربي الآن نحى العربية جانبًا، وأصبح تعلمه باللغات الأجنبية في المقام الأول.

ومن المؤسف أننا لا نجد هذه الاختلافات اللغوية في العالم، وبخاصة في المرحلة الأولى من العمر للأطفال، ففي فرنسا يعتزون بالفرنسية، ويمنعون من يحدثهم بغير لغتهم، فهم يؤمنون أنها أساس هويتهم، لذلك علينا كعرب أن نتمسك بلغتنا، وأن تكون دراستنا تطبيقية وليست قاصرة على القواعد.

علينا أن نتمسك بلغتنا.. وأن تكون دراستنا تطبيقية وليست قاصرة على القواعد

- وما الطريق لاستعادة المسلمين مجد حضارتهم؟

بدايةً علينا الشعور بضرورة وحدة الأمة، وأنها هي أساس القوة والحضارة والتقدم، مع الأخذ بالحذر من أعدائنا، وعلينا تقديم المصلحة العامة على المصالح الخاصة والفئوية، وعلينا ترسيخ الهوية الإسلامية لدى أبنائنا منذ الصغر، والاعتزاز بأوطاننا وديننا.

إضافة إلى الالتزام بالقيم التي ميز الله بها أمتنا، ونهضت بها سابقًا.. ومازالت صالحة لنهضة الأمة في وقتنا الحالي، وأيضًا علينا محاربة الإسلاموفوبيا خاصة داخل أمتنا، وعلينا الاهتمام بالتعليم، حيث إنه لا حضارة بدون تعليم، فأول كلمة في القرآن ﴿اقرأ﴾، فهي مفتاح العلم وقال الله تعالى للرسول محمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (طه: ١١٤)، فلابد من الاستزادة والتعمق في العلم النبوي والشرعي، فالقرآن أشار إلى ضرورة التأمل في آياته لنستخرج منها الأسرار التي خلق الله عليها الكون.

ونجد أن الله يدعو إلى العلم المادي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ (فاطر: ٢٧)، وهنا رتب القرآن الخشية من الله على البحث في الآيات الكونية، فنجد نزول المطر وإخراج النبات من الأرض، فهذه علوم الزراعة والطبيعة وعلوم البيئة والتربة والجيولوجيا، ثم نجد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر: ٢٨)، ثم قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾، فلدينا علم مادي كوني وآخر شرعي، كلاهما صادر من الله؛ لأن الكون

تلاقي الحضارتين الغربية والإسلامية متوقف على حرية الرأي والحوار الحقيقي

لنا والقرآن من عند الله، ولا يمكن أن يتضاربا سويا، بل يتعاونان لخلق العلم الحقيقي بمعرفة أسرار الكون واستخراج ما ينفع الأمة.

- أشرت إلى ظاهرة الإسلاموفوبيا.. فما الأسباب التي أدت إلى تناميها؟

الإسلام يتعارض مع سياسة الغرب التي تعتمد على الاستحواذ وفرض القوة، ونجد القرآن الكريم تحدث عن إعداد القوة بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ (الأنفال: ٦٠)، والقوة تعني التقدم في جميع مجالات الحياة علميا وعسكريا واقتصاديا، وهذه القوة ترهب أعداء الله، وتجعلهم لا يجرؤون على اجتياح أرض المسلمين أو الاعتداء على أموالهم وعرضهم، وبناء عليه لا تقع الحرب، فالقوة إذا كانت في يد المسلمين فهي معصومة بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ (البقرة: ١٩٠)، ولذلك لن يحدث المسلم حربًا مطلقًا؛ فأعداؤه يرهبونه، لذلك يصفوننا بالإرهابيين، ويعملون على انتشار الإسلاموفوبيا.

- كونك أستاذًا للدراسات العليا.. ما أهمية الدراسات الإسلامية في مسيرة الإنسان علميًا وثقافيًا واجتماعيًا؟

الدراسات الإسلامية معتمدة على الوحي والعقل، فلا يستطيع العقل أن يقود الحياة دون الاستعانة بالوحي، وحسب نظرية المعرفة فسيأتي وقت لن يستطيع العقل إدراك المستقبل حيث قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ (لقمان: ٣٤)، ولا يدري ما في المستقبل إلا الله.

- يدعي البعض أن تخلف الأمة على المستوى العلمي سببه تمسكها بالدين، والعكس بالنسبة للغرب.. فما تعليقك؟

أولًا لابد من النظر إلى مفهوم التقدم في الغرب؛ فهو تقدم مادي فقط، وعلى الرغم من تقدمهم ووفرة المخترعات الحديثة لديهم فإنهم يعانون من انتشار الأمراض النفسية والعصبية والانتحار؛ فالغرب اعتنى بالمادة وترك الروح.. مع أن الإنسان مكون من مادة وروح، والروح هي التي تحدث التوازن في الشخصية .

- وهل يمكن أن تتلاقى الحضارتان الغربية والإسلامية؟

من الممكن إذا وجدنا حرية في إبداء الرأي والحوار الحقيقي الذي يستهدف الوصول إلى الحقيقة دون تعصب، ولكن إذا تمسك كل برأيه وأنه على الحق دون غيره فلن تتلاقى أي حضارات، خاصة ما نشهده في وقتنا هذا من تعصب الغرب، وظنه أنه وحده من يملك مفاتيح الحضارة، وأن ما لدى العرب ظلام ورجعية.

- هل ترى أن المجتمع العربي بدأ يتخلص من حالة التغريب الثقافي التي تم وضعها من قبل الاستعمار؟ أم أننا نقبع تحت آثاره ووطأته؟

مازال العالم الإسلامي يعتمد على الفكر الغربي، ففلاسفة إنجلترا قالوا: «إذا احتلت إنجلترا شعبًا ٧٠ عامًا، فهو محتل ٧٠ أخرى بعد خروجها»، ونجد ذلك لأنهم يكونون في أثناء وجودهم كيانات وكوادر تحمل فكرهم، إضافةً إلى أن الطلاب العرب الذين يذهبون إلى الغرب للتعليم يتم غسل أذهانهم بهذا الفكر الذي ينص على أن الإسلام دين إرهاب وقيود، فعند وصول المبعوث إلى هذه الدول يتولاه أناس مهمتهم الأساسية إدخال البهجة في نفس الدارس بالحضارة الغربية، وإلصاق صفات العجز والضعف والإرهاب على حضارتنا العربية والإسلامية.. وبناء على ذلك يبدأ في تقليد الغرب .

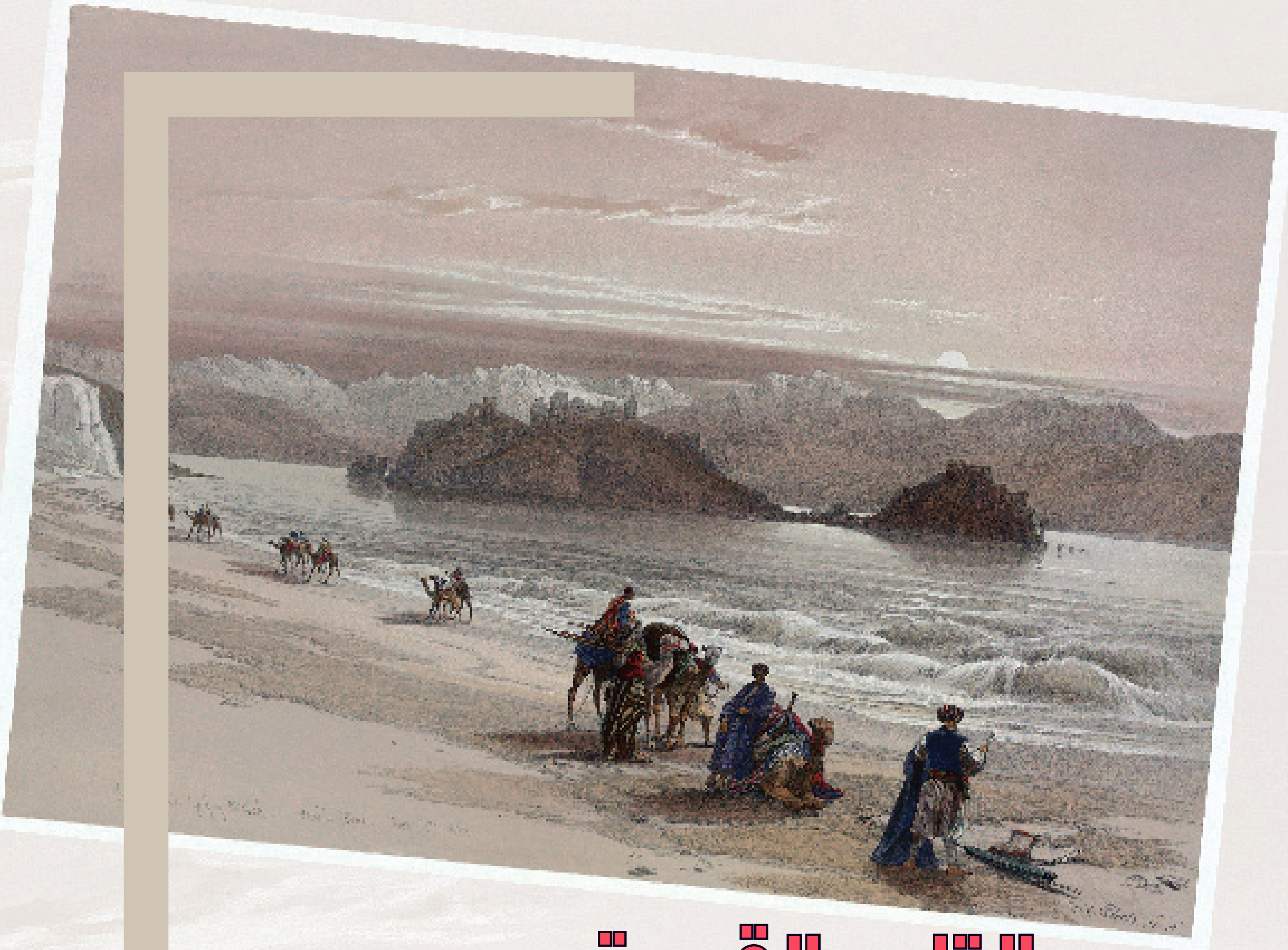
- كيف ترى انحراف الخطاب الديني؟ وما أسبابه؟

الانحراف ينقسم إلى قسمين، فهناك تعصب للرأي من قبل البعض، ومحاولة إجبار الآخرين على الالتزام بمبادئ بعينها، كالالتزام بأحد المذاهب دون غيرها، كما هو موجود الآن في بعض البلاد، والتي تعتمد على ترسيخ التعصب.

وهناك تطرف آخر وهو البدع والخرافات عند بعض المسلمين، فهناك من يبلور عملية الاختلاف بالتركيز على نقاط ليست من أساسيات الدين، لذلك علينا العودة إلى منهج النبي ﷺ في الدعوة وترسيخ الإيمان بالله، وشرح الآيات القرآنية التي تؤكد معاني الإيمان .

- أخيرًا.. وبصفتك أحد علماء الأزهر.. كيف ترى وضعه في الوقت الحالي؟

يحتاج الأزهر إلى أن يقوى ليملأ الفراغ الموجود، وليصحح الفكر المتطرف، وضعفه يكمن في عدم استقلاله ماديا.. فمنذ نشأته كان تمويله من الأوقاف بعيدًا عن الدولة، إلى أن ضم الرئيس الراحل جمال عبدالناصر الأوقاف إلى ميزانية الدولة، ويوجد حاليًا محاولات لاستقلال الأزهر ماديًا، واختيار رؤسائه وقادته بالانتخاب.



التاجر القدوة

رشيد ناجي الحسن
باحث بوزارة الأوقاف الكويتية

حث ديننا على التجارة عموما، وجعلها من أصول الحلال، بل سماها القرآن الكريم فضل الله، فقال تعالى: (وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله).

وكان التاجر المسلم مثالا لخلق الإسلام، وقدوة لمن يتعامل معه، وعلى إثر ذلك اعتنق كثير من الشعوب هذا الدين العظيم، لما رأوه مجسدا في شخص التاجر المسلم، ولا أدل على ذلك من فهم المسلمين أن التجارة عبادة، وأن للسوق آدابا يجب التزامها، وكان التجّار المسلمون يحملون معهم إلى الآفاق إلى جانب بضاعتهم أفكارهم ومبادئهم، وعقيدتهم الدينيّة مصدر عزهم وفخرهم، فكان ذلك الانتشار السلمي الهادئ للإسلام في ربوع إندونيسيا وجاوا والفلبين وسرنديب، وغيرها من البلاد النائية، كما كانوا يترددون على حواضر العالم الإسلامي في التجارة وطلب العلم والرواية.

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن الإسلام انتشر في كل مكان وصل إليه التجار المسلمون في العصر الإسلامي الأول، ذلك أن التجار المسلمين كانوا يعتبرون أنفسهم دعاة ومبلغين، قبل أن يكونوا بائعين وشارين.. وتجارا للآخرة قبل أن يكونوا تجارا للدنيا.

-يقول أحد التجار الملتزمين: إنّ كلمة تاجر تعتبر عندنا معشرَ التجار اختصارا في أحرفها الأربعة لعدد مماثل من المعاني، فحرف التاء تعني التقوى، والألف أمانة والجيم جرأة والراء رحمة.

-نعم فالتاجر يجب أن يكون أولا تقيًا، يهاب الله في أعماله وتجارته، وأمينا حيث تقتضي الأمانة في التعامل مع الناس ومع غيره من أولاد الصنعة أن يكون مؤتمنا على الأموال المودعة لديه، وخاصة في فترة السفر إلى الحج، حيث كان معروفا أن يتم إيداع الأموال عند أحد التجار في السوق، وبالتالي تقتضي الأمانة ألا يفرّط بها.

-أما الجرأة فتتطلّب من التاجر أن يكون جريئا في تجارته، لأن التجارة ربح وخسارة.

-أما الراء فتعني الرحمة، أي إن هذا التاجر فيما لو أمن وصول هذه المواد، فأصبحت في حوزته فمن غير المسموح أن يحتكرها، بل يقوم بعرضها بالسعر المناسب، وبربح معقول ولا يستفيد من شحّ المواد بالاحتكار، كما يحصل اليوم في بعض الأحيان.

أما اليوم فقد أصبحنا نسمع عبارة: (التجارة شطارة).. وعندما نسأل هؤلاء التجار عن معنى «أن تكون رجل أعمال شاطر» نجد أنّ كلمة «شاطر» يندرج تحتها كثير من التعاملات غير الأخلاقية، والبعيدة كل البعد عن المعايير الربانية، وروح الشرع ومقاصده العليا، وتحقيق مفهوم عمارة الأرض، ومراقبة الرب في الأخذ بالأسباب الشريفة بإصلاح النية، ومعاملة المسبِّب، وتحقيق الغايات النبيلة. ومثال ذلك أن يبرّر التاجر «الشاطر» الرشوة بذريعة أنه لا يأخذ حقّ غيره، وبدونها تتعطل مصالحه، ويبررها بأنه يوازن بين المصالح والمفاسد، ومصلحة عمله تقتضي ذلك، ولا يدري أنه يفسد المجتمع بأسره بعمله هذا، وصدق المجتمع وهو لا يدري عندما أضفى على هذا النوع من التجار اسم التاجر «الشاطر» ففي اللغة العربية الفصحى كلمة شاطر معناها: المتباعد من الخير. أخذ من قولهم: نوىً شُطُر، أي بعيدة. واحتج بقول امرئ القيس :

وشاقك بين الخليط الشطر

وفيمن أقام مع الحي هرّ

وقال أبو عبيدة: الشاطر معناه في كلامهم: الذي شطر نحو الشر وأراده. الزاهر،١، ١٢٦

هذا وقد وضع إسلامنا العظيم للتجارة آدابا كثيرة، منها:

- **النية الصالحة:** وهي سبب لتحويل العادات إلى عبادات، وتتمثل في ابتغاء الخير لنفسه وإعفافها عن الحرام، وصيانتها عن ذل السؤال، واتخاذ التجارة وسيلة لصلة الأرحام وإيتاء ذي القربى، كما تتمثل في ابتغاء الخير للآخرين بالمشاركة في بناء الأمة حاضرا ومستقبلا، وتحريرها من الاعتماد على الآخرين، وتوفير الحاجات العامة التي يعد توفيرها من فروض الكفايات، وما أشبه هذا بالمقاصد.
- **الخلق الحسن:** مثل الصدق والأمانة والوفاء بالعقود وحسن القضاء والاقتضاء وإنظار المعسر، وتجنب المطل في سداد الديون، وإعطاء الحقوق، وتجنب الغش، والتدليس، ونحو ذلك من الأخلاق الفاضلة الحميدة.
- **التعامل في الطيبات:** فالتاجر المسلم لا يستوي عنده الخبيث والطيب، ولو أعجبه كثرة الخبيث، بل يحل الحلال ويحرم الحرام، ويقف حيث أوقفه الله فلا تستزله لعاعة الدنيا وبريق الربح ليرتكب ما حرم الله عليه.
- **أداء الحقوق دون مَطل أو تسويف:** وعلى رأس ذلك حقوق الله عز وجل في المال من الزكوات المفروضة، ثم حقوق العباد، كأجرة الأجير ودين صاحب الدين.
- **تجنب الربا:** وما كان ذريعة ووسيلة إليه من العقود الفاسدة، فالمرابون محاربون لله ورسوله، والربا من السبع الموبقات، وصاحبه ملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- تجنب أكل أموال الناس بالباطل: فحرمة مال المسلم كحرمة دمه، ولا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه، ومن صور أكل أموال الناس بالباطل الغش والتدليس والمقامرة والغرر والاحتكار والرشوة، وما شابه ذلك.
- **تجنب الإضرار بالآخرين:** فالمستثمر المسلم منافس شريف تحكمه في جميع أعماله الاستثمارية

قاعدة: لا ضرر ولا ضرار. وهي إحدى قواعد الفقه الكلية التي يندرج تحتها من المسائل ما لا يحصى.

- **موالاة المؤمنين:** فالتاجر المسلم ناصح لأمته، وفيّ لعهدها لا يعاون عليه خصومها، ولا يدخل في استثمار مع أعدائها يلحق بها الضرر.

- تعلم أحكام المعاملات في الشريعة الإسلامية، وهذا يجب الابتداء به قبل كل ذلك، فإن العلم قائد، والعمل تابع. وقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان يضرب من وجده في السوق وهو لا يعرف أحكام البيع والشراء، ويقول: لا يبع في سوقنا إلا من تفقه في ديننا. والمراد هنا بالفقه الفقه النسبيّ، يعني الفقه في مسائل الحلال والحرام، وليس معنى ذلك أن يكون فقيها في جميع أمور الدين، ولكن المقصود أن يكون فقيها فيما يتعامل فيه.

وقد أمر الإمام مالك بأن يقام من الأسواق من لا يعرف الأحكام؛ لئلا يقع في الربا ويوقع فيه المسلمين. يقول الرهوني في كتابه «أوضح المسالك» نقلا عن أحد شيوخه: إنه أدرك المحتسب يمشي على الأسواق ويقف على كل دكان، فيسأل صاحبه عن الأحكام التي تلزمه في بيعه، ومن أين يدخل عليه الربا، وكيف يتحرز منه، فإن أجابه أبقاه في الدكان، وإن جهل شيئا من ذلك أقامه منه، وقال: لا يمكنك أن تقعد في أسواق المسلمين تطعم الناس الربا ومالا يجوز.

وفيما يلي نماذج من تاريخنا العريق للتاجر المسلم الصدوق، فقد أصاب الناس القحط في زمن الصديق رضي الله عنه، فقدمت لعثمان رضي الله عنه ألف راحلة من البُر والطعام، فغدا التجار عليه كلهم يريد شراءها منه، لا للتكسب ولا للاحتكار لرفع الأسعار، وإنما ليوسّعوا على فقراء المدينة في هذه النازلة، فجعل التجار يساومون عثمان على شراء هذه السلعة، حتى أربحوه بالعشرة خمسة عشر، فأبى وأنفقها في سوق المدينة على الفقراء والمساكين، وربح البيع يا ذا النورين.

وصورة أخرى مشرقة من صور حياة تجار سلفنا الصالح، فقد كان محمد ابن المنكدر من معادن الصدق والأمانة، كان له سلع تباع بخمسة، وسلع تباع بعشرة، فباع غلامه في غَيبته شيئا من سلع الخمسة بعشرة ، فلما عرف ابن المنكدر ما فعل غلامه اغتمّ لصنيعه، وطفق يبحث عن المشتري طوال النهار ... حتى وجده، وكان من الأعراب، فقال له ابن المنكدر : إنّ الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة، فقال الأعرابي: يا هذا قد رضيت.

فقال ابن المنكدر: وإن رضيت فإنّا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث:

- إما أن تستعيد مالك وتعيد السلعة.
- وإما أن تُردّ إليك خمسة.
- وإما أن تأخذ من سلعة الخمس سلعة العشر.

فقال الأعرابي: أعطني خمسة، فرد عليه الخمسة وانصرف؛ فسأل الأعرابي أهل السوق عن هذا التاجر الأمين؟ فقيل له: هذا محمد ابن المنكدر، فقال: لا إله إلا الله، هذا الذي ملأ الآفاق ذكره.

أما الإمام أبو حنيفة رحمه الله، فقد كان والده ميسورًا، ويعمل تاجرًا للقماش، وكذلك كان أبو حنيفة.

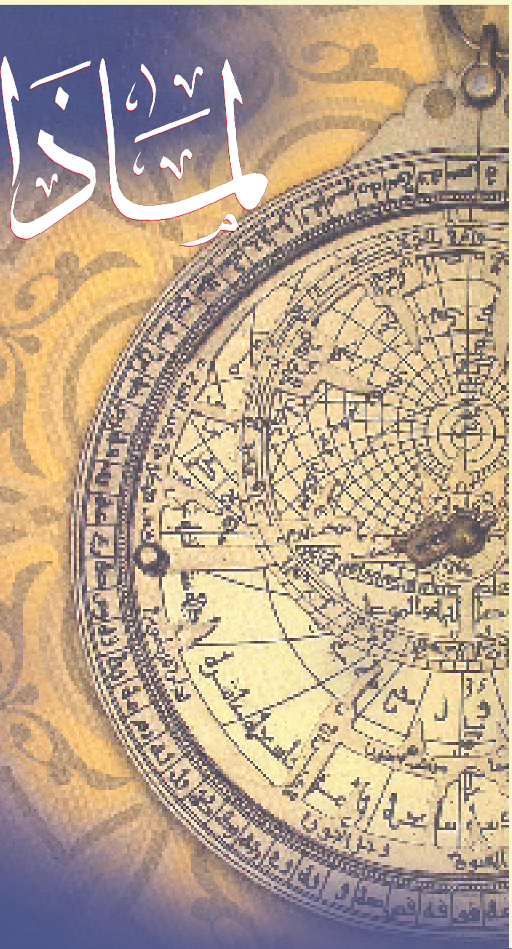
ولعل التجارة والتعامل مع أنماط مختلفة من مجتمعه كانت من الأمور التي جعلت الإمام أبا حنيفة يوصف بالأمانة الشديدة، والخلق الكريم. وقد كانت لأمانته صور عدة، وآثار كثيرة، منها أن امرأة جاءته بثوب من الحرير تبيعه له، فقال: كم ثمنه؟ فقالت: مائة، فقال لها: هو خير من مائة، بكم تقولين؟ فزادت مائة ثم مائة حتى قالت: أربعمائة، قال: هو خير من ذلك، فقالت: أتهزأ بي؟ فقال: هاتي رجلًا يقوّمه، فجاءت برجل فاشتراه بخمسمائة. فما أعظم أمانته! يحتاط لغيره أكثر مما يحتاط لنفسه، وفاء لحق دينه عليه وأمانته، فكان رحمه الله تاجرًا عرف ربه وعرف حقّ مجتمعه عليه، وعرف أن وراءه يومًا لابد أنه صائر إليه ومحاسب فيه على كل ما اكتسبت يداه. إنما كانت أمانته كذلك لأن المال كان في يديه، ولم يتمكن من قلبه، فهو يعلم أن ذلك المال فضل من عند الله، ولذا كان يجعل أرباح تجارته لسد حاجات العلماء والمحدّثين والفقراء وقضاء حوائجهم ودفع خلتهم، فيجمع الأرباح من سنة إلى سنة، فيشتري بها حوائجهم وأقواتهم وكسوتهم ويدفع باقي الأرباح إليهم، ويقول: أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله؛ فإني ما أعطيتكم من مالي شيئا ولكن من فضل الله عليّ فيكم، وهذه أرباح بضائعكم؛ فإنه هو والله مما يجريه الله لكم على يدي فما في رزق الله حول لغيره.

رجل لو تشبه به كل تاجر مسلم ....ولو بعشر ما فعل....لكنا بألف خير..ولم يبق فقير واحد في المسلمين.

لذا ينبغي على جميع التجار أن يتذكروا أن هذا المال منحة من عند الله جل وعلا، وقد هيأه الله للتجارة والنماء، وقد يكون ذلك امتحانا واختبارا له، ومن أعطاه الله هذا المال قادر على أخذه منه، فاللهَ اللهَ بالنصح للمسلمين ومراعاة أحوالهم وترك الطمع والجشع.

وختاما فالتاجر القدوة سلعة غابت عن كثير من جوانب حياتنا، وغيابها يمثل خطرا عظيما على المجتمع ذلك لأنّ التاجر الأمين يمثل وجوده في المجتمع ركيزة قوية وعظيمة من ركائز الأمن الاجتماعي، لذا فقد جعله رسول الله صلي الله عليه وسلم في صفوف النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة، وهي أسمى المنازل التي ينالها إنسان يوم القيامة، ولاشك أنه لا ينالها إلا من كان عطاؤه وقيمة عطائه على قدرها.

فهل يكون التجار اليوم دعاة بأعمالهم قبل ألسنتهم، حاملين الهمّ الرسالي كأسلافهم، داعين العالمين إلى الإسلام، والمنحرفين إلى التوبة والإنابة؟



لماذا تأخر المسلمون؟

الأمير شكيب أرسلان

من أعظم أسباب تأخر المسلمين: الجهل، الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل، فيتقبل السفسطة قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها.
ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين: العلم الناقص، الذي هو أشد خطرا من الجهل البسيط، لأن الجاهل إذا قيض الله له مرشدا عالما أطاعه ولم يتفلسف عليه، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري، وكما قيل: ابتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون، أقول: ابتلاؤكم بجاهل خير من ابتلائكم بشبه عالم.

من السخفاء من يقول: نعم، قد كان ذلك لكن قبل أن يخترع الإفرنج آلات القتال الحديثة، وقبل المدافع والدبابات والطيارات، وقبل أن صار الإفرنج إلى ما صاروا إليه من القوة المبنية على العلم. وهذا القول هو بمنتهى السخف والسفه والحماقة، فإن لكل عصر علما وصناعة ومدنية تشاكله، وهي فيه كما هي العلوم والصناعات والمدنية الحاضرة في هذا العصر. وأمور الخلق كلها نسبية. ولقد كانت في العصر الذي نتكلم عنه آلات قتال ومنجنيقات ودبابات ونيران مركبة تركيبا مجهولا اليوم، وكانت في ذلك الوقت كما هي المدافع والرشاشات وقنابل الديناميت وما أشبه ذلك في هذه الأيام!

على أنه ليست الدبابات والطيارات والرشاشات هي التي تبعث العزائم، وتوقد نيران الحمية في صدور البشر، بل الحمية والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطيارات والدبابات والقنابل. وما هذه إلا مواد صماء لا فرق بينها وبين أي حجر، فالمادة لا تقدر أن تعمل شيئا من نفسها، وإنما الذي يعمل هو الروح، فإذا هبت أرواح البشر وتحركت عزائمهم فعند ذلك تجد الدبابات والطيارات والرشاشات والغواصات، وكل أداة قتال ونزال على طرف التمام.

ويقولون: إلا إن هذا ينبغي له العلم الحديث، وهذا العلم مفقود عند المسلمين، فلذلك أمكن الإفرنج ما لم يمكنهم.

والجواب: إن العلم الحديث أيضا يتوقف على الفكرة والعزيمة، ومتى وجدت هاتان وجد العلم الحديث، ووجدت الصناعة الحديثة. أفلا ترى أن اليابان إلى حد سنة ١٨٦٨ كانوا أمة كسائر الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة، فلما أرادوا اللحاق بالأمم العزيزة تعلموا علوم الأوروبيين، وصنعوا صناعاتهم، واتسق لهم ذلك في خمسين سنة، وكل أمة من أمم الإسلام تريد أن تنهض وتلحق بالأمم العزيزة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة ومتمسكة بدينها، كما أن اليابانيين تعلموا علوم الأوروبيين كلها وضارعوهم، ولم يقصروا في شيء عنهم، ولبثوا يابانيين ولبثوا متمسكين بدينهم وأوضاعهم. وأيضا فمتى أرادت أمة مسلمة أدوات أو أسلحة حديثة ولم تجدها؟ إن ملاك الأمر هو الإرادة، فمتى وجدت الإرادة وجد الشيء المراد.

ومن المعلوم أن الإفراط في حب الدنيا يحرم الإنسان التمتع بها، وأن الغلو في المحافظة على الحياة تكون عاقبته زيادة التعرض للهلاك، هذه من سنن الله في خلقه، أو من النواميس الطبيعية كما يقال في هذا العصر.

فالقرآن يأمر المسلم بأن يحتقر الحياة والمال وكل عزيز في سبيل الله، ويأمر المسلم أن يثبت ولا ييأس، وأن يصبر ولا يتزلزل مهما أصيب. وتراه يقول: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

● مقتطفات من كتاب «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم» - تحرير د. سوسن النجار نصر - الدار التقدمية - لبنان

هكذا يريد الله ليكون المسلمون، فإن لم يكونوا هكذا بصريح نص القرآن، فكيف يستنجزون الله عداته بالنصر والتمكين، والسعادة والتأمين؟!

ضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين

ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين: الجمود على القديم، فكما أن آفة الإسلام هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع، كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغير شيئا، ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم؛ ظنا منهم بأن الاقتداء بالكفار كفر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار.

العبرة للعرب وسائر المسلمين برقي اليابانيين

ولكني أخرج من أوربة إلى اليابان فقط، لأن رقي اليابان يضارع الترقي الأوروبي، وقد تم لليابانيين كما تم رقي أوربة للأوربيين، أي في ضمن دائرة قوميتهم ولسانهم وآدابهم وحريتهم ودينهم وشعائرهم ومشاعرهم وكل شيء لهم.

فأنقل إلى القراء العرب فقرة من رسالة طويلة جاءت من مراسل أوروبي سائح في اليابان وظهرت في جريدة «جورنال دو جنيف» بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٣١، فإنه يقول: إن الياباني يحب الفن قبل كل شيء، وإن رأيته ساعيا في كسب المال فلأجل أن يُلَذِّذَ بالمال أهواءه المنصرفة إلى الحسن والجمال. وقد انتقش في صفحة نفسه الشعور القومي الشديد عدا الميل إلى الجمال، لأنه يفتخر بكون اليابان في مدة ستين سنة فقط صارت من طور أمة من القرون الوسطى إقطاعية الحكم، إلى أمة عظيمة من أعظم الأمم.

مدنية الإسلام

أما زعم من زعم أن الإسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية خاصة، والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة- فهو خرافة يموه بها بعض أعداء الإسلام من الخارج، وبعض جاحديه من الداخل. أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوروبية، وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الإسلامي بذور الإلحاد.

ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة، إذ ليس من أمة في أوربة، سواء الألمان أو الفرنسيس أو الإنكليز أو الطليان... إلخ، إلا وعندهم تآليف لا تحصى في «مدنية الإسلام»، فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه، مبنية على كتابه وسنته- ما كان علماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الإسلام يكثرون من ذكر المدنية الإسلامية ومن سرد تواريخها، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات، ومن تبيين الخصائص التي انفردت هي بها.

فالمدنية الإسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام، والتي تغص سجلاته الخالدة بآثارها الباهرة.

وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة، واستبحار الحضارة، وتناهي الترف والثروة- ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها إلى هذا العصر، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان. وكانت البصرة في الدرجة الثانية عنها، وكان أهلها نحو نصف مليون.

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند وأصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الإسلام أمثلة تامة، وأقيسة بعيدة في استبحار العمران، وتطاول البنيان، ورفاهة السكان، وانتشار العلم والعرفان، وتأثل الفنون المتهدلة الأفنان.

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول، أو يناظرها مناظر، أو أن يكاثرها مكاثر في ممالك أوربة حتى هذه القرون الأخيرة.

وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف نسمة، وكان فيها نحو سبعمائة جامع عدا المسجد الأعظم الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الإسبانيولية: إنه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مصل في الداخل و٣٠ ألف مصل في الصحن، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفا من المصلين!

ولما ذهبنا إلى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولا في ثمانمائة متر عرضا، والإسبانيون يقولون: مدينة الزهراء.

وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها: إنهم يرجون الإتيان على كشفها كلها من الآن إلى خمسين سنة.

وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الإسبانيول- نصف مليون نسمة. ولم يكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوروبة تحتوي نصف هذا العدد، وحمراء غرناطة لاتزال يتيمة الدهر إلى اليوم.

هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الإسلام وغرر أيامه، وإلا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الأجلاد الكثيرة، المرصوفة طبقا فوق طبق.

وكم حرر المؤرخون الأوروبيون تحت عنوان «مدنية الإسلام» كتبا قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار. وإن أشد مؤرخي الإفرنج تحاملا على الإسلام لا يتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته، وأن ينكر كونه أبا عذرتها. فقصارى هذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوما، وسبقوا إلى نظريات صارت خاصة بهم، وغايتهم أن يقولوا: إن المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب.

وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوما ابتكروها، وحقائق كشفوها، وآراء سبقوا إليها، فضلا عما زادوا عليه وأكملوه، وما نشروه ونقلوه، ومن استرق شيئا وقد استرقَّه، فقد استحقه.

العلم أساس النهضة

هواري عبدالقادر- الجزائر
ماجستير إدارة الأعمال والتنمية المستدامة

العلم أنفس ما طُلب، وأغلى ما كُسب، فهو التاج الذي يميز العالم عن الجاهل، والأعمى عن البصير، وهو الذي دعت إليه كل الشرائع السماوية وجعلته مقدسا، وحامله مبجلا، فبه استطاعت أمم أن تقود العالم وتصل إلى مواقع لم تحلم بالوصول إليها..

وبالعلم تزيد صلة العبد بربه، وتقوى معرفته له، من خلال فقهه لأسرار كونه، وبه أيضا تصح الأبدان من الأسقام وتقوى، ويقضى على الأوبئة والأمراض، وتقل حالات الوفاة الناتجة عن الأمراض، كما أن للعلم دورا أساسيا في تنظيم حياة البشر وزيادة رفاهيتهم، فهو كنز لا يعرف قيمته إلا من حصل عليه، ولا يدرك أسراره إلا من حرص على النهل منه.

إن اختلاف العلوم وتعددها أدى إلى كثرة المعارف التي لا يمكن لعقل بشري واحد أن يستوعبها، كما كان الأمر لدى أسلافنا القدامى، فقد كان العالم رياضيا وفيزيائيا وفيلسوفا وأديبا وفقيها وشاعرا في الوقت نفسه، قد يرجع ذلك إلى أن العلوم في الماضي لم تكن بالتوسع التي هي عليه اليوم، حيث أصبح الاختصاص الدقيق هو السائد.. فقد يفني العالم عمره في فقه جزء بسيط من علم معين وقد لا يلم به، وهو الأمر الذي جعل العلوم أكثر تشعبا من ذي قبل، فقد ولى عصر العلماء الموسوعيين الذين يجمعون كل العلوم السائدة في ذلك العصر، ونادرا ما تجد في هذه الأيام عالما يجمع تخصصين علميين أو ثلاثة على الأكثر؛ لتوسع المعارف في كل مجال وتشعبها.

مفارقات

من المفارقات ألا نجد بين الأمم التي تقود العالم والرائدة في مجال العلم أمة «اقرأ»، الأمة التي كانت منارة العلم حينما كانت باقي الأمم في غياهب الجهل وظلماته، لا لشيء سوى لأنها لم تعط العلم وأهله حقهم، ولم تدرك أنه السبيل الوحيد للتقدم والوصول إلى التنمية المنشودة.

والله إن الجبين ليندى حين ندرس نظريات العلوم المختلفة وننسبها إلى علماء الغرب، بينما نجد أن جل أسس هذه النظريات وضعها علماء مسلمون، عرفوا حقيقة العلم وآمنوا بها، وسخروا جهدهم لخدمته.. فأصبحت مدنهم آنذاك حواضر علمية يأتيها طلبة العلم من كل حدب وصوب لينهلوا من معارفها، وما قرطبة إلا مثال ناطق على ذلك، لكن الخلف لم يصونوا الأمانة، ولم يحفظوا الوديعة التي تركها سلفهم، فشغلوا أنفسهم بسفاسف الأمور وتركوا العلم، وهو ما جعل غيرنا من الأمم تسيطر عليه، وتصل به إلى أعلى المراتب، بل وحاولوا الخروج من أقطار السموات والأرض لاكتشاف غياهب الكون؛ لأنهم عرفوا الحقيقة التي لم ندركها بعد.

نحن اليوم نملك جيوشا هائلة من

العلماء والباحثين في كل المجالات، ولا ننكر أن هناك من يتحكمون بمجال تخصصهم تحكما مميزا، لكن تطالعنا الصحف والتقارير يوميا بوصول فرق من الخبراء إلى نظريات جديدة.. وكذا اكتشاف مجموعة من الباحثين لحقيقة علمية ما، كل هذه التقارير والنظريات والحقائق تغيب عنها لمسة أمتنا، فلا نجد أثرا لاسم عالم مسلم إلا نادرا.

للأسف تعجز هذه الأعداد الهائلة من العلماء والباحثين عن مجاراة التطور العلمي الحاصل، ووضع بصمة الإسلام عليه.. لا ندري لماذا؟ هل هو نقص الإمكانات المادية والاعتمادات المالية؟ لا بالتأكيد؛ فالإمكانات المادية المتوفرة لدى أمتنا ربما لا تملكها أمم أخرى، فما هو السبب إذن؟! هل يرجع إلى تركيبة خاصة في عقولهم؟ لا، فكل عقول البشر سواء، بل عقولنا نحن أكبر وأوعى، كيف لا وهي التي تتشبع بتعاليم الإسلام، ونور القرآن الذي فيه شفاء للصدور.

التحكم في العلوم

بالتحليل الدقيق لأسباب تأخرنا في التحكم في العلوم نجد أن هناك أسبابا عدة أوصلتنا إلى ما نحن عليه.. لعل أهمها هشاشة القاعدة التعليمية لدينا، فنحن لا نبني أجيالا تقوى على حمل المشعل في المستقبل؛ لأننا لا نضع أرضية تعليمية صلبة في السنوات الأولى للأجيال الصاعدة، فجل منظوماتنا التربوية مستوردة أو مسطرة دون أهداف من قبل أشخاص ناقصي الخبرة، فلابد أن يكون التعليم الإعدادي والأساسي مدروسا، ومناهجه مضبوطة وفقا لمتطلبات نهضة الأمة، وذلك بتسطير أهداف معينة، على رأسها إخراج جيل من العلماء والقادة القادرين على التحكم في مجالات تخصصهم، دون اللجوء إلى خبرات أجنبية، وهو ما سيعيد لنا أمجادنا، ويجعلنا أمة تحترم العلم والعلماء.

السبب الآخر: هو عدم احترام البحث العلمي، ويتجلى ذلك من خلال الميزانيات الزهيدة الموجهة له، وكذا الرواتب المتدنية التي يتقاضاها الباحثون، مما جعل عدد الباحثين يقل بدل أن يزيد، على عكس ما يحدث في الدول المتقدمة، فعلى سبيل المثال عدد الباحثين في شركة سامسونج الكورية وحدها يساوي ضعف عدد الباحثين في كل الدول العربية مجتمعة، ولنا أن نتصور ذلك، فلابد من إصلاح الخلل بتسخير موارد مادية ومالية ترقى لجعله قطاعا مهما في الدولة، وتسطير برامج البحث بما يتوافق ومتطلبات الأمة، والرقابة على مشاريع البحث واستثمار النتائج المتوصل إليها، وعدم جعلها حبيسة الأدراج.

تبجيل العلماء

من جانب آخر لابد من إعادة الاعتبار للعلم بتكريم وتبجيل العلماء، فالملاحظ اليوم أن المكانة التي يحظى بها المغنون والفنانون والرياضيون لدينا أكبر بكثير من مكانة العلماء، فنجد الفرق بين عدد المغنين وعدد العلماء المعروفين لدى أفراد المجتمع فرقا شاسعا، فأصبح طموح الناشئة هو الشهرة والاقتداء بالمغنين والرياضيين وجعلهم قدوة لهم بدلا من العلماء، الذين لا يكادون يجدون ما يسدون بهم رمقهم في المجتمع، هذا للأسف هو واقعنا.. فكيف لنا بالحديث عن التنمية والتقدم ونحن لا نحمل من العلم إلا اسمه؟! فكما قال الشاعر:

ترجو النجاة ولا تسلك مسالكها
إن السفينة لا تمشي على اليبس

فالمراد لا ينال بالتمني، والهدف لا يبلغ إلا بالجد والعمل.

بالإضافة إلى ما سبق، لابد أن يدرك كل فرد في الأمة أنه مسؤول عن صناعة النهضة التي لا تتم إلا بالعلم، فإذا كان هذا الفرد من أصحاب العلم- سواء كان عالما أو متعلما- وجب عليه الإخلاص في عمله، والعمل على تحقيق ما يراه غيره مستحيلا؛ لأن علماء الغرب انطلقوا من قاعدة أن لا مستحيل مع العلم، ووصلوا إلى تحقيق الصعب..

فكلما كان الهدف بعيدا كانت النتائج المحققة أفضل، أما إذا كان الفرد من العامة فعليه احترام أهل العلم وتبجيلهم، وإعطاؤهم المكانة التي يستحقونها؛ حتى يتمكنوا من الإبداع والتميز، والوصول إلى الهدف الأسمى.. ألا وهو نهضة الأمة.

العلم والدين عند غير المسلمين

اعترف كالفين كوليدج رئيس الولايات المتحدة في إحدى خطبه بعجز القوانين الوضعية عن تقرير الفضيلة وحسن التعامل بين الناس، وقال: إن البشر مهما بلغوا من التقدم في الأنظمة لابد لهم في سعادتهم الدنيوية من الاعتماد على الدين.

قالت الكاتبة الفرنسية المعروفة مدام فالنتين دي سان بوان: إن الغرب يتقدم بسرعة هائلة، ولكن لا يمكن للنفس الدينية والنسمة المقدسة أن تسود العالم، وتلد له العجائب: الفضيلة والنبوغ إلا إذا اتحد العلم والدين بعد أن فرقت بينهما القرون الوسطى.

فأنا أجاهر بأنه لا يمكنني أن أبقى أسيرة التقدم المادي أو أسيرة كتلة الماديين في الغرب؛ لأنني موقنة بأن العالم في حاجة إلى صرخات ترجعه إلى الرشد، وتنير أمامه السبيل الموصل إلى الحقائق الخالدة أكثر من حاجته إلى الأمور المادية الزائلة.

من مجلة الفتح.. العدد الأول ص٢ و٣.

كيف نهيئ أطفالنا للتفكير العلمي؟

الطيب أديب
عضو اتحاد كتاب مصر



يعتبر أدب الأطفال وسيطا تربويا، يتيح الفرصة أمام الأطفال لمعرفة الإجابات عن أسئلتهم واستفساراتهم، ومحاولات الاستكشاف، واستخدام الخيال، وحب الاستطلاع، وإيجاد الدافع للإنجاز والتحرر من الأساليب المعتادة للتفكير، من أجل مزيد من المعرفة لنفسه وبيئته، مما ينمي سمات الإبداع لدى الطفل.

«إن حياة البشر تزداد تعقدا يوما بعد يوم، ونجاح الفرد في عصر المعلومات رهن بقدرته على مواجهة تعقد الحياة من حوله، سواء كانت على المستوى الفردي أو الأسري أو الاجتماعي.. لقد كان المتعلم في الماضي يكفيه عدد محدود من طرق التفكير، كالتعليل والتسلسل المنطقي والتحليل المتعاقب ذي الطابع الهرمي، بدءا من الكليات وانتهاء بالعناصر الأولية.. وأمام الكم العديد من الظواهر المعقدة، لم يعد هذا التردد القليل من أساليب التفكير كافيا، ويجب أن يزود المتعلم بعُدة معرفية جديدة»(١).

وهناك قائمة طويلة بأنواع التفكير في الخطاب المعلوماتي التربوي الحديث، منها على سبيل المثال لا الحصر: التفكير الابتكاري- التفكير المفهومي- التفكير النقدي- التفكير العلمي- التفكير الاستشراقي- التفكير المتوازي- التفكير الجمعي- التفكير العولمي وأنواع أخرى..

أطفالنا والتفكير العلمي

«أما التفكير العلمي المطلوب إشاعته بين الأطفال فهو طبع الأطفال على الحكم على المسائل والمشكلات بوعي شامل استنادا إلى ضوابط معينة، وليس هناك ما يجعل هذه الضوابط حكرا على العلماء دون غيرهم، أو الراشدين دون الأطفال- إذا ما استثنينا بعض الفوارق في الدرجة- خصوصا أن التفكير العلمي هو نشاط ذهني يراد له أن يظل قائما، ليس في النظر إلى الظواهر المختلفة التي أصبحت موضع اهتمام العلوم، بل يتعداه إلى مختلف مسائل الحياة اليومية»(٢).

«وترافق توجيه الطفل نحو التفكير العلمي ظواهر عدة، أبرزها غرس اتجاهات لقبول نتائج الفكر العلمي، واتجاهات البحث عن الأسباب الحقيقية للظواهر، وتنمية حب الاستطلاع في جوانب الحياة ذات القيمة المرغوب فيها، وبناء الآراء استنادا إلى أدلة كافية»(٣).

«وعند تناولنا لموضوع التفكير العلمي عند الأطفال يجب علينا ألا نغفل دور البيئة الثقافية التي ينشأ فيها الأطفال، إذ تؤثر البيئة الثقافية التي ينشأ فيها الأطفال تأثيرا كبيرا في أساليب وأهداف ومستويات التفكير لديهم، حيث إن هذه البيئة تزود الأطفال بالخبرات التي تعد المعين الأول للتفكير، وتشكل أنواع الحوافز والمواقف المثيرة لتفكيرهم، يضاف إلى ذلك أن حاجات الأطفال تؤثر هي الأخرى في تفكيرهم، وعلى هذا ففي الوقت الذي يعتبر التفكير نشاطا ذهنيا إلا أنه يتحدد بالثقافة إلى حد كبير، حيث تبسط الثقافة ظلها عليه، وعليه فإن الثقافة التي تسود فيها القيم السلطوية تشيع تفكيرا سلطويا، والثقافة التي تشيع فيها القيم اللفظية تشيع تفكيرا لفظيا، والثقافة التي تشيع فيها الخرافات تنشر تفكيرا خرافيا، بينما تشيع الثقافة التي تغلب فيها القيم العلمية تفكيرا علميا»(٤).

كيف نساعد الأطفال على التفكير العلمي؟

عند تعاملنا مع الأطفال، على المؤسسات الثقافية والتعليمية وكُتاب أدب الطفل مراعاة الآتي:

- تشكيل طرق التفكير لدى الأطفال، لأن التفكير أنسب الطرق لاكتساب عناصر الثقافة، ويقودهم إلى الفهم، ويحفز الأطفال لاكتساب حقائق جديدة، ويهيئهم أيضا لمواجهة مواقف الحياة المختلفة والوصول للحلول.
- تجنب حشر ذهن الأطفال بالمعلومات، لأن المعلومات عرضة للتغيير.
- أن نجنب الأطفال الانفعالات الحادة، حتى لا نعيق عملية التفكير، وأن نترك لهم مساحة كبيرة من الحرية للتعبير عن أفكارهم.
- تجنب تقديم الحلول الجاهزة لهم بصورة مباشرة لنتجنب المزيد من أسئلتهم الكثيرة.
- أن ننمي فيهم القدرة على النقد وعدم التسرع في إطلاق الأحكام، وأن نحرص على تشجيعهم على المناقشة في جو من الحرية والحوار الهادف.
- ضرورة تنمية الثروة اللغوية للأطفال لما للغة من أهمية في التعبير عن الأفكار.
- ألا نترك أطفالنا عرضة لتلقف المعلومات الجاهزة القادمة عبر الإنترنت والوسائط الإلكترونية المختلفة.
- ضرورة العمل على إنتاج أفلام كارتون ومسلسلات ومسرحيات وطنية، والتوسع في إنتاج مجلات متخصصة للطفل العربي، تنمي فيه الحس الجمالي، وتحببه في العلم، وتغرس فيه روح الابتكار التي يفتقدها الطفل العربي.

الهوامش:

١- د.نبيل علي، الطفل العربي وتكنولوجيا المعلومات، دراسة منشورة في كتاب ثقافة الطفل العربي، كتاب العربي، الكويت ٢٠٠٢م، ص٢٢٢.
٢- د.نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، مارس ١٩٨٨م، ص ٩٤.
٣- د.نعمان الهيتي، المرجع السابق، ص ٩٥.
٤- د.نعمان الهيتي، المرجع السابق، ص ٩٥.



التعليم الذي ننشده

د. محمد سعيد باه
أستاذ جامعي – السنغال

المربون المسلمون أمثال الزرنوجي والقابسي والغزالي، قد تركوا لنا ثروة هائلة في مجال التربية والتعليم، تعكس القدرة الخلاقة التي انبثقت عن المنهج الإسلامي الذي وضع من أجل النهوض مجددا بالعقل الإسلامي وتمكينه من الانطلاق في ميادين المعرفة المتصلة بالواقع الحي، مع وضع الإنسان في قلب حركة الحياة الفاعلة.

كان هذا الوهج في ميادين التربية والتعليم قويا يوم كان التمسك بالمنهج الرباني قويا لدينا بما فيه الكفاية، فانجذب الناس من الأمم الأخرى قاصدين الحواضر الإسلامية التي كان التعليم المؤصل والمتعدد الميادين أبرز لافتاتها، بقي الأمر كذلك إلى أن تراخت قبضتنا، فأخذ التيار التعليمي يتجه نحو الجزر حتى دخل المسلمون منزل المحاق الفكري.

ندير هذه المقالة حول مسلمات ثلاث:

فليكن بسؤال جوهري يتضمن جوابه بالمنطق البسيط والقوي الذي استنطقنا به كتابنا سوقا نحو مرابع المعرفة، وذلك يوم كانت الأمم تتدثر بغيوم الجهالة، وتفاخر بالغباوة فقيل لنا:

﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ (الزمر:٩).

ومن مسببات النكبة المعرفية التي ترتبت عليها أزمة حضارية مركبة أننا قدمنا، حين تعثرت أقدامنا في مسيرتنا للعروج نحو آفاق الكمال البشري والرقي العمراني، من «لا يعلمون»، وقد يكونون ممن طمست أعينهم حسا ومعنى، وبالتالي فبدلا من التذكر نسينا كل شيء تقريبا، وهنا بدأ خط الانحراف، وخرجنا من دائرة أولي الألباب الذين يعلمون ويعلِّمون، يهتدون بالذي تعلموه ثم يقودون المواكب.

وقبل بزوغ واستفحال هذا الانحراف في ميادين التربية والتعليم، كان

نهضت الأمة الإسلامية بعقيدة صافية محركة؛ بعيدا عن الترهات التي تسطح العقل وتشل التفكير (أنهضت أمما من الرمم)(١). وتتكئ على منظومة تعليمية تربوية من الطراز الخاص.

تعيش الأمة اليوم كبوة حضارية عنوانها العام جهالة مطبقة: تجهل ظاهر الحياة وتقدم الحياة الآخرة بصورة مشوشة تجعل الناس تستنكف أن تسير في طريق الله.

المعركة بيننا وبين الآخرين، ممن يخاصمنا أو يناصبنا العداوة، قد اشتد أوارها منذ حقب، فظللنا نخسر جولة بعد أخرى بفعل ضحالة ما لدينا من معارف عن الكون وعن الإنسان، فنبت ضرباتنا لأن أسلحتنا صدئة.. ولتدارك الحالة نحتاج إلى صياغات جديدة للعقلية الإسلامية، وهي المهمة التي تجعل التعليم مجددا في قلب المشروع.

المنة العظمى

حاولت تقصي مضامين رسالات الأنبياء والرسل، وما حملوه لأقوامهم من تعاليم وإرشادات لإصلاحهم وإسعادهم، من خلال تصفح نصوصهم أو ما نسب إليهم من تلك النصوص، ولم أر ما يماثل ما حمله خاتمهم –لا غرو إذ هو إمامهم– في استيعاب ونفع مع خاصية الاستمرارية بل وقابلية التجدد:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران:١٦٤).

لو نظرنا بعمق في المنهجية الكامنة في هذه الآية لقدمنا للعالم المتعطش لونا من التعليم قادرا على أن يعيد لأقدامه المترنحة توازنها، وذلك حين نعيد اللحمة بين التعليم وواقع الأمة، بحيث يصبح التعليم الرافد الأساس لصقل النفوس ولتشكيل العقول؛ ما يجعلها بمنأى عن الخضوع للمؤثرات الخارجية التي تأتي حاملة من السموم ما تشوهها وتغير من طبيعتها.

تعليمنا المأزوم وإشكالية الاقتباس:

بعد فترة العطاء الثر، يوم كانت الشعوب والأمم تنافس حظوة التعلم على أيدي علمائنا، والتوقف عن الإنتاج المعرفي وتقاصر طرائقنا والتباس أساليبنا في ميادين التعلم والتعليم، وجدنا أنفسنا في العراء ونحن مذمومون، لا سقفا يظلنا ولا أرضا تقلنا، وكان البديل هو أمر الخيارات «الامتراء»، أو فلنقل هو الاستجداء المزري، وحتى لما قررنا التعلم عند الآخرين لم يكن الخيار متضحا أمامنا، فذهب أبناؤنا وهم في أشد حالات الانكشاف والحيرة لأننا لم نستطع أن نجيب لهم على السؤال المعضلة:

«إذا قلنا لأبنائنا أن يذهبوا (إلى الغرب) ليتعلموا فسيذهبون ويتعلمون، ولكن هل الذي سيتعلمونه يساوي ما سينسونه؟»(٢).

قصة تاريخية طريفة وذات دلالة

نجلي أبعاد الأزمة في ميادين التعليم برواية قصة تاريخية طريفة، ولكنها ذات دلالة خطيرة، وهي قصة العالم الموسوعي المسلم والمخترع/ عباس بن فرناس (١٩٤ – ٢٧١ هـ/ ٨١٠ – ٨٨٧م)، الذي يعتبر بحق أول إنسان حاول الطيران، طبقا لما هو محفوظ من التاريخ البشري، وذلك انطلاقا من قواعد علمية وحسابات رياضية دقيقة، ثم قام بتجربة ناجحة حين طار لمسافة بعيدة، قبل أن يسقط مصابا، ولم يخطئ إلا في نقطة واحدة فقط، ألا وهي أن عملية الهبوط –بخلاف عملية الطيران– تتم عن طريق الذيل.

وبهذه المحاولة التي جرت في وقت مبكر جدا من التاريخ الإسلامي، سجل العقل الإسلامي، المنطلق من قراءة صحيحة لنصوص الوحي، بخلاف ما كان سائدا في العالم في حينه، سبقا علميا خطيرا، وذلك حين فتح باب عالم الطيران، الذي سيكون أبرز حدث في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك قبل خطوة الأخوين «رايت» التي ستتم عام ١٩٠٣(٣).

والعبرة هنا أن المنظومة التعليمية المنسجمة التي أنتجت هذه العقلية الجبارة (كان الرجل عالما موسوعيا ومتضلعا في المعارف ذات الصبغة التدينية)، كانت قد أخذت في التآكل، وهو ما جعل الجدل عندنا يدور حول ما إذا كان الرجل منتحرا أم لا؟! بينما ذهب الأوروبيون الذين تابعوا الحدث بعناية يبحثون عن مكمن فشل المحاولة، ولذلك صنعوا الطائرة وطيروها؛ أما نحن أصحاب الفكرة فقد اكتفينا بشراء تلك الطائرة وركوبها.

معركة المناهج

بعد تلك الكبوة تنادى المصلحون في ديار الأمة إلى تدارك الوضع الذي كان مائلا، فوضع مطلب التجديد في التربية والتعليم على رأس سلم الأولويات، فبدأ النموذج الإسلامي يشق طريقه بنجاح ملحوظ في كل الاتجاهات شرقا وغربا، وحين بدأت مخرجاتنا تتحرك وهي تحمل بصمات الوحي بوضوح ضاق بهم خصوم الأمة ذرعا؛ فشنت حملة شعواء تحت عنوان

> قال الإمام الشافعي: العلم علمان، علم الطب للأبدان وعلم الفقه للأديان
>
> **مفتاح السعادة طاش، كبرى زاده، ١/٢٦٧.**
>
> ويروى عن الإمام علي بن أبي طالب: العلوم خمسة:
> الفقه للأديان
> والطب للأبدان
> والهندسة للبنيان
> والنحو للسان
> والنجوم للزمان
>
> **مفتاح السعادة، طاش كبرى زادة، ١/٢٦٧.**

منكر «تغيير المناهج» لأن مناهجنا تفرخ الإرهاب والمتزمتين، واشتد الضغط إلى أن قيل لنا: احذفوا هذه الباقة من الآيات واشطبوا تلك المجموعة من الأحاديث.

تعليمنا بين الشحن والتسطيح:

تتهم مناهجنا بأنها تقوم على الحفظ على حساب الفهم(٤)، وهي تهمة يجب أن نناقشها بقدر من الهدوء بعيدا عن العاطفية الممزوجة بالتسطيح، في فترة الركود الذي ران على العالم الإسلامي نتيجة خفوت جذوة التعليم القادر على الاستجابة لمتطلبات الواقع ومواكبة حركة المجتمع، تم اللجوء إلى طريقة الشحن الذهني بدلا من اتباع نهج القراءات المعمقة القائم على استنطاق النصوص وإحكام ربطها بالسنن الكونية؛ فكانت تلك الثغرة انعكاسا لواقع منحرف، وليس من نتاج المنهجية المعرفية الصارمة المعتمدة على الفهم، وليس على التلقين، بدليل أن القرآن لم يحثنا ولو مرة واحدة على حفظه مقابل حشد من الآيات ترسخ الفهم والقدرة على الاستكناه باعتباره ركيزة لعملية التعلم والتعليم.

من خصائص التعليم النوعي:

في المرحلة التغييرية التي نعيشها لا خيار لنا سوى ابتكار منظومة للتعليم مجدّدة، شريطة أن تكون أولى مواصفاتها «النوعية»، وهي الخاصية الجامعة التي تتشكل من مقومات أهمها:

المرتكز الروحي: هذه هي الخاصية المحورية لمنظومتنا التعليمية، ولما انتزعت منها أضحت قوالب مزركشة لا تبني فكرا ولا تشحن روحا، ولا تصقل عقلا، ورغم ضمورها فإن ثمة جهودا متواصلة لانتزاع البقية الباقية.

البعد اللغوي: لم يشهد التاريخ البشري حتى الآن نهوض أمة نهوضا حقيقيا بتعليم أبنائها من خلال لغات الأمم الأخرى، كما هو الحال في بلداننا اليوم، وفضلا عما في هذه الطريقة من إرهاق لعقول أبنائنا والمعاناة من حالة الانفصام، وما ينجم عن ذلك من الشعور الانهزامي، فإنها تكرس حالة التبعية الحضارية الحادة التي تعيشها الأمم الإسلامية.

القدرة على الاستجابة: أدق وصف لحالتنا التعليمية هو أننا انطلقنا مبكرا وبقوة هائلة، ثم توقفنا فنمنا حين خطا الآخرون في ارتياد لآفاق الكون البعيدة عنا..

وفي تطلع إلى نهضة جديدة تمكننا هذه الخاصية من الابتكار والاقتباس والتوليد، بمعنى اشتمالها على كل مقومات النمو والمواكبة لاحتياجاتنا، لكن ذلك لا يغني عن تعميق التفكير واستحداث الأنماط وتوليد الطرائق، بما يساير الوضع.

الانطلاق من الذاتية: إن طبيعة الإنسان الجديد الذي نريد إعداده وفق المقاسات الربانية ما يجعله إنسانا صالحا(٥) تقتضي أن تكون الذاتية، بمعنى الخصائص الكبرى التي بها تتحقق الشخصية المسلمة الحقة، إحدى مقومات كسب المعرفة وتوظيفها بما يستجيب لاحتياجاتنا المتجددة.

التخصيب المنضبط: من نعم الله علينا أن ديننا لم يحجر علينا كل واسع، بل يناشدنا بالسياحة في الأرض وعيوننا مفتوحة لا تقع على زهرة جميلة أو ثمرة يانعة إلا واستنشقنا أو قطفنا ثم زرعنا بدورنا، لكن الأخذ من الآخرين بلا ضوابط مرشدة غير مقيدة كلفنا الكثير، وفي هذا المنعطف يجب أن نؤسس لمنظوماتنا التعلمية التعليمية بحيث نخصبها بما ثبت نفعه وانتفى ضرره، أو قل بما يرجح الخيار.

الاستثمار: كان التعليم، حين ازدهر في العالم الإسلامي، وخرج العالم الموسوعي النموذج، يقتات من مصدرين أساسيين هما الدولة المكنة، يساندها الوقف بكل روافده، ثم تقلبت بنا الأحوال فأصبح التعليم اليوم أكبر أبواب الاستثمار، وهذا مطلب ما لم يستوعبه أصحاب القرار عندنا فسيبقى تعليمنا في ذيل الركب يركض ولا يدرك.

التعليم المنشود:

بعد هذه النظرات حول مسار وواقع التعليم في شتى أرجاء العالم الإسلامي، آن لنا أن نحاول لململة أطراف الإشكالية لرسم ملامح التعليم الذي نرى أنه القادر على انتشال الأمة من رقدتها الحضارية التي أخذت تطول، وكذلك الآفاق التي يمكن التطلع إليها في المرحلة القادمة على ضوء ما يتاح لنا من فرص للإصلاح وإمكانات لتوظيف تلك الفرص.

أولا، نلاحظ أن أزمة التعلم والتعليم ليست عقبة أمامنا وحدنا، بل حتى الأمم المتقدمة ماديا وعمرانيا تعاني اليوم، وإن تباينت طبيعة وتجليات الأزمة، وهنا تتمثل فرصة الأمة في أنها تمتلك منظومة قيمية عالية الجودة لإعادة رسم علاقة المعرفة، بما في ذلك طرق كسب المعرفة (التعلم والتعليم)، بطرق ومجالات توظيفها، وهذا المطلب جوهري اليوم ونحن نسعى إلى إعادة بناء رؤانا الكلية في مجال التربية والتعليم.

ثانيا، إن طور قدرة جهة ما، سواء أكانت دولا أو أنظمة أو مناطق، على احتكار المعرفة والتحكم في طرائق التعليم النوعي على وشك أن يكون قد ولى، وهذه فرصة ذهبية لينهض عقلاء الأمة من أهل الاختصاص بإعادة بناء الأنظمة والطرائق والمرتكزات المحورية التي يجب أن تجري عمليات التعلم والتعليم في إطار صياغاتها.

هوامش:

١- قال شوقي، مخاطبا معلم البشرية:
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له
وأنت أحييت أجيالا من الرمم.

٢- المغامرة الغامضة، شيخ حامد كان، ترجمة سعيد باه، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠١٣م.

٣- مقتبس من محاضرة لي ألقيت في رمضان ١٤٣٤هـ، بعنوان: «مساهمة العلماء المسلمين (القدماء والمعاصرين) في ازدهار الآداب والعلوم!.

٤- وربما في هذا السياق تتضح دلالة قصة الطالب الذي استظهر صحيح البخاري فطلب الإجازة ولما فشل في اختبار استكناه المعاني قال له الشيخ الحصيف: أنت نسخة إضافية، فبدلا من أن أجيزك يمكنني أن أدبس الإجازة على نسخة مطبوعة من الصحيح في مكتبتي.

٥- حين نقارن بين نمطينا، نحن والغرب، في مجال التربية والتعليم نلحظ من الفروق الجوهرية أننا ننشد إعداد إنسان صالح بينما يكتفون بإعداد المواطن الصالح، والبون بينهما كبير.



فضل كفالة العالم المعلم والطالب المتفرغ

د. محمد الأمسمي
أستاذ مساعد لمواد الفرق والأديان بجامعة طيبة

إن أقدر الكاسبين على كسب الحلال هم طلبة العلم، لما عندهم من مهارات وسلوكات حسنة وتدبير للأمور، والمثل الأول على ذلك التجارات الرابحة للنبي ﷺ قبل البعثة، ومن تاجر من صحابته الكرام، وكذلك من مارس منهم أي عمل آخر، ولايزال التاريخ الإسلامي يشهد بذلك، ونقدم بين يدي مباحث ذلك هذه التنبيهات:

أ- لما كان الله تعالى طلب منهم- أي من طلبة العلم- أداء أعمال جليلة، تتطلب الترفع عن الأنانية الضيقة وحب المصلحة النفعية المحدودة، فقد اقتضى ذلك منهم التجرد لهذه الأعمال لعموم نفعها، وشدة حاجة الأمم والأجيال المتتالية لاستمراريتها، فكان أن زهدهم في الدنيا، وأذاقهم حلاوة الإيمان، ووجههم إلى حذف العلائق أو التخفف منها ما أمكن، والاكتفاء من متاع الدنيا بالضروري الذي لابد منه.

ب- ثم إن أعمالهم التعليمية والعلمية والتربوية توجب خلو القلب من الشواغل وهموم الدنيا والجري وراءها بالكسب والجمع والحفظ، وما يتبع ذلك مما يشوب الخاطر ويأخذ الوقت الذي هو رأس مال كل إنسان له هدف في الحياة يسعى لتحقيقه في عمره القصير.

ج- ولعلمهم أن أسباب الرزق كثيرة، وأن الكدح في الدنيا ليس إلا بابا واحدا ضيقا، فتوجهوا لطاعة الرازق مباشرة والعمل لصالح الخلق الذين هم عيال الله، وخيرهم أنفعهم لعياله - سبحانه وتعالى وهل يا ترى يضيع الله من وجهه لطاعته ونفع عموم خلقه؟

فضل كفالة معلم الناس الخير



والداعي له وطالبه:

كان النبي ﷺ يعمل قبل البعثة في رعي الغنم، ثم في التجارة بعد ذلك، وكان من أبرك المتاجرين وأربحهم تجارة وأكثرهم وفاءً وأمانة، وتلك أهم شروط التاجر الناجح الرابح، ولما أثنت عليه أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بأصول مكارم الأخلاق التي عرفتها فيه قالت: «كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»(١).

فهذه أمور تتطلب مالا، وإن من أعظم أوجه الإنفاق في الخير وأهمها وأعمها نفعا.. الإعانة على نوائب الحق، وأي حق أجل من كفالة معلم الناس الخير ومتعلميه، ويكفي فاعل ذلك شرف التأسي بالنبي ﷺ، في مثل هذه الأصول الأخلاقية العالية، وأما ثوابها عند الله تعالى فحدث عنه ولا حرج.

إن كل وافد على النبي ﷺ بعد الهجرة يعتبر طالب علم، وإن كفالته من أفضل الأعمال وأجلها أثرا في الدنيا وذخرا في الآخرة، وكان من تأسى به في رعاية هؤلاء الوافدين يستحق- إن شاء الله- من الفضل ما لا يحده إلا الله تعالى- وجدير بنا أن ننظر إلى قوم كانوا يُعرفون في صدر الإسلام بأهل الصُّفة، وهم أضياف الإسلام وفقراء الطلبة ا لو ا فد ين الذين لا أهل لهم في المدينة النبوية ولا مال(٢).

وكانوا- كما قال أبوهريرة رضي الله عنه وكان واحدا منهم- يصحبون النبي ﷺ على ملء بطونهم فترات تطول أو تقصر حتى كان يتجمع في المسجد منهم مائة أو أكثر أو أقل، فكان النبي ﷺ يرى أن أهل المدينة مسؤولون على وجه العموم عن كفالتهم، لذلك كان يطلب لهم من بيوته الطعام والشراب، ويطلب لهم من أصحابه، ولا يتركهم يتكففون الناس، بل يدل الناس بنفسه، وبقوله، بعد أن كان لهم قدوة بعمله فيقول: من يعشي هذا.. من يأخذ معه واحدا.. من يضيف إليه اثنين، فإن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة... وهكذا، إلى أن قال: ومن كان عنده طعام أربعة ليذهب بخامس أو سادس. أو كما قال ﷺ، وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة(٣) كما في حديث عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.

فهل يا ترى تحمل النبي ﷺ إعالة هؤلاء وكفالتهم لأنهم فقراء فقط؟ أم لأنهم غرباء طلبة علم شرعي وأخذ منهج إسلامي، والخروج بعد ذلك للدعوة إليه وتبليغه وتعليمه والجهاد في سبيل الله بخوض المعارك من أجله؟

وإذا نظرنا إلى اقتراح محمد بن مسلمة رضي الله عنه على النبي ﷺ عندما رأى تكاثر هؤلاء الطلبة (من أهل الصفة) في المسجد، وأشفق من تحمل النبي ﷺ لشؤونهم، فقال (والدال على الخير كفاعله): «ألا تفرق هذه الأضياف في دور الأنصار، ونجعل لك من كل حائط قنوا، ليكون لمن يأتيك من هؤلاء الأقوام؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى، فلما جدّ له مال جاء بقنو، فجعله في المسجد بين ساريتين، فجعل الناس يفعلون ذلك، وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقوم عليه»(٤).

فمجتمع يفد الطلاب فيه إلى معلم أو معلمين متعددين، أو إلى مدارس ومراكز تشع عليهم بنور القرآن والسنة المطهرة والفقه والآداب، وهو مجتمع مسلم، لا يتردد في كسب هذه الفضائل بكفالة هؤلاء الطلبة وحسن رعايتهم، والأمر يتوجه إلى أهل الثراء والسعة في المال والرزق أولا، ثم إلى المجتمع عامة.

وعندما أوصى النبي ﷺ بالوافدين من طلبة العلم، هل كان يقصد بذلك أن العلماء يرحبون بهم فقط وينشرون لهم ما عندهم من العلم ويتركهم المجتمع بعد ذلك وهم غرباء في ضيعة وبدون كفالة ورعاية؟

إن الحديث في ذلك أشمل بكثير مما يتوقعه أو يتصوره بعض الناس الذين استحوذ عليهم الشح بمالهم على أن يكسبوا به الحسنات

أو يرفعوا به أنفسهم بالمآثر في المجتمعات.

قال ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: إن النبي ﷺ قال: «يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون، فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيرا»، قال الراوي: وكان أبوسعيد إذا رآنا قال: مرحبا بوصية رسول الله ﷺ. وفي لفظ، قال الراوي- وهو أبو هارون العبدي: كنا نأتي أبا سعيد فيقول مرحبا بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لكم تبع، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا»(٥).

وإذا كان العالم والمتعلم في الأجر شريكين، وتضع الملائكة أجنحتها لهما رضا لما يصنعان، ويستغفر لهما كل شيء، حتى الحيتان في البحر لعموم نفعهما وتعريفهما للناس الحقوق والأحكام والحلال والحرام بعد معرفة الله تعالى ورسله وأنبيائه وملائكته وتعليم الناس ذلك، فإن كفالة متعلم هذا الخير ومعلمه والداعي له لا تقل- إن شاء الله تعالى- عن الشراكة لهما في هذا الخير، وقد يزيد عليهما بأنه إذا لم يجدا من يكفلهما قد ينقطعان عن هذا الخير وينصرفان عنه، فيعم الجهل والشر، ويغلب الخبث في الأرض، فيحل على الخلق سخط الله وغضبه بسبب ذلك(٦).

وإذا كان طالب العلم عندما يسلك طريقه يسهل الله له به طريقا إلى الجنة، فلا نتردد- إن شاء الله عند صلاح النية- أن نقول بأن الكافل له حتى يتفرغ لمهمته ويتقنها ويكون نافعا للمسلمين ويتعدى نفعه- أن ذلك في ميزان حسناته، وأن الله تعالى بفضله وكرمه قد سلك به مسلك الجنة الموصلة إليها بإذن الله(٧).

وإذا كان الدال على الخير كفاعله فإن المعاون له على ذلك يدخل معه في الأجر إن شاء الله تعالى(٨) لعموم لفظ الخير، وتنوع الدلالة عليه لتشمل كل ما يتطلبه حصوله وتعديه إلى الغير، وكذا ظهور الحاجة إليه.

إذن علينا التأسي بالنبي ﷺ في ذلك، والاقتداء بالصحابة الكرام ومن اقتفى أثرهم من أهل الخير والمال والسلطان الصالح.. وعلينا كسب قلوب أبرك فئات المجتمع، ونيل بركة دعائهم وثنائهم الحسن الذي يورث البركة في المال والأهل وبقاء الذكر الحسن على مر الدهور، كما هو معلوم ومشهور، وصيانة هذه الفئة الصالحة- من تغير حالها- والحفاظ على الأحوال الحسنة من مقاصد الشريعة التي تأمر بالعطاء، وذلك أن حال العلماء وطلبة العلم هو التعفف والصيانة والبعد عن الحرف الدنيئة والمطامع المريبة، فمن أعانهم على ذلك بكفايتهم وكفالتهم حقق لهم وللأمة مطلبا عظيما هو التفرغ لمهامهم العامة وحمايتهم من الانصراف عن أعمالهم الجليلة أو تدنيسها تحت قهر الحاجيات الضرورية، وقد قيل لأحد العلماء وقد احتاج إلى بيع الزيت، والطلاب يتزاحمون حوله: إنه لا يليق بك هذا، فقال: «من جاع ببطن غير بطنه باع الزيت» يعني بذلك العيال والنفقات الواجبة للزوجات والأطفال والطلبة المغتربين الذين لا راعي لهم بعد الله إلا هو.

وإذا قدرنا أنه لا يوجد من بين الأغنياء في الأمة من يراعي مثل هذه الأمور، وإنما يعطي زكاة للفقراء فقط، كان العلماء والدعاة وطلبة العلم في مقدمة من ينبغي تقديمهم في زكاة المال الواجبة، فلتعففهم وصلاحهم يقدمون في الحصول على حقوقهم من الزكاة الواجبة (٩).

وبهذا نكون عالجنا هذه المسألة الجديرة بمزيد من البحث بما يؤصل فضلها ويسلط الضوء على اهتمام الكتاب والسنة وعمل سلف الأمة على تحمل المسؤولية نحو معلمي الناس الخير والدعاة إلى الله تعالى والسائرين على طريق العلم الشرعي المتفرغين له.

وختاما فإن العلماء دائما يُنشدون مع العلامة حماد بن الأمين الشنقيطي، متمنيا على الله تعالى:

يا لهف نفسي على شيئين لو جمعا
عندي لكنت- إذن- من أسعد البشر
كفاف عيش يقيني ذل مسألة
وخدمة العلم حتى ينتهي عمري
وثالث أتمنى لو ظفرت به
كون السعادة لي في سابق القدر

الهوامش:

١- صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب الحديث الثالث، فتح الباري، ط٢، الريان، ١٤٠٧هـ ١/ ٣٠.

٢- المسند، للإمام أحمد، المكتب الإسلامي، ١/ ٦٣٧- ٦٣٩.

٣- انظر الحديث وشرحه في المصدر السابق ٦/٦٧٩ وما بعدها، وراوي الحديث عبدالرحمن ابن أبي بكر رضي الله عنه.

٤- انظر أخبار مدينة الرسول ﷺ، لابن البحار ٨٨. أو غيره من كتب السير.

٥- راجع «رجحان الكفة في أخبار أهل الصفة» حيث إن كثيرا من العلماء رأوا أن شأن أهل الصفة هذا هو الأساس لتجمع الطلبة والمتربين والمتعدين عند شيخ في مدرسة أو رباط، وهو الأصل في توجه الأغنياء والأمراء والخلفاء والسلاطين لتوقيف الأوقاف وإنشاء المدارس الخيرية وجماعات رعاية العلم وأهله.

٦- جامع الأصول في أحاديث الرسول، تأليف مجد الدين ابن الأثير الجزري، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٣هـ، ٨/ ١٣.

٧- جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، ١/١٥٥ وما بعدها، وشرح السنة للبغوي، ١٤/ ٢٢٩.

٨- السابق ١/١٦٨، ١٦٩، وانظر ما بعدها إلى ١٧٤، وانظر: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ٢٢٣ وما بعدها.

٩- انظر: (تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين) ، بلاغ الدعوة، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤٤١هـ، ص١٥٥ وما بعدها، ومجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت العدد١٣، ١٤٠٩هـ، ص١٨٨- ١٨٩.

علم الكيمياء وتطبيقاته في الحضارة العربية والإسلامية

د. رفعت حسن هلال
أستاذ قسم الكيمياء بكلية العلوم- جامعة القاهرة



- مقتطفات من كتاب إسهامات الحضارة العربية والإسلامية(٣)
مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي - مكتبة الأسكندرية مصر

«علم الكيمياء علم عربي الأساس والمنهج». من أجل تبرير هذه المقولة يلزمنا أن نقدم الخلفية التاريخية للكيمياء كمجموعة من المعارف المتوارثة التي تلقاها العلماء المسلمون؛ فوضعوا نظرية كيميائية ناضجة، ومنهجا علميا قويما. ولقد تعمقوا في فهم هذا العلم الجديد فتمخض ذلك عن بلورة فلسفة رائعة تعكس حكمتهم المستخلصة من قدر هائل من التجارب والمشاهدات لقد طوروا المختبر الكيميائي وصنعوا له أدواته الخاصة. ومما لاشك فيه أن ذلك المختبر الذي طوروه هو نفسه الذي نعرفه اليوم، العمليات داخل المختبرات، ولكنهم اجتهدوا أيضا في التطبيق: فقامت صناعات كيميائية غيّرت وجه الحياة، وتقدمت بالإنسانية خطوات عملاقة إلى الأمام.

وعلم الكيمياء -كما نعرفه اليوم- نشأ وتطور على أيدي العلماء المسلمين بداية من القرن الثامن الميلادي، ورغم حركة الترجمة الهائلة التي بدأها المسلمون لكل ما وصل إليهم من مخطوطات يونانية وسريانية، فإنهم قد وجدوا القليل جدا من العلم والكثير من الفلسفة في مجال الكيمياء، فبدأوا من الصفر. وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية انتقل مركز العلوم وبؤرة توهجها إلى الحضارة العربية الإسلامية: حيث تميزت هذه الحضارة بالقدرة العالية على التوثيق، فقد حفظت علوم الأولين بالترجمات العربية. وعلى الرغم من أن الكيمياء قد قامت على أنقاض فلسفة يونانية تمحورت حول تحويل العناصر الخسيسة (المعادن غير الذهب، والفضة، والبلاتين) إلى عناصر نفيسة، وتحضير إكسير الحياة، فإن العلماء المسلمين سرعان ما لفظوا تلك الأساطير وتبنوا المنهج التجريبي كما نعرفه الآن.

بداية علم الكيمياء العربي

تبنى علماء الكيمياء المسلمون المنهج العلمي التجريبي منذ بداية القرن التاسع الميلادي، يقودهم في هذا المجال بلا منازع العالم العربي جابر بن حيان الذي يستحق أن يسمى «أبوالكيمياء». وقد أسس ابن حيان للمنهج التجريبي وصمم أجهزة التقطير ووصف عمليات كيميائية متعددة، منها: الإسالة Liquefaction، والبلورة crystallization، والمعايرةcalibration، والأكسدة oxidization، والتبخر Evaporation؛ كما عرف ووصف عملية الترشيح. ولقد تميز معمل جابر بن حيان بالقدرة الفائقة على فصل المواد، والحصول عليها في صورة نقية.

المنهج العلمي التجريبي

وضع جابر بن حيان أسس المنهج العلمي التجريبي: حيث بنى معرفته الكيميائية على التجارب والاستقراء والاستنتاج العلمي. وهكذا آمن جابر إيمانا عميقا بأهمية إجراء التجارب كسبيل علمي دقيق للوقوف على الحقائق بعد أن تخلى عن منهج التأمل العقيم المنقطع الصلة بالواقع المشاهد. ونادى بأن دراسة العلوم الطبيعية أساسها التجربة، لذا نجد أن علماء المسلمين نهجوا منهجه وحذوا حذوه. ولم يكن ذلك في مجال الكيمياء وحده، وإنما في العلوم الأخرى. ولأن جابر كان أول من أدخل التجربة العلمية المختبرية في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده، فإنه كان يوجه طلابه بالقول المأثور عنه: «وأول واجب أن تعمل وتجري تجارب، لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان. فعليك بالتجربة لتصل إلى المعرفة». ولقد درس جابر بن حيان المنهج العلمي عند علماء اليونان بكل إمعان، فوجده يرتكز على التحليلات الفكرية الغامضة. واتجه هو نحو الاعتماد على المنهج العلمي الذي يخضع للتجربة المختبرية والبرهان الحسي، وذلك مع الاحتفاظ بالنظريات التي تعتبر عصب البحث العلمي.

وهكذا ألزم نفسه بأسلوب من البحث النظري والسلوك العملي، يضم تحته كلا المنهجين الاستدلالي والاستقرائي، والذي هو في النهاية الأسلوب العلمي في المعنى الحديث.

ويطرح جابر منهجه، مخاطبا قارئه بقوله: «يجب أن تعلم أننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه، وبعد أن امتحناه وجربناه، فما صح أوردناه وما بطل رفضناه، ومما استخرجناه نحن أيضا وقايسناه على هؤلاء القوم».

وإضافة إلى ذلك، فإن جابر كان يجمع بين الامتحان التجريبي، أو العمل المعملي، والفرض العقلي الذي تأتي التجربة لتأييده أو رفضه أو تكذيبه، وهو ما يعتبر لب المنهج التجريبي. وفي هذا يقول: «لقد عملته بيدي وبعقلي من قبل وبحثت عنه حتى صح وامتحنته فما كذب».

وهذا يعني أن التجربة وحدها لا تكفي لتصنع عالما، بل لابد من أن يسبقها الفرض العلمي الذي يصنعه العالم، ثم تكون التجربة بعدئذ هي المحك. ويقول جابر أيضا: إياك أن تجرب، أو تعمل حتى تعلم. ويحق أن تعرف الباب من أوله إلى آخره بجميع تقنياته وعلله، ثم تقصد التجريب؛ فيكون بالتجربة كمال العلم.

وهكذا نجد أن المنهج العلمي لجابر بن حيان يتلخص في الفرض النظري ثم البحث عما يؤكده أو يدل عليه في الواقع المحسوس ومواصلة البحث والتطبيق والدقة في التجربة إلى أن يصل الباحث إلى قانون عام، ثم امتحان هذا التعميم الذي أخذ صورة القانون.

ولا يقتصر ذلك على ما ثبت صدقه وحده، وإنما يتجاوزه إلى ما يخالفه ويناقضه أيضا إن وجد، وهذا يفرضه واقع أن صورة القانون العلمي لا تكتمل -في حقيقتها- إلا بكشف العملية العلمية لما يحدث فعلا.

ويقول جابر أيضا لطالب العلم: «لا علم إلا بعمل قبله يتقدمه، فاعرف ذلك واعمل عليه، وإياك وإهماله فليس يمكن كل يوم العمل والتجربة لترى الرشد فيما نقوله لك. ولكن اتعب أولا تعبا واحدا واجمع وانظر واعلم ثم اعمل». أي أن التجربة منهج معتمد، لكنها وحدها لا تكفي: إنما تأتي «صنعة الكيمياء بالعوامل الثلاثة معا: العلم والعمل والتجربة».

إسهامات الحضارة العربية في علم الكيمياء

لعب المجتمع الإسلامي دور المؤسس والحاضن لعلم الكيمياء، وكان لعلماء عظام أمثال جابر بن حيان والرازي دور أساسي في الاكتشافات الكيميائية التي أسست للحضارة المعاصرة؛ حيث وصفوا عملية التقطير وأجهزتها، مثل الإنبيق المستخدم في الحصول على النواتج في صورة نقية. وكذلك فإن المصطلحات التي مازالت تستخدم حتى الآن، مثل الإكسير والإنبيق والكحول المستخدمة الآن باللغة الإنجليزية واللغات المشتقة عن اللاتينية، كلها كلمات عربية الأصل، كما أن اكتشاف وتسمية أحماض الهيدروكلوريك، الكبريتيك، النيتريك، الخليك، الصودا، والبوتاس كلها أدخلت على أيدي العلماء المسلمين. وهناك كثير من العمليات الكيميائية عُرفت ووصفت من جانب العلماء العرب، مثل تقطير الماء والكحول وصناعة العطور؛ حتى إن بعض الرموز للعناصر الكيميائية المستخدمة حاليا ترجع أصولها إلى اللغة العربية. ومنها مثلا رمز الصوديوم Na المشتق من كلمة نطرون (al-natrun): الذي كتب باللاتينية Natrium، وكذلك فإن رمز عنصر البوتاسيوم k مشتق من كلمة (al-qaliy) الذي كتب باللاتينية (kaliem). ومن أعظم اكتشافات الكيمياء العربية التجريبية، الماء الملكية «aqua regia» وهو خليط من حامض النيتريك وحامض الهيدروكلوريك: حيث يتميز بقدرة عالية على إذابة معظم العناصر، ومن بينها الذهب. وقد أدخل العرب طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بحمض النتريك، كما أمكنهم فصل كل من عنصري الزرنيخ والأنتيمون من مركباتهما الكبريتية، كما برزوا أيضا في صناعة الحديد وفي دباغة الجلود. وفوق ذلك تركوا موروثا هائلا من المؤلفات التفصيلية الوافية التي تناولت صناعات عديدة، منها: صناعة السكر والزجاج والأحجار الكريمة والطلاء.

استخدم جابر بن حيان ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج، واستخدم الرمل الأبيض الخالي من أكاسيد الحديد للحصول على زجاج ناصع البياض. وحضر جابر أيضا مادة براقة من كبريتيد النحاء واستخدمها في تزيين المخطوطات بدلا من الذهب، كما قام بتحضير نوع خاص من الطلاء يقي الثياب من البلل ويمنع الصدأ عن المعادن، واكتشف أن الشب Alum يساعد على تثبيت الألوان في الصباغة؛ وهو ما ظل مستخدما إلى اليوم. وصنع جابر بن حيان كذلك نوعا من الورق غير القابل للاحتراق، ونسخ عليه كتاب الإمام جعفر الصادق في الحكمة؛ حرصا عليه من الاحتراق. ويقول ابن الأثير في ذلك: «إن العرب استعملوا أدوية خاصة إذا طُلي بها الخشب امتنع احتراقه».

وكان الرازي أول من قطر النفط (البترول) واكتشف الكيروسين وصنع مصباح الكيروسين، وصنع الصابون، والمواد القاتلة للبكتيريا أيضا.

كما عرَف ووصف عملية التسامي Sublimation التي يقصد بها تحول المادة الصلبة بالتسخين إلى الحالة الغازية دون المرور بالحالة السائلة.

وكان من إبداعات الكيميائيين العرب تنقية المواد والحصول عليها في صورة عالية النقاء: حيث طوروا تطبيقات صناعية كان لها تأثير كبير في تقدم العلم والحضارة الإنسانية. ومن أهم هذه التطبيقات الصناعية صناعة الصلب، ومن أهم المراجع في هذا المجال مخطوطة لأبي يوسف بن إسحق الكندي (حوالي ٨٥٠م)، الملقب بفيلسوف العرب. والمخطوطة رسالة بعنوان «رسالة إلى إخواني في السيوف» قدم فيها معلومات تكنولوجية غاية في الأهمية وقدم تقسيما للحديد وأنواعه ومنها الفولاذ.

ظلام في أوربا

وتعتبر مخطوطة «الجماهر في معرفة الجواهر» لأبي الريحان البيروني (٩٧٣-١٠٤٣م) التي توجد نسخة منها في مكتبة طوب كابي تحت رقم ٢٠٤٧ من أجمع ما كتب في التعريف بالتقنيات العربية في مجال الحديد والصلب. وهي تعكس إبداع العرب في كيمياء المعادن ومعرفتهم العميقة بخواصها. وفي مكتبة شيستربيتي بالعاصمة الأيرلندية دبلن مخطوطة للجلدكي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م). تحت رقم (٤١٢١) تحتوي على جزء من كتاب «الحديد»، وتعتبر مرجعا مهما في دراسات تأريخ التعدين وكيمياء المعادن.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي قدم ناصر الدين الطوسي قانون حفظ المادة: حيث أكد أن «المادة لا تفنى وإنما تتحول من صورة إلى أخرى»، وهو ما نعرفه اليوم بالقانون الأول للديناميكا الحرارية.

ولم تكن أوروبا تعرف شيئا عن

علم الكيمياء حتى الربع الأخير من القرن الثالث عشر، وبالتحديد حتى عام ١٢٧٦م؛ حيث كتب روجر بيكون إلى البابا في روما قائلا: «إن العرب يتميزون بعلم يسمى بالكيميائية النظرية»، ويستأذنه في إدخاله في برامج التعليم في أوروبا، وبدأت حركة ترجمة هائلة لكتب ابن حيان والرازي والكندي وابن سينا إلى اللغة اللاتينية، ثم بدأت حركة كتابات لاتينية بيد من سُمّي فيما بعد باسم جابر المزيّف: وهو كيميائي مجهول من القرن الرابع عشر الميلادي ظهر في إسبانيا، وقد ترجم العديد من كتب جابر ونسب بعضها لنفسه، ونسب بعض كتبه الشخصية إلى جابر بن حيان.

الوزن النوعي ودفع السوائل

عرف الكيميائيون العرب الميزان ووصفه جابر في كتبه وصفا دقيقا، وكانوا يستخدمون الرطل والأوقية والمثقال والدرهم والقيراط والحبة في بحوثهم. ومن المعروف أن الرطل المستخدم في ذلك الحين كان يساوي ١,١ من كيلوجرام على حين أن الحبة تزيد قليلا على ٠,٠٦ من الجرام: مما يدل على مدى حساسية ودقة الميزان المستعمل في ذلك الحين، ومن المدهش حقا أن الميزان لم يستخدم في أوروبا إلا بعد عهد جابر بأكثر من ستة قرون.

واستخدم العلماء العرب الميزان لتعيين الوزن النوعي للعناصر، ويمكن الاستدلال على ذلك مما ذكره جابر بن حيان في كتابه «الأحجار على رأي بيناس»؛ فهو يقول: «اعمد إلى سبيكة ذهب أحمر خالص نقي جيد يكون وزنها درهما وسبيكة فضة بيضاء يكون وزنها درهما، ضع الذهب في إحدى كفتي ميزان والفضة في الكفة الأخرى ثم دل الكفتين في ذلك الماء الذي صفا داخله (خلا من الشوائب) إلى أن تغوصا فيه فإنك تجد الكفة التي فيها الذهب ترجح الكفة التي فيها الفضة، وذلك لصغر جرم الذهب (صغر الحجم) وانتفاش الفضة. ولا يكون ذلك إلا من اليبوسة التي فيها، فاعرف الزيادة التي بينهما بالصنجة». ويتبين من ذلك أن العلماء العرب كانوا يعرفون الوزن النوعي للعناصر المختلفة. وقوله: وبأن ذلك لا يكون إلا من اليبوسة.. يشير إلى اختلاف الكثافة. وذكر صغر جرم الذهب يعد تعبيرا عن المعرفة بأن دفع الماء للأجسام يتناسب طرديا مع الحجم؛ أو بمعنى آخر مع وزن السائل المزاح.

التقنية والصناعات الكيميائية العربية

ازدهرت صناعات عديدة خلال الفترة من القرن الثامن الميلادي، وحتى القرن الخامس عشر الميلادي، وهي صناعات وضع أساسها علماء الكيمياء العرب، ثم أصبحت هي الأساس للعديد من الصناعات الكيميائية المعاصرة. ولعل من أكثر تطبيقات كيمياء العرب أهمية استخدام العرب الرق وسعف النخيل والبردي للكتابة، وذلك حتى القرن الثالث الهجري، وقد كانت صناعة الورق قد نقلت عن الصينيين. وفي عصر الخلافة العباسية انتشرت مصانع الورق في بغداد ودمشق والقاهرة، وازدهرت صنعة الوراقين وانتشرت الكتب، وقد صاحب ذلك تطور صناعة الأحبار واكتشاف الحبر الحديدي والكربوني والأحبار الملونة. وكان لهذا الاكتشاف أكبر الأثر في حفظ نقل وتوثيق العلوم العربية، وكذلك الإغريقية القديمة. وفيما يلي نماذج لبعض الصناعات التي ترجع أصولها إلى الحضارة العربية الإسلامية.

صناعة السيراميك

ظلت صناعة السيراميك، خلال الفترة من القرن الثامن الميلادي وحتى القرن الثاني عشر الميلادي، تعتمد على التقنية التي أبدعها العلماء المسلمون الأوائل؛ حيث استخدموا الخارصين (أي الزنك Zinc) في عملية التلميع. وكانت العملية في البدء تؤدي إلى أسطح معتمة. وتوجد من هذا النوع من السيراميك الذي يرجع إلى القرن الثامن الميلادي قطع زرقاء اللون محفوظة في البصرة بالعراق.

وطور علماء الكيمياء المسلمون تصنيع عجينة السيراميك في العراق، وتفوقت الفسطاط في صناعة السيراميك الملون، خلال الفترة من عام ٩٧٥م إلى عام ١٠٧٥م، وأصبحت مركز ازدهار لهذه الصناعة، ثم انتقلت هذه الصناعة إلى دمشق، وظلت متمركزة فيها حتى بداية القرن السابع عشر الميلادي، كما تميزت «تبريز» بإيران في صناعة سيراميك عالي الجودة منذ عام ١٤٧٠م وحتى عام ١٥٠٥م.

الألعاب النارية والصناعات العسكرية

طور علماء الكيمياء العرب صناعة الألعاب النارية التي يرجع أصلها إلى الصين باكتشافهم البارود الذي أعد بنسب مئوية ثابتة من ملح النترات (٧٥٪)، والكبريت (١٠٪)، والكربون (١٥٪)، وذكر هذا التركيب العالم السوري «حسن الرّماح» في كتابه الذي نشر عام ١٢٧٠ ميلادي؛ مما أدى لانتشار صناعة البارود والقذائف والألعاب النارية، وأصبحت صناعة لها أسس وقوانين وقواعد في المجتمع العربي الإسلامي.

واستخدم ملح البارود (نترات النشادر) في عدة أغراض منها: الصناعات المعدنية، وصناعة حامض النيتريك والماء الملكي. وقد نشر «جابر بن حيان، والرازي» عدة وصفات لاستخدام هذه المادة والحصول عليها في صورة نقية، وأكدوا على أن استخدامها كسلاح يستلزم تحضيرها بدرجة عالية من

النقاوة. ووصف «ابن المخطاوي» إحدى هذه الطرق في كتابه «المقدمات» عام ١٠٢٩م، كما وصف طريقة أخرى أكثر سهولة الكيميائي المهندس «حسن الرّماح» في كتابه «الفروسية والمناصب الحربية» عام ١٢٧٠م.

واستطاع الكيميائيون العرب كذلك صناعة الحديد والصلب، واستحدثوا طريقة لتقسية الحديد من أجل استخدامه في صناعة السيوف والرماح.

استخدم الجنود المصريون في معركة (عين جالوت) عام ١٢٦٠م ملابس واقية من الحريق، كما كانوا يطورون تقنية لاستخدام (بودرة التلك) لدهان أيديهم ووجوههم حماية لهم من البارود. وطوّر المصريون كذلك أول مدفع يطلق أعيرة البارود واستخدموه في معركة عين جالوت ضد المغول عام ١٢٦٠م. وعرفت في القرن الرابع عشر الميلادي بمصر أربع تركيبات (أنواع مختلفة) لبارود المدافع: كان أكثرها قوة انفجار ذلك النوع الذي يحتوي على ٧٤٪ من نترات الصوديوم، ١١٪ من الكبريت، ١٥٪ من الكربون. كما يرجع اكتشاف «ملح البارود» أو نترات النشادر إلى «خالد بن يزيد».

تقطير وتكرير البترول

اكتشف العديد من آبار النفط وازدهرت صناعة التقطير وتنقية مستخرجات البترول والصناعات الثانوية المبنية عليها خلال القرن الثامن الميلادي. وقبل نهاية ذلك القرن كانت شوارع بغداد كلها قد فرشت بالقار من مادة الأسفلت؛ التي استخرجت عن طريق التقطير الائتلافي للبترول. كما وصف «الرازي» لأول مرة في بغداد في القرن التاسع الميلادي عملية تقطير لاستخلاص الكيروسين من البترول وصفا دقيقا في كتابه «الأسرار»؛ حيث قدم طريقتين لاستخلاص الكيروسين. وتعتمد الطريقة الأولى على استخدام الطَفل clay كمادة ماصة، واستخدم ملح كلوريد الأمونيوم في الطريقة الأخرى. كما وصف «الرازي» أيضا مصباح كيروسين سماه «النفاطة» نسبة إلى النفط الذي يستخدم فيه، وصار المصباح الكيروسيني يستخدم على نطاق واسع في أرجاء العالم العربي لأغراض الإضاءة والتدفئة.

صناعة الزجاج

عرف المسلمون القدامى صناعة الزجاج وتلوينه، وكانت تلك الصناعة قد انتقلت إلى دمشق، ومنها إلى الصين، وبعض بلدان آسيا في الحضارات القديمة. ومع ازدهار الحضارة العربية طوّر المسلمون -وعلى رأسهم «جابر ابن حيان»- طرقا علمية عديدة لصناعة الزجاج وتلوينه. وقدم جابر بن حيان في كتابه «الدرر المكنونة» ستا وأربعين وصفة لتصنيع الزجاج الملون، كما أضيفت اثنتا عشرة وصفة جديدة إلى هذا الكتاب في إصدار قام «المراكشي» بتنقيحه. وهكذا أمكن تصنيع الزجاج الشفاف عالي النقاء. وزجاج الكوارتز والسيلكا الذي وصفه «عباس بن فرناس»، وهو أول من حفر الزجاج باستخدام الرمال مباشرة. وانتقل مركز ازدهار صناعة الزجاج إلى الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي، حيث أنتجت المرايا الزجاجية وأقيمت مصانع للزجاج انتشرت في أوروبا واليونان، واستطاعت تلك المصانع أن تنتج أول مرايا محدبة، واستخدم «الحسن بن الهيثم» مثل تلك المرايا، ووصفها في كتابيه «المرايا المشتعلة» و«الضوء»، عام ١٠٢١م.

صناعة الصابون والعطور

اهتم العلماء العرب بعلوم لم تكن معروفة من قبل، مثل علوم الصحة العامة والصحة الوقائية التي اكتشفوا فيها أن مبدأ الوقاية خير من العلاج، هو الوسيلة لإنقاذهم من كثير من أمراض فتاكة لم يكن لها علاج معروف في ذلك الوقت، فاخترعوا مواد كيميائية عديدة لها نشاط قاتل للبكتيريا استخدموها في التعقيم والتطهير. وانتشرت مواد (مثل الكحل) بصورة كبيرة في المجتمع، كما انتشرت أيضا صناعة الصابون التي قدم «الرازي» فيها وصفات متعددة.

وكان الصابون يطلق عليه «الصابون العربي»، وكانت المصانع تنتج صابونا سائلا، وصابونا جافا، منه الملون والمعطر والشفاف.

وفي القرن العاشر الميلادي (حوالي عام ٩٨٠م) رصدت إحدى المخطوطات أن سعر الصابون هو ثلاثة دراهم، كما ازدهرت أيضا صناعة العطور بعد ازدهار عمليات المعالجات الكيميائية الخاصة، مثل التقطير على يد «جابر بن حيان» و«الرازي». واستطاع العلماء العرب إقامة صناعات متميزة للعطور نتيجة لوجود نشاط تجاري مع أنحاء العالم. ومن الصناعات العطرية التي ازدهرت في تلك الفترة صناعة «عطر الياسمين»، كما استطاعوا أيضا تصنيع الشامبو وصبغات الشعر.

وطوّر العرب طرق التقطير لاستخلاص العطور والزيوت الفوّاحة المتطايرة من النباتات والورود، بنيت عليها صناعات مثل صناعة العطور والمشروبات الحقيقية «مثل الشربات» ومستخلصات العطور. كما أنهم طوروا عملية تنقية الماء لاستخدامه في الرحلات الطويلة: حيث لا توجد مصادر ماء عبر الصحراء: وذلك للتغلب على فساد الماء نتيجة لتخزينه في القرب لفترات طويلة. واستخدموا طرق التقطير في تحضير مركزات العصائر التي يمكن عند الحاجة تخفيف جزء صغير منها بالماء، أو حفظه لمدد طويلة بإذابته في الماء دون أن يفسد.

إسهامات الحضارة العربية والإسلامية في علوم الفلك

د. أحمد فؤاد باشا
أستاذ الفيزياء بجامعة القاهرة

واكب تقدم علم الفلك في عصر النهضة الإسلامية انتشار المراصد في جميع أنحاء الدولة الإسلامية، وكان أول مرصد بناه المسلمون هو مرصد الشماسية ببغداد، وقام ببنائه العباسيون عام ٢١٤هـ (٨٢٩م)، وأنشأ الفاطميون المرصد الحاكمي على جبل المقطم، وقد اشتهر بأجهزته الدقيقة وبتفوق المشتغلين فيه. وكانت هناك مراصد أخرى عديدة في الشام وأصبهان ومراغة بأذربيجان وسمرقند ومصر والأندلس وغيرها.

وإلى جانب المراصد الفلكية تمكن العلماء من اختراع وتطوير العديد من الأجهزة والآلات التي تستخدم في عمليات الرصد، مثل المزولة الشمسية والساعة المائية لتحديد الوقت ليلا أو نهارا، ومثل الإسطرلاب الذي شاع استخدامه في أشكال مختلفة لقياس الارتفاع ومعرفة الوقت وتحديد مواقع النجوم وتحركاتها، وكان منه الكروي والمستوي والخطي بحسب ما إذا كان يمثل الكرة السماوية ذاتها أو يمثل مسقطها على سطح مستوى، أو مسقط هذا السطح على خط مستقيم، وكانت هناك آلات أخرى للرصد منها: ذات السمت والارتفاع. والأرباع أو الربعيات (ربع الإسطرلاب، ربع الدائرة، ربع الزرقالة، ربع التام، الربع المجيب، الربع الشمالي...إلخ) وبيت الإبرة (البوصلة)، والبندول أو الرقاص الذي اكتشفه ابن يونس المصري، واستخدمه في مرصده لقياس الفترات الزمنية التي يستغرقها رصد النجوم، كما استخدمه في الساعات الدقاقة، وذلك قبل جاليليو بنحو ستة قرون.

ويذكر البيروني أنه ألف رسائل مهمة في الإسطرلاب بأنواعه المختلفة، وضع في إحداها نظرية بسيطة لقياس محيط الأرض بدقة لا تختلف كثيرا عن القيمة المعروفة حاليا.

ويمكن تصنيف موضوعات فروع الفلك التي أضاف إليها علماء الحضارة العربية الإسلامية إسهامات مهمة إلى قسمين كبيرين هما: علم الفلك النظري، وعلم الفلك التطبيقي، وسنعرض للحديث عنهما بإيجاز فيما يلي:

علم الفلك النظري:

يعنى هذا العلم بالهيئة التي يوجد عليها الكون كما يتصوره العلماء، وبدراسة الحركات الظاهرية للأجرام السماوية في إطار نموذج يساعد على تفسير هذه الحركات. وكان القدماء يطلقون على النجوم الثابتة (نسبيا) في السماء كما تراها العين اسم «الكواكب الثابتة»، لتمييزها عن الكواكب السبعة السيارة حول الأرض وهي (طبقا للنظام الذي وضعه بطليموس): الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، أي إن الأرض في هذا النموذج البطلمي كانت تعتبر مركز الكون، وإن الحركة الكوكبية دائرية منتظمة، وكان يطلق على الكواكب الخمسة الأخيرة اسم «الكواكب المتحيرة»، نظرا لأنها تتحير في السماء بين النجوم من حين لآخر، وتكون حركاتها في اتجاه واحد فتسمى الحرة المستقيمة، ثم لا تلبث أن تغير اتجاه الحركة عائدة إلى الجهة المضادة، وذلك هو «الرجوع»، ولم يكن معروفا لدى القدماء ما نعرفه الآن من حركة الأرض والكواكب حول الشمس (وهو نظام مركزية الشمس المنسوب لكوبرنيكوس في القرن السادس عشر الميلادي)، وأن الكواكب أجرام معتمة تستمد ضوءها من الشمس.

والأساس النظري لهذه الدراسات هو حساب المثلثات الكروية، باعتباره الوسيلة الرياضية الرئيسية لحل مسائل الفلك الكروي. وكانت نظرية بطليموس صالحة تماما لمعظم الأغراض الحسابية، يقينا بالنسبة الى النجوم الثابتة، وبتعديلات معينة بالنسبة إلى الشمس والقمر والكواكب، وفي محاولة لتفسير الحركات غير المنتظمة للكواكب وضع بطليموس إنشاءات هندسية لحركات افتراضية على ما يسمى فلك التدوير Epicyclic motion، والفلك الخارج عن المركز Eccentric motion، والفلك الحامل (الناقل)

● منشورات مكتبة الإسكندرية.. من واقع المخطوطات العلمية بمكتبة الأزهر

Deferant، والفلك المعدل للمسير Equant، لكن بعض تلك التعديلات كانت محل اعتراض من جانب علماء المسلمين، استنادا الى أسس فلسفية أو عملية أرصادية، أو إليهما معا، وأسهم المسلمون من جانبهم في إضافات مهمة إلى علم الفلك النظري. وذلك باقتراح تعديلات على النظام البطلمي فحدد الحسن بن الهيثم (ت ١٠٤٠م) في كتابه «الشكوك على بطليموس» ستة عشر اعتراضا على النظرية البطلمية.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي قدم نصير الدين الطوسي (ت ١٢٧٤م) إصلاحا أشمل، واقترح آلية تعرف باسم «مزدوجة الطوسي» Al-Tusis Couple لتفسير التناقضات الواضحة بين تراكيب بطليموس النظرية وبين نتائج الأرصاد العملية، واقترح فلكيون آخرون من مدرسة مراغة إضافات مهمة، وكان الأبرز من بينهم «مؤيدالدين المرضي الدمشقي» (ت ١٢٦٦م) وابن الشاطر (ت ١٢٧٥م)، ومهدت كل هذه الإنجازات لنظرية كوبرنيكوس الخاص بمركزية الشمس، وأسفرت مقارنات الباحثين بين النصوص والرسوم الواردة في مؤلفات كل من كوبرنيكوس وفلكيي مرصد مراغة، عن أن الشبه بلغ (باستثناء مركزية الشمس عند كوبرنيكوس) حدا دعا البعض إلى القول- دون تجاوز الحقيقة- بأن كوبرنيكوس هو أشهر أتباع مدرسة مراغة، إن لم يكن آخرهم، ودعاهم أيضا إلى التساؤل، ليس عما إذا كان كوبرنيكوس قد تعلم نظرية مراغة، وإنما متى تعلمها وكيف؟

علم الفلك التطبيقي

طور علماء الحضارة الإسلامية آلاتهم الرصدية، ودونوا ملاحظاتهم في مؤلفات قيمة، لا تزال تحتفظ بقيمتها المعرفية والمنهجية حتى اليوم، على سبيل المثال ينتمي عبدالرحمن الصوفي إلى مدرسة الباحثين الفلكيين التي نشأت في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي في بلاد فارس بمدينة شيراز، تحت رعاية الحكام البويهيين، ومن أشهره مؤلفاته كتاب «صور الكواكب الثمانية والأربعين»، وقام فيه بمراجعة النجوم التي وردت في كتاب المجسطي لبطليموس بدقة متناهية امتدحها «شيليرب» shellerp بقوله: لقد أعطانا الصوفي وصفا عن السماء المرصعة بالنجوم بصورة أحسن مما توافر من قبل، وقد بقي هذا الوصف لتسعة قرون دون أن يوجد له نظير.

وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي صنف ابن يونس كتاب «الزيج الحاكمي الكبير» الذي أفاد منه العالم الفرنسي الشهير لابلاس في تحديد ميل دائرة البروج والاختلافات بين المشتري وزحل، كذلك استعمل الفلكي الأميركي المعروف سيمون نيوكومب simon Newcomb ملاحظات ابن يونس عن الكسوف والخسوف في بحوثه عن حركات القمر.

كذلك عرف علماء الحضارة الإسلامية أن القمر يختلف في سيره بين سنة وأخرى، واكتشف البوزجاني معادلة لتقويم مواقع القمر، سميت بمعادلة السرعة، وناقش البيروني في كتاب «القانون المسعودي» موضوعات مهمة: منها تعيين الجهات الأصلية بسبع طرق، وتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام بدون مسطرة وفرجار، وتعيين الوقت ليلا أو نهارا، ومعرفة فصول السنة عن طريق الأرصاد، وقياس طول السنة بدقة متناهية، وتتجلى عبقرية البيروني فيما كتبه عن حركة أوج الشمس، وهي أبعد المواقع السنوية بين الشمس والأرض، ويكمن سر هذه العبقرية في أن نقطة الأوج التي كتب عنها تتحرك بمقدار درجة واحدة كل حوالي ثلاثمائة سنة، وقد حددها بناء على أربعة أرصاد بواسطة الحساب التفاضلي.

ولفت الحسن بن الهيثم الأنظار إلى دراسة الأثر الذي يظهر في وجه القمر، كما كان الفيلسوف ابن رشد أول من رأى كلف الشمس عمليا عندما عرف بالحساب الفلكي وقت عبور كوكب عطارد على قرص الشمس، فرصده ورآه بقعة سوداء على قرصها في الوقت الذي حدده، وللبناني أرصاد عن الكسوف والخسوف اعتمد عليها العلماء المحدثون سنة ١٩٤٧م في تحديد تزايد عجلة تحرك القمر خلال قرن من الزمن.

من ناحية أخرى يعتبر علم الميقات جزءا أساسيا من الممارسة الفلكية لدى المسلمين، فلقد فرض الإسلام على اتباعه فروضا تستلزم دراسة الكون ومعرفة الزمن والأوقات لتحديد مواقيت الصلاة وظهور الهلال ومواعيد الأعياد وتأدية المناسك والعبادات، وتحديد اتجاه القبلة ومواقع البلدان، ومع بداية القرن الثالث عشر الميلادي ظهر نظام «الموقت» كفلكي محترم مسؤول بالدرجة الأولى عن تنظيم

مخطوطات الفلك

بلغ عدد المخطوطات في مجال علوم الفلك والميقات بمكتبة الأزهر الشريف حوالي ٤٣٤ ما بين مخطوط ورسالة، وبلغ عدد المؤلفين المعروفين ١٣٦ ما بين مؤلف وشارح وجامع، والمخطوطات في معظمها باللغة العربية، اللهم إلا مخطوطين باللغة التركية، ومخطوطة واحدة باللغة الفارسية.

مقتطفات من كتاب إسهامات الحضارة العربية والإسلامية في علوم الفلك.. منشورات مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٦.

أوقات الصلاة، وصنف الفلكي شهاب الدين الصوفي المقدسي (أو المقسي) جداول لبيان الوقت منذ الشروق، كدالة لارتفاع الشمس وخط طولها لخط عرض مدينة القاهرة، وقد زيدت وطورت في القرن الرابع

وكان أحد الأغراض الرئيسية للساعات المائية أن تساعد على إعلان الأوقات المحددة للصلاة عندما تكون السماء مظلمة أو ملبدة بالغيوم، فقد كان الميقات الفلكي داخلا في بنية الساعات

وليس أدل على انتشار علم الفلك العربي وتأثيره في أوروبا من تلك الأسماء والمصطلحات التي اقتبسها الأوروبيون عن العرب ولا تزال سائدة ومستخدمة في الكتابات الفلكية العربية والأجنبية مثل:

النظير المناخ الأثير	Nadir Almanac Ether	السمت البلدة الدبران	Azimuth Albalda	الهنعة العضادة الهالة	Alhena Alidade Halo

عشر الميلادي إلى مجموعة هائلة من الجداول في مائتي ورقة مخطوطة تحتوي على أكثر من ثلاثين ألف مدخل (تدوين)، وفي القرن الرابع عشر الميلادي أنجز في سورية أهم عمل في علم المواقيت الفلكية، فقد عاد المزي بعد دراسته في مصر إلى سورية، ووضع مجموعة جداول للزاوية الساعية وجداول لمواقيت الصلاة في مدينة دمشق على غرار مدينة القاهرة.

ووضع ابن الشاطر جداول لمواقيت الصلاة في مكان عند خط عرض ٣٤ درجة، ووصف ابن يونس طريقة دقيقة لتحديد القبلة، وجدها كارل شوي لافتة للنظر من حيث إنها تعطينا بلغة العصر تعريفا لمعادلة جيب الزاوية وجيب التمام في حساب المثلثات الكروية، وقدم شمس الدين الخليلي أهم الإسهامات في علم الميقات عندما أعاد حسابات جداول المزي للعاملين الجديدين (الارتفاع المحلي وميل فلك البروج) اللذين استنتجهما ابن الشاطر، وظلت جداوله للمواقيت بالنسبة إلى الشمس وإلى تحديد أوقات الصلاة في دمشق مستخدمة هناك حتى القرن التاسع عشر الميلادي.

المائية، نظرا لأن سرعات تشغيلها كانت تعدل يوما للتوافق مع طولي النهار والليل، ولا تزال الأجزاء الخارجية لهذا النوع من الساعات المصممة في القرن الرابع عشر الميلادي موجودة في إحدى الغرف العليا في مسجد القرويين بمدينة فاس بالمغرب، وكان يعلن عن أوقات الصلاة أثناء النهار برفع علم على قمة المئذنة، وفي أثناء الليل بإشعال النار في موقد عند قمة المئذنة لكي يعلم الموجودون خارج المدينة أوقات الصلاة.

أما اتجاه القبلة من مكان معين فهو عبارة عن دالة مثلثية لخط العرض المحلي وخط عرض مكة المكرمة، والفرق بين خطي طول الموقع ومكة، وكان اشتقاق معادلة اتجاه القبلة بدلالة هذه الكميات إحدى المسائل الأكثر تعقيدا في علم الفلك الكروي الإسلامي، وكانت أيضا من أهم المسائل الدينية، وقد استطاع فلكيو الحضارة الإسلامية استنباط معادلات رياضية مكافئة للصيغة المستخدمة حاليا، وقد حسب اتجاه القبلة بالدرجات وبالدقائق باختلاف في حدود ١-٢ دقيقة فقط.

وهكذا نجد أن علم الفلك بقسميه: النظري والتطبيقي قد تطور على أيدي علماء الحضارة الإسلامية باستخدام المنهج التجريبي الذي يستند إلى الأرصاد والحساب في تفسير الظواهر الفلكية وتعليل حركات الكواكب والنجوم. ولقد كان للنظريات والأزياج التي وضعها أولئك العلماء أكبر الأثر في إثراء النتائج التي جمعها تيخو براهي Tycho Brahe واستخدمها من بعده كبلر في صياغة قوانينه المشهورة عن حركة الكواكب، وترتب على ذلك كله استنتاج نيوتن لقانون الجاذبية المعروف، وتطور علم الميكانيكا الكلاسيكية إلى الميكانيكا النسبية والميكانيكا السماوية، وتقدم أبحاث الفضاء التي يزهو عالمنا المعاصر بنتائجها، ولقد شهد مؤرخ العلم المعاصر جورج سارتون بأن بحوث العرب الفلكية هي التي مهدت الطريق للنهضة الكبرى التي ازدهرت بكبلر وكوبرنيكوس. وتأتي هذه الشهادة منسجمة مع حقيقة أن العلم تراث مشترك للإنسان وأن تاريخ الاكتشافات العلمية كتاريخ الحضارة البشرية يمر في دورات ومراحل لكل منها أهميتها وأثرها في تطور الفكر البشري.



النبي صلى الله عليه وسلم وذوو الاحتياجات الخاصة

محمد فتحي النادي
باحث في الفكر الإسلامي

إن من إكرام الله للإنسان أن خلقه بيديه، فقال مخاطبًا إبليس عندما رفض الإذعان لأمره بالسجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص: ٧٥).

وجمل ربنا صورة الإنسان وشكله عن سائر المخلوقات، وأحسن هيأته، فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (التين: ٤).

ومن كمال طلاقة قدرة ربنا- سبحانه- أنه لم يخلق البشر على هيئة وشكل واحد.. فالخلق ليس عملًا آليًا، ولكنه إبداع وتصوير راجع لمشيئة الله سبحانه-﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿٦﴾﴾ (آل عمران:٦).

فالله إذا خلق إنسانا سويا كامل الخلقة والأعضاء، فمن مطلق مشيئته وقدرته أن يخلق إنسانًا مخدجًا، وما ذلك إلا ابتلاءً للإنسان.

فالله لم يمنع إلا ليعطي، ولم يحرم إلا ليهب، فالله يعوض من ابتلاهم بالعجز والمرض والآفات بالجزاء الأوفى في الآخرة، ولا يحرمهم من أنسهم به في الدنيا؛ «أما علمت أنك لو عدته وجدتني عنده؟» (١).

ولم يكن النقص الذي يصيب الإنسان من آفة أو عجز أو إعاقة لخلل في قدرة الله، أو لعيب في الخالق- حاشاه جل جلاله- فالله تعالى منح سيدنا عيسى المسيح معجزة إبراء المرضى؛ فكان عليه السلام يستطيع أن يشفي من ولد أعمى وهو الأكمه، ولكنها طلاقة القدرة والمشيئة، وسنة الابتلاء والاختبار التي كتبها الله على بني آدم.

وبعض النفوس البشرية تنفر وتتشاءم من ذوي الآفات والأمراض، وتتجنب مخالطتهم أو الحديث معهم، وهناك من يسخر منهم ويجعلهم مادة دسمة للتندر والتفكه في المجالس وفي غيرها، وهم بذلك لا يعيبون الصنعة بقدر ما يعيبون الصانع، فبدلًا من أن يتعجبوا من قدرة ربهم، أو يسألونه المعافاة مما ابتلى به غيرهم، فإنهم يتندرون على أشخاص لا دخل لهم فيما هم فيه، ولم يختاروا أن يكونوا كذلك.

لقد تسامى الإسلام ونبيه في التعامل مع هؤلاء الأشخاص وبشروهم بالخير إن صبروا، واستخدموهم وقدموهم ولم يهملوهم أو يؤخروهم، على النحو الذي سنبينه فيما سيأتي.

ويمثل المعوقون (ذوو الاحتياجات الخاصة) ١٠٪ من سكان العالم، وترتفع النسبة في العالم العربي إلى ١٢٪ (٢).

ويصادف يوم ٣ ديسمبر من كل عام اليوم العالمي لذوي الاحتياجات

الخاصة، وهو يوم قد خصص من قبل الأمم المتحدة منذ عام ١٩٩٢ لدعم ذوي الاحتياجات الخاصة (٣).

أنواع الإعاقات

تحديدنا لأنواع الإعاقات هو الذي سيساعدنا على تلمس الأنماط التي تعامل معها رسول الله ﷺ، وإبراز هذه الشخصيات وتسليط الضوء عليها.

وقد ذهب المختصون إلى أن أنواع الإعاقات، ويمكن إبرازها في الآتي:

- إعاقة تخاطب جزئية.
- إعاقة تخاطب كلية.
- صمم.
- ضعف السمع.
- الاضطرابات الانفعالية والوجدانية.
- صعوبات التعلم.
- المشكلات الصحية الخاصة، والصرع.
- التخلف العقلي البسيط.
- التخلف العقلي الشديد.
- إعاقة حركية.
- كف البصر(٤).

وهذه الإعاقات قد يولد بها الإنسان، وتكون ملازمة له طول حياته، مثل الذي يولد مقعدًا، أو كفيفًا، أو أخرس، أو أصم.. إلخ.

وقد تحدث له هذه الإعاقات نتيجة حادثة تلم به، أو مرض يصيبه.

الإسلام يدعو لمخالطة ذوي الاحتياجات الخاصة

ذكرنا أن هناك نفوسًا بشرية تأنف من مخالطة المعاقين ذوي الاحتياجات الخاصة، وتجعل بينها وبينهم حاجزا نفسيا، فأراد الإسلام أن يرفع من قدر النفس الإنسانية، حتى وإن ظهرت في أعين الناس ناقصة، فالعمى أو العرج أو غيرهما ليس قادحًا في شرف النفس، وليس سبيلًا لضعتها.

«وكان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض، فقال بعضهم: إنما كان بهم التقذر والتقزز»(٥). فأنزل الله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ..﴾ (النور: ٦١).

الإسلام يرفع الجهاد عن أصحاب الأعذار

الله- جل جلاله- قد خفف عن أصحاب الأمراض والآفات أمورًا كثيرة، ويأتي على رأسها الجهاد، والذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه «ذروة سنام الإسلام»(٦)؛ فالجهاد شاق على الأصحاء، فما بالك بالضعفاء ذوي الأعذار؟

إن الله لم يجمع عليه مشقتين: مشقة المرض أو الإعاقة، ومشقة الجهاد.. وقد أنزل الله قرآنًا يرفع الحرج عن أصحاب الأعذار فقال- جل جلاله-: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (الفتح: ١٧).

ورغم رفع الحرج من الله عن عباده الضعفاء فإننا نجد نفوسًا عظيمة تسامت على ضعفها وألمها وإعاقتها، فجاهدت في سبيل الله، ولم تأخذ بالرخصة، بل أخذت بالعزيمة على ما سنذكره لاحقًا.

حجة وعذر يوم القيامة

أخبر رسول الله ﷺ أن هناك أشخاصًا تكون لهم حجة قوية يحتجون بها يوم القيامة، ومن هؤلاء المعاقون الذين ابتلاهم الله في الدنيا بالإعاقة والعجز، وقد وقع التخصيص من بين أصحاب الإعاقة على الأصم الأبكم، والمجنون؛ لأن تواصلهم مع البيئة المحيطة فيه انقطاع؛ فإن كانت بيئاتهم غير مسلمة ولم يتوصلوا إلى الإسلام، جعل الله اختبارهم في الآخرة، فبدلًا من أن تكون الدنيا هي دار الاختبار والآخرة هي دار الجزاء، يجعل الله الآخرة هي دار الاختبار والجزاء.

فقد أخرج ابن أبي عاصم في «السنة»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة كلهم يدلي على الله يوم القيامة بحجة وعذر: رجل مات في الفترة، ورجل أدركه الإسلام هرمًا، ورجل أصم أبكم، ورجل معتوه..»(٧).

الرسول ﷺ يستعيذ من الآفات

المعافاة في الجسد نعمة عظيمة نغفل عنها، وننسى شكرها، ونتذكرها عندما تلم بنا الأمراض.

والجسد هو الآلة التي يستعين بها الإنسان على مشاق الحياة، فإذا تعطل الجسد أصبح الإنسان عالة على غيره، وإذا وجدنا من يحملنا مرة، فهل نجد من يتحملنا مرات ومرات؟

والشعور بالعجز ليس مرارة يجدها المرء في حلقه مرة وتنتهي، بل هي مرارة يعيشها، ومرارات تنغص عليه حياته.

لذا نجد أن رسول الله ﷺ قد استعاذ من الأمراض، فكان يقول: «.. وأعوذ بك من: الصمم، والبكم، والجنون، والبرص، والجذام، وسيئ الأسقام»(٨).

النصرة بالضعفاء

في أوقات الحروب والأزمات يكون الضعفاء والمرضى وذوو الحاجات عالة وعبئًا على الجنود والجيوش، ولكن رسول الإسلام ﷺ أعلى من قيمتهم، وجعلهم سببًا في النصر الذي قد ينزل على المؤمنين، فقال ﷺ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟»(٩).

الجنة الجزاء الأوفى

إذا ابتلى ربنا- جل وعلا- إنسانًا وحرمه من نور عينه، فإنه قد خبأ له ثوابًا عظيمًا، وأجرًا جزيلًا، إن هو صبر واحتسب، ورضي بقضاء الله له، ولم يقنط أو يجزع، أو يعترض على قضاء الله.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: من أذهبت كريمتيه، ثم صبر واحتسب

كان ثوابه الجنة»(١٠).

نماذج من تعامل رسول الله ﷺ مع ذوي الاحتياجات الخاصة

لقد ترك لنا رسول الله ﷺ نموذجًا فريدًا في التعامل مع ذوي الحاجات الخاصة، وسنة نسير عليها، وهديًا نهتدي به.

ونحاول أن نسلط الضوء على بعض النماذج، والتي يتضح من خلالها تعامله ﷺ مع ذوي الحاجات الخاصة.

الرسول ﷺ والأعمى

اشتهر بعماه، ولكن الله خلد ذكره في العالمين، وأنزل فيه قرآنًا يتلى إلى يوم الدين، وكانت علاقته برسول الله ﷺ علاقة متميزة، وفريدة من نوعها.. إنه عبدالله بن أم مكتوم.

الرجل الذي عاتب الله فيه نبيه محمدًا ﷺ، وكان خيرًا عند الله من صناديد قريش من الكافرين.. ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ (عبس: ١٠).

فالضعف ليس عيبًا أو نقيصة، والضعف والعجز ليس مما يؤخر عند الله، وليس الحسب والنسب والشرف بين الأقوام مما يقدم عند الله، فمقياس التقدم والتأخر عند الله هو الإيمان والتقوى، فمن أقبل على الله أقبل الله عليه.

وقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه هذا الدرس الذي علمه الله إياه، فكان «بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه، ويقول: مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي، ويقول: هل من حاجة؟»(١١).

وكان ابن أم مكتوم- رغم عماه- ثاني اثنين هاجرا إلى المدينة المنورة مع مصعب بن عمير، وكان يعلم القوم القرآن، أخرج البخاري أن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا مصعب ابن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس(١٢).

وقد جعله رسول الله ﷺ مؤذنًا خاصا له مع بلال بن رباح، ويبدو أنه كان حسن الصوت، فعن ابن عمر قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذنان: بلال وابن أم مكتوم الأعمى(١٣).

وبسبب ابن أم مكتوم نزل عذر لأصحاب الأعذار في القرآن، فعن البراء قال: لما نزلت: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (النساء: ٩٥) قال النبي ﷺ: «ادعوا فلانًا(١٤). فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف فقال: اكتب: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله، أنا ضرير! فنزلت مكانها: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾»(١٥).

ورغم نزول العذر له وبسببه، فإنه «كان بعد ذلك يغزو فيقول: ادفعوا إلي اللواء؛ فإني أعمى لا أستطيع أن أفر، وأقيموني بين الصفين»(١٦)، و«قتل شهيدًا بالقادسية»(١٧).

وقد استلمح رسول الله ﷺ في ابن أم مكتوم ملامح القيادة والعلم فكان يستخلفه على المدينة عندما يخرج للغزو، «فقد استخلفه على الإمامة في المدينة في ثلاث عشرة غزوة من غزواته»(١٨).

وقد كان رسول الله ﷺ يستفيد من عمى ابن أم مكتوم؛ حيث جعل فاطمة بنت قيس تعتد عنده، فتكون في سعة من أمرها؛ لأنه لن يرى منها شيئًا، فقد أخرج مسلم أن رسول الله ﷺ قال لها: «اذهبي إلى ابن أم مكتوم فكوني عنده؛ فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده»(١٩).

الرسول ﷺ والأعرج

رسول الله ﷺ تلطفًا بأحوال أهل الأعذار، وتقديرًا لأحوالهم لم يكن ليفرض عليهم الجهاد، كيف وقد رفع الله عنهم الحرج؟ ولكن ما الحال إذا رغب أصحاب الأعذار في الجهاد، هل يمنعهم رسول الله ﷺ؟

لم يقف رسول الله ﷺ في وجه من أحب أن يأخذ بالعزيمة، ولكنه يعرض عليه الرخصة أولًا، وأن الله -تعالى- قبل عذرهم.

وممن قبل رسول الله ﷺ عزيمتهم عمرو بن الجموح، هذا الرجل الذي كان أعرج شديد العرج، وقد قال له بنوه في أحد: «إن الله -سبحانه وتعالى- قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك؛ فقد وضع الله عنك الجهاد».

فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بني هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن استشهد، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة.

فقال له رسول الله ﷺ:«أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد، وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه، لعل الله يرزقه الشهادة، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدًا»(٢٠).

وقد كان عمرو هذا سيد قبيلته، وشيخًا من شيوخ الأنصار، فترك السيادة طمعًا في ثواب الله وجنته، وتسامى على كبر سنه ووهن عظمه قربة لله تعالى، ولم يكن ليهن في المعركة بعد كل ما سبق من أحداث بينه وبين بنيه، وبينه وبين رسول الله ﷺ، فقد حمل على المشركين هو وابنه حتى انكشف المشركون وانهزموا.

ولقد قال فيه رسول الله ﷺ: «كأني أنظر إلى عمرو بن الجموح يخوض الجنة بعرجته»(٢١).

الرسول ﷺ ومن في عقله شيء

المجتمع لا يخلو من أناس ابتلاهم الله بشيء في عقولهم، سواء أكان جنونا بالكلية، أم قصورا ذهنيا.. وهؤلاء يحتاجون إلى تعامل من نوع خاص، وصبر طويل وجميل عليهم.

ومن هذه الحالات امرأة أنصارية أصيبت في عقلها، وكانت تأتي رسول الله ﷺ طالبة منه قضاء بعض حاجاتها، فلم يكن يتبرم، أو يتأخر، بل يبش في وجهها، ويذهب معها في

المكان الذي تريد؛ حتى يقضي لها حاجتها.

فقد أخرج مسلم عن أنس، أن امرأةً كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. فقال: «يا أم فلان، انظري أي السكك شئت؛ حتى أقضي لك حاجتك». فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها(٢٢).

الرسول ﷺ والمصروع

العقل من أعظم الميزات التي حبا الله بها الإنسان، والعقل هو المسيطر على حركة الجسم وأحاسيسه، وهو مركز الفكر والذاكرة والسلوك، إذا حدث خلل فيه فإنه يندرج بالضرورة على هذا الجسد الحامل له.

ومرض الصرع من الأمراض الشائعة نسبياً؛ إذ تتراوح نسبة انتشاره في المجتمع ما بين (٥-٧) حالة في كل ١٠٠٠ فرد.

وهذا المرض قد يصيب الإنسان في أي مرحلة من مراحل العمر، من الولادة وحتى الشيخوخة(٢٣).

والصرع يصاحبه تشنجات واضطرابات عصبية تظهر على الجسد، ويكون شكل المصروع وهيئته في أسوأ الأشكال والهيئات.

وقد أتى رسول الله ﷺ امرأة قد أصابها الصرع، جاءته طالبة دعاءه لها بالشفاء، فما كان منه ﷺ إلا أن خيرها بين أن تكون من أصحاب الجنة إن صبرت، وبين أن يدعو الله لها بالشفاء، فاختارت الصبر والجنة، ولكنها أنثى وجسمها عورة، فحياؤها يمنعها من أن تتكشف بين الناس وهي في نوبة الصرع؛ حيث لا تتحكم في نفسها، فطلبت منه ﷺ أن يدعو الله لها بألا تتكشف، فدعا لها(٢٤).

فكانت امرأة من أهل الجنة تعيش وتمشي بين الناس.

الرسول ﷺ والأصم

الإنسان الأصم هو إنسان معزول عن الناس، يعيش بينهم لكن له عالم آخر يعيش فيه.

والإنسان ثقيل السمع يجد صعوبة في التواصل مع الناس، وقد يتهكم عليه الآخرون لعدم قدرته على سماعهم، أو مخالفة الكلام بحيث يغيرون كلامهم في الموقف الواحد اعتماداً على ثقل سمعه.

وثقيل السمع يرفع صوته ظنا منه أنهم لا يسمعونه إلا إذا رفع صوته، وإن لم يصاحبه هذا الظن، فهو يرفعه لا إراديا.

وكان ثابت بن قيس رضي الله عنه من أصحاب رسول الله ﷺ ممن ثقل سمعهم، لكن الله حباه بالبلاغة والفصاحة، فكان خطيب الأنصار، وخطيب رسول الله ﷺ، وقد قدمه رسول الله لموهبته.

قال الذهبي: «كان جهير الصوت، خطيبًا، بليغًا.. خطب عند مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فقال: نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا، فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا: رضينا»(٢٥).

وقد كانت له مواقف مع رسول الله ﷺ تدل على حب الرسول له، والشهادة له بالفضل، فقال: «نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس»(٢٦).

خاتمة

نستنتج مما سبق:

- رحمة النبي ﷺ بأصحاب الأعذار وشفقته عليهم.
- استعمال بعض أصحاب الأعذار في تعليم الناس أمور الدين.
- ثقته في بعضهم بأن يكون مكانه ﷺ في إمامة المسلمين إبان غزواته.
- استفادته ﷺ من قدرات بعضهم، فحسن الصوت يجعله للأذان والإمامة، والمفوه بالكلام يجعله خطيبًا له ﷺ.
- دمجهم في المجتمع، وكسر حاجز العزلة عنهم.
- عدم الوقوف ضد رغباتهم عند أخذهم بالعزائم في طاعة الله سبحانه وتعالى.
- الدعاء لهم، وزف البشرى لهم بالجنان.
- إن وجد سبيلًا إلى معالجتهم فعل ذلك، ولم يتأخر.

الهوامش:

(١) جزء من حديث قدسي أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، (٦/ ٥٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ.
(٢) موقع ذوي الاحتياجات الخاصة.
(٣) موقع الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).
(٤) منتدى سولا للاحتياجات الخاصة.
(٥) تفسير الطبري، (٢١٩/١٩).
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ح(٢٢١٠٤)، وقد صححه الأرنؤوط بطرقه وشواهده.
(٧) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة»، (١٧٦/١)، وقد صححه الألباني في «ظلال الجنة»، ح(٤٠٤).
(٨) أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، ح(١٠٢٣)، وقد صحح إسناده الأرنؤوط.
(٩) أخرجه البخاري في «الجهاد»، باب: «من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ...»، ح(٢٨٩٦).
(١٠) أخرجه أحمد في «المسند»، ح(١٤٠٥٣)، وقال الأرنؤوط في تعليقه على «المسند»: «إسناده قوي».
(١١) تفسير القرطبي، (٢١٣/١٩).
(١٢) أخرجه البخاري في «مناقب الأنصار»، باب: «مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة»، ح(٣٩٢٥).
(١٣) أخرجه مسلم في «الصلاة»، باب: «استحباب اتخاذ مؤذنين للمسجد الواحد»، ح(٣٨٠).
(١٤) في رواية أخرى ذكرت أنه زيد بن ثابت، والذي كان من كتبة الوحي.
(١٥) أخرجه البخاري في «التفسير»، باب: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله»، ح(٤٥٩٤).
(١٦) الطبقات الكبرى، (٢١٠/٤).
(١٧) الاستيعاب، (٣٧٢/١)، وقال الواقدي: رجع ابن أم مكتوم من القادسية إلى المدينة، فمات، ولم يسمع له بذكر بعد عمر رضي الله عنه.
(١٨) أخرجه مسلم في «الطلاق»، باب: «المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها»، ح(١٤٨٠).
(١٩) البيهقي: السنن الكبرى، (٢٤/٩).
(٢٠)شرف المصطفى، (٤٨٠/٢).
(٢١) أخرجه مسلم في «الفضائل»، باب: «قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به»، ح(٢٣٢٦).
(٢٢) انظر: لينا فارس: الصرع ملاحظات عامة، موقع مجلة الابتسامة، ومقالة: الصرع.. تعريف الصرع.. أسبابه.. أشكاله، موقع منتديات ستوب.
(٢٤) انظر الحديث الذي أخرجه البخاري في «المرضى»، باب: «فضل من يصرع من الريح»، ح(٥٦٥٢).
(٢٥) سير أعلام النبلاء، (٣٠٩/١).
(٢٦) أخرجه أحمد في «مسند أبي هريرة رضي الله عنه»، ح(٩٤٢١)، وقد قوى إسناده الأرنؤوط في تعليقه على «المسند».



د. سامي بن إبراهيم السويلم

التكافؤ الاقتصادي بين الربا والتورق (١-٢)

لم يتوعد القرآن ذنبا من الذنوب مثل توعده للربا، حتى قال الإمام مالك رحمه الله: «إني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فلم أر شيئا أشر من الربا، لأن الله أذن فيه بالحرب»(١)، وفي الوقت نفسه لم يبتل الناس اليوم بمخالطة كبيرة من الكبائر مثل الربا. فقد انتشر بانتشار النظام المصرفي حتى وصل الجميع، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم. فمن سلم منه لم يسلم من غباره.

ولقد نشأت البنوك الإسلامية، أول ما نشأت، لترفع عن الأمة مصيبة الربا وتزيل عنها آثاره وتبعاته. واجتهد القائمون عليها في إيجاد بدائل تلبي احتياجات النشاط الاقتصادي وفق القواعد والضوابط الشرعية. وكما هو شأن أي كائن، فقد تطورت هذه البنوك وتطور معها التمويل الذي تقدمه لعملائها. ويبدو أن منافسة البنوك التقليدية كان لها أثر ملموس في هذا التطور، فصار التمويل الذي تقدمه البنوك الإسلامية قريبا جدا من التمويل التقليدي، وبدأت الفروق والحواجز بين النوعين تختفي وتتلاشى تدريجيا، حتى وجد ما يسميه الناس وتسميه وسائل الإعلام: «القرض الإسلامي». ويعنون بذلك حصول العميل من البنك على مبلغ نقدي حاضر، على أن يسدد مبلغا أكبر منه على أقساط مؤجلة، (وفقا للشريعة الإسلامية). وهكذا، حتى الربا صار يقدم للناس بطريقة إسلامية! ولاريب أن هذه التطورات تستدعي مراجعات جادة ووقفات صادقة لتقويم الاتجاه وتمحيص الممارسات ونقد الذات، نصيحة لله ولرسوله ﷺ، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ومن هنا جاء هذا الموضوع ليلقي الضوء على الجوانب الاقتصادية لصيغ التمويل التي تقدمها المصارف والنوافذ الإسلامية، وأهمها التورق، والتورق المنظم، ويقارن بينها وبين الربا.

وسيتركز الموضوع في محاور:

الأول: حقيقة الربا وحكمة تحريمه.

الثاني: التكافؤ الاقتصادي بين التورق والربا.

الثالث: التورق المنظم وأبعاده الاقتصادية.

حكمة تحريم الربا

ليس تحريم الربا أمرا خاصا بالمسلمين، بل هو محرم كذلك عند اليهود وعند النصارى. وإذا نظرنا إلى التشريعات الوضعية المعاصرة في أكثر دول العالم، وجدناها تضع قيودا على الفائدة الربوية، ولا تبيحها مطلقا. على سبيل المثال تمنع مجموعة من الدول الأوروبية الفائدة المركبة. كما تضع عدة ولايات أميركية سقفا أعلى للفائدة يمنع القانون من الإقراض بفائدة أعلى منه. وهذه التشريعات علمانية، كما هو معلوم، ولا تستند من

حيث المبدأ إلى التعاليم الدينية. ما الذي يجعل هذه التشريعات تضع هذه القيود إذن؟

«السبب في ذلك»، كما يقول السنهوري رحمه الله، «كراهة تقليدية للربا، لا في مصر فحسب، ولا في البلاد الإسلامية وحدها، بل في أكثر تشريعات العالم»(٢).

إذا أردنا أن نلقي نظرة أدق لمصدر هذه الكراهة، وجدنا أن الربا أو الفائدة هي الآلية التي يمكن للدّين من خلالها أن ينمو ويتضاعف تلقائيا. ووفقا لما كتبه بعض الغربيين: إن الفائدة في الحقيقة تعمل عمل السرطان في النسيج الاجتماعي. ولو فرض أن بنسا واحدا وظف وقت ميلاد المسيح بمعدل فائدة ٤٪، لكان محصلة ذلك في عام ١٧٥٠م هو ما يكفي لشراء كرة من الذهب يعادل وزنها الكرة الأرضية. ولكانت المحصلة في ١٩٩٠م ما يكفي لشراء ٨١٩٠ كرة من الذهب على هذا النحو.

إن هذا المثال يبرهن على أن الاستمرار في دفع الفائدة والفائدة المركبة مستحيل رياضيا وعمليا. إن التناقض بين الضرورة الاقتصادية وبين الاستحالة الرياضية أدى إلى العديد من الصراعات والحروب والثورات عبر التاريخ(٣). وما لم تلجم الفائدة ويكبح جماحها، فإن النمو التلقائي للدين سيؤدي في النهاية إلى تعذر الوفاء به؛ إلا باستنزاف جميع ممتلكات المدين وثرواته، فردا كان أو دولة. وفي كثير من الحالات، لا مفر من هذا الاستنزاف الربوي للثروات الاقتصادية إلا بالحروب والاستيلاء على ثروات الأمم والشعوب الأخرى، والواقع والتاريخ شاهد على ذلك(٤)؛ فلتجنب هذه الكوارث لابد من تنظيم وتقييد الفائدة، كما هو الحال في معظم التشريعات القانونية، لكن ليكون التنظيم مثمرا ومحققا للغرض منه، لابد أن يكون مبنيا على أسس عقلانية، ومتفقا مع المنطق الاقتصادي.

ولقد قدم الإسلام أفضل منهج محكم لمعالجة الفائدة، فمنعها من أساسها؛ البسيطة والمركبة، القليلة والكثيرة، إذ لا يوجد فرق حقيقي مؤثر بين هذه الأوصاف، فنتيجتها من حيث نمو الدين وتضاعفه واحدة، ولذلك كان الحكم فيها جميعا واحدا، وهذا المعنى لتحريم الربا هو الذي نزلت به أول آية في تحريم الربا(٥)، وهي قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(آل عمران:١٣٠).

فقوله تعالى ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ تصريح بما تؤول إليه الفائدة الربوية من مضاعفة الدين، الذي لا يخفى على عاقل ما يستتبعه من الظلم والأضرار الاقتصادية والاجتماعية؛ فالنظام الربوي من شأنه ومن طبيعته أن الدين يتضاعف فيه تلقائيا أضعافا مضاعفة، ولا يوجد في النظام من حيث هو أي قيد يمنع من ذلك. ولما كان هذا هو مآل النظام، كان من حكمة التشريع منعه من البداية، تجنبا للتناقض التشريعي من جهة، ورعاية لحوافز الانضباط لدى الأفراد، من جهة أخرى، وتحريم ربا النسيئة يقوم على المنطق نفسه وراء تحريم الخمر(٦). فبالرغم من أن الخمر لا يسكر منها إلا الكثير، فإن الشرع الحكيم منع القليل والكثير، لأنه لا يوجد ضابط حقيقي يميز بين القليل والكثير. ولذلك قال ﷺ: «ما أسكر منه الفرق، فملء الكف منه حرام»(٧). وجميع القوانين الأرضية التي تحاول ضبط استهلاك الكحول بشتى أنواع التنظيمات، فشلت في معالجتها والحد منها، كما نعلم جميعا؛ فمحاولة السماح بالقليل والمنع من الكثير محاولة غير ناجحة في الأمرين، لأن الخمر والربا مما يدعو قليله إلى كثيره، كما يقول الفقهاء، أو مثل كرة الثلج بلغة المعاصرين. وما كان كذلك فمن المتعذر السيطرة على القليل دون الوقوع في الكثير، فلا مفر من المنع مطلقا حسما للمشكلة من أصلها.

موقف التشريع من الدين:

ويؤكد ما سبق أن من مقاصد التشريع في المعاملات المالية: كراهة المديونية وشغل الذمة أصلا، ولذلك كان النبي ﷺ كثيرا ما يتعوذ من المأثم والمغرم، والمغرم: الدين، وكان ﷺ لا يصلي على من مات وعليه دين، ويقول: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه». وجعل الدين مانعا من دخول الجنة فقال: «من فارق الروح جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر والغلول والدين». والدين تقييد لحرية الإنسان في تصرفاته، ولذلك قال بعض السلف: رق الحر الدين(٨). هذا مع كون هذه الديون نشأت مقابل منافع حقيقية. فكيف بالدين الذي لا ينتفع المدين مقابله بشيء؟

فلسفة التمويل في الإسلام

إن التمويل في الاقتصاد الإسلامي خادم للنشاط الاقتصادي والمبادلات المالية النافعة، وليس العكس كما هو الحال في الاقتصاد الربوي. إن التمويل، بأي صورة كان، لا يمكن الوفاء به ودفع تكاليفه في نهاية الأمر إلا من خلال النشاط الاقتصادي المنتج؛ فالمفترض إنما يمكنه السداد من خلال ما يساهم به في الناتج المحلي، والدخل المتحقق من ذلك هو الذي يوفر له المال اللازم للوفاء بالدين، وإذا كانت العبرة في النهاية هي في النشاط الاقتصادي المنتج، فإن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط التمويل بالتبادل الاقتصادي، ولذلك لا نجد في الشريعة الإسلامية «عقد تمويل» مجرد، عدا الربا المحرم بالنص والإجماع، فجميع العقود المشروعة التي تسمح بالتمويل هي عقود مبادلات اقتصادية؛ لأنه لا فائدة من التمويل في الحقيقة إلا من خلال إيجاد قيمة اقتصادية نافعة. فقصر التمويل على المبادلات الاقتصادية يمنع التمويل من أن يكون نزيفا في جسم الاقتصاد لمصلحة قلة قليلة تتحكم في الثروات والمقدرات

على حساب عامة الناس.

ظلم الدائن وظلم المدين

ثبت عن النبي ﷺ أنه لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: «هم سواء»، وأنه قال: «الآخذ والمعطي سواء في الربا»(٩). فلم يفرق ﷺ بين المقرض والمقترض، مع أن المقرض ظالم، والمقترض مظلوم. وكون المقترض محتاجا لا يعني أنه معذور في اقتراضه بالربا، بل هو والمرابي سواء في استحقاق اللعنة التي جاء بها الحديث. وذلك لأن المقترض هو الذي سمح بهذا الظلم، وشجع المقرض على أن يتسلط عليه. ولا يجوز للمسلم أن يسمح لغيره بأن يظلمه، لأن هذا إعانة للظالم على ظلمه. وتأمل كيف وصف النبي ﷺ المقترض بأنه مؤكل للربا. فهذا الوصف يبين أن الربا جريمة مشتركة بين المقرض والمقترض، وليس خاصا بالمقرض فحسب.

مقصود الدائن ومقصود المدين: مقصود المقترض في عقد الربا هو الحصول على النقد، أو ما يسمى عند الاقتصاديين بطلب السيولة. أما المقرض فمقصوده هو الربح ونماء المال، وقصد السيولة لا حرج فيه شرعا، ولهذا شرع عقد السلم؛ إنما المحرم هو تحصيل السيولة من خلال قبض ١٠٠ مقابل ١١٠في الذمة، لأنه ظلم بنص القرآن، وكذلك قصد الربح ونماء المال، لا حرج فيهب شرعا، بل هو مطلوب. لكن المحرم هو الربح من خلال ظلم الآخرين. أما إذا كان الربح من خلال البيع والشراء الذي يحقق منفعة المشتري، فالربح حينئذ حلال مشروع؛ فالشرع لا يمنع المقاصد والأهداف الاقتصادية النافعة، كالسيولة والربح واجتناب المخاطرة. إنما يحرم الظلم. ثم إن الشرع لم يجعل معيار الظلم راجعا إلى اجتهادات البشر، بل أنزل الحكم الصريح الذي يحدد تماما ما هو الظلم الذي يجب اجتنابه ويحرم الوقوع فيه.

سد أبواب الربا

والشرع حينما حرم الربا، لم يحرمه على المُرْبي فحسب، بل حرمه على الطرفين: الدائن والمدين، لأن الربا نتيجة تراضيهما، ولذلك قال ﷺ: «الآخذ والمعطي سواء في الربا». وهذا يعني أنه لا يجوز للمربي أن يسعى للربا، كما لا يجوز للمدين أن يسعى إليه. بل يجب على كل منهما تجنبه من جهته، ولهذا سد الشرع الحكيم منافذ الربا من الطرفين. فمن جهة المربي منع النبي ﷺ من ربح ما لم يضمن وبيع ما ليس عنده، ومن الكالئ بالكالئ(١٠)؛ لأن كل واحد من هذه التصرفات يفضي إلى الربا من جهة الدائن. كما سد الشرع منافذ الربا من جهة المدين بقاعدة الخراج بالضمان، وبالتحذير من الدين والتشديد فيه، بالنهي عن العينة وذمها، والتورق يدخل في مفهوم العينة عند جمهور الفقهاء(١١).

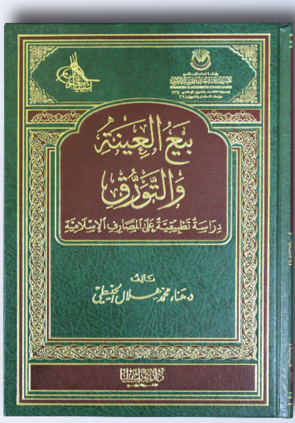
التورق

يراد بهذا المصطلح أن يشتري المرء السلعة بثمن مؤجل، ثم يبيعها بثمن نقدي حاضر من غير بائعها. وأبرز ما يستند إليه من يجيز هذه المعاملة هو أنها لا تخرج عن كونها بيعا وشراء، وقد أحل الله البيع وحرم الربا. وبناء على ذلك؛ فإن تقويم هذه المعاملة من الناحية الاقتصادية يعتمد على الفروق الحقيقية بين البيع وبين الربا، وهل توجد هذه الفروق في التورق أو لا.

القيمة الاقتصادية للتورق

إذا أردنا أن نقوِّم التورق سنجد بكل وضوح أن منفعة التبادل التي تجبر الزيادة للأجل منفية؛ فالمتورق لا يريد السلعة، ومعنى ذلك أنه لا ينتفع بها بحال، لا بالاستهلاك ولا بالاستثمار، وإنما هي ذريعة لتحصيل النقد؛ فإذا انتفت منفعة السلعة، بقيت الزيادة للأجل التي تحملها المتورق دون مقابل، ومن ثم انتفى الفرق بين البيع وبين الربا الذي أثبته القرآن. بل إن التورق يصبح أسوأ من الربا؛ لأنه يتضمن تكاليف البيع والشراء والقبض والحيازة، وهذه لا توجد في الربا، وهذا ما أدركه الإمام ابن تيمية رحمه الله حين قال: «المعنى الذي لأجله حرم الربا موجود فيها بعينه، مع زيادة الكلفة بشراء السلعة وبيعها والخسارة فيها؛ فالشريعة لا تحرم الضرر الأدنى وتبيح ما هو أعلى منه»(١٢).

وهذا المعيار ينطبق على جميع



في هذا الكتاب:

- الحديث عن الحيل وأقسامها وأحكامها في الشريعة
- بيع العينة: أحكامه وتطبيقاته
- التورق: أحكامه وتطبيقاته
- التورق المصرفي المنظم: حكمه وصوره
- أثر التوسع في التورق على مستقبل المصارف الإسلامية
- أثر التورق في غرق المجتمعات الإسلامية في المديونيات

الحيل الربوية التي تتخذ من البيع ستارا وذريعة لتحصيل النقد مقابل زيادة في الذمة، كالعينة الثنائية وغيرها. فهذه الحيل تمنع من تحقيق منفعة التبادل الحقيقي، ومن ثم لا يوجد فيها ما يجبر الزيادة في الثمن مقابل الأجل، بل تكون نتيجتها دينا في الذمة أكثر من النقد المقبوض، وهذه حقيقة الربا كما سبق. ولهذا السبب لا يستطيع من يجيز هذه الحيل أن يرد على شبهة المشركين، وأن يبين الفرق بين البيع والربا، بل الغالب أنهم يرون أن الفرق بينهما تعبدي غير معقول العلة، ولهذا السبب نجد كثيرا من الفقهاء يرون أن تحريم العينة جاء على خلاف القياس. أي أن القياس والعقل يقتضي جواز العينة، لكن النص جاء بتحريمها(١٣). وهذا المنطق يعني أنه لا يوجد فرق حقيقي واقتصادي بين البيع والربا، بل هو فرق تعبدي محض. وهذه نتيجة غير مقبولة قطعا، لأن الشريعة أنزلها أحكم الحاكمين، وجاءت لتحقيق مصالح العباد، كما سبق.

وظيفة التمويل في الاقتصاد

مقصد الشرع من ربط التمويل بالتبادل هو أن يكون التمويل تابعا للمبادلات الاقتصادية، أما التورق وسائر صور العينة فهي على النقيض من ذلك، تجعل المبادلات تابعة للتمويل، وهذا مع مناقضته لحكمة التشريع، فهو مناقض للمنطق الاقتصادي؛ لأن تكلفة التمويل لا يمكن الوفاء بها إلا من خلال النشاط الاقتصادي الفعلي، والمفترض أن هذا النشاط يتم من خلال المبادلات والمعاملات المشروعة؛ فإذا انعكس الوضع وصار النشاط الاقتصادي خادما للتمويل، انعكس الهدف من النشاط الاقتصادي أصلا، فبدلا من أن يكون سببا بتحقيق الرفاه والرخاء، صار مسخرا لسداد تكاليف التمويل وخدمة الديون؛ فيصبح التمويل نزيفا في جسم الاقتصاد لمصلحة أصحاب المال، تماما كما هو الحال في النظام الربوي.

الفرق بين التاجر والمتورق

يحتج البعض بأن المتورق شأنه شأن التاجر، فكما أن التاجر يشتري ويبيع لتحصيل النقد، فكذلك المتورق ولا فرق. وهذا الموقف يعكس الغفلة عن طبيعة النشاط الاقتصادي الذي يهدف إليه كل من التاجر والمتورق؛ فالتاجر يقصد من الشراء والبيع الربح، أي أن يكون ثمن البيع أعلى من ثمن الشراء، وهذه حقيقة التجارة، لكن المتورق يقصد العكس بالضبط: فهو يشتري بثمن آجل مرتفع ليبيع بثمن نقدي أقل؛ أي أن المتورق هدفه الخسارة، فكيف يقارن بالتاجر الذي يهدف للربح؟ والتاجر يبيع ليربح، سواء أكان الثمن حاضرا أم مؤجلا، فلا يقال إن هدفه النقد، بل هدفه الربح، أما المتورق فهو يبيع ليحصل على النقد الحاضر، ولو عرض عليه ثمن مؤجل أعلى من الثمن الذي اشترى به السلعة لرفض بيعها به؛ لأنه يبحث عن السيولة، وليس باحثا عن الربح، ولا يمكن الحصول على السيولة إلا بتكلفة تعادل خسارته في بيع السلعة.

تكلفة السيولة

يجيب البعض عما سبق بأن خسارة المتورق في بيع السلعة هي مقابل السيولة، فليست خسارة حقيقية، والأجل له قسط من الثمن كما هو معلوم، فما المانع من تحمل هذه التكلفة مقابل السيولة؟ ولبالغ الأسف فإن الذي تَقَوَّل هذا القول غفل عن أن هذا التعليل هو عين التعليل الذي يحتج به من يدافع عن الفائدة الربوية؛ فالفائدة في نظر المدافعين عنها هي ثمن السيولة الحاضرة، فإذا كانت هذه التكلفة مقبولة شرعا، لزم من ذلك جواز الربا، ولذلك يرى هؤلاء أن تحريم الربا هو أيضا أمر تعبدي غير معقول المعنى، وهذا تصور باطل قطعا لا يمكن أن يقوله من يعرف حقيقة الربا وأضراره الاقتصادية.

وهناك فرق جوهري بين تكلفة السيولة وبين اعتبار الزمن في الثمن الذي ذكره الفقهاء، فتكلفة السيولة يراد بها الزيادة في الدين مقابل نقد حاضر؛ فإذا اقترض الشخص (١٠٠نقدا) مقابل (١٢٠ في الذمة)، كانت تكلفة السيولة فائدة تعادل (٢٠٪)، ولكن هذه الفائدة زيادة في الدين لا يقابلها ما ينتفع به المدين، كما سبق، وتؤدي إلى استفحال المديونية والاستيلاء على ثروة المدين، ولهذا حرمها الشرع لأنها من الظلم، أما اعتبار الأجل في الثمن الذي ذكره الفقهاء فهو زيادة الثمن في البيع، وليس في مبادلة نقد بنقد.

وقد سبق أن زيادة الثمن للأجل في البيع تجبرها منفعة البيع، وهذه المنفعة منتفية في القرض، ولهذا منعت في الثاني، وأجيزت في الأول؛ لكن الغفلة عن هذا الفرق المهم أوقعت في هذا المزلق، والشرع لم يهدر قيمة السيولة ولم ينكر أهميتها، ولذلك شرع بيع السلم. أما الربا فهو وإن حقق السيولة مؤقتا، لكنه يحققها من خلال الظلم الواقع على المدين، وشغل ذمته دون مقابل، ويكون مآل ذلك هو تركز الثروة لدى الدائنين، ومن ثم تقلص السيولة من الاقتصاد. فالربا يناقض أصل الهدف الذي وجد له الاقتراض ابتداء، وهو توفير السيولة.

الهوامش:

(١) الجامع لأحكام القرآن،٣/٣٦٤.
(٢) الوسيط شرح القانون المدني، ٢/٨٢٢.
(٣) باختصار عن: money changers،p١٠٤.
(٤) انظر: تفسير آيات الربا، سيد قطب، ص١٦، ٤٠، ومقال: «الجذور الاقتصادية للحرب على العراق» للكاتب.
(٥) انظر تفسير المنار، ٣/١١٤.
(٦) انظر: بيان الدليل في بطلان التحليل، لابن تيمية، ص٨٤-٨٥، مصرف التنمية الإسلامي، رفيق المصري، ص١٣١-١٣٤.
(٧) رواه أحمد. صحيح الجامع (٥٥٣١).
(٨) انظر بحث الكاتب: «موقف الشريعة الإسلامية من الدين».
(٩) رواهما مسلم وأحمد. صحيح الجامع (٢٧٥١)، (٥٠٩٠).
(١٠) انظر بحث: «عقد الكالئ بالكالئ» للكاتب.
(١١) انظر بحث الكاتب: «التورق والتورق المنظم: دراسة تأصيلية».
(١٢) إعلام الموقعين ٥/٨٦-٨٧.
(١٣) انظر: الأم ٣/٣٨-٣٩، الإنصاف ٤/٣٣٥، تكملة المجموع شرح المهذب١٠/١٤٥.



عقد الضمان في الفقه الإسلامي

د. صالح سالم النهام
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

لا شك أن من عقود التوثيقات أو التأمينات عقد الضمان، ومثله عقد الحوالة، وأن بين هذين العقدين وجه شبه واختلاف؛ فأما وجه الشبه: فإنهما يجريان في الديون، وأما وجه الاختلاف: فإن عقد الضمان كما أنه يجري في الديون، فإنه يجري أيضا في: ضمان النفس أو العين. وأن حكم الضمان: الجواز والندب؛ وذلك لحفظ الحقوق.. والضامن والكفيل والزعيم؛ بمعنى واحد عند جمهور الفقهاء، لقوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾(يوسف:٧٢)، وقد قال ابن عباس: الزعيم، هو: الكفيل.

التعريف بالعقد

العقد لغة: مصدر عقد الشيء يعقده عقدا وتعاقدا، فانعقد وتعقد، إذا شده، فانشد، فهو نقيض الحل، وهو في الأصل للحبل ونحوه من المحسوسات، ثم أطلق في أنواع العقود من البيوع والمواثيق وغيرها.

العقد اصطلاحا: هو مرتبط ارتباطا وثيقا بمعناه اللغوي، وله تعريف خاص وعام، أما الخاص: فهو ارتباط إيجاب بقبول على وجه مشروع يثبت أثره في محله. وأما العام: فهو ما ألزم به المرء نفسه، ولا يشترط في هذا التعريف وجود طرفين في العقد، وقد ذكر صاحب الفروق: أن تعريف العقد: كل تصرف ينشأ عنه حكم شرعي.

التعريف بالضمان

الضمان لغة: الالتزام، وقيل: هو من الضِمن؛ لأن الذمة من ضِمْن البدن.

الضمان اصطلاحا: يعتبر الفقهاء أن عقد الضمان وعقد الكفالة لفظان مترادفان يراد بهما الالتزام بحق ثابت في ذمة غيره، وهو ضمان الدين، أو بإحضار من هو عليه، وهو ضمان النفس أو الوجه، أو بتسليم عين مضمونة، وهو ضمان العين. فالضمان إذن: ضم ذمة الضامن إلى ذمة المضمون عنه في المطالبة بنفس أو دين أو عين.

أركان الضمان

الركن الأول: الضامن أو الكفيل، ويشترط فيه ما يلي:

١- أن يكون عاقلا بالغا.

٢- ألّا يكون محجورا عليه لسفه، ولا يصح منه أن يضمن غيره.

٣- ألّا تكون امرأة متزوجة إذا أرادت أن تضمن في مقدار يزيد على ثلث مالها بغير إذن زوجها.

٤- ألّا يكون مريضا مرض موت، فلا يجوز له أن يضمن بأكثر من ثلث ماله.

٥- ألّا يكون الضامن عليه دين يستغرق كل ماله.

٦- ألّا يكون مكرها على الضمان.

الركن الثاني: المضمون له، وهو صاحب الحق، ويشترط فيه ما يلي:

١- أن يكون معروفا للضامن؛ لتفاوت الناس في المطالبة شدة ولينا، فلا يصح ضمان المجهول.

٢ - لا يشترط رضا المضمون له؛ لأن الضامن لا يضره؛ إذ هو التزام يزيد دينه تأكيدا.

الركن الثالث: المضمون عنه، وهو المدين، ويشترط فيه ما يلي:

أن يكون معلوما، فلا يصح ضمان المجهول إذا كان الضمان في المستقبل، فإذا قال شخص لآخر: ضمنت لك ما تبيعه للناس بالدين، فإن الضمان لا يصح.

الركن الرابع: المضمون به، وهو الدين أو العين أو النفس، ويشترط فيه ما يلي:

١- أن يكون الدين لازما أو آيلا إلى اللزوم، كالثمن في زمن الخيار آيلا للزوم، وكالقرض، وثمن المبيع في مدة الخيار، ولا يصح الضمان بالدين غير اللازم، كدين الكتابة؛ لأن المكاتب له أن ينقض العقد ويمتنع عن الأداء.

٢- أن يكون الدين معلوما قدرا وجنسا، كأن يقول الضامن: ضمنت لك ما على زيد من دينه، وقدره ألف دينار، وإلا لا يصح الضمان.

٣- يشترط لصحة ضمان العين، أن تكون مضمونة على من هي في يده، كالعين المغصوبة، والعين المستعارة، عند جمهور العلماء، وضمان العين وضمان الأعيان أن تكون مضمونة بردها إن كانت قائمة، أو رد قيمتها عند تلفها.

٤- يشترط لصحة ضمان النفس أن يكون على المضمون ببدنه حق لآدمي، أو عقوبة، وألا يكون حدا أو قصاصا.

الركن الخامس: الصيغة، وهي كل ما يفيد التعهد والضمان، كقول الضامن: كفلت أو تحملت، وأنا بذلك المال زعيم، أو حميل، أو غريم، أو دين فلان عليّ، أو إحضار فلان عليّ، أو نحو ذلك.

دليل مشروعية الضمان

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: توفي رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه، ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقلنا: تصلي عليه؟ فخطا خطوة، ثم قال: «أعليه دين؟» قلنا: ديناران، فانصرف، فتحملهما أبوقتادة، فأتيناه، فقال: أبوقتادة: الديناران عليّ، فقال رسول الله ﷺ: «قد أوفى اللهُ حقّ الغريم، وبرئ منهما الميت؟» قال: نعم، فصلى عليه، ثم قال بعد ذلك بيومين: «ما فعل الديناران؟» قلت: إنما مات أمس، قال: فعاد إليه من الغد فقال: تضمنتها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «الآن بردت جلدته»أخرجه أحمد في مسنده بإسناد حسن: (١٤٥٩٠)، وصححه الحاكم في المستدرك: (٢٣٤٦)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب واللفظ له: (٢٧٩١).

فقوله «حق الغريم»: أي حقّ عليك الحق، وثبت عليك الغُرْمُ، وكنت غريما.

المعنى العام للحديث

كان رسول الله في أول الإسلام قبل أن يصلي على مسلم يسأل، هل عليه دين؟ فإن قالوا نعم: لم يصل عليه، إلا إذا قام أحد من المسلمين يضمن هذا الدين، فإذا ضمنه أحد، صلى عليه رسول الله ﷺ، ولم يكن يسأل عن شيء من عمل المتوفى، وإنما كان يسأل عن دينه.

الأحكام التي تؤخذ من الحديث

● جواز تحمل الواجب من غير الواجب عليه، كتحمل أبي قتادة دين الميت، ولابد من أداء الدين لكي ينفع الميت، وأنه ينفعه ذلك لشدة أمر الديْن؛ لأن رسول الله ترك الصلاة لمن عليه دين؛ لأن صلاة رسول الله ﷺ شفاعة، وشفاعته مقبولة، والديْن لا يسقط إلا بالتأدية.

● رفع العذاب عن الميت، لابد من الأداء، ويكون بالقضاء عنه، ولهذا قيل: تتم براءة المدين من وقت السداد لا من وقت الضمان، ولذلك سارع رسول الله ﷺ إلى سؤال أبي قتادة عن القضاء، فقال: قد قضيتهما يا رسول الله، فقال رسول الله: «الآن بردت جلدته».

● يستحب للإمام أو لولي أمر المسلمين أن يحض على السداد كل من ضمن دين ميت على الإسراع في القضاء، ويستحب كذلك لسائر المسلمين؛ لأنه من أعمال الخير، لحديث: «ما من مسلم فك رهان أخيه إلا فك الله رهانه يوم القيامة» (أخرجه البيهقي: (١١٧٣١).

● أن الضمان والكفالة عن الميت صحيحة، ويلزم الضامن والكفيل ما ضمن به، سواء كان الميت غنيا، أو فقيرا، ولا رجوع في مال الميت، وبهذا قال: الجمهور، إلا أن المالكية قد أجازوا الرجوع، إن كان له مال، والحنفية اشترطوا لصحة الضمان والكفالة أن يترك الميت وفاء دينه.

● بعد الفتح قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه» أخرجه مسلم:(١٦١٩)، وعلى ذلك قام رسول الله ﷺ بقضاء دين كل ميت سواء من مال رسول الله ﷺ أو من مال المصالح، والحديث نسخ حديث الباب، وتحمل رسول الله ﷺ الديون بعد عام الفتح.. وعن سليمان قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نفدي سبايا المسلمين، ونعطي سائلهم، ثم قال رسول الله ﷺ: «من ترك مالا فلورثته، ومن ترك دينا فعليّ وعلى الولاة من بعدي في بيت مال المسلمين»(أخرجه الطبراني في الكبير:(٥٩٧٤).

وقول النبي ﷺ «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم»؛ يعني: في كل شيء؛ لأني الخليفة الأكبر الممد لكل موجود، فحكمي عليهم أنفذ من حكمهم على أنفسهم، وهذا قاله لما نزلت الآية، فمن توفي -بالبناء للمجهول-؛ أي: مات من المؤمنين فترك عليه دينا فعلي قضاؤه، مما يفيء الله به من غنيمة وصدقة، وهذا ناسخ لتركه الصلاة على من مات وعليه دين(١).

أقوال العلماء في الحكمة من ترك النبي ﷺ الصلاة على المدين:

١- ذكر أهل العلم أنه: إنما ترك النبي ﷺ الصلاة على المدين الذي لم يترك وفاء؛ زجرا للناس عن المماطلة، والتساهل في الاستدانة(٢).

٢- وضح الإمام ابن حجر الأمر، فقال في شرحه لصحيح البخاري: يقول العلماء: كأن الذي فعله ﷺ من ترك الصلاة على من عليه دين؛ ليحرض الناس على قضاء الديون في حياتهم، والتوصل إلى البراءة منها، لئلا تفوتهم صلاة النبي ﷺ وهل كانت صلاته على من عليه دين محرمة أو جائزة؟ وفي هذا وجهان: قال النووي: الصواب الجزم بجوازه مع وجود الضامن، كما في حديث مسلم.

٣- حكى القرطبي: أنه ربما كان يمتنع من الصلاة على من استدان دينا غير جائز، وأما من استدان لأمر هو جائز فما كان يمتنع... ثم يضيف ابن حجر قائلا: وفي صلاته ﷺ على من عليه دين بعد أن فتح الله عليه الفتوح إشعار بأنه كان يقضيه من مال المصالح، وقيل: بل كان يقضيه من خالص نفسه(٣).

٤- قال القاضي عياض: تأول ترك الصلاة بأنه تداينه في غير مباح، وقيل: فيمن تداين عالما أن ذمته لا تفي بدينه، وقيل: هذا كان في بدء الإسلام، ثم نسخ حين فتحت الفتوحات، وصار لكل من المسلمين حق في بيت المال، وفرض لهم فيه سهم الغارمين، ويدل عليه الحديث، وقيل: فعله تأديبا للمدينين؛ ليقلوا من الدين، ويجتهدوا في خلاص ما تداينوا، خوف أن تذهب أموال الناس(٤).

٥- قال ابن بطال: قوله: «من ترك دينا فعلي» ناسخ لترك الصلاة على من مات وعليه دين، وقوله: «فعلي قضاؤه»؛ أي: مما يفيء الله عليه من الغنائم والصدقات(٥).

كما يقول الحافظ المنذري: قد صح عن النبي ﷺ أنه كان لا يصلي على المدين، ثم نسخ ذلك(٦).

الهوامش:

١- انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، للإمام المناوي:(ص:٧٦٦).

٢- انظر: الناسخ والمنسوخ من الحديث، أبوحفص عمر بن شاهين، تحقيق: د.محمد إبراهيم الحفناوي، هامش: (ص:٣١٤).

٣- انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين: (٤/ ٥٥٨).

٤-انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، تحقيق: عادل عبدالموجود وعلي معوض: (٦/ ٢٥١٤).

٥- انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرين: (٤/ ٥٥٨).

٦- انظر: صحيح الترغيب والترهيب، الألباني: (٢/ ١٦٨).

لتحيا الحياة

صبحة بغورة
كاتبة جزائرية

من الطبيعي جدا أن يحب كل إنسان لنفسه كل الخير، وأن يحب أيضا كل ما يجلب له الخير، وأن يحرص كذلك أشد الحرص على امتلاك ما يحقق له السعادة وأسباب الهناء، وأن يتعلق بيديه وأسنانه بما يأمل من ورائه ضمان الأمن والسلامة، بل ويهرول في كل اتجاه- -غير مبال بحر الصيف وبرد ورياح الشتاء- وراء ما يحقق له الراحة والرفاهية.

ولا يخامرني أدنى شك في أن ذات الإنسان عزيزة وغالية على النفس، فالسلامة من الإصابات مثلا سبب كاف للتراجع عن المخاطرة والمغامرة.. فقد لا يخلو الأمر من الجروح الدامية، التي وإن لم تكن غائرة فإنها ستترك على الأقل آثارا وندوبا، قد لا يكون مرغوبا فيها لدى من ينظرون طويلا إلى أنفسهم في المرآة، أو قد تكون الإصابات كسورا لا تعيد كفاءة العضو المكسور إلى سابق عهده.. فلا ذراع يقوى على ما تشتهيه النفس، ولا السير في أرض الله الواسعة سيكون مريحا، إذ ستتحول الخطوة الرشيقة أو المشي في خيلاء إلى صورة، كمن يرسم في الأرض نقطة وفاصلة، عافاكم الله من كل مكروه.

إن حب الإنسان لذاته ليس عيبا، ومن مظاهر ذلك المسارعة للوقاية من الأمراض، والعلاج من ما يصيبه منها بكل الوسائل وبجميع الطرق، وأعرف الكثيرين ممن يخفون حقيقة مرضهم أو حالتهم الصحية اعتزازا وترفعا.. فتراهم يهونون أمر علتهم لتجنب نظرات الشفقة وعبارات المواساة، وطبيعي أن يكره الإنسان أن يساء إليه، سواء إلى شخصه أو إلى ذاته أو سمعته وكرامته أو حتى مهنته، والعاقل من يتجنب مواضع الذل، ويتفادى كل ما يشينه.

وبرغم كل ما سبق فإني لا أفهم لماذا يصر الناس على الحلف والقسم ببعض أعضاء الذات الإنسانية كي يظهروا صادقين في قولهم؟ فيعبرون عن وفائهم لعهودهم والتزاماتهم بالقول «على عيني»، كما لا يتردد أحدهم بتكبير مقام شخص ما بالقول «على راسي من فوق»، وقد يتوعد آخر نفسه بالعقاب إن كان من الكاذبين «أقطع يدي»، «أو انشا الله اتعمى» أو «يتقطع لساني لو..»، «هاي ودني لو ربح»!!.

أعلم أن هذه التعبيرات جزافية، لكن ماذا لو وضعتنا الظروف موضع اختيار حقيقي، أي ماذا لو لم تسر الأمور كما كنا نظن أو نتوقع، هل يجرؤ أحدهم فعلا على تنفيذ ما توعد به نفسه؟ حقا لا أصدق ذلك، فلماذا إذن تستعمل هذه العبارات التهويلية؟

إن محاولة تفسير ذلك يضعنا أمام فرضية «عدم الثقة في النفس»، وهذا الشعور هو نتاج اهتزاز الشخصية والإحساس بالدونية، حيث يستشعر الإنسان دائما أنه محل شك الآخرين، لا يصدقه أحد، ولا يعبأ به إنسان، وتصرفاته غير موثوق بها.. أو أنه كاذب فعلا، ولذا يحيط كذبه بهالة من الحلف والوعود ليكون محل تصديق.. والغريب أن الأمر قد يتعلق بمسائل بسيطة أو في غاية السذاجة والسطحية، لا تتطلب كل هذه العبارات التي أراها بحق تشين المتحدث بها، وتقلل من شأنه، وتحط من وقاره واحترامه في نظر الآخرين.

من أخطر القضايا التي تدفعني لطرحها في هذا المقام قضية «تدمير الذات»، ليس بالقول وإنما بالفعل، ومع سبق الإصرار على المضي في طريق الموت، وأقصد قضية تناول المخدرات، التي لا يعني تناولها سوى اختصار سنوات الحياة نحو الهلاك المشين، شيخوخة مبكرة، هلاك الأنسجة، دمار الخلايا، تفكك المفاصل، تراخي العضلات، وعزة النفس في الحضيض، وفوق كل ذلك استعداد نفسي كامل للتنازل عن كل شيء.

مقابل لحظة غياب عن الوعي، والخروج من واقع الحياة إلى عوالم من الأوهام والخيالات والمرايا الكاذبة.. هل الاشتياق للمتع معناه تعريض ذات الإنسان وصحته للموت الحتمي والبطيء؟ كيف نفسر إرادة الخروج من دائرة السعادة الحقيقية، التي عمادها الصحة الجيدة والسلامة الجسدية، إلى سجن المخدرات وأسر الإدمان الهدام، الذي قضبانه حاجز حقيقي بينه وبين الحياة؟!

بل يذهب بعض ضعاف النفوس، عديمي الإرادة والشكيمة، إلى ما هو أبعد من كل ذلك، إنهم يعلنون عدم رغبتهم في الاستمرار في الحياة، والتخلي عن أداء الرسالة بالانتحار، إنهم يضعون حدا لمسيرتهم في الدنيا لمجرد أن بعض المشاكل اعترضتهم، واستعصى حلها بعض الوقت، ليس هناك مشكلة دون حل.. لا، بل عشرات الحلول، فالتعقل والصبر يهديان إلى الكثير، وفوق ذلك الإيمان والتصديق بأن بعد العسر يسرا .

الفطرة: خرائط المفهوم.. وبناء المستقبل

د.هبة رءوف عزت
باحثة أكاديمية

يعد مفهوم «الفطرة» من المفاهيم الأصيلة في التراث الإسلامي، لجهة استخدامه في عدد كبير من النصوص الشرعية من كتاب وسنة، أو لجهة استعماله في نصوص التراث الإسلامي في سياق الحجاج والاستدلال والإثبات.

إن المتتبع لمدلولات هذا الجذر الثلاثي «ف ط ر» ليلحظ بوضوح أثر التطور الدلالي الذي طرأ على أصل مدلوله، ومدى تأثره بالمعاني المستمدة من نصوص الشرع ثم التراث الإسلامي.

فالفطر: بالفتح، الشق، وقد قيده بعض اللغويين بالشق الأول، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ٣﴾ (سورة الملك: ٣)، وقوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ١﴾ (سورة الانفطار:١) أي انشقت، والفطرة: الابتداء والاختراع والخلق، ففطر الله الخلق: خلقهم وبدأهم.

لقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبوهريرة واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾» (صحيح مسلم: كتاب القدر).

و ابتداء الخلق في التصور الإسلامي مقترن بنهاية الإنسان ومآله، ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٢﴾(يس:٢٢).

كما نجد أن الفطرة تقترن في التصور الاسلامي بالوحدانية والدين، فالدين فطرة، والشهادة الأولى التي أخذها الله من ذرية بني آدم مغروسة فيها، لكن الوعي بها يتأثر بالبيئة والتنشئة والمجتمع، وهنا تصبح الفطرة قرينة التصور الإسلامي للبراءة الأولى للنفس عند الميلاد في مقابل فكرة الخطيئة الأولى في الخطاب المسيحي تاريخيا من جهة، وقرينة توحيد الله أصلا في فطرة الإنسان بشهادة التوحيد التي كانت في الأزل.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٠﴾ (الروم: ٣٠).

كما تلفتنا الآيات القرآنية لاقتران الفطرة الإنسانية بخلق السموات والأرض، فالله هو الفاطر وسنن الأنفس والآفاق تتقاطع: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٧٩﴾ (الأنعام: ٧) ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ١٤).

وتبدو الفطرة التي فطر الله الناس عليها مصدرا للهداية وبوصلة للحق أودعها الله في قلوب العباد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ٢٧﴾ (الزخرف: ٢٧)، ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦﴾ (الأنبياء: ٥٦)

بل تبدو مستعصية -حين يكون الإيمان هو النور الذي يحمل الإنسان في مسيرة الحياة- على أن تتقبل البغي أو ترضى بالطغيان، فنتأمل قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ٧٢﴾ (طه: ٧٢) ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٥١﴾ (هود: ٥١) ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الإسراء: ٥١).

والنظر في الفطرة جامع ومانع،

جامع للذكر والأنثى، لكنه يميزهما عن الجان والملائكة، ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾.

والفطرة مكون من رباعية مفاهيمية للأمانة والخلافة الإنسانية التي يحاسب الله عنها العباد يوم القيامة، والتي يكشفها النظر في كتاب الله، تلك الرباعية هي: الفطرة، والعقل، والوحي، ثم السنن التي يدركها الإنسان بالسير والنظر.

وعلى ذلك، فإن الفكر الإسلامي يحتاج لإعادة النظر في مفهوم «سنن الفطرة» الذي اقتصر على ما يتعلق بالجسد من عناية وحق للبدن، ليخرج بفهم الفطرة لأفق فهم آيات النفس الإنسانية في تفردها.. وفي اجتماعها وعمرانها.

وهنا يلعب القصص القرآني دورا مهما، ويصبح البحث في مفردات: الإنسان- الأمة- القوم- المدينة- بني آدم- الناس- البشرية.. وما يتعلق بها من خصائص يتناولها القرآن شديدة الصلة بالبحث في الفطرة.

ويتقاطع هذا البحث في الفطرة مع جدل عريض احتل مساحة معتبرة في الفكر الإنساني عن الطبيعة البشرية، وما ارتبط بذلك من نظريات الدولة وطبيعة المجتمع، فمن ذهب إلى أن الطبيعة البشرية تقوم على الصلاح والخيرية، قدم نظريات للمجتمع تقوم على إطلاق حركته وتأكيد دوره وفاعليته في مقابل سلطة محدودة الحجم والأدوار، ومن ذهب إلى أن نوازع الشر هي الغالبة، منح سلطة أكبر للحكومة في مواجهة الفرد والمجتمع، واعتبر الدولة هي التي تحفظ المصالح والمقاصد. نجد ذلك في الفكر اليوناني في اعتبار المدينة شرط اكتمال الإنسانية، فالفطرة الفردية لا تقيم حضارة ولا تحفظ إنسانية، في حين جادل ابن طفيل ومن بعده ابن سينا في أولية الفردية، والانفراد في نقاشهم حول نموذج الإنسان المنفرد في حي بن يقظان. هذا الجدل نفسه هو ما صاغ نظريات الخلافة والعمران في التاريخ الفكري، فمن رأى الوازع السلطاني هو ضمان تطبيق الشرع، توسع في سلطان الحاكم وتحفظ على الخروج عليه، ومن وجد أن الأمة هي الحافظة، والوازع الديني هو الأسبق كبعض المعتزلة، قدم من الأفكار ما يقدم الجماعة على السلطان، وهكذا.

ويبدو مفهوم الفطرة أيضا متقاطعا مع مفهوم الإنسانية والبشرية الأوسع، وجل النظريات التي تحدثت عن القانون الطبيعي والمواطنة العالمية من المدرسة الرواقية التي بزغت بعد سقوط دولة أثينا مرورا بفكر الفارابي عن المعمورة الفاضلة وصولا لأفكار الكوزموبوليتانية والعولمة الحديثة تدور حول مشترك إنساني، ومفهوم الفطرة هنا يسهم في هذا النقاش باعتبار مصدره الديني واستصحابه معاني ومعالم التوحيد.

وإن شئنا العودة إلى ابن خلدون مرة أخرى في مقولته العميقة:

«اعلم أن حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال».

فإننا سنحتاج مفهوم الفطرة في الكشف عما يصيب النفس الإنسانية حال التأنس والتوحش، وكيف يمكن استنقاذ الفطرة حين يسود التوحش كي يمكن رد الإنسان -الفرد والجماعة- إلى التأنس مرة أخرى.. وإحياء الفطرة السوية لتعلو فوق النزعات اللاإنسانية في وقت النزاعات، وإدراك أن قواعد الشرع المنظمة لذلك غايتها ليس فقط حفظ المقاصد الكلية، بل كذلك حفظ الفطرة الإنسانية من السقوط وقت الحروب والتنازع، وبذلك يدخل المفهوم في فهم فقه الجهاد، وفي فهم مقومات وأصول الدعوة لهذا الدين.

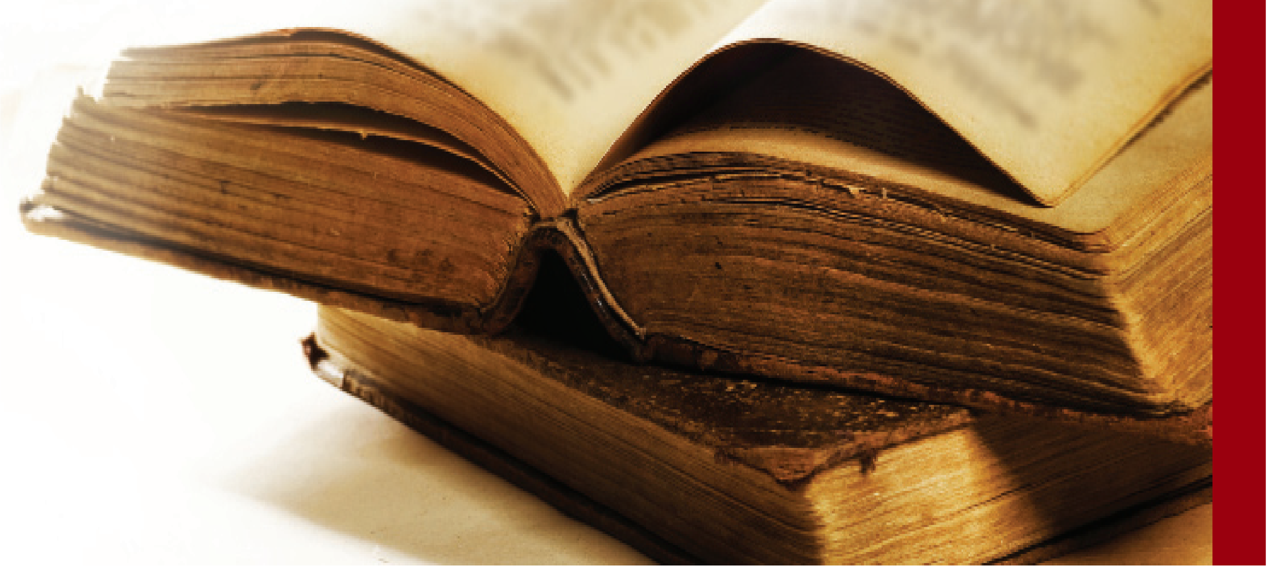
لقد كتبت الدكتورة عائشة عبدالرحمن نصا فريدا بعنوان: مقال عن الإنسان، وكثر حديث الشيخ محمد الغزالي في خطبه وكتاباته عن «الرهان على الفطرة»، ونجد الكثير من ذلك مبثوثا في دستور الأخلاق لدى المسلمين في كتابات عبدالله دراز ثم في كتابات فريد الأنصاري، لكن تحرير تلك الرؤية من الكتابات التي تحمل اسمها ليتحول لمفهوم نظري وتوليدي فاعل في شتى القضايا المطروحة اليوم على العقل المسلم سيكون نقلة نوعية ليس فقط في تحليل القضايا الراهنة، بل في إعادة قراءة الفقه ووعي الفقهاء بهذا المفهوم في مساراتهم الاجتهادية وموازين المصالح والمفاسد.

لقد آن الأوان لمفهوم الفطرة- ذلك المفهوم الذي يربط شهادة الأزل بمسار التوحيد والهداية والرشد في هذه الدنيا، ويؤسس لمعايير المحاسبة في الآخرة- أن يغدو المفهوم القاطرة للفكر الإسلامي ومساهماته في الجدل الراهن بشأن قضايا الإنسان، كما يمكن أن يكون القاعدة الصلبة للمشروع الإسلامي والدعوة الإسلامية في مرحلة التجديد الراهنة نحو أفق مستقبلي للإسلام ورسالته كرحمة للعالمين.

القولُ المأثورُ في إحياءِ الصَّوابِ المهجورِ (١٧)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

الرأي المُحصد عند ذوي اللب والحُنْكة، أن اللغة ـ أي لغة ـ هي خلاصة العبقرية التي تعبر عن نظرة المتكلمين للواقع المعيش في أدق تجلياته بما يضمن الإحاطة بكل أشياء الحياة؛ مع رفع اللبس وإزالة الخلط والاشتباه. وتعد اللغة العربية الفصحى ـ بلا امتراء ـ الغرة الشادخة في هذا الشأن، ليس فقط بالنسبة إلى الأمة العربية، التي توحِّدها الأبعاد الحضارية والثقافية والعاطفية والاجتماعية، ولكن بالنسبة أيضا إلى الأمة الإسلامية؛ لأنها اللغة الوحيدة التي تضيف لدنيا المسلمين حبل الاتصال والتواصل مع رب العالمين في أثناء الصلاة عبر تلاوة القرآن الكريم، لذلك فإن اللغة العربية الفصحى بقواعدها الصرفية والنحوية والإملائية، وببلاغتها البعيدة المصعد في انتقاء واستفراه العبارات وتنضيد الألفاظ، ضمانا لحسن مظهرها وبديع رصفها وجودة تنسيقها «لا تعدو كونها تحديدات نسبية إيجابية، لاغرو تقرب من القرآن، ولكن لا تقنِّنه، لأن القرآن العظيم مطلق، والمطلق لا يُقنن من خارجه... فالقرآن يقول عن كل شيء بما في ذلك اللغة، وعلى اللغة التفهم بالرد إليه، وليس إلى ذاتها»(١). إذا تقرر أن لغة القرآن العظيم منجم البراعة الذي عرَّب ألسنة المسلمين مشرقا ومغربا، شمالا وجنوبا؛ اهتداءً



بأنواره المتلألئة، وحكمه الخالدة، وبراهينه القاطعة، وعباراته الرائقة الشائقة، وألفاظه الدقيقة المستفرهة؛ فهي الباب المنتهج، والطريق المهيع، والروض الأريض، والماء العذب الرقراق الذي ينتفع به كل مسلم، بينما تبقى لغةُ الكتابِ البلغاء، والشعراء المفلقين مُجَرَّد لوْنٍ من ألوان الأطعمة والأشربة، كلما صادفت استحسانا وإعجابا من فئة، وجدت فيها فئة أخرى ذوقا مخالفا رغم حرصهم على البيان والتبيين والفهم والإفهام. ولذلك قال ابن وهب الكاتب في كتابه «البرهان في وجوه البيان»: للغة العربية التي نزل بها القرآن، وجاء بها عن رسول الله ﷺ البيان، وجوه وأحكام ومعان وأقسام، متى لم يقف عليها من يريد تفهم معانيها، واستنباط ما يدل عليه لفظها، لم يبلغ مراده، ولم يصل إلى بغيته. فمنها ما هو عام للسان العرب وغيرهم، ومنها ما هو خاص له دون غيره(٢). من أجل ذلك فإن اللغويين العرب القدامى والمحدثين، رغم أنهم تفرقوا إلى ثلاث طوائف: إحداها تثبت الترادف في اللغة، لأن الشيء الواحد عندهم يسمى بأسماء مختلفة، مثل الأسماء الآتية التي يطلقونها على الذئب وهي: السِّرحان، والأطلس، والسِّيد، والعَمَلَّس، والشَّيْذمَان، والنهشل، والأوْس، وغيرها مما يرهق تتبعه ويتعب. بينما ترى الفرقة الأخرى أن الترادف الذي يتطابق فيه المعنيان من دون تفاوت شيءٍ قليلٌ في اللغة، ولذلك سموا هذا النوع من الألفاظ شبه الترادف مثل: أسماء وصفات الحجر والعسل والسيف والمطر، ناهيك عن الكلمات المبدلة بعضها من بعض مثل: «هطل وهتن وهتل» و«غلط وغلت».أما الفرقة الأخيرة فترى أن الترادف في اللغة معدوم، لا يمكن أن يعبر بلفظ واحد عن لفظ آخر يؤدي معناه تاما. وعلى الرغم من الاختلاف بين اللغويين العرب؛ فإنهم انتهوا أكتعين إلى أن الترادف غير موجود البتة في القرآن الكريم، لأنه تاج الفصحى وعمدة البيان والمنهل العذب الذي تذعن له الحُلوم، لا تبتغي عنه حولا، ولا تجد عنه مصرفا. لذلك فإن المنشئين الألفاف الذين جعلوا القرآن دَبْر آذانهم ونبذوه وراء ظهورهم، إنما استزلتهم الآراء المهوجة التي يشيعها الأغتام اتباعا لأهوائهم وطعنا في الدين، وفي قدرة لغتنا العربية الفصحى على التعبير عن أدق الأشياء.

تأمل هذه الدقة في التعبير بين كلمتي «الخشية والخوف» التي يعتقد كثير من قرائنا أنهما مترادفتان، حيث جمعهما القرآن في آية واحدة كما تجمع حبات الجلبان في سنيفها.

قال تعالى من سورة الرعد آية ٢٣ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، حيث إن الخشية صفة لا تكون إلا لعظمة المخشي منه، تقول العرب شجرة خَشِيَّة أي يابسة جَفتْ فيها أمواه الحياة، بينما الخوف درجة أقل، ولذلك قالوا: ضرع أَخْيَف وأخوف إذا جف فيه اللبن. كما أن لفظتي: «الإتقان والإحكام»، من الألفاظ القرآنية التي يظن كثير من الشداة أنهما مترادفتان متساويتان في الدلالة، غير أنهما عند إنعام النظر في توظيف القرآن الكريم لهما متمايزتان على هذه الشاكلة: «الإتقان» من التَّقْنِ وهو الطين اللازب أسفل البئر أو الوادي، ترتق به الشقوق حتى تكتمل سلامة الشيء، ولذلك قال تعالى: من سورة النمل آية ٩٠: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، بينما تعني لفظة: «الإحكام» الإيجاد التام من دون أمتٍ ولا عوَج، ولذلك قال تعالى من سورة هود، آية ١: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ حيث نسب الإحكام للقرآن العظيم، لأنه أنزل محكما سليما من المغامز والمعايب. وقل الشيء ذاته بالنسبة إلى الألفاظ الآتية التي يظن الذين ليس لهم من البلاغة إلا ادعاؤها، ولا من الفصاحة إلا التحلي باسمها، أنها ألفاظ مترادفة مثل: «الختم والطبع» حيث إن «الختم» مرحلة أولى لانسداد الحواس عن إدراك وسماع الحق، بينما «الطبع» يزيد على الختم، كأن الحواس لا تسمع الحق ولا يصل إليها بعد أن أخلدت إلى الباطل، إنه بمثابة طبع السكة الذي يصبح فعلا لازما لها على الدوام. وكذلك «تمنى ورجا»، إذ التمني لا يستعمل إلا مع الرغائب التي يستحيل تحقيقها، ولذلك قال الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوما
لأخبره بما فعل المشيب

وكذلك «التلاوة والقراءة»، لأن التلاوة تقتضي الإتباع في تلفظ الكلمات، بينما القراءة لا توجب ذلك. وعلى هذا الحذو الألفاظ الآتية «الجوع والسغب» و«العطش والظمأ» و«المطر والغيث» و«الشكر والحمد» و«السر والنجوى» و«الحَرْد والقصد»، وهلم على ذلك مما يرهق تتبعه ويتعب.

تأسيسا على هذه الدقة في العبارة القرآنية فإن عبارة «تلا الرجل اسمه» لا يقولها إلا مائق جهول بأسرار الفصحى، مفتقد للحس اللغوي العربي البليغ.

هذا ذَرْوٌ من آلاء عربية القرآن الكريم، وحتْرٌ من لماته التي لا يلقيها على السِّيف، وضعت زُفَرَهَا في الزِّفْر أهَيِّجُ بها المُزَوِّرين الناكبين عن سنن الفصاحة، أجعلها صوًى ومنارات تهديهم إلى أسرار البراعة القرآنية الذي فيه ذكرنا وعزتنا، ولكن أكثر الناس لا يفقهون!

الهوامش:

١ - مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج. د.أحمد عبادي. ص ١١٠. ط ١ . دار أبي رقراق. الرباط ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

٢ - نقد النثر. قدامة بن جعفر. ص ٤٤. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

الاعتذاريات النبوية بين عصرين من الشعر

محمد أبوالسعود الخياري
ناقد أدبي

يقف الاعتذار خلقا شامخا مميزا للعربي قبل الإسلام وبعده، يدل على ما يتمتع به صاحبه من شجاعة أدبية وتقدير الآخرين.. وإن كان انتشاره في الشعر العربي- لاسيما الجاهلي- ضعيفا؛ بسبب ما اكتنف الشخصية العربية من تعصب للقبيلة، واعتزاز بالنفس، كانا يحولان دون الاعتذار أو الاعتراف بالخطأ، بالإضافة إلى النظر إلى الاعتذار على أنه دليل ذلة وضعف شخصية، فأتى غرض الاعتذار في الشعر العربي قليلا عند مقارنته بغرض كالفخر.

ولاشك في أن الإسلام- بما حمل من مكارم الأخلاق، وبدعوته إلى الحفاظ على العلاقات الطيبة بين المسلمين، وبتأكيده على أن قوة الشخصية ليست في الانتصار لها كما الفهم الجاهلي، ولكن في الانتصار عليها- قد وضع أسس الفهم الذي يمهد ويشجع على ثقافة التسامح والاعتذار.

وفي اللغة تأتي مادة «عذر» في لسان العرب لتفيد معنى «العذر أو الحجة التي يعتذر بها، والجمع أعذار، يقال اعتذر فلان اعتذارا وعذرة ومعذرة من دينه فعذرته، وعذر يعذره فيما صنع عذرا وعذرة وعذرى ومعذرة، والاسم المعذرة»(١).

ويفهم من التعريف اللغوي أن المرء يشعر بذنب تجاه فعل صدر عنه، وتكون محاولة الاعتذار أو الاعتذار نفسه محاولة لتطهير النفس، والاستغفار من الذنب، وذلك بالتماس الحجة والمعذرة.

ونطالع في الذكر الحكيم تشجيعا على الاعتذار والاعتراف بالخطأ والذنب، وهي مفاهيم لمعنى التوبة التي جعلها الله تعالى من كنوز الحسنات التي تكون سببا في تبديل حال صاحبها من أهل المعصية إلى أهل الطاعة، ويكون تبديل السيئات حسنات هو المكافأة السخية، يقول تعالى:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ (الفرقان: ٧٠).

وجاء التوجيه النبوي الكريم للحث على فضيلة الاعتذار، بل والتحذير من رفض هذا الاعتذار وعدم قبوله:

روى الطبراني عن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: «عفوا تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل عذره لم يرد على الحوض».

النابغة رائد شعر الاعتذار

النابغة الذبياني من شعراء الجاهلية المعروفين، وإليه يرجع غرض الاعتذار في الشعر العربي، فهو رائده ومؤسسه، وكانت بداية ظهور شعر الاعتذار معه بكتابة قصيدته المعروفة التي مطلعها:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني
وتلك التي أهتم منها وأنصب

والتي كتبها للنعمان بن المنذر؛ معتذرا له وطالبا عفوه، وكان النابغة قد قضى فترة من حياته نديما للنعمان في بلاط المناذرة ومعه المنخل اليشكري.

حتى كانت قصيدة «المتجردة» زوج النعمان التي دخلت مجلسه فسقط لباس رأسها، فطلب النعمان من النابغة أن يصفها وكانت على قدر من الجمال، فقال قصيدة، من أبياتها:

أمن آل مية رائح أو مغتد
عجلان ذا زاد وغير مزود

فعلق المنخل اليشكري متهما صديقه تهمة مهلكة، حيث رماه بأنه على علاقة بـ«المتجردة» زوجة النعمان؛ لأن ما جاء به من أوصاف لها في القصيدة لا يمكن أن تكون وليدة الخيال، وهو ما عبر عنه المنخل بقوله: «والله ما قالها إلا مجرب».

فغضب النعمان، وأهدر دم النابغة الذبياني، فهرب الأخير إلى الغساسنة، ومن هناك بدأ بإرسال اعتذارياته للنعمان، وفي الوقت نفسه قدم غرضا جديدا في الشعر العربي هو شعر الاعتذار.

الاعتذاريات النبوية من الخاص إلى العام

في عصر صدر الإسلام ظهرت قصيدة كعب بن زهير التي كانت سعيدة الحظ بما صاحبها من ظروف، وبما نالته من جائزة تعد الجائزة الأكبر في التاريخ التي نالها عمل أدبي.. لقد نال كعب بن زهير بن أبي سلمى البردة النبوية بعدما قال قصيدته المعروفة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول

وكعب هو ابن زهير بن أبي سلمى صاحب المعلقة المعروفة التي مطلعها:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

بحومانة الدراج فالمتثلم

عاش في الجاهلية و أدرك الإسلام، ولذا فهو شاعر مخضرم.

مناسبة القصيدة

أرسل كعب أخاه بجيرا إلى النبي ﷺ في المدينة لاستطلاع الدين الجديد، بعدما استقر أمر الإسلام في المدينة، وذلك عام ٦٢٨م، ولكن بجيرا لم يستطلع الأمر فقط، بل دخل في الإسلام واستقر في المدينة، وهو ما أغضب كعبا ودعاه لكتابة أبيات من الهجاء تنال من أخيه، وتعرض بالنبي ﷺ يقول فيها:

ألا أبلغا عني بجيرا رسالة

فهل لك في ما قلت ويحك هل لكا

سقاك بها المأمون كأسا روية

فأنهلك المأمون منها وعلكا

ففارقت أسباب الهدى واتبعته

على أي شيء ويب غيرك، دلكا

على مذهب لم تلف أما ولا أبا

عليه ولم تعرف عليه أخا لكا

فإن أنت لم تفعل فلست بآسف

ولا قائل إما عثرت: لعا لكا

وأرسل كعب تلك الأبيات إلى بجير الذي تلقاها وأطلع عليها النبي ﷺ، فأهدر النبي ﷺ دم كعب. وأرسل بجير إلى أخيه يخبره بما حدث، ويدعوه مرة أخرى إلى الدخول في الإسلام، لكن الأمر استغرق عند كعب عامين، حتى أتى إلى النبي ﷺ في مسجده وجلس بين يديه، ووضع يده في يده والنبي ﷺ لا يعرفه، وقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير أتاك تائبا مسلما فهل أنت قابل منه؟ أجابه: نعم. قال: فأنا كعب، فوثب رجل من الأنصار قائلا: دعني يا نبي الله أضرب عنقه، فنهاه النبي ﷺ.

وأنشد كعب قصيدته الاعتذارية المعروفة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

مهند إثرها لم يفد مكبول

وقيل: إن النبي ﷺ خلع عليه بردته حين وصل إلى قوله:

إن الرسول لسيف يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

وتقع قصيدة كعب بن زهير في نحو ٦٠ بيتا، التزم بالتقاليد الفنية للقصيدة العربية منذ العصر الجاهلي، وتنوعت أغراضها من المقدمة الغزلية إلى الاعتذار ثم المديح، وبينهما وصف الشاعر حالته من الخوف والتوتر.

في المقطع الأول: مقدمة غزلية طويلة يتناول فيها الشاعر محبوبة هاجرت مع أهلها، ويتناول صفاتها الخارجية، وهو الأمر الذي اتسع له صدر النبي ﷺ باعتباره عادة فنية راسخة عند الشعراء طوال العصر الجاهلي، وكعب شاعر مخضرم عاش في الجاهلية أكثر مما عاش في الإسلام.. يقول فيها:

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا

إلا أغن غضيض الطرف مكحول

ففي صوتها غنة وفي عينيها اكتحال، ويختم مقدمته بالشكوى من إخلاف مواعيدها، يقول:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا

وما مواعيدها إلا الأباطيل

المقطع الثاني: عبر فيه الشاعر عن حالة الفزع، وتنكر أصحابه له حتى إنه لم يجد إلا أن يواجه الخوف بالإيمان، والشك باليقين. يقول:

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم

إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

ويحسم أمره مؤكدا أن الخوف من الموت لا فائدة منه:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

يومًا على آلة حدباء محمول

المقطع الثالث: يتوجه فيه إلى النبي ﷺ معتذرا، ومعبرا عن تفاؤله بقبول هذا الاعتذار:

وقد أتيت رسول الله معتذرًا

والعذر عند رسول الله مقبول

المقطع الرابع: خصصه الشاعر لمدح النبي ﷺ، وكذلك لمدح المهاجرين معه. يقول في مدح النبي ﷺ:

إن الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

وهو يمتدح المهاجرين واصفا إياهم بالقوة والشجاعة ومطاردة الجبناء:

شم العرانين أبطال لبوسهم

من نسج داود في الهيجا سرابيل

اعتذارية مصطفى عكرمة

وبعد نحو عشرين قرنا من قصيدة كعب تأتي قصيدة الشاعر السوري مصطفى عكرمة (من مواليد اللاذقية ١٩٤٣م) بعنوان «عذرا رسول الله» والتي صدرت في ديوان حمل الاسم نفسه(٢).

وتقع القصيدة في نحو سبعة وتسعين بيتا، يقول مطلعها:

حبك السعد والمنى والأمان

يا رسولا عزت بك الأكوان

والقصيدة من بحر الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن فاعلات مستفعلن فاعلاتن)، وهو بحر مميز بخفة الحركات، ما يعطي السهولة في التعامل مع قصائده.. وقسمها عكرمة إلى خمسة مقاطع؛ تناولت تباعا أغراضا مختلفة، حاول الشاعر خلالها أن يسطر لقارئه لوحة بانورامية لما يمكن أن نسميه: الأصل والصورة، فهو يقارن بين الحال التي رسمها لنا الدين الحنيف، وبين حال المسلمين التي ذهبت بعيدا عن طريق النور.

المقطع الأول: للمديح النبوي في نحو خمسة وعشرين بيتا، وقد حاول عكرمة التعبير عن مناقب النبي ﷺ، سواء من حيث طبيعة رسالته الخاتمة، مثل قوله:

أعظم الخلق كان خلقك يا من

خاتم الرسل شاءك الرحمن

وحاول الشاعر استعراض صور من سيرة النبي ﷺ فقال:

أجمعوا حقدهم عليك جهارا
بكل الأذى عليك استعانوا
وسوى الحب ما لديك سلاح
وعلى الحب كنت منهم تدان

المقطع الثاني: جعله الشاعر شكوى يبثها للنبي ﷺ لما آلت إليه أحوال الناس من بعد هديه، وكيف عم الظلم، واغترب الحق.. يقول:

أيقظ الشر بعد عدلك قوم
قادهم في ضلالهم شيطان
فإذا الكون في صراع فناء
ليس في عقل مسعريه اتزان

بل هو يشير إلى تجرؤ الغرب على النبي ﷺ:

وعليك الجهال صبت حقودا
دونها في سعيرها النيران

المقطع الثالث: يتصل بالثاني في استعراض انحرافات الإنسان المعاصر، لكن الشاعر يصدره باعتذاره الشخصي، إن لم يطاوعه الشعر أو تسعفه الأوزان:

يا رسول الهدى إليك اعتذاري
إن عصتني في مدحك الأوزان

المقطع الرابع: يجسد الاعتذار الجمعي؛ فالشاعر يعتذر نيابة عن أمته وقومه، وهم بتفريطهم في كنوز النبوة قد صاروا أذلة:

سيدي سيدي حنانك إني لم
يعد لي من ذل قومي لسان
أهملوا شرعك الحنيف فضلوا
فإذا هم لضعفهم قطعان

ويستعرض الشاعر ألوانا من هوان الأمة؛ فهو يحكي مأساة العراق ممزق الأوصال، ويعرج على غزة فيبسط الحديث حولها، ويصف أهلها بالأبطال البواسل:

أهلها الأهل في الثبات جبال
وبقلب الأعداء هم بركان
ما ثناهم عن الجهاد حصار
لا ولا فل عزمهم عدوان

المقطع الخامس: ختم به الشاعر مصطفى عكرمة قصيدته متضرعا إلى الله تعالى بإنقاذ الأمة من حالها البائس، بنصرة جيل من أهلها مازالوا على الحق قائمين، فجاء دعاؤه لله- عز وجل- للتمكين لهم:

رب إن الإسلام ملء قلوب
هو فيها الإباء والعنفوان
رب سدد على الصراط خطاها
وأغثها بالنصر يا رحمن

وكما بدأ الشاعر بمديح النبي ﷺ يختم بتأكيد هذا الحب:

فلك الحب يا محمد يا من
حبك الحب للنجاة ضمان

تطور شعر الاعتذاريات النبوية إذن بشكل واضح، وما بين قصيدة البردة (٦٣٠م) وقصيدة عذرا رسول الله (صدرت عام ٢٠٠٩م) جوانب كثيرة من الفكر والفن تكرست خلال ١٣٧٩ عاما، تقلبت خلالها عصور متفاوتة من الشعر، وأجيال متنوعة من الشعراء.

١- كان كعب بن زهير مضطرا للمقدمة الغزلية الحسية، ولم يرده النبي ﷺ بل استمع إليه في المسجد. أما مصطفى عكرمة فقد جاء بعد مراحل كثيرة من تطور القصيدة، وتحرر الشعر من المقدمات الغزلية أو الطللية.. وإن تميزت القصائد النبوية بمقدمة من المديح النبوي الرقيق، وقد استعرض عكرمة في المقدمة محطات من سيرة النبوة.

٢- كان اعتذار كعب عن سبب شخصي، جراء ما بدر منه، فكان طالبا الصفح والعفو، أما اعتذار عكرمة فكان نيابة عن الأمة المحمدية عن تفريطها وتأخرها، وهو الأمر الذي اعتبره الشاعر يمس فضيلة الوفاء.

٣- حاول كل شاعر أن ينثر الحكمة في قصيدته، والموقف المشترك بينهما- وهو خطاب النبوة- يشجع على هذا.. فمن حكمة كعب:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يومًا على آلةٍ حدباء محمول

ومن حكمة عكرمة:

راجم الشمس لن يضير سناها لا ولن يحجب الشموس دخان

٤- أتاح الفارق الزمني الشاسع لصالح عكرمة أن يتحدث عن أمور كثيرة من تاريخ الإسلام، لم تتح لكعب بالتأكيد.. منها الحديث عن الفتوح الإسلامية، وموقف بعض المسيئين لرسول الله ﷺ من أهل الغرب. يقول عكرمة:

هكذا الغرب رد فضل فتوح لن ترى مثل عدلها الأزمان

٥- اهتمت قصيدة كعب بالصحابة الكرام، وأشادت بالمهاجرين ودورهم، في حين اهتم عكرمة بالنظرة الثنائية ما بين ازدهار الماضي ومآسي الحاضر.

وأخيرا تكشف النظرة للقصيدتين عن الوضع الإسلامي الآني وما فيه من آلام صورتها قصيدة عكرمة، ووضع الإسلام في بداياته وما كان فيه من بشريات جاءت واضحة في قصيدة كعب، وذلك على الرغم من أن الإسلام وقت القصيدة الكعبية لم يكن قد تجاوز المدينة المنورة.

الهوامش:

١- انظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (عذر).

٢- انظر ديوان «عذرا رسول الله»، طبعة منتدى الأدب الإسلامي، المركز العالمي للوسطية، الكويت سنة ٢٠٠٩م.

البحث عن وطن

طارق نصار
شاعر مصري

إلهي إليك أقود خطاي ... وأسكب دمعي على ذي الخطايا
فمن بطن أمي خرجت ضعيفا ... ومن ذلك الضعف كانت قوايا
تهدهدني كي يطول سكوني ... تلاطفني كي أكف بكايا
فكم علمتني بناء الكلام ... ومضغ الطعام وحسن السجايا
وكم خبطت في الأمور يداي ... وكم عثرت في المسير خُطايا
وكم أدبتني الخطوب فأبكي ... فتمسح دمعي بسرد الحكايا
نشأت ابن أميَ، وابن الحياة ... أحيل عن الموت وجه المطايا
نشأنا صغارا كبارا بأرض ... ترانا جناة ونحن الضحايا
فقلت سآوي إلى حضن أنثى ... تلملم ما بعثرته يدايا
وتأخذ ما حررته دمائي ... فتصنع منه مئات الشظايا
شظايا بنين بنات وجيلا ... يفجر فينا مئات القضايا
قضايا الشعوب التي حررت ... وأحلامهم لا تزال سبايا
سأحفر في الأرض دربا عنيدا ... قواه ثلاثون عاما رزايا
وفي الأرض أزرع حب الإله ... ليقتات منه جميع البرايا
فكل صبي نما من غراسي ... أراه على البعد صار أخايا
سفينة نوح حوت بعض نفسي ... وأعطت إلى أمهاتي البقايا
فكم سافرت في الظهور عظامي ... وكم رحلتْ في البطون دمايا
إلى أن بدا لشراع السنين ... وربانها أن هنا شاطئايا
ولدتُ وعالمنا في فرار ... عجيب من الموت نحو المنايا
نفى خارج القلب نبض الأمان ... وأسكن جلاده في الحنايا
سل اللاجئين وراء بلادي ... هم المرسلون إلينا هدايا
سل الآكلين تراب الرغيف ... عصا المستبد تسوق الرعايا
سل العازفين لحون النشاز ... يغنون فوق لحوم العرايا
سل الآخذين بثأر الشهيد ... سل الساجدين بهذي الزوايا
سل النيل عنا وعما تبقى ... يجبك الفرات: الوجوه الخزايا
يحرك مركز هذا الوجود ... حقيقتنا فانظروا في المرايا
سأهجر ما أفسدته القرون ... إلى عالم شاده ساعدايا
سأهرب من ذبذبات الأثير ... التي سئمت صوتها أذنايا
وآوي إلى صوت ترتيل فا ... تحة يستريح بها خافقايا
سأهرب من شاشة لم تُذقني ... البشاشة إلا بفاه الدنايا
وآوي إلى شاشة الكون تحت ... الظلال وفوق شفاه الثنايا
إلى البدر مزدهيا في دجايا ... إلى الشمس لؤلؤة في سمايا
لتصبح لي الأرض ملكا فسيحا ... وما ملكت منه شيئا يدايا
إلهي بمصباح هذا الوجود ... أجر عائذا من ظلام الطوايا
أنر بالكتاب السماوي عصرا ... بأحكامه جلدت كتفايا
فما لي في الكون رب سواك ... وكم لك في العالمين سوايا
وفي الغد لي أمنيات ستحيا ... وتمشي معي في الدروب خفايا
غدا ستسير العوالم خلفي ... وتمشي الثريا هنا في ثرايا
سيحفظ عني التلاميذ حلما ... حلمت به زمنا في صبايا
ستبدأ من ثلج «موُسكو» سفيني ... إلى فتح «روما» تقود السرايا
ليذكر ميثاق آدم شعب ... تعطن تحت حرير الحشايا
نما غافلاً عن وجود الإله ... فمزق أقدس ما في الوصايا
سأبني لهم موطنا من تراثي ... كما لي بنى موطنا والدايا



من جمال النظم القرآني في سورة الإخلاص

د. أحمد إسماعيل عبد الكريم
دكتوراه الألسن - جامعة عين شمس

سورة الإخلاص من السور التي أنزلت على رسولنا الكريم ﷺ مرسخة لعقيدة التوحيد، موضحة تفرد الله -عز وجل- ووحدانيته، وأنه لا مثيل له ولا نظير، وقد تضمنت الرد على مغالطات أهل الديانات السابقة من اليهود والنصارى وغيرهما، وقد جاءت السورة في غاية الإيجاز والإعجاز، على مستوى اللفظة والعبارة، والصياغة والتركيب.

موضوع السورة:

تناولت هذه السورة التوحيد بأسلوب وجيز واضح، وأن الله -عز وجل- كتب على نفسه التوحد في الصفات والأسماء، وأنه واحد لا شريك له ولا كفؤ له ولا ند له ولا نظير، وهذه الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها للعالمين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾(الإخلاص:١) هي عقيدة للضمير، وتفسير للوجود ومنهج للحياة، وقد تضمنت السورة أعرض الخطوط الرئيسة في حقيقة الإسلام، فليس هو كما يعتقد النصارى بالتثليث، ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة، ولا كما يعتقد غيرهم من اليهود وأصحاب المذاهب الأخرى الضالة. جاء في التسهيل: «واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان، كلها صحيحة في حقه تعالى، الأول: أنه واحد لا ثاني معه، فهو نفي للعد، والثاني: أنه واحد لا نظير له ولا شريك، والثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض، والمراد بالسورة نفي الشريك ردا على المشركين، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، وذلك كثير جدا، وأوضحها أربعة براهين: الأول قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾(النحل١٧). وهذا دليل الخلق والإيجاد، فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات لم يصح أن يكون واحد منها شريكا له، والثاني: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(الأنبياء:٢٢). وهو دليل الإحكام والإبداع، والثالث: قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾(الإسراء:٤٢). وهو دليل القهر والغلبة، الرابع: قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١). وهو دليل التنازع والاستعلاء.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾(الإخلاص:٢)

أي: هو سبحانه المقصود في الحوائج، على الدوام يحتاج إليه الخلق، وهو مستغن عن العالمين،

وفي هذا التفاتة لهم أن يتدبروا ما يفعلون لما يعبدون، وأن يتأملوا جيدا في حقيقة ما حولهم من آيات كونية تتنافى مع ما يفعلون، قال الألوسي: الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد -أي يلجأ- إليه الناس في حوائجهم وأمورهم وهي تشعر بعلية الألوهية، لأنه تعالى هو السيد المصمود إليه من كل مخلوق لا يستغني عنه، وذكر أبو حيان قول الشاعر في معنى الصمد:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقيل في تفسير الكلبي: إنه الذي لا يأكل ولا يشرب، وقيل: إنه الذي لا جوف له، والصمدية تتضمن حاجة الخلق إلى الله سبحانه، وعدم استغنائهم عنه، لقدرته -عز وجل- على الفاعلية، والإرادة وأهليته للربوبية، ومسؤوليته تجاه خلقه. ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾(الإخلاص:٣).

وهذا القول فيه رد على كل من ادعى أن لله ولدا، وإفحام لكل من يزعم بذلك، فهو سبحانه منزه عن النقائص، وليس كمثله شيء، ليس هو سبحانه كالخلائق يتناسل أو يفعل ما تفعله الكائنات التي خلقها وأبدع صنعها، قال المفسرون: في الآية رد على كل من جعل لله ولدا، كاليهود في قول الله تعالى على لسانهم: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾(التوبة:٣٠). والنصارى في قول الله تعالى على لسانهم: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ (التوبة٣٠). وكمشركي العرب في زعمهم أن «الملائكة بنات الله»، فرد الله -تعالى- على الجميع بأنه ليس له ولد، لأن الولد لابد أن يكون من جنس والده، والله تعالى أزلي قديم ليس كمثله شيء، ولأن الولد لا يكون إلا لمن له زوج، وركبت فيه الشهوات من ملذات الدنيا وزينتها، يقول سبحانه في آية أخرى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ﴾(الأنعام:١٠١). ومن كانت فيه هذه الصفات لا يختلف عن أي كائن حي آخر، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ (الإخلاص:٣). قول صريح في أنه تعالى غير متولد من غيره، وتبطل هذه الآية مذهب النصارى القائل بأن عيسى إله، لأنه يلازمه افتقاره في وجوده إلى غيره، وذلك ينافي صفة الإلهية، لأن الإله لا يحتاج لغيره، ولا ينفعه صلاح الخلائق ولا يضره فسادهم، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فهو الذي قيض أمره في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧)، وقد نفت الآية عنه -سبحانه- إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لا ابتداء له، الآخر بلا انتهاء سبحانه، يقول المرحوم سيد قطب في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ (الإخلاص:٣)،: «حقيقة الله ثابتة أبدية أزلية، لا تعتورها حال بعد حال، صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال، والولادة انبثاق وامتداد، ووجود زائد بعد نقص أو عدم، وهو على الله محال، ثم هي تقتضي زوجية، تقوم على التماثل، وهذه كذلك محال، ومن ثم فإن صفة أحد تتضمن نفي الوالد والولد».

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ (الإخلاص:٤)، أي: وليس له -جل وعلا- مثيل ولا نظير ولا شبيه، لا في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله، قال ابن كثير: «هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدس وتنزه، وفي الحديث القدسي يقول الله سبحانه: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد»، ويقول المرحوم سيد قطب: «أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ، لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعلية، ولا في أي صفة من الصفات الذاتية، وهذا كذلك يتحقق بأنه أحد، ولكن هذا توكيد وتفصيل».

وقد جاءت السورة في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله عز وجل عن صفات العجز والنقص ويحتم علينا السياق اللغوي والتركيبي أن ندخل في البنية التركيبية والسياقية لنص السورة الكريمة، حيث ارتبطت الجمل في السورة بأقوى علاقات الارتباط، وهي علاقة الإسناد، ولم توجد معها علاقة أخرى تزاحمها باستثناء الجملة الأخيرة فقد انعكست فيها العلاقات بتقدم الجار والمجرور «له» على متعلقه «كفوا» وتقدم الخبر «كفوا» على المبتدأ «أحد» فأصبح اتجاه العلاقتين عكسيا وكأن السورة تعود في نهايتها لتشير إلى البداية حسيا ومعنويا من خلال ألفاظها وعلاقاتها بأن الله واحد لا شريك له.

وهكذا أرست السورة لعقيدة التوحيد في وصفها لوحدانية الله عز وجل، نافية كل الصور العالقة في أذهان أهل الكفر والضلال.

أجوبة لطيفة عن أربع سؤالات شريفة

للعلامة الشيخ: غنام بن محمد بن غنام النجدي الحنبلي (ت ١٢٣٧هـ)

تحقيق : صالح بن عبدالفتاح بن عبدالخالق
باحث بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية

هذه رسالة في أصول الفقه الحنبلي تتضمن التعليق على أربع مسائل حول قضايا التقليد والتلفيق، وجواز ترجيح بعض المذاهب، وانقطاع الاجتهاد من عدمه، وهي على مذهب الحنابلة، أجاب عنها أحد المتأخرين من علماء المذهب، وهو الشيخ غنام بن محمد بن غنام النجدي، الحنبلي، المتوفى سنة (١٢٣٧هـ)، وهو فقيه حنبلي، فرضي، نجدي الأصل والمولد، نشأ في الزبير (بالعراق)، وأقام وتوفي بدمشق، وله تقارير وأبحاث كثيرة على هوامش شرح المنتهى في الفقه الحنبلي، وغير ذلك(١).

وقد اعتمدت في تحقيقها على نسخة خطية فريدة كتبت بخط المؤلف، محفوظة ضمن مجموع بالخزانة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية، تحت رقم (٤٩/مصطلح حديث تيمور)، وتقع في صفحتين من ص (٤٨٢- ٤٨٣)، وعليها وقف عبدالسلام الشطي الحنبلي.

بسم الله الرحمن الرحيم

سؤال يشتمل على أربع مسائل تؤخذ من كلام أبي الحسن السندي، عليه الرحمة من الرؤوف المبدي.

إحداهن: لزوم تقليد من يظنه موافقًا الحق، وترك تقليد من يظنه مخالفًا للحق، وهذا في العامّيّ، وأما من له أهلية فالأخذ في حقه أوجب وآكد.

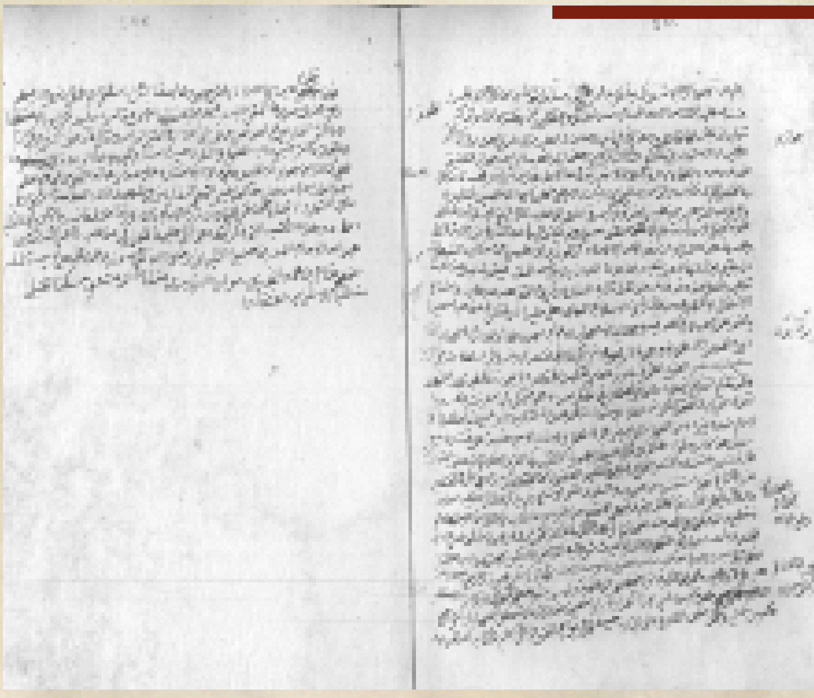
الثانية: أن الاجتهاد لم ينقطع.

الثالثة: جواز ترجيح بعض المذاهب.

الرابعة: جواز التلفيق.

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فالأولى جائزة، بل قد يجب، فإنه قال في مختصر التحرير وشرحه(٢):



«ويلزمه- أي: العامي- إن بان له الأرجح منهما- أي: المذهبين- تقليده، ولا يلزمه التمذهب بمذهب يأخذ برخصه وعزائمه في أشهر الوجهين، قال شيخ الإسلام: إن خالفه لقوة دليل، أو زيادة علم، أو تقوى، فقد أحسن، ولم يقدح في عدالته بلا نزاع، وقال: بل يجب في هذه الحال، وأنه نص الإمام أحمد. وذكر الوزير ابن هُبيرة: من مكائد الشيطان: أن يقيم أوثانًا في المعنى تعبد من دون الله، أن يتبين- أي: له- الحق، فيقول: ليس

هذا مذهبنا، تقليدًا لمعظَّم عنده قد قدمه على الحق».

قال في الإقناع(٣): «ولزوم التمذهب بمذهب وامتناع الانتقال: الأشهر عدمه».

قال شيخ الإسلام(٤): «العامي هل عليه أن يلتزم مذهبًا معينًا، يأخذ بعزائمه ورخصه؟ فيه وجهان لأصحاب الإمام أحمد، وهما وجهان لأصحاب الشافعي، والجمهور من هؤلاء وهؤلاء، لا يوجبون ذلك».

قال في مختصر الروضة وشرحه للعلامة نجم الدين سليمان بن عبدالقوي الطوفي(٥): «يجوز للعامي تقليد المجتهد، ولا يجوز ذلك لمجتهد اجتهد وظن الحكم اتفاقا فيهما، أما من لم يجتهد في الحكم بعد، وهو متمكن من معرفته بنفسه بالقوة القريبة من الفعل؛ لكونه أهلا للاجتهاد، فلا يجوز له تقليد غيره أيضا مطلقًا، لا لأعلم منه ولا غيره، لا من الصحابة ولا غيرهم، لا لعمل ولا لفتيا، لا مع ضيق الوقت ولا مع سعته. هذا فائدة قوله: مطلقا».

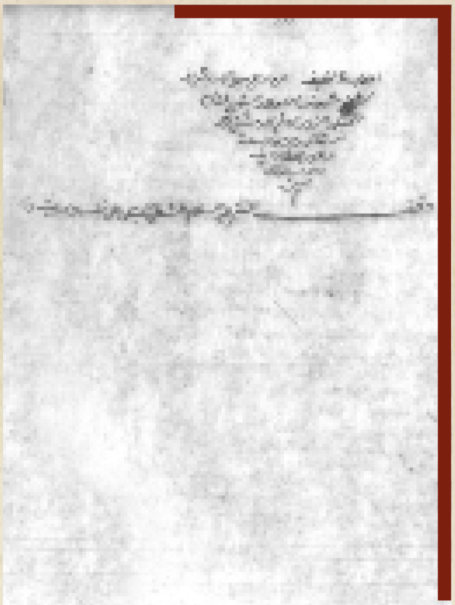
وقال أيضًا(٦): «يجوز التقليد في الفروع خلافًا لبعض القدرية».

قال في المنتهى، والإقناع، ومختصر التحرير: «ويجوز تقليد المفضول من المجتهدين- زاد في شرح المختصر: «عن الأكثر»- لأنهم استفتوا من الصحابة والسلف وأفتوا، أو شاع ولم ينكروا، وقال عليه الصلاة والسلام:

«أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»، وفيهم الأفضل من غيره»(٧).

وأما الثانية

فكما قال أن الاجتهاد لم ينقطع، وأنه ممكن، بل يجب عند أصحابنا، ولهذا قال في مختصر التحرير: «ولا يجوز خلو عصر عنه- أي: المجتهد»(٨).



ويشهد له عبارتا المنتهى، والإقناع، وغيرهما، حيث شرطا في القاضي أن يكون مجتهدًا، أي: مطلقًا؛ لأنهما قالا بعد: «ولو في مذهب إمامه للضرورة»(٩).

وأما الثالثة

فكما ذكر أنه يجوز ترجيح بعض المذاهب بالدليل.

قال في شرح مختصر الروضة(١٠): «وحكي عن الباقلاني إنكار الترجيح، وليس بشيء- يعني أن قول الباقلاني هذا ليس بشيء- لأن العمل بالأرجح متعين عقلًا وشرعًا، وقد عمل الصحابة بالترجيح مجمعين عليه. وقد نص الشارع على اعتباره حيث قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله...» الحديث، فهذا تقديم للأئمة في الصلاة بالترجيح، ولما بعث السرايا، استقرأهم القرآن، فوجد فيهم رجلًا يحفظ سورة البقرة، ليس فيهم من يحفظها غيره، فأمَّره عليهم، ترجيحًا له بحفظها.

ولما كثر القتلى يوم أحد، أمر بدفن الجماعة في القبر الواحد، وقال: «قدموا أكثرهم قرآنًا»، وبالجملة فالترجيح دأب العقل والشرع حيث احتاج إليه».

وأما الرابعة

فهي كما قال من جواز التلفيق على ما قاله، واختاره علامة زمانه الشيخ مرعي(١١)، ولم أعلم أحدًا من أئمة مذهبنا خالفه غير الشيخ السفاريني، ويشهد لما قاله العلامة الشيخ مرعي ما في المنتهى، والإقناع، وغيرهما، من قولهم: «وإن ترك الإمام ركنًا، أو شرطًا مختلفًا فيه بلا تأويل ولا تقليد أعاد»(١٢).

وهذه الكتب التي ذكرتها هي التي عليها العمل في مذهب ناصر السنة أبي عبدالله الإمام أحمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه، وعن جميع الأئمة.

الهوامش

١- انظر: «الأعلام»، للزركلي (٥/ ١٢١- ١٢٢).

٢- انظر: «شرح الكوكب المنير» لابن النجار، طبعة العبيكان (٤/ ٥٧٣، ٥٧٤- ٥٧٥- ٥٧٦).

٣- «الإقناع» للحجاوي، طبعة دار المعرفة (٤/ ٣٧٦).

٤- «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٢٢٢).

٥- «شرح مختصر الروضة» للطوفي، طبعة الرسالة (٣/ ٦٢٩).

٦- المصدر نفسه (٣/ ٦٥٢)، وفيه: «يجوز التقليد في الفروع إجماعًا أي بالإجماع خلافًا لبعض القدرية».

٧- انظر: «منتهى الإرادات» للفتوحي- مع حاشية النجدي- طبعة مؤسسة الرسالة (٥/٢٦٠)، و«الإقناع» للحجاوي، طبعة دار المعرفة (٤/٣٧٦)، و«شرح الكوكب المنير» لابن النجار، طبعة العبيكان (٤/٥٧١، ٥٧٢).

٨- «شرح الكوكب المنير» لابن النجار (٤/٥٦٤).

٩- انظر: «منتهى الإرادات» للفتوحي- مع حاشية النجدي- طبعة مؤسسة الرسالة (٥/٢٦٨)، و«الإقناع» للحجاوي، طبعة دار المعرفة (٤/٣٦٨).

١٠- «شرح مختصر الروضة» للطوفي، طبعة الرسالة (٣/٦٧٩- ٦٨٠).

١١- للشيخ مرعي الحنبلي- رحمه الله تعالى- رسالة حول التلفيق، ومنها نسخة بخط الشيخ غنام النجدي مؤلف هذه الرسالة محفوظة ضمن مجموع رقم (٤٩/مصطلح حديث تيمور)، من ص (٤٨٧- ٤٨٨)، بدار الكتب المصرية.

١٢- انظر: «منتهى الإرادات» للفتوحي- مع حاشية النجدي- طبعة مؤسسة الرسالة (١/٣٠١)، و«الإقناع» للحجاوي، طبعة دار المعرفة (١/١٦٨).

معاني «القعود» في القرآن الكريم ودلالاتها التربوية

د. مصطفى رجب
باحث دراسات إسلامية



القرآن الكريم يحث على السعي والعمل والجهاد، ففي آيات كثيرة نرى تحفيزا للناس على السعي في الأرض، وتأمل آثار نعمة الله، وتتبع آياته في خلقه البديع، وفي آيات كثيرة نرى تشجيعا للناس على السير في الأرض، وتأمل عواقب الأمم السابقة الطاغية المتكبرة من خلال ما بقي من آثار ومعالم، وفي آيات أخر نرى دعوات للمسارعة في الخيرات، والتنافس في الطاعات، والتسابق إلى نيل رضوان الله تعالى، والفوز برحمته في الدنيا وفي الآخرة بالعمل الصالح الدؤوب.

وكل المعاني السابقة تبرز لنا أهمية «الحركة»،والنشاط،والهمة،والسعي، في حياة المؤمن الحق. وهذا يتفق مع متطلبات الصحة النفسية للإنسان، فإن الحركة الدائمة، والسعي الدؤوب من مؤشرات «الإيجابية» في الحياة، والإنسان الإيجابي عند علماء النفس والتربية، هو الإنسان السوي الصحيح نفسيا الذي يتفجر إحساسه بالسعادة الحقيقية، من سلوكاته مع الآخرين أخذا وعطاء، وحفزا، وتعاونا، وتفاعلا مستمرا من أجل حياة أفضل، وأفضل ما تكون الحياة حين تتوافق معالمها مع المنهج الذي ارتضاه الله تعالى لخلقه.

وعلى النقيض من كل ما سبق، تأتي «السلبية» كطاقة مدمرة، يلجأ إليها البائسون اليائسون من مرضى النفوس، يتدثرون بها ليواروا سوءة تخاذلهم وضعفهم النفسي، وخواء تفكيرهم، وخور هممهم.

وقد ورد لفظ «القعود» في القرآن الكريم ومشتقاته بعدة صور تعكس لنا أحوال القاعد، وبؤس تفكيره، وأنانيته، وإيثاره الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

وبحر الدلالة اللغوية لمادة (ق.ع.د) واسع عميق، فقد قالت العرب للرجل العاجز الذي لا يكتسب ما يعيش به: هو «قعدة ضجعة» (أي: دائم القعود والاضطجاع، لا يسعى لكسب معايشه)، وقالوا لمن يحب كثرة القعود في بيته: هو «قَعَدي» بفتح العين. وقعد عن الأمر، أي تركه. وبعكسها قالوا: قعد للأمر: أي اهتم به.

وفي إطار هذه الدلالات لمعاني القعود نقرأ في القرآن الكريم وصف بعض المنافقين الذين حاولوا تخذيل إخوانهم من المجاهدين وتشجيعهم على رفض الخروج للجهاد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ (آل عمران: ١٦٨).

ويأتي حكم الله تعالى واضحا قاطعا في ذم القعود عن الجهاد ممن يمتلك القدرة، ولكنه يمتلك مع القدرة نفسا ضعيفة، وإرادة خائرة، ولا عذر بدنيّا عنده يعوقه عن فريضة الجهاد. يقول تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥﴾ (النساء: ٩٥).

ويقص علينا القرآن الكريم من قصص بني إسرائيل، كيف استناموا إلى الكسل والخنوع، وقعد بهم خوفهم مواجهةَ الأعداء عن نصرة نبيهم موسى عليه السلام، يقول تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ (المائدة: ٢٤).

وقد وصف القرآن الكريم أحوال المنافقين في المدينة المنورة أثناء غزوات رسول الله ﷺ، وصورهم القرآن الكريم في أحوال شتى تعكس جبنهم، وكيدهم للدين، وإيثارهم للحياة الدنيا، ومن ذلك أنهم:

(١) كسالى، لا يبادرون إلى الجهاد، ولا يرحبون ببذل المال والنفس في سبيل نصرة دين الله، فاستحقوا بهذا غضب الله تعالى عليهم، فوبخهم سبحانه وتعالى بأسلوب يكشف لنا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد، وأن أعذارهم التي تقدموا بها- لإعفائهم من الخروج- باطلة، فإن العذر الحقيقي المقبول هو المانع الشرعي الذي يظهر بعد أن يكون الإنسان قد شرع في التهيؤ، وسعى في أسباب الخروج، ثم فاجأه مانع شرعي لم يكن يتوقعه، فهذا هو الذي يعذر، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾ (التوبة: ٤٦).

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال سبحانه: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾ (التوبة: ٤٧). أي: لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا نقصا، ولأوضعوا خلالكم، أي: سعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم، لأنهم حريصون على فتنتكم وإذكاء روح العداوة بينكم، وفيكم أناس ضعفاء العقول سماعون لهم، أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم.

(٢) وهم مترددون، لأنهم حين رأوا المغانم التي فاز بها إخوانهم الذين بادروا إلى الجهاد، والخروج مع رسول الله ﷺ، راجعوا مواقفهم وترجحت لديهم مصلحتهم المفضلة دائما، وهي الثروة والمغانم، فجاءوا يعتذرون ويطلبون المشاركة، فكان الأليق بهم رفض مطلبهم وتذكيرهم

بتخاذلهم الأول. قال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (التوبة: ٨٣).

(٣) وهم كاذبون، فقد طلبوا الإذن لهم بالتخلف عن الجهاد، مع قدرتهم عليه، ومع كثرة أموالهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (التوبة: ٨٦).

وبالإضافة إلى المعاني السابقة للقعود المرتبطة بالتهرب من الجهاد، والنكوص عن نصرة الدين، فقد وردت دلالات لغوية أخرى لمادة «قعد» في القرآن الكريم، تشير في معظمها إلى صفات مذمومة.. منها القعود مع الظالمين لمحاربة دين الله، كما يظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ (النساء: ١٤٠) وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٦٨).

ومن تلك الصفات المذمومة أيضا ورود «القعود» بمعنى التربص والتآمر، كما ورد في وصف إبليس عليه اللعنة وعلى لسانه في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الأعراف: ١٦).

ويرتبط القعود بالحسرة كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الإسراء: ٢٩).

أما كونه ملوما فلأنه يلوم نفسه، وأصحابه أيضا يلومونه على تضييع المال وتضييع فرص كسبه وتحصيله، مما يترتب عليه إبقاء الأهل والولد في الضر والمحنة، وأما كونه محسورا فمأخوذ من قول العرب للبعير: هو محسور إذا انقطع سيره، وحسرت الدابة إذا سيرها حتى ينقطع سيرها، فالمحسور- بهذا المعنى- هو المتعب المضنى الذي انكشفت عنه القوة، ولم تبق به قدرة على شيء، وكذلك هو مأخوذ من قول العرب: حسرتُ البعير أي أضنيته وأتعبته بالسير، حتى لم تبق به قدرة عليه. والجمل لا يقطع الطريق ويصل إلى الغاية إلا إذا حافظ صاحبه على ما فيه من قوة، فسار به سيرا وسطا، أما إذا أجهده واستنزف قوته، فإنه يسقط كليلا محسورا: فلا قطع طريقه، ولا وصل منزله، ولا أبقى جمله.

وكذلك الإنسان في طريق هذه الحياة محتاج إلى قوة المال، فإذا أنفقه بحكمة نفع به وانتفع، وبلغ غاية حياته هادئا راضيا، وإذا بسط يده فيه كل البسط أتى عليه فانقطع النفع والانتفاع، ولم يبلغ غاية حياته إلا بتعب ومشقة.

ويظهر من هذا أن قوله ﴿مَلُومٗا﴾ يرجع للمقتر والمسرف. وقوله: ﴿مَّحۡسُورًا﴾ يرجع للمسرف فقط. ولكن لما كان المحسور هو الذي ذهبت قوته فلا قدرة له على شيء، فقد يمكن القول: إن البخيل أيضا مبغوض من الناس مخذول منهم، فلا يجد في ملماته معينا، ولا في نوائبه معزيا، فهو أيضا ضعيف الجانب لا قوة له. فالمسرف ضيع المال، والبخيل ضيع الإخوان، فكلاهما مكسور الظهر، عديم الظهير.

كما يرتبط القعود بالخذلان كما في قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴾ (الإسراء: ٢٢).

فلفظ «القعود» المذكور في قوله تعالى: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴾ معناه: المكث، أي فتمكث في الناس مذموما مخذولا، وهذه اللفظة مستعملة في العربية والفارسية بهذا المعنى، فإذا سأل الرجل غيره: ما يصنع فلان في تلك البلدة؟ فيقول المجيب: هو قاعد بأسوأ حال. معناه: المكث، سواء أكان قائما أم جالسا. ومن شأن المذموم المخذول أن يقعد نادما متفكرا على ما فرط منه.

ولا يخفى على عاقل أن التمكن من تحصيل الخيرات يتطلب السعي في تحصيلها، والسعي إنما يتأتى بالقيام، والإنسان الكسلان العاجز عن تحصيل الخير لنفسه ولغيره يتملكه الخمول والإحباط فلا يسعى، بل يبقى جالسا قاعدا عن الطلب، فلما كان القيام على الرجلين كناية عن سرعة الحركة وحب السعي، صار أحد الأمور التي بها يتم الفوز بالخيرات، وكان القعود والجلوس علامة على عدم تلك المكنة والقدرة، لذلك ظهر في السياقات القرآنية المتعددة جعل القيام كناية عن القدرة على تحصيل الخيرات، والقعود كناية عن العجز والضعف.

وهكذا نرى أن القعود- بأصل معناه اللغوي، وفي ضوء السياق القرآني- يتضمن دلالات تربوية تدور كلها حول: السلبية والخنوع والجبن والكسل وضعف الوازع الديني والتربص والتآمر والحسرة والخذلان.

الأنشطة المدرسية بين اعتبارات التربية وضغوط الواقع

حمدي سعيد
كاتب مصري

لا يمكن فصل العمل عن الفكر، ولا الجسد عن الروح، فمعنى الثاني الفناء، ومعنى الأول الخواء، فالتفاعل بين المكونات هو ما يعطي معادلات التنوع والثراء في الحياة.



العملية التعليمية ليست فقط نظريات ولا أفكارًا ولا تطبيقات، إنما هي جماع كل ذلك في هذا المجتمع الذي ينخرط فيه أبناؤنا ليتعلموا ويتغيروا كما نأمل، ألا وهو مجتمع المدرسة، أي البيئة التي تنشئ أجيالا على مبادئ وقيم وسلوكيات تظل حاكمة طوال مسيرة حياتهم بعد ذلك.

وفي هذا العصر الذي تلهث فيه أنفاسنا وراء متابعة مستجدات العلوم والابتكارات الحديثة في كل مجال يكتسب الجانب العملي والتطبيقي للمعارف والعلوم أهمية تتزايد مع الأيام وتتحول التربية إلى عملية مستمرة متنامية متكاملة لا تقف عند حد ولا تنحاز لجانب فحسب من جوانب النمو لهؤلاء التلاميذ خلال مسيرتهم الدراسية، بل تسعى لأن تُعدهم إعدادا شاملا متكاملا، وتحرص على أن تكون ذات إسهام بارز في بناء شخصية متزنة متفقة والعصر ومتطلباته.

فالتعلم هو في الأساس عملية تغيير وتعديل بالطبع نحو الأفضل، وهو يمكّن الفرد ويساعده على تطوير شخصيته من جوانبها كافة، روحية وفكرية وبدنية وسلوكية ووجدانية بصورة متكاملة.

وتتضح خطورة الأمر مع ما يتعاظم في عالمنا العربي من حرص المدارس على المناهج الدراسية والمواد التعليمية التي يأتي أغلبها في صورة التلقين والحفظ فيما يتراجع الاهتمام بالأنشطة المدرسية رغم كونها إحدى أدوات التربية وآلياتها لتثقيف وتنمية التلاميذ، وعلى قدر توغل مفهوم النشاط التعليمي في القدم- منذ عرف الإنسان التعليم بشتى صوره- إلا أنه يشهد تراجعا مع السنين لصالح المناهج الدراسية، بل مع وجود إشكاليات أخرى، منها ما يتعلق بالمربي كعنصر للتربية، ومن ذلك النظرة السائدة في كثير من الدول العربية والتي يشوبها الكثير من التناقض، فهناك- من ناحية- شعور بأن التعليم هو المستقبل، ومن يدخل من بابه يخرج ومعه ضمانات المستقبل والرقي والحراك الاجتماعي والاقتصادي، وفي الوقت ذاته هناك النظرة الدونية لمن يمتهن مهنة التعليم (١).

وإذا أردنا تأصيل قضية الأنشطة المدرسية فيمكننا تأمل طبيعة التلاميذ، خاصة في المراحل الأولى من الدراسة، وكونهم يميلون للحركة واللعب، ويتضايقون من طول الجلوس، ويملون من الحديث من طرف واحد، لذا فإن من شأن الأنشطة المدرسية في هذه المراحل أن تجعل المدارس بيئات جاذبة ومحببة لهم، فنحن لا نفتأ نذكر حصة الرسم التي كنا ننطلق فيها لنعبر بالألوان عن ذواتنا، أو حصة الألعاب التي نفرغ فيها طاقتنا وتوقنا للحركة والنشاط، أو تلك المسرحية التي نطقنا فيها بجملتين وسط تصفيق الزملاء وسعادتهم، ونتذكر أيضا كيف كنا نعود نشطاء متحمسين لدروسنا الأخرى بعد هذا النشاط.

ومن هنا يجدر بنا التعريف بمصطلح اللعب «فاللعب هو نشاط يقبل عليه الأطفال بحماسة بالغة من تلقاء أنفسهم، ويمضون الساعات في ممارسته، وقد اعتبره التربويون أحد عوامل نمو الطفل.. من خلال اللعب يتم إيصال المفاهيم والمعلومات وتطوير المهارات»(٢).

وبالتالي فدور الأنشطة المدرسية يمكن تعظيمه وزيادته إذا تم وفق أهداف تربوية، وبأساليب صحيحة، وعن اقتناع من القائمين على تطبيقها بأنها مفيدة ومؤثرة إيجابا في حياة الأطفال والمجتمع من بعد حين يشبون، وهنا يكون الدور الأكبر للمربي ومن يعهد إليه بالتنفيذ، إذ «ليس هناك ميدان من ميادين النشاط الإنساني تلعب فيه الموهبة دورا حاسما كما في الميدان التربوي، فالمربي الموهوب فقط، أي الشخص الذي يمتلك نزعة للتربية، يكون قادرا على احترام وحماية معجزة إنسانية الطفل التي يعجز الوصف عن وصفها، إذ إن احترام الإنسان يعتبر بداية ونهاية عموم ميدان التربية»(٣).

فعملية التربية علميا أمر وثيق الصلة بتلك الأنشطة المدرسية، والأكاديميون والباحثون يؤكدون أن «التربية لا تنحصر في مجرد تزويد الفرد بمجموعة من المهارات والمعارف والمعلومات، وإلا أصبح أثرها محدودا، وتوقفت الحضارة الإنسانية عن النمو، إنما يمتد أثرها لجميع جوانب الفرد، بالإضافة إلى ما لديه من مهارات مختلفة في كل متكامل»(٤).

والأمر السابق يسير مع التلاميذ والطلاب لمدى طويل أو حسب ما يقول علم التربية إن «التربية عمل يستغرق العمر كله، منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل، ومن الخطأ تصور أنها بناء يتطلب بضعة شهور أو بضع سنين يعقبه استجمام أو استرخاء»(٥).

ويجدر بنا هنا توضيح ما للنشاط المدرسي من فوائد عديدة نذكر منها أنه:

أولا: يساعد على تكوين عادات وسلوكيات حميدة مثل تقدير قيمة الوقت واحترام الآخر والقبول بالاختلاف.

ثانيا: يكسب الطفل مهارات جديدة مثل الحوار البناء والإصغاء بالإضافة إلى مهارات تخصصية في المجالات الفنية والأدبية والرياضية وغيرها.
ثالثا: يتيح فرصا لابتكار وسائل وأساليب لتبسيط المنهج الدراسي وتسهيل استيعابه والزيادة في تحصيله.
رابعا: يجعل الطفل ينمو نموا نفسيا وسلوكيا رشيدا، فالتلميذ الذي يمارس الأنشطة المدرسية لديه قدرة أكبر على العمل في جماعة والتعبير عن نفسه وتقبل الاختلاف.

نظرة واقعية

ربما الطرح المستتير لأهمية الأنشطة المدرسية نفسيا وتربويا وأثرها الإيجابي على العملية التعليمية يعده البعض غير واقعي في ظل الأوضاع التعليمية والاقتصادية للكثير من الدول العربية التي تعد نسب الأمية فيها هي الأعلى عالميا، ولا تكاد تستوعب مدارسها التلاميذ في سن الإلزام المدرسي، مما يجعل المطالبة بتوفير إمكانات وقدرات تتيح للتلاميذ ممارسة الأنشطة ضربًا من العبث والمبالغة في غير محلها.

فعلى سبيل المثال تصل الأمية عربيا إلى نسب تتراوح بين ٣٠ و٤٠٪ من المواطنين، وتصل كثافة التلاميذ في عدد كبير من الفصول بمدارس القرى وبعض المدن إلى سبعين تلميذا في الفصل، ولا توجد قاعات لممارسة أنشطة الموسيقى أو المسرح، وفناء المدرسة يتم تحويله إلى فصول دراسية لتقليل الكثافة واستيعاب تلاميذ جدد.

هذا مع قصور مهارات المعلمين وكما يقول الأكاديميون «إن المعلم الذي لا يوصل إلى طلابه سوى مفردات المنهج المقرر، ويستخدم الأساليب التي تعلمها في معهد إعداد المعلمين يمكن أن نشبهه بموزع حبوب علاج يتم تركيبها بموجب وصفة، ومن ثمّ لا

> **يخطئ من يظن أن التربية أمر غير وثيق بالأنشطة المدرسية**

يمكن أن يكون طبيبا حقيقيا»(٦).

كما لا يوجد بهيئات التدريس بهذه المدارس من يقوم بتدريس الموسيقى أو الفن التشكيلي أو المسرح، للنقص الحاد في هذه التخصصات من خريجي الجامعات، ومن ناحية أخرى فإن الأسرة تعد الأنشطة المدرسية مضيعة لوقت أبنائها وترفًا لا يقدرون عليه، ولا طائل من ورائها، وينصب كل همهم في المواد الدراسية التي يمتحن فيها الطالب في نهاية العام، فيلجأون للدروس الخصوصية، ويكرسون ساعات كثيرة للمذاكرة طمعا في تفوق الأبناء والالتحاق بكلية تؤهلهم لفرصة عمل مستقبلا في ظل بطالة عالمية وتدنٍّ شديد في الدخول ومستوى المعيشة.

هذا عن الواقع المعاش بالمدارس والمنازل، أما عن الخطط القومية أو السياسية التعليمية فهي لا تجاوز أحبارًا على ورق، وبرامج لا تبرح مكاتب كبار المسؤولين الذين لا يرغبون في الدخول في صراع ثقافي مع مجتمع تأطرت فيه ثقافات نفعية مباشرة، ولا تتجاوز خطط تطوير التعليم التي تعد بين حين وآخر، والمؤتمرات التي تعقد لهذا الغرض، كونها حوارات أشبه بالمجالس العرفية غير الملزمة، بينما «تطوير التعليم من أجل بناء المستقبل يجب أن يبنى على تكوين قدراته في إطار يسمح بالتفاعل المستمر بين المنهج العلمي المعاصر والأصالة الثقافية»(٧).

فالملاحظة الدقيقة لتطوير التعليم توقفنا على أنه افتقد الفلسفة الواضحة والعقيدة المتبلورة في كثير من العهود، وتعد هذه الفلسفة بمنزلة ذلك الخيط الذي يربط بين حبات العقد، بدلا من أن تتبعثر أو تتناثر(٨).

لكن هذه المعوقات وهذه الصورة التي تغلب عليها التشاؤمية والإحباط، لا يجب أن تثني أولي العزم من رجال التربية وعلمائها عن المضي قدما في البحث والحث على إعطاء الأنشطة المدرسية مكانتها ومساحتها وأهميتها، والتفكير في حلول ومقترحات بديلة تتغلب على العوامل الاقتصادية في المدارس والمجتمعات النامية، وتحول المدارس لبيئات جاذبة، والمناهج لعلوم محببة يقبل عليها التلاميذ، وتتقبل أسرهم مشاركتهم في النشاطات مادامت تؤتي ثمارها في زيادة تحصيلهم وذكائهم، وتميزهم الإنساني والدراسي على النحو المأمول.

الهوامش

١. د. حسن علي الإبراهيم: الكويت والمسقبل- التنمية والتعليم وجها لوجه- مطبعة ذات السلاسل- ص١٧.
٢. نجلاء نصير بشور: «ألعاب الأطفال.. وسائل لنقل الثقافة أم للتغريب»، بحث بكتاب «ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة، ص٣١١، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية.
٣. جوهانز. أ. بين «التقييم والشكل»، ترجمة صبري محمد عبدالغني، ص-٧٥ مكتبة الأسرة.
٤- وزارة التربية والتعليم المصرية: «سياسة التعليم في مصر»، ص-٧ القاهرة- ١٩٨٥م.
٥. محمد الغزالي: تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل- دار الشروق- ٢٠٠٧م.
٦. جوهانز، مصدر سابق.
٧. د. أحمد فتحي سرور: إستراتيجية تطوير التعليم في مصر- ص ٩٦- مطابع الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية- القاهرة- ١٩٨٧م.
٨. د. سعيد إسماعيل علي: التعليم في مصر- ص ٣٤١- كتاب الهلال- القاهرة- نوفمبر ١٩٩٥م.

نعمة الذرية بين المنحة والمحنة

رضى الحمراني
باحث مغربي

قال الله جل علاه: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾(الشورى: ٤٩-٥٠)، يذكر الله تعالى عباده في مطلع الآية الأولى من كلامه العزيز بأنه خالق السموات والأرض ومالكها، وهو المتصرف فيها كيف يشاء؛ يعطي لمن يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، لذلك حين تحدث عن الذرية التي يمنحها لعباده استعمل لفظة «يهب»، فالذرية بهذا المعنى هي هبة من الله سبحانه يهبها لمن يشاء، وليست حقًا لأحد، وقد جعل بني البشر سواء، الأنبياء والرسل وحتى عامة الناس، وهم في مسألة النسل على أربعة أقسام، فلوط وشعيب عليهما السلام مثلًا وهبهم الإناث فقط، أما إبراهيم عليه السلام فوهبه الذكور فحسب، ووهب جل علاه لنبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم الإناث والذكور، أما عيسى ويحيى فلم يولد لهما.. في مطابقة مع ما ذكره القرآن الكريم.

ثمّ ختم سبحانه حديثه عن الذرية بقوله ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، ومعنى عليم في هذا السياق أن الله عز وجل عليم بما يصلح أحوال عباده، فمنهم من تتفجر قدراته التربوية بوجود أبناء ذكور، ومنهم من تتحسن أحواله بوجود ذرية أنثوية، ومنهم من يصلحه عدم الإنجاب، إذ لو كان له ولد لشغله عن ذكر الله من فرط حبه وعنايته به، أو قد يكون ذلك الولد الذي يتمناه ابنًا عاقًا يُحَوِّلُ حياته إلى جحيم.

١- نعمة الذرية الأنثوية

من الملاحظات الرئيسية في الآيتين المدروستين في هذا المقال، أن الله تعالى قدم الإناث على الذكور ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، والسر في ذلك أن العنصر النسوي في عصر الجاهلية كان هو الجنس المبغوض غير المرغوب فيه قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(النحل: ٥٨-٥٩)، ولم ينته الأمر عند حد كراهية البنات بل تعدّاه إلى قتلهن ووأدهن كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾(التكوير: ٨-٩)، لأن البنت ضعيفة لا تقوى على العمل خارج البيت، ولا تشارك قومها في حروبهم المستمرة، وهي عرض ينبغي المحافظة عليه، ولبلوغ هذا الهدف يستدعي ذلك الكثير من الحرص والمراقبة والرعاية.

إن البنت حين تُشَدَّدُ الرقابة عليها من طرف أسرتها تشعر بأنها عبء ثقيل وهَمٌّ كبير، وأن أباها وإخوتها يكرهونها، فتدفعها هذه الوضعية البئيسة لتنظر لنفسها على أنها إنسانة حقيرة غير مرغوب فيها، مما يجعلها مدفوعة للاعوجاج، وترغمها هذه النظرة السلبية على التخلي عن دورها النبيل في المجتمع، فالبنت التي هانت على أهلها ونشأت وشبَّت وترعرعت بينهم على أنها إنسانة مذمومة لأنها مصدر العار والخزي والذلة، من الطبيعي أن تتعامل مع ذاتها على أنها كائنة رخيصة لا تساوي شيئا، لذلك تجدها مستعدة للتفريط في كرامتها وتُؤثر فيها إغراءات الطامعين في تدنيس شرفها، فتستسلم بسهولة لغوايتهم ولو بكلمة، لأنها تربت في بيت أهلها على كراهية واحتقار ذاتها.

إن العكس في هذه الحالة صحيح، فالبنت حين يحبها أهلها و يكرمونها ويُعزونها تُكَوِّنُ صورة إيجابية عن نفسها باعتبارها إنسانة محبوبة ومرغوبا فيها، فتتعود على الكرامة وعزة النفس ولا تقبل الإغراء أو الغواية أو الإهانة من أحد، لأنها نشأت وتربَّت وشَبَّت على أنها غالية عند أهلها عزيزة لديهم، فلا يجرؤ أحد على التعدي عليها ولو بكلمة.

٢- نعمة الأبناء الذكور

إن الابن الذكر هو نعمة من الله تعالى مثله مثل البُنَيَّة الأنثى لا فرق بينهما إلا بالتقوى، عكس ما كان يُمارس في الجاهلية القديمة من تفضيل للذكر على الأنثى، وهو الأمر الذي مازال ساريا في جاهلية القرن الحادي والعشرين، حيث يتشدد الوالدان في مراقبة ابنتهما، في حين يتم التساهل مع الابن الذكر الذي لا يخضع لأي رقابة تذكر، بل حتى إن أخطأ لا يحاسب على أخطائه لأنه رجل، والرجل في ثقافتنا المعاصرة المتحضرة لا تناقش زلاته، بل يتم إلقاء كل المسؤولية على عاتق الأنثى بمفردها، فهل هذا تحضر أم رجعية؟ والحقيقة أن كليهما ينبغي أن يستفيد من الرعاية والمرافقة الحكيمة، وكلاهما ينبغي أن يحاسب على الأخطاء التي ارتكبها بدون تمييز.

لكن السؤال الذي يبقى مطروحا، هل وصل تفريط الآباء والأمهات في تربية أبنائهم إلى حد إغفالهم لمتطلباتهم



المعنوية التي تعد أهم من إشباع حاجاتهم المادية؟ إن المنهج التربوي السليم يقتضي من الوالدين عدم الاكتفاء بإشباع المتطلبات المادية لأبنائهم، بل ينبغي أيضا العناية بحاجاتهم الروحية، فأولادنا ذكورا وإناثا متعطشون لمجالستنا وتجاذب أطراف الحديث معنا ليشعروا أنهم محبوبون من طرفنا، وأنهم شباب يستحقون الاهتمام والتقدير، مع مراعاة المتطلبات الخاصة لكل جنس، فالبنات يحتجن للتعامل برفق ولين ومودة مع شيء من الصرامة، أما الأولاد فبالإضافة لاستفادتهم من هذه الأساليب الحضارية في التربية فيحتاجون أيضا لجرعة إضافية من الحزم والصرامة لضبط سلوكاتهم المندفعة، مع ضرورة التذكير بأن الصرامة تعني إبداء نوع من الحزم والجدية دون المبالغة في استعمالها، حتى لا تنقلب إلى نوع من العنف والقسوة، لأن الشيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضده، فجرعة قليلة من الملح تجعل الطعام لذيذا ومفيدا للصحة، لكن الإكثار منه يجعل الطعام ممقوتا ومضرا بسلامة الجسم.

٣- الابتلاء بالعقم

لقد سبقت الإشارة إلى أن الذرية هي هبة من الله سبحانه يهبها لمن يشاء، وليست حقّا لأحد، فليس كل من ملك أسباب إنجاب الذرية يرزق بها، فقد يتزوج الإنسان ولا ينتج عن زواجه أبناء، ويُبتلى الزوجان بالعقم، وقد نسب سبحانه وجود حالة العقم لدى أحد الزوجين أو كليهما لتدخله الرباني المباشر حين قال: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾(الشورى: ٥٠) وليس العقم نتيجة عيب في أحد الزوجين، أو دليل على أنهما كالأرض القاحلة التي لا تنبت زرعا، بل هو ابتلاء من الله لهما ليختبر إيمانهما: هل سيرضيان بما كتب عليهما من حرمان من الذرية و يلجآن للطرق الطبية الشرعية لعلاجه، إن استطاعا إلى ذلك سبيلا، أم أنهما سيسخطان على هذا الوضع ويلجآن للمشعوذين والدجالين ليمنحوهما الأمل المنشود لاكتساب الولد المفقود.

ينبغي للأزواج المصابين بالعقم أن يعلموا بأن الله تعالى إن ابتلاهم بالحرمان من الذرية، فقد ابتلى سبحانه عبادا له آخرين بالعمى وحرمهم من نعمة البصر، ومنع آخرين من نعمة الغنى وابتلاهم بالفقر، وامتحن زمرة من عباده بالحرمان من نعمة الصحة وابتلاهم بالأمراض الجسدية والنفسية...إلخ، وكل بني آدم مبتلى، والله تعالى عادل في امتحان عباده بألوان الآفات ليمحص ما في قلوبهم من رضا أو سخط بقضائه وقدره.

إن الانسان الذي يرضى بهبة العقم يعوضه الله تعالى بأولاد آخرين، سواء ممن يزورهم في مراكز الأطفال المتخلى عنهم، أو الأبناء الذين يربيهم على سبيل التبني مع الاحتفاظ بنسبهم الأصلي، حيث يرى منهم من البر ما قد لا يراه من أبنائه من صلبه لأنهم مثله، فكما أنه حُرِمَ من الأبناء فهم محرومون من الآباء، فيتمتع ببرهم دون تعبِ الحمل والولادة، وبدون مشقة الرضاعة ودون عناء كبير في تربية هؤلاء الأبناء، وهكذا يصبح المنع من نعمة الذرية هو عين العطاء، ففي واقعنا المعاصر قد ينجب الأبوان ابنا لكنه يكون عاقا لوالديه، كما هو الحال في سورة الكهف، حيث قتل سيدنا الخضر الابن العاق، فاستنكر سيدنا موسى عليه السلام ذلك، فأخبره بأن سبب القتل هو العقوق، وأنه عمل على قتله عسى الله أن يعوض والديه بولد خير منه، وليس بالضرورة أن يلداه من جديد، بل قد يتبنون أحد الأيتام، أو أحد الأطفال المتخلى عنهم، فيكون خيرا من هذا الابن من الصلب.

خاتمة

إن الخلاصة التي يمكن أن نستخرجها من موضوع إنجاب الأبناء أن الله تعالى هو المتصرف فيه بإرادته الحكيمة، فيقسمه بين عباده كيف يشاء، إذ يجعل الذرية نعمة لبعضهم، وابتلاء لبعضهم الآخر، حتى لا يفخر أحد على أحد، لأن الإنجاب لا يؤثر على منزلة العبد عند الله عز وجل، فحين يهب سبحانه الذكور أو الإناث أو يزاوج بينهما، فلا يعني هذا رضاه عن عبده، وحين يحرم بعض عباده من الذرية فلا يعني ذلك بالضرورة سخط الرحمن عليهم، إنما هي سنة الله في خلقه، يهب ويمنع، وإنما يتفاوت الناس في قربهم أو بعدهم عن خالقهم بمقدار رضاهم أو سخطهم على ما قدّر الله لهم في مسألة الذرية.



مذكرات الفتاة المسلمة

سعاد بعوش
خبيرة تربوية - الجزائر

وأنا أتأمل واقع الفتاة المسلمة اليوم، حبّا وأملا فيها وطلبا لرؤيتها في أحسن حال، وجدت توجها واضحا لدى قطاع واسع من الفتيات إلى كتابة المذكرات، وإقبالا على شراء الدفاتر المخصصة لها بشتى أشكالها وألوانها، وجعلها رفيقا دائما، إذ تحملها في الحقيبة إذا خرجت، وفي المحفظة إذا درست، وتحتفظ بها تحت الوسادة إذا نامت، بل هناك من تعدت ذلك إلى كتابة مذكراتها على يوميات الفيس بوك.. تتبادلها مع صديقاتها!

والكتابة عالم جميل على صعوبته، يجالس فيه الإنسان نفسه، ويستخرج أفكاره ويترجمها إلى كلمات وفقرات ومواضيع، تتجلى من خلالها طريقة تفكيره وتصوره ونظرته إلى الأمور، ومواقفه من شتى شؤون الحياة وجوانبها.. ونقل ذلك للآخرين.

وكتابة المذكرات اليومية من قبل الفتاة يجعلها تقضي لحظات هادئة مع ذاتها، فتستفرغ ما في داخلها من حسن وقبيح، وتعبر في هدوء عما يؤلمها أو يسعدها، فتتخلص من الكبت وتخزين الأحاسيس المختلفة، مما يعود عليها بالراحة والانشراح، ويجنبها القلق والحزن والاكتئاب، خاصة أن فترة الصبا والفتوة فترة جد حساسة مليئة بالمشاعر والأحاسيس المرهفة.. ولحظات الصمت والتأمل.

كما أن كتابة المذكرات قد تسهم في تنمية مهارات الكتابة لديها، وتمكينها من امتلاك ملكة الكتابة، وهو توجه له فضائله من حيث الأصل، فتسهم في إيجاد امرأة كاتبة، تشارك بكتاباتها في نشر العلم النافع، والأدب الطاهر، والتصور الصحيح، والأفكار الرشيدة بين الناس عامة وبين النساء خاصة، وتنصر دينها، وتكون من الفاعلات في مجتمعها، وذات أثر في أمتها، وقدوة صالحة لبنات جنسها، ويزداد رصيدها من الحسنات، فكلمة تكتبها بعلم وصدق وإخلاص قد تفعل الكثير في حياتها وبعد مماتها، وهل دعا الرسل إلى توحيد ربهم وعبادته إلا بالكلمة؟! هذا إن كان الخير والفضيلة طريقها.

وقد توجهها ملكة الكتابة إلى دخول عالم القراءة المفيد الواسع، والسياحة في رياض الكتب، والتوغل بين طياتها وفي سطورها، والاستفادة الجمة مما حوته كلماتها وحروفها.. وكفى بالقراءة فضلا أنها تسمح للإنسان أن يعرف أفكارا غير أفكاره، وعوالم أخرى غير عالمه، ويجد فيها نبراسا يضيء أمامه الطريق، وأنسا ممن يدعم توجهه ويشجعه عليه، ويزيد دربه وضوحا، واقتناعه باختياراته قوة وبثبته في غربته، ويعطي نفسه فرصة معرفة الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، والحقيقة من الخيال، فيتعلم مناقشة نفسه فيما تدفعه إليه وتأمره بفعله- إن كان خطأ أم صوابا- فيقومها ويقودها إلى السعادة والطمأنينة.

كما أن كتابة المذكرات تعطي الفتاة فرصة النظر بتمعن وتركيز فيما عملته في سويعات يومها وهي تسجله، أو قامت به في بعض المواقف التي تعرضت لها، أو الطريقة التي تقضي بها حياتها، والتصورات التي تنظر بها إلى الأمور، فأتمنى لو نظرت حقا كل فتاة مسلمة في أفعالها وأفكارها ومواقفها تلك وأسرارها، أصحيحة

ترضي الله ورسوله ﷺ ويبيض وجهها لأجلها يوم تكشف الأسرار وتبيض وجوه وتسود وجوه؟ أم مليئة بالهوى واتباع خطوات الشيطان؟

وتتساءل مع نفسها دون أن يسألها أحد: أين كتبت أعمال يومها ذاك، أفي ميزان الحسنات أم في الكفة الأخرى والعياذ بالله؟ أكتبها ملك اليمين أم ملك الشمال؟ ولا تحتقر في ذلك عملا أو تصرفا، ولو كان صغيرا، فالله عز وجل يقول: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ (الزلزلة: ٧ – ٨).

وددت لو تكون صفحات تلك المذكرات مرصعة بالأشياء الجميلة.. من الهمة العالية، والأحلام الوردية، والآمال الرائعة، والطموحات العالية، والجد والاجتهاد في طلب العلم، وبناء شخصيتها البناء السوي القائم على هدي الإسلام، وقيادة النفس قيادة رشيدة نحو الخير، متوجة بالأمل والعمل والتفاؤل والتخطيط، والمحاولة تلو المحاولة حتى تحقق النجاح، وتكاد تكون خالية من سفاسف الأمور وأمراض القلوب والنفوس.. ومن العجز والكسل والفتور الدائم، والتخبط والاضطراب والتيه والضياع.. تعلن عن مخاض لميلاد امرأة صالحة فاعلة تكون في أمة النساء شامة.

وددت لو كانت مذكرات الفتاة المسلمة عامرة بالإيمان والعمل الصالح، من طاعة لله جل وعلا، وحبه وشكره على نعمه، والقرب منه والتوكل عليه في الأعمال كلها، صغيرها وعظيمها، دائمة العودة والإنابة إليه.. يلهج لسانها باستغفاره والتوبة إليه.. لأن الإيمان والعمل الصالح من صفات عباد الله الطالبين رضاه تعالى وتثبيته ودخول جنته. كما تكون في مذكراتها واضحة الرضا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا لتتذوق طعم الإيمان.. كاملة الثقة أن درب أهل الإسلام وحدهم درب الفائزين والناجحين والمتميزين.. لأنهم أهل الاعتقاد الصحيح والتصور الواضح والموازنة الموفقة في حياتهم بين الدنيا والآخرة، ولأن هذه الحياة مؤقتة وستنتهي شاء من شاء وأبى من أبى.. لتبدأ الحياة الأخرى والفوز فيها لمن عرف ربه هنا واتقى.

وددت لو كانت مليئة بمعاني حب النبي ﷺ واتباعه، فخورة بالانتماء إلى أمته.. أمة الإسلام.. سعيدة لأنها من القلة الغرباء الذين أحبهم دون أن يراهم، عزيزة بعزة الإيمان.. فالعزة في هذا العالم كله لله ولرسوله وللمؤمنين.. كثيرة الصلاة عليه، تود لو يوفقها الخالق سبحانه لخدمة دينه والدعوة إليه، وهداية الخلق إلى رحاب السعادة الإيمانية التي ذاقت من قطوفها الدانية.

وددت لو كانت مزينة بأخلاق الإسلام.. الدين العظيم، وأخلاق سيد المرسلين ﷺ، من صدق ووفاء وأمانة، وكرم ونبل وحياء وغض بصر وتواضع، وخدمة للخلق وإحسان إليهم، وابتعاد عن كل خلق قبيح من خيانة وغدر وتكبر واسترجال، وسخرية من الآخرين وغيبة ونميمة.. لأن الأخلاق من أثقل الأعمال في الميزان، وهي أقصر الطرق إلى قلوب الخلق، وبها ينتشر الحب والتواد بين الناس، وهي زينة للفتاة وجمال لا تضاهيهما قيمة أخرى.

وددت لو كانت هذه المذكرات مميزة بكثرة الدعاء والابتهال، لأن الدعاء سلاح المؤمن وإحدى علامات الإيمان ومعرفة الله وحسن العلاقة معه، ودلالة على فهم أسرار الكون والحياة في ظل العقيدة الإسلامية، والدعاء من أقوى أسباب التوفيق والسداد، وصورة شفافة للاستسلام لله والتذلل له والخضوع وطلب معونته وحفظه ورعايته. ولأن حاجات المرء في الحياة كثيرة ومتنوعة، وهو ضعيف عن جلبها كلها أو تحقيق جلها. وأول هذه الحاجات الهداية ومعرفة الحق واتباعه والثبات عليه، ثم يأتي كل ما يشغل بال الفتاة من خواطر وآمال وأمنيات.. فحقيق بالفتاة المسلمة أن تتسلح بالدعاء والاستعانة بالله والتوكل عليه.. وتمكن نفسها من أسباب استجابة الدعاء من أكل الحلال ومعرفة الله في أيام الرخاء، وعدم الإصرار على الذنوب، والعمل الصالح بإخلاص، والخشوع لحظة الدعاء، والثقة في الله واليقين بالاستجابة.. فيا بشراها بعد ذلك بالتوفيق والهناء.

وددت لو كانت مذكراتها مليئة بالشوق لجنات الرحمن، جنات عدن التي تجري من تحتها الأنهار، لتستقوي بذلك الشوق على فتنة هذه الحياة وقوة تيار الفساد والانحراف فيها، تعقد في هدوء بداخلها المقارنات بين نعيم الجنة من صفات نسائها وأنهارها وأشجارها وطعامها وشرابها وتزاور أهلها وهناء عيشها، وخلوه من كل كدر وخلودها ورؤية خالقها.. وبين طيبات هذه الدنيا الفانية، خاصة ما كان منها محرما، لتشد أزر نفسها وتدفعها إلى التورع والارتقاء أمام كل غواية شيطان أو إنسان، أو حتى بعد كل زلة؛ لتعود من جديد إلى الصراط المستقيم.

وددت لو كانت مذكرات الفتاة المسلمة معطرة بنسائم الأخوة في الله الرائعة، بمصاحبة الفتيات المؤمنات صحبة إيمانية.. قائمة على التعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر.. فهن أنس في غربة الحياة، وعون على صعوبة ووحشة الطريق.. ويكفي أن الأجسام قد تفترق، لكن القلوب تظل سياحة في ظلال ذكرياتها، وقد يوفقها الله في لحظة عسر، أو يفرج كربها في ليل حالك بدعاء خالص من أخت لها في الله ذكرتها بين يدي ربها فتنزلت عليها الرحمات وهي لا تدري.. وما رأيت الوفاء بين الأصدقاء دائما إلا بين المتحابين في الله؛ لأن قلوبهم معلقة بمنابر النور.

هكذا وددت أن تكون عناوين الحياة في يوميات الفتاة المسلمة- أمل الأمة- سواء كتبت في مذكرات، أو سجلت في كتابها من قبل ملكي الحسنات والسيئات.

الأسرة بين الشرق والغرب



محمد شعطيط
كاتب مصري

نشرت أحد المواقع الإلكترونية خبرا مفاده أن محكمة بريطانية قضت بسجن شاب في العشرين من عمره ستة أسابيع، ومنعته من إرسال شتائم إلى والدته عبر موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، كما أمرته بعدم الاتصال بوالدته بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

زرع الغرب رياح الماديات والعنف واللذة والانحراف ومعاداة الأديان والتمرد على السنن الإلهية، فحصد عواصف من العقوق والتفكك الأسري والجريمة والقتل.. ومازال عقلاؤه ينادون بتدارك الأمر قبل فوات الأوان، ولكن أمواج الحضارة الزائفة غلبت مظلتهم اليتيمة، فأغرقت أصواتهم وسط بحر من دعاة اللذة والمتاجرين بالمنفعة المادية على حساب القيم والمبادئ.

وقد دعا أحد كبار مسؤولي الأمن في إحدى الدول الغربية الفتيات إلى الاحتشام في اللباس وستر المواضع الحساسة من أجسادهن بعد وقوع جريمة اغتصاب في مدينته، فقامت الدنيا ولم تقعد مستنكرة هذا التصريح، ومعتبرة إياه تدخلا في الشؤون الشخصية، وحجرا على الحريات، ودعوة إلى الرجعية والظلامية، ونوعًا من التزمّت المرفوض في المجتمع الغربي.

لقد أسمعت لو ناديت حيا

ولكن لا حياة لمن تنادي

لقد علم الغربيون أن الطريق الذي يسلكونه هو أحد أسباب هلاك حضارتهم، وأن المدنية الغربية سيدكها بأداتها قرن نطوح يهوي بها إلى مجاهيل التاريخ بعد أن فشت فيهم الفاحشة وأعلنوا بها، بل شجعوها ودعوا إليها وموّلوها وحموها بقوانين، وجعلوها من حقوق المواطن ورمزا للحضارة والتقدم والعالم الحر.

إن مقارنة بسيطة بين الأسر المسلمة والأسر الغربية ليظهر ذلك البون الشاسع بين حضارة نبراسها القرآن وسنة سيد ولد عدنان، وبين حضارة زائفة زائلة قامت على شفا جرف هار يوشك أن ينهار بها في واد من أودية الهلاك.

وهذه المقارنة ليست على إطلاقها لكن أحكامها تقع على الغالب، فقد تكون هناك بعض الأسر المسلمة التي تجد بها من السلوكات شبيه ما عند الغرب، وقد نجد أسرا غربية فيها من الأخلاق ما نجده تماما في مبادئ الإسلام، فالعبرة بالعموم لا بالأحوال الخاصة والاستثناءات.

١- أول ما يستوقف الباحث طهارة رحم المرأة المسلمة، وهي لا تحتاج- بحمد الله- إلى بحوث أو دراسات، كما نشر أخيرا عن أميركي قام بدراسة حول الأرحام عند مختلف الأجناس، فوجد أن رحم المرأة المسلمة من أطهر الأرحام على وجه البسيطة، بينما نجد الغرب يشكو من انتشار أولاد الزنا، والحمل خارج نطاق الزواج، وارتفاع نسب الإجهاض، وحمل المراهقات، حتى أصبحت الإحصاءات تتحدث عن أرقام مرتفعة من الفتيات اللاتي يصرن حاملات في سن مبكرة قبل أن يبلغن الثانوية، بله الجامعة.

٢- اعتناء الأسر المسلمة بالرضيع من حيث إرضاعه طبيعيا وتمتيعه بالقدر الكافي من الحنان والعطف، عكس ما يعانيه الطفل في الغرب من افتقاده لدفء الأم وحنانها واستعاضتها بالرضاعة الاصطناعية أو تقديمه لمربيات داخل المنزل أو في دور الحضانة.

٣- الانسجام والتلاحم بين أفراد الأسرة المسلمة في شتى المجالات، حتى بعد كبر الأبناء وتزوجهم، حيث تبقى العلاقة وطيدة والعائلة متماسكة، تجتمع في المناسبات الدينية والاجتماعية تحت سقف واحد رغم تباعد المسافة ومشقات السفر.. بينما نجد الأسر في الغرب تشكو من الشقاق والقطيعة، فأغلب الزيجات

يحصل فيها الطلاق، حتى قبل بلوغ الأطفال سن المراهقة، ففي بريطانيا وحدها التي تعرف أكبر نسبة للتفكك الأسري لا يعيش سوى ٦٨٪ من الأبناء مع والديهم، كما أن من بين ١٠٠٠ طفل نصفهم تقريبا ينفصل آباؤهم قبل بلوغهم سن السادسة عشرة، وهذه النسب متقاربة في المجتمعات الأوروبية وأميركا، دون الحديث عن تحدي الأبناء لآبائهم عند بلوغهم سن ١٨، وهو السن القانوني الذي يخول للابن أن يتصرف كيف يشاء، دون أن يحق لوالديه أن يتدخلوا في شؤونه إلا من باب الاستشارة والرأي، إن ظل يستمع لرأيهم.

٤- عند الأسر المسلمة تتم العناية بإنجاب الأبناء واعتبارهم امتدادا لوالديهم ورجاء دعائهم بعد الوفاة، أما عند الغرب فإن الإنجاب عندهم أعز من عنقاء مغرب، لأنه في نظر الكثير من نسائهم تقييد لحريتهن وتكبيل لهن، ووأد لشبابهن في توفير متطلبات الرضيع من اهتمام وعناية وتنظيف ورضاع وغيرها. حتى أصبح الغرب يشتكي من انخفاض معدلات الإنجاب، وأصبح يتحدث عن انقراض المجتمعات الغربية بعد أن أصبحت الأسر الوافدة من الدول المسلمة تنجب أكثر مما تنجب الأسر الغربية نفسها، حتى إن دولا مثل بريطانيا بلغت نسبة الأطفال فيها في الأسرة الواحدة ١,٨ وهو رقم مخيف، نظرا للشيخوخة التي بدأت تغزو المجتمعات الغربية عموما.

٥- عواطف جياشة وصلة للرحم وتواصل بين أفراد الأسر المسلمة، في حين نجد برودة العواطف بين أفراد الأسرة في الغرب؛ فلا يزور الأبناء آباءهم إلا في مناسبات قليلة بينها أعياد الميلاد، هذا إذا تذكره، وقد يكتفي بإرسال بطاقة تهنئة أو بريد إلكتروني، أما إذا شاخ الأب أو هرمت الأم فإن مكانهما دور العجزة، فهي الكفيلة بالعناية بهما في مجتمع همه الوحيد هو التمتع بالملذات، ولا وقت لديه للعناية بأمه المريضة أو أبيه العجوز، مادام أنه سيدفع المال لمن ينوب عنه في هذه المهمة، ومن الطرائف التي وردت في هذا الباب أن أبًا دخل على ابنه وهو يرسم منزلا فسأله عن عدد الغرف وساكنيها.. فأجاب الطفل ببراءته: هذه لي، وهذه لزوجي، وهذه لأبنائي. فقال الأب: فأين غرفتي أنا وأمك؟ قال الابن: لا توجد لكما غرفة في بيتي، لأنكما حينها ستكونان في دار العجزة. ففطن الأب إلى خطئه فذهب لتوّه ورد أباه إلى المنزل بعد أن كان قد وضعه في أحد دور رعاية كبار السن.

وفي مقابل هذه السلوكات وأضرابها التي- للأسف- أصبحنا نسمع عنها حتى في بعض الأسر المسلمة؛ يأتي البيان القرآني الشافي الذي يسيل عذوبة ورقة، ويسري في جسد المرء من ناصيته إلى أخمص قدميه، معلنا الصلة القوية بين عبادة الله عز وجل وبر الوالدين، صلة لا تتقطع ولن تتقطع، مادامت السموات والأرض، ومهما تقدم الإنسان وبلغ من منازل الحضارة ما بلغ، يقول الله عزوجل:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(الإسراء: ٢٣-٢٤)، ليس في الكون خطاب يدعو إلى الاعتراف بالصنيع، ورد الجميل، وعرفان الفضل لذوي الفضل من دعوة القرآن الكريم إلى بر الوالدين بهذا الأسلوب الندي الذي يقطر رحمة ولينا وأدبا وحنوا وذلا ودعاء.

إن الغرب قد استطاع- على حد تعبير أحد أبنائه- أن يطير في الهواء كالطير، وأن يسبح في المياه كالأسماك، لكنه لم يتعلم بعد كيف يمشي على الأرض.. انهمك في التجديد والتحديث على مستوى التقنية والصناعات والابتكارات العلمية، لكن هذا التقدم على المستوى التقني لم يقابله تقدم على المستوى الروحي والاجتماعي، فانتشرت الجريمة والسرقة والقتل والنهب، وأصبح الغرب يتحدث عن نسب مهولة من التفكك الأسري والتمزق الاجتماعي.

لقد عملت الحياة الحديثة على تغيير طبيعة العلاقات بين أفراد الأسر، وأصبح الاهتمام الأكبر ينصب على المادة بدل الروح، كما انشغل الناس بالمظهر على حساب الجوهر، وأصبح الطفل ينال العقوبة إذا أتلف الأشياء الباهظة الثمن، لكنه لا يقابل بالأسلوب نفسه ولا يعاب عليه إذا ترك فريضة من الصلوات، فتعاظم عنده حب ما عظم الأبوان، وتصاغر عنده ما همشاه وأقصياه من حسبانهما.

فلنعد تقييم الأشياء، ولنعظم ما عظمه الله، ولنغرس في الأبناء تعظيم الأخلاق والقيم، ولنستجب لدعوة النبي الكريم ﷺ في توقير الكبير ورحمة الصغير، وأن نعرف لعالمنا حقه.. بهذه الأخلاق سادت الأمة الإسلامية سائر الأمم، وتقدمت قطار الحضارة ردحا من الزمن، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

إن الحضارة الغربية تكاد تعلن إفلاسا شاملا في مختلف المجالات، فبعد الأزمات الاجتماعية والأخلاقية جاء دور الأزمات المالية والاقتصادية والسياسية، وإن عقلاء الغرب يدقون ناقوس الخطر، فهل آن أوان العاقلين منا أن يكفوا عن دخول جحر الضب، واتباع سنن من قبلهم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وأن يلتزموا نهج الرسول الكريم ﷺ لتعيش أسرنا في نعيم مقيم، تعامل فيه الأمهات في بيوتهن معاملة الملكات، كما تمنت ذلك إحدى الغربيات.. نرجو ذلك، وما هو على الله بعزيز.

كيف نتعامل مع هذا الطفل؟

أخاف النوم وحدي

ريهام عاطف- القاهرة
دار الإعلام العربية

الخوف ظاهرة طبيعية عند كل طفل، إلا أن هناك مخاوف قد تصل إلى حالة من الرهبة والفزع المرضي، ولعل خوف الأطفال من النوم بمفردهم مسألة تزعج الآباء والأمهات وتثير قلقهم، ليمثل وقت النوم بالنسبة للطفل وقت الرعب والخوف، خاصة أن بعض الأسر تخصص موعدا محددا لنوم الطفل مهما كانت الظروف، حتى وإن كان منهمكا في اللعب، فبمجرد أن يأتي الوقت يجبر على ترك كل شيء بيده ويدخل لينام، وهو ما يزيد من اضطراباته الداخلية، ويزيد من حجم المشكلة، فتصبح مسألة تعويده على النوم بمفرده مشكلة في حد ذاتها تحتاج من الأم إلى المزيد من الصبر والهدوء.



د.هاشم بحري: اعرفي أسباب مخاوفه لتعيدي إليه أمانه النفسي

وهناك بعض الأمهات ممن لا يقدرن على مواجهة دموع أطفالهن في هذا الموقف، لاسيما إذا كان الطفل الأول للأسرة، واعتاد منذ صغره ألا يغادر سرير والديه، فيزداد إحساسه بالوحشة والغربة حينما ينتقل إلى مكان جديد لم يعهده، ما يزيد من حيرة الآباء والأمهات في تحديد السن المناسب لتعويد الطفل على النوم وحيدا، والانتقال إلى غرفة مستقلة، دون أن يترك بداخله الآثار النفسية السيئة.

عامليه بعقلانية

وفي هذا الصدد، نصحت العديد من الدراسات الأمهات بضرورة فصل الرضيع عنها أثناء النوم، حتى يعتاد على ذلك، لكن على العكس أشارت دراسة بريطانية إلى ضرورة نوم الرضيع قريبا من صدر أمه؛ للتمتع بنوم أفضل مما لو نام بمفرده.

ونصحت الدراسة التي قام بها طبيب الأطفال «د.نيل بيرجمان»، أن ينام الطفل مع أمه حتى يبلغ الثالثة من العمر؛ لحماية قلبه الذي يجهد بصورة أكبر إذا ما نام بمفرده، مؤكدا على أن ترك الرضيع ينام بمفرده، يعرضه لمشاكل سلوكية في المستقبل، وقد يتسبب في تأخر تطوير الدماغ.

جاءت هذه الدراسة نتيجة مخاوف من زيادة عدد وفيات الرضع في المهد، والتي عرفت بـ«متلازمة موت الرضع المفاجئ»، لحث الأمهات على عدم ترك أطفالهن ينامون في غرف مستقلة بعيدا عنهن.

وأكدت الدراسة أنه لكي يتمتع الطفل بنوم هادئ ليلا، لابد للأم من اتباع بعض النصائح منها:

١- ضعي روتينا يوميا للنوم، وذلك بإعطائه حماما دافئا، أو قص حكاية له، كما يساعد الالتزام بمواعيد معينة لنوم القيلولة والنوم ليلا على ضبط الساعة البيولوجية للطفل بالتعود على هذه الأوقات فيستغرق في النوم سريعا.

٢- ساعدي الطفل على النوم بسرعة، وذلك بتجنب الأصوات المرتفعة عند نومه.

٣- لا يحتاج الطفل إلى حجرة دافئة للنوم بها، كما أنه لا يوجد حرارة معينة تصلح للأطفال، لكن إذا وجدت أطرافه باردة فعليك تدفئته، ولا ينصح بتغطية الطفل بأغطية كثيرة، فقد تتسبب في إحداث بعض المخاطر.

٤- ابقي بالقرب منه، كما يمكنك وضع سرير صغير لطفلك بعجلات في أي مكان في غرفتك، وعليك الاحتفاظ بسلة الحفاظات والملابس النظيفة لتغيير ملابسه.

وذكرت إخصائية الرعاية الأسرية «جوان نيجيتو»، أن تعامل الأبوين مع رفض الطفل للنوم بمفرده ينبغي أن يختلف حسب كل حالة، فإذا كان معتادا على النوم وحده، ثم طلب فجأة من أحد أبويه أو كليهما النوم معه، فعليهما إعادة النظر فيما يسمحان للطفل بمشاهدته على شاشة التلفزيون أو ألعاب الفيديو، والذي قد يتسبب في عدم شعوره بالأمان، من خلال رؤيته لكوابيس تخيفه أو بسبب تخيله أشياء مرعبة، موضحة أن ما يتراءى لبعض الأطفال من صور مخيفة في الأحلام من ديناصورات أو مخلوقات فضائية يبدو لهم حقيقيا، لأنهم يكونون في طور تعلم التمييز بين الحقيقة والخيال.

وأشارت إلى أن الطفل في هذه الحالة يكون في حاجة إلى حب الأبوين واحتوائهما، حتى يسترجع إحساسه بالأمان، ويتعود مجددا النوم بمفرده، ونصحت الآباء بتوجيه الطفل إلى مشاهدة الأفلام الكارتونية الهادفة، والتي تسهم في بناء شخصيته، وتشعره بالقوة والأمان، لا الخوف وعدم الاتزان، كما نصحت كل أم بالتعامل بقدر من العقلانية والصراحة مع الطفل، فتعطيه الحلول التي تساعده على التخلص من شعوره بعدم الأمان، فلو كان يتخيل وحوشا في غرفته أو أشياء تخيفه، يمكنها أن تعطيه جهاز إضاءة محمولا، يوجهه إلى المكان الذي يعتقده مصدر ظهور ما يخيفه، حتى يتأكد من أن ذلك مجرد تخيلات، وأن تمكث بجانبه حتى يخلد إلى النوم، ويجب عليها أولا أن تعرف سبب شكواه من النوم بمفرده، وتثقيفه بالمعلومات الخاصة بالنوم، كأن تشرح له أن بعض الناس ينامون بسرعة، ويحتاج آخرون إلى نصف ساعة أو أكثر لحين الخلود للنوم، وأنه من الطبيعي أن يستيقظ المرء في الليل من ٣ مرات إلى ٥ مرات كل ليلة، وأن ما عليه عند الاستيقاظ ليلا، معاودة إغلاق أجفانه لإكمال نومه.

وحثت «نيجيتو» كل أبوين على تعويد أطفالهم الصغار على النوم باكرا كل مساء، وإلهائهم في النهار عن النوم، حتى لا تضطرب ساعة نومهم البيولوجية ويختل برنامجهم الروتيني، فالطفل يحتاج إلى قسط وافر من الراحة، ويمكن اللجوء لبعض الحيل لتعويده على النوم وحده ليلا ومن بينها:

١- منح الطفل وقتا كافيا لممارسة أنشطة هادئة تسبق النوم، وتجنيبه مشاهدة الأفلام المخيفة أو العنيفة التي لا تتناسب مع سنه، إضافة إلى تجنب الإكثار من الزيارات الليلية حتى لا يحرم من النوم باكرا كما اعتاد.

د.هبة: عوديه منذ الصغر الاعتماد على نفسه وامنحيه الحنان والأمان طوال اليوم

٢- وضع برنامج روتيني ثابت، وتعويد الطفل على الالتزام به، فما أن يسمع دقات عقارب الساعة على الثامنة مساء مثلا، حتى يهرول إلى الحمام لغسل أسنانه بالفرشاة والاستحمام وارتداء لباس النوم، ثم لعب لعبة فيديو هادئة أو الاستماع إلى القرآن الكريم قبل النوم، أو قراءة حكاية ما قبل النوم، ثم تقبيل أبويه قبل إطفاء أنوار الغرفة والخلود إلى النوم.

٣- تغيير ديكور وتصميم غرفة نوم الطفل ودرجات إضاءتها من فترة إلى أخرى، ومحاولة أن تكون ألوانها هادئة حتى تساعده على الاسترخاء والنوم.

اعرفي سبب مخاوفه

إلى ذلك، يوضح أستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر د.هاشم بحري، أن خوف الطفل من النوم بمفرده، يرجع إلى أسباب يجب أن تعرفها الأم جيدا، لتعيد إليه الأمان النفسي الداخلي، فقد يكون ارتباطه الزائد بأمه، واعتياده على النوم بجانبها منذ صغره، سببا فيما يشعر به من خوف حينما يطلب منه النوم بمفرده، ما يصيبه بالفزع وربما الصراخ أو البكاء ليستميل قلبها، وحتى تشعر أنه بحاجة إليها فتعود مجددا لتنام بجانبه، أو قد يكون اعتياده على مشاهدة أفلام العنف والرعب، أو وجود شيء يخيفه من المدرسة أو أصدقائه سببا في إثارة خوفه، والذي غالبا ما يتجسد له عند بداية الدخول في مرحلة النوم.

وينصح «بحري» الأم أن تحاول أن تتقرب إلى طفلها وتشعره بالأمان النفسي والحنان طوال اليوم، وأن تتعرف على سبب مخاوفه التي تمنعه من النوم بمفرده، ولا مانع من أن تعود في الفترة الأولى إلى النوم بجانبه مرة أخرى؛ لتحكي له قصصا مسلية وطريفة تطمئنه وتزيل مخاوفه، كما يمكنها أن تخصص له كشافا صغيرا ذا ضوء خافت في غرفته أو بجانب سريره؛ ليضيئه وقت النوم ليشعر بالأمان.

د.محمد رفعت: كلما كان السن مبكرا كان أنسب لتعويد الطفل

أشعريه بالأمان

أما أخصائية العلاج النفسي د.هبة الخازندار، فترى أن شعور الطفل بالخوف المرضي من النوم بمفرده يعود في الأساس إلى عدم إحساسه بالأمان، فقد تكون الأم منشغلة عنه طيلة النهار، أو أن والديه يتركانه فترات طويلة مع أشخاص غرباء، أو يضربانه حينما يرتكب خطأ، فكل هذه الأمور تسهم في زرع الإحساس بالخوف وعدم الأمان بداخله، ما يجعله ينتظر بفارغ الصبر وقت النوم؛ لأنه في نظره الوقت الوحيد الذي يشعر فيه بالدفء والأمان في حضن أمه، لذلك من الطبيعي أن يقابل فكرة النوم منفردا بمزيد من الخوف والفزع، بل أحيانا البكاء الهستيري.

وتضيف أن الأم يقع عليها العبء الأكبر في إزالة مخاوف طفلها، لذلك عليها أن تعوده منذ صغره أن يعتمد على نفسه، كأن تشجعه على خلع ملابسه بمفرده، وإعداد حقيبته المدرسية وحده، فهذه الأمور تسهم في زرع قيمة الاعتماد على النفس بداخله، وتساعده في بناء شخصية قوية مسؤولة منذ صغره، كما أن إزالة المخاوف الداخلية تعتمد على تعريضه تدريجيا للشيء الذي يخيفه، فعلى سبيل المثال حينما يخشى الطفل مكانا معينا، يعتمد أسلوب العلاج على أن تقوم أمه بالذهاب معه إلى هذا المكان؛ لتثبت له أنه لا داعي للخوف، وأنه مكان آمن؛ ولتعويد الطفل على النوم بمفرده، على الأم أن تأخذ الأمر بشكل تدريجي، فمن المستحب أن يبدأ الطفل بالنوم في غرفة منفردة منذ أن يبلغ العامين والنصف أو الثلاثة أعوام، فكلما بدأ الأمر مبكرا أسهم في اعتياده عليه بشكل أسرع.

من ناحية أخرى يمكن للأم أن تحبب الطفل في غرفته بوسائل عدة، فمثلا تحيط سريره بجميع الألعاب التي يحبها، مع ترك إضاءة خافتة له في الغرفة؛ كي لا يخاف من الظلام الدائم، ثم تغلق عليه باب الغرفة وتتركه وتخرج، فتلك الطريقة تشعره بأن له عالمه الخاص به الذي يريد أن يعيش فيه كل مساء قبل الخلود إلى النوم، ومع الوقت ستجده تدريجيا ارتبط نفسيا بغرفته وسريره ولا يرغب في النوم خارجها.

عليها أيضا أن تعطيه القدر الكبير من الحنان والأمان طوال اليوم، ولا تنتظر فقط وقت النوم لتشعره بحبها، فكلما شعر بالحنان والاهتمام طوال الوقت سيجد أنه ليس في حاجة إلى انتظار وقت النوم ليشعر بالأمان.

تدرج

أما أخصائي الأطفال د.محمد رفعت، فيرى أن السن المناسب لتعويد الطفل لينام مستقلا، من الممكن أن يبدأ من سن ستة أشهر، على أن يتم بشكل تدريجي وعلى فترات متباعدة، بمعنى أن ينام مع الأم يوما واليوم آخر ينام في غرفته، ومن الأفضل أن تخصص أوقات نوم الطفل القصيرة معها، كالقيلولة مثلا، على أن تتركه ينام ليلا وحده في سريره؛ لأن النوم لفترات طويلة بجانب والديه يزيد من تعلقه بهما، ويصعب من المهمة فيما بعد.

ويضيف أنه كلما كان السن مبكرا كان أنسب لتعويد الطفل على مختلف الأمور، وليس فقط النوم مستقلا، فهذه السن تسمح بتعويده على بدء تناول الطعام، إلى جانب الرضاعة، كذلك تناول الطعام بالملعقة وغيرها.

ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة بضوابط التوثيق العلمي، فقد رأت المجلة أن تعيد التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقًا لما يلي من الشروط:



ما يتعلق بالكاتب

- أن يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته وأن تؤهله ثقافته للكتابة في الموضوع الذي يتطرق إليه .
- أن يرسل صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة لسيرته الذاتية.
- أن تكون المراسلات باسم رئيس التحرير.
- أن يكون العنوان كاملًا، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، مع ضرورة إرسال البريد الالكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- أن يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- أن يكون المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- أن تكون الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة مخرجة.
- أن تكون المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية.
- ألا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، وأن يبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- أن تكون الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات مقرونة بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال منشورًا في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.

ملاحظة: المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

قصة التاريخ الهجري

د. مسعود صبري
دكتوراه في الفقه الإسلامي

عرف الإنسان التاريخ منذ وجوده على الأرض، ومر التاريخ بمراحل متعددة منذ آدم إلى مبعث النبي ﷺ. فقد أرخ أبناء آدم من هبوط آدم من الجنة حتى مبعث نوح عليه السلام، فكان هذا هو التاريخ الأول، ثم كان التاريخ الثاني من بعث نوح عليه السلام حتى الغرق، ثم كان التاريخ من الطوفان إلى نار إبراهيم، فلما كثر بنو إبراهيم أرخ بنو إسحق من نار إبراهيم إلى مبعث يوسف، ومن مبعث يوسف إلى مبعث موسى، ومن مبعث موسى إلى مبعث ملك سليمان، ومن ملك سليمان إلى مبعث عيسى، ومن مبعث عيسى إلى مبعث محمد على الجميع الصلاة والسلام.

وأرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم -عليه السلام- إلى بنيان البيت الحرام، ثم إنهم أرخوا من موت كعب بن لؤي فأرخوا من موته إلى عام الفيل، ثم من عام الفيل حتى أرخ بهجرة الرسول ﷺ سنة سبع عشرة من الهجرة.

وكانت العرب في الجاهلية يؤرخون بأيامهم، وحوادثهم، وكانت النصارى تؤرخ بعهد الإسكندر المقدوني، وكانت الفرس تؤرخ بملوكهم.

بداية التاريخ الهجري

والمشتهر أن أول من أرخ في الإسلام هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكن هناك روايات تثبت أن أول من اهتم بالتأريخ في الإسلام هو رسول الله ﷺ، فقد ورد أن النبي ﷺ أمر بالتاريخ يوم قدم المدينة في شهر ربيع الأول.

وذكر الإمام ابن الصلاح الفقيه الشافعي أنه وقف على كتاب ذكر فيه أن رسول الله ﷺ أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران، وأقر عليا أن يكتب فيه «إنه كتب لخمس من الهجرة».

ويذهب غالب المؤرخين إلى أن عمر رضي الله عنه هو من أرخ لتاريخ الإسلام بالهجرة بمشورة علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم، فقد ذكر ابن سيرين أن رجلا من المسلمين قدم من اليمن فقال لعمر: رأيت باليمن شيئا يسمونه التاريخ؛ يكتبون من عام كذا وشهر كذا، فقال عمر: إن هذا لحسن، فأرخوا. فلما أجمع على أن يؤرخ شاور فقال قوم: بمولد النبي ﷺ. وقال قوم: بالمبعث. وقال قوم: حين خرج مهاجرا من مكة، وقال قائل: من الوفاة -حين توفى. فقال عمر: أرخوا خروجه من مكة إلى المدينة.

ثم قال: بأي شهر نبدأ فنصيره أول السنة؟ فقالوا: رجب فإن أهل الجاهلية كانوا يعظمونه.. وقال آخرون: شهر رمضان.. وقال بعضهم: ذو الحجة فيه الحج.. وقال آخرون: الشهر الذي خرج فيه من مكة، وقال آخرون: الشهر الذي قدم فيه.

فقال عثمان: أرخوا من المحرم أول السنة -أول السنة المحرم- وهو شهر حرام، وهو أول الشهور في العدة، وهو منصرف الناس عند الحج. فيصير أول السنة المحرم، وكان ذلك سنة سبع عشرة، ويقال سنة ست عشرة في نصف ربيع الأول.

فدل ذلك على أنهم اتفقوا أن يكون أول عام في التاريخ هو العام الذي كانت فيه الهجرة، وليس الشهر الذي هاجر فيه النبي ﷺ، ولكنهم أبدلوا به شهر المحرم؛ لأنه أول شهر في العام. ويدل على ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾(الفجر: ١)، قال: «الفجر شهر المحرم هو فجر السنة». (أخرجه البيهقي في الشعب وإسناده حسن).

ولهذا السبب عدلوا عن التأريخ من شهر ربيع الأول الذي هاجر فيه الرسول ﷺ إلى شهر المحرم.

وقد ذكر البخاري في تاريخه عن عبيد بن عمير قال: المحرم شهر الله وهو رأس السنة، فيه يكسى البيت ويؤرخ التاريخ ويضرب فيه الورق.

ويمكن الجمع بين اعتبار أن النبي ﷺ هو أول من أرخ، وبين تأريخ عمر رضي الله عنه، فالرسول ﷺ عرف التاريخ واستعمله، لكنه لم يعممه، بل استعمله فيما يمكن أن نسميه بالخطابات الرسمية، ولو كان التاريخ مشتهرا في دولة الرسول ﷺ لأرخ الصحابة له أقواله كلها، ولوجدنا تاريخ الأحاديث التي قالها، والأفعال التي أتاها، ولحل



لنا كثيرا من الإشكالات في السنة النبوية، ولكن النبي ﷺ استعمل التاريخ، لكنه ليس على نطاق التعميم في الدولة.

أما عمر رضي الله عنه فقد اهتم بالتاريخ في الدولة، وجعله عاما، ولم يكن مقتصرا على الجوانب الرسمية فحسب، بل دخل أيضا المجال الاجتماعي وغيره من مجالات الحياة.

لماذا يؤرخ المسلمون بالتاريخ الميلادي؟

إن الأمة منذ زمن عمر رضي الله عنه، بل من زمن تأريخ النبي ﷺ وهي تتبع التاريخ الهجري، وسارت الأمة على ذلك حتى تبدل الحال، وأصبحت كثير من الدول العربية والإسلامية قد هجرت التاريخ الهجري إلى التاريخ الميلادي، حتى أضحى كثير من المسلمين لا يعرف أي شهر عربي هو فيه، فضلا عن أن يعرف أي يوم من التاريخ الهجري.

ولا يعرف على وجه التحديد متى تم ترك التاريخ الهجري.. لكن من المعلوم أن هذا حصل في بدايات القرن الماضي مع موجة التغريب والاحتلال الغربي لبلاد المسلمين، ذلك أنهم أدخلوا التاريخ الميلادي وأحلوه محل التاريخ الهجري في المعاملات والمناسبات والحياة اليومية، لربط بلاد المسلمين ببلاد الاحتلال الغربي المسيحي، ثم لما تركوا الاحتلال العسكري لبلاد المسلمين أوجدوا من مؤيديهم من يحاول أن يصبغ بلاد المسلمين بالصبغة الغربية، خاصة من الناحية الثقافية والفكرية، ومنها دوام استعمال التاريخ الميلادي المتبع في البلاد المسيحية، حتى يتوافق مع الغزو الفكري والتبعية لبلادهم.

ومازال هذا الأمر موجودا في كثير من بلاد المسلمين إلى يومنا هذا، وهو مما يطعن في خصوصية هذه الأمة التي جعل الله تعالى لها قبلتها الخاصة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ﴾(البقرة: ١٤٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(البقرة: ١٤٨).

ولعل غياب التعامل بالتاريخ الهجري في الأمة يوجب على أبنائها إحياء تلك الشعيرة فيها، لأن التاريخ الهجري للأمة يرتبط بأحكام فقهية كثيرة، كالصيام والحج والزكاة والعدة في الطلاق وغيرها، فإن أحكام الشريعة تحسب بالأيام والسنين الهجرية وليس الميلادية، مما يجعل التعامل بالتاريخ الميلادي يوقع المسلمين في خطأ في الأحكام الفقهية، وقد أبان القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(البقرة: ١٨٩).

ومن الشهور ما ذكرت صراحة في القرآن وتعلقت بها أحكام فقهية، كوجوب صيام شهر رمضان، في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(البقرة: ١٨٥)، وحرمت الدماء في شهر محرم وغيره من الأشهر الحرم، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾(المائدة:٢)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾(التوبة: ٣٦).

فدل ذلك على أن الله تعالى أناط كثيرا مما يتعلق بالأحكام الفقهية من حلال وحرام بالأشهر القمرية، وليس الأشهر الميلادية.

كيف اعتنى الإسلام بالمسنين؟

منى الموجي- القاهرة
دار الإعلام العربية

كفل الإسلام للإنسان حياة كريمة في مختلف مراحله العمرية لاسيما مرحلة الكبر، فحفظ للمعمر حقه في أن يحيا مكرما بين أهله وذويه، وجعله نموذجا يحتذى في السلوك، وناقلا للقيم والثقافة بين الأجيال، مفيدا في حكمته وخبرته للمجتمع بجميع شرائحه.. وأعطى الإسلام نماذج لرعاية المسنين، ولم يربط الأمر بسن معين.. «الوعي الإسلامي» ترصد عبر السطور التالية كيف رعى الإسلام الإنسان في شيبته، وحافظ على كرامته.

يمكن تلخيص دورة حياة الإنسان في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ (الروم: ٥٤)، فشباب اليوم هم شيوخ الغد، وكما شدد الإسلام على أهمية العناية بالطفل لضعفه، اعتنى الإسلام عناية خاصة- في ظل تنظيمه للعلاقات الأسرية واحترامه لقيمة وكرامة الإنسان بكبار السن- وشدد على ضرورة احترامهم



د.الراوي: على الأبناء رعاية آبائهم بأنفسهم.. ودور المسنين كارثة!

وتوقيرهم، وما يستدل به على حرص الإسلام على الاهتمام بكبار السن حديث الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: قال رسول ﷺ: «إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»، فقد ربط بين إجلال الله وبين إكرام كبير السن، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن لصلة الأرحام مكانة خاصة في الإسلام، فكثيرة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث المسلم على صلة رحمه.

دور المسنين

«الاهتمام ببر الوالدين جاء في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية».. هكذا بدأ عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف د.محمد الراوي، حديثه، مضيفا: قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء: ٢٣- ٢٤)، فبر الوالدين فريضة من الفرائض التي فرضها الله على المسلم، وفي هذه الآية نهي للأبناء عن إغضاب آبائهم أو إشعارهم بالضجر من خدمتهم، لافتا إلى قول الرسول الكريم: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»، وقد أوصى الإسلام بذلك وشدد عليه؛ ليظل دائما مجتمع الحب لا مجتمع الحقد.

وتابع د.الراوي: وقد أكد الرسول ﷺ أن رعاية المسنين من الأمور التي يعود جزاؤها على الإنسان عند كبره، حيث يرزقه الله بالذرية الصالحة التي تقف إلى جواره وتسنده في ضعفه وشيبته، وهو ما جاء في حديث نبوي شريف: «بروا آباءكم يبركم أبناؤكم».. وأيضا ما جاء في قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار، فانطبق عليهم، فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ففرج عنهم.. وكان من بينهم رجل دعا في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء».. وفي هذا دليل على أهمية رعاية الأبوين والعناية بهما في كبرهما.

ويؤكد أنه على الأبناء رعاية آبائهم وتولي شؤونهم وخدمتهم، لا أن يتركوهم بمفردهم في البيت، أو يودعوهم في دور رعاية المسنين، دون السؤال عنهم لفترات طويلة، وذلك إذا أراد الأبناء الحصول على الأجر والجزاء، واصفا إيداع الأبناء لآبائهم وأمهاتهم في دور المسنين بالكارثة التي أصابت المجتمع المسلم، مضيفا أنها صورة من صور تقطيع الأرحام، ويمثل صورة بغيضة من صور عقوق الوالدين.

أبقه في بيتك

وتؤكد د.فايزة خاطر رئيس قسم العقيدة بكلية البنات الإسلامية سابقا، أن الله سبحانه وتعالى اعتبر رعاية الوالدين من دلائل الإيمان به، مضيفة أن هناك آيتين اقترنتا بالأمر بالإحسان إليهما ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ (البقرة: ٨٣). واقتران شكر الله بشكر الوالدين إضافة إلى توصية الأبناء بأمهاتهم، وهو ما جاء في سورة لقمان في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (لقمان: ١٤)، إلى جانب العديد من الآيات التي أوصى الله فيها الأبناء بالإحسان إلى والديهم، ففي سورة العنكبوت جاء قول الله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (العنكبوت: ٨)، وفي سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف: ١٥).

وأشارت «خاطر» إلى وجود العديد من الأحاديث النبوية التي دعت إلى الاهتمام برعاية الآباء والأمهات، ومن بينها حديث عبدالله بن مسعود قال: «سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال: حدثني بهن ولو استزدته لزادني».

ولفتت إلى أن الرسول ﷺ جعل بر الوالدين في المرتبة الثانية من الأعمال الأحب إلى الله بعد الصلاة في أوقاتها، وقبل الجهاد في سبيل الله.

واستطردت «خاطر»: ولقد أمر

د.فايزة: ضرب الرسول ﷺ القدوة بأمر أبي بكر إبقاء والده في بيته

الله بطاعة الوالدين ومصاحبتهما بالمعروف في سورة لقمان في قوله ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان: ١٥)، موضحة أن بر الوالدين يكون ببذل المعروف والإحسان إليهما بالقول والفعل والمال، على أن يتم كل هذا بنفس منشرحة لا بوجه عابس، وألا نودعهم في بيوت المسنين، فقد استأنسوا بالطفل حتى قبل أن يصل إلى الدنيا وهو في رحم أمه، فلماذا في نهاية عمرهما لا يستأنس بهما؟! مشددة على أن بر الوالدين لا ينقطع بوفاتهما، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وسأله: «هل بقي من بر أبواي شيء أبرهما بعد موتهما؟»، فقال الرسول ﷺ: «نعم، الصلاة عليهما- بمعنى الدعاء- والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما- أي وصيتهما- وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما» رواه أبوداود.

وأشارت «خاطر» إلى العديد من معالم رعاية الإسلام للمسنين، منها التوقير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه. قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة»، وفي ذلك حث على بر الوالدين وعظم ثوابه، ومعناه أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك سبب لدخول الجنة، فمن فرط في ذلك فاته دخول الجنة، وأرغم الله أنفه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوسع المجلس إلا لثلاثة: لذي علم لعلمه، ولذي سن لسنه، ولذي سلطان لسلطانه» رواه مسلم.

أيضا فقد ضرب الرسول ﷺ القدوة في التواضع والإحسان والتكريم حين طلب من أبي بكر رضي الله عنه أن يبقي والده المسن في بيته ويأتيه.. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء أبوبكر رضي الله عنه بأبيه أبي قحافة إلى رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: لو أقررت الشيخ في بيته لأتيته، تكرمة لأبي بكر، فأسلم ورأسه ولحيته كالثغامة بياضا».

كما تدين تدان

ويقول أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الأزهر د.أحمد محمود كريمة: إن الدين الإسلامي اهتم بتنظيم العلاقات الاجتماعية، وحث المسلم على صلة رحمه، خاصة مع الوالدين بعد بلوغهما سن الشيخوخة، فكما كان للأبناء حقوق على الآباء، كان عليهم واجبات، مضيفا أن الإحسان إلى الوالدين وبرهما ارتبط بعبادة الله، فبر الوالدين والإحسان إليهما والعطف عليها جاء بعد عبادة الله، ولأن الإسلام حفظ للإنسان كرامته، ووفى بحقه، وأمر بإكرامه عند شيبته وحث على القيام بشؤونه، وهو النموذج الذي جسدته ابنتا شعيب عليه السلام اللتان قالتا: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ (القصص: ٢٣)..

ومن سماحة الإسلام أنه راعى حق المسنين في العبادات أيضا، وأمر من يؤم الناس أن يراعي حالهم.. فقال ﷺ: «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء».

وتابع قائلا: حينما يقر في يقين الإنسان بأن كل صغير سيكبر، وكل كبير سيهرم، وأنه كما تدين تدان، وأنه ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ (البقرة: ١١٠). وأنه «ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه»، كما قال ﷺ، فكل ذلك من شأنه أن ينمي عند الإنسان رعاية واحترام المسنين، والقيام على شؤونهم، وعندها سيضمن شيخوخة سعيدة لنفسه، حيث وعده الله بأن يقيض له من يكرمه عند شيخوخته.

د.سامية الجندي: دور المسنين باتت ضرورة مجتمعية لا يمكن الاستغناء عنها

في اتجاه مختلف، ترى د.سامية الجندي أستاذ علم النفس الاجتماعي، أن وجود دور المسنين في المجتمعات العربية بات أمرا مهما لا يمكن الاستغناء عنه، مؤكدة أننا في حاجة إلى الاهتمام بهذه الدور والتوسع في إنشائها، في ظل تدهور الوضع الاقتصادي، وعدم قدرة العديد من الأبناء على تحمل تكلفة حياتهم الخاصة وأسرهم، وفي الوقت نفسه رعاية آبائهم، مضيفة أن هناك كبارا في السن لم يرزقهم الله بالأبناء، وعند وصولهم لسن الشيخوخة تكون قواهم منهكة، وغير قادرين على رعاية بعضهم البعض؛ لذلك يلجأون بإرادتهم إلى هذه الدور التي توفر لهم الرعاية الاجتماعية والصحية.

ولا تنكر «الجندي» حقوق الوالدين في أن يرعاهم أبناؤهم، وما في ذلك من رفع لمعنوياتهم وإسعادهم على المستوى النفسي أكثر من إيداعهم في دور مسنين، أو حتى تركهم في البيت وإحضار آخرين يقومون بالإشراف على شؤونهم، لكنها تلفت إلى صعوبة الحياة وضغوط العمل.

وحول إشراك كبار السن في الحياة العامة وفي المجتمع، أكدت «الجندي» على صعوبة تحقيق هذا الأمر على أرض الواقع، لكن من الممكن أن يتم ذلك من خلال النوادي والنقابات التي ينتمون إليها، حيث الانخراط في أنشطة هذه الهيئات، إلى جانب المشاركة في العمل العام، حتى يشعر كبار السن بأن لهم دورا في الحياة، حتى إن كان هذا الدور لا يأخذون عليه الأجر المادي، لكن سيكون مفيدا لهم على المستوى المعنوي والجسدي.

إدارة الرقابة الشرعية الداخلية في الشركات

د. سلطان السهو
دكتوراه في المحاسبة

تعتبر بنية الرقابة الشرعية الداخلية خط الدفاع الرئيسي للوقاية من إعداد التقارير المالية المحرفة، وأداة مهمة للإدارة في تنظيم سير العمل وضمان حسن أداء العمليات، وحماية الأصول والأموال في المنشأة، من خلال وضع الضوابط والسياسات والإجراءات؛ لتحقيق هدف المؤسسة في الالتزام بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية.. مما يجعل الإفصاح عن مدى قوة وفاعلية الرقابة الشرعية الداخلية من قبل مجلس الإدارة، ثم قيام المراقبين الشرعيين الداخليين بالمتابعة لمعرفة ما إذا كان الإجراء المناسب قد اتخذ بشأن النتائج النهائية للرقابة الشرعية الداخلية التي كانوا قد ضمنوها لتقريرهم.. أمرا ضروريا.

هذا ويتعين على رئيس الرقابة الشرعية تشجيع المراقبين الشرعيين على تطوير وتحديث معلوماتهم فيما يتعلق بمعايير التدقيق الدولية، وكذلك الفتاوى والإرشادات والتعليمات الصادرة عن هيئة الرقابة الشرعية، حول المنتجات والخدمات التي تقدمها الشركة، وعلى بذل الحرص المهني اللازم والملائم للإجراءات التي تنطوي عليها الرقابة الشرعية الداخلية.. والجاري اتخاذها.

وكذلك الاستفادة من تجارب مدققي الرقابة الشرعية في الشركات الأخرى، فيما يتعلق باتباع الإجراءات التي تنص عليها معايير الضبط للمؤسسات المالية الإسلامية.

ولابد من عقد ورش عمل وندوات مهنية متخصصة لمعايير الضبط الداخلي للمؤسسات المالية الإسلامية، ويتعين تنفيذ إجراءاته لكافة المدققين، وذلك لغايات زيادة كفاءة وفاعلية ودور المدقق الشرعي، والتحلي بأخلاقيات المهنة، والالتزام بميثاق المحاسب والمراجع الخاص للمؤسسات المالية الإسلامية الصادر عن هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية.



الماء.. فوائده الصحية والجمالية

منور أحمد عثمان
باحث سوري



ما أهمية الماء لحيوية ونضارة الجسم؟ ما الكمية الكافية والمثلى للحفاظ على الحيوية والنشاط؟ هل الإكثار أو التقليل من شرب الماء له مخاطر على الصحة؟ ما هي الأوقات المناسبة لشرب الماء؟ وهل من تحذيرات طبية من العادات الخاطئة لشرب الماء. أسئلة سنحاول الإجابة عنها فيما يلي:

الماء ليس مادة مغذية، فهو لا يحتوي على أي مقدار حروري، وبعبارة أخرى فهو لا يحترق، ولكن له الدور الفعال في العضوية، لأن الأملاح التي يحملها تؤمن توازن الشوارد الملحية للأنسجة، ذلك أن المبادلات الفيزيولوجية تتبع وجود أملاح مستمرة على شكل شوارد (ions) كما أن عملية التفكير تحتاج إلى سيالات عصبية، لا تتوفر إلا بوجود الماء الذي يعد العنصر الأساسي في بقاء الإنسان على قيد الحياة، بعد الهواء، وكذلك في تكوين جسمه وتركيبه، فهو يدخل في خلايا جميع الأجهزة والعصارات والسوائل والدم وغيرها، بدون استثناء، وقد قدرت نسبة الماء في الجسم بأكثر من ٧٠ و٨٥٪.

الماء ضروري في حياة الإنسان، فجهاز الهضم مثلا لن يستطيع أن يعمل إذا لم يوجد ماء يكمل به الهضم، كما أن المواد الضارة من عمليات الهضم لا يمكن أن تنفث إلى الخارج إذا لم يتعاط الإنسان شرب الماء لتخرج بالبول أو بالعرق.

إن شرب الماء بكميات كافية يعد من أهم أسرار نضارة البشرة، كما يجب الاهتمام بشرب الماء في أيام الحر، فنقصان كمية الماء في الجسم عن المستوى المطلوب يؤدي إلى الصداع والأرق وعسر الهضم والإمساك، أما إذا كان النقص كبيرا فإن عمل الجسم يختل ويضطرب النظام فيه، ثم يبدأ الجسم بالجفاف، حيث تجف الخلايا وتظهر التجاعيد على الجلد، فعدم شرب الماء في أيام الحر يؤدي إلى زيادة كمية العرق، وكذلك إلى زيادة لزوجة الدم، الأمر الذي قد يساعد على تكوين الجلطة التي تحدث غالبا في أوردة الساق، حيث تكون سرعة سريان الدماء أقل، كما أنه في أثناء فترات الحر يزيد العرق وتقل كمية البول، وهكذا ترتفع نسبة الأملاح ويزيد احتمال تكوين الحصوة، ويزيد احتمال الإصابة بالالتهابات الصديدية، وشرب الماء بكثرة يعتبر عاملا أساسيا في العلاج، حيث يتخلص الجسم من كميات أكبر من الميكروبات مع البول المتزايد الذي يخرج من الجسم مع كثرة شرب الماء، وهكذا يمكن أن يؤدي إهمال شرب الماء بكمية كافية إلى تكوين الحصوة أو زيادة حجم الحصوة الموجودة أصلا، فشرب الماء بكثرة يقلل من تركيز الأملاح في البول، ويقلل بالتالي من احتمال تكوين الحصوة كما أن شرب الماء يعتبر أحسن دواء لطرد البلغم، كما أنه يساعد على إذابة البصاق أو البلغم اللزج، وهكذا تكون النصيحة لمرضى النزلات الشعبية المزمنة وحساسية الصدر هي شرب الماء بكثرة، وفي حالات تمدد الشعب الهوائية يساعد شرب الماء على التخلص من البصاق.

الماء والأمراض المزمنة

إن الماء نافع ومفيد للمصابين بأمراض الحمى والكوليرا والبول السكري والتهابات المعدة والأمعاء،



وشربه بكثرة يفيد المصابين بأمراض مزمنة، ويجب إعطاء المصاب بأمراض مزمنة جرعة من الماء كل ربع ساعة، حتى ولو لم يمل إليه، لأن في ذلك فائدة له، ولكن لا يجوز أن يفهم من هذا أن الإكثار من شرب الماء ينفع في كل الأمراض، بل يجب أن نميز بين ما ينفعه الماء وما يضره من تلك الأمراض، حتى لا يضع الشيء في غير محله، أما مرضى القرحة فيستطيعون أن يشربوا الماء كما يريدون، وبلا خوف، وكذلك مرضى القولون الذين يعانون من الغازات والانتفاخ، حيث يستطيعون أن يشربوا أي كمية من الماء، ولكن يجب أن يتجنبوا المياه الغازية والتي تحتوي على السكريات، ومرضى السكر حيث إن أجسامهم تفقد الكثير من الماء بصفة مستمرة، وعليهم أن يشربوا الكثير أيضا، بل إن عطشهم يدفعهم إلى ذلك دائما، وكذلك مرضى التليف المزمن في الكبد يجب الاستمرار في شرب الماء كلما أحسوا بالعطش، هناك شرط واحد لشرب الماء بكثرة، وهو أن تكون الكليتان سليمتين، وبعد التأكد من سلامة الكليتين فلا ضرر من شرب الماء، لأن الكليتين عليهما تخليص الجسم من الماء الزائد.

كما أن شرب الماء مهم للجلد والشعر والأظافر، حيث إن نقصه يؤدي إلى فقد الجلد ليونته، ويصبح معرضا للجفاف، وهكذا تسهل إصابته بالميكروبات أو الفطريات، أما الأظافر فإنها تصبح سهلة الكسر ويقل نموها وليونتها، وتكون أيضا عرضة للإصابة بالميكروبات، ونفس الشيء يتكرر مع الشعر الذي يسقط نتيجة لتكسره.

أهمية شرب الماء

إن شرب الماء بكميات كافية يمنح الجسم الرطوبة الكافية مما يكسب الجلد الليونة، ويحفظ للعينين البريق، ويجدد حيوية الخلايا، وينظم حرارة الجسم،ويعمل على تخليص الدم من السموم، وينشط الجهاز الهضمي، ويخفف السوائل في الجسم ، ويعمل على ترطيب المفاصل وليونتها وحمايتها من الكدمات، وهو خير معوض لما يفقده الجسم من السوائل التي تخرج خارج الجسم، وينشط وظائف الكلى.

كثرة شرب الماء

إن كثرة شرب الماء تؤدي إلى انتفاخ البطن، الشعور بالثقل وعدم الحركة، كثرة الغازات، وإلى تمدد مصل الدم، وتباعد بين الأنسجة وتجعلها تبطئ بالقيام بعملها على أكمل وجه، وفي حالات نادرة تؤدي إلى تسمم الماء.

قلة شربه

تقودنا إلى الجفاف والوهن وقلة النشاط، وفقدان القدرة على ضبط حرارة الجسم، وفقدان التوازن والإمساك، وحصى الكلى، والنسيان، وجفاف العين والفم والجلد كما أسلفنا.

موعد وعادة

يفضل جعل شرب الماء عادة وفي مواعيد ثابتة، فبعد فراغ المعدة طوال الليل يفضل شرب كوب واحد على الريق، وهذا ينبه الأمعاء ويغسل المعدة ويخلص الكليتين من الشوائب والرواسب والرمال، وينبه الكبد لفرز الصفراء، ويحضر المعدة لهضم الطعام، وبعدها يجب شرب كوب مع كل وجبة، وكوب بعد ساعة أو ساعتين من كل وجبة، وكوب قبل النوم أي المجموع ثمانية أكواب يوميا على أقل تقدير.

تحذيرات

إن شرب الماء المثلج عند الحر يؤدي إلى التهاب الغشاء المبطن للمعدة وإلى التهاب الحلق، وكذلك أثناء وجبات الطعام يؤثر في عملية الهضم، ويعوق إفرازات المعدة، ويجب ألا ننسى أن الإكثار من شرب الماء في حالة السمنة يؤدي إلى إبطاء عملية الهضم، فيؤدي إلى تحول الأغذية إلى طبقات دهنية، بدلا من احتراقها، كما أن كبار السن لا يشعرون بالعطش رغم حاجة أجسامهم للماء، لذلك لابد من جعل شرب الماء عادة من الصغر للتذكير عند الكبر.

أخيرا لابد أن نشير إلى أن ما نشربه من ماء يجب أن يكون نظيفا ونقيا، لأن الماء إن لم يكن نظيفا فإنه قد يحمل معه كثيرا من الجراثيم المعوية كالتيفوئيد، الباراتيفوئيد، الزحار، والإسهال، كما تحتوي مياه الجبال على بيوض ديدان حيات البطن (أسكاريس). وهناك أنواع أخرى من المياه تحتوي على طفيليات وجراثيم، ويمكن أن تصيب بأضرارها أعدادا كبيرة من الذين يشربون هذه المياه.

المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره

كتابة التاريخ الإسلامي ودعوات التنقية



د. أحمد خليل الشال
عضو لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي
بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
التابع لوزارة الأوقاف - مصر

تعالت الصيحات مؤخرا بضرورة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، وذلك بدعوى تنقيته مما حل به من أكاذيب شوهت صورته.. وهذه في رأيي دعوى تحتاج إلى إعادة نظر في صياغتها والمعنى المقصود منها، ذلك أن التاريخ الإسلامي قد فرغ من كتابته، فهو ليس في حاجة إلى إعادة كتابة، فقد فرغ أصحابه من كتابته في عصرهم، وذلك واضح بما رووه وسطروه في تصانيفهم.. ومن ثم فالصحيح أن التاريخ إنما هو في حاجة إلى إعادة تفسير. وسبيل ذلك فحص تلك المصادر القديمة وتمحيص مرويات أصحابها، للتعرف على المقبول منها والمردود، ثم إعادة قراءة المقبول من هذه المرويات من أجل تقديم التفسير الصحيح لهذه الفترة أو تلك، وهذا هو السبيل الأمثل لتنقية صورة تاريخنا.

وفرق بين قولنا «تنقية الصورة» و«تنقية التاريخ نفسه»، فما كتب لا يمكن حذفه من المصادر والكتب والمدونات، إذ إنه صار إرثا يتوارثه الأبناء عن الأجداد، بكل ما فيه من صالحه وطالحه، شئنا أم أبينا، ومن ثم فإن مهمة الوارث تنحصر في مجرد تصنيف ما ورثه، فيقول: هذا صالح للإنفاق وهذا مزيف لا يصلح، وما أصعب هذا الأمر!

ذلك أن تصنيف هذا التراث ليس بالأمر اليسير، إذ هو يحتاج إلى ميزان نقدي عسر في معياره، مرهق في استعماله، يحتاج إلى جلد وصبر ومعاناة شديدة، أعرض بسببها كثير من أبناء هذا التراث عن تلك المهمة الشاقة، معتلين بحجة واهية: «أنه لو طبق هذا المنهاج على التاريخ ما بقي في أيدينا شيء يعتد به». فأجابهم بعضهم غيرة على هذا التراث قائلا: «وتلك نظرة متسرعة، وأخشى أن أقول: متكاسلة، تحجم عن بذل الجهد لأنها تعلم مشقته، فتحكم ابتداء بأنه لن يؤدي إلى نتيجة»(١).

وكان من نتائج هذا الإعراض أن غزينا من قبل الدخلاء على هذا التراث، فأفسدوا في تراثنا حين خلطوا الصحيح بالسقيم، ثم قالوا: هذه بضاعتكم ردت إليكم، فلم يكن الخطأ منهم بقدر ما كان منا، حين قبل بعضنا هذا منهم راضيًا آمنًا مصدقًا، وهذا مثل المسلم والمستشرق غير المسلم.

هذا ولقد آثرت أن أخص هذا الفصل بعرض مجمل للملامح العامة للمنهج الذي ينبغي أن يدرس به التاريخ الإسلامي، وقد أدى إعراض الباحثين عنه إلى ثغرات نفذ منها أعداؤنا، يطعنون في هذا التاريخ المشرق لهذه الأمة العريقة.



وأول ما أستهل به هذا المقال، التنبيه على أنه لما استقرت الرواية، وألقت عصا التسيار في ختام القرن الرابع من الهجرة تقريبا، ولم يعد الوضع في الرواية فيما يخص هذه الفترة من السهولة بمكان، لجأ المفسدون في تحقيق مآربهم إلى وسائل أخرى، منها اتخاذ المكذوب من المروي عمادا لصرح التفسير الباطل لحوادث تلك الفترة، هذا فضلا عن التفسير الباطل من المروي الصحيح، وتلك وسيلة أخرى لقضية أخرى ليست محل بحثنا هنا.

وقد ساعد على استفحال هذا الخطر بعد الزمان الذي كان يتأخر قرنا بعد قرن، حتى إذا ما ورثنا هذا التراث بكل ما فيه من سقيم وصحيح، وجدنا أنفسنا أمام حصيلة هائلة من الروايات والتفسيرات التي احتاجت منا إلى التمحيص الدقيق، والتذوق السليم. ولكن لم يكن الوارثون طبقة واحدة في التعامل مع هذا الإرث، إذ إنهم تفاوتوا في ذلك بحسب قدراتهم، واختلاف مناهجهم، وميولهم، وأهوائهم هم أيضا.. الأمر الذي أدى إلى ركام جديد من تفسيرات تباينت هي الأخرى بتباين المناهج والأهواء، وهكذا سنظل ندور في دائرة المناهج والأهواء طبقة بعد طبقة، وجيلا بعد جيل، إلى قيام الساعة.

وهنا يطرح السؤال نفسه: ما هو العاصم إذن من اختلاف المناهج، وتنوع الأهواء؟

وتتحدد الإجابة عندي في أن ذلك يرجع إلى طبيعة كل فترة يدرسها الباحث، إذ إن لكل عصر ظروفه التي تحتم على الباحث أن يتبع فيه منهاجا بعينه، ويحكم فيه نظرة بعينها تختلف عن نظرة غيره لعصر غيره.. وإلا قصر في النتائج وظلم أهل الفترة التي يبحث فيها.. وهو ما أسميه «تحرير المقدمات»، ذلك أن من أخطر آفات البحث العلمي الخلط بين المقدمات، إذ إن ذلك سيؤدي بدوره إلى الخلط في النتائج أيضا، ويكون هذا التحرير في كل ما يخص العصر الذي يدرس، من حيث المفاهيم والمدلولات لمفردات العصر محل الدراسة.

ومن ثم، فهذا يوجب عدة أمور مهمة:

أ- محاكمة العصر بمفهوم أهله، بحيث يلزم الباحث نفسه أن ينظر في أي دراسة بنظرة ومنهاج أهل العصر الذي يبحث فيه.

ب- دراسة العصر بلسان قومه، ذلك أن اختلاف لسان كل عصر(٢)، وتحكيم لسان على آخر يؤدي إلى اختلاف المقدمات، ومن ثم النتائج.

جـ- التأصيل، وذلك في كل شيء يخص الفترة محل الدراسة، من حيث المصطلحات، والمصادر، والآراء.. ذلك أن اعتماد الوسائط يؤثر كثيرا في النتائج. ونرى ذلك واضحا في كتابات العرب من أصحاب المدرسة الحديثة فيما يخص عصر الخلافة الراشدة، وكيف أن اعتماد الوسائط قدم نتائج مخلة في تفسير تاريخ الخلافة الراشدة، عندما اتبع كثير من أصحاب المدرسة الحديثة مناهج واستدلالات المستشرقين في تفسير مواقف الصحابة من بيعة أبي بكر رضي الله عنه، ومن فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه، وحروب علي رضي الله عنه(٣).

د- تحديد الجهة المخاطبة، وهذا أمر في غاية الأهمية، أن يحدد الباحث الجهة التي سيخاطبها في دراسته، لأنه يترتب عليه تحديد المنهج الذي سيتبعه الباحث في دراسته، فضلا عن الأدلة التي سيستعين بها، إذ إن خطاب العقلية المسلمة يختلف عن الملحدة، وخطاب العقلية العربية يختلف عن الأعجمية.. ذلك أن التعميم في هذه النظرة يؤدي إلى تفكك الدراسة، وتشتت وجهات صاحبها، وذلك من حيث طبيعة الأدلة، وطريقة الاستدلال والعرض.. الأمر الذي سيكون له أثره في بنية البحث من حيث القوة والضعف. وهذا أمر لاحظته بقوة في جانب الدراسات الاستشراقية، إذ كان أصحابها يخاطبون بني جلدتهم في المقام الأول، فكان لذلك تأثيره الواضح في مناهج دراساتهم ونتائجها، تبعا لعقلية المخاطب.

ومن ثم فإني أؤكد تارة أخرى على أن تحديد عقلية المخاطب قبل العمل في أي دراسة أمر واجب، إذ به يتحدد منهاج البحث والباحث، وتتحدد قواعد منطلقاته وأصوله، وبذلك يكون الباحث مبصرًا لمواضع خطوه، راسخا واثقا مطمئنا في مسيره نحو غايته التي يرجوها من بحثه الذي يقوم به، ذلك أن اختلاط الوجهات وتعدد المخاطبين في البحث الواحد يسبب في رأيي تشتتا واضطرابا عند الباحث والمخاطب على السواء، وذلك بعكس من يحدد هدفه بعد تركيز الغرض، فهذا لا شك يكون أدعى للتوفيق في التسديد عند الرمي.

هـ- تحديد النيات، وهذا وإن جعلته آخر العناصر العامة إلا أنه في الحقيقة عمود أمر الباحث المسلم في بحثه الذي سوف يسأل عنه يوم القيامة، فما من امرىء إلا لديه رقيب عتيد يسطر ما يقوله ويكتبه، وهذا أصل أدرك المسلمون الأول معناه، فأعمالهم كلها كانت عندهم بالنية، بمقتضى قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات». ولله در البخاري فيما نقل عنه أنه قال: «ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين»(٤).

ويحكي ابن الجزري عن شيخه ابن كثير وما جرى له من جراء عكوفه على تصنيف كتابه «جامع المسانيد والسنن» فيقول: «أجهد نفسه كثيرا، وتعب فيه تعبا عظيما، فجاء لا نظير له في العالم، وأكمله، إلا بعض مسند أبي هريرة، فإنه مات قبل أن يكمله، فإنه عوجل بكف بصره، وقال لي رحمه الله: لا زلت أكتب فيه الليل والسراج ينونص حتى ذهب بصري معه، ولعل الله يقيض له من يكمله، مع أنه سهل، فإن معجم الطبراني الكبير لم يكن فيه شيء من مسند أبي هريرة»(٥). فلم يحزن ابن كثير على ذهاب بصره، ولكن كان حزنه على فوات شيء من تصنيف رأى فيه نفعا للمسلمين! والأمثلة على ذلك كثيرة.

فالعجب من إهمال كثير من المعاصرين لهذا الأمر، فتجد الواحد منهم ينهض للبحث والدراسة في موضوع بعينه، ولما يصلح نيته قبل الخوض في عمله الذي سينهض إليه، وليس من شك أن بعد هؤلاء عن تلك المعاني الغيبية أداهم إلى ذلك، على الرغم من كونها من أصول دين المرء المسلم، ومن ثم فهذا أمر نؤكد عليه، فإن بركة العمل والانتفاع به إنما تكون بدرجة نية الباحث في عمله.

وبعد هذه المقدمة العامة، يكون الانتقال إلى الخطوط العريضة التي ينبغي أن يسير عليها منهج البحث فيما يخص دراسة التاريخ الإسلامي، وهو موضوع الحلقة التالية إن شاء الله تعالى.

هوامش:

(١) محمد قطب، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص١١٢.

(٢) ويدخل في معنى اللسان هنا اللهجات واختلاف مدلولات الألفاظ التي تختلف من عصر لآخر رغم اتحاد اللفظ والكلمة.

(٣) راجع رسالتي للدكتوراه عن أثر الوضع في رواية التاريخ وتفسيره، نماذج من عصر الخلافة الراشدة، بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.

(٤) تهذيب التهذيب، لابن حجر ٣٤/٥.

(٥) المصعد الأحمد ٣٩- ٤٠، ومقدمة جامع المسانيد للمحقق ص٢٤٨.



إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

الفتوى والتيسير ورفع الحرج (٣/١).

دلت نصوص الشريعة الإسلامية على أن اليسر ورفع الحرج من المقاصد الشرعية السامية، والأوصاف الإسلامية العلية.

ومن الآيات التي استدل بها الفقهاء على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥).

وقال الإمام البخاري رحمه الله: «باب الدين يسر، وقول النبي ﷺ: أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة، ثم روى حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه؛ فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة».

(«صحيح البخاري» (ح٣٨)).

ومقصوده من الترجمة وحديثها: التنبيه على أن الدين يقع على الأعمال، لأن الذي يتصف باليسر والشدة، إنما هي الأعمال دون التصديق، وقد فسر الأعمال في الحديث بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة. «المتواري» لابن المنير (١/١٣).

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله عند «تفسيره» قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨): وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، أنها مبنية على التخفيف والتيسير، لا على الضيق والحرج. وقد رفع الله فيها الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا.

قذف المحصنات المؤمنات الغافلات

(١٤/٣٥٣/٤٥٢٢)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

ما هو حكم الدين في قذف المحصنات من النساء ظلما؟ وما هو الجزاء في الحياة الدنيا؟ ومن يقع عليه تنفيذ هذه العقوبة أو الجزاء (الدولة في أجهزتها أو من يمثلون السيدة التي وقع عليها القذف) لأخذ حقهم، وكذلك العقوبة في الدار الآخرة.

أجابت اللجنة بما يلي:

قذف المحصنات المؤمنات الغافلات بالزنا كذبا فسق، وهو من الكبائر، وعليه أشد العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ (النور: ٢٣).

وإذا استوفى القذف شرائطه الشرعية وجب على القاذف الحد؛ وهو جلده ثمانين جلدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (النور: ٤)، ولمن قذف بالزنا كذبا أن يرفع أمره للقاضي، فإذا ثبت القذف بشروطه لدى القاضي أقام الحد على القاذف، ولا يحق للمقذوف، أو غيره إقامة الحد على القاذف بنفسه؛ لأن الحدود لا يقيمها غير القاضي.

متى يقام حد القذف على الشهود بالزنا

(٢٠/٣٣٧/٦٥٠٢)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

إذا شهد أربعة رجال عدول على جريمة زنا، ولكن رأى القاضي أن شهادتهم لا تكفي لإثبات حد الزنا لوجود شبهة، فهل ينتقل الحد إلى التعزير، سؤالي: هل يقام عليهم حد القذف أم لا؟ أفتونا مأجورين.

أجابت الهيئة بما يلي:

إذا شهد أربعة عدول على رجل أو امرأة بالزنا، ولم يمنع القاضي من القضاء على الزاني بحد الزنا سوى شبهة مانعة من تطبيق الحد، فإن للقاضي تعزير المتهم بالزنا بما يراه مناسبا لحاله، ولا يجوز له إقامة حد القذف على الشهود. أما إذا اختلف الشهود في الشهادة، أو امتنع أحدهم عن الشهادة، فإن على القاضي في هذه الحالة إقامة حد القذف على الشهود.

العقوبة على السب بالزنا وغيره

(٢٢/٣٤١/٧١٧٨)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

وهـذا المعنـى الـذي تضمنته هـذه الآية الكريمة، وهـذا الحديث ذكره جل وعلا في غير هـذا الموضع من كتابه الكريم؛ كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ (النساء:٢٨).

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (ح٣٤٤)، وابن عباس رضي الله عنهما (ح٣٤٥)؛ أن النبي ﷺ لما قرأ خواتم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ (البقرة:٢٨٦) قال الله: «قد فعلت»، وهذه في رواية ابن عباس. وفي رواية أبي هريرة قال: «نعم».

ومن رفع الحرج في هذه الشريعة: الرخصة في قصر الصلاة في السفر، والإفطار في رمضان فيه، وصـلاة العاجز عن القيام قاعدا، وإباحة المحظور للضرورة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ (الأنعام:١١٩)؛ إلـى غيـر ذلـك مـن أنـواع التخفيف والتيسير، وما تضمنته هذه الآية الكريمة والآيات التي ذكرنا معها من رفع الحرج، والتخفيف في شريعة نبينا ﷺ، هو إحدى القواعد الخمس، التي بني عليها الفقه الإسلامي، وهي هذه الخمس:

الأولى: الضرر يزال، ومن أدلتها حديث: «لا ضرر ولا ضرار».

الثانية: المشقة تجلب التيسير: وهي التي دل عليها قوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ (الحج:٧٨).

الثالثة: لا يرفع يقين بشك، ومن أدلتها حديث: «من أحس بشيء في دبره في الصلاة، وأنه لا يقطع الصلاة حتى يسمع صوتا أو يشم ريحا»؛ لأن تلك الطهارة المحققة لم تنقض بتلك الريح المشكوك فيها.

الرابعة: تحكيم عرف الناس المتعارف عندهم في صيغ عقودهم ومعاملاتهم، ونحو ذلك. واستدل لهذا بعضهم بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ (الأعراف:١٩٩).

الخامسة: الأمور تبع المقاصد، ودليل هذه حديث: «إنما الأعمال بالنيات» (رواه البخاري (ح١)). («أضواء البيان»(٥/٣٠٠)).

... يتبع

تقدم رجل لخطبة امرأة، وهو من قبيلة وهي من قبيلة أخرى، فاستشار أهلها رجلا بعيدا عن القبيلتين فطعن في الخاطب وقبيلته، وكان كاذبا، وليس في الخاطب ولا في قبيلته شيء مما قال، والواقع أنهم أهل دين معروفون بذلك في بلدهم، فما الحكم الشرعي في هذا المستشار؟

أجابت اللجنة بما يلي:

من استشير في خاطب أو مخطوبة فعليه أن يذكر ما فيه من مساوئ شرعية أو فرعية، ولا يكون غيبة محرمة إذا قصد به النصيحة والتحذير لا الإيذاء، لقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله تعالى عنها فيمن خطباها: «أما معاوية فصعلوك لا مال لـه» (أخرجه مسلم)، ولقوله ﷺ: «إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه» (أخرجه أحمد)، وعنه ﷺ أنه قال: «المستشار مؤتمن» (أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح).

وقال ﷺ: «الدين النصيحة» (أخرجه مسلم)، وقد روى الحاكم «أن أخا لبلال رضي الله تعالى عنه خطب امرأة فقالوا: إن يحضر بلال زوجناك، فحضر، فقال: أنا بلال وهذا أخي، وهو امرؤ سيئ الخلق والدين». قال الحاكم: صحيح الإسناد.

وقد أوجب الإسلام عقوبة على الساب: عقوبة الحد إن كان السب بالزنا، وعقوبة التعزير إن كان بغيره من الألفاظ. هذا وإذا ثبت السب ثبت الحكم المقرر شرعا، ولا اعتبار لحسن النية أو عدمه، إلا في تخفيف عقوبة التعزير إذا رأى الإمام ذلك.

عقوبة الاتهام بالباطل

(٥٤٤٩/٣٣٩/١٧)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

ما حكم الشرع في شخص افترى على زميل له في العمل بأمور غير صحيحة، وفيها طعن في ذمة زميله المالية، واتهامه بالرشوة والانتفاع غير المشروع من جهة العمل؟ وما الذي يجب على رب العمل فعله في مثل هذه الحالة؟ علما بأن الاتهام تم أمام عدد كبير من الناس الذين التبس عليهم الأمر.

أجابت اللجنة بما يلي:

الاتهام بالباطل محرم شرعا، وفاعله آثم ويستحق عقوبة تعزيرية تتناسب مع ما اقترفه من جرم، إلا إذا سامحه المتهم. وأما صاحب العمل، فعليه أن يتحقق من كل ما أثاره من اتهامات تقدم في مسيرة العمل، كالاتهام بالرشوة، أو الانتفاع غير المشروع، وأن يتخذ ما يراه محققا لمصلحة العمل نحو كل منهما على ضوء ما ينتهي إليه التحقيق في ضوء اللوائح والقوانين المطبقة.

السيرة النبوية لابن هشام

إعداد : خالد خلاوي

تعد سيرة ابن هشام من أهم المصادر التاريخية، وأكثر كتب سيرة الرسول ﷺ انتشارا بين المسلمين، والمرجع الرئيسي لدارسي السيرة النبوية، وأصل هذا الكتاب ما جمعه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار من المغازي والسير ورواه عنه زياد بن عبدالله البكائي، وجاء ابن هشام فهذب سيرة ابن إسحاق فعرفت به، واشتهرت باسم «سيرة ابن هشام»، ولا تكاد تعرف سيرة ابن إسحاق.

وقد اعتنى علماء الحديث والتاريخ والمحققون بسيرة ابن هشام شرحا وتهذيبا وتخريجا لرواياته وتبيان الضعيف من الصحيح.

التعريف بابن هشام

هو أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري، كاتب سير ومؤرخ بصري، كان عالما بالأنساب واللغة وأخبار العرب.

نشأ في البصرة وتلقى العلم فيها، وبرع في الأدب والعربية، حتى وصف بالنحوي، وأخذ عن علماء البصرة وأدبائها، ورحل إلى مصر بعد أن اكتمل علمه في البصرة، واستقر بها، ونشر فيها علمه، والتقى فيها بالإمام الشافعي.

أهم أعماله هو اختصاره وتهذيبه للسيرة النبوية التي كتبها ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ، ومن آثاره أيضا كتاب «التيجان في ملوك حمير».

توفي ابن هشام في مصر عام (٨٣٣م-٢١٨هـ).

منهج سيرة ابن هشام ومباحثها

يقول الأستاذ محمد علي النجار(١) عن منهج ابن هشام في السيرة: روى ابن هشام سيرة ابن إسحاق فأعجبته، ولكنه رأى فيها أشياء أنكرها، فأزمع تهذيبها ونشرها على الناس في صورة جديدة. وقد وضح منهج عمله فيها في قوله: «وأنا- إن شاء الله- مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم، ومن ولد رسول الله ﷺ من ولده، وأولادهم لأصلابهم، الأول فالأول، من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ، وما يعرض من حديثهم، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل، على هذه الجهة، للاختصار إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيرا له ولا شاهدا عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته، ومستقص- إن شاء الله - ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به». ولم يذكر ابن هشام أنه قد يزيد على ما رواه ابن إسحاق ما يراه تكملة له.

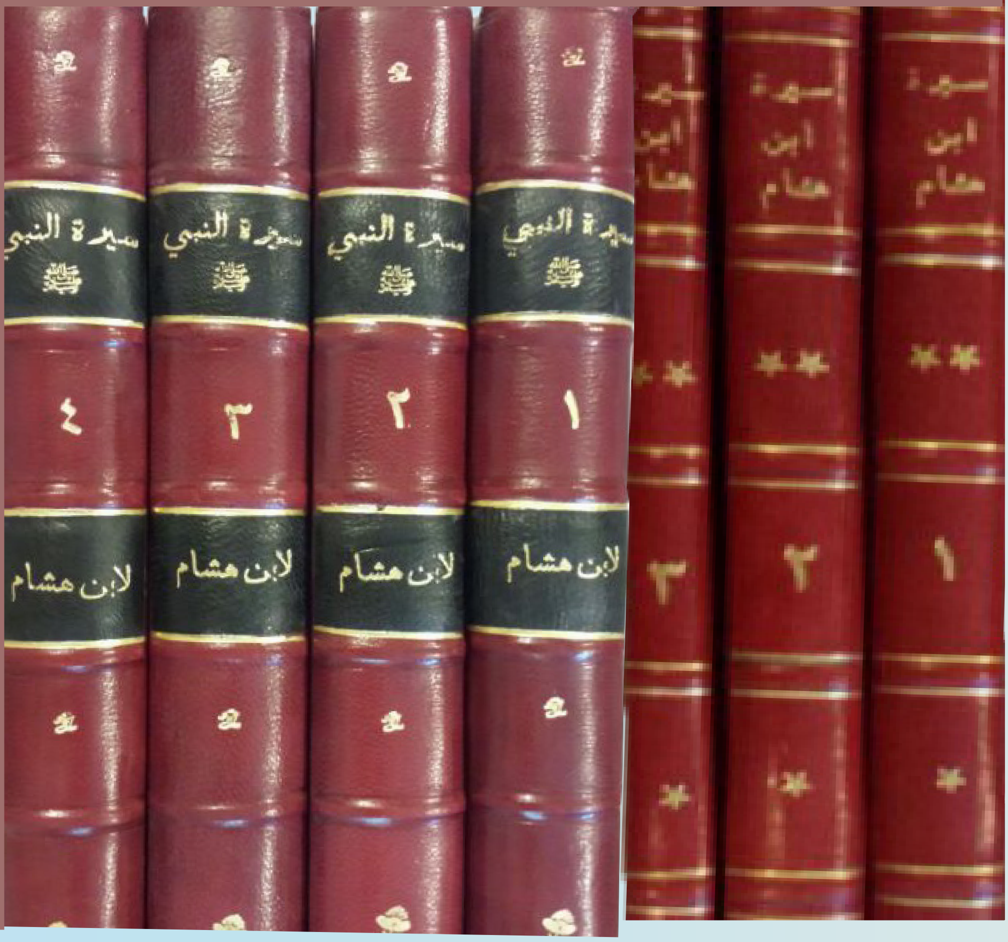
وسيرة ابن هشام، سيرة جليلة، فيها طائفة من أخبار العرب قبل الإسلام، وبسط للحالة بعد الإسلام في حياة الرسول ﷺ، وهي سجل لما جرى في هذا العهد من المعاهدات، ولما جرى في المغازي. فيذكر في الغزوة من شهدها من الجانبين وما حدث لهم، في تفاصيل دقيقة، كأنما كان هناك كتاب حربيون يدونون كل شيء، وفيها ثروة أدبية مما يورد من الأشعار في الغزوات وغيرها.

وكان ابن إسحاق يكثر من رواية الأشعار في كل موطن، حتى أورد فيها كثيرا من الشعر المنحول والمصنوع، وحتى قال فيه ابن سلام في طبقات الشعراء ص٩: «وكان ممن أفسد الشعر وهجنه، وحمل كل غثاء منه محمد بن إسحاق ابن يسار... فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر، وأوتى به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرا»، وقد نبه ابن هشام على ما ينكر من الشعر الوارد في سيرة ابن إسحاق وعلى الخلط فيه.

يبتدئ ابن هشام بذكر شيء من كلام ابن إسحاق، ويصدره بعبارة «قال ابن إسحاق» ويعقب عليه بما يراه من زيادة أو نقد بقوله: «قال ابن هشام» ويسير هكذا في الكتاب، حتى يمكن للباحث أن ينتزع من سيرته سيرة ابن إسحاق لولا ما حذف منها وأسقط.

وقد ابتدأت السيرة بسرد نسب الرسول عليه الصلاة والسلام، واستتبع ذلك

ذكر جملة صالحة من أنساب العرب وأخبارهم في الجاهلية، وعاداتهم وأصنامهم، وذكر تجديد حفر زمزم على يد عبدالمطلب، وولادة الرسول ﷺ، ونشأته ومبعثه، ومن استجاب لدعوته، وما لقيه في سبيلها من عنت وإرهاق، وما لاقى المؤمنون من أذى، وهجرة بعضهم إلى الحبشة فرارا بدينهم، وعرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل يدعوهم إلى الإسلام، حتى استجاب له فريق من الأوس والخزرج في يثرب (المدينة) فهاجر إليها ﷺ مع المؤمنين من أهل مكة، وصارت المدينة دار عز ومتبوأ قرار للمسلمين، وفي المدينة كانت بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين اليهود الذين كانوا فيها مفاوضات ومقاولات ومعاهدات نقضوها ولم يتموا عليها، فكانت دائرة الغدر عليهم، وانتهى الأمر بإجلائهم عن المدينة، والانتصار عليهم في خيبر، وإذلالهم.



وفي المدينة تبتدئ الغزوات والسرايا التي عز بها المسلمون، وذل الشرك بفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وبهذا الفتح المبين يدخل العرب في دين الله أفواجا، ويوفدون الوفود إلى المدينة معلنين إسلامهم، وطالبين من يفقههم في دينهم، وذلك في السنة التاسعة، وتسمى لهذا «سنة الوفود»، ويرسل الرسول ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام وينتهي الكتاب بذكر أزواجه عليه الصلاة والسلام وتمريضه وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، وذكر ما جرى في سقيفة بني ساعدة من الخلاف الذي انتهى بخلافة أبي بكر رضي الله عنه.

ما كتب عن سيرة بن هشام

وهذا إجمال شديد لما كتب على سيرة ابن هشام واتصل تأليفه بسببها:

فقد شرح السيرة أبو القاسم عبدالرحمن السهيلي الأندلسي، المتوفى سنة ٥٨١هـ ويسمى هذا الشرح الروض الأنف، وقد طبع في مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) في جزأين.

وشرح غريبها، وتكلم عن بعض المشاكل ومنها أندلسي آخر، هو أبوبكر الخشني مصعب بن محمد وهو من جيان في الأندلس، والخشني نسبه إلى خشين ابن النمر: قبيلة في قضاعة، نص على ذلك في القاموس. وكانت وفاته سنة ٦٠٤هـ، وطبع هذا الكتاب في مصر في مطبعة هندية سنة ١٣٢٩هـ.

ونظم السيرة- كما في كشف الظنون- أبو نصر الخضراوي المتوفى سنة ٦٦٣هـ، وكذا عبدالعزيز بن أحمد المعروف بسعد الدين الديريني المتوفى في حدود سنة ٦٩٧هـ، وأبو إسحاق الأنصاري التلمساني، على قافية اللام، وفتح الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣هـ في بضعة عشر ألف بيت، وسماه «فتح القريب في سيرة الحبيب».

واختصر السيرة البرهان إبراهيم بن محمد بن المرحل، وزاد عليها أمورا، ورتبه على ثمانية عشر مجلسا، وسماه «الذخيرة في مختصر السيرة»، فرغ منه سنة ٦١١هـ.

ذكر هذا كله في كشف الظنون.

المصدر

(١) السيرة النبوية لابن هشام، محمد علي النجار، سلسلة تراث الإنسانية ج١ ص ٧٨١ وما بعدها، طبعة المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر

إعداد: علاء عبدالفتاح

القراءة وثقافة الطفل

من بين دفتي الكتب يرى الطفل ما لا يمكن أن يراه في الواقع، وعلى شاشات العرض هناك مجسمات ربانية تجسد لعقله ما يستوعبه حينما يقرأ نصا قصصيا.. إذ يرى البطلَ أو يرى ما يصوره كاتب القصة للطفل. ولذلك لا يمكن أن يكتب القصص للأطفال أي كاتب مهما برعت كتاباته. فللطفل رؤى أخرى لابد أن يلمسها الكاتب.

إن الطفل المعاصر مستهدف من قبل ثقافة تكنولوجية هشة تسلب قدرته على التفاعل.. فالتكنولوجيا التي صنعت حالة من التراخي العقلي لدى الأطفال فشَلت فكرهم، وشدت انتباههم إلى عالم متحرك، أصبحت فيه عيناه معلقتين بالبلورة السحرية التي أمامه بلا حراك يستحث العقل؛ بعدما وجد الأبوان الحل السهل للطفل، وهو «الجيمز» و«ألعاب البلاي ستيشن» ثم أفلام الكرتون التي تعطي للطفل مساحة شاسعة من المشاهدة بدون تفكير.. إذن، أين هي الثقافة التي كانت تنغرس في عقول الأطفال؟ أين الحبكة التي كانت تربط عقل الطفل بالحدث. إنه التغريب الذي يشوه كل صور الثقافة الطفولية، حيث لم يعد الطفل في حاجه إلى المجلات المصورة، وإلى الكتب القصصية، والتي نبهتنا على الحقيقة المخيفة التي تروع كل راع لأسرته بذهاب بعض مواد الدراسة أيضا وانصراف وإهمال القائمين والمسؤولين عنها، وكأنها شيء أصبح بلا جدوى..

ومن بين المعرفة الأكاديمية للمواد في اليوم الدراسي كانت هذه الحصص والمواد تعد ترفيها تربويا للطفل، أما الآن ففي البيت يرى الطفل ما لا يمكن أن يراه في الواقع، على شاشات العرض، ولم يعد الطفل أيضا في احتياج إلى ألعاب الذكاء وغيرها، ولا إلى أن يسمع الحكايات من الجدة، ما أدى أيضا إلى اندثار التراث الشفهي للأطفال، وكثرت المجلات التي أغلقت أبوابها، حتى إننا لا نكاد نحصل على مجلة ترتقي إلى المستوى الذي نرتضيه لأبنائنا، ولقد أصبحت مجلة الحائط في المدارس من التراث المندثر.. أين إشراك الطفل في تحرير أجزاء من المجلة اليومية والاستفادة من التوجيهات التربوية المعاصرة؟ بحيث تكون المجلة رافدا تربويا مهما للأطفال.. كل ذلك أصبح شيئا بلا أهمية، مع غزو تكنولوجيا التغريب، وأصبحت الكتابة والرسومات للطفل شيئا أغرب من أن يجذب الانتباه، بعدما حلت شاشات التلفاز والكمبيوتر محل كل ذلك.. وقضت على ملكة التأمل والإبداع لدى الطفل، ولم يعد أي أديب أو فنان قادرا على الكتابة والرسم للطفل كما كان من قبل.

محمود حسانين

من يشري نفسه

تعددت السبل وتنوعت الغايات واختلف سعي الناس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾(الليل:٤).

فالآية الكريمة تحدثنا عن أشرف سعي يسعاه الإنسان، إنه السعي لنيل رضا الله عز وجل، لا لطلب المدح والثناء، أو الجاه والرئاسة، أو الذهب والورِق، أو أي عرض زائل.

فإن كانت الدنيا بمتاعها الفاني، وعرضها الزائل مطلب الكثيرين من الناس!

فإن هناك فئة قليلة من الناس يشرون أنفسهم، أي: يبيعونها.

ولكن لما كانت أنفسهم أغلى ما يملكون، فقد قلّبوا طرفهم يمنة ويسرة فلم يجدوا الدنيا بكل ما تحويه من متع زائلة وأعراض فانية تساوي قيمة أنفسهم الغالية!

ورأوا أن الثمن الوحيد الذي تطيب به نفوسهم ليبيعوها به، هو جنة عرضها السموات والأرض، والتي كتبها الله لكل من حاز رضاه عز وجل.

فباعوا أنفسهم لرب العزة بأن أفنوها في طاعته، وسخروا أعمارهم وأموالهم وكل قدراتهم وأولادهم في طلب مرضاة الله سبحانه وتعالى،



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

النجاح الدراسي

النجاح يجعلنا فخرا لوطننا وأمتنا، ولكنه يحتاج في تحقيقه إلى التحلي ببعض الصفات والعمل ببعض الوصايا:

- الإيمان القوي بالله عز وجل، فهو يحقق المعجزات ويذلل الصعوبات.
- تقوية الصلة بالله عز وجل، وذلك بالمحافظة على الصلوات الخمس في المسجد والدعاء قبل البدء بالدرس أو المذاكرة.
- ثق بقدراتك واعلم أنك تستطيع النجاح كما نجح آخرون قبلك، كما أن مستقبلك يحتاج إلى مزيد من الجهد، فأتقن عملك ولا تهمل.
- نظم وقتك؛ حتى لا يطغى المهم على الأهم، وذلك بعمل جدول ينظم الدراسة ويقسم أوقات النهار والليل، شرط البدء من الصباح الباكر والنوم أول الليل مع جعل فترات للراحة والأكل والنوم الكافي.
- لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، حتى لا تتراكم عليك الأعمال والواجبات وتصاب بالكسل والإحباط، وابدأ بالمادة التي تحتاج مزيدا من الجهد والوقت دون نسيان المواد الأخرى.
- احترم معلمك، وأنزله المنزلة التي تليق به، واستأذن قبل الدخول عليه، واخفض صوتك وأنت تحدثه، ولا تقاطعه ولا تسخر منه، والتزم بما يكلفك به من واجبات، وأدها على أحسن وجه، فهذا يثلج صدره كما يساعدك على التفوق.
- الاستفادة من خبرات الأهل والأقارب بعد دراستك الخاصة على أن تكون على سبيل المراجعة والمناقشة.

محمد أحمد عبدالقادر

قاطرة التقدم

بناء أي صرح على وجه البسيطة يجب أن تتوافر له مقومات عديدة، نختار منها اليوم ثلاث ركائز أساسية، يجب أن تتوافر في كل دولة مسلمة لنلحق بركاب الدول المتقدمة.

١- العلم

العلم دافع للحياة، ومفتاح التطور والنضج وعمود السعادة والنجاح، وسبب العمل الصحيح، والحياة تقف عندما يقف التعلم، ولا يمكن أن يحقق الإنسان نجاحا ممتازا في الحياة إلا وهو على قدر لا بأس به من العلم والثقافة، إن المعرفة هي قوة في حد ذاتها، والقاعدة العامة في التعليم هي: اعرف شيئا عن كل شيء لتكون مثقفا، واعرف كل شيء عن شيء لتكون متخصصا. ولو لم يكن للعلم فضل وأهمية، ما حرص على طلبه والرحلة إليه والتعب من أجل تحصيله الرعيل الأول من سلف هذه الأمة ومن اقتفى أثرهم إلى قيام الساعة.

٢- القيادة المحكمة

وللقائد خصائص يجب أن تتوفر فيه لكي تكون قيادته محكمة، نذكر منها:

أ- إصرار: فالقائد هو من يبث الفكرة المثالية التي يؤمن بها في جماعته، ليحملها على معاونته في تنفيذه الفكرة رغم كل العقبات.

٣- الخيال

إن الخيال هو الذي يصنع الحقيقة، والسر في تقدم الأمم يعود بالدرجة الأولى إلى هؤلاء القلة من المغامرين الذين أزالوا القيود عن حدود تفكيرهم، ولحقوا بسماء الخيال، منذ أيام ألف ليلة وليلة حين حلم الإنسان بالطيران، وجسد التلفاز في كرة بلورية.

وحين سئل من صمم مكوك الفضاء لأول مرة: لماذا صممت المكوك بالشكل المعروف حاليا؟ قال لأنني تخيلته كما كان موجودا في كتب الخيال العلمي عند كتاب القصص من الأميركان.

وليد السعيد أبوالعمايم

بلزوم أمره مهما كلفهم من مشقة، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن هؤلاء الذين باعوا أنفسهم ولم يقبلوا ثمنا دون رضا الله عز وجل.

«صهيب الرومي»، لما اشتد عليه عذاب مشركي مكة.

فقال لهم: لا تعذبوني، هل لكم إلى خير؟

قالوا: وما هو؟

قال: أنا شيخ كبير، لا يضركم إن كنت معكم، أو مع غيركم، لئن كنت معكم لا أنفعكم، ولئن كنت مع غيركم لا أضركم، وإن لي عليكم لحقا لخدمتي وجواري إياكم.

فقد علمت أنكم إنما تريدون مالي، وما تريدون نفسي، فخذوا مالي، واتركوني وديني لألحق بالمدينة.

فقالوا: صدق، خذوا ماله، فتعاونوا به على عدوكم.

ففعلوا ذلك فاشترى نفسه بماله كله، ثم هاجر.

فلقيه أبوبكر الصديق، وقيل: لقيه النبي ﷺ.

فقال: ربح البيع يا صهيب.

فقال: وبيعك لا يخسر.

محمد فريد فرج فراج

إعداد: تركي النصر

أربعة من طريق الاستقامة

قال شقيق البلخي رحمه الله: أربعة أشياء من طريق الاستقامة:
١. لا يترك أمر الله لشدة تنزل به.
٢. ولا يتركه لشيء يقع في يده من الدنيا.
٣. لا يعمل بهوى أحد ولا يعمل بهوى نفسه؛ لأن الهوى مذموم.
٤. ليعمل بالكتاب والسنة.

(الحلية: ٢/٥٠٢)

الورق والوراقون

قال العلامة أبوالفرج ابن نديم الوراق البغدادي (ت ٣٨٥هـ) رحمه الله: «إن العرب كانت تكتب في أكتاف الإبل، واللخاف: وهي الحجارة البيض العريضة الرقاق، وفي عسب النخل، وبعد ذلك كتبوا في الجلود المدبوغة.. وكانت الدباغة في أول الأمر بالنورة وهي شديدة الجفاف، ثم كانت الدباغة الكوفية تدبغ بالتمر، وفيه لين، ثم كتبوا على الورق الخراساني، وكان يعمل من الكتان، وحدث صنعه في أيام بني أمية، وقيل: إن صناعا من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصيني الذي كان يصنع من الحشيش.

ويذكر من أنواعه: السليماني، والطلحي، والنوحي، والفرعوني، والجعفري، والطاهري».

(الفهرست، لابن نديم، ص٣١، بتصرف يسير)

العقل مع الاتباع

عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي -رحمه الله تعالى- وقد روى حديثا، فقال له بعض من حضر: تأخذ بهذا؟ فقال: إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثا صحيحا، فلم آخذ به؛ فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب، ومد يده. وقال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله: قال الشافعي: يا أبا عبدالله، إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فأخبرونا حتى نرجع إليه.

(صفة الصفوة: ٢/٥٥٦)

متى يستجيب الناس لك؟

قال الإمام ابن قيم الجوزية- رحمه الله:«العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا؛ فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب، مع إقامتهم على دنياهم.. فترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة؛ فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة؟! فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن تحبب الله إليهم، بذكر آلائه، وإنعامه، وإحسانه، وصفات كماله، ونعوت جلاله، فإن القلوب مفطورة على محبته.. فإذا تعلقت بحبه.. هان عليها ترك الذنوب، والإصرار عليها، والاستقلال منها.
وقد قال يحيى بن معاذ: «طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها».

(الفوائد، ص ١٦٩).

الأفئدة مزارع الألسن

قال الإمام الشافعي رحمه الله: إن الأفئدة مزارع الألسن، فازرع الكلمة الكريمة فيها؛ فإنها إن لم تنبت كلها نبت بعضها.

(مناقب الشافعي للبيهقي، ٢/٧٦)

المساجد مجالس الكرام

- قال أبوالدرداء- رضي الله عنه: ما من رجل يغدو إلى المسجد بخير يتعلمه أو يعلمه إلا كتب الله له أجر المجاهد، ولا ينقلب إلا غانما. (الزهد للإمام أحمد، ص ٢٥٤).
- قال أبوادريس الخولاني- رحمه الله: المساجد مجالس الكرام.
- قال عمرو بن ميمون- رحمه الله: المساجد بيوت الله، وحق على المزور أن يكرم زائره. (**الحلية: ٢/ ٧١،١٦٢**).

أقل الناس علما

قال الإمام الأوزاعي- رحمه الله تعالى: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط (شداد المسائل)، فلقد رأيتهم أقل الناس علما.

(جامع العلوم والحكم، ص ١٢٣)

من درر الإمام أحمد

- ما شبهت سن الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط.
- ما قل من الدنيا كان أقل في الحساب.
- كل شيء من الخير تهتم به، فبادر به قبل أن يحال بينك وبينه.
- لا تزال بخير ما نويت الخير.
- يؤكل الطعام بثلاث: مع الإخوان بالسرور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة.
- إن لكل شيء كرمًا، وكرم القلب الرضا عن الله عز وجل.
- الدنيا داء، والسلطان داء، والعالم طبيب. فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاحذره.

(الحديقة لمحب الدين الخطيب، ٣/ ١٣٥٠)

النعيم والغنى

قيل لراشد بن سعد - رحمه الله: ما النعيم؟

قال: طيب النفس.

فقيل له: ما الغنى؟

قال: صحة الجسد.

(الزهد: للإمام أحمد، ص ٦٤٨)

أحوال «لو»

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى:

«(لو) تستعمل على وجهين: أحدهما: على وجه الحزن على الماضي والجزع من المقدور، فهذا هو الذي نهي عنه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ (آل عمران: ١٥٦). الوجه الثاني: أن يقال: (لو) لبيان علم نافع كقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) ولبيان محبة الخير وإرادته، كقوله: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثل ما يعمل، ونحوه جائز».

(الفتاوى: ١٨/ ٣٤٨).

فزادهم إيمانا

قيل لسفيان بن عيينة - رحمه الله: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: أليس تقرأون في القرآن ﴿فزادهم إيمانا﴾ في غير موضع؟ قيل: ينقص؟ قال: ليس شيء يزيد إلا وهو ينقص.

(حياة السلف بين القول والعمل، ص١٨)

هكذا كانوا

عن الحسن - رحمه الله - قال: كان - والله - من أدركت من صدر هذه الأمة ما قالوا بألسنتهم فكذلك في قلوبهم، كانوا والله موافقين لكتاب ربهم ولسنة نبيهم ﷺ، فإذا جن الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يرغبون إلى ربهم في فكاك رقابهم، إذا أشرف لهم من الدنيا شيء أخذوا منه قوتهم، ووضعوا الفضل في معادهم، وأدوا إلى الله فيه الشكر، وإن زوى عنهم استبشروا، وقالوا: هذا نظر من الله واختبار منه لنا، وإن عملوا بالحسنة سرتهم ودعوا الله أن يتقبلها منهم، وإن عملوا بالسيئة ساءتهم واستغفروا الله منها.

(موسوعة ابن أبي الدنيا، ١/٣٣١)

الاقتداء

قال إبراهيم بن هانئ: اختفى عندي الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - ثلاثة أيام، ثم قال: اطلب لي موضعا حتى أتحول إليه. فقلت: لا آمن عليك يا أبا عبدالله. قال: إذا فعلت أفدتك. فطلبت له موضعا، فلما خرج قال لي: اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام، ثم تحول، وليس ينبغي أن نتبع رسول الله ﷺ في الرخاء ونتركه في الشدة.

(حياة السلف بين القول والعمل، ص٤٠)

مسك الختام

القلم أمانة

خالد برادة
كاتب مغربي

من الأمور التي لا تجهل والحقائق التي لا تنكر أنَّ أمانة القلم من أعظم الأمانات؛ ومسؤولية من أضخم المسؤوليات، وأشدها على الإطلاق؛ وأنت خبير أنَّ القلم رسول العقل وترجمان الفكر؛ ولن نغالي إذا قلنا إنَّ القلم فصيح في كلماته، بليغ في عباراته.

وإذا كان الحق جلَّ جلاله قد أقسم به في كتابه في مستهلِّ سورة القلم بقوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾(القلم: ١)، فالأمر إذن جلل؛ يلفت الأنظار ويوجب الاعتبار؛ إذ لو لم يكن للقلم أهميته الجليلة لما أقسم به الحق سبحانه، وحاشا لله تعالى أن يقسم بشيء متهافت؛ والدارسون للقرآن الكريم يشهدون أن الله تعالى منزه عن العبث في قسمه، بل في كلِّ شيء من قوله.

ومن ثمَّ تبوَّأ القلم مكانة سامقة، وتحمَّل من يخطُّ به كلماته تلك الأمانة، خاصة إذا كان رائدا من روّاد الفكر؛ ولنا أن نتساءل: هل يخون الرائد أهله؟ إيه أخي القارئ، إنّي أقول والأسى ملء الجوانح: إن هناك روادا خانوا أهلهم، ولم يصدقوا قومهم، فحادوا بالقلم عن مقاصده في تمحيض النصح الجليل، واتخذوه وسيلة للتضليل، فطعنوا به الأمَّة في صدرها، وذلك بكلمات مسمومة وأفكار هدَّامة، مرق أصحابها من حظيرة فكرنا، فكان دعاتها معاول هدم لما شيده الآباء، لا عوامل مساعدة لإتمام البناء، خاصة من خدعوا الناس بأسمائهم العربية تحت ثياب تغريبية، والأنكى من ذلك وأشد أنَّهم عرفوا كيف يصلون إلى أساليبهم في احتواء عقل القارئ العربي، عن طريق كتابة مقالاتهم في الصحف والمجلات، فضلا عن القنوات التلفزيونية في عصرنا الراهن، وهذه الأخيرة لها من الخطورة الجسيمة ما يعلم الجميع.

فليت شعري: ماذا جنى هؤلاء وما الذي كسبوا، بئس المال الذي حصّلوه؛ بل إنهم خسروا أنفسهم لما خانوا الأمانة ولم يقدروها قدرها؛ فكانت أخلاقهم رديَّة بأعمالهم الدنيَّة تلك، ونحن هنا لا نحتقرهم أو نزدريهم؛ لكن ماذا عساك أن تقول فيمن تتبعهم الأستاذ أنور الجندي (رحمه الله) الذي جنَّد فكره وقلمه لحماية الفكر الإسلامي، ودفع الترهات عنه، وصيانة المكتبة الإسلامية من سموم هؤلاء، فحكم عليهم بقوله: «سوف يدمغهم التاريخ بأنهم كانوا روادا غير مؤتمنين على الأمانة، وسوف تكتب أسماؤهم في سجل الذين عجزوا عن أن يقولوا كلمة الحق، وأن ينصحوا لأمتهم وهم الذين عاشوا حياة الغرب، وعرفوا فساد مناهجه وأساليب حياته...».

(والأمر يشمل كل من على شاكلتهم)؛ فعلى الرغم من معرفتهم لفساد الحياة الغربية، أقاموا على عُتوِّهم ورداءة طويَّتهم في تضليل بني جلدتهم؛ ووسيلتهم في ذلك يراعتهم التي كان أولى بهم أن يسطّروا بها ما ينفع السائر ويهدي الحائر.

ألا فليتّق الله تعالى كلّ من حمل قلما، وليعلم أنَّ ما يحمله في يده من قرطاسه وطرسه ينمُّ عما في كأسه، وأنَّ كلماته ستبقى إلى غده شاهدة على يومه وأمسه.. وإنّي أرفع ندائي إلى حملة الأقلام أن يصدقوا الأنام، وليعلموا أنَّ القلم أمانة عظيمة بما يترجمه من كلام.



الإعجاز العلمي

الإعجاز العلمي.. مجلة فصلية تصدر عن الهيئة العامة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة التابعة لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، يرأس تحريرها د. صالح الكريم

اقرأ في العدد الجديد:

*الفص الأمامي من المخ يقوم بإتخاذ القرار

*(DNA) ينتقل من الآباء إلى الأبناء عبر النطفة الأمشاج

*الاغتسال بالماء البارد ينبه الجهاز العصبي ويزيد مناعة الجسم

* الوباء بين حقائق العلم ووحي السماء

* التفسير الطبي لقصة أصحاب الكهف

* كفاءة الأعسال المضادة للمكيروبات

العدد الجديد
(ذو الحجة ١٤٣٤هـ)



البريد الالكتروني:
skarim@kau.edu.sa
تلفون: ٠٠٩٦٦٢٥٦٠١٣٣٢

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة
العدد (٥٨٤) ربيع الآخر ١٤٣٥هـ / فبراير ٢٠١٤م

50 عاماً من العطاء

المسؤولية الاجتماعية والعمل العام

- التسامح كآلية لحل المشكلات
- الشدياق صاحب الجوائب
- عقد الاستصناع
- متحف الفن الإسلامي في قطر
- المدرسة الصولتية

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

الافتتاحية

التَكافُل والتَكامُل

إن الله عقد بيننا أخوة الإيمان، وجعل بعضنا لبعض كالبنيان، وشرع لنا التشاور والتناصر، والتكافل، فقد عدد سبحانه في كتابه الكريم أوصاف المؤمنين ونعتهم بنعوت كريمة.. وصفهم بأنهم إخوة متراحمون متحابون، وأن بعضهم أولياء بعض، متحلون بالمودة، وقلوبهم مؤلفة.. وهذه هي التعاليم الحكيمة، والإرشادات القويمة والنصائح العظيمة، التي أرشد بها الرسول ﷺ أمته.

فالله خلق الخلق بتدبيره، فكان من لطيف ما دبر، وبديع ما قدر أن خلقهم محتاجين، وفطرهم عاجزين.. فالإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه، وإنما خص الله تعالى الإنسان بكثرة الحاجة، وظهور العجز، ليمنعه ذل الحاجة، ومهانة العجز من طغيان الغنى، فائتلاف البشر بالاختلاف والتباين، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون.. إذ الألفة تجمع الشمل، وتمنع الذل، والمؤاخاة بالمودة هي من أسباب الألفة، لأنها تكسب بصادق الميل إخلاصا ومصافاة.

إن الاجتماع الإنساني ضرورة؛ فالإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع، وهو عمران العالم الذي تتكون منه المجتمعات، فالناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها، وهذا الاجتماع إذا حصل فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم من العدوان والظلم، ولابد من شيء آخر يدفع هذا العدوان، وهو النظام والدولة والمجتمع، وإن من حكمة الله في خلقه انتظام معاشهم، وتيسير مصالحهم، وأن يتم بقاؤهم، لأن المجتمع لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاون أبنائه على مصالحهم، ما يتطلب من القيادات والمنظمات الدعوية والفكرية والسياسية والثقافية أن تخَلِّص المجتمع من التصادم وتجمع الكلمة، فالمجتمع هو الأصل في توجيه الخطاب من حيث العموم، أو الصلاحيات والمسؤوليات والأولويات.

فإن قادة المجتمع والمنظمات والجمعيات المدنية تنقل المجتمع إلى حالة جديدة من الفاعلية الحضارية والاجتماعية، وإن معيار نجاح عمل الحكومات والمؤسسات والجماعات والأفراد مقترن بمقدار نجاحها في التأثير في المجتمع ومساعدته على النهوض والتغيير.

والمجتمع الحضاري هو من يتعاون وتتكافل فيه الدولة ومنظماتها المدنية، بحيث يظهر للوجود المجتمع الذي ينتقل من موقع المستهلك القائم على إبداعات الآخرين إلى موقع الإنتاج والمشاركة الإيجابية، كما أن من ملامح المجتمع الحضاري أنه يعمل على وحدة المجتمع وتآلفه، ونبذ الخلافات ليكون كالجسد الواحد؛ آماله وآلامه واحدة.. والتجربة التاريخية الحضارية الإنسانية للأمة الغنية التي ساهمت فيها جميع الأجناس والألوان والأقوام جاءت مشتركا إنسانيا، بعيدا عن العنصرية والجنسية والقومية والتعصب، فكانت تجربة غنية لكل النماذج البشرية.

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٤ | ربيع الآخر ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
فبراير ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبوروش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



واقع منظمات المجتمع المدني في دولنا، هو أحد المؤشرات المهمة للتعرف على حيوية المجتمع، وموضع البلدان من سلم النهوض والتقدم.

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

كلمة العدد

المجتمع المدني

المجتمع المدني يعتبر شكلا من أشكال الحياة الاجتماعية، ورافدا مهما لمؤسسات الدولة، ووعاء يضم مجموعة متنوعة من الجهات الفاعلة غير الربحية، والمعنية بتوفير الخدمات والسلع التي تتطلبها المصلحة العامة.

والمؤسسات الأهلية تهتم بتقديم خدمات مباشرة أو غير مباشرة لإشباع احتياجات المجتمع، وتحقيق الرفاهية الاجتماعية للشعوب، حيث تقوم على الجهود التطوعية للمهتمين بالخدمة العامة.

يقول هربرت بلومر عن المجتمع المدني: «هو الذي يخلق، يبلور، ويحقق التغيير الاجتماعي»، لما له من أثر كبير في نجاح الدول المتقدمة، وانتشال العالم من الأزمات الاقتصادية.

وتولي هذه المؤسسات أهمية بالغة للعمل في إطار السياسة الاجتماعية العامة، بعيدا عن التقلبات السياسية والصراعات المذهبية والطائفية، لأنها في النهاية رافد مجتمعي مهم يخدم الناس عامة من دون تمييز.

كذلك تقوم مؤسسات النفع العام في مجتمعاتنا الإسلامية بالحفاظ على الهوية الإسلامية، وهي امتداد تاريخي للبلدان والدول الإسلامية، نظرا لقدرتها على إيجاد حلول فعلية للمشاكل المتعلقة باحتياجات الشعوب.

ولعل ما يميز المؤسسات الأهلية قدرتها على الانطلاق في خدماتها، والتجديد والابتكار وإجراء التجارب لتطور العمل بها، كذلك السرعة في تقديم الخدمات والتقليل قدر الإمكان من الإجراءات الإدارية الطويلة.

إن المؤسسات الأهلية ضرورة لكل المجتمعات، وظاهرة صحية في تطور حياة الشعوب، فهي حق لكل مواطن في المشاركة والتخطيط لاحتياجاتهم والمساهمة في التنمية المستدامة لبلدانهم.

التحرير

المحتويات

الاشتراكات

• داخل الكويت: للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
• دول العالم: للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
• الدول العربية: للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
• للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)



التسامح كآلية لحل المشكلات ورفع التناقضات

أ.د. أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي

اقتضت طلاقة قدرة الله تبارك وتعالى أن يتحرك التاريخ الإنساني، في قضاياه الكبرى، وفق مراد الله- عز وجل- لا وفق مراد الإنسان ورغباته وتطلعاته، ولأن العقل البشري عاجز بطبيعته وتكوينه عن الوقوف على حكمة الله- تبارك وتعالى- في كل شيء، فقد لا يتعجب المرء من شيء قدر تعجبه من أحداث الدنيا ومسيرة التاريخ، وكم هي عجيبة تقلبات الحياة وتحولاتها، إذا نظرنا إليها من خلال زوايا رؤيتنا البشرية المحدودة، بقدراتنا الذهنية وإدراكاتنا العقلية، وليس من المنتظر أو المتوقع أن تأتي تلك التقلبات والتحولات وفق المنطق الإنساني والتفكير البشري، القائم على أسس المعرفة الإنسانية وحساباتها، بشكل دائم ومستمر.. وإلا ما كانت تقلبات أو تحولات، بل تكون- عندئذ- تطورات طبيعية، ومسيرة حياتية، وحركة آلية للتاريخ، انبثقت من تفاعلات اجتماعية مدروسة، وسلوكات إنسانية معلومة ومفهومة، ومتحقق من ديمومتها وصيرورتها وأهدافها وغاياتها.

يبدو أن الواقع يؤكد أنه كثيرا ما تفاجئنا الأحداث بما لا نتوقعه، وتداهمنا الظروف بما لم نحسب حسابه، أو نستشرف قدومه بحال من الأحوال.

والحق أن دراسة مسار الحضارات وتاريخ الأمم تكشف لنا النقاب عن وقوع العديد والعديد من التحولات الطارئة، والتقلبات المفاجئة في حركية المجتمعات وتفاعلاتها، حتى ليخال المرء أن المفاجآت التاريخية هي من سنن الله تبارك وتعالى التي لا تجد لها تبديلا ولا تجد لها تحويلا: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ (فاطر: ٤٣)،

وكثيرا ما يظن صاحب الحق أن أحداث التاريخ قد سارت أو تحركت وفق مراد خصومه أو منافسيه، فيتألم لذلك أشد التألم، ويحزن لذلك أشد الحزن، وربما يلعن الظروف والأحداث التي جاءت- بحسب ظنه- مخالفة لرؤيته وتصوراته وتطلعاته وحقوقه ومستحقاته، وربما يجزم بأنها تعاطفت مع خصومه أو منافسيه!

ولنا أن ندرك أن أحداث الدنيا وتحركات التاريخ لن تأتي دائما وفق هوانا، أو متطابقة مع تطلعاتنا.. بالتالي فهي غير مضمونة المسار، وغير معروفة التوجه، وإلا ما سميت تقلبات وتحولات مفاجئة وغير منطقية بحسب التفكير الإنساني، بينما الواقع أن لها قانونها الذي يرجع في الأصل إلى إرادة الله، التي قد تغيب عنا حكمته في تلك الأحداث لبعض الوقت.. الذي قد يطول وقد يقصر.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما أفضل كيفية يمكن للمرء أن يتعامل بها مع مثل تلك المواقف والأحداث؟ هل يجب أن يتمسك برأيه ورؤيته ويصر على أنهما الأصح والأصوب طوال الوقت؟

وبالتالي يتشدد لوجهة نظره وموقفه،

زاعما أنه على صواب والآخرين على خطأ؟

أم يجب أن يتحلى بالتسامح، ويقدر الظرف الذي يمر به الآخر، والصعوبات التي تواجهه، والضغوط التي تمارس عليه من هنا وهناك، وبالتالي يلتمس له العذر؟

قد يكون من المتوافق عليه أن من حق كل طرف أن يحافظ على حقوقه، ويتمسك بالدفاع عنها، والذب عن حماها، ما استطاع إلى ذلك من سبيل، بالطرق الشرعية والمشروعة التي لا تدينه، ولا تجعله يتجاوز الحد المسموح به دينيا وقانونيا وأخلاقيا.

إن الدفاع عن الحق أمر مكفول للجميع، لا مرية في ذلك ولا شك، لأن الدفاع عن الحق هو السبيل الوحيد لاستعادته والمحافظة عليه، لذلك قيل: لا يضيع حق وراءه مطالب..

غير أن هذا الدفاع له سبله وضوابطه التي لا يجب تجاوزها بأي حال من الأحوال، أو أية صورة من الصور؛ لأن الخروج عن تلكم الضوابط أو تجاوزها يؤدي إلى ضياع هذا الحق، أو على الأقل يعطي للآخرين مبررا لرفضه أو الاجتراء عليه، مستغلين في ذلك حياد صاحب الحق عن المنهج القويم في المطالبة بحقه.. عند محاولته استرداد ما هو له.

وإذا كان من حق المرء أن يدافع عن حقه ومطالبه، فإن الأمر يقتضي الوعي بالمدى الذي يمكن أن يصل إليه هذا الدفاع؛ كي لا تتطور الأمور والأحداث إلى مراحل أو أشكال يكون من شأنها إحداث ضرر أكبر- من حيث القيمة والمقدار - من الحق المطلوب إرجاعه، أو الهدف المطلوب الوصول إليه.

وأيا ما كان الأمر.. فإن ثمة آلية قد وضعها الدين الإسلامي الحنيف للوصول إلى درجة من التوافق المجتمعي، وجعلها أداة لرفع التناقضات وفض الاشتباكات بين المجتمعات والأفراد والأمم..

ولقد جعل الإسلام تلك الآلية من قيمه العليا ومبادئه الأخلاقية السامية.. إنها «العفو والصفح والتسامح».

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في أكثر من موضع، نذكر منها أن الله- عز وجل- امتدح المتسامحين، واعتبرهم من المخلصين لدينهم وعقيدتهم، حيث قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾(آل عمران: ١٣٤).. فأهل العفو والتسامح في الإسلام هم من أهل الإحسان الذين يحبهم الله عز وجل، ومن أحبه الله تعالى أكرم نزله وأحسن مثواه، وأنزله منازل أهل البر والتقوى.. وورد في القرآن الكريم أيضا قول ربنا- سبحانه وتعالى- في حض المؤمنين على العفو والتسامح: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ (البقرة: ١٠٩).

وحتى أولئك الذين خانوا ولم يدركوا جوهر العقيدة، وقصروا في أداء ما عليهم من واجبات، تجد القرآن الكريم يوصي النبي ﷺ ومن بعده المسلمين جميعا بالصفح عنهم، وعدم الإصرار على معاقبتهم أو الانتقام منهم، قال عز وجل: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (المائدة: ١٣)، ثم إن الله تبارك وتعالى يكرر الأمر لنبيه ﷺ بالعفو في موضع آخر، حيث يقول له ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ (الأعراف: ١٩٩).

ويزاد على ذلك أن الله عز وجل أكد على الأخذ بمبدأ العفو والصفح عمن أساء لنا، وربط بين التسامح والعفو من جهة، وبين مغفرته سبحانه وتعالى لذنوب عباده وسيئاتهم من جهة أخرى، قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (النور: ٢٢).

هي دعوة إذن إلى اجتناب الانتقام، وتقليد سلوك الآخرين في التطاول على الناس أو الإساءة إليهم.. ويتم هذا الأمر باجتناب السير وفق منهجهم، أو التعامل وفق طريقتهم، وللمسلم أن يلجأ إلى العفو والتسامح - حتى وإن كان صاحب حق- سيما إذا كان هذا التسامح لن يؤثر على دينه وقيمه الإسلامية الرفيعة.. أما إن كان هذا العفو سيؤدي إلى ضياع بعض الحقوق الدنيوية والمكاسب الحياتية، فإن الأمر يعد- من الوجهة الشرعية- هينا يمكن التغاضي عنه، سيما إذا أدركنا أن الدنيا برمتها لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة، ولو كانت تساوي ذلك ما سقى الكافر منها شربة ماء.. كما علمنا ذلك رسول الله ﷺ.

وقال ربنا سبحانه وتعالى في حض المؤمنين على العفو والتسامح، منبها إلى أن صاحب الحق الذي يعفو ويصفح لن يتركه الله تبارك وتعالى ولن يتخلى عنه؛ لأن الله- عز وجل- من أسمائه «العدل»، لذلك فهو سبحانه وتعالى له تصاريفه في كونه، التي قد تخفى علينا ولا ندركها؛ لأنها تتحرك وفق القانون الإلهي الرباني، لا وفق قانون البشر المحدود بإمكاناتهم العقلية، قال تعالى فيما يشير إلى هذا المعنى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ (البقرة: ١٠٩).

وإذا كان القرآن الكريم قد حض المسلمين على العفو والصفح والتسامح فإنه أكد في الوقت ذاته- وفي أكثر من موضع- أن الله تبارك وتعالى يحب الرحمة والمغفرة، ومن أسمائه الحسنى «العفو» و«الغفور»، يقول ربنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ (النساء: ٤٣) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ (النساء: ٩٩)، وتلك مسألة من شأنها الأخذ بيد المسلمين جميعا إلى الاتجاه صوب ممارسة العفو والصفح والتسامح مع الآخر، حتى وإن تطاول وتجاوز حده.

وإلا عن ماذا سيكون الصفح؟ وعن أي شيء سيكون العفو؟
وهكذا تقوم فلسفة التسامح في الإسلام على ممارسة اللين مع من أساءوا، وممارسة العفو عمن أخطأوا، وذلك لأن في التسامح دلالة على سعة الأفق ورحابة الصدر، وفي العفو قدرة على ضبط الانفعالات الانتقامية.. وتلك مسائل وضعها الإسلام ضمن منظومته القيمية والأخلاقية.
من هنا نستطيع أن نقرر أن الإسلام حض المسلمين في كل زمان ومكان على اعتماد التسامح كمنهج وأسلوب ناجع في حل المشكلات، ورفع التناقضات بين الجميع، وتلك هي شيمة كل الرسالات السماوية الكبرى، حيث يقف المرء في العهدين القديم والجديد على العديد من النصوص التي تؤكد على ضرورة الأخذ بمنهج العفو والصفح والتسامح، وتبرز عظمة توجيهات السماء.. غير أن عشاق التشدد وأصحاب الميول الإقصائية هم من ذهبوا إلى زعم أن الأديان لا تحض على التسامح والتآخي الإنساني، وزعموا أن بعضها يعمل على إقصاء بعضها الآخر، وما قالوا بذلك وما زعموه إلا ليجدوا تربة مناسبة لنشر فكرهم المادي وتياراتهم الإلحادية.. ومعلوم أن تلك الأمور لا تسود ولا تنتشر إلا في ظل غياب الدين الصحيح، والتدين الوسطي المعتدل.
وثمة أهمية لأن نشير في هذا السياق إلى بعض العوامل التي من شأنها دفع الإنسان إلى ممارسة التسامح على مستوى الفكر والممارسة، أو القول والعمل:
أولا: الحرص على مرضاة الله تبارك وتعالى، فالله عز وجل قد حض على التسامح وحبب الناس فيه، بل أمرهم به من خلال العديد من الآيات القرآنية التي أشرنا إليها.. ونشير إلى أن الأحاديث النبوية أكثر من أن تحصى في هذا السياق، وسيرة رسول الله ﷺ نموذج يحتذى في العفو والصفح والتسامح مع الآخرين، والمعلوم أننا أمرنا بالتأسي به ﷺ في كل شيء، فهو القدوة الحسنة، والمثل الطيب في السلوكات للمسلمين جميعا، بل ولغير المسلمين من ذوي العقول الناضجة والبصائر المستنيرة.. قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب: ٢١).
ثانيا: الثقة في أن تحول الدهر وتبدل الزمن لا يحدث إلا وفق مراد الله تعالى، فلا يقع في كون الله إلا ما يريد، مع الثقة بأن لله تعالى في كل قضاء حكمة.
إن إدراك المسلم لهذا المعنى يجعله يتسامح ويعفو، من دون إحساس بأنه قد سلب حقه أو نهب مستحقه.. فتصاريف الله في الكون تخضع لمشيئته ومراده سبحانه وتعالى، وليس بالضرورة أن يتوافق ذلك مع مرادات البشر ورغباتهم أو مشيئتهم.. وصدق قول من قال: أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.
ثالثا: الوعي بأن اللحظة الراهنة ليست آخر اللحظات، والفرصة المتاحة الآن ليست نهاية التاريخ، مع إدراك أن الزمن لن يتوقف على حادث معين، أو أن قوانين الوجود ستختل إذا تسامحنا! أو أن الكرة الأرضية ستكف عن الدوران إذا تجاوزنا عن خطأ الآخرين.
ويجب أن يرتبط ذلك بالوعي بأن التعويض ممكن، إذا توفرت أسبابه وعوامله، التي من أبرزها الإخلاص والاجتهاد، الأمر الذي من شأنه تخفيف حدة الألم عن النفس الإنسانية إذا ضاعت عليها فرصة، أو أخفقت في تحقيق أهدافها ونجح غيرها في ذلك.
رابعا: التعلم من التاريخ، وقراءته بدقة ووعي وتأمل وتدبر؛ امتثالا لقول الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ (الحشر: ٢)، وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ (إبراهيم: ٥).
خامسا: الثقة بأن نتائج التسامح أفضل بكثير من النتائج التي تترتب على التشدد والتزمت وعدم المرونة.. إذ لم يثبت التاريخ- عبر كل مراحله الطوال- أن تغييب التسامح والصفح أتى بنتيجة إيجابية، بل كل المواقف التاريخية والحياتية تثبت عكس ذلك تماما.
سادسا: إدراك أهمية الحوار؛ فالتسامح هو وليد التفاهم، الذي يؤدي بدوره إلى إيجاد حوار حضاري بين طرفي كل نزاع، والحوار هو آلة العقل الأولى في حل المشكلات، وتقريب وجهات النظر، إذا ما قام على الموضوعية والحيادية، وتخلص من آفاته المتمثلة في الجدل البيزنطي، والتماحكات اللفظية.
سابعا: الوعي بأن التسامح فعل إنساني صرف، فالإنسان أو التيار الفكري الذي ينتهج التسامح منهجا وطريقا في تعامله مع القضايا والأحداث هو تيار إنساني بامتياز؛ لأن التسامح صفة العقول الراقية والأذهان الناضجة، أما العقول الضيقة العاجزة عن الانفتاح فهي عقول أقل قدرة على ممارسة التسامح مع الآخرين، لأن العفو والصفح يمثلان الترجمة الحقيقية والفعلية لقبول الآخر، والاقتناع بحقه في الحياة والوجود بجانب الأنا أو الذات.. وإذا اقتنع المرء بحق الآخر في الوجود فسيقتنع بالضرورة بحقه في أن يصيب ويخطأ.. وما دام الخطأ واردا فإن العقل الرشيد يقول بضرورة ممارسة التسامح، وهذا بالضبط ما أراده الإسلام.
أخيرا: توفر الجو العام الذي يحض على التسامح، ويعرف للمتسامحين حقهم ونبل أخلاقهم.

شيخ المؤرخين الجزائريين أبوالقاسم سعدالله (رحمه الله)

ياسين محمد كتاني
باحث دراسات إسلامية



رحل عن دنيانا أخيرًا مؤرخ الجزائر العلامة أبوالقاسم سعدالله، وترك فراغا كبيرا في مجال التأريخ في العالمين العربي والإسلامي.

هو العلامة المؤرخ أبوالقاسم سعدالله، لقب بشيخ المؤرخين الجزائريين، من مواليد (١/٧/١٩٣٠م) بضواحي مدينة (قمار) من ولاية الوادي في الجنوب الجزائري.

باحث ومؤرخ، تلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين وهو من رجالات الفكر البارزين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني، وقد تنقل الشيخ خلال مشواره العلمي بمراحل متعددة منها:

١- حفظ الشيخ سعدالله القرآن الكريم وهو في سن مبكرة.

٢- تلقى مبادئ علوم اللغة، والفقه والدين بمسقط رأسه مدينة (قمار).

٣- هاجر إلى تونس سنة (١٩٤٧م) ودرس بجامع الزيتونة حتى سنة (١٩٥٤م)، واحتل المرتبة الثانية في دفعته.

٤- بدأ الكتابة في جريدة البصائر (لسان حال جمعية العلماء المسلمين) سنة (١٩٥٤م)، وكان يطلق عليه لقب (الناقد الصغير).

٥- حصل على شهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في القاهرة عام (١٩٦٢م).

٦- حصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر باللغة الإنجليزية، من جامعة (مينيسوتا) الأمريكية، عام ١٩٦٥م.

للشيخ- رحمه الله- سجل علمي حافل بالإنجازات من وظائف ومؤلفات، وترجمات، وله حضور كبير في الساحة العربية والدولية، حيث اشتهر بمواقفه العلمية والفكرية المعتدلة، وبدفاعه عن الثوابت والقيم الوطنية.

ويعد «سعدالله» من أكبر المؤرخين العرب، ومن رجالات الفكر البارزين، وأعلام الإصلاح الاجتماعي والديني.

تخصص الفقيد- رحمه الله- في:

١. تاريخ الجزائر الحديث.

٢. تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر.

٣. تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر.

٤. تاريخ النهضة الإسلامية الحديثة والدولة العثمانية منذ (١٣٠٠م).

وهو يتقن بالإضافة إلى اللغة العربية، اللغتين الفرنسية والإنجليزية، كما درس الفارسية والألمانية. وقد قام- رحمه الله- بالتدريس في عدد من الجامعات الجزائرية والأجنبية.

و لمؤرخنا- رحمه الله تعالى- العديد من المؤلفات العلمية النافعة في شتى العلوم، ومن أهمها:

١. موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي، جاءت في (٩ مجلدات)، وهي من أشهر مؤلفاته وأكبرها.

٢. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، جاءت في (٥ أجزاء)، وهي من أنفس ما كتب الشيخ رحمه الله.

٣. الحركة الوطنية الجزائرية، جاء في (٤ أجزاء).

بقي العلامة سعدالله- رحمه الله- على هذا الحال بين التأليف والتدريس، إلى أن توفاه الله تعالى يوم الخميس الموافق: (١٤/١٢/٢٠١٣م) عن عمر ناهز (٨٣) عاما، أمضاها في خدمة بلده وتاريخها، وتاريخ العالم.

د. سعيد إسماعيل في حوار خاص «للوعي الإسلامي»:

ملايين التلاميذ العرب لا يعرفون شيئا عن لغتهم

حوار: محمد ثابت توفيق



يُطلق عليه إعلاميون «شيخ التربويين الإسلاميين».. إنه واحد من الخبراء التربويين الجادين في عالمنا العربي، تشهد له مؤلفاته وأفكاره، ومسيرة عقود في بث الفكر التربوي، وفي هذا الحوار مع «الوعي الإسلامي» يكشف د.سعيد إسماعيل علي، أستاذ التربية بكلية التربية بجامعة عين شمس المصرية، عن أسرار مسيرته التعليمية، وما لاقاه من صعوبات حددت مسيرة حياته العلمية والفكرية، كما يقيم دور الصعوبات في مسيرته، وكذلك أهميتها في حياة الشباب والأمة، كما يتناول أسباب واقعنا الحضاري اليوم، وكيف أسهم التعليم في هذا الواقع، وكيف يمكن أن يقودنا، خاصة مع تضافره مع المعرفة والتكنولوجيا لنتبوأ موقعنا الحضاري من جديد.

• في البداية نريد أن نلقي الضوء على طرف من نشأتكم وتكوينكم والصعاب التي لاقيتموها في سبيل الالتحاق بالتعليم.. قبل مواصلة رحلتكم الشاقة مع العلم.. لعل كثيرا من شبابنا يأخذون العظة والعبرة منها.

. ولدتُ عام ١٩٣٧م بضاحية المرج- الريفية آنذاك- من العاصمة المصرية القاهرة، وكان أبي يعمل خياطا بلديا، في حين كانت أمي سيدة أميّة، ولما كان أبي لم ينل قسطا من التعليم على الإطلاق، فقد اجتمع كونهما، رحمة الله تعالى عليهما، أميّين، وكان التعليم الأولي هو السائد في مصر آنذاك، حيث يتعلم الصغار القراءة والكتابة وبعض العلوم، ولا يُبنى على هذا اللون من التعليم، أي إنه لا يستكمل، وكدتُ- للحقيقة- أكتفي به، لولا أن علمت أن أحد أقاربنا من الصغار سيلتحق بالمرحلة الابتدائية مع كونه غير سوي الإدراك، فأخذتني الغيرة الشديدة، وقلتُ في نفسي: إنني الأولى بإكمال التعليم، وكانت أمامي إشكالية كبرى آنذاك، إذ إنه ليس هناك في الأسرة كلها من يعرف أهمية مسيرة التعليم المعتادة، ولا دورها في الحياة، وفي نهاية رحلة التفكير هذه توصلتُ إلى أنه ليس من حل من سوى أن أسرق شهادة ميلادي من والدي.. بعدها استعنت بأحد الكبار ورجوته أن يحضر لي استمارة مدرسة الآداب الابتدائية في حي حدائق الزيتون، وكانت الأقرب إلينا، وبالفعل تقدمتُ وقبلتُ في المدرسة، وكانت بالنسبة إلي آنذاك كالفضاء الخارجي لتلاميذ اليوم، وكان تقدمي إليها في العام الدراسي ١٩٤٧.١٩٤٨م، وكانت المشكلة الأولى والكبيرة- آنذاك- قد انتقلت من رفض الوالد الذي قبل الأمر، حتى حين، إلى الزملاء من التلاميذ، فقد كانوا يتضاحكون على بساطة ملابسي، ورقة حالي بوجه عام، بل كوني ريفيا لا أعرف تصرفاتهم المنتمية إلى المدينة، ولكن هذه المشكلة صارت حافزي إلى التقدم، بل التفوق الدراسي لإثبات أن بيئتي التي لم تكن تروق لكثير منهم سَتُخرج من هو أفضل..

كان المدرسون يشرحون آنذاك في الفصول، وهي الإشكالية الكبرى اليوم، فلم أحتج إلى دروس خصوصية، وفي نهاية العام جاء ترتيبي الأول على فصول المرحلة الابتدائية كلها، ولا أخجل من القول بأن أبي تضايق لما رأى الشهادة، إذ كان مقتنعا بأني ينبغي أن أرث مهنته، ومن تلك اللحظة حتى تخرجي من كلية الآداب لم يعرف أبي في أي عام أدرس، إلا لما جاء أهل بلدتنا لتهنئته، فلما تعجب منهم أخبروه بأني نلت الشهادة الكبرى، كما كانت تسمى آنذاك..

من يومها تعلمتُ أن أسير، بإرادة الله تعالى، بنفسي وبتوفيقه لي بحسن استثمار قدراتي، وبالتالي صرتُ في الحياة لا أنحني لأحد، مدركا أن الفضل في البداية والنهاية لله تعالى لا لسواه.. وليت شبابنا اليوم يدركون أهمية هذا الدرس جيدا..

• وهل استطعت الحفاظ على مسيرة التفوق هذه أمام تحديات

الفقر وصعوبة الدراسة الجامعية في تلك الفترة المبكرة من حياتك؟

كـان حب الـتـفـوق حـافـزا لـي لمزيد من الـتـفـوق.. وكـنـتُ قـد حصلتُ في الثانوية على ٦٧٪، وهو مجموع ضخم آنذاك، فاخترتُ الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، لكن مستواي لم يكن مناسبا في اللغة الإنجليزية، وكـانـت مـدارس الـلـغـات غـيـر تابعة لـلـدولـة، فلم يكن التعليم أمّم بعد، وكانت الإنجليزية في مدارس الدولة شبه إضافية، من هنا قررتُ ترك قسم اللغة الإنجليزية رغم أهميته- آنذاك- التي لم تكن تقل عن الطب والصيدلة.. وانتقلت إلى قسم الفلسفة لحبي لعلم النفس الذي كان ملحقا بالقسم نفسه، ولكني بعد التخرج بتفوق وجدتني غير قادر على إكمال رحلة التعليم العالي، لأن كلية الآداب آنـذاك لـم تكن تعين معيدين، من هنا فور علمي بوجود كلية وحيدة للتربية في مصر هُرعتُ إليها لأنال دبلومتها وأكمل مسيرة التدرج فيها حتى اليوم.. وكنتُ قد نلتُ درجة الأستاذية منها عام ١٩٧٩م.

● برأيك هل تفتقد الأمة العربية الإسلامية اليوم استنهاض روح التحدي لتبدأ رحلة الصعود من جديد؟

. بـرأي أحد فلاسفة التاريخ ويدعى توينبي إن نظرية التحدي والاستجابة تـخـص الـشـعـوب والأمم كـمـا تـخـص الأفراد، فكلما كانت المخاطر والمتاعب أمام قيام أو استرداد الحضارة- كما في حـالـتـنـا- هـائـلـة، كـان استنهاض الهمة أكبر، وفرص النهوض والتقدم أوفر، ومن هنا أتمنى أن يقدر الشباب مـرة ثـانـيـة هـذا الأمـر جـيـدا.. فلا يستنعمون الحياة لوجود الأب والأم اللذين يوفران كل كبيرة وصغيرة، فلا يمضي الأبناء، مهما كبروا، في مسيرة الحياة إلا وهم متكاسلون، إلا من رحم ربي، وليدركوا أن في تكاسلهم هذا خذلانا منهم للأمة كلها..

● أنت أحد رواد التربية والتعليم في الوطن العربي.. ما دور التعليم حتى اليوم في بقاء الأمة العربية الإسلامية على ما هي عليه، ومن قبل قصور التربية ممثلة في وجوه متعددة من أسر ومؤسسات في القيام بدوره؟

الإيمان العقلاني والأخذ بالمعرفة والتكنولوجيا سبيلنا لإعادة أمتنا لموقعها الحضاري المفقود

. نعم هناك قصور في التعليم العربي اليوم.. ولننظر إلى الانتشار المخيف للغة الإنجليزية في الـدول العربية والإسلامية، ومساحة التعليم المجاني الـتـي تتقلص، بـل دخـول الحكومات العربية في مجال التعليم بالإنجليزية، عبر ما يُسمى في مصر بـ«المدارس الـتـجـريـبـيـة»، وأثـمـر هـذا كـلـه عن ملايين التلاميذ والطلاب لا يعرفون شيئا لا عن دينهم ولا لغتهم، من هنا يجيء التحدي لجيل لا يعرف شيئا عن عمالقة الشعر القديم: البحتري، أبـوتـمـام، المـتـنـبـي، امـرؤ الـقـيـس.. وأقصى ما يعرفه المثقف منهم أسماء صـحـافـيـين مـع الـثـقـافـة الـغـربـيـة بلا حدود، فإذا ما اعترفنا بأن لدينا طرفا من المتدينين من مدرسين ومدرسات، للأسف يسيئون تقديم صورة ديننا إلى صغارنا، علمنا خطورة وضعنا التعليمي الحالي على واقع الأمة كلها..

● عفوا يا دكتور.. لكن الأمر له عـلاقـة بـسـنـين طـويـلـة وتـراكـم مـجـهـودات لـتـقـويـض لغتنا العربية..

. هذا صحيح، للأسف الشديد، وأرى أنه بالتحديد عند استقلال كثير من الدول العربية الإسلامية كانت فرصة مواتية للقفز في نوعية التعليم المقدم لأبـنـاء أوطـانـنـا.. لـكـن لـلأسـف نجح المحتل قبل خروجه في أن يدخل لدينا نـفـوذا مـن نـوع أشـد، عبر الجامعات التابعة له، ونرى هذا في مصر ولبنان تحديدا، ومنذ العشرينيات من القرن المـاضـي، ومـن هنا تخرج الآلاف ممن نضبت ثقافتنا لديهم.

● ولكن هل أنت مع القائلين بوجود مؤامرة غربية مستمرة على ثقافتنا منذ سنوات بعيدة حتى اليوم؟

. لا أحـب مـنـطـق الـقـبـول بالمؤامرة والصراع على الإطـلاق، لكن ما أؤمن به أن العرب والمسلمين لم ينتبهوا للأمر الرباني في الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ (الأنـفـال: ٦٠)، وقد ضرب الله تعالى المثل برباط الخيل.. والمقصود، كما أفهمه، هو كل ما يؤدي إلـى الـقـوة مـن علم وتكنولوجيا، لأن العالم اليـوم مبني على صـراع قوى، وأهـم وسـائل هـذه القوة هـي المعرفة، وعــدوك يتهيبك مـادمـت قـويـا في المعرفة وتطبيقاتها، ومـن هنا أعود إلـى التعليم من جديد، فقد كنتُ في اليابان رئيسا لندوة هناك، فقالوا لي: إن الهوية اليابانية هـي الأصل لديهم، ولـذا يعرف التلميذ الإنجليزية، لكن اليابانية أولا لديهم، حفاظا على الهوية اليابانية التي تنمو معه حتى الدكتوراه، وهي الأهم في تكوينه، وبالتالي تعليمه وتعلمه المعرفة والتكنولوجيا.. ترى أين نحن من هذا؟

● لكن ألـيـس أمـر إعــداد الغرب عائدا إلى سنوات أبعد، حتى قبل تطور العلم والتكنولوجيا؟

. هذا صحيح، فالحروب الصليبية بدأت منذ وقت مبكر.. منذ القرن الحادي عشر المـيـلادي، كما أنـه- تاريخيا- لـديـنـا الـتـفـكـك مـنـذ مـلـوك الطوائف في الأندلس، وكان هذا إنذارا بتفكك النسيج الحـضـاري لـلأسـف، فـإذا ما أضفنا القصور في الأخذ بأسباب العلم والتكنولوجيا، فيما بعد، علمنا أن سنن الله فـي الحضـارات أنها دورات، كل فترة تعيش مدة ثم تغيب، وفي الغالب لن يستمر التفوق الحضاري الغربي.. لكن متى سيتم هذا؟ إنه في علم الله تعالى.. لكنني أتوقع أن تشرق شمس حضارتنا عندما نأخذ بسنن التطور الحـضـاري، وحـريـة التعبير والتفكير المعرفي وتطبيقاته التكنولوجية.

عود على بدء: عن النهضة

د. هبة رءوف عزت
أكاديمية متخصصة في الفكر الإسلامي

الجهد المطلوب لنهضة الأمة ضخم، تتجدد التحديات وتدور الأحداث، ليستمر تفكيك مساحة الوعي الإسلامي لأسباب تتراوح بين الانشغال باستهلاك الأفكار والسلع، أو هجرة الكوادر والعقول، أو تنافس الفرقاء وتفكك النسيج الاجتماعي، ووطأة تحولات المنظومة الاقتصادية التي ربطت نفسها منذ الاستعمار بآلة الرأسمالية الدولية، ومنطقها ودوائرها.

وَضْعُنا من مطلع القرن التاسع عشر كان أشبه بلحظة ما قبل النهضة الصناعية في أوروبا، وظهرت جهود التجديد التي توجه بعضها للغرب مستلهما وبعضها للتراث مستصحبا، ومرت العقود دون تحقق المنشود، والمرحلة اليوم في ظل المستجدات ومجريات الأحداث العربية تحتاج لرؤية ثاقبة، وصناعات ثقيلة للفكر، وعناية فائقة بإعادة صياغة خرائط العقل، وتحصيل لموارد القوة بأنواعها، ومن المهم أن ندرك أنه في بعض المجالات التركيز على «المشروعات الفكرية الصغيرة» في مجال بناء القدرات للنهضة لا يقل أهمية عن المشروعات الكبرى، ومن الفرائض الغائبة جهد صغير قد يوفر اللبنة الناقصة في صرح شبه مكتمل.. أو ترس ناقص في آلة تستعد للدوران.

وهناك رؤيتان لنهضة الأمم: أن تفكر بشكل واسع وضخم Think Big، أو أن تطبق نظرية كل صغير جميل Small Is Beautiful، والجمع بينهما واجب، والاختيار بينهما في المسارات المختلفة يحتاج بصيرة، ولا يعني الاتساع في الرؤية الزحام في المهمة، فقد يصوغ تصور العالم فرد، ويتولى ملف التشبيك مع القارات ثلة، وقد يكون في الأمة على بعض الثغور.. فرد بأمة، فهناك استراتيجية النمل واستراتيجية الأفيال، الأفيال لها عالمها ولها خبراؤها، ونحتاجها للتغيير السياسي والاقتصادي السليم، لكن علينا أن نفهم أن النمل أقدر على مواجهة العواصف من الأفيال، وتغيير الحال من عصر إلى عصر. ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ (سبأ:١٤).

لكن عنصر الخطر في المشهد هو الجراد والفئران، الجراد الذي تحكمه عقلية الإتيان على الأخضر واليابس والطيران بُعَيدها بعيدا، و الفئران التي تكتفي بالقفز من السفينة وهي تغرق بعد أن تكون قد قرضت خشبها وحولته لألواح متناثرة.

وتحتاج أمتنا لصياغة عقل النهضة قبل العمل على مشروع النهضة، فالعقل السياسي والاقتصادي قد يفكر في قياس العائد وحساب النتائج، وهذا حق مشروع وصواب، لكنه لا يبني صرح النهضة، بل يشيده العقل النهضوي الحضاري، حيث يفكر في إلقاء البذور وحماية التربة والاحتفاء بالثمر وقت الحصاد، ونهضة كالتي نحلم بها تحتاج عقلية التجارة كما تحتاج عقلية الزراعة.. والمدنية والحضارة لابد أن تقف على ساقين. لكن المقاصد قبل التفصيل، والقبلة قبل التكبير.

من أين نبدأ؟

إجابتي دوما عن سؤال النهضة أن الإصلاح عملية معقدة، لكن تبدأ من الناس، صحيح أن «الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» لكن يظل التغيير في يد الناس، فالركلة الأولى لكرة الإصلاح تأتي من الناس، وليس هذا عزوفا عن دهاليز السياسة وأضابيرها، فلها أهلها ولها طلابها، لكنه وعي بأن السياسة ميزان قوة وعلاقة «ردع متبادل».. وتدافع.

فإذا أهدر الناس إمكاناتهم وطاقاتهم، وقبلوا قتل أحلامهم، ولم يردعوا «النخبة/الملأ» عن الاستبداد والفساد، حتى تحت شعار نهضة، فإن المحصلة هي حاكم مستبد ونخبة فاسدة وخذلان للمشروع وللأمة. وليس من قبيل المصادفة أن

الناس تحصل على حقوقها في كل مرة تطالب بها وتدافع عنها، فما ضاع حق وراءه مطالب، لكن في مرات كثيرة تهدر النخبة تلك المكتسبات، فتكون المحصلة هي الارتباك والإخفاق ثم البوار.

وسيكون السؤال التالي: فمن أين نبدأ وما الخطوات؟.

ولطالما وَجَدْتُ فكرة خطوات الإصلاح التنظيمية المرتبة (وكأننا نصعد سلما أو نسير على أرض من المربعات المخططة) فكرة طريفة جدا، ومضللة للغاية، فمن قال إن التغيير نتاج خطط مسبقة وخطوات مرسومة.. وفقط؟

لم أجد في التاريخ أمة حصلت نهضتها بخريطة طريق معلومة ومحددة سلفا، لكن الأمم تحقق النهضة بروح تسري فيها، فتحول اللون الأصفر الرابض على مساحات القلب إلى لون أخضر، ويبدأ الناس في المبادرة بالفعل غير المتوقع وغير المنتظر، فتبزغ الرؤية وتتشكل، ويقترن الفكر والواقع في مشروع تلك اللحظة التاريخية الفارقة. ولا ينفي هذا إعداد الملفات لمرحلة مَا بعد اللحظة الفارقة، لكن كيف تأتي؟ هو سؤال يحكمه التاريخ والقدر، والتكليف في القرآن هو: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾.. (الأنفال:٦٠)، والتحقق: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ..﴾(الأنفال:١٧).

التغيير يحدث حين يبدأ الناس في تحدي الواقع بدون خطة تسمح بإجهاض مقاومتهم، ولأن الأمر غير متوقع؛ ولأنه خارج السيناريوهات التي ترسمها القوة المهيمنة، تفلح الجهود الصغيرة في فتح ثغرات في الجدار، وشق مساحة في السقف، وهدم ركن ركين في صرح ظن الناس قبلها أنه لا يهزم ولا يقهر؛ فإذا خر تبينوا أن لو كان لهم طاقة أمل وجرأة فعل لانهدم منذ دهر. هكذا تهاوت بنية الجاهلية مع بعثة محمد ﷺ، وهكذا تهاوت كل بنى الطواغيت عبر التاريخ.

النهضة تراكم أفعال وليس قلب طاولة على الناس

وقد بدا لي في التجوال بين الكتب والنظريات والترحال في البلدان والمساحات أن خريطة التغيير أشبه بطاولة البلياردو، وليس بلعبة القوس والسهم، فنحن نظن أحيانا أننا لو شحذنا القوة وسددنا على نقطة تصيب في مقتل لانتهى الأمر. وتقديري أن الأمر ليس كذلك البتة!.

نبي الله موسى لم يملك من مقومات البطش ما امتلكه فرعون وهامان وجنودهما، لكنه امتلك قوة الحق وطاقة السعي، وغاية تمكين الناس، ويكفي المرء أن يدفع أول كرة أمامه على طاولة البلياردو لتحرك الكرات الأخرى، ليس في اتجاه واحد بل في عدة اتجاهات، وقد تسقط في المكان المنشود كرة غير التي تحسبها، ومن لون لا نتوقعه، فالكرات على الطاولة ألوان، والتنوع سنة، وحركة التاريخ أشبه بحركة الكرات في اتجاهات تثمر في النهاية عن تغيير خريطة القوة ومشهد الطاولة.. لكن لفكرة الضربة القاضية في حلبة ملاكمة للأسف سلطان على العقول.. والأفئدة.

الواقع لا يتغير كما في لعبة الرماية بطلقة تصيب هدفا، بل بمناورة أشبه بمصارعة الثيران التي يملك فيها الثور قوة أكبر من قوة اللاعب المتقافز هنا وهناك، ولو واجهه لصرعه الوحش، لكن إنهاك الوحش وطول النفس ومهارة التصويب لغرس سهم وراء الآخر والمراهنة على الجروح الصغيرة والنجاحات المتكررة ما تلبث أن تؤدي لنزيف يفقده قوته وتصبح الضربة الأخيرة أشبه بالقشة التي تقصم ظهر البعير، بسيطة وسهلة وأحيانا أقرب مما يظن المشاهد بعد أن كاد ييأس ويغادر مقعد المتفرج.

السنن.. واليقين

لدينا في مواقف كثيرة من الرعونة ما يغلب التعقل، ومن التخاذل ما يغلب العزيمة، ومن الحرص على الدنيا ما يغلب الدفاع عن الكرامة، ومن التنازع على السلطة والنفوذ ما يغلب التعاون على البر والتضحية في سبيل المبدأ، ونقرأ في كتاب الله قوله ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾(هود:٧٨).. ما تحتاجه أمة هو قليل من الرشد.. وقليل من الرجولة.. وبعض من المروءة.

والنهضة حركة تاريخ، لكنها تراكم فعل يومي للناس، يتراكم ويفرز قياداته: «منكم» ليصلحوا «الأمر».. وليست تغييرا يقلب الطاولة بما عليها.

ولا يغني هذا عن الخطط والمراحل المرسومة، لكن الخرائط تصلح للحظة «ما بعد النهضة».. تلك اللحظة التاريخية من «صحوة» أمة، ويقيني أن التقاتل على جثة لا يجدي كثيرا، «اضربوه ببعضها» فإن عادت له الروح فليذهب حيث يشاء، فالحي يتوجه حيثما أراد ودعوته للمكارم ممكنة، أما الميت فإنه لا يسمع النداء.

لذلك فالحديث عن النمل حديث موصول، النمل يتحمل أضعاف وزنه، يحاول ويناور، يدخل الجحور ويختبئ ثم يعود منتشرا، يملك الجرأة أن يقرص الفيل فيؤرق نومه، ويتابع الأخبار السياسية ويعرف متى يمر سليمان وجنوده وأين، ويطلق التحذير ليدخل الباقون منازلهم حتى تمر الكارثة

القادمة بسلام، وحين يأكل النمل العصا الذي يتكئ عليه الجسد المترهل الميت الذي يحسبه الناس مهيمنا وباطشا يدرك العالمون أن لو كانوا أكثر وعيا لما لبثوا في العذاب المهين.. وأن النمل كان أكثر وعيا وأقدر على صياغة التاريخ بالفعل الدؤوب الصغير دون حاجة للقدرة الخارقة للجن.

كان سليمان يعرف لغة النمل، وكان يعرف أمانة الملك، وكان يسخر الجن، لكن المشكلة أن الأمة اليوم لا تعرف لغة النمل.

حين تتوغل الوحوش فتبتلع المساحات التي يتحرك فيها النمل وتبدأ في حملات إبادة، هل نحسب أن النمل سيندثر، التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع تدلنا على أن ذلك لا يحدث، وأن النمل يختبئ لكنه لا يموت، يتمهل لكنه لا يكل ولا يمل، وأنه يطور استراتيجيات جديدة، ليعيد تأسيس مجتمعاته الخفية غير المنظورة، ثم يعود في لحظة تاريخية مواتية ليتحرك في المساحات المحظورة ويتحدى التقييد والمحاصرة، ويستعصي على التجاهل والتهميش والإزاحة من الوجود.

يدرك النمل أن استعادة المساحات مسألة وقت، فالنمل لا يعرف اليأس، بل يجيد ممارسة الصبر، والمرابطة، ويعرف أن الأحوال مثل الفصول.. تتغير، وأن الأيام.. دول، وأن الدول.. أيام.

والنمل أنواع، نمل صغير لا يكاد المرء يراه، ولكن قرصته مؤلمة جدا، ونمل أحمر ونمل أبيض ونمل يزحف ونمل يطير.. وكل ميسر لما خلق له.

التقدم لا يكون بالمقاومة المباشرة فقط بل بخطوات تكتيكية

استراتيجية النمل ليست استراتيجية ثورية تراهن على استخدام القوة الصلبة أو تبحث عن تغيير مفاجئ وراديكالي، بل هي استراتيجية تعتمد الاحتفاء بالعمل في صمت.. فهي لا تؤمن بالضجيج، وهي استراتيجية تؤمن بتقسيم الأدوار والتعاون المنظم والاشتراك في القيادة والإدارة اللامركزية، والتعاون في اتخاذ القرار، وشيوع المسؤولية لتستشعرها كل نملة، ولم تقل نملة يوما: لا أستطيع، تظل تحاول وتحاول وتحاول، حتى يتم إنجاز المهمة.

ضجيج الآلات الكبرى قد يشعرنا بتفاهة النمل، وقد نظن أن الآلة لابد لها من عصا لو وضعناها فيها ستوقفها، النمل قد يقرر أكل سير الماكينة أو أن يتسلى بتناول وجبة من الغلاف العازل لسلك كهرباء، واترك النمل قليلا ستجده قادرا على وقف الآلة الكبيرة بأفعال صغيرة.

طول النفس، والإخلاص في العمل مهما كان صغيرا، والحرص على الاستمرار.. هو الرهان، ونقطة الماء تحفر مجرى النهر

من المقاومة.. للنهضة

علمنا رسول الله ﷺ الذي أعطى الأمة دروسا في التمدن، ووضع قواعد للأخلاق حتى في زمن الحرب والقتال، ورأى المواجهة المسلحة لحظة على مستمر تاريخي ممتد، أصله التعارف والتدافع، فالغاية هي تحقيق العدل ودفع الظلم، فإن جنحوا للسلم فإن فكرة «الثأر التاريخي» ليس لها مجال، وإن عادوا.. عدنا، وطنيا وإقليميا ودوليا.

الأمم لا تحصل تقدمها ولا تبني حضارتها بفعل المقاومة وحده، إذ ينبغي أن تكون المقاومة خطوة تكتيكية في سياق استراتيجية نهضة كاملة، لأن هذا الإطار الأوسع هو الذي يحدد لنا متى نهجم ومتى يحق لنا أن نعتصم بالصبر وطول النفس، ومتى نوظف أدوات القوة المسلحة، وما هي اللحظة التي ينبغي فيها أن نضغط بأدوات السياسة والتفاوض، وهكذا.

لكن المقاومة ذاتها صارت مشهدا ضمن مشاهد «ثقافة المنظر» الإعلامي، غلبت عليها أدوات العصر وفرقعات الصورة والدعاية، ففقدنا البوصلة، وأدمنت الجماهير التي تشاهد الشاشة الفرقعات والمصادمات، تذرف الدموع حين تشاهد صور الدم، وتتهم بالعمالة والخيانة من يسعى للوصول إلى حل طويل الأجل يكفل –في ظل المعطيات والظروف– بالمواصلة والوعي الاستراتيجي. المقاومة تغري بصور البطولة.. تغري بالمواصلة واستعذاب التضحية، فقد يجيد البعض فنون الموت أكثر مما يجيدون معايشة ومكابدة الحياة والصبر على البناء.

إن مقاومة بلا رؤية للنهضة على المستوى الداخلي هي بدورها عرضة لنفس الخطر، أن تسقط في أسر الصورة

والمشهد بدون أن تبني رؤية للمستقبل، فيغدو حضور القنوات الفضائية في تغطية المشهد أهم من إنفاق الوقت في الاتفاق على منهج تغيير. بعد عامين انتشرت الإضرابات العمالية، بل وإضرابات الموظفين.. ومازالت، فالمقاومة لها أثر ولا شك، لكن أين المشروع الذي ينظم هذا كله في حركة تغيير تعيد للأمة نهضتها التي نبحث عنها منذ عقود طويلة. والتغيير سلسلة حلقاتها متشابكة.

عن المقاومة والنهضة نحتاج أن نتحدث، وأن نتجادل ونجتهد ونجدد، إذ يبدو أن المسألة أبسط مما نتخيل، ولكن علينا واجب ثقيل هو أن نستحضر كلا من المقاومة والنهضة في الواقع اليومي للناس.. وفي الأفعال الصغيرة كما في الكبيرة.

كي لا ننسى الدعوة

يفلت منا خيط الدعوة حين نشد حبال السياسة، ننجرف أحيانا في اليومي، وتبتلعنا عجلة التدافع والصراع..فتحتل الأخلاق والتزكية والدعوة أولوية متأخرة لأن لحظة الـ«تمكين» تغري.. وتستلب.

الآية الكريمة ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾(النحل:١٢٥). توضح لنا أن الحكمة تسبق الموعظة، وأن الإحسان شرط الجدل، وأن الله أعلم بالعباد.

تصدر البعض للدعوة فصدوا الناس عن سبيل الله، وجوه مكفهرة، ومقولات حادة، وشعور بالتعالي على الناس، وتنزيه النفس واتهام الآخرين، يضيقون الواسع ويصعبون السهل ويجيدون تحويل القضايا الفرعية إلى قضايا كبرى، ورفع اللمم إلى مرتبة الكفر.

الغاية الكبرى من الدعوة هي استمالة القلوب واستنقاذ الناس من العذاب وشمولهم بالرحمة... فكيف يمكن أن تتحقق هذه المقاصد على حين تجرفنا نزاعات السياسة ومصالح الاقتصاد؟

أسلوبنا في الدعوة بل في طريقتنا في الحياة وطباعنا وسبل معيشتنا وأخلاقنا اليومية وقيمنا، غايتها حمل الأمانة وتحملنا الشهادة على العالمين.. والسياسة سبيل للنهضة وليس مساحة النهضة كلها.

والحكمة لازمة، وتقصيرنا شديد، وأغلبنا عنيد، والرشيد في هذا المجال.. غريب وحيد.

نحتاج ألا تشغلنا مسارات السياسة عن صناعة المستقبل والتفكير في استراتيجيات تغيير العالم، ولم تكن دعوة الإسلام دعوة فقط لمقاومة الجاهلية، بل دعوة تأسيس وصياغة لنموذج رباني المنهج، إنساني الصبغة، رسالي المقصد، فكيف حاصرتنا الأزمات وانحبسنا في أمكنتنا وفرضت علينا السياسة هذا السقف المنخفض من التصور وتلك المسافة المحدودة من الرؤية؟

الحل هو رسم خرائط المساحات وتقسيم المهام وتنسيق الحركة وتمييز الوسائل وتوزيع الأعباء وصيانة الرؤية الكلية ومنطقها الأعلى والأسمى.

أمكنة النهضة ومساحات الوجود

أحد مفاتيح النهضة المنسية هو فهم تحولات المكان كي لا تتوه مشاريعنا في متاهات اليومي، فتمر الحياة دون أن نملك التحقق والعيش بشكل يليق بنا.. كبشر.

في العديد من المدن العربية اليوم تحول المكان من وعاء للنسيج الاجتماعي إلى مساحات تنتج التفكيك والتنازع وإنتاج الفوارق، مدن يتم فيها فصل الفقراء عن الأغنياء فصلا عنصريا، ومدن تم اجتياحها من جحافل المغول الجدد القادمون من وراء النهرين، لكي يغسلوا أموالهم أو يبيعوا أعراضهم، ومدن باعت ثلث مساحاتها للفرنجة حتى أغلقوا عليهم حارات كاملة في الأحياء القديمة لأرض المرابطين واحتفلوا بالعودة والاستيطان.

كتبنا كثيرا عن واقع العرب والمسلمين، وعن إسهامات التيارات المختلفة وإخفاقاتها حتى الآن في صناعة النهضة، وعن رؤيتها عند التيارات الإسلامية بدءا من القرن التاسع عشر.

كل التيارات الفكرية والاجتماعية والسياسية لها هدف هو التغيير، بعضها يريد أن يغير واقعه، والبعض الآخر الذي يحمل رؤية كونية أو رسالة أيديولوجية يريد أن يغير بها واقعه.. والعالم.

لكن كيف نضع تصورا للنهضة يغيرنا.. ويغير العالم؟

والحق أن السؤال الأولى بالرد قبلها هو.. ما تصورنا للعالم؟

تصور المسلمون العالم في صيغة المعسكر، معسكر الكفر ومعسكر الإيمان، دار إسلام ودار حرب، ثم نمت فكرة دار العهد، ثم تحولت الرؤية إلى تصور مركب لأمة دعوة..وأمة إجابة، وتشابك الدور، في ظل عولمة تفشت فيها الجاهلية في دور المسلمين، اختلط الصالح بالسيئ في الممارسة الاجتماعية والسياسية والشخصية، وفي كيفية إحداث التغيير.

ثم برز في عصرنا تصور رواد التجديد، بدءا من الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، مرورا برواد الحركات الإصلاحية الاجتماعية، ثم خرائط أفكار أمثال مالك بن نبي، وعلي عزت بيجوفيتش، وروجيه جارودي، وعلي شريعتي، وعبدالوهاب

المسيري، وطه عبدالرحمن، وغيرهم قائمة طويلة، وانبعثت جهود أثمرت تأسيس مدارس فكرية في الجامعات، وجامعات إسلامية في الأقطار، تتبنى المنظور المقارن، وتمثل منصات للاجتهاد الجماعي في العلوم المختلفة.

هناك أيضا مهمة تغيير عالم المسلمين بتغيير الفقه، فقد تطورت المذاهب الإسلامية في مسارها المعاصر لتواجه عالما جديدا، وانتفض علماء الشريعة ليشحذوا أدوات الفهم والاجتهاد، وتأسست المجامع الفقهية في عالم الإسلام وفي الغرب، ونشأ فقه حول الاقتصاد الإسلامي ليتعامل مع المتغيرات، وفقه الأقليات ليؤسس لتغيير العالم بصياغة رؤى لمقاومة الهيمنة، وللتعايش بين المسلمين وغير المسلمين على أساس من العدل والدفاع عن الحقوق (حلف فضول عالمي معاصر).

تلك كلها تجليات كبرى لعقول تريد تغيير العالم، بتغيير الخرائط المختلفة، وتجديد الرؤى والجهود.

بيد أن هناك في عصر العولمة وسائل تجدد مناهج تغيير العالم وتجعلها في متناول يد الفرد العادي، فهل لدينا رؤى لها وكيفية استخدامها دون أن تؤدي لتجريف الأخلاق وغياب المسؤولية عن الكلمة وأمانتها، وتحري الدقة في نقل الأخبار والتعفف عن الخوض في أعراض الخصوم؟.

فكيف ننقل الإسلام من عقيدة.. لمنهج حياة، فيغدو للإسلام أصوات تدافع عنه وإن لم تؤمن بعقيدته، كانت في عصر الرسول ﷺ.. ومازالت. وهو استثمار في «المعمورة الفاضلة» التي تحدث عنها الفارابي، والتي قد تغدو أيضا داعمة للمدينة الفاضلة والأمة الفاضلة.

وعلى هذا الدرب قائد هو المصطفى ﷺ الذي كانت سيرته مسيرة لتغيير العالم، بدون شروط موضوعية، وبدون حسابات القوة، لكنه آمن، ودعا، وصبر، حتى أتم الله عليه النعمة.. وأكمل له الدين.. رحمة للعالمين.

فإن نجحنا نحن في تطوير فقهنا عن التصورات المكانية للذات والآخر التي حكمت العقل والنظر الفقهي طويلا، وأدركنا العلاقة المركبة بين بناء النهضة وتغيير العالم، وإذا كان الصراع بين القوى واختلال توازنات العدالة مسألة تاريخية معروفة مرتبطة بالظاهرة الإنسانية فإن صيغ العلاقة وسيناريوهات إدارتها ومسارات وأشكال مقاومة الظلم تتنوع وتتغير.. وتجاهل ذلك لمصلحة تفكير بسيط يعكف على الذات ويتعامل بردود الأفعال مع التحديات اليومية يعني ببساطة السير بخطى واثقة ثابتة نحو الهزيمة.

في ظل هذه المعادلات لم يعد ممكنا أن نكون «مادة» لصراع الحضارات.. بل لابد من أن نكون فاعلا على الساحة الدولية له وزنه واعتباره.

كثيرا ما يسألني طلابي في العلوم السياسية أسئلة شاملة وكبرى ويندهشون حين أقول لهم إنني لا أملك إجابات متكاملة على قضايا كثيرة تناولها النقاش، وأبين لهم أن خريطة العقل المسلم يجب في المرحلة القادمة أن تكون خريطة العالم، وأن رسم هذه الخريطة مهمة ثقيلة تحتاج اجتهاد جماعي يفوق طاقة فرد مهما بلغت درجة تخصصه، وأن المجتهد الفرد المعتد برأيه المنفرد الذي يظن أنه يمكن أن يحيط بالأمر من جميع وجوهه -أي أمر جاد ويمس حياة الناس- لا أرضا قطع ولا حضارة استبقى.

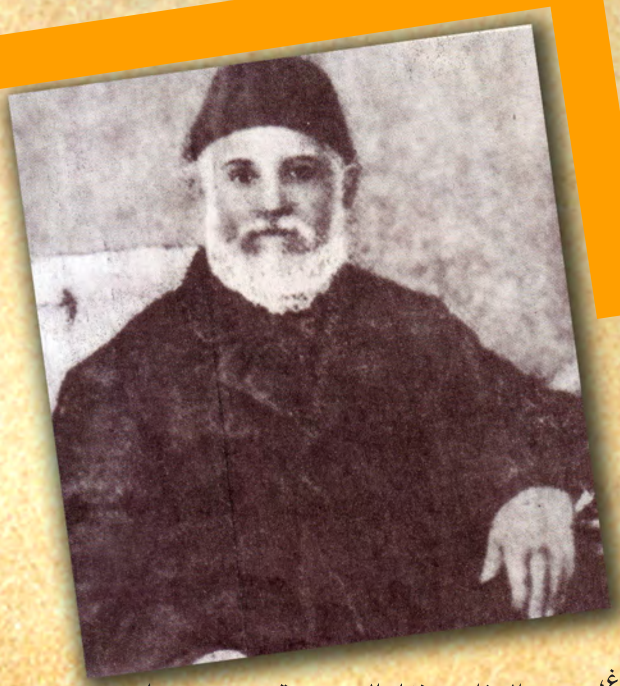
ولست ممن يقولون عند الأزمات إن التغيير يجب أن يكون شاملا كاملا، لأنني أعلم أن الاجتماع البشري مبني على التغير لكنه فيه سنن الاستمرارية، ويجب أن يتناغما معا بإيقاع متواز، لكنني أدرك جيدا أن العالم المفتوح الذي نعيش فيه يحتاج منا مزيدا من التفاعل والتواصل.

لقد تجولت في مساحات من العالم لم أجد للعروبة والإسلام فيها تواجدا فاعلا، رغم أنها مهمومة بقضايانا، شغلنا الجاري عن التعاون والتعارف، وهو الذي من أجله خلقنا الله شعوبا وقبائل، لكننا للأسف أضعنا الشهادة على الناس التي هي أصل الشهود، وقصرنا الشهادة على أن نقتل في سبيل الله.

ويبقى أن نتذكر دوما أن كل الخيارات لها ثمن.. السكون له ثمن والفعل له ثمن، والركود له ثمن، والنهضة لها ثمن، ويد القدرة تتحرك لتغير مجرى التاريخ حين يتحرك الناس بما أمكنهم ليغيروا ما بأنفسهم، ويستنفذون وسعهم، ثم يغير الله متى شاء.. بسنن لا تتخلف وقدرة لا تنازع.

عاشق المخطوطات العربية

الشدياق صاحب الجوائب



إعداد : علاء عبد الفتح

أحمد فارس الشدياق(١)، واحد من أبرز أعلام الثقافات المبنية على الطباعة والتحولات التي أحدثتها، ولد في قرية صغيرة من قرى لبنان تسمى «عشقوت» سنة ١٨٠٥ وهو من عائلة مارونية طالما خرج منها نساخ ورجال دين ومعلمون لأبناء الطبقة الإقطاعية.. نشأ في بيئة أدبية، فقد كان لأبيه مكتبة حفلت بالكتب في مختلف الموضوعات، واطلع عليها فارس في صباه، وأعجب بما فيها من كتب الأدب والشعر.. وكانت هذه المكتبة كلها مخطوطة.. وانتقلت أسرته إلى قرية «الحدث» القريبة من بيروت سنة ١٨٠٩، ثم دخل مدرسة «عين ورقة» التي تعلم فيها بطرس البستاني، ورشيد الدحداح، فكان ثالث ثلاثة من رواد النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر.. تلقوا العلم في هذه المدرسة المارونية التي كانت تعلم العربية والسريانية وعلوم البلاغة والمنطق واللاهوت.

واشتغل فارس الشدياق بنسخ الكتب لنفسه أو لغيره، وصارت له بهذا شهرة، فاستدعاه الأمير حيدر الشهابي أحد الأمراء الشهابيين ومؤلف التاريخ المشهور، وكلفه نسخ تاريخه.

ومنذ البداية حرص الشدياق على مستوى عال من الدقة والجمال فيما ينسخ من كتب، وكان يوصي بضرورة استخدام الأدوات المناسبة للكتابة العربية، كالأقلام القصبية بدلا من السن المعدني، ويذكر أنه في شبابه قد بلغ درجة عالية من تجويد الخط، وعندما كان يرى خطا جميلا كان يقلده.

وتقلبت به الأحوال بين عمل وفراغ، إلى أن حدثت لأخيه وأستاذه أسعد الشدياق حادثة كانت الشرارة الأولى في تغيير مجرى حياته.. فقد تحول أسعد من مذهبه الماروني إلى المذهب الإنجيلي (البروتستانتي)، وقد أثار هذا التحول سخط البطريرك الماروني على أسعد، فأخذ يتهدده ويتوعده ويسومه العذاب، ونفاه إلى «دير قنوبين» سجينا معذبا حتى قضى نحبه في سجنه، وهو في ريعان شبابه. وكان لهذا الحادث أثره الأليم في النفوس، مما جعل الشدياق يكره الحياة في لبنان الذي بلغ من التعصب الطائفي هذا المبلغ. فقصد مصر سنة ١٨٢٥ بدعوة من المرسلين الأميركان الذين نصبوه ليعلمهم العربية، وكأنهم بذلك أرادوا أن يطيبوا خاطره نظير ما لقيه شقيقه أسعد بسبب اعتناق مذهبهم.



كان فارس الشدياق ناسخا، وقارئا وجامعا للمخطوطات؛ فخلال إقامته في مصر، غاص في بحار الأدب العربي القديم، وكان معظمه غير منشور في ذلك الحين، فنسخ بعضه لنفسه. وعندما رحل إلى أوروبا فيما بعد، حرص على زيارة المكتبات الكبرى في باريس ولندن وكمبردج وأكسفورد، كما حرص على قراءة المؤلفات المهمة في مجموعات مخطوطاتها العربية.

وأتاحت له إقامته بمصر أن يتلقى اللغة والأدب والنحو والبلاغة والصرف والشعر على بعض علمائها، وخاصة الشاعر الأديب الشيخ محمد شهاب

(١) هو فارس بن يوسف بن منصور الشدياق، من طائفة الموارنة. ولقب «الشدياق» كان في الأصل يطلق على الشمامسة «جمع شماس» من رجال الدين، ثم أخذ القوم يتوسعون في استعماله حتى صار من ألقاب الشرف التي تطلق على كبار القوم من المتعلمين والكتاب الذين يرتفعون عن طبقة الأميين.

الدين الذي كان مقربا إلى بيت محمد علي، وقد أعانه هذا على أن يعين محررا في «الوقائع المصرية» ولم يكن عمله في الوقائع مقصورا على تصحيح لغتها كما يذكر بعض مؤرخيه، بل كان يشارك في تحرير القسم العربي بقلمه وبعبارته المرسلة الرصينة، التي كانت جديدة على أهل ذلك الزمان.

الإنتقال إلى اسطنبول

وخلال السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته، وعندما كان يعيش في إسطنبول، كان يتردد على مكتبات المخطوطات، ونشر عدة مقالات في صحيفة الجوائب عن المكتبات ومجموعاتها، وندد بالقيود التي تفرض على استخدامها، وبظروف العمل السيئة فيها.

ولكن الاهتمام الرئيسي للشدياق عندما يتعامل مع المخطوطات، خاصة في الفترة الأخيرة من حياته، كان ينصب دائما على إقامة نصوصها، بحيث تعبر بدقة عما أراده مؤلفوها؛ ولذلك نراه يعقد مقارنات مفصلة بين النسخ المخطوطة للكتاب الواحد الذي يتناوله، ويقيم كلا منها. وقد أتاح له ذلك أن يكتشف أن بعض النسخ المخطوطة تعرضت للتصحيف والتحريف أثناء نسخها بسبب جهل الناسخين وإهمالهم. وقد نبه إلى أن النسخ المخطوطة تكون غالبا ناقصة، فقدت جزءا أو أجزاء من النص. كما أن كثيرا من نصوص الأدب العربي قد فقد كلية، نتيجة تلف مخطوطاته الفريدة والنادرة. بل إن كثيرا من المؤلفات التي وصلتنا نادرة، ويصعب الحصول عليها. وهو أمر تبين له عندما حاول أن يحصل على دواوين شعراء العربية العظام عندما كان في القاهرة في شبابه.

وقد كان الشدياق على اقتناع بأن السبيل إلى إحياء الأدب العربي والثقافة العربية هو تجاوز أساليب جديدة لنقل النصوص وحفظها، سواء في ذلك النصوص القديمة أو المؤلفات الحديثة. ومن حسن الحظ أن ظروف حياته وعمله قد أتاحا له أن يعرف أن هذه الأساليب قد أصبحت متاحة، فمنذ ترك موطنه الأصلي في عام ١٨٢٦ ارتبط عمله باستخدام المطبعة واعتمد عليها؛ ففي بداية حياته الوظيفية كانت الطباعة في البلاد العربية والإسلامية بمنطقة الشرق الأوسط بدعة مشكوكا فيها..

وبيت الشدياق قديم جدا في لبنان، يرجع إلى القرن الخامس عشر أي قبل الحملة العثمانية على مصر والشام بقرن كامل. وهو بيت يشبه بيت «الشهابي» من حيث إنجاب المسيحيين والمسلمين على السواء.

وفي سنة ١٨٢٤ دعاه الأميركان الى مالطة لغرضين، أولهما: التعليم في مدارسهم هناك، وثانيا تصحيح ما يصدر من مطبعتهم من كتب عربية، وقد أخذت هنا تتجه ميوله وعواطفه نحو المذهب الإنجيلي الذي اعتنقه شقيقه من قبل في لبنان، وعذب من أجله، ومات عليه، وقد ظل في مالطة أربعة عشر عاما حتى سنة ١٨٤٨. ومن أهم ما ألفه فيها من الكتب كتابه «الواسطة في معرفة مالطة»، وهو أول كتبه في الرحلات.

وقامت للشدياق شهرة أدبية لغوية، وخاصة في أوساط المرسلين، ففي سنة ١٨٤٨ دعته جمعية «ترجمة الأسفار المقدسة» إلى إنجلترا ليسهم في ترجمة هذه الأسفار، أو على الأصح في ضبطها وتنقيحها تحت إشراف المستشرق «الدكتور لي» الذي كان مكلفا بترجمة التوراة العربية، فلبى صاحبنا الدعوة، وبدأ العمل، وأتاحت له هذه المهمة أن يطيل التجوال في إنجلترا وفرنسا وأن يتعرف إلى ريفها وحضرها، وأن يدرس عن كثب أحوالها وأخلاق أهلها، وأن يتعلم الإنجليزية والفرنسية، ويقرأ لبعض أعلامهما.

وأعانه ذلك على أن يؤلف كتابه الثاني في أدب الرحلات، وهو «كشف المخبأ، عن فنون أوروبا»، كما ألف كتابه الرائع «الساق على الساق، فيما هو الفارياق» الذي طبع في باريس سنة ١٨٥٢. وفي سنة ١٨٥٣ كانت مدحته الشعرية للسلطان العثماني عبدالمجيد بمناسبة الحرب بين روسيا وتركيا، وهي قصيدة تزيد على مائة وثلاثين بيتا.

ومن عجب أن هذه المدحة، بل القصيدة الجهادية المحرضة على صبر المسلمين في القتال، كانت قبل أن يشهر الشدياق إسلامه في تونس بأربع سنوات.. وهذا مما يؤكد رأينا أن الرجل كان منشرح الصدر للإسلام في خلال رحلته إلى إنجلترا وفرنسا عقب مغادرته مالطة سنة ١٨٤٨.

وجاءت إلى الشدياق دعوتان استجابة للمدائح الشعرية.. أما الأولى فكانت دعوة السلطان عبدالمجيد إياه لزيارة الآستانة تكريما له على مدحته الرائية المشار إليها، وأما الثانية فكانت من أحمد باي تونس الذي دعاه لزيارته والإقامة معه في تونس لقاء القصيدة التي مدحه بها الشدياق وبعث بها إليه من باريس تقديرا لمبراته وخيراته التي وزعها على فقراء مرسيليا وباريس في أثناء زيارته لهما.. ولبى الشدياق دعوة باي تونس سنة ١٨٥٧ الذي بعث إليه بسفينة خاصة تقله إليه! وقد ذكر جورجي زيدان، ونقل عنه غيره أن الشدياق حرر في جريدة «الرائد التونسي»، ولكن مؤرخ الصحافة العربية فيليب طرازي يصحح هذه الواقعة قائلا: إن هذه الجريدة الحكومية أنشأتها حكومة تونس سنة ١٨٦١ أي بعد زيارة الشدياق لتونس سنة ١٨٥٧، فكيف يكون محررا في جريدة لم تكن قد صدرت بعد؟! وهو تحقيق سليم يصحح ما نشر خطأ بعد ذلك. وفي تونس اعتنق الشدياق الإسلام وتسمى باسم أحمد فارس

الشدياق، بل أضيف إلى اسمه لقب «الشيخ» الذي اشتهر به في العالم العربي الإسلامي كله.

ولم يطل مقام الشيخ أحمد فارس بتونس على الرغم من قربه من الباي وتوليه هناك أعلى المناصب، فلما كررت الآستانة دعوته إليها غادر تونس ملبيا دعوة السلطان، وهناك ألحق بديوان الترجمة وتولى تصحيح بعض المطبوعات.

وفي سنة ١٨٦٠ أنشا الشدياق صحيفة «الجوائب» سياسية أسبوعية، وقد صدر أول أعدادها في شهر يوليو سنة ١٨٦٠ بمدينة الآستانة. وكانت تطبع أول أمرها في المطبعة السلطانية، وهي المطبعة الحكومية، ثم أنشأ لها الشدياق مطبعة خاصة بها تسمى مطبعة الجوائب أيضا، وكان ذلك سنة ١٨٧٠ أي بعد عشر سنوات من إنشاء الصحيفة.

وقد نالت صحيفة «الجوائب» شهرة في العالم الإسلامي لم تنلها صحيفة سواها منذ إنشاء الصحافة العربية، فأقبل السلاطين والملوك ورؤساء الحكومات العربية الإسلامية عليها، كما كان المفكرون يتهافتون على قراءتها، وبلغت من حسن التبويب والإتقان، وبراعة التحرير وجودة الأساليب حدا جعلها أكبر صحف ذلك العهد وأوسعها انتشارا، كما كانت مطبعتها الخاصة المسماة «مطبعة الجوائب» من أشهر المطابع في الآستانة والشرق العربي، وقد أمدت المكتبة العربية بسيل من المطبوعات التي شاركت في إحياء التراث العربي، واشتهرت بين عشاق الكتب بجمال حروفها، وحسن إخراجها، ودقة تصحيحها، حتى كادت مطبوعاتها تداني مطبوعات الأميرية ببولاق من هذه النواحي.

أما مكانة «الجوائب» بين الصحافة العربية والعالمية فيكفي للتدليل عليها أن صحافة الغرب كانت تنقل عنها، وتستشهد بها في معرض الحديث عن سياسة الشرق، كما كانت تلقب صاحبها «فارس الشدياق» بالسياسي الشهير، والصحافي الطائر الصيت. والحق أن صلته الوثيقة بالسلطان العثماني وبرؤساء البلاد العربية والإسلامية جعلت صحيفة «الجوائب» مركزا مهما لسياسة الشرق حقبة من الزمان.

ولم تكتف «الجوائب» بمركزها السياسي وبمنبرها الشرقي الذي كانت تسمع منه أجهر الأصوات، بل أضافت إلى ذلك ميدانها الأدبي ومعرضها الحامي في الجدل والمناظرات. وكثيرا ما قامت فيها المعارك الأدبية بين رجال من أمثال: الشيخ إبراهيم اليازجي، والشيخ سعيد الرتوني، والدكتور لويس صابونجي، والكونت رشيد الدحداح، والشيخ إبراهيم الأحدب، وبطرس البستاني وغيرهم، وكان المرحوم عبدالله فكري الأديب الشاعر المصري ينشر فيها بعض مقالاته وطرائفه.

نسخه للكتب بخط جميل

يبدو أن الشدياق ظل ينسخ الكتب خلال إقامته في مصر بين عامي ١٨٢٨ و ١٨٣٥ ومنها شرح المعلقات للزوزني. كما نسخ كراسة ضمنها مقتطفات من مؤلفات مخطوطة، رأى أنه قد يحتاج إليها فيما بعد، مثل موسوعة الدميري في علم الحيوان: حياة الحيوان الكبرى، التي استخدمها بالفعل فيما بعد عندما كان يترجم كتابا إنجليزيا في التاريخ الطبيعي لينشره. وعلى مدى سنوات عمره الباقية، استمر في نسخ الكتب، وجمع عدة مجلدات مخطوطة بهذه الطريقة، ويقال إنه كان قلقا على مصيرها بعد وفاته. كما كتب بخطه نسخا دقيقة من مؤلفاته، وكثيرا ما كان ينسخ من الكتاب الواحد أكثر من نسخة، وهذه النسخ مازال بعضها موجودا إلى الآن.

إعلان إسلامه

أعلن فارس الشدياق إسلامه في تونس قبيل سنة ١٨٥٧م على يد شيخ الإسلام هناك، وشرح الله صدره للدين الجديد، فتسمى باسم جديد «أحمد فارس الشدياق»، وقد انتقل الإسلام إلى بيته ليسلم ولده «سليم» وتسلم حفيدته: «جل هانم» أو وردة -أو روز، كما كانت تسمى في إنجلترا- وتتزوج من ضابط إنجليزي في الجيش البريطاني بعد أن يعلن إسلامه، وتنجب له أولادا مسلمين أحدهم «سليم» الذي سمي بهذا الاسم تيمنا بجده لأمه: سليم، أكبر أبناء أحمد فارس الشدياق.

لقد كان دور الشدياق كصحافي وناشر صحيفة أشد خطرا في إتاحة الكلمة المطبوعة لجمهور عريض من القراء العرب والمسلمين، فحتى الكتب التي لم تنشر في حلقات كان يعلن عنها في الصحف بكثافة، وكان لها وكلاء يوزعونها في تونس والإسكندرية.

مؤلفاته

- الواسطة في أحوال مالطة.
- كشف المخبأ في أحوال أوروبا.
- الجاسوس على القاموس.
- الساق على الساق فيما هو الفارياق.
- كنز الرغائب في منتخبات الجوائب.
- اللفيف في كل معنى طريف
- سر الليال في القلب والإبدال.
- غنية الطالب.
- الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنكليزية.
- سند الراوي في النحو الفرنساوي.
- ترجم التوراة إلى العربية.

ختام حياته

في سنة ١٨٨٦ جاء الشدياق إلى مصر زائرا بعد أن تعطلت جوائبه، وأتيح للمؤرخ جورجي زيدان أن يراه وقد علاه الكبر، وأحدق بحدقتيه قوس الأشياخ، واحدودب ظهره، ولكنه لم يفقد شيئا من الانتباه أو الذكاء، وكان إلى آخر أيامه حلو الحديث طلق العبارة رقيق الجانب، وعاد إلى الآستانة، فكانت تلك العودة آخر أسفاره في الدنيا ليبدأ رحلته إلى الآخرة في سبتمبر سنة ١٨٨٧.

المصادر:

١- سلسلة أعلام العرب - العدد (٥٠) محمد عبدالغني حسن، إصدار الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٢- عالم المعرفة، العدد ٢٩٧، ص ١٨٩ جيوفري روبر، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت.

المسؤولية الاجتماعية والعمل العام

حسين أحمد المحمد
باحث في الفكر الإسلامي



تعرف المسؤولية الاجتماعية في المعجم الوسيط بوجه عام بأنها: حال أو صفة من يسأل عن أمر تقع عليه تبعته (يقال: أنا بريء من مسؤولية هذا العمل).

ويقدمها Garson and Rud، على أنها نزوع الفرد إلى التفكير المسبق في النتائج المحتملة لأي خطوة مقترحة، وقبول هذه النتائج عن قصد.

وعلى العموم فإن المسؤولية الاجتماعية تتضمن عدة جوانب وأبعاد، تعتبر بمثابة خصائص وصفات للشخص المسؤول اجتماعيا، وتشمل فهم الفرد واهتمامه بقضايا ومشكلات مجتمعه، ومن ثم مشاركته ومساهمته الفعالة في حلها.. وهو بذلك يؤدي واجبه الشخصي والاجتماعي تجاه مجتمعه.

لقد أولى الدين الحنيف منذ ظهوره بالغ الاهتمام بمفهوم المسؤولية الاجتماعية، وأعطاها صفة الشمولية، ونقصد بها تقديم كل ما يسهم في بناء المجتمع من مختلف جوانبه المادية والروحية بناء صحيحا، ويمنع كل ما يلحق الضرر به، ويظهر ذلك جليا في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، والتي صاغت أحكام المعاملات على أساس عالي الدقة في التنظيم، والشمولية الرائعة في تطبيق أحكام الشرع، وأزالت كل لبس في التعامل بين الفرد المسلم في مجتمعه والمجتمعات غير الإسلامية، بحيث تكون المسؤولية الاجتماعية والضمير الإيماني هما المحرك والبوصلة التي على أساسها يتحرك الفرد.. مستخدما في ذلك التوجيه والإرشاد والموعظة الدينية؛ للقيام بمصالح الأمة

قال تعالى:﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(المائدة: ٢).

وسنورد دراسة المسؤولية الاجتماعية من منظورها الإسلامي؛ لأنها لم تعالج في أي دين سماوي كما عولجت في الدين الإسلامي الحنيف، الذي وضع الضوابط الناظمة للمسؤولية بعمومها، ونورد مثلا واحدا وهو الحديث الشريف الذي ورد في الصحيحين عن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته» (رواه الشيخان).

يتضح مما سبق جليا معنى الشمولية، والتفصيل الدقيق للمسؤولية الاجتماعية، بحيث تغطي كل مفاصل الحياة.

ومعلوم بداهة أن الإسلام دين الفطرة، لذلك كانت تعاليمه تشمل المسلمين وغيرهم، بل أكثر من ذلك فقد جعل عبادات المعاملات فوق العبادات التعبدية من فروض وطاعات. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الصف: ٢-٣). وقال ﷺ: «لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» (رواه الترمذي).

كل ذلك يصب في رافد تعزيز المسؤولية الاجتماعية، وإعطائها صفة الديمومة لصالح النفع العام.

ومن باب المسؤولية الاجتماعية نجده ينظر للعمل العام على أنه بمكان الحادي للركب؛ إذ إنه يصب في مصلحة المجتمع، ويحافظ عليه ويراقبه، ويزيد من موارد الخير فيه، ويسد موارد الفساد في المجتمع..

والعمل العام ذو مفهوم واسع، يبدأ بالفرد والأسرة، وينتهي بجميع بني البشر، بصفتهم المكلفين بإعمار الأرض، وعليه تحدد مسؤولية كل فرد.. أما في الوقت الراهن فحضور المنظمات والهيئات الأممية- سواء التي تندرج تحت مظلات حكومية أو أهلية- حضور واسع وفعال، مما يجعلها تمثل الصورة المشرقة للعمل العام.. خاصة تلك الهيئات والمنظمات العاملة في الحروب والكوارث، وفي المجالات الإغاثية، أو العاملة في مجال البيئة والمحافظة عليها، والتنوع الحيوي على الأرض.

كل ذلك يندرج تحت باب العمل العام الذي أمرنا الله سبحانه به، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (التوبة: ١٠٥). وكل ذلك- لا ريب- يعزز من تماسك المجتمع، ويقوي دعائمه، ويخدم الحضارة الإنسانية في مدارج نهوضها نحو غد أفضل.

الإسلام والمسؤولية الفردية في إطار العمل الجماعي

عطية الويشي
باحث ومفكر إسلامي



في ترتيبات المنطق الإيماني للحساب أن الإنسان وإن كان سيبعث وحده ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ (مريم:٩٥)، وسيسأل وحده عما سعى ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم:٣٩)، وسيتحمل وحده تبعات ما اكتسب ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ...﴾ (الإسراء:١٥).. لكن هذا الإنسان لا يمكن أن يحيا وحده على أي حال. فهو لم يزل محتاجا إلى غيره، بل ومضطرا إلى التفاعل مع الآخرين، سلبا وإيجابا، أخذا وعطاء، إشارة واستشارة، نفعا وانتفاعا، إعانة واستعانة، إغاثة واستغاثة. ذلك لأن المكون الاجتماعي للظاهرة الإنسية إنما يفرز نوعا من «الحراك والدينامية البشرية بين الذات والعالم، وهو ما يفيد بأن تكريم الله للإنسان باستخلافه في الأرض لم يكن مبعثه إلا لتحمله مسؤولية نفسه وغيره»(١). ومن ثم، فإنه «لا يمكن للإنسان أن يعيش وحده كما يعيش الوحش، فلا بد له أن يعيش مع الناس.. ليعرف بعضهم مراد بعض فيحصل التعاون»(٢). وذلك لأن «الإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه، واستعانته صفة لازمة لطبعة وخلقة قائمتين في جوهره»(٣).

ثم إن المسؤولية الإيمانية في مستوى تال من مستويات التفاعل البشري، تقتضي أن يتقلد كل إنسان في عنقه قدرا معتبرا من الالتزام الأخلاقي والأدبي تجاه الأفراد الآخرين وتجاه المجتمع الذي يعيش فيه والحكومة والدولة والأمة التي ينتمي إليها، إذ إن «الهوية الفردية لا تكتمل إلا بالاندماج

في وعي جماعي، حينئذ يشعر الإنسان بقيمته كفرد مجرد، وقيمته كفرد في جماعة أو مجتمع، لأن فلسفة الحياة تكمن في أن ينظر الإنسان لغيره كما ينظر لنفسه، واعتبار ذلك من صميم الإيمان»(٤).

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن مجرد الإيمان بالله تعالى إنما يعزز التواضع، ولين الجانب، وخفض الجناح، وبسط الوجه، وسخاء النفس، وجود الطبع لدى الإنسان. وهو يجعله ميالا بدوافعه الإيمانية إلى الناس، راغبا فيهم، مقبلا عليهم، مؤثرا مخالطتهم ومشاركتهم حياتهم، أفراحهم وأتراحهم، همومهم وقضاياهم.. وهو ما يحقق التوازن في نفسية الإنسان وشخصيته بين كونه فردا له حظوظه وحقوقه.. وبين موقعه الاجتماعي على خريطة الاستخلاف باعتباره لبنة في بناء مجتمعي لا يستغنى عنه بأية حال من الأحوال.

الإلتزام الأخلاقي

وإن طبيعة الإسلام تفرض على معتنقيه، أفرادا كانوا أو جماعات أو هيئات ومؤسسات، قدرا معينا من الالتزام الأخلاقي والأدبي والمادي تجاه بعضهم بعضا، فلا تستقيم وتيرة الحياة إلا بتوافر هذا القدر، الذي هو بالنسبة إلى المجتمع من الضرورات بمكان كبير. والشواهد على ذلك كثيرة، وهي في مجملها تمثل خلفية ثقافية وأخلاقية تعزز وازع المسؤولية الأخلاقية وثقافة المشاركة الوجدانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية على مختلف مستويات التمثيل الاجتماعي للأمة. ونعني هنا بالمشاركة الوجدانية أن يكون المؤمنون في حالة من التعاطف، والانسجام الوجداني، وكأنهم مشتركون في وجدان واحد، فاذا تألم واحد منهم تألم الآخرون، واذا فرح فرح له الآخرون، وهكذا في الحزن والهم والسرور. وفي المشاركة الوجدانية «لا يفقد الفرد المؤمن شخصيته الفردية ضمن المجموع المركب من المؤمنين، وانما يوسع من دائرة روحه الاجتماعية وارتباطه النفسي بإخوته في الله تعالى، وفي القوم، وفي الوطن، وفي الإنسانية»(٥).

فعلى مستوى المسؤولية الفردية، يأتي الوحي معززا وازع تلك المسؤولية، أقوالا وأفعالا وأخلاقا.. فيقول النبي ﷺ مؤكدا الالتزام الفردي في سياق المشاركة الاجتماعية الوجدانية: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه»(٦).

روح المسؤولية

وفي سياق تحقيق المواساة الاجتماعية يركز الإسلام على المبادرات الفردية، فيقول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه، أو قال: لجاره، ما يحب لنفسه»(٧). ويقول: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع»(٨). أي لا يكون إيمانه كاملا من يبيت شبعان وهو يعلم بجوع جاره وحاجته. وكان ﷺ يمتدح الأشعريين لكونهم متواسين فيما بينهم فقال: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم»(٩).

ثم تتجلى روح المسؤولية الفردية عن تعزيز المسار الصحيح للنشاط الاقتصادي للمجتمع والدولة فيما رواه الحاكم في المستدرك عن اليسع بن المغيرة، قال: «مر رسول الله ﷺ برجل بالسوق يبيع طعاما بسعر هو أرخص من سعر السوق، فقال: تبيع في سوقنا بسعر هو أرخص من سعرنا؟ قال: نعم. قال: صبرا واحتسابا؟ قال: نعم. قال: أبشر، فإن الجالب إلى سوقنا، كالمجاهد في سبيل الله، والمحتكر في سوقنا، كالملحد في كتاب الله»(١٠).

وعلى مستوى الأمن القومي، فإن المسؤولية الفردية عن تأمين المصالح العليا للبلاد إنما تتعاظم في أزمنة تفشي الظلم والجور وظهور الفساد وانعدام الأمن الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، حيث تضحى الأمة مغلوبة على أمرها، ويبقى التعويل على أهل المروءات والنخوة فيها...

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ (هود:١١٦).

ولعل التأكيد على ان استشعار المسؤولية الفردية عن التغيير الاجتماعي، والتحرير الوطني الاجتماعي والتعمير المدني... من شأنه أن يعزز بواعث المشاركة الإيجابية في النفس البشرية، ويقوي وازع المبادرة إلى الحركة والتفاعل المثمر البناء «فليس لمسلم أن يعتزل الحياة والناس، ويقول: نفسي نفسي! ويدع نار الفساد تلتهم الأخضر واليابس من حوله، فإن هذه النار إذا تركت وشأنها لم تلبث أن تحرقه هو، وتحرق كل ما يحرص عليه»(١١).

ولهذا، يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنفال:٢٥).

الوظائف الاجتماعية

إن هذا ليعني أن مجرد التستر على الجرائم وعدم الأخذ على يد المجرمين أو التساهل معهم والإغضاء عنهم، من شأنه أن يجلب على المجتمع النقمة وأن يوقعه تحت طائلة الهلاك، قال ﷺ: «فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(١٢).

وإن المتأمل في الوظائف الاجتماعية للشعائر العبادية، يجد أنها على الرغم من كونها تعكس مدى استجابة الإنسان لأمر ربه، بيد أنها تنطوي على

مضامين فردية اجتماعية من شأنها تعزيز سبل ارتباط الفرد بروح التعاون الإحساني الخلاق مع الآخرين ورعاية حرماتهم والتصدق عليهم وخدمتهم وتقديم العون والمساعدة كلما اقتضت حاجتهم ذلك، رعاية لحق الله المعبود وابتغاء مرضاته!

- فالصلاة مثلا، وإن كانت حالة يعيشها الإنسان بين يدي ربه، لكنها في كل الأحوال تربط هذا الإنسان بصف وجماعة يصلون ويتواصلون خمس مرات في اليوم الواحد ومحال ألا ينبني هذا التواصل على أساس مسؤولية هؤلاء الأفراد عن تفقد أحوال بعضهم بعضا وتعاهد مصالح بعضهم بعضا وتخولهم بالرعاية والتكافل الأدبي والمادي. فالصلاة كعمل مشترك يعكس نوعا من المسؤولية الاجتماعية المشتركة والالتزام المتبادل بين الناس وتعاهد الناس بعضهم بعضا.

- والملكية الفردية في المعاملات «تقتضي من الفرد التزاما ماديا باستعمال ما يحوزه من مال في المحافظة على التضامن الاجتماعي وفي تنميته ، فعلى كل فرد التزام بأن يقوم في المجتمع بأداء وظيفة معينة مستمدة مباشرة من المكان الذي يحتله، فليس ثمة قانون إنساني يحمي حقا مزعوما للمالك، إنما يضمن حرية هذا المالك في أداء ما يقع عليه من وظيفة اجتماعية»(١٣) تأتي مقتضياتها في صورة زكاة وصدقات وأوقاف وتبرعات وفدية وكفارة وغير ذلك، مما يجعل أحد الجوانب المهمة للملكية الفردية تتلخص في مدى تحقيقها لوظيفتها الاجتماعية التضامنية أو تجسيدها للعلاقة التكاملية التكافلية بين الفرد والمجتمع.

- والجهاد، بما فيه من ضمانات توفير الحماية للمستضعفين، وتقرير حرية الاختيار العقدي والفكري، ووقاية المجتمع من شغب العدوان الخارجي، وتأمين حدود الدولة ليتفرغ أهلها لمعاشهم، هو في الأصل مسؤولية فردية عينية يتحلل منها الأفراد في حالة وجود جيش في مستوى المسؤولية الكفائية.

الفروض والواجبات

وفيما ذكرنا من مسؤوليات فردية، فإنه على الرغم من تفاوت درجات وجوبها ولزومها في سلم التكاليف الشرعية من فروض الأعيان إلى الكفايات، بيد أن هذه المسؤوليات وغيرها قد تتحرك من دائرة الفروض والواجبات الكفائية إلى دائرة الفروض العينية، فتتحول تلقائيا من المجال الفردي إلى المجال الجماعي بمقتضى الحال التي يعيشها المجتمع المسلم، وذلك حتى تسترد الأمة عافيتها من داء الفساد وتستوفي شروط النجاة والصلاح والقدرة على تجاوز أزماتها وتحمل مسؤولياتها، فإذا كانت «مسؤولية كل فرد واضحة جلية عن العمل الذي يقوم به، سواء كان هذا العمل من أجل نفسه أو من أجل الغير، إذ هو لا يتحمل تبعة عمل إنسان غيره، لكنه مسؤول عن الطريقة التي أتى بها هذا العمل أو ذاك بعد أن علم وتعلم سبل الخير والشر، إلا أن هذه المسؤولية الفردية لا تمنع الفرد أن يكون مسؤولا عن انحراف مسلك أقرانه، فعليه أن يتدخل بوسائل مشروعة ليمنع الجماعة من التمادي في الأعمال التي تضر المجتمع الإسلامي، وهنا تتحول المسؤولية إلى مسؤولية ذات طابع جماعي، حيث إن هذه الجماعة ما هي إلا مجموعة الضمائر التي تربت في أحضان المدرسة الإسلامية الحقة. فأوجدت المجتمع المتكافل والمتعاون الذي يعمل من أجل الخير والسلام»(١٤).

وهنا تبدو المعالم المشتركة بين المسؤولية الفردية والمسؤولية الاجتماعية واضحة؛ فإذا كانت الأخلاق الفردية هي بمنزلة نزعة إيثارية، تسعى إلى تأويل الوازع الاجتماعي تأويلا غيريا باعتباره ضميرا جمعيا نزوعا إلى «مذهب الخير الذي يجعل غاية سلوكنا الفردي: نفع الناس ودفع الضر عنهم»(١٥). فإن الأخلاق الجماعية هي: «الأخلاق التي تدعو إلى انسجام قوى النفس، وانسجام المصالح الفردية في المجتمع»(١٦).

هذه كانت معالم المسؤولية الفردية في إطار المسؤولية الاجتماعية التي لا تحابي أحدا على حساب القيم الحاكمة للمجتمع، ولا تمالئ مهما بدا شأنه عاليا أو مهما تعبأ بمال أو تغشى بهالة من متاع الحياة الدنيا.. كلا، إنها مسؤولية لا اعتبار لأحد إزائها إلا بحق وعدل.

الهوامش:

(١) عزالدين السلاوي: أسئلة الذات والعالم والوسطية في الإنسان المسلم (مقال منشور بمجلة دعوة الحق المغربية، الرباط، العدد ٣٣٤، ذو الحجة ١٤١٨هـ) ص١٠٦.

(٢) أبو عبدالله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي بن قيم الجوزية: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله (دار العاصمة، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م) ص٦٤١. وانظر: بن قيم الجوزية: الفوائد (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) جـ١، ص٢٣١.

(٣) علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠هـ): أدب الدنيا والدين (دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٦م) ص ١٢٩.

(٤) عباس الجراري: الإنسان في الإسلام.. ماهيته وحقيقة وجوده (مطبعة الأمنية، الرباط، منشورات النادي الجراري، ١٤٠٨هـ/١٩٩٧م) ص ٣٧.

(٥) حسن معن: الإعداد الروحي (مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٢م) ص ١٧٣- بتصرف.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري، حديث: ٦٤٧٥.

(٧) أخرجه البخاري عن أنس بن مالك، حديث رقم ١٣.

(٨) رواه البخاري في الأدب المفرد، حديث رقم: ١١٢.

(٩) أخرجه البخاري عن أبي موسى، حديث رقم ٢٤٨٦.

(١٠) حديث رقم: ٢١٦٧.

(١١) يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام (مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٩هـ، ط ٤) ص ٥٤.

(١٢) أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها - حديث رقم: ٤٤٢٩.

(١٣) Duguit: Système de politique positive (١٨٩٢، p (I .T ١٥٦ S، et.

(١٤) محمد ممدوح محمد علي العربي: الأخلاق السياسية في الفكر الإسلامي (دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢هـ) ص ٢٢٠، ٢٢١.

(١٥) جميل صليبا (ت: ١٩٧٦م): المعجم الفلسفي (الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) ١/١٧٨.

(١٦) جميل صليبا (ت: ١٩٧٦م): المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ١/١٦١.



«الجمعيات الأهلية».. محاصرة برؤى ضيقة

تحقيق : هاني عبدالله

الشطي: الجمعيات الخيرية هي الواسطة بين المتبرع والمحتاج.. وأنشطتها تجاوزت إغاثة الأفراد إلى الدول

العمل الخيري الإغاثي والدعوي هو ما اشتهرت به الكويت منذ عقد السبعينيات، فلم تعد الكويت معروفة-كما هو معلوم- بتصديرها للنفط والمواد البترولية فحسب، بل اشتهرت كذلك بتصدير العمل الخيري خارج الكويت، فضلا عن الداخل، فقد جبل الكثير من أهل الكويت، وعرفوا بعمل الخير وجمع التبرعات للفقراء والمحتاجين، سواء داخل الكويت أو خارجها، وفي سبيل ذلك هناك الكثير من جمعيات النفع العام والجمعيات الخيرية التي تقوم بدور الوسيط بين الفقير والغني، حيث تقوم بإعطاء الفقير المساعدات، وتقوم بجمع التبرعات والصدقات من الأغنياء.

لم يقتصر دور الجمعيات الأهلية الخيرية في الآونة الأخيرة داخل حدود الدولة فقط، بل امتد ليصل خارجها، وتصل المساعدات إلى الدول المنكوبة التي بها كوارث، مثل الفيضانات والزلازل والمجاعات، فضلا عن الحروب والأزمات الإنسانية الأخرى.

في سبيل معرفة المزيد عن عمل الجمعيات الخيرية وأهدافها وطموحاتها، والمعوقات التي تواجهها في سبيل تحقيق هذه الأهداف، أجرينا هذا التحقيق مع المختصين والخبراء في العمل الخيري الذين لديهم الخبرة في مجال العمل الخيري الإغاثي والدعوي.. فكان التحقيق التالي:

الإغاثة الفكرية

بداية، قال رئيس مجلس إدارة مبرة الآل والأصحاب خليل الشطي، وهي إحدى جمعيات النفع العام التي تقوم بالعمل الدعوي والتثقيفي والعلمي، ونشر التراث الإسلامي، وخاصة ما يتعلق بأهل بيت النبي ﷺ قال: إن العمل الخيري بالكويت بدأ منذ السبعينيات، وأهل الكويت جبلوا على عمل الخير، وكانت الجمعيات الخيرية هي الواسطة بين المتبرع والفقير أو المحتاج، حتى إن أنشطتهم تجاوزت حدود دولة الكويت إلى خارجها، وتنوعت أنشطة الجمعيات الخيرية ومجالاتها، حيث تجاوزت مسألة الإغاثة الشخصية أو الأسرية إلى إغاثة الدول في الكوارث والنوائب والمصائب والنوازل، وبالنسبة لمبرة الآل والأصحاب فهي تعمل في نوع آخر من الإغاثة، فهي تقدم الإغاثة الفكرية عوضا عن الإغاثة المادية، والجدير بالذكر أن لجنة التعريف بالإسلام تعمل معنا في مجال تقديم الإغاثة الفكرية في هداية غير المسلمين إلى الإسلام، أما مبرة الآل والأصحاب فهي مؤسسة علمية بحثية تقوم على نشر تراث أهل البيت والصحابة، وتأليف الكتب، وعمل المواد العلمية، بالإضافة إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة عند كثير من المسلمين عن آل البيت والأصحاب.

وعن تأثير الجمعيات الخيرية في العمل الدعوي أو غيره، سواء كان داخل الكويت أو خارجها، قال الشطي: إذا أردت أن أذكر تأثيرا واحدا فقط، عوضا عن التأثيرات الأخرى، فيكفي تفاعل المجتمع المدني والحكومي مع هذه الجهات الخيرية، فهناك جهات ومؤسسات حكومية كثيرة تقوم بإعانة هذه الجمعيات، وكأن هذه الجمعيات هي مرشد وزارة الشؤون في التعامل مع العمل الخيري داخل الكويت.



الإغاثة الفكرية تعمل على هداية غير المسلمين وتصحيح المفاهيم الخاطئة ونشر التراث

وأشار الشطي إلى أن عمل هذه الجمعيات الخيرية والمبرات له تأثيره الكبير والعظيم داخل الكويت، فخلال مؤتمر القمة العربي الإفريقي الذي عقد أخيرًا بالكويت أصر أحد الوفود على زيارة قبر الراحل المرحوم بإذن الله الشيخ الدكتور عبدالرحمن السميط رحمه الله، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى حب هذه الدول للعمل الخيري الكويتي ومدى تأثيره عليها.

دور الحكومات

وتمنى الشطي من وزارة الشؤون المشرفة على عمل الجهات والجمعيات الخيرية أن تقوم بواجبها، كما نص عليه الدستور، وكما نصت عليه القوانين، وأن تعين الوزارة هذه الجمعيات في تقديم رسالتها ومراقبتها، ولا يقتصر دورها على إشهار الجمعية، فعلى مدار سنوات الخبرة التي يحملها رواد العمل الخيري بالكويت أصبح كثير منهم استشاريا للعمل الخيري، وبعضهم خبراء في المؤسسات الدولية والعالمية، ووزارة الشؤون لم تع هذا الدور من الجمعيات الخيرِية، ومن الممكن الاستفادة الكبيرة من هؤلاء الخبراء، فبدلا من أن يقتصر دورها فقط على الدور الرقابي ينبغي أن يكون هناك إعانة بشكل أكبر من هذا؛ لتطوير العمل الخيري.

كما شدد الشطي على ضرورة أن تنوع وزارة الشؤون من وسائل جمع التبرعات في الجمعيات الخيرية، وتفتح هذا المجال بشكل أكبر، فالإغاثة بالكويت (داخلية وخارجية) أصبحت مطلوبة وملحة، كما أكد على ضرورة أن يكون

للجمعيات الخيرية مقرات دائمة خاصة بها توفرها الحكومة، بدلا من أن تكون مساكن خاصة في مناطق سكنية بالإيجار.

من جهته قال جمال الفوزان، مدير عام جمعية صندوق إعانة المرضى، إحدى الجمعيات الخيرية التي تعمل في مجال إعانة المرضى: مما لاشك فيه أن هذه الجمعيات الخيرية جمعيات إنسانية في المقام الأول، تقوم على مساعدة الفقراء من جهة، ومن جهة أخرى تقوم بمساعدة الأغنياء في إخراج زكاتهم للمحتاجين من الفقراء، سواء كانوا مرضى أو أصحاء، فهي تعد حلقة وصل بين الغني والفقير، وهذا نوع من التآلف والتوافق الاجتماعي بالكويت، هذا على المستوى الداخلي بالكويت، أما على المستوى الخارجي، فأهل الكويت دائما يعرفون بحبهم لعمل الخير حتى على المستوى الخارجي، فكما يقال: إن أهم صادرات الكويت بعد النفط هو العمل الخيري.

وفيما يخص جمعية صندوق إعانة المرضى قال الفوزان: إن الجمعية تعمل في مجال التثقيف الصحي وإعانة المرضى، وهذا هو النشاط الأساسي لنا، وهذا بالنسبة للعمل داخل الكويت، أما على مستوى الخارجي فنعمل في مجال الكوارث والفيضانات والمساعدة، في إقامة المستشفيات والمراكز الطبية المتنقلة، ومما لاشك فيه أن هذا الدور الذي تؤديه الجمعية يُسهم في زيادة الترابط المجتمعي بين أفراده، وكذلك على المستوى الخارجي يشعر الكثير من الناس أن هناك أناسا يشعرون بمعاناتهم ومآسيهم.

وأضاف: إن جمعيات النفع العام لا يقتصر دورها فقط على المساعدات المادية، بل يمتد إلى غير ذلك من النواحي الإنسانية النفسية... إلى غير ذلك من الأهداف التي أنشئت من أجلها هذه الجمعيات.

وفيما إذا كانت هناك أهداف أخرى أشار الفوزان إلى أننا داخل جمعية صندوق إعانة المرضى نطمح إلى توسيع نطاق المستفيدين من نشاط الجمعيات سواء في الداخل أو الخارج.

وعما إذا كانت هناك بعض المعوقات، أشار الفوزان إلى أن هناك تعاونا من مؤسسات الدولة وهيئاتها، سواء من وزارة الشؤون أو غيرها.

الفائدة المجتمعية

من جهته قال جاسم المسباح، رئيس اللجنة المركزية الرئيسية لمراكز تحفيظ القرآن بجمعية إحياء التراث الإسلامي، رئيس جمعية إحياء التراث (فرع الجابرية)، وهي إحدى الجمعيات التي لها باع طويل في مجال العمل الخيري، سواء الإغاثية، أو بناء المساجد، أو حفر الآبار، أو مساعدة الفقراء والمحتاجين... إلى غير ذلك من الأنشطة الخيرية الكثيرة.

وعن الفائدة المجتمعية التي تعود على المجتمع جراء النشاط المتنوع للجمعية، سواء داخل الكويت أو خارجها، قال: إن هذه الأعمال الخيرية تسهم في مساعدة إخواننا خارج الكويت، خاصة في مثل هذه الأجواء التي تمر بها الأمة العربية، وعلى سبيل المثال إخواننا في سورية وفي فلسطين، ففي منطقة كيفان بالكويت قامت إحدى اللجان بشراء اثني عشر ألف بطانية، إلى جانب جمع الكثير من الملابس وإرسالها إلى المحتاجين.

والجدير بالذكر أن جمعية إحياء التراث تقوم بدور الوكيل، فمثلا داخل الكويت تكلفة بناء المسجد مرتفعة جدا، لكن خارج الكويت تكون هذه التكلفة أقل، فتستطيع أن تبني مسجدا خارج الكويت بما يقارب خمسة آلاف دينار، بجميع لوازم المسجد من بناء وفرش وميكروفونات إلى غير ذلك.

قلة الموارد

وأضاف المسباح: أحيانا تريد أن تنفع الكثير من الناس، لكن قلة الموارد والإمكانات تجعل النشاط قاصرا بعض الشيء، ولا تستطيع أن تقوم بجميع حاجات الناس، فحاجات الناس أكثر من مدخرات الجمعية، وأكثر من الصدقات والزكوات، فعلى سبيل المثال أنتجنا بعض المواد الفيلمية المسجلة عن تجويد القرآن الكريم، ولكن لقلة ذات اليد لم نستطع أن نقوم بالمزيد من هذا النشاط لقلة الموارد، فإذا كان هناك الكثير من الموارد أمكننا التوسع وخدمة الكثير من الناس.

وأكد المسباح على أن هناك بعض الإجراءات في وزارة الشؤون قد تعيق العمل الخيري في جمعيات النفع العام بعض الشيء، كما أن هناك بعض المعوقات التي تواجهنا في مساعدة إخواننا خارج الكويت، ومنها على سبيل المثال الوضع الإنساني المأساوي لإخواننا في سورية.

اتهامات وافتراءات

وشدد المسباح على أن هناك معوقا شديدا للعمل الخيري الإسلامي بوجه عام، وهو إلقاء بعض التهم جزافا على عمل هذه الجمعيات التي تقوم بالعمل الخيري واتهامها بالإرهاب، وما ذلك إلا لتشويه العمل الخيري وتشويه السمعة الإعلامية لهذه الجمعيات، وأنا على مدار ثلاثين عاما أعمل في العمل الخيري من خلال جمعيات النفع العام، وأعرف كل دينار يدخل ويخرج من خلال عملي، وهناك رقابة وتدقيق مالي على عمل هذه الجمعيات وعلى ميزانيات هذه الجمعيات، ولا يوجد ما يسمى أو نتهم به من دعم الإرهاب، ولكن هذه محاولة من الغرب لإضعاف العمل الخيري الإسلامي، حتى تأخذ الجهات والمؤسسات التنصيرية راحتها وكامل حريتها في عملها.

برامج وجمعيات حقوق الأطفال

د.آندي حجازي
كاتبة تربوية أردنية

حمَل الطفل صينية تمتلئ بكؤوس من العصير، وضعها على طاولة الطعام، ليساعد أمه في تحضير المائدة، ولكن ثقل الصينية وسرعة خطوات الطفل جعلته يتعثر ويقع، فإذا بالكؤوس كلها تنسكب على الأرض، وتتكسر قطعا متناثرة، فما كان من أمه وأبيه غير أن انهالوا عليه ضربا وشتما دون أدنى مراعاة لإمكانات الطفل وعمره، وأن الخطأ بدأ منهما بجعله يحمل شيئا ثقيلا على يديه الصغيرتين.. وبدلا من التهدئة من روع الطفل، والتأكد من سلامته من الزجاج المتناثر، بدأ سيل الضربات والشتائم ينهال عليه بلا ترو أو تفكير!



بالطبع إنك سمعت وقرأت عن قصص أطفال تم تعنيفهم من قبل ذويهم تعنيفا جسديا أو لفظيا! فكم أصبحنا نسمع عن أطفال تم تعذيبهم بطرق بشعة وغير إنسانية، بلا رحمة أو شفقة! وكأنهم ليسوا من البشر لا أحاسيس لديهم! فكم من تلك القصص باتت تنتشر في عالمنا، ويندى لها الجبين! والكثير منها يتم لأسباب تافهة كالتي ذكرنا، أو كأن يكثر الطفل البكاء وإزعاج والديه! والأسوأ أن يكون والد الطفل تحت تأثير المخدرات أو الخمر فينهال عليه ضربا بسبب وبدون سبب!

فكم من الأطفال اليوم يعانون بصمت بين جدران بيوتهم أو مدارسهم، ومن أقرب الناس لهم كوالديهم أو معلميهم! وكم من الأطفال حرموا من حقوقهم في التعليم والصحة والرعاية الجيدة! وكم نسمع ونقرأ عن أطفال يتم استغلالهم بخروجهم للعمل أو الاتجار بهم! وكم من الإحصاءات المرتفعة في ذلك، لا يتسع المجال لذكرها. فبات الكثير من الأطفال يعانون من مشاكل نفسية، وأمراض جسدية، نتيجة الإهمال أو التعذيب أو التعنيف.. دون مراعاة أدنى درجات الرفق بالإنسان، مستغلين براءتهم وتسامحهم وعدم قدرتهم على مواجهة الكبار وما يصدر منهم، فلا يكون بيدهم من حيلة غير الصبر والتوكل على الله تعالى في أن يرزقهم شخصا عطوفا حانيا رؤوفا بضعفهم وقلة حيلتهم.

أشكال التعنيف

حبس الطفل، والاستهزاء به، والسخرية منه أمام إخوته وزملائه وأقربائه، أو سبه، أو إهماله وعدم ملاعبته، أو تخويفه، أو التعالي عليه وتذكيره بأخطائه باستمرار (تعنيف نفسي ولفظي)، وحرقه بالنار، وشكه بآلات حادة، والإكثار من ضربه وإيذائه، أو التحرش الجنسي به (تعنيف جسدي)، كل ذلك له أكبر الأثر في توريث الطفل كرهَ الوالدين والمجتمع ومن يقوم على رعايته، وزرع الضعف في شخصيته، مما يصيبه بعقد نفسية مستمرة طوال حياته.

رأفة رسول الله ﷺ بالأطفال

وفي المقابل- أيها القارئ- انظر معي إلى رحمة رسول الله ﷺ بالأطفال، فعن أنس رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ (رواه مسلم) وقال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف» وفي رواية: «وما لا يعطي على سواه»، وقال: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما انتزع من شيء إلا شانه».

ونذكر تاليا بعض المواقف التربوية الرائعة من رسول الله في الرفق بالأطفال:

الموقف الأول:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا أرادوا أن يمنعوهما، أشار إليهم أن دعوهما، فلما قضى الصلاة وضعهما في حجره، وقال: «من أحبني فليحب هذين» (أخرجه أبويعلى وحسنه الألباني).

وانظر في المقابل للكثير من الآباء اليوم، فربما ألقاه عنه ولربما ضربه أو وبخه بعد الصلاة بدعوى أنه يمنع خشوعه!

الموقف الثاني:

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: طرقت النبي ﷺ ذات ليلة في بعض الحاجة، فخرج النبي ﷺ وهو مشتمل على شيء، لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ (متغط به) فكشفه فإذا حسن وحسين على وركيه، فقال: «هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما» (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

انظر مدى حب ورأفة رسول الله بأحفاده.

الموقف الثالث:

روى الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فدعينا إلى الطعام، فإذا الحسين يلعب في الطريق مع صبيان، فأسرع النبي عليه الصلاة والسلام أمام القوم ثم بسط يده، فجعل الغلام يفر هاهنا وهناك، فيضاحكه رسول الله حتى أخذه، فجعل إحدى يديه في ذقنه، والأخرى بين رأسه وأذنيه، ثم اعتنقه وقبله، ثم قال: «حسين مني وأنا منه، أحب الله من أحبه»(رواه البخاري، والترمذي وابن ماجه).

انظر مداعبته للأطفال والحنو عليهم ورأفته بهم، ولم نسمع يوما أنه ضرب طفلا أو امرأة أو خادما.

الموقف الرابع:

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقال: «نعم» قالوا: لكنا والله لا نقبل. فقال رسول الله ﷺ: «أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة» (أخرجه البخاري).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم ويمسح على رؤوسهم (رواه النسائي).

فكم والد اليوم يقبل أبناءه ويضمهم ويحتضنهم ويمسح على رؤوسهم؟ ناهيك عن تعذيبهم بشتى الطرق البشعة التي نسمع عنها!

الموقف الخامس:

كان النبي ﷺ يصف «عبدالله، وقثم، وكُثيرا» أبناء العباس رضي الله عنه، ثم يقول: «من سبق إلي فله كذا وكذا»(رواه أحمد وإسناده حسن).

فمن فوائد ذلك أن يعرف الطفل نفسه وقدراته، ويخرج مواهبه وحاجاته للعب، ما يحسن ثقته بنفسه وينمي لديه حب الآخرين، وعدم الخوف من الكبار، والذين غالبا لا يمازحون الأطفال جهلا منهم بأساليب التربية القويمة.

لو اقتدينا برسول الله ﷺ في كيفية تربيته للصغار ومراعاته لهم لما سمعنا يوما عن قصة من قصص التعذيب للأطفال أو الاضطهاد لهم، ولما نشأت منظمة أو جمعية من جمعيات الدفاع عن الأطفال، حيث هذا النشوء لم يبرز إلا من رحم المعاناة والحاجة.. فالبعض تعود على الردع باستخدام القوانين الصارمة أو المخالفات من الجهات المسؤولة وليس بوازع شخصي منه.

فظهرت جمعيات أهلية وخيرية وعالمية مختلفة، مهمتها الدفاع عن حقوق الطفل المسكين، ومحاولة الوصول به لنيل بعض حقوقه البشرية، كحسن المعاملة والتغذية الصحية والتعليم والصحة والأبوة والأمومة الحسنة، وسنذكر هنا بعضا من تلك الجمعيات الخيرية (لا على سبيل الحصر) والتي نشأت في العالم العربي بجهود تطوعية أهلية غير حكومية (وقد ورد العديد منها في موقع حقوق الإنسان في الدول العربية www.arabhumanrights.org)، وبعضها في موقع ويكيبيديا:

أولا: الجمعيات الأهلية في بعض الدول العربية:

١- مصر- وتتميز مصر بوجود ٤٨ مؤسسة لحقوق الإنسان، ولكننا سنهتم بجمعيات حقوق الأطفال، والتي منها جمعية أطفال في خطر.

- مصر- الجمعية المصرية العامة لحماية الأطفال بالإسكندرية.

- مصر- تجمع حقوق الطفل: ويعمل على ترويج ودعم ثقافة حقوق الطفل في المجتمع المصري، مع التركيز على العمل مع الأطفال كشركاء في إطار ممارسة حقهم في المشاركة، وتحقيق مصالح الطفل الفضلى.

- مصر- مركز حقوق الطفل المصري (القاهرة): ويهدف إلى الدفاع عن حقوق الطفل وحمايته انطلاقا من المبادئ المعلنة في ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

٢- الأردن- جمعية قرى الأطفال SOS الأردنية: وهي جمعية محلية خاصة، تسعى إلى تحقيق الحياة الكريمة لأطفال أردنيين أيتام ومحرومين، وتعمل الجمعية وفق ميثاق الأمم المتحدة المتعلق بحقوق الطفل لتعزيز هذه الحقوق والتأكيد عليها.

- الأردن- مؤسسة نهر الأردن: وهي مؤسسة غير ربحية مقرها عمان، بدأت في عام ١٩٩٥م، وتهتم بنواح تنموية في المجتمع الأردني، وتركز بشكل خاص على حماية حقوق وحاجات الأطفال من خلال برنامج أطفال نهر الأردن.

٣- فلسطين المحتلة- جمعية عايشة لحماية المرأة والطفل: مقرها غزة. وتسعى لحماية النساء والأطفال من العنف، من خلال برامج الدعم والتمكين وزيادة الوعي بالقضايا النفسية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية المهمة، فتعمل على تمكين النساء المعنفات والأطفال ضحايا العنف كجزء من المجتمع.

٤- لبنان- جمعية «كفى عنف واستغلال»: جمعية أهلية لبنانية غير ربحية، غير سياسية، وغير طائفية، ملتزمة بتحقيق المساواة بين الجنسين وعدم التمييز، والنهوض بحقوق النساء والأطفال.

٥- المغرب- جمعية كفالة الأطفال المهمَلين.

- المغرب- العصبة المغربية لحماية الطفولة: جمعية خيرية لرعاية الطفولة نشأت في مدينة «وَجْدة» بالمغرب عام ١٩٥٣، من أنشطتها توفير لوازم المدرسة، وملابس العيد، ومساعدة الأيتام، والدفاع عن حقوق الطفل وحمايته من العنف بأشكاله.

٦- الجزائر- جمعية حقوق الطفل والمرأة الجزائرية.

٧- تونس- الجمعية التونسية لحقوق الطفل: وهي منظمة غير حكومية، من أهدافها: الإسهام في نشر ثقافة حقوق الطفل، والتعريف بالتجربة التونسية في مجال رعاية الطفل وحماية حقوقه، والإحاطة بالأطفال المهددين ومساعدتهم، والإسهام في تطوير قوانين وآليات حماية الطفولة.

٨- ليبيا- جمعية حقوق الطفل: جمعية أهلية خيرية للدفاع عن الطفل، مقرها بنغازي، ذات أنشطة متنوعة.

٩- البحرين- جمعية رعاية الأمومة والطفولة: وتعنى بالدفاع عن حقوق المرأة والطفل.

١٠- الكويت- الجمعية الوطنية لحماية الطفل: وتهدف إلى الحد من الانتهاكات التي يتعرض لها الطفل ومحاربة العنف ضد الأطفال، وحمايتهم من الاستغلال الاقتصادي والنشاطات الخطرة أو المخلة بالآداب العامة، ونشر الوعي بحقوق الطفل في المجتمع، وتدريب العاملين والمهتمين بقضايا الطفولة، والعمل على توفير بيئة كريمة لنشأة الطفل، تصون له نموه العقلي والأخلاقي والصحي، والتأكيد على تنفيذ أحكام الاتفاقيات العربية والدولية التي ارتبطت بها الكويت والمتصلة بحقوق الطفل. ومواردها المالية من اشتراكات وتبرعات أعضائها وما يقدمه الأفراد والمؤسسات الخاصة من دعم.

١١- السعودية- جمعية رعاية الطفولة «الرياض»: وهي جمعية خيرية أنشئت بجهود فردية من أجل دعم الطفولة في منطقة الرياض، وتعتمد في تمويلها على التبرعات ورسوم العضوية، وتقدم خدماتها المتنوعة في مجال رعاية الطفولة الممتدة إلى سن الثامنة عشرة، وينحصر نشاط هذه الجمعية في إطار الخدمات الإنسانية المتعلقة بالطفولة بهدف أن ينعم جميع

الأطفال في منطقة الرياض، دون أي تمييز، بنمو صحي وسليم في ظروف أسرية وبيئية ملائمة تلبي جميع احتياجات الطفولة.

١٢- الإمارات- مؤسسة دبي لرعاية النساء والأطفال: وهي أول دار رعاية غير ربحية في الإمارات، نشأت حديثا لحماية النساء والأطفال من ضحايا العنف المنزلي، والإساءة للأطفال، وضحايا الاتجار بالبشر، ومنح الضحايا خدمات حماية ودعم فورية، وبما يتفق والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، وتوفر المؤسسة خدمات خط المساعدة والإيواء الطارئ والملجأ المناسب للأسرة التي تتعرض للطرد من منزلها أو العنف، وتعمل على إعادة تأهيل الأطفال ودمجهم في المجتمع، على اعتبار أنهم فئة ضعيفة بحاجة إلى من ينتشلهم من الألم والضياع.

١٣- اليمن- منظمة سياج لحماية الطفولة: وهي منظمة إنسانية طوعية مستقلة غير حكومية، وغير ربحية، متخصصة في الدفاع عن حقوق الطفل من خلال الرصد والتوثيق والعون القضائي للأطفال ضحايا الجرائم والانتهاكات والتسليح للأطفال، وتغطي جميع محافظات اليمن من خلال شبكة نوعية من المتطوعين والمتطوعات، وتتخذ من اتفاقية حقوق الطفل الصادرة عن الأمم المتحدة والتشريعات اليمنية مرجعية نظرية لها، وتسعى لتحقيق طفولة مستقرة وآمنة، والتصدي لكل ما يضر بالطفولة جسميا أو عقليا أو نفسيا أو سلوكيا، ومن برامجها: «حقيبتي المدرسية» لتمكين الأطفال من حقهم في التعليم.

١٤- العراق- جمعية حماية الأطفال: تأسست عام ١٩٢٩ في بغداد، من أهدافها العناية بأحوال الطفل في العراق ونشر التوعية والمحافظة على حقوق الأطفال ورعاية صحتهم إلى سن العاشرة، وتعمل على تأسيس المستوصفات والمستشفيات والملاجئ لحماية الأطفال والأمهات على حد سواء، وتوزيع اللوازم الصحية والغذائية على الأطفال الفقراء في المدارس، وما يحتاجون إليه من مأكل وملبس، وحماية اللقطاء وإيوائهم.

ثانيا: هيئات عالمية لحماية الأطفال ومنها:

١- المكتب الدولي لحقوق الأطفال: ١٩٩٤ وهو منظمة دولية غير حكومية، مهمتها الإسهام في تعزيز وحماية حقوق الطفل، وفقا لبنود وأحكام اتفاقية حقوق الطفل.

٢- شبكة «أوقفوا دعارة الأطفال»، وصورهم الفاضحة، واستغلالهم جنسيا، وهي شبكة من المنظمات والأفراد العاملين معا للقضاء على تجارة الجنس واستغلال الأطفال، تسعى الشبكة لتشجيع المجتمع الدولي لتمكين الأطفال من التمتع بحقوقهم الأساسية بعيدا عن أي استغلال جنسي تجاري.

٣- البرنامج الدولي للقضاء على عمالة الأطفال:

وهو أحد برامج منظمة العمل الدولية الذي يهدف للقضاء بشكل متدرج على عمالة الأطفال، من خلال تقوية القدرات الوطنية للدول في مجال التعامل مع مشكلات عمالة الأطفال، وعبر تشكيل حركة عالمية لمكافحة هذه العمالة.

٤- برنامج منظمة العالم لحقوق الطفل ضد التعذيب:

ويهدف هذا البرنامج إلى حماية الأطفال من التعذيب، ومن أشكال العنف الأخرى، من خلال توفير الوقاية والحماية لهم، وإدانة العنف الذي يتعرضون له، والتعويض عما لحق بهم من أذى نفسي وجسدي.

٥- صندوق الأمم المتحدة للأطفال (اليونسيف):

وهو تجمع دولي كبير للدول المشاركة في منظمة الأمم المتحدة، ويعمل هذا الصندوق من أجل حماية حقوق الأطفال وبقائهم وتطويرهم وتحسين أوضاعهم وظروفهم بكل البلاد المشاركة بالصندوق، ورعايتهم وحمايتهم وفقا لاتفاقية حقوق الطفل العالمية المتفق عليها.

تعقيب ختامي:

بقي أن نقول إنه- بالرغم من وجود تلك الجمعيات والمنظمات والبرامج- مازال هناك الكثير من المشاكل التي يعاني منها الأطفال، حيث لايزال الكثير من تلك الجمعيات في بلداننا العربية والإسلامية غير مفعل أو في بداية نشأته، ويحتاج إلى نشاط أكثر لتحقيق أهدافه التي نشأ لأجلها.

ومازلنا بحاجة في بلادنا العربية والإسلامية إلى إنشاء المزيد من الجمعيات الأهلية، وكذلك تخصيص الميزانيات الحكومية لإنشاء منظمات عربية حكومية تهدف إلى الدفاع عن حقوق الطفل ورعايته (فبعض الدول العربية لا يتوافر بها) تعمل على حمايته من: «العمالة، والحروب، والاعتداء الجنسي، والبيع للأعضاء، والاستغلال في بيع المخدرات والدخان، والتسليح للأطفال، والانخراط في الصراعات الأهلية...»، والعمل على القضاء على الأمية بين الأطفال، وتوفير التعليم اللازم لهم، والرعاية الصحية، والغذاء والحماية من الجوع.. وكل ذلك من أجل تقليل عدد القتلى والمفقودين والمعنفين منهم.

وأخيرا، فإن تقوى الله في التعامل مع الأطفال هي الأساس، وهي الهادي إلى السبيل السوي المؤدي لحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، فالشعور بمراقبة الله تعالى هو أفضل معين على إعطاء الطفل حقوقه، فلا رقيب خير من الله تعالى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من لا يرحم لا يرحم»، وقال لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة، ارفقي، فإن الله إذا أراد بأهل بيت خيرا دلهم على باب الرفق» (السلسلة الصحيحة).

كيف تتم ولمصلحة من؟

عرقلة المجتمع المدني



السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

واقع منظمات المجتمع المدني في دولة ما، هو أحد المؤشرات المهمة للتعرف على حيوية المجتمع، وموضع هذه الدولة من سلم النهوض والتقدم.

فإذا كان المجتمع المدني هو «حلقة الوصل» بين الجماهير، كأفراد أو حتى كوحدات صغيرة من الأسرة والعائلة، وبين الدولة، كإدارة مركزية تدير المجتمع وتتحكم في موارده وخريطته السياسية والاجتماعية بوجه عام، فإن أهمية «حلقة الوصل» هذه، تنبع من أنها كلما اتسعت وتمتنت، كان بمقدورها أن تحدث توازنا بين سلطة الدولة وميلها بالضرورة إلى التغول وإحكام السيطرة على المقدرات والمصائر، من جهة، وبين حقوق الشعوب وتطلعاتها في العيش الكريم والتمتع بحقوقها السياسية والاجتماعية، من جهة أخرى.

فالمجتمع المدني بفلسفته ومنظماته هو عين المجتمع الساهرة على مصالحه، وعقله المشغول بكيفية تقاسم المسؤولية مع الدولة في النهوض بالمجتمع.

و«المجتمع المدني» يقصد به «المجتمع المنظم تنظيما طوعيا إلى حد كبير؛ سواء أكان في تكوينه السياسي، فلا تكون السلطة فيه قاهرة، أم من الناحية الاجتماعية والثقافية فيما يخص علاقات الناس بعضهم ببعض(١).

ويرى بعض الباحثين أن المجتمع المدني هو «مصطلح حديث في العلوم السياسية، وتمت استعارته من علم الاجتماع؛ ويشير إلى جميع المنظمات والهيئات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية الخيرية المستقلة عن الحكومة وعن المؤسسة

العسكرية ومؤسسة الشرطة داخل النظام السياسي؛ فهو يضم الأحزاب وجماعات الضغط وجماعات المصالح والنقابات والاتحادات والنوادي والمنظمات غير الحكومية والجمعيات الأهلية وجمعيات النفع العام»(٢).

إذاً، المجتمع المدني هو «القطاع غير الحكومي الذي يطلق عليه أحيانا القطاع الثالث؛ لتميزه عن الحكومة من ناحية، والقطاع الخاص من ناحية ثانية»(٣).

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن المجتمع المدني بالمفهوم الحديث قد نشأ في الغرب مع نشوء الدولة الحديثة، وبعد صراع مرير للتخلص من سلطة الكنيسة. ولذلك، يرد مصطلح «المدنية» أو «المدني» في مقابلة «العسكري» و«الكنسي». فيقال «الزواج المدني» في مقابل «الزواج الكنسي».

وللأسف، يحاول بعض المثقفين العرب، ممن يقلدون النموذج الغربي، أن ينشروا «العلمانية» في بلادنا تحت ستار مصطلح «المدنية»، بعد أن انكشف المصطلح الأول وصار سيئ السمعة، فلجأوا إلى «المدنية»، وهي كلمة براقة(٤).

علمانية النشأة والتوجه

لئن كان مصطلح المجتمع المدني حديث النشأة إلا أن مضمونه لم يكن غريبا عن الحضارة الإسلامية، بل لم ينهض بتلك الحضارة إلا المجتمع المدني متمثلا -حينذاك- في «الأوقاف» التي امتدت مظلتها لتشمل كل مناحي الحياة؛ من إقامة المساجد، ونشر العلم والإنفاق على طلبته، إلى معالجة المرضى وإقامة البيمارستانات (المستشفيات)، إلى سقاية الماء وتوفيره في أماكن السفر والراحة وفي الطرقات (الأسبلة)، إلى الإنفاق على تحرير العبيد وإعتاق الرقاب، إلى تزويج الشباب ورعاية الأيتام والفقراء، حتى مهمة الدفاع عن حدود الدولة وتجهيز الثغور والرباطات، وهي الوظيفة الأساسية للدولة ولا تدخل ضمن إطار المجتمع المدني بالمفهوم والاختصاصات المعاصرة(٥).

لكن نشوء منظمات المجتمع المدني -بالمعنى المعاصر- في البيئة الغربية جعل ثقافة وأولويات تلك المنظمات مرتبطة بالبيئة والثقافة الغربية، خصوصاً في المساحات التي تتمايز فيها الحضارة الإسلامية عن نظيرتها الغربية، أعني مجالات المرأة وحقوق الإنسان والحريات العامة. حتى إن واقع تلك المنظمات ليبدو كأنه لا يفصل بين «العلمانية» و«المدنية».

مع أن «المدنية» في النظر الصحيح هي الانتقال من الحياة البدائية إلى العمل المؤسسي الذي يستمد أساسه من رضا الجماهير، لا من فوهة البنادق، ولا من ادعاءات العصمة والأخذ المباشر عن الله؛ وهذا يتطابق مع المفهوم الإسلامي في أن سلطات الدولة مرجعها إلى الأمة التي من حقها أن تولي وتعزل من تشاء؛ فالحكام نواب عن الأمة، بينما الأمة مستخلفة عن الله. ولذلك، لم يكن الحكام معصومين، في حين أن الأمة ورد بحقها الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنهما: «لا تجتمع أمتي على ضلالة» (حسنه الألباني) (٦).

فالدولة الإسلامية دولة مدنية، لا كهنوتية ولا عسكرية. والمرجعية الإسلامية لتلك الدولة لا تنفي أن حكامها مسؤولون أمام الأمة، تحاسبهم وتعزلهم متى خرجوا عن حدود اختصاصهم. كما أن مدنية الدولة لا تعني بالضرورة علمانيتها؛ فالمدنية هي الإطار الذي ينظم المجتمع والدولة، وقد تكون المرجعية في هذا الإطار: علمانية أو إسلامية. فهذه إشكالية خطيرة، أن واقع منظمات المجتمع المدني يربط بين «المدنية» و«العلمانية»، بينما الجهة بينهما منفكة، ولا رابط بينهما.

وتمثل هذه النقطة -علمانية النشأة والتوجه- أحد المآخذ المهمة على منظمات المجتمع المدني، ينبغي تجاوزها إلى فضاء الحضارة الإسلامية، التي تجمع بين القيم والمنهج الإلهي وبين مسؤولية البشر عن الفهم والفعل، وتقرر قابليتهم للصواب والخطأ.

التمويل والتأثير

الإشكالية الثانية التي تتعلق بواقع منظمات المجتمع المدني، هي ما يتعلق بتمويل تلك المنظمات وتلقيها معونات من الدول الغربية، مما لا يخفى وليس محل شك. ومن البدهي أن من يملك مصادر التمويل يمتلك بالضرورة مفاتيح التأثير.

في الخبرة الإسلامية، كانت مؤسسات المجتمع تقوم على التمويل الذي توفره «الأوقاف» المرصودة من أهل الغنى واليسار، الأمر الذي كان يمنح تلك المؤسسات استقلالية عن دوائر الحكم والسلطة، ويجعلها عين المجتمع ولسانه الصادق. ولنا أن نقارن بين مواقف العلماء حين كانت الأوقاف الخيرية تتكفل برعايتهم، وحين صاروا جزءا من رعايا الدولة.

أما في الخبرة المعاصرة، فقد أصبحت الدولة تحتكر مفاتيح إدارة المؤسسات والنشاطات، فيما يعرف بالدور المركزي للدولة. وهذه المركزية أضعفت المجتمع، وحدت من فعالية مؤسساته.

وإذا كان المجتمع الغربي قد نجح كثيرا في الذهاب بعيدا عن سطوة الدولة ونفوذ الكنيسة -وهما الجهتان اللتان كانتا تتقاسمان السلطة والثروة- وأوجد لنفسه مؤسسات «مدنية» تعبر عنه وتشبع تطلعاته، فإن الأمر ما زال في طور التشكل في بيئتنا الإسلامية، خصوصا بعد أن صارت المساحة الممنوحة لـ«الأوقاف» أقل بكثير مما كان في الماضي، بل إن بعض الدول صادرت أموال الأوقاف وأدخلتها ضمن منظومة الدولة!

هنا، لا تجد منظمات المجتمع المدني - وهي منظمات نخبوية في معظمها

لم تجتذب جماهير كثيرة- أمامها إلا التمويل الغربي، الذي يأتي مقرونا بأجندته وخريطته الفكرية التي تعبر في الأساس عن البيئة الغربية لا العربية الإسلامية.

والتحدي المطروح هو كيف توجد تلك المنظمات لنفسها مصادر تمويل وشبكات اتصال مع الجماهير لتبتعد عن التمويل المشروط والأجندات الغربية؟

صحيح أن كثيرا من الجمعيات الخيرية الإسلامية تجاوزت تلك النقطة بمراحل، لكن تبقى مساحة الحرية التي تتحرك فيها صغيرة جدا، خصوصا بعدما أثير- في الغرب- عن ارتباطها بما يسمى «الحرب على الإرهاب»، وما قيل عن ضرورة تجفيف منابعه، الفكرية والمالية!

الحرية.. رئة المجتمع

الآن نصل إلى الإشكالية الثالثة، والمتمثلة في سقف الحريات المتوافرة لمنظمات المجتمع المدني. كما سبق، فإن تلك المنظمات هي نائبة عن المجتمع في مواجهة تغول الدولة ومركزيتها، وهي المركزية التي لا تخلو من جور على حقوق الإنسان، بدرجات متفاوتة من مجتمع لآخر.

فبعض الدول ترى في منظمات المجتمع المدني، لا سيما ذات الطابع الحقوقي والسياسي، مصدر قلق لها؛ إذ هي تراقب ممارسات السلطة، وتكشف سوءاتها، وتحاول أن تنتزع مساحات من الحرية لمصلحة المواطن؛ وكفى بذلك مصدرا للقلق والشك!

صحيح أن كثيرا من الدول قد تفسح مجال الحرية بصورة أكبر للمنظمات ذات الطابع الخيري والاجتماعي، لكن هذا يأتي فقط لأن تلك المنظمات تخفف العبء عنها، وتقوم بما يجب أن تقوم به هذه الدول أصلا. ولذلك، ما إن تشعر بعض الدول بأن وجود وانتشار تلك المنظمات ذات الطابع الخيري والاجتماعي قد بدأت تظهر له بعض الانعكاسات السياسية والحقوقية، حتى تسارع إلى تقليص مساحات الحرية، وتضييق الخناق من جديد.

وفي هذا الصدد، يجب التأكيد على أن الحرية هي الرئة التي تتنفس من خلالها منظمات المجتمع المدني، بل المجتمع كله. ولم يعد مقبولا أن تكون مركزية الدولة ذريعة للجور على حقوق الإنسان ومصادرة تطلعات الشعوب، ومن دون الحرية فإن الحديث عن تطوير أداء منظمات المجتمع المدني - بما يجعلها شريكا للدولة في التنمية والنهوض- هو حديث أجوف لا قيمة له على أرض الواقع.

ثقافة التطوع

العمل التطوعي هو جوهر ولب العمل المدني. والسؤال الذي يمثل الإشكالية الرابعة هو: كيف ننشر ثقافة العمل المدني، بحيث لا تتحول منظمات المجتمع المدني في النهاية إلى مؤسسات نخبوية منعزلة عن الجماهير، وبالتالي تفقد تأثيرها والهدف الأساسي المرجو منها؟

فتلك المنظمات قد أنشئت لخدمة المجتمع والرقي به، وهي تنبع من المجتمع وتصب فيه، وتستمد منه روافدها المالية والبشرية.

في المنظور الإسلامي، نجد أن «الفرد» مخاطب بجملة من الأوامر والأحكام مثل «المجتمع» و«الجماعة»؛ فحديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «بلغوا عني ولو آية» (رواه البخاري)، لم يترك عذرا لمعتذر بقلة العلم والوقت حتى يمارس الدعوة إلى الله. وحديث أبي هريرة الذي قال فيه النبي ﷺ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس؛ تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة» (رواه البخاري ومسلم).. يحث كل مسلم على أن ينفع المجتمع من جنس ما يحسنه ويتقنه، ولو بكلمة طيبة فهي له صدقة.

وهكذا يغرس الإسلام في المسلم أنه -كفرد- مطالب بأن يفيد مجتمعه، ويكون فيه عضوا صالحا معطاء.. وهذا هو جوهر العمل المدني؛ فالمؤسسات تتكون من أفراد، وما لم يترسخ عند أفراد المجتمع، خصوصا منذ الصغر، أن العمل التطوعي ضرورة للمجتمع، ولا بد أن يسهم فيه كل فرد بنصيب، مهما كان ضئيلا؛ فلن تزدهر منظمات المجتمع المدني.

إذا، لا بد أن تتكاتف المؤسسات، التربوية والتعليمية والإعلامية، لغرس قيمة العمل التطوعي وترسيخه في المجتمع.

هذه أربع إشكاليات تعرقل فعالية منظمات المجتمع المدني، ولا مناص من التفكير جديا في تجاوز تلك التحديات؛ حتى تكون هذه المنظمات بالفعل شريكا للدولة في التنمية، ومعبرا صادقا عن هموم المجتمع واهتماماته.

هوامش

١- الشيخ راشد الغنوشي: «مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني»، ص: ٨١، الرسالة، ١٩٩٩م.

٢- د. عبدالمنعم المشاط: «قاموس المفاهيم السياسية»، ص: ٧٠ و٧١، مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠١١م.

٣- ناهد عز الدين: «المجتمع المدني»، ص: ٩٣، كتاب رقم ٥ ضمن «موسوعة الشباب السياسية»، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٧م.

٤- تعرض د.رفيق حبيب لخدعة ترويج «العلمانية» تحت ستار «المدنية» في مقاله: «الدولة المدنية.. دينية أم لا دينية؟» على الرابط: HYPERLINK http://www.masress.com/dostor/١٦٠٩٦

٥- راجع المزيد عن دور الأوقاف في الحضارة الإسلامية في: د.إبراهيم البيومي غانم، «الأوقاف والسياسة في مصر»، دار الشروق، ط١، ١٩٩٨م.

٦- يقول د.محمد عمارة: «الأمة هي المستخلفة عن الله سبحانه وتعالى، أما الدولة فهي الخليفة عن الأمة بالاختيار، والخاضعة لرقابتها وحسابها؛ فالطرف الأصيل في نظرية الخلافة والاستخلاف هو الأمة»، انظر له: «هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف؟»، ص: ١١٢، دار الشروق، ط٢، ١٩٩٨م.

الاعتصام بالإسلام

هناء ثابت - كاتبة سورية

إن من أعظم أصول الإسلام الاعتصام بحبل الله، والنهي عن الفرقة والاختلاف، لتحقيق العبادة الدينية والدنيوية، إذ إنه لا يتم أمر العباد فيما بينهم، ولا تنتظم مصالحهم ولا تجتمع كلمتهم إلا بالألفة والاجتماع، الذي حقيقته: التعاون على البر والتقوى، والتكافل والتناصر والتعاطف والتناصح والتواصي بالحق والصبر عليه.

وفي ذلك السعادة والنجاة، وصلاح أمر الدنيا والآخرة، وإقامة العدل، وحفظ الحقوق، ونشر الأمن والسلام.

هذا كله قائم على أن المؤمنين جميعا إخوة، وإن اختلفت ألوانهم ولغاتهم، وتناءت بلادهم.. فالإسلام يجمعهم ويوحد صفوفهم، ويوجب عليهم العدل فيما بينهم، فيكونون قلعة منيعة، وحصنا حصينا، وعندئذ يكتب الله لهم العزة والنصر والتمكين في الأرض، والعاقبة الحميدة، ويؤلف بين قلوبهم، وينزع منها الغل والشحناء والاختلاف.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾(آل عمران: ١٠٣).

وقال الطبري في تفسير هذه الآية: «يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله»، وقال ابن كثير: قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: «فإن الله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفرقة، فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة».

ويؤكد القرطبي على المنهج الصحيح، والركيزة والقاعدة الأساسية للاجتماع والألفة، بقوله: «فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه ﷺ، والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة؛ اعتقادا وعملا، وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات، الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين». وحقيقة الاعتصام بكتاب الله يوضحها ابن القيم بقوله: «وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم، وكشوفاتهم، ومواجيدهم، فمن لم يكن كذلك فهو منسل من هذا الاعتصام، فالدين كله في الاعتصام به وبحبله علما وعملا، وإخلاصا واستعانة، ومتابعة، واستمرارا على ذلك إلى يوم القيامة».

وهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران، هي الآية الجامعة العظيمة لمقومات الألفة والترابط، التي تكفل اجتماع المسلمين وائتلافهم، وتقضي على أسباب الفرقة والاختلاف. وقد جاءت الآيات في ذم الفرقة أكثر عددا من الآيات التي جاءت في الحث على الجماعة، لأن الجماعة هي الأصل، وملازمتها هو الواجب والمطلوب شرعا، أما مفارقة الجماعة والاختلاف فأمر طارئ وحادث خطير، ولذا حذرت الآيات الكثيرة منه، وهي تحمل في ثناياها الوعيد الشديد لمن ترك الجماعة وفارقها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٥﴾(آل عمران:١٠٥).

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(الأنعام: ١٥٣).

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطا، فقال: «هذا سبيل الله» ثم خط عن يمين ذلك الخط، وعن شماله خطوطا، فقال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ...﴾ (الأنعام: ١٥٣).

ولذا فإن جمع كلمة المسلمين وإزالة ما بينهم من الفرقة، من أفضل الجهاد في سبيل الله، ومن أفضل القربات، وذلك بمراعاة ما أجمع عليه الصحابة الكرام من أمور الدين، كأمور الاعتقاد والعبادة والسلوك، ومراعاة الأخوة الإيمانية وحقوقها التي تربط بين أفراد المجتمع المسلم، وينبغي على المسلمين ألا يجعلوا الأمور الاجتهادية التي يسوغ الاختلاف فيها، سببا في الفرقة والتعصب، فضلا عن نبذ كل ما يسبب ضعف المسلمين وفرقتهم، من الأهواء والبدع والألقاب والألفاظ والمسميات والمظاهر الكاذبة.

قال النووي: «وأما الاعتصام بحبل الله فهو التمسك بعهده، وهو اتباع كتابه العزيز، وحدوده والتأدب بأدبه.. وأمر بلزوم جماعة المسلمين، وتآلف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام».

وقال ابن تيمية: «وهذا الأصل العظيم: وهو الاعتصام بحبل الله جميعا، وأن لا يتفرق، وهو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة».

«دعوة الحق»..
مجلة الثقافة والفكر المغربي



كتب : رئيس التحرير
تصوير : هدايت الله نثار

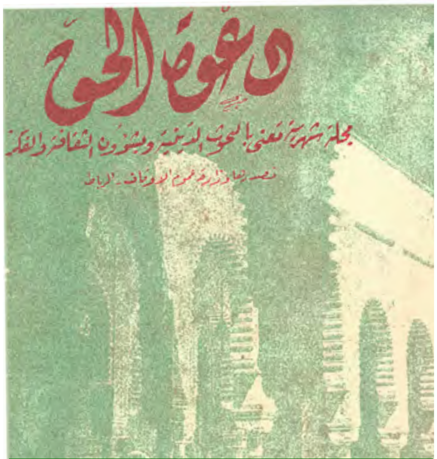
تعتبر مجلة «دعوة الحق» الشهرية إحدى أهم المنابر الإعلامية المعنية بالثقافة والفكر والدراسات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، حيث أسسها الملك محمد الخامس سنة ١٩٥٧م، وتصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.

وجاء تأسيس المجلة كأحد الواجبات المنوطة بالوزارة لتحقيق النهضة الشاملة والعناية بالناحية الروحية والفكرية، وتحرير العقول من قيود بعض التقاليد والأوهام التي لا تلائم المفهوم الصحيح لتعاليم ديننا الحنيف.

وقد زارت «الوعي الإسلامي» مقر المجلة في المملكة المغربية بتاريخ ٢١ ديسمبر ٢٠١٢ للتعرف على التجربة العلمية والصحفية خلال هذه الحقبة الزمنية، حيث استقبل الوفدَ مديرُ الشؤون الإسلامية في وزارة الأوقاف أحمد فسطاس، والدكتور محمد المغراوي رئيس التحرير.

وتتولى وزارة الأوقاف المغربية إصدار مجلة جامعة تعنى بالإصلاح الديني، حيث تعالج مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية.. وكانت بدايتها تصدر شهريا حتى باتت تصدر حاليا بشكل فصلي.

ومنذ تأسيسها في عهد الملك محمد الخامس والمجلة حريصة كل الحرص على العناية بالجانب التوعوي والثقافي ورعاية المساجد وأنشطتها، والتنسيق مع المجالس والمراكز العلمية.



غلاف العدد الأول من المجلة

وكان لمجلة «دعوة الحق» صدى واسع لدى القارئ العربي في كل مكان، ساعية لتصحيح المسار الثقافي، ومعه تنشط القرائح، وتتحرك الأقلام، وتنهض الهمم، خاصة أنها أخذت طابع التشويق والجدية، وقربها من نفوس القراء.

وحرصت المجلة على الاعتصام بحبل الله، والتشبث بمبادئه، والسير على سننه؛ ليعد أحد العوامل الأساسية في تحقيق التقدم والرقي المأمول، بالرغم من المعوقات، وسيظل عاملا أساسيا في تحقيق الأهداف المنشودة.

إن مجلة دعوة الحق تعد قلعة من القلاع التي احتمت بها الثقافة الإسلامية في المغرب، وحصنا من أهم الحصون التي أوت إليه طوال نصف قرن من الزمن مضى، وقد



رئيس التحرير بصحبة فسطاس والمغراوي

أدت دورا بارزا في بعث الثقافة المغربية وإحيائها والتعريف بها، ودفعها نحو التطور والتجديد، فعملت بذلك على إبراز الأصالة المغربية والتعريف بها خارج الحدود، وقاومت الغزو الثقافي الدخيل، وحاربت أفكار الدجل والشعوذة والإلحاد ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

وأصبحت المرجع الأساسي لكل من يتصدى لتاريخ الحركة الثقافية في العالم العربي، تعينه على تلمس معالم الفكر وفهم طبيعة الثقافة، وتشكل مصدرا من أهم المصادر التي يرجع إليها الباحثون في الحضارة الإسلامية.

وسعى القائمون على المجلة على ألا تقتصر على جانب من الثقافة دون جانب، ولا يطغى عليها لون دون لون، وهذا ما جعل الإقبال عليها يتكاثر مع مرور الزمان، حتى إنها لتتفرد بهذه الظاهرة أو تكاد، وهي باختيارها هذا المنهج فتحت صدرها للجميع، لا تحتكر أقلاما دون أقلام، ولا تؤثر فنا على آخر، فكل من آنس من نفسه القدرة على الكتابة في أي فن يحسنه أو لون يجيده ويتقنه فعل، فأنت في «دعوة الحق» تقرأ للمؤرخ والفقيه والأديب واللغوي.

كما أنها لم تتشبث بالنزعة الإقليمية الضيقة، ولكنها فتحت الباب أمام الجميع.. وقد أعطت خلال تاريخها حصيلة فكرية هائلة، بحيث لو جمع ما نشر فيها من إنتاج، وما سطر فيها من أبحاث لتحصل من ذلك مجلدات في كل صنف، ولقد جمع بعض كتابها ما نشروه فيها من أبحاث تباعا، فجاءت كتبا قائمة برأسها.

إذا كان ظهور «دعوة الحق» على موعد مع التاريخ، لأنها خرجت إلى الجمهور في الوقت المناسب واللحظة الحاسمة، فكان من الطبيعي أن استبشر بها حماة الثقافة الإسلامية، وحراس لغة الضاد خيرا، فاستقبلوها بالأحضان، ومنحوها حبا وعطفا، وأولوها عناية واهتماما يغذونها ببنات أفكارهم، ويغدقون عليها بعصارة عقولهم، يؤثرونها بما لديهم، ولا يبخلون عليها بالنصح والتشجيع، لعلمهم أن هذه المجلة تعني بالنسبة إليهم التاريخ والشخصية والهوية.

بالفعل مجلة «دعوة الحق» تقدم خدمات جليلة لقرائها في شتى أنحاء العالم العربي والإسلامي، ويحق لها أن تنظر إلى ماضيها نظرة إعجاب، وتنطلق منه نحو مستقبل مشرق مفعم بالتفاؤل.

جدير بالذكر أن مجلة «دعوة الحق» وقعت على بروتوكول التعاون بين المؤسسات الصحفية الإسلامية على هامش مؤتمر الصحافة الإسلامية الأول الذي استضافته مجلة «الوعي الإسلامي» في دولة الكويت نهاية عام ٢٠١٢م.



الوعي الإسلامي

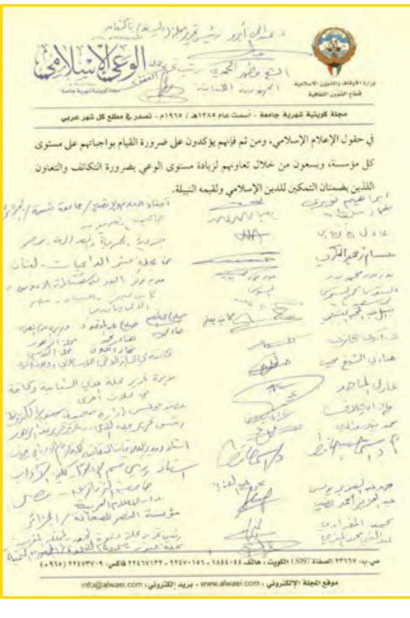
مجلة كويتية شهرية جامعة

بروتوكول تعاون بين المؤسسات الصحفية الإسلامية

ديباجة

البنود الأساسية:

البند الأول:



الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة



عقد الوكالة

د. صالح سالم النهام
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

يعتبر عقد الوكالة من عقود التفويضات التي تتضمن تفويض الغير، وإطلاق يده في التصرف لعمل كان ممنوعا عليه من قبل، ومثل عقد الوكالة: الطلاق، والإيصاء، والإذن للصبي بالتجارة.. ولا شك أن الشريعة الإسلامية السمحة كلها عدل ورحمة، ومن رحمة الله تعالى بالعباد أن أجاز من المعاملات عقد الوكالة الذي كانت الحاجة داعية إلى جوازه، حيث إن الإنسان بطبعه لا يستطيع أن يعمل بنفسه في أمور كثيرة.

التعريف بالعقد:

- العقد لغة: مصدر عقد الشيء يعقده عقدا وتعاقدا، فانعقد وتعقد، إذا شده، فانشد، فهو نقيض الحل، وهو في الأصل للحبل ونحوه من المحسوسات، ثم أطلق في أنواع العقود من البيوع والمواثيق وغيرها(١).

- العقد اصطلاحا: مرتبط ارتباطا وثيقا بمعناه اللغوي، حيث له تعريف

خاص وعام، أما الخاص فهو: ارتباط إيجاب بقبول على وجه مشروع يثبت أثره في محله(٢)، وأما العام فهو: ما ألزم به المرء نفسه، ولا يشترط في هذا التعريف وجود طرفين في العقد(٣).

التعريف بالوكالة:

- الوكالة لغة: الوَكالة والوِكالة بفتح الواو وكسرها، لها معان كثيرة، منها الحفظ، والتفويض تقول: وكلت فلان إذا استحفظته، ووكلت الأمر إليه: بالتخفيف إذا فوضته إليه(٤).

- الوكالة اصطلاحا: عرفت بعدة تعريفات، منها أنها: عقد يتم فيه تفويض شخص ما له فعله مما يقبل النيابة إلى غيره ليفعله في حياته(٥)، وقيل بأنها: استنابة جائز التصرف مثلَه فيما تدخله النيابة من حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين(٦).

مشروعية الوكالة:

أجمع فقهاء الأمة الإسلامية في كل العصور على مشروعية الوكالة معتمدين في ذلك على: القرآن الكريم، والسنة النبوية(٧).

١) القرآن الكريم:

المعنى الأول: التفويض: والذي يدل على أن التفويض من معاني الوكالة، دلالة الكلمات التي جاءت في أسلوب أمر في قول الله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١٩).

المعنى الثاني: الحفظ: وكذلك مما دل على أن الحفظ من معاني الوكالة قول يوسف عليه السلام: (إني حفيظ) في قول الله عز وجل: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٥٥).

٢) السنة النبوية:

عن جابر بن عبدالله أنه رضي الله عنهما يحدث قال: أردت الخروج إلى خيبر فأتيت رسول ﷺ، فسلمت عليه، وقلت له: إني أردت الخروج إلى خيبر، فقال: «إذا أتيت وكيلي بخيبر فخذ منه خمسة عشر وسقا، فإن ابتغى منك آية، فضع يدك على ترقوته». أخرجه أبو داود: (٣٦٣٢)، واللفظ له، والبيهقي في السنن الصغرى: (٢٠٨٩).

● المعنى العام للحديث

لقد دل هذا الحديث على جواز الوكالة، حين وكل النبي ﷺ من يجمع له الأموال من البلاد التي فتحت عنوة، وصالح أهلها عليها، ومنها خيبر، فقال رسول الله ﷺ لجابر حينما أراد الخروج إلى خيبر: «خذ من وكيلي خمسة عشر وسقا، فإن طلب منك آية– أي علامة أو دليلا على الأخذ منه– فضع يدك على ترقوته».

● من مفردات الحديث:

- قوله ﷺ: «خمسة عشر وسقا»، والوسق: بفتح الواو على الأفصح، والجمع أوسق وأوساق، ووسوق(٨)، والوسق: مكيلة معلومة، تقدر بـ: «ستون صاعا».. والصاع: أربعة أمداد، والمد: هو ضرب من المكاييل، يساوي ثمانية عشر لترا تقريبا(٩).

- وقوله ﷺ: «فضع يدك على ترقوته».

الترقوة: عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق– في أعلى الصدر– وهما ترقوتان. والجمع: تراقٍ.. وبلغت الروح التراقي: كناية عن مشارفة الموت(١٠).

● ومن الأحكام التي تؤخذ من الحديث:

- اختلاف العلماء في وجوب الدفع من العامل لرسول أو إمام، وذلك على قولين:

القول الأول: قال بعض العلماء: لا يجب الدفع إلى الرسول؛ لاحتمال أن ينكر من أرسله.. وهذا قول الهادوية.

القول الثاني: قال بعض آخر: يجب التصديق بأمارة ونحوها ويدفع إلى الرسول، لكن له الامتناع من الدفع حتى يشهد عليه بالقبض.

- استحباب اتخاذ علامة بين الوكيل وموكله؛ لأنها أسهل من الكتابة، وقد يكون أحدهما ممن لا يحسن الكتابة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن الخط قد يشتبه.

- ليست الوكالة خاصة بالمسافر أو المريض؛ بل إنها تقبل من الصحيح المقيم.

حكم الوكالة (١١):

هي عقد جائز من الطرفين، ولكل منهما أن يتخلى عنها متى شاء، إلا إذا كان في ذلك ضرر على كل منهما، فحينئذ تكون عقدا لازما في حق أحدهما.. ولأهمية هذا العقد كان على الإنسان أن يعلم أحكام الفقه قبل أن يوقع وكالة عامة أو خاصة، سواء كانت قابلة للعزل أو غير قابلة للعزل.

أركان الوكالة (١٢):

اعلم أن الوكالة عند جمهور الفقهاء لها ثلاثة أركان، وهي: العاقدان: (الموكل والوكيل)، والمعقود عليه: (محل الوكالة)، والصيغة: (الإيجاب والقبول)، وعند الحنفية أنها الصيغة فقط.

فإذا قلنا: إن الوكالة عقد في أن ينيب الإنسان غيره في أمر يقبل النيابة.. فيفهم من الأمر، أن الذي لا تقبل فيه النيابة لا تصح فيه الوكالة.. ولا غرو أن هذه الجزئية تحتاج إلى بيان أي الأعمال التي تجوز فيها الوكالة. وتفصيل ذلك يكون كالتالي:

١) أفعال تقبل الوكالة– النيابة– مطلقا، أي: في حالتي العذر وعدمه، وهي: الأفعال المالية المحضة، مثل: تفريق الزكاة، والصدقات، والكفارات، ولحوم الأضاحي، وذبح النسك، وغيرها.

٢) أفعال تقبل الوكالة– النيابة– بشرط العذر، وهي الأفعال التي تكون بدنية من ناحية، ومالية من ناحية أخرى، مثل: الحج والعمرة، وفيها تفصيل يطول ذكره.

٣) أفعال لا تقبل الوكالة- النيابة- مطلقا، أي: سواء أكان هناك عذر أم لا، وهي الأفعال الشخصية المحضة، كالأعمال القلبية، مثل: الإيمان بالله تعالى، ورسله، واليوم الآخر مثلا، وكذلك الأفعال البدنية المحضة، مثل: الصلاة، والصوم، والطهارة من الحدث، فهذه لا تجوز الوكالة- النيابة- فيها، سواء أكان الموكل قادرا أم عاجزا.

٤) أمور تتعلق بحقوق الآدميين، وهذه منها: ما لا تقبل فيها الوكالة- النيابة- كالتي لها تعلق بشخص الفاعل؛ ومثالها: الحدود والقصاص، ومنها ما تقبل فيها الوكالة- النيابة- ومثالها: الوكالة التي لها تعلق بفعل الفاعل، من دفع خصومة عنه، أو أن يقوم عنه في الشراء والبيع...إلخ.

شروط الوكالة:

١) أن تكون الوكالة بشيء معين معلوم.

٢) أن يكون الوكيل والموكل جائزي التصرف.

٣) أن يكون التوكيل فيما تدخله النيابة.

٤) أن يكون الوكيل معينا.

٥) أن يكون الوكيل أمينا.

شروط الموكل:

بمعنى أن يكون الموكل مالكا للتصرف الذي يوكل فيه، لأن الوكالة يجب أن تنطلق من أن الموكل يملك موضوع الوكالة، فإذا لم يكن يملكها فلا تصح الوكالة حينئذ، لذلك نجد أن فاقدي الأهلية لا تصح وكالتهم، مثل: المجنون، والصبي غير المميز، بخلاف الصبي المميز، فصحة وكالته متوقفة على ما يعود عليه من النفع، أما إذا كانت الوكالة في مواضيع تضره، فهنا لا تجوز.

شروط الوكيل:

وهي أن يكون الوكيل عاقلا.. فلو كان مجنونا أو معتوها أو صبيا غير مميز فلا تصح وكالته، بينما الصبي المميز عند السادة الأحناف توكيله جائز.

شروط الموكل فيه:

وشروط الموكل فيه في موضوع الوكالة يجب أن يكون معلوما تماما، لكن يتساهل فيما كانت جهالته يسيرة، بخلاف ما إذا كانت جهالته فاحشة، كالعمل في المخدرات مثلا... فلا تجوز الوكالة في هذه الصورة.

أنواع الوكالة:

ومن أنواعها: وكالة منجزة، ووكالة معلقة على شرط، ووكالة معلقة على زمن مستقبلي، وقد تكون وكالة مؤقتة، وذلك لوجود وكالة معينة في عمل معين، ووقت معين.

موضوعات الوكالة:

تكون موضوعات الوكالة في الأمور التالية: البيع، والشراء، وإثبات الدين، وإثبات العين، والإعارة، والخصومة، والتقاضي، والصلح، والهبة، والصدقة، والرهن...

ضابط الوكالة:

وهو: أن كل عقد جاز أن يعقده الإنسان بنفسه، جاز أن يوكل فيه غيره... ومثاله: رمي الجمار في الحج، وتأدية الزكاة، وهذه أمور تتعلق بأفعال الموكل، ومتى ما دفعها الموكل إلى إنسان يثق به جاز ذلك، أما الوكالة بمحرم كالقتل مثلا، فلا تصح، وذلك لعدم امتلاك الموكل التصرف بها.

فإذا قلنا: إن الموكل يجوز له أن يوكل من يثق به في عمل جائز.. فهل للوكيل أن يوكل غيره فيما أسند إليه نيابة عن الموكل؟ مع أن الموكل كان يثق في الوكيل نفسه، ولم يثق في غيره؟ وهذه المسألة تناولها الفقهاء في حالات ثلاثة، إليك بيانها:

الحالة الأولى: أن ينهى الموكل وكيله عن التوكيل، والحال هذه: لا يجوز للوكيل أن يوكل غيره.

الحالة الثانية: أن يأذن الموكل لوكيله في التوكيل، والحال هذه: يجوز للوكيل أن يوكل غيره.

الحالة الثالثة: أن يجعل الموكل الوكالة مطلقة، وتلك الحالة فيها تفصيل يطول بيانه في هذا الموضع، ومن يرد الاستزادة في هذه الحالة فلينظرها في مطولات كتب الفقه.

الوكالة بالتبرع أو بالأجرة:

تصح الوكالة بالتبرع، وكذلك بالأجرة.. فإن كانت الوكالة تبرعا فهي خدمة يؤديها الوكيل، والحال هذه، لا يلزم الوكيل الإتمام، وإنما يمكنه الاعتذار، وإن كانت الوكالة مأجورة، فالأمر هنا ملزم بالنسبة للوكيل، ومن ثم لا يحق له أن يعزل نفسه، إلا بعد أن ينجز المهمة التي وكل بها.

وقد اتفق الفقهاء على صحة الوكالة في هاتين الحالتين؛ لثبوت ذلك عن النبي ﷺ.. ودليل ما كان تبرعا- ويعبر عنه بأنه بلا جعل- هو: «أنه ﷺ قد وكل عروة بن الجعد في شراء شاة» أخرجه البخاري: (٣٦٤٢)، وأما ما كان بجعل: «فإن النبي ﷺ كان يبعث عماله لقبض الصدقات، ويجعل لهم جعلا». أخرجه البخاري: (١٤٩٦).

انتهاء الوكالة بموت أحد المتعاقدين:

بمعنى إذا مات الوكيل أو مات الموكل تنتهي الوكالة؛ لأنها تعتمد على الحياة، فإذا انتفت الحياة انتفت صحتها، وذلك لانتفاء ما تعتمد عليه، وهو أهلية التصرف.

الهوامش

١- انظر: معجم مقاييس اللغة: (٨٦/٤)، تاج العروس: (٣٩٤/٨).
٢- انظر: البحر الرائق: (٨٧/٣)، حاشية الدسوقي: (٤/٣)، المهذب: (١٠/٣)، المغني: (٥/٦).
٣- انظر: أحكام القرآن للجصاص: (٤١٦/٢).
٤- انظر: مادة «وكل» في كل من: القاموس المحيط، لسان العرب، المصباح المنير.
٥- انظر: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: (١٤/٥).
٦- انظر: كشاف القناع: (٤٦١/٣).
٧- انظر: تبين الحقائق: (٢٥٤/٤)، حاشية الدسوقي: (٣٣٩/٣)، نهاية المحتاج: (١٥/٥)، المغني: (٢٠١/٥).
٨- انظر: المعجم الوسيط.
٩- انظر: المعجم المغني.
١٠- انظر: المعجم الوسيط.
١١- انظر: البحر الرائق: (٨٧/٣)، حاشية الدسوقي: (٤/٣)، المهذب: (١٠/٣)، المغني: (٥/٦).
١٢- انظر : المراجع السابقة نفسها.

عَقدُ الاستِصنَاع

وأهميته في النشاط الاقتصادي المعاصر



أ.د. حسن عبدالغني أبوغدة
كلية التربية - جامعة الملك سعود

الاستصناع في اللغة: (طلب صنع الشيء وعمله لأنه غير موجود في الواقع)، وفعله الماضي: صنع، وهو في الاصطلاح الفقهي: (عقد على مبيع في الذمة يطلب عمله)، مثال ذلك: شركة تجارية تتفق مع مصنع على أن يصنع لها عددا محددا من السيارات، بأوصاف محددة.

وعقد الاستصناع عقد ائتماني، وهو مما انفرد فقهاء الحنفية في القول به، وفي تسميته «الفقهية»، وفي الحديث عن أحكامه، وميزوه من عقد «السلم» في كون الشيء المعقود عليه مستصنعا بفعل الناس وتدخلهم، كالعمارات، والأواني، والملابس، لا كونه موجودا ومخلوقا بخلق الله تعالى وإيجاده، كالحبوب، والفواكه، والخضار، والبيض.

ويرى فقهاء الجمهور أنه ليس هناك عقد مستقل اسمه «الاستصناع»، وإنما هناك عقد يقال له: السلم، ولذا أوردوا صور الاستصناع وأمثلته في عقد السلم.

عقد الاستصناع

يرى الحنفية مشروعية عقد الاستصناع منفردا عن السلم، وأنه جائز، بل قال الفقيه الحنفي محمد ابن الحسن الشيباني رحمه الله: «الاستصناع جائز بإجماع المسلمين»، وهو يقصد أن عموم المسلمين مارسوه ويمارسونه عمليا، وإن لم يسموه بهذا «الاسم الفقهي» الذي سماه به الحنفية وانفردوا بذلك.

واستدلوا لمشروعيته بالسنة النبوية، والإجماع العملي، والمعقول، وبيان هذا فيما يلي:

١- ما رواه البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه بعث إلى امرأة من الأنصار يقول لها: «مري غلامك النجار يعمل لي أعوادا. أي: منبرا. أجلس عليهن إذا كلمت الناس».

٢. ما رواه البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه: «اصطنع خاتما من ذهب، وكان يلبسه، فيجعل فصه في باطن كفه، فصنع الناس خواتيم، ثم إنه جلس على المنبر فنزعه، فقال: إني كنت ألبس هذا الخاتم، وأجعل فصه من داخل، فرمى به، ثم قال: والله لا ألبسه أبدا، فنبذ الناس خواتيمهم».

٣. الإجماع العملي: وبيانه: أن الناس تعاملوا بالاستصناع في عهد النبي ﷺ كما تقدم في الحديثين الآنفين، وتعاملوا به أيضا في سائر الأعصار بعده من غير نكير، فكان هذا إجماعا عمليا. وهذا ما قصده محمد بن الحسن الشيباني- رحمه الله- في قوله الآنف- ولا شك أن

الإجماع حجة ينبغي الأخذ بها؛ لما رواه الترمذي وغيره من قول النبي ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»، ولقول الصحابي عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما رآه المسلمون حسنا، فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحا، فهو عند الله قبيح».

٤. المعقول: وبيانه: أن حاجة الناس في عموم الأزمان والأمكنة تدعو إلى القول بجواز عقد الاستصناع؛ لأن الإنسان يحتاج إلى استصناع البيوت والمكاتب وأثاثاتها من الطاولات، والكراسي، والأدوات المنزلية، والصحية، والكهربائية، وغيرها من احتياجاته المخصوصة، بأنواع مخصوصة، على مقادير مخصوصة، وصفات مخصوصة، وقد لا يتفق وجود هذه الأشياء مصنوعة في الأسواق بحسب طلب الإنسان ورغباته وحاجاته، فيحتاج إلى أن يستصنعها، فلو منع عقد الاستصناع وحرم لوقع الناس في الحرج والضيق.

الغاية من تشريع عقد الاستصناع:

شرع الله تعالى عقد الاستصناع- مع أنه بيع لشيء معدوم غير موجود. تيسيرا على الناس في تحصيل أرزاقهم، وتحقيق مصالحهم، وتمويل بعضهم بعضا، واستثمار أموالهم وتنميتها، ويزيد الأمر وضوحا ما يقاس على ما سبق من حاجات الناس المعاصرة ومصالحهم الضرورية، كصنع الكهربائيات، والالكترونيات، وبناء المدارس، والجامعات، وصنع السيارات، والطائرات.

ومع أن الإسلام شرع عقد الاستصناع، فإنه ضبطه بضوابط وشروط ومواصفات؛ حتى لا يختلف الناس ويتنازعوا فيما بينهم.

أركان العقد

تتشابه أركان عقد الاستصناع مع أركان العقود المالية عامة، وهي هنا ثلاثة:

١. الصيغة: وهي التي يقال لها: الإيجاب والقبول.

٢. العاقدان: أي: المستصنع المشتري طالب السلعة، والصانع البائع الذي يقدم هذه السلعة.

٣. المحل: أي: السلعة المستصنعة، والثمن المدفوع مقابلها.

أما شروط عقد الاستصناع فأبرزها ما يلي:

١. وصف السلعة المصنوعة وبيانها بيانا تاما من حيث الجنس، والنوع، والقدر، والأوصاف، التي لا تدع مجالا للاختلاف بين العاقدين.

٢. كون السلعة المصنوعة مما يجري التعامل به وتصنيعه من قبل الناس- أي: مما يصنعه الإنسان ويتدخل في إيجاده وتجهيزه، كالطاولات، والكراسي، والجوالات، والسيارات، والطائرات، لا مما يخلقه الله تعالى ويوجده، كالحبوب، والفواكه، والثمار، والبيض.

إلزامية العقد

ذهب الفقيه الحنفي أبويوسف القاضي- رحمه الله تعالى- إلى لزوم عقد الاستصناع، إذا جاء مطابقا للمواصفات المتفق عليها، وأنه لا خيار فيه لواحد من العاقدين، أما الصانع فلأنه بائع، ويجب عليه المضي في العقد الذي التزمه، وكذلك يجب على المستصنع تنفيذ العقد الذي التزم به؛ لما يترتب على تخلفه عن ذلك من ضرر يقع على الصانع.

ولا شك أن هذا يتفق مع قواعد العدل والإنصاف، ويعين على استقرار التعامل المالي والتجاري في الأسواق، بين التجار، وأصحاب المصانع، والشركات، والمصدرين، والموردين، سواء كان هذا على الصعيد المحلي، أو الصعيد الإقليمي، أو الصعيد العالمي.

مجالات التطبيق

يصلح عقد الاستصناع الآنف الذكر للقيام بتمويل الورشات، والصناعات، والمشاريع... حيث يتعامل المستصنعون مع أصحابها المنتجين والصانعين، ويتوقعون أن يوفروا لهم هذه السلع والمصنوعات والمشاريع في المواسم والمواعيد التي يحددونها لهم، سواء من صناعاتهم وجهودهم الذاتية، أو مما يمكن أن يحصلوا عليه من الأسواق، ويسلموه إليهم، أو إلى الجهة التي يحددونها، على دفعة واحدة، أو على دفعات متلاحقة، وهم يقدمون لهم مقابل هذا الاتفاق تمويلا كليا، أو جزئيا متدرجا يسد احتياجاتهم، ويحقق طموحاتهم في مشاريعهم.

ومن الصور التي تصلح فيها عمليات التمويل بالاستصناع، وتمارس وتطبق على نطاق واسع من قبل التجار، والشركات، والمؤسسات، والمصارف الإسلامية وغيرها، ما له صلة بمجالات التنمية التجارية، والصناعية، والزراعية، والغذائية، والسياحية، والتعليمية، ونحوها... وذلك كاستصناع الألبسة، والأغذية وتعليبها، واستصناع المفروشات، ولعب الأطفال، والأدوات الكهربائية والمنزلية، والجوالات، والكمبيوترات، وطبع الكتب والصحف، وعمل «الديكورات»، وتعبيد الطرقات، واستصناع المعدات الصناعية، والزراعية، والسيارات، والقطارات ومحطاتها، والسفن وأحواضها، والطائرات ومطاراتها، وكإقامة المباني المختلفة من المجمعات السكنية، والفنادق، والمنتجعات السياحية، والمستشفيات، والمساجد، والأسواق، والمدارس، والجامعات، وإنشاء المصانع.

وقل نحو ذلك فيما تحتاجه الشعوب والدول في كل آن وحين، وبخاصة في عصرنا الحالي، الذي توسعت فيه شبكة الحياة المعاصرة المتطورة، وصار لا يستغنى فيه عن كثير من الأشياء، ونشطت فيه الصناعات العالمية على مستوى التجارة الخارجية الدولية، مع ارتفاع مستمر في الأسعار، مما يتطلب ازدياد اهتمام التجار والجهات والشركات والمؤسسات المالية والتجارية بعقود الاستصناع في مثل هذه المنتجات والمصنوعات والمشاريع، ثم إعادة تسويقها وبيعها والربح فيها،

سواء كان هذا في المدى القصير، أو المتوسط، أو الطويل.

ولا يخفى أن عقد الاستصناع يعد من الوسائل والأدوات الاستثمارية الحيوية المربحة، التي تتيح بأمان اقتحام الأسواق التي تتسم المنافسة فيها بالمرونة والسعة، مع وجود ضمانات كافية ضد المخاطر المعتادة.

ممارسة المؤسسات المالية

أحاطت بعض المؤسسات المالية والتجارية علما بمدى المنافع والأرباح التي تحققها عقود الاستصناع لها، وللمستثمرين، وللتجار، وأصحاب المصانع، والمقاولين، وأصحاب الورشات الصغيرة والكبيرة، الذين يحتاجون إلى المبالغ الائتمانية متوسطة الأجل أو طويلة الأجل، كما أدركت مدى المنافع والخدمات التي تتحقق لخاصة الناس وعامتهم من خلال توفير متطلباتهم من هذه المصنوعات، والمنتجات، والسلع، والمباني، والخدمات، فقامت باقتحام مجالات عقود الاستصناع وتطبيقها، باعتبارها وسائل وأدوات ذات كفاءة عالية للوفاء بحاجاتها وحاجات المنتجين والمستهلكين، ولأن من الوظائف الأساسية لهذه المؤسسات، تقديم خدمة الائتمان، والاستفادة من عوض الأجل المتعلق بتقديم هذه الخدمة، وكان ذلك ضمن الاعتبارات والتطبيقات التالية:

١. البائع: وهو هنا (الصانع أو المصنع) الذي يحصل على ما يريده من ثمن المصنوع أو بعض ثمنه، ولو بالتدرج، مقابل التزامه بالوفاء بتسليم المصنوع في مواعيد لاحقة متفق عليها، فهو يستفيد من ذلك بتغطية احتياجاته المالية، سواء كانت تخص نفقاته الشخصية والعائلية، أو كانت لغرض نفقات مشاريعه ونشاطاته التجارية والإنتاجية وأجور عماله.

٢. المشتري: وهو هنا المستصنع (المؤسسة المالية أو التجارية الممولة) الذي يحصل على المصنوعات، والسلع، والمنتجات، والمشاريع، التي يريد المتاجرة بها، في الوقت الذي يريده، فتنشغل بها ذمة البائع الذي يجب عليه الوفاء بما التزم به، ويلاحظ هنا أن المؤسسة المالية المشترية تستفيد من رخص السعر، إذ إن «بيع الاستصناع» أرخص من بيع الحاضر غالبا، فتأمن بذلك من تقلب الأسعار. وبناء على هذا تستطيع المؤسسة المالية أن تتحول لاحقا في هذا الصدد إلى بائع، وتعقد استصناعا موازيا بسعر أعلى، تبيع فيه سلعا ومصنوعات ومشاريع من نفس النوع الذي اشترته بالاستصناع الأول، دون ربط مباشر بين العقدين، كما تستطيع الانتظار حتى تتسلم المنتج، فتبيعه بثمن حال، أو مؤجل، أعلى مما اشترته به، وتحقق بذلك أرباحا مميزة.

٣. تسليم وتسلم السلع والمنتجات والمشاريع المصنوعة في الأجل المحدد: توجد أمام المؤسسات المالية أو التجارية المستصنعة حالات عدة يمكن اختيار أحدها، ومن ذلك:

أ- أن تتسلم المؤسسة السلع، والمنتجات، والمشاريع المصنوعة، في الأجل المحدد، وتتولى تصريفها بمعرفتها ببيع حال، أو آجل، بالثمن الذي تريده.

ب- أن توكل المؤسسة البائع (الصانع) ببيع السلعة نيابة عنها نظير أجر إن شاء.

ج- أن توعز المؤسسة إلى البائع (الصانع) بتسليم المصنوعات إلى طرف ثالث، سواء كان هو المشتري في عقد الاستصناع الموازي اللاحق، أو كان مشتريا طارئا.

هذا، ونظرا لما لعقد الاستصناع من أهمية لا يستهان بها في عصرنا، الذي نشط فيه استثمار الأموال وتنميتها على نطاق واسع، فقد قامت المصارف الإسلامية والمراكز المالية الأخرى بممارسة هذا العقد الممول من أموال المودعين والمستثمرين في صناديق اعتبارية خاصة، مراعية في ذلك ما ذكره الفقهاء في مجمل أركانه وشروطه وأحكامه السابق ذكرها، وقد استفاد منها كثير من المساهمين والمستثمرين فوائد مالية جمة.

الاحتياطات المناسبة

من الجدير بالقول هنا: أنه ليس من مانع شرعي فيما تتخذه المؤسسات التجارية والمالية من إجراءات احتياطية، كوجود شروط جزائية تضعها على المصانع والصناع القائمين بالمشاريع ونحوها، وذلك ضمانا لحقوقها ولحقوق المودعين والمستثمرين، الذين فوضوها باستثمار أموالهم من خلال عقد الاستصناع، وتأكيدا على الطرف الآخر (الصانع) بوجوب وفائه بالعقد ومقتضياته، ووجوب التزامه بتسليم المتعاقد عليه في وقته المحدد، وهو ما يتوافق مع ما صدر في قرار مجمع الفقه الإسلامي برقم (١٠٩) في دورته (١٢)، ونصه: «يجوز أن يشترط الشرط الجزائي في جميع العقود المالية ما عدا العقود التي يكون الالتزام الأصلي فيها دينا، فإن هذا من الربا الصريح، وبناء على هذا يجوز هذا الشرط- مثلا- في عقود المقاولات بالنسبة للمقاول، وعقد التوريد بالنسبة للمورد، وعقد الاستصناع بالنسبة للصانع، إذا لم ينفذ ما التزم به، أو تأخر في تنفيذه... ولا يجوز في عقد الاستصناع بالنسبة للمستصنع إذا تأخر في أداء ما عليه».

الخاتمة:

وهكذا يتضح مدى مرونة أحكام التشريعات الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وذلك من خلال نموذج عقد الاستصناع، الذي أحاطه الإسلام بالأركان والشروط والضمانات التي تحفظ حقوق جميع المتعاملين به، من أجل التيسير على الناس وتنمية أموالهم، وتحقيق حاجاتهم في الأسواق المحلية أو الدولية، وبخاصة في عصرنا الذي تشابكت فيه العلاقات، وكثرت فيه احتياجات الناس الخاصة والعامة.



التكافؤ الاقتصادي بين الربا والتورق (٢-٢)

د. سامي بن إبراهيم السويلم
باحث في الاقتصاد

يؤدي التورق إلى النتيجة التي يؤدي إليها الربا، مع زيادة تكاليف البيع والشراء، وذلك أن جميع التكاليف والأعباء المتصلة بالسلعة، كالقبض والحيازة والتسليم والمعاينة النافية للجهالة وكل ما يتصل بذلك من الإجراءات، ليس من مصلحة المشتري الالتزام بها، لأنه لا غرض له فيها، وفي هذه الحالة فإن الربا أجدى اقتصاديا من التورق، وسائر صور العينة والحيل الربوية.

وإذا كان كذلك فإن الحوافز الفطرية تقتضي التخلص من هذه التكاليف الإضافية لتحقيق مصلحة الطرفين، ويكون مآل ذلك إلى الربا، بخلاف البيوع الشرعية التي تتضمن من المصالح والمنافع ما يجبر تكاليف الشروط والإجراءات الشرعية، ومن ثم لا توجد حوافز كافية للتخلص من هذه التكاليف، فلا تفضي إلى الربا.

والربا هو أيسر الطرق وأقلها كلفة للحصول على السيولة مقابل زيادة في الذمة. والحياة الاقتصادية قائمة على البحث عن الأقل كلفة والأكثر ربحا، فكل معاملة تحقق نتيجة الربا مع زيادة التكلفة، فإن ضغط المنافسة وطلب الربحية سيؤدي تدريجيا إلى إزالة هذه التكاليف، عاجلا أو آجلا، ومن ثم

الاقتراب أكثر فأكثر من الربا.

تداول السلع

يدرك البعض أن التورق لا يختلف من حيث النتيجة عن الربا في حق المتورق، أي إن الربا والتورق متكافئان اقتصاديا على المستوى الجزئي، مع كون التورق أقل كفاءة، لكنهم يشيرون إلى ما يمكن أن ينشأ عن التورق من المصالح الكلية، مثل تداول السلع وتحريك السوق، فشراء السلعة ثم بيعها ينشط تبادلات السلعة، وهذا من شأنه أن يحقق مصالح للمتعاملين، وبعبارة أخرى: إن التورق، وإن لم يكن يختلف عن الربا على المستوى الجزئي، فإنه قد يحقق مصالح اقتصادية على المستوى الكلي، لا يتحقق مثلها من الربا، لغياب السلع أصلا.

لكن هذا التصور يعتوره القصور من جهتين:

١- إن المصالح الاقتصادية على المستوى الكلي هي محصلة المصالح الاقتصادية على المستوى الجزئي، فإذا كانت المعاملة لا تحقق مصالح جزئية أكثر من الربا، فمن الممتنع تحقيق مصالح إضافية على المستوى الكلي.

٢- إن التداول الناتج عن التورق ليس هو التداول المحمود الذي ينتفع به المتعاملون ويحقق قيمة مضافة للاقتصاد، لأن التداول النافع هو الذي يجعل السلعة متاحة لأكثر الناس انتفاعا بها، وهذا يستلزم أن يكون التداول يراد به الانتفاع الحقيقي، أما التورق فهو تداول للسلعة لا لغرض الانتفاع، وإنما لتحصيل السيولة فحسب، فيصبح هذا التداول تكلفة إضافية دون قيمة اقتصادية.

يوضح ذلك أن التورق يؤدي لنشوء سوق مغلقة لتداول السلع محل التورق، فالمتورق يشتري السلعة ليبيعها لطرف ثالث، ليعود الأخير ويبيعها للبائع الأول، كما هو مشاهد، وكما واقع التجربة العملية.. وهذا

من ملامح النظام الربوي تخفيض دور السلع في التمويل

يعني أن السلعة تدور ضمن دائرة ضيقة بين البائع (المصرف غالبا) وبعض التجار الذين يشتري منهم المصرف، وهذا هو التداول الذي حذر منه القرآن في قوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ (الحشر: ٧). فالسلعة يقتصر تداولها على المصرف والتاجر، ولا تجد طريقها إلى السوق الحقيقية، وثبت من الواقع أن بعض السلع تم بيعها أكثر من ٤٠ مرة، في كل مرة يشتريها العميل ثم يبيعها للتاجر الذي يبيعها بدوره للمصرف، وهكذا.

ومما يؤكد أن هذا التداول معزول عن السوق الحقيقية أنه في بعض الحالات تبين أن قيمة السلعة الحاضرة لدى المصرف تزيد عن سعر السوق بنحو ٥٠٪، وسبب ذلك أن المصرف اشترى السلعة أولا بالثمن المرتفع، ثم اشتراها العميل بثمن مؤجل، وباعها للتاجر بثمن نقدي قريب من الثمن المرتفع، وهذا بدوره يبيعها للمصرف مرة أخرى بالثمن المرتفع، فتظل القيمة الحالية للسلعة على ما هي عليه، بالرغم من انخفاضها في السوق بنسبة كبيرة.

وهذا واضح في أن تداول سلع التورق تداول غير مفيد للسوق ولا ينتفع به من يحتاج السلعة فعلا، بل هو إلى أن يتضرر منه أقرب.

التورق المنظم وأبعاده الاقتصادية:

لقد كان لانتشار التورق في التعاملات المالية المعاصرة امتداد طبيعي يتمثل في تطوير وسائل وأدوات تخفض من التكلفة الإجرائية للتورق من مستوى الربحية والكفاءة، بما يحقق مصلحة المتورق والمصرف، وتمثل هذا التطور في سعي المصرف في بيع السلعة نيابة عن المشتري بثمن نقدي حاضر، بحيث لا يتكبد العميل مصاريف القبض والحيازة والنقل والتسويق، وهذا بجانب تحقيقه لمصلحة العميل، فهو أيضا يحقق مصلحة المصرف، لأنه بذلك يكسب شريحة أكبر من الراغبين في التمويل، ويستطيع من ثم تحقيق أرباح أفضل، ولم يكن هذا التطور في الحقيقة غريبا، لأنه مقتضى الحوافز الفطرية ونتيجة طبيعية للسنن الكونية التي تحكم الأنشطة المالية والاقتصادية.

وذلك أن السلعة غير مقصودة أصلا للمتورق، فليس من مصلحته قبضها وحيازتها ثم بيعها، بل كل ذلك يمثل أعباء إضافية فوق تكلفة التمويل، ولذلك سيقبل بأي أسلوب مناسب للتخلص من هذه التكاليف، وإذا كان البائع مصرفا، فليس له أي مصلحة في السلعة أصلا، فسيسير في الاتجاه نفسه كذلك، وهذه هي سنة الحياة الاقتصادية، ومن ظن أن الأمور يمكن أن تسير بعكس ذلك فهو بعيد عن معرفة السنن والحوافز التي توجه النشاط الاقتصادي، وليس صعبا أن نستنتج مقدما ماذا سيكون مآل هذا الاتجاه. إنه مزيد من تخفيض دور السلع في التمويل، ومزيد من الإغراق في الديون، والتوسع في تداولها، وهي الملامح والخصائص نفسها التي يتسم بها النظام الربوي، ويرافق ذلك بطبيعة الحال ترسيخ مفهوم النقد الحاضر بالنقد المؤجل، وتأكيد أهمية السيولة وما تستحقه من عائد، وأهمية تسييل الديون، والآثار الإيجابية لذلك على الاقتصاد.

وهذه هي المفاهيم نفسها التي يتذرع بها أنصار الربا والفائدة، لكنها في السابق كانت على يد مفكري الغرب ومن تأثر بهم، ولكنها اليوم- لبالغ الأسف- تتم على يد

بعض المنتسبين للإسلام وللفكر الإسلامي، ومن قرأ تاريخ الربا في أوروبا النصرانية وكيف استباحته بأنواع الحيل(١)، وشاهد ما يحصل اليوم في بلاد المسلمين، لم يملك إلا أن يردد كلام الصادق المصدوق ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»(٢).

ما هو التورق المنظم؟

المقصود بالتورق المنظم هو قيام البائع (المصرف) بترتيب عملية التورق للمشتري، بحيث يبيع سلعة على المتورق بثمن آجل، ثم ينوب البائع عن المشتري ببيع السلعة نقدا لطرف آخر، ويسلم الثمن النقدي للمتورق، ولهذا الغرض قد يتفق البائع مع الطرف الآخر مسبقا ليشتري السلعة نقدا أقل من السعر الفوري السائد.

الفروق بين التورق الفردي والتورق المنظم:

تتلخص هذه الفروق في:

١- توسط البائع في بيع السلعة بنقد لمصلحة المتورق، في حين أن البائع في التورق الفردي لا علاقة له ببيع السلعة مطلقا، ولا علاقة له بالمشتري النهائي.

٢- استلام المتورق للنقد من البائع نفسه الذي صار مدينا له بالثمن الآجل، في حين أن الثمن في التورق الفردي يقبضه المتورق من المشتري النهائي مباشرة دون أي تدخل من البائع.

٣- قد يتفق البائع مسبقا مع المشتري النهائي لشراء السلعة، وهذا الاتفاق يحصل من خلال التزام المشتري النهائي بالشراء لتجنب تذبذب الأسعار.

النقد مقابل الدين

إن القدر المشترك بين التورق المنظم والعينة الثنائية يتمثل في أن البائع أو المصرف هو مصدر السيولة للمشتري في الحالتين، فالنقد يحصل عن طريقه وبواسطته، ولولاه لما وجدت العملية، والمشتري إنما يقبل على التورق المنظم لعلمه بأن البائع سيدبر له السيولة والنقد الحاضر لاحقا، ولو علم المشتري أن البائع لن يوفر له النقد لما رضي بالشراء ابتداء.

فحاصل العملية إذن أن المصرف يقول للعميل: أوفّر لك مائة نقدا مقابل أن تكون مدينا لي بمائة وعشرين مؤجلة، وهذا هو الربا. فالمصرف الربوي وظيفته توفير السيولة للمدين مقابل دين بزيادة في ذمته، فمن الناحية الوظيفية لا فرق بين المصرف الربوي وبين المصرف الذي يقدم التورق المنظم.

ويزداد الأمر سوءًا إذا علمنا أن المصرف إذا قبض الثمن من المشتري النهائي، فإنه يتصرف فيه لمصلحته، كما هو الحال في الحسابات المصرفية، فتصبح يد المصرف على الثمن يد ضمان وليست يد أمانة، فيكون النقد الذي يسلمه المصرف للمتورق من مال المصرف الخاص، كما أن النقد يسلمه المرابي من ماله الخاص، فهل يوجد فرق مؤثر بين هذه المعاملة وبين الربا؟

بين الصورة والحقيقة

كان الذين يجيزون التورق الفردي يحتجون بأنه في الظاهر شراء وبيع، وهو جائز، ولا ينظرون إلى حقيقة العملية وغاياتها، ثم تطور الأمر في التورق المنظم حتى أصبح هذا الظاهر لا يختلف عن الربا. وكل من راقب خطوات هذه المعاملة يرى أن العميل يدخل إلى المصرف يريد نقودا، فيوقع مجموعة من الأوراق، ثم يخرج وفي حسابه لدى المصرف ١٠٠ وفي ذمته له ١٢٠، وهذه هي صورة التمويل الربوي في المصارف التقليدية.

ولكنهم يقولون هذه المرة: إن تشابه الصورة والظاهر لا يعني التماثل، لأن الحقيقة مختلفة، فهذه الأوراق تتضمن وعدا بالشراء، ثم شراء، ثم توكيلا بالبيع...إلخ. والمصرف وإن كان هو الذي يسلم النقد للعميل المدين له، إلا أنه يسلمه باعتباره وكيلا لا مشتريا كما هو الحال في العينة الثنائية، ولا مقرضا كما هو في الربا، فتشابه الصورة لا يعني الحقيقة، والعبرة بالحقيقة.

وهذا المنطق بعينه هو الذي يتذرع به المدافعون عن العينة الثنائية في المؤسسات المالية التي تعمل بها، فهم يقولون: صحيح أن هناك تشابها ظاهريا بين عملية التمويل وفق العينة الثنائية، وبينها في التمويل الربوي، حيث يدخل العميل إلى المصرف ويوقع مجموعة من الأوراق ثم يخرج وفي حسابه ١٠٠ وفي ذمته لذات المصرف ١٢٠. ولكن الحقيقة أن المكونات- على حد تعبيرهم- مختلفة، ففي العينة هناك عقد بيع وعقد شراء، وهذا لا يوجد في التمويل الربوي، والمصرف يسلم النقد باعتباره مشتريا لا باعتباره مقرضا، أي إن العبرة الآن صارت بالحقيقة والمضمون، وليست بالصورة أو الظاهر.

ولكن إذا كانت العبرة بالحقيقة فإن حقيقة العملية، في الحالتين، هي نقد حاضر بمؤجل أكثر منه، وهذه حقيقة الربا.. فلماذا نأخذ بالحقيقة تارة وبالصورة أخرى؟

ضمان المشتري النهائي

من العقبات التي تواجه التورق المنظم تذبذب أسعار السلع، وما يترتب على ذلك من الخسائر التي يتحملها المتورق، وبطبيعة الحال هذه المخاطرة ليست من مصلحة العميل، لأن مراده السيولة والنقد الحاضر، وليس الاستثمار والربح، ومن ثم تعد هذه المخاطرة تكلفة إضافية تعيق تحقيق العملية لهدفها المنشود، وهو التمويل. لذلك عملت بعض المصارف على الاتفاق مع

طرف مستقل يلتزم بالشراء النهائي للسلع التي يتوسط فيها المصرف، وهذا الالتزام ضمان للسعر المباع به أن لا يتجاوز حدودا معينة، حماية من تقلب الأسعار، علما أن السعر المتفق عليه يتضمن عمولة للمشتري النهائي مقابل الضمان، ومقابل هذا الضمان بطبيعة الحال التزام المصرف بالبيع عليه، بمعنى أنه لا يحق للمصرف أن يبيع السلع في السوق حتى لو ارتفع سعرها عن السعر المتفق عليه مع المشتري النهائي، وبذلك يكون هذا الضمان من الطرفين: المصرف بأن يبيع على المشتري النهائي، والمشتري النهائي بالشراء بالثمن المحدد.

والإشكال هنا من وجوه:

الأول: إن هذا الالتزام يصدر قبل حصول التوكيل من قبل العميل، وإذا كان كذلك فهو التزام في غير محله، إذ لا يملك المصرف التصرف في مال قبل إذنه، ثم إن هذا الالتزام يخالف مصلحة العميل إذا ارتفع سعر السوق عن السعر الملتزم به، فالمصرف يبيع بالسعر المتفق عليه بالرغم من كونه أقل من سعر السوق، وهذا يناقض مقصود الوكالة، وهو العمل لمصلحة الأصيل.

الثاني: إن هذا الالتزام- على فرض صحته- من باب الدين بالدين، لأن كلا من المصرف والمشتري النهائي ضامن للآخر بإبرام البيع، وبيع الدين بالدين ممنوع بإجماع العلماء، وذلك أنه أحد أهم مداخل الربا من جهة المقرض.

الثالث: إن هذا الالتزام يلغي معنى الأمانة في عقد الوكالة، فحاصل التورق المنظم يصبح التزام المصرف بتوفير النقد مقابل دين له في ذمة العميل، بخلاف الوكالة الفعلية التي هي من عقود الأمانات، فالوكيل مجرد أمين على سلعة العميل، ولا يضمن له لا بيعها ولا الثمن الذي تباع به، أما هنا فالمصرف يلتزم ببيع السلعة بالثمن المحدد لتوفير النقد للعميل، وإذا وجد الضمان لم يعد هناك فرق بين المصرف وبين البائع في العينة الثنائية، لأن الطرفين ضامنان لتصريف السلعة.

وأما القول بأن العميل له الخيار في توكيل المصرف وعدمه، فهذا الخيار ليس ذا بال، لأن العميل يريد النقد أصلا، ولولا ذلك لما أتى المصرف. وإنما العبرة: هل يملك المصرف الخيار في قبول التوكيل وعدمه؟ والجواب: إن المصرف لا يملك هذا الخيار، لأنه التزم مسبقا مع المشتري النهائي، وإذا كان كذلك كانت المعاملة عينة ثنائية، لأن المصرف ضامن للثمن النقدي، ولا فرق في هذه الحالة بين أن يشتريها هو أو غيره، لأن العبرة بالضمان، وهو حاصل على كل تقدير.

وهذا يبين المأزق الذي يواجهه التورق المنظم، فلما كان هدفه التمويل وليس الاستثمار، اقتضى تجنب مخاطر تذبذب الثمن، لأنها تكلفة إضافية على حساب العميل، ولكن هذا يوقع في مزيد من المخالفات الشرعية، وهذه علامة الحيلة المذمومة، فإنه بقدر ما يسعى أصحابها لتحقيق أهدافهم منها، بقدر ما يوغلون في المحاذير الشرعية، أي إن المصالح الاقتصادية والضوابط الشرعية تصبحان على طرفي نقيض، وهذا خلاف المبادلات النافعة المشروعة التي أحلها الشرع ويسرها وشجع عليها، فكل ما يحقق المنفعة منها فالشرع يجيزه ويسمح به، فالشرع لا يناقض المصالح الحقيقية، كما أن العقل الصريح لا يناقض النقل الصحيح، فإذا وجد هذا التناقض علم أن سبب وجوده باطل، فكل معاملة تضمنت تناقض المصالح الاقتصادية والضوابط الشرعية فذلك التناقض علامة بطلانها.

أغراض التمويل

إن تحول التورق إلى نظام مؤسسي يعني أن المؤسسات المالية صار هدفها هو تشجيع الجمهور على الحصول على النقد مقابل زيادة في الذمة، وهي بعينها وظيفة المصارف الربوية، ويترتب على ذلك انفصام العلاقة بين التمويل وبين النشاط الاقتصادي المثمر، وينتج عن ذلك أمران:

١- تفاقم المديونية، نظرا لعدم وجود كوابح ذاتية تمنع منه.

٢- استفحال الإنفاق الاستهلاكي، لأن نسبة كبيرة من القروض الفردية ستوجه لإشباع الحاجات الآنية على حساب الاحتياجات المستقبلية. وكلما كانت آليات الإقراض النقدي أكثر تيسيرا ازداد اعتماد الأفراد عليها، ويصبح الأمر مثل كرة الثلج، لا تزداد مع التدحرج إلا ضخامة.

وعلى هذا، فلا يمكن القول بوجود فرق حقيقي بين التورق المنظم وبين الربا الصريح، والشريعة الإسلامية جاءت بالتسوية بين المتماثلات والتفرقة بين المختلفات، وهذا يستلزم أن يكون التورق المنظم مماثلا في الحكم للنظام الربوي، كما كان مماثلا في الأسباب والآثار والنتائج.

وختاما، فإن مسيرة التمويل الإسلامي اليوم بحاجة لمراجعة مخلصة وجادة، وما لم تصحح المسيرة وتسدد الوجهة، فستكون المؤسسات الإسلامية أول ضحايا النظام الربوي، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هوامش

(١) انظر: مصرف التنمية الإسلامي ص ١٠٧، الربا وأثره على المجتمع الإنساني ص ٤٥، palgrave dictionary of finance, usury

(٢) متفق عليه. صحيح الجامع (٥٠٦٣).

وظيفة الزكاة في المجتمع

د. عبدالله رمضاني
باحث دراسات إسلامية

في هذا المقال المتواضع لن أتناول موضوع الزكاة من الناحية الفقهية، فذلك من مهمات المتخصصين من الفقهاء والعلماء، ولكن سأحاول قدر الإمكان الكشف عن أسرار الزكاة ووظيفتها في المجتمع.

إن أصل الزكاة في اللغة من زكا يزكو زكاء، وهي الطهارة والنماء والبركة والمدح والزيادة والنماء والرحمة والصفاء والطهارة والصلاح(١). وكله قد استعمل في القرآن والحديث، ووزنها فَعَلَة كالصدقة.

والزكا، هو الشفع من العدد، والعرب تقول للفرد خسًا وللزوجين زكًا، وقيل لها زكًا لأن اثنين أزكى من واحد(٢).

وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة، وتطهير النفس وتزكيتها وتنميتها بالخيرات. قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣).

والزكاة إحدى مباني الإسلام، وقد تردد ذكرها في القرآن الكريم اثنتين وثلاثين مرة، وهو عدد تكرار كلمة البركة ومشتقاتها، كما وردت مردفة بعد الصلاة في اثنتين وثمانين آية من الذكر الحكيم.

وقد كانت فريضة الزكاة بمكة في أول الإسلام مطلقة، وغير محددة نصابا ولا إنفاقا، وإنما ترك ذلك لشعور المسلمين وكرمهم وسخائهم.

وفي السنة الثانية من الهجرة، على المشهور، فرض مقدارها من كل نوع من أنواع المال، وبُيّنت بيانا مفصّلا.

وبما أن الزكاة فريضة مكتوبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة فقد شدد الإسلام الوعيد على المقصرين فيها فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤)، وقال أيضا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٠)، أما السنة النبوية الشريفة فهي مليئة بالأحاديث التي تذم مانعي الزكاة وتنذرهم شرا وتعدهم بالهلاك في الدنيا والآخرة(٣).

والذي يهمنا في هذا المقام أن نتبين مدى إسهام الزكاة في إصلاح الفرد والمجتمع، وقدرتها على خلق مجتمع متماسك مترابط ومتضامن نفسيا وسلوكيا، شعوريا وعمليا.

إن الزكاة التي تفرض على المسلم إنما هي تدريب له على العطف على المحتاجين من الناس، وإعانتهم ومساعدتهم على سدّ حاجاتهم الضرورية.. إنها تقوي في المسلم الشعور بالمشاركة الوجدانية مع الفقراء والمساكين، وتبث فيه الإحساس بالمسؤولية تجاههم، وتدفعه إلى العمل على إسعادهم والترفيه عنهم.. إنها تعلم المسلم حب الآخرين، وإسداء الخير إليهم وإدخال الفرحة في أفئدتهم، وذلك يغرس فيه الشعور بالانتماء الاجتماعي، ويشعره بدوره الفعال في المجتمع، كما تدربه على بذل المال وصرفه في وجوه الخير وما ينفع الناس، فتطهر نفسه من دنس البخل والطمع والأثرة وحب الذات والأنانية وحب الجاه والقسوة



على الفقراء والأنانية، مما يجعله يشعر بالرضا عن نفسه.

إن الصفات والسلوكات السلبية لا تزول إلا بقدر بذل المسلم للشيء وبقدر استبشاره بصرفه إلى الله تعالى، لأنه ثبت علميا لدى علماء النفس أن حب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير أمرا اعتياديا.. ولعل هذا الأمر له أهمية كبيرة في الصحة النفسية.

وهي كذلك تزكي النفس أي «تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية، حتى تكون بها أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية»(٤). فقد روى أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لرجل من تميم سأله كيف ينفق ماله: «تخرج الزكاة من مالك فإنها طُهْرةٌ تطهّرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق المسكين والجار والسائل»(٥).

ومعلوم أن إنفاق المال لنيل رضا الله عز وجل في الدار الآخرة أشرف مما أنفقه أو ينفقه لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكرا لطلب المزيد، يقول الإمام الغزالي في هذا السياق: «لو عرف- أي الغني- فضل الفقر على الغنى، وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير، بل تمنى درجته، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام. ولذلك قال ﷺ: «هم الأخسرون ورب الكعبة. فقال أبوذر: من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالا... الحديث»(٦).

وتقوم الزكاة أيضا بتعويد المسلم أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه وأطيبه وأجله، فإن الله تعالى لا يقبل إلا طيبا، مصداقا لقوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾(البقرة: ٢٦٧).

وحتى لا نقع في محظور، ونحن نؤدي ما أمرنا الله بإخراجه من أموالنا، أرى لابد من الإشارة إلى بعض الأدبيات المرتبطة بالزكاة، وقد عني بها شيوخنا العلماء عناية شديدة، ندع- في هذا السياق- الإمام الغزالي رحمة الله عليه، يبينها لنا في صورة موجزة:

- انتفاء النظرة الدونية إلى من تخرج إليهم الزكاة فـ«ما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله»(٧)، فذلك شكر النعمة التي أسبغها الله عليه، وهي عبادة مالية.

- الإسراع والتعجيل في إخراجها قبل أوانها المعلوم، إبداء للرغبة في الامتثال والطاعة بإيصال السرور والفرحة إلى أفئدة الفقراء، ومبادرة لعوائق الدهر أن تمنعه عن الخيرات.

- الإخفاء والإسرار والاحتراز والخلاص من آفات الرياء والسمعة ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٧١)، وهذا لا يعني أن إظهار الزكاة مع إخلاص النية لله عز وجلّ فيه إثم أو رياء، لكن يحبذ في بعض الأحيان أن تخرج ظاهرة ترغيبا للناس في الاقتداء، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (الرعد: ٢٢).

- مطلوب من المسلم، كذلك، ألا يفسد زكاته بأن يتبعها بالمنّ والأذى كأن يتكبر على الفقير لأجل عطائه، والتحدث به وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير، أو يعيره ويوبخه بالفقر، وتخشين الكلام وهتك الستر بالإظهار، وغيرها من فنون الاستخفاف، أو يعتبر نفسه أنه خير من الفقير، وأن الفقير لسبب حاجته هو أخس منه. قال الله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٦٤).

والزكاة في المنظور الإسلامي ليست- كما يدعي بعضهم- عملا فرديا، أو عملا موكولا إلى رحمة الناس، وليست مرتبطة بمدى استجابة الإنسان لعواطف الخير ونزعات البر، متى أراد التملص منها والتوقف عن أدائها كان له ذلك، فهذا ادعاء لا نصيب له من الصحة أو الواقع، ولم يجئ به الإسلام، ولم يقل به أحد من علماء المسلمين، بل هي اقتناع إيماني، وإشهاد قلبي على الفرض الإلهي، وهي كذلك أداء للواجب الديني المحتوم. فالإنسان المسلم ينبغي له أن يؤدي هذا الحق الرباني، وهو لا يجد في نفسه حرجًا أو نزعة امتعاض مما يخرجه من ماله الذي هو في الأصل مال الله. فالنفس- عادة- تجزع أن يؤخذ منها ولو جزء مما تحبه أو تملكه، كما أنها يخيل لها أحيانا أنها قد تُمْنى بالفقر والإملاق بهذا الإنفاق. ولهذا كان الإسلام حكيما حينما اهتم بهذا الجانب المادي وعلاقته بالنفس البشرية، حيث أيقظ في نفوس الأفراد والجماعات عواطف الخير والبر، ولفت إليها مجالات التصدق والإحسان، ومجالات الإفاضة في عمل الخير، وحبب إليها فعل الخيرات والتسابق فيه، وبيّن لها أن ما تقوم به هو من قبيل مقتضيات العبودية وإخلاص النية والعمل لله عز وجل، وعلّمها كيف تتجرد من الماديات والطمع في غبش الدنيا وحطامها الزائل وتوظيفها في خدمة البشرية والإنسانية جمعاء. وحتى لا يزداد الإنسان عشقا وحبا للمال وحرصا عليه، نبهه الإسلام إلى مسألة جوهرية سقطت من حسبانه، تكمن في كون أن كل ما يملكه هذا الإنسان الضعيف الذي يطمع في الزيادة دائما إنما هو مستخلف فيه فقط، ومردّ ذلك كله إلى الله تعالى وحده، فهو الذي أغنى وأقنى، وأعطى وأمسك، وأضحك وأبكى، بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير، ينزع المال والملك ممن يشاء ويعطيهما لمن يشاء.

إن الإسلام بمجيئه بهذه الفريضة المباركة إنما أراد، فيما أراده، أن يؤسس لثقافة تربوية مادية واقتصادية تؤمن بها البشرية وتتربى عليها، وتمتثلها وجدانيا وسلوكيا، إذ من المعلوم أن أرقى

المجتمعات في النواحي المادية لا يخلو من وجود محتاجين وفقراء، فمهما ارتفعنا بمستوانا المادي فسيظل هناك أناس يحتاجون إلى معاونة ومساعدة، لذلك كان الإسلام حكيما ورحيما بفرضه الزكاة، حيث تجد فيها هذه المجتمعات الإجابة الشافية والكافية لهذه الآفة والمعضلة الاجتماعية التي تعاني منها، والحل السعيد لكل القلوب البائسة والعيون الحزينة. إنه مشروع إسلامي اقتصادي لطالما عرف تهميشا وإقصاء في مجال حل المشاكل الاجتماعية والمادية التي تتخبط فيها الأنظمة والبرامج الاقتصادية العالمية الآن.

وفي المنظور الإسلامي، أيضا، ليست مصارف الزكاة مقصورة على أفراد يحتاجون احتياجا ظاهريا، بل يوجد من هذه المصارف ما يتسع نطاقه وينفسح مداه إلى مسافات بعيدة من جهات الإصلاح ووجوه العمران، ولذلك يذهب بعض الفقهاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (التوبة: ٦٠) مذاهب واسعة، تجعل كثيرا من وجوه الإصلاح تدخل في هذا المصرف من مصارف الزكاة، وهو ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بالإضافة إلى ذلك أنه ليس في الإسلام فرق بين الفقراء والمساكين من حيث الحاجة والفاقة، ومن حيث استحقاقهم الزكاة، فقد جاء في الحديث ما يدل على أن المساكين هم الفقراء الذين يتعففون عن السؤال، ولا يتفطن لهم الناس فذكرتهم الآية، لأنه ربما لا يُفطن إليهم، لتجمّلهم.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف»، اقرأوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (البقرة: ٢٧٣)، وفي لفظ: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس تردّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له، فيُتصدّق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس»(٨).

و عن علي ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا، ويعذّبهم عذابا أليما»(٩). لأن من مقاصد الزكاة في الإسلام كفالة الفقير وسدّ حاجته، فيعطى من الصدقة القدر الذي يخرجه من الفقر إلى الغنى، ومن الحاجة إلى الكفاية، وعلى الدوام، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص. قال عمر بن الخطاب ﷺ: إذا أعطيتم فأغنوا.

وبهذا الفهم الصحيح للزكاة نكون قد أخرجنا هذه الفريضة مما هو شائع لدى عوام الناس كونها لا تتعدى دريهمات تخرج على الفقراء لا تفي لسد لقمة يوم واحد، ومنحناها، في مقابل ذلك، وظيفة سامقة تليق بما أحاطها الله عز وجل من مكانة وتقدير.

لو يعلم المرء ما للزكاة من عائدات خيرات وبركات وتمكين ورحمة تفوق بأضعاف مضاعفة لا تعد ولا تحصى، لما تباطأ وتهاون عن أدائها، ولتمنى لو تكون له خزائن ينفق منها أبدا دون انقطاع. قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج: ٤١).

وفي الحديث عن أبي كبشة الأنماري، أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة أقسم عليهن وأحدّثكم حديثا فاحفظوه: ما نقص مال من صدقة، ولا ظُلم عبدٌ مظلمةً فصبر عليها إلا زاده بها عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»(١٠).

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عزّ وجلّ يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيربّيها لأحدكم كما يربّي أحدكم مُهره أو فَلُوّه أو فصيله، حتى إن اللقمة لتصير مثل جبل أحد» (١١). قال وكيع: وتصديق ذلك في كتاب الله قوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ (التوبة: ١٠٤)، ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ (البقرة: ٢٧٦).

وصفوة القول: إن الزكاة شرعها الله لتكون عبادة مالية خالصة مخلصة لوجهه وفي سبيله، ليعلم عباده كيف يترفعون عن الأحقاد والأضغان والمعاداة، ولذلك جعل الله فريضة الزكاة فرصة للإخاء والصفاء والتنزه عن الخلاف والاعتساف والخصومة، والتطهر من كل أسباب التمرد والانحراف.

وقد جعلها الله تعالى، أيضا، مناسبة لتجميع الأمة وتأليف قلوبها، وتوحيد صفوفها وتقوية شوكتها، كما يريد سبحانه لهذه الأمة أن تكون متكافلة متضامنة، تبدو كتلة واحدة إذا تحركت بأجمعها، لأن كل جزء منها ملتئم مع بقية الأجزاء ومرتبط بها، ومن هنا صور الرسول ﷺ الأمة بهذه الصورة الرائعة: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (١٢).

الهوامش:

١- لسان العرب ١٤/ ٣٥٨.
٢- لسان العرب ١٤/ ٣٥٩.
٣- تنظر في هذا الشأن كتب السنن.
٤- فقه السنة للسيد سابق ١/ ٣٢٨.
٥- المرجع السابق ١/ ٣٢٩.
٦- الإحياء ١/ ١٩٨.
٧- الإحياء ١/ ١٩٥.
٨- رواه البخاري ومسلم.
٩- رواه الطبراني في الأوسط.
١٠- رواه الترمذي.
١١- رواه أحمد والترمذي وصححه، والمهر والفلو: ولد الفرس، والفصيل: ولد الناقة.
١٢- رواه البخاري ومسلم.

الدكتور حسنين محمود.. الأصولي الفقيه في ذمة الله

التحرير

يعد الدكتور حسنين محمود حسنين واحدا من أعلام الفقه والأصول في العصر الحديث، وهو فقيه مالكي، وأصولي محقق، يتسم بالدقة والتحرير، والتواضع والحكمة.

ولد الدكتور حسنين محمود في القاهرة ١٩٣٨م، والتحق بالأزهر الشريف، وحصل على مرتبة الشرف الثانية – الليسانس من كلية الشريعة في جامعة الأزهر عام ١٩٦٦، وحصل على درجة الماجستير في أصول الفقه عام ١٩٦٨، كما حصل على مرتبة الشرف الأولى والتوصية بطبع رسالة الدكتوراه في أصول الفقه -أيضا- من جامعة الأزهر عام ١٩٧٤م.

تلقى علومه من جلّة من كبار العلماء في الأزهر الشريف ومشايخه، واستفاد منهم في المجالين العلمي والعملي. ومن أبرز مشايخه الذين تلقى منهم العلم، فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور مصطفى عبدالخالق، والشيخ الأستاذ الدكتور جاد الرب، والأصولي الشيخ أبو النور زهير وغيرهم.

وقد عرف عن الشيخ جده أثناء طلب العلم، ودوام مناقشته ومراجعته لمشايخه في بعض المسائل العلمية حتى كان البعض يظن أنه يظهر علمه لهم.

وقد عرف عنه جرأته في المناقشات العلمية حتى إنه لم يكن يهاب شيوخه في بعض المسائل العلمية مع توقيره لهم وإنزالهم منزلتهم.

كما كان دائم الذكر لهم في المجالس العامة والخاصة حتى آخر أيامه -رحمه الله.

وقد كان الشيخ شغوفا بالعلم والتدريس،



فقد عين معيدا ومدرسا مساعدا في جامعة الأزهر في الفترة من عام ١٩٦٦ إلى ١٩٨٦، ومدرسا بكلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر عام ١٩٧٤، ثم أستاذا في جامعة الإمارات في عام ١٩٨٩، ثم انتقل إلى كلية شرطة دبي عام ١٩٩٠، ثم انتقل إلى جامعة الكويت أستاذا عام ١٩٩٢، ثم عُين فيها رئيسا لقسم الفقه والأصول عام ١٩٩٤، وعمل رئيسا لمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية لمدة عامين، وذلك سنة ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٧م.

وكان الشيخ -رحمه الله- نموذجا للأستاذ المعلم والمربي، فقد كان يفتح بيته لطلابه، ويتواصل معهم في الليل والنهار، وعرف عنه جوده وكرمه مع طلابه.

قالت عنه إحدى طالباته: «أفضاله علينا كثيرة، كان ضعيف السمع، لكنه قوي الحجة والمناقشة وحب العلم، درست عنده في المرحلة الجامعية والماجستير، كنت أستشيره في مسألة فيعطيني من وقته الكثير ثم يتصل علي بنفسه ليضيف ما ظهر له، عالي الهمة، قال لي مرة: ما سبب غيابك يا ابنتي؟ فقلت: كان زفافي بالأمس. فقال: والله يا ابنتي توفي ابني ودفنته بيدي وحضرت محاضراتي في اليوم نفسه!».

وقد مارس الإمامة والخطابة، وكانت له مشاركات في الحلقات الإذاعية، والمؤتمرات العلمية، بالإضافة إلى الإشراف على العديد من الرسائل العلمية.

وقد اهتم الشيخ الدكتور حسنين محمود بالإفتاء، على المستوى الرسمي من خلال عضويته في هيئة الإفتاء بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، وعلى مستوى التواصل مع عموم الناس في البلاد التي عاش فيها.

ولم يشغله العمل في التدريس والاهتمام بالإفتاء والخطابة عن التصنيف والكتابة العلمية، فقد شارك في الكتابة في الموسوعة الفقهية الكويتية، كما كان المرجع الرئيسي في لجنة الموسوعة الأصولية التي تقوم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بإعدادها.

ومن أهم آثاره العلمية:

القواعد الأصولية وأثرها في حكم الربا، ومصادر التشريع الإسلامي، وبحوث في الأدلة المختلف فيها، ومباحث الحكم عند الأصوليين، والترقيع الجلدي، والعرف والعادة بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، وغيرها من البحوث والكتب.

توفي -رحمه الله- في ٢٥ نوفمبر ٢٠١٣ في الكويت عن عمر يناهز خمسة وسبعين عاما، ودفن في القاهرة.

القَوْلُ المأثُورُ فِي إحياءِ الصّوابِ المهجُورِ (١٨)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية – المغرب



كلما أعرق الباحث النحرير في استجلاء سمات الفصاحة، وأغمض النظر في استكناه قرارها المكين؛ أيقن أن القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة يعدان واسطة عقدها، والشعر العربي البليغ درة تاجها، بينما يأتي كلام الأبيناء الذابرين لنظم جواهرها في عقد يري الناظرين جودة البهاء، وحسن الصفاء، وكمال النقاء. هذا هو الحق الأبلج الذي ليس له رد، وتلك هي الموارد العذبة النميرة، التي كان أسلافنا يضربون إليها آباط الإبل للظفر بكل الصيد في جوف الفرا، لا تلحظ أي نبْوة في ما ينشئون من ألفاظ تتنزل في المكان الذي يقتضيها، حتى رسخت لديهم ملكة الفصاحة، كما يرسو الحديد في الماء، لشدة إلفهم بلغتهم، وتعظيمهم لها، وإعلان حبهم لها، وكراهيتهم للحن فيها على هذه الشاكلة: ذكر أن خطيبا أورد في خطبته عبارة «ومن يطعهما» أي طاعة الله ورسوله، فقال له الرسول ﷺ: بئس الخطيب أنت، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ ولم يقل: «أحق أن يرضوهما» إذ لا يحق إشراك أي أحد مع الله في الطاعة، ولو كان الرسول ﷺ. وفي حادثة أخرى يروى أن الفضل بن الربيع سمع تقريع الخليفة هارون الرشيد له فقال: لقد عوقبت على غير ذنب والحمد لله، فبادر الرشيد إلى تقريعه مرة أخرى قائلا: أخطأت في كلامك يرحمك الله، لو قلت: وأستغفر الله، لكان صوابا، وإنما يحمد الله على النعم. بل إن أهل مكة كانوا يفتخرون على أهل البصرة بفصاحتهم، فرد عليهم الشاعر محمد بن مناذر البصري قائلا: «أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها موافقة؛ فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم. وأنتم تسمون القدر: برمة، وتجمعون البرمة على برام. ونحن نقول: قدر، ونجمعها على قدور. وقال الله عز وجل: ﴿وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾. وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت: علية، وتجمعون هذا الاسم على علالي. ونحن نسميه غرفة، ونجمعها على غرفات وغرف، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾، وقال: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾، وأنتم تسمون الطلع:

الكافور، والإغريض. ونحن نسميه: الطلع. وقال الله عز وجل: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾(١).

هذا كلام لا يقوم له أحد، ولا يقنع من الإعجاز إلا بالكلمة القرآنية المنمصة البليغة، التي دخلت رياض البلاغة فاجتنت أنوارها وأثمارها، كلما رام أحد من الأولين والآخرين أن يساويها تساميه، وأن يجاريها تباهيه. فما بالنا اليوم- بأخرة- لا نرعى لها حرمة، ولا تجري بها ألسنتنا المستلبة، ولا تطوع بها أفئدتنا ومَعِدُنا التي ألفت أمشاج العاميات، وشوب اللغات الأجنبية، نتساهل في هجر ألفاظه، ونتسابق في تحريفها عن مواضعها، كما مر معنا في الحلقات الآنفة. أليس لهذا الليل الأليل من نور يبدد حلكته الدامسة؟ أما آن لهذا الوهن، وتلك السوءة السوآى أن يسفرا عن يقظة تعيد للعربية ماضيها الأمجد، وتصنع لها حاضرا أكمل وأرحب، وتدبر لها مستقبلا يعد بعشقها، لأن في العشق قدرة عجيبة على استمالة أبنائها، فلا يجدون عنها محيصا؟ أسئلة كثيرة بدأت الإجابة عن بعضها تلوح في الأفق العربي الذي يعد ربيعه بكثير من التحولات التي تطول شؤون السياسة والمجتمع والثقافة والمعرفة واللغة. وما هذه الورقة اللغوية سوى فلج من الفوالج التي يرجى لمياهها المدد الكافي حتى تصبح واديا يمد الأرض العربية العذبة بالأمواه اللازمة لإنماء مشروعاتها، ومن بينها مشروع «لننهض بلغتنا» الذي أعلنته مؤسسة الفكر العربي، في بنودها الخمسة عشر، التي إذا بوشرت بالمترهية والحذاقة اللازمتين، فإنها بلا ريب ستحدث طفرة في المشهد اللغوي العربي؛ طفرة أساسها العودة إلى الينابيع الثرة التي ضمنت للفصحى إشراقها وكمالها، بحثا عن الدرر المحجوبة التي تنتظر من يشق عنها كمها، فيريها في أبهى معرض وأحسن منظر؛ من دون تجاهل دنيا الناس، وما يتعاورونه من ألفاظ تقف بين صراط الفصحى واللهجات، يهذبونها حتى تلطف، ثم يضيفونها إلى حظيرة الفصحى؛ تتقوى بها في أثناء تسمية الصنائع والبضائع الجديدة التي يتفتق عنها الزمن العربي، الذي فرضت عليه العولمة أفكارا وممارسات وقيما مخالفة ومدهشة تعد بالآمال العريضة التي تتطلب حصافة توضح غثها من سمينها، وتميز بين أسمائها وكناها وألقابها، كما كان الأوائل يضعون حدودا فاصلة بينها، وكانوا يتصدون لكل من يريد أن تكون اللغة فوضى من غير نظام. هذا ما جرى عليه العرب طوال القرون الأولى. أما تسمية العرب أولادها بالشنيع من الأسماء، التي تبدو كأنها ألقاب مثل: كلب، وحجر، ومرة، وضرغام، ثم صخر... فلأنها كانت تسمي أبناءها لإخافة أعدائها، ولذلك كانت أكثر أسمائهم تشعر بالخوف والرعب، فلما جاء الإسلام غير هذه العادة، كما غير كثيرا من المطرات. يروى عن رجل من الأنصار أنه قال: فينا نزلت الآية التي يقول فيها تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ...﴾ (الحجرات: ١١)، وذلك أن النبي ﷺ قدم علينا وليس منا رجل إلا له لقبان أو ثلاثة، فجعل بعضنا يدعو بعضا بلقبه، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فجعل هو أحيانا يدعو الرجل ببعض تلك الألقاب، فقيل له: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾(٢). هذا ما كان في الجاهلية، حيث كان اللقب يدل على المدح أو الذم، فلما نزلت تلك الآية قرنت اللقب بالنبز والذم. قال الشاعر الحماسي:

أكنيه حين أناديه لأكرمه
ولا ألقبه والسوءة اللقب

الكنية غير الاسم واللقب، فإذا ثبت أن الاسم علم يدل على ذات معينة مشخصة من دون مدح أو ذم، مثل: أحمد، وعلي، وعبد الله، وأسد، ثم فرس... فإن الكنية علم مركب تركيبا إضافيا يكون صدره من الكلمات الآتية: (أب، أم) أو (أخ، أخت) أو (ابن، بنت)... وقد يكنى الصبي تفاؤلا، «وفي الحديث: كنوا أولادكم. قال عطاء في تعليل ذلك: مخافة الألقاب. وعن عمر: أشيعوا الكنى فإنها سنة»(٣). قال الجاحظ في البيان والتبيين: هناك من له كنيتان: إحداهما في السلم، والأخرى في الحرب، مثل قطري بن الفجاءة؛ خطيب الخوارج الذي كان يكنى في السلم أبا محمد، وفي الحرب، أبا نعامة. وقد وردت بعض الكنى دالة على التحقير والذم بكيفية ضمنية تعريضية مثل: (أبو لهب، وأم الدواهي، وبنت طبق...)، أما اللقب فكان يدل على المدح أو التحقير بلفظ صريح مقصود، «وكل قسم من الأقسام الثلاثة السالفة قد يكون مرتجلا أو منقولا، مفردا أو مركبا، إلا الكنية فإنها لا تكون إلا مركبة»(٤).

بهذه الجَرْدة يتبين أن الأوائل يضبطون من الفروق بين الكلمات؛ ما يخطئه المعاصرون حين يوردون في بعض الوثائق الإدارية ما يأتي: «الإسم واللقب: ....» مع كتابة الاسم بهمزة القطع متناسين أن (الاسم) من الأسماء العشرة التي لا تكتب بهمزة القطع، وأن اللقب أصبح مخصوصا بالتحقير والنبز والذم، وهو منهي عنه شرعا، لذلك فالصحيح الفصيح القول: الاسم والنسب. هكذا من دون همزة القطع. كما أن قولهم: فاز الفريق باللقب... قول لا يمكن أن يكون سليما موافقا للمراد حتى يلج الجمل في سم الخياط. لذا فالصحيح الفصيح قول: فاز الفريق بالمسابقة، أو: فاز الفريق بالدوري...

هذا ما أدى إليه الاحتلاط والانتجات والاعتيام. أرجو أن أكون قد وفقت في بلوغ حق اليقين، الذي يعقله الذين يتجالسون بالقرآن الكريم، ويتذاكرون به، ويثورونه، لأجل إبادة كثير من العادات والمطرات التي بقيت عالقة بدنيا الناس.

الهوامش

١- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، تحقيق وشرح حسن السندوبي، الجزء الأول، ص ٣٨، ط ٤، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٢- الصاحبي، أبوالحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: أحمد صقر، ص ١٠٨، ١٠٩، دار إحياء الكتب العربية.

٣- كناشة النوادر، عبدالسلام محمد هارون، ص٢٥، دار الطلائع.

٤- النحو الوافي، عباس حسن، الجزء الأول، ص٣٠٨، ط ٥، دار المعارف بمصر.



عش.. بالتفاؤل

التحرير

أقام منتدى الأدب الإسلامي في المركز العالمي للوسطية مجلسه الأدبي الشهري، وسط حضور جماهيري غفير من محبي الأدب الهادف.. والذين امتلأت بهم أروقة القاعة.

وانطلقت الفعالية تحت عنوان «عش بالتفاؤل» للخطيب بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية حمد عيسى الكندري، والذي استهل كلامه متحدثا عن المردود الإيجابي الذي يتركه التفاؤل في حياة الإنسان، وما يبعثه في النفس من النظرة السوية للكون والحياة.

وقال: من الضروري أن يعيش الإنسان لحظته، فلا يغتم لأمر الماضي، ولا يحزن لأمر الحاضر، ولا يقلق لأمر المستقبل حتى لا تتكدر حياته، لأن حال المؤمن الرضا بقضاء الله وحسن الظن واليقين به.

وأوضح السبب وراء اختياره لهذا العنوان كونه وليد الإعجاب الشديد بمعناه الطيب وعمقه الجميل، وحاجتنا اليوم لأن نعيش هذه المعاني الرقيقة، خاصة في ظل وطأة الحياة وقسوتها.

واستطرد الكندري موضحا الأبعاد التربوية والسلوكية، والمردود الإيجابي الذي ينعكس من وراء تعقل الإنسان لأمور الحياة، والذي يضبط به سلوكه، فيزن الأمور دون أن يتخوف من النتائج.

وتوقف بالحضور لبعض الوقت عند مجموعة من المعاني اللطيفة التي اشتملت عليها أبيات كوكبة من الشعراء العظام، كالمتنبي وإيليا أبي ماضي وأبي تمام، والتي جاءت لتركز على قيمة التفاؤل، وأثر الابتهاج على النفس، وما ترمي إليه من انتقاء الأطايب في كل الأمور، والابتعاد عن المنغصات.

وقال الكندري: إن السبيل الوحيد للبهجة يكون بطريق الكلمات الجميلة والألفاظ الشريفة التي تفعل في النفوس ما لا يفعله غيرها، خاصة أن للكلمة الطيبة دورا في التاريخ الإنساني، كذلك لها فضلها ودورها في عصر النبوة.

واستعرض كيف وصل القرآن الكريم إلى عقول وأفئدة الناس وأسر قلوبهم لسحر ألفاظه، وجودة معانيه، بالكلم الطيب، فكان سر إعجازه، لافتا الى أقوال علماء النفس والاجتماع، لبيان قوة الكلمة كونها تعدل أضعاف القوى الأخرى، لأنها تمس الروح والقلب.

وختم الكندري بحاجة الإنسانية الماسة إلى تمثل هذه اللطائف التي تهذب الطباع، وتروض النفوس، وتنبذ العنف، وتطرد عنها شبح الانتقام، لبناء جسور من الأمن والسلم الاجتماعي في كل المجتمعات، ثم بعدها فتح الباب أمام التعقيبات والتعليقات من الحضور.

أم العرب

جاك صبري شماس
شاعر سوري

عصماء ترفل بردة القرآن   وتسيل شهدا في فم الأزمان

تختال زهوا في ملاحم عبقر   وتهل نشوى في بليغ معان

وشمت على جيد النخيل تليدها   وشدت فخارا في بني «قحطان»

وتبوأت بين اللغات مكانة   عظمى تزين منابر الأوطان

تنساب نهر شمائل ومآثر   وتفيض تقوى بالسنا الرباني

شماء تورق رفعة ونباهة   وتخط سفر المجد والفرقان

وسعت كتاب الله في إعجازه   وتجودت بروائع الألحان

جذلى يطرز ضادها نور الضحى   وله اليراع وريشة الفنان

سل ما تشاء عن العروبة إنها   درر ترصع جبهة الفرسان

تسمو على كل اللغات بثروة   لغوية جادت بسحر بيان

حفلت بأرباب الرجاحة والنهى   وتسيدت شمما ذرى الأكوان

عركت خطوب الدهر وهي منيعة   وتحصنت برسالة القرآن

تزهو انتشاء في المدائن والقرى   وتضوع طهرا في ابتهال أذان

أودعتها طربا بمهجة شاعر   عشق التراث «وسورة» الإنسان



وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

محمد السعيد الشيخ
قاص وشاعر

تتسامى نفسه علوا في الهمة إلى ما لدى الله، ورقيا عن فاني هذه الحياة..

إنه «حسين سالم» هو للفضل أسبق، وبالخير أوثق، وبالثواب أخلق. وحقا ما يقال: إن أشرح الناس صدورا، وأسعدهم قلوبا، وأطيبهم نفوسا هم أهل البذل والعطاء، تصديقا لقول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ..﴾ (النحل: ٩٧).

سكن أحد الأحياء الشعبية، والتاذ بمعظم ساكنيه، يدرس حالتهم ساعيا لخيرهم، داعيا لعطائهم؛ اقتداء بحديث رسول الله ﷺ: «من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر».

يقابله «وليد» أحد شباب الحي، يبلغه عن حالة أسرة بائسة تسكن أعلاه، ورغم ما يحدوه من شك في سلوكاته وصالح توجهاته، فقد أثار فيه نخوة العطاء التي جبل عليها، فهو سباق بالنوال، ولا يلجئ الفقير إلى ذل السؤال.. فيعده أن سيزورها مساء الغد.

يصعد حسين إلى الشقة من منعطف جانبي على سلالم ضيقة متآكلة الأطراف، وذات انحناءات حادة، فإذا هي غرفة واحدة مسقوفة بألواح خشبية نخر فيها السوس، خالية من أبسط الضرورات المعيشية.. فرغم برودة الجو فإنه لا فراش يذكر، بطانية مهترئة، غطاء لا يدفئ، وخرق بالية متناثرة في أرض الغرفة كالرميم، يقلب عينيه بين مراء صادمة لتنقلب حاله ذهولا عاتيا.

انقلب الذهول إلى مرارة حين سمع أنينا بشريا كتيما، ما حرضه على الاقتراب من مصدره؛ استقصاء للأمر.. ويا للأسى!

يجد طفلا هو هيكل عظمي ألقته أمه في قفص، منزويا بركن في مطبخ خرب هو ملاذه، والطفل الثاني تدوي صرخاته بهدير موار توحي سلوكاته بتخلف عقلي.. وتنهره الأم بقسوة بالغة، وكأنما حرمها الله من عاطفة الأمومة السخية وإيثارها الباذل.

ظل «حسين» يترصد مرائي الفقر المهين الذي يتنفس على ملامحهم المهدودة.. ما أفعم نفسه كمدا!

وإذا كان الألم والمعاناة أمرا حتميا لمن يمتلك روحا حانية وقلبا كبيرا، فقد خرج حسين مكتئب الخطى، تنازعه مشاعره بصواعق وجدانية.. وقد أخذ رأسه بين يديه من الدوار، يقلب كفيه حسرة.. ونام ليلته مؤرقا..

يهب لصلاة الفجر قاصدا المسجد، عاجزا عن لملمة أحاسيسه، تمور جوارحه بحزن ملتهب، وعقب الصلاة يغالبه البكاء وينهمر النشيج، فالتف المصلون حوله يستطلعون الأمر، ليحكي دامعا ما شاهده بالأمس عن حال تلك الأسرة التي تفتقد أيسر أسباب الحياة.

أقبل عليه الشيخ عبدالرحمن إمام المسجد، والذي عانقت نسائم الإيمان روحه، آخذا يده بين يديه يسائله.. فانهمر النشيج حارا، ما أثار مشاعره لحث الحاضرين على البذل في سخاء، مذكرا بحديث الرسول ﷺ:



«تجافوا عن ذنب السخي، فإن الله آخذ بيده كلما عثر». وبعظاته المتوهجة المنيرة تدافع المصلون بالعطاء.. ولما كان مسؤولا عن جمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها.. فقد تعهد لحسين- بعد أن أعطاه مبلغا مناسبا- أن يصرف لهم راتبا شهريا، إلى جانب متطلبات المعيشة والعلاج.
وكان لأحد المصلين ابنة تعمل في جمعية خيرية، فذهبت مع أختها لتستطلع الحقيقة، فأذهلها حالها، وعادت تحكي بالعبرات ما رأته، وكانت فرصة جديرة باستقطار الرحمات، فانثالت العطايا من فرش وأغطية ومواد غذائية.
وينوي الشيخ عبدالرحمن مزيدا من العطاء، فيطلب من حسين حضور الزوج بعربة للمسجد لأخذ المزيد من الزكاة.
ويذهب «بكر» إلى المسجد – وليته ما ذهب – يسأله الإمام عن حاله.. فيزعم- في كبرياء مصطنع- أنه يعمل على العربة التي معه، وأنه يكسب يوميا خمسين جنيها، فيعجب الإمام ويساوره الشك، ويتوقف عن منحه ما انتواه من زكاة.
يعلم حسين بكذب بكر مندهشا مبتئسا، وحار في خلده سؤال ملغز:
لماذا يحرم أسرته؟ ويقصد هذا الإغداق الخيري الوفير.. ويقابله مستاء معاتبا، فكثيرا ما يراه جالسا على ناحية الشارع يقضي معظم وقته مدخنا فارغا سبهللا.. يرد عليه «بكر» بامتعاض مقطبا ما بين عينيه: إنه حاقد على زوجته، ينوي قتلها، وينفجر ملتاعا، شاكيا تمنعها عليه واهتمامها بجارها «وليد»، والتي ادعت في معرض حديثها لحسين- وبوقاحة- أنه صديق، مع أنه لا صداقة بين رجل وامرأة.. يجالسها السكن في خلوة شرعية!! فلا حياء يردع، ولا ضمير يمنع، ما أطلق مارد شك زوجها من عقاله.. هذا إلى جانب نار الغيرة التي كانت سببا في أن تشعل زوجة وليد النار في نفسها لتموت حرقا.
ويحكي له ما يشي بأن جارهم «وليد» هذا يعيش لذاته وللذاته، يعب من الملذات المتاحة وغير المتاحة، وكم صوب إلى صدر زوجته خناجره المسمومة، من ألفاظ ممقوتة ونعوت مشينة، حتى أثقل الهم هامتها، وتشققت وديان وجهها، والذي كان قبل مرضها يجذب العيون بفقره وجماله الذابل وراء غلاف من الإهمال والتعاسة، فلم يبق منها سوى بقايا امرأة.
فمرضها بالأنيميا أدى إلى نحافتها، فلا دواء ولا غذاء، وبدلا من رعايتها والإشفاق عليها أضحت مثار سخرية زوجها وعلى الملأ؛ بأنها نسيت نصفها، يقصد نصف جسمها، عند أهلها، ويناديها: «يا مسلولة.. يا عمشة!».. كلمات كوخز السكين، أثارت امتعاضا مأساويا لديها، في الوقت الذي يبدي اهتمامه بزوجة بكر، والتي برغم فقرها يجري في وجهها ماء الشباب، يوشي مظهرها بإمكانات أنثوية ثرية، جذابة الملامح إلى حد الفتنة.. كانت بسماتها الشائعة لجارها «وليد» بصمات شائكة لزوجته ولزوجها بكر.
وإذا كان الدين في النفس فطرة، والفطرة في طبيعة الإنسان نعمة، فقد كانت حياة «بكر»، هذا الذى ادعى العمل بخمسين جنيها يوميا، صدى لفراغ رهيب لا يعصمه عاصم من صحوة إيمانية أو ومضة عاطفية.. شخص قد انتكست فطرته إلى حد يستوجب إعادة التأهيل إنسانيا، فهو مغيب عن الوعي، وغياب الوعي أمرّ مذاقا من الفقر، وأثقل وطأة من الجهل.
يقابل حسين جار الأسرة «وليد» ليخبره في امتعاض بما قاله بكر لإمام المسجد، فيجيبه بابتسامة ماكرة حاول سبر أغوارها بلا جدوى، مختصرا إجابته في خبث موجز: «كرامته.. يا أخي!!» يعدل حسين عن المراء كاظما غيظه، موقنا أن الصمت المتعالي أبلغ رد على الكلام الأجوف، ويحس أنه قد غرر به من هذا المارق الأفاك.
يحكي حسين لإمام المسجد ما عرفه عن وضعية هذه الأسرة المنتكسة أخلاقيا قبل النكسة المعيشية، وأنه يزعم أن «وليد» هذا، والذي صدقت فيه فراسته، قد اتفق مع الزوجة «عبير» قبل زيارته لها أن يجردا المسكن من معظم محتوياته، وينقله إلى شقته أسفلها، ويستبدلها بخرق مهلهلة، بما يؤكد مزيدا من بؤسها، حيلة صاغوها وصنعوها لتكون مدعاة لمزيد من التعاطف.
يعقب الشيخ عبدالرحمن مزكيا سلوك حسين النابع من قوة إيمانه، والمؤمن صادق مصدق، وأنه مثاب من الله لصفاء نيته؛ فالأعمال بالنيات.
تعليقا على بكاء حسين ونشيجه، جراء مأساة تلك الأسرة، أشاع البعض همزا ولمزا، ويعلق الشيخ عبدالرحمن بأنه قد ارتبطت دموع الرجل بالضعف والعيب وعدم اللياقة كأعراف اجتماعية، لتظل «اللالياقة» هذه معششة في الأذهان، رغم أننا- رجالا ونساء- أمام الشجن إنسان واحد، وأمام الحاجة للعزاء والسلوان واحد، وكذلك أمام الراحة بعد انفجار العبرات في المآقي.. ورحم الله قيس بن الملوح حين قال:

وليس الذي يجري من العين ماؤهـــا
ولكنهـــا نفس تذوب وتقطر

تعاود «حسين» خواطره الحائرة حول «بكر» هذا.. حين علم بدخوله السجن، فهو كمن يبحث عن الاكتئاب ليقع في براثنه، وليته يتقي الله ليجعل له مخرجا.. فرغم شراهته في التدخين، فما بين إصبعيه الوسطى والسبابة في يده اليمنى صفرة واضحة تشي بتاريخه «السجائري» العريق. رغم هذا يتجه إلى تعاطي المخدرات، فهو كمن يكافح نار الغضب بمواد قابلة للاشتعال، ويلجأ للتجارة فيها ليتكسب ثمن إدمانه.. ما أدى به إلى دخول السجن.
تلجأ زوجته إلى «حسين سالم» تتسوله استئناف العطاء، والتي كانت سلوكاتها سببا غير مباشر، وسدا منيعا لانقطاعه، حينئذ وبيقين شاف كاف أعرض عنها، وقد مسه طائف شيطاني بمقولة: «يظل الكلب كلبا، ولو طوقته ذهبا». واستغفر الله في عقبها.

قصة قصيرة

بسمة

محمد عباس
قاص مصري

ذلك البريق الذي يشدك إليه، يدفعك دفعا لتغوص في حدقتيه، تبحث عن سر تلك البسمة التي يتألق طيفها واضحا جليا خلف ثنايا نظراته.. بسمة نابعة من أغوار عميقة في وهاد عينيه، لا تعرف كيف ولا من أين نبعت لتلوح على محياه..

ذلك البريق شدني، جعلني أتساءل- كلما رأيته- عن سر تلك البسمة، وهل هي أصيلة في ملامحه، أم إن عاصفة حزن قد تجيء فتجعلها نثارا لا كيان له.. إلى أن سمعت بخبر وفاة ولده، شملني حزن داهم جثم بثقله وسواده على براح الصدر، هزني ألم المفاجأة لكونه شابا مازال، لم أملك إلا الاسترجاع (إنا لله وإنا إليه راجعون)، وقررت فورا الذهاب للعزاء، الوقوف إلى جانبه في الملمات؛ مرضاة للرب سبحانه، وهو في الوقت ذاته سنة محمودة، و.. رأيت خاطرة تلج رأسي، تشد أذني إلى وقعها، وتحرك بوصلتي في اتجاهها..كيف سيبدو وجهه الآن؟

لا أعرف، هل هي رغبة خبيثة؟ أم هو مجرد فضول مشروع في حدود تساؤل مسموح به من الأخلاق؟ أم هو ربما شعور دهمني تجاه ذلك الوجه الذي لا يعرف العبوس؟

عيناه كلما لاقيتها تقيدني إليها، تشدني إلى حدقتيه ببسمة نابتة في أعمق أعماق نظراته، يبدو الوجه مشرقا ببهاء تلك الأشعة المنبثقة من العيون.. والتي تولدها تلك البسمة التي تكمن في أعماق ملامحه، فلا هي بانت جلية على براح شفتيه، ولا هي توارت عن ملامحه تاركة خلفها مشاعره اللحظية مثل بقية الوجوه.

حاولت التنصل من تلك الرغبة، والتبرؤ من وجودها أصلا بفضاء رأسي، دون جدوى، توكلت على الله وتحركت قاصدا سرادق العزاء.

ختم المقرئ القرآن، صمت أخطبوطي كبل بأذرعه الفولاذية الألسنة، لم يعد هناك إلا أعين قد دهمها حزن جارف، تتبادل النظرات الباهتة في تسليم، الملامح أديمها يعلوه سواد الأحزان، يكسوه ظلام الشجون، تتحرك الأجساد للخروج من السرادق، أتحرك معها، أمد يدي إليه معزيا، وهو يقف بصفته والد المرحوم في أول الصف، أرفع عيني إلى عينيه، الوجه ملامحه تبدلت، تغضناته تعمقت، نحوله ازداد، واصفراره تعملق، إلا عينيه.. رأيت فيهما نورا يفيض، في عمق هذا النور ومن بين أغواره العميقة يبزغ طيف بسمة- مازالت- تتألق واضحة جلية خلف ثنايا نظراته، شددت على يده بقوة وأنا أتمتم بكلمات روتينية رأيتها تليق بالمناسبة، لم يبال بسماعها، وإن شد على يدي بهدوء، وسحب يده مديرا وجهه عني استعدادا لعزاء آخر، غير أنني أبقيت يده بقوة في قبضة يدي، قلت بصوت عال: ألهمك الله الصبر..

عاد بملامحه الجديدة التي اكتست تغضناتها بدموع من نبع عينيه الذابلتين، من أعمق أغوار بحيرة الأحزان في حدقتيه، كانت هناك خيوط رقيقة لذات البسمة تتشابك مع خيوط الدمع لترسم على محياه لوحة من نور وظلمة، وهو يهمس بيقين: الحمد لله!!



أنا والشتاء



آيات الحسن
أديبة شابة

كنت جالسة مستغرقة في التفكير... فسمعت صوت طقطقة ترتطم بنافذتي، كان صوتا أشبه بقرع الطبول الإفريقية، ركضت لأرى من أين يأتي؛ فإذا بصوت يدق النافذة دقا متقطعا، نظرت فإذا هو صوت المطر... وقفت لأستمتع قليلا بذلك الصوت، الذي كلما أغمضت عيني وأصغيت ذكرني بلحظات جميلة عشتها في حياتي..

فالمطر الأول مرحلة انتقالية جميلة تأتي ما بين الصيف والشتاء... هي حبيبات مائية ينتظرها الناس بعد حرّ وجفاف طويلين... وفيها يحس الطفل بالمتعة حين يتبلل لأول مرة من أمطار السماء وتبقى في ذاكرته... فهي كضيف جديد يحلّ في البلدة ويخرج الناس جميعًا لاستقباله.

تلك الزخات المباركة التي تنقي الفضاء من الغبار والدخان الذي يخلفه الإنسان، وتجعل السماء زرقاء صافية....

وكلما زادت تلك الزخات علا الصوت أكثر فأكثر...أردت أن أغلق النافذة ولكن! فوجئت بالمطر يكلمني، قال: انتظري قليلا، لا تغلقيها... نريد التحدث إليك...

فعجبت من قوله: «نريد»؟ وسألته أمعك أحد آخر؟

قال: نعم، البرق والرعد، وكلنا نريد التحدث إليك.

قلت: ماذا تريدون مني؟

سألني: هل تشعرين بالفرح عند قدومنا؟

أجبته: بالتأكيد، ففصل الشتاء هو المفضل عندي.

فرأيت زخاته تكثر فعرفت أنه فرح بجوابي... خفضت رأسي قليلا، وبدت ملامح الحزن على وجهي، فانتبه وقال: لماذا أرى علامات الحزن على وجهك؟

قلت: الرعد...نعم الرعد.. صوته يخيفني جدا، مع أنني أعلم بأن الشتاء لا يكمل من دونه، وأعرف بأنك والبرق لا يمكنكما المجيء من دونه، فهل تستطيع أن تعطيني بعض النصائح لأحبه، وأتمكن من سماعه دون وجل؟

فرح لكلامي، ورشني ببعض قطراته وقال: سأعطيك تشبيها سيجعلك وكل من يرانا يستمتع برؤيتنا وسماعنا، فتوجهت إليه ببصري وسمعي وانتباهي...

فأكمل قائلا...:انظري إلينا...إلى فصل الشتاء... كأنه درس لك يعلمك فيه أغلى الأمور، فقلت متشوقة: ما هو هذا الدرس؟ وما هي تلك الأمور؟

تبسم وقال: بهدوء، كلمة...كلمة كي تفهمي وتستوعبي، وتروي لغيرك .

افرضي أن السماء والبساتين والمزارع التي تحدثت عنها منذ قليل هي أنت، وكل الأمور التي تحدث فيها سببها عقلك، قلبك، هواك، ونفسك، سواء أكانت أمورا حسنة أم سيئة، مفرحة أم محزنة، مضحكة أم مبكية، كل تلك الأمور التي تحدث أنت سببها، ولكنك لا تعرفين كيف تتعاملين معها بحكمة وعقل سليمين، فهل تعرفين الدواء لكل ذلك؟ أجبت بسرعة: لا، ما هو؟ فردّ: الإيمان، نظر إلي يتوقع مني قول شيء، ولكني لم أنبس بكلمة، ثم أكمل: لنفترض أن الأرض هي أنت، وأننا نحن جزء من الإيمان.

اعتبريني الاستغفار والتسبيح...

والبرق هو النور الذي كلما ظهر يذكّرك بأنك على الطريق الصحيح...

والرعد هو حدود الشرع التي لا يمكنك تجاوزها...

فآتي أنا وأُنزل زخاتي، فأبدأ بتنظيف الفضاء وتنقيته، وأغسل الأرض، وأسقي الزرع، لكي ينبت ويكبر، ويغني صاحبه بعد حين، كالاستغفار والتسبيح يبدأ بتنظيف قلبك وعقلك وينقيهما ويصفيهما، ويسقيهما لكي ينبت الخوف من الله، ويزداد إيمانك به، وتقواك له، ويكبر، ويغنيك بعدها، ويضبط لك نفسك وهواك، ويبعدهما عن ارتكاب الأخطاء والمعاصي.

ويظهر البرق ليريك ويفرحك بأنك على طريق الهدى، على الصراط المستقيم، ويفاجئك الرعد بصوته المدوّي ليذكرك بأن الدين له حدود، فإياك ثم إياك وتجاوزها، ثم يأتي صوته مرات عديدة... لكي لا تنسي ذلك.

انتهى من حديثه ونظر في عيني وقال: ما رأيك بما قلت؟

مرت ثوان عديدة وأنا أنظر إليه متأملة في كلامه، وهو مستغرب من سكوتي، فقلت له: والله لقد أدهشني هذا التشبيه الرائع...ثم نظرت إليه وقلت: ولكن هناك شيء يحيرني! قال: ما هو؟ قلت: لماذا إذا تلك الفيضانات والسيول التي تُحدِث خسائر بشرية كثيرة وخسائر مادية هائلة؟ فأجاب بحزن: لك كل الحق بأن تحزني لحصول ذلك، ثم سكت للحظات وقال: ألا ترين إلى البشر ماذا يفعلون؟ إن الله سبحانه وتعالى له الحكمة، يريد أن يمتحن الذين آمنوا ليذكرهم بأنه على كل شيء قدير، وبأن لا يغفلوا عن أنه واحد أحد، صمد، بيده كل شيء، وينبههم على أن يعبدوه وحده لا شريك له، يسبحونه ويستغفرونه، يخشونه ويخافونه، يدعونه صبحا وعشية، كما أنه سبحانه يعاقب الذين كفروا لكفرهم وإعراضهم.

استأذن المطر بعد ذلك... وقال: حان وقت راحتي، فلدي عمل كثير لأقوم به... فما زلت في بداية فصل الشتاء.

الحياة مدرسة

إحسان الدبش
باحث تربوي



هل تعلم أيها الإنسان وأيها المسلم أنك تنتمي إلى:

– «مدرسة» وأن هذه المدرسة ينتمي إليها كل إنسان على الأرض من ذكر وأنثى، من فتى وشاب وشيخ، من غني وفقير، من عالم وجاهل، من حاكم ومحكوم؟!

يعيش الإنسان في هذه الحياة في مدرسة، تبدأ أيامها وفصولها وسنوها منذ مطلع طفولته إلى لحظة الوفاة! وحياة الإنسان يمكن تقسيمها إلى مرحلتين:

الأولى، من الولادة حتى الرشد- البلوغ- حيث توجد امتحانات في الدنيا، وأما في الآخرة فلا يحاسبه ربه- جل جلاله- على ذنوبه وأخطائه حتى يبلغ.

قال رسول الله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يغلب عقله، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم» (رواه البخاري).

الثانية: حيث وجدت امتحانات في الدنيا، وجزاء في الدنيا والآخرة ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ (فصلت: ٤٦).

– هذه المدرسة «ليس لها مكان وزمان محددان»، وليس لها موقع خاص، ولا بناء خاص، لكنها موجودة حيث يوجد الإنسان، لا دوام معين ولا مقاعد أو ألواح، لكنها موجودة في حياة الإنسان في كل مكان وكل زمان، في كل دقيقة وكل ساعة وكل يوم.. وكل العمر.

– هذه المدرسة «بناؤها وباحاتها وصفوفها» في هذه الحياة الدنيا، في البيت والعمل، في الشارع والحديقة، في السفر والحضر في السوق ووسائل النقل.. هذه المدرسة تشمل عالمنا الخارجي وكل ما حولنا، وعالمنا الداخلي.. أنفسنا التي بين جنبينا.. هذه المدرسة تبدأ أيامها وفصولها ومراحلها وسنوها منذ مرحلة الإدراك وحتى الوفاة.

– لها «مالك» يملكها ومن فيها (رب العالمين سبحانه وتعالى)، لا نقارن بينه وبين أي مدير مدرسة على وجه الأرض- سبحانه وتعالى- رب العالمين هو الذي يقرر النجاح والرسوب لطلاب هذه المدرسة، كل بحسب اجتهاده.

وليس ملكه فقط هذه الأرض ومن عليها، إن ملكه كما يقول جل جلاله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الروم: ٢٦). ﴿ٱللَّهُ

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ (الزمر: ٦٢).

- لهذه المدرسة «منهاج»، مطالب كل إنسان على الأرض بالإيمان به وقراءته ودراسته والعمل به (القرآن والسنة)، هذا المنهاج شرعه رب العالمين، خالق الناس، العالم بأحوالهم، فهم بحاجة إلى دراسة هذا المنهاج دراسة جادة وعميقة؛ لفهمه ومعرفة ما يحتويه من نور وهدى.. هذا المنهاج تبيان لكل شيء، شامل لجميع مناحي الحياة، متضمن لمواد مختلفة في العقيدة والعبادة والمعاملات والأخلاق والقضاء والاقتصاد والسياسة ونظام الحرب والسلم.. المنهاج الذي لا يطلب منا أن نؤمن به نظريا وإنما يطالبنا أيضا بالتطبيق العملي.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ (البقرة:٨٢).

الكلمات الأربع الأولى من الآية (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مكررة في القرآن الكريم قرابة إحدى وخمسين مرة، مع عدد غيرها من الآيات الكثيرة التي تحث على العمل بمقتضيات الإيمان. ومادة العقيدة أو الإيمان أهم مادة فيه، لأنها تدعو إلى عبادة الله وحده، منذ خلق آدم -عليه السلام- إلى الآن، ومن الحاضر إلى المستقبل البعيد.. ما بعد الموت والبعث والنشور والحساب والجزاء والمصير.. من آمن به وجب عليه قراءته ودراسته والعلم به.

كلما ارتقينا في التطبيق زادت علاماتنا، وارتفعت بالتالي حسناتنا، وكنا من الفائزين.. هذا المنهاج يعرفنا به منزله جل جلاله بقوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ (إبراهيم:١).

- هذه المدرسة لها «دوام»، الدوام كامل خلال أربع وعشرين ساعة، في أوقات العمل والراحة والطعام والتنقل والتسوق واللهو وفي أي ظرف.. باستثناء ساعات النوم.

- لها «مدرسون» يعلمون الناس المنهاج بمجمله وتفاصيله، الرسل والعلماء العاملون والدعاة المخلصون، ومن سار على نهجهم في كل زمان ومكان.

- ولها «امتحان» في كل لحظة من ساعات كل يوم، والامتحان يقال له ابتلاء ويقال له فتنة، هذا الامتحان بين الإنسان وبين نفسه، وبينه وبين أهله، وبينه وبين زملائه، سواء كانوا زملاء عمل أم أصدقاء، وبينه وبين الناس في الطرقات، وفي أي مكان آخر، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾ (العنكبوت:٢).

- ولها «مراقبون للامتحان» قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ (ق:١٨)، ملك عن اليمين يسجل ما يتكلم وما يعمل من حسنات، وملك عن الشمال يكتب ما يتكلم وما يعمل من سيئات.

- أما «نتائج الامتحان» ففي نهاية العمر تجمع الحسنات جميعا والسيئات جميعا، فإما ناجح إلى الجنة.. وإما راسب إلى النار.. ومن تعادلت حسناته مع سيئاته يكرمه ربه فيدخله الجنة، الناجح يأخذ كتابه بيمينه والراسب يأخذه بشماله، أو من وراء ظهره ثم يقرأ كتابه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ (الإسراء: ١٤).

- وأخيرا «الحساب» وهو حساب عسير.. فلا يستطيع المحاسب الغش والخديعة والتحايل وسرقة المعلومات، ويتبرأ الذين اتبعوا قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ (المدثر: ٣٨).

ولا توجد وساطات: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ (طه: ١٠٩)، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ (المؤمنون: ١٠١).

- وأما «الشهادة» فليست لوحات تعلق على الجدران، وإنما بادية على الوجوه. ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ (آل عمران: ١٠٦-١٠٧).

احرص أخي المؤمن على أن تدرس المنهاج وتطبقه بشكل جيد، خاصة وأن المنهاج يتألف من مواد كثيرة تتناول شؤون الحياة جميعها.

(مادة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) هي أهم مادة، بها يتقرر مصير الإنسان.

ومن هذه المواد الهامة: الصلاة، الصيام، غض البصر، بر الوالدين، النصح للناس، مقاومة النفس الأمارة بالسوء، الأمانة، الصدق، طاعة الزوج واحترامه، التواضع وعدم الغرور، الحرص على الوقت، مسك اللسان عن الغيبة والنميمة، حفظ المال.. أي اتباع كل ما أحل الله واجتناب كل ما حرم.

تدرس وتعمل جيدا لكي تفوز وتنجح، وتحصل على مجموع حسنات أكثر من السيئات، بشرط ألا ترسب في أهم مادة (لا إله إلا الله) وطريق الفوز كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ (الأحزاب:٧١).

ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة (الوعي الإسلامي) على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة بضوابط التوثيق العلمي، فقد رأت المجلة أن تعيد التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقًا لما يلي من الشروط:



ما يتعلق بالكاتب

- أن يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته وأن تؤهله ثقافته للكتابة في الموضوع الذي يتطرق إليه .
- أن يرسل صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة لسيرته الذاتية.
- أن تكون المراسلات باسم رئيس التحرير.
- أن يكون العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس وضرورة إرسال البريد الالكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- أن يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- أن يكون المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- أن تكون الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة مخرجة.
- أن تكون المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية.
- ألا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، وأن يبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- أن تكون الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات مقرونة بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال منشورًا في الصحف والمجلات المطبوعة و الالكترونيه.

ملاحظة :

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.



نظم المعلومات.. والرقابة الشرعية في الشركات

د. سلطان السهو
دكتوراه في المحاسبة

يعد التطور الذي حدث في الشركات الإسلامية بالانتقال من الطرق التقليدية في العمل المحاسبي إلى الطرق الحاسوبية، تغييرا نحو الأفضل، سعت إدارة الشركات إلى تحقيقه، وصولا إلى تحقيق ما يعرف بالجودة الشاملة.

وتعد نظم المعلومات المحاسبية إحدى استراتيجيات التغيير التي تنتهجها إدارة الشركات، لتحقيق مستويات جودة أعلى في مستوى الرقابة الشرعية الداخلية.

ونظم المعلومات: هي مجموعة من العناصر المترابطة، والمؤلفة من الأفراد والإجراءات والآلات والمعدات التي تعمل على توفير المعلومات اللازمة للإدارة، للإسهام في عملية اتخاذ القرارات، وكذلك تعمل على تقديم المعلومات، كالمساعدة في إجراء العمليات اليومية، وتتكون من عدة نظم فرعية مرتبطة مع بعضها البعض، وتعمل على تزويد الإدارة والمستفيدين بالمعلومات اللازمة لاتخاذ القرارات، ومباشرة القيام بالمهمات المنوطة بها، كما تسهم في الرقابة الشرعية الداخلية.

وتعتبر بنية الرقابة الشرعية الداخلية خط الدفاع الرئيسي للوقاية من إعداد التقارير المالية المنحرفة، إذ تبرز أهمية الرقابة في أنها تكشف مواضع الخلل والضعف في تطبيق معايير المحاسبة والمراجعة والضوابط للمؤسسات المالية الإسلامية.

والرقابة الشرعية: هي عبارة عن فحص مدى التزام المؤسسة بالشريعة في جميع أنشطتها، ويشمل الفحص العقود والاتفاقيات، والسياسات المحاسبية والمنتجات، والمعاملات، وعقود التأسيس، والنظم الأساسية، والقوائم المالية، والتقارير، وخاصة تقارير المراجعة الداخلية.

هذا وعلى الرغم من دور المعلومات المحاسبية في تحقيق رقابة شرعية داخلية فاعلة في الشركات؛ فإن أهمية وملاءمة المعلومات تعد شرطا لتحقيق فاعلية الرقابة الشرعية الداخلية للشركات، مع ضرورة الاهتمام بالمعلومات الملائمة في عملية اتخاذ القرارات بدقة وسهولة، وسرعة كافية في عمليتي إدخال واسترجاع المعلومات، وتوفير قنوات اتصال تضمن فهم معايير المحاسبة والمراجعة والضوابط للمؤسسات المالية الإسلامية.



مكتبة السقاط..

وقف خيري في خدمة البحث العلمي

بشرى شاكر- المغرب

أنشئت مؤسسة محمد السقاط الخيرية في المغرب سنة ٢٠٠٥م كمؤسسة ذات منفعة عامة تعنى بالوقف الخيري الإسلامي، ولها العديد من المشاريع الخيرية، لعل أبرزها المكتبة الجامعية محمد السقاط بجامعة الحسن الثاني في الدار البيضاء.

«الوعي الإسلامي» زارت المكتبة للوقوف على هذا الصرح الثقافي والمعرفي الخيري، الذي يصب في مصلحة البحث العلمي والحفاظ على التراث.

وضع الملك محمد السادس حجر أساس المكتبة الجامعية محمد السقاط في أبريل ٢٠٠٦، وافتتحت ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٩، وقد بلغت تكلفة هذا المشروع قرابة ٥٢ مليون درهم.

وأسهمت مؤسسة السقاط في تجهيز المكتبة، التي تعد من أهم المكتبات بالمغرب، والتي تسعى إلى وضع رصيد وثائقي مهم رهن إشارة الباحثين والطلبة، من خلال «الرقمنة» الإلكترونية، فضلا عن صيانة التراث الثقافي للمملكة..

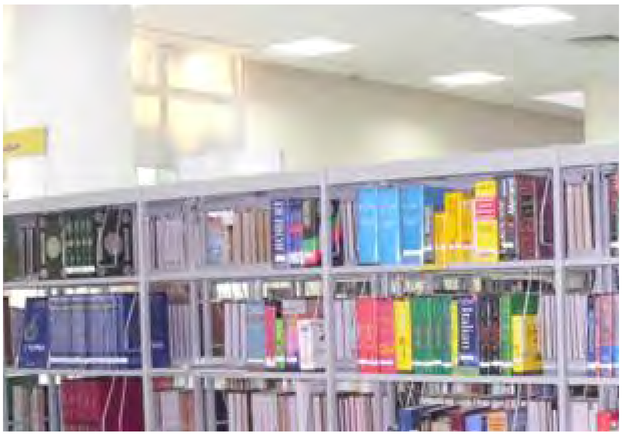
إلى جانب تبرع الحاج محمد السقاط- يرحمه الله- حسب وصيته بمخطوطات نادرة عددها ٥٥٠ مخطوطا، و٦٠٠ كتاب ومطبوع حجري ليتوغرافيا- وهي المخطوطات التي خصص لها جناح خاص وفقا لمواصفات ومعايير دولية- وبتكلفة بلغت مليون درهم؛ لضمان حفظ هذا الإرث التراثي النفيس.



بنيت مكتبة السقاط الجامعية بمواصفات عصرية على مساحة سبعة آلاف متر مربع، وتتألف من ستة طوابق، يضم كل واحد مجالا معرفيا وعلميا معينا.

وتحتوي المكتبة الجامعية على أربعين ألف وثيقة، وخمسة عشر ألف مجلة إلكترونية، إضافة إلى أكثر من ١٠٠ قرص مدمج، وقسم خاص بالإعلام والصحافة، يضم عناوين متنوعة من المجلات والجرائد العربية والأجنبية، وعشرة آلاف مؤلف مطبوع بطريقة برايل لفاقدي البصر.

كذلك تضم قاعات للمطالعة ١٢٠ مقعدا مجهزا بأحدث المصادر والمراجع التي تغطي جميع ميادين





المعرفة في الدين والشريعة.. من لغات وآداب وعلوم وفن واقتصاد وقانون وغير ذلك.

بالإضافة إلى قاعة مجهزة بأحدث الوسائل المرئية والسمعية عالية الجودة، تتسع لأكثر من ١٥٠ شخصا، صممت لاستضافة اللقاءات والندوات والملتقيات الوطنية والدولية؛ بغرض الإسهام في تطوير البحث العلمي في المغرب.

هناك أيضا قاعات التكوين الوثائقي، حيث يركز نشاطها على البحث في قواعد المعطيات الإلكترونية والتعامل مع أحدث مصادر المعلومات المرجعية.

وفي المكتبة فضاء خاص بالحاج محمد السقاط، وهو رواق يضم مكتبه وكرسيه الخاصين، ومجموعة كتب أيضا، وقاعة للاجتماعات، وقاعة للندوات والمحاضرات، وبعض صور له كذلك.

وقالت مديرة المكتبة سناء الدكالي: إن جميع أجنحة المكتبة مفتوحة أولا لطلبة جامعة الحسن الثاني بمؤسساتها الثمانية وهي: كلية الحقوق والاقتصاد، كلية العلوم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، كلية الطب والصيدلة، كلية طب الأسنان، المدرسة العليا للأساتذة، مدرسة المهندسين، المدرسة العليا للتكنولوجيا.

رواج منقطع النظير

وأبدت الدكالي سرورها الواضح لكون السنة الجامعية ٢٠١٢-٢٠١٣ لقيت رواجا منقطع النظير، ففي خلال ثلاثة أشهر فقط، ارتفع عدد المسجلين في المكتبة إلى ٥٠٠٠ طالب، وهو رقم كانت المكتبة تسجله خلال عموم السنة، بامتلاء ٩٠٠ مقعد للجلوس في المكتبة بأكملها طيلة الأسبوع، كما أن المكتبة تتلقى ٦٠٠٠ زيارة أسبوعيا، كما أكدت أن هناك زوارا للمكتبة من أبعد المدن المغربية.

عالم المشاريع والمقاولات

وأوضحت الدكالي أن المكتبة لها بعد اجتماعي واقتصادي أيضا، من خلال انفتاحها على عالم المقاولات والمشاريع، ولذلك فهي تستضيف بشكل دائم مركز المقاولين الشباب ومركز مقاولاتي، وتهدف هاتان المؤسستان- من خلال وجودهما داخل المكتبة الجامعية- إلى المشاركة في تعزيز العلاقات التي تربط بين الجامعات والمقاولة، وحث الخريجين على إحداث مقاولات شابة، ومساعدتهم في فهم آليات الاستثمار في مجالات تخرجهم.

أما عن الجديد لهذا الموسم، فتقول الدكالي: إن المكتبة أبرمت شراكة مع المكتبة الوطنية للمملكة المغربية؛ من أجل «رقمنة» جميع مخطوطات الحاج محمد السقاط، بما فيها المخطوطات الحجرية، وهو ما تم بالفعل بنسبة مائة بالمائة، ولم يتبق إلا وضع الآليات لإيداعه الموقع الرسمي للمكتبة، وهكذا يمكن لجميع الباحثين والطلبة مراجعة هذه المخطوطات النادرة بشكل واضح وكأنه يراها أمامه.

البوابة الإلكترونية

بوابة المكتبة الإلكترونية تسمح للباحث بالاطلاع على فهرس كل الكتب والمخطوطات الموجودة من بيته أو مقر عمله، من خلال برنامج بروكسي دون الوجود بالمكتبة.

وتنظم المكتبة مجموعة لقاءات وندوات حول مواضيع معاصرة وأكاديمية في نفس الوقت، تخص جميع الاختصاصات، كما تنظم ورشات تكوينية لتسهيل اعتماد البرامج الرقمية للباحثين، من أرشيف وبحث عن المراجع إلى غير ذلك.

هذه المبادرة الخيرية التي أثمرت وقف المكتبة الجامعية محمد السقاط، هي عمل نموذجي لصيانة التراث الفكري والعلمي، كما يعد تعريفا وامتدادا للحضارة المغربية وكذا الأندلسية.. ولذلك فإنها شجعت أشخاصا آخرين على عدم الاحتفاظ بكنوزهم التراثية ومخطوطاتهم حبيسة خزانات شخصية، وإيداعها في مكتبة السقاط؛ لتمكين عموم الباحثين من الاستفادة منها.

لهذا قام بوشعيب فوقار، وهو عامل مقاطعات الحي الحسني بمدينة الدار البيضاء، بالتبرع بالرصيد الوثائقي لمكتبته الغنية لفائدة المكتبة الجامعية، وقام بالمثل عبدالسلام المنصوري، وهو مستشار سابق بالمجلس الأعلى للقضاء، إذ تبرع بمجموعة نادرة من المخطوطات والكتب أيضا.

الخروج من الورطة التربوية

عبدالرحمن ضاحي
باحث تربوي

كان يحفظ ولده القرآن، وفجأة أصابته الحيرة عندما سأله الولد عن معنى «ولا يزنون».. نزل عليه السؤال كالصاعقة، كيف يجيب عن هذا السؤال طفلا لم يتجاوز عمره التاسعة.. أيزجر الولد عن ذلك التساؤل، أم يتجاوزه ويغير الموضوع ويلفت انتباهه لشيء آخر؟!.. وحتى لو شرح له الأمر.. كيف سيدرك ابن التسع سنوات ذلك الأمر المعقد، وهل إدراكه لمثل هذا الأمر سيضره، حيث إنه علم ما لا يعنيه أم سينفعه حيث إنه علم سر الحياة؟!..

أسئلة أبنائنا المحرجة الخاصة بالجنس موقف تعرض له أغلبنا، وسوف يتعرض له الكثير أيضا.. ولعلها تطرح كسلوك طبيعي وفطري من الأولاد نظرا ليقظة عقولهم. وانتباهنا للتربية الجنسية الصحيحة يوفر علينا مزيدا من الإحراج والارتباك وتفادي المشاكل التي من الممكن أن يقع فيها الولد نتيجة لإهمال تلك الجزئية المهمة في عملية التربية.

تعريف التربية الجنسية

«هي المعلومات المتعلقة بالجنس وتتصل بالغريزة وترتبط بالزواج، التي يجب مصارحة الولد بها في إطار قيمي وأخلاقي وشرعي، وبطريقة مناسبة لعمره، لبناء قواعد صحيحة تضمن صحة تعامله مع الأمور الجنسية بطريقة سليمة».

أو «إمداد الفرد بالمعلومات العلمية، والخبرات الصحيحة، والاتجاهات السليمة، إزاء المسائل الجنسية، بقدر ما يسمح به النمو الجسمي الفسيولوجي والعقلي الانفعالي والاجتماعي، وفي إطار التعاليم الدينية والمعايير الاجتماعية والقيم الأخلاقية السائدة في المجتمع؛ مما يؤدي إلى حسن توافقه في المواقف الجنسية، ومواجهة مشكلاته الجنسية مواجهة واقعية، تؤدي إلى الصحة النفسية».

أهمية التربية الجنسية

تكمن أهمية النشأة المعرفية الصحيحة عن الجنس وأموره في تأسيس قواعد وتصورات صحيحة تجنب الولد الوقوع في انحرافات أو أذى أو اعتداء، كما تجنبه أن يكون فريسة للمعلومات المشوهة التي من الممكن أن يستقيها من مصادر غير مسؤولة وخاطئة تزيد هذا الأمر تعقيدا وتضلل الولد.

فعلى المستوى الشخصي قابلت من الشباب من لا يعلم شيئا عن الاستحداد، وقد وجب عليه منذ سنين، وآخر عندما احتلم أراد الذهاب للطبيب! وثالث لا يعلم معنى الجنابة ولا كيفية التطهر منها، بل ورابع اتصل بي مصدوما حينما علم من صديقه عن كيفية الاتصال الجنسي الذي به يكون الولد.

«إن عدم توعية الولد لنموه الجسدي وتطوره خاصة عندما يصل لمرحلة البلوغ قد يجعله فريسة للمعلومات الخاطئة المشوشة التي قد يسمعها من الآخرين أو الخرافات والأوهام، وقد يعرضه أيضا لاستغلال من يتعرض له بالأذى أو الاعتداء.. لم يعد هناك أي مكان في وقتنا الحاضر للتحفظ على نقل المفاهيم الجنسية الصحيحة لأولادنا؛ لأننا إذا لم نقم بذلك، فهناك أسئلة ملحة في عقولهم يجب أن يجاب عليها، وهناك مساحات واسعة في نفوسهم يجب أن يملأ فضولها» (ألف باء الحب والجنس، د.ليلى الأحدب).

كما أن الواقع الذي نحياه في ظل التقدم التكنولوجي المخيف يفرض علينا تحديا صعبا، فبضغطة زر واحدة يكون الولد في وسط العالم بكل سهولة ويسر تتلقفه أمواج الفساد، وإن لم يكن محصنا ضدها فسيغرق في إحداها والعياذ بالله.

كيف تعامل الإسلام مع الجنس؟!

اشتمل القرآن الكريم على تفاصيل الحياة عموما ولم يسقط منها شيئا، ومن الأمور التي شملها الأمور المتعلقة بالجنس وأحكامه.

يقول الدكتور عبدالله ناصح علوان في كتابه تربية الأولاد في الإسلام أنه «يجوز للمربي أن يصارح ابنه أو ابنته في القضايا التي تتعلق بالجنس وترتبط بالغريزة، بل أحيانا تكون المصارحة واجبة إذا ترتب عليها حكم شرعي».

ويضيف «إن طمس معاني هذه الآيات القرآنية يتنافى مع التربية الإسلامية القويمة، ويتناقض مع شمولية الإسلام وعظمته ومراعاته للفطرة، أما إذا تم شرحها للناشئ بأسلوب قريب لفهمه وإدراكه، وملامس لحياته في فطرته، فإن هذه الثقافة الجنسية لها ثمرات كريمة بأن تعلي من شأن دينه وصلاحيته لكل زمان ومكان».

فديننا في التعامل مع الجنس وسط بين الإباحية البغيضة والكبت المرض، فالجنس في حياة الإنسان المسلم غريزة وفطرة وضرورة

لاستمرار الحياة يحكمها إطار شرعي وأخلاقي، وهو ليس أمرا سيئ الذكر أو قذرا.

إرشادات تربوية

١- تعويد الولد أصول الاستئذان على الأهل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ ﴾ (النور: ٥٨)

٢ – يجب على المربين والآباء والأمهات تعليم الولد الأحكام الشرعية التي ترتبط بميله الغريزي قبل أن يشرف على البلوغ وينضج جنسيا. كما يجب تعليمه أحكام الاحتلام، وكيفية التطهر من الجنابة، والفرق بين المني والمذي والودي، إضافة إلى سنن الفطرة المتعلقة بهذا الأمر، كالاستحداد ونتف الإبط. كما أن الفتاة يجب أن تصارحها أمها بأمور الاحتلام والحيض وأحكامهما الفقهية. وهنا أمران يجب الإشارة إليهما:

أولهما أن المصارحة بتلك المعلومات يجب أن تكون قبل حدوثها، كي لا يتعرض الولد أو البنت إلى صدمة من رؤية هذه التغيرات ويقدرها تقديرا خاطئا، فكم من ابن ظن أن احتلامه مرض! وكم من بنت ظنت أن حيضها نزيف!

ثاني إشارة هي إدراج النصوص الشرعية اثناء شرح هذه المعلومات، لكي تصل إلى ذهن الأبناء على أنها فطرة الله، وإخراجها من دائرة «العيب» و«الحرام».

«فالتربية الجنسية للطفل يجب ألا تترك للصدفة، بل لا بد أن تبدأ في المنزل وتستمر في المدرسة، وعندما يكبر الطفل ويصبح في مقتبل سن المراهقة تعطى له معلومات واضحة عن الجنس السليم ومخاطره إذا انصرف الفرد وانساق وراء نزواته» (التربية ودورها في تشكيل السلوك، د.مصطفى محمد الطحان).

فيجب التوعية ضد الانحرافات الجنسية وأضرارها وأحكامها، فذلك يعد من أعظم الوسائل الإيجابية للبعد عن هذه الانحرافات، فالوقاية خير من العلاج.

٣- يجب فتح الطريق أمام الولد ليطرح أسئلته، وعدم إشعاره أن مجرد السؤال في تلك الأمور من باب العيب أو الحرام، كي لا نزيد علامات الاستفهام حول تلك المنطقة في ذهنه، فيحاول استقاء معلوماته من جهات مغلوطة، فـ«حاول ألا تعطيه انطباعا أن الأمور الجنسية أمر معيب بالضرورة، أو تعطيه الانطباع أنك لا تسمح له بالحديث في مثل هذه المواضيع. وحاول أيضا من طرفك أن تتكلم معه بالطبيعة التي تتكلم معه بها في قضايا الحياة الأخرى» (ألف باء الحب والجنس، د.ليلى الأحدب).

كما يجب الإجابة على كل أسئلة الولد المحرجة التي يطرحها، وعدم التهرب منها بإجابات غير صحيحة لا تزيد الأمر إلا تعقيدا مثل «وجدناك على باب المسجد» وما شابهها. والمصارحة تكون حسب العمر والاستيعاب، فعند سؤاله عن كيفية وجودنا في هذه الحياة، من الممكن تقريب الأمر له عن طريق شرح طريقة التلقيح في النبات، وأنه لا ثمرة بغير تلقيح كما أنه لا حمل إلا بهذا الاتصال الجنسي، ووضع الأب بذرة تجعل الطفل ينمو في بطن الأم، وهكذا حتى تكمل عنده الصورة. فحاول قدر استطاعتك أن تكون إجاباتك بسيطة ومباشرة وصحيحة غير معقدة.

٤ – هناك خطأ يرتكب من قبل الوالدين في اعتقادهما أن تلك المعلومات تعطى للولد على دفعة واحدة، لكي يتم الانتهاء من هذا الواجب المزعج. والأمر الصحيح أنه يجب إعطاء الولد المعلومات على دفعات بطرق متعددة، فتارة من كتاب، وتارة أخرى من درس في المسجد، وثالثة من الأهل، كي تترسخ في ذهنه تدريجيا، ويتم استيعابها وإدراكها بما يواكب نموه وعقله.

وأخيرا وليس آخرا

التحفظ والكذب في الإجابة على استفسارات أبنائنا لم يعد لهما مكان في قاموس التربية في الوقت الحاضر، لا سيما في ظل الانفتاح الذي نحياه، فالأسئلة الملحة تدور في عقولهم، وهناك مساحات واسعة في نفوسهم يملؤها الفضول، فالواجب أن نتجنب في تربية أولادنا تلك الثغرات قدر المستطاع.





أسرتك سر سعادتك

د/ خالد سعد النجار
استشاري طب الأطفال

من منا لا ينشد السعادة في الدنيا والآخرة؟ ومن منا لا يسعى إليها سعيا حثيثا؟ كل حسب رؤيته وميوله وقدراته ورغباته.. فهذا سعيه للمال، وذاك سعيه للجاه، وآخر سعيه لانتهال اللذات، والكل يغدو ناشدا السعادة والهناء، وفق من وفق، وخاب من خاب.

لكن أي قيمة للسعادة بعيدا عن منزل هادئ نظيف، وزوجة رائعة طيعة، وأطفال تتدفق البراءة منهم كتدفق قطرات الماء العذب في جدول الربيع؟.. هل يمكن لنفس سوية أن تستشعر السعادة وسط ضجيج الأسواق وتوتر البورصات ومعارك النفوذ والمناصب وصخب السهرات والانغماس في الملذات دون حسيب ولا رقيب؟!.

إن السعادة لا تعني إلا السكن والاسترخاء بعد يوم كد وعمل، والسعادة لا تزيد عن رغبة ملحة في العودة لرحاب أسرة يتوقف في أجوائها ضجيج الحياة وعنف الانفعالات ومعاناة التوترات، والسعادة هي السكن والمودة والرحمة الزوجية التي جعلها الله تعالى آية من آياته، فقال جل ذكره ممتنا على عباده: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:٢١).

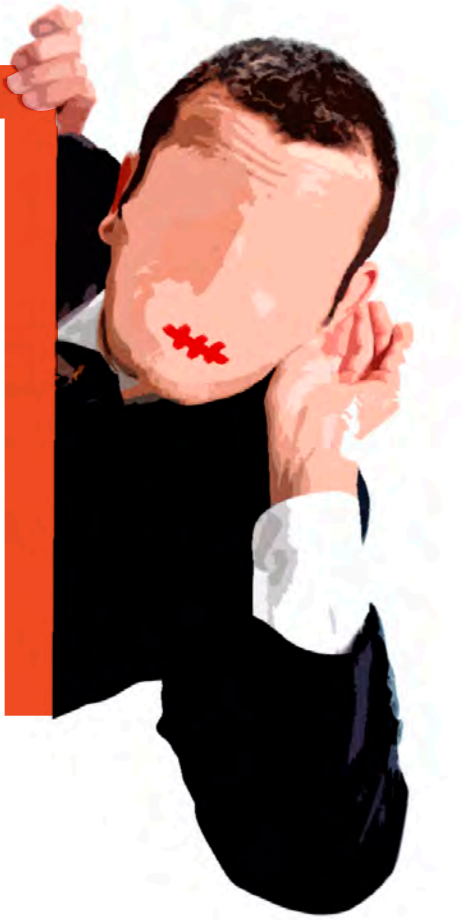
قال المفسرون: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ والسكن إلى شيء هو نقيض التحرك، والمعنى: إنكم تتحركون من أجل الرزق طوال النهار، ثم تعودون للراحة عند زوجاتكم، فالرجل عليه الحركة، والمرأة عليها أن تهيئ له حسن الإقامة، وجمال العشرة، وحنان وعطف المعاملة. فالمسؤوليات موزعة توزيعا عادلا، فهناك حق لك هو واجب على غيرك، وهناك حق لغيرك وهو واجب عليك.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ بعد أن لم يكن سابقة تعارف يوجب التواد، فالزوجان يكونان من قبل الزواج متجاهلين فيصبحان بعد الزواج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل الزواج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة.

ويقول الشيخ محمد عبده عن الزوجة: «وهي منه بمنزلة البعض من الكل، وألزم له من الظل، وصاحبته في العز والذل، والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه».

والمودة من أبواب المحبة التي تتضمن التمني مع اتخاذ الأسباب الموصلة إلى المحبوب، وعلى العكس، فهروب الزوج من عش الزوجية لابد أن يكون له من الأسباب والمبررات ما يقض مضجعه ويذبح سكينته، فيجد نفسه مضطرا لأن يبحث عن سعادته وراحته في موطن آخر غير القفص الذهبي والعش الوردي. منهم من يبحث عن السعادة على المقهى أو في النادي أو في دور السينما، ومنهم من يهرب هروبا داخليا فيدمن الجلوس على الإنترنت أو أمام شاشات الفضائيات،

ويكون «الحاضر الغائب».. حاضرا بجسده غائبا بروحه وفكره.
لكن يبقى للروتين الزوجي العامل الأكبر في هروب السعادة الزوجية، ومحاولة كل طرف بالبحث عنها خارج إطار الأسرة وهيهات أن يجدها.. إن النفس ملولة وتعشق التجديد، ورتابة الحياة الزوجية لا تروق لها بحال من الأحوال، وإن للزوجين دورا في ترسيخ هذه الرتابة بين جنبات المنزل عندما يتخلى كل واحد منهما عن محاولة إنعاش الأحداث، وتجديد المواقف، وإعادة ترتيب العلاقة بينهما.
فكما أن من مسؤوليات الزوجية توفير متطلباتها واحتياجاتها المادية، أيضا من متطلباتها الحفاظ على أجواء الود والتآلف، فالزوج عليه أن يخرج عن نمطيته المعتادة بإشاعة جو الدعابة من حين لآخر، والخروج للتنزه سويا، ولا ننسى أيضا جلسات تعليم الصغار أمور الحياة التي يتخللها مواقف اللطف والمرح، كتعليم الأطفال الوضوء أو الصلاة أو فنون الرياضة والإنشاد بصورة عملية أمام أفراد الأسرة، فضلا عن المسابقات والقراءة مع الصغير ومطالعة المجلات المصورة والفضائيات الهادفة مصحوبة بالتعليقات من كافة الأطراف.
إن اقتطاع رب الأسرة جزءًا من وقته خاص بأسرته يطرح فيه التكلف الزائد والأوامر الصارمة كفيل بأن يدعم جسور التواصل، ويملأ أركان البيت بالبهجة والسعادة، بل ويحسن من مزاجه النفسي، ويحرره من ضغوط الحياة التي لا تنتهي.
أما الزوجة فنكاد نجزم بأن جل مفاتيح السعادة الزوجية بيدها، بحكم أنها ربة هذا المنزل وقيمته، والمسؤولة عن كل كبيرة وصغيرة فيه، وبحكم أنها رئيسة «الجبهة الداخلية» في الحياة الزوجية.
إن اعتناء الزوجة الزكية بمظهرها وجوهرها له بالغ الأثر في استقرار حياتها الزوجية، فضلا عن نظافة بيتها وإعادة ترتيبه كل فترة لإضفاء شكل جديد عليه يقتل النمطية التي تصيب الأبصار بالسآمة والملل، والزوجة الذكية تحسن السيطرة على مفاصل بيتها، وضجيج صغارها، خاصة وقت تواجد الزوج المتعب الذي ينشد الاسترخاء والراحة.. إن أهم ما يؤثر في الزوج ويجعله أسير الحياة الزوجية أن يحوز الاهتمام الكافي من قبل الزوجة التي تنجح في إضفاء وضع خاص للمنزل عند عودة الزوج المتعب المكدود من عمله، وهذا يشمل جهوزية الطعام الذي يحبه، واختفاء ضجيج الأطفال عبر وسائل أعدتها الزوجة مسبقا كجلوسهم حول برامج الكمبيوتر الهادفة، أو الأفلام التربوية الشيقة التي تحجم من فرط حركة الصغار لحظة راحة الزوج واسترخائه.
ومن الأمور التي تروق للزوج «المبادرة بتلبية رغباته» حتى قبل أن يطلبها بلسانه، كسرعة إعداد الشاي بعد الغداء، أو تقديم الفاكهة التي يحبها، أو توفير الجريدة التي يفضل قراءتها، أو اختيار القنوات التي تروق له.. مما يشعره بأنه سيد مطاع، وضيف مرغوب في قربه وتواجده، فالحب ما هو إلا تعبير وتطبيق، ونكران الذات في سبيل راحة المحبوب، وأحب شيء للرجل هو شعوره بأن له مكانة خاصة في قلب زوجته وحياتها، وأنها تبذل كل هذا الود والاهتمام تقديرا لجهده وامتنانا بفضله.
أما السياج الآمن الذي يجعل زوجك أسير منزله، وسعيد زمانه، فهو مشاركته في هواياته والأنس به في حواراته، وفتح قلبه لك في جلسات ودية حميمة يبوح كلاكما بمكنونات صدره وسوانح أفكاره وآرائه وطموحاته. والنبي العدنان ﷺ - بأبي هو وأمي- سابق عائشة فسبقته وسبقها، وحاورها وحاورته في جلسات ودية تمثل نموذجا راقيا لمن ينشد السعادة الزوجية.
كما أن الزوجة الذكية تعرف كيف تتحاور مع زوجها ومتى، واللحظة التي عندها تطلب أو ترفض أو تخالف أو تعترض.. كل هذا من واقع معرفة وخبرة جيدة بمزاج زوجها ومداخل شخصيته وما يحب وما يكره.
ورغم أن العيوب البشرية تتفاوت، لكن الزوج يهرب بالأخص من الزوجة الثرثارة والنكدية والجريئة في علاقاتها الاجتماعية والمبذرة والفضولية والشكاية والمغرورة والمهملة والعنيدة.
أما الزوجة فتنفر من الزوج البخيل والأناني والمتسلط والمطلاق والغضوب والمنحاز لأسرته بشكل جائر والمدخن وأسير النزوات والغيور المفرط والشكاك والمستهتر.
وكل هذه التوجيهات لا تعني بالضرورة أن يكون الرجل حبيس بيته قد سيطرت زوجته على دقائق حياته، بل معناه حرص كل طرف على أن يجعل حياته الزوجية قبلته التي تصبو نفسه إليها، ويجد عندها سكينته وراحته، وهذا لا يمنع إطلاقا من العلاقات الاجتماعية والأنس بالأصدقاء والأقارب والجيران، فالإنسان مخلوق اجتماعي بطبعه، لكن في الاعتدال السلامة، وما أجمل أن نعيش الحياة كاملة بوسطية لا إفراط فيها ولا تفريط، وما أبشع أن يصير البيت أتون نار تغلي فيه عواطفنا ومشاعرنا، ونهرب من جحيمه بحثا عن السعادة في الطرقات.
وأخيرا، ينبغي للزوجين أن يكونا على قناعة تامة بأن الهناء الأسري نعمة وفرصة ربما لا تمنحها الأقدار على الدوام، ولذلك فالتمتع به والارتواء من نبعه عين الكياسة، والحفاظ على أسبابه من مقتضيات التعقل والفطنة، بل إن من دوام استمرار النعمة شكر المنعم، فليتدارك كل منهما نفسه، ويصحح مساره كي تدوم أسباب الوصل، ويستمتع بمباهج حياة أسرية مستقرة بدلا من النفرة التي لا مبرر لها على الإطلاق.



الخادمات وأسرار البيوت

القاهرة : منير أديب

خادمة مصابة بداء التلصص وثانية تكشف الأسرار للجيران وأخرى: لا أسمع لا أرى لا أتكلم

تستمع الخادمة أثناء تنقلها في غرف المنزل للأحاديث التي تدور بين أفراد العائلة الواحدة دون تحفظ، وتتعرف من خلال تعاملهم مع بعضهم على طبيعة العلاقة بينهم، وتكشف من خلال مكالماتهم ما يدور في حياتهم من أسرار، وتتعامل الخادمة في العادة مع كل ما تحصده من معلومات بأساليب مختلفة، تتفاوت بين البوح بها لخادمة أخرى، أو الوشاية بها للزوجة أو الزوج لإثارة المشاكل أو المساومة عليها مع أي فرد من أفراد العائلة، كي لا تخبر بها أحدا، ولهذا أثر عكسي لا يدركه البعض.

نتعرف من خلال هذا التحقيق على طبيعة تصرف الخادمة عند سماعها لسر من أسرار العائلة، وطبيعة المشاكل التي تتعرض لها بعد الحديث عن هذه الأسرار مع الغير، والطريقة التي تحافظ بها الزوجات والأزواج والأبناء على أسرارهم، وهل يزعجهم الاطلاع على أسرارهم، فإلى نص التحقيق:

تقول أم حسن: أعمل خادمة منذ ٢٠ عاما، ولذلك أستطيع أن أقدر حساسية ما تعرفه الخادمة، ورد فعل الأسرة في حال استخدمت هذه الأسرار في الحديث مع الآخرين.

ثم تضيف: من عشر سنوات كنت أحكي بفطرتي مع خادمة أخرى في المنزل المجاور عن أمور تتعلق بمن أعمل معهم، فأفضت هذه الخادمة بهذه الأسرار للجيران، فحدثت مشكلة كبيرة، وعندما علموا أنني من سربت هذه الأسرار كانت النتيجة طردي من العمل عندهم.

وتضيف: الأمر كان جد خطير؛ حيث كان أحد أفراد العائلة متقدما لخطبة ابنة العائلة الثانية وقد نوى فسخ الخطبة، فعندما تسرب الخبر أثار أزمة بين الأسرتين قبل أن تفسخ الخطبة.

تقول محاسن عمر: أعمل «وأذن من طين وأخرى من عجين»، كما يقول المثل الشعبي، حتى لا أقع في فخ القيل والقال، وبالتالي لا أسمح لنفسي بمجرد استخدام هذه

المعلومات حتى بين أفراد الأسرة.
وتضيف: إن هذه الطريقة تحفظ لي استمراري في العمل، ولذلك أنا أعرف أشياء كثيرة من الأولاد والأحفاد وعن الزوج والزوجة لا يعرفونها عن بعضهم البعض، وهم يأتمنونني عليها.
ثم تقول: كل أفراد الأسرة يعرفون ذلك، فكلهم يصبون أسرارهم عندي وأنا أرفض أن أفصح عن أسرار بعضهم للبعض الآخر سواء داخل البيت أو خارجه.
تقول حلاوتهم أبو فايق: نقابل نماذج كثيرة من أسر نضطر أن نتعامل معها بشكل مختلف، فأنا أعمل لدى أسرة مفككة عن بعضها البعض، ولذلك عندي أسرار كثيرة، أكون مضطرة لاستخدامها عندما أجد بعضهم يتجاوز معي في علاقته.
وتضيف: أنا مضطرة للحفاظ على لقمة العيش، فأنا لا أريد ترك العمل ولا أسمح لأحد بالتعامل معي بطريقة سيئة، ومعها أضطر مرغمة لمساومته على أسراره وتهديده مثلا بفضح أسراره لوالده، وكذلك أقوم بتهديد الزوج بفضح أسراره لزوجته.
وأردفت: هذه الطريقة لا أستخدمها مع كل البيوتات التي أعمل فيها، لأنها قد تأتي بنتيجة عكسية تكون نتيجتها الطرد من البيت الذي أعمل فيه.
يقول إمام عمر، طبيب: مشكلتي الوحيدة في الخادمة، فهناك نوعان من الخادمات، واحدة تتلصص والأخرى تتعرف على أسرار البيت بحكم وجودهن المستمر، وكلاهما خطر لأثره السلبي على الأسرة بأكملها.
ويضيف: هناك خادمات سيئات للغاية، أكون مضطرا في كثير من الأوقات للاحتفاظ بهن، حتى أحتفظ بالأسرار التي حصلن عليها بفعل وجودهن المستمر في المنزل.
وأفاد أنه قد يضطر لطرد بعض الخادمات لنفس السبب من البيت، عندما يحاولن السير في طريق الابتزاز، أو يقمن بتسريب هذه الأسرار لخادمة أخرى في مكان آخر، فوجود هذا النوع خطر على الأسرة بأكملها، والتخلص منه مطلوب بأقصى سرعة حتى لا تتفاقم المشكلة.
تقول كريمان صادق، مدير بنك: حاولنا معالجة قصة الأسرار التي قد تطلع عليها الخادمة بأننا حددنا لها مواعيد، وأبلغنا بعضنا داخل الأسرة بهذه المواعيد، وحذرنا الجميع أن يصدر من أي منا ما يجعلها تعرف أكثر عن الأسرار.
وأضافت: إنها تختبر أي خادمة تعمل عندها، وأول اختبار يتركز في فكرة الحفاظ على الأسرار ومدى حرصها على معرفة أسرار العائلة، خاصة أن هناك خادمات مصابات بداء التلصص على من يعملن عندهم، لمجرد أنهن يردن معرفة أخبارهم.

اختبارات نفسية

يقول الدكتور، أحمد عكاشة، الخبير النفسي: لابد أن يدرك رب البيت أن هناك أسرارا قد تتسرب إلى الخادمة مهما كان حريصا، ومهما كان البيت منضبطا في انفعالاته، ولذلك من المهم اختيار الخادمة بعناية شديدة، وأن تخضع لعدة اختبارات للتأكد من مدى التزامها بأسرار البيت.
وأضاف: هناك أضرار نفسيه تقع على الأسرة جراء خوفها من وجود خادمة قد تنقل الأسرار، وإذا حدث ونقلت الخادمة أسرار البيت، فإن ذلك يسبب مشكلة في التعامل معها، وقد يسبب لها مشكلة في استمرارها في العمل من الأساس.
وذكر أن هناك نوعية من البشر تحب دائما الاحتفاظ بأسرارها حتى عن أقرب الناس إليها، وهذه النوعية عندها مشكلة في استمرار الخادمات في العمل، لأنهن يصلن إلى أسرار بدون قصد بحكم وجودهن وقتا أطول في البيت.
ولفت، إلى أن الضرر النفسي الذي يقع على الأسرة عندما تكتشف الخادمة سرا من أسرارهم أنهم يشعرون أنهم مقيدون وأنهم يقعون تحت رحمة الخادمة حتى لا تفضحهم أو تلوك ما توصلت إليه بدون قصد..
ومن هنا تتغير المعاملة.. فهناك من يتعامل مع الخادمة قبل أن تخرج أسراره بطريقة سيئة، ثم يضطر بعد ذلك للتعامل معها بطريقة أفضل، والعكس صحيح.
تقول الدكتورة، حنان زين، مدير مركز السعادة للاستشارات الأسرية: لابد أن تنتبه الأسرة جيدا للخادمة لأنها قد تسبب للأسرة أزمة كبيرة، فتقلب أفراد العائلة على بعضهم، وقد تنقل أخبار البيت لخارجه.
وأضافت: بعض الأسر قد تبذل مجهودا في اختيار خادمة جيدة بينما تنسى هذه الأسر الانشغال بأمر آخر أكثر أهمية، ألا وهو حفاظ الأسرة على أسرارها، لأن الخادمة في النهاية بشر قد تستخدم وتستغل هذه الأسرار بشكل غير لائق.
وأضافت: قد يكون استخدامها للأسرار بابتزاز الأقل سنا في الأسرة، حتى لا تسرب هذه الأسرار للوالدين، فتعلمهم الكذب والنفاق وصفات سيئة أخرى، وبالتالي فالأفضل هو الحيطة.
وأنهت كلامها بالقول، إن تحقيق ذلك يكون من خلال إبلاغ الأسرة بعدم كشف أي معلومة أمام الخادمة، وتخصيص غرفة تكون موجودة فيها طيلة الوقت، أو تحديد أوقات للعمل لا تكون موجودة في غيرها، حتى يتلافى أفراد الأسرة فكرة معرفتها لأسرارهم.

د.عكاشة: لابد أن تخضع لدراسات نفسية قبل قبول طلبها للعمل

التدرج الهرمي للعنف الأسري.. المشكلة والعلاج



كمال عبدالمنعم
باحث في الشؤون الأسرية

الأسرة معناها في قاموس العربية: الدرع الحصينة، وهي المجموعة التي يربطها رباط وثيق لدرجة «الأسر»، وهو ما اشتق منه لفظ الأسرة أيضا، فكل فرد فيها لابد أن يلتزم التزام الأسير تجاه آسره، والآسر هنا ليس عدوا في حرب، وإنما القيم الفاضلة والمثل العليا التي أرشدنا إليها الكتاب والسنة في ديننا الإسلامي الحنيف.

ونبت الأسرة من بدايته- أعني الزوجين- قام على أساس من الحب والود والقبول المتبادل، ليحقق أركان الأسرة الناجحة التي بينها الله تعالى في قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم: ٢١)، وأكدت الأحاديث الشريفة على تلك الأركان، وما يوصل إليها، روى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»، ولكن مع مرور بعض الوقت- قد يطول أو يقصر- من هذه الحياة الأسرية، نجد المشكلات تطفو على سطح تلك الحياة، وغالبية تلك المشكلات قد تكثر في أول سنة من هذا الزواج، ويرجع ذلك إلى أسباب، منها اختلاف طباع الزوجين اللذين لم يتوافقا بعد لقصر المدة التي جمعتهما، وقد يكون الخلاف بسبب مشكلات عالقة بينهما لم يتم حسمها قبل إتمام عقد الزواج، كعمل الزوجة مثلا، ومخالطة الزوجة لأهل الزوج في المعيشة من عدمه، وزيارة الزوجة لأهلها، وتوقيت ذلك، وكيفية إدارة الشؤون الاقتصادية لتلك الأسرة الوليدة، وغير ذلك مما يجدّ من أحداث قد تحتاج إلى المشورة من كلا الطرفين وإبداء الرأي، ويمكن أن يكون هناك طرف ثالث سوى الزوجين يُسهم في ظهور تلك المشكلات، ويكاد يتفق الجميع على أن الحماة (أم الزوج أو أم الزوجة) لها النصيب الأكبر في إذكاء روح الشقاق والخلاف في كثير من الأسر في مجتمعنا، ونتيجة لكل هذا يبدأ سلوك جديد في الطفو على سطح هذه الحياة الأسرية، ألا وهو سلوك العنف الذي قد يكون من طرف واحد، وفي الغالب يكون من الرجال، أو قد يكون متبادلا من الطرفين، حسب طبائع الأشخاص وما جبلوا عليه.

وإذا كان الكلام على العنف تحديدا في هذه السطور، فإنه يبدأ بالكلام الخشن، والوجه العبوس، والصوت العالي الذي يتبادله الزوجان، أو قد تكون الغلبة لأحدهما، ويتطور بعد ذلك إلى الشتم والسب واللعن والإهانة والإحراج، كل هذا في نطاق منزل الزوجية الذي قد يسمع به أهل الزوجين، أو ينجح الزوجان في جعله داخل جدران بيت الزوجية، وإن تم الأمر الأخير، فإن حل هذا الإشكال يكون سهلا، والعودة إلى الهدوء تكون أسرع، والندم على ما حدث يكون متبادلا، ويعتذر الطرفان، وتسير الحياة بطبيعتها في طريق البناء والاستقرار، أما إذا أفشيت الأسرار، وذاع خبر تلك المشكلات وهذا النزاع، فإن الخرق يتسع على الراقع، ويصعب رأب الصدع، ويحدث ما لا يحمد عقباه، لأن كل متلق لهذه الأخبار يتفاعل معها بطبيعته هو، وبالتالي تتعدد الرؤى ووجهات النظر، وردود الأفعال، والحلول المقترحة، وبالتالي يصعب الاتفاق على رأي واحد.

وقد يتصاعد العنف درجة في هذا الهرم، حينما يسيطر العناد على الطرفين، وبالتالي تتوتر تلك العلاقة، فتتخذ قرارات فردية أغلبها من الزوج، فيحرم زوجته من زيارة أهلها،

ويلزمها بيت الزوجية فترة أطول، وبالتالي تتقطع أواصر المودة والمحبة بينهما، وتقطع صلات الأرحام، وكل هذا لم يأمر به ديننا الحنيف، فالزواج ينشئ علاقة «المصاهرة» التي من معانيها انصهار الأسرتين ليصيرا أسرة واحدة، تربطهما علاقة حميمة وقوية، فكيف نسعى لتفريقهما، وقطع العلاقات بينهما؟

إن بعض الرجال يتصف بالتسلط، وفرض الرأي بالقوة والعنف، بحجة أنه القوام على زوجته، سواء كان محقا، أو غير ذلك، ولا ننكر القوامة لأنها في دين الله وشرعه، ولكن ما مفهوم القوامة التي يحتج بها بعض الرجال من أجل إذلال الزوجة وحرمانها من حقوقها؟

قد يظن بعض الرجال ممن قل فهمهم في دين الله تعالى أن القوامة التي منحهم الله سبحانه إياها سيف مسلط على رقاب نسائهم، للتحكم فيهن تحكما قد يؤدي في كثير من الأحيان إلى ظلمهن وهضم حقوقهن، ولا ينكر أحد أن القوامة شرع من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤)، وقال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، وقد روى أحمد وابن ماجه بسند حسن أن رسول الله ﷺ قال: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، ورغم كل هذا فقد أمر الله تعالى الأزواج بحسن عشرة زوجاتهم فقال سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩)، وروى أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم»، والمسلم الصادق الملتزم بأحكام دينه الحنيف يستخدم هذه القوامة كسبيل إلى حسن المودة والعشرة بينه وبين زوجته، فيحسن التوجيه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصون عرضه، ويجنب أهله أماكن الفسق والفجور، ويحثهم على التستر والعفاف والوقار، كل ذلك في إطار من الرفق واللين والقول الحسن، حتى تؤتي النصيحة ثمارها، وتنفع الموعظة، فما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

وإنك لتعجب ممن تمتد يده إلى زوجته بالعنف، فيضربها ضربا مبرحا، لدرجة الإيلام والإيذاء، هذا لا يرتضيه عقل ولا دين، فإن المسلم ليس بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء، وروى الإمام أحمد- رحمه الله- في مسنده عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: نساؤنا ما نأتي منها وما نذر؟ فقال رسول الله ﷺ: «حرثك، ائت حرثك أنى شئت، غير أن لا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت، وأطعم إذا أكلت، واكس إذا اكتسيت، كيف وقد أفضى بعضكم إلى بعض، إلا بما حل عليها».

هذا العنف الذي يعتري الحياة الأسرية، يتأثر به الأبناء سلبا عند وجودهم، فلا يرى الأبناء والديهم إلا في شجار وعراك، وعنف متبادل، يصابون على أثره بالخوف والرعب والقلق، وقد يصل العنف إلى قمة هرمه بتفكك الأسرة وتشتتها، وانفراط عقد الزوجية والوصول إلى الطلاق الذي تنشأ معه المشكلات الموازية التي تخص الأبناء، فيعانون من غيبة المربي والناصح، خاصة إذا بحث كل من الزوجين عن شريك جديد لحياته، عله يعوض ما فات، أو يحقق معه سعادة غابت عن كل منهما في زيجة جديدة.

وإذا أردنا الإسهام في تجنب هذا العنف الأسري حتى لا نصعد إلى قمة هرمه، فلابد أن نذكر بأن البعد عن تعاليم ديننا، وغيبة الثقافة الدينية بشأن الأسرة، لهو السبب الأكبر في حدوث ذلك، ويعجبني الرجل الذي يلجأ قبل الزواج إلى عالِم يطلب منه النصح بشأن كيفية التعامل مع التي ستكون زوجته عما قريب، وما هي حقوقه وواجباته تجاهها، وماذا يفعل إذا حدث في الحياة مشكلة.. وما هي أقرب الطرق لحل المشكلات، وكذلك الزوجة لابد أن تبحث عن ناصح أمين لها، لتستقيم حياتها، ولتكون مهيأة لتلك الحياة الجديدة.

ولما كانت المشكلات الأسرية ظاهرة في المجتمع، فلابد للوعظ الديني أن يكون له دور، والإعلام له دور مماثل في ذلك، كذلك يمكن أن تتوافر بعض المراكز الأسرية الأمينة على الأسرار كي يلجأ إليها الزوجان عند تعثر الوصول إلى حل لمشكلة ما، بعيدا عن أهل الزوجين، ودرءًا لشبهة الميل وعدم الحيادية من أحدهما عند طرح بعض الحلول للمشكلات محل النزاع.

إن الوصول إلى قمة هرم العنف الأسري سهل، ولكن النزول منها يحتاج إلى وقت كبير، وإن نزل الطرفان (الزوج والزوجة) من هذه القمة لا ينزلان سالمين، بل لابد أن يكون لهذا العنف أثر كلما تناقش الطرفان في أمر ما.

وما أجمل خفض الجناح، والإعذار، وإقالة العثرة، والعفو، واللين، والمودة، والرحمة من أجل بقاء الجو الأسري خاليا من أي شائبة وعنف.

وأختم بما نصح الله به ورسوله حينما يصيب الإنسان وسواس شيطان يدفعه إلى الغضب والشر، وتكدير صفو الحياة، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ (فصلت: ٣٦)، وفي الصحيحين عن سلمان بن صرد رضي الله عنه قال: كنت جالسا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان وأحدهما قد احمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد» فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: «تعوذ بالله من الشيطان...».

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها، لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.. اللهم آمين.

أغذية الخمول والكسل

منى الموجي - القاهرة
دار الإعلام العربية



يلعب الطعام والنظام الغذائي دورا مهما في حياتنا اليومية، فإما أن يؤدي دورا محوريا مهما يعزز النشاط والحيوية، وإما أن يجعلنا نشعر بالخمول والكسل والإعياء من أقل مجهود، فكم من مرة تناولت غذاءك، ثم اكتشفت بعدها عدم قدرتك على القيام بعمل كنت تقوم به قبل تناول الطعام؟.. الواقع أن هناك علاقة بين الأمرين، وهذا ما يؤكد عليه عدد من المختصين التقتهم «الوعي الإسلامي»؛ ليكشفوا أسباب الشعور بالخمول والكسل وعلاقتها ببعض الأطعمة.. فإلى التفاصيل.

بداية، توضح استشارية التغذية العلاجية والسمنة بجامعة القاهرة د. وفاء وافي، أن شعور الإنسان بالخمول والكسل، قد يكون الطعام الذي نتناوله سببا من أهم أسبابه، لكن قد يعود السبب في هذا الشعور إلى إصابة الإنسان بالأنيميا، أو بأحد أمراض الكبد، أو مشكلات طبية أخرى، وعندما يتناول المصاب بهذه الأمراض الطعام يتضاعف إحساسه بالخمول والكسل، وعدم القدرة على أداء عمله بالنشاط المعهود.

الأكلات المشبعة بالدهون

وتضيف: أما بالنسبة للإنسان الطبيعي وغير المصاب بهذه الأمراض، فيتسبب الطعام المحمر والأكل المشبع بالدهون، أو الطعام المطهي بالسمن في إصابته بالخمول والكسل، وكذلك الطعام الذي يحتوي على سكريات والمليء بالنشويات، وهناك عادات غذائية اعتاد عليها البعض مثل الطعام المسبك والدسم، وهذه الأكلات ترهق المعدة، وتتسبب في الشعور بالخمول والإرهاق وفقدان الحيوية والنشاط، لاسيما عند تناولها بكثرة.

أيضا، الإكثار من الأكل في حد ذاته حتى لو كان الطعام صحيا ١٠٠٪ يتسبب في الشعور بالتثاقل والخمول، ولهذا يحثنا ديننا على عدم الإسراف في تناول الطعام كما جاء في الحديث الشريف: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن؛ بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه؛ فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» وهذا أقوم لاعتدال الجسد وخفته؛ لأنه يترتب على الشبع ثقل البدن الذي يورث الكسل.

وتشير إلى أن جميع أنواع الطعام من الممكن أن تتساوى في قدرتها على إصابة الإنسان بالخمول والكسل حتى في حال تناول السلطات، وذلك عند تناول كميات كبيرة منها، فامتلاء معدة الإنسان سبب رئيسي في هذا الشعور.

وتضيف وفاء قائلة: إن كلمة وخم تعني انسحاب الدم من الأطراف إلى المعدة فلا يصل للمخ، لذلك نشعر وقتها بالرغبة في النوم نتيجة تناول طعام صعب هضمه، أو نتيجة تناول الطعام بكميات أكبر مما ينبغي.

الإفـراط في الطعام والـوجـبـات السريعة وقلة تناول الخضروات والفاكهة والمياه أبرز الأسباب

وأشارت إلى إحدى النقاط المهمة، والتي يغفلها البعض، وهي أن الشخص المصاب بالسمنة يرتفع لديه احتمالية الإصابة بالسكر، إذ يرتفع الأنسولين في الدم، ويتسبب الجلوكوز في شعوره بالوخم والكسل، فالسمنة نذير خطر يجب التخلص منه.

السمنة ترفع الأنسولين في الدم وتسبب الكسل

وأكدت على أن الاهتمام بتناول الأطعمة المشوية والنصف مطهية، والأطعمة التي تحتوي على ألياف، يزيد من امتصاص الجلوكوز بالدم، ويساهم في شعور الإنسان بالنشاط، ويدرأ عنه الوخم والكسل، ومن الأطعمة التي تحتوي على ألياف: الفول، وطبق السلطة عندما نضيف إليه الذرة أو الفاصوليا، مشيرة إلى أهمية الالتفات إلى كمية السعرات الحرارية التي يحتاجها الجسم مع ممارسة الرياضة بشكل منتظم كأسلوب للحياة، وليس لفترة كما يفعل البعض لينقطع عن الممارسة فيما بعد.

وفي النهاية تنصح الدكتورة بأن يكون تخفيض الوزن تدريجيا، مع الحرص على أن يكون طعامنا قليل الدهون والسكريات، مع الإقلال من استخدام السمن والأجبان، وكذلك الإقلال من تناول المخبوزات والمعجنات، وفي مقابل هذا يتم التركيز على تناول كميات أكبر من الخضروات والفاكهة.

إفراط

ويشير الأستاذ بالمعهد القومي للتغذية الدكتور مجدي نزيه، إلى أن الشعور بالتخمة والكسل يأتي من خلال الإفراط في تناول الطعام، أو من خلال تناول الأطعمة التي تحتوي على نسبة عالية من الدهون، مثل الوجبات السريعة مع قلة المتناول من الخضروات والفاكهة والمياه، ما يتسبب في إرهاق الكلى وشعور

الإنسان بالخمول والكسل.

ويتابع نزيه قائلا: إن فقدان الجسم للمياه سبب من الأسباب التي ينتج عنها الشعور بالخمول والكسل، إضافة إلى حرص البعض على تناول المياه الغازية رغم أنها لا تفيد الإنسان بل تضره، بما تحتوي عليه من سعرات حرارية تصيبه بالسمنة وترهق الجهاز الهضمي؛ فتجعله يشعر بالكسل وعدم الراحة.

أسلوب حياة

أما استشاري التغذية العلاجية وعضو الجمعية الأميركية للسمنة والنحافة د. سمير نيروز، فيؤكد على أن الطعام هو المسبب الأول لسعادة الإنسان أو تعاسته، فهو مسبب للرشاقة القادرة على تحسين أية علاقة زوجية، وهو مسبب للسمنة القادرة على القضاء على أية علاقة سوية.

فالكثير من العلماء أكدوا على أن للغذاء فائدة عظيمة؛ لإكساب الجسم الصحة والرشاقة والجمال، كما أكدوا على مدى أهمية التغذية بجميع أشكالها ومكوناتها.

وأشار إلى أن كثيرا من السيدات لا يستطعن التفريق بين اتباع نظام غذائي بهدف تخفيف الوزن، وبين نظام غذائي يحافظ على الوزن الحالي، فلا يجب أن نتبع نظاما قاسيا قائما على حرمان الذات، فإنكار حاجة الجسم للغذاء أمر غير مقبول، ويترتب عليه عواقب سيئة، إذ ينتج عنه ضعف دائم في الصحة وانخفاض في الوزن، يؤثر على نشاطك وتفاعلك مع الأسرة،

لا تحرم نفسك من الأصناف المحببة بشكل كامل بل تناولها بكميات محدودة

نشط جسمك وذاكرتك بتناول الأسماك

يؤدي إلى إهمالك لشؤون منزلك، وأولادك وزوجك، وهو أمر لا يقل ضررا عن أضرار الإكثار من الطعام عن الحد المسموح به.

مضيفا: لابد أن يكون طعامنا قائما على أسلوب حياة، فلا ننخدع بأسماء وأشكال وألوان الأطعمة التي تهدم الرشاقة وتسبب السمنة، وتقودنا إلى تحميل أجسادنا أوزانا تؤرق وتهدد صحتها وتنال من رشاقتها.

وينصح بعدم البعد عن الأصناف المحببة بشكل كامل، بل الإقلال من تناولها بكميات محدودة، بحيث تكون الكمية التي تدخل الجسم لا تضره بأي حال من الأحوال؛ لأن الامتناع عنها يجعلك دائما في حالة مزاجية غير متزنة، ويجعلك دائم البحث عنها، وأكلها بشراهة أكثر من مما سبق.

ويلقي باللوم على الإعلام والدعاية للوجبات السريعة التي يعتبرها مسببا حقيقيا للتعاسة، سواء على المستوى الاقتصادي أو الصحي؛ لأنها تحتوي على كثير من السعرات الحرارية التي تتسبب في زيادة الوزن وتنال من الرشاقة، ناصحا بضرورة جعل الطعام أسلوب حياة متبع قائم على تناول جميع أنواع الأطعمة، لكن بشكل متوازن قادر على تحقيق النشاط والرشاقة المنشودة.

عليك بالأسماك

إلى ذلك، يؤكد الشيف إسلام حسن، الذي حصل على العديد من الدورات المتخصصة في مجال المطبخ، أن السمك يحتوي على «أوميجا ٣» – وهي مجموعة من الحوامض الدهنية غير المشبعة– التي تساعد في تكوين المخ، كما تقل نسبة الدهون في الشرايين عند آكلي السمك عن غيرهم، ما يساعد في عملية ضخ الدم للمخ بشكل أفضل، وبالتالي، أداء أفضل لوظائف المخ، إضافة إلى احتواء السمك على نسبة كبيرة من فيتامينات (ب) التي تعطي الجسم النشاط والحيوية، وتساعد على تنشيط الذاكرة.

كما تحمي وجبات الأسماك من الروماتيزم، وتقلل الإصابة بالبرد، وتحمي من أمراض القلب وأمراض الأوعية الدموية، وتحافظ على التوازن الغذائي في الجسم، كما يحتوي السمك على الحديد الحيواني الذي يمتصه الجسم بشكل جيد، فضلا عن احتوائه على كميات كبيرة من الأملاح المعدنية، مثل الفسفور والكالسيوم، إضافة إلى الزنك والنحاس، وهما العاملان الرئيسيان في نمو الجسم، إضافة لزيوت الأسماك التي بها كمية كبيرة من فيتامينات (أ) و(د).

كما يؤكد على أن السمك يحافظ على رشاقة الجسم؛ لأنه يحتوي على قليل من الوحدات الحرارية والشحوم والدهون، وغني بالبروتينات والمواد الغذائية الضرورية للجسم، ويقدم مجموعة من النصائح تبدأ بعملية شراء السمك، فينصح بقياسه من وجهتين، أولا: لمعان العين، ونشوفية الجلد، حمرة الخياشم بجانب الرائحة والشكل، وعند تقشير السمك يتم تقشيره بسكين، وتأخذ من الذيل إلى الرأس ويقص الزعانف بمقص، وتفتح البطن بسكين، وتنظف تحت ماء جار، ثانيا: التخزين بأن تحفظ الأسماك جافة، وتغلق جيدا ببلاستيك، وتوضع بالفريزر تحت درجة حرارة سالب ١٨م، كما ينصح بعدم فك السمك بعد تجميده في الهواء الطلق، لكن يفك بتركه في الثلاجة؛ وذلك للحفاظ عليه من هواء الجو، ولعدم نمو البكتريا، ولكي يحتفظ بقيمته الغذائية.



التقليد المهلك

رشيد ناجي الحسن
باحث في وزارة الأوقاف الكويتية

يروى أن طائرة محلقة في الهواء كان فيها ببغاء وحمار، فكان الببغاء يضغط على زر الطوارئ، وحين يأتي المضيف يقول له: كنت أمزح معك، ويضغط الببغاء عدة مرات ويحدث معه نفس الأمر، قلده الحمار وضغط على الزر، فذهب المضيف لقائد الطائرة وأخبره بما حدث، فقال له قائد الطائرة: افتح باب الطوارئ وارمهما من الطائرة، وفعلا فتح المضيف لهما باب الطوارئ، ورماهما، وهما واقعان في السماء قال الببغاء للحمار: هل لك جناحان لتستطيع الطيران مثلي؟ فقال الحمار: لا، فقال الببغاء فعلام إذن تقلدني؟

وهناك مقولة تقول: (عندما يتفق اثنان في كل شيء، فأحدهما زائد لا ضرورة له).

ومما لا شك فيه أن الإنسان يتأثر بمن حوله وبما حوله من أشخاص وأحداث وأشياء.

والإنسان المتوازن يؤثر ويتأثر.. وهذا يعني أن التقليد يمكن أن يكون طبيعيا، حيث يتأثر الإنسان بالأشخاص من حوله بأفكارهم وسلوكهم وتصرفاتهم وثيابهم.. وغير ذلك. وهذا يساهم في قبوله في الجماعة التي ينتمي إليها ويعزز مكانته فيها. ويعتبر ذلك نوعا من التكيف الاجتماعي الناجح.. لكن إن تجاوز التقليد حده.. فإنه يلغي شخصية المقلد..

والتشبه بالآخرين قد يكون سلبيا، وقد يكون إيجابيا، فتقليد الصالحين من أهل الذوق والأدب في سماتهم وأعمالهم إيجابي، وتقليد الفاسدين العصاة في هيئاتهم وأفعالهم سلبي.

والتقليد هو أحد الدوافع الاجتماعية المكتسبة عند الانسان، على اعتبار أن الدافع هو القوة التي تجعل الإنسان يقوم بسلوك معين، لتحقيق رغبة معينة. ودافع التقليد هنا هو الذي يحمل الكائن الحي على محاكاة غيره، ويكون هذا التقليد في أبسط درجاته عفويا، ويتطور ليصبح مقصودا. والطفل أكثر تأثرا من البالغ الراشد، وهو يقلد أكثر لأن معلوماته وخبراته قليلة، وعندما يكبر يصبح أقل تأثرا وتقليدا، وأكثر تأثيرا واستقلالية.

والمقلد عموما شخصية تشكو من النقص وعدم الثقة بذاتها.. ولا يمكنها أن تحقق ذاتها وأن ترضى عنها من خلال أعمالها العادية وسلوكها واستقلاليتها وإنتاجيتها.. وهي قلقة وغير مستقرة، وتبحث عن ذاتها من خلال الآخرين فقط. ولا يمكنها أن تنظر في أعماقها لتكتشف مواقع القوة والضعف، بل تهرب إلى التفكير السطحي والكسب السريع والإطراء من الآخرين..كما أنها أقل نضجا وتماسكا وفعالية.. وهي تتأثر بسرعة وتتقلب، وتفتقد إلى القوة الحقيقية والعمق والنجاح.

لقد رأينا ما يكفي لكي نعلم أن حال أمتنا في تدهور مستمر بسبب التقليد الأعمى، فبعض الشباب والفتيات -هداهم الله- لم يتركوا شيئا من الغرب لم يتشبهوا به، إلا العلم النافع الذي لم يبالوا به، بل لهثوا وراء الموضة والأزياء، حتى اللغة العربية يخجلون من التكلم بها أمام الأهل والأصدقاء، ويفتخرون بالتحدث باللغات الأجنبية: hi، ok، by.

وحتى لا يكون كلامي هذا ضربا من القيل والقال، أو تلاعبا بالأقوال، هلم إلى شارعنا الإسلامي لنلقي الضوء على شواهد ظاهرة وخواطر شاهدة على انسياق بعض بني جلدتنا خلف تقليد الكفار والتشبه بهم، فمنها:

- تبرج النساء والافتتان بهن، وهذا وربي من أفتك الأمراض الخلقية التي تبتلى بها الأمم، وتنهار بسببها

الحضارات.

-ومنها: الاحتفال بأعياد غير المسلمين، وكذا أعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية، وعيد الحب، وهو من آخر ما ابتليت به أمة الإسلام، حيث يحتفي به قطاع من شباب الأمة وفتياتها، يرتدون فيه الملابس الحمراء ويتبادلون الورود الحمراء.

ومنها تقليدهم بلباسهم، وهذا بحر لا ساحل له، ألوانه شتى، ونماذجه هنا وهناك، نرى بأم أعيننا محاكاتهم وتقليدهم فيها. إنك لتأسى أشد الأسى ويكلم فؤادك عندما ترى عددا من شباب الأمة الذين هم أملها يرتدون ملابسهم، بل يشهرونها ويعدونها تحضرا ومدنية وأناقة وتقدمية. انظر إلى قبعاتهم التي يرتدونها على رؤوسهم، بل حتى مع الثياب، انظر إلى قمصانهم التي تعج بالكلمات الأعجمية، وقد يكون منها ما هو دعوة للزنا أو الحرام وهو لا يعلم، بل يعلق بعضهم على صدره صور أهل الشذوذ الجنسي، والعفن الخلقي. وإليك عزيزي القارئ بعضا من معاني تلك الكلمات الأجنبية التي كتبت على قمصان بعض شبابنا، وهم لا يعلمون معناها، مما هو منتشر في منطقتنا العربية، فمثلا:

كلمة Vixen مكتوبة على أحد القمصان: ومعناها: المرأة سيئة الخلق.

أما كلمة Nude وهو اسم عطر فمعناه: العارية، والعياذ بالله، وهذه كلمة لها انتشار واسع في مجتمعنا.

وكلمة Whore معناها الزاني

وكلمة Lusts شهوات

وكلمة Eccentricity شذوذ

وكلمتا Charm، Spell تعويذة يستخدمها السحرة

و Sprint مشروب روحي كحول

وFlirt يغازل، وتوجد هذه الكلمة على الأقلام.

أما كلمة N I K E والتي تكاد تملأ الآفاق فهي كلمة إغريقية معناها إله الحب عند الإغريق، وهو صنم يعبد من دون الله. وكذلك:

Kiss me قبلني

Take me خذني

Follow me اتبعني

Buy me اشترني

Sow خنزيرة

Pig خنزير

Pork لحم خنزير

Vice رذيلة

Charming ساحر

Cupid إله الحب

Dram كأس خمر

Brew مشروب مخمر

Brandy مشروب مسكر

Mason ماسوني

Tippler مدمن خمر

Adulterer فاسق أو زاني

Adultery زنا

Bawdy سفيه

Athirst ملحد

بل إن قصة غريبة حدثت يوما بسبب مثل هذه الكلمات، فقد استوقف أحد الأجانب يوما سائحا عربيا بصحبته طفل صغير، وسأله: ما سعر هذا الطفل؟ فتعجب الأب من هذا السؤال، فما السبب الذي دعا الأجنبي ليسأل هكذا سؤال؟

والجواب: إنها جملة أجنبية كتبت على قميص الطفل، دون علم بمعناها من قبل الأب وهي:

Baby For Sale ومعناها طفل للبيع!

وإن بعض شبابنا أراد أن يثبت لنفسه التمدن الحضاري والتطور، فلبس البنطال الممزق يمسح به الأرض، ينزل حزامه إلى أسفل سرته، ترك شعره مسدلا وراء ظهره، وإذا سألته: لماذا؟ قال: هي الموضة، وأنا حر، وذاك الذي لم يحمد الله على ما أنعم عليه من اقتناء أفضل السيارات، ومضى يحرقها (بالتفحيط والتقحيص)، وذاك وذاك... والله المستعان...

جميل أن يهتم الشاب بمظهره وأناقته..ولكن ليس بهذا الشكل الذي وصل لحد اللا أخلاق..

تنافس خطير..سيؤدي إلى كارثة..

فيا ليت شبابنا أعفوا أنفسهم من هذه القشور، وأراحوا عقولهم من هذه التفاهات، واتجهوا إلى حياة الجد والعمل والمثابرة.

لماذا الارتماء في أحضان الغير؟ والاستخذاء للآخر! ونحن أصحاب أعظم رسالة عرفها الكون، وأحفاد من أسس أروع حضارة شهد لها التاريخ، ومن كان في شك من ذلك فليسأل بطاح مكة، ومنابر بغداد، وميادين دمشق ومقاصير القاهرة، ومتاحف الزيتونة والقيروان، ومغاني الزهراء والحمراء.

يوم من الدهر لم تصنع أشعته

شمس الضحى بل صنعناه بأيدينا

التشبه بالكافرين

من دعاء المؤمنين في الفاتحة أن يهديهم الله الصراط المستقيم، المخالف للكفار من اليهود والنصارى، وهو الدعاء الذي يدعو به كل مسلم في صلاته، والذي تضمنته أعظم سورة في القرآن، والتي لا تصح الصلاة إلا بها، وهذا الدعاء هو قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾(الفاتحة:٦-٧) قال ابن كثير: وهما طريقة اليهود والنصارى. قال ابن كثير: «أخص أوصاف اليهود الغضب، وأخص أوصاف النصارى الضلال. والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد حكمه في التشبه واضحا جليا، ألا وهو النهي عن التشبه بالكفار بصيغ مختلفة وطرق متعددة، فمرة ينهى الله تبارك وتعالى عن التشبه عموما في مواضع، وأخرى عن اتباع أهواء الكفار في مواضع أخرى، وينهى أحيانا عن التشبه بهم في الاستمتاع بالشهوات المحرمة، وقد ينهى عن موافقتهم فيما هو جائز أحيانا أخرى، سدا لذريعة التشبه، وينهى عن التشبه بهم في الحكم بين الناس بالباطل، ويبرئ نبيه

ﷺ منهم تبرئة تامة، يقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾(الجاثية:١٨) وقال سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾(البقرة:١٢٠)، وقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾(المائدة:٤٩)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

- **وأما موقف السنة النبوية**، فقد جاء لافتًا لنظر الباحث إلى خطورة التشبه بالكافرين؛ حيث نجد النبي ﷺ قد سلك كل طريق ممكنة لبيان أهمية المفاصلة الكاملة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وعمل بكل ما يقطع المشابهة بين من رضي بالله معبودا وإلها، وبين من عبد الطاغوت وكفر بمن حق له أن يكون معبودا وإلها، فلم يترك أمرا يزيد المباينة بينهما إلا أمر به، ورغب فيه، ولم ير شيئا يقيم الصلة بينهما إلا نهى عنه وحذر منه. فمن الأحاديث ما جاء النهي فيها عن التشبه بالكفار نهيا صريحا، دون ذكر سبب النهي، ومن الأحاديث ما جاء النهي فيه عن التشبه بهم مع التعليل بالمخالفة لهم، ومنها ما جاء فيه نسبة المتشبه بهم إلى الجاهلية، ومنها ما جاء فيه التحذير من التشبه بهم لأن ذلك ملحق بهم، وحكم المتشبه بهم كحكمهم، ومن الأحاديث في السنة النبوية ما جاء فيه الترهيب من التشبه بهم لما حصل لهم من عقوبة الله، ومن الأحاديث ما ورد فيه النهي عن التشبه بهم على صيغة الإخبار عن حال المسلمين في المستقبل، وانجرافهم وراء التشبه الأعمى بالكفار.

- فمنها التي جاء فيها النهي عن التشبه بالكفار نهيا صريحا مجردا عن ذكر سبب من الأسباب: فقد جاء عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قدم رسول الله - ﷺ - المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: (ما هذان اليومان؟)، قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: (إن الله قد أبدلكم بهما خيرا منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر)، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فوجه الدلالة: أن اليومين الجاهليين لم يقرهما رسول الله ﷺ، ولا تركهم يلعبون فيهما على العادة، بل قال: (إن الله قد أبدلكم بهما يومين آخرين)، والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه.. فقد وضع رسول الله ﷺ قاعدة جليلة من خلال هذا الحديث، حيث استبدل ذانك اليومين بيومين آخرين، دون ذكر سبب ظاهر، وهذا يدل على أن مخالفة الكفار من مقصود الشارع أصلا، فسكوته عن ذكر سبب الاستبدال يشعر بكون المخالفة لهم مما لا نقاش فيه، وأنه مما عرف من طريقة الشارع.

ومما جاء فيه النهي عن التشبه بهم في جانب العادات كذلك: ما ورد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (خالفوا المشركين، وفروا اللحى، وأحفوا الشوارب) رواه البخاري ومسلم، ومن ذلك أيضا ما جاء عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: (إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم). رواه البخاري ومسلم. قال صاحب كتاب عون المعبود: «والحديث يدل على أن العلة في شرعية الخضاب هي مخالفة أهل الكتاب، وبهذا يتأكد استحباب الخضاب. ومن ذلك أيضا ما جاء عن الشريد بن سويد قال: مر بي رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا - وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على ألية يدي - فقال: (أتقعد قعدة المغضوب عليهم؟!)، رواه أبو داود، والمراد بالمغضوب عليهم: اليهود كما تقدم، قال شيخ الإسلام: «وهذه مبالغة في مجانبة هديهم»، وفي هذا الحديث نجد النبي ﷺ قد نهى عن مجرد جلسة تشبه طريقة جلوسهم، هذا مع أنه يحتمل أن الصحابي لم يكن يعلم أن هذه طريقتهم في الجلوس، كما أنه لم يكن يقصد التشبه بهم بلا شك، فهذا موقفه ﷺ ممن هذا حاله، فما هو عسى أن يكون موقفه إذا رأى من يتشبه بهم وهو يقصد ذلك ويتكلفه.

ومن ذلك أيضا ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان يسدل شعره (أي: يرسله ولا يضم جوانبه)، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم (والفرق: قسمة شعر الرأس من المفرق)، وكان أهل الكتاب يسدلون، وكان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق رسول الله ﷺ رأسه) رواه البخاري ومسلم، وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان يقدم مخالفة المشركين على مخالفة أهل الكتاب فيما لا يمكن العمل فيه، إلا بأحد أمرين: إما موافقة للمشركين، فيكون بذلك مخالفا لأهل الكتاب، وإما موافقة أهل الكتاب، فيكون بذلك قد خالف المشركين، فكان يختار في ذلك مخالفة المشركين، ولو كان في ذلك موافقة لأهل الكتاب؛ لأنه وإن كان أهل الكتاب على ضلال، فإن المشركين أبعد عن الحق وأضل.

كما نهى رسول الله ﷺ عن التشبه بهم في جانب العادات الشخصية معللا ذلك بالمخالفة: فقد ورد عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة)، رواه البخاري ومسلم.

فيا إخوة الإسلام، علينا أن نعيش مع شباب الأمة تربية وتوجيها وتعليما وتأديبا، وفطرة الخير ما زالت، ولكن أين من ينميها ويحييها؟ واحذروا من هذا التقليد الغبي الأعمى، وخافوا الله، وكونوا كالقابض على الجمر في زمن عاد الإسلام فيه غريبا.

متحف الفن الإسلامي في قطر..

بين عبق الماضي واستشراف المستقبل



استطلاع وتصوير:
عبادة نوح - خالد خلاوي

تطل على ضفاف خليج الدوحة القطرية تحفة معمارية تمزج بين عبق وروح العمارة الإسلامية القديمة وبين فنون العمارة المعاصرة، وتضم بين جنباتها روائع من مقتنيات الفن الإسلامي، إنه متحف الفن الإسلامي.. وهو مبنى مؤلف من خمسة طوابق، يتربع على واجهة الخليج في العاصمة القطرية، وتبلغ مساحته ٣٣,٥ ألف متر مربع.

في ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٨م افتتح الشيخ حمد آل ثاني أمير دولة قطر المتحف بالتوقيع على أولى صفحات الكتاب الذهبي الخاص به، حيث كتب فيها: «لقد قدم العالم الإسلامي للحضارة الإنسانية تراثا فنيا وثقافيا وعلميا ومعماريا نعتز به، يضم هذا الصرح الشامخ الذي نفتتحه اليوم بعضا من لمحاته، نأمل أن تجعله مركزا للاستنارة والتعريف بحضارة عريقة عميقة الجذور».

مبنى المتحف

صمم مبنى المتحف المعماري العالمي آي إم بي، الحائز على جائزة بريتزكر، وبحسب موقع المتحف على الإنترنت (mia.org.qa)، استلهم تصميمه من «نافورة الوضوء» التي أنشئت خلال القرن الثالث عشر في مسجد أحمد بن طولون في القاهرة، الذي يعود تاريخه إلى القرن التاسع الميلادي.

ويلاحظ زائر المتحف أن الحجر الكلسي القشدي اللون يستقطب تغيرات الضوء، ويعكسها بظلال مختلفة على حوائط المتحف من الخارج مع تقدم ساعات النهار، أما دواخل المتحف فلا تقل روعة عن بنائه الخارجي.. فالجزء الأوسط من الردهة يتألف من درج دائري يؤدي إلى الطابق الأول، فوقه تتدلى ثريا معدنية دائرية تتناسب مع شكل الدرج الملتف.

وتأسر فتحة في قمة الردهة الضوء وتعكسه على القبة المتعددة الوجوه،



أما الواجهة الزجاجية التي ترتفع على الجانب الشمالي للبناء بطول ٤٥ مترا، وتغطي الطوابق الخمسة كلها فتقدم منظرا بانوراميا أخاذا يطل على الخليج، بينما تزين الأنماط الهندسية الإسلامية فضاءات المتحف، بما في ذلك سقوف المصاعد، كما يخلق التنوع في القوام والمواد الخشبية والحجرية بيئة فريدة تتناسب ومقتنيات المتحف الفنية.

المقتنيات

يضم المتحف أكثر من ٨٠٠ قطعة فنية، والتي توثق لفترة ١٤٠٠ سنة من تاريخ الفن الإسلامي، جمعت من أوروبا وآسيا، ويتراوح تاريخها فيما بين القرن السابع الميلادي وصولا إلى القرن التاسع عشر.. وتتراوح المعروضات ما بين الكتب والمخطوطات وقطع السيراميك والمعادن والزجاج والعاج والأنسجة والخشب والأحجار الكريمة إلى القطع النقدية المصنوعة من الفضة والنحاس والبرونز، والتي يرجع تاريخ بعضها إلى ما قبل الإسلام، وبالتحديد إلى العهد

الساساني، وترجع أحدثها إلى العهد الصفوي، مرورا بالعصرين الأموي والعباسي.
وشكلت الخزفيات قسما أساسيا من المتحف، بدءا بأواني المطبخ البسيطة وصولا إلى البلاطات المنمقة، وهذه البلاطات ما هي إلا انعكاس للتأثيرات الخارجية والإبداعات الداخلية التي منها استلهم هذا التصميم الجميل منذ اثني عشر قرنا.
وتضم مجموعة مقتنيات متحف الفن الإسلامي بعضا من أشهر قطع الزجاج الإسلامي التي تتدرج من القطع القديمة الدقيقة إلى مصابيح المساجد الملونة، والأقداح والمزهريات التي تعود إلى العصور الوسطى، بالإضافة إلى مجموعة من المشغولات المعدنية.
كان الحرفيون المهرة يصنعون الأواني من البرونز أو النحاس أو الفولاذ، ثم يزخرفونها بالذهب والفضة، وتتنوع ما بين الأسلحة والدروع والأدوات العلمية إلى القطع المنزلية، وتعتبر مجموعة مقتنيات المتحف من المشغولات المعدنية من أفضل ما صنع في العالم الإسلامي من القرن السابع إلى زمننا الحديث.
كما تضم المجموعة أكثر من ٨٠٠ مخطوطة تندرج ضمن المخطوطات القرآنية التي تعود إلى القرن السابع، وإلى أعمال عثمانية من القرن التاسع عشر، ومن أمثلة المخطوطات النادرة المصحف العباسي الأزرق الكبير، ويعتبر من أجمل وأندر المخطوطات في العالم الإسلامي، حيث يعرض المتحف صفحتين من أصل خمس صفحات معروفة فقط، تعود لأكبر مصحف في العالم، والمعروف باسم مصحف بيسونغور التيموري.
وتحوي مقتنيات متحف الفن الإسلامي بعضا من أجمل نماذج السجاد والأزياء، ومجموعة واسعة من الأقمشة التي كانت تصنع للنخبة في العالم الإسلامي.

مكتبة المتحف

ومن أركان المتحف المميزة المكتبة التي تضم ١٠٠٠٠ كتاب من الكتب



المتخصصة والدراسات حول الفن الإسلامي، ومراجع فنية، وكتالوجات للمعارض والمقتنيات الفنية، ودوريات حول الفنون، بما فيها كتالوجات المزادات.
وتضم المكتبة أيضا مجموعة من الكتب النادرة تزيد على ٢٠٠٠ كتاب باللغتين العربية والإنجليزية، معظم هذه الكتب غير متوفرة في أي مكان آخر في المنطقة، وتم تحويل معظم هذه الكتب إلى الشكل الرقمي، ويمكن الاطلاع عليها من خلال كتالوج المكتبة.
وتتوفر بالمكتبة غرف للبحث والدراسة، كما تتوفر أجهزة كمبيوتر وخدمات النسخ والتصوير الضوئي، لكن نشجع الباحثين على استخدام حواسيبهم المحمولة الخاصة.

الجناح التعليمي

ويضم المتحف أيضا الجناح التعليمي الذي يحتوي على قاعات للمحاضرات، ومكتبة مجهزة، وغرف للعمليات والمرئيات التي تعزز جوانب التعليم والبحث في مجالات الفن الإسلامي،



حيث يقدم باحثون وأمناء عالميون محاضرات دورية حول مقتنيات متحف الفن الإسلامي، إضافة إلى بعض المواضيع ذات العلاقة، وتقدم مجموعة متنوعة وشيقة من المحاضرات والبرامج للشباب، بدءا من الورش والفعاليات الفنية، وصولا إلى المحاضرات التي يقدمها كبار الباحثين والأمناء.
وتقدم مجموعة مقتنيات المتحف فرصة فريدة لاستخدام أعمال الفن الإسلامي التاريخية لاستكشاف مجموعة من مواد المنهج الدراسي في كل مناحي التعليم، وتدعم المناهج المعتمدة من قبل المجلس الأعلى للتعليم، حيث تقدم برامج تعليمية ممتعة ومواد للمجموعات المدرسية من كافة الأعمار.
وتعتبر إدارة المتحف أن التعلم في متحف الفن الإسلامي رسالة حضارية، وفي هذا الإطار قالت الشيخة المياسة بنت حمد رئيسة مجلس أمناء هيئة المتحف: إنهم في قطر يأملون في أن يكون المتحف منارة علم للدارسين والباحثين من الدول القريبة من قطر، وكذلك البعيدة عنها.
ويعتبر متحف الفن الإسلامي بيئة ثرية يستطيع الأطفال فيها اختبار طرق مختلفة للتعلم، من خلال القطع والتحف الفنية، وبذلك يكون التعلم في المتحف تتمة طبيعية للتعلم في الصفوف، حيث يوفر المتحف جلسات تدريبية للمدرسين خاصة بهذا المنحى الفريد من التعليم، بالإضافة إلى غرف مخصصة لورش وندوات وصفوف المجموعات المدرسية، وكل هذه الجلسات مجانية.
ويستمتع عشاق الفن الإسلامي عند زيارة المتحف بالورش والدورات الفنية، وورش الخط العربي، وكلها مصممة من أجل أن يطلع من خلالها زوار المتحف على مقتنيات الفن الإسلامي، ويصنعوا تحفا فنية خاصة بهم، بالاستلهام من قطع تاريخية ترجع إلى الحضارة الإسلامية العريقة.



(أسست ١٢٩٠هـ) كواحدة من أوائل المدارس العربية النظامية في بلاد الحرمين

المَدرَسَةُ الصَّوْلتِيَّةُ

د. محمد سعيد صمدي
مركز تكوين المعلمين والمعلمات ـ طنجة

يقول العلامة المؤرخ الشيخ محمد عمر رفيع: «المدرسة الصولتية أنجبت من العلماء والفضلاء من عينوا قضاة في المحاكم، سواء في العهد الهاشمي، أو في العهد السعودي»(١).

ولما زار الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله المدرسة سنة ١٣٤٤هـ برفقة زمرة من العلماء قال عنها قولته الشهيرة: «إن الصولتية هي أزهر بلادي».

مكة المكرمة.. البلدة العتيقة التي يحج إليها المؤمنون من كل فج عميق، وحرمها هو أول حرم تشد إليه الرحال، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾(البقرة:١٢٥)، والمثابة هي الموضع الذي يثاب إليه، أي يرجع إليه مرة بعد أخرى.

شرفت مكة بهذا البيت العتيق الذي اختاره الباري تعالى رمزا لتمحيض العبودية وتوحيد الألوهية في الأرض تحت سقف البيت المعمور.. ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الحج:٢٦).

هكذا اقتضت حكمته تعالى أن يجعل من هذه البقعة الطاهرة مكانا محبوبا للمثابة، أي زيارته والعودة إليه تطهيرا وتقربا وزلفى.

قال تعالى:﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(القصص:٥٧)؛ وقال الرسول الكريم ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»(البخاري).

الحرم المكي وظهور المدارس التعليمية

الناظر في تاريخ المسجد الحرام يجد أن هذه الروضة الطاهرة، إلى جانب رديفتها المنورة، الروضة النبوية، ستؤسسان لأول فضاءات الحلقات التعليمية العلمية التي ستظهر وتتطور مع البواكير الأولى لبروز الإسلام والحضارة التي ستبنى بعد هذا الظهور. وسيصبح للحرم المكي حلقات منتظمة لتحفيظ القرآن الكريم ومعاهد للدراسة، وإلى الآن مازالت تشتغل بعض هذه المعاهد مستفيدة من طرائق التدريس المعاصرة، محافظة على خصوصية التعليم الشرعي وأصوله.

وبنيت مكتبات وخزانات داخل الحرم لتكون المصادر قريبة من المتعلمين المنتظمين بمعاهد الحرم، ومازالت بعض المكتبات إلى

الآن خارج باحة الحرم، كـ«مكتبة الحرم المكي الشريف» التي أوقفها السلطان عبدالمجيد، و«مكتبة مكة المكرمة» التي جعلها الملك عبدالعزيز بذكائه وبعد نظره في المكان المبارك الذي ولد به المصطفى ﷺ، وليوظف الموقع توظيفا حضاريا ويستغل علميا وروحيا، بعيدا عن الأباطيل والأفاعيل المنافية لجوهر الرسالة المحمدية، وبالمناسبة لابد من مزيد اهتمام بمحيط هذه البناية الذي يلاحظ عليه الإهمال وغياب الرونقة.

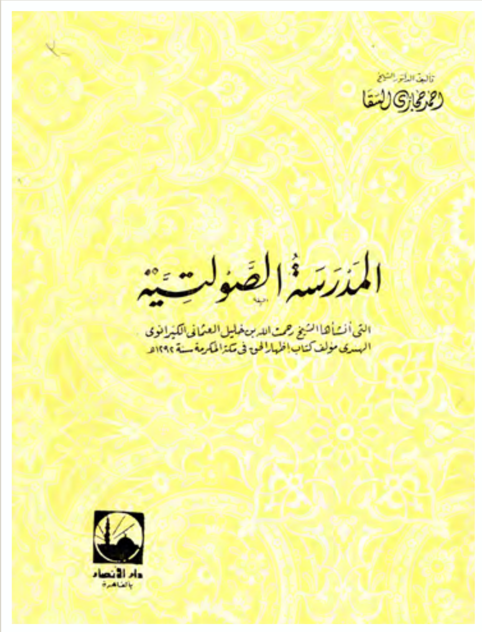
وستظهر بعض المدارس خارج المسجد الحرام بالأحياء المجاورة، نظرا لعدة اعتبارات من أهمها: تكدس الطلبة المقيمين والآفاقيين ـ خاصة من مسلمي آسيا وإفريقيا. على معاهد الحرم مما اقتضى واضطر إلى التفكير في إيجاد مثل هذه المدارس التي اشتهرت داخل الحجاز وخارجه وذاع صيتها.

أبرز المدارس

ومن أبرز المدارس الشرعية التي ظهرت بمكة المكرمة «المدرسة الغياثية» أو مدرسة الملك المنصور التي بناها المنصور غياث الدين سنة ٨١٣هـ وأوقف عليها أموالا كثيرة، و«مدرسة قايتباي» وهي أكبر ما أنشئ للدراسة بجوار المسجد الحرام، أنشأها السلطان المملوكي «محمد قايتباي المحمودي» في القرن التاسع و«المدارس الأربعة» التي بناها السلطان سليمان القانوني سنة ٩٢٧هـ، وأوقف عليها أموالا طائلة لتدريس المذاهب الأربعة، و«المدرسة الخيرية» التي أسسها العلامة محمد حسين بن يوسف الخياط المغربي المكي، والمدرسة العلمية الصامدة إلى الآن مدرسة «الصولتية»، كما أنشئت مدارس أخرى على غرار هذه الأخيرة، منها مدرسة الفلاح التي أسسها محمد زينل علي رضا سنة ١٣٣٠هـ(كانت أول مرة بالقشاشية ثم انتقلت إلى الشبيكة سنة١٣٦٨هـ)، يقول العلامة المؤرخ الشيخ محمد عمر رفيع عن هاتين الأخيرتين: «قد كان لكلتا المدرستين أطيب الأثر في تخريج ناشئة متعلمة كانت الدعامة الأولى للدوائر الحكومية عندما مست الحاجة. كما أن سابقتها المدرسة الصولتية أنجبت من العلماء والفضلاء من عينوا قضاة في المحاكم سواء في العهد الهاشمي، أو في العهد السعودي»(٢). وسنخص هذا التحرير بمدرسة الصولتية التي قدر الله لنا زيارتها موسم حج سنة١٤٢٧هـ.

مؤسس المدرسة

هو الشيخ محمد رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي الذي ينتهي نسبه إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولد بقرية كيرانه التابعة لدلهي سنة ١٢٣٣هـ الموافق ١٨١٨م



من أسرة تنتمي لأحد أشهر البيوتات الهندية المسلمة التي اشتهرت بالعلم والطب والمناصب العليا في عهد السلطنة المغولية المسلمة، وله باع طويل في تنظيم الجهاد ضد المستعمر الإنجليزي؛ بنفس المستوى الذي عرف به في محاجة المنصرين ومناظرتهم، ومن أشهر ما صنفه في الرد على شبهاتهم باللغة العربية والأردية والفارسية التآليف التالية:

١ ـ إزالة الأوهام ٢ ـ إزالة الشكوك ٣ ـ إعجاز عيسوي

٤ ـ أحسن الأحاديث في إبطال التثليث ٥ ـ البروق اللامعة

٦ ـ البحث الشريف في إعجاز النسخ والتحريف ٧ ـ معدل اعوجاج الميزان

٨ ـ تقليب المطاعن ٩ ـ معيار التحقيق ١٠ ـ إظهار الحق في الرد على المسيحيين والمبشرين.

وكلها طبعت بالهند، ماعدا البروق اللامعة، وتقليب المطاعن، وآخر كتبه «إظهار الحق» ألفه في إحدى زياراته للقسطنطينية بأمر السلطان عبدالعزيز خان.

خرج رحمه الله من الهند بسبب جور المحتل الذي كان يتربص به ويترصد خطواته بسبب ما كان يقوم به من دور في كفاح الاحتلال، وتحكي كتب ترجمته أن جيش الإنجليز فتش قريته «كيرانه» والقرى التي مر منها بيتا بيتا، وانتهب كل ممتلكاته الكثيرة التي ورثها عن أسرته وباعها بالمزاد العلني. خرج وعمره واحد وأربعون عاما، واستمرت رحلته إلى البلد الحرام سنتين كاملتين.

تعرف على الشيخ أحمد بن زيني دحلان، الإمام والخطيب بالمسجد الحرام وقتئذ، وبعد أن أدرك الشيخ دحلان مكانة الرجل العلمية ودقة فتاويه على المذهب الحنفي، أجازه إجازة التدريس بالحرم المكي، وسجل اسمه في السجل الرسمي لعلماء الحرم، وأذن الشريف عبدالله بن عون بن محمد أمير مكة المكرمة في عهد السلطان عبدالعزيز خان بالتدريس في المسجد الحرام.

مارس التدريس بالحرم لمدة تزيد على العقد من الزمان، وتبين له ضرورة إحداث تغييرات على النمط التقليدي الذي تدار به حلقات العلم، فسعى إلى تأسيس أول مدرسة منظمة على نفقته داخل الحرم سنة ١٢٨٥هـ على غرار مدارس الهند الإسلامية وغيرها.

روى عنه جمع غفير من الشرق والغرب، وبعد عمر حافل بالعطاء حيث عمر خمسا وسبعين سنة؛ توفي الشيخ ليلة الجمعة ٢٢من رمضان سنة ١٣٠٨هـ، وأكرمه الله بمجاورة قبره لقبر السيدة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بمقبرة

«المعلاة» التاريخية ببلد الله الحرام.

المدرسة في عهدها الأول.

التأسيس:

بدأ الشيخ رحمت الله تنفيذ تصوره التعليمي والتربوي داخل الحرم الشريف، إلا أن تزايد أعداد الطلبة من المكيين والآفاقيين. ومن الأسيويين بخاصة. كان يحول دون تحقيق ما يطمح إليه الشيخ المدرس، لذلك بدأ يفكر في ضرورة إيجاد مدرسة خارج الحرم، خاصة لما كان يسببه وجود أعداد كبير من الطلبة من تضييق على الحجاج والمعتمرين. فانتقلت المدرسة إلى دار أحد المحسنين من أثرياء الهند بدار السقيفة بمحلة الشامية، واشتهرت وقتها باسم «مدرسة رحمت الله» أو «المدرسة الهندية»، واضطر مرة أخرى أن يعيد الطلبة الحفظة للدراسة بالحرم الشريف بسبب الازدحام، وكان دائما يدعو الله أن يحقق أمنيته بإنشاء بناية مستقلة لمؤسسته.

فاعلة خير:

إذا كان جامع القرويين كأقدم جامعة إسلامية. بالمغرب الأقصى يرجع فضل بنائه إلى امرأة هي السيدة فاطمة الفهرية(٣)، فإن امرأة مؤمنة أخرى من ثريات الهند تدعى السيدة «صولت النساء بيغام» هي التي ستحقق رغبة الشيخ محمد رحمت الله، وستتشرف ببناء هذه المدرسة التي يعتبرها الدارسون أول مدرسة عربية نظامية بالبلد الحرام، وبالحجاز كله.

قدمت هذه الفاضلة سنة ١٢٨٩هـ من مدينة «كلكتا» حاجة بيت الله الحرام، وكانت ترغب في إنشاء رباط تقفه على الحجاج، وكان هذا النوع من الرباطات من أهم وأشهر الأوقاف المعروفة حينئذ، لكن الشيخ سيصرف نظرها عن ذلك لكثرة الأربطة مقنعا إياها بأهمية وأسبقية المدرسة، وكانت صولت النساء تسمع بابن بلدها الشيخ رحمت الله قبل مجيئها إلى الحج، خاصة في مجال محاججة ومناظرة المنصرين؛ فبادرت السيدة بالتبرع بمالها وفوضت الشيخ بشراء الأرض والإشراف على البناء بمحلة الخندريسة (وهو الموقع الحالي خلف شارع جبل الكعبة الممتد من ميدان الشبيكة في اتجاه التنعيم شمال مقبرة الشبيكة، وهو لا يبعد بضع دقائق من باب الملك عبد العزيز).

وضعت اللبنة الأولى لهذه المدرسة سنة١٢٩٠هـ، وتم افتتاح المدرسة وانتقال الطلبة إليها يوم ١٢ شعبان ١٢٩١هـ؛ وقرر الشيخ رحمت الله أن يطلق اسم مدرسة «الصولتية» وفاء لذكرى المرأة.

مرافق المدرسة:

بعد انطلاق الدراسة بالمؤسسة ستتوسع مرافقها رويدا رويدا، وسيغتنم الشيخ وجود ركام من الحجارة التي كانت تبنى بها مكتبة داخل الحرم قامت بهدمها الحكومة العثمانية لقربها من بئر زمزم الذي غطي الآن ولمضايقتها للحجاج، فعمل على حيازة هذه الحجارة تبركا بها فبنى بها مسجدا أمام المدرسة مازال إلى الآن عامرا بطلبة المدرسة، كما عمل الشيخ على بناء سكن خاص بالطلبة الفقراء والوافدين. وأنشأ مكتبة خاصة بالمؤسسة، ظلت تتسع وتكبر إلى الآن من خلال التحبيس والشراء والإهداء، وقد ضاقت الآن جنباتها، ونسأل الله أن يمنح المؤسسة فضاء أرحب لهذه المكتبة العامرة.



الرقم ٢٧١و٢٩٥٣٨ / ١

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية
إدارة البعوث الإسلامية

لمن يهمه الأمر

يعتبر حملة الشهادات الثانوية وشهادة أتمام الدراسة بالقسم العالى بالمدرسة الصولتية بمكة المكرمة، حاصلين على الشهادة الثانوية لمعهد البحوث الإسلامية (نظام قديم) ولهم الحق فى الالتحاق بالكليات النظرية بجامعة الأزهر، طبقا لقرار لجنة معادلات الشهادات الأجنبية بالشهادة الثانوية الأزهرية فى جلستها السابعة المنعقدة فى ١٨/٧/١٩٦٤ م

هذه الشهادة تحرر لحاملها بناء على طلبه بدون أى مسئولية قبل الأزهر.

مدير
البحوث والنشر
(دكتور عفيفى عبد الفتاح)

٢٩ من ذى الحجة سنة ١٣٨٥ هـ ...
٢٠ من مارس سنة ١٩٦٦ م ...

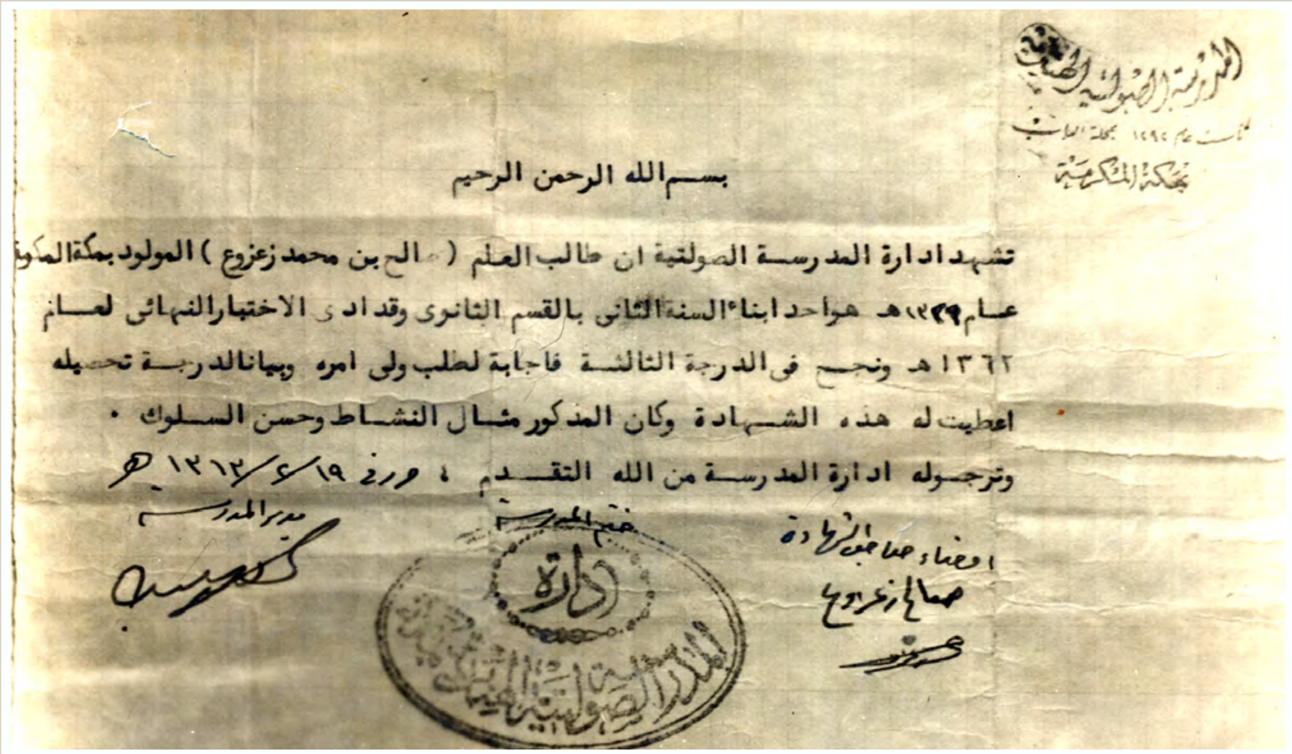


المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف

المدرسة الصولتية
فى
مكة المكرمة
(تأسست عام ١٢٩٢هـ)

إعداد

الرياض



المدرسة الصولتية الهندية
تأسست عام ١٢٩٠ بمحلة الباب
بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تشهد ادارة المدرسة الصولتية ان طالب العلم (صالح بن محمد زعزوع) المولود بمكة المكرمة عام ١٣٤٩هـ هو احد ابناء السنة الثاني بالقسم الثانوى وقد ادى الاختبار النهائى لعام ١٣٦٢هـ ونجح فى الدرجة الثالثة فاجابة لطلب ولى امره وبيانا لدرجة تحصيله اعطيت له هذه الشهادة وكان المذكور مثال النشاط وحسن السلوك .
وترجو له ادارة المدرسة من الله التقدم ، ورخ ١٩/٦/١٣٦٢هـ

مدير المدرسة — ختم المدرسة — امضاء صاحب الشهادة صالح زعزوع

إلى جانب جهود الشيخ رحمت الله في إرساء أركان المدرسة والبحث عن مصادر التمويل والإشراف على شؤون الإدارة والتسيير كان يمارس دوره في التدريس، إلى جانب العلماء الذين تناوبوا على العمل بمؤسسته.

وقد تتلمذ على يده جمع غفير ممن ساروا من أعيان وأعلام مكة كالشريف حسين بن علي أمير مكة، والشيخ عبدالرحمن سراج مفتي الحنفية، والشيخ أسعد دهان قاضي مكة سابقا، والشيخ محمد الخياط المغربي المذكور آنفا، والشيخ حسين المالكي مفتي المالكية بمكة، وغيرهم كثر من مدرسي المسجد الحرام. أما أشهر خريجي المدرسة من المتأخرين فنذكر منهم:

- العلامة الشيخ حسن بن محمد المشاط(ت ١٣٩٩هـ).
- العلامة محمد زين الدين الأنفناني مؤسس مدرسة «نهضة الوطن الدينية الإسلامية للبنين والبنات»(ت ١٤١٨هـ).
- العلامة محمد ياسين الفاداني المكي(ت١٤١٠هـ).
- العلامة السيد محمد علوي بن عباس المالكي(ت ١٤٢٥هـ).. وغيرهم.

وبعد وفاة الشيخ رحمت الله تناوب على تسيير شؤون المدرسة أحفاد شقيقه «علي أكبر» إلى الآن، وهم على التوالي الأشراف:

- الشيخ محمد سعيد بن علي أكبر(ت ١٣٥٧هـ).
- الشيخ محمد سليم بن محمد سعيد(ت١٣٩٧هـ).
- الشيخ محمد مسعود بن محمد سليم(ت ١٤١٢هـ).
- الشيخ ماجد سعيد بن محمد مسعود، وهو يدير المدرسة إلى الآن، بارك الله في عمره، وقد شرفني باستقبال حافل ينم عن أصالة هذه الأسرة وعراقتها، ويلاحظ الزائر السهر والصيانة اللتين تسهر عليهما هذه الأسرة حفاظا على هذه الأمانة، إلى جانب التطوير والتجديد مسايرة للمستجدات والحاجة العلمية.

صور شعرية في مدح المدرسة:

تتميز مثل هذه المدارس العلمية بالشعور الحميم الذي يسم الجو العام للدراسة وما يتخللها من مناسبات واحتفالات اختتام الكتب أو السنة الدراسية، وفي مثل هذه المناسبات تجود قرائح الشعراء بما يعبر عن نورانية هذه الفضاءات وإشعاعها الروحي، ويجمل بنا أن نختم تعريفنا بمعلمة الصولتية بالمقتطفات الشعرية التالية:

قال الشيخ أحمد بن إبراهيم الغزاوي رحمه الله:

أم المدارس لا برحت عظيمة
بالنور يبزغ من سناك وينشر
قد خلد التاريخ عنك مآثرا
يزهو بها العلم الصريح ويفخر
قد كنت أول معهد باهت به
أم القرى وهفا إليه الأكثر
وتثقفت فيك الرجال على التقى
والشرق في فوضى الهوى يتدهور
فامضي إلى الأهداف واسعة الخطى
فلأنت أحرى بالثناء وأجدر

وقد تغنى شاعر طيبة الشيخ محمد ضياء الدين الصابوني، في قصيدة طويلة بمناسبة الحفل السنوي لختم الكتب، بالمدرسة وإدارتها وطلابها فقال أواخر سنة١٤٢٤هـ:

جئنا نهنئ والعواطف ثرة
أبناءها المتفوقين فحيهلا
والفرحة الكبرى تعم قلوبنا
وتزيدنا أملا بطلاب العلا

حيوا مدير «الصولتية» ماجدا
قد كان في دنيا «الإدارة» مشعلا
هي معهد قد شع في أم القرى
فلقد تبوأ في المعاهد منزلا
العلم في أرجائها متألق
ولقد أصاب من الجهالة مقتلا
يا طالبا في «الصولتية» جاهدا
فعليك بالتقوى تصير مبجلا
تقوى الإله سعادة وتجارة
فإذا اتقيت الله فزت بها على...

وفي احتفالات آخر سنة ١٤٢٦هـ قال أيضا في قصيدة طويلة:

الجد بالجد، لا باللهو والكسل
فاربأ بنفسك أن تلفى مع الهمل
يأيها الطالب المحمود سيرته
ثابر على الدرس والتحصيل والعمل
أنت الذي جعل التعليم غايته
فأنت حقا ملء السمع والمقل
في «الصولتية» طلاب جهابذة
تحصنوا بسلاح العلم والمثل
إني طربت وهزتني عواطفكم
فرحت أختال مثل الشارب الثمل
يا «ماجد» وله في الفضل منزلة
أحي مآثرها وحل من عقل
إني أشارك إخواني بفرحتهم
فهذه ساعة الأفراح والجذل
وكم لنا ذكريات حلوة معهم
وأروع الذكريات ما رأت مقلي

ويوصي الشيخ إسماعيل الزين رحمه الله خيرا بهذه المدرسة والحفاظ عليها في قصيدة نظمها سنة ١٤٠٢هـ قائلا:

إنها «الصولتية» بوأها الله
بأم القرى مقاما جديرا
رحمت الله مبتداها أساسا
فكفاها بذاك فخرا فخورا
وسعيد من بعده فسليم
قد رعوها وجانبوا التقصيرا
وهي الآن حظها السعد بمسعود
وبنجله ماجد ظهيرا
شرع مجدها بماض وبالحا
ضر وآت لا تقبل التغييرا
أيها القائمون دوموا على العهد
الذي صار فيكم مذكورا(٤).

الخاتمة

وما ينبغي أن نختم به هذا الحديث، هو: إذا كانت «الصولتية» منذ نشأتها قد أنجبت علماء كبارا خدموا المملكة في قطاعات مختلفة، فإنها ومنذ أمد تعنى وتحرص أشد ما يكون الحرص على مد الثغر الإسلامي الآسيوي. الإندونيسي والباكستاني بخاصة. بهذه الزمرة من الخريجين الذين يعودون إلى بلدانهم وقد تشبعوا بالمعرفة الإسلامية من أطيب بقعة.

وتبقى ملاحظة يجب تسجيلها هنا وتتعلق بغياب تدريس بعض اللغات الأجنبية الأساسية حتى يستطيع المتكون المتخرج من التواصل والتفاهم إذا ما كتب له أن يمارس دوره الإشعاعي في بلدة غير عربية من هذا الكون، وخاصة أن المدرسة تستقبل من المسلمين العجم الكثير. وقد علمت من خلال لقائي السريع مع العالم الأستاذ الفاضل الذي يدير هذه المؤسسة أنه يتقن أكثر من لغتين، مما يحقق له تواصلا أوسع وتعريفا أكبر بهذا الإرث الذي يسهر على صونه وتسييره.

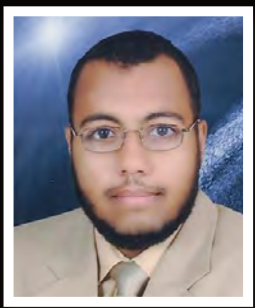
رحم الله السيدة «صولت النساء بيغام» وأثاب الشيخ «محمد رحمت الله» الثواب الحسن، وبارك الله في جهود الخلف من القائمين عليها، الذين يواصلون ويقاومون إكراهات الحفاظ على هذا الإرث العلمي الصامد، الذي ولد في بطن الحرم وكتب له العيش خارجه بما يقل عن ميل واحد، ويعلم الله أن المدرسة لو بقيت كما كانت في عصرها الأول داخل الحرم لكانت الآن مما يقرأ في كتب المصادر والتاريخ والآثار فقط، ولا ذكر لها عند أهل هذا العصر.

الهوامش

(١) مكة في القرن الرابع عشر الهجري: ٢٠٣، الطبعة ١، مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/١٩٨١م.
(٢) المصدر السابق.
(٣) شيدت السيدة فاطمة الفهرية جامع القرويين بفاس سنة (٢٤٥هـ/٨٥٩م)، وكانت تصوم طوال مدة البناء، وكان الإمام المولى إدريس بن إدريس المؤسس الأول لدولة الإسلام بالمغرب الأقصى قد اشتهرت دعوته في أول خطبة جمعة له بفاس بمناسبة إنشاء هذه المدينة قائلا: «اللهم إنك تعلم أنني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة، ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد فيها، ويتلى كتابك وتقام حدودك، وشرائع دينك، وسنة نبيك ﷺ ما بقيت الدنيا...».
(٤) القصائد مثبتة في المجلة الصولتية التي أصدرتها المدرسة بمناسبة اختتام السنة الدراسية لموسم ٢٥. ١٤٢٦هـ، أهداني نسخة منها الأستاذ المدير ماجد سعيد حفظه الله.

المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره

التفتيش والتصنيف ونقد الأصول



د. أحمد خليل الشال
عضو لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي
بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
التابع لوزارة الأوقاف - مصر



تكلمنا في الحلقة السابقة عن مقدمة عامة ينبغي للباحث في التاريخ الإسلامي أن يعتني بها، قبل الخوض في دراسة تاريخ هذه الأمة، وننتقل الآن إلى الخطوط العريضة التي ينبغي أن يسير عليها منهج البحث فيما يخص دراسة التاريخ الإسلامي.

أولا: الجمع والتقميش

وتلك أولى خطوات المنهج في رأيي، لمن أراد الخوض في دراسة أية حقبة من تاريخ الإسلام، إذ إن تراث هذه الأمة- في مصادرها ومروياتها- جمع المتناقضات أحيانا، وفيه الغث والسمين.. مما يعني وجوب الاستيعاب، من أجل ألا يفوت الباحث شيء قد يكون له أهميته في اكتمال صورة بعينها، أو في منهج دراستها، من حيث قبول الخبر أو رده من جهة، ومن حيث التفسير من جهة أخرى.

وتلك سنة اتبعها أكثر المتقدمين، حتى ظهرت في مقولة بعضهم: «إذا كتبت فقمش، وإذا حدثت ففتش»(١)، ومعناه عندهم كما يقول السخاوي: «يقولون: إذا كتبت فقمش، أي جمع ما وجدت، وإذا حدثت ففتش، أي تثبت عند الرواية»(٢).

وتتمثل هذه الخطوة في عملين اثنين:
الأول: جمع المصادر والأصول قدر الطاقة، فإن النقص في جمع المصادر قد يؤدي إلى التقصير في بنيان صورة حدث بعينه، بفقدان بعض جوانبه.
الثاني: حصر مرويات الخبر على وجه الاستيعاب، وذلك من أجل قيام عملية التمحيص على الوجه الأمثل.
ويدخل هذان الأمران عند المتقدمين فيما يعرف بجمع الباب، وهو أمر مهم جدا، وإهماله سيؤدي إلى نتائج قاصرة، بل أحيانا غير صحيحة. وقد ورد في ذلك(٣) قول علي بن المديني: «الباب إذا لم تجمع طرقه لم يتبين خطؤه». وقال عبدالله بن المبارك: «إذا أردت أن يصح لك الحديث فاضرب بعضه ببعض». وقال يحيى بن معين: «لو لم نكتب الحديث من ثلاثين وجها ما عقلناه»، أي لم يدرك موضع الخطأ من الصواب. وقال إبراهيم بن سعيد الجوهري: «كل حديث لا يكون عندي من مائة وجه، فأنا فيه يتيم». يريد طرقه وعلله واختلاف ألفاظه.
وقال أبو بكر الخطيب: «السبيل إلى معرفة علة الحديث أن يجمع بين طرقه، وينظر في اختلاف رواته، ويعتبر بمكانهم من الحفظ، ومنزلتهم من الإتقان والضبط». وقال مسلم: «فبجمع هذه الرويات ومقابلة بعضها ببعض يتميز صحيحها من سقيمها».
قلت: ذلك أني وجدت أن الاعتماد على مجرد التصديق المطلق للرواية، أو الراوية، أو المصنف، سيؤدي إلى قبول القول ونقيضه، والشيء وضده.
وليس معنى الباب عندي هو ما يظنه بعض المعاصرين بأنه ذلك الجمع للطرق والمتابعات والشواهد للرواية الواحدة، بل صورته عندي أن أعمد إلى واقعة بعينها هي محل الدراسة، فأقرأها كلها من مروياتها الخاصة بها، ثم أدرس كل رواية من تلك المرويات التي تخص تلك الواقعة على حدة، ثم أصنف ما ظاهر إسناده الصحة على حدة، وما ضعف إسناده على حدة، ثم لا أكتفي بذلك حتى أقرأ ما يتصل بها من حوادث وقتها- حتى وإن كانت تلك الحوادث ليست من موضوع الواقعة التي أبحث فيها- وما ذلك إلا لكي أستكمل الصورة الصحيحة للمشهد التاريخي عند التفسير والتأويل لواقعتي محل الدراسة، أبتغي من وراء ذلك الاستفادة من تلك الإشارات الموجزة غير المقصودة- التي كانت تلمح بها المرويات الصحيحة هنا وهناك في وقائع أخرى- لشيء في واقعتي محل الدراسة.. ومن ثم الحكم عليها بمقتضى ما ينبغي في ضوء تلك القراءة الجامعة، فإذا ثبت لي يقينا صحة الرواية إسنادا ومتنا، ظاهرا وباطنا، أدخلتها فيما أسميه عندي بمرويات الباب، وهو ما قطعت بصحته، وجعلت ما دون ذلك فيما لم يصح من الروايات، وما أشق هذا الأمر وأصعبه!
وهذا في الحقيقة منهاج لم أبتدعه، وإنما هو منهاج الرعيل الأول من فحول علم الرواية والنقد، وجدت كثيرا من المتأخرين يعرض عنه لما يحتاجه من مشقة وصبر وجلد، فكان يستعاض عنه بالحكم على إسناد رواية بعينها فقط، والمجد منهم يتوسع فيما يعرف بجمع المتابعات والشواهد، الأمر الذي أدى إلى قصور شديد في كثير من الدراسات المعاصرة.
وتتمثل أهمية هذا المنهاج في أنه ينتج للباحث ميزانا- يتمثل فيما أطلقت عليه مرويات الباب- يقيس به كل مرويات الواقعة، سواء التي وقف عليها أو التي لم يقف عليها في حينها. كما أن من أهم ثمراته وفوائده دفع الاضطراب والتناقض الذي رأيته عند بعض المعاصرين، بسبب اعتمادهم آحاد الرواية أصلا عند النقد والاحتجاج، الأمر الذي كان يؤدي إلى قبول المتناقضات أحيانا في الباب الواحد.
وعلى أية حال، فإن أهمية هذه الخطوة تتمثل في كونها خطوة سابقة، وسبيلا ممهدة للخطوة التالية.

ثانيا: ترتيب الأصول والنصوص

وتتمثل صورة الترتيب في أمرين اثنين أيضا:
الأول: الترتيب الزماني (التاريخي) للمصادر والروايات، ولذلك أهميته من حيث معرفة أصل الخبر، ثم مراحل انتقاله وأطواره، ثم انتهاؤه.
الثاني: الترتيب المكاني (الجغرافي) للمصادر والروايات، إذ إن في ذلك تحديد مسارات الخبر عند انتقاله، ومدى تأثير المكان وأهله في محتواه. فإن لأهل كل مصر اختصاصهم أحيانا في مروي بعينه، ناهيك عن أثر أهواء أهله ومذهبهم في الرواية.. ومعلوم مدى تأثير الأهواء في بناء الخبر.
ولعل فيما سبق من مقولة لسفيان بن عيينة خير معبر عن ذلك حين قال: «من أراد المناسك فعليه بأهل مكة، ومن أراد مواقيت الصلاة فعليه بأهل المدينة، ومن أراد السير فعليه بأهل الشام، ومن أراد شيئا لا يعرف حقه من باطله، فعليه بأهل العراق».

ثالثا: تصنيف الأصول

وفي هذا المعترك وبه، تتباين دراسة عن أخرى، وباحث عن آخر، والتقصير فيه خطير، وترجع دقة التصنيف لمدى درجة تمكن الباحث ومهارته في معرفة أحوال الرواة والمصنفين.
ومن ثم، فإن هذا الأمر يتمثل في:
١- معرفة توجهات وميول أصحاب الأصول.
٢- معرفة الجرح والتعديل لرواة الأخبار والنصوص.

وكلاهما أمر أدركه القدماء تمام الإدراك، فيسروا السبيل فيه لمن بعدهم تمام التيسير، بما صنفوه في هذا الباب من كتب الرجال، والجرح والتعديل.

رابعا: نقد الأصول

ونقد الأصول يعني التمحيص عن طريق السبر والاعتبار، وهو- أعني طريق الاعتبار والسبر- منهج يقوم على تتبع مرويات الباب الواحد وجمعه بالاستقراء الكامل قدر الطاقة، ثم سبرها بعرض بعضه على بعض، لكشف مواضع الاتفاق والاختلاف، وبذلك يتم تشخيص الداء الذي يتم التعامل معه، وفق قاعدته المصطلح عليها عند أهل هذا الفن.

لذلك كان الاعتبار عندهم ميزان الرواية الذي به يستبين المحفوظ والصحيح والثابت، من الغريب والمنكر والشاذ والباطل والموضوع.. وسبيل ذلك عندهم- كما في لسانهم- جمع الباب.. وهذا أمر- أعني جمع الباب- سبق توضيحه.

ومظنة تطبيق هذا المنهج في الرواية التاريخية، إنما يكون في أمرين اثنين، إسناد الخبر، ومتنه.. فإنه كما سبق وأشرت أن النقد يقوم في أصله عند أصحاب هذا التاريخ الذي ندرسه، على الجمع بين نقدين: نقد للإسناد، وهو ما اختص به المحدثون في زماننا. ونقد للمتن، وهو ما يقوم عليه المنهج التاريخي في دراساتنا المعاصرة.. ولا ينبغي تقديم واحد على الآخر ما دمنا في حقل الرواية، تاريخية كانت أو حديثية، أو أخبارية.

أولا: نقد الأسانيد، ويكون ذلك وفق المنهج المعتبر به عند أهله، وهم هنا أهل الحديث، فهم أصحاب هذا المنهج الدقيق، الذي به نصل به إلى قبول متن الخبر- محل الاستشهاد- أو رده، وتحكيم أي منهج آخر غيره لا يقيم دراسة صحيحة بحال، ما دمنا نبحث في حقل الرواية الإسلامية.

ولكن بحكم وقوع دراسات التاريخ والأخبار في الدراسات المعاصرة في ميدان قسم التاريخ، سيكون أمام الباحث حجر عثرة، وهي تلك النظرة لمنهج الدراسات المعاصرة التي تفصل دائما بين علوم وعلوم بزعم التخصص! وهذا أمر لم يعرفه أكثر القدماء عند نظرهم في علومهم التي ندرسها الآن، وخاصة المؤرخين منهم، فهم كما كانوا مؤرخين، فقد كانوا أيضا محدثين، وفقهاء، وأدباء .. وهم حين كتبوا تاريخهم لم يكونوا بمعزل عن هذه العلوم التي أثرت تأثيرا واضحا فيما كتبوه أصلا وغاية، فكيف ندرس تاريخهم بعد ذلك مجردا من هذه السمة التي غلبت عليهم؟!

ذلك أن التاريخ والأخبار في صدر الإسلام إنما هما جزء من علوم الرواية، ومن ثم فلم يفصل المسلمون الأول بينهما وبين غيرهما من علوم الرواية الأخرى، من حيث منهاج العرض والنقد.. ذلك أن من نقل إلينا الحديث نقل أيضا التاريخ والأخبار والأدب.. ومن ثم فإنه لا يجوز لنا بحال عند الحديث عن أي علم يدخل عند المسلمين في هذا العلم العام- علم الرواية- أن نفصل بين بعضه البعض، بمنطق التخصص المعاصر الذي لم يعرفه القدماء.. فالتاريخ والأخبار والسنن والقراءات والشعر.. كلها أجزاء داخلة في أرومة هذا العلم العام، نشأت فيه، وأحيطت بسياجه، وعوملت بمنهاجه، وإن تفرعت أبوابه.. وعليه، فإن أي فصل بينها عند الحديث عنها في هذا الزمان المبكر سيؤدي إلى نتائج مغلوطة.

وأما ما يزعمه البعض وذكر آنفا: أنه لو طبق هذا المنهاج- منهاج علم نقد الرواية كما هو عند أصحابه الأول- على التاريخ ما بقي في أيدينا شيء يعتد به. فأقول: إنه تأكد لي أن دراسة تاريخنا الإسلامي عامة، وفترة القرون الثلاثة الأولى خاصة، بغير منهاج نقد الرواية المعروف الآن عند المحدثين، تعني نقصا شديدا في منهج الدراسة، واضطرابا مخلا في نتائجها، بل إني أذهب إلى أبعد من ذلك، وهو وجوب اعتماد هذا المنهاج ما دامت الدراسة في ذلك العصر، إذ بدا لي أن الرواية التاريخية تحتاج في نقدها إلى منهاج أشد من منهاج المحدثين إن وجد! ذلك أن معنى تساهل المتقدمين في الرواية التاريخية الأخبارية دون الحديثية أوقعهم في رواية مرويات من الوهن بمكان، تحتاج في تمحيصها إلى شدة وصرامة لا تقل شأنا عن تلك التي تعامل بها مرويات الحديث، زاد في ذلك سكوتهم عنها غالبا- وهذا من باب التساهل في الرواية التاريخية الذي صرح به القدماء- عن مثل هذه المرويات؛ لعلمهم بحالها في هذا الزمان المتقدم، فأخذها اللاحقون عليهم فاحتجوا بها.

ثانيا: نقد المتون، وفيه تعترك العقول والأفهام، إذ إنه يختلف- لا شك- من باحث لآخر، وذلك تبعا لمنهجه في دراسة الإسناد، ثم تبعا لدرجة تحكمه في أهوائه ونوازعه، وهذا القسم هو مظنة التفسير دائما للحدث المخبر عنه في هذا المتن أو ذاك.

وآخر ما بقي في باب النقد هو التنبيه على وجوب اجتهاد الباحث في الأحكام على المرويات رأيه ولا يألو، فإذا وافق الحق مضى، وإلا خالف بالدليل والحجة والبرهان، إذ لا شيء أبغض إلى نفسي من العصبية والتقليد اللذين قد يوردان صاحبهما المهالك.. وهذا أمر لاحظته في كثير من الدراسات المعاصرة، الأمر الذي كان يؤدي إلى تراكم الأخطاء بعضها فوق بعض، طبقة بعد طبقة، باتباع اللاحق فيها للسابق، وكم يفتح ذلك علينا مصارع أبواب ينفذ أعداؤنا منها ونحن لا نشعر.

الهوامش

(١) الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع، برقم ١٦٧٠.
(٢) فتح المغيث ٤١٩/٢.
(٣) راجع كتابي: علم التاريخ عند المسلمين، ص٢٠٣.



إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

الفتوى والتيسير ورفع الحرج (٣/٢)

يعتبر الإفتاء منصبًا كبيرًا، وعملا خطيرًا، يتولى صاحبه تعليم الناس أحكام دينهم، وتوضيح طريق الشرع لهم، وبيان الحلال والحرام، والجائز والممنوع، ويقوم فيهم مقام النبي ﷺ في وراثته لعلم الشريعة، وتبليغها للناس.

ولذا تورع كثير من السلف عن الإفتاء، وتدافعوا الفتوى بينهم، كل يود أن يكفيه أخوه مؤنتها ويقوم بواجبها. بل كانوا يتورعون عن التصريح بالحرمة والحل أحيانًا كما قال الأعمش رحمه الله: «ما سمعت إبراهيم النخعي قط يقول حلال ولا حرام، إنما كان يقول: كانوا يتكرهون، وكانوا يستحبون» «سنن الدارمي» (٦٤/١).

ومن هنا؛ فإن العلماء وضعوا للمفتي شروطًا عدة لا يتقلد الإفتاء إلا بتحققها فيه؛ كالعلم، والعدالة، والورع، والتثبت، وغيرها، ووضعوا للتيسير فيها ضوابط يجب الالتزام بها حتى لا تخرج عن المعهود الشرعي، والقصد الإلهي.

وقبل الحديث عن ضوابط التيسير في الفتوى لا بد من مقدمات أربع ممهدة للموضوع هي:

١ - الدين يسر: ففي الحديث أوصى الرسول ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري حين بعثهما إلى اليمن فقال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا» (متفق عليه).

وقد أخبر الله تعالى أنه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ١٨٥﴾ (البقرة: ١٨٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن دين الله يسر، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه» (متفق عليه).

ومن هنا تميزت سيرة سلف الأمة بهذا

الرغبة في الوقف دون الجزم به

(٣٤٦/٤٣٦/١)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

لي عمة أبدت لي رغبتها قبل وفاتها بسنة واحدة بأن توقف بيتها على مسجد، وطلبت مني أن أذهب إلى وزارة الأوقاف لأعرض عليهم هذه الفكرة، إلا أنني انشغلت عن إتمام هذه المهمة، والآن وقد تم بيع البيت وأخذ الورثة نصيبهم من هذا البيت.

والسؤال الآن هو: ما مصير حصتي من هذا الإرث، هل تعتبر وقفًا؟ مع العلم أن عمتي ليس لها أولاد.

أجابت اللجنة بما يلي:

إنه إذا قالت له وهي في مرض موتها: (وقفت بيتي هذا على مسجد من المساجد) نفذ هذا الوقف من الثلث، أما إن قالت هذا وهي في صحتها نفذ في الكل وصار وقفًا لا يحل له تملكه.

أما إذا قالت كما ورد في الاستفتاء (أرغب أو أود) فإن هذا لا يعتبر وقفًا، ويعتبر تركة يحل له أن يتملك نصيبه منه. والله أعلم.

تعديل شروط الوقف بعد وفاة الواقف

(٢٣/١٤٧/ ٧٣٨٤)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

هل يجوز للناظر أن يغير أو يبدل بشروط صيغة الوقف بعد وفاة الواقف؟ أفيدونا أفادكم الله تعالى.

أجابت اللجنة بما يلي:

الوقف الخيري يصبح لازمًا بوفاة الواقف ولا يجوز الرجوع عنه ولا تعديل شروطه الصحيحة. والله أعلم.

وقف أكثر من ثلث التركة بعد الموت للورثة أو غيرهم

(١٣/١٥٩/ ٤٠٦٣)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

من كان له ورثة يجوز له أن يوقف جميع تركته لغير ورثته زمن حياته، ويستمر الوقف بعد وفاته، لكن هل يجوز وقف أكثر من ثلث التركة بعد موت المورث للورثة أو لغير الورثة؟

أجابت اللجنة بما يلي:

إذا كان الواقف عاقلا رشيدًا صحيحًا غير مريض مرض الموت؛ فإن وقفه صحيح قضاء بشروطه، ولو استغرق المال كله، أما من حيث الديانة؛ فإن أراد به مضارة الورثة أثم رغم صحة الوقف، وإلا لم يَأْثَم، أما المريض مرض الموت إذا كان عاقلا رشيدا؛ فإن وقفه صحيح على غير الورثة بشروطه، ولكن في حدود ثلث ماله فقط، وأما إذا زاد عن الثلث فموقوف على إجازة ورثته بعد موته، وإلا بطل؛ لأن الوقف نوع تبرع وهو في حال الصحة جائز مطلقًا، أما في مرض الموت فإنه



المنهج النبوي حتى قال عمر بن إسحاق: «لما أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم؛ فما رأيت قومًا أيسر سيرة ولا أقل تشديدًا منهم»، «سنن الدارمي» (١/٥١).

٢ – المجتهد مصيب ومخطئ: ويدل على ذلك حديث النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب؛ فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ؛ فله أجر» (متفق عليه).

فالاختلاف بين أهل العلم في المسائل العملية واقع معروف؛ فكل مسألة لم يوجد فيها نص قاطع، ولا إجماع معتبر، ونزلت بالمسلمين؛ فإن حكمها عند الله عز وجل واحد، يوفق الله من شاء من عباده له، وإذا وقع فيها خلاف؛ فأحدهما على الحق، والآخر ليس كذلك، وإن ارتفع الإثم عنه.

٣ – حكم تتبع الرخص: أمر الله تعالى باتباع الحق، ونهى عن اتباع الهوى؛ فقال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ٢٦﴾ (ص:٢٦). فالواجب على المفتي في مسائل الخلاف أن ينظر بعين الباحث المنصف، والمستدل المجتهد، لا أن يتخير من غير نظر في الدليل والترجيح.

قال ابن القيم رحمه الله: «لا يجوز للمفتي أن يعمل بما شاء من الأقوال والوجوه من غير نظر في الترجيح، بل يكتفي في العمل بمجرد كون ذلك قولا قاله إمام، أو وجهًا ذهب إليه جماعة فيعمل بما يشاء من الوجوه والأقوال؛ حيث رأى القول وفق إرادته وغرضه عمل به؛ فإرادته وغرضه هو المعيار وبه الترجيح، وهذا حرام باتفاق الأمة»، «إعلام الموقعين» (٤/٢١١).

٤ – كل ما عارض النص فهو غير معتبر: أمر الله تعالى بتقديم كتابه وسنة رسوله ﷺ على ما عداهما، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ١﴾ (الحجرات: ١). وأمر بالرد إليهما عند النزاع؛ فقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ٥٩﴾ (النساء: ٥٩).

وقد قرر أهل العلم قواعد فقهية لهذا الأصل؛ كقولهم: (لا اجتهاد مع النص)، و(الاجتهاد لا ينقض بمثله وينقض بالنص)، و(لا مساغ للاجتهاد في مورد النص)، إلى غير ذلك من القواعد.

فإذا تقررت هذه المقدمات، سهل على المفتي أن يتقرب إلى الله تعالى في التيسير على المستفتين في فتواه، وسهل على المستفتي أيضًا فهم مبدأ التيسير في الشرع؛ ولنتحدث لاحقًا عن ضوابط التيسير في الفتوى...

...يتبع

يعطي حكم الوصية، فينفذ في الثلث ويتوقف فيما زاد عن الثلث على إجازة الورثة.

أما وقف المريض مرض الموت على الوارث؛ فإنه موقوف على إجازة الورثة، سواء كان ضمن الثلث أو أكثر منه على سواء؛ لأن له حكم الوصية والوصية للوارث موقوفة مطلقًا، أما وقف المجنون والصغير وغير الرشيد فباطل مطلقًا لنقصان أهليته. والله أعلم.

انتقال الوقف الذري إلى خيري

(١٣/١٦٠/ ٤٠٦٤)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: أوقف مسلم جميع ماله حال حياته لورثته، ولم يعين مدة الوقف، ومات جميع فروعه وأصوله، ولا يوجد أحد منهم؛ فهل يقع ماله فيئًا للمسلمين؟ وما العمل إذا وقف على فعل خيري ثم انقرض هذا الفعل؟

أجابت اللجنة بما يلي:

إذا لم يعين الواقف لوقفه فترة كان وقفًا مؤبدًا يتعاقب عليه المستحقون بحسب شرط الواقف، فإذا انقرض الموقوف عليهم المنصوص عليهم في صك الوقف انتقل الوقف الذري إلى وقف خيري ينفق ريعه في وجوه البر والخير، فإذا كان خيريًا من أصله انتقل الريع إلى خيرات أخرى مقاربة للأولى، ولا يكون فيئًا في كل الأحوال. والله أعلم.

الاقتراض من مال الوقف

(١/٤٢٩/ ٣٣٧)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: بشأن الإسهام من أموال الوقف الخيري في صندوق القرض الحسن بطريقة الوقف بقصد الإقراض.

أجابت اللجنة بما يلي:

إنه لا مانع من ذلك؛ لأنه من وجوه البر، ويفضل أن يكون مما اشتمل فيه شرط الوقف على وجوه الخيرات بدون تقييد. والله سبحانه وتعالى أعلم.

المقصود بعمارة الوقف

(١٨/٢٤٤/ ٥٦٨٣)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: الرجاء إفادتنا عن المقصود شرعًا بعمارة الوقف؟

أجابت اللجنة بما يلي:

المقصود بعمارة الوقف أن يصرف على عين الوقف بقدر ما يبقيها على الصفة التي وقفت عليها في زمن الواقف، ولا تجوز الزيادة عليها إن لم يشترط الواقف ذلك، فإن اشترط الواقف الزيادة عليها لزمت. والله أعلم.

تاريخ الأمم والملوك للطبري

إعداد : خالد خلاوي

جمع كتاب «تاريخ الأمم والملوك» بين دفتيه أضخم عمل تاريخي، قائم على جمع الروايات التاريخية من مختلف المصادر التي تجمع تاريخ البشر، منذ بدء الخليقة حتى عام ٣٠٩ هـ، مما جعله أهم مصدر للتاريخ الإنساني عامة، والتاريخ العربي والإسلامي خاصة، وسار الطبري في كتابه على طريقة المحدثين، والتي تتمثل في أن يذكر الحوادث المروية، ملحقا إياها بالسند حتى يتصل بصاحبه، لا يبدي في ذلك رأيا في معظم الأحيان، وهذه الطريقة التي سلكها في معظم الكتاب، وفيما عدا ذلك ينقل من الكتب فيصرح باسم الكتاب أو ينقل عن المؤلفين من غير تعيين الكتاب الذي نقل عنه.

وقد اعتمدنا في التعريف بالكتاب في السطور التالية على بحث الأستاذ محمد خليفة التونسي، ضمن سلسلة «تراث الإنسانية»(١).

تعريف بالإمام الطبري

هو الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبوجعفر الطبري (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ - ٨٣٩ - ٩٢٣م)، مؤرخ ومفسر وفقيه، صاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ.

ولقد بلغ في عدة علوم شرعية وأدبية وكونية غاية ما يبلغ المختص في كل منها على حدة، مع سعة اطلاعه على غيرها، قال عنه مواطنه وكاتب سيرته عبدالعزيز بن محمد الطبري: كان أبوجعفر قد نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة، وكثير من فنون أبواب الحساب، وفي الطب، وأخذ منه قسطا وافرا يدل عليه كلامه في الوصايا... وكان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي كان لا يعرف إلا الفقه، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلا على غيرها.

ومن أهم كتبه الأخرى: تفسير الطبري المسمى بجامع البيان عن تأويل آي القرآن، وكتاب آداب النفس الجيدة والأخلاق النفيسة، واختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام، وصريح السنة، والفصل بين القراءات، وآداب القضاة، وآداب النفوس، وآداب المناسك.

محتويات الكتاب

يبدأ الكتاب بخطبة (مقدمة)، يليها تمهيد، ثم التاريخ، ويشمل تاريخ الخلق منذ بدأ حتى سنة ٣٠٢، وهو شطران يفصل بينهما الهجرة النبوية، وسنجمل فيما يلي كل قسم من أقسامه الأربعة، ونهجه الخاص به:

أ- الخطبة:

وهي تقع في ثلاث صفحات، وتبدأ باسم الله وحمده بما هو أهله من قدم وبقاء ووحدانية وقدرة، وتجرد عن المكان ولطف عن الإدراك، ثم شكره على فضله والإقرار بوحدانيته، ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وعبوديته لله الذي أرسله فنهض برسالته، ثم شرح حكمة الخلق، كما لخصناها حين وضحنا نظرة المؤلف التاريخية ودلالتها على طبيعته، ثم إشارة إلى موضوع الكتاب، وهو ذكر من انتهت إلى المؤلف أخبارهم منذ بدء الخلق من الرسل والملوك والخلفاء، مع جملة من حوادث الأمور في كل عصر منهم «إذ كان الاستقصاء في ذلك يقصر عنه العمر، وتطول به الكتب» ثم أشار المؤلف إلى أنه سيعهد لذلك بالكلام على ما هو أولى، وهو الزمان «ما هو، وكم قدر جميعه وابتداء أوله، وانتهاء آخره، وهل كان قبل خلق الله تعالى إياه شيء غيره، وهل هو فان، وهل بعد فنائه شيء غير وجه المسبح الخلاق تعالى ذكره، وما الذي كان قبل خلق الله إياه، وما هو كائن بعد فنائه وانقضائه، وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى إياه، وكيف يكون فناؤه، والدلالة على أن لا قديم إلا الله.. بوجيز من الدلالة غير طويل، إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك، بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضية وجمل من أخبارهم.

ثم أشار إلى أنه سيتبع ذلك بتاريخ النبي وصحابته وتابعيه ومن بعدهم.. ومن حمدت روايته أو رفضت وسبب ذلك، ثم أشار إلى أنه أدى ما وصل إليه كما وصل، لأن الأخبار تعرف بالنقل لا باستنباط الفكر والحجج العقلية، ويبرأ من عهدة ما ينقله من خبر قد يستنكر أو يستبشع، وأن العهدة في ذلك على الرواة لا عليه.

ب- تمهيد في الزمان وبدء الخلق:

يقع التمهيد في نحو خمسين صفحة، وفيه يوضح الزمان ما هو، فيعرفه بأنه ساعات الليل والنهار، وأن من معانيه المدة الطويلة أو القصيرة، ويحتج لهذه التعريفات بكلام العرب، وهي تعريفات عالم فقيه لغوي لا تعريفات فيلسوف، ثم يتكلم عن مقدار الزمان من بدئه إلى نهايته ويذكر الأقوال فيه.

ج- التاريخ البشري حتى الهجرة:

يبلغ هذا القسم نحو خمسمائة صفحة، وهو يستوعب بقية الجزء الأول وجميع الجزء الثاني إلا خمسين صفحة، وفيه يذكر المؤلف خروج آدم أين كان، وما تزود به في خروجه، وما وقع في عهده من أحداث، أهمها ما نسلته له حواء من بنين وبنات، فيذكر عددهم وتزويجه

هؤلاء بهؤلاء، ليبقى النسل وتعمر الأرض، ويذكر اختلاف الرواة في ابني آدم اللذين قتل أحدهما الآخر، وسبب نزاعهما، وزمنهما، وهل هما ممن ولدت حواء لآدم أم هما من بني إسرائيل.

والمؤلف في تأريخه حريص على ذكر الحوادث المتعاصرة معا، ولو اختلفت موضوعاتها، ولم تكن لإحداها صلة بالأخرى إلا المعاصرة التي هي أقوى صلة بينها عنده، وهو على هذا المنهج يجري هنا، فيذكر عصر ملك فارسي أو أكثر، ويطيل في سيرته ويتبعها بحوادث عصره في الأمم الأخرى، فإذا فرغ من ذلك ذكر عصر ملك فارسي آخر أو أكثر من ملك، فيفعل مثل ذلك وهكذا.

د- تاريخ الإسلام منذ الهجرة حتى سنة ٣٠٢هـ:

هذا القسم أطول أقسام الكتاب وهو يستغرق أكثر من ثمانمائة وألفي صفحة، هي الصفحات الخمسون في آخر الجزء الثاني ثم صفحات الأجزاء التالية، من الثالث حتى الحادي عشر، وأساس توقيت هذا القسم هو التأريخ الإسلامي بالهجرة النبوية، على وفق السنوات الهجرية، فهو يذكر في سنة ما وقع فيها من حوادث، فإذا فرغ من أخبار سنة انتقل إلى غيرها، ويبدؤها بقوله مثلا: ثم دخلت سنة كذا، وفيها وقع كذا وكذا، وحين يشير إلى حادثة يذكر روايات عدة فيها، بأسانيدها مهما طالت، وقد تتداخل الروايات في الحادثة الواحدة في السنة الواحدة إذا كان في جزء منها أكثر من رواية، فهو يذكر الرواية في هذا الجزء، ثم يذكر رواية أخرى أو أكثر فيه أيضا، فإذا استوفى روايات هذا الجزء ذكر روايات جزء آخر على هذا النحو، ولو كانت بعض أسانيد الجزء الأول هي أسانيد الجزء التالي له، فإنه يبدأ روايات الأجزاء التالية بقوله مثلا: «عاد الحديث إلى رواية فلان» فترى رواية الراوي الواحد في أجزاء الحادثة الواحدة في السنة الواحدة مختلطة برواية غيره في هذه الأجزاء، مع أنها وقعت داخل سنة واحدة.

وفي هذا القسم -ولاسيما سنوات القرن الأول- يكثر المؤلف من رواية الخطب والأشعار والرسائل والمناظرات والكلمات البليغة، مما جعل كتابه جزءا مهما من تراثنا الأدبي، كما هو جزء من تراثنا التاريخي، وتأخذ هذه النصوص الأدبية في الضعف والقلة كلما اقترينا مع الزمن من عصر المؤلف، حتى تتلاشى في سنواته الأخيرة، مما يدل على ضعف أساليب الحكام الذين يعنى المؤلف بأخبارهم، وأساليب المؤلفين الذين ينقل عنهم رواياته.

تقدير الكتاب وأثره

ليس في كتاب المؤرخين حتى اليوم ما يضارع هذا الكتاب في موضوعه، من حيث الأمانة والسعة والإحاطة بالوجهات المختلفة للروايات ورواتها، فهو في موضوعه عمدة المؤرخين في قسميه القديم والإسلامي، مع كل ما فيه من مآخذ ألمحنا إلى بعضها آنفا، فهو مرجع قيم لا يستغنى عنه في موضوعه، ولم يهمله فيه إلا من قصر عنه.

وهذا الكتاب مرجع لا نظير له في تاريخ الفرس الأقدمين، من أبعد عصورهم الغامضة حتى أحدثها، فلا غنى لمن يؤرخون عنه، ولقد عول عليه كل عارف به فيمن كتبوا في تاريخهم من القدماء والمحدثين، شرقيين وغربيين، وزاد في تقديره عند الغربيين نظرهم إلى الفرس نظر الأبناء إلى الآباء في أرومتهم الآرية، واعتدادهم بهذه الأرومة في الصراع العنصري، وبخاصة في القرون الأخيرة التي كثر فيها بينهم البحث عن الأصول البشرية، وتسلموا قيادة العالم، وطمعوا في تسخير سائر الأمم لمصالحهم القومية.

وكما عني سابقونا بالنقل عنه وباختصاره على ما فعل ابن الأثير، عنوا بتكميله، فوصله كثير منهم بين المشارقة والمغاربة، ومن هذه الصلات



كتاب «الصلة» الذي ألفه عبدالله بن أحمد بن جعفر الفرغاني، وقد نقل عنه ياقوت، وكتاب الصلة الذي ألفه عريب بن سعد القرطبي، فانتهى به إلى سنة ٣٦٥، وتلاه محمد بن عبدالملك الهمذاني بكتابه «الصلة» فانتهى به إلى سنة ٤٨٧.

ولا نجد بعده كتابا ذا قيمة خلال تاريخنا القديم والحديث يعرض لتاريخ الإسلام وأهله وصلاته بجيرانه في القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة -وهذا بعض موضوع الكتاب- إلا وجدناه يعول عليه كأوثق مصدر له وأوسع، ولا وجدنا مؤرخا قديما أو حديثا عرض لتقديره إلا زكاه وعظمه كيفما كانت مآخذه عليه، وفي بعض هذا برهان واضح على قدر الكتاب بين القدماء والمحدثين في أمم مختلفة، وعلى أثره في مؤلفاتهم التاريخية والأدبية، وهذا حسبه في عظمة القدر والأثر الذي يتجدد على اختلاف الأمصار والأعصار.

المصدر:

- محمد خليفة التونسي، تاريخ الأمم والملوك للطبري، ص ٧٤٥ وما بعدها بتصرف، سلسلة تراث الإنسانية، ط المؤسسة المصرية العامة

وجدتها..!

استيقظت هذا الصباح متأخرا.. إنها الحادية عشرة صباحا، أسندت ظهري للحائط ودفء الفراش يشدني، عيناي ذابلتان، جسدي مرتخ يطرح عنه أحلام الليل رويدا، مازلت أتذكرها جيدا، لقد كنت معها نمشي فوق رمال الشاطئ، أستعيذ بالله وأقوم لقضاء صلاة الصبح، اللهم اغفر لي، اللهم تقبل.

بعد تناول فطور ثلاثي من خبز وشاي وزيت (بلدية) لا أنفك أفكر ما العمل؟ لا أجد كتابا مشوقا يذهب عني حس الملل، ولا رواية في المتناول تنزعني من الواقع.. القنوات لم تفلح في تسلية مزاجي، فكلها تفاهات وترهات تعافها عقول وأذواق من قبيل ما أحمل في روحي. أصعد الدرجات إلى السطح، أتفحص عدم وجود جار مقتحم لحرمة سطحنا ثم أقوم ببعض الحركات الرياضية أسلي عن نفسي، وأنشط دورتي الدموية. وبدون سابق إنذار، تصطدم الأصبع الأخير من قدمي بباب السطح الحديدي، فأزم على شفتي لثوان ثم أنطق بلغات لم أفهم مخارجها ولا معانيها إلى اليوم، «تفووووو» قلتها وأنا أعود القهقرى نازلا تلك الدرجات، أتمدد فوق فراشي الذي تركته كما كان مذ استيقظت، استلقيت على ظهري أحدق في زخرفات السقف الجبسية، تعود إلي أحلام من الأيام الأولى للجامعة.

كانت السنة الأولى سنة نحس ومرض وشح في تحصيل الدرجات، ومعاناة في السكن، لكني أتذكرها بلذة وأضحك.

أتذكر أيام حمل السواطير والسيوف (الأقلام والمساطر) ونحن ندافع عن أفكار وأيديولوجية نرى أننا المصطفون لإدخال الناس إليها، أطلق مجددا ضحكات متتالية ساخرا تارة ومفتخرا تارة.

أتذكر يوم حملت شهادة الإجازة بين يدي، كنا نسميها «كرتونا» لشح قيمتها الوظيفية، لكني أحسست بالفخر وأنا أقرأ ما كتب فيها، وبأني صرت شخصا جديدا.

أتذكر الفرص التي ضيعتها فأتحسر عليها، أتذكر لحظة هي التي جعلتني من المصطفين.

أتذكر جيدا يوم امتنعت عن الغش في أحد الامتحانات وأنا في حاجة ماسة له؛ لم أغش، ورسبت في المادة. خلق ذلك نوعا من الكره والحقد في نفسي تجاه شيء ما.. لا أعرفه بالتحديد! لكني جد راض الآن. لا أعرف السبب المادي وراء ذلك، لكني سعيد جدا بما فعلت.

ارتفعت دقات قلبي وأنا مستلق أتذكر كل شيء، فانتفضت من فراشي طاويا إياه في لحظات لأتجه صوب الحاسوب، وأضع أصابع يدي فوق أزرار الكتابة، وأنقرها بدموع مقهورة وأحاسيس متضاربة:

لماذا لا أجدك أمامي حين أكون بحاجة ماسة إليك..؟ ثم تنهمر الدموع المقهورة جارية فوق لحيتي الخفيفة، وتتناسق أحاسيسي في قالب من الحب، وتتدفق دقات قلبي، وتسكن أطرافي خاشعة للموقف، وترتفع روحي مزيحة ستار الغم عن المكان، وتبدد خيوط الشمس المتسللة ما تبقى من الخوف الخائف، وتتوقف عقارب الساعة إجلالا للمقام.

لأصيح في أرجاء المنزل مناديا: وجدتها.. وجدتها.!!

محمد أكروح

الجوائز الربانية للتسامح

إذا كانت الأمم المتحدة قررت أن يكون يوم ١١/١٦ من كل عام يوما للتسامح بين شعوب العالم فإن الإسلام بتشريعاته قد رسخ هذا المفهوم في نفوس المسلمين.. وإن الحضارة الإسلامية كانت ولاتزال تسعى إلى تحقيق هذا الهدف، لأن من أولويات الإسلام التسامح.

ومن الأمثلة البارزة للتسامح في الحضارة الإسلامية:

- ذلك العفو الشامل الذي أصدره النبي ﷺ عن أهل مكة الذين آذوه هو وأتباعه بشتى ألوان الإيذاء.

- في القرن الحادي عشر (عام ١٠٩٩م) سقطت مدينة بيت المقدس في أيدي الصليبيين، وأخذ المسلمون يفرون في الشوارع، فانقض عليهم الصليبيون وأخذوا يذبحونهم في الشوارع، فسالت الدماء حتى بلغت كما يقول المؤرخون ارتفاع اليد!! وبلغ عدد الذين قتلوا في هذه المذبحة نحو ٧٠ ألفا تقريبا، وبعد الانتهاء من القتل حرقوا ونهبوا بيوتهم..

وحين فتح صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس في القرن الثاني عشر (١١٨٧م)، وتنفيذا لأوامره ما من بناء للأعداء نهب وما من إنسان أصابه أذى، بل أطلق سراح الأسرى المسيحيين.

إن الجوائز الربانية للتسامح هي:

١- المغفرة للمتسامح ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(النور: ٢٢).

٢- محبة الله للمتسامح ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة ١٣).



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

مؤلفات مقترحة

■ شاءت إرادة الله أن أقتني بانتظام ومنذ سنوات مجلة «الوعي الإسلامي».

ومما دفعني لاقتنائها التصميم الجيد للمجلة، والمواضيع القيمة الواردة بها، ثم ثمن بيعها الذي بدا لي زهيدا نسبيا «دينار تونسي واحد».

وقد تضمن العدد الأخير «٥٨٠» وفي مسك الختام مقالا موجزا ومهما لمحمد صديق باحث دراسات إسلامية حول «مالك بن نبي» وأسئلة الاستعمار والنهضة.

وإني أريد بالمناسبة أن أشكركم على المواضيع المطروحة، وأثني على ما تبذلونه من جهد وحرفية في العمل، لإنجاز المجلة وإخراجها بالمظهر اللائق والممتع؛ شكلا ومضمونا.

وإني على يقين من أن المجلة تساهم بنجاح في نشر المعرفة الإسلامية الصحيحة والهادفة، وإتاحتها في متناول النخب المثقفة، وإزالة بعض غبار الانحطاط الحضاري والاستعمار الفكري عن الثقافة الإسلامية.

وإني أدعو الله لكم ولفريق العمل بالتوفيق وحسن الجزاء.

هذا وأتمنى فرصة مكاتبتكم لمدكم بمشروع يصب، في نظري، في مجرى مقاصد جهدكم ومجلتكم، ويتعلق بدعم نشر معارف الإسلام والحضارة الإسلامية لدى النخب المثقفة والشباب العلمي، والذي يمثل فكرة حديثة العهد، أردت إحالتها عليكم وعلى بعض الإخوة مثلكم، قصد المشورة والإثراء والانتفاع بخبرتهم وحكمتهم.

وسنمدكم لاحقا بإذن الله، وعن طريق البريد بنسخة من بعض المؤلفات المقترح دعمها ونشرها ضمن المشروع.

وفي الختام، وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه الخير والسلام

● أخوكم علي الجبالي/ مهندس متقاعد من وزارة الفلاحة والموارد المائية التونسية.

المحــرر: أخـي الكـريم سعدنا بكم وفـي انـتظار المؤلفات لدراسة اقتراحك بعد الاطلاع عليها، ونفع الله بكم الأمة وجعل مجهودنا خالصا لوجه.

الاهتمام بالتعليم

■ تحياتي لكم ولمجلة «الوعي الإسلامي» هذه المجلة الراقية ذات المواضيع المتنوعة، وخصوصا الاهتمام بالتعليم في العالم العربي، وغيرها من المواضيع الثقافية، تحية خاصة لرئيس التحرير الأستاذ/ فيصل العلي.

● وليد عبدالرحمن - اليمن

المحرر: جزاك الله خيرا، جعلنا الله عند حسن ظن جميع القراء، وكما قلتم فالتعليم محور مهم في عالمنا العربي، علينا جميعا الاهتمام بقضاياه.

٣- يحرم النار على المتسامح، فعن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل»(رواه الترمذي).

وإن عالمنا اليوم في أشد الحاجة إلى التسامح أكثر من أي وقت مضى، فالتعصب يغذي نار الكراهية بين الأمم والشعوب، وكلما بعدت الأمة عن التسامح عانت من الأمراض الاجتماعية والحضارية، كالتسلط والتراجع والنهب والتأخر عن باقي الأمم.

إن فتح آفاق التسامح يعني فتح آفاق الأمل وآفاق التطور والحياة الطيبة..

نعيم السلاموني

قفزة واجبة!

الأستاذ فيصل يوسف العلي المكرم

رئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي»

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، اقتنيت اليوم العدد رقم ٥٨٣ لشهر صفر ١٤٣٥هـ، والحقيقة أني وجدت قفزة مميزة في مواد هذا العدد.. مما دفعني لاشعوريا لأن أمسك القلم فأخط لكم كلمة الشكر والتقدير، متمنيا لكم دوام التقدم والازدهار.. والله الموفق..

● قيس محمد تيسير ظبيان

مدير عام مجلة الشريعة

المحرر: نسعد بكم وبتعليقاتكم ونقدكم البناء، وإذ نشكر هذه اللفتة الكريمة فيكم، لنؤكد على أن صميم واجبنا هو تحقيق مثل هذا التطور الذي وصفتموه بالقفزة المميزة.. جزاكم الله خيرا.

إعداد: تركي النصر

التحقيق

التحقيق هو إخراج نص معين في شكل أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه اعتمادا على المقارنة بين كل النسخ التي بقيت من الكتاب، وهو مصطلح حديث، وأول من استعمله أحمد زكي باشا الذي حقق كتاب «الأدب الصغير لابن المقفع» عام ١٩١١م، وهو أول كتاب جاءت في صدره كلمة «بتحقيق».

(مصطلحات الكتاب العربي المخطوط، ص٦٠)

الوصف والموصوف

يجب أن يكون الوصف معلوم الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جعله وصفا له، ومن هاهنا قالوا: إن الصفات قبل العلم بها أخبار، والأخبار بعد العلم بها أوصاف.

(إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود، ٢/ ٩٦)

ذم البروز وحب الظهور

قال ابن محيريز: صحبت فضالة بن عبيد رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ، فقلت: أوصني رحمك الله، قال: «احفظ عني ثلاث خصال ينفعك الله بهن:

١. إن استطعت أن تَعرف ولا تُعرف فافعل.
٢. إن استطعت أن تسمع ولا تتكلم فافعل.
٣. إن استطعت أن تَجلس ولا يُجلس إليك فافعل».

(الحلية لأبي نعيم، ٢/ ١٦٨)

عليك بالصدق

قال العلامة ابن الصلاح رحمه الله تعالى: وقد قرأ عبدالرحمن بن منده جزءا على أبي أحمد الفرضي، وسأله خطه ليكون حجة له، فقال له: يا بني عليك بالصدق، فإنك إذا عرفت به لا يكذبك أحد، وتُصدّق فيما تقول وتنقل، وإذا كان غير ذلك، فلو قيل لك: ما هذا خط الفرضي ماذا تقول لهم؟

(تدريب الراوي، ٢/ ٩٠)

كتاب في أربعمائة مجلد

الحافظ محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن علي المروزي الأرزي الزاغوني، ذكره السمعاني وقال: كان صالحا، خشن العيش، قانعا باليسير، عارفا بالحديث وطرقه، اشتغل بطلبه وجمعه طول عمره، وجمع وصنف، كان عارفا باللغة، كثير الكتب، ورحل إلى هراة، وسمعت منه وبقراءته، وجمع كتابا كبيرا أكثر من أربعمائة مجلد يشتمل على التفسير والحديث والفقه واللغة، سماه: «قيد الأوابد»، توفي سنة ٥٥٩هـ.

(تذكرة الحفاظ، ٤/ ٣٣٧)

احترام العلم والعلماء

قال أحمد بن سنان رحمه الله: كان عبدالرحمن لا يُتحدث في مجلسه، ولا يُبرى قلم، ولا يقوم أحد، كأنما على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة.

(تذكرة الحفاظ، ١/ ٣٣١)

القلوب أربعة

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «القلوب أربعة:

١. قلب أغلف، فذلك قلب الكافر.
٢. وقلب مصفح، فذلك قلب المنافق.
٣. وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذاك قلب المؤمن.
٤. وقلب فيه نفاق وإيمان، فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق مثل القيحة يمدها قيح ودم، فأيهما غلب عليه غلب».

(الحلية، ١/ ٢٧٣)

السيئة وأخواتها

قال عروة بن الزبير رضي الله عنه: إذا رأيت الرجل يعمل السيئة فاعلم أن لها عنده أخوات.

(تهذيب التهذيب، ٧/ ١٨٢)

هجران أخلاق السوء

إذا أردت أن تهجر إخوان السوء فاهجر- قبل أن تهجرهم- أخلاق السوء، فإن نفسك أقرب إليك، والأقربون أولى بالمعروف.

(روائع الدرر)

قالت العرب

- أطيش من فراشة.
- المكاثر كحاطب ليل.
- من قنع بما هو فيه قرّت عينه.
- من طلب شيئا وجده.
- النفس مولعة بحب العاجل.
- ظن العاقل خير من يقين الجاهل.

(الحديقة لمحب الدين الخطيب، ٣/ ١٣١٦)

المؤمن يستر ولا يفضح

قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: «المؤمن يستر ويعظ وينصح، والفاجر يهتك ويعير ويفشي».

(الحلية، ٣/ ١٤)

يقرع باب الملك

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما دمت في صلاة فأنت تقرع باب الملك، ومن يقرع باب الملك يفتح له».

(صفوة الصفوة، ١/ ١٩٠)

إن نافرت الناس نافروك

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إذا نافرت الناس نافروك، وإن تركتهم تركوك، فأقرضهم من عرضك ليوم فقرك، وكفى بك ظالما ألا تراك مخاصما»

(طبقات ابن سعد، ٤/ ٨٨)

إياس بن معاوية

قال سفيان بن حسين: ذكرت رجلا بسوء عند إياس بن معاوية، فنظر في وجهي، وقال: أغزوت الروم؟

قلت: لا.

قال: فالسند والهند والترك؟

قلت: لا.

قال: أفتسلم منك الروم والسند والهند والترك، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟!

قال: فلم أعد بعدها.

(البداية والنهاية لابن كثير، ١٣/ ١٢١)

كل ما في يدك ليس لك

سأل هارون الرشيد مالكا في يمين فقال: صيام ثلاثة أيام.

فقال الرشيد: لم؟! أأنا معدم؟ وقال الله: ﴿فمن لم يجد﴾ فأقمتني مقام المعدم!

قال مالك: نعم يا أمير المؤمنين، كل ما في يدك ليس لك، فعليك صيام ثلاثة أيام.

(المدارك، ٢/ ١١١٢)

عموم العقوبة

عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى قال: «كان يقال: إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عمل المنكر جهارا استحقوا العقوبة كلهم».

(موسوعة ابن أبي الدنيا، ٢/٣١٢)

استغلال الوقت

قرأ الخطيب البغدادي بمكة الصحيح في خمسة أيام.

(تذكرة الحفاظ، ٣/ ١١٣٨)

خطر الفتوى

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا ترك العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله».

وقال القاسم بن محمد رحمه الله تعالى: «ما نعلم كل ما نسأل عنه، ولئن يعيش الرجل جاهلا بعد أن يعرف حق الله تعالى عليه، خير له من أن يقول ما لا يعلم».

وقال ابن وهب: «لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك بن أنس «لا أدري»، فعلت».

(عيون الأخبار، ٢/ ٥٢٤- الحلية، ١/ ٣٥٣)

مسك الختام

مكونات الإمام العادل

عثمان إسماعيل
كاتب مصري

المتأمل لنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف الخاصة بالإمام العادل، يدرك المكونات والقدرات النفسية التي ينبغي أن يتمتع بها دون غيره، مساهمة في خلق صورة خاصة متفردة تتفق ومهامه الجسيمة، لمَ لا؟ وهو ممن تَزَّين بهم الأرض زهوا وفخرا؛ لأنه يقيم الشرع، شرع السماء الذي نزل نظاما لبشر هذا الكون ومخلوقاته.

والقول الفصل في المكونات النفسية للإمام العادل أنها تخضع لأصول وثوابت، أساسها التقوى والخوف من الله، التقوى التي هي سنام الأمر وعموده في هوية الإمام العادل، حيث تتوقف عليها مدى فاعلية التعامل بتلك القدرات والإمكانات، التزاما وممارسة. والتقوى بما فيها من خشوع وورع وخوف، هي التي جعلت من رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة.. لم لا؟ وقد علمه ربه فأوحى إليه ما أوحى، كي يكون مبشرا ونذيرا.

ونلمس الصرامة والقوة في تطبيق العدل في قوله ﷺ «وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

إنها النفس التي طهرها الله لتقيم العدل فلم تعرف -حاشا لله- ميلا ولا هوى ولا محاباة ولا مجاملة، بل وضعت نصب أعينها الورع والخوف من الله تعالى وحسابه.

إنها التقوى مفتاح شخصية الإمام العادل، والتي جعلت من الفاروق عمر رضي الله عنه الرجل الفرد العلم على العدل في تاريخنا الكبير، فإننا «لا نكاد نعرف نفسا امتنعت عن الغرور وتكسرت أمام حصونها المنيعة كل محاولاته مثل نفس هذا الرجل الفرد (عمر)، فمن زين له هذا؟، إن عمر يرد إلى الله وإلى الدين الذي انتهج نهجه كل ما معه من فضائل وهوى واقتدار، حتى إنه يكاد يذوب ويتحلل كلما هومت حوله من بعيد ومضة من ومضات ذي الجلال والإكرام».

هذه أصول المكونات النفسية للإمام العادل المتمثلة في الخشية الضاغطة والحياء الداهم من الله عز وجل، ليجعله يعيش رعدة ورعشة القلب لتلقي به إلى عالم الصراعات والتساؤلات بينه وبين نفسه: «ماذا تقول لربك غدا يا عمر؟».

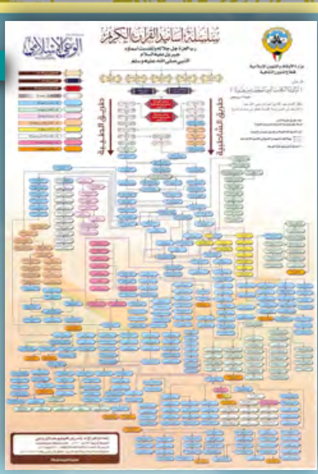
ومن المؤكد أن تلك الصراعات وهذه التساؤلات كانت تزلزل أركان عمر وتقتحم نفسه لتقوده إلى تأنيب الضمير، محاورا ذاته «لماذا فعلت هذا يا عمر؟!».

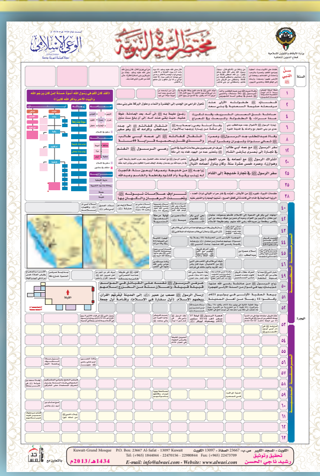
هكذا تكون قدرات الإمام العادل النفسية عندما تتخطى ذاته إلى عالم الشفافية ورجاجة العقل وحصافة الرأي، مما يكسبها القدرة -بقوة إيمانها- الفراسة في تفهم الأمور والبصيرة النافذة في إدراك القرار وإصداره والحكم على الأشياء، ومن هنا استطاع العقاد أن يقتحم أغوار العالم النفسي للفاروق رضي الله عنه حين قال «العدل يفتقر إلى شجاعة وشرف، وهما خصلتان مطلوبتان، أما الشجاعة في الرجل العادل فتحميه أن يحابي الأقوياء؛ وهو جبن، وأما الشرف فيحميه أن يجور على الضعيف؛ وهو خشية.. ولا تناقض بين هذه الخصال».

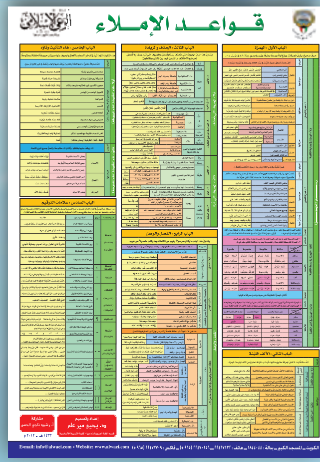
إن المكونات النفسية للإمام العادل أساسها خشية الله وتقواه التي هي أصل وأساس ما يتمتع به من سمات ينتصر بها على نفسه، ويظفر برضا الله وحب الرعية، ويقتل بها شهوات النفس ونزوات الدنيا ومطامعها، ويصعد بها إلى عالم الوقار والرهبة واحترام الذات والآخر؛ محاولا تجديد وتثبيت التقوى شعورا وسلوكا، التقوى التي تقود إلى إرساء وترسيخ مبادئ الأمن والاستقرار، وتقوية الروابط الإنسانية بين البشر.





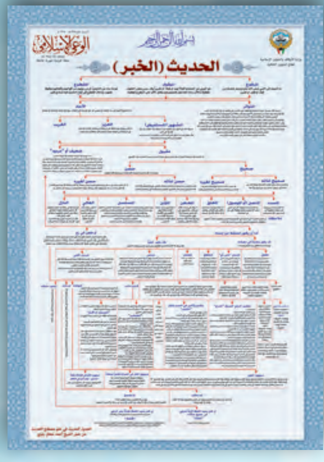
































للحصول على إصداراتنا: www.alwaei.gov.kw

العدد (٥٨٥) جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ - مارس ٢٠١٤ م

50 عاماً من العطاء

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

ثقافتنا وحرية التفكير والإبداع

الخوف من الإسلام.. مسؤولية من؟

مؤسسة علال الفاسي.. منارة المغرب الثقافية

الفكر الإصلاحي عند الإمام الشاطبي

التعصب والغلو.. آفة تحتاج إلى مراجعات (ملف العدد)



الجامعة النظيمية..
تلم الشمل وتؤهل طلبة الشريعة

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

العدد ٥٨٥ - السنة ٥١ - جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ / مارس ٢٠١٤ م

الافتتاحية

كناطح صخرة

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

كلف الله الخلق بعبادته، وجعل ما تعبدهم به سبحانه مأخوذا من شرع مسموع، وعقل متبوع، ولذلك توجه التكليف إلى من كمل عقله، فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فبلغهم رسالته، وألزمهم حجته، وبين ما كان مجملا، وفسر ما كان مشكلا. وكان من رأفته بخلقه، وتفضله على عباده، أن أقدرهم على ما كلفهم، ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ..﴾ (البقرة: ٢٨٦). ﴿...وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ..﴾ (الحج: ٧٨).

لقد جاء الإسلام بالدين الوسط، وحذر من الوكس والشطط، ولعل أبرز خصائص هذا الدين، الوسطية والاعتدال، والبعد عن الغلو والابتذال، ولا إفراط ولا تفريط، وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، ويسر الإسلام وتيسيره، سمة من سماته، ومن حكمة بعث النبي ﷺ، رفع الإصر والأغلال الواقعة بالأمم قبلنا، والحرج ليس من مقاصد الشرع، واليسر والتسهيل من مقاصده ﴿.يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ..﴾ (البقرة: ١٨٥).

فالغلو والتنطع والتشدد والعنف، آفة قديمة في جميع الأمم السابقة، وقد كانت هذه الآفة سببا لهلاكها، ومن أجل ذلك جاءت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، محذرة ومبينة ما يترتب على الغلو من أضرار. ومن أسباب الغلو والتنطع والتشدد، قلة العلم والتفقه بالدين، والاستعلاء والتكبر، وعدم الثقة والاقتداء بأهل العلم، وضيق الأفق، واتباع الهوى.

فالغلو مشقة وعنت، وإن أصر صاحبها على المنهج الهدام، وتغافل النصيحة وتعود الخصام فحاله:

كناطح صخرة يوما ليوهنها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فالحذر الحذر من فعل يمنع منه الشرع، أو من ارتكاب ما يظن عزيمة وهو خطيئة، واحذر جمود النقلة، وانبساط المتكلمين، وجموع المتزهدين، وشره أهل الهوى، وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم، وليس العلم صور الألفاظ، إنما المقصود فهم المراد منه، وذاك يورث الخشية والخوف، نسأل الله عز وجل يقظة تفهمنا المقصود، وتعرفنا المعبود.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٥ | جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
مارس ٢٠١٤ مـ

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع
دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية
– المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



أكبر الجامعات الإسلامية في سريلانكا تؤهل طلابها من دارسي الشريعة لنقل المعارف الأصيلة بروح مغاصرة.

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦–٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم. – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤–(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذبية . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

كلمة العدد

تعصب

كان من فضل الله علي أنني عشت أنفر من التعصب، وأعتبره جناية على حرية الإنسان وتفكيره وفهمه المتزن للأمور.. بل إنه ليحول الإنسان إلى شبه حيوان نافر جامح، يدوس بحوافره كل ما أمامه، حتى في إيماني بديني ومبادئه، لا أؤمن به إيمان متعصب، يثور ويحرق ويدمر الجسور حين يصطدم بمن يخالفه فيه، بل أؤمن بأن الرفق مع المخالف وتقدير ظروفه يثمر أكثر مما يثمر التعصب الجارف إن كان لمثل هذا التعصب ثمرة حلوة.

ومن كراهيتي للتعصب ونفوري منه عشت لم أقيد نفسي بحزب أو هيئة، برغم اشتغالي بالأمور الدينية والوطنية، لأنني كنت أعتبر التقيد بآراء حزب أو هيئة وتبعيتي لهما يحد من حرية التفكير عندي، ويجعلني أحيانا أقاد بهذه التبعية في أمور أكرهها ولا أؤمن بها.. فقد تكون مبادئ الحزب أو الهيئة مبادئ طيبة، ولكن تنفيذها سيئ تطغى عليه المصالح الشخصية، أو التفكير الأسود للقائمين عليها. وحينئذ أجد نفسي مدفوعا لكي أؤيد هذه المصالح وأصحابها في غير حق أو مصلحة عامة.. فلذلك كنت طول حياتي أعمل في خدمة ديني ووطني الصغير والكبير بعيدا عن التعصب والانتساب لمنظمة، أو كما كنت أقول: أعمل لأهدافي «من منازلهم» وكثيرا ما رثيت لحال التابعين المتعصبين، ولحال أولئك الذين يخوضون المعارك من أجل الأهلي أو الزمالك أو العربي أو غير ذلك من النوادي.. ويسألني أولادي أحيانا: أنت مع من؟ فأقول: مع اللاعب الجيد.. ولو انهزم فإنني أرثي لحاله.

ولكنني مع ذلك أجدني أحيانا متعصبا ومغاليا في التعصب، وذلك حين أجد التسامح الذي أبديه يقابل بالتعصب الأحمق من الجانب الآخر.. وحين أجد أن الغير يستغل تسامحي فيؤوله إلى ضعف، وحين أجد الغير يتعسف معي أو مع غيري لمجرد أنني أو أن ذلك الغير مسلم.

د. عبد المنعم النمر
رحمه الله
أول رئيس تحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

ثَقَافَتُنَا وَحُرِيَّةُ التَّفكِيرِ وَالإبْدَاعِ



أ.د/ أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي

لا نخال أن ثمة مقياسا تقاس به الثقافات أفضل من مدى حثها ودعمها لقضية حرية التفكير والإبداع. ولا نخال أن ثمة عاملا يدفع الأمم والشعوب إلى بناء الحضارات وصناعة التقدم أكثر من حرية التفكير التي تعزز القدرة على الابتكار. فالرأي عندنا أن الحضارة وليدة الإبداع، والتقدم صناعة التفكير.. إذ الحضارة -أي حضارة- تتقدم وتزدهر بقدر ما يتاح لعقول أبنائها من مساحات الحرية وفضاءات التفكير.

والثابت تاريخيا أن التقدم العلمي والتكنولوجي مُيسر ومتوقع للأمة بحسب اتساع مساحة الحرية المتاحة للعقول الباحثة أن تتحرك فيها وتبدع في إطارها، فما تفوقت أثينا على إسبرطة قديما إلا بما كان متوافرا لعقول أبنائها من حرية فكرية وأريحية في تقبل مختلف الآراء، الأمر الذي أفرز للبشرية أعظم مفكري الدنيا وأفضل أساتذة التفلسف والإبداع، من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو.. وما تقدم المسلمون قديما وما بنوا حضارتهم إلا من خلال الجو الفكري العام الذي أتاح لهم التفكير والاجتهاد ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل.. وما توقف مسار حضارتنا الإبداعي إلا بعد أن تعالت بعض الأصوات تهاجم التفكير والإبداع والإضافة والاجتهاد.. وما تقدم الغرب المعاصر وما تجاوزنا حضاريا إلا بما وفره لعقول أبنائه من مساحة شاسعة من حرية الإبداع والتفكير والطرح والتنظير.

والحق أن من يضع ثقافتنا وحضارتنا تحت المجهر ليتبين موقفها من حرية التفكير والإبداع لن يجد ما يتيح له أن يتجرأ عليها أو يتطاول على تراثها، ولن يجد ما يبرر له الزعم أو الادعاء بأنها كانت حضارة لا تمنح العقول حقها في التفكير أو لم تعط الباحثين حريتهم في البحث والدراسة والتحليل في أي مرحلة من مراحل تاريخها الطويل.

ونحن لا ننطلق في قولنا هذا من رؤية عاطفية أو اندفاعة قومية شوفينية؛ ذلك لأن تراث حضارتنا العربية الإسلامية فيه العديد والعديد من الأدلة والشواهد التي تثبت وتبرهن أن حرية الفكر، والتفكر، والتأمل، والتدبر قد مورست إلى أبعد مدى ممكن على مدى تاريخ ثقافتنا، ومسار حضارتنا، وحركية تاريخنا.

والحق أن التاريخ حدثنا، في وضوح وجلاء، أن ثقافتنا لم تلجأ قط إلى كبح جماح العقل الإنساني عن التفكير، ولم تعمد أبدا إلى وضع العراقيل أمامه حتى يتوقف عن ممارسة عمله الذي خلقه الله تعالى له، وما كان لها أن تفعل ذلك وإلا خالفت العديد من الأسس والثوابت التي دان بها المجتمع العربي الإسلامي على مدى تاريخه الطويل بفضل التوجيهات والإرشادات التي أكدها القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، ومنها:

أولا - الإعلاء من شأن العقل

لا يختلف اثنان على أن الدين الإسلامي الحنيف قد تعامل مع العقل الإنساني باعتباره أسمى الملكات وأشرفها على الإطلاق.. وليس أدل على ذلك من أنه قد تم التعويل عليه في «أمور العقيدة والمسؤولية والتكليف، ولا تأتي الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، وذلك ما يؤخذ من جميع الآيات القرآنية التي وردت الإشارة فيها إلى العقل. والإسلام عندما يخاطب العقل فإنه يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه، فهو يخاطب العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتأمل، ويعتبر، ويتعظ، ويحسن التدبر والرؤية» (١).

فالعقل في الإسلام هو المقياس، وهو الآلة، وهو الأداة التي يتمكن الإنسان باستخدامها من التخلص من الأوهام المنقولة، والأخطاء الموروثة، والأساطير الشائعة.. وهو بالتالي أعظم منح الله إلى الإنسان. ولا غرو أن يقول فيه الإمام الغزالي -يرحمه الله- (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م) إنه «أنموذج من نور الله»(٢).

من هذا المنطلق نستطيع الذهاب إلى أن الإسلام جعل العقل في صدارة الملكات الإنسانية، وقدّمه على غيره من آليات المعرفة وأدوات الإدراك، نظرا لأهمية دوره وضرورته في اكتساب المعارف وتعلم العلوم. فنحن لا نفهم النص المُنزّل -مثلا- إلا من خلال العقل، ولا نتمكن من التواصل مع المحسوسات بغير العقل، لأن «الحواس لا تستطيع بمفردها كمصدر خالص أن تقدم معرفة تامة الجوانب مكتملة الأركان، بل إن العقل هو الذي يقوم بالربط بين المعلومات التي تقدمها له الحواس» (٣). وبالتالي نستطيع الوصول إلى القوانين التي تحكم طبيعة الأشياء. والأمثلة على ذلك كثيرة «فمن دون العقل ما كان الإنسان يستطيع أن يدرك مثلا أن المعادن تخضع لقانون واحد»(٤)، ككونها تتمدد بالحرارة مثلا.

ونشير إلى أن «الإسلام يعلو بتقدير العقل والفكر إلى أعلى درجة، ويقرر أن إدراك الحقائق العليا في الدين والكون إنما هو حظ العقول الراجحة والأفكار المسددة، وأن العقول المريضة والأفكار العقيمة تنزل بصاحبها إلى الحيوانية بل إلى أحط من الحيوانية، ففي القرآن العظيم: ﴿.. لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ..﴾ (الأعراف: ١٧٩) (٥).

من هذا المنطلق يكون الإسلام قد رفع من شأن العقل وقدره، حيث جعله مناط التكليف، وجعله مصدرا مهما من مصادر المعرفة الإنسانية، الأمر الذي جعل ثقافتنا تضمن له حرية التفكير؛ لذا انتهى السابقون من العلماء إلى أن «المحافظة على العقل» تعد مقصدا أساسيا من المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية.

ولا بد من التوقف هنا لنبين أن «مما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن حفظ العقل لن يكون له معنى من دون الحرية: حرية هذا العقل في التفكير والتعبير عن رأيه وطرح وجهة نظره من دون حجر على الرأي أو مصادرة للفكر.. ومن المهم هنا أن نشير إلى أن الحرية ترتبط دائما بالمسؤولية. فليست هناك حرية تخرج عن هذا النطاق، وإلا أصبحت الأمور فوضى

ولا ضابط لها ولا نظام.

والمسؤولية هي صمام الأمان لضمان البعد عن التجاوزات التي قد تثير الفتنة بين الناس أو تعكر صفو النظام العام للمجتمع، أو تعرض أمن الوطن للخطر.. إن الحرية هي قوام العقل، وافتقادها يعني إلغاء دور العقل، وإلغاء دور العقل يؤدي إلى تخلف الفكر، وبالتالي يؤدي إلى تخلف المجتمع. ومن أجل ذلك، فإن حفظ العقل يعني ضمان حريته وحمايته من أي عدوان على حقه في التفكير والتعبير»(٦).

وهكذا تبدو الحرية باعتبارها المناخ الوحيد المناسب لإعمال العقول وتنشيط الأذهان، بما تتيحه من أجواء عامة تساهم في تلاقح الأفكار، وتعدد الرؤى، وإفراز التصورات التي تؤدي إلى إثراء الحياة الإنسانية على مختلف صعدها، الثقافية والسياسية والتنموية والاجتماعية.

ثانيا - رفع القيود عن العقل

حرصت المرجعية الإسلامية على رفع القيود التي تحول بين العقل وتأدية مهامه في الدرس، والتعلم، والتدبر، والتفكر. وأكدت على حتمية إعطائه الفرصة كاملة لأن يجوب الآفاق باحثا، فاحصا، ناظرا، متأملا.. ووردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تؤكد هذا المعنى وتشير إلى ضرورته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ (البقرة:١٦٤).. وقال تعالى أيضا: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾ (الغاشية:١٧-٢٠).. وجاء في المعنى نفسه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ ..﴾ (فاطر:٢٧ و٢٨).. وقال تعالى ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ (النحل:٦٦ و٦٧).. إلخ من الآيات البينات التي تفتح المجال واسعا أمام العقل الإنساني ليمارس مهامه التي خلقه الله تعالى من أجلها.

فالوحي القرآني من خلال الآيات السابقة -وغيرها كثير- يدفع العقل الإنساني دفعا باتجاه النظر، والدراسة، والتأمل، والتدبر في عوالم الحيوان، والنبات، والجماد، والإنسان، والطير، والجبال، والبحار، والمحيطات، والأفلاك وصولا إلى معرفة الله تعالى وإدراكا لوجوده من أجل اليقين به وعبادته وطاعة أوامره واجتناب نواهيه عن اقتناع وتصديق، مع سعي دائب ودائم لإعمار الكون وتنميته وإشاعة الخير فيه.

ولكي يتحقق ذلك كان لا بد من رفع العقبات والقيود التي تعترض طريق التفكير السليم والإدراك الواعي، ولعل من أبرز القيود التي رفعها الإسلام عن العقل الإنساني هو قيد «التقليد» للقدامى لمجرد كونهم قدامى كي لا يقع الإنسان في أسر الماضي ولا ينزلق إلى حضيض الانكفاء على الموروث... لقد عاب القرآن الكريم على من يتبعون القدماء منهم من دون تمحيص لآرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم، جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ (البقرة:١٧٠).. وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾ (يونس:٧٨).. وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)﴾ (الأعراف:٢٨).

هكذا رفض القرآن الكريم تقليد الآباء أو ذوي السلطان لمجرد كونهم كذلك.. ولقد تبنت ثقافتنا تلكم الرؤية حتى في مجال العقيدة والاعتقاد، لدرجة أن السابقين من علماء الأمة أدانوا إيمان المقلد وقالوا بأنه: لا يجوز الأخذ بالتقليد في الاعتقاد إن كان صاحبه قادرا على النظر والتأمل والتدبر.. قال الإمام البيضاوي (ت ٧٩١ هـ) في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ ..﴾ (يونس:٣٦) «إن تحصيل العلم في الأصول واجب، والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز»(٧).. ومعلوم أن علماءنا انطلقوا في ذلك من وعيهم بأن الإيمان يجب أن يقوم على الاقتناع والتصديق مع الوعي بمفهوم الإيمان وقضاياه الأساسية.

ولقد رفضت السنّة المطهرة هي الأخرى للمسلم أن يكون مقلدا للآخرين من دون وعي أو طول تفكير أو حسن إدراك، حيث حذرنا النبي

المصطفى ﷺ من ذلك في قوله: «لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا» (٨).

ثالثا - ندرة الضوابط على التفكير والإبداع

كان لإفساح الإسلام المجال للعقل كي يمارس العملية الإبداعية وينمي قدراته فيها، مع عدم وضع أي حجر عثرة أمامه في هذا السياق، أثره الكبير في أن يتركه يصول ويجول في جنبات الكون والوجود ما شاءت له الظروف ذلك وما أتاحت الإمكانات والأحوال له من فرص للانطلاق الفكري والتجوال الإبداعي.

والثابت تاريخيا أن ثقافتنا تبنت تلكم الرؤية والتزمت بها كما ألمحنا إلى ذلك سابقا.. من هنا فقد فشلت محاولات خصوم التجديد في غلق باب الاجتهاد والإبداع طوال مسار تاريخ حضارتنا اعتمادا على فهمهم المتعجل لحديث رسول الله ﷺ القائل فيه: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» (٩).

لقد فشلت مساعيهم في غلق باب الاجتهاد استنادا إلى فهمهم لهذا الحديث؛ إذ انتهت الرؤية المعتمدة لدى أغلب الباحثين في مجال الفقه والفكر الإسلامي إلى أن «من الأفعال الإنسانية ما هو محاكاة وتقليد واتباع ومنها ما هو إبداع وتجديد.. أي إنشاء واختراع لا على مثال سابق.. وإذا كان هذا الإبداع مخالفا لما أمر به الله سبحانه وتعالى، أو رسوله ﷺ، فتلك هي «بدعة الضلالة.. المذمومة إسلاميا».. أما إن كان الإبداع واقعا تحت عموم ما ندب الله إليه، ودعا إليه الرسول ﷺ، فهو محمود، حتى وإن لم ينزل به وحي ولم يرد فيه حديث» (١٠).

بالتالي، فلم يحظر الإسلام على العقل الإنساني من التفكير في حالات نادرة منها:

أولا - التفكير في مسائل لا يستطيع العقل البشري بملكاته وإمكاناته الخوض فيها أو وضع رؤية نهائية لها، كالتفكير في ذات الله، مثلا، فهذه مسألة لا يستطيع العقل أن يحسمها مهما أوتي من قدرة على التفكير والإدراك؛ لذا أمر النبي ﷺ، الصحابة - والأمة من بعدهم- بالتفكير في آثار الله في الكون ورفض لهم التفكير في كنه الذات أو حقيقتها.

ثانيا - أن يحاول العقل تقديم إنتاج معرفي أو فني يتعارض مع ما هو معلوم من الدين بالضرورة كأن يستخدم الفن لإثارة الغرائز والشهوات فحسب، أو كأن يعمد إلى إثارة الفتن وتحريك المشكلات بين مكونات المجتمع الإنساني، لأن ذلك يدخل في إطار العلم الضار الذي حذر منه الله تعالى في قوله: ﴿..وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ..﴾ (البقرة:١٠٢).

الخلاصة

تجدر الإشارة إلى أن الإسلام عندما منع العقل من الخوض في المسائل الغيبية فإنه لم يمنعه من ذلك حجرا عليه أو تقليصا من نشاطاته، بل إنه فعل هذا كي يجنب العقل إضاعة الجهد عن طريق الخوض في مسائل لن يتمكن من حسمها أو الوصول فيها إلى كلمة نهائية؛ وليس أدل على صحة ذلك من اختلاف الفلاسفة والمفكرين بعضهم مع بعض عندما تحدثوا في كنه الذات الإلهية، حيث عجزوا جميعا عن الوصول إلى رؤية واحدة متفق عليها أو تصور واحد يقنع كل ذوي العقول والألباب.

تعد شريعتنا الإسلامية -ومن بعدها حضارتنا- هي الشريعة الوحيدة التي انتهت إلى أن من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.. ولا يخفى أنها الشريعة والثقافة الوحيدة التي تكافئ من أخطأ، لأن كل الثقافات تذهب إلى معاقبة من يخطئ أو تكتفي -في أحسن الأحوال- بمنعه من الأجر والمكافأة، الأمر الذي يثبت تمايز ديننا وحضارتنا وثقافتنا عن باقي الشرائع والحضارات والثقافات.

وإذا كان الإسلام قد منح العقل كل هذه الحرية في مجال التفكير والإبداع فإنه قد منحه الحق الكامل في التعبير عما يدور في رأسه وخلجات نفسه من رؤى وتصورات، فالعقل يفكر، ويتدبر، ويتأمل ليعبر عن أفكاره ورؤاه وتأملاته ما دام ذلك في مصلحة تنمية حياة الإنسان والارتقاء بها نحو الأفضل، لأن هذا من قبيل الإعمار الذي أمر الله تعالى خلقه به حين قال: ﴿.. هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ..﴾ (هود:٦١).

الهوامش

١- العقاد، التفكير فريضة إسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٢٠.

٢- أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، القاهرة، ١٩٦٤ م، ص٤٤.

٣- دكتور أمان قحيف، إشكالية المعرفة.. دراسة منهجية في القرآن الكريم، دار الحضارة، طنطا، دار الثقافة، القاهرة،١٩٩٩م، ص ٢٧.

٤- دكتور أحمد فؤاد باشا، فلسفة العلوم بنظرة إسلامية، ط ١، دار المعارف، القاهرة ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٣.

٥- محمد البشير الإبراهيمي، الرق في الإسلام، الأزهر، القاهرة، صفر ١٤٣٥ هـ/ ديسمبر ٢٠١٣م، ص٢٧٢.

٦- دكتور محمود حمدي زقزوق، مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ربيع أول ١٤٢٨ هـ/ مارس ٢٠٠٧ م، ط٢، ص٦٢.

٧- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل مكتبة الجمهورية، القاهرة، من دون تاريخ، ص٢٩٣.

٨-رواه الترمذي.

٩- رواه مسلم والنسائي وأبو داود والدارمي وابن ماجة والإمام أحمد.

١٠- دكتور محمد عمارة، المفهوم الإسلامي للإبداع، الأزهر، القاهرة، صفر ١٤٣٥ هـ/ ديسمبر ٢٠١٣ م، ص٢٢٧.

الشيخ كامل سميع الله مفتي تترستان لـ «الوعي الإسلامي»:

الشعوب التترية حافظت على هويتها الإسلامية

حوار: مهدي عبدالستار



الدعم الدعوي لوزارة الأوقاف الكويتية فتح لنا آفاقا جديدة لمنهج الوسطية

وصل الإسلام إلى دول المنطقة في بداية القرن الرابع الهجري وانتشر سريعا بحوض نهر الفولغا

تترستان هي إحدى الجمهوريات السوفيتية سابقا، تقع في حوض نهر الفولغا، تنسب إلى التتار، والتتار شعب كبير من شعوب الأمة التركية، ويزيد عددهم في كل أنحاء روسيا عن الثمانية ملايين مسلم تتري، وقد نقل التتار الإسلام إلى شمالي أوروبا، فوصلت الدعوة الإسلامية بجهودهم إلى روسيا الأوروبية، وإلى فنلندا وبولندا ودول شبه جزيرة إسكندنافية عامة، ولقد تمسك الشعب التتري في تتريل بعقيدتهم، وصمدوا لتحدي قياصرة روسيا طيلة أربعة قرون، ولم ينجح السوفييت رغم الحملات الشرسة في زعزعة إيمان التتار، ومازال الإسلام دين الأغلبية في جمهورية تترستان، رغم استقدام العديد من الروس إليها، وخضعت للحكم الشيوعي عام١٩٢٠م.

ويؤكد فضيلة الشيخ كامل سميع الله بن إسكندر أهمية التواصل الحضاري بين مسلمي روسيا وإخوانهم في البلدان العربية والخليجية، مذكرا أن وحدة الصف أمر أقرته الشريعة الإسلامية، ولو اختلفت الأعراق وتعددت الجنسيات، مشيرا إلى دور التواصل الدعوي الذي آتى ثماره الطيبة بين المسلمين في جمهورية تترستان، والذين يزيدون عن المليونين وربع المليون مسلم من بين أربعة ملايين نسمة هم عدد سكان الجمهورية، بما يعادل٥٣٪ من إجمالي عدد السكان.

وأشاد الشيخ سميع الله بالتعاون المبارك بين إدارة الإفتاء التي يترأسها في تترستان وبين وزارة الأوقاف الكويتية، لافتا إلى أن وكيلها د.عادل عبدالله الفلاح لم يدخر جهدا - كما يقول - في دعم مسلمي روسيا عموما ومسلمي تترستان على وجه الخصوص، وتبنى الدعوة فيهم وفق منهج الإسلام الوسطي الذي تسعى الوزارة عموما ووكيل الأوقاف تحديدا إلى نشره، ليعم خيره ويظهر صورة الإسلام الناصعة، مبينا أن هذا التعاون قد غرس أشجارا يافعة، فأثمرت دعوة طيبة في كل أنحاء الجمهورية التي زادت المساجد فيها من ٢٤ مسجدا قبل عشرين عاما إلى ١٥٢٤مسجدا اليوم، يشرف عليها دعاة أفاضل من خلال قسم الدعوة بإدارة الإفتاء.

وبيّن الشيخ كامل أن دعاة تترستان استطاعوا أن يتوسعوا في الدعوة بشتى الوسائل الحديثة، بما في ذلك استخدام شبكات التواصل الحديثة، وقد أنشأوا عددا من المواقع الإلكترونية التي تفتح آفاقا



احتفالية في تتارستان بمناسبة الإعلان عن المصحف الجديد

دعوية جديدة للرجال والشباب والنساء، ومنها موقع بيت الحكمة، وموقع الإسلام اليوم، وغيرها من المواقع الناطقة بعدة لغات، كالعربية والروسية والتترية، ويصل تعداد الزائرين لبعضها أكثر من ثلاثين ألف زائر يوميا.. وإلى تفاصيل الحوار:

● **كيف وصل الإسلام إلى تترستان؟**

- وصل الإسلام إلى هذه المنطقة في بداية القرن الرابع الهجري، عندما وصل التجار المسلمون إلى حوض نهر الفولغا، وأسلم شعب البلغار، وأرسل إليهم الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥هـ - ٣٢٠هـ) من يفقههم في الدين، وكان الإسلام يسود منطقة الحوض الأدنى من نهر

مواقعنا على شبكات التواصل تنطق بالعربية والروسية والتترية ويزورنا ثلاثون ألف زائر يوميا

تترستان على خريطة العالم

توجد جمهورية تترستان شرقي روسيا الأوروبية، وفي القسم الأعلى من حوض الفولغا، تحدها بشكيريا من الشرق، وأدمورت وماري من الشمال والشمال الغربي، والجوفاش من الغرب، وهي جمهوريات صغيرة، لها حكم ذاتي، وتتبع جمهورية روسيا الاتحادية، وتبلغ مساحتها ٦٨ ألف كيلو متر مربع، وسكانها ٣,٤ ملايين نسمة، وعاصمة البلاد كازان (قازان) وسكانها مليون نسمة، تقريبا وتوجد على الضفة اليسرى لنهر فولغا.

وتمتد أرض الجمهورية بين جبال أورال في شرقها وتلال بتزا في غربها، وأرضها سهلية في جملتها، وتلتقي بها بعض روافد نهر الفولغا، ونتيجة انبساط سطحها يتسع نهر فولغا في عبوره لها، والتربة رسوبية خصبة.

ومن أبرز سمات مناخها البرودة والتجمد في الشتاء، وتزداد الحرارة في الصيف، غير أن القاريّة والتطرف أهم ملامحه، ويتعرض لغزو الرياح الباردة في الشتاء، والأمطار كافية لنمو حشائش الإستبس وبعض الغابات.

الفولغا، بل تجاوزها إلى منطقة القرم في شمال البحر الأسود، غير أن الدفعة الأساسية للدعوة الإسلامية في حوض الفولغا وصلت بإسلام التتار، فعندما احتلها قياصرة روسيا في سنة (٩٦٠هـ - ١٥٥٢م) كان الإسلام منتشرا بين سكانها، واضطهد أهلها، وحاول الروس جذبهم إلى المسيحية بالقوة والقهر، ولكنهم فشلوا، ولقد بذلت الإمبراطورة كاترين الثانية جهودا جبارة في هذا المجال في سنة (١١٩٢هـ - ١٧٧٨م)، فأمرت بأن يوقع معتنق المسيحية (الجديد) على إقرار كتابي يتعهد فيه بترك «خطاياه»، ويتجنب الاتصال بالكفار، ويظل على الدين المسيحي، وطبق هذا بالقوة على التتار المسلمين، ولكنهم كانوا مسيحيين اسما، ثم تخلصوا من هذا التعسف، وظلوا على إسلامهم. ولقد دونت أسماؤهم في السجلات المسيحية زورا، ووقف التتار في ثبات وقوة ضد المنصرين وحملاتهم، وشهد القرن التاسع عشر الميلادي عدة قوانين تحد من انتشار الدعوة، لدرجة أن القانون الجنائي الروسي كان يعاقب كل شخص يتسبب في

قبل عشرين سنة كان بتترستان ٢٤ مسجدا فقط.. واليوم تسع ١٥٠٠ مسجد في كل أنحاء البلاد

تحويل مسيحي روسي إلى الإسلام بالأشغال الشاقة، ورغم هذا انتشرت الدعوة بصورة سرية، ولما صدر قانون حرية التدين في روسيا القيصرية في سنة (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م) حانت الفرص للدخول في الإسلام بصورة جماعية، فلقد بلغ عدد من أعلنوا إسلامهم في سنة (١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م) ثلاثة وخمسين ألفا، وفي سنة ١٩٠٩م دخلت ٩١ أسرة في الإسلام.

وسارت الدعوة الإسلامية قدما في حماسة بالغة، وكان كل مسلم داعية إلى دينه، ولقد خدمت الدعوة الإسلامية هجرة جماعات ممن احترفوا الحياكة في القرى الإسلامية في زمن الشتاء، واعتنق هؤلاء الإسلام، وعند عودتهم إلى قراهم تحولوا إلى دعاة للإسلام، وأثمرت دعوة التتار أنصارا في سيبيريا وغيرها، وقبل استيلاء السوفييت على السلطة كان في مدينة قازان عاصمة جمهورية تترستان، جامعة إسلامية بها سبعة آلاف طالب في مستهل القرن العشرين، وكان بها مطبعة أخرجت مليون نسخة من مائتين وخمسين كتابا في سنة ١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م، كما كان بمدينة قازان مكتبة إسلامية يزورها عشرون ألف قارئ سنويا، وانتشرت المساجد حتى بلغت مسجدا لكل ألف مسلم في الجمهورية، ووصل عدد المساجد بها ثلاثة عشر مسجدا، وهكذا كان الإسلام مزدهرا قبل الثورة الماركسية في روسيا.

ولقد أنشئ في قازان مركز للدعوة الإسلامية، واجتهد علماء قازان في نشر الدعوة، وطبعوا منشورات لها، واهتموا بالتعرف على الإسلام باللغة التتارية، وانتشر الدعاة (مليات) وطلاب جامعة قازان في القرى والفيافي يدعون الناس للإسلام، ونشطوا في هذا الأمر بعد صدور قانون حرية التدين في روسيا سنة ١٩٠٥م، ونجحوا في بث الدعوة الإسلامية بين تتار سيبيريا، وبعد أن استولى السوفييت على الحكم، انقلبت الأوضاع، وواجه التتار حربا قاسية على معتقداتهم، فأغلقت المدارس الإسلامية، ودمرت المكتبات والمطابع الإسلامية في قازان عاصمة تتاريا، وواجه المسلمون مواقف مؤلمة، ثاروا ضد الاضطهاد الديني، وقدموا العديد من الشهداء، حتى أولئك الذين تعاونوا مع الشيوعيين في البداية، مثل السلطان علي أوغلي، والذي دعاه السوفييت باسم عالياف، وقد نادى بتوحيد المسلمين في روسيا في كيان دولة واحدة تتحد مع السوفييت على مستوى واحد، فقبض عليه سنة (١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م)، وأعدم في سنة (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م)، ولقد رفض السوفييت وحدة الأراضي الإسلامية، بل أخذوا يجتهدون في تفتيتها إلى قوميات للقضاء على الوحدة.

ولقد أدمج الروس كل المناطق الإسلامية التي توجد في روسيا الأوروبية في إدارة دينية واحدة، مقرها في مدينة أوفا عاصمة جمهورية بشكيريا، وتشرف على المسلمين في سيبيريا أيضا، وجردوا هذه الإدارة من كل السلطات، فأصبحت أمرا شكليا، ولكن في الآونة الأخيرة تغيرت الأمور مع تنامي دعوات الحرية والانفتاح التي شهدتها فدرالية روسيا.

توجيهات د.عادل الفلاح نبهتنا إلى أهمية التوسع الدعوي عبر الوسائل الحديثة

السكان والنشاط البشري

غالبية السكان من التتار، وهم شعبة من الأمة التركية، وينتشرون في بقاع أخرى غيرها، فتوجد منهم جماعات في غربي سيبيريا، يشكلون معظم سكان شبه جزيرة القرم، غير أن السوفييت أرغموا التتار على الهجرة وألغوا جمهوريتهم، وسكان جمهورية تتارستان حوالي ثلاثة ملايين ونصف، يشكل التتار أغلبيتهم، ويعتنقون جميعا الإسلام، ولقد استقدم الروس إليها أعدادا من روسيا الأوروبية للتقليل من الأغلبية الإسلامية، والتتار عموما يشكلون القومية الخامسة في الترتيب بين القوميات في الاتحاد السوفيتي -سابقا-، وينتشرون في مناطق متعددة من البلاد، ويصل عددهم حوالي ٨ ملايين نسمة، وتصل نسبة المسلمين في تترستان ٦٥٪ تقريبا.

والجمهورية غنية بثرواتها الزراعية، وكذلك بثرواتها المعدنية، وأهم منتجاتها الحبوب: كالقمح، والشعير، والشوفان، ويعتبر النفط موردا مهما فيها، ويستخرج من حوض نهر كاما، وأطلق على هذه المنطقة باكو الجديدة، وإنتاجها من النفط يزيد على عشرين مليون طن سنويا.



مرض السكر



د. محمد عزيز الرحمن
كاتب هندي

ينتشر مرض السكر بسرعة في أرجاء العالم كله، وهذا المرض نفسه يؤدي إلى أمراض ومشكلات أخرى. ولذا، فإني أريد سرده بجزئياته وتفاصيله، ليتخذ كل واحد الخطوات اللازمة لتجنبه.

أولا: ينبغي لنا أن نعلم ما الديابيطس، أو مرض السكر؟ وكيف تتم بدايته؟ ومن يصيبه هذا المرض عامة؟

هذا في الواقع تنبيه من الله سبحانه بألا نهمل ونغفل عن أي شأن من شؤون الصحة، وأن نولي العناية التامة بها ونلتزم بتناول الوجبات على نحو نظامي.

إن الله سبحانه أودع في جسم الإنسان قدرة إنشاء مختلف الهرمونات، ومن هذه الهرمونات الأنسولين، الذي يحتل أهمية بالغة في جسم الإنسان، إذ إنه يعمل على استفادة الجسم من الغذاء بوجه صحيح. فعلى سبيل المثال، عندما يتناول الإنسان الطعام، فإن هذا الطعام، بعد المرور بنظام خاص، يتحول إلى الدم، الذي يعمل بدوره على تنشئة الإنسان وتقويته، عن طريق تغذية الخلايا والأعضاء، وهرمون الأنسولين هو الذي يؤهل الدم لأداء تلك الوظيفة.

وعندما يحدث في هذا النظام الخاص أي خلل أو نقص فإنه يسمى مرض السكر، مثل أن يتناول شخص ما الغذاء ثم يتحول الأخير إلى الدم بعد الهضم، غير أن الدم المعد لا يتم استعماله بوجه صحيح، أو بتعبير أصح لا يقدر الجسم على الاستفادة من ذلك الغذاء بشكل سليم، لأن الإنسان عندما يتناول الطعام، فإن معظمه يتحول - بعد الهضم - إلى الجلوكوز، الذي هو جزء من الدم، والذي يستخدمه الجسم غذاء أو وقودا له.

يلحق هذا الجلوكوز بالدم بدورانه عن طريق مسامات الأمعاء، ويصل إلى الكبد بدوران الدم، ثم يتحول نفسه عن طريق العملية الكيميائية للكبد إلى الجليكوجين، أو ما نسميه السكر الحيواني أو الكبدي، وكما أن المحرك يعمل بالبترول، فإنه بالطريقة نفسها يعود فضل كل نشاط وحيوية وحرارة موجودة في جسم الإنسان إلى السكر الحيواني.

ويصل السكر الحيواني إلى العضلات عن طريق الكبد، والعضلات تحتفظ به لتستخدمه عند الضرورة، وعندما يقوم الجسم بحركة فإن السكر الحيواني يصير محلولا ويتحول إلى حمض الكربوليك، والماء ويدير ماكينة الجسم الإنساني، أي إن العضلات عندما تتحرك تنشأ حرارة في الجسم، والحرارة تقتضي السكر الحيواني وتستهلكه. ما يتصل بالكبد من أجزاء البدن هو البنكرياس، أو ما ندعوه اللبلبة، ويوجد فيه نوعان من الرطوبة (أو الأنسولين)، أحدهما رطوبة اللبلبة التافهة، التي تسمى عصارة البنكرياس، والتي تدخل في الأمعاء مع الصفراء وتساعد في هضم السكر والنشا، وثانيهما بلل الرطوبة، الذي يصل إلى العضلات عن طريق الدم، ويساعد بعد اللحاق برطوبتها في تحليل السكر، وهذا النوع من الرطوبة يسمى بالهرمون.

يُحرق الخشب والفحم كوقود فتحدث الحرارة، كذلك السكر الأحمر عبارة عن مزيج من الكربون والماء، فإنك إذا وضعت السكر الأحمر على النار وسخنته فإنه يكون رقيقا بالذوبان في الماء، وإن زدت في تسخينه فإن الماء يتبخر ويبقى فقط الكربون، أي الفحم الأسود. وهكذا يُحدث هذا السكر الحرارة والنشاط في الجسم بعد استهلاكه في العضلات. والسكر الحيواني الذي يتبقى من العضلات يتجمع في الكبد، وعندما لا يجد الجسم النشا أو السكر من خلال الغذاء، فإن الكبد يوصل في تلك الساعة الجزء المخزون من السكر الحيواني إلى العضلات، وعندما تمتلئ خزانة الكبد بالسكر الحيواني، بوصول النشا أو السكر داخل الجسم من خلال الغذاء، فإن السكر المتبقي يتحول إلى الشحم ويصير موجبا لتصعيد كمية الشحم داخل الجسم. وبما أن الشحم والنشا والسكر كلها تتكون من الهيدروجين والأكسجين فإن تركيبها الكيميائي هذا لا ينافي استبدال وتقلب بعضها ببعض في أي حال، فالنشا يتحول إلى السكر خلال عملية الهضم، وكذلك السكر الزائد يتحول إلى الشحم خلال الهضم.

أدب العلماء مع الله

رشيد ناجي الحسن
باحث في وزارة الأوقاف الكويتية



هناك بشر ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الناس لفضل مكانتهم عند الله، اكتشفوا أسرار الله فيهم، في حواسهم: السمع، والبصر، والفؤاد، فاستنهضوها، وغذوها بالعبادة والطاعة، وتحلوا بالآداب والأذواق، حتى اشتعلت وتوهجت، وأرسلت من منابع روحها، وسلسبيل قلبها نبضات وموجات ذوقية وأدبية.

قوم عرفوا مقام الأدب ومكانه فأولوه اهتماما عظيما، فجدوا في طلبه لأنفسهم، ونصحوا به طلابهم، وأمروا به أبناءهم، وجعلوه مطلبا أساسيا قبل العلم، إذ كل علم بلا أدب لا منفعة فيه.

وقد كان أحدهم يرحل في الأدب الواحد السنة والسنتين،وكانوا يتعلمون الأدب كما يتعلمون الحديث، قال الحسن رحمه الله: إن كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثم السنتين. وقال سفيان الثوري: كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدب وتعبد قبل ذلك بعشرين سنة.

وهذا الإمام مالك يقول لفتى من قريش: «يابن أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم».

لأنه أدرك فضل الأدب منذ صغره، وكان يقول: «كانت أمي تعممني وتقول: اذهب إلى ربيعة (وهو ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك) فتعلم من أدبه قبل علمه».

وقال إبراهيم بن حبيب بن الشهيد: قال لي أبي: «يا بني إيتِ الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إلي لك من كثير من الحديث».

وقال بعضهم لابنه: «يا بني لأن تتعلم بابا من الأدب أحب إلي من أن تتعلم سبعين بابا من أبواب العلم». وهذا الحسين بن إسماعيل يقول: سمعت أبي يقول: «كنا نجتمع في مجلس الإمام أحمد أكثر من خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلمون منه حسن الأدب وحسن السمت».

ويقول ابن وهب: ما تعلمت من أدب مالك أكثر مما تعلمت من علمه، بل في تصانيفهم المتقدمة ما يدل على علو شأن الأدب والسلوك، أليسوا صنفوا في أدب العالم والمتعلم وآداب طالب العلم، وما ينبغي أن يتصف به؛ صنفوا في ذلك كتبا مستقلة.. وما كان أولئك يعانون من فراغ أوقات لا يدرون بم يصرفونها، لكن عنايتهم بذلك دليل على أهمية ذلك الأمر وعلو شأنه في دين الله عز وجل، كيف لا وقد أخبر النبي ﷺ أنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق.

إن الخلق والسلوك الأدبي عند بعض المسلمين، بل عند بعض طلبة العلم يأتي في مرتبة متأخرة وللأسف، حيث يشعر هؤلاء أن مجرد حفظ المسائل العلمية وإتقانها هو وحده ما يحتاجه طالب العلم، وحين يبدأ الحديث عن الخُلق وعن الهدي والسمت والسلوك يشعر هؤلاء أن هذا حديث الوعاظ، وأنه حديث ينبغي أن يوجه إلى عامة الناس، وليس إلى طلبة العلم، فطلبة العلم إنما يحدثون بقال فلان وفلان، وفي المسألة حديثان أو ثلاثة أقوال، وهو مجال لا ينبغي أن يقلل أحد من شأنه، لكن أن نتصور أن أبواب الخُلق والآداب ليست من شأننا، أو أنها قضية ثانوية فهذا أمر لا يليق.

وإليك أخي القارئ صورا من أدب العلماء وحسن تربيتهم، فهم الذين أخذوا بأيدي الأمة من حضيض المستنقعات والرذائل إلى الالتزام بشرع الله والتحلي بالفضائل.

فمن ذلك أدبهم مع الله عز وجل، حتى إن أحدهم كان إذا دخل الصلاة لم يلتفت قلبه لغير من هو واقف بين يديه. يروي حماد بن جعفر بن زيد أن أباه جعفر بن زيد أخبره فقال: خرجنا في غزاة إلى كابول، وفي الجيش صلة بن أشيم؛ فنزل الناس عند العتمة فصلوا، ثم اضطجع، فقلت: لأرقبن عمله، فالتمس غفلة الناس، حتى إذا قلت: هدأت العيون، وثب فدخل غيضة قريبة منا، ودخلت على إثره فتوضأ فقام يصلي داخل مكان فيه

أشجار حتى يستتر عن الناس في الليل، ثم قام يصلي وجاء أسد حتى دنا منه؛ فصعدت شجرة، فلما سجد قلت: الآن يفترسه، فجلس ثم سلم، ثم قال: أيها السبع! اطلب الرزق من مكان آخر، فولى وإن له لزئيرا تصَدّع الجبال منه! قال: فما زال كذلك يصلي حتى كان عند الصبح جلس فحمد الله بمحامد، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ثم رجع وأصبح حتى كأنه بات -بين الناس- وأصبحت وبي من الفزع شيء لا يعلمه إلا الله.

أما الإمام البخاري رحمه الله فإنه قام ذات يوم يصلي، فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة، فلما قضى صلاته اشتكى، فنظروا فإذا الزنبور قد أصابه بالورم في سبعة عشر موضعا، ولم يقطع صلاته، فلاموه، فقال: كنت في آية فأحببت أن أتمها. وما قطع الصلاة. وعن علي بن محمد بن منصور قال: سمعت أبي يقول: كنا في مجلس أبي عبدالله البخاري، فرفع إنسان من لحيته قذاة وطرحها إلى الأرض، فرأيت محمد بن إسماعيل ينظر إليها وإلى الناس، فلما غفل الناس رأيته مد يده فرفع القذاة من الأرض فأدخلها في كمه، فلما خرج من المسجد رأيته أخرجها وطرحها على الأرض، فكأنه صان المسجد عما تصان عنه لحيته.

أما أدبهم مع رسول الله ﷺ فقد بلغوا فيه القمة، فهذا الإمام مالك بن أنس -عالم المدينة الذي قيل فيه: لا يفتى ومالك في المدينة- من أشد الناس إجلالا لحديث النبي ﷺ، فقد روي أنه كان إذا أراد أن يحدث عن النبي ﷺ يتوضأ ويغتسل ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه، ويجلس على ركبتيه كجلسة الصلاة، ويبقى على هذه الصورة حتى ينتهي المجلس. كما نقل عنه أنه لدغته عقرب عدة لدغات، ولم يغير مجلسه أدبا مع حديث رسول الله ﷺ. فعمن اكتسب هذا؟ يقول مالك رحمه الله وقد سئل عن أيوب السختياني: ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه، قال: وحج حجتين فكنت أرمقه -وكلمة «أرمقه» مهمة في معايشة أهل العلم والفضل والأدب والمربين- فلا أسمع منه غير أنه إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى اخضل، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه. وقال مصعب بن عبدالله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه، وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوما في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت؛ لما أنكرتم علي ما ترون، لقد كنت أرى محمد ابن المنكدر، وكان سيد القراء، لا نكاد نسأله عن حديث أبدا إلا ويبكي حتى نرحمه، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم؛ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصليا، وإما صامتا، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله. ولقد كان عبدالرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف من الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ، ولقد كنت آتي عامر بن عبدالله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع، ولقد رأيت الزهري، وكان من أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ كأنه ما عرفك ولا عرفته، ولقد كنت آتي صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين؛ فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلايزال يبكي حتى يقوم الناس عنه.

بل روي أن الخليفة أبا جعفر المنصور ناظر مالكا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله أدب قوما فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴿٢﴾﴾. ومدح قوما فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴿٣﴾﴾. وذم قوما فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴿٤﴾﴾. وإن حرمته ميتا كحرمته حيا، فاستكان أبوجعفر.

وكان من عادة هؤلاء العلماء في تربيتهم لتلاميذهم أنهم يشعرون المتلقي بعظمة العلم الذي يتلقاه وأهميته؛ فقد روى ابن أبي حاتم -رحمه الله- عن عمران بن عيينة أنه قال: حدثنا عطاء بن السائب، قال: أقرأني أبوعبدالرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعملك، ثم يقرأ:

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾. هذا المعلم يقول للمتعلم: انظر إلى العلم الذي تأخذه واعرف قدره ومنزلته. ولذلك كان للعلم تأثير عظيم في نفوسهم... وتعظيم نصوص الوحي والوقوف عندها وعدم الاعتراض عليها مبدأ مهم جدا في حياة المسلم، هذا المبدأ لو ألقيت فيه محاضرات وخطب لا يكون مستقرا في النفوس كما لو صار مستقرا بمواقف وأحداث. قال الذهبي رحمه الله: وفي مسند الشافعي: أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إن أحب أخذ العقل، وإن أحب فله القود». الدية أو القصاص، يقول الراوي: فقلت لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا الحديث؟! فضرب صدري وصاح كثيرا، ونال مني، وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: أتأخذ به؟! نعم. آخذ به، وذلك الفرض علي وعلى كل من سمعه، إن الله اختار محمدا ﷺ من الناس؛ فهداهم به وعلى يديه؛ فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين لا مخرج لمسلم من ذلك.

فما أحوجنا والذين يتصدرون لدعوة الناس إلى الله وتعليمهم وتربيتهم أن يعتنوا بأمر الأدب والذوق، ليزرعوا في قلوب من يُعَلِّمُون تعظيم هذا الأمر مع الله ومع رسوله ﷺ.

تجليات حفظ الشريعة لمقصد «المال»

د.أمينة مزيغة
باحثة مغربية

مما لا شك فيه أن المال يحتل أهمية بالغة في حياة الأفراد والمجتمعات، نظرا لما يترتب عليه من آثار اقتصادية واجتماعية وتنموية جمّة، لذلك نجد الشارع الحكيم قد أولاه عناية خاصة، نظرا لأنه المحور الأساس الذي تدور حوله عجلة الاقتصاد، وبالتالي تتحقق التنمية الموسعة والشاملة للمجتمع.

من مقاصد الشرع

حفظ المال «مقصد لا يقل أهمية عن المقاصد الأخرى، إذ بالمال تقوم الحياة وتغطى الحاجات المتنوعة والمتجددة، وبه تقوم وظائف المجتمع والدولة، وتنفذ المشاريع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وبه تتمكن الأمة من تحصين وجودها، والدفاع عن كيانها، ونشر رسالتها في الأرض، فوق كونه فطرة فطر الله الإنسان عليها، فكان لذلك حب شديد له وسعي متواصل لكسبه، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾، ومن ثم أكد الشارع على حفظه، حيث جُعل في مرتبة واحدة مع النفس من جهة ترتب الجزاء والفوز بالحسنى، قال الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴿٩٥﴾﴾(١)، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾(٢-٣)، وهو في الزينة مساوٍ للنسل كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴿٤٦﴾﴾ (٤)، وهو في الدنيا قوام أهلها، بحيث لا تقوم إلا به»(٥).

فكلّي المال يعتبر واحدا من الضروريات الخمس «التي هي أسس العمران المرعية في كل ملة، والتي لولاها لم تَجْرِ مصالح الدنيا على استقامة، ولفاتت النجاة في الآخرة»(٦).

ولما كانت هذه الضروريات هي كل ما لا بد منه في «قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الآخرة فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين»(٧)، وكانت الضروريات كما حددها علماء الأصول خمسة هي: «حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل»(٨)، وكما قال الإمام الغزالي رحمه الله في مستصفاه: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم»(٩)، لذلك نجدها مراعاة لدى جميع الشرائع والملل، يقول الإمام الغزالي مؤكدا ذلك: «حفظ هذه المسائل الخمس يستحيل أن لا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد لها إصلاح الخلق»(١٠).

حفظ كلّي المال في علاقته بكليات الشريعة الأخرى

يعتبر حفظ المال من الضروريات التي لا يمكن تجاهل أحدها لترابطها وتكاملها، يقول الإمام الشاطبي مبينا ذلك: «لو عدم الدين، عدم ترتب الجزاء المرتجى، ولو عدم المكلف لعدم من يتدين، ولو عدم العقل لارتفع التدين، ولو عدم النسل لم يكن في العادة بقاء، ولو عدم المال لم يبق عيش...»(١١).

فحفظ المال يعتبر شرطا في المحافظة على هذه الأصول الأربعة، إذ بدون المال لا تقوم لها قائمة، كما أن هذه الأصول الأربعة «تعتبر بمثابة الشروط اللازمة لتحقيق حفظ المال وتنميته، إذ بدونها لا يمكن أن يكون هناك مال أصلا...»».

وتبعا لأهمية وحتمية هذه الأمور الخمسة كان لزاما العمل على حفظها وضمان استمرارها، والحفظ لها إنما يكون بأمرين «أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيه، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم»(١٢).

جانب العدم

وأما مراعاة كلّي المال من جانب العدم فتكون بضمان بقائه واستمراره، وذلك بدحض كل ما من شأنه أن يكون حائلا

دون تحقيق وبقاء الأمن الاقتصادي، والاستقرار المعيشي، وسد أبواب الذرائع المفضية إلى ذهاب المال بالكلية وضياعه، وللمحافظة على المال من جانب العدم صور كثيرة منها: حفظ المال من الضياع والتلف، إذ يتم الحفاظ على المال بحمايته من كل الأسباب «التي تؤدي إلى تلفه وتلاشيه دون أن يحقق أغراضه التي من أجلها وجد، وإذا كان المال وجد تسخيرا من الله تعالى وكسبا من الإنسان من أجل أن ترقى الحياة الإنسانية لتحقيق الخلافة في الأرض... فإن إتلاف هذا المال يكون متمثلا في كل تبديد له يذهب بأعيانه دونما تحقيق لذلك الهدف الذي وضع له، سواء كان ذلك متمثلا في إتلافه في غير ما هدف أصلا، أو في إتلافه في أغراض غير صالحة للإنسان، بل هي ضارة به معيقة دون تحقيق خلافته»(١٣)، ومثال ذلك: النهي عن الاحتكار(١٤)، والاكتناز(١٥)، وغيرها.

المحافظة على المال من جهة الوجود:

وحفظ المال من جهة الوجود - كطرف مقابل لحفظ المال من جانب العدم - إنما كان بتشريع كل ما من شأنه أن يعمل على تنميته واستثماره...، ومن تجليات ذلك: حفظ المال بالكسب والتنمية، إذ أول ما يتبادر إلى الذهن من أسباب حفظ المال، هو كسبه بطرقه المشروعة، فإذا لم يكن ثمة مال مكسوب لم يكن لحفظه موضوع، ولما كان حفظ المال مقصدا شرعيا فإن ذلك يتضمن توجيها نحو كسبه ليكون الكسب مقدمة لحفظه، ويلحق بكسب المال تنميته وتكثيره، فما يحصل لدى الإنسان من مال بالسعي أو بالوراثة والهبة ونحوها يطلب منه دينا أن لا يتركه يتآكل بالإنفاق، وإنما عليه تنميته وتكثيره بأي أنواع التكثير المشروعة،...(١٦)، وكذلك حفظ المال بالاستثمار فقد تضافرت أحكام الشريعة على تحقيق مقصد حفظ المال ليقوم بدوره في تنمية الحياة الإنسانية وترقيتها وتعميرها من جهات متعددة، فحُفظ بالكسب والتنمية لينشأ المال ويتكاثر، وحُفظ بصيانته من التلف عبثا أو فسادا أو سرفا، وحُفظ بحماية ملكيته من الاعتداء، وحفظ بحماية قيمته من التدهور، وحفظ بتيسير رواجه ودورانه بين الناس، وحينما تلتقي هذه الأحكام عند تحقيق مقصد حفظ المال، فإنه يكون عاملا أساسيا من العوامل الناهضة بالإنسان في سبيل تحقيق وظيفته التي من أجلها خلق، وظيفة خلافة الأرض»(١٧).

التنمية الاقتصادية

لما كان حفظ المال مراعى في الشريعة الإسلامية، فقد وجب على الانسان التصرف فيه مستحضرا الأمانة التي حملها، وذلك باستخدام هذا المال واستثماره بطرق مشروعة، والحرص على جمعه بحيث يكون للناس فيها نفع سعيا وراء تنشيط الحركة الاقتصادية التي يحصل منها الجميع على الحد الذي يضمن به معاشه»(١٨).

فكثيرة هي الأحكام التي فرضها الشارع والتي كانت في مجملها نافية للضرر، أو مقللة منه، أو جالبة لمصلحة، أو دافعة لمفسدة، رفعا للضيق والحرج عن عباده، وتوسعة عليهم من غير أن تكون له في ذلك مضرة أو مصلحة(١٩).

ويعتبر حفظ المال بطرقه المشروعة وسيلة لتوظيفه وقت الحاجة إليه، فعلى المستوى الفردي بإخراجه وقت الحاجة إليه، وعلى مستوى المجتمع باستثماره، فيتم الإسهام في إبقاء عجلة الاقتصاد دائرة، فطبيعة النظام الاقتصادي الإسلامي توجب زيادة الإنتاج في المجتمع، وصيانة ثروته من التبديد والضياع، لذلك شجع الإسلام على كل عمل أو معاملة من شأنها أن تفضي إلى توفير المال، والحفاظ عليه، وتنميته واستثماره، وإغلاق الباب أمام كل تصرف من شأنه أن يؤدي إلى الحيلولة دون أدائه الوظيفة التي وجد لأجلها، كما حث أصحاب الأموال على استثمارها في كل ميدان مشروع، فكان لابد من توجيه الناس ليندفعوا في نشاطهم نحو الاستثمار والتنمية للمال الذي هو في حوزتهم، وفي ذلك نفع مشترك للجميع أفرادا ومجتمعا...»(٢٠).

هوامش

١- النساء ٩٥.
٢ - التوبة ١١١.
٣- الولاية على المال وتطبيقاتها في الفقه المالكي دراسة و مقارنة، د. عبد السلام الرفعي ٧.
٤ - الكهف ٤٦.
٥ - فقه المقاصد وأثره في الفكر النوازلي، د. عبد السلام الرفعي، ط: ٤، مطبعة إفريقيا الشرق، البيضاء،ص:٩٠.
٦- الموافقات للإمام أبي إسحاق الشاطبي، شرحه وخرج أحاديثه: الشيخ عبد الله دراز، دار الكتب العلمية لبنان، ٣/١ للإمام أبي إسحاق الشاطبي، مقدمة المحقق.
٧- الموافقات ٢٧/.
٨- الموافقات٢/٨.
٩- المستصفى من أصول الفقه للإمام الغزالي، تحقيق محمد سليمان الأشقر، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ، مؤسسة الرسالة ١٩٩٧م، ١/٤١٧.
١٠- المستصفى٤٢٠/١.
١١- الموافقات١/١٤.
١٢- الموافقات٢/٧.
١٣- مقاصد الشريعة الإسلامية بأبعاد جديدة، للدكتور عبد المجيد النجار، ط:٢، ٢٠٠٨، دار الغرب الإسلامي: ص:١٨٩.
١٤ - الاحتكار هو شراء الشيء وحبسه ليقل بين الناس فيغلو سعره ويصيبهم بسبب ذلك الضرر، أو حبس سلعة من السلع أو جمعها من الأسواق حتى تشتد حاجة الناس إليها، فينزل بها محتكرها إلى السوق وليس هناك من ينافسه في شدة الحاجة إليها، فيفرض على الناس الثمن الذي يريده بالنظر إلى حاجتهم إليها وما عندهم من استعداد للبذل من أجلها لا بحسب قيمة السلعة، ولا بربح معقول على ما اشتراها به». الادخار في النظام الإسلامي، الهادي أحمد محمد حسن، جامعة القضارف، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ص: ٨.
١٥ - الاكتناز هو: «تجميد المال وحبسه وإبعاده عن التداول، أي عن المساهمة في الإنتاج، ولهذا السبب كان للاكتناز مضار اقتصادية فضلا عن مضاره الأخلاقية».
١٦ - مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة ص: ٢٠٢.
١٧ - مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة ص: ٢٠٦.
١٨ - في هندسة الخالق لخلقه الإنسان الخليفة نموذجا، للدكتور إدريس حمادي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص: ٢٣٢.
١٩- الادخار في النظام الإسلامي، الهادي أحمد محمد حسن، جامعة القشارف، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ص: ٨.
٢٠ - المقاصد العامة للشريعة الإسلامية د. يوسف العالم. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط:٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

مخطوطات دور الكتب المغربية



ياسين محمد كتاني
باحث دراسات إسلامية

فاس ومكناس، مراكش وطنجة، أغادير وتطوان، الرباط والدار البيضاء... أسماء لمدن ضربت جذورها في تاريخ المغرب الذي تعاقبت عليه عدة حضارات (الآشولية، والموستيرية، والعاتيرية،...) وغيرها.

وكان المؤرخون العرب في القرون الوسطى يستعملون لفظ «بلاد المغرب» للدلالة على ثلاثة أقاليم تقع في المنطقة المغاربية: المغرب الأدنى (تونس)، والمغرب الأوسط (الجزائر)، المغرب الأقصى (المملكة المغربية).

دخل القائد المسلم عقبة بن نافع (ت ٦٣هـ) رضي الله عنه إلى بلاد المغرب معلنًا انتشار الإسلام فيها، ثم توالت على هذا البلد العديد من السلالات التي تربعت على عرش قيادته، ومنها: (المرابطون، الموحدون، المرينيون، الوطاسيون، السعديون)، وازدهرت البلاد بشكل تدريجي مع كل سلالة تسوسه، حتى صار يجمع العديد من الثقافات التي أسست لعلوم ما زالت آثارها مشاهدة في التراث العالمي.

ومنها ما بات يُعرف بـ (خزائن المخطوطات)، أو (دور الكتب) المتميزة بالتنوع والثراء، والتي تؤدي دورًا ثقافيًا واجتماعيًا رائدًا، كما اشتهر المغرب باحتفاظه بمخطوطات نادرة لا توجد في مكان آخر في العالم. وهذه إطلالة سريعة على هذه الخزائن، وما تحتويه من النفائس، أبدؤها بالاطلاع على محتويات المجموعات الخطية في الخزانات المغربية:

أولاً: في الماضي، فترة (المرابطون)

إن المكتبات المغربية الأولى كانت تجمع المؤلفات المتعلقة بعلوم القرآن، والحديث النبوي الشريف، والفقه وخاصة الفقه المالكي، واللغة، والنحو. والشاهد على ذلك ما وصلنا من المخطوطات المتعلقة بهذه المجموعة.

ومن الأمثلة على ذلك:

الخزانة الخاصة لـ «ابن العجوز السبتي» ت(٤١٣هـ - ١٠٢١م)، كانت مكونة - في جزء كبير منها- من مؤلفات الفقه، وما أخبر به ابن فرحون أن عالم سبتة أثناء عودته من القرويين - مدينة القيروان بتونس- كان يحضر فيها محاضرات ابن أبي زيد القيرواني، حمل معه مجموعة من المؤلفات الفقهية وخاصة «النوادر»، و«المختصر» لـ «ابن أبي زيد» نفسه.

وبقيت المكتبات على حالها حتى القرن العاشر والحادي عشر، والشاهد على ذلك الخزانة الملكية للملوك المرابطين، فقد كان الأمراء المرابطون المتشددون والمغالون في المذهب المالكي يحثون ويشجعون فقهاء عصرهم على تأليف كتب متعلقة بالمذهب المالكي، مما أدى إلى كثرت المؤلفات والشروحات في ذلك العصر، وأتاحت هذه الحركة (التأليف) للأدباء والخواص أن يمتلكوا خزانات كتب خاصة عامرة.

ولم يكن يُسمح بأن تحتوي هذه المكتبات أو يُوضع فيها كتب الفلسفة، وأصول الدين، والتصوف وغيرها من الكتب البعيدة عن الفقه والسنة، ومن خالف هذا تعرض لأقسى العقوبات وصُودرت ثروته.

فترة (الموحدون):

ظلت المكتبات على هذا الحال- التي كانت عليه في عصر المرابطين - حتى عصر الموحدين حيث تفتحت العلوم

التي كانت محظورة فيما قبلهم، وهكذا بدأت كتب العلوم والفلسفة وأصول الدين والتصوف تجاور كتب الفقه والنحو واللغة في دور الكتب المغربية.

فقد دعا الموحدون الفلاسفة إلى نسخ الآثار الفلسفية اليونانية، فطلب الخليفة الموحدي «يوسف» ت (١١٩٨م) من ابن رشد أن يشرح آثار أرسطو.

كما شجعوا الأطباء على تأليف مؤلفات في الطب، فقد نشد الملك «عبدالمؤمن» - عبدالمؤمن بن علي الكومي (٤٨٧ هـ - ٥٥٨ هـ، ١٠٩٤ - ١١٦٣م) وكان الخليفة المؤسس لدولة الموحدين، فحكمها من العاصمة مراكش من سنة ١١٤٧ م وحتى ١١٦٣م- من «أبي مروان عبدالملك بن زهر» ت (٥٥٧هـ - ١١٦٢م)، تأليف مصنف في الأطعمة، فاستجاب لطلب الملك وألف كتابه المسمى (كتاب الأغذية)، وهو مخطوط محفوظ في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم (١٥٩٠)، ونسخة أخرى مبتورة الأول محفوظة ضمن مجموعة تحت رقم (٢٤٣٠)، وهي أقدم من النسخة الأولى. وقد وصف ابن زهر في هذا المصنف مختلف الأطعمة من حيث الضرر والنفع، ووقت استهلاكها.

فترة (المرينيون)

بعد وصول المرينيين إلى الحكم في القرن (٧هـ - ١٢م)، بدأت كل العلوم المعروفة في ذلك العصر تدرّس وتنتشر بشكل واسع. وبهذا تم اقتناء وانتساخ عدد كبير من المؤلفات في علوم الرياضيات والحساب والفلك والطب وعلوم أخرى.

فكل الثروات المختلفة المحفوظة حاليًا في المغرب تشكلت انطلاقاً من الفترة المرينية.

ثانياً: في الحاضر

ترجع المخطوطات المحفوظة حاليًا في المغرب إلى القرون الستة الأخيرة، وتبين لنا الفهارس التي أنجزت في الفترة المعاصرة ما تخفيه هذه الخزانات من كتب قيمة، وبالرغم من سعة هذه الفهارس وشموليتها فإن كثيرًا من المخطوطات النادرة مازالت مجهولة وغير معروفة حتى للكُتبيين أنفسهم.

وسنكتفي هنا بالحديث عن ضروب من المجموعات غير المدروسة، والتي تضم عددًا كبيرًا من المخطوطات النفيسة والنادرة.

المجموعة الأولى: الفهرسة:

كلمة من أصل فارسي، ولها معنيان ذكرتهما كتب اللغة:

الأول: الكتاب تجمع فيه أسماء الكتب مرتبة بنظام معين.

الثاني: لحق يوضع في أول الكتاب، أو في آخره، يذكر فيه ما اشتمل عليه الكتاب من الموضوعات والأعلام، أو الفصول والأبواب، مرتبة بنظام معين، فهي مؤلفات تضم معلومات متنوعة عن الحياة الثقافية لفترة معينة، كما أنها تحيلنا على المواد والدروس، وخاصة الكتب المدروسة في مختلف مؤسسات التعليم في المغرب. فكان المحدثون أول من أودع فيها أسماء شيوخهم، ومنها جاءت تسمية «مشيخة»، وبعد أن بدأ المؤلفون يرتبون فيها أسماء الشيوخ وعناوين الكتب ألفبائيًا استبدلت «مشيخة» بلفظة «معجم»، واستقرت أخيرًا على كلمت «ثبت». أما في المغرب الإسلامي فاستخدمت لفظة «برنامج» في الأندلس، «وفهرسة» في المغرب للإشارة إلى هاته الأنواع من المجاميع.

لقد بلغ عدد الفهارس كثرةً حتى صار من غير الممكن أن نحصرها في لائحة شاملة، ولذا سنكتفي بذكر بعض النماذج منها:

● «الغنية» للقاضي عياض السبتي ت (٥٤٤هـ - ١١٤٩م): وهي من أقدم الفهارس المغربية، وليس هناك خزانة كبيرة لا تتوفر على نسخة منها، كما توجد نسخة منها في الخزانة الوطنية بمدريد برقم (٣٠٧)، ونسخة في دار الكتب بالقاهرة برقم (٤٩١٣).

● فهرسة العلامة«أبي سعود الفاسي» ت (١٠٩١ هـ - ١٦٨٠ م): هناك نسخة منه محفوظة في الخزانة الأحمدية في فاس.

● فهرسة «عبدالملك التجموعتي» ت (١١١٨هـ -١٧٠٦م): تحتفظ بنسخة منه الخزانة الفاسية بفاس.

● فهرسة «ابن الطيب القادري» ت (١١٨٧هـ - ١٧٧٣م): يوجد مخطوطها الأصلي في الخزانة الخاصة للأستاذ «إبراهيم الكتاني»، محافظ جناح المخطوطات في الخزانة العامة بالرباط.

● فهرسة «المهدي بن سودة» ت (١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م): مخطوطها الأصلي محفوظ في الخزانة الأحمدية في فاس.

المجموعة الثانية: الكناشات:

الكناشة حسب الاصطلاح المغربي: هي مجموعة من الملاحظات والمقاطع التي ألفها شخص معين في شؤونه الخاصة. فيدون فيها الكتب التي قرأها أو درسها، ويضيف إليها أحياناً بعض آثاره الخاصة، ويذكرون فيها بعض الأحداث التاريخية التي أهملها المؤرخون، فهي تشتمل على الأحداث التي شاهدها صاحب الكناشة وأشعاره ومساجلاته الأدبية وفوائده، وقد بدأ المغاربة في تأليف هذا النوع من المجموعات ابتداء من القرن(١٤م)، وقد كتب العديد من المؤلفين المغاربة كتبًا بهذا العنوان نذكر منها:

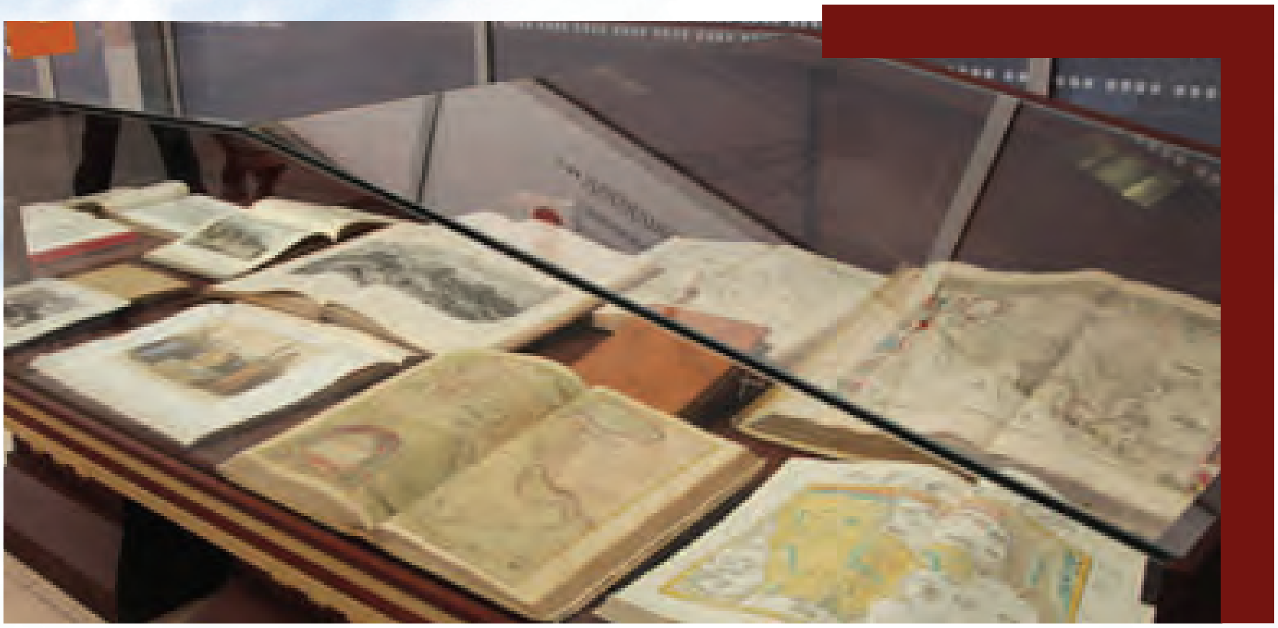
● كناشة «عبد الرحمن بن محمد الجادري الفاسي» ت (٨١٨هـ - ١٤١٥م)، وهي أقدم كناشة عرفت في المغرب، وقد اعتبرت في عداد المفقودات إلى أن تم العثور على أجزاء منها ضمن آثار محمد العربي الفاسي، وعبد الرحمن الونشريسي.

● كناشة «محمد بن قاسم الزجالي الفاسي» ت (١٠٧٢هـ - ١٦٦٢م):وهي أقدم كناشة موجودة اليوم.

● كناشة «عبد الرحمن الفاسي» ت (١٠٩٦هـ - ١٦٨٤م).

كما أن هناك كناشات على شكل سيرة ذاتية، مثل:

● كناشة «أحمد زروق البرنسي



الفاسي» تـ (٨٩٩هـ - ١٤٩٣م)، وهو مخطوط خاص لـ«عبدالحي الكتاني».

● كناشة «عبد الواحد الونشريسي» تـ (٩٥٥هـ - ١٥٤٨م).

وفي بعض الأحيان كان المؤلف يصنع أكثر من كناشة، مثل كناشة «أبي العباس أحمد بن عبدالله التناني الصويري» تـ (١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م)، وهي تتألف من كناشتين في العلوم الرياضية والفلكية. وأكبر كناشة عرفت في المغرب هي كناشة «اليحمدي»(١١٣٢هـ - ١٧١٩م)، توجد منها نسخة في (١٠) أجزاء، ونسخة في (٨) أجزاء.

خصائص الكناشات

● أنجزها أصحابها في أغلب الأحيان بخط نسخي مغربي.

● لم تكن تتوفر على عنوان، ولا حتى على فصول، وحتى اسم المؤلف لم يوجد إلا نادرًا.

● محتواها يعكس تخصص أصحابها (الفقه في كناشة الفقيه، والأدب في كناشة الأديب...).

المجموعة الثالثة: المجاميع

هي أسفار تحتوي على العديد من الكتب دفعة واحدة ذات محتوى متنوع، مصنفة تحت رقم واحد.

فهذه المجاميع تضم تقريبًا كل المجالات المعرفية التي كانت تدرس في المغرب منذ منذ العهود الأولى.

ولم تقتصر هذه المجاميع على العلوم الدينية فقط، بل ضمت أيضًا علومًا متنوعة كعلم الطب والبيطرة.

ومن الأمثلة على ذلك:

● المجموع المحفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم (٣٤٧٧)، يحتوي على نسخة قديمة جدًا من كتاب «سر صناعة الطب» للرازي تـ (٣١١هـ - ٨٢٣م).

● ومجموع آخر من نفس الخزانة يحتوي على مؤلف في علم الصيدلة عنوانه «الأدوية المفردة»، لمؤلفه أبو الصلت الداني تـ (٥٢٩هـ - ١١٣٤م).

كما تحتوي هذه المجاميع على نسخ من الفهرسة مثل:

● فهرسة آثار الإمام السيوطي تـ (٩١١هـ - ١٥٠٥م)، التي كتبها هو بنفسه.

● فهرسة ابن الغازي تـ (٩١٩هـ - ١٥١٣م)، وفهرسة المنجور تـ (٩٠٥هـ - ١٥٨٧م).....

وتحتوي أيضًا هذه المجاميع على:

● رحلات الرحالين المغاربة مثل: ابن العبدري والغساني تـ (١١١٩هـ - ١٧٠٧م)، ضمن مجموع الخزانة الملكية تحت رقم (٣٦٣٧).

● كتب ومناقب الأولياء مثل: كتاب «الدر النفيس والنور الأنيس» لأحمد ابن عبدالحي الحلبي الفاسي، ضمن مجموع الخزانة الملكية تحت رقم (٣٨٢).

● مؤلفات التراجم مثل:كتاب «الوفيات» لابن القنفذ القسنطيني تـ (٨١٠هـ - ١٤٠٧م).

لقد كان لهذه المجاميع أهمية بالغة، فلم تكن تخلو منها أي خزانة كتب عامة أو خاصة.

ولقد قامت بعض الخزانات بفهرست مجاميعها وترقيمها في حين أن الكثير من الخزانات الأخرى لم تقم بذلك.

الخلاصة:

مما سبق يتبين لنا قيمة الدرر النفيسة التي تحتويها دور الكتب المغربية، وما يميزها من تنوع في علوم شتى ما زالت ترمي بظلالها على المكتبات العربية والعالمية، لتنير الحاضر بعراقة الماضي.

والمدقق بين ثنايا هذه المكتبات العريقة يقع نظره على مخطوطات نادرة لا يمكن للباحث أن يتجاهل ذكرها والحديث عنها، ولكن لما حكمتنا الكلمات، وضاق بنا المقال؛ آثرنا أن تكون في بحث مستقل لاحق إن شاء الله.

المراجع

● تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، للدكتور مصطفى طوبي (وهو أساس المادة).

● فهرس الفهارس، للكتاني.

● الكناشات المغربية، للمنوني، في مجلة المناهل العدد ٢-١٩٧٥م.

● الدليل لابن سودة.

● معجم البلدان، لياقوت الحموي.

● ويكيبيديا الموسوعة الحرة.



دراسات غربية أكدت تنامي الظاهرة

الخوف من الإسلام.. مسؤولية من؟!

ريهام عاطف - القاهرة
دار الإعلام العربية

«الإسلاموفوبيا»، أو الخوف من الإسلام، هو أحد المصطلحات المتداولة في الفضاء المعرفي المعني بعلاقة الإسلام بالغرب، مجسدا تنامي المشاعر السلبية للمجتمعات الغربية، والتي تزايدت بصورة قياسية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، مما أدى إلى اتساع الفجوة بين الطرفين. كما ارتبط استخدام المصطلح بردود الأفعال تجاه بعض الإساءات التي تعرض لها الإسلام من قبل شخصيات ومؤسسات غربية مختلفة، وهو ما حدث في أزمة الرسوم المسيئة إلى الرسول ﷺ. فهل نحن كمسلمين لم نقدم الإسلام كما ينبغي بحضارته ووسطيته؟ هل قدمنا وجها متطرفا ولم نحسن تقديم الإسلام كما أمرنا رب العالمين؟ هل قدمنا الإسلام في صورة فظة أعطت للغرب المتربص كل الحجج والوسائل؛ لكي يحاربنا ويمتلئ منا خوفا وكرها، أم أن الإعلام الغربي ساهم بشكل واضح في ترسيخ صورة ذهنية مشوهة للإسلام والمسلمين من تلقاء نفسه؟

في البداية، يرى أستاذ الفلسفة والعقيدة في جامعة الأزهر د.صلاح العادلي، أن مواجهة الإسلاموفوبيا، وتحسين صورة الإسلام لدى الغرب، لا بد أن يقترنا بدعوة حقيقية لنبذ أشكال الخطاب الذي يميل إلى عدائية مفرطة تجاه الغرب، وأن نستخدم أسلوبا أكثر اعتدالا، يناسب وسطية الإسلام وسماحته، فالأخلاق الحسنة والمعاملة الطيبة للمختلفين مع الإسلام والصورة الحضارية الراقية، هي خير سفير والسبيل الوحيد لمواجهة أعدائه.

وربما فشلت أساليبنا في هذا الشأن لأن كثيرا من علمائنا يسيرون على الطريقة النمطية التي يعرفونها عن الإسلام، كأنهم يخاطبون المسلمين وليس الغرب. لذلك، هم بحاجة إلى معرفة ودراسة كيف يفكر العقل الغربي، وما وسائل التأثير على المواطنين هناك، وهذا يقتضي دراسة عادات شعوب هذه الدول وثقافاتهم، والعوامل التي تؤثر فيهم وفي خطابهم، إضافة إلى أن علماء العرب، الذين يخاطبون الآخر، يفتقدون معرفة لغة الغرب، كما يفتقدون الأدوات التكنولوجية والمعرفية الحديثة التي أصبح لها دور كبير في التأثير على عقلية الإنسان الغربي. لذلك، ينبغي الخروج من عباءة الخطابة التقليدية إلى استخدام الطرق العلمية الحديثة، مثل الإعلام وشبكة المعلومات الدولية.. فهذه كلها أساليب تقنية وعلمية ينبغي على العلماء استخدامها لتحسين وبيان حقيقة الإسلام والتعريف به، ورد الشبهات عنه، لمواجهة تنامي الإسلاموفوبيا، بدلا من الاعتماد فقط على أسلوب الوعظ، والدعوة التي تناسب المسلم داخل الأوطان الإسلامية ولا تتناسب كثيرا مع الآخر.

المشكلة الحقيقية

من ناحية أخرى، يؤكد أستاذ الشريعة في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة د.محمد المنسي، أن المشكلة الحقيقية تكمن فينا كمسلمين وليست في الغرب، فنحن كمسلمين نقول الشيء ونفعل غيره.. وعلينا أولا أن نفهم الإسلام ومنهجه، ونتصرف كمسلمين قبل أن نوصله للآخرين.. وقبل أن نشرع في تحسين صورته للغرب، علينا أن نحسن صورته بين أنفسنا. فللأسف، عالمنا الإسلامي لديه ثروة ضخمة، ولا نعرف كيف نستفيد منها! ولمواجهة تلك الكراهية المغروسة في قلوب كارهي الإسلام، علينا استخدام اللغة الموضوعية واحترام الآخر، ومحاولة جذبه بطريقة هادئة إلى المنهج الإسلامي، فقط لتخفيف تلك الكراهية المزروعة في القلوب، وليس ليعتنقوا الدين الإسلامي، وهو السبيل الأفضل والطريق المناسب لتصحيح صورته لديهم.

كما يؤكد المنسي أن للإعلام دورا ليس بالهين في ازدياد اتساع الفجوة بين المسلمين والغرب، فإعلامنا الحالي ليس إلا تابعا للإعلام الغربي، كما أنه لا يتسم بالحيادية والموضوعية، ودائما ما يعبر عن أهواء البشر. لذلك، فمن الطبيعي أن نفتقد ذلك الإعلام الذي ينقل الصورة الحقيقية عن الإسلام والمسلمين، ولكن -مع الأسف- ما يحدث الآن من آفات غريبة على الإسلام، زرعت داخل المجتمعات الإسلامية، بل وتتحدث باسمهم، وهي بعيدة كل البعد عن الدين الإسلامي ومنهجه، كان السبب في تضاعف كراهية الغرب للإسلام والمسلمين، يوما بعد يوم، واتساع الفجوة بينهما.

ترويج

بدوره، يؤكد الأمين العام الأسبق للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية د.محمد الشحات، أن كثيرا من البلدان الغربية أصبحت تتفنن في ترويج الإسلاموفوبيا، وخلق الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين، علاوة على ما تقوم به حكومات هذه البلدان وأجهزتها الإعلامية والدولية، والتي تقف وراء صناعة «الإسلاموفوبيا» وتساندها،

المسلمات أكثر الضحايا

«٥٨ في المئة من حوادث «الإسلاموفوبيا» التي وقعت في بريطانيا خلال عامي ٢٠١٢ و٢٠١٣، طالت نساء مسلمات».. هذا ما أكدته إحصائية مؤسسة «أخبر ماما» لتسجيل الجرائم والحوادث المعادية للمسلمين في بريطانيا.. بخلاف الانتهاكات والتهديدات عبر شبكة الإنترنت. وكان ٨٠ في المئة من النساء اللواتي تعرضن لهذه الحوادث يرتدين البرقع أو الحجاب أو غيرهما من الملابس المرتبطة بالإسلام.

من دور كبير في مواصلة الطعن والتشويه. والإساءة تهدف في المقام الأول، إلى النيل من العالم الإسلامي، وهو ما يسهم -بلا شك- في زيادة الاحتقان بين العالم الإسلامي والغرب، ونفور الأخير المستمر من المسلمين، وارتباط صورة الإسلام في أذهان أهله بـ«الإرهاب». والشواهد الحديثة عديدة في هذا الأمر، فعلى سبيل الذكر وليس الحصر، بالنظر إلى ما قررته المحكمة الروسية في سبتمبر الماضي، حول حظر واحدة من ترجمات معاني القرآن في البلاد، سنجد ذلك القرار دليلا يمثل طعنة جديدة في سلسلة معاداة الإسلام وتدليس صورته وتشويهها.

ويضيف: لا شك أن الانحرافات في الممارسات واختلالات الفهم التي أصابت بعض مناطق المجتمع الإسلامي، وما تبعها من ظهور انحرافات فكرية وعقائدية لبعض الدخلاء، والتي لا تمت للدين الإسلامي بصلة، زادت من كره المجتمعات الغربية لنا، وتحريك مشاعر السخط والعداء نحونا، وساهمت في اتساع الفجوة. لذلك، على المجتمعات الدولية ضرورة احترام الأقليات والجاليات المسلمة الموجودة في كل دول العالم، وعدم انتهاك حقوق الإسلام، ومحاربة من يستشرون الفساد والغل والحقد لكل المسلمين، مع ضرورة خلق صورة ذهنية صحيحة عن الإسلام وتعاليمه السمحة وأخلاق المسلمين الحقة، ومقاومة هذه الصناعة الخطيرة التي لا تسيء فقط إلى الإسلام بقدر ما تسيء إلى الإنسانية كلها، وتوعية المجتمعات بغرضها الدنيء في النيل من الرصيد الحضاري الإسلامي، الذي أسهم في إثراء الحضارة الأوربية كلها.

د.صلاح العادلي: نحتاج إلى خطاب دعوي يخاطب الغرب بلغته ليبدد مخاوفه

تأهيل

أما الداعية في وزارة الأوقاف المصرية، وعضو المركز الإسلامي في سويسرا عماد مختار، فيرى أن السبيل الوحيد لمواجهة الإسلاموفوبيا وكارهي الإسلام، يتمثل في إعادة تأهيل الدول الإسلامية؛ لتعرف كيف تتعامل مع غير المسلمين، كما تتعامل الدول بعضها مع بعض، فتحسن دائما اختيار سفرائها؛ للحرص على بقاء المصالح المشتركة والود المتبادل. فالإسلام في أوروبا لا يجد من يمثله، فيلجأ الأوروبيون إلى معرفة الإسلام من المسلمين المقيمين هناك، وغالبا ما يكونون غير مؤهلين للتحدث باسم الدين أو تمثيله، فتصل إليهم الفكرة مشوهة تتتابها العديد من الأخطاء. ولا بد من أن نحسن اختيار الأئمة المتحدثين باسم الإسلام في تلك البلاد؛ إذا أردنا توصيل صورة ذهنية صحيحة عن الإسلام ومنهجه، فالخطاب الإسلامي الحالي في تلك البلاد يعاني قصورا شديدا، وهو ما قد ينفر الناس من الإسلام وعقيدته، فنجد بعض القضايا الفرعية تهيمن وتأخذ الأولوية، ولا يصح أن تقال للمسلم الجديد، في حين يغفل الحديث عن القضايا الحقيقية الممثلة للعقيدة، فيتصيد الإعلام الغربي ذلك ويستغله في تشويه صورة الإسلام والمسلمين.

أيضا لا بد من طرح بديل إعلامي جيد من خلال توظيف بعض وسائل الإعلام المتخصصة من المسموعة والمرئية والمقروءة؛ لتقوم ببث خطاب إسلامي واضح، يبتعد عن خلط الأمور بعضها ببعض، على أن يكون بلغة البلد الموجه إليه نفسها. فالمشكلة الآن، هي أن وسائل الإعلام الدينية المتخصصة تبث رسالتها إلى المسلمين وباللغة العربية، وهو ما لا يحقق لها أي تأثير أو صدى في بلاد الغرب.

الخروج ممنوع!

في دراسة حديثة وثّقت بعض الانتهاكات والإهانات التي تتعرض لها المسلمات في بريطانيا، استكمالا لسلسلة المعاداة ضد الإسلام و«الإسلاموفوبيا»، والتي قام بها الدكتور كريس ألين، المحاضر في السياسات الاجتماعية في جامعة برمنغهام البريطانية، مع ٢٠ امرأة مسلمة، تتراوح أعمارهن بين ١٥ و٥٢ عاما، جاء أن رجلا حاول دهس امرأة مسلمة بسيارته حين طلبت منه تحريكها من أمام مدخل منزلها، وأبلغها قبل أن يهاجمها بأنه «سيدهسها بسيارته لأنها مسلمة»! وفي حالات أخرى وُضعت أربعة رؤوس لخنازير متحللة أمام منزل امرأة مسلمة، وإرسال مفرقعات إلى مسلمة عبر البريد، والاعتداء بصورة متكررة على مسلمة، تدعى شريفة (٣٣ عاما)، من قبل مجموعة من الشباب أطلقوا عليها نعوتا مثل «النينجا».

ونقلت الدراسة عن مسلمات أن هجمات «الإسلاموفوبيا» جعلتهن «يخشين من الخروج إلى الشارع أو إلى أي منطقة بمفردهن، ويشككن في هويتهن البريطانية، ويفكرن في مغادرة المملكة المتحدة».

التعصب... مفسد للدين والدنيا

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحافي



في موضوع شائك كهذا، تبدو الحاجة أكثر إلحاحا إلى الوقوف قليلا مع تعريفات ومضامين المفاهيم التي نحن بصددها؛ حتى ننطلق من أرضية واضحة في المعالجة والحوار.

● أما «التسامح» فهو من اللين والسهولة؛ يقال: «سمح- سمحا وسماحا وسماحة: لان وسهل، وانقاد بعد استصعاب» (١). وهو: «سعة صدر تفسح للآخرين أن يعبّروا عن آرائهم ولو لم تكن موضوع تسليم أو قبول. ولا يحاول صاحبه فرض آرائه الخاصة على الآخرين» (٢).

● وأمّا «التعصب»، فهو من «عصب اللحم بالكسر، أي كثر عصبه. وانعصب: اشتد. والعصب: الطي الشديد. وعصب الشيء يعصبه عصبا: طواه ولواه، وقيل: شده. وتعصب، أي شد العصابة. والعصابة: العمامة. والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أم مظلومين. وفي الحديث: العصبي من يعين قومه على الظلم» (٣).

وجاء في «المعجم الفلسفي»: «التعصب»، غلو في التعلق بشخص، أو فكرة، أو مبدأ، أو عقيدة؛ بحيث لا يدع مكانا للتسامح. وهو ضرب من الحماسة الشديدة التي قد تؤدي إلى العنف والاستماتة. وهو بهذا حال غير سوية على مستوى الفرد والجماعة، ويصاحبها ضيق أفق وبعد عن التعقل (٤). والتعصب نقيض الحرية والتسامح. إذا ازداد التعصب قلّت الحرية، والعكس بالعكس» (٥).

● وهناك مصطلح يتقاطع مع التعصب وهو «الغلو». و«الغلو: تجاوز الحد. يقال ذلك إذا كان في السعر غلاء، وإذا كان في القدر والمنزلة غلو. قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ (النساء:١٧١). والغلواء: تجاوز الحد في الجماح؛ وبه شبه غلواء الشباب» (٦).

من هذه التعريفات يمكن أن نخلص إلى أن: التسامح حالة نفسية بالأساس تستتبع موقفا فكريا؛ فمجرد العلم لا يؤدي إلى التسامح إلا إذا تحلى صاحبه بأخلاق فاضلة. والتسامح والحرية مترابطان، وإن شئت فقل: مترادفان.

أما التعصب ففيه معنى الطي واللي والشد، أي الانغلاق والانطواء؛ فالمتعصب لا يحب أن يرى أو يسمع خلاف ما يعتقد، أو يسمع سماع المعرض لا سماع من يبحث عن الحقيقة. وقد يتطور التعصب من مجرد موقف فكري إلى فعل مادي، بالعنف والقتل.

بينما الغلو هو تجاوز الحد لشيء ليس بالضرورة أن يكون خطأ، بل قد يكون صحيحا في أصله، مثل المغالاة في حب الأنبياء بعبادتهم! أو المغالاة في حب الأوطان بالعنصرية! والغلو أقرب أن يتسرب إلى الشباب؛ لأنها مرحلة عمرية تتصف بالاندفاع والحماسة وعدم الروية.

إشارات

إذا نظرنا إلى المنهج الإسلامي -كدعوة وعملية تغيير- نجد أننا أمام عدة أركان يقوم عليها هذا المنهج، وهي: «المرسِل» وهو الله سبحانه، و«الرسالة» وهي الإسلام، و«المرسَل» وهو النبي محمد ﷺ، و«المرسَل إليهم» وهم المسلمون، والناس كافة. وقد وردت إشارات في القرآن الكريم والسنة النبوية تدلنا على أي مدى أن الإسلام بهذه الأركان هو أبعد ما يكون عن إقرار التعصب، فضلا عن الدعوة إليه.

فالله سبحانه أخبرنا عن ذاته العلية بأنه لم يخلق الناس ليعنتهم ولا ليوقع بهم الحرج والمشقة؛ فقال سبحانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء:١٤٧). ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥). ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ (الحج:٧٨).

و«الرسالة» قال الله تعالى عنها: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦). كما قال عنها النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة» (رواه أحمد من حديث أبي أمامة).

و«الرسول ﷺ» قال الله تعالى عنه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ (آل عمران:١٥٩).

و«المسلمون» حدد لهم النبي ﷺ المنهج الذي ينبغي عليهم اتباعه، فقال: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» (رواه البخاري من حديث أبي هريرة).

والسؤال: إذا كانت هذه الإشارات -وغيرها كثير- قد تواترت بحق المنهج الإسلامي، فكيف تسرب التعصب إلى واقعنا، وغاب التسامح بما يستلزمه من حرية في الفكر وتعددية في المواقف والرؤى؛ حتى تطور ذلك -أو تدهور- إلى عنف مادي، أساء إلى الإسلام بما لم يسئ به أعداؤه؟!

أسباب مشتركة

التعصب؛ سواء كان فكريا، أو سياسيا، أو اجتماعيا، أو متعلقا بموقف أو بشخص، له أسباب عامة مشتركة تقف وراء هذه الظاهرة؛ أهمها:

اضطراب الأسرة: فإذا نشأ الطفل في بيئة أسرية مضطربة ممتلئة بالمشكلات، يتسلط فيها أحد الأبوين على الآخر؛ فإنه -لا شك- سينشأ منطويا أو عدوانيا تجاه الآخرين، وهو في الحالتين لن يعتد إلا برأيه، ولن يثق بغيره(٧).

قلة العلم: فكلما ازداد الإنسان علما أدرك أنه يجهل أكثر مما يعلم، وأنه لا يلم إلا بطرف من الحقيقة وغابت

عنه أشياء، وأن ما يظنه صوابا محضا قد يكون هو الخطأ المحض! أو على الأقل قد يكون أحد أوجه الصواب. حينئذ لا يسعه إلا أن يتبع منهج الإمام الشافعي القائل: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب».

وإن الدارس لتاريخ الحركات التي انجرفت إلى هوة التعصب، واتخذت العنف طريقا، ليجد أنها قامت على أناس قليلي العلم، وأخذوا عن الكتب أكثر من العلماء؛ فأورثتهم قلة العلم، والطريقة الخاطئة في التلقي، فهما سقيما حسبوه الحقيقة المطلقة.

لكن المنهج الصحيح يقتضي أن ندور مع الدليل أينما دار، ونبحث عن الحق ولو لم يوافق هوانا، ونأخذ به ولو جاء ممن خالفنا في المذهب.. وندرك أن محكمات الشرع وقطعياته التي لا يجوز الخلاف بشأنها قليلة جدا، وأن ما دون ذلك كثير، والباب فيه مفتوح لتعدد الآراء والاجتهاد المنضبط؛ وهنا تكون القاعدة أنه «لا إنكار في المختلف فيه».

غياب الحريات: إن كلمة ابن خلدون الجامعة: «الظلم مؤذن بخراب العمران»، تلخص الآثار الكارثية التي تنتج عن بيئة القهر والتسلط، وعن غياب الحريات، وانعدام الأفق السياسي الذي يسمح بالتعددية والحوار، وانطلاق المواهب والأفكار من عقال الخوف والريبة.

وحين يجهر الفرعون بـ ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ (غافر:٢٩)، فإنه لن يقابل إلا بردة فعل في الاتجاه المضاد؛ لا تعترف بالحوار، ولا تؤمن بجدوى الأفكار، ولا ترى إلا ذاتها.. وهل ثمة بيئة لتفريخ التعصب والغلو أفضل من هذه؟!

الانغلاق على الذات: إن من سنن الله الثابتة، أنه لم يخلق الناس على نمط واحد، بل قرر فيهم «سنة الاختلاف» في الألسنة والألوان والأعراق، بل حتى في الشرائع والمذاهب، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ (الروم:٢٢). وقال سبحانه أيضا: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٨ و١١٩).

لكن المنغلق على ذاته لا يرى إلا نفسه، ولا يسمع إلا صوته، ولا يعترف بحق الآخرين في الاختلاف والاجتهاد، بل ربما لم ير لهم حقا في الحياة أصلا! وهذه الرؤية الأحادية مخالفة لسنة الله في الكون، ومن شأنها أن تجعل صاحبها يستهين بحقوق الآخرين، ويستخف بحرماتهم.

شيء من التسامح

في مقابل ظاهرة التعصب والغلو، التي لها آثارها المفسدة للدين والدنيا، تبدو أهمية قيمة التسامح كإحدى القيم الضرورية التي لا غنى عنها لمن ينشد مجتمعا متماسكا، ويبتغي تدينا صحيحا يتساوق مع الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

والتسامح كقيمة فكرية وموقف عملي يقتضي أن نؤكد عدة أمور:

- إن كل إنسان –فيما دون العقائد؛ إذ الدين عند الله الإسلام– يملك طرفا من الحقيقة، مثلما أن العلم لا يعرف الكلمة النهائية؛ فهناك دائما ما يدعو إلى التغير والتطور، وتجربة الإمام الشافعي في مذهبه الجديد بعد القديم، خير شاهد؛ وما قرره الفقهاء من أن الفتوى –لا الحكم– تتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، يساند هذا ويعضده.
- التسامح يعني بالضرورة وجود من يخالفنا؛ وإلا فلا معنى للإشارة إلى التسامح والتأكيد عليه لو أن ثمة إجماعا على رأي واحد!
- التسامح مع المخالف لا يعني الرضا بما يقول به، ولا التنازل عن قناعاتنا الذاتية؛ بل يعني فقط السماح بوجوده والإقرار بحقوقه.
- إذا كانت إرادة الله سبحانه قاضية باختلاف الناس وتنوعهم، فلا راد لذلك؛ ومهمتنا أن ننقل هذا الاختلاف من دائرة الصراع والمواجهة إلى دائرة التدافع والتكامل.
- علينا أن نحذر من دعوات التسامح التي توجه بطريقة ملتوية بغرض أن ينصرف أهل الحق عن التمسك بحقهم ويرضوا بما وقع من ظلم؛ فهذه الدعوات تفقد قيمتها الأخلاقية إذا أريد لها أن تكون ستارا لتسويغ الظلم وتبرير الاستسلام.
- ينبغي أن تقدم النظم السياسية نموذجا للتسامح من نفسها أولا؛ فالناس على دين ملوكهم، والشعوب تربى وتعلم؛ وإذا كان المجتمع بفئاته مطالبا بإشاعة التسامح وجعله قيمة راسخة في الحياة بمختلف اتجاهاتها، فإن من بيدهم الأمر والنهي يصبحون أكثر مسؤولية في تحقيق تلك القيمة المهمة، التي هي –بلا شك– لازمة لعمارة الدنيا واستقامة الدين.

الهوامش

(١) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ص: ٤٦٥، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٨م.

(٢) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الفلسفي، ص: ٤٤، المطابع الأميرية، من دون رقم الطبعة، ١٩٨٣م.

(٣) ابن منظور لسان العرب، مادة (عصب)، ص: ٤/٢٩٦٣، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، من دون رقم الطبعة وتاريخ النشر.

(٤) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص: ٤٩.

(٥) جميل صليبا، المعجم الفلسفي ١/٣٠٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م، من دون رقم الطبعة.

(٦) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ٤٧٢/٤٧٣، مكتبة نزار مصطفى الباز، من دون تاريخ.

(٧) ذكر د. طارق حجي في كتابه «تجربتي مع الماركسية»– الفصل الأول: الماركسية والماركسيون والأخلاق– أن الجماعات اليسارية المتطرفة كان يلاحظ انحدار شبابها من أسر مضطربة، وأنهم يعانون انحرافات نفسية وأخلاقية جعلتهم حانقين على المجتمع. كما ذكر أن هذا كان رأي الأستاذ عباس محمود العقاد أيضا.

ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعيـة والمعلومة الصحيحة المنضبطة بضوابط التوثيق العلمي، فقد رأت المجلة أن تعيد التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي من الشروط:



ما يتعلق بالكاتب

- أن يكون الكاتب متخصصا في مجال كتابته وأن تؤهله ثقافته للكتابة في الموضوع الذي يتطرق إليه.
- أن يرسل صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- أن تكون المراسلات باسم رئيس التحرير.
- أن يكون العنوان كاملا، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، وضرورة إرسال البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- أن يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- أن يكون المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- أن تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- أن تكون المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية.
- ألا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، وأن يبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- أن تكون الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات مقرونة بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال منشورًا في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

الوعي الإسلامي



الإيغال في دروب التدين: حالة جنوح...!

د. محمد سعيد باه
باحث دراسات إسلامية

أرى، وقد يرى غيري خلاف ذلك، أن التعصب ليس سوى صورة جزئية من إفرازات «الغلو» مثل البغي، المروق، الفتنة. أما الغلو فهو أصل البلاء، ومصدر الشقاء، وعامل الشقاق، وسبب تفجر النزاعات وتمزيق الكيانات المتجمعة.

هذا ما قد يظهر لنا حين نلقي نظرة استجلائية في حالة المجتمعات البشرية اليوم عن كثب، فنجد أن ظاهرة عدم الاستقرار سببها الغلو بحيث لا يكاد يخلو مجتمع من كدرها، وهو ما تعبر عنه الصراعات الداخلية والحروب البينية التي عصفت بأمم، وحطمت دولا كانت تنعم بالتماسك بين الشرائح المكونة لها. والمؤسف أن أوسع مسرح لهذه الحزازات يقع ضمن دائرة المناطق التي تقطنها الأمة الإسلامية داخل العالم الإسلامي وخارجه.

ولدى البحث عن العلة الكامنة وراء هذا العصف، الذي يكاد يقتلع كل شيء، لا يندر أن نجد من بين المسببات الأكثر حضورا ما يمكن أن نطلق عليه هنا «سيطرة عقلية جانحة». لكن هذه العقلية لم تنشأ هي الأخرى من فراغ، بمعنى أنها تعبير وليست هي العلة، كما تتغذى من ثقافة ذات طعم مر لا يمكن أن ينتج عنها إلا مثل هذا النوع من النظر الحاد إلى الحياة وإنتاج مفاهيم تتعلق بالآخر، كائنا من كان هذا الآخر، غالبا ما تتسم بالعقم، وتعبر عن نفسها متى نشأت ظروف مواتية.

والملاحظ كذلك أن هذه العقلية الجانحة تتطور حتى تظهر في مرحلة ما على شكل ممارسات تتسم بقدر كبير من العنف بكل أنواعه: قولا عند العجز وفعلا عند التمكن. وذلك ببساطة لأن الخيط الفاصل بين الضفتين غاية في الرقة!

ولتشعب ميادين الغلو وتباين الطرائق التي يتبعها المغالون للتعبير عن حالة الغليان الداخلي التي يكابدونها، سنحاول أن نتناول الموضوع في إطار المقاربة المرتكزة على البعد «التديني»، الذي يمثل في العالم المعاصر أبرز عناوين الجنوح الحاد، الذي يعتبر الكثير من الاختلالات الاجتماعية والسياسية والفكرية من أهم انعكاساته، والتي يأتي الإرهاب -بكل أنواعه ومصادره ومستوياته وتجلياته- على رأسها. وبالتالي، يبقى الطرح المنبثق من القراءة الجادة في إطار النص الديني من أقوم السبل لتناول الموضوع بقصد تصحيح الرؤية.

نؤكد أولا بأن طرحنا للموضوع ينهض على فكرة أن الغلو مرض نفسي يصيبنا أو يخطئنا (ليس التدين إلا شكلا للتجلي). ومن سماته أنه يتخذ أشكالا متباينة تتفاوت في درجات العنفوان وفق مؤشرات سنعرض نماذج منها، مثل مدى حدة مزاج المغالي، فالإنسان الذي يعاني من هذا الاختلال الوظيفي في المزاج النفسي سيعبر عنه خشونة في ساحات المنافسة إذا كان رياضيا، أو عنفا ضد زوجه داخل عش الأسرة، أو حدة في العبارة حين يسطر مقالا أو يعلي نبرة في قصيدة إذا كان من أرباب القلم... فهذا الذي سيفجر القنبلة أو يطلق الرصاصة متى حازها.

لكن السؤال الذي يلاحقنا: ما مبرر ربط الغلو بأصحاب الديانة؟

قد يكون مرد هذا اللصق، الذي غالبا ما نستهجنه ونؤسس دفوعاتنا على

أن خصومنا يغالون في طرح هذه التهمة على ظهورنا، إن طبيعة الديانة قابلة لتمكين هذا الصنف من الناس بأن يتقمصوها في إطار سعيهم إلى احتلال مواقع متقدمة في صفوف المجتمع الذي يعيشون فيه، لكن المؤهلات المكرسة والمتعارف عليها تنقصهم؛ وهنا يبحثون عن مرتكز بديل يعولون عليه من أجل إشباع الجوع الشديد الذي يعالجونه من أجل البروز والتميز. ونستطيع التعبير عن هذا النزوع من الناحية النفسية بعقدة التصدر.

يمكن أن يتقوى هذا الاستنتاج بالنهج الذي اختطه القرآن الكريم في تناوله لمسألة الغلو مع ما يترتب عليه من نتائج وخيمة، حيث حصر حديثه، حين وجهه إلى أهل الكتاب، في البعد التديني، مما يدل على خطر الغلو فيه مقارنة مع غيره.

فلنتل الآيتين اللتين لم يستخدم كتاب الله مصطلح الغلو إلا فيهما فقط، ثم نسرد بعض الخواطر التي يمكننا استخلاصها منهما:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ..﴾ (النساء:١٧١). ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾، (المائدة: ٧٧). وبالتأمل في آية المائدة نلاحظ الدقة التي عالج بها القرآن إشكالية الميلان الذي سيقود -مهما طابت النوايا وسلم القصد- إلى نتيجتين خطرتين هما: الضلال والإضلال.

ثم تلمِّح الآية إلى أن هذا الجنوح الذي ننتقل به إلى حافة الهاوية حالة مجازفة محفوفة بالمخاطر، إنما يأتي حين نحطم تلك الحواجز الواقية التي تحمينا من السقوط في مهاوي الغلو، وقد عبرت الآية عن هذا الانحراف الحاد بـ: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

إذن، فالمنهجية التي ترسمها الآية بطريقة ضمنية تتمثل في السير وسط السبيل السوي القادر على إيصالنا إلى وجهتنا، شريطة أن تتحدد بجلاء، ونحث الخطى نحوها في ثبات، وفق ما نملك من قدرات ونحمله من زاد حري أن يبلغنا، مع الحرص على ألا نكون المنبت الذي حذرنا منه المصطفى ﷺ.

بناء على التحليل السابق لبعض جوانب الإشكالية، نملك جملة من المؤشرات التي نستدل بها على وجود حالة من الجنوح تستدعي الرصد والتوصيف تمهيدا للمعالجة:

- النزوع إلى ممارسة السلطة افتئاتا على أصحاب السلطة الحقيقيين، من دون الأخذ في الاعتبار ما يمكن أن ينجم عن ذلك من مضار.
- التعامل مع القضايا الأساسية بقدر كبير من السطحية مع اتباع أساليب غاية في الخشونة لمعالجة أدنى تعارض لوجهات النظر.
- الاتجاه نحو أقسى الخيارات من باب الدلالة على التميز، أو التهويل الذي يمكِّن من التسلل من الدائرة الرحبة التي تستوعب الجماعة، حيث يتسنى خلق دوائر ضيقة لا تتسع إلا لشخصه فقط.
- التضخيم الذي يفضي إلى الهيجان بدلا من التدقيق الذي يؤدي إلى التروي ووزن الأمور، والخروج بأقرب النتائج إلى المنطق البسيط.

لكن البؤرة الرئيسية التي نرى التوقف عندها لتلخيص هذه المؤشرات التي تدل على وجود حالة الغلو هي «النقمة»، فكثير من هؤلاء الذين ابتلوا بداء الجنوح الفكري يشعرون بوجود شحنة كبيرة من الحقد في دواخلهم تجاه من يوجهون إليهم سهام غلوهم، باعتبار هؤلاء مصدر ما يعانون منه من الضيق؛ هذا ما يفسر استهداف المتطرف فئات بعينها: الأئمة، رموز السلطة السياسية، المخالف في الدين، الشخصيات المجتمعية، المؤسسات الناجحة.

ومع ميلنا إلى قبول الفكرة القائلة: إن هناك أجهزة متخصصة في صناعة ظاهرة الغلو وأخرى تقوم بمهمة الدفع بها إلى السطح، والاستمرار في النفخ فيها لأهداف تخفى أو تتكشف، فإن ثمة دوافع أخرى تمثل أرضية لقابلية التطويع.

في الواقع، وجدت، بعد طول تأمل، أن كثيرا من حالات الميلان عن جادة الصواب في الحكم على الآخر وفي ضبط علائق التعامل مع الغير، والتعاطي مع ما يطرأ للجماعة التي تحتوينا، إنما مرده وجود شحنات هائلة من الغضب المكتوم، الذي سيجد طريقه إلى العلن ما لم يعالج وينفس بطريقة مثالية، تشعر الغاضب بأنه قد أخذ حقه الذي كان يرى بأنه مهضوم. (١)

هذه الملاحظة تقودنا إلى نتيجة بسيطة، لكنها مفيدة، ألا وهي أن الغلو لا يواجه بالغلو كما فعلت الأنظمة السياسية الغربية والإسلامية التي لجأت إلى الحديد والنار، وقد تُؤجج نيرانه لدرجة الاستفحال، كما نشاهد اليوم في كثير من الحالات.

وبواقع التجربة توصلت إلى قناعة بسيطة في مجال التعاطي مع هذا الصنف من الناس، تتمثل في أن كثيرا من الحالات التي تصنف بأنها من الغلو لا يجدي التعاطي معها من منطلق محاولة تعديل المزاج أو تفعيل المحرك الإيماني، وإنما تتطلب الاستعانة بخبرات الطبيب المختص ضمن خطة علاجية متكاملة.

من أروع ما نلخص به هذه الملاحظات قولة مطرف بن عبدالله: «الحسنة بين السيئتين»!

هوامش:

(١) لا يعني هذا أننا نحصرها في هذا ونستبعد دوافع أخرى مثل: العروق الدساسة، ضآلة التجربة، أثر التربية التي تقوم على الانغلاق أو تتسم بالتعالي، أو ادعاء الطهر الزائف.

التحصين الفكري ضد التشدد

د. إبراهيم نويري
كاتب وباحث أكاديمي



التشدد -كما ورد في بعض التعريفات- هو حالة انغلاق أو جمود ثاوية في النسيج النفسي والفكري، توحي لصاحبها أو لمن يتمثلها في سلوكه ومعاملاته وعلاقاته، وقبل ذلك في ذهنه وفكره، بأنه ليس فقط الأقرب إلى الصواب. بل هو -دون سواه- أنموذج الصواب والهدى والحق وسواء السبيل. وبالتالي فإن الحقيقة معه وحده، وعلى الآخرين إذا أرادوا السلامة وعدم الزيغ، أو الوقوع في مهاوي الضلال أن يتبعوه، وأن يقتفوا أثره، وينسجوا على منواله، فيما صغر أو كبر من المسائل والقضايا والإشكالات التي تعرض لهم في حياتهم.

إن هذه الحالة الغريبة علامة واضحة على وجود مرض داخلي خطير، لا علاقة له بأي نوع من أنواع القناعة العقلية المؤسسة على سلامة الضمير وتفحص الأدلة، والترجيح بين الآراء، وفق معادلة منطقية مقنعة.

وجوهر هذا المرض النفسي غرور سيطر على كل جوانح النفس. فأحدث ظلاما حالكا في جنباتها، لأن سلامة الضمير ونقاوة التفكير كلاهما يدفعان إلى احترام وجهات نظر الآخرين، حتى في حالة الاقتناع أو التيقن بوجهة نظر مختلفة.. فما بالك إذا كانت المسألة المعروضة أو المثارة من قبيل المسائل التي لا يتضح فيها وجه الحق بسهولة!

لقد كان الإمام الشافعي (رحمه الله) وهو مؤسس علم أصول الفقه والقواعد الكلية لفن الاستنباط والترجيح يقول: «ما جادلت أحدا إلا وتمنيت أن يكون الحق إلى جانبه». فسلامة الضمير لابد أن تتجه بصاحبها إلى البحث عن الحقيقة والانتصار لها، بغض النظر عن مصدرها. أما من يعشش الغرور في جنبات نفسه ولواعج صدره، فهو لا يلهث إلا وراء الانتصار للذات المريضة. وهذه إحدى أخطر علل بعض المثقفين، وبعض المتدينين في زماننا هذا!!

وأسوق هذه القصة لأنها تلخص جانبا كبيرا من الفكرة التي أردت شرحها وتحذير جمهور القراء منها ومن تبعاتها.

يقول فضيلة الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي، رحمه الله: كنت يوما أحاور أحد الشباب المتشددين المغالين بغير علم. فسألته: هل تفجير ملهى ليلي في إحدى الدول حلال أم حرام؟ فقال لي: طبعا حلال، وقتل رواده جائز.

فقلت له: لو أنك قتلتهم وهم يعصون الله، فما هو مصيرهم؟ قال: النار بطبيعة الحال!!

فقلت له: إذن أنتم والشيطان تشتركون في الهدف نفسه، الذي هو إدخال الناس إلى النار!! ثم ذكرت له حديث النبي ﷺ، عندما مرت عليه جنازة يهودي، فأخذ يبكي، فقالوا ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: نفس أفلتت مني إلى النار.

ثم قلت للشاب: لاحظ الفرق بينكم وبين رسول الله ﷺ الذي يسعى إلى هداية الناس وإنقاذهم من النار. أنتم في واد والحبيب المصطفى في واد آخر!!..

أعتقد أن معالجة مثل هذه العلل المستحكمة، لا يكون إلا بالحوار والتوسع في العلم، والاستقامة على المنهج النبوي، والرجوع الدائم لأهل النظر الحصيف والعلم الصحيح والفكر الراشد، والتخلق بأخلاق التواضع وحسن الإنصات لآراء الآخرين.

أما الاعتداد بالرأي والانتصار للذات والهوى وحظ النفس الأمارة بالسوء، فطريقه ومآله واضح بيّن، إنه الخسران والبوار لصاحبه، وإيذاء خلق الله وإحراج الدين وتدمير الأوطان والمكاسب العامة.

لابد أن تتضافر الجهود وتتآزر مواقف أهل العلم والاستقامة في سبيل التحصين الفكري والنفسي ضد هذه الآفة الخطيرة، خدمة لأوطاننا وديننا وقيمنا. والله ولي التوفيق.

غلو العلمانية

محمد شعبان أيوب
باحث مصري في التاريخ والتراث



كلما ذكر الغلو والتعصب، جاءت إلى الأذهان صورة إسلامي طويل اللحية، متجهم الوجه، ضيق الأفق، ناقم على مجتمعه وناسه! والحق أن هذه الصورة الذهنية الشائهة لعبت وسائل الإعلام والنشر العلمانية أكبر الأدوار في ترسيخها في الثلاثين عاما الأخيرة، فلم يخل بلد من البلدان الإسلامية والعربية من سطوة هذه الصورة الشائهة، وهي إن كان لها وجود على الأرض وفي الواقع، غير أنه لا يمكن أن يركز عليه بهذه الصورة التي لم تقل غلوا وتعصبا هي الأخرى، فيؤخذ الصالح بالطالح حتى كاد أن يصبح الإسلام ذاته مرادفا للإرهاب والعنف والغلو والتعصب في بلده وبين أهله وناسه!

علم الاجتماع والغلو

يهتم علم الاجتماع النفسي بدراسة الاتجاهات والعلاقات داخل المجتمع، ويندرج موضوع «الاتجاهات التعصبية» في لب حقله المعرفي والدراسي؛ فالاتجاهات التعصبية، السلبية على وجه التحديد كأحد شكلي الاتجاهات بين الجماعات (التعصب الإيجابي والتعصب السلبي)، لها قدر كبير من الأهمية لما يترتب عليها من آثار سلبية على جوانب عديدة، تشمل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في سائر المجتمعات الإنسانية،

وتنعكس هذه الآثار السلبية على المجتمعات في عمومها، مثلما تعود على الأفراد تماما. وهناك العديد من المجتمعات التي عانت، وما زالت تعاني، فالتعصب إذا وصل إلى درجة معينة من الحدة يصبح عاملا من عوامل تقويض وحدة المجتمع، وينم عن اضطراب في ميزان الصحة النفسية الاجتماعية، مما يفسد المجتمع ويهدد كيانه (١).

وأحد الأسباب الجوهرية التي تقود الفرد داخل المجتمع إلى التعصب الإيجابي أو السلبي إنما يعود إلى الأفكار والقيم التي يعتنقها الفرد، أو التي تسود في المجتمع فينشأ عليها، فقد أوضحت «بعض الدراسات أن التعصب العنصري لدى الأطفال لم يكن دالا على خبراتهم في موضوعات التعصب، بقدر ما كان دالا على ما يسود ثقافتهم من قيم معينة. بمعنى آخر، فإن اتجاه الطفل الأبيض نحو الطفل الأسود لم يكن انعكاسا لتعامله مع الأسود بقدر ما كان انعكاسا لتعامل الطفل الأبيض مع الاتجاهات السائدة عن هذا الطفل الأسود» (٢).

أسباب الغلو العلماني

إن العلمانية ما نشأت أصلا إلا من الصراع المسيحي في القرون الأوروبية الوسطى، والقيم والفلسفة التي كانت قد انتشرت وترسخت حول الدين المسيحي وسطوة رجال الكنيسة وتحكمهم في الحياة والأفكار والناس.

يقول الدكتور محمد عمارة: «لقد ظلت المسيحية منذ نشأتها وعبر

قرون طويلة من حياتها في المجتمعات الأوروبية دينا لا دولة، وشريعة محبة لا تقدم للمجتمع مرجعية قانونية ولا نظاما للحكم، ورسالة مكرسة لخلاص الروح، وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وعبر القرون حكمت العلاقة بين الكنيسة والدولة نظرية «السيفين»، أي السيف الروحي أو السلطة الدينية للكنيسة، والسيف الزمني أو السلطة المدنية للدولة؛ فلما حدث وتجاوزت الكنيسة حدود رسالة الروح ومملكة السماء؛ اغتصبت السلطة الزمنية أيضا، وأضفت على الدنيا قداسة الدين، فدخلت بالمجتمعات الأوروبية مرحلة الجمود والانحطاط وعصورها المظلمة. وفي مواجهة هذا الانحطاط الحضاري، كانت «الثورة العلمانية»، التي فجرتها فلسفة التنوير الأوروبي، والتي أقامت قطيعة معرفية مع فلسفة الحكم الكهنوتي، وأسست النزعة العلمانية الحديثة على التراث الأوروبي القديم، التي أحلت العقل والتجربة محل الدين»(٣).

ونظرا لهذه الملابسات التاريخية التي نشأت في ظلها العلمانية، فقد كان من أخطر مبادئها وأهدافها نزع القيمة المرجعية عن تنظيم الحياة البشرية والروحية. وقد تراوحت العلمانية بين عداء الدين بالكلية وحجره في زاوية ضيقة من زوايا الإنسان، وهي بهذا المنظور لا شك أنها تعادي الإسلام والإسلاميين بكل قوتها، ولم تلق بالا للفارق الجوهري بين الإسلام والمسيحية.

وقد استمر الصدام المباشر بين العلمانية والإسلام عبر أجيال مختلفة من المؤلفين والمفكرين- ممن نالوا أعلى الشهادات الجامعية من الجامعات الأوروبية- ولم يفتأ هذا الصراع أن يهدأ منذ مئة عام على الأقل حتى اليوم.

لكن من اللافت أن الخطاب العلماني «المدني» المقدم إلى الجماهير في الأعوام الأخيرة، قد شهد تغيرا ملحوظا في الشكل دونما تغير في المضمون والغلو، فقد «اكتنفته أربعة ظروف رئيسية شكلت أضلاع الوعاء الجوهري لتناميه، ألا وهي: مناخ سبتمبر، والضخ الفرنكفوني، وحفاوة وسائل الإعلام، ورد الفعل تجاه البغي الإلكتروني. فبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر تعرض الاتجاه الإسلامي إلى حالة محاكمة عالمية شرسة، حدت من انسيابه ودويه، وتراجعت معها شعبيته بشكل ملموس. وفي ظل هذا الفراغ الجزئي الذي خلفه انكماش الحالة الإسلامية برزت أبحاث المدرسة الفرنكفونية/المغاربية كإجابة جديدة نجحت في استغلال الظرف الأمني وحققت اكتساحا استثنائيا في فترة قصيرة» (٤). فقد ابتعدت هذه المدرسة العلمانية بخطابها التقليدي عن الصدام المباشر للشريعة إلى إعادة تفسير التراث الإسلامي بأدواتها هي ووفق هواها ومنطلقاتها، فلبست على كثير من المثقفين مضامينها وأفكارها.

نموذج من الغلو العلماني

يعد المستشار محمد سعيد العشماوي من أبرز منظري العلمانية في نصف القرن الأخير في مصر والعالم العربي، وقد شهدت كتاباته هجوما شرسا وحادا وعنيفا على الإسلام وتراثه وفكره وصحوته، فقد وقف في أواخر السبعينيات أمام مشروع تقنين «الشريعة» الإسلامية والعمل به، واعتبر أن القانون المصري الوضعي، القائم في كثير من أسسه ومبادئه على القوانين والمبادئ الفرنسية، لا يختلف كثيرا عن الشريعة الإسلامية. بل يرى العشماوي أن عصر الرسالة والخلافة الراشدة قد دخلت فيه يد الاختلاف والتغاير والتباين والتناقض، وهو قول يصيب ذات الإسلام في عقيدته وشريعته، ويرجع سبب هذا التبدل والتغير إلى «اتجاه عسكري» للعهد النبوي، فيقول: «ويرى بعض المؤرخين أن الإسلام تشكل في صيغة حربية عندما بدأت أول سرية للمسلمين على قوافل تجارة قريش فيما بين الشام ومكة. ويرى آخرون أن الاتجاه العسكري في الإسلام بدأ منذ غزوة خيبر». وهو لا يقنع بطعن الإسلام -بادعاء تحوله إلى دين عسكري وصيغة حربية- بفعل الرسولﷺ وصحابته-رضوان الله عليهم-، وإنما يدافع عن يهود خيبر، ويعيب على الرسول ﷺ والمسلمين قتالهم، فيقول: «ذلك أن أهل خيبر لم يكونوا من المشركين، أهل مكة الذين عادوا النبي والمؤمنين وأخرجوهم من ديارهم، كما أن أهل خيبر لم يكونوا قد أساءوا إلى النبي أو إلى الإسلام بشيء». وحتى يوهم القارئ أن هذا الاتهام ليس من عنده وأنه رأي «لبعض المؤرخين»، وأنه على العكس منهم، لا يتفق معهم فيه، أضاف إضافات توجه المطاعن إلى الوحي الإلهي ذاته، وليس فقط إلى الرسول ﷺ والمؤمنين (٥).

وقد أحسن الدكتور محمد عمارة إذ فكك فكر العشماوي المتهافت في كتابه المهم «سقوط الغلو العلماني» ووقف معه بتؤدة وهدوء.

ستظل العلمانية على غلوها وتعصبها، شأنها شأن كل الفرق الفكرية التي ناهضت الإسلام وتراثه في القديم والحديث، لكن إذا كان الإسلام قد ثبت أمام الأفكار المناهضة له قديما وعبر تاريخه الطويل، فهو سيثبت -لا ريب- أمام فكر العلمانية المتهافت في واقعنا المعاصر، ليس لقوة بنيان الإسلام ونظمه وفكره فقط، بل لأن في العلمانية آفة فنائها!

هوامش:

١- معتز سيد عبدالله، الاتجاهات التعصبية ص١٣، منشورات سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مايو ١٩٨٩م، إصدار رقم ١٣٧.

٢- محيي الدين حسين، القيم الخاصة لدى المبدعين، ص٥٤ و٥٥ نقلا عن الاتجاهات التعصبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.

٣- د.محمد عمارة، العلمانية بين الغرب والإسلام، ص٦ و٧، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، المنصورة، ١٩٩٦م.

٤- إبراهيم السكران، مآلات الخطاب المدني ص١٢ و١٣.

٥- د.محمد عمارة، سقوط الغلو العلماني ص١٧ و١٨، دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

العلوم الإنسانية.. وخرائط التمدن

د. هبة رؤوف عزت
أستاذة جامعية - مصر



هذه إطلالة من العلوم الاجتماعية لمحاولة استجلاء سبيل العقل وتحريه للرشد وتأسيسه على الوعي بالفطرة، وذلك في دورانه مع مقومات التصور الإسلامي في مسائل «فقه التمدن» و«مقاصد العمران».

فما يزال جدل المجتمع المدني يتجدد دون مزيد بحث في معنى التمدن ذاته، وما يزال العقل الإنساني يسعى لفهم معناه مقترنا بالطبيعة الإنسانية تارة، وبأسس الاجتماع تارة، سعيا لأقوم المسالك لتحقيق رسالة البشرية وبناء الحضارة.. تجتهد في ذلك العقول وترشد لذلك النبوات والكتب، وتدل عليه السنن والآثار.

ويمكن تصنيف اقترابات كتب التراث الإسلامي في فهم مقومات «الاجتماع البشري» لخمس مدارس: أولها «المدرسة الفلسفية» وهدفها تحقيق السعادة للإنسان، وفي ذلك تكلم كثير من الفلاسفة، ومنهم على سبيل المثال: الفارابي، عندما تحدث

عن «العلم المدني»، وجمع فيه بين الاجتماع والأخلاق والسياسة، وقال: إن هدف هذا العلم أو غايته أو مقصده هو تحقيق سعادة الناس في الدارين، وبالتالي بدأ يقسم المدن والحواضر المختلفة إلى أنواع، منها: ما هو مدن فاضلة، ومنها ماهو غير ذلك، وصنفها وتحدث عن أهلها، وصاغ نظرية في البحث عن السعادة والفضيلة، وكيف تنجح بعض المدن، وبعض الصيغ العمرانية الاجتماعية والإنسانية في تحقيق الفضيلة، وكيف أن بعضها لا يتمكن من ذلك، أو يبدأ هذه البداية ثم يبدأ في السقوط والبعد عن هذه القيم والمعاني.

المدرسة الثانية: التي ننظر إليها ونتأمل فيها هي التي نظرت إلى علوم الاجتماع، أو نظرت إلى العمران باعتبار أن غايته تحقيق أحكام ومقاصد الشرع، من أجل بناء مجتمع أخلاقي، وأن قِوام هذا المجتمع هو تزكية الأنفس، فأبوحامد الغزالي على سبيل المثال يرى أن: «الدين أصل والسلطان حارس، فما لا أصل له فهو مهدوم، وما لا حارس له فهو ضائع»، وربط بين الإمامة والولاية من جهة، والأخلاق من جهة أخرى، فالأخلاق أساس العمران والتمدن.

المدرسة الثالثة: هي التي نظرت إلى العمران في إيقاعه المؤسسي والإداري، و«كيف» ندير هذا العمران، أي سياسات القوة والسلطة، فتحدث «الماوردي» عن الأحكام السلطانية، وبسط وفصل في كيفية إدارة الجوانب المختلفة في الحكم، وبنية الدولة الإسلامية، أي نظر إلى العمران من جهة طرق إدارته.

المدرسة الرابعة: هي المدرسة «الفقهية»، والتي قد يظن البعض أنها انشغلت بتفاصيل تنزيل الأحكام، والحقيقة أنها انشغلت أساسا بمسألة العلاقة بين العقل والنقل، وإصلاح الدنيا بالعقل والوحي، ولدينا الرسالة الصغيرة التي كتبها ابن رشد «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، ثم كتب أيضا ابن تيمية نصا طويلا نفيسا في «درء تعارض العقل والنقل» وكيف يقترب العقل من النص، وما هي القواعد المختلفة للفهم، واختلاف المفاهيم والتحرز فيها لأنها مساحة الدلالة، وكيف يمكن المقارنة والمقايسة بين المفاهيم في علوم الإنسان وعلوم الشرع.

ثم تطورت بالتوازي المدرسة الخامسة وهي المدرسة «الاجتماعية/التاريخية» التي كان أحد أبرز رموزها ابن خلدون، عندما تحدث عن التمدن والتأنسن والتوحش، والبداوة والحضارة، والعصبية، وتحدث عن العمران في مساراته ومدارجه وصيغه وتحولاته، والفرق بين الخلافة والملك، وفصل في الجوانب المختلفة لشروط الاجتماع وأبعاده المعمارية، والاقتصادية، والتنظيمية، والثقافية في صيرورتها.

من التوحيد والتكامل إلى النسبية والمادية

تجاوزا لهذا التراث -ليس الإسلامي فحسب، بل كافة الأنساق الدينية والفلسفية المقارنة في الحضارات القديمة- كان العقل التنويري، ثم الحداثي في أوروبا، ثم في مرحلة ضعف المجتمعات الإسلامية وبدايات الاستلاب والسيطرة السياسية والفكرية والجغرافية، يسعى لتقديم رؤية تُعلي نظر العقل في الشأن والحالة الإنسانية، وتعمل على أن تحرره من الغيب والوحي والتاريخ؛ بإحياء الفلسفات التي تأسست على الوثنية والأساطير، ليهيمن هذا النسق في النهاية ويغلب كل محاولات التوفيق والتلفيق مع النسق الديني، فيتم تهميش الغيب ثم تسفيهه في النهاية، وانصرف منهج النظر إلى العقل والواقع لخدمة مصالح الاقتصاد والجغرافيا وتطويع المفاهيم لهذه الغاية.

إن هذا التحول قد شهد البدايات الأولى للحديث عن المجتمع المدني كمجال وقطاع تحت مظلة الدولة القومية القُطرية الناشئة... من هنا فإن صعود الحديث عن المجتمع المدني عبر القرون الثلاثة الماضية لم يقابله حفاوة مماثلة بمفهوم التمدن ذاته وقواعده ومقوماته في ظل تلك العلاقة الحداثية بين المجتمع والدولة، بل كان الاهتمام جُله منصبا على مفهوم المواطنة، حيث للدولة اليد العليا ولقوتها اليد الطولى.

وقد بدأت العلوم الإنسانية كما نعرفها اليوم في تقسيماتها الكبرى تتطور في ظل هذه الخلفية، تلك العلوم التي نشأت في إطار هذا الواقع الذي يحتفي بالعقل وكشوف العلوم الطبيعية، ففصلت نفسها عن المنظومة الغيبية والأخلاقية والروحية، وسادت النظرة للحال دون تحسب للمآل في العلوم الطبيعية (بما أدى لاستنزاف الموارد وخلل التوازن البيئي)، ولم تملك العلوم الإنسانية المكانة ولا الرؤية التي تؤهلها لتحجيم النظرة المادية للحياة وتدارك آثارها.

سؤال التمدن.. ومنطق الاجتماع وغاياته

ماهي غايات الاجتماع الإنساني؟

سنجد أن هذه الغايات إذا أردنا أن نختصرها تتبلور فيما رآه الفقيه من مقاصد الشريعة، وسنجد أن غاية الاجتماع الإنساني حتى في المجتمعات التي لم تتبن النظر الشرعي، ولم تتبن رؤية الوحي للإنسان ولدوره في هذا الكون، تسعى لتلمس نفس المقاصد التي طورها الفقهاء:

فـ«حفظ الدين» هو حفظ المنظومة أو الميزان الذي يقوم عليها أي مجتمع، فأي مجتمع يريد أن يحفظ لنفسه منظومته القيمية والأخلاقية حتى وإن كانت منظومة من صنع الإنسان أو من صنع عقل الإنسان منفكة عن الوحي والرسالات والنبوات، فالدين هنا بالمعنى الذي فسره القرآن ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي التصور والمسلك. فهناك لكل جماعة دين، لا يوجد جماعة لا يوجد لديها منظومة أفكار وتصور للكون والحياة، حتى وإن كان

إلحاديا ووثنيا أو غيره، والأصل أن ننظر في هذه المنظومات لنفهم هذه الأنساق ورؤيتها للاجتماع البشري.

و«حفظ النفس» كان مسألة أساسية في أي اجتماع بشري، حتى في نظرية الخيار الرشيد التي تأسس عليها فهم الاجتماع بقياسه على حسابات الاقتصاد، وقياس المواطن في دائرة المجتمع والدولة على المستهلك في دائرة الاقتصاد والمنفعة المادية، وكانت نظرية العقد الاجتماعي قد انبنت على فكرة حفظ النفس، وعليها بنت نشأة الدولة وأسست الاجتماع، فالعقد الاجتماعي الذي يؤسس للتمدن وللعمران قائم على الاضطرار وقائم على هيمنة السلطة، لأنه بدون ذلك وبدون هذا الالتزام من قبلهم يتفكك المجتمع مرة أخرى ويتشظى إلى ذرات. لكن النفس هنا هي محض الحياة دون منح النفس تعريف يربطها بالأزل والأبد.

و«حفظ العقل» كان من المقاصد.. فالفنون والآداب، والتفلسف والتفكير بدا احتفاء بالعقل، لكنه كان عقلا فرديا يدور في مدارات الطبيعي، ولا يتجاوز سقف المادي.

«حفظ المال» كان أيضا حاضرا في الغايات الأساسية لنمو المدن التجارية ثم الصناعية، بل تعداه لتحصيل ثروات الأمم الأخرى بالاستيطان والاحتلال العسكري، وهو مثال على انفكاك حفظ المال من أخلاقية المصدر وخيرية الغاية. ولدينا نماذج مختلفة للمدن والحواضر عبر التاريخ الإنساني كان لكل منها منطق وتأسس على كل منها صيغة للاجتماع، بعضها ظالم لنفسه.. ولغيره، وبعضها سابق بالخيرات.

ويظل السؤال: هل يمكننا اصطفاء مفهوم للتمدن يغدو الأكثر إنسانية، ويصير مقياسا نموذجيا بحيث تقاس عليه مستويات التمدن، مثالية ثم نقصانا ثم هبوطا للتوحش والبهيمية والطينية؟

خرائط المعنى.. والذات.. والوجود

أحسب أن هناك عدة عناصر يمكن أن تساعدنا في بناء المفهوم ورسم خرائط المعنى، وأن هذا بقدر ما يتطلب مساهمة العلوم الإنسانية بقدر ما سيؤدي هو ذاته -كمراجعة وإعادة بناء العديد من المفاهيم- إلى تطوير العلوم الإنسانية خلال هذا المسعى.

أول هذه العناصر هو «عنصر الميزان». فما هو الميزان الذي به نقيس؟ وهل نجح العقل وحده خلال القرون الثلاثة الماضية في ضبط الميزان وتحقيق العدل والسعادة كما تطلعت الفلسفة في تاريخها الطويل، بعيدا عن ميزان الغيب والنبوة والوحي؟

هناك محاولات حثيثة منذ فترة طويلة للحديث عن مراجعة العلوم الاجتماعية و«أسلمة المعرفة»، سواء بالبينية وعبور الفجوة بين العلوم المختلفة لتتكامل، أو بوَصل ما انقطع بين النظر العقلي والنظر الشرعي. وتتوازى معها محاولات في العالم المسيحي ودوائر الحضارات القديمة في الشرق، يقودها رجال دين وتيارات محافظة وروحية تسير على سبيل مشابه.

والغاية هي النظر للإنسان من وجهة متكاملة ترد له تكامله واتساقه، لكن البينية بين العلوم من جهة لا تكفي دون تغيير الخريطة المعرفية ذاتها، ووصل ما انقطع يحتاج بناء عقلية تجمع بين معارف شتى، ولديها القدرة على الاجتهاد والتوليد، وهذه نادرة في المؤسسات التعليمية التي انبنت على التقسيم والتفتيت والاحتفاء بالتخصص، والعزوف عن الموسوعية وهجرها، فضلا عن مسألة ثالثة هي الربط بين ذلك.. حصاد تلك التحولات والسياق السائد في الدوائر العلمية الدولية كي تتحقق غاية «الرحمة للعالمين»، ولا يكون ما ينتجه العقل المسلم معزولا ومهمشا أو عاكفا على ذاته مقصرا في رسالته.

ويبقى سؤال علاقة العلم بالأخلاق، ثم علاقة العلم بالواقع والوظيفة الكفاحية للعلم للتهيئة للعمران والتمدن في الواقع وليس في التصور- إنشاء أو استدراكا أو نماء وترقية- هو السؤال الفارق.

العنصر الثاني: هو عنصر أو تصور الإنسان.

تصورات الإنسان في كثيرها تصورات مركبة، الإنسان في تصوره الفلسفي/ الإنسان وتجليات المكان، وعلاقات الأبدان في الحيز، فالتمدن تصوراته لا تنفك عن المساحة والحيز بين مدينة.. والمعمورة وكوكبة العولمة. العلوم الاجتماعية هنا رافد مهم لفهم العقل الشرعي للمستجدات. و«المشكاة المقاصدية» أسميها في غاية الأهمية في هذا السياق.

البعد الثالث: إذا أردنا أن نعيد خريطة العلوم الاجتماعية ونمزج ليس خلطا للفقه بالاجتماع، وإنما النظر والفهم بمعنى الحكمة بمعنى النظر هو: «بُعد المكان» ذاته، التمدن في حد ذاته أصبح مختلفا عن تصور ابن خلدون، مثلا عندما نتحدث عن صيغ التمدن الآن نتحدث عن مدن لا يمكن وصفها بأنها مدن فاضلة، مدن اختلط فيها الفاضل بغير ذلك، مدن مساحتها هي مساحات أسواق، أو بنيت بالأساس في المرحلة الرأسمالية في أوروبا، والتي نقلنا عنها تخطيط المدن بشكل يعتمد على تسهيل حركة التجارة، بأكثر مما يعتمد على تواصل البشر في داخل المدينة، ومن المهم هنا أن نفهم نظر فقهاء الإسلام إلى العمران من الناحية المساحية، وتحولاتها المعقدة في مرحلة العولمة، واختصار المسافات وتعدد الجنسيات، وتقاطع الأسواق، ناهيك عن «اللامكان» في العالم الافتراضي ومنتجات تكنولوجيا الاتصالات.

لذلك من المهم فهم كيف استوعب الفقيه مسألة المساحة والمكان والأرض والملكية والحقوق المشتركة بين الناس، وموازنة المصالح العامة والخاصة، لكن الآن لدينا علم كامل هو علم

اجتماع المدن الذي يبحث في الأمكنة التي يتحرك فيها الناس، والتي بدأت في إثارة مشكلات حقيقية في إدارتها وفي خلق المنظومة الأخلاقية والقيمية التي كان يمكن أن تتنزل عليها كثير من الأحكام الشرعية، فالمدينة لم تعد تقترن بالتمدن وفضائله، بل بالفردية وتفكك الأبنية المجتمعية في أحيان، وفي أشياء كثيرة، فهذه مسائل أيضا تحتاج أن ينظر فيها الفقيه بعقلية الشرع والمقاصد، وأن ينظر إليها باحث العلوم الاجتماعية ويشترك في النظر في كيف ننظم الأمكنة والملكية والمساحات والخصوصيات، وإن لم يعد هذا ممكنا نتيجة للعشوائية، وغياب التخطيط العمراني، والوعي المعماري على المساحات القائمة الآن.. ماذا نفعل وكيف نتعامل مع هذه المستجدات؟

العنصر الرابع: هو «عنصر الزمان» سواء كانت امتداداته كيف ننقل الفهم والحكمة التي نظر بها الفقيه أو عالم الاجتماع أو الفيلسوف المسلم إلى واقعنا باختلاف الأزمنة وباختلاف طبيعة الوقت والتنظيم، وعلى خريطة اليوم، وكذا يعني مفهوم الزمن والوقت وما يحويه من علاقات إنتاج وملكية ورأسمالية وعلاقات إنسانية وأنماط استهلاكية، كيف ننظر إلى المآل وكيف يؤخذ في الاعتبار وضع السياسات العامة وفي التعامل مع حقوق الناس وغيرها؟ هذه مسألة غائبة رغم أن تقاطع الأزمنة في الوعي والمرجعية التاريخية في اشتباكها مع الواقع وصدامها معه، وما يحويه التاريخ من أنماط تفاعلات يعاد إنتاجها في أزمنة أخرى من أبرز المشكلات التي نواجهها في المجتمع وفي السياسة اليوم..

العنصر الخامس: هو بُعد «العمران»، كما ذكرت في مسألة المكان والمساحة، ولكن بشكل أكثر تركيبا، بمعنى بنيان العلاقات والمؤسسات التي يتم من خلالها إدارة هذه العلاقات بين الطبقات المختلفة، إدارة المحليات، وتقسيم الموارد، وملكية الأرض، والثروة، وإدارة القوة في مسألة التعامل الأخلاقي بين الدولة والقوى الاجتماعية، ودرجة وعي النخب بالسنن وانعكاس ذلك على توطيد أو تآكل رأس المال الاجتماعي والأخلاقي والفضائل المدنية.

العنصر السادس والأخير: هو «بُعد الأكوان»، نحن أهملنا كثيرا الربط ما بين مقاصد الشريعة ومقاصد العمران والنظر في الأكوان، ونحن مسؤولون عن هذه الأكوان المحيطة بنا، والأمم أمثالنا التي ذكرها القرآن.. حيث يلاحظ أننا لا نعبأ بها أبدا ولا نهتم بها إطلاقا، رغم أنه تاريخيا انتشر الوقف على الحيوانات والطيور الموجودة بالمدينة الإسلامية، واعتبر أحد مؤشرات وجود الأمن في تلك المدينة، ومستوى التمدن الإسلامي.. فضلا عن العوالم الإنسانية التي لا يصلها نموذجنا التوحيدي، ولا تعرف شيئا عنا (أميركا اللاتينية على سبيل المثال).

التمدن من حيث هو منظومة كرامة إنسانية

في سورة الشورى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾(الشورى:٣٨) فوجدت أن الشورى قبل الإنفاق وبعد الصلاة، يعني ترتيبها بين الصلاة والنفقة، أي الصلاة وإنفاق المال، تم تسكينها في المرتبة الثانية في الترتيب بعد الاستجابة لله تعالى، وبعد الصلاة، وقبل إنفاق المال أو الاستخلاف في القول، فوجدتها مسكنة بشكل يمزجها مزجا بما قبلها وما بعدها، هذا أمر ربما يدفع إلى التفكير في هل الوسائل والوسائط المختلفة يجب أن تأخذ في الاعتبار التفاصيل اليومية؟ أن تسكن في التفاصيل اليومية غاية من غايات التمدن الإسلامي، وهي الكرامة والشورى وغيرها، بدون أن نضيف جديدا إلى المقاصد، وإنما نعتبرها تفصيلا للمقاصد الشرعية، وكان أستاذنا الدكتور سيف الدين عبدالفتاح قد نظر في المقاصد فقال مرة: إن هذه المقاصد الشرعية بكل ضوابطها وتأسسها على الأحكام والنصوص هي في الحقيقة لها ثلاثة مستويات، وعلى الفقيه أن يجتهد في كيفية تحقيق هذه المستويات عبر العلوم الاجتماعية التي تعينه على البحث والنظر وإدراك حالة الناس، وهي أن يكون حفظ المقاصد على مستويات: حفظ البقاء وحفظ النماء وحفظ الارتقاء، كيف توضع السياسات العامة لتحفظ النفس، لكنها تنمي هذه النفس لتكون نفسا مطمئنة من خلال كل السياقات التي تحدثنا عنها في المكان والزمان، وغيرها لازم فقط أن تحفظ النفس بناء على أن تحفظ الحياة محض الحياة، وإنما ما هي النفس الإنسانية ومستوياتها ومدارجها التي هي العلم الاجتماعي أوعلم التمدن أو العلم المدني كما أسماه الفارابي الذي يجمع بين الأخلاق والسياسة والاجتماع، أي أن ينمي هذه النفس ثم يرتقي بهذه النفس إلى مستوياتها الأعلى.

حفظ الحياة وحفظ المال ليس فقط حفظ البقاء، وإنما سعي في مدارات الخيرية، ومن دوائره التواصل مع الأمم المختلفة، لأنه من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا...، والملكية استخلاف لا إتلاف واستنزاف للطبيعة- وهكذا.

يبقى في النهاية الإشارة إلى أن التمدن الاسلامي بمعنى الفضائل المدنية بدأ قبل تأسيس «المدينة»، فالفضائل تدور مع الأفراد لا مع السلطة التي وظيفتها الرعاية والأمن، واليوم لدينا مدن حديثة بلا تمدن ولا فضائل، وربما يكون السؤال الذي يقفز لذهن الباحث هو: هل لو رأى ابن خلدون انفكاك المدينة عن التمدن كيف كان سيصوغ نظريته في العمران، وموقفه من مراحل الحضارة صعودا.. وهبوطا؟

ويبقى الملف مفتوحا..

والله أعلم



تطبع مؤلفاته وتنشر تراثه وتعرف به على أوسع نطاق

مؤسسة علال الفاسي منارة المغرب الثقافية

كتب : رئيس التحرير
تصوير : هدايت الله نثار

مؤسسة علال الفاسي في المغرب منارة ثقافية تحمل اسم الأستاذ العلامة محمد علال الفاسي (١٩١٠-١٩٧٤م)، أسست بناء على الوثيقة العدلية التي أمر بها ملك المغرب الراحل الحسن الثاني، بتاريخ ١٧ أبريل ١٩٧٩م، والتي قرر بموجبها تحويل منزل سكنى علال الفاسي إلى مؤسسة ثقافية، تخليدا لاسمه، وتقديرا لعلمه وتفانيه في خدمة وطنه.

«الوعي الإسلامي» زارت المؤسسة في العاصمة الرباط مؤخرًا، بصحبة مدير معهد البحوث العربية د.فيصل الحفيان، والتقت بحفيد علال الفاسي الباحث هاني الفاسي، ومدير المؤسسة مختار باقه.

المؤسسة تساهم في جمع الإنتاج الأدبي والقانوني والسياسي والفكري للمرحوم علال الفاسي، من أجل نشره وتعميم الفائدة منه، ووضع المستندات والوثائق التي تحتوي عليها خزانة المرحوم والمكتبات الملحقة بها، رهن إشارة الباحثين والمثقفين والمهتمين.

وتنظم العديد من المحاضرات والندوات الفكرية، والموائد المستديرة حول موضوعات مختلفة، ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية، تشغل الرأي العام، المحلي والعالمي، وذلك إسهاما



منها في الإشعاع الثقافي، وإبرازا لأهم الأفكار والقضايا الكبرى التي كانت تستأثر باهتمام الزعيم الراحل، وتأخذ حيزا كبيرا من كتاباته وكفاحه اليومي.

وتعمل المؤسسة، إلى جانب ذلك، على طبع مؤلفات علال الفاسي، ونشر تراثه، والتعريف به على أوسع نطاق، وكذلك طبع المحاضرات والندوات التي تقوم بها، بقصد تعميم الفائدة المرجوة منها.

وخصصت جائزة علال الفاسي للباحثين والطلبة منذ العام ١٩٩٦م، وهي تعقد كل سنتين، وتمنح لأجود البحوث في موضوع فكري تختاره لجنة علمية تشرف على هذه الجائزة.



رئيس التحرير يهدي مدير المؤسسة أحد أعداد المجلة

خزانة المؤسسة

تشتمل المؤسسة على خزانة كبرى، هي الخزانة الخاصة بالمرحوم علال الفاسي، وقد أضيفت إليها مكتبات أخرى أهداها أصحابها إلى المؤسسة.

فخزانة الفاسي تعتبر من أهم خزائن الكتب في المغرب، إذ تحتوي -فضلا عن مؤلفاته الشخصية وإنتاجه العلمي والأدبي المتنوع- على مجموعة كبرى من كتب التراث الإسلامي والعربي، والمغربي على الخصوص. وكان بعض محتويات هذه الخزانة العلمية قد آل إليه من خزانة والده العلامة المرحوم عبدالواحد الفاسي، أحد علماء القرويين المشهورين.



ومحتويات هذه المكتبة تنقسم إلى:

مؤلفات علال الفاسي، وبحوثه، ومقالاته، ورسائله وإنتاجه، الذي طُبِع جزء كبير منه في كتب، ولا يزال بعضه مخطوطا في دفاتره وكناشاته وأوراقه الخاصة، وبعض آخر مبثوثا في ثنايا الصحف والمجلات المغربية وغيرها.

قسم المخطوطات: ويحتوي على أكثر من ٨٠٠ مجلد، منها ٢٤٢ مجلدا يحتوي كل منها على أكثر من مؤلف. وبذلك يصل عدد المؤلفات المخطوطة في هذه المكتبة إلى أكثر من ٢٤٠٠ عنوان. ويوجد لهذه المخطوطات فهرس مطبوع في أربعة مجلدات، أعده المرحوم عبدالرحمن بن العربي الحريشي، المدير السابق للمؤسسة.

المطبوعات الحجرية: وهي ذات قيمة خاصة ترقى إلى مستوى المخطوطات، لأهميتها وندرتها، ويبلغ عددها في هذه الخزانة ١٧١ كتابا.

المطبوعات العادية: أمّا بقية المطبوعات فيفوق عددها سبعة آلاف كتاب، بما فيها ٥٢ من المصاحف الشريفة في مختلف طبعاتها.

المجلات والدوريات: ويبلغ عددها في المؤسسة أكثر من ٢٠٠ مجلة وصحيفة.

الكتب الأجنبية: وهي الكتب والمجلات المكتوبة بغير العربية من الفارسية والفرنسية والإنجليزية وغيرها. ويبلغ عددها زهاء ألفي مجلد.

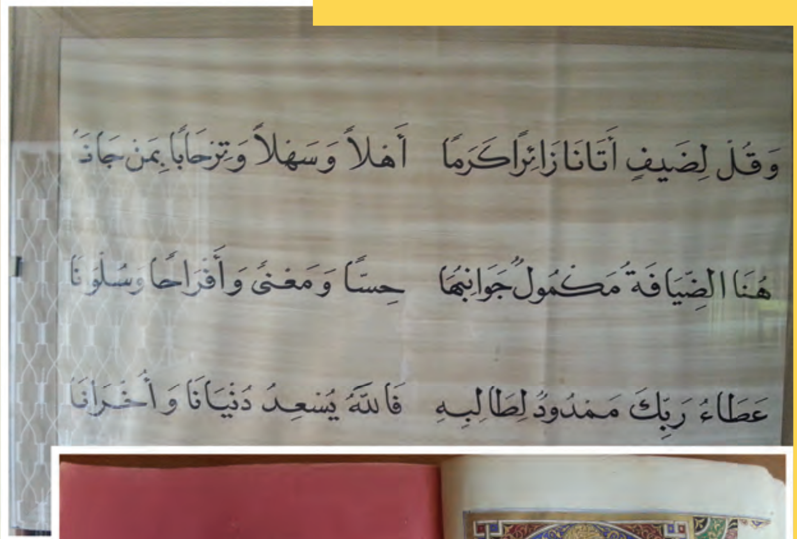
الوثائق: تشتمل خزانة علال الفاسي على كم هائل من الوثائق المتعلقة بتاريخ الحركة الوطنية المغربية والمغاربية، بما فيها الرسائل المتبادلة بين صاحب الخزانة وعدد من الشخصيات المغربية والعربية والإسلامية والأجنبية.

مجموعة من الصور الفوتوغرافية: للزعيم المرحوم علال الفاسي، وشخصيات أخرى وطنية وعربية ودولية، لها قيمة خاصة في تاريخ المغرب الحديث.

أهم الأنشطة

قامت مؤسسة علال الفاسي بمجموعة من الأنشطة، في شكل ندوات ومحاضرات وأيام دراسية، أهمها:

- ندوة: «علال الفاسي ومعركة الديموقراطية»، بمشاركة نخبة من الأساتذة والباحثين.
- حفل توزيع الجوائز على الفائزين بجائزة علال الفاسي لسنة ١٩٩٧م حول موضوع: «المنظور الإسلامي





في الفكر الإصلاحي لبناء المجتمع الجديد عند علال الفاسي».

– محاضرة ألقاها الدكتور محمد الكتاني، مستشار صاحب الجلالة وعضو أكاديمية المملكة، في موضوع: «مشروع النهضة المغربية انطلاقا من النقد الذاتي».

– محاضرة ألقاها الدكتور عبدالهادي التازي في موضوع: «الصدى الدولي لعلال الفاسي».

– محاضرة ألقاها الدكتور عباس الجراري، مستشار صاحب الجلالة وعضو أكاديمية المملكة، في موضوع: «حقيقة العولمة والموقف منها».

– ندوة لمناقشة كتاب: «التيارات الإيديولوجية في العالم العربي» لعلال الفاسي، بمشاركة نخبة من الأساتذة والباحثين.

إذن، مؤسسة علال الفاسي أحد المقاصد الثقافية المهمة في المغرب لطلبة العلم والباحثين للاطلاع على الكنوز العلمية والمعرفية والتراثية الموجودة فيها.

نبذة عن الفاسي

الأستاذ علال الفاسي من عائلة عربية، هاجرت من الأندلس تحت اسم آل الجد، وسكنت فاس، فعرفت بعائلة الفاسي، أو الفاسي الفهري.

عرفت العائلة الفاسية بمساهمتها في ميادين المعرفة، فكان منها علماء، ومؤلفون، وقضاة كثيرون.

اشتغل والده عبدالواحد بالتدريس في القرويين، وكان قاضيا، ومفتيا لعدة سنوات، وموظفا في المجلس العلمي بكلية القرويين، وتوفي حينما كان علال الفاسي في المنفى سنة ١٩٤١م.

ولد علال الفاسي سنة ١٩١٠م في فاس، ودرس في الكتاب القرآني، ثم في المدرسة العربية الحرة الأولى في فاس، واستمر في دراسته في القرويين حتى أحرز شهادة العالمية سنة ١٩٣٢م.

بدأ حياته العلمية بالتدريس، قبل الحصول على العالمية كأستاذ في المدرسة الناصرية، التي كان من منشئيها، ثم في القرويين بعد ذلك.

يعتبر علال الفاسي مفكرا مذهبيا كبيرا، تجلت أفكاره السياسية والاقتصادية والفقهية في مختلف كتبه. وقد كتب عنها وحللها عدد من مؤرخي الفكر الإسلامي والعربي الحديث، باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية.

شرح أفكاره المذهبية والسياسية والاجتماعية في التقارير التي تقدم بها لمؤتمرات حزب الاستقلال، وهي التي صدرت في الكتب الأربعة:

١- عقيدة وجهاد

٢- منهج الاستقلالية

٣- معركة اليوم والغد

٤-دائما مع الشعب

يعتبر كتابه: «النقد الذاتي» من أهم الكتب المذهبية، فقد كتبه ما بين سنتي ١٩٤٩ و١٩٥٠م، من القرن الماضي، وحدد فيه المنهج الفكري لبناء المغرب المستقل، متخذا من الحرية أساسا لكل تفكير أو ممارسة. وفي هذا الكتاب يعتبر الفاسي التحرر أساسا لكل تفكير أو ممارسة، ويعتبر العقل حكما مطلقا لكل عمل فكري، ويعتبر حرية التفكير حقا عقليا وطبيعيا.

توفي في بوخارست عاصمة رومانيا يوم الأثنين ٢٠ربيع الآخر ١٣٩٤هـ - ١٣مايو ١٩٧٤م.

صدر حديثا:

«الوقف الإسلامي.. فنون إدارته والدعوة إليه»

صدر عن إدارة الإعلام والتنمية الوقفية في الأمانة العامة للأوقاف في الكويت، كتاب من القطع المتوسط، بعنوان: «الوقف الإسلامي فنون إدارته والدعوة إليه». ألفه وأعده د.عيسى صوفان القدومي -مستشار التوعية الوقفية في مكتب الأمين العام للأمانة العامة للأوقاف- ليكون دليلا عمليا ومنهجا تطبيقيا لكل متخصص في العمل الوقفي.

وقد صيغ الكتاب بطابع تثقيفي وتدريبي شيق، فقد جمع بين دفتيه ٢٣٥ صفحة ملونة ومصممة تصميما يجذب القارئ ويمتع المتصفح.

حوى الكتاب مقدمة للأمين العام للأمانة العامة للأوقاف د.عبدالمحسن الجار الله الخرافي، الذي حرص كل الحرص على أن يرى هذا الإصدار النور؛ ليخدم الوقف الإسلامي ومؤسساته والعاملين فيها، والداعين لإعادة الوقف إلى دوره الحضاري والمجتمعي.

وفي الفصل الأول من فصوله الستة، حرص المؤلف على تعريف المفاهيم والمبادئ الأساسية للوقف، فقد عرّف بالوقف، وأنواعه، ومشروعيته، وحكمه، وأركانه، ثم فصّل المؤلف في مقاصد الوقف، وسماته، وخصائصه.

أمّا الفصل الثاني فكان بعنوان: «فنون إدارة الوقف»، وحوى معنى ومفهوم إدارة الوقف، وكيف أنه يجمع بين العلم والفن، ثم جمع الكاتب الخطوط الرئيسية لإيجاد مؤسسة وقفية ناجحة، وذكر أسباب تراجع العمل الوقفي، وأوضح كيفية اختيار العاملين في المؤسسات الوقفية وتطويرهم، وكذلك أسلوب التدريب للعاملين والمتطوعين في المؤسسات الوقفية. وحدد المؤلف استراتيجيات إدارة الأوقاف، وطرق تحديث المؤسسة الوقفية. وختم الفصل بذكر مقومات التميز في العمل الوقفي.

والفصل الثالث جاء بعنوان: «أسس ومهارات نشر ثقافة الوقف»، وابتدأه بمفهوم نشر ثقافة الوقف، وأهدافنا في نشر هذه الثقافة، ثم ذكر المؤلف مرتكزات نشر ثقافة الوقف والمتطلبات الأساسية لنشرها، ومما ميز الفصل الثالث أن المؤلف جمع «الأصول العشرة في منهج نشر ثقافة الوقف». وقد حدد الكاتب الأخطاء الشائعة في نشر ثقافة الوقف، ومعوقات نشرها، وفي خاتمة الفصل جمع المؤلف قائمة بالبشائر النبوية للأعمال الوقفية والخيرية.

وتحدث الكاتب في الفصل الرابع عن «الدعوة إلى الوقف بصيغ عصرية»، وابتدأ الفصل بتعريف الإعلام، وأهداف الإعلام الوقفي، وكيف نوظف الإعلام لنشر ثقافة الوقف؟ ومضمون الرسالة الإعلامية الوقفية، ومتطلبات الدعوة إلى الوقف بطرق عصرية، والقدرات المطلوبة للمختصين في الرسالة الإعلامية للوقف.

وجاء الفصل الخامس بعنوان: «أساليب المخاطبة والإقناع وتغيير المفاهيم»، وحوى التعريف بثقافة الخطاب الوقفي، وأسرار الحديث الرائع في الوقف، وأساليب المخاطبة والإقناع، وترتيب الحديث للخطاب الوقفي، ومواضيع أخرى متنوعة تخدم أساليب الإقناع وتغيير المفاهيم.

أمّا الفصل السادس فقد اختاره المؤلف ليجمع فيه التدريبات والتمارين العملية والنماذج التطبيقية لتنمية المهارات ورفع القدرات. وجاءت التدريبات متنوعة ومشوقة، وتخدم فكرة الكتاب وعنوانه.

ولا شك أن الكتاب يهدف -كما ذكر مؤلفه- إلى إحياء سنة الوقف، وفق ثوابت الشرع ومعطيات العصر ومتطلبات المستقبل. وحوى الكتاب أحكاما وفوائد جمة وروائع للواقفين من المتصدقين، وللقائمين على المؤسسات والمشاريع الوقفية، ونظّار الوقف والهيئات والمؤسسات، في رعاية الأصول الوقفية وتنميتها.

وقد حرص المؤلف على ربط مادة الكتاب بالدليل الشرعي من الكتاب والسنة، بوصفهما الأصل في كل خير، ثم ربطها بالواقع المعاصر مع ضرب الأمثلة للتوضيح. وامتاز الكتاب كذلك بالاختصار؛ لتقريب المعنى وتسهيل الحصول على المعلومة، بهدف الارتقاء بدور المؤسسات الوقفية ليعود دورها الريادي كما كانت عليه في العصور الإسلامية الأولى، وما كان لها من دور في تنمية المجتمع ونهضته والتقدم به نحو مدارج الرفعة والريادة.

وما يميز الكتاب تخصص كاتبه، الذي له مسيرة عطاء في العمل الخيري والوقفي امتدت إلى ما يزيد على ٢٦ سنة، وكذلك حرص المؤلف على مراعاة النظريات الحديثة في الإدارة وعلى الجوانب الاجتماعية والإنسانية التي لها علاقة مباشرة ومؤثرة في العمل الوقفي.



مَذاهِبُ العُلَماء في طرق التخلص من تعارض الأدلة

د. صالح سالم النهام
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

لا شك أن التعارض الحقيقي بين الأدلة الشرعية لا وجود له، وذلك لعدم وجود دليلين صحيحين يجمع المسلمون على تعارضهما، وإذا وجد حديثان يوهم ظاهرهما التنافي والتخالف؛ فإن مرد ذلك هو قصور في نظر المجتهد.. وفي هذا الصدد يقول الشافعي كما نقل عنه الصيرفي: «لا يصح عن النبي ﷺ حديثان صحيحان متضادان، ينفي أحدهما ما يثبته الآخر من غير جهة الخصوص والعموم، والإجمال والتفسير، إلا على وجه النسخ، وإن لم يجده».. وقد جاء اختيار مسلك دفع التعارض بين الأدلة لأشهر ثلاثة مذاهب؛ وبيان ذلك فيما يلي:

أولا: مذهب جمهور الأصوليين من المالكية، والشافعية، والحنابلة، في طرق التخلص من التعارض(١):

١- الجمع والتوفيق: والجمع والتوفيق بينهما فرق دقيق، وهو أن الجمع وسيلة مؤدية إلى التوفيق، والذي هو نتيجة لهذا الجمع، مع أنهما يوردان معا على أنهما مسلك واحد في دفع التعارض.. والجمع يكون بين الدليلين المتعارضين ما أمكن، وذلك بحمل كل واحد منهما على وجه دون الوجه الآخر الذي حمل عليه، لأنه أولى من إعمال أحدهما وإهمال الآخر.

وللعمل بالدليلين ثلاث حالات:

الحالة الأولى: فهي قبول حكم كل من الدليلين المتعارضين للتبعيض، وذلك بأن يثبت بعضه دون بعض.

ومن أمثلته: دارٌ بين اثنين تداعياها وهي في يدهما، فإنها تقسم بينهما نصفين، لأن يد كل منهما دليل ظاهر على ثبوت الملك له، وثبوت الملك قابل للتبعيض، ونحكم لكل واحد ببعض الملك، جمعا بين الدليلين من وجه، ومنها إذا تعارضت البينتان في الملك على قول القسمة.

الحالة الثانية: أن يتعدد حكم كل من الدليلين المتعارضين.

ومعناه: أن يقتضي كل واحد من الدليلين أحكاما متعددة، فيحمل واحد منهما على بعض تلك الأحكام، ويحمل الثاني على البعض الآخر، ومثاله: قول رسول الله ﷺ: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» (أخرجه الدارقطني، برقم:(٨٠)، والحاكم في المستدرك، برقم:(٨٩٨))، فإنه يعارض تقريره فيمن صلى في غير المسجد مع كونه جارا له. فقال: «إذا صليتما في رحالكما ثم أتيتما مسجد جماعة فصليا معهم، فإنها لكما نافلة» (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، برقم: (٢١٩)).

فهذان الدليلان يشتملان على أحكام متعددة بحسب مقتضى كل واحد منهما، فإن الحديث الأول يحتمل نفي الصحة ونفي الكمال، ونفي الفضيلة، وكذا التقرير في الحديث الثاني، يحتمل ذلك أيضا، فحمل الخبر على نفي الكمال، ويحمل التقرير على الصحة.

الحالة الثالثة: أن يكون كل من الدليلين عاما أو مطلقا:

ويقصد بذلك: أن يكون كل من الدليلين مثبتا لحكم في الموارد المتعددة، فيوزع الدليلان عليهما، ويحمل كل منهما على بعض تلك الموارد، ومثاله: قول رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر» (أخرجه البخاري، برقم:(٥٧٠٧)، ومسلم، برقم:(٢٢٢٠))، فإنه معارض بقول رسول الله ﷺ: «لا يوردن ممرض على مصح» (أخرجه البخاري، برقم:(٥٧٧١)، ومسلم، برقم: (٢٢٢١)).

فالحديث الأول فيه نفي صريح لوقوع العدوى، وهي انتقال المرض من المريض إلى السليم بالمخالطة والمعاشرة، والنفي جاء بصيغة التنكير فأفاد العموم. بينما جاء الحديث الثاني صريحا في إثبات العدوى عموما، وأن لها تأثيرا، ودل على هذا نهيه عن إيراد المريض على الصحيح، ولا مبرر لهذا النهي إلا خشية انتقال المرض إلى الصحيح بطريق العدوى.

قال الإمام النووي: وأما حديث: «لا يوردن ممرض على مصح»، فأرشد فيه إلى مجانبة ما يحصل الضرر عنده في العادة بفعل الله تعالى وقدره. فنفى في الحديث الأول العدوى بطبعها، ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بقدر الله تعالى وفعله، وأرشد في الثاني إلى الاحتراز مما يحصل عنده الضرر بفعل الله وإرادته

وقدره... (٢).

وممن قال بهذا الوجه في الجمع بين الأحاديث: القاضي أبو بكر بن العربي، وأبو عمرو بن الصلاح، وابن القيم، والمنذري، والبيهقي(٣).

٢- **الترجيح:** ويكون ذلك لأحد الدليلين على الآخر، إذا تعذر الجمع بينهما، وذلك بأحد وجوه الترجيح المعروفة عند أهل الاختصاص.

٣- **النسخ:** ويكون لأحد الدليلين في حال تعذر الجمع والترجيح، وذلك بعد النظر في تاريخ المتعارضين، فإن علمه كان المتأخر منهما ناسخا للمتقدم. ومثاله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴿٢٣٤﴾﴾(سورة البقرة، آية رقم:(٢٣٤)).. معارضة بقوله تعالى:﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴿٤﴾﴾(سورة الطلاق، آية رقم:(٤)).

فالآية الأولى تفيد بعمومها أن المتوفى عنها زوجها تعتد بالأشهر، سواء أكانت حاملا أم غير حامل، بينما تفيد الآية الثانية أن المرأة الحامل تنقضي عدتها بوضع الحمل، سواء أكانت متوفى عنها زوجها أم مطلقة، ومن هنا وقع التعارض بين الآيتين في الحامل التي توفي عنها زوجها.

وقد ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إن الثانية متأخرة في النزول عن الأولى»، فحكمنا بأنها ناسخة لها في هذا القدر، وأن الحامل المتوفى عنها زوجها تعتد بوضع الحمل. (انظر: نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي: (٣/٢٥٦)).

٤- التساقط: ويأتي تساقط الدليلين بعد تعذر الوجوه السابقة، فيترك العمل بهما معا، ويعمل بغيرهما من الأدلة، ثم يكون بعدها الرجوع إلى البراءة الأصلية، وكأن الواقعة لا نص فيها(٤). وهناك من قال بالتخيير بين الدليلين المتعارضين بدلا من سقوطهما، وإذا حكم بالسقوط رجع إلى البراءة الأصلية(٥).

ثانيا: مذهب جمهور الحنفية في طرق التخلص من التعارض(٦):

مما يلاحظ أن الحنفية أيضا لهم أربع مراحل لدفع التعارض - كما تقدم عند الجمهور - غير أنهم يختلفون عنهم في ترتيبها.. قال ابن الهمام في حكم التعارض: «حكمه النسخ إن علم المتأخر، وإلا فالترجيح ثم الجمع، وإلّا تركا إلى ما دونهما على الترتيب إن كان، وإلا قررت الأصول». وبمثل ذلك يقول البزدوي، والسرخسي، والنسفي.

وبيان ذلك فيما يلي:

١- **النسخ:** أي نسخ أحد الدليلين المتعارضين في حال إذا علم التاريخ بينهما، فيكون المتأخر منهما ناسخا للمتقدم، بشرط أن يكون الدليلان المتعارضان متساويين في القوة.

تقرير الأصول هو إبقاء الحكم على ما كان عليه قبل ورود الدليلين

٢- **الترجيح:** أي ترجيح أحد الدليلين على الآخر بأحد وجوه المرجحات، وذلك إذا لم يعلم التاريخ. وعللوا سبب تقديم الترجيح على الجمع، بأن تقديم الراجح على المرجوح هو المعقول.

٣- **الجمع:** ويتم الجمع بين الدليلين إذا تعذرت الوجوه السابقة، فيلجأ المجتهد إلى الجمع بين الدليلين المتعارضين وفق طرق الجمع بحسب طبيعة الدليلين، فيجمع بين العامّين بالتنويع، وبين المطلقين بالتقييد، وبين الخاصّين بالتبعيض، وبين العامّ والخاصّ بأن يخص العام به.

٤- **ترك العمل بالدليلين:** ويقصد بذلك: أن يستدل المجتهد بما دون المتعارضين رتبة فيعمل به، وذلك في الصور التالية:

الصورة الأولى: تعارض الآيتين ظاهرا والمصير إلى السنة: ومعناه: أن تتعارض آيتان في نظر المجتهد، فيترك العمل بهما ويعمل بما دونهما رتبة، وهي السنة، ولا يذهب إلى العمل بآية ثالثة، لئلا يفضي ذلك إلى الترجيح بكثرة الأدلة.

ومثال ذلك: قول الله تعالى:﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴿٢٠﴾﴾(سورة المزمل، آية رقم:(٢٠))، وقوله تعالى:﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾(سورة الأعراف، آية رقم:(٢٠٤))، فتعارضتا في قراءة المقتدي، حيث إن الأولى بعمومها توجب القراءة على المقتدي، والثانية تنفي وجوبها، لأن الإنصات لا يكون معه القراءة، فترك الدليلان من القرآن وعمل بالسنة، لقول رسول الله ﷺ: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» (أخرجه ابن ماجه، برقم:(٨٥٠)).. ولا يعارضهما قول رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» (أخرجه البخاري، برقم:(٧٥٦)، مسلم، برقم:(٣٩٤))؛ لأنه محتمل في نفسه، لجواز أن يكون المراد به نفي الفضيلة(٧).

الصورة الثانية: تعارض السنتين والمصير إلى القياس: أي يتعارض حديثان فيعمل المجتهد بما دونهما رتبة، وهو القياس، أو أقوال الصحابة، وذلك على خلاف في أيهما مقدم على الآخر.

ومثال ذلك: ما روي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «صلى صلاة الكسوف ركعتين، كل ركعة بركوع وسجدتين»(أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار: (٣٢٩/١)).. وما روته عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ: «صلى صلاة الكسوف ركعتين، بأربع ركوعات وأربع سجدات»(أخرجه مسلم، برقم: (٩٠٢)).

فتعارضا، فصار المصير إلى القياس على سائر الصلوات.

وقد قال ابن نجيم: «إن قولهم يصار إلى السنة في تعارض الآيتين وإلى القياس في تعارض السنتين، ليس ترجيحا

بالأدنى ليلزم الترجيح بالمماثل، وإنما معناه أن المتعارضين يتساقطان، ويقع العمل بالمتأخر الأدنى»(٨).

الصورة الثالثة: تعارض القياسين: وهناك حالتان للتخلص منهما:

الحالة الأولى: أن يكون بأحد القياسين وجه يترجح به على الآخر، وحينئذ يرجح القياس الذي فيه ذلك الوجه، فيعمل به ويهمل القياس الآخر(٩).

الحالة الثانية: إذا لم يكن بأي منهما وجه رجحان، فلم يسقطا، بل إن المجتهد يختار أحدهما ويعمل به مطلقا عند الجمهور. أما الحنفية: فإنه يختار أحدهما ويعمل به، لكن بعد التحري واستفتاء قلبه. حيث إنه ليس وراء القياس حجة يصار إليها، وإذا اختار أحدهما تعين بالنسبة له(١٠).

ومثال ذلك: في مسألة الثوبين، وهي أن يكون مع شخص ثوبان ولا يعرف الطاهر من النجس، وليس له ثوب آخر طاهر ولا ماء يغسلهما به؛ فإنه يتحرى. بمعنى: يتحرى قلبه إلى أحد القياسين الذي اطمأن إليه بنور الفراسة التي أعطاها الله لكل مؤمن، لقول رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله». (أخرجه الترمذي، برقم:(٣١٢٧)).

ويصلي في الذي يقع تحريه على أنه طاهر، لأن الضرورة قد تحققت ها هنا، لأنه لا يجد بُدا من ستر العورة في الصلاة، وليس للستر بد يتوصل به إلى إقامة الفرض، فجاز له التحري لهذه الضرورة(١١).. وكذلك من اشتبهت عليه القبلة ولا دليل معه أصلا، عمل بشهادة قلبه، وإذا عمل بذلك لم يجز نقضه إلا بدليل(١٢).

الصورة الرابعة: تقرير الأصول (البراءة الأصلية):

ومعنى ذلك: أن يقع تعارض بين آيتين أو حديثين ولم يكن هناك دليل أدنى، أو وُجد لكنه متعارض، وجب العمل بالأصل العام، وهو العمل على ما كان عليه حكم المسألة قبل ورود الدليلين (١٣).

ومثال ذلك: ما روي عن رسول الله ﷺ أنه: «نهى عن لحوم الحمر الأهلية في يوم خيبر، وأمر بإلقاء قدور طبخ فيها لحومها»(خرجه مسلم، برقم: (١٩٣٧)).. وروى غالب بن فهر أنه قال لرسول الله ﷺ: «لم يبق من مالي إلا حميرات. فقال: «أطعم أهلك من سمين حمرك» (أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (٣٨٠٩)).

فأباح له لحومها، فلما وقع التعارض في لحومها، لزم الاشتباه في سؤرها، لأنه متولد منها، ومن جهة أخرى روى أنس أن رسول الله ﷺ: «نهى عن الحمر الأهلية، وقال: إنها رجس»(أخرجه مسلم، برقم: (١٩٤١)).. وروى جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: أنتوضأ بماء هو فضالة الحمر؟ قال: «نعم» (أخرجه الشافعي في مسنده، برقم: (٣٣٦)).

فقد تعارض قياسان: قياسه على عرقها الذي هو طاهر، فيكون سؤرها أيضا طاهرا، وقياسه على لبنها الذي هو نجس، فيكون أيضا نجس، والجامع في كل منهما أنه مائع يخرج من بدنه لا من مخرج النجاسة، فتعارض القياسان(١٤).

فلما تعارضت الأحاديث في حل لحوم الحمر الأهلية وحرمتها المستلزمين طهارتها ونجاستها، وتعارضت أيضا أقوال الصحابة - رضوان الله عليهم والأقيسة في ذلك-: وجب تقرير الأصول، وهو إبقاء الحكم على ما كان عليه قبل ورود الدليلين، فيبقى كل من الماء والمتوضئ على أصله، فنحكم بطهارة الماء، لأن الماء كان طاهرا بيقين، فلا تزول طهارته المتيقنة بالشك فيه، والمتوضئ لما كان في الأصل محدثا بيقين بقي كذلك، ولا يزول حدثه المتيقن بهذا الماء المشكوك فيه، ولهذا قالوا: بأنه يحتاج إلى ضم التيمم إليه حتى يتأكد من رفع الحدث وصحة صلاته(١٥).

ثالثا: مذهب المحدثين في طرق التخلص من التعارض:

لقد جاءت طريقة المحدثين في التخلص من التعارض وفق الترتيب التالي: (الجمع - النسخ -الترجيح - التوقف)..إلا أنهم في التوقف قد اختلفوا في الأخذ به إلى فريقين:

الأول: وهو لبعض الحنفية، والمالكية، والشافعية حيث لم يذكروه(١٦).

والثاني: لباقي الجمهور حيث عدوه مسلكا رابعا لدفع التعارض.. وهو قول ابن الصلاح وغيره(١٧).

وبهذا قال ابن حجر العسقلاني: «فصار ظاهره التعارض واقعا على هذا الترتيب: الجمع إن أمكن، فاعتبار النسخ والمنسوخ، ثم الترجيح إن تعين، ثم التوقف عن العمل بأحد الحديثين»، وذكر السخاوي النص نفسه(١٨).

ومن الأصوليين الذين ذهبوا إلى هذه الطريقة الإمام الغزالي حيث قال: «إن عجزنا عن الجمع وعن معرفة المتقدم والمتأخر، رجحنا وأخذنا بالأقوى»(١٩).

وإلى هذا ذهب ابن قدامة، والشيرازي، وابن النجار الفتوحي، والشاطبي، والباجي المالكي(٢٠).

وبعد عرض طرق دفع التعارض عند المذاهب الثلاثة، إليك الأمور التالية:

الأمر الأول: أن أول شيء يبدأ به الحنفية هو النسخ، ويقدمونه على ما سواه. بينما جمهور الأصوليين من المالكية والشافعية والحنابلة والمحدثون فيقدمون الجمع على ما سواه، لأن إعمال الدليلين أولى من

إهمال أحدهما، والنسخ - كما هو معلوم - فيه إبطال لأحد النصين».

الأمر الثاني: لا خلاف بين مذهبي الحنفية والمحدثين في تقديم النسخ على الترجيح، بينما مذهب الجمهور تقديم الترجيح على النسخ. وكل من النسخ والترجيح إعمال لأحد الدليلين وإهمال الآخر، ففي النسخ يكون العمل في الناسخ ويترك المنسوخ، وفي الترجيح يعمل بالراجح ويترك المرجوح، إلا أن النسخ من عمل الشارع الحكيم، بينما الترجيح فمن عمل المجتهد، ولا شك في وجوب تقديم عمل الشارع، لأنه أولى من عمل المجتهد(٢١).

الأمر الثالث: إذا ثبت النسخ بنص الشارع فلا شك في تقديمه على بقية المسالك، وجمهور العلماء لما قدموا الجمع على النسخ، كان مرادهم النسخ بالطرق الاحتمالية، أو ما يثبت بالتاريخ وليس بالنص.

وفي هذا الصدد يقول اللكنوي: «والنسخ حقيقة لا يتحقق إلا بنص من الشارع بأن هذا ناسخ لهذا، أو بما يدل عليه دلالة ظاهرة، أو بما قام مقام نص الشارع إقامة ظاهرة، وفيما سوى ذلك لا يتجاسر على القول بنسخ النصوص الشرعية، بل يطلب طرق الجمع بينها بالإشارات الشرعية»(٢٢).

الأمر الرابع: إن القول بالتوقف أو التساقط حال تعذر دفع التعارض بالجمع أو النسخ أو الترجيح، اعترض عليه كثير من العلماء، وأذكر بعض أقوالهم على النحو التالي:

- لقد حكى الجرجاني قول الكرخي بالمنع، ثم قال: وهو اختلاف قول أبي حنيفة في سؤر الحمار، لما تساوى عنده الدليلان توقف عنه، وليس كما قال، لأن أبا حنيفة لم يخير في الأخذ بأيهما شاء، بل أخذ بالأحوط وجمع بين الدليلين، فقال: يتوضأ به ويتيمم، وقد حكي عنه التخيير في مسألة وجوب زكاة الخيل(٢٣) وعدمه، وهذا هو الخلاف الذي يعبرون عنه بتكافؤ الأدلة.

-وقد رجح الشيرازي عدم الجواز، وقال: لابد من ترجيح أحدهما على الآخر. وهو الذي نصره ابن السمعاني وغيره، ويقرر الشاطبي هذا المعنى فيقول: «لا يوجد دليلان تعارضا أجمع المسلمون على التوقف فيهما»(٢٤).

- وذكر اللكنوي عن التساقط: «إن إخراج نص شرعي عن العمل به، مع إمكان العمل به، غير لائق، فالأولى أن يطلب الجمع بين المتعارضين بأي وجه كان، بشرط تعمق النظر وغوص الفكر».

وهذا كقول سليم: إنه الأشبه، لأن الأحاديث آحادية، تؤدي إلى تكافؤ الأدلة وتعارضها، وهو خلاف موضوع الشريعة؛ لئلا يلزم خلو الوقائع عن حكم الله (٢٥).

- قال القاضي أبو يعلى الحنبلي: «ولا يجوز تكافؤ الأدلة في أدلة التوحيد، وصفات الله، والقضاء والقدر، وأما دلائل الفروع مثل: الصلاة والصيام والحج والزكاة وغير ذلك فيجوز أن تتكافأ، فهو يجعل النزاع في دلائل الفروع قطعية أو ظنية لكونها أكثر احتمالا لوقوع التعارض، ولأن الإصابة والتخطئة محلها الفروع لا الأصول(٢٦).

الهوامش:

(١) انظر: تنقيح الفصول: (ص:٤٢١)، شرح المحلى على جمع الجوامع: (٣٩٥/٢)، العدة: (١٠١٩/٣).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٢١٣/١٤، ٢١٤).
(٣) انظر: عارضة الأحوذي: (٣١١/٨، ٣١٣)، مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث: (ص:١٤٣).
(٤) انظر: شرح تنقيح الفصول: (ص:٤٢١)، المحصول: (٣٨٠/٥)، شرح الكوكب المنير: (٦١٣/٤).
(٥) انظر: المستصفى: (١٣٩/٢-١٤٤)، حاشية العطار: (٤٠١/٢)، شرح الكوكب المنير: (٦١٣/٤).
(٦) انظر: كشف الأسرار للبخاري: (١٢٠/٣)، أصول السرخسي: (١٢/٢)، كشف الأسرار للنسفي: (٨٦/٢-٨٩).
(٧) انظر: كشف الأسرار للبخاري: (١٢٢/٣)، فتح الغفار بشرح المنار المعروف بمشكاة الأنوار في أصول المنار: (ص:٣١٠-٣١١).
(٨) انظر: مشكاة الأنوار: (ص:٣١١).
(٩) انظر: تعارض الأقيسة والترجيح بينها للدكتور محمد عبد العاطي: (ص:١٢١ وما بعدها).
(١٠) انظر: كشف الأسرار للبخاري: (١٢٧/٣). فواتح الرحموت: (٣٦٦/٢-٣٦٧).
(١١) انظر: كشف الأسرار للنسفي: (٩١/٢)، التبيين: (٦٢٨/١-٦٢٩).
(١٢) انظر: كشف الأسرار للبخاري: (١٢٦/٣-١٢٧).
(١٣) انظر: فواتح الرحموت: (٣٦٣/٢-٣٦٥)، التلويح بهامش التوضيح: (٢٠٧/٢).
(١٤) انظر: تعارض الأقيسة والترجيح بينها: (ص:١١٤).
(١٥) انظر: شرح المنار وحواشيه من علم الأصول والمرقاة والمرآة:(٣٧٣/٢-٣٧٥).
(١٦) انظر: كشف الأسرار للبخاري: (١٢١/٣)، الموافقات: (٢١٧/٤)، اللمع: (ص:٨٣).
(١٧) انظر: ، شرح الكوكب المنير: (٦١٢/٤)، اختصار علوم الحديث لابن كثير: (ص:١٧٠).
(١٨) انظر: نزهة النظر: (ص:٦٣-٦٤)، الباعث الحثيث: (ص:١٧٥).
(١٩) انظر: المستصفى:(٦٣٢/٢).
(٢٠) انظر: روضة الناظر: (٤٥٧/٢)، اللمع: (ص:٨٣)، شرح الكوكب المنير: (٦١١/٤-٦١٢)، الموافقات: (٢١٨/٤)، إحكام الفصول في أحكام الأصول: (ص: ٦٤٦-٦٤٧).
(٢١) انظر: تعارض الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والترجيح بينها، لمحمد وفا: (ص:٨٩).
(٢٢) الأجوبة الفاضلة للكنوي: (ص:١٩٣).
(٢٣) بدائع الصنائع: (٣٤/٢).
(٢٤) الموافقات: (٢١٧/٤).
(٢٥) انظر: إرشاد الفحول: (ص:٤٥٨).
(٢٦) انظر: المسودة: (ص:٤٤٨).

القواعد الكاشفة عن الخطأ في الاعتبار بالقاعدة الفقهية

د. لخضر بوغفور
أكاديمي جزائري

ينقدح في ذهن البعض منا أن ربط أحكام الشارع بكلياته وقواعده الكبرى غاية سهلة المنال بالنظر إلى بعض مسلماته وجلياته، ولكن ما إن يسبر هذا المسلك على حقيقته، وينتقل بين أنواعه، وينظر في دقائقه، ويعالج تطبيقاته، ويقف على غامضه وعويصه حتى يدرك خطأ ما عنّ له وظنّه. قال ابن تيمية في إشارة إلى بعض محال هذا العسر: «اعلم أن تعليق الأحكام بالأسباب المقتضية حصول المصالح من الأحكام أمر مضبوط، فأمّا الحكم والمصالح فإن تعليق الأحكام بها عسير؛ لكونها قد تكون خفية، وقد تكون غير مضبوطة»(١).

وإذا كان هذا العسر واردا على النظر المصلحي، فهو كذلك بالنسبة إلى التقعيد الفقهي على معناه الاصطلاحي الخاص؛ لعمق الاشتراك بينهما من جهة الاعتبار بالمقاصد في كليهما، ومن جهة أخرى لما يكتنف هذا المجال من خلاف في جملة واسعة من مفرداته، ومن ثم تشكلت فكرة بحث موضوع قوادح ما بني على الاعتبار بخصوص القاعدة الفقهية بهدف أن يشرق نور الصواب لطارق مثل هذه المسالك، ويزداد لها إحكاما على حد مقولة القائل: «لولا الخطأ ما أشرق نور الصواب»(٢).

ويعظم بحث هذه القوادح في زمننا هذا الذي عظمت فيه الجرأة على تقحم مجال الفتوى بناء على ملاحظة جملة من القواعد الفقهية الشهيرة؛ كالحال بالنسبة إلى قاعدة الحاجة، وقاعدة استباحة المحظور بالضرورة وغيرهما من القواعد.

وإذا كانت هذه المشكلة قد عانت منها الأمة قديما، فكيف بحالنا اليوم؟! قال الشاطبي في صدد تحذيره من التساهل في إعمال قاعدة الرخص: «ربما استجاز هذا بعضهم في مواطن يدّعى فيها الضرورة وإلجاء الحاجة، بناء على أن الضرورات تبيح المحظورات، فيأخذ عند ذلك بما يوافق الغرض حتى إذا نزلت المسألة على حالة لا ضرورة فيها، ولا حاجة إلى الأخذ بالقول المرجوح أو الخارج عن المذهب، أخذ فيها بالقول المذهبي أو الراجح في المذهب، فهذا أيضا من ذلك الطراز المتقدم؛ فإن حاصله الأخذ بما يوافق الهوى الحاضر. ومحال الضرورات معلومة من الشريعة، فإن كانت هذه المسألة منها، فصاحب المذهب قد تكفل ببيانها أخذا عن صاحب الشرع، فلا حاجة إلى الانتقال عنها، وإن لم تكن منها، فزعم الزاعم أنها منها خطأ فاحش، ودعوى غير مقبولة....»(٣).

والقدح في التقعيد الفقهي أو أي استدلال يرد على سبيل القطع، ويرد على سبيل الظن الغالب الذي يقوى حتى يقارب القطع، وربما تراجع هذا الظن حتى ظهر في مقابله رأي المخالف وعسر نوعا ما القدح فيه ودق.

وعسى ما ورد في هذه البحوث من قدح لا يخرج عن هذه الرتب؛ فإنه إذا نزل عن هذه الرتب هوى إلى مجرد الوهم الذي لا يوجد ما يسنده.

المبحث النظري: القوادح

القادح الأول: فساد الاعتبار، وهو في معناه الاصطلاحي العام -الذي يتعلق بكل دليل يرد عليه القدح- هو كما قال سيدي عبدالله العلوي الشنقيطي:

والخلف للنص أو إجماع دعا
فساد الاعتبار كل من وعى(٤)

وأما فيما يتعلق ببحثنا فيمكننا حده بأنه: «قادح مخالفة الفرع المبني على القاعدة الفقهية للوحي أو الإجماع».

وإن أيسر طريق وأظهره وأقواه دلالة على كشف خطأ الاعتبار بالقاعدة الفقهية في الاستدلال الفقهي هو أن يثبت الخصم مخالفة الناظر لنص من كتاب أو سنة صحيحة، أو لإجماع ثبت واستقر لعلماء الأمة في زمن معين.

القادح الثاني: المنع، وهو: «منع مقدمة فأكثر من مقدمات الدليل»(٥).

وأما فيما يتعلق ببحثنا فيمكننا حده بأنه: «قادح عدم تسليم الخصم بصحة القاعدة الفقهية ذاتها أو غيرها من مقدمات التقعيد الفقهي».

القادح الثالث: المعارضة، وهي: «مقابلة الخصم للمستدل بمثل دليله أو بما هو أقوى منه». قاله الباجي(٦).

وأما فيما يتعلق ببحثنا فيمكننا حده بأنه: «قادح معارضة الخصم للاستدلال بالقاعدة الفقهية بمعنى أقوى منها في الاعتبار».

ومن ذلك القدح في المناسبة بإبداء مفسدة أرجح أو مساوية، أو العكس بالنسبة إلى المصلحة مع المفسدة المعتبرة.

القادح الرابع: القلب، وهو: «مشاركة الخصم للمستدل في دليله، ومعنى ذلك أن يستدل المستدل على إثبات حكم بدليل ما يدعي اختصاصه به، فيقلبه السائل ويطبق عليه ضد ذلك الحكم بالدليل نفسه». وهذا التعريف مستفاد من كلام الباجي في حدوده(٧)، إلا أنه خص شرحه له بدليل القياس، وأطلقته ليوافق المعنى العام(٨).

وأما فيما يتعلق ببحثنا فيمكننا حده بأنه «قادح إبداء الخصم نقيض حكم المستدل بعين القاعدة الفقهية».

القادح الخامس: القول بالموجب، وهو: «تسليم الدليل مع بقاء النزاع». قاله ابن السبكي(٩)، وأما فيما يتعلق ببحثنا فيمكننا حده بأنه: «قادح نفي الخصم دلالة القاعدة الفقهية على محل النزاع».

المبحث التطبيقي: آراء فقهية في ضوء القوادح الكاشفة

التطبيق الأول: أورده القاضي عبدالوهاب المالكي في صدد حديثه عن المسح على الخفين للمقيم، حيث نقل عن الإمام مالك روايتين في المسألة، وكان مما علل به رواية المنع أن «المسح جوز لضرورة السفر بانقطاع المسافر عن صحابته ورفقته بتشاغله بخلع خفيه كل وقت أراد الطهارة، وهذا معدوم في الحضر...»(١٠). وهذا الاستدلال يرجع إلى قاعدة الشريعة في أن ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها(١١).

ولكن يرد عليه قادح فساد الاعتبار لكونه يخالف ما ورد في سنة المصطفى من شمول هذا الحكم للسفر والحضر معا(١٢).

ومن ذلك ما جاء في الصحيح أن عليا رضي الله عنه سئل عن المسح على الخفين فقال: جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوما وليلة للمقيم(١٣).

بل نقل بعضهم ما يفيد استقرار الإجماع على جواز المسح في الحضر قبل زمن مالك، ومن هذا قول ابن عبدالبر: «عمل بالمسح على الخفين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر أهل بدر والحديبية وغيرهم من المهاجرين والأنصار، وسائر الصحابة والتابعين أجمعين، وفقهاء المسلمين في جميع الأمصار، وجماعة أهل الفقه والأثر كلهم يجيز المسح على الخفين في الحضر والسفر للرجال والنساء»(١٤).

وإذا ثبت هذا كانت رواية المنع أيضا فاسدة الاعتبار من جهة مخالفتها لهذا الإجماع.

ويمكننا أيضا القدح في هذا التقعيد بقادح المنع، ذلك أن الحكمة التي جوز من أجلها المسح -وهي دفع المشقة المصاحبة لنزع الخفين(١٥)- موجودة في حال الترحال والإقامة، فهي وإن كانت أبلغ في حق المسافر من جهة مبادرته وعدم استقراره في مكان، فإن المقيم لا يخلو منها، خصوصا في حال البرد الشديد الذي لا يفرق بين مكان ومكان.

قلت: ولربما عظمت هذه المشقة في حق المقيم أكثر من جهة أخرى، ألا وهي لزوم كل صلاة في وقتها وكثرة ما يتوضأ عادة مقارنة مع المسافر الذي يترخص بالجمع بين الصلوات الرباعية.

التطبيق الثاني: أورده أيضا القاضي عبدالوهاب في صدد حديثه عن المسح على الجرموق(١٦)، حيث نقل عن الإمام مالك روايتين في المسألة، وكان مما علل به رواية المنع أن «المسح على الخف رخصة ولا يقاس عليها..»(١٧)، وهذا الاستدلال يرجع إلى ما قعده بعضهم من عدم جواز القياس على الرخص الشرعية.

وهي قاعدة مختلف فيها، وعن الإمام نفسه روايتان فيها، قال القرافي في بيان تعليلهما: «حجة المنع: أن الرخص مخالفة للدليل، فالقول بالقياس عليها يؤدي إلى كثرة مخالفة الدليل، فوجب ألا يجوز.

حجة الجواز: أن الدليل إنما يخالفه صاحب الشرع لمصلحة تزيد على مصلحة ذلك الدليل عملا بالاستقراء، وتقديم الأرجح هو شأن صاحب الشرع، وهو مقتضى الدليل، فإذا وجدنا تلك المصلحة التي لأجلها خولف الدليل في صورة وجب أن يخالف الدليل بها عملا برجحانها، فنحن حينئذ كثرنا موافقة الدليل لا مخالفته»(١٨).

وكما يظهر جليا من هذا التعليل فرواية الجواز من القوة بمكان طردا لاعتبار الشارع الحكيم للمصالح المتجددة وطردا لأصل القياس.

وبناء عليه لا يسلم التقعيد الفقهي لهذه المسألة ما دامت القاعدة الفقهية نفسها غير مسلمة، ويرد عليه حينئذ قادح المنع.

التطبيق الثالث: تشدد الأحناف في المسح على العمامة، ومنعوه بالكلية بناء على أنه لا حرج في نزعها(١٩).

وهذا الاستدلال -كما هو ظاهر- يرجع إلى الاعتبار بمفهوم قاعدة المشقة تجلب التيسير، ولكنه فاسد الاعتبار لمخالفته لما ثبت في الصحيح من حديث المغيرة بن شعبة،

وفيه أنه ﷺ لما توضأ مسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه(٢٠).

ويمكننا أيضا أن نورد على هذا القول قادح المنع من نفيهم مطلق الحرج فيما لو نزعها، قال ابن عثيمين: «الحكمة من المسح على العمامة لا تتعين في مشقة النزع، بل قد تكون الحكمة أنه لو حركها ربما تنفل أكوارها.

ولأنه لو نزع العمامة، فإن الغالب أن الرأس قد أصابه العرق والسخونة فإذا نزعها، فقد يصاب بضرر بسبب الهواء؛ ولهذا رخص له المسح عليها»(٢١).

التطبيق الرابع: سبقت الإشارة في مقدمة هذا البحث إلى خطأ من يحمل القاعدة الفقهية ما لا تحتمل فيوردها على محل النزاع مع عدم انطباقها عليه، ومن ذلك ما صنعه أحمد أبو المجد حينما مثل لما يمكن أن يتغير من الأحكام بتغير الزمان بسنة إعفاء اللحية، معتبرا إياها تشريعا زمنيا متغيرا، ورام تأييد رأيه بما قرره العز في قواعده من أن كل تصرف تقاعد عن تحصيل مقصوده فهو باطل(٢٢).

وهذا التقعيد الفقهي المقاصدي من أبي المجد يرد عليه قادح القول بالموجب؛ حيث إن هذه القاعدة لا تنطبق على مسألتنا هذه، بل ستظل هذه السنة النبوية محصلة لمقاصدها الجليلة من مسايرة الفطرة ومخالفة الكفار وظهور المسلم في أشرف هيئة.

قال ولي الله الدهلوي -في صدد تعليله لحديث النبي ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية...» الحديث(٢٣)-: «هذه الطهارة منقولة عن إبراهيم عليه السلام متداولة في طوائف الأمم الحنيفية وأشربت في قلوبهم، ودخلت في صميم اعتقادهم، عليها محياهم، وعليها مماتهم عصرا بعد عصر، ولذلك سميت بـ«الفطرة»، وهذه شعائر الملة الحنيفية، ولا بد لكل أتباع ملة من شعائر يعرفون بها، ويؤاخذون عليها، ليكون طاعتها وعصيانها أمرا محسوسا، وإنما ينبغي أن يجعل من الشعائر ما كثر وجوده، وتكرر وقوعه، وكان ظاهرا، وفيه فوائد جمة تقبلها الناس أشد قبول.

والجملة في ذلك: أن بعض الشعور النابتة من جسد الإنسان يفعل فعل الأحداث في قبض الخاطر، وكذا شعث الرأس واللحية، وليرجع الإنسان في ذلك إلى ما ذكره الأطباء في الشرى(٢٤) والحكة وغيرهما من الأمراض الجلدية: أنها تحزن القلب وتذهب النشاط.

واللحية هي الفارقة بين الصغير والكبير، وهي جمال الفحول وتمام هيئتهم فلا بد من إعفائها. وقصها(٢٥) سنة المجوس، وفيه تغيير خلق الله ولحوق أهل السؤدد والكبرياء بالرعاع...»(٢٦).

التطبيق الخامس: منع جمهور العلماء من المالكية والشافعية والحنابلة من ترخص المسافر العاصي بسفره، كأن يكون عبدا آبقا من سيده أو خرج لقطع الطريق على المسلمين. ومن جملة ما استندوا إليه القاعدة الفرعية: الرخص لا تناط بالمعاصي(٢٧).

ومما ذكروه أيضا أن: «الترخص شُرِع للإعانة على تحصيل المقصد المباح توصلا إلى المصلحة، فلو شرع ها هنا لشرع إعانة على المحرم تحصيلا للمفسدة، والشرع منزه عن هذا»(٢٨)، وهذا يشبه أن يكون رجوعا منهم إلى القاعدة الكلية: الوسائل لها أحكام المقاصد.

ولكن كلا التقعيدين أباه المخالفون من الحنفية ومن وافقهم، فأوردوا على الأول ما يمكننا اعتباره قادح المنع، فإنهم لا يسلمون للجمهور بالقاعدة الفرعية السابقة.

وأيدوا رأيهم في خصوص رخصة السفر بأن النصوص الشرعية الواردة في ترخص المسافر جاءت مطلقة وخلت من قيد إباحة السفر، قال ابن تيمية: «لم ينقل قط أحد عن النبي ﷺ أنه خص سفرا من سفر مع علمه بان السفر يكون حراما ومباحا، ولو كان هذا مما يختص بنوع من السفر لكان بيان هذا من الواجبات، ولو بين ذلك لنقلته الأمة وما علمت عن الصحابة في ذلك شيئا»(٢٩).

وأما التقعيد الثاني فيمكننا القول إنهم قدحوا فيه بقادح القول بالموجب، حيث نفوا انطباق القاعدة على مسألتنا، فإن السفر نفسه ليس بمعصية، وإنما المعصية ما تكون بعدما صار مسافرا كما في مثال قطع الطريق أو ما تكون مجاورة للسفر كما في مثال إباق العبد، ومن ثم يصلح أن يكون السفر سببا للرخصة جريا على مبدأ انفكاك الجهة(٣٠).

كما غلط ابن تيمية هذا التقعيد الفقهي المقاصدي من جهة معارضته لأمر الشارع للمسافر بأن يقصر الصلاة، وفي هذا أيضا تنبيه إلى قادح فساد الاعتبار على غرار ما جاء في نص كلامه السابق(٣١).

التطبيق السادس: يعد ابن تيمية من أبرز المانعين لزيارة النساء للمقابر، ومن جملة ما استند إليه في اختياره كون مصلحة الاتباع أعظم من مصلحة الزيارة؛ بناء على أن الشارع قصد إقامة الأولى على سبيل اللزوم الكفائي، وليس شيء من ذلك في الثانية. ومن ثم نتج عنده أنه إذا نهي عن الأولى فالنهي عن الثانية من باب أولى؛ جريا على قاعدة الشريعة المعلومة في تقديم رتبة الفروض على رتبة السنن والمستحبات.

قال: «مطلق الاتباع أعظم من مصلحة الزيارة؛ لأن في ذلك الصلاة عليه التي هي أعظم من مجرد الدعاء؛ ولأن المقصود بالاتباع الحمل والدفن، والصلاة فرض

على الكفاية، وليس شيء من الزيارة فرضا على الكفاية... فإذا كان النساء منهيات عما جنسه فرض على الكفاية، ومصلحته أعظم إذا قام به الرجال، فما ليس بفرض على أحد أولى»(٣٢).

سوء استعمال «التعدد» صار من خلال أعداء الإسلام

وهذا التقعيد الفقهي المقاصدي من ابن تيمية يرد عليه قادح القلب، حيث كان ينبغي -فيما ظهر لي- أن يؤدي إلى عكس الحكم الذي توصل إليه؛ ذلك أن الاتباع لما كان فرض كفاية علم أن مصلحته الأصلية ترجع إلى الميت، وناسب قيام الرجال به وكراهته للنساء لضعفهن عن هذه المقامات، وأما الزيارة فإن مصلحة التذكر قصدها الشارع الحكيم أصالة للأعيان؛ فناسب الإذن بها لهن من باب أولى، وإن لم تكن فرضا.

ويمكننا أيضا أن نورد على هذا التقعيد قادح فساد الاعتبار من جهة مخالفته لما ثبت في الصحيحين دالا على مشروعية زيارة المرأة للقبور، ومن أصرحه ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري»، قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه..الحديث(٣٣). وروى مسلم من حديث عائشة خروج النبي ﷺ في إحدى الليالي إلى البقيع للاستغفار لأهله وعائشة رضي الله عنها في إثره، وفي آخره: «فقال -يعني جبريل عليه الصلاة والسلام-: إن ربك يأمرك أن تأتي على أهل البقيع فتستغفر لهم. قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟! قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين..» الحديث(٣٤).

ويرد عليه أيضا قادح المعارضة بإبداء المصلحة الراجحة التي رتبها الشارع الحكيم على زيارة القبور في حال أمنت عليهن وبهن الفتنة، فقد روى مسلم عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها..» الحديث(٣٥). وزاد أبو داود والترمذي -واللفظ له-: «فإنها تذكر الآخرة»، وحكم عليه بأنه حسن صحيح(٣٦).

ولا ريب أن كلا الجنسين بحاجة ماسة إلى تذكر الآخرة.

التطبيق السابع: أفتى علماء متأخرون من الحنفية بجواز بيع الوفاء، وحقيقته: «البيع بشرط أن البائع متى رد الثمن يرد المشتري المبيع إليه»(٣٧).

ومن جملة ما فرع عنه هذا الرأي قاعدة أن العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمباني، ومقصود المتعاقدين هنا هو الرهن وليس البيع(٣٨).

وجمهور العلماء على فساده لكون «اشتراط البائع أخذ المبيع إذا رد الثمن إلى المشتري يخالف مقتضى البيع وحكمه، وهو ملك المشتري للمبيع على سبيل الاستقرار والدوام. وفي هذا الشرط منفعة للبائع، ولم يرد دليل معين يدل على جوازه، فيكون شرطا فاسدا يفسد البيع باشتراطه فيه.

ولأن البيع على هذا الوجه لا يقصد منه حقيقة البيع بشرط الوفاء، وإنما يقصد من ورائه الوصول إلى الربا المحرم، وهو إعطاء المال إلى أجل، ومنفعة المبيع هي الربح»(٣٩).

وإذا تأملنا في هذين الدليلين وجدناهما راجعين إلى قادح المعارضة وقادح القلب، وبيانه كالآتي:

أما قادح المعارضة فمن جهة معارضة الاعتبار بهذه القاعدة بمعنى قوي في الاعتبار أيضا، وهو إفضاء هذه المعاملة إلى مخالفة مقتضى البيع في التسليط الكامل ليد المشتري على المبيع.

وأما قادح القلب فمن جهة قلب هذا التقعيد الفقهي على قائله؛ ذلك أن قاعدة الالتفات إلى مقاصد العقود تفضي بنا إلى منع هذه المعاملة لكونها صارت ذريعة يحتال بها على الربا.

التطبيق الثامن: دلت آية النساء دلالة قطعية على إباحة تعدد الزوجات إباحة دائمة بشرط العدل، ولكن رأى علال الفاسي المغربي تعطيل هذا الحكم في خصوص عصره اعتمادا على الموازنة بين المصالح والمفاسد، وذهب إلى وجوب منع هذا التعدد منعا باتا من طرف الحكومة(٤٠).

وقد خرج رأيه هذا على قاعدة الشريعة في تحمل الضرر الخاص في سبيل دفع الضرر العام(٤١).

ويعني بذلك تحمل الضرر الناتج عن منع فئة من الناس من هذا التعدد في سبيل دفع الضرر اللاحق بالإسلام وأهله جراء استعماله، ومما قال في بيان ذلك: «لا شك أن منع الأفراد من تعديد النساء إضرار بهم؛ لأنه منع لهم من إرضاء حاجاتهم وعاداتهم، ولكنه إضرار في الحاضر بالمسلمين عموما لما يحدثه من مشاكل لا تحصى. كما أنه إضرار بالإسلام نفسه؛ لأن تطور المرأة وصل إلى درجة لا تقبل معه مثل ذلك النظام الذي كان سائدا في بعض عهود الحضارة، وتحميلها ذلك يؤدي بها إلى الطعن في الدين أو الالتجاء إلى المطالبة بتشريعات منافية للدين... »(٤٢).

وقال أيضا: «أصبح سوء استعمالنا للتعدد مدخلا لكثير من أعداء الإسلام الذين يتخذونه حجة على ديننا فيحول بينهم وبين فهم الدعوة الإسلامية»(٤٣).

ومحصله استرسال مفرط في بعض المفاسد وغفلة عن محاسن هذا الحكم الشرعي ومصالحه الجمة التي يجلبها، والمفاسد الكبرى التي يدرأها عن المجتمعات الإنسانية في وقت عمت فيه الإباحية وطمت.

فهذا التقعيد الفقهي من علال الفاسي يرد عليه قادح المعارضة من جهتين:

الجهة الأولى: أنه معارض بالمصالح الراجحة التي يجلبها التعدد على المجتمعات البشرية، وهي مشهورة لا نطيل في سردها، وقد شهد بهذا بعض المنصفين من غير المسلمين؛

فهذا المستشرق الفرنسي الشهير جوستاف لوبون(٤٤) يسطر شهادته فيقول: «إن نظام تعدد الزوجات نظام حسن يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تمارسه، ويزيد الأسر ارتباطا، ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تجدهما في أوروبا»(٤٥).

الجهة الثانية: أنه معارض أيضا بالمفاسد الشنيعة الناجمة عن تعميم هذا المنع، فلربما لجأ كثير ممن ضعف وازعهم الديني -وهم يعلمون عواقب القانون الرادعة عن مخالفة هذا المنع- إلى الوقوع في الزنا والفجور بغية تلبية شهوته الجامحة. وهنا نسجل أيضا شهادة بعض الغربيين المنصفين، فقد جاء في مقال لكاتبة بريطانية -بعد أن وصفت حالة الإباحية المفرطة البائسة التي وصلت إليها بنات قومها- ما ملخصه: «أدرك العالم تومس الداء ووصف الدواء الشافي: وهو أن يباح للرجل التزوج بأكثر من واحدة، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة، وتصبح بناتنا ربات بيوت. فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوروبي على الاكتفاء بامرأة واحدة. فهذا التحديد هو الذي جعل بناتنا شرودًا، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال. ولا بد من تفاقم الشر إذا لم يبح للرجل الزواج بأكثر من واحدة....» (٤٦).

وهكذا إذا تجرد العقل الغربي عن الوهم والهوى لم يسعه إلا إجلال هذا التشريع الرباني، والاقتراب من أنوار شريعتنا بدلا من الإعراض عنها. وانحراف بعض المسلمين في تطبيقها لا يلزم منه سد الباب على الجميع على شاكلة غيره من الحقوق.

وفي الأخير فإنني أوصي بدراسة استقرائية تحليلية نقدية تطبيقية لظاهرة الخطأ في الاعتبار بالقاعدة الفقهية، قديما وحديثا، لا تقتصر على المسالك الكاشفة عنه كما نبهت عليها في هذه العجالة، بل تغوص في ملابسات هذا النوع من الخطأ من حيث جوانبه وأسبابه وآثاره وغير ذلك من المتعلقات.

الهوامش:

(١) تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل لابن تيمية ١١٧/١.
(٢) نقله الخطيب البغدادي عن عبدالله بن المعتز في كتابه: الفقيه والمتفقه ٨/٢.
(٣) الموافقات ٩٩/٥.
(٤) نظم: مراقي السعود للشيخ عبدالله العلوي، رقم البيت: ٧٩٩، ص٩٩.
(٥) انظر: التحبير شرح التحرير للمرداوي ٣٦٩١/٧، ونثر الورود على مراقي السعود للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٥٥٥/٢.
(٦) الحدود في الأصول للباجي، ص٧٩.
(٧) ص٧٧.
(٨) انظر أيضا: جمع الجوامع لابن السبكي ٣١١/٢.
(٩) جمع الجوامع ٣١٦/٢. وانظر: التحبير شرح التحرير ٣٦٧٤/٧.
(١٠) الإشراف على نكت مسائل الخلاف للقاضي عبدالوهاب المالكي ١٣١/١، وانظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١٨/١.
(١١) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص٨٤، وشرح القواعد الفقهية لأحمد الزرقا ص١٨٧.
(١٢) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ١٩٩/١.
(١٣) صحيح مسلم، رقم: ٢٧٦ (٨٥)، ص١٤١.
(١٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبدالبر ١٣٧/١١.
(١٥) انظر: روضة الناظر لابن قدامة ص١٧١. وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية(٢٦٢/٣٧): «الحكمة من المسح على الخفين التيسير والتخفيف عن المكلفين الذين يشق عليهم نزع الخف وغسل الرجلين خاصة في أوقات الشتاء والبرد الشديد، وفي السفر وما يصاحبه من الاستعجال ومواصلة السفر».
(١٦) هو ما يلبس فوق الخف. الصحاح ١٤٥٤/٤، وانظر: المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربي ص١١٩.
(١٧) الإشراف ١٣٥/١.
(١٨) شرح تنقيح الفصول للقرافي ص٣٢٤، وانظر: موسوعة القواعد الفقهية ٩٠٧/٨.
(١٩) انظر: حاشية ابن عابدين ٤٥٧/١، والموسوعة الكويتية ٣٠٥/٣٠.
(٢٠) انظر صحيح مسلم، رقم: ٢٧٦، ٢٧٤(٨١)، ص١٤٠.
(٢١) الشرح الممتع على زاد المستقنع، ٢٣٨/١.
(٢٢) انظر: مقال: التجديد في الإسلام (ضمن كتابه: حوار لا مواجهة)، ص٦٥، أحمد كمال أبو المجد، الكويت، مجلة العربي، ١٩٨٥م، والقواعد الكبرى للعز بن عبدالسلام ٢٤٩/٢.
(٢٣) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: ٢٦١ (٥٦)، ٢٢٣/١.
(٢٤) خراج صغار لها لذع شديد، الصحاح، للجوهري ٢٣٩١/٦.
(٢٥) قص الشعر في اللغة هو قطعه. انظر مثلا: الصحاح، للجوهري ١٠٥٢/٣، والقاموس المحيط، ٣١١/٢، الفيروزآبادي، ومن ثم فيستقيم حمل عبارته هذه على حلق اللحية فهو شعار المجوس، لا على مجرد الأخذ منها، وسباق كلامه لما ذكر ما يحدثه شعث اللحية على النفس يؤيد هذا الحمل.
(٢٦) حجة الله البالغة ولي الله الدهلوي، ٥٦٥/١.
(٢٧) انظر: المغني لابن قدامة ١١٥/٣، والذخيرة للقرافي ٣٦٧/٢، ومغني المحتاج للخطيب الشربيني ٤٠٣/١، والأشباه والنظائر للسيوطي ص١٣٨، وموسوعة القواعد الفقهية للبورنو القسمان ٣و٤٠١/٤.
(٢٨) المغني ١١٥/٣.
(٢٩) الفتاوى ١٠٩/٢٤. وانظر: البناية في شرح الهداية للعيني ٤٠/٣، وحاشية ابن عابدين ٤٠٣/٣.
(٣٠) انظر: البناية في شرح الهداية ٤٠/٣.
(٣١) انظر: الفتاوى ١١٢/٢٤.
(٣٢) الفتاوى لابن تيمية ٣٤٧/٢٤،.
(٣٣) صحيح البخاري -واللفظ له-، رقم: ١٢٨٣، ص٢٥٢، وصحيح مسلم، رقم: ٩٢٦ (١٥)، ص٤١١.
(٣٤) صحيح مسلم، رقم: ٩٧٤ (١٠٣)، ص٤٣١-٤٣٣.
(٣٥) المصدر السابق، رقم: ٩٧٧ (١٠٦)، ص٤٣٤.
(٣٦) سنن أبي داود، رقم: ٣٢٣٥، ٣٦٢/٣، وسنن الترمذي، رقم: ١٠٥٤، ٣٥٧/٢؛ كما جاءت هذه الزيادة عند أحمد في مسنده من حديث علي رضي الله عنه، رقم: ١٢٣٦، ٣٩٧/٢، وجاءت أيضا عند ابن ماجة في سننه، رقم: ١٥٧١، ٩٤/٣.
(٣٧) الموسوعة الكويتية ٤٨/٩.
(٣٨) انظر: القواعد الفقهية، ١٤-١٥.
(٣٩) الموسوعة الكويتية ٢٦٠/٩. وانظر: الفتاوى ٣٣٤/٢٩. وقد جاء أيضا بعدم جواز هذه المعاملة قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة، انظر مجلته: ع٧/ج٣/ص٥٥٧.
(٤٠) انظر: النقد الذاتي، ص٢٧٥. علال الفاسي، ط: ١.
(٤١) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ص١٨٣، علال الفاسي، ط: ٥، وانظر في تقرير هذه القاعدة: الأشباه والنظائر، ص٩٦، ابن نجيم، وشرح القواعد الفقهية للزرقا، ص١٩٧.
(٤٢) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ص١٨٣.
(٤٣) النقد الذاتي ص٢٧٦.
(٤٤) من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين، وهو مستشرق منصف إلى حد بعيد لم يدافع عن حضارة العرب فحسب، بل دافع عن حقوق المسلمين أيضا، من كتبه: سر تطور الامم، حضارة العرب، توفي سنة ١٩٣١م. كتاب: في الميزان غوستاف لوبون، لشوقي أبو خليل ص١٢.
(٤٥) نقلا عن: تعدد الزوجات في الإسلام، ص٨٠. عبدالتواب هيكل.
(٤٦) نقلا عن تفسير المنار، ٣٦٠/٤

الفكر الإصلاحي عند الإمام الشاطبي

د. عبدالرحيم باحمو
أكاديمي متخصص في الشؤون الإسلامية



لقد كان العصر الذي عاش فيه الإمام الشاطبي عصرا غلب على أهله الفساد والاستبداد، فكان حرصهم على المناصب والكراسي هو الشغل الذي شغل بالهم، وملأ أوقاتهم، فسلكوا في سبيل ذلك ما لا دليل على استحسانه، من قبيل القتل للحكام للتربع على كراسيهم، وسفك الدماء...

وفـي مثل هـذه الظـروف الملتبسة، والأحـوال البئيسة، يجدر بالمصلح والداعية أن تكون له مواقف واضحة تبـين مـدى رفضـه لـهذا الفساد، مساهـمة منه فـي إصـلاح الوضع، ورأب الصدع.

وقـد كـان إمامنـا الشاطبي –رحمه اللـه– واحـدا مـن أئـمـة الإصـلاح؛ لذلك نهضت همته، وتقوت عزيمته علـى إصـلاح الـوضـع الـسـائـد في القرن الثامن، مما دفعه إلى صياغة نظريات وقوانين إصلاحية مستمدة من الوحي، تقتضي الثورة على البدع والمنكرات وإقامة صرح السنن. وهكذا كان لهذا العصر الذي عاش فيه تأثير عميق في تكوين فكره الإصلاحي.

وسـأحـاول أن أتـنـاول مـعـالـم فكره الإصـلاحـي بـشـيء مـن الإيـجـاز مع الحفاظ على الدقة والفائدة من خلال المباحث الآتية:

المذهب الإصلاحي عند الإمام الشاطبي

لقد أحس الإمـام الشاطبي –رحمه الله– بخطورة البدع التي انتشرت في المجتمع الغرناطي حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياتهم وسرت في قلوبهم مسـرى الـدم فـي الجسـد، كما أنها تسببت في تفرق المسلمين وتشتتهم وتمزقهم، وفي إضعافهم وإعجازهم عن مواجهة عدوهم، وبسببها تغلغل الفساد ودب الانـحـراف فـي ميدان النفس، وميدان الحياة كلها، وتحول الإسـلام إلى مجرد مظاهر وطقوس ميتة لا تمتّ إلى الإسلام بصلة.

فـي ظل هـذه الفـتن الـهـوجـاء التي عصفت بالمجتمع الـغـرنـاطـي خلال القرن الثامن الهجري، تبين للشاطبي أنـه لابـد مـن الإصــلاح والتغيير والتحذير من هذه البدع، وبيان أنها ضلالة وخروج عن الجادة، وتأكد له أن الإصلاح أمر لا سبيل إلى إهماله، ولما أصبح ذلك مسلمة عنده تبين له «أن الإصلاح لا يتم إلا بالرجوع بأمة الإسـلام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وترك ما سواهما» هذا باختصار هو المذهب الإصلاحي عند الشاطبي.

ولكي يجسد مذهبه –رحمه الله– ألف كتاب «الاعتصام» الذي يعد رد فعل علـى الفساد والانـحـراف الـذي عم معظم الأحوال الأندلسية في القرن الثامن الهجري. يقول الدكتور حمادي العبيدي: «إن كتاب الاعتصام يُمثل الدعوة الإصلاحية التي قامت على السلفية، والتي ظهرت في المشرق على يد ابن تيمية، وظهرت في المغرب على يد الشاطبي والتي تنحصر في إصلاح الأمـة الإسلامية على أسـاس العمل بالكتاب والسنة، كما كان عليه الوضع فـي صـدر الإسـلام على عهد رسول الله ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده»(١) ولتثبيت مذهبه الإصلاحي، وإرسـاء دعـائمه، دعـا الشاطبي إلى التمسك بالعقيدة فكرا والشريعة عملا(٢)، وهو الوضع الذي كان عليه الصحابة زمـن الـرسـول ﷺ والقرن الـذي والاهــم والـذي بـعـده، فكانوا هم القدوة في فهم الشريعة والجري على مقاصدها(٣). فلابد من مراعاة مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرارها السامية والتركيز على إصلاح العقائد أولا، ثم الفروع ثانيا. وهـذا ما فعله الشاطبي؛ حيث ابتدأ –كما يقول– بـأصـول الـديـن عـمـلا واعـتـقـادا، ثم بفروعه المبنية على تلك الأصول(٤).

ومن المعلوم في سنن الله الكونية أن الداعي إلى الخير يجد طريقه مفروشا بـالأذى ومملوءًا بالأشواك والعراقيل التي تعيق المسير؛ لذلك يجب عليه –إن أراد الإصـلاح فعلا– أن يتحلى بـالـصـبـر؛ لأن المـفـسـديـن والظالمين الجهلة سينكرون تغيير الحال التي هم عليها، خاصة أنهم ألفوها ووجدوها ناعمة مريحة، ومن أراد استئصالها بل مـجـرد تغييرها وتبديلها أنكروا عليه ورموه بكل أنواع الاتهام والسب والشتم... وهـذا ما حصل للشاطبي معهم، حيث إنه –رحمه الله– لما جاء لإصـلاح ما عليه الناس في عصره، قوبل بالإنكار والمعارضة والرفض، بل نسب إلى الابتداع والضلال.. وعاش بين هـؤلاء غريبا. ما نقم منهم إلا أنه أراد أن يصلح ما أفسده الناس، فقامت عليه القيامة وتـواتـرت عليه المـلامـة وفـوق إليـه العـتـاب سهامه ونسب إلـى البدعة والضلالة وأنزل منزلة أهل الغباوة والجهالة(٥). ومع ذلك لم تـزده المحن التي واجهها مع البدع وأهلها، إلا رسوخا وثباتا على الحـق ومـواصـلـة المسيـر فـي درب الدين. قال الشاطبي: «ولما وقع علي من الإنكار ما وقـع، مع ما هدى الله إليه، وله الحمد، لم أزل أتتبع البدع التي نبه عليها رسول الله ﷺ وحذر منها وبـين أنها ضـلالـة وخـروج عن الجـادة، وأشـار العلماء إلـى تمييزها والتعريف بجملة منها لعلي أجتنبها فيما استطعت وأبحث عن السنن التي كادت تطفئ نورها تلك المحدثات لعلي أجلو بالعمل سناها وأعد يوم القيامة فيمن أحياها»(٦).

ومن خلال هذا المذهب الإصلاحي، أنتقل لـبـيـان بـواعـث الإصــلاح عند الشاطبي في المبحث الثاني.

بواعث الإصلاح عند الشاطبي

عندما تـأمـل الإمـام الشاطبي حال المجتمع الأندلسي، بما فيه من علل ومفاسد، أفزعه الموقف وراعه الأمر، لكنه لم ييأس ولم يستسلم، بل دفعه يقينه وقـوة إيمـانـه وعلو شأنه وبعد همته إلى الاقتناع بحقيقة مرة، وهي أن الدين شيء، وما يفعله الناس في واقعهم شـيء آخـر؛ لذلك أخذ بعزيمته القوية وهمته العالية يفحص الواقع الأندلسي ويمحصه من أجل إصلاحه وتنقيته مـن الـبـدع والانحرافات والـضـلالات، ويـحـيـي مـا انـدثـر من السنن وكاد يغيب عن أذهـان الناس، فتوصل في نهاية المطاف إلى أن الدين حقيقة واحدة لا تقبل التعدد والتنوع، بينما الدعوات الابتداعية التي نفخت فيها أبواق العصبيات والخرافات هي التي زيفت للناس حقيقة الدين.

ولما أثبت الشاطبي وحدة حقيقة الدين

في ظل مذهبه الإصلاحي وأزاح عنها غمائم الشبهات، تقدم ليعلنها صريحة جريئة، فتألب عليه المبتدعون وأنكر عليه الجهال الذين عظم عليهم أن يفارقوا البدع ويبتعدوا عن المألوفات الفاسدة، فآذوه أذى شديدا أشرت إلى بعض معالمه في مباحث سابقة في هذا البحث.

هذا وقد حاولت البحث عن بعض الدوافع والبواعث التي دفعت الشاطبي إلى التفكير في قضية الإصلاح، فوجدتها تتلخص في الوضع الذي آل إليه المجتمع الأندلسي في القرن الثامن الهجري وآلت إليه أحواله، ذلك العصر الذي شاعت فيه البدع والمنكرات، وأحلت فيه مجاراة الأهواء، وانتشر فيه الجهل بالدين، وصار فيه الانحطاط الفقهي والتقليد الأعمى أمرا عاديا.. وقد رأى الإمام الشاطبي أن هذه الظروف نفسها دواعي تقتضي وجوب الإصلاح. ولبيان ذلك قسمت هذا المبحث إلى خمسة بواعث من بواعث الإصلاح عند الشاطبي، وجعلتها على الشكل الآتي:

أولا: شيوع البدع والمنكرات

بعدما تولى الإمام الشاطبي بعض خطط الجمهور، من الخطابة والإمامة ونحوهما أرشد ونصح، ولكنه اصطدم بما فشا في الناس من سيئ العادات، ومنكر البدع المحدثات، ووجد أن هذا الأمر قد استقر في الناس وشب عليه الصغير وشاب عليه الكبير، مما وضعه في موقف حائر متردد؛ هل يتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس؟ أم يتبع الناس على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح فيدخل تحت ترجمة الضلال؟ فقرر أن ينتظم في سلك من أحيا سنة وأمات بدعة.

ولما اختار قرار اتباع السنة ومخالفة أهل الزيغ والضلال، وأراد تطبيق شرع الله وإحياء السنن التي أماتتها البدع، إذا بنظرات الاستغراب والنفور تتكالب عليه من كل جهة، وكأنه ارتكب جريمة لا تغتفر؛ لأن الناس في عصره ترسخت فيهم البدع والمنكرات وصار عندهم المعروف منكرا والمنكر معروفا، والمتمسك بالسنة في نظرهم هو الهالك، لأنه يرمى بالعظائم ويتهم بالكبائر.. ولا يجد له وليا ولا نصيرا..

ولما تأمل الشاطبي هذا الأمر تبين له أن الاعتصام بالسنة الذي يعدونه هلاكا هو عين النجاة في نظره، وهو الذي سينفعه عند الله، أما الناس فلن يغنوا عنه من الله شيئا يوم القيامة؛ لذلك رأى أن تخليص المجتمع من البدع التي كان عليها، والرجوع به إلى ما كان عليه الصحابة زمن الرسول ﷺ هو قوام الإصلاح وأساسه.

وقد سلك الإمام الشاطبي في مقاطعة أهل البدع والدعوة إلى تعزيرهم منهج التدرج و«المرحلية» من مقام إلى مقام، وهو منهج رباني أصيل سلكه خير خلق الله محمد بن عبد الله ﷺ في دعوته. وتتجلى المرحلية في التعامل مع أهل الأهواء والبدع في المراحل الآتية: الإرشاد والتعليم وإقامة الحجة في البداية، ثم الهجران وترك الكلام والسلام، ثم التغريب، والسجن، وإشاعة بدعهم للناس كي يحذروا ولئلا يغتر «المبتدع» بكلامه، القتال إذا ناصبوا المسلمين وخرجوا عليهم، القتل إن لم يرجع مع الاستتابة وهو قد أظهر بدعته، القتل بلا استتابة وذلك في حق من أسر بدعته وكانت كفرا أو ما يرجع إليه؛ لأنه من باب النفاق كالزنادقة، تكفير من دل الدليل على كفره كما إذا كانت البدعة صريحة في الكفر كالإباحية والقائلين بالحلول كالباطنية، أو كانت المسألة في باب التكفير بالمآل، ثم لا يرثهم ورثتهم من المسلمين ولا يرثون أحدا منهم ولا يغسلون إذا ماتوا ولا يصلى عليهم ولا يدفنون في مقابر المسلمين، ثم الأمر بأن لا يناكحوا وهو من ناحية الهجران وعدم المواصلة، ثم تجريحهم على الجملة فلا تقبل شهادتهم ولا روايتهم ولا يكونون ولاة ولا قضاة ولا ينصبون في مناصب العدالة من إمامة أو خطابة، ترك عيادة مرضاهم وهو من باب الزجر والعقوبة، ترك شهود جنائزهم، ثم الضرب.

ثانيا: مجاراة الأهواء

لقد غصت البيئة الأندلسية في القرن الثامن بذوي الأهواء الضالة والمذاهب الفاسدة، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾(المؤمنون:٥٣) المعجبين بأنفسهم، الطائعين لآرائهم، هواهم إلههم وإلههم هواهم. قال الشاطبي: «هذا وإن كان زماننا قد ظهر فيه الشح المطاع، والهوى المتبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه»(٧). غير أن هذا لا يمنع المصلح من مواصلة إصلاحه، كما لا يمنع وجود أهل الحق وذوي الخير الذين يذودون عن حياض السنة ويرفعون راية الإسلام على طول الأيام ومر الأزمان. قال الشاطبي: «لأن قائل الحق موجود وإن قل... فكيف لنا بالسكوت عن الحق؟»(٨).

وقد بين الإمام الشاطبي أن الهوى في حقيقته افتراء على الله(٩). قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الجاثية:٢٣). وسبب اشتهار أهل الأهواء بهذا الاسم أنهم قدموا أهواءهم على الشرع، ولذلك سموا في بعض الأحاديث وفي إشارة القرآن أهل الأهواء، وذلك لغلبة الهوى على عقولهم واشتهاره فيهم(١٠). بل إن الهوى سبب من أسباب الخروج عن السنة، كما أنه ضلال مبين. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾(ص:٢٦). قال الشاطبي تعليقا

على هذه الآية: «فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما: الحق والهوى، وعزل العقل مجردا إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك»(١١).

ثالثا: شيوع الجهل

إن الجهل والهوى وجهان لعملة واحدة هي: البدعة، وهما سببان حقيقيان للخروج عن السنة واتباع البدع والمنكرات، وهذا ما أكده الإمام الشاطبي حينما قال: «بل سبب الخروج عن السنة الجهل بها والهوى المتبع الغالب على أهل الخلاف»(١٢). كما أن الجهل والهوى يبعثان صاحبهما على الابتداع؛ لأن صاحب البدعة لما غلب عليه الهوى مع الجهل بطريق السنة توهم أن ما ظهر له بعقله هو الطريق القويم دون غيره، فمضى عليه فحاد بسببه عن الطريق المستقيم، فهو ضال من حيث ظن أنه راكب للجادة كالمار بالليل على الجادة وليس له دليل يهديه يوشك أن يضل عنها فيقع في متابعة وإن كان بزعمه يتحرى قصدها(١٣).

وقد بين الإمام الشاطبي أن من أكبر الأسباب التي تدفع إلى الابتداع هي الجهل بأصول الشريعة وبمقاصدها: وهذا أشد وأقرب إلى التحريف والخروج عن مقاصد الشرع(١٤)؛ ذلك أن الجاهل بأصول الشريعة يأخذ أدلتها مأخذ الهوى والشهوة ويستدل بها على بدعته ويلوي عنقها من أجل أن توافق هواه وبدعته. قال الشاطبي: «والدليل على ذلك أنك لا تجد مبتدعا ممن ينسب إلى الملة إلا وهو يستشهد على بدعته بدليل شرعي، فينزله على ما وافق عقله وشهوته، وهو أمر ثابت في الحكمة الأزلية التي لا مرد لها»(١٥)، كما أن الجاهل يتبع من الأدلة ما تشابه منها، فحكم عليه بالزيغ والضلال في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾(آل عمران:٧).

رابعا: الانحطاط الفقهي والتقليد الأعمى

إن الفقه باعتباره مادة التدين الإسلامي، قد وصل مستوى متدنيا في القرن الثامن الهجري، حيث عطلت ملكة الاجتهاد لدى الفقهاء وأخذوا يتلقون أحكاما وأقوالا كأنها من الشارع، مما أدى إلى التقديس الذي لا يحل إلا لله، وبذلك يكون المقلد المقدس قد وقع في شرك خفي.

وهذا التقليد تتلقاه الأجيال جيلا عن جيل، وهو من أبرز أسباب العجز والانحطاط الذي منيت به الأمة الإسلامية عامة والأندلسية -في عهد الشاطبي- خاصة؛ لدرجة أن بعض الفقهاء يستنكرون أن تبدل أقوال وفتاوى من قلدوا.

وقد عانى الشاطبي من بعض الفقهاء المقلدين تقليدا مقدسا، حيث استنكروا عليه مجموعة من الاجتهادات التي استند فيها إلى نصوص الوحي ومقاصد الشريعة الإسلامية السامية. وهكذا توالت عليه الاتهامات وتكاثرت عليه التلفيقات، ومن هذه الاتهامات الملفقة:

نسب إليه القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه، بسبب أنه لم يلتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة.

وتارة نسبوه إلى الروافض وبغض الصحابة رضي الله عنهم، بسبب أنه لم يلتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص. لأن ذلك لم يكن معروفا عند السلف في خطبهم، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب.

وتارة أضيف إليه القول بجواز القيام على الأئمة، قال الشاطبي في رد هذه التهمة: «وما أضافوه إلا من عدم ذكري لهم في الخطبة، وذكرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقدم»(١٦).

ومرة يتهم بالتنطع في الدين وحمل الناس على الشدة والحرج. ويجيب الشاطبي عن هذه التهمة بقوله: «وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل على مشهور المذهب الملتزم، لا أتعداه وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل، ويوافق هواه وإن كان شاذا في المذهب الملتزم أو في غيره، وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك»(١٧).

اتهموه بمعاداة أولياء الله. قال الشاطبي في رده لهذه التهمة: «وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة المنتصبين بزعمهم لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم»(١٨).

نسبوه إلى مخالفة أهل السنة والجماعة «بناء منهم على أن الجماعة التي أمر باتباعها وهي الناجية ما عليه العموم ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان»(١٩).

إن هذه الاتهامات الملفقة التي نسبت للشاطبي -رحمه الله- تعكس مظهرا من مظاهر الانحطاط الفقهي في القرن الثامن الهجري المتمثل في التعصب من العلماء والفقهاء لبعضهم البعض، وعدم اهتمامهم بأوضاع أمتهم، وتخليهم عن واجب الإصلاح.. لذلك يحملهم الشاطبي تبعة الأوضاع المتردية التي وصل إليها المجتمع الإسلامي(٢٠). فهؤلاء العلماء في نظره تخلوا عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إن بعضهم هادن في دين الله، وجارى الأهواء في فتاواه جهارا، «حتى لقد حكى الخطابي عن بعضهم أنه يقول: كل مسألة ثبت لأحد من العلماء فيها القول بالجواز شذ عن الجماعة أو لا فالمسألة جائزة»(٢١).

ويستمر الشاطبي في التنديد بهذا النوع من العلماء، ويذكر أن أكثرهم كان يسلك مسلك المبتدعة ويخالطهم في حلقات الرقص والغناء، ثم بعد ذلك يؤم الناس ويتصدر مجالس

الإفتاء(٢٢)، وإذا زجروا عن اجتماعهم على الباطل احتجوا بوجود الفقهاء معهم، ولو كان حراما أو مكروها لم يحضروا معهم(٢٣)، فقال الشاطبي منددا: «إن اجتماعهم للذكر على صوت واحد إحدى البدع المحدثات التي لم تكن في زمان الرسول ﷺ ولا زمان الصحابة ولا من بعدهم ولا عرف ذلك قط من شريعة محمد عليه السلام، بل هي من البدع التي سماها الرسول ﷺ ضلالة وهي مردودة»(٢٤).

ويشير الشاطبي إلى إسراف هؤلاء الفقهاء المتأخرين في تقليد من سبقهم من غير دليل فيقول: «فتأملوا يا أولي الألباب، كيف حال الاعتماد في الفتوى على الرجال من غير تحر للدليل الشرعي، بل لمجرد نيل العرض العاجل، عافانا الله من ذلك بفضله»(٢٥).

خامسا: وجوب الإصلاح

في ظل هذه التراكمات التي تدل على فساد الواقع بشيوع البدع والمنكرات ومجاراة الأهواء مع سكوت الناس عنها وجهلهم أو إغفالهم عن القيام بفرض الإصلاح، رأى الإمام الشاطبي أنه من الأكيد الطلب لما فيه من رفع الالتباس الناشئ بين السنن والبدع(٢٦)، بل إنه رأى أن تغيير المنكر واجب على كل من يملك نصيبا علميا يمكنه من تمييز السنن من البدع، وبيان ذلك للناس حتى لا يختلط عندهم الحرام بالحلال، قال الشاطبي: «لأنه لما كثرت البدع وعم ضررها واستطار شررها ودام الانكباب على العمل بها والسكوت من المتأخرين عن الإنكار لها، وخلفت بعدهم خلوف جهلوا أو غفلوا عن القيام بفرض القيام فيها صارت كأنها سنن مقررات وشرائع من صاحب الشرع محررات، فاختلط المشروع بغيره فعاد الراجع إلى محض السنة كالخارج عنها، كما تقدم فالتبس بعضها ببعض، فتأكد الوجوب بالنسبة إلى من عنده فيها علم»(٢٧).

فلا يكفي أن يكون المرء صالحا في نفسه، بل لابد من تعدي هذا الصلاح لغيره، حتى لا تتقوى سلطة الباطل على سلطان الحق، لأن السكوت على الحق كتم للحق وللعلم. وهذا منهي عنه شرعا كما في الحديث النبوي الذي رواه أبوسعيد الخدري حينما قال: قال رسول الله ﷺ: «من كتم علما مما ينفع الله به في أمر الناس، أمر الدين ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار»(٢٨).

إن القيام بأمر الإصلاح والدعوة إلى الخير وإنكار الباطل أمر واجب، لقول رسول الله ﷺ «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطيع فبلسانه فإن لم يستطيع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٢٩)؛ ومن ثم فإن المكلف إذا فهم مراد الشارع من قيام أحوال الدنيا، وأخذ في العمل على مقتضى ما فهم، فهو إنما يعمل من حيث طلب منه العمل، ويترك إذا طلب منه الترك، فهو أبدا في إعانة الخلق على ما هم عليه من إقامة المصالح باليد واللسان والقلب(٣٠).

فلابد إذن من صد المبتدعة عن ابتداعهم وأهل الباطل عن باطلهم. وهذا المنع والصد والطرد يختلف حسب درجة ابتداعهم؛ ذلك أن «القيام عليهم بالتثريب أو التنكيل أو الطرد أو الإبعاد أو الإنكار هو بحسب حال البدعة في نفسها من كونها عظيمة المفسدة في الدين أم لا، وكون صاحبها مشتهرا بها أو لا، وداعيا إليها أو لا، ومستظهرا بالأتباع وخارجا عن الناس أو لا، وكونه عاملا بها على جهة الجهل أو لا، وكل من هذه الأقسام له حكم اجتهادي يخصه»(٣١).

ومن الجدير بالذكر أن الإمام الشاطبي لاقتناعه بوجوب الإصلاح وأنه لا عذر للقادر عليه في إهماله، لم يبال بالانتقادات الموجهة إليه من قبل المبتدعة والجهال، لأن سنة الله في الأرض اقتضت أن جميع المصلحين يلاقون من الأذى والنكال ما لا يعلم غيبه إلا الله. وهذا ما حصل لخير خلق الله وأحبهم إليه محمد رسول الله ﷺ لذلك أمر الله تعالى بالدعوة إليه وأوصى بالصبر على الأذى فيه. قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾(العصر: ١-٣).

الهوامش

١- حمادي العبيدي: الشاطبي ومقاصد الشريعة، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٢ه-١٩٩٥م، ص ١١٤.
٢- المصدر السابق نفس المكان، بتصرف.
٣- أبوإسحق الشاطبي الموافقات في أصول الشريعة، وعليه شرح جليل بقلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير شيخ علماء دمياط: الشيخ عبدالله دراز، مطبعة المكتبة التجارية الكبرى، عدد الأجزاء: ٤،ج٥/٧٦.
٤- المصدر السابق ج١/٢٥.
٥- انظر الاعتصام، ١/٢٧.
٦- الاعتصام، ١/٣٠.
٧- أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى بفاس سنة ٥١٤هـ: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ج١١/١٤١.
٨- المعيار المعرب، ج١١/١٤١.
٩- الاعتصام، ج١/٥٢.
١٠- الاعتصام، ج١/٥٢، بتصرف.
١١- الاعتصام، ج١/٥٢.
١٢- الاعتصام، ج١/٢٩.
١٣- المصدر السابق، ج١/١٣٤.
١٤- الاعتصام، ج١/١٣٤.
١٥- المصدر السابق، ج١/١٣٤-١٣٥.
١٦- الاعتصام، ١/٢٨.
١٧- المصدر السابق، نفس المكان.
١٨- المصدر السابق، نفس المكان.
١٩- المصدر السابق، نفس المكان.
٢٠- انظر الشاطبي ومقاصد الشريعة، ص ٣٤.
٢١- الاعتصام، ٣/ ٣٢٧.
٢٢- انظر الشاطبي ومقاصد الشريعة، ص ٣٤.
٢٣- محمد أبوالأجفان، فتاوى الإمام الشاطبي، حققها وقدم لها محمد أبوالأجفان، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ-١٩٨٥م، ص ١٩٣.
٢٤- المصدر السابق، نفس المكان.
٢٥- الاعتصام، ٢/٣٥٥.
٢٦- الاعتصام، ج١/٣١.
٢٧- المصدر السابق، نفس المكان.
٢٨- سنن ابن ماجه، ١/ ٣٠٩، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم الحديث ٢٦١.
٢٩- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، ١/ ١٦٧، رقم الحديث ٤٩.
٣٠- الموافقات، ج٢/٢٠٢.
٣١- الاعتصام، ج١/١٧٥.

«محمد كرد علي» يستعيد عوالم شيخ العروبة.. وشيخ المحققين

بين ديموقراطية زكي وأرستقراطية تيمور

صلاح حسن رشيد
ناقد أدبي مصري



كلاهما كان حجة في ميدان التراث والمخطوطات، وكلاهما كانت له ندوة عامرة يرتادها أهل الفكر والأدب في مصر. فندوة زكي باشا (شيخ العروبة) كان لها طابعها الخاص، في دار العروبة بالجيزة. وهناك ندوة أحمد تيمور (شيخ المحققين)» في دارته بالزمالك.

وبين الرجلين فوارق كبيرة في الطبع والسلوك والعمل؛ فزكي باشا رجل يحب الشهرة والدوي، ويرسل آراءه كالقنابل، على صفحات الجرائد، فيثير المعارك -كما يقول أنور الجندي في كتابه «الشرق في فجر اليقظة»- وهو قليل الصبر على الاعتكاف في مكتبته للبحث والمثابرة!

أما أحمد تيمور باشا، فإنه على العكس، يقرأ في صمت، ويعلق على هوامش المؤلفات، وهو لا يتصل كثيرا بالمجتمع، فهو يفضل العزلة من أجل نشدان المعرفة.

وصف كرد علي للأحمدين

وفي مجلة «المقتبس» رسم محمد كرد علي صورة قلمية للرجلين، فقال: «إنهما الأحمدان المصريان المعاصران. كان الأحمدان من أعز أصحابي، قضيت معهما منذ سنة ١٩٠١م إلى أن اختارهما مولاهما إلى جواره، أياما وليالي؛ فتمازجت أرواحنا تمازج الإخوان، وتصافينا تصافي الود. تيمور كان من عادته أن يتبسط في الحديث مع خاصته تبسطا لا يخرجه عن حدود الأدب والدعابة البريئة، والنكات، ثم ينقلب إلى البحث في الكتب: مطبوعها ومخطوطها، يخوض في كل ذلك من الجد بذوق وشوق، وتقدير وإنصاف، ويهتم كثيرا بأمر المسلمين والعرب والعربية».

وعندما سكن الإمام محمد عبده في حي عين شمس، اتخذ أحمد تيمور دارا إلى جواره مدة؛ فنقل إليها خزانة كتبه، لكن عندما انتقل الإمام محمد عبده إلى جوار ربه، اسودت الدنيا في عينيه، فانتقل تيمور إلى جهة أخرى، وبادر بنقل خزانة كتبه إلى إحدى مزارعه في مدينة قويسنا بالمنوفية. وبعد فترة، ابتنى تيمور دارة جديدة في الزمالك، فنقل لها مخطوطاته النفيسة.

ويذكر كرد علي أن تيمور «كان يتصدق في السر؛ بأن يجري مشاهرات إلى من قعد بهم الدهر عن الاكتساب، ويفضل على بيوت كثيرة من المحاويج، ويدر عليهم رواتب مقررة، تأتيهم في بيوتهم رأس كل شهر، ويأبى عليه شرفه ودينه ومكارمه إذاعة ما تجود به نفسه، لذلك أخذ العهود على من كان يعطيهم ما يقوم أودهم، ألا يذكروا أنهم يرزقون منه، ولما باح أحدهم بالسر، لضغط شديد وقع عليه، شق ذلك عليه؛ فقطع المشاهرات والإدرارات، متظاهرا بالضائقة»!

أخلاق تيمور باشا وكرمه

ويضيف كرد علي قائلا عن كرم تيمور باشا: «وعاد بعد مدة، يرسل بواسطة المصرف حوالات مالية بأسمائهم، وهم لا يعرفون مصدرها، بل إن المصرف نفسه لا يعرف حقيقة اسم المرسل؛ ولذلك صح لنا أن نقول: إنه كان لا ينفق ماله على غير العلم وعمل الخير، وكان يعالج في كتمان صدقاته، حتى لا تدري شماله بما فعلت يمينه! وكانت أطيانه تزيد، وريعها ينمو، ونعمته تفشو مع هذا البذل الكثير! وعندي من رسائله أكثر من مئة وأربعين رسالة، هي في خزانتي أجمل ذخر وذكرى».

وقد استغرق تيمور في التعليق على مخطوطاته جانبا عظيما من وقته، وإن غرامه بالكتب كان يتقاضاه صرف الساعات الطويلة أيضا، وإذا علمنا ذلك؛ لأكبرنا ما أتى به، خصوصا إذا علمنا أنه كان يتولى كل أمر بنفسه، حتى كتابة الفهارس!

تساهل زكي باشا

ويقول كرد علي عن أحمد زكي باشا: «إنه كان يتجوّز فيما لا يتجوّز فيه أرباب التقوى! فكأنه تخلق بأخلاق من عاصرهم وعاشرهم، وما رأى حرجا في ذلك! ويضطره العبث واللعب إلى الإسراف؛ ولذلك أنفق كل ما دخل يده من مال قرينته أولا، ثم من مال شقيقه، غير حاسب للأيام حسابا، وربما أفرط في ذلك، ولعل إفراطه كونه لم يعقب ولدا. وكانت له أشياء يستخرجها في مخطوطاته، أو من جزازاته، ومفكراته، ويتحف بها العالم العربي الحين من بعد الآخر، يقصد بها التعليم والإدهاش».

وطريقة زكي باشا في كتبه وترجمته ونشره أقرب إلى أن تكون غربية، منها إلى أن تكون عربية. والعربية في آثار تيمور باشا محسوسة أكثر من الإفرنجية. والإفرنجية في كتابات زكي شائعة أكثر من العربية، والروح الديني يتجلى في تيمور، والروح المدني غالب على زكي؛ فكأن هذا مستشرق شرقي، وذاك شرقي قبل كل شيء، شرقي بتقاليده وهدايته، وتربيته وثقافته. ولقد جال تيمور في دائرة ما أحب أن يخرج منها طول عمره، وكذلك كان زكي، إلا أن الدواعي والبواعث كانت تضطر هذا إلى تجاوز الحد الذي رسمه لنفسه، فلقد خاض زكي في المجتمع، وتغلغل في تضاعيفه، فقبله بما فيه من حسنات وسيئات أكثر من صنوه تيمور. وهنا تظهر أرستقراطية تيمور باشا، وديموقراطية زكي باشا؛ فقد كانت حياة زكي مرحة يتمتع بمباهجها، ومناعمها على ما يشتهي، وكان يتعجل النعيم لا يرجئه، وكانت حياة تيمور عابسة، فيها شيء من الانقباض، كما يقول كرد علي.

وكلاهما كان صادقا في مشربه، صادقا في سيرته، غير مدلس، ولا موالس، ولا متزمت، ولا متخافت! وإن عدد من أخذ عنهم تيمور من الشيوخ كان أكثر من عدد من أخذ عنهم زكي، وكانوا في ذاتهم أشد تدينا وغيرة على الدين؛ فجاء تيمور عالما إسلاميا قبل كل شيء، يحب الانتفاع بما أنتج أهل الغرب، وجاء زكي عالما شرقيا، يشبه العلماء الغربيين إلى حد بعيد.

وقد وصف خير الدين الزركلي تيمور باشا في مذكراته، لا سيما أنه كان من رواد صالونه الشهير، فقال: «إنه وقور، طويل الصمت، فيه تواضع ولين.. وما زلت أذكر إلقاءه بين يدي مذكراته يوم بدا لي أن أبحث عن تراجم المتأخرين، وقد عاصر بعضهم، وبادلهم الترجمة؛ فكانت لي منها فوائد كثيرة، وفي البعداء عن مصر من يعرف فضل تيمور أكثر مما يعرف أهلها».

بين الزهد والثراء

كما وصف الدكتور مجاهد الجندي -مؤرخ الأزهر الشريف- الفارق بين تيمور باشا، وزكي باشا؛ فقال: كلاهما كان وطنيا، محبا للعروبة، مدافعا عن الإسلام وحضارته، لكن تيمور باشا كان أقرب إلى أهل الزهد والتصوف؛ فهو لا يجد نفسه في مزارعه، وأمواله؛ ولكنه يجد نفسه بين أضابير المخطوطات، ومساعدة أهل الحاجات والمعوزين! أما زكي باشا؛ فكان أقرب إلى سمت الأثرياء، الذين يتنعمون في الخيرات، ولا يكاد يجد نفسه إلا في النعيم.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (١٩)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

لقد وصل بنا البسط والتناول في الحلقات اللغوية الآنفة إلى أن الفصاحة في الكلام هي موافقة سنن العرب في كلامها، ولأجل ذلك وضعت علوم الآلة لصيانة العربية من اللحن الذي انتشرت نيرانه في هشيم الفصحى؛ حتى اضطر الأوائل إلى التمييز بين الكلام الفصيح، وبين المرذول الناكب المجانف للصحة، رافضين أن يتدسس إلى ثوبها الناصع أي كلام مخسول تنبو عنه قواعدها ولا تستسيغه عبقريتها المتفردة على هذه الشاكلة: «وأما الفصيح من الكلام، فهو ما وافق لغة العرب، ولم يخرج عما عليه أهل الأدب. ولتصحيح ذلك وضع النحو، ولجمعه وضعت الكتب في اللغة، وذكر المستعمل منها، والشاذ، والمهمل. وحق من نشأ في العرب أن يستعمل الاقتداء بلغتهم، ولا يخرج عن جملة ألفاظهم، ولا يقنع من نفسه بمخالفتهم فيخطئوه ويلحنوه. واللحن ما خالف اللغة العربية، وخرج عن استعمال أهلها، وما بني عليه إعرابها. وهو معيب عند الأدباء في الجملة، وعلى من يأخذ نفسه بالإعراب، ويتكلم بالغريب من لغة الأعراب أعيب. ويروى أن عمر رضي الله عنه كان يضرب على اللحن. فأما العرب،



فإذا لحن الواحد منهم... سقطت عند أهل اللغة منزلته، ودفعت ورفضت لغته»(١). لأنهم يعلمون علم اليقين أن عواقب جنايات اللسان غير محمودة، ولذلك أخذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه بطرف لسانه قائلا: هذا الذي أوردني الموارد، كما كانت عثرات اللسان سببا في العزل من الوظائف أيام جدة العرب. يحكى أن أحد الأمراء ولَّى قاضيا بمدينة «قم» العراقية، ولما بلغه كثرة لحنه كتب إليه قائلا: «أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم». بل إن المقال في غير كنهه قد يفضي بالعاثر إلى الموت كما يقول الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه
وليس يموت المرء من عثرة الرجل
فعثرته من فيه ترمي برأسه
وعثرته بالرجل تبرا على مهل

على الرغم من أن هذه الصيحات المنذرة تعرف صعوبة حمل النفس والطبع على تغيير هذه العادة المنكرة، التي لا ترعى حرمة لقاعدة نحوية أو صرفية أو إملائية أو تعبيرية، كما تدرك المكابدة التي يقتضيها البلوغ بالمزورين على مغالبة ما ألفوه سنين عددا، فإن مع الذلة يحتاج إلى النصرة من هذه الدركات، التي أوقعها فيها الجاحدون المنكرون لآلائها.

وتعد هذه الحلقة اللغوية ومثيلاتها التي تسمع وتنشر في أرجاء الوطن العربي، الضربة القاضية التي تبيد الشك بالنسبة إلى المستقبل المشرق للعربية الفصحى، والسبيل الناهجة المهيع؛ المتجلية في انتقار المائدة اللغوية العربية الفصيحة التي ننشئ عليها شداتنا حتى تصبح الفصحى مركوزة في عقولهم، محبوبة لديهم، لا يرضون بالدون من الكلام، ولا يطوون كشحهم عن لغة القرآن الكريم، التي أوتيت من الفصاحة ما لم يؤتها غيرها من الكلم العربي، ولذلك يجب التعامل معها كالماء بالنسبة إلى السمكة؛ تموت إن نضب أو غاض عنها، أو بقي محتقنا لا تمده الفوالج والجعافر بالعناصر التي تضمن لها العزة القعساء ما توالى الأجدان.

تلك العزة القعساء التي ضمنها القرآن الكريم للعربية، هي التي أنهضتني لأري المنسلخين عن الفصحى لحا باصرا من فرائدها، رغبة في تحسين القدرة على استعمالها السليم، فيكتمل المراد من المقبول من قواعدها، وينتج الانغماس في أجوائها المشبعة بالصحة، لكي يثبت بقواطع الأدلة أن الذي يتكلم العربية الفصيحة ولا يحسن تلك القواعد التي لا يجوز أن نجعلها دبر آذاننا، ولا أن نوجد بديلا يخرقها ويقطع أوصالها مثل الذي يطلب جذوة نار في الماء.

ولكي أجلو المراد أؤكد أن الكلام العربي الفصيح يقوم على عناصر ودعائم ضرورية هي الأسماء والأفعال، لكنها تبقى مجرد أسماء وأفعال تحتاج إلى الحروف، والخوالف، والضمائر، التي تقيم صرحها وتهذب قلقها حتى يستقيم الكلام، ولا تقوم دونه عقبات الاتصال والتواصل، كما يبدو ذلك من هذه الجمل اللاحنة المبتعدة عن موارد الفصاحة التي أودعها الله في القرآن الكريم، حيث جذع الخطأ أنف فصاحتها على هذه الشاكلة: كلما انهزم الفريق، كلما كثر الهرج والشغب. وقولهم: لم يقم الجيش سوى بتفريق البعض من المشاغبين. لاشك أن حياصة مثل هذا اللحن العاطل عن زينة القواعد منا على طرف الثمام، إذا تصالحنا مع كتاب الله الذي أورد لفظة «كلما» ما ينوف عن خمس عشرة مرة دون أن يكررها، كما أن أرباب الألسنة الفصاح لا يكررونها البتة في الجملة الواحدة. قال تعالى من سورة البقرة، ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ ﴿٢٠﴾ ﴾، وقال من سورة النساء، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ ﴿٥٦﴾ ﴾، وقال من سورة نوح: ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾، قال عمر بن أبي ربيعة:

كلما قلت متى ميعادنا
ضحكت هند وقالت بعد غد

كما أورد القرآن الكريم لفظة «بعض» من دون تعريف، لأن معنى الإضافة يوجد فيها، كما تثبت الآية من سورة البقرة: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢٥٣﴾ ﴾، وقال أبوحاتم السجستاني: «ولا تقول العرب الكل ولا البعض، وقد استعمله الناس حتى سيبويه والأخفش في كتبهما لقلة علمهما بهذا النحو، فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب»(٢)، كما ليس من كلام العرب أن يقع حرف الجر بعد سوى. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوت ربي ألا يسلط على أمتي عدوا من سوى نفسها».

هذا -والله- العنوق بعد النوق، فمن أراد الفصحى وسعى لتخليصها من الوهية التي أوقعها فيها أصحاب الأفكار الكسولة، فليثوِّر القرآن، فهو بلا ريب عسل الفصحى الذي لابد أن تلعقه الضمائر الصحاح والألسنة الفصاح.

الهوامش

١- نقد النثر المنسوب خطأ لقدامة بن جعفر. ص ١٤٢و ١٤٣. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٢- لسان العرب. ابن منظور الإفريقي المصري. المجلد ٧. دار صادر بيروت. ١٤١٤هـ /١٩٩٤م.

براعة المنهج القرآني في استيعاب تزاحم المعاني

أ. د. خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية



إن فحص القرآن الكريم، بمعنى تدبره، يوشك أن يعلن عن ثلاثة إجراءات كلية جامعة قامت بعبء تحقيق الاستيعاب، والاستجابة إلى حقيقة تزاحم المعاني فيه. وهي الإجراءات التي تتلخص في ما يلي:

أولا: براعة استثمار الظاهرة الصوتية في الكتاب العزيز.

ثانيا: براعة الاستثمار المعجمي.

ثالثا: براعة استثمار التنوع القرائي (على مستوى البنية والتركيب).

وسنحاول أن نشرح كيف وظف القرآن الكريم هذه الإجراءات ليعبر إلى الحقيقة التي تحيط بأمر معانيه، وتزاحمها، تعاطيا مع الطاقة الاكتنازية المركوزة في تربته، أي في لغته، وهي الطاقة التي تهب كل جيل نصيبه من الثروة أو الكنز إذا أحسن التفتيش والبحث فيه.

استثمار الظاهرة الصوتية

يعد القرآن الكريم في أول النظر إليه ظاهرة صوتية، وهو حكم يتأسس على رعاية جانبين:

أ ـ تنزله مقروءا، وتنوع الأمر بهذا بدرجات، واعتبار ذلك تعبدا في حد ذاته.

ب ـ اعتماده المكون الصوتي في نظمه.

ولعل الوقف بما أنه ظاهرة صوتية

في أحد جوانبها يمكن أن يبرهن على كيفية استثماره، ليكون وسيلة ناجحة للترجمة عن تزاحم المعاني، وهو الأمر الذي جعل الوقف في مجمله غير لازم، بما يعني أنه تابع في بعض النظر للفهم، يحسن بحسن ما ينتج من معنى، ويتراجع الحكم بحسنه بتراجع الحكم بالحسن على ما ينتج عنه.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد مختلفا فيه من قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ ..﴾ (القصص:٢٥)، إذ يروي أصحاب الوقف عدم تفضيل الوقف على «تمشي»، ويعللون ذلك بأن مراد الله تعالى أن تأتي المرأة متسترة، ولا يفضلون البدء بـ «على استحياء قالت» حتى لا يخلو المشي من التعلق بمعنى الاستحياء. ولعلي لا أبعد إن قررت أنه من الأولى الوصل، بمعنى عدم الوقف على «تمشي» ولا على «على استحياء» وقراءة الآية كاملة، فيتعلق الاستحياء بحالها جميعا، مشيا وقولا، إذ الوقف على «تمشي» يخلص الاستحياء للقول، والوقف على «على استحياء» يخلص الاستحياء للمشي ويخلي القول منه، ومراد الله سبحانه استصحاب الاستحياء للمشي والقول جميعا.

وقد أنتجت رعاية هذه الظاهرة في الذكر الحكيم آثارا عميقة في معانيه، وما يخرج منه من أحكام عقدية، وعملية: فقهية وأخلاقية.

وقد درس بعض الدارسين صلة الوقف بالمعنى على ما تجد في كتاب الدكتور عبدالكريم إبراهيم صالح «الوقف في القرآن الكريم وصلته بالمعنى».

وثمة ظواهر صوتية أخرى يمكن عند تأملها، والصبر عليها أن تؤتي أكلها وثمراتها في مجال عطاء المعنى في الذكر الحكيم.

الاستثمار المعجمي

وبدرجة أكثر اتساعا من المحور السابق، يقوم التوظيف المعجمي بدور فاعل في تحقيق تزاحم المعاني، لا سيما في حرص الكتاب العزيز على استعمال كلمات ذات طاقة دلالية متنوعة، وهو ما جعل ظاهرة المشترك اللغوي، بما هو لفظ دال على أكثر من معنى في اللغة، تبرز في المقاربات العلمية المعاصرة، لا سيما في الذكر الحكيم.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما توقف أمامه المفسرون في تفسير تسمية ليلة القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ (القدر:١)، إذ أورد المفسرون معنيين توزعا على أربعة تفصيلات، (كما أورد الماوردي في النكت والعيون):

أ ـ معنى التقدير، ويتفرع عنه:

. أن الله سبحانه قدر فيها إنزال الكتاب العزيز.

. أن الله سبحانه يقدر فيها أمور السنة.

ب ـ معنى الشرف، ويتفرع عنه:

. ليلة مشرفة، لعظم قدرها وجلال خطرها.

. شرف الطاعات فيها وعظم قدرها والثواب عليه.

وهذا التنوع في المعنى مأتاه من الاكتناز في معنى الجذر اللغوي (ق د ر)، إذ هو أصل في المعاني التالية:

أ ـ القدر والشرف والمكانة الرفيعة والمنزلة السامية.

ب ـ القضاء والتقدير والتدبير.

ج ـ التضييق، في مثل: قدرنا عليه رزقه، أي ضيقنا عليه.

وهذه المعاني جميعا كانت مرادة، اختيرت هذه الكلمة لاستيعابها جميعا، إذ ليلة القدر، كما رأينا، ليلة شرف، وليلة تقدير، وليلة يضيق الله فيها منافذ النار!

ويتحقق الأمر كذلك بالتنوع في استعمال كلمات تبعا لاختلاف القراءات المتواترة، وهو طريق في الاستثمار المعجمي يحشد المعاني الكثيرة بتنويع استعمال الكلمات في الموضع الواحد، ومن أمثلته المشهورة المتداولة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ (الحجرات:٦)..

فقد قرئ: «فتبينوا»، وفي قراءة حمزة والكسائي وخلف: «فتثبتوا»، وهو أمر مقصود بحكم تواتر القراءتين، لتحقيق المعاني التالية:

أ ـ تثبتوا، تمهلوا وتأنوا.

ب ـ تثبتوا، اطلبوا الدليل الذي يوثق به.

ج ـ تبينوا، استوضحوا، وهو نوع ظهور منبثق من قوة الدليل، ووضوحه وعلانيته .

د ـ الفعلان يتطلبان تضافر الأدلة بدلالة اتفاقهما في صيغة الفعل المضعف أو المشدد.

والتبادل بين الفعلين مقصود، والله أعلم، ليجعل التمهل والتأني وطلب الدليل الموثق به واستفاضة الأمر ووضوحه، دلالات مركزية ظاهرة وواضحة لا يختلف حولها، لخطر القضية، وتعلقها بالدماء والأنفس!

مستوى البنية والتركيب

ظهر من آخر الفقرة السابقة أن التنوع المعجمي، الذي مورده القراءات المتواترة، باب من أبواب تحقيق تزاحم المعاني، بما يعني أن التنوع القرائي كان مستهدفا يرمي إلى تعظيم ما يختزنه الذكر الحكيم في خزينته من معان.

ويتعلق بهذا التنوع القرائي المقصود مظهران آخران هما:

أ ـ التنوع في استعمال الأبنية الصرفية، بمعنى ثبات الجذر اللغوي، مع استعمال متنوع للمشتقات المأخوذة منه، على ما نجده مثلا في: «مالك» و«ملك»، و«قاتل» و«قتل».

ب ـ التنوع في استعمال الطاقة الإعرابية، فيما سميناه في مقال آخر

باسم المثلث القرائي، أي إيراد الكلمة الواحدة في الآية الواحدة وقد قرئت بالحركات الإعرابية المختلفة طلبا لتنوع الناتج الدلالي.

وفي ما يلي أمثلة نكشف فيها عن كيفية توظيف الكتاب العزيز لمظاهر هذا المسلك العزيز فيه:

قراءة «مالك» على وزن فاعل المروية عن عاصم والكسائي وغيرهما، وقراءة ﴿ مَلِكِ ..﴾ (الفاتحة:٤) على وزن فعل من غير ألف مدية عن ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة وغيرهم. هذا فضلا عن قراءات أخرى لم تتواتر مثل: مليك، وملاك، وملك (بكسر الميم)، وإنما كان ذلك لتحقيق الإحاطة بمعاني الهيمنة والسيطرة المادية والمعنوية جميعا، إذ إن الأمر كما يلي:

أ . مالك: الشديد، والمتملك، من ثبات الملكية ودوامها.

ب. ملك: القادر، ونافذ الأمر، والأعلى شرفا، والعام في التصرف.

ولله مراد أن يؤسس في نفوس المؤمنين به جمعه الأمر وامتلاكه وقدرته ونفاذ أمره وهيمنته، وهو ما حققه تنوع استعمال المشتقين الواردين من جذر لغوي واحد (مع ما روي من قراءات أخرى).

ومن ذلك أيضا التنوع في استعمال تصاريف الجذر اللغوي (ق ت ل) في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ (آل عمران:١٤٦)، إذ قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وغيرهم الفعل «قاتل» بألف، فعلا ماضيا. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وغيرهم الفعل «قُتِلَ» ثلاثيا مبنيا للمجهول، فضلا عمن قرأها: «قُتِّل» بالتشديد والبناء للمجهول في الشاذ الذي لم يتواتر، وهذا التنوع مقصود لتحقيق المعاني التالية:

أ . الحث على القتال، إذ الجهاد سنة الأنبياء ومن صحبهم، وهو المعنى المستفاد من «قاتل».

ب . لا يصح التخلف عن القتال، إذ هو ممتدح لفعل النبي -أي نبي- ومن معه من رجال الجيل الأول.

ج . ضرورة قيام المؤمنين بالدين، وإن قتل النبي -أي نبي- في المعركة، وهو ما يعني تواصل حمل الدين بعد وفاة الأنبياء.

د . حياطة معنى التحذير من التخاذل من الوجوه كافة، سواء من وجه وجود النبي فلا يصح التخاذل عن القتال معه، فجاءت قاتل من أجل هذا، أو من وجه قتل النبي فلا يصح تضييع أمانته، وخذلان دينه ولو كان بولغ في التقتيل، فمن أجل ذلك تنوع استعمال التصاريف المختلفة من الجذر الواحد.

ومن سبيل آخر ينوع القرآن الكريم إعرابيا تحقيقا لتزاحم المعاني، فيجري الإعرابات المتنوعة على الكلمة الواحدة في الآية الواحدة، وهو ما يعرف باسم المثلث القرائي، طلبا للمرادات المختلفة.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في إعراب كلمة «أرجلكم» في قوله تعالى: ﴿.. فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ..﴾ (المائدة:٦)، إذ قرئت «أرجلكم» بالطرق الثلاثة التالية:

أ . نصب اللام.

ب . ضم اللام.

ج . كسر اللام.

أما قراءة النصب فكانت عطفا على أيديكم، فيكون الأمر بغسلها من هذا الاعتبار.

وأما قراءة الرفع، فعلى أنها مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: وأرجلكم مغسولة إلى الكعبين.

وأما قراءة الجر، فعطف على رؤوسكم، مع تقدير فعل محذوف قبله، وقد كان ذلك التنوع لتحقيق المعاني التالية:

أولا: تأكيد غسل الرجلين، قراءة الجر والرفع.

ثانيا: التنبيه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها، فعطفت على المنصوب بـ «امسحوا» طلبا لتقليل الماء، مع تأمين معنى الغسل بوجود «إلى الكعبين»، إذ لا غاية في المسح، فلما أمن معنى الغسل بدليل إلى الكعبين، بقيت إرادة معنى الاقتصاد في الماء وعدم الإسراف فيه، ولو في الوضوء فعطف على المنصوب بمسح، إذ المسح أقصد في الدلالة بالتوفير والاقتصاد من الغسل، والاقتصاد مقصد معتبر في هذا السياق تشهد له النصوص الحديثية الصريحة، في مثل: «لا تسرف ولو كنت على نهر جار».

وبهذا يكون المعنى قد أحيط من ثلاث جهات، هي:

أ . العناية بغسل الرجلين لمكانتهما، وهو الناطق به إعراب الرفع.

ب . تأكيد غسلهما بعطفهما على المجرور، المأمور بغسله في الآية.

ج . الندب إلى الاقتصاد في الماء بعطفه على دلالة المنصوب بالفعل «امسحوا» مع ضمان معنى الغسل بدليل إلى الكعبين.

ومن هنا فإن هذا الوجه المعجز الجديد الدال على اكتناز الذكر الحكيم بالمعاني الكثيرة وجد طريقه في الظهور والاستعلان بتوظيف هذه الإجراءات اللغوية المتنوعة، صوتيا وصرفيا ونحويا وقرائيا، ولا يزال الكتاب العزيز يعطي مع مداومة النظر فيه، والفحص لأسراره، والتدبر لآياته، ما يبعث على تأكيد قضية إعجازه وإبهاره ليستقر في نفوس الخلق، مع استمرار النظر، إعلانهم بلسان جامع أن صدق الله العظيم، وهو ما يستوجب شكر المنعم على نعمة القرآن الكريم الذي يمثل طريقا عامرا لتحقيق شفاء الإنسانية ورحمتها.

المتنبي.. شاعر العربية ولسانها الحكيم

التحرير



عقد منتدى الأدب الإسلامي في المركز العالمي للوسطية في الكويت، مجلسه الأدبي الشهري، وسط حضور جماهيري غفير من رواد الأدب الإسلامي الهادف ومحبيه، والذي انطلق تحت شعار «المتنبي... شاعر العربية ولسانها الحكيم»، للدكتور محمد حسان الطيّان، رئيس مقررات اللغة العربية في الجامعة العربية المفتوحة بالكويت.

وافتتح الطيان المجلس بالإشادة بمكانة المتنبي بين الشعراء، وكيف أصبح حديث المجالس الأدبية أينما ذكر، ومكانته المرموقة بين أصحاب الأدب، كعلم من أعلام الشعر العربي. ثم وضّح كيف نشأت الأجيال المتعاقبة على معايشة معاني شعره الغزيرة التي حفلت بالمشاعر الرفيعة والآداب السامية.

وعدد الطيان شهادات بعض علماء اللغة وأهل البيان في عبقرية المتنبي ومكانته كشاعر مجيد، وألمعي مجدد، ونبوغه الفطري، ومن هؤلاء: اللغوي المعروف ابن جني، الذي عاصر المتنبي، موضحا السمات التي ميزت شعره، وعلى رأسها أنه رسّخ في نفوسنا قيما نعتز بها، والمحمّلة من مكارم الأخلاق، وكيف أن أشعاره فاضت بصنوف الإعجاز.

وأفرد الطيان لبعض القيم المستنبطة من شعره، كالمروءة مثلا، الصفة الغالبة في أشعاره. وبيّن حاجة أجيالنا إلى التربية على مثل هذه المعاني السامية من طلب العزة، والمروءة، وبذل الوسع في تحصيلهما. وتساءل الطيان قائلا: لماذا أحيينا شعر المتنبي؟ وكيف أن شعره يتغلغل في ضمائرنا ومشاعرنا وأحاسيسنا؟ منتهيا إلى أن السبب يكمن في أن شعره يتكلم عن خواطر الناس، وأنه ينتزع الطموحات، وكيف أن الناس عايشوا أبياته في حياتهم اليومية العادية، وبرهن على ذلك باستشهادهم بها كأمثال سائرة تضرب في العديد من المواطن، لما ارتسم فيها من الإيجاز في الكتابة، والإحكام في الكلام، وعصارة التجارب.

وتطرّق الطيان إلى ميزة أخرى غلبت عليه، وهي أن شعر المتنبي استطاع أن يحافظ على الهوية أو التراث أو الكينونة العربية، كونه عربيا حتى النخاع، غيورا على لغته. ثم ألقى بعض الأبيات التي تعرض تباكي المتنبي على ضياع هيبة الخلافة الإسلامية وضعفها، واللذين ترتب عليهما ميلاد ثورة عارمة في شعره كنتاج لما تمر به نفسه من ثورة ذاتية على الظلم والطغيان والاستكانة، فهو يأبى الذل، ولا يستسلم للهوان، ويرى أن الثمن غال ولا ينال إلا بالتضحيات.

١٠ طرق لمواجهة الإحباط واليأس

د. آندي حجازي
أكاديمية من الأردن



يتعرض الإنسان في حياته اليومية للكثير من المشكلات ومواقف الفشل أو عدم الوصول للنجاح المرغوب فيه، بالإضافة إلى تعرضه لظروف أقل ما يمكن أن توصف بأنها سيئة أو محبطة، فعلى سبيل المثال: ما نعيشه اليوم في عالم الواقع من خلافات ونزاعات عربية وأخبار يومية مؤلمة- والتي لا يُعرف منتهاها- يثير الكثير من مشاعر الحيرة والإحباط وفقدان الأمل، وكأن باب الأمل بات مغلقا، وأن ما بُني في سنوات كثيرة قد يهدم في لحظات أو أيام قليلة!

ولكن الرائي للواقع اليوم ينظر لما هو حاضر ولا يعلم ما هو آت، ولا ما يخبئه القدر له من أحلام وآمال قد تكون أفضل من الواقع، فعلينا التطلع للمستقبل بعين الأمل والتفاؤل بغد أفضل حتى لا نصل إلى مرحلة اليأس والقنوط من واقع مرير (النظر للجانب المليء من الكأس)، وعلينا أن نحاول رؤية عالمنا بأفضل مما هو عليه الآن، فنرنو ببصرنا لإشراقة فجر جديد، فجر تشرق فيه شمس التطور والتغيير، والعدل والتسامح، والنهضة والعمران، والأمل في الله بتغيير الحال.

إن مشاعر الإحباط للفرد تأتي من عدم النجاح والفشل المتكرر في مواقف متعددة أو متتالية، وعدم القدرة على فعل ما يريد، كأن يبحث عن عمل ولا يجد ما يناسبه لعدة محاولات متتالية، أو يحبط نتيجة عدم التوصل لحلول للمشكلات التي يواجهها هو أو مجتمعه، وليس الفرد فقط من يقع بالإحباط واليأس، بل أحيانا شعوب بأكملها تصل لحالة الإحباط.. فخروجها من مأزق ودخولها في مأزق آخر يتسبب في توليد مشاعر الإحباط واللاأمل.. ولكن الفشل وعدم تحقق الأهداف يفترض به أن يعلّم الإنسان مواقف جديدة للنجاح والتقدم نحو الأمام وتجاوز الواقع، فلا يرتكب الأخطاء نفسها، ولا يدع الزمان يكرر نفسه، بل يبحث عن حلول جديدة تعينه في واقع حياته، وفي تحسين ظروف مجتمعه.. فالناجح يرى من كل عقبة فرصة للتعلم والتقدم والنجاح، والمهزوم يرى من كل فرصة نجاح عقبة وإحباط!

لكي تقف من جديد بعد موقف تعثر وألم، وتخفف من آلامك وأحزانك ومشاعر الإحباط لديك؛ أنصحك بما يلي:

أولا: لا تنتظر الرحمة والعطف من الآخرين وتقديم العون لك؛ لأن هذا العون قد يأتي وقد لا يأتي، وهذا ينطبق على الشعوب كما ينطبق على الأفراد.. فلا أحد يشعر بما تشعر به من مشاعر، ولا أحد يستطيع أن يضع نفسه بالكامل في مكانك! فأنت المسؤول الأول والأخير عن نفسك، وعن نجاحك وفشلك، ونجاح وفشل بلدك! فالتغيير يبدأ من داخلك، والمعاناة قد تكون من ضرورات

التغيير أحيانا!

ثانيا: عليك بالجد والتعب والإصرار لتقف على أرض خصبة من جديد، فابحث عن حلول للمشكلات، ولا تقف عاجزا مهزوما أمام ما يصيبك، فادرس المشكلة من جميع جوانبها لتخرج بحلول إبداعية جديدة.

ثالثا: تذكر أنه قد يشاركك الآخرون في فرحتك بنجاحك وقد لا يهتمون بذلك! فإن شاركوك فاسعد بذلك، وإن حاربوك فتجاوز الوضع وكأن شيئا لم يكن، وإلا فإنك ستعود لدوامة الإحباط والفشل من جديد!

رابعا: حينما تشعر بالإحباط تحدث مع من تحب، ومن يحب لك الخير ومن يدفعك للأمام، فلا تجلس مع المحبطين والمهبطين للعزائم والمدمرين الذين لا يرجون لك الخير، حتى إن كنت تحسبهم من أعز أصدقائك أو أقربائك!

خامسا: لا تحاول الوقوف على كل كلمة جارحة أو موقف مؤلم.. وتجنب متابعة الأخبار المؤلمة والمحبطة (على القنوات الفضائية أو بالإنترنت) بشكل يومي إن كانت تسبب لك الإحباط، لأن بعض القنوات تتعمد إيصالك لتلك المرحلة من اليأس.

سادسا: حينما تمر على ذاكرتك مواقف الإحباط والألم والتي ستثير الانفعالات السلبية لديك، فحاول تغيير مجرى تفكيرك وذكرياتك.. فابحث عن ذكريات وأفكار سعيدة ومفيدة، بدلا من إغراق نفسك في دوامة الإحباط المدمرة لوضعك النفسي والصحي، وغيّر مكانك الذي تجلس به، ومارس أنشطة وهوايات تحبها.

سابعا: اعلم دوما أن الإنسان الناجح (والناجح فقط) هو من يتعرض للنقد والمحاربة ومحاولات الإحباط والتدمير.. فالبعض لا يحب أن يرى الآخرين بحال أفضل منه، أو يرى نجاحه بفشل الآخرين! فيعمل على محاربتهم، وتقويض نجاحاتهم بشتى الطرق! وما أكثر هؤلاء في زماننا!

فلا تساعد أعداءك على تدمير ذاتك وتحقيق مخططهم، فتكون عدو نفسك، وتدمر إنجازاتك ونجاحاتك بنفسك وبأفكارك السلبية عن ذاتك وقدراتك! فركز على مصادر قوتك لا مصادر ضعفك.

ثامنا: عند الشعور بالإحباط والفشل جدد أهدافك وضع لنفسك خطة جديدة لتنفيذها وحاول التمسك بها ومتابعة تحقيق ما أمكنك منها، وعزز نفسك في حال نجاحك بتحقيق أحلامك وأهدافك.. فدائما خط بأناملك خطة جديدة تمحو بها إساءات الماضي.

تاسعا: تذكر أن الأنبياء والعظماء والعلماء تعرضوا للكثير من مواقف الإحباط والفشل، ولكنهم لم ييأسوا من رحمة الله تعالى ومن إمكاناتهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ (يوسف: ٨٧)، فالأنبياء استمروا في طريق الدعوة بكل ما أوتوا من قوة لإيصال الرسالة التي كلفوا بها، ولولا قوة عزمهم لضاقت بهم الأرض بما رحبت ولتوقفت دعوتهم منذ اللحظات الأولى في مسيرتهم، فليس لك أسوة خير من أنبياء الله تعالى في صبرهم وتحملهم الأذى ومواجهة مواقف الفشل والإحباط وكيفية تجاوزها، فتأمل قصة نوح عليه السلام مع قومه الذين لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم ويذكرهم بالله، وما آمن معه إلا قليل! وتذكر قصص سيدنا محمد ﷺ مع قريش وعداءهم له وإيذاءه وإخراجه من بلدته، وتذكر قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وقصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وصالح عليه السلام مع قومه... لتأخذ العبرة وقوة التحمل.

عاشرا: إن اجتاحتك مشاعر الإحباط فعليك بالتضرع لله عز وجل بالدعاء وقراءة القرآن الكريم والصلاة، فإنك حتما ستجد بها ما يسليك ويخفف عنك ويعينك على الخروج من واقعك المؤلم ويوصلك لحياة أفضل وأفكار أجمل، فلا يملك تغيير الحال إلا رب الكون ومدبر الشؤون والأحوال. ولكن إياك والاعتراض على قدر الله تعالى وما كتب لك، لأنك لا تعلم المستقبل، ولا تعلم أين سيكون الخير، فقد يكون الواقع في ظاهره العذاب ولكن في باطنه الرحمة، فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

فتذكر مثلا عندما تعرض رسول الله ﷺ لموقف أليم محبط عند دعوته أهل الطائف حيث صدوه وآذوه وأخرجوا فتيانهم وصبيانهم ليرموا عليه الحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، فجلس على إثرها ملتجئا لله تعالى بالدعاء والمناجاة بكلمات عذبة منها: «...إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، لكن عافيتك هي أوسع لي...»، ففي قمة موقف الشدة والابتلاء تخرج كلمات التوكل على الله تعالى وطلب الرحمة منه، فتتنزل على قلبه الطمأنينة وراحة النفس، ثم يبشره جبريل عليه السلام برضا الله تعالى، بل وباصطحابه في رحلة عليا مميزة فريدة.. رحلة الإسراء والمعراج لرؤية السموات السبع، ورؤية الجنة والنار، والدخول في عالم الغيبيات الإلهية بتقدير الله تعالى ورحمته، فلا رحمة أعظم من رحمة الله تعالى.

وأخيرا، اعلم أن بقاء الحال من المحال، فما تعيشه من إحباط وألم لن يدوم، وكلما ازداد الكرب والألم والضيق اقترب الفرج، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١١٠﴾ (يوسف: ١١٠).. فعليك بالإصرار والعزيمة على النجاح والتغيير والوصول للمبتغى، فنقطة الماء كفيلة بأن تثقب الصخر إن قُرنت بالمداومة!

أستاذ الفقه المقارن في كلية الشريعة بجامعة الأزهر د. عبدالفتاح إدريس:

الإسلام دين ودولة.. وشريعته حاكمة

إسلام لطفي - القاهرة
دار الإعلام العربية



أكد أستاذ الفقه المقارن في كلية الشريعة جامعة الأزهر، وعضو مجمع فقهاء الشريعة في أمريكا، الدكتور عبدالفتاح محمود إدريس، في حواره مع «الوعي الإسلامي» أن بمقدور المسلمين إعادة مجد حضارتهم ثانيا، إذا أخذوا بالأسباب التي أخذ بها سلفهم لتأسيس هذه الحضارة، مشددا على ضرورة تعاون الدول الإسلامية وتكاملها فيما بينها، في شتى مناحي الحياة لقيام نهضة إسلامية سلمية، وإلى نص الحوار..

• يموج المجتمع الإسلامي هذه الأيام بكثير من الفتن والضبابية.. فما تقييمك للوضع في الوقت الحالي؟

- لا ينكر أحد أن وضع المجتمع الإسلامي، في ظل المتغيرات الجارية من حوله، غير مستقر، باعتبار أن الدولة تعاني من قلاقل واضطرابات ونزيف داخلي، ينخر بنيتها التحتية، ومرتكزات اقتصادها وأمنها، فإذا ما تبدلت هذه الظروف يرجى أن يتحقق له ما يؤمله أهله.

• وما الأسباب التي أدت إلى تمزق العالم العربي الإسلامي لهذا الحد؟

- إن العالم العربي الإسلامي محفوظ طالما حرص أهله على مرضاة خالقهم. والله تعالى منحه نعما وثروات لم يحظ بها كثير من بلدان العالم، ولذا كان هدف الدول التي حرمت من هذا الخير، أن تنتهز الفرص لإحداث الوقيعة بين مواطنيه، بغية تمزيقهم وتشرذمهم، وإحداث الانفصال بين قطاعاتهم. وقد تحقق لها بعض ما تأمله، غير أن أكثر العالم العربي الإسلامي فطن إلى هذه المكيدة، ووجهوا طاقاتهم لإفشالها، حتى لا تؤتي ثمارها المبتغاة منها في الأمد القريب أو البعيد.

• يدعي البعض أن تخلف الأمة العربية على المستوى العلمي بسبب تمسكها بالدين والعكس بالنسبة إلى الغرب.. ما تعليقك؟

- ادعاء غير صحيح، لإن الإسلام يدعو إلى العلم والإجادة فيه، وفي التشريع نصوص كثيرة تحض على العلم وتحفز على الإجادة والتفوق، وإن أول آية نزلت تدعو إلى القراءة، التي هي آلة العلم، قال الحق سبحانه: ﴿.. يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (المجادلة:١١). واعتبر الله تعالى أن العلم والنبوغ سببان للخشية منه تعالى، وكلما ازداد المسلم علما ازدادت خشيته من الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر:٢٨). والأمة العربية ليست في مصاف الدول المتخلفة في العلوم، بل هي من الدول المتقدمة علميا، قديما وحديثا، وإن الكتب التي ألفها علماؤها قديما في الطب والرياضيات والفلك والهندسة وغيرها، هي التي أزالت الأمية العلمية لأهل الغرب في زمن لم يكن لديهم فيه ما يمحو أميتهم، ولم تعدم الأمة الإسلامية في حاضرها علماء يشار إليهم بالبنان في المحافل الدولية، وتتحني هامات العلماء في العالم إكبارا وإجلالا لما وصلوا إليه من علم.

• هناك جدل حول كون الإسلام دين أمة أم دين دولة.. في تقديرك ما الفرق بين الوصفين؟

- الإسلام هو دين الأمة ودين دولتها كذلك، باعتبار أنه الدين الذي يجب على الأمة أن تدين به، وهو دين دولتها بحسب أن شريعته يجب أن تكون هي الحاكمة على كل ما يتم فيها، وأن

تساس الدولة بهذه الشريعة، وأن تظهر شعائر هذا الدين وشريعته في كل أرجاء هذه الدولة، ولأن الإسلام هو دين الأمة فيلزم منه أن يكون دين الدولة. وكون الأمة مسلمة، بينما الأنظمة التي تحكمها ويتحاكم إليها الناس وتسير عليها وتيرة حياتهم غير إسلامية، فهذا لا يسوغ إقصاء دين الأمة عن دين الدولة.

• إلى أي طريق تسير الأمة الإسلامية في ظل التحجر الفكري الذي نعاني منه الآن؟

– لا يوجد تحجر فكري من الأساس حتى تعاني منه المجتمعات الإسلامية، فهذه الأمة منفتحة على كل الثقافات والمعارف العالمية وحضارات دول العالم، ويوجد تلاقح بين الأفكار في العالم الإسلامي وغيره، ولا يوجد تحجر إلا لدى بعض المغلوبين على أمرهم، ممن لا يقبلون فكر أحد، ولا يسمحون لصاحب رأي أو فكر بإبداء رأيه أو فكره في حضورهم، لأنهم تألهوا في أزمنة سابقة. وهؤلاء لا وزن لهم، ولا يبالي بهم أحد، ولا يعبأ بفكرهم أو رؤيتهم، لأن الزمن تجاوزهم، فلم يعد لهم وجود في واقع الحياة، ولا تأثير لهم فيه.

• متى يستطيع المسلمون أن يعيدوا ثانيا مجد حضارتهم؟

– باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك إذا أخذوا بالأسباب التي أخذ بها سلفهم؛ لتأسيس هذه الحضارة، إذ لم تكن هذه الحضارة مؤسسة على المال حتى يقال إن نقص الإمكانات المادية يحول دون ذلك. ولم تكن مؤسسة على القوة والقهر والغلبة، حتى يقال إن المسلمين تنقصهم القوة فضعفوا عن قهر غيرهم أو التغلب عليه. ولم تكن قائمة على الحيل، حتى يقال إن المسلمين لا يملكون وسائلها. إنما قامت هذه الحضارة الزاهرة، التي أذهلت العالم، شرقا وغربا، على الإيمان بالله تعالى، وأن دينه هو الدين الحق الذي يجب أن يسود الدنيا وأهلها، وأن ما يبذل في سبيل إظهار هذا الدين وإقناع الناس باعتناقه مرده إلى المعتقد، وأن كل ما

أمتنا منفتحة على كل الثقافات والمعارف العالمية وليست مصابة بتحجر فكري

يعمله المرء يجزى عليه. ولذا تفانى سلف الأمة في أن يكون لهم الريادة، ولحضارتهم الازدهار والرقي، وأن يكون لدينهم السيادة في العالم.

• مع التغيرات التي تشهدها بعض البلدان العربية يروج البعض لما يسمى بالدولة الدينية، ويبدون تخوفهم منها.. فهل لها وجود حقا؟

– إذا كان المقصود بالدولة الدينية تلك التي يقوم نظامها على الإسلام، وتحكم بشرعته، وتظهر فيها أحكامه، فما الذي يخيف الناس من ذلك، إلا أن تكون رغبتهم في التنكب على شرع الله تعالى، كما هو حادث في بعض بلاد الإسلام، فلا ينالهم حكم الإسلام، لتكون النتيجة المحتومة لذلك أن يبيض الفساد ويفرخ فيها، فتنتقل العدوى منها إلى غيرها، فيصير جسد الأمة مسرطنا بهذا الفساد. ألا وقد جربت بلاد الإسلام هذا الفساد الناشئ عن مدنية الدولة، فلتجرب الصلاح المتوقع على اصطباغها بشرع الله تعالى، منهجا وسلوكا. فإن البدن المريض إذا لم يُجد معه نوعٌ من الدواء، شرع في استبدال غيره به، مما يغلب على الظن برء هذا البدن به.

• ما الآليات اللازم توافرها لقيام نهضة إسلامية؟

– هناك عدة آليات مهمة لقيام نهضة إسلامية؛ أولها: تعاون الدول الإسلامية وتكاملها فيما بينها، في شتى مناحي الحياة، بما تملكه هذه الدول في مجموعها من ثروات بشرية وصناعية وزراعية ومعرفية، ونحوها؛ لتتحقق بها هذه النهضة، وأيضا لا بد من تفعيل دور منظمات العمل الإسلامي بحيث يتحقق المتغيب من سبب قيامها، وتبادل الخبرات المعرفية في شتى العلوم بين الدول الإسلامية، إضافة إلى استغلال البعد الاستراتيجي لهذه الدول، وموقعها الجغرافي، وثرواتها البشرية والطبيعية، وغيرها، ليكون لها الثقل والتأثير والدور الفاعل في المنظمات الدولية، وأن يكون لهذه الدول مجتمعة مؤسسات تمثلها جميعا، تعنى بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والأمنية، ونحوها، وتحقق توحيد وجهة هذه الدول أمام التكتلات العالمية.

• هل يمكننا الدخول في ثورة معرفية وثقافية بعد ثورتنا السياسية لتحقيق حداثة دينية؟

– هذه الثورة بدأت بالفعل، وصار للعالم الإسلامي دور فاعل فيها. والحداثة الدينية لا تفتقر إلى هذه الثورة المعرفية. فالدين الإسلامي دين مرتبط بالواقع، يتأثر به ويؤثر فيه. ولعلنا نلمس هذه الحداثة في تغير الفتوى والحكم الشرعي بتغير الزمان والمكان والأحوال والأشخاص، ووجود فقه جديد الآن يتخذ من قضايا العصر مادة له، ولا يكاد يوجد موطئ قدم لمن ظل متشبثا بالقديم يخرج منه ويعود إليه ويدور في فلكه.

• اللغة هي أحد المكونات الحضارية المهمة لأي أمة.. فما أسباب إهمال اللغة العربية في مجتمعنا العربي؟

– لغة الأقوى هي الغالبة، واللغة العربية في زماننا هي لغة الذين يعانون بعض الضعف من عدة جهات، اجتماعية واقتصادية وسياسية وأمنية، ونحوها، ولما كانت اللغة مرتبطة بالقوة المهيمنة على مجريات الأمور، وكانت الدول التي تتصف بذلك غير عربية، كان من المنطقي أن تكون للغتها السيادة والاهتمام، وجاء هذا على حساب اللغة العربية، لغة التشريع والعبادات والقربى، واللغة التي خاطب بها الوحي الإلهي نبي هذه الأمة.

• وما الأسباب التي أدت إلى تنامي الإسلاموفوبيا؟

– الأسباب تكمن في حب الناس لهذا الدين، وما يشتمل عليه من مثل تستريح لها النفس، وتسمو بها وتتسق

مع السلوك السوي الذي يحترم إنسانية الإنسان، دون النظر إلى معتقده وفكره وانتمائه وجنسه. ولذا، أقبل الناس على هذا الدين ينهلون من تعاليمه، ويؤمنون بما فيه، ويذعنون لها، فأوغر هذا الصنيع صدور غير المسلمين على هذا الدين ومن آمنوا به. ومن العجب أنه كلما أوقدوا نارا لصد الناس عن هذا الدين أطفأها الله سبحانه، وأتت برد فعل غير متوقع، وهو زيادة معتنقي الإسلام كلما زادت الدعوة إلى نبذه والبعد عن تعاليمه ومبادئه.

● هل ترى أن الغرب يدير صراعا خفيا على الإسلام تحت زعم الحريات وحقوق الإنسان؟

– هذا أمرٌ لا يُنكر، ويظهر جليا في تطاول السفهاء والسوقة فيه على رموز الإسلام، وتسفيههم معتقدات المسلمين، وهذا الاضطهاد المستمر للمسلمين في أي دولة من دول الغرب، بل إن هذه البلاد لو كانت تنادي بالحرية لتركت المسلمين فيها يمارسون شعائر دينهم وأعمالهم من دون مضايقات بسبب معتقدهم، ويتجولون بحرية في بلادهم، لكن القوم هنالك يعادون الإسلام والمسلمين من دون سائر الديانات الأخرى وأتباعها.

● علاقة الغرب بالإسلام، والإسلام بالغرب.. كيف توصِّفها الآن، لا سيما في ظل اضطراباتها الأخيرة؟

– غير المسلمين في بلاد الغرب يبغضون الإسلام وأهله في بلادهم وفي غيرها، باعتباره الدين الذي يدعو إلى الفضيلة والتحلي بمكارم الأخلاق، وجل من لا يدينون بالإسلام من أهل الغرب لا دين لهم، حتى وإن أظهروا أنهم يدينون بالنصرانية، فهم متحللون من كل تكاليفها، وأما علاقة الإسلام بالغرب فهو الدين الذي آمن به بعض الغربيين، ومن المتوقع في القريب أن تكون لأتباعه الغلبة في هذه البلاد. ولذا، كان التصرف الأحمق للمبغضين له، حتى لا يكثر أتباعه ولا تكون لهم الغلبة، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

● هل ترى أن حالة الكراهية والاحتقان التي نشهدها ضد المسلمين من الممكن أن تتغير؟

– هذه الحالة ستستمر أمدا غير محدود، ولكنها ستنحسر إذا كثر المسلمون في البلاد التي هم فيها، وكان لهم نوع من الولاية في مؤسسات هذه الدول، كالعضوية في حكوماتها، أو برلماناتها، أو مجالسها، أو كان لأنشطتهم التي يمارسونها تأثير على مناحي الحياة هناك، أو نحو ذلك، فإن من شأن ذلك أن ينزع سخيمة البغض من نفوس المرضى من أفراد هذه المجتمعات.

● يرى البعض أن المرأة المسلمة تعيش حالة من الإحجام على عكس ما تمتعت به في صدر الإسلام.. ما سبب ذلك؟

– نظرة هذا البعض قاصرة، فلا يوجد إحجام من أي امرأة في العالم الإسلامي عن القيام بدورها الفاعل في حياة الناس، بعد أن صارت حواء في كل المجتمعات الإسلامية –بلا استثناء– تمارس الأعمال المختلفة، تعليمية وطبية واقتصادية واجتماعية وشرطية، بل وعسكرية، فضلا عن مشاركتها في الحكومة، والحياة السياسية، والتمثيل الدبلوماسي، والقضاء، فلا يصدق على حالها بعد إفساح المجال لها في كل هذه الأنشطة ومشاركتها فيها، أنها ما زالت تعيش حالة من الإحجام.

● كيف يمكن أن نرسخ مفاهيم التسامح وقبول الآخر والتعايش السلمي بين أبناء الوطن الواحد؟

– ترسيخ هذه المفاهيم يكون من خلال نبذ العنف، واحترام نظام الدولة، ومؤسساتها، ورموزها، وأهل الحل والعقد فيها، وعدم الاعتداء على الأنفس والأموال والممتلكات، وعدم اختلاق المشكلات مع الآخرين.

● كونك أستاذ الفقه المقارن في كلية الشريعة والقانون.. إلى أي مدى ترى أهمية ذلك العلم في فهمنا لتطورات الواقع مع الإبقاء على ثوابت الشرع؟

– من الخطأ البين أن يدرس الفقه المذهبي بمعزل عن فقه المذاهب الأخرى. والمطلع على الفقه المذهبي يجد بين صور هذا الفقه ما يكون لأصحاب المذهب فيه رأي لا يمت إلى الإسلام بأدنى صلة، بل إن بعض الآراء الفقهية يدعو إلى الشطط الفكري، ويناقض مناقضة صريحة نصوص الشرع مما تعد نصا في حكم المسألة، وإظهار هذه الآراء على غير المتخصصين قد يفتنهم في دينهم، ويزلزل معتقدهم، بل ربما أوجد في نفوسهم شيئا من الريبة، وقد أمضيت قرابة نصف قرن بين سطور هذا الفكر الإسلامي، دارسا ومدرسا وباحثا وكاتبا ومناقشا ومعقبا، فألفيت أن دراسة الفقه مقارنة بين المذاهب الإسلامية هي السبيل الأقوم لفهم سبب اختلاف الفقهاء، وأسس هذا الخلاف، والوقوف على أرجح الآراء في كل مسألة خلافية.

● ما تقييمك للأزهر عبر التاريخ وفي الآونة الأخيرة؟

– الأزهر الشريف كان، وما زال، صرح الإسلام المنيع، ومنهجه الوسطي هو المنهج الذي قام عليه الإسلام، ولا يكاد يوجد أحد في شرق الدنيا وغربها إلا وتتلمذ على أعلامه أو أفاد من كتبهم ومؤلفاتهم وعلمهم، فدوره رائد في العالمين، وشمس الأزهر لن تغرب بإذن الله تعالى، وسيظل منارة العلم الشرعي لكل قاصد له. ودوره في الوقت الحاضر كدوره في ما مضى.. علماؤه شموس المعرفة، وضياء البشرية، أينما حلوا عرف قدرهم، ومحتوى علمهم، لا يملون من الدعوة إلى الحق، ولا يخشون في الله لومة لائم، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. وإن عطاء الأزهر لا ينضب، ولذا قصده طلاب العلم من كل حدب وصوب، رغم ما تعانيه دولته من بعض الاضطرابات، غير أنها لم تثن طلاب العلم من شتى أنحاء العالم عن الحج إليه، رغبة في التزود من معارفه.

أب فقد معناه

محمد عبدالقادر
كاتب مصري

كانت حروفها باكية كأنها قد عجنت بدموعها، حين تستمع إليها فكأنك تستمع إلى قلب مذبوح ينطق بشفتين!

قالت: ما أظن فتاة على وجه البسيطة قد اكتحلت عيناها مثلي بالأسى، لقد أسقمتني الهموم وأذابتني حتى كأنها محدودة بي من كل ناحية، قلت: أفصحي قالت: إن أبي- هداه الله- ينظر إلي على أنني سلعة وليس فتاة، بل وابنة له، فكلما تقدم لي شاب يملك من نفسه همة الشباب، ومن دينه أمانة وخلقا رفضه أبي بحجة أنه متوسط الحال، فهو لا يملك ما يملكه أبي من ثروة، ولم يكن في نظره إلا أحمق قد تطاول فقره على ثروة أبي، ثم لا يلبث أبي أن يعرض عن الشاب إعراضا يشعره بالطرد، فيخرج منكسرا على أنه لا يعيبه إلا عيب واحد لا تراه إلا عين واحدة هي عين أبي، كم لمحت له على استحياء، وصرحت له أمي، لكنه لم يفلح معه تلميح ولا تصريح حتى تجاوزت الثلاثين من عمري وأنا أشرب حزني، أرى الناس من حولي يعيشون ثم يموتون، وأنا وحدي التي جاءت الدنيا لتعيش سكرات الموت ثم تموت، فالموت بالنسبة لكل الناس واحد وموتي متكرر! ضاقت بي الدنيا وملت حياتي، ورحت أسأل الله الموت لأستريح من همي وغمي، لكني لم أجد الموت! قاطعتها وأنا أرى دموعا تسقط من عيني ما استأذنت إلا رفقا بنيتي بقلب شيخ كبير تكاد كلماتك أن تفتك به وتقطع حصونه، توقفت الفتاة عن الكلام، لكنها لم تتوقف عن النشيج، عندها شعرت بعاطفة الأبوة تتحرك في كل ذرة من ذرات كياني، كدت أن أقول لها: ما أملك لأبيك أن نزع الله من قلبه الرحمة، لولا أني خشيت أن يحملها قولي إلى ما لا يحمد عاقبته، عدلت عن هذا القول، ورحت أسمعها كلمات طيبة، وأنا أثق أن كلماتي وإن خففت شيئا من آلامها، لكنها أبدا لن تزيلها اللحظة الوحيدة التي تمنيت أن أجمع آباء الدنيا فأسألهم الواحد بعد الآخر هل أنت على ما قالت؟ يا إلهي ما أعجب أمر هذا الأب الذي لطالما سأل ربه الولد، فلما كان له ما تمنى إذا به يئده حيا: بيده، ألا ما أشد ظلم الأب عندما يستعذب عذاب ابنته، ويغض الطرف عن مطالب فطرتها، فإذا هو يفعل بها كما يفعل تاجر الجواري في سوق النخاسة، يقدم فلذة كبده لمن يدفع أكثر أو يعود بها إلى البيت منتظرا من يروي غلته ويشبع نهمه، لا يبالي بمشاعر ابنته وحسرتها، فإذا هي تتأوه تأوه المذبوح فتذبل ثم تذبل ثم تموت، أو تعيش وهي تنظر إلى أبيها نظرة المظلوم إلى ظالمه اللهم غفرا غفرا.



لقد وضع الله في الأب عاطفة فطرية تجعله محبوبا من أبنائه، لأنه دائما ما يقدم لهم أسباب محبته من رصيد تلك الفطرة، فمن أين جاء هذا الركام ليغطي صفاء الفطرة وروعتها؟ حتى غدا بعض الآباء يحرمون بناتهم حقوقهن مقابل أن يملأ الواحد منهم حجره مالا، ومعه يفقد معناه الجميل، ليصبح في عيون من حرمهم لا يزيد عن قدر هذه الوردة التي ذبلت، فهي لا تزيد عن مجموعة من القش مجتمعه.

إن الدنيا بجميع زخرفها وزينتها لا تساوي نظرة راضية من الفتاة لوالدها ليلة عرسها تبتسم في سعادة، فلا يدري الأب إن كان قلبه في جسده أم راح يشاركها ركب سعادتها، تحتضنه مودعة، ومعه تودع عالمها الصغير إلى عالم أكبر قد رسمت خطوطه بأحلامها، وصنعت معانيه بيدها مع رفيق دربها، إنها ابتسامة مشرقة تعطي للأب معناه، وتغمر قلبه سعادة، تلك السعادة التي يقولون عنها إنها الدنيا التي هي أوسع من الدنيا.

التفوق الدراسي.. فن المنافسة على القمة

منى السعيد الشريف
باحثة في الشؤون التربوية

الواقع العملي لا يعترف إلا بنوابغ المجتمع، فالكل بالإجماع يسعى صوب الطبيب الأمهر والصانع الأجود والخبير المحنك.. لذلك كان التفوق مطلب أصحاب الهمم العالية الذين يبحثون عن مكان راق في الحياة، يحدوهم الإصرار على التميز وعدم الاسترسال مع مطبات وعقبات الطريق، خاصة أن نصف درجة يمكن أن تغير مسار حياتهم وتهبط بهم في كلية قد لا يرغبونها، وعلى أعتابها تتحطم آمالهم وطموحاتهم.

إن التفوق الدراسي بات عملية ممنهجة ومنظمة، تتبع العديد من البرامج والتوجيهات، ولا تعتمد فقط على عامل الذكاء وحده، بل هو منظومة متناسقة من ترتيب الأولويات واستخدام للقدرات الذاتية والبيئية من أجل الوصول لقمة التفوق، وما أجملها من قمة، وما أعظمها من رحلة، تشوبها محن، لكن عبق ثمرتها يفوح وشذاها يدوم.

– التطلع إلى شرف الغاية: واعلم أن كل عمل امتزج بالإخلاص فهو قرين النجاح والفلاح، والإخلاص يهون مصاعب الطريق، فبين السفح والقمة مشوار طويل وتعب وكد وكفاح ومشقة ومثابرة، وصبر على الانكسارات التي ربما تفوق في عددها الانتصارات، ولن يأتي النصر لمن لا يصبر على بلائه ويواصل اجتهاده في عمله.

– الدراسة بالأساس مسألة دافع ذاتي، فإن وُجد هذا الدافع لدى الطالب كانت العملية التعليمية تسير بالطريق الإيجابي والمتميز.. اجعل نفسك في حالة نجاح مستمر، وفكر بالتميز دائما، وثق بنفسك أنك تستطيع أن تحصل على المركز الأول، ولا تحتجّ دوما بالعقبات.

– تحقيق التوازن بين العلم والعبادة: فلا خير فيمن يجتهد في طلب العلم ويفرط في العبادة، لذا يجب تحقيق التوازن بين الأمرين، يقول الإمام الحسن البصري: «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ (يعنى الخوارج)، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا».

ولابد أن تكون صحيح العبادة، فصحة العبادة طريق الصلاح والفلاح والسعادة، وهي علاج القلق والاكتئاب والحيرة وقلة الحيلة، قال تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الزخرف: ٦٨)، فأد الفرائض، واستزد من النوافل، واجتهد في قراءة القرآن الكريم، وجاهد نفسك عن المعصية إلى الطاعة.

– عادة يكون البدء في المذاكرة عسيرا، لذا يستحسن البدء بأعمال روتينية، كمراجعة درس سابق أو استكمال نقل درس ناقص.. تكون هذه التمهيدات بمثابة استعداد وشحذ على المذاكرة.. ومن المهم استغلال بواكير الصفاء الذهني في مذاكرة الدروس الصعبة، وترك المواد السهلة في نهاية فترات المذاكرة حيث لا يبذل الذهن المكدود كثير عناء في الاستيعاب والتحصيل.

– النفس بطبعها ملولة خاصة مع العادات اليومية ومنها المذاكرة، فحاول دوما التجديد في طريقة المذاكرة من الكتابة إلى الشرح الذاتي بصوت مرتفع نسبيا مع المشي في الغرفة، أو استخدام الرسوم، أو عمل تلخيص للموضوع، وأيضا تغيير أماكن المذاكرة سواء في البيت أو



حتى الذهاب إلى بعض الحدائق أو شاطئ البحر إن تيسر ذلك، ولا تنزعج من النسيان فهو أمر ضروري، ولابد من المراجعة أكثر من مرة لتترسخ المعلومة في ذهنك.

– حافظ على وقتك ورتب أولوياتك، ولا يفوتك البكور وبركته، واحذر من معوقات الوقت ولصوص الطاقة (الزوار والطفيليون، التسويف، عدم التنظيم، الانشغال بأهداف فرعية أو ثانوية، المشاكل العائلية).

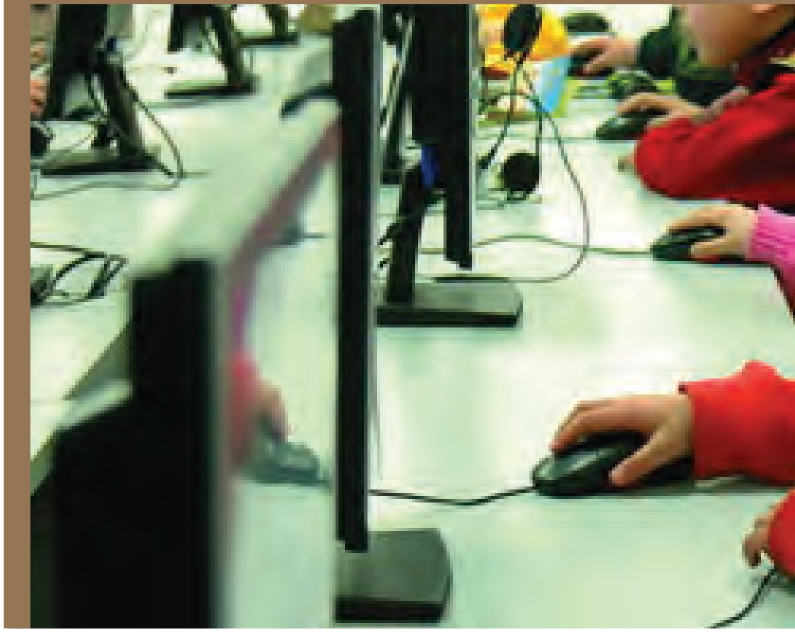
– إن كنت تعاني من ضعف الذاكرة أو مشكلة النسيان فاحرص على: المذاكرة كتابة لا مشافهة– احذر من الحفظ دون الفهم– اختتم مذاكرة الدرس بحل أسئلة عليه، فهذا من شأنه أن يرسخ المعلومات في ذهنك، ويدربك فعليا على أجواء الامتحانات.

– دعائم الذاكرة الجيدة ثلاث: التكرار– الربط والخيال– التنظيم.. وإياك أن تربط بين عدد الساعات وحصيلة الاستيعاب، لأنه لا علاقة بينهما.

– التسميع (شفوي أو تحريري) هو مرآة الذاكرة، وخير دليل على اختبار مدى رسوخ المعلومة في ذهنك، فهو يكشف لك مواضع ضعفك والأخطاء التي تقع فيها، كما أنه الوسيلة القوية لتثبيت المعلومات وزيادة القدرة على تذكرها لفترة أطول، فالطالب الذي يذاكر من دون تسميع ينسى بعد يوم واحد، ومعدل ما ينساه الطالب الذي يقوم بالتسميع يبدأ بعد ٣٥ يوما.

– لا تذاكر وأنت مرهق، ولا نعسان، ولا مشغول الفكر، ولا في الضوضاء، ولا مع المجموعة، ولا في الضوء الخافت، ولا في مكان رديء التهوية، ولا وأنت جوعان أو متخم بالطعام، بل ينبغي أن تكون المعدة بين الشبع والجوع.

– تحضير الدرس مسبقا من شأنه أن يجعل الدرس مجرد تعزيز للمعلومات في ذهنك، ويفعل المشاركة أثناء الشرح مع المعلم، ويستجلب الانتباه له، وسؤاله عن النقاط الصعبة في الموضوع، وقد قيل لابن عباس– رضي الله عنهما: «بمَ تحصلت على هذا العلم؟» فقال: «بلسان سؤول، وقلب عقول»، وكل هذا من شأنه أن يرسخ المعلومة في الذهن لتناولها بطريقة المعايشة، فضلا عن اختزال الجهد المبذول في المراجعة خاصة أوقات الامتحانات.



– الدراسة الاستنباطية من أمتع طرق الدراسة، فهي دعامة التفوق والإبداع، وهي تتمحور حول تحليل المعلومة والوصول إلى النتائج، ليس بالطريقة النمطية والطرق المملة والعقيمة، هذا مع ما يكتنفها من الشعور بالمتعة بتحليل المعلومة.

– عليك بالتزود بمعلومات أكثر من مجرد قراءة الكتاب المقرر، وتفهمها بعمق استعدادًا لأي تحليل أو استنتاج أو تطبيق خارج عن التمارين الموجودة في الكتاب المقرر.

– في الفصل الدراسي احرص على الجلوس في المقدمة حتى تصبح بمنأى عن مشوشات الزملاء، حيث يكون المدرس قريبا منك، فكلما ابتعدت عن المدرس زادت فرصة انشغالك، لأنك ستجد عشرات الرؤوس حولك مشاربهم شتى، أما في المقدمة فستجني كل الفائدة، كما ستعطي انطباعا خاصا للمدرس بأنك هنا لتنصت وتتعلم، لا لقضاء الوقت فحسب.

– ابحث عن صديق بارع تنافسه، فالصاحب ساحب، والمنافسة الشريفة تؤجج الهمة، وتقضي على بواعث الكلل والملل.

– خصص وقتا مناسبا لممارسة الرياضة وهواياتك، وللتنزه وممارسة بعض الأنشطة المدرسية، فهذا يريحك نفسيا ويبعث فيك أملا جديدا، واعلم أن من لا يجيد فن الراحة لا يجيد فن العمل.

– كل العائلات مهما كان دخلها أو مستواها التعليمي والمادي والاجتماعي تستطيع أن تتخذ خطوات محددة وواضحة من شأنها أن تساعد الطالب على التعلم بصورة متميزة، وهو ما يعرف بـ«عملية الاستغراق» أو «المشاركة الإيجابية» للوالدين، ومن أشهر أبجديات هذه العملية:

– الحرص على تنمية الحوار مع الأبناء من أجل التعرف أكثر على دواخلهم ومشاكلهم، بل ميولهم وتوجهاتهم وأحلامهم، وبالتالي تحديد طبيعة الدعم البناء الذي يمكن أن يقدماه له.

– متابعة أدائهم الدراسي ومشاركتهم فيه، كحل بعض الواجبات سويا، وتسميع المحفوظات وشرح المفردات الصعبة.

– إقامة حدود واضحة داخل البيت، كتنظيم أوقات الاستذكار والفراغ واللعب، ومتابعة طريقة قضاء الأطفال لها.

– خلق بيئة محفزة ومساعدة داخل البيت، وتجنب مصادر الضوضاء وأماكن وجود التلفاز والكمبيوتر وسائر ما يلفت انتباه الطالب، أو يشتت تركيزه.

– من المهم كآباء ومربين أن لا نرسل رسالة سلبية لأبنائنا مفادها أن مكانتهم وقيمتهم لدينا مقرونة بالمجموع الذي سيحصلون عليه نهاية العام، وإنما ينبغي أن تكون المكانة الحقيقية مقرونة بمدى ثقافتهم واستفادتهم ونظرتهم للعلم بحد ذاته كقيمة عليا في الحياة والمجتمع، وبذلك نمكنهم من محبة الدراسة، وتحقيق نتيجة باهرة متميزة من منطلق ذاتي مفعم بالمحبة للعلم وتوقير أهله.



الطفل.. بين الكذب والخيال

صبحة بغورة
كاتبة جزائرية

الطفل هو تلك الصفحة البيضاء التي تقع على الأهل مسؤولية الحفاظ عليها وطريقة العناية بها وبرمجتها؛ لكي يصبح الطفل فردا فعالا في مجتمع متطور. وطبعا يحتاج كل طفل إلى عطف والديه وحنانهما، كما يحتاج إلى أن يعتمد على نفسه في كثير من المواقف، وأن يتصرف كفرد له حقوق يجب أن نحترمها جميعا. لكن بعض الأطفال يلجأون إلى الكذب، لأنهم في مرحلة معينة، تمتد من ثلاث سنوات إلى اثنتي عشرة سنة، وهي مرحلة خيالية، يبنون أقوالهم على أحلامهم، مما يضطرهم إلى اختلاق حالة من الواقع الكاذب بالنسبة إلينا، وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بأن أولادنا يكذبون، لكن الحقيقة مغايرة تماما، ولهذا علينا أن نفهم أولادنا.

إن تأليف القصص في هذا العمر أمر طبيعي، والطفل يخترع هذه القصص من أجل المتعة، ومن دون أن نشعره بالذنب علينا أخذ عنصرين بعين الاعتبار: أولا، وظيفة الكذب. وثانيا، استمراريته وتطوره.

فالكذب عند الطفل ملكه الشخصي ورغبته في ألا يقول كل شيء. وهو في هذه المرحلة لا يملك القدرة الذهنية لتمييز العالم الحقيقي من الخيالي، وتطور النطق السريع لهذه المرحلة يوضح لِمَ يستمتع باختراع وتأليف القصص أمام الآخرين. لكن في الثامنة من العمر يميز الطفل بين الصح والخطأ في محيطه، وهذا أمر طبيعي في مجرى التطور الأخلاقي عند الإنسان. ففي مثل هذا العمر تترسخ الأخلاق والقيم الاجتماعية، ويتعلم الطفل أن قول الحقيقة شيء مرغوب فيه اجتماعيا. ومن ناحية أخرى، يتعلم أن الكذب قد يساعده في الدفاع عن نفسه في مواقف معينة. في الطفولة تعتبر هذه الأكاذيب طبيعية، فالطفل لا يميز عالم الواقع من الخيال فهما مندمجان عنده، لأن الوعي الأخلاقي لم يتشكل لديه. وهذا النوع من الكذب يزول عندما يكبر، لكن كثيرا من الأسر لا يستطيعون التمييز بين حالتي الكذب والتخيل والفروقات الكمية والنوعية بينهما، مما يولد عندهم ردود فعل متناقضة، في طبيعتها ونتائجها.

«طفلي يكذب».. هذه صرخات نسمعها كثيرا من قبل الأمهات اللواتي يعانين من كذب أطفالهن، والطفل بخياله ينسج قصصا وحكايات هو البطل في أغلبها والضحية، وهن يعتبرن قصصه نوعا من الكذب والسلوك الخاطئ الذي يستحق عليه العقاب أو عدم الاهتمام بما يقوله، أو التعامل معه بطريقة سلبية، بمعنى توجيه اللوم إلى الطفل كشخص لا توجيهه إلى سلوك الطفل بأسلوب دافئ محبب يشجعه على تنمية توجهات داخلية قادرة على إكساب شخصيته مبادئ السلوك الإيجابي وأساسياته. إن تقبل الوالدين لطفلهما يعد مصدرا من مصادر تقبل الطفل للمعايير الأخلاقية والأحكام الاجتماعية المقصود توصيلها إليه من أجل بناء شخصيته بناء سليما.

والحقيقة التي لا يعرفها البعض أن هذا الخيال الطفولي ما هو إلا لبنة أولى في بناء شخص قاص أو مؤلف أو روائي، أو نتيجة الخوف والانتقام والتجاهل من جانب أسرته وعالمه الصغير.

المشكلات السلوكية التي تطرأ على بعض الأطفال غالبا ما تكون

بحاجة إلى معالجات حكيمة من طرف الأسرة. فالطفل في سنواته الأولى، وتحديدا عندما يبدأ الكلام ويحرك عينيه تجاه الأشياء المرئية والمسموعة، يستطيع أن ينتج شيئا ما. ومشكلتنا أننا نقيّم هذا الشيء بعقولنا -نحن الكبار- على أنه كذب وضرب من المبهمات لا يستحق أن نوليه أي اهتمام أو تأمل، من دون أن ندرك أن هذا الطفل يعيش مرحلة استهلاك عالمه بجميع ما أوتي من إمكانات، حسية وحركية وإدراكية، كي يتعارف على ما هو غامض بالنسبة إلى عقله. قد نراه يتحدث ويلعب مع الحيوانات الأليفة، وقد نجد الفتاة تشتكي لدميتها قساوة والدتها، وكثيرا ما نقابل هذه الأمور -للأسف- بنوع من الاستهجان والاستخفاف واللامبالاة، وهو أمر ينعكس بالسلب على الطفل، لأن أحدا لم يشاركه عالمه الصغير، وكثيرا ما يراها الكبار أوهاما وخرافات يقصها أطفالهم عن مغامراتهم الخيالية أو أفعالهم المعجزة، متناسين، في الوقت نفسه، مغامراتهم الخيالية التي كانوا يقومون بها في فترة طفولتهم.

إن الطفل الذي يحكي عن مغامراته حين استطاع أن يوقف انحدار السيارة من منعطف خطر بقوة عضلاته، لا ينبغي، بحال من الأحوال، أن يقابل الكبار خياله بالسخرية، فهذا سينتج عند الطفل شخصية ساخرة، مما يحولها في المجالات العملية إلى متهكمة في واقعها الاجتماعي، مستهترة، غير مبالية بما يحيط بها من مشكلات حياتية متنوعة.

تتكون لدى الطفل عادة ملامح مغامرات يندمج فيها مع صورة الطفل في قصص الجدات المسائية بحيث لا يستطيع الانفصال عن هذا العالم الثري الذي يشبع فضوله ويرضي غروره، ويحمله إلى عالمه الساحر، الأمر الذي يجعل من هذه الحكايات منعكسات يومية لتصرفاتهم وقصصهم عن وقائع حياتهم الحافلة بمواقف البطولة والحب والخير ومساعدة الآخرين، خصوصا مع اتساع العصر بدخول الكمبيوتر والإنترنت وبرامج الأطفال، وهي بها من عوامل الجذب والتقليد أكثر من عوامل التخلق بالمبادئ والمثل العليا، بمعنى أن الطفل في هذه السن لا يعي معنى المبادئ والأخلاق، فكيف نكذبه من دون أن يعرف الصدق وعواقب الجنوح عنه؟ فهو يحكي ويتحاكى ويدخل الماضي في الحاضر لكي يخرج في النهاية بقصة رأى نفسه بطلا بداخلها كي ينال من والديه كلمة إعجاب أو ثناء أو هدية، إذ الخيال في مرحلة الطفولة المبكرة هو أمر لا بد منه، بل ومفيد إن أحسنا معايشته مع أطفالنا بالإصغاء والتنمية بعدة وسائل، منها الرسم والموسيقى والرياضة والكتابة والقراءة، على قدر استطاعته، وتهيئة الأجواء النفسية المريحة في الأسرة. فالطفل المطمئن لا يكذب، أما الطفل الخائف فيلجأ إلى الكذب كوسيلة للهروب من العقاب، والطفل الشجاع الذي يعترف بذنبه لا داعي لمعاقبته بل يكافأ على اعترافه بالخطأ مع التوجيه الدقيق بألا يستمر في الوقوع في الكذب.. واتهام الطفل بالكذب قبل التأكد يجعله يألف اللفظة ويستهين بها، كأن نتهمه ثم نسحب اتهامنا بعد ذلك، حيث إن هذا التصرف يضعف موقفنا التربوي. والمفروض من الآباء والمربين والمدرسين التنبه إلى هذه المسألة الشائعة كثيرا، وليكن شعارنا كل إنسان بريء حتى تثبت إدانته وليس العكس.

بعض الآراء التربوية في هذا المجال تشير إلى أنه من القواعد المتبعة في مكافحة الكذب ألا نترك الطفل يمرر كذبته على الأهل والمدرسة، لأن ذلك يشجعه ويعطيه الثقة بقدرته على ممارسة الكذب دائما، فبمجرد إشعارنا له أننا كشفنا كذبه فسوف يحجم في المرات التالية عن الكذب. ويمكن معالجة الكذب بالعدالة والمساواة بين الإخوة، وتنمية ثقة الطفل بنفسه، والمعالجة النفسية للمصابين بالعقد، والتزود بالقيم الدينية، وإشباع حاجات الطفل وتوجيه سلوكه نحو الأمور التي تقع في دائرة قدراته الطبيعية، مما يجعله يشعر بالسعادة والراحة، عكس تكليف الطفل بأعمال تفوق قدراته مما يؤدي إلى الفشل والإحباط والكذب. أما الأطفال الذين يميلون إلى سرد قصص غير واقعية فتأتي معالجتهم عن طريق إقناعهم بأننا نرى في قصصهم خيالهم الواسع، ولكننا بالطبع لا نفكر في قبولها أو تصديقها لحقيقة واقعية، وذلك أفضل من العقاب البدني أو السخرية. وتعليم الطفل أن الصدق ينفعه، ويخفف من وطأة العقاب في حال ارتكب الخطأ، والكذب يؤدي به إلى فقدان الثقة بالنفس والحرمان وفقدان احترام الآخرين له. فدورنا يجب أن يكون إيجابيا في حل مشكلات أطفالنا عن طريق التفكير العلمي الموضوعي السليم، فلجوء الطفل إلى الكذب إما لأن يظفر بمرغوب، وإما أن ينجو من مرهوب بوسيلة كانت في الماضي القريب براءة أطفال ودليل موهبة، حولناها -نحن الناضجين- إلى سلوك خاطئ عندما تركنا أطفالنا يندمجون في خيالات ناعسة وناعمة بمفردهم من دون مشاركة أو تنمية أو تنبيه، إذ أدى الخيال بهم إلى تقمص دور أبطال الخيال في الأفلام أو البرامج. فما علينا إلا أن نلازم أطفالنا في مشاعرهم وأحاسيسهم. وإن الخيال هو إحدى ثمار مرحلة الطفولة كما أحلام اليقظة في مرحلة الشباب، والتعامل معهم بالمشاركة والإعجاب والثناء بجانب جعل أنفسنا -نحن الكبار- قدوة لهم ومثالا في الصدق بالوعود والالتزام بالكلام معهم، وذلك بأن نعودهم على التخلق بالقيم الدينية والحياتية. وأن نلجأ إلى المتخصصين عندما يجنح الخيال ويتحول من تخلق إلى اختلاق قد يؤدي إلى أضرار جسدية ونفسية.



أهمية العربية عند الأطفال

د. مصطفى رجب
أكاديمي متخصص في اللغة العربية

اللغة هي أساس الحياة الاجتماعية، وهي ضرورة من أهم ضروراتها، لأنها وسيلة التواصل بين الناس، ووسيلة الإنسان للتعبير عن حاجاته ورغباته وأحاسيسه ومشاعره، وأداته الوحيدة في تصريف شؤون عيشه، وللتخاطب مع الآخرين والتفاهم معهم وتبادل الآراء والأفكار، وسبيله إلى معرفة مذاهبهم ووسائل التأثير منهم، وإيجاد العلاقات وبناء الروابط بينهم، وتحقيق سبل التعاون والتكافل معهم.

ومن ثم فاللغة هي السبيل لتوفير الحماية والرعاية للإنسان بين أفراد مجموعته، وعامل مهم تتحقق به منافعه ورغباته، وتسهل سبل تنشئته وتيسر أموره، واللغة وسيلة الإنسان إلى تنمية أفكاره وتجاربه، وإلى تهيئته للعطاء والإبداع والمشاركة في تحقيق حياة متحضرة، فبواسطتها يختلط بالآخرين وتقوى علاقاته مع أعضاء أسرته وأفراد مجتمعه.

ويرى التربويون أن هذا الامتزاج يمكن أن يكسب الإنسان خبرات متنوعة، وينمي قدراته ومهاراته المختلفة، واكتساب هذه الخبرات وتلك المهارات يزداد كلما نمت لغته وتطورت وزادت علاقاته بالآخرين اتساعا ونماء، وهذا ما يجعل الإنسان أكثر وعيا وإدراكا وأكثر قابلية للإنتاج والمشاركة في تحقيق التطور الفكري.

وإذا كان للغة هذه الأهمية في حياة الإنسان عامة، فإن نموها لدى الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة، كما يقرر التربويون، يمكّنه من إدارة حياته على أفضل وجه ممكن، لأنها تساعده في تكوين عالمه بكافة أبعاده وجوانبه، وتمكنه من التعرف على الأشياء من حوله، وللغة ارتباط وثيق بكل من تفكير الطفل وذكائه ونمو قدراته، بل إن أي تأخر في لغة الطفل يؤثر تأثيرا مباشرا على مستوى تفكيره وإدراكه.

فاللغة إذن ذات فائدة كبرى في زيادة قدرة الطفل على السيطرة ليس فقط على بيئته التي يعيش فيها، بل أيضا على دوافعه واتجاهاته وحاجاته.. فالطفل يعبر عن دوافعه واتجاهاته ورغباته وحاجاته إذا كان مالكا لناصية اللغة ومسيطرا على أساسياتها، فهناك دائرة متصلة الحلقات بين اللغة والتفكير والتعبير لدى طفل هذه المرحلة، فسماع الطفل لكلام الآخرين يبعث على التفكير، والتفكير تعبير، والتعبير يكون عادة باللغة، وتواصل الطفل مع الآخرين يساعده على التحول من اللغة الذاتية إلى اللغة الاجتماعية، وذلك مرهون بخبرات الطفل والفرصة التي تتاح له في مرحلة ما قبل المدرسة، لتحتل

اللغة هنا مكانا مهما بين المهارات التي تسعى الروضة لإثرائها، وبخاصة لغته القومية بما تتضمنه من قيم ومفاهيم متنوعة، فثراء اللغة القومية لطفل الروضة هو أساس تمسكه بكل ما تتضمنه من قيم واتجاهات ومفاهيم، حماية له من خطر التعايش مع لغات أجنبية متعددة ذات اتجاهات ومفاهيم متناقضة.

وتؤدي اللغة لدى الطفل عدة وظائف، فهناك الوظيفة الاجتماعية، باعتبار أن اللغة أداة اتصال وتفاهم، وهناك الوظيفة العقلية باعتبارها أداة لتكوين المفاهيم والاتجاهات، ولها أيضا وظيفة نفسيه حين تصبح أداة للتعبير عن النفس والوجدان، وأخرى جمالية باعتبارها وسيلة للتعبير عن التذوق الحسي والجمالي، واكتساب اللغة في مرحلة ما قبل المدرسة يزيد قدرة الطفل على التواصل مع الآخرين، والاندماج والتكيف معهم.

لذلك تشكل مرحلة ما قبل المدرسة مرحلة من أهم مراحل حياة الإنسان، إذ يكون فيها الطفل قابلا للتطور والتغيير والتشكيل، فلهذه المرحلة أبلغ الأثر في تكوين شخصية الطفل وبناء اتجاهاته وتعزيز دوافعه وإشباع حاجاته، وإذا كانت لغة الطفل تتأثر من حيث المفردات والتراكيب والقواعد بأكثر الأفراد مخالطة له، فطفل هذه المرحلة يقضي معظم وقته سواء في البيت أو الروضة أمام أفلام ومسلسلات كرتونية أجنبية ومدبلجة؛ معجبا بأبطالها، غارقا في التفنن بمحاكاة سلوكاتهم وإيماءاتهم ولغتهم، حتى إن لغته تكاد لا تختلف عن لغتهم، ليردد ويكرر العبارات والألفاظ التي ينطقونها بسرعة مذهلة ومهارة فائقة، تعتمد على حب ما يظهر من شخصيات في هذه الأفلام والمسلسلات.. ومن ثم فالأمر ينذر بخطورة بالغة، لا تتوقف خطورتها على الطفل في الوقت الراهن فحسب، بل على مستقبل هذا الجيل الذي ينمو ويكبر في أحضان مفردات لغوية متفرقة، من شأنها إضعاف اتصاله بلغته الأم، حيث تأثر الطفل بلغة وثقافة أخرى تختلف عن لغته وثقافته القومية، يتبعه تأثر بأخلاقيات واتجاهات هذه اللغات منذ الصغر، يزيد المشكلة تعقيدا أن الإنتاج العربي من الأفلام والمسلسلات الكرتونية لا يضاهي الإنتاج الأجنبي، ولا ترتقي نسبه ليواجه القدر الهائل والمتزايد للإنتاج الأجنبي الذي يسد حاجة الطفل للتشويق والإثارة والمتعة، ومن ثم انجذاب الطفل عامة وطفل ما قبل المدرسة خاصة لما يسد حاجاته ويشبع دوافعه واتجاهاته، وغالبا ما يترك الطفل دون أدنى مراقبة وتوجيه أثناء المشاهدة، لينعدم التوجيه اللغوي والثقافي لجيل بأكمله.. ويزداد الأمر خطورة بانشغال الأم عن تربية طفلها وإيداعها إياه بالروضة لتتولى المعلمة مهمة حمايته ورعايته، بل ويجعلها المسؤولة الأولى إزاء إكساب الطفل المهارات المختلفة، بما فيها المهارات اللغوية، واستغلال ما يتمتع به طفل هذه المرحلة من خصوبة لغوية فائقة في القدرة على التكرار، واشتقاق المترادفات والأضداد، لتحقيق جودة الاتصال بين الطفل ولغته القومية، وما يتصل بها من عناصر ثقافية، فاللغة مفتاح لقيم الأمة وثقافتها، وعنوان نهضتها وتقدمها.

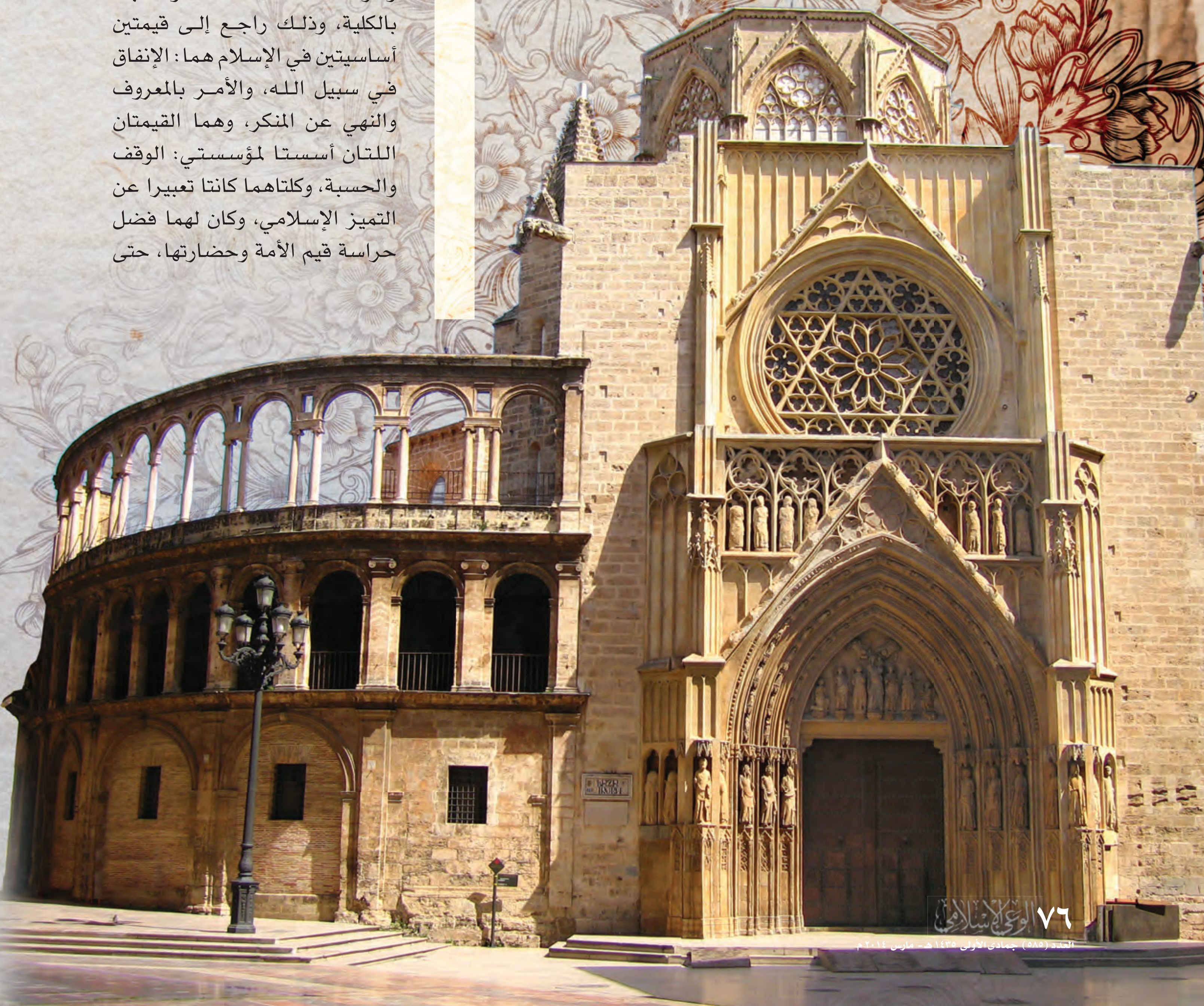


محكمة المياه في بلنسية

محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

يكمن سر تفوق الحضارة الإسلامية وخلودها في أنها وليدة شريعة تقوي المجتمع وترفع من شأنه وتطلق طاقاته، فيستمر عطاؤه الحضاري بغض النظر عن حال السلطة السياسية من القوة أو الضعف، بل نحن أصحاب الحضارة التي ربما هزمت عسكريا، ثم لم يلبث أن اعتنق المحتلون دينها وحضارتها كالمغول، أو حضارتها دون دينها كالصليبيين في الشام والإسبان في الأندلس والنورمان في صقلية.. وغير ذلك مما هو معروف ومشتهر.

ودور السلطة - في تاريخنا الحضاري- أشبه بمن يطلق الشرارة أو يبذر البذرة، التي ترعاها الأمة فيما بعد، فيستمر حصادها حتى ولو ضعفت السلطة أو ذهبت بالكلية، وذلك راجع إلى قيمتين أساسيتين في الإسلام هما: الإنفاق في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما القيمتان اللتان أسستا لمؤسستي: الوقف والحسبة، وكلتاهما كانتا تعبيرا عن التميز الإسلامي، وكان لهما فضل حراسة قيم الأمة وحضارتها، حتى



جاءنا الاحتلال الحديث، فكان أن استفاد منهما في بلاده، وحرص على تدميرهما في بلادنا.
في السطور القادمة نتناول أنموذجًا من التاريخ لمؤسسة أطلقت شرارتها السلطة، لكنها بقيت خالدة حتى يومنا هذا بعد أن ذهب الخليفة وذهبت دولته، بل وذهب المسلمون من تلك الأرض.. تلك هي محكمة المياه في بلنسية الأندلسية، وهي تمثل نموذجا للمسؤولية الاجتماعية والحلول المبدعة التي يفرزها المجتمع، ويقوم عليها ويبقيها.
كان عهد عبدالرحمن الناصر من أزهى عهود الأندلس، وهو العهد الذي استمر لنصف قرن، إذ تولى الحكم وهو شاب صغير في حدود العشرين سنة، ثم مات وهو في السبعين من عمره (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ)، واستطاع في عهده أن يغير حال الأندلس من ضعف وتفكك إلى قوة ومجد وازدهار.. فهذا الناصر هو من أطول الملوك حكما في تاريخ المسلمين.
كان من آثار عهده إنشاء «محكمة المياه» في بلنسية، التي احتفلت إسبانيا بمرور ألف عام على إنشائها عام ١٩٦١م، وحضر الملك الإسباني خوان كارلوس جلساتها أربع مرات، واعتمدت في الدستور الإسباني ١٩٧٨م، وصارت جزءا من قانون مقاطعة بلنسية الصادر ١٩٨٢م، ومن قانون الماء الإسباني الصادر ١٩٨٥م، وأخيرا فقد سجلتها منظمة اليونسكو ضمن التراث العالمي الذي يجب المحافظة عليه في سبتمبر ٢٠٠٩م.. فما هي قصة المحكمة؟
تحولت بلنسية التي أنشأها الرومان على ساحل البحر المتوسط في عهد المسلمين إلى أرض الحدائق والجنات، رغم قلة أمطارها، وذلك بأثر مما أبدعه المسلمون من أنظمة الري والتحكم بالمياه، من خلال ما بنوه من سواقي وسدود على نهر توريا الذي يمد المدينة بحاجتها من الماء، وهذه التقنيات التي تركها العرب منذ ألف سنة بلغت من التطور والإبداع حدا عظيما، ويكفي أنها ما تزال هي الأساليب المعتمدة في الزراعة حتى الآن.
نشأت محكمة المياه كنوع من المحاكم المتخصصة التي تسد حاجة سريعة في تنظيم الماء في بلنسية، وهي تتألف من ثمانية أعضاء يمثلون السواقي الثماني القائمة على نهر توريا في بلنسية وهي: (سواقي قوارت - مصلاتة - ترمس - مستليا - فبارة - رأس كانيا - روبية - بيناشير - وفيتمار)، فلكل ساقية مستفيدون منها – وهم أصحاب الأراضي الواقعة حولها– وهم ينتخبون فلاحا منهم ليكون قاضيا عليهم، وتكون مدة انتخابه لسنتين أو ثلاث، وحين يجتمع الأعضاء الثمانية يترأسهم الأكبر سنا، ثم يختارون بالانتخاب رئيس المحكمة ونائبه.
تعقد جلسة المحكمة منتصف نهار يوم الخميس من كل أسبوع –مثلما كان ذلك في عهد المسلمين– وفيها يتقدم الشاكي بشكايته ويدافع المتهم عن نفسه، ولا يشترك قاضي هذه الساقية في تداول شأن القضية بل يحكم فيها السبعة الآخرون، وتعد أحكامهم نافذة وغير قابلة للاستئناف أو الطعن أمام أي جهة أخرى، ويقوم بتنفيذها حراس السواقي تحت إشراف قاضي الساقية الذي لم يشترك في القضية، ويعد هو المسؤول عن تنفيذ الأحكام.
وحراس السواقي أولئك هم بمثابة الشرطة المتخصصة، إذ بخلاف تنفيذهم للأحكام، فهم أيضا من يبلغون المحكمة بأي تعديات أو مخالفات وقعت في ناحيتهم.
قضاة المحكمة هم من الفلاحين الذين يزرعون الأرض ويتكسبون منها بما يجعلهم متخصصين في هذا المجال، ويعرفون دواخله وتفاصيله وأساليب الحيل والمخادعات فيه، وهم ما زالوا يرتدون الثياب السوداء التي كان يرتديها الفلاحون في بلنسية منذ العهد الإسلامي، ويجلسون على مقاعد جلدية كنحو التي كان يجلس عليها القضاة قديما، وجلسات المحكمة كانت ولا تزال علنية يمكن لأي امرئ، أن يحضرها، كما تعقد المحكمة في ذات الفناء الذي كانت تعقد فيه، غير أنه قديما كان فناء مسجد رحبة القاضي –وهو المسجد الجامع في بلنسية– بينما صار الآن فناء كاتدرائية بلنسية بعد هدم المسجد في زمن إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس.
وتضمن المحكمة استمرار نفسها من خلال التمويل الذاتي، إذ يحصل القضاة على نسبة من رسوم الري، ونسبة من الغرامات التي توقع كعقوبات على المخالفين، وتكفل لهم نفقات تنقلهم.
في حين كان الاجتثاث الإسباني للمسلمين في غاية الجنون، فإنهم –لافتقادهم أي أساليب تنظيمية للزراعة والتحكم في الماء– قد أبقوا على محكمة المياه هذه كأمر لابد منه لكي لا تخرب بلنسية، إلا أن الخراب أصابها من وجه آخر، وهو نقص ذوي الخبرة والمهارة في الزراعة الذين كانوا من المسلمين، إذ صاروا بين قتيل وأسير ومهاجر.
وما تزال بلنسية تستعمل المقياس العربي «فيلان» في قياس كميات المياه التي تحصل عليها كل ساقية، بحيث ينضبط التوزيع العادل لمياه النهر بحسب كل ساقية والمساحات التي ترويها، والتي تبلغ أكثر من ٤٠ ألف فدان.
وبهذا تمثل محكمة المياه البلنسية الأندلسية أنموذجًا لمؤسسة اجتماعية ذات نفع عام، استمدت فكرتها وخلودها من خصائص الحضارة الإسلامية التي أنبتتها.



كيف يتجنب المستهلك التأثير على نفسيته؟

بقلم بشرى شاكر
باحثة مغربية

لعل التجارة، ومنذ الأزل، كان لها شأن خاص لدى العرب، وقيلت فيها أمثلة عديدة تحث على السعي والكسب، فقيل «التجارة شطارة»، وقيل «علم ابنك التجارة ولا تعلمه الإجارة». وجاء الإسلام ليؤكد على أهمية التجارة، فقال الرسول ﷺ حينما سئل أي الكسب أطيب: «عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور». ولأهميتها ذكرها الله سبحانه وتعالى في أكثر من موقع، فجاء في سورة النساء، الآية ٢٩، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ..﴾. وجاء في سورة التوبة، الآية ٢٤: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ ...﴾. وقال في سورة فاطر، الآية ٢٩: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾. وفي سور عديدة أخرى مثل سورة الصف وسورة الجمعة.

لكن، إن كانت للتجارة أهمية قصوى، تعيل وتكفل احتياجات الإنسان، وتلزمه العفاف والكفاف، وتيسر له طريق الخير، فهي أيضا يمكنها أن تكون طريقا للأوزار والآثام. ولذلك، قال الرسول ﷺ: «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق».

وفي أيامنا هذه باتت التجارة شطارة في جذب المستهلك أكثر بكل الطرق والوسائل الممكنة، حتى وإن كانت تخل بكل الأسس الشريفة والسلوكيات والضوابط. وقد تكونت الآن دورات خاصة تساعد البائع على تنمية مداركه لبيع منتج معين، وأيضا تساعده على السيطرة على نفسية الزبون المرتقب، من استعمال للإشهار، ودراسة لنفسية الزبون، واستعمال الألوان والنكهات والأذواق، وطريقة تقديم البضائع وغيرها من الأمور.

من المعروف أن هدف البائع أن يبيع منتجا كلف بعرضه وبيعه، وأحيانا يعتمد راتبه على عمولات المبيعات، خصوصا في المراكز التجارية الكبرى، وقد أبانت دراسات حديثة أن قرابة ٣٠ إلى ٤٠ في المئة من الأشياء التي نقتنيها من السوق هي أشياء لا نحتاج إليها في الواقع، نقتنيها تحت تأثير العاطفة لا الحاجة، وهذا لا يحدث عبثا وإنما تدفعنا إليه عدة عوامل تؤثر في نفسية المشتري، تبدأ أولا باستدراج حواسك، وأهمها حاسة البصر، بدءا من الإعلانات التي تملأ الشوارع والطرقات لمنتج معين وطريقة عرض الأفيشات، الألوان، حجم اللافتات، الإضاءة المستعملة، كلها ومضات تبقى عالقة في ذهن الشخص وتنمي قابلية الشراء لديه وهو يمشي في طريقه. ويكون ذلك أكثر والشخص عائد من عمله لبيته مثلا، أو يتمشى من دون وجود هدف يرمي إليه، وبعبارة أخرى أصبح متفرغا ولا ضغط عليه، إذ أنهى ما لديه من أعمال ولا شيء يستعجل القيام به.



بعدها يأتي دور المراكز التجارية التي تدخلها لاقتناء شيء مهم أنت في حاجة إليه، فتخرج محملا بأغراض عديدة لست في حاجة إليها! وذلك لعدة أسباب.

أولها: حينما يدخل المشتري المركز التجاري يجد نوعين من حقائب التسوق: الحقيبة الصغيرة التي يمكن حملها باليد، والعربة ذات العجلات التي تكون بكل تأكيد أكبر. غالبية المراكز التجارية تزيد عدد العربات ذات العجلات وتنقص عدد الحقائب المحمولة باليد، إن لم تكن تخفيها في ذروة التسوق، وذلك لأن المستهلك يضطر إلى شراء أغراض أكثر وهو يلف بعربته التي يستمر في ملئها من دون أن يتبين هو نفسه ذلك، بينما لو كان يحمل حقيبة اليد الصغيرة لكان سيقتني ما يحتاج إليه وكميات أقل.

ثانيها: من المعروف أنه حينما تجر عربة فارغة فإنك تميل طبيعيا إلى التوجه نحو اليمين، ولذلك معظم المراكز التجارية تضع مباشرة على يمين المدخل الأجهزة الإلكترونية والأجهزة المعلوماتية الأغلى ثمنا.

أما وأنت تتوجه نحو المكان المخصص لاقتناء الخضر والفواكه داخل المركز التجاري، فيمكنك أن تلاحظ أن هذا المكان بالضبط استعملت فيه مصابيح إضاءة برتقالية أو صفراء بينما بقية المركز التجاري يكون مضاء بشكل اكبر بأضواء النيون الأبيض، لأنه ببساطة اللون الأصفر والبرتقالي هما الأقرب إلى لون الضوء الطبيعي، وبالتالي تجذبك الخضروات والفواكه التي تبدو ألوانها طبيعية وطازجة، حتى أننا نعلم جميعنا أن غالبية هذه المراكز تعرض خضروات وفواكه محفوظة في المجمد من قبل.

الوسائل الخداعية لاستدراجك لاقتناء المزيد متعددة كذلك، وحتى في محلات بيع الملابس الجاهزة، فأنت تلاحظ أنه في كابينة المقاسات تجد مرايا محدبة تجعلك ترى جسمك أكثر رشاقة من الاعتيادي، وبالتالي تعتقد أن ما تلبسه يناسب جسمك أكثر، وحتى لو كنت تريد فقط أن تقيسه للتجربة فإنك تجد لديك رغبة في شرائه.

بالإضافة إلى أنه يتم وضع المنتجات الأغلى ثمنا على مستوى قامة الشخص في الأعلى وعلى مستوى طول الإنسان المتوسط، بينما توضع الأرخص أسفل، فيكون أسهل للشخص الذي يجر عربة أمامه أن يتناول المنتج الذي في الأعلى عن الموضوع في الأسفل.

البصر ليس وحده من يستدرج لكي يجعل منك الزبون المناسب لإنفاق المزيد، وإنما السيطرة على سمعك أيضا، فحينما يكون المركز التجاري فارغا غالبا ما تستعمل موسيقى هادئة وبطيئة، وأحيانا على شكل حلقات موسيقية متكررة تشعر



الإنسان بالراحة والسكينة؛ فتجعله يخفف سرعة مشيه، وبما أنه يقضي وقتا أطول داخل المركز التجاري الفارغ، فإنه يضطر إلى اقتناء مزيد من الأشياء، وبالعكس حينما يكون المركز التجاري في ذروته ويعج بالزبائن فإنه يتم استعمال موسيقى صاخبة وسريعة تجعلك من وطأة سماعها تسرع في اقتناء الأشياء، خصوصا مع كثرة الحركة والجلبة، فأنت من دون أن تشعر تنجذب نحو تكدس الناس على رواق معين ويكون الشراء وكأنه تنافس!

حاسة الشم أيضا تستغل لاستدراجك للشراء أكثر، فالعطور المستعملة بشكل لطيف ورائع تجعلك تشعر بالارتياح وبرغبتك في البقاء أطول مدة داخل المول أو المركز التجاري.. ومدة أطول تعني مشتريات أكثر. ومع تطور النكهات فقد باتت بعض المراكز تستعمل عطورا معينة لكل مكان، فمثلا يوضع خبز طازج قرب الخبز المعبأ لتجعلك نكهته تشتري حتى الخبز المعبأ، خصوصا أن مظهره يكون أجمل. أما في رواق يختص ببيع الحلويات والكاكاو فتفوح رائحة طيبة أيضا، ويستعمل قرب رواق بيع الغسالات مثلا رائحة خفيفة ومنعشة توحي لك بالنظافة وهكذا.

من بين الوسائل المستعملة التي تحثك على الشراء أكثر -وبالتأكيد انتبهتم إليها مرارا- أن الأماكن المخصصة لبيع الحليب والمياه مثلا توجد -عادة- في آخر المركز التجاري بحيث يدفعك ذلك إلى عبور كل المركز التجاري لتصل لشراء علبة حليب مثلا، ومن المؤكد أنك ستمر عبر عدة منتجات تجذبك لشرائها.

حتى حينما تريد أن تحاسب قبل خروجك فإن النظام الموضوع للدفع وعرضك للمنتجات التي اشتريتها في شريط ساحب يجعلك تنتظر مدة إلى أن يفرغ الذي أمامك. ولذلك، وضعت المصاصات وأنواع العلك وبعض الحلويات تماما قرب كل صندوق دفع. وبديهي إذا أمضيت وقتا تنتظر فقد تضيف أشياء مثل هذه إلى مقتنياتك تبدو لك صغيرة وغير ذات قيمة مادية رغم أن تكرارها من دون الحاجة إليها يجعلها تشكل مبلغا مهما.

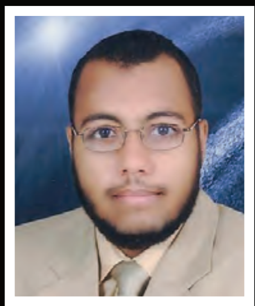
من الأجدر إذن أمام هذه الوسائل المعتمدة لتجعلك تشتري أكثر من ٤٠ في المائة من الأشياء التي تؤثر سلبا على ميزانيتك ولا تكون في حاجة إليها؛ أن تتبع خطوات بسيطة كألا تذهب للتسوق إلا إذا كنت بحاجة فعلا لشراء شيء معين، وللتسوق الأسبوعي مثلا اكتب قائمة وحدد احتياجاتك، إذا كنت ستذهب إلى مركز تجاري، ولعدم تأثير الموسيقى على الشخص فهناك من يلجأ إلى وضع سماعات يضع فيها شيئا يريد سماعه أو اعتاد على سماعه، أو بكل بساطة ينتبه على الأقل لتغير سلوكه قبل وبعد سماعه موسيقى معينة مستعملة داخل مركز التسوق، وإذا كان الإنسان يذهب إلى المركز التجاري فقط لشعوره بالضجر فيذهب لأقرب مول من دون الحاجة إلى ذلك، فيمكنه تغيير سلوكه مثلا بتعويض المركز بممارسة الرياضة حينما يكون لديه فراغ ويحس بالسأم والملل ويرغب في الخروج، فهناك دراسات تؤكد أن العديد من الأشخاص، ومعظمهم نساء، يذهبون إلى التسوق لأنهم يشعرون بالضجر أو إذا كان مزاجهم سيئا.

حينما تخرج برفقة أصدقاء وتعلم أنهم سيذهبون إلى السوق فاترك نقودك في البيت، فأنت بالتأكيد سوف تشتري شيئا لا تحتاج إليه تحت تأثير رغبتهم في الشراء، ولا تأخذ معك إلا مبلغا يمكن أن تحتاج إليه في بعض الظروف الملحة، واترك أيضا بطاقات اعتمادك. وقد أثبتت دراسات حديثة أنك حينما تبتاع الشيء وتدفع مقابلا ماديا نقدا تنفق أقل من لو كنت تبتاع ببطاقة اعتماد.

أما إذا كنت داخل مركز التسوق، فبالتأكيد سوف تقابل مكلفين بالبيع يستعرضون عليك بضائع جديدة أو منتجات معينة وأحيانا تشعر بالخجل من إلحاح البائع وتقف للتذوق أو للتجربة وحينها فبمعدل شخصين من ثلاثة يشترون، إما لأن المنتج ووصف البائع بهرهم في حينه وإما لأنهم يفعلون فقط إكراما للمجهود الذي قام به البائع. ولذلك، وتفاديا للإحراج، فإنه لا ينصح بالتوقف حينما يعرض عليك منتج، ولكي تتفادى ذلك انظر إلى الجهة الأخرى لتجعله ينظر إلى ظهرك ولا تنظر في عينيه لأنك سوف تتوقف بكل تأكيد، ولأن البائع -عادة- يتقاضى عمولة على المبيعات فهو يركز على من ينظر إليه مباشرة ويتفادى من أشاح عنه أو أدار ظهره له.

المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره

القراءة المتذوقة والفهم الصحيح



د. أحمد خليل الشال
عضو لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي
بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
التابع لوزارة الأوقاف - مصر

تكلمنا في الحلقة السابقة في شأن الخطوط العريضة التي ينبغي أن يسير عليها منهج البحث واليوم نكمل بقية تلك الخطوط، وهي:



ـ خامسا: القراءة المتذوقة، والفهم الصحيح لمقاصد الأصول والنصوص الصحيحة:

لا شك في أن تذوق النص ـ أو استبانة ما فيه ـ بعد ثبوت صحته، لابد أن يصحبه صحة في الفهم من غير هوى مضل، أو تعصب أعمى، وإلا كان الخلل في النتائج مفجعا. وهذا أمر يكاد يكون في غاية الصعوبة، وتبرز أهميته في كونه بمثابة الروح التي تسري بين أبواب أية دراسة وفصولها ومباحثها. وأهم ما ينبغي أن يتسم به هذا المنهج، التشرب التام لروح العصر الذي سيدرس. وسبيل ذلك: دراسة كل ما أفرزه هذا العصر أو ذاك من أعمال تدل عليه. وأقصد بالأعمال هنا كل ما نطق به لسان حال العصر محل الدراسة وقام شاهدا على أهله، بما روته ألسنتهم، وسطرته أيديهم، بل كذلك بما شيدته سواعدهم. وهذا يعني طول انغماس الباحث في الفترة التي سيدرسها

حتى يصل إلى درجة التشبع بروح أصحابها.
ذلك أن الكلام المركب من الأحرف، والكلمات، والجمل، تحمل في تركيبها آثار الطبائع والغرائز، والأهواء، والنوازع، التي تنطوي عليها السرائر والضمائر المغيبة. ثم هي بعد ذلك تحمل أيضا - كما يقول العلامة محمود شاكر(١) - فوق ذلك: «ضروبا أخرى من الدلالات الخفية والظاهرة، والكامنة والمنسابة، تدل على هيئة صاحبها، وعلى حركاته عند إنشاء الكلام، وعلى شمائله الظاهرة، وعلى سمته، وعلى صوته، حتى كأنك ترى صاحب الكلام ماثلا أمامك، يشير، أو يتحرك، أو يهمس، أو يصرخ.. مئات لا تعد من السمات الظاهرة والخفية التي يتميز بها متكلم عن متكلم. كل ذلك ممكن أن تراه أو تحسه، وهو يطل ملثما أو سافرا من خلال الأحرف والكلمات والجمل، مغروسا في حافاتها وحواشيها، بل مغروسا أيضا في معاطف المعاني التي يدل عليها هذا الكلام المركب.. ومعنى ذلك أن الكلام محمّل بدلالات مميزة، تجعل صاحبه متفردا بخصائصه عن سائر إخوانه من البشر المتكلمين».
ولكن ينبغي التنبيه على أن نحترس من الوهم الذي يجعل مجرد مطابقة ما يقوله المرء أو يكتبه لما نعتقده نحن أو نتوهمه، دليل على صدقه، «فهذا باطل أيضا، لأن مخالفته كل المخالفة في الاعتقاد أو التوهم، ممكن أيضا أن يكون فيما قاله صادقا كل الصدق وإن لم يقع كلامه عندنا موقع الرضا والقبول والتسليم. فلم يبق إلا طريق واحد: أن يكون الكلام المركب من الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب، وما تؤدي إليه من المعاني، كلها حاملا لآثار عالقة في جميعها، أستطيع أنا أو أنت بالاعتماد على التذوق.. أن نحسه إحساسا ما»(٢).
وهذه الحاسة في التذوق والاستبانة أثبتها علماء الإنسان في الخط، والنحت، والتصوير، والموسيقى.. فهل يمكن «أن يكون الخط وسائر الفنون الدنيا من نحت وتصوير وموسيقى جميعا، قادرا على حمل آثار العواطف والأخلاق والشمائل، ثم لا تكون الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعاني التي تقيد بالخط، وهي الدالة على الفن الأعلى المتفرد بالسمو على سائر الفنون: الشعر والنثر والكتابة، غير قادرة على حمل هذه الآثار نفسها؟ أممكن هذا؟ كلا، هي على ذلك أقدر، وأثبت، وأقوم، وأصدق شهادة. هي (الوثيقة الجامعة)، التي تميز إنسانا من إنسان.. وعليها تنعكس صور حياته كلها ظاهرة وباطنة»(٣).
فالتذوق إذن هو الطريق إلى بعث هذه الصور، وإلى استنطاقها، وإلى حل رموزها المعقدة. ثم هو بعد ذلك معنى عام مشترك الدلالة بين الناس جميعا، إلا أنه متفاوت بينهم، فهو «يقل ويكثر، ويعلو ويسفل، ويصقل ويصدأ، ويجود ويفسد»(٤). من أجل ذلك تتباين التفسيرات وتختلف للنص الواحد، تبعا لاختلاف تلك القدرات والملكات.

سادسا: الترجيح والتعليل:

وأعني بالترجيح والتعليل: التفسير والحكم على الحوادث. وهي - ما دمنا نبحث في التاريخ الإسلامي- ينبغي أن تتم وفق ضوابط وشروط، من أهمها:
أولا: الوعي السليم والإدراك التام بطبيعة العهد المؤرخ له: سواء كان سياسيا، أو اجتماعيا، أو حضاريا.. وقد كان هذا هو السبب الأول في أخطاء المستشرقين المتكررة في دراسة تاريخ المسلمين، وهو عدم الإلمام الكامل بطبيعة العصر الذي يؤرخون له، أو يفسرون حوادثه. فدرسوه بمقتضى حضارتهم هم، فرأينا التفسير المادي، والثيوقراطي، والعلماني، لأمة لم تعرف ذلك في تراثها. فرأيناهم وقد جعلوا من أبي بكر وعمر غاصبين للسلطة مستبدين بها. وجعلوا من قتال علي مع الصحابة كذلك صراعا على السلطة والنفوذ. وكانوا من قبل قد جعلوا من أسباب فتوح المسلمين في الأرض البحث عن الموارد، والأموال.
ثانيا: دراسة ثقافة ومعارف العصر المؤرخ له: وهو دراسة العصر الذي بحث فيه وفق ثقافته، وعقلية أهله، وليس وفق ثقافتنا نحن. فكانت محاكمتهم إلى مناهجهم ومعارفهم هو الأصل عندي، وذلك حتى لا أكون لهم ظالما، إذا حاكمتهم إلى منهجي العلمي المعاصر، أو إلى أي منهاج آخر لعصر آخر. وهذا ما يوجد لدينا الآن في جامعاتنا حين ينقد البحث التاريخي لعصر الدولة الإسلامية الأولى، إذا قام على منهج حديثي مثلا في دراسة مرويات ذلك العصر بأن ذلك ليس من خصائص المناهج العلمية لأقسام التاريخ في العصر الراهن. الأمر الذي أدى إلى خلل كبير في نتائج الدراسات المعاصرة وأحكامها عن هذا العصر الأول الذي اعتمد الرواية أصلا في توثيق حوادثه. ولم يترك الأمر حتى وضع لنفسه ضوابط لهذه الرواية ليحتكم إليها ويحاكم بها عند الخلاف أو النزاع، فتركنا ذلك وحاكمناهم إلى مناهج أخرى فظلموا.
ثالثا: صحة التصور عن الخالق والكون والإنسان: سبق أن تفسير التاريخ في الإسلام يقوم على ثلاثة أركان، هي: الخالق عز وجل، ثم الكون، والإنسان. وأي إفراط أو تفريط في إدراك أي من هذه الأركان والعلاقة بينها، يؤدي إلى الانحراف حتما عن المنهاج الإسلامي الأصيل في تفسير التاريخ. وهذا ما وقع فيه أصحاب المذاهب الأخرى التي خالفت المنهج الإسلامي في تفسير حركة التاريخ الإنساني. حين

أنكروا دور الوحي والعوامل الغيبية، وتطرفوا في اعتبار العوامل المادية.

رابعا: الفهم الصحيح للعلاقة الرابطة بينهم: وتتمثل هذه العلاقة في الجمع بين عاملي الروح والمادة في عالمين لا ينفك أحدهما عن الآخر في مجال عملية التفسير، هما عالما الغيب والشهادة. والتقليل من قيمة هذا الأمر في بعض الدراسات المعاصرة يكشف لنا مدى الظلم الذي تعرض له المنهج الإسلامي لعملية التفسير حين تحكمت فيه مناهج الفلسفة الغربية الحديثة. ذلك أن إنكارهم لعامل الروح، وعالم الغيب أدى إلى تفريغ هذا المنهاج الإسلامي من مضمونه، فصار لا معنى له، إذ أصبح قشرا فرغ من لبابه. وفي المقابل، أدى إفراطهم في عامل المادة، وعالم الشهادة إلى قصور النتائج ونسبيتها تبعا لاختلاف كل عقل.

خامسا: الإيمان بالغيب وأثره في توجيه التاريخ: وسبق أن الغيب هو: ما أخبر عنه ولم يرَ. ومن أهم معاني الغيب، وجود الله تعالى والملائكة، والجن والشياطين.. وحقائق الغيب لا يمكن مناقشة أسبابها عقليا أو منطقيا، وإنما ينظر فيها كما هي، وليس للعقل تجاهها إلا محاولة الاستفادة منها كما هي، عن طريق ربط المسببات بأسبابها، والاجتهاد في فهمها والتفقه فيها قدر الاستطاعة، وسبب ذلك هو قصور العقل البشري عن إدراك ذلك الغيب بكل جوانبه، وفي تكليفه بالبحث عن تلك الغيبيات أمر لا يطيقه الإنسان، ولا يمكن لعقله أن يحيط به.

ومن ثم، فواجب على المؤرخ أو مفسر التاريخ ـ ما دام يبحث في تاريخ الإسلام ـ أن يعتبر أثر الغيب في حركة التاريخ إذا ثبت أثره، ولا يقتصر على مجرد العوامل المشهودة، وإلا – كما ذكرت من قبل– كيف يفسر نبوة محمد ﷺ؟ وانتصار أهل بدر على من هم أكثر منهم عددا وعتادا! وحركة الفتوح الإسلامية! ومثل ذلك كثير في تاريخ البشرية. وإهمال ذلك سيؤدي إلى خلل عظيم وفساد كبير في عملية التأريخ وتفسيره، وهو ما وقع لأصحاب المذاهب الوضعية ومن تبعهم. فهم قد فسروا الأولى بالعبقرية! والثانية بالإرادة! والثالثة برغبة التوسع وجلب المال! وهذا يخالف المنهج الإسلامي في التفسير جملة وتفصيلا، وصاحب ذلك على خطر عظيم، إن كان مسلما.

سادسا: الإيمان بالسنن الإلهية وأثرها في مسيرة التاريخ: ذكرت من قبل أن الكون كله مقيد بسننه جل شأنه وحكمته فيها. وإلا لفسدت السموات الأرض إن ترك كلا يعمل بهواه. ومما ذكرته في هذا الباب أيضا أن المشيئة الإلهية تأتي على رأس العوامل الغيبية المحركة للتاريخ كله، الإنساني والكوني على السواء. فهي التي تسير الكون وفق سننه عز وجل بأسبابها ومسبباتها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾(الحج:١٨). وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ ﴿٦٨﴾﴾(القصص:٦٨). وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾(هود:١٠٧). وهذا لا ينافي حرية الإنسان وأن له مشيئة، فقد قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴿٢٩﴾﴾(الكهف:٢٩). فقد جعل الله تعالى للإنسان حرية ومشيئة، إلا أنه قيدها بمشيئته وإذنه عز وجل، إن شاء أنفذها، وإن شاء منعها، فقال:﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴿٢٩﴾﴾(التكوير:٢٩).

سابعا: وجوب التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الشرع: ذلك أن الخلط في هذا الشأن يؤدي بالباحث في تاريخ الإسلام إلى نتائج مغلوطة. ومن أخطر هذه الأغاليط قول بعضهم: «إن هناك فرقا بين الإسلام والمسلمين، وأن الإسلام يحكم على المسلمين، ولا يحكم المسلمون على الإسلام». فإن غاية ما يبغيه أصحاب هذا القول أن الإسلام منهاج رباني سماوي، مثالي، ينوء البشر بتطبيقه، وتقعد بهم نوازعهم وشهواتهم عن القيام به، والسمو إلى ما يدعو له ويرمي إليه(٥)!

ومن ثم، فليس لبشر عصمة من الخطأ، حتى وإن كان من الصحابة، ولكن أهم ما ينبغي البحث عنه هو نوع الخطأ، هل هو عن عمد، أم عن خطأ بتأويل مجتهد. وفرق بين الأمرين. فهم وإن اجتهدوا فأخطأوا، فإن الإسلام ـ وإن آجرهم ـ براء من هذا الخطأ، ذلك أنه آجرهم على اجتهادهم لا على خطأهم. فالخطأ كل الخطأ، قياس الإسلام بالبشر، ولكن الصواب خلاف ذلك، أن يقاس البشر بالإسلام. وذكرنا من قبل قول بعضهم: «إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله».

وسبب هذا الخلط عند الكثيرين أنهم ظنوا أن الشريعة جاءت لإنشاء المدينة الفاضلة التي طال بحث الفلاسفة عنها. وهذا أمر غير متحقق ما دمنا في الدنيا، إذ إن ذلك من خصائص دار الخلود يوم القيامة. فالحق إذن أن الشريعة إنما أنزلت لتنظيم علاقة هذا الإنسان على ما فيه ـ من قصور لن ينفك عنه مهما كانت صفته ـ من ضعف وظلم، وجهالة بنفسه، وبخالقه، وبالكون المحيط به في هذه الدار الفانية، دار الابتلاء.

الهوامش

١- انظر فيما يأتي: جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، (المتنبي ليتني ما عرفته) ١١٦٢/٢، ١١٧٠. وفي كل كتب الشيخ (رحمه الله) إبانة عن هذا المنهج، منهج التذوق، إذ كان هو محييه في هذا الزمان، وخير من عبر عنه.

٢- المرجع نفسه ١١٧٢/٢.

٣- المرجع نفسه ١١٧٤/٢.

٤- المرجع نفسه ١١٧٤/٢، ١١٧٦.

٥- عبد العظيم الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، ص ٥٦.



«الوعي الإسلامي» تزور سريلانكا وترصد أحوال المسلمين

الجامعة النظيمية.. تلم الشمل وتؤهل طلاب الشريعة

كولومبو: عبادة نوح وعلاء عبدالفتاح

هنا الجامعة النظيمية بسريلانكا.. جامعة إسلامية تجمع بين الأصالة والمعاصرة.. أرض خضراء شاسعة تقدر بمائة ألف متر مربع، مرصعة بالمباني العلمية.. قاعات تدريس ومكتبة وصالات تدريب ومسجد.. حياة متكاملة لطالب يبدي حسن النية والجدية.. يتم اختبار الطالب بدقة قبل قبوله، ومن لم يستوف الشروط يستحيل قبوله..

الحاج نظيم.. هذا التاجر السريلانكي المسلم الذي ساند حكومة بلاده الهندوسية وقت حاجتها من العملة الصعبة.. يدين له السريلانكيون ويعترفون بفضله، قبل أن يدين له المسلمون ويطلبون من الله الرحمة له.. عندما وقفت «الوعي الإسلامي» أمام مقبرته في وسط الجامعة لم نتبين حدودا لها.. إنها أرض مستوية، بلا شاهد، بلا ضريح.. فقط نباتات لا يزيد ارتفاعها عن نصف المتر، تنمو حول قطعة أرض عشبية في تشابك.

يصحبنا الأستاذ محمود عليان، دليلنا إلى الجامعة، من وسط قرية بيرويلا، إلى قلب الجامعة بوسيلة المواصلات الأشهر هناك، تلك العربة الصغيرة المركبة فوق دراجة نارية (التوك توك).. محمود مدرس لغة عربية، حاصل على إجازات في القرآن الكريم. يقول معلقا على حرص جميع المسلمين هناك على ارتداء الجلباب القصير والطاقية: هنا يهتمون بالمظاهر الإسلامية جدا، بجانب اهتمامهم بالجوهر.. فهم يحاولون الوصول لحياة الرعيل الأول مظهرا وجوهرا، فلا تمشي هنا وأنت خائف أبدا.. يكرمون الغريب ويعكسون الصورة الحقة للإسلام.. ناس سهلة لينة، ويندر أن تجد شخصا لا يرحب بك.

لكن من المعضلات التي تقابل المسلمين المقيمين في سريلانكا سواء للتدريس أو طلب العلم؛ أن نظام الزواج هناك



صارم، فالمسلمون السريلانكيون يحرصون في الغالب على تزويج بناتهم من دوائرهم القريبة، والزوجة هي التي تعد بيت الزوجية، أما الزوج فيدفع مبلغا رمزيا، وعلى سبيل المثال أهل قرية بيرولا حيث الجامعة لا يزوجون بناتهم من خارجها، تلك القرية المشهورة بتجارة الأحجار الكريمة.

مضايقات الفترة الأخيرة

ويحكي عليان لـ«الوعي الإسلامي» عن أحوال المسلمين هنا فيقول: وقف المسلمون وقفة قوية في صف الحكومة أثناء الحرب الانفصالية الأخيرة، قبل سنوات ضد النمور التاميل، وعانوا بسبب ذلك هجمات من التاميل، ففقدوا قرى بأكملها، أحرقت بسبب هذه المساندة، وبعد انتهاء الحرب ظهرت جماعات متعصبة بوذية ربما بسبب فتنة الإسرائيليين الذين سمح لهم بسفارة أخيرا.. خربت تلك الجماعات البوذية المتطرفة بعض المساجد، وأحدثوا مضايقات لمرتديات الحجاب، وانتقدوا ذبح الأبقار في التليفزيون والصحف والمجلات، ومع ذلك فالقطاع الأغلب من الرهبان يدافع عن المسلمين، ويقول ما يحدث من مضايقات لا يعبر عن مشاعر البوذيين، بل تعهد رئيس الدولة ببناء المساجد التي عانت من التخريب مرة أخرى.

ونعرف منه -نقلا عن مسؤولي الجامعة- أنه مع استقلال «سيلان (سريلانكا) عام ١٩٤٨م، أصبح المسلمون يلعبون دورا مهما في الحياة القومية، ورغم أن تعدادهم لا يتجاوز ثمانية بالمائة من جملة السكان، فإنهم يشاركون بدور حيوي في الحياة السياسية للقطر، فقد خطوا خطوات واسعة في التعليم، ودخلت أعداد كبيرة منهم الجامعات، ويشغلون الآن الكثير من الوظائف الإدارية، بما فيها عضوية مجلس الوزراء.

هذا وللمسلمين في سريلانكا محاكمهم القضائية الخاصة بهم في الأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق، كما أنه توجد بعض البرامج الإسلامية في الإذاعة والتلفاز والصحف، وتعتبر أعياد المسلمين عطلات رسمية عامة، وكذلك هناك مدارس حكومية كثيرة خاصة بالمسلمين.

حماية الشباب

ورغم هذا فإن مسلمي سريلانكا يواجهون في فترة ما بعد الاستقلال

مميزات الدراسة في الجامعة

مدة التعليم بالجامعة النظيمية الإسلامية تمتد سبع سنوات، تنقسم إلى مرحلتين:

١- المرحلة التمهيدية- ومدتها ثلاث سنوات.

في هذه المرحلة يُتم الطالب تعلم اللغة العربية، لكونها لغة التدريس في المرحلة الجامعية. ويدرس اللغة الإنجليزية، واللغتين المحليتين التاميلية والسنهالية. ويتعرف على المفاهيم العامة عن الإسلام، من خلال دراسة العلوم الإسلامية. كما يتم فيها إعداد الطالب للجلوس لامتحان الشهادة الثانوية الحكومية G.C.E. Advanced level.

٢- المرحلة الجامعية - ومدتها أربع سنوات.

تدرس فيها العلوم الإسلامية بصورة أكثر عمقا، وبجوانبها المواد العصرية، كما هو مقرر في جامعة «سريلانكا». حيث تتيح الجامعة الفرصة لطلابها الانتساب لجامعة سريلانكا الحكومية. وإعدادهم لأداء الامتحان بها، وبهذا يتمكن الطالب من الحصول على مؤهلين جامعيين في آن واحد:

١- شهادة «الليسانس» (كلية أصول الدين والدعوة) من الجامعة النظيمية الإسلامية.

٢- شهادة «البكالوريوس» - من جامعة سريلانكا الحكومية.

بعض المشاكل المهمة والتي تحتاج إلى حل عاجل وحاسم، ومن أهم هذه المشاكل هي كيفية حماية الشباب المسلم من الوقوع فريسة للفلسفات والمذاهب المادية، فالشباب المسلم في «سريلانكا» كما هو الحال في كل بقاع العالم الإسلامي، معرض لخطر المذاهب الحديثة المبنية على الفلسفات المادية والإلحادية، ولا شك أن العلماء الذين هم نتاج المدارس الإسلامية السالفة الذكر يؤدون خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، ولكن نظرا لطبيعة التعليم الذي تلقوه في هذه المدارس فإنهم لم يعودوا بالمستوى الفكري والعلمي الذي يمكنهم من تقديم الإسلام في صورة تتجاوب مع تطلعات الشباب المسلم الذي افتتن بالتقدم العلمي في الغرب، وأعماه هذا التقدم المادي عن تبين حقيقة الفلسفة المادية الإلحادية، فكانت الحاجة إلى علماء لا يقتصرون على التبحر في العلوم الإسلامية فقط، بل يكونون كذلك على علم واسع بالفكر العالمي الحديث.

مشكلة اللغة

والمشكلة الكبرى الثانية هي مشكلة اللغة، فإن مسلمي سريلانكا يتكلمون اللغة التاميلية التي هي -أيضا- لغة مسلمي جنوب الهند، وتوجد العديد من المؤلفات الإسلامية لعلماء سريلانكا وجنوب الهند بهذه اللغة، ولكن أصبحت الآن اللغة السنهالية، وهي لغة الغالبية في سريلانكا، اللغة الرسمية للدولة، ومن هنا نجد أن كثيرا من الشباب المسلمين هجروا اللغة التاميلية وبدأوا يتعلمون اللغة السنهالية، والمشكلة في الأمر أنه لا توجد مؤلفات إسلامية باللغة السنهالية، لهذا أصبحت الحاجة ماسة إلى تأليف كتب عن الإسلام باللغة السنهالية. وهذا بالطبع يحتاج إلى دعم وعمل جماعي منظم.





صلاة الجمعة

قبل أن نصلي الجمعة نتأمل مشهد الوضوء من حوض على شكل متوازي الأضلاع بجانب المسجد، يتجمع حوله المتوضئون يغترفون منه جماعة، على الرغم من توافر صنابير المياه بجانبهم. نقابل عند باب مسجد الجامعة نائب مدير الجامعة أغار محمد، وبحسب وظيفته هو المسؤول التنفيذي لإدارة الجامعة.. نتحاور فنعرف منه ومن دليلنا أن المسلمين هنا في «بيرويلا» أغلبهم تجار أثرياء، اشتهروا بين بقية السكان بالأمانة والتفوق التجاري، وكان منهم الحاج نظيم أو «ناميل» كما تنطق هنا، وهو مؤسس الجامعة النظيمية أو «الناميللية»، وكانت له صلات قوية برئيس الدولة، وتعاون اقتصادي مهم للبلاد، وعليه فقد سمحت له الحكومة باستغلال ٢٥ فدانا لبناء هذا المشروع الضخم عليها، وحرصت هيئات رسمية وغير رسمية على تقديم الدعم لبناء القاعات، منها هيئات الكويت والسعودية وليبيا وقطر.

التعليم في الجامعة:

وتنقسم الجامعة إلى قسمين أساسيين: قسم مبني عليه معهد تكنولوجي لتعليم الحرف، وقسم



يختص بتدريس الشريعة، ويرجع تاريخ الجامعة إلى أكثر من أربعين سنة، وبذلك تعد من أقدم الجامعات في سريلانكا، وهي المفضلة للمسلمين، فالناس هنا يعتبرون طلاب النظيمية أي النظيميين هم طلاب الشريعة، ومكانتهم علميا أعلى من غيرهم، حتى إن إعلانات الزواج تذكر فيها أحيانا عبارة «ويفضل أن يكون نظيميا» أي خريج هذه الجامعة.. مدة الدراسة بها سبع سنوات بعد حصول الطالب على الشهادة الإعدادية، أي بعد سن ١١ سنة تقريبا يدرس الطالب ثلاث سنوات دراسة تمهيدية، ثم أربع سنوات العلوم الشرعية، من فقه وحديث وتفسير وعلوم قرآن وعقيدة واللغة العربية والفلسفة، إلى جانب اللغات الإنجليزية والتاميلية والسنهالية (لغة البوذيين الرسمية)، لكن المتخرج في الجامعة النظيمية ولكي يجد فرص عمل في انتظاره يكون عليه أن يلتحق في نفس الوقت بالجامعة الحكومية، ويذاكر موادها دون حضور المحاضرات داخل قاعات النظيمية التي توفر له الإقامة والمأكل ووسائل التعليم العصرية، من قاعات وحاسبات آلية ومعامل ...إلخ، بعدها يتخرج الطالب ومعه شهادتان: النظيمية والحكومية.. وبذلك يفضله صاحب العمل باعتباره على الأقل يجيد لغات أجنبية.

نعرف من السيد أغار أن رؤية الجامعة مستمدة من الرؤية الإسلامية للوجود والحياة والإنسان، وفلسفة الإسلام التي تعتمد على تكامل العلم، وشمولية التربية المتكاملة في جوانبها الروحية والعقلية والمادية، ولذلك تسعى الجامعة إلى بناء الشخصية الإسلامية وإلى إحداث التكامل بين العلوم الشرعية وبين المعارف الإنسانية، كما تسعى إلى تحقيق التكامل بين الإيمان والعلم والأخلاق.

أهداف سامية

ومن أهداف الجامعة تخريج جيل من العلماء مسلح بالعقيدة الصحيحة، مزود بالعلوم الإسلامية الأصيلة والمعارف الحديثة، لمواجهة التحديات المعاصرة.. أي تخريج جيل صالح يتسم بحسن القيادة والقدوة للمجتمع المسلم في مجالات الحياة المختلفة، مع إحياء الشعور الإسلامي في نفوس المسلمين.

ونشر الثقافة الإسلامية وتعريف المسلمين بحضاراتهم العريقة وتاريخهم الخالد، وذلك عن طريق ترجمة كتب التراث إلى اللغات المحلية، إضافة إلى الدفاع عن الإسلام والرد على الشبهات التي يثيرها حوله المستشرقون وأعداء الإسلام.

والعمل على نشر اللغة العربية بين المسلمين للوقوف على كتاب ربهم وسنة نبيهم.

أيضا من أهداف الجامعة توثيق روابط الأخوة بين الأقلية المسلمة بسريلانكا وإخوانهم المسلمين في الأقطار الإسلامية والعربية في أنحاء العالم.

والعمل على نشر الإسلام بين الطوائف غير المسلمة. وذلك عن طريق ترجمة بعض كتب التعريف بالإسلام إلى اللغة السنهالية، لغة الأغلبية البوذية في الجزيرة.

٣٥ الف كتاب في المكتبة المركزية

ويضيف السيد أغار: زودنا الجامعة بمكتبة لا نظير لها في جزيرة سريلانكا بمساعدة «البنك الإسلامي للتنمية» بجدة - المملكة العربية السعودية - ولهذه المكتبة دور كبير -ولله الحمد- في توسيع مدارك الطلاب والأساتذة معا، فهي تحتوي وتضم بين جنباتها حوالي (٣٥ الف) كتاب من كتب التراث الإسلامي، باللغة العربية والإنجليزية والتاميلية والسنهالية، وكتب المعارف العامة، كما توجد المجلات والدوريات، وقد أسهمت مؤسسات وجمعيات في العالم الإسلامي بإمداد المكتبة بالكتب المتنوعة في العلوم الإسلامية المختلفة.

رسالة الجامعة النظيمية

تسعى الجامعة في إطار رؤيتها وفلسفتها الإسلامية إلى الإسهام في تحقيق الأهداف العامة التالية:

١- تخريج جيل من العلماء والمفكرين، مسلح بالعقيدة الصحيحة، مزود بالعلوم الإسلامية الأصيلة والمعارف الحديثة المعاصرة.

٢- تخريج كوادر من القيادات تتسم بصفات الشخصية الإسلامية المتوازنة، والقدوة للمجتمع المسلم، في مجالات الحياة المختلفة.

٣- تخريج متخصصين في مجالات التعليم والإعلام والشؤون الاجتماعية الأخرى.

٤- نشر الثقافة الإسلامية، وتعريف المسلمين بحضارتهم العريقة وتاريخهم المجيد.

٥- العمل على نشر اللغة العربية بين المسلمين للوقوف على كتاب ربهم وسنة نبيهم.

٦- تبصير غير المسلمين بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة السليمة.

٧- تثقيف غير المسلمين بمبدأ التسامح في الإسلام تجاه الطوائف الدينية غير الإسلامية.

طور نفسك

إعداد: سلمان داود الكندري
كاتب ومدرب معتمد في التنمية البشرية

فن الترويج للذات

إن علم التسويق وإدارة الحملات الإعلامية والإعلانية هو فن قائم بذاته، له أساتذته ومناهجه الخاصة، والتي ترمي إلى إيصال فكرة أو منتج ما، والترويج له في المجتمعات، فمن هذه الحركة الحيوية ومن هذا الفن تجعلنا عزيزي القارئ نفكر قليلا في استثمار هذه الفنون والعلوم في إيصال أفكارنا ونجاحاتنا في هذه الحياة..

لأن الناجح أمثالك عزيزي القارئ هو الذي يستفيد من هذه اللمعات التي تبرق حوله، ليضمها تحت جناح منظومته الحياتية، ويدرجها ضمن الأدوات التي سيصنع بها نجاحه، فمن المفترض أن نحرر عقولنا للاستفادة من كل هذه الإمكانات والفنون المحيطة بنا، حتى نحقق النجاح الذي نحلم به.

لذلك نلاحظ أن السياسيين والإعلاميين استطاعوا أن يستخدموا هذه الورقة الرابحة للترويج عن أنفسهم وعن إنجازاتهم وتطلعاتهم المستقبلية، حتى يشكلوا دائرة تأثير واسعة الأقطار، فيكونوا كالنواة التي تأسر معها الإلكترونات في مجالها.

فهل فكرت عزيزي القارئ في الترويج لأفكارك ونجاحاتك في الحياة؟

أنا موقن بأنك فكرت.. لكن لم تتضح لك هذه الأدوات اللازمة للترويج، لذلك أحببت أن أستعرض معك بعضا من هذه الأدوات، بعد اطلاعي على هذا الفن، لتروج عن نجاحاتك وذاتك وطموحاتك:

الصحافة: إن استثمار أجهزة الصحافة المختلفة لنشر الأفكار أمر مهم، فمثلا عندما تكتب مقالا صحفيا تكون بذلك قد روجت لنفسك، وعند إجرائك لمقابلات صحفية تستعرض فيها بعضا من نجاحاتك، وتخيل معي بعض كتّاب المقالات الصحفية ومدى تأثيرهم في مجتمعهم لتدرك بعد ذلك أهمية جرة القلم تلك.

التلفزيون: لا أحد يغفل دور التلفزيون والإعلام المرئي بشكل عام، في إحداث تأثير ملموس، وتغيير للمفاهيم في المجتمعات، وهذا ما لاحظناه فعلا، خصوصا قبل فترة قصيرة في شهر رمضان، حيث المتابعة الكبيرة من المجتمع للمسلسلات والأفلام، مما يعزز التصاقك بهذه الوسيلة الإعلامية المؤثرة، فليكن لك برنامج فيه رسالة هادفة للناس، تزرع بها قيمة في المجتمع وتروج لرسالتك.

أوبرا وينفري: الإعلامية الأميركية المشهورة صاحبة برنامج اجتماعي تربوي مميز يشاهدها ٣٠ مليون مواطن أميركي، ويعرض برنامجها في ١١٢ دولة، وتعتبر من أكثر النساء تأثيرا في العالم!

الإذاعة: كذلك المحطات الإذاعية لها دور فعال في نشر أفكارك، فمن المهم أن تضع الإذاعة في هرم أولوياتك، فمن منا لم يسمع عن لاري كينج صاحب كتاب «كيف تتحدث مع أي شخص في أي وقت وأي مكان»، حيث يعتبر كينج من أشهر المذيعين في العالم، وله شريحة عريضة من المشاهدين، وقد قام بمقابلة أبرز الشخصيات في العالم!

الدورات التدريبية: يحاول المدربون في دوراتهم التدريبية أن يستعرضوا نجاحاتهم ومشاريعهم وخبراتهم، ويروجوا لأنفسهم بطريقة ذكية جدا، وأذكر أنه في إحدى الدورات التدريبية قام أحد المدربين بالترويج لكتابه بعدما استعرض موضوعا نال إعجاب الجمهور.

استثمر الآخرين

الناجح أمثالك عزيزي القارئ عليه أن يدرك دائما أهمية الاستفادة من الإمكانات والموارد المتاحة التي تحيط به، لذلك فاستثمار عقول الآخرين وخبرتهم وعلاقتهم ونفوذهم يعد من وسائل النجاح التي لا غنى عنها لتحقيق ما نصبو إليه.

يقول الدكتور مصطفى السباعي -رحمه الله- «لا ينمو العقل إلا بثلاث: إدامة التفكير، ومطالعة كتب المفكرين، واليقظة لتجارب الحياة».

إن العقل البشري يكاد يكون من أثمن الممتلكات

عقل آينشتاين

أصيب العلماء بالذهول عندما اكتشفوا أن الدم الذي يغذي المخ لا تبدو عليه آثار الإجهاد على الإطلاق، فلو أخذنا قطرة من دم آينشتاين وقطرة من دم عامل يبذل مجهودا بدنيا؛ فسنجد أن دم العامل فيه سموم الإجهاد، بينما دم آينشتاين لا تبدو عليه أي آثار للإجهاد، ولو ظل يعمل طوال اليوم!

المادية، بل إنه معجزة أذهلت العلماء الذين أثبتوا أن مخ الإنسان يكبر بعدة وسائل، ومنها على سبيل المثال: اقتناء الألعاب التي تنمي التفكير، كلعبة الشطرنج، ولعبة سودوكو، والكلمات المتقاطعة، ولعلنا نلاحظ أن الجامعات الأوروبية والأميركية تعتمد على العلوم والتمارين التطبيقية في تثبيت المعلومات، وبالتالي الارتقاء بمستوى التفكير وسعة الإدراك؛ بدلا من طريقة التعليم الشائعة لدينا، والمعتمدة على الحفظ والتلقين الذي تنتهجه جامعاتنا.



هيرمان.. قصة نجاح

هو خبير الدراسات المستقبلية الذي ترك ١٤ مؤلفا وآلاف المقالات، كان لها الأثر الكبير في التفكير العالمي في قضايا مهمة، مثل الحرب والسلام والديموقراطية، كان هيرمان يعمل في صباه في محل للأغذية تملكه عمته في «لوس أنجلوس»، ومع الأيام بينت له عمته الاستراتيجية لإنتاج الأكياس ذات الأحجام الكبيرة، حيث قالت، «إن الزبائن كلهم يفضلون الأكياس الكبيرة لوضع المهملات فيها لاحقا»، فعلم هيرمان أهمية ملامسة احتياجات الجنس البشري، فاستمد منذ صباه الاستشارات، حيث كان يستشير الناس حوله عن أفكاره، سواء من الحلاق أو السائق أو حتى جاره في مقعد الطائرة، ومن الأمور اللطيفة أنه إذا أراد السفر أخذ معه حقيبته التي تحتوي على كل شيء إلا الملابس!! فمعه الأقلام والأوراق والمسجلة ليسجل إفرازات العقول، فحقيبته أشبه ما تكون بمكتبة متنقلة، وهكذا استمد هيرمان قوة استشارته من الأحياء والأموات «خلال مطالعة كتبهم».

وقد فاجأ العالم بتأليفه كتابا عن «الحرب النووية» عام ١٩٦٠م، وقد بسط الكثير من المفاهيم العسكرية، وأصدر كتابا آخر وهو «التفكير فيما يتجاوز الفكر».

إلقاء كلمة جماهيرية: إن إلقاء كلمات رنانة في لقاء جماهيري حاشد قد تكسبك نقاطا كبيرة تضيفها إلى أدواتك الترويجية، فتوصل صوت إنجازاتك ونجاحاتك لأقصى عدد ممكن، فتكسب في صفك عددا لا يستهان به من المؤيدين.

الإسهام: انضم لإحدى النقابات أو الاتحادات أو الجمعيات أو الروابط أو الأندية التي تتوافق مع ميولك وخططك، وانخرط في نشاطاتها المختلفة والإعداد والترتيب لبرامجها، فهي إضافة إلى كونها تصقل مهاراتك الشخصية فكذلك تفتح لك آفاقا رحبة، وتزيد من قطر دائرتك التأثيرية لنفوذك.

كلمة في مجالس صناع القرار: الكلمة التي تتفوه بها في مجالس صناع القرار، حينما يعتنقها البعض ويؤمن بها أحدهم ويتبنّاها ويحولها إلى واقع ومشروع عظيم، تكون بذلك قفزت قفزات طويلة في سلم النجاح.

قصتي مع كتابي «حياتك بلون مختلف»:

حينما انتهيت من كتابة كتابي؛ وضعت خطة إعلامية للترويج للكتاب وما يحويه من أفكار ومبادئ وقناعات أؤمن بها؛ إضافة إلى كونه إنجازا أفخر به، وتبلورت الخطة الإعلامية للترويج للكتاب.. فكانت هذه أبرز ملامحها:

- عمل لقاءات تلفزيونية بغرض الحديث عن الكتاب والترويج له.
- عمل لقاءات إذاعية.
- عمل عدة لقاءات في مختلف الصحف والمجلات.
- التعاقد مع أكثر من مكتبة.
- تحويل الكتاب لدورة تدريبية مع بعض التمارين والورش العلمية.
- اقتباس موضوعات من الكتاب في كتاباتي، أشرت فيها للكتاب كمرجع.
- إهداءات للسياسيين والكتاب والإعلاميين وأساتذة الجامعة.
- الترويج للكتاب عن طريق المنتديات في شبكة الإنترنت.
- توزيع بعض النسخ المجانية في دوراتي التدريبية.

فاستثمر عزيزي القارئ هذه اللمعات الترويجية لنشر أفكارك ومبادئك ونجاحاتك في الحياة.. مع تمنياتي لك بدوام التميز والتألق في الحياة.



إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

الفتوى والتيسير ورفع الحرج (٣/٣).

مضى في العددين السابقين أن الشريعة مبنية على التيسير، وأن رفع الحرج من مقررات الشرع وقواعده العامة، إلا أن لهذا التيسير ضوابط مستقرأة من النصوص الشرعية وكلام أهل العلم المحققين؛ يمكن بيانها مجملة في النقاط التالية:

١- ضرورة الالتزام بالنص من الكتاب والسنة: فكلما زاد تمسك المفتي بالنص الشرعي والتزام الحكم المستفاد منه؛ كان ما يفيده من تيسير ورفع للحرج أبلغ وأسلم.

قال الشاطبي رحمه الله: «فعلى هذا يكون الميل إلى الرخص في الفتيا بإطلاق مضاد للمشي على التوسط، كما أن الميل إلى التشديد مضاد له أيضا، وربما فهم بعض الناس أن ترك الترخص تشديد فلا يجعل بينهما وسطا، وهذا غلط، والوسط هو معظم الشريعة وأم الكتاب، ومن تأمل موارد الأحكام بالاستقراء التام عرف ذلك»(الموافقات ٤/٢٥٩).

٢- عدم تتبع الرخص: وهذا من الشروط والضوابط المهمة؛ لأن المفتي لو أفتى الناس بالرخص في كل شيء، وفي كل حال؛ لميع المفتون مسائل الشرع، بل حذر الفقهاء من هذا الأمر، وشددوا النكير على فاعله، قال الزركشي: «فلو اختار من كل مذهب ما هو الأهون عليه ففي تفسيقه وجهان: قال أبوإسحاق المروزي: يفسق، وقال ابن أبي هريرة: لا»(البحر المحيط ٤/٦٠٢).

٣- ألا يتتبع المفتي الحالات الخاصة

حمل الناس على مذهب معين

(١٠٤٧/٤٢٨/٣)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:
ما حكم قيام بعض العلماء باختيار رأي من آراء الفقهاء دون غيره من الآراء، والتشدد والتعصب لهذا الرأي، وتخطئة كل من يتبع غير ذلك، علما بأن كثيرا من هؤلاء العلماء الأفاضل قد لا تتوفر فيهم شروط الاجتهاد؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لا يجوز حمل الناس على رأي من آراء الفقهاء في مسألة مختلف فيها مادام هناك اجتهاد معتبر، كما لا يجوز الإنكار على من يأخذ بغير ذلك الرأي، لأن من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن لا يكون المنهي عنه مختلفا فيه بين الفقهاء، لما في ذلك من التضييق على الناس فيما تعم به البلوى، والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون كانوا يختلفون في الأحكام ولا يضلل بعضهم بعضا، ولا ينكر بعضهم على بعض، كما يصلي بعضهم خلف بعض مع ذلك الاختلاف، وفيه تحقيق سماحة الإسلام ويسره، كما ثبت في الحديث الصحيح، «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» كما لا يجوز أن يتصدى للفتيا إلا من توفرت فيه أهليتها، من سعة الاطلاع، ومراعاة الإجماع والخلاف، ومراعاة أعراف الناس التي لا تخالف نصا شرعيا ولا إجماعا فقهيا، هذا إذا كان يفتي متبعا لآراء من تقدمه من الفقهاء، أما إذا كان يفتي باجتهاده فلابد أن تتوفر فيه أهلية الاجتهاد المبينة في كتب أصول الفقه. والله أعلم.

التعصب المذهبي والقبلي

(٦٢٢٤/٤٧٥/١٩)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: هل يعتبر مسلما من تعصب لمذهبه أو قبيلته على حساب الإسلام؟

أجابت اللجنة بما يلي:

العصبية بمعنى الدعوة إلى نصرة العشيرة أو القبيلة على الظلم حرام، فقد نهى القرآن الكريم عن التعاون على الإثم والعدوان، وأمر بالتعاون على البر والتقوى، فقال عز من قائل: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(المائدة:٢)، وتظاهرت الأحاديث على النهي عن العصبية بكل أشكالها وصورها: العصبية للقبيلة أو للجنس أو للأرض، فقال رسول الله ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية»(أخرجه أبوداود). وقال عليه الصلاة والسلام في العصبية للقبيلة: «دعوها فإنها منتنة»(رواه البخاري ومسلم). وكانت العصبية للقبيلة ونصرتها -ظالمة كانت أو مظلومة- سائدة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، فأبطلها الإسلام، وحرم العصبية، والتناصر على الظلم. وقد جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل: أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ فقال: تحجزه أو تمنعه



بوقائع معينة، أو ما كان استثناء من الأصل لبيان معنى معين: فلا يجوز للمفتي أن يعمم وقائع خاصة بأشخاص معينين إلى غيرهم من أفراد الأمة اتباعا للتيسير والتخفيف.

٤- ألا يترتب على الفتوى بالأيسر مصادمة الشريعة: فلا يكون التيسير تيسيرا إذا عارض مصادر التشريع وأصولها ومبادئها، أو عارض مقاصد الشرع ومصالحه.

٥- مراعاة القواعد الفقهية الحاكمة على التيسير: والالتزام بمفهومها وشروطها، كقاعدة «المشقة تجلب التيسير»، و«الضرورات تبيح المحظورات»؛ فإنها مقيدة بقاعدة: «ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها»، و«ما جاز لعذر بطل بزواله»، وهكذا باقي القواعد المؤثرة.

٦- بقاء مسوغات التيسير ودواعيه: وهي الأسباب التي دعت المفتي إلى التيسير على المستفتي، من تبدل أحوال الناس بتغير الزمان والمكان والعرف، أو زوال الأعذار عن أصحابها، واعتبار المآلات بما يؤدي إلى المصالح، ودفع المفاسد، وشيوع البلوى وعمومها، فيزول التيسير بزوالها.

ومن صور التيسير في زمن الوحي: حديث أبي هريرة ﵁ في شأن الذي واقع أهله في رمضان وهو صائم، حيث قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هلكت! وفي رواية: احترقت، وفي رواية: وهو ينتف شعره، ويُحْثِي على رأسه التراب، فقال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا. قال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال: لا. قال: فمكث، فبينما نحن على ذلك أتي النبي بعرق فيه تمر؛ فقال: أين السائل؟ قال أنا. قال: خذ هذا فتصدق به. فقال الرجل: على أفقر مني يا رسول الله؟! فوالله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتي. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أنيابه؛ ثم قال: أطعمه أهلك»(متفق عليه).

قال ابن حجر في الفوائد المستخرجة من الحديث: «وفيه الرفق بالمتعلم، والتلطف في التعليم، والتألف على الدين»(فتح الباري ٤/٢٠٤).

من الظلم فإن ذلك نصره»(متفق عليه). وجعل المناصرة بين المؤمنين على الحق، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴿٧١﴾ ﴾(التوبة:٧١). وعد النبي ﷺ ميتة المتعصب ميتة جاهلية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات؛ مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل؛ فقتلةٌ جاهلية»(أخرجه مسلم).

كما أبطل الإسلام التفاخر بالآباء ومآثر الأجداد، قال رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنوآدم وآدم خلق من تراب»(أخرجه الترمذي).

وجعل الإسلام أساس التفاضل التقوى والعمل الصالح، وفي التنزيل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾(الحجرات:١٣). بيّن الله في الآية الغاية من جعل الناس شعوبا وقبائل، وهي التعارف والتعاون، لا التناحر والخصام، فالعصبية بأشكالها للقبيلة أو للجنس أو للون تتنافى مع الإسلام. والله أعلم.

الجدال في العلم

الفتوى رقم (١٨١٤٦)

عرض على «اللجنة الدائمة» في المملكة العربية السعودية الاستفتاء التالي: في أغلب الأحيان أكون مع أصدقائي، نتناقش في أمور دينية، حتى يشتد النزاع بيننا. فما حكم ذلك؟

أجابت اللجنة بما يلي:

المطلوب عند النقاش والمجادلة في مسائل علمية البحث عن الحق بدليله، وعدم التعصب لرأي، فمن كان الحق معه وجب اتباعه، ومن كان الحق ليس معه وجب تركه مع مراعاة الجدال بالتي هي أحسن، لا بالعنف والشدة، وقد أمر الله سبحانه المؤمنين برد النزاع إلى كتاب الله تعالى وإلى سنة نبيه ﷺ بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (النساء :٥٩)، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴿٤٦﴾ ..﴾(العنكبوت:٤٦)، وقوله سبحانه: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾ ﴾(النحل:١٢٥).

المسند للإمام أحمد بن حنبل

إعداد : خالد خلاوي

يعد كتاب «المسند» من أشهر كتب الحديث، جمعه الإمام أحمد بن حنبل ليكون مرجعا للمسلمين في أسانيد الصحابة ورواياتهم في الحديث. فقد كان الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث عن ظهر قلب. وقد انتقى المسند من هذا العدد الهائل من محفوظه، فجمع فيه ما يزيد على ٢٦ ألف حديث نبوي رتبها على أسماء الصحابة، فجعل مرويات كل صحابي في موضع واحد، وعدد الصحابة الذين لهم مسانيد في مسنده ٩٠٤ صحابي.

وقد كتب الشيخ محمد أبو زهرة، يرحمه الله، بحثا مطولا في تعريفه للكتاب ضمن سلسلة تراث الإنسانية(١)، ونظرا لأهميته نقدم تلخيصا لما جاء فيه في السطور التالية.

تعريف بالإمام أحمد بن حنبل

هو الإمام الفقيه المحدث أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي، رابع الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الفقهي المشهور.

ولد أحمد بن حنبل سنة ١٦٤هـ في بغداد ونشأ فيها يتيما، وقد كانت بغداد في ذلك العصر حاضرة العالم الإسلامي، تزخر بأنواع العلوم والمعارف، وكانت أسرته توجهه إلى طلب العلم، فبدأ في سنة ١٧٩هـ يتجه إلى الحديث النبوي، طلبه في بغداد عند شيخه هشيم بن بشير الواسطي حتى توفي سنة ١٨٣هـ، وظل في بغداد حتى سنة ١٨٦هـ، ثم تنقل في طلب الحديث، فرحل إلى العراق والحجاز وتهامة واليمن، وأخذ عن كثير من العلماء والمحدثين، وعندما بلغ أربعين عاما في سنة ٢٠٤هـ جلس للتحديث والإفتاء في بغداد، وكان الناس يجتمعون على درسه حتى يبلغ عددهم قرابة خمسة آلاف.

وقد أكثر العلماء من الثناء على الإمام أحمد بن حنبل، وقال عنه شيخه الإمام الشافعي: «أحمد إمام في ثماني خصال: إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنة».

وكان أهم حدث مر به في حياته المحنة التي عرفت باسم «فتنة خلق القرآن»، وهي فتنة وقعت في العصر العباسي في عهد الخليفة المأمون، ثم المعتصم والواثق من بعده، إذ اعتقد هؤلاء الخلفاء أن القرآن مخلوق محدث، وهو رأي المعتزلة، ولكن ابن حنبل وغيره من العلماء خالفوا ذلك، فحُبس ابن حنبل وعُذِّب، ثم أُخرج من السجن وعاد إلى التحديث والتدريس.

وفي عهد الواثق مُنع من الاجتماع بالناس، فلما تولى المتوكل الحكم أنهى تلك الفتنة إنهاء كاملا.

وفي شهر ربيع الأول سنة ٢٤١هـ، مرض أحمد بن حنبل ثم مات، وكان عمره سبعا وسبعين سنة.

ترتيب المسند

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «المسند هو مجموعة الأحاديث التي رواها أحمد رضي الله عنه، وضرب في مناكب الأرض ساعيا جاهدا في جمعها. وهو في الحق الخلاصة لما تلقاه من الأحاديث التي دونها بأسانيدها. ولذلك، يبتدئ جمعه من وقت أن ابتدأ أحمد يتلقى الحديث ويرويه من سنة ١٨٠هـ».

ولقد روى عبدالله بن أحمد مسند أبيه، ونشر علمه بين الناس، ثم تسلسلت الرواية عنه بالسماع راويا عن راو، وكانوا جميعا ثقات اثباتا، حتى حفظته الأجيال، واستقر فيها ذخيرة محفوظة من السنة، استحفظ عليها العلماء وتلقوها بالقبول.

ويظهر من أخبار المسند أن عبدالله هو الذي رتب المسند بالوضع الذي نراه الآن، وحاول من بعده محدثون وحفّاظ أن يغيروا ذلك الترتيب، ويجعلوه مرتبا على نسق كتب السنة الصحاح المشهورة، كالبخاري ومسلم وسنن أبي داوود، فإنها مرتبة على حسب الموضوعات، بحيث يرجع إلى الأحاديث المروية في كل موضوع، وبذلك تكون الاستفادة سهلة.



أما ترتيب المسند، كما رتبه عبدالله، فهو أن يجمع





أحاديث كل صحابي في مكان واحد من غير نظر إلى الموضوع، فيجمع كل ما روي عن أبي بكر، ويسمى مسند أبي بكر، وكل ما روي عن عمر ويسمى مسند عمر، وهكذا بقية الراشدين، والفقهاء من الصحابة كزيد بن ثابت وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وغيرهم.

ولم يسلك في ترتيب الصحابة ترتيب الحروف، بل ابتدأ بالأفضل فالأفضل من الصحابة، فابتدأ بالعشرة المبشرين بالجنة (أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وسعد بن مالك، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وأبوعبيدة وغيرهم)، ثم من يليهم وهكذا، حتى إذا وصل إلى التابعين رتبهم هكذا.

الروايات في المسند

أراد الإمام أحمد أن يكون كتابه جامعا لكل السنة التي كان يرويها الثقات في عصره. والثقات عند أحمد هم الذين لم يعرف عنهم أنهم يتعمدون الكذب، فكان يروي عن أهل التقوى، وإن عرف عنهم أن ضبطهم لم يكن كاملا، ولكن يقدم عليهم أحاديث الضابطين إذا عارضتها، ويقبلها إذا لم يكن في الموضوع سواها، ويضعها في مسنده.

والإمام أحمد يشترط اتصال السند لكي يكون الحديث صحيحا، فأحمد لا يقبل الحديث المرسل، والمرسل عنده هو الذي انقطع سنده عند التابعي، أو انقطع سنده في أي جزء من سلسلة السند. ويعد هذا النوع من الأحاديث ضعيفا، فلا يعمل به إلا حديث لا يكون سواه، لأنه يرى أن العمل بالحديث الضعيف يقدم على الرأي أيا كانت صورة الرأي، ويضعه في مسنده إذا لم يوجد ما يعارضه.

والإمام أحمد يشترط سلامة متن الحديث من الشذوذ والنكارة، فهو ينقد المتن في دائرة ضيقة، وذلك بأن يبحث عن موافقته لصحاح الأحاديث الثابتة، فإن وجده يعارض بعضها رده، ولم يقبله، وإن وجده لا يخالفها قَبِلَه وعمل به، وأثبته في مسنده.

وقد قال أحمد بن حنبل لابنه عبدالله في طريقته في تدوين مسنده: «قصدت في السند الحديث المشهور، وتركت الناس تحت ستر الله تعالى. ولو أردت أن أقصد ما صح عندي لم أرو من المسند إلا الشيء بعد الشيء، ولكنك يا بني تعرف طريقتي في الحديث، لست أخالف ما ضعف، إذا لم يكن في الباب ما يدفعه».

ولم يكن في عصر الإمام أحمد -رضي الله- عنه إلا تقسيم واحد للحديث، وهو أن الحديث إما أن يكون صحيحا، وإما أن يكون ضعيفا، ويدخل عنده في باب الحديث الضعيف الحديث الذي سُمي من بعد عصره الحديث الحسن الذي يكون رواته مستوري الحال، فقد كان أحمد يقبله إذا لم يكن في الباب سواه، ويرفض رواية من عرف بتعمد الكذب، ومن لم يُعرف بالتقوى.

وبذلك يتبين لنا أن الإمام أحمد إذا كان يصرح بأنه يقبل الضعيف ويقدمه على القياس إذا لم يكن في الباب ما يدفعه، فإن ذلك مؤداه أن يقبل المستور، أو غير الضابط ضبطا كاملا أو المرسل، لأنه يعد كل هذه الأنواع من الروايات الضعيفة، ولكنه لا يقبل الأحاديث التي يكون رواتها قد عرفوا بتعمد الكذب، أو ثبت أنها معارضة للأحاديث الصحيحة، أو بعبارة عامة الأحاديث التي ثبت أنها متروكة المعنى لمخالفتها المعروف من السنة.

الاهتمام بالمسند

ويلاحظ أن العلماء من بعد أحمد كانوا يعملون على القيام بحق المسند، فابنه عبدالله قد زاد فيه ما يشبهه، وإن كانت الزيادة قليلة، وقد رتبه على النحو الذي نراه. وجاء من بعد ذلك في القرن الثامن من حاول أن يرتبه على حسب معجم أسماء الصحابة، لا كما هو على حسب مراتبهم في الصحبة، ثم جاء ابن كثير، فرأى أن يجعله الموسوعة الكبرى التي تشتمل على كل الأحاديث والسنن وآثار الصحابة والتابعين المروية، فأتم كل سند فيه، حتى جاء إلى سند أبي هريرة فكف بصره قبل أن يتمه.

وإذا كان الماضون قد صنعوا كل ذلك مع المسند، فإنه ما زال علينا أن نقوم بأمرين مهمين تجاه هذا السفر الجليل:

أولهما: تغيير ترتيبه وجعله على حسب الموضوعات لا على أسماء الصحابة أو مراتبهم، مع بقاء الأصل من غير تغيير، فيكون له عندنا ترتيبان: أحدهما، ترتيب عبدالله بن أحمد، وله مزاياه لأهل العلم. وثانيهما، الترتيب الموضوعي، وله فائدة جليلة.

ثانيهما: أن تدرس أحاديثه دراسة فاحصة، فما لا يثبت وضعه أو معارضته للصحاح يبقى، وما يعارض الصحاح وتتبين معارضته، يبعد، وكذلك ما يثبت وضعه يبعد، وإنه لنادر جدا، حتى قال بعض العلماء لا وجود له، والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

هوامش

(١) المسند لابن حنبل، الشيخ محمد أبو زهرة، تراث الإنسانية، ج١، ص ١٩٠ وما بعدها، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، من دون تاريخ.

سؤال التربية

الكثير منا يعرف مقولة المربي الأول ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة».

ولكن القليل منا من يستطيع توظيف هذا الموقف النظري في تعامله مع الطفل، لأن المتأمل في نوع التدخل الذي نقوم به تجاه سلوك أطفالنا يدرك مباشرة أننا نتعامل معهم على اعتبار أنهم حالة تربوية منحرفة، يلزمنا تقويمها، لا باعتبارهم كيانا إنسانيا سليما، كما يقتضيه فهمنا لمعنى «الفطرة» الوارد في الحديث الشريف.

لهذا فالإيمان بأن كل مولود يولد على الفطرة ليس مسألة حفظ بالجنان وحديث باللسان، بل هو تصور عقدي ينبني عليه التزام عملي تربوي ثابت، والانحراف عن هذا التصور يجعل سلوكنا تجاه أبنائنا، منذ البداية، محكوما عليه بالفشل الذريع. إذ إنه من مقتضيات الإيمان بولادة الإنسان على الفطرة: الاعتقاد بأن الله تعالى قد منح الطفل من الملكات الفطرية والقدرات الأولية ما يؤهله ليسير في رحلته في هذه الدنيا على هدى وصواب، وبذلك التصور سيتحدد نوع تدخلنا في كيانه، والذي يتجلى في وظيفة محددة هي: الإنضاج والتنمية، لا التقويم والتسوية، أي ستقتصر وظيفتنا تجاه الطفل على تقديم يد المساعدة له حتى ينضج تلك الملكات وينمي تلكم القدرات.

يقول الغزالي: «الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال إليه. فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب. وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له..».

وتبقى التربية أمانة في أعناقنا لابد أن نحسنها بدءا بدوام الأبوين على الدعاء بأن يصلح الله سبحانه الأبناء، وينبتهم النبات الحسن كما جاء في قول الله تعالى:

–على لسان امرأة عمران: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(آل عمران:٣٦).

– وعلى لسان سيدنا زكريا عليه السلام: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ (آل عمران:٣٨)،

– وعلى لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ (إبراهيم:٤٠).

– وعلى لسان عباد الرحمن يقول سبحانه: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾(الفرقان:٧٤).

– وعلى لسان كل مؤمن معترف بأنعم الله عليه، يقول جل جلاله:

﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾(الأحقاف:١٥).

عبدالحق بوزرب

الرسول ﷺ ومراعاة مشاعر الناس

يهدف الإسلام إلى إسعاد الناس وصلاحهم، لذا وضع كثيرا من المبادئ والأسس لصون المشاعر ومراعاة الأحاسيس، لأن هذا يزيد الود بين الناس.

رأيت معلما ينادي أحد طلابه قائلا: «أقبل يا أعمى» ويجرح مشاعره بذلك، وشخصا يرى مريضا فيقول: «الحمد لله الذي عافاني من هذا البلاء» ولا يراعي أن يقولها في سره كي لا يجرح مشاعر المريض، وقد دعا الإسلام إلى الكلمة الطيبة، حيث يقول تعالى، موجها رسوله ﷺ في حواره مع الكفار: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾(سبأ:٢٥)؛ فلم يقل: لا تسألون عما عملنا ولا نسأل عما تجرمون، ويقول جل شأنه: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ٨٣﴾(البقرة:٨٣)، ويقول أيضا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ٥٣﴾(الإسراء:٥٣).

بل لقد راعى الإسلام عدم جرح مشاعر المخطئ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: «دعوه وأريقوا على بوله سجلا من ماء»، ثم قال للأعرابي: «إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر، إنما هي للصلاة وقراءة القرآن».

كان النبي ﷺ يراعي السائلين ولا يجرحهم، وإن كان السائل لا يستحق



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

المرأة.. أقوال وخواطر

أختي، إليك طائفة من النصائح ألقاها فئة من أهل العلم والأدب، قديما وحديثا، يمحضونك فيها النصح، ويرشدونك إلى ما فيه خيرك وصلاحك ونجاتك من براثن الذئاب المفترسة الذين ما فتئوا يسولون لك طريق الغواية والرذيلة، حتى تقعي في حمأة الشهوات، فتتزودي بذلك من أعمال جهنم لا من أعمال الجنة.

● مصطفى صادق الرافعي: «أساس المرأة في الطبيعة أساس بدني لا عقلي، ومن هذا كانت هي المصنع الذي تصنع فيه الحياة، وكانت دائما ناقصة لا تتم إلا بالآخر الذي أساسه في الطبيعة شأن عقله وشأن قوته».

● الرافعي: «كم من امرأة متحجبة وهي عارية الروح، وكم من سافرة وروحها متحجبة».

● الرافعي: «لا تغضب من حماقة امرأة تحبها، ولا تغضبي من حماقة رجل تحبينه، وإلا فأين تدس الحياة سمها إلا في ألذ أطعمتها؟»

● الرافعي: «لو كنت قاضيا ورفع إلي شاب تجرأ على امرأة فمسها أو احتك بها أو طاردها أو أسمعها، وتحقق عندي أن المرأة كانت سافرة مدهونة مصقولة متعطرة متبرجة، لعاقبت هذه المرأة عقوبتين: إحداهما بأنها اعتدت على عفة الشاب.. والثانية بأنها خرقاء كشفت اللحم للهر».

● الرافعي: «ما أعجب تناقض المرأة! هي تريد أن تستقل فتخرج عن طاعة الرجل، وهي لا تسعد إلا حين تجد رجلا تشعر من حبه بوجوب طاعته».

● الرافعي: «مهما تبلغ المرأة من العلم فالرجل أعظم منها بأنه رجل، ولكن المرأة حق المرأة هي تلك التي خلقت لتكون للرجل مادة الفضيلة والصبر والإيمان، فتكون له وحيا وإلهاما وعزاء وقوة، أي زيادة في سروره، ونقصا من آلامه».

● الرافعي: «لن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرجل إلا بشيء واحد، هو صفاتها التي تجعل رجلها أعظم منها».

● محمود محمد شاكر: «كانت المرأة هي فن الفن للإنسانية، وهي الشاطئ الوادع لبحر الحياة المتموج، وكانت الظل الرطيب في بيداء موقدة تحت أشعة الشمس المحرقة، وكانت هي السكن للقلب المسافر دائما في طلب أسباب العيش والحياة. فجاء فن المدنية الحديثة فجعل الشاطئ بحرا آخر يموج موجا فنيا مغريا يجعل السباحة المجهدة فيه ضربا من الراحة، وتركت الظل الرطيب حرارة مستعرة تحرق، ولكنها تحرق بلذة، وفرشت السكن حتى مدته طريقا بعيدا متراميا يسافر فيه القلب سفرا بعيدا في أحلام وفتنة وجديد لا يتقادم».

● بسمرك الألماني: «إن للنساء مقدرة عجيبة في غرس مبادئهن في عقول وقلوب أولادهن وأزواجهن، لأنهن خلقن ليستولين على القلوب، والرجال خلقوا لإخضاع العقول. وفي سياسة الأمم نرى أن السيادة تكون غالبا للقلب والعواطف أكثر منها للفهم والإدراك».

عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «إنما النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه».

بشار بكور

المال رده النبي ﷺ ردا جميلا بكلمة طيبة ولم يجرحه؛ فعن عبيدالله بن عدي بن الخيار قال: أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي ﷺ في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة، فسألاه منها، فرفع فينا البصر وخفضه، فرآنا جلدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»(صحيح، مسند أحمد ١٧٥١١).

محمود عبد القادر

سعادة الأستاذ فيصل يوسف أحمد العلي

يحفظه الله

رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد:

فأسأل الله جل وعلا لسعادتكم دوام الصحة والعافية.

أخي العزيز: تسلّمت بيد الشكر والامتنان مجموعة الكتب المطبوعة الأخيرة المرسلة من قبل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطاع الشؤون الثقافية، وقد وُفِّقتم في إخراجها الإخراج الحسن، فالشكر مكرر على إخراج هذه التحف العلمية، وجزاكم الله خير الجزاء على حسن الاختيار، وعلى حسن صنيعكم بما تمدون به الباحثين من أعمال علمية مفيدة.

أخي العزيز: قد اطلعت على قائمة إصدارات الوزارة، وأتمنى لو يُسِّر اقتناؤها في الأسواق للدارسين، وإني بحاجة إلى الكتب التالية:

١- الاختلاف الأصولي في الترجيح بكثرة الأدلة والرواة وأثره.

٢- التحقيق في مسائل أصول الفقه التي اختلف النقل فيها عن الإمام مالك بن أنس.

٣- الاجتهاد بالرأي في عصر الخلافة الراشدة.

٤- أصول الفقه عند الصحابة معالم في المنهج.

وإني على استعداد لدفع الثمن، ولسعادتكم مني خالص الشكر والتقدير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المخلص عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان

المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة.

إعداد: تركي النصر

مراحل الوقوع في المعصية!

قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله:
«دافع «الخطرة»، فإن لم تفعل.. صارت «فكرة»؛ فدافع الفكرة، فإن لم تفعل.. صارت «شهوة»؛ فحاربها، فإن لم تفعل.. صارت «عزيمة وهمة»، فإن لم تدافعها.. صارت «فعلا»، فإن لم تتداركه بضده.. صار «عادة»؛ فيصعب عليك الانتقال عنها!».
(الفوائد ص ٣١).

حكم وروائع

- من أيقن بالخلف جاد بالعطية.
- الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته، والمعاتبة خير من القطيعة، والقطيعة خير من الوقيعة.
- إن من السكوت ما هو أبلغ من الجواب.
- افرح بما لم تنطق به من الخطأ مثل فرحك بما نطقت به من الصواب.
- استأنس بالوحدة من جليس السوء.
- لكل شيء بذرة، وبذرة العداوة المزاح.
- العاقل يسالم عدوه إذا اضطر إليه.

(الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي ص١٠)

عليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه

لابد لكل إنسان أن يتقي، فإن لم يتق الله اتقى المخلوق، والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم، بل الذي يريده هذا يبغضه هذا، فلا يمكن إرضاؤهم كلهم، كما قال الشافعي رحمه الله: «رضى الناس غاية لا تدرك».
فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه، ودع ما سواه فلا تعانه، فإرضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور، وإرضاء الخالق مقدور ومأمور.
(شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، ص٢٩٨)

الشكر

قال الجنيد رحمه الله: سألني السقطي: ما الشكر؟
فقلت: ألّا يستعان بنعمه على معاصيه.
فقال: هو ذاك يا أبا القاسم.

(تاريخ بغداد ٧/٢٤٤)

المكان المنخفض أكثر ماء

قال أحد السلف: «المتواضع في طلاب العلم أكثرهم علما، كما أن المكان المنخفض أكثرهم ماء»
(الجامع للخطيب ١/٣٠٠)

انتقاء الشيوخ

روى البيهقي عن النخعي قال: كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته، وإلى صلاته، وإلى حاله، ثم يأخذون عنه.
وعن شعبة أنه قال: قلت للحكم بن عيينة لم لم ترو عن زاذان؟ فقال: كان كثير الكلام.
(تدريب الراوي ١/٣٠١، وتهذيب التهذيب ٣/٣٠٢).

انضباط في العمل

قال معاذ بن معاذ لابنه في يوم مطير: أي بني، امض بنا نجلس للناس. فقال ابنه: يا أبت هذا يوم مطير لا يجيء فيه الناس. فقال: يا بني، امض بنا، فبم نستحل أن نأخذ كل يوم كذا وكذا درهما؟ وخرج وجلس.
(أخبار القضاة لوكيع بن خلف بن حيان ٢/١٣٨)

سوء عاقبة المعصية

قال إبراهيم بن العباس الصولي (من كتبة الدولة الأموية) يصف سوء عاقبة المعصية:... وقديما غذت المعصية أبناءها، فحلبت عليهم درها مرضعة، وبذلت لهم من أمانيها مطمعة، وركبت فيهم مخاطرها موضعة، حتى إذا رتعوا فأمنوا، وركبوا فاطمأنوا، وانقضى رضاع، وآن فطام؛ سقتهم سما، ففجرت مجاري ألبانها منها دما، وأعقبتهم من غذائها مرا، وحطت بهم من معقل إلى عقال، ومن غرة إلى حسرة: قتلا وأسرا، وإجاحة وقسرا.
وقل من أوضع في الفتنة مرهجا في لهبها، ومقتحما عند ضلالها إلا استقحمته، آخذة بمخنقه، وموهنة بالحق كيده، حتى تجعله لعاجله جزرا، ولآجله حطبا، وللحق موعظة، وللباطل حجة. ذلك لهم جزاء في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر، وما ربك بظلّام للعبيد.
(الحديقة لمحب الدين الخطيب ص ١٣١٧)

السريرة

قال ذو النون رحمه الله: «كان العلماء يتواعظون بثلاث، ويكتب بعضهم إلى بعض: من أحسن سريرته؛ أحسن الله علانيته. ومن أصلح ما بينه وبين الله؛ أصلح الله ما بينه وبين الناس. ومن أصلح أمر آخرته؛ أصلح الله له أمر دنياه»

(سير أعلام النبلاء ١٤١/١٩)

جمود النقلة وانبساط المتكلمين

قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله: «احذر جمود النقلة، وانبساط المتكلمين، وجمود المتزهدين، وشره أهل الهوى، ووقوف العلماء على صورة العلم من غير عمل، وعمل المتعبدين بغير علم»

(صيد الخاطر ص١٢١)

علو الهمة

قال الربيع: «لم أر الشافعي آكلا بنهار، ولا نائما بليل؛ لاهتمامه بالتصنيف».

(تدريب الراوي ١٥٣/٢)

أخطر اللصوص

قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله: «ليحذر من لص الكسل؛ فإنه محتال على سرقة الزمان»

(صيد الخاطر ص٣٨٢)

أكرم مهر

عن أنس رضي الله عنه قال: خطب أبو طلحة أم سليم، فقالت: والله ما مثلك يا أبا طلحة يرد، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تسلم فذاك مهري؛ فأسلم. فكان ذلك مهرها.

(فتح الباري ١١٥/٩)

ابتسامة

أشعب في ضيافة صديق

نزل أشعب في ضيافة صديق له، فقدم له أربعة أرغفة، وذهب ليحضر له لحما، ولما رجع وجده قد أكل الخبز، فذهب وأتى بخبز فوجده قد أكل اللحم.

فسأله الرجل: أين مقصدك؟

قال أشعب: إلى الشام.

قال الرجل: ولماذا؟

قال أشعب: بلغني أن بها طبيبا حاذقا في الأمعاء، وأنا منذ وقتٍ قليلُ الشهوة للطعام.

فقال الرجل: إن لي إليك حاجة.

فقال أشعب: وما هي؟

قال الرجل: إذا ذهبت وأصلحت معدتك، فلا تجعل رجوعك علينا.

(موسوعة سين جيم ٥٤٦/٤)

إنصاف أهل العلم

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة، هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده؛ فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين».

(إعلام الموقعين ٢٢٠/٣)

نصيحة من عمر رضي الله عنه

عن وديعة الأنصاري قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول -وهو يعظ رجلا-: «لا تتكلم فيما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله عز وجل ويطيعه، ولا تمش مع الفاجر فيعلمك من فجوره، ولا تطلعه على سرك، ولا تشاور في أمرك إلا الذين يخشون الله سبحانه».

(كتاب العزلة للخطابي ص ٧٣)

حكم عربية

- ما استب رجلان إلا غلب ألامهما. **(الزبرقان بن بدر)**.
- لو تأملت أحوال الناس؛ لوجدت أكثرهم عيوبا أشدهم تعييبا.

(الجاحظ)

دواء للحفظ

قال علي بن خشرم: رأيت وكيعا وما رأيت بيده كتابا قط، وإنما هو يحفظ، فسألته عن دواء الحفظ، فقال: «ترك المعاصي، ما جربت مثله في الحفظ».

(تهذيب التهذيب ١٢٩/١)

مسك الختام

الحكمة ضالّة المؤمن

السيد زرد
عضو اتحاد كتاب مصر

من الحقائق الكبرى والجلية في الإسلام أنه دين يقوم على العقل ويرتكز على المعرفة، فالنظرة الكلية للإسلام حول «الله والكون والإنسان» تفرض على الإنسان العلم بكل ما يحيط بحياته، بدءا من الخالق جل شأنه، وانتهاء بواجباته في هذه الحياة. لا فرق بين واجباته نحو الله، وواجباته نحو إخوته البشر، وواجباته في العمل المحتوم عليه لعمارة الأرض والإصلاح فيها.

فالقرآن يهيب بالإنسان أن ينظر ويتأمل؛ فيتعرف إلى نفسه وإلى ما حوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾(الطارق:٥)، ويوجهه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١)، ويرشده: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:٢٠).

لقد منح الله الإنسان عقلا كي يفكر به، ويهتدي بنوره، فتلك وظيفة العقل وثمرته المرجوة، والله جل شأنه يكره أن يهدر الإنسان هذه المنحة الربانية فيحيا أحمق وهو يستطيع الرشد، بليدا وهو يقدر على النظر والفهم.. وكل تدين يصحبه فساد في الفطرة، وشلل للعقل؛ هو تدين عديم القيمة، لأنه أمات الحقيقة الإنسانية، وجعل تعاليم الدين أعوادا تغرس في الصخر، لا تورق ولا يرجى منها ثمر.

إن الإيمان الحق -من منظور الإسلام- ليس تخمينات عقل ضرير في فضاء من الأوهام الذاتية، وإنما هو أثر لتفاعل الإنسان مع الحياة والأحياء. ومن هنا كان العلم والدين متلازمين، بل إن أحدهما -في منطق القرآن الكريم- سبب ونتيجة للآخر.

والعلم الذي يحض الإسلام على طلبه والتزود منه، ليس علما معينا، فكل ما يوسع مناحي النظر، وآفاق الإدراك، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود والموجودات، ويتيح له إعمار الأرض، والسيطرة على ثرواتها، والإفادة من ذخائرها، هو علم مطلوب إسلاميا. فالعلم ليس له وطن خاص، ولم ينفرد به شعب بذاته أو جيل بعينه، إذ إن منابع المعرفة -كما صورها أحد الفقهاء المعاصرين- كالسحب السيارة في السماء، لا تحتبس في أفق، ولا يحتكرها نظر. فلا حدود؛ إن «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»(رواه الترمذي وابن ماجه)، فلا يصح أن تقف بين المسلم وطلب العلم حدود أو مشاق: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة» (رواه مسلم).

فليس في الإسلام جنسية جغرافية للمعرفة، إذ إن المفاهيم والمنجزات العلمية في الشريعة الإسلامية تفرز على أساس موضوعي لا على أساس شخصي، ولذلك تعامل النبي ﷺ مع ثقافة عصره بشكل إيجابي، وتعاطى مع منتجات الدول الأخرى، وثقافات القوى الكبرى. إن علوم الحياة يمكن النظر إليها باعتبارها مساوية لعلوم الآخرة في خدمة الدين وبلورة حقائقه، فالحاجز رقيق جدا بين ما هو دين محض وما هو ديانة محضة، وتطبيقات العلم من مخترعات وآلات، ما هي إلا وسائل قد تخدم الخير وقد تخدم الشر، ولا صلة لها بالأديان. وهو ما شدد عليه الرسول ﷺ بقوله: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» (رواه ابن ماجه).





للحصول على إصداراتنا: www.alwaei.gov.kw



وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
إدارة الإعلام الديني
دولة الكويت
وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
فيديو كليب
ياكويت
إلى عاشقي الأوطان
إلى فرحة القلب وبسمة الوجدان
إلى كويت الخير والإحسان
نهدي رائعتنا " يا كويت "
الإعلام الهادف.... غايتنا
فيديو كليب
ياكويت
دولة الكويت
وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
إدارة الإعلام الديني
الإشراف العام
صلاح أبا الخيل
www.nafaess.com
info@nafaess.com
DVD
الإشراف العام
صلاح أبا الخيل
الآن.. اطلب نسختك
إدارة الإعلام الديني - مجمع الوزارات
بلوك ١٦ - الدور الأول - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
تلفون : ٨ / ٢٢٤٨٧٣٢٧ - فاكس: ٢٢٤٨٧٣٢٦
DVD VIDEO
تفضلوا بزيارتنا .. للفوز بجوائزنا
www.nafaess.com
إدارة الإعلام الديني
RedAwqaf

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٨٦) جمادى الآخرة ١٤٣٥ هـ - أبريل ٢٠١٤م

50 عاماً من العطاء

الحرية والبناء الحضاري

العدل ومكانة الإنسان في الإسلام

أثر مباحث الحديث في العلوم الأخرى

منهجية العمل الخيري عند السميط

جائزة البوكر.. دماء زرقاء في عروق الثقافة العربية

دور المرأة المسلمة في التنوير

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»



ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعيــة والمعلومة الصحيحة المنضبطة بضوابط التوثيق العلمي، فقد رأت المجلة أن تعيد التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي من الشروط:

ما يتعلق بالكاتب

- أن يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته وأن تؤهله ثقافته للكتابة في الموضوع الذي يتطرق إليه.
- أن يرسل صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- أن تكون المراسلات باسم رئيس التحرير.
- أن يكون العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، وضرورة إرسال البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- أن يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- أن يكون المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- أن تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- أن تكون المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية.
- ألا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، وأن يبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- أن تكون الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات مقرونة بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال منشورًا في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

الوعي الإسلامي

الافتتاحية

حرية أم فوضى

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

خلق الله الإنسان وعلمه البيان، ووهب له العقل ليعقل عن ربه ما شرعه وأبان، وجعله متميزا بالتكليف والأمانة، والحرية والكرامة.. وإن كرامة الإنسان وحريته هما أعز مقومات وجوده، بل مصدر قوته وعزته وافتخاره، فالإنسان هو ذلك المخلوق المكرّم على سائر المخلوقات، وقد شرفه الله بالخلافة على هذه الأرض.

ولقد جاء الإسلام ليقرر الحقوق والحريات، وكفلها للجميع بدون تمييز. وهي حقوق ثابتة لا غنى عنها، وميزتها أنها منح إلهية. والحرية من صميم الحياة الإنسانية، وقد حفظها الإسلام لكل فرد، على أن لا يَمسّ حقوق الآخرين، أو يخل بقانون النظام العام، لأن الحرية في الأصل ليست مطلقة، وإنما هي قدرة الفرد على ممارسة أي عمل لا يضر الآخرين، فهي مقيدة.

والحرية أنواع، حرية الاعتقاد والفكر والقول والرأي والتملك والاجتماع.

فالإنسان في نظر الإسلام سيد هذا الكون، والمخلوق المدلل المخدوم ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان:٢٠). وإن الحريات المقررة هي الضمان لاستقرار الدين ونمائه وازدهاره، وفي نفس الوقت الذي أطلق فيه الإسلام حرية الفكر قيَّد حرية الشهوة، ووضع لها الضوابط، وراقب سير الغرائز، وأقام لها الحدود والتكاليف.

وإن العالم إذا كان قد أصابه خير فمن حرية العقل والنظر، وإذا كان قد مسه ضرّ فمن حرية الهوى والعبث، ولا يجوز أن نخلط بين الحريتين، فعلى دعاة الحرية أن يفرقوا بين الأمرين، وأن يميزوا بين المنهجين.

ولكن الحرية التي ينادي بها المعتدلون، ويكرهها المعتدون، هي حرية النقد البناء، وحرية النصح والتقويم، وحرية مقاومة الحجة بالحجة، لا الاضطهاد والاعتداء والتشويه والقمع، فالحرية صدى الفطرة ومعنى الحياة، والإنسان يشعر بأن كل ذرة من كيانه تنشدها وتهفو إليها، وكما برأ الخالق الحكيم لكل جارحة أو حاسة وظيفتها التي تعتبر امتدادا لوجودها، خلق الإنسان ليُعَزّ لا ليذل، ويكرم لا ليهان، وليفكر بعقله ويهوى بقلبه.. فقد خلق الله الإنسان، وسخر له الكون، ليكون خليفة الله في الأرض.. فالإنسان الحر حقا: هو الشخص الذي تتجلى فيه المعاني الإنسانية العالية، التي يعلو بها عن سفساف الأمور ويتجه إلى معاليها، ويضبط نفسه، فلا تنطلق أهواؤه، ولا يكون عبدا لشهواته.

الوعي الإسلامي

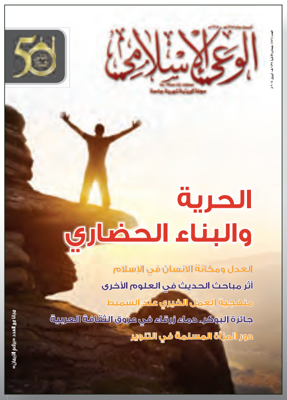
مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٦ | جمادى الآخرة ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
ابريل ٢٠١٤ مـ

المراسلات

رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



الإنسان الحر هو المسؤول عن أفعاله والمجتمع الحر هو المحافظ على أفراده ولا حرية بدون ضوابط، ولا التزام بدون حرية.

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦-٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذبية . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

كلمة العدد

الحرية

الحرية ثمرة الحياة وتاج السعادة، وزهرة هذا الوجود، بها يكون الإنسان إنسانا.. فإذا فقدها فهو والحيوان سواء، تسخره القوة، وتلعب به الأهواء، ولا يعرف اللهَ غيرُ حر.

فالموحدون هم الأحرار، وإن شئت فقل، إن الأحرار هم الموحدون، فالحرية هي التحلل من قيود الرق البشري، وتمزيق لفائف العبودية لغير الله الواحد الأحد.

على ضوء هذا يجب أن تفهم الحرية البريئة الصحيحة، ولكن بعض الناس أخطأوا فهم الحرية واختلط عليهم الأمر، فناقضوا الحق مناقضة صريحة.. فهموا الحرية على أنها تحلل من قيود الأدب، وتجاوز لحدود الفضيلة.

فهذه امرأة سافرة، كشفت عن ساقيها وذراعيها، وتبرعت للناس بعرض جمالها، وغشيت محافل الرقص؛ طروبة خليعة، رغم أنف الآباء والأزواج، لأنها تتحصن بالحرية المكفولة للأفراد والجماعات في ظل القوانين الوضعية، وهذا شاب مائع يقامر بماله، ويغامر بدينه، فالحرية عنده يحدها شمالا هتك الأعراض و إباحة الفساد، وجنوبا الاستهتار بالدين والاعتقاد بأن التمسك به تأخر وجمود، وشرقا بالخنوثة والإلحاد والطيش، وغربا تقليد الغرب فيما يضر من إباحية واستهتار، وترك ما ينفع من حب الوطن وإعداد السواعد القوية السليمة، والعدة الدفاعية.

وهذا شيخ جرب بالتجارب فخرج من مدرسة الحياة الطويلة بارعا في النفاق والغش، يستطيع أن يحيك الإجرام محبوك الطرفين بخيوط الدهاء، مدهونة بصبغة الكذب واللؤم، وذاك عالم قعد به الكسل، واستمرأ الدعة، فقال، عليك نفسك والزم بيتك، فترك الجهاد وأهمل واجبه نحو المجتمع، وقل ذلك عن التاجر الجشع، والصانع الغشاش، والسياسي المتلون، والغني البطر، والفقير المتلصص.

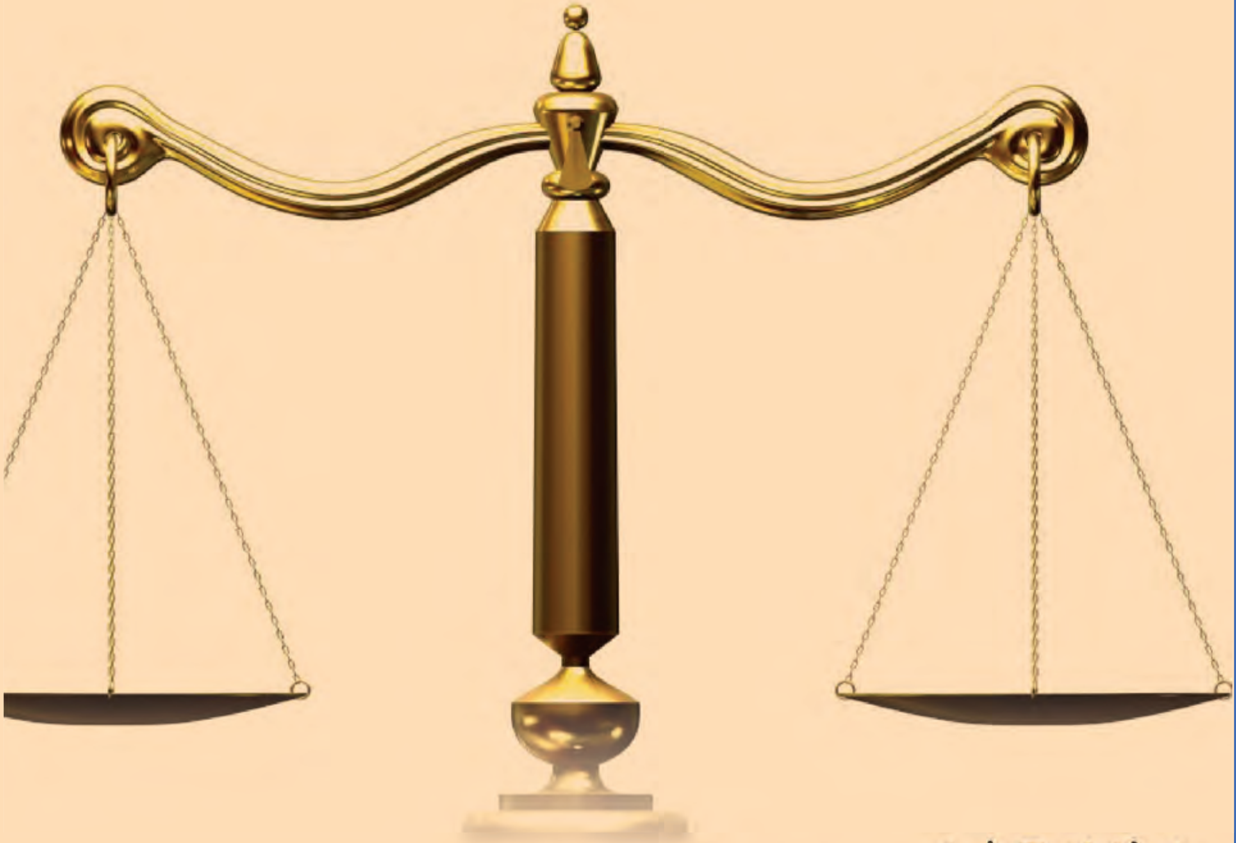
والعبودية المطلقة لله تعالى لا تتحقق إلا بالتزام ما سن القرآن من آداب، وما شرع من حدود في المال والعرض والدم والمعاملة، وبذلك فقط تسعد البشرية، وتسمو الأمة، وينتظم تشريعها وتتحقق العدالة الصحيحة للفرد والجماعة.

الشيخ محمد الخطيب
مفتي الكرك بالأردن سابقا
العدد ٢٣ – الوعي الإسلامي

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)



العدل ومكانة الإنسان في الإسلام

يسري عبدالغني عبدالله
باحث وخبير في التراث الثقافي

يقوم العدل في المجتمع الإسلامي على أساس نظرة الإسلام للإنسان، فالإنسان في الإسلام يحظى بمكانة كبرى من ثلاث نواح: فقد كرمه الله عز وجل، واستخلفه في الأرض، وحمله الأمانة (١).

وقد شرح بعض العلماء الأجلاء آية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء:٧٠) بقولهم: هذه القاعدة هي التي أقيمت عليها حقوق الإنسان في هذا العصر، هذه الفكرة أساسية في الشريعة الإسلامية ودراساتها، وأن المصالح والمنافع والرخص والمباحات التي تضمنتها نصوص الشريعة لصالح الفرد والمجتمع، ووجهت إلى رعايتها وحمايتها، يسوغ أن تسمى بتعبيرات العصر حقوقا للإنسان (٢).

ويلاحظ في الآيات القرآنية العديدة التي تمجد الإنسان وتعلي مرتبته فوق كل المخلوقات، أنها تتناول الإنسان لذاته، لا لاعتقاده، ومن حيث هو تكوين بشري، وقبل أن يعتنق دينا معينا، وقبل أن يصبح أبيض أو أسود أو أصفر.. وليس صحيحا على الإطلاق أن تلك الحفاوة القرآنية من نصيب المسلمين دون غيرهم، كما يتصور البعض، ذلك أن النصوص القرآنية شديدة الوضوح في هذه النقطة بالذات، فهي تارة تتحدث عن «الإنسان»، وتارة تتحدث عن «بني آدم» ومرات أخرى توجه الحديث إلى «الناس»، وهذا التعميم لن تخفى دلالته على أي عقل منصف مدرك للغة الخطاب في القرآن الكريم التي تستخدم موازين للتعبير غاية في الدقة، فتبين متى يكون الخطاب للإنسان، والناس عامة، ومتى يوجه الكلام إلى المؤمنين والمسلمين قبل غيرهم (٣).

إن الإنسان في نظر الإسلام هو مخلوق الله المختار، الذي نفخ

فيه من روحه، وفضله على جميع المخلوقات، وليس للمسلم في هذه الزاوية أي أفضلية على غيره، وإنما هو إنسان شأن أي إنسان آخر (٤).

الإسلام يتعامل مع البشر جميعا باعتبارهم أسرة واحدة، أصلها واحد، وربها واحد، كذلك يعتبر الإسلام أن خير الناس أنفعهم للناس، وخير خلق الله أنفعهم لعباده، ولا تمايز بينهم ولا تمييز إلا بمقدار ما يمكن أن يقدموه لأنفسهم وللآخرين من خير.

الإسلام يساوي بين الناس جميعا:

هذه النظرة السامية للإنسان، لمجرد كونه إنسانا، وبغض النظر عن أية صفات أخرى فيه، تقود على الفور إلى تأكيد حقيقة ثابتة، وهي أن الإسلام يساوي بين الناس جميعا، فالتفرقة بين الناس -فيما هو دنيوي- حسب اعتقادهم أو جنسهم أو لونهم ليست من منهج الإسلام، فالناس جميعا، بنص القرآن الكريم، قد خلقوا من نفس واحدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ (النساء:١)، ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾(لقمان: ٢٨).

وكان الرسول ﷺ يردد في دعائه في آخر الليل: «اللهم إني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، وأن العباد كلهم إخوة» (رواه أبوداود في سننه).

هذه المساواة بين الناس، التي أكدها الإسلام، لا تقتصر على كونها حقا للإنسان، بل تتجاوز ذلك إلى إدخالها في إطار الواجب، فحقوق الإنسان في الإسلام تعتبر من الضرورات الواجبة، بحيث يأثم من يفرط فيها، فهي الأساس الذي يستحيل قيام الدين بدون أن نوفرها للإنسان (٥).

لقد كان الإسلام وسيظل إلى أبد الدهر رسالة عالمية تخاطب الناس جميعا على أساس العدالة والمساواة، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، والناس سواسية عند الله تعالى، وإذا نظرنا إلى سلوك المسلمين في المجتمعات التي أقاموها في أنحاء العالم، لوجدنا أن سيرتهم -خاصة في عصور ازدهارهم- كانت نموذجا للتعايش والتآلف والتسامح، ورفض أي نوع من أنواع التفرقة والتمييز والتعصب، بل إن المجتمع الإسلامي سمح بالتعدد والتنوع حتى في داخله، كما هو ثابت من تنوع الرؤى الفلسفية والاجتهادات حسب اختلاف الظروف البيئية والخلفية الحضارية، فلم يفرض نمطا معينا في التفكير، ولم يحجر على حق الإنسان في التكيف مع الأوضاع السائدة في منطقة معينة دون أخرى.

إن الناس جميعا هم خلق الله سبحانه وتعالى، واختلافهم في الدين أمر من الأمور الطبيعية، بل هو من مقتضيات المشيئة الإلهية، وإنه من أوضح الأمور أن الدين الإسلامي الحنيف يدعو إلى أن تقوم العلاقات بين المسلمين وغيرهم على أسس إنسانية تحقق الخيرية والتعاون، وتثمر تحقيق المصالح المشتركة.

ولنضع في الاعتبار أنه ليس من مقاصد الإسلام الصراع بين الأديان، أو بين الحضارات والثقافات، وليس من قيمه أن يعادي المسلمون غير المسلمين، والنصوص القرآنية في ذلك المجال واضحة جلية لا تقبل التأويل أو الانحراف في التفسير، وعليه فإنه من الواجب علينا أن نعمل بكل ما نستطيع بهدف الحفاظ على الحقوق الإنسانية للآخرين، ماداموا غير معتدين، فلا نفترض علاقة عداء بيننا وبينهم لمجرد مخالفتهم في دينهم، فديننا الإسلامي بسماحته ورحابته وإنسانيته، أكد حرية العقيدة للجميع، وحثنا على أن نحسن التعامل مع الآخرين، ما داموا ملتزمين بالعهود والمواثيق، فكلنا في حق الحياة سواء.

إن جوهر الإسلام وتعاليمه السامية يقضيان باحترام النفس الإنسانية، وبالحفاظ الدائم والمستمر على التضامن بين أبناء الأمة الواحدة، وتوحيد صفوفهم، والكف عن الأذى والضرر، عملا بقول الرسول الكريم ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»، وكل هذا يشكل مبدأ من أهم مبادئ الإسلام الحنيف، دين العدل والرحمة والمساواة واحترام الآخر.

إن رسالة النبي محمد ﷺ علمت المسلم أن غير المسلمين بالنسبة له ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: إما قوم لا يعيشون معنا في بلادنا، وإنما يعيشون في بلادهم ولا يسيئون إلينا، وإما قوم يسيئون إلينا بشتى ألوان الإساءة ويعلنون الحرب الظاهرة والخفية علينا وعلى أوطاننا، وإما قوم يعيشون معنا في بلادنا تظلنا سماء واحدة، وتقلنا أرض واحدة، وتجمعنا مصالح مشتركة، ونشرب من ماء واحد، هؤلاء تقول لنا شريعة الإسلام بالنسبة لهم: «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا» (٦).

العدل قيمة مطلقة وليست نسبية:

العدل في الإسلام، قيمة مطلقة وليست نسبية، بمعنى أنها مفروضة على المسلم في كل الظروف، أي في مواجهة الأعداء كما هي مع الأهل والحلفاء، ولذلك كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أحد عماله يقول: «أما العدل فلا رخصة فيه من قريب أو بعيد، ولا في شدة ولا رخاء، والعدل وإن رُئي لينا، فهو أقوى وأطفأ للجور، وأقمع للباطل من الجور» (٧).

إن العدل من حيث جوهره ليس قاعدة من قواعد الإسلام فحسب، وإنما هو مثل أعلى من حقائق وقيم الإسلام الكريمة التي حض على تحقيقها وإشاعتها بين الناس في ثمان وعشرين آية من القرآن الكريم، فالعدل في عرف الإسلام فريضة واجبة، فرضها الله على جميع الناس دون استثناء، فالناس في شرع الإسلام متساوون جميعا

في الحقوق والواجبات، متساوون في تكوينهم وأصل خلقهم، فلم يخلق الله شعبا أو جماعة من طين أشرف من الطين الذي خلق منه شعبا آخر أو جماعة أخرى، وعليه فإن الإسلام هو صاحب الشريعة الوحيدة التي استطاعت أن تقر المساواة مبدأ نافذا بين الناس جميعا، وأحلت الانسجام بين القيمة وبين الواقع (٨).

قانون ابن تيمية الاجتماعي:

وضع شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، رحمه الله، قانونا اجتماعيا مهما، أقامه على العدل وهو: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة (٩).

وإن: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام (١٠).

وأن: العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة (١١).

ولعل هذا ما جعل السلف الصالح من قبل ينحازون إلى الكافر العادل دون المسلم الجائر، وذلك بقولهم: «إن المسلم الجائر إسلامه له، وجوره علينا، في حين أن الكافر العادل كفره عليه، وعدله لنا» (١٢).

التزام الحكام المسلمين بقواعد المساواة بين المسلمين وغيرهم:

لقد بهرني كثيرا ما سجله التاريخ الإنساني للحكام المسلمين من التزامهم بقواعد المساواة والعدالة بين المسلمين وغير المسلمين، سواء فيما يتعلق بإجراءات التقاضي، أو فيما يتعلق بالأحكام الموضوعية للقانون.

وفيما يتعلق بإجراءات التقاضي، يروى أن خصومة بين الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ويهودي رفعت إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنادى عمر عليا بقوله: قف يا أبا الحسن، فبدا الغضب على وجه علي، فقال عمر: أكرهت أن نسوي بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟!، فقال له: لا، ولكني كرهت منك أن عظمتني في الخطاب فناديتني بكنيتي، ولم تصنع مع خصمي اليهودي ما صنعت معي!! (١٣).

أما فيما يتعلق بالمساواة أمام الأحكام الموضوعية للقانون، فسوف يكتفي الباحث بالإشارة إلى القصة الشهيرة للصبي القبطي الذي شكا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ما وقع عليه من اعتداء بالضرب من ابن حاكم مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه، فأمر عمر بأن يقتص القبطي من ابن حاكم مصر، وهو يقول للقبطي: اضرب ابن الأكرمين.

إن الذي نذكره هنا، هو شيء حدث قبل أن تعرف الدنيا شيئا اسمه حقوق الإنسان، وهاهو أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب يوجه اللوم إلى الصحابي الجليل عمرو ابن العاص بقوله: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟»، هذه العبارة الخالدة لم تعرفها المجتمعات الغربية إلا عندما قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، وأصدرت إعلانها الخاص بحقوق الإنسان، والذي نص على أن الناس جميعا يولدون أحرارا، ومتساوين في الحقوق، وقبل أن يولد من فكروا في كتابة الإعلان العالمي في حقوق الإنسان الذي أصدرته هيئة الأمم المتحدة فيما بعد (١٤).

هوامش:

١ - إدوار غالي الذهبي، معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٥ وما بعدها.

٢ - جاد الحق علي جاد الحق، المنظور الإسلامي لحقوق الإنسان، صحيفة الأهرام القاهرية، عددها الصادر في ٨ مارس ١٩٩٤.

٣- فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٨١.

٤- فهمي هويدي، الاشتباك الموهوم بين الإسلام والتعددية، مقال منشور في صحيفة الأهرام القاهرية، في عددها الصادر يوم١٨ من يونيو ١٩٩٦.

٥ - محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان: ضرورات لا حقوق، الكويت، ١٩٨٥، ص ص ١٤ - ١٦.

٦ - محمد سيد طنطاوي، الإسلام والوحدة الوطنية، مقالة منشورة في صحيفة الأهرام القاهرية، في عددها الصادر يوم ٢٨ / يوليو ١٩٩٦.

٧ - فهمي هويدي، القطب الأعظم للدنيا، مقالة منشورة في صحيفة الأهرام القاهرية، في عددها الصادر يوم ٤ من أغسطس ١٩٩٢.

٨ - جاد الحق علي جاد الحق، الإسلام رسالة إنسانية، مقالة منشورة في صحيفة الأهرام القاهرية، في عددها الصادر يوم ٥ من مارس ١٩٩٤.

٩ - ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الطبعة الثانية، المكتبة القيمة، القاهرة، ١٤٠١ هـ، ص ٤٢ - ٤٣.

١٠ - ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، دار عمر بن الخطاب، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص ٤٦.

١١ - ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مرجع سابق، ص ٤٣.

١٢- عبدالرحمن الشرقاوي، الفقيه المعذب: ابن تيمية، العدد ٤٤ من سلسلة كتاب اليوم، الصادر عن مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٥٥ - وكذلك: فهمي هويدي، في الشريعة: العدل قبل الحد، مقالة منشورة في صحيفة الأهرام القاهرية، في عددها الصادر يوم ١٣ أبريل ١٩٩٣.

١٣- عبدالرحمن الشرقاوي، الفاروق عمر، القاهرة، ١٩٨٧ ص ٢٣ و ص ٢٧٠.

١٤- عبدالعزيز حافظ دنيا، العدالة العمرية ومبادئ الإسلام، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٥ . وكذلك: عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٦٨، وأيضا: نظمي لوقا، عمر بن الخطاب: البطل والمثل والرجل، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٥٩.

مدير مؤسسة جسور للتعريف بالإسلام د. فاضل سليمان في حوار خاص:

عودة الحضارة الإسلامية مرهونة بأن نكون حقيقيين

حوار: حسن يسري

قال مدير مؤسسة جسور للتعريف بالإسلام د. فاضل سليمان، إن الحضارة الإسلامية ستعود مرة أخرى قوية كما كانت، شريطة أن نصبح مسلمين حقيقيين، وليس مسلمين اسما ورسما، أو مسلمين على سجادة الصلاة، وداخل المساجد فقط.

وطالب سليمان في حوار خاص لـ «الوعي الإسلامي» الدعاة بضرورة التيقن من أن العداء الذي يكنه خصوم المسلمين إليهم ليس شخصيا، بل هو موجه إلى الإسلام وروحه، وهذا العداء، إعلاميا، عمره أكثر من ١٤٠٠ سنة.

وأكد سليمان أن الجسور بين المسلمين وغيرهم ليست مقطوعة، لكنها تحتاج إلى أن نمدها أكثر من ذلك ونفعلها، وإذا كانت هناك جسور مقطوعة في بعض الأماكن، فإن المتسبب في ذلك هم أصحاب الفكر المتطرف، سواء بالتمييع، أو بالتشدد.

وأعلن عن إنتاج سلسلة أفلام عن الإسلام والتعريف به تسمى «الضباب ينقشع»، أحدها مترجم لأكثر من ثلاثين لغة عالمية، منها اللغة العبرية. وإليكم نص الحوار:



• من خلال إدارتك لمؤسسة جسور، نريد نبذة عن المؤسسة وأهدافها وآلياتها.

- مؤسسة جسور للتعريف بالإسلام وتدريب الدعاة، هي مؤسسة عالمية للتعريف بالإسلام، وهي تعمل في ثلاثة خطوط متوازية: الخط الأول مع المسلمين أنفسهم، والخط الثاني مع غير المسلمين، والخط الثالث مع من كانوا مسلمين سابقا، أي الذين ارتدوا عن الإسلام. نحن نعمل مع كل هؤلاء، ونقدم خدماتنا الدعوية لهم. فمع غير المسلمين نقدم لهم محاضرات عن التعريف بالإسلام، كما ننتج أفلاما تسجيلية عن الإسلام، وقد أنتجنا بالفعل سلسلة أفلام تسمى «الضباب ينقشع» عن الإسلام والتعريف به، وأحد هذه الأفلام مترجم لأكثر من ثلاثين لغة عالمية، منها اللغة العبرية.

وبالنسبة إلى المسلمين فنعمل معهم من خلال دورتين: الأولى عن كيفية التعريف بالإسلام، والثانية عن كيفية الرد على الشبهات التي تساق من أعداء الإسلام.

وقد قمنا -بفضل الله- بتدريب ما يزيد على ١٧ ألف مسلم ومسلمة في ٢٢ دولة حتى الآن.

والخط الثالث الذي تعمل فيه المؤسسة، هو التواصل مع المرتدين عن الإسلام، وذلك عن الطريق النصح والإرشاد. وفي هذا الصدد أشير إلى إنتاج المؤسسة لفيلمين، هما: «خدعة التبشير» و«الخطيئة الأصلية». واستطاع هذان الفيلمان أن يرجعا كثيرا من المرتدين عن الإسلام إليه. وحاليا نعمل في مجابهة الإلحاد والتشييع.

● هل ترى أن الجسور مقطوعة بيننا وبين غير المسلمين؟ ومن المتسبب في ذلك؟

- لا أرى أن الجسور مقطوعة بيننا وبين غير المسلمين، لكنها تحتاج فقط إلى أن نمدها ونفعلها أكثر من ذلك. وإذا كانت هناك جسور مقطوعة في بعض الأماكن، فأنا أرى أن المتسبب في ذلك هم أصحاب الفكر المتطرف، سواء بالتمييع، أو بالتشدد. فالأفكار المتطرفة تخرج عن نطاق الشريعة ودين الإسلام الوسطي.

ومن يرى أنه ليس بيننا وبين غير المسلمين إلا السيف، هو صاحب فكر متطرف ومتشدد، لم يأمر به الإسلام. كما أن من يرى أن لا فرق بيننا وبين غير المسلمين، وأن الحق موجود لدينا جميعا، فهذا أيضا متطرف. ونحن نرى الوسطية، لكن الوسطية تحتاج إلى وسطيين يقدمونها، وهذا ما نقوم به في المؤسسة، وهو تدريب المسلمين على التعريف بالإسلام بوسطية.

فنحن نتكلم عن الاختلافات التي بيننا وبين غير المسلمين، بعد أن نقيم الجسور من خلال الكلام عن المشتركات التي تجمع بيننا. لكن أن يذهب أي إنسان ليتكلم عن الإسلام داخل الكنيسة، ولا يتكلم إلا عن المشتركات التي بيننا وبينهم فقط، وكأنه لا توجد اختلافات بين الإسلام والنصرانية أو البوذية أو أي ديانة أخرى، فهو بالقطع مخطئ.

وفي الوقت نفسه، فإن من يتكلم في الاختلافات من دون أن يمد الجسور بالمشتركات فهو أيضا مخطئ، فالله عز وجل يقول ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (العنكبوت:٤٦). أي نمد جسور المشتركات بيننا وبينهم، ثم نتكلم في الاختلافات، لأن الكلام عن الاختلافات من دون أن يُسبق بالكلام عن المشتركات يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة.. فهناك من الناس من يتقاتلون بسبب هذه الاختلافات، فإهمال الكلام عن المشتركات خطأ، وإهمال الكلام عن الاختلافات أيضا خطأ.

● هل الأجدى والأنفع أن نتحرك كرد فعل في الرد على الشبهات من خلال المناظرات، ومناقشة المتعصبين من أصحاب الديانات الأخرى، أم أن نسبق ونكون فاعلين في إيجاد واقع إسلامي على الأرض، فرديا ومجتمعيا وأمميا، يحترمه الآخرون؟

- لا بد أن نسير في الخطين معا، وعدم ترك أحدهما. فخط الرد على الشبهات أمر مهم، بالإضافة إلى أن مناظرة من يقوم بنشر «الإسلاموفوبيا»، أو الخوف من الإسلام، هي أمر مهم أيضا. لكن لا ينبغي أن نقوم بهذا في إطار رد الفعل، بل يجب أن تكون عندنا خططنا المنهجية العلمية الموضوعة، من أجل الدعوة ونشر الإسلام.

فيجب أن نعمل في الخطين بشكل متواز وواضح، ولا ينبغي أن نعمل -كمسلمين في مجال الدعوة- كرد فعل في الأصل، فالعكس هو الذي يجب أن يكون، وهو أن تأتي ردود الأفعال من غيرنا، لأن رد الفعل دائما ما يكون ضعيفا، أما الفعل فهو الأقوى والأكثر تأثيرا. لذلك يجب أن أكون فعلا وليس رد فعل.

كما أن الذي يتصدى إلى المناظرات يجب أن تتوافر فيه شروط، منها: أن يتدرب على فنون المناظرة، وأن يكون على علم، وأن يكون وسطيا؛ حتى لا يسيء إلى الإسلام.

● كيف يصل الداعية المسلم إلى قلب الآخر وعقله في ظل الحرب الإعلامية الغربية على الإسلام؟

- يجب أن يعلم الداعية المسلم أن العداء الذي بين الإسلام وخصومه ليس عداء شخصيا، بل هو عداء موجه إلى الإسلام. وهذا العداء الإعلامي عمره أكثر من ١٤٠٠ سنة، فالنبيﷺ بعد أن كان أهل مكة يلقبونه بالصادق الأمين، أصبحوا بعد دعوته إلى الإسلام يلقبونه بالكاذب والساحر وغيرهما من أوصاف، التي ما قيلت إلا لأنها حرب على الإسلام، وقد أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك ﴿..فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنعام:٣٣). وستبقى هذه الحرب، إعلامية وغير إعلامية، ما دامت هذه الرسالة موجودة.

وقد واجه القرآن الكريم هذه الآلة الإعلامية بسورة كاملة تسمى «الشعراء»، فالشعراء في ذاك الوقت، هم إعلاميو هذا العصر. والنبي ﷺ واجه إعلاميي ذاك الزمان بتكليف إعلاميين مسلمين على قدر عال من الاحتراف بالتصدي لهم، مثل سيدنا عبدالله بن رواحة وسيدنا حسان بن ثابت وسيدنا كعب بن مالك، رضي الله عنهم، ولم يكلف إعلاميين ذوي مستوى عادي.

لذلك، تجب مواجهة هذا الإعلام الصهيوني المجرم، في الداخل والخارج، بإيجاد إعلام إسلامي قوي، لأنه يوجد بيننا إعلاميون، من أبناء جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ويسمون بأسمائنا، يخدمون أهداف الصهيونية العالمية، ويحاربون الإسلام.

والإعلام الإسلامي الموجود الآن خطابه ضعيف جدا. لذلك، يجب أن نسعى إلى إيجاد إعلام إسلامي محترف ومؤثر.

● برأيك.. كيف تستعيد الحضارة الإسلامية عافيتها في ظل الضغوط القوية من أعداء



الإسلام؟

- أرى أن الحضارة الإسلامية ستعود مرة أخرى قوية كما كانت، شريطة أن نصبح مسلمين حقيقيين، وليس مسلمين اسما ورسما، أو مسلمين على سجادة الصلاة وداخل المساجد فقط. فعندما نعود إلى الإسلام، شكلا ومضمونا، ونعود إلى كتاب الله، فهما وتدبرا وعملا، فمن السهل واليسير أن نستعيد حضارتنا مرة أخرى. فبعض المسلمين حتى الآن لا يعرفون كيف يتعاملون مع القرآن الكريم، بل إن معظمنا يقرأونه من دون فهم وتدبر، على الرغم من أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يسأل قارئيه: هل يقرأونه بفهم وتدبر؟

فكيف نعيد حضارتنا مرة أخرى ونحن لا نفهم مصدر هذه الحضارة؟! ثم كيف سنقابل الله عز وجل يوم القيامة ونحن لا نفهم كلامه ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ..﴾ (الأنعام:٩١). فمن سوء الأدب مع الله عز وجل أن نقرأ كتابه بغير فهم ولا تدبر. ومن عدم الاحترام أن يحدثني إنسان ولا أعير كلامه اهتماما، فنحن يجب أن نعطي فرصة للقرآن حتى يغيرنا.

والخطير أننا ورّثنا أبناءنا هذا الأمر، عن طريق الاهتمام بحفظ القرآن أكثر من فهمه، وعن طريق بعض الممارسات الخاطئة في التعامل مع القرآن الكريم، مثل التغافل عن القرآن والانشغال عنه بأي شيء عندما يتلى في الفضائيات أو في الإذاعة، فيتربى الطفل على أن القرآن ليس مهما، وأنه كتاب للحفظ فقط، وليس للتدبر والفهم والتطبيق. لذلك، يجب أن نواجه أنفسنا بهذه الأمور الخطيرة، وأن نتداركها حتى نعود كما كنا من قبل: حضارة إسلامية عظيمة لا تغيب عنها الشمس.

• القرآن الكريم هو القوة المؤثرة والفاعلة في الأمة الإسلامية، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة.. فهل ترى أن المسلمين، وبصفة خاصة الدعاة منهم، يدركون هذا الأمر عمليا وليس نظريا؟ وكيف نتعامل مع المنهج القرآني بحيث يعود قوة مؤثرة تقيل عثرة الأمة؟

- للأسف الشديد إن بعض الدعاة لا يتعاملون أصلا مع القرآن إلا في رمضان، فقد أجرينا دورة في مؤسسة جسور للدعاة عن «التربية الإيمانية والوسائل الإيمانية المعينة للداعي»، وقد كان من ضمن الواجبات العملية للدعاة الحضور، أن يكون لهم ورد يومي من القرآن، يتدبرون آياته، وقد كانت المفاجأة أن بعضهم هاجر للقرآن تلاوة، ناهيك عن فهمه وتدبره والعمل به.

فبعض الدعاة هاجرون للقرآن، وذلك بسبب التنشئة الخاطئة، التي ترى أن حفظه هدف وغاية، وليس وسيلة معينة للفهم والتطبيق! والله عز وجل وضح لنا كيفية التعامل مع القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ..﴾ (ص:٢٩). فالهدف هو التدبر، وليس الحفظ. والله عز وجل تعهد بحفظه ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ (الحجر:٩).

فالقرآن الكريم كتاب هداية يوضح لنا ويشرح كيفية السير في الطريق المستقيم. ومن غير المعقول أن نمضي في طريق لا نفهم كيفية السير فيه، لأننا نحفظ ولا نفهم ولا نتدبر.

كما أن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا لا ينتقلون من آية إلى أخرى إلا بعد فهمها، وتطبيقها، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: «كنا لا نتجاوز العشر آيات من القرآن حتى نتعلم ما فيها من الأحكام ونعمل بها، فتعلمنا العلم والعمل معا». وقد حفظ سيدنا عبدالله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، سورة البقرة في ثماني سنوات، مع أن حفظها لا يستغرق شهرا ونصف الشهر، كما نحفظ نحن الآن.

كما أننا لا نربي أولادنا على التعامل بطريقة صحيحة مع القرآن، فالله

عز وجل يخبرنا بأن القرآن كتاب عربي ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ (يوسف:٢). ونحن نصر أن نتعامل معه كأنه كتاب لغة إنجليزية يُفتح من اليسار، لأننا نبدأ في تعليم أولادنا القرآن من الجزء الثلاثين، وهو الجزء الذي لا توجد فيه قصص، سوى قصة أصحاب الأخدود، التي حُرق فيها المؤمنون، ولم يصب الملك الكافر بأي أذى، مع أن الأجزاء الأولى فيها قصص شيقة ومؤثرة تجعل الطفل يحب القرآن ويعشقه، كسحرة فرعون، وقصة سيدنا إبراهيم، وقصة البقرة، وقصص كثيرة جدا، تشعر الطفل كأنه يشاهد رسوما متحركة، فيرتبط بالقرآن بطريقة أكثر تأثيرا من طريقة الكتاتيب، التي يُجبر فيها الطفل على الحفظ، وليس على حب القرآن.

ولا بد من الرجوع والعودة إلى المتخصصين في التربية، كأمثال الدكتور مجدي الهلالي، حتى نعلم كيف نستفيد من القرآن تربويا.

فالقرآن الكريم هو المصدر الوحيد القادر على تغيير النفس، وتهذيبها وتربيتها، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان من أعدى أعداء الإسلام، والذي كان صاحب فكرة أن كل عائلة تُعذِّب من أسلم منها، حتى لا يتقاتل القرشيون، غيّرته خمس آيات من سورة طه، وحوّلته من إنسان لا يعرف الرحمة إلى الفاروق عمر، وليس من المعقول أن يتغير إنسان مثل عمر بحفظ خمس آيات من سورة، لكنه فهم الآيات وتدبرها.

فنحن نحتاج إلى ثورة داخلية للتخلص من تلك العادات البالية من موروثات خاطئة في التعامل مع القرآن الكريم.

• كيف يقاوم المسلمون، علماء ودعاة وأفرادا، حملات التبشير التي وصلت إلى بعض الدول العربية والإسلامية؟

- حملات التنصير يجب أن تواجه بالفكر، فالفكر لا يواجه إلا بالفكر. والتعامل معها من خلال الحل الأمني من أكبر الأخطاء التي يمكن أن نقع فيها، لكن يجب تجريم العمل السري لهذه الحملات، وأن نسمح لها بالعمل علانية.

وقد كانت لي تجربة في كيفية التعامل مع هذه الحملات بطريقة صحيحة، عندما عقدت ندوة في إحدى القاعات، وحضر ما يقرب من ٣ آلاف فتى وفتاة، وكانت بعنوان «مفهوم الخلاص»، وقد فاجأت الحضور بدعوة أحد أكبر المنصرين في مصر، وهو الدكتور ناجي موريس، وقد اتفقت معه قبل الندوة أن يمارس عمله منصرا، فأخذ عشرين دقيقة تكلم خلالها عن مفهوم «الخلاص» (وهو من أكبر الاختلافات التي بين الإسلام والنصرانية في مفهوم العقيدة)، وكانت انطباعات الحضور إيجابية جدا، ولم يشعر أي أحد بميل نحو المسيحية، بعد أن عقبت على كلامه، بعد أن أنهى حديثه وتكلم كمنصر. وعندما تم سؤالي من قبل الجهات المختصة عن سبب دعوتي له لحضور الندوة، كان الرد بأني واجهت الحملات التنصيرية، التي لا يعرف أحد أن يواجهها. فإذا أردنا أن نواجه تلك الحملات، بطريقة إيجابية، فيجب أن تعرض أمامنا في كل مكان على مسمع ومرأى من الجميع، ثم نواجهها بالتعقيب عليها، ونرد الفكرة بالفكرة، والنص بالنص، والعقل بالعقل.

فالنبي ﷺ أتى بنصارى نجران في المسجد، ودعاهم، وناظرهم علانية أمام الصحابة، رضوان الله عليهم، حتى يقضي على تلك الفتنة.

ومن خلال مؤسسة جسور، فإننا نعد دعاة لمقاومة التنصير ومقاومة الإلحاد، والدورات مستمرة حتى نستطيع أن نتصدى لتلك الحملات. لكن كما قلت بطريقة صحيحة وإيجابية.

• من خلال خبرتك الدعوية في العالم الغربي، ما أهم الشبهات التي تم رصدها، وكيف يرد الدعاة عليها بطريقة علمية وموضوعية؟

- هناك شبهات كثيرة، لكن هناك أربعة أبواب رئيسية للشبهات حول الإسلام، منها شبهة النساء، ووضع المرأة في الإسلام، وهناك شبهة الجهاد والإرهاب والعنف، وهناك باب الرسول ﷺ، وما يمسه كنبي وقائد ومشرع ومصلح، وما يمس حياته الشخصية ﷺ. وهناك شبهات متفرقة أخرى.

ويجب أن يتعلم الدعاة الرد على هذه الشبهات، فالعاطفة والانفعالات وحدها لا تكفي للرد عليها، ولكن العلم والفهم الصحيح هما سبيلا الرد عليها.

• وكيف يمكن للإعلام الإسلامي مواجهة الفكر العدائي الذي يصدره الإعلام الغربي بكل ما يمتلكه من وسائل قوة رهيبة؟

- يجب أن يكون الإعلام الإسلامي إعلاما محترفا ومحترما، وأن ندقق في اختيار العاملين في الحقل الإعلامي الإسلامي، فليس كل إعلامي يصلح أن يعمل في الوسائل الإعلامية الإسلامية، لأن العاملين في الحقل الإعلامي الإسلامي يجب أن يكونوا مقتنعين من الأساس بالفكرة الإسلامية، وأن يدافعوا عنها، ويندمجوا معها، وتصبح جزءا من حياتهم، حتى يستطيعوا التأثير في المتلقين.

• كيف نمد جسور المحبة والتعاون بين مكونات الوطن الواحد، مسلمين وغير مسلمين؟

- هذا الأمر لن نصل إليه إلا بالتكامل، وأن يضع كل واحد منا نفسه مكان الآخر. ويجب أن يعلم الجميع أن ما بيننا وبين النصارى ليس علاقة مواطنة فقط، بل علاقة إخوة، سواء في الوطن، أو في

الإنسانية، فالنبيﷺ يقول «كلكم لآدم وآدم من تراب».

كما أن القرآن الكريم فيه أكثر من ٢٠ آية تؤكد على معنى الإخوة بين الأنبياء وأصحاب الديانات الأخرى من قومهم، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ..﴾ (الأحقاف:٢١). ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..﴾ (هود:٥٠). ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ..﴾ (هود:٦١). فالإسلام أطلق على العلاقة بيننا وبين الآخر من أصحاب الديانات الأخرى علاقة الإخوة، حتى أن شذوذ قوم سيدنا لوط، جنسيا، وكفرهم، عقائديا، لم ينفيا عنهم صفة الإخوة له ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ..﴾ (الشعراء:١٦١).

والإخوة علاقة بين طرفين، أخ أكبر وأخ أصغر، فالأخ الأكبر يجب عليه ألا يقسو على الأخ الأصغر، كما أن الأخ الأصغر يجب أن يحترم الأخ الأكبر.

كما أنه يجب أن تكون هناك شفافية ومكاشفة بين الطرفين. لذلك، أدعو إلى أن تكون هناك إحصائية صحيحة للطرفين وأن تعرض على الرأي العام، حتى ولو بلغت نسبة المسيحيين في بلد عربي مسلم ٥٠ في المئة، حتى يُعرف الحجم الطبيعي لكل طرف، ويأخذ كلٌّ حقه الطبيعي في بعض الوظائف، كنسبة طبيعية بناء على حجمه في المجتمع، حتى لا يبقى في صدر أحد شيء، بناء على نسب مضللة، لا يُعرف لها أصل، سوى أنها تؤجج النار في الصدور. فالموضوع ليس شعارات ترفع كـ «يحيا الهلال مع الصليب»، ونحن كمسلمين لسنا مؤمنين بالصليب في الأصل، لكن الموضوع هو تكامل بيننا، وأن ننضج أكثر من ذلك، وأن نعلم أننا مختلفون، وأن الله سوف يفصل بيننا يوم القيامة، وندرك أن هناك أمورا مشتركة بيننا كأبناء وطن واحد، كمشكلة الخبز والكهرباء والتعليم، فهذه مشكلات لا تفرق بين المسلم والمسيحي، ويجب أن نواجهها معا.

كما أن النبي ﷺ قال عن حلف الفضول، وهو حلف كافرين، لكنه كان لنصرة المظلومين، إنه لو دعي إليه في الإسلام لأجاب، ومعنى ذلك أنه يمكن لمسلم أن يدخل مع غير المسلم في أي عمل نافع منظم ومفيد للمجتمع.

ومن المسائل المهمة جدا مناداة غير المسلمين، فالقرآن الكريم لم يناد على غير المسلم إلا بأحب الأسماء إليه: ﴿.. يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم ..﴾ (الصف:٦). ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ..﴾ (مريم:٤٤). ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ (نوح:٢)؛ ولم يناد على غير المسلم بالكافر إلا في موضع واحد ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ (الكافرون:١)، وذلك في حالة محاولة إخراج المسلم من دينه.

• بماذا ترد على اتهامات الآخر بأن الإسلام انتشر بحد السيف؟

– ما معنى أن دينا ينتشر بحد السيف؟ معناه أن جيشا يحتل شعبا ويجبره على اعتناق دينه. لكن التاريخ يذكر أن المغول، وهو الجيش المعتدي على العالم الإسلامي، عندما احتل أرض المسلمين، هو الذي ترك دينه ودخل في دين من احتل أرضهم، وهذه سابقة أولى في التاريخ، أن يترك الجيش المحتل دينه، ويدخل في دين من احتله. فكيف إذن انتشر الإسلام بحد السيف؟! لدرجة أن الجندي المغولي كان يوقف المسلم ويأمره بألا يتحرك حتى يأتي بالسيف، ومن خوف المسلم ورعبه منه لا يتحرك حتى يأتي بالسيف ويقتله.

وفي الواقع، إن هذه المسألة لن تفهم مطلقا إلا إذا فهم الناس تاريخ العالم الحقيقي، الذي طمس من قبل أعداء الإسلام، وهو «تاريخ الآريوسيين»، وهم أتباع آريوس، وهو قس كنيسة بالإسكندرية، كان قد عارض فكرة الثالوث المقدس، وعارض فكرة تأليه المسيح، وكان يعتبر المسيح مخلوقا وليس إلها، لذلك سُمي كل من عارض الثالوث بـ «آريوسي»، حتى لو لم يسمع عن آريوس أو يقرأ له شيئا، وانتشرت هذه العقيدة بكثرة، وسُمي متبعوها بـ «الآريوسيين» نسبة إلى ذلك القسيس.

ونحن نظن أن المسلمين جاءوا وفتحوا هذه البلاد، التي كان معظمها واقعا تحت الاحتلال الروماني، وهذا غير حقيقي، فالمسلمون كانوا في هذه البلاد وبأعداد كبيرة جدا تقدر بالملايين، وكانوا يسامون العذاب تحت الحكم الروماني.

وقد أثبت ذلك في رسالة الماجستير، وقد طبعت في كتاب «أقباط مسلمون قبل مجيء محمد ﷺ»، والذي يثبت أن شعب مصر وكثيرا من الشعوب الواقعة تحت الاحتلال الروماني، لم تكن مسيحية، ولكنها كانت شعوبا مسلمة، أو على الأقل طوائف كثيرة منها تقول لا إله إلا الله عيسى رسول الله. وكان ذلك قبل مجيء سيدنا محمد ﷺ. لذا، فهم يعتبرون مسلمي ذاك العصر، كما أثبت أنهم كانوا مضطهدين ويعذبون، وبذلك يصبح الأمر استردادات، يسترد بها المسلمون أراضيهم، وليس فتوحات. فهؤلاء المسلمون كانوا واقعين تحت الاحتلال والتعذيب، فجاء إخوانهم إليهم من أتباع محمد لنجدتهم من أتباع عيسى ابن مريم، وليخلصوهم من ذلك الاحتلال والظلم اللذين تعرضوا لهما على أيدي الرومان المحتلين.

إذن فالمسألة ستفهم بطريقة مختلفة تماما إذا عرف الناس تاريخ العالم الحقيقي، والذي طمس من قبل أعداء الإسلام، لأنه تاريخ دام جدا، لأن عدد الآريوسيين الذين قتلوا يقدر بالملايين، فلا يمكن فهم التاريخ من دون الآريوسية. كما أننا لا يمكن أن نفهم السيرة النبوية من دون فهمنا للآريوسية، فهل لنا أن نتخيل أن حاكما مسيحيا (المقوقس حاكم مصر) يهدي جارية مسيحية (السيدة مارية القبطية) إلى رجل يعتبره ذلك الحاكم مدعيا للنبوة؟! بالطبع لا، فالسيدة مارية كانت مسلمة وموحدة في الأصل، لذا، فقد أهدى المقوقس موحدة إلى موحد ﷺ.

المواطنة من المنظور الإسلامي

رسمي عجلان
باحث من جامعة الأزهر

المواطنة مفهوم حديث ظهر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بعد قيام الثورة الفرنسية، ولم يعرفها الغرب ولا العلمانيون من قبل ولم تطبق في بلادهم. والمواطنة على وزن «مفاعلة»، أي تفاعل الإنسان مع الوطن الذي يعيش فيه، بمعنى أن العلاقة بينهما علاقة تفاعلية، فيترتب على الطرفين العديد من الحقوق والواجبات، فعلى المواطن كمال الحب والانتماء والولاء لوطنه، فيحترم هويته ويؤمن بها وينتمي إليها، ويدافع عن ثوابته، كاللغة والتاريخ والأرض والحدود، والقيم والمبادئ والعادات والتقاليد، والشكل والمضمون والآداب العامة، وهذا يمثل «وعاء الهوية». وكما أن للوطن حقوقا على المواطن، فإن للمواطن حقوقا على وطنه ومجتمعه وشعبه وأمته، وهي تتمثل في المساواة بين المواطنين جميعا بغض النظر عن انتمائهم الأيديولوجي والعقائدي والعرقي والمذهبي والطائفي والجغرافي، أي ان الشعب، بجميع طوائفه، كيان واحد مترابط كالجسد الواحد إذا اشتكى منه مواطن تداعى له سائر الشعب بالتكافل والمساندة والتضامن والتعاون والإنقاذ. وإن تعجب فعجب أن كثيرا من الناس يحسبون أن مفهوم «المواطنة» مستوردٌ من الغرب، وكلمة جديدة علينا، نحن المسلمين، ويتشدق بها العلمانيون كأنهم أتوا بلبن العصفور. وحقيقة الأمر الذي لا مراء فيه أن «المواطنة» إسلامية مئة في المئة، وأن الدين الإسلامي له يد السبق التطبيقي والعلمي والتاريخي في إرساء قواعدها. فأخطأ من قال إن «المواطنة علمانية»، وإنه يلزم لتطبيقها التخلي عن المرجعية الإسلامية، فاسألوا الشعوب التي دخلت الإسلام والبلاد التي فتحها المسلمون ينبئوكم بالخبر اليقين. فالإسلام لم يعرف التمييز على أساس الدين، وقصة نصارى نجران عندما وفدوا على النبي ﷺ معلومة لجميع المسيحيين والمسلمين. وقوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما بعثه إلى اليمن: «لا تزعج يهوديا في يهوديته». وهو القائل في حق غير المسلمين: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». حتى قال الأنبا شنودة الثالث بطريرك الكرازة المرقسية: «إن الأقباط في ظل الشريعة الإسلامية يكونون أسعد حالا وأكثر أمنا. ولقد كانوا كذلك في الماضي حينما كان حكم الشريعة هو السائد؛ نحن نتوق إلى أن نعيش في مصر تحت مظلة: لهم ما لنا وعليهم ما علينا» (جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ١٩٨٥/٣/٦م). وقصة الرجل القبطي وابن حاكم مصر وفاتحها ونصرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه له على ابن عمرو بن العاص، وأمره أن يضربه كما ضربه، بل وقال له: إن شئت فاضرب أباه لأن ابنه احتمى في سلطانه واستغل نفوذه. وقصة درع علي بن أبي طالب رضي الله عنه واليهودي المشهورة. وقصة عمر ابن عبدالعزيز مع أهل دير إسحاق وحكمه على مسلمة بن عبدالملك – وهو ابن عمه وخال أولاده والقائد المغوار وأحب الناس إلى قلبه – بأن يرد أرض الناعورة (ضيعة قرب حلب) إلى النصارى أهل دير إسحاق. وقصة أحمد بن طولون مع النصراني المصري عندما اشتكى له من أن أحد قادته اغتصب منه مبلغا من المال، فأحضر القائد وابنه وزجره أمام الناس وفي حضرة النصراني، وحكم عليه برد المال في مجلسه هذا، وقال للنصراني إن عاد عُد، أي لو أنه ظلمك أو اعتدى عليك لفظيا أو بدنيا أو ماديا أو معنويا ارجع إلي لأرد لك حقك. فهذا لأعظم دليل على أن المواطنة إسلامية، لا شرقية ولا غربية. فالإسلام جعل الناس في حق الحياة سواء، وكلهم أمام القانون سواء، ولا فرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح. لم يكن المسلمون يوما مثل الرومان الذين احتكروا الشرف والسيادة لجنسهم فقط، واعتبروا اليهود والنصارى درجة ثالثة، بل كانوا يصبون عليهم كل ألوان العذاب، ويتخذونهم محلا للتسلية والسخرية والاستهزاء، واقرأوا تاريخ الأمم إن كنتم في شك مما نقول. ولم يكونوا كاليهود التلموديين، واقرأوا بروتوكولات صهيون، فستعلمون أنهم كانوا، ولا يزالون، عنصريين مئة في المئة، وجعلوا الله إلها لبني إسرائيل فقط، وأنهم شعب الله المختار، وأن باقي الشعوب خلقوا بغالا ليركبوها

﴿..قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنْ خَلَقَ..﴾ (المائدة:١٨). وصبوا نار اضطهادهم على النصرانية والمسيح ابن مريم وأمه الصديقة والحواريين، أما النصرانية فقد بادلت الآخرين إنكارا بإنكار، واضطهادا باضطهاد؛ فبمجرد أن تخلصوا من الاضطهاد الروماني في مصر، وتدينت الدولة الرومانية بالنصرانية في عهد الإمبراطور قسطنطين صبوا نار اضطهادهم على الفرعونية المصرية، ثم اختلفوا حول طبيعة المسيح، فالطائفة الأرثوذكسية – في وقتها – ترى أن المسيح له طبيعة واحدة أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى أمه مريم، وهذا ما أكد عليه رب العالمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٞ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرٗا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ (النساء:١٧١). أما النصرانية الرومانية الكاثوليكية فترى المسيح ذا طبيعتين، إحداهما إنسان، والأخرى إله! فقامت الطائفة الكاثوليكية بصب نار الاضطهاد والانتقام على الطائفة الأرثوذكسية (اليعقوبية)، وفي سنة ٢٨٤م تولى الإمبراطور دقلديانوس حكم الدولة الرومانية، فطلب من الشعب المصري ترك الديانة المسيحية وعبادة الإمبراطور على الطريقة الفرعونية، وعندما امتنع الشعب المصري عن ذلك قتل منهم أكثر من مليون مسيحي! لذلك، سُمي عصره بعصر الشهداء، حتى قال المؤرخ المصري القبطي ساويرس ابن المقفع: «لو كانت عجائب الدنيا سبعا فإن العجيبة الثامنة هي بقاء المسيحية الأرثوذكسية في مصر؛ لأن دماء الأقباط الأرثوذكس وصلت إلى حد ركب خيول الجنود الرومان» (سير الآباء البطاركة ١٠٨/١). وفي سنة ٦٣٠م أصدر الإمبراطور هرقل قرارا بأن تكون الديانة الوحيدة في الدولة الرومانية هي المسيحية الكاثوليكية، فزاد عناد الشعب المصري في التمسك بالمسيحية الأرثوذكسية؛ فقتل منهم مئة ألف مصري أرثوذكسي بوضعهم في الزيت المغلي، والقتل بالإغراق، والحرق أحياء، والربط في فروع الشجر، وخلع الأظافر، وكشط جلدهم بالمقاشط؛ إنها بحق مجزرة بشرية من المسيحيين الكاثوليك الرومان بحق المسيحيين الأرثوذكس المصريين (حرية العقيدة في الإسلام للدكتور: نبيل لوقا). لقد ظل الميزان الضابط للمواطنة معطلا، والعلاقات بين الأفراد والسلطة متوترة حينا من الدهر في حياة البشرية حتى جاءت الرسالة المحمدية (الدين الإسلامي) فسطعت شمس الحرية، وازورت السلطات الاستبدادية، ورسخت مبادئ المواطنة، وأرسيت قواعدها بنظام يعي جميع أبعادها، ويعلي من قدر المواطنين جميعا، ويخرجها من حيز النظرية إلى مجال التطبيق، فغرسها في بنيان النظام العام للدولة، وأرضع أفراد المجتمع مبادئها، وفطموا على حلاوتها، فأنتجت في النهاية حكاما ومحكومين مؤمنين بها، ويتكاتفون على تطبيقها. إن أول من وضع أسس المواطنة وضوابطها ومعاييرها بلا فخر هو محمد رسول الله ﷺ فعندما أسس الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة سنة (٦٢٢م) وضع حجر الزاوية للمواطنة، فكان أول حجر تكريم الإنسان عامة بلا تمييز كما أن الإسلام نهى عن سب أو شتم معبود الآخر، حتى ولو كان وثنا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٖ ١٠٨﴾ (الأنعام: ١٠٨). ثم طلب الإسلام من أتباعه أن يبرّوا الآخرين ولو كانوا مشركين أو كافرين أو أهل كتاب أو معاهدين أو ذميين، ويحسنوا إليهم ما دام لم يقاتلوكم في الدين، فقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٨﴾ (الممتحنة: ٨). والآيات كثيرة، وكذلك الأحاديث النبوية الدالة على «المواطنة»، أي التعايش السلمي مع الآخرين، ولو كانوا مخالفين في الدين. وكان ﷺ يعود المريض من شعبه ولو كان مخالف الديانة، ويسأل عنه، كما روى أنس رضي الله عنه أن غلاما يهوديا كان يخدم النبي ﷺ فمرض؛ فأتاه النبي يعوده فقال له أسلم فأسلم (البخاري). لقد جاور النبي ﷺ اليهود وغيرهم من الوثنيين، وزارهم في مساكنهم، واشترى منهم، وباع لهم، ورهن درعه عندهم في ثلاثين صاعا من شعير، وكان يقبل هديتهم، ويهدي إليهم، وحرّم خيانتهم، وأحل للمسلمين طعام أهل الكتاب والزواج من نسائهم، وسوى في حرمان الميراث بين المسلم والذمي، ولم يحرم تعليم الذمي على يد مسلم والعكس صحيح، ولم يمنع شعبه (المواطنين الذين يعشون على أرض الإسلام) من الذميين والمعاهدين من التكافل الاجتماعي، وأقر بحقهم في الملكية الخاصة واشتراكهم في الملكية العامة، وكان يجادلهم بالتي هي أحسن، ويحكم بالقسط في معاملتهم، ويقضي بينهم وبين المسلمين بالعدل أو مع غيرهم ومع أنفسهم، وكان النبي ﷺ يعامل الأسرى أفضل معاملة، مع أنهم كفار ومن أعداء الإسلام، لكنهم محبوسون في أرض الإسلام فاعتبرهم من المواطنين، ولهم حقوق وعليهم واجبات، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ (الإنسان:٨).

خلف أسوار الخطأ

د. محمد علي يوسف
باحث دراسات إسلامية

- من السبب؟!
- من المخطئ؟!
- من المسؤول؟!

أسئلة قد تكون مهمة للغاية عند التحليل والدراسة والاستفادة من أخطاء تجربة ما.

أن تعرف أسباب المشكلة ومحل الخلل وموطن الخطأ، وأن يتحمل المخطئ تلك المسؤولية المادية والمعنوية عن الخطأ الذي قام به ويدفع ثمنه -إن كان له ثمن- فهذا حسن.

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (الكهف:٨٧-٨٨).

كان هذا رد الملك العادل ذي القرنين لما جاءه المستضعفون يشكون إليه ظلما لحق بهم قائلين: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (الكهف: ٨٦).

ومن رده تتبين تلك القاعدة القرآنية العظيمة، ويظهر من خلالها المبدأ الثابت والأصل الراسخ: لا عقوبة إلا مقابل خطأ، وبما يوازي الخطأ. والمتسبب في الخطأ عليه أن يتحمل مسؤوليته ويسدد «فاتورته» بما يوازيه.

كل هذا لا إشكال فيه، ولا يوجد عاقل يرفض منطقه.

لكن الإشكال في أن تتحول الأخطاء، من تلك الصورة السابقة، إلى شماعات يعلق عليها الآخرون كل مصيبة، ويسارعون إلى إشهارها في وجه أي معترض على أي شيء، وكأن تلك الأخطاء هي نهاية العالم وأصل كل الشرور.

الأخطر أن تتحول تلك الأخطاء أو المخطئون والمتسببون في مشكلة إلى جدران معتمة أو قضبان غليظة يظل تفكير المخطئ أو تفكير من يلومه حبيسا بداخلها، فلا يرى أحدهما الدنيا إلا من خلالها، ولا يستطيع أن يتجاوزها إلى غيرها.

في يوم أُحد أخطأ الرماة بنزولهم من ذلكم التل الذي أقامهم عليه رسول الله ﷺ، مسارعين إلى غنائم زائلة، وعاصين بذلك أمر النبي الأمين الذي أحكم لهم النهي قائلا: كونوا مكانكم، لا تبرحوا وإن رأيتم الطير تخطفنا.

لكنهم أخطأوا، وخالفوا أمره، ووقعوا فيما نهاهم عنه.

ولقد أصابتهم المصيبة بما هو من عند أنفسهم، وذلك بنص القرآن، كما نزلت به سورة آل عمران، وقد تم بيان الخطأ، والمخطئ وحُمِّل المسؤولية التي عليه.

ثم ماذا بعد؟!

هل ظل التوبيخ أو التلاوم وحسب؟!

هل ظلت كل سورة من سور القرآن تتحدث عن ذلك الخطأ؟! وهل استمر اللوم والعتب في كل حديث من أحاديث الرسول ﷺ قيل بعدها؟!

بل هل كانت الآيات التي نزلت في تلك المناسبة وتعليقا على ذلك الحدث كلها تتكلم عن هذا الخطأ؟!

الجواب: لا.

لقد حدث الانتقال الطبيعي والمنطقي من بيان الخطأ وتحميل المسؤولية المناسبة للمخطئ إلى الخطوة التالية، وهي العمل وإصلاح ذلك الخطأ، وبذل الوسع لاجتناب الوقوع فيه في المرات المقبلة.

لقد نزلت الآيات مبينة لعوامل النصر، ومفعمة بالأمل وحسن المآل، ومبشرة بمصير من سبق من الشهداء وأنهم أحياء عند ربهم فرحون ومستبشرون، ثم كان التوجيه وتصحيح الخلل ولفت النظر إلى مواطنه بشكل واضح وحاسم وعملي، وفي العديد من الآيات، منها على سبيل المثال لا الحصر:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٥٥).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ..﴾ (آل عمران:١٥٦).

﴿..فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩).

وتختم السورة بالتوجيه الاستنفاري الدائم الذي ينبه المؤمن إلى أنه ينبغي أن يظل في تلك الحالة من الجلد والرباط والعملية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:٢٠٠).

وهكذا فعل يعقوب -عليه السلام- مع

بنيه، فعلى الرغم من أنه كان يدرك أن أنفسهم قد سولت لهم أمرا في المرة الأولى، وكذلك الثانية، ورغم أنه قد بين إدراكه لذلك وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف:٨٣). فإنه لم يتوقف عند هذه النقطة.

ومع الألم الشديد لفقد ولديه، والحزن الذي ابيضت له العينان، فإنه انتقل بنبل النبوة إلى الجزء العقدي والعملي بشكل مباشر فقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧).

هيا تحركوا.

انتقلوا إلى ما يفيد.

أصلحوا وغيروا.

ولقد كان فعل يوسف -عليه السلام- من المشكاة نفسها، إذ قال لإخوته بعد أن عرفوا خطأهم واعترفوا ببغيهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف:٩٢).

هكذا يكون التعامل مع الخطأ.

وهكذا تمضي الحياة، وتسير مراكب العمل، وتمر قافلة الإصلاح.

أما أن يحبس الإنسان نفسه إذا أخطأ في سجن الخطأ، أو أن يصر لائمه على حبسه خلف قضبان الإذلال بهذا الخطأ وتحميله مسؤولية كل كارثة حدثت وتحدث، فتلك مسالك الضعفاء الذين لا يستطيعون المضي قدما، ولا التفكير بشكل عملي.

شتان الفارق بين النفسيات النبيلة، والعقليات العملية، التي تتجاوز أسوار المزايدة وقضبان الجلد الدائم والمستمر للمخطئ، لتنطلق إلى الهدف، وتصل إلى المراد، وهو التغيير للأفضل. وبين تلك النفوس السادية المريضة، والأخلاقيات الناقصة البغيضة، التي تصر على جلد المخطئ بسياط اللوم اللاذع، ودفنه حيا في غيابات الندم وتعذيب النفس.

لقد حاول فرعون أن يفعل مثل ذلك مع موسى -عليه السلام.

حاول أن يحبسه خلف أسوار الخطأ، وأن يقيده بأغلال الإذلال بالزلل، ويسجنه داخل قضبان المزايدة واللوم والتقريع، فقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ (الشعراء:١٩). (يقصد وكز المصري الذي تبعها موته).

ولقد كان من الممكن لنبي الله موسى -عليه السلام- أن يرد بردود كثيرة يبرر بها مقتل الرجل المصري.

كان من الممكن أن يبين أنه قتل خطأ، وأنه لم يكن يقصد قتله.

وكان من الممكن أن يوضح أن الرجل كان معتديا صائلا، وأنه إنما كان يدفعه وحسب.

وكان من الممكن أن يربط الأمر بجرائم فرعون الكثيرة في حق قوم موسى من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم.

كان من الممكن أن يقول الكثير والكثير.

لكنه لم يفعل.

لم يستدرج إلى مراء التبرير، وتضييع الوقت في متاهات الجدال، والأهم أنه لم يتوقف خلف أسوار الخطأ، أو يقبل أن تحبسه قضبان الزلل.

إنه صاحب رسالة جاء لمهمة، وإن لديه هدفا عليه أن يحققه.

لقد تجاوز تشغيب فرعون باعتراف مباشر حاسم فاصل تحمل فيه المسؤولية قائلا: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (الشعراء:٢٠).

نعم، قد فعلت، ولن أقف طويلا مع هذا الأمر، أو أدفع عن نفسي شيئا قد حدث، وقد دفعت ثمنه بالفعل، ونفيت بسببه سنين عددا، بعد أن تآمرتم لقتلي من دون تحقيق أو تبين.

فعلها، وتاب عنها، واستغفر في حينها، ودفع الثمن من سنين غربته وإبعاده.

فعلها إذن ولم يبررها أو يزينها، ثم عبر إلى الأهم.

لم يضيع الوقت في غيابات التبريرات، ولم يستسلم لقيود الإذلال والمزايدات، بل ذهب مباشرة إلى هدفه الذي يعلو على الأشخاص والأحداث، ويسمو على التفاصيل والزلات.

وكذلك حامل الرسالة: لا ينشغل طويلا إلا بهدفه، ولا ينفق وقته ويضيع حياته القصيرة في التبرير، الذي يصل -أحيانا- إلى تزيين الخطأ وتحسينه لدرجة قد تؤدي في النهاية إلى ضياع الهدف الأصلي وطمس الثوابت وتواري الحق.

كثيرا ما يكون الطريق الأقصر هو اعتراف المرء بالخطأ، والاستعداد لدفع ثمنه وتحمل مسؤوليته، والسعي لإصلاحه، ثم الانتقال إلى الأهم والأنفع بدلا من تضييع الأعمار والثوابت في التبرير والتزيين.

إن المخطئ إذا ندم وعرف موطن الخلل والزلل وتحمل نتائج أخطائه، فعليه ألا يظل بعد ذلك حبيس هذه الأخطاء وإلا تحول الخطأ إلى حالة من الماسوشية (حب تعذيب النفس واستمراء جلدها)، مما يؤدي إلى بقائه في مكانه سجين «بطحته» التي في رأسه.

وأما المعاتب أو الناقد، فعليه أن يكون خير آخذ، وألا تنحصر علاقته بالمخطئ في تعذيبه بالخطأ وتعليق كل مصيبة على شماعة زلته أو خطئه، فينتقل الناقد من حيث لا يشعر إلى حالة من السادية (حب تعذيب الآخرين)، ويظل في ذلك القصور القيمي والأخلاقي والنظرة اللاعملية التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

فليدفع المخطئ ثمن خطئه بالعدل، وليقتصر النقد والتلاوم على التعريف بمحل الخطأ وبيانه لعدم العودة إليه، ثم ليتجاوز المخطئ والناقد تلك القضبان ولينطلقا إلى رحابة العمل وسعة التغيير والإصلاح.

ليتجاوزا تلك السدود والجدران، ولا يقبعا طوال حياتهما خلف تلك الأسوار. أسوار الخطأ.



الإسلاميون وامتحان الدولة:

نحو نماذج بديلة في التحول المجتمعي

التحرير

عـقـدت مجلتا «تـركـيـش روفيو» و«حـراء» منتدى المفكرين العرب والأتـراك، يومي ١٧-١٨ فبراير الماضي في إسطنبول، تحت عنوان «الإسلاميون وامتحان الدولة: نحو نماذج بديلة في التحول الاجتماعي»، بحضور نخبة من العلماء والكتاب والبـاحـثـين من مختلف الأقطار العربية والإسلامية. وقد التقى وفد من الـ«الوعي الإسـلامـي» برئاسة رئيس التحرير فيصل يوسف العلي بالقائمين على المؤتمر لتبادل الآراء والمناقشات.

وأكد المؤتمرون أن الجميع ينطلق من مبادئ الحرية، والعدالة، ونبذ الظلم.. لكن الاختلاف يكمن فقط في التنزيل، وفي التوصيف، وفي إسقاطه على خط الزمن، موضحين أن الكل يدعو إلى الجلوس للتشاور والحوار أكثر، وممارسة التداول وإعمال العقل الجمعي.

وقالوا إن الجميع يرجو «التوافق» ويدعو إليه، ويجد الخيار الأفضل هو «الصلح»، والصلح خير.. غير أنه كيف يتم ذلك: هل مع محاربة الفساد؟ وهل بالسكوت عنه؟ وهل بإضعاف طرف على حساب آخر؟

وفـي الجلـسـة الأولــى «امتحان المسلمين بالدولة» أوضح الأكاديمي التـركـي د.إحـسـان يلـمـز أن أكبر امـتـحـان هـو الـعـلاقـة بـين الدولة والـفـرد، وضـمـان الحـقـوق العامة بالمساواة، لأن الربيع العربي يطرح علينا العـديـد من الإشـكـالات في هـذا السياق، مثل طرح النقاشات التراثية، من قبيل دار الإسلام ودار



الكفر.. وحقوق أهل الذمة.

في المقابل قال الباحث المغربي د.سمير بودينار إن هناك ثلاث خصائص للنموذج المجتمعي:

- يعتبر الإنسان منطلقا وغاية.
- الوعي التاريخي الأعلى، عبر خطي الزمن الماضي والمستقبل.
- مراعاة المجتمع وخصوصياته الحضارية، كمحددات لغاياته وأهدافه.

وأوضح بودينار أن النموذج المقابل، وهو الذي تأسس مع الدولة الحديثة، نسميه، نموذج السلطة السياسية: جوهره هو الدولة الحديثة، ومن سماته: العلاقة بالناس ككتلة في حاجة للتوجيه، خاصية الإعجاب، نموذج مرتبط بالتدبير المرحلي، السلطة غاية وأداة مركزية للتغيير..

من جانبه أكد الباحث التونسي عبدالستار رجب أن مقولة امتحان الإسلاميين، هي مصادرة على الواقع، واقتراح تجربة عوضا منها، وملاحظة أن المفاضلة بين نموذجين لا تأتي إلا من مدخل التغيير، والتغيير لا يطرح إلا من خلال المؤسسة، من أي طابع كان، وقد انتقل الإسلاميون من الأطراف إلى المراكز، يجب أن نتخلص من ضغط الزمن السياسي.

من جهته قال أحمد قلعول: إن الكل مبتلى بامتحان السلطة، وأن هذا الموضوع ليس فيه نصوص وتشريعات واضحة، وهذا المجال مجال عفو، وأن من عجائب الإسلام تأسيسه لمسؤولية الإنسان على نقائصه، موضحا أن الدولة الحديثة أقدر على تنميط الناس، وجزء من المنظومة الديمقراطية فيها حد واسع من الفساد مسموح به، ويكشف في حالات الصراع الحادة فقط، فنحن في حقل الصراع ولسنا في حقل التوافقات.. ولذا فنحن في حالة صحية، وعملية الإصلاح مؤلمة.

من جانب آخر أكد محمد جبرون من المغرب أن هناك إيقاعات متباينة، فالصفاتية والشكلانية هما مدرستان حول الدولة الحديثة.. والذي لم أستسغه هو التناقض بين الدولة الحديثة والعمل المجتمعي.. أي عن حتمية الصراع، موضحا أن المشكلة هو ما قد نرتبه من أحكام وتصورات، فهناك صورة سوداوية للسياسي، وهي صورة لابد من تغييرها.. المبادئ لا تمارس مجردة، لابد من فقه.

وأخيرا أوضح الباحث مصطفى يشيل أن المتدين الحقيقي لا يكون سياسيا أبدا، والسياسي لا يكون متدينا أبدا، كما قالها من قبل بديع الزمان، لافتا إلى أن الأستاذ فتح الله كولن له مقولة معروفة: لا تتركوا أي كلمة ستندمون عليها.. ولا تنسوا أن الجدال القولي والرد الكلامي لا يتوافق مع مرضاة الله تعالى... اصبروا واعتمدوا على الصبر.. وأنتم أبناء العمل الإيجابي فافعلوا.





الحرية والبناء الحضاري

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

لئن كان المفكر الجزائري مالك بن نبي قد صاغ معادلته الشهيرة، التي خلص فيها إلى أن «الحضارة» هي ناتج: الإنسان + التراب + الوقت؛ وأن تلك المعادلة تحتاج لمزج عناصرها وإحداث التفاعل بينها إلى ما أسماه «مركب الحضارة»، والذي يتمثل في «الدين» (١).. لئن كان مفكرنا قد خلص إلى هذه المعادلة ولم يأت فيها على «الحرية» بذكر، فإنني أعتقد أن ذلك ليس غفلة منه عنها، ولا تجاهلا لمكانتها كإحدى ركائز البناء الحضاري؛ بل أتصور أن السبب في ذلك أنه قصد إلى وضع معادلة للحضارة في جو قد توافرت فيه الحرية ابتداء، وإلا فهل كان تحذيره ودعوته للتخلص من الاستعمار ومن القابلية له إلا لترفرف راية الحرية على الأوطان والبشر؟!

لا غرو إذن أن تكون الحرية من أهم شروط النهضة، وطرفا أساسيا في المعادلة الحضارية؛ ومن ثم، يكون لغيابها ظلال قاتمة على كل مناحي الحياة.. فبقدر أهمية وجودها ورسوخها، تكون الكارثة عند فقدانها!

وعلى مدى الأزمان التي أظلت البشرية، شغل المفكرون والفلاسفة كثيرا بتعريف الحرية، وتجلية معانيها، ووضعوا لذلك تعريفات عدة يصعب حصرها؛ غير أن الملاحظ أن معظم هذه التعريفات تدور حول قدرة الإنسان على التعبير عن ذاته، وإنفاذ إرادته. فالحرية تكاد تكون مرادفة للإرادة، لأن من لا إرادة له لا يكون حرا؛ سواء كان ذلك بشكل كامل، كما في حالة الرق، أو بصورة جزئية كما عند المكره.

جاء في «المعجم الفلسفي»: «الحرية، بوجه عام: حال الكائن الحي الذي لا يخضع لقهر أو غلبة، ويفعل طبقا لطبيعته وإرادته؛ وتصدق على الكائنات الحية جميعها، من نبات وحيوان وإنسان» (٢).

مواقف ثلاثة:

وقد انقسم الناس تجاه الحرية بوجه عام إلى ثلاثة مواقف:

الأول: وهو موقف من يزعمون الحرية المطلقة للإنسان، وأنه سيد نفسه، ولا سلطان عليه إلا ما يحدده هو لنفسه، رافضين فكرة الثوابت والمطلقات. وهؤلاء يتناقضون مع أنفسهم؛ إذ هم يقبلون بوجود قيود فيما يتصل بينهم وبين الآخرين، بينما يرفضون وجود أي نوع من القيود فيما يتصل بالألوهية، ويقولون بالنسبية في كل شيء!

أما الثاني: فأصحابه يكثرون من وضع الضوابط بزعم أنها لتنظيم ممارسة الحرية؛ حتى تتحول تلك الضوابط إلى قيود، ويتلاشى معها عمليا حق الحرية، الذي يبقى حينئذ مجرد كلام نظري تطرب له النفوس، أو بالأحرى: تخدع به النفوس، دون وجود أي أثر ملموس له في الواقع!

وأما الموقف الثالث: فهو موقف وسط بين الموقفين السابقين، وهو يعلي من الحرية وينظر إليها على أنها قيمة إنسانية كبرى، ومقصد من مقاصد الشريعة على النحو الذي فصله العلامة محمد الطاهر ابن عاشور، باجتهاد عميق(٣).. لكن هذا الموقف الوسطي يرى في الوقت نفسه أن الحرية -شأنها شأن كثير من القيم والمفاهيم- تحتاج إلى ضوابط لتنظيمها وترشيدها، ولا يمكن أن تكون بلا سقف؛ إذ هي حينئذ تؤدي لا محالة إلى العبثية والعدمية، وتتحول من كونها «وسيلة» لتحقيق إنسانية الإنسان إلى «غاية» يتخبط بها المرء في طريق الشهوات ومتاهات الأفكار!

ضوابط لا قيود:

وإذا كانت الحرية هي قدرة الإنسان على التعبير عن رغباته، فإنه ليس من المتصور أن يمضي هذا التعبير في طريقه بلا سقف؛ فإرادات الناس حتما ستتعارض وتتخالف لو أطلق لها العنان، ولذا قيل: حريتك تنتهي عند حقوق الآخرين.. هذه واحدة.

أما الثانية، فإذا كان من المقبول أن يتقيد الإنسان في حريته وإنفاذ إرادته ورغباته بحقوق الآخرين، وهم بشر مثله؛ فالأولى أن يتقيد في ذلك بحقوق الله سبحانه، وهو صاحب الخلق والأمر، وواهب النعم التي لا تحصى.

لكن ثمة فرق كبير بين الضوابط والقيود؛ فالضوابط تأتي لتنظيم حق الحرية وتنفيذه على الوجه الأفضل الذي يوازن بين كل أطراف المعادلة من حيث الحقوق والواجبات؛ بينما القيود تكون لمصادرة الحرية، حتى لو زعموا أنها من أجل إعلائها!

معرفة الله.. أصل الحرية:

إذا أردنا أن نصور الموقف الإسلامي من مفهوم الحرية، فيمكن أن نقول: إن رسالة الإسلام قد جاءت لتعطي الإنسان حريته على النحو الأمثل، ولتزيح عنه كل القيود التي كبلته.

وأكبر هذه القيود، هو عبودية غير الله سبحانه؛ فإن عبودية غير الله تورث الإنسان ذلا وصغارا، مهما تفاخر بأنه يمكنه فعل أي شيء، ومهما أعلن أنه شب عن الطوق.. فمن كان أسير شهواته ونزواته، أو اعتقد في أحجار لا تضر ولا تنفع؛ فهو عبد حتى لو كان سيدا يملك العبيد!

جاء الإسلام وحطم هذا القيد، وفتح للإنسان آفاقا غير محدودة في النظر والتفكير، وفي تحرير العقل والإرادة، وأمره بقراءة كتاب الكون، والتدبر في بديع صنع الله؛ حتى إذا آمن بالله خالق الكون وما فيه، كان إيمانه جازما لا يتزعزع، ويقينه ثابتا لا تردد فيه. وبينما كان يقال للآخرين «اعتقد وأنت أعمى»، كان شعار الإسلام: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾(البقرة:١١١)، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(سبأ:٤٦).

كما أن الإسلام من ناحية أخرى، قد أضاف للحرية معنى عميقا حين نبه على أن الحرية شعور نفسي مثلما هي سلوك يتجه نحو الآخرين؛ ولذلك ورد في الحديث -في مقام الذم- نسبة العبودية إلى من يجعل المال غايته الكبرى، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تعس عبدالدينار والدرهم والقطيفة والخميصة؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض».

فالعبودية لله سبحانه هي أصل الحرية؛ إذ هي تحرر الإنسان من الوقوع في أسر الشهوات والرضوخ لرغبات النفس، كما تحرره أيضا من الاستسلام لقهر الآخرين وتسلطهم، وتجعل من مقاومة الظلم فريضة يأثم الإنسان إن فرط فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾(النساء:٩٧).

إن دينا يجعل من الجهر بكلمة الحق عبادة، ومن الموت في سبيلها شهادة، لهو جدير بأن يسمى «دين الحرية».. وإن الله الذي سخر للإنسان الكون وما فيه، بسمائه وأرضه، ببره وبحره، بشجره



وحجره، لا يرضى بأن يكون الإنسان عبدا لغيره سبحانه؛ ولذلك فإن عبارة الإمام محمد عبده: «الإنسان عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده»، توجز القضية وتوضحها أفضل ما يكون الإيجاز والتوضيح.

مبادئ لا تفصيلات:

كذلك كفل الإسلام كل أنواع الحريات، الاقتصادية والسياسية والفكرية وغيرها.

● ففي الحريات الاقتصادية قرر الإسلام حرية التملك، وجعل موت الإنسان من أجل الحفاظ على ماله شهادة، فجاء في الحديث الصحيح: «ومن قتل دون ماله فهو شهيد»(أخرجه أبوداود والترمذي من حديث سعيد بن زيد)... وفي المقابل، لم ينس الإسلام نصيب الفقراء في مال الأغنياء، بل سماه «حقا» وليس مجرد منة يتفضل بها الأغنياء.

● وفي الحريات السياسية أعلى الإسلام من إرادة الأمة وجعل لها الحق في اختيار الولاة والحكام ومحاسبتهم، بل وجعل إرادة الأمة في مجموعها معصومة، ففي الحديث: «إن الله تعالى قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة»(حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ١٧٨٦). وبذلك كان الإسلام وسطا بين من يقولون بنظرية «الحكم الإلهي» والتي يكون فيها الحاكم معصوما نائبا عن الله؛ إذ لا عصمة إلا للأنبياء والرسل.. وبين من يقولون بـ«الحكم المطلق» الشمولي ويرسخون للديكتاتوريات التي لا تعرف مراقبة الحكام ولا محاسبتهم. فجعل الإسلام الأمة نائبة عن الله، والحاكم نائبا عن الأمة، توليه وتراقبه وتعزله (٤).

● أما حرية الفكر والاعتقاد، فإن الآية الكريمة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البقرة:٢٥٦)، هي من مفاخر الإسلام التي أهداها للإنسانية، وهي آية محكمة لا صحة لما قيل عن نسخها(٥).

وقد كانت الحضارة الإسلامية شاهدة على التسامح والاستيعاب الذي شمل به الإسلام غير المسلمين داخل نسيج المجتمع الإسلامي، ماداموا مسالمين لم يبدأوا بعدوان، ولم يتآمروا مع عدو؛ حتى نبغ عشرات اليهود والنصارى في سماء الحضارة الإسلامية، وتقلدوا مناصب عالية في إدارة الدولة (٦).. وحين ضاقت إسبانيا باليهود بعد سقوط الأندلس في يد النصارى، لم يجد اليهود لهم ملجأ إلا أحضان الدولة العثمانية، فآوتهم بعد أن كادوا يمحون من التاريخ ويكونون نسيا منسيا!!

● غاية ما هنالك في شأن الحريات التي قررها الإسلام -سواء في الجانب السياسي أو الاقتصادي أو غيرهما- أنه قد اكتفى في الغالب بتقرير قيم ومبادئ؛ مثل: الشورى، العدل، الحرية، حرية العمل والتملك، حرمة المال الخاص والعام، احترام إرادة الأمة، والحفاظ على كرامة الإنسان من حيث هو إنسان.. وترك للناس حرية تنظيم تلك القيم والمبادئ بما يتوافق مع منجزات العقل البشري في كل عصر ومصر؛ حتى لا يشق على الناس ويوقعهم في العنت والحرج إن هو ألزمهم بصورة واحدة ثابتة لا تتغير. فالمهم أن تظل القيم والمبادئ العامة مصونة من الجور والاعتداء بأي صورة من الصور، وللناس بعد ذلك أن تبدع ما شاءت من أساليب

وتفصيلات.

الحرية أساس الحضارة:

لما كان الإنسان عماد الحضارات، هو الذي يصنعها ويشيد أركانها ومعالمها، فإن الحضارة من دون الإنسان تبقى كومة من القش والمعادن.

وما ينبغي أن نلتفت إليه هنا هو أن الإنسان -صانع الحضارات- لا قيمة له من دون الحرية! فالحرية هي التي تفجر فيه طاقات العمل والإنتاج والإبداع، وتحفزه إلى البذل والعطاء.. وهل يستطيع مقيد اليدين أن يضع لبنة فوق أخرى؟!

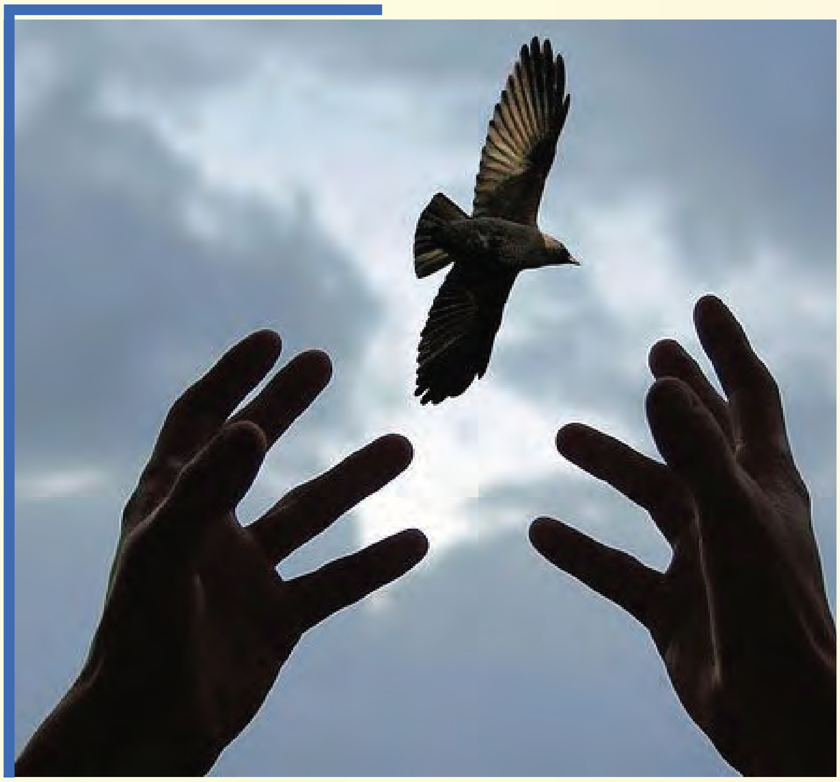
إن الإنسان بالحرية يمكنه أن يتذوق إنسانيته، ويشعر بكينونته، ويدرك أن له دورا في الحياة. ولذلك لما طلب من عنترة العبسي أن يدفع عن قومه، قال لأبيه: العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن الحلاب والصر. فقال له أبوه: كر وأنت حر!

هذه إذن -باختصار- العلاقة بين الإنسان والحرية؛ ومن ثم، بين الإنسان والحضارة.

وإذا كنا نتساءل كثيرا عن أسباب الفجوة الحضارية الهائلة بين عالم الإسلام والغرب اليوم، فإن مما لاشك فيه أن أحد أهم أسباب تلك الفجوة هو تمتع الغرب بحساسية شديدة تجاه ما يكبل الإنسان، ويكبت طاقاته.

صحيح أنهم ذهبوا هناك في تحقيق الحرية إلى ما بعد الخطوط غير المسموح بتجاوزها، لكن لا يمكن أن يكون البديل هو انخفاض سقف الحرية إلى ما دون الخطوط غير المسموح بالتنازل عنها!

فمتى نصنع لأنفسنا نموذجا يجمع في وسطية واتزان بين



الحرية والمسؤولية.. بين إشباع رغبات النفس والعبودية لله.. بين الإبداع والالتزام.. بين الحقوق والواجبات.. بين حقوق الوطن من جهة وحقوق المواطنين من جهة أخرى؟

ذلك هو التحدي الحضاري الذي يفرضه علينا سؤال الحرية!

هوامش

١- راجع كتابه: شروط النهضة، ص: ٤٥، ٤٦، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين، طبعة ١٩٨٦م، دار الفكر، دمشق.

٢- المعجم الفلسفي، وضع مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص: ٧١، المطابع الأميرية، بدون رقم الطبعة، ١٩٨٣م.

٣- منذ أن وضع الإمام أبوإسحاق الشاطبي (المتوفى في غرناطة عام ٧٩٠هـ) كتابه «الموافقات في أصول الشريعة»، ومقاصد الشريعة محصورة في «الكليات الخمس»، وهي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ المال. إلى أن جاء الشيخ ابن عاشور (المتوفى سنة ١٣٧٩هـ) فأضاف إليها مقصد الحرية.

٤- راجع المزيد في: نظام الحكم في الإسلام، د.محمد يوسف موسى، ص: ١٠٠، دار الفكر العربي، بدون تاريخ. «النظريات السياسية الإسلامية»، د.محمد ضياء الدين الريس، ص: ٢١٢، مكتبة دار التراث، ط٧، بدون تاريخ. «هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف؟»، د.محمد عمارة، ص: ١١٢، دار الشروق، ط٢، ١٩٩٨م.

٥- خلص د. مصطفى زيد إلى أنه لا صحة لما قيل عن نسخ هذه الآية بما تسمى «آية السيف»، فقال رحمه الله: «إن لفظ الآية عام في نفي جنس الإكراه، والتعليل الذي ذكرته لهذا النفي -أو النهي- عام أيضا؛ ونعني به قوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾. وهذه الآية تقرر مبدأ لا ينبغي أن يدعى عليه النسخ بحال؛ إذ هو من المبادئ التي يعتز بها الإسلام في تاريخه الطويل، وهو الدين الذي حرر النفس من ربقة الهوى، وربأ بالعقل عن عبودية التقليد». انظر له: «النسخ في القرآن، دراسة تشريعية تاريخية نقدية»، ٢/ ٥١٢، ٥١٣، دار الوفاء، ط٣، ١٩٨٧م.

٦- راجع عشرات الأمثلة على ذلك، في: «عالمية الإسلام»، د.شوقي ضيف، ص: ٢١، طبعة خاصة من «دار المعارف» ضمن «مكتبة الأسرة»، ١٩٩٩م. و«حضارة العرب»، جوستاف لوبون، ص: ٢٦٧، ترجمة عادل زعيتر، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م.

الحرية الشخصية فطرية أم متعلمة؟

د. آندي حجازي
أكاديمية من الأردن

لو خيرت بين أن تكون ملكا يعيش في قصر عظيم، فائق الرفاهية والخدمات، يمتلئ بما تلذ به الأعين، وتشتهي إليه النفس، محاط بحديقة غناء جميلة، ويطلع عليك صباح مساء خدم وحشم، يسألونك حاجتك، ويعملون على تنفيذ رغباتك، لا شغل لهم غير إسعادك وتلبية حاجاتك، ولكنك ملك حبيس، مقيد الحرية، لا يسمح لك أن تغادر ذلك القصر طيلة حياتك، فعليك التنعم بتلك الحياة وبكل وسائل الرفاهية والترفيه والتكنولوجيا لكن داخل حدود ذلك القصر الواسع وحدائقه المحيطة فقط، فلا تخرج إلى شارع، ولا تسافر إلى بلد، أو تزور أحدا خارج قصرك، وأنت تصدر قراراتك وأوامرك من داخل قصرك... وبين أن تعيش في بيت فقير بسيط متواضع، لديك قوت يومك ترزقه يوما بيوم، ولا تملك وسائل الرفاهية الكافية، لكنك تملك حرية شخصية لتفعل ما تشاء، وتأتي وتذهب كيفما تريد، داخل بيتك وخارجه، وتسافر وتتنقل كما ترغب، فأنت بكامل حريتك الشخصية مدى حياتك.. فأيهما تختار وسط هاتين الصورتين؟

أعتقد أن الأعم الأغلب من البشر سيختارون الصورة الثانية من الحياة البشرية. لماذا؟ أتصور السبب هو أن الحرية الإنسانية لا تقدر بثمن، فمهما أعطي الإنسان من نعيم، ولو كان ملكا منعما، ولكنه كان فاقدا للحرية حبيس بيته، فليس لكل تلك الأموال والخدمات قيمة حينئذ! في مقابل أن يشعر الإنسان بإنسانيته، وأنه حر طليق وكريم النفس ومحترم الوجدان ومقدر القدرات والمواهب، ليس كحيوان حبيس قفص ينتظر من يطلق صراحه أو يطعمه طعامه!

مفهوم الحرية في الإسلام

إن الحرية الشخصية للإنسان حق كفلته جميع الشرائع السماوية والقوانين البشرية، يجعل الإنسان يمتلك حق تقرير مصيره، وحق اتخاذ قراراته الشخصية، وحق التملك، وحق الكرامة وعدم الامتهان، وحق التعلم والتعليم، واختيار العمل، والاتصال والتواصل مع الآخرين، وحق اختيار الحاكم، وحق البيع والشراء، والسفر والتنقل في الأرض، وحق اختيار المأكل والملبس، واختيار الزوج أو الزوجة.

ولكن هذه الحريات لم تطلق على عوامها في الإسلام (والديانات السماوية السابقة)، بل جعلها الله تعالى مقيدة بما يتوافق ومصالح البشر عامة، وبما يتوافق مع تعاليم الدين الحنيف والشريعة السماوية. فالحرية الشخصية لا تعني الاعتداء على الآخرين أو سلبهم حرياتهم الشخصية أو إطلاق العنان للشخص يفعل ما يريد من دون أي قيد أو شرط... بل جعل لذلك أساس، هو ما يرضي الله تعالى، ثم ما ينفع البشر، وكما قيل في السابق: «تنتهي حريتك،



عندما تبدأ حرية غيرك». فمثلا: جاء الإسلام ليحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فلا يحق لأحد استعباد أحد من البشر أو إكراهه على ما لا يرغب.

والحرية التي منحها الله تعالى للفرد في الإسلام ليست مطلقة، بل هي محددة بالقاعدة الشرعية: «لا ضرر ولا ضرار»، أي حريتك لا تعني الضرر لنفسك والإضرار بها، فلا يمكن لك التدخين أو تعاطي المخدرات والمسكرات بدعوى «أنا حر بنفسي وبجسدي»، فهذه حرية لا تتوافق مع الشريعة وغاياتها التي لأجلها أتيحت الحرية للإنسان، فلا يمكن أن نطلق عليها حرية شخصية. وكذلك لا ضرار، أي لا اعتداء على الآخرين، فمثلا: لا يضرب الأب أبناءه، أو يقتل الشخص صديقه، أو يسرق الأخ أخاه، أو المدير شركته، أو الحاكم بلده، بدعوى أنه حر يفعل ما يريد وأن لا أحد يحق له مساءلته! فهذه حرية مغلوطة الفهم، بها ضرر بالآخرين، «والحرية لا ضرر ولا ضرار».

والحرية التي أعطاها الله تعالى لعباده تسمح لهم باختيار طريقهم وأعمالهم وكلماتهم وسلوكياتهم في الحياة، وإلا فلم يحاسب الله تعالى عباده إن سلبهم حرية الإرادة، والاختيار، والعمل فمثلا: الملائكة يعبدون الله تعالى بلا اختيار، لأن الله تعالى خلقهم لأجل ذلك، فهم غير محاسبين على أفعالهم، ليسوا كالبشر، الذين سمح الله لهم بحرية الاختيار والانتقاء واتخاذ القرار وتقرير مصيرهم بأنفسهم، وبالتالي سيحاسبون على أفعالهم وما يصدر منهم.

والحرية في الإسلام هي أسمى من مفاهيم الحرية والديموقراطية التي يدعو إليها معتنقو الديانات الأخرى واللادينيون اليوم، حيث يجعلون من الحرية منطلقا لهم لتنفيذ ما تصبو إليه أهواؤهم وشهواتهم. فالحرية التي ينادون بها تسمح بحرية الزنا، وحرية العري أمام أي شخص كان، بل وأمام كل البشر، وتسمح بحرية تناول المسكرات والمخدرات وأنواع التدخين، وحرية لعب القمار والربا وإضاعة الأموال، ونهب الأموال، وحرية قتل وتعذيب من يشاءون بلا رادع يردعهم! وتمنحهم حرية التغيير في الشرائع والأحكام وفق أهوائهم ومصالحهم، وحرية التلاعب في مصير الشعوب.. فلا تقف حريتهم عند حدود! بينما الحرية الحقيقية هي كما في خاتم الديانات (الإسلام) ليست مطلقة تماما بل مقيدة بما ينفع البشر ويرضي الله تعالى الخالق الذي يعلم ما يصلح للبشر، وما ينفع الناس ولا يؤذيهم، ولا يجعل بينهم الضغينة والانتقام والحروب.

الحرية الشخصية فطرية أم متعلمة؟

هل يولد الطفل حرا؟ هل يولد الإنسان بحقوق أم منزوع الحقوق؟ هل يمكن أن نعلم الحرية؟... الحرية الشخصية للإنسان، بمفهومها العام والبسيط، أمر فطري وهبه الله تعالى لجميع الكائنات، ويؤكد ذلك قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مخاطبا ابن عمرو بن العاص (والي مصر آنذاك) حينما اعتدى على كرامة أحد رعاياه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!». وما يميز حرية الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى أن حريته موجهة بعقله وبأهدافه من أجل إعانته على تيسير أموره في الحياة والانتقاء واتخاذ القرارات وتحمل نتائجها.

ولكن الحرية البشرية الحقيقية السامية مضبوطة ومتعلمة، حيث يمكن تعليم مبادئ الحرية، والتأكيد عليها منذ الصغر في المدرسة والبيت. فالحرية الحقيقية تبدأ منذ الطفولة، وتعليمها يبدأ من اللحظات الأولى للإدراك، فيكون على الوالدين والمدرسة والمعلم دور في تدريب الطلبة والأبناء على معاني الحرية ومبادئها وأخلاقها وكيفية التمسك بها والدفاع عنها وتطبيقها في أمور حياتهم.. فمن المهم تعليم الطفل أو الطالب أن الحرية حق لك كفرد يجعلك تملك حق التصرف، وحق الاختيار، وحق التعبير عن الذات والمشاعر والأهداف والطموحات.. وأن هذه الحقوق ضمنتها لك إنسانيتك وجميع الشرائع، ما دامت من دون إيذاء للآخرين أو اعتداء عليهم.

ولو أن التدريب على الحرية المنشودة في عالمنا العربي وتعليمها يبدآن منذ الصغر وبشكل سليم ويستمران طوال سنوات المدرسة والجامعة، فإننا لن نتعرض لمشكلات كالتي نراها في واقعنا العربي اليوم، بشأن كيفية الحصول على الحرية وانتزاعها بقوة ممن سلبها منا، لأنها لن تكون قد سلبت منا بهذه الطريقة أصلا.. فمشكلة افتقاد الحرية نادرا ما نسمع بها لدى شعوب البلاد المتقدمة لأنهم تعلموا في مدارسهم وجامعاتهم معنى الحرية واحترام حرية الآخرين وحقوقهم، وخاصة لأبناء جلدتهم، لأن الحرية الحقة تعني أن أحترم حقوق الآخرين ولا أسلبهم إياها.

مقترحات لتعليم مبادئ الحرية

لتعليم مفاهيم الحرية ومبادئها للطلبة والأبناء من المهم تدريبهم في المدرسة والبيت على ما يلي:

١- حرية ترشيح واختيار القائد في الصف

وتكون بمواقف تعليمية عملية حقيقية، لتنمية مفهوم حق الانتخاب الشخصي، كاختيار قائد للصف، أو تقسيم الطلبة في مجموعات وإتاحة الفرصة لهم لاختيار القائد لمجموعتهم، واختيار قائد لرحلة يرغبون في القيام بها، وقائد عند غياب المعلم، وقائد للفريق الرياضي، وقائد لفرق العمل في المختبر المدرسي، أو قائد للتدريب على تمثيلية تعليمية.

٢- حرية التعبير

تدريب هذه الحرية يجب أن يبدأ منذ

الصغر، من لحظة دخول المدرسة أو الروضة، فيتاح للأبناء في البيت وللطلبة في المدرسة -وفي جميع المواد الدراسية، وبخاصة النظرية منها- مواقف تعليمية يطلب فيها إبداء الرأي ضمن حدود اللياقة وآداب ومهارات التواصل الاجتماعي، مع السماح بمناقشة أفكار الزملاء والتعبير عما يجول في خاطرهم ومشاعرهم دونما استهزاء أو تقليل من شأنها، بل البناء عليها ودعمها وتطويرها والمضي فيها إلى أبعد قدر من الحوار وحرية النقاش، سعيا للوصول إلى حلول للمشكلات أو المواقف أو المسائل المطروحة في المدرسة وفي عالم الواقع، وما أكثر المشكلات والمواقف حولنا. ويمكن استخدام الرسوم التعبيرية والكتابات والتمثيليات من تأليف الطلبة من أجل تحقيق هذا الهدف. ويكون دور المعلم هنا دور المنظم والميسر للحوار والمدير للجلسة للتخفيف من حدة الحوارات، تلك الحدة التي كثيرا ما نراها كسلوكيات بارزة في حوارات مسؤولينا على التلفاز، والتي غالبا ما تنتهي بما لا تحمد عقباه، لأنهم لم يتدربوا على حرية التعبير وآدابها منذ الصغر.

٣- البحث عن حلول للمشكلات

من خلال تعريض الأبناء والطلبة لمشكلات واقعية أو تخيلية، وتشجيعهم على التفكير في حلول لها وتقديمها بكل حرية وأمان، ومناقشتها مع الزملاء، والانتقاء من بينها، كمشكلات الغذاء والسكن والأمية والفقر والبطالة والماء ومصادر الطاقة وشبكات المواصلات واختيار الرئيس، ومشكلات الصحافة والإعلام، ومشكلات الأبناء والمراهقين. وهذا هو التعليم الواقعي الذي نحتاج إليه، لأن الطالب سيخرج يوما إلى واقع الحياة فيواجه مشكلات حقيقية كالتي تنتشر اليوم في عالمنا العربي والتي لا تنتهي، والتي لا تنفع معها الحلول باستخدام الصراخ والشتائم والحوارات العقيمة وإراقة الدماء.

٤- حرية الانتقاء واتخاذ القرار

وهي الحرية العملية التي تنمي لدى الأبناء القدرة على اتخاذ القرارات الواقعية، فمثلا: نسمح للطلبة بحرية اختيار المكان الذي يرغبون في الذهاب إليه في رحلة مدرسية، أو في اختيار مواضيع الإذاعة الصباحية، أو ترتيب جدول امتحاناتهم المدرسية، وانتقاء دروسهم التي يرغبون في دراستها. واختيار الأطعمة التي يرغبون في وجودها في مقصف المدرسة، واختيار الألعاب الرياضية التي يرغبون في المشاركة فيها وتعلمها، وانتقاء اللجنة المدرسية التي يفضلون المشاركة فيها، واقتراح أنشطة مدرسية.

٥- احترام حقوق الآخرين

وهذا مطلب مهم تعليمه وتدريب الطلبة عليه طوال سنوات الدراسة والطفولة، لأن من ينتزع الحقوق من الآخرين، كحق اختيار الديانة أو حق العبادة أو العمل أو التعليم أو اختيار الرئيس، هو في الحقيقة شخص متعجرف، أناني، وصولي، انتهازي، لم يتعلم أن الآخرين هم بشر مثله، لهم حقوق وكرامة يجب احترامها، وضرب الله تعالى المثل بفرعون وكيف كان يعتدي على حقوق الآخرين، فيرى نفسه فوق البشر، له الحق في التصرف والاعتداء على الآخرين كما يشاء، بل وطلب منهم عبادته! واستمر الأمر على هذه الحال -زمن فرعون- من امتهان لحقوق العباد إلى أن من الله على عباده المستضعفين بالحرية:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ (سورة البقرة:٤٩). ومن هنا نرى إن لم نعلم أبناءنا احترام الآخرين فسينتج لدينا المئات بل الآلاف من نماذج فرعون الطاغية يعتدون على حقوق العباد والبلاد بلا رحمة.

٦- تعليم مفاهيم الحرية في الإسلام

تعليم الأبناء (اعتمادا على القرآن الكريم والسنة الشريفة والسيرة النبوية) أن الإسلام أتاح للبشر حرية التملك، وحرية الترشح للقيادة، وحرية انتخاب القائد، وحرية اختيار الزوجة والزوج، وحرية التنقل والسفر والعمل والتجارة، وحرية التعبير عن الآراء والأفكار... كما في غزوة بدر عندما سأل أحد الصحابة عند نزولهم وراء بئر بدر: أهو منزل أنزلك الله إياه أم هو الرأي والمشورة؟ فكان جواب رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والمشورة». فكان الرأي أن ينزلوا أمام بئر بدر فيشرب المسلمون ويقطعون الماء على الكفار، فكانت الفكرة من أسباب النصر. فحرية التعبير متاحة في الإسلام.. بما يرضي الله تعالى.

وتعليمهم كيف حث الإسلام على تحرير العبيد والأرقاء، وجعل كفارة العديد من الأخطاء تحرير رقبة مؤمنة.. وكيف عامل الإسلام أتباع الديانات الأخرى بمنتهى الرقي والعدالة والحرية الإنسانية، فسمح لهم بإقامة شعائرهم والعيش بطمأنينة بين المسلمين، فما عليهم سوى دفع مبلغ من المال (الجزية) مقابل حصولهم على الحرية والأمان في ظل الدولة الإسلامية، وجعل لهم حرية اختيار الدين والعقيدة وممارسة شعائرهم، تطبيقا للقاعدة السماوية:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦).

وأخيرا، تعليم الأبناء معاني الحرية السياسية في الإسلام والتي لا تتعارض مع الديموقراطية اليوم، والتي تدعو إلى حرية اختيار حاكم البلاد واختيار أعضاء المجالس النيابية.. وخير دليل على ذلك أنه وعند اقتراب أجل رسول الله لم يعين خليفة له بل ترك الأمر للمسلمين، يختارون من يرغبون بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وكذلك سار على نهجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

«تحرير المرأة في عصر الرسالة» لعبدالحليم أبو شقة

التحرير

كتاب «تحرير المرأة في عصر الرسالة» لعبدالحليم محمد أبي شقة، طبع وانتشر في كثير من بلدان العالم، وأصبح مرجعا في بعض جامعات الدول العربية.

وأقيمت لهذا الكتاب وللفكر الذي يطرحه احتفالية كبيرة في مصر، بعد وفاة المؤلف، شارك فيها بعض المفكرين الذين أثنوا على الكتاب ومنهجه في طرح قضايا المرأة، حيث اعتمد المؤلف فيه على نصوص القرآن الكريم وصحيحي البخاري ومسلم، مما يتعلق بالمرأة، وصنفها وعنونها وعلق على بعضها.

ويذكر صاحب موقع الدرر السنية أن كتاب تحرير المرأة يتكون من ستة أجزاء: الجزء الأول، تناول فيه المؤلف معالم شخصية المرأة المسلمة من خلال ثمانية فصول هي:

بعض معالم شخصية المرأة في القرآن الكريم، ومواقف طيبة للمرأة في القرآن الكريم، وبعض معالم شخصية المرأة في صحيحي البخاري ومسلم.

ثم مواقف نسائية كريمة، ونماذج من قوة شخصية المرأة المسلمة وحسن إدراكها لحقوقها وواجباتها.

ثم تعرض لشخصيات نسائية محددة، ذاكرا أحاديث صحيحة عن شخصية المرأة أساء البعض فهمها وتطبيقها. وأخيرا، تعقيبات على معالم شخصية المرأة المسلمة.

الجزء الثاني، تناول فيه مشاركة المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية.

وتحدث فيه عن دواعي مشاركة المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية في عصر الرسالة.

ثم تكلم عن آداب اشتراك المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية ولقائها الرجال.

ثم مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية في عهود الأنبياء عليهم السلام.

وذكر لقاء نساء النبي ﷺ الرجال في مجالات الحياة قبل فرض الحجاب.

ثم وقائع مشاركة المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية في عصر الرسالة.

ثم مشاركة المرأة المسلمة في العمل المهني، والمعالم الشرعية للمشاركة.

وأخيرا، مشاركة المرأة المسلمة في النشاط الاجتماعي والمعالم الشرعية للمشاركة، مع مشاركة المرأة المسلمة في النشاط السياسي والمعالم الشرعية للمشاركة.

وتحت عنوان «حوارات مع المعارضين لمشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية»



تناول المؤلف ثلاثة فصول، هي: الاعتراضات على أدلة مشروعية المشاركة واللقاء،

ثم حوار حول أدلة تساق لحظر المشاركة واللقاء، ثم حوار حول بعض أقوال للمعارضين، ثم حوار حول الحجاب الوارد في قوله تعالى:

﴿ فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ (الأحزاب:٥٣)، وإثبات خصوصيته بنساء النبي ﷺ، ثم حوار حول الغلو في تطبيق قاعدة سد الذريعة.

أما الجزء الرابع فتناول لباس المرأة المسلمة وزينتها عند لقائها الرجال الأجانب. ومما ذكره: الشرط الأول في لباس المرأة ومعالم ستر بدنها في القرآن الكريم، كما ذكر أن سفور وجه المرأة كان هو الغالب في مجتمع المسلمين على عهد النبي ﷺ.

وتناول قرائن إضافية على مشروعية سفور وجه المرأة، ثم اتفاق الفقهاء المتقدمين على مشروعية سفور وجه المرأة.

وناقش النقاب بين الجاهلية والإسلام.

وناقش الجزء الخامس مكانة المرأة المسلمة في الأسرة، متعرضا لشأن الزواج في شريعة الإسلام والحقوق المتماثلة للزوجين. وتناول في الجزء السادس الثقافة الجنسية بين الزوجين، والحياء، وتيسير الشريعة مجالات ممارسة المتعة الجنسية وفنون الاستمتاع.

مغالطات في «الحرية بين الغرب والإسلام»

محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة

يقدم الغرب نفسه على أن أرض الحرية «في داخله»، وأنه راعيها، وحامل لوائها، والمدافع عنها «في كل العالم». وكذلك يراه التغريبيون من بني قومنا. فلئن صح أن الغرب يرى نفسه كذلك، عن حق أو عن باطل، فهل يصح أن يراه قوم مسلمون كذلك؟!

لقد اضطر التغريبيون في بلادنا إلى اعتماد مغالطات منهجية عديدة في سبيل نشر هذه الفكرة. هذه السطور عرض لأهمها:

التعميم والتخصيص

إذا أطلقت كلمة «الحرية» فستشمل أربعة معان: حرية النفس، حرية الفكر والاعتقاد، حرية الأخلاق، الحرية السياسية.

الأولى لم تعد موضع نقاش في عصرنا هذا، إذ لم يعد ثمة عبيد، بمعنى امتلاك بشر لبشر آخرين. والثانية ليس فيها موضع نزاع بيننا وبينهم إلا في موضوع حرية الكفر والارتداد ونشر قيم تُناقض الإسلام. والثالثة موضع النزاع فيها كبير، والتناقض فيها ظاهر، إذ لا تقبل مجتمعاتنا الإسلامية الانفلات الأخلاقي والإباحية التي وصل إليها الغرب، ولا حتى واحدا على الألف منها. والرابعة هي التي يمثل فيها الغرب نموذجا مغريا، إذ إن كل نفس شريفة تتوق إلى التخلص من الاستبداد والطغيان، وتحب أن يكون لها الحق في اختيار من يحكمها، ومراقبته، وعزله إن لزم الأمر.

ومن هنا تأتي المغالطة الكبرى: تمييع المساحات بين هذه المعاني الأربع، وتقديم الحرية -بمعناها السياسي المضاد للاستبداد- كرأس حربة لتسويق كل المعاني الأخرى: حرية الكفر والارتداد ونشر ما يناقض الإسلام من أفكار وسلوك وانفلات أخلاقي. وكانوا من انعدام الحياء بحيث كرروا أنه لن نصل إلى التقدم الغربي في العلم وفي السياسة إلا إن اعتنقنا وأنفذنا في عالمنا حرية الكفر والارتداد والإباحية وسائر ما يناقض ديننا، الذي تحول -في كلامهم- إلى «تراث ينبغي التخلص منه ونبذه».

وهذا المعنى مما يتفقون عليه في الجملة، وإن صاغه كل واحد منهم بحسب جرأته والبيئة من حوله.

وأعظم دليل على هذا، أن كل النخب المتغربة في بلادنا الإسلامية إنما نشأوا تحت رعاية الاستبداد في بلادنا، ولم يقفوا يوما مع حرية الشعوب، بل كانوا في ركاب المستبد على طول الخط. وقد مكنهم المستبدون من منافذ الثقافة والتوجيه والنشر حتى صاروا مع الاستبداد كيانا واحدا أو على الأقل حلفا واحدا.

ومع ذلك، فما زالوا يتغزلون في الغرب ويتحدثون عن الحرية!

اللحظة والتاريخ

فإذا قصرنا الحديث عن المعاني المحمودة التي يتفق عليها الناس من كلمة «الحرية»، فنحن بإزاء مغالطة أخرى، إذ إن التغريبيين في بلادنا يعتمدون مقارنة عجيبة بين اللحظة الغربية الحاضرة وبين التاريخ الإسلامي الطويل، فلا هي مقارنة اللحظة الحاضرة بين الغرب وبلاد المسلمين، ولا هي مقارنة التاريخ الإسلامي بالتاريخ الغربي.

وكيف يفعلون؟! ولو فعلوا لكانت فضيحة! إذ من الثابت المعروف أن تاريخ الغرب في باب الحريات من أسوأ التواريخ، في اللحظة ذاتها التي ضرب فيها المسلمون نموذجا فذا تعلم منه الغربيون، تقول كارين أرمسترونغ: «كان المسلمون يسمحون للمسيحيين، مثلما يسمحون لليهود، بالحرية الدينية الكاملة في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم أهل إسبانيا يعتزون بانتمائهم إلى تلك الثقافة الرفيعة، فقد كانت تسبق سائر أوروبا سبقا يقاس بالسنين الضوئية»(١).

ولم يكن من ملجأ يومئذ للمضطهدين في الغرب إلا في بلاد المسلمين، ولا سيما الدولة العثمانية التي احتضنت

الفارين من الاضطهاد والحروب الدينية الأوروبية، بل كان التيار الجارف بين الشعوب الأوروبية هو تفضيل الحكم العثماني المسلم على الأوروبي، يقول توماس أرنولد بأن «أصحاب كالفن Calvin في المجر وترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورغ المتعصبة. ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي. وحدث أن هرب اليهود الإسبانيون المضطهدون في جموع هائلة، فلم يلجأوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر. كذلك نرى القوزاق الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء -الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية- قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية»(٢).

إذا قارنا التاريخ بالتاريخ فالنتيجة محسومة، إذ الحرية في الغرب عمرها قصير، ثم هي بعد ذلك مقصورة على مواطنيه أو بعض مواطنيه، بينما الوجه الغربي البشع باد في كل مكان احتله الغربيون أو ما زالوا يحتلونه ويهيمنون عليه، بل إنه حتى لو قارنا اللحظة الحاضرة بين الغرب وبلاد الإسلام فلن يكون الغرب بريئا مما صارت إليه أحوال المسلمين، فالغرب كان، ولا يزال، صاحب مرحلة الاحتلال البغيضة التي تخلفت فيها الأمة، ثم لم يخرج بجسده حتى كان قد مهد ومكن في بلادنا لعملائه المستبدين، الذين لا يزال يرعاهم ويحوطهم. فلئن كانت ثمة مقارنة ستميل إلى مصلحة الغرب، فهي في أحد وجوهها مقارنة بين الوجهين الغربيين: الوجه البشع في بلادنا والوجه المتزين في بلادهم.

النظرية والواقع

القارئ لليبراليين العرب يجد فيضا من أسماء الفلاسفة الغربيين، حتى ليبدو كل منهم حريصا على استعراض مهارته في سرد أكبر عدد ممكن من الأسماء، ويوحي بأنه هضم أفكارهم وفلسفاتهم! وهذا المشهد يمثل تكرارا للشيوعيين في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، ويتفق المشهدان في الغزل المستمر لهذه الأفكار.

لكنهم لا يخرجون من مقارنة هذه النظريات لمقارنتها بـ «النظريات» الإسلامية الواردة في نصوص الكتاب والسنة والتراث الفقهي والأصولي الإسلامي، بل يهرعون إلى مقارنة ذلك بـ «الواقع» الإسلامي، سواء من التاريخ أو الحاضر، فيتحدثون عن الخليفة الذي كان همه السيف، والخليفة الذي كان همه النساء، والخليفة الذي كان يعذب أعداءه ويقطعهم...إلخ. ودعك الآن من أن كثيرا من الوقائع التي يتحدثون عنها غير ثابتة تاريخيا، أو يأخذونها من كتب الأدب والأقاصيص والأهازيج، إنما المهم الذي نناقشه الآن هو هذه المنهجية في مقارنة «النظريات» بـ«الوقائع»، فلا هي مقارنة نظريات بنظريات ولا مقارنة وقائع بوقائع.

ولأن «الغرض مرض»، فهم لا يتوقفون كثيرا أمام نظريات غربية ترسخ العبودية وتجعلها حتمية إنسانية، رغم أنها نظريات قال بها «الآباء المؤسسون الكبار» للثقافة الغربية مثل أفلاطون وتوماس مور (وهما أشهر اسمين في نظريات «المدينة الفاضلة»)، بينما يتوقفون طويلا ويستنكرون كثيرا «سماح» الإسلام بوجود عبيد، وهو فارق دقيق وضخم لم يفهمه التغريبيون في بلادنا، بينما فهمه بعض الغربيين مثل الخبير والقانوني الإيطالي دافيد دي سانتيلانا، الذي يقرر أن القاعدة في الشريعة هي الحرية، وأنه قد ترتب على هذا أمور كثيرة، منها: أن اللقيط المجهول أصله ترجح حريته على عبوديته، وأن المشكوك في حريته لا يجبر على إثباتها حتى تنهض القرائن والدلائل القضائية بعكس ما يزعم، وأن حالة الحرية ترجح عند وجود الشك، وأنه لا يجوز لمن كان حرا أن يبيع حريته أو يساوم عليها، والحر الذي يرغب في العبودية لا يقر على هذا. ثم قال: «وقد بشر الإسلام بهذه المساواة في وقت لم يعرف عنها العالم المسيحي شيئا». وفي نهاية بحثه شهد شهادة منصف فقال: «المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية. وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على مر الدهور»(٣).

إنه لا بد من مساحة بين النظرية والتطبيق، تلك حقيقة تفرضها مثالية التفكير وبشرية التطبيق، فالمقارنة تصح بين نظرية وأخرى أو بين تطبيق وآخر، وحتى لو شئنا أن نقارن بين «مستوى النجاح في تطبيق النظرية» فسنجد أنفسنا إزاء حقيقة صادمة لهم، ذلك أن الإسلام اشتمل على عصور ذهبية كانت فيها النظرية أقرب شيء إلى الواقع كعهد النبي ﷺ والخلافة الراشدة وعديد من الخلفاء الصالحين، بينما لم ينجح تصور واحد من تصورات المدينة الفاضلة في الغرب كما تقرر الباحثة الإيطالية ماري لويزا برنيري بعد دراسة مطولة ومهمة في كتابها «المدينة الفاضلة عبر التاريخ».

لا تزال هناك مغالطات أخرى غير هذه الثلاث لكن المقام ضاق عن إيرادها.

هوامش

١- كارين أرمسترونغ، سيرة النبي محمد، ص٣٢.

٢- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص١٨١ و١٨٢.

٣- دافيد دي سانتيلانا، القانون والمجتمع، دراسة منشورة في كتاب «تراث الإسلام» بإشراف توماس أرنولد، ص٤١٧، ٤٣٢، ٤٣٩.

الحرية في العالم العربي بين التحذير والانطلاق

تحقيق : نشوة صالح



مبارك المطوع



انور الرشيد



د.مدوس الرشيدي

تعد الحرية من أهم المكتسبات التي منحها الدين الإسلامي للمسلمين عامة، ولكنها في نفس الوقت حرية منضبطة بثوابت الدين والعادات والتقاليد والأصول. وذلك لإعلاء قيمة الإنسان دون أن تهوي به في مستنقعات الشهوات والمحرمات والفجور، لذا فالحرية بالمنظور الإسلامي حرية تسمو بالنفس البشرية وتطهرها من الخبث والمسكرات.

ومن أجل الاستفاضة في قضايا الحرية بالعالم العربي أجرت «الوعي الإسلامي» هذا التحقيق الذي ركزت فيه على «الحرية» لما لها وما عليها وماذا عن حدودها، والتفاصيل في ثنايا هذه السطور:

يعلق رئيس المنظمة العالمية الإسلامية لحقوق الإنسان، المحامي الكويتي مبارك المطوع على قضايا الحرية في العالم العربي قائلا: الإسلام أول من نادى بالحرية قبل أن تنادي بها الدول المتقدمة، لافتا إلى أن من يتدبر هذه الآية الكريمة: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩)، يجد أنها تحمل كل معاني الحرية، فهي تتحدث عن كيفية أن يتعامل الرمز والقائد مع الرعية، بحيث تكون الرحمة والمودة والعطف ديدن العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

وأشار المطوع إلى أن الحرية عندما تسود في المجتمعات كما أمر بذلك الله تعالى ونبيه الكريم فإن المجتمع الإسلامي يعيش في طمأنينة.. وسيحارب الفساد، مشيرا إلى أن الدول عندما همشت تعاليم الدين الإسلامي هوت وضعفت وكثر فيها الفساد، وكل المحرمات.

في المقابل يقول رئيس المنتدى الخليجي الكاتب الصحافي أنور الرشيد: إن الحرية تختلف من دولة إلى أخرى، مشيرا إلى أن بعض الدول تفننت في تعذيب مواطنيها، واستخدمت كل الوسائل السيئة لمنع حرية الرأي والتعبير.

من جانبه يقول أستاذ القانون الدولي في جامعة الكويت د.مدوس الرشيدي: إن الحديث عن الحرية يرتبط مباشرة بحضارة الدول، وتنميتها، ورقيها، فإن الدول التي تحافظ على حرية مواطنيها هي في الأساس دول تحترم الحقوق الإنسانية وتسعى لتشجيع الابتكارات والإبداعات الشخصية، لافتا إلى أن مشاركة الفرد في اتخاذ القرارات المصيرية بوطنه عن طريق النائب الذي يمثله في البرلمان تعد من أبرز الحريات السياسية.

ولفت الرشيدي إلى أهمية أن تعم الحريات السياسية كافة الدول العربية والإسلامية، خاصة أن الدين الإسلامي الحنيف سبق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي يلزم الدول التابعة لمنظمة الأمم المتحدة أن تطبق معايير

ببليوغرافية الحرية في «الوعي الإسلامي»

الحرية بما يتماشى مع حقوق الإنسان.
وأضاف: إن الحرية ليس معناها سب الذات الإلهية، والانتقاص من الثوابت الدينية، وليس معناها سب الحكام أو سب الأقليات التي تعيش في المجتمعات الإسلامية، سواء أكانت هذه الأقليات مذهبية أو دينية.

بدوره يوضح المستشار محمد الأزهري أهمية الحرية قائلا: مما لاشك فيه أن الديمقراطية وحرية الرأي من العناصر الجوهرية في بناء الدول المتقدمة، خاصة أن الله سبحانه وتعالى خلق البشر أحرارا.. محذرا في الوقت نفسه من الإفراط الزائد في استخدام الحرية، لأنها تؤدي إلى كارثة، لما يمتاز به العالم العربي من عادات وتقاليد خاصة.

ويفرق الداعية الإسلامي الشيخ أحمد الموسى بين الخروج على نظام الكنيسة في المجتمعات الأوروبية وبين الإسلام، قائلا: عندما أطاح مارتن لوثر وأتباعه بنظام الكنيسة فهذا لأن القساوسة نصبوا أنفسهم على الناس، وكبتوا آراءهم، وتعاملوا معهم بمنطق صكوك الغفران، أي أن رجل الدين هو الواسطة بين الإنسان وربه. مشيرا إلى أن الإسلام يختلف عن ذلك تماما، لأنه يصون الحريات وفق ضوابط معينة لمصلحة الآخرين.

وحذر الموسى من الحرية الزائفة التي تتبناها بعض التيارات المتحررة للمطالبة بتبرج المرأة وعدم احتشامها، مشيرا إلى أن هذه الحرية الزائفة هي التي جعلت المرأة في المجتمعات الأوروبية توضع في الصناديق الزجاجية ببعض المحلات، من أجل المتعة الحرام.

وتابع الموسى: إن الإسلام عندما يحرم الخمر لعموم المسلمين فذلك من أجل حماية العقل البشري ليتمكن من التفكير والإبداع، منبها إلى أن الإسلام لو كان يريد من الجموع الإسلامية أن تساق بلا فكر ولا عقل لأباح الخمر وكل انواع المسكرات.

العنوان	اسم الكاتب	رقم العدد
حرية أم فوضى	الشيخ عبدالمنعم النمر	٢
القضاء والحرية	الدكتور أحمد الحوفي	٨
الحرية	الشيخ محمد عبدالرحمن الخطيب	٢٣
الحرية المشوهة	للأستاذ عبدالمنعم النمر	٢٣
الإسلام دين الحرية والكرامة	الدكتور وهبة الزحيلي	٣٠
في سبيل الحرية كانت الهجرة	للأستاذ عبدالمنعم النمر	٣٧
الحرية بين الغرب والإسلام	للأستاذ عبدالمنعم النمر	٤٢
الحرية بين الإسلام والماركسية	للأستاذ عبدالمنعم النمر	٤٣
الحرية في الإسلام	الأستاذ عبدالمنعم محمد الشيخ	٥٠
حرية التدين في الإسلام	الأستاذ محمد عزة دروزة	٥٧
حرية الفكر في الإسلام	الأستاذ وليد عبدالحليم	٧٧
الشباب ومفهوم الحرية	الدكتور أبوالوفا الغنيمي التفتازاني	٧٧
حرية الرأي في الإسلام	الأستاذ توفيق علي وهبة	١٣٠
الإخاء والمساواة والحرية	الدكتور يوسف القرضاوي	١٣١
حرية الجبر والاختيار 1	الأستاذ أحمد حسنين القفل	١٦٠
حرية الجبر والاختيار 2	الأستاذ أحمد حسنين القفل	١٦١
المراهقة بين الحرية والكبت	الشيخ أحمد أحمد جلباية	١٦٦
الحرية الدينية والفكرية	الشيخ سليمان أحمد التهامي	١٦٧
حرية المرأة	الشيخ سليمان أحمد التهامي	١٧٢
الحرية الاقتصادية والعدالة الضريبية	الدكتور عبدالهادي النجار	١٩٥
حرية الرأي والتعبير والتجمع	الدكتور ممتاز صويصال	١٩٥
عيد الفطر عيد الشعور بالحرية	الدكتور عبدالله عبدالقادر بلفقيه	٢٢٦
الحرية الاقتصادية وتدخل الدولة	الدكتور محمد شوقي الفنجري	٢٢٧
الكرامة والحرية في الإسلام	الأستاذ محمد عبدالفتاح علم الدين	٢٢٧
حرية الكلمة من المنظور الإسلامي	الدكتور عبدالفتاح محمد محمد سلامة	٢٦٦
نحن والإسلام والحرية	الأستاذ أحمد العناني	٢٧٦
الحرية الاقتصادية وتدخل الدولة	الدكتور محمد شوقي الفنجري	٣٠٤
الله أكبر مفتاح الحرية	الدكتور صلاح الدين أرقه دان	٣١٩
الحرية	الأستاذ محمد عبدالعظيم العجمي	٣٢٧
التكاليف ترتفع في غياب الحرية	الدكتور حسان حتحوت	٣٢٩
البوسنة والهرسك أكبر سجن للحرية	الأستاذ محمود بيومي	٣٣٧
الإسلام وحرية العقيدة	الأستاذ أسماء أبوبكر محمد	٣٣٨
مفهوم الحرية في المنهج الإسلامي	الأستاذ أحمد محمد جمال	٣٣٨
الإسلام والحرية	محمد سليمان ربيع	٣٨٠
دور حرية الرأي في تحقيق الوحدة الفكرية للمسلمين	د.عبدالمجيد النجار	٣٩٠
الإسلام وحرية المرأة في الاختيار	محمود محمود النجيري	٣٩٢
حرية التعبير في منهج الإعلام الإسلامي	عبدالله بدران	٤٠٣
حرية الغزو وقيود المجتمع	شعبان محمود شعبان	٤٣١
الفهم الخاطئ للحرية يشكل محنة المجتمعات المعاصرة	طارق أحمد البكري	٤٣١
افتحوا نوافذ الحرية	محمد صلاح الدين	٤٣٦
الحرية الإعلامية وحق الاتصال وثوابت الأمة	د.محيي الدين عبدالحليم	٤٤١
هل نحن معادون للحرية؟	ممدوح الشيخ	٤٤٨
الإسلام دين الحرية	يسري عبدالغني عبدالله	٤٥٤
الشارع العربي وفضاء الحرية	د.شاكر النابلسي	٤٥٦
الإسلام وحرية الإنسان	د.زكريا عبدالرزاق	٤٥٨
أزمة الحجاب والحرية الشخصية	يحيى السيد النجار	٤٦٣
الحرية في الإسلام	محمد أحمد عويس	٤٦٨
حرية الرأي –الواقع والضوابط–	سالم البهنساوي	٤٧٠
عضل الولي وحرية المرأة في الاختيار	محمود محمود النجيري	٤٧٨
حرية التعبير بين الإباحة والتحريم	محمد عبدالمنعم عبدالخالق	٤٨٨
بعد الحرية في فكر الشيخ الغزالي	إبراهيم نويري	٥٠١
حرية إنشاء العقود في الفقه الإسلامي	عبدالفتاح إدريس	٥١٠
الحرية في عبودية الله عز وجل	زبير سلطان	٥٢٧
حرية الاشتراط في العقود	عبدالفتاح إدريس	٥٢٨
الإسلام وحرية الإبداع	محمد فتحي النادي	٥٣٠
حرية الإبداع.. كلمة حق أريد بها باطل	محمد عبدالشافي القوصي	٥٥١
الإسلام دين الحرية	أسعد النوبي	٥٥٦
الحرية والتحرر في شعر بدوي الجبل	عبدالهادي صافي	٥٦٠
الحرية وكرامة الإنسان	محمد مورو	٥٧٤
الحرية والحريات الأساسية	أحمد مبارك سالم	٥٧٩
حرية الرأي والتعبير في الإسلام	منى الموجي	٥٨٠



الحرية: مدخل إلى الخريطة المفاهيمية

د. هبة رءوف عزت
أستاذة جامعية - مصر

برز مفهوم الحرية في القرون الأخيرة ليتقدم إلى رأس قائمة المفاهيم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للحداثة ومشروعها، وهو مفهوم يخاطب الإنسان في كينونته. وللوهلة الأولى قد يبدو مفهوم العدالة أكثر ارتباطا بالموازين والعلاقات الموضوعية، في حين يوحي مفهوم الحرية -ظاهريا- بأنه مفهوم يتعلق بالإرادة، ويرتبط بالذاتية. لكن الحرية أيضا تواجه قيودا وتستلزم «تحررا» من الشروط المحيطة بالحالة الإنسانية. ويظل الوقع الأول للكلمة على الأذن موحيا بالذات والوعي والاختيار.

خريطة المفاهيم القرآنية

يبدأ العقل المسلم وعيه بالمفاهيم والمعاني من كتاب الله، فهو منطلقه المعرفي وبوصلته المفاهيمية. والبحث عن المعنى لا يستلزم تطابق اللفظ وإنما استكشاف حقل الدلالة، فإذا كان لفظ الحرية هو المعبر عن معاني: الإرادة والكرامة والاختيار، فإن البحث عن المعاني المقابلة والألفاظ المعبرة عنها يغدو نقطة البدء والانطلاق.

في كتاب الله والخبرة النبوية الحرية تقابل العبودية، ولا يستخدم اللفظ للتعبير عما نقصده اليوم بالحرية من حيث كونها إرادة الاختيار والقدرة على إنفاذه في شتى جوانب حياة الفرد أو الجماعة (حين نتحدث عن الحريات العامة مثلا)، بل نجد ألفاظا أخرى تتسق مع منظومة الرؤية الإسلامية الكلية للكون والعالم والخلق والمعاد.

وقبل أن نتعرض إلى تلك المفاهيم يستوقفنا أن الفكر الغربي في جذوره اليونانية كانت الحرية أيضا تقابل العبودية، ولم يكن للعبد مكان ولا مكانة في الترتيب الاجتماعي، ولا حق في المواطنة والمشاركة. أما في التصور الإسلامي والخبرة النبوية فقد كانت العبودية مكانة قانونية ولم تكن حائلا دون التمتع بالحقوق الأساسية ولا المكانة الاجتماعية، حيث كانت الوظيفة العقيدية للدولة وتأسيسها على المساواة الأصلية بين البشر والموالاة الإيمانية بين المسلمين الذين تجمعهم مساحات العبادة في المسجد والجهاد ميزانا يجعل للعبد والحر حقوقا تكاد تقارب التساوي، وإن اختلف الوضع القانوني، الذي يمكن الخروج منه بالمكاتبة أو العتق.

فما هي المفاهيم التي يمكن أن نؤسس عليها رؤية الإسلام للإرادة والاختيار؟

الفطرة والخيرية والحق والحدود

أول هذه المفاهيم هو مفهوم الفطرة، فإذا كانت الحرية بمعناها المعاصر تكفل للإنسان «التحقق الذاتي»، وتضمن له التجانس مع نفسه دون ضغوط أو إكراه، فإن الإسلام يقدم له تصورا عن «نفسه» تلك: نشأتها وسياقاتها وطبيعتها. لذلك، فجدل الحرية لا ينفك عن جدل الطبيعة الإنسانية. والمنظومات الفكرية المختلفة تتفاوت في تعريفها للجبر والاختيار باختلاف نسبة الإنسان فيها للطبيعة وللخلق الأول. لا غرابة إذن أن تحتاج الحداثة إلى فكر داروين كي يحررها من قصة عرض الأمانة على السموات والأرض وتحمل الإنسان لها بالاستخلاف، وخلق آدم وحوار الحكمة من خلقه الذي دار بين رب العزة والملائكة، والصراع بين آدم وإبليس، وكيف علم الله آدم الأسماء ثم ابتلاه ثم تاب عليه وهداه، ومسيرة بني آدم على الأرض. احتاج الأمر إلى أسطورة التطور وإلى فكرة العقد الاجتماعي كي يتم تأسيس الإرادة الإنسانية على مرجعيتها الذاتية مقابل إلزام الله للمؤمنين بكلمة التقوى.. وكانوا أحق بها وأهلها. ولذا، تصبح الفطرة هي منطلق الحرية، حيث إن غايتها هي تحقق الإنسان، وهذا لا يكون إلا بالعودة إلى فطرته وأداء رسالته وتحقق بشريته في علاقتها بالربانية: ﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّنِيِّـنَ﴾ (آل عمران:٧٩).

لا نتعجب إذن من أن الخروج بالحرية من هذه الفطرية يعني بالضرورة نسبية الأخلاق، إذ إن مجافاة الحقيقة وهجر الشريعة لا يتركان مجالا إلا للهوى، وبالتالي كان نمو منظومة نسبية الأخلاق مسألة تابعة ومنطقية لمن أنكر الألوهية والنبوة وترك العقل وحده يقرر الخيارات ويضع الحدود والمسارات.

فما هي ركيزة الحرية في التصور الإسلامي وبأي لغة يمكن فهمها؟

يبدو مفهوما الحق والحدود ركيزتين لفهم الإرادة الإنسانية والاختيار، فما من حرية إلا ولها سياج من حق: لك أو عليك، لله أو للعباد. والحدود هي نقاط الوقوف والانتهاء، فلم يستخدم القرآن لفظ الحدود لوصف العقوبات كما هو شائع، بل العقوبة نتيجة التعدي على حد وتجاوزه.

ونجد أيضا مفهوم الحكم، فالحرية في الفلسفات الوضعية هي حكم الفرد على حاجاته وتحققها، والذي هو منفك عن حكم الله. والحكم نتيجة لميزان ومنطق عقلي يهديه الوحي أو يستبد به الهوى. ولم يكن -مرة أخرى- مقصود الحكم في اللفظ القرآني إلا ذلك، رغم أن الشائع أن الحكم هو السلطة، وما هي إلا أصل عن فرع، والقرآن لا يستخدم لفظ حكم لوصف السلطة والسلطان، بل يستخدم لفظ الملك. الحكم إذن هو منطق النظر إلى الأمور وقياس أصلها وعواقبها، والحرية في التصور الإسلامي جذورها أصلها ثابت في حكم الله وفرعها في سماء العقل واجتهاده في النظر والفهم والتدبر والفقه.

مفهوم آخر يقترن بتصورات الاختيار وسعته أو ضيقه هو مفهوم الخيرية، فالإرادة والفعل اللذان يتحرك في سياقهما الإنسان غايتهما الخيرية، ومنطلقهما مكارم الشيم، فالرسالة المحمدية غايتها إتمام مكارم الأخلاق،

ودستور الأخلاق في القرآن هو ترشيد للسلوك الإنساني كي لا «يطغى»، وتأديب وتهذيب للإرادة كي لا تستجيب إلى نوازع البغي والعدوان. فإرادة الإنسان وأحكام الله أطر ضابطة، وكرامته وتحققها نابعان من تلك الموارد الصافية. ولا يكتمل العدل إلا بأن يكون هناك يوم آخر كي يكون البقاء للأصلح.. لا للأقوى، دنيا ثم آخرة.

الإيمان والتقوى

أين يكمن الاختيار إذن؟ سؤال مهم. يكمن في المشيئة الأصلية لاختيار الدين: إيمان أم كفر؟ من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. ثم: لكم دينكم ولي دين.

لذلك، لا يمكن تحليل المفاهيم إلا في سياق دينها، إيمانا كان هذا الدين ومنظومة وحي ونبوة أم منظومة كفرية لا تؤمن بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله.. ولا اليوم الآخر.

تبدو الحرية في الرؤى الوضعية هي الحركة بغير قيود والانطلاق بغير حدود، ثم الحديث عن موازنة ذلك مع حريات الآخرين. تأتي نظريات النسبية وتروح نظريات النفعية والبراغماتية، ويظل ضابط الإرادة في الرؤية الإسلامية هو التقوى، تلك التقوى التي قد تجعل الإنسان يترك حتى حقه أو يتفضل ببعضه تأليفا للقلوب أو تلطفا بالأفئدة.

الحرية في الفكر الوضعي، قديمه وحديثه، تبدأ من الفردية: النظر إلى الإنسان في تفرده وقيامه بنفسه ولنفسه. وهذا أمر معتبر كفلته منظومة الحقوق في الإسلام، من حيث خصوصية القرار والمساحات والمسؤولية والمحاسبة، بيد أن التفكير في الفردي موصول طوال الوقت بالتفكير في صيغة الجمع، ومنطق الجماعة، في توازن دقيق لا يترك أحدهما يطغى على الآخر.

ميزان هذا التوازن هو التقوى، مهما بلغت منظومة الحقوق والقضاء من الإحكام، فالقيم على حكم الله هو تقوى المؤمن لا أحكام المؤسسات والقواعد. من هنا تبرز حفاوة الإسلام -كما ذكرنا- بالبنيان الأخلاقي للمسلم، تماسكا وتزكية وارتقاء.

الحرية والحداثة: مراجعات

لو تأملنا في مكونات منظومة الحداثة، فكريا وعمليا، نجد أن مقوماتها الأساسية هي: العلمانية التي تفصل الدولة عن الدين والأخلاق، العقلانية المنفكة عن الغيب والوحي، الصناعية وما بعد الصناعية في الاقتصاد، المدينية في العمران البشري، عولمة السوق، سيادة العلوم الطبيعية على الفلسفة والعلوم الإنسانية.

لا يمكننا فهم التحولات الراهنة في مفهوم الحرية إلا لو أدركنا منظومة معقدة ومتشابكة من العناصر.

فهل تحرر الإنسان بتأسيس الدولة القطرية الحديثة التي وصفها برتراند راسل بأنها استبدلت سلطة الدولة بسلطان الله؟ هل تحرر بالقوانين التي اختارها الإنسان لتحكمه وأبى أن ينزل على «حكم» الله؟ هل حققت الحداثة بهذين الأمرين ما وعدت به من أمن وسلام عالمي كي تنتهي الحروب الدينية ويبدأ عهد الاستقرار (الذي كان ذروة عصر الاحتلال والاستيطان للشعوب الأخرى)؟

هل حررت المنظومة الرأسمالية الإنسان وحققت له احتياجاته كي «يختار» ما يشاء أم فرضت عليه ما هو متاح في السوق واستبدت بحريته حين نشرت ثقافة الاستهلاك وقرنت المكانة بالمادة والملكية؟

هل أتاحت مساحات المدن الحديثة والكوزمزبوليتانية في مرحلة العولمة للإنسان الانعتاق من المجتمع الزراعي أو البدوي «التقليدي».. «الأبوي».. «المتخلف»؟

وأخيرا وليس آخرا، هل أعطى العلم بمنتجاته المختلفة للإنسان الحرية أم صاغ صورا جديدة من العبودية؟ وهل أطلقت الآلة للإنسان قدراته الكامنة ومهاراته الاجتماعية أم قيدتها إلى حد الضمور؟

وماذا فعلت الآلة والتكنولوجيا في الفطرة؟ والعقلانية في الروح؟ والفردية في الحس الجماعي؟

ليس هذا استخفافا بدورات العمران والحضارة البشرية، ولا بالمنجز الذي حققه العقل الإنساني في حركته في التاريخ، وليس ركونا لوضع التخلف، ولا ثقافة تأبى التجدد وتستعصي على النهضة، لكنها أسئلة تضع الحرية في سياق أكثر تعقيدا، بل وتضع الحريات العامة نفسها في إطار الهيمنة التي تمارسها الدولة الحديثة عبر تشريعاتها وأجهزتها وقوانينها وأسواقها وتوظيفها للتكنولوجيا في الرقابة والسيطرة على الفرد وكل ما يتعلق به من معلومات وحركة وخيارات.

لسنا في حاجة إلى بيان كيف يؤثر الفقر على الحرية، ففي هذا مجلدات مكتوبة ورؤى معلومة، ولا كيف تنزع تكنولوجيا الاتصال خصوصية الإنسان وتسمح بانتهاك أدق أسراره، ولا كيف تُغير تلك العوالم الإلكترونية بعضا من فطرته وعلاقته هو بذاته.

وإذا كنا قد ذكرنا أن الحرية لا تنفك عن جدل الطبيعة الإنسانية وتعريفها في علاقتها بالكون والغيب، فلا نندهش من حركات العودة إلى الطبيعة والخروج من أسر السوق والتكنولوجيا، وحركات الدفاع عن البيئة في مواجهة إفساد الإنسان لها بما يصادر خيارات حقيقية تتعلق بالحرية، ليس فقط لهذا الجيل، بل لأجيال قادمة.

اليوم في الغرب جدل صاعد حول الطبيعة الإنسانية ذاتها، يلزمنا أن نتابعه لأنه سيؤثر في إعادة تعريفنا لمفاهيم الحرية والعدالة.

وعلينا أن نتذكر، ونحن نعيد قراءة المفاهيم، أن لها خرائط، وأنها مصدر لمعنى الوجود وللسلوك، وأن تعقد الواقع وارتباكه نتاجان لمفاهيم، وأن عالم تجديد المفاهيم وإصلاحها هو مفتاح النهضة.

منظومة مخارج الحروف للديريني

تحقيق : صالح محمد عبدالفتاح

هذه أرجوزة للشيخ عبدالعزيز بن أحمد بن سعيد الدميري، المعروف بالديريني (ت٦٩٤هـ)، نظم فيها مخارج الحروف. وقد اعتمدت في تحقيقها على نسخة نفيسة محفوظة بمكتبة مصطفى فاضل الملحقة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٤٥/ مجاميع م)، وهي ضمن مجموع نفيس كتب كله على يد العلامة أحمد بن محمد الغنيمي الأنصاري الخزرجي (ت١٠٤٤هـ).

قال الشيخ الإمام العالم العلامة عز الدين عبدالعزيز الديريني رحمه الله :

تسع وعشرون حروف المعجم ... فسبعة منها لحلقٍ فاعلم

الهاء والهمزة قبلُ والألف ... والحاء والعين فميِّز ما أصف

والخاء والغين كما بينتُ لك ... والقاف والكاف فمن أقصى الحنَك

والجيم والشين وحرف الياء ... من وسط اللسان باستواء

ومخرج الدال وحرف الطاء ... عُلْيا الثَّنايا مَعَ حرف التاء

والظاء ثم الثاء بعدَ الذال ... من طرَفَي هذين باعتلال

والزاي والصاد معًا والسين ... من الثنايا طرفًا يكونوا

واللام ثم الراء ثم النون ... من طرف اللسان يستبينوا

وقيل إن اللام لا سواها ... من حافَّة اللسان من أدناها

ومخرج التنوين وَهْو غنّه ... من داخل الخيشوم فاعلمنَّه

والضاد تنفرد عن سواها ... بحافَّة اللسان من أقصاها

إلى الذي يلي من الأضراس ... وقَلَّ من يُحْكِمُها في الناس

وأحرف الشفة منها الفاء ... وهي من باطنها والباء

والميم والواو ثلاث هنَّه ... من بين ضم الشفتين هنَّه[1]

والميم فيها غنة لا الباء ... والواو قد يصحبها هواء

فهذه مخارج الحروف ... من قول بَصْرِيٍّ وقول كُوفِي

١- أي قليلا

أثر مباحث الحديث في العلوم الأخرى

رياض العيسى
باحث دراسات إسلامية

ما من علم من العلوم الإسلامية إلا وله من أثر علم الحديث حظ معلوم (١)، ذلك لأنه مما هو معلوم عند العقلاء أن «المنقولات فيها كثير من الصدق، وكثير من الكذب. والمرجع في التمييز بين هذا وهذا إلى أهل علم الحديث، كما نرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة وما ليس من اللغة، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك. فلكل علم رجال يعرفون به، والعلماء بالحديث أجل هؤلاء قدرا، وأعظمهم صدقا، وأعلاهم منزلة، وأكثرهم دينا، وهم من أعظم الناس صدقا وأمانة وعلما وخبرة فيما يذكرونه عن الجرح والتعديل» (٢).

يقول الشيخ أحمد شاكر في مقدمة كتابه الباعث الحثيث: «وقد حرروا، أي علماء الحديث، القواعد التي وضعوها لقبول الحديث، وهي قواعد هذا الفن، وحققوها بأقصى ما في الوسع الإنساني احتياطا لدينهم، فكانت قواعدهم التي ساروا عليها أصح القواعد للإثبات التاريخي وأعلاها وأدقها...، وقلدهم فيها العلماء في أكثر الفنون النقلية، فقلدهم علماء اللغة، وعلماء الأدب، وعلماء التاريخ، وغيرهم، فاجتهدوا في رواية كل نقل في علومهم بإسناده، وطبقوا قواعد هذا العلم عند إرادة التوثق من صحة النقل في أي شيء يرجع فيه إلى النقل، فهذا العلم في الحقيقة أساس لكل العلوم النقلية» (٣).

ولأهمية هذا العلم (مصطلح الحديث) أو (علوم الحديث) كان له أثر كبير على العلوم الأخرى كالتفسير والفقه واللغة والتاريخ وغيرها من العلوم.

١ - أثره في علم التفسير: إن كتب التفسير تزخر بنقل أحاديث النبي ﷺ وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين بأسانيدها في تفسير الآيات واستنباط الأحكام، كما فعل الإمام الطبري في تفسيره جامع البيان، والإمام البغوي في تفسيره معالم التنزيل، والإمام ابن كثير في تفسير القرآن العظيم.

ومما يمتاز به تفسير ابن كثير أنه قام بالتثبت فيما ينقله وعزوه من أحاديث النبي ﷺ وأقوال الصحابة وغيرهم، مبينا الصحيح منها من السقيم، متبعا المنهج العلمي لعلوم الحديث.

٢ - أثره في علوم القرآن: فكما أن علم الحديث وضعت له أسس ومناهج، قام بعض العلماء بوضع منهج علمي لبحث مادة القرآن الكريم، ومن بين هؤلاء بدر الدين الزركشي الذي قال في مقدمة كتابه «البرهان في علوم القرآن»: «ولما كانت علوم القرآن لا تنحصر، ومعانيه لا تستقصى، وجبت العناية بالقدر الممكن. ومما فات المتقدمين وضع كتاب يشتمل على أنواع علومه، كما وضع الناس ذلك بالنسبة إلى علم الحديث» (٤).

ويقول الإمام السيوطي في مقدمة كتابه «الإتقان في علوم القرآن»، مبينا الباعث له على التأليف في علوم القرآن: «ولقد كنت في زمان الطلب أتعجب من المتقدمين، إذ لم يدونوا كتابا في أنواع علوم القرآن كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث» (٥).

٣ - أثره في الفقه الإسلامي: إن احتياج الفقيه إلى الاستدلال بما ثبت من الحديث دون ما لم يثبت، لا يتبين له إلا باستخدام قواعد علم الحديث لاستخراج الأحكام الفقهية، وهو ما عكف عليه الفقهاء الأربعة، وما درج عليه من جاء بعدهم.

وما كتاب «الموطأ» للإمام مالك، وكتاب «الأم» للإمام الشافعي، وكتاب «المسند» للإمام أحمد بن حنبل، إلا دليل على ذلك، على أن أصحاب المذاهب الأربعة قد أجمعوا كلهم على أن الحديث إذا صح يقدم على القياس والنظر، فما فيهم إمام إلا قال: إذا صح الحديث فهو مذهبي. أو ما يشبه العبارة (٦).



٤ - أثره في اللغة والأدب: ولم يقف أثر علوم الحديث على العلوم الشرعية فقط، بل تعداها إلى أدوات العلوم الشرعية، ومنها علوم اللغة والأدب العربي. وقد أشار بعض علماء اللغة -قديما وحديثا- في تصانيفهم إلى أنهم اتبعوا ترتيبها كترتيب المحدثين في كتبهم، ومن هؤلاء المتقدمين الإمام السيوطي، الذي قال في مقدمة كتابه المزهر في علوم اللغة وأنواعها: «هذا علم شريف، ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه، وذلك في علوم اللغة وأنواعها وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع، وأتيت فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع» (٧).

وهذا ما جعل الأستاذ ناصر الدين الأسد يصرح قائلا: «ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نقول: إن المتأخرين الذين كتبوا في علوم اللغة والأدب قد احتذوا مناهج المحدثين والفقهاء، وقلدوا علوم الحديث والفقه، وذلك بعد أن نضجت علوم الحديث والفقه وأرسيت أصولهما وقواعدهما، وعبدت سبلهما وطرائقهما، وذهب فيهما في التحقيق والتدقيق -في السند والمتن- مذاهب بعيدة» (٨).

ويقول الدكتور صبحي الصالح مبينا أثر الحديث في النحو: «إن التأثير العفوي الطبيعي الذي خلفه الحديث في أصول النحو، يوم فكر القوم في وضع أوائلها، إنما رافق نشأة علم الحديث قبل أن ينضج، فليس لنا أن نبالغ فيه، ولا أن نغلو في أبعاده ومراميه.

ولكن مهما نغل في وصف ما كان للحديث من أثر في النحو وأصوله، وفي مختلف العلوم ومناهجها، نظل دون إيفاء علم الحديث حقه.

فما من تيار فكري إسلامي إلا وله من عدوى الحديث حظ معلوم، إن لم يكن فيما حمله تراث النبوة من وصايا وحكم وتعاليم ففي طرق التحمل والأداة، وشروط الرواية والرواة، ومقاييس النقد والتجريح، وأساليب التصنيف والتخريج، ومعايير الموازنة والترجيح.. فهذه كلها دخلت شواهد النحو، وسادت أبحاث اللغة، وارتفعت إلى أخبار الأدب، وتركت في الجميع أصداءها الشداد عن طريق الرواية والإسناد» (٩).

٥ - أثره في التاريخ والسير: ولمصطلح الحديث على التاريخ منة أيضا، ولعل ذلك يبدو أكثر وضوحا في كتب الطبقات والتراجم وتواريخ المدن وغيرها من كتب التاريخ. والسبب راجع -على ما يبدو- إلى أن معظم المؤرخين الأوائل محدثون، ولما كانت العناية بعلم الحديث هي التي أدت إلى الدراسات التاريخية لذلك انتقل الإسناد إلى أهل التاريخ بشكل واضح (١٠).

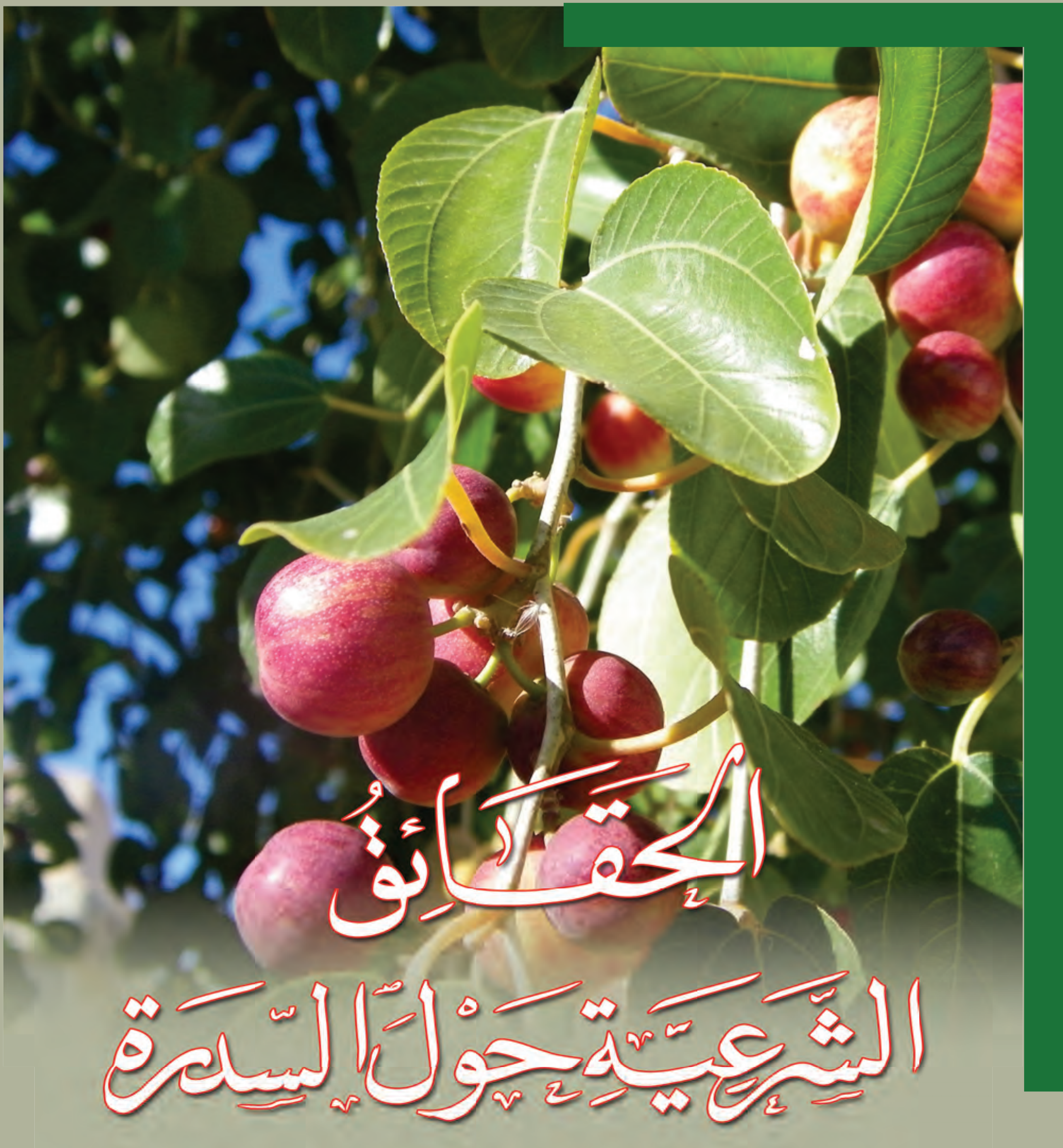
ومن بين هؤلاء المؤرخين، الطبري في تاريخ الرسل والملوك، وابن الجوزي في كتابه المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، وابن كثير في كتابه البداية والنهاية، والذهبي في تاريخ دول الإسلام، وغيرهم.

وقد كان لعلم الحديث أيضا وطريقته أثر عظيم في تطور كتابة التاريخ، فهذا الإمام السيوطي يؤكد أن كتابة التاريخ يراد بها: «معرفة الآجال وحلولها، وانقضاء العدد وأوقات التعاليق، ووفيات الشيوخ ومواليدهم، والرواة عنهم، فتعرف بذلك كذب الكاذبين وصدق الصادقين» (١١).

من هذا يتبين للقارئ أن «تأثير الحديث النبوي على ثقافتنا العربية يفوق كل تصور. فلقد صبغت طريقته كل فنون ثقافتنا ومعارفنا. إنك تجد طريقة السند عمت كل أنواع الكتب في مكتبتنا، من أدبية وتاريخية وغيرهما» (١٢). فعلم الحديث هو بحق أعظم ما أنتج الفكر الإسلامي في أصالته وتشعب علومه وفنونه.

الهوامش

١ - قاله الدكتور صبحي الصالح -رحمه الله تعالى- في كتابه الماتع: علوم الحديث ومصطلحه (ص: ٣٢٢).
٢ - منهاج السنة لابن تيمية (٧/ ٢١-٢٢).
٣ - الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (ص:١٣).
٤ - البرهان في علوم القرآن (١/ ٩).
٥ - الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٩).
٦ - ينظر علوم الحديث ومصطلحه (ص:٣٢١-٣٢٢).
٧ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها (١/ ٧).
٨ - مصادر الشعر الجاهلي (ص:٢٥٧).
٩ - علوم الحديث ومصطلحه (ص:٣٢١-٣٢٢).
١٠ - ينظر مظاهر تأثير علم الحديث في علم التأريخ عند المسلمين للدكتور بشار عواد معروف (ص:٢٥).
١١ - الشماريخ في علم التاريخ (ص:٢٦).
١٢ - الحديث النبوي للدكتور محمد الصباغ (ص:١٦).



الحقائق الشرعية حول السدرة

د. رضا إسماعيل رضوان
أستاذ الشريعة والقانون

السدرة شجرة شوكية، أغصانها ملس بيض اللون تحمل أوراقا متبادلة، وأزهارها صغيرة متجمعة إبطية، وثمرتها حسلة حلوة تؤكل، وهي الفاكهة المعروفة بـ«النبق»، ويطلق عليها في الكويت «الكنار»، ولها أسماء أخرى، منها «العبري». وينتشر شجر السدر في المناطق الجبلية وعلى ضفاف الأنهار بشكل واسع في منطقة حوض البحر المتوسط، وموطنها هو جزيرة العرب وبلاد الشام، وعموما تنتشر زراعة السدر في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية. وقد عرف الإنسان هذه الشجرة منذ آلاف السنين. ومعروف عن الشجرة أنها ذات جذور متعمقة، وتتحمل الظروف البيئية القاسية، فتجود زراعتها في الأراضي الرملية أو الصفراء، كونها تطيق الجفاف، ولا تؤثر فيها الرياح أو حتى ارتفاع نسبة أملاح التربة. إنها شجرة قادرة على الصمود في مواجهة قوى الطبيعة. ومن المحقق أن أشجار السدر تنمو طبيعيا في شبه الجزيرة العربية.

القيمة الغذائية والطبية

تؤكل ثمار السدر لأنها حلوة المذاق، مرتفعة القيمة الغذائية، وتعتبر من أنواع الفاكهة المتميزة. كما أن لها استخدامات في الطب الشعبي، فهي مفيدة في حالات أمراض الصدر والتنفس، وهي مسهلة ومنقية للدم. وقد أشار الأطباء إلى فائدة ثمار النبق للمرأة الحامل لما تحتويه من عناصر غذائية ضرورية من سكريات وغيرها. وقد أكد علماء التغذية أن مسحوق ثمار النبق يماثل الحبوب في القيمة الغذائية، فأطلقوا عليها اسم الحبوب غير الحقيقية. وقديما كان الناس يجففون ثمار السدر ويطحنونها في مطاحن خاصة بها لفصل الطبقة الخارجية المأكولة الحلوة، ومن ثم استخدام دقيقها في صنع الخبز وأنواع من الحلوى. أما بالنسبة إلى أوراق السدر فإنها تستخدم لعلاج الجرب والبثور. ومنقوع الأوراق مفيد في علاج آلام المفاصل والتهاب الفم واللثة. تجفف الأوراق ويصنع منها مسحوق لغسل شعر الرأس وتقويته وإزالة القشرة منه. كما أن منقوع الأوراق يغسل به الموتى. أما أزهار شجر السدر فإن نحل العسل يرعى عليها، ويتغذى على رحيقها، وينتج منها عسلا جيدا ذا قيمة غذائية عالية (يسمى «عسل السدر» وهو من أغلى أنواع العسل البري المطلوبة). كما يستخدم مغلي قلف الأشجار كمسكن لآلام الأسنان وملطف للحرارة ومقو عام. وتكثر زراعة أشجار السدر للزينة والظل في الحدائق والشوارع. كما تزرع كمصدات للرياح وحماية للتربة من الانجراف، وخشبها جيد قوي متعدد الاستعمالات(١).

خرافات حول السدرة

سيقت خرافات عدة حول السدرة منذ القدم، وما زال صدى أفكار الأساطير يتردد في أذهان شعوب اليوم. قال كهنة الصين إن النبقة هي «ثمرة الخلود»، اكتشف شجرتها (السدرة) مخلوق كريم على هيئة ملك، قدمها إلى الإنسان لمنفعته. وتدعى النبقة -حاليا- التمر الصيني. ويقولون إن شجرتها هي شجرة الحياة، أو شجرة النسيان، أو شجرة الحكمة وغير ذلك من أسماء أخرى تكفلت بذكرها كتب البوذية.

وفي الهندوسية، أن الهند هي منشأ السدرة الأول منذ ٩٠٠ سنة ق.م. ويقدم النبق قربانا للآلهة، وهي متعددة الأسماء والوظائف بحسب كل منطقة.

وعند فراعين مصر، صور إله الكون وهو جالس متربع على سدرة تنتصب بشموخ من خلال مياه طينية.

وفي الأساطير الإغريقية، روايات عن أكلة النبق، وأن أرض هؤلاء بشمال أفريقيا. وقيل إن جزيرة جربة في تونس كانت تغطيها أشجار السدر ونبقها مريح مهدئ للأعصاب وناسها ينامون بكل هدوء وسلام وعمق.

وذكرت السدرة باسم «عتاد» في التوراة في إحدى الحكايات الرمزية لقضاء بني إسرائيل. كما وردت السدرة في الإنجيل سبع مرات، ومن أسمائها «شوك المسيح»، ويعتقد أن من أشواكها صنع إكليل الشوك الذي وضع على رأس المسيح قبل صلبه، وهذا ما نص عليه إنجيل متى بأن العسكر «ضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه، وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين: السلام يا ملك اليهود. وبصقوا عليه. وأخذوا قصبة وضربوه على رأسه». ويدحض مسيحيون أقباط هذا الاعتقاد، ويقولون إنه لا يمكن التحقق من نوع الشوك الذي استعمله الجنود، ويرجح أنه كان «الفندول» أو «البلان»، حيث إن «السدر والسنط» -على حد قولهم- لا ينبتان في القدس، لكن تنبت أنواع كثيرة من الأشجار الشوكية كالخصوان والدردار والشنداب والقريص والعليق والجنبوط وغيرها.

والسدرة في معتقدات بعض البلدان، ومنها العربية والإسلامية، نسجت حولها الروايات والقصص، منها ما يتصل بالسحر، ومنها ما يتعلق بالغيب، ومنها ما يرتبط بالتفاؤل والتشاؤم. وتكفي الإشارة إلى ما عليه الاعتقاد لدى بدو العرب، امتدادا لفكر الجاهلية الأولى. يقول كثيرون منهم اليوم إن السدرة هي مكان ولادة الجن، ومحط استراحتهم ليلا، وإنها في النهار ظل للإنس، وثمرتها (النبق) غذاء لهم، وأوراقها طيب يغسل به موتاهم ودواء يستحم به مرضاهم إذا سحروا أو أصابهم مس من الجن، وأغصانها مكان حسن لتعليق السحر أو الطب.. وإذا نبتت السدرة في مكان من تلقاء نفسها من دون تدخل من الإنس فهي لا تقلع إلا بعد الرجوع إلى الجن وأخذ موافقتهم على القلع، ونادرا ما يوافقون، ولهذا الإجراء طرقه وطقوسه المتبعة.. يقول بعضهم: إن نبت السدرة في مكان يعني فقد أحد الأولاد أو موت صاحب المكان، ولذلك فهي نذير خوف ورهبة وتشاؤم. كما ترتبط السدرة وأوراقها عندهم بالأدعية ذات الصلة بالمرض أو الموت، وحين الزرع والقلع(٢).

السدرة في القرآن

جاء ذكرها في عدة آيات مباركة، وتنوعت طبيعتها ووظيفتها بحسب مقاصد الشارع:

أولا - ذكرت سورة سبأ السدرة (بصيغة الجمع: سدر)،

وطبيعتها، ووظيفتها على شاكلة ما هو معروف عندنا نحن قاطني الأرض.

عاقب القادر عز وجل الكافرين، بمنع خيرات السدرة، فلا يجدون سوى الشجر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، جزاء تكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، وذلك قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)﴾ (سبأ: ١٥ - ١٧).

في التفسير(٣) كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان -عليه الصلاة والسلام- من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع رزقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل يأمرونهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال سيل يهدم سد مأرب المنيع، ليصبح أثرا بعد عين، ولتنحسر المياه عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست، وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، مثل الأراك والطرفاء، واختفت الثمار الناضجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية.. وترى السدر ذا أشواك كثيرة وثمر قليل. وهكذا أوقع الحق عز وجل عقوبة اقتصادية هائلة بالكافرين عبدة الشمس من دونه. فعن ابن خيره وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال: «جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة». قيل: «وما التعسر في اللذة؟». قال: «لا يصادف لذة حلالا إلا جاءه من ينغصه إياها».

ثانيا - نص الله عز وجل على السدرة في سورة الواقعة (بصيغة الجمع: سدر)، وهي أطيب من قرينتها في الأرض، وتنتظر أن يأوي إليها وينتفع بها الأبرار من عباد الله، وذلك في قوله ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥)﴾ (الواقعة: ٢٧ - ٣٥).

في التفسير(٤)، أصحاب اليمين هم الأبرار، قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم، في تفسير «في سدر مخضود»: هو الذي لا شوك فيه. قال ابن كثير إن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر وفي الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه وفيه الثمر الكثير. وعن سليم بن عامر قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال أقبل أعرابي يوما فقال يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها. فقال رسول الله ﷺ: «وما هي؟». قال السدر، فإن له شوكا مؤذيا. فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالى يقول «في سدر مخضود»، خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها لتنبت ثمرا ففتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من طعام ما فيها لون يشبه الآخر».

ثالثا - ذكر الحق جل وعلا سدرة، سماها بعزته «سدرة المنتهى»، في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ (النجم: ١ - ١٨).

الهوامش

(١) www.jazannews.org
www.girls-ly.com

(٢) بزة الباطني، السدرة من تكون؟، مجلة الثقافة الشعبية، العدد ٢٤، السنة السابعة ٢٠١٤.

(٣) في تفسير ابن كثير (ج ٣: ص ٥٠٩: ٥١١).

(٤) في تفسير ابن كثير (ج ٤: ص ٢٨٩ و٢٩٠).

دراسة الجدوى

محمود أمين زويل
باحث اقتصادي



مفهوم دراسة الجدوى هو دراسة نظرية وعملية تبحث في مدى الفوائد التي يمكن تحقيقها من مشروع ما؛ قبل الإقدام على إقامته.

وبعبارة أخرى هي إجابات للتساؤلات التالية التي يوجهها القائم بالمشروع لنفسه، وبشرط أن تكون الإجابات محددة وكافية ومقنعة وتخدم المشروع نفسه.

دراسة الجدوى إجابة عن التساؤلات التالية:

ما هو أفضل مشروع:

ما هو أفضل مشروع أستطيع أن أقدم عليه بالسوق ويكون السوق في حاجة إليه أو البلد أو المنطقة التي سأقيم فيها المشروع، ويكون هناك طلب على المنتج وحاجة الناس إليه، وألا يكون متكررا ويوجد منه الكثير في المكان نفسه؟.

لماذا أقيم هذا المشروع:

وما هو الهدف من قيامه، وهل ينحصر الهدف في تحقيق مكاسب مادية فقط، أم أنه يعتبر خدمة للمجتمع ككل، أو المجتمع المحيط بمكان المشروع، أو أنه يقتصر على خدمة فئة معينة من الناس؟

أين أقيم المشروع:

ما هو أنسب موقع لإقامته، هل في الريف، أم في الحضر، هل في منطقة كثيفة السكان، هل يتدخل ثمن الأرض المقام عليها المشروع في المكان، أي هل يفضل قيام المشروع في مكان ما، ثمن

الأرض فيه منخفض، ولكنه بعيد نسبيا ويتغلب على مشاكل النقل بتوفير وسيلة لنقل المنتج، أم يقام في مكان ثمن الأرض فيه مرتفع وقريب من الأسواق، وبذلك نوفر من تكاليف النقل، وهل العمالة متوفرة في المكان المقام عليه المشروع، وفي حالة إقامته بعيدا عن المدينة.. هل أستطيع تحمل تكاليف انتقال العاملين للمشروع ومنه لمحال إقامتهم؟

متى أقيم المشروع، ومتى أبدأ تسويق المنتج:

متى أقيم المشروع، وما هو أفضل وقت لطرح إنتاجه في السوق، هل يكون الإنتاج موسميا أم على مدار العام؟ ويتوقف ذلك طبعا على نوع السلعة المنتجة أو طبيعة الخدمة المقدمة.

لمن توجه منتجات المشروع:

لمن أقوم بإقامة هذا المشروع، للرجال أم للنساء أم لكليهما، أو ربما لجميع الأعمار والأجناس، هل المنتج موجه لفئة اقتصادية معينة من الناس، أم لجميع الفئات؟

كيف أقيم المشروع هندسيا وفنيا:

كيف تتم إقامة المشروع من الناحية المعمارية، ومن ناحية ما يلزمه من تجهيزات ومعدات، وهل يلزمه تيار كهربائي ذو فولت عال، أم يكفي التيار العادي المستخدم في المنازل؟

من يستطيع تنفيذ المشروع:

من يستطيع إقامة المشروع وتنفيذه، مهندس أم مقاول، أم ناس ذوو خبرة، وما هي مستويات العاملين المطلوبين ونوعيتهم، وما مدى توافر هذه النوعية من العمالة؟

كم يتكلف المشروع تقريبا:

كم تكون التكلفة، وهل الإمكانات تسمح، أم هناك حاجة للاقتراض، وما هو مصدر الاقتراض، بنك عقاري، أم بنك تنمية صناعي، أم بنك تنمية زراعي، أم الصندوق الاجتماعي؟

الأسلوب العلمي المستخدم في **دراسة الجدوى:**

يستخدم في دراسة الجدوى بصفة عامة الأسلوب العلمي لحل المشكلات، أو الأسلوب المنطقي، والذي يتمثل في الخطوات التالية، ووفق تتابعها:

أ- تحديد موضوع دراسة الجدوى وصياغتها.

ب- مرحلة جمع المعلومات والبيانات بعد تحليل الموضوع إلى عناصر مثل:

- الجانب المعماري.
- جانب التجهيزات والمعدات.
- جانب هيكل العمالة.
- جانب الإدارة.
- جانب الخامات اللازمة ومصادرها.
- جانب دراسة سلوك المستهلك الموجه إليه المنتج.
- جانب التسويق والدعاية والترويج.
- جانب التمويل ومصادره.

فيتم جمع المعلومات من مختلف المصادر عن جميع هذه العناصر.

ج- تحديد بدائل الحلول.

د- تقييم البدائل واختيار البديل الأمثل.

هـ- مرحلة التجريب باختبار البديل الذي تم تحديده.

دراسة الجدوى، هي تقويم لمدى صلاحية المشروع:

يمكن القول بأن دراسات الجدوى عبارة عن تقويم يبين مدى صلاحية المشروع للتنفيذ العملي أو لعدم التنفيذ، لأنه لا يكفي أن يكون المشروع ناجحا فقط، ولكن لابد أن يحقق عائدا وأرباحا معقولة من المبالغ المستثمرة في إقامته، وأن يتم تسويق وتصريف منتجاته أولا بأول، حيث لوحظ من خلال سنوات الانفتاح الاقتصادي أنه قد تم إقامة الكثير من المشاريع دون دراسة جدوى أو تخطيط، وظهر في المجتمع فئة من غير المختصين بدراسات الجدوى؛ كان همها وعملها مع هيئات الاستثمار وأجهزة الدولة هو عملية تخليص الأوراق والاعتمادات والرخص فقط، دون أي دراية بالدراسات الحقيقية، وكانت النتيجة هي فشل المشروعات التي تم إقامتها على عجل مع تحقيقها خسائر فادحة.

الدراسة الإدارية والهيكلية:

الواقع أن هذه الدراسة تلزم فقط المشروعات الكبيرة والمتوسطة، أما المشروعات الصغيرة التي تستلزم عاملين أو ثلاثة، فلا داعي لها. أما المشروعات الكبيرة والمتوسطة فيلزم أن يكون المدير المسؤول من تخصص نوع النشاط الذي يدرس إقامته، بمعنى أن يكون مهندسا زراعيا في حالة المشروعات الزراعية (تربية دواجن- تسمين ماشية- ألبان- صناعات غذائية - زهور وزينة- عسل النحل...الخ) وهكذا بالنسبة للمشاريع الهندسية والتجارية...الخ.

ويكون تخصص العمالة الفنية تخصص زراعة أيضا في المشاريع الزراعية (دبلوم زراعة) والمشروع الصناعي تكون العمالة الفنية فيه وفق المهنة (تخصص كهرباء، ميكانيكا، حاسب آلي، أعمال بناء، زخرفة، إلكترونيات، نجارة، أثاث، خرسانة، آلات دقيقة، ملابس جاهزة، غزل

ونسيج...الخ)، من حملة دبلوم المدارس الثانوية الصناعية.
ويعاون المدير جهاز متخصص من الكفاءات الفنية والإدارية والمالية والقانونية. ولا يهمل عمال الخدمات الفنية والإدارية، ويفضل أن يتم تدريب الجهاز الفني والإداري قبل البدء في العمل بثلاثة أشهر، على الأقل.
ويجب أن يلم المدير بمهارات الإدارة، من تخطيط وتنظيم ومهارات القيادة والتوجيه والرقابة، ومهارة حل المشكلات الطارئة وكيفية التغلب عليها، مثل انقطاع التيار الكهربائي وغياب بعض العمال المفاجئ، وكذا مشاكل عدم توريد الخامات في الميعاد المحدد، وتصريف المنتجات.

دراسة الربحية والربحية الاجتماعية:

يحتسب العائد المتوقع بنسبة من رأس المال المستثمر، كما يمكن احتساب نسبة مجمل الربح بقسمة مجمل الربح على رقم المبيعات، ويحسب معدل صافي الربح بقسمة صافي الربح على رقم المبيعات.
أما الربحية الاجتماعية في المشروعات الكبيرة، فتعني مدى تحقيق المشروع لفوائد تعود على المجتمع المحيط وتشمل هذه الفوائد:
أ- تحقيق عائد مادي مناسب (أرباح).
ب- تشغيل أكبر عدد ممكن من الشباب العاطل عن العمل.
ج- توفير سلعة أو خدمة ليست موجودة في المجتمع المحيط بالمشروع.
د- توفير استيراد سلعة أو خدمة ما على الدولة، وبالتالي توفير العملة الصعبة اللازمة للاستيراد، وتوجيه هذه العملة إلى مشاريع أو أوجه أخرى أشد حاجة إليها.
أما الربحية الاجتماعية في المشروعات الصغيرة فتقتصر على تشغيل صاحب المشروع لعدد ضئيل من العمال.
محتويات ملفات دراسات الجدوى الهندسية والفنية والدراسة المالية والتمويلية للمشروع.

ملف دراسة النواحي الهندسية والفنية للمشروع:

الهدف:

تحديد المراد إنتاجه من سلعة أو خدمة ما، وما هو المتوقع تحقيقه للمجتمع من وراء هذا المشروع.

موقع المشروع:

ويراعى في موقع المشروع ما يلي:
أ- توافر دواعي الأمن والأمان وإمكان تزويده بوسائل الدفاع المدني والحرائق والأمن الصناعي.
ب- أن يكون الموقع مناسبا لنوع النشاط.
ج- أن يكون بعيدا عن مصادر التلوث المختلفة، ومحققا للحفاظ على البيئة.
د- أن يكون قريبا من أسواق تصريف المنتج، وقريبا من التجمعات السكانية.
هـ- أن يقع على طريق المواصلات والطرق الممهدة.
و- أن يتوافر فيه جميع الخدمات الأساسية من مصادر المياه - الكهرباء- الصرف الصحي والصناعي - الاتصالات السلكية واللاسلكية...الخ.

الطاقة الإنتاجية:

تحسب الطاقة الإنتاجية للمشروع في الساعة واليوم والشهر والسنة. كما يحسب الحد الأدنى والحد الأوسط والحد الأقصى المتوقع إنتاجه، وبالتالي الطاقة التخزينية وعدد وسعة المخازن اللازمة لتخزين السلعة المنتجة.
الآلات والمعدات المطلوبة:
يحدد عدها كمًا ونوعا، وقدرتها على تحقيق الطاقة الإنتاجية للمشروع، ومصادر الحصول عليها (محليا أو أجنبيا).

المباني والمنشآت اللازمة للمشروع:

وتنحصر فيما يلي بالنسبة للمشروع الكبير والمتوسط:
أ- المبنى الرئيسي للإنتاج (المصنع- الورشة...الخ).
ب- المخازن المطلوبة (أنواعها وسعتها).
ج- المبنى الإداري والمرافق الإدارية.

ملف الدراسة المالية والتمويلية للمشروع:

تتضمن العناصر المالية والتمويلية للمشروع:
أ- التكاليف الاستثمارية.
ب- البرنامج الزمني.
ج- الإنفاق الاستثماري خلال عمر المشروع.
د- تمويل المشروع.
هـ- مصروفات التشغيل السنوية (رأس المال العامل Working Capital).
و- إيرادات التشغيل السنوية.

العمالة والأجور:

يتم عمل جدول عمالة يبين متوسط الأجر السنوي وبيان الأجور النقدية والعينية، والمزايا والتأمينات، عند التشكيل الكامل للمشروع.
ويشمل الأجر ما يلي:
أ- الراتب الشهري بحوافزه وبدلاته.
ب- المزايا العينية (تكون من نوع المنتج مثل الملابس والمواد الغذائية).
ج- التأمينات على العاملين.

منهجية العمل الخيري عند الدكتور عبدالرحمن السميط

صلاح فضل توقه
باحث في العمل التطوعي

يستحق الدكتور عبدالرحمن السميط، عن جدارة، أن يكون رائد العمل الخيري في العالمين العربي والإسلامي في هذا العصر، فخلال عمره، الذي ناهز خمسة وستين عاما، قدم كثيرا من وقته، بل جل سنوات عمره، في نشر الدعوة الإسلامية، وخدمة المسلمين وغير المسلمين، ولا سيما في قارة أفريقيا، التي حمل على عاتقه من مشكلاتها ومآسيها ما تنوء بحمله الجبال، ولكن السميط حملها، وتحملها، استشعارا منه بمسؤولية المسلم تجاه إخوانه المسلمين مهما باعدت بينهم المسافات، أو فصلت بينهم الحدود، مقتفيا في ذلك حديث النبي ﷺ عن النعمان ابن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (١).

تعتبر هذه النقطة تحديدا (جسدية الأمة) القاعدة التي انطلق منها الدكتور عبدالرحمن السميط في عمله الخيري والإنساني، والتي تفسر لنا أيضا تفانيه العظيم في هذا المجال، وريادته المستحقة له، وتميزه فيه.

فقد لفت انتباه الدكتور السميط أثناء استكماله دراسته العليا للطب في جامعتي ليفربول البريطانية وماكجل الكندية، حجم الأعمال الخيرية الموجهة لمصلحة الفئات المستضعفة والمعوزة في تلك المجتمعات، كما لاحظ أيضا أن هناك جهودا مبذولة وموجهة إلى الخارج، خصوصا في دول القارة الأفريقية، في صورة حملات، تحمل في ظاهرها الجهود الإغاثية بينما باطنها يحوي أخطارا محدقة، ولا سيما بالمجتمعات المسلمة، التي توضع الخطط من أجل تنصيرها، وتعتبر مثل هذه الحملات الإغاثية من الأدوات الرئيسية المهمة لتنفيذ هذه المخططات.

ولذلك، قرر مواجهة هذه الأخطار، والحد من آثارها المحتملة على عقيدة المسلم، والمجتمعات المسلمة. وكان سبيله إلى ذلك هو العمل الخيري، الوسيلة نفسها التي يستخدمها أعداء الأمة لاختراق عقول أبنائها وتبديل معتقداتهم وقيمهم.

ورغم العاطفة الجياشة للدكتور السميط تجاه أمته وأبنائها وقضاياها، فإنه تخطى مرحلة العمل المدفوع بنوازع الحب والرحمة والشفقة، وهذا وإن كان في مجمله أمرا حسنا ومحمودا، إلا أنه لا يقيم عملا يرجى منه بناء جيل ورفعة أمة، فهذا لن يتحقق إلا عن طريق عمل منهجي قائم على أصول شرعية ومنهجية علمية، وهذا ما قام به على أرض الواقع. ولذلك، فإن ريادة الدكتور عبدالرحمن السميط للعمل الخيري في العصر الحديث، لم تأت من فراغ، ولم تكن وليدة الصدفة، وإنما كانت نتيجة لمنهج اختطه لنفسه، وتابعه بخطوات وإجراءات مخططة ومحددة ومضبوطة شرعيا بأحكام الشريعة الإسلامية ومتطورة علميا بمواكبة أحدث ما وصل إليه العمل الخيري، علميا وفنيا.

ومن خلال تحليل سيرة السميط نستطيع أن نضع أيدينا على أهم ملامح هذا المنهج.



تكريم أمير البلاد لجهود السميط في الدعوة الإسلامية

التأصيل للعمل الخيري

كان الدكتور السميط على قناعة كاملة باحتواء الدين الإسلامي ونصوصه الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على قواعد العمل الخيري وأصوله، وهو ما يجب أن نعود إليه في تأصيلنا للعمل الخيري، وتفعيله على أرض الواقع. وكان يرى أن الإسلام سبق بهذه الأصول غيره من الملل السابقة عليه، كاليهودية والنصرانية. ولم تستطع أن تجاريه في ذلك النظريات والفلسفات الوضعية التي جعلت من خدمة الإنسان محورا لها، كما أدعت في ذلك الشيوعية.

وكان عمل الدكتور السميط الخيري هو تطبيق لهذه الأصول النظرية التي وردت في الكتاب والسنّة، والتي تتحدث عن عمل الخير وأنواعه، وأهميته، وجزاء فاعله في الدنيا والآخرة.

دعوة إلى الله

لم تقف جهود الدكتور السميط عند العمل الخيري وجوانبه المختلفة التي تظهر في صورة مشروعات ومساعدات اجتماعية، وإنما جعل من العمل الخيري وسيلة وطريقة للدعوة إلى الإسلام، ومواجهة خطط المنصِّرين في الدول الإسلامية، ولا سيما في أفريقيا، التي أفزعه ما يفعله المنصرون بها، فشد إليها الرحال، وأعطاها من عمره وجهده ما لم يعط لغيرها، ولم يعطها غيره مثل ما أعطاها الشيخ السميط، وكأن الله قد اطلع على صدق نيته تجاه دينه وأمته ففتح الله على يديه قلوب الملايين فدخلوا في دين الله أفواجا، حتى لقب بفاتح أفريقيا، كما بنى بها المئات من المساجد، والمدارس، والمستشفيات، والمراكز الإسلامية الشاملة.

وفي هذا الصدد، تشير كثير من الإحصائيات المنشورة عن جهود الشيخ الدعوية إلى أنه أسلم على يديه:

- مئات الألوف من القبائل الوثنية، والقبائل النصرانية.
- الملايين من الأفراد.

كما أنه صحح المعتقدات الباطلة، التي يعتنقها بعض من ينتسبون إلى الإسلام اسما لا إيمانا واعتقادا، وكان سببا في عودتهم من جديد إلى حظيرة الإسلام. كما اهتدى على يديه كثير من أبناء الأسر المسلمة الذين راحوا ضحية للمنظمات التنصيرية، فأعادهم إلى الإسلام من جديد.

ولم تقف جهود الدكتور عبدالرحمن السميط الدعوية عند هذا الحد فقط، وإنما قام بإعداد وتدريب الدعاة ليقوموا بالدعوة بين قومهم وقبائلهم، وفي هذا الأمر نجاح كبير للدعوة، حيث إن الداعية المنتمي إلى هذه الشعوب يكون أدرى بحال قومه، وأقدر على التواصل معهم بلغتهم، وأكثر استيعابا لعاداتهم وتقاليدهم، مما يساهم في نجاح الدعوة وتقدمها بين هذه الشعوب، وهو ما فطن إليه الشيخ السميط فوظفه لخدمة الدعوة الإسلامية.

كما طبع الشيخ السميط الآلاف من الكتب الإسلامية بمئات اللغات المحلية ووزعها على أبناء القبائل، وكان السميط حريصا على إيصال الإسلام إلى كل مكان في أفريقيا، فأنشأ العديد من الإذاعات باللغات القومية والمحلية، لمخاطبة الناس، ولا سيما الذين لا يستطيعون القراءة، فكانت هذه الإذاعات منبرا قويا لإيصال رسالة الإسلام إلى هذه الشعوب.

فلم يكن تحرك الشيخ -رحمه الله- بين هذه الشعوب تحركا عشوائيا، أو بدافع العاطفة، إنما كان تحركه ودعوته بين هذه القبائل والشعوب، بشكل مدروس قائم على معرفة طبيعة هذه الشعوب من حيث ماهية الأديان التي يعتنقونها (يهودية - نصرانية - وثنية)، والعادات والتقاليد والثقافات والأفكار السائدة بها.

ونشير أيضا إلى درس نتعلمه من المنهج الدعوي للشيخ السميط -رحمه الله- وهو «التسامح» مع الآخر المخالف في العقيدة، وهذا التسامح في حد ذاته دعوة قائمة بنفسها. فالتسامح وسيلة دعوية، وخلق إسلامي حميد، إن أخلصناه لله سيكون سببا في فتح القلوب لدين الله، وهذا ما قام به الشيخ في أفريقيا، فمما يذكر له أن الله فتح على يديه قلب أحد قادة القبائل النيجيرية، وهو سلطان إيسالي، وقد أراد أن ينهي وجود النصارى في قبيلته ويهدم كنائسهم، ولكن الشيخ السميط رفض هذا العمل، وبين له أن ذلك ليس من هدي الإسلام، بل إن الإسلام يكفل حرية العبادة لهم ولا يجبر أحدا على الدخول فيه.

ومما يؤثر للشيخ أيضا أنه في دعوته للإسلام، لم يكن يتحدث عن النصرانية أو يهاجمها، كما يفعل المنصرون في مهاجمتهم للإسلام، ولكنه كان يصون لسانه عن ذلك، ويركز كلامه على بيان محاسن الدين الإسلامي، وبراهين أنه الدين الحق ورسوله ﷺ هو الرسول الخاتم.

تعظيم مشاركة المرأة

قد يعتقد بعض الناس خطأ، أو ظلما وجحودا، أن الإسلام ظلم المرأة ومنعها كثيرا من حقوقها، ومنها حقها في المشاركة المجتمعية والعمل التطوعي، ولكن هذه كلها أكاذيب ودعاوى باطلة، نسجت في عقول أظلمها وأعياها الحقد على الإسلام، والجهل به كعقيدة ومنهج حياة.

وقد أكد الشيخ -رحمه الله- على أهمية مشاركة المرأة في خدمة قضايا الأمة والنهضة بها، انطلاقا من فهمه وفقهه لمكانة المرأة في الإسلام، فكانت زوجته، السيدة أم صهيب، رفيق دربه، وشريكه في عمله الخيري والدعوي.. اصطحبها معه، حالا ومرتحلا، في مجاهل أفريقيا وأدغالها، داعية إلى الإسلام، ومعلمة لبني جنسها من الأفريقيات، أصول الإسلام ومبادئه، عن طريق عقد دورات تعليمية، ودروس تثقيفية عن الإسلام وحضارته وتاريخه، بالإضافة إلى إعدادها فرق عمل نسوية لتواصل الدعوة والعمل الخيري فيما بعد.

العمل الخيري أداة للتنمية

أن تعطي المحتاج أو الفقير أموالا، أو طعاما، أو ملبسا، أو غير ذلك مما يحتاج إليه، فليس هذا هو الهدف الحقيقي للعمل الخيري، ولكن الأمر عكس ذلك تماما، فهدف العمل الخيري هو القضاء على كل ما يعوق الأفراد ويمنعهم من المشاركة الفاعلة في بناء مجتمعاتهم وخدمة أمتهم، وهذا هو جوهر العمل الخيري في الإسلام، والذي ارتكن إليه الدكتور عبدالرحمن السميط في عمله التطوعي، وهو ما يطلق عليه في أدبيات العمل الخيري حاليا «الأبعاد التنموية للعمل الخيري». لم يهدف الشيخ إلى إعطاء الفقراء مسكنات تستمر فترة، ثم ما تلبث مشكلاتهم أن تعود، ومن ثم يمدون أيديهم من جديد، ويبحثون عمن يقضي حاجاتهم، بل كان يعتمد على إقامة مشروعات تتناسب مع البيئة التي يعمل بها من جهة، ومن جهة أخرى تتناسب مع قدرات طالبي المساعدة. ولهذا لم يكن الشيخ السميط يعتمد في مساعداته للفقراء على العطاء النقدي، أو العيني، وإنما كان يدرس حالة طالب المساعدة تفصيليا، ثم يقيم مشروعا يدر عليه دخلا، ويكفيه ذل المسألة، مثل: «الورش الصغيرة، محلات البقالة أو الملابس، المزارع السمكية، مشاغل الحياكة».

وهذا التوجه كانت له آثار اجتماعية ودعوية، تتمثل في القضاء على الفقر وآثاره، ودعم الاقتصاد المحلي للقبيلة، وهذا ما لم تقم به البعثات التنصيرية، التي كانت تعتمد دوما على ربط المحتاج بها أسبوعيا، حيث تصرف المساعدات بحضور القداس والصلاة في الكنيسة. ولا شك في أن هذا التوجه التنموي كان له أكبر الأثر في تعميق الإسلام في النفوس، وبيان اختلافه عن الملل الأخرى، وتقبل دعوة الشيخ السميط للدخول فيه.

الشفافية ودقة المحاسبة

من المبادئ المعمول بها في قطاع المنظمات الخيرية غير الربحية مبدأ «الشفافية ودقة المحاسبة»، وهو ما كان يطبقه الشيخ انطلاقا من أصوله الإسلامية، حيث إن المسلم مسؤول أمام ربه عما ولي عليه من أمور الناس «كلكم رع وكلكم مسؤول عن رعيته» (٢) كما جاء في حديث النبي ﷺ. وكان يدرك ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه، وعظم الأمانة التي يحملها، لذلك كان حريصا على دقة المحاسبة المالية، وأن يوضع كل درهم في موضعه، وأشد ما يؤرقه ألا يكون الانفاق في غير محله. لذا كان يشرف بنفسه ويتابع دقائق الأمور في مشاريعه الخيرية ويتفقدها بنفسه ليطمئن قلبه على حسن سيرها.

ومما يؤثر عن الشيخ السميط قوله «أموال الناس التي دفعوها لعمل الخير لا يمكن أن أفرط في ريال واحد منها».

وهذه الدقة المحاسبية والشفافية في عمل الشيخ أفضت إلى نتيجة متوقعة، وهي ثقة الممولين والمتبرعين، وإيثارهم مؤسسة الشيخ وما تقوم به من مشاريع عن غيرها، لأنهم يرون ثمرة تبرعاتهم في مشاريع قائمة تغطي كل مجالات الحياة تقريبا، وفي مقدمتها خدمة الإسلام ونشره.

إنسانية العمل الخيري

يؤكد الإسلام على مبادئ الرحمة، والشفقة، ومساعدة المحتاجين، وتفريج كربات المكروبين، بغض النظر عن الدين أو الجنس أو اللون. وتظهر تطبيقات هذه المبادئ وغيرها من الخصائص الإنسانية، في ممارسة العمل الخيري، ولعل هذا الجانب لا يحتاج إلى تدليل عليه في منهجية العمل الخيري عند الشيخ السميط، فكل أعماله الخيرية كان هدفها الإنسان فقط.

ولكني أتوقف عند موقف يحمل دلالات عظيمة، في تجرد الشيخ السميط وسعيه لخدمة المحتاجين، حتى ولو كانوا ممن آذوه، وأساءوا إليه في فترة من الفترات، فمعروف أن الشيخ السميط اعتقل أثناء الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠، ونقل إلى سجون بغداد، ولاقى هناك أشد أنواع العذاب والتنكيل، لدرجة نزع لحم وجهه ورجليه، ورغم تجربة اعتقاله المريرة هذه، إلا أنها لم تكن حائلا بينه وبين مد يد العون لإخوانه العراقيين ونجدتهم مما ألم بهم بعد غزو قوات التحالف الأنجلو أمريكية، وسقوط النظام العراقي، حيث أعد قافلة إغاثية لتقديم مساعدات عاجلة للشعب العراقي لتخفيف آثار الحرب.

لقد كانت إنسانية العمل الخيري معلما واضحا في عمل الدكتور عبدالرحمن السميط.. فضح أدعياء الإنسانية والمتاجرين بها، وكشف عن زيف دعاويهم، خصوصا في أفريقيا، التي أسلم كثير من أبنائها على يديه، بسبب هذه السلوكيات التي أعلت من قيمة الإنسان كإنسان. وهذه الظاهرة استرعت انتباه أحد القساوسة المنصرين، كما يروي الشيخ نفسه فيقول: «جاءني قسيس كاثوليكي أوروبي وقال لي: أنا وأبي ولدنا هنا، وقد جاء جدي إلى هنا منذ مئة عام تقريبا. وهدفنا التنصير، ولكن لم يتنصر إلا أعداد قليلة، بينما أنتم أمضيتم هنا بضعة أيام وأسلم على يديكم المئات».

مأسسة العمل الخيري

إدراكا منه لحجم العمل المطلوب لمقابلة حاجات الأمة ومواجهة مشكلاتها، ومساعدتها في الرقي والتقدم، انتقل الدكتور عبدالرحمن السميط من مرحلة العمل الفردي إلى مرحلة العمل المؤسسي، الذي يعتمد على جماعية الأداء، والشورى عند اتخاذ القرارات، والارتكان إلى القواعد الشرعية والأسس العلمية المعمول بها في هذا المجال. ونذكر في هذا الصدد أنه أسس «لجنة مسلمي أفريقيا» عام ١٩٨١، والتي تحولت فيما بعد (١٩٩٩) إلى «جمعية العون المباشر»، علاوة على عضويته في كثير من الهيئات والمراكز والجمعيات العاملة في مجال الإغاثة والعمل الخيري.

هذه هي أهم ملامح المنهجية في العمل الخيري عند الدكتور عبدالرحمن السميط -رحمه الله- تقصيناها رغم عدم وجود مراجع علمية موثقة لجهوده. وهذا الجانب يتطلب بذل كثير من الجهود من المهتمين بالعمل الخيري، ولعل جمعية العون المباشر تتبنى مثل هذه الأعمال مستقبلا.

هوامش

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) جزء من حديث - رواه البخاري.
كما تم الرجوع إلى مواقع
http://direct-aid.org/cms/
http://ar.wikipedia.org/wiki

مكتبة بايزيد في إسطنبول

التحرير
تصوير: هدايت الله نثار

المكتبات منارات العالم فيها علوم وتجارب وخبرات وبعضها يضم مخطوطات تحمل عبق التاريخ الفكري و مكتبة بايزيد الوطنية إحدى أهم المكتبات المنتشرة في إسطنبول تضم على أرففها مليون كتاب، منها ١١ ألف مخطوطة باليد، تاريخ بعضها عمره ١٢٠٠ عام.

تقع المكتبة في ساحة بايزيد بمدينة إسطنبول، بين سوق المجلدين التاريخي وجامع بايزيد.

وقد زارت «الوعي الإسلامي» هذه المكتبة التي تعتبر أول مكتبة عامة في فترة الحكم العثماني، شيدت بهدف إفادة الناس العادين. وتحظى بأهمية عالية في تركيا.

والكتب هنا تنقسم إلى قسمين: منها ما تحمل الدلالة على اسم ولي الدين، شيخ الإسلام في وقته، إذ تم نقل كتبه إلى المكتبة بعد موته، وأصبحت وقفا، ومنها ما تحمل الدلالة على اسم السلطان بايزيد.

وتمثل تلك الكتب في مجموعها تاريخ تطور الطباعة وكيفية انتشار المطبوعات في منطقة الشرق الأوسط. كما تمثل تلك المخطوطات تطور الورق خلال الفترة الممتدة بعد عام ٢٨٠ هجرية.

أما تاريخ إنشاء المكتبة نفسه فيعود إلى سنة ١٨٨٤م، حيث تم افتتاحها بعد تحويلها من مدرسة لتعليم طب الأسنان إلى مكتبة تخدم العرب والترك.

ولكن لاتزال المكتبة يعوزها الدعم

بأمر السلطان

ذكر الموقع الإلكتروني لمكتبة بايزيد بأن هذه المكتبة التاريخية شيدت بأمر من «السلطان عبدالحميد الثاني»، وقد تم تخصيص ميزانية شخصية وحكومية لتشييدها في عام ١٨٨٤.

المادي لإنقاذ المخطوطات من التلف، فالمكتبة حاليا تتبع الوقف الخيري، والمبالغ المخصصة لها غير كافية.

تحتاج المكتبة أيضا إلى مختبرات لإعادة الروح إلى المخطوطات، عبر عمليات كيميائية لتثبيت الحبر، وورشة خاصة لترقيع وترميم الأوراق الممزقة.

بعض الباحثين العرب قضوا في تلك المكتبة أوقاتا مفيدة، فهناك قسم من المخطوطات عمره ألف عام، بعضه يعود للتراث العربي كمخطوطة سحيم بن وثيل الرياحي التميمي، الشاعر الجاهلي الذي عاصر الإسلام.

تقع المخطوطات في الطابق الثاني من المكتبة، ويشرف عليها موظفون أتراك يتكلمون العربية، ولكن يبدو أن المكتبة في حاجة إلى هيئة من الموظفين يتقنون اللغات الثلاث، العثمانية والعربية والتركية الحديثة،



لأن الفهارس بالأحرف التركية الحديثة.

تم ترميم القسم الخارجي لمبنى المكتبة ذات الطوابق الثلاثة، في عام ١٩٧٤م، وانقسم خلاله إلى مخزن للكتب وقاعة للمطالعة.

تحتضن هذه المكتبة التاريخية أكثر من مليون نسخة كتاب، منها ٤٠ ألف كتاب غير موجود في الأسواق والمكتبات، وأرشيف كامل للصحف الصادرة في تركيا.

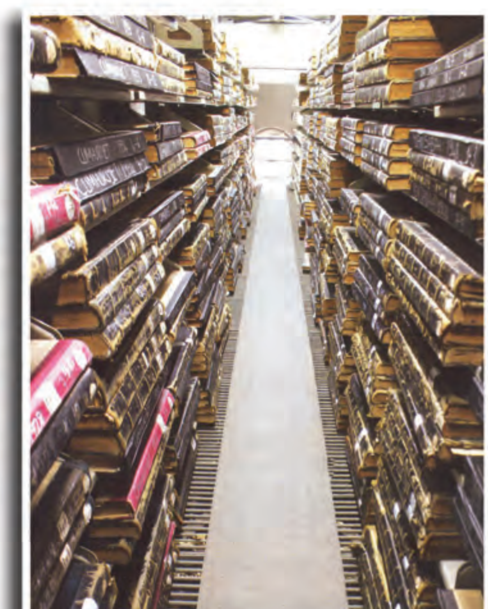
كما أنها تضم أرشيفا كبيرا للأفلام والأقراص المدمجة والشرائط الصوتية والمرئية والبطاقات البريدية والطوابع والملصقات.

ومنذ أشهر قريبة بدأت عملية ترميم هذه المكتبة في قسمها الداخلي في مساحة ١٢٠٥ أمتار مربعة، وتتواصل هذه العملية دون إحداث تغييرات في عمارة هذه المكتبة، ومن المقرر صنع واجهات زجاجية لوضع الكتب القيمة فيها؛ بغية زيارة أعضاء المكتبة، كما حلت الخزانات الفولاذية المتكونة من ٦ طوابق محل الخزانات الخشبية القديمة التي كانت تحتضن كتب هذه المكتبة.

من المخطوطات النادرة

هناك العديد من المخطوطات التي يمكن اعتبارها نادرة، نظرا لقدم المخطوطة من جهة، ومن جهة أخرى لأن تلك المخطوطة لها أهميتها في





الدوائر الإسلامية والفقهية.. ومن أبرز هذه الآثار:

أولا: الآثار الباقية عند القرون الخالية. ومذكور في مكان آخر باسم: الآثار الباقية في علم النجوم. يحمل الرقم٤٦٦٧ بايزيد. المصنف محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي. والكتاب قديم وكبير متكون من ٣٤٠٣ صفحة، ويعود تاريخ النسخ إلى عام ٦٠٣ للهجرة.

والكتاب المخطوط يتحدث عن علوم الفلك، ولكن الصفحة الأخيرة مشكوك في أمرها، لأن عمر المخطوطة في تلك الصفحة الأخيرة يعود إلى عام ٧٠٣ للهجرة.

ثانيا: العقد الفريد في تاريخ الملك السعيد. يحمل الرقم ٢٤٣٨، وهو يعود إلى «أبوسالم كمال الدين محمد بن طلحة بن محمد بن الحسن القريشي»، ويسمى في الكتاب أيضا باسم: «أبي المسلم الشيخ محمد بن طلحة القريشي» (المفتي الرحال) المولود سنة ٥٨٢ والمتوفى سنة ٦٥٢ للهجرة، أنجز كتابة المخطوطة في العشر الأواخر من شهر رمضان سنة ٧٤٣ للهجرة، والكتاب مذهب ويتكون من ٢٨٢ صفحة.

ثالثا: الفلاحة النبطية. تحمل هذه المخطوطة الرقم ٤٠٦٤، والكتاب نقل من لسان الحرانين إلى العربية، والناقل أبوبكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني، المعروف بـ«ابن وحشة» عام ٢٩١ للهجرة، وهناك تاريخ آخر على الكتاب هو ٣١٨ للهجرة.

رابعا: شرح الهداية. الجزء الثاني. الكاتب تحت اسم دهلوي، والكتاب بخط محمد بن أحمد بن محمد الجندي، الملقب بـ«الصدر» وتم النسخ يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٩٥ للهجرة ببخارى.

خامسا: تذكرة أولي الألباب. تحت رقم ٤٢١٤ بايزيد، لداود الطائي، بينما في النسخة الأخرى من الكتاب مكتوب داود الأنطاكي، تحت اسم «تذكرة داود في الطب» وتاريخ نسخ المخطوط الذي يتناول الأعشاب الطبية وفائدة كل منها هو ١١٠٤ للهجرة.

السلطان العثماني بايزيد الثاني

السلطان بايزيد الثاني (١٤٤٧م-١٥١٢م)، هو ابن السلطان محمد الفاتح، وهو والد السلطان سليم الأول، وجد السلطان سليمان القانوني. كان هذا السلطان تقيا، ورعا، لم تفته أبدا أي صلاة مفروضة.

وكما يذكر موقع رسائل النور، فقد كان من عادة السلطان بايزيد الثاني أن يجمع في قارورة ما علق في ثيابه من غبار وهو راجع من أي غزوة من غزوات جهاده في سبيل الله.

وفي إحدى المرات عندما كان السلطان يقوم بجمع هذا الغبار من على ملابسه لوضعه في القارورة، سألته زوجته كولبهار: لم تفعل هذا يا مولاي؟ وما فائدة هذا الغبار الذي تجمعه في هذه القارورة؟ فقال: سأوصي بعمل طابوقة من هذا الغبار، وأن توضع تحت رأسي في قبري عند وفاتي، فإن الله سيصون من النار يوم القيامة جسد من جاهد في سبيله. ونُفِّذت فعلا وصيته، إذ عمل من هذا الغبار المتجمع في تلك القارورة (غبار الجهاد في سبيل الله) طابوقة، وضعت تحت رأس هذا السلطان الورع عندما توفي سنة ١٥١٢م، وقبره موجود حتى الآن بجانب الجامع الذي بناه (جامع بايزيد)، رحمه الله تعالى.

د. علي السمان رئيس الاتحاد الدولي لحوار الثقافات:

مجدنا الحضاري سيعود مع الإرادة الحقيقية

إسلام لطفي
القاهرة - دار الإعلام العربية

شدد رئيس الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان الدكتور علي السمان، على أن المجتمع الإسلامي يشهد حالة انقسام كبيرة؛ بسبب ابتعاده عن مفاهيم الدين الصحيحة، لافتا إلى أنه على الرغم من ذلك الوضع، توجد بعض المؤسسات تسعى إلى زرع المفاهيم الصحيحة والسليمة للتقارب بين المجتمعات. وإلى نص الحوار..

● ما تقييمك للمجتمع الإسلامي في الوقت الحالي؟

- المجتمع الإسلامي في كثير من جزئياته يعاني من حالة انقسام وخلاف. وهنا لا بد من التأكيد على أن الدول الإسلامية، التي لها وزن في المنطقة، من الضروري أن تعطي وزنا أكبر للتقارب. ولدي أكثر من تجربة في هذه الدول، خصوصا في الكويت، أيقنت من خلالها بوجود مساع صادقة لتدعيم التعاون الإسلامي، وبخاصة على المستوى الثقافي.

● بحديثك عن الانقسامات.. هل يمكن تلخيص الأسباب التي أدت إلى الوضع غير الحميد الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية والعربية على السواء؟

- الأسباب الرئيسية تكمن في ابتعاد المجتمعات عن الإسلام بمعناه البسيط والنقي، الذي هو الإيمان، قولا وعملا.



أيضا من أسباب الانقسام ابتعاد هذه الدول عن الحوار وعن قبول الآخر، وقد انتهيت من كتاب يسمى «الأديان السماوية الثلاثة.. قبول الآخر وحوار السلام»، فهذه المبادئ حل محلها التنافس والخلاف، ولكن على الرغم من ذلك فإن الاتجاهين موجودان، فهناك من يريد التقسيم والهجوم وهناك من يعمل بأقصى جهد ممكن؛ من أجل الحوار وقبول الآخر للارتقاء بالمجتمع.

● إلى أي طريق تسير الأمة الإسلامية في ظل حديث الكثيرين عن أن الأمة تعاني التحجر الفكري؟

- التحجر الفكري مبدأ عام، ففي حالة إصابة الإنسان بالتحجر، لن يؤثر ذلك فقط في فكره الديني، بل سيكون حاجزا ضد التطور وضد التنمية بصفة عامة على مختلف مستوياتها، وأساس التحجر يبدأ من مستوى الكتاب المدرسي، بينما نحن في حاجة إلى مستوى آخر، وإلى إعادة صياغة؛ لأن كل شيء يبدأ بالكتاب. والتطور والتحجر أيضا منبعهما البيت والمدرسة وشاشة التلفزيون التي نراها، لذا أسميها دائما «المدرسة الشعبية

المجانية»، فإذا أدى القائمون على الإعلام والأسرة والمدرسة دورهم في محاربة التحجر، وصياغة مناهج تعليم جديدة بأساليب تساهم في التطور، فساعتها يمكننا التخلص من براثن التحجر الفكري. أما في حال استمرار الأمر على ما هو عليه، فستحرم الأجيال المقبلة من التطور والازدهار فكريا. وعلينا أن نؤمن في نهاية المطاف بأن الإسلام هو دين السماحة، والتحجر يمنع ممارسة دين السماحة.

● متى يستطيع المسلمون إعادة مجد حضارتهم مرة أخرى؟

– إذا وجدت إرادة حقيقية لدى أبناء الأمة الإسلامية، إضافة إلى أن ذلك يحتاج إلى ثقافة وتنمية ودعم الإرادة، فإذا تحقق ذلك فسنستطيع أن نتخطى كل الحواجز التي تعوق نهضة أمتنا، إضافة إلى ذلك لا بد من وجود قادة فكر إسلاميين يكونون بمنزلة «عنصر تنشيط» يدفع إلى هذا الاتجاه، ويوضحون لنا ما يجب أن يخرج من قيم الدين لمصلحة البشر، وإذا لم نجد هؤلاء العلماء المخلصين فسنستمر في الانحدار.

● وهل هناك آليات يلزم توافرها لقيام هذه النهضة؟

– كما أشرت من قبل ينبغي أولا الاهتمام بالكتاب المدرسي، ولا بد أن يكون هو المحور في النظرة المستقبلية، ولا بد من ترسيخ الثقافة البناءة، ثم يأتي الاهتمام بثقافة الحوار مع الآخر. أذكر وأنا أعيد تنظيم مؤسسة الحوار التي قمت بإرسائها وكانت تسمى مؤسسة «حوار الأديان»، ولدت في باريس، وأصبحت حاليا مؤسسة «حوار الثقافات والأديان»، فلا يمكن أن نصل إلى مفهوم الأديان الحقيقي من دون حوار ثقافات. والأسرة يجب أن تدفع نحو معايير تربية الطفل على أساس عناصر النهضة البناءة، وتستطيع العائلة أن تنقلها إلى الأجيال الجديدة، والأسرة

أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية وأفكار قديمة وراء تنامي الإسلاموفوبيا

من العناصر التي يمكن أن تساهم في الوصول إلى النهضة، بينما الخطر الأكبر أمام هذه النهضة هو الأمية، والفرقة، وغياب روح المحبة.

● هل هناك أمل في ثورة معرفية مقبلة؟

– بالطبع، فالوضع الطبيعي أنه بعد الثورات ذات الطابع السياسي والتحرري، يجب أن تذهب إلى عنصر مكمل، وهو دعم نهضة المجتمع وثقافته، وهذا من الممكن أن يحدث، سواء بالإرادة الذاتية، أو المجتمعية. ويجب على المثقفين أن يقوموا بدور قوي لمحاربة قوى الظلام والإظلام التي تجعل الأمور ضبابية على المواطن العادي في رؤية الحقيقة والواقع، وأهم شيء رؤية المستقبل.

● هناك جدل يدور حول: هل الإسلام دين دولة أم دين أمة؟

– هذا جدل قديم. إذا أخذنا الدول الإسلامية ككل فسيكون دين أمة. وهذا الجدل مأساوي، لأنه يقوم على التقسيم، إننا دول إسلامية، لكن ما يهم هو أن الدول يربطها رباط تعاون ورباط حضاري وثقافي، مما ينتج عنه أمة واحدة.

● هل يدير الغرب صراعا خفيا على الإسلام باسم حقوق الإنسان؟

– في الواقع، أهملنا كثيرا في إيجاد الردود المناسبة في ذلك الوضع. وأحيانا الإنسان يقول إن هناك قضية في هذا الصراع، وهناك البعض، وليس الغرب كله، يريد شرا بالإسلام، فهناك اتجاه لجعل الإسلام خطرا وبعيدا عن فكرة التعاون والتعايش مع الغرب. لكن في الطرفين، الإسلامي والغربي، هناك من يعملون من أجل التقارب. وإذا عدنا إلى حقوق الإنسان، فعلينا مسؤولية كبيرة لأننا لم ننقل إلى الغرب المكان الحقيقي له.

● ما الأسباب التي أدت إلى تنامي الإسلاموفوبيا؟

– هناك أسباب تختلط فيها السياسة مع عودة بعض الأفكار القديمة، فنجد أن الإسلام في فترة العثمانيين تقدم في الغرب حتى حدود النمسا، والغرب يعود دائما إلى هذا الوضع، وكأن الإسلام سيقترب ويحتل مكانا أكبر مما ينبغي. وأيضا الإسلاموفوبيا جاء لأسباب بعضها اقتصادي وبعضها اجتماعي وأيضا سياسي. وفي بلاد الغرب أحزاب أقصى اليمين تعيش على دعم العنصرية والتطرف في الفكر، فعندما تعادي الإسلام يكون ذلك نوعا من الشعبية لها. وتتامت الظاهرة أيضا بسبب طريقة تعامل بعض الجماعات وفكرها والتي تدفع إلى كره الإسلام.

● كيف يمكن أن نرسخ مفاهيم التعايش السلمي وقبول الآخر؟

– بدعم وجود هذه الأفكار في نظمنا التعليمية، والثقافية، والإعلامية.

● هل يمكن أن تتغير حالة الكراهية والاحتقان ضد المسلمين؟

– إذا تغيرت نظرة الغرب في عدم الاستمرار حتى لا نذهب إلى حرب صليبية جديدة، أيضا إذا غير المسلمون نظرتهم وتركوا الفكر المتطرف؛ ليصبح المتحدث ولسان حال الأمة الإسلامية هو سماحة الإسلام.

● كيف ترى الحرية في الغرب وإساءة فهمها؟

– الحرية ستظل باستمرار موضوعا خلافيا، فالحرية في الغرب تريد أن تكون بلا حدود ولا شروط، والحرية في الشرق والبلاد الإسلامية لها سقف، وهي حماية تراثنا ومبادئنا وقيمنا الإسلامية، عكس الغرب الذي لا يريد هذه الحدود.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٠)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



إحدى المشكلات المزمنة التي يعانيها المشهد اللغوي العربي، تتجلى في الثنائية والازدواجية اللغويتين، اللتين جثمتا بكلكليهما على المجتمعات العربية؛ فهناك العاميات، والأمازيغية من جهة، وهناك اللغات الأجنبية من جهة أخرى. وإذا كان هذا التعدد اللغوي من الحتم المَقضي في كثير من المجتمعات الإنسانية، فإنه في البلاد العربية يَفرض على البصراء من رجال السياسة، والدين، والعلم، والمعرفة، اتباع سبيل ناهجة لا قحم فيها، لأجل إسناد الأدوار والوظائف الملائمة لهذه المستويات اللسانية التي تمور بها تلك المجتمعات، لأجل إرضاء المختلفين واحتواء الفرقة، بكيفية تجعل التعدد عامل قوة ينمي اللغة الفصحى ويثريها بمزيد من الألفاظ والعبارات التي تجدد لها أثوابها، ولاسيما بالنسبة إلى ميادين الحِرف والصنائع والتقنية والسياحة التي لم تمتد إليها العبقرية العربية، عندما كانت تنظر بعين الريبة إلى تلك الحِرف التي لا يمتهنها إلا أبناء السراري والهجناء.

الحقيقة التي لا يستراب فيها أن شياطين الدفاع عن العاميات الذين زعموا الإتيان بفائدة تنجي العرب من الغثائية، قد جاءوا بآبدة ألهتنا عن الخطط المكينة التي تهدي إلى التي هي أحسن لنا وللغتنا ومستقبلنا. إنهم جماعة من الأغتام الحائرين

الذين يقفون ما ليس لهم به علم منج من التيه والخبط والضلال، غايتهم التحلق حول الموائد الغربية؛ يقتاتون من خشارتها، فيروجون لأفكار دبرية مفسكلة، نبتتها شيطانية نكد، ليس فيها رطب ولا جنى، فكان لابد من استئصالها من الأرض العربية العذبة؛ لتنمو أزاهير الفصحى ويعم خيرها الآفاق، وتعود العجمة والعاميات من حيث أتت، لم تصب من الفصحى قطميرا، كما كان الشأن بالنسبة إلى الدعوات المنكرة الآنفة في الشرق العربي؛ التي كانت تدعو إلى استبدال اللغات الأجنبية بالفصحى، أو كتابتها بالأحرف اللاتينية، لكن زبدها الصاخب تكسر على صخرة الفصحى التي حفظها الله تعالى من فوق سبع سموات.

وبما أن التدابير لصيانة الفصحى من لوثات العجمة والعاميات ظلت خجولة غير مسنودة بدراسات علمية دقيقة تبيد الآراء الملهوجة، وتحاصرها في الزوايا الضيقة المغطشة، فإن مناصرة العامية التي يهرول نحوها بعض المنشئين الأغتام في المغرب الذين يهرعون على آثار لويس عوض ومن لف لفه، غايتهم هزيمة الفصحى، وما تدل عليه من أبعاد لا تقتصر على اللسان، لأن اللغة ليست اللسان فقط، بقدر ما هي جماع مكونات الإنسية العربية من تراث ومعتقد وتفكير وحضارة ورموز وقيم وتوازن وذاكرة جماعية مؤسسة لحلول ناجعة تحافظ على الكيان الموحِّد الموحَّد، الذي ضمن للفصحى الخلود ما توالى الملوان.

ولكي تتجنب هذه الورقة اللغوية السقوط في حبائل أنصاف الحلول التي لم يخمرها إطالة الانتقار ومكابدة البحث، فإنني أؤكد أن الدفاع عن الفصحى بالنية الصادقة المرتكزة على العلم الموثوق، والحق المبين، والآراء المحكمة المحصدة المنتجة، أشد وأكثر أثرا في طرد الآراء الكسولة التي تدعو إلى تثبيت سلطان العاميات واللغات الأجنبية في المجتمعات العربية، بدعوى التيسير والتسهيل والدخول إلى أندية العولمة التي حلأت الفصحى ومنعتها من ارتياد آفاقها، وصنع المعرفة والتقنية والخبرة والمهارة بالفصحى والفصيحة. وهنا يجب الاستفادة من الدروس البليغة التي تبديها لنا الأيام في تطور الشعوب والأمم التي بلغت قرن الكلأ في العناية بلغاتها الوطنية الموحدة، التي صنعت بها مجدها المادي والمعنوي؛ لم تفتر لها عزيمة في الحدب عليها وإعلاء شأنها وصيانتها من التحريف والتزوير والتبديل، كما هو الشأن بالنسبة إلى فرنسا التي أبادت لهجات أقاليم «الألزاس واللورين وبروتون وكورسيك»، لأنها تهدد الوحدة الوطنية الفرنسية، كما تهدد السلم اللغوي الذي تضمنه الفرنسية الموحدة، لغة العلم والمعرفة والتكنولوجيا والسياسة والاقتصاد والآداب.

هذا هو الدرس البليغ الذي يعلمنا أن الأخذ بمبدأ الشيوع لقبول الألفاظ وإلحاقها بحظيرة الفصحى يعد تنازلا خطيرا عن الصحة والسلامة وضمان التواصل المفيد، لأن القواعد والأنظمة هي التي تضمن للغة السلامة، أما الشيوع وكثرة دوران اللفظة على الألسنة غير الفصاح، فإن ضرره أكبر من نفعه، لما يشيعه من البلبلة والعبث بما تقوله الكلمات واضطراب الأذهان وفساد المعاملات، كما تؤكد هذه العبارة اللاحنة التي تكررت في الكتب المدرسية، وعلى أفواه مدرسي مادة التاريخ حتى تكرجت، حيث يقولون في عبارة ملهوجة ناكبة عن المراد: أخيرا انتصر الرومان على العرب في الأندلس. وهم يقصدون من كلمة «الرومان» لفظة «الروم» مع العلم أن بين اللفظتين من التباعد ما بين الضب والنون. قال الجوهري: «رومان بالضم اسم رجل. والروم هم من ولد الروم بن عيصو. يقال: رومي وروم، مثل زنجي وزنج، فليس بين الواحد والجمع إلا الياء المشددة» (١).

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ..﴾(الروم:١-٣). الروم اسم جنس جمعي لا علاقة له بلفظة «الرومان» التي تدل على اسم رجل، فما لهؤلاء الناكبين عن الفصحى، جاثمين في اللهجات كأنهم لم يغنوا في الفصحى! ولكي أثبت أن أمر هؤلاء الداعين إلى هجر لغة القرآن الكريم ليس برشيد، وأن أقوالهم لم تزدهم غير تخسير، أجتزئ كلمة قرآنية أخرى تثبت فساد أقوالهم عندما يجمعون كلمة «السجين» هكذا: «المساجين» علما أن هذا الجمع لم يسمع من فصيح يحترم نفسه ويحترم لغة القرآن الكريم الذي أورد لفظة: «المسجونين» قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ..﴾ (الشعراء: ٢٩) قال ابن منظور المصري: «رجل سجين: مسجون، وكذلك الأنثى بغير هاء، والجمع سجناء وسجنى. وقال اللحياني: امرأة سجين وسجينة، أي: مسجونة من نسوة سجنى وسجائن» (٢).

هذا أوان الانتهاء الذي يثبت أن القرآن الكريم نور العربية الساطع، وسيفها القاطع، الذي يجتني من الألفاظ أنوارها، ومن المعاني أثمارها، وقد قصدت الإشارة إلى الكلمتين الآنفتين أجلو بواسطتهما جواهر الصحة التي ضرب اللحن بسور بيننا وبين الصحة، فساءت أحوالنا ومعاملاتنا تبعا لسوء استعمالنا لما تقوله كلمات اللغة.

الهوامش

١- الصحاح. تاج اللغة وصحاح العربية. إسماعيل ابن حماد الجوهري. تحقيق أحمد عبدالغفور عطار. الجزء ٥. ص ١٩٣٩. ط٤. كانون الثاني/ يناير ١٩٩٠. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان.

٢- لسان العرب. أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي. المجلد ١٣. ص ٢٠٣. ط٣. ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. دار صادر. بيروت. لبنان.

جائزة (بوكر).. دماء زرقاء في عروق الثقافة العربية

محمد أبوالسعود الخياري
باحث وناقد أدبي

يعلن في التاسع والعشرين من أبريل المقبل اسم الروائي العربي الفائز بجائزة البوكر السابعة، بعدما تداولها سبعة روائيين في المواسم الستة الماضية.. توزعوا على خمسة أقطار عربية.

وكانت إدارة الجائزة قد أعلنت في العاشر من فبراير الماضي القائمة القصيرة لجائزة العام الحالي ٢٠١٤م، حيث اختيرت ست روايات هي: رواية «الفيل الأزرق» للمصري أحمد مراد، ورواية «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة» للسوري خالد خليفة، ورواية «فرانكشتين في بغداد» للعراقي أحمد سعداوي، ورواية «طائر أزرق نادر يحلق معي» للمغربي يوسف فاضل، ورواية «طشاري» للعراقية إنعام كجه جي، ورواية «تغريبة العبدي المشهور بولد الحمرية» للمغربي عبدالرحيم لحبيبي.

وقد تشكلت لجنة التحكيم من الناقد والأكاديمي السعودي سعد البازعي رئيسا، مع عضوية كل من: عبدالله إبراهيم الناقد والأكاديمي العراقي، محمد حقي صوتشين الأكاديمي التركي المتخصص في تدريس العربية وترجمة أدبها إلى التركية، أحمد الفيتوري الصحافي والروائي والمسرحي الليبي، زهور كرّام، الأكاديمية والناقدة والروائية المغربية.

أُطلقت الجائزة العالمية للرواية العربية رسميا في أبوظبي في أبريل ٢٠٠٧. وهي ناتجة عن تعاون بين «مؤسسة بوكر» البريطانية و«مؤسسة الإمارات» التي تتكفل بدعم الجائزة ماديا وإعلاميا، بالإضافة إلى «معهد وايدنفيلد للحوار الاستراتيجي».

والجائزة تمنح لرواية عربية تصدر في العام نفسه، وتتم مكافأة كل من الروايات الست التي تصل إلى القائمة النهائية بعشرة آلاف دولار أميركي، بالإضافة إلى خمسين ألف دولار أميركي للفائز بالمركز الأول.

حول الجائزة الأم

وجائزة بوكر البريطانية هي جائزة أدبية مخصصة للأعمال الروائية الصادرة باللغة الإنجليزية، وقد أسست عام ١٩٦٨. تمنح لأفضل رواية صدرت في المملكة المتحدة أو في أي من دول الكومنولث أو من جمهورية أيرلندا.

وعن هذه الجائزة تفرعت جائزتان هما: جائزة بوكر الروسية التي أسست عام ١٩٩٢، وجائزة كاين للأدب الإفريقي والتي أسست عام ٢٠٠٠. وتحرص كل منهما على مراعاة تقاليد الشفافية للجائزة الأم، ولحقتهما الجائزة العالمية للرواية العربية في ٢٠٠٧.

شفافية صدمت ثقافة (الشلة)

وعلى الرغم من أن الجائزة تمنح سنويا لرواية عربية، وتمولها مؤسسة عربية هي هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة في «أبوظبي» الإمارات العربية المتحدة؛ فإنها محتفظة بتقاليد الجائزة الأم (البوكر البريطانية)، لاسيما التعامل الشفاف مع الروايات المحكمة، دون أدنى اعتبار لاسم الكاتب أو تاريخه أو جنسيته؛ وهذه مزية فريدة جعلت الجائزة تنجح في اكتساب المصداقية لما تحدثه للوسط الثقافي العربي من إثارة المفاجأة تجاه الرواية الفائزة؛ للدرجة التي كانت الجائزة سببا في معرفة المثقفين -فضلا عن العامة- بروائي يبدأ خطواته الأولى.

الجائزة العالمية للرواية العربية

وجبة عربية بطعم إنجليزي

أما الأثر السلبي في هذا الارتباط الفطري بالجائزة الأم فيكمن في مراعاة الانتماء للفكر والثقافة الإنجليزية للقائمين على الجائزة، سواء في مجلس الأمناء، أو في معظم لجان التحكيم في السنوات السابقة.

فمثلا يضم مجلس أمناء الجائزة



أكاديميين في الأدب؛ المختصين منهم في الأدب العربي جميعا يعملون في جامعات أجنبية؛ فرئيس مجلس الأمناء بروفيسور «ياسر سليمان»، هو أستاذ الدراسات العربية الحديثة في جامعة كامبريدج، بريطانيا. والأمر نفسه مع «رشيد العناني» عضو مجلس الأمناء، والذي يعمل أستاذا للأدب العربي الحديث، جامعة إكستر، ومحررا لسلسلة «دراسات في الأدب العربي الحديث»، المملكة المتحدة.

ويضم مجلس أمناء الجائزة من بين أعضائه الاثني عشر- ثلاثة أعضاء بريطانيين؛ منهم رئيس مجلس إدارة الجائزة الأم (بوكر للرواية البريطانية) البريطاني «جوناثان تايلور»، حامل وسام الإمبراطورية البريطانية، من درجة قائد، ورئيس مجلس إدارة مؤسسة «بوكر»، و«إفلين سميث»، سكرتيرة الجائزة العالمية للرواية العربية، وهي في نفس الوقت سكرتيرة مؤسسة بوكر بالمملكة المتحدة؛ بالإضافة إلى الناشرة البريطانية «مارغاريت أوبانك» رئيسة تحرير مجلة «بانيبال».

واللافت أيضا أن من يمثل الأكاديميين العرب ويعمل داخل الجامعات العربية اختير متخصصا في الأدب الإنجليزي، لا العربي؛ مثل الدكتورة «ماري تريز عبدالمسيح» أستاذة الأدب الإنجليزي والأدب المقارن، جامعة القاهرة، والتي تعمل حاليا مديرة برنامج «الدراسات الأدبية والثقافية المقارنة» بجامعة الكويت.

فمجلس أمناء الجائزة الحالي (يتم تغييره كل ثلاث سنوات أو يجدد له مرة واحدة) لا يضم أكاديميا واحدا مختصا في الأدب العربي يعمل بجامعات الوطن العربي، كما يخلو من الروائيين العرب.

الفائزون أجيال ومدارس

وكان الروائي المصري بهاء طاهر قد فاز بالجائزة في موسمها الأول ٢٠٠٨ عن روايته التاريخية «واحة الغروب»، ومن مصر أيضا تبعه يوسف زيدان لينال جائزة ٢٠٠٩ عن روايته المعروفة «عزازيل»، وفاز السعودي عبده خال بها في ٢٠١٠ عن روايته «ترمي بشرر»، ثم اقتسم الجائزة روائيان في ٢٠١١؛ محمد الأشعري من المغرب عن روايته «القوس والفراشة» ورجاء عالم من السعودية عن روايتها «طوق الحمام». ثم كان العامان التاليان خالصين للشباب؛ فقد فاز بجائزة ٢٠١٢ اللبناني ربيع جابر عن روايته «دروز بلجراد.. حكاية حنا يعقوب»، وتبعه بجائزة ٢٠١٣ الروائي الكويتي سعود السنعوسي عن روايته «ساق البامبو».

مفارقات الفوز

ليس للروائي المخضرم تذهب الجائزة؛ فالسنعوسي صاحب جائزة ٢٠١٣ ذهب إليها بتاريخ روائي هين جدا، حيث حمل على ظهره رواية وحيدة سبق بها «ساق البامبو» هي «سجين المرايا»، وتجربة إنسانية تسير في أول المشوار بعمر لم يناهز الواحدة والثلاثين.. ورغم هذه الأسلحة الضعيفة استطاعت الرواية الثانية للسنعوسي بعالمها الإنساني والقيمي الرحب أن تتخطى قامات روائية كبيرة وعريقة؛ مثل واسيني الأعرج الروائي المخضرم والأستاذ بالسوربون والفائز بجائزة الشيخ زايد في الأدب عام ٢٠٠٧م.

تعقيب وأمنيات

تحقق الكثير من أهداف الجائزة المعلنة مثل الشفافية والموضوعية في الاختيار، وبث الحيوية في أوساط الروائيين والقراء على السواء، ودفع المواهب الروائية الشابة، وفتح آفاقا واسعة للرواية العربية لتلج أرضا جديدة وثقافات مغايرة، بقيام الجائزة بالتعهد بترجمة الروايات الفائزة وروايات القائمة القصيرة؛ بالإضافة إلى التكريم المادي السنوي الذي يتجه نحو ستة روائيين عرب كل عام.

هذه النجاحات والمكاسب تدفعنا إلى المطالبة بالاهتمام بفروع أخرى لأدبنا العربي، كالشعر والمسرح والقصة وأدب الأطفال، عسى أن تزدهر هذه الفنون على النحو الذي ازدهرت به الرواية والتف حولها جمهور القراء.. (طبعت رواية سعود السنعوسي «ساق البامبو» عشر طبعات خلال عام واحد بعدما اختيرت للجائزة ٢٠١٣).

أما المضمون الفكري لروايات الجائزة والبناء الفني فله حديث جديد، بإذن الله.

رؤية الزمان والمكان في الرواية الإسلامية المعاصرة

عبداللطيف خروبة
أديب مغربي

الزمان والمكان مكونين أساسيين في العمل السردي، فهما ركنان متلازمان لا يمكن الفصل بينهما، فلا يمكن تصور قصة من دون فضاءين، زماني ومكاني، تدور فيهما الأحداث، ولا فرق أن يكونا خياليين أو واقعيين. كما لا يمكن تصور قصة تجري في مكان دون الزمان، وحين «نقرأ قصة يجب ألا ننسى بأننا نقرأها في كتاب، وأن الأحداث أو الوقائع التي ترتسم في أذهاننا إنما هي أحداث أو وقائع تنتمي إلى الفضاء المتخيل» (١).

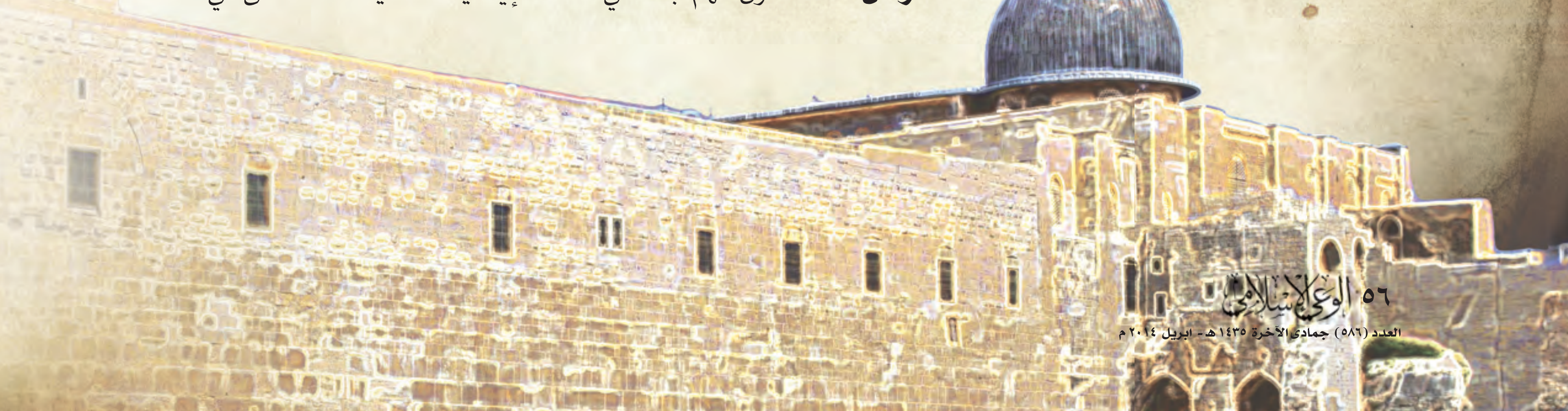
وهذان الفضاءان لهما قدرة كبيرة على الإيحاء بالعديد من المعاني القابلة للمناقشة والتأويل. وقد اتخذت رواية «عمر يظهر في القدس» لنجيب الكيلاني (٢) مادة لهذا الموضوع.

إن رواية «عمر يظهر في القدس» لكاتبها نجيب الكيلاني، انطلاقا من عنوانها وانتهاء ببنيتها وتشكيلها الجمالي والمعرفي، تمثل تجربة ثرية على مستوى الرؤية المتعلقة بالزمان والمكان، والعلاقة القائمة بينهما، وتفاعلهما في سياق معين. ولعل ما يسترعي الانتباه في هذه الرواية هو تناولها للعديد من القضايا، سياسية واجتماعية وعقدية وحضارية، وهي بذلك تنسجم مع أدب الكاتب الذي يعالج قضايا الأمة، ومنها قضية الاحتلال الصهيوني لفلسطين، ومعاناة أهلها من قساوة الاحتلال، الشيء الذي حول الحياة إلى جحيم لا يطاق، وعمق الإحساس والحاجة إلى الانعتاق والتحرر.

تدور أحداث الرواية حول ظهور الخليفة عمر رضي الله عنه من جديد في مدينة القدس، وما أثاره هذا الظهور من آراء مختلفة وتحولات في المواقف والمعتقدات للعديد من الشخصيات، ومن تحركات أمنية داخل سلطات العدو، من أجل مواجهته وإيقاف خطره، فأجبرته على الإقامة في المستشفى بعدما دخل إليه لعلاج مرض أصابه. وفي داخل المستشفى بدا قوي الإيمان، لم يخفه التهديد، ولم يخضع لأي إغراء، فكان يدعو من يقابله إلى الإسلام، فآمنت شخصيات متعددة، كما أنه انتقد العديد من الظواهر المشينة التي تعج بها المدينة. وتنتهي الرواية باختفاء عمر بعدما تم تهريبه من المستشفى، ووقوع الذين رافقوه في قبضة العدو.

١- الزمان: هذا المكون مهم جدا في الرواية، إلى درجة أن بعض الدارسين اعتبره موضعا للرواية أو بطلها (٣).

يقوم الزمان في رواية «عمر يظهر في القدس» على التطور الخطي في الغالب، فهو يبدأ بظهور عمر في القدس وما حصل معه من أحداث حتى نهاية الرواية باختفائه ووقوع مرافقيه أسرى في يد الأعداء، وإيداعهم السجن. فالزمان هو زمان الحاضر والمستقبل المأمول. فما يحصل من أحداث في الحاضر له تأثيره في الغد، فالحاضر يبدو غارقا في السلطة والسيطرة والقمع. وإن دورة الرواية الزمانية الحاضرة معروفة، أما الدورة المستقبلية فهي غير محدودة أو معروفة ولا محصورة، فهي مفتوحة على كل الاحتمالات، والمصير النهائي للأحداث غير محسوم، وهذا لم يعلنه السارد مباشرة، وإنما يستفاد ضمنيا من أحداث الرواية وتحركات الشخصيات في الزمان والمكان. فزمن تحقق الأمل، الذي هو الحرية، لا يزال بعيد المنال، ويحتاج إلى شخصيات مثل عمر رضي الله عنه في صبرها، وصمودها، وصدقها، وشجاعتها في إحقاق الحق، وفهمها للواقع وتشبعها بالعقيدة الإيمانية الصحيحة، لا تخشى في الله



شيئا، فتعمل على تحرير الوطن من الاحتلال. «نحن في حاجة إلى رجل مثلك، إلى الإيمان الممتزج بالطهر، القوة التي تخالطها الرحمة، العقاب المتضمخ بالعدل. يا أمل المساكين في عالم الضياع والعذاب» (٤).

إن الزمان بهذه الصيغة الخطية إعلان عن مسار حركة الشعب الفلسطيني ومعاناته الشديدة. فظهور عمر رضي الله عنه في الزمان الحاضر في مدينة القدس والتزامه بصورته المعهودة عليه، ما هما إلا رمز الخلاص من المعاناة، وهذا ما يحتاج إليه الإنسان الفلسطيني: «إنه.. الخلاص الأكبر، هو ما كنت أبحث عنه» (٥).

كما يظهر الزمان الحاضر الرغبة الملحة للصهاينة المحتلين في استمرار سحق الشعب الفلسطيني حتى تبقى لهم السلطة في القدس، وهذا يجعلهم ينكلون بكل من تسول له نفسه محاربة سلطة الاحتلال وكيانه، وحتى اليهود الذين تلين قلوبهم للمسلمين فهم يعرضون للقتل والتعذيب، وهذا ما حصل مع المخبرة راشيل عندما أحس العدو بأنها تميل إلى عمر «في مساء اليوم الذي دفنت فيه راشيل وُجد إيلي منتحرا في حجرته» (٦).

وعندما يعود الزمان إلى الوراء، عبر تذكر عمر لأيامه زمان الخلافة، إنما هو حنين السارد إلى عودة مثل ذلك العهد الزاهر، حيث تسود العدالة، وينتشر الحق، وينتهي الظلم. إنه يحيل إلى أن سبيل الهداية والرشد هو الذي كان عليه الأسلاف الصالحون، حيث التمسك بالدين، والتشبث بالمبادئ، والثبات على الحق، وهو السبيل للتخلص من العذاب والمعاناة. «جاء لرشدنا فنسير على هدى الله» (٧).

كما أن الاسترجاع كشف عن استمرار اليهود منذ زمن بعيد في دسائسهم وخداعهم، وكيدهم للإسلام والمسلمين: «هم دائما هكذا.. يلجأون إلى أخس الحيل وأدناها.. أنا أعرفهم من قديم» (٨).

إن الزمان يؤشر إلى أن ما وصل إليه الفلسطينيون من هزائم متوالية هو نتيجة للتعلق بالمناصب، والأنانية، وهذا ما بدا واضحا من قول خطيب المسجد: «ماذا سيكون موقفي أمام السلطات الإسرائيلية، سيتهمونني بالمشاركة في تدبير مؤامرة.. وأنا مسؤول هنا عن أسرتي وأولادي وأموالي» (٩).

ولعل الكاتب من خلال لجوئه أحيانا إلى الماضي إنما هو رغبة في حفز المتلقي على مواكبة الأحداث، والمقارنة بين الماضي والحاضر، الماضي حيث كانت القدس تنعم بالحرية، وكان المسلمون متألقين يرشدون العالم إلى الهداية والخير، وبين الحاضر الذي تشهد فيه شتى أنواع المعاناة، رغم التشدق بحقوق الإنسان. «القوة في أيديكم لقهر المساكين، والحرية دعارة، والعلم تحكيم للأنانية» (١٠).

ولأجل دفع القارئ إلى اختيار الموقف المناسب، والخط الذي ينبغي اتخاذه «لو بلغنا من العلم الدنيوي ما بلغتم، لما استغرقت هداية العالم منا أكثر من بضعة شهور، ولأخذنا الناس بالجادة. ويبدو أن زعماء العالم اليوم لا يستغلون ما وهبهم الله من قدرات إلا لجركم إلى الانحراف والخنوع والغرور» (١١).

ورغم ما يعانيه الناس من قمع وتقتيل وتشريد، فإن الأمل موجود دائما، رغم صعوبة مناله. فسيأتي رجل أو رجال مثل عمر ليحققوا الاستقلال، وهذا ما يظهر من قول السارد: «ماذا لو مات الخليفة أثناء العملية؟ الحدث الكبير ينتهي هكذا بسرعة، وتجهض آمالي العريضة» (١٢).

٢- المكان: يعمل المكان على تنظيم تفاصيل الأحداث، والربط بينها، والحفاظ على انسجامها. كما أن له تأثيرا عميقا في الشخصية، مما يخلق أبعادا دلالية. وإذا كان المكان العام في الرواية هو مدينة القدس وضواحيها، فإن هناك أمكنة متنوعة تفرعت عنها، ومنها ما هو مفتوح كالطريق المؤدي إلى القدس، أو شوارعها، وبواباتها. ومنها أماكن مغلقة، كالسجن والبيت والمستشفى ومكاتب المحققين.

وتبقى هذه الأماكن عديمة القيمة ما لم ترتبط بتحرك الشخصيات وبتجربة الحياة للسارد والفدائيين، وعمر، والاحتلال، وراشيل الفتاة الإسرائيلية، وإيلي، ودافيد المخبرَين في الأمن الصهيوني، وضباط الأمن والمحققين، فهذا هو الذي يعطي للمكان حضوره، وبعده النفسي، وتأثيره في من يعيش فيه. «فالمكان سواء كان مدرسة، أو سجنا، أو مستشفى، يظل هيكلا ماديا مجردا من أي قيمة اجتماعية أو مؤسساتية معينة ما لم يكن حاضنا لتجربة إنسانية معينة» (١٣).

وتحركت الصحف والقنوات الإعلامية للحديث عن عمر، وإطلاق الإشاعات عنه من أجل تلطيخ سمعته، وإثارة الشك في نفوس الفدائيين حوله، وتحريض السلطات على اعتقاله والتحقيق معه ومعرفة حقيقته، وبالتالي التخلص منه لأنه يشكل خطرا حقيقيا على استقرار أمنها. «هل يخطر ببالك أننا سنشيع عنه أنه عميل صهيوني، يخدم أهدافنا المشتركة مع أمريكا. ولك أن تقدري الرد العنيف بين العرب والمسلمين قاطبة... ولسوف ننشر تصريحات محرفة على لسانه تتعلق بالدين والسياسة» (١٤).

لقد كان لكلام عمر الصريح والحقيقي مع الصحافيين والمحققين أثر بالغ، يهز كيان العدو مهما كانت سلطته، وشدته: «دارت رأس الصحافية، لمعت في عينيها دمعتان، ارتجف جسدها، صاحت مستنجدة: هيا بنا يا أستاذ. أكاد أسقط إغماء، وأوشك أن أؤمن بهذا الرجل» (١٥).

والمعتقل، كمكان، لعب دورا بارزا في الرواية، حيث كان سببا في الكشف عن رسائل للفدائيين، غاب أمرها بعدما قبض على صاحبها وألقي في السجن. فعندما كان عمر في المعتقل همس إليه أحد الفدائيين بهذا السر،

الذي كان ينتظره الفدائيون منذ زمن طويل. «هذا نبأ سار كنا ننتظر هذه الرسالة منذ وقت طويل. لقد انتظرنا حامل هذه الرسالة طوال هذه الفترة دون جدوى، فرجحنا أنه قتل أثناء عبور خط النار» (١٦).

إن مدينة القدس بطبيعتها المحتلة، مكان حاضن للأحداث ومنتج لها من جهة، ومن جهة ثانية هي مكان يعادي الإنسان، لأنه يفتقد فيه الأمن. ولذلك، فإن التجربة المعيشية في المكان تجربة صعبة ومؤلمة، لأنه مكان للقمع والإحباط والتعذيب، فالعدو مارس كل أشكال القمع والتعذيب في حق أهل القدس. «كم من امرأة، وكم طفلا، وكم شيخا الآن يقاسون الحرمان والجوع. فلسطين الآن مجموعة من المشردين أو المحاربين أو السجناء» (١٧).

كما يتميز المكان بالعديد من التقابلات، فالمنفتح يقابل المغلق: الطريق والبوابة يقابلان السجن ومكاتب التحقيق والمستشفى، والمكان البسيط يقابل المركب، فبيت السارد البسيط في أثاثه وشكله، يقابله بيت راشيل الذي يبدو عليه الغنى والترف. وبهذا يتحول المكان من البعد المادي إلى البعد الاجتماعي والثقافي والسياسي في علاقة الإنسان به، فالمكان المفتوح يحمل على الراحة والطمأنينة والأمل: الطريق والقدس، في حين المغلق يحمل على السأم والملل والاشمئزاز والنفور: السجن ومكاتب المحققين والشرطة.

وقد قدم السارد الأماكن المتناقضة في بنية متحركة ومتحولة، حيث علاقة الإنسان بالأمكنة تتحدد في كونها توفر له الحماية، أو تقهره. فالمكان تلتحم فيه فكرة الألفة والعدائية، الطمأنينة والخوف. فتناول المكان بهذه الكيفية يعد موقفا يكشف آليات الصراع، وعمق التناقضات التي أدت إلى تصاعد نبرة السرد انطلاقا من استخدام المكان المغلق بوصفه مكانا منحازا ضد الإنسان، السجن/ الشرطة. فالمكان المغلق محكوم بالسلطة وقوانينها غير الشرعية، ومعاملاتها الوحشية. فالسلطة الصهيونية هي سلطة القهر وانعدام العدل في التعامل مع الفلسطينيين، واختلاق الأدلة للزج بهم في السجن. «نحن أساتذة العالم، ولم نعد في حاجة إلى عربي يعلمنا السلوك والآداب، أنت متهم بالتدخل في شؤون الآخرين» (١٨).

إن السجن كمكان يتميز بالمعاملة غير الإنسانية للمعتقلين، والتلذذ بمشاهد التعذيب: «دفعني السجان بغلظة وجفوة.. ثم صفعني على القفا.. ثم رفسني بحذائه الثقيل.. ثم صفعني على وجهي وأعقبها بلكمة قوية سددها إلى فكي الأسفل ترنحت على إثرها.. وأخذني على حين غرة بصفعة مباغتة. وشهقت.. وأتبعها بركلة قوية في بطني.. تهاويت بعدها على الأرض عاجزا، والألم يمزق أحشائي.. فجذبني من رباط العنق حتى انطرحت على الأرض تماما، وانقض علي كلبان مدربان أخذا ينهشان جسدي حتى مزقا سروالي وأسالا دمائي.. والزبانية يضحكون» (١٩).

فالمكان المغلق في الرواية يدل على قوة السلطة وشدتها، أما المكان المفتوح فيتوقع أن يدل على التحرر والانعتاق، إلا أنه على العكس، فالسلطة الجائرة تعم كل الأماكن، مفتوحة أو مغلقة. ولعل هذا ما يفسر قلق السارد وخوفه على المكان إذا هو استمر تحت الاحتلال، فضياع المكان هو بالضرورة ضياع لكيان الفرد وهويته وإطاره الذي لا يكون إلا به.

إن السلطة توحي بالعلوية والهيمنة، وتهدف إلى الإخضاع والإذلال، وتريد أن تجعل الشعب تابعا لأوامرها، منفذا لقوانينها. كما يظهر المكان بأنواعه، مغلقا أو مفتوحا، خوف المسلمين من الصهاينة، وعدم قدرتهم على فعل أي شيء: «تمتم عمر لقد هربا، وقلت لقد نجونا. لكزني عمر في ضيق قائلا: تصرفاتك لا تليق بمسلم، أنت شديد الخوف» (٢٠). غير أن الهدف لم يتحقق، رغم الإذلال، فلا عمر رضخ، ولا السجين خضع لها، مهما اشتدت أنواع الإهانة والتعذيب.

خاتمة: اتضح مما سبق أن الزمان والمكان في الرواية مجالان حاضنان لمختلف أنماط سلوك الشخصيات وأفعالها، وأنهما قد مكنا من فهم كل تحركاتها وتصرفاتها في وضعياتها وتفاعلاتها المختلفة، سواء كانت متوافقة متفاهمة، أو متناقضة متضاربة الأهداف، يعادي بعضها البعض الآخر.

وبذلك فهما يحملان بعدا إنسانيا، ويرسمان معالم الشخصيات وتجاربها الحياتية. إن الزمان والمكان في هذه الرواية يعكسان الجراحات العديدة الناتجة عن ممارسات سلطة العدو ضد أهل الأرض المسلوبة. والملاحظ أنهما يتقاطعان مع الواقع في العديد من القضايا: الاحتلال، الأرض، الحاضر والمستقبل. فالواقع شديد الاضطراب، والصراع محتد بين العدو وأهل الأرض المغتصبة.

الهوامش:

١- تقنيات السرد الروائي، ص٧١، يمنى العيد، ط١، دار الفارابي، بيروت ١٩٩٠.
٢- رواية «عمر يظهر في القدس»، نجيب الكيلاني، ط١ بالمغرب، مؤسسة الرسالة ٢٠٠١.
٣- تحليل الخطاب الروائي، ص٨٠، سعيد يقطين، ط٣ المركز الثقافي العربي بيروت ١٩٩٧.
٤- «عمر يظهر في القدس»، ص١٥٦.
٥- نفسه، ص١٥٢.
٦- نفسه، ص٢٦١.
٧- نفسه، ص ١٣٨.
٨- نفسه، ص ١٦٠.
٩- نفسه، ص١٣٣.
١٠- نفسه، ص٩٦.
١١- نفسه.
١٢- نفسه، ص١٠٣.
١٣- «عالم الفكر»، ص٢٢٨، عدد٣، مجلد ٤١ يناير، مارس ٢٠١٣.
١٤- الرواية، ص١٦٨.
١٥- الرواية، ص٢٠١.
١٦- الرواية، ص٧٥.
١٧- الرواية، ص٧٢.
١٨- الرواية، ص٢٨.
١٩- الرواية، ص١٤٦.
٢٠- الرواية، ص٣٠.

مقام البداية والختام

محمد عباس علي
شاعر مصري

سعت القلوب إلى رباك فشدها   نور يفيض على الوجود سلاما
محمودُ أنت، وأنت أحمدُ من سرى   ومحمد المبعوث نورا .. داما
يمضي الزمان وأنت شمسٌ، نورها   يأبى الغياب، كما الزمان أقاما
بدت الحياة على هداك سنية   غراء تعبر بالضياء ظلاما
الله أكبر قد أنار طريقنا   نورٌ أهّل فأيقظ النُّوَّاما
صلى عليك الله في عليائه   وحباك فضلا في العلا ومقاما
فسموت فوق الحادثات، وبعضها   جللٌ، يهز ممالكا وعِظاما
وملكت بالأخلاق أفئدة الورى   فرأتك أهلا وارتضتك إماما
ومددت كفك بالسلام فأينما   لاقيت سِلْما تدفع الأقداما
يا خير من عرف الزمانُ هداية   ونقاءَ نفس أبهر الأياما
من سار خلفك لا يخيب رجاؤه   فالأرض خلفك ترشد الأقواما
ويكون حبك للقلوب فريضة   ويكون ذكرك للعقول مراما
وينال من صلى عليك شفاعة   وكذاك عفو الله حيث أقاما
كنت الحبيب لمن رآك وإن جفا   أو راح يجهر بالعداء خصاما
ودعوت قومك: لا إله سوى الذي   للعالمين قد ارتضى الإسلاما
أرسيت بعدك للأنام شريعة   للنور تمنح ساحة ومقاما
أرسيت للأيام عهدا قد جرى   بين الشعوب وأرشد الحكاما
فالأمر شورى والرؤوس صغيرها   مثل الكبير مهابة ومقاما
لا فرق بين الأعجمي وغيره   مادام عفًا صالحا، قوّاما
إخوان دين، لا يفرق بيننا   شرٌ يُغير ويقطع الأرحاما
مادامت الشورى سلاح كبارنا   والعدل يرفع للظلوم حساما
ووهبت للخلد الرجال فكلها   رمزٌ يجل ويبهر الأفهاما
ومضيت تسلك بالأناة مسالكا   ترضي العقول وتقطع الأوهاما
أنت الحبيب وما لغيرك ينبغي   ذاك المقام بداية وختاما



البوابة الكبيرة

مياسة النخلاني - قاصة من اليمن



جلس على رصيف الشارع، يراقب حركة السيارات بعينين مرهقتين، فالشمس تشق طريقها إلى كبد السماء بإصرار وعناد، وفي طريقها تصب على رأسه الصغير حمم سطوتها، مسح جبينه المتعرق بكم قميصه، وهو يبلل ريقه بلعابه الجاف، فرغم أنه يمسك بزجاجات ماء باردة تذيب قلبه الصغير لكنه لا يجرؤ على فتح واحدة منها.

بمجرد توقف السيارات على امتداد الشارع، إذعانا للإشارة الحمراء، زفر هواء ساخنا من صدره المثقل بهموم توازي الجبال ثقلا وحمل ما معه وجرى إلى وسط الشارع، يلوح بأكياس المناديل الورقية وزجاجات الماء البارد من نوافذ السيارات المتوقفة على عجل.

«ابتعد من هنا»..

قالها الرجل الجالس خلف مقود سيارة أكل منها الزمن وشرب، رمقه بنظرات احتقار لا تقل اهتراء عن صفيح سيارته الصدئة، وبمجرد أن حل اللون الأخضر في اللوحة المعلقة في وسط الشارع، ألقى ببعض الشتائم وانطلق مبتعدا.

وقف الصغير على الرصيف مشدوها ونظرة حزن ممزوج بغيظ مكتوم تسبح في عينيه الصغيرتين.

«وغد!»

رددها في أعماقه بصراخ صامت وهو يبتعد عن وسط الشارع دون أن يبيع أي شيء، توارى تحت إحدى الأشجار المتناثرة على طول الشارع، وضع بضاعته جانبا وراح يشتت ذهنه وغضبه بمراقبة ما حوله في محاولة يائسة منه لابتلاع غصة تأبى أن تغادر حلقه.

فتح أحد أكياس المناديل، أخرج منها المربعات البيضاء الواحدة تلو الأخرى، فتحها ومسح بها جبينه، ووجهه، ويديه، أمسك بآخر منديل، فرده وغطى به وجهه ليترك المجال لدموعه التي عجز عن حبسها أكثر أن تداعب خديه الأسمرين، كان صوت نحيبه المكتوم كفيلا ببث التعاطف في قلوب الحجارة التي تحيط به، لكن للأسف لم يجذب انتباه أحد ممن يغدون ويذهبون من أمامه، وكأنه نكرة لا تستحق ولو الادعاء بالتعاطف، عندما تعب الصغير من البكاء نظف أنفه ورمى بالمنديل جانبا.

كان مرهقا للغاية، فهاهي الساعة تتجاوز الحادية عشرة ظهرا، ولم يحالفه الحظ بعد ببيع ما يشتري به ما يسد رمقه، أسند رأسه لجذع الشجرة، أخذ نفسا عميقا وشغل نفسه بتتبع أشعة الشمس التي تسللت من بين الأوراق التي بدأ الخريف يعبث باخضرارها وينشر الشيب بين عروقها الفتية، رفع إصبعه الصغير وأخذ يعدها، وكلما أخطأ بالعد أعاد الكرة مجددا.

تابع العد دون كلل، فتناغم الأرقام المنسابة بارتعاشة من بين شفتيه الصغيرتين أعطاه شيئا من الهدوء والسكينة التي كان يحتاجها في تلك اللحظات.

«ماذا تفعل عندك»؟!

تنامى إلى سمعه تساؤل حنون قبل أن يصل إلى العدد مائة بثلاثة أرقام:

«كنت آخذ استراحة من العمل»..

قالها بوهن وهو ينهض من مكانه، وقف على قدميه يطالع الرجل الذي اقترب منه وابتسامة تعلو ملامح وجهه، وعندما صار الرجل بجانبه جثا على ركبتيه

«اقترب مني يا صغيري»

قالها وهو يفتح له ذراعيه بشوق، ودون أن ينبس ببنت شفة رمى بجسده الصغير في حضنه كما يفعل دائما.

لوهلة اختفت الضوضاء من حوله، وطغى عليها صوت دقات قلب متسارعة، تبدد نور الشمس الساطع، ولم يعد يرى إلا هالة الضوء المنبعثة من حضن دافئ.. سحب نفسه أخيرا وحدق في وجهه بعينين دامعتين، مسح دموعه براحة يديه، وقال بصوت باك:

«لماذا تركتني ورحلت بعيدا... لماذا»؟!

طبع والده قبلة طويلة بين عينيه، وأخرى على جبينه، وثالثة على خده، أمسك بيديه الصغيرتين، وأخذ يفرك

راحتيهما برقة ويزيل عنهما الأتربة التي علقت عليهما، حينها أدرك إلى أي مدى بدأت نعومتهما تختفي، وتحل محلها خشونة نحتتها قسوة الأيام بين ثاياهما. طبع عليهما قبلة طويلة ممزوجة بالدموع، وقال وهو يعاود ضمه إليه:

«يااااه، كم كبرت يا صغيري خلال العامين اللذين أعقبا فراقي لكم»..

كان دفء حضنه كفيلاً بإزاحة الغصة التي استوطنت حلقه لشهور طويلة، أغمض عينيه واستسلم لشعور جميل، عابق بالدفء، مضت لحظات قبل أن تلتقي عينيه بعيني والده مجددا، ليعاتبه مجددا على رحيله...

«لو كان بيدي ما تركتك يا صغيري لتقاسي كل هذا، لكنها إرادة الله، وعلينا أن نمتثل لها».. قالها وهو يمسح بقايا دموع علقت على أهداب صغيره الذي لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره «آه لو تدري يا أبي كيف يسيئون معاملتي هنا، وكأني أشحت منهم، مع أني أكسب قوتي بعرق جبيني كما علمتني»، قالها بحزن لم يسع لمداراته.

«لا عليك».. قالها وهو يربت على كتفيه ليكمل بصوت حازم:

«أعلم جيدا أنك ستتخطى كل هذا، فأنت رجل يعتمد عليه، لا تدرك كم أنا فخور بك الآن، وسأظل كذلك.. فقط كن أقوى من كل تفاهاتهم ليلازمني هذا الشعور ويهون علي افتراقي عنكم»..

هز رأسه بسعادة وكأنه يعده أنه سيفعل، شعر بسعادة تتسلل إلى قلبه وهو يسمع مديح والده له، شعر حينها أن الزمن تحرك بسرعة متناهية للأمام، شهور بل أعوام توالت بثوان، وفي لحظة واحدة توسط صدره الصغير قلب رجل بالغ قادر على تحمل الشدائد، استصغر حينها الإهانة التي تلقاها قبل لحظات من رجل تافه، ويتلقاها كل يوم، ما عاد يعبأ بكل ذلك، فعليه وعد ينبغي أن يوفيه لوالده، وسيجعله فخورا به حقا..

«ابتعد من هنا، فهذا المكان يخصني»..

فتح عينيه بصعوبة بالغة، وراح يفركهما بيديه، محاولا تبين ملامح وجه صاحب الصوت الغاضب الذي أخرجه من حلم جميل، ودون أن يرد بكلمة واحدة لملم حاجياته، وغادر مسرعا يلوح بها من نوافذ السيارات قبل أن تختفي الإشارة الحمراء مجددا.

أوشكت شمس ذلك اليوم على المغيب حين قفل عائدا إلى البيت، تبدل حظه بعد أن زاره والده في تلك الإغفاءة البسيطة، باع كل ما لديه واشترى لوالدته وأخيه الصغير طعام العشاء، شعور غامر بالسعادة والأمان استوطن قلبه، فلا يزال دفء حضن والده يعبث بنبض قلبه عبثا جميلا.

توقف عند البوابة الكبيرة، التي تقع على مشارف الحي الذي يعيش فيه، وضع ما بيده جانبا، تجاوز البوابة، وعلى بعد خطوات منها من الداخل، جثا على ركبتيه وراح يمسح اللوح النظيف، وبوقار راح يقرأ الكلمات المكتوبة على اللوح.

محمد سعيد قاسم

تاريخ الوفاة ١٩٨٧/٧/١٢

صمت للحظات مستحضرا مشاعر عصفت به ذلك اليوم وكادت أن تنتزع قلبه الصغير من مكانه.

«أشتاق إليك كثيرا يا أبي»

قالها وهو يقاوم دموعا ترقرقت في عينيه، لم يراعوا يومها صراخه ولا توسلاته، وراحوا يهيلون التراب على جسد أبيه بصمت، وأخيرا حمل له الصمت ورياح المساء الباردة صوت أبيه الحنون، وهو يخبره بأنه يشتاق له أكثر، وأنه فخور به بحق.

رفع يديه، قرأ الفاتحة على روحه، ثم أخبره بكل ما حصل له خلال يومه بكلمات صامتة، وقبل أن يحل الظلام غادر المكان بهدوء كما دخله بهدوء..

وقبل أن يبتعد التفت إلى المساحة الشاسعة حيث ينام أحباب غيبهم الزمن بصمت على بعد خطوات من حيه الصاخب، ابتسم ثم واصل طريقه، شعر برغبة للعودة إلى مقاعد المدرسة التي تركها بعد رحيل والده، وصمم على تركها رغم توسلات والدته، سيعود ويعوض ما فاته، لكنه لن يترك والدته تتحمل العبء كله بمفردها، سيعمل ويدرس في آن واحد، مهما بدا الأمر صعبا سيجتازه، لأن الصعوبة لا تعني الاستحالة...

كان صباحا جميلا حين أخذ يطوي شوارع المدينة التي غادرها منذ أكثر من عشرين عاما، أوقفته الإشارة الحمراء، ولم يكد يفعل حتى وقف بجانب سيارته طفل صغير يعرض عليه أن يشتري منه زجاج ماء بارد بصوت خجول، ابتسم له وأعطاه ثمن الماء، وقبل أن ينصرف الصغير ناداه:

«هل تشعر بالعطش»؟!

أومأ له الصغير بالإيجاب بحركة خفيفة من رأسه، فأعاد له الزجاجة، وطلب منه أن يعتبرها هدية منه، ثم حيا الطفل وانطلق مبتعدا تشيعه نظرات امتنان من الصغير الذي تسمر مكانه، وهو يضم زجاجه الماء إلى صدره وكأنه يحضن صديقا عزيزا على قلبه.

وبعد وقت ليس بالطويل وصل إلى مبتغاه، أوقف سيارته أمام البوابة الكبيرة، وقف مليا وتطلع في المكان الذي تغير كثيرا منذ أن زاره آخر مرة.. تجاوزها وراح يمشي بخطوات حذرة، وكأنه يخشى أن يزعج النائمين بزيارته غير المتوقعة، وبعد لحظات ترقرقت دموعه على خديه ثم أزاح بيده التراب الذي تراكم على الحجر، وقرأ ما كتب عليها بوقار ممزوج بحنين.

«اشتقت إليك كثيرا يا أبي»..

قالها وراح ينصت باهتمام، فإذا بالصمت يحمل له صوتا زادته الأيام حنانا وهو يخبره عن مدى شوقه له وامتنانه، لأنه لم يخيب ظنه به، ابتسم وهو يستحضر حضن والده الدافئ، وسريعا امتزج نحيبه بسكون المكان.

في المفاضلة بين الشعر والنثر

د. إبراهيم نويري
أستاذ جامعي من الجزائر

يتميز الإنسان عن غيره من الخلائق بخاصية التعبير والتصوير. فهو يجيد فن التعبير عما يعتلج في نفسه وفكره من تصورات وخواطر وآراء، وتصويرها بعدة وسائل، أبرزها اللغة والكلام؛ وفي حالات أخرى نادرة يلجأ بعض الموهوبين والمبدعين إلى النحت والتصوير بالريشة...إلخ.

لكن تظل اللغة الفنية المكتوبة هي الأداة الفذة التي تخلد آراء أصحابها، وهذه اللغة الفنية الراقية من جهة السبك والنظم قد تكون شعرا وقد تكون نثرا. وقد احتدم الجدال منذ أقدم العصور، كما سجل ذلك أدباؤنا ونقادنا القدامى، حول أي الفنين أسبق من الآخر من حيث الظهور؛ وأيهما الأكثر تأثيرا في السامعين والقارئين، وأيهما الأنسب في تهريب الآراء نحو عالم الخلود؟ لأن الإبداع هو محاولة لتهريب أجمل ما في روح وفكر الكاتب إلى الخلود والبقاء. فالمبدع يخشى أن تندثر بموته أفكاره وآراؤه فيلجأ إلى التعبير والعمل على حفظ ما دونه بأي وسيلة من وسائل الحفظ. وفي هذا المقال إطلالة على بعض جوانب هذا الموضوع الطريف، الذي لا تكاد الآراء تستقر فيه على وجهة نظر واحدة.

يذهب لفيف من الباحثين والدارسين والنقاد إلى أن النثر أقدم من الشعر، وكان أكثر منه وأغزر مادة، غير أن الرواة لم يحفظوا من النثر شيئا يذكر بالقياس إلى ما حفظوا من الشعر. لأن الوزن والقافية أعانا على حفظ الشعر وروايته، بينما خلا منهما النثر، فلم يحفظ منه إلا النزر اليسير، وعلى هذا النحو أخذ القدماء يفاضلون بين الشعر والنثر، ومضى ابن رشيق القيرواني مع غيره من النقاد القدماء في هذا اللون من المفاضلة، فقدم الشعر لأن الوزن والقافية يجعلانه أشبه بالدر الذي ينتظمه العقد، على حين يشبه النثر بالدر الذي لا نظام له.

بيد أنه ينبغي أولا الوقوف أمام المقصود من لفظ أو مصطلح «النثر» في عرف النقاد ودارسي الآداب. إن النثر المراد ليس كل كلام لا ينظمه وزن ولا قافية فحسب. لأن هذا يجعله متداخلا مع الكلام العادي الذي يستعمله الناس في معاملاتهم وفي تواصلهم اليومي في الحياة العادية. أي ذاك الكلام الذي تقضى به الحاجيات. فهذا اللون من النثر لا يعني مؤرخ الأدب في قليل أو كثير إلا من زاوية محدودة منه، لها صلة بلون آخر من الأدب هو «الأدب الشعبي».

إنما النثر الذي يعنى به النقاد والدارسون ومؤرخو الآداب هو النثر الذي يمكن أن يعد أدبا.. ذاك الذي يصح أن يقال إنه فن، فيه مظهر من مظاهر الجمال، وفيه قصد إلى التأثير في النفس، فالكلام المنثور إذا فقد هاتين الخاصيتين يصبح غالبا من الكلام العادي أو المبتذل الذي لا تنطبق عليه بحال لفظة النثر، كما هو في عرف مؤرخي الآداب، وفهم النقاد والباحثين والدارسين المتخصصين.

أيهما الأصل؟

كما يميل جمع من الدارسين والنقاد إلى القول بأن الشعر أقدم عهدا من النثر، وأنه أول مظاهر الفن في الكلام أو الحديث والتواصل، لأنه متصل بالحس

والشعور والخيال، وهذه الملكات تكاد تنشأ مع الفرد. فالشعر إذن ينبعث عن الحياة الإنسانية انبعاثا يوشك أن يشبه انبعاث الضوء عن الشمس والعطر عن الزهرة.
أما النثر فهو لغة العقل ومظهر من مظاهر التفكير، وتأثير الإرادة فيه أعظم من تأثيرها في الشعر، وتأثير الرؤية فيه أعظم من تأثيرها في الشعر أيضا، فليس غريبا أن يتأخر ظهوره وأن يقترن بمظاهر أخرى طبيعية واجتماعية لا يحتاج إليها الشعر.

رأي الدكتور طه حسين:

وفي هذا السياق من السجال والتباين في الآراء يقرر الدكتور طه حسين بثقة كاملة بأن الشعر دائما هو الأقدم ظهورا؛ ذلك أننا لا نعرف أمة قديمة أو حديثة ظهر فيها النثر قبل الشعر. أو ظهر فيها النثر مع ظهور الشعر (أي في وقت مواكب) وإنما الذي نعرفه في تاريخ الآداب عامة أن الأمم تأخذ بحظها من الشعر قبل كل شيء، وتنفق من حياتها عصورا طوالا يتطور فيها الشعر، لكنها لا تكون جاهلة للنثر في هذه المرحلة جهلا تاما، ونحن نرى ذلك مثلا عند اليونان والرومان وحتى لدى الأمم الغربية الحديثة. فهي كلها تغنت ونظمت الشعر قبل أن تعرف النثر بأزمان طوال، وللقارئ أن يلتمس حقيقة ذلك من واقع الأمم والبيئات غير الراقية المعاصرة لنا، فسيجد ويرى أمما بسيطة أو بدوية تتغنى وتنظم الشعر وليس لها من النثر حظ.

ثم يحيل طه حسين القارئ على الأقاليم المصرية نفسها للتأكد من صواب رأيه، حيث يظهر الشعر العامي باللغة العامية، لكن النثر لا يظهر فيها إلا حينما تتعلم وترتقي في التعليم، وتأخذ بحظها من الثقافة والفكر والتحضر.
فالنثر إذن حسب هذا الرأي متأخر وحديث العهد قياسا بالشعر، وهو لا يظهر ولا يقوى عادة إلا حين تظهر في الجماعة وتقوى هذه الملكة التي نسميها العقل، وحين تظهر وتشيع هذه الظاهرة الاجتماعية التي نسميها الكتابة.
فالعقل يفكر ويروي ويحتاج إلى أن يعلن تفكيره وترويته، والكتابة تمكنه من أن يقيد تفكيره وترويته ويعلمها إلى الناس. ولابد من أن تظهر آثار هذه «القوة المفكرة» التي نسميها العقل في الشعر قبل ظهورها في النثر، حتى إذا ضاق الشعر بوزنه وقافيته عن تفكير العقل احتاج العقل إلى أن يتحلل في التعبير عن أغراضه من هذه القيود الشعرية من وزن وقافية ولغة خاصة، واعتماد على الخيال.
ومن هذه الحاجة التي يشعر بها العقل حين يضيق بها الشعر يظهر النثر، فيعتمد العقل على لغة التخاطب وأساليبه ليتحدث إلى الناس، ثم مايزال بهذه اللغة والأساليب يصلحها ويهذبها حتى ينشأ له فن جديد ليس شعرا وليس لغة تخاطب، وإنما هو شيء وسط بينهما، ويقوى هذا الفن شيئا فشيئا بمقدار ما يقوى العقل ويرقى حتى يتم تكوينه، فإذا هو لغة التاريخ والفلسفة والدين، وإذا هو مظهر من المظاهر الأدبية المتميزة الراقية.

ولنا رأي

بعد هذا العرض الموجز لرأيين متباينين في مسألة الشعر والنثر وأيهما الأقدم ظهورا من الآخر، يمكننا القول بأن ظهورهما متواكب ومتلازم؛ وما من أمة طالعنا آدابها وفنونها إلا وجدنا من أبرز فنون التعبير لديها: الشعر والنثر معا.
وفي كل أمة في القديم والحديث، نجد أنصارا وعشاقا للشعر، كما نجد أنصارا وعشاقا للنثر، ولعل الفارق الوحيد أن الغلبة تكون لأحد الفنين في مرحلة معينة، لكنها لا تستمر طويلا، حتى تميل الكفة للثاني وهكذا... وإذا أردنا مثالا على ذلك من تاريخ العرب أنفسهم، نجد أن الغلبة كانت للشعر طيلة العصر الجاهلي، لكن الكفة رجحت لصالح النثر في صدر الإسلام والعصر الأموي، ثم علا صوت الشعر من جديد خلال العصر العباسي الثاني على وجه أخص، وفي عصرنا هذا تراجع الشعر مرة أخرى، وفسح المجال للكتابة النثرية الفنية بشتى أشكالها، كالقصة والخاطرة والرواية والمسرحية والمقالة والسيرة الذاتية...إلخ.
وسوف يبقى لكل من الشعر والنثر في كل عصر ودهر وبيئة، عشاق ومنافحون ونوابغ، فليست المسألة إذن مفاضلة بقدر ما هي تنوع فطري في بروز المواهب التي أودعها الله الإنسان.



أحمد عبد الجواد زايدة
باحث دراسات إسلامية

التفكير في فلسفة الإصلاح واستراتيجياته أمر محوري وفاصل في نهضة أي أمة وتحول وتغيير أي مجتمع، ومفكرو الإصلاح على اختلاف مشاربهم في حركات التغيير، هم الذين يدركون كيف ينتقلون من فلسفة لأخرى ومن استراتيجية لأخرى، ويستطيعون تقييم ما سبق من مناهج وسبل في اللحظات والأوقات التاريخية، وهم الذين يحسنون صناعة التاريخ، ويوجهون دفة الحياة..

عملية الإصلاح ومسارات صناعة العمران ليست مجموعة من الأعمال الصالحة ذات اليمين والشمال.. فلا هذه فلسفة الشرع ولا هذه روح الشعائر، ولا هكذا تقول علوم الأرض المادية المستحدثة! بل قد يكون مجموع المحصلة إفسادا لا إصلاحا! تنشغل بتفصيلات طيبة عن تحقيق مرتكزات أساسية كان من الواجب أن تلتف حولها التفاصيل.

مصطلحان أساسيان تحدث الكثير من العلماء والمفكرين حول مركزيتهما كمقومين من مقومات النهضة هما: «الفروض العينية»، و«الفروض الكفائية».. والبعض عد غياب تصورات الفروض الكفائية أزمة من أزمات العقل المسلم، وسببا أساسيا لتأخر بناء الأمة ونهوضها؛ لكن ستبقى الأزمة الحقيقية في أن نعلم ونرسخ حقيقة فضل الفروض الكفائية على الفروض العينية، التي تتعلق بحقوق الأمة كلها؛ وفي هذا يقول الإمام الجويني في الغياثي تحت عنوان «منزلة فروض الكفايات»: «ثم الذي أراه أن القيام بما هو من فروض الكفايات، أحرى بإحراز الدرجات، وأعلى من فنون القربات، من فرائض الأعيان، فإن ما تعين على المتعبد المكلف لو تركه ولم يقابل أمر الشارع فيه بارتسام، اختص المأثم به، ولو أقامه فهو المثاب.

ولو فرض تعطيل فرض من فروض الكفايات، لعم المأثم على الكافة على اختلاف الرتب والدرجات، والقائم به كاف نفسَه وكافةَ المخاطبين الحرجَ والعقابَ، وآملٌ أفضلَ الثواب، ولا يهون قدرُ منَ يَحُلُّ محلَّ المسلمين أجمعين في القيام بمهم من مهمات الدين».

وأن يترسخ كذلك في ذهن المصلحين وذهن الأمة أن قيام مجموعة من الأفراد لا يعني إسقاط الإثم عن الباقين، لأن أزمات الأمة وجراحها المثخنة تكفي لجعل الفروض الكفائية فروضا عينية لعقود قادمة إن لم تكن قرونا! هذا بخلاف أن تأديتنا لبعض فروضنا العينية أصبح خاليا من مقاصدها الاجتماعية المرتبطة بمعاني الفروض الكفائية.

لم تعد أمثلة فروض الكفاية اليوم تتمثل في تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه وأداء الجماعة، فهذه وإن كانت فروض كفاية، لاشك في ذلك؛ لكن هناك كثر يقومون بها ودون عناء.. وإنما الفروض التي لم تجد من يقوم بها حد الكفاية هي واجب شهود الأمة وإخراجها لصناعة عالمية الإسلام..

وعليه فقد ارتقت اليوم بعض الواجبات الكفائية لتصبح واجبات عينية على مجموع الأمة.. منها على سبيل المثال، لا الحصر: مسارات العمران، ومقومات النهوض، وتأسيس الحضارة مع تفصيل جزئياتها لأهداف صغيرة ومتوسطة وبعيدة المدى.. ويكاد يقطع الناظر في النصوص والواقع أنها من أوجب فروض الكفايات اليوم؛ وحين يتسع مفهوم «فروض الكفايات» ويتمدد ليشمل كل

هذه الواجبات.. حينها نكون على بدايات سلم النهوض والتغيير.
قد يضيق الاستبداد على الناس في قوت حياتهم وضرورياتهم كي يظلوا دائرين في فروضهم العينية كغاية أملهم ولا يفيقون للاضطلاع بمهام فروضهم الكفائية التي إن قاموا بها لما بقيت للاستبداد قائمة، عاجلا أم آجلا.. وهنا تبقى فئة من الناس تحاول الاضطلاع بهذه الفروض.. ونجاحهم ليس مقصورا فقط على إسقاط الإثم عن الأمة في قيامهم بتلك الفروض، وإنما في إشعار الأمة وتحميلها باستمرار مسؤولية القيام بهذه الفروض الكفائية.. وأن قيام هذه الفئة بها لم يسقط عن كاهل الأمة إثم التقصير وعدم القيام.. كي تتحول الفئة إلى أمة والأمة لا تهزم.. ولا تنحصر الأمة في فئة.. والفئة يمكن أن تهزم، وقد تكون هزيمتها أحيانا بالأمة التي قيدت عقودا في أغلال الاستبداد.. هذا مثال فقط للحديث الذي ذكرته أعلاه.

هل مسارات الإصلاح متعارضة؟

في أوقات الأزمات الحرجة التي تمر بها الأمم وتعاصرها المجتمعات.. في تلك اللحظات التي يسود فيها التخبط وتتصاعد فيها أسئلة الشك وتطفو فيها علامات أو «استفهامات» الفشل على السطح.. يغدو أحيانا جلد الغير خير مفر للهروب من مواجهة النفس.. لا إعادة التفكير.. أو يصبح في بعض الأحوال الجنوح للطرف المواجه ردة الفعل المتطرفة التي يحاول الناظر إقناع نفسه أن تغييرا نحو الأصلح قد قام به.. غير أن الحقيقة لا تبدو كذلك..
الحقيقة أن من اعتاد أحادية المسار اعتاد أيضا أحادية التشخيص وأحادية النتيجة.. واعتاد قبل هذا أحادية الخيار.. أي غياب الاستراتيجية.
ومن ثم فإن السؤال الذي يلح على المصلحين والفاعلين في إصلاح مجتمعاتهم: هل مسارات الإصلاح متعارضة؟ هل النتيجة التي تعايشها بعض مجتمعاتنا الآن نتاج اتباع مسار واحد -كالسياسي- مثلا وترك المسار الدعوي؟ أو العكس؟ أو ترك العمل الفكري التأسيسي؟ أو عدم امتهان وانتهاج الحرفية والمؤسسية؟ أو... أو... أو...؟
الحقيقة: إنها كل ذلك.. ولو أردت سببا حقيقيا لجزء أساسي من الأزمة فهو غياب التشخيص وغياب الاستراتيجية المتعددة وتوازي الخيارات وتعدد المسارات.
ليس هذا فقط بمنطق الحسابات والواقعية، بل بمنطق الدين الذي نتحرك من خلال مرجعيته، حيث ينص على هذا.. وفلسفة التشريع في كل أجزائها تدل على هذا.. التوازي والتكامل؛ عمران الإنسان، وعمران الاستخلاف، وعمران السلطان.. بتواز وعلاقات جدلية طردية لا تنفك. الإحسان مع الله والإحسان مع النفس والإحسان مع الناس؛ الوازع الفطري والوازع الدياني والوازع السلطاني.
يؤسس العمل الدعوي التربوي الوعي ويغرس القيم ويؤسس لرؤية وبوصلة معرفية أساسية لوحدة أهداف المجتمعات والأمة، ويحدد للناس منظومتهم القيمية التي بها يحددون معاييرهم؛ وأهل العمل السياسي يترجمون القيم والتصورات إلى سياسات ونماذج راشدة للحكم بما يخدم المنظومة القيمية والمعرفية التي جاءوا منها؛ وأهل العمل التنموي والخيري يقومون بتطوير مهارات الناس لسد حاجاتهم حالا ومآلا؛ والمفكرون يقومون بتأسيس العمل الفكري والأطروحات التي ينهل منها أهل الدعوة والتربية والسياسة.. وهكذا في استراتيجية محددة محاورها ومرتكزاتها، وتدور جميعها في فلك محدد ببوصلة واضحة.. مع تحديد أحجام وأوزان كل حقل ومجال بدقة شديدة.
فلماذا إذن لا ندرك هذا من البدء؟ ولماذا لا ندرك أن انغماسنا في طرف دون طرف لا يعني إصلاحا، بل يكون أحيانا إفسادا يؤدي لعكس النتيجة.. ثم نأتي حين نتعرقل ونسقط فنقول: أين الخلل؟! ونكرر علامات التعجب ونستفهم عن ردود الأفعال والنتائج! ولا ندري أن بعضا من هذا أو كثيره بما كسبت أيدينا، وأننا نجني ثمار «طريقتنا الخاطئة» في الإصلاح! ثم نأتي لنقيم الخلل فنتطرف في التقييم دون إنصاف، في حين أن سبل العلاج هي ما كنتَ تُنَبه عليه دائما.. ولكن «لا تحبون الناصحين».. ويبدو أن عدم حب الناصحين قاعدة عامة على مستوى البشر والمؤسسات والكيانات والأمم..
نعيش بين أزمتين: بين مريض لا يدري أنه مريض، ولا يريد أن يسمع لنصح الطبيب؛ وبين معافى لا يريد أن يعمل وينفذ ما يراه من تصويب علات المريض وجبر ما يسببه مرض غيره.
الأول لا يعلم فيعمل بغير علم؛ والثاني يعلم.. لكنه لا يريد أن يعمل بما يمليه عليه علمه. الأول ينتظر الثاني والثاني يترقب الأول! ولا أحد يريد أن يغير قواعد اللعبة ولا أن يشق مسارا آخر في الإصلاح! في جدلية أشبه ما تكون بالهزلية التي لا تنتهي.. ويبقى السؤال: أي فارس يجسر بصهوة جواده هذه الهوة؟! أم سننتظر حتى يدفع الأول والثاني الثمن غاليا كي يتعلم الأول بماذا يعمل، ويلتزم الثاني بالعمل بما علم! وهو ما حدث ويحدث.. عسانا نتعلم.. تلك أزمة أمتنا الكبرى! ولله في خلقه شؤون، وفي أقداره وتصاريفه حكم.. ولله عاقبة الأمور.

بيوت الحكمة

هند عبدالحليم محفوظ
مدرس مساعد بكلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر

يعرف دارسو الكلاسيكيات أن البلاغة، أي فن إلقاء الخطب، كانت السلاح الرئيسي في يد كل طامح في منصب سياسي في أثينا أو روما. أما في بغداد، عاصمة الرشيد، فإن السلاح الجديد الذي لا غنى عنه هو العلم، الذي لا سبيل إلى تطويره والتقدم فيه إلا بالترجمة. ومن هنا جاء اهتمام الخلفاء العباسيين برعاية حركة الترجمة.

ومنذ القرن الثالث الهجري نشأت مؤسسات عرفت باسم بيوت الحكمة، أو خزائن الكتب، أو دور العلم، وهي أشبه ما تكون بالدوائر العلمية، أو المؤسسات الأكاديمية في وقتنا الحاضر، فهي مكتبة للمطالعة، وهي معهد للترجمة، وهي مدرسة للتثقيف والتعليم، وهي مركز للرصد ومكان للنسخ والنقل.

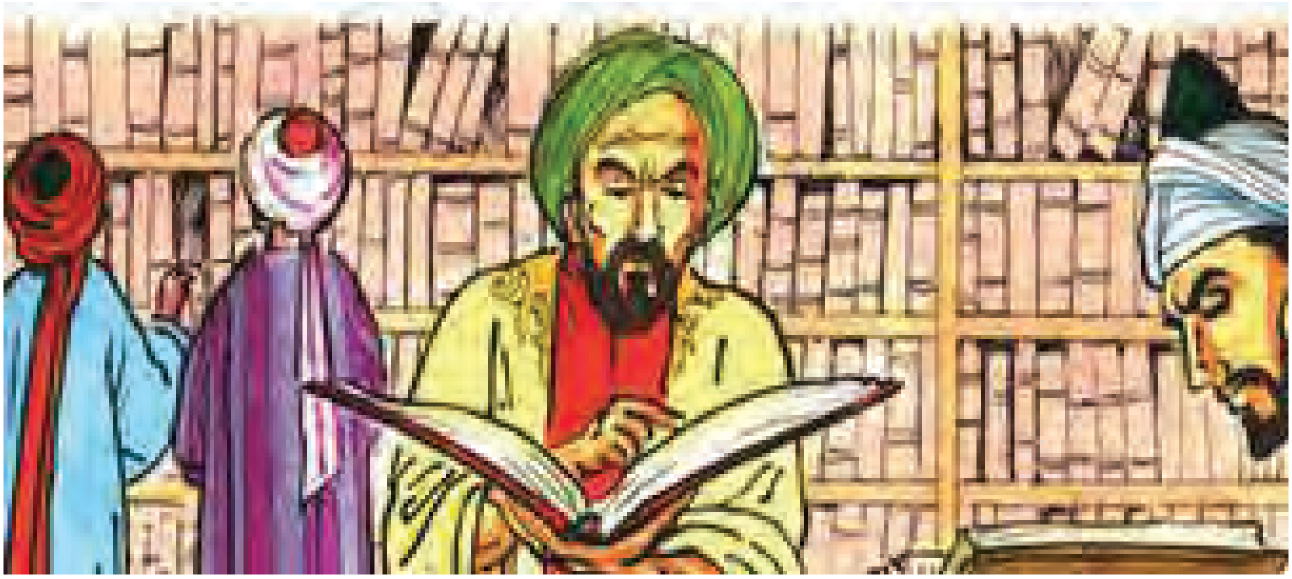
وكانت أولى هذه الدور هي «بيت الحكمة»، الذي أنشأه الخليفة المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ، ٨١٣ – ٨٣٣ م) في بغداد، وفي عصره بدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية مباشرة من دون المرور بالسريانية كلغة وسيطة. كما بدأ إصلاح الترجمات الأقدم والأقل دقة مما هو مطلوب. وكان المأمون يناظر مدعي النبوة والزنادقة وأصحاب الاتجاهات الفكرية المختلفة، وهذا يدل على سعة اطلاعه وقوة حجته. وهو الذي قرب الفلاسفة، وشجعهم، وأرسل إلى الروم يطلب الكتب، وسار كثير من الأمراء على دربه في اقتناء كتب العلوم وتقريب الحكماء. ويقر الدكتور شوقي ضيف رواية ابن النديم القائلة بأن المأمون هو الذي جلب الكتب من بلاد الروم، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم. ويقول ابن نباتة في ترجمته لسهل بن هارون: «جعله المأمون كاتبا على خزائن الحكمة، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد، فأرسلها إليه، واغتبط المأمون وجعل سهل بن هارون خازنا عليها».

وكان المأمون بليغا في خطبه، وكانت معارفه الطبية واسعة جدا حتى قال له يحيى بن أكثم: «يا أمير المؤمنين، كأنك جالينوس في معرفتك بأمور الطب».

وكان المأمون، يطلب من المغلوبين الروم المخطوطات الإغريقية في مقابل توقيع معاهدات سلام، أو الإفراج عن الأسرى.

وحين تولى الخليفة هارون الرشيد أمور الخلافة عام ٧٨٦م، وكان قد تلقى العلم في بلاد الفرس وتحت رعاية يحيى البرمكي، وكان شغوفا بالعلوم والآداب، واعتبر بعض المؤرخين أن فترة حكمه كانت العصر الذهبي للترجمة، فقد رعى العلماء الذين درسوا أو ترجموا العلوم اليونانية، وأرسل من يجوب أراضي الإمبراطورية الرومانية بحثا عن المخطوطات الإغريقية. فجلبت مادة ضخمة أصلية في علوم الطب والفلسفة، ولا سيما أرسطو والأفلاطونية الجديدة. وقد اهتم بـ «بيت الحكمة» اهتماما كبيرا، وأوقف عليه الأموال الطائلة، ونقل إليه ما وجده من كتب في أنقرة وعمورية وبلاد الروم، وعهد بإدارته إلى يوحنا بن ماسويه.

ويرى المستعرب الأمريكي (من أصل يوناني) ديمتري جوتاس أن «بيت الحكمة» هو فكرة فارسية الأصل، شكلا ومضمونا. فالعبارة «بيت الحكمة» هي ترجمة لمعنى «المكتبة» في اللغة الفارسية. ويستند جوتاس في ذلك إلى ما قاله حمزة الأصفهاني المتوفى (٣٥٠ هـ – ٩٦١م)، وكان من أوسع المؤرخين معرفة بفارس قبل الإسلام. وقال في مقدمة كتابه «الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر»: «إن الكتب النثرية التي حوت الرواية التاريخية التقليدية وقرارات الحروب وقصص المحبين



المشهورين قد أعيدت صياغتها شعرا للملوك الساسانيين وأودعت خزائن تسمى «بيوت الحكمة»، فهي إذن مكتبات ملكية». ويضيف جوتاس: «من المؤكد أن بيت الحكمة لم يكن مركزا لترجمة كتب يونانية إلى العربية. إن حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية لم تكن أبدا من نشاطات بيت الحكمة. ومن المؤكد أيضا أنه لم يكن أكاديمية لتدريس العلوم القديمة أثناء القيام بترجمتها. كان بيت الحكمة في حقيقة الأمر مكتبا إداريا عباسيا. فقد نجح في تنظيم ثقافة الترجمة الفهلوية إلى العربية».

دار الحكمة بالقاهرة

كانت المنافسة بين الفاطميين والعباسيين على أشدها في ميادين العلم والتعليم، وخلال القرن الرابع الهجري أسس العزيز بالله الفاطمي (٣٨٦هـ) دار الحكمة بالقاهرة عام ٣٩٥هـ على نحو ما كانت عليه دار الحكمة في بغداد. وذكر المقريزي: «أن الحاكم بأمر الله نقل إليها من كتب قصره، ومن خزائن القصور المعمورة بما يقدر بستمائة ألف مجلد، وبلغ عدد كتبها فيما بعد مليونا وستمائة ألف مجلد، حتى أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها».

وقد وصف المقريزي دار الحكمة وصفا جامعا، فقال: «ففي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، بعد أن فرشت الدار، وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخدم وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها، وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم، ممن يؤثرون قراءة الكتب والنظر فيها، فكان من المحاسن المأثورة أيضا التي لم يسمع بمثلها إجراء الرزق السني لمن رسم له الجلوس فيها، والخدمة لها، من فقيه وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم: فمنهم من يحضر قراءة الكتب، ومنهم من يحضر النسخ، ومنهم من يحضر التعليم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر».

و«دار العلم» هذه غير خزانة العزيز بالله التي خصصها للكتب، وليست هي أيضا خزانة المخطوطات التي كانت توجد داخل القصور. وكان في تلك الخزانة مئات الكتب، وفيها نسخة العين للخليل بن أحمد، وتاريخ الطبري، والجمهرة لابن دريد. ويقول المقريزي إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة الف كتاب، ويذكر ابن أبي مزاحم أنه كان بها ما يزيد على مائة وعشرين ألف مجلد. وقال ابن الطوير: «إن خزانة الكتب كانت تحتوي على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب بقفل بمفصلات، وبها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب».

أما بيت الحكمة القيرواني فقد أسسه إبراهيم الثاني الأغلبي (٢٦١ – ٢٦٦هـ) في مدينة رقادة، وجعل منه مكتبة ودار ترجمة، فحينما قامت دولة الأغالبة في تونس (١٨٤هـ) نافسوا عاصمة الخلافة التي كانوا يستمدون منها المدد والعون. وكان بيت الحكمة يشتمل على خزانة كتب، وقاعات لحفظ الآلات الفلكية. وكان هواة المخطوطات يأتون إليه من كل مكان لمطالعة المخطوطات ومراجعتها. وقد اتخذ الفاطميون من بيت الحكمة محلا لمجلس الدعوة الإسماعيلية ومناظرة علماء السنة. وكان الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي يرسل في كل عام سفارة إلى بغداد، ويسند إليها مهمة البحث عن نفائس الكتب، واستجلاب العلماء من العراق ومصر.

السرد القصصي في القرآن الكريم

حسين المحمد
كاتب سوري

مفهوم السرد: كلام يقوم على دعامتين أساسيتين: الأولى، وجود قصة لها أحداث معينة. والثانية، أن يعين الطريقة التي تحكى بها تلك القصة.

إذن، السرد هو الطريقة التي تروى بها القصة، وما تخضع له من مؤثرات، بعضها يتعلق بالراوي أو المروي له، وبعضها الآخر يتعلق بالقصة ذاتها.

وطبعا القصة القرآنية بعيدة عن قواعد القصة العادية، لأن الموعظة فيها تقترن بالعرض، والقاص إذا فعل ذلك فقد تجنب الصواب. والقصص القرآنية قصص من نوع خاص، فهي ليست فنا خالصا يقدمه صاحبه لا يعني فيه الجانب الخلقي، إنما هي قصص صاغها الله سبحانه وتعالى لتكون مثلا وعبرة للناس. ولو نظرنا إلى العرض الفني في القصص القرآنية لوجدنا عجبا.. ولا عجب؛ فإنه متنزل من لدن حكيم خبير، إذ لا يعلو فهم بشري ضيق الأفق، مهما علا من الإبداع، إلى أن يصل إلى شمولية الخطاب الإلهي. وإن القرآن الكريم قد اعتمد طرقا متنوعة كان من أهمها ثلاثة طرق:

أولا - سرد القصة في سورة واحدة بتفاصيلها الكاملة، وكأنها عرض لسيرة ذاتية منذ الصغر حتى الكبر بتفاصيل دقيقة ومهمة، تجعل القارئ يعيش أحداث القصة بطريقة مشوقة جدا، كقصة سيدنا يوسف عليه السلام.

ثانيا - سرد قصص متفرقة لشخص واحد في أكثر من موضع، كقصة سيدنا موسى وقصة سيدنا إبراهيم، عليهما السلام، بحيث يعرض في كل مرة جانب معين للشخصية يروي أحداثا متفرقة.

ثالثا - عرض قصص وأحداث مكتملة في سورة واحدة، كقصة أصحاب الكهف وذي القرنين ويأجوج ومأجوج وسيدنا موسى والخضر، مع توضيح الفكرة والعبرة في كل قصة.

ومن روائع السرد القصصي في القرآن الكريم نلاحظ خصوصية النظر إلى الإله، حيث ينظر إليه من جانبين أساسيين:

الأول - جانب وظيفي: يشمل الأعمال والأفعال التي يقوم بها هذا الإله.

الثاني - جانب وصفي: يشمل الأسماء والألقاب والصفات الكمالية لله سبحانه.

ولا تقتصر الشؤون السردية على صياغة المتون فقط، بل تتعدى ذلك إلى أنماط السرد، موضوعية كانت أو ذاتية أو مشتركة، وأيضا الرؤى وبؤرها، وإلى أنواع الرواة ومواقعهم وأدوارهم في الخطابات وخصائص العناصر الفنية، كل ذلك كان مجسدا بأعلى درجاته في قصص القرآن الكريم، وهذا ما يعطي السرد القصصي في القرآن حلاوته وعدم الملل مهما تكررت القصة.

والعجيب في الأمر أن أحدث ما وصل إليه الفن القصصي هو النسق الذي سار عليه السرد في القرآن الكريم. وتنزه القرآن الكريم أن يكون قصصا مجردة إنما هي عبر وأمثال. وعليه، فإن هذا السرد اكتسب، بشموليته وبتعدد أشكاله، حصانة قوية جدا من كل أشكال الملل والتكرار كما في السرد القصصي العادي، وصدق الله إذ يقول: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ ..﴾ (يوسف:٣).

فكانت كما أراد الله أحسن القصص، سردا وصوغا وعبرة وحكمة.





دور المرأة المسلمة في التنوير

د. الجيلالي سبيع
باحث ومفكر اسلامي

تعيش الأمة الإسلامية صحوة إسلامية مباركة، لا ينكرها إلا مكابر معاند، رغم الانتكاسات والابتلاءات الربانية الممحصة المعروفة، وللمرأة المسلمة دور محوري في هذه الصحوة التي لا يمكن أن تستمر ويشتد عودها إلا بإعادة الاعتبار لشقائق الرجال، وإشراكهن فيها؛ الإشراك الحسن الذي يليق بخصوصيتهن.

وقد خبا الحضور المجتمعي للمرأة المسلمة بفعل تقهقر الأمة التي تنتمي إليها، لتستعيض عن بيعة النساء وغشيان ميادين الجهاد، بالليالي الحمراء أو الأعراف المكبلة تحت ذريعة سد الذرائع..

فما حقيقة وضع المرأة بعد تحريرها في عصر الرسالة؟ وما هي أسباب انحطاطها بعد ذاك التحرر؟ وأي دور يجب أن تتبوأه في التنوير الجديد؟ في ظل تباشيره عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام بغد الإسلام المشرق، حيث قال: «والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» (صحيح البخاري).

١ – فقه المرأة المنحبس:

بعد انتكاسة سقوط الخلافة الراشدة تهاوت الأمة في دركات التخلف بالتدرج، وعلى جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فكان ذلك دافعا لتبلور أنماط من التفكير تساير الأوضاع السائدة وتسدد وتقارب لتسير عجلة الحياة وفق ما انتقض من عرى الإسلام.

والفقه المنحبس لبوس جديد لبسه الفقه إبان انحطاط الأمة، وقد تميز في تعاطيه مع قضايا المرأة بتوسعه في استعمال سد الذرائع، فكان خوف الفتنة دافعا نحو الانكماش وإصدار فتاوى تضر بالمسلمة على الخصوص، وإن كانت تلك الفتاوى مرجوحة رجحانا بينا في أصلها ودلالتها.

تقول الدكتورة رقية العلواني في توصيف الحالة الاجتماعية والأعراف المتعلقة بالمرأة في عصور التقليد المتأخرة: «وأضحى سد الذريعة سلاحا مشرعا في وجه أي دعوة لاستعادة مكانتها التي بوأها إياها الإسلام، من دعوة إلى تعليمها أو مشاركتها في الحياة العامة، فالتعليم يقتضي خروج المرأة من بيتها وخروجها فتنة، فتمنع من التعليم سدا لذرائع الفساد» (١).

ويسوق القاضي أبوبكر بن العربي في أحكام القرآن في توصيفه لحالة نساء نابلس نصا ناطقا بحال المرأة في ظل سيادة الذهنية التحوطية جاء فيه: «ولقد دخلت نيفا على قرية من برية فما رأيت أصون عيالا ولا أعف نساء من نساء نابلس التي رمي فيها الخليل عليه السلام في النار، فإني أقمت فيها أشهرا، فما رأيت امرأة في طريق نهارا إلا يوم الجمعة، فإنهن يخرجن عليها حتى يمتلئ المسجد بهن، فإذا قضيت الصلاة وأقبلن إلى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى، وسائر القرى ترى نساؤها متبرجات بزينة وعطلة منصرفات

فـي كل فـتن وعضلـة. وقـد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهن حتى استشهدن فيه» (٢).

فهل مجد عصر الرسالة امرأة بمكثها في بيتها أم أنه انقلاب في تصور الحضور الفاعل للمرأة؟، وبالعودة إلى الدكتورة رقية في وصف الحالة الاجتماعية التي كانت تحكم الذهنية الفقهية آنذاك نجدها تقول: «أما على الصعيد الاجتماعي فقد برزت الذهنية التحوطية التي تتبنى مبدأ الأخذ بالأحوط، خاصة فيما يتعلق بأحكام المرأة. وتساند هذا المبدأ فكرة العمل بسد الذريعة. وسد الذريعة سلاح دفاعي يستعمل عند تغلب مظاهر الرذيلة في المجتمعات، والتخوف من الوقوع في المحظور والفتن» (٣).

وقد تهاوى الأمر إلى أن وصل إلى مبالغات خطيرة في تعامل المجتمع مع المرأة المسلمة، وفي مثال حي يغني عن التفصيل، قال الأستاذ إحسان حقي: «ولأخذ فكرة صحيحة عن الحجاب في باكستان قبل خمسين سنة... كان الرجل إذا أراد أن يتحدث عن زوجته لا يذكر اسمها، ولا يقول زوجتي، بل يقول «التي في داري»، ولم يكن يسمح للطبيب أن يرى المرأة إذا كانت مريضة، وليس له أن يمس جسمها، بل يربطون معصمها بحبل يمسكه الطبيب من الغرفة الثانية!! وأذكر بهذه المناسبة أن صديقا لي جاءني ذات يوم وهو مكتئب، فسألته عن سبب كآبته.. فقال لي: «إن أختي أصيبت بالكساح، فسألته عن السبب.. فقال: لأنها لم تخرج من دارها منذ خلقت!! ويقول إن هذا الرجل حكى لي قصة أخته لأنه درس في لندن، وإلا فغيره لا يحدثون الغريب في أمور كهذه !!» (٤).

٢ - إعادة دور المرأة في التنوير الجديد:

حين نتحدث عن الإعادة فهذا يعني أن المرأة كان لها دور وغابت أو غيبت عنه، ويعني كذلك أنها جزء من التجديد والتنوير، ولها ثغر لا تسده إلا هي، وفي حال غيابها يضل مفتوحا ليدخل منه الردى والهوان.

فبعد العصر النبوي والراشدي، العصران الذهبيان في مسيرة المرأة المسلمة، بدأ تراجع دور المرأة عبر العصور المتلاحقة بتراجع دور الأمة التي تنتمي إليها، فغابت عن ساحات العلم والمسجد والحضور المجتمعي والجهادي..

هذا وقد وجهت انتقادات كثيرة إلى الفقه الإسلامي في أمر احتكاره من قبل الرجال الذين صاغوه وفق مقاسهم، تقول الباحثة الفلسطينية رجاء بهلول مثلا: «لا يستطيع الإنسان المغالاة في التأكيد على فكرة أن كل قراءة لأي نص من النصوص هي قراءة غير بريئة، خصوصا في مجال الدراسات الدينية التي يسيطر عليها الرجال قديما وحديثا سيطرة شبه كاملة، إن لم تكن كاملة فعلا» (٥).

بل ويذهب زكي الميلاد إلى أن الرجال سيطروا حتى على الكتابات الخاصة بالمرأة وفقهها، ويقول في فقرة أسماها نقد الأدبيات الإسلامية حول المرأة: «يلاحظ أن أغلب الكتابات الإسلامية عن المرأة جاءت من الرجل، والذي تفوق من هذه الناحية على المرأة نفسها، وهذا ما يتكشف بصورة واضحة في الأعمال التوثيقية والببلوغرافية» (٦).

والحاصل من هذا الكلام بغض النظر عن سياقه ومرماه، غياب المرأة عن ساحة الفعل، وازداد الأمر فداحة عندما غابت حتى عن ساحتها الخاصة، فأصبح الفقهاء -ولا عيب- يفتون في أمر طهارتها ولباسها وزينتها وكثير من خصوصياتها، وهنا تلام حتى هي، يقول زكي الميلاد متمما كلامه السابق: «ومن جانب آخر، قد لا يتوجه النقد هنا بالضرورة إلى الرجل الذي عبر عن رأيه وباهتمام في موضوع المرأة، بقدر ما يتوجه النقد إلى المرأة ذاتها التي لم تتول قضاياها بالقدر الكافي، أو باهتمام يفوق اهتمام الرجل» (٧).

وسواء غابت المرأة أو غيبت عن ساحة الحضور والتأثير، فصلاح الأسرة والمجتمع مرهون برجوعها وتموضعها في ثغرها والذود عنه ببسالة وعلم وحلم وصبر وأدب رفيع، ولا حديث عن التجديد والتنوير والنهضة والصحوة الراشدة إلا من هذا المنطلق.

فالمرأة نصف المجتمع المعطل حاليا، وهي الخبيرة بشؤونها وقضاياها وتفصيلات حياتها، تقول الدكتورة حسناء القطني: «فما بال المرأة اليوم، وقد انطفأت شعلتها وخبت جذوتها، وضاعت بها السبل بين مناد بحبس المرأة في البيت بدافع الغيرة على دين الله، وبين جاهر بإباحية متنكرة للفطرة وعادية على الدين؟!

واعتبارا لمركزية وحيوية دور المرأة في أي نهضة أو قومة حضارية للأمة، لابد من مقاربة أصيلة لقضيتها، تنطلق من استحضار الإرث النبوي والنماذج التاريخية الراقية لنساء عالمات ومجاهدات ومربيات، كن جزءًا من أمة سادت وانطلقت في الآفاق دعوتها...

لا تتصور نهوضا للمرأة في ظل واقع سياسي يسود فيه الاستبداد، ووضع اقتصادي يتآكل بفعل الجشع والنهب، ويحكمه منطق الريع، وواقع اجتماعي وأخلاقي تنخره الأنانيات والكراهية وحب الانتقام، وتسوق فيه الرذيلة بأبخس الأثمان» (٨).

هذا الكلام يسلط الضوء على أسباب استمرار ضمور دور المرأة في البناء المجتمعي، ويوضح لها بداية الطريق، ويتجلى الأمر في النسج على الأساسات التي بنت عليها النساء الخالدات أمجادهن، نسج بطبيعة الحال يراعي الروح لا الشكل، يقول الدكتور مسفر القحطاني: «أعتقد أن دور المرأة في المرحلة الراهنة قد تقزم وانكمش نحو الخوف على الهوية والذوبان في الآخر، ما حجم دورها وأضعف إمكاناتها التي لا توجد في كثير من المجتمعات. إن ما نملكه من قيم إسلامية ومقاصد شرعية ومنهج رباني يكفل للمرأة قدرا من التأثير ودورا في الإصلاح» (٩).

وتبقى المرأة وأخواتها مدعوات إلى الجلوس على مائدة خصوصيتهن للإدلاء برأيهن وتصورهن حول النهوض بوضعهن ووضع مجتمعهن، وبدون ذلك يبقى التنظير لأي تجديد تنظيرا أحادي الجانب، لا يلبث حينا حتى يعلو صوت يخبره بأنه بعيد كل البعد عن تطلعاته وآماله وآلامه.

يقول الأستاذ خالد العسري: «إن انسحاب المرأة من الحياة العامة كان نتيجة عرف تراكم حتى صار حجابا عن قراءة النص القرآني والسيرة النبوية في شأنها... فعلى المؤمنة اليوم مهمات التحرر من قيود التاريخ، ومن قيود تقليد نحلة الغالبين، وما ذلك إلا بالمزاوجة بين فقه النص وفقه واقع المرأة في كل الميادين.

إن المرأة هي أدرى بشأنها وبخصوصياتها، بدءا بفقه طهارتها إلى مدى قدرتها على الانخراط في شؤون المجتمع الكلية. كما أنها الأقدر على التواصل مع أخواتها في كل مجال، لا يمنع التواصل فيه حياء، أو عدم تقدير للمصاعب والمعيقات، فلن يكون من متحدث عن أوضاع المرأة خير من المرأة نفسها» (١٠).

وإذا كان اهتمام المرأة بشأنها وتقديم الحلول المناسبة من جهتها هو الأصل، فإن هذا لا يعني ترفعها عن شقيقها الرجل وعدم طلب العون منه، فكثير من القضايا ذات الاهتمام المشترك بينهما ستفرض ذاك التعاون والتشارك، أما في خصوصيات المرأة فلا ضير من المشاورة والإعانة الإرشادية الحانية حتى يشب عمرو عن الطوق، يقول المرحوم محمد فاروق النبهان: «ويجب أن نشارك المرأة في طموحها نحو الأفضل، وفي تطلعاتها لحقوق إنسانية توفر لها الكرامة، كما نؤكد على وجود سلبيات أكيدة سواء على مستوى النصوص القانونية أو على مستوى العمل القضائي، إلا أن طرق التصحيح ليست واحدة، ولا يمكن أن يكون هدم الأسرة هو الطريق السليم للتصحيح، والبعد الديني هو العامل الأهم في استقرار الأسرة» (١١).

وكل ما قيل شذرات في موضوع يحتاج إلى جهد واجتهاد مفصل طويل، لنخرج بخلاصة مفادها أن دور المرأة في التنوير المجتمعي دور محوري ومركزي، يجب أن نعي أهميته وخطورته كما عليها أن تعيه هي. تعيه ونعيه في مختلف الميادين في بناء شخصيتها والسمو بها، في تربية أجيال الأمة والأسرة، وهي المهمة الأساس، في المشاركة الفعلية في النهضة التربوية والعلمية والفكرية والتقنية لأمتها... ولن يكون كل ذاك إلا بتغيير النظرة الفكرية من جهة، والنظرة التربوية كذلك، إذ لا يكرم المرأة إلا كريم ولا يهينها إلا لئيم عار عن الدين والمروءة.. والنظرة التنزيلية التي تعرف أن أي حركة نهضوية تحتاج إلى جناحين، جناح الرجال وجناح النساء، فإذا كسر أحدهما هوى طائر التجديد والتنوير ولو بعد حين، وإذا قويا معا وشد أحدهما أزر صاحبه حلقا بعيدا؛ تشرئب أعناقهما إلى تحقيق موعود ربنا جل وعلا حين قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل:٩٧).

هوامش:

١- تقصد السيدة رقية بعصور التقليد المتأخرة الفترة المنحصرة بين بدايات العهد العثماني إلى العصر الحاضر، والمصدر هو: أثر العرف في فهم النصوص، قضايا المرأة نموذجا، د. رقية طه جابر العلواني، ص ١٤٣، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢- أحكام القرآن، أبوبكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، تحقيق رضا فرج الهمامي، ص ٣/٤٦٠، ط ١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، المكتبة العصرية، بيروت. وقد قال رحمه الله هذا الكلام في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من سورة الأحزاب.

٣- أثر العرف في فهم النصوص، قضايا المرأة نموذجا، د.رقية طه جابر العلواني، ص ١٣٦.

٤- آراء في محاضرات، إحسان حقي، ص ١٢١، ط ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥- «الاجتهاد: في سبيل فكر نسوي إسلامي» مساهمة رجاء بهلول في ملتقى جسور النساء المغربيات، ص ١١٧.

٦- الإسلام والمرأة، تجديد الفكر الديني في مسألة المرأة، زكي الميلاد، ص ٢٥.

٧- المرجع السابق، ص ٢٦.

٨- «المرأة: حضور وتأثير» مقال للدكتورة حسناء القطني بمجلة منار الهدى، ص ١١ و ١٤، العدد ١١، ربيع ٢٠٠٨م.

٩- الوعي المقاصدي، قراءة معاصرة للعمل بمقاصد الشريعة في مناحي الحياة، د.مسفر بن علي القحطاني، ص ١٧١، ط ١، ٢٠٠٨ م، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

١٠- «قراءة هادئة في موضوع المرأة الساخن» مقال للأستاذ خالد العسري بمجلة منار الهدى، ص ٢٠، العدد ١١.

١١- «أثر القيم الدينية في استقرار الأسرة في المجتمعات الإسلامية» مساهمة د.محمد فاروق النبهان في مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ص ٢١٢، الدورة الربيعية لسنة ٢٠٠١ م.

القراءة في الأسرة

محمد شعطيط
باحث دراسات أسرية



عرفت الأمة في عز نهضتها وتقدمها ولعا وشغفا شديدين بالقراءة، حتى أضحت بعض الحكايات التي تروى عن أصحابها في شدة تعلقهم بالكتاب والقراءة من النوادر التي يعجز عن بلوغها ذوو الهمم العالية من الأجيال الحاضرة. فهل من سبيل لإعادة المجد القرائي والعلمي إلى الأمة انطلاقا من اللبنة الأولى لها، وهي الأسرة، تربية وتعليما؟

لا شك في أن إشكالية العزوف عن القراءة هي إحدى أهم إشكاليات الأسر في العصر الحديث، فبعد انتشار وسائل الإعلام، وغرف الدردشة، ومواقع التسلية والترفيه، وقاعات الألعاب الإلكترونية الموجهة إلى الأطفال، قل أن تجد أحد أفراد الأسرة يحمل كتابا أو يتصفح جريدة، بل تجد الآباء والأمهات يشكون من غلبة النوم عند بداية القراءة في كتاب!

إن حل معضلة قومية مثل هذه يحتاج إلى تكاتف الجهود من كل الفاعلين والمتدخلين، سواء كانوا تربويين أو مصلحين اجتماعيين أو مراكز دراسات أو جمعيات مدنية أو غير ذلك. وحتى لا نجيد الشكوى وننكص عند تقديم النصيحة، نطرح بعض الأفكار التي يمكن أن تساهم في تشجيع الأسرة على القراءة ولفت انتباه أفرادها إلى الكتاب، سواء كان ورقيا أو إلكترونيا، خصوصا أن موضة العصر تميل إلى تفضيل الكتاب الورقي، بعد أن تبين، من خلال بعض الدراسات، أن فردا من ثلاثة، خصوصا في الدول الأوروبية، يفضل القراءة الإلكترونية على الورقية. ومن هذه الأفكار:

١ - تحبيب الكتب للأطفال منذ الصغر. فلا بأس أن يحضر الأب أو الأم بعض القصص الملونة المثيرة للانتباه مع اللعب التي تشترى للطفل، ووضعها في صوانه وتركه يكتشفها بنفسه. ولا بأس من ترك الطفل يلعب بها ويمزقها على ألا تحتوي على آيات قرآنية أو أحاديث. فمن خلال هذا التفاعل تنشأ علاقة خاصة بين الطفل والكتاب، وقد يحضر القصة ويطلب منك أن تقرأها وتشرح له مضمونها، وهنا يجب اغتنام هذه الفرصة لتقريب الطفل من صديقه الجديد (الكتاب). وليحذر الآباء ردة فعل سلبية في هذه اللحظة، كأن يكون الجواب «لا وقت لدي» أو «اذهب الآن وعد في لحظة أخرى»، بل يجب أن يكون رد الفعل لبقا وحكيما؛ حتى لا تنكسر إرادة الطفل ويخفت في قلبه باعث القراءة وحب الاستطلاع.

٢ - الاهتمام بمكتبة الأسرة وتزيينها وإظهارها بمظهر قشيب يسلب الألباب وينعش الروح، فالنفس مجبولة على حب الجمال. والكتاب الأنيق البهيج الخفيف الظريف يمتع العين قبل العقل. فالكتب المتناثرة هنا وهناك والمكتبة المبعثرة تبعث على الملل والنفور. وقد اشتهرت المكتبات الإنجليزية المنزلية بحسن تنظيمها وتنسيقها، بل صارت مفخرة للبيت الإنجليزي حتى قل أن تجد دارا إلا وفيها مكتبة بأبهى زينة وأحسن تنظيم. وهذا -للأسف- ما يدعونا إلى الاستغراب كيف يصير الكتاب في أمة «اقرأ» يتيما ويصير مبجلا عند غيرها؟! فالله المستعان.

٣ - تزويد المكتبة بكتب من شتى أنواع العلوم على أن تكون خفيفة، شهية، بهية، تؤتي فكرتها بجهد يسير وبحث قليل. فقد أظهرت الدراسات الحديثة أن الشباب في عصرنا ينفرون من الكتب الضخمة ويميلون إلى السهلة اليسيرة. وقد تنبه إلى ذلك كثير من الدعاة والمفكرين فأصدروا كتبا ميسرة تختصر أفكارهم في جداول وبيانات من دون اللجوء إلى الإسهاب في الشرح أو الإطناب في الطرح.

٤ - طبع مجموعة من عناوين المواقع الإلكترونية الهادفة على وريقات ولصقها على جدران المكتبة أو الصالة على فترات من دون مبالغة ولا إكثار مع تنويعها لتشمل مختلف ضروب المعرفة. فليس من الضروري أن يكون ابن العالم الشرعي نسخة عن والده. وكم من طفل أو شاب يود المطالعة في الشبكة لكنه لا يهتدي إلى المواقع المفيدة، بل قد يقع على بعض المواقع التي تضيع الجهد الكثير ولا يخرج منها بالفائدة المرجوة.

٥ - الاهتمام بميول كل فرد من أفراد الأسرة وإشباع رغباتهم بإحضار كتب أو مواقع أو إصدارات في شتى اهتماماتهم فهم على أية حال ليسوا نسخة طبق الأصل. وإرغام الطفل أو الشاب على القراءة في اهتمام إخوته نفسه إجحاف في حقه، وكبت لطاقاته. ولنا في وصايا الرسول الكريم ﷺ المختلفة لأصحابه وجوابه الأجوبة المختلفة عن السؤال نفسه قدوة حسنة وتربية نموذجية لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

٦ - تخصيص نزهة أسبوعية أو شهرية لورد يمكن تسميته بورد القراءة، يحضر كل فرد من أفراد الأسرة شيئا يقرأه على أن تترك لهم حرية الاختيار: كتاب، كمبيوتر، شبكة، ضبط قارئ إلكتروني.. على أن تتخلل هذه النزهة أنشطة ترفيهية من لعب وتنشيط وأناشيد أو غير ذلك.

هذا غيض من فيض مما يتسع له المقال، ولا شك في أن بعض هذه الأفكار تحتاج إلى تطوير وتفعيل وإنماء. والمهم في هذا الباب أن تحمل الأسرة هذا الهم في أن تغرس حب القراءة في نفوس أفرادها، ولن تعدم، إن شاء الله، من الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف النبيل. ولتستعن بالدعاء، ومن الله الرجاء، وأمة «اقرأ» على خير إن شاء الله.

من معالم المدرسة النبوية في تعليم الأطفال



محمد شعبان أيوب
باحث في التاريخ الإسلامي

لم يكن من المستغرب أن يعترف كثير من الغربيين ممن اطلعوا على سيرة النبي ﷺ اطلاعًا منصفًا أنه فريد وعظيم بمقاييس العلم والتاريخ المادي المجردة، التي لا يرون غيرها، ولعل الأميركي مايكل هارت صاحب كتاب «الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ» قد لخص هذه الرؤية المنصفة في مستهل كتابه ذلك بقوله: «لقد اخترت محمدًا ﷺ في أول هذه القائمة، ولابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم حق في ذلك، ولكن محمدًا ﷺ هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقا على المستوى الديني والدنيوي» (١).

ولسنا هنا بصدد تعميم مقولة هارت على كل المستشرقين أو الغربيين ممن كتبوا عن نبينا ﷺ، فهم ليسوا سواء بطبيعة الحال، لكن مقولة هارت لخصت كل ما يمكن أن يقال عن النبي ﷺ، وفي هذا المقال الموجز نقف مع المعلم الرحيم الذي لم يغب عنه في إطار النبوة وبناء الدولة ومهامه الجسام ما يلزم للنشء من عنايته واهتمامه ﷺ.

الرحمة أولا

كان نهج النبي ﷺ التربوي مع الكبير والصغير يتكئ على دعامة الرحمة والرأفة والرفق، وصدق أنس رضي الله عنه حينما قال: «كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالصبيان» (مسند البزار)، فهذه شهادة من غلام عايش النبي ﷺ عشر سنين متصلة.

هذه الرحمة المتدفقة ما كان النبي ﷺ يكتمها، بل يحرص على إظهارها وإجلائها، فعن أنس رضي الله عنه قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين من عرس فقام ﷺ قائلًا: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي» قالها ثلاث مرات (رواه البخاري).

هذه رؤيته لأضعف الناس في هذه الأمة.. الأطفال والنساء، رؤية تقوم على الرحمة والرأفة المتدفقة التي لا تنحصر معانيها أو مشاعرها بين جنبات نفسه، وفي طيات صدره، ولذلك كان نهجه في التعامل مع الأولاد الصغار قائمًا على المداعبة والتبسم، بل والحنو الزائد، وإن كان في صلاته! فهذه حفيدته أمامة بنت زينب- رضي الله عنهما- كان ﷺ يصلي وهو حاملها، «فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها» (رواه البخاري).

وهذا لعبه ﷺ مع الحسين بن علي- رضي الله عنهما- على مرأى ومسمع من الصحابة، وفي مجتمع المدينة الذي كانت تحوطه قبل الإسلام النزعة الرجولية المتشددة، فعن

يعلى العامري أنه خرج مع رسول الله ﷺ إلى طعام دعوا له، قال: فاستقبل رسول الله ﷺ أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه. قال: فطفق الصبي ههنا مرة وههنا مرة، فجعل رسول الله ﷺ يضاحكه حتى أخذه. قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه فقبله، وقال: «حسين مني، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينًا، حسين سبط من الأسباط» (رواه أحمد).

ولقد تجلت هذه الرحمة النبوية في أبسط الأشياء وأدقها، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري، ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز» (رواه البخاري). قال الإمام المناوي في شرح هذا الحديث: ولا تعذبوهم بالغمز، الغمز هو عصر الأصابع وشدتها على الشيء(٢). ومنها ما رواه ابن عمر عن النبي ﷺ «أنه كره القزع(٣) للصبيان» (رواه أحمد).

الإيمان بالله قاعدة التعليم

أساس العلم ومداره الإيمان بالله وعدم الإشراك به، فلقد حرص النبي ﷺ على زرع الإيمان في نفوس أولئك الصغار؛ بغية إشراكهم في النهضة والقيام بالدين الجديد، ولم يكن نوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وهو فتى لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره- في فراش النبي ﷺ في عملية فدائية لم يكن من المستبعد فيها موته واستشهاده، إلا ثمرة من ثمرات التربية النبوية الإيمانية، التي لم تعرف في الوجود إلا الله ربًا معبودًا خالقًا وحده لا شريك له.

الإيمان إذن كان أولى درجات النهضة المنشودة، والتربية المستهدفة في ذلك الجيل، ولقد أمدتنا كتب الحديث الشريف وسيرة النبي ﷺ بمعلومات ومواقف وحوادث كثيرة، يضيق المقام عن استيعابها.

لم يكن النبي ﷺ ينتظر كثيرًا، فحينما يصل الولد إلى مرحلة «الإفصاح» والكلام والفهم يسرع ﷺ في بنائه إيمانيًا بناء جديدًا، وهذا ما يرويه التابعي الجليل عمرو ابن شعيب (ت١١٨هـ) بقوله: «كان الغلام إذا أفصح من بني عبد المطلب علمه النبي ﷺ هذه الآية سبع مرات؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ (الإسراء: ١١١) (مصنف ابن أبي شيبة).

فالنبي ﷺ يخاف على هؤلاء الأشبال أن يربوا على ما ربي عليه آباؤهم وأجدادهم من قبل في الجاهلية، بل يسرع ﷺ ليعلمهم آية من كتاب الله- عز وجل- فيها معاني الوحدانية المطلقة لله سبحانه وتعالى، والكبرياء والعظمة والإحاطة.

وهذا ما يؤكده أحد الصحابة ممن عاصروا منهج التربية النبوية صغيرًا في إحكام العقيدة الصحيحة في قلوب الأطفال، وهم صغار لا يفقهون من الإسلام والحياة شيئًا، وهو جندب بن عبدالله البجلي الذي قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة (٤)، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، فازددنا به إيمانا» (سنن ابن ماجه).

وهذا دليل آخر على وجوب تعليم الفتى والفتاة الإيمان والتوحيد بصورة ميسرة مبسطة، فيها النقاش والعيش في عالم هذا الطفل الصغير، ثم تأتي مرحلة حفظ كتاب الله عز وجل، وهي المرحلة التي قال عنها الصحابي الجليل جندب بن عبد الله: فازددنا به إيمانًا. أي: ارتقوا من مرحلة التعرف على الله- عز وجل- إلى مرحلة اليقين به والتوكل عليه.

ثم تأتي مرحلة الحوار الجاد الذي يكلل المرحلتين السابقتين بالغرس الصحيح، وهي مرحلة الاقتراب من هذا الصغير وإشراكه في العملية الإيمانية والعقدية بالنقاش والتوجيه من خلال القدوة والأسوة، وهذه المرحلة يمثلها بكل وضوح الصحابي الجليل عبدالله بن عباس-رضي الله عنهما- الذي يقول: قال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف بالله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئًا لم يرد الله أن يعطيك لم يقدروا عليه، أو يصرفوا عنك شيئًا أراد أن يصيبك به لم يقدروا على ذلك، فإذا سألت فسل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، واعلم أن القلم قد جرى بما هو كائن» (رواه الطبراني).

فتى صغير يعلمه النبي ﷺ هذا المعتقد الواضح الراسخ، يعلمه أن الكون كله بيد الله وحده، فهو النافع والضار، يردف الفتى حبر الأمة فيما بعد خلف النبي ﷺ ليسمعه أساس العلم وقاعدته.. العقيدة الصحيحة الصافية، القائمة على توحيد الله والاستعانة به والرضا بقضائه، ليس من المستغرب أن هذه الكلمات قد صارت من أهم دعائم مؤلفات العقائد والأصول في تاريخ التراث الإسلامي فيما بعد.

إننا لا يمكن في هذا المقال المقتضب عن بعض معالم «المدرسة النبوية في تعليم النشء والأطفال» أن نستوعب إلا شيئًا قليلًا للغاية من هذه المدرسة النبوية العظيمة، العميقة القيم والمواقف، مدرسة لانزال نتعلم منها، وستظل الأمة كلها كبيرها وصغيرها تنهل منها مادام في الأرض إسلام وإيمان، فصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

هوامش

(١) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ، ترجمة أنيس منصور، ص١٣.

(٢) المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣/٦٥٣.

(٣) القزع: أن يحلق رأس الصبي، ويترك منه مواضع متفرقة غير محلوقة.

(٤) جمع الحزور: وهو الغلام إذا اشتد وقوي.



إرشادات في تربية البنات

د. خالد سعد النجار
طبيب مصري

تؤدي الأجواء الأسرية دورا حاسما في تربية البنات، بخلاف تربية البنين، وهذا بحكم انطوائية البنات وارتباطهن أكثر بالأسرة، بخلاف البنين، الذين يجدون متنفسا معقولا خارج النطاق الأسري، خصوصا في فترة المراهقة وما يليها. ومن هذا المنطلق، فإن الأنماط الأسرية لها بصمة لا يستهان بها في تكوين شخصية البنت، بل إن بصمة الأم أكثر تأثيرا عن غيرها من أفراد الأسرة؛ لالتصاق البنت بأمها، سلوكيا ووجدانيا. إضافة إلى كل هذا لا نستطيع أن نهمل المشاعر الحساسة للبنات، والتأثر المفرط بكل ما يدور حولهن، وهذا وإن كان من طبيعة المرأة الفطرية إلا أنه عامل شديد الحساسية في حياة البنات، وبالأخص المراهقات.

الأم الصارمة أو الجافية، الدلال الزائد، فقدان الأم، زوج الأم الجافي، التفكك الأسري.. كلها مطبات تربوية تترك أثرا كئيبا على الصفحة البيضاء الناصعة لنفسية بناتنا، وتوتر أحاسيسهن بدرجات متفاوتة قد تصل إلى منعطفات نفسية كارثية، وتربك الإشباع العاطفي والنفسي للفتاة، وتوقعها ضحية لأفكار سوداء، أو للتمرد والعناد، وكل هذا ينتج «حطام أنثى» أو ما يعرف بالانتحار الذاتي.

إن البنت عندما تتأثر عاطفتها نجد منها الانطوائية والانكفاء على الذات مع عدم الثقة بالنفس وفقدان المقدرة على اكتساب مختلف المهارات الاجتماعية التي تصوغ شخصيتها وأنوثتها لاحقا فيما يعرف بالعزلة الشعورية.

وقد تصبح الفتاة أكثر تأثرا بآراء الآخرين تزامنا مع قلة الثقة بنفسها، وهذا ما يجعلها تنفجر أمام مواقف عادية لعدم قدرتها على احتوائها. كما أنها تتصور المواقف والكلمات كلها ضدها، وهذا ما يجعلها دائمة التوتر أمام أدنى إشارة أو لفتة، وتجدها تعترض على سلوكيات الأم والأخوات، وكثيرا ما يؤدي هذا الاعتراض إلى البكاء والتأثر السريع والشديد. ثم إن أدنى اندفاع يسبب لها الشعور باليأس والإحباط العميق لضعف القدرة على التكيف العقلاني مع الظروف والأحداث، وربما تحاول الفتاة إرضاء الآخرين بطرق مختلفة، خصوصا بعد أن تحدث مواقف متشنجة، فإذا كانت الأم تجهل آلية احتواء البنت ومر الموقف من دون اكتراث منها أو إبداء اهتمام، انعكس ذلك سلبا على الفتاة وسبب لها جراحات نفسية من الصعب أن تندمل.

فنون إرشادية

- خريطة الذات نرسمها -ابتداء- من صورة الآخرين عنا. ولذلك، من المهم جدا عدم التركيز بصورة مباشرة على المنعطفات النفسية والسلوكية السلبية للبنت، وهذا يشمل تجنب النقد اللاذع والاتهامات المتكررة والمراقبة الدائمة التي تشعرها بانتهاك خصوصيتها، بل إن تدعيم الصفات الحميدة يفتح شهية البنت ذات الحس المرهف ونفسيتها إلى تقبل النقد البناء، والانسجام مع محاولات التخلص من السلبيات، والانخراط الإيجابي مع الواقع المحيط، وتفريغ مشاعرها وأحاسيسها بصورة سليمة.

- الحجاب الشرعي، الثقة المنضبطة، المصارحة حتى في المواضيع الحساسة، الحب القائم على الاحترام، القدوة النموذجية، المشاركة الوجدانية.. كلها إيجابيات تربوية وبلسم يذيب كل العقد النفسية والمشكلات السلوكية التي تنتاب بناتنا المرهفات في فترات عمرهن المختلفة.

- استشارتها في ما يناسبها من قضايا ويلائم مرحلتها العمرية والفكرية، وهذا من شأنه أن يفتح جسور التواصل، ويدعم ثقتها بنفسها، ويدربها على اتخاذ القرار ومهارات النقاش.

- تؤدي الأم الدور الكبير مع ابنتها المراهقة، إذ تنتهي قوانين الطفولة الصارمة لتبدأ مرحلة الحوار المفتوح في كل ما يخص الشابة اليافعة، مع الانتباه إلى ضرورة ترك مجال لخصوصيتها الشخصية غير المخدشة للحياء، كالانفراد المعقول في غرفتها، وترك الحرية لها في ترتيبها، واقتناء الأشياء التي تشبع دافع الفضول لديها، وبالتالي ندعم خصوصيتها وهويتها الشخصية التي تساعدها في ترسيخ جوانب الإبداع في حياتها، والتفريق بين ما ينبغي وما لا ينبغي، لأن المراهق أشبه بالصغير الذي يتعلم المشي لأول مرة ويستفيد من كبواته في إتقان توازن جسمه.

- التدريب على حفظ الأسرار، خصوصا الأسرار الأسرية لما لها من صلة يومية مباشرة بكل أفراد الأسرة، فليس كل ما يُعلم يقال. ومن رجاحة العقل ترتيب المنطق.. عن أنس رضي الله عنه قال: أتى علي رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان. فسلم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة. قالت ما حاجته؟ قلت: إنها سر. قالت: لا تحدثن بسر رسول الله ﷺ أحدا. (رواه مسلم).

- يقول الإمام عبدالحميد بن باديس رحمه الله: «إذا علمت ولدا فقد علمت فردا، وإذا علمت بنتا فقد علمت أمة». وتعليم البنت ليس محصورا في حشو الدماغ بالمقررات الدراسية، بل هو مفهوم أرفع وأرحب من هذا بكثير.. إنه تعليم يقوم على تنشئة أنثى سوية في نفسيتها وسلوكياتها، أنثى تعرف أبجديات العفة والأمومة وفنون الحياة الأسرية والزوجية، وهذا يتطلب أولا من الآباء تعديل نظرتهم إلى البنت الرقيقة وأم المستقبل، وإعطاءها قدرها وحقها من الرعاية كما يرتضيه ديننا وقيمنا.. دخل عمرو بن العاص على معاوية -رضي الله عنهما- وعنده ابنته عائشة. فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تفاحة القلب. قال: انبذها عنك فإنهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء ويورثن الضغائن. قال: لا تقل هذا يا عمرو، فوالله ما مرض المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الأحزان إلا هن، وإنك لواجد خالا قد نفعه بنو أخته. فقال عمرو: ما أراك يا أمير المؤمنين إلا وقد حببتهن إلي بعد بغضي لهن (١).

وخطب صعصعة بن معاوية إلى عامر ابن الظرب (حكيم العرب) ابنته عمرة، وهي أم عامر بن صعصعة، فقال: يا صعصعة، إنك أتيتني تشتري مني كبدي، وأرحم ولدي عندي، والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب. وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك.

والبنت المراهقة -خاصة- ترى في أبيها الباب الذي تدخل منه إلى عالم الرجال، والهادي الأمين الذي يبصرها بضروب الرجولة وسماتها. ومن هذا المنطلق ينبثق دور الأب التربوي في حياة ابنته الشابة، فهو محور حياتها الذي باستطاعته أن ينبت لنا زوجة وأما مثالية، أو على النقيض: امرأة معقدة تكره كل ما يمت إلى الرجولة بصلة.

- قضية المساواة بين الأولاد وعدم التمييز بين الولد والبنت من أهم الأمور التي ينبغي أن نوليها اهتماما بالغا، لما عكر صفوها كثير من التقاليد البالية التي تكسر نفسية البنت وتفقدها الثقة بجنسها، بل ربما تتنكر لأنوثتها، فتفرز المرأة الرجولية. ولذلك، لا غرابة في أن نجد شريعتنا السمحة تولي هذه القضية عناية خاصة، فقال ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم في النحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف» (رواه الطبراني). فلا يوجد صاحب ديانة وخلق ديدنه الظلم والجور، كما أن انتظام المعاش والمعاد إنما يدور مع العدل، والتفاضل بينهم يجر إلى الشحناء والتباغض ومحبة بعضهم له وبغض بعضهم إياه، وينشأ عن ذلك العقوق ومنع الحقوق.

- سلطة الابن الأكبر في غياب الوالد، بالسفر أو الموت، من أكبر المشكلات التي تواجه البنت في أسرنا العربية، خصوصا أن مجتمعاتنا العربية غالبا ما تعلي من شأن الذكر وتفضله على الأنثى، ومعظم الأسر تغرس هذه النظرة الجائرة، مما يجعل الولد ينظر إلى أخته على أنها مخلوق أدنى منه، والشيء نفسه لدى البنت التي تعتقد أنها أدنى من أخيها، وأنه أفضل مكانة، بالإضافة إلى حب التسلط لدى الابن الأكبر الذي يرى التحكم في قرارات الأسرة نوعا من الإحساس برجولته وسيادته، الأمر الذي ينعكس سلبا على البنت كسيرة الجناح، وقد يصل بها الأمر إلى رفض الرجال عموما، ونبذ فكرة الزواج خصوصا.

- الجوال، الإنترنت، وبالأخص مواقع التواصل الاجتماعي والشات.. أصدقاء جدد حلوا في حياة أبنائنا، بالإضافة إلى أصدقاء المدرسة والجيران والأقارب، فالحذر الحذر، والحرص الحرص، والمراقبة المعقولة من دون تخوين أو تشكيك. أما إذا علم الوالدان من بنتهما شرا أو فسادا فلا مانع مطلقا من تتبع تصرفاتها لمنع هذا الشر وتجنب شر وفساد أكبر وأعظم.. فالحذر من انفراد الأولاد بالإنترنت في غرف مغلقة، بل يوضع جهاز الكمبيوتر في مكان بارز حيث أفراد الأسرة يروحون ذهابا وإيابا، وينطبق هذا الكلام على منع السهر على الإنترنت بينما أفراد الأسرة نائمون، وأن تكون جميع مواقع التواصل والبريد الإلكتروني بكلمة سر معلومة للوالدين. والمحك الإيماني مهم في هذا الموضوع، بتربية الأبناء على مخافة الله، في السر والعلن، وتقديم القدوة الإيمانية الطيبة في الوالدين، مع المزيد من الحنان والصراحة كي لا يشرد فلذات أكبادنا إلى محاضن أخرى خداعة تستقطبهم وتهلكهم.

---

١ - ثمار القلوب للثعالبي (٣٤١/١).

التنوع الإسلامي في الغرب وإشكالية المرجعية الدينية



د. حسن عزوزي
رئيس تحرير مجلة كلية الشريعة بفاس

من الواضح أن الاهتمام قد تزايد في الآونة الأخيرة بقضايا الهجرة والوجود الإسلامي في الغرب، ويعود هذا الاهتمام إلى كون الجاليات الإسلامية المتنوعة قد ظلت مرتبطة بجذورها وأوطانها؛ ما جعلها في تأثر دائم وصلة مستمرة ببلدانها الأصلية، وهو ما شكل ولا يزال للدول الغربية عائقا أمام سياسات الإدماج المتبعة تجاه هذه الجاليات، خصوصا في صفوف الشباب، ولا ينكر أحد أن الوجود الإسلامي في الغرب بواقعه وقضاياه بات يمثل ثقلا بشريا وحضاريا يستأثر باهتمام القادة السياسيين والاستراتيجيين، سواء على مستوى دول العالم الإسلامي أو على مستوى الدول الغربية المضيفة.

فالإسلام أصبح حاضرا في الدول الغربية بقوة سكانية من جهة، وقوة ثقافية من جهة أخرى، وهذه القوة الثقافية أفرزت تنوعا إسلاميا هائلا يطبعه تعدد مذهبي وعقدي وثقافي قائم على مرجعيات دينية مختلفة، وقد شجع على بروز هذا التعدد كون النشاط الديني والثقافي في الأوساط الغربية مسموحا به في حدود عدم إحداث تغييرات في بنيات المجتمع، وإلى مستويات لا تسمح ببزوغ منظومة سياسية

إسلامية التوجه، والمشكلة التي ظلت قائمة ولا يمكن فهم أبعادها وتجلياتها إلا بوعي استراتيجي شمولي؛ هي أن المسألة بخصوص الإسلام ليست مسألة وجود، وإلا لما سمح للمساجد وللمؤسسات الثقافية الإسلامية وللمسلمين عموما بمكتسبات ومجالات تحرك وعمل واسعة، بل المسألة مسألة مرجعية، حيث إن المرجعيات الدينية مختلفة ومتعددة، مما لا يسمح ببروز تمثيلية موحدة للمسلمين في الغرب.

التعددية الدينية والمذهبية

يقصد بالتعددية الدينية والمذهبية -على وجه العموم- تعدد المواقف والمناهج في فهم الدين وممارسته على مستوى العقيدة والتشريع، وهو يعني ضمنيا الاعتراف بوجود تنوع في الانتماء الديني في المجتمع الواحد، مع احترام هذا التنوع وقبول ما يترتب عليه من اختلاف. وهو ما يتضمن أيضا الإقرار بمبدأ أن لا أحد يستطيع نفي أحد، أو التعصب لمرجعية دينية ضد مرجعيات أخرى.

وينبغي التأكيد هنا على أن تعدد المذاهب والمرجعيات الإسلامية يشكل ظاهرة طبيعية، بل هي سمة ثابتة في جميع الأديان السماوية والوضعية. لكن يبقى الإشكال في طبيعة اشتغال هذا التعدد المذهبي في فضاء غربي علماني، بعيدا عن المجتمع الإسلامي، إذ يطرح السؤال: ما حدود تقبل السلطات والمجتمعات الغربية لهذه التعددية التي قد يتم التعامل مع بعض مكوناتها؟ لكن تبقى مكونات وتوجهات أخرى مثيرة للاستفزاز بحكم تشددها أو اتخاذها لمواقف متطرفة لا تخدم مصلحة بلد الإقامة.

ويزداد الأمر سوءا عندما تبرز مجموعات تحمل توجهات وأفكارا تغييرية متطرفة تدعو إلى معاداة المجتمع الغربي ومجابهته، ويتفاقم الأمر أكثر عندما تستغل وسائل الإعلام الغربية الأحداث المتطرفة التي يقوم بها بعض أبناء الجاليات الإسلامية في الغرب، ويتم التضخيم منها بالرغم من كونها لا تمثل سوى شريحة صغيرة من المسلمين المقيمين في الغرب.

تجاذبات وتحديات

إذا كانت ظاهرة التعدد المذهبي الإسلامي في الغرب قد تعتبر من منظور محدد واحدة من سمات الغنى والثراء الفكري في مجال الاجتهاد داخل المنظومة الإسلامية، فإن الأمر يبقى كذلك ما دام ليس هنالك تطرف في الفكر، أو عنف في الممارسة، أو تعصب ضد الآخر، فتعدد المذاهب والتيارات منشؤه تعدد الأفهام، لا أن الإسلام متعدد المواقف والأحكام.

فعلى سبيل المثال يمكن الحديث عن تعدد مذهبي وثقافي يتشعب بتشعب الدول الإسلامية التي تتوفر على جاليات مهمة في البلدان الغربية، حيث يلاحظ اشتغال كل جالية بأبنائها سواء على مستوى فضاءات العبادة أو أساليب تعليم الأبناء، وكذا على مستوى التعارف والتبادل الاجتماعي. وهذا النوع من التعدد المذهبي والثقافي الذي يصاحبه اعتزاز بعادات وأعراف البلد الأصلي، وبمذهبه العقدي والفقهي؛ لا يثير إشكالا أو حرجا، كما أنه لا يبعث على القلق بالنسبة للسلطات الغربية، مادامت الممارسة الدينية والثقافية لكل طائفة تتم بهدوء، وهذا الصنف من الممارسات الدينية والثقافية لا تتردد السلطات الحكومية في دعمه وتشجيعه، دون إغفال مراقبته وتتبع مراحل تطوره.

من جهة أخرى، يعاني المسلمون من تعدد الأطراف التي تتجاذبهم من هنا وهناك، مما يشكل لهم نوعا من الاضطراب وأحيانا الانفصام، فالمسلم مطالب بالانتماء إلى عقيدته وإلى وطنه الأصلي من جهة، وإلى وطن إقامته وما يختزنه من ثقافة مغايرة من جهة أخرى، كما تذهب مذاهب وتيارات أخرى تفرض نفسها.

إن تعدد هذه الانتماءات الحضارية والثقافية والمذهبية يسهم في زيادة حدة التجاذبات التي غالبا ما تتسم بطابع الصدام والصراع، مما ينفر العديد من المسلمين من ارتياد مؤسسات التجاذب، وهذا يشكل في حد ذاته تحديا واضحا يؤثر سلبا على صورة الإسلام والمسلمين في الغرب، لأن التعدد الإسلامي عندما لا ينطبع بطابع التسامح والتآلف والتعاون يكون مثيرا لتحديات ومشاكل لها بالغ الأثر على تصرفات أبناء الجاليات الإسلامية، وعلى مجال تعامل السلطات الحكومية الغربية.

ولعل أبرز هذه التحديات:

- الاختلاف في توثيق الأعياد والمناسبات وأوقات أداء صلاة الجمعة، وغير ذلك مما يرجع إلى تضارب المواقف في اتباع الأوطان الأصلية، أو ما تتفق عليه المنظمات واتحادات المسلمين في الدول الغربية، وهو ما يعتبر مشكلا للسلطات الغربية.
- الخلافات المذهبية الناتجة عن تضارب الفتاوى والاجتهادات في أمور الدين، حيث يلاحظ أن الفتاوى التي تصدر من البلدان الأصلية، أو تلتقط عبر الفضائيات التلفزيونية، تزيد من حدة الاختلاف والتباعد بين مكونات التعدد الثقافي الإسلامي في الغرب.
- عامل اللغة، حيث تشتغل كل جالية بخصوصياتها الثقافية والحضارية واللغوية، ولكل جالية لغتها التي تعتز بها، ولا تكاد تهتم بلغة الإقامة إلا في حدود ضئيلة. ولذلك أثبتت جل الدراسات الاجتماعية أن أهم عائق في اندماج أفراد الجالية المسلمة جهلهم بلغات دول الإقامة.

– تباين المستويات الثقافية للمسلمين، فبعض الجنسيات تمكنت من الاندماج أكثر من غيرها بحكم إتقان لغة وثقافة بلد الإقامة.

– الانغلاق والانكفاء وعدم القدرة على الانفتاح والتواصل والتعارف مع الطوائف الإسلامية المغايرة، ففي هولندا مثلا نجد أن الجاليات المغربية والتركية والسورينامية والباكستانية والإندونيسية لا يكاد يتواصل بعضها ببعض، مما يفرض على سلطات الدولة التعامل والتواصل مع كل طائفة على حدة.

ومن الواضح أن هذه التحديات تنعكس سلبا على كل المبادرات الرامية إلى توحيد صفوف المسلمين، فجميع مبادرات التوحيد تبوء بالفشل لأسباب مختلفة، وقد نجد داخل أوساط الجالية الواحدة عدة هياكل مؤطرة، وكل منها لا يعترف بالأخرى، بل كل واحدة تدعي تمثيلية الجالية.

أما على مستوى الآثار السلبية لهذا التعدد في علاقة المسلمين بالآخر فأبرزها:

– ظهور المسلمين في صورة متخلفة يطبعها التعصب وعدم القدرة على التسامح.

– عدم اطمئنان السلطات الغربية إلى التمثيليات الإسلامية القائمة التي لا تعبر عن واقع الأمور.

– ضياع كثير من المصالح التي تخدم المسلمين بسبب عدم وجود تمثيلية موحدة تتحدث باسم جميع المسلمين (تمويل المدارس الخاصة، قضية الذبح الإسلامي...).

– تفويت فرص تمثيلية المسلمين في المجالس البلدية والبرلمانية بسبب انعدام تكتلات إسلامية وازنة.

في ظل مقاصد الإسلام

لا يخفى أن مقاصد الشريعة الإسلامية في بناء مجتمع المسلمين قائمة على مبادئ الوحدة والأخوة والسماحة واليسر، وهو ما يقتضي في سياق الحديث عن التعدد الإسلامي في الغرب:

– ضرورة الاستعلاء عن حالة التمحور حول الذات، شخصية كانت أم مذهبية أم إقليمية، والارتقاء إلى مستوى الاهتمام بالكيان الكلي للوجود الإسلامي في الغرب.

– العمل على تذويب الغلو والتعصب المذهبي، والارتقاء بمفهوم الاختلافات المذهبية إلى مقاصدها، وإعادتها إلى جذورها الإسلامية الصحيحة، دون تعصب، بغرض إيجاد أرضية إسلامية صلبة للتعاون والتواصل، تكون قادرة على التفاعل مع المستجدات والمتغيرات، وواعية بحجم التحديات والرهانات المفروضة.

– الحرص على تقديم صورة صحيحة عن الإسلام وثقافته، من خلال تبديد عوامل الخلاف والتعصب، خاصة في ظل حملات الإساءة للإسلام.

من جهة أخرى؛ لما كان جلب المصالح ودرء المفاسد هو المقصد العام الذي يتوجب على المسلمين في بلدان المهجر وضعه في الاعتبار، فإنه باستيعاب مقاصد الشريعة السمحة والقواعد الفقهية التي تفتح أبوابا واسعة للتعامل الإيجابي في الأوساط الغربية، ومن خلال التوفر على إطار مرجعي لسلوك وتصرفات أبناء الجاليات الإسلامية إزاء الكثير من القضايا التي تعترضها، يمكن تحويل مجموعة من المفاهيم، من مفاهيم معوقات إلى مفاهيم إيجابية ودافعة لمسار حياتهم، نحو مزيد من الاندماج الإيجابي والمشاركة الفعالة.

كما أن فقه المهجر (فقه الأقليات) ينبغي أن يرجع في أساسه إلى المبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية القاضية برفع الحرج ونبذ الخلاف المؤدي إلى التفرقة، وتنزيل حكم تغير المكان على حكم تغير الزمان، والأخذ بفقه الموازنات والمصالح المرسلة، خاصة في ظل واقع مغاير تفرض ظروف الإقامة فيه التعايش الإسلامي- الإسلامي، والاتحاد في معالجة القضايا الكبرى التي تهم جميع المسلمين، وتنطوي على مصالح عامة تستجيب لتطلعات أبناء الجاليات الإسلامية في تجاوز تام للقضايا التقليدية ذات الطابع الفردي، المتعلقة بالطعام الحلال، وثبوت الهلال وغير ذلك، إلى قضايا أكثر دلالة وأعمق أثرا، ذات صلة بحقوق المواطنة، والاندماج، والهوية الإسلامية، وتصحيح صورة الإسلام في الغرب.

أخيرا، لابد من أجل تجاوز التحديات المطروحة من أن تخرج مكونات التعدد الإسلامي في الغرب من عزلتها، وتغادر خلافاتها، والتعصب لمواقفها لكي تنخرط في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية للوجود الإسلامي في الغرب، ضمن إطار متكامل وكيان موحد، تعيش في ظله كل طائفة إيمانها وتؤدي شعائرها الدينية بطريقتها، لكن تجتمع على كلمة سواء فيما يخص القضايا العامة والمصالح المشتركة، ويبقى المسلم مطالبا بالتصرف باعتباره مواطنا، وأن يكون مطلعا على القوانين المنظمة للحياة في تلك البلاد، وفوق هذا لابد أن يسري في الجاليات الإسلامية شعور حقيقي بالانتماء إلى المجتمع الذي يعيشون فيه، دون ذوبان أو تخل عن الثوابت والمبادئ، إذ لا معنى لاندماج إيجابي يستجيب لمقتضيات الإيمان الجماعية مع وجود شباب لا ينفتحون على المجتمع بصفتهم أفرادا مسلمين ومواطنين، وإنما يتقوقعون في دوائر مغلقة، متجاهلين محيطهم الاجتماعي والثقافي، فالاندماج كفعل حر وطبيعي للتكيف مع المحيط الذي يعيش فيه الفرد، لا يتعارض بتاتا مع تأكيد الهوية والحفاظ عليها.

صياغة الاستراتيجية التنموية

هواري عبدالقادر
ماجستير إدارة الأعمال والتنمية بالجزائر

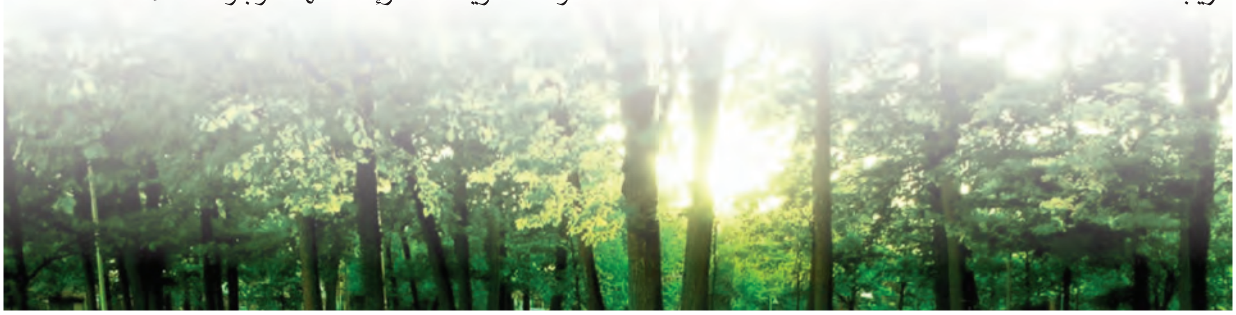
التنمية عملية شاملة تمس كل القطاعات في الدولة، من خلال البرامج المسطرة مسبقا، وبناء على معطيات تتعلق بالموارد البشرية والمادية المتوفرة، فمن خلال تقييم الإمكانات الموجودة في الدولة يمكن تحديد الأهداف المرجوة من العملية التنموية وصياغة الاستراتيجيات اللازمة لتحقيق هذه الأهداف، ويمكن قياس النجاح أو الفشل في الوصول إلى التنمية الشاملة من خلال التغيير الذي يطرأ على الحياة العامة للفرد والمجتمع ومؤسسات الدولة وقطاعاتها المختلفة.

إن صياغة استراتيجية تنموية في بلد ما؛ لابد أن تختلف عن غيرها في بلد أخر، وهذا لاختلاف معطيات كل منهما، من حيث الموارد البشرية والمادية، وكذا القيم الاجتماعية والدينية، وهو ما يرجع بطبيعة الحال إلى خاصية كل بلد، من هنا نجد أن نظرية استيراد البرامج والاستراتيجيات التنموية لا يمكن أن تنجح على أرض الواقع، لأن هذه البرامج أعدت خصيصا لبلد معين، وموجهة أساسا لمجتمع محدد، بناء على معطيات معينة، وهو ما لا يتوافق مع غيره من البلدان إلا في حالات نادرة لا يمكن الأخذ بها، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أهم قطاع تحتاجه التنموية قطاع التربية والتعليم، الذي يعمل على إعداد جيل المستقبل بما يمثله كمصنع لبناة غد الأمة، وهو ما لا يمكن بأي حال من الأحوال استيراد منظوماته وبرامجه من بلدان أخرى، نظرا لاختلاف طبائع الأفراد واختلاف القيم الاجتماعية والدينية، وتباين المستويات الثقافية والعلمية، إذن، لا بد من صياغة منظومة تتعلق بالتربية والتعليم، نابعة من مكونات الهوية الخاصة بالبلد، مطابقة لقيمه الدينية والاجتماعية، من أجل تكوين جيل أصيل بإمكانه المحافظة على هويته والاعتزاز بقيمه ونبذ ما هو غريب عنه.

من جانب آخر، لا يمكن أن تكون الاستراتيجية التنموية مبنية على المعطيات النظرية فحسب، بل يجب أن يتكفل فريق من الباحثين في كل المجالات التي تمس تنمية البلد بدراسة الإمكانات المادية والبشرية الموجودة فعلا، وتحديد الأهداف التي يمكن تحقيقها باستغلال هذه الإمكانات استغلالا أمثل، مع محاولة البحث عن الميزة التنافسية لكل قطاع، والعمل على استغلالها، وهو ما سيؤدي إلى تشغيل شبه كامل، وبالتالي تحقيق الأهداف القطاعية التي تندرج ضمن الأهداف التنموية الشاملة للدولة.

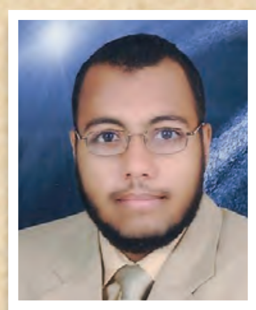
ويعتبر عامل الزمن من أهم العوامل التي يجب التركيز عليها، فلابد من تحديد الأهداف وفق رزنامة زمنية محددة، كما أن وتيرة الإنجاز لابد أن تكون سريعة لتتماشى وفق ما يتطلبه العصر، بالإضافة إلى زرع الوعي باحترام الوقت في كل المعاملات، لأنه العنصر الأساسي الذي تسير وفقه برامج التنمية في الدولة، إضافة إلى تشجيع الإبداع الذي يفجر الطاقات التي تساهم في زيادة وتعزيز المزايا التنافسية، وهو ما يخلق قيمة مضافة تعمل على تسريع تحقيق الأهداف المسطرة، وبالتالي الوصول إلى التنمية الشاملة.

إن تسطير استراتيجية تنموية لبلد ما، ليس بالأمر السهل، كما يتصوره البعض من خلال استعراض بعض التجارب الناجحة ومحاولة نسخ استراتيجياتها وتطبيقها، كما أنه ليس بالمستحيل لأن التجارب أثبتت نجاح الاستراتيجيات التنموية في الكثير من الحالات، فالسر في ذلك هو صياغة هذه الاستراتيجيات انطلاقا من واقع الأمة وإمكاناتها الفعلية، وهذا في حدود قيمها الاجتماعية والدينية، كما يمكن الاستعانة بتجارب لدول أخرى، إذا لم تتعارض مع مقومات هوية الأمة وإمكاناتها الموجودة فعلا.



نحو وعي إسلامي بدراسة التاريخ وتفسيره

مدخل إلى دراسة تاريخ الصحابة



د. أحمد خليل الشال
عضو لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي
بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
التابع لوزارة الأوقاف - مصر

إن أمرا كهذا لا تكفيه هذه المساحة الضيقة، فلقد فصلت فيه دراسات مستقلة. وإذا أردت أن أوفيه حقه فلن أستطيع في هذه العجالة، التي سأكتفي منها هنا بذكر مبادئ عامة موجزة تكون نبراسا لدارس التاريخ الإسلامي في هذا العصر، عصر الصحابة.

وقد فصلت هنا بين دولتين، الأولى: دولة الوحي والنبوة في عهد النبي ﷺ، والأخرى: دولة الخلافة الراشدة. ولهذا التفصيل دلالته عندي، ذلك أن الدارسين لهذه الحقبة - أعني عصر الصحابة بعد نبيهم ﷺ - بين فريقين: مفرط ومفرّط. فمنهم من برأهم من كل عيب ونقيصة، متأولا لهم كل شيء حتى أضفى عليهم صفة العصمة وهو لا يشعر. ومنهم من أغرقهم بالتهم والآثام حتى خلع عنهم كل فضل، فلم يعرف لأحدهم مكرمة.

وقبل كل شيء، وحتى تكون النتائج منضبطة، فإنه ينبغي لنا أولا أن نعي أننا نتكلم في ثلة من البشر ليسوا بأنبياء ولا معصومين. إذن فهم يصيبون ويخطئون. وهذا هو اعتقاد أهل السنة، وهو الحق إن شاء الله. ومن قال خلاف ذلك فقد افترى عليهم إثما مبينا(١). فهذه قاعدة عامة أرساها الشرع في البشر كافة من غير الأنبياء.

ولكن لا يعني ذلك أن نسلب ذوي المكارم منهم مكارم وفضائل خلعها الله عليهم ورسوله ﷺ، ومن يفعل ذلك فهو إما طاعن في الإسلام طبعا، أو جاهل بفضلهم شرعا. وكلاهما آثم، أن يتكلم أحد في أحد من غير معرفة الضوابط الشرعية لهذا الباب. وقد قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته. وإن لم يكن فيه، فقد بهته» (٢).

ومن أفضل مكارمهم دخولهم عامة في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ



﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفتح:٢٩).

وفي قوله ﷺ: «خير الناس -وفي رواية: أمتي- قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» (٣).

وكما سبق أن أشرت، فهذه الخيرية لا تعني العصمة والبراءة من كل ذنب وخطيئة، فإن منهم من ارتكب الذنب في عهده ﷺ، والكبيرة من بعده، ومنهم من ارتد بعد وفاته ﷺ.. فجرِّد من معنى الصحبة الشرعية، وخرج من نطاق اصطلاحها.

وهؤلاء وأمثالهم هم من قصدهم رسول الله ﷺ في قوله: «يجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول يا رب أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿.. وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة:١١٧)، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» (٤). وفي رواية أخرى: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال منكم، ثم ليختلجن (٥) دوني، فأقول: يا رب أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» (٦).

وفي رواية مسلم: «ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رأيتهم ورفعوا إلي اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب أصيحابي أصيحابي. فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» (٧).

وعلى أية حال، فإن من بقي منهم على دينه في عصره وبعد وفاته ﷺ فلم يبدل أو يغير فإنه على الأصل في هذه الخيرية وتلك العدالة التي خصت بهم وبزمانهم في قوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» (٨). ولا يماري في ذلك إلا جاهل أو جاحد. غير أنهم كانوا مع ذلك طبقات عند الله وعند رسوله ﷺ، فليسوا جميعا -رضي الله عنهم أجمعين- طبقة واحدة، وهذا أمر كان يعلمه الصحابة أنفسهم تمام العلم (٩). يدل على ذلك هذا الخبر الذي أخرجه مسلم (١٠) عن ابن شماسة المهري قال: «حضرنا عمرو بن العاص، وهو في سياقة الموت، فحول وجهه إلى الحائط يبكي طويلا، وابنه يقول له: ما يبكيك، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا، أما بشرك بكذا؟ قال: وهو في ذلك يبكي ووجهه إلى الحائط قال: ثم أقبل بوجهه إلينا، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت على أطباق ثلاث قد رأيتني ما من الناس من أحد أبغض إلي من رسول الله ﷺ ولا أحب إلي من أن أستمكن منه فأقتله، فلو مت على تلك الطبقة لكنت من أهل النار، ثم جعل الله الإسلام في قلبي، فأتيت رسول الله ﷺ لأبايعه، فقلت: ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله، قال: فبسط يده، ثم إني قبضت يدي، فقال: ما لك يا عمرو؟ قال: فقلت: أردت أن أشترط، فقال: تشترط ماذا؟ فقلت: أشترط أن يغفر لي، فقال: أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، فقد رأيتني ما من الناس أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، ولو سئلت أن أنعته ما أطقت لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني إجلالا له، فلو مت على تلك الطبقة رجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء بعد فلست أدري ما أنا فيها أو ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني، فسنوا علي التراب سنا، فإذا فرغتم من قبري، فامكثوا عند قبري قدر ما ينحر جزور، ويقسم لحمها فإني أستأنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربي».

وفي باب هذا الخبر ما أخرجه أبو داود الطيالسي (١١)، وأحمد (١٢) وغيرهما عن أبي نوفل بن أبي عقرب، قال: «جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعا شديدا، فلما رأى ذلك ابنه عبدالله بن عمرو، قال: يا أبا عبدالله، ما هذا الجزع، وقد كان رسول الله ﷺ يدنيك ويستعملك؟ قال: أي بني، قد كان ذلك، وسأخبرك عن ذلك: إني والله ما أدري أحبا كان ذلك، أم تألفا يتألفني، ولكني أشهد على رجلين أنه قد فارق الدنيا وهو يحبهما: ابن سمية (١٣)، وابن أم عبد (١٤)، فلما حدثه وضع يده موضع الغلال من ذقنه، وقال: اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا مغفرتك، وكانت تلك هجيراه حتى مات».

ففي هذين الخبرين دلالة على أن الصحابة طبقات عند الله وعند رسوله ﷺ، وأن رسول الله ﷺ أحب قوما مقطوع بغفران الله لهم، وتألف آخرين لا يدري ما الله صانع بهم. وقد يدل على ذلك قول الله عز وجل في وصف طبقات الصحابة ومعاصري النبي ﷺ وتمييزهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (التوبة:١٠٠-١٠٦). فدلت الآيات على أصناف الصحابة ومن عاصره ﷺ، وأبرزهم المهاجرون، والأنصار. ومعلوم أن المهاجرين صفة من هاجر إلى المدينة حتى فتح مكة، إذ لا هجرة بعد الفتح (١٥). والأنصار هم من نصروا الله ورسوله ﷺ من أهل المدينة، فصار من البديهي أن المقصود بالتابعين في قوله ﴿والذين اتبعوهم

بإحسان﴾ إنما هم من أسلم من بعد الفتح فما بعدهم، ومنهم - لا ريب - من رأى النبي ﷺ وصحبه، إلا أن الآية أخرجتهم من عموم إطلاق الرضا الذي كان مع المهاجرين والأنصار، وقيدت الرضا بمن اتبع منهم بإحسان، فاشترطت في فضلهم والرضا عنهم الاتباع بإحسان، وكأنهم لم يشفع لهم مجرد الرؤية، أو الصحبة (١٦)، ولكن من قام بهذا الشرط منهم نال -بلا شك- فضيلة على من بعده بمقتضى حديث «خير الناس قرني».

وهذا أمر أدركه عمر رضي الله عنه تمام الإدراك عند قسمة العطاء بين الصحابة في خلافته، فقدمهم حسب مراتبهم ومنازلهم في الفضل والخيرية.

وممن فطن إلى ذلك البخاري في عنوان تاريخه المشهور بالتاريخ الأوسط، إذ سماه: «المختصر من تاريخ هجرة رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار وطبقات التابعين بإحسان ومن بعدهم..».

ومن ثم، فلقد كانت منزلة السابقين إلى الإسلام أرفع ممن جاء بعدهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ (التوبة:١٠٠). ولقد تبوأ أهل بدر مكانة لم تكن لغيرهم بعد ذلك حتى عهد عمر رضي الله عنه حين فضلهم على غيرهم. وفي ذلك يخبر معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه -وكان أبوه من أهل بدر- قال: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين -أو كلمة نحوها- قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة» (١٧).

ولكن آية ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ لا تعني الرخصة في أمور، أولها: نفي الصحبة العامة عمن رأى النبي ﷺ وليس من المهاجرين أو الأنصار. ثانيها: سب أو لعن من دون المهاجرين أو الأنصار، حتى وإن ارتكب الكبيرة. ثالثها: تكفير من دون المهاجرين أو الأنصار، إلا من ثبتت ردته، أو أثر عن النبي ﷺ فيه خبر يدل على ذلك في حياته أو بعد وفاته ﷺ. وهذا ما سيأتي الحديث عنه تفصيلا في الحلقة المقبلة إن شاء الله تعالى.

هوامش

(١) وفي ذلك إشارة إلى الذين غلوا في دينهم غير الحق حتى ضلوا وأضلوا.
(٢) صحيح مسلم برقم ٢٥٨٩.
(٣) صحيح البخاري برقمي ٣٦٥٠، ٣٦٥١.
(٤) صحيح البخاري برقم ٤٧٤٠.
(٥) أي: ينزعون أو يجذبون مني. يقال: اختلجه منه: إذا نزعه منه أو جذبه بغير إرادته.
(٦) صحيح البخاري برقم ٦٥٧٦.
(٧) صحيح مسلم برقم ٢٣٠٤.
(٨) صحيح البخاري برقم ٣٦٧٣.
(٩) وهذا واضح من حديث «لا تسبوا أصحابي» فإن النبي ﷺ كان يخاطب بهذا الحديث صحابة غير المقصودين في الحديث. وتمام الخبر كما في رواية مسلم (برقم ٢٥٤١) من طريق أبي صالح عن أبي سعيد قال كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أحدا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه».
(١٠) صحيحه برقم ١٢١.
(١١) مسنده برقم ١٠٦٤.
(١٢) المسند ٤/١٩٩-٢٠٠.
(١٣) يعني عمار بن ياسر.
(١٤) يعني عبدالله بن مسعود.
(١٥) أخرج البخاري في هذا الباب (بأرقام ٣٠٧٨، ٣٠٧٩، ٤٣٠٥، ٤٣٠٦) أن مجاشع بن مسعود جاء بأخيه مجالد إلى النبي ﷺ بعد فتح مكة فقال: «هذا مجالد يبايعك على الهجرة. فقال: لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن أبايعه على الإسلام».
(١٦) وقريب منهم هؤلاء الذين جاء ذكرهم في آخر الآيات، وهم ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾.
(١٧) صحيح البخاري برقم ٣٩٩٢.

«الوعي الإسلامي» تنعى أحد كتابها

بهيج بهجت سكيك

التحرير

تنعى أسرة تحرير مجلة «الوعي الإسلامي» الكاتب والباحث الفلسطيني بهيج بهجت عطا سكيك، والذي ظل يكتب في المجلة منذ أكثر من ثلاثة عقود، وقد وافته المنية يوم الجمعة ٢٨ فبراير الماضي بعد حياة حافلة، قضى منها ٤٥ عاما في دولة الكويت.



تخرج الفقيد من جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٣م، حيث حصل على ليسانس الآداب قسم الجغرافيا، وما لبث أن انتقل للعمل بدولة الكويت عام ١٩٦٤م معلما لمادة الاجتماعيات في مدارس وزارة التربية، وتدرج في وظائف التدريس والتوجيه حتى اختير عضوا في لجنة تطوير مناهج المواد الاجتماعية في التعليم العام بدولة الكويت عام ١٩٨٥م، وقد عاصر الفقيد خلال فترة عمله خمسة عشر وزيرا للتربية، وكان يرحمه الله يقول: «الذي يسعدني أنني أرى تلاميذي اليوم وقد تبوأوا المناصب العليا، فكلما أقابل أحدهم أجد الاحترام والتقدير، وهذا فخر واعتزاز لي»، وقد كتب يرحمه في «الوعي الإسلامي» مقالات عدة منذ عام ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٨م، وتنوعت كتاباته وأبحاثه في مجالات التربية والتاريخ وعلم الاجتماع. ولعل أشهرها: المعماري سنان - جزر الأندلس المنسية - رؤية جديدة للقضية اليهودية الفلسطينية - الورق والوراقون في العصور الإسلامية - القدس أرض المحشر والمنشر - جامع زايد الكبير - الجامع العمري في غزة - مختصر تاريخ العالم.



اجعل لكتابك عيدا..

د. يوسف الحزيمري - باحث مغربي

لكل واحد منا كتابه، إن لم يخطه بيمينه وقلمه، خطه بأقواله وأعماله. وحين توفى كل نفس ما كسبت، يجد الإنسان هذا الكتاب ناطقا عليه بالحق، وما عمله حاضرا، فيتعجب حينئذ قائلا: ﴿.. يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ..﴾ (الكهف: ٤٩). هذا بعد أن يرى كيف تناوله لكتابه: أكان من أصحاب اليمين أم من أصحاب وراء الظهور، ولكل جزاء ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا (٩) وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ (١٠) فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا (١١) وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا (١٢)﴾ (الانشقاق: ٧ – ١٢). أو كان من أصحاب الشمال ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ (الحاقة: ٢٥). فهذا كتابك الحقيقي، كتاب حياتك، صفحته الأولى تبدأ من التكليف، والأخيرة حين توسد التراب وينقطع عملك، فانظر لنفسك ما تخطه في كتابك، واجعله أحسن وأجمل كتاب، يسرك النظر إليه يوم تفتحه، جمّله ونمّقه، واجعل له عيدا تسترجع فيه ما مضى بالمحاسبة وجرد النتائج، وتستقبل ما هو آت بأحسن النيات والعزائم، فكل يوم لا تخط فيه معصية في كتابك فهو عيد. سئل الحسن البصري -رحمه الله:

- أي الأيام عندك عيد يا تقي الدين؟

- فأجاب: كل يوم لا أعصي الله فيه فهو عندي عيد.

فهذا كتابك إذن، لك حرية الإنشاء فيه، لكن الموضوع محدد لك مسبقا في الكتاب الأم، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ..﴾ (آل عمران: ٧). فلا تكن في اقتفاء منهجه من الزائغين، ولا تكن كمن ناداه الكتاب فلم يجبه، ونبهه المشيب فما انتبه، وكن من أولي الألباب الذين يقولون ﴿.. ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا ..﴾ (آل عمران: ٧).

واتبع في كتابك أحسن ما في كتاب الله ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ..﴾ (الزمر: ٥٥). ليكون جزاؤك أحسن ما عملت، يوم يوضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه، إذ هي حياتك بين دفتي كتابك.

نحن الكتاب لأنا أحرف كتبت
به على نفسه قد خطنا وتلا(١)

وإذا كان الكتاب الدنيوي وقاية للمسؤول، وصيانة للسائل، ومبلغ ما الحياء مانع منه، فكذلك ينبغي أن يكون كتابك الأخروي.

تأمل إذا ما كتبت الكتاب
سطورك من بعد إحكامها
وهذب عبارة طرز الكلام
واستوف سائر أقسامها
فقد قيل إن عقول الرجال
تحت ألسنة أقلامها(٢)

واختر له أيها الخل عنوانا يشي بما أخفته دفتاه، واجعل له ختما يحفظ مضمونه.

الختم يحفظ مضمون الكتاب به
وهو الدليل على مضمون عزته(٣)

وردد مع الشاعر قوله تصديقا بالقول والعمل.

عيب علي كمسلم أن أرتضي
نهجا يشذ عن الكتاب ويفسق(٤).

الهوامش:

١- ديوان عبدالغني النابلسي (ص: ١٨٠٩).
٢- ديوان صفي الدين الحلي (ص: ١١٨٦).
٣- ديوان لسان الدين الخطيب (ص: ١٥٠).
٤- ديوان وليد الأعظمي (ص: ٤٩).

الشعير غذاء ودواء وبركة

د. درويش مصطفى الشافعي
باحث أردني

كان الشعير قبل مئة عام يتخذ رمزا لشظف الحياة، وبخس الثمن، وضنك المعيشة. والمسنون، الذين عاشوا في ذلك الوقت، يتحدثون اليوم، بأسى وحزن عميق، عن خبز الشعير، الذي كانوا يأكلونه في مواسم المحل أو «القحيط»، بدلا من خبز القمح، باعتبار أن الشعير هو غذاء المواشي والخيول. وهم بالتأكيد لم يعرفوا فوائده الطبية الكثيرة، ولم يتوقعوا على الإطلاق أن ثمن الكيلوغرام من الشعير سيصل في هذا العصر إلى ما يعادل دولارا واحدا، وأنه سيدخل مختبرات علم التغذية والعقاقير من أوسع أبوابها، وأن مستخلصاته ستباع في الصيدليات بعشرات الدولارات!

وكان رسول الله ﷺ قد ذكر قيمة الشعير الطبية والغذائية قبل ١٤٠٠ سنة ونيف.

وعند النظر بشمولية إلى أهمية الشعير للإنسان والحيوان نجد أنه يشكل حجر الأساس في العديد من مجالات الحياة، غذائية كانت أو طبية واقتصادية.

إن ما سيرد في السطور المقبلة من إشادة بالشعير لا يهدف إلى التعريف بمزاياه وفوائده الجمة من باب نشر الثقافة العامة فحسب، بل هو دعوة صادقة للإكثار من تناوله واستعماله في حالتي الصحة والمرض. وتأتي هذه الدعوة استنادا إلى نتائج أبحاث ودراسات علمية جادة جرت حول العالم، ومن خلال تطبيقات عملية ناجحة في الطب الشعبي، ومن تجاربي الشخصية.

الشعير يعانق التاريخ

الشعير Barley، واسمه العلمي Horedeum vulgare، ينتمي إلى العائلة النجيلية Geramineae، ويعد أقدم نبات عرفه الإنسان وزرعه ليتغذى عليه، حيث تشير الدراسات إلى أنه زرع في جنوب غرب آسيا قبل الميلاد بحوالي ٧٠٠٠سنة، واستعمل كغذاء للرياضيين والخيول التي ستدخل في السباقات.

وكان رسول الله ﷺ قد نصح أصحابه بأكل الشعير، وقد جاء ذلك في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة، منها ما رواه ابن ماجه في سننه من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أخذ أحدا من أهله الوجع، أمر بالحساء من الشعير فصنع، ثم أمرهم فحسوا منه ثم يقول: إنه ليرتو فؤاد الحزين، ويسرو عن فؤاد السقيم، كما تسرو إحداكن الوسخ بالماء عن وجهها».

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا قيل له: إن فلانا وجع لا يطعم الطعام قال: عليكم بالتلبينة فحسوه إياها». والتلبينة هي طبيخ الشعير بالماء أو بالحليب.

القيمة الغذائية للشعير

تحوي جميع أجزاء الشعير (الحبوب والأوراق والسيقان، الغضة والجافة) مخزنا مهما للكثير من المواد الطبية والغذائية، فقد أظهرت التحاليل المخبرية لأوراق الشعير الغضة وبذوره احتواءها على كميات وفيرة ومتوازنة من الفيتامينات والعناصر المعدنية والأحماض الأمينية والبروتينات والدهون والسكر والنشا. وتتمثل القوة الغذائية لأوراق الشعير في احتوائها على كميات غير عادية من البيتاكاروتين beta-carotene، وهي طلائع فيتامين «أ» ومعظم فيتامينات المجموعة «ب» (ب١، ب٢، ب٣، ب٦، ب٩، ب١٢)، وكذلك فيتامين «ج». وقد أظهرت التحاليل المخبرية أن مقدار فيتامين «ج» في أوراق الشعير أكبر بسبع مرات من مقدار هذا الفيتامين في الحمضيات، وأن كمية فيتامين «ب١٢» في أوراق الشعير تصل إلى ٨٠ ملغ لكل ١٠٠ غرام من الأوراق، علما بأن هذا الفيتامين يتوافر أساسا في الأغذية الحيوانية ونادرا ما يتواجد في الأغذية النباتية، حتى وإن وجد في بعضها فإن مقاديره تكون قليلة جدا. كما تحتوي أوراق الشعير على معظم العناصر المعدنية الضرورية للنمو وتنشيط جهاز المناعة وتحفيز إفراز الغدد، ومن أبرز هذه العناصر البوتاسيوم والكالسيوم والحديد والمغنيسيوم والنحاس والفسفور والمنغنيز والزنك وغيرها. ومما يذكر أن محتوى أوراق الشعير من الكالسيوم يزيد على محتوى حليب البقر بإحدى عشرة مرة، وأن محتواها من الحديد يزيد على السبانخ بخمس مرات، ويوجد في أوراق الشعير ١٨ حمضا أمينيا، من بينها ثمانية أحماض أساسية Essential amino acids التي يعجز الجسم عن تكوينها ذاتيا، ويجب تزويد الجسم بها من الغذاء! أما البروتينات المتوافرة في أوراق الشعير فهي سهلة الهضم



والامتصاص، وتتميز بقدرتها على تحييد السموم المتراكمة في الكبد وخلايا الجسم.

القيمة الطبية لأوراق الشعير

ومع أن إشباع الجسم بما يحتاج إليه من عناصر ومركبات غذائية يشكل خطوة مهمة للنمو السليم والوقاية من الأمراض والمحافظة على القوة والحيوية للجسم، غير أن هذا الجانب ليس كل شيء، بل يجب توافر عوامل أخرى لها تأثيرات طبية وبيولوجية. وأوراق الشعير تحتوي على عدد كبير من الإنزيمات ومساعدات الإنزيمات co-enzymes، التي تدعم النشاط الإنزيمي في الجسم، وتطلق شرارة التفاعلات الكيميائية والتحولات الغذائية، كما توجد في أوراق الشعير مركبات خاصة تعمل على تخفيض مستوى السكر والكوليسترول في الدم، وكذلك مضادات الالتهابات - Anti inflammatory ومضادات القرحة المعدية Anti- ulcer. وقد اكتشف مؤخرا في أوراق الشعير مضاد جديد للتأكسد Antioxidant يرمز له بـ«٢- صفر- GIV» له تأثير أقوى من فيتامين «هـ». وجدير بالذكر أن مضادات التأكسد Antioxidants، سواء أكانت فيتامينات، مثل فيتامين «أ» و«ج» و«هـ»، أم مواد أخرى، مثل الفينولات polyphenols، تقاوم العديد من الأمراض، بما فيها الأمراض الخطيرة، وذلك من خلال منع تصلب الأوعية الدموية وإطالة عمر الخلايا وتعزيز جهاز المناعة وحماية المادة الوراثية من الطفرات التي تقود أحيانا إلى أمراض السرطان. أما شرب عصارة الأوراق قبل تناول الطعام، فإنه يفيد في حالة تشنج القولون، وتليين البطن، وطرد الغازات المعوية، وتحييد السموم الدوائية، وزيادة هيموجلوبين الدم، ومنع تهيج المعدة. كما يساعد على تعويض الخلايا والأنسجة التالفة، وينظم ضغط الدم، ويخفض الحمى، ويمنح الجسم طاقة وحيوية ونشاطا. كما يجعل تفاعل الدم قلويا، مما يجعل من شرب عصارتها ترياقا في حالة تسمم الدم. ونظرا لأهمية ودور أوراق الشعير في التغذية الصحيحة ومعالجة الأمراض أو الوقاية منها، ونظرا لصعوبة تناول أوراق الشعير أو الحصول على عصارتها، فقد جرى مؤخرا استخلاص عصارة الأوراق بآلات خاصة وتجفيفها بسرعة من دون تعريضها للحرارة، وتعبئة مسحوقها في أكياس، كما صنعت منها أقراص تذوب في الماء أو في أي نوع من الشراب. ومع أن استعمال أوراق الشعير في السلطات غير شائع، غير أنه من الممكن زراعة الشعير في حديقة المنزل أو في قوارير وإضافة أوراقه إلى السلطات، حتى ولو كان ذلك بكميات قليلة.

أما حبوب الشعير فتعد مستودعا بيولوجيا لمعظم العناصر والمواد الكيميائية التي قامت الأوراق بتصنيعها من أجل تغذية أجنة الحبوب، وقد تتركز فيها بعض المواد، وقد تختفي، أو تقل مواد أخرى. ومن أهم المواد الغذائية في حبوب الشعير: النشا والبروتين والدهون والسكر والفيتامينات (ما عدا فيتامين «ج») وجميع العناصر المعدنية سالفة الذكر.

القيمة الطبية لحبوب الشعير

لا يعرف معظم الناس عن الفوائد الطبية للشعير سوى أنه مدر للبول وطارد للحصى والرمل من الكليتين والمجاري البولية، وتخفيف التهابات الأمعاء، وهذا جانب متواضع من الفوائد الطبية للشعير. ومن أبرز الفوائد الطبية المكتشفة للشعير ما يلي:

تخفيض كوليسترول الدم

يعمل الشعير على تخفيض كوليسترول الدم من خلال الآليات التالية:

- تتحد ألياف الشعير القابلة للهضم مع الكوليسترول الزائد الموجود في الأغذية الدهنية، مما يحول دون امتصاصه، وهذا يؤدي إلى خفض كمية الكوليسترول التي تخزن في الكبد، أو التي تصل إلى الدورة الدموية. كما تنتج عن تخمر ألياف الشعير القابلة للهضم في القولون أحماض دسمة تمتص من القولون، وتثبط عملية تمثيل الكوليسترول.
- تحتوي حبوب الشعير على عدة مواد ومركبات، من بينها «البيتا جلوكان» B-Glucan، تعمل على خفض نسبة الكوليسترول في الدم وتبطئ عملية امتصاص السكر من الأمعاء.
- تحتوي حبوب الشعير على مواد

تشبه الفيتامين «هـ» = E تسمى Tocotrienol، لها القدرة على تثبيط إنزيمات الكبد التي تتدخل في إنتاج الكوليسترول، وعلاوة على ذلك يعد التوكوترينول وفيتامين «هـ» من أهم عناصر ربط حلقة مضادات الأكسدة، ويعمل التوكوترينول منفردا كمضاد أكسدة، حيث ينظف الجسم من الشوارد الحرة free radicals والمواد الضارة بما فيها الشوارد الحرة الناتجة عن الأشعة فوق البنفسجية والأوزون، كما يمنع تأكسد الدهون البروتينية منخفضة الكثافة LDL ويحول دون ترسبها على جدران الأوعية الدموية، ويحمي الخلايا العصبية من تأثير المواد السامة، وينظم عمل العديد من الإنزيمات الرئيسية في الكبد.

■ يفيد شرب منقوع الشعير في جلب النعاس والنوم الهادئ، بسبب احتواء الشعير على الميلاتونين (هرمون النوم). كما اكتُشف للميلاتونين melatonin الكثير من المهام والأدوار كما سيرد لاحقا.

تحسين المزاج ومقاومة الكآبة

يحتوي الشعير على أكثر من ثلاثين عنصرا معدنيا، من أبرزها البوتاسيوم المغنيسيوم، المهمان لعمل الإنزيمات والناقلات العصبية، وعلى فيتامينات المجموعة «ب» الضرورية لتوصيل النبضات العصبية الكهربائية، وعلى الحمض الأميني التربتوفان Tryptophan، الذي يسهم في التخليق الحيوي لإحدى الناقلات العصبية، وهي السيروتونين Serotonin، والذي يلعب دورا رئيسيا في تحسين المزاج والحالة النفسية للإنسان وينتج بوجود فيتامينات المجموعة «ب» والمغنيسيوم وهرمون الميلاتونين.

تأخير ظهور أعراض الشيخوخة

يحتوي الشعير على العديد من مضادات الأكسدة، مثل التوكوترينول وفيتامين «هـ»، وعلى البوليفينولات والفيتوسيرولات phetosterols، التي تقاوم تلف الخلايا بشكل عام والخلايا العصبية بشكل خاص وتحيد تأثير الشوارد الحرة free radicals، مما يسهم في الوقاية من الأمراض، وتأخير ظهور العديد منها. ويؤيد ٩ من كل ١٠ أطباء دور مضادات الأكسدة في مقاومة الأمراض والحفاظ على الأغشية الخلوية وإبطاء عملية الشيخوخة ومنع أو تأخير حدوث مرض ألزهايمر. ويعد الشعير من الأغذية الغنية بالميلاتونين (وهو المسؤول الرئيسي عن جلب النوم)، ولكن كميته تقل مع كثرة التعرض للضوء (السهر). ومع تقدم العمر، فإن الشعير يفيد الكهول والشيوخ في التغلب على الأرق الذي ينتابهم. وللميلاتونين أدوار أخرى، من بينها خفض نسبة الكوليسترول، وحماية الجهاز الدوري (القلب والشرايين) من الإصابة بالتصلب، والوقاية من مرض الشلل الرعاشي عند كبار السن، وزيادة مناعة الجسم ضد الأمراض المعدية، ومقاومة العديد من أمراض السرطان، خصوصا سرطان الثدي.

علاج ارتفاع سكر الدم

تحتوي ألياف الشعير القابلة للذوبان في الماء على البيتا-جلوكان Beta-glucan ومواد بكتينية (أصماغ) تقلل من عمليتي هضم وامتصاص المواد السكرية والدهنية الموجودة في الأغذية، وهذا من شأنه تأخير وصولها إلى الدم، مما يتيح فرصة لقيام البنكرياس بضخ الأنسولين اللازم، وبالتالي منع الارتفاع المفاجئ لسكر الدم. وقد وجد بالتجارب أن إدخال الشعير على شكل خبز ومنتجات أخرى إلى قائمة غذاء مرض السكري من النمط ٢ قد خفض معدل السكر التراكمي HbA1c بمقدار ٣٠ في المئة.

تخفيض ضغط الدم الشرياني

أكدت الأبحاث على أن تناول الأطعمة الغنية بعنصر البوتاسيوم يخفض ضغط الدم المرتفع ويقي من الإصابة به، وذلك لأن البوتاسيوم يحقق توازنا بين ملح الطعام والماء داخل الخلية، ويعد الشعير من الأغذية الغنية بالبوتاسيوم.

ولما كان الشعير يحتوي على الهوردينين hordenine (وهو مميع للدم) والمالتين maltene (وهو مدر قوي للبول)، فإن ذلك يخفض ضغط الدم، ويمنع حدوث جلطات. ومن المعروف طبيا أن أدوية تخفيض ضغط الدم الحديثة تحتوي على مواد مدرة للبول.

مقاومة الإمساك وتنشيط القولون

تفيد ألياف الشعير غير القابلة للهضم في امتصاص جزء كبير من الماء، فيزداد حجمها وحجم الفضلات الأخرى، وهذا من شأنه ملء القولون بالألياف وتحفيزه على الحركة الدودية، وبالتالي طرد الكتلة البرازية والتخلص منها بسهولة. وفي ضوء هذه الآلية، تم تصنيع ألياف صيدلانية تحت أسماء تجارية مختلفة لتقوم بالدور الذي تقوم به ألياف الشعير، وهكذا تعمل الألياف غير الذوابة في الماء الموجودة في الحبوب الكاملة (غير المقشورة) وفي نخالة الشعير بشكل خاص على تنشيط الحركة الدودية للأمعاء، وهو ما يساعد على التخلص من الفضلات ومقاومة القولون العصبي والآلام المصاحبة له.

فوائد أخرى لنبات الشعير

يفيد مغلي الشعير في معالجة التهابات الأمعاء، وتشنج القولون، ووقف السعال الحاد، ومقاومة الإمساك، وتقوية الأعصاب، وزيادة إفرازات الكبد، وتوسيع الأوعية الدموية، وتخفيف أعراض مرض التيفوئيد، وإطفاء العطش. ويستعمل الهوردينين (المستخرج من الشعير)

حقنا تحت الجلد أو شرابا لعلاج حالات الإسهال والدوسينتاريا والتهاب الأمعاء، وللشعير فوائد طبية عديدة.

ونظرا لتمتع نبات الشعير بقدرة فريدة على العيش والنمو في بيئات طبيعية متباينة وظروف جوية قاسية، فقد اتخذه العلماء نموذجا للعديد من الدراسات والأبحاث، فعند محاولة علماء الوراثة تهجين الشعير المألوف مع أنواع برية قريبة الصلة لإنتاج سلالات جديدة محسنة، وجدوا أن نبات الشعير مناسب لدراسة آلية انتقال الصفات الوراثية، فيكون الشعير بذلك قد أسهم في تطور علم الوراثة وتوضيح مفاهيم وراثية جديدة.

أما علماء البيئة فقد اكتشفوا قدرة نبات الشعير على تقليل حدة تلوث البيئة بالإشعاعات الكونية الضارة مثل الأشعة فوق البنفسجية UV. كما وجدوا أن الشعير والقمح يمتصان مقادير كبيرة من الموجات الكهرومغناطيسية الصادرة عن الأجهزة الكهربائية وخطوط الضغط العالي. وقد ارتأى العلماء ضرورة زرع نبات الشعير في قوارير ووضعها في غرفة التلفاز ومكاتب الكمبيوتر لتخفيف حدة التلوث.

ويرى علماء التغذية الحيوانية أن حبوب الشعير وسيقانه الجافة وجذوره من أفضل الأعلاف الحيوانية لاحتوائها على مقادير كافية من المغذيات وقدرتها على منع إصابة الحيوانات بالعديد من الأمراض، ولا سيما أمراض الجهاز الهضمي.

طرق تناول الشعير

■ مثلما هي الحال مع الخبز المصنوع من دقيق القمح، يمكن صناعة خبز من دقيق الشعير. وللتغلب على عدم مرونة عجينة الشعير، يمكن إضافة محسنات (الحليب، زيت الزيتون)، أو خلط دقيق الشعير مع دقيق القمح بنسبة ٧٥ في المئة دقيق شعير، و٢٥ في المئة دقيق قمح.

■ تجهيز مغلي الشعير: يضاف ٣٥٠ غراما من حب الشعير إلى لترين من الماء ويترك حتى تنضج حبات الشعير، ثم يترك الشعير منقوعا في وعاء الغلي مدة ثلاث ساعات، ثم يصفى في زجاجات ويحفظ في الثلاجة للاستعمال.

■ ومن أجل تسهيل خروج محتويات حبات الشعير من العناصر المعدنية والفيتامينات وزيادة قوة مضادات الأكسدة، فمن المفيد تحميص الشعير حتى يصبح لونه ذهبيا وتفوح منه رائحة الشعير الزكية قبل غليه.

■ يناسب دقيق الشعير (بنسبة ٣٥ في المئة) ودقيق القمح أو السميد (بنسبة ٦٥ في المئة) الكثير من أنواع الحلويات، وبخاصة حلوى الحلبة وحلوى حبة البركة/القزحة.

■ ومن أفضل طرق تناول الشعير هي التلبينة التي أوصى بها رسول الله ﷺ. وتصنع التلبينة بإضافة الماء والحليب إلى مجروش أو دقيق الشعير، وتوضع على نار هادئة وتحرك باستمرار حتى الوصول إلى درجة التجانس التام. ومن الممكن خلط المزيج بالخلاط قبل وضعه على النار لتحقيق هذا الغرض. ومن أجل زيادة قوة التلبينة الغذائية والطبية تضاف ملعقة كبيرة من الكركم المطحون إلى المزيج وقليل من الزبيب والمكسرات مثل جوز الهند أو الجوز المعروف.

ويوجد نوعان من التلبينة: حلوى التلبينة، وتتطلب إضافة السكر إلى الخليط. أما في حالة الرغبة في الحصول على طعام التلبينة فيضاف قليل من الملح والفلفل الأسود للحصول على طعام التلبينة.

■ يضاف دقيق الشعير إلى الشوربات لإكسابها قواما ثخينا ومذاقا طيبا.

تجارب عملية

وصفت التلبينة لمرضى القولون العصبي، الإمساك، ارتفاع كوليسترول الدم، ضعف امتصاص الأمعاء، الوهن، الكآبة، الأرق.. وغيرها. وقد تحسنت تماما حالة هؤلاء جميعا. وعند إضافة الكركم إلى التلبينة ازدادت فوائدها لتشمل التهابات الحلق المتكررة، التهابات الكبد، حب الشباب، ضعف الشعر وتقصفه، استقرار ضربات القلب وانتظامها.

وبعد...

توجد في حياتنا ومن حولنا نعم وآلاء من لدن حكيم لا تعد ولا تحصى، نراها متواضعة زهيدة، لكن عند تأملها بعين الحكمة ستتكشف لنا ما تحتويه من كنوز صحية، ولكننا ندوس عليها ونمضي مهرولين في طريقنا نحو الأطعمة العصرية المصنعة، مع أننا مثقلون بالكوليسترول وسكر الدم. ومن هذه الكنوز التي أغفلها بصرنا الشعير وغيره من الأغذية القديمة، مثل الترمس والشمندر واللفت والخروب والبلوط والهندباء والذرة الصفراء.. وغيرها الكثير. ولا وسيلة لاسترداد قوتنا الجسدية وتألقنا الذهني ومقاومة أمراض سوء التغذية والتلوث إلا بالعودة، ولو جزئيا، إلى النمط الغذائي الإسلامي والتراثي.





إعداد: د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

•الفتوى بالتلفيق وحكمه.

التلفيق هو: ضم شيء إلى شيء على وجه الجمع بينهما.

وهو في الفتوى: «أن يجمع المفتي بين قولين أو أكثر بالتّخَيُّر من أحكام المذاهب الفقهية، على وجه التقليد لكل مذهب في حكمه؛ فيتولد منها حقيقة مركبة لا يقول بها أحد».

هذا إن كان التلفيق في مسألة واحدة، وهو المقصود هنا.

ولا تقوم صورته إلا إذا توفرت ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون التلفيق بين حكمين في واقعة واحدة.

الثاني: أن يكون التلفيق من مقلد، وإلا كان من تركيب المجتهد.

الثالث: أن يجتمع العمل بالقولين معا في واقعة واحدة، أو بأحدهما مع بقاء أثر الثاني.

ومثال التلفيق المختلف فيه: التلفيق الناشئ عن الخلاف في شروط الفعل، أو في مبطلاته؛ مثاله: أن يتوضأ فيمسح على شعرات من رأسه تقليدا للشافعي، ويمس امرأة فلا يتوضأ تقليدا لأبي حنيفة، ثم يصلي بهذا الوضوء.

فهذه الصلاة لا تصح على مذهب أبي حنيفة؛ لعدم مسح ربع الرأس، ولا على مذهب الشافعي؛ لكون الوضوء عنده قد انتقض بلمس المرأة.

ووقوع التلفيق من المقلد قد يكون بقصد أو بغير قصد.

فإن وقع بغير قصد: فلاشك في جوازه؛ للإجماع على أن له أن يعمل برأي من استفتاه، ولا يمتنع أن يستفتي شافعيا في الوضوء، ويستفتي مالكيا في نقض الوضوء، ثم يصلي بوضوء

إكراه الخدم على الدخول في الإسلام

رقم الفتوى (٣١٨٠)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

في بعض الحالات يتم إجبار الخادمات على الدخول في الإسلام من قبل كفلائهن رغما عن إرادتهن بالتهديد، فيشهرن إسلامهن في اللجنة مكرهات، مما قد يسبب ارتدادهن عن الإسلام، واللجنة تسأل:

١. ما هو الحكم الشرعي في إكراه الكفلاء خادماتهم في الدخول في الإسلام؟

٢. كيف تتصرف اللجنة في مثل هذه الحالات؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لا يجوز إكراه الخادمة غير المسلمة على الدخول في الإسلام بغير رضاها لقوله تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾(البقرة:٢٥٦)، ولو أكره أحد خادمته على الدخول في الإسلام بغير رضاها لم يعتد بإسلامها، وعلى ذلك لا تعد مرتدة لو عادت إلى دينها السابق.

وعلى لجنتكم أن تبين الأمر قبل أن تعرض الإسلام على مثل هذه الخادمة، وتحاول تحبيبها في الإسلام ببيان محاسنه. فإن استجابت فبها، وإلا فإن عليها أن تنصح الكفيل بالتريث مع ترغيبها، وإرشادها إلى محاسن الإسلام؛ بالكلمة، والسلوك الإسلامي، حتى تقتنع بالإسلام، وترغب به طواعية من غير ضغط ولا إحراج. فإذا أبى الكفيل إلا الإكراه، فلا حرج على اللجنة في عدم تلقينها الإسلام، وإشهار إسلامها.

احتفالات لغير المسلمين في المدرسة

رقم الفتوى (٦٢٠١)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

نطبق في مدرستنا نظام التعليم الأميركي، مع اهتمام مميز باللغة العربية والتربية الإسلامية، ومعظم الطلاب والطالبات من المسلمين، بينما ثلة من المدرسين والإداريين من غير المسلمين، وهم على الأغلب أميركيون وكنديون، يتبعون مختلف الكنائس المنتشرة هناك.

وتنص لوائحنا على احترام الحرية الشخصية والدينية للجميع، وقد طالب بعضهم بحق الاحتفال بمناسباتهم الدينية والوطنية.



لم يعمم فيه مسح الرأس ولا أكثره، وقد مس امرأة أجنبية.

وأما إن كان التلفيق مقصودا: فإما أن يحصل من مجتهد أو مقلد.

فإن حصل التلفيق من مجتهد؛ فيفرق بين أن يرى رجحان القول الجديد المركب الذي أداه إليه اجتهاده؛ إما مطلقا، أو في هذه الصورة التي استفتي فيها، أو أنه لا يرى رجحانه حتى في هذه الصورة.

فإن كان يرى رجحان القول مطلقا، أو في هذه الصورة؛ ففتواه صحيحة على الراجح.

وإن كان لا يرى رجحانه؛ لا في هذه الصورة، ولا مطلقا؛ ففتواه باطلة.

وأما إن حصل التلفيق المقصود من مقلد؛ فلا يصح إلا إذا توفرت الشروط التي ستأتي في المذهب الثالث لاحقا؛ لاحتمال أن يقع في مخالفة نصوص شرعية من حيث لا يعلم؛ ولأن العمل بقول جديد من غير استفتاء: عمل بالهوى والشهوة، وهو ينافي التدين.

وقد اختلف العلماء في حكم التلفيق:

- فمنعه مطلقا أكثر العلماء؛ لأنه يفضي إلى الفساد المترتب على تتبع الرخص.

قال الشيخ السفاريني رحمه الله: «والذي أراه وأقول به معتمدا على ما قرره الأشياخ، والعقل والنقل يساعده ببطلان ذلك كله -أي التلفيق-؛ لأن فيه مفاسد كثيرة، وموبقات غزيرة، وهذا باب لو فتح لأفسد الشريعة الغراء، ولأباح جل المحرمات» (التحقيق في بطلان التلفيق، ص١١٧).

- وأجازه بعض العلماء؛ لما في منعه من المشقة؛ بشرط عدم تتبع ذلك.

قال مرعي الحنبلي: «والذي أذهب إليه واختاره، القول بجواز التقليد في التلفيق؛ لا بقصد تتبع ذلك؛ لأن من تتبع الرخص فسق، بل من حيث وقع ذلك اتفاقا، خصوصا من العوام الذين لا يسعهم غير ذلك» (عمدة التحقيق؛ للباني، ص١٠٠).

- وأجازه بعضهم بشروط؛ هي:

١- أن لا يخالف الإجماع.

٢- أن لا يكون قصد الملفق تتبع الرخص.

٣- أن لا يترتب على التلفيق نقض حكم الحاكم؛ لأن حكمه يرفع الخلاف درءا للفوضى.

٤- أن لا يستلزم التلفيق الرجوع عما عمل به المقلد تقليدا(التحقيق في بطلان التلفيق، ص١٦٠) وغيره. وهذا القول أرجح الأقوال، والله أعلم.

وسؤالنا: هل يصح تخصيص إحدى الغرف في المدرسة ليؤدي الموظفون والمدرسون من غير المسلمين طقوسهم الدينية وليحتفلوا بمناسباتهم الوطنية فيها؟

. وما هي الضوابط التي ترونها لتحول دون حضور الطلاب المسلمين هذه اللقاءات والاحتفالات، وعدم تحويل هذه المناسبات إلى عمل تبشيري؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لا يجوز منع الموظفين والمدرسين من غير المسلمين من ممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية في بيوتهم وأمكنتهم الخاصة بهم.

وعليه: فلا موجب لتخصيص مكان خاص في المدرسة لممارسة هذه العبادات والطقوس الدينية.

الطعن في الإسلام

رقم الفتوى (١٩٥٢)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: لقد قام أحد الكتاب في الآونة الأخيرة بنشر أربعة مقالات في إحدى الصحف، تعرض فيها للدين الإسلامي بالتجريح الصريح؛ فما حكم الشرع على من كتب مثل هذه المقالات؟

ثم أجابت اللجنة بعدما اطلعت على هذه المقالات، ودونت بعض ما فيها من العبارات:

بأن هذه المقالات فيها طعن في المبدأ المسلم به شرعا؛ وهو: أن الإسلام نسخ ما قبله من الأديان، وختمت به الشرائع، وأنه هو الدين الحق الوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾(آل عمران:١٩)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(آل عمران:٨٥)، وما في هذه المقالات من خلاف هذا المبدأ هو من قبيل الزندقة، وهو الكفر المغطى بعبارات يأمن بها الزنديق على نفسه، وهو أشد من الكفر الصريح، ويجب الأخذ على يد هؤلاء، ومن ينشر كلامهم زجرا لهم عن الاجتراء على شرع الله، ولا عذر لهم بالتشبث بمبدأ حرية الرأي؛ فإنها لا تبيح ما كان حراما من الطعن في دين الله.

«العمدة» لابن رشيق القيرواني

إعداد : خالد خلاوي

يعد «العمدة» أحد أهم كتب اللغة والشعر والنقد في التراث العربي الإسلامي، ومن أبرز المراجع التي تناولت صناعة الشعر العربي ودراسته بالنقد والتحليل. يقول ابن رشيق مؤلف الكتاب عن سبب اهتمامه بالشعر: «وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب، وأحرى أن تقبل شهادته وتمتثل إرادته، لقول رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكما» وروي «لحكمة».

لقد ألف ابن رشيق القيرواني ما يزيد على ثلاثين مؤلفا، بين كتاب ورسالة، لكن الكتاب الذي خلّد اسم الرجل ووضعه في مصاف الخالدين من أعلام العرب، والذي وصل إلينا هو كتابه «العمدة في محاسن الشعر وآدابه»، أو «العمدة في صناعة الشعر ونقده» (١)، وفيما يلي تعريف بالكاتب والكتاب.

التعريف بابن رشيق

هو أبوعلي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني (٣٩٠ - ٤٦٣هـ/ ١٠٠٠ - ١٠٧١م)، أديب وناقد وشاعر، عاش في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ولد بمدينة المسيلة المغربية المعروفة بالمحمدية، وكان والده يعمل في صياغة الذهب، وقد علّم ابنه صنعته، ولكن الابن كان يميل إلى الأدب مفضّلا إياه، فقد بدأ في نظم الشعر في سن مبكرة، ثم غادر مدينته إلى القيروان عام ٤٠٦هـ، وكانت القيروان في ذلك الوقت عاصمة لدولة بني زيري الصنهاجيين، وتعج بالعلماء والأدباء، فدرس ابن رشيق النحو والشعر واللغة والعَروض والأدب والنقد والبلاغة على عدد من نوابغ عصره، من أمثال أبي عبدالله محمد بن جعفر القزاز، وأبي محمد عبدالعزيز بن أبي سهل الخشني الضرير، وأبي إسحق الحصري القيرواني.

ومن كتب ابن رشيق المشهورة أيضا:

. كتاب قُرَاضَة الذهب في نقد أشعار العرب. وقد طبع أكثر من مرة.

. وله ديوان شعر جمعه الدكتور عبدالرحمن ياغي.

. ومن بين كتبه التي لم تصل إلينا:

. أنموذج الزمان في شعراء القيروان

. الشذوذ في اللغة

. ساجور الكلب

. قطع الأنفاس

. سر السرور

أبواب الكتاب عن الشعر

الكتاب في جملته معقود للحديث عن الشعر، ومن ثم كان عنوانه «العمدة في صناعة الشعر ونقده» أو «العمدة في محاسن الشعر وآدابه»، كما في النسخ المتعددة.

يقول ابن رشيق في المقدمة: «مع ما للشعر من عظيم المزية، وشرف الأبية، وعز الأنفة وسلطان القدرة، وجدت الناس مختلفين فيه، ومتخلفين عن كثير منه، يقدمون ويؤخرون، ويقلّون ويكثرون، قد بوبوه أبوابا مبهمة، ولقبوه ألقابا متهمة، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه ليكون «العمدة في محاسن الشعر وآدابه» إن شاء الله، وعولت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري، خوف التكرار، ورجاء الاختصار، إلا ما تعلق بالخبر وضبط الرواية فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه؛ ليؤتى بالأمر على وجهه».

ويمكن رد أبواب الكتاب في جملتها إلى ثلاث مجموعات: الأولى، وتتناول الشعر والمجتمع، والثانية، ويتحدث فيها عن الشعر ونقده، والثالثة، أبواب لا تمت إلى الشعر إلا من بعيد، وعلى وجه التأول وأدنى مناسبة.

ويفتتحها بباب يجعل عنوانه «باب في فضل الشعر» يقول فيه: «العرب أفضل الأمم وحكمتها أشرف الحكم، لفضل اللسان على اليد، والبعد عن امتهان الجسد، إذ خروج الحكمة عن الذات بمشاركة الآلات، ولابد للإنسان من أن يكون تولى ذلك بنفسه أو احتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه».

ثم يعقد بعد ذلك بابا يرد فيه على من يكره الشعر، ثم يذكر من أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء ليؤيد القضية، وينتقل الحديث في الكتاب بعد، إلى الجانب النقدي المتصل بمدارسة الشعر من حيث فنيته ومنزلته، ويستغرق الجزء الأكبر من مجهود ابن رشيق، ويستفتحه بباب يذكر فيه القدماء والمحدثين، وأن كل قديم من الشعراء محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله، ثم ينقل من آراء النقاد في ذلك إلى أن يقول: «ولم أر في هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبدالكريم بن إبراهيم، فإنه قال: قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره،

ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه، وكثر استعماله عند أهله/ بما لا يخرج عن حسن الاستواء وحد الاعتدال، وجودة الصنعة، وربما استعملت في بلد ألفاظا لا تستعمل كثيرا في غيره، كاستعمال أهل البصرة كلام أهل فارس في أشعارهم، ونوادر حكاياتهم.. قال: والذي أختاره أنا: التجويد والتحسن الذي يختاره علماء الناس بالشعر، ويبقى غابره على الدهر، ويبعد عن الوحشي المستكره، ويرتفع عن المولد المنتحل، ويتضمن المثل السائر، والتشبيه المصيب، والاستعارة الحسنة». ثم يتحدث ابن رشيق عن المشاهير من الشعراء، وعن المقلين منهم والمغلبين، ثم يذكر طبقات الشعراء.

وينتقل للحديث عن ماهية الشعر وحده وبنيته، ثم إلى قضية اللفظ والمعنى، وإلى أيهما يرجع الفضل، ويذكر في ذلك آراء العلماء والنقاد واختلافاتهم، ويتحدث عن الطبع والصنعة، وعن المطبوعين من الشعراء والمصنعين، ويذكر أن المطبوع هو الأصل الذي وجد أولا، والمصنوع، وإن وقع عليه هذا الاسم، فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين، لكن وقع فيه منه.

نموذج من نقد ابن رشيق:

من أمثلة نقد ابن رشيق للشعر ما جاء في باب سماه: «التصرف ونقد الشعر»، ويريد بالتصرف أن يقول الشاعر في جملة أغراض، بحيث لا يكون في النسيب أبرع منه في الرثاء، ولا في المديح أنفذ منه في الهجاء، ولا في الافتخار أبلغ منه في الاعتذار، ولا في واحد من الأغراض أبعد منه صوتا في غيرها.. فإنه إن كان كذلك حكم له بالتصرف، ويشرح ابن رشيق في هذا الباب خصائص كل غرض من الأغراض الشعرية،



فالنسيب حقه أن يكون حلو الألفاظ رسلها، قريب المعاني سهلها، غير كز ولا غامض، وأما المديح يسلك فيه الشاعر طريقة الإيضاح والإشادة بذكر الممدوح مع جزالة الألفاظ ونقاوتها، والافتخار هو المدح نفسه، غير أن الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وأما الرثاء فليس بينه وبين المدح إلا أن يخلط بشيء يدل على أن المقصود به ميت، مثل «كان»، وأصعب الرثاء ما تشابكت به العواطف، كرثاء جليلة لزوجها حين قتله أخوها جساس فقالت:

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا

تعجلي باللوم حتى تسألي

ومن صعبه أيضا الجمع بين تعزية وتهنئة، ومن أشده صعوبة أن يرثي الشاعر طفلا أو امرأة، ومن أشجاه مرثية ابن الزيات لأم ولده تلك التي يقول فيها:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه

بعيد الكرى عيناه تبتدران

رأى كل أم وابنها غير أمه

يبيتان تحت الليل ينتجيان

وبات وحيدا في الفراش تحثه

بلابل قلب دائم الخفقان

أبواب متنوعة:

أما عن الأبواب التي جاءت في الكتاب ولا تتصل بالشعر ولا بصنعته من قريب، منها: باب في أنساب العرب، وآخر في وقائعهم وأيامهم، وبدأه بالحديث عن النبي ﷺ وغزواته، وباب آخر عن ملوك العرب، ثم يعقد بابا يذكر فيه الخيل وشياتها وكرامها، ثم يذكر بابا يتحدث فيه عن صلات الشعراء وجوائزهم، ويختم به الكتاب، ويقول فيه: «إن أصل الجائزة أن يعطى الرجل ما يجيزه ليذهب إلى وجهه، وكان الرجل إذا ورد ماء قال لقيمه: أجزني اي أعطني ماء حتى أذهب لوجهتي، وأجوز عنك؛ فكثر حتى جعلت الجائزة عطية.. قال الراجز:

يا قيم الماء فدتك نفسي

أحسن جوازي وأقل حبسي

مختصر العمدة:

ذلك هو كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده، وتلك موضوعاته وأبوابه، وهذا هو منهج ابن رشيق فيه، وخير من ذلك في التعريف به الرجوع إليه، فإن فيه لأدبا جما، ونقدا يستحق الدراسة وإطالة الوقوف عليه.

وقد اختصره أبوعمر عثمان بن علي بن عمر الصقلي، كما اختصره ونبه على أغلاطه الأعلم الشنتمري المتوفى سنة ٥٤٩هـ، وسمى مختصره هذا: «مختصر العمدة والتنبيه على أغلاطه»، ومثل ذلك ما صنع موفق الدين البغدادي، وهناك نسخة خطية من مختصر الصقلي في مكتبة بلدية الإسكندرية.

---

(١) اعتمدنا في التعريف بالكتاب على بحث د.عبدالرءوف مخلوف، العمدة لابن رشيق القيرواني، ضمن كتاب تراث الإنسانية ج ٣- ص ٨٨٩ وما بعدها، بتصرف.

العبادات الموسمية

إن من أهم الاختراقات التي تنخر في التدين الفردي في المجتمع المسلم ما يمكن تسميته موسمية المعاني الدينية، أو التدين الموسمي، الذي يراعي فترة زمنية يتفاعل معها، ووقت آني يتجرد فيه لعبادة أو شعيرة معينة، مما يجعل هذه العبادات تتعلق بشكل كبير بالمواسم والأحداث المختلفة، بعيدا عن المعاني السامية لهذه الأحداث أو الوقائع، فيسير الإنسان في عبادات قد تم تجريدها عن الروح الفاعلة التي يجب أن تسري في المجتمع والأمة، وتقوم بصياغة التصور الفردي للحياة والكون وعلاقته بكل ما حوله، فتجرد هذه العبادات من الرابط الأساسي الذي يجب تحقيقه من تعميق المعاني السامية على أساس تكامل وترابط يقرع النفس والروح، ويعمق فيها المفاهيم الإيمانية المختلفة، والتي لا تخرج عن إطار الواقع أو تبتعد عنه بل هي أحد الدعائم التي ترسم الواقع والمفاهيم المرتبطة به، ويمكننا ملاحظة ذلك من خلال التعلق ببعض المناسبات التي صارت عند بعض الفئات ضرورة لابد منها، وحاجة لابد القيام بها، بل ويقاس مدى التدين الفردي من خلالها بعيدا عن ما ترمز له هذه العبادات و المثل التي تحاول غرسها في البنية المجتمعية، إن هذا الواقع يجعل من أهم الواجبات التي ينبغي الحرص عليها في هذه المرحلة هو العمل على البحث عن الدلالات والعبر في العبادات المختلفة، ومحاولة ترسيخ أهم الأحداث والمواقف التي يتميز بها تاريخنا الديني حتى يتمثل الفرد القيم التي تشير إليها العبادات والشعائر والمناسبات؛ حتى لا تكون العبادات -التي يقوم بها الفرد- جوفاء عن الروح المحركة لها، والأسرار المراد ترسيخها، فتنقلب تصورات الإنسان الدينية إلى مجرد عادات تمر عبر العام يكررها تباعا، وروتين يقوم به ويحاول الاستمرار في تكرار هذه الحركات الظاهرة دون أن ترسم أي تأثير على المستوى الداخلي في الفرد في شعوره ووجدانه.

رياض العمري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد: يطيب لي أن أراسلكم لأول مرة لمجلتكم الجميلة الطيبة المبارك فيها إن شاء الله.

وجدت في مجلتكم كل شيء عن الدنيا وعن العلم المفيد للعقل والقلب، وهذا ليس بالمبالغ فيه، أنا أتكلم من صميم عقلي وقلبي، وهي مفيدة للمجتمع المسلم وخاصة لأمة محمد ﷺ.

اسمي نجيب بلمشري، أقطن في مدينة متواضعة وهي خميس مليانة من البلد الحبيب الجزائر، أطلب منكم نشر بعض المواضيع المفيدة التي تخص الأسرة والمجتمع المسلم، كما قال رسول الله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله».

● المحرر: جزاكم الله خيراً وسنسعى لزيادة ما ننشره عن الأسرة.

هل من مجيب لنصرة الحبيب؟

لا يخفى على كل مهتم بأمر الأمة المسلمة أنها تمر بمرحلة هي من أحرج المراحل في تاريخها، حيث يتلقفها الأعداء من كل اتجاه وبشتى السبل، فهم يعلنون التحدي في كل واد، وكأنهم أمنوا التصدي لهم، فآخر ما عند المسلمين أن يصيحوا، ويندبوا، ويشجبوا، ويدينوا، وقد تكررت الإساءات لخير البريا محمد ﷺ، الذي رفع الله ذكره في الأرض وفي السموات، ولكن.. ترانا ماذا يمكن أن نفعل؟ هل نكتفي بالصيحات والآهات، وإتلاف المنشآت؟ أم أننا لابد أن نعمل جادين وجاهدين من أجل الانتصار لحق لنبينا، ليس من باب الحمية المؤقتة التي تزول بزوال سواد الليل، وإنما من باب نصرة دين الله تعالى الذي ربط انتصارنا بنصرته، قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ (محمد: ٧).

كمال عبد المنعم



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

في المدينة النبوية

مدينة المصطفى تزهو للقيانا
وهاتف الشوق للأمجاد نادانا
بيارق النصر قد أعلت مكانتها
ومسجد المصطفى بالبر حيّانا
ألفيتها درة في صدر مملكتي
علما وحلما وتيسيرا وإحسانا
كان اسمها يثرب في جاهليتها
لكنها (طيبت) نورا وإيمانا
أنعم بساكنها في الناس منقبة
أنعم بأصحابه في الناس أقرانا

عبد العزيز العسكر

تهنئة لليوم الوطني الكويتي

بمناسبة اليوم الوطني ويوم التحرير لدولة الكويت الأبية، يسعدني أن أرسل أحلى تهانينا إلى فخامة أمير الكويت وإلى كل الكويتيين، حكومة وشعبا، سائلا المولى عز وجل أن يبقى الكويت بلدا مؤمنا، آمنا مطمئنا، يأتيه رزقه رغدا من كل مكان، فيكون هذا اليوم التاريخي العظيم انطلاقا جديدا لإنجازات أكثر تعود بالنفع الجزيل إلى شعبكم الكريم خاصة وإلى المسلمين والإنسانية عامة.

جمعية التربية الإسلامية والاستثمار الاجتماعي/ السنغال

مختار محمد لوح

التنشئة التربوية الإسلامية للطفل المسلم

● إن التنشئة التربوية الإسلامية هي عملية إدماج الطفل في الإطار الثقافي الإسلامي العام، عن طريق إدخال التراث الإسلامي في تكوينه النفسي والعقلي، من خلال تعليمه نماذج السلوك الملتزم في المجتمع الإسلامي.

● والركيزة الأساسية للتربية الإسلامية هي الشريعة الإسلامية السمحاء، التي ترتكز تعاليمها على ضبط سلوك النشء بالثواب والعقاب، وكفه عن السلوكيات التي لا يقبلها المجتمع؛ حتى يكون الطفل متكيفا مع نفسه ومع من حوله، وما حوله.

● ويمكن هنا تحديد بعض أساليب التنشئة التربوية الإسلامية للطفل المسلم ومنها:

القدوة الصالحة: وهذا الأسلوب له فعاليته في التربية الإسلامية على أسس سليمة، فالطفل يكتسب سلوكياته من سلوكيات من حوله داخل الأسرة، باحثا عن قدوة له يجدها في الأب والأم، وهو ما يعني أهمية القدوة في حياة وتنشئة الطفل السوية.

الموعظة الحسنة: وهو أسلوب من أساليب التنشئة الإسلامية، حيث النصح والإرشاد دون امتهان لكرامة الناشئة، وإنما هو توجيه بالمعروف ونهي عن المنكر دون ضرر ولا ضرار، وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ (سورة النحل: ١٢٥).

رفعت محمد بروبي

العلاج بضوء الفجر

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ (الفجر: ١-٢). ويقول أيضا: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨﴾ (الإسراء: ٧٨). ويقول جل وعلا عن ليلة القدر: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ (القدر: ٥).

نلاحظ في هذه الآيات أن الله تعالى يقسم بظاهرة «الفجر»، ويأمر بتلاوة القرآن في وقت الفجر... فما هو سر هذه الظاهرة؟

تتميز فترة بداية طلوع الشمس بأن الجو يكون مشحونا بالأكسجين النقي، وتكون الأشعة الصادرة من الشمس في هذا الوقت خفيفة ومفيدة للعين، لأنها لا تصل مباشرة إلى العين بل نتيجة انعكاسات متعددة. وبما أن الله تعالى أقسم بالفجر، والله لا يقسم إلا بعظيم، فلابد أن تتميز ظاهرة الفجر بأشياء عجيبة وأن يكون لها منافع على حياة البشر، وهذا ما وجده العلماء أخيرا.

منة الله صالح محمود

لأجل هذا انتصروا

قال أبومعاوية بن عمرو عن أبي إسحق: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء، فقال هرقل -وهو على أنطاكية- لما قدمت منهزمة الروم: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم.. أليسوا بشرا مثلكم؟! قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن.

قال: فما بالكم تنهزمون؟! فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني.

(البداية والنهاية ١٥/٧).

وصايا وحكم أغلى من الذهب:

المحبوب لا يضرب، ومنحل الود لا يقرب، والسلطان لا يرادد، والقاضي لا يعاند، والوالي لا يخاصم، والأب لا يحاكم، وصاحب الحمق لا يشاتم، والصاحب لا يعدم، والغائب لا يشتم، والكذاب لا يعاشر، والنمام لا يسارر، وبالجبان لا يستنصر، والخائن لا يدخل، والمجالس لا تنقل، والشاعر لا يعادى، والبخيل لا يهادى، والخير لا يؤخر، والباغي لا ينصر، والرسول لا يقتل، والدعاء لا يترك، وبالله العظيم لا يشرك.

(الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي ص١٣).

ثلاثة أصول

قال الشاطبي رحمه الله تعالى: القوم بنوا نحلتهم على ثلاثة أصول:

١. الاقتداء بالنبي ﷺ.

٢. وأكل الحلال.

٣. وإخلاص النية في جميع الأعمال.

(الاعتصام ٢١٢/١).

اللسان أحق بالسجن

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان».

(الزهد والرقائق لابن المبارك ١/ ١٢٩).

كرم أم المؤمنين

روى هشام بن عروة عن أبيه أن معاوية رضي الله عنه بعث إلى عائشة رضي الله عنها بمائة ألف، فوالله ما غابت عليها الشمس حتى فرقتها، فقالت مولاة لها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحما، فقالت رضي الله عنها: ألا ذكرتني؟!

(المقتطفات النافعة من ثمار المطالعة ص٦).

الحارث بن يمجد

بعث عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يزيد بن أبي مالك، والحارث بن يمجد الأشعري، يفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رزقا (راتبا)، فأما يزيد فقبل، وأما الحارث فأبى أن يقبل، فكتب إلى عمر بن عبدالعزيز بذلك. فكتب عمر: إنا لا نعلم بما صنع يزيد بأسا، وأكثر الله فينا مثل الحارث بن يمجد.

(سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ١١٢).

لا تسأل الله عن فعله

قال الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال المتوفى سنة (٦٦٦هـ) -وكان صالحا ورعا زاهدا-: «كنت بمصر فبلغني ما وقع من القتل الذريع ببغداد في فتنة التتار، فأنكرت في قلبي وقلت: يا رب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له؟ فرأيت في المنام رجلا وفي يده كتاب فأخذته فقرأته فإذا فيه هذه الأبيات، فيها الإنكار علي:

دع الاعتراض فما الأمر لك
ولا الحكم في حركات الفلك
ولا تسأل الله عن فعله
فمن خاض لجة بحر هلك
إليه تصير أمور العباد
دع الاعتراض فما أجهلك

(البداية والنهاية لابن كثير ٢٩٤/١٣).

دواء للحفظ

قال علي بن خشرم: رأيت وكيعا وما رأيت بيده كتابا قط، وإنما هو يحفظ، فسألته عن دواء الحفظ، فقال: «ترك المعاصي، ما جربت مثله في الحفظ»

(تهذيب التهذيب ١٢٩/١).

أنا أحق بصيانة سري

قال عمرو بن العاص: «إذا أنا أفشيت سري إلى صديقي، فأذاعه فهو في حل، قيل له: وكيف؟ فقال: أنا كنت أحق بصيانته»

(الكامل للمبرد ٢٦/٢).

فتنة الدنيا

قال عيسى بن موسى لابن أبي ليلى وابن شبرمة: أسألكما عن الرجل فتخبراني عنه بخبر، فإذا بلوناه فاستعملناه لم نجده كذلك! قالا: لو سألت عنه أيها الأمير غيرنا في ذلك الوقت؛ لأخبرك بمثل ما أخبرناك، ولكنها الدنيا تعرض لهم فيغترون، قال: صدقتما.

(أخبار القضاة لوكيع البغدادي ١٠٤/٣)

العقلاء ثلاثة

قال يحيى بن معاذ: «العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وعمر قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه».

(الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي ص١٢).

جمع الجمع

من عجيب ما وقع من الجموع: جمع ثمرة على ثمار، ثم جمعوا الثمار على ثمر، ثم جمعوا الثمر على أثمار، فهو جمع جمع الجمع.

ومثله: فيقة، وهو اللبن المجتمع في الضرع، فجمع فيقة فيق، وجمع فيق أفواق، وجمع أفواق أفاويق.

ومثله: شيعة، جمعها شيع، وجمع شيع أشياع.

ومثله: عل وعلل وأعلال.

(الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي ص ٣٩).

ورع وديانة

حكى الحسن بن عرفة أن عبدالله بن المبارك استعار قلما من رجل بالشام وحمله إلى خراسان ناسيا، فلما وجده معه بها، رجع إلى الشام حتى أعطاه لصاحبه.

(تهذيب التهذيب ٣٨٧/٥).

من أخبار شريح القاضي

كان شريح إذا أهدي إليه شيء لم يرد الطبق إلا وعليه شيء.

وكان لا يجعل ميزابه إلا في داره.

وكان إذا مات له سنور دفنه في داره ولم يطرحه.

وكان يأخذ على القضاء خمسمئة درهم كل شهر، ويقول: أستوفي منهم وأوفيهم.

ومر شريح على قوم يلعبون يوم عيد فقال: ما بهذا أمر الفارغ.

(أخبار القضاة ٢١٢/٢-٢٥٣)

المصارحة والمناصحة

قال ابن قدامة رحمه الله تعالى: «وقد عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة: (المصارحة والمناصحة) لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب.

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا، وهذا دليل على ضعف الإيمان.

(مختصر منهاج القاصدين ص١٤٧).

مسك الختام

الإسلام والغرب.. استمرارية التفاعل والصراع

محمد فتحي النادي
باحث في الفكر الإسلامي

لقد سمى الله عز وجل سورة في القرآن باسم سورة «الروم»، ولم يسم سورة باسم سورة «فارس» أو «الهند» أو «الصين»...

وقد صدر الله -تعالى- بهذه اللفظة السورة فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾(الروم: ١-٢)، وقد وجدنا أن القرآن الكريم لم يجعل من الضرورة أن يتصدر اسم السورة بدايتها؛ فسورة البقرة لم تذكر فيها قصة البقرة إلا في الربع الثالث، وكذلك الحال في (آل عمران) فلم يأت على ذكرهم إلا بعد نيف وثلاثين آية...إلخ.

ورغم أن الروم هم المغلوبون فإن الله ذكرهم ولم يذكر الغالبين، فأغفل ذكر فارس؛ وقد كان من الممكن أن يذكر طرفي الصراع فيقول: «غلبت فارس الروم»، ولكنه ذكر المغلوب ولم يذكر الغالب، لحكمة أرادها، جل جلاله.

وعندما أراد المشركون أن يتهموا رسول الله ﷺ بأنه يتلقى القرآن عن البشر، وأنه ليس كلام الله، اتهموه بأنه يتلقاه عن حداد رومي نصراني كان يسكن مكة، وقد خلد القرآن تلك الحادثة فقال -تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾(النحل:١٠٣).

وإذا كان الشرق هو مهد الأديان فإن أوروبا والغرب هما حاضنتا الديانتين اليهودية والنصرانية، فهاتان الرسالتان تمددتا غربا، ولم تكن البيئة الشرقية المليئة بالفلسفات والأديان الوضعية قابلة لتلك الرسالات السماوية؛ فما زالت الهند والصين وغيرهما هم من يحتضنون الديانات الشرقية الوثنية (البوذية.. المجوسية...إلخ).

ولقد جعل الغرب نفسه حاميا للنصرانية في العالم، سامحا لنفسه بالتدخل في شؤون الدول لحماية النصرانية. ويبدو أن حالة التأثير والتأثر بين عالمنا والغرب قديمة قدم التاريخ.. ممتدة -أيضا- بامتداد التاريخ.

ففارس تلك الإمبراطورية العظيمة التي كثرت مناوشاتها مع الروم لم تصمد كثيرا أمام جحافل الجيوش الإسلامية، وزالت من على الوجود، ودخل المسلمون المدائن.. ولم تقم لهذه الإمبراطورية بعد ذلك قائمة، ولعل ذلك كان بسبب دعاء رسول الله ﷺ عليهم حينما بعث برسالة لكسرى المجوسي يدعوه فيها إلى الإسلام، فمزقها، فقال ﷺ: «اللهم مزق ملكه».

والعكس من ذلك كان مع هرقل قيصر الروم النصراني، قال الشافعي: «وحفظنا أن قيصر أكرم كتاب النبي ﷺ، ووضعه في مسك، فقال النبي ﷺ: «ثبت ملكه»...

نعم.. ثبتت إمبراطورية الرومان بعد أن تولت عن عالمنا راغمة؛ حيث أخرجتها جيوش المسلمين، بأن ظلت صامدة في أوروبا قرونا طويلة، رغم انقسامها إلى دولتين: إحداهما عاصمتها بيزنطة (القسطنطينية)، والأخرى عاصمتها (روما)..

والحروب بيننا وبينهم دائرة على أشدها، إن لم تكن بالسيف فبالفكر والعمل الحضاري..

بيد أن النبوءات المحمدية تبشر المسلمين بأنهم ستطأ أقدامهم أرض الفاتيكان (دولة البابا)، وذلك بفتحهم روما، فقد سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولا، يعني: القسطنطينية أو الرومية؟ فقال: «مدينة هرقل أولا»، يعني: القسطنطينية.

هذه العلاقة تحتاج إلى دراسة وتعمق وفهم.

وتبقى الأسئلة مطروحة:

لماذا يهتم بنا الغرب أكثر من بقية أماكن العالم الأخرى؟!

ولماذا -أيضا- ننشغل نحن بالغرب أكثر من انشغالنا بالحضارات الشرقية المجاورة لنا؟!

لماذا الصراع بيننا محتدم أبدا.. ولا يكاد يخفت حتى تشتعل ناره من جديد؟.





الوعي الشبابي
www.alwaeialshababy.com
• مواضيع حيوية ومعاصرة
• حوارات حصرية مع الشباب المبدعين
• مقالات لأبرز الكتاب الشباب
«الوعي الشبابي» مجلة شبابية
إلكترونية تصدر عن مجلة «الوعي الإسلامي»
رئيس التحرير: فيصل يوسف العلي
www.alwaeialshababy.com
Shabab alwaei
@alwaeialshababy

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٨٧) رجب ١٤٣٥ هـ - مايو ٢٠١٤ م

50 عاماً من العطاء

هدية العدد: ذخائر مجلة الوعي الإسلامي (١)

بين منطق الاستخلاف وشهوة الاستهلاك



تأملات في آية الإسراء

التأصيل الإسلامي لعلم إدارة الأزمات

قراءة في رواية «ساق البامبو»

كيف يسمو مجتمعنا بالإنسانية؟

محدودية السياحة البينية بين الدول الإسلامية

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

الافتتاحية

وكان بين ذلك قواما

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

التدبير نصف المعيشة... وقد خلق الله تعالى الإنسان ماس الحاجة، ظاهر العجز، وجعل لنيل حاجته أسبابا، ولدفع عجزه حيلة، دل عليها بالعقل، وأرشده إليها بالفطنة، وحسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف، قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان:٦٧). فقد مدح الله عباده الصالحين بتوسطهم في إنفاقهم، فلا يجاوزون الحد بالإسراف في الإنفاق، ولا يقترون، أي: لا يضيقون فيبخلون بإنفاق القدر اللازم. فالمال عصب الحياة ووسيلة الإنسان، وهو إحدى الضرورات الخمس لتحقيق النصوص الشرعية، والمقاصد المرعية، وهو نعمة من نعم الله على خلقه في الحياة الدنيا، وهو الطريق إلى الاستمتاع بنعمها وزينتها. لذلك، لم تمنع الشريعة الإنسان من أن يمتلك المال، وإنما أباحت له ذلك مع الاعتدال.

فالمال أداة استثمار وإنفاق، وليس للكنز والادخار، فقد أوجده الله تعالى للتداول والاستثمار، ولندير به عجلة الاقتصاد، ونهى عن الكسب الحرام، وعن إضاعة المال، وأكله بالباطل، فالإنسان مؤتمن عليه ومستخلف فيه، قال تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١). وحكمة الله مراعاة المصلحة في تحقيق السعادة البشرية، ودفع الجشع والأنانية.

فكل ما حرم الله على العباد أكله، أو شربه، أو فعله، فأنفق فيه منفق نفقة سمي مبذرا. والقصد في النفقة مطلوب لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء:٢٩)، أي لا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتبقى ملوما محسورا، فنهيه عن مجاوزة الحد والإجحاف بالنفس في النفقة خشية السرف.

ووصفهم الله بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير، وقد قيل «ما عال من اقتصد». وكون إنفاقهم من خير الأمور، فقد شاع «خير الأمور أوساطها»

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد
كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقيل:

إذا المرء أعطى نفسه كلما اشتهت
ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي
دعته إليه من حلاوة عاجل

فالإنسان دُنيا نفسه، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه، لأن نفسه أخص، وحاله أمس.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٧ | رجب ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
مايو ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



تتلخص مشكلة ثقافة الاستهلاك في الإنسان المتسلع ذي البعد الواحد الذي لا يرى السعادة إلا في الاستهلاك.

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦-٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذبية . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

كلمة العدد

ترشيد الاستهلاك

تنامي معدلات الاستهلاك في المجتمعات العربية والإسلامية أصبح يهدد مصالح هذه الدول، ويعوق مجهوداتها التنموية، لذا وضع الإسلام قيودا محكمة على الاستهلاك، إيمانا بأن حرية الاستهلاك تؤدي في النهاية إلى إصابة الاقتصاد بأسوأ الأضرار.

والإسلام جعل الاستهلاك والانتفاع بما خلق الله تعالى أمرا مباحا في الإسلام، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾(المائدة:٨٧).

إن النظام الاقتصادي في الإسلام يسعى إلى تحقيق رفاهية المجتمع ودعم قدرته الاقتصادية حتى يتمكن من تحسين مستويات المعيشة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بالاعتدال والتوسط، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾(الفرقان:٦٧).

وبات من الضروري حماية المستهلك من السلع السيئة والخدمات قليلة الكفاءة والصفقات غير العادلة لأنه في النهاية وسيلة لتحقيق العدل في التعامل.

وينبغي أن نترك التقليد الأعمى المدمر، وهذه العادات السيئة، والجري وراء أوهام وسراب الاستهلاك، وأن نعود إلى تعاليم الدين الحنيف، فهو السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية من أزماتها، وهو وحده كفيل بأن يحقق للإنسان ما ينشده من كمال ورفعة وتقدم ورخاء.

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت: للأفراد ٧,٥ دنانير - للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم: للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية: للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

في ختام مؤتمر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر:

العلماء طوق نجاة الأمة

القاهرة : إسلام لطفي ومحمد عبدالعزيز
دار الإعلام العربية





فتح أبواب الحوار والتواصل بين العلماء والشباب، والاستفادة من التقنيات الحديثة للرد على استفسارات المواطنين، وكذا ضرورة إحياء التعارف بين أبناء الأمة الإسلامية، والعمل المشترك على محو الأمية الدينية والفكرية لجميع أبناء العالم العربي والإسلامي، ووضع المساجد في جميع الدول تحت إشراف وزارات الأوقاف، والعمل على إعادة دور العلماء المتخصصين في القيادة الفكرية للأمة، وتحليل العقول من كل ألوان الضلال.. كانت هذه أبرز التوصيات التي انتهى إليها المؤتمر الدولي الـ٢٣ للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية، بمشاركة أكثر من ٨٠ عالما ووزيرا ومفكرا من ٤٠ دولة، ناقشوا خلاله ٦٠ بحثا حول سبل مواجهة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم على المجتمعات والعلاقات الدولية..

«الوعي الإسلامي» شاركت في فعاليات المؤتمر وجاءتكم بالتفاصيل:

في بداية المؤتمر، أكد وزير الأوقاف المصري الدكتور محمد مختار جمعة، أن المؤتمر يأتي في مرحلة فارقة للأمة عامة ولمصر خاصة، مشيرا إلى أن مصر عانت من التشدد باسم الدين واقتحام غير المتخصصين للدعوة، مما جعل الأوقاف تنأى بالدعوة بعيدا عن التشدد والمزايدة باسم الدين، لتحقيق مصالح خاصة على حساب الأمن القومي.

وقال جمعة، إن روح التسامح تأتي بالاحترام المتبادل دوليا، وبين مختلف الطوائف لتحقيق المستقبل الأفضل، لافتا إلى أن اختيار موضوع المؤتمر جاء لتصحيح المفاهيم الخاطئة التي تروج لتكفير الآخر؛ وتتخذ ذلك وسيلة للاعتداء على الآمنين وحراس الوطن، ما يؤدي إلى الإفساد في المجتمعات.

عودة الوعي

وخلال كلمته، دعا شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب، إلى عودة الوعي بمذهب أهل السنة والجماعة، كونه المذهب الذي يضيق فيه الفكر التكفيري، مؤكدا أن الأزهر حريص على تجميع علماء الأمة، وجمع كلمة المسلمين ورفع راية موحدة فيما بينهم، كما أنه لا يبخل بجهد في مقاومة الانحراف الفكري الضال.

وأكد أن آفة التشدد ليست جديدة

> **شيخ الأزهر: الأمة تمر بمحنة كبرى لما تعانيه من فوضى**

وزير الأوقاف: موجات التشدد تنعكس سلبا على المصالح الوطنية والدولية

على المسلمين، حيث بدأت مع الخوارج، وأن المتشددين يتشبثون بالظواهر ويتركون الأصول، منوها إلى أن المجتمعات الإسلامية لم تعرف جماعة تقول بتكفير المجتمع إلا منذ بداية فترة السبعينيات.

الإرهاب جريمة

في الاتجاه ذاته، أكد الدكتور جعفر عبدالسلام، أمين عام رابطة الجامعات الإسلامية، أن الفكر الإرهابي يقصد إشاعة الفوضى وإرهاب الناس على طريقة «أرهب عدوك وانشر قضيتك»، مشيرا إلى أن الإرهاب جريمة نكراء، تم إلصاقها بالإسلام ظلما من قبل بابا الكاثوليك بندكت الثاني.

الفتاوى المشبوهة

من جانبه، أكد وزير الأوقاف الأردني الدكتور هايل عبدالحفيظ، أن زلزال التكفير يهدد الأمة العربية، حيث يستخدمه أعداء الأمة العربية، وأن التكفيريين يستخدمون آيات القرآن في الاستدلال على فكرهم الشاذ وتبنيهم للعنف، مطالبا الأمة العربية بالتوحد في مواجهته.

مسؤولية مشتركة

بدوره، طالب د. محمد أبوزيد الأمير، عميد كلية الدراسات الإسلامية فرع المنصورة، بوجوب التثبت والتريث في أمر الفتوى، مشيرا إلى أن الفتوى الشرعية ليست مسؤولية المفتي وحده، ولا المستفتي وحده، إنما هي مسؤولية مشتركة بينهما، وعلى المستفتي أن يتجه بسؤاله إلى المختصين في الفتوى، حتى يتحقق له المطلوب من الفتوى، وهو الوصول إلى الرشاد.

أما مفتي روسيا الشيخ طلعت صفا تاج الدين، فطالب الجميع بالتوحد ومحاربة الإرهاب والفكر المتشدد من أجل تحقيق السلام بين الأمم، مؤكدا خطورة انتشار الإرهاب تحت ستار الدين الإسلامي، قائلا: «الدين بريء ممن ينفذون عمليات إرهابية وإجرامية باسمه».

اختطاف الفتوى

بينما شدد الدكتور توفيق السديري، وكيل وزارة الشؤون الإسلامية، لشؤون الدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، على أن ما يحدث من فوضى قتل في بعض البلاد الإسلامية، وما يحدث من إشكالات لدى الأقليات والجاليات المسلمة، وتشويه صورة الإسلام الوسطي الحقيقي المتسامح، جاء نتيجة الفتوى بغير علم، كنتيجة لاختطاف الفتوى في العقود المتأخرة من قبل تنظيمات وأحزاب لها أجندات سياسية تتاجر بالدين، كذلك من قبل أشخاص لهم مصالح شخصية، ويبحثون عن الشهرة والمال.

ميثاق شرف

فيما طالب الدكتور محمد عبدالستار الجبالي، رئيس قسم الفقه والتشريع والقانون بجامعة الأزهر الشريف، بضرورة وضع ضوابط للفتوى على أن تخرج من المتخصصين فقط، لافتا إلى أن هناك صفات محددة للمفتي، وفي مقدمتها أن يكون ملما بعلوم القرآن والسنة، والحديث وعلوم اللغة العربية، وأن يحترم آراء العلماء والأئمة السابقين.

د. السديري: اختطاف الفتوى من أهلها سبب إشكالات الأقليات وتشويه سماحة الإسلام

د. جعفر عبدالسلام: الإرهاب جريمة نكراء تم إلصاقها بالإسلام ظلما

توصيات المؤتمر

أوصى المؤتمر في ختام فعالياته، بضرورة التنسيق بين دور الإفتاء فيما يخص القضايا الدينية، ومخاطبة وسائل الإعلام بترك مساحة للفكر الوسطي، وفتح الباب أمام الوسطية وغلقه في وجه التشدد، وإعلام الجميع ببغض ورفض الفكر التكفيري الشاذ، وترك التكفير للمؤسسات الدينية والقضائية، وتأصيل المفاهيم الكبيرة وتوضيحها، مثل مفاهيم الجهاد وتصحيح المفاهيم الخاطئة.

كما أكد على ضرورة فتح باب الحوار، وخاصة مع الشباب، والاستفادة من وسائل الاتصال للرد على الفتاوى من قبل العلماء المتخصصين، حتى لا تترك الساحة للتكفيريين، وتبني مبادرة شيخ الأزهر حول ضرورة إحياء التعارف بين أبناء الأمة والإنسانية، والعمل المشترك على محو الأمية الدينية والفكرية في العالم، بعيدا عن التشدد وفكر الجماعات، ووضع المساجد في الدول العربية تحت وزارة الأوقاف، وإطلاق القناة الخاصة بالأزهر وعمل المتخصصين بها.

كما أوصى أيضا على أن حفظ الأنفس من مقاصد الإسلام الكبرى، فلا يحل الاعتداء عليها، وذلك محض فساد وإفساد في الأرض، والتأكيد على سماحة الإسلام وحضارته نحو الآخر.

تأملات في آية الإسراء

أ. د. أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي

شاءت إرادة الله -تبارك وتعالى- أن ينفرد كل نبي من أنبيائه، أو رسول من رسله بمعجزات، تختلف وتتباين، من حيث الشكل والجوهر، عن المعجزات التي يؤيد الله بها غيره من إخوانه حملة رسالات السماء إلى أهل الأرض. والمتأمل في معجزاتهم -صلوات الله عليهم جميعا- يتبين له أن دابة الأرض لم تخرج إلا لنبي الله صالح عليه السلام، وقانون الإحراق لم يتوقف في النار إلا مع خليل الله إبراهيم عليه السلام، وأن العصا لم تنقلب إلى ثعبان إلا مع كليم الله موسى عليه السلام، ولم يحي الموتى -بإذن الله- إلا كلمة الله عيسى ابن مريم عليه السلام، ولم تأت معجزة رسول أو نبي في منهجه إلا مع حبيب الله محمد ﷺ. وهكذا ندرك عند تأملنا لتاريخ الرسل والأنبياء أن الله تعالى اختص كل واحد منهم بشكل معين وصور محددة من المعجزات، التي تؤيده وتنصره على خصوم دعوته ومناهضي رسالته. والحق أن معجزة كل رسول كانت تأتي متحدية التخصص الذي نبغ فيه قومه الذين أرسله الله إليهم، وهي تأتي داحضة للخصوم وقاهرة لبراعتهم في الأمر الذي برعوا فيه وفاقوا غيرهم من الأمم والشعوب. كما حدث مع نبي الله موسى الذي فاقت معجزته براعة قومه في السحر، وكما حدث مع رسول الله محمد ﷺ الذي أعجز قرآنه قومه وهم سادة البيان وبلغاء الزمان.

ويلحظ المرء أن ثمة تنوعا في المعجزات حدث مع بعض الرسل والأنبياء، لمزيد من التأييد لهم ولإظهار صدقهم وبيان سلامة دعواهم، فموسى -عليه السلام- الذي انقلبت معه العصا إلى ثعبان، هو من انفلق له البحر، وعيسى الذي أحيا الموتى بإذن الله هو من أبرأ الأكمه والأبرص وأنبأهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ونبينا الذي أعجز قرآنه قومه، وهم البلغاء والفصحاء، هو من اختصه الله تعالى برحلة أو معجزة الإسراء والمعراج. ولقد تحدث القرآن الكريم عن المعراج وما حدث فيه في سورة «النجم»، وتحدث عن الإسراء في سورة «الإسراء» وذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (الإسراء:١).
ويرى بعض العلماء أن جزءا من الآية ٦٠ في السورة نفسها جاء هو الآخر متعلقا بمعجزة الإسراء والمعراج، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء:٦٠).
واللافت أن الحديث عن المعراج في سورة «النجم» قد امتد وتواصل عبر عدة آيات، بينما الحديث عن الإسراء لم يأت إلا في آية واحدة متكاملة، ولا ننفي أن الجزء الذي ذكرناه من الآية ٦٠ يتعلق بالمعجزة نفسها. لكن ما يهمنا هو أن تأتي، في معجزة بحجم الإسراء، آية واحدة في كتاب الله فلا شك أن هذا الأمر يلفت النظر، ويشد الانتباه، ويدعونا إلى التأمل والتدبر.
ولما كانت كلمة «الآية» لغة: هي المعجزة، فإن الإسراء بهذا المعنى معجزة في البيان القرآني والصياغة اللفظية، كما هو معجزة في حياة النبي ﷺ. وقد بدأت سورة «الإسراء» بقول الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾، وهذا اللفظ، بالإضافة إلى كونه يفيد تنزيه الله تعالى، إلا أنه يعد معجزة في هذا الموضع بالذات! لأنه قدم نبوءة بأن الناس سيندهشون من حديث الإسراء، وأنهم سيعترضون عليه. لذا، افتتح الله السورة بـ «سبحان»، أي لا تندهشوا مما سيقال، لأن الله تعالى منزه عن العجز عن إتيان فعل الإسراء، أو أي فعل آخر، لأنه على كل شيء قدير. فورود لفظ «سبحان» في هذا الموضع، هو بحد ذاته معجزة، لأنه إشارة إلى ما سيقوله الأغيار عن معجزة الإسراء.. وربما لهذا السبب لم يبدأ الله السورة بقوله «أسرى الله بعبده..»، أو «الحمد لله الذي أسرى بعبده..»، نقول: ربما لم يحدث هذا لأن القرآن الكريم كان حريصا على تنبيه العقل الإنساني إلى أن الله تعالى منزه عن العجز عن إتيان هذا الفعل، فعل الإسراء.
والإسراء لغة: هو السير ليلا. من هنا نفهم أن الإسراء وقع لنبينا ﷺ ليلا. ثم قال الله تبارك وتعالى بعد ذلك ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾، ودوننا دخول في تفاصيل الإشكالية التي دارت حول التساؤل عن الإسراء: هل كان بالروح والجسد، أم بالروح فقط، أم كان رؤية منامية؟.. فكاتب السطور يرى أن هذه مشكلة مختلقة بالأساس، لأنه ليس ثمة ما يشير بحال من الأحوال إلى أن الإسراء وقع بالروح دون الجسد، «والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، أنه أسري بجسده ﷺ، والآثار تدل لمن طالعها أو بحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل» (١).
وعندنا أن العقل المنصف المحلل لا يستسيغ القبول بالرأي القائل إن الإسراء كان بالروح، أو رؤيا منامية. والدليل على هذا الأمر هو «استعظام مشركي مكة لذلك، وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له، إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا وكان إخباره إياهم لذلك على هذا الوجه، لما استدعى هذا الأمر منهم أي تعجب، أو استعظام، أو استنكار، لأن المرئيات في النوم لا حدود لها، بل يجوز مثل هذه الرؤيا حينئذ على المسلم والكافر. ولو كان الأمر كذلك ما سألوه أيضا عن صفات بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الإلزام والتحدي» (٢).
يضاف إلى هذا أن الإسراء لو كان بالروح، أو رؤيا منامية ما كنا في حاجة إلى قول الله تعالى في بداية آية الإسراء «سبحان»، لأن هذا اللفظ يفيد هنا تنزيه الله تعالى عن العجز عن القيام بفعل الإسراء بنبيه، ولو كانت المسألة قد حدثت بالروح دون الجسد ما كنا في حاجة إلى التنزيه عن العجز هنا، لأن الرؤيا المنامية لا تحتاج إلى قدرة مطلقة أو إعجاز سماوي.
ثم نتوقف بعد ذلك مع قول القرآن الكريم ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾. واللفظ بهذا الشكل يفيد حدوث الإسراء بالروح والجسد معا. وورود هذا اللفظ على هذا النحو نقرأ فيه أن الله تعالى يريد أن يثبت لنا أن العبودية له هي أسمى المراتب التي يصل إليها الإنسان. فالعبودية لله عزة ما بعدها عزة، وعطاء ما بعده عطاء.
وإذا قرأنا في سورة الكهف نجد قول الحق جل جلاله: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ (الكهف: ٦٥ و٦٦). ونحن نعلم أن موسى رسول الله وكليمه، ومع ذلك فقد كان هناك عبد من عباد الله أعلم من موسى -عليه السلام- واتبعه ليأخذ منه، أو ليتعلم عنه. إذن فالحق -سبحانه وتعالى- يريد أن يلفتنا إلى أن العبودية له هي أعلى الدرجات. بدليل أنه -سبحانه- ذكر لنا في سورة الكهف قصة موسى والخضر -عليهما السلام- ولم يكن الخضر رسولا ولكنه كان عبدا، فنال منزلة عالية عند الله سبحانه وتعالى، وأنزل الحق -جل جلاله- عليه من فيوضات علمه ما لم ينزل على موسى عليه السلام» (٣).
إذن فالتعبير بلفظ «عبده» هنا يفيد أمرين: أولهما أن النبي ﷺ أسري به روحا وجسدا. أما الثاني فهو أن رسولنا الكريم ﷺ وصل إلى درجة العبودية الخالصة لله تعالى، وهي أعلى المراتب والدرجات؛ إذ يفيض فيها ربنا على عباده من الرحمة والعلم اللدني كما حدث مع العبد الصالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ

﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ (الكهف: ٦٥).

لماذا كان الإسراء ليلا؟

من الملاحظ أن لفظ «ليلا» ورد عند الحديث عن الإسراء ولم يرد عند الحديث عن المعراج. ولعل ذلك يرجع إلى أن الله تعالى أراد من ذكر هذا اللفظ في أثناء الحديث عن الإسراء الإشارة إلى أن النبي ﷺ تعامل في إسرائه مع بعض الأشياء الحسية، كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى، وقوافل التجارة التي كانت في طريقها إلى مكة، ورأى إبلا ضالة عن أصحابها، وشرب من ماء آخرين.. إلخ من المرويات الحسية في هذا السياق. والشاهد أن التعامل مع المحسوسات يقتضي الإشارة إلى الزمان والمكان، عكس المعراج الذي لم يتعامل النبي ﷺ فيه مع المحسوسات مطلقا.

وإذا كنا قد عرفنا أن الرحلة كانت ليلية من خلال لفظ «أسرى» الوارد في مفتتح الآية، لأنه يفيد السير ليلا، فإن الله تعالى أورد لفظ «ليلا» ليقول لنا: إننا أسرينا به ليلا وكنا قادرين على أن نسري به نهارا، وفيه أيضا تأكيد واضح على حدوث معجزة الإسراء، وأنها ليست مسألة ادعاها النبي الكريم ﷺ.

ولقد قيل في ورود لفظ ليلا: «كان قوله «ليلا» إشارة إلى أن السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء من ليلة، وإلا لم يكن ذكره إلا تأكيدا»(٤).

وقد تساءل بعضهم هنا قائلين: لماذا كان الإسراء ليلا ولم يكن نهارا؟ ونقول:

أولا - ربما لو رأى الناس ركب الإسراء المبارك المكون من جبريل -عليه السلام- والرسول ﷺ والبراق، ورأوا الرسول يركب البراق ثم يتحرك به بالسرعة والكيفية المذكورة في أحاديث الإسراء، ربما ظن هؤلاء وقتها أنهم قد سحروا.. ولقد سجل القرآن الكريم مثل هذا التصور في قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ (الأنعام:٧).

ثانيا - من الثابت تاريخيا أن المعجزات الحسية لا تقنع المعاندين، فمعجزة نزع القدرة على الإحراق من النار لإبراهيم، وعصا موسى التي انقلبت إلى ثعبان، وإحياء عيسى للموتى بإذن الله، ونبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ وانشقاق القمر وحنين الجذع، كل ذلك لم يُدخل المعاندين تحت مظلة الإيمان، وظلوا على عنادهم، ورفضوا الانصياع للأنبياء، أو الانقياد لهم.

من هنا تأتي قيمة وأهمية اعتماد الإسلام على الإقناع والاقتناع العقلي، لأن هذا هو المنهج الصواب، ولا سيما أنه الدين الخالد. والواضح أن البشرية تنصاع في القادم من مستقبلها إلى العقل وبراهينه، ويسهل عليها في الوقت نفسه إنكار المعجزات وخوارق العادات، أو على الأقل التشكيك فيها، إن لم تكن مدعومة ببراهين إقناعية.

ثالثا - لو وقع الإسراء نهارا ورآه بعض الناس، لكان حجة على من رآه فقط، لكن الله تعالى أراد أن يكون التصديق بالإسراء مسألة إيمانية تقوم على تصديق المستمع للرسول ذاته.

الأدلة العقلية على حدوث الإسراء

وإذا كانت معجزة الإسراء والمعراج قد حدثت ليلا، وكانت غيبا بالنسبة إلى المعاصرين لها، فإن الله تعالى هيأ لها من الأدلة العقلية التي يمكن البرهنة من خلالها على صدق النبي ﷺ، وهذه الأدلة منها:

أولا - يعد إصرار النبي ﷺ على عرض هذه المعجزة على الآخرين دليلا ساطعا على حدوثها؛ لأنها لو لم تقع لما حدث بها الرسول ﷺ الناس، لكن الثابت أنه ﷺ كان حريصا على عرضها عليهم، على الرغم من أن أم هانئ رجته ألا يعرض ذلك على الناس خشية أن يكذبوه.

ثانيا - وصفُ الرسول ﷺ الدقيق للمسجد الأقصى من دون زيادة، أو نقصان، مع العلم بأنه لم يكن قد سافر إلى بيت المقدس قبل ذلك مطلقا.

ثالثا - تأكد أهل مكة من صدق ما قاله ﷺ عن القوافل التجارية القادمة إليهم في الطريق، حيث تحدث إليهم عن عير بالروحاء قد ضلوا ناقة لهم، وشربه الماء من قدح كان لإحدى القوافل.

رابعا - يعد التوقيت الذي حدثت فيه معجزة الإسراء دليلا عقليا في حد ذاته على وقوع تلك المعجزة، فقد كان الرسول ﷺ مُقدما على الهجرة من مكة إلى المدينة، وكان هذا الأمر يحتاج إلى مؤمنين أقوياء الإيمان، الأمر الذي اقتضى الإقدام على عملية فرز وتصفية للصف الإسلامي في هذا التوقيت بالذات حتى لا يهاجر إلا المسلم صحيح الإسلام والإيمان، ومن لديه اليقين الذي يعينه على بذل الجهد في بناء دولة الإسلام في المدينة المنورة.

خامسا - عندما حدثهم النبي ﷺ عن أنه قد التقى بأنبياء الله تعالى، قالوا له: صف لنا أشكالهم. فوصفهم الرسول من دون تردد، ولم يعترض أحد من أنصار هؤلاء الأنبياء وأتباعهم، الأمر الذي يؤكد أنه ﷺ قد وصفهم وصفا سليما ومطابقا لما يعرفه أنصارهم عنهم.

سادسا - هناك من يعترض على حدوث الإسراء والمعراج بهذه السرعة المذهلة.. ونقول: هل تستعظم ذلك على الله تعالى وهو الذي يحرك الشموس والكواكب والأفلاك بسرعات تتجاوز ذلك بمئات أو آلاف المرات.. وهل نسيت أن القرآن الكريم ذكر أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش

بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل:٤٠).

ننتقل بعد ذلك إلى قول الله تعالى ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، والمسجد هو مكان السجود، أما الحرام فهو يعني أن يحرم غزوه، وعدوان المعتدين عليه، أو الإقدام على أي ظلم فيه. والثابت أن المسجد الحرام كان يسمى على عهد نبي الله إبراهيم عليه السلام «البيت المحرم» أو «البيت الحرام»، بدليل قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (ابراهيم:٣٧).

وذكر البيت هنا لأول مرة بـ «المسجد الحرام»، والله عز وجل هو من اختار مكانه وأعلمه لعبده ونبيه إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ (الحج:٢٦). لذا كان المسجد الحرام هو قبلة كل المساجد الموجودة في الأرض قاطبة (٥).

وإذا كانت الرحلة المباركة قد بدأت من المسجد الحرام فإن الله تعالى لم يشأ لنبيه ﷺ أن يرتقي إلى السماوات العلى مباشرة، بل اتجه -كما هو معلوم- صوب بيت المقدس. وهنا يتساءل البعض: لماذا لم يكن التوجه صوب سدرة المنتهى مباشرة من دون المرور بالمسجد الأقصى؟

وقيل في الإجابة عن مثل هذا التساؤل: «ظلت النبوات دهورا طوالا وهي وقف على بني إسرائيل، وظل بيت المقدس مهبط الوحي، ومشرق أنواره على الأرض.. من هنا فإن في الاقتران الزمني بين إسرائه عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماوات السبع، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. وفيه دلالة واضحة أيضا على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به عيسى ابن مريم ومحمد بن عبدالله، عليهما الصلاة والسلام، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي ابتعثهم الله عز وجل به» (٦).

ونضيف إلى ذلك أنه لو لم يكن الإسراء إلى بيت المقدس ما توافرت لدينا أدلة عقلية نبرهن بها على زيارته وصلاته ﷺ بهذا البيت، وما كان لأهل مكة أن يسألوه عن وصف بيت المقدس، ولا كان له أن يتحدث إليهم عن قوافل التجارة والإبل التي مر بها، وما تمكن ﷺ من وصف الأنبياء على النحو الذي رآهم عليه.

وسمي المسجد الأقصى بهذا الاسم لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، وأغلب الظن أنه لم يطلق عليه «المسجد الأقصى» إلا بعد نزول آية الإسراء؛ إذ كان يقال له قبل ذلك «بيت المقدس». وإذا قيل: إن التعبير بـ «المسجد الأقصى» يفيد وجود المسجد الأدنى. نقول إن المسجد الأدنى هنا هو المسجد الحرام ذاته.

ويفيد قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أن المسجد الأقصى مبارك كل ما حوله من زروع، وثمار، وأرض، ومياه، وهذا هو الجانب الحسي من البركة.. ولها جانب آخر روحي ومعنوي وهو أن البركة حلت بهذه المنطقة لبعثة الرسل الكرام فيها وصلاتهم بهذه الأرض الطيبة.

ويأخذ المرء من قول الله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، أن ربنا أراد أن يطلع نبيه على بعض الآيات المبهرة من طيه الأرض للبراق، وإحيائه -سبحانه وتعالى- للأنبياء السابقين، وإطلاعه ﷺ على بعض الآيات التي ما كان له أن يراها لولا الإسراء والمعراج.

وهكذا يكون رسول الله ﷺ قد حظي بتكريم من الله تعالى له، كما سبق أن كرم رب العزة -سبحانه وتعالى- نبيه إبراهيم عندما أراه ملكوت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأنعام:٧٥). وكما حكى القرآن الكريم عن موسى -عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ (طه:٢٣).

وأخبر الله تعالى عن معرفته وعلمه بكل ما يدور من أقوال النبي ﷺ وردود فعل خصومه في أمر الإسراء، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فهو السميع لأقوال رسوله، البصير بأفعال المعارضين له؛ إذ هو سبحانه شاهد بنفسه على كل ما يقال ويحدث في مختلف أرجاء كونه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤).

الهوامش

١ - النووي على صحيح مسلم ٢/ ٣٩٠. وينظر في نفس المعنى: فتح الباري على صحيح البخاري ٧/ ١٣٦، ١٣٧.

٢ - دكتور محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، من دون تاريخ، ص١١٤. وينظر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، المعجزة الكبرى: الإسراء والمعراج، طبعة أخبار اليوم، القاهرة، من دون تاريخ، ص٣٦ - ٣٨.

٣ - الشعراوي، المصدر السابق نفسه، ص٣٩ و٤٠.

٤ - الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، المجلد السادس، جـ ١٥، ص١١.

٥ - ينظر الشعراوي، المصدر السابق، ص٦٨.

٦- ينظر محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، القاهرة ط ٧، ١٩٧٦ م، ص ١٣٩. وينظر: دكتور البوطي، مرجع سابق، ص١١٣، (بتصرف يسير).

مستشار شيخ الأزهر لشؤون الوافدين السفير عبدالرحمن موسى:

الفكر الوسطي «حائط صد» ضد التطرف

إسلام لطفي
القاهرة : دار الإعلام العربية

أكد مستشار شيخ الأزهر للعلاقات الخارجية وشئون الوافدين السفير عبدالرحمن موسى، أن عدم وضوح الرؤية في العديد من المفاهيم أفقد كثيرين بوصلة الاتجاه فيما يجب أن يكون عليه الدور الإسلامي في العالم كله، وبالتالي لم المجتمع الإسلامي في أفضل أحواله حاليا، وعزا ذلك إلى وجود العديد من المشكلات، وطالب في حواره مع «الوعي الإسلامي» المسلمين باتباع مفاهيم الإسلام الصحيحة، وتطرق إلى العديد من القضايا نتعرف إليها في سياق الحوار التالي.

• لا يخفى عليكم حالة التشرذم التي يعيشها المجتمع الإسلامي حاليا.. فما تقييمك للوضع الراهن؟

- الوضع ليس بأفضل أحواله في وقتنا الحالي، فلا يخفى على أحد أننا نعاني من مشكلات عدة في عالمنا الإسلامي، إضافة إلى عدم وضوح الرؤية في كثير من المفاهيم، ففقد الكثيرون بوصلة الاتجاه فيما يجب أن يكون عليه الدور الإسلامي في العالم كله، فالإسلام في حقيقته ليس بهذه الصورة التي هو عليها الآن، ولو ألقينا نظرة على كثير من بلدان العالم الإسلامي سنلاحظ مشكلات متشعبة، لذا لابد من توحيد الجهود بين الدول لتوحيد المفاهيم والاتجاه، من أجل تنقية سلوكيات المسلمين من كل الشوائب التي تشوه جوهر الإسلام، وبذلك نقدم صورته الحقيقية الناصعة للعالم أجمع.

• ما الأسباب التي أدت إلى وجود تلك المشكلات في الدول الإسلامية؟

- بالقطع أساسها هو التدخل الخارجي، سواء كان عن طريق الاستعمار القديم وما تبعه من سياسة «فرق تسد» بين الجماعات والفئات والطوائف؛ من أجل السيطرة على مقدرات بلادنا، خاصة أن معظم الدول الإسلامية كانت محتلة، وهذا النوع القديم من الاستعمار اختفى، لكن ظهرت صورة جديدة للاستعمار بعدة أشكال، من بينها التدخل الخارجي في الشؤون الداخلية للدول، ومحاولة السيطرة عليها، سواء كانت اقتصادية أو ثقافية، أو عن طريق تطبيق فكرة العولمة، دون وعي بأبعادها



وضوابطها، فاختلطت الأمور، وأصبحنا نعاني من كثير من أشكال التدخل في شؤون معظم البلدان الإسلامية، بينما كان يجب أن نتخذ من قوة الإسلام ومتانته وثقافته «حائط صد» أمام أية محاولات لزعزعة الأوضاع في بلادنا، ونتمنى في القريب العاجل أن يكون هناك نوع من التواصل بين الدول الإسلامية لتوحيد الجهود؛ من أجل العمل على تقوية وتدعيم المفاهيم الوسطية السمحة التي يتصف بها الإسلام.

● هل التحجر الفكري سبب رئيس فيما نعاني منه؟

- لست موافقا تماما على فكرة التحجر، فلا نستطيع أن نصف دولة بالتحجر بعد الانفتاح العالمي الكبير الذي نشهده في الوقت الحالي، إنما يوجد اتجاهات ومواءمات، وهناك تدخل في شؤون الدول ومحاولات للوقيعة بين فئات المجتمع هي أساس ما نعانيه، فإن لم نستطع تدارك هذه الأمور فسنزداد ضعفا على ضعف، ذلك يحتم على عقلاء العالم الإسلامي وعلى علماء الدين المعتدلين، وهم كثر في عالمنا، وعلى رأسهم علماء الأزهر الشريف، أن يقوموا بدور لم شمل هذه الدول مرة أخرى، تحت مفاهيم الإسلام الوسطية السمحة.

● وإن فعلوا ذلك.. هل سيكون بمقدورهم أن يعيدوا مجد حضارتهم ثانيا؟

- قطعا، إذا اتبعوا مفاهيم الإسلام الصحيحة، وإذا تضامنوا سويا كما كان في التاريخ الإسلامي القديم، فكانت هناك محاولة لتصفية الأمور داخل كل دولة أولا، ووضع أسس التعايش السلمي ما بين طوائف المجتمع المختلفة، وتعضيد الإسلام الوسطي السمح الذي يقوم على قبول الآخر، والتعامل معه وفقا لقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، فهذه المفاهيم والأمور لابد أن تسود في المجتمعات الإسلامية؛ من أجل النهوض والتقدم إلى الأمام.

● إذا انتقلنا من العالم الإسلامي إلى محيطنا العربي.. ما أسباب تمزق العرب لهذه الدرجة؟

- يوجد كثير من الصعاب، فمثلا بعد ثورات الربيع العربي، ظهر التدخل الخارجي بشكل سافر، لتحويل مجرى ومسار هذه الثورات وما تؤدي إليه الآن من تطاحن بين فئات المجتمع المختلفة، مثلا سوريا وما يحدث بها، فما زالت العوامل الخارجية ذات تأثير كبير على الأوضاع في كثير من بلدان العالم الإسلامي والعالم العربي، ولابد من التصدي لها بكل قوة وفهم؛ من أجل إيضاح ما تريده الشعوب وما تطمح إليه من

على عقلاء أمتنا أن يجتهدوا في لم الشمل تحت مفاهيم الإسلام السمحة

محاولات لتحسين أوضاعها وتغيير أحوال البلاد للأفضل، فلابد من أن يكون هناك وعي عام بما نريده مستقبلا.

واليوم عندما ننظر إلى العالم نجد أنفسنا في وضع متدن جدا، بينما يسير العالم الغربي في خطى واسعة نحو التقدم التكنولوجي والعلمي والفضائي وغيره، ونجد أنفسنا نتطاحن وصراعات متواجدة، وببساطة شديدة؛ لأنه ليس هناك إجماع قومي على مفاهيم محددة، وخطوات بعينها من أجل النهوض بالبلاد والارتقاء بمستواها العلمي والثقافي وفي جميع المجالات.

● كيف ترى العلاقة بين الإسلام والغرب؟

- لو نظرنا إليها من الناحية التاريخية سنجد أن الإسلام قدم للغرب الكثير، فالحضارة الغربية قامت على جزء من الحضارة الإسلامية، إضافة إلى الآثار الإسلامية الموجودة في كل دول أوروبا، وما عرف به الإسلام في هذه الدول من سماحة وعقلانية وقبول الآخر والتعايش بين الأديان وجميع المذاهب والطوائف.

ومما لاشك فيه أن الغرب يحترم الإسلام ويقدر الحضارة الإسلامية، إلا أن قيام بعض المسلمين ببعض الأعمال غير موقف ومفاهيم دول الغرب وشعوبها من الإسلام والمسلمين، لذا علينا دور كبير لتصحيح هذه المفاهيم.

● ما أهمية وجود الوافدين في الأزهر؟

- تدعيم لدور الأزهر في نشر فكره الوسطي في العالم؛ لكي يكون «حائط صد» ضد الأفكار المتطرفة التي تسود كثيرا من البلدان، وبين كثير بين الجاليات الإسلامية في البلاد غير الإسلامية، فهي مهمة لنشر المنهج الوسطي المعتدل؛ لكي يقوم بنشر الرسالة إلى جميع الدول، فهذا كنز الأزهر الذي يجب الحفاظ عليه.

● كيف يتم التعامل مع الوافدين بعد انتهاء فترة دراستهم؟

- هناك الرابطة العالمية لخريجي الأزهر، لها فروع في معظم بلدان العالم الإسلامي، وتعمل على الاتصال الدائم بخريجي الأزهر بالدول المختلفة، وتعقد مؤتمرا سنويا تحت إشراف الأزهر للخريجين، لأنها تعمل على التواصل بين الأزهر والخريجين، ومعرفة أحوالهم ونشاطاتهم في بلادهم، وإمدادهم بكل الكتب التي يطلبونها؛ من أجل مساعدتهم في القيام بمهامهم في بلدانهم المختلفة، ونحن حريصون في إطار ذلك على نشر الدعوة الإسلامية الصحيحة.

أن يكلمك ربك

د. محمد علي يوسف - باحث دراسات إسلامية

«بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا».

دائما ما كانت هذه الجملة، التي رويت عن الصديق أبي بكر رضي الله عنه، محل تفضيل من الدعاة والمصلحين والمربين حين يعظون الناس في شأن العفو والصفح والتغافر.

رجل أنفق عليه الصديق أعواما، وقيل إنه قد تربى في حجره يتيما، ثم يكون المقابل أن يخوض في عرض ابنته وزوجة نبيه ﷺ مع من خاضوا في الإفك المبين! ومع ذلك، يتناسى الصديق كل هذا ليعود إلى عطائه وإلى الإغداق على مسطح من جديد. ويعفو..

أمر مذهل يقف المرء طويلا أمامه مشدوها متأملا!

كيف فعلها؟!

كيف استطاع تحملها وحمل نفسه عليها وإنها لكبيرة إلا على من وفقه الله لاحتمالها؟!

كيف قابل هذه الإساءة البشعة بإحسان، فضلا عن صفح وغفران؟!

الإجابة عن تلك الأسئلة، التي تتبادر إلى الذهن، تكمن في تلك العبارة التي صدّرت بها المقال.

بل في الحقيقة، تكمن في أولى كلمات تلك العبارة.

كلمة: «بلى».

إنها كلمة تستعمل كجواب لاستفهام دخل على نفي فتفيد إبطال هذا النفي وإثبات المعنى.



وهي هنا إجابة السؤال الرباني الذي نزل به الوحي مخاطبا كل من له حق يمكن أن يصفح عنه.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور:٢٢).

طبعا، نحب.

ومن لا يحب؟!

ربما لا أكون مبالغا لو قلت -بيقين جازم- إنني لا أتصور مسلما صحيح الإسلام تام الأهلية يعي معنى هذا السؤال ثم يملك أن يجيب بإجابة غير تلك التي أجاب بها الصديق رضي الله عنه.

وهل يتصور أحد أن تكون إجابة مسلم عن هذا السؤال: نعم، يا رب، لا نحب أن تغفر لنا!

هل يتخيل مخلوق أن يجرؤ مؤمن بالله واليوم الآخر على رفض المغفرة؟!

أعتقد أن ذلك مستحيل، عقلا وشرعا.

إذن، فما السبب الذي يؤدي إلى هذا البون الشاسع بين رد فعل عموم المسلمين تجاه تلك الآية ومثيلاتها، وبين رد فعل الصديق؟

أعتقد أن -وبغض النظر عن فحوى السؤال وقيمة المغفرة- مناط ما فعله الصديق رضي الله عنه يكمن في أنه تفاعل.

في كونه تعامل مع السؤال القرآني على أنه موجه إليه.

على أنه مخاطب به.

وهنا أجاب.

وكانت الإجابة المتوقعة والمنطقية: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي.

ثم أعاد إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا.

وهكذا دائما كانت ردود الأفعال عند أولئك الذين أدركوا تلك الحقيقة، وعاشوا بتلك القيمة.

حقيقة أن الله يتكلم، وقيمة أنهم مخاطبون بكلامه.

من يدرك ذلك لا بد أن يتفاعل، وأن يجيب ويستجيب.

حين نودي آدم -عليه السلام- وقيل له ولزوجه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف:٢٢). كان التفاعل مباشرا، والإجابة سريعة وواضحة ومحددة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣).

ولما نودي موسى -عليه السلام- وسئل عما في يمينه، أجاب واستفاض في الإجابة: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ (طه:١٨).

كان من الممكن أن يكتفي بأول كلمتين في الإجابة: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾.

لكنها المناجاة والتفاعل مع كلام الملك.

وحين يسأل المسيح -عليه السلام- عن اتخاذ الناس له ولأمه إلهين من دون الله سيجيب قائلا: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (المائدة:١١٦).

ولما سمع الصحابي أبو الدحداح رضي الله عنه أن الله يسأل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (الحديد:١١). أجاب فورا بإجابة عملية وتصدق ببستانه البهيج صائحا: البستان قرض لله.. البستان قرض لله.

ولما سمعت الجن سؤال الرحمن المتكرر في سورته: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن:١٣). أجابت من فورها: «ولا بشيء من آلائك نكذب ربنا، ولك الحمد».

وبعد أن ذكر الله بشاعة الخمر والميسر ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة:٩١). صاح المجيبون: انتهينا يا رب، انتهينا يا رب. وسالت الخمر في شوارع المدينة أنهارا.

وهكذا كان التفاعل مع قول الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (الحديد:١٦).

ألم يأن؟

سؤال لا بد له من إجابة.

ولا تصح له إلا إجابة واحدة. فلا يستطيع عاقل لو فكر قليلا إلا أن يجيب ملك الملوك، قولا وعملا: بلى، قد آن.. قد آن.

فقط، يحتاج إلى أن يستشعر أن السؤال موجه إليه، وستأتي الإجابة بإذن الله.

حين وقعت تلك الكلمات من قلب الفضيل بن عياض موقع التجاوب والشعور بالمخاطبة، كانت الإجابة وكان التغيير الشامل في حياته، وصاح معلنا إياها: بلى، يا رب، قد آن... بلى، يا رب، قد آن.

وما فعله الصحابة حين سمعوا الآية نفسها التي تفاعل معها الفضيل، لم يكن بعيدا عن رد فعله، فقد تفاعلوا هم كذلك مع الآية والسؤال الرباني المحكم، واعتبروه معاتبة موجهة إليهم، فقال ابن مسعود: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا ربنا إلا أربع سنوات».

وقال ابن عباس «استبطأ الله قلوب المؤمنين فعاتبهم».

وروي أن بعضهم كان يعزي بعضا بعد استشعارهم لخطورة ذلك السؤال، وقيمة تلك المعتبة والاستبطاء.

هذه النماذج المتعددة لتفاعلات وتجاوبات مع سؤالات المولى عز وجل ونداءاته، تعد غيضا من فيض نماذج لا تحصى كانت رد الفعل الطبيعي من أهل الفضل الذين أدركوا ما يدركه العقلاء حين ينادون أو يوجه إليهم الكلام، فيجيبون ويستجيبون ويتفاعلون.

وهذا ما فعله ويفعله من يدركون قيمة النداء الرباني، ويعون حقيقته، ويستشعرون مخاطبتهم به.

وذلك هو الفارق الرئيسي بيننا وبينهم.

الفارق الرئيسي بيننا وبين سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومسارعته بالإجابة والعفو.
والفارق الرئيسي بيننا وبين سيدنا أبي الدحداح، الذي تخلى عن ثروته، المتمثلة في حديقته الغناء، امتثالا لآية من كتاب الله.
والفارق الرئيسي بيننا وبين الفضيل ابن عياض، الذي تغيرت حياته بالكامل بعد أن سمع النداء وأجاب واستجاب.
إنه الفارق الرئيسي بيننا أو بين كثير منا وبين هؤلاء الذين عُطرت السطور السابقة بذكرهم وغيرهم ممن لم يتسع لي المقام لأتشرف بذكرهم، وقد أجابوا واستجابوا.
الفارق أنهم تعاملوا مع القرآن على أنه كلام الله لهم.
أنهم تفاعلوا مع القرآن، ونظروا إليه نظرة سديدة دقيقة، ظهر أثرها جليا في ردود أفعالهم، التي ذكرت في السطور السابقة طرفا يسيرا منها.
نظرة مفادها وخلاصة أثرها: إن الله يكلمنا.
هذه الآيات كلام الله لنا.
ملك الملوك يخاطبنا نحن.
هذه النداءات والسؤالات والأوامر والنواهي والتوجيهات موجهة إلينا: لك ولي.
كيف إذن لا أرد؟
كيف إذن لا أتفاعل؟
وهل يسعني أن أعرض ولا أجيب أو أستجيب؟
هذا هو الفارق المحوري بيننا وبينهم.
للأسف الشديد، الحقيقة أننا كثيرا ما نتعامل مع القرآن على أنه فقط كتاب شعائر تعبدية محضة، أو أنه وسيلة لتحصيل الحسنات وجمع الثواب في المواسم التعبدية وحسب، بينما ننسى، أو نتغافل عن تلك الحقيقة العظمى..
حقيقة أنه كلام الله.
أنه حبله الممدود طرفه بأيدينا، كما وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم.
إن ربنا يتكلم..
لقد انصرف كثير من الناس عن الاستمتاع بالتعبد لله، ومعاملته بهذه الصفة، والإحساس بآثارها، وتدبر تجلياتها، فكانوا كمن ظل يثبت عظمة كتاب وجلاله، وينفق الأوقات على إثبات نسبته لصاحبه، ثم لم يجد الوقت لفتحه، أو قراءته.
أو كمن دعي إلى وليمة فظل يتحدث عن جمالها وفخامتها دون أن يمد يده ليطعم منها ويتلذذ بطيباتها!
ولله المثل الأعلى.
إن صفة الكلام من أجمل الصفات التي تتعرف بها على الله جل وعلا وتتقرب إليه بمعاملته بها واستشعار آثارها.
على الرغم من أن حل كثير من مشكلاتك ومفاتح نفسك وتذكرة أوبتك قد يكمن في آية واحدة في كلمة أو كلمات ربانية تقرأها أو تسمعها فتشعر أنها موجهة إليك أنت.
تنتشلك معانيها..
تشفيك موعظتها..
وتضيء توجيهاتها طريقك.
على الرغم من أنه كثيرا ما يكون الحل في التذكير بالقرآن -وحسب- دون وسيط، أو إضافة، أو تكلف، أو كثير من كلام البلغاء ونظم الفصحاء الذي ربما تكون له مواطن أخرى.
على الرغم من كل ذلك، فإن قليلا من ينتبه، وقليلا من يدرك هذه الحقيقة البسيطة النقية.
حقيقة كونك في لحظة ما تحتاج إلى أن يخلى بينك وبين كلام ربك مباشرة..
يخاطب قلبك، ويمس فؤادك، وتهفو إليه روحك.
وقليل من المربين والموجهين من يعنون بتوجيه قلوب الناس وعقولهم إلى تلك القيمة والحقيقة، ويجعل كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله عظاته وتذكيراته ونصائحه وتوجيهاته.
﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق:٤٥).
حاول أن تتعامل مع القرآن من هذا المنطلق.
حاول أن تتفاعل معه.
أن تجيب عن سؤالاته.
وأن تمتثل إلى أمره.
وتنتهي عن نهيه.
حاول استشعار أنك أنت المخاطب.
أنت.
نعم، أنت.
القرآن كله يحتشد بالنداءات والسؤالات والأوامر والنواهي الموجهة إليك أنت.
كل كلمة يا عبادي، أو يا أيها الذين آمنوا، أو يا أيها الناس، تشملك أنت.
الله ينادي ويدعو عباده.
وأنا وأنت من عباده.
يدعوك أنت، ويدعوني أنا، وهو الغني عنا ونحن الفقراء إليه.
يدعوك ليغفر لك من ذنوبك.
يدعوك إلى دار السلام والجنة والمغفرة بإذنه.
يدعوك إلى ما يحييك ويناديك، إلى ما فيه خيرك.
كم امتلأ كتابه بالنداءات التي لم ترعها سمعك.
كم مرة سمعت: يا أيها الذين آمنوا، ويا أيها الناس، ويا عبادي.
نعم، هذا أنت.
أنت المنادى وهو المنادي.
هل لا بد أن ترى اسمك مكان كل كلمة عبادي، أو الذين آمنوا، أو الناس وسائر تلك الكلمات التي تأتي بعد النداء لكي تشعر أنك أنت المخاطب والمنادى؟!
لماذا لا تحاول أن تتجاوز الأسماء والألقاب وتغوص بقلبك في حقيقة المعنى وتستمتع بشعور جديد؟!
شعور أن ربك يناديك.
يكلمك.
يسألك.
ويدعوك ليغفر لك.
حاول.
وصدقني إن شاء الله ستشعر بفارق كبير. وستلمس بإذن الله تغيرا واضحا في علاقتك بالقرآن، تغيرا للأفضل.
فقط، إذا ترسخت في نفسك تلك القيمة.
قيمة أن الله يكلمك.

قيمة الانتماء للوطن

سالم بن عميران
باحث يمني

يعد الانتماء للوطن من أبرز القيم التي تقوم عليها حياة الفرد، وهي من النعم التي رزقنا الله بها، والنعم لا تستشعر ولا تحصل قيمتها في النفس إلا إذا فقدت، وبغير هذا الشعور يشعر الإنسان بالضياع ويفقد هويته وكيانه وجزءا من شخصيته؛ ويعيش في فراغ وفوضى وضياع.

ولولا مكانة الوطن في النفس لما ذرفت عينا الحبيب ﷺ، ولما ذكره العقلاء والشعراء، في أسفارهم محبة وشوقا.

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١) أن المحنة التي يفتتن بها الإنسان كالإخراج من الوطن المحبب للطباع السليمة؛ أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها، ومن هنا قيل: لقتل بحد سيف أهون موقعا على النفس من قتل بحد فراق (١).

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما- قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال: «أما والله لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلي وأكرمه على الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت» (٢).

وعنه- أيضا- أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع ناقته، وإن كان على دابة حركها من حبها، قال ابن حجر –رحمه الله- «وفي الحديث دلالة على فضل المدينة وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه» (٣).

وروي أن أبان قدم على النبي ﷺ فقال: يا أبان كيف تركت مكة؟ قال: تركت الأذخر وقد أعذق، والنمام وقد أورق، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة وإلى مسقط رأسها مشتاقة. وأوصى الإسكندر أن تحمل رمته في تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حبا لوطنه، واعتل سابور ذو الأكتاف وكان أسيرا ببلاد الروم، فقالت له بنت الملك، وكانت قد عشقته، ما تشتهي؟ قال: شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر، فأتته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب وقالت له: هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته. وقال الجاحظ: كان النفر في زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه من تربة أرضه في جراب يتداوى به، وما أحسن ما قال بعضهم:

بلاد ألفناها على كل حالة
وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
ونستعذب الأرض التي لا هوى بها
ولا ماؤها عذب ولكنها وطن (٤).

يقول إبراهيم بن أدهم: «عالجت العبادة فما وجدت شيئا أشد علي من نزاع النفس إلى الوطن» (٥).

وجاء في تاريخ بغداد أن أبا العباس محمد بن إسحاق السراج قال: وآسفا على بغداد، فقيل له ما الذي حملك على الخروج منها؟ قال أقام بها أخي إسماعيل خمسين سنة فلما توفي ورفعت جنازته سمعت رجلا على باب الدرب يقول لآخر: من هذا الميت؟ قال: غريب كان ها هنا. فقلت: (إنا لله..) بعد طول مقام أخي بها واشتهاره بالعلم والتجارة يقال: غريب كان ها هنا! فحملتني هذه الكلمة على الانصراف إلى الوطن (٦).

وقد أكثر الشعراء في ذكر الأوطان ومحبتها والشوق إليها، فهذا ابن الرومي ذكر الوطن وبين العلة التي لها يحب، وزاد عليهم أجمعين وجمع ما فرقوه في أبيات من قصيدة يخاطب بها سليمان بن عبد الله بن طاهر وقد أريد على بيع منزله فقال:

ولي وطن آليت ألا أبيعه
وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمه
كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
وقد ألفته النفس حتى كأنه
لها جسد إن غاب غودرت هالكا

والنفس السوية بطبعها تألف موطنها الذي فيه ولدت، وعلى مهده نمت وشبت حتى وإن كان هذا الموطن صحراء قاحلة مجدبة.

فكل ما سبق يدل على أن حب الوطن والارتباط به واجب، والانتماء إلى الوطن فطرة وضعها الخالق في نفوس الأسوياء؛ فلا يمكن لأحد أن ينزع هذه الفطرة من نفس صاحبها وذلك لتمكنها منه، ونفاذها فيه.

إن فقد الشعور بالانتماء للوطن والولاء له، هو سبيل إلى الضياع. فهلا سألت نفسك يوما هذا السؤال: ماذا قدمت لوطني؟

الهوامش:

١- روح المعاني (٢ /٧٥).
٢- مسند أبي يعلى (٥ / ٦٩).
٣- فتح الباري (٣ / ٦٢١).
٤- المستطرف ص (١٣٢٤- ١٣٢٧).
٥- حلية الأولياء (٧ / ٣٨٠).
٦- تاريخ بغداد (٦ / ٢٩٢).

كيف طغى الاستهلاك؟!

محمد شعبان أيوب
باحث مصري في التاريخ والتراث

قديما حاول ابن خلدون في إطار الثقافة/المرجعية الإسلامية، وفي انعدام موجة العولمة والعلمانية التي تجتاح العالم اليوم، أن يقدم تصورا عن أسباب انهيار الأمم والدول، فكان من جملة الأسباب التي تناولها في حديثه المهم ذاك، المال وفيضه، والإسراف ومآلاته، فقال: «يعظم الترف فيكثر الإسراف في النفقات وينتشر ذلك في الرعية؛ لأن الناس على دين ملوكها وعوائدها، ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس (الضرائب) على أثمان البياعات في الأسواق لإدرار الجباية؛ لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه، ولما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده. ثم تزيد عوائد الترف فلا تفي بها المكوس، وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا» (١). فكان الاضطهاد والقهر مآلين للترف، ثم سببين في انهيار الدولة في الرؤية الخلدونية للعمران والحضارة والاجتماع.



على أن العالم اليوم ذا المرجعيات الثقافية المتنوعة من المعذور في ضوئه أن نفسر الظواهر الاجتماعية الغريبة من خلال عامل الترف والإسراف فقط كما تناوله ابن خلدون، إذ صار الأمر أشد تعقيدا وتركيبا بلا شك.

المرجعية وأداة التنفيذ

إن «العقلية الاستهلاكية هي تلك العقلية التي تُقبل على الاستهلاك متجاوزة درجة إشباع الحاجات الطبيعية الضرورية للعيش إلى إشباع الحاجات الثانوية غير الضرورية» (٢).

ويمكن أن نرى أبعاد هذه الظاهرة في البلاد العربية بالنظر إلى عدد من الإحصائيات؛ فمن خلال دراسة ميدانية مصرية أجراها الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء في فترة ٢٠٠٨-٢٠٠٩، وصدرت عام ٢٠١٢ بعنوان «تطور أنماط الإنفاق الأسري»، يتبين أن المصريين ينفقون على التدخين والمكيفات بنسبة ٢,٧ في المئة سنويا من إجمالي إنفاق الأسرة المصرية تقريبا، و٢,٧ في المئة على الاتصالات، و٤,٣ في المئة على المطاعم والفنادق (أي ما نسبته ٩,٧ في المئة)، مقابل نسبة ٢,٩ في المئة للتعليم.

ومما أشار إليه تقرير صادر عن «الإدارة العامة للرقابة على الصادرات والواردات» في العام ٢٠١٠، أن واردات مصر من السلع الاستهلاكية والترفيهية قد قاربت ٥,٤ مليارات دولار، وهو ما يمثل ٨,١٦ في المئة من إجمالي الواردات، وأن الواردات الاستفزازية قد سجلت ارتفاعا بنسبة ٥,٢ في المئة.

ووفقا لنتائج استطلاع لـ«ماستركارد» حول اتجاهات الإنفاق على المطاعم والترفيه في دولة الإمارات عام ٢٠١١، لا يزال الترفيه يحتل صدارة التصنيف، بحيث يقوم واحد من كل اثنين من المستهلكين هناك بزيارة مراكز التسلية والمدن الترفيهية.

وكانت دراسة لشركة الأبحاث يورو مونيتور انترناشيونال قد أشارت إلى أن سوق مستحضرات التجميل قد زاد بنسبة تصل إلى ٣٠٠ في المئة خلال الأعوام الثلاثة الماضية، وإلى بلوغ إجمالي مبيعات أدوات التجميل في المنطقة العربية ٢,١ مليار دولار، مما جعل هذه المبيعات الأعلى في معدلات استهلاك مستحضرات التجميل على مستوى العالم، شكلت النساء الخليجيات النسبة الأكبر منها (٣).

والسؤال المهم هو: كيف ترسخ هذا الاستغراق في الاستهلاك وصار من المسلمات؟!

إن هذا السؤال، وغيره من الأسئلة التي تحاول الإجابة عن الظواهر السلوكية والاجتماعية وأسبابها تبحث غالبا في محورين أساسيين:

الأول - الثقافة أو المرجعية السائدة.

الثاني - وسائل تنفيذ هذه المرجعية.

فالمرجعية التي انبعثت الثقافة الاستهلاكية منها هي العلمانية التي اخترعت العولمة، ذلك أن العلمانية، وهي تجلٍّ للتطرف الغربي تجاه الدين والمرجعية القيمية عموما، قد جعلت الكسب والمادة هما الغاية في ذاتها، وجل المدارس الاقتصادية الأوروبية التي ظهرت في ظل المرجعية العلمانية، من المدرسة الطبيعية الفيزيوقراطية إلى الرأسمالية الكلاسيكية، لم تخرج عن هذه المضامين (٤).

يقول روبرت داونز عن آدم سميث (شيخ المذهب الرأسمالي الاقتصادي، وكتابه الأشهر «ثروة الأمم»، وأحد أبرز المؤسسين للأفكار الاقتصادية المعاصرة): «النظرية الأساسية في كتاب «ثروة الأمم» نظرية ذات نزعة ميكيافللية، وهي أن العامل الأول في نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية، وأن العمل على جمع الثروة ما هو إلا مظهر من مظاهرها. وبذلك قرر أن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشري، وصارح الناس باعتقاده أنها ليست صفات ممقوتة يجب الابتعاد عنها، وإنما هي على العكس عوامل تحمل الخير إلى المجتمع برمته. وفي رأيه أنه إذا أريد توفير الرفاهية للأمة فلا بد من ترك كل فرد يستغل أقصى إمكاناته لتحسين مركزه بشكل ثابت منظم دون تقييد بأي قيد» (٥).

في ظل هذه الأفكار الأنانية التي تجعل الغاية مبررة للوسيلة، وتجعل المادة لب الكون، ظهرت المؤسسات والشركات التي تتنافس على حساب الأمم وثقافتها وصحة أبنائها وثرواتها بلا رقيب (٦)، بل تحالفت معها أنظمة قوية، فظهر ما يسمى بمنظومة «الدولة/الشركة»، أو «الكربورقراطية»، كما يسميها جون بركنز في «اعترافات قرصان اقتصاد»، إذ يقول: «تسعى الإدارة

الأمريكية إلى تقسيم العالم إلى مناطق اقتصادية نوعية تخدم كل منها على حدة أغراض الشركات الأمريكية (فنزويلا والمكسيك والخليج للنفط، أمريكا الوسطى والكاريبي للعمالة الرخيصة وتجميع المنتجات، والصين للاستهلاك...)، وكما سعت من خلال مجموعة الدول الصناعية الكبرى، وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية إلى إنشاء منظومة لحكم العالم بشكل غير مباشر، أعطت فيها للنخب السياسية ورجال الأعمال وقادة الرأي في العالم النامي حق المشاركة فيها والاستفادة منها بشرط الدفاع عن الليبرالية بالمفهوم الأمريكي، وطلب من أكثر من مئة دولة من العالم الثالث فتح أسواقها أمام الشركات المتعددة الجنسيات والابتعاد عن السياسات المساندة للقطاع الاقتصادي الوطني تحت شعار «حرية التجارة»، الذي كانت له آثار مدمرة على اقتصادات الدول» (٧).

تسلع الإنسان!

إذن للثقافة الاستهلاكية مرجعية ووكلاء: مرجعية تؤسس للتنافس بلا رقيب ولا تهدف إلا للربح على حساب الإنسان والبيئة، ووكلاء من شركات عالمية متحالفة مع أنظمة كبرى لها ترسانة عسكرية وإعلامية تنتشر في العالم تدافع عن هذه المصالح وما ينبثق عنها من ثقافات -كالثقافة الاستهلاكية- ليل نهار، وبلا كلل (٨)!

في ظل هذه الآلة الجبارة من الإعلام والعسكرة والاقتصاد شُكِّل الإنسان ذو البعد الواحد، كما يقول دكتور عبدالوهاب المسيري، رحمه الله: هذا الإنسان «نتاج المجتمع الحديث، مجتمع ذي بعد واحد يسيطر عليه العقل الأداتي والعقلانية التكنولوجية، شعاره بسيط جدا هو التقدم العلمي والصناعي والمادي، وتعظيم الإنتاجية المادية، وتحقيق معدلات متزايدة من الوفرة والرفاهية والاستهلاك، وتهيمن على هذا المجتمع الفلسفة الوضعية التي تطبق معايير العلوم الطبيعية على الإنسان، وتدرك الواقع من خلال نماذج كمية ورياضية، وتظهر فيه مؤسسات إدارية ضخمة تغزو الفرد وتحتويه، وترشده وتنمطه وتشيئه وتوظفه لتحقيق الأهداف التي حددتها. ويذهب ماركوز إلى أن المجتمعات الاستهلاكية تتسم بهيمنة المؤسسات الرأسمالية على السلطة وسيطرتها على عملية الإنتاج والتوزيع، بل صياغة رغبات الناس وتطلعاتهم وأحلامهم، فهي تنجح في خلق طبيعة ثانية مشوهة لدى الإنسان؛ إذ يتركز اهتمامه على وظيفته التي يضطلع بها، وتتركز أحلامه على السلع، ويرى ذاته باعتباره منتجا ومستهلكا وحسب، دون أدنى إحساس بأي غائية كبرى أو هدف أعظم، ويرى أن تحقيق ذاته إنما يكمن في حصوله على السلع» (٩)!

بكلمات المسيري، رحمه الله، تتلخص مشكلة ثقافة الاستهلاك في الإنسان المتسلع ذي البعد الواحد، الذي لا يرى السعادة إلا في الاستهلاك ومزيد من الاستهلاك. وحل هذه المشكلة يتلخص في تغيير البنية الثقافية والإعلامية من جذورها في بلادنا، وفي إعادة السؤال عن مرجعيتنا الدينية والقيمية، هل هي متحققة أم تم إقصاؤها؟!

هوامش

١ - مقدمة ابن خلدون ص٣٦٦، الطبعة الثانية، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٨م.

٢ - طارق حسن السقا، مقال بعنوان «العقلية الاستهلاكية ومستقبل الأمة»، موقع صيد الفوائد على الشبكة العنكبوتية.

٣ - الإحصائيات نقلا عن نشرة مركز البحوث والدراسات التابع لمؤسسة الفكر العربي، العدد ١٣٩، التاريخ ٢٠١٢/١/٩.

٤ - راجع: جون كينيث جالبيرت، تاريخ الفكر الاقتصادي، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، ص٧١ وص٨٧، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٦١ - الكويت، ٢٠٠٠م.

٥ - روبرت داونز، كتب غيرت وجه العالم، ص٧٣، نقلا عن العلمانية لسفر الحوالي، ص٢٧٥، طبعة دار الهجرة.

٦ - نورينا هيرتس، السيطرة الصامتة، الرأسمالية العالمية وموت الديموقراطية، ترجمة صدقي حطاب، ص٦٦ - ٧٠، منشورات سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٣٦ - الكويت، ٢٠٠٧م.

٧ - جون بركنز، الاغتيال الاقتصادي للأمم، اعترافات قرصان اقتصاد، ترجمة شريف دلاور، ص١٥، الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة، ٢٠١٢م.

٨ - شريف دلاور، السطو على العالم، التنمية والديموقراطية في قبضة اليمين المتطرف، ص٩٧ و٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠١٢م.

٩- عبدالوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١/١٤٤، ١٤٥، دار الشروق، الطبعة الأولى - القاهرة، ٢٠٠٢م.



الإنتاج وسؤال الحضارة

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

ثمة تعريفات كثيرة تحاول أن تستجلي مضامين الظاهرة الحضارية، وتستبين شرائطها ومظاهرها ومعادلاتها؛ لكننا يمكن أن نعرف هذه الظاهرة ونتلمس مؤشراتها من زاوية «الإنتاج والاستهلاك»، فنقول: الحضارة هي فائض الإنتاج؛ وبالتالي فإن مفهوم المخالفة يقتضي أن تكون زيادة الاستهلاك وما تستتبعه من زيادة الاستيراد، مؤشرا من مؤشرات التراجع الحضاري.

الحضارة تعني -في شقها المادي- إبداعا في التعامل مع عالم الأشياء، وقدرة فائقة على التفاعل مع معادلات الكون وكشف غوامضها؛ وهذا يقتضي بالضرورة القدرة أولا على تحقيق الاكتفاء الذاتي، وتوظيف الإمكانات المتاحة بما يفي بالمتطلبات الأساسية والحاجات الملحة، وصولا إلى توفير قدر من الإنتاج يسمح بزيادة العمران، وتحقيق الرفاه، وتشييد الحضارة.

لكن للأسف، قد تتوافر الموارد المالية التي تمكن -إذا أحسنا استغلالها- من قطع الشوط الأول في رحلة الألف ميل نحو الحضارة، فإذا بالبعض يستسهل مراكمة الأشياء بالاستيراد؛ بدلا من إعمال العقل، وبذل العرق، وتفعيل الطاقات، ورفض التسلق على منجزات الآخرين.. ظنا منه أن مراكمة الأشياء، والزهو بامتلاك أحدث الصيحات في عالم الرفاه، يعني امتلاك ناصية التقدم، واختصار الطريق باتجاه الحضارة!

هذه الحالة الزائفة لمفهوم الحضارة، هي ما حذر منه مالك ابن نبي وسماها «ظاهرة التكديس»، موضحا أن طريقنا إلى الحضارة يمر عبر مرحلة ننتقل فيها «من التكديس إلى البناء»؛ فننتج الأشياء، «لا أن نكدس؛ فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة، لا التكديس؛ ولنا في الأمم المعاصرة أسوة حسنة. فالحضارة هي التي تكون منتجاتها، وليست المنتجات هي التي تكون حضارة؛ إذ من البديهي أن الأسباب هي التي تكون النتائج، وليس العكس؛ فالغلط منطقي، ثم هو تاريخي؛ لأننا لو حاولنا هذه المحاولة فإننا سنبقى ألف سنة ونحن نكدس ثم لا نخرج بشيء» (١).

وهذا لا يعني بحال من الأحوال أن نقلل من قيمة الأشياء، ولا أن ندعو إلى عدم التمتع بطيبات الحياة الدنيا؛ فموقف الإسلام في هذه القضية واضح غاية الوضوح، وهو موقف وسط بين من يغالي في حب الأشياء حتى تلهيه عن ذكر الله، وبين من يزدريها ويجور على حقوق جسده بزعم الارتقاء بالروح؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾(الأعراف:٣٢). وقال أيضا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (القصص:٧٧).

لكننا ندعو إلى التمتع والزهو بحضارة هي من صنع أيدينا، ومن حصاد أعمالنا، ومن كدنا الذي يصل الليل بالنهار؛ أما ما دون ذلك فلا يسمى حضارة، ولو امتلكنا أحدث الصيحات في عالم الأشياء!.

هوامش

١- ابن نبي «حديث في البناء الجديد»، ص ٩٨، ٩٩ ترجمة عمر مسقاوي.

ما بين الإبداع...والمجتمعات الاستهلاكية

د. آندي حجازي - أكاديمية من الأردن

لكل زمان سمة تميزه عن غيره من الأزمان والعصور، وقد يكون ما يميز زماننا هو «السرعة في كل شيء، والتغير المستمر، والإنتاج الصناعي والإلكتروني المتنوع والهائل...». ففي الماضي القريب، كان الناس يعتمدون على أنفسهم في زراعة وصناعة ما يحتاجون إليه، فكانوا يأكلون مما يزرعون، وينتجون بأنفسهم ما يلبسون، فكانت الصناعات اليدوية المحلية هي السائدة، وكانت أساليب التواصل الاجتماعي بسيطة غير معقدة. أما اليوم، ومع انتشار المصانع والكهرباء والآلات ذات الدقة العالية، وتنوع وسائل الاتصال والتكنولوجيا، فإن الصناعات الآلية والإلكترونية أصبحت هي السائدة، وذلك من أصغر قطعة، كالمسمار، إلى أكبر قطعة، كصناعة السيارات والطائرات.



إن نواتج الإبداع أو الابتكارات التكنولوجية أمور تستحق الاحترام والتقدير والنظر إليها بعين الإعجاب والانبهار. لكن الاعتماد على الآخر والاستهلاك الهائل والمترف لما ينتج من قبل الآخرين هو ما يستحق الازدراء وقلة التقدير، بل وإغراء الآخرين باحتلال البلد والسيطرة على خيراته ومـوارده. فشتان بين شعب ينتج ويبدع ويصدر إنتاجه وابتكاراته لكل العالم، وشعب ما عليه سوى الاستهلاك والعيش على ما ينتجه الآخر! فليست القوة لمن يشتري الإنتاج بل لمن يبيعه.

إن منطق القوة اليوم هو في مصلحة من يملك الصناعات والإنتاج ووسائل الرفاهية التي يقدمها للآخر، فالصين -مثلا- أصبحت اليوم ثاني أقوى اقتصاد في العالم، وباتت مرشحة لتحتل المرتبة الأولى في العالم في حجم الاقتصاد والصناعات والقوة الدولية خلال السنوات العشر المقبلة. والعالم اليوم لا يعرف غير لغة الإنتاج والابتكار والسيطرة الصناعية والاقتصادية، فالدول المسيطرة في عصرنا الحالي تستمد قوتها من حجم إنتاجها وحجم صادراتها واقتصادها وناتجها القومي ومدى إنتاج عقول أبنائها، فليست معادلة القوة اليوم لمن يملك المال، وإنما من يملك العقول التي تعرف كيف يستفاد من تلك الأموال، لتقف الآمال على أرضية صلبة لا رمال متحركة تبتلعها.

الإبداع أم الاستهلاك؟

في الحقيقة، إن الإبداع يتعارض مع المجتمعات الاستهلاكية، فكلا المفهومين بينهما تنافر شديد، كأقطاب المغناطيس السالبة التي يستحيل تلاقيها. فالإبداع هو الإتيان بشيء جديد، والاستهلاك هو الاستفادة والاستمتاع بالقديم وبما هو منتج فعلا. وفي واقع الحياة إن أردت أن تكون مجتمعا مستهلكا فأنت لن تبدع وسوف تستهلك إبداعات الآخرين وتعيش عليها، وستبقى تشدك الجاذبية الدونية نحو الأسفل، وستبقى عالة على المجتمعات المنتجة، تعيش تحت رحمتها وعطفها، وقد تنتهي مواردك المالية يوما ما. بينما إن عقدت العزم على أن تصبح مجتمعا مبدعا منتجا فأنت حتما ستكون في مصاف الأمم المتقدمة، وستصل -كمجتمع- إلى عالم الفضاء والبحث في الآفاق وفي أسرار الكون، وستكون أهدافك شامخة، ورؤاك تتخطى حدود الواقع وحدود الكرة الأرضية. وستتجه ثقافة تلك الأمة إلى علو الهمة بعيدا عن ثقافة الاستهلاك.. إلى ثقافة الإنتاج والعطاء، وتفعيل القدرات، واستثمار المواهب والخيرات.

وخذ مثلا كوريا الجنوبية، التي لم تكن قبل ثلاثين عاما شيئا يذكر، واليوم أصبحت تصدر التكنولوجيا إلى كل دول العالم، فكل العالم اليوم يعيش على إنتاجها واختراعاتها، وهي تسابق الزمن بسرعة العواصف لا النسائم. وخذ مثلا الصين، التي عمت بضائعها وطغت على أسواق العالم فكأنها احتلت العالم اقتصاديا، وتسعى إلى أن تصبح الدولة الأقوى في العالم في غضون سنوات، وهذا متوقع في ظل هذا الإنتاج، فلا غرابة في طموحاتها. وانظر إلى ماليزيا، التي أصبحت تقدم السياحة والتكنولوجيا والتعليم والاختراعات نموذجا يحتذى، على الرغم من قلة الإمكانات. وكذا سنغافورة وإندونيسيا واليابان وألمانيا... فكل هذه الدول اختارت أن تكون منتجة مبدعة لا مستهلكة تابعة.

بينما تأمّل المجتمعات العربية في وقتنا الحالي تجد أن حجم مشترياتها واستيراداتها يتضاعف عاما بعد عام (بمليارات الدولارات) مما بات يثقل كاهل ميزانياتها، دولا وأفرادا، في مقابل نومها العميق البعيد عن أي إنتاج إبداعي يكتسح العالم ويدعم اقتصادها!

إن الاستهلاك في شعوب أمتنا العربية أصبح داء عضالا متفشيا، خصوصا في الدول النفطية الغنية، حيث تعوّد أبناؤها على الشراء، سواء كانت السلع ضرورية أو غير ضرورية، مما جعلها أكثر دول العالم استهلاكا للسلع الترفيهية والكمالية الباهظة الثمن.. وأكثرها إنفاقا على ذلك من ميزانياتها بدلا من استثمارها في مشاريع إنتاجية تنموية!

وهذا السلوك الترفي الاستهلاكي هو في الحقيقة داء فتاك في الأمة، لأنه مبدد للأموال والثروات والطاقات في غير موضعها. والأسوأ هو تعود الأطفال عليه، حيث ينشأ الطفل منذ الصغر وهو يشاهد هذا السلوك التبذيري في الأسواق والمطاعم والأسفار والبيوت... من قبل الأقارب والوالدين اللذين يعتبران القدوة الأولى والأخيرة في حياة الطفل، فيكتسب ذلك السلوك، وينشأ عليه وكأنه سلوك قويم.

ومن جانب آخر، باتت المظاهر الاجتماعية في تلك الدول العربية تلعب دورا مهما في هذا الجانب، حيث أصبح التنافس الاجتماعي في شراء السلع ذات الماركات العالمية الغالية الثمن هو الهدف الأول والأهم لدى بعض الأسر والأفراد والمجتمعات، فتنفق تلك الدول عشرات المليارات من الدولارات على توفير تلك الأسواق ذات البضائع العالمية! فتحولت مجتمعاتنا إلى مجتمعات استهلاكية ترفية بما تحمله الكلمة من معنى، وبما يتناقض مع تعاليم الإسلام في عدم الإسراف والتبذير. والسؤال: من المستفيد الأول والأخير من عملية الاستهلاك المستمر وهدر الأموال؟ أهو شعوبنا العربية، أم شعوب الدول المتقدمة المصنعة لتلك البضائع والمصدرة لها، فيقوى اقتصادها ويضعف في المقابل اقتصادنا؟!

إن الإبداع الحقيقي الذي ينافس

في سوق الإنتاج العالمي ولخير البشر هو ما يستحق التحية والتقدير ورفع القبعة احتراما، حيث يعمل على تقوية الأمة ودعمها، وأخذ مكان لها بين الأمم والشعوب، ويعمل على صيانة مستقبل أبنائها والمضي بهم قدما في عالم التقدم والقوة والسبق، فلا تعود أمة مهددة بالانقراض أو الاحتلال أو التبعية الفكرية والثقافية أو الإذلال والتهميش، لأن أخطر ما يكون في المجتمع الاستهلاكي لا البرجوازية الفارهة والعيش الزائف فحسب؛ بل استهلاك واستيراد قيم الآخر وثقافته بكل ما تحمل من غث وثمين، وهذا ما فرضته العولمة علينا اليوم حينما استهلكنا مع التكنولوجيا قيم وسلوكيات وثقافة وأفكار الآخرين الذين لا ينتمون إلينا بصلة!

تساؤلات بين الإبداع والاستهلاك

والسؤال المهم الذي يطرح نفسه: أين أمتنا العربية من هذا الإبداع الذي يبعدنا عن وصمة المجتمعات الاستهلاكية؟ هل السبب العقول المهجرة التي لم تجد بصيص أمل لها في الدول العربية بينما وجدت كل الترحيب والتكريم في الدول الغربية؟ أم الأموال الضائعة وقضايا الفساد وسوء استغلال الموارد وإهدار خيرات البلاد العربية؟ أم هو سوء التخطيط والإدارة؟ أم نقصان الإخلاص والعمل الجاد؟ أم التعليم الهزيل في مدارسنا وجامعاتنا الذي ينمي قدرات الحفظ الأصم لا قدرات التفكير والإبداع؟ أم هو الكسل والخنوع وتعود الاعتماد على الآخر؟ أم الاستسلام لمعتقدات أن الآخرين أفضل وأن لا قدرات عربية نملكها؟ أم هو الاستمتاع بما ينتجه الآخر من دون أدنى تعب؟ أم هي الطاقات المهدرة والشباب التائه؟ أم هو الانشغال بالهموم الفردية والمصالح الشخصية بعيدا عن مصالح الأمة والإخلاص لها؟ أم هي الأهداف والرؤى غير الواضحة وغير المتفق عليها والتي من المفترض أن تهدف إلى رقي الأمة والمضي قدما بها؟ أم هو البعد عن تعاليم الدين الإسلامي الحقيقية التي تحث على العمل والإنتاج والإبداع: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة التوبة: ١٠٥). «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» (رواه البيهقي/ السلسلة الصحيحة)؟ أم هو كل هذا معا؟

إن التحديات في المرحلة الحالية والظروف الاقتصادية التي تمر بها الكثير من الدول العربية، ومتطلبات الأجيال القادمة... تتطلب إعادة النظر في سلوكياتنا الاقتصادية على كافة الأصعدة والمستويات الدولية والاجتماعية والفردية.

متطلبات الإبداع المنتج

ولكي تصل أمتنا العربية والإسلامية إلى الإبداع، ونعود، كما كنا، إلى مقدمة الأمم المنتجة التي تصدر اختراعاتها ومنتجاتها للعالم (في العصور الذهبية حتى نهايات القرن التاسع عشر) فإننا نحتاج إلى ما يلي:

● قلب صادق مخلص؛ من كل فرد، ومن كل مسؤول، ومن كل موظف وعامل. فقد فقدنا الإخلاص في العمل والشعور برقابة الله تعالى، ولم يعد هناك متقن للعمل، إلا من رحم ربي!

● عقول مفكرة؛ نحتاج إلى عقول أبنائنا المخلصة الموهوبة المبدعة التي تعمل لمصلحة الوطن لا لمصالحها الشخصية.

● استرجاع الأدمغة المهجرة في الخارج، والحفاظ على الحالية بشتى الطرق.

● التوعية المجتمعية، لتصحيح ثقافة الشعب من ثقافة الاستهلاك إلى ثقافة الإنتاج من خلال دور التعليم ودور الإعلام بشتى وسائله.

● تنمية سلوكيات ومفاهيم الوعي الاستهلاكي السليم لدى أطفالنا منذ الصغر، وإدراجها في مناهج التعليم المدرسي.

● وضع خطط واستراتيجيات اقتصادية قويمة تهدف إلى البناء والتعمير والإنتاج من خلال مخططين استراتيجيين ذوي خبرة في التنمية الاقتصادية.

● التركيز على التعليم التقني والمهني لتعليم المهن وتشجيعها في مجتمعاتنا العربية، حيث تقود لوفرة الصناعات.

● تعزيز وتشجيع المشروعات الإنتاجية، سواء على مستوى الدولة أو الأفراد، لتفعيل نهج الاقتصاد الإنتاجي التنموي لا النهج الاستهلاكي.

● تشجيع الأفراد على الادخار والاستثمار في مشاريع مفيدة تنموية وصناعات محلية.

● تصحيح مسيرة التعليم من قبل المعلمين والقائمين على التربية ، فلا بد من التعليم القائم على الإبداع، وتعليم التفكير، وحل المشكلات، والتعاون، وتنمية القيادة، والحرية.

● بناء الثقة ودعمها في قدرات أبنائنا ومواهبهم وقدراتهم على الابتكار والإنتاج.

● توفير الأمن والأمان والحرية والديموقراطية للشعوب لكي تنتج وتبدع وتعمل عقولها في الإبداعات.

● تشجيع وتعليم الاقتداء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام في الزهد والبعد عن كل مظاهر الترف والإسراف والتبذير، ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (الإسراء:٢٧). والتذكير بالهدف من الحياة وهو العمل للآخرة.

منظومة المتاع والزينة والزخرف:
بين منطق الاستخلاف.. وشهوة الاستهلاك

د.هبة رءوف عزت
استاذة جامعية-مصر



يحتاج المرء أن يعيد النظر في معاني المفاهيم ودلالاتها وخرائطها بمنهج القرآن ولفظه كي يستقيم منهجه، لذلك فالنظر في مفهوم الاستهلاك وثقافته وروابطه وشبكاته هو فرع عن أصل، هو «رؤية الحياة».

لعلها: زينة إلى أمد.. فمنذ بدء استقرار آدم وحواء في الأرض كان المتاع لهم زينة.. وأمد. والناظر في كتاب الله يرى معنى المتاع يدور بين المادة والزمن، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(البقرة:٣٦).

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾(هود:٣).

والآيات كثيرة في هذا السياق.

لم يحرم الله متاع الحياة الدنيا ولا زينتها، لكنها لن تكون أبدا خالصة من منغصات العيش، فتلك سمة زينة الحياة الآخرة.

وتدور معاني المتاع والزينة مع الشهوات، المال والنساء والبنين، والخيل المسومة والأنعام والحرث، ينفق الإنسان عمره في استهلاك المتع، ويمتعه الله.. إلى أجل.

ولكي نفهم عمق نظر الإسلام لعلاقة الإنسان بكل ذلك، لابد أن ننظر في فلسفة الجسد والنسل والمال والحياة والزمن، وندرك أن استقامة تلك المقاصد لا يتم إلا بميزان الآخرة ويوم القيامة.

وفي قصص القرآن حديث عن نماذج غلب فيها الطغيان على الإحسان، في مثال قارون، وأخرى غلب فيها الطغيان على العمران، كما في نموذج فرعون، وثالثة غلبت فيها الشهوة على العرفان، كما في قصة يحيى، وغيرها من الخرائط التي نفهم من خلالها كيف يتم بناء تصور شامل لعلاقة الإنسان بذاته وبغيره وبالعالم.

ثقافة الاستهلاك التي تنامت في عالمنا الإسلامي لتدخل في تفاصيله هي امتداد لثقافة المترفين التي أودت بأمم فأهلكتها، وهي صيغة من صيغ ثقافة الزخرف التي حذر منها القرآن.. زخرف البنيان وزخرف البيان.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (يونس:٢٤-٢٥).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام:١١٢).

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٣٣-٣٥).

والحق أن ثقافة المتاع والمتعة والزخرف والترف، لا يمكن فهمها بمعزل عن مفهوم القوة ورؤية المجتمع لمفهوم الخيرية، ومفهوم السعادة وتعريف الحياة الطيبة، فحين يكون مفهوم القوة مقترنا بالخيرية يتوازن مفهوم النفع والخير الخاص مع النفع والخير العام.. وتسود عقلية التفكير بصيغة الجمع (كما في حديث: «ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به»(صححه الألباني)، فتكتسب القوة مقوماتها من الذات والصفات الفردية والمجتمعية، لا مما يمتلكه البشر من سلع ومتاع. وليس في ذلك حض على التجرد والتخلي عن كسب المعايش ولا عمارة الأرض، بل هو وعي بميزان المصالح وفهم لمهمة الأمانة والشهود. لذلك فرؤية الإسلام للمال والمتاع لا تنفك عن منظومة للعدالة تقوم بإصلاح حال النفس وحال المجتمع.. وترى تلك الموازين الدقيقة والمقاصد الواضحة لأحكام الشرع التي تؤسس نفوسا سوية وأمة قوية.

مراكمة الثورة

ولعل أبرز الأيديولوجيات المعاصرة التي انتقدت مراكمة الثروة باعتبارها سبيلا للبغي على الحقوق الاجتماعية هي الماركسية، فمفهوم فائض القيمة وطبقا للتحليل الماركسي فإن السلعة التي يتم إنتاجها؛ بينها وبين المادة الخام فائض في القيمة، أي السعر، وهو الفارق بين قيمتها قبل العمل وقيمتها بعده، ومن هنا يأتي الربح، فإن وجد وسيط بين العامل وحصوله على كامل قيمة الفائض فسيكون هذا الوسيط هو صاحب العمل الرأسمالي الذي يستولي على النصيب الأكبر من فائض القيمة، ويعطي الفتات للعامل الذي يستحق الفائض كله، ومن هنا المطالبة بالعلاقة المباشرة بين العامل وأجره، وتحريره من أبنية الاستغلال التي تجني الربح وتشاطره الأجر دون حق.

هذا تبسيط يكاد يكون مخلا لنظرية ضخمة استفاض ماركس في شرحها في كتابه العمدة «رأس المال»، وغيره مما كتب.. لكنه لا مجال للبيان هنا لضيق المساحة.

قدم ماركس رؤيته للمجتمع المثالي كمجتمع شيوعي تختفي فيه الدرجات والطبقات، فلم ينتبه للدرس الذي تعلمه أفلاطون حين اقترح نفس الحل في دائرة النخبة السياسية، ثم وجد أن نزعات الإنسان الفطرية تتعارض مع تلك الحياة المشاعية. فلا مقاصد تحفظ، ولا غرائز تتفهم، ولا حدود تضع ولا مصالح تحفظ وتصون.

أما الليبرالية فقدمت نظريات فائض القوة التي انبنت عليها مفاهيم التوسع والاحتلال والاستغلال، لذا يقال «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية» لأنه يعمم الاستغلال عالميا، مستغلا فرط القوة العسكرية مقابل الحاجة الاقتصادية، بما يؤدي لاستغلال واستعباد الشعوب الأخرى. هذا يتم تحت غطاء دور الرجل الأبيض في نشر المدنية بين البرابرة، ولما تهاوى هذا المنطق صار يتم تحت شعارات نشر الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، وهي قيم محترمة لكنها تفقد جوهرها على يد قوى تطيح بها مقابل الزخرف -قولا وعملا.

ولعل أبرز من كتب في مطلع الألفية منظرا لفرط القوة وفائضها كان ريتشارد هاس، أستاذ العلاقات الدولية ومستشار الأمن القومي الأميركي، والذي تولى لفترة رئاسة مجلس العلاقات الخارجية حين كتب أن أميركا لديها فائض قوة لابد أن تمارسه في العالم، كان يتحدث يومها عن النفوذ.. والناتج كان باختصار حربي أفغانستان.. والعراق، واستمرار صرف بعض القوة في دعم الكيان الصهيوني.

الفائض

ما يلفت النظر هو أن الفائض كمفهوم هو علاقة أيضا بين عنصر حقيقي والموقف من توزيعه، أي حين يكون هناك فائض يصبح السؤال: كيف يتم توزيعه وفي أي اتجاه: فائض القيمة كيف نقسمه؟ ومن هنا تنشأ نظريات العدالة الاجتماعية وسلطة الدولة، وفائض القوة كيف نحسن استغلاله ونتحكم فيه كي لا يتغول؟ ومن هنا تنشأ نظريات العدل السياسي والدولي ومنطق القانون الدولي.

فائض الوهم

لكن هناك فوائض أخرى لم نلتفت لها تسري في الحياة اليومية للشعوب، تكرس ثقافة الاستهلاك وامتلاك المتاع وتعتبره مصدرا للرضا والسعادة والمكانة، وهذا هو: فائض الوهم.

بل الوهم الأكبر هو محض حب التملك.. فقد صرنا نشتري حتى دون أن نستهلك!

فلسفة

هنا يغدو فهم فلسفة الثروة مهما، لكن الأهم منه هو فهم منطق التواصي بالحق والتواصي بالصبر والمرحمة، والنموذج النبوي الذي قام على العطاء والتخفف من أحمال الدنيا، وعينه على الآخرة. لا رهبانية ولا قارونية. فالضغط الاجتماعي والولع بالشكل والمباهاة بالمتاع، هو ثقافة مجتمع يمكن تغييرها ويمكن تكريسها، والإغراء الإعلاني الذي يلح عليك أن تشتري وأن تستدين لتملك، حتى وإن لم تكن تستطيع هو البوابة لمنظومة الربا المعاصرة بكل تفاصيلها.

وبين فائض القيمة وفائض القوة وفائض الوهم السياسي والاستهلاكي، تدور رحى معركة العودة للإنسانية التي افتقدناها، إنسانية تمنح فائض القيمة توزيعا عادلا في قنوات الحياة الطيبة ودروب المجتمع المتكافل، وتمنح فائض القوة مصارف النصرة للمستضعفين وليس زيادة عدد المستكبرين، وتخترق دخان فائض الوهم الذي يملأ فراغات الفعل كي نتحرك لسد الاحتياجات الأساسية، برؤية مجتمعية.

وفلسفة الفائض في القرآن تتأسس على الفضل، فالفائض في الإسلام ليس نتاج استغلال، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء ببركة في الرزق، يستتبعها فضل بين العباد، تواصيا بالخير وقياما بالاستخلاف – فضل أمرنا الله به في كل معاملاتنا – من الديون، للطلاق، للتواصي بالإحسان والحض على توجيه الفائض للخير: إنفاقا مما جعلنا مستخلفين فيه، من فضل مال أو جهد، ونهوضا بما جعلنا مستأمنين عليه من فضل قوة، وحضا على عدل أمرنا الله به تنفق في الأمر بمعروفه والنهي عن منكره، فضل الوقت فلا يغدو وقت فراغ أبدا، أو صدقة هي حق الله في المال بعد الزكاة، بإنفاق فائض المال على المحتاج، تفكيرا بصيغة الجمع وزهدا في التباهي بثوب الشهرة وموبايل الشهرة وسيارة الشهرة وأثاث الشهرة، وعبورا لفجوة الوهم الاستهلاكي بتحري الإنفاق فيما نحتاج.. ويلزم.. ويصلح.

الفوائض يقابلها فوارغ، أما الفضل فشكر للنعمة، ودوران مع المقاصد ودفع للمفاسد... ودرء للوهم، وقيام بالشهادة.

طبائع

طبائع الاستهلاك، وطبائع الاستبداد، فوائض الثروة والقوة والوهم، لها انعكاساتها في السياسة والاقتصاد، فالاستبداد يتحرك في فراغ يخلقه تراجع الناس عن ممارسة حقوقهم والدفاع عنها، فيملأ بالقوة مساحات الاجتماع والسياسة، لا يكتفي بالحكم والجبروت، بل يخلق ثقافة تستخف بالقوم فيطيعونه.. كما ذكر القرآن.

من هنا كان من أهم الكتب التي رصدت هذا التوازي بين نظم الاستبداد وثقافة الشعوب المستبد بها كتاب طبائع الاستبداد للكواكبي، الذي توفي رحمه الله مع مطلع القرن العشرين. وقد رصد أنواع الاستبداد التي تسري في الأمم، منها استبداد القوي بالضعيف، واستبداد الجهل على العلم، والنفس على العقل. ورصد كيف يمكن أن يستخدم الدين كغطاء للاستبداد، فقد وجد في التاريخ أن البعض استبد حتى كاد يزعم الألوهية، لذا أول خطوة لإصلاح السياسة تغيير الوعي، وإتاحة المعرفة وسبل العلم، فالاستبداد يرتع حيث يستشري الجهل ويتطلع الناس لقارون.. يا ليت لنا مثل ما أوتي. وقد ربط الكواكبي بين الاستبداد والمال، وخلق نخب حول الساسة، فالمترفون قد يكونون أعداء الاستبداد فكرا، لكنهم أعوانه عملا، فالمال يذل الغني طمعا في الحفاظ عليه، وهو يذل الفقير طمعا في تحصيله. واعتبر الكواكبي التربية مفتاح الاستبداد، فمن ينشأ على الخضوع والهوان في المجتمع يسهل عليه تقبل الهوان في السياسة. ورأى الحل في الأخلاق والتربية وبث الوعي، ثم التغيير في الأنظمة كي تتحقق الحرية عبر آليات الشورى الدستورية.

نقاط التلاقي

ونحن نرى في واقعنا شرقا وغربا كيف تنتشر طبائع الاستهلاك المباشرة، وتغمر الأسواق مساحات الاجتماع، وتضحى هي نقاط التلاقي الأساسية بين الناس ومحور حياتهم اليومية، السوق صار هو المجال العام، لا ليشهد الناس منافع لهم، بل ليدوروا حول ذواتهم المحدودة، ويشبعوا نهمهم وشهواتهم، فينصرفون بذلك عن التمدن والعمران، وتحصيل الحقوق بالنضال و«الدفع»، ويركنون إلى التسوق و«الدفع».. ولو بالدين الآجل.

وحين تكتمل حلقات طبائع الاستبداد وطبائع الاستهلاك، وتتلاقى مع ثلاثية فائض القوة والثروة والوهم التي ذكرتها، يكون الحال هو ما نراه في الواقع العربي اليوم، من تردي في الأحوال وغياب لهمة التغيير وانصراف للشأن الفردي وانشغال بما هو شخصي.

في عالم الاستهلاك كل شيء له تاريخ صلاحية، حتى العلاقات الإنسانية تصبح خاضعة للمنطق الاستهلاكي، هكذا رصد سيجموند باومان أحد أبرز علماء الاجتماع المعاصرين في كتابيه: «الحداثة السائلة» و«الحب السائل» -كل شيء قابل للاستهلاك والاستبدال: من السلعة للجسد للعمل للإعلام للصداقة... وغيرها.

الاستهلاك ليس سلوكا فرديا، إنه منظومة كاملة، والتغيير يبدأ من فك تلك الحلقات واحدة بعد الأخرى. من هنا يبدأ الإصلاح.

الإسراف.. الجذور والمسار والثمار

محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية



قال الجرجاني في التعريفات: «الإسراف: هو إنفاق المال الكثير في العرض الخسيس، وقيل: هو تجاوز الحد في النفقة، وقيل: هو أن يأكل الرجل ما لا يحل له أو يأكل مما يحل له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة».

الجذور

ليست عوائد الإسراف، أو الثقافة الاستهلاكية، إلا ابنا من أبناء الحضارة الغربية المادية، وهذا الموضوع هو بحد ذاته دليل على أن إصلاح العقيدة (التي هي رؤية شاملة للإنسان والكون والحياة)، هو مبدأ كل إصلاح، وأن فساد العقيدة هو مبدأ كل فساد.

حين سارت الحضارة الغربية في مسار العلمانية وتقديس المادية وإزاحة كل «ما وراء الطبيعة» كان طبيعيا أن ينفجر النهر الفياض من الشهوات واللذائذ، وأن يعب المرء من الحياة ما استطاع بكل ما استطاع، فخلاصة الحياة في ظلال المادية تلخصها عبارة ألبير كامي -فيلسوف العدمية الشهير- القائلة: «كل شيء جائز طالما أن الله غير موجود وأن الإنسان يموت» (١).

وهنا.. صارت اللذة هي الإله الجديد الذي تعبده البشرية في محراب المادية!

وذلك أساس فارق وخلاف جوهري بين النظرة الإسلامية والنظرة المادية للطبيعة، فارق بين «الاستخلاف في الأرض» الذي هو بمعنى المسؤولية والرعاية للأمانة والوديعة، والتي سيعقبها حساب وجزاء في اليوم الآخر، وبين معنى «الامتلاك الكامل» الذي تطرحه النظرة المادية العلمانية التي لا ترى في الكون إلا أنه «مادة استعمالية لا قداسة لها، توظف

وتصنع وتستهلك وتولد منها الطاقة، من أجل تحقيق لذة الإنسان ومنفعته، الأمر الذي يتطلب المزيد من استهلاك مصادر الطبيعة بمعدلات لا نظير لها في تاريخ الإنسان» (٢)، وهو ما جعل الطبيعة في نهاية الأمر مجرد «مخزن للثروات ومستودع للنفايات» (٣) كما قال الفيلسوف الفرنسي الشهير رجاء جارودي.

المسار

لقد انطلق قطار الحضارة المادية يبتغي الوصول لسعادة الإنسان وإشباع حاجاته، ومازال كلما وقف في محطة محققا نصرا علميا ومزيدا من التحكم في الأدوات ليشبع حاجة ولذة، انفتحت له محطات جديدة ولذائذ أخرى، ثم كانت المفاجأة:

«لم ينتج عن هذا زيادة التحكم في الذات الإنسانية أو في الواقع الموضوع، بل على العكس، فمع ظهور الإنسان الطبيعي (المادي) وتحديد المنفعة واللذة باعتبارهما الهدف الأساسي للوجود الإنساني، ترجم هذا نفسه إلى الاستهلاكية، وتصور أن مزيدا من السلع فيه مزيد من المنفعة واللذة، وقد تسارعت وتائر هذه الاستهلاكية تسارعا مذهلا، وبعد أن كانت الحاجة هي أم الاختراع أصبح الاختراع هو الذي يولد الحاجة، فوجد الإنسان نفسه محاطا بسلع وأجهزة ليس متأكدا تماما أنه يريدها (والسلعة مثل المادة، شيء يتحرك بلا هدف أو غاية)، وبدأ الإنسان يشعر أنه لم يعد يملك من أمره شيئا، وأنه يدخل في بحث لا ينتهي عن هدف لم يحدده في عالم ليس من صنعه، تتراكم فيه سلع لا يريدها» (٤).

لقد تحول الاستهلاك نفسه إلى «فلسفة مطلوبة؛ إذ إن تكاثر الإنتاج يقتضي ويريد تكاثرا في الاستهلاك، فيسعى أصحاب الإنتاج أنفسهم إلى خلق نوعيات جديدة للاحتياج عبر الدعاية والإعلان والتطوير المستمر للمنتجات، والبحث عن أسواق جديدة، وتقصير عمر المنتج ليستهلك سريعا؛ ولهذا فإن السيارات الحديثة لا تتمتع بأعمار السيارات القديمة، وكذلك البنايات الحديثة لا تعيش أبدا كما عاشت البنايات الأقدم منها» (٥).

وبهذا صارت الشعوب فريسة لذوي الأموال المترفين وذوي السلطان المتجبرين، فأولئك يتحكمون بالناس عبر تحكمهم بصناعة اهتماماتهم وتلاعبهم بشهواتهم وغرائزهم، حتى إنهم ليبتكرون لهم شهوات وحاجات جديدة تحتاج لإشباع جديد!

وهنا صارت لدينا طبقتان متمايزتان: قلة رأسمالية متحكمة ومهيمنة، وشعوب مستضعفة مستغفلة أقرب إلى القطعان منها إلى الإنسان، تساق إلى الموت وهي لا تشعر، وقد تذبح وهي لا تبصر.

الثمار

على عكس ما توقع الجميع، لقد جاءت المادية بنتائج كارثية في حياة البشر.. إن الفكر المادي المهيمن جعل حتى التفسيرات التي تبدو «علمية» ذات تطبيقات في غاية الخطورة، يقول د.عبدالوهاب المسيري: «في هذا السياق يبرز دارون كواحد ممن ساهم في التنظير للصراع والدموية بمقولته عن البقاء للأقوى أو للأصلح، حتى إن فرويد تساءل عن حكمة الدعوة إلى فضائل مستحيلة، مثل كبح جماح الرغبات الجنسية والعدوانية، بل إنه يتحدث -في لقطة متوحشة حقيقية- عن «فضل» اليهود على المدنية، فقد انتشروا في أرجاء العالم، ومن ثم اتجه إليهم عدوان الشعوب التي عاشوا بينها، فأتاحوا لتلك الشعوب فرصة التنفيس عن طاقة العدوان» (٦).

لقد صار الإنسان الذي اعتاد الإسراف خطرا على الإنسانية وعلى الكون من حوله، حتى بالمنظور المادي نفسه، ولعله يكفي -في هذا الصدد- أن نعرف أن نصف المواد العضوية التي تلقى في الماء وتلوثه في مصر هي أغذية ومشروبات، بحسب تقرير البنك الدولي لعام ٢٠٠٧م (٧). لقد غرقت الإنسانية فيما يسميه جان بيليت -وهو من أبرز علماء البيئة- بـ«مجتمع النفايات»، ويرمز لها بنهر له منبع، وهو الاقتصاد الذي يضخ عددا رهيبا من السلع والمنتجات لتلبية حاجات الاستهلاك المتزايدة، وله أيضا مصب وهو تراكم النفايات بعد انتهاء الاستهلاك، وهذا ما ينتج ثلاث مشكلات: مشكلة الطاقة، ومشكلة الموارد الأولية، ومشكلة تلوث البيئة (٨).

إن الثقافة الاستهلاكية هي ما تجعل المرء يمتلك عددا من الهواتف والأجهزة الإلكترونية، لكنه لا يستعملها إلا في اللعب أو ما لا يفيد، يمتلك عددا من السيارات لكنه لا يهوى إلا أن يسابق ويتقافز ويتمطى بها، وربما ليحصل على قلوب العذارى كما أوحى إليه الإعلام، يأكل في المطاعم الأميركية طعاما لا غذاء فيه، بل هو مشحون بالأمراض ليس إلا، لأن ارتياد هذه المطاعم يشعره بالنشوة التي تكونت عنده عبر الإعلانات الشهوانية. إنها حالة من التيه المختلط بالنشوة التي تصنع القوم الغافلين.

قال رسول الله ﷺ «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة»(رواه النسائي وابن ماجه، وحسنه الألباني).

هوامش

١- علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص١٣٩.
٢- د. عبدالوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٢٠.
٣- رجاء جارودي، وعود الإسلام، ص٢٠.
٤- د. عبدالوهاب المسيري، العلمانية تحت المجهر، ص١٣٣.
٥- جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ص٤٨، ٥٠، ٥٦.
٦-د. عبدالوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٨/ ٣٢٩.
٧- تقرير البنك الدولي للعام ٢٠٠٧م (ب).
٨- جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ص٥٩.

اقتصاد الأسرة: ضوابط شرعية وآداب مرعية

د. حسين شحاتة
خبير استشاري في المعاملات الشرعية



يجب أن تكون التربية الإسلامية للأولاد شاملة ومتوازنة حتى ينشأ الطفل نشأة صالحة، إذ لا يقتصر الأمر على العقيدة والأخلاق فقط، بل أيضا في السلوكات المنضبطة بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية، ومنها السلوك الاقتصادي في الإنفاق والكسب والادخار والاستثمار، وكذلك في وقت الرخاء والكساد، وفي المكره والمنشط، وفي السلم والحرب.

وهذا المنهج التربوي الشامل يعد الطفل منذ نعومة أظافره على أن الإسلام دين شامل، وفيه اقتصاد وسياسة وإدارة وتربية ونحو ذلك، وفي الدراسة التي بين أيدينا سوف نركز على الجوانب التربوية الإسلامية لأولادنا في مجال المعاملات الاقتصادية: المشروع الواجب أن يكون، والمنهي عنه شرعا.

● وجوب التربية الاقتصادية الإسلامية للأولاد:

لقد تضمنت الشريعة الإسلامية أسس التربية الاقتصادية بصفة عامة، ويلزم تطبيقها على الفرد والأسرة والدولة والمجتمع، كما يجب تطبيقها على الصغير والكبير حسب الأحوال، ومن ثم يجب أن نربي النشء على هذه الأسس، ولا نتهاون فيها بدعوى أن هؤلاء مازالوا أطفالا صغارا، فالتربية في الصغر كالنقش على الحجر، ومن شب على شيء شاب عليه، ولقد اهتم سلفنا الصالح بذلك، بل كانوا يدربون الأولاد منذ صغرهم على كيفية الكسب وكيفية الإنفاق، وكيفية إدارة الأعمال، فكانوا يؤسسون النشء على القيم الإيمانية والأخلاقية، وفوق هذا الأساس تكون النواحي الأخرى، ومنها الاقتصادية، وكان هناك تفاعل بين هذه النواحي جميعا، بما تكون حصيلته الشخصية الإسلامية المتكاملة إيمانيا وسلوكيا واقتصاديا، وهذا ما سوف نوضحه في الصفحات التالية.

● التربية الإيمانية للأولاد وأثرها على سلوكهم الاقتصادي:

يجب أن نغرس في معتقدات أبنائنا منذ الصغر بعض المفاهيم الإيمانية ذات الطابع الاقتصادي، منها على سبيل المثال:

- أن المال الذي معنا ملك لله، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي رزقنا إياه، لذلك يجب أن نحب الله ونعبده لأنه

صاحب هذا المال.
- أن هناك ملائكة تراقب تصرفاتنا ومنها الاقتصادية والمالية، ولذلك يجب أن نتجنب أن تسجل الملائكة في سجلاتنا شيئا لا يرضاه الله.
- أن هناك آخرة سوف نقف فيها أمام الله سبحانه وتعالى ليحاسبنا عن هذا المال، من أين اكتسب وفيما أنفق؟
وهذه المفاهيم الإيمانية الاقتصادية تنمي عند الأولاد منذ الصغر: الرقابة الذاتية، والخشية من الله والخوف من المساءلة في الآخرة... فإذا شب الولد على هذه القيم وطبقها في جوانب حياته كان فردا مستقيما منضبطا بشرع الله في كل معاملاته، ومنها الاقتصادية، ويعتمد عليه فيما بعد لإدارة اقتصاد بيته واقتصاد بلده على أسس إيمانية.

● التربية الأخلاقية للأولاد وأثرها على سلوكهم الاقتصادي:
يجب أن ننمي عند الأولاد منذ الصغر الأخلاق الفاضلة، ونبرز لهم آثارها الاقتصادية على سلوكهم، ومن هذه القيم: الصدق والأمانة، والاعتدال والقناعة، والوفاء، وحسن المعاملة، والسماحة والبشاشة وطلاقه الوجه، كما نحذرهم من السلوكات المنهي عنها شرعا، ومنها: الإسراف والتبذير، والإنفاق الترفي والبذخي، وتقليد الغير فيما نهي الله عنه، والغش والتدليس، وكل صور الاعتداء على أموال الناس.
كما يجب أن نفهم أولادنا أن الالتزام بهذه القيم جزء من الدين، وأنه عبادة وطاعة لله سبحانه وتعالى، وأن من يلتزم بالأوامر ويتجنب ما نهي الله عنه يكون له ثواب، ومن لم يلتزم فإنه يناله من الله العقاب.
كما يجب أن نفهم أولادنا بأن الالتزام بالأخلاق الفاضلة له أثر مباشر في تحقيق البركة في الأرزاق، وتحقيق الأمن النفسي، والرضا الذاتي، بالإضافة إلى الثواب العظيم المدخر لنا يوم القيامة، كما يجب أن يؤمنوا إيمانا راسخا أنه لا يمكن الفصل بين الأخلاق والاقتصاد.

● التربية السلوكية الاقتصادية الإسلامية للأولاد (الواجب شرعا):
سوف ينجم عن التربية الإيمانية والتربية الأخلاقية لأولادنا سلوكات اقتصادية سليمة تحقق البركة والرضا والإشباع المادي والمعنوي، وزيادة الأرزاق، ويمكن تلخيص هذه السلوكات في الآتي:
- الاعتدال في النفقات وتجنب الإسراف والتقتير، ولذلك يجب أن نعرف الأبناء ما هو الاعتدال، وحدوده في المصروفات المختلفة، ومن ناحية أخرى عند تقدير المصروفات الشخصية للأولاد، يجب عدم المغالاة فيها فوق الاعتدال، حتى لا نشجعهم على الإسراف، والذي يقود إلى مفاسد الأخلاق ثم الانحراف.
- الإنفاق حسب السعة والمقدرة، ففي وقت الرخاء ندرب الأولاد على الادخار للمستقبل، ونزودهم بالوسائل والأساليب المشجعة على ذلك، ومن ناحية أخرى يجب أن نربيهم على القناعة والتقشف وقت الأزمات، ونبين لهم أن هذا كله بقدر الله سبحانه وتعالى، ونقص عليهم كيف كان سلوك رسول الله ﷺ وقت الأزمات.
- ادخار الفائض لوقت الحاجة والفقر، من الأهمية أن نربي أولادنا على أن الله سبحانه وتعالى هو الباسط والمقدر للأرزاق، أحيانا يكون هناك سعة في الرزق، وأحيانا يكون هناك ضيق في الرزق، وتأسيسا على ذلك يجب على الأولاد عدم الإسراف وقت السعة، ويجب عليهم الادخار لوقت الحاجة.
- استثمار المدخرات وفق شرع الله عزوجل، بعيدا عن الربا والخبائث، من الأهمية أن نفهم أولادنا منذ الصغر أن فوائد البنوك والمصارف والقروض هي عين الربا المحرم شرعا، وأن البديل هو استثمار الأموال عن طريق المصارف الإسلامية وأن من يتعامل بالربا ملعون من الله ورسوله، ويمحق الله رزقه ويعلن عليه الحرب.
- ترتيب النفقات وفق الأولويات الإسلامية، وهي الضروريات فالحاجيات فالتحسينات، فعندما يطلب الولد شيئا في مجال الكماليات، وهو في نفس الوقت محتاج إلى شيء آخر في مجال الضروريات.. فإننا حينها نعطي الأولوية للضروريات ثم يلي ذلك الحاجيات فالكماليات، ونشرح له المبرر لذلك.
- الصبر والتقشف وعدم الضجر وقت الأزمات، يجب أن نفهم أولادنا أن الله سبحانه وتعالى له حكمة في تضييق الأرزاق، ومنها التربية على الصبر والرضا والقناعة، كما يجب أن نعطي لهم النماذج في صورة قصص من حياة الرسول ﷺ والصحابة.. ماذا كانوا يفعلون وقت الأزمات.. إن هذا النوع من التربية يعد الأولاد منذ صغرهم على التضحية والجهاد.
- الكسب الحلال الطيب، يجب أن ينشأ الولد الصغير على الكسب الحلال الطيب من عمل يده خلال فترات الإجازات، وهذا يتطلب من والديه وإخوته الكبار تدريبه على بعض الأعمال التي تناسب سنه، ويتعلم مهنة، سواء مهنة والده أو أي مهنة أخرى، كما يجب أن نفهمه بأن العمل عبادة وشرف وقيمة، واليد العليا خير من اليد السفلى، فإن تعويد الطفل على الكسب منذ الصغر يعالج مشكلة البطالة عند الكبر.
- الشورى في أمور البيت، ومنها المالية، يجب أن نربي أولادنا منذ الصغر على كيفية المساهمة بآرائهم في النفقات، ونشعرهم بالمسؤولية، بل ننصح بأن ندربهم على كيفية إدارة ميزانية البيت.
إن تربية الأولاد على هذه السلوكات الاقتصادية الإسلامية يقود إلى إعداد أجيال قادرة على إدارة اقتصاد البيت والشركة والمؤسسة والدولة، على أسس الاقتصاد الإسلامي الذي يهدف إلى تحقيق الخير في الدنيا ولآخرة.

● سلوكات اقتصادية منهي عنها شرعا:
إن من يراقب سلوكات بعض أولادنا الاقتصادية يجد أن بعضها بل

معظمها منهي عنه شرعا، وللأسف لا نهتم بها، أو لا نعبأ بذلك، بل نجد بعض الآباء يزكون تلك السلبيات من باب العاطفة والتدليل.. وتكون من أخطر أبواب المفاسد عقديا وأخلاقيا وسلوكيا على الأولاد في الحاضر والمستقبل.

لذلك فإنه من الأهمية أن نربي أولادنا على ضرورة تجنب هذه السلوكات السيئة ويكون الباعث والحافز والدافع على تجنبها نابعا من ذواتهم، وهو عبادة الله وطاعته، وحبا وامتثالا لرسوله ﷺ، وكذلك حبا للوالدين، ومن بين هذه السلوكات المنهي عنها شرعا ما يلي:

- سلوك الإسراف: وهو الإنفاق فوق الحد المعتدل المباح شرعا، فأحيانا نجد بعض الآباء يعطون الأولاد من المصروفات ما يزيد عن الاعتدال والقوام، فيجعل الولد يسرف، ويعتاد الإسراف... بل وينشأ على الإسراف، وفي هذا إثم على الوالدين، ولا يجوز أن تطغى العاطفة والحب والتدليل على شرع الله، بل يجب أن يربى الأولاد على أن الله سبحانه وتعالى لا يحب المسرفين، وأن هؤلاء المسرفين هم أصحاب النار، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام:١٤١)، وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾(غافر:٤٣)، والواقع العملي الذي نعيشه نجد فيه أن معظم الأولاد المنحرفين كانوا في صغرهم من المسرفين، وأن آباءهم هم السبب في ذلك، بل قلدوا آباءهم.

- سلوك التبذير: ويقصد به الإنفاق على المحرمات والخبائث التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها، مثل الإنفاق على السجاير ونحوها، وشراء الأشرطة المخلة بالآداب، والإنفاق على شرب الخمور والمخدرات والمسكرات، وشراء الأفلام السينمائية السيئة ذات الطابع الجنسي.. ولعب القمار والميسر، وممارسة البغاء.. وكل صور الفواحش، ما ظهر منها وما بطن... يجب أن نفهم أولادنا بأن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن التبذير بكافة صوره، كما ورد في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾(الإسراء:٢٦-٢٧)، كما حذر رسول الله ﷺ من التبذير فقال: «وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(متفق عليه).

إن من يتدبر أحوال الأولاد الفاسدين يجدهم من المبذرين فعلا، ويصاحبون قرناء الشيطان في المقاهي والنوادي، وعلى قارعات الطرق، بل إن معظم حوادث سيارات الشباب من المفسدين.

يجب على الآباء أن لا تأخذهم رأفة أو عاطفة في منع أولادهم عن سلوك التبذير، وإن لم يفعلوا فسوف يصيبهم عاقبة ذلك من الشرور والمصائب والذنوب.

- سلوك الترف والبذخ: ويقصد به الإنفاق من أجل التظاهر والتعاظم والمباهاة والتعالي.. حتى يقال: إن ابن فلان يلبس كذا.. ويركب كذا.. إن هذه تربية فاسدة للأولاد تقود إلى الانحراف والبعد عن طريق الله العظيم المتعال، إن تربية الأولاد على الترف والبذخ والتدليل يكون سببا إلى الفسوق والعصيان وتدمير حياتهم وحياة أسرهم، بل وتدمير المجتمع، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾(الإسراء:١٦)، ولقد نهى رسول الله ﷺ عن الترف والبذخ والمظهرية والتدليل، فقال: «إياكم والمخيلة، ولا تلام على كفاف»(رواه ابن ماجه).

والأدهى والأمر أن نجد الوالد يعاني من عجز في ميزانية البيت، ويقترض ليترف أولاده، تحت دعوى العاطفة والحب.. فهذا السلوك خاطئ شرعا، ولا يجوز أن نرضي الأولاد في معصية الله عز وجل.

- سلوك التقليد المخالف لشرع الله: من السلبيات المنتشرة ولاسيما بين أولادنا هو التقليد الأعمى للعادات والتقاليد المستوردة من المجتمعات غير الإسلامية، وتتعارض مع قيمنا الإيمانية والأخلاقية، هي مخططة لأولادنا لطمس هويتهم الإسلامية، بل نجد بعض الآباء يتفاخرون بهذا السلوك المنهي عنه شرعا، والذي يقود في النهاية إلى البعد عن سنة رسول الله ﷺ، وقد حذرنا منها فقال: «لتتّبعن سنة من كان قبلكم باعا بباع، وذراعا بذراع، وشبرا بشبر، حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم فيه، قالوا: يا رسول الله اليهود، والنّصارى؟ قال: فمن إذن»(رواه ابن ماجه).

يجب على الآباء تفهيم الأولاد منذ النشأة على أن تقليد اليهود والنصارى في عاداتهم التي تخالف شرع الله فيها إثم ومعصية، ويجب ألّا تتغلب العاطفة الجياشة والحنان على الالتزام بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية، وأن نقنعهم بأن المسألة ليست سهلة بل خطيرة.. ولابد أن نربي أولادنا على الهوية الإسلامية والاعتزاز بها.

- سلوك اتباع هوى النفس: أحيانا يصل تدليل الأولاد إلى درجة أن كل ما يطلبونه يجاب فورا، حتى لو كان ذلك على حساب الضروريات والحاجيات: «وليس كل ما تشتهيه النفس يشترى»، بل نجد أحيانا بعض الآباء يقومون بالاقتراض لشراء كماليات وترفيات لأولادهم، من باب العاطفة والحنان.. ويشب الأولاد على ذلك السلوك السيئ، ويكون من مضاعفاته الوقوع في مشاكل الاقتراض والتعامل بالربا وأحيانا السرقة والرشوة.

يجب على الآباء كبح هوى نفوس أولادهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالأدلة من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ، ويمكنهم الاستعانة بقصص أولاد الصحابة رضوان الله

عليهم، كيف كانوا متقشفين يعيشون على الأسودين، وليكن لهم في بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء الأسوة الحسنة، والتي كانت تدير الرحى من أجل الدقيق، ورفض رسول الله أن يعطيها خادما.

- سلوك عدم القناعة: يجب أن نربي أولادنا على القناعة والرضا بما قسمه الله سبحانه وتعالى من رزق، والإيمان الراسخ بأن الله سبحانه وتعالى هو مقدر الأرزاق، لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(هود:٦)، ولقد أشاد الرسول ﷺ بالقناعة فقال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه»(رواه مسلم)، وقال: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله»(رواه البخاري).

ففي وقت الأزمات وضيق الحال يجب أن نقنع أولادنا بأن هذا من قدر الله، ولابد من الصبر والتحمل، لا أن نكلف أنفسنا ما لا نطيق، فقد قال الله عزوجل: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ (الطلاق:٧) وقال ﷺ: «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا»(رواه الطبراني).

وعلى الأولاد الراشدين ألا يحملوا آباءهم ما لا يطيقون، وأن لا يصيبهم الضجر والصخب بسبب ضيق الرزق، بل يجب عليهم الالتزام بشرع الله سبحانه وتعالى في المكره والمنشط، وفي السراء والضراء، وفي الرخاء والكساد، فالله سبحانه وتعالى هو مقدر الأرزاق، وكان سيدنا محمد ﷺ القدوة الحسنة في ذلك.. فكان يمر الهلال تلو الهلال ولا يوقد في بيته نار، وكان يعيش على الأسودين، كما أنه حوصر حصارا اقتصاديا في شعب مكة ثلاث سنوات، ولم يستسلم ولم يضجر هو ومن آمنوا معه، فعن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل يلتوي ما يجد دقلا يملأ به بطنه»(رواه مسلم).

يجب أن نربي أولادنا على القناعة والرضا وقت الأزمات، فهذا من موجبات التربية الجهادية التي ننشدها.

● وجوب تعليم أولادنا الآداب السلوكية الاقتصادية الإسلامية:

إن من يتصفح ما يدرس لأولادنا في المدارس والمعاهد والكليات الاقتصادية يجده بعيدا كل البعد عن التربية الاقتصادية الإسلامية المستمدة من مصادر الشريعة الإسلامية، بل يدرس لهم السلوك الاقتصادي الأميركي والسلوك الاقتصادي الاشتراكي.. وليس هناك أي إشارة إلى السلوك الاقتصادي الإسلامي.. وكان من نتيجة ذلك أن وجدنا أولادنا بعيدين كل البعد عن إسلامنا، وهذا ما نعانيه الآن من انحرافات إيمانية وأخلاقية وسلوكية واقتصادية، ولقد محقت البركة من كل شيء، لقد شاع في معاملاتنا كل الموبقات الاقتصادية ومنها: الغش والربا والرشوة والسرقة، والإسراف والتبذير والإنفاق الترفي، والقروض بفائدة، وأكل أموال الناس بالباطل.. ومن الأسباب الرئيسية لذلك هو أن أولادنا قد تربوا تربية اقتصادية غير إسلامية، ونهلوا من الشرق والغرب المفاهيم الاقتصادية الخاطئة التي تخالف عقيدتنا وأخلاقنا.

لذلك يجب على الآباء أن يعوضوا ويعالجوا الخلل في التعليم الاقتصادي الإسلامي بالاهتمام بأولادهم في البيت، ويجب أن يكون السلوك الاقتصادي للأب وللأم مشروعا، مطابقا لأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية، وأن يورثوا هذا السلوك لأولادهم، فهم مسؤولون عنهم أمام الله عز وجل.

كما يجب على الخطباء والوعاظ في المساجد أن يهتموا بالدعوة إلى الالتزام بالسلوك الاقتصادي الإسلامي، باعتباره جزءا من سلوك المسلم القويم، وبهذا ينصلح الفرد والبيت، وهذا يقود إلى إصلاح المجتمع، كما يجب ربط المفاهيم والتعاليم بالأفعال والأعمال، وأن نكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

● وصايا اقتصادية إسلامية:

● أن تؤمن بأن المال الذي بأيدينا ملك لله سبحانه وتعالى والبشر مستخلفون فيه، وأن الرزق بيد الله، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها.

● أن تؤمن بأن هناك محاسبة أخروية يحاسبنا الله سبحانه وتعالى عن المال من أين اكتسب وفيما أنفق.

● أن تعمل في مجال الحلال الطيب حتى يكون كسبك حلالا طيبا، وأن تؤمن بأن العمل عبادة وشرف وقيمة، واليد العليا خير من اليد السفلى.

● أن تلتزم بشرع الله في جميع معاملاتك، يبارك الله لك في عملك ورزقك وعمرك، فالدين المعاملة.

● اتق الله وتجنب المعاملات المنهي عنها شرعا، مثل الإسراف والتبذير والإنفاق الترفي وتقليد الغير، فيما نهى الله عنه، والتقتير والربا، حتى لا تحرم البركات.

● تجنب التعامل مع أعداء الدين المحاربين، فالتعامل معهم خيانة للدين وللوطن، واحرص أن تتعامل مع المؤمنين، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض.

● أن تتقن الأخذ بالأسباب لجلب الأرزاق، مع حسن التعامل مع الناس، وصدق التوكل على الله، يرزقك الله من حيث لا تحتسب.

● أد زكاة مالك، فهي فريضة شرعية، وضرورة اجتماعية، وحاجة إنسانية، وطهرة للقلب والمال والمجتمع، وما نقص مال من صدقة.

● طهر مالك من الحرام، حتى تلقى الله سبحانه وتعالى طاهرا زكيا وقد غفر لك.

● أكثر من الدعاء والاستغفار، لأنهما من موجبات البركة في الأرزاق.

رئيس مجلس المؤسسة العربية للقيم المجتمعية:

نسعى إلى نشر القيم الإيجابية في العالم



د. زهير المزيدي

حوار: نشوة صالح

رأى رئيس مجلس إدارة المؤسسة العربية للقيم المجتمعية في الكويت د. زهير المزيدي، أن الحاجة ملحة للغاية لتضافر جميع الجهود لمعالجة الظواهر المجتمعية السلبية التي تظهر في العالم العربي، مشيرا إلى أن المؤسسة، التي يترأس إدارتها، تهتم بجانب دعم القيم الإيجابية في المجتمعات العربية، لافتا إلى أن المؤسسة لها أفرع في العديد من الدول العربية والغربية.

وقال د. المزيدي لـ«الوعي الإسلامي» إنه يجب تحصين الشباب العربي من أي ظواهر سلبية لا تتفق مع العادات والتقاليد الإسلامية، مطالبا الشباب العربي بضرورة الاطلاع على كل الأفكار، الإسلامية والليبرالية؛ ليصل الشاب إلى مبتغاه عن حجة واقتناع، خصوصا أن الإسلام يأمرنا بالعقل والتفكر.

وذكر د. المزيدي أنه يجب الاستفادة من كل القيم السائدة في العالم المعاصر من دون التركيز على قيم بعينها. والتفاصيل في ثنايا هذه السطور:

● بداية.. نود أن تعطينا لمحة عن المؤسسة العربية للقيم المجتمعية؟

- المؤسسة العربية للقيم المجتمعية وقفها غير ربحي، تأسست عام ٢٠٠٨، وتعمل على نطاق دولي، ومقرها دولة الكويت. ولدى المؤسسة منهج فريد في تفعيل القيم وممارستها مكون من سبعة كتب، وتم اعتماد المنهج في أكثر من ١٧٠ جامعة ومؤسسة تعليمية حول العالم. ولدى المؤسسة أفرع في الكويت واليمن والبحرين والإمارات وماليزيا وتركيا ولبنان وبريطانيا وأمريكا. وجار تفعيل فروع أخرى.

● وما الحكمة من التركيز على جوانب القيم الاجتماعية؟

- الحكمة من تركيزنا على جوانب القيم المجتمعية أن المجتمعات في حاجة دائما إلى عناية، خصوصا أن المجتمعات تصاب ببعض الأمراض، وبالتالي تأتي الحاجة إلى علاج هذه الأمراض، ومن هنا جاءت فكرة التركيز على القيم المجتمعية؛ للإسهام في علاج أي ظواهر سلبية تعاني منها المجتمعات العربية.

● وهل أجريتم دراسات ميدانية توضح مدى تأثر المجتمعات العربية ببعض الظواهر السلبية؟

- المؤسسة في العام ٢٠٠٧ أجرت دراسة ميدانية على مستوى دول مجلس التعاون الخليجي، وكان السؤال الأبرز المطروح فيها: هل هناك خلل قيمي في هذه المجتمعات؟ ومع شديد الأسف، كانت النتائج مخيفة ومزعجة جدا، حيث أكدت وجود ظواهر سلبية عديدة، مثل: التدخين وانتشار المخدرات، على الرغم من أن هذه المجتمعات إسلامية ترفض هذه القيم الدخيلة.

● برأيكم كيف يمكن حماية قيم الشباب العربي من التيارات الفكرية الغربية التي تغزوه في عقر داره؟

- لا بد أن نقر أولا بأنه من الصعب أن ننأى بأنفسنا عن المجتمعات المتحضرة، خصوصا في هذا العصر المفتوح بعضه على بعض. والمطلوب حتى نحصن شبابنا من أي أفكار هدامة لا تتوافق مع معتقداتنا هو بناء الشخصية العربية بالصورة الصحيحة، حتى تستطيع أن تفرز كل ما يدخل في مجتمعاتنا، بحيث يُستفاد من الإنجازات والاكتشافات العلمية في المجتمعات الأوروبية، وفي الوقت نفسه تُرفض الأفكار الشاذة التي لا تتفق نهائيا مع عاداتنا وتقاليدنا وديننا، فمثلا: الحرية لا تعني أن يخرج الإنسان من بيته بلا ملابس ويدعي أن هذه هي الحرية. ولذا،

لا بد من الاستجابة إلى كل ما ينفعنا، ورفض ما لا يتفق معنا، مثل الشذوذ الجنسي وغيره من الأمور المرفوضة، دينا وعرفا، في مجتمعاتنا العربية الإسلامية.

● هل تركزون في برامجكم على القيم المجتمعية المبنية على الأسس الإسلامية فقط أم تستفيدون من آراء المفكرين من الدول الأجنبية الأخرى؟

- نحن نستفيد من القيم الإيجابية من كل المفكرين، سواء علماء الإسلام أو غيرهم من أهل الديانات الأخرى، لأن هناك قيما إيجابية مشتركة لكل البشر، فالمسلم له قيمه التي تحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، ولليهودي والمسيحي والهندوسي والبوذي قيمه الإيجابية. ولذلك، لا بد من الاستفادة من منظومة القيم الشاملة، لأن فعل الخيرات ليس مقصورا على المسلمين فقط، فأحيانا نجد أهل الديانات الأخرى يسارعون في إغاثة وتقديم الخير للشعوب التي تتعرض إلى الزلازل أو إلى طغيان البحور. ولذلك، نحن نستفيد من كل القيم من كل البشر من دون التركيز على دين معين.

● أترى ضرورة أن يتم اكتشاف الأبناء الذين يتمتعون بالمواهب الإبداعية في عالمنا العربي؟

- هذا هو المطلوب، فمثلا أديسون كان يعاني من خلل تعليمي، وطُرد من التعليم أكثر من مرة، وهو الشخص نفسه الذي أضاء الدنيا بالمصابيح! ومن أجل الاهتمام بأصحاب الإبداعات فنحن في المؤسسة العربية للقيم المجتمعية تعاقدنا مع مركز صباح الأحمد للموهبة والإبداع، خصوصا أن هذا المركز يولي أهمية كبرى بالأطفال والشباب والكبار المبدعين والموهوبين. ولذلك، تم اعتماد برامجنا مع برامج هذا المركز من أجل تنمية مهارات المبدعين والموهوبين.

● الصراعات الليبرالية- الإسلامية في محيط الأمة العربية هل أشغلت رجال الدعوة الإسلامية عن دورهم الأساسي في تعزيز الأخلاق والقيم لدى الشباب العربي؟

- أنا مع البحث والنقاش والاطلاع على كل الأفكار، سواء الإسلامية أو الليبرالية، لأن الإنسان لا بد من أن يصل إلى الحقيقة عن فكر وعقل ويقين، لأن هناك كثيرا من الأمثلة في القرآن الكريم تطلب من المسلم أن يعتمد على عقله، مثل: «أفلا تعقلون؟» «أفلا تتفكرون؟».

● انتشرت الثورة المعلوماتية في العصر الراهن، خصوصا الإنترنت بما تتضمنه من مواقع إيجابية وسلبية.. فهل سلبياتها أقوى من إيجابياتها؟ وكيف يمكن أن نحصن الشباب العربي من الوقوع في فخ المواقع غير الأخلاقية؟

- أنا ضد غلق الإنترنت، أو أن «يتعنت» الأب ويمنع كل وسائل الثورة المعلوماتية عن أولاده؛ خوفا من أن يطلعوا على المواقع الإباحية، وأرى أن الأفضل من ذلك أن يربي الأب أولاده على القيم التي تدفع الابن من تلقاء نفسه إلى رفض كل ما يتعارض مع قيمه وأخلاقه ودينه.

● بما أن المؤسسة العربية للقيم المجتمعية لها أفرع في الدول العربية والأجنبية، فهل يمكن أن تكون هذه الأفرع حلقة وصل لنشر القيم المجتمعية بقوة في هذه الدول؟

- نحن نتعامل مع هذه الدول عن طريق تحفيزهم للإسلام بأسلوب هادئ، فمثلا نقول لهم إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وليس الإرهاب، ونبين لهم كيف أن الإسلام يعلمنا كيف نتقرب إلى الله الخالق بالحسنى بعيدا عن التطرف والمغالاة.

● إلى أي مدى يمكن أن تؤدي الأسرة دورا في تعزيز قيم وأخلاقيات الأطفال؟ وهل للتفكك الأسري دور في ضياع الأبناء في متاهات الانحرافات السلوكية؟

- طبعا، الأسرة نواة المجتمع، حيث يتم من خلالها غرس القيم. ولذلك، فللوالدين الدور الكبير في تنشئة أولادهم، فالأب إذا لم يهتم بأولاده فمن الطبيعي أن أولاده سوف يتعرضون إلى سلوكيات انحرافية نتيجة غياب دور الأب، أو الأم، أو كليهما معا.

● خطبة الجمعة والبرامج الدينية كيف يمكن الاستفادة من هذه الجوانب في تقوية الوازع الديني لدى الأجيال الصاعدة؟

- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تقوم بجهود مشكورة وملموسة، ومع هذا فنحن نأمل منها أن تخطو خطوات أخرى إلى الإمام، منها تطوير الخطاب الديني وتطوير أداء خطيب الجمعة. ولا بد في هذا الجانب من أن يتعرف رجل الدين على جميع مشاكل المجتمع لتتسنى له معالجتها من خلال دروس المسجد، مع ضرورة ألا تقتصر خطبة الجمعة على أعمال الصلاة والصيام والحج فقط، فإذا كانت هذه الأمور مهمة للغاية فإن على خطيب المسجد في الوقت نفسه أن يسعى إلى حل مشاكل الشباب بالطرق التي يفهمها الشباب في هذا العصر.

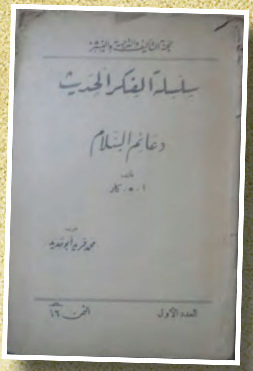
● هل مشاهدة الأطفال في العصر الراهن لمشاهد القتل والترويع في مختلف الفضائيات يمكن أن تجنح بهم نحو العنف؟

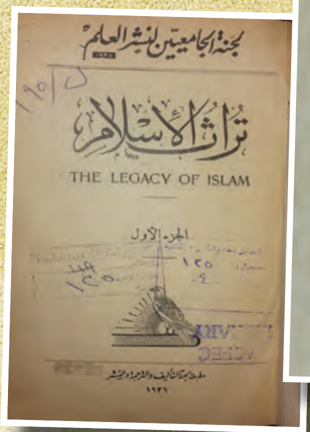
- يجب أن تتضافر كل الجهود من أجل حماية أبنائنا من أي مؤثرات تدفعهم نحو السلوكيات العدوانية، خصوصا أن مشاهد العنف تلعب دورا كبيرا في جنوح الأبناء نحو الجريمة، ويجب على الأسرة هنا إبعاد أطفالها عن مشاهد العنف هذه حتى لا ترتسم في مخيلاتهم.

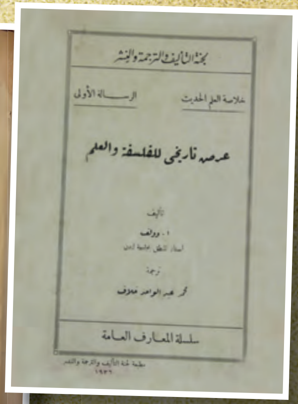
لجنة التأليف والترجمة والنشر

الإنتاج الثقافي على يد المتطوعين

إعداد : علاء عبدالفتاح









في عام ١٩١٤ ميلادية، زار أحد طلاب مدرسة الحقوق الخديوية زميله طالب مدرسة المعلمين العليا في بيته في حي البغالة في القاهرة.. تحدثا عن مشروع ثقافي مشترك.. عن شمعة يشعلانها بدلا من أن يلعنا الظلام. سأل طالب الحقوق طالب المعلمين: «ماذا ترى في أن نؤلف جمعية لخدمة العلم والتعليم؟». بعد عشرين عاما اجتمع الزميلان يوسف الجندي ومحمد فريد أبو حديد مع من شاركوهما وأسسوا ما يسمى بـ«لجنة التأليف والترجمة والنشر»، ومنهم أحمد أمين (الذي تم انتخابه رئيسا للجنة) وعبدالحميد العبادي ومحمد كامل سليم وغيرهم، تلك اللجنة التي قدمت للعالم العربي والإسلامي كتبا مهمة، منها على سبيل المثال: تاريخ الأدب العربي للزيات وفلسفة ابن خلدون لطه حسين وابن الخياط وترجمات مبادئ الفلسفة وعلم الأخلاق وكتاب الأخلاق وآلام فارتر وغيرها.

والآن بعد مضي قرن من الزمان، نتوقف عند هذه المبادرة التاريخية المنتجة، كي نستقي من تاريخنا الحديث معنى يشجعنا الآن على مثل هذا العمل الذي تم بجهود ذاتية وإخلاص ودأب ودقة، فأسفر عن مطبعة ومئات الكتب، التي اعتمد عليها آلاف الباحثين في استكمال أبحاثهم، بينما تخرج الملايين من الطلاب على تلك المناهج والعلوم والمعارف.

ويذكر أحمد أمين، رئيس اللجنة من ١٩١٤ حتى وفاته ١٩٥٤، في مقدمة كتيب أصدرته اللجنة بمناسبة مرور عشرين عاما على نشاطها، أنه في سنة ١٩١٣ كان في مدرسة المعلمين العليا، بدرب الجماميز، طائفة من الشباب تمتلئ نفوسهم غيرة على العالم الإسلامي، ويطيلون التفكير في وسائل إصلاحه والنهوض به، ألف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله، والإيمان بوجوب العمل على تنبيهه والأخذ بيده ورفع مستواه. وقد نبتت هذه الفكرة عندهم على إثر حرب البلقان، ومطالعتهم كتبا تثير هذه المعاني في النفوس، مثل «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» للكواكبي.

المؤسسون

ويضيف أمين أسماء المؤسسين الأوائل خلال سرده فيقول: وهناك في «زاوية البقلي» في أحد اجتماعاتهم اعتزموا تكوين لجان منهم للقيام بأعمال مختلفة، أحدها «للتأليف والترجمة والنشر»، وهذا هو السبب في تسميتها «لجنة» لا جمعية ولا غيرها.

وفي هذه الأثناء، اتصلوا ببعض إخوانهم في مدرسة الحقوق فساهموهم هذه الأفكار، وتطوعوا للعمل وبذل الجهد في تنفيذها. وكان من أظهر أفراد هذه الجماعة، وأول الداعين إلى هذه الأفكار، وأشدهم حماسة ونشاطا، الطلبة: محمد أحمد الغمراوي، وأحمد عبدالسلام الكرداني، ومحمد عبدالواحد خلاف، وأحمد زكي، وحسن مختار رسمي، ويوسف أحمد الجندي، ومحمد فريد أبوحديد، ومحمد عبدالباري. ويوضح التطور الثاني للجنة الحديثة التكوين (وهنا نلاحظ اختلافا يسيرا بين التفاصيل هنا والتفاصيل التي ذكرها محمد فريد أبوحديد سابقا)، فيقول: فلما تخرج أكثر هؤلاء في مدرستي المعلمين والحقوق سنة ١٩١٤ وسنة



الدكتور أحمد زكي
أستاذ الكيمياء ووكيل كلية العلوم



أحمد بك أمين
المستشار بمحكمة النقض والابرام



الدكتور عبد الوهاب عزام
مدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية



الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري
أستاذ القانون المدني بكلية الحقوق بالجامعة المصرية سابقاً



محمود تيمور
الكاتب القصصي

١٩١٥، عقدوا النية على أن يتموا رجالا ما بدأوا به طلبة. واتصل بهم وقتذاك بعض إخوانهم ممن يميلون ميلهم ويشعرون شعورهم، ومن هؤلاء: محمد كامل سليم، وأمين مرسي قنديل، وعبدالحميد العبادي، ومحمد بدران، وعبدالحميد فهمي، ومحمد صبري أبوعلم وأحمد أمين.

أول المؤلفات

وكان أول ما عملوا أن عهدوا إلى الأستاذين أحمد زكي وأحمد عبدالسلام الكرداني تأليف كتاب في الكيمياء للمدارس الثانوية، وإلى الأستاذ محمد أحمد الغمراوي تأليف كتاب في الطبيعة، وإلى الأستاذين محمد خلف وعبدالحميد فهمي تأليف كتاب في الحساب، وإلى الأستاذين محمد كامل سليم ومحمد بدران تأليف كتاب في الجغرافيا. وقد نفذت كل المشروعات ما عدا الثاني منها.

الميزانية ١٠ قروش

اجتمع الأعضاء سنة ١٩١٥ في المدرسة الإعدادية في العباسية، لأن كثيرا من أعضاء اللجنة كانوا مدرسين فيها، فقرأوا القانون، وأدخلوا عليه بعض التعديلات، وانتخبوا أعضاء مجلس الإدارة، وبدأ الأعضاء يدفع كل منهم عشرة قروش في الشهر، ثم جعلت مالية اللجنة أسهما، كل سهم ثمنه جنيه، وهذا بدء التكوين المالي للجنة، ولم يكن يزيد عدد الأعضاء إذ ذاك عن خمسة عشر عضوا.

ولما أنشئت نقابة المعلمين استأذنتها اللجنة في أن تجتمع فيها، فأذنت. وكانت الجمعية العمومية لها تنعقد في إحدى المدارس الأهلية، كالإعدادية ووادي النيل.

واللجنة لم تكن تستطيع أن تستأجر مكانا تخزن فيه كتبها، فكان كل مؤلف يخزن كتابه في بيته، ويبيع منه بالطلب، ويعمل حسابه بنفسه ويقدمه إلى اللجنة.

بعد سنوات سعت اللجنة لدى وزارة المعارف لكي تمنحها مبلغا من المال للاستعانة به في تأليف الكتب القيمة وترجمتها ونشرها، وقد نجحت خلال ٢٠ عاما في أن تخرج للناس نحو ستين كتابا بين مؤلف ومترجم ومنشور، تسد كلها حاجات الثقافة في أطوار التعليم المختلفة، كما أنها تغتبط بثباتها في مركزها وحصرها نفسها في الدائرة التي رسمتها لنفسها من أول أمرها، فلم تتدخل في مجالات دينية، ولم تغامر في نواح سياسية، إيمانا منها بأن الثقافة ونشرها وسيلة من أكبر الوسائل لرقي الأمة، ومن أكبر عوامل الإسراع في نهضتها.

ثم يحدثنا أحمد أمين بأن اللجنة بدأت مرحلة أخرى من مراحلها، بدايتها تكوين مطبعة مستقلة لها، تساعدها على تحقيق غرضها، فيزيد نتاجها، ويتضاعف مجهودها. وقد أسست -فعلا- المطبعة، وبدأت تخرج الكتب التي ترى اللجنة نشرها، وهذا -بلا شك- تتطلب من اللجنة بذل مجهود أكبر في التأليف والترجمة.

المؤلف المجهول

يقول د. محمد عوض محمد: إذا طالعنا أسماء الكتب التي أخرجتها اللجنة، فإن الكثرة العظمى من كتبها لا تكاد تسترد نفقات طبعها إلا بعد زمن غير قصير. وكثير منها يتناول موضوعات علمية دقيقة لا يهتم بها غير طبقة محدودة من القراء، وكثير من هذه الكتب لمؤلفين لم تنشر لهم كتب من قبل.

إن السنة الحميدة التي استنتها اللجنة أن تعامل الناشئ والمؤلف الشهير معاملة واحدة، وأن تكيل لهما بمكيال واحد. لقد جُعلت اللجنة كعبة المؤلف المجهول، وعماده الذي يستند







محمد عبد الواحد خلاف
مدير إدارة الجمعية الخيرية الاسلامية



الشيخ أمين الخولي
مدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية







إليه لكي يظهر من تحت تلك الغمرات التي تطغى عليه، وإن علمه بوجود اللجنة وباستعدادها لمساعدته يحفزه إلى العمل وإلى الكتابة والتأليف، وهو موقن أن في هذا العالم الجائر ركنا سيلقى منه النصفة والمعونة.

كتب الفلسفة

ويذكر أحمد حسين الطماوي في مقال له تحت عنوان «لجنة التأليف والترجمة والنشر... نموذج جاد للعمل الجمعي بين المثقفين»، كيف أن اللجنة اهتمت بكتب الفلسفة، ترجمة وتأليفا، مثل كتاب «قصة الفلسفة الحديثة» لأحمد أمين وزكي نجيب محمود، و«تاريخ الفلسفة الغربية» لبرتراند راسل، الذي ترجمه زكي نجيب محمود، ويعرض فيه لأفكار كبار الفلاسفة، ويتمهر مؤلفه في ربط هذه الأفكار بعضها ببعض، و«تاريخ الفلسفة في الإسلام» وهو من تأليف ديبور، وترجمة د. محمد عبدالهادي أبوريدة، ويتناول تاريخ الفلسفة بإيجاز، ويبين الأطوار التي مرت بها، وأشهر الفلاسفة المسلمين، وكتاب «إبراهيم بن سيار النظام» وهو من تأليف أبوريدة، ويشرح فيه آراء النظام في الفلسفة الكلامية، ونشأة الفكر العقلي عند العرب، وكتاب «المدخل إلى الفلسفة» وهو من تأليف ازفلد كوليه، وترجمة د. أبوالعلا عفيفي، وهو عبارة عن مقدمة وافية، تعرف القارئ بالفلسفة، ومجالاتها، ومشكلاتها في متباين الأزمنة، وكتاب «محاورات أفلاطون»، وهناك كتب أخرى في هذا المجال.

«قصة الحضارة»

ويضيف الطماوي: من كتب التاريخ «قصة الحضارة» الذي وضعه ول ديورانت، وترجمه عديدون، منهم محمد بدران ود. زكي نجيب محمود. والكتاب يتناول في أجزائه الكثير من العلوم والآداب، والأخلاق، والإصلاح الديني في أوروبا. وكتاب «جزيرة العرب في القرن العشرين»، وهو من تأليف حافظ وهبة، الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية، ويتناول قضايا عديدة، منها الحالة الاجتماعية لبلاد العرب، والدعوة الوهابية ونشأتها، وآل سعود وتاريخهم... وغير ذلك. وكتاب «رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة»، وهو كتاب تراثي من تأليف ابن الفراء، وتحقيق صلاح الدين المنجد الذي ألحق به بحثا عن الدبلوماسية في الإسلام. وكتاب «السودان في قرن» من تأليف مكي شبيكة، المدرس في كلية غردون في الخرطوم، ويعرض تاريخ السودان من سنة ١٨١٩- ١٩١٩. وكتاب «فتح العرب لمصر» الذي ترجمه محمد فريد أبوحديد، وطبع أكثر من مرة.

كتب التراث

وإلى جانب ذلك، قامت اللجنة ببعث مجموعة من كتب التراث، وسهلت النظر فيها بالشروح والتحقيقات، مثل كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه، الذي حققه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، ويقع في عدة أجزاء. وكان أحمد أمين يفضل هذا الكتاب على كتاب «الأغاني». و«ديوان المتنبي»، الذي حققه عبدالوهاب عزام. و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي، والذي حققه شيخ المحققين عبدالسلام هارون، ووازن فيه بين شرح المرزوقي وشرح التبريزي، وفسر الغامض من أبياته، وعرف بشعراء الحماسة، وعين الشعراء المجهولين الذين لم يذكر أبو تمام أسماءهم.

الكتب الأدبية

ويستطرد الطماوي: إذا انتقلنا إلى كتب الأدب التي أصدرتها اللجنة، ألفيناها كثيرة، ونذكر منها «قصة الأدب في العالم» ويقع في ثلاثة أجزاء، وهو من تأليف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، وعرضا فيه نماذج من الآداب العالمية القديمة والحديثة، مثل: الأدب الفرعوني، وآداب من الصين والهند وفارس واليونان والرومان والإنجليز، إلى جانب الأدب العربي في العصور الوسطى. وكان أحمد أمين يرى أن العرب أخطأوا عندما لم يترجموا الأدب إلى جانب الفلسفة، ولما كان أحمد أمين يرغب في أن يكون عندنا كتاب في الأدب اليوناني، وآخر في الأدب الروماني، وغيرهما في الأدب الألماني إلى آخره، وعندما لم توجد هذه الكتب رأى أن يقدم كتابا شاملا يعرض فيه لمختلف الآداب العالمية. وقد نهض العرب بعد هذا الكتاب، ووضعوا كتبا في الآداب العالمية، وترجموا كثيرا من النصوص الإبداعية، والأعمال النقدية والفنية. ومن الكتب الأدبية والنقدية واللغوية الأخرى كتاب «قواعد النقد الأدبي» الذي وضعه ابركرومبي وترجمه د. محمد عوض محمد، وكتاب «في

الأدب الجاهلي» لطه حسين، وهو تعديل لكتاب «في الشعر الجاهلي» الذي أحدث جدلا عارما عام ١٩٢٦، ومسرحية «فاوست» وهي من روائع جوتة، وترجمها محمد عوض محمد، وقدم لها طه حسين، وتتناول مشكلة الشر، وكتاب «الاشتقاق والتعريب» من تأليف عبدالقادر المغربي، ويدور الكلام فيه حول تكاثر ألفاظ اللغة بالاشتقاق والتعريب، وكتاب «دفاع عن الأدب» لجورج ديهامل، وترجمه وعلق عليه تعليقات كثيرة محمد مندور.

ومن كتب علم النفس «خلاصة علم النفس» للدكتور أحمد فؤاد الأهواني، وكتاب «الطفل في المدرسة الابتدائية» من تأليف سوزان ايزكس وترجمة محمد مختار المتولي، ويعنى بالطفل ونشاطه الذهني، ووجوب الاهتمام بتربيته وهو في مرحلة التعليم الابتدائي، وكيفية قياس الفروق بين الأطفال والتعرف على ميولهم وترقيتها، كما يتناول أخطاء الأطفال في التفكير، وكيفية تلافيها.

ولم تهمل اللجنة كتب العلوم، فقد أصدرت منها كتاب «من أسرار الفطرة»، وهو في الطبيعة، من تأليف اندراد وترجمة محمد أحمد الغمراوي، وأحمد عبدالسلام الكرداني، وهما من أعضاء اللجنة القدامى، ومتخصصان في العلوم الطبيعية، وسبق أن اللجنة في بداية عهدها قد كلفتهما بوضع كتابين في الكيمياء والطبيعة.

ومن الكتب الأخرى كتاب «التثقيف الذاتي» لسلامة موسى، ويتناول قضايا عدة، منها كيف يستطيع الإنسان أن يثقف نفسه بنفسه، ووسائل هذا التثقيف، وكتاب «فيض الخاطر» لأحمد أمين، وهو عشرة أجزاء، ويضم مقالات أحمد أمين المتناثرة، وكتاب «ساعات السحر» للدكتور أحمد زكي، ويعرض لموضوعات شتى في شؤون الحياة، ويسجل فيه خواطره التي كانت تعن له وقت السحر، كذلك طبعت ديوان «حافظ إبراهيم» بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، و«ديوان أحمد الزين» وغير ذلك كثير.

وكانت اللجنة متعاونة مع غيرها من لجان العلم، وتطبع كتب غيرها، مثل كتاب «تراث الإسلام»، ويقع في جزأين، وهو فصول طويلة عن الأدب الإسلامي والفلسفة والإلهيات والعمارة الإسلامية وغيرها، وضعها أجانب وترجمها مصريون عديدون، وتكفلت بالكتاب «لجنة الجامعيين لنشر العلم».

وعلى غرار هذا يمكن التعرف على مئات الكتب التي صدرت عن اللجنة، وعندما توفي أحمد أمين عام ١٩٥٤، واصلت اللجنة رسالتها.

وقد ساهمت الكتب المترجمة في ازدهار حركة الترجمة العلمية، وأفرزت جيلا جديدا من المترجمين مثل محمد بدران وزكي نجيب محمود وعلي أدهم، وأطلعت القارئ على كثير من كتب الغرب التي ترجمت لأول مرة، وقامت بدور في النهضة والاستنارة، إلى جانب أنها درس مهم في محاولة تعريب المصطلح الأجنبي، وتقريب المصطلح المستعصي على التعريب إلى أن نهتدي إلى كلمة دقيقة تقابله، عدا فوائد الترجمة الأخرى، ومنها التعارف بين الشعوب.

كتب اللجنة في الدول العربية

ويلفت الطحاوي إلى أن هذه الكتب النفيسة التي ذكرنا بعض عناوينها عمت فوائدها على عدد من الدول العربية، فقد أودعت اللجنة قدرا منها في المكتبات، مثل المكتبة العصرية ببغداد، بالوكالة العامة بالعراق، وتطلب من محمد حلمي. وفي فلسطين وشرق الأردن، كانت هذه الكتب تطلب من الوكالة العامة للجنة التأليف والترجمة والنشر.

ولم تقتصر خدمات أعضاء اللجنة على لجنتهم، وإنما امتدت إلى مجلة «الرسالة» لتعينها وتعزز موقفها، ويقول أحمد حسن الزيات في «الرسالة» (أول سبتمبر ١٩٥٢): «كان يظاهرني على تفاؤلي الأولون من لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكانوا بهذه المظاهرة نقطة الارتكاز ومبعث المدد».

الثقافة

ومن أهم أعمال اللجنة وإصداراتها مجلة «الثقافة» الأسبوعية التي نافست مجلة «الرسالة» أربع عشرة سنة، وظهر عددها الأول في ٣ يناير ١٩٣٩، وصاحب امتيازها أحمد أمين، أما رئيس تحريرها فهو محمد عبدالواحد خلاف.

وهناك أسماء كثيرة، هذه الإشارات السريعة لا تغني عن دراسات مطولة عنها، وقد تولى تحريرها زكي نجيب محمود فترة، ومحمد فريد أبوحديد فترة أخرى، وتواصل عطاؤها إلى أن صدر آخر أعدادها في ٢٣ فبراير عام ١٩٥٣. ولكن اللجنة استمرت في نشر الكتب المؤلفة والمترجمة.


أحمد أمين
الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية


محمد فريد أبو حديد
وكيل مدرسة القبة الثانوية


الدكتور طه حسين
عميد كلية الآداب سابقاً


محمد احمد الغمراوى
مدرس الكيمياء بكلية الطب

بين حقائق التاريخ وأكاذيب المستشرقين

الفتوحات الإسلامية

مصطفى يعقوب
باحث دراسات تاريخية

لقد كانت الفتوحات الإسلامية مثلا حيا لقصر نظر المستشرقين وسوء قصدهم حيال الإسلام. وعلى الرغم من ذلك الكم الهائل من المراكز والمؤسسات العلمية التي تعنى بدراسة الإسلام في الغرب، فإنها قد وقعت فريسة لتلك النظرة العدائية حيال الإسلام وأهله. ومن هذا المنطلق، يجب أن تكون دراسة الإسلام مجردة من الهوى وعلى أسس من الموضوعية والحيدة، وقراءة الوثائق التاريخية قراءة خالية من التعصب العرقي والمذهبي.

يقول الدكتور مصطفى السباعي: «لا نحتاج إلى استنتاج وجهد في البحث لنتعرف إلى الدافع الأول إلى الاستشراق، وهو الدافع الديني. وهؤلاء -يقصد المستشرقين- كان يهمهم أن يطعنوا في الإسلام، ويشوهوا محاسنه، ويحرفوا حقائقه ليثبتوا للغرب المسيحي أن الإسلام -وقد كان يومئذ الخصم الوحيد للمسيحية في نظر الغربيين- دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج ولصوص وسفاكو دماء». ولأن هؤلاء المستشرقين هم جند مجندة لخدمة دينهم وأوطانهم، فقد كان من الطبيعي أن يصدوا سبيل شعوبهم عن ميزة أو حسنة عن الإسلام وأهله؛ خشية أن يقع أهل ملتهم في أسر هذا الدين الذي دانت به ممالك العالم القديم طواعية واختيارا، بل وأصبح في قلب أوروبا. وفي هذا يقول الدكتور إسحق موسى الحسيني: «إن الهدف الديني هو مقصد المستشرقين الأوائل في القرون الوسطى بوجه خاص، وهذا يعلل كونهم من اللاهوتيين في الغالب. فقد أرادوا من دراسة الإسلام أن يدفعوا عن بني دينهم الاستسلام لهذا الدين الجديد الذي ذاع ذيوعا سريعا في البلدان التي كان معظم سكانها يدينون بالمسيحية».

وقد تبارت مؤلفات المستشرقين على اختلاف مذاهبهم، العرقية والدينية، في الطعن في الإسلام كعقيدة، وعلى العرب كأمة. ولعل الدليل الحي على ذلك هو دائرة المعارف الإسلامية بكل ما فيها من مطاعن وأكاذيب ومغالطات، والتي تولى تحريرها جمهرة كبيرة من المستشرقين. غير أن



مترجمي الدائرة قد هالهم هذا الكم الكبير من المطاعن والأكاذيب والمغالطات، فأوكلوا إلى عدد من علماء المسلمين الرد والتعقيب على ما ذكره المستشرقون في هذه الدائرة. غير أن القراءة العابرة لمواد الدائرة سوف تكشف عن أن مواضع التعليق والتعقيب أكثر ما تسود في تلك المواد التي تتعلق بكل ما يمت إلى الإسلام كشريعة بصلة.

ففي مادة «الله» -على سبيل المثال- التي كتبها المستشرق الإنجليزي ماكدونالد MacDonald، بلغت التعليقات والتعقيبات من الكثرة حدا غير مألوف بأقلام نفر من علماء المسلمين، ولم تكن هذه الكثرة سوى درء مطاعن هذا المستشرق.

يقول الأستاذ أحمد محمد شاكر عن هذه التعقيبات «وقد تكفل الكاتبون الكرام والعلماء الكرام بنقد كثير من أخطاء الكاتب، وبيان وجه الحق فيما عمد إلى العدول به عن وجهه الصحيح فجزاهم الله أحسن الجزاء. وبقي مما هاجم به الكاتب الشريعة الإسلامية أن عمد إلى أساس من أقوى دعائمها -وهو الأحاديث النبوية- يحاول هدمه بالتشكيك فيه.

وقد كان الرأي تأخير هذا الرد ليكتب في موضعه، عند الكلام على الحديث، ولكن رأى إخواني أن أبادر بالكتابة في هذه المناسبة، احتياطا من الأثر السيئ لكتابة الكاتب عند نشر أقواله باللغة العربية، وذيوع آرائه بين أبناء العروبة في مختلف الأقطار الإسلامية».

وهكذا شاعت أهواء هؤلاء المستشرقين، وسوء نيتهم حيال الإسلام والمسلمين، أن يختلقوا الأكاذيب لكل ما يمت إلى الإسلام بصلة، محاولين، جهد طاقتهم، أن يجردوا الإسلام والمسلمين من كل فضيلة أو ميزة. غير أن أمرا واحدا قد استعصى على التبرير أو التفسير فلم يملكوا حياله سوى التسليم المطلق من البعض، وكابر البعض الآخر، فكذب وادعى واختلق ما شاء له الاختلاق فلم يقنع أحدا بدعواه. وهذا الأمر الواحد الذي وقف أمامه المستشرقون طويلا هو الفتوحات الإسلامية.

والحقيقة أن فريقا من مؤرخي الغرب قد رأوا في تلك الفتوحات خروجا على قوانين التاريخ.. فها هو شعب غارق في البداوة، لا قبل له بالفنون العسكرية، ولا يملك جيشا منظما، بل كل ما يملكه عقيدة قد رسخت في وجدانه، يخرج من صحرائه ليقاتل في سبيل الله ويفتح البلاد، بلدا إثر بلد، بل ومن العجيب في الأمر أن الكثير من البلاد قد فتحت صلحا من دون قتال، لتدخل شعوبها في دين الله أفواجا. ولم يملك هذا الفريق من المؤرخين سوى التسليم المطلق بقدرة هذا الدين في نفوس العرب.

وعلى سبيل المثال يقول هـ. ج. ويلز H. G. Wells: «لو أن هاويا للتنبؤ في التاريخ استعرض أحوال العالم عند مستهل القرن السابع الميلادي، لأمكنه أن يستنتج بحق أنه لن تنقضي قرون حتى تقع أوروبا وآسيا بأكملها في قبضة المغول. أما النقطة التي ربما تعرض فيها ذلك المتكهن للخطأ فهي تجاهله للقوى الكامنة في الصحراء العربية، إذ إن بلاد العرب ربما لاحت لعينيه على صورتها التي دامت عليها منذ أزمان سحيقة القدم، حيث كانت مرتعا لقبائل صغيرة من الرحل، وقد انقضت آنذاك أكثر من ألف سنة لم ينشئ شعب سامي في أثنائها إمبراطورية واحدة.

ثم ما لبث نجم البدو أن سطع بباهر الضياء مدة قرن واحد حافل بالأبهة والفخامة، مدوا في أثنائه حكمهم ولغتهم من بلاد الأندلس حتى حدود الصين، ومنحوا العالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم».

ولأن الفتوحات الإسلامية كانت خروجا على حركة التاريخ، إذ لم يمض سوى أقل من قرن من الزمان حتى وسع ملكها قارات العالم القديم من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غربا، فليس من العجيب أن يصف ويلز هذه الفتوحات بقوله: «إنها أعجب قصص الفتوح التي مرت على مسرح تاريخ الجنس البشري». أما ول ديورانت W. Durant فيصفها في كتابه الشهير «قصة الحضارة» بأنها «أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله».

ولقد عز على جمهرة كبيرة من المستشرقين والمؤرخين أن يجدوا في المسلمين فضيلة من الفضائل، وهي الإيمان المطلق بالإسلام، والاجتماع على كلمة الحق التي أوحى بها الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ، فأرادوا أن يسلبوا المسلمين هذه الفضيلة، فلم يجدوا في جعبتهم سوى أن يفسروا الفتوحات الإسلامية تفسيرا غاية في الغرابة من دون سند من منطق أو عقلانية. ويتلخص هذا التفسير في أن العرب بعد إسلامهم قد ضاقت الأرزاق عليهم لجدب بلادهم فأغاروا على ما جاورهم من البلاد!

يقول المستشرق الألماني يوسف هل J. Hell: «إن السبب في ميل الشعب العربي إلى الهجرة هو جفاف بلادهم. وقد اقترن هذا الجفاف بظهور الإسلام مما أدى إلى ذلك الانقلاب في التاريخ العالمي». ولم

يكتف يوسف هل بهذا التلميح، بل أكده في صراحة لا مواربة فيها فاستطرد قائلا: «وإذا كانت بلاد العرب قد غزت نفسها -يقصد بذلك حروب الردة- فإن ذلك جر عليها الضنك الذي تجلبه الحروب عادة، حيث استنفدت موارد البلاد الضئيلة بطبيعتها، فرأى البدو أن قطعانهم قد هلكت، على حين وجد أهل المدن أن حقولهم قد خربت وتجارتهم قد بارت. ولذلك ظهر الآن الحافز الذي كان يدوي منذ زمن بعيد مناديا بعبور شبه جزيرة العرب والنزول في البلاد المغرية التي تجاورها».

وعلى الرغم من أن ول ديورانت قد أثنى على الحضارة الإسلامية، ورأى أن القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) من أزهى عصور العلم في تاريخ البشرية، فإنه قد أخطأ أشد الخطأ في تفسير الفتوحات الإسلامية. ولعله كان مدفوعا بآراء من سبقوه من المؤرخين، فزعم أن من أسباب الفتوحات الإسلامية انهيار نظم الري في جزيرة العرب «فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية، وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار. ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزرع والرعي من العوامل التي دفعت جيوش المسلمين إلى الغزو والفتح».

أما ستانلي لينبول S. Lane-Poole، وهو مستشرق إنجليزي، فقد غالى في تقدير العامل الاقتصادي، إذ جعل من المغانم الدافع الأساسي للغزو، على حد زعمه. ولم ينس، كغالبية المستشرقين، أن يغمز بصورة مستترة من الخلق العربي فيقول: «وما أكثر ما طمع -يقصد بذلك العربي- في البلاد الغنية التي تحيط ببلاده المجدبة، إلا أنه كان يحتاج إلى أمرين يحفزانه إلى التوسع في الفتح، هما: الوحدة الوطنية والدافع القوي، حتى جاءه بهما محمد النبي العظيم، فجمع شمل العشائر المتنافسة المتناحرة وألّف بينها، وجاءهم بدين يقاتلون من أجله. على أننا مع ذلك لا نستطيع أن نزعم أن الدين كان السبب الأساسي لفتوحات العرب الساحقة، مهما كانت دعوته قوية ملزمة. كان هناك حافز أكثر وضوحا، هو الشهوة الجامحة الطبيعية للحصول على المغانم، فقد كانت أمامهم امبراطوريتا الفرس والروم الغنيتان اللتان شاختا، ولم تقو إحداهما على أن تبدي من المقاومة سوى أقصرها وأفشلها. ووجد بدو الصحراء أنفسهم في مدى عشرين عاما سادة على الممتلكات الواسعة التي كانت من قبل تحت إمرة قيصر وكسرى... الخ».

حقائق وشواهد

تلك كانت بعض الآراء التي راجت لدى جمهرة المستشرقين والمؤرخين. وهي آراء يغلب عليها الطابع العدائي حيال الإسلام والمسلمين، والقراءة الظالمة للتاريخ الإسلامي. غير أن هناك عددا من الحقائق والشواهد التي غابت -قصدا- عن هؤلاء المستشرقين والمؤرخين، والتي تبين فساد الأساس الذي بنيت عليه تلك الآراء.

أولا - إذا كانت جزيرة العرب، في مجملها، لم تكن في خيرات الشام أو فارس أو مصر، فليس معنى هذا أن العربي قد جال في فكره غزوها طمعا واستلابا لخيراتها، بل على العكس تماما فقد ألف العربي الحياة في هذه الصحراء بكل ما فيها من جفاف وجدب، طواعية واختيارا، لا عن إجبار وإكراه، ليس هذا فحسب، بل بلغت ألفة العربي لتلك البيئة الجافة حد الافتتان بها لا الهجرة منها. وتزخر كتب التراث بالشواهد والأقاصيص الدالة على هذا الافتتان وتلك الألفة اللذين لا نظير لهما بين الإنسان وبيئته. فهل نذكر قول ذلك الأعرابي الذي قيل له: كيف تصنع بالبادية إذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله؟ فقال: وهل العيش إلا ذاك؟! يمشي أحدنا ميلا، ويرفض عرقا، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه، ويجلس يكتال الريح فكأنه في إيوان كسرى.

ولعلنا نذكر قول ذلك الأعرابي الذي دخل الحضر فاشتاق إلى باديته عازفا عن ترف الحضر ومباهجه قائلا:

لعمري لنور الأقحوان بحائل
ونور الخزامى من ألاء وعرفج
أحب إلينا يا حميد بن مالك
من الورد والخيري ودهن البنفسج
وأكل يرابيع وضب وأرنب
أحب إلينا من سماني وتدرج

ولعلنا نذكر أيضا ذلك الشاعر الذي رحل إلى بغداد وكانت وقتها حاضرة الدنيا، فتشوق إلى باديته فأنشد يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بسلع ولم تغلق علي دروب
فإن شفائي نظرة إن نظرتها
إلى أحد والحرتان قريب

وللدلالة على مدى حب العربي، رجلا كان أم امرأة، لبيئته الصحراوية، وهي، كما هو معروف، بيئة قاسية على أهلها، تلك الأبيات التي سارت مسرى

الأمثال، وهي أبيات قالتها ميسون الكلبية، وقد تزوجها معاوية رضي الله عنه، وهـو خليفـة المسلمين فـي ذاك الوقت، لكنها حنت إلى باديتها:

لبيت تخفق الأرواح فيه

أحب إلي من قصر منيف

وأصوات الرياح بكل فج

أحب إلي من نقر الدفوف

وكلب يتبع الأظعان صعب

أحب إلي من هر أليف

هـذا هـو حـال الأعرابـي الـذي لا يـرضـى بغير بيئته الصحراوية بـديلا، رغم قلة خيراتها، ويغزو بـلادا لمجرد الطمع في خيراتها. إذن لم يترك الأعرابي صحراءه عن جفوة لقلة عطائها، أو رغبة في الاستيلاء على خيرات غيره، وإنما تركها مقاتلا في سبيل الله وفي سبيل نشر راية الإسلام.

ثـانيـا - مـن المحقـق أن العرب الفاتحين لو كان همهم من الفتح مـجـرد الحـصـول عـلـى الغنائم والأسـلاب، لـكـان الـخـلـفـاء أوفـر النـاس ثروة وثراء، غير أن شواهد التـاريـخ تثبت عكـس ذلـك تمـامـا، فلم يملك المستشرقون والمؤرخون سوى الاعتراف بهذا الأمـر. يقول المستشرق الفـرنـسـي الشهير ل. سـيـديـو S edillot: «وأوائـل الخلفاء هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فلم يسكرهم سلطانهم، فلم يبحثوا عن النفائس والثراء، بل ظلوا أوفياء لحياة الزهد الورع التي كان محمد قدوة لهم فيها. فسار عمر ابن الخطاب إلى القدس ليتسلمها فسافر من المدينة إلـى فلسطين من غير حاشية أو حرس، وتوفي أبو بكر فلم يترك لورثته سوى ثوب وعبد وجمل، وكـان علي يتصدق على الفقراء في كل جمعة بما عنده من النقود...الخ».

إذن فـالعامل الاقتصادي كسبب للفتوح الإسلامية، إنما هو محض افـتـراء لا سـنـد لـه مـن شـاهـد أو دليل.

المستشرقون لم يتخيلوا مدى رسوخ الإسلام في أفئدة المسلمين

ثـالـثـا - مـن الثـابـت أن الغالبية العظمى من المستشرقين قد عز عليهم أن يـكـون صـدق العقيدة هـو الـدافـع الـرئـيـسـي فـي الفتوح الإسـلامـيـة، فـوجـدوا ضالتهم فـي العـامـل الاقتصادي. فمن أغرب الآراء، وأشدها مجافاة للحقيقة، قـول ستانلي لينبول، فـي تأكيده على أهـمـيـة العـامـل الاقتصادي، عن الخلفاء الأمويين إنهم: «كانوا مسلمين متهاونين، أدركوا أنه كلما اعتنق شخص الإسـلام كـان هذا معناه خسارة في ضريبة الرؤوس -يـقـصـد الـجـزيـة- ولـهـذا تركوا الشعوب المحكومة تتمتع بحرية عقيدتها ووجهوا اهتمامهم لجباية الضرائب».

وأغلب الظن أن سـوء القصد هو الذي أملى على هذا المستشرق ذلك الرأي البالغ التهافت، لأن الإسلام قد أباح حرية العقيدة كما ورد في آيات شتى كقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (البـقـرة:٢٥٦). أما ما يدعيه عن خسارة الخلفاء الأمويين للجزية كلما اعتنق شخص الإسـلام، فهو محض افتراء على هؤلاء الخلفاء، إذ إنه لم يقرأ التاريخ الإسلامي على وجهه الصحيح، بل أخذ من هذا التاريخ ما يوافق رأيه، ثم فسره على هواه. ولعله يشير إلى ما حدث من بعض الولاة في العصر الأموي، فقد ورد في «البـدايـة والنهاية» لابـن كثير قـولـه: «وعـزل عمر بن عبدالعزيز الجراح بن عبدالله، عن إمرة خراسان بعد سنة وخمسة أشهر، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار ويقول: أنتم إنما تسلمون فرارا منها. فامتنعوا من الإسلام وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية، فكتب إليه عمر: إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابيا».

إذن فـهـذا المستشرق كـاذب في دعواه، كما كذبه في ذلك مستشرق آخر قد أنصف خلفاء المسلمين، يقول المستشرق الفرنسي سيديو في معرض حديثه عما قام به الخلفاء حيال مصر: «كان الخليفة ينفق معظم الجباية على الأعمال النافعة للبلاد، فأمر بإنشاء قناة القلزم القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر، وأنجزت بفضل تلك الحكومة الصالحة مشاريع عظيمة فأعادت مصر شبابها في زمن قصير».

رابعا - من الـواضـح أن العامل الديني كان بعيدا عن أذهان هؤلاء المستشرقين، الذين لم يتخيلوا مدى رسوخ الإسلام في بداياته، في أفئدة المسلمين ونفوسهم، وكيف جعل هذا الدين من قبائل العرب المتنافرة والمتناحرة والتي كان يحارب بعضها بعضا لأوهى الأسباب، أمة واحدة، كأنها قلب رجل واحد، تدين بعقيدة واحـــدة. ومـن بـين الأقاصيص الكثيرة في كتب التاريخ التي تفسر الفتوحات الإسلامية عبر صدق إسلام العرب الأوائل وشدة بلائهم في سبيل نصرة الإسـلام، سوف نختار واحدة منها، وهي قصة أبي محجن الثقفي أثناء وقعة القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، الذي حبسه لأنه كان يقول شعرا في الخمر. جاء في «مروج الذهب» للمسعودي: «كان أبو محجن الثقفي محبوسا في أسفل القصر، فسمع

وقع الحديد وشدة البأس، فتأسف على ما يفوته من تلك المواقف. فصعد إلى سعد يستشفعه ويسأله أن يخلي عنه ليخرج، فزجره سعد ورده. فنظر إلى سلمى بنت حفصة، زوجة سعد، فقال لها: هل لك في خير؟ فقالت: وما ذاك؟ تخلين عني وتعيرني البلقاء -يقصد فرس سعد- ولله علي إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في القيد. فقالت: وما أنا وذلك؟ فرجع يرسف في قيده وهو يقول:

كفى حزنا أن ترتدي الخيل بالقنا
وأترك مشدودا علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد فأغلقت
مصاريع من دوني تصم المناديا
فلله عهد لا أخيس بعهده
لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فقالت سلمى: إني استخرت الله ورضيت بعهدك، فأطلقته، فاقتاد بلقاء سعد وركبها، حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبر، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين، فأوقف ميسرتهم وقتل رجالا كثيرين منهم. وحمل على ميمنة القوم فأوقفهم، لا يبدو له فارس إلا هتكه، ووقف بإزاء قلب المشركين ففعل مثل أفعاله في الميمنة والميسرة، وأوقف القلب حتى لم يبرز منهم فارس إلا اختطفه، وحمل عن المسلمين الحرب، فتعجب الناس منه وقالوا: من هذا الفارس الذي لم نره في يومنا؟ وأبو محجن كالليث الضرغام قد هتك الفرسان كالعقاب يجول عليهم. وجعل سعد يفكر ويقول: والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء، فلما انتصف الليل تحاجز الناس وتراجعت الفرس على أعقابها، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ورد البلقاء إلى مربطها وعاد في محبسه ووضع رجله في القيد».

فهذا رجل دائم السكر، لكن عز عليه ألا يقاتل في سبيل الله، فكيف يكون الأمر بمن لم يشرب الخمر قط؟! هذه قصة من ألوف القصص التي تزخر بها كتب التاريخ، لعلها تسقط العامل الاقتصادي من آراء المستشرقين.

خامسا - وفي سياق هذا الإطار نسوق قصة ذات دلالة ومغزى كبيرين، وبطل هذه القصة هو الدكتور عمر فروخ عندما كان مبعوثا في ألمانيا لنيل أطروحة الدكتوراه، والذي نسوق على لسانه الرواية التالية: «وسألني يوسف هل J. Hell -وهو المستشرق الألماني الذي أشرف على أطروحة الدكتوراه- عن الموضوع الذي كنت أفكر فيه لرسالتي. كنت يومذاك (١٩٣٥) في عنفوان الشباب فقلت له: مدى القومية العربية - عظمة الشاعر المتنبي - أثر العرب في الثقافة العالمية... وأشباه ذلك. استمع إلي بصبر فلما سكتُ قال لي: احتفظ بهذه الموضوعات. فإذا أنت رجعت إلى بيروت فاكتبها وانشرها في الجرائد. ثم قال لي: هنالك موضوع مهم ما زلت أعرضه على الطلاب الألمان الراغبين في الاستشراق منذ عشرين عاما، فلم أجد الهمة عند أحد لمتابعته، مع أن نفرا منهم بدأ بتجميع مواده ثم تخلى عن الاستمرار فيه، إنه موضوع يحتاج إلى رجل عربي سريع المضي في المصادر العربية. هذا الموضوع هو المشكلة التالية:

يرى نفر من المستشرقين أن الإسلام لم يستقر في نفوس المسلمين إلا في العصر العباسي (قياسا على أن النصرانية لم تبدأ في الانتشار بين الناس إلا في القرن الرابع الميلادي). فهل تستطيع أنت أن تعالج هذا الموضوع وتضع هذه المشكلة على أحد جانبيها؟

بدأت العمل وجمعت عشرة آلاف بيت شعر مؤرخة بالسنوات، منذ السنة الأولى للهجرة (٦٢٢م) إلى موت الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ (٦٤٤م).

دخل في رسالتي أربعمئة بيت من تلك الأبيات، دلت، بجزم ووضوح، أن تعاليم الإسلام كانت تستقر في نفوس المسلمين (ونطاق الرسالة كان منذ الهجرة) في الوقت الذي كانت تلك التعاليم تفرض عليهم أو ينزل فيها وحي».

وإذا كان لهذه الرواية أكثر من دلالة تتعلق بنظرة المستشرقين حيال الإسلام، وحيرتهم الشديدة حيال سرعة انتشاره في عقود قليلة من الزمان، فإن الدلالة التي يمكن الخروج بها في إطار ما توهموا عن أسباب الفتوحات الإسلامية، هي أن الفتوحات الإسلامية إنما كانت بغرض الطمع في خيرات الأمم المجاورة، لأن الإسلام بدأ ضعيفا، كما حاول يوسف هل أن يرسخ هذا المفهوم الخبيث في ذهن الطالب -وقتها- عمر فروخ. غير أن الطالب النجيب أبى أن يساير أستاذه فيما أراد، بل وأطاح بفكرته من أساسها، ليظل نشر الإسلام هو الدافع الأساسي في الفتوحات الإسلامية.

طرق واستراتيجيات القضاء على مسببات الأزمات في العالم من منظور قرآني:

التَّأصِيلُ الإسلاميُّ لِعِلْمِ الأزَمَاتِ

محمد سرور الحريري
كاتب إداري وباحث علمي



لقد قمت بتثبيت وتدوين علمي وذلك كتأصيل إسلامي شرعي لعلم إدارة الأزمات، وقمت بوضع مقارنة علمية لكل المعلومات الخاصة بإدارة الأزمات وما يقابلها ويوافقها من معلومات صحيحة ثابتة في الشريعة الإسلامية، خصوصا من مصدرين راسخين في جذورهما العلمية، حيث يمكن للباحث والقارئ الاعتماد عليهما كأسس علمية قوية، فيمكن الاستناد إليهما، حيث إنهما يعتبران من أصدق المصادر وأفضلها وأقواها، وهذان المصدران هما:

١ - القرآن الكريم.

٢ - الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة.

في البداية، سأقدم العمل الذي قمت به مستندا إلى القرآن الكريم في التأصيل الإسلامي لعلم إدارة الأزمات، وهذه هي الآيات الكريمة التي لها دلالة واضحة وعلاقة قوية ونظير ظاهر، وذلك لأني قمت بعمل مقارنة علمية لكل المعلومات الخاصة بإدارة الأزمات، والتي لها جذور وأصول وقواعد إسلامية شرعية.

إدارة الأزمات في القرآن الكريم

١ - إن تاريخ الحياة منذ بدء الخلق على هذه الأرض إلى يومنا هذا تاريخ مؤسف وصعب وشديد للأسف. ومن الواجب على الإنسان المسلم أن يشق طريقه في هذه الحياة وهو يعلم علم اليقين أن هذه الحياة ممتلئة بالأشواك والمخاطر. لقد تأصلت أزمة البلاء والابتلاء والامتحان وتثبتت كقانون إلهي لا بد أن يمضي على كل البشر، فقد قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ١-٣). إن أزمة البلاء وأزمة الابتلاء وأزمة وقوع الفتن والمصائب للبشر ما دامت الحياة مستمرة وما دام هذا الإنسان يعيش على هذه الأرض فلا بد من حصول الأزمات والابتلاءات، وذلك سُنّة إلهية كونية قائمة، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ و١٥٦).

٢ - أزمة تفضيل بعض الناس على بعض، واختلاف طبقات الناس وتفاوت درجاتهم الإدارية والوظيفية، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ (الأنعام:١٦٥).

٣ - أزمة الاعتداء على الناس والأشخاص المسالمين وغير المعتدين، وحرمة التعرض بالإيذاء للناس المسالمين، حتى ولو كانوا من الكفار، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠).

٤ - البحث عن الطرق السلمية في حل الأزمات والكوارث والمشكلات، واللجوء إلى السلام وإلى الصلح والعفو بدلا من القتال والمعارك غير المجدية، قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (الأنفال:٦١).

٥ - النهي عن الفساد والإفساد في الأرض، وتحذير الناس من انتشار الفساد، وتطبيق قانون صارم وشديد على المفسدين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (المائدة:٣٣ و٣٤).

وقال الله تعالى ناهيا عن ممارسة الفساد في الأرض ومحرما له: ﴿..وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ (البقرة:٦٠).

٦ - الاحتياط والاستعداد والتخطيط والتجهيز والتهيؤ لمواجهة الأزمات، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ (الأنفال:٦٠).

٧ - النهي عن نقض المعاهدات، فهو يشكل أزمة ومصيبة وكارثة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ (البقرة:٢٧). وقال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ (البقرة:١٧٧). وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ (المائدة:١). وقال الله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ (النحل:٩١).

٨ - الأمر بالعدل ووجوب الحكم بالعدل وحرمة الظلم فإن الظلم سبب

لظهور الأزمات، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء:٥٨). وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل:٩٠).

٩ – التثبت من الأخبار والتأكد من المعلومات وعدم التسرع في اتخاذ القرارات، فإن العجلة سبب للوقوع في الأزمات، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات:٦).

١٠ – حرمة شهادة الزور والنهي عن الشهادة الكاذبة الآثمة، فإن شهادة الزور تسبب ظهور الكثير من الأزمات، وتعطي معلومات كاذبة وغير صحيحة للآخرين، وبالتالي لا تستطيع الجهات المسؤولة اتخاذ القرارات الصحيحة، بل تزيدها هذه الشهادات الكاذبة وهذه المعلومات غير الصحيحة تخبطا، وتزيد الموقف حدة وصعوبة. وبالتالي كانت شهادة الكذب وشهادة الظلم وشهادة الزور حراقا، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان:٧٢). وقال الله تعالى محذرا من شهادة الزور: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج:٣٠). وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ (المائدة:١٠٦).

١١ – الحث على عدم الملل وعدم النكوص وعدم اليأس في البحث عن الحلول، والحث على مداومة البحث والجد والعمل على الخروج من الأزمات والمآزق، قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ...﴾ (آل عمران:١٣٧-١٤٠).

١٢ – الإشادة والحث على استخدام الحكمة الإدارية في القضاء على الأزمات، قال الله تعالى: ﴿...وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ...﴾ (البقرة:٢٣١). وقال الله تعالى مشجعا على البحث عن الحكمة وتطبيقها في علاج الأمور وحل الأزمات: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:٢٦٩).

١٣ – الحث على استعمال الفكر واستخدام العقل وتحريك الذهن وإعمال العقل في التفكير الإبداعي للبحث عن الحلول المناسبة للخروج من الأزمات، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٤٤). وقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٢٤٢). وقال الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠).

١٤ – الحث على العمل، والتشجيع على الاجتهاد في البحث عن الحلول، والأمر بالجد والاجتهاد للتخلص من الأزمات بكل الطرق الممكنة، قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:١٠٥).

١٥ – التعاون مع الآخرين في تخطي عقباتهم، ولحل مشكلاتهم، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة:٢).

١٦ – حرمة أكل الأموال بالباطل، والتحذير من هضم حقوق الناس المالية، والتحذير من أخذ الأموال غصبا وعنوة، قال الله تعالى ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء:٢). وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ (النساء:٢٩).

١٧ – الحث على مزاولة الصناعة، وذلك للعمل بالصناعة، والقيام على الأمور قياما كاملا من دون تواكل للتخلص من الأزمات التي يتسبب فيها العمال الذين يحبون استغلال الأوضاع، فقال الله تعالى لنبيه نوح آمرا له بالعمل في صناعة السفينة: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ...﴾ (هود:٣٧).

١٨ – الحث على العمل وعلى إعمار الأرض وبنائها، وذلك للعمل على التخلص من أزمات البطالة والتعطل عن العمل وللقضاء على مشكلة الفراغ، قال الله تعالى:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:١٤). وقال الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ... ﴾

(الروم:٩). وقال الله تعالى:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة:١٠٥).

١٩ - مزاولة مهنة التجارة، والعمل على كسب الرزق، والأمر بالسعي في الأرض للتخلص من الأزمات المالية، قال الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك:١٥).

٢٠ - الدين والقرض، وحزم أمور المداينة والاستدانة وربطها بقانون معين يعمل على حل أزمات الديون، فقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ... ﴾ (البقرة:٢٨٢).

٢١ - عملية الكيل بالميزان وممارسة عملية البيع والشراء قال الله تعالى: ﴿ ... فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ... ﴾ (الأعراف:٨٥).

٢٢ - اتباع نظام المكافأة، وتشجيع نظام التحفيز، والتشجيع على الإخلاص في العمل للتخلص من أزمات الفتور وللتخلص من قلة الإنتاج، قال الله تعالى حاكيا قصة يوسف عليه السلام: ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾. (يوسف:٧١ و٧٢).

٢٣ - توضيح قانون الشركة، وصياغة قانون الشراكة، وإقامة الشركات، فقد قال الله تعالى: ﴿ ... فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ... ﴾ (النساء:١٢). وقال الله تعالى ﴿ ... وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ... ﴾ (الإسراء:٦٤).

٢٤ - اتباع الشهادة الصادقة وإحضار الشهود والتثبت من الشهود: قال الله تعالى: ﴿ ... وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ... ﴾ (البقرة:٢٨٢).

٢٥ - اتباع نظام المشاورة واستخدام مبدأ الشورى للمساعدة على التفكير في التوصل إلى الحل السليم للقضاء على الأزمات، قال الله تعالى: ﴿ ... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... ﴾ (الشورى:٣٨).

٢٦ - الحث على إصلاح الأخطاء الإدارية والعملية، والمبادرة في الإصلاح بين الآخرين، قال الله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:١١٤).

٢٧ - أداء الأمانة: فمن المهمات الإدارية والمصاحبة للأخلاق الإدارية القيام بتوصيل الأمانات وأدائها على أكمل وجه من دون نقص أو غش، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء:٥٨).

٢٨ - أخذ الأمور بجدية، وترك اللعب والتسويف، والبعد عن الاستهتار، فإن وقت حل الأزمات محسوب بالثواني، فلا مجال للعب أو التسويف، قال الله تعالى موجها كلامه إلى نبيه الكريم يحيى عليه السلام: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (مريم:١٢).

٢٩ - الاحتياط المالي المسبق، وعدم الإسراف، أو التبذير في الموارد المالية المتاحة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف:٣١). وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ ... ﴾ (الإسراء:٢٧).

٣٠ - النهي عن السرقة والغش والخداع، مع الأمر بعدم خيانة الأمانات، فالخيانة سبب لظهور الكثير من الأزمات، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٢٧).

٣١ - الحث على التفكير الإبداعي للبحث عن حل للمشكلات، والحث على عدم التقليد الأعمى في الأمور الخاطئة، بل الإبداع والابتكار والتجديد ونبذ التخلف الفكري، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٦٨).

٣٢ - بيان أن سبب ظهور الأزمات وانتشارها وظهور الفساد في كل مكان، إنما هو ذنوب العباد وخراب ضمائر الناس، قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم:٤١).

٣٣ - النهي عن اليأس والقنوط، وحرمة اليأس والتخاذل والكسل، فإن هذه أمور تقود إلى أزمات

عنيفة، والواجب هو السعي إلى التخلص منها، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴾ (هود:٩). وقال الله شارحا وموضحا قول نبيه يعقوب لأولاده: ﴿... وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧).

٣٤ – الدعوة إلى الابتكار والتجديد والإبداع، والنهي عن التقليد الأعمى في اتباع العادات والتقاليد السيئة والمتخلفة وغير المجدية، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (المائدة:١٠٤).

٣٥ – النهي عن التجسس واستراق الأخبار، والنهي عن تأويل الكلام تأويلا فاسدا على غير محمله، وحرمة تفسير كلام الآخرين تفسيرا ظنيا (من الظن الآثم ومن الأوهام الخاطئة)، فإن ذلك يزيد من شدة الأزمات ويخلق الصعوبات والمشكلات والمعوقات قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا ...﴾ (الحجرات:١٢).

٣٦ – النهي عن الحسد التنافسي، والتحذير منه ومن التباغض، قال الله تعالى: ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾. (النساء:٥٤).

٣٧ – بيان أن حصول الموت هو أزمة ومصيبة، قال الله تعالى: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ (المائدة:١٠٦).

٣٨ – الإفصاح عن حدوث مصيبة ووقوع الأزمة والمحنة والابتلاء والخسارة في الأموال وفي التجارة ووقوع فقدان في النفوس البشرية، قال الله تعالى: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ...﴾ (آل عمران:١٨٦).

٣٩ – حرمة ممارسة الربا، والنهي عن استخدام نظام الربا في البنوك والمصارف، فإن ذلك سبب لظهور العديد من الأزمات المالية والتجارية، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٨ و٢٧٩).

٤٠ – اتباع نظام القرض والدين والمداينة والاستدانة، وبيان مشروعية الرهان، وإقرار الرهن في المعاملات المالية والتجارية لحل المشكلات التجارية، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ ...﴾ (البقرة:٢٨٢). وقوله تعالى: ﴿مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ...﴾ (البقرة:٢٨٣).

٤١ – الأمر بإحضار الشهود عند التبايع وأثناء المبايعة للتخلص من أزمات الغش والكذب والسرقة، قال الله تعالى: ﴿... وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ ...﴾ (البقرة:٢٨٢).

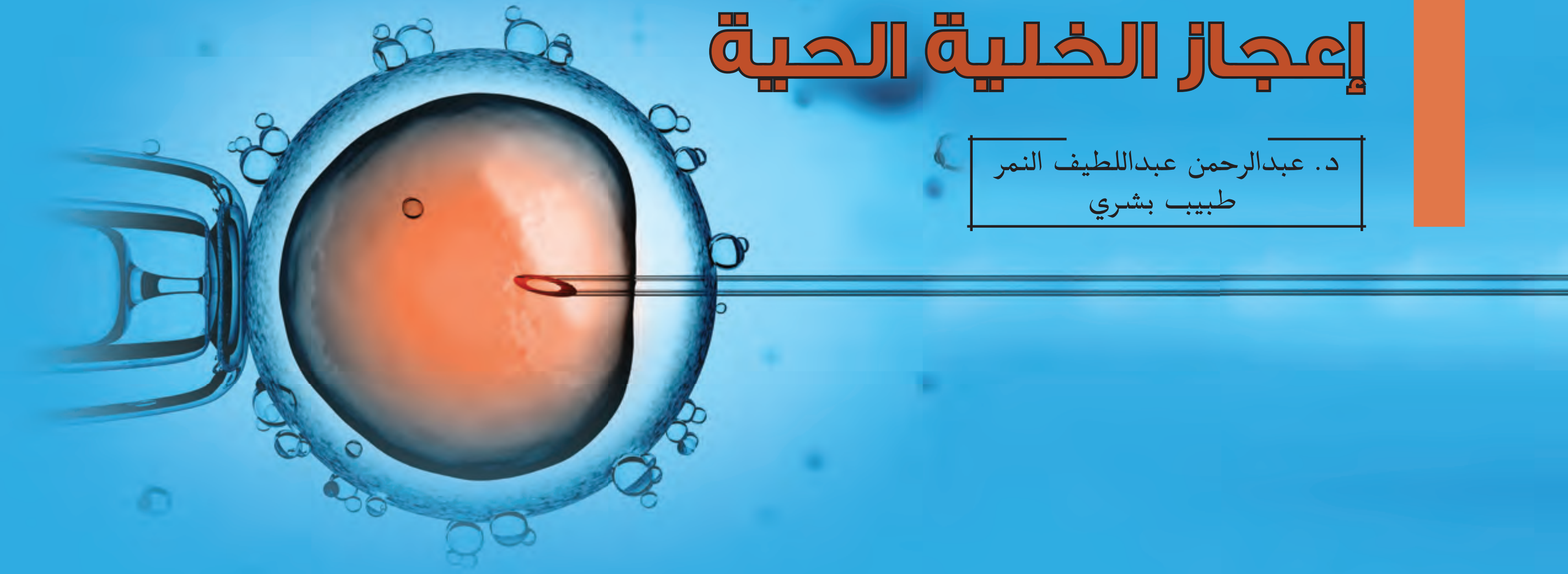
٤٢ – التحذير من ممارسة المؤامرات الخبيثة التي تكون سببا للأزمات، قال الله تعالى: ﴿ ...وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ...﴾ (فاطر:١٠).

٤٣ – تحقيق نظام المشاورة الإدارية والإشادة باستخدام مبدأ الشورى، وذلك لأن الشورى مع الموظفين والاستماع إلى آراء الآخرين يساعدان كثيرا في التخلص من المشكلات، كما يساهمان في التوصل بسرعة إلى الأسباب الداعية لظهور الأزمات ومعرفتها ومعرفة طرق علاجها، وكذلك استعمال التشاور وتحقيق نظام المشاورة وعقد مجلس للشورى داخل المؤسسة الإدارية للتشاور مع الموظفين وأخذ آرائهم ولمراجعة الأمور ولاتخاذ القرارات الإدارية الصحيحة وذلك بالتشاور معهم، قال الله تعالى: ﴿ ...وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ...﴾ (الشورى:٣٨). وقال الله تعالى مخاطبا نبيه العظيم محمد ﷺ يبين له كيف يتعامل مع أصحابه المسلمين ﴿ ...وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ...﴾ (آل عمران:١٥٩).

٤٤ – الحث على ذكر المهارات العلمية، وإظهار الخبرات العملية والقدرات عند التقدم للوظيفة، ويكون ذلك أثناء المقابلة الإدارية مع المسؤولين والمديرين، وكذلك حث الإسلام على إظهار المؤهلات العلمية المطلوبة والتعريف بها ليشغل الإنسان وظيفة معينة، فقد قال الله تعالى شارحا وموضحا ومبينا حال نبيه يوسف عليه السلام لما أظهر خبرته وعلمه ومؤهلاته ليشغل منصبا في الدولة، فيقوم برعاية أمور وشؤون الدولة في أموالها وممتلكاتها، أي كما يسمى الآن في عصرنا هذا وزير المالية، فقد قال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ (يوسف:٥٥).

إعجاز الخلية الحية

د. عبدالرحمن عبداللطيف النمر
طبيب بشري



حين يسترخي الإنسان على شاطئ البحر ويرمي بصره إلى تلك الصفحة الزرقاء المنبسطة أمامه إلى الأفق، ويطلق العنان لأفكاره لتعانق الموج المتكسر عند أقدامه أو لتسبح مع الموجات البعيدة، فسرعان ما يستحوذ عليه جمال المنظر وعظمة الخلقة.. ثم لا تلبث أفكاره أن تغوص إلى لجة اليم وراء الأسرار والعجائب التي يضمها البحر في طياته! ولا تكاد هذه «السباحة الفكرية» أن تنتهي حتى تكون جوانح النفس قد امتلأت عجبا من براعة الصنعة وعظمة الخلقة، وفاضت تسبيحا بجلال الخالق وإبداع المصور.

وإذا نحن سبحنا فكريا في تركيب الإنسان، فسوف نصطاد من العجائب ما لا يقل شأنا ولا ينقص جمالا عن فرائد البحر ودرر اليم. وحسبنا أن نغوص إلى أصغر شيء في جسم الإنسان -إلى الخلية الحية- لنرى من دلائل الإعجاز وآيات الإبداع ما يأخذ بمعاقد اللب ومجامع النفس!

تعريف الخلية

الخلية الحية هي الوحدة التركيبية الوظيفية التي يتكون منها جسم الإنسان. فجميع الأعضاء والأجهزة في جسم الإنسان تتكون من خلايا، ونشاط تلك الخلايا والأعمال الحيوية التي تقوم بها، هو في الحقيقة الأساس لنشاط وعمل الأعضاء والأجهزة المختلفة في الجسم، وعلى الرغم من اختلاف مكونات ووظيفة الخلايا من عضو أو جهاز في الجسم إلى آخر، فإن التركيب الأساسي واحد لجميع الخلايا!

هذا وتطلق كلمة «بروتوبلازم» على المواد المختلفة التي منها تتكون الخلية الحية التي توصف بأنها في حالة ديناميكية مستمرة، بمعنى أن الأنشطة الحيوية فيها لا تتوقف.

ويمكن تعريف الخلية الحية من الناحية التركيبية بأنها وحدة نشطة منظمة من البروتوبلازم. وينقسم البروتوبلازم إلى جزأين متكاملين، يعتمد كل منهما على الآخر، هما «النواة» أو الجزء المركزي، و«السائل الخلوي» أو الجزء المحيط. ويحيط بهذين الجزأين (أو بالخلية) «غشاء الخلية».

غشاء الخلية

غشاء الخلية Cell Membrane جزء مهم من الخلية الحية، يحيط بكل مادتها ويلزم لحياتها. إذ لو تهتك غشاء الخلية يتحلل البروتوبلازم في ثوان معدودة!

وأمكن دراسة تركيب غشاء الخلية بواسطة المجهر الإلكتروني، فاتضح أن سمكه (ثخانته) يتراوح بين سبعة إلى عشرة نانومتر (٧-١٠نم) (١). وهذا الغشاء المتناهي في الرقة يتكون من طبقتين من البروتين تفصل بينهما طبقة من الدهون! أي أن سمك غشاء الخلية، على ضآلته المتناهية، يتكون من طبقة خارجية من البروتين، ثم طبقة وسطى من الدهون، ثم طبقة داخلية من البروتين!

البروتين في غشاء الخلية نوع خاص من البروتين: إذ لا يذوب في الماء من ناحية، وله خواص كهربائية من ناحية ثانية! لهذه الخصائص الكهربائية دور مهم في تنظيم دخول المواد والعناصر إلى الخلية وخروجها منها!.

كذلك أظهرت دراسة غشاء الخلية بالمجهر الإلكتروني وجود ثقوب دقيقة (Pores) متعددة. وتسمح هذه الثقوب بمرور جزيئات (٢) يصل قطرها إلى ثمانية أنجستروم (٣). ويكون مرور الجزيئات من وإلى الخلية عبر الغشاء. أما الماء والجزيئات الأصغر قطرا فإنها تمر بسهولة نسبية عبر غشاء الخلية.

ويحيط بغشاء الخلية طبقة واقية غير حية تسمى «المحفظة» Pellicle. وتفرز

كل خلية طبقة المحفظة الواقية، والتي تتكون بصفة أساسية من السكريات المتعددة (أو ما يمكن تسميته «نشا»). وتختص طبقة المحفظة بالمحافظة على شكل الخلية، وبوقاية الخلية من الإصابات الميكانيكية. ومما يدل على أن المحفظة طبقة غير حية أن إزالتها (بالتشريح الدقيق تحت المجهر) لا تؤدي إلى توقف نشاط الخلية ولا إلى تحللها وموتها -كما هو الحال عند إزالة غشاء الخلية. وإنما تفقد الخلية شكلها وتصبح أكثر عرضة للإصابات الميكانيكية عند إزالة طبقة المحفظة.

النواة

النواة «nucleus» كتلة من البروتوبلازم دائرية الشكل، تقع في مركز الخلية، وتتحكم في (أو توجه) التفاعلات الكيميائية التي تحدث في الخلية، كما تتحكم في تكاثر (أو انقسام) الخلية.

تبدأ كل خلية وجودها بنواة في مركزها. إلا أن بعض أنواع الخلايا يفقد نواته عندما يصل إلى مرحلة النضج -مثال ذلك خلايا الدم الحمراء-. وهناك أنواع قليلة من الخلايا تحتوي على أكثر من نواة واحدة -مثال ذلك الخلية المولدة لصفائح الدم وهي نوع من خلايا الدم، يختص بوقف النزيف، وذلك باشتراكه في تكوين ما يسمى «الجلطة».

السائل الخلوي

البروتوبلازم خارج النواة يطلق عليه «السائل الخلوي» (أو «سائل الخلية» أو «السيتوبلازم») «cytoplasm». ويعتبر سائل الخلية منطقة العمل، وكذلك مكان التخزين، في الخلية الحية.

تأملات

يتراوح قطر الخلية الحية بين واحد إلى مائة مايكرومتر (٤) (١-١٠٠ مايكرومتر). ولتقريب ذلك إلى الأذهان، فإن الملليمتر (٥) الواحد (الذي نراه على المسطرة) يساوي مجموع أقطار مائة إلى ألف (١٠٠-١٠٠٠) خلية!

فتأمل الإعجاز في الخلقة والإبداع في الصنعة: في حيز ضئيل متناه في الصغر تحتشد تلك التراكيب العجيبة النابضة بالحياة! وكل جزئية أو تركيب يعمل في دأب لا يعرف الفتور، ونشاط لا يتسرب إليه الملل! ويأتلف عمل المجموع في تناسق بديع، فلا اضطراب ولا نشوز!

ثم تأمل التكامل العجيب في تركيب الخلية: ففيها مصانع الغذاء ومراكز الطاقة وشبكة المواصلات، بل ومركز للتجميع والتعبئة والتخزين! وحتى بوابات الخلية تثير العجب: فلا شيء يدخل إلى الخلية، ولا شيء يخرج منها إلا وفق نظام محكم!

وتأمل كيف تتمكن تلك المصانع العجيبة في الخلية الحية من إنتاج عشرات المواد ذات التركيب الكيميائي المعقد، مع أن مساحة المصنع الواحد أصغر من مساحة النقطة المستعملة في الكتابة بحوالي مليون مرة!

وأعجب من ذلك كله أن هذه الخلية التي لا تراها العين المجردة (أي دون الاستعانة بآلة تكبير مثل المجهر) هي الأصل الذي منه تكون الإنسان! فكل إنسان ينبثق من خلية واحدة هي البويضة المخصبة. فهل دار في خلد الإنسان يوما أنه في أول تكوينه كان شيئا غير منظور؟!

ومن الناس من يقول إن الصدفة خلقته وأن العشوائية أوجدته! فهل يعقل أن تكون هذه الصنعة البديعة مجرد صدفة؟! وهل يعقل أن يكون هذا التكوين المحكم مجرد خبط عشواء؟! وإذا كان الأمر كذلك، فهل يكون مقبولا في الأفهام أن تكرر الصدفة نفسها ملايين ملايين المرات من غير زيوغ أو حيود أو نشوز؟! ليست هذه الصنعة البديعة صدفة ولا خبط عشواء. بل إنها خلق محكم معجز: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(النمل:٨٨).

والنسق واحد لا يتغير: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾(الملك:٣).

ذلك أن التركيب الأساسي للخلية الحية واحد عند جميع البشر.

والماء هو أصل الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾(الأنبياء:٣٠).

وأنت ترى الخلية الحية وقد تكونت في معظمها من الماء؛ فيكون الماء أصل خلقة الإنسان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾(الفرقان:٥٤).

وحيث أننا لا نرى في الكون دليلا واحدا على تعدد النسق واختلاف أصول الخلق، دل ذلك دلالة يقين على أن الخالق واحد. ولو تعدد الخالق لتعدد النسق ولاختلفت أصول الخلق: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(المؤمنون:٩١).

والحقيقة التي لا مراء فيها أن الجمال في الخلقة واضح جلي، والإبداع في الصنعة بين غير خفي. وليس وراء هذا الإعجاز مطلب لطالب، ولا بعد الحق مذهب لراغب: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾(لقمان:١١).

وفيما وصفنا من بديع صنع الله آيات وعبر ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(ق:٣٧).

الهوامش

(١) نانومتر «Nanometer»: (ويكتب اختصارا بالحرفين «ن م») هو جزء من ألف مليون جزء ينقسم إليها المتر الواحد. أي أنه يساوى (١٠-٩ متر).

(٢) الجزيء «Molecule»: هو أصغر مقدار من أي مادة تظهر فيه خصائصها. الجمع: جزيئات.

(٣) أنجستروم «Angstrom»: وحدة لقياس الأبعاد المتناهية في الدقة تساوي جزءا واحدا من عشرة آلاف مليون جزء ينقسم إليها المتر الواحد، أي (١٠-١٠ متر) وتكتب اختصارا هكذا (Å).

(٤) مايكرومتر «micrometer»: جزء من مليون جزء ينقسم إليها المتر الواحد. أي أنه يساوي (١٠-٦ متر).

(٥) ملليمتر «millimeter»: جزء من ألف جزء ينقسم إليها المتر الواحد. أي أنه يساوي (١٠-٣ متر). ويكتب اختصارا (مم). «millimeter».



القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢١)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

ليس يخفى على من شدا المعرفة بمحورية اللغة في وجود الأمم وبقائها، أن اللغة العربية الفصحى كامنة في العرب كمون الماء في باطن الأرض، وأنها هي اللغة الوحيدة المؤهلة لإيصالهم إلى كعبة آمالهم، ولاسيما بعد أن وفر لها القرآن الكريم في صدر الإسلام، والشعر العربي البليغ طيلة القرون الهجرية الأولى، ومستقطرات أفكار ناقلي ومترجمي وعلماء ونطاسيي بيت الحكمة الأفذاذ، الأساس المكين القادر على الوفاء بكل الحاجات؛ لذلك فإن كمالها وارتباطها بهذه المصادر حتم لازم، لا يتمارى في ذلك إلا من يغالب بضوئه الباهت نور الشمس الساطع. وآية ذلك أن جميع اللغات المنطوقة والمكتوبة تمكن أهلها من التعبير بصورة ما عن مرادهم، لكن لغتنا العربية الفصحى هي الوحيدة التي تتيح لنا أكثر من عبارة عن المعنى الواحد، بكيفية دقيقة لا غلو فيها ولا تقصير، لذا يجب أن تقف في سوق اللغات العالمية كالطود الشامخ بالنسبة إلى الأراضي المنبسطة. هذا الانتماء الديني والحضاري والفني والتقني، هو الإكسير الذي حافظ عليها، عندما خلد أهلها إلى النوم قرونا طويلة، ومن ثمة فإن أحسن تهيئة لها، هي البداءة بربط دنيا العرب بالأصول والينابيع الثرة التي ضمنت لها الحياة بملتقطات من الألفاظ والعبارات الكافية الشافية التي لم تدع لذي إربة في القول علما ولا فنا إلا أزالت كمه ونثرت درره وجواهره، ناهيك عن كونها اللغة الوحيدة التي تضيف لدنيا المسلمين حبل الاتصال والتواصل مع رب العالمين دون تبديل ولا تغيير، كما حدث للغات الكتب السماوية الأخرى. قال الشاعر أكرم جميل قنبس موضحا ارتباطها بالقرآن:

فمن رام أن يحيا بغير وصالها
كمن رام أن يحيا بغير صلاة
إذا كنت أبليت الغرام بوصلها
فإني لقرآني نذرت حياتي

هذا ما شهد به الأبناء البررة، وما

شهد به الأعداء المنصفون على شاكلة المستشرق الفرنسي «لويس ماسينيون» الذي يثبت أن العرب يمكن أن «يفاخروا الأمم الأخرى بما في أيديهم من جوامع الكلم، التي تحمل من سموق الفكر وأمارات الفتوة والمروءة ما لا مثيل له عند الأمم» (١). والمؤرخ الفرنسي «إرنست رينان» الذي يؤكد أن العربية الفصحى فاقت غيرها من اللغات «بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وجودة نظام مبانيها...لا نعلم ما يماثلها، لأنها بدت للباحثين كاملة من دون تدرج، واستمرت محافظة على كمالها وكيانها من أي شائبة» (٢). هذا هو كمال الرأي المحصد، وسداد النظر الثاقب الذي يخرس شقاشق المتقولين، ويطفئ لهيب كل ملتهب سعى معاجزا في آلائها. فهل يرضينا اليوم أن تبقى جواهرها النيرات تحت غطاء يخفيها عن الأنظار، وهل يعد حجة وبرهانا ما تنعت به الفصحى اليوم من عجز وتقصير من لدن أعدائها المزورين عنها؛ الذين أخذوا نغبة من معارف العولمة، أو علينا أن نعد هذه الآراء الفطيرة التي يرمون بها لغتنا من جوالب الأوهام، وليست من انتجاث الأفهام؟ وهل يغنينا ما أنتجه الأسلاف، نكتفي به ونتماهى معه من دون أن نسعى إلى صناعة الوجود اللغوي العربي الحديث الذي يدخلنا إلى أندية العولمة من دون أن نطوي كشحنا عما أورده المبرزون الأوائل، ولا نجعل المجتمع العربي المعاصر، وما يمور به من أحداث ووقائع دبر آذاننا؟

أحسن إجابة عن هذه الأسئلة التي تترى، تبدأ من ضرورة تدبير خطة عربية محكمة تنهض بتكوين عقل عروبي مكين، يعي هويته، ولا يتقوقع فيها عندما يروم بناء أفكار مبتكرة، قوامها تأسيس مشروع وجودي عربي تمثل العربية الفصحى عقله الكلي ومخه النقاخ؛ وتكون فيه ألفاظنا وكلماتنا دقيقة سليمة معبرة أوفى تعبير عن أفكارنا، من دون السعي إلى إلباس العربية ثوبا مضرجا، ولا المبالغة في النطق بالغريب الوحشي وعقمي الكلام. لاشك أن هذه الخطة البزلاء تبدأ بحب الفصحى، وإعلان الولاء لكل ما هو عربي، والارتباط بمصادرها طبقا لقاعدة «كل من تعلق بمحفوظ فهو محفوظ» وتربية النشء على تعليم وتعلم الفصحى بالشواهد المندرجة في النصوص، لأنها هي التي تيسر التعلم، وتضفي عليه متعة الحياة وأجواء الحبور الضامنة لزيادة الفاعلية في أثناء دروس اللغة؛ التي تؤمن لهم الطرائق الممكنة للقول الماتع، الذي ينجيهم من التقادع في اللحن كما يتقادع الفراش في النار، ويكتب لهم الامتلاء والضلاعة منها، فيعرفون كيف يعيشون في الفصحى وبالفصحى، ويميزون بين العلوي من الكلام فيودعونه ما يطرسون، والسوقي العامي فلا يتفوهون به رغبة منهم في بلوغ الكمال والجمال. وقديما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الجمال في الرجل؟ فقال: «فصاحة لسانه». بل إن الأصمعي يروي أنه دخل يوما على هارون الرشيد، فقال له: «يا أصمعي، ما أحسن ما مر بك في تقويم اللسان؟» فقلت: أوصى بعض العرب بنيه فقال: «يا بني أصلحوا ألسنتكم، فإن الرجل تنوبه النائبة فيتجمل فيها، فيستعير من أخيه دابته، ومن صديقه ثوبه، ولا يجد من يعيره لسانه» (٣). ولذلك قال يحيى بن خالد: «ما رأيت رجلا قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحا عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني» (٤). فأين هذا من كلام المعاصرين الذين طارت الفصاحة عن ألسنتهم كما طارت جرادة العيار، على هذه الشاكلة التي تظهر أنهم لا يميزون بين: «الغلط والخطأ والخطء» حيث إن الغلط هو أن يخطئ المرء وجه الصواب، أو هو وضع الشيء في غير موضعه، والخطأ نقيض الصواب، ولذلك قالت العرب في المثل: «مع الخواطئ سهم صائب» وهو مثل للذي يكثر الخطأ، ثم يأتي في بعض الأحيان بالصواب. والمخطئ: من أراد الصواب فصار إلى غيره؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾ (النساء:٩٢)، ثم قال في الآية الموالية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾(النساء:٩٣).
فثبت بالدليل المخرس أن فعل «أخطأ» والاسم «الخطأ» غير متعمدين؛ والخاطئ من تعمد ما لا ينبغي؛ من فعل خطئ يخطأ خطأ وخطأة، والمصدر الخطء وهو الذنب والإثم كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾(الإسراء:٣١).
يتضح من هذه الشواهد أن الانتفاع بالدقة في وضع كل لفظة في مكانها، وتنزيلها المنزلة اللائقة بها من كمال الفصاحة، ولذلك لا نقول: أخطيت في المسألة، كما لا نقول: أخطأت متعمدا، بل نقول: اجتهدت فأخطأت، وغلطت في ترتيب الحجج، وارتكبت الخطيئة، وتعمدت الخطء. وقانا الله من أن نأتي مثل هذه الذنوب والمنكرات التي لن نجد يوم الدين من يحمل عنا خطاياها.

هذا بعض ما ثبت لي في هذه الألفاظ، وقد مررت ببعض مثالب استعمالها ألطف من مرور الوسن بالأجفان. أرجو ألا أحيد في ما أطرس عن محجة السداد، وأن تمكنني مناهز الفرص من حفظ موارد الفصحى، حتى تكتسي حلل الإتقان، إذا لم أبلغ بها حلة الإحكام.

الهوامش:

١و٢- نحو النهوض باللغة العربية د. محمد بلاسي. مجلة اللسان العربي. عدد مزدوج ٦٣و٦٤. ص ٣٢٧ و٣٢٨ محرم ١٤٣١ هـ ديسمبر ٢٠٠٩م، مكتب تنسيق التعريب. الرباط.

٣- المعجم في بقية الأشياء مع ذيل أسماء بقية الأشياء. أبوهلال العسكري. دراسة وتحقيق أحمد عبدالتواب عوض. ص ٥٧ و٥٨. دار الفضيلة.

٤- المستطرف في كل فن مستظرف. شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي. المجلد الأول ص٦٦ طبعة منقحة بإشراف المكتب العالمي للبحوث. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت. لبنان.

قراءة في رواية «ساق البامبو»...
عندما تفقد الإنسانية نقطة البداية

محمد أبو السعود الخياري
باحث وناقد أدبي

نجحت رواية ساق البامبو (٢٠١٢) للروائي الكويتي الشاب سعود السنعوسي في الفوز بالجائزة العالمية للرواية العربية (بوكر) في نسختها الخامسة للعام ٢٠١٣.

ومن بعد النجاح النقدي لرواية السنعوسي، والذي وضعها في مقدمة الروايات العربية في ٢٠١٢، جاء النجاح الجماهيري الواسع؛ لتقرأ الرواية خارج حدود الكويت، ويصبح السنعوسي -الذي تخطى عقده الثالث بعام واحد فقط- حديث المثقفين في الوطن العربي.

ولعل أهم ما يلفت النظر في رواية الروائي الشاب هو الجدية في التناول، والجرأة في الطرح، حيث بدت الرواية سيرا حثيثا في اتجاه وحيد هو الانتصار لقيمة المساواة والإنصاف للإنسان. وظهر الراوي يصدع بأقوال لم تكن من قبل بالتي يمكن الحديث فيها.

جائزة البوكر... فأل الخير أم اكتئاب النجاح؟

حاز برناردشو على جائزة نوبل في الآداب، لكنه رفضها قائلا: «إن جائزة نوبل تشبه طوق النجاة الذي يلقى لأحد الأشخاص بعد أن يكون هذا الشخص قد وصل إلى الشاطئ».

أمر البوكر مع السنعوسي مختلف، فلقد ألقي إليه طوق البوكر وهو لا يزال بجوار الشاطئ؛ لم تبتل سوى قدميه.

قبل إنجاز البوكر لم يكن سعود السنعوسي قد قدم إلى الرواية سوى رواية وحيدة هي «سجين المرايا» عام ٢٠١٠، وانتظرت بضع سنوات قبل أن يصدر الراوي طبعتها الثانية، بعد أن حققت «ساق البامبو» الجائزة، لتظهر «المرايا» حاملة تنويها تجاريا «للروائي الحائز على جائزة البوكر ٢٠١٣». وللحقيقة، فإن هذا التوقيت المبكر جدا، الذي صادف النجاح في قمته، إنما قد يمثل شركا نفسيا لصاحبه، حيث قد «حقق ما لم يحققه الأوائل» (هكذا عبرت الشاعرة الكويتية سعدية مفرح)، فما الدافعية التي ستساعد السنعوسي في مشواره التالي مع الرواية؟ وهل ستصبح «ساق البامبو» العقدة التي يتضاءل إبداع السنعوسي التالي أمامها مهما أجاد، لأنها تفوقت على الجميع بقوة البوكر؟

من جانب مغاير، قد تكون البوكر المبكرة فأل خير وقوة نفسية مضافة إلى الأديب، ولا سيما أنه قد توازى مع الجائزة تكريم مادي وأدبي كبير، كما صار السنعوسي أشهر الأدباء الخليجيين تقريبا، وكلها محفزات لتحقيق إنجاز أكبر، أو على الأقل لإثبات الجدارة بالجائزة، وأنها لم تكن هبة الصدفة.

الإنسانية في مواجهة رياح القبيلة

يأتي عنوان «ساق البامبو» دالا، منذ البداية، على الرسالة السياسية في الخطاب الروائي. والراوي يبدو ودودا لدرجة كبيرة عندما يقدم تفسيرا للعلاقة بين ساق البامبو (الخيزران) ومحنة بطل الرواية (عيسى)، الذي ينتمي إلى الكويت عبر والده ذي الأسرة العريقة الغنية، بينما تبدو الشوكة المنغرسة في قلبه وتفرض الشتات على مصيره ممثلة في القوس الآخر الذي يحاصر حياته (أمه الخادمة الفلبينية). وهو وإن كانت نطفته قد وضعت في الكويت بين ثري وخادمته، إلا أن طفولته قد كانت بائسة شهدتها أحراش الفلبين، بعد أن اضطرت الأم إلى أن تأتي به أهلها. وتحت تأثير حكايات أمه بدت الكويت في أفق الصغير وأحلامه الجنة التي يمتلك فيها نصيبا؛ فهي بلده وبلد أبيه.

يقول عيسى لنفسه: «لو كنت مثل شجرة البامبو، لا انتماء لها. نقتطع جزءا من ساقها... نغرسه بلا جذور في أي أرض... لا تلبث الساق طويلا حتى تنبت لها

جذور جديدة.. تنمو من جديد.. في أرض جديدة.. بلا ماض.. بلا ذاكرة.. لا يلتفت إلى اختلاف الناس حول تسميته... كاوايان في الفلبين... خيزران في الكويت... أو بامبو في أماكن أخرى» (الرواية ص٩٤).



شجرة المفارقة... جذورها في الكويت وثمارها في الفلبين!

خرج عيسى إلى الدنيا بعد زواج أبيه السري بالخادمة، ولم ينجح ممكن الواقع في هزيمة مستحيل التقاليد. فالزواج السري كشفته العائلة الثرية، وأرغمت الخادمة (الأم) على المغادرة، وعجز زوجها (راشد الطاروف) عن حماية حريته، أو زوجته، أو ولده. وأخذ عيسى من الأطراف فرقتهم؛ حتى أضحى التناقض يشطر حياته شطرين؛ فهو «عيسى» وهو «هوزيه»، وهو لا يكاد يدري ديانته: أمسيحي كأمه أم مسلم كأبيه؟ يقول عيسى «كنت أمام إبراهيم أجلس، كان صامتا كما كنت أنا أيضا. في أذني اليمنى صوت الأذان يرتفع، في أذني اليسرى قرع أجراس الكنيسة. في أنفي رائحة بخور المعابد البوذية تستقر. انصرفت عن الأصوات والرائحة والتفت إلى نبضات قلبي المطمئنة، فعرفت أن الله هنا» (الرواية ص ٣٠٠).

والوطن إشكالية أخرى: أهو موطن الفقر والأم والنشأة والواقع، أم موطن الثراء والأب والمستقبل والحلم؟ وهو يبدو متأملا في أسى وبؤس ذلك المصير الذي أورثه له أبوه، بل يفعله كثير من أشباه أبيه بمن هن مثل أمه. يقول هوزيه عن مأساته: «تتحول الفتيات هناك إلى مناديل ورقية يتمخط بها الرجال الغرباء... يرمونها أرضا... يرحلون ثم تنبت في تلك المناديل كائنات مجهولة الآباء، نعرف بعضهم بالشكل أحيانا، والبعض الآخر لا يجد حرجا في الاعتراف بذلك، لكنني الوحيد الذي كان يملك ما يميزه عن أولئك مجهولي الآباء... وعدا كان قد قطعه والدي لوالدتي بأن يعيدني إلى حيث يجب أن أكون، إلى الوطن الذي أنجبه وينتمي إليه؛ لأنتمي إليه أنا أيضا، أعيش كما يعيش كل من يحمل جنسيته، ولأنعم برغد العيش، وأحيا بسلام طيلة العمر» (الرواية ص ١٨).

وفي لغة سردية سهلة واضحة، وبنية سردية تقليدية تمتد زمنيا في اتجاه واحد؛ يتناول السرد حياة عيسى عبر خمسة فصول: تبدأ من «عيسى قبل الميلاد»، ثم «عيسى بعد الميلاد»، ثم «عيسى التيه الأول»، فـ«عيسى التيه الثاني»، والفصل الخامس «عيسى على هامش الوطن»، وختام أخير تحت عنوان «عيسى... إلى الوراء يلتفت».

أحضان العائلة الكبيرة... وأشواك الازدراء

يفلح عيسى في العودة إلى فردوس المخيلة (الكويت) بمساعدة صديق والده، وهو الحدث الذي جاء بعد أن فقد والده (راشد الطاروف) حياته في الغزو العراقي للكويت، وكانت صدمته الأخرى في رفض جدته استقباله في منزل العائلة. وأبدت الجدة بعض اللين ليصبح «هوزيه» داخل البيت لكن في غرفة بملحق البيت كالخدم. وتكشف الرواية عن حب تكنه الجدة للحفيد ذي الوجه الفلبيني (ويبدو أن هذه كانت مأساته الحقيقية... وجهه الذي يفضحه أو بالأحرى يفضح الأسرة العريقة)، هذا الحب بعثه في نفس الجدة صوت هوزيه المطابق لصوت ابنها الفقيد، وهو لحسن الحظ أو لسوئه، الوحيد في ذرية الطاروف الذي جاء ذكرا.

ومع مرور الأيام رقت الجدة للحفيد تدريجيا، وساعد على تطور العلاقة ظهور أخت لهوزيه من أبيه، هي «خولة»، مثلت طوق النجاة له، فقد كانت الجسر الذي التقى فوقه الحفيد وجدته. وانفرجت قليلا أحواله، إلا أنه في كل الأحوال كان معزولا عن الأسرة، لا يسمح له بحضور حفلاتهم، كما يقضي وقته ومناسباته وحيدا. وبدت النبتة غير قادرة على الثبات في التربة الجديدة القديمة مهما طال الزمن ومهما ارتوت بالماء.

لكن الأحداث التالية كانت تحمل له بؤسا، كما بدأت. فقد انتشر الخبر الذي حرصت الأسرة وكافحت من أجل

إخفائه، وعرف الناس بأمر حفيدهم «الفلبيني»؛ ليواجه هوزيه مصير الطرد من جديد، وأبدى مقاومة يائسة، ومحاولة للتمسك بوطن لم يشعر يوما أنه وطنه، حيث أقام فترة يعمل ويسكن مع صديقه حتى استسلم في النهاية.

وفي حيلة لبث مفهوم الديمومة لمشكلة عيسى، يقيم السرد لوحة بانورامية عند نهايته، عندما ينجب عيسى ولدا بملامح عربية من زوجته الفلبينية، ويسميه «راشد». وفي مباراة كرة قدم بين الفلبين والكويت في الفلبين تجلى تمزق الهوية وانشطارها لدى عيسى عند كل هدف يحرزه أحد الفريقين في الآخر، بينما كان يصرخ راشد الصغير فرحا مع هدف الفلبين «اقشعر بدني. رعشة تسللت من أعماقي إلى أطرافي ما إن شرع لاعبو المنتخب الكويتي بترديد النشيد الوطني: وطني الكويت سلمت للمجد... وعلى جبينك طالع السعد. وجدتني أترنم بلحن النشيد، ثم انطلقت أصوات من حولي ما إن انتقلت الكاميرا إلى لاعبي المنتخب الفلبيني يرددون: وطني الحبيب... لؤلؤة الشرق... توهج الفؤاد... مهد الشجاعة» (الرواية ص ٣٩٥).

ثمار وسط أعواد البامبو

وهكذا تبدو رواية «ساق البامبو» علامة دالة وفارقة من جهات عدة:

- فقد أكدت حقيقة مهمة، هي أن إبداع الشباب فيه أصالة فنية، وعمق فكري، وجدية في تناول قضايا مجاوزة للوطن، تتسع لتلامس هموم الإنسان؛ لأنه إنسان فقط ليس غير.

- تناول القيم والقضايا الجادة كقيمة المساواة بين الناس، وقيمة التمسك بالهوية وما تؤكده من انتماء وحب للوطن... إنما هي أمور تجذب جمهور القراء، وتحقق نسب توزيع ومبيعات عالية جدا، وهو أمر أكدته رواية السنعوسي التي تخطت حاجز الطبعات العشر خلال عام واحد، هو ٢٠١٣. وهكذا سقطت النظرية القائلة بأن جمهور القراء وأرقام التوزيع العالية إنما هي حكر على الأدب الذي يحتفي بأمور تخاطب الغرائز، أو تكرس جهدها للتسلية والترفيه.

- القراء العرب، ولا سيما الشباب، مقبلون على القراءة، ورغم انتشار الثقافة الإلكترونية من هواتف ذكية وحواسيب لوحية وغيرها، إلا أن القراءة البسيطة الجادة هي القوة الحقيقية والمستقرة، وهو أمر أكدته عدة مؤلفات عربية معاصرة غير رواية السنعوسي مثل: كتاب «لا تحزن» للدكتور عائض القرني، ورواية «عزازيل» للدكتور يوسف زيدان... وغيرهما من المؤلفات التي استقبلها جمهور القراء العرب بحفاوة كبيرة.

- يؤكد فن الرواية من جديد أنه هجر دور المسلي والمهرج، أو حتى المؤرخ، إلى مساحة نقدية إصلاحية؛ يبدو الروائي فيها حاملا معول القيم وإذا به يقتحم معبد الكبائر الاجتماعية الحصين ليدك رأس أصنامه الكبرى. السنعوسي طرح أخطر قضايا مجتمعه الخليجي دون وجل، أو تردد. ودعا المجتمع إلى رؤية عيوبه ومواجهة ذاته، وذلك كله من خلال وضع الشاب ابن الخادمة الفلبينية في دائرة التركيز السردي، ومن أجل قضيته مع الهوية وبحثه أو تمسكه بوطن يلفظه رغم أن هذا الوطن هو وطن أبيه.

- القيم الإنسانية العليا هي بالضرورة تبناها الإسلام الحنيف، وليست هناك نصوص إنسانية أقوى وأكثر دلالة على المساواة والمواطنة من تلك الوصايا الخالدة التي شهدتها خطبة الوداع (كلكم لآدم وآدم من تراب)، (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى).

- أعار الراوي شخصياته ألسنة حكيمة تقطر بالبلاغة وترسل العظات، بيد أن السرد لم يبن الشخصيات لتكون مقنعة لنا بدرجة كافية بأنها قادرة على نثر هذه الحكمة، مما يشي بأن الحكمة إنما أعدت خارج النص ثم دخلت إليه لتنطق بها الشخصيات، ومن ذلك:

- «الحزن مادة عديمة اللون، غير مرئية، يفرزها شخص ما، تنتقل منه إلى كل ما حوله، يرى تأثيرها في كل شيء حوله ولا ترى».

- «الغياب شكل من أشكال الحضور، يغيب البعض وهم حاضرون في أذهاننا أكثر من وقت حضورهم في حياتنا».

- «ليس المؤلم أن يكون للإنسان ثمن بخس، بل الألم كل الألم أن يكون للإنسان ثمن».

- انحاز السنعوسي إلى الفكر الجاد ونبذ القضايا التافهة؛ فالتف حول روايته الشباب، ولم يحرص على مواربة الأنظمة؛ فدعاه أمير الكويت للقائه وقام بتكريمه على الرواية ونجاحها، وكان قبيل هذا التكريم قد فاز بالجائزة العالمية للرواية العربية (بوكر) للعام ٢٠١٣ على الرغم من أن سيارته الروائية ما زالت في مرحلة «التليين».

فضلك قد جرى

محمد عباس
كاتب مصري

يا رب وحدك من يرى
نفسا تتوق إلى الذرى
تهوى السجود لربها
رب الخلائق والورى
وتراك دوما مانحا
نورا يفيض لمن قرا
تشتاق منك لنظرة
فيها الشفاء لمن درى
يا رب فامنن بالهدى
وارحم فؤادا قد سرى
أضناه ليل دموعه
وسباه رغما عن كرى
وأتاك يحمل ذنبه
بين الدموع لتغفرا
ويلوذ بالرب الذي
خلق الوجود وقدرا
ويقول عبدك قد أتى
بحر الهداية مبحرا
رباه جئتك خاشعا
أرجو اللقاء تطهرا
أجتاز لجة حيرة
بين الذنوب لأعبرا
أنت الغفور لمن أتى
وبذاك فضلك قد جرى

المشترك الأسمى بين الشعوب

منتصر الخطيب
كلية أصول الدين بتطوان - المملكة المغربية

في كتاب «المشترك الإنساني» (نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب) (١)، يطرح الدكتور راغب السرجاني العقيدة كأسمى مشترك إنساني بين جميع الشعوب، منطلقا في إثبات ذلك من أن الإنسان -في نظره- لم يجد نفسه وحيدا في هذه الأرض، بل وجد غيره من البشر يسكن إلى جواره على الكوكب نفسه.

وقد لاحظ الإنسان أنه على الرغم من اتفاقه مع من حوله من البشر في أشياء كثيرة، إلا أنه يختلف عنهم في أشياء كثيرة كذلك، وأن هذا الاختلاف ليس في الشكل والمظهر فقط، ولكن في العادات والسلوك.

فالبيئات التي نشأ فيها البشر مختلفة، والظروف التي ترعرعوا فيها متباينة، وهي سُنّة ماضية؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ...﴾ (هود:١١٨ و١١٩).

وهذا الاختلاف له مزاياه ومنافعه، ولكن في الوقت ذاته يحمل في داخله بذور فتنة، فكثير من البشر لا يقبلون المخالف لهم، وقد ينشأ صراع وصدام لا لشيء إلا لهذا الاختلاف.

كما أن الإنسان كذلك لم يخلق كاملا. ولذا، كان لزاما عليه أن يتعامل مع غيره من البشر الذين يكملون نقصه، وليس لأحد فضل على الآخر، كما ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿.. وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ..﴾ (الزخرف:٣٢). لذا، كان على الإنسان في تعامله مع أخيه الإنسان أن يسلك طريقين لا ثالث لهما:

الطريق الأول هو طريق الأسوياء؛ وهو سلوك سبيل التعارف على غيره من البشر والتعاون معهم للوصول إلى المصلحة المشتركة بينهم، وهذا الطريق يحقق منافع لا حصر لها.

الطريق الثاني هو طريق الأشقياء؛ وهو سلوك سبيل التصادم فيما بين الشعوب، فتظهر بالتالي التصرفات الأنانية والصلف والغرور في سبيل تحقيق المصلحة الشخصية دون النظر إلى مصالح الآخرين.

ولبناء هذه النظرية عقد المؤلف فصلا لتأصيل البناء الفكري لها، اعتبر فيه أن البشر جميعا إخوة في الحقيقة؛ كلهم لآدم عليه السلام، ومن ثم فالصفات المشتركة بينهم كثيرة ومتعددة. وهذه حقيقة علمية لا يجادل فيها أحد، حتى أولئك الذين ينكرون الأديان السماوية، فهناك ما لا يحصى من المشتركات بين كل البشر. يقول المؤلف بعد عرض تجربته في البحث في المجال الاجتماعي عن المشترك الإنساني: «خرجت من كل ذلك بأن البشر يشتركون بعضهم مع بعض في عدد يصعب حصره من المشتركات، فجمعت ما أستطيعه، ثم اجتهدت في تبويب هذه المشتركات تحت عناوين محددة تجمعها في أطر معروفة، ثم بدأت في تصنيف هذه المشتركات في مجموعات لها سمات معينة، سيكون لها أثر كبير في فهم طبيعة هذه المشتركات وأثرها في التعارف والتواصل.. ومن ثم خرجت بهذه النظرية التي أسميتها المشترك الإنساني» (٢).

ثم قسم المؤلف هذه المشتركات إلى أربع مجموعات؛ وهي: مجموعة المشترك الأسمى، ومجموعة المشتركات الإنسانية العامة، ومجموعة المشتركات الإنسانية الخاصة، وأخيرا مجموعة المشتركات الإنسانية الداعمة.

وما يهمنا هنا هو مجموعة المشترك الأسمى، والتي يقول عنها المؤلف: «وهذه المجموعة لا تضم إلا مشتركا واحدا فقط، وهو «العقيدة». وأنا أحتسب أن هذا المشترك هو أهم ما يميز الإنسان، وأغلى ما يمتلك، وأفضل شيء يعطيه «هوية» معينة، وهو أقوى رباط بين اثنين أو بين شعبين، وهو يتجاوز حدود الزمان والمكان، فيشعر أبناء العقيدة الواحدة بالانتماء إلى أبناء عقيدتهم الذين عاشوا قبلهم بألف عام -مثلا- ويشعرون كذلك بالانتماء لأبناء عقيدتهم الذين ينتسبون إلى أعراق مختلفة، ويشعرون كذلك بالانتماء لأبناء عقيدتهم الذين يعيشون في أرض بعيدة، أو في ظروف اقتصادية مختلفة تمام الاختلاف.. إنه الرابط الأسمى الذي لا يعلوه رابط، خاصة في الأوساط التي تشهد صحوة

دينية وعودة إلى الأصول..» (٣).

ويعتبر المؤلف أن العقيدة هي أصعب ما يمكن أن يغيره الإنسان، فقد يغير عمله أو بلده أو حتى شكله، لكن لا يقبل بتغيير عقيدته إلا في ظروف ضيقة جدا، وعادة ما يكون هذا بعد تغيير كامل في قناعات الإنسان.. يقول في ذلك: «والعقيدة مشترك بين كل البشر؛ بمعنى أن كل إنسان لا بد أن يكون له عقيدة. نعم، تختلف العقيدة من شعب إلى شعب، لكنها موجودة في كل الأحوال، وليس هناك إنسان بلا عقيدة، حتى الذين ألحدوا وأنكروا وجود إله لهذا الكون يعتقدون ذلك الأمر: أنه لا إله. ولهم تصورات وفلسفات تفسر لهم ما يعتقدونه.. وهم يتعصبون جدا لمعتقدهم هذا، ويشعرون أنهم على حق وغيرهم على باطل.. والحاصل في النهاية أن لكل إنسان -أيا كان هذا الإنسان- عقيدة ودينا حتى لو كانت هذه العقيدة هي اللاعقيدة، وحتى إذا كان هذا الدين هو اللادين..» (٤).

ثم ذهب المؤلف إلى تقسيم عقائد العالم إلى مجموعات حددها في ثلاث؛ ليبين لنا أهمية هذا المشترك الإنساني الأسمى، فهناك مجموعة الأديان السماوية التي تشمل المسلمين والنصارى واليهود، وهي تتفق قبل تحريفها في أن الإله ذات قائم بنفسه ليس كمثله شيء، يتصف بالقدرة والقوة والعلم والإحاطة، ويدبر أمر المخلوقات، ويصرّف شؤون الحياة، وأنه اختار من بين عباده رسلا وأنبياء وأوحى إليهم كتبا تمثل العقيدة الصحيحة، ودعت إلى الأخلاق السامية، وأن الناس مبعوثون بعد الموت لحياة أخرى خالدة، نعيما أو عذابا. والمجموعة الثانية، التي يمكن تسميتها بمجموعة الأديان الوضعية، كالهندوسية والبوذية، وأديان محلية أخرى تؤمن بالإله ولكنها ترى أن هذا الإله يمكن أن يتجسد في الأرواح أو في الظواهر الكونية من شمس وقمر ونجوم ونار وأوثان، كما يمكن أن يتجسد في معان مجردة، كالخير والشر والظلمة والنور. والمجموعة



الثالثة سماها بمجموعة اللادينيين، أو الملاحدة، الذين ينكرون وجود إله بالكلية، ويفسرون الوجود والحياة بتفسيرات مادية تستبعد أي ظواهر مما لا يدركه الحس أو تستند إلى نظريات علمية خاصة.

وانطلاقا من ذلك، طرح الكاتب سؤالا محوريا هو كالآتي: ماذا يمكن أن نفعل بعد أن عرفنا هذا المشترك الأسمى؟. وبين الإجابة بالقول: «إن من الثابت حقا أن تغيير جزئية في العقيدة أمر صعب للغاية، بل المفترض أنه مستحيل.. فأصحاب الأديان -سواء السماوية أو الوضعية- يعتقدون أن هذه العقائد والتشريعات هي من عند الإله. وبالتالي، ليس هناك مجال لتغييرها، ولا نملك ذلك، ولا نقدر عليه. ومن هنا، فليس هناك معنى أن نسعى إلى فكرة الالتقاء في منتصف الطريق، وليس هناك معنى لما يسمى بوحدة الأديان أو دمج الأديان، لأن هذا يعني تكوين عقيدة جديدة لن يرضى عنها الجميع، كما أننا لا نستطيع أن نلتقي في منتصف الطريق مع الذين ينكرون وجود الإله، ويرفضون مبدأ الدين من الأساس، فالذي يؤمن بالإسلام أو النصرانية أو اليهودية أو البوذية لن يقبل مبادئ الملحد العقائدية، والملحد يرى كل أصحاب الأديان يعيشون في وهم كبير، ومن ثم فالالتقاء في منتصف الطريق -أيضا- مستحيل» (٥).

ولمزيد بيان، طرح المؤلف سؤالا ثانيا هو: فما الحل، هل أصبح الصدام حتميا هكذا؟ ليجيب عنه قائلا: «أبدا.. إن الحل الأمثل هو أن يقنع كل البشر أن العنف والجبر لن يغير من عقيدة إنسان، بل سيقود إلى دمار وخراب، ومن هنا جاء قول الله عزوجل في القرآن الكريم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦). وجاء كذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿...فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ..﴾ (الكهف:٢٩). والذي يعلن عن اعتناق عقيدة معينة تحت سيف القهر ونتيجة ضغوط الإكراه، ليس في الحقيقة معتنقا لهذه العقيدة الإكراهية، إنما يعتقد عقيدته الأصلية في السر، بل لعله ازداد تمسكا بها، وسينقلب لا محالة إلى قنبلة موقوتة تنتظر فرص الانفجار.

إن الحل الأمثل حقيقة أن نلتزم بالتوجيه القرآني العميق، الذي قال فيه الله عزوجل: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ (الكافرون:١-٦). ما أعمق هذا التوجيه.. إنه خطاب في منتهى الوضوح..» (٦).

ومن هذا المنطلق، يرى المؤلف أن على معظم أتباع الديانات أن يصلوا بعقيدتهم إلى العالم أجمع، وذلك عن طريق الحوار الهادئ اللطيف الذي يعرض فيه كل طرف بنود عقيدته في سلاسة وبساطة، لأنه لا بديل عن هذا الحوار إلا الحرب والدمار. يقول في ذلك: «إن حروب العقيدة هي أشرس حروب الدنيا وأشدها دموية.. لأن الإنسان ليس عنده مانع أن يفقد حياته في سبيل عقيدته، بل إن الموت في سبيل العقيدة غاية عند كثير

من أتباع الديانات.. وبالتالي فموت بعض الأفراد ليس نهاية الحرب، إنما الحرب لا تتوقف إلا بالفناء.. ولذلك على العقلاء في العالم تجنب الحروب العقائدية قدر ما يستطيعون، فلا يكره أحد أحدا على تغيير دينه، أو تبديل عقيدته، لأن الطرف الذي أُكره سيكون له كامل الحق في الذود عن عقيدته في هذه الحالة، ولن تتوقف الحرب أبدا..» (٧). ويرى المؤلف في نهاية هذا الفصل كنتيجة لذلك أن: «خلاصة حديثنا في مجموعة المشترك الأسمى أن كل البشر لهم تصور عن الإله، وهذا التصور يصبح عقيدة راسخة ليس من السهل التنازل عنها أبدا. وهذه العقيدة يمكن أن تجمع تحتها عشرات العرقيات والأجناس والألوان، ولكنها في الوقت نفسه إذا كانت سببا في صدام فإن هذا الصدام يكون مروعا. ولذلك، يجب عدم المساس مطلقا بعقائد الآخرين..» (٨).

ثم ختم المؤلف هذا الباب -الذي خصصه لبناء نظريته في المشترك الإنساني- بالحديث عن باقي المشتركات الإنسانية ضمن المجموعة الثانية التي يسميها المشتركات الإنسانية العامة؛ وهي الأمور التي يشترك في أصولها وفروعها كل الناس، ويمكن اعتبارها ميدانا فسيحا للتعارف والتلاقي، وتشمل هذه المشتركات: الاحتياجات الأساسية، والعقل، والأخلاق، والتملك، والكرامة، والحرية، والعلم، والعمل. ثم المجموعة الثالثة التي يسميها المشتركات الإنسانية الخاصة، والتي اعتبرها مشتركات موجودة في كل أمة ويقدرها كل إنسان، إلا أن بينها وبين سابقتها اختلافات فرعية؛ ويمثل لها بمشترك الثقافة، واللغة، والأرض، والعرق، والقانون، والتاريخ، والعادات والتقاليد، والأخلاق.. ثم ذكر المجموعة الأخيرة، وهي مجموعة المشتركات الإنسانية الداعمة؛ وهي التي تحسّن من مستوى الحياة وتسعد الإنسان، وقد أجملها في ثلاثة مجالات: الفن والسياحة والرياضة؛ فالفن حوار مع المواهب والإبداعات والأنماط الثقافية والاجتماعية والحضارية للشعوب المختلفة، والسياحة حوار مع التاريخ والجذور والماضي العريق للشعوب القديمة، وهي كذلك حوار مع الحاضر والحداثة والتقنية والتقدم التكنولوجي للشعوب الحديثة، والرياضة شيء يعلن عن نفسه في حياة الإنسان فطريا، سواء في الجانب الصحي أو في الجانب النفسي الروحي. وهذه المشتركات الداعمة مساحات مفتوحة للتعليم والتعلم؛ يأخذ فيها الناس بعضهم من بعض.

ولتفعيل نظرية المشترك الإنساني يطرح المؤلف سؤالا محوريا كذلك هو: كيف السبيل إلى تفعيل نظرية المشترك الإنساني، وتنزيلها إلى واقع الحياة العملي؟

وقد خصص الفصل الأول من الباب الثاني في هذا الكتاب للإجابة عن هذا السؤال، فبيّن أن أبرز آليات التعارف لتحقيق المصلحة المشتركة هي الحوار، وقام بتجلية معناه وخصائصه، فقال: «ولسنا نعني هنا الحوار التقليدي الذي هو مجرد تبادل الكلمات بين الطرفين، وإنما نقصد الحوار الإيجابي المثمر الهادف إلى تحقيق نتائج عملية متمثلة في المصلحة المشتركة، حتى لو كانت هذه المصلحة مجرد المعرفة بالشعوب الأخرى..» (٩). ويتضح دور الحوار في ظل نظرية المشترك الإنساني في جانبه المتعلق بالعقيدة كمشترك أسمى من خلال تعاليم الإسلام التي توصي بأن يكون الحوار مع أي كان.

وهكذا نجد دعوة القرآن الكريم للحوار مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ...﴾ (العنكبوت:٤٦).

وكذلك دعوته للحوار مع المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى، فقد حذر القرآن الكريم من التعرض إلى معتقداتهم بسوء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ...﴾ (الأنعام:١٠٨).

ومن هنا نتبين المنهج الإسلامي العام للحوار في أمر العقيدة، والذي يتجلى فيما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ...﴾ (النحل:١٢٥). وأشد الناس احتياجا للحوار هم العلماء والمفكرون كما يقول المؤلف: «فهؤلاء هم العقول التي تتشكل أولا بالحوار والأخذ والرد، ثم إنهم يشكلون العقول والقلوب؛ ويقودونها نحو تفعيل هذه الأفكار في الواقع العملي. ومثل هؤلاء، الذين يمثلون عقل الأمم، إذا لم يكونوا على استعداد للحوار فنحن على شفا عالم تتحدث فيه الأسلحة والقنابل، ولا شيء آخر» (١٠). وهكذا حرص المؤلف على دعوة عقلاء العالم إلى تجنب قيام نزاع له طابع ديني، حتى لا يأخذ الصراع أبعادا خطيرة، لأن إلباس المصالح الفردية والخاصة ثوبا دينيا يجعلنا أمام حروب لا تنتهي. ولهذا تجب مناهضة الاعتداء على الأديان، ومحاربة كل محاولة تسير في طريق إشعال حرب على أساس ديني، انطلاقا من اعتبار أن الإنسانية كتلة واحدة تجمع بينها مشتركات إنسانية متعددة ومتفاوتة من حيث الأهمية، كما رأينا. وأن نضع آليات لتفعيلها على أرض الواقع تجنبا لأي مخاطرة.

الهوامش:

١- كتاب المشترك الإنساني (نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب)، أ. د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى،١٤٣٢هـ-٢٠١١م، مصر.

٢- نفس المصدر، ص ١٤٦.

٣- نفس المصدر، ص ١٤٧.

٤- نفس المصدر، ص ١٤٨.

٥- نفس المصدر، ص ١٤٩.

٦- نفس المصدر، ص ١٤٩ و١٥٠.

٧- نفس المصدر، ص ١٥١.

٨- نفس المصدر، ص ١٥٣.

٩- نفس المصدر، ص ٥٨٨.

١٠- نفس المصدر، ص ٥٩٩.

كيف نسمو بمجتمعنا بالإنسانية؟

أحمد سترياوان هريادي
كاتب دراسات إسلامية

كم كانت قلوبنا تعشق نوعا فريدا من المجتمع البشري الذي يخلو عن كوادر الأهواء الطائشة، فيجد الاطمئنان مكانه في القلوب، والأمن مستقره في البيوتات! وكم كانت تنشد نمطا وحيدا من المجتمع الذي يسوده شيء يتفق والفطرة السليمة من خضوع للخالق وانقياد لتعاليمه، ويلاءم الطبيعة البشرية من الأخوة والتكامل والتكافل! وكم كانت ترجو طابعا خاصا من المجتمع الذي يلم بأفراده الصدق والحياء والعفاف!

إنما سردنا لك ذلك لشدة ما يعانيه مجتمعنا من الانحطاط الكلي بالإنسانية، عندما نلفت أنظارنا إلى الأوضاع الفردية والاجتماعية، فالإنسان اليوم لا يعرف نفسه أنه إنسان يتسم بالإنسانية المكرمة.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ (الإسراء:٧٠).

ولا يعي أنه يحمل في عنقه مسئولية عجز عن حملها الخلائق أجمعين كما حكاه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾(الأحزاب:٧٢).

ولا يفقه أن الكون له تابع مسخر في أداء أمانته وتحقيق رسالته الإنسانية كما صوره تعالى في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ (الجاثية:١٢-١٣)، فيسعى جاهدا إلى تعميره، ويتعاون مع بني نوعه على بناء مجتمع إنساني يسوده الإيمان الحق والخلق الكريم.

لكن الذي ملأ خاطر هذا الإنسان هو تحقيق مطامعه الحيوانية، فيتصرف تصرف الحيوان، يغريه ما يغري الحيوان، وينظر إلى بني نوعه بمنظار المنافسة، وطبيعي أن يعامل منافسيه معاملة يتراكم فيها المكر والخداع وتتبع العيوب والمساوئ، فلا غرو إذا نبتت في كيانه جراثيم التكبر والحقد، ولا شك أنهما منطلق كل أنواع الجحود، أمثال جحد بالخالق، وجحد بالحقيقة، وجحد بفضيلة الغير.

ولعل ما أوردنا فيما سبق هو سر الأسرار لفساد علاقة الإنسان مع بني نوعه، زد على ذلك الطابع المادي الوافد على حياة الإنسان المؤمن، فيمتزج بها تمام الامتزاج، فهذا الطابع يتجسد في نظرية الحياة التي تسود هذا العصر وتحكم عليه ألا وهي: «النظر في كل مسألة وشأن من ناحية المعدة والجيب» (١). فأصبحت المصلحة الجشعة بذلك محور الحركة الأساسي في علاقة الإنسان مع بني نوعه.

ومن هذا المنطلق صار الجاه مقياسا للفضل، ومعيارا للشرف، فلا عجب إذا شاع في حاضرنا نوع من استعباد الناس، إذ تزاحمت الفجوة الاقتصادية في مجتمعنا، فالغني يزداد غنى، والفقير يزداد فقرا، وأصبح أصحاب الجاه والمناصب آلهة، والناس في الطبقة البائسة لهم عبيدا، يتقربون إليهم بالمدائح الزائفة والميول الكاذبة، استباحا لهم في إشباع مطامعهم على أملاك هؤلاء الأغنياء.

ثم انتشر في مجتمعنا كل ما يدعو إلى ارتكاب الفواحش، والتمادي فيها.. فما ظنك أنت إذا أصاب أفراد المجتمع نوع من الفراغ، وأمامهم فرصة سانحة للخوض

في الملذات، والغوص في اللهو؛ أفلا يكون المصير إلا إلى الفساد الفكري والخلقي؟! وإذا تذاوب هذا الفساد مع عقلية المجتمع ونفسيته في أزمان طوال، أفلا يكون الفساد إلا طابعا حتميا لذلك المجتمع؟! وإذا انطبع الفساد في عقلية المجتمع ونفسيته، فلا جرم إذا انقلبت الفطرة السليمة التي يعرف الإنسان بها خالقه فاسدة، والذوق السليم الذي يتذوق به الأشياء الحميدة مرتكسا.

ونحن عن مخاطر البيئة الفاسدة نستحسن ما قاله العلامة محمد الغزالي: «والبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة، فهي تمسخها وتشرد بها، وتخلف فيها من العلل، ما يجعلها تعاف العذب وتسيغ الفج، وذاك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح، وقبولهم للكفر والشرك، مع منافاة ذلك لمنطق العقل، وضرورات الفكر وأصل الخلقة» (٢).

ومن هنا ترى كيف تتشعب المخاطر التي يتعرض لها مجتمعنا، فالمخاطر لا تأتي من البيئة الفاسدة فحسب، بل تأتي -كما مر بنا- من تلقاء نفس الإنسان الذي يتكون منه المجتمع.. ولعمري، ما عسى نحن فاعلون؟ فكأن زوايا الحياة جمعاء قد تجاوبت على إبعاد العباد عن المعبود سبحانه، وتعاونت على إخفاء معين الهداية الصافي، وتوافقت على طمس بواعث الإيمان في النفوس والجهاد في سبيله، وتداعمت على الانحطاط بالإنسانية إلى أحط الدركات.

السمو الاجتماعي بالإنسانية على منهج الإسلام

ما جاء الإسلام إلا ليعود بالإنسان إلى سيرته الأولى في أصل الخلقة، والقرآن -وهو دستور الإسلام الأول- إنما نزل ليأخذ بيد الإنسان ويريه قيمته الذاتية، بعد أن خاض في غفلة داجية، وغاص في ذلة خابية، فيعي بهذا الكتاب المجيد أنه -كما قال الإمام محمد عبده- «عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده»-، فيعيش -بعد اهتدائه بهذا القرآن- حياة الأسياد التي تتأبى عن التذلل لوجه الخلق أيّا ما كان الأمر، ويتسم بما اتسم به الأسياد من غزارة في العلم، وسعة في الثقافة، ووفرة في الخبرة، ويتصف بما اتصف به الأسياد من الرجولة والحلم والشجاعة والكرم والوفاء والحياء والعفاف، ويتصرف تصرف الأسياد من إيثار غيره على نفسه، وبذل أقصى الجهود في تحقيق العدل والأمن بين بني نوعه.

فلا يهجسن في أنفسنا أن حياة الأسياد هينة ميسورة كما نتصورها، وإلا لما تعرضت أوضاع العالم إلى الانحطاط الكلي بالإنسانية، إذ أصبح بنو آدم كلهم أسيادا، يراعون أنفسهم دائما على أفضل أحوالها، ولنعلم أن في السيادة مشقة لا قبل لها، ولا ينقاد لها -كما قال الماوردي- «إلا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد، وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم، ولذلك قيل: سيد القوم أشقاهم» (٣)، وعن مشقة السيادة قال المتنبي (٤):

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والإقدام قتّال

وما السنة النبوية المطهرة إلا نموذج فريد لحياة الأسياد الحقة، وبيان مفصل لما ينبغي أن يتحلى به الأسياد، ودليل واضح أن هذا النوع من الحياة السامية قد تحقق مرة بعد مرات في تاريخ البشرية.. إذن، فما بال هذه الحياة الشريفة لا تتحقق في حاضرنا، ونحن مع هؤلاء الكبار سواسية في أصل الخلقة، وفي إمكانية تحقيقها، ويقوي تلك الإمكانية أن بين أيدينا نفس الكتاب الذي كانوا بهديه مهتدين.

وما أظن أن تعاليم الإسلام -التي هي منبع وحيد لكل أنواع الرقي والسمو بالإنسانية- جاءت لتكون تاريخا يذكر وطقوسا تتلى، بل إنما جاءت لتكون واقعة تحقق وأسوة تقتدى. نعم، لقد سدت حاضرنا عن تحقيقها أزمة روحية، وعاقنا عن التأسي بها جفاف عاطفي، فضلا عن معرفة أي نوع من الحياة السوية -المقتبسة من القرآن والسنة النبوية- التي تحققت في تاريخ البشرية.

لنعرف قليلا لوازم السمو الاجتماعي بالإنسانية على منهج الإسلام:

إيمان المجتمع الصادق بالله

فالمجتمع الوحيد الذي استطاع أن يبدي ما للإنسانية من عجائب هو المجتمع المؤمن بالله الأحد حق الإيمان، ولمعترض أن يعترض علينا أن الإيمان ليس عاملا رئيسا في استخراج تلك العجائب، والغربيون الذين أصبحوا خير مثال في الجحد بالله، استطاعوا أن يحققوا سيادة الإنسان في الكون بمواهبهم الفذة من إنتاجات عجيبة مبهرة، ويستولوا بها على العالم أجمع، ويفعلوا بها ما يشاءون.

فنقول لهم: صحيح أنهم وصلوا بالعلوم والصناعات إلى مرحلة لا يعقل جحد آثارها، لكن ما هي إلا رزايا على الإنسانية جمعاء، وما الحربان العالميتان في القرن

العشرين إلا مقدمة لحروب أكثر فظاعة وبشاعة في المستقبل، فالنظرة العامة إلى الأوضاع السياسية السقيمة في العالم اليوم - خذ سوء أوضاع أوكرانيا وتدخل روسيا وأمريكا عليها في أوائل مارس ٢٠١٤م على سبيل المثال- تبدي لنا أن الحرب العظمى في انتظار أوفق توقيت لبدئها، وترقب أشجع دول في إشعال نارها.

صحيح أنهم استطاعوا أن يبدوا لنا العجائب المادية للإنسانية، ولكنهم أخفقوا تمام الإخفاق في إظهار ما للإنسانية من العجائب الروحية، المتمثلة في حياة الأسياد الحقة السالفة الذكر، فظهروا أمام العالم -مع قوتهم الباسلة- أطفالا في عقولهم وتصرفاتهم، لا يفقهون ما لهم وما عليهم، ولا يهتدون سبيلا، وما القنبلة الذرية في هيروشيما ونجازاكي، إلا نموذج ساذج عن عدم فقههم لمعاني الإنسانية السامية، بالإضافة إلى فقد مشاعرهم وموت ضمائرهم.

ومما سبق تبين لنا أن ما قصدناه من عجائب الإنسانية، هو العجائب المادية والروحية لها على السواء، فهذا النوع من العجائب لن يتحقق للإنسانية إلا حين يؤمن ذلك المجتمع ببارئه سبحانه، وينقاد متضرعا لتعاليمه، فهذا الإيمان الصادق والعجائب الإنسانية هما اللذان يخلقان التوازن في كل ناحية من نواحي الحياة.

ولنتصفح صفحات تاريخنا لنتيقن أن الإيمان الصادق بالله وحده، هو القادر على تحقيق حياة الأسياد الحقة، واستخراج عجائب الإنسانية الكامنة، فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين، هم الذين حققوا حياة الأسياد، فهم قوم متصفون بقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾(المائدة:٥٤)، ومتسمون بقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ (الفتح: ٢٩).

ومن مظاهر عجائب الإنسانية فيهم بسبب إيمانهم أن «انقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا، فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله، انقلبت حياته ظهرا لبطن؛ تغلغل الإيمان في أحشائه، وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره، وجرى منه مجرى الدم والروح، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها، وغمر العقل والقلب بفيضانه، وجعل منه رجلا غير الرجل، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق» (٥).

أضف إلى ذلك أنهم كانوا سذجا كل السذاجة قبل إسلامهم، وما عثرنا عليه من طبيعة العرب ونفسيتهم وعقليتهم -في مقدمة العلامة ابن خلدون، وفجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين-؛ يزيدنا يقينا أنهم في منتهى التخلف علميا وثقافيا وحضاريا عن غيرهم من الأمم، ونحن بعد ذلك نستطيع أن نستبعد إمكانية تغلب العرب على الفرس والروم حينئذ، ذلك بعد مقارنة أحوال العرب السمجة بالنسبة إلى كلتا الأمتين العظيمتين. لكن ماذا حدث؟ المسلمون العرب قادرون على التغلب على الأمم المجاورة لهم. وما السر في ذلك؟ إنه الإيمان العميق بالله وحده هو الذي يستطيع أن يفعل ذلك، بتأثيره البيّن في عقلية هؤلاء العرب ونفسيتهم وأساليب حياتهم ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾(الأنعام:١٢٢).

● مبالغة المجتمع في مراعاة الناحية الأخلاقية

لعل القارئ يتساءل: لماذا أضفنا كلمة «مبالغة» إلى المجتمع؟ فنقول له: لأن الأخلاق -وهي من لوازم صدق الإيمان- لا تتكون في يوم أو يومين، ولا بد لها من تربية تدوم، وتهذيب يطول، لا سيما في مراحل النشوء، أضف إلى ذلك لوازم الانحطاط الأخلاقي الدخيلة من وسائل لا تعد التي تحيط بنا، مما تضطرنا -بعد

غرس الإيمان في النفوس- إلى بذل ما في وسعنا في مراعاة الناحية الأخلاقية.

وأخلاق المجتمع الكريمة دليل على قوة إيمانهم بالله، لأن الإيمان الصادق يستوجب المؤمن أن يكون متحليا بمكارم الأخلاق مهما كانت الظروف.. وما انغمس مجتمعنا في فساد أخلاقي، وهبوط إنساني، إلا وقلوبهم قد خلت من الإيمان، ولعل هذا ما قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يقول: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن» (٦)، ومن هنا نستنبط أن مكارم الأخلاق نتيجة حتمية لصدق الإيمان.

إذا كان الإيمان سمة روحية للإنسانية، فمكارم الأخلاق سمة جسدية لها كما أسلفنا. ولعمري، هل يصح للإنسان أن يسمى حيا، إذا كان كائنا من جسد فقط أو روح فحسب؟ كلا.. بل لا بد من كليهما. كذلك الإيمان ومكارم الأخلاق، وعلى ذلك لم يكن ديننا قليل الاهتمام والعناية بالأخلاق، بل أخذت مكارم الأخلاق مكانة عظيمة في الإسلام، حيث جعلها رسول الله ﷺ مقصدا أسمى من بعثته إذ قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (٧).

ولنتجه إلى تعاليم القرآن لنعلم مدى اهتمامها بمراعاة أخلاق المجتمع.. فمن يقرأ سورة النور -على سبيل المثال- يجدها حافلة بآداب الحياة الاجتماعية، بل آخذة سبيل الشدة على وجوب التحلي بها، كما صورها قوله تعالى في مستهل السورة: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾(النور:١)، وسبيل الحزم في إقامة الحدود على مرتكبي الفاحشة بدون تردد كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾(النور:٢). ومن هنا يتبين لنا -كما قال الأستاذ سيد قطب- «مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية» (٨).

الخاتمة

وبعد، فخلاصة ما سبق أننا إذا أردنا أن يسمو مجتمعنا بالإنسانية، فلا بد من فهم الإنسانية على وجهها الصحيح، فالإنسانية الحقة هي عندما يكون الإنسان عبدالله وحده، وسيدا لكل شيء بعده. والإنسانية الحقة هي عندما يحقق الإنسان سيادته في الكون، فيحيا حياة الأسياد الحقة، ويتصرف تصرف الأسياد، ويتصف بما اتصف به الأسياد، ويتخلق بأخلاق الأسياد.

ومع ذلك فإننا اعترفنا بأن حياة الأسياد ليست هينة ميسورة التطبيق كما أسلفنا، لكن مهما يكن صعب تطبيقها مرتقيا، فإن ذلك ليس مبررا للخنوع على الذل، والخضوع للأعراف الفاسدة، لأننا وجدنا في تاريخ البشرية مجتمعا يطبقون حياة الأسياد الحقة، وكيف تتجلى منهم عجائب الإنسانية، روحية كانت أو مادية.

ووصلنا إلى أن الذي جعل حياة الأسياد الحقة متحققة التطبيق هو إيمان المجتمع الصادق بالله، ومبالغتهم في مراعاة الناحية الأخلاقية، ذلك لأن صدق الإيمان سمة روحية للإنسانية، ومكارم الأخلاق سمة جسدية لها.. ومن ثم، فالذي يهمنا حاليا تجاه مجتمعنا، هو كيف نجعل الإيمان مترسخا في قلوبهم، ومكارم الأخلاق منطبعة في سلوكهم؟

وأصبح مجتمعنا -برسوخ الإيمان وانطباع مكارم الأخلاق- خاليا عن كوادر الأهواء الطائشة، فيجد الاطمئنان مكانه في القلوب، والأمن مستقره في البيوتات كما سبق أن قلنا، ويتحقق كون الإنسان متدينا بالفطرة فينقاد إلى تعاليم خالقه متضرعا؛ ومدنيا بالطبع فيتعاون مع بني نوعه على البر والتقوى، ويحقق معنى الإخاء فيتكافل ويتكامل. ولا شك إذا اتسم مجتمعنا بتلك الأوصاف الفاضلة، فإننا قد حققنا الخيرية في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠). والله أعلم!

هوامش

١- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (دمشق: دار القلم، ط٤، ٢٠١٠م)، ص١٩٨.

٢- محمد الغزالي، عقيدة المسلم، (دمشق: دار القلم، ط١٢، ٢٠١٢م)، ص٣٨.

٣- أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، (القاهرة: جنة الأفكار، ٢٠٠٦م)، ص٣٠٩.

٤- أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، تحقيق: عبد المنعم خفاجي وغيره، (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٩٤م)، ص٣٠٥.

٥- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٠٥.

٦- رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة.

٧- رواه البيهقي بسنده عن أبي هريرة.

٨- سيد قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق، ط٢٠١١، ٣٩م)، ٢٤٨٦/٤.



د. خالد راتب
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وكلما قوي الإيمان واشتد عوده عظم البلاء.. سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة» (١).

واشتداد البلاء لاستخراج مقامات العبودية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الأنعام:٤٢)، فالتضرع هو دعاء الله وسؤاله بذل وخشوع، وإظهار للفقر والمسكنة، وهذه الحالة يحبها ربنا ويرضاها، بل أمر عباده بها: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الأعراف:٥٥)، وقال في بني إسرائيل: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ (الأعراف:١٦٨).

ومن أعظم فوائد البلاء وساعات العسرة أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله عز وجل، والوقوف ببابه والتضرع له والاستكانة، فيحقق كمال الربوبية والألوهية، وتنطلق سهام الدعاء في كبد السماء: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ (الدخان: ١٢). قال داود عليه السلام: سبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، وسبحان مستخرج الشكر بالرخاء (٢).

وكما أن الشدائد تظهر معادن الرجال، كذلك وقت العسرة والشدة تظهر مقامات الإيمان، وكلما اشتدت مطارق العسرة علت في القلوب مقامات الإيمان، وزاد اعتماد القلب ويقينه على الله، ولاذت الجوارح بالخشوع والاستكانة.

أنت الملاذ إذا ما أزمة شملت
وأنت ملجأ من ضاقت به الحيل
أنت المنادى به في كل حادثة
أنت الإله وأنت الذخر والأمل
أنت الرجاء لمن سدت مذاهبه
أنت الدليل لمن ضلت به السبل
إنا قصدناك والآمال واقعة
عليك والكل ملهوف ومبتهل

وقد ذم الله من لا يستكين له عند الشدائد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾ (المؤمنون:٧٦).

وتتعدد مطارق العسرة وتحيط المؤمنين من جميع الجهات، حتى تطرق بشدة النفوس والأموال والثمرات، حتى تصاب بشيء من الخوف بحكم طبيعتها، قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾(البقرة:١٥٥)، كما يبتلى المؤمن في نفسه يبتلى بغيره، فيبتلى بأهله وأولاده:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ (التغابن ١٤-١٥)، ويبتلى بعدوه وبالكفار والمشركين والمنافقين: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ (آل عمران:١٨٦).

ولقد صبر الأولون وفجروا منابع اليقين والإيمان -رضي الله عنهم- في مواطن العسر والزلزلة، وظهرت مقامات التسليم والثبات والصمود، ففي محنة الأحزاب -وغيرها كثير- ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، وأحاط بهم الكفار والمنافقون، وخرجوا بطرا ورئاء وصدا عن سبيل الله، فقيل لأصحاب رسول الله ﷺ: إن الناس قد جمعوا لكم.. فما زادهم تجمعهم إلا إيمانا وتسليما، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ (آل عمران: ١٧٣).

هذا حال أهل الإيمان عند الشدائد وفي ساعات العسرة، أما حال أهل النفاق فهاكم وصفه: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ (الأحزاب:١٢)، ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَى هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾(النساء:١٤٣)، ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥﴾(الأحزاب:١٣-١٥).

رأينا صمود وثبات المؤمنين الذي تستحي منه الجبال الراسيات، وحال المنافقين الذي يشيب له الولدان، ولكن شتان بين حال وحال!! ولكن سرعان ما يزول العجب عندما تعرف أن هذا الإيمان في ساعات العسرة إنما منبعه اليقين في الله أولا، ثم في الاقتداء بخير الصامدين الثابتين ﷺ، فيتضاءل ثباتهم أمام ثبات القدوة الحسنة ﷺ، فقد امتلأت حياته بألوان متعددة من البلاء حتى قبل مجيئه إلى هذه الدنيا، فقد استقبل حياته بفقدان أبيه وولد يتيما، ثم فترة وجيزة ويفقد أمه، ثم يعوضه الله بجده وعمه، وبالأريبة الحنون السيدة خديجة -رضي الله عنها- ولكن لم تستمر الأمور على حالها، فيفقد عمه وزوجه في عام أطلق عليه عام الحزن، ليشتد البلاء عليه من السفهاء، فيبحث عن بيئة جديدة خصبة، وفيها منعة لتبليغ رسالة الله، فيذهب إلى الطائف قاطعا طريقا شاقا يقدر بخمسة وثمانين كيلو مترا، فيجد قسوة أشد وتضييقا وخناقا، ليقذفه الصبية والعبيد والسفهاء بالحجارة، فهذا البلاء وهذه الشدة تستخرج أعلى مقام الإيمان والعبودية لله، حيث رفع ﷺ يديه قائلا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» (٣).

والنبي ﷺ يلخص ما لقيه في الطائف وغيره بقوله لعائشة رضي الله عنها، عندما قالت له: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم

أحد؟، قال ﷺ: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، أن عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلاب -هكذا قال ابن طريف، وإنما هو كلال- فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مغموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا سحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، إن الله عزوجل قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك بما شئت، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» (٤).

فانظر ماذا حصل لنبينا ﷺ ومن معه من المؤمنين من عظيم المحن والابتلاء، ولكنهم في الوقت نفسه واثقون بنصر الله تعالى ووعده؛ ولذلك تساءلوا: متى نصر الله؟! قال الطبري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾(البقرة:٢١٤): «أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسوله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتبتلوا بما ابتلوا واختبروا به من البأساء وهي: شدة الحاجة والفاقة، والضراء وهي: العلل والأوصاب، ولم تزلزلوا زلزالهم، يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهد حتى يستبطئ القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى الله ناصرنا؟! ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريب، وأنه معليهم على عدوهم، ومظهرهم عليه؛ فأنجز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نار حرب الذين كفروا» (٥).

الرسول ومن معه سألوا متى نصر الله؟ ولم يقولوا أين نصر الله؟ والفرق شاسع بين السؤالين، فالأول سؤال الواثق في نصر الله وفرجه، والسؤال الثاني سؤال يشتم منه رائحة الشك والعجلة، وهذا حال من لا يعرفون سنن الله في كونه، ولا يدركون حكمة الله في عباده، فقد يتأخر الفرج والتمكين والنصر وقد يأتي سريعا، وذلك حسب مقام الإيمان من قلب العبد واستجابة العباد لربهم، أو أن التأخير يأتي لحكمة لا يعلمها إلا الله، وهذه الحكمة تصب في مصلحة العباد، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾(البقرة:٢١٦)، أو أن التأخير بسبب ما يعد لهؤلاء المتجبرين الظالمين من عقاب، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾(مريم:٨٤)، أو ليتمادى الظالم في غيه ليسطر حتفه بيده فيكون الإمهال لحكمة: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ (آل عمران:١٧٨).

وتوالي ساعات العسرة على المؤمن لا تعني استمرارها وسيطرتها، لأنه كلما اشتد البلاء، وعظمت المحنة بالمؤمنين الصادقين الثابتين فإن فرجهم يكون قريبا، وتلك سنة كونية قدرها الله سبحانه كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ (الشرح:٦).

إذا ضاقت بك الدنيا
ففكر في ألم نشرح
فعسر بين يسرين
تأمل فيهما تفرح

وليتأمل أصحاب الشدائد والابتلاءات كيف أن الله جل وعز عبر عن ساعات العسر والضيق بأنها مجرد مس لا تتمكن أبدا من المؤمن، وهي سرعان ما تتكشف ويأتي الفرج من الله، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾(البقرة:٢١٤).

ولتعلم الأمة الإسلامية أنه لم ولن ترفع مطارق العسرة وزلزلة الابتلاء إلا بالإيمان الجازم، والتعرف على الله عز وجل في الرخاء، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال له: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك» (٦). و في رواية: «احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم: أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم: أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا» (٧).

وقد كشف الله عن عبده ونبيه يونس عليه السلام، عندما أحاطته الظلمات الثلاث: ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت، بسبب أنه تعرف على ربه وقت الرخاء فعرفه وقت الشدة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ (الصافات:١٤٣-١٤٤).

كما لابد للأمة الإسلامية وشباب الصحوة على وجه الخصوص

أن يعلموا أن الخروج من عنق الزجاجة يحتاج إلى حكمة، ولا تنفع القوة وحدها.. فقد تضر بالعمل الإسلامي ويكون أول الضحايا أبناء هذه الصحوة، كما أن الخروج من الأزمات لا يأتي عفوا ولا بالخبط العشوائي، ولا بين عشية وضحاها، فالطريق طويل ولاسيما في عصرنا الذي سيطر فيه الأعداء وقوى الشر والفساد، هدفهم استئصال الأمة الإسلامية، وهذا يحتاج منا إلى نفس أطول مع الأخذ بجميع مقومات القوة، بمفهومها الشامل والكامل في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(الأنفال:٦٠). ومن إعداد القوة التفاؤل، وحسن الظن في الله، والثقة في تأييده ونصره: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:٢١٤).

هوامش

١- أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ٧/ ١٨٤ حديث رقم: ٢٩٢٠ وقال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٩٩٣ في صحيح الجامع.
٢- الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ١|٢٣.
٣- أخرج القصة بطولها ابن هشام ٢٦٠/١، ٢٦١ عن ابن إسحق عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي مرسلا، ورجاله ثقات، دون قوله: «اللهم إليك أشكو..»، وأورده الهيثمي (٣٥/٦) ونسبه للطبراني»، وفيه ابن إسحق، وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. (زاد المعاد ٢٨/٣، ٢٩، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط.
٤- أخرجه البخاري: -بدء الخلق- باب: إذا قال أحدكم آمين. والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومسلم: كتاب الجهاد والسير- باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين.
٥- جامع البيان ٤/ ٢٨٨.
٦- رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.
٧- أخرجه الطبراني (١٢٣/١١، رقم ١١٢٤٣). وأخرجه أيضا: أحمد (٣٠٧/١، رقم ٢٨٠٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، انظر: ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم ١٢٥/١.

الشيخ محمد قطب في ذمة الله



فقدت الأمة الإسلامية المفكر الإسلامي المعروف محمد قطب، بعد أن وافته المنية يوم الجمعة ٤ أبريل ٢٠١٤ في مستشفى المركز الطبي الدولي في جدة بالمملكة العربية السعودية عن عمر يناهز ٩٥ عاما.

وكان الشيخ محمد قطب إبراهيم حسين شاذلي قد سافر إلى السعودية منذ نحو نصف قرن، ليقضي الراحل بقية عمره فيها، معلما وداعية ومحاضرا ومشرفا على الأقسام والأطروحات العلمية والمناهج الدينية في المملكة، حيث تخرجت على يديه أجيال عدة تأثرت به في أساليب الدعوة، كما تأثر هو بالجيل العلمي المعاصر له في السعودية.

وزخرت حياة الداعية قطب بعدد كبير من المؤلفات في مجال الفكر والدعوة الإسلامية، كان من بينها: «الإنسان بين المادية والإسلام»، و«جاهلية القرن العشرين»، و«واقعنا المعاصر»، و«منهج التربية الإسلامية»، و«حول تطبيق الشريعة».

ويعد محمد قطب في نظر كثير من الباحثين الإسلاميين علامة فكرية بارزة، وصاحب مؤلفات مهمة؛ لعنايته بجانب الربط بين مضامين الدين والواقع المعاصر. وكان ممن نبه باكرا إلى خطر الصدام مع الأنظمة السياسية في العالم العربي، وكان يرى أن تتم تربية المجتمعات على الفكر الإسلامي أولا، مستدلا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٥).

هو محمد قطب إبراهيم، ولد في ٢٦ إبريل ١٩١٩ في بلدة موشا بمحافظة أسيوط في مصر، وكان والده (قطب إبراهيم) من المزارعين في تلك الناحية، وكان محبا للمطالعة، مقبلا عليها، فهو يعتبر من مثقفي قريته المهتمين بالأمور العامة، وبذلك كان موضع الاحترام والتقدير من أهلها، وعدوه من أصحاب الرأي فيهم، بالإضافة إلى مكانة أسرته بينهم.

أما والدته، السيدة فاطمة، فهي تنتمي إلى أسرة عربية محبة للعلم، وقد تلقى إخوتها دراستهم في الأزهر، وبرز منهم أحمد حسين الموشي، الذي امتاز بمواهبه الأدبية والقلمية، إذ كان شاعرا أديبا، وقد اشتغل بالصحافة والسياسة، فأحرز شهرة في كلا الميدانين. من هنا كان تأثر السيدة فاطمة، فنشأت محبة للعلم والثقافة، وقررت أن تبعث بولديها سيد ومحمد إلى القاهرة ليتلقيا تعليمهما هناك. ففي القاهرة بدأ الفتى محمد دراسته من أولها، فأتم المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة، حيث درس اللغة الإنجليزية وآدابها، وكان تخرجه فيها عام ١٩٤٠م. ومن ثم تابع في معهد التربية العالي للمعلمين فحصل على دبلومه في التربية وعلم النفس.

نحو ثقافة مثلى للطفل العربي

رفعت بروبي - باحث تربوي



● لقد جاءت توجيهات الإسلام لرعاية النشء من قبل أن يكون الطفل، حيث شملته الرعاية الإلهية وهو ما زال في بطن أمه، حملا، ثم جنينا في أحشائها، ورضيعا، ثم طفلا متفتحا لاستقبال الحياة بما فيها، ثم شابا تجري في عروقه دماء الحيوية.

● من هذا المنطلق حث الإسلام الوالد على رعاية ولده، والوالدة على السهر على ولدها، ولقد كان رسول الله ﷺ يحث الناس على رعاية أولادهم وحسن تربيتهم، وكان ﷺ يوازن بين العطف والرحمة والمرح مع الأطفال وبين التوجيه الجاد والتربية الصحيحة، قال ﷺ: «ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن».

● بداية نذكر أن صياغة فكر الطفل يتم تأسيسها منذ نعومة أظفاره، فيشب على ما شاهده، وتتعود عيناه على ما يطالعه في مجالات مختلفة، وتتعود أذناه على سماع ما زرع في وجدانه، وذلك في وجود القدوة، متمثلة في والديه، وحسب قول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا

على ما كان عوده أبوه

● ومن هنا تتضح أهمية وجود القدوة الحسنة للطفل داخل الأسرة ذاتها، يتشرب منها عاداته وتقاليده وفكره وكل شيء يراه. وصياغة فكر ووجدان الطفل الصياغة الثقافية الصحيحة وزرع المبادئ والقيم الخلقية فيه منذ الصغر ترسمان له طريق حياته ومستقبله، بل نستطيع القول إن ما ترسخ في وجدان الطفل سيكون النبراس الهادي له الذي يستضيء به وينير حياته المستقبلية.

● وثقافة الطفل تمر بمرحلة شائكة ومنعطف خطير يجب العمل على تصحيح مسارها من الآن، والعمل على ذلك باكرا قبل أن تستفحل المشكلة، وهذا يتطلب العمل الجاد وأن تؤخذ الأمور بجدية، ويتم العمل بنشاط ودون تراخ. وبداية يجب تعويد الطفل على التوجه إلى كتب معينة تم وضعها بواسطة خبراء في تربية الطفل؛ كي نضمن عدم احتواء تلك الكتب على سموم وأفكار مستوردة من معامل الغرب. كما يجب على أفراد الأسرة الترحيب بأي أسئلة يوجهها الطفل إليهم، وبالذات الأب والأم، وإنشاء علاقة حميمة بين الطفل والكتاب الذي ينتقيه له الأب. وهنا يقول الدكتور أحمد كامل «إن الأطفال الذين لم يشهدوا الكتب وهم صغار حدث لهم جفاء وهجر وملل للكتب وهم كبار، لأنهم لم يألفوها، وتلك مشكلة عدم وعي الأسرة. وإن رؤية الأطفال للكتب والجلوس أمامها من الأمور التربوية لجذب نظر الأطفال إلى الكتب والتعود على التعامل معها، كما يعطي أمانا

وحسن الجوار لما تحويه من معرفة».
● ومن المهم جدا أن نقوم بصب الثقافة العربية الأصيلة في عقل الطفل ووجدانه، وأن يتشبع بها تشبعا تاما بما ينعكس بالإيجاب على سلوكياته عامة وعلى فكره ووجدانه خاصة، وهذا يجرنا إلى القول إنه يجب علينا المحافظة على ثقافتنا العربية القوية وأن نقبض عليها بيد من حديد حتى لا نقع في يد ثقافة مصنوعة ومخصصة ومعلبة لاستهلاكنا الثقافي بشكل يهدم قيمنا وعاداتنا وثوابتنا وموروثاتنا، وهي أمور يصعب تنفيذها إذا توانينا عن السير في طريقها واخترنا السير في الطريق السهل الممتلئ بالأشواك. وفي هذا يقول الأستاذ عبدالتواب يوسف «إننا نؤمن بأن لكل شعب ولكل أمة وكل بلد ثقافته الخاصة، تتدفق عبر الحاضر من الماضي ولا بأس من روافد تصب في هذا النهر لتضيف إليه وتثريه، أما محاولة اقتلاع ثقافة ما وإحلال أخرى مكانها فأمر غير مقبول ولا معقول، ولقد حاول الاستعمار القديم وأخفق، كما حاولته معنا الكتلة الشرقية إبان الحرب الباردة ولم تنجح في صبغ نهر ثقافتنا بلونها الأحمر». ثم يعود الأستاذ عبدالتواب يوسف ليطمئن قلوبنا فيقول: «إن ثقافتنا العربية عريقة وأصيلة وعميقة الجذور ويستحيل اقتلاعها، ونحن لا نريد لعقول أطفالنا أن تصبح رفوفا توضع عليها أحدث ما تنتجه التكنولوجيا، بل نريد لعقولهم أن تتدرب وتتجهز لتكون فاعلة ومشاركة في صناعة وإبداع التكنولوجيا كل ذلك في إطار قيمي وخلقي يقوم بعملية تنمية للطفل قبل تنمية الثروة المادية. فكل الأديان تحث على بناء الطفل بناء لا عوج فيه، وديننا الحنيف يدعو إلى بناء الطفل على الفطرة التي خلقها الله عليها وهو سبحانه وتعالى أعلم بخلقه». ولقد فطن العالم إلى أهمية تنمية الإنسان قبل تنمية الثروة فجاء في إعلان كوكويورك عام ١٩٧١ ما يلي «يجب أن تهدف التنمية إلى تطوير الإنسان لا تطوير الأشياء». وأيضا يجب ألا ندع أطفالنا عرضة للتيارات الثقافية القاتلة الوافدة من الخارج، سواء كانت روايات أو قصصا أو أفلاما كرتونية أو أفلام خيال علمي... إلخ، والتي تم صنعها في مجتمعات غريبة عنا في تقاليدها وعاداتها وقيمها وموروثاتها وتاريخها. ويجب أن نفهم الطفل أن لدينا الكثير والغزير من ثقافتنا الأصيلة، وأن لدينا ثقافة وأدبا يضاهيان نظيريهما الوافدين، بل إنهما يتفوقان عليهما، بفضل ثقافتنا الأصيلة ونبعها الروحي والديني الصافي والخالي من الشوائب، لأن ثقافتنا تتصل بتاريخنا وماضينا، وهما ينميان الهوية بما لا يدع مجالا للشك. ونذكر في هذا المجال أن ثقافتنا العربية ذات أصول ثابتة على مر الأيام والعصور، وهي التي أنارت حضارات الكثير من البلدان وما زالت تعطي وتمنح اللغة العربية دورها في هذا المجال.

ونحن ننبه إلى ضرورة تنشيط دور الكتاب والهيئات المنوط بها العمل في مجال ثقافة الطفل العربي للنهوض بواجباتها والتنسيق فيما بينها وبين أقطار العالم العربي، وصد محاولات الغرب الهادفة المباعدة بين أطفالنا واللغة العربية العريقة، وصد محاولات الغرب لمشايعة اللغة العامية وترسيخها في أقطارنا حتى نفقد الركن الرئيسي في ثقافتنا وهو اللغة العربية.

التجربة الرائدة

● ونذكر هنا تجارب بعض من تصدوا لهذه الهجمات الشرسة، ومنها تجربة د. عبدالله الدنان، التي تظفر برعاية كثيرين يتحمسون لها، وعلى رأسهم الأمير خالد الفيصل، الذي تفضل مشكورا بتعميم هذه التجربة في منطقة عسير في السعودية، حيث تم إنشاء دور حضانة (رياض أطفال) لا تستخدم فيها إلا الفصحى في مخاطبة الأعمار الصغيرة. كذلك تم إنشاء «جمعية لسان العرب» التي يرأسها دكتور عاطف نصار، والتي عقدت مؤتمرها السنوي التاسع بمقرها في جامعة الدول العربية بالقاهرة. كما قامت «جمعية اللغة العربية» برئاسة الدكتور كمال بشر، وهي تقوم بدور كبير بجانب المجمع اللغوي ووزارة التربية والتعليم لإعادة اللغة الفصحى إلى الألسنة والأقلام. وجدير بالذكر في هذا المجال أن ننبه إلى ضرورة وجود القدوة التي تشكل العامل الرئيسي في إنماء شخصية الطفل الثقافية، فالقدوة هي البوصلة التي تضبط مسار الطفل، فيلزم وجود الأب – مثلا- الذي يجمع أولاده حوله كل ليلة في جلسات سمر يشربهم فيها المثل والقيم والعلم والخلق والبلاغة، حتى يتجنب الكثير من الآفات الفاغرة أفواهها في انتظار التهام وليمتها، وهم الأطفال، وحتى نقضي على «آفة الأسرة النووية» التي يتحدث عنها فلاسفة الغرب، حيث ينعزل أفراد الأسرة الواحدة بعضهم عن بعض أمام شاشات التلفزيون.

وهذا من شأنه إضعاف العلاقة الحميمة بين أفراد الأسرة الواحدة ويبعث على انعزال كل فرد بعيدا عن الآخر حتى عن الأب والأم.

إن الطفل العربي في أمس الحاجة إلى الترابط الوجداني الأسري والقيادة الواعية والقدوة الحسنة المتمثلة في الأب كرمز قيادي للأسرة العربية، والأم التي تلزم الطفل دائما حتى في فترات تغيب والده في عمله خارج المنزل. والواجب على الوالدين التنبه إلى ما يقدمان للطفل في هذه المرحلة الحرجة من حياته، فإن ما يقدم للطفل من ثقافة لهو الهادي له طوال حياته المستقبلية فهو الذي يحدد معالم شخصية الطفل وقيمه وعاداته وتقاليده، وإنها لمسؤولية كبرى نأمل أن ينهض بها الأب وأن تهتم بها كل أم؛ لنضمن تخريج أجيال يحملون الثقافة العربية الأصيلة ويشقون طريق حياتهم من خلال هذه القيم والسلوكيات والصادرات والموروثات الثقافية الأصيلة.

من خلال ورقته العلمية في المؤتمر الدولي لمركز الأبحاث والاستشارات الاجتماعية:

الجميل لـ «الوعي الإسلامي»: دمج مجهولي الأبوين في الأسر البديلة ضرورة

محمد عبدالعزيز - الكويت

مجهول الأبوين هو المولود الذي لا يعرف نسبه، بعد أن طرحه أهله خوفا من العيلة، أو فرارا من مهمة التربية. وقد عرض أستاذ الإدارة التربوية في كلية التربية في جامعة حائل في المملكة العربية السعودية الدكتور عبدالله بن حمود الجميل، بحثه حول المشكلات النفسية والاجتماعية لمجهول الأبوين في المؤتمر الدولي الثالث لمركز الأبحاث والاستشارات الاجتماعية - لندن، ومؤتمر الرابطة الأكاديمية الأول حول موضوعات العلوم الاجتماعية والإنسانية في العالم الإسلامي، تحت شعار «البحث العلمي ركيزة لحل المشكلات»، والذي أقيم في معهد الكويت للأبحاث العلمية في فبراير الماضي. وكان لـ«الوعي الإسلامي» هذا اللقاء معه للتعرف على الخطوط العريضة لبحثه، الذي يتناول هذا الموضوع الحساس النادر التطرق إليه في عالمنا العربي.

● بداية، ما القيمة التي تسعى إلى ترسيخها من خلال بحثك؟

- من محاسن ديننا ومزاياه ما جاء به من الحث والتأكيد على التكافل بين أفراده، واهتمام بعضهم بشأن بعض، فالمؤمنون إخوة متحابون، ورباط الإيمان بين أهله كرباط النسب والقرابة ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة:٧١).

ويوضح نبينا ﷺ حال أهل الإيمان فيقول: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (متفق عليه). لذلك، فإن التكافل الاجتماعي هو المعنى والقيمة الأبرز اللذان سعيت إلى ترسيخهما من خلال البحث.

ومن مظاهر هذا التكافل بين أفراد المجتمع الاهتمام برعاية الأيتام، وتأكيد ذلك ما بيّنه الله سبحانه من فضل هذا العمل ومن صفات الأبرار: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ (البقرة:١٧٧). وقال فيهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ (الإنسان:٨). وعاب الله تعالى من لا يكرم اليتيم فقال: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ (الفجر:١٧). وقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى





الجميل في حواره مع المحرر

يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾ (الماعون:١ و٢).

وقد قال النبي ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى» (متفق عليه). وقال: «من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات» (رواه أحمد بسند صحيح).

من أجل كل هذا فقد عني الإسلام بمجهول الأبوين، فأوجب التقاطه وحرم إهماله. وكذلك ألحقه باليتيم، إذ المعيبة عليه أعظم، فهو بلا هوية: لا أهل أو أقرباء. وبالتالي، لا حقوق نسب ولا نفقة ولا ميراث.

ولذلك، قرر العلماء أن اليتيم ليس من فقد أباه فقط، لكنه أيضا كل لقيط وكل من فقد العلم بنسبه، بل إن مجهول الأبوين هو أشد حاجة إلى العناية والرعاية من معروف النسب؛ لعدم معرفة قريب له يلجأ إليه عند الضرورة.

• وعلام يدل ذلك، وما القصد من البحث؟

- يدل ما سبق على عدم الاهتمام من قبل معظم دور الحضانة والرعاية أو الجمعيات الأهلية بفئة الأطفال مجهولي الأبوين. بالإضافة إلى تجاهل العديد من دور الإيواء لأهمية اختصاصي التغذية، فتقوم بتقديم وجبات موحدة وفق نظام الدار لا وفق ما يحتاج إليه الطفل من غذاء. وكذلك غياب المشرفين والمشرفات المتخصصين والحاصلين على شهادة عليا من أجل التمكن من أداء واجباتهم تجاه هذه الفئة على أتم وجه. أيضا الحاجة الحقيقية للحب والحنان والعطف وليس الشفقة من أجل الشفقة.

والقصد من ذلك التعامل مع مجهول الأبوين بكرامة واحترام، هو الاحتواء من أجل تعزيز المشاعر الإيجابية لديه ومساعدته في التغلب على المشكلات النفسية والاجتماعية، والاندماج في المجتمع بشكل طبيعي. وقدمت هذا البحث في محاولة لإظهار المشكلة على السطح وتناولها بشكل علمي من أجل أخذها بعين الاعتبار، وإجراء المزيد من الدراسات والبحوث العلمية لمواجهة التهميش والإقصاء اللذين يعاني منهما كثير من مجهولي الأبوين في البلدان العربية.

• وما أهم المحاور التي استندتم إليها في بحثكم حول مجهولي الأبوين؟

- يعد موضوع مجهولي الأبوين في المجتمع العربي موضوعا حساسا ومن النادر أن تتناوله وسائل الإعلام والندوات والأنشطة الاجتماعية بصورة إيجابية أو إنسانية، وهذا ما أكده كثير من العلماء. وعلى هذا الأساس حاولت من خلال البحث فتح آفاق جديدة في هذا الموضوع الإنساني من خلال محاور معينة، هي: أولا، وجود أطفال قد حرموا من الأسرة، مما يعني حرمانهم من الحب والحنان والعواطف والمشاعر الإيجابية. ثانيا، إن المجتمعات العربية لا تزال تنظر إلى فئة مجهولي الأبوين نظرة دونية مقارنة بالمجتمعات الغربية. ثالثا، محور يتعلق بتعقيد بعض الإجراءات الروتينية في دمج مجهول الأبوين في الشهور الأولى مع الأسر البديلة. بالإضافة إلى محور يتعلق بعدم تخصص بعض المشرفين أو المشرفات في دور الحضانة ودور التربية الاجتماعية. وأخيرا، غياب الحلول العملية لمشكلات مجهولي الأبوين في وزارات الشؤون الاجتماعية بالبلدان العربية.

• وما المؤسسات الاجتماعية الإيوائية التي يناط بها حماية مجهولي الأبوين؟

أولا: مراحل دار الحضانة: تعد أول مرحلة لرعاية الأطفال المجهولي الأبوين، من مرحلة الرضاعة بعد الولادة حتى سن ٦ سنوات.

ثانيا: مراحل دار التربية الاجتماعية: توفير أسباب الرعاية الكاملة للأطفال من سن ٦ سنوات حتى ١٨ سنة.

ثالثا: مؤسسات التربية النموذجية: تكوين جو أسري قريب لجو الأسرة الطبيعية من خلال محاكاة النظام الأسري بوجود الأم البديلة والخالة والأخت الكبرى والعمة، ويمكن أن يستقل خارج دور التربية بعد سن ١٨

سنة، وتحت إشراف وزارة الشؤون الاجتماعية.

رابعا: الأسر البديلة: تقدم الرعاية للطفل الذي يتناول حقوقه الأسرية المكفولة، من حضانة ورعاية ونفقة وتنشئة، رغبة في الأجر من عند الله.

خامسا: الجمعيات الخيرية الأهلية: جمعيات أهلية بدأت على يد مجموعة من أهل الخير تقدم خدماتها لمجهولي الأبوين من حضانة ورعاية ونفقة وبرامج خدمية وتربوية وتعليمية.

• وما المشكلات النفسية التي من الممكن أن يعاني منها مجهولو الأبوين؟

– لمجهولي الأبوين مشكلات نفسية عديدة، نذكر منها القلق والاكتئاب والعناد، بالإضافة إلى مشكلة تطرف الانفعالات النفسية المتمثلة في: انفعال الخوف المرضي، وانفعال الغضب، وانفعال الغيرة، فضلا عن مشكلة الجوع العاطفي.

• ما المشكلات الاجتماعية التي رصدتها في بحثكم بشأن هذه الفئة؟

– مشكلة العزلة الاجتماعية، ومشكلة العدوان والعنف الاجتماعي، والمشكلات السلوكية التي تؤثر على علاقة هؤلاء الأطفال بالمجتمع: مشكلة السرقة، ومشكلة الكذب، ومشكلة التأخر الدراسي.

• برأيك.. ما دور المؤسسات المجتمعية في وقاية مجهولي الأبوين من تلك المشكلات؟

أولا: ضرورة دمج الأطفال مجهولي الأبوين في المجتمع من خلال الأسرة البديلة، التي تعتبر البيئة الأمثل والأفضل لتنشئة الطفل، منذ الشهور الأولى.

ثانيا: احترام مجهولي الأبوين واحتواء مشاعرهم وصون كرامتهم، بعيدا عن النظرة الدونية والطبقية والعنصرية، والعمل على إشباع حاجاتهم النفسية من حب وحنان وعطف وانتماء. ومن الأهمية بمكان، التوعية الإعلامية المكثفة للمجتمع بحقوق مجهولي الأبوين، وأنهم مثل الأيتام في فضل كفالتهم ورعايتهم، وتفقد أحوالهم، وإشراكهم في مختلف المناسبات الخاصة والعامة بما فيها المناسبات العائلية. ولا يمكن إغفال دور إعداد المشرفين والمراقبين (من الرجال أو النساء) المتخصصين في المؤسسات الاجتماعية الإيوائية إعدادا دينيا وعلميا وتربويا، بما يساعدهم على حسن التعامل معهم.

• هل من نماذج لمجهولي الأبوين مبدعين في العالم؟

– نعم، كثيرون، وأذكر منهم: سمير محمد (صاحب كتاب «إبداع في قيادة الذات»)، وستيف جوبز (مخترع، وأحد أقطاب الأعمال في الولايات المتحدة).

• وما البحوث والدراسات المستقبلية التي تقترحونها؟

– الدراسات المستقبلية متعددة في هذا المجال، منها ما قدمنا به مقترحات للبدء به في المستقبل، مثل: إجراء بحوث علمية تقف على حقوق مجهولي الأبوين التي يستحقونها من المجتمع بجميع مؤسساته الاجتماعية. وإجراء بحوث علمية لتحديد الاحتياجات التدريبية من أجل إكساب مجهولي الأبوين مهارات التواصل الاجتماعي والتغلب على العديد من المشكلات النفسية والاجتماعية. وإجراء بحوث علمية عن سبب عزوف بعض الأسر عن احتضان مجهول الأبوين كأسر بديلة. بالإضافة إلى مقترح عمل دراسات مسحية وتحديد الأعداد الحقيقية لمجهولي الأبوين. كما أن إنشاء مراكز معلومات في العالم العربي سيكون له أثر في علاج المؤثرات السلبية، وإجراء بحوث علمية تحدد العلاقة بين المشرفين والمشرفات ومجهولي الأبوين، من حيث التعامل والتوجيه والإرشا

بعض الأمثلة لعدد مجهولي الأبوين في البلدان العربية حسب المصدر

السنة	المصدر	عدد مجهولي الأبوين	الدولة
٢٠١٠	وزارة الشؤون الاجتماعية بالسعودية	١١٥٧ طفلا	السعودية
٢٠١٣	الإمارات اليوم	٧٣٣ طفلا	الإمارات
٢٠٠٨	جريدة القدس اللندنية	٢٧٠ ألف طفل	مصر
٢٠٠٩	آفاق العروبة	١١٠٠ طفل	السودان
٢٠١٣	صحيفة الخبر الجزائرية من ١٩٩٩ إلى ٢٠٠٧	٢٧٤٠٠ طفل	الجزائر

الشعب النموذج

إسلام مهدي
باحث في العلوم الزراعية

يحتاج المصلحون دوما إلى نموذج كامل يقيمون عليه أساس أعمالهم، ويهتدون به في طريقهم إلى استنهاض الأمة من رقدتها والانطلاق بها. وفي ظل قصور النماذج التي نراها في واقعنا، لا شك أن كل مصلح يعاني في قرارة نفسه مما فاته من شهود النموذج النبوي المعصوم، ويود لو كان حاضرا نموذج الخلافة الراشد، فلا شيء يتعلم منه الإنسان أكثر من الشهود والممارسة. لذا، سأتكلم هنا عن شعب حقيقي مختار نتخذه نموذجا نحذو حذوه لننطلق في الطريق.. رغم أنه ليس من شعوب البشر!

إنه «شعب النحل».. فأنت حين تنظر في أمة النحل تجد كل خلية أو عش نموذجا صارما لأمة محكمة النظام، مهدية المنهج، مؤتلفة البناء، باقية لآلاف الأجيال.. تجد شعبا منهمكا في عمله لا يتم اختيار أحد منه لوظيفته إلا بناء على الموهبة والكفاءة وحدهما، فلا تفضيل للمقربين «الثقات»، ذلك أن مفهوم «الثقة» في عالم النحل لا ينبني إلا على الكفاءة.

وتتمثل أهلية فرد الشعب (الشغالة) لعمل ما في جاهزيتها له؛ بحيث لا تقوم بمهمة إلا حين تنضج أعضاء جسدها اللازمة للقيام بها(١).



لن تجد نحلة عقيما طلب منها وضع البيض، ولن تجد نحلة عمياء تم تعيينها في قسم الحراسة، فالتكليف مبني على الموهبة والكفاءة فقط.. هذه خلية النحل التي تريد أن تستمر آلاف السنين وليس مجتمعا بشريا يريد تدمير نفسه بنفسه.

وأول ما تقوم به الشغالة فور خروجها من العين السداسية، حيث تمت حضانتها (الطفولة والمراهقة)، هو أن تنظف موضعها ليستقبل الحضنة الجديدة من بعدها. وهي حين تنظف مكانها فإنها تعود لتدخل العين السداسية، حيث سكنت وهي بعد صغيرة ضعيفة (٢)، تعود، لا لتبقى فيها، ولكن لتأكل جلدها القديم (٣)! ذلك الذي انسلخت منه لتصبح شغالة ناضجة: تأكل تاريخها وتهضمه حتى لا تنساه، تأكل تاريخها ليخالط أعضاءها فيكون جزءا من تكوينها، بينما يرى المسلم المغترب عن دينه أنه لن يتقدم حتى يلقي تاريخه خلف ظهره!

وبعد مرور ٣ أيام من إجراء التنظيف وهضم التاريخ يبدأ نضج غدد إفراز الغذاء الملكي (لبن النحل).. ولم يكن لهذه الغدد أن تنشط دون التغذية على جلد الانسلاخ القديم؛ فلا مستقبل من دون تاريخ. كان لا بد لها أن تهضم التاريخ حتى تفرز المستقبل.. ويبدأ إفراز الغدد الملكية ضعيفا، فيسمح لها فقط بخلط حبوب اللقاح (الطلع)؛ تخلطها لتصنع منها «خبز النحل» فتغذي عليه الحضنة الكبيرة السن التي ما زالت في العيون السداسية توشك أن تخرج منها. لقد أصبح لديها شيء تقدمه للأجيال القادمة بعد أن هضمت التاريخ، فأين

هذا ممن يدعون أن عندهم الحل والإصلاح وهم لم يعرفوا تاريخ أمة الإسلام، بل لا يريدون البناء عليه، ويدعون أن عندهم الحل وأنهم من المصلحين؟! إن فاقد الشيء لا يعطيه.

ومع ممارسة الشغالة لرعاية الحضنة فإن ذلك المجهود يحرق مزيدا من الدهن المخزون في جسد الشغالة، وينضم إلى الحريق وقود من حبوب اللقاح التي تبدأ الشغالة في التغذية عليها (٤). ويكون ناتج هذا الحريق وقودا سائغا لعملية نضج جديدة. فيتم نضج غدد إفراز الغذاء الملكي ويحسن إنتاجها ويصبح غزيرا.. تماما كالأم التي تلد للمرة الثانية فيصبح لبنها غزيرا يكفي وليدها ويفيض.

ومع غزارة الإنتاج تأتي سعة المسؤولية، فهي أيام كانت ضعيفة الإفراز كانت تهتم بالحضنة الكبيرة السن (٥) وهي مثيل طلاب الثانوية والإعدادية في عالمنا البشري يحتاجون إلى التوجيه أكثر من التأسيس، ويطلبون كماليات الغذاء أكثر مما يطلبون الغذاء نفسه. أما حين يتم نضج غدد الإفراز فتتوجه الشغالات إلى العناية بالحضنة الصغيرة السن (٦) وهي مثيل لطلاب روضة الأطفال والابتدائية في عالمنا البشري، وهؤلاء لن يصلح حالهم بالتوجيه وحده، بل لا يتم أمرهم إلا على التأسيس الراسخ والبناء المتين. وفي هذا إشارة كونية إلى وجوب تخصيص المعلم الأكثر خبرة وعطاء -وهو الأكبر سنا- للطلاب الأصغر، حيث يحيطهم بالرعاية الأبوية ويربيهم بالحنان. بينما يخصص المعلم الأقل خبرة -وهو أصغر من الآخر- للطلاب الأكبر سنا لتيسير التقارب الفكري والنفسي، فيطرح المراهق مشكلاته على معلمه دون وجل ولا خجل.

ولك أن تتصور كم الجهد المبذول في تربية الحضنة، إذ إن الحضنة الواحدة من النحل تتلقى ١٣٠٠ زيارة يوميا، وتستمر الزيارة الواحدة من ٠,٥ دقيقة إلى ٣ دقائق (٧)! يجري خلالها إمدادها بالغذاء وفحصها للاطمئنان على صحتها ودراسة معدنها في هذا العمر الصغير! ويتم حصر من تصلح أن تكون ملكة في المستقبل، فإذا كانت الملكة الحالية كفؤا تُركت الشغالة على حالها، وأمّا إذا كانت الملكة تتخبط ولم تعد قادرة على الحكم فإن الشغالات تهتم بتغذية من تصلح أن تكون ملكة جديدة. إن النحلة تفرز صغارها لترى فيها أمارات القيادة، لكنها لا تقدم أحدها للحكم إلا إذا رأت الحاكم غير صالح، أو إذا كان أكثر صلاحا من الحاكم الحالي، ولا تختار من بين المرشحة للحكم إلا الأصلح، وبالطبع لا تختار للحكم إلا من نشأت في كنف الخلية ورضعت لبن شغالاتها بحيث ترث التاريخ فتحكم به المستقبل، فتأمل!

وإذا حصرت عدد الشغالات التي تهتم باليرقة الواحدة طوال مدة حضانتها وجدته قرابة ٢٨٠٠ (٨)، بحيث تهتم الشغالة الواحدة بالعديد من الحضنة. وتتلقى الواحدة من الحضنة رعاية العديد من الشغالات، فإذا علمت أن الخلية الواحدة قد يسكنها ٢٠٠٠٠-٦٠٠٠٠ نحلة (٩)، فتأمل توزيع مسؤولية التربية على المجتمع كله، وحقيقة احتواء المجتمع للحضنة (الأطفال والمراهقين)، وراقب قوة العلاقات الاجتماعية التي تنشأ في هذا المجتمع المثالي الضخم، ثم انظر إلى أولاد المسلمين تجد أنهم قد تم التخلي عنهم وتسليمهم إلى التلفاز أو إلى مربين من غير المسلمين يخرجونهم في النهاية تابعين، نفسيا وعقليا، لأمم أخرى غير أمة الإسلام!

والعجيب أن النحلة تحرص كل الحرص على أمان الحضنة كما تحرص على تربيتها! فالخلية تكون مرتبة في أقراص متراصة، لا تكون فيها الحضنة إلا في الأقراص الوسطى، فتضع الملكة البيض في القرص الأوسط، وتجد الحضنة الأكبر سنا في الأقراص الأبعد، ثم تحيط أقراص العسل بالحضنة من كل اتجاه، كل هذا من أجل حماية الحضنة من الآفات والدخلاء على الخلية، وتجعل العسل درعا لحماية الحضنة وتدفئتها. النحلة إذن لا ترى شيئا أكثر أهمية من الحضنة، ولا حتى العسل.. العسل «ثروة النحل» التي تجمعها بمشقة وعناء قطرة من كل زهرة. فأين الملقون بأولادهم يتسكعون في الطرقات متاحين لكل خطر ويتعللون بانشغالهم في طلب المعاش وتوفير الرفاهية قبل ضرورات الحياة؟!

وإذا فرغت الشغالة من رعاية المراهقين (الحضنة الكبيرة السن)، واستقر في غريزتها أهمية أقراص العسل التي تراها حولها وهي ترعى الحضنة، فإنها تسارع إلى مهمة جديدة، وهي تسلّم الرحيق وحبوب اللقاح من الشغالات التي تجمعها من خارج الخلية (١٠)، فتحفظ الرحيق في بطنها قليلا وتفرز عليه الإنزيمات التي تركزه وتحوله إلى عسل فـ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ (النحل:٦٩)، لتسكبه في العيون السداسية، حفظا وادخارا، وكذلك تحفظ حبوب اللقاح وتضيف إليها بعض العسل لحفظها.

وعند تمام اليوم الثاني عشر من عمر الشغالة يقل نشاط غدد الغذاء الملكي (لبن النحل)، وتنشط غدد إفراز الشمع، الذي يخرج في شكل قشور على بطن النحلة، فتتلقفه بأيديها، وتعجنه بلعابها، وتبني به مساكنها في تؤدة وروية. وتضحي النحلة بالعسل من أجل الشمع! فكل كجم من الشمع ينتج عن استهلاك النحل من ٥ إلى ٢٥ كجم من العسل وفق درجة الحرارة (١١). وكلما احترت النحلة كان إفراز الشمع أكثر يسرا وكان استهلاك العسل أقل. لم يكن للنحلة أن تكتسب خبرة البناء إلا بعد فترة الدأب والصبر في تربية الحضنة، ولم يكن للبناء أن يتم إلا بالتضحية بالمكاسب والمدخرات، ولا

يكون البناء أكثر يسرا إلا في حرارة الفتن والأزمات! ليس كل الناس يصلحون للبناء.. لا يعرف البناء إلا من يعرف الماضي والمستقبل، لا يعرف البناء إلا من هضم الماضي ثم ربى للمستقبل، ولا يعرف البناء إلا من يضحي بكل المكاسب ويصبر على الفتن والأزمات من أجل بقاء الأمة وتوسعها ومجدها.

وحين يهل اليوم الثامن عشر من عمر الشغالة تنتهي مهمة البناء لتبدأ المهمة البديهية بعده: حراسة البناء (١٢). فمن يحرس البناء إلا صانعه؟! وكيف لمن لا يعرف البناء أن يضحي من أجله؟! إن غدد الشمع تضمر لتنشط غدد السم فتغذي ذبان النحلة بمواد خاصة تقتل المعتدين على الخلية أو تؤلمهم فتدفعهم للهرب. وكل نحلة تلسع عدوا تفقد ذبانها وغدد السم فيها وتموت! غدد السم التي هي في أصلها مثيلة الرحم والمبايض عند إناث البشر.. أترى امرأة تضحي بها لتتحول إلى سلاح تقتل به المعتدين؟! نعم، إنها المرأة التي تربي فتى ليكون مجاهدا شهيدا في سبيل الله، يروي أعتاب أمته بدمه، ويجعل لحمه سمادا يغذي شجرة عزتها ومجدها.. فطوبى للأم من شغالة حارسة وطوبى للابن من ذبان لاسع.

ويستقر في غريزة النحلة أن كل شغالة في أمتها ستكون يوما حارسة أو شهيدة! وهنا تتكامل فكرة الحراسة عنها في واقعنا اليوم، ففي عالم النحل يحرس الحضنة من رباها وغذاها من فمه، ويحرس البناء من صنعه وأفرزه، ويحرس العسل من ركبه في بطنه. فتكون الحراسة مبنية على عقيدة يقينية وضرورة ملحة، فتصبح التضحية بالحياة سهلة. بينما لو كان الحارس ينشأ حارسا لا يعرف التربية ولا البناء ولا الصناعة ولا الادخار ولا الصمود للضغوط والفتن؛ فإنه يكون هش العقيدة سهل الفتنة، بل ربما يصبح يوما ما حربا على الخلية وفتنة لأهلها، إذ تغريه سطوته السهلة، ويضلله أعداء الخلية بالإغراء.

وحين تضمر غدد السم تنتهي الحراسة، وتتقدم الشغالة في العمر فتتحول إلى تاجر يجمع ولا يشتري.. فكل شعب أو مجتمع، من الإنسان والحيوان، يحتاج إلى غيره ليصنع غذاءه. ولذلك، حين تفرغ النحلة من آخر مهامها في الخلية مع ضمور آخر غدة موهوبة من الرب لهذه المهام، فإنها تتفرغ لجمع ما تحتاج إليه الخلية من ماء ورحيق وحبوب لقاح وبروبوليس (١٣)، (أدوية ومضادات حيوية تفرزها النباتات طبيعيا في صورة صمغ).. وحين لا تستطيع الشغالة المشاركة في التربية والبناء والحراسة، فإنها تمد العاملين بموادهم الخام، وتدفع عجلة الحياة، وتعمل على نهضة شعبها غير طامعة في منصب هو محجوز قدرا لصاحب الموهبة.. الملكة.

وأنت ترى شعب النحل هو الأكثر تطبيقا لمفهوم النهي عن المنكر، فكما أن النحلة الحارسة لا تدع دخيلا يخترق الخلية، فإنها كذلك تفرض رقابة صارمة على سكان الخلية ذاتها، فإذا دخلت نحلة تاجرة تحمل رحيقا مسموما جمعته من زهرة ملوثة أو رحيقا مختمرا مسكرا جمعته من زهرة ميتة، فإن الحارسة تقتلها؛ صيانة للخلية من الفساد.. إنها حارسة لأمان الشعب من ناحيتين: الأمان البدني والبنائي، وكذلك البناء الخلقي. وإذا حدث وكان الدخيل ضخما، كالفأر مثلا، فإن النحل لا تتولى يوم الزحف، ولكن تجتمع عليه وتقتله باللسع، حتى إذا نجح في اجتياح الخلية! ولأنه لا طاقة للنحل بحمل جثته إلى الخارج، فإن النحل التاجر تتفض لتحنط جثة الفأر بالبروبوليس، الذي يطمرها ويعزلها تماما ويمنعها من التعفن وإفساد جو الخلية (١٤)! إن النحل لا تتوانى عن عزل الفساد الداخلي والخارجي، ولا تكف عن إنكار المنكر، بل تمنعه وتطهر مجتمعها منه. ولذلك، يستمر شعب النحل ولا يضيع. وإن الشعوب بخير ما أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر.

وبذلك، نرى أن شعب النحل يقدم لنا النموذج المثالي العامل بالوحي دون عصيان، إذ قال تعالى: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾ (النحل:٦٨). فصار هذا الوحي الخاص غريزة للنحلة لا حيلة لها في عصيانه، بينما يعصي البشر وحي الرب تبارك وتعالى.

في عالم النحل نرى شعبا تتكامل فيه شخصية الفرد وتشتد أواصر المجتمع، يمارس كل فرد فيه المهام وفق الموهبة التي تعني الكفاءة بلا اعتبار لأهواء وأطماع. ومن هذا الشعب أرجو أن أكون قد قدمت نموذجا يؤثر في قلوبنا لنعمل وننطلق في الطريق.

هوامش

١ - Brian R. Johnson (٢٠١٠)، Division of labor in honeybees: form، function and proximate mechanisms، Behav Ecol Sociobiol (٢٠١٠) ٣٠٦:٦٤.

٢ - البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥١.

٣ - Langstroth L. L. (٢٠٠٨)، the Hive and the Honey-Bee، p٥٠.

٤ - البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥١.

٥ - المصدر السابق.

٦ - المصدر السابق.

٧ - Avitable Sammataro (١٩٧٨)، The Beekeeper's Handbook

٨ - Lindauer، M. (١٩٥٣)، Division of labour in the honeybee colony، Bee World، ٣٤، ٦٣-٧٣ ٨٥-٩٠.

٩ - البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥٠.

١٠ - البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥٢.

١١ - المصدر السابق.

١٢ - البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥٣.

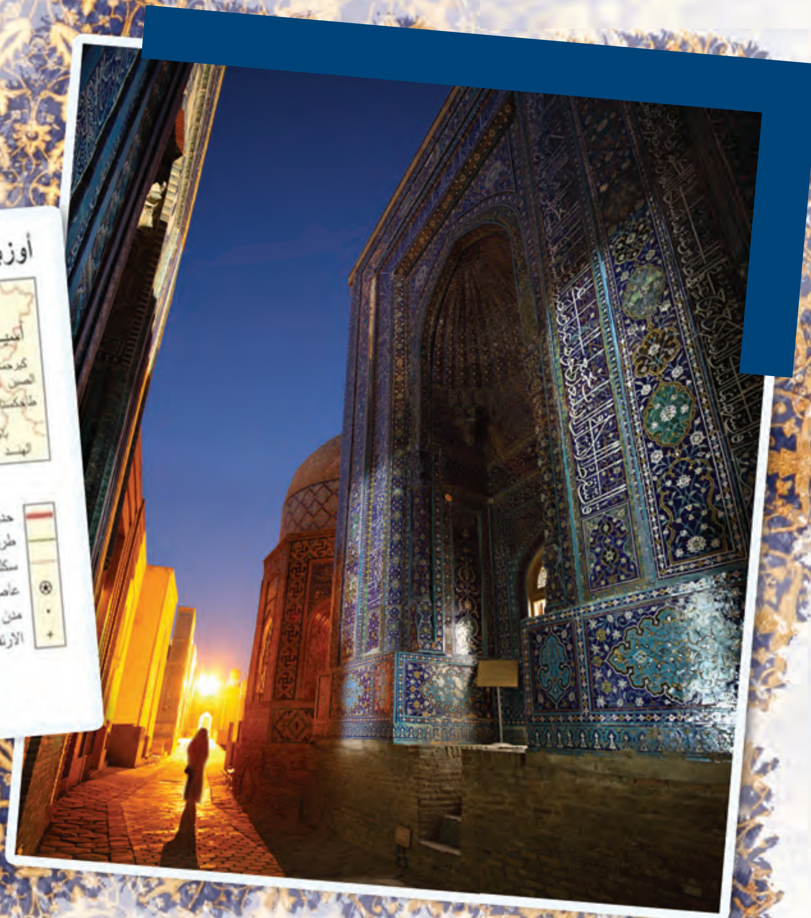
١٣ - البمبي محمد علي، ٢٠٠١، نحل العسل ومنتجاته، ص٥٤-٦٨.

١٤ - Double J Farm publications (٢٠١٤)، The Story Of Miraculous Propolis، https://www.flynnsbeefarm.co.uk/propolis.php.

«سمرقند»

د. محمد محمدي النورستاني
باحث في وزارة الأوقاف الكويتية





مدينة «سمرقند»، مدينة عظيمة من أعظم مدن بلاد «ما وراء النهر»، وهي عاصمة (تيمورلنك)، الذي امتد ملكه فشمل معظم أرجاء العالم القديم آنذاك، وهي ومدينة «بخارى» أهم حاضرتين في بلاد (ما وراء النهر)، وكانت عاصمة إقليم الصغد، وكان الصغد يعد إحدى جنان الدنيا الأربع، وقد بلغ أوج ازدهاره في النصف الأخير من المائة الثالثة أيام السامانيين، وكانت أجلّ مدنه: سمرقند، وبخارى، ويمكن القول بأن الأولى كانت مركزه السياسي، بينما كانت الثانية عاصمته الدينية، إلا أن كلتا المدينتين كانتا في مرتبة واحدة، وتعدان قصبتي الصغد (١).

وتقع سمرقند على مسافة قصيرة من ضفة نهر الصغد الجنوبية (نهر زرفشان)، في أعلى النهر، تقع على نشز من الأرض، على نحو من (١٥٠) ميلا شرق بخارى.

وصف القدامى لمدينة سمرقند

قال المقدسي – المعروف بالبشاري – (ت نحو ٣٨٠هـ): «سمرقند: قصبة الصغد، ومصر الأقاليم، بلد سريّ جليل عتيق، ومصر بهي رشيق، رخي كثير الرقيق، وماء غزير بنهر عميق... ذو رساتيق جليلة، ومدن نفيسة، وأشجار وأنهار.. في الصيف جنة...» (٢).

وقال الحموي (ت٦٢٦هـ) واصفا مدينة سمرقند، ومبينا كبرها واتساعها، وأنها محفوفة بالبساتين والأشجار، وقل أن تخلو دار من بستان، وأن جميع دورها تجري فيها المياه إلا القليل، قال:

«واستدارة حائطها: اثنا عشر فرسخًا، وفيها بساتين ومزارع وأرحاء، ولها اثنا عشر بابًا، من الباب إلى الباب فرسخ، وعلى أعلى السور آزاج (٣) وأبرجة للحرب، والأبواب الاثنا عشر من حديد، وبين كل بابين منزل للنواب، فإذا جزت المزارع صرت إلى الربض (٤)، وفيه أبنية وأسواق، وفي ربضها من المزارع عشرة آلاف جريب (٥)، ولهذه المدينة – أعني الداخلة– أربعة أبواب، وساحتها ألفان وخمسمائة جريب، وفيها المسجد الجامع والقهندز (٦)، وفيه مسكن السلطان، وفي هذه المدينة الداخلة نهر يجري في رصاص، وهو نهر قد بني عليه مسناة (٧) عالية من حجر يجري عليه الماء... ووجه هذا النهر رصاص كله.

وقد عمل في خندق المدينة مسناة، وأجري عليها، وهو نهر يجري في وسط السوق بموضع يعرف بباب الطاق، وكان أعمر موضع بسمرقند، وعلى حافات هذا النهر غلات موقوفة

على من بات في هذا النهر، وحفظة من المجوس عليهم حفظ هذا النهر شتاء وصيفا.. وفي المدينة مياه من هذا النهر عليها بساتين، وليس من سكة ولا دار إلا وبها ماء جار إلا القليل، وقلما تخلو دار من بستان، حتى إنك إذا صعدت قهندزها لا ترى أبنية المدينة؛ لاستتارها عنك بالبساتين والأشجار.

فأما داخل سوق المدينة الكبيرة: ففيه أودية وأنهار وعيون وجبال، وعلى القهندز باب حديد من داخله باب آخر حديد...» (٨).

وقال أيضا: «وقالوا: ليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن مستشرفا من سمرقند، وقد شبهها حصين بن المنذر الرقاشي فقال: كأنها السماء للخضرة، وقصورها الكواكب للإشراف، ونهرها المجرة للاعتراض، وسورها الشمس للإطباق» (٩).

ومن هذا الوصف نعرف أن مدينة سمرقند كانت من أعظم المدن حضارة في ذلك الوقت، فشوارع المدينة مرصوفة بالحجارة، ومبانيها مشيدة من الطين والخشب.

ومن الملفت للنظر: أنه كان يوجد في المدينة والربض أكثر من ألفي موضع يمكن أن يستقي الناس منها الماء المثلج بالمجان، وذلك مما يصرف عليه من الوقف، وكان الماء يحفظ بطرق مختلفة، من بين سقاية مبنية، وحباب نحاس منصوبة، وتلال خزف مثبتة في الحيطان مبنية (١٠).

وكانت هذه المدينة فرضة تجارية عظيمة لبلاد ما وراء النهر، ومن جملة ما اشتهرت به: الكاغذ السمرقندي، حيث كان في مدينة سمرقند أول مصنع للورق خارج سور الصين العظيم، ومنها كان يحمل إلى سائر بلاد الشرق والغرب.

وذكر بعض المؤرخين أن سكان المدينة كانوا حوالى مائة ألف أسرة، وذلك قبل استيلاء جنكيز خان عليها، بينما كان سكانها في عهد السامانيين قد جاوز النصف مليون، كما توقعه المستشرق بارتولد (١١).

فتح سمرقند

تم فتح مدينة سمرقند لأول مرة سنة (٥٦هـ) في عهد أمير المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان – رضي الله عنهما–، تحت قيادة سعيد بن الخليفة الراشد عثمان بن عفانرضي الله عنه، وممن استشهد في هذه المعركة قثم بن العباس ابن عم النبيصلى الله عليه وسلم، وقد أقام له أهل سمرقند – بعد أن أسلموا – مزارا ومشهدا، يقال له (مزار شاه زندة)، أي: مزار السلطان الحي؛ لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ولازال مزاره قائما حتى الآن.

وهذا العمل وأمثاله مما انتشرت به البلية في كثير من بلاد الإسلام، حيث نجد المزارات والمشاهد المنتشرة فيها تعبد من دون الله تعالى، ودين الإسلام أساسه إفراد الله تعالى بالعبادة، وعدم إشراك أحد معه فيما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

ثم أعاد فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي عندما نكث أهلها العهد الذي أعطوه لسعيد بن عثمان، وذلك سنة (٩٣هـ) على ما ذكره الطبري والذهبي وابن كثير (١٢)، وقيل: سنة (٨٧هـ)، حيث حاصرها، وبعد حرب ضروس استمرت يومين: طلب أهلها الصلح، فصالح أهلها على أن للمسلمين ما في بيوت النار، وهي معابد المجوس، وأخذ قتيبة حلية الأصنام، وأمر بإحراق الأصنام، فقال سدنتها: إن فيها أصناما من أحرقها هلك، فقال قتيبة: أنا أحرقها بيدي، فأحرقها، وأخذ ما عليها من حلي وذهب، فوزنه، فوجده خمسين ألف مثقال. ووجد صنما عجيبا، له عينان من جوهر ثمين، يشع إشعاعا قويا، وكل جوهرة في حجم بيضة الحمام، فأخذها، وأرسلها إلى الحجاج في العراق.

وأمر قتيبة أن يبدأ ببناء المسجد الجامع، فتم بناؤه، وخطب الناس قبل أن يتحول منها إلى مدينة مرو (١٣).

التنافس بين سمرقند وبخارى

وكان التنافس بين (بخارى) و(سمرقند) يشتد حينا ويفتر أخرى، فتارة تكون بخارى عاصمة جميع بلاد ما وراء النهر، وتارة سمرقند.

كانت سمرقند هي العاصمة حتى جاء السامانيون في العهد العباسي (ت٢٦١–٤٣١هـ)، فجعلوا عاصمتهم (بخارى)، وفي عهدهم بلغت شأوا بعيدا في الحضارة، ثم سيطرت الدولة الغزنوية، وكانت عاصمتها (غزنة) في أفغانستان، ثم عاد الأمر إلى (خوارزم) عند قيام الدولة الخوارزمية، ثم جاء المغول فخربوها جميعا، ثم ظهر تيمورلنك، وجعل عاصمته (سمرقند)، وفي أيامه بلغت سمرقند عهدها الذهبي، وتفنن في تشييدها وبناء المساجد والمكتبات والمرافق العامة فيها، ومما شيده في آخر عمره المسجد الجامع، الذي أراد أن يكون أكبر مسجد وأحسنه على مستوى العالم.

وبانتهاء عهد التيموريين عادت (بخارى) لتحتل الصدارة في عهد الشيبانيين والاشتراخانيين، ثم بعد ذلك مع قيام الخانيات في القرن الثامن عشر الميلادي، حيث تفككت دولة الاشتراخانيين، واستقل كل أمير بمنطقته، ودعيت (خانية)، فكانت هناك (خانية بخارى)، و(خانية خوقند)، و(خانية خوارزم–وتسمى الآن خيوة)، وكانت أكبر هذه الخانيات هي (خانية بخارى)، وكانت سمرقند تابعة لخانية بخارى، وكانت مصيفا لخانية بخارى.

ومع هذا ظلت سمرقند تنافس بخارى على مدار التاريخ، وهي تفوقها جمالا وبهاء وروعة، وتجري تحت أسوارها الجداول، التي تصب من الجبال المجاورة صوب السهل المنبسط تحت أسوار سمرقند.

ومع هذا التنافس بين المدينتين، إلا أنه «قد ظلت سمرقند من حيث الرقعة وعدد السكان أولى مدن ما وراء النهر قاطبة، حتى في تلك العهود التي كانت فيها بخارى عاصمة للبلاد.. وهذه المكانة التي نالتها سمرقند

إنما ترجع قبل كل شيء إلى موقعها الجغرافي الفريد عند ملتقى الطرق التجارية الكبرى القادمة من الهند، مارة ببلخ، ومن إيران مارة بمرو، ومن أراضي الترك، كما أن ما امتازت به المنطقة من خصب فوق المألوف جعل من الميسور لعدد هائل من السكان أن يجتمعوا في بقعة واحدة..» (١٤).

حلول الدمار بسمرقند وغيرها من المدن

وبينما كانت مدينة سمرقند مزدهرة على النحو الذي ذكرته، حل بها وبغيرها من مدن ما وراء النهر وخراسان من الدمار والخراب والرعب الذي بثه المغول، فتم تدمير معظم مدينة سمرقند عام (٦١٦هـ)، ثم أعيد بناؤها على مقربة من المدينة القديمة، ولم تستطع أن تستعيد مكانتها إلا بعد مدة مديدة.

ولازالت آثار المدينة القديمة باقية في تلال (أفراسياب) القريبة من المدينة الجديدة (١٥).

وقد زارها الرحالة المعروف ابن بطوطة بعد قرن من الدمار، فوصفها بأنها «لا سور لها، ولا أبواب عليها»، وذكر أن أكثر دورها خراب، وقال أيضا: «وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها، فدثر أكثر ذلك» (١٦).

ومع كل ما حل عليها من الدمار، فقد استعادت مجدها السابق بعد ذلك، وذلك في ختام المائة الثامنة، حين اتخذها تيمور عاصمة له، فجدد البلد، وشيد المساجد، ومازال بعض ذلك قائما إلى الآن (١٧).

سمرقند في القرون الأخيرة، قبل دخول الروس وبعدها

مع بداية الغزو الروسي القيصري سقطت المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر وبلاد تركستان الواحدة تلو الأخرى، كما سقطت الخانيات، بينما ظلت خانية بخارى تقاوم الغزو الروسي القيصري، ولم تسقط إلا في عام ١٩٢٢م.

وبعد استيلاء الروس على بخارى وسمرقند: همّشوا دور المدينتين، وجعلوا مدينة (طاشقند) - وهي عاصمة طاجكستان - عاصمة لما وراء النهر.

على أن مدينة سمرقند لم تكن في الفترة التي سبقت الغزو الروسي في وضع تحسد عليها، وقد زارها الشيخ عبد الرشيد إبراهيم أوائل سنة (١٩٠٧م)، وقال في وصفها: «إن المدينة القديمة والمباركة التي هي مركز آسيا الوسطى وزينة بلاد الدنيا - حسب تعبير أهلها - كانت في عهد من العهود عاصمة أقطار آسيا.

أما اليوم: فهي أنقاض وخرائب للآثار الإسلامية القديمة. ويقدر عدد سكان سمرقند بسبعين ألف نسمة، كلهم من الأوزبك...».

وقال أيضا: «وكانت سمرقند مركزا للعلوم، وإن المراصد الضخمة كانت فخر وزينة هذه المدينة. واليوم فإن أنقاض مدرستي (ديللة جار) و(شيردار) العظيمتين.. شهود على تلك الحضارة..وفي الوقت الحالي ليس في سمرقند ما هو جدير بالمشاهدة سوى هذه الأبنية القديمة.

أما الآثار والتحف القديمة: فقد نقلها الروس إلى بترسبورغ (لينين غراد) بعد استيلائهم على المدينة، وإن الكتب الإسلامية القديمة والآثار المعمارية الجميلة الموجودة في مكتبة القيصر ببترسبورغ، كلها جلبت من سمرقند...» (١٨).

بعض من ألف في مدينة سمرقند

وقد ألف في سمرقند وذكر تاريخ علمائها عدد من العلماء، منهم:

الحافظ أبو سعد عبد الرحمن بن محمد الإدريسي الأسترآباذي (ت٤٠٥هـ)، وسماه (تاريخ سمرقند)، وهو مفقود.

والحافظ أبو العباس جعفر بن محمد المستغفري (ت٤٣٢هـ)، وسماه أيضا (تاريخ سمرقند)، وهو مفقود أيضا.

العلامة أبو حفص عمر بن محمد النسفي الحنفي (ت٥٣٧هـ)، وسماه (القند في ذكر علماء سمرقند)، وهو مرتب على الحروف، وقد طبع إلى حرف العين. ولم أطلع على الكتاب كاملا. وقد نقل عنه المستشرق الروسي بارتولد من بداية الكتاب، من الجزء الذي لا يوجد في المطبوع، ويبدو أنه اطلع عليه كاملا.

المنتسبون إلى سمرقند

ينسب إلى سمرقند من العلماء والمشهورين والمحدثين عدد لا يحصى، وقد بلغ عدد من ترجم لهم الإمام نجم الدين النسفي من حرف الخاء إلى حرف الكاف (١٠١٠) علما.

ومن المحدثين المعروفين بالنسبة إلى سمرقند:

أبو الليث السمرقندي، وهو الفقيه المحدث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي، صاحب كتاب (تنبيه الغافلين)، توفي سنة (٣٧٥هـ) (١٩).

ومنهم: أبو عمران عيسى بن عمر ابن العباس بن حمزة السمرقندي، صاحب الإمام الدارمي، وراوي مسنده عنه، كان حيا في قرب سنة (٣٢٠هـ) بسمرقند (٢٠).

ومنهم: العلامة الإمام الرحال أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد السمرقندي الكوخميثي، وهو من تلاميذ الحافظ المستغفري، وقال عنه النسفي: «هو الإمام الحافظ قوام السنة... نزيل نيسابور، لم يكن في زمانه مثله في فنه في الشرق والغرب، له كتاب (بحر الأسانيد في صحاح الأسانيد)، جمع فيه مائة ألف حديث، فرتب وهذب، لم يقع في الإسلام مثله، وهو ثمانمائة جزء. ولد سنة (٤٠٩هـ)، وتوفي سنة (٤٩١هـ) (٢١).

أشهر أعلام سمرقند من المحدثين

هو الإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد التميمي الدارمي أبو محمد السمرقندي، نسبة إلى دارم بن مالك، بطن كبير من تميم.

ولد الإمام الدارمي –رحمه الله– سنة (١٨١هـ)، وطلب العلم من صغره، فرحل في شبابه إلى البلاد، وطوف بالأقاليم والبلدان؛ طلبا للعلم والحديث؛ فرحل إلى مصر والشام والعراق والحرمين وبلخ وبخارى؛ حتى اعتبره الخطيب البغدادي أحد الرحالين في الحديث، والموصوفين بجمعه وحفظه والإتقان له، مع الثقة والصدق والورع والزهد والرزانة والاجتهاد والعبادة والتقلل.

شيوخه

يعتبر الإمام الدارمي من المكثرين من الشيوخ؛ فممن روى عنهم: إبراهيم بن المنذر الحزامي، وأحمد بن الحجاج المروزي، والأسود بن عامر شاذان، وحجاج بن منهال، وحبان بن هلال، وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني، وأبو نعيم الفضل بن دكين.

تلاميذه

روى عنه كثيرون، منهم: الإمام البخاري في غير الصحيح، والإمام مسلم في صحيحه، والنسائي في غير سننه، وأبوداود والترمذي في سننيهما، والنسائي في غير سننه، وعبدالله بن أحمد بن حنبل، والإمام أبو زرعة عبيد بن عبدالكريم الرازي، ومحمد بن بشار (بندار) وهو أكبر من الدارمي، والإمام محمد بن يحيى الذهلي وهو أكبر من الدارمي، وغيرهم.

وقد ألف الإمام الدارمي مؤلفات عدة، منها ما ذكره الخطيب البغدادي في التاريخ (٢٩/١٠): أن الدارمي رحمه الله قد صنف المسند والتفسير والجامع.

لم يكن الدارمي رحمه الله مقلدا لأحد من أصحاب المذاهب؛ فقد كان مجتهدا كامل الآلة؛ قال عنه الحافظ الذهبي: «كان من أوعية العلم يجتهد ولا يقلد، ولهذا كان له أقوال فقهية تدل على علمه وفقهه، وكتابه يدل على ذلك؛ حيث ذكر أبواب كثيرة في الأحكام الفقهية، ومن نظر إلى تراجم الأبواب وجدها تدل على ذلك».

ثناء العلماء عليه

كان الإمام الدارمي رحمه الله عالما ورعا تقيا؛ مثالا للصدق والثقة والأمانة والعقل والرزانة، ولذلك أثنى عليه العلماء ثناء عطرا، ومن ذلك:

قال أبو حاتم الرازي: محمد بن إسماعيل أعلم من دخل العراق، ومحمد بن يحيى أعلم من بخراسان اليوم، ومحمد بن أسلم أورعهم، وعبدالله بن عبدالرحمن أثبتهم. وقال أيضا: هو إمام أهل زمانه.

وقال أبو حامد الشرقي: إنما أخرجت خراسان من أئمة الحديث خمسة: محمد بن يحيى، ومحمد بن إسماعيل، وعبدالله بن عبدالرحمن، ومسلم بن الحجاج، وإبراهيم بن أبي طالب.

وقال محمد بن إبراهيم بن منصور الشيرازي: كان على غاية من العقل والديانة؛ ممن يضرب به المثل في الحلم والدراية والحفظ والعبادة والزهد؛ أظهر علم الحديث والآثار بسمرقند، وذب عنها الكذب، وكان مفسرا كاملا وفقيها عالما.

وقال إسحاق بن داود السمرقندي: قدم قريب لي من الشاش؛ فقال: أتيت أحمد بن حنبل فجعلت أصف له أبا المنذر، وجعلت أمدحه؛ فقال: لا أعرف هذا، فقد طالت غيبة إخواننا عنا، لكن أين أنت عن عبدالله بن عبدالرحمن! عليك بذاك السيد، عليك بذاك السيد.

وقال محمد بن عبدالله المخرمي: يا أهل خراسان مادام عبدالله بن عبد الرحمن بين أظهركم فلا تشتغلوا بغيره.

وقال محمد بن بشار: حفاظ الدنيا أربعة: أبو زرعة بالري، ومسلم بنيسابور، وعبدالله بن عبدالرحمن بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل ببخارى.

وقال الذهبي: كان الدارمي ركنا من أركان الدين، قد وثقه أبو حاتم الرازي والناس، وحدث عنه بندار والكبار.

وفاته

توفي الإمام سنة خمس وخمسين ومائتين من الهجرة؛ قال إسحاق ابن أحمد بن خلف البخاري: كنا عند محمد ابن إسماعيل البخاري؛ فورد عليه كتاب فيه نعي عبدالله بن عبدالرحمن؛ فنكس رأسه، ثم استرجع، وجعل تسيل دموعه على خديه، وأنشأ يقول:

إن تبق تفجع بالأحبة كلهم

وفناء نفسك لا أبا لك أفجع

رحم الله الإمام الدارمي رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

هوامش

(١) انظر: (بلدان الخلافة الشرقية) (ص/٥٠٣–٥٠٤).
(٢) (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي (ص/٢٧٨).
(٣) (آزاج) جمع (أزج)، وهو ضرب من الأبنية، بيت يبنى طولا، ويقال له بالفارسية: أوستان، ويجمع على (آزج)، و(آزاج). (تاج العروس (٢٨٧/٣/أزج).
(٤) الربض لغة: ما حول المدينة، ويستعمل في كتب البلدان بمعنى الضاحية خارج المدينة.
(٥) (الجريب) يقدر بـ(١٣٦٦) مترا مربعا.
(٦) أي: القلعة.
(٧) المسناة، وجمعه: مسنوات، ومسنيات، ما يبنى لحجز ماء السيل، وهو السد.
(٨) (معجم البلدان) للحموي (٢٤٧/٣–٢٤٨).
(٩) المصدر السابق (٢٤٨/٣).
(١٠) انظر: (المسلمون في الاتحاد السوفيتي) (٤٦٠/٢).
(١١) (تركستان) لبارتولد (ص/١٧٦).
(١٢) انظر: (تاريخ الطبري) (٤٧٢/٦)، (الكامل) لابن الأثير (٥٧١/٤)، (تاريخ الإسلام) للذهبي (١٠٤١/٢)، (البداية والنهاية) لابن كثير (٤٤٠/١٢–٤٤٣).
(١٣) انظر: المصادر السابقة، وانظر: (المسلمون في الاتحاد السوفيتي) (٤٥٥/٢).
(١٤) انظر: (تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي) لبارتولد (ص/١٧٠)، وانظر: (المسلمون في الاتحاد السوفيتي) (٤٥٨/٢–٤٥٩).
(١٥) انظر: (صحافي ومدينتان: رحلة إلى سمرقند وزنجبار) لرياض نجيب الرئيس (ص/٩٢)، وفيه معلومات قيمة عن مدينة سمرقند، وقد زارها سنة (١٩٩٢م).
(١٦) انظر: (رحلة ابن بطوطة – المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار) (ص/٣٩١) ط: دار الكتب العلمية.
(١٧) انظر: (بلدان الخلافة الشرقية) (ص/٥٠٨).
(١٨) انظر: (العالم الإسلامي في رحلات عبد الرشيد إبراهيم) (٢٧/١، ٢٩).
(١٩) انظر: (الجواهر المضية) (٢/ت٦١٠)، (سير أعلام النبلاء) للذهبي (٣٢٢/١٦).
(٢٠) ترجمته في: (سير أعلام النبلاء) (٤٨٧/١٤).
(٢١) ترجمته في: (سير أعلام النبلاء) (٢٠٥/١٩–٢٠٦).

الشيخ لحبيب فارس

(١٩١٩ - ١٩٩٤)

د. محمد مراح
أكاديمي جزائري



الشيخ لحبيب فارس، شخصية دعوية مهيبة، أضاء بإشراقاته النورانية الدعوية سماء تبسة، طوال سنوات السبعينيات والثمانينيات خصوصا، فكان الشيخ الملهم، والمربي الحصيف، والموجه الحكيم لشباب المدينة، قبيل وأثناء نور الصحوة المباركة. فكانت دروسه الجمعية وخطبه الطويلة نسبيا (كان كل من درس الجمعة وخطبتيها يستغرقان نحو ساعتين في كثير من الأحيان، بما في ذلك أثناء فصل الصيف، بالمسجد العتيق، على ضيق مساحته ورحابة النفوس واستعدادها للتلقي)؛ تخشع لها القلوب، وتشرئب إليها الأعناق، وتسعد بها النفوس، فلقد كانت بحق رحيقا ترتشفه نفوسنا في تلك الفترة العطرة. كان الشباب يلتفون حوله في أماكن كثيرة، فضلا عن الموعد الأسبوعي مع شعيرة الجمعة، يجلسون إليه في مقصورة المسجد العتيق إثر صلاة الجمعة، وإثر صلاة العصر، خصوصا في الصيف بشكل دائم، فعلى الرغم من هيبته كان ينفتح على تطلعاتهم وأشواقهم الإيمانية مجيبا، وموجها، ومعلما، ومرشدا.

كنا نجتمع إليه في روحاته وغدواته ما بين المسجد وبيته، وأثناء تمشيه اللطيف حوالي منزله، بل وأثناء فترات جلوسه أمامه صباحا ومساء، كانت له جلسته المميزة، يعلوه الوقار والهيبة، يشغله التفكر والتأمل كشأن كل العظماء.

ولازلت أذكر تلك الجلسات الإيمانية ما بين العصر والمغرب في شهر رمضان المبارك، الذي وافق فصل الصيف آنئذ، ولقوة طرح وتحليل الشيخ لحبيب رحمه الله تعالى، وتوزيع حديثه على اهتماماتنا ما كنا نشعر بتعب الصوم وشدة الحر وطول الوقت، ولم يكن في مسجد الشيخ العربي التبسي سوى مراوح. فقد كان حديث الشيخ لحبيب فارس، رحمه الله تعالى، يأخذ بعقولنا ويستولي على قلوبنا ونفوسنا، فيذهب بها بعيدا في رحاب الإيمان والتربية وعين اليقين، فلا ينفض المجلس قبيل المغرب إلا وقد خرجنا شبابا آخر غير الذي كنا حين جلسنا.

من خصائص خطابه:

- في تقديري أن أهم ميزة تحلى بها خطابه، قدرته الباهرة على التحليل؛ فلا أذكر أنه تحدث في مسألة حديثا عابرا مقتضبا، أو سطحيا بسيطا، اللهم إلا أن يكون السائل من عامة الناس وبسطائهم ويدرك محدودية تفكيره، بل لقد كان أحيانا مع هؤلاء البسطاء من الناس يجيبهم ويحثهم بما ينبه عقولهم وتفكيرهم؛ إذ لا تعدم استعدادا عقليا لدى أكثر الناس، خصوصا في فترات الصفاء النفسي وطمأنينة القلب، وهو في الحقيقة إعمال للمنهج القرآني ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾(الرعد:٤)، كان النص القرآني أو النبوي عنده فضاء رحيبا عميقا للتدبر والتحليل. وهو لعمري منهج القرآن الذي ربى عليه النبي ﷺ الصحابة الكرام؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

(ص:٢٩)، فدروسه وخطبه الجمعية كانت مسرحا خصبا للتحليل والاستنباط والغوص على معان جليلة، له في كثير منها فضل السبق والإبداع.

- **التفكير المنهجي**، اتسم تحليله بمنهجية واضحة، منظمة؛ إذ ينطلق في الدرس أو الخطبة من نص قرآني أو نبوي حول مسألة ما، ثم يسترسل محللا، يدور حول الموضوع في كل ما يفتح الله عليه من المعاني والإشراقات النورانية، التربوية خصوصا. كل ذلك دون أن ينفصل عن موضوعه الأساس.

وهذه الخاصية ساعدت كثيرا ابنه البار الأخ البدر فارس، بارك الله فيه، في وضع عناوين محددة دالة لخطبه ودروسه التي حصل عليها من أخينا يوسف مباركية، رحمه الله، مسجلة على شرائط الكاسيت، ثم حملها على CD

- قد لا يكون الشيخ لحبيب رحمه الله تعالى من أولئك الشيوخ الذين يغرقونك في بحر من الأحكام والمعلومات الفقهية وغيرها من علوم الشريعة، إلا إنه أُوتي ذوقا خاصا في فهم وعرض الإسلام، فاتخذ له منهج إيقاظ العقول وإعمالها في التوجيه، والبناء؛ أي أنه كان يبني شخصيات الشباب الفكرية، ويستثير كوامن قدراتهم العقلية، حتى تصلب أعوادهم وتتميز شخصياتهم الفكرية، وينبعثوا عن إيمان عميق راسخ في تغيير واقعهم.

- **قوة خطابه**، وهي ميزة تعكس شخصيته؛ إذ بقدر قوة تلك الشخصية وصلابتها -كما يعرفها كل من عرف الشيخ رحمه الله تعالى-، كان قوة خطابه، معاني وأفكارا، ونبرة صوت، حين يحلل ويناقش، فقوة كل تلك العوامل لا تخطئها الملاحظة، حتى ولو كان في أهدأ لحظاته كلاما وتحليلا.

- **وضوح أفكاره**، يستطيع السامع (تراث الشيخ العلمي والفكري والدعوي كله شفوي) أن يتابع أفكاره في وضوح تام، رغم عمقها في أكثرها. ينساب كلامه سلسا مرتبا متينا موزونا، يبلغك الفكرة بينة واضحة لا لبس فيها.

وبعد، فلا أدعي تقديم ما أود قوله وتقديمه حول الشيخ من ذكريات خاصة، أو عرض تحليلي لجهده الدعوي المبارك، فضلا عن الدراسة المستوفية متطلباتها وشروطها، فهي ليست سوى كلمات فاضت بها النفس، إذ لطالما ترددت في قلبي وجوانحي معانيها، قد تكون فضحت حبا مكينا في القلب للشيخ لحبيب فارس، فأردت نقلها للشباب، عسى أن ينتفعوا من خلالها بالاستفادة من منهج الشيخ ودعوته، رحمه الله.

ولد بإحدى القرى بجنوب تبسة، مدينة بالشرق الجزائري: حوالي ٧٠٠ كلم بينها وبين العاصمة الجزائر، على الحدود التونسية. كما أنها من أوائل المدن فتحا إسلاميا في شمال إفريقيا، حفظ فيها القرآن الكريم وتلقى بعض مبادئ العربية والشريعة على أيدي معلميها، ثم انتقل لنفطة بالجنوب التونسي ودرس بها، وانضم بعدها للزيتونة، وتتلمذ على الشيخ عبدالعزيز الثعالبي، المفكر والسياسي التونسي الكبير.

إثر عودته انضم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بدعوة من الشيخ الشهيد العربي التبسي (١٨٩٥-١٩٥٧)، كلف بمهمة ممون للثورة التحريرية في بدايتها بالمنطقة، وتجنيد الشباب. لذا ألقي عليه القبض وحرق منزله وصودرت أمواله، تنقل بين مختلف المعتقلات الاستدمارية شرق ووسط وغرب البلاد، وذاق صنوف العذاب فيها، إلى أن فرج الله عنه بالفرج الاستقلالي.

عرض عليه منصب الإفتاء بوزارة الشؤون الدينية لكنه أبى، واختار العمل الدعوي من خلال الخطابة والتدريس والاتصال الفردي، خصوصا بالشباب، وتعرض إلى مضايقات كثيرة، أشهرها توقيفه عن الخطابة في فترة من سنوات سبعينيات القرن العشرين. وظل على نهجه التبليغي الإرشادي إلى أن وافاه الأجل -رحمه الله تعالى- إثر مرض ألزمه الفراش.

إن دروس الشيخ لحبيب فارس المسجدية قد جمعهما ابنه البار الأخ البدر فارس، بعد أن بذل جهودا مضنية في تفريغها من الأشرطة، وجمع طائفة من الشهادات من عارفي الشيخ، رحمه الله تعالى، وأصبح العمل جاهزا للطبع، فلم تسعفه إمكاناته لذلك، فسعى مساعي حثيثة وتلقى وعودا من جهات رسمية محلية كثيرة، فلم يتحقق من ذلك شيء للأسف، لكن الأمل في الله تعالى وطيد في أن يتحقق، فيعرف الكتاب النور بإذنه تعالى.

محدودية السياحة البينية للدول الإسلامية

عبدالحافظ الصاوي
خبير اقتصادي



في إطار اقتصاد الخدمات الذي يشكل جزءا لا يستهان به في الناتج المحلي الإجمالي لكل من الدول النامية والمتقدمة على السواء، يأتي الاهتمام بنشاط السياحة، وتولي العديد من الدول الإسلامية أهمية خاصة لنشاط السياحة، لما يمثله من مصدر مهم للنقد الأجنبي، الذي تعاني الدول الإسلامية من نقص فيه.

وحسب بيانات منظمة السياحة العالمية؛ فقد وصل عدد السائحين على مستوى العالم في عام ٢٠١٢م، إلى ما يزيد عن مليار سائح، كما وصلت العائدات السياحية لهذا العدد من السائحين إلى ١٠٧٦ مليار دولار أمريكي. كما تصنف المنظمة عدد الأنشطة والصناعات الاقتصادية بنشاط السياحة بـ ١٨٥نشاطا، سواء كان هذا النشاط يرتبط بالسياحة بشكل مباشر أو غير مباشر (١).

وفي إطار ما يعيشه العالم الآن من تحويل دفة الاقتصاد العالمي نحو الشرق، فقد لوحظ أن حصة أوروبا والأمريكتين من السياحة العالمية قد بدأت في التراجع، فبعد أن كانت تزيد عن نسبة ٧٠٪ من إجمالي عدد السائحين في العالم، تراجعت في عام ٢٠١٢م، لتصل إلى ٦٧,٣٪، ويتوقع أن تتراجع حصة أوروبا والأمريكتين خلال السنوات القادمة، لصالح الدول الصاعدة لتزايد حصتها من النشاط الاقتصادي العالمي.

وعلى الرغم من أن منظمة التعاون الإسلامي تضم في عضويتها ٥٧ دولة، أي ما يزيد عن ربع عدد دول العالم التي تتمتع بعضوية منظمة الأمم المتحدة، فإن نصيبها من حركة السياحة العالمية لا يزال ضعيفا، في الوقت الذي تمتلك فيه دول منظمة

التعاون الإسلامي مقومات سياحية هائلة، سواء على صعيد السياحة الثقافية، أو الشواطئ الطبيعية، وغيرها من المقومات السياحية.

واقع السياحة البينية الإسلامية

يحدد تقرير صدر حديثا عن مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب للدول الإسلامية بأنقرة، بعنوان «السياحة الدولية في البلدان الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي: الآفاق والتحديات ٢٠١٣م» (٢): نصيب دول منظمة التعاون الإسلامي من عدد السائحين على مستوى العالم، بنسبة ١٥,٢٪ في عام ٢٠١١م، بواقع ١٥١,٦ مليون سائح، في حين كانت حصة هذه الدول في عام ٢٠١٠م نحو ١٦,٣٪، ويرجع التقرير هذا الانخفاض إلى الأحداث التي شهدتها الدول العربية في نهاية عام ٢٠١٠م وبداية عام ٢٠١١م، كما بلغت حصة دول المنظمة نسبة ١٣٪ فقط من إجمالي عوائد السياحة العالمية، بواقع ١٣٥,٥ مليار دولار.

إلا أن الملمح البارز في أداء الدول الإسلامية على الصعيد السياحي العالمي، هو وجود كل من تركيا وماليزيا على قائمة أكبر ١٠ مقاصد سياحية على مستوى العالم، لتحتل تركيا المرتبة السادسة وماليزيا المرتبة العاشرة، وتحافظ الدولتان على هذا الترتيب على مدار عامي ٢٠١١ و٢٠١٢م.

وتمثل السياحة نشاطا معتبرا في العديد من الدول الإسلامية، فهي تمثل نسبة لا يستهان بها في الناتج المحلي الإجمالي لتلك الدول، فبيانات ٢٠١١م، تشير إلى أن قطاع السياحة يسهم بنسبة ٨٪ من إجمالي الناتج المحلي في مجموعة من الدول الإسلامية منها: لبنان، المغرب، مصر، ماليزيا، البحرين.

لكن على صعيد السياحة البينية لدول المنظمة، نلحظ أن هناك تطورا بطيئا، فبيانات عام ٢٠٠٧م تشير إلى أن عدد السائحين بلغ ٤٧,١ مليون سائح، وفي عام ٢٠١٠م، أي بعد ٣ سنوات، وصل عدد السائحين بين الدول الإسلامية ٥٣,٣ مليون سائح، ووصل العدد في عام ٢٠١١م إلى ٥٤,٤ مليون سائح.

وسمة كثير من الأنشطة -التي ترصد الأداء الاقتصادي والتجاري البيني للدول الإسلامية- هي أن مجموعة من الدول تسيطر على النسبة الأكبر من النشاط، وتعيش بقية الدول حالة من العزلة، أو المشاركة المحدودة، ففي عام ٢٠١١م، استحوذت ١٠ دول على نسبة ٨١,٣٪ من حجم السياحة البينية، بواقع ٤٤,٢ مليون سائح، وهو ما يعني أن نصيب باقي دول المنظمة والبالغ عددهم ٤٧ دولة من السياحة البينية، ١٠ مليون سائح تقريبا.

ونفس المنوال ينطبق على مؤشر العائدات السياحية البينية، حيث استحوذت هذه الدول العشر على النصيب الأكبر بواقع ٩٣,٥ مليار دولار، وبنسبة تبلغ ٨١٪، وهذه الدول التي تستحوذ على النصيب الأكبر من السياحة البينية للدول الإسلامية حسب الترتيب التنازلي هي (السعودية، تركيا، البحرين، سورية، ماليزيا، الكويت، كازاخستان، تونس، إيران، الأردن).

ونلاحظ على هذا الترتيب الآتي: أن المملكة العربية السعودية في الصدارة لما تتمتع به من السياحة الدينية، حيث أداء مناسك الحج والعمرة. أما تركيا فهي تعد مقصدًا سياحيًا إسلاميًا ودوليًا، نظرًا للطفرة الاقتصادية والحضارية التي حققتها على مدار السنوات العشر الماضية، وأن إدراج سورية على هذا المؤشر في إطار بيانات عام ٢٠١١م، حيث لم تكن الأوضاع السياحية والأمنية قد تدهورت على ما هي عليه الآن في عام ٢٠١٤م، حيث وصلت معدلات السياحة إلى الصفر.

أسباب محدودية السياحة البينية

تعود محدودية السياحة البينية للدول الإسلامية إلى مجموعة من الأسباب، تتعلق في غالبيتها بالدول الإسلامية ذاتها، كما يعود بعضها لأسباب خارجية. أما الأسباب الداخلية ففي مقدمتها، الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي تعيشها غالبية الدول الإسلامية وانتشار الفقر، وبالتالي لا تتوفر الإمكانات المادية التي تساعد على السفر والتنقل بين الدول الإسلامية. فمن بين نحو ٥٠ دولة تصنف على أنها الأشد فقرًا على مستوى العالم؛ يوجد من بينها قرابة ٢٤ دولة هي أعضاء في منظمة التعاون الإسلامي.

أيضا حالة عدم الاستقرار السياسي والأمني داخل الدول الإسلامية، فضلا عن العلاقات غير الجيدة على الصعيد السياسي بين الدول الإسلامية، مثل نزاعات الحدود، وإذكاء روح العداء والتقاطع بين مواطني هذه الدول. فمن السهل على مواطني الدول الإسلامية المختلفة الحصول على تأشيرات الزيارة والسفر والتنقل للدول غير الإسلامية، في الوقت الذي توضع فيه العديد من العراقيل أمام التنقل والسفر لمواطني الدول الإسلامية بين بعضها بعضا.

كذلك الأوضاع التنموية لدول العالم الإسلامي، لا تجعل منها مزارات لراغبي العلم أو التدريب أو العلاج، كما هو الحال في دول أخرى، فباستثناء تركيا وماليزيا، لا تمتلك باقي الدول الإسلامية البنية الأساسية الصلبة والمعرفية التي تجذب السياح إليها من مختلف بلاد العالم، فضلا عن جذب السياح من الدول الإسلامية.

وثمة عامل مهم يتعلق بالتوعية المعرفية وضرورة التطلع لمعرفة حضارة وثقافة باقي الدول الإسلامية من قبل أفراد الأمة الإسلامية، فحضارة الغرب، وريادتها التكنولوجية والحضارية؛ جعلت التعرف على بلاده وثقافتها وحضارتها سهل على كثير

من أبناء العالم الإسلامي، بينما الدول الإسلامية تفتقد لهذه الميزة الحضارية.

أما العوامل الخارجية فعلى رأسها وجود الكيان الصهيوني، الذي يحول دون التواصل البري بين عدد كبير من الدول الإسلامية في دولتي أفريقية وآسيا، فزوال دولة الكيان الصهيوني يجعل من السهل، أن ينتقل المواطن المسلم بسيارته ليزور العديد من الدول الإسلامية، وبلا شك أن السفر البري أقل من حيث التكلفة مقارنة بوسائل النقل الأخرى.

متطلبات زيادة السياحة البينية

النشاط السياحي البيني، سيكون انعكاسًا طبيعيًا لزيادة حجم التعاملات الاقتصادية والتجارية بين الدول الإسلامية، لذلك يجب العمل على زيادة الروابط التعاونية والتكاملية بين الدول الإسلامية، فحجم التبادل التجاري لا ينبغي أن يكون كما هو على مدار السنوات الماضية، حيث لا يتجاوز نسبة الـ ١٠٪.

العمل على إنهاء حالات النزاع بين الدول الإسلامية، والعمل على نزع موروثات الغزو الفكري بين أفراد الأمة الإسلامية، وأن تستحضر كل دولة عوامل التعاون والتكامل فيما بينها وبين بقية الدول الإسلامية، وأن يستفاد من الروابط القديمة، التي رسخ لها مفهوم الأمة ثقافة وسلوكا خلال ما قبل الدولة القُطرية. والعمل على أن تستفيد كل دولة إسلامية على ما لديها من مزايا تنافسية على الصعيد الإسلامي، من معاهد إسلامية، أو ارتباط بعض المناطق بمشاهير العلماء ورواد الحضارة الإسلامية.

الاتجاه نحو تسهيل حصول أفراد المجتمعات الإسلامية على تأشيرات الدخول والزيارة لمختلف الدول الإسلامية، طالما الأمر يتعلق باحترام سيادة الدول، ولا يخالف قوانينها الداخلية، وأن يستفاد من تجربة الاتحاد الأوروبي في حرية السفر والتنقل، بل والاستفادة من تجربة تركيا مؤخرًا في هذا الشأن، فكل فترة تعلن تركيا عن أن مواطني دولة ما يعفون من تأشيرة الدخول ويحصلون عليها في مطارات تركيا؛ مما أنعش حركة السياحة في تركيا بشكل كبير، وجعلها تحتل المرتبة الثانية بعد السعودية في حركة السياحة البينية للدول الإسلامية، ولولا السياحة الدينية التي تتميز بها السعودية لأداء شعائر الحج والعمرة، لكانت تركيا في المقدمة.

لا تصلح العواطف لبناء علاقات اقتصادية خالصة، فلابد من وجود مصلحة يستفيد منها الطرفان، وهو ما ينبغي أن تركز عليه برامج ترويج السياحة البينية للدول الإسلامية، فبعد سبع مؤتمرات عقدتها منظمة التعاون الإسلامية منذ عام ٢٠٠٠م وحتى الآن، على مستوى وزراء السياحة للدول الإسلامية، ينبغي أن تستهدف الدول الإسلامية السائح المسلم، ليس من قبيل تميزه عن غيره، ولكن من قبل وحدة الثقافة والدين، وسهولة تقديم وسائل الترفيه والراحة بما لا يخالف الشريعة الإسلامية. ولعل تجربة الفنادق الإسلامية، والطعام الحلال المنتشرة في العديد من دول العالم، تعطي الدرس للدول الإسلامية لما تمتلكه من ميزة تنافسية لجذب السائح المسلم.

وفي هذا الإطار يمكن الاستفادة من التجربة الماليزية بترويج برامج السياحة الطبية الإسلامية، التي خاطبت شريحة معينة تطلب خدمات طبية نسائية للنساء، وأخرى رجالية للرجال.

العمل على جذب الاستثمارات السياحية فيما بين الدول الإسلامية، بما يساعد على تحسين بنيتها الأساسية في مجال السياحة، مثل الفنادق والمدن الترفيهية، أو البحث عن مجالات سياحية تتميز فيها الدول الإسلامية كل على حدة، سواء السياحة الجبلية، أو العلاجية، أو الريفية، أو الثقافية، أو الدينية، وهكذا.

يُعد العنصر البشري عماد أية عملية تنموية، ويحتاج النشاط السياحي نوعية متميزة للعمل فيه، وهو ما يفرض على دول العالم الإسلامي الإسراع في القضاء على الأمية، والتوسع في مجال التعليم المرتبط بالنشاط السياحي، حتى يمكن أن يساهم هذا النشاط في القضاء على البطالة التي يعاني منها معظم دول العالم الإسلامي.

ويرتبط بهذا المجال التعليم الخاص بإدارة المنشآت السياحية، حيث يلاحظ أن معظم المنشآت السياحية بمستوياتها المختلفة في العالم الإسلامي، تديرها شركات إدارة من خارج دول العالم الإسلامي. ومن شأن وجود مديرين مؤمنين بأهمية مراعاة القواعد الشرعية أن يؤدي ذلك لعدم الوقوع في الممارسات الخاطئة التي يعاني منها قطاع السياحة في الدول الإسلامية(٣).

إن قضايا الأمة الإسلامية على اختلاف تنوعها، يرتبط بعضها ببعض، ولا شك أن الأمر يحتاج إلى أن تفعل المؤسسات التي تم إنشائها في إطار التعاون الإسلامي، ولا شك أن العمل على تحرك أحد القطاعات اقتصاديًا سيدفع بباقي القطاعات نحو التفاعل الإيجابي، ونحسب أن عدد السكان يزيد عن ١,٢٥ مليار نسمة، جدير بأن يصنع نشاطًا سياحيًا مزدهرًا.

هوامش

١- منظمة السياحة العالمية، «التصنيف الدولي الموحد للنشاطات السياحية http://www.unwto.org/statistics/basic¬__references/index-en.htm

٢- اعتمد المقال على الأرقام الواردة بالتقرير المذكور، وهو منشور على موقع المركز بشبكة الانترنت، عبر هذا الرابط، علمًا بأن المركز يتبع منظمة التعاون الإسلامي.
http://www.sesric.org/publications-detail-ar.php.id=٢٨٤

٣- عبدالحافظ الصاوي، نحو استراتيجية تنموية للسياحة .. رؤية تنموية، تقرير واقع الأمة .. بين الثورات والمرحلة الانتقالية، إصدار مجلة البيان ١٤٣٤هجرية - ٢٠١٣ ميلادية، الإصدار العاشر، ص ٤٥٢.

مقاومة السكري



د. محمد عزيز الرحمن القاسمي
باحث في الطب النبوي

يزداد السكر في الجسم ويتحول إلى شحم، ولا يخرج عن طريق البول، بل يكون في العضلات. والرجل المصاب بمرض السكر يضعف يوما بعد يوم، لأن السكر بدل أن يصل إلى العضلات لا يزال يخرج عن طريق البول. ويكون هرمون الأنسولين Insulin hormone في الجسم المعتدل السالم في كمية ملائمة عادة، وهو يحلل الجلوكوز المعد عن طريق الدورة الدموية إلى خلايا جسمية body cells بحيث يستعمل هناك للقوة والطاقة. وهناك خصوصية أخرى لهذا الهرمون بخلاف ذلك، وهي تخزين الجلوكوز بمقدار وافر للاستخدام فيما بعد، وكذلك تخزين ما فضل من الشحم. وبالعكس من ذلك، اذا فقد الجسم صلاحية توليد هرمون الأنسولين أو قل أو فسد استعماله يصاب بمرض السكر، ويقال لهذا الجسم «مصاب بالسكر».

وله صورتان: الصورة الأولى، توليد أنسولين يضعف إلى حد كبير بحيث لا يفي بحاجة الجسم. ويقع الخلل لعدم الكمال في العملية الفطرية لتصدير الدم إلى body cells.

والصورة الثانية: وهي التي لا يتولد فيها هرمون ما. ففي هاتين الصورتين يفسد استعمال الأغذية الموصلة إلى الجسم، ويزداد مقدار الجلوكوز في الدم، ولا تجد خلايا الجسم قوة حسب الحاجة، ويخرج هذا الجلوكوز عن طريق البول، ويتحلل شحم الجسم من أجل قوة العضلات شيئا فشيئا، ويضعف بذلك المصاب بمرض السكر ويهزل. والسكر الذي يتولد من لحم الجسم وشحمه يسبب كيتون ketone ومركبات ضارة تجعل الدم مسموما، كما يسبب هذا كثرة التبول.

وهذا المرض يوجد في الرجال أكثر من النساء، وفي الجنس الأبيض أكثر من الأسود، وربما يكون وراثيا. ويستحسن دوما الابتعاد عن الهم والغم والصدمات الروحانية والأغذية غير المفيدة والقيام بالرياضة البدنية المناسبة.

ولضعف الجلوكوز في جسم المريض صورتان: الأولى التي لا يتولد فيها أنسولين insulin، وهي أخطر صورة. أما الثانية فهي التي يتولد فيها أنسولين ولكن أقل من الضرورة أو فسد استعماله، وهي أقل ضررا من الأولى.

والصورة الأولى يقال عنها تابع للأنسولين، وهي تتطلب عناية كبيرة وأوسع، ولا بد من علاجها على الفور. بينما الصورة الثانية يقال عنها غير تابع للأنسولين non – insulin dependent.



إعداد : سلمان داود الكندري
كاتب ومدرب معتمد في التنمية البشرية

كيف تختار الكتاب الجيد؟

١ - اختر كتابا نافعا

كثير من الناس يشترون الكتب بناء على أغلفتها الجذابة، وهذا أمر غير صحيح، فحاول أن تختار كتابا مفيدًا.

٢ - نظرة متفحصة إلى الكتاب

طالع الكتاب واقرأ المقدمة والمحتويات ودار النشر والفصول وحجم الخط المناسب بسرعة وفي دقائق معدودة، وكذلك اقرأ قليلا لتتعرف على أسلوب الكاتب وطريقته.

٣ - استخدم أسلوب التلخيص

لتحقيق أقصى درجة من الاستفادة من الكتاب لخص كل فصل قمت بقراءته في ورقة، واجعلها داخل الكتاب، بحيث إذا أردت أن تعود إلى الكتاب فرجعت إلى الملخصات فقط دون الحاجة إلى قراءة الفصل بأكمله. وهذه هي الطريقة التي اتبعها في قراءة الكتب.

٤ - استخدم البطاقات

اجعل بجانبك أثناء القراءة بطاقات صغيرة.. دوّن فيها الأفكار الجيدة والأقوال والحكم والتمارين التي تفيدك في مشروع قادم، كتأليف كتاب أو إعداد صفحة مثلا أو إلقاء كلمة جماهيرية واستخدمها أثناء حديثك.

فنـــون القـــراءة

قد يتعذر كثير من الناس في عدم لجوئهم إلى القراءة بقلة الوقت، وهو أمر غريب، لأنهم يجدون أوقاتا للطعام والشراب والسينما ومشاهدة التلفاز والجلوس في المقاهي. ومن كان حريصا فعلا على القراءة يمكنه أن يجد وقتا كافيا لها، وعليه أن يجعل للقراءة جزء في جدوله اليومي، بحيث تصبح هذه الملكة عادة يومية. وسأسوق بعض الأفكار والتقنيات لكيفية القراءة والاستفادة القصوى مما تقرأ:

١ - خصص وقتا للقراءة

يروى أن العالم إسحاق نيوتن كان ينام بشكل متقطع: ينام ساعتين ثم يستيقظ ليقرأ ويعمل، وإذا ما أحس بالملل نام ساعتين أخريين وقام مجددا ليقرأ. فتخصيص وقت للقراءة أمر مهم جدا.

٢ - استغل أوقات الانتظار

هنالك أوقات كثيرة تضيع هدرا أثناء الانتظار في السيارة مثلا أو في الدوائر الحكومية أو في الطائرة أثناء السفر، فحاول أن تصطحب معك كتيبا صغيرا تقرأ فيه في هذه الأوقات الضائعة بدلا من قلق الانتظار. فكم من أناس ألفوا كتبا وصنعوا مشاريع في هذه الأوقات البسيطة التي قد نحتقرها.

٣ - خصص لك مكانا جيدا للقراءة

اجلس في مكان مريح، وتحت إضاءة مريحة للعين، بعيدا عن الإزعاج، حتى تتعود وتعيش أجواء القراءة السليمة من دون مقاطعات. وأنا شخصيا أفضل القراءة في المسجد أو أمام البحر أو في الحديقة أو أحد المقاهي الهادئة.

٤ - الساعة البيولوجية

كل إنسان لديه ساعة معينة من اليوم يبلغ فيها نشاطه العقلي ذروته. وينصح العلماء والباحثون بشدة باستغلال هذا الوقت في أعمال تحتاج إلى تركيز عال، كالقراءة مثلا، حتى تستفيد بأقصى درجة ممكنة مما تقرأه. ولعل أفضل ساعة للقراءة هي بعد صلاة الفجر لحديث الرسول ﷺ «اللهم بارك لأمتي في بكورها».



ارتباط القراءة بقيام الحضارات

١ - الحضارة اليونانية

على الرغم من قدم الحضارة اليونانية، لكونها ترجع إلى ما قبل الميلاد، فإن آثار هذه الحضارة وإنتاجها الفكري والأدبي الغزير (إرث أفلاطون وأرسطو وسقراط) لا تزال مؤثرة في العديد من الناس حتى اليوم.

٢ - الحضارة الإسلامية

عندما نتحدث عن الحضارة الإسلامية العريقة أقف إجلالا لهذه الحضارة العظيمة التي انطلقت من دستور رباني ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ (العلق:١)، حيث بلغت هذه الحضارة من الرقي والعمران الشيء العجيب، مما أذهل كل الحضارات، كالقصور الأندلسية وهندستها الإسلامية التي لا تزال آثارها شاهدة اليوم في غرناطة وإشبيلية وقرطبة. فعلماء المسلمين، الذين انكبوا على القراءة والمطالعة في العلوم المختلفة، استفاد منهم الأوروبيون اليوم في بناء جامعاتهم وحضارتهم الزائفة.

وشهد شاهد من أهلها

يقول المستشرقان هارولد جولد وايت وكاتي كوب في كتابهما «إبداعات الفكر»: «كان المسلمون مفعمين بالحياة، أنقياء. وكانوا أناسا تواقين متحمسين للفكر.. فالديانة الإسلامية تتطلب من الأشخاص أن يفهموا القرآن من أجل أنفسهم.. وقد ترجم هذا التشديد على القراءة والكتابة إلى الاهتمام بكل الحرف الفكرية».

٣ - الحضارة اليابانية

اليابان، هذا البلد الصغير جغرافيا، الذي يعاني من شح موارده الطبيعية، لكنه غني بعناصره البشرية. وبعد الدمار الذي حل باليابان بعد الحرب العالمية الثانية بإلقاء قنبلتين ذريتين، قام اليابانيون من الصفر، وأخرجوا من ركام الحرب حضارة راقية أصبحت من القوى الصناعية الضاربة في العالم.

إحصائيات مزعجة

ذكرت صحيفة الرأي الأردنية فيما ذكرت أن:

١ - متوسط القراءة في العالم العربي يعادل ٦ دقائق في السنة، بينما متوسط القراءة في إحدى الدول الأوروبية ٢٠٠ دقيقة في السنة!

٢ - توجد في الكويت مكتبة واحدة فقط لكل ٣٠ ألف نسمة!

٣ - ما تطبعه كل دور النشر العربية أقل من نصف ما تطبعه إسرائيل!

٤ - يصدر كتاب لكل ربع مليون مواطن عربي، بينما يصدر كتاب لكل ١٥ ألف مواطن في العالم المتقدم!

أفكـــار

١ - من اليوم، كون لك مكتبة خاصة في منزلك، وانتق الكتب الجيدة التي تغذي العقل إيجابا، وابتعد عن كل ما هو سلبي.

٢ - ضع لك قائمة شهرية وسنوية بالكتب التي ستقرأها، وخصص لنفسك معدلا معينا للقراءة يوميا.

٣ - كون مجموعة قراءة من عدة أشخاص، بحيث تتفقون على كتاب معين لهذا الشهر، ثم تتناقشون في الكتاب وتبدون الملاحظات والأفكار حوله. وهذه من أعظم الطرق للتحفيز على القراءة في جو تنافسي جميل.

٤ - احمل معك كتيبات صغيرة في السيارة أو في جيبك، واقرأها بين الحين والآخر في ساعات الفراغ وأوقات الازدحام والانتظار.

٥ - اطلع على كل ما هو جديد من الكتب والمجلات، واقرأ حتى تواكب التطور في الثقافة والفكر.



إعداد: د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

القول الأحق بالفتوى

المقصود بيانه هنا: القول الذي يجب الأخذ به في الفتوى، وذكر بعض ضوابط ذلك.

ذلك أنه لازم على المفتي أن يتحرى القول الحق في فتواه، ولا يجوز له أن يحكم في قضية ما، أو مسألة ما وفق هواه، أو ما وقف عليه من أقوال الشيوخ في مذهب ما دون الاجتهاد للوصول إلى الصواب فيما يراه.

وقد اتفق العلماء على أنه يجب على المفتي أن يفتي بالقول الراجح الأقوى دليلا، والأقوم برهانا من أي مذهب كان.

قال الإمام الشاطبي، رحمه الله: «إذا ثبت أن الحمل على التوسط هو الموافق لقصد الشارع، وهو الذي كان عليه السلف الصالح؛ فلينظر المقلد أي مذهب كان أجرى على هذا الطريق؛ فهو أخلق بالاتباع وأولى بالاعتبار، وإن كانت المذاهب كلها طرقا إلى الله، ولكن الترجيح فيها لا بد منه؛ لأنه أبعد من اتباع الهوى كما تقدم، وأقرب إلى تحري قصد الشارع في مسائل الاجتهاد». (الموافقات ٥/٢٨٠).

وقال الشيخ ابن عابدين، رحمه الله، في منظومته «عقود رسم المفتي»:

ولا يجوز بالضعيف العمل
ولا به يجاب من جا يسأل
إلا لعامل له ضرورة
أو من له معرفة مشهورة

ثم قال في شرح هذين البيتين: «قدمنا أول الشرح أن الحكم والفتيا بما هو مرجوح خلاف الإجماع، وأن المرجوح في مقابلة الراجح بمنزلة العدم، والترجيح من غير مرجح في المتقابلات ممنوع، وأن من يكتفي بأن

شراء سيارة غالية الثمن ولافتة للنظر

(رقم الفتوى ٥١٥١)

عرض على اللجنة الاستفتاء التالي:

رجل من أهل الدين والمروءة، وهو متوسط في العمر، ويرغب في اقتناء سيارة يقودها، وهي من أنواع الرياضية وغالية الثمن ولافتة للنظر، والتي أصبحت -عرفا- سمة من سمات الشباب المستهتر، علما بأنه يقودها متقيدا بآداب السير وقواعد المرور، غير أنه يخشى أن يلحقه بسببها كلام الناس ويعيبوا عليه قيادتها، فهل من مانع شرعي يمنعه من اقتنائها وقيادتها؟ ولعله يجد في نفسه حرجا من قيادتها بسبب نظر الناس وكلامهم.

أجابت اللجنة بما يلي:

إذا كان المستفتي يشتري السيارة المذكورة بعقد مشروع، ويستعملها بما يوافق الأنظمة المرعية، ولا يرتكب في ذلك أمرا ممنوعا شرعا، ولا يدخل في حد الإسراف والتبذير، ولا يقصد منه الشهرة، فلا يوجد مانع شرعي من شرائها وقيادتها على الوجه المذكور، ولا عبرة باختلاف السن. أما الحرج الاجتماعي الذي يتحدث عنه فتقديره متروك للمستفتي نفسه، ويحسن بالمستفتي ألا يخرج عن عرف أمثاله. والله أعلم.

الإسراف في وليمة الزواج

(رقم الفتوى ١٦٥٠٦)

عرض على «اللجنة الدائمة» في المملكة العربية السعودية الاستفتاء التالي:

لدينا عادة قبلية منتشرة في الحجاز وهذه العادة هي: إذا قام أحد أفراد القبيلة بتزويج ابنته إلى أحد شباب إحدى القرى المجاورة، فإنه يطلب من الشاب المتزوج إحضار ما لا يقل عن اثني عشر خروفا، وعندما يسأل والد البنت المتزوجة عن ذلك، يذكر بأن هذه الخراف سوف يذبحها كوجبة لجماعته.

والسؤال: هل هذه العادة حلال في شرع الله أم حرام؟

أجابت اللجنة بما يلي:

يستحب عمل الوليمة بمناسبة الزواج من غير إسراف؛ لقوله ﷺ للمتزوج: «أولم ولو بشاة» (متفق عليه). أما الإسراف في الولائم بمناسبة الزواج أو غيره؛ فإنه محرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ (الأعراف:٣١). ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ

تكون فتواه أو عمله موافقا لقول أو وجه في المسألة، ويعمل بما شاء من الأقوال والوجوه من غير نظر في الترجيح؛ فقد جهل وخرق الإجماع». (ص٤٨).

وقال الإمام النووي، رحمه الله: «وليس للمفتي والعامل على مذهب الإمام الشافعي في المسألة ذات الوجهين أو القولين أن يفتي أو يعمل بما شاء منهما من غير نظر، وهذا لا خلاف فيه، بل عليه في القولين أن يعمل بالمتأخر منهما، إن علمه، وإلا فبالذي رجحه الشافعي، فإن لم يكن رجح أحدهما، ولا علم السابق لزمه البحث عن أرجحهما فيعمل به» (روضة الطالبين ١١/١١١).

وعليه؛ فطالب العلم يتحرى الحق ويفتي به، ويتجنب الفتوى بغير علم، أو بالضعيف من الأقوال.

وفي الغالب لا تخفى معرفة الصواب من الأقوال عن العالم؛ لا سيما إن كان ذا عقل راجح، مطلعا على أقوال المذهب، ومنتبها إلى قواعد الترجيح فيه.

أما غير المجتهدين فقد نبه الإمام الشاطبي إلى ضابط مهم يعتمد عليه المفتي؛ فقال: «فإن قيل: فهل لغير المجتهد من المتفقهين في ذلك ضابط يعتمده أم لا؟

فالجواب: إن له ضابطا تقريبيا، وهو أن ما كان معدودا في الأقوال غلطا وزللا قليل جدا في الشريعة، وغالب الأمر أن أصحابها منفردون بها، قلما يساعدهم عليها مجتهد آخر، فإذا انفرد صاحب قول عن عامة الأمة، فليكن اعتقادك أن الحق في المسألة مع السواد الأعظم من المجتهدين، لا من المقلدين». (الموافقات ٥/١٤٠).

لذلك، ينبغي على المفتي أن يراعي ما يلي:

أولا - أن يحرص على تتبع الأقوال بأدلتها.

ثانيا - أن يتحرى معرفة مواطن الإجماع، ويحذر من مخالفته وخرقه.

ثالثا - أن يعلم أن البحث عما يرضي الناس في الفتوى مزلة الأقدام.

رابعا - أن يجعل في صدره، عند البحث والتحري، حيزا للجمهور، ولو ظهر له قوة الدليل المخالف؛ فقد يخفى عليه القول الأحق بالفتوى.

خامسا - أن يجتهد في الدعاء؛ رجاء أن يرزقه الله تعالى فهما وعلما ورحمة.

ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ (الإسراء:٢٦ و٢٧). ولأن الإسراف في الوليمة يثقل كاهل الزوج، ويعسر الزواج، والنبي ﷺ قد حث على تخفيف مؤنة الزواج، فالواجب عليكم ترك هذه العادة، والاقتصار على المشروع، وفي ذلك الخير والبركة. والعادة إذا كانت تخالف الشرع وجب تركها؛ لما فيها من الشر.

صرف الأموال في شراء المخلفات الأثرية

(رقم الفتوى ٢١٠٦٤)

عرض على «اللجنة الدائمة» في المملكة العربية السعودية الاستفتاء التالي:

يستنكر بعض الغيورين ما يصرف من الأموال الطائلة في شراء ما يسمى بالمخلفات الأثرية لبعض الأشخاص المشاهير، أو المعظمين؛ من ملابس، ومقتنيات كان يقتنيها، أو يستعملها ذلك الشهير، أو المعظم في حياته، وتُدفع في مقابل الحصول على ذلك مبالغ طائلة قد تصل إلى الملايين.

أجابت اللجنة بما يلي:

لا شك أن هذا عمل محرم من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا العمل نوع من الوثنية؛ لأنه قد يفضي إلى الشرك، والتبرك بتلك الآثار، والتعلق بأصحابها من دون الله عز وجل، وما وقع الشرك في الأمم السابقة إلا بسبب تعظيم آثار عظمائهم وصالحيهم، كما حصل لقوم نوح وغيرهم.

الوجه الثاني: أن بذل الأموال في الحصول على تلك الآثار هو من أعظم الإسراف والتبذير، اللذين حرمهما الله في محكم كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ (الإسراء:٢٦ و٢٧). وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الأعراف:٣١).

الوجه الثالث: أنه قد جاء الشرع المطهر بوجوب الحجر على السفهاء والمبذرين، لمنعهم من ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ (النساء:٥).

فالواجب على ولاة الأمور -وفقهم الله- وضع حد لمثل هذا التصرف المشين، والتوجيه بصرف هذه المبالغ في سبيل الله عز وجل من كفالة الأيتام وإطعام الفقراء والمساكين وسد عوز المعوزين، وتمويل المشاريع الخيرية العامة. وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.



مقدمة ابن خلدون

إعداد : خالد خلاوي

لا يكاد يذكر علم الاجتماع والعمران إلا وتذكر معه المقدمة الشهيرة التي كتبها العلامة ابن خلدون لكتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، والتي نالت من الانتشار والاهتمام من قبل العلماء والباحثين أكثر مما ناله الكتاب نفسه، فلعل ابن خلدون أراد بكتابه المبتدأ أن يضع نفسه في مصاف كبار المؤرخين، فإذا بمقدمة الكتاب تضعه في مصاف مؤسسي العلوم ليصبح أول من أسس لعلم الاجتماع.

ولقد استفادت الإنسانية شرقا وغربا من النظريات التي وضعها ابن خلدون في قوانين العمران ونظرية العصبية، وبناء الدولة وأطوار عمارها وسقوطها، يقول أرنولد توينبي: ابتكر ابن خلدون وصاغ فلسفة للتاريخ هي بدون شك أعظم ما توصل إليه الفكر البشري في مختلف العصور والأمم، ويقول جورج مارسيز: إن مؤلف ابن خلدون هو أحد أهم المؤلفات التي أنجزها الفكر الإنساني.

في السطور التالية تعريف بابن خلدون والمقدمة ملخصا من بحث الأستاذ الدكتور علي عبدالواحد وافي الذي نشره ضمن سلسلة تراث الإنسانية (١)

التعريف بابن خلدون

هو العلامة عبدالرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي، ولد في تونس عام (٧٣٢هـ - ١٣٣٢م)، في أسرة علم وأدب، وبدأ خطواته الأولى في طلب العلم في تونس، حيث تتلمذ في جامع القرويين، فحفظ القرآن الكريم ونهل من معارف الآبلي وابن مرزوق، ولقي بفاس لسان الدين بن الخطيب الذي كان له أثر عظيم في تعليمه وتكوينه.

قضى ابن خلدون أغلب مراحل حياته في تونس والمغرب الأقصى، وكتب الجزء الأول من المقدمة بقلعة أولاد سلامة بالجزائر، وعمل بالتدريس في جامع الزيتونة بتونس، وفي المغرب بجامعة القرويين في فاس، وبعدها في الجامع الأزهر بالقاهرة، وفي آخر حياته تولى القضاء المالكي بمصر إلى أن توفي سنة (٨٠٨هـ ١٤٠٦م)، وتم دفنه قرب باب النصر بشمال القاهرة.

محتويات مقدمة ابن خلدون

يقول د. علي عبدالواحد وافي: تطلق مقدمة ابن خلدون على المجلد الأول من سبعة المجلدات التي يتألف منها «كتاب العبر» (حسب طبعة بولاق التي تم إخراجها سنة ١٨٦٨م)، ويشمل هذا المجلد على ما يلي:

أولا: خطبة الكتاب أو ديباجته أو افتتاحيته، وتقع في نحو سبع صفحات، وقد عرض فيها المؤلف بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله لبحوث المؤرخين من قبله، وذكر طوائفهم، ووجوه النقص في بحوثهم، وأشار إلى الأسباب التي دعته إلى تأليف الكتاب كله (كتاب العبر)، وبين طريقته وأقسامه.

ثانيا: مقدمة في فضل التاريخ، وتحقيق مذاهبه، والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام، وذكر شيء من أسبابها. وتقع هذه المقدمة في نحو ثلاثين صفحة.

ثالثا: «الكتاب الأول في طبيعة العمران وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها، وما لذلك من العلل والأسباب». ويقع في نحو ستمائة وخمسين صفحة. وهذا هو القسم الرئيسي مما نسميه الآن مقدمة ابن خلدون.

ويشمل على ما يأتي:

١- تمهيد، يقع في نحو سبع صفحات: تكلم فيه كذلك عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ في رواية حوادثه، والأسباب التي دعته إلى البحث الذي يتضمنه هذا الكتاب الأول من مؤلفه، وبين البحوث الستة الرئيسية التي يشتمل عليها هذا الكتاب، وموضوع كل بحث.

٢- ستة بحوث رئيسية (سماها ابن خلدون فصولا، وسميناها أبوابا، حتى لا تلتبس بالفصول الفرعية التي تنطوي تحتها)، وهي:

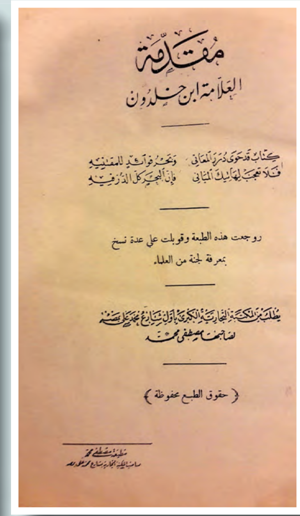
الباب الأول: «في العمران البشري على الجملة»، ويشتمل على ستة فصول (سماها ابن خلدون مقدمات)، ويقع في نحو تسعين صفحة.

الباب الثاني: «في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل». ويشتمل على تسعة وعشرين فصلا فرعيا، ويقع في نحو أربعين صفحة.

الباب الثالث: «في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب والسلطانية». ويشتمل على أربعة وثلاثين فصلا فرعيا، ويقع في نحو مائتي صفحة.

الباب الرابع: «في البلدان والأمصار وسائر العمران». ويشتمل على اثنين وعشرين فصلا فرعيا، ويقع في نحو أربعين صفحة.

الباب الخامس: «في المعاش


مقدمة
العلامة ابن خلدون

كتاب قد حوى درر المعاني ... وبحر فوائد للمقتنيه
فلا تعجب لهاتيك المباني ... فإن البحر كل الدر فيه

روجعت هذه الطبعة وقوبلت على عدة نسخ
بمعرفة لجنة من العلماء

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

(حقوق الطبع محفوظة)



ووجوه من الكسب والصنائع، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال». ويشتمل على ثلاثة وثلاثين فصلا فرعيا، ويقع في نحو ثمانين صفحة.

الباب السادس: «في العلوم وأصنافها، والتعليم وطرقه وسائر وجوهه، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال». ويشتمل على واحد وستين فصلا فرعيا، ويقع في نحو مائتين وعشرين صفحة.

منهج ابن خلدون في البحث

يعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها، وتعقب هذه الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره، وتعقب أشباهها ونظائرها في تاريخ شعوب أخرى لم يتح له الاحتكاك بها ولا الحياة بين أهلها، والموازنة بين هذه الأوضاع جميعا والتأمل في مختلف مناحيها، للوقوف على طبائع الظواهر وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية، وما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد والجماعات. والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض، والتي تربطها بما عداها من الظواهر الكونية، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور، ثم الانتقال من هذه الأمور جميعا، وفي ضوئها إلى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر في مختلف شؤونها من قوانين.. فهو في بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين، تتمثل أولاهما في ملاحظات حسية وتاريخية لظواهر الاجتماع، أو بعبارة أخرى: تتمثل في جمع المواد الأولية اللازمة لموضوع بحثه من المشاهدات ومن بطون التاريخ، وتتمثل ثانيتهما في عمليات عقلية يجريها على هذه المواد الأولية، ويصل بها إلى الغرض الذي قصد إليه من هذا العلم، وهو الكشف عما يحكم الظواهر الاجتماعية من قوانين، وهذا هو جوهر منهجه في البحث. وهو المنهج الذي لايزال إلى الوقت الحاضر عمدة الباحثين في علم الاجتماع.

في العلوم والكتابة العربية

سلك ابن خلدون في كتابة الرسائل الخاصة والحكومية، منذ أن تولى وظيفة كتابة السر والإنشاء لأبي سالم بن أبي الحسن، سلطان المغرب الأقصى، وفي تأليف «مقدمته» وكتابه «العبر» أسلوبا جديدا يمتاز بالسهولة والوضوح، والتعبير الدقيق عن الحقائق، وقوة التدليل، وترابط الفكرة، وحسن الأداء والتناسق، وتخير المفردات والتراكيب العربية السليمة، والتخلص من قيود السجع ومحسنات البديع، ولم يكن أسلوبه هذا في الحقيقة جديدا كل الجدة، وإنما كان إحياء للأسلوب العربي الأصيل الذي امتازت به العربية في عصورها الذهبية الأولى، والذي يتمثل في أوضح صورة في أسلوب عبدالحميد الكاتب، في عصر بني أمية، ثم في أسلوب الجاحظ ومن إليه من فحول الكتاب في العصر العباسي.

ولا تقتصر فائدة المقدمة على ابتكارها في دراسة شؤون الاجتماع، وأثرها في أسلوب الكتابة العربية وحسب، بل تقدم لنا كذلك بحوثا قيمة في تاريخ العلوم والفنون وموضوعاتها وفروعها ومذاهب أئمتها، وأهم ما ألف في كل فرع منها. وبذلك تدلنا على رسوخ قدم ابن خلدون في معظم العلوم والفنون والمعرفة في عصره، وتكشف لنا عن نواح أخرى كثيرة من مظاهر نبوغه، وقد عرض ابن خلدون لهذه البحوث في مواطن كثيرة، وخاصة في الفصول الثاني والثالث والسادس من الباب الأول، وفي الفصول العشرة الأخيرة من الباب الخامس، وفي معظم فصول الباب السادس.

فدرس فنون الفلاحة والبناء والنجارة والخياطة والحياكة والتوليد والطب والخط والكتابة والوراقة والموسيقى والغناء، ودرس علوم القراءات ورسم المصحف والتفسير والحديث والفقه والفرائض وأصول الفقه، والجدل والخلافيات والتوحيد والتصوف، والعلوم اللغوية والرياضية والطبيعية بمختلف فروعها، والمنطق والفلسفة والإلهيات، وبحوث التربية والتعليم وعلم النفس التربوي والتعليمي.

ومن العجيب أنه لا يمر مرورا سريعا على هذه الطوائف الغريبة من العلوم والفنون، بل يفصل القول تفصيلا، ويذكر مناهجها وطرق استخدامها والانتفاع بها وأهم ما ألف فيها، وأشهر أئمتها.

١- مقدمة ابن خلدون، د. علي عبدالواحد وافي، تراث الإنسانية ج١ ص ٢٨٦ وما بعدها، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ

الماء.. جمال للبشرة وصحة للجسم

لا تقتصر فوائد الماء على إرواء الجسم، وإزالة السموم منه، بل يمنح الجمال للبشرة، ويجعلها ندية نضرة، وهذا كله بفضل ما يحتوي عليه الماء من معادن وأملاح مفيدة وضرورية للبشرة.

فهو يحتوي على المغنيسيوم، الذي يساعد في القضاء على التعب والتشنج، والبوتاسيوم العنصر الأساسي في عمل العضلات والخلايا، والكالسيوم المهم جدا في تكون مخزون العظام والمساعد في الوقاية من ترققه، والصوديوم الذي يتدخل في تنظيم حركة الماء بالجسم، والسيلينيوم محارب الأكسدة ومقاوم شيخوخة الخلايا، والفلور المهم جدا للحماية من التسوس، والزنك الذي يسهم في الحفاظ على حصانة الجسم، وغير ذلك من عناصر.

ومن النصائح المهمة لتحقيق أكبر استفادة للبشرة من الماء:

شرب الماء صباحا قبل تناول أي طعام: ابدأ بشرب كوب كبير من الماء، فهو ينظف المعدة، ويرطب الجسم، والأفضل هو الاستمرار في شرب الماء خلال النهار، فالتوقيت ليس مهما، المهم هو تناول كمية كافية من الماء يوميا.

• **حسام فتحي أبوجبارة**

طيور الكعبة.. تسبح بحمد ربها

في بحث طريف للكاتب الصحافي الأستاذ صلاح منتصر رصد -بعين الصحافي الراصدة- مشهد الطيور الصغيرة التي تحوم وتحلق فوق رءوس الآلاف في صحن الكعبة المشرفة، وحاول أن يضبط طائرا واحدا -على حد قوله- فقط يطير فوق بنيان الكعبة نفسها، أو فوق سقفها.. «عيناي مثبتتان على كل طائر وأنا أتابع جناحيه وهو يقترب من حدود سقف الكعبة العلوى، ثم فجأة.. وقبل أن يدخل سماء سقفها، أراه يستدير بجناحيه ويبتعد يمينا أو يسارا أو خلفا، كأن هناك إشعاعا من نوع خاص ضد هذا الاختراق.

جاء هذا الرصد ضمن عدة رصدات سجلها في كتابه القيم «طيور الكعبة» الصادر عن «دار مايو» للنشر بالقاهرة، عام ١٩٩٨م، والذي جاء في ١٩٠صفحة من القطع المتوسط.

• **السيد مسعد**

غادر

غادر بلاد الأنبياء
فلست إلا في بلاد المجد غادر
غادر وعبئ في حقائبك المكائد
عبئ شرورك
لست إلا في بلاد الحب
فاجر
وارفع يديك عن المساجد
والكنائس والمقابر والمصائر
واجمع طموحات الأفاعي
لا تدع شيئا وغادر
غادر وخل الحب في أحلامنا
والفجر يضحك للأزاهر
غادر فهذا الطفل محتاج
لأن يلهو وأن يدنو من الصبح المسافر
غادر فهذا الطفل محتاج لأن يحيا طفولته
بلا غدر ولا جرح
ولا خوف يحاصر
غادر وخل الدمع والأحزان من قلبي تغادر
غادر تراب القدس
واترك حلمنا يحبو
ولا تترك دموعا أو مخاطر
غادر فهذا الليل محفوف
بآلام وأحزان وأحلام
وإيمان وآهات ودمعات وساهر
ولأنت بالقلب البريء
يموت بين سنابل الأحلام كافر
ولأنت بالشيخ المسن يموت
بالأحزان مقصوفا وبالطعنات كافر
ولأنت بالأم التي فقدت ورود حياتها
ولأنت بالنيران تغلي حولها
والحزن بين فؤادها واليأس كافر
ولأنت بالبنت الشريدة في بقاع اليتم
تبحث عن رفات الأهل
تبحث عن طعام الصبح
تبحث عن ورود الحلم
كافر
ولأنت بالعصفور يشدو
أنت بالفجر الوديع
وأنت بالإحساس كافر
أنت بالأحلام تلهو في عيون الورد كافر
أنت بالآفاق تقطر حبها للأرض كافر
أنت بالأقصى وبالحرمات كافر
أنت بالتاريخ والأزمات والأمجاد
والأعراق والآلاء.. كافر
أنت بالقدس العريقة
أنت بالزيتون والآيات كافر
أنت بالآيات كافر
أنت بالآيات كافر

• **سامح محمد يوسف**



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

الحياة الدنيا في القرآن الكريم

الحياة الدنيا هي هذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان، بكل ما فيه من أحداث وأشخاص، وخير وشر، وأفكار وفلسفات، وآمال وطموحات.. هي دار الابتلاء والاختبار للإنسان.

والقرآن الكريم يضرب الأمثال للناس ليوضح لهم حقيقة هذه الحياة الدنيا التي حتما ستنتهي بعد الازدهار والزينة والجمال والبهاء، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ (الكهف:٤٥).

ويشير القرآن الكريم إلى هؤلاء الذين يؤثرون الحياة الدنيا ويكفرون بالآخرة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النازعات:٣٧-٣٩).

ومتع الحياة فتنة للإنسان، وابتلاء له، وقد ينجح الإنسان في الاختبار وقد يفشل، لذلك يجب ألا يفرح الإنسان بمتع الحياة، ويجب عليه أن يحذر منها.

ويشير القرآن إلى الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٤).

والمؤمن لا يترك الدنيا، ولا يحرم نفسه من خيرها الذي أحله الله، قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ (البقرة:٢٠٠-٢٠١).

● د. يحيى محمود أبوالمعاطي سنبل

من الإعجاز النفسي

مع التقدم العلمي الذي عرفته مختلف مجالات العلوم في عصرنا ظهرت واضحة وجلية حقائق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وكتب في ذلك المصنفات الكثيرة، غير أن هناك جوانب من هذا الإعجاز لم تنل حقها من الدراسة والتمحيص، وأهمها جانب الإعجاز النفسي، والذي تنبه إليه منذ القرن الرابع الهجري أبوسليمان الخطابي حين قال: «في إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها».

وإذا كان القرن الماضي قد شهد تقدما كبيرا في العلوم الطبية وعلوم الجراحة والتشريح، وتمكن الإنسان بفضل ذلك من معالجة الكثير من الأمراض المستعصية، فإن القرن الواحد والعشرين يوحي بأن التحدي الكبير الذي سيواجه البشرية في المستقبل هو تحدي الأمراض النفسية والعصبية.

يشهد لذلك ما تتحدث عنه الإحصاءات التي تتوقع أن تصبح الأمراض النفسية أكثر الأمراض انتشارا في العالم بحلول عام ٢٠٢٠م.

● عبدالحق الشكيري

الفجر القادم

العمل هو الصورة الحية للتعاليم الربانية، والمترجمة للمفاهيم والقيم، ولابد أن تنشأ لدينا رغبة عارمة وحب للعمل، لأننا لن نتغير إلا بالعمل ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(التوبة:١٠٥). والعمل بهمة وروح وثابة يساهم في تفجير الطاقات الكامنة داخل الإنسان.. فانهض أخي العزيز فالركب سائر.. والأمة تعيش المخاض، والروح ترفرف في عليائها تنتظر من يسمح لها في النفاذ كي تبدد أوهام الماضي الكئيب.. أرجوكم يا سادة أن تسرعوا الخطى وتعملوا جاهدين لإنقاذ العالم، فهو يئن ويشتكي، فهل من مشمر وهل من مشارك؟ ساهم وشارك واستبق لنفسك الخيرات، ولا تدخر وسعا أو جهدا ولو بسيطا، غدا ستشرق الشمس ويتبدد الظلام وتتقشع الظلمات ويغدو العالم سعيدا بعودة النور من جديد، والبشريات تملأ الدنيا، فأسوار الظلم بدأت تنهار وتتهاوى، وأجواء الحرية تنادي عشاقها، فكن واحدا من الركب المبارك، ولا تتخلف عن المسيرة المباركة والمحروسة بعين الله، فهل بعد ذلك تتراجع وتظل على سلبيتك.. إنها فرصة عظيمة لمن أراد أن يكون ذكره مع الخالدين.

● محمد الشحات أبوعبيد

إعداد: تركي النصر

نور العلم

كلما قرب القلب من الله زالت عنه معارضات السوء، وكان نور كشفه للحق أتم وأقوى، وكلما بعد عن الله كثرت عليه المعارضات، وضعف نور كشفه للصواب؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، يفرق به العبد بين الخطأ والصواب.

وقال مالك للشافعي –رضي الله عنهما– في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية.

وقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾(الأنفال:٢٩). ومن الفرقان النور الذي يفرق به العبد بين الحق والباطل، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم.

(**إعلام الموقعين** ٤/١٩٨).

علامة حسن الخلق

علامة حسن الخلق عشرة أشياء: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للكبير والصغير، ولطف الكلام لمن هو دونه وفوقه.

(**الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي** ص١١).

صحة الفهم

صحة الفهم: نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية.

ويقطع مادته اتباع الهوى وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى.

(إعلام **الموقعين** ١/٩٦).

النفاق

سأل رجل حذيفة فقال: ما النفاق؟

قال حذيفة: أن تتكلم بالإسلام ولا تعمل به.

(**سير أعلام النبلاء** ٢/٢٦٣).

فضول المخالطة داء

إن فضول المخالطة هي الداء العضال، الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات، تزول الجبال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة.

(**بدائع الفوائد للعلامة ابن القيم** ٢/٢٧٣).

لسان الحكيم وراء قلبه

كانوا يقولون: «إن لسان الحكيم وراء قلبه، فإذا أراد أن يقول يرجع إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن كان عليه أمسك.

وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه، لا يرجع إلى القلب، فما أتى على لسانه تكلم به».

وقال أبو الأشهب رحمه الله: «كانوا يقولون: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه».

(**الزهد والرقائق لابن المبارك** ١/ ١٣١).

عشق الصور

سئل بعض العلماء عن عشق الصور، فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله؛ فابتلاها الله بعبودية غيره، فالقلب الغافل مأوى الشيطان، فإنه وسواس خناس، قد التقم قلب الغافل.

(**مفتاح دار السعادة** ١/١١٢).

لا تسأل الناس شيئا

عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت: قال لي أبوالدرداء رضي الله عنه: لا تسألي الناس شيئا، قالت: فقلت: فإن احتجت؟ قال: فإن احتجت فتتبعي الحصادين، فانظري ما سقط منهم فاخبطيه ثم اطحنيه ثم كليه، ولا تسألي الناس شيئا.

(الزهد للإمام أحمد ص٢٦٦).

الراعي والرعية

قال ابن تيمية رحمه الله: «... النقص في الراعي والرعية جميعا، فإنه كما تكونوا يول عليكم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾(الأنعام:١٢٩).

(مجموع الفتاوى ٣٥/٢٥).

خسف القلوب

متى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله والاستعداد للقائه، وحل فيه حب المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا، والطمأنينة بها؛ فاعلم أنه قد خسف به، ومتى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى فاعلم أن قحطها من قسوة القلب، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي.

(بدائع الفوائد ٣/٢٢٤).

من فقه شريح

قال عمير بن يزيد: كنت عند شريح، فجاء رجل وامرأته يختصمان، فقالت المرأة: طلقني ولم يعلمني الرجعة حتى انقضت العدة.

فتزوجت رجلا، ودخل عليها زوجها، فقال شريح: ألا أعلمتها الرجعة كما أعلمتها الطلاق؟ ولم يردها عليه.

(أخبار القضاة ٢/٢٣٥).

القوانين الوضعية

إن تطبيق القوانين والمناهج غير الإسلامية في بلاد المسلمين يورث المسلمين مزيدا من التخلف ويقتل الإبداع، ويصيب المسلم بمركب النقص، ويوقع في عقدة التفوق للأجنبي، ويورث مزيدا من العطالة، ويشعر المسلم بالإثم الدائم من تعطيل شريعة الله، ولا يجد من نفسه أي احترام لقانون لا يمت إليها بصلة.

(نظرات في مسيرة العمل الإسلامي للعبيد ص١١٦).

كل مطلوب متعبد به

قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى:

«إن الأصل الشرعي أن كل مطلوب هو من جملة ما يتعبد به إلى الله تعالى ويتقرب به إليه، فالعبادات المحضة ظاهر فيها ذلك، والعادات كلها إذا قصد بها امتثال أمر الله عبادات»

(الاعتصام ١/٢٨١).

الوحدة

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «من استوحش من الوحدة، واستأنس بالناس؛ لم يسلم من الرياء».

(موسوعة ابن أبي الدنيا ٦/٥٠٦).

بين الانقباض والانبساط

قال الإمام الشافعي رحمه الله: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

(حياة السلف بين القول والعمل ص٦٨٣).

الحسنة تدل على أختها

قال عروة بن الزبير رحمه الله: إذا رأيت الرجل يعمل الحسنة، فاعلم أن لها عنده أخوات، وإذا رأيته يعمل السيئة، فاعلم أن لها عنده أخوات، فإن الحسنة تدل على أختها، وإن السيئة تدل على أختها.

(صفة الصفوة ٢/٤٣٨).

مِسكُ الختام

فلا تظلموا فيهن أنفسكم...

د. محمد أحمد الدش
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

لله الحكمة البالغة في الاصطفاء، حين يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، وحين يصطفي من الأزمنة أشرفها.. وحين يصطفي من الأمكنة أفضلها.. وتتجلى بعض مظاهر تلك الحكم حين يربط الله تبارك وتعالى الأفضلية في الأعمال الصالحة بأفضلية الزمان والمكان؛ حيث يضاعف فيهما الثواب على الأعمال الصالحات على غيرها من الأمكنة والأوقات، وقد قال أهل العلم: إن لبعض الأوقات أثرا في زيادة الثواب على الطاعات والعقاب على المحظورات، ومن الأزمنة التي خلقها الله عز وجل ويعظم فيها العقاب على فعل المنكرات وارتكاب المحرمات- الأشهر الحرم، إذ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(التوبة:٣٦).

ونحن في هذه الأيام نستقبل شهر رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، وهو من الأشهر الحرم، وقد قيده النبي ﷺ «بمضر» للإيضاح وإزالة اللبس عنه، فقد كانت «مضر» تجعل رجبا هذا الشهر المعروف الآن، وهو الذي بين جمادى وشعبان، بينما كانت «ربيعة» تجعله رمضان، ولهذا أضافه الرسول الكريم ﷺ إليهم تمييزا وإيضاحا، وقد كانوا في الجاهلية يعظمون هذا الشهر فيكفون فيه عن القتال والأخذ بالثأر؛ تعظيما له، ففي صحيح البخاري أن أبا رجاء العطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جُثْوَةً من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناهُ عليه ثم طفنا به، فإذا دخل رجب قلنا : مُنَصِّلُ الأسِنَّةِ، فلا ندع رمحا فيه حديدة، ولا سهما فيه حديدة، إلا نزعناه وألقيناه شهرَ رجب».

والقرآن الكريم يحمل إلينا دعوة من رب العزة سبحانه وتعالى بالابتعاد عن الظلم، إذ يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾(التوبة:٣٦).

والظلم أنواع عدة، منها ظلم الإنسان لنفسه ولغيره.. أما ظلم الإنسان لنفسه فإن أعظمه: الشرك وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣). فبالشرك يظلم الإنسان نفسه ويوردها موارد الهلاك، وكون الشرك ظلما عظيما لأنه يتضمن المساواة بين الخالق والمخلوق، بين واجب الوجود وممكن الوجود، بين واهب النعم ومن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا... ويظلم الإنسان نفسه أيضا بمجاوزة الحد وارتكاب المعاصي واقتراف الآثام، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾(الطلاق:١).

والمؤمنون جميعا كنفس واحدة، ومن ظلم أخاه فهو في الحقيقة ظالم لنفسه، فحين يسلب حق أخيه أو يتعرض له بالإيذاء فإنما يظلم نفسه بتعريضها لعقاب الله تعالى في الآخرة، حتى لو كان عابدا متعبدا، يأتي يوم القيامة مفلسا من الحسنات. وارتكاب هذه الأنواع من الظلم منهي عنه في كل الأزمنة والأمكنة، بيد أنه في الأشهر الحرم أشد حرمة وأعظم عقوبة، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى أن قوله تعالى ﴿فِيهِنَّ﴾ مقصود به الأشهر الحرم الأربعة، فهذه الأشهر الحرم لمكانتها وشرفها اختصت بضرورة الإقلاع عن المعاصي وترك المنكرات وانتهاك الحرمات.. وإن كانت هذه الحرمة في كل الأزمنة والأمكنة، يقول الإمام القرطبي في تفسيره: «إذا عظم شيئا من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة، وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعددة، فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيئ كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح، فإن من أطاع الله في الشهر الحرام في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام، ومن أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في شهر حلال في بلد حلال».



دولة الكويت
وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
إدارة الإعلام الديني

فيديو كليب

لوّن حياتك



إدارة الإعلام الديني

الإشراف العام

صلاح أبا الخيل

DVD VIDEO

redawqaf



أسست عام ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-Islami
مجلة كويتية شهرية جامعة
العدد (٥٨٨) شعبان ١٤٣٥ هـ - يونيو ٢٠١٤ م

٥٠ عاماً من العطاء

العمران الإسلامي

هدية العدد: ذخائر مجلة الوعي الإسلامي (٢)

المخطوط العربي يستشرف المستقبل بتراث الأجداد

حوار مع رئيس مؤسسة ماس الأمريكية

قراءة في مشروع رعاية أجيال الكويت

ما يطلبه المراهقون

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

ذخائر مجلة الوعي الإسلامي



سلسلة جديدة من ذخائر «الوعي الإسلامي» تسهم في نشر التراث
توزع كهدية للقراء الأعزاء مع أعداد المجلة

الافتتاحية

منادمة الأطلال

الله خلق الإنسان وشرفه بالخلافة على هذه الأرض، وأمره بالمشي في مناكبها.

وتحقيقا للأمر الإلهي، بعمارة الأرض، عمارة صالحة، دون فساد واعتداء، ولا ضرر ولا ضرار، جاءت شريعتنا لإقامة المبادئ العامة التي ينبني عليها نظام حياتنا، وتصلح لكل زمان ومكان، وهذه المبادئ هي التي قامت عليها خطة الحسبة، التي كان من مهماتها تنظيم النواحي العمرانية في المدن الإسلامية، وإن مراعاة الأنظمة والقوانين، والمحاسبة عليها من أهم العوامل التي تؤثر في استمرار بقاء المدينة المتحضرة، وواجب أن يراعى فيها دفع المضار، وجلب المنافع، وتسهيل المرافق.

وما الحضارة إلا مظهر حي وترجمان عملي لهذه العظمة، ونتائج مباشرة لهذه الأفكار والقيم والأنظمة، والأمة الإسلامية بقي لها من زاهر حضارتها، وشامخ مجدها، رصيد من الثروة العمرانية، فإذا ضعفت، وخفت نجمها في ميدان المجد والعظمة، بقيت الديار والآثار والأسفار، أعظم مورد، وأصدق شاهد، على سابقها وماضيها.

تلك آثارنا تدل علينا

فانظروا بعدنا إلى الآثار

ومازال أهل الصدق والإنصاف، من علماء الغرب، يعترفون بفضل تلك الآثار والديار.

ومازال أهل الغرب يدرون قدرنا

مدى الدهر ما أبدوا من الفضل معجما

متى يذكر الأفضال فيهم خطيبهم

على منبر صلى علينا وسلما

والحق أن بلادنا هي التي أوحت فيما مضى إلى الغرب بتجديد مظاهر العمران في بلدانهم، فتاريخ حضارتنا نفخر به ونعتز بآثاره، ويعتبر المسجد البناء المعماري المميز للحضارة الإسلامية، كونه مكان العبادة والعلم والعمل والريادة، وكيف لا يكون للمساجد هذا الإقبال، وهي بهذا الشرف والإجلال، وقد أجمع العقلاء، في خطط العمران والبناء، على أن التربية القويمة، والأنظمة والقوانين المستقيمة، هما الوسيلة العظيمة، لارتقاء الأمة في حضارتها.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٨ | شعبان ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
يونيو ٢٠١٤ مـ

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع
دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية
- المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



توسع المسلمين في العمران أساس التقدم والازدهار في مجالات الحياة والدال على رقي الأمة، وعلى سلامة ذوقها، وأصالة حضارتها.

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦-٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذبية . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

•الكويت : ٥٠٠ فلس •السعودية: ٥ ريالات • البحرين : ٥٠٠ فلس • قطر : ٥ ريالات • الإمارات : ٥ درهم • سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة •الأردن:دينار واحد • مصر : ٢ جنيه •اليمن : ١٠٠ ريال •لبنان: ٢٠٠٠ ليرة • سوريا: ٣٠ ليرة • المغرب : ١٠دراهم • الجزائر: ٤ دينار جزائري •تونس: دينار واحد تونسي • المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني • باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

كلمة العدد

الحضارة الإسلامية

الفن المعماري الإسلامي له أهدافه وغاياته، وتميز ببهائه وجماله الفريد، وعاش فترات طويلة من الازدهار والتألق، وترك آثارا عمرانية رائعة نابعة من الروح الحضارية التي تجمع بين أصالة الماضي وإبداع الحاضر.

وتنوعت أشكال العمارة الإسلامية إلى ستة عناصر رئيسية، هي: المسجد الجامع، ومقر ولي الأمر والقاضي، والمدارس، والبيمارستانات، والحمامات، والقلاع والأسوار.

وكان من الملاحظ اهتمام كثير من علماء المسلمين بموضوع العمارة والبناء والخطط، وكذلك اهتمام المؤرخين بوصف المعالم الحضارية وصفا دقيقا يقربها من الناس ويعطي صورة في منتهى الدقة والوضوح.

ولقد شجعت حضارة الإسلام على البناء والعمران، ففتحت مشارق الأرض ومغاربها، مما ساهم في ازدهار العمارة الإسلامية في الشام، والعراق، ومصر، وشمال أفريقيا والأندلس.

ولعل توسع المسلمين في العمران ليس مظهرا حضاريا فحسب، بل هو أساس التقدم والازدهار في مجالات الحياة (العلمية، والفنية، والاقتصادية، والاجتماعية).. كل هذه المرافق يجب أن تنال حظها من العمران الدال على رقي الأمة، وعلى سلامة ذوقها، وأصالة حضارتها.

خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان يرى: أن المال الذي أنفق على بناء الجامع الأموي لم يكن في موضعه، وأن بيت مال المسلمين قد تأثر بسبب ذلك، فأمر بنزع الجواهر الثمينة، واستغنى بالحبال عن السلاسل الذهبية، التي علقت فيها المصابيح، لكنه لما علم أن بعض سفراء الروم لما زاروه استعظموه، واغتاظوا من بنائه، وقالوا: إن من يبني مثل هذا البناء لابد أن تكون دولته قائمة إلى أمد طويل، لما علم بذلك، ترك ما عزم عليه من نزع نفائسه.

التحرير

الاشتراكات

• داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
• دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
• الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
• للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)



في احتفالية قاهرية بيومه السنوي

المخطوط العربي يستشرف المستقبل بتراث الأجداد

القاهرة : دار الإعلام العربية

احتفل حشد من التراثيين وأساتذة المخطوطات والخبراء والباحثين العرب أخيرًا في العاصمة المصرية القاهرة بـ«يوم المخطوط العربي»، برعاية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (إلكسو)، وبتنظيم من معهد المخطوطات العربية في القاهرة. وقد تم خلال الاحتفالية تكريم العالم الكويتي د. عبدالله يوسف الغنيم، وزير التربية والتعليم العالي الأسبق. «الوعي الإسلامي» شاركت في فعاليات الاحتفالية، وجاءتكم بالتفاصيل.

بدأت الفعاليات بكلمة من الأمين العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الدكتور عبدالله حمد محارب، قال فيها: «لقد وفينا بالعهد بأن يكون للمخطوط العربي يوم سنوي، يوافق الرابع من أبريل، كونه اليوم الذي أنشئ فيه معهد المخطوطات العربية عام ١٩٤٦، وتأتي احتفالية هذا العام بعد النجاح الذي شهدته الدورة الأولى في العام الماضي».

وأضاف: «من حق «المخطوط العربي» علينا أن نحتفي به، على أن نخرج من مفهوم الاحتفاء القريب، فليس الاحتفاء تكريما ولا تبجيلا ولا تغنيا، بل هو درس ولفت وحفز وكشف واكتشاف، ومقاربات للعوالم المعرفية والجمالية والحضارية لما يحمله هذا الوعاء التاريخي من ذلك كله، لكون المخطوط يجمع بين أمرين: الأثر والمعرفة. لكن قيمته من جهة كونه أثرا حاملا للمعرفة لا تقل عن قيمة المعرفة التي يحملها. وعلى هذا، فإن احتفاءنا بالمفهوم الذي اعتمدنا يشمل العنصرين معا».

كائن تاريخي استعصى على الموت

كما أوضح محارب أن علوم العربية جميعا جاءت عبر المخطوط، الذي استطاع، رغم سطوة عوامل التلف واعتداءات الإنسان وظلمه؛ أن يقهر كل العوامل ويصل إلينا بجسده وروحه، مختزنا حمولة معرفية وثقافية وعلمية وفنية وحضارية متميزة.

وشدد على أنه حان الوقت للانتقال بالتراث، الذي يمثله المخطوط، من قاعات الدرس المغلقة وصالونات الثقافة إلى الفضاءات المفتوحة، والهبوط به من علياء النخبة ومحاوراتهم ومجادلاتهم، إلى واقعية المثقف العام واهتماماته اليومية.

ولفت إلى أن المخطوط العربي كائن تاريخي استعصى على الموت أكثر من خمسة عشر قرنا، ولا يزال حيا، إذ إنه يختزن عوالم الفكر والعلم والمعرفة والفن، لكن المقاربة

العالم الكويتي د. عبدالله الغنيم يتوج «شخصية العام التراثية» لإسهاماته في تحقيق التراث



تحتاج إلى مغامرة غير تقليدية تتحرك بوصلتها في الاتجاه المعاكس، الماضي، لهذا استحق أن نحتفل به ونستدعيه لنستدعي معه الهوية والخصوصية والقدرة على مواجهة المستقبل. فيوم المخطوط العربي كما هو احتفال به، هو في الوقت ذاته احتفال لتكريم رجاله، والتعرف على حمولته الثقيلة من الإنجازات العلمية، ورصد حكاياته الآسرة.

تراث أمة

من جانبه، قال منسق برامج معهد المخطوطات العربية، والمسؤول الأول عن المشاريع العلمية التي يتبناها المعهد، د. فيصل الحفيان، إننا نريد من الاحتفاء بيوم المخطوط العربي أن نحقق الانتقال من الماضي إلى الحاضر، أو توظيفه، فما عاد يكفي أن نعرف الماضي ونُعرف به، بل أصبح لزاما علينا أن ننظر في شأنه نظرا يتيح لنا أن نستفيد منه، حتى يصبح جزءا من حياتنا العصرية، وداخلا في نسيجها.

وأشار إلى الأهمية العظيمة التي تكتسبها المخطوطات العربية، مؤكدا أنها نقلت إلينا علوم الأمة التي استفاد منها العالم بأسره، شرقا وغربا. كما أن هذه المخطوطات هي التي نقلت إلينا الوحي وتفسيره؛ وكذا أحاديث النبي ﷺ وشروحها، إضافة إلى فقه الأمة، وعلم الأئمة، وتاريخها، ولغتها، وغير ذلك. خاتما مداخلته بعبارة: «أمة بغير ذلك ليست أمة».

ولاشك أننا ما زلنا حتى اليوم في حاجة ماسة إليها، بل إنه كلما تقدمت بنا السنون ازدادت حاجتنا، وحاجة الأمة عامة، إليها.

الغنيم شخصية العام التراثية

وخلال الاحتفالية، تم تكريم العالم الكويتي د. عبدالله يوسف الغنيم، وزير التربية والتعليم العالي الأسبق، كونه رائدا من أبرز رواد الدراسات التراثية الجغرافية، وأهداه معهد المخطوطات درع «شخصية العام التراثية» لعام ٢٠١٤، نظرا لإسهاماته في تحقيق التراث.

وبحسب وصف مدير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم د. عبدالله محارب، فقد ارتبط اسم الغنيم بالجغرافي واللغوي أبي عبيد البكري، صاحب «المسالك والممالك» و«معجم ما استعجم»، والربان بن ماجد صاحب «الفوائد». وأضاف أنه أستاذ استثنائي في الدرس التراثي الجغرافي، عنى عناية بالمخطوط الجغرافي العربي، فهرسة وتحقيقا ودرسا، وانشغل انشغالا جيدا بالمصطلحات الجغرافية، وتحديدا مصطلحات أشكال سطح الأرض.

وأضاف د. محارب: «الغنيم تميز برحلاته الميدانية، منفردا أو برفقة تلاميذه، وعاين فيها مناطق عديدة في شبه الجزيرة العربية، وعانى التعامل مع التربة والصخور، وتتبع خطوط الرحلات التاريخية، وله تراث غزير ومتنوع في حقول معرفية دقيقة تعاني من انصراف الباحثين وزهدهم فيها، مثل الزلازل في المصادر العربية، والخرائط الجغرافية العربية، وعلوم البحر العربية».

وأعلن د. فيصل الحفيان عن إهداء د. عبدالله يوسف الغنيم مجموعة من المخطوطات بلغ عددها ١٥ ألف مخطوطة إلى معهد الدراسات العربية، وهي مجموعة مختارة من عدة مكتبات عالمية.

التراث عنوان أصالتنا

بدوره، قال الدكتور الغنيم: «التراث العربي يعد المعبر عن هوية أمتنا العربية، وعنوان أصالتها. والركن الجغرافي يمثل ركنا مهما من التراث العربي».

وأوضح أنه اهتم بدراسة التراث الجغرافي في الستينيات من القرن الماضي. وقد وضع العرب أسسا ومناهج جديدة للدراسات الإقليمية، فضلا عن النظريات، مثل فكرة تبادل اليابس والماء، وتوازن الأرض.. وغيرهما من الإضافات المهمة التي أسهمت في صياغة النظريات الجديدة الآن.

وأثناء حديثه، انتقد الغنيم إهمال الباحثين دراسة الخرائط العربية التي لم تلق عناية بها، موضحا أن موقف الدارسين كان إما تجاهلها وإما ترك مكانها خاليا، ولم يتكلفوا عناء قراءة الخرائط أو التحقق من أسماء البحار والأنهار! لذلك، كان هذا جهدا شاقا يقابل المحقق لهذا التراث.

الببليوجرافيا التكوينية

كما تم تكريم الدكتور المصري كمال عرفات نبهان، عميد كلية المكتبات بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، بجائزة



أمين المنظمة العربية للتربية والثقافة د.محارب في حديث مع د. الحفيان

د. محارب: احتفالنا بالمخطوط درس ولفت وحفز وكشف ومقاربات لعوالم المعرفة والجمال

«كتاب العام التراثي»، تقديرا لتأليفه كتاب «عبقرية التأليف العربي»، الذي استغرق ثلاثين عاما في كتابته، حيث قدم الكتاب نظرية غير مسبوقة في مجال علم الببليوجرافيا والمعلومات والاتصال العلمي والتعليمي «الببليوجرافيا التكوينية»، والتي قدمت نظاما مبتكرا في وصف علاقات النصوص الأدبية بعضها ببعض. ووصفت الجائزة الكتاب بأنه قدم استكشافا لستين نوعا من التأليف النصي، وخصائص كل نوع، وطبيعة الجهد العلمي فيه، ووظائفه الاتصالية العلمية، وعلاقاته مع الأنواع الأخرى.

وخلال كلمته، قال الدكتور كمال نبهان: «الكتاب يرتبط بسياق عمري وحياتي، ويلخص فكرة «علاقات النصوص»، فهناك نوع من الكتب يقوم بدور الإمام، وحين يغيب النص، كان الأستاذ النص يقوم مقامه. ومن العناية بهذا النص، جاء شرحه وتحليله، وتلخيصه».

وأكد: «الفكرة تقوم على أن العلاقات الإنسانية تبني على العائلة، واكتشفت بالدراسة أن للكتاب عائلة (عائلة النص)، فكثير من كتب التراث العربي لها أقارب وأحفاد وأجداد. وقد مثلت هذه العلاقات بالرسوم، واستخرجت ٦٤ نوعا من علاقات النصوص، فالتأليف العربي حظي بعلاقات كثيرة بين النصوص، أسميتها «الببليوجرافيا التكوينية»، لتتبعي الكتاب كجنين، ودراسة علاقاته بآبائه وأجداد».

وأشار إلى أنه حين أسماه «عبقرية التأليف» لم تكن مجاملة للعرب، فقد أجادوا صناعة التأليف بالفعل، لافتا إلى أن علاقات النصوص المذكورة لا توجد في لغات أخرى إلا بشكل بسيط، ففي اللغة الإنجليزية هناك الشرح والتلخيص، لكن الكتاب العربي حظي بأنواع كثيرة في العلاقة بين النصوص، وأوضح أنه خرج بمصطلح «الجغرافيا التكوينية»، التي تستخدم الزمن لقياس مدى تأثير النص زمنيا على الكتب الأخرى، قائلا: «هناك كتاب ظهر في القرن الرابع الهجري ولا يزال يؤثر إلى الآن وهو كتاب «ابن سينا» في الطب».

تعريف الناس بتراثهم

بدورها، قالت الأستاذة في كلية الآداب جامعة القاهرة إيناس عباس، إن أهم ما يميز يوم المخطوط العربي أنه فعالية تحاول الوصول إلى غير المتخصصين، كي تعرف عموم الناس بتراثهم وحضارتهم، وتربطهم بتاريخهم.



جانب من المعرض الذي أقيم على هامش الإحتفالية

وأشارت إلى أن الاحتفالية اهتمت بالشباب، وقدمت لهم ما يثير اهتمامهم من خلال ورش عمل تمكنهم من التعامل مع قطع من تراثهم، مثل ورش صناعة «الاسطرلاب»، ورش الاختراعات، والأمسيات الفلكية واستكشاف النجوم، ورش صناعة المخطوط وتجليده، إضافة إلى العروض السينمائية.

مخطوطات كوسوفو

من جهته، قال سفير كوسوفو في القاهرة بكر إسماعيل: «نحن في أشد الحاجة إلى من يعاوننا في الحفاظ على ما تبقى من مخطوطات عربية في بلاد البلقان، خصوصا كوسوفو وألبانيا، لأن الاحتلال الصربي قد قضى على معظمها حرقا وتدميرا».

وأشار إلى أنه لا تزال هناك مجموعة غير قليلة من المخطوطات تحتاج إلى التحقيق والفهرسة والترميم في المكتبة القومية، وفي مكتبة المشيخة الإسلامية في كوسوفو، بل في البيوت التي نجت من الحرق والتدمير أثناء الحرب الصربية الأخيرة.

ألف حكاية وحكاية

«ألف حكاية وحكاية».. هو اسم احتفالية هذا العام، والتي تضمنت ندوات وجلسات نقاش وورش عمل ومعارض للمخطوطات وعروض أفلام وألعابا ترفيهية ومسابقات للكبار والصغار، ليس من باب الاحتفاء

د. نبهان: اكتشفت أن كثيرا من كتب التراث العربي لها أقارب وأحفاد وأجداد

فحسب، بل أيضا كمنهج عمل اتفق عليه القائمون على معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في محاولة للتعريف بأهمية ما تحمله المخطوطات من مضامين معرفية وجمالية وحياتية، عكست نضوج العقل العربي، واتساع تأثيره في مختلف أنحاء العالم، واعتبار المخطوط أثرا حاملا للعلم والمعرفة يجب الحفاظ عليه. وعلى هامش الاحتفالية، أقيم معرض «صناعة المخطوط».

كما نظم معهد المخطوطات في القاهرة عددا من المعارض التراثية وورش العمل والمحاضرات التثقيفية طوال المدة المخصصة للاحتفالية، شاركت فيها مكتبات الإسكندرية والأزهر وجامعة القاهرة ودار الكتب، كما شاركت أيضا جهات عدة منها مجموعة البحث العلمي «صناعة المخطوط الإسلامي»، والمكتبة المركزية للمخطوطات الإسلامية، واللجنة المصرية للمتاحف، ومركز الطفل للحضارة والإبداع، والجمعية المصرية لعلوم الفلك، ودار الملك عبدالعزيز بالرياض، ومركز الدراسات التاريخية، وجمعية الدعوة الإسلامية بطرابلس، واللجنة الوطنية الليبية للتربية والثقافة والعلوم، كما شارك أيضا بيت السناري، ومتحف المخطوطات، ومركز توثيق التراث الطبيعي والحضاري.

بعد تكريمه في يوم المخطوط العربي بالقاهرة الغنيم:

مخطوطاتنا تقينا متاهات العولمة!

إسلام لطفي - القاهرة
دار الإعلام العربية



أكد رئيس مركز البحوث والدراسات الكويتية، ورائد علم الدراسات التراثية الجغرافية، ووزير التربية والتعليم العالي الأسبق، الدكتور عبدالله يوسف الغنيم، أن تكريمه خلال شهر أبريل الماضي من معهد المخطوطات العربية كشخصية العام التراثية لعام ٢٠١٤، وكذا فوزه خلال الفترة ذاتها بجائزة الأمير سلمان بن عبدالعزيز لدراسات وبحوث تاريخ الجزيرة العربية، إنما يعكسان ما وصل إليه أبناء الكويت من جد واجتهاد. وشدد خلال لقائه مع «الوعي الإسلامي» على ضرورة أن تطلع الأجيال الشابة على تراث أمتها الذي حملته إلينا المخطوطات، التي أكد أيضا أنها التي تمنح الأمة العربية الإسلامية الحصانة ضد طوفان العولمة.. وإلى التفاصيل.

● جائزة وتكريم للدكتور عبدالله الغنيم في وقت واحد.. ما الذي يعنيه ذلك؟

- يعني أن على المرء أن يواصل السعي دائما في مسيرة العلم من دون توقف، ويعني أيضا أن أبناء وطننا الغالي الكويت قطعوا شوطا طيبا نحو الجد والاجتهاد، وأن يأتي


الغنيم مع محرر الوعي

بعض المكتبات العالمية تضم مخطوطات عربية نادرة فهرست بشكل خاطئ

تكريمي كشخصية العام التراثية في احتفالية «يوم المخطوط العربي» التي شهدتها القاهرة مطلع أبريل الماضي، وحصولي في التوقيت نفسه على جائزة الأمير سلمان بن عبدالعزيز لدراسات وبحوث تاريخ الجزيرة العربية، فإن هذا يعكس تقديرا للإسهام الفكري والأدبي الذي تكللت به مسيرتي العلمية.

● دعنا نبق مع المخطوطات التي تحتل مكانة متقدمة ضمن اهتماماتك العلمية.. ما الأهمية التي يكتسبها المخطوط في وقتنا الحالي؟

- المخطوطات تعني الأصالة، والعودة إلى الهوية العربية، فنحن في أشد الحاجة إليها في وقتنا الحالي لتقينا من شرور العولمة بما نمتلكه من تراث علمي وديني لا نظير له. لذا، لابد من العودة إلى تراثنا المخطوط، والعمل على دراسته وتحليله، وأن ندرب أبناءنا أيضا للتعرف على هذا التراث العظيم الذي حفظه لنا الآباء والأجداد.

وهذا الأمر بطبيعة الحال يحتاج إلى

شبابنا يفتقدون القدوة.. وعليهم الاطلاع على تراثنا المخطوط ليدركوا قيمة حضارتهم

مثابرة وجهود كبيرة من المؤسسات الثقافية العربية، وجهود مكثفة من الجامعات، وحتى على مستوى التعليم العام، للتعريف بالمخطوطات، ففي تعليمنا القديم كان هناك كثير من النصوص التي نقرأها في كتب المطالعة والمحادثة، ومن المؤسف أن هذه الكتب تكاد تندثر عما كانت عليه بالسابق. وبالتالي، فإن إحياء تراثنا القديم إنما هو إحياء له ولنا، وعلينا أن نعمل بجد ونشاط.

والأمر الآخر، أن نتعرف على تراثنا المخطوط المنتشر في معظم مكتبات العالم. صحيح أن هناك جهودا بذلت في ذلك الأمر، إلا أنه ما زال هناك الكثير من المخطوطات العربية والإسلامية مجهولة، لم نستطع أن نتعرف عليها حتى في الجامعات العريقة التي عرفها كثير من المحققين، سواء من المستشرقين أو من العرب، فمثلا هناك مكتبات توجد بها مخطوطات كثيرة لم تدون في الفهارس، وهناك مخطوطات دونت بياناتها بشكل خاطئ.

● وكيف ترى تخصيص يوم للاحتفال بالمخطوطات؟

- هذا أمر جيد، ولابد من تشجيع ذلك، لأن الإعلام مقصر وبعيد عن المخطوطات، فمن خلال هذه الاحتفالية المنتشرة في عدة أماكن، تعطي إعلاما جيدا وتوجيها للناس.

● وما العلاقة بين المخطوطات واللغة العربية؟

- العلاقة وثيقة، فلا يمكن التعرف على المخطوطات من دون وجود ثقافة لغوية واسعة وكافية، فلابد منها، واحتياجنا ليس فقط إلى اللغة العربية، لكن لابد من وجود توسع في الثقافة، وأن يكون التراث في حد ذاته موسوعيا، فكوني جغرافيا أستفيد من كتب أخرى في المادة الجغرافية قد تفوق كتب الجغرافيا العربية القديمة، فالذي يبحث لابد أن يكون ذا ثقافة عامة في مختلف المجالات.

● وما مدى أهمية المخطوطات بالنسبة إلى الشباب؟

- لابد أن تكون المخطوطات والتراث العربي بشكل عام، معبرة عن الهوية وتكوين الثقافة للشباب، فلا ينبغي أن ينجرفوا، كما هو قائم في الوقت الحالي، نحو ثقافات العولمة التي تضيع فيها هوية العرب وشخصيتهم، فهذا التراث هو الذي يحفظ شخصيتنا أمام الأمم الأخرى، فبينما هناك كثير من الأمم تتفاخر بتراثها كبريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول، نجد أننا نتهاون مع تراثنا وشبابنا، فنجد الألفاظ والكلمات الأجنبية شاعت في حياتنا وعلى ألسنتنا، بينما هناك كثير من الألفاظ يمكن الاستفادة منها من خلال التراث العربي.

●كوزير سابق للتربية والتعليم العالي.. ماذا يفتقد الشباب في وقتنا هذا؟

- الشباب يفتقدون القدوة، فمن الضروري أن يرتبطوا بشخصية ثقافية بعينها ويحاولوا أن يأخذوا عنها، ففي السابق كان هناك

الكثير من العلماء في مختلف الدول العربية يعتبرون مركز إشعاع، غير الجامعات، فلابد أن يتجمع الشباب حول العلماء ويأخذوا عنهم ليبنوا ثقافة جيل جديد. فمثلا ندوة العقاد -رحمه الله- كانت تجمع الكثير من الشباب وأنجبت الكثير من الباحثين المتميزين.

● وماذا عن دراستك للتراث؟

- اعتنيت بالمخطوط الجغرافي العربي، فهرسة وتحقيقا ودرسا، وانشغلت بالمصطلحات الجغرافية، وتحديدا مصطلحات أشكال سطح الأرض، كما كانت لي رحلات ميدانية، عاينت فيها مناطق عديدة في شبه الجزيرة العربية، إضافة إلى التعامل مع التربة والصخور، وتتبعت خطوط الرحلات التاريخية، كما كانت لي دراسة حول الزلازل في المصادر العربية والخرائط الجغرافية العربية، وعلوم البحر العربية، فالتراث العربي يعبر عن هوية أمتنا العربية، وعنوان أصالتها، إضافة إلى أن الركن الجغرافي يمثل ركنا مهما من التراث العربي، فكانت لي دراسة في الستينيات، خصوصا مع وضع العرب أسسا ومناهج جديدة للدراسات الإقليمية، فضلا عن النظريات، مثل فكرة تبادل اليابس والماء، وتوازن الأرض، وغيرهما من الإضافات المهمة التي أسهمت في صياغة النظريات الجديدة الآن.

● ماذا عن المخطوطات في دولة الكويت؟

- المخطوطات في الكويت قليلة مقارنة بما هو موجود في كثير من البلدان العربية، فأقدم مخطوطة كتبت في الكويت هي مخطوطة كتاب الموطأ للإمام مالك، حيث نسخت في جزيرة فيلكا الكويتية في عام ١٦٨٢، وهي نسخة بخط جميل وبتجليد متقن له دلالة على وجود ثقافي وحضاري في هذه المنطقة، كما أن تلك المخطوطة تدل على أن التاريخ الحديث يمتد إلى أبعد من التاريخ الذي حددته المصادر الحديثة، وهو بداية القرن الثامن عشر، فالمخطوطة في الفقه المالكي، وهو المذهب الذي كانت تأخذ به القبائل والأسر التي نزلت الكويت وأسستها في بداية القرن السابع عشر، وعلى وجه التحديد في عام ١٦١٣.

● كيف يتحدد الوضع العام للتراث الجغرافي العربي؟

- الوضع العام للتراث الجغرافي العربي يتحدد في أمور ثلاثة، فهناك كتب حققت قديما وفي حاجة إلى إعادة النشر؛ لندرتها ولتوافر مخطوطات جديدة يمكن أن تثري نصوصها وتصلح ما أشكل منها.

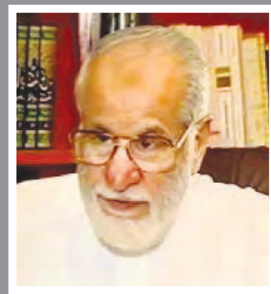
وهناك كتب أخرى حققت حديثا ولم يتم الاهتمام بتصحيح أسماء المواضع وبيان أماكنها، ولم تستقص المخطوطات الخاصة بالكتاب محل التحقيق، فجاءت أعمالا لا فائدة ترجى من ورائها، علاوة على وجود كتب ورسائل جغرافية لم يتم تحقيقها، وتحفل مكتبات الشرق والغرب بمثل هذه الكتب التي نأمل أن ترى طريقها للنشر. وهنا لابد من الإشارة إلى أن كثيرا من المكتبات الأوروبية العريقة التي يظن أنه قد تم التعرف على جميع ما تحتويه من مخطوطات من خلال الفهارس التي وضعت لتلك المكتبات، فإن الفحص الدقيق لموجودات تلك المكتبات سوف يكشف لنا عن كثير من الكتب التي كان يعتقد أنها مفقودة أو أنها فريدة نادرة النسخ، وهذا ما تحققت منه في دراستي للمخطوطات الجغرافية العربية المحفوظة في مكتبة البودليان بجامعة أكسفورد، حيث وجدت أن هناك بعض المخطوطات المهمة التي لم تفهرس فهرسة صحيحة، فأضيفت إلى كتب أخرى بعناوين مختلفة.



د. عبدالله الغنيم في سطور

جغرافي كويتي بارز، ووزير التربية والتعليم العالي في الكويت سابقا. سبق أن شغل منصب عميد كلية الآداب في جامعة الكويت، وكان محاضرا وأستاذا مساعدا، وأستاذا بقسم الجغرافيا بجامعة الكويت، وقام بالتدريس في مجال الفكر الجغرافي العربي وجيمورفولوجية شبه الجزيرة العربية منذ عام ١٩٧٦ ميلادية إلى الوقت الحاضر، كما ترأس تحرير مجلة دراسات الجزيرة العربية والخليج منذ ١٩٨٠- ١٩٨٥، والتي تصدرها جامعة الكويت، وترأس أيضا مركز البحوث والدراسات الكويتية منذ عام ١٩٩٢ حتى وقتنا الحالي، إضافة إلى عضويته في العديد من الهيئات، مثل المجمع العلمي المصري، والمجلس الأكاديمي الدولي لمركز الدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد، ومجلس إدارة متحف المخطوطات بمكتبة الإسكندرية.

الشيخ رواس قلعجي رحمه الله



فقدت الأمة الإسلامية الفقيه السوري، والأستاذ السابق في كلية الشريعة في جامعة الكويت، وخبير الموسوعة الفقهية؛ الشيخ محمد رواس قلعجي، فجر الأربعاء ٢٣ أبريل الماضي في السعودية، عن عمر يناهز الـ ٨٠ عامًا، قضى الكثير منها في التأليف والفقه والتعليم، وفي البحوث العلمية الإسلامية.

والدكتور محمد رواس قلعجي رحمه الله، من مواليد «حلب الشهباء» ١٩٣٤م، حصل على الدكتوراه في عام ١٩٧٥م من الأزهر بمصر، وقد تأثر كثيرا بمحدث حلب العلامة الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله، كما تأثر بالعلامة الشيخ «منتصر الكتاني» في كلية الشريعة بجامعة دمشق ومنهجه في تقديم فقه السلف، وتعلق بمنهج «ابن حزم» في المحلى.

تولى التفتيش في مديرية أوقاف حلب، ثم تنقل بين الكويت والسعودية أستاذا جامعيا وباحثا أكاديميا، وانشغل كثيرا بتقديم فقه كبار الصحابة وفقه كبار السلف، وجمع ذلك في مؤلفات متكاملة للأجيال المعاصرة بلغة علمية معاصرة، وتجلى ذلك في عطائه العلمي الغزير.

من مؤلفات الشيخ محمد رواس قلعجي رحمه الله، عدا ما جمعه عن فقه كبار الصحابة:

- الموسوعة الفقهية الميسرة.
- موسوعة فقه ابن تيمية.
- معجم لغة الفقهاء (عربي إنكليزي) تأليف مشترك.
- كتاب المعاملات المالية المعاصرة.

أشرف الدكتور قلعجي رحمه الله في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت على موسوعة «فقه المعاملات المالية المعاصرة».

العلامة الفقيه «محمد هشام البرهاني» في ذمة الله

فقدت دمشق والأمة الإسلامية أحد علمائها الأعلام وأفاضلها الكرام، العلامة الفقيه الشيخ محمد هشام برهاني -رحمه الله تعالى-، والذي توفي صباح يوم الأحد (١٧جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ)، الموافق (٢٠١٤/٤/٢٧م) عن عمر ناهز (٨٤) عاما.

اسمه ومولده ونشأته:

هو العلامة الفقيه الداعية فضيلة الشيخ محمد هشام ابن الشيخ محمد سعيد برهاني.

ولد الشيخ محمد هشام برهاني -رحمه الله- في مدينة الياسمين «دمشق» في زقاق النوفرة قريبا من المسجد الأموي عام (١٩٣٢م).

نشأ الشيخ محمد هشام في حجر والده العلامة المربي محمد سعيد برهاني، الفقيه الحنفي، وهو سليل أسرة من الأسر الدمشقية العلمية التي توارث أبناؤها العلم والمعرفة والصلاح والتقوى.

شيوخه:

تأثر الشيخ محمد هشام بوالده كثيرا، واستقى من معينه، واستفاد من العلماء المعاصرين له، وقرأ عليهم ومعهم العلوم الشرعية، وعلوم الآلة التأصيلية.

من أمثال الفضلاء الأكابر:

١. العلامة الشيخ المجاهد حسن حبنكة الميداني (علامة الشام).
٢. العلامة الشيخ الفقيه أديب الكلاس.
٣. العلامة الشيخ الفقيه صالح الفرفور.
٤. العلامة الشيخ محمد أبي الخير الميداني.
٥. العلامة الشيخ محمد الهاشمي التلمساني.
٦. العلامة الشيخ المقرئ عبدالوهاب الحافظ (المعروف بـ: دبس وزيت)، وحفظ عليه القرآن الكريم.
٧. العلامة الشيخ عبدالرزاق الحلبي.
٨. العلامة الشيخ مصطفى السباعي.

وغيرهم من أهل العلم والفضل.



أعماله وإنجازاته العلمية:

. عمل الشيخ محمد هشام برهاني مدرسا في دار الحديث بمنطقة العصرونية بدمشق.
. ومدرسا في معهد التمدن الإسلامي.
. مدرسا في ثانويات محافظة السويداء (في الجنوب السوري).
. معيدا في كلية الشريعة بدمشق عام (١٩٥٩م) إلى عام (١٩٦٠م).
. مدرسا في كلية الشريعة جامعة دمشق للفقه والأصول.
. مشرفا في كلية التربية على طلاب التطبيقات المسلكية لمدة ثلاث سنوات.
. خبيرا في الشؤون الشرعية في قسم القانون لهيئة الموسوعة العربية.
. مدرسا في الجامع الأموي بدمشق، إضافة إلى دروسه العامة في جامع التوبة.
. شغل العديد من المناصب الإدارية والعلمية في دولة الإمارات العربية المتحدة، التي بقي فيها مدة ثمانية عشر عاما درس خلالها في «جامعة العين» مادة الفقه والفكر الإسلامي.

من كتاب «الحسبة على المدن والعمران» للدكتور وليد المنيس:

العمارة فن وذوق وأخلاق

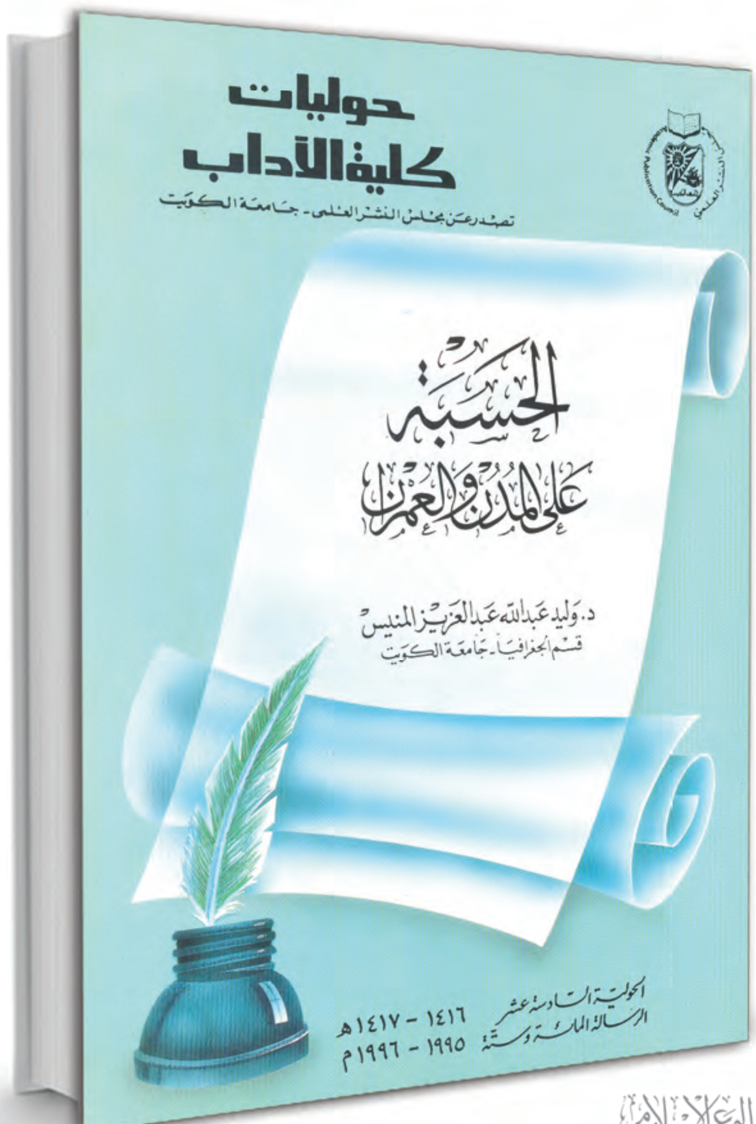
التحرير

يتصور البعض أن الحسبة في الإسلام تقتصر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقيقا لمصالح الناس الدينية فقط، لكن من خلال كتاب مهم صدر قبل سنوات عن حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، هو «الحسبة على المدن والعمران» يبحر بنا الدكتور وليد عبدالله عبدالعزيز المنيس في عالم الحسبة الشامل، الذي لم يترك فيه الإسلام صغيرة ولا كبيرة إلا خول لولي الأمر الحق في تعيين من يقوم على ضبطها، وفقا لشرع الله تعالى.

ومن خلال مختارات الدكتور المنيس لبعض المهمات والأعمال التي يقوم بها المحتسب ومواقعها في المدن، كما ظهرت في كتب الحسبة، نتعرف على ما اهتم به المشرع المسلم في مجال العمارة من إصلاح الشوارع بأدق التفاصيل التي تتناول حتى وضع الميزاب، واتخاذ الدكاك على الأبواب، ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع، بالإضافة إلى منع شغل هواء الشارع بالجناح، وحتى سلوك الجيران في التصرفات المضرة، كالنظرة لمحارم الجار، وسد الضوء... إلى أن الحسبة على الحمامات العامة آنذاك، ومنكرات الأسواق، ورفع الضرر عن الأزقة والرحاب وغيرها.

يذكر الدكتور المنيس أن المحتسب يحرص على ملاحظة مواد بناء المساجد التي لا تسبب أذى للمصلين، ولا تخالف الشرع، وأن يكون المسجد من السعة وجودة التصميم بما يتناسب مع أعداد الناس، ويورد المنيس قول السنامي في «نصاب الاحتساب»: «ويكره نقش المسجد بالجص وماء الذهب، إذا كان للرياء وزينة الدنيا، ولا يكره إذا كان لتعظيم الدين، لأن عثمان رضي الله عنه فعل ذلك بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه متوافرون، فلم ينكره منهم أحد».

وإذا كان ذلك العهد على دراية بحدود المعقول من تجميل المساجد، فإنه في عهودنا يجب الحذر من ذلك، للجهل بحدود المعقول، مما سيصرف المساجد عن وظائفها الأساسية، وقد جاء أن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة أراد أن يزيل ماء الذهب من نقوش مسجد دمشق، فقيل له، أنه إذا أزيل فلا قيمة له فتركه.



وتحت عنوان «أحجام الطرق وأنواعها» يقول المنيس: الطرق في المدينة لها أحجام وأطوال تتناسب مع الاستخدام الذي يقوم عليها، والمتأمل لكتاب الحسبة التي أفردت أبوابا وفصولا للحسبة على الشوارع، يلاحظ أن المدن الإسلامية قد ظهر فيها جميع أنواع الطرق، فمنها «الشارع الأعظم» أو المربد، ويصل عرضها إلى ٢٠ ذراعا.

ويضيف المنيس: يلاحظ في هذا النص مسميات أنواع الطرق، فقد ورد مصطلح «الشارع الأعظم»، ثم «الشوارع» ثم «الأزقة» ثم «الطريق»، والأخير يتوافق عرضها مع عرض «الزقاق»، ويدل ذلك أن الحال في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد تبدلت، مما وسع الطرق أكبر مما كانت عليه في المدينة المنورة، حيث إن الطريق ٧ أذرع، وهي تعادل «الزقاق» في العرض.

الجسور والقناطر

ويذكر لنا الدكتور المنيس ظهور توسع وتنوع في الطرق والشوارع بعد عصر النبوة والخلافة، فلقد ظهرت فيما بعد الجسور والقناطر، والمعابر، والوصلات التي تربط بين أطراف ونهايات الطرق، أو التي تظهر لتخطي عوائق الطرق، كما هو الحال في مدن الأندلس، وبلاد الشام، ومصر، وقد ذكر ذلك المقريزي.

ولما تطور السلاح وزادت الأحمال وكثر الناس والوافدون ازدادت هذه الشوارع طولا واتساعا وتنوعا، فالطرق الخاصة للنقل على الدواب، والتي يستعملها الناس أيضا يتوقع أن يكون اتساعها حوالي تسعة أذرع لتستوعب الجمال أو البغال المحملة، بينما في المقابل الشوارع التي تشهد المواكب والعروض العسكرية ومواكب الملوك قد تصل إلى حوالي ٤٠ ذراعا أو أكثر من ذلك، ولقد ازدادت أطوال الطرق حتى قدر عدد شوارع القاهرة في العصر المملوكي، مثلا بحوالي ٢٤٠٠ شارع وحارة، منها ٢٤ شارعا رئيسيا طويلا. بل وأضيئت الشوارع لتيسير الأمور على السالكين، فضلا عن التجميل، ولقد بلغ أطوال الطرق المضاءة حوالي عشرة كيلومترات، كما في شوارع قرطبة في الأندلس، واستخدم فيها المصابيح، والقناديل، والفوانيس وغير ذلك.

مخطط الأسواق العام

ويلفت المنيس إلى أن مخطط الأسواق العام يعطي انطباعا واضحا عن أهميته كعنصر أساسي من مكونات المدينة العربية والإسلامية، مستشهدا بما ذكره الشيزري عن ضوابط إنشاء الأسواق، حيث قال رحمه الله تعالى: «ينبغي أن تكون الأسواق في الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديما، ويكون من جانبي السوق إفريزان يمشي عليهما الناس في زمن الشتاء، إذا لم يكن السوق مبلطا، ولا يجوز لأحد من السوقة أن يخرج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي، لأنه عدوان على المارة، يجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله، لما في ذلك من لحوق الضرر بالناس، ويجعل لأهل كل صنعة منهم سوقا يختص بهم وتعرف صناعتهم فيه، فإن ذلك لقصادهم أرفق ولصنائعهم أنفق. ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار كالخباز والطباخ والحداد فعلى المحتسب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار».

ويقول الدكتور المنيس: بالنظر إلى هذه الضوابط الدقيقة التي وضعها الشيزري واشترطها لحسن تخطيط السوق، يمكن أن نستنتج أبرز معالم التخطيط للأسواق آنذاك وهي:

١- السعة، وذلك يسهل إدخال البضائع وإخراجها بوسائل النقل المختلفة، ويسهل دخول المرتادين للسوق، وتسهل الحركة العامة، للناس والبضائع والدواب، والمخلفات المترتبة على ذلك.

٢- الارتفاع، أي ارتفاع أسقف السوق عن الأرض مما يساعد على حركة الهواء، والبضائع ذات الأحجام المتباينة، والدواب.

٣- تبليط السوق، وهذا يساعد على سهولة تنظيفها، وسهولة السير عليها، ويمنع تشكل الوحل إذا نزل المطر، أو سالت الميازيب بالمياه مما يعوق سير الناس والدواب والبضائع، وقد يكون السوق مبلطا بأكمله، وقد تبلط ممراته وهو ما أسماه «بالإفريزان» ويترك الباقي.

٤- تسقيف الأسواق، والسقائف مفردها سقيفة، وهي الأسواق المظللة لحماية السابلة من المطر والشمس، والتسقيف سائد في أسواق المدن العربية والإسلامية إلى الآن، في كثير من المدن، ويرجع البعض أصل السقائف إلى الدولة البيزنطية كما بين ذلك الشيزري في قوله «على ما وضعته الروم»، والحقيقة أن السقائف يصعب أن تربط بحضارة، لأنها من ضرورات

ضوابط العمارة وحق الجوار

ذكر المؤلف أنه يحرم على الجار أن يحدث في ملكه أي شيء يضر بجاره، كحمام يتأذى الجار منه بدخانه، أو يضر ماؤه حائطه، أو كنيف (خلاء) يتأذى جاره بريحه أو يصل إلى بئره، ورحى يهتز بها حائطه، أي حائط الجار، وتنور يتعدى دخانه إليه، لقول النبي ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» (أخرجه مالك في الموطأ مرسلا، والحاكم والبيهقي وابن ماجه)، وهذا إضرار بجاره، وللجار أن يمنعه.

ولا يرفع بناءه على بناء جاره إلا بإذنه، ولا يفتح عليه ما يكشفه.

السوق، إذ لا يمكن أن يستمر السوق طوال النهار في الصيف والشتاء وهو مكشوف، يتعرض للشمس والريح والمطر.

٥- انتظام توزيع الدكاكين في السوق على طوال الممرات بخطوط دقيقة مستقيمة، لا تخرج عن سمت أركان السقائف، فلا تتقدم مصطبة دكان على أخرى، وهذا بلا شك يسهل مرور السابلة والبضائع عبر خطوط مستقيمة، أو واضحة المعالم متقاربة السعة، تتناسب وتوزيع الدكاكين، ولهذا يقول الشيزري: «لا يجوز لأحد من السوقة إخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي، لأن في ذلك عدوانا على الممر الأصلي، لأنه من حق المارة كما أن فيه فائدة للدكاكين، إذ إنه يمكن السابلة من النظر إلى السلع وتقليبها دون إعاقة التحرك في الطرقات داخل الأسواق.

فهذه أنواع المساكن التي يستعملها الناس لسكنهم، وهي على نوعين كما بيناها، وتعتبر المساكن من الضرورات التي لا تقوم المدن والحواضر إلا بها، وهي أبرز معالم الاستقرار. والبناء أعم من المساكن، وعرفه الفايز بقوله: «البناء أصل وقرار، وأطلق عليه في عرف الناس بناء، والبناء في هذا المعنى يشمل الدار والبيت والمنزل والمسجد والحصن والقنطرة والسور والعرصة المبنية والقرية والرصيف، وكل ماله تربيع، والبناء ليس قاصرا على ما يتخذ من آجر وحجارة وطين ومواد بناء، وإنما يتسع ليشمل الأخشاب وجذوع النخل والسعف والقصب».

ولننظر إلى عظمة ودقة المحتسب، إذ يولي اهتماما بالمهارة في التشييد مع تحديد فترة لاختبار عمر البناء، فبحسب الدكتور المنيس كان ينبغي على الذين يشيدون الأسوار والقباب أو الطاقات الضخمة أن يراعوا في عملهم العناية والمهارة حتى لا يكون الأساس ضعيفا فيتعرج البناء ولا يستقيم، ويعطى مدة عشر سنوات من إنشائه، فإذا انهار أو تداعى من غير قضاء وقدر تحتم عليه أن يشيد بديلا عنه وعلى نفقته. أما المباني المشيدة من الطين فتعطى ست سنوات تحت الملاحظة، فإذا تداعى البناء في خلال هذه المدة تحتم عليه إعادة البناء دون أن يتقاضى أجرا.

حماية الطير والحيوان

ويقول الدكتور المنيس: لعل من أبرز الدلالات على عظمة وأهمية هذه الوظيفة التي هي نتاج الدين الإسلامي، حتى أثناء البناء، ما جاء في «معبد النعم»، قال مؤلفه السبكي: «وربما صادف ما لا يحل، فأنت ترى كثيرا من الطيانين يعجلون في وضع الطين على الجدار، وربما صادف ما لا يحل قتله لغير مأكلة، من عصفور ونحوه فقتله واندمج في الطين، ويكون حينئذ خائنا لله تعالى، من جهة قتله هذا الحيوان».

الخلاصة

ويخلص المؤلف إلى أن كثيرا من عناصر المدينة الإسلامية في زماننا المعاصر قد اختفى أو تغير مع تبدل الحاجات وتغير الأحوال. ولعل من أبرز المؤثرات التي سببت ذلك ترجع إلى أمرين أساسيين:

أولهما: اختفاء مهمة المحتسب من إدارة وتنظيم المدن المعاصرة.

ثانيهما: قيام نظام البلدية المعاصر محل الحسبة، والذي عمل على تغيير معالم المدينة الإسلامية التي صقلت ونظمت تحت ضوابط الحسبة، وذلك لأنها أي البلدية في زماننا تقوم تحت مظلة المدارس الغربية التي تقوم مبادئها وقواعدها على أسس مغايرة لأسس وقواعد الحسبة، ولهذا تعاني مدننا المعاصرة من ازدواج في الشكل والشخصية، فهي في المسمى العام مدن عربية وإسلامية، لكن بناءها وعناصر تكوينها غربية، وهذا الأمر يغلب على كثير من مدننا في العالم العربي والإسلامي.

ويؤكد المؤلف أن المدينة العربية والإسلامية تنتمي إلى حضارة أصيلة تقوم على أسس متينة، جاءت لتعطي أوضح مثال يحتذى وأحسن نموذج يقتدى في كيفية تأسيس المدن، ولقد ظهر هذا في المدينة المنورة في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ومن تبعها بإحسان. ومعلوم كيف قام النبي ﷺ بتحديد مكونات المدينة، بدءًا بالمسجد، ثم المسكن، فالسوق، وهكذا.. وكان ذلك بتناسق وتتابع يتناسب مع الفطرة والدين، ثم شرع ﷺ في بيان كيفية العيش الصحيح في المدن والحواضر بالطريقة التي تضمن السعادة في الدارين، بأفعاله وأقواله وتقريراته، فمنها مثلا: الحفاظ على خصوصية الأسرة التي هي لبنة المجتمع ولب البيت السكني وروحه، ومراعاة التصميم الذي يضمن استمرارها وبقاءها بالصورة المناسبة، والنظافة، وحقوق الجار، وحقوق المسلمين والناس، وإكرام الضيف، وعدم التطاول والإسراف في البنيان، والتوسط في أمور الدنيا، وإتقان العمل، والعمل للآخرة، وحياة الجماعة، وطاعة ولي الأمر في غير معصية، بما يضمن ديمومة المدن والحواضر.

ببليوجرافيا «الوعي» و العمران الإسلامي

م	اسم الكاتب	عنوان الموضوع	رقم العدد	رقم الصفحة
١	الدكتور محمود محمد قاسم	الجانب العمراني في الحضارة الإسلامية	٦٤	٢٦
٢	عبدالغني محمد عبدالله	عمارة الكعبة حتى العصر الأموي	١٤٤	٦٨
٣	عبدالغني محمد عبدالله	فن العمارة الحربية الإسلامية / قلعة الجبل	١٥٥	٦٨
٤	الأستاذ محمد إبراهيم الصيحي	العمارة الإسلامية	٢٣٦	٧١
٥	المهندس محمد عبدالقادر الفقي	عمارة المدن في الإسلام	٣٠٦	٧٦
٦	الأستاذ محمد الحسيني عبدالعزيز	أساليب العمارة الهندية وسماتها	٣٣٨	٢٨
٧	محمد أبو الأجفان	الحسبة وتنظيم العمران	٣٤٧	٥٨
٨	سمير البوزيدي	خصائص ومميزات العمارة المساجدية بالمغرب	٣٦٩	١٣
٩	أحمد أبو زيد	العمارة الإسلامية في جامع عمرو بن العاص في القاهرة	٣٧٠	٢٠
١٠	عبدالحي محمد عبدالحي	جامع السلطان حسن بالقاهرة درة العمارة الإسلامية ومفخرتها	٣٧٥	١٢
١١	التحرير	عمارة المساجد في مختلف العهود الإسلامية	٣٧٨	٧٢
١٢	حواس محمود	عمارة المساجد	٤٠٠	٣٦
١٣	أسامة سليمان	العمارة الإسلامية	٤٢٤	٨
١٤	كمال زوكيتش	العمارة الإسلامية في البلقان	٤٣٤	٩٥
١٥	يحيى حسن وزيري	عناية الفقه والقضاء الإسلامي بأحكام العمران	٤٥٩	٢٠
١٦	التحرير	ملف العمارة الإسلامية لماذا؟	٤٥٩	٤
١٧	محمد عبدالقادر الفقي	مراعاة البيئة في العمارة الإسلامية	٤٥٩	٢٩
١٨	يحيى وزيري	العمارة الإسلامية والبيئة	٤٦٩	٩٢
١٩	غازي عيسى أنعيم	أثر فن العمارة الإسلامية على فنون الحضارة الغربية	٤٨٤	٣٨
٢٠	مجدي إبراهيم	العمارة الإسلامية في الهند	٤٩٣	٣٧
٢١	ماجدة أبو المجد	المؤتمر العالمي الأول للعمارة والفنون الإسلامية	٥٠٧	٥٥
٢٢	يحيى وزيري	دور الأمر والنهي في الارتقاء بالفنون والعمارة الإسلامية	٥١٣	٥٦
٢٣	جاد الله فرحات	ملامح العمارة الإسلامية المعاصرة	٥١٤	٦٤
٢٤	جاد الله فرحات	عمارة السلطان قايتباي	٥٢٨	٨٦
٢٥	جاد الله فرحات	الأسواق والشوارع في العمارة الإسلامية	٥٣١	٥٠
٢٦	أحمد عبد الجواد زايدة	القرآن وبناء العمران	٥٤٥	٢٩
٢٧	محمد عبد الشافي القوصي	العمران (قصة)	٥٤٩	٥٥
٢٨	يحيى حسن وزيري	استخدام آيات القرآن في العمران	٥٦١	٥٤
٢٩	نبيه فرج الحصري	حقيقة الارتباط بين الإسلام والعمران الشامل	٥٧٩	٣٥



حصون العلم بين عراقة الماضي وإشراقة الحاضر

مساجد الكويت القديمة

تركي محمد النصر
إمام وخطيب بوزارة الأوقاف الكويتية

المسجد سمة أساسية من سمات المجتمع الكويتي، وقد شيد الكويتيون في الماضي مساجد عديدة في كافة أنحاء مدينة الكويت، بمساهماتهم المالية، فقبل عام ١٩٤٩ لم تكن هناك جهة رسمية ترعى شؤون المساجد، بل كانت هذه المسؤولية مناطة بأهالي منطقة المسجد، فعندما يتفق أبناء الحي على بناء مسجد لهم؛ يقومون بجمع تكاليف بنائه، ويعهدون بذلك إلى من يتوسمون فيه الصلاح.

تمتاز مساجد الكويت القديمة بجمالها وبساطة تصميمها، وكانت في بداياتها من الطين والصخر بشكل عام، وأسقفها من خشب الجندل، ومن «البواري»، وهي نوعية من الحصران السميكة تستخدم لتغطية السقف.

وكان المسجد قديما يتكون من «الخلوة» وهي مكان للصلاة بداخل المسجد، وتكون مفروشة بالحصير، وبخارج الخلوة يكون «الليوان» وهو جزء مسقوف، وأعلى نسبيا من صحن المسجد المعروف «بالحوش».

ويلاحظ أن جميع مساجد الكويت القديمة فيها «برجة» لغرض حفظ ماء المطر الذي ينساب من السطح بواسطة أنابيب معدنية تعرف «بالمزاريم»، وفي جزء آخر يكون مكان مخصص للوضوء، وكان يعرف «بالكرو» وهو مقسم بعدة قواطع من البناء لحجب كل متوضئ عن الآخر.

وفي فصل الشتاء تقام الصلاة بداخل «الخلوة»، أما في فصل الصيف فتقام في حوش المسجد، لسبب عدم وجود الكهرباء ووسائل التكييف بذلك الوقت، أما المراوح (البنكات)، فلم تدخل المساجد إلا في منتصف الخمسينيات تقريبا.

أما مآذنها فتمتاز بشكلها المربع البسيط، وهي قليلة الارتفاع عن سطح المسجد، حيث يصعد المؤذن سلما يؤدي إليها فيقف عند مدخلها وينادي للصلاة، ولا تستخدم الزخارف أو النقوش في تصميم هذه المساجد.

وكان الأهالي في بداية الأمر يتولون الإمامة والأذان وتنظيف المسجد ورعايته، والنظر إلى حوائجه ولوازمه، بالإضافة إلى ترميمه، وكان الأئمة والمؤذنون يحتسبون عملهم لوجه الله، ولا يتقاضون أي راتب، ومن كان منهم في حالة غير ميسرة أو بحاجة إلى شيء من المال، فتتم مساعدته من عوائد الدكاكين والأوقاف المتصلة بالمسجد، والمخصصة لهذا الغرض وغيره من احتياجات المسجد.

وكانت المساجد عامرة بالمصلين من كبير وصغير، نظرا لشدة تمسك المجتمع بالدين الإسلامي الحنيف، أما في رمضان فيكون المسجد مكانا روحانيا لأداء الصلوات والذكر، كما أن المساجد هي المكان المناسب في السابق لعقد القران، فيلجأ الكثير إلى بيوت الله تيمنا ببركة ذلك المكان.

وكانت المساجد القديمة أشبه بالمدرسة العامة؛ حيث تقام فيها حلقات تحفيظ القرآن الكريم والدروس الدينية والعلمية، وكان الكثير من الناس يذهبون إلى المساجد للاستفادة من تلك الدروس التي يقوم عليها ثلة من العلماء الأجلاء، من شيوخ العلم الذين تطوعوا لتعليم الناس أمور دينهم، بما يتوافق مع فهمهم وأمورهم الحياتية.

وهكذا بقيت هذه المساجد القديمة شامخة إلى يومنا هذا، إلا أنه مما يثير الحزن والأسى أن بعض هذه المساجد تعرضت للهدم وإعادة البناء، حيث لم يبق لبنائها القديم

أي أثر، بيد أن الفرح يعود إلى القلب والابتسامة ترتسم على الشفاه عندما نرى أن بعض مساجد المدينة القديمة التي شهدت على تاريخ الكويت منذ البدايات الأولى، ظلت عالية وشامخة أمام مظاهر الحضارة والبناء الحديث، فهي تاريخ وتراث وحضارة، هذه المساجد التي بنيت بأيد كويتية أصيلة، ومن أبرز هذه المساجد:

١- مسجد ابن بحر، أسسه الشيخ إبراهيم بن عبدالله البحر سنة ١٧٦٥م.

٢- مسجد الخليفة، أسسه عائلة آل خليفة سنة ١٧٣٧م.

٣- مسجد عبدالجليل، أسسه الشيخ أحمد بن عبدالجليل سنة ١٧٧٩م.

٤- مسجد ابن سلامة، أسسه سلامة بن سلامة سنة ١٨١٠م.

٥- مسجد ابن خميس، أسسه محمد الجلاهمة سنة ١٧٧٢م.

٦- مسجد ياسين القناعي، أسسه ياسين القناعي سنة ١٧٨٤م.

٧- مسجد الفضالة، أسسه السيد صالح فضالة الفضالة عام ١٨٩٩م.

٨- مسجد الشايع، اشترك في تأسيسه التاجر عبدالله بن سليمان النجدي، والسيد محمد بن حمود الشايع سنة ١٩٠٧م.

٩- مسجد السهول، أسسه السيد سليمان جاسم السهلي سنة ١٩٥١م.

وأخص بالتفصيل أقدم مسجدين تم إنشاؤهما في الكويت كنموذجين لبقية المساجد القديمة فيها، وهما مسجد «ابن بحر»، ومسجد «الخليفة».

أولا: مسجد ابن بحر:

كانت الكويت منذ عام ١٦١٣م تعيش كقرية صغيرة عامرة، اتخذها بعض الصيادين، والبدو، وحراس الحصن مقرا لهم في القرن الحادي عشر الهجري، الموافق السابع عشر الميلادي، وذلك قريبا من حصن بني خالد، وكان لابد لسكان هذه القرية الصغيرة أن يكون لهم مسجد تقام فيه الصلاة، فكان مسجد ابن بحر، أول مسجد بني في الكويت، وظل شاهدا تاريخيا إلى فترة الستينيات، حيث هدم المسجد القديم أيام بداية تكوين العمارة والسكنى الحديثة في الكويت، ولم يبق من عمارته القديمة إلا ما ترويه بعض المصادر التاريخية القديمة.

موقعه وتأسيسه: كان يقع إلى الجنوب من الموقع السابق لدائرة الجمارك، مقابل الفرضة، في محلة الإبراهيم التي كانت تقع شمال المناخ، مقابل قصر السيف.

وذكرت بعض المصادر أن مؤسس هذا المسجد هو «الشيخ إبراهيم بن عبدالله البحر»، فيما تذكر مصادر أخرى أن بعض الصيادين هم الذين أسسوا هذا المسجد.

ويعود تاريخ تأسيسه إلى سنة ١١٧٩هـ الموافق ١٧٦٥م، بحسب دائرة الأوقاف العامة في البلاد، فيما ذكرت بعض المصادر الأخرى التي تعتمد على الثبوتيات القديمة (الحجة) أن تأسيسه يعود إلى سنة ١٠٩٨هـ، الموافق ١٦٨٥م.

أما بناؤه فكان من الطين والصخر بشكل عام، وسقفه من الجندل، حاله كحال بقية المساجد القديمة التي بنيت في تلك الفترة.

تجديدات المسجد:

بحسب بعض المصادر فإن هذا المسجد قد مر بأكثر من تجديد، كان أولها سنة ١١٥٨هـ الموافق ١٧٤٥م، وهو ما أثبتته وقفية المسجد، التي نصها: «جدد بناءه عبد الله بن علي بن سعيد بن بحر... سنة ١١٥٨هـ الموافق ١٧٤٥م...».

وبعد مرور ما يقرب من ١١٧عاما، أي: في سنة ١٢٧٥هـ الموافق ١٨٥٨م، حدث التجديد الثاني الذي قام به السيد عبدالله بن عيسى بن محمد الإبراهيم.

أما التجديد الثالث فقد قامت به دائرة الأوقاف العامة في ٢٣ من ربيع الأول ١٣٧٦هـ الموافق ٢٧ أكتوبر ١٩٥٦م، وتم من خلال هذا التجديد عمل تعديلات كثيرة من قبل دائرة الأوقاف العامة على الجزء الشرقي من المسجد، شملت هدم وإعادة بناء لحوائط حوش المسجد والمنارة ودورات المياه والوضوء.

كما شملت التعديلات إضافة نقوش أسفل الحوائط الخارجية للمسجد، وقد تمت إعادة بناء ما سبق ذكره بواسطة الخرسانة والطابوق الإسمنتي، وتمت المحافظة في هذه الفترة على الحوائط الطينية للحرم والليوان، إضافة إلى سقف الجندل التقليدي، وفي فترة لاحقة تمت إزالة سقف الجندل وطبقات الطين فوقه، وتم استبدالها بسقف صناعي من الخشب.

ونظرا لقربه من مسجد الدولة الكبير الذي بني فترة الثمانينيات من القرن العشرين، ولحالته الإنشائية غير المرضية تم غلقه أمام المصلين.

وفي سنة ١٩٩٦م قامت الأمانة العامة للأوقاف بتأسيس لجنة مشروع المساجد التراثية، بالتعاون مع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وبلدية الكويت والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، حيث اعتبر هذا المسجد من أهم المساجد التراثية، والواجب المحافظة عليها، وتم عمل التوثيق والاختبار للمسجد في سنة ١٩٩٧م، وبوشر بأعمال التصميم على أساس المحافظة على المسجد، وإضافة توسعة داخل الحوش لسكن الإمام والمؤذن. وقد بوشر بالتنفيذ في منتصف سنة ٢٠٠٠م، لتنتهي في سنة ٢٠٠١ م.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأنه أثناء أعمال الترميم تهدم جزء من الحائط الطيني الجنوبي للمسجد، وذلك بسبب الرياح الشديدة والأمطار التي هطلت أثناء أحد أيام الشتاء في سنة ٢٠٠٠م، كما أن هناك سببا آخر لسقوط الجدار وهو ضعف أساساته.

الحياة العلمية للمسجد:

تذكر بعض المصادر أن ثلة من العلماء والمشايخ أموا هذا

المسجد ودرسوا فيه، وأقاموا فيه حلقات القرآن الكريم، والدروس الدينية، ونذكر بعضا من الأئمة والمؤذنين الذين أموا المسجد في فترة الخمسينيات تقريبا، ومنهم:

١. الملا عبدالمحسن ابن عبدالله البحر، ت: ١٩٥٨م

٢. وخطب فيه الشيخ العلامة عبدالله بن محمد بن أحمد النوري ت: ١٩٨١م

٣. وصلى فيه الشيخ أحمد غنام الرشيد ت: ٢٠٠٩م.

٤. الملا محمد عبدالرحمن البحر، ولد: ١٩١٩م



وقفية المسجد:

لهذا المسجد وقف قديم جدا بتاريخ ١٣٨٨هـ، في القطيف، وهو عبارة عن قطعة أرض بها نخل أوقفها السيد محمد ابن غانم، حسب الحجية.

ثانيا: مسجد الخليفة:

وصفه وتأسيسه:

يقع مسجد الخليفة على شارع الخليج العربي، على ربوة مرتفعة قليلا، ويُدخل من خلال بوابته الكبيرة إلى ساحة المسجد، حيث يلاحظ ستة أبواب داخلية تؤدي إلى حرم المسجد، ويلاحظ به ست نوافذ من جهة الغرب، وبه ستة أعمدة خشبية، ويتصل المنبر بمحرابه، وله فناء واسع يتسع لحوالي مائتي مصل، وله بابان كبيران متجاوران من ناحية الخليج وآخر مقابل لهما، كما تشمخ منارته التي كانت صغيرة في بداية إنشائها من جهة الخليج أيضا، ولا يزال المسجد في موقعه القديم، شرقي مسجد الدولة الكبير، مقابلا لمبنى وزارة الخارجية الجديد.

وذكرت المصادر أن المؤسس الأول لهذا المسجد من عائلة آل خليفة حكام البحرين، وقال المؤرخ الكويتي سيف مرزوق الشملان: بأن تأسيسه كان سنة ١٧٣٧م.

تجديدات المسجد:

مر المسجد عبر تاريخه بعدة تجديدات، كان من أبرزها التجديد الذي وقع على عهد الشيخ مبارك الصباح رحمه الله، سنة ١٩٠١م، وزاد فيه زيادات كبيرة، وقد بلغت تكلفة هذا التجديد ثلاثة آلاف وستمائة ليرة عثمانية ذهبية، وزاره وصلى فيه بعد تجديده والي البصرة العثماني محسن باشا.

وبقي المسجد على هذا التجديد حتى عام ١٩٥٥م، حيث قامت دائرة الأوقاف الكويتية بتجديده وترميمه وتوسيعه، وبلغت تكلفته أكثر من ١٥٥ ألف روبية.

أما آخر تجديد للمسجد فقامت به الأمانة العامة للأوقاف، وتم الانتهاء من ذلك سنة ٢٠٠١م بحضور الشيخ خليفة آل خليفة.

التاريخ العلمي للمسجد:

احتضن المسجد العديد من حلقات العلم، وتحفيظ القرآن الكريم، وعمل أئمته وخطباؤه على تعليم الناس وتفقيههم في دينهم، ومن أبرز أئمته ومؤذنيه:

١. الشيخ عبدالرحمن محمد أحمد الفارسي، ت:١٩٤١م، أم وخطب في المسجد ودرس فيه العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية.

٢. الملا يوسف بن راشد بن محمد بن حمادة، أم في المسجد أكثر من خمس عشرة سنة، وبقي فيه حتى عام ١٩٥٠م.

٣. الملا محمد بن ملا علي الإبراهيم، ت: ١٩٦٩م.

٤. الشيخ محمد بن أحمد بن حسين الفارسي، ت:١٩٨٢م، عمل إماما وخطيبا في مسجدنا هذا، وفي غيره من مساجد الكويت.

٥. الملا عبدالوهاب السنان. حيث كان من أوائل المؤذنين في هذا المسجد.

وقفية المسجد:

لهذا المسجد عدة أوقاف داخل الكويت وخارجها، منها:

١. عمارة مقابل المسجد على السيف أوقفها الشيخ سالم مبارك الصباح.

٢. قطعة أرض في القطيف مزروعة بالنخل، أوقفها عليه الشيخ خليفة بن محمد جد آل خليفة الأكبر ومؤسس المسجد.

الخاتمة:

مما سبق يتضح لنا الدور الفعال الذي كانت تؤديه المساجد القديمة، والمكانة المرموقة في نفوس وقلوب أبناء المجتمع الكويتي القديم؛ حيث كان للمسجد كبير الأثر في حياتهم على المستويات: الاجتماعية، والثقافية، والدينية، كما مر سابقا، وكان لمسجد الخليفة هذا مكانته بدولة الكويت، وإلى عهد قريب كان يعد المسجد الرسمي للدولة.

المصادر:

١- الكويت القديمة: صور وذكريات، د. يعقوب الحجي.

٢- تاريخ مساجد الكويت القديمة.

الأوقاف وبداية عمران المساجد الكويتية



هي مرحلة عمرانية نوعية تلك التي بدأت في الكويت مع سنة التأسيس لدائرة الأوقاف العامة عام ١٩٤٩م، إذ بعدها دخلت المساجد في تطور معماري ملحوظ باستخدام الأساليب الحديثة والمخططات الهندسية والاستعانة بالخبرات المعمارية من بعض الدول، ووفق إصدار الأمانة العامة للأوقاف تحت عنوان «الآثار والتراث المعماري للمساجد القديمة في الكويت» لسنة ٢٠٠١م، فقد تبين أنه قبل عام ١٩٤٩م كان الأسلوب المتبع في بناء المساجد يمثل نمطا آخر ومدرسة مختلفة، فهو يمثل في الحقيقة مدى القياس في الفرق ما بين منهجية أستادية البناء آنذاك وما بين المهندسين المعماريين الذين استعانت بهم دائرة الأوقاف العامة بعد عام ١٩٤٩م، إذ أصبح العمل في بناء المساجد يدخل في دائرة تنظيمية متطورة بالنسبة إلى ذلك الوقت، وليس معنى ذلك أنها كانت لم تستعن بأستادية البناء الكويتيين في بادئ الأمر، بل كان هناك تعاون حتى صار الأمر بعد ذلك بالتوجه نحو الاعتماد على المعماريين والمهندسين في السنوات التالية منذرا باضمحلال ونهاية حرفة أستاد البناء في الكويت.

شكلان للبناء

يوضح الباحث بشار خليفوه، الذي أعد هذا الإصدار القيم وزوده بالصور التي التقطها بنفسه، أن هناك مرحلتين لأشكال المساجد من الناحية المعمارية، وهما مرحلة ما قبل تأسيس دائرة الأوقاف العامة، ومرحلة ما بعد تأسيسها، إذ الفرق بينهما واضح تماما، وذلك أيضا سوف يلاحظه القارئ بوجود بعض الصور للمقارنة، والتي تترجم ذلك المعنى، حيث بدت دائرة الأوقاف أكثر تطورا من حيث توافر الإمكانات، وتأديتها دورا كان له أثر واضح في ترميم وإعادة بناء المساجد القديمة وإظهارها بصورة جديدة.

يقول خليفوه: أما المرحلة الأولى فهي مرحلة ما قبل تأسيس دائرة الأوقاف، فقد كانت مساجد الكويت في البداية عبارة عن عريش أو غرف صغيرة مبنية من صخور البحر والطين والأعمدة الخشبية القائمة بعرض الأسقف (الجندل)، وهي في غاية البساطة القائمة تحت إشراف أستادية البناء آنذاك، حتى أدخلت إليها بعض النقوش البسيطة على النوافذ والأبواب، وتم بناء المآذن الصغيرة الحجم التي غالبا ما تأتي على شكل مربع، وقليلا ما تكون دائرية أو أسطوانية الشكل. ويسعفنا هنا نص واضح يصف المساجد آنذاك، وهو مكتوب في تلك الفترة، وهو ما كتبه لوريمر سنة ١٩١٥م في كتابه «دليل الخليج» المنشور من قبل حكومة الهند في كلكتا آنذاك. والإفادة هنا أن لوريمر قد هم بجمع هذه المادة بنحو عشر سنوات قبل نشر هذا الكتاب لأول مرة، أي إنه بدأ العمل فيه عام ١٩٠٥م، وقد اعتبر هذا الكتاب وثيقة سرية لا يجوز الاطلاع عليها في بادئ الأمر، إلا أن الظروف اختلفت بعد ذلك. وحين وصف الكويت في تلك السنة، وهي إبان حكم الشيخ مبارك الصباح، رحمه الله، ذكر حينها أن المساجد لا تتميز بأي تصميم تصحبه معالم هندسية واضحة البيان. وذلك يفسر مستوى الإمكانات آنذاك، والوضع المعماري للمساجد في تلك الفترة.

ويوضح الباحث، الذي اعتمد على سجل دائرة الأوقاف العامة المنشور عام ١٩٥٧م في بحثه، أن دولة الكويت قد تأثرت بعدة ثقافات أثرت العمارة والبناء، كالثقافة العثمانية والهندية والفارسية وغيرها.

تضم مدرسة وقبة ومستشفى:

مجموعة السلطان قلاوون.. ياقوتة القاهرة الإسلامية

إسلام لطفي
القاهرة - دار الإعلام العربية

يصفها كل زائر لشارع المعز بأنها «ياقوتة القاهرة الإسلامية»، تعلو شامخة وسط شتى الآثار الإسلامية التي يزخر بها هذا الشارع الأثري في قلب القاهرة القديمة، إنها «مجموعة السلطان قلاوون» رمز العمارة المملوكية، والتي تضم مسجدا وقبة ومدرسة وبيمارستان (مستشفى)، والتي تحمل جميعها بريق جمال لم تستطع ملامح الشيخوخة التي تسللت إلى القاهرة أن تهزمها.. «الوعي الإسلامي» تجولت بهذه المجموعة وجاءتكم بهذه المشاهدات:

يشرف المدخل الرئيسي لهذه المجموعة الأثرية الرائعة على شارع المعز لدين الله، ويكسو مصراعي بابها كسوة نحاسية حفرت وفرغت بزخارف جميلة، ويؤدي هذا المدخل إلى مجاز طويل مسقوف يفصل بين القبة والمسجد، وبنهايته باب كان يؤدي إلى البيمارستان الذي أتي الزمن على معظم معالمه؛ فلم يبق منها سوى النزر اليسير من بعض قاعاته، بعد أن كان واسع الأرجاء فسيح الجنبات، اشتمل على كثير من الأقسام لعلاج الأمراض المختلفة، وألحق به صيدلية لتركيب وصرف الأدوية للمرضى، كما خصص به مكان لتدريس الطب.. وجعل المنصور قلاوون هذا البيمارستان مشاعا للغني والفقير، وهو كما وصفه المؤرخون، يعتبر من مفاخر مدينة الشرق في القرون الوسطى.

وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية من سنة ١٣٢١



إلى سنة ١٣٣٠هـ (١٩٠٣-١٩١٢م) بتجديد هذا المدفن، فرممت بعض جوانبه، وأصلحت الرخام والزخارف، وأكملت الناقص منها، وجددت بعض الشبابيك الجصية، وأعادت الأسقف إلى أصلها، وأقامت عليه قبة على شكل القباب التي كانت تبنى وقت إنشائها. ولم يفتها أن تثبت هذا التجديد على لوح رخامي مركب على يمين باب الصحن المؤدي إلى المدفن.

أما وجهة هذه المجموعة الأثرية المشرفة على شارع المعز لدين الله، ففريدة في نوعها، إذ تتكون من قسمين: البحري منهما، وهو الواقع يمين الداخل من الباب الرئيسي، يكون وجهة المدفن الذي تغطيه القبة آنفة الذكر، وبنهاية هذه الوجهة تقوم مئذنة ضخمة ذات ثلاث طبقات، جددت أيام الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣/١٣٠٤م) عقب سقوط أعاليها بزلزال سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٣م). والقبلي منهما، وهو البارز عن سمت وجهة المدفن، تتألف منه واجهة المدرسة.

ذكرى حسنة:

وكان المنصور قلاوون أحد مماليك الأتراك، اشتراه الأمير «علاء الدين آق» بألف دينار؛ لذلك لقب بالألفي، وبعد وفاته أصبح مملوكا للملك الصالح نجم الدين أيوب، ولقب بـ«الصالحي النجمي» نسبة إلى سيده الملك الصالح، وظل يترقى في المناصب، حتى أصبح كبير الأمراء أيام حكم الملك العادل سلامش بن الملك الظاهر بيبرس، وبعد أن تم خلع الملك العادل سلامش ٦٧٨ هجرية، ١٢٧٩م، تولى الحكم، وأصبح لقبه الملك المنصور بن قلاوون، واستمر حكمه ١١ عاما، وتوفي عام ٦٨٩ هجرية، ١٢٩٠م.



ونظرا لما لحق عهده من مظالم، فقد سعى إلى ترك ذكرى حسنة بين الناس من خلال تشييد مسجد يحمل اسمه، ملحقا به مستشفى، ومدرسة لعلوم القرآن، إضافة إلى قبة وضريح دفن به، وقد بدأ العمل في بناء هذه المجموعة في شهر ربيع الآخر من عام ٦٨٣ هجرية، وانتهت أعمال البناء بعد أربعة عشر شهرا فقط.

وتعد واجهة المجموعة تحفة معمارية تعكس عمارة العصر المملوكي، إذ تتكون من قسمين، قسم يقع على يمين المدخل الرئيسي، وهو وجهة المدفن، والذي يعلوه قبة مميزة يجاورها مئذنة ضخمة ذات ثلاث طبقات، تم تجديدها على يد الناصر بن قلاوون عام ١٣٠٤م، أما القسم الثاني فيتكون من واجهة المدرسة، وتحتوي على عدة شبابيك مفرغة، تتخذ أشكالا هندسية رائعة، أسفلها طراز مكتوب عليه بخط النسخ المملوكي اسم المنشئ وألقابه وأسماؤه.

وبمجرد الدخول من الباب الرئيسي، يوجد ممر كبير، ومساحة شاسعة ذات تصميم معماري فريد، فعلى يمين المدخل الطويل يقع مدفن قلاوون وقبته، ويتكون المدفن من صحن كبير مقام على أربعة أعمدة ضخمة من الجرانيت، يعلوها الرسوم والأشكال المذهبة، وتغطيه قبة مميزة، يقع أسفلها ضريح دفن به الملك المنصور وابنه الناصر محمد، محاط بأربعة جوانب خشبية مفرغة، ويكسو الجداران من الداخل كما يكسو أسفل الأكتاف وزرة من الرخام الملون والخردة الدقيقة المطعمة بالصدف، يعلوها طراز مكتوب عليه بالذهب آيات قرآنية، وتاريخ تجديد القبة سنة ١٣٢٦ هجرية، ١٩٠٨م.

أما المحراب الموجود داخل هذه المجموعة، فمصنوع من الرخام، تزينه رسوم وزخارف بديعة؛ يعتبره الخبراء من أجمل المحاريب التي أنشئت في مصر من فرط جماله وأناقته.

وفي نهاية المدخل باب كان يؤدي إلى المستشفى التي تهدمت واختفت معظم معالمها، فلم يتبق منها سوى القليل من القاعات ذات المساحات الكبيرة، وكان يضم العديد من الأقسام لعلاج الأمراض المختلفة، وألحقت بها صيدلية لتركيب وصرف الأدوية، كما خصص بها مكان لتدريس علوم الطب.

إبداع العمارة المملوكية:

وعن مجموعة السلطان قلاوون، يقول مفتش الآثار بالإدارة العامة للقاهرة التاريخية عمرو عبدالكريم: إنها من أهم المجموعات الأثرية الموجودة في شارع المعز لدين لله، لكونها من أروع ما أبدعت العمارة المملوكية.

وأشار عبدالكريم إلى أن السلطان قلاوون قام بشراء قصر «ست الملك»، وقاعة من مؤمنة خاتون بنت الملك العادل، وقام بتوسيعها، وأمر بإنشاء مجمع ديني، من مدرسة ومستشفى وقبة، وكانت المدرسة مخصصة في نفس الوقت لإقامة الشعائر الدينية، يوجد بها شبابيك

مستديرة من البرونز المصبوب بزخارف مفرغة، وبها محارب من أكبر وأفخر المحاريب في مصر في عهد الفاطميين، حيث جلبها الملك عبدالرحمن هدية لقلاوون، وكان الطلاب عند الصلاة يتوضأون من ممر مائي يأتي من الساقية.

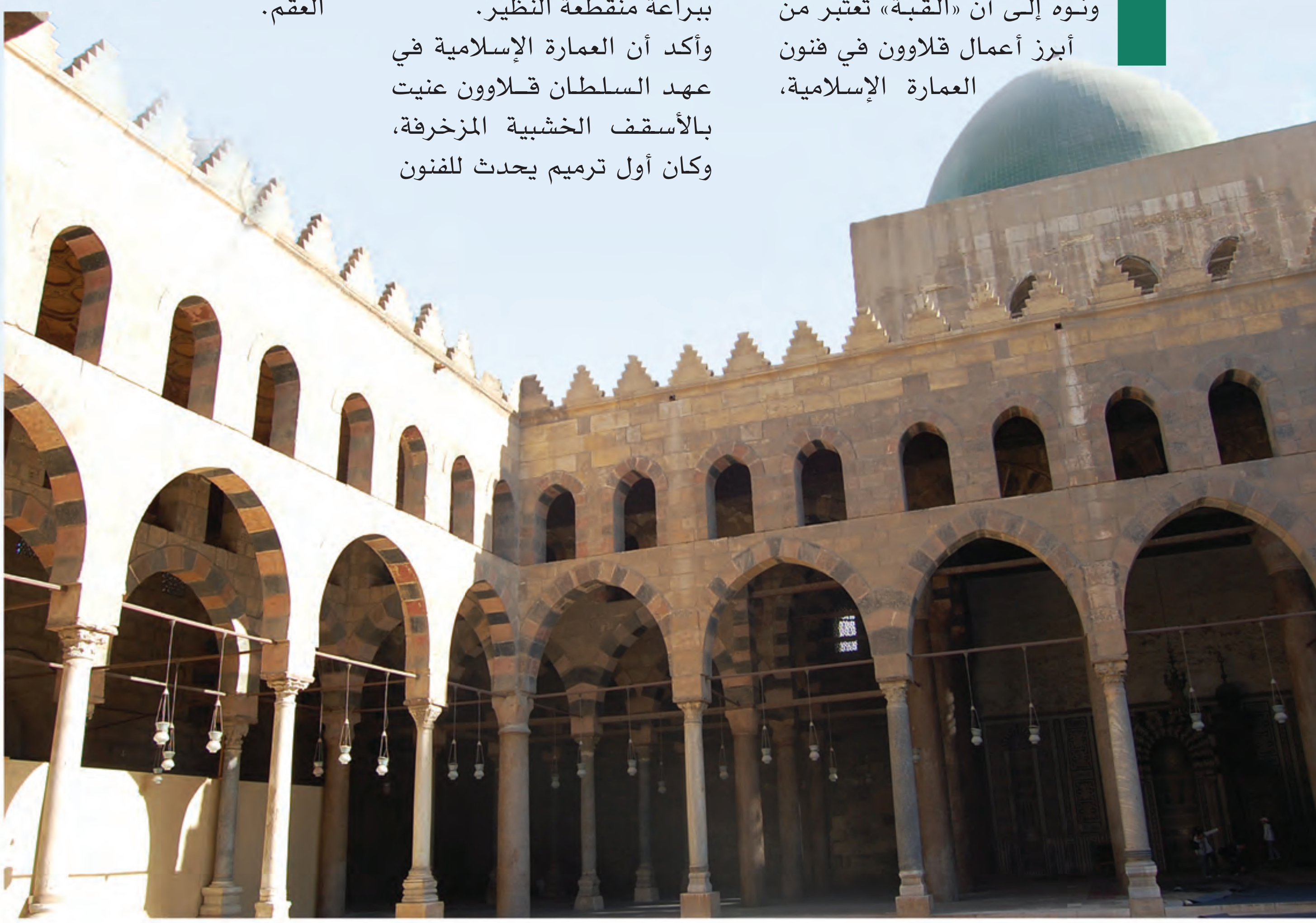
وأوضح أنه كان يتم تدريس الفقه الشرعي بمذاهبه الأربعة، إضافة إلى جميع العلوم، من طب وحساب وهندسة وأدب وشعر وغير ذلك، كما كانت المدرسة تضم قاعة تسمى «قاعة الطوحية» توجد فيها مجموعة من الخدمات التي تقدم للطلاب ليتعلموا الكتابة والعلم من شيوخ المدرسة.

ونوه إلى أن «القبة» تعتبر من أبرز أعمال قلاوون في فنون العمارة الإسلامية، فهي عبارة عن ضريح يعلوه قبة خصصها قلاوون ليدفن فيه هو وأفراد أسرته بعد وفاتهم.. وهذه القبة كانت تستخدم كقاعة لتعليم علوم الحديث قبل بناء المدرسة، وكان بها مجموعة من المكتبات.

وأضاف عبدالكريم، أنه يوجد تخطيط في هذه القبة يشبه قبة القدس، فهي من أهم القباب الموجودة في العمارة الإسلامية، وتتكون من قاعدة مثمنة مكونة من أربع دعائم، وبها أربعة أعمدة رخامية مكسوة من الخارج بالرخام والحجارة الكريمة، ومكتوب عليها بالخط الكوفي، وكانت رقبة القبة مستديرة، وتتمتع بسقف خشبي مزخرف ببراعة منقطعة النظير.

وأكد أن العمارة الإسلامية في عهد السلطان قلاوون عنيت بالأسقف الخشبية المزخرفة، وكان أول ترميم يحدث للفنون الإسلامية بعد قلاوون، في عهد الخديوي توفيق، حيث تم تشكيل لجنة الآثار في عهد الخديوي توفيق عام ١٨٨٢م إلى عام ١٩٦٤ في عهد الرئيس الأسبق جمال عبدالناصر، ولم ترمم بعد ذلك.

وعن البيمارستان أوضح أنه ضم جميع التخصصات والمستلزمات الطبية، وكان الهدف منه معالجة جميع الحالات، خاصة مرضى القلب أو العقم أو رمد العين، وبه قسم خاص للنساء، وكان التركي «أوليا جلبي» أشهر الرحالة في الدولة العثمانية في القرن ١٧ الميلادي، من أبرز المرضى الذين تلقوا علاجهم في هذه المستشفى وتم شفاؤه من مرض العقم.



ثراء المعمار العربي.. نظرة غربية

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحافي

يخطئ من يظن أن الأحجار صماء، لا تنطق ولا تبين. كلا، إنها، وبقية نظائرها من المعادن والأخشاب والتراب؛ تحكي قصة الحضارة، وتشهد على القيم التي تنشأ في أحضانها، وتدل عليها.

ولذلك، تتميز حضارة عن أخرى، ليس بما تحمل من قيم ومبادئ فحسب، بل بما تخلف من آثار وعمران تكون وجها آخر لتلك القيم والمبادئ. وما يصدق بحق الإسلام، يصدق بحق غيره من الملل والنحل.

والعمران مصطلح أشمل من العمارة، التي هي الأبنية؛ مثل: المساجد والقصور والتكايا. بينما العمران يشمل كل ذلك، إضافة إلى أنواع أخرى كثيرة، مثل: النحت، وصناعة الأواني والخزف، والزجاج الفني، والنجارة.. إلخ.



وقبل أن نتناول العمران الإسلامي وجمالياته في عيون المفكرين الغربيين، من المهم أن نشير إلى ملاحظتين أساسيتين:

الأولى أن العمران الإسلامي، بفنونه المتعددة، قام على أساس من العقيدة الإسلامية، التي أسست على التوحيد؛ فجاءت المساجد في بساطتها وروعتها تعكس وضوح العقيدة الإسلامية وصفاءها، بخلاف الكنائس التي تعكس عمارتها تعقيد المسيحية وتحريفها. وعرف المسلمون وأبدعوا فن «الأرابيسك» الذي يعكس فكرة التجريد واللامتناهي، لا التجسيد؛ تأثرا بالتوحيد وبعدم قدرة الإنسان على الإحاطة بالذات الإلهية.

أما الملاحظة الثانية فهي أن العمارة الإسلامية تمتاز بخصيصة أساسية تعرف بخصيصة «الجوانية»، فأي مبنى، سواء أكان مسجدا أم مدرسة أم مسكنا، يحمل الطابع الجواني؛ بمعنى أن عمارته الخارجية أقل شأنا من عمارته الداخلية؛ ونرى ذلك في المساجد الأولى، كالجامع الأموي في دمشق وجامع عقبة في القيروان وجامع قرطبة، كما نراه بشكل شامل في المساكن والقصور. إن خصيصة الجوانية هذه تنسجم في المباني الخاصة مع شاغل المبنى الذي يبحث عن مجال خاص به يستقل فيه عن العالم الخارجي. ولذلك، فهو يغني هذا المجال الداخلي بأروع الزخارف والأثاث المعماري، ويهمل الواجهات الخارجية لأسباب كثيرة، أبرزها رغبته في عدم التظاهر والتفاخر والمضاهاة (١).

وهذه الخصيصة توفر أيضا الستر والخصوصية لأهل البيت، حيث تطل منافذهم على الداخل، ويستترون عن عيون المارة؛ بعكس العمارة الحديثة.

وقد التفت المفكرون الغربيون إلى إبداع العمران الإسلامي، وتجديده، وقدرته الهائلة على تجسيد قيم الحضارة التي انبثق منها.. وسنعرض فيما يلي لشهادة ثلاثة من هؤلاء المفكرين: لوبون، جارودي، هوفمان.

مرآة المجتمعات

يعد جوستاف لوبون واحدا من أبرز المستشرقين الذين رصدوا بإعجاب معالم الحضارة الإسلامية، من خلال سفره الضخم «حضارة العرب»، الذي طوف فيه بالمجالات والمظاهر المتنوعة لتلك الحضارة التي امتدت على رقعة مترامية الأطراف، في عصور متعاقبة؛ راصدا الإسهامات المتميزة التي قدمها المسلمون للعالم.

وهو يرى أن الفنون مرآة المجتمعات، تعكس واقعها؛ وأنه إذا «كانت الفنون عنوان مشاعر الأمة وتصوراتها، كانت العوامل القادرة على تحويلها كثيرة كثرة العوامل التي تؤثر في المجتمعات» (٢).

ويشير إلى ثراء الفنون العربية، الجميلة والصناعية؛ من العمارة، والنحت، وصناعة الخزف، والزجاج الفني، والفسيفساء، والنجارة، وغير ذلك، مؤكدا أن «مباني العرب أهم آثار العرب الفنية» (٣).

ويبين أن العرب في بداية حضارتهم وفنهم المعماري قد اقتبسوا من الفرس والبيزنطيين. لكنهم -برأيه- قد تحرروا من هذه المصادر، وانتهوا إلى إبداع طراز مستقل خصب (٤).

ومن خلال المقابلة بين مباني العرب في مختلف البلدان التي دانت لهم، يخلص لوبون إلى أن تلك المباني يظهر فيها «تماثلها، الذي نشأ عن وحدة النظم والمعتقدات. ويظهر تباينها، الذي نشأ عن اختلاف البيئات والعروق التي كانت تلك النظم والمعتقدات سائدة فيها» (٥).

أي إنه يلفت النظر إلى أن العمارة الإسلامية في مختلف البلدان تتشابه؛ لقيامها على نظام قيمي مستمد من المنهج الإسلامي. كما أنها تختلف وتتباين؛ لوجود مساحة من المرونة والانفتاح تسمح بأن تتأثر تلك العمارة ببيئاتها المختلفة.

ولوبون، سواء في تأكيده قيام العمارة الإسلامية على نسق قيمي، أو في تأكيده انفتاح العمارة الإسلامية على غيرها من الثقافات؛ فإنه يتفق مع رؤية المفكر الفرنسي رجاء جارودي كما سيأتي بيانه.

لقد أبدى رجاء جارودي اهتماما مبكرا بالعمارة الإسلامية وفنونها المتعددة، وسجل إعجابه بها بتفصيل ينم عن إحاطة ووعي، خصوصا في كتابه: «في سبيل حوار الحضارات». والمفارقة أنه أصدر هذا الكتاب قبل أن يعلن إسلامه، وأراد به إنصاف الحضارة الإسلامية، وإبراز دورها الأصيل في قيام النهضة الغربية الحديثة.

يؤكد جارودي -ابتداء- وحدة الفن الإسلامي، وارتباطه بالعقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد، باعتباره -أي التوحيد- ركيزة أساسية تصبغ بطابعها ما يليها من تفصيلات وتفريعات؛ فيقول: «الفن الإسلامي يعبر عن تصور للعالم يقول بأن مصيره واضح» (٦).

ويعاود التأكيد على تلك النقطة لأهميتها في كتابه «وعود الإسلام» فيقول: «إن نظرة واحدة -وإن كانت سطحية- على الشواهد الكبرى للفن الإسلامي في العالم، تكشف عمق وحدته وأصالته؛ فأيا ما كان الحيز الجغرافي المقام فيه الأثر أو غايته، فإننا نحس بأننا نعيش فيه التجربة الروحية نفسها» (٧).

ويوضح جارودي أن مفهوم «التوحيد» قد أدى إلى أن ينطبع الفن الإسلامي بالتجريد، لا التجسيم؛ إضافة إلى الانفتاح على فنون الثقافات الأخرى.

وبالمقابل، أشار إلى أنه يمكن لمن يجري استقراء للفنون الإسلامية أن يهتدي إلى مفهوم «التوحيد» كخيط مشترك ينساب بين أنسجة تلك الفنون؛ فيقول: «هذا المفهوم عن التعالي الإلهي (التوحيد) يسود فنون الإسلام ويقودها إلى شكل مجرد (التجريد)» (٨).

ويضيف عن تجربته الذاتية في فهم الإسلام من خلال الفنون الإسلامية: «إنني انطلاقا من تأمل

فنون الإسلام ومساجده إنما شرعت أفهم عظمة العقيدة الإسلامية، بتأكيدها الجذري على التعالي. وفي الوقت ذاته، على انفتاح، وعلى قبول لا يقتصر على سائر أسر الإيمان الإبراهيمي وحسب، بل يمتد إلى إمكان حوار خصيب مع حكمة آسيا والهند واليابان» (٩).

أما عن جماليات العمارة الإسلامية، والتي تبدت كأوضح ما يكون في المساجد، فيشهد جارودي أن «المسجد -بلا ريب- هو المثل الرمزي الأعظم» للعمران الإسلامي وفنونه؛ وأنه «نوع من صلاة الحجارة، وملتقى جميع فنون الإسلام. وقد أصاب القائلون إن جميع الفنون تقود في الإسلام إلى المسجد، والمسجد إلى الصلاة» (١٠).

ويلاحظ جارودي أن من بين السمات الأساسية للمسجد أن بناءه يرتبط بوظيفته؛ فهو «من حيث بنيته ذاتها، يستجيب لوظيفته. إنه لا يشبه الكنيسة المسيحية، ولا المعابد الإغريقية. إنه لا يصلح صندوقا للاحتفاظ برفات قديس، ولا ديكورا لحفلة شعائرية؛ وهو يريد أن يكون مجرد مصلى لذكر الله. ومن هنا، نشأ شكله الأصيل؛ إنه لا يشبه في شيء خلية المعبد الإغريقي، ولا التصميم الطولاني للكنائس المسيحية. إنه أعرض ما يكون العرض؛ حتى يتيح لأكبر عدد من المؤمنين أن يقابلوا المحراب، الذي يدل على القبلة نحو مكة».

البساطة والتجريد

أما السفير مراد هوفمان فقد شرح جماليات العمارة الإسلامية -خصوصا بناء المساجد- على نحو يسترعي الانتباه، يكشف عن مدى الدقة والروعة والتناغم بين الحجر وبين إيحاءات العقيدة الإسلامية، التي تمتد خيوطها لتشمل كل نواحي الحياة. يقول هوفمان: «تثير العمارة الإسلامية في زخرفتها الخارجية والداخلية -رغم تنوعها الكبير- شعورا بالمكان ذا طابع إسلامي مميز، يستوعب ملامحه البارزة والدقيقة؛ وهو ما يمكن للمرء أن يشهده -على سبيل المثال- في مباني وباحة قصر الحمراء في غرناطة، أو في المساجد المميزة مثل تلك التي توجد في قرطبة والقيروان والقاهرة وإسطنبول».

ويبين هوفمان أن الخاصية الإسلامية المميزة لهذه التجربة الفنية ترجع إلى عدة عناصر، هي على وجه التحديد:

- المثل الأعلى الخاص بالبساطة في الواجهات الخارجية للقصور الإسلامية، التي تكاد توحي للمرء بالمسلمة الجميلة التي تسدل الحجاب على وجهها عندما تغادر دارها.
- الطابع الديموقراطي اللاطبقي للإسلام، والذي يغلب على تصميم أماكن العبادة الإسلامية.
- الدرجة العالية من التجريد، والتي تتفق مع جلال الله عن الوصف عند المسلمين.
- الأبعاد الإنسانية في تكوين النسب المعمارية، والتي تعكس حرص الإسلام على التوازن، والاعتدال، ومنهج الوسطية في معالجة كل الموضوعات.
- تجرد أماكن الصلاة من المناخ السحري، الذي يدل على خلو الإسلام من الطقوس والأسرار المقدسة والغموض.
- تصميم الحدائق بوحي من وصف القرآن للجنة.

ويشير هوفمان إلى أن «التجريد» المتمثل في التداخل اللامحدود للزخرفة العربية (الأرابيسك)، يطلق عقال العقل للتركيز في الله الجليل عن الوصف، والتحديد، والقياس. ولذلك، غابت عن المساجد الصور التي تصور الله أو الإنسان (١١).

ولعل بساطة المساجد -على النحو الذي فصله هوفمان- هي ما جعلت الكولونيل دونالدس روكويل، الذي أسلم، يذكر أنه عندما كان يقف في مساجد إسطنبول ودمشق وبيت المقدس والقاهرة والجزائر وطنجة وفاس، وغيرها من المدن، كان يحس بشعور عميق بقدرة الإسلام في بساطته على الارتفاع بروح البشر إلى الآفاق العليا؛ من دون حاجة إلى زخارف أنيقة، أو تماثيل، أو صور، أو موسيقى، أو طقوس رسمية؛ فالمسجد مكان للتأمل الهادئ، ونسيان الذات، وفنائها، واندماجها في الحقيقة الكبرى؛ في ذكر الله الأحد (١٢).

هوامش:

١ - د. عفيف البهنسي، فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مناهج التدريس.
٢ - لوبون، حضارة العرب، ص:٤٩٨، ترجمة عادل زعيتر، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م.
٣ - المصدر نفسه، ص:٥٠٦ و٥٠٧، باختصار.
٤ - المصدر نفسه، ص:٥٢٣، بتصرف يسير.
٥ - المصدر نفسه، ص:٥٢٣.
٦ - جارودي، في سبيل حوار الحضارات، ص:١٧١، ترجمة د. عادل العوا، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠١٣م.
٧ - جارودي، وعود الإسلام، ص:١٤٤ و١٤٥، ترجمة د. ذوقان قرقوط، دار الرقي، مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٨٥م.
٨ - جارودي، في سبيل حوار الحضارات، ص:١٧١.
٩ - المصدر نفسه، ص:٧. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن جارودي يقصد من «أسر الإيمان الإبراهيمي»: الشرائع السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، لأنها تشترك في أنها -في الأصل- من عند الله سبحانه وترجع إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؛ لكن دخل التحريف والتبديل على كثير من أصول اليهودية والمسيحية، بخلاف الإسلام الذي حفظه الله وارتضاه لعباده إلى قيام الساعة. ومن هنا، فمصطلح «الإيمان الإبراهيمي» قد يستخدمه البعض للتمويه على الاختلافات الجذرية بين الإسلام من جهة واليهودية والمسيحية من جهة أخرى، بدعوى رجوعها جميعا إلى نبي واحد.. وهذا خطأ فادح يجب الحذر منه.
١٠ - المصدر نفسه، ص:١٧١.
١١ - هوفمان، يوميات ألماني مسلم، ص:٢٢-٢٤، بتصرف يسير، ترجمة د. عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٩٩٣م.
١٢ - نقلا عن: محمد عزت الطهطاوي، في الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين، ص:٢٠١، دار التراث، ط١، ١٩٧٩م.

عيون دمشق

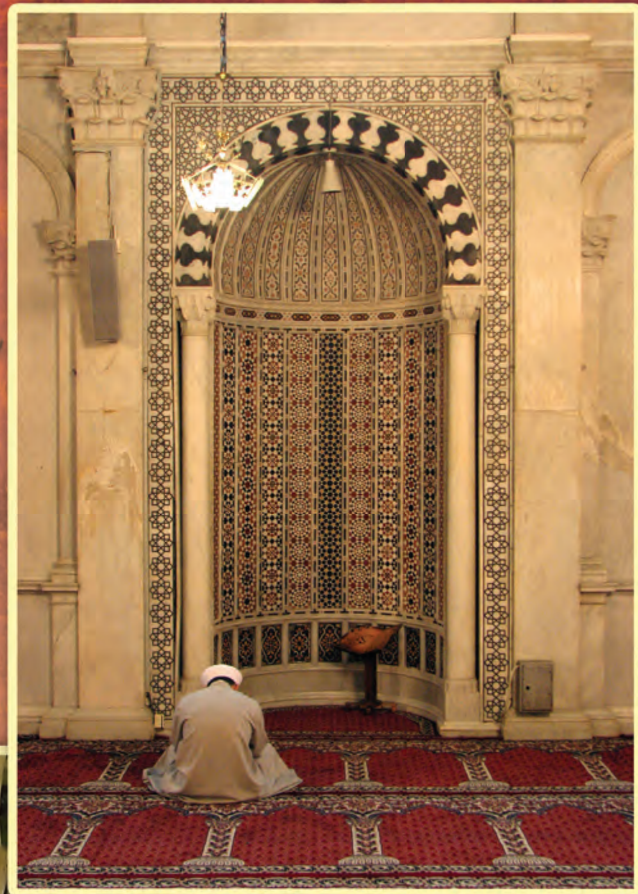



الجامع الأموي
بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك
سنة ٨٦هـ - ٧٠٥ م
MOSQUEE DES OMAYYAD
BATIE PARLE CALIFE AL WALID
705 AP – 86 HIJ













سنان باشا.. أبو العمارة التركية

التحرير

المعماري سنان باشا (٨٩٥هـ - ٩٩٦هـ/ ١٤٩٠م- ١٥٨٨م) أبرز وأشهر من امتهن عمارة المسلمين في القرن العاشر الهجري، سواء في الدولة العثمانية أو على مستوى العالم الإسلامي، نظرا لتميز أعماله البنائية والمعمارية بالكثرة والقوة والمتانة والضخامة، المصحوبة أيضا بمظاهر من الجمال والروعة.

مولده

ولد يوسف بن خضر بك بن جلال الدين الحنفي الرومي المشهور بسنان باشا في قرية «آغير ناس - آغريناس» التابعة لولاية قيصرية في الأناضول من عائلة مسيحية، سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠م في عهد السلطان بايزيد الثاني بن محمد الفاتح، وعرف منذ صغره بحبه لشق قنوات المياه في الحدائق، وشغفه ببناء الأكواخ وحظائر الحيوانات.

ولأن طموح سنان باشا كان عاليا جدا فقد التحق بالجيش العثماني، ليحصل على فرصة للتعليم والحصول على وظيفة كبيرة في الدولة. انتقل سنان إلى العاصمة التي تلقى تعليمه في إحدى مدارسها، والتحق بمدرسة ابتدائية فيها تعلم القراءة والكتابة والفنون التطبيقية، ثم استكمل تعليمه في «الأوجاق» المعماري الخاص.

برز تفوقه المعماري خلال فترة حكم السلطان سليمان القانوني (٩٢٦هـ - ٩٧٣هـ/ ١٥٢٠-١٥٦٦م) الذي عرف عصره بالعصر الذهبي للدولة العثمانية، فأنشأ سنان جسرا فوق نهر «بروت» خلال ١٣ يوما، كما بنى جسرا آخر على الدانوب جعل السلطان سليمان القانوني على إثره يمنحه لقب كبير مهندسي الدولة العثمانية عام ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م.

واستمر عمل المعماري العبقري سنان في إشادة الصروح العمرانية الفريدة



إلى أن وافته المنية عن عمر ناهز المائة عام.

٤٠٠ صرح معماري

تعتبر أعمال سنان المعمارية صفحة ناصعة في تاريخ فن العمارة الإسلامية، حيث شيد خلال مسيرته المهنية الطويلة عددا كبيرا من المباني ذات الوظائف والمضامين المختلفة، ولاتزال العديد من الآثار العمرانية المهمة تشهد على عبقريته وإبداعه، وتحمل توقيعه في العالم العربي، كمجمع الخسروية في مدينة حلب، والتكية السليمانية في مدينة دمشق، كما قام بترميم قباب الحرم المكي الشريف في مكة المكرمة.

بناء القباب

ظهرت عبقرية سنان باشا العمرانية بشكل واضح في بناء القبب، وذلك بتوصله إلى إنشاء منظومة هندسية عالية المستوى، شغلت جميع العناصر التركيبية للمبنى، محققا بذلك أوسع قدر من الفراغات المتاحة، ومحققا انسجاما وتناسقا بين هيئة الشكل الخارجي ونوعية الفضاء الداخلي.

جامع السليمانية

يعد جامع السليمانية من أشهر أعمال سنان المعمارية المنجزة في عهد السلطان سليمان القانوني. ففيه قدم سنان تصميما جديدا وجريئا، أحدث تحولا مهما في فن العمارة العثمانية والإسلامية.

بني عام ١٥٥٧م على ربوة عالية مطلة على القرن الذهبي، وألحق به دارا لإطعام الفقراء، ومشفى ومدرسة للطب، وحماما ودارا للكتاب، وأربع مدارس عليا، وعددا كبيرا من الحوانيت، وفي الجهة الخلفية للجامع يوجد مدفن يضم ضريحين، أحدهما للسلطان سليمان وآخر لزوجته، بينما تموضع ضريح سنان باشا الذي شيده بنفسه على مقربة من الجامع.

جامع السليمية

يعد جامع السليمية بهندسته أعظم وأجمل إنجازات سنان الإبداعية برأي خبراء ومختصي فن العمارة، إذ تمكن بتصميمه الهندسي من التفوق على هندسة كنيسة أيا صوفيا، بإنشاء قبة أعلى من قبتها بمقدار ستة أذرع وأعمق بأربعة أذرع. وفيه استغنى سنان باشا عن نظام أنصاف القباب المستخدمة في عمليه الإبداعيين السابقين: جامع شهرزاده والسليمانية، واستعاض عنه بنظام القبة الواحدة. وللجامع أربع مآذن موزعة على زواياه الأربع، ولكل مئذنة ثلاث شرفات، وهي تعتبر من أعلى المآذن في العالم.

تلاميذه

من تلامذته: أحمد آغا، وداود آغا، ويتيم بابا علي، ويوسف وسنان الصغير، وهناك الكثيرون ممن يخلطون بين سنان الصغير وسنان المهندس الأكبر، ويعتقد بأن يوسف كان تلميذ سنان المحبوب، وينسب إليه تشييد قصور لاهور ودلهي وأكرا للسلطان المغولي الشهير جلال الدين أكبر في الهند.

وفاته

امتدت حياة سنان باشا حتى اقترب من المائة، وعاصر خمسة من سلاطين الدولة العثمانية، هم بايزيد الثاني، وسليم الأول، وسليمان القانوني، وسليم الثاني، ومراد الثالث، وبعد حياة مليئة بجلائل الأعمال توفي سنان باشا في (٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م) تاركا ذكرى لا تضيع.

مكية.. والمسجد الكبير



الدكتور محمد صالح مكية من مواليد بغداد عام ١٩١٤م، درس الهندسة المعمارية في جامعة ليفربول ببريطانيا، ونال درجة البكالوريوس عام ١٩٤١ وحصل على الدبلوم في التصميم المدني من الجامعة نفسها، أما الدكتوراه فقد حصل عليها عام ١٩٤٦م من جامعة كمبردج في بريطانيا، وكان موضوع أطروحته «تأثير المناخ في تطور العمارة في منطقة البحر المتوسط».

كان مكية أحد مؤسسي قسم الهندسة المعمارية بجامعة بغداد عام ١٩٥٩. وظل رئيسا للقسم حتى عام ١٩٦٨، وبعدها أسس مكاتب لشركة مكية في كل من البحرين وعمان ولندن والكويت والدوحة وأبوظبي ودبي.

صمم الدكتور محمد مكية المسجد الكبير في دولة الكويت، حيث اختار تصميمه على الطراز الأندلسي الفاخر، وقد افتتح عام ١٩٨٦م، بناء على توجيهات من أمير الكويت الراحل الشيخ جابر الأحمد الصباح، رحمه الله، وساهم في بنائه خمسون مهندسا وأربعمائة وخمسون عاملا، وتبلغ مساحته ٤٥ ألف متر مربع، منها ٢٥ ألف متر مربع مبنية، و٢٠ ألف متر مربع مكشوفة، تشكل حدائق وممرات المسجد الخارجية.





التراث الكويتي .. قاطرة التقدم الحضاري :
دار الآثار الإسلامية نموذجا

تحقيق : نشوة صالح

إلى أي مدى عكست العمارة الإسلامية أصالة الإنسان المسلم؟ ولماذا لم تهتم الدول العربية والإسلامية بتطبيق نماذج مستوحاة من طراز الحضارة الإسلامية التي أبهرت العالم؟ وهذه الأبنية المعمارية الإسلامية الشاهدة على تفوق وعظمة العقلية الإسلامية لماذا لا تحفزنا كمسلمين لعودة المجد العلمي والمعرفي والفني مرة أخرى؟!

حاولت «الوعي الإسلامي» الإجابة عن هذه الاسئلة من شخصيات علمية ومهتمة بالبناء المعاصر، وقد أكدت جميعها على أن فن العمران الإسلامي عكس ذوق الإنسان المسلم، مشيرين إلى أن استلهام الماضي بغرض عودة الأمة الإسلامية لسابق عهدها الريادي ليس ضربا من الخيال.

والتفاصيل في ثنايا هذه السطور:

في البداية تجولنا في دار الآثار الإسلامية الرابضة على شارع الخليج العربي وتعرفنا على أهم الآثار الإسلامية، مع دليلنا مدير إدارة البرامج الإعلامية والعلاقات العامة أسامة البلهان، الذي تحدث عن بداية تأسيس «الدار» قائلا: يمتد تاريخ «دار الآثار الإسلامية» على مدى عقود ثلاثة من الاقتناء والاهتمام والرعاية للفن الإسلامي، مشيرا إلى أن بداية الاقتناء كانت في منتصف حقبة السبعينيات من القرن الماضي، ورافق هذه الفترة تصور لإنشاء بيت للفن الإسلامي بالكويت، واستمرت الجهود حتى تم «دار الآثار الإسلامية» في مجمع متحف الكويت الوطني عام ١٩٨٣.

ونبه البلهان أن مجموعة المقتنيات الأثرية نقلت إلى بغداد بسبب الاحتلال الغاشم عام ١٩٩٠ مع باقي مجموعات متحف الكويت الوطني، إلى أن تم استردادها تنفيذا لقرار الأمم المتحدة بإنهاء حرب الخليج في ١٩٩١، معربا عن أسفه لتعرض كل من التحف والمتحف لكثير من الدمار إبان وقت الاحتلال، موضحا أنه بعد تحرير البلاد تم إعداد برنامج لترميم التحف، وإعادة تأهيل مبنى متحف الكويت الوطني.

ولفت البلهان إلى أن «دار الآثار الإسلامية» تشغل حاليا مبنى مستشفى الإرسالية الأميركية كمقر مؤقت يحتضن المعارض والتحف والمقتنيات، ويقيم الورش الثقافية ويقدم المحاضرات. في تظاهرة ثقافية سنوية ترمز إلى أهمية تنمية الوعي الفني في المجتمع، مشيرا إلى أنه يحتوي على إحدى أهم معارض الدار «ذخيرة الدنيا .. فنون المصوغات الهندية في العصر المغولي» وقد عرض أكثر من ٥٠٠ تحفة فنية من مجموعة الصباح الأثرية، ذاكرا أن هذا المعرض بدأ رحلته في بريطانيا مرورا بإحدى عشرة عاصمة عالمية.

وبين البلهان أن دار الآثار الإسلامية تضم مركز «الأمريكاني» الثقافي الذي يحتوي على مركز تعليمي ومركز للتدريب ومعرض يعرض قصة الأمريكاني (عرض سمعي وبصري) لتاريخ مستشفى الإرسالية الأميركية، والرعاية الصحية في الكويت، منذ نشأتها. ذلك بالإضافة إلى مسرح وقاعة محاضرات متعددة الأغراض. بجانب هذا تم تجهيز مختبر لصيانة

وترميم التحف الأثرية لتدريب الكوادر المستقبلية من الباحثين، وكذلك تدريب متطوعين في البرامج المختلفة للدار. شارحا «قصة الأمريكاني» قائلا: هو عرض سمعي بصري يبهرك في التعرف على تاريخ أول مستشفى للإرسالية الأميركية، وكيف كانت الرعاية الصحية في الكويت أيام زمان.. يعود بك العرض إلى الكويت القديمة في أوائل القرن التاسع عشر، ويطوف بك العرض الفيلمي وصولا إلى الحداثة والمعاصرة في عالم الطب، ومبادرات دولة الكويت في تطوير الرعاية الصحية وبناء المستشفيات الحديثة، مشيرا إلى أن العرض يقدم باللغتين الإنجليزية والعربية بشكل يومي.

موقع مميز

وأكد البلهان أنه من ضمن خطط دار الآثار الإسلامية المحافظة على شكل العمارة الأصلية التقليدية وترميمها وإعادتها لتصاميمها القديمة، منبها أنه تم اختيار مبنى مستشفى الإرسالية الأميركية أو «المستشفى الأمريكاني» نظرا إلى الموقع الاستراتيجي المتميز، إذ يقع على شارع الخليج العربي بجوار مبنى مجلس الأمة، ومقابل الكنيسة الإنجيلية، مقدما ملمحا لتطور الحياة في الكويت، وشاهدا على إرساء قواعد صلبة للتسامح الديني وحرية الأديان والمعتقدات، وراصدا ما يدور في الحقل السياسي والحياة الديمقراطية في هذا البلد، إضافة إلى إطلالته على ساحل الخليج العربي الزاخر بأهازيج أهل البحر القدماء، الذين مخروا عباب البحر بحثا عن الرزق، متسلحين بإرادة قوية ترفض التقاعس وتدعو إلى البحث في الأفق عن مجد يخلده التاريخ لهذا البلد.

حوار ثقافي

وأوضح البلهان أن دار الآثار الإسلامية تقدم موسما ثقافيا يتضمن نخبة من باحثي وعلماء الوطن العربي والغربي، منذ انطلاق الدار كمتحف إسلامي يقدم رسالة ثقافية، فضلا عن إقامة المحاضرات الأسبوعية التي تتضمن تأكيد النظرة العملية الشاملة للمفهوم الثقافي التي تعد بمثابة حوار ثقافي يجمع ثقافات متنوعة، فمعظم من يحاضر في مواسم الدار الثقافية هم متخصصون عرب وأجانب تجمعهم لغة البحث والتراث، ويصب ذلك في وعاء ثقافي نحاول من خلاله أن نقدم روائع متنوعة لكل متذوقي الفنون الإسلامية ما بين العالمين الشرقي والغربي، وصولا إلى اليابان.

وأضاف أن الدار تقدم موسما ثقافيا سنويا ينطلق من سبتمبر من كل عام، وينتهي في مايو من العام الذي يليه، وتقدم الدار أكثر من (١٥٠) فعالية ثقافية ما بين محاضرات وأمسيات ثقافية.

أحجار كريمة

طالعنا المقتنيات الأثرية داخل دار الآثار الإسلامية الذي يعود بزائريه إلى زمن الماضي الجميل، بكل روعته، حيث تطالعك مجموعة من التحف والأشكال الزخرفية والإبداعات الفنية المتعددة، والكثير من التحف الإسلامية التي تتنوع بين الكتب والمخطوطات والخزف والمشغولات الزجاجية والمعدنية والأحجار الكريمة والمجوهرات، فضلا عن أنها تضم الزخارف المعمارية، ونماذج من المنسوجات، والسجاد، والعملات، بالإضافة إلى الأجهزة العلمية. وكم تبهرك الفنون الزخرفية سواء على مستوى الأواني المنزلية المصنوعة من البرونز التي نقشت عليها الآيات القرآنية، فضلا عن أن هناك الكثير من خطوط مصاحف القرآن الكريم التي كتبت بخط اليد، حيث يوجد الخط الكوفي والأندلسي والحجازي أو الريحاني، مشيرا إلى أن من عجائب التراث الإسلامي بلاطات فارسية الشكل، صنعت من عجينة كلسية متجانسة، مما يدل على ذوق ومهارة وفن علماء الهندسة في العصور الإسلامية التي أبدع فيها علماء الإسلام.

تحدي الزمن

ويرى الخبير الاقتصادي حجاج بوخضور أن التراث المعماري الإسلامي مازال يتحدى الزمن بقوة، مستغربا من عدم متانة البناء في العصر الراهن، لافتا إلى أن أي عقار الآن لا يزيد عمره الافتراضي عن ٨٠ عاما، وربما أقل، رغم أن الظروف والإمكانات المتاحة الآن لم تكن متاحة في العصور القديمة.

وطالب بضرورة الاستفادة من تراث الحضارة الإسلامية على كافة المستويات، سواء المعمارية أو الطبية أو الهندسية، منبها إلى أن الحضارة العربية تطورت لأنها استفادت من الحضارات القديمة في وقت تلاشت فيه الحضارة الأوروبية التي ازدهرت فيما بعد على حساب الحضارة الإسلامية، التي كانت بنكا للحضارات القديمة.

وأعرب بوخضور عن أسفه لتدهور الثقافة والحضارة الإسلامية، لافتا إلى أن أهل الإسلام عندما اهتموا بالعلوم المختلفة أجادوا في كافة أنواعها، وعندما ابتعدوا عنها أصبحوا الآن يعيشون في ذيل الأمم.

ويرى أستاذ علوم الآثار بجامعة القاهرة د. صبري عبدالواحد أن التراث المعماري الإسلامي يعكس فن وذوق الإنسان العربي والمسلم بشكل عام، منبها أن التراث المعماري الإسلامي المتمثل في المساجد كجامع الزيتونة والمسجد الأموي والجامع الأزهر، فضلا عن المساجد الشاهقة في إيران والأندلس تعكس جذور الحضارة الإسلامية التي لا تستنكف من الاستفادة من الحضارات القديمة، لافتا إلى أن البناء الإسلامي القديم رغم أنه استمد من فنون العمارة الفارسية والإغريقية فإنه في نفس الوقت وضع اللمسات الإسلامية، مؤكدا أن إبداع علماء الإسلام في العمارة جعلهم يتفوقون على فنون العمارة المكتسبة من الحضارات القديمة، مشيرا إلى أن التراث المعماري الإسلامي استخدم الأساليب الزخرفية الخارجية والداخلية، مشيرا إلى أن كل حقبة تميزت في طابعها المعماري عن الأخرى، حيث يوجد الطراز الأموي والعباسي والأندلسي والفاطمي والعثماني.

خصائص الحدائق الإسلامية

محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

قليلا ما يلتفت الباحثون إلى «الحدائق» في حضارة الإسلام، وأغلب الظن أن ما بقي من آثار العمران الإسلامي قد سلب العيون عما اختفى منه، فالقصور والقلاع والأسوار والأبواب والزخارف والنقوش والخطوط وغير ذلك، شغلت الأبصار والقلوب عن شيء كالحدائق، تلك التي لم يبق من أثرها شيء تقريبا.

ولا يصح تصور المدن الإسلامية بغير تصور الحدائق، ذلك أنها انتشرت في كل مكان حتى ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن المسلمين نظروا إلى الحديقة باعتبارها الأصل والعمران هو التابع لها (١).

عالم من الحدائق

لا يكاد المرء يمر على كتاب في التاريخ أو البلدان فيحاول رسم صورة لما يقرأه إلا وتكون الحديقة أساسا وأصلا في هذه الصورة، لقد كان العالم الإسلامي كأنه قطعة خضراء، وما كان ثمة من يحب التفنن في شيء إلا وبنى حديقة أو بنى شيئا له حديقة: قصرا أو مسجدا أو مستشفى أو مدرسة...إلخ.

وإذا كانت الحديقة أمرا طبيعيا في القصور، فإن المثير للعجب هو انتشار الحدائق حتى في بيوت الفقراء، مهما كانت متناهية في البساطة، يقول المؤرخ الأميركي وول ديورانت: «وكانت بيوت الفقراء وقتئذ -كما هي الآن- أبنية مستطيلة الشكل؛ مقامة من اللبن الملتصق بالطين، سقفها خليط من الطين، وأعواد النبات، وغصون الأشجار، وجريد النخل، والقش. وكانت البيوت الأرقى من هذه نوعا تشتمل على فناء داخلي مكشوف، ذي فسقية، وشجرة في بعض الأحيان؛ وكانت تحتوي أحيانا على طائفة من العمد الخشبية، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات» (٢)، وذات العجب يبدو واضحا من كلام الباحث المتخصص في الأندلسيات جيمس دكي لدى حديثه عن الدور الصغيرة في غرناطة بأنه «مع أن أغلب تلك الدور صغير إلا أن فيها جميعا مياها جارية وزهورا وورودا عبقة وشجيرات ووسائل راحة كاملة، تبرهن على أن هذه الأرض عندما كانت في يد الموريين (المسلمين) كانت أكثر جمالا مما هي عليه اليوم» (٣).



وحين عزمت السلطات المغربية ترميم النافورات القديمة في مدينة فاس وحدها، أحصت في شوارع فاس نحو ٧٠ نافورة، وحوالي ٤٠٠ نافورة داخل المساكن والمساجد والمدارس العتيقة (٤). ويندر أن تجد في بلاد الإسلام مدينة معروفة ولا يحكي مؤرخها عما كان فيها من رياض وجنان وحدائق، وكم من بلاد نزلها المسلمون فحولوها من خرائب إلى حدائق غناء، ويكفي أن تعرف أن كل نخيل الأندلس إنما هو من نخلة حملها عبدالرحمن الداخل من الشام.

فكيف بما بناه الملوك والأمراء والأغنياء من قصور ورياض وجنان وبساتين، عامة أو خاصة، منفردة مقصودة بذاتها أم ملحقة بقصر أو مسجد أو مدرسة أو ما سوى هذا؟!! لقد انعكس كل هذا على النفس الإسلامية التي تأثرت بالجمال والرقة إلى حد لم يبلغه أحد من قبلها أو من بعدها، إلى حد جعلها تتخذ زخارفها من النباتات، بل إلى حد جعلها تسمي كتبها بتلك الأسماء العجيبة «رياض الصالحين»، «الزهر النضر»، «بستان الواعظين ورياض السامعين»، «الروض الزاهر»، «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، «بدائع الزهور في وقائع الدهور».. فأي أمة جعلت أسماء كتبها على هذا النحو؟!!

حدائق قرآنية

فلقد كانت الآيات والأحاديث هي الأستاذ الأول في اصطناع المسلمين لحدائقهم، فمن قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ (البقرة:٢٦٥)، فهموا أن خير أماكن الحدائق هي الربى والمرتفعات، وهذا صحيح علميا؛ إذ يجنب الارتفاع الأشجار عدة عوامل معوقة للنمو والإثمار الجيد وأسباب المرض، كالتقاء الجذور بالمياه الجوفية التي تحد من نموها وتصيبها بالتعفن، كما يوفر الارتفاع تصريفا مناسبا للماء الزائد، وإذا لم ينزل المطر رويت هذه الحدائق بطريقة الرش والرذاذ (٥)، ومن أمثلة هذا جنة العريف في غرناطة، إذ أقيمت على سفح ربوة، وصممت على هيئة مدرجات ينهمر عليها الماء من عيون بأعلى الحديقة تصب في قنوات تمر عبر الأشجار، بما يدل دلالة واضحة على التأثر بآية ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ (الواقعة:١٣). (٦).

وينقل لنا المقريزي أن خمارويه بن أحمد بن طولون طلى جذوع النخل والشجر بالنحاس المذهب، فكأنه كان يحاكي وصف الجنة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم «ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب»، وجعل بين جذع النخلة وطبقة النحاس أنابيب رصاصية يتدفق منها الماء، فكأنه يتدفق من النخلة ثم يجري في مسارات محكمة إلى أحواض تفيض الماء على باقي الحديقة، فكأنه بهذا يحاكي الجنة في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الحجر:٤٥).

وحتى في الأسماء نجد ذات التأثر واضحا، «فقد سمي قصر المنصور «الخلد» تشبيها له بجنة الخلد، وما يحويه من كل منظر رائق، ومطلب فائق، وغرض غريب، ومراد عجيب» (٧). وهذا التأثر بالآيات والأحاديث إنما هو تأثر متضاعف، فهو علامة على الارتباط بالكتاب والسنة، ثم هو من عوامل زيادة الارتباط بالكتاب والسنة في الوجدان العام.

حدائق بأدب الإسلام

كانت الحدائق جزءا من نمط العمارة الإسلامية التي تهتم بالداخل والراحة النفسية أكثر من اهتمامها بالخارج ومظاهر الاستعراض، ويهتم نمط العمارة الإسلامية في البيوت وأبوابها ونوافذها بصيانة البيت وأهله من التكشف، فأبواب البيت مائلة بزاوية لا تسمح لنظر ناظر بكشف الداخل، وكذلك النوافذ فهي مزخرفة منمقة تسمح لمن بالداخل برؤية الخارج، فيما يتعذر العكس.

وكذلك كانت الحدائق، فهي محاطة بأسوار عالية أو بطوق من النخيل يحجب رؤية الداخل عمن بالخارج، فيوفر لمن بالداخل راحة وأمنا وخصوصية، وحتى في البيوت الأصغر كانت الحدائق في فناء البيت الداخلي، لا في محيطه الخارجي، بل وحتى في القصور، كثيرا ما كانت الحدائق بين الأبنية الداخلية وليست فقط محيطة بها.

وقد انعكس كل هذا على الحياة الاجتماعية للمسلمين، ففي حين احتاجت الحضارة الغربية إلى شوارع واسعة وحدائق عامة وميادين ذات نوافير، كان كل هذا متوفرا في داخل البيوت في الحضارة الإسلامية، مما انعكس بدوره على متعة أكثر في الداخل وعلاقة أمتن بين الأسرة وذوي الأرحام وبين أطفال البيوت، ووفر فرصا أقوى لتربية الأطفال وتقوية الأرحام وتحقيق المتعة في بيئة آمنة، ولم يمنع هذا من كون المتنزهات العامة والحدائق الكبرى مزيد متعة، ولكنها في هذه الحال متعة ثانوية لا أساسية كما هو الحال في الحضارة الغربية وواقعنا المعاصر.

هوامش

١- جيمس دكي: الحديقة الأندلسية، منشور في: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الجيوسي ٢/١٤٣٥.

٢- وول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/٢٤١.

٣- جيمس دكي: غرناطة.. مثال من المدينة العربية في الأندلس، منشور في: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الجيوسي ١/ ١٧٦.

٤- جريدة الشرق الأوسط ٢٧/١٠/٢٠٠٢.

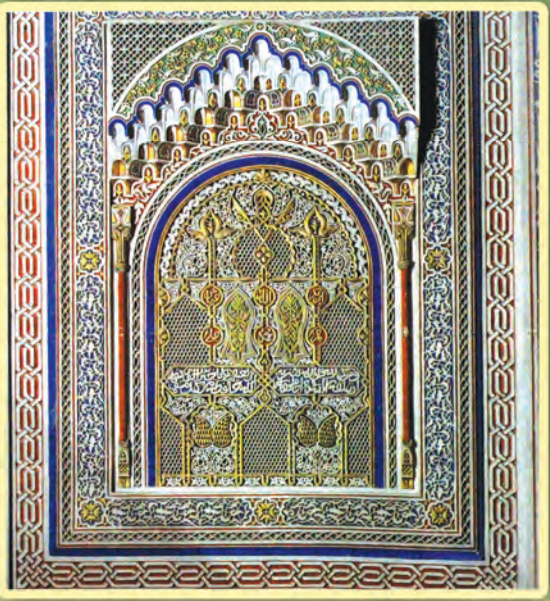
٥- المقريزي: الخطط والآثار ١/٨٧٢، ويحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢١٤ وما بعدها.

٦- يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة ص٢٢٣.

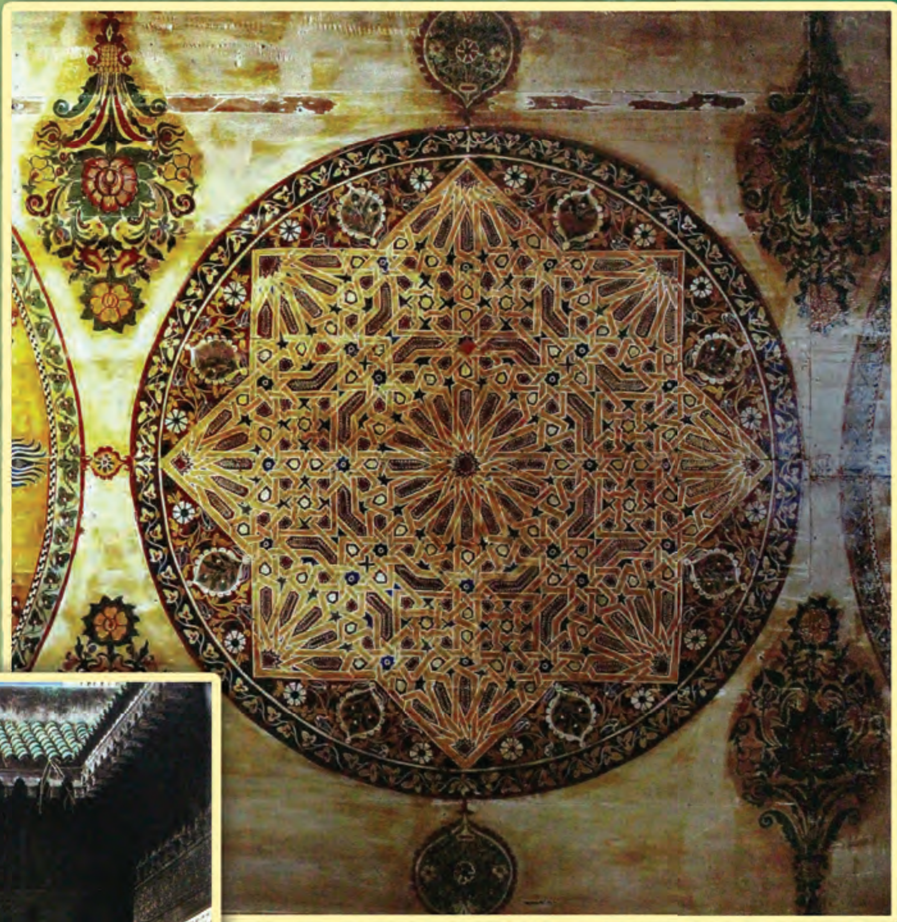
٧- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٧٥.

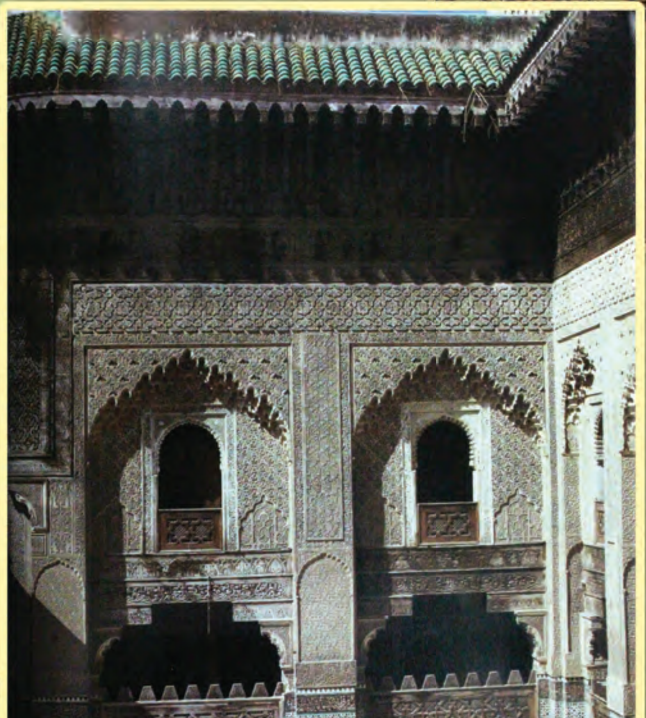
عيون المغرب

المصدر: المغرب والحرف التقليدية الإسلامية في العمارة (أندرية باكار)



فاس القصر الملكي - القبة المعتمدية



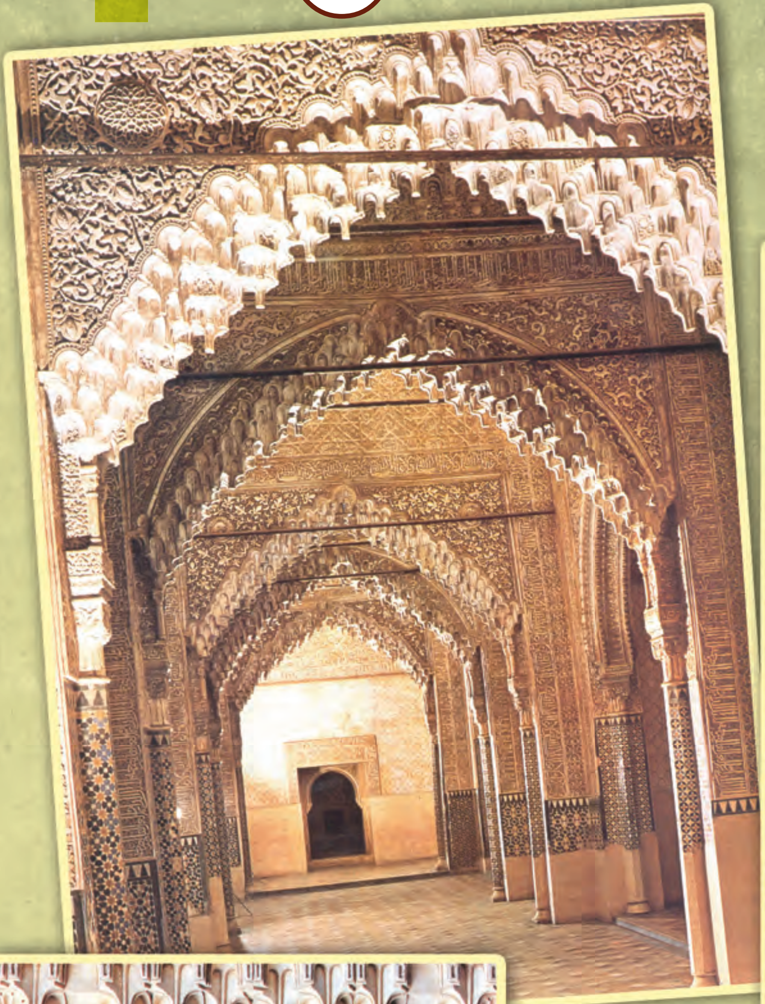




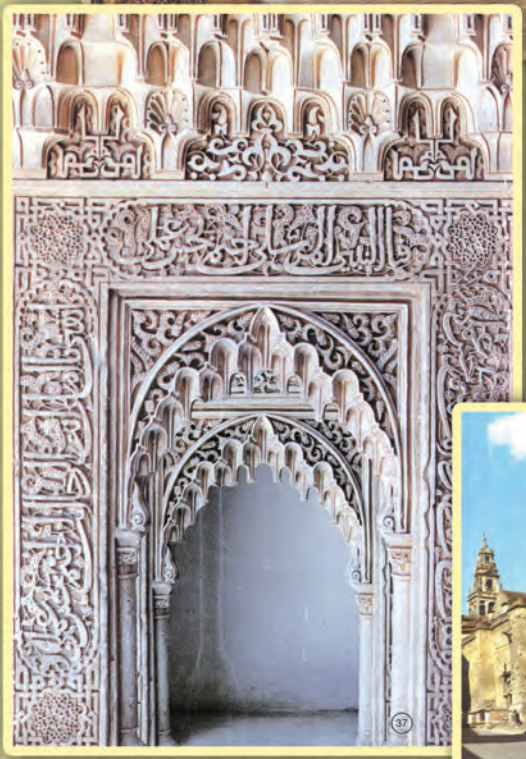
وحدات زخرفية
غير تقليدية

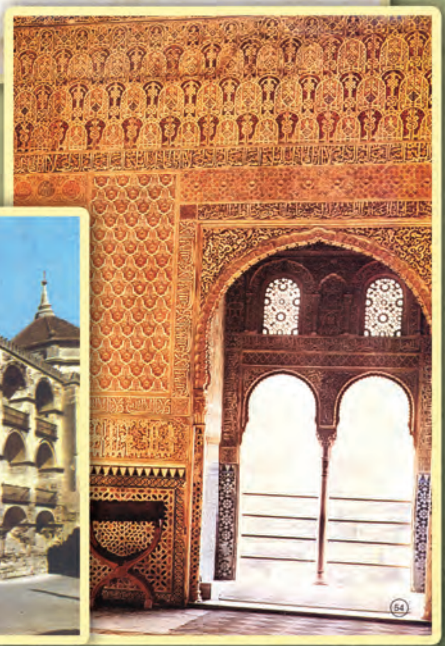


عيون الأندلس











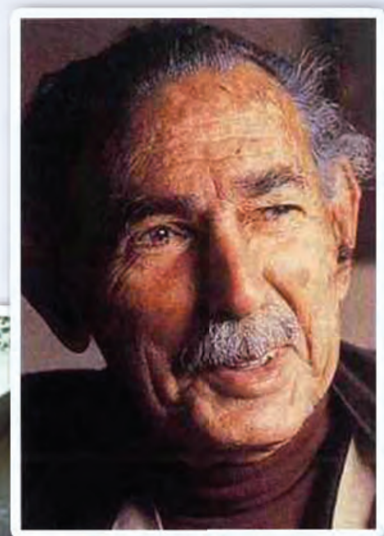
حسن فتحي.. وسكن البسطاء

التحرير

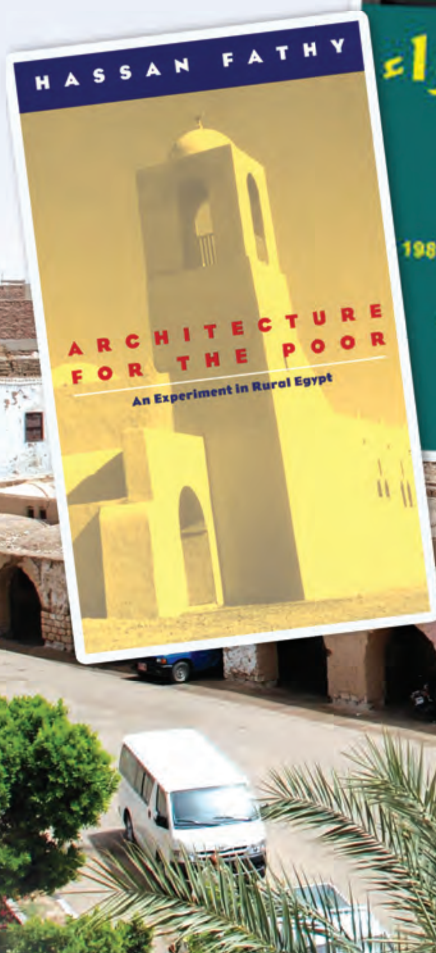
ولد حسن فتحي في الإسكندرية، وتخرج في المهندس خانة (كلية الهندسة حاليا) بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا). وقد اشتهر بطرازه المعماري الفريد، الذي استمد مصادره من العمارة الريفية النوبية المبنية بالطوب اللبن ومن البيوت والقصور في القاهرة القديمة في العصرين المملوكي والعثماني. وتعد القرنة، التي بناها لتقطنها ٣٢٠٠ أسرة، جزءا من تاريخ البناء الشعبي الذي أسسه بما يعرف بـ«عمارة الفقراء».

ولد المعماري حسن فتحي في ٢٣ مارس عام ١٩٠٠، في محافظة الإسكندرية، في مصر، لأسرة مصرية ثرية.

تأثر فتحي بالريف وبحالة الفلاحين أثناء زيارته له وهو في سن الثامنة عشرة، وحصل على دبلوم العمارة من المهندس خانة (كلية الهندسة حاليا) بجامعة الملك فؤاد الأول (جامعة







القاهرة حاليا) في عام ١٩٢٦.
كانت لقرية القرنة بغرب مدينة الأقصر في مصر شهرة عالمية بسبب كتاب «عمارة الفقراء»، الذي يسرد فيه قصة بنائها، حيث أنشئت القرية لاستيعاب المهجرين من مناطق المقابر الفرعونية بالبر الغربي؛ لإنقاذها من السرقات والتعديات عليها، خصوصا بعد أن اكتشف الأثريون سرقة نقش صخري بالكامل من أحد القبور الملكية، فصدر قرار بتهجيرهم من المقابر، وإقامة مساكن بديلة لهم، وقد خصصت الدولة ميزانية قدرها مليون جنيه لبناء القرية الجديدة، وتم اختيار الموقع ليكون بعيدا عن المناطق الأثرية وقريبا من السكك الحديدية والأراضي الزراعية.
وبدأ فتحي المرحلة الأولى من مشروع بناء القرية ببناء ٧٠ منزلا، بحيث يكون لكل منزل صفة مميزة عن الآخر؛ حتى لا يختلط الأمر على السكان، واعتمد في تصميم المنازل على الخامات والمواد المحلية. وظهر تأثره بالعمارة الإسلامية، حيث كان للقباب تصميمها الفريد والتي استخدمت بدلا من الأسقف التي تعتمد على الألواح الخشبية أو الأسياخ الحديدية المعتادة، وتم تخصيص باب إضافي في المنازل للماشية، التي يربيها سكان المنطقة، كنوع من أنواع العزل الصحي، حفاظا على سلامة الأفراد.
شيدت ثلاث مدارس في القرية؛ الأولى للأولاد، والثانية للبنات، أما الثالثة فكانت مدرسة لتعليم الحرف اليدوية التي اشتهرت بها منطقة القرنة، مثل: الغزل والنسيج وصناعة منتجات النخيل، كما حاول من خلال هذه المدرسة الحفاظ على روح الإبداع الفرعونية في الأجيال الجديدة.
ومثلما اهتم فتحي بالجانب التعليمي لم يغفل الجانب الديني الذي يميز أهل القرية، أو الجانب الترفيهي لتعويضهم عن منازلهم التي تم تهجيرهم منها عنوة، حيث عمل فتحي على إنشاء مسجد كبير في مدخل القرية حمل أجمل الطرز المعمارية في تصميمه، حيث تأثر فيه بالفن المعماري الطولوني ممتزجا مع الفن الفاطمي.

«عمارة الفقراء» هو كتاب للمعماري المصري حسن فتحي، يتناول رؤيته الخاصة حول العمارة البيئية وتجربته في مصر، وبالأخص قرية القرنة. والكتاب بالإنجليزية، وترجمه فيما بعد إلى العربية د. مصطفى إبراهيم فهمي.
وقد صدرت طبعته الأولى تحت عنوان «القرنة: قصة قريتين» في طبعة محدودة من إصدارات وزارة الثقافة المصرية عام ١٩٦٩ بالقاهرة، ونشر الكتاب بعد ذلك في الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ بواسطة جامعة شيكاغو، ثم نشر في مصر عام ١٩٨٩ بواسطة الجامعة الأمريكية بالقاهرة.
وصدرت ترجمته العربية عام ١٩٩٣ حين قام د. مصطفى إبراهيم فهمي بترجمته بمبادرة شخصية. وقد صدر عن كتاب أخبار اليوم، وأعيد طبعه في سلسلة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠.
وقد كتب تمهيد الكتاب وليام ر. بولك، رئيس معهد أدلاي ستيفنسون للشؤون الدولية، حيث يقع في أربعة فصول:
- لحن الاستهلال: الحلم والواقع.
- لحن الترنيمة (كورال): الإنسان والمجتمع والتكنولوجيا.
- لحن الترديد (فوجة): المهندس المعماري، والفلاح، والبيروقراطي.
- لحن الختام: القرنة في سبات.
مع ٦ ملحقات تحتوي على بعض الدراسات والإحصائيات حول طرق البناء بالطوب اللبن وتكلفتها الاقتصادية.
ويتناول الكتاب رؤية حسن فتحي للرجوع إلى وسائل البناء التقليدية المستمدة من البيئة المحلية كوسيلة لتنمية الريف المصري (ريف ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين) واستخدام الطوب اللبن بشكل عام لبناء منازل أكثر راحة ونظافة بتكلفة أقل.
ويعرض فتحي تجربته الخاصة ومحاولة استلهام الأساليب التقليدية في البناء، وبخاصة المنازل النوبية في الجنوب، ومحاولة تطوير تقنيات البناء بالطوب اللبن لبناء منازل نظيفة وراقية، وفي الوقت نفسه بسيطة، بحيث يظل بمقدور الفلاح بناء بيته بنفسه من دون الحاجة إلى تقنيات معقدة ومكلفة.
كما يعرض أيضا تجربته في بناء البيوت الطينية في أكثر من مكان بمصر (بيت حامد سعيد في المرج، عزبة البصري، قرية القرنة.. وغيرها). وأيضا يتناول الكتاب أفكار حسن فتحي لتنمية الريف تنمية شاملة، ومحاولة الارتقاء بالخدمات الصحية والاجتماعية في الريف، وتحسين الصناعة الريفية.
ويكشف الكتاب رؤية حسن فتحي للعلاقة بين المالك والمعماري، والبعد عن فكرة البيوت الضيقة المصممة مسبقا من دون اعتبار لذوق المالك وحاجته، والابتعاد عن بناء مساكن أسمنتية «بشعة» -على حد وصفه- تحد من حرية ساكنها وتقيده.

فلسفة القباب

يقول حسن فتحي عن فلسفته في بناء القباب: «حينما انتقل العرب إلى مرحلة الاستقرار، بادروا إلى إسقاط فلسفتهم في استعارات معمارية تعكس رؤيتهم للكون، وهكذا ظهرت السماء كقبة تدعمها أربعة أعمدة. هذا المفهوم الذي يعطي قيمة رمزية للبيت كتصغير للكون».
وأثبت حسن فتحي من خلال تصميماته، أن الطوب الأخضر يتحمل الضغوط الواقعة عليه، وبذلك أخضع التكنولوجيا لاقتصادات الأهالي الفقراء، بحيث تسمح بإنشاء هذه الأسقف المقببة من دون صلبات أو عبوات خشبية.
كان مهندس الفقراء لا يبحث عن عملاء أغنياء ليصمم لهم قصورا ومباني فخمة، بل كان يبحث عن هذا الفقير الذي قال عنه: «العميل الذي يعنيني هو من تمثله الإحصائيات التي تشير إلى أن هناك ٨٠٠ مليون من البشر في العالم الثالث يموتون موتا مبكرا بسبب الإسكان الشائه غير الصحي.. هذا هو العميل الذي على المعماري الاهتمام به، ولكنه لا يفعل. إن الأمر يشبه الطبيب الحافي القدمين في الصين.. إن هؤلاء يحتاجون إلى معماري حافي القدمين».

عيون القاهرة



حي الأزبكية ١٨٥٦



ميدان محمد علي بالقلعة ١٨٦٩



سراي شريف باشا ١٨٧٠

المصدر: ذاكرة القاهرة الفونوغرافية - مكتبة الإسكندرية

عيون الكويت

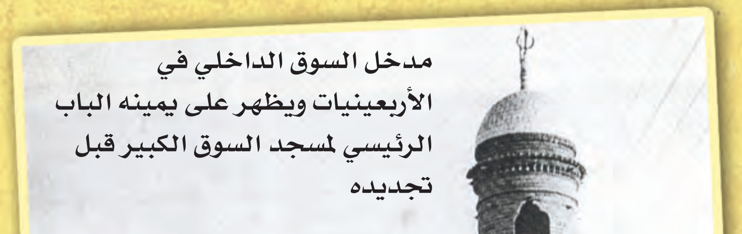


مبنى دار الاعتماد البريطانية القديمة (بيت ديكسن) والذي كان يطل على ساحل البحر قبل ردم المساحة المقابلة له، وهو لايزال قائما حتى الآن. (الصورة عام ١٩١٥م)

سوق البدر بعد تجديده



مدخل السوق الداخلي في الأربعينيات ويظهر على يمينه الباب الرئيسي لمسجد السوق الكبير قبل تجديده



دائرة الأمن العام بالصفاة بعد نقلها إلى قصر نايف في الخمسينيات



المصدر: الكويت صور وذكريات مني الجابر العبدالله الجابر الصباح

بيت السناري .. تفرد معماري

التحرير

يمثل بيت السناري أحد أروع أمثلة العمائر السكنية من دور وقصور الأمراء ورجال الدولة الكبار في العصر العثماني. وقد أوقف صاحب البيت ومنشئه هذا البيت بموجب حجة شرعية مسجلة في المحكمة الشرعية ومحفوظة إلى الآن في أرشيف وزارة الأوقاف المصرية. وهذه الحجة كنز معلوماتي يفيد في علوم شتى، منها علوم التاريخ، والآثار، والوثائق، واللغة والفقه، وفقه البنيان، والشريعة.

وقد خصت مكتبة الإسكندرية بيت السناري، لأهميته المعمارية، بإصدار خاص من تأليف الدكتور أحمد أمين في نحو ٢٢٠ صفحة من القطع الكبير، تمت طباعته وتوزيعه العام الماضي.

يقول د. أمين: من المدهش الوصف المعماري الدقيق للمنزل، والذي أوردته الوثيقة المسجلة تلك، والذي يكاد يتطابق مع الوضع الحالي للمنزل.

وقد اتسم البيت، فضلا عن قيمته المعمارية والفنية الكبيرة، بأهمية تاريخية خاصة، حيث ارتبط تاريخ بيت السناري بالحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م)، حيث أقام فيه عدد من أعضاء لجنة العلوم والفنون ضمن الحملة، وكان غالبيتهم من الرسامين والمهندسين.

ويضيف د. أمين: إن تاريخ بيت السناري وعمارته يأسران كل من يتابعهما، فيتلهف لمعرفة المزيد عنهما. وخير وسيلة لاكتشاف هذا الأثر الرائع هي زيارته والتعرف على تفاصيل تاريخه وعمارته، وهذا هو ما يهدف إليه هذا الكتاب. وأدعوكم لزيارة بيت السناري، وغيره من الآثار الجميلة التي تزخر بها مصر. ففي



الفناء الخلفي للبيت





المشربة أعلى المدخل الرئيسي.. تفصيل للحشوات الخشبية الزخرفية

الواقع، الرؤية بالعين لها وقع آخر في النفس.

إبراهيم كتخدا السناري هو مالك البيت وصاحبه والواقف له بموجب حجة شرعية مسجلة في محكمة، ومحفوظة في أرشيف وزارة الأوقاف، ومؤرخة في ١٨ رمضان سنة ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م.

ترجمة صاحب البيت

ويوضح الباحث كيف أن ترجمة صاحب البيت الأمير إبراهيم كتخدا السناري، تعكس لنا السياق التاريخي لمصر في نهاية العصر العثماني، وقبيل الحملة الفرنسية على مصر، وبها الكثير من التفاصيل الشيقة. فتذكر الوثيقة الشرعية أن صاحب البيت هو «فخر الأمثال وكمال الأعيان العظام عين أعيان ذي القدر أولي الشأن الفخام الجناب المكرم والمخدوم المفخم الأمير إبراهيم كتخدا المعروف نسبه الكريم بالسناري كتخدا افتخار الأمراء العظام كبير الكبراء أولي الشأن الفخام صاحب العز والقدر والمجد والاحترام المقر الكريم العالي حايز أنواع كمالات المفاخر والمعالي أمير اللوى الشريف السلطاني والعلم

المسقط العام للبيت

يمثل المسقط العام للمنزل شكلا غير منتظم الأوضاع من الخارج وتبلغ مساحة البيت الإجمالية ١١٥٠م٢ تشمل حوالي ٨١٠م٢ وهي مساحة عمارة البيت الأصلية الموصوفة بوثيقة الوقف، إضافة إلى مساحة الحديقة المضافة (متمثلة في قطعتي أرض أضيفتا من دون عمارة) وهي نحو ٣٤٥م٢. تبلغ مساحة المباني (غير مساحة الحديقة والمباني المستحدثة بها) حوالي ٦٤٣م٢.

ويتكون البيت من دور أرضي ودورين علويين. ويمكن تقسيم البيت إلى أقسام خمسة رئيسية هي: قسم المدخل وعناصر الحركة والاتصال، وقسم أماكن الخدمة، وقسم أماكن الاستقبال، وقسم أماكن الأسرة والحياة الخاصة (الحريم)، وقسم الحديقة.

وللمنزل واجهة واحدة تمثل واجهة الجزء الشمالي الغربي من البيت، وهي تطل باتجاه الشمال وتمثل نهاية حارة منج غير النافذة من جهة الشرق، وبالجزء الغربي من هذه الواجهة المدخل الرئيسي للبيت، وتتكسر الواجهة عند نهايتها الشرقية شمالا بعرض الحارة (حوالي ٤م) ببنية ومظهر إنشائيين مختلفين عن الواجهة الرئيسية سالفة الذكر، وفتح في هذا الجزء من الواجهة مدخل ثان مستحدث ومرتفع عن مستوى المدخل الأصلي.

البيت يحتوي على ثلاثة أفنية واضحة المعالم (وكما هو واضح وثابت برسوم الحملة الفرنسية للمنزل)، فضلا عن الحديقة التي تشغل نحو ربع مساحة البيت. الفناء الأول يمثل فناء الاستقبال الرئيسي وهو سماوي مستطيل الشكل نسبيا كبير المساحة أبعاده ٨,٤٠م x ١٠م. بينما الثاني يرتبط بقسم الحريم والمعيشة أكثر ومسقطه قريب من المربع أبعاده ٨,٣٠م x ٧,٣٠م. والفناء الثالث داخلي صغير مرتبط بأماكن الخدمة أبعاده ٢,٩م x ٤,٤م.

المنيف الخاقاني مولانا الأمير مراد بك محمد أمير الحاج الشريف المصري سابقا دامت عزته وأبدت سيادته وأعز جناب الواقف المشار إليه أعلاه آمين».

ويستطرد د. أمين فيقول إن هذه الألقاب الكثيرة الفخمة تعكس فترة النفوذ والسلطة للأمير إبراهيم كتخدا السناري. أما عن بداية ظهوره في مصر فكانت في مدينة المنصورة كبواب، وفقا لرواية الجبرتي. فيقول: إن إبراهيم السناري أصله من برابرة دنقلة من السودان، وقد أتى إلى مصر واستقر في مدينة المنصورة وعمل بها كبواب. وتعلم القراءة والكتابة، ودرس كتب التنجيم والسحر، فذاع صيته كعراف يكتب التمائم والتعاويذ، وأظهر ذكاء ونجابة، فاستطاع أن يلفت نظر أمراء المماليك تجاهه، فدخل في خدمة مصطفى بك الكبير، وصار في وقت قصير من أقرب المقربين إليه، فأخذ يدير شؤونه ويحرر مكاتباته بعد أن تعلم اللغة التركية، وأخذ يتنقل بين خدمة أمراء المماليك بما يخدم مصالحه حتى تمكن من أن يستميل إليه الأمير مراد بك الكبير، فبعد أن أمر الأخير بقتله عفا عنه وقربه منه وصار من أقرب المقربين إليه ولازمه في أسفاره وترحاله.

وأصبح إبراهيم السناري كتخدا للأمير مراد بك الكبير، ثم نائبا له، وصار واحدا من أعظم الأعيان، يمتلك التزاما وإيرادا ومماليك وسراري وخدما. وأصبح عظيم الشأن له كلمة في القضايا والمهمات العظيمة والأمور الجسيمة، وصار له حاشية وخشداشية ومبعوثون وأتباع كوسطاء بين الشعب وبينه.

شراء البيت

ويؤكد د. أمين أنه في أثناء هذه المرحلة من حياة السناري اشترى هذا البيت وأوقفه -كما سيأتي ذكره- كما تدل على ذلك ألقابه الفخمة المذكورة في وثيقة الوقف خاصته سالفة الذكر.



الفناء الرئيسي.. الواجهة الجنوبية الشرقية

وكانت خاتمة حياة الأمير إبراهيم السناري مأساوية شأن معظم أمراء المماليك في تلك الفترة. فيذكر الجبرتي أن حسين باشا القبطان استدعى الأمير إبراهيم السناري مع مجموعة من الأمراء المصريين، وقتله حسين باشا ضمن من قتل من الأمراء في ١٧ جمادى الآخرة سنة ١٢١٦هـ/ ٢٥ أكتوبر ١٨٠١م ودفن بالإسكندرية.

وفي الحقيقة تعكس تفاصيل الأحداث التاريخية لهذه الفترة فساد نظام الإدارة وأعمال النهب والسرقة لموارد البلاد وأرزاق العباد.

ويضيف د. أمين: ارتبط تاريخ منزل إبراهيم كتخدا السناري بالحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م)، حيث أقام فيه عدد من أعضاء لجنة العلوم والفنون ضمن الحملة الفرنسية ومنهم: ريجو، وهو رسام، وسافيجني وردوتيه، وهما من علماء الطبيعة، وإدوارد دي فيير تيراج وبروسبير جولواز وفيفر، وهم مهندسون، وأيضا فنانون كانوا يستخدمونه مرسما لهم مثل: مونج دبر توليه وكارفيللي.. الخ. وجاء في دراسة لجورج لوجران أن هذا البيت كان يقيم فيه الرسامان ريجودر وبونيه، والعالم الطبيعي سافيجني والمهندسون فيير دي تيراج وجولوا وفيفر.

توثيق بالرسم

ولعل إقامة هذا العدد من

الرسامين والمهندسين من الحملة الفرنسية، تفسر اهتمامهم بالبيت -كما يقول الباحث- ضمن مجموعة بديعة من البيوت القاهرية التي نالت عناية الحملة وتوثيقها بالتصوير والرسم، ونشروا صورها ضمن كتاب موسوعة وصف مصر. ومن هذه البيوت كذلك بيت عثمان بك، وبيت سليمان أغا، وقصر قاسم بك، وقصر الألفي بك (مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي)، وبيت حسن كاشف (مقر المعهد العلمي للحملة الفرنسية). وقد استأثر الأخير، أي بيت حسن كاشف، بالإضافة إلى البيت موضوع الكتاب، أي بيت السناري، برسوم مساقط أفقية ورأسية تفصيلية، فضلا عن العديد من الصور.

ونجد في المساقط الأفقية للبيت، والتي صممها جولوا وفيفر أن البيت وعمارته يمثلان القطعتين ١ و٢، ويظهر من مسقط الدور الأرضي أن البيت على القطعتين كله كيان معماري واحد له مدخل وحيد هو المنصوص عليه، والموصوف بحجة الوقف الشرعية بعطفة موسى جاويش (حارة منج)، ويوضح تفاصيل التعديلات والإضافات والتغييرات التي تمت على عمارة البيت، وإن كانت في مجموعها لا تغير من تخطيط البيت وطابعه المعماري الأثري، وتتركز بصفة أساسية في الدور الأرضي في الجزء المعروف بالحديقة، وفي الدور الثاني (الأخير) في بعض الفراغات.

حجة الوقف

حجة الوقف تظهر في الوثيقة رقم ٩٣٥، وهي محفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف المصرية، ومؤرخة بـ١٨ رمضان ١٢٠٩هـ/٨ إبريل ١٧٩٥م، وهي على شكل كتاب المتصرف فيه إبراهيم كتخدا السناري، ونوعية التصرف: وقف، نوع الوقف: منزل وقطعة الأرض المبني عليها. الوثيقة تقع في ٤٩ صفحة، كل صفحة من الورق مكتوب عليها بالحبر الشيني الأسود داخل إطار مستطيل بالحبر الشيني الأحمر من ثلاثة خطوط متجاورة. كل صفحة بها ١١ سطرا وكل سطر به متوسط ٩ كلمات، مكتوبة بخط مقروء بدرجة واضحة .

وفي نهاية الصفحة اليمنى توجد الكلمات الرابطة التي تبدأ بها الصفحة التالية.

يوجد ختم دائري مكتوب بداخله على ثلاثة أسطر «أولاد -بنده- محمد أحمد».

يمكن تأريخ بيت السناري في الفترة ما بين سنوات ١١٩٨-١٢٠٨هـ/ ١٧٨٤-١٧٩٤م، طبقا لما جاء بالوثيقة. أما تاريخ ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م المثبت بفهرس الآثار الإسلامية كتاريخ للبيت فهو يمثل تاريخ حجة الوقف الشرعية الخاصة بالبيت.



أماكن الإستقبال (قاعة الحريم) من داخل سدلة الإيوان الجنوبي الغربي ومشربيته المطلة على الفناء.

في «تاريخ المدن» للشيخ المهدي البوعبدلي:

ماذا فعل الاحتلال الفرنسي بالعمارة الجزائرية؟

التحرير

الاحتلال هدم ١٢٩ بناية دينية في ٣٢ سنة وحول ٢٦ أخرى إلى كنائس ومخازن

يتناول كتاب «تاريخ المدن» للشيخ المهدي البوعبدلي دراسة تصميم عاصمة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ثم بعده، ثم يوضح بجلاء ماذا فعل بها الاحتلال، وكيف طمس متعمدا معالم العمارة فيها. ويوضح الكتاب أن من الوثائق المهمة الموجودة في دراسات المؤرخين والرحالين التي تدلل على ذلك ما كتبه المؤرخ الإسباني «هايدو» حيث ذكر في تصميمه الذي نشر سنة ١٦١٢م بعنوان Topographie d'Alger أن عاصمة الجزائر يبلغ عدد مساجدها بين كبير وصغير: مائة، لكل منها وكيل وإمام للصلوات، وأحباس خاصة، من بينها سبعة مساجد كبيرة، وفي سنة ١٨٣٠م كان بالجزائر ثلاثة عشر مسجدا جامعا و(١٠٩) مساجد صغيرة، و(٣٢)



نخبة المثقفين يعتبرون طمس العمارة جريمة من جرائم القرن ضد الإنسانية

ضريحا ومعهدا، و(١٢) زاوية.

وبعد الاحتلال وتطبيق سياسة التخريب بدعوى توسيع الشوارع، وتجميل المدينة، ومختلف الادعاءات لتبرير طمس المعالم، كاد إجماع مختلف طبقات الكتاب، فرنسيين وأجانب، مدنيين وبعض العسكريين، أن يتفق على وصم هذه التصرفات بجرائم القرن ضد المدنية والإنسانية، ورأوا أن الداعي لارتكاب هذه الجرائم هو الجهل والحقد العنصري، والتعصب الديني، حيث لم يبق في سنة ١٨٦٢م من البنايات التي أحصاها Devoulx إلا (٩) مساجد كبيرة، و(١٩) مسجدا صغيرا، و(١٥) معهدا وضريحا، وخمس زوايا.

فقد هدم في مدة (٣٢) سنة (١٢٩) بناية دينية، ثم إن هذه البقية لم تبق كلها تحت تصرف المسلمين، بل بقي منها للمسلمين (٢١) بناية: (١٤) مسجدا كبيرا، و(٨) مساجد صغيرة، و(٩) أضرحة أو معاهد، أما (٢٦) فقد حولت إلى كنائس، أو مخازن ودكاكين.

وذكر الكتاب أن الجزائريين تفوقوا على معاصريهم الغربيين في فن البناء، كما تعرضوا لوصف المأكولات، وموائد الطبقات العليا، والمتوسطة، والفقيرة، وكانوا يهتمون بالفقراء والمساكين

قائد الحملة الفرنسية اعترف بخراب تسعمائة دار

وعابري السبيل، ومآوي العاجزين من رجال العلم، كل ذلك نجده في بعض عقود الأحباس على المشاريع الخيرية المخصصة لإطعام وإيواء هذه الطبقات، وتوزيع الصدقات عليهم.

نقض المعاهدات

إن المعاهدة التي حررها الماريشال دو بورمون قائد الحملة الفرنسية، ووقع قبولها من حسين داي، كانت تشتمل على ستة بنود، أهمها اثنان:

البند الذي يشمل احترام الداي وأسرته، والتعهد له بحماية السلطات لشخصه وماله وأفراد أسرته، والبند الذي ينص على احترام الدين الإسلامي والمحافظة على حريته، كما تحترم حرية جميع طبقات السكان وديانتهم وأموالهم، وقد تعهد دو بورمون بشرفه لهذا الالتزام.

لم يمر على احتلال البلاد إلا أسابيع قليلة حتى نقضت هذه المعاهدة، فأول شيء قام به الجيش الفرنسي هو إسكان الجيش المحتل المرابط بالعاصمة، وكان عدده يربو على الخمسة عشر ألف جندي؛ أسكن هذا الجيش بمعظم الدور والمحلات التجارية، بل حتى المساجد والقصور.

تأميم المساجد

يوكد المؤلف أن عدد المساجد التي أممت لهذه الغاية بلغت أربعين مسجدا، وعدة معاهد، معظمها بحومتي «باب الوادي» و«باب عزون»، لم يكتف الجيش المحتل بتسخير هذه المساجد والمساكن، بل شرع في تهديم البقية، تحت ستار إصلاح البلدة، وتوسيع شوارعها، فكانت النتيجة الأولى من هذه التصرفات أنه لم يمر عام واحد على الاحتلال حتى خربت جل المساكن، إذ نرى أن الجنرال اعترف في تقرير رسمي بعثه إلى السلطات العليا بباريس، بخراب تسعمائة دار في هذه الفترة.

تقرير الحاكم المدني

ومن جهة أخرى ذكر الحاكم المدني في بعض تقاريره ما يلي: «إنني لم أجد إلا مسكنين عربيين نجيا من التخريب،

الجهل والحقد العنصري والتعصب الديني وراء هدم العمران

إنهما كانا مسكنين لضابطين من درجة جنرال، فلو سكنهما الجند لما بقي منهما شيء، ولحق الخراب فيها حتى خشب السقوف، وكذلك أشجار الحدائق، كالزيتون والبرتقال والتين، فإن معظمها تلهبه نيران المطابخ، إنه لمنظر محزن هذا الذي نشاهده، وإن هذه الدور التي نشاهد آثارها الدالة على أنها كانت جميلة جدا كثيرة، فإنني حسبت في مسافة تتراوح بين أربع وخمسمائة خطوة، نحو العشرين دارا خربت، إن مساكن «بير مندرايس»، و«بير خادم» وغيرها من مساكن الفن كلها لحقها الخراب، اللهم إلا دارين أو ثلاثة، لم يبق منها إلا بعض السبائك من النحاس والحديد يحملها الجندي عندما يذهب إلى المدينة فيبيعها للتجار اليهود، الذين يبيعونها بدورهم إلى تجار الآثار، وهم يصدرونها إلى مرسيليا أو ليفورون Livourne.

مسجدان باقيان

ويذكر الكتاب أن معظم المساجد التي هدمت بدعوى تخطيط البلدة وتوسيع شوارعها الضيقة، ما بين ساحة الشهداء الحالية، وثانوية الأمير عبدالقادر – أي: سفح ضريح الشيخ عبدالرحمن الثعالبي–.

وإذا بقي الآن المسجدان الحاليان المالكي والحنفي، فذلك يرجع إلى معجزة، إذ بذل المخربون جهودا جبارة لإلحاقهما ببقية المساجد المهدومة.

رؤية المستشرقين للعمران الإسلامي

م. يحيى حسن وزيري
أستاذ أكاديمي ومعماري مصري



إن المتتبع لتطور جهود المستشرقين وعلماء الآثار الأوروبيين منذ نهاية القرن التاسع عشر سيلاحظ حتما أن هؤلاء العلماء قد قصروا عملهم في أول الأمر على وصف الآثار الإسلامية وتحقيق تاريخها ونشر صور موضحة لها ورسومات عنها، ثم بدأت بعد هنيهة حملة البحث والاستقصاء عن المصادر الفنية لتلك الآثار وأصولها، وكانت هذه الحملة أهم ما شُغل به المستشرقون منذ قرابة القرن ونيف (١).

وقد أوضح الدكتور أحمد الصاوي في دراسته عن «التحيزات الاستشراقية ضد العمارة الإسلامية» (٢)، أن «ماكس فان برشم» Max van Bercham كان في طليعة المستشرقين الذين سلكوا هذا الاتجاه في البحث والدراسة، وذلك عندما نشر مقالين في عام ١٨٩١م بعنوان «مذكرات في الآثار العربية»، وتبعه «جاييه» Gayet Alpefl بكتابه «الفن العربي» في عام ١٨٩٣م، وصرف العلماء منذ ذلك الحين جهودا مضنية في دراسة وتقصي المصادر، وجرتهم هذه البحوث إلى دراسات مقارنة لعناصر العمارة والزخارف في الفنون السابقة على الإسلام، وخاصة الفنون الساسانية والهلينية والهندية والرومانية والبيزنطية والقبطية، ورغم الاعتراف بأن لمثل هذه الدراسات المقارنة أهميتها البالغة في فهم الفن الإسلامي، فإن معظم هذه البحوث الاستشراقية اتخذت لنفسها هدفا مسبقا وغرضا مبيتا، ألا وهو إنكار أي فضل للعرب في إقامة عمائرهم وتشكيل فنونهم، وكان ذلك كفيلا بإخراجها عن جادة الصواب وإفقادها صفة العلمية والحيادية.

ويرى د. محمد الباجي بن مامي (٣)، أن دراسات المستشرقين تحتوي على العديد من الأخطاء الفادحة، وهي نابعة عن عدة أسباب: أولها الأخطاء الناتجة عن غير قصد، وتتمثل فيما يلي:

١- جهل المستشرقين باللغة العربية.
٢- عدم إدراك أصول الشريعة الإسلامية.
٣- جهلهم لكنوز الحضارة العربية وتراثها.

في حين ينبع النمط الثاني من الأخطاء عن تحيز الكثير من المستشرقين الذين حاولوا إظهار العجز التام للعنصر العربي في الإبداع، بينما أكدوا على مساهمة الحضارات القديمة في إثراء الحضارة العربية،

ليصلوا إلى الاستنتاج التالي: ارتباط الوطن العربي بالرومان والبيزنطيين والفرس وغيرهم.
وهكذا رأى الكثير من المستشرقين أنه لدراسة الفن والعمارة العربيين، لابد من تحليل العناصر والتعرف على ما هو متأثر بالبلاد الأخرى، كما كان القاسم المشترك بينهم هو عرض واف لخصائص الفنون السابقة للإسلام، أي الفنون التي يتأثر بها العالم الإسلامي في طور نشأته.
ولكن على جانب آخر وجدت العديد من دراسات المستشرقين المحايدة والمنصفة في مجال العمارة والفنون والحضارة الإسلامية، ككتاب «حضارة العرب» لجوستاف لوبون (٤)، ودراسات «بريجز» وآخرين عن «تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة» (٥)، وكتاب «تراث الإسلام» لجوزيف شاخت (٦)، وغيرها من دراسات وأبحاث المستشرقين المنصفين، الذين شهدوا بأثر ودور الحضارة والعمارة الإسلامية في تاريخ التقدم الإنساني.
لقد تأرجحت دراسات المستشرقين للعمران والعمارة الإسلامية بين الإجحاف والإنصاف، وإن كانت كفة دراساتهم وأبحاثهم قد مالت إلى الإجحاف للأسباب سابقة الذكر عاليه، وفيما يلي عرض سريع لبعض من تلك الآراء والدراسات المجحفة والمنصفة.

المستشرقون والمدينة الإسلامية

يرى كثير من المستشرقين أن العرب لم يكن لهم فن مستقل أو أسلوب معماري واضح، وأنهم قد تأثروا وربما استنسخوا عمائر الطرز التي سبقتهم، عندما أقاموا مساجدهم وعمائرهم ومدنهم.
فيذكر «ج. مارسيه» أن الفن العربي هو آخر الفنون التي ظهرت للوجود من بين الفنون العظمى بالعالم القديم، ولذلك فلا بد أنه تأثر بالفنون التي سبقته (٧)، ويذكر «هنري تيراس» أن كل البلاد العربية أخذت عن سوريا، أي بطريقة غير مباشرة عن الحضارة الهلنستية ثم الرومانية، ويرى أيضا أنه عندما انتقلت الخلافة إلى بغداد لعبت العراق نفس الدور الذي لعبته بلاد الشام عندما كان يحكمها الأمويون، وهكذا تأثرت العمارة الإسلامية والفنون الزخرفية تأثرا عميقا بالفن الساساني (٨)، وهو ما يذهب إليه أيضا أبرز المستشرقين الغربيين.
والأمثلة عديدة عن محاولات المستشرقين تجريد الفنان العربي المسلم من أي خلق أو إبداع، فهاهو «كريزويل» الذي ألف أحد أهم المصنفات في تاريخ العمارة العربية الإسلامية، قد درس مبنى قبة الصخرة بالقدس، وقسم عناصرها وزخارفها إلى أجزاء، ورأى أنها تتمثل فيما يلي (٩):
٢٢ ٪ من المصادر الرومانية.
٢٢ ٪ من المصادر البيزنطية.
٥٥ ٪ من المصادر السورية المسيحية.
٠١٪ المتبقي لم يحدد المؤلف مصدره.
وهو نفسه الذي يؤكد أن عرب ما قبل الإسلام لم يكن لديهم إلا أفكار باهتة أو بدائية عن البناء والعمارة، وأن بلاد العرب كانت تمثل فراغا معماريا يكاد يكون تاما، وأن الصفة العربية يجب ألا تستخدم للتعريف بعمارة العصر الإسلامي (١٠).
ومن أمثلة تشويه الحقائق أيضا اتجاه «فان برشم» و«جوميث مورينو» وغيرهما، لإثبات اشتقاق تخطيط المسجد من الكنيسة واشتقاق عناصره الرئيسية كالمئذنة والمنبر والمحراب والمقصورة من المسيحية (١١). بل إن بعض المستشرقين أمثال «بروكلمان» و«كيتاني» و«كريزويل» أنكروا على الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه بناء مسجد بالمدينة المنورة، فقد أكد «كريسويل» أن المسلمين ظلوا دون مسجد جامع في المدينة حتى عام ٥٤ بعد الهجرة، في حين أن مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، بصحنه المكشوف الفسيح وبيت الصلاة وجدار القبلة ثم المجنبات، كان مصدرا لتخطيط عمارة المساجد في الشرق والغرب الإسلامي (١٢).
والأمثلة كثيرة على عدم حياد أو فهم بعض المستشرقين للعمران الإسلامي، ونشير هنا أيضا إلى بحث أجراه د.محمد الكحلوت بعنوان: «قراءة تقييمية للمدينة الإسلامية وأسس تخطيطها» (١٣)، عرض فيه ملخصا لآراء بعض المستشرقين الغربيين غير المحايدة والمشوهة للمدينة الإسلامية، فقد حاولوا إثبات عدم مساهمة المسلمين في بناء المدن وعدم معرفتهم في الحياة المدنية والحضرية عموما، فهم مجرد قبائل رحل تعودوا على الانتقال وعدم الاستقرار، وأن المدن التي شيدت في العصور الإسلامية كانت مدنا حربية بالدرجة الأولى، وكانت امتدادا للمدن البيزنطية والرومانية والفارسية، وأن المدن الإسلامية لم تشهد تطورا في التكنولوجيا، ولم تقدم خدمات مدنية للسكان، ولم تعرف منهجا للتخطيط العمراني، وفيما يلي عرض لآراء بعض هؤلاء المستشرقين:
المستشرق جرونوبوم: Gustave von Grunebaum صنف المدن الإسلامية إلى مجموعة المدن التلقائية أو العفوية أو العشوائية، لأنها تمت بدون تخطيط الدولة، ونمت من تلقاء نفسها، كما ينتقد جرونوبوم المدينة الإسلامية لافتقارها إلى المسارح والملاعب، كتلك الموجودة في المدن الرومانية.

المستشرق كريزويل
Creswell

اعتبر البصرة والكوفة والفسطاط مدنا متميزة بأزقة، فوضوية متيهة ومجازات صماء (متداخلة) مع خيام وأكواخ، بينها أراض ضائعة. ففي الكوفة يحتاج الزائر إلى مرشد عندما يزور الحي الآخر.

المستشرق لامينس Lammens:
اعتبر مدن الحيرة والفسطاط والقيروان غير منظمة وغير نامية، لأنها لم تخطط من قبل السلطة المركزية، وإنما من السكان وحدهم.

المستشرق لاسنر Lassner:
يقول مقارنا تخطيط بغداد بالمدن الأخرى: «إن نماذج النمو العمراني والمتميزة في المدن العسكرية كالبصرة والكوفة تمت بسرعة ودون أي إدراك حقيقي للعناصر الأساسية لتخطيط المدن».

المستشرق كوبياك kubiak:
يصف القبائل العربية التي خرجت من الجزيرة وفتحت موقع الفسطاط وسكنتها كانت ذات حضارة أدنى من حضارة أولئك الذين فتحت بلادهم «فمن المستبعد وفي هذا التاريخ المبكر بالذات، أن يكون لدى العرب الذين أوجدوا الفسطاط أي فكرة واضحة عن تخطيط المدن أو حتى الاستيعاب التصوري والعملي له، كما كان لدى الرومان... ولأن التخطيط كان غريبا على حضارة العرب، لا يمكن تصور إمكانية إنشاء مدينة عربية عسكرية على خطوط منظمة كالمدن الرومانية التقليدية أو العسكرية بشوارع مستقيمة، ذات نمط مشابه لرقعة الشطرنج، متطلبة بذلك التنظيم والطاعة من السكان».

لقد حاول المستشرقون مقارنة المدن الإسلامية بالمدن الرومانية والإغريقية القديمة التي خططت من قبل السلطات المركزية، لتكون مدن مثالية ومنظمة لاستقامة شوارعها، وقاموا بالثناء على المدن الإغريقية والرومانية بسبب تخطيطها المركزي وبتدخل مباشر من قبل السلطات الحاكمة، بينما المدن الإسلامية عشوائية بسبب تراكم قرارات السكان دون تدخلات خارجية من السلطات ستكون عشوائية لا محالة، وفي انتقاداتهم للمدينة الإسلامية أبرزوا ملامح المدن الرومانية والإغريقية من حيث التخطيط السليم والمنظم، ولكنهم لم يتطرقوا إلى مدن العصور الوسطى المظلمة.

وبالرجوع للعديد من الدراسات المحايدة التي أجريت على المدينة الإسلامية (١٤)، (١٥)، نجد أنها قد راعت في تخطيطها عوامل حسن اختيار الموقع، ومراعاة الظروف البيئية، إلى جانب مراعاة المقياس الإنساني، وتطبيق قواعد الشريعة الإسلامية السمحة، والتي ميزتها عن غيرها من مدن العصور الوسطى في أوروبا وغيرها.

إن بعضا مما قدم في دراسات وأبحاث سابقة، عن مبتكرات وجماليات تراث المدن والعمارة الإسلامية، يعتبر غيضا من فيض، وفيه الرد على مزاعم كثير من المشرقين الذين لم يكونوا محايدين، أو غابت عنهم الكثير من أصول العمارة والعمران الإسلامي.

وعلى جانب آخر فقد اعترف كثير من الباحثين والمستشرقين المنصفين بأصالة العمارة الإسلامية، وحلولها المبتكرة، وتأثيرها على فنون وعمائر الغرب (١٦)، وهو ما سوف نفصله في المحور التالي، كدليل دامغ فيه الرد الشافي أيضا على مزاعم المستشرقين غير المنصفين.

تأثير العمارة الإسلامية على مباني الغرب

نعرض في هذا المحور بعضا من أهم الدراسات التي قام بها باحثون ومستشرقون غربيون، لتوضيح تأثير الفن والعمارة الإسلامية على مباني الغرب، مع عمل ترتيب تاريخي لتلك الدراسات والأبحاث من الأقدم إلى الأحدث.

ومن اللافت للنظر أن الأوروبيين أنفسهم ومنذ زمن بعيد قد تنبهوا إلى تأثير الفنون الإسلامية في فنون الغرب، وقد بدأ نشر الدراسات والأبحاث التي أوضحت تلك التأثيرات من بداية القرن التاسع عشر، فكتب سبنسر سميث Spencer Smith في سنة ١٨٢٠م مقالا حاول فيه تفسير شريط الكتابة الكوفية في صندوق العاج الشهير بكاتدرائية «بايه» Bayeux، وجاء بعده فيلمان Willemin فدرس سنة ١٨٣٠م الصفحة الأولى من مخطوط لرؤيا يوحنا اللاهوتي، محفوظ في المكتبة الأهلية، ولاحظ أن في إطارها تقليدا عجيبا للكتابة العربية في القرن الحادي عشر (١٧).

كما كتب «لونجبرييه» Longperier سنة ١٨٤٦م مقالا بحثيا عن استخدام الحروف العربية في الزخرفة لدى المسيحيين في الغرب (١٨)، وكان هذا المقال أساس بحث قدمه سنة ١٨٧٦م إلى جمعية الآثاريين الفرنسيين الأستاذ الفرنسي لويس كوراجو Louis Courajod.

وتحدث إميل برتو Emile Bertaux سنة ١٨٩٥م عن تأثيرات فنون الشرق المسلم على جنوب إيطاليا (١٩)، ثم درس في سنة ١٩٠٦م التأثيرات الإسلامية في الفنون الإسلامية.

أما العالم الفرنسي «إميل مال» E. Male فقد كان أول من عني بموضوع التأثيرات الإسلامية حق العناية، فكتب سنة ١٩١١م بحثا عن تأثير عمارة جامع قرطبة في بعض الكنائس الفرنسية (٢٠).

ثم كتب بحثا سنة ١٩٢٣ جمع فيه أمثلة كثيرة لتأثير العمارة الإسلامية في أبنية الكنائس الفرنسية في القرنين الحادي والثاني عشر (٢١)، ولكن لم يحتو على صور ولوحات لتوضيح ما فيه من نماذج وأمثلة.

كما كتب هنرخ جلوك H. Gluck سنة ١٩٢١م عن تأثير العثمانيين في الفنون الأوروبية (٢٢)، كما أعد الأستاذ سوليه G. Soulier بحثا عن استخدام الحروف الكوفية في التصوير التوسكاني سنة ١٩٢٤م (٢٣)، ثم كتابا عن التأثيرات الشرقية في التصوير التوسكاني في نفس العام (٢٤).

وكذلك كتب نخبة من الآثاريين الإسبان المقالات والكتب عن فن المستعربين

وفن المدجنين، وعن التأثير الإسلامي فيهما، ومن أمثلة ذلك ما كتبه جوميز مورينو Gomez Moreno سنة ١٩١٩م، عن كنائس المستعربين، ومؤلفات بويجي كادافالش Puigy Cadafalch (٢٥).

وفي سنة ١٩٢٨م قدمت السيدة هنريت ديفونشير R. L. Devonshire بحثا عن بعض التأثيرات الإسلامية في الفنون الأوروبية، وكان هذا البحث أساسا لأربع محاضرات ألقتها بالفرنسية في الجمعية الجغرافية الملكية، ثم طبعتها في مجلة الأسبوع المصري La Semaine Egyptienne (٢٦)، وظهرت منها طبعة مستقلة عام ١٩٣٥م (٢٧).

وفي عام ١٩٣٥م نشر أيضا أحد الباحثين البولنديين بحثا عن تأثير الفن الإسلامي في بولندا في ٢٦ صفحة (٢٨).

كما قام ثلاثة باحثين وهم: كرستي Christie وأرنولد Arnold وبريجز Briggs بتأليف كتاب بعنوان «تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة» نشر باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٦م، ثم ترجم للعربية عام ١٩٨٤م (٢٩)، تناولوا فيه باستفاضة التأثيرات الإسلامية على فنون أوروبا في المجالات المذكورة.

أما المستشرق الفرنسي المعروف «أوليج جرابار» Oleg Grabar فقد قام بنشر دراسة بعنوان: «الفن الإسلامي والغرب»، تناقش تأثيرات الفن الإسلامي على الغرب وأوجه التشابه بين الفن الإسلامي، وبعض فنون الغرب، وقد نشرت هذه الدراسة أول مرة عام ١٩٧٥م (٣٠). كما نشرت سلسلة عالم المعرفة ضمن كتبها دراسة مترجمة بعنوان «تراث الإسلام»(ج١) عام ١٩٨٥م (٣١)، احتوت في فصلها السادس (الفن والعمارة) على دراسة بعنوان: «أثر الفنون والزخرفة والتصوير عند المسلمين في الفنون الأوروبية» بقلم ريتشارد اتنجهاوزن.

كل تلك الدراسات والأبحاث السابقة والتي كانت نتاجا لبحث وتحليل العديد من الباحثين الغربيين، وتحديدا الأوروبيين منهم، بدءا من أوائل القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين، تعطي دليلا علميا موثقا عن مدى تأثر الفنون والعمارة الأوروبية بالعمارة والفنون الإسلامية، كما توضح اعتراف العديد من كبار باحثي الغرب المنصفين بهذا التأثير وأهميته، وهي شهادة لها مصداقيتها وأهميتها العلمية، والتي ترد على بعض غير المنصفين من أهل الغرب والذين لا يعترفون بتلك الحقيقة.

الهوامش

١- أحمد الصاوي، التحيزات الاستشراقية ضد العمارة الإسلامية، انظر الموقع الإليكتروني التالي: /www. c. ksu. edu. sa ٨٥٢٧/node.

٢- المرجع نفسه.

٣- محمد الباجي بن مامي، ملاحظات حول دراسات المستشرقين للفنون والآثار العربية الإسلامية، انظر الموقع الإليكتروني التالي: /www. attarikh-alarabi. ma/Html htm. ADAD٢partie٧

٤- انظر: جوستاف لوبون (٢٠١٢) حضارة العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٥- انظر: كرستي وأرنولد وبريجز (١٩٣٦) تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، دار الكتاب العربي، سورية.

٦- جوزيف شاخت (١٩٨٥) تراث الإسلام (ج١)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٧- G. Marçais (١٩٦٢). l'art Musulman، P. U. F..

٨- H. Terrasse، (١٩٣٢). l'art Hispano – Mauresque des origines aux XIIIe S. Paris.

٩- محمد الباجي بن مامي: مرجع سابق.

١٠- K. A. C. Grewell، Early Muslim Architectures، T.١، (١٩٣٢)، P.٩٠

١١- الآثار العربية والإسلامية في المغرب العربي وحرب المستشرقين، مجلة دعوة الحق، عدد (١٥٨)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، انظر الموقع الإليكتروني التالي: /www. habous. net/daouat-alhaq ٤٠١٨/item

١٢- الآثار العربية والإسلامية في المغرب العربي وحرب المستشرقين (٤)، مجلة دعوة الحق، عدد (١٧١)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، انظر الموقع الإليكتروني التالي: www. habous. net/daouat-alhaq

١٣- محمد الكحلوت (٢٠١٠) قراءة تقييميه للمدينة الإسلامية وأسس تخطيطها، قسم الهندسة المعمارية، الجامعة الإسلامية، غزة، انظر الموقع الإليكتروني التالي: .www deplibrary. iugaza. edu. ps

١٤- انظر على سبيل المثال: محمد عبدالستار عثمان (١٩٨٨) المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، عدد (١٢٨) الكويت.

١٥- انظر أيضا الفصل الثالث في كتابنا التالي: يحيى وزيري (٢٠٠٤) العمارة الإسلامية سلسلة عالم المعرفة عدد (٣٠٤)، الكويت.

١٦- للمزيد من التفاصيل انظر: يحيى وزيري (٢٠١١) تأثير القيم الفنية والجمالية للعمارة الإسلامية على تصميم واجهات مباني الغرب، المؤتمر الدولي الثالث للتراث المعماري، قسم العمارة بالجامعة الإسلامية، غزة.

١٧- كرستي وأرنولد وبريجز (ترجمة: زكي محمد حسن): مرجع سابق، ص«ز».

١٨- Longperier (١٨٤٦). L'emploi des caracteresarab esdansl'ornementation chez lespeupleschretiensd'occident. Revue Archeologu shfrique، Paris.

١٩- B، Emile. (١٨٩٥). Les arts de l' orientmusulmanl'Italiemeridional e. Melanges de l'Ecolefrancaise de Rome، vol. ١٥، ٤١٩pp-٤٥٣،..

٢٠- E،Male. (١٩١١). La Mosquee de Cordoueet les eglises de l'Auvergne et du Velay. Revue d'art ancient et moderne، ، pp.٨١-٨٩،..

٢١- E،Male. (١٩٢٣). Les influences ArabessurL'art roman. Revue des DeuxMondes، pp٣١١-٣٤٣،..

٢٢- كرستي وأرنولد وبريجز: مرجع سابق، ص «ط».

٢٣- G،Soulier. (١٩٢٤). Les characters coufiquedans la peinturetoscane، Gazette des Beaux- Arts، Paris.

٢٤- G،Soulier. (١٩٢٤). Les influences orientalesdans la peinturetoscane، Laurens، Paris.

٢٥- كرستي وأرنولد وبريجز: مرجع سابق، ص «ط».

٢٦- المرجع نفسه، ص «ط».

٢٧- L،R. Devonshire. (١٩٣٥). Quelques influences Islamiquessur les Arts de l Europe، Schindler، Le Caire.

٢٨- T،Mańkowski. (١٩٣٥). Influence of Islamic Art in Poland. ArsIslamica، Vol. ٢، No. ١، pp. ٩٢-١١٧، Published by: Freer Gallery of Art، The Smithsonian Institution and Department of the History of Art، University of Michigan، USA. (www. jstor. org/stable/٤٥١٥٤٩٠).

٢٩- كرستي وأرنولد وبريجز: مرجع سابق.

٣٠- G، Oleg. (١٩٧٥). Islamic Art and The West: influences لله parallels. First published in "Islam and the Medival West، ed. Stanley Ferber، Binghamton، pp٦٠-٦٦،..

٣١- جوزيف شاخت (١٩٨٥). تراث الإسلام (ج١)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

الأبعاد الأمنية.. وفقه التدبير العمراني المستقر (رؤية قرآنية)

عطية الويشي
باحث بوزارة الأوقاف الكويتية

ظل مصطلح «العمران» ملتبسا بإشكاليات مفاهيمية ترجع في مجملها إلى خلو معاجمنا القديمة من معنى العمران؛ حتى جاء ابن خلدون ليقدم هذا المصطلح معبرا عن حالات الاجتماع الإنساني في المجال المدني أو القروي أو حتى البدوي. والعمران في هذا السياق تعبير عن الحلول أو الحضور البشري في مجال جغرافي معين. وهو بذلك يعكس معنى الحضارة في معاجمنا العربية القديمة، التي ترى أن الحضارة (بفتح الحاء وكسرها): «الإقامة في الحضر، وهي خلاف البادية» (١).

ولقد كان هذا التعريف سببا في تداخل إشكالي آخر بين معان ومفاهيم ومفردات عرفتها بيئتنا العربية والإسلامية منذ مجيء رسالة الإسلام الخاتمة؛ فأحيانا يأتي العمران في بعض الكتابات من منظور المعمار البنياني، وأحيانا يأتي العمران مرادفا للاجتماع، وأحيانا يأتي معبرا عن التعمير متمثلا في سكنى المدن والقرى وتكوين الأمصار... وهكذا تختلف وفق السياق الوارد فيه لفظ «العمران». لكننا، على أية حال، سنركز على جوهر العمران ومفصله ومظهر حصوله: ألا إنه «الاستقرار»، ذلك الذي لا يتحقق إلا بالأمن، فحيثما أمن الإنسان على نفسه «حضر» و«أقام» و«استقر» و«عمر» و«تمدن». ومن ثم، كان البعد الأمني هو ركيزة العمران. وفي المقابل، فإن فقدان الأمن بحصول الخوف إنما هو يؤشر إلى ثلاث حالات سلبية:

- انتفاء العمران الإيجابي نتيجة الظلم، وما يرتبط به من إقصاء، وتهميش، وشطب، وحذف، ومصادرة، وإبعاد، وعزل واستثناء تهجير. ولذلك نجد ابن خلدون يقول: إن «الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع» (٢).
- انقباض الإنسان عن الحركة الإيجابية، مخافة الظلم والهضم المميت، وتلافيا لمظان الرصد والتتبع والملاحقة. ومن ثم، فهو لا ينتج ولا يثمر ولا ينجب.
- انتفاء الاستقرار، حيث تتحول صورة العمران من حالة المعاش الحضري



والحراك المدني أو التمدني إلى حالة البداوة والترحال، فتتشوه من ثم حقيقة العمران وتنتقص خصائصه.

ومن ثم، فالأمن لا يعد من أهم المطالب الأساسية لاستقرار أحوال الإنسان وتمدنه فحسب، بل من أجل تحرر الإنسان، وتحقيق إنسانيته، وإثبات ذاته، وتفجير طاقاته، وإطلاق ملكاته وإبداعاته؛ لأن الأمن: هو أداة النهوض والنمو والتطور المستدام على امتداد الحياة، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وعلى مستوى الأفراد والجماعات والأمم والشعوب والحضارات على السواء؛ فالعمران المستقر والتنمية المستدامة لا يتأكدان -نظرية وتطبيقا وخططا ومشاريع وبرامج تنفيذية- إلا بتوافر عنصر الأمن في الأجلين القصير والطويل. فالأمن والتنمية كما يقولون: وجهان لعملة واحدة. والأمن بطبيعته يعد لازمة من لوازم الحياة الأساسية، وضمانة كفلها الله رب العالمين لآدم حين هبط إلى الأرض، قال تعالى:﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ (طه:١١٨- ١١٩).

ثم إن البعد الأمني في المكون الحضري أو المدني أو القروي أو العمراني بشكل عام، إنما يعد الباعث الأوحد على الاستقرار والقرار. ومن ثم، كان العمل على تحرير الإنسان من الخوف يمثل الخطوة الأولى على طريق البناء التنموي المتكامل للعمران البشري، ذلك بأن «الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم، وانتظام جملتهم» (٣).

الأمن مقوم أساسي للحياة

وفي سياق تأصيله لمقومات العمران واستقرار أحواله واستقامة أموره، عدد أبو الحسن الماوردي ستة مقومات أساسية للحياة، أهمها: «أمن عام تطمئن إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، فتكثر المواد والتجارات، ويؤدي إلى الخصب والمواساة، والتواصل بالمال، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة، حتى يستعمل فكره في المهمات، ودراهمه في المعاملات» (٤).

وفي الرؤية الإسلامية للكون والحياة والإنسان نجد أن الأمن بمفهوميه الجماعي والاجتماعي: «لا يتحقق بطمأنينته فرد دون فرد أو جماعة دون جماعة أو شعب دون شعب، كما أنه لم يبن أمن شعب على حساب شعب آخر، بل جعلت تلك الرؤية جماعية الأمن واجتماعيته السبيل لتحقيقه للأفراد والمجتمعات، إذ تجاوزت بأهمية الأمن الاجتماعي نطاق مجرد تقنينه الإنساني النسبي، فجعلته فريضة إلهية، وواجبا شرعيا، وضرورة من ضرورات استقامة العمران الإنساني واستقراره» (٥). ولذلك، كان توفير المناخ الأمني الملائم للنهضة التنموية بمختلف وجوهها رهانا على الصلاحية المدنية لأي شعب أو أمة أو حضارة.

القرآن.. ومؤشرات التأسيس الأمني للعمران

ولقد كانت قصة ذي القرنين مع أهل السد مثلا يحتذى في التأكيد على البعد الأمني كأحد أهم الضمانات الأساسية للنهضة والتنمية العمرانية. ولعل المسؤولية الأمنية الراعية الأمينة إنما تفرض بطبيعتها على صاحبها نوعا من المشاعر التي تتراوح بين الشفقة والرأفة والرحمة بالرعية والحرص عليهم، ولاسيما إذا لاح لفراسة الراعي إخلاصهم ونجابتهم، ورجح لديه خيار التعويل عليهم في الإصلاح والنهضة والبناء.

ونحن إذا تأملنا أولئك القوم في سياق عرضهم مشروع الإنقاذ الوطني على ذي القرنين، حيث قالوا ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ (الكهف:٩٤)، فلسوف نلمس من جملة ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أن لديهم وعيا متميزا بحدود الأمن القومي وأبعاده المختلفة.. تلك الأبعاد التي تتجاوز مجرد حدود بلادهم إلى البلاد الأخرى التي يعد أمنها جزءا لا ينفصل من منظومة أمنهم القومي، وأن مجرد غفلتهم عن أمن جيرانهم، إنما هي في الحقيقة تفريط في أمنهم أنفسهم!

ومن خلال طرحهم رؤيتهم، يتبين أنهم يتطلعون إلى حالة من السلام الدائم، وأن هذا السلام، من حيث المبدأ، ذو أولوية مقدمة على الحروب والمصادمات بطبيعة الحال. ولذلك، نجد أنهم لم يطرحوا عليه مشروع حرب، وهو ما يدل على قناعتهم بأن البناء التنموي في ظل الأمن والسلام هو بمنزلة خيار استراتيجي من أجل إعلاء شأن الأمة وترسيخ موقفها في مواجهة القوى المعادية وتلك المتربصة.. وأن الأمم لا تزال بخير ما تخففت من هواجس الخوف المتربص بها والمتآمر عليها، واطمأن جانبها من إرهاب قوى البطش والعدوان المباغت الذي لا تؤمن غوائله. فأينما وجد الأمن والسلام وجدت التنمية ووجد البناء، وتفرعت أسباب النهوض والتقدم.. وعكس كل ذلك صحيح.

ولقد كان بوسع ذي القرنين أن يعرض عليهم مشروعا للمواجهة المسلحة فيمضي معهم به ويحرضهم عليه، مستصحبا ما أمده الله به من أسباب تمكنه من المبادرة إلى يأجوج ومأجوج ومنابذتهم الحرب والانتصار عليهم. لكنه لم يشأ أن يقحم القوم في حرب قد تستنزف مواردهم البشرية، وتأتي على ما تبقى لديهم من أقواتهم وأسباب عيشهم، ولاسيما حين بدا له من عرضهم أنهم غير راغبين في خوض الحرب في ظل وجود البديل المناسب لظروفهم وهو «السد» أو «الردم»، وهذا رأي راجح واختيار موفق من الطرفين كليهما، وذلك لما في الحروب من هدم وتخريب. وإن اهتمامه كان منصبا على إنهاء مسألة رد العدوان من أجل

الكف واستئناف الفعل الحضاري فاستجاب لمشروع البناء والعمران والتنمية.

ويبدو من السياق أن الحل العسكري لم يكن مجالا للتناول أو التداول بين ذي القرنين وأولئك القوم، وأن الاستراتيجية المتبعة كانت وقائية، وهي استراتيجية تبدو مناسبة بالنظر لطبيعة الظرف السياسي والاقتصادي الذي تمر به البلاد والعباد إذ ذاك؛

فبدلا من توجيه جانب كبير من الإنفاق على التسليح العسكري بما «يؤدي إلى اقتطاع قسم كبير جدا من الموارد المتاحة التي يمكن أن تخصص للإنفاق على القطاعات الاقتصادية المنتجة وعلى تطوير البنى التحتية المادية والاجتماعية لأولئك القوم» (٦)، كما أن تبني خيار المواجهة المسلحة المباشرة إنما يحرمهم جزءا من الثروة الوطنية يمكن أن ينفق في تجاوز حالة التعثر الحضاري، والتثقيف الاجتماعي، وتطوير نظم التعليم والتوجيه في بلادهم، ولاسيما أن القوم تحدث عنهم القرآن بوصفهم ﴿قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ (الكهف:٩٣).

ثم إنه قد ورد في معنى قوله تعالى ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ (الكهف:٩٤): «فسادهم في الأرض أنهم كانوا يأكلون الناس. كانوا يخرجون إلى أرضهم أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه، ولا شيئا يابسا إلا احتملوه فأدخلوه أرضهم، وقد لقوا منهم أذى شديدا وقتلا». وقيل: معناه: «إنهم سيفسدون في الأرض عند خروجهم» (٧).

والراجح لدي أن كلا القولين صحيح: فالأول يشير إلى تقرير ما هو كائن من فسادهم، حيث لم ينفكوا عن الإغارة على القوم وإفساد أمرهم عليهم وتعكير صفو حياتهم، وتفويت فرص الأمن والأمان والطمأنينة عليهم.. وهم لم يزالوا يشغبون عليهم بالأذى والعدوان بين كر وكر حتى في أتون ملحمة بناء السد، بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ (الكهف:٩٧).

وبالتأمل في الآية السالفة، يبدو أن محاولات بناء السد تكررت كثيرا من جانب القوم، ولكنها باءت بالفشل، خصوصا في ظل الغارات المستمرة من جانب يأجوج ومأجوج عليهم. ولعل هذا ما حدا بالقوم إلى استدعاء من يأنسون فيه المكنة والجدارة بإنجاز ذلك المشروع الاستراتيجي الأمني الضخم، حتى يتفرغوا للبناء التنموي والتشييد النهضوي لبلادهم.

أما القول الثاني فيتعلق بما سيكون من أمر فسادهم المستمر إلى المستقبل، وخطر ذلك على الأجيال القادمة؛ وهو ما يعكس النظرة الاستشرافية لأي فساد محتمل من جانب يأجوج ومأجوج، وبخاصة في ظل تكاثرهم الهائل المخيف. فقد أخرج الطبري عن حذيفة قوله: قلت: يا رسول الله، وما يأجوج ومأجوج؟ قال: «يأجوج ومأجوج أمم، كل أمة أربع مائة ألف، لا يموت الرجل منهم حتى يرى ألف عين تطرف بين يديه من صلبه» (٨). وهو الأمر الذي يقطع بأي أمل في الخلاص منهم، اللهم إلا بسبب أقوى من الأسباب التقليدية للمواجهة والدفاع.

ومن ثم، كان مشروع بناء السد هو التوجه الأكثر رشدا في صدى تداعيات اقتصادية وسياسية واجتماعية سلبية نتيجة لممارسات الشغب الهمجي، وعمليات النهب المتزايدة من جانب يأجوج ومأجوج لثروات القوم ومقدراتهم المادية والبشرية.

ومما يدل على ذلك أن ذا القرنين تجاهل خيار الحرب، وهذا لم يكن يعني أبدا أن خيار مواجهة الأخطار يظل مستبعدا فتخزى الشعوب المغلوبة على أمرها وتتخاذل فتزداد جبنا وهروبا من مسؤولية الدفاع عن بلادها، كلا، ولكن كلما كان مسار السلام مع تحقيق الهدف متاحا، فهو أوفق وأدعى إلى الاختيار والتبني. فليس ثمة حاجة للمجتمعات الراشدة الحكيمة في مجرد الحروب وسفك الدماء وإزهاق الأرواح وتبديد الثروة البشرية بالقتل والإبادة وتدمير العمران وتخريبه. وأي حاجة لهذه المجتمعات في تبديد ثرواتها البشرية ومواردها الاقتصادية؟!

وعلى الرغم من أن السياق القرآني يتناول شخصية ذي القرنين باعتباره قائدا مؤمنا عادلا حازما، وليس واعظا مخلصا مجردا بالمفهوم اللاهوتي.. فإننا على أية حال نجد أن نبرة الرحمة هي الغالبة على خطابه، وإلا كيف تستديم التنمية في مناخ التوتر والاضطراب والترقب والحذر والخوف الذي يقوض أركان الناس، ويقمع فيهم كل تطلع لتأكيد ذاتهم وإثبات وجودهم وهويتهم؟! وقد أثبتت التجارب والبحوث والدراسات النفسية والتربوية أن طاقة الإنسان لا يمكن أن تعمل بإيجابية في ظل أجواء التوتر والحذر والخوف والترقب، وأن القدرات والمواهب الإنسانية لا تنطلق ولا تبدع في مناخ يسوده التوتر وعدم استقرار الحالة الأمنية النفسية أو الاجتماعية، وأن «الإنسان الذي لا يرى في نفسه إلا الضعف والهوان على غيره، إنما يغري الطغاة بالإمعان في الفساد

والظلم والقهر والجبروت، فينقاد لأوامرهم ويخضع لإرادتهم ويستجيب لنزواتهم» (٩)؛ فكان أن جنح الرجل إلى السلم وإيثار السلامة المحققة للمصلحة القومية العليا للبلاد؛ ذلك على الرغم من قدراته الهائلة وقوته الجبارة وحيازته أسباب كل ما يمكن أن يريد فعله. إنها إذن رغبة الحياة وإرادة الإصلاح والبناء والتعمير في مواجهة رغبة القتل والتخريب والفساد في الأرض.. رغبة السلام القوي العزيز في مواجهة رغبة الحرب الطامعة الجبانة.. رغبة العمار في مواجهة ثقافة البوار والدمار.

ومن ثم، تأسست رؤية المواجهة على استثناء فكرة الحرب مكتفية بمبدأ دفع الصائل. وقد كان هذا المبدأ محل توافق وإجماع شعبي ونخبوي ورسمي، فيما يبدو من سياق القصة. وإن محاولة إنتاج الأمن بإيعاز من ذلك الإجماع الشعبي والنخبوي الرسمي العام على هذا النحو، إنما تدل على وعي تلك الأمة المتميز بمصالحها، واستيعابها لمقررات نهضتها ومتطلبات التنمية العمرانية المنشودة.

ولذلك، كان بناء السد أو الردم خيارا استراتيجيا توافقيا عاما، بل كان فرصة لبروز قيم الوحدة والتعاون في إطار العمل الجماعي من خلال استظهار الطاقات والإمكانات والمواهب والإبداعات الخلاقة.. تلك التي يبدو من السياق القرآني أنها كانت محل تقدير وتبن من جانب القيادة العامة.

وذو القرنين، الذي لم تستسغ نفسه أن يترك القوم فريسة للخوف والتوجس والترقب الدائم من عدوان المتربصين بهم، الذين لا يفتأون يغيرون عليهم، تجاوز بهم مرحلة الخوف إلى توفير أسباب الأمن الأبدي، وتأكيد ثقافة الرحمة الربوبية، فهو يريد أن يقول لهم: إن هذا المشروع حين أنجز إنما هو استلهام من رحمة الله رب العالمين الذي تلطف لهم وترفق بهم وتشفق عليهم برحمته، حين امتن عليهم بقيادة وفرت لهم أسباب الأمن والأمان من شغب المفسدين في الأرض... ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ (الكهف:٩٨). إنها نزعة الخير إلى المبادرة التلقائية والعمل التطوعي في خدمة المجتمع وتأمين احتياجاته المتعددة، التي في مقدمتها الأمن والاستقرار وحراسة المجتمع من الأذى والمخاطر، وسد ذرائع الفساد، وقطع الطريق على المفسدين ليتفرغ الناس لنهضة بلادهم ورقي أوطانهم.

ولقد بلغ السد من جودة صنعه وشدة إتقانه بحيث كان مشروعا قوميا للخلاص الأبدي من الفساد والمفسدين، الذين لم ينفكوا عن محاولة اختراقه من دون جدوى. إذ يلوح لنا من السياق القرآني أن ما بين بناء السد ومجيء أمر الله رب العالمين مسافة زمنية ممتدة لم تهدأ خلالها المحاولات الدؤوبة من جانب يأجوج ومأجوج لاختراق السد أو تجاوزه ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ (الكهف:٩٧).

ولقد جعل ذو القرنين من أطروحة القوم، الهادفة لبناء السد، فرصة لربطهم مباشرة بسنن وأسباب الجد والاجتهاد البشري، بعيدا عن منطق الخوارق والمعجزات، التي لم ير أنهم في حاجة إليها الآن بقدر ما هم في حاجة إلى تربية النفوس على مواجهة التحديات، وبناء قوتها الذاتية بعيدا عن الاعتمادية والتواكل.. فهو ماض إلى حال سبيله، فرأى أن يتركهم آمنين متحصنين بأسباب القوة والمنعة الذاتية بدلا من أن يعلقهم بشخصه، فيشرعون في استدعائه واستغاثته والتوسل به كلما عرض لهم عارض أو جد عليهم خطر وهو ليس بحي دائم لهم. ومن ثم، عمد إلى ربطهم مباشرة برحمة الله الحي الذي لا يموت ليتأكد إيمانهم واستحقاقهم الأمن والهداية..

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنعام:٨٢).

الهوامش:

١ - الفيروز آبادي، القاموس المحيط (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ، ط٢)، ص٤٨١.

٢ - عبدالرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت:٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة (دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، جـ١، ص٥١ و٣٥٣.

٣ - أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي (ت:٤٥٠هـ)، أدب الدنيا والدين (دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٦م)، ص١٤٢.

٤ - أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق، ص١٤٢.

٥ - محمد عمارة، الإسلام والأمن الاجتماعي (دار الشروق، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ص١٧، بتصرف.

٦ - محمد دياب، جدلية العلاقة بين الإنفاق العسكري والتنمية الاقتصادية (مجلة الدفاع الوطني، بيروت، ٢٠١١م، العدد ٧٥)، ص٦٨.

٧ - أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م)، جـ٦، ص١٩٣.

٨ - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ابن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت:٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبدالسند حسن يمامة (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م)، جـ١٦، ص٣٩٧.

٩ - علي محسن شابير، علاقة الإنسان بالكون في القرآن الكريم (مقال في مجلة الهداية التونسية، السنة ٣٣، العدد ١٧٥، صفر١٤٢٩/أبريل ٢٠٠٨م) ص٢٠، بتصرف.

العمران والبشرية: بين التفكير.. والتدبير

د.هبة رؤوف عزت
أستاذة جامعية - مصر



العمران تصور لخرائط الحياة اليومية في تراكمها التاريخي وما ينتج عن ذلك من تحولات إنسانية وبشرية. العمران ليس تصورات عن العمارة منفكة عن الحق في الأرض والسكن وترتيب المساحات والحدود بين الخاص والعام، والاجتماع والسياسة والاقتصاد. العمران هو أجسادنا في صيغ تفاعلها مع الحيز المكاني. والعمران هو تصور للعالم وموقعنا فيه ومساحات الفراغ وفضاءات التواصل. العمران احترام لتواريخ الأماكن والبشر حين ترتحل وحين تستقر. العمران أزمنة متجاورة تمنح الحياة طبقات من الطقوس والشعائر والجماليات يصعب فصلها وفصمها. العمران هو بنيان المعارف ومساحات الزخارف.

العمران مدن تمنح الأمن الإنساني والحياة الكريمة، وليس فقط أسواقا تتيح الاستهلاك. العمران رسم البشرية لأحلامها وبحثها عن الصيغ المتنوعة لتجلياتها في الزمن والمكان، وتفاعلها مع الأكوان والألوان والأصوات. العمران منطق للسلطة يقوم على الرعاية وتحقيق الكفاية. العمران بصمة الحضارة على الروح قبل أن تكون آثارها في المساكن. العمران دوائر عدل وساحات براح وجسد اجتماعي يتمدد ويتجدد.

العمران عبر وبصائر ونظر وفضائل.

أسئلة المدن ومستقبل الأمة

الحديث عن العمران -والذي سبق أن تناولته مقالات متنوعة في الأعداد السابقة من مجلة «الوعي الإسلامي»- له مداخل شتى. فلسفية: في جدل المدينة والبداوة، واجتماعية: في علم الاجتماع الإنساني وصيغة المدينة مقابل الريف، وسياسية: في الحديث عن المدني مقابل العسكري، كمنطق للمدينة منذ جدل أثينا وإسبرطة حتى أدبيات العلاقات المدنية/ العسكرية المعاصرة وفلسفة الدولة الحديثة، التي ترسم حدود العمران وطبيعته ومقاصده.

استئنافا لهذا الجدل وتركيزا على عدة عناصر لثراء هذا الملف في هذا العدد بمقالات تتناول العمران من جوانبه المختلفة، قد يكون مناسبا البدء بفهم

علاقة العمران بعمارة الأرض، وكيف أن الأرض التي يقف عليها العمران كمفهوم حضاري مركب قد تكون أرضية النهضة.. أو ساحة الصراعات.

وتتبع لفظ الأرض في القرآن يحملنا إلى معان مهمة في فهم أن دلالة الأرض تتجاوز ماديتها إلى رمزيتها، ودورها في مفهوم الاستخلاف الإنساني، والتنازع على الحكم وبسط السيطرة وغيرها.

يقترن مفهوم الأرض في القرآن بنشأة الإنسان وبالعمارة وبالتمكين، وبالقداسة، وبالوراثة وبالملك.

وما يلفت القارئ للفقه الإسلامي هذا الوعي بحق الإنسان في الأرض، وكونها المادة الخام المشتركة للعمران، ومن هنا إحياء الأرض الموات وتشبيه القوم الظالمين بأنهم قوم بور، وحفظ حقوق الملكية وتنمية معاني التزكية والنماء.

بل يتم تشبيه الكلمة الطيبة بالنبات الذي يثمر، وتتكرر هذه الصورة في كثير من الآيات، التي تربط الوجود الإنساني بأرض الله استقرارا وهجرة ونفيا وفتحا.

في رسالة الإسلام كان للأرض مكانها في التشريع للمساحات والحقوق، بداية من فقه الزكاة، وتنظيم ما في الأرض وما فوقها وما تحتها. ودفعت حركة الفتوح لتمييز الفقه بين مجالاتها من دار إسلام ودار كفر ودار عهد.

الأرض كانت دوما المساحة والمجال للتشريع والتفعيل. عمارة المكان وعمارة الأنفس والوجدان سارا بالتوازي من أجل تحقيق نموذج عمران.

الفقه الإسلامي لا يتحدث عن العمران إجمالا، بل يفصله تفصيلا يذهل المتجول في كتب الفقه، ويلفت الباحث الاجتماعي الذي يستعرض كيف تخيل الفقه العمران، ثم كيف أدار حياة الناس بالشريعة الغراء.

مركزية الإنسان في الفقه واضحة، لكن هذه المركزية تنفتح على النبات والماء حفظا للتوازن البيئي وتيسير سبل العيش، ولعل كتاب جميل عبدالقادر أكبر حول عمارة الأرض في الإسلام من الكتب المتميزة في هذا المجال، فهو يستعرض الفقه الإسلامي ورؤيته للمسؤولية عن المعمورة، والحفاظ على الثروات للانتفاع العام وللأجيال القادمة، وتنظيم الملكية والإحياء للأرض والارتفاق الذي هو العمود الفقري لنمو العمران الإنساني بالمعنى الحضاري، وليس المعمار كحجر فقط. أي رباعية البشر والشجر والحجر والماء في تفاعلها المستمر.

الارتفاق هو ما يستوقفنا هنا لعمق اقترانه بالعمران وعمارة الأرض، بالمعنى العميق والأخلاقي، فالاشتراك في المكان يرتب واجبات على صاحب الأرض الزراعية أو العقارية لإتاحة كافة الحقوق المشتركة مع الآخرين، بدءا من عدم حجب الشمس، مرورا بإتاحة مرور الماء والقنوات والممرات العامة، وصولا لحق الشفعة والجيرة بما يحفظ المنظومة الأخلاقية.

في كتابه يستعرض كيف حدث نمو المدن، ترسيمها الجديد وتخطيطها، النظم المتنوعة للتشريع العقاري، والقرض العقاري، واختلال موازين العدالة بقوة السلطان، واستعادة الفقه بشكل اجتهادي ومتجدد لمنطق العمران.

التفاصيل في التعامل مع الأرض فارقة في العمران الذي ينشأ والمساحات التي تنفصم أو تتصل، وروح المجتمع التي تسكن الأرض، واستحقاقات الإنسانية في حدها الأدنى، وحق الله من قبل ومن بعد.

الأرض إذن عنصر مركزي في العمران يمكن النظر لها كـ: معطى مادي- كثروة- كمساحة سلطة- كساحة تفاعل مدني-، وبذلك نقترب من المكان بمداخل: العقيدة والتوحيد- الموازين والتشريع- الفلسفة والأخلاق- الاجتماع- الاقتصاد- الوجدانيات- الجماليات- اللغويات (التصوير والتعبير والتفسير).

والحق أن فهم المدن الإسلامية ونظامها والفقه ومناهجه في التعامل مع تفاصيل الحياة العمرانية فيها لا ينفك عن اجتهاد لازم في نقل هذا التراث لواقعنا الراهن، لنحيي به بلدة مَيتا خلت من روحها الحضارية، نتيجة موجات التغريب ثم الاحتلال ثم الهيمنة الاقتصادية والعولمة الرأسمالية. إذا كان مجال الحداثة العلمانية المركزي هو تغيير خرائط العالم وتأسيس المدن الصناعية؛ فأين الجدل حول المدن الإسلامية اليوم في ثوب العالمية الذي ارتدته فوق طبقات تاريخها العمراني، وكيف يمكن استعادة إنسانيتها وإسلاميتها -في ظل مركزية مدن التحديث، والتي يصفها نقادها من علماء الاجتماع الغربيين بأنها معادية للتجمع الإنساني والتراحم والتكافل، من خلال أدوات فصل المساحات وخلق المسافات ودوران الحياة حول مواقيت للعمل، وتحديد لوقت الفراغ، يتوازى مع الإنتاج لا مع فلسفة العبادة، وينتظم حول الاستهلاك لا حول الفعل الاجتماعي والمحتوى الإنساني للحياة اليومية؟

وكيف يمكن تصور المواطنة ودعم تصورات النهضة المتنوعة أصلا وفرعا دون إعادة تأسيس فقه لحركة الكتل البشرية في المساحات وقيمها الاجتماعية وتواصلها المتحرك، من خلال الهجرة للعمل أو الهجرة القسرية أو حتى السياحة الطوعية، بما يرفع التواصل الثقافي والإنساني من خلال مراجعة التشريعات المنظمة للاستقرار العمراني/ السكني ليكون إنسانيا في مدنٍ صارت بلا هوية؛ غلب فيها «شهود المنافع» على «تعظيم الشعائر»؟

كيف يمكن بناء تحالفات إنسانية عابرة للعالم مع التوجهات الإنسانية ضد هيمنة اقتصاد السوق، ما وراء

رفض الفائدة البنكية وباتجاه رؤية إسلامية لعلاقة النظام الاقتصادي الإسلامي بالبيئة، وحماية حقوق العمال واحترام التراث المعماري، والنقابية الدولية، ومكافحة حرمان الأطفال من طفولتهم بالعمل المبكر ومن أمهاتهم بعمل الأمهات الذي يمليه واقع الفقر المتنامي في المدن؟

كيف يمكن تفعيل شبكات الرحمة الإنسانية الإسلامية لمقاومة الكوارث وحل النزاعات المسلحة؛ ومن كان أولى بأفكار أطباء بلا حدود، والرقابة الإنسانية العالمية على أوضاع حقوق الإنسان؛ نحن أم غيرنا؟! أم كنا منشغلين أثناء تأسيس تلك الجهود بجدل فرعي ضيّع الأركان؟

كيف يمكن توليد رؤى للجمال في زمن القبح؛ وثقافة للسلام في مناطق النزاع؟ كيف نعين الناس على ألا يدخلوا في دائرة العنف المتجاوز لـ«حدود» الجهاد؛ ونرد بعضنا بعضا لتلك المعاني والقيم والحدود بدلا من المزايدة بدماء الأبرياء منا ومن غيرنا، بما لا يحقق مصلحة منشودة أو منفعة مرجوة، وكيف نواجه النوازل؟ وكيف نحمي الخصوصيات الفردية في مواجهة اجتياح هيمنة حياة المدينة والتكنولوجيا السائدة فيها؟

المكان والمدن والعمارة وسائط بناء النهضة، والأمكنة تحتاج في بلداننا لإعادة تأسيس معرفي وعملي.

العمران.. والحيز.. والجسد

وإذا كانت الأرض مجال العمران، فغاية العمران هي الحياة الطيبة والإنسانية للفرد.. وللجماعة.

لذلك فالعمران، مثل العمارة، لا ينفك عن تصورات الجسد وعلاقته بالمكان وبالسلطة.

الحق في السكن والتأمين الصحي، التلوث، ملكية المساحة مقابل الفراغ العام المشترك، حيز السجن ومجال العقوبة، حدود الوطن والمساحات العازلة، كلها مساحات يتحرك فيها الجسد.

الحيز لا يمكن فهمه إلا من خلال علاقة الجسد به، والعمران الذي يحافظ على جودة الحياة الإنسانية هو الذي يحترم هذا الجسد حين يجب أن يتحرك بحرية، ويمنح هذا الجسد الخصوصية في شؤونه من خلال التخطيط العمراني، ومواصفات البناء الإنساني، والتشريع الذي يحفظ الجسد ويحفظ مجاله الحيوي من الاعتساف والانتهاك.

العمران يتأسس على مقاصد حفظ النفس، وهذا المعنى معقد وعميق، يبدأ من نوعية الحياة التي يحظى بها جسد الإنسان في ظله على مستوى الضروريات والتحسينيات والكماليات، من الأمن إلى الخدمات العامة، وصولا إلى الحق في البيئة النظيفة والحق في الجمال، لأن القبح يستلب النفس ويهوي بها ويفسد نقاءها وخيريتها.

تخطيط المدن غاياته تنظيم وضبط الحركة وتحديد المسارات وسهولة الانتقال، والأصل فيه أن يجعل حياة الساكن في المدينة سهلة، فالمدينة يُنظر لها باعتبارها الأسهل عيشا للفرد، والأكثر تنظيما لحركة المجموع.

لكن المدينة في تعاملها مع الجسد الإنساني في العصر الحديث باتت تنظر له نظرة وظيفية، وصار السوق هو المحرك، وسعيا للتكسب منه شهدت كثير من المدن هجرات جماعية من الريف للمركز المديني الصناعي، فتنامت أحزمة الإسكان غير الرسمي والعشوائيات حول المدن، وتلاصقت الأجساد، وعجزت الخدمات العامة عن سد الاحتياجات، وارتبك التخطيط، وتكدست الحركة ففقد الجسد ميزة الانتقال السهل وحرية الحركة الواسعة، فلم تعد الكثير من المدن المركزية في العالم اليوم تقدم نموذجا عمرانيا ملائما للعيش الكريم، وغلبت أولوية حركة رأس المال على نوعية الحياة الكريمة التي تكفلها للناس.

والجسد في نظريات الاجتماع ومنظور العمران جسد فردي وجسد جماعي، العمران في صورته المثلى هو الذي يحفظ للجسد الفردي كرامته وحقوقه ويدمجه مع تصور عام للجسد السياسي، وهو حين يفعل ذلك يحترم التنوع داخل الجماعة الواحدة وبين الجماعات المختلفة التي تحيا في مساحة وحيز مشترك، رغم اختلاف فضاءات الهوية.

درجة «تمدن» المجتمع تنبع من الإدارة الناجحة لهذه العلاقة بين الفردي والجمعي، والمشترك والمختلف. والجسد في ذلك كله هو الفاعل المتحرك.

سنجد مفردات تصف هذا الجسد في حضوره الاجتماعي في حقول العلوم الإنسانية، منها المواطنة التي ترصد العلاقة بين الجسد الفردي وجسد الدولة، ومفهوم الفاعل الذي يتناول السلوك الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للفرد، ومفهوم الذات الفاعلة الذي يدرج البعد الثقافي

والسـرد الـذاتـي لـعـلاقـة الفرد بالمحيط المادي وعلاقاته التعاونية والصراعية.

النظريات اللغوية أيضا بـدأت في دخول ساحة الجدل حول مركزية الإنسان/ الفرد في العمران.. ليس فقط كـ«مستهلك» لحيز المدينة بل كـ«منتج» لمعناها الكامن وراء مبناها، وهـو المعنى القابل للتأويل وإعادة التفسير طوال الوقت، ليس فقط من خلال حكايات أو «سرديات» الأفراد عن مدينتهم أدبا وشعـرا وتعبيرا وأمثالا شعبية، كما أن الفرد يتحدى التخطيط الـذي أنشئت عليه المدن طوال الوقت، حين يستهلك المساحات ويصبغها بألوان مختلفة، وليس يغيب عنا كيف يحتل البعض المساحات الممنوعة بأنشطة تجارية هامشية، ويعتصم البعض الآخر في الأنشطة الاحتجاجية ليعيدوا بناء تصوراتهم عن المكان.. والسلطة.. والقانون.. وبذلك يغير حضور الجسد الفردي والجمعي خريطة القوة التي أنتجت خريطة المساحات.

الفرد أيضا هو مدار تمييز المجالات بـين سيـاسـي واجـتـمـاعـي، رغـم أن عـلاقـات الـقـوة تسـري فيها كلها، ومسـاحـات الأفـراد فـي اجتماعهم الطوعي (خارج الاجتماع الطبيعي في الأسـرة والقبيلة) هـي سـاحـات «المجتمع المدنـي».. ومدنيته تقابل «عسكرة الدولة» التي تستأثر – في نموذج الدولة الحديثة – بكل أدوات القوة. الإرادة الفردية للجسد غير المسلح في صيغ التعاون النقابي أو التطوعي أو الـدفـاعـي/ الحقوقي وغيرها.

وترتبط الأخـلاق المدنية كمنظومة قيميه ليس فقط بفلسفة العمران، بل أيضا بالكثافة السكانية، فحرمان الإنسان من المساحة وضيق المسافات بـين البشر مـن الأمـور الـتـي تـؤدي للاغتراب وتفكك النسيج الاجتماعي الحاضن للقيم. الأخـلاق المدنية لا تنفك عـن السياسات السكانية ولا أنمـاط العيش والإسـكـان، وهـو ما يزيد من درجة العنف واللجوء للقوة في التـنـازع. وفـي هـذا كلام يطول في قـدرة القانون على إدارة العلاقات الاجتماعية في ظل تراجع الاتفاق حول النظام العام، وضعف شرعية السياسات الاقتصادية.. فيبرز الفرد هنا من خلال النقاش الجـاري فـي الـعـلـوم الاجتماعية باستدعـائـه الـزمـن الـيـومـي في حركته مقابل الأزمنة الطويلة التي يفكر بها منطق التخطيط العمراني والأنسـاق المعمارية، ويغدو سلوك الفرد ومـا يحدثه من أثـر جماعي تـراكـمـي فـي تحديه لفكرة النسق والنظام وخروجه عليها إن لم تحقق احتياجاته متنا موازيا لمتن العمران الأصلي، إما أن يتناغما أو يتنافرا فتنشأ الصراعات المجتمعية، وصولا للحروب الأهلية.

لا يمكن إذن تجاهل أبعاد الجسد الـفـردي والجـسـد الجـمـعـي في تفاعلهما مع الجسد السياسي في فهم تحولات العمران، وبالتالي في مناهج الإصلاح الحضاري.

وكل باب الارتفاقات في كتب الفقه يصب في هذه المعاني.

عمران الفطرة.. وفطرة العمران

التفت علماء الأمة لاقتران العمران في التصور الاسلامي بالفطرة، من النصـوص المهمة فـي هـذا المجال ما كتبه شاه ولي الله الدهلوي في كتـابـه «حـجـة الـلـه الـبـالـغـة» تحت عنوان: «سياسة المدينة»، فهو يرى أن «سـيـاسـة المـديـنـة هـي الحكمة الـبـاحـثـة عـن كيفية حـفـظ الربط الواقع بين أهل المدينة. وكان يعني بالمدينة جماعة متقاربة تجري بينهم المعاملات، وهـم أهـل منازل شتى. والأصل في ذلك أن المدينة شخص واحد من جهة ذلك الربط، مركب مـن أجــزاء. وكـل مـركـب يمكن أن يلحقه خلل في مادته أو صورته».

كما يربط الدهلوي بين سُكنى المدن والسعادة.. والحفاظ على الفطرة السوية من خلال سياساتها. فيقول في باب الحُجُب المانعة من ظهور الفطـرة: «اعـلـم أن الحجب ثلاثة: حـجـاب الـطـبـع وحـجـاب الـرسم وحـجـاب سـوء المـعـرفـة»، وحجاب الطبع عنده هو الأحوال الطبيعية وشغلها للإنسان، وحجاب الرسم وهـو العقل وفـهـم منطق الاجتماع والعمران، وحجاب سوء المعرفة لما هـو وراء الـواقـع الطبيعي والنظر العقلي، أي فهم منطق الكون وموقع الإنسان منه.

ونجد أثـرا من هـذا التقسيم عند ابن خلدون سلفا في مراتب علاقة الـنـاس بـالمـادة والمعايش، ثم النظر العقلي والسياسة السلطانية، ثم معرفة الوحي والسياسة الشرعية، لكن الدهلوي يزيد في التفصيل في «فن آداب المعاش وباب تدبير المنزل– وباب فن المعاملات– وباب سياسة المدينة»، والشاهد أن ربط سياسات المدن بالفطرة ورعايتها أمر قام عليه فقه المعاملات والارتـفـاقـات، وكـان فهمه لـدى الفقهاء عميقا ودقيقا، ربما يتجاوز كثيرا من كتابات علم اجتماع المدن اليوم.

والمقابل فـي الفكر الغربي يرسم المفكر الفرنسي جـان جـاك روسـو فـي كتابه عـن العقد الاجتماعي صورة لحالة الطبيعة الأولـى التي اخـتـرعـهـا المـفـكـرون فـي أوروبـا كتصور افتراضي عن نشأة الدولة؛ هروبا من هيمنة فكرة الحق الإلهي للملوك في الحكم، فأراد روسو أن يرسم صـورة منبتة الصلة بالنص الـديـنـي فـي حـكـايـتـه عـن نشأة المجـتـمـع الـسـيـاسـي فـي قصص

الأنبياء في التوارة والإنجيل، فقد كانت الفكرة العلمانية مسيطرة آنذاك، قبل أن تندلع الثورة الفرنسية. قال روسو: إن الإنسان كان سعيدا في حالة الطبيعة، لا يدرك معنى الثروة والملكية، ويعيش في سلام مع الطبيعة، وإن الدخول في عقد اجتماعي مع الآخرين ومع السلطة الحاكمة التي يقيمها هذا العقد كان أمرا حتميا، لتنظيم أدوات القوة وضمان نشأة السلطة، لكن لا داعي لتحويل ذلك لمثالية وأسطورة كبرى، فالإنسان ولد حرا وهو الآن في ظل هذه المدنية مكبل بالقيود، والأمن الذي من أجله ضحى بانطلاقه دون قيود في حرية مطلقة لم يتوفر له بالقدر الذي يريد، ومن هنا فكرته عن الاغتراب، وكذلك -وهو الأهم- حديثه في كتابه «عقيدة قس من جبال السافوا» عن دين بسيط يحقق التوازن بين العقل والوجدان، وترجمة الكتاب للغة العربية التي قام بها عبدالله العروي حملت عنوانا عبقريا: «دين الفطرة».

المهم في هذه الأفكار التي نحتاج أن نقرأ منطلقاتها السياسية والدينية المتنوعة هو أن رحلة التاريخ السياسي هي رحلة أجسادنا في تفاعلها -أو صراعها- مع السلطة في مساحات المدن ونماذج العمران، تريد السلطة أن تهيمن على أجسادنا لتبني «الجسد السياسي» أي الكيان المتخيَل لأمة.

وليس الجسد مركز الوجود، لكنه أحد الأبعاد المهمة والمكونات الرئيسية للفرد. وللوجود الإنساني مقومات متعددة وطبقات غنية متراكبة، لذا ففي المقابل لما سبق ذكره حين يغدو الجسد الفردي هو الهاجس الأكبر ومدار تشكيل رؤية الفرد عن نفسه ورؤية المجتمع عن الإنسان يتم اختزال الوجود الإنساني في بعده المادي الظاهر، وتتوارى الأبعاد الباطنة النفسية والروحية والفكرية والمجتمعية، ويصبح تصورنا عن الإنسان هو ما سماه البعض «الإنسان ذو البعد الواحد»، وفي هذه الحالة يتجلى هذا في ترتيبات اجتماعية وطقوس يومية للاحتفاء بالجسد، وفي الغالب وضعه في قوالب وصور نمطية، يستوي في ذلك الولع بكشفه وثقافة العري وتجارة الجسد وحمى جراحات التجميل والمبالغة في الاعتناء بتفاصيله إلى حد الجنون، والاهتمام «بالرسائل التي يرسلها الجسد» لأنه يصير المعبر الوحيد عن الشخصية، وبدلا من أن تكون لغة الجسد واسطة تدعم اللغة المنطوقة تصبح هي اللغة شبه الوحيدة، ويتوارى المجاز ويتم تنحية الخيال، لأنه كما يقول الغربيون: «ما تراه هو ما ستحصل عليه»، لذا يصبح المشهد الاجتماعي هو مشهد «ثقافة الاستعراض» بالأساس.

والغريب أن يحدث هذا في مجال القيم الأخلاقية والدينية، فيصبح الجسد أيضا في هذه ثقافة دينية مركزيا، وفي مقابل التعرية والكشف يكون الاهتمام الزائد بالتغطية والحجب، ويسري هذا على أجساد الرجال والنساء على حد سواء، وبدلا من أن يكون الجسد معبرا وجسرا للروح يصبح هو التعبير المركزي عنها بما يختزل ويسطح الكثير من المعاني العميقة، ويحول الرمز إلى مركز، فلا تتحقق مقاصد الشرع بل تتعرض للتآكل، ويصبح الظاهر أهم من الباطن، والشكل أهم بكثير من المضمون. وعندها يبدأ بنيان العمران في التآكل.. وإن على أجل بعيد.

وكما أن الجسد يظل في كل الأحوال والدوائر محكوما بعنصر الزمن، فإن الجسد الاجتماعي أيضا يصيبه ما يصيب الإنسان من هرم، وفي ذلك نظريات صعود وهبوط الحضارات في كل الفلسفات القديمة والمعاصرة.

ولنتدبر في صلة العمران بالظلم والعدل في قوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (إبراهيم:٤٥).

والمعنى يحتاج لتفصيل لا يتسع له المجال، تكفي الإشارة لاقتران ترتيبات السكنى والمساكن وارتباطها بالعدل والظلم، في ظل تمايز مساكن الطبقات المختلفة في المجتمع وحرصها على وضع الأسوار والحدود والسدود، بدلا من فتح الجسور وتواصل الدوائر وبناء النظام العام.

المعمورة الفاضلة

والحديث عن العمران لم ينفصل في التراث الإسلامي عن تصور الكون والأرض كمجال للإنسانية والبشرية، فالعمران يقدم تصورا للحياة الطيبة، هو نموذج للشهادة على العالمين، لكنه أيضا نموذج مفتوح على العالم «يتعارف» معه، ويحترم تنوعه، ولعل فكر الفارابي

هو النموذج الأمثل لهذه الرؤية الشاملة التي ترى العمران على مجال المعمورة، وتميز صيغ المدينة الفاضلة والمدينة غير الفاضلة.

تعتبر المعمورة الفاضلة أو الدولة العالمية أعلى أشكال الاجتماع الإنساني عند الفارابي، وقارن بين البناء الفكري والبناء السياسي على نحو بدت معه فلسفته السياسية كفلسفة ذات نزعة عالمية؛ فالله قيوم على الوجود كرب للعالمين، والرئيس على رأس البناء السياسي كحاكم للمدينة الفاضلة. ومن ثم يوجد انسجام تام بين رؤيته السياسية والدينية وفلسفته الأخلاقية، وهو بذلك تجاوز الفكر اليوناني الذي كان يرى نفسه الأسمى في المدنية، في حين كان العمران عند الفارابي يمتد لصالح «المعمورة الفاضلة».

رؤية الفارابي للعالمية تختلف عن رؤية الرواقيين في الفلسفة اليونانية، لأنه ارتقى بعد مفهومهم للقانون الطبيعي إلى معاني التوحيد، فصارت طبيعية القوانين مرتبطة بالفطرة وبالشريعة، وليس بالطبيعة كمادة أو كمفهوم كوني سقفه العالم وحسب.

السعادة في الدنيا والآخرة كانت غاية المدينة ثم المعمورة الفاضلة في التصور الإسلامي، ولم ينفصلا قط، وهو ما يميز مفهوم السعادة في الفلسفة الإسلامية، ويصوغ رؤيتها للعمران.. ابن خلدون أوضح ذلك بجلاء، وميز لذلك مهمة ودور العلماء.

والفارابي ينتقل من الفرد إلى المجتمع على جسر مدني هو الضرورة الاجتماعية، و«لا ينال الإنسان الكمال - الذي لأجله جُعلت الفطرة الطبيعية - إلا باجتماع جماعة كثيرة متعاونين يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه».

لذلك يحدث الاجتماع الإنساني، والاجتماع الإنساني الفاضل هو الذي يوصل إلى تحقيق السعادة؛ فالمدينة التي يقوم فيها الاجتماع على التعاون وممارسة الأفعال واتباع القوانين التي تتحقق بها السعادة الحقيقية، هي المدينة الفاضلة. والأمة الفاضلة مكونة من مدن فاضلة يتعاون أبناؤها بعضهم بعضا وتتعاون مدنها كلها، وتتعاون هي مع سائر الأمم. والمعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت مكونة من الأمم الفاضلة التي تتعاون معا على تحقيق السعادة الحقيقية لا الزائفة.

أي ليست السعادة الحقيقية هنا هي تحقيق «دولة الرفاه» على الطريقة الغربية، بل هي السعادة الناشئة عن الالتزام بالأخلاق، وهي السعادة الأخروية، أما السعادة الزائفة، فهي السعادة الدنيوية مثل الثروة أو اللذة أو الكرامة أو المجد.

وكان أساس تقسيمه للمدن الفاضلة وغير الفاضلة يقوم على التمييز بين نوعين من الرئاسة: الرئاسة الفاضلة والرئاسة الجاهلية، يقول «الرئاسة ضربان: رئاسة تمكن الأفعال والسير والملكات الإرادية التي شأنها أن يُنال بها ما هو في الحقيقة سعادة، وهي الرئاسة الفاضلة، والمدن والأمم المنقادة لهذه الرئاسة هي المدن والأمم الفاضلة. ورئاسة تمكن في المدن الأفعال والشيم التي تُنال بها ما هي مظنونة أنها سعادات من غير أن تكون كذلك، وهي الرئاسة الجاهلية».

وهو يربط الفطرة بمعمار الكون: «أجزاء العالم هيئات طبيعية بها ائتلفت وانتظمت وارتبطت وتعاضدت بالأفعال، حتى صارت على كثرتها وكثرة أفعالها كشيء واحد يفعل فعلا واحدا لغرض واحد».

ويفيدنا كلام الفارابي في نقد العولمة التي تتبنى على فكرة المدينة الكوزموبوليتانية، لكنها لا تُكسب المدن بالضرورة قيما أخلاقية، وتعتمد على الإدارة (الحوكمة العالمية) وليس الحضارة (بمعنى التمدن الرفيع).

هذا الجدل دار في نقد العديد من الكتابات الإسلامية لمفهوم العولمة، وإن بقي تصورنا عن العمران والعالمية قاصرا في منافسة الزخم النظري في هذا الجدل، وقد تابعت الموضوع لمدة عشر سنوات من خلال مشروع «المجتمع المدني العالمي» في جامعة لندن، وأخرج عشرة تقارير سنوية منذ ٢٠٠٣ ساهمت فيها بالكتابة ثلاث مرات. وهنا نجد أن تفاعل العقل المسلم يضيف للحوار العالمي إضافات بناءة وجوهرية.

لاينفك انشغال العقل المسلم إذن بقضايا العمران عن مداخل الفهم والتقدير للتحولات التي مر بها العمران البشري في ظل الإمبريالية ونشأة المدن الجديدة وتحول المدن التاريخية في ظل الاحتلال إلى صيغ تخدم الرأسمالية العالمية بالأساس، هي التي تصوغ تطورها العمراني وفلسفة الجسد والمساحة، وتعيد تعريف القيم والمجالات والمنظومات الاقتصادية والسياسية على صورتها الغربية.

إن فهمنا لفكرة التنوع الثقافي يقابله أهمية استعادتنا لمنظومة الفطرة، وقيم العدالة في مقابل قيم الاستهلاك، وإعادة بناء منظومة الحقوق الجماعية في مقابل الحقوق الفردية، والتركيز على دور فكرة الثروة في تحديد الاستحقاقات السياسية والاقتصادية، وردها لفكرة المصلحة العامة، كل هذه مسارات للتفكير في تجديد التفكير بشأن العمران في الواقع الإسلامي، وتحولاته، ومستقبله.

إن تأسيس نظريات جديدة للعمران والمدن تحيي فقه المكان يصلح مدخلا لتدشين حركة لحق الأمة في تدبير عمرانها كمدخل لاستعادة مجالات إنسانيتها، وساحات رساليتها.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٢)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



لقد تكرر القول في الحلقات الآنفة حتى تقرر، أن كلمات الفصحى قد آضت بفضل لغة القرآن الكريم، والشعر البليغ، والترسل المبين، في نشأة بهية فريدة تري الناظرين دررا مكنونة في أعماق أمات تلك المصادر. فإذا شق علينا اليوم الاستمساك بها والعثور على فرائدها، فإن الكسل اللغوي الذي ابتلينا به لا ينفي وجودها، كما أن ادعاء هذا الفقد والفقر من دون الرجوع إلى العارفين الجلة الذين عجموا عود الفصحى، وأحيوا لها آثارا، يعد من الإجحاف بحق الفصحى التي قلدتها تلك المصادر قلائد البهاء والكمال، عندما انبسط أفق التفكير العربي وامتدت أفياؤه، فاستفادت الفصحى في التعبير عن المعاني الطارئة، واغتنى معجمها؛ لا تنقطع في حلبتها أنفاس العلماء والمفنين تبعا لانبساط مظاهر الحضارة العربية الإسلامية. فما بال كتابنا اليوم قد أخذوا بخناقها وضيقوا عليها منافسها؟! ولماذا يصر بعض شعرائنا وكثير من شويعرينا على دخول لجة الشعر من دون عوم ينجيهم من غمراته؟! وما السبب في أن كثيرا من المنشئين يقمشون كلماتهم المحطوبة التي رمت الفصاحة بالهجر والنسيان؛ فلا يلقون بالا لما ينشئون من كلام غث؛ ألفاظه فجة كَزَّة مخسولة شائنة المرأى، لا أثر فيها للتنوق الذي كان الأوائل حُرُصا على الانتفاع به لتكتمل الصنعة، وتأتي الكتابة على أحسن هيئة؟! ثم لماذا ظل وَكْدُ وسدم كثير من المتطفلين على الشأن الثقافي، التنافس في السبق إلى النشر الرقمي لما يكتبون، ولو على حساب رصانة البحث، وضبط الأفكار، وتوثيق المعلومات، والتثبت من نفعها وخدمتها للدين والدنيا؟! وإلى متى يتدارك هؤلاء أن بينهم وبين الفصاحة ما بين الضب والنون؛ عندما يتداولون ألفاظا ملهوجة مهلهلة تعوم في محيط من السوقية والعامية لا يبرحونها، وفي أثناء دورانهم حول تلك الألفاظ والموضوعات الخليعة يعيدون أنفسهم في صيغ مبتذلة مستنسخة يغني أولهم عن آخرهم؟! ثم لماذا استأسد بعض أبناء العروبة على الفصحى، وألقوا في طريقها الحبال والعصي لمنعها من دخول معترك الحياة العربية المعاصرة في أثناء ادعاءاتهم التي لم تثمرها نتيجة بحث رصين، ولم تولدها بنات أفكار العلماء الحذاقيين الذين بلغوا

النكيثة في المعرفة بأسرار اللغات؟!
لاشك أن من أراد من هؤلاء الأغتام إنصافا، كمن أراد من الأعمى إبصارا، لأن حجتهم داحضة، وآراءهم دبرية تقوم على أغاليط وأراجيف حان وقت كنسها من تفكير العرب، لأنها مجرد ادعاءات غايتها دفع الأمة إلى هاوية التشرذم والغثائية وفقدان الهوية، فلا يمكن أن نقبل من أحد بعد اليوم ادعاء أن العربية لغة الأربدة والمتون والدين والشعر وبعض العلوم الإنسانية، أما المجالات الأخر فدونها خرط القتاد.
وآية ذلك أن نشاط العربية وكفاءتها يجب أن تستمده بالإضافة إلى الأصول التي تغذيها بالمدد الكافي من الآفاق الرحبة التي يجب أن ترتادها من خلال أخذ أبنائها بأسباب التقدم العلمي والتقني والحضاري، إذ كلما دخلت الفصحى غمار المعرفة العلمية في الجامعات والمعاهد والمعتملات ومراكز البحث، اغتنت وأخذت زخرفها وازينت، وأيقن أهلها أنها قادرة على الإيفاء بكل مطالب الحياة المعاصرة، من دون الخروج على الأصول اللغوية المقررة، أو الذهاب بها في التجديد طرائق قددا لا عهد للفصحى بها، وإنما عليها أن تنهج نهجا يولد أسماء واصطلاحات المعارف الجديدة على هدي من الأطوار التي سارت عليها، عندما بلغ العقل العربي آفاق المعارف المجتباة. إن مطارف الفصحى لا ينبغي أن نتركها للاستعمالات الشائنة التي مرقت من طاعة القواعد والقوانين التي تضمن للغة استمرارها، كما لا ينبغي أن نتركها تعيث فيها اللهجات العامية واللغات الأجنبية فسادا، وإنما يجب أن نعطي القوس باريها بالإكثار من الندوات العلمية والملتقيات الفكرية والمجمعات اللغوية والترجمات المفيدة، لأن عبقرية الفصحى لا تكتمل قدرتها وكفاءتها إلا إذا استفادت من شعرائها المفلقين، ومن خطبائها المصاقعة، ومن أطبائها النطاسيين، ومن علمائها الذابرين، ومن أساتيذها المبرزين، ومن صحافييها اللوذعيين، ومن حرفييها الماهرين، ومن مهندسيها الحاذقين، مستوعبة كل مناحي الحياة، ومشاركة في النهضة العلمية والتقنية كما شاركت في عهودها الآنفة، مع المحافظة على عبقريتها المستظلة بظلال القرآن الكريم، والسنة الطاهرة، والنثر البليغ، مأخوذين بسحرها الحلال وبقدرتها الاشتقاقية التي تغنينا عن الاستعارة والاقتراض السهل لسيل من الألفاظ من دون أن يصادف ذلك مصلحة ضرورية، لأن مقابله العروبي يوجد منا على طرف الثمام على شاكلة خرق الحيض التي يتم الترويج لها على الفضائيات العربية من المحيط إلى الخليج بالاسم الأجنبي «Always» مع أن اسمها العربي الفصيح هو «المثلاة» جاء في كتاب السيرة النبوية: «وأمرهم بتطهيره، وألا يقربوه دما ولا ميتة ولا مثلاة، وهي المحايض» (١).
جمع «مآلي». كما أن اصطلاح «Danone» يجب كنسه من الفضائيات العربية لأن اصطلاح «الشيراز» العربي أحسن منه أثاثا ورئيا. وقد أورد ابن النديم في أخبار الرياشي البصري المتوفى ٢٥٧هـ أنه يأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، بينما غيره يأخذها من أكلة الشواريز وباعة الكواميخ، الذين لان طبعهم. وقل الشيء ذاته بالنسبة إلى هذه الاصطلاحات الغربية التي هجرنا مقابلها العربي من دون سبب مثل: «الديكور» بدل «الزخرف»، و«الريبورتاج» بدل «التحقيق»، و«المونتاج» بدل «الإعداد»، و«الأجندة» بدل «المفكرة»، و«الأرشيف» بدل «الربيدة» وهلم على ذلك جرا وسحبا من النفائس والفرائد التي طال دثورها إلى أن رميت بالهجر والنسيان، كأنها لم يوجد مثلها في دنيا العرب.
أما إذا انتقلنا إلى دعاة اللهجات العامية الذين يحادون الفصحى، ويختلقون الأحاديث المرجمة عنها، فإن فؤاد العربي الصميم يشتعل كمدا وحسرة على انقلاب الموازين؛ حيث أضحت اللهجات تسطو على مجالات الفصحى، فأصبحت لدينا أنواع من الشعر مثل: الشعر الشعبي والشعر الحساني والشعر النبطي والزجل، وأصبحت المواسم والأسواق الأدبية تقام لها، ناهيك عن السخاء الذي يغمر به أصحابه، الأمر الذي دفع اللهجات إلى إحراز نصر مبين على الفصحى، ومن ثمة تسللت إلى الأسلوب العربي البليغ تراكيب لغوية خاطئة لم نسمع بمثلها في آبائنا الأولين. ومن المعلوم الذي لا يستراب فيه أن الخطأ تبديل ناكب عن سنن الفصاحة وعن قواعد أنظمتها النحوية والصرفية والمعجمية والدلالية، مثل عبارة: «قال في رأسه» الناكبة عن منطق الفصحى، إذ لو ألفت طباعنا لغة القرآن ورتعت نفوسنا وقلوبنا في رياضه الذفرة لقلنا كما قال تعالى في المناجاة: «قال في نفسه» بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (المجادلة:٨). وغيرها من العبارات الملهوجة مثل قولهم: «لسنا بحاجة إلى» التي يجب أن نستبدل بها عبارة: «ليس بنا حاجة»، وعبارة: «تعرفت عليه» التي يجب التشطيب عليها لصالح عبارة: «تعرفته» وغيرها من العبارات التي بنيت على أركان غير وثيقة وعماد غير محكم، فأخطأت الفصاحة والبيان، فحق علينا أن نرميها في سفط السقط.
هذه ألفاظ وعبارات زادت ملوحتها، وأخرى قل ملحها، فاختل رصفها، وأرهقها الخطأ، وخانتها أسرار العبارة، وغاب عنها الحس اللغوي الذي يشم ولا يفرك، فكان عاقبة أمر اللاهجين بها خسرا، ولم يبق إلا كنسها من حظيرة الفصحى، بعد أن قام الشاهد القاطع على مروقها من طاعة القواعد والبيان العربيين. وكفى بهذه الجردة بيانا لقوم يعقلون فرادة هذا الاعتيام لجملة من الألفاظ القرآنية التي أسيء استعمالها من لدن المجتمع اللغوي العربي الكسول، فكان لزاما أن أنفي عنها خطل الاستعمال، كما تنفي النار خبث المعادن النفيسة. ويقيني أني لست سوى فرع من أيكة المحككين الذين لم يطفأ لهم نجم في أثناء الدفاع عن العربية الفصحى صافية رقراقة تجري بها الأقلام، وتسلس بها الألسنة سهوا رهوا.

الهوامش

١ - السيرة النبوية، أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافري، المجلد الأول، ص ١٤، لجنة التحقيق بمؤسسة الهدى، دار التقوى للنشر والتوزيع.

كسر الحاجز

مياسة النخلاني
قاصة يمنية

كـــان صباحا هـادئـا حين أخــذت سـمـر تجـتـاز الـشـوارع المؤدية لمدرستها، عام فقط يفصلها عن إنهاء دراستها الثانوية لتنتهي هذه الرحلات الصباحية الهادئة، وقفت أمام حاجز أسمنتي صلـب، تحسسته بيديهـا، طيف ابتسامة مرةٍ علقت على شفتيها، فما أشبهه بالحاجز الذي يضعه والدها بينه وبين أولاده وبناته، فرغم أنه يشاركهم نفس البيت، لكن قلما يُحدث وجوده أي أثر في شؤونهم العامة والخاصة، لم يسألها

أو يسأل أحد إخوتها يوما عن أحوالهم، ولا كيف هي دراستهم، كيف يجتازون اختباراتهم، بل لا يكاد يدري في أي عام دراسي هم، للأسف اختزل الأبوة في توفير المأكل والملبس، غاضا الطرف عن احتياجاتهم المعنوية له ولقلبه كأب.

ألقت نظرة أخيرة على الحاجز وواصلت طريقها، حنان والدتها ووقوفها الدائم إلى جانبها وجانب إخوتها لم يكن كافيا لسد الفجوة الواسعة التي تفصل والدهم عنهم، لا يجتمع معهم سوى على طاولة الغداء أو العشاء، يلتزم الصمت في أغلب الأوقات، وإن تحدث فيوجه الحديث لزوجته وبكلمات قليلة، عدا ذلك إما أنه يتابع التلفاز، أو نائم أو في عمله. لا يشاركهم حياتهم وأنشطتهم كما يفعل الآباء مع أطفالهم «والدك عانى كثيرا في صغره، بعد وفاة والدته وحلول زوجة أبيه محلها ذاق هو وإخوته الأمرين على يديها، لدرجة أنه هرب من البيت صغيرا ولم يعد له إلا وقد أصبح شابا، الفترة التي قضاها متشردا أثرت على شخصيته وطباعه» الجملة التي تكررها والدتها عليها كلما حادثتها بالأمر، ربما تكون على حق، لابد أنه قاسى طويلا وهو يعيش حياة التشرد في شوارع مدينة أخرى.. يحمل في ذاكرته طيف أم غادرته باكرا وتركته لوالد انشغل عنه وسيدة لم تراع الله فيه.. لكن ما ذنبها هي لتتحمل تبعات حوادث مرت منذ سنوات طويلة «هو اليتم بعينه بل أشد قسوة» رددتها وهي تتجاوز آخر شارع يؤدي إلى المدرسة، بينما يعصر الألم قلبها دون رحمة، وقبل أن تبلغ الرصيف المقابل أخرجها من شرود أفكارها بوق سيارة مزعج، رمقت السائق بنظرات تائهة ثم واصلت طريقها دون أن تركز على الكلمات الغاضبة التي تفوه بها.

وفي الاستراحة جلست مع معلمتها التي أصبحت أكثر من أخت بالنسبة لها، تفضفض لها وتنفس عما يعتمل في قلبها «قد يكون والدك معذورا» قالتها المعلمة مواسية «ربما!» ردت هي دون اقتناع، فأي عذر هذا الذي يحرمها من والدها وهو موجود معها.

● هل حاولتِ أنتِ كسر الحاجز بينك وبينه؟

- لا.. لم أحاول.

- حاولي.. قد يكون هو أكثر حاجة لقربكم أنتم منه، ربما لو قاسيتِ الظروف التي عاشها في صغره، لكان منظورك للأمر من زاوية أخرى.. هو نفسه بحاجة إلى من يعيد له الإحساس بالحب والعائلة التي فقدها منذ زمن طويل، حاولي معه فربما محاولتك تغير في نفسه الكثير، وتساعده هو أيضا على كسر الحاجز الذي يختبئ خلفه طفل صغير خائف، أخذ منه القدر أمه وأخذت منه قسوة البشر أباه وبيته وشعوره بالأمان.

لم تجبها، قد تكون معلمتها على حق، لكن هل سيكون حقا بمقدورها كسر الحاجز الصلب الذي يفصلها عن والدها.. من يدري؟!

بدأت محاولاتها مساء ذات اليوم، كان جالسا كعادته في غرفة الجلوس يقلب في قنوات التلفاز، قررت أن تدخل إليه وتحاول فتح باب للحديث، ترددت كثيرا.. وفي كل مرة تقترب من الباب تبتعد مجددا، وأخيرا عادت إلى غرفتها يتخبط قلبها تحت وطأة مشاعر الخيبة، ماذا يمكن أن تقول له «كيف حالك يا أبي؟ الطقس اليوم جميل! هل من جديد على التلفاز؟» أم تقولها له صراحة «اشتقت لك ولقربك مني؟!» نعم هذا بالضبط ما تريد أن تقوله، لا تكف عن ترديد هذه الجملة في أعماقها كلما مر من أمامها، لكن ما إن تهم بترجمة الكلمات إلى لغة مسموعة حتى تخطئ الحروف طريق الخروج إلى شفتيها، فتلتزم الصمت كما يفعل هو. لا تذكر آخر مرة تحدثت إليه، فهل تأتي اليوم بكل بساطة لتبوح له بكل اشتياقها وحاجتها له، دون أن يشجعها هو على قول ذلك؟! معلمتها لا تعرف كيف هو الوضع ولا مدى ابتعاده عنهم، لذا تقترح طرقا غير مجدية، على الأقل من وجهة نظرها. «ها.. كيف كانت محاولتك مع والدك؟» سألتها معلمتها صباح اليوم التالي «حاولت البارحة أن أدخل لأحدثه لكني لم أستطع» أجابتها بخجل «لا عليك استمري في المحاولة لأجلك ولأجله ولأجل إخوتك الصغار».

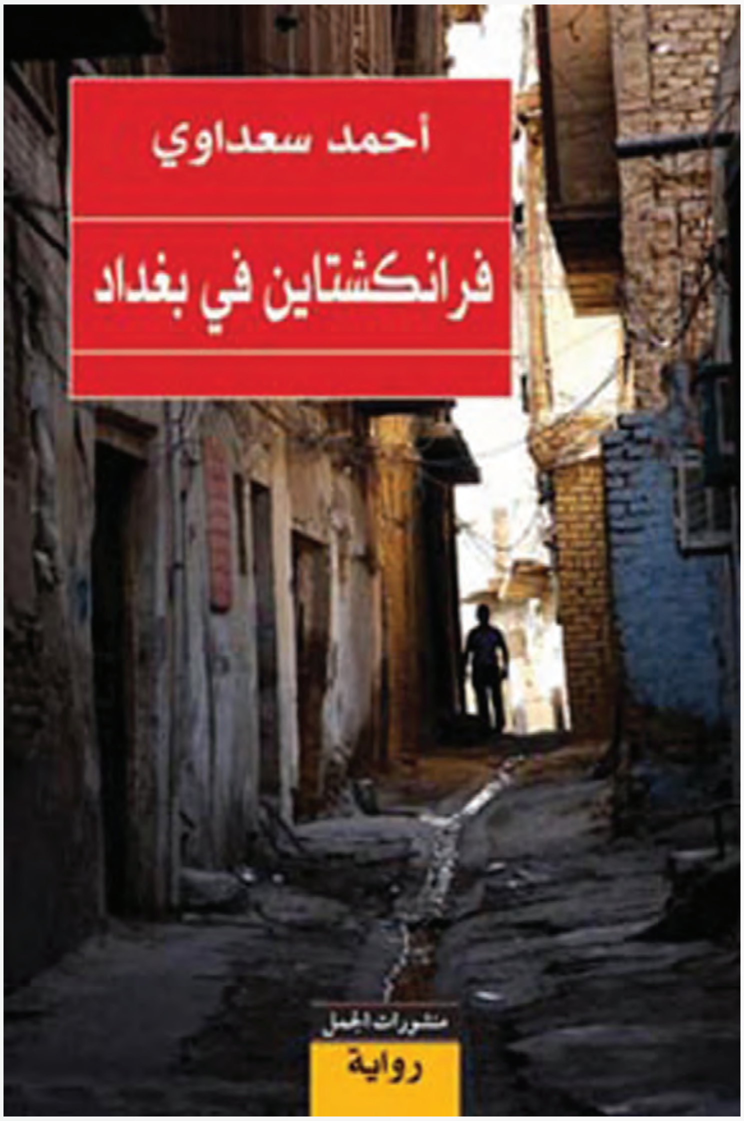
جهزت له الشاي عصر أحد الأيام، وضعته أمامه، غابت لحظات ثم عادت وهي تحمل كتبها، جلست بجانبه وعندما رآها تنوي الجلوس أزاح معطفه بعيدا ليفسح لها المكان، ثم انشغل كليا بمشاهدة الأخبار وكأنه في عالم آخر، كانت تقلب صفحات كتابها كمن يقرأ، لكن عقلها يعمل بتضارب باحثا عن كلمات أو حتى بضع حروف لتبدأ حديثا مّا معه، لكن كل حروفها اختفت وكأنها قد غاصت بين صفحات الكتاب الذي تمسك به.. انقضى الوقت سريعا ومن المسجد القريب علا صوت المؤذن مناديا لصلاة المغرب، حمل معطفه وغادر الغرفة بهدوء، ولاتزال عبارة «كيف حالك يا أبي؟» متحشرجة في حلقها! هل يعقل أن يكون الأمر بهذه الصعوبة، لملمت كتبها المبعثرة تبعثر أفكارها وغادرت هي أيضا، مقاومة رغبة بالبكاء ومشاعر تعصر قلبها بقسوة. يعانق البعض صور آبائهم الراحلين بكل مشاعر الشوق والاحتياج، ووالدها بجانبها تعجز عن التحدث إليه ببعض الجمل العادية.

أخذت تجتاز الشوارع إلى مدرستها صباح اليوم التالي، وقفت عند الحاجز الأسمنتي تتأمله، تعلم أن معلمتها ستسألها اليوم أيضا عن محاولتها لكسر الحاجز بينها وبين أبيها، ستخبرها بما حدث، لكن الأخيرة ستشجعها لمحاولة أخرى وستهز هي رأسها وتجيب بأنها ستحاول.

قراءة في الرواية الفائزة بالبوكر ٢٠١٤

«فرانكشتاين في بغداد» للروائي العراقي أحمد سعداوي

محمد أبو السعود الخياري
باحث وناقد مصري



ذهبت جائزة البوكر العالمية للرواية العربية هذا العام إلى رواية «فرانكشتاين في بغداد» للروائي العراقي أحمد سعداوي. وقد جاء في حيثيات اختيار الرواية لحصد المركز الأول في الموسم الأكثر زحاما في تاريخ الجائزة (١٥٦ رواية من ١٨ دولة)، أن رواية سعداوي حملت عددا من سمات التجديد والإدهاش.

وأشار د. سعد البازعي رئيس لجنة التحكيم لهذا العام إلى هذه الحيثيات خلال الاحتفال بإعلان النتيجة مساء التاسع والعشرين من أبريل الماضي بقوله: «جرى اختيار «فرانكشتاين في بغداد» لعدة أسباب، منها مستوى الابتكار في البناء السردي، كما يتمثل في شخصية «الشسمه»، في الرواية أيضا عدة مستويات من السرد المتقن والمتعدد المصادر، وهي لهذا السبب وغيره تعد إضافة مهمة للمنجز الروائي العربي المعاصر».

فسيفساء الفاجعة

هادي العتاك هو بائع الأشياء القديمة، والذي يحرص على التجول في بغداد طول الوقت ليجمع الأشياء المستعملة؛ ليعيد بيعها بعد ذلك. هذه المهنة القائمة على بعث حياة الأشياء لتمارس دورها في الحياة من جديد، تتحول في الرواية إلى انعطافة مدهشة؛ حين يقرر بائع «الروبابيكيا» أن يعتزل جمع الأشياء

ويبدأ في جمع الأشلاء! هذه المهنة الأسطورية الخيالية الصادمة تبدو متسقة، وتكاد تكون ضرورة في واقع تصنعه الأسطورة، وشوارع تملؤها الجثث، وبيوت ترقد قلقة فوق قنابل موقوتة. عراق ٢٠٠٥ الذي يعيش فيه هادي العتاك لا يعيش فيه المرء حياته وصولا إلى الموت، بل يعيش جاهدا -فقط- ليفلت من القتل الذي يراه على الدوام قريبا منه كملابسه.

القيمة العليا واضحة في فكرة سعداوي، حيث يقوم العتاك بجمع أشلاء الجثث المتناثرة في بغداد -كيفما اتفق- ويحاول أن يصنع من هذه الفسيفساء البشرية كائنا جديدا يطارد قاتليه، بحيث تتحد هذه الأشلاء لتنتقم بشكل منتظم من كل من قتل النفس التي دفعت بتلك القطعة البشرية.

هذه الشخصية الجديدة «الأسطورية» تطلق عليها الرواية اسما من اللهجة المحلية العراقية يعني الإنسان غير معروف الاسم (الشسمه). ولا يخفى ما في هذه الأشلاء من رمز وإشارة بارعين إلى أطياف المجتمع العراقي المتنوعة والمتنافرة «فالشسمه مصنوع من بقايا أجساد لضحايا، أضيفت إليها روح ضحية، واسم ضحية أخرى.. إنه خلاصة ضحايا يطلبون الثأر لموتهم حتى يرتاحوا. وهو مخلوق للانتقام والثأر لهم».

واقعية سحرية وشخصيات أسطورية

تنتمي رواية سعداوي إلى اتجاه «الواقعية السحرية»، ذلك الاتجاه الذي جمع النقيضين (الوهم والحقيقة - الأسطورة والواقع)، وهو اتجاه أدبي بدأ في الفن التشكيلي وانتقل ليزدهر في فن الرواية، «ففي عام ١٩٢٥م استعمله الألماني فرانز روه في عنوان كتاب ناقش فيه بعض خصائص وتوجهات الرسم الألماني في مطلع القرن، ثم تواصل استعماله فيما بعد في حقل الفن التشكيلي بوجه خاص. وكان استعماله في ذلك الحقل للدلالة على نوع من الرسم القريب من السوريالية، حيث تكون الموضوعات المرسومة والأشياء قريبة في غرابتها من عوالم الحلم وما يخرج عن المألوف من رموز وأشكال».

ولعل النماذج البارزة جدا للواقعية السحرية في الأدب العالمي هي تلك التي يمثلها أدب أمريكا اللاتينية وروائيوها الكبار؛ مثل جابرييل جارسيا ماركيز، الذي رحل في أبريل الماضي عن سبعة وثمانين عاما، وروايته الذائعة «مائة عام من العزلة». والغريب هو اعتراف روائيي أمريكا الجنوبية بتأثرهم بالتراث الحكائي العربي، لاسيما قصص ألف ليلة وليلة، «فالواقعية السحرية حركة حديثة نشأت في أمريكا اللاتينية، وازدهرت لتلقى اهتماما واسعا في كل أنحاء العالم. وهذه الحركة لها جذور عندنا تأثر بها كتاب أمريكا اللاتينية أنفسهم واعترفوا بذلك».

رواية سعداوي نموذج جديد بديع للواقعية السحرية، بيد أن المدهش فيها أن السحر والغرائبية قد تحققا بشدة في الواقع قبل أن يصوغهما الخيال، وكانت استجابة الشخصية للتعاطي مع الواقع الخرافي، الذي بدا الوطن خلاله مثل رجل يسير في زحام ويتحاشى الاحتكاك بالناس؛ لأنه في الحقيقة يربط على بطنه حزاما ناسفا.

العجائبية مصدر الأمل وبوابة الخلاص

الرواية قدمت نماذج من الشخصيات العجيبة، تلك التي تبدو داخل المجتمع محتفظة بطقوس خاصة وسلوكيات مدهشة. فتتصدر الرواية تلك السيدة العجوز التي يظن الناس أنه بمجرد وجودها في مكان فإنها تبعد عن هذا المكان الكوارث، ولا يقترب منه التفجير.

يقين مهتز

هادي العتاك، مخترع «الشسمه»، الذي أفزع الجميع، صار ضحية تفجير بحي البتاويين، وحولت النيران وجهه إلى شكل بشع، ثم هرب من المستشفى وانقطعت أخباره، وبعد حين يحتفل الجميع بإعلان القبض على المجرم الذي بث الرعب في بغداد، وقتل أهلها وألقى بقطع أجسادهم في الشوارع.. و.. و.. و... إنه هادي العتاك، ليس شكله، ولكن الصوت صوته. من صدق ومن لم يصدق احتفل بزوال الخوف في الشوارع وبكل أشكال الفرح، غير أن شبحا لرجل مجهول ظل يرقب هذه الاحتفالات من نافذة الفندق المهجور ويطالع السماء الغائمة.

«الشسمه» إذن مستمر، صار وحشا كاسرا، وقد بدأ نبيلا، قتل كل مساعديه، وسجن مبتكره بجريرته، صار قتل الناس -كل الناس- هو وسيلته الوحيدة ليبقى حيا.. فالأعضاء التي تتلف يعوضها من بشر ممن يقابلهم.

الخوف إذن مستمر، الخطر لا يزال طليقا. لكن الناس على استعداد لتصديق أي رسالة كذب ترسل إليهم أملا؛ لأنهم في ظمأ شديد إلى الفرحة.. أية فرحة.

حاولت الرواية إيقاف كل شيء في المشهد العراقي في منطقة اهتزاز اليقين، فلا شيء يمكن القطع به، ولا تصديقه بشكل كامل، حتى هذه الفكرة الخارقة للانتقام من المجرمين والمحتلين تحولت إلى عدو بالغ الخطورة وغير قابل للسيطرة عليه. وهو ما أجادت الرواية في تأكيده عبر أحداثها وشخصياتها على السواء. غير أن الرواية لم تكن في حاجة إلى العنوان غير الفني الذي جاء مباشرا يفتقد الفنية، وكأنه كان يصلح أكثر ليكون عنوانا لمقالة نقدية عن الرواية، فالرواية بحيويتها وسردها المتدفق تبدو غريبة مع عنوان تقليدي، كما ضاعفت الفقرات التي دبجها الكاتب قبيل بدء الرواية.

من خلال استشراف الأمن الاجتماعي:

قـراءة في «مشروع رعاية أجيال الكويت»

التحرير



تقدم مستشار الهيئة العامة للعناية بطباعة ونشر القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومها وكيل وزارة الأوقاف المساعد سابقا عبدالله محمد الشهاب، بمشروع فكري تحت عنوان «رعاية أجيال الكويت»، والذي جاء في ٨٢ صفحة من القطع المتوسط.

وخلاصة المشروع، كما ورد على لسان مقدمه، أن الكويت توفر العديد من المرافق العامة القادرة على رعاية الأجيال الكويتية على نسق وطني وأخلاقي مثمر، ومن هذه المرافق وزارات الأوقاف، التربية والتعليم والخارجية.. وغيرها. وكذا المؤسسات التوعوية القائمة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الأمانة العامة للأوقاف، بيت الزكاة الكويتي، الهيئة العامة للقرآن والسنة، المركز العالمي للوسطية.. وغير ذلك من الهيئات والمراكز الحكومية والأهلية المستعدة لبذل ما تملك في سبيل إغناء الوطن بطاقات شبابية قادرة على البناء والتنمية والإصلاح، من خلال منظومة وطنية تحفظ أمن البلاد، وتساعد في رقي النظام العام.

والمطلوب تفعيل أدوار هذه المؤسسات والمرافق لتحقيق الرعاية اللازمة لشباب الوطن، وإعدادهم الإعداد الذي يستثمر طاقاتهم فيما يعود عليهم وعلى وطنهم بالخير والنفع، وذلك وفق آلية جديدة تحقق التكامل بين أدوار هذه المؤسسات والمرافق.

وتوقف المؤلف عند رأي الشرع في التطاول على الحاكم قائلا: حتى يكون الجيل الكويتي الشبابي والناشئ على قدر من المسؤولية وتحمل العبء، لابد له من أن يحيط علما في البداية بأنه قد علم بالضرورة في الإسلام أنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، يقول الحسن البصري -رحمه الله تعالى- في ولاة الأمور: «هم يلون من أمورنا خمسا: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله لا يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون».

وقد كان العلماء يقولون: إذا استقامت لكم أمور السلطان، فأكثروا حمد الله تعالى وشكره، وإن جاءكم منه ما تكرهون، وجهوه إلى ما تستوجبونه بذنوبكم وتستحقونه بآثامكم، وأقيموا عذر السلطان، لانتشار الأمور عليه، وكثرة ما يكابده من ضبط جوانب المملكة، واستئلاف الأعداء، وإرضاء الأولياء، وقلة الناصح وكثرة التدليس والطمع.

وتحت عنوان «كيف تنشئ جيل الصلاح والإصلاح؟» يستطرد الشهاب قائلا: كثر الحديث في السنوات القليلة الماضية عن خطط الإصلاح وبرامج التنمية في العالم العربي والإسلامي، ومهما كانت الأسباب الكامنة وراء ذلك، فإن بعضا من متعلقات هذه الخطط لم يتم الحديث عنه، وإن حصل فبحديث خافت غير مسموع، إنه الحديث عن المصلحين أو جيل الإصلاح الذي سوف ينفذ هذه الخطط، وينقذ هذه البلدان والأوطان من رواسب الفساد الإداري والمالي والظلم السياسي والاجتماعي والتنافس القبلي.

ويتساءل الشهاب: ما الجيل الكويتي المطلوب؟ ويجيب من خلال أوراق مشروعه: جيل الإصلاح المنشود الذي نرنو إليه في بلدنا الكويت هو جيل يؤمن بربه أولا، لأن من لم يخف الخالق، وهو قاهر فوقه، لن يخاف المخلوق وهو قادر عليه. وهو جيل يحب وطنه، ويخلص لشعبه وقيادته، ويحنو على الضعيف، ويرحم المسكين، ويأخذ بيد الحائر التائه، ويعطي مثالا صادقا في البذل والعطاء، فيبتعد عن طرق الباطل، وينأى عن ركب الغواة الفاسدين المفسدين.. جيل يرفض الرشوة، ويلعن آخذها ومعطيها والساعي بينهما.. إنه جيل يؤمن بوطن للجميع، من شرقه لغربه، ومن شماله لجنوبه.. وطن يتآخى فيه الجميع، بدوا وحضرا، مواطنين ومقيمين.

ثم يعاود الشهاب الطرح: فماذا قدمنا لهذا الوطن الغالي؟ وهل ما صنعناه فعلا من أجل الكويت يرقى إلى مستوى عطائها السخي، أم إن الأمر أقل من ذلك؟ فيقول: إن الوقوف على إجابات هذه الأسئلة هو ما سيقودنا إلى بعض الشواهد الحية، التي يبدو فيها بعضهم على درجة من الجحود والعصيان لهذا الوطن على الرغم من نعمائه وأفضاله عليهم.

لكن ماذا عن أهمية الشعور بالانتماء الوطني في القضاء على الفساد؟ يقول الشهاب: إن الفساد لم يعد محصورا في مكان أو زمان، أو ممارسا من فئة معينة من الناس دون غيرها، أو خاصا بسلعة أو خدمة أو هيئة أو مؤسسة، فلقد كاد أن يكون ظاهرة مجتمعية ومؤسسية

تنذر بالكثير من الكوارث، سواء على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي أو التعليمي. وصدق الله الحكيم القائل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ (الروم:٤١). ووصل إلى حد إفساد العقول، بعد أن أفسد الصحة والبطون.

وسائل إصلاح جيل الشباب

ويتحدث الشهاب عن وسائل إصلاح جيل الشباب فيقول: لاشك أن وسائل الإصلاح لا يمكن حصرها بعدد ولا بأسلوب، إذ لكل مكان وزمان الوسيلة التي تناسبهما، ولن تعدم الكويت من عقول شبابها إيجاد الوسائل والحلول التي يكتب لها به الإصلاح والتوفيق بإذن الله تعالى، ومنها المساجد فلها دور أساسي هو خدمة المجتمع، وذلك بالحفاظ على أمنه وقيمه وأخلاقه، ولا ينبغي أن يكون هذا الدور مقصورا على الصلاة فحسب، بل يجب أن يظل مع ذلك مدرسة لتربية النشء، وتهذيب أخلاقهم. وإذا كان المنزل يغرس في نفوس النشء الفضائل والآداب الإسلامية منذ نعومة أظفارهم، فإن المسجد يتلقى هذه الأجيال فيصقلها بالعبادة والخشوع لله والتدبر والتفكر في ملكوته. وإذا كان المنزل يجمع أفراد الأسرة الواحدة تحت سقف واحد، فإن المسجد يفعل ذلك عندما يجمع المجتمع تحت سقفه كأسرة واحدة، يتعلم فيه المسلم كيف يتفقد أخاه إذا غاب عن المسجد، فيعوده إذا كان مريضا، ويعينه إذا وجده محتاجا، وبذلك تسود المجتمع روح التواصل والتواد والتعارف، وينمو التآلف والعلاقات الطيبة بين أفراد المجتمع، فالمسجد بهذا المفهوم يمثل محور الوحدة بين المسلمين، ويجب أن يكون لعموم المسلمين، لا لأتباع مذهب فقهي معين، ولا فرقة معينة، حيث لا يصلح في المنطق الإسلامي أن يستأثر أي شخص أو جهة بمساجد الله تعالى، وإنما هي لله وحده، يعبده فيها جميع المسلمين، فالمسجد منذ عهد الرسول ﷺ كان الموجه لحياة المسلمين، فكان المدرسة والجامعة، وكان المنارة التي يسترشد بها المسلمون في حياتهم، ومنه يستمدون مقومات دينهم، ومعرفة أصوله ومبادئه. وإذا كنا لا نستطيع العيش من دون غذاء، فنحن كذلك لا نحيا بلا أمن. ومن هنا يأتي الدور الذي يؤديه المسجد لتحقيق ما نحن بحاجة إليه، فيقدم لنا الغذاء الروحي، وننعم بالحياة في جو من الأمن الفردي والجماعي.

ويضيف: كذلك أدت وسائط الاتصال الحديث ووسائله بالفرد العربي عموما، والفرد الكويتي خصوصا، إلى أن يعيش في بيئة جديدة، تزخر بمتغيرات جديدة تختلف عما عاشه الأجداد والآباء في الماضي، سواء في العادات والتقاليد وأنماط المعيشة، أو في طرق التربية والحوار وغيرها من السلوكيات الجديدة التي جاءت بها هذه الوسائط الحديثة.

ومن الوسائل أيضا استغلال الدور الريادي لوزارة التربية حتى يكتمل البناء في دور الحكومة في العناية بهذا الجيل الكويتي منذ نعومة أظفارهم، وحتى يصلوا إلى المرحلة المهمة من حياتهم الدراسية الأخيرة، التي تتمثل في الحياة الجامعية، فالدولة تحتاج إلى تجييش جميع الطاقات المتوافرة لديها لهذه الوزارة التي تعتني بهذا الجيل الشبابي منذ مرحلة الطفولة في رياض الأطفال ومرورا بجميع المراحل: الابتدائية والمتوسطة والثانوية.

ويؤكد الشهاب أنه ينبغي الحرص على استكمال جميع وسائل التعليم الحديث واستثمارها في عملية التعليم لجعل الدراسة أسهل، وجعل التعليم يواكب التطور في جميع دول العالم.

بالإضافة إلى توفير وسائل المراقبة من كاميرات وغيرها في المدارس، لخلق جو من الاطمئنان والأمان والراحة لجميع الطلبة، وإشعارهم بأن كل شيء مسجل ومراقب، وأنهم في مؤسسة تعليم متكاملة.

أما فيما يتعلق بالتعليم الخاص فنحن في حاجة إلى إعادة هيكلة هذا القطاع المهم الذي يحتاج إلى رعاية خاصة لتواكب مخرجاته أهداف التعليم في الدولة.

أما وزارة الإعلام فعليها -من وجهة نظر الشهاب- جهود كبيرة وجبارة، تستطيع من خلالها، بالتعاون مع وزارات الدولة الأخرى، وضع خطة إعلامية ثقافية تبين مدى خطورة المواقف التي يتعرض لها البلد، ويكون هذا من خلال برامج دورية هادفة تستوعب طاقات الشباب وتبارك جهودهم.

خطوات لحماية قيم المجتمع

- تعليم الأبناء المكثف لكيفية استخدام وسائط الاتصال والمعرفة الحديثة، وعدم ترك مجال للجهل بأي منها.
- إنشاء مؤسسات مجتمع مدني ضاغطة (أسرية، نسائية، شبابية،... إلخ)، تحاكم أداء المؤسسات المحلية والعربية وموزعي خدمات الاتصال الحديثة.
- تحديد نسبة المواد الأجنبية في وسائلنا الإعلامية. ولا يعني ذلك المقاطعة الكاملة لكل ما هو أجنبي، بل اختيار المواد المناسبة التي لا تتعارض مع قيمنا ومبادئنا.
- نشر ثقافة النقد والحوار لدى الأسرة من أجل القدرة على محاكمة الأمور وتمحيصها، ورفض التلقي السهل والتسليم السطحي بالأمور للحد من التأثير الضار لمضامين الرسائل الإعلامية السلبية.
- التأكيد على دور الأسرة التربوي، بحيث تبقى الأسرة هي الحاضنة الأولى لقيم الأفراد والمجتمع وثقافتهم.
- التوعية الجنسية السليمة، فيقوم الآباء بتوجيه أبنائهم -وبخاصة المراهقون والشباب- نحو التمسك بالقيم الدينية المستمدة من المبادئ الإسلامية.

رئيس منظمة العلاقات العامة بجمعية ماس الأمريكية الجمال في زيارة لـ «الوعي الإسلامي»:

هدفنا إعداد سفراء سلام وجسور المعرفة

حاوره : علاء عبدالفتاح

الجمعية الإسلامية الأمريكية (ماس) جمعية أهلية أُسست عام ١٩٩٣م في الولايات المتحدة، وتعد من أنشط الجمعيات ذات الفعاليات التي تخدم الجالية الإسلامية هناك حتى الآن.
«الوعي الإسلامي» التقت الدكتور أسامة الجمال رئيس منظمة العلاقات العامة والاتصال المدني بها، على هامش زيارته مؤخرا لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، لتتعرف من خلاله على أحوال الجالية المسلمة هناك وعلى دور الجمعية التي يمثلها، ومدى مساهماتها في حل مشاكل أبناء الجالية، وإبراز الصورة المشرقة للمسلم التي تناقض الصورة التي تصدرها غالبية أجهزة الإعلام الغربية عن الإنسان المسلم بشكل عام والمهاجر بشكل خاص.



في البداية، أوضح د. الجمال أن الجمعية الإسلامية الأمريكية وإن كانت قد ظهرت رسميا سنة ١٩٩٣، لكنها على أرض الواقع بدأت نشاطها منذ الخمسينيات مع الرعيل الأول من المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

سألناه عن أبرز أهداف الجمعية، فقال «من أبرز أهداف المنظمة المحافظة على هوية الفرد المسلم وعقيدته وثقافته وتقاليده، ثم إعداده كي يكون مواطنا مساهما إيجابيا مع المجتمع الذي نعيش فيه». وأضاف الجمال: «نأمل أن يتخرج على أيدينا رسل السلام ورسل دعوة الحق، وأن يكونوا جسور التعاون وجسور المعرفة الحقيقية عن الإسلام والمسلمين، كما فعل أجدادنا في السابق في إندونيسيا وماليزيا على سبيل المثال».

● هل تعتنون بالفرد المسلم المهاجر من عمر معين أم تعتنون بكل مسلم ومن كل الجنسيات؟

- يهمنا الفرد المسلم من كل الأعمار داخل المجتمع الإسلامي الأمريكي، فقد أصبحت لنا ثقافة مميزة إذا صح التعبير، لأننا نأتي من دول عربية مختلفة في لهجاتها ومختلفة في عاداتها، فندخل في بوتقة جديدة داخل المجتمع الأمريكي المسلم، حيث تجد الهنود والباكستانيين والأتراك والإندونيسيين والأفارقة والفلسطينيين واللبنانيين والسوريين والمصريين والليبيين.. وغيرهم، في تجمع فريد وتنوع حميد.. يجمعنا الإسلام في مكان واحد. لذلك، أصبح اهتمامنا بقضية الواجهة الحقيقية للإسلام كبيرا، فقد يسمع الأمريكي عن المسلمين أو عن العرب من خلال التليفزيون أو من خلال أفلام أو أخبار، لكنه سيأخذ الفكرة الحقيقية منا. ولذلك، نعتني بهوية هذا المسلم المنخرط في الحياة الأمريكية، وفي الوقت نفسه نشعر بأننا أمريكيون، ولا نستطيع أن ننفي أو نتجاهل هذه الحقيقة، فأولادنا ولدوا ونشأوا وترعرعوا واستنشقوا هواء تلك البلاد، فأصبح لنا ارتباط شديد بها، وأصبحنا جزءا منها، مع الحفاظ على هويتنا وما يعبر عن حقيقة قيمنا وعقيدتنا وأفكارنا.

● كيف وفقتم ما بين وجودكم كغرباء أو مقيمين في أرض غريبة وبين السلطات هناك؟

- مثلما نشعر بأن الإعلام الغربي وبعض المنظمات أو الشخصيات أو الهيئات تنقل صورة خاطئة لمجتمعاتنا وحقيقة معتقدنا، هنالك أيضا من العرب من يأخذ الصور مشوشة عن حقيقة أمريكا والشعب الأمريكي وما يدور هناك، وأمريكا ليست كما يظن البعض سوءا بها، كما أن العرب ليسوا كما يظن بعض الأمريكيين والغربيين..



نحن تعايشنا مع هذا الشعب ومع حكومته بكل جنسياتنا، وعرفناهم حق المعرفة.. نعم، هناك بعض المتعصبين والمتطرفين والحاقدين ومن لهم أجندات معينة، ولكن هناك أيضا، وهم كثيرون، من يرحب ويرغب في التعرف علينا وعلى الإسلام ويحترم العادات والتقاليد، بل أحب أن أقول إني وجدت من الأمريكيين جيراني وأصدقائي في العمل من يحترم عاداتي وتقاليدي والتزامي الإسلامي أكثر مما وجدته من بعض الناس في بلادنا العربية مهد الإسلام والمسلمين! وعلى سبيل المثال: إذا قلنا لهم إننا في مجالسنا نفصل رجالنا عن نسائنا، فإنهم يحترمون ذلك، بينما كنا نواجه معارضة وسخرية في بلادنا بأننا نعيش في عالم الجاهلية إذا فصلنا بين الرجال والنساء في المجالس. وهم يحترمون عادتنا فيخلعون الأحذية إذا زارونا في بيوتنا، وإذا أرادوا دخول مساجدنا تسأل نساؤهم: هل يجب أن نلبس عباءات أو نتحجب؟

وعلاقتنا كجمعية إسلامية مع الحكومة علاقة فيها الكثير من الاحترام، حتى إذا كنا في اجتماع حكومي مشترك ودخل وقت الصلاة وطلبنا مكانا للصلاة احترموا هذا الأمر وهيأوا لنا مكانا، ثم نعود ونكمل الاجتماع. وأذكر أننا كنا في قاعة الكونجرس وحان وقت الصلاة فوفروا لنا المكان وصلينا.

● هل يطمئن الفرد المسلم الذي يهاجر إلى أمريكا أو يسافر إلى أمريكا إلى أنه سيجد منظمة تحتضنه؟

– الجمعية الإسلامية الأمريكية منظمة مفتوحة لكل من أحب أن يعمل بها وينتظم فيها، وليس لها أي معايير صعبة التحقيق أو المنال، وفيها من الناس من يحبون أن يعملوا ويتعلموا ويوظفوا وقتهم. وبالمناسبة الشعب الأمريكي من أكثر شعوب العالم في صرف الوقت في التطوع، والعمل التطوعي هو جزء من حياة الشعب الأمريكي، ولا نجد مثله في العالم العربي، وهذا ما يعطي قوة للتفاعل المدني مع الحكومة ومع المشرعين ومع القيادات السياسية.

مشاريعنا كثيرة لكن نقص التمويل يهدد ببطء العمل فيها

● كونك رئيسا لمنظمة العلاقات العامة والاتصال المدني بالجمعية ما هي نشاطاتكم؟

– عندما يتخرج أو ينضج الأخ في الجمعية الإسلامية تبدأ مرحلة العمل المباشر مع المجتمع والتفاعل معه، فنحن في هذه المنظمة نتعاون مع منظمات المجتمع المدني الأمريكية والكنائس –وعلى فكرة حتى الكنائس مثل المساجد عندنا هناك أيضا من المتطوعين فيها الذين ينطلقون لخدمة المصلحة العامة من منطلق عقائدي– فيما هو مهم للمجتمع الأمريكي بصفة عامة، ومنها مثلا: مكافحة العنف المسلح في المدارس وفي الأسواق وفي الجامعات وفي الشوارع وعند مراكز البريد، فنقوم بالضغط على المشرعين وعلى ممثلي الشعب كي يتخذوا قوانين أشد صرامة عند إعطاء رخص السلاح للمواطن العادي، لأن أكثر الحالات من ناس وجدوا وسائل سهلة للحصول على السلاح، وقد أخذنا مواقف أكثر من ذلك، فطلبنا من الحكومة الفيدرالية والحكومات المحلية التي تشتري السلاح من وكلاء أو مصانع السلاح أن يستخدموا القوة الشرائية لهم كي يلزموا زبائنهم بالقوانين.

● كم عدد المنتمين إلى الجمعية الإسلامية؟

– بفضل الله سبحانه وتعالى لنا أكثر من خمسين فرعا في أمريكا، وكل ولاياتها تقريبا لنا فيها مساجد ومراكز للشباب ودور تحفيظ القرآن ومؤسسات خدماتية، ونكون أحيانا من ضمن لجان أو مجالس إدارة المساجد إذا لم نكن نحن المالكين لها.

وبفضل الله بسبب التفاني ووسطية التعامل والفهم لدى الزملاء شعر الناس بقيمة وفعالية المنظمة في خدمتهم، والعدد كبير والحمد لله.

• هل اختفى الأثر الذي أحدثه ١١ سبتمبر أم ما زال الناس ينظرون إلى المسلمين في أمريكا نظرة توجس؟

- بقدر ما كانت حادثة ١١ سبتمبر شديدة الوطأة على المسلمين في أمريكا، بل على المسلمين في العالم كله، فإن الله سبحانه جعل الجالية الإسلامية في أمريكا تخرج من القوقعة التي حبست نفسها فيها قبل ١١ سبتمبر. لقد كان من ينادي بالتواصل مع المجتمع منبوذا، وهذا قصور في فهم الواقع، فكثير من المسلمين الذين كانوا يأتون إلى أمريكا كانوا ينأون بأنفسهم عن التفاعل مع المجتمع (من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل)، وليس لديهم أي علاقة بالمجتمع الذي يعيشون فيه! والمطالبة بالتفاعل مع الأديان الأخرى والمجتمع كان ينظر إليها على أنها دعوات ليبرالية متحررة إلى أن جاءت أحداث ١١ سبتمبر. ونحن بالطبع ننكر الاعتداء على الآمنين، وننكر التطرف والعنف، فهي أمور ليست من ديننا وليست من معتقداتنا ولا من ثقافتنا، بل لا نصدق بأن مسلمين قاموا بهذا العمل. وهنا أصبح للمهاجرين المسلمين وعي بأنه لابد من التفاعل مع المجتمع، وكأن الله سبحانه وتعالى يدفعنا دفعا لنتفاعل مع المجتمعات الأخرى، فهو سبحانه وتعالى جعلنا شهداء على الناس، ولا يمكن أن تكون الشهادة على الناس وأنت في بيتك منعزل عنهم لا تخبرهم بدينك. إن حلاوة هذا الدين تظهر أيضا عندما يعلم الناس به حقيقة وعن قرب، فيقبلون عليه. ومن خلال معاملة المسلم لجاره أو زميله في العمل أو المستشفى الذي يعمل فيه أو المصنع الذي يشتغل فيه أو الجامعة التي يدرس فيها، عرف كثير من الأمريكيين حقيقة الإسلام السمحة.

لقد أصبح لنا بعد ١١ سبتمبر الكثير من المعلمين المسلمين يدرسون في المدارس الأمريكية الرسمية التابعة للحكومة، وهذه نقلة جديدة في تفاعل المسلمين مع المجتمع الأمريكي. وما زلنا ندرس في الجامعات، وأصبح لنا الآن عناصر شرطة في أمريكا، بل هناك جمعية للشرطة العرب وجمعية للشرطة المسلمين، وهناك من يعمل في وزارة الخارجية، وهناك من يعمل في وزارة الأمن القومي، وهناك من يعمل في وزارة الدفاع، وهناك أفراد مسلمون في الجيش.

أحداث ١١ سبتمبر أجبرت المسلمين في أمريكا على الانخراط في المجتمع ليظهروا حقيقة الدين السمحة

• لكن كيف تقبل المجتمع الأمريكي هذا؟

- هناك نقلة للمسلمين في أمريكا لعدة عوامل، العامل الأول هو تكاثر المسلمين، فنحن كنا من الرعيل الأول عندما جئنا صغارا، وكثيرون ولدوا في أمريكا والآن أصبحوا شبابا وشابات يسعون في الحياة فيدخلون في كل مجالاتها من أعمال ووظائف، بل تطلب الحكومة الأمريكية في مؤسساتها منا أن نكون جزءا من هذا المجتمع لشيء بسيط جدا هو أن هذا حقنا فهذه بلدنا، وكما أي مواطن يحب أن يلتحق بوزارة خارجية بلده أو وزارة داخلية بلده أو وزارة كذا.. أيضا أولادنا أمريكان ومن حقهم أن يلتحقوا بمؤسسات بلدهم، وإذا لم يفعلوا فهم مقصرون في مشاركتهم في بناء وطنهم. ولذلك، نهتم في منظمة الجمعية الإسلامية الأمريكية ببناء الفرد، لأنه إذا أحسن الفهم الوسطي غير المتزمت وغير المتطرف فسوف يقدم قدوة حسنة.

• أحد الشعراء العرب الكبار، وهو محمود درويش، وصف أمريكا بأنها «الطاعون، وكثير من المسلمين، ربما الذين لا يعرفون أمريكا جيدا، يناصبونها العداء ويطلقون عليها الشيطان الأكبر.. فماذا تقول أنت عن أمريكا وقد عشت فيها؟

- أولا لا يمكن لأي دولة في العالم أن تفرض على دولة أو شعوب أخرى سياسة ما إن لم تكن هذه الدولة وهذه الشعوب قابلة بهذه السياسة، سواء لضعف أو قابلية للسيطرة عليها. ولذلك، لا يكون السبب في الطرف الأول دوما. وسبق أن أكد مالك بن نبي (المفكر الجزائري وأحد رواد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين) أنه إذا لم تكن عقولنا قابلة للاستعمار فلا يمكن أن يستعمرنا المستعمر، هذه قضية. أما القضية الثانية فلا شك في أن أمريكا تنظر إلى مصالحها باعتبارها دولة عظمى، وكل دولة عظمى تسعى للسيطرة، وكذلك كانت الدولة الإسلامية عندما كانت في أوج قوتها.. كانت تخرج إلى دول أخرى -مع فارق الدافع المشروع بالطبع. وأمريكا تنظر إلى مصالحها، فإذا رأت الآخر قابلا وراضيا ومستعدا فلن تتأخر عن الاستفادة منه. وفي أمريكا مؤسسات تم التأثير عليها بنجاح من دون شك، والكل يعلم ما يفعله اللوبي الصهيوني، لأنه تفاعل مع المجتمع وانخرط في المجتمع واعتبر نفسه أمريكيا ودخل في كل مجالات الحياة الأمريكية، وهنا شعر بأن له الحق في إبداء رأيه والتأثير في سياسة بلده، ومن يجتهد طلبا للعلا فعليه

أن يسهر الليالي.

● ماذا عن الصعوبات التي تواجهها هذه المنظمة؟ هل هناك تضييق؟ هل هناك نقص في الدعم المادي؟

- عملنا يتطلب مصادر مادية كبيرة، فأمريكا كما تعلم قارة وولايات متعددة، والأنشطة التي نقوم بها تتطلب تمويلا كبيرا، وما من شك في أن الجالية المسلمة تنفق في سبيل الله وهذا من عوامل نجاحها، ومساجدنا ومراكز تحفيظ القرآن ومراكز الشباب من تبرعات المسلمين، ولم يأتنا دعم من الخارج، ومعظم عملنا يقوم على متطوعين، ولكن لكبر العمل وأهميته لا نستطيع أن نستمر في بعض أعمال هذه المنظمة، فأمريكا بلد يهتم بالإتقان ولابد أن تماشي العصر والمجتمع الذي أنت فيه. وبينما لدينا كثرة مشاريع نقوم بها، هناك محدودية في مصادر التمويل، وهناك الكثير من الكوارث في العالم العربي والإسلامي، ومسلمو أمريكا لا يقصرون أبدا في دعم هذه الدول وهذه الشعوب، مثل الصومال والبوسنة والهرسك وأفغانستان وباكستان وإندونيسيا وماليزيا، فالعبء كبير، ولكن الله سبحانه وتعالى يبارك حتى في هذا الجزء القليل من التمويل، نسأل الله أن يشرح قلوب المسلمين في كل أنحاء العالم لدعم هذه الأنشطة في أمريكا، لأننا نعتقد أنها ستبقى ممثلة للدولة العظمى في العالم إلى مستقبل منظور. ولذلك، مهم أن يكون العمل الإسلامي فيها قويا وعلى مستوى الدولة العظمى، وهذا سيؤدي -إن شاء الله- لتحسين سياستها الخارجية التي نسعى إليها وإلى تحسين العلاقة بين أمريكا والعالم العربي والإسلامي.

نادر النوري في ذمة اللّه

التحرير



أصدرت جمعية عبدالله النوري الخيرية نعيا لوفاة الداعية نادر عبدالعزيز النوري «فارس الدعوة الخيرية»، الذي انتقل إلى رحمة الله تعالى عن عمر ناهز ٥٩ عاما، قضاها في الاهتمام بتأهيل الدعاة إلى الله، وقيادة المنظمات والجمعيات الخيرية لأكثر من ٢٩٠٠ جهة في أكثر من ٦٠ دولة زارها. كان حافظا عالما عاملا، بذل كل وقته في سبيل الله، حتى وهو في فراش المرض، رغم المتاعب التي سببها له مرض السرطان منذ عام ٢٠٠٨ حتى وافته المنية الخميس ١٦ أبريل الماضي.

وقال أمين سر الجمعية جمال النوري: «ننعى إلى الأمة الإسلامية أحد أعلام العصر، والذي جال الأرض من اجل عمل الخير ونشره، حيث كسب ثقة الناس والمؤسسات والدول، وتعرف على كثير من قيادات ومسؤولي الجهات الخيرية في الكويت وخارجها، بل كان أحد أهم أسباب إعداد وتشجيع الكثير منهم، حيث أسس وأشرف على تأهيل أكثر من خمسة آلاف طالب من طلبة البعوث الوافدين لجامعة الكويت، وكليات الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، والمعهد الديني، من خلال تأهيل الطلاب عبر أنشطة ثقافية وتوعوية وتدريبية بالتعاون مع إدارة الجامعة والتطبيقي والمعهد الديني، خصوصا في سكن الطلبة في «لجنة البعوث الطلابية» منذ عام ١٩٨٤ والتي إلى يومنا هذا مستمرة في رسالتها».

وتابع: «لقد استثمر -رحمه الله- دور وزارة الأوقاف الفاعل عندما كان يشغل منصب مدير إدارة الثقافة الإسلامية في دعم وكسب العلاقات مع العديد من الشخصيات الإسلامية. وبأسلوبه وفهمه الواسع وهمه لخدمة الإسلام والمسلمين في مختلف البلدان، أدار -رحمه الله تعالى- جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية منذ تأسيسها، حيث شغل منصب أمينها العام، وتولى منصب رئيس مجلس الإدارة عام ٢٠٠٢».

وأكد أن الشيخ النوري -رحمه الله- كان مدرسة شاملة في طرحه ومنهجه وفهمه وعلاقاته التي امتاز بها بشهادات الكثيرين، وذلك بانتهاجه منهج الاعتدال والموعظة الحسنة والحكمة التي عززت الثقة به وبعمله.

نسأل الله عزوجل أن يتغمده برحمته، ويسكنه فسيح جناته في الفردوس الأعلى مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

ما يطلبه المراهقون

د. آندي حجازي
أستاذه جامعية وكاتبة صحفية



عندما التقيت مع إحدى رفيقاتي التي لم أشاهدها منذ زمن، تبادلنا أطراف الحوار والأخبار والآراء الشخصية، وكان مما دار بيننا شكواها من سلوكات ابنها ذي الاثني عشر ربيعًا، حيث يكثر النزاعات مع إخوته، ويطيل الغياب خارج البيت، ويقص شعره بقصات غريبة غير محببة، وكثير الصرف للنقود والطلب لها، وعلاماته المدرسية متذبذبة بين التقدم والتراجع، وأغراضه دومًا مبعثرة، وينزعج سريعا لمجرد تنبيهه لذلك.. فتبادلنا النقاش وأوضحت لها أن ما ذكرته هو من سمات المراهقين، وهي فترة طبيعية يمر بها ابنها، حيث ينتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد، وهذا الانتقال يتضمن تغيرات فسيولوجية جسدية سريعة واضحة كتغير في صوته وحجم جسده وشعره.. وتغيرات نفسية واجتماعية وأخلاقية وفي جميع جوانب النمو.. والتي تنعكس بشكل مباشر على سلوكاته وعلاقاته مع من حوله، فمثلًا تلاحظ أن المراهق يعيش صراعات نفسية وتقلبات مزاجية كثيرة، فأحيانًا تراه سعيدًا وأحيانا كئيبًا، وأحيانا يتصرف كشخص اجتماعي، وأحيانًا كشخص منعزل منطو على نفسه مكتئب لا يرغب برؤية أحد، بل يدخل في عالم أحلام اليقظة الخيالية، وأحيانًا يسلك كالكبار في رأيه أو حواره، وأحيانًا كالصغار تمامًا يتنازع على لعبة بيد إخوته! الأمر الذي قد يثير عجب والديه، إذ هل يتعاملا معه كشخص كبير أم كطفل مازال ينمو؟! وأوضحت لرفيقتي أن الكثير من الباحثين والدراسين لنمو الإنسان؛ يرون أن في هذه المرحلة تزداد حدة الانفعالات لدى المراهق، فالبعض يصفها بمرحلة العاصفة والتوتر، لأنها تشبه العاصفة في قوتها وسرعتها وعواقبها وكثرة مشاكلها، فعلينا بالصبر والمداراة.. كما يزداد اهتمام المراهق بشكله ومظهره وصورته أمام الآخرين وما قد يقال عنه.. وهذه جميعها أمور طبيعية مرحلية.

ولكن هذا لا يعني أن كل جوانب حياة المراهق سلبية؛ بل إن من سماته الإيجابية أنه مثابر وله طموحات وآمال يسعى لها، ويبحث عن أهداف مستقبلية ويخطط لها، كما يقدر نفسه وقدراته كثيرًا، ويحترم الآخرين ويحبهم حينما يعتمدون عليه في بعض المهام كمساعدة الآخرين، ومن جميل سماته أنه يحب إبداء رأيه والأخذ به، وتقديم الأفكار والحلول المنطقية لما يسمع ويرى من مشكلات واقعية.

وفي جميع الأحوال يحتاج المراهق إلى الدعم النفسي من الوالدين والتفهم والتقبل وإظهار الحب له، وعدم تجريحه أو التقليل من شأنه أو تسفيه رأيه، فالكثير من مشاكله ناتجة عن عدم شعوره بالحب والأمان في ظل والديه؛ فيبدأ يعاند ويصارع ويتخبط.. فالأفضل دومًا معه الحوار والمناقشة في أخطائه وسلوكاته وتوقعات الوالدين والآخرين منه، فالحوار معه باستخدام أسلوب الإقناع مع إظهار الود والحب له هو من أفضل السبل المثمرة والناجحة بدل الصراخ والنزاع وأسلوب إلقاء الأوامر والتسلط لأنه غير مجدٍ معه.

النضال من أجل الاستقلالية!

المراهق يسعى جاهدًا نحو الاستقلال عن الآخرين، والبحث عن كيان خاص به يثبت به ذاته وقدراته، وهذا من حقه ومن متطلبات نموه، فهو أمر طبيعي، وعكس ذلك هو غير الطبيعي، حيث يبدأ في هذه المرحلة الانتقال من مرحلة الطفولة والاعتماد الكبير على الوالدين والآخرين إلى مرحلة الاعتماد على النفس والبحث عن الاستقلالية وإثبات الذات، ولكن يروق له التصرف أحيانًا كالصغار خاصة في حالات التعب، وأحيانا يقاوم من أجل التصرف كالكبار ونيل إعجابهم به!

وقضية تحقيق الاستقلالية التي يسعى إليها المراهق ويصارع لأجلها، لا تعني أنه سوف يغادر البيت ويذهب، كما هو الحال عند الغرب، فمازلنا- والحمد لله - نحتفظ بكيان الأسرة العربية المسلمة، بل إن الاستقلالية التي يبحث عنها أبناؤنا المراهقون تكمن في الحرية في اتخاذ القرارات اليومية التي تواجه المراهق داخل أسرته وجماعة رفاقه ومدرسته وعلاقاته مع الآخرين، كالاستقلالية في الأمور التي تتعلق بدراسته وانتقاء ملابسه وحاجياته واختيار أصدقائه، وكيفية قضاء وقته، ونقوده.. ولمَ لا نسمح له بذلك مادامت ضمن الحدود المقبولة؟

والاستقلالية أيضا التي يتمناها المراهق تشمل الوصول للنظرة الإيجابية من قِبل الوالدين وتقديرهم له واعتمادهم عليه في بعض أمور الأسرة وتوكيله ببعض المهام بشكل مستمر، وتشمل الحرية في التعبير عن رأيه.. ولذلك تراه يناضل من أجل الحصول على استقلاليته الشخصية والانفصال عن السلطوية العليا في البيت والمدرسة، لأنه أصبح مقتنعًا تمامًا بأنه شخص كبير؛ وهذا مؤشر إيجابي على نموه بشكل طبيعي وليس العكس!

ومن هنا- ولأجل الاستقلالية- يشرع المراهق بالتمرد، وتبدأ تصرفاته تتغير، فتنشأ النزاعات والخلافات بينه وبين أفراد أسرته، إذ ما يزال الوالدان ينظران إليه على أنه طفلهم الصغير- وإن كبر قليلا- وأنه بحاجة إلى رعايتهم ودعمهم وتوجيههم، وهو بالمقابل ينظر إلى نفسه بأنه ذاك الشخص الكبير القادر على اتخاذ قرارته بنفسه، فهو لن يسمح لأحد بعد اليوم باختيار ملابسه مثلا أو أدواته

الشخصية أو ما يفضل سماعه أو مشاهدته على التلفاز أو على جهازه الجوال أو من يزور ومن لا ... الخ، ويرى نفسه قادرًا على التواصل العاطفي وانتقاء الشخص الذي يريد مبادلة مشاعره معه وبالطريقة التي يريد.

مصادر استقلاليته

تبرز مشكلة مرحلة المراهقة أكثر حينما يحاول المراهق الاستقلال عن والديه وادعاء القدرة على التحكم بأفكاره وآرائه الشخصية وقراراته، بينما تجده بالحقيقة يعتمد على رفاقه في اتخاذ قراراته، سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر، فتراه يقلد رفاقه في تصرفاتهم وفي طريقة لبسهم، وقصات شعرهم، وفي اهتماماتهم، وفيما يستمعون من أغانٍ، وفيما يعجبون به من شخصيات.. ويقلدهم حتى في طريقة مشيه، وتعامله مع إخوته في البيت، وفق ما يسمع من رفاقه وأقرانه! وهنا تبدأ بوادر المشكلة بالظهور، وتزداد شيئًا فشيئًا مع النمو، فهي تبدأ قليلة في بداية مرحلة المراهقة، وتتفاقم أكثر كلما ازداد المراهق دخولا في مرحلة المراهقة المتوسطة (تقريبا بعمر ١٥-١٦عامًا) فتزداد مناحراته ونزاعاته مع أفراد أسرته وعلو صوته في البيت، ولكن هذه الظاهرة تعود لتستقر أو تقل في مرحلة المراهقة المتأخرة بفضل الله، ومن هنا فعلى الوالدين تخفيف وطأة النزاعات معه والضغوطات على العوامل التي تثير أعصابه، فلابد من التفهم والتقبل له، وإعطائه فرصة الاختيار والانتقاء والحرية في التصرف والتعبير عن رأيه، مع المراقبة له والتوجيه والتصحيح لأخطائه، ولكن بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩). وإن كانت هذه الآية نزلت في معاملة رسول الله عليه الصلاة والسلام لصحابته بالرحمة في موقف يستلزم التعنيف بعدما عصوه في غزوة أحد، فكيف بمعاملة الأبناء؟

وقال أبوسليمان الخطابي- رحمه الله تعالى:

مادمت حيًا فدار الناس كلهمو

فإنما أنت في دار المداراة

أسباب الخلافات بين الوالدين والمراهق

لوحظ في الكثير من الدراسات حول مرحلة المراهقة أن هناك مجموعة كبيرة من الأسباب للاختلافات والصراعات بين الوالدين والمراهق وأهمها:

- نوعية أصدقائه، وكثرة الخروج معهم على حساب واجباته وما هو مطلوب منه.
- موعد عودته للبيت.
- نوعية ملابسه وقصات شعره.
- كيفية قضاء وقته ووقت فراغه.
- كيفية صرف النقود وكثرة المطالبة بها.
- كثرة الإنفاق على الهاتف الجوال.
- الإنفاق على رفاقه في بعض الأحيان.
- عدم تحمل مسؤولية في البيت أو المساعدة في شؤونه (حيث يعيش عالمه الخاص).
- انخفاض الدرجات والعلامات المدرسية.
- إهمال الواجبات الدينية كالصلاة أو العبادات الأخرى.
- إهمال ترتيب حاجياته وغرفته وملابسه وأدواته (وخاصة الذكور).
- مستوى احترامه لوالديه.
- العلاقات مع الأقارب والاهتمام بزيارتهم.
- سلوكاته في المدرسة والمشاكل التي قد يقع بها.
- استخدامه الأدوات الخاصة بإخوته أو أحد والديه دون إذن مسبق.
- التدخين أو المخدرات أو الجلوس في المقاهي.
- إضاعة وقته على مواقع الإنترنت وعلى الجوالات.
- مشاهدة مواقع إباحية على الإنترنت.
- مصادقة الجنس الآخر، والتسبب في مشاكل أحيانًا.
- اللغة اليومية المستخدمة وعدم اعتزازه بلغته الأم (اللغة العربية).

غضب أم تفهم؟

إن ما يحدث من سلوكات منحرفة أو اندفاع لدى المراهق نحو الاستقلالية والمسؤولية يحير بعض الآباء ويغضبهم، ويشعرهم بأن ابنهم سيفلت من قبضتهم، فيقررون تشديد الضبط والضغط والرقابة عليه، وهم يقللون من حجم قدراته ومواهبه ويستخدمون معه أسلوب التهديد والوعيد والصراخ والضرب أحيانًا أو التقليل من شأنه وقيمته، مما قد يثير المراهق أكثر، ويدفعه نحو التمرد والعصيان والتحدي بشكل أكبر فتنشأ الخلافات معه، ويقرر داخليّا التوجه نحو الرفاق في قرارته كمرجعية له، حيث يرى أن جماعة الرفاق تقدم له التفهم والدعم النفسي والمعنوي والاجتماعي والمعلوماتي الذي يحتاج، بينما البيت يقدم له المشاكل وارتفاع ضغط الدم وحدة التوتر!

وفي المقابل، وبالنظرة الإيجابية، فإن بعض الآباء يكونون أكثر تفهمًا لما يواجه أبناءهم من مشكلات في تلك المرحلة، وتراهم يستمتعون برؤية أبنائهم يكبرون أمامهم ويستقلون في أفكارهم وآرائهم ومشاعرهم، فيقدمون لهم المحبة والدعم والفرص والتحاور والمشاورة والوعي اللازم والتقبل لما يواجهون، وهم يصارحونهم ويتحاورون معهم عندما يلاحظون أمرًا خاطئًا أو سلوكًا منحرفًا، ويوضحون لهم وجهة نظرهم ونظر الدين والشريعة والعادات والتقاليد التي عليهم احترامها لأنها جزء من ثقافتنا، فهم يتعاملون مع ابنهم المراهق على أنه شخص راشد قادر على التفكير المنطقي، وقادر

على رؤية أخطائه والاعتراف بها من أجل تعديل سلوكه وحل مشكلاته كالتدخين، وانخفاض علاماته، أو ازدراء الآخرين أو التصادم معهم، أو تورطه في علاقات سيئة، أو عدم رضاه عن شكله أو أهله.. ومع هذا النمط الوالدي المتفهم والإيجابي والصبور في تعامله فإن المراهق لن يستغني تمامًا عن والديه، بل سيصارحهم بما يواجه وسيكون صادقًا معهم، ومستشيرًا لهم في غالب أموره، وهذا ما يرغب به الوالدان الناجحان في التربية أن يكون لهما دور في تربية وتوجيه أبنائهم وتصويب أخطائهم، خاصة في زمن تباعدت به القلوب والدروب، وكثرت به عوامل التأثير في تربية الأبناء، فلم يعد الآباء هم فقط من يربون!

فتعامل أيها الأب وأيتها الأم الفاضلة مع ابنك باحترام ومحبة وتقدير، وأشعره أنه أهم شخص بالوجود، وأنه مفكر ومبدع وحيوي وقادر على اتخاذ القرارات وحل المشكلات، ودع ابنك يثق بك، وتمسك أنت به من أجل أن ينفذ لك ما تريد، وهنا تحضرني قصة فتاة صغيرة كانت تعبر جسرًا مع والدها الكبير، فخاف الأب الحنون من سقوط ابنته عن الجسر فقال لها: أمسكي بيدي جيدًا حتى لا تقعي في النهر (ومد يده لها)، فأجابت ابنته بلا تردد: بل أمسك أنت بيدي. فأجابها الأب باستغراب: وهل هناك فرق يا ابنتي؟ فأجابت الابنة سريعًا: لو أمسكت أنا بيدك قد لا أستطيع الاستمرار بالتمسك فتنفلت يدي وأقع، لكن لو أمسكت أنت بيدي فإنك لن تدعها تنفلت منك أبدًا.. فعندما تثق بمن تحب فإنه سيضع حياته بين يديك وهو يشعر بالراحة والثقة معك.

نصائح للآباء والأمهات للتقليل من المشاكل السلوكية في مرحلة المراهقة لأبنائهم

نصائح للآباء والأمهات

- اعلم بأن ما تزرعه في الصغر في مرحلة الطفولة سوف ينعكس يقينًا على مرحلة المراهقة وستجني ثماره خلالها وما بعدها، ولذلك احرص على تربية ابنك بشكل سليم منذ نعومة أظفاره، كما أكد سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ في كيفية التعامل مع ابنك: «لاعبه سبعًا، وأدبه سبعًا، وصاحبه سبعًا، ثم اترك له الحبل على الغارب»، فهو بالمراهقة سيكون بمرحلة الصداقة معك والمصارحة المتبادلة.
- استخدم دومًا أسلوب الحوار والنقاش والتفاهم مع ابنك، فهو من أنجح الأساليب ليصل الابن إلى القناعة بخطئه وأهمية تصويب سلوكه وإلا فإنه سيعاندك ويستمر على سلوكاته السيئة!
- اسمح لابنك بتكوين علاقات اجتماعية، ولكن شجعه على انتقاء أفضل الأصدقاء (الصحبة الصالحة) الذين يحرصون على نصحه نصحًا إيجابيًا يرضي الله تعالى، وأن يبتعد عن أصدقاء السوء الذين يشجعونه على سلوكات خاطئة؛ كالتدخين أو تعاطي المخدرات أو العلاقات الخاطئة مع الجنس الآخر، واعلم أن تدريب الابن على انتقاء خيرة الرفاق يكون منذ الصغر، وبمصارحة الوالدين عن أصدقائه وعما يواجهه معهم، ولا يبدأ بمرحلة المراهقة.
- خصص وقتا لابنك، وتواصل معه تواصلًا إيجابيًا وبمحبة، ودون تقديم النقد اللاذع له أو السخرية من أفكاره وكلامه أو التقليل من شأنه أو إشعاره بالذنب بشكل مستمر، أو تقديم الأوامر له باستمرار ودون إقناع، أو بالمقارنة بينه وبين إخوته.. فكثير من هذه السلوكات تزيد انحراف المراهق وتزيد الفجوة مع والديه، وتؤدي إلى تدن في احترام ذاته، وبالتالي زيادة إهماله لنفسه وللآخرين.
- اعلم أن النزاعات بين الوالدين والمعاملة السيئة من الأب للأم أو للأبناء تؤدي إلى تفاقم مشاكل المراهق وجنوحه وهروبه من الواقع وإلى رفاق السوء، فعامل أيها الأب زوجتك باحترام أمام أبنائك.
- قدم الفرص لأبنائك المراهقين والتي تشجعهم على استغلال وقتهم وطاقاتهم وتظهر قدراتهم وإبداعاتهم فيما يفيد، فوفر لهم الأدوات التي يحتاجون والوقت والتشجيع المعنوي.
- ضع تعليمات وقوانين وحدودًا للتعامل في بيتك، واسمح لأبنائك بمناقشتها وفهم أسبابها وفائدتها، ولا تتركهم دون توجيه أو توضيح أو قوانين للبيت.
- عزز ابنك المراهق بين الحين والآخر بوسائل التعزيز المختلفة المادية والمعنوية كالمدح والاحتضان والابتسام والتقبيل له، وذلك حينما تراه يسلك سلوكات جيدة أو يتخلى عن سلوكات سيئة، فلابد من أن يكون للوالدين دور في تربية أبنائهم المراهقين وتقديم التوجيه والتشجيع لهم.
- ادع الله تعالى دومًا لأبنائك بالهداية والتقوى والصلاح والحفظ والرعاية بعينه التي لا تنام، وأن يرزقهم خير الرفاق والصحبة الصالحة والتوفيق، فلا أحد يملك قلوب البشر غير الله تعالى، روى الطبراني والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استودع الله شيئًا حفظه». وصلاح الأبناء من صلاح الآباء بداية، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ (الكهف: ٨٢).
- عوّد أبناءك على الصلاة منذ الصغر، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتقربهم من خالقهم عز وجل، فالصلاة أكسجين الحياة، فلا تحرموا أنفسكم من استنشاقها!



الطفل بين الحياء والخجل

رندة السراج
باحثة سورية

ذكر الله تعالى كلمة الحياء بصيغ مختلفة في القرآن، ولكن لم يذكر كلمة واحدة عن الخجل.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوۡقَهَاۚ ﴿٢٦﴾﴾(البقرة:٢٦).

وقال تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ (القصص:٢٥).

وقال الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ

بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ (٥٣)﴾(الأحزاب:٥٣).

وفي السنة الشريفة، هناك العديد من الأحاديث التي تتحدث عن الحياء، كفضيلة لابد من تخلق المسلم بها، مثل قول الرسول الكريم ﷺ: «الحياء كله خير»(صحيح مسلم)، والحديث بلفظ البخاري: «الحياء لا يأتي إلا بخير» (صحيح البخاري) وقال أيضا «لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء» (ابن ماجه) وغيرها كثير من الأحاديث.

بينما لم نجد كلمة واحدة تتحدث عن الخجل، وهذا دليل واضح على مدح الحياء، وذم الخجل، فما تعريف كل منهما؟

الحياء لغة

الحياء، الحشمة و«استحى منه»، احتشم، والحياء من الحياة أي نقيض الموت (١).

الحياء اصطلاحا

هو التزام مناهج الفضيلة وآداب الإسلام، كما عرفه العلماء أيضا، بأنه خلق يبعث على اجتناب القبح حتى ولو لم يرك أحد.

الخجل لغة

خجل خجلا: أي استحيا - وفي النبات، كثر والتف (٢).

اصطلاحا

«هو اضطراب نفسي يتمثل بانطواء الطفل على ذاته وتجنب مواجهة الآخرين، لخوفه من انتقادهم وسخريتهم، لشعوره بالنقص في جانب ما من شخصيته. وهو نوع من وسائل التعويض لدى الطفل للتكيف مع من حوله» (٣).

وبناء على تعريف المفهومين، نقول: إن كثيرا من الناس يظنون أن الحياء هو الخجل، أو أن الخجل جزء من الحياء، ولكن في الحقيقة، إن الخجل عكس الحياء، فسبب الخجل هو شعور بالنقص داخل الطفل، فهو يشعر أنه أضعف من الآخرين أو أن إمكاناته أقل من غيره، ولا يستطيع مجاراتهم ومواجهتهم، وهذا مختلف تماما عن الحياء، فالحياء شعور نابع من الإحساس برفعة وعظمة النفس.. فالنفس الرفيعة العالية تستحي من أن تضع نفسها في الدنايا، فالحيي، يستحي أن يزني أو يكذب، لأنه لا يقبل أن يكون في هذه المهانة، وإن لم يره أحد، لكن الخجول إذا أتيحت له الفرصة دون أن يراه أحد فإنه يفعل.

«فالحياء صفة مطلوبة في الإنسان الذي يعيش في المجتمع الحديث، أما الخجل فهو الصورة المتطرفة الشاذة للحياء» (٤).

فمن تمثل الحياء في سلوكه فقد فاز فوزا عظيما، ومن استولى الخجل على حياته فقد أضاع فرصا كثيرة، لأنه يعاني من تدني مستوى الثقة بالنفس التي تؤدي في النهاية لحالة من السلبية.

تربية الأطفال على الحياء وليس على الخجل

يقول علماء النفس عن الطفل: إنه مجموعة من القدرات والاستعدادات والميول، ستتفتح فيما بعد بعامل التوجيه والتربية، وكما لا تستطيع أن تستنبت من بذرة المشمش شجرة للتفاح مهما استعنت بالأساليب الزراعية الحديثة. كذلك لا تستطيع أن تجعل من الطفل مؤدبا، إذا لم تغرس فيه القيم (٥).

وأيام الرسول الكريم ﷺ مع صحابته كانت كلها تربية وتهذيبا للخلق، لأنه قال عن نفسه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، والحياء، من الخلق الكريم الذي ربى رسول الله ﷺ نفوس الصحابة مع أبنائهم عليه، «فهذا رسول الله ﷺ يمر على رجل من الأنصار وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحيي حتى كأنه يقول: قد أضر بك، فقال رسول الله ﷺ دعه، فإن الحياء من الإيمان» (صحيح البخاري).

«والظاهر أن الناهي -الذي يعاتب أخاه- ما كان يعرف أن الحياء من مكملات الإيمان، وكأن الرجل كان كثير الحياء، فكان ذلك يمنعه من استيفاء حقوقه، فعاتبه أخوه على ذلك فقال النبي ﷺ للمستحيي: «دعه» أي اترك معاتبتك، واعلم أن الحياء من الإيمان» (٦).

ولم يترك رسول الله ﷺ مناسبة إلا واستغلها في لفت انتباه الصحابة إلى خلق الحياء، «وهذا ابن مسعود يروي لنا أن نبي الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا نستحي يا نبي الله، والحمد لله، قال: ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» (الترمذي وأحمد).

وكان الصحابة الكرام يربون أبناءهم على ما رباهم عليه رسول الله ﷺ، فيعززون في نفوس الأطفال خلق الحياء وليس الخجل، أو ما يسمى الحياء السلبي، فهذا ابن عمر ينقل رأي أبيه في هذا الموضوع، عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم. حدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البادية ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبدالله: فاستحييت. فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها، فقال رسول الله ﷺ «النخلة» قال عبدالله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا»(صحيح البخاري).

فانظر إلى حنكة عمر، علم أن الخجل هو الذي منع ابنه من أن يفصح عما عرفه هو ولم يعرفه الكبار، فعاتبه على أنه لم يتكلم وأشعره بأنه سيفتخر به لو كان تكلم بما عرفه بين يدي رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، وأشعره أيضا أن صمته هو نقص وعيب، وهذا عكس الحياء.

وقال مجاهد: «لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر». لأنه برأيه سيفوته الخير الكثير، وبالطبع يقصد بكلمة «مستح» أي الخجول الذي يمنعه خجله من السؤال، وليس معناه الحياء المأمور به كخلق.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين» (صحيح البخاري).

وهكذا كسا رسول الله ﷺ صحابته، ثوب الحياء، وهم بدورهم كسوا أبناءهم به، حتى أضحى لبنا أرضعته الأمهات للأبناء، وحلة ألبسها الكبار للصغار، وهذا كان دأب من بعدهم من التابعين، ولقد زخرت كتب السيرة بقصص، تظهر أطفال المسلمين وقد ربوا على الحياء الحقيقي، وليس على الخجل.

فهذا طفل لم يبلغ عمره أحد عشر عاما يخاطب عمر ابن عبدالعزيز عندما دخل عليه وفد من أهل الحجاز لتهنئته، فقال عمر: ارجع أنت وليتقدم من هو أكبر منك سنا، فأجابه الصبي: أيد الله أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن، لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا، فتعجب عمر من الصبي وأكبر شجاعته.

ولكن السؤال هل الحياء صفة يولد بها الإنسان أم أنه يمكن اكتسابه؟

والجواب: نحن جميعا نولد على الفطرة، ولكن هناك حديث يؤكد على أن الفطرة بحاجة إلى جهد الفرد، فقد قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه» (حسنه الألباني).

وكأن النبي ﷺ يقول لنا ليس هناك خلق لا يمكنك اكتسابه، فإذا صبرت تتعلم الصبر، وإذا كنت كاذبا يمكنك أن تكون صادقا بالتدريب، وإذا لم تكن حييا فيمكنك أن تكون صاحب حياء بالتدريب أيضا.

وأكبر دليل على ذلك أن صحابة رسول الله ﷺ، اختلف حالهم بعد أن أسلموا وارتبطوا بهذا الدين وتخلقوا بأخلاقه.

وقد قال رسول الله ﷺ لرجل «استحي من الله كما تستحي رجلا من صالح عشيرتك») (٧).

نماذج لشخصيات عرفت بالحياء

كان رسول الله ﷺ يثني على من عرف بالحياء وتميز به من أصحابه ثناء الحاض على الاقتداء بهذا الخلق المرغب فيه، ذلك لأنه أول المتشربين به وأول من عرف بالحياء، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها» (صحيح البخاري).

يقول أبوالعباس القرطبي: لقد جمع رسول الله ﷺ بين نوعي الحياء: المكتسب والغريزي، فكان في الغريزي أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان في الحياء المكتسب في الذروة العليا (٨).

وأما من اشتهر بالحياء بعد رسول الله ﷺ فرجل قال عنه رسول الله ﷺ: إن الملائكة تستحي منه، يا لها من منزلة! إنه الحيي عثمان بن عفان رضي الله عنه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه، لابس مرط عائشة، فأذن لأبي بكر، وهو كذلك، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو على تلك الحال، فقضى إليه حاجته، ثم انصرف. قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس، وقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك» فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما فزعت لعثمان؟! قال: رسول الله ﷺ: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت، إن أذنت له على تلك الحال، أن لا يبلغ إلي حاجته» (صحيح مسلم)، وفي رواية أنه ﷺ قال لعائشة: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟» (صحيح مسلم).

همسة في أذن الآباء

يقال: إن جذور التربية مرة، ولكن ثمارها لذيذة، ويقال: من أدب ولده صغيرا سر به كبيرا، فطوبى لمن ربى أبناءه على الحياء، وأسفا لأسرة كانت سببا في وصول بعض أبنائها إلى الخجل.

وأخيرا يقول الغزالي: «طفلك جوهرة نفيسة، فحافظ عليها».

ونحن نقول: طفلك كنز دفين، خبئ فيه كل سلوك ثمين، ثم انتظر أن يعم خيره عليك وعلى الناس أجمعين.

الهوامش

١- زين العابدين بن الحسين التونسي، معجم المدرسي، دمشق، دار المعارف، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٤٢.
٢- زين العابدين بن الحسين التونسي، المصدر السابق، ص١٤٥.
٣- عبداللطيف أحمد، المستشار النفسي، حمص، دار المعارف، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٦ بتصرف بسيط.
٤- معروف زريق، مشاكلنا النفسية، دمشق، دار الفكر، ط١، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص٨٣.
٥- مشاكلنا النفسية المرجع السابق ص٨٨/٨٩ بتصرف.
٦- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، م٢، ص٩٤.
٧- ابن رجب، جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، المحقق: ماهر ياسين فحل، د.م، د.ن، د.ت، الحديث العشرون ص٤.
٨- ابن حجر العسقلاني فتح الباري المجلد العاشر، ص ٦١١.

التسامح والحلم مهارتان نكتسبهما

بشرى شاكر - المملكة المغربية

نولد جميعنا على الفطرة، ثم نفتح أعيننا على عالم جديد.. نكبر في بيئات مختلفة، ونستقي منها خبرات مختلفة، ولكننا -كمسلمين- نهذب أخلاقنا بقرآننا وبسيرة نبينا، فنتعلم من نهج ديننا القويم؛ لنتبع الطريق السليم ونبتعد عن المشى العقيم.

سلوكياتنا -في غالبيتها- مكتسبة، لم تولد معنا، وإنما نتعلمها ونتدرب عليها، مثل: الصبر والحلم والتسامح والعفو. وبالحديث عن الحلم، فقد قال فيه رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام «إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم»، مما يدل على أنه سلوك يكتسب مثلما لو كنا نتعلم علما. والحلم كلما زاد عدل الطباع وقومها وجعلنا أقدر على مجاهدة النفس والتشبث بالأخلاق الحميدة.

وليس عبثا أن يكون الحليم من بين أسماء الله الحسنى، فهو من لا يعجل بالعقوبة والانتقام ويرزق عباده حتى الضالين منهم، ولا يمسك نعمه عنهم بسبب ذنوبهم، بل يمنحهم دائما مساحة للتوبة والتراجع.

وصاحب الحلم منا هو المتسامح الصفوح، ولكن في ظل ما نعيشه الآن من مآس، وما نتعرض له من خذلان يومي من بعضهم، وأيضا بسبب الحياة السريعة والشاقة التي باتت تعيشها شعوبنا، فإن العديد من الأشخاص يشتكون أنهم فقدوا الصبر.. فما بالك بالحلم؟!

من قبل كان العلماء يعتقدون أن هناك أنواعا من الأشخاص بعضهم سريع الغضب بالفطرة، وبعضهم يملك خصائص العفو والود والصداقة، مثلما جاء به صاحب نظرية الأنماط العالم النفسي مايرز، فيما سمي مؤشر مايرز بريغز، وهو يصنف الأفراد إلى صارم وحازم أو مرن ومتساهل، فيكون بالنسبة إليه كل شخص له خواص شخصية تولد معه، حتى وإن تغيرت أو اكتسب غيرها مع نضوجه، إلا أن اختصاصيين ربطوا هذه الصفات السلوكية بطبيعة البيئة التي يعيش فيها الأفراد، فأحيانا حتى الأكثر تسامحا إذا عاش في بيئة عدائية يقل سلوكه التسامحي، ولا يستمع إلى أعذار الآخرين، ولا يغفر لهم هفواتهم، ويصبح عدائيا ربما وقاسيا أيضا. ولذلك، فقد شخص الاختصاصيون طرقا للتدريب على هذه السلوكيات المفيدة للمجتمع ككل، والتي تقلل أيضا من نسبة الجريمة والعنف، وهو ما يتفق مع ما جاء به حديث رسولنا الكريم ﷺ، ويدل على أن هذا السلوك يكتسب، بل يتعلم مثل العلم، وأكده -كما قلنا- علم النفس الحديث كذلك. فيمكننا إذن أن نتدرب لنكون أكثر حلما وأكثر رحابة صدر، ويزيد ذلك مع زيادة تدريبنا على الأمر، ومع توالي الأيام أيضا، فالمراهق العصبي قليل الحلم قد يصبح شابا أكثر تسامحا، وحليما أكثر، يغفر ويسامح ولا يستبق العداء.

وفي الدول الغربية هناك دراسة نفسية تدرس كيفية التدريب على الحلم والصبر، وتسمى لعبة الحلم، وهي مبنية على التصميم الصيني، إذ إنه لدى البوذيين عدة طقوس تمارس يوميا ليتعلم الإنسان منها، ومنذ طفولته، الصبر والحلم. كما أن ذلك أيضا يدخل في بعض تدريبات البرمجة اللغوية العصبية التي تعتبر الصبر والحلم مهارتين مكتسبتين، فكيف بنا نحن ونحن نعلم أن الحلم قد يجنبنا مشاكل جمة وصدامات أكثر وفوق هذا نؤجر عليه؟ فقد قال رسولنا الكريم ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا» (أخرجه مسلم). وما العفو إلا إحدى نتائج الحلم، وكما تحدثنا عن التدريب النفسي ففي القرآن أيضا دليل على بداية هذا التدريب، فقال الله تعالى ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤). فكظم الغيظ وعدم التسرع في الرد هما بوابة الحلم.

أن تعود نفسك على الحلم وكتم الغيظ سيؤدي بك ذلك إلى أن تكون متسامحا أكثر، وأن تعفو أكثر، وبالتالي تجنب نفسك والآخرين زيادة سوء الأمور وتفاقمها وتأزمها.

قد يجرحك الآخرون وقد تتأذى بسبب بعض التصرفات، ولكن تعلم أن تلملم جراحك واصبر وتجلد.. فعليك أن تدرك أن الحلم والعفو من شيم الأقوياء، فليس كل شخص يستطيع أن يكون حليما، وليس الكل يمكنه ذلك بالقدر نفسه، فلكي تكون قويا كن حليما وسامح أكثر...

مديرون لا يعتذرون وموظفون يَسْتَجْدُون حقوقهم

ثقافة الاعتذار بين الحق والكبرياء

القاهرة : منير أديب

المدير كلمة يهابها الموظف، بحكم مسؤولية الأول في إعطاء الأوامر وإصـدار الطلبات التي يجب أن تنفذ دون حجة أو ذريعة.

بعض المدراء يستبدون، فلا يقبلون الاعتذار أو التبرير في حال قصر موظفه، وآخرون يراعون حالة الموظف وأعذاره، وفي حالات أخرى قد يخطئ المدير، ولكن الأنا تمنعه من الاعتراف بخطئه أمام موظفيه أو الاعتذار منهم، خائفا أن يؤدي ذلك إلى التقليل من احترامه وهيبته، رافضا أو متناسيا أنه إنسان مثله مثلهم، ولا فرق بينهم سوى المركز.. وجل من لا يخطئ، وآخرون لا مشكلة لديهم في الاعتذار من موظفيهم معتبرين أنها خطوة تزيدهم تقديرا واحتراما، وقد تقربهم إلى موظفيهم أكثر.

فمتى يعتذر المديرون؟، وكيف تكون نظرة الموظفين إليهم إذا لم يعتذروا؟، وهل هناك طريقة مثلى للاعتذار، هذا ما نحاول الإجابة عنه من خلال التحقيق التالي:

ثقافة الاعتذار

يقول أشرف شوقي: كثيرا ما يخطئ مديري، ولكنه يأبى أن يعتذر ويرفض أن يكون صغيرا أمام الآخرين، بمنطق أن المدير لا يعتذر، وإنما يعتذر إليه موظفوه حتى يظل في هيبته ومكانته.

ويحكي أن مديره أخطأ ذات مرة خطأ كبيرا تسبب في ضرر على المؤسسة التي يعمل فيها، خاصة على العمالة، فأبى أن يعتذر وكلف مدير مكتبه أن يعتذر بالنيابة عنه.

وذكر أن أغلب المديرين ينظرون إلى الاعتذار نظرة سيئة، يرون أنه لا يعتذر إلا صاحب الشخصية الضعيفة، الذي لا منطق ولا حجة له.. وهذا خطأ كبير يتسبب في النهاية في فساد العلاقة التي تجمع المدير بموظفيه.

يقول محمود سليمان: إنه يعمل في مؤسسته قرابة عشر سنوات، وأن مديره لم يتغير منذ ذلك الوقت، ورغم أخطائه التي لا تحصى ولا تعد فإنه يرفض الاعتذار، كما أنه يرفض منطق تصحيح الخطأ.

وأضاف: عدم الاعتذار مشكلة يقع فيها المديرون، وهذه المشكلة تربوية، وتؤدي إلى مشاكل أكبر؛ لأنها تكرس لفكرة تقديس المدير من دون الله!، فمن منا لا يخطئ حتى يعتذر.

ولفت إلى ضرورة أن يدرك المديرون أن اعتذارهم في حال الخطأ يسهل لهم العمل ويجعل حالة من التسامح تسود مناخ العمل، وبالتالي تدفع زملاء العمل للارتباط بشكل أكبر بمديرهم، وبالتالي يكون هناك ولاء للمؤسسة التي يعملون جميعا فيها، على اعتبار أن لها قوانين ولوائح يحترمها المدير قبل الموظف.

> **موظفون: المديرون يعتبرون الاعتذار حقا لا يمكن الاستغناء عنه، والمديرون: الموظفون يعتبرونه إهانة لكبريائهم**

تقول سهام الشوادفي: مديرة العمل في المؤسسة التي أعمل فيها سيدة، ورغم ذلك كثيرا ما تعتذر، رغم أن أخطاءها أقل بكثير من غيرها من المديرين، ولذلك يشعر كل موظف في المؤسسة بحقه، ويتعامل بمنطق أن هذه المؤسسة ملكه الشخصي فيعطيها أكثر.

وأضافت: الاعتذار من شروط المدير الناجح، وشرط من شروط نشر الألفة بين الموظفين، ويقوي روابط العلاقة المهنية والإنسانية بين المدير وباقي الموظفين، ويصنع حالة من الرضا في مناخ العمل، ويقتل أي آفات قد تظهر في بيئة العمل عموما.

ولفتت إلى أن مديرة العمل سبق واعتذرت لموظفين صغار، ولم يكن مجرد اعتذار باللسان تحرك الشفاه به، وإنما كان بمثابة تصحيح مسار للخطأ، وغالبا ما يكون ذلك أمام كل الموظفين.

يقول صالح أيوب: اعتذار المديرين مرتبط بالخطأ، فغير مسموح مثلا للمدير لمجرد أنه مسؤول عن إدارة العمل أن يخطئ في حق موظفيه،

وأن يتعرض لهم بالسوء فيما ليس له علاقة بالعمل.

وأضاف: لابد أن يترفع المدير عن إحراج عامله، ويسعى لتدريبه، ولابد أن تكون لديه طاقة تحمل أكبر بكثير مما لدى موظفيه، حتى يستطيع أن يترك أثرا طيبا في موظفيه.

وتابع: إن أغلب المديرين غير مدربين على تولي مهنتهم، ولذلك تجدهم لا يجيدون التعامل مع الموظفين، فبعضهم يحتقرهم والبعض الآخر يسيء تعامله معهم، وبطبيعة الحال لا يعتذر لهم، فتكون المشكلة مديرا لا يعتذر وموظفا في النهاية لا يأبه بمديره.

تقول محاسن توفيق: نظرة الموظف لمديره تصبح سلبية إذا أصر المدير على خطئه، ورفض الاعتذار في نفس الوقت، وبالتالي يفقد العمل قيما عظيمة كإحساس الموظف بانتمائه للمؤسسة التي يعمل فيها.

وأضافت: سبق وحدثت هجرة جماعية لموظفين من مؤسسات بسبب أخطاء مديريها الذين يرفضون الاعتذار، وعدم وجود هذه الكلمة في قاموسهم، وبالتالي هناك أعمال يرفض أصحابها الالتحاق بها، بسبب المدير الذي يرفض الاعتذار لموظفيه، بل قد يقوم بإهانتهم.

وتذكر: هناك مديرون يخطئون في كتابة اسم موظف في عقوبة الجزاءات، أو رفعه من قائمة المكافآت، مع استحقاقه لها، وتجد المدير يأبى الاعتذار، والأدهى من ذلك أنه يرفض تصحيح خطئه، أو يتعلل بحجج وأوهام لا يقبلها الموظف، وتكون بمثابة علامة سلبية في حقه تمنعه من الاستمرار في العمل أو الاندماج فيه.

تقول سماح عوض، مديرة: لا أحد فوق الجزاء، ومن يخطئ يجب أن يعاقب حتى لو كان المدير نفسه، فلا توجد سلطة لا يجرؤ الموظفون فيها على مجادلة مديرهم، ولكن في نفس الوقت لابد للمديرين أن يكونوا سريعي الاعتذار للحفاظ على موظفيهم، والذين لا يقبلون أخطاء أو إهانات المدراء.

وتضيف: لقد تعاملت مع الموظفين بالطريقتين، فوجدت طريقة الاعتذار مجدية وآثارها على الموظف كبيرة جدا، وبطبيعة الحال على مناخ العلاقات داخل المؤسسة، وعلى إنتاجية العمل.

ولفتت إلى ضرورة أن يفرق المديرون بين مستويات الأخطاء؛ فيدركوا أن هناك نوعا من الأخطاء لا يمكن إلا أن يعتذروا عنها في وحينها، إذا كانت تلك الأخطاء مرتبطة بأشخاص حاضرين من إهانة وخلافها، أو كانت مرتبطة بظلم في العمل، حينها لابد أن يرفع الظلم فورا، ثم الاعتذار لصاحبه، وإن لذلك لمفعول السحر.

يقول محسن عباس، مدير: غالبا ما يهاب الموظفون من مديرهم، ولذلك تصبح هناك نتيجة سلبية على العمل، وعلى العلاقات التي تجمع هؤلاء المديرين بالموظفين، فكلما كانت هذه العلاقة في نطاق العمل فقط، ولا تخرج عنه، كان لذلك آثر سلبي كبير، وبالتالي للاعتذار دخل في هذه العلاقة.

ويضيف: بعض المديرين يرفضون فكرة الاعتذار، ليس لأنهم يريدون الاستبداد بموظفيهم، ولكنهم يتخيلون أن الاعتذار يقلل من هيبتهم أمام موظفيهم، ويعتبرون أن ذلك يشكل خطورة على العمل وعلى احترامهم الشخصي، وتلك نظرة غير موضوعية من المدير لموظفيه.

ووجه نصيحته للمديرين بأن يعتذروا، وأن يكثروا من الاعتذار، على اعتبارها طريقة رائعة في تسويات خلافات العمل، وأيضا الخلافات الاجتماعية، وتعلي من نظر المدير في أعين موظفيه.

د.عبلة الكحلاوي: ثقافة الاعتذار جزء من الهدي النبوي الغائب عن الأمة

الاعتذار والهدي النبوي

تقول د. عبلة الكحلاوي، أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف: الاعتذار قيمة إنسانية عظيمة، وفضيلة أقرها الإسلام وأمر أتباعه بها، وكان الرسول ﷺ يعتذر لأصحابه، وهو من كان رحيما بهم.

وأضافت: من سمات الهدي النبوي، أن الرسول ﷺ وقف ذات مرة وقال لأصحابه: لعلي ظلمت أحدكم أو حكمت لأحدكما، لأن حجته كانت أبلغ، فمن كان له حق عندي فليأت ويقتص مني، فجاءه رجل من أصحابه وقال: أنا يا رسول الله، كنت تسوي الصفوف في الجيش فضربتني بعصا كانت في يدك فأوجعتني، فكشف الرسول ﷺ عن بطنه وقال: يا هذا، تعال فاقتص، فما كان من الصحابي إلا أن اهتبل الفرصة ليقبل بطن رسول الله ﷺ.

وذكرت أن من أهم الصيغ التربوية التي تحمي الأمة وتخلق حالة من الوئام أن يعتذر فيها المدير والقائد لموظفه، بل يدفعه لأخذ حقه، ويكون ذلك أمام الناس، ولذلك إذا بحثت عن حب الصحابة لرسولهم الكريم ﷺ وجدته لا يقارن، وبالتالي على المديرين أن يستفيدوا من ذلك في تعاملاتهم مع الموظفين عموما.



العواصف الغبارية

محيي الدين عواد
باحث سوري

في مقدمته ذكر ابن خلدون أن الأرض بعد تقلب الفصول من فصل إلى فصل.. تبدأ بلفظ أمراض وحشرات لو تركت لأهلكت العالم فيرسل الله الغبار.. فيقوم بقتلها.

هناك فارق بين كلمتي «غبار» و«رمل» فالأولى توحي بحبيبات أدق مما تحويه كلمة رمل، ومع ذلك يبقى هذا الفارق اعتباطيا إلى حد كبير، ويكثر وجود هذه العواصف في المناطق شبه الصحراوية والصحراوية من الأرض، ولعل أكثرها أسطورية تلك العواصف التي تحدث في الصحارى الكبرى في إفريقيا.

تعتبر الصحراء الإفريقية الكبرى أكبر صحاري العالم، وهي تغطي مساحة قدرها ثلاثة ملايين ونصف المليون ميل مربع من شمال إفريقيا في المنطقة الواقعة بين الأطلسي والبحر الأحمر، والصحراء أشد البيئات عداوة للإنسان فوق الأرض. فدرجة الحرارة في جوها تزيد عن ١٣٠درجة فهرنهايت، وفي أرضها تصل إلى ١٧٠ درجة فهرنهايت، بصورة عادية، لذلك جاءت تسميتها في العربية بكلمة «صحراء» مناسبة لما يعنيه التعبير «ويلدرنس» أي البرية الموحشة في الإنكليزية.

وقد ظلت الصحراء مقبرة لآلاف المسافرين الذين يعوزهم الانتباه والحيطة في ترحالهم عبر جوفها الواسع منذ أقدم العصور.. إنها قاسية لا ترحم، فكم من قافلة تحمل العبيد والعاج والذهب والملح اختفت بين كثبان الرمال الصحراوية، دون أثر، قبل ترسخ مسالك التجارة جيدا.

وكم من المآسي الأعمق حدثت جراء الأحوال الدورية العاصفة، وذهب ضحيتها ملايين البشر في العديد من البلدان، إذ تعصف الريح وتتفشى المجاعة.

انكب علماء الجو على دراسة ما يحدث من عواصف رملية، بما في ذلك مظهرها وحدتها وتوزعها وتاريخ حدوثها، ودراسة الأحوال الجوية المرافقة لها. وقد وجد أنه عندما تتجاوز سرعة الريح حدا معينا، فإن ضغطها على الرمال المكشوفة يحمل الذرات الناعمة فتصطدم بالأكبر منها فينسفه ويدحرجه على وجه الأرض، ومع ازدياد سرعة الرياح تتعالى النسافة الرملية في الجو دون أن تبلغ أكثر من بضع مئات الأقدام في حال استقرار الحرارة الجوية. أما في حالة عدم استقرار الهواء فإن دقيق الرمل والغبار قد يرتفعان بقدر ما تحملهما تيارات الهواء، بحيث لا يتجاوز الارتفاع خمسة عشر ألف قدم.

تتوقف السرعة الحرجة للريح التي يبدأ معها انجراف الرمل على توزع الأحجام المختلفة للحبيبات المكشوفة واستقرارها. فالتعرض الطويل لنمط معين من الريح قد يحدث تصنيفا في حبيبات الرمل بصورة تقاوم معها التعرية، وربما تفسد المواشي أو السيارات هذا التوازن.

وقد أصبح من الثابت أن حبات الرمل المرتفعة التي تسخنها الشمس، ربما تدفئ الجو بمقدار خمس درجات فهرنهايت في أيام الصيف، الأمر الذي يرفع من حالة عدم الاستقرار الحراري فيه، وبالتالي يزيد من تصاعد الغبار.

من المتفق عليه بصورة عامة أن هناك شرطين أساسيين لحدوث العاصفة الرملية. فيجب أولا ألا تتجاوز سرعة الريح الحد الحرج، وهو يتراوح بين ١٥- ٣٠ ميلا في الساعة، إذ يتوقف ذلك على شكل الحبيبات الرملية وحجمها وجاذبيتها الخاصة، ودرجة الرطوبة والحرارة فيها، وثانيا يجب أن يحتوي الغطاء الأرضي على حبات جافة مفككة وخفيفة، إلى حد يسمح لها بالارتفاع.

تقع معظم العواصف الرملية في واحد من نمطين رئيسيين. وربما كانت الريح الخماسينية في مصر أفضل مثال على النمط الأول منهما، ففي الرياح الخماسينية تقع الهبات الغبارية فوق منطقة واسعة تتولد فيها كتلتان كبيرتان من الهواء المتحرك نتيجة

هبوط الضغط الجوي، والنمط الثاني ريح الهبوب في السودان، إذ هي تقترن مع تكون كتلة من السحب السوداء أو مع عاصفة رعدية.

رياح الخماسين:

رياح الخماسين ظاهرة تحدث أصلا في فصل البرد، ويغلب أن تقع في نهاية الشتاء أو الربيع، وقد تكون أعم حالات الطقس التي ينجم عنها عواصف رملية فوق الساحل الإفريقي الشمالي. إن منطقة ضغط منخفض يتجه نحو الشرق على طول ساحل البحر المتوسط تعطي غالبا تيارا قويا من الهواء الصحراوي الدافئ؛ قادما من الجنوب، ويعقب ذلك انفجار رياح باردة من الشمال، وتكون الرياح الشمالية نتيجة منشئها الصحراوي وقوتها، محملة بالغبار أو ضبابية، أما في الربيع والخريف فمن المحتمل أن تؤدي إلى حدوث عواصف رعدية قاسية، وبعد أن تفقد استقرارها من خلال الطواف فوق البحر قد تحمل معها الغبار وتنخرط في معمعة العاصفة.

يكون الهواء المحمل بالغبار الذي أثارته الرياح الخماسينية عادة أكبر كثافة، وأشد امتدادا، وأشد وقعا في أثناء النهار، وربما بدأت عاصفة الرمل وانتهت في أية ساعة، وهي غالبا ما تستمر طوال الليل، أو لأيام متتالية عديدة، وفي بعض الأحيان تقترب الرياح الخماسينية المحملة بالغبار، إثر الجبهة الباردة فتبدو كالجدار. غير أن تيار الهواء الدافئ يبدأ عادة بصورة تدريجية مع نشاط الرياح، وتتفاوت درجة الغبار من مناطق مبعثرة مساحتها بضع مئات من الياردات إلى مناطق أحزمة متتالية، يبلغ امتدادها أكثر من مائة ميل. وفي آسيا الدنيا وإيران والاتحاد السوفييتي سابقا والهند والصين وأستراليا والولايات المتحدة، تحدث عواصف رملية مشابهة للعواصف الخماسينية، وتنشأ عواصف الرمل الشديدة فوق منطقة السهول الكبرى الأميركية، وتكون غالبا نتيجة الهواء القطبي الجاف غير المستقر، الذي يتكون في المحيط الهادي.

رياح الهبوب

هذا النوع من عواصف الغبار يتشكل غالبا في السودان، عند طرف السحابة الرعدية، يرتفع الغبار من الأرض بما يشبه الدخان المتصاعد من النار في يوم عاصف. ثم ينمو جدار متلاطم من الغبار ويرتفع حتى يصل إلى أسفل السحابة، ثم يتابع صعوده فيما بعد. ربما تكون عواصف الهبوب صفراء أو داكنة، لكنها أحيانا تكتسب لونا أحمر، وذلك حسب طبيعة الغبار الذي تحمله.

وعلى بعد قد تظهر عواصف الهبوب كضباب شفاف يعلو الغيم، ويعود السبب في ذلك إلى انعكاس أشعة الشمس. تصل العاصفة مع تصاعد الريح المفاجئ منذرة بصوت زعيقها الشديد، وتنخفض درجة الرؤية في نفس تلك اللحظة تقريبا، ثم تهدأ الريح تدريجيا فتتحسن الرؤية ولا تدوم غالبية هذه العواصف أكثر من ساعة أو نحوها، وقد تستمر بضع ساعات أحيانا، وينتهي العديد من عواصف الهبوب بسقوط الأمطار التي تغسل الهواء من الغبار، وتبلل وجه الأرض، فتمنع بذلك هبوب عواصف رملية أخرى، وإذا أفلتت الهبوب من السحابة العاصفة وابتعدت عنها فإن استمرارها عادة يدوم زمنا طويلا، تبدأ معظم حالات الهبوب بين الظهيرة والغسق، وهي تميز فصل الدفء، خاصة أواخر الربيع وبواكير الصيف، وهي كثيرة الحدوث في الأماكن الرملية، خاصة في أستراليا وغرب إفريقيا، وأقاليم من الهند والشرق الأوسط.

آثار العواصف الرملية

عندما يصعد الغبار إلى الجو فإنه يتخذ مظاهر متغيرة، وفي حالة الهبوب الشديد يتشكل الجدار الغباري النموذجي عندما يحمل اندفاعا مفاجئا أو ملحوظا في سرعة الريح جبهة عريضة ومتتابعة من الغبار ويتقدم بها، ولعل إحدى ميزات بعض النماذج من العواصف الخماسينية الرملية حالة الاكفهرار في الجو أو الغبار المرتفع، ويحدث هذا الاكفهرار لدى اجتياز كتلة من الهواء الدافئ المحمل بالأتربة كتلة أخرى من الهواء الأكثر برودة وضعفا، وينجم عن ذلك تساقط غزير في ذرات التراب، وتصل سماكة الغبار المتساقط حول جزر الكناري و«كيب فردي» أحيانا حدا يشكل خطرا على الملاحة، وفي هذه الأوقات تلجأ الطيور إلى حبال الصواري فتجثم فوقها، وربما تساقطت الأمطار الملوثة بالوحل أو الثلوج عندما يحمل جسم إعصاري (سيلكون) الهواء المحمل بالغبار ويجبره على الارتفاع فوق كتلة هوائية أكثر منه برودة، والمطر الموحل معروف في أوروبا، وإن لوحظ أحيانا في الولايات المتحدة وأستراليا أو الصين عند هدوء الريح وحالة اللااستقرار المرتبطة بالعاصفة الترابية؛ تتساقط الحبيبات الأكبر مباشرة إلى الأرض. ومن الممكن أن تحمل تيارات الهواء العليا، وهي تتحرك عادة بسرعة أكبر من الطبقات الهوائية السفلى المحملة بذرات التراب الدقيقة إلى مسافة آلاف الأميال، وهذه الحقيقة تفسر وجود الضباب الغباري المنتشر غالبا في مناطق بعيدة جدا عن أماكن حدوث العواصف الترابية. أخيرا تتم تنقية كمية كافية من الغبار أو أنه ينتشر بصورة كبيرة بحيث يقل تأثيره على الرؤية وعلى لون السماء.

في حالة الهبوب الذي يحدث في السودان تنشر الريح الشرقية السائدة كميات الغبار مما يجعل الضباب الغباري يلف مناطق غرب ووسط إفريقيا بين خطي عرض خمسة إلى ثلاثين شمالا، في معظم أيام السنة، وتتفاوت كثافة الضباب الغباري من يوم إلى آخر، ومن فصل إلى آخر، وأحيانا تشكل عقبة في وجه الملاحة الجوية.

المراجع:

- كوارث الطبيعة، العلوم (٢)، عدد من المؤلفين، ترجمة: شاهر حسن عبيد.
- الموسوعة العلمية الميسرة، ترجمة محمد شريف الطرح وآخرين، منشورات وزارة الثقافة في سورية.
- الموسوعة العربية العالمية.

الجامع الصحيح للإمام البخاري

إعداد : خالد خلاوي

بين أيدينا أكبر جامع للصحيح من أحاديث الرسول ﷺ، وأكثر كتاب حظي بدراسات وشرح العلماء في القديم والحديث، وهو أصح كتاب في الإسلام بعد القرآن الكريم، إنه كتاب «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» المعروف بـ«الجامع الصحيح»، لأمير المؤمنين في الحديث، الإمام محمد بن إسماعيل البخاري.

الإمام البخاري ومكانته

هو أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري.

وقد أراد الله لمدينة بخارى، وهي من أعظم مدن ما وراء النهر «نهر جيحون» قرب سمرقند أن يرفع ذكرها ويخلد اسمها وضاء، فولد بها أبوعبدالله محمد بن إسماعيل يوم الجمعة ١٣ شوال ١٩٤هـ، في بيت مبارك، عطره والده إسماعيل بالعلم والتقوى، فقد كان كما يقول الذهبي: من العلماء العاملين والنبلاء الورعين.

إن أبا عبدالله البخاري بعلمه وعقله وخلقه ودينه وصل إلى درجة رفيعة في الكمال الإنساني أجبرت الدنيا بأن تتطلع إليه، وانطلقت الألسن بالثناء عليه، وقد تتابعت الروايات في نباهة شأنه وتقدمه والشهادة له بالإمامة في العلم، واكتظت كتب الطبقات بالإسهاب في هذا المعنى؛ إسهابا لم يتوفر في أي ترجمة من تراجم العلماء.. والمقرون له الشاهدون بفضله على حد تعبير الإمام النووي هم الأعلام أئمة المسلمين أولو الورع والدين، والنقاد والمتقون الذين لا يجازفون بالعبارات، بل يتأملونها ويحررونها ويحافظون على صيانتها أشد المحافظات، والناظر يجد أن هذه الروايات إنما تمثل اجتماع المسلمين في عصر البخاري، إذ هي تشع من مراكز إشعاع العلوم بالعالم الإسلامي، ولم يقتصر ذلك على أهل بلد بعينه، وقد نسق الخطيب البغدادي هذه الروايات وقسمها بحسب أصحابها إلى فصول ممتعة، تبين أن مكانة البخاري مكانة عالمية. وقد طبقت الآفاق وأن علمه أشرق على دنيا الإسلام في عصره، وأن له الأثر الحسن في كل بلد بما تركه فيه من علم نافع وخلق كريم (١).

وتوفي يرحمه الله يوم السبت ١ شوال عام ٢٥٦ هـ.



الطبعة الهندية

أسباب تأليف «الصحيح»

تفاعلت الأسباب الداعية لإبراز هذا المؤلف الجليل ومنها ما يلي:

أولا: الحاجة إلى إفراد الحديث الصحيح، حيث كانت الكتب المصنفة قبله منها ما هو ممزوج بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ومنها ما هو مشتمل على الصحيح وغيره، فكانت الحاجة داعية إلى إفراد الحديث الصحيح ليخلص طالب الحديث من عناء السؤال والبحث.

ثانيا: مقدرة البخاري واكتمال نموه في معرفة الحديث.

ثالثا: شعور العلماء بالحاجة وبمكانة البخاري، فوجهت إليه الدعوة من منزل شيخه إمام الحديث والفقه إسحاق بن راهويه بدعوة منه في مجلس العلماء.

رابعا: قوى عزم البخاري وشرح صدره وملأه همة واقداما رؤية النبي ﷺ وهو يذب عنه بمروحة في يده، وفسرت الرؤيا للبخاري بأنه يذب الكذب عن النبي ﷺ، يقول الحافظ ابن حجر: فلما رأى البخاري يرحمه الله هذه التصانيف (الموجودة في عصره) واستنشق رياها واستجلى محياها، وجدها بحسب الوضع جعله بين ما يدخل تحت الصحيح والتحسين والكثير



الطبعة السلطانية

منه يشمله التضعيف، فحركت همته لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب فيه أمين، وقوى عزمه على ذلك ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين في الحديث والفقه إسحاق ابن إبراهيم العنظلي المعروف بابن راهويه، قال إبراهيم بن معقل النسفي: قال أبوعبدالله محمد ابن إسماعيل البخاري: كنا عند إسحاق ابن راهويه فقال: لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله ﷺ. فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح (٢).

مدة تأليف الجامع الصحيح ومكانه

ولقد صنف البخاري جامعه الصحيح على مهل ومكث، ورغم محصوله العلمي فإنه تحرى فيه الدقة الفائقة والعناية النادرة، فصنفه في ستة عشر عاما، فكان يعد نفسه لكل حديث بالغسل والصلاة، قال البخاري: ما كتبت في كتاب الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك فصليت ركعتين. وقال: صنفت الجامع الصحيح لست عشرة سنة، وخرجته من ستمائة ألف حديث، وجعلته حجة بيني وبين الله عز وجل. أما مكان تأليفه فقد قال عبدالقدوس ابن همام: سمعت عدة مشايخ يقولون حول البخاري تراجم جامعة بين قبر النبي ﷺ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين، وروي عن البخاري أنه قال: صنفت كتاب الجامع في المسجد الحرام، وما أدخلت فيه حديثا إلا بعدما استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنت صحته، وفي شرح البخاري للنووي أن البخاري صنف صحيحه ببخارى، وقيل صنف بمكة، قال الإمام النووي: والجمع بين هذا كله ممكن، بل متعين، فإنا قد قدمنا عنه أنه صنفه في ست عشرة سنة، فكان يصنف منه بمكة والمدينة والبصرة وبخارى، والله أعلم.



نسخة النويري

ورأى الحافظ في الجمع بين هذه الروايات أنه ابتدأ تصنيفه ووضع التخطيط العام للكتاب كمسودة في المسجد الحرام، ثم أكمله وبيضه في بخارى وغيرها، واستدل على قوله بأن البخاري أقام في تصنيفه ست عشرة سنة، وأنه لم يجاور بمكة هذه المدة كلها، وهذا هو الرأي (٣).

شرط أحاديث الصحيح وقيمتها

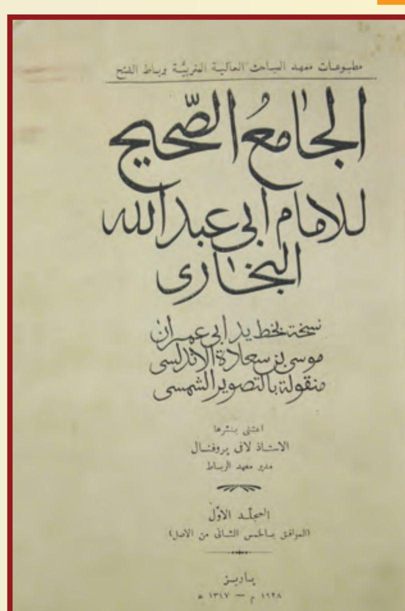
ومن أمتع ما قيل في هذا المعنى وأدقه قول الحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢هـ، في مقدمة كتاب «مختصر فتح الباري»،

فقد استخلص منهج البخاري في شرطه من طريقتين:

الأول: من تسمية البخاري نفسه لكتابه.

الثاني: من الاستقراء ومن تصرفه.

فأما أولا: فإنه سماه الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، فعرفنا بقوله «الجامع» أنه لم يختص بصنف دون صنف، ولهذا أورد فيه الأحكام والفضائل، والأخبار المحضة عن الأمور الماضية وعن الأمور الآتية، وغير ذلك من الآداب والرقاق، وبقوله «الصحيح» أنه ليس منه شيء ضعيف عنده، ويصرح بذلك قوله: ما أدخلت في الجامع إلا ما صح، وبقوله المسند أن الأمر الأصلي تخريج الأحاديث التي اتصل إسنادها ببعض الصحابة عن النبي ﷺ، سواء كان من قوله أو فعله أو تقريره، وأن ما وقع في الكتاب مما يخالف ذلك إنما وقع فيه تبعا عرضا لا أصلا مقصودا، فهذا ما عرف من كلامه.



طبعة ليدن

ثانيا: وأما ما عرف بالاستقراء من تصرفه فمحتاج أولا إلى التعريف بالصحيح «عنده وعند غيره» وهو أن يكون الإسناد متصلا، وأن يكون كل من رواته عدلا متصفا بالضبط، فإذا قصر احتاج إلى ما يجبر ذلك التقصير، ويكون الحديث مع ذلك قد خلا من أن يكون معلولا، أي فيه علة قادحة، وأن يكون شاذا، أي خالف رواية من هو أكثر عددا منه وأشد ضبطا. مخالفة تستلزم التنافي ويتعذر معها الجمع الذي لا يكون متعسفا.

ولأجل قوة شرط البخاري فقد أجمع علماء الحديث كابن حجر والسيوطي والنووي بأن أحاديث البخاري، يجب العمل بها، ويقول في ذلك المحدث الحافظ أبوعمرو ابن الصلاح: «جميع ما حكم به الشيخان (البخاري ومسلم) مقطوع بصحته والعلم النظري حاصل بصحته في نفس الأمر، لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول (سوى من لا يعتد بخلافه ووفاته في الاجماع)، وقد قال الجويني: لو حلف إنسان بطلاق امرأته أن ما في كتابي البخاري ومسلم مما حكم بصحته من قول النبي ﷺ لما لزمه الطلاق، ولا حنث فيه، لإجماع علماء المسلمين على صحته» (٥).

عدد أحاديث الجامع الصحيح

خلاصة ما انتهى إليه العلماء في حصر أحاديث البخاري على سبيل الإجمال:

١- عدد الأحاديث المرفوعة الموصولة، بما فيها المكررة: (٧٣٩٧) حديثا.

٢ - عدد الأحاديث المرفوعة المعلقة، بما فيها المكررة: (١٣٤١) حديثا.



طبعة النهضة

٣ - عدد ما فيه من المتابعات والتنبيه على اختلاف الروايات: (٣٤٤) حديثا.

٤ - عدد ما فيه من الموصول والمعلق والمتابعات المرفوعة بالمكررة: (٩٠٨٢) حديثا.

٥ - عدد الأحاديث المرفوعة الموصولة، بدون تكرار: (٢٦٠٢) من الأحاديث.

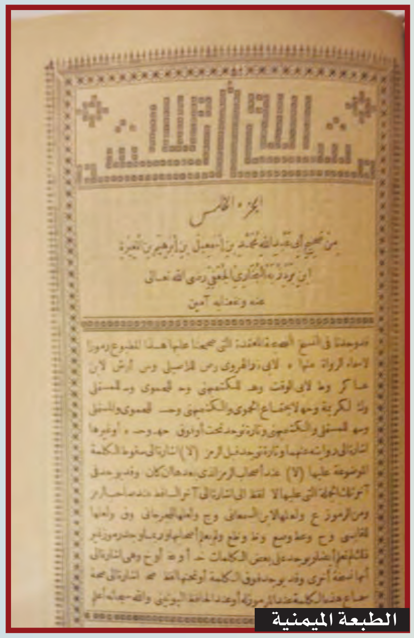
٦ - عدد الأحاديث المعلقة، بدون تكرار: (١٥٩) حديثا.

٧ - عدد الأحاديث المرفوعة، موصولة أو معلقة، بدون تكرار: (٢٧٦١) حديثا.

وهذه الأعداد إنما هي في المرفوع خاصة، دون ما في الكتاب من الموقوفات على الصحابة، والمقطوعات عن التابعين ومن بعدهم (٤).

تراجم البخاري في صحيحه

إن تراجم الجامع الصحيح للبخاري تعطي صورة واضحة أن مصنفه صافي الذهن حاد الذكاء قوي الحفظ، يمتاز بفهم عميق للكتاب والسنة، وله المقدرة التامة على استنباط الأحكام منها،



بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الخامس

من صحيح أبي عبدالله محمد بن إسمعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين

الطبعة الميمنية

وحسن التصرف في ترجمته، وكأن الكتاب والسنة صفحة مرسومة في ذاكرته يقطف منها ما شاء؛ استشهادا أو استنباطا، وإذا نظرت في كتابه جزمت بذلك لاشك، ثم ليس مقصوده الاقتصار على الحديث وتكثير المتون، بل مراده الاستنباط منها والاستدلال لأبواب أرادها من الأصول والفروع والزهد والأدب والأمثال، وغيرها من الفنون، كما قال الإسماعيلي: إن أحدا من المحدثين لم يبلغ من التشدد مبلغ أبي عبدالله، ولا تسبب إلى استنباط المعاني واستخراج لطائف فقه الحديث وتراجم الأبواب الدالة على ما له وصلة بالحديث المروي فيه تسببه، ولله الفضل يختص به من يشاء، وقال الحافظ ابن حجر في شأن صحيح البخاري: ثم رأى ألا يخليه من الفوائد الفقهية والنكت الحكيمة فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة، فرقها من أبواب الكتاب بحسب تناسبه، واعتنى بآيات الأحكام، فانتزع منها الدلالات البديعة، وسلك في الإشارة إلى تفسيرها السبل الوسيعة، ويقول الكشميري في تراجمه: إن المصنف سابق غايات وصاحب آيات في وضع التراجم كما لم يسبق به أحد من المتقدمين ولم يستطع أن يحاكيه أحد من المتأخرين، فهو الفاتح لذلك الباب وصار الخاتم، وضع في تراجمه آيات تناسبها مما يتعلق بهذا الباب، ونبه على مسائل مظان الفقه في القرآن، بل أقامها منه ودل على طرق التأنيس من القرآن، وبه يتضح ربط الفقه والحديث بالقرآن بعضه مع بعض، ومن رفعة اجتهاده ودقته في الاجتهاديات وبسطها في التراجم، قيل إن فقه البخاري في تراجمه، فكان في تراجم المصنف علوم متفرقة من الفقه وأصوله والكلام وما إليه بإيجاز واختصار أ. هـ (٦).

ثلاثيات البخاري

أعلى ما عند الجامع الصحيح من حيث الإسناد الثلاثيات، كما أكد ذلك الحافظ ابن حجر، والمراد بثلاثيات البخاري: هو ما اتصل إلى رسول الله ﷺ من الحديث بثلاثة رواة، أي هي الأحاديث ذات العناصر الثلاثة في صحيح البخاري، التي لها رواة ثلاثة فقط، أو هي الأحاديث التي في سندها ثلاث وسائط بين النبي ﷺ وبين المخرج صحابي أو تابعي أو تابع التابعي، فحصل في الإسناد اجتماع من أفراد القرون الثلاثة المفضلة في قوله ﷺ كما في الصحيح «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

وانقسم العلماء في تقدير عدد ثلاثيات البخاري إلى قسمين: القسم الأول جعلها اثنين وعشرين حديثا، وفي مقدمتهم الحافظ ابن حجر والعيني الذي جمعها في عمدة القاري، والقسم الثاني جعلها في عشرين فقط، بحذف حديثين مكررين (٧).

روايات الصحيح

ذكر الفربري أن الذين تحملوا الصحيح عن الإمام البخاري يبلغون تسعين ألفا أو يزيدون، ولذلك تعددت روايات الصحيح، كما تعدد رواته، ولكن اشتهرت من تلك الروايات رواية الفربري (ت٣٢٠هـ) خاصة، وذلك لإتقانها، ولكون صاحبها آخر الرواة سماعا عن الإمام البخاري، ولكون روايته هي التي اتصلت بالسماع في جميع الأقطار (٨).

والاختلافات التي حدثت بين الرواة كثيرة جدا، وعلى كثرتها يمكن وضع صور لها نحصرها فيما يلي (٩):

أولا: اختلافات في السياق العام للكتاب.

وهذه الصورة تشمل الاختلافات الواردة بين الرواة في ترتيب الكتب وأسمائها، ومثال ذلك تقديم كتاب الصوم على كتاب الحج في رواية أبي زيد المروزي (٣٧١هـ)، في حين نجده في باقي الروايات مؤخرا عن كتاب الحج.

وتشمل هذه الصورة أيضا زيادة بعض الأحاديث وتقديمها وتأخيرها، كما تشمل بعض الزيادات من قبل البخاري من تفسير لغريب أو بيان علة أو غير ذلك، أو زيادات عبارة عن تعليقات من الرواة.

ثانيا: اختلافات في أسانيد الأحاديث.

ويشمل ذلك زيادة سند كامل في بعض الروايات دون بعض، واختلافات في شيوخ البخاري،



صحيح البخاري

للامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي أمير المؤمنين في الحديث رحمه الله تعالى ورضي عنه المتوفى سنة ٢٥٦ هجرية

الجزء الاول

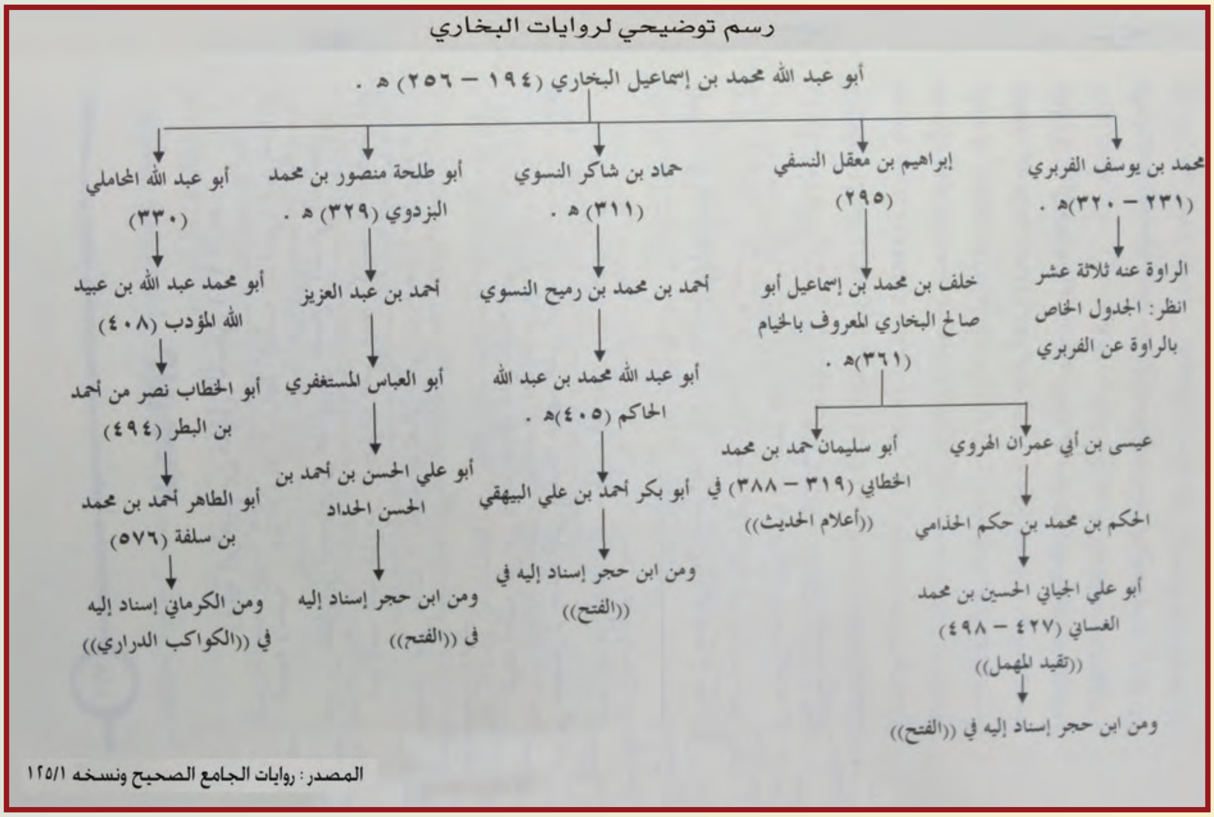
عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الأولى

إدارة الطباعة المنيرية

حقوق الطبع محفوظة على هذا الشكل الى

إدارة الطباعة المنيرية بمصر بشارع الكحكيين رقم ١

الطبعة المنيرية



ومنها ما يكون باختلاف الشيخ، ومنها ما يكون بزيادة توضيحية عند بعض الرواة، وهناك اختلافات في صيغ التحمل والأداء، وهي أنواع: فمنها ما يكون بإبدال «حدثنا» بـ «أخبرنا» والعكس، ومنها ما يكون بإبدال إحدى صيغ السماع إلى «قال» أو «عن» أو غير ذلك.

ثالثا: الاختلافات الواردة في متون الأحاديث:

وأنواع هذه الاختلافات كثيرة، ومنها على سبيل المثال، ما يكون بين الرواة في ذكر متن كامل للحديث أو عدة جمل تؤدي إلى اختصار الحديث أو سوقه بتمامه، وما يكون بزيادة جملة توضيحية أو نقصانها، ومنها الاختلاف بين الرواة في جمل التعظيم لله سبحانه وتعالى أو الصلاة والسلام على النبي ﷺ.

رابعا: الاختلافات الواقعة في الأبواب والتراجم والمعلقات، فهناك الكثير من الاختلافات وقعت بين الرواة في إثبات لفظة باب أو حذفها، ومن هذه الألفاظ ما يكون في ألفاظ الترجمة بالزيادة والنقصان أو التقديم والتأخير.

عناية العلماء بالجامع الصحيح

تنوعت جهود العلماء حول الجامع الصحيح؛ فمن العلماء من ألف له شروحا جامعة، ومنهم من جمعوا رجاله، وآخرون بحثوا في أبوابه الفقهية وتراجمه، وبعضهم شرح غريبه، إلى غير ذلك من أنواع الجهود التي حامت حول هذا الكتاب العظيم، ومن المؤكد أنه لا ينافسه في ذلك أي كتاب من الكتب الدينية بعد كتاب الله عزوجل.

وقد قام الدكتور محمد عصام عرار الحسيني بجمع ما تيسر له من الشروح والتعليقات على صحيح البخاري فبلغ ما ذكره (٣٧٥) مؤلفا، وذلك في كتابه «إتحاف القاري بمعرفة جهود وأعمال العلماء على صحيح البخاري»، وذكر الباحث خالد



نسخة البقاعي

الرباط أنه لم يستوعب كل ما كتب حول البخاري، ثم ذكر بعضها، وهي (١٤٣) عنوانا، كلها حول صحيح البخاري، وأنه بصدد جمعها كلها في كتاب مستقل (١١).

ومن أهم شروح البخاري:

● «أعلام الحديث»: للإمام العلامة أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي (ت٣٨٨هـ).

● «شرح ابن بطال»: للعلامة أبي الحسن علي بن خلف بن بطال البكري القرطبي، ويعرف بابن اللحام (ت٤٤٩هـ).

● «شرح صحيح البخاري»: للإمام النووي (ت٦٧٦هـ).

● «بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها»: لأبي محمد عبدالله ابن أبي جمرة (ت٦٩٩هـ).

● «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري»: ألفه شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الكرماني (ت٧٨٦هـ).

● «التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح»: للعلامة بدر الدين محمد بن عبدالله ابن بهادر الزركشي (ت٧٩٤هـ).

● «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: للعلامة أبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي (ت٧٩٥هـ).



طبعة بولاق



الجزء الأول من صحيح أبي عبدالله محمد بن إسمعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردذبه البخاري الجعفي رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين

ولد البخاري رضي الله تعالى عنه ببخارى يوم الجمعة ثالث عشر شوال سنة ١٩٤ وتوفي ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦ عن اثنتين وستين سنة الا ثلاثة عشر يوما ● روي عنه انه قال خرجت كتاب الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث لست عشرة سنة وما وضعت فيه حديثا الا اغتسلت وصليت ركعتين اه وفضائله اكثر من أن تحصى وأوفر من عدد الرمل والحصى وعدد أحاديث صحيحه سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون وباسقاط المكرر أربعة آلاف وقيل غير ذلك وقد تنازع البخاري المذاهب الاربعة والصحيح أنه مجتهد اه من شرح الشبرخيتي على الاربعين النووية ومن غيره

وقد أجرينا الطبع على ما شرح عليه إمام المحققين وخاتمة المحدثين العلامة أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني رحمه الله الأماند رقليعلم

الطبعة العامرة

● «التوضيح لشرح الجامع الصحيح»: للعلامة سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، المعروف بابن الملقن (ت٨٠٤هـ).

● «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»: للحافظ العلامة أحمد ابن علي بن محمد بن محمد الكناني العسقلاني المصري، المعروف بابن حجر (ت٨٥٢هـ).

طبعات «صحيح الإمام البخاري»

صحيح البخاري من أوائل الكتب التي طبعت بعد وجود المطابع في الشرق، بل وفي الغرب أيضا، وفيما يلي ذكر بعض أهم الطبعات القديمة (١٢):

طبع سنة ١٢٦٩هـ، في «بومباي» في ثمانية أجزاء في مجلد واحد.

وطبع سنة ١٢٧٠هـ، في «دلهي» في جزأين.

وطبع في مطبعة بولاق سنة ١٢٨٠هـ، في ثلاثة أجزاء، وفي سنة ١٢٩٦هـ، في ثمانية أجزاء.

كما طبع في مصر سنة ١٢٧٩هـ -طبع حجر- بهامشها «النور الساري من فيض صحيح البخاري»، وهو شرح الشيخ حسن العدوي الحمزاوي.

طبع في تركيا سنة ١٣٢٥هـ، في ثمانية أجزاء، بالمطبعة العامرة مشكولا، معتمدا على النسخة التي اعتمدها القسطلاني.

وفي أوروبا طبع في «ليدن» باعتناء المستشرق كرهل من سنة ١٨٦٢م إلى سنة ١٨٦٨م، في ثلاثة أجزاء.

وفي سنة ١٣١١هـ، أصدر السلطان عبدالحميد الثاني (ت١٩١٨م) أمره بطبع صحيح البخاري، على أن يعتمد في تصحيحه على النسخة اليونينية، وعلى نسخ أخرى عرفت بالصحة والضبط، فكانت من أصح الطبعات وأهمها.

الهوامش:

١- الجامع الصحيح للإمام البخاري، د. الحسيني عبدالمجيد هاشم، ٨٥/١، سلسلة تراث الإنسانية

٢- السابق ٩٠/١ (بتصرف).

٣- السابق نفسه.

٤- المدخل إلى صحيح البخاري، د. محمد المحمدي، ص ٧٠، ط المكتب الفني بوزارة الأوقاف الكويتية.

٥- الجامع الصحيح للإمام البخاري، ٩١/١ (بتصرف).

٦- السابق ٩٢/١.

٧- انظر: ثلاثيات الإمام البخاري، د. يوسف الكتاني، مجلة السنة النبوية، العدد الرابع، ص٤٧٢ (بتصرف)، ط جمعية الإمام البخاري - المغرب.

٨- المدخل إلى صحيح البخاري، ص٦٥.

٩- انظر روايات الجامع الصحيح ونسخه، د. جمعة فتحي عبدالحليم، ٤٢١/١ (بتصرف)، ط وزارة الأوقاف - قطر.

١٠- السابق ٤٣٥/٢.

١١- المدخل إلى صحيح البخاري، ص٧٥.

١٢- انظر: المدخل إلى صحيح البخاري، ص٩٢.



إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

تغير الفتوى؛ شروطه، مسوغاته، وضوابطه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الأحكام نوعان: نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة والأمكنة ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد مخالف لما وضع عليه. والنوع الثاني: ما يتغير فيها بحسب اقتضاء المصلحة» (إغاثة اللهفان ١/٣٣١).

ومن هنا يعلم أن الأحكام الثابتة في الشرع لا تتغير ولا تتبدل، وإنما تتغير فتوى العالم في زمن دون زمن، وفي مكان دون مكان؛ مع اختلاف العوائد والنيات، وذلك أن الشريعة لا تدور مع دوران شهوات الناس واحتياجاتهم المحضة، وإنما تتجدد بتجدد النظر الاجتهادي في النصوص الشرعية، والاستنباط منها. ولابد مع ذلك من ربط مدارك الأحكام بالأصول الشرعية، والمقاصد العامة؛ فإن تحقق -بعد النظر في مدارك الأحكام- الموجب للتغيير؛ غير المفتي فتواه مستندا في ذلك إلى الدليل الشرعي الثابت.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: «فاعلم أن ما جرى ذكره هنا من اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد؛ فليس في الحقيقة باختلاف في أصل الخطاب؛ لأن الشرع موضوع على أنه دائم أبدي لو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية، والتكليف كذلك؛ لم يحتج في الشرع على مزيد، وإنما معنى الاختلاف أن العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة إلى أصل شرعي يحكم به عليها؛ كما في البلوغ مثلا، فإن الخطاب التكليفي مرتفع عن الصبي ما كان قبل البلوغ،

بيع الأرض الموقوفة مسجدا

رقم الفتوى (١٤١٤)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: هناك قطعة أرض كانت موقوفة من (ع) و(ح) لإقامة مسجد عليها، وقد تم استملاكها مؤخرا، ولم يكن عليها أي بناء سوى شبرات قديمة؛ برجاء الإفادة عن كيفية التصرف في مال البدل، هل يكون ببناء مسجد آخر أم بناء، أو شراء بناية استثمارية كوقف مساجد؟

أجابت اللجنة بما يلي:

حيث إن الأرض المذكورة قد وقفها صاحبها لتكون مسجدا، وحيث إن الشبرات التي أقيمت في مكان المسجد قد جرت الصلاة فيها فعلا؛ فبذلك تكون الأرض وما أقيم عليها قد أخذت حكم المسجدية، لذلك ترى اللجنة أنه يجب أن يبنى بهذا البدل مسجد، ويكون للمسلمين عامة، لا تختص به فئة دون أخرى؛ لأن المساجد لله وحده. والله أعلم.

عقد الاستصناع

رقم الفتوى (٦٩٨٢)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: رجل اشترى شقة معينة من تاجر عقارات، قبل بدء بنائها، ثم أراد بيعها بعد ذلك، قبل بدء بنائها أيضا، فما حكم شراء الأول ثم بيعه لها بعد ذلك؟ وهل يدخل هذا في بيع الاستصناع؟

أجابت اللجنة بما يلي:

أما العقد الأول فإنه يعتبر من قبيل الاستصناع، وهو جائز شرعا؛ إذا توفرت فيه الشروط التالية: بيان جنس المستصنع، ونوعه، وقدره، وأوصافه المطلوبة، وثمنه، وأن يحدد الأجل الذي يسلم فيه الشيء المستصنع.

ويجوز تأجيل الثمن كله، أو تقسيطه إلى أقساط لآجال محددة.

وأما البيع الثاني لهذا الشيء المستصنع، والذي لم يتم استصناعه فعلا؛ فإنه لا يجوز شرعا، لأنه من قبيل بيع المعدوم، وقد نهى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن بيع المعدوم ورخص في السلم، ولما يترتب عليه من أضرار؛ فقد لا يتم التصنيع لهذا الشيء لأي سبب من الأسباب. والله أعلم.

السمسرة بين البائع والمشتري

رقم الفتوى (٣٣٢١)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:



فإذا بلغ وقع عليه التكليف. فسقوط التكليف قبل البلوغ، ثم ثبوته بعده ليس باختلاف في الخطاب، وإنما وقع الاختلاف في العوائد والشواهد». (الموافقات ٢/١٩٧). (بتصرف).

وقد عقد الإمام ابن القيم لهذه القاعدة فصلا مهما؛ فقال: «فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد» (إعلام الموقعين ٣/١١).

ولابد لاعتبار تغيير الفتوى بحسب الزمان أو المكان من شروط:

١- أن تتحد الصورة في المسألة عينها، مع وجود الشروط وانتفاء الموانع، وإلا كان التغير واقعا على صورة أخرى؛ فلا تكون من قبيل التغيير المقصود هنا.

٢- أن يكون المفتي في الحالين واحدا؛ وذلك أن النظر فيها من قبل مجتهد آخر يخرجها عن المفهوم المعتبر لتغير الفتوى.

ومثال ذلك: السارق من حرز والسارق من غير حرز؛ فإن اختلاف الفتوى هنا لا يعتبر من قبيل ما تكلم عنه، وذلك لاختلال الشرط الشرعي المعتبر لقطع اليد، وهو التعدي على حرز الغير بالسرقة والنهب.

فإذا تحقق اللازم لاعتبار «تغير الفتوى»؛ فليعلم أن الشريعة إنما أتت لجلب المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها؛ فلابد للناظر في مصالح الناس ومعاشهم أن يراعي ما سبق؛ وإن قاده اجتهاده إلى تغيير فتواه؛ لاختلاف الزمان أو المكان أو الحال أو العادة والعرف.

وقد ذكر العلماء جملة من المسوغات للتغيير؛ منها:

أولا: وجود ظروف تقتضي تغير الحكم: من ذلك أنه نهى عليه الصلاة والسلام أن تقطع الأيدي في الغزو، كما رواه أبوداود، وهو حد من حدود الله تعالى، خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض إلى الله تعالى من تعطيله وتأخيره؛ وهو لحوق صاحبه بالأعداء حمية وغضبا (نظرية العرف؛ للخياط، ص٨٣).

ثانيا: فساد الزمان: ويقصد بفساد الزمان فساد الناس وانحدار أخلاقهم، وفقدان الوازع الديني، وضعف التقوى مما يؤدي إلى تغير الأحكام تبعا لهذا الفساد ومنعا له؛ ومنه لما رأى بعض الصحابة تضمين الصناع حفظا لمصالح الناس؛ فالحكم هنا تغير لتغير سلوك الناس وتصرفاتهم المعبر عنها بفساد الزمان (العادة المحكمة؛ للباحسين، ص٢٢٤).

١ - بعض تجار العقار في حالة بيعه عقارا لدى أحد الدلالين يشترط بأن يكون جزء أو نسبة متفق عليها مع الدلال من قيمة الدلالة تحسب له، ويقوم الدلال بعد بيع العقار وتسلم قيمة الدلالة من المشتري بإعطاء هذا التاجر الجزء أو النسبة المتفق عليها، هل هذا جائز شرعا؟

٢ - بعض تجار العقار يفتح مكتب عقار لوحده أو مع شركاء، ويقوم بعرض عقاراته في مكتبه، ويحصل على قيمة عقاراته، وكذلك رسوم الدلالة بعد بيع العقارات، هل يجوز ذلك شرعا؟

٣ - في حالة الشراء؛ هل يجوز أن يتفق المشتري مع الدلال على أن يدفع المشتري جزءا أو نسبة متفقا عليها من الدلالة، وليس الدلالة كاملة باتفاق الطرفين. هل يجوز ذلك شرعا؟.

أجابت اللجنة بما يلي:

١ - اتفاق البائع مع الدلال على اقتسام أجرة الدلالة بينهما اتفاق غير لازم، فإذا دفع الدلال الجزء المذكور للبائع بعد البيع طائعا فللبائع أخذه، وهو هبة مبتدأة.

٢ - ما يتفق عليه تاجر العقار مع المشتري من الثمن وأجرة السمسرة (الدلالة) بمجموعه ثمن للعقار؛ وهو جائز.

٣ - أجرة السمسرة (الدلالة) هي ما يتفق عليه بين السمسار (الدلال) والمشتري، وعلى ذلك فيجوز أن يتفقا على أي مبلغ يريانه مناسبا أو أكثر. والله أعلم.

زكاة العقار المشترى للسكن

رقم الفتوى (٢٨٥٦)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: أقوم بشراء أراض بقصد بنائها، وأن تكون ملكا لي ولأولادي، ولا توجد نية في بيعها، ثم بعد مضي سنوات عليها يعرض علي سعر جيد أقوم ببيعها، فهل علي زكاة على هذه الأرض؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لا زكاة في الأراضي التي شريت للاقتناء والانتفاع بها، وإنما تجب فيها الزكاة إذا أصبحت عروض تجارة، ولا تكون كذلك إلا إذا نوى عند تملكه أنها للتجارة، أو اشتراها بقصد الاقتناء، ثم نوى جعلها عروض تجارة؛ فإنها تكون كذلك من حين النية. والله أعلم.

قبة الصخرة

يوجد اليوم مسجد واحد منفرد لا تنطبق عليه أي صفة من صفات المساجد الأخرى في العالم الإسلامي بأسره، وهذا المسجد هو مسجد قبة الصخرة، الفريد في تاريخ العمارة العربية الإسلامية، وذلك منذ هجرة الرسول ﷺ حتى اليوم، ويقع هذا المسجد بوسط هضبة الحرم الشريف، الذي يقع بدوره في الجهة الجنوبية الشرقية لمدينة بيت المقدس، وقد أمر الخليفة الأموي الخامس عبدالملك بن مروان (٢٦هـ -٨٦هـ/ ٦٤٦- ٧٠٥م) بإقامة مسجد قبة الصخرة، وشرع البناؤون فيه سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م، وفرغوا منه سنة ٧٢هـ/٦٩١م، وقد بالغ الخليفة عبدالملك باهتمامه بهذا المسجد، حتى قيل -مبالغة- إنه رصد لبنائه خراج مصر لسبع سنوات، وصمم البناء وأشرف على بنائه مهندسان مسلمان، هما: رجاء بن حيوة الكندي أحد علماء الإسلام من بيسان، ويزيد بن سلام من القدس.

ولقد وضع تصميم هذا المسجد ليلائم الغرض الذي بني لأجله كمشهد يحيط بالصخرة الشريفة، والصخرة ذات شكل نصف دائري، وأقصى ارتفاع لها فوق أرض قبة الصخرة حوالي متر ونصف المتر، وتحت هذه الصخرة يوجد كهف ينزل إليه المرء بدرج، والكهف مربع الشكل مقاسه ٤،٥×٤،٥ متر، وبداخله محراب مسطح من الرخام، وبسقف الكهف فتحة يبلغ قطرها مترا واحدا.

ويعلو هذه الصخرة التي تتوسط المسجد تماما قبة مركزية، صنعت من الخشب، شكلها نصف دائرة، قطرها عشرون مترا وارتفاعها عن سطح الأرض حتى المركز من الداخل خمسة وعشرون مترا، وذلك من غير ارتفاع الهلال الموضوع فوقها، والذي يبلغ ارتفاعه عن سطحها أربعة أمتار ونصف المتر، ويغلف هذه القبة من الخارج ألواح من الرصاص، مغطاة بصفائح من النحاس المذهب، أما من الداخل فهي مكسوة بنقوش مذهبة، وتقوم هذه القبة على رقبة مستديرة مكسوة بالفسيفساء ذات الفصوص المتراصة بأشكال زخرفية، قوامها فروع نباتية بألوان متجانسة، تميل إلى زرقة هادئة، وبوسط الرقبة كرانيش بارزة من الرخام، عليها نقوش مذهبة، يعلوها ست عشرة نافذة، تظهر من الخارج على شكل بلوكات من القاشاني، وبداخلها شبابيك جصية، وترتكز الرقبة على أربع دعامات ضخمة مكسوة بالرخام المعرق، بنيت بحيث تأخذ شكلا دائريا، وبين كل دعامة وأخرى ثلاثة عمد من الرخام الملون، تحمل أربعة عقود نصف دائرية، كسيت بترابيع من الرخام الأبيض والأسود.

أما المثمن الخارجي فارتفاع جداره يبلغ تسعة أمتار ونصف المتر، ويوجد فوقه تصوينة خارجية تعلو الجدران، يبلغ ارتفاعها مترين ونصف المتر، ولهذا المثمن أربعة أبواب محورية، تقع في الاتجاهات الأصلية، يتقدم كل منها سقيفة مقامة على عمد، وأكبر هذه الأبواب هو الذي يواجه المسجد الأقصى المبارك بالجهة القبلية، وارتفاع هذه الأبواب يبلغ أربعة أمتار، وتغطي كل واجهات المثمن الخارجي كسوة من الرخام حتى منتصف ارتفاع الواجهة، يعلوها الآن ترابيع من القيشاني أضيفت في العصر العثماني، وكان هذا الجزء العلوي مغطى أصلا بالفسيفساء، ويوجد في كل واجهة خارجية سبع حنايا رأسية، في خمس منها نوافذ علوية مماثلة لتلك التي برقبة القبة.

كما توجد في المسجد الفروع النباتية، وبعضها لولبي الشكل، وأهمها ذو الشكل الإغريقي، وأحيانا نجد بين كل فرعين خارجين من مزخرفات قوامها شكل شمعداني من الزهور والنباتات، تعلوها زخرفة مجنحة، كما توجد رسوم أشجار بعضها طبيعية والأخرى محورة عن الطبيعة، وأهم هذه الأشجار النخيل والزيتون واللوز، وفواكه من عنب ورمان، وربما نرى في بعض الفسيفساء رسما للنجوم والهلال الذي عرفته إيران أولا، ثم بيزنطية، ثم صار رمزا دينيا للمسلمين في مصر وتركيا.

إن قبة الصخرة هي إعجاز تصميمي، وتفرد إنشائي، وهي تقدم لنا من الناحية الزخرفية تميزا غير مكرر وتفردا منقطع النظير، حيث تشكل المساحات المغطاة بحبات الفسيفساء أندر الأشكال وأجملها، والتي أشار المؤرخون والرحالة إلى أنها كانت تكسو أرضية المبنى وجدرانه، بما في ذلك منطقة القبة ورقبتها من الداخل والخارج.

إن الأسلوب الهندسي لبناء قبة الصخرة يرتبط بأصول هندسية عربية سابقة على الإسلام، ولعل تلك المباني ثمانية الشكل التي عرفت في بلاد الشام عامة وفي فلسطين خاصة منذ القرنين الرابع والسادس الميلاديين تؤكد الجذور الأولى المحلية لهذا الأسلوب، ومنها المباني المشهورة، مثل كنيسة المهد القديمة وكنيسة القيامة وكنيسة الصعود وكاتدرائية بصرى، وعليه لا يعتبر بناء قبة الصخرة بهذا الأسلوب غريبا عن المنطقة، والتي عرفت أساليب محلية أصيلة سعى عبدالملك لإظهارها وإعادة بعثها بقالب عربي مسلم، يتناسب مع الطبيعة الجديدة للدولة، ويظهر عظمتها.

إن قبة الصخرة هو المبنى النادر والوحيد على صعيد العالم في تاريخه الماضي والحاضر، فقد كان نسيج عبقرية عربية إسلامية فياضة، أعطت العالم فكرا وعلما لا يخفى أثره على العالم حتى اليوم، كما أعطته فنا رفيعا إسلامي القلب والقالب، تمثل في فنونه وعمائره التي ستبقى، وقبة الصخرة من شواهده المميزة؛ منارة وعلامة فارقة في تاريخ الإنسانية على مر العصور، تذكر اللاحقين بأمجاد حضارة خلت نأمل لها البعث والتجدد، وهذا لن يكون إلا على أيدي أناس فهموا ماضيهم وقدروه وصانوه وحافظوا عليه سليما معافى.

الحسن محمد



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

تغيير المنكر

ارتبط مجد الأمة باتباعها المنهج الذي رسمه الله لها وارتضى لها أن تسير عليه، فأدرك الرعيل الأول أن عزتهم في اتباع ما أمر الله به وأن خذلانهم واندحار مجدهم يكمن في مخالفة ما نهاهم الله عنه، فعملوا جاهدين بكل ما وهبهم الله على تحقيق الأطر العامة التي تحكم هذا الدين، فنعموا ونعمت البلاد، وحقق لهم الله المجد والعز والتمكين، وضربوا أروع الأمثلة وسطروا صفحات خالدة كتبت حروفها بأقلام من نور وضياء، لمع وميضها في السماء وأنار سناها الأرض المظلمة، وهدى بهم ليل الحائرين وصد عن الدين غائلة المعتدين، ورشف أبناء الأمة قاطبة كأسا من معين صاف رائق لذة للشاربين، فهدوا واهتدوا، وكانوا مصابيح للظلام وأعلاما للهداية.. وحين غفل الخلف عن منهاجهم الذي رسم لهم تاهوا وانزلقوا في الحضيض، وأصبحوا تابعين لا متبوعين، محكوم عليهم بالجهل والتخلف ممن أخذ منهم علومهم وطورها وأضاف إليها، برغم عدم كونه لا ينتمي إلى شريعة أو دين.

ارتبطت الخيرية في هذه الأمة باتباع ما هدفت اليه آيات كتاب ربهم وما جاء به الهادي البشير ﷺ من منهاج واضح لا لبس فيه ولا غموض، هذا المنهاج يتمثل في كلمتين لا ثالث لهما، وهما افعل، ولا تفعل.

ويبين لنا الله أن الخيرية في هذه الأمة تتحقق في اتباع الآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ (آل عمران:١١٠)، والمنكر ضد المعروف، وهو ما عرف قبحه نقلا وعقلا.

وقد لعن الله من الأمم من لم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (المائدة:٧٨-٧٩).

• **محمد الروبي عبدالوهاب**

إلى السيد/ رئيس تحرير المجلة

حثني قلمي على الكتابة إليكم، وهذا واجب علي، وعليه أتقدم إلى سيادتكم بشكري الخالص لك ولجميع عمال المجلة الموقرة، تقديرا مني لمجهوداتكم الجبارة والمبذولة من أجل إصدار هذه المجلة الموقرة كل شهر، في حلة وكسوة جديدة، كما أشكر كل الأقلام التي سهرت على هذه المجلة، وأخيرا لكم مني كل التقدير وفائق الاحترام، متمنيا لكم بإذن الله عزوجل التوفيق والنجاح، وإلى اللقاء.

من القارئ الوفي للمجلة

صالح قداش

من كنوز الآباء

قال عبدالله بن شداد لابنه: يا بني إني أوصيك بوصية فاحفظها:

- عليك بتقوى الله تعالى، وكن كما قال الحطيئة العبسي:

وتقوى الله خير الزاد ذخرا
وعند الله للأتقى مزيد

- يا بني: لا تزهدن في معروف فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب، فكم من راغب قد كان مرغوبا إليه.. وطالب قد كان مطلوبا إليه.. واعلم أن الزمان ذو ألوان.. ومن يصحب الزمان ير الهوان.. وكن يا بني كما قال أبوالأسود الدؤلي:

وعدد من الرحمن فضلا ونعمة
عليك إذا ما جاء للخير طالب

- يا بني إن الكريم من كرمت عند الحاجة طبيعته، وظهرت عند الناس نعمته.

- يا بني كن جوادا بالمال في مواضع الحق، بخيلا بالأسرار على جميع الخلق.

عبده بن محمد الجوايدي

الناس بأفعالهم لا أقوالهم

قال الحسن البصري رحمه الله: «اعتبروا الناس بأعمالهم، ودعوا قولهم؛ فإن الله لم يدع قولا إلا جعل عليه دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولا حسنا فرويدا بصاحبه، فإن وافق قولا وعملا فنعم ونعمة عين، فآخه وأحببه وأودده، وإن خالف قولا وعملا فماذا يشبه عليك منه؟ أو ماذا يخفى عليك منه؟ إياك وإياه، لا يخدعنك كما خدع ابن آدم، إن لك لقولا وعملا، فعملك أحق بك من قولك، وإن لك سريرة وعلانية، فسريرتك أحق بك من علانيتك، وإن لك عاجلة وعاقبة، فعاقبتك أحق بك من عاجلتك».

(الزهد لابن المبارك ١/٢٦)

تمام بن غالب

ألف تمام بن غالب (ت ٤٣٦هـ) كتابا سماه «تلقيح العين»، فوجه إليه الأمير أبو الجيش مجاهد العامري ألف دينار أندلسية، على أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب: «مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد». فرد الدنانير، ولم يفعل، وقال: «والله لو بذل لي ملء الدنيا ما فعلت ولا استجزت الكذب، فإني لم أجمعه له خاصة، ولكن لكل طالب علم عامة».

(انظر: جذوة المقتبس ٣١٣/١٣ ومعجم الأدباء ١٣٦/٧)

الشريعة عدل كلها

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله- في معرض كلامه عن الشريعة: «... هي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصلحة كلها، فأي مسألة خرجت من العدل إلى الجور، ومن الرحمة إلى ضدها، ومن المصلحة إلى المفسدة؛ فليست من الشريعة، وإن دخلت فيها بالتأويل».

(إعلام الموقعين ١١/٣)

العجب والكبر

قال القرطبي: «إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال، مع نسيان نعمة الله، فإن احتقر غيره مع ذلك؛ فهو الكبر المذموم»

(الفتح ٢١٤/١١)

هكذا يحصل العلم

قيل للشعبي رحمه الله: من أين لك هذا العلم؟
قال: «بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبكور كبكور الغراب».

(تذكرة الحفاظ ٨١/١)

أقوال وحكم

- ارض من أخيك إذا ولي ولاية بعُشر وده قبلها.
- لا يوجد تبذير قط إلا وإلى جانبه حق مضيع.

(زهر الآداب وثمر الألباب ٥٩/١-٦١)

مراعاة حال السامع

كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، يقول: «حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فتورا؛ فأمسك».

حدجوك: استمعوك بإمعان

(زهر الآداب وثمر الألباب ١٩٥/١)

العجب

ركب الحارث بن معاوية إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأله عن ثلاث خلال... قال فسأله عن القصص، قال: «فإنهم أرادوني على القصص.
فقال عمر رضي الله عنه: ما شئت (كأنه كره أن يمنعه).
قال الحارث: إنما أردت أن أنتهي إلى قولك.
قال عمر رضي الله عنه: أخشى عليك أن تقص فترتفع عليهم في نفسك، ثم تقص فترتفع، حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا، فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك».

(رواه أحمد في مسنده رقم ١١١)

كتاب الجمهرة

كان لأبي الحسن علي بن أحمد بن سلك الفالي (نسبة إلى فال، وهي بلدة في خوزستان)، نسخة من كتاب «الجمهرة» لابن دريد، وكانت النسخة في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها، فاشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم بستين دينارا، وتصفحها فوجد بها أبياتا بخط بائعها أبي الحسن الفالي، وهي:

أنست بها عشرين حولا وبعتها ... لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ... ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهل شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... مقالة مكوي الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ... كرائم من رب بهن ضنين!

فأرجع الشريف النسخة إليه، وترك له الدنانير، رحمهما الله تعالى.

(صفحات من صبر العلماء للشيخ عبدالفتاح أبوغدة -٢٦٤)

المال

قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «وكذلك ينبغي أن يستعد لآخر عمره بالمال، مخافة أن يحتاج فيذل أو يسعى، وقد كلت الآلة؛ ولأن يخلف لعدوه أولى من أن يحتاج إلى صديقه، ولا يُلتفت إلى من يذم المال؛ فإنهم الحمقى الجهال الذين اتكلوا على خبز الراحة، فاستطابوا الكسل والدعة، ولم يأنفوا من تناول الصدقة، ولا التعرض للسؤال، وقد كان لكل نبي معاش، ولجميع الصحابة، وخلفوا أموالا كثيرة، فافهم هذا الأصل، ولا تلتفت إلى كلام الجهال».

(صيد الخاطر ٣٨١/١)

كلام الملوك

● كان يزيد بن الوليد يقول: «أخاف على نفسي الكمال، وعوذ الشرف، وآفة السؤدد»... فملك خمسة أشهر.

● وكان مروان بن محمد يقول: «كنزنا الكنوز، فما وجدنا كنزا أنفع من معروف في قلب حر».

(الحديقة لمحب الدين الخطيب رحمه الله)

أصول الخطايا

١ - الكبر: وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره.
٢ - الحرص: وهو الذي أخرج آدم من الجنة.
٣ - الحسد: وهو الذي جرأ أحد ابني آدم على أخيه.

فمن وقي شر هذه الثلاثة؛ فقد وقي الشر، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد.

(الفوائد لابن القيم ص٥٥)

الحرص على العلم

عن جعفر بن درستويه قال: «كنا نأخذ المجلس في مجلس علي ابن المديني وقت العصر اليوم لمجلس غد؛ فنقعد طوال الليل مخافة أن لا نلحق من الغد موضعا نسمع فيه».

(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٣٨/٢)

رأسمال المسلم

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «رأس مال المؤمن دينه، لا يخلفه في الرحال، ولا يأتمن عليه الرجال»

(الاستذكار لابن عبدالبر ١٩٢/٣)

من حيل الكرماء

أهدى معاوية إلى عبيدالله بن العباس حللا كثيرة، ووجهها إليه مع حاجبه، فالتفت ابن العباس إلى الحاجب -وهو يطيل النظر إليها- فقال: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم، والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف!، فقال ابن العباس: هي لك! فقال: جعلت فداك! أنا أخاف أن يبلغ ذلك معاوية؛ فيغضب لذلك. قال: فاختمها بخاتمك، وادفعها إلى الخازن، وهو يحملها إليك ليلا. فقال الحاجب: والله إن هذه الحيلة في الكرماء أكثر من الكرم.

(ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي).

مسك الختام

حرية التعبير..

د. السيد شعيب
دكتوراه في الفلسفة الإسلامية

عرفت المجتمعات الديموقراطية والدول المتحضرة قيمة الإنسان فجعلت من أولويات حقوقه «حرية التعبير» بل وارتقت هذه القيمة إلى صدارة الحقوق الأساسية في الدساتير المدونة؛ وذلك لإيمانها بأنه بدون «حرية التعبير» لا مجال إلى تطوير الرأي وتحديث الفكر وتجديد الوعي..

وترتب على ذلك حدوث طفرة كبيرة في مجال الإبداع الإنساني في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية في هذه المجتمعات، على النحو المشاهد الآن في أوروبا وأميركا، مما حدا بنا أن نجزم بأن حرية التعبير لم تقم قياما حقيقيا في العصر الحديث خارج أسوار أوروبا وأميريكا.

وكعادتنا نحن الشرقيين في نقل الأفكار واقتباسها نقلنا إلينا «حرية التعبير» لا كما يفهمها الغربيون ويحسنون تطبيقها، بل على طريقتنا الخاصة، حرية مطلقة، فوضى أدبية، خروج على القانون، تمرد على الأوضاع، انقلاب على الآداب والأعراف والقيم...إلخ

ولا أبالغ في قولي هذا، فإن شئت أن تقرأ طرفا منه فارجع إلى بعض كتابنا الليبراليين أمثال الدكتور «طه حسين»، ودعوته إلى الفوضى الأدبية، تحت شعار «حرية الأدب»، وذلك في كتابه حديث الأربعاء، طبعة دار المعارف، الجزء الثالث ص ٢١٠، وكتاب الدكتور فؤاد زكريا، خطاب إلى العقل العربي ص٨٤، ودعوته إلى نبذ رذيلة الطاعة والاستعاضة عنها بفضيلة التمرد، تحت شعار «أنا متمرد إذن أنا موجود»...إلخ

وفي أيامنا هذه تطورت الدعوة إلى حرية التعبير إلى إشاعة الفوضى، وإذاعة الأخبار الكاذبة والنيل من الأعراض، والولوغ في المسائل الشخصية والعائلية...إلخ

إن حرية التعبير لا تعني أبدا الدعوة إلى التهتك والابتذال والعري، أو الثورة على قيم المجتمع ومبادئه، أو الخروج على القانون أو استهداف الشر والأذى للمواطنين والعبث بأسرارهم، وقذف الناس بالباطل، أو الاستهانة بالأعراف والتقاليد والآداب العامة...إلخ

إنها لا تعني شيئا من ذلك أبدا، ولكنها تعني الكلمة الطيبة والعبارة الواضحة وقول الحق.. إنها تتوخى البناء لا الهدم، الإصلاح لا الإفساد، العلو لا الانحطاط والتسفل..

هذه الكلمات والتعبيرات والآراء الراقية هي التي يفهمها الغربيون ويطبقونها جيدا، ففي بريطانيا، على سبيل المثال، هناك قانون يرسم الحدود ويوضح متى يكون التعبير مقصودا منه الإثارة واستفزاز الآخرين والتحريض على قلب الحكومة أو الدستور بالعنف.

لقد أجمع الفلاسفة والمفكرون العقلاء على أن الانطلاق من جميع القيود شيء غير معقول وغير موجود، حتى في العالم المتمدن الذي يظنه البعض خلوا من القوانين والأعراف والتقاليد، ويحسبونه مجتمعا فوضويا لا تراعى فيه فضيلة، ولا تصان فيه حرمة.

وهذا التقييد لحرية التعبير قرره الإسلام قبل أن تبدأ القوانين الوضعية بتقرير نظريتها في الحرية بأحد عشر قرنا على الأقل، فقد قررت الشريعة حرية القول من يوم نزولها، وقيدت في الوقت نفسه هذه الحرية بالقيود التي تمنع من العدوان وإساءة الاستعمال، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى مخاطبا نبيه ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل:١٢٥).



أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٨٩) رمضان ١٤٣٥ هـ - يوليو ٢٠١٤ م

عاماً من العطاء 50

الخدمة ومنظومتها القيمية



الفرار إلى قدر الله

الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم

التفكر.. العبادة الصامتة

رمضان.. ثلاثية الفكر والعاطفة والحركة

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»


كل عام وأنتم بخير
أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م
الوعي الإسلامي
AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

الافتتاحية

عمارة الأوقات

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

أسأل الله أن يهلّه علينا بالأمن والأمان، والسلامة والإسلام، فقد جعل الله للأعمار مواسم، فهي موضوعة لبلوغ الأمل، ورفع الخلل، فهذا شهر شعبان قد قوّض للرحيل خيامه، وآذن بالفراق بعد الإقامة، وبشائر الهناء تهنئ الأمة بقدوم رمضان، وتبشرهم بنيل الكرامة.

جـــاء شـهــر الـصــيــام بـالـبــركـات
فـــأكــرم بـــه مـــن زائـــرٍ هـــو آت

فبلوغ شهر رمضان نعمة عظيمة، فمن رحم في شهر رمضان فهو المرحوم، ومن حرم خيره فهو المحروم، ومن لم يتزود فيه فهو ملوم.

ومـــن روّتـــه مـرضـعـة المـعـاصـي
فـقــد جــاء أيــام الــفــطــام..

فلتعل الهمم في هذا الشهر العظيم، فقد يتفوق المؤمن بهمته العالية، وعالي الهمة يجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايته، وتحقيق بغيته، ولا يرضى بالدون ولا يرضيه إلا معالي الأمور، واحذر أسباب انحطاط الهمم والوهن، والفتور، وإهدار الوقت الثمين في فضول المباحات، والعجز والكسل، والغفلة والتسويف والتمني، فالفراغ مفسدة، فلا تمض يومك في غير منفعة، فالفراغ هو الباب الذي تلج منه الشهوات، كما قيل «من الفراغ تكون الصبوة».

فيا مضيّع الأوقات، لو علمت نفاستها ما أضعتها، فإن الله قد حفظ لكل عامل عمله، وأحصى على كل عاص زَلَلَه، رزقنا الله حلاوة مناجاته، وجعل قرة أعيننا في تلاوة آياته.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٩ | رمضان ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
يوليو ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ .
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد



الخدمة العامة هي المساهمة في أنشطة هدفها المصلحة العامة، دون توقع عائد مادي أو وجود مصلحة شخصية مباشرة، وتقوم على فلسفة التطوع والشعور بمسؤولية الانخراط في قضايا المجتمع .

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا : ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها .

المحتويات

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

كلمة العدد

تحية رمضان

دار الفلك دورته، وودع العالم الإسلامي شهرا كريما، هو شهر شعبان المعظم؛ ليستقبل شهرا عظيما.. شهر رمضان الذي أنزل الله فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان. وقد تعود المسلمون أن يحتفلوا بقدوم هذا الشهر، وأجدر بهم أن يحتفلوا برؤية هلاله، فإنه حينما يهل رمضان تظل العالم كله رحمات من السماء.

وحسب رمضان فضلا على سائر الشهور أنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن.. هدية الله إلى عباده، ودستور السماء إلى الأرض، من عمل به سعد، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم، أرسل الله فيه للبشرية رحمة من عنده، تتمثل في بعثة محمد بن عبدالله -صلوات الله وسلامه عليه- الذي أرسله الله رحمة للعالمين، بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، أحيا به موات النفوس، وفتح به مغاليق القلوب، فكان رحمة من الله سبحانه للناس جميعا ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وهكذا أعزنا الله بالإسلام، وأكرمنا بالقرآن، وكان ذلك كله في شهر رمضان، فكان حقا لرمضان أن يكرم، وكان رمضان أهلا لأن يحتفي المسلمون به، فقد احتفى الله به وجعله من أعظم الشهور وأولاها بهذه الفريضة الإسلامية، بل الفريضة الإنسانية، فريضة الصوم الذي هو عبادة ورياضة: عبادة لله، ورياضة للروح، وسمو بها إلى مصاف الملأ الأعلى.

إنني أذكركم بأنه شهر الجهاد: جهاد النفس لمقاومة شهواتها، والجهاد ضد أعداء المسلمين، ففي رمضان كانت المعركتان الفاصلتان في حياة الدعوة الإسلامية: معركة بدر، وفتح مكة، ومعارك أخرى بعد ذلك كان لها أثرها الحاسم في التاريخ الإسلامي.

فلعلنا في شهر رمضان، نحسن صلتنا به، ونجمل أعمالنا بصلاح نوايانا وسرائرنا، ونتخذ من درس الصوم دروسا نافعة لنا في توحيد القلوب، وجمع الصفوف حتى نسترجع ما فقدنا، ونعوض ما خسرنا، ويعيش المسلمون في ديارهم أعزاء كرماء.

الشيخ حسن مأمون
شيخ الجامع الأزهر الأسبق

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

رمضان ثلاثية الفكر والعاطفة والحركة

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

الإنسان هو هذا المخلوق الذي كرمه الله سبحانه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأناط به إقامة الدين والمنهج وعمارة الكون، وحمله أمانة الاستخلاف؛ ليجازيه في الآخرة بالجنات والنعيم المقيم إن أحسن وآمن واتقى، أو بالعذاب إن خان ونكص وبدل.

ذلك الإنسان صاحب هذه المسؤولية الجسيمة والمهمة الشاقة، يتكون، في مجمله من ثلاثة عناصر رئيسية، هي: العقل و الروح والجوارح؛ تندرج تحتها تفاصيل كثيرة ومتعددة.

وهذه الثلاثة يمكن أن نعبر عنها بثلاثية أخرى، وهي على الترتيب: الفكر، العاطفة والحركة.

بهذه الثلاثية يسعى الإنسان في الكون، حاملا لواء الحق الذي كلفه الله به، وشرفه به دون سائر المخلوقات؛ فهو يدرك «عقليا» ما يحيط به من أفكار وأشياء إدراكا يتلاءم مع تصوره وقيمه وآماله وغاياته، ثم يتخذ تجاهها موقفا «عاطفيا»، سلبا أو إيجابا، بناء على هذا الإدراك؛ ثم تتحدد «حركته» بالقبول أو الرفض بعد الإدراك العقلي والموقف القلبي الوجداني.

هكذا يتعامل الإنسان مع أي فكرة نظرية، أو حدث عملي، وهكذا يجب أن تصب الأفكار والأحداث التي تواجهنا في هذه الاتجاهات الثلاثة.

فإذا كنا -مثلا- بصدد الحديث والتعامل مع شهر كريم هو شهر رمضان، الذي فضله الله سبحانه على سائر الشهور، وكلله برحمات ونفحات وميزات دون غيره، فيجب أن نسأل أنفسنا: ما الذي نريده من هذا الشهر، وما موقفنا منه على مستوى هذه الثلاثية التي ذكرنها توا (الفكر، العاطفة، الحركة)؟

ولابد في البداية من الإشارة -مع شيء من الأسف - إلى أن بعض المسلمين يذهبون بشهر رمضان وبالرسالة المطلوبة منهم أن يحققوها فيه، ناحية اتجاه واحد من هذه الثلاثية، وهو اتجاه العاطفة والقلب والروح فحسب! حتى إن بعضهم يتصور أن رمضان هو شهر الروح وحدها، وهو شهر الانعزال والانطواء!

لكن هذه السطور تقول بإيجاز: إن لشهر رمضان رسالة ذات أبعاد ثلاثة متكاملة، صحيح أن الروح قد يكون لها الحظ الأوفر من هذه الرسالة، إذ القلب هو المضغة التي بها صلاح الإنسان، لكن يجب ألا نغض الطرف أو نقلل من أهمية البعدين الآخرين (الفكر والحركة) في هذه الرسالة الثلاثية المتكاملة.

وفيما يلي بعض الأدلة والشواهد التي توضح المقصود من هذه السطور:

القرآن ورسالة رمضان

إن أولى فضائل شهر رمضان التي اختصه الله سبحانه بها، هي إنزال القرآن الكريم فيه، حتى غدا القرآن مقترنا برمضان، ورمضان مقترنا بالقرآن، فقال تعالى وهو يعرف لنا هذا الشهر الكريم: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ (البقرة:١٨٥).

وفي الحديث الشريف عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني فيه. ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعني فيه. قال: فيشفعان» (رواه أحمد في مسنده).

فلهذه الدرجة تلازم القرآن والصيام، وارتبطا ارتباطا وثيقا، بحيث يدل أحدهما على الآخر.

ولما كانت رسالة القرآن الكريم -الذي أنزل في رمضان- هي رسالة تغيير وإصلاح على كل المستويات: مستوى العقل والتصور والإدراك والمعتقدات، ومستوى القلب والعاطفة والروح، ومستوى الحركة والفعل سواء بالإتيان أو الترك.. كانت أيضا هذه هي رسالة شهر رمضان.

فالمسلم في رمضان مطالب بأن يجعل لعقله حظا من التزود بالعلم النافع، لاسيما ما كان متصلا بهذا الشهر؛ من أحكام الصيام، وصدقة الفطر، ومدارسة الغزوات والأحداث التي وقعت في رمضان. ومطالب أيضا بأن يجعل من شهر رمضان محضنا تربويا لمحاسبة النفس، وتزكية الروح، وتطهير القلب، والاستعلاء عن شهوات الدنيا، فضلا عن محظوراتها ومحرماتها؛ إضافة إلى الرقي بالسلوكيات والعادات، تجاه النفس وتجاه الآخرين، إلى ما يحبه الله ورسوله.. ليكون رمضان -بحق- نموذجا لما يجب أن يكون عليه المسلم سائر العام.

ومن يراجع الأحاديث الشريفة الواردة في فضل رمضان، يجد أنها جمعت بين عمل القلب والجوارح في هذا الشهر ولم تفصل بينهما، فجاءت الأحاديث تحث فيه على بذل الصدقة وإطعام الطعام وإفطار الصائم وصلة الأرحام، إضافة إلى سيرة النبي ﷺ العملية، حيث كانت معاركه الفاصلة في رمضان، مثل غزوة بدر الكبرى وفتح مكة، وسنعرض لهذا ببعض التفصيل بعد قليل.

فعن زيد بن خالد الجهني، عن النبي ﷺ قال: «من فطر صائما كتب له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجر الصائم شيء» (رواه أحمد والترمذي). وقال ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة» (رواه البخاري).

فمن ثم، لا يجوز أن نتصور أن شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن -رسالة الله للعالمين لإصلاح الحياة بجميع جوانبها- يمكن أن يتحول إلى شهر في اتجاه واحد فحسب من هذه الثلاثية، ولا يجوز أيضا أن يظنه بعض المسلمين شهر انعزال وانكفاء على الذات.

وقد يرد سؤال: كيف نفسر إذن استحباب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان؟ وكيف نفهم ما ورد من آثار عن بعض السلف الصالح من أنهم كانوا إذا دخل عليهم رمضان تركوا مدارسة العلم وتفرغوا لقراءة القرآن الكريم؟

فأقول: إنني ذكرت أن للروح النصيب الأكبر من «رسالة رمضان» ذات الأبعاد الثلاثة، لكن ذلك لا يعني إهمال البعدين الآخرين. ثم إن الاعتكاف ليس فعلا انعزاليا بقدر ما هو توفير بيئة أشد خصوصية للذكر والعبادة لصرف الشواغل عن النفس، ولذلك لم يصح الاعتكاف إلا في المسجد، لأن الغرض منه ليس انطواء المسلم على نفسه، وإلا لجاز أن يكون الاعتكاف في البيت أو الفلوات، بل المقصود تفريغ النفس للعبادة، ولكن في المسجد، بما يستلزمه ذلك من اختلاط بدرجة ما مع رواد المسجد، ومن مدارسة القرآن والعلم معهم في بعض الأوقات.

وأما ما ورد بشأن اقتصار بعض السلف الصالح في رمضان على تلاوة القرآن الكريم، فهذا أمر ينبغي أن نفهمه في إطار أوسع من حال السلف الصالح واجتهادهم، وهم الذين كانوا يشتغلون بالعلم طوال العام، ويقومون بواجبهم تجاه مجتمعهم على مدار السنة، وكان المجتمع كله مجتمعا إسلاميا يعرف فيه كل فرد ما له وما عليه، فكان من الطبيعي - والحال هكذا - أن ينصرف الفرد المسلم في رمضان إلى نفسه بدرجة أكبر، وأن ينشغل بالقرآن الكريم عما سواه.

لكن مع اختلاف واقعنا عن هذه الحال اختلافا كثيرا، فليس من المناسب أن ينعزل المسلم، خصوصا في شهر رمضان، عن مجتمعه بدعوى اشتغاله بإصلاح نفسه وتهذيبها، ولا أن يكتفي بقراءة القرآن الكريم وحده تشبها بالسلف الصالح، بل يمكنه أن يضيف إلى تلاوة القرآن، التي يجعل لها الحظ الأوفر، مطالعة التفاسير وكتب السنة، ودراسة بعض جوانب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي كما قلنا.

وهنا يأتي دور المسجد في رمضان، والذي يمكن أن يتحول إلى ما يشبه «خلية النحل» دعويا، فيحرص المسلم على التعرف على رواد المسجد الجدد، وعلى توثيق روابطه بالآخرين، وعلى الاستعانة بأهل العلم في إقامة مجالس القرآن والفقه والتزكية، فإن هذه المجالس تفيد أيضا في أن يفهم المسلم آيات القرآن وهو يتلوها، ويتجاوب معها، خشوعا وتدبرا واستيعابا، بحيث لا تتحول قراءته إلى عمل باللسان دون وعي.

الجهاد في رمضان

ولابد لقارئ السيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي عامة، أن يقف عند حكمة وقوع غزوات الإسلام الكبرى، ومعاركه الفاصلة

الفارقة، في شهر رمضان المبارك. فهذه غزوة بدر الكبرى، التي سماها القرآن «يوم الفرقان»، وقعت في السنة الثانية للهجرة في رمضان، وفتح مكة في السنة الثامنة في رمضان، ومعركة القادسية في رمضان سنة خمسة عشر بقيادة سعد بن أبي وقاص، وفتح بلاد الأندلس كان في رمضان سنة ٩٢هـ بقيادة طارق بن زياد، وموقعة حطين في رمضان سنة ٥٨٤هـ بقيادة صلاح الدين، ومعركة عين جالوت كانت في رمضان سنة ٦٨٥هـ بقيادة قطز، ثم حرب العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ (٦ أكتوبر ١٩٧٣م).

فمن أهم دلالات هذا التوافق أن شهر رمضان كما هو شهر القرآن وشهر التربية الروحية والتزكية، هو أيضا شهر الجهاد والحركة والدعوة، وليس أبدا كما يتوهم بعض المسلمين شهر انعزال وانطواء وانكفاء؛ حتى الاعتكاف الذي يسن في رمضان لا يرتبط أبدا بهذه المعاني السلبية التي يجب أن تنتفي عن المسلم، ليس في رمضان وحده، بل في سائر العام كله.

يجب على المسلم أن يستفيد من الطاقات الإيجابية الروحية التي تشيع بين المسلمين في رمضان، في دعوتهم إلى أعمال البر والخير، وفي إرشادهم وتفقيههم، وفي الحركة الدائبة بينهم، فإن هذا الشهر الكريم هو خير محضن للدعوة والسعي بنور الإسلام بين الناس.

وأهمس في أذن كل داعية يجد لذته في رمضان في خلوته وانفراده: من يأخذ بيد الناس إن اعتزلتهم، حتى لو كان اعتزالك بنية إصلاح النفس وتهذيبها أولا؟! ومن يدل الناس على الخير إن أحجم الدعاة عن الاختلاط بهم وتعريفهم بأركان الإسلام وأخلاقه وآدابه؟!

إن أهم وسيلة لإصلاح النفس تتمثل في ممارسة الدعوة إلى الله سبحانه، والسعي بين الناس بكلمة الحق في رفق ولين وتواضع. أما عكس ذلك فقد يكون - نعوذ بالله - مدخلا من مداخل الشيطان ليصرف المسلم عن دعوة غيره، وهداية الخلق إلى طريق الله، وليحرمه من باب يسير في الجهد لكن أجره مضاعف، وفضله عظيم عند الله سبحانه. ويكفي أن يتذكر المسلم حديث النبي ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك من أن يكون لك حمر النعم» (متفق عليه). وفي رواية الطبراني عن أبي رافع: «خير مما طلعت عليه الشمس».

رمضان وفقه الدعوة

إن «فقه الدعوة» يوجب على المسلم أن يراعي -وهو ينطلق بالإسلام في حركة الحياة- تغير المجتمع واختلاف الظروف التي يحياها. فإذا كان معظم الناس في شغل وانشغال بالحياة الدنيا طوال العام، ثم هم يحاولون بالكاد أن يستدركوا ما فاتهم في رمضان، فمن يكون لهؤلاء في رمضان، يوجههم ويلفت أنظارهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه، إذا كان الدعاة في رمضان في شغل من أمر أنفسهم، منعزلين في زاوية من زوايا المسجد، حتى لو كان هذا لتحقيق هدف له أصل وعليه دليل، وهو إصلاح النفس ومراجعتها ومحاسبتها؟!

فـ«الفقه الدعوي»، الذي ينطلق من النصوص الصحيحة ويضع نصب عينيه أحوال المجتمع وظروفه وطبيعة مشكلاته، يرشدنا إلى ضرورة توزيع الطاقة في رمضان بين خلوة بالنفس لتأنيبها وتوبيخها ومخالطة للناس لتعليمهم وإرشادهم بالحكمة والموعظة الحسنة. وكذا بين قراءة القرآن وتدبر معانيه ومطالعة ولو جزء يسيرا من الأحكام والآداب والسيرة والتاريخ، فإن علو الهمة في رمضان وعدم انشغال النفس بحظوظها، يمثلان فرصة ثمينة ليتدارك المسلم بعضا مما يفوته في غير رمضان.

فليكن لك أخي المسلم في رمضان من عبادتك حظ للعقل؛ بالعلم والمدارسة ولو لكتاب واحد، أو اثنين.

وحظ للروح؛ بالمراجعة، والتهذيب، والتربية، والولوج إلى مدارج السالكين ومنازل السائرين.

وحظ للجوارح؛ بالسعي، والحركة، والبذل، والدلالة على الخير.

فتلك ثلاثية يعلمنا شهر رمضان ضرورة أن نسير فيها بتكامل، حتى لو كان للروح منها «نصيب الأسد»، والحظ الأوفر.. لكي يكون شهر رمضان، الذي أنزل فيه القرآن، شهر تغيير جاد للنفس والمجتمع، على مستوى العقل، والروح، والجوارح.

رمضان والدعاء

علاء الدين حسن
باحث سوري

الدعاء عبادة ورحمة ورجاء، و«أعجز الناس من عجز عن الدعاء». قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ (الأعراف:٥٥). والدعاء افتقار وتبرؤ من الحول والقوة إلى حول الله وقوته، وفيه استشعار بذل العبودية إلى مقام عزة الله، وفيه أنواع من الثناء على ذات الله عزوجل.

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ (غافر:٦٠). وقال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم».

إن الدعاء مجاب «جملةً» وردت ... فيه الدلائل فافهم شأنه تسدِ
تنزيل ربي به الدعوات مطلقة ... جاءت إجابتها تلوًا فلا تحد
فسل إلهك من دنيا وآخرة ... مع اليقين بأن السؤل نول يد
من ظن بالله خيرا كان آيته ... على الفلاح ويا بشراه يوم غد

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء». وفي حديث آخر: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه».

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض».

وعن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر».

قد يقول قائل: إن ما يدعو به المؤمن إن كان قد قدر فلابد من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قد قدر فلا يمكن أن يقع، سواء دعا به المؤمن أم لم يدع، فكيف يرد القضاء بالدعاء؟ والجواب: إن الله الذي قدر الأشياء، قدر لها أسبابا، والدعاء من أعظم الأسباب في النفع أو الدفع، والكل بقضاء من الله وقدر، فمن أنكر تأثير الدعاء، فقد أنكر ارتباط المسببات بالأسباب، وهذا باطل شرعا وعقلا.. فبالقدر يدفع القدر، وبالقدر نفر إلى القدر، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه أن الطاعون قد وقع في الشام وعزم على الرجوع بعد التشاور، فقال له أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفرارا من قدر الله يا عمر؟! فقال عمر رضي الله عنه: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نفر من قدر الله إلى قدر الله.

وإذا كان الإنسان قد خلق ضعيفا، فإنه لابد أن يلجأ إلى القوي، ألا وإن هذا القوي هو الله عزوجل.

قريب

ولو تأملنا القرآن الكريم؛ لوجدنا في جواب: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ كلمة: ﴿قُلۡ﴾.. ومن ذلك قول الله عزوجل: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾ (البقرة:١٨٩). وقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ (الأنفال:١). وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣﴾ (الكهف:٨٣).

أما في آية الدعاء: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ...﴾، فقد جاء في جوابها: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (البقرة:١٨٦). تأكيدا على أن الله أقرب إلينا من حبل الوريد.

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

وفي الحديث القدسي، الذي أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما رواه عن ربه عزوجل: «يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر».

وروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من فتح له منكم باب الدعاء، فتحت له أبواب الرحمة».

وإن أوقات النفحات تكمن في الأزمنة والساعات؛ ليداوم المؤمن على الدعاء والرجاء، كما في ليلة القدر، ووقت السحر، وساعة الجمعة، وعقب الصلوات... فمن أدام التعرض لها يصادفها بإذن الله.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يتنزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له».

دعاء الأنبياء

وعندما نستعرض آيات القرآن الكريم، نجد أن الأنبياء والرسل الذين منحوا قدرات خارقة، هم أكثر الناس تضرعا إلى الله عزوجل، فمن دعاء آدم وحواء عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف:٢٣).

ومن دعاء نوح عليه السلام، بعد أن جاهد وكافح: ﴿...أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ (القمر:١٠-١١).

ومن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ (الشعراء:٨٣-٨٥).

ربما من الناس من يقول: إن إبراهيم وقع في مأزق لم يقع في نظيره أحد قبله ولا بعده، وذلك عندما حكمت محكمة نمرود بإحراقه يوم حطم أصنامهم، فكان من المتوقع أن يدعو في مثل تلك الساعة، ولكن لم يرد في الصحاح أنه دعا؛ بل ورد أن جبريل عليه السلام جاءه مستأذنا ربه وقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا! قال: فسل ربك. قال: «حسبي الله ونعم الوكيل». وذلك؛ لأن قصارى همه تمثل في أن يرضى الله عنه، وأن يجعل ذريته من بعده سائرة على النهج المستقيم.

ومن دعاء يونس عليه السلام:

﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنبياء:٨٧-٨٨).

ويونس -عليه السلام- بعث إلى قومه فدعاهم فلم يستجيبوا فهجرهم مغاضبا.. ولعل هذا الهجران ما كان ينبغي أن يتم، فابتلاه الله بأن وجه إليه حوتا -وكان سائرا على شاطئ بحر- فالتقمه: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء:٨٧).

ومن دعاء شعيب عليه السلام:

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (الأعراف:٨٩).

من أدعية محمد ﷺ

ومن الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ: «يا حي يا قيوم! برحمتك أستغيث».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «ما قال عبد قط، إذا أصابه هم أو حزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه، وأبدله مكان حزنه فرحا».

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: هذا ما سأل محمد ﷺ: «اللهم إني أسألك خير المسألة، وخير الدعاء، وخير النجاح، وخير العمل، وخير الثواب، وخير الحياة، وخير الممات».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا».

وروى أبوداود عن أبي بردة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ إذا خاف قوما قال: «اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم».

وكان ﷺ إذا دخل قرية قال: «اللهم إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها».

وكان إذا رأى الهلال قال: «اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام».

وكان إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم باسمك أحيا وأموت».

وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور».

وروى أبوداود عن معاذ بن زهرة أنه بلغه أن النبي ﷺ كان إذا أفطر قال: «اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا أفطر قال: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر، إن شاء الله».

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أفطر عند قوم دعا لهم فقال: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة».

وروى الترمذي بسند صحيح عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قلت يا رسول الله، إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني».

ومن دعائه ﷺ في أهم غزوة خاضها بوجه المشركين: «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». فكان عاقبة هذا الدعاء:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ (الأنفال:٩).

وما من موقعة انتصر فيها رسول الله ﷺ إلا وكان سر انتصاره - بعد الأخذ بالأسباب المادية - هو اللجوء إلى الله عزوجل.

فإذا كان الرسل والأنبياء بهذه الحاجة إلى التضرع والدعاء، فما بالنا بالعامة من الناس! قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان:٧٧).

وتوفيق الله عزوجل لا يأتي إلا بعد الدعاء الذي يملأ قلب الإنسان بالخوف والرجاء.

ومن شروط إجابة الدعاء: إعادة الحقوق إلى أصحابها، واجتناب الحرام، قال عليه الصلاة والسلام: «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة».

ومن شروط الإجابة: الثقة التامة بالله عزوجل.. فإذا جمع مع الدعاء خشوع القلب، وبدأ الداعي بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على محمد عبده ورسوله، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، وألح في المسألة، وتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، فإن هذا الدعاء إما يجاب بعين ما طلب، وإما يجاب بغيره، وإما يعجل في الدنيا، وإما يؤجل إلى الآخرة، ما لم يدع المؤمن بإثم أو قطيعة، أو يستعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي.

ومن شروط الإجابة: أن تكون الخطوط موصولة بيننا وبين الله، فإذا كان الخط مقطوعا، فإن النجدة لن تأتي مهما حاولنا الاتصال. وأول ما يصل الخطوط بيننا وبين الله هو إخلاص النية، وأن نتجرد عن كل شيء ما سوى الله.

الفرق بين المعجزة ودلائل النبوة

د. سامي عطا حسن
أكاديمي أردني

من الملاحظ أن بعض الكاتبين في إعجاز القرآن لم يفرقوا بين المعجزة ودلائل النبوة عامة، بينما عمد مشاهير المحدثين إلى التفريق بينهما، فترجموا الكتب والأبواب المتصلة بالنبوة تحت عنوان: «علامات النبوة»، كما فعل البخاري في صحيحه، أو «دلائل النبوة»، كما فعل البيهقي وغيره.

ويراد منها: كل دليل يثبت نبوة محمد ﷺ ويبرهن على صدقه، من دون تقيد بشروط معينة، فتشمل السمات والعلامات الخاصة في جسده الشريف ﷺ، وتبشير الكتب السماوية السابقة ببعثته. لكن تعريف المعجزة يؤكد أن من شرائطها: «اقترانها بالتحدي»، إذ يتحدى النبي ﷺ الناس، فيعجزون عن الإتيان بمثلها، فيثبت ذلك في أفئدتهم اليقين بأن الله أجراها على يده تصديقا لنبوته، وتأييدا لدعوته، فكل معجزة علامة على نبوة صاحبها حتما، ولكن ليس كل علامة أو دليل على النبوة أمرا معجزا خارقا للعادة مقرونا بالتحدي. فالمعجزة أخص من الدليل والعلامة. ولم يجعل الإمام ابن حزم التحدي من شروط المعجزة، وفي تقرير هذا المعنى يقول: «إن اشتراط التحدي في كون آية النبي آية دعوى كاذبة، سخيفة، لا دليل على صحتها، لا من قرآن، ولا سنة صحيحة ولا

سقيمة، ولا من إجماع، ولا من قول صاحب، ولا من حجة عقل، ولا قال بهذا أحد قط قبل هذه الفرقة الضعيفة». ثم يقول ابن حزم: «إنه لو كان ما قالوا لسقطت أكثر آيات رسول الله ﷺ، كنبع الماء من بين أصابعه، وإطعامه المئين والعشرات من صاع شعير وعناق (العناق: هو الجدي الصغير)، ومرة أخرى من كسر ملفوفة في خمار، وكتفله في العين فجاشت بماء غزير، إلى اليوم، وحنين الجذع، وتكليم الذراع، وشكوى البعير، والذئب، والإخبار بالغيوب، وتمر جابر، وسائر معجزاته العظام، لأنه ﷺ لم يتحد بذلك كله أحدا، ولا عمله إلا بحضرة أهل اليقين من أصحابه رضي الله عنهم» (١).

وفي المعنى نفسه يقول الإمام ابن تيمية: «إن عامة معجزات الرسول ﷺ لم يكن يتحدى بها، ويقول إئتوا بمثلها، والقرآن إنما تحداهم لما قالوا إنه افتراه، ولم يتحدهم به ابتداء، وسائر المعجزات لم يتحد بها، وليس فيما نقل تحد إلا بالقرآن» (٢).

وهذان الإمامان العظيمان لا ينكران تحدي الرسول ﷺ للمعارضين بالقرآن، كما هو واضح في منطوق ومفهوم آيات التحدي، إنما ينكران التحدي في بقية المعجزات. وهما محقان فيما ذهبا إليه، لأن ما ذكراه من خوارق هو في الحقيقة آيات، وليست معجزات فلم يتحد أحدا بها. وهذا نتيجة الخلط بين «الآية والمعجزة»، فهما وإن اتفقتا في كونهما خارقتين للعادة، إلا أن المعجزة تنفرد بأنها يقصد بها التحدي، فلا تكون إلا بطلب من النبي ﷺ. والآية لا يقصد بها ذلك، فلا يلزم أن تكون بطلبه ولا بإرادته.

فانقلاب العصا ثعبانا آية ومعجزة، لأنه قصد بها التحدي.

وانفلاق البحر آية، لأنه قصد به إنجاء موسى -عليه السلام- ومن معه، وليس بمعجزة لأنه لم يقصد به التحدي. وفرار الحجر بثوب موسى، قصد به تبرئته، وليس بمعجزة لعدم التحدي. وانشقاق القمر آية ومعجزة أيضا، لأنه وقع بطلب من النبي ﷺ تحديا للمشركين.

ونبع الماء من أصابعه الشريفة آية وليس بمعجزة، لأنه وقع إسعافا للصحابة بالماء في وقت عز وجوده فيه. عن جابر رضي الله عنه قال «عطش الناس يوم الحديبية فأتوا رسول الله ﷺ وبين يديه ركوة وقالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب، إلا ما في ركوتك، فوضع رسول الله ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فتوضأنا وشربنا. وقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا عشرة مائة» (٣).

وحنين الجذع آية، وليس بمعجزة لعدم التحدي.

وحمل مريم -عليها السلام- كان آية، قصد به إظهار قدرة الله في إيلاد الأنثى من غير مسيس ذكر، وقد حصل كرها، حتى قالت: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ (مريم:٢٣)، لكنه ليس بمعجزة لعدم نبوة مريم.

وكلام عيسى -عليه السلام- في المهد آية، حصل لتبرئة مريم، وليس بمعجزة لعدم التحدي، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ (المؤمنون:٥٠). فكل معجزة آية، وليس كل آية معجزة.

فناقة صالح -عليه السلام- معجزة، لأنهم تحدوه أن يخرج لهم ناقة ومعها فصيلها من صخرة عينوها له، فخرجت الناقة كما أرادوها.

وعصا موسى -عليه السلام- معجزة، لأنها من جنس ما اشتهر به قوم فرعون في تلك الأيام، وهو السحر، فعصا موسى ليست بسحر، وإن كانت شبيهة به. لذا، عندما التقى موسى بالسحرة وألقوا حبالهم وعصيهم التي خيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفة موسى، ولو كان ساحرا لما خاف، لأن الساحر لا يخاف من السحر، فألقى عصاه فابتلعت كل ما صنعوا من السحر، ثم عادت كما كانت عندما التقطها موسى -عليه السلام.

ومعجزة عيسى -عليه السلام- كانت من جنس ما اشتهر به قومه، إذ كان الفريسيون -وهم فريق من اليهود- قد أقنعوا عامة اليهود بقوة السحر على شفاء الأمراض، وطرد الجن من أجساد الناس، وما شابه ذلك، لكنهم لم يستطيعوا إحياء الموتى، أو إبراء الأكمه والأبرص، كما كان يفعل عيسى -عليه السلام- بإذن الله.

وقد انتهت المعجزات بموت الرسل وانتهاء الرسالات، ولم يبق لنا إلا معجزة محمد ﷺ، وهي معجزة عقلية بلاغية فصاحية، وكانت من جنس ما اشتهر به العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ، وتحداهم أن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور من مثله، ثم بمثل أقصر سورة منه. وقد ثبت عجزهم، ولو استطاعوا لما تخلفوا عن ذلك، إذ كانوا حريصين على تكذيبه، ولوفروا على أنفسهم كثيرا من الدماء التي سالت فيما بينهم وبين المسلمين.

وقد نشرت الكتب الكثيرة التي تبحث في إعجاز وأسرار القرآن البيانية، والعلمية، والطبية، والفلكية، وغير ذلك، مما يدل على أن القرآن ليس كتاب أمة واحدة، ولا عصر معين، إنما هو كتاب الدهر بأجمعه، وحجة الله القائمة مدى الحياة، ونور العقول الحرة، وسراجها مهما ارتقت، وأدب الطبيعة الإنسانية حيث حلت، وأنى وجدت، ولغة الحياة، إذا تكلمت خشعت الأصوات لها، فلا تسمع إلا ركزا.

هوامش

١ - انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، ٥: ٧.

٢- انظر: النبوات، ابن تيمية، ٢: ٧٩٤.

٣- انظر: فتح الباري، ج٦، ٣٧٨.

الفرار إلى قدر الله

محمد فتحي النادي
باحث في الفكر الإسلامي

من الأركان التي لا يكتمل إيمان المرء بربه إلا بها ركن: «الإيمان بالقدر»... مطلق القدر سواء أكان خيرا أم شرا. فتسليمك لفعل الله بك هو من التسليم بكونه سيدك ومالكك؛ حيث لا تمرد أو تململ أو تأفف أو سخط، بل هو الرضا التام والتسليم الكامل المطلق.

لذلك قال ﷺ في رده على سؤال جبريل عليه السلام

عن الإيمان: «أن تؤمن ب: الله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» (صحيح مسلم)، وفي رواية: «أن تؤمن بـ: الله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والقدر خيره وشره حلوه ومره».

فإذا سلمت أمرك لمالك ناصيتك اطمأن قلبك وارتاح بالك، وعشت هانئا وإن لم تملك من الدنيا إلا القليل.

وقد عرف بعض العلماء القضاء بأنه «الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل»، والقدر بأنه «الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل».

وقد استفادوا هذا المعنى من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي عبيدة ابن الجراح عندما هم بالرجوع إلى المدينة عندما علم بالوباء الذي حل ببلاد الشام، وقد استنكر منه ذلك أبو عبيدة، فقال له: «أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟» (صحيح البخاري).

فالمفهوم من كلام أبي حفص أنه يمكن مدافعة القدر بالتحوط وأخذ الأسباب، لذلك أقدم على المغادرة والرجوع، فـ«على المرء توقي المكاره قبل نزولها، وتجنب الأشياء المخيفة قبل هجومها، وكذلك كل متقى من غوائل الأمور».

هذا إلى جانب أنه «لا محيص للإنسان عما قدره الله له وعليه، ولكن أمرنا الله -تعالى- بالتحرز من المخاوف والمهلكات، وباستفراغ الوسع في التوقي من المكروهات».

وهنا تنبيه مفاده «أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله، فإذا قضى فلا مدفع له».

فقد قضى الله على من خاف من الموت بالطاعون وهرب منه أن أماته حيث ظن الأمان، وخلد ربنا ذلك في سورة البقرة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ (البقرة:٢٤٣).

وبالعودة إلى حديث عمر فقد أورد هشام ابن سعد رواية أخرى فيها: «إن تقدمنا فبقدر الله، وإن تأخرنا فبقدر الله».

وإذا أراد المرء أن يصل إلى هذه الدرجة فلابد له من مقامين: «مقام التوكل، ومقام التمسك بالأسباب».

فالتوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب؛ فـ«التوكل محله القلب، والكسب محله الجوارح، فمن ظن أن الطلب يضادد التوكل حتى يترك أسبابه، ويغلق عليه بابه، كان عن العقل خارجا، وفي تيه الضلالة والجا... إذا عرفت هذا، فاعلم أن المتوكل إذا سعى في جلب منفعة له، أو دفع مضرة عنه، وكان نظره في ذلك إلى الله، وراضيا بما يؤدي إليه سعيه مما قدره عليه مولاه، فقد حصل له الأجر من وجهين، وكان فعله موافقا لكتاب الله وسنة سيد الكونين».

وبعد التوكل على الله والأخذ بالأسباب فإنه لا يكون إلا مراد الله وحكمه، ولذلك قالوا: إذا حاق القضاء ضاق الفضاء، وإذا جاء القدر بطل الحذر.

وقيل: الفار من القضاء الغالب كالمتقلب في يد الطالب؛ فعمر بن الخطاب رضي الله عنه تحاشى دخول الشام أيام انتشار الطاعون ليلاقيه قدره في مدينة رسول الله ﷺ ومسجده على يد أبي لؤلؤة المجوسي.

لذلك لا تكدر صفو عيشك بالتفكير فيما كان وما سيكون، ولكن فكر في رضا ربك كيف يكون.

فأمر الله نافذ لا محالة، فتلقاه بالصبر، وفر منه إلى الله، فهو الملجأ والملاذ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل: إن صبرت مضى أمر الله وكنت مأجورا، وإن جزعت مضى أمر الله وكنت مأزورا.

وكم يطيش عقل الإنسان إذا حلت به البلايا والرزايا، فلا يهتدي لسبيل، ويكون تخطيطه سببا في هلاكه، وقد أنشد بعضهم:

وإذا حذرت من الأمور مقدرا

ففررت منه فنحوه تتوجه

وما أصدق قول بعض الحكماء: «إذا حلت المقادير ضلت التدابير، وإذا وقعت الضرورة ارتفعت المشورة، فكل مقدور واقع، ولا يغني حذر مدافع، ورب تدمير في تدبير، وهلكة في حركة، واغتيال في احتيال.

فعلى العبد أن يعلم أن اختيار الله خير له من اختياره لنفسه، وإن كان ذلك الخير مستورا عن إدراكه وحدسه، ولا يحزن من نقض تدبيره وتخلف مراده؛ إذ لا يكون إلا ما يريد».

عندئذ يكون الفرار إلى قدر الله؛ فتتكشف لك الأسباب عن المسبب الحقيقي، وأن الأقدار تقع خلف الأسباب، فتتوجه إلى مسبب الأسباب طالبا ما تشاء، فإما الإجابة، وإما الادخار لك في الآخرة ليتضاعف الثواب، ويعظم الأجر.

فإذا استوت عندك أقدار الله لم يضرك كيد الكائدين، وأصبحت ترى أن قدر الله لا يأتي إلا بخير، فرب خير في طيه الشر مستور، ورب شر في طيه الخير محمول، فلا تحزن لما فاتك، ولا تفرح بما جاءك.

وإذا كانت هذه حالتك عشت في جنة الدنيا وأنت على الأرض تسير، يقول ابن تيمية وهو محبوس بالقلعة: «ما يصنع أعدائي بي؟

أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير.

وقال: المحبوس من حبس قلبه عن ربه -تعالى- والمأسور من أسره هواه».

أول من أنشأ دار القرآن وزير الأوقاف الأسبق د. راشد الفرحان:

المسلم يتحرك في كل اتجاه لنشر دينه

حاوره : هاني عبدالله

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ..﴾ كان هذا هو شعار ضيفنا في هذا الحوار.. عمل بالمجال الدعوي وإلقاء دروس العلم، وكان إماما وخطيبا بوزارة الأوقاف، ثم انتقل بعد ذلك للعمل في السياسة، فكان عضوا بمجلس الأمة لمدة اثني عشر عاما، لأربعة مجالس متتالية، ثم وزيرا لوزارة الأوقاف، وزاد على اسمها «الشؤون الإسلامية»، وهو صاحب حركة تجديد بالوزارة عندما تولاها، وكان صاحب قرار إنشاء دار القرآن، وكان أول من أمر بإنشاء بيوت للأئمة والمؤذنين.
إسهاماته كثيرة في المجال الدعوي والعلمي والسياسي.. إنه الدكتور راشد الفرحان، وزير الأوقاف الأسبق.. وإليكم تفاصيل الحوار:

• بداية، من هو الدكتور راشد الفرحان؟

- ولدت عام ١٩٣٠م، درست في المدرسة القبلية ثم المعهد الديني ثم التحقت بكلية الشريعة بالأزهر، وقبل هذا كنت في وزارة الأوقاف إماما وخطيبا، في عدد من المساجد، عندما كنت طالبا في المعهد الديني.

ذهبت إلى مصر، وتخرجت وحصلت على الشهادة العالية، وكان في هذا الوقت بداية تطوير الأزهر وإدخال القوانين الوضعية المدنية عام ١٩٥٧، وكان شيخ



الأزهر في ذلك الوقت هو الشيخ شلتوت رحمه الله، وقرروا علينا وقتها الفقه المقارن بين المذاهب السبعة، وفوجئنا بهذا الكم الكبير من الدراسة، لكن الحمد لله أن أعاننا الله عليها؛ لأن الأساتذة الذين درسونا كانوا علماء كبارا نفتقدهم الآن، واستفدنا منهم كثيرا.

● عرف عنكم أنكم رفضتم العمل في القضاء.. فلماذا؟

– لو كنت دخلت القضاء فإن ميولي وهواياتي لم تكن لتتحقق، فأنا رجل أعتبر نفسي من المعارضة، ودخلت بالوزارة على أساس أني من المعارضة، لكن المعارضة البناءة التعاونية لمصلحة الوطن، وليست معارضة من أجل الصراخ والصياح.

فالعمل في مجال القضاء يقيدني، لكن السياسة غلبت علي، وكنت في وزارة الخارجية.

دار القرآن

● كيف جاءت فكرة إنشاء دار القرآن؟

– أنشأنا في وزارة الأوقاف دار القرآن، فكانت أول مدرسة يدرس بها القرآن الكريم للأئمة والمؤذنين، للكبار والصغار، وكل العاملين في وزارة الأوقاف، كذلك درس فيها أطباء وقضاة، وقمنا بتدريس علوم القرآن واللغة العربية.

وكانت الفكرة في البداية هي إنشاء معهد للإمامة والخطابة، فأنشأنا دار القرآن لتتسع للعلوم العربية والقرآن، وتخرج منها الكثير من الأئمة والخطباء.

● حدثنا عن أهم جهودك داخل وزارة الأوقاف عندما كنت وزيرا؟

– وقت تولي الوزارة قمت بتكييف ما يقرب من ثلاثمائة مسجد داخل الكويت، وطلبنا من وزارة الأشغال أن تقوم بتكييف كل مسجد جديد تسلمه لوزارة الأوقاف.



بالإضافة إلى سحب كل أموال وزارة الأوقاف من البنوك التي لا تعمل وفق النظام الإسلامي، وأودعناها بنك التسليف والادخار الحكومي؛ حتى لا يدخل هذه الأموال الربا.

وأمرت ببناء بيوت خاصة للأئمة والمؤذنين، دون أن نأخذ منهم أي مقابل، ولكن وكيل الوزارة في ذاك الوقت أصر أن نأخذ منهم شيئا رمزيا، وهو ستة عشر دينارا، مقابل استعمال الماء والكهرباء.

والحمد لله الذي جعلني سببا في إنشاء مجمع الأوقاف، وقمنا بالتخطيط له، ثم جاء وزير الأوقاف بعدي يوسف الحجي ونفذ هذا المخطط والبناء.

ومن حيث الجانب الثقافي، استضفنا دعاة من كل أنحاء العالم، من سورية ولبنان وباكستان ومصر، يقومون بدعوة الناس في رمضان، وقمنا بالتنويع بين هؤلاء الدعاة، وأمرت وكيل الوزارة آنذاك محمد الحمضان أن يداوم في بلدية الكويت ويسجل وثائق أوقاف المساجد، فكان الكويتيون يوقفون على المساجد أراضي وبيوتا ودكاكين...الخ.

وقد سافرت إلى روسيا مع رئيس المحكمة الدستورية آنذاك عبدالله العيسى، وظللت ستة عشر يوما أتنقل بين بلاد روسيا أعظهم وأخطب في المساجد حتى قالوا عني: «أنت مبشر ولست وزيرا»، فقلت لهم: «مادمتم تقولون ذلك فافتحوا هذا المعهد الديني المغلق في طشقند».

وخرجنا من روسيا والاتحاد السوفييتي، وذهبنا إلى لندن وزرنا المركز الإسلامي، والذي يسمى الآن مسجد لندن.. هذا المركز كان قصرا للملك فاروق، فصلينا في هذا القصر، وعلمت من السفراء هناك أنهم يجمعون أموالا لكي يجعلوا هذا القصر مسجدا، فشكَّل هؤلاء السفراء لجنة وذهبوا إلى دول الخليج؛ السعودية والإمارات وقطر، ثم ذهبوا إلى الكويت ليجمعوا باقي المبلغ، فأمر الشيخ جابر الصباح رئيس الوزراء

أطلب من وزارة الأوقاف أن تزيد رقابتها لأن الفساد انتشر بشكل كبير

آنذاك بتكملة المبلغ اللازم لبناء المسجد في لندن.

• إلى أي مدى أثرت الدراسة الشرعية الدينية في شخصيتكم؟

– أثرت هذه الدراسة فيّ كثيرا، حيث قمت بتأليف بعض الكتب الدينية، فأول كتاب ألفته وأنا طالب اسمه «الصيام في الإسلام»، وثاني كتاب هو «النظام الاجتماعي في الإسلام بين الرجل والمرأة»، وثالث كتاب هو «مختصر تاريخ الكويت».

وقد درست الإعدادية في المدرسة السعيدية، والثانوية بمدرسة الأورمان من المنازل، وكنت أدرس الطب بجوار كلية الشريعة، ولكن جاءني إنذار من وزارة المعارف بأن أقطع دراستي في كلية الطب، وألا أجمع بين الدراستين.

كما أن دراستي الشرعية والدينية أفادتني كثيرا، فبعد التخرج والرجوع إلى الكويت أفادتني في المحاماة، وبعدها في نقاشات مجلس الأمة.

وأصبح لدي درس للتفسير في الكويت، فدرست القرآن ما يقرب من عشرين عاما، فهذه الدراسة أخرجت كتبا عدة، منها كتاب «الأديان المعاصرة»، وكتاب آخر في «تفسير مشكل القرآن»، والثالث هو «هداية البيان في تفسير القرآن»، وهذا أول كتاب يتم تأليفه لتفسير القرآن في الكويت.

• وهل ترى أن البيئة في الوقت الحالي مناسبة لطلب العلم مثلما كان عليه الأمر في الماضي؟

– الآن كلية الشريعة والمعهد الديني والقنوات الإسلامية بالخليج والكويت، ووجود العلماء.. كل هذه العوامل حركت النشاط الدعوي، فهناك إقبال كبير على طلب العلم وحفظ القرآن، والذي يحفظ القرآن يسهل عليه العلم، والخطابة وطلب العلم.

الحركة الدعوية

• هل تجد فارقا بين النشاط الدعوي الآن عما مضى في عهدكم؟

– كان الناس في الماضي مهيئين لتقبل الدعوة، وكان من السهولة إرشادهم لأنهم كانوا قريبين من الله عزوجل، لكن اليوم أصبح الوضع بالكويت مختلفا، بمعنى أن هذا داخل وهذا خارج. وأنا من مكاني هذا أطلب من وزارة الأوقاف أن تزيد من رقابتها، لأن هذا الوقت زاد فيه الفساد بشكل كبير.

> **أمرت ببناء بيوت خاصة للأئمة والمؤذنين.. واستقطبنا دعاة من كل أنحاء العالم**

اتهامات عدائية

• الكويت عُرفت بأنها تصدر أعمالا خيرية للعالم، وليس النفط فقط.. لكن في الوقت ذاته هناك اتهامات توجه لبعض الجمعيات الخيرية أنها تدعم الإرهاب.. فما تعليقك؟

– الإرهاب أن تقتل بريئا، لكن عندما تساعد المرضى والفقراء والجرحى، في جميع دول العالم، مثل أفغانستان وباكستان وجنوب شرق آسيا وإفريقيا، فلا حرج في ذلك، ونجد المسيحيين يساعدون المسيحيين، واليهود يساعدون اليهود، فمن يساعد المساكين المسلمين في سورية وغيرها من البلدان؟، فماذا يريدون من هذه الاتهامات الباطلة، هل يريدون أن يموت هؤلاء الناس المحتاجون؟

نحن لسنا مع الإرهاب، ولا نرضى به، وديننا يرفض الإرهاب وقتل الأبرياء، وهؤلاء الذين يتهموننا يجب أن يفهموا بأن ديننا يأمرنا أن نساعد المحتاجين والفقراء والمرضى، حتى الأسرى أمرنا الله أن نطعمهم.

القضية الفلسطينية

• أخيرا، ماذا تقول عن حال المسلمين في مختلف البقاع في بورما وميانمار وإفريقيا الوسطى وفلسطين؟

– واجب المسلمين أن يتحركوا، فالمسلم أخو المسلم، واجب عليه أن يعينه، ليس فقط بالمال، بل سياسيا، وبالكلام في المحافل الدولية، فلا ينبغي أن نترك إخواننا في سورية وفلسطين وبورما يُقتلون، فالله سبحانه سيحاسبنا، والواجب علينا الدعاء والمساعدة كل حسب استطاعته.

• هل هناك أي إضافة تود إضافتها في نهاية حوارنا معكم؟

– أتمنى لمجلة «الوعي الإسلامي» التوفيق والنجاح وكثرة القراء، والمقالات المفيدة، وأن يجعلها أحسن بلاغ للمسلمين.

النـــور مؤمنة

ادفع فقط أجرة البريد

- في الكـــــــويت **1.5 دينار**
- الدول العــربيـــــة **3 دنانيـــر**
- باقي دول العالـــم **8 دنانيـــر**





تودع أجرة البريد في حساب المجلة

رقم الحساب المصرفي الدولي:

KW15KFHO 0000000000011010074520

أو ترسل في شيك أو حوالة باسم مجلة «النور» إلى عنوان المجلة المثبت أدناه

مجلة «النور» ص.ب 24989 الصفاة 13110 ـ الكويت

هاتف: 22964236 وفاكس: 22409414

شبكة الإنترنت: WWW.kfh.com

البريد الإلكتروني: alnoormag@kfh.com









التشاؤم ..

د. محمد نور العلي
الهيئة العامة للشؤون الإسلامية
والأوقاف - الإمارات

لاشك أن ظاهرة التشاؤم مرض اجتماعي خطير، يعمل على انحراف العقيدة، وإيجاد اليأس والإحباط، وبالتالي العزوف عن العمل النافع الذي يعود بالخير على الفرد والمجتمع، وبناء عليه فإن النبي ﷺ جاء ليصحح المفاهيم في منهجية واضحة في محاربة هذه الظواهر السلبية، وإيجاد البدائل وتقديم العلاج، ليبقى المجتمع سليما قويما متماسكا.

ولاشك أن هذه الظاهرة كانت منتشرة عند العرب قبل الإسلام، ولها صور متنوعة، والتشاؤم من الشؤم، وهو الشر والتطير وهو ضد اليمن، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وأصل التطير أنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع (١). حيث يعلقون أمور حياتهم على حركة الطير الذي لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، حتى إن بعض القبائل في الجاهلية كانت لهم معرفة وممارسة بزجر الطير، ومن لا يعرف زجره أتى إليهم طالبا منهم زجره، اعتقادا منهم بهذا الأمر، وممن اشتهر بهذا الأمر «بنو لِهْب»، بكسر اللام وسكون الهاء، وهم جماعة من بني نصر من



الأزد، يقال إنهم أزجر قوم، وأعيفهم وأعرفهم، بما تدور عليه حركات الطير. حتى قال بعض الطائيين:

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا

مقالة لهبي إذا الطير مرت

والمعنى: أن بني لهب يعلمون زجر الطير، ويعرفون مهابطه، وما تدل عليه أصواته وحركاته حين يمر، فإذا أخبرك لهبي بشيء من ذلك فصدقه، ولا تلغ قوله (٢).

تحديد مفهوم التفاؤل في اللغة

إن مفهوم الفأل في لغة العرب: هو ما يكون فيما يحسن ويسوء، ولكن الغالب فيما يحسن ويستحسن، بخلاف الطيرة فإنها تكون فيما يكره، وفي كلام العرب «لا فأل عليك» أي لا ضير عليك ولا شر عليك (٣).

وأصل التفاؤل الكلمة الحسنة يسمعها عليل فتوهمه بسلامته من علته، وكذلك المضل يسمع رجلا يقول يا واجد فيجد ضالته، والطيرة مضادة للفال، وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد، فأثبت النبي ﷺ الفأل واستحسنه، وأبطل الطيرة ونهى عنها (٤).

مفهوم التفاؤل في سنة النبي ﷺ

لقد أظهرت لنا سنة النبي ﷺ أن المصطفى كان من سنته وصفاته التفاؤل، وأنه فسر التفاؤل بالكلمة الصالحة، والكلمة الحسنة، والكلمة الطيبة، جاء ذلك ضمن عدة روايات لعدد من الصحابة.

الرواية الأولى: أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا طيرة، وخيرها الفأل»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم» (٥).

الرواية الثانية: أخرج البخاري من حديث أنس «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح، الكلمة الحسنة» (٦).

وعند البخاري من حديث أنس أيضا «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: كلمة طيبة» (٧).

الرواية الثالثة: أخرج أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما «كان ﷺ يتفاءل ولا يتطير، ويعجبه الاسم الحسن» (٨).

الرواية الرابعة: أخرج أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها: «الطير تجري بقدر، وكان يعجبه الفأل الحسن» (٩).

ومما يشار إليه أن «اليمن» تدخل في معنى الفأل الحسن. فقد أخرج الترمذي بإسناد حسن، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «يمن الخيل في الشقر» (١٠).

وأخرج أحمد من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن من يمن المرأة تيسير خطبتها، وتيسير صداقها، وتيسير رحمها» (١١).

وبعد استعراض هذه الروايات فإننا نجد أن النبي ﷺ في الوقت الذي نهى فيه عن التطير والتشاؤم، فقد جعل مقابل ذلك التفاؤل، وأن التفاؤل من سنته وصفاته، وأن الكون كله يجري بمقادير الله سبحانه، وأنه فسر التفاؤل بالكلمة الطيبة والحسنة والصالحة، وأنه كان تعجبه الأسماء الحسنة.

دواء التشاؤم وعلاجه

لقد اشتمل التوجيه النبوي على عدد من الوسائل في علاج التشاؤم ومحاربة آثاره، ومنها:

أولا: استحضار الاعتقاد بالله جل جلاله أنه هو الفعال لما يريد، مصداقا لما تقدم من حديث النبي ﷺ «الطير تجري بقدر» وحديث ابن عباس «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» (١٢).

ولقد صدق القائل حيث يقول:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ثانيا: حسن الظن بالله تعالى، والفأل فيه حسن ظن بالله بأنه سيوفق الإنسان في عمله، والشؤم فيه سوء ظن بمآل الأمور ونتائجها، مما يؤدي إلى سوء ظن بالله تعالى (١٣).

ثالثا: فتح باب الأمل والاستبشار برحمة الله تعالى، ولو بكلمة طيبة أو حسنة، أو صالحة، أو بمنظر حسن، أو اسم جميل.

أعلل النفس بالآمال أرقبها

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

رابعا: الالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء، فقد أخرج أبوداود مرسلا: فقد ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ، فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلما، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك» (١٤).

خامسا: من وقع في نفسه شيء من التشاؤم والتطير فعليه أن لا يلتفت إليه، وأن يمضي متوكلا على الله تعالى.

وختاما لحديث التفاؤل، نستطيع القول إن التفاؤل وما يدور في فلكه يؤدي إلى حسن الخلق، وهو عمل الخير والتوجه نحو فعله، وأما الشؤم وما يدور في فلكه: فإنه يؤدي إلى سوء الخلق، وهو عدم فعل الخير وعدم التوجه نحو فعله، ولذلك كان النبي ﷺ يحرص على التفاؤل، وكان منهج حياة له ولأمته. ومن ثم فإن التفاؤل من محاسن هذا الدين الإسلامي الحنيف.

هوامش

١- فتح الباري، كتاب الطب، ٢١٢/١٠.
٢- الروض الأنف، ١٣٨/٢/ شرح الكافية، ٤٧/١.
٣- لسان العرب، مادة «فأل».
٤- تهذيب اللغة، ١٤/ ١١/ النهاية، مادة «فأل».
٥- صحيح البخاري، كتاب الطب، رقم ٥٧٥٤.
٦- المصدر السابق نفسه، رقم ٥٧٥٦.
٧- المصدر السابق نفسه، رقم ٥٧٧٦.
٨- المسند، رقم ٢٣٢٨/ وهو حسن لغيره.
٩- المسند، رقم ٢٤٩٨٢/ وهو حسن الإسناد.
١٠- سنن الترمذي، أبواب السير، رقم ١٦٩٥.
١١- المسند، رقم ٢٤٤٧٨/ وهو حسن الإسناد.
١٢- سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة.. رقم ٢٥١٦/ وإسناده حسن صحيح.
١٣- فتح الباري، الطب، ٢١٥/١٠.
١٤- سنن أبي داود، الطب، رقم ٣٩١٩.

الخدمة.. ومنظومتها القيمية



د. محمد المشطاوي
باحث في المركز العالمي للوسطية

كان الشاعر العربي فطنا حين ألمح إلى أن أحد أسس الاجتماع الإنساني هو «خدمة الناس للناس» حتى وإن لم يشعروا بأنهم يخدمون ويخدمون:

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض -وإن لم يشعروا- خدم

ولو تأملت هذا لوجدته واقعا، وإن لم يحسه أو يشعر به من لا يحسنون التدبر والتفكر.

وإذا كان اجتماع الناس ضرورة، وتعاونهم فضيلة، فتقديم العون الطوعي لهم إحسان يستعبدهم:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فلطالما استعبد الناس إحسان

وقد حفلت كتب الشريعة بالحث على هذا الإحسان، ومعاونة الآخرين ومساعدتهم، وأخذ يدهم في المعروف وللمعروف، وكل ذلك أحد معاني خدمة الناس. ويمكننا أن نسمي هذه المنظومة القيمية التي حفلت بها كتبنا الشرعية والمعرفية الإسلامية بـ«قيم المروءة»، التي يأتي في مقدمتها خدمة الناس، ولم لا وقد قال النبي المصطفى ﷺ «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد (يعني مسجد المدينة) شهرا» (١).

ومن دون استطراد في الحديث عن أهمية الخدمة العامة للفرد وللمجتمع، وضرورتها لرقيه، ودلالتها على بعض أخلاقه، فإن ما يعنيني هنا هو الأخلاق اللازمة لغرس هذه الصفة، وهذا السمت في نفوس المستهدفين من المجتمع.

فغرس خلق ما يستدعي بالضرورة منظومة قيمية مصاحبة، وأخرى مساعدة؛ لتأصيله وتثبيته وتعضيده.. فما هي أهم أخلاق وقيم هذه المنظومة اللازمة لغرس ثقافة الخدمة العامة والمجتمعية في النفوس؟

يمكن لنا ببعض التجوز والإجمال تقسيم هذه الأخلاق والقيم إلى مجموعتين: أخلاق وقيم تخص المجتمع ككل، وأخلاق وقيم خاصة بالفرد.

أما في ما يخص المجتمع فيأتي على رأس هذه القيم:

١ - تقدير ثقافة الخدمة ومن يتخلق بها: فما قدر المجتمع الصحي السليم شيئا إلا وجدت أفراده يتبنونه، ويسعون في التحلي به. ومن أجل صور التقدير تقدير الأفراد الذين يشيعون ويمتلكون قيمة الخدمة والتضحية في سبيلها بترك بعض ما يملكون وبذله في سبيل تحقيق أمور حسنة تعود على المجتمع ومن حولهم بالنفع، حتى وإن كان نفع هؤلاء الباذلين من ذلك معدوما، بل زادوا على عدم الانتفاع البذل مما لديهم.

٢ - نشر ثقافة الخدمة من خلال المؤسسات المجتمعية المختلفة: تعد النقطة السابقة هي أحد السبل لنشر هذه الثقافة، وكلا الأمرين يتكامل، فكل نشر لثقافة الخدمة يصب في تقدير متبنيها، وكل تقدير في حد ذاته وسيلة نشر لهذه الثقافة. ومن أظهر صور نشر الثقافة شيوع الجانب العملي الفعلي المشاهد في حياة الناس، وهو ما يدفع إلى تمثل القيم بشكل حي فاعل دائم. ويأتي على رأس المؤسسات المجتمعية المسؤولة عن نشر هذه القيمة المؤسسات ذات الطابع التوجيهي والإرشادي، كالإعلام والتربية والأوقاف، من خلال وسائلها المختلفة. وكم أسعد حين ينجّم الإعلام قيما إيجابية عبر برامجه، ومثال على ذلك برنامج «مسيرة الخير» في إذاعة القرآن الكريم الكويتية.

٣ - إشاعة ثقافة الوقف على خدمة الناس والمنافع العامة: وهي نقطة جديرة بالإفراد، وإن كانت تدخل في نطاق النقطة الثانية؛ وذلك لما للوقف من أثر محمود في تمتين كل قيمة إيجابية، بل إنه كان عاملا مهما في دخول الناس في الإسلام أو تمثله أخلاقيا على مر العصور. وكم كان أثره فاعلا في غرس قيم إيجابية من خلال مؤسساته اللاربحية التي

تساعد في تلبية حوائج الناس. ومن أعظم حوائجهم إنشاء مؤسسات تسعى إلى صقل أخلاقهم ومواهبهم.

٤ – الحرية والديموقراطية: إن الإنسان الحر يفعل ما يفعله محبا طائعا مقتنعا، ويتولد من ذلك نوع من ديمومة القيم وصلاحها. وربما يكون لدى الإنسان من القوة ما يسهل عليه العمل والعطاء والمنح إلا أنه لا قوة حقيقية لمن لا حرية له (حرية معنوية، حرية حسية)، وكأني أسمع هذا القوي يقول: لم السعي في صلاح غيري وإصلاحه إن لم أكن حرا في قراري واختياري وفعلي؟! وهذا ما فهمه محرر عنترة بن شداد حينما قال له «كر وأنت حر». وهل كان موسى في قوته إلا نفسا حرة أبت الاستعباد لفرعون فصارت قوته زادا لحرية قومه، وهي قوة نفسية مادية تسعى في حوائج الناس من دون أن يطلبوا.. وتذكر ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ (القصص:٢٤).

٥ – إشاعة العدالة الاجتماعية بعيدا عن الانحياز الأعمى لأي انتماء آخر: إن إحساس الناس بهذه العدالة وشعورهم بأنهم يستطيعون نيل حقوقهم مع غيرهم في ظل منظومة عدلية لا تعرف المحاباة أو التفرقة، كل ذلك يبعث في النفس حب خدمة الناس والحرص على المصلحة العامة في الوطن.

٦ – رفع الحالة الاقتصادية والمعاشية للناس: تحقيق العدالة ورفع الحالة الاقتصادية لازمان مهمان لما نحن فيه، ومن لا يجد قوته لا تتوقع منه حسن خلق أو مساعدة للآخرين، حتى وإن طولب بذلك، بل ربما تجده ناقما حاقدا على هؤلاء الآخرين.

٧ – غرس حب الوطن في النفوس: فمن لا يحب وطنه لا يحرص عليه، ولا على خدمته، بل يتعدى الأمر حب الوطن إلى غرس قيمة حب الإنسانية.. فهل يخدم المرء من لا يحب؟! إن المسلم يحب الناس ويتمنى هدايتهم، وإلا لما كان صاحب دعوة ورسالة. ومن حب الوطن والإنسانية حب من فيه والتعاون معهم في مصلحة هذا الوطن، لا ضده.

٨ – غرس قيم التدين: فقيم التدين تدعو إلى كل جميل، وهي منبع كل قيمة إيجابية.. التدين الصحيح لا المغشوش. إن هذه القيم حتى وإن خالفها الإنسان في ضعفه الإنساني فإنه على الأقل يحترم من ينفذها ويؤديها.

إن منظومة القيم التي يراعيها المجتمع ويغرسها في أبنائه بشكل جمعي هي مكمن التمايز بين الأمم، وهذا ما لاحظه عمرو بن العاص رضي الله عنه حين أبدى إعجابه بقيم مجتمعية في مجتمع الروم. يقول: «إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك». وفي رواية أخرى: «إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأجبر الناس عند مصيبة، وخير الناس لمساكينهم وضعفائهم» (٢). وما يعنيني هنا هو قوله: «خير الناس لمساكينهم»، كما يعنيني أن هذا الخلق جاء في سياق منظومة قيمية معضدة ومساعدة، وهذا شيء ملاحظ للفطن، فخلق الإحسان للمسكين لا يأتي بعيدا عن الحلم، خصوصا في الفتنة، ولا يغيب في ظل المنعة من ظلم الملوك.. فافهم حفظك الله.

وفي ما يخص الفرد فيمكننا التعريج سريعا على قيم مهمة، منها:

١ – الإيجابية والجدية: فكل شخص إيجابي جدي يحسب أنه مطالب بكل إيجابي من فعل أو قول، وشعاره:

إذا القوم قالوا من فتى؟ خلت أنني
عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وهو شخص يأخذ الأمور على محمل الرسالة والأمانة، ويطالب نفسه بالقوة وبقوة.

٢ – المبادرة: فهو شخص يبادر إلى الخير حيث كان، ولم لا وهو «الفتى»؟! والمبادرة قرينة الاهتمام والتعني بالأمر والانشغال به، فهو رجل «القضايا»، حتى وإن بدت صغيرة أو هينة.. وكل بر لدى المبادر أمر هين.

٣ – الثقة بالنفس: والمبادرة قرينة الثقة بالنفس. وهو شخص يكل الأمور إلى الله، ومنه يستمد هذه الثقة، ومنه يرجو المثوبة، وهذا مصدر آخر للثقة.

٤ – إنكار الذات: وثقته بنفسه لا تعني خيلاءه أو بطره، بل هو منكر لذاته، يسعى في حوائج الناس حتى وإن لم تعد عليه بنفع، فإن نفعه في عطائه.

٥ – حب الخير، والناس جميعا، خصوصا الضعفاء: مستحضرا حديث النبي ﷺ «ابغوني ضعفاءكم؛ فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم» (٣).

وهو يحاول جهده أن ينقلهم من وهدة الضعف إلى رفعة القوة وسموها، وذلك بحبهم، والإحسان إليهم وتغيير واقعهم.. ليقوى بهم المجتمع وينتصر.

على الهامش

– الخدمة العامة مدخل للصلاحية للعمل الدائم: كل خدمة عامة تؤدي بك إلى خبرة ومهارة تؤهلانك بعد ذلك إلى كل عمل دائم ومستمر، وتجعلانك تسعى في مصالح الناس من دون نظر إلى كثير مغنم أو مربح.

– قصص قرآنية للخدمة العامة: قصة موسى مع ابنتي شعيب، وقصة الخضر مع موسى في بناء جدار الغلامين اليتيمين، وقصة غلام الأخدود حينما أزال الدابة الميتة عن طريق الناس.. لو درسنا هذه القصص –وغيرها– لاستطعنا إخراج المنظومة القيمية الداعية لفعل المعروف وتوطينه في النفوس.

هوامش

١ – رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر رضي الله عنهما.
٢ – رواه مسلم، باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس.
٣ – رواه الترمذي، باب: ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين.

كيف صنع الإسلام «المجتمع المتين»؟

محمد إلهامي
باحث في التاريخ



حين كتب مايكل هارت كتابه عن العظماء المائة في تاريخ الإنسانية وضع محمدا ﷺ على رأسهم، وقال: «لابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم حق في ذلك، ولكن محمدا هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحا مطلقا على المستوى الديني والدنيوي»، وهو بذلك يوضح لماذا لم يضع المسيح في هذه المكانة لأن نجاح المسيح كان دينيا فحسب، كما يقول.

هذه الدهشة منتشرة في كتابات الغربيين الذين لا يكادون يصدقون أن رجلا استطاع تحويل أمة العرب من حالها القديم إلى هذا الحال الذي جعلها تقيم أعظم وأرسخ إمبراطورية في التاريخ بهذه السرعة.

ويكمن السر في أن رسالة النبي ﷺ لم تكن مجرد نصوص ترشد إلى مكارم الأخلاق، بل كانت نصوصا تنشئ أنظمة وتصنع مجتمعا وتؤسس طريقة حياة، وهذا هو مدخلنا إلى الموضوع.

إن في نصوص الوحيين ثروة فياضة في موضوعات الرحمة والبر والإحسان والبذل والإنفاق وحسن الخلق، وهي ثروة أكثر عمقا واتساعا مما تحفل به الأديان والمناهج الفلسفية والوضعية، لكن التفوق الإسلامي كامن في تأسيس نظام حياة يمهد الأرض ويصنع البيئة لعمل هذه النصوص، فلا تبقى حينئذ مجرد حكم ووصايا محلقة في خيال المثال وفضاء الأحلام، كما هو الحال في الفلسفات والمناهج الأخرى.

إن مجرد المبادئ الإنسانية لا تؤثر إلا

في النفوس الفاضلة، وتلك النفوس قلة في هذه الدنيا، بينما يختلف الحال حين تقام النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بحيث تجعل عمل الخير طبيعة يومية، فحينئذ لا يتخلف عن فعل الخير إلا النفوس الخبيثة، وهي أيضا قلة قليلة.

فكيف أسس الإسلام نظامه الاجتماعي فحقق ثورة في العمل الخيري؟! لقد أقام الإسلام المجتمع الإسلامي على قاعدة يمكن أن نسميها «المجتمع المتين»، وذلك بإنشاء روابط وعبادات ومؤسسات تزيد من قوة هذه العلائق وتماسكها.

فأما الروابط فهي ثلاثة: رابطة الدين، رابطة الرحم، رابطة الجوار. فرابطة الدين تؤسس لعلاقة بين المؤمنين ليكونوا «كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»، و«كالبنيان يشد بعضه بعضا»، ولكل مسلم حق على كل مسلم، وإن لم يشترك معه في رحم أو جوار أو لغة أو لون أو جنس.

ورابطة الرحم تجمع الإنسان بذوي نسبه، وتبلغ صلة الرحم من المكانة أن الله اشتقها من اسمه، فوصل من وصلها وقطع من قطعها، والمسلم يصل أرحامه وإن لم يكونوا مسلمين. وهذه الرابطة فطرة إنسانية يقويها الإسلام وينميها، ويخطئ البعض حين يتصور أن الإسلام أتى بما يحل علاقة القبيلة ليجعل محلها علاقة الدين، فالصحيح أن الإسلام رفع علاقة الدين فوق كل علاقة ليكون الحق هو أساس كل شيء، وهو المهيمن على كل حركة، لكنه أبقى كل علاقات الوصل الطبيعية في المجتمعات كما هي، بل وساعد في تقويتها وإنمائها، ولقد كان النبي ﷺ يقول: قوموا لسيدكم، ويأخذ البيعة من نقباء أقوامهم، وظلت الجيوش الإسلامية تقاتل في كتائب قبلية، وعلى نحو ترتيبها في الموقع الجغرافي من الجزيرة العربية، بل ولا بأس أن تستعمل رابطة القبيلة في التحفيز كما فعل خالد وهو يخوض معركة المرتدين من أتباع مسيلمة.

ورابطة الجوار تجمع بين الإنسان وجيرانه، وحق الجار -وإن لم يكن مسلما- من الحقوق المقدرة في الإسلام، حتى ظن النبي ﷺ يوما أن الجار سيرث في جاره، ووصل الأمر إلى حد نفي الإيمان عمن بات شبعان وجاره جائع، بل عمن لا يأمن جاره أن يصيبه شيء من شره!! وهي درجة غير مسبوقة في العلاقات الإنسانية.

فبمجموع هذه الروابط الثلاثة يتحول المجتمع المسلم إلى بناء متماسك متحد متين.

ثم تأتي العبادات فتدعم وتقوي هذه العلاقات، ففي الصلاة يجتمع أهل الحي خمس مرات في اليوم، وإنفاق الزكاة على الأقارب أولى من إنفاقها على غيرهم وعلى الجيران قبل غيرهم، وتفطير الصائم وتقسيم الأضاحي والتصدق والإهداء، وكل ذلك ينفقه المرء على الأقرب فالأقرب.. وكل هذا يمهد النفوس لعلاقة قوية تسمح بوجود عبادة أخرى تنتشر في المجتمع كالشرايين في الجسد: عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو أمر يبذله المسلم بدافع الحب والحرص والشفقة على من يجهل ومن يغفل ومن يزل، فيأخذ المجتمع بأيادي بعضه بعضا.

وكثير من هذه العبادات يستلزم إنشاء مؤسسات، فالصلاة -وهي أعظم عبادة- تقام في المسجد -أعظم مؤسسة إسلامية- والذي هو كالقلب لكل حي، يجتمع فيه الناس على العبادة وعلى ما شاءوا من أنواع الطاعة، خمس مرات في اليوم بحد أدنى، ثم هو ملتقاهم فيما يعن لهم من أمور، وهو منبر التوجيه والتذكير والتحريض على فعل الخير. والزكاة تستلزم إنشاء مؤسسة الزكاة التي تجمع أموال الأغنياء فتوزعها على الفقراء. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استلزم إنشاء مؤسسة الحسبة، التي كانت أول مؤسسة دينية رقابية، وقد استلزم الإنفاق إنشاء مؤسسة الأوقاف التي هي ابتكار إسلامي فريد، جعل الأمة قادرة على تمويل مشاريع الخير وإنشاء نهضتها بنفسها، وإن ضعفت السلطة السياسية.

كل هذه الشبكة المبنية من روابط مدعومة بعبادات تستلزم -في كثير من الأحيان- مؤسسات جامعة، كل هذا جعل المجتمع الإسلامي بنيانا متينا متماسكا، ولهذا كان المسلم يستطيع التطواف في أرض الإسلام ولا يشعر بوحشة الغربة، ويستطيع طالب العلم أو الرحالة أو المهاجر أو ذو الحاجة في الشرق والغرب أن يطوف في الطلب وهو يجد في رحلته من ينفق عليه ويستضيفه ويوفر له ما يعينه على رحلته.

في مجتمع كهذا تكون النصوص والمبادئ التي تحض على فعل الخير واقعا ملموسا، لا مجرد نصائح تنتظر نفسا نبيلة تطبقها، ومن هنا تبدأ النهضات الحقيقية للأمم، حين يتحول بناؤها الفكري إلى نظام حياة، وساعتها لا يكون فعل الخير فعل أفراد معدودين، بل فعل مجتمع كامل لا يتخلف عنه إلا أفراد معدودون! وشتان بينهما!

فهل معنى هذا أن العمل الخيري في الإسلام مقتصر على المسلمين داخل المجتمع الإسلامي؟

والجواب: لا، فرسالة الإسلام للناس كافة، ورسول الإسلام رحمة للعالمين لا المسلمين وحدهم، وفي نصوص الوحي من الرحمة بالناس والشفقة بهم والحرص عليهم ما لا يوجد في غير هذا الدين، بل في الإسلام من الرحمة بالكائنات والنباتات والجماد والموارد والبيئة ما يطول فيه الحديث جدا، ولا يوجد في غير هذا الدين أيضا.

إنما كان مقصد هذه السطور بيان أن الإسلام جعل عمل الخير نظاما لا مجرد نصائح، ينبعث له مجتمع حاشد لا قلة فاضلة.. ولذلك لم يمدح الله المسلم لأنه امرؤ يفعل الخير للناس، بل امتدح الأمة بأنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠).



لا تكشف التلاوة المتدبرة للقرآن الكريم عن أبعاد الوظيفة الحضارية للقيم الإسلامية العليا فحسب، بل تكشف عن طبيعة المنهج الذي يستقي المسلمون توجيهاتهم من وحيه، وفي أية بوتقة تنصهر آراؤهم وتتكافأ جهودهم وتتوحد قلوبهم ويتماسك بنيانهم الاجتماعي، فيتحقق معنى الجسد الواحد في مواجهة تحديات الحياة بما تفرزه من نوازل ومستجدات ومصاعب ومشكلات...

رؤية قرآنية تأصيلية

الخدمة الاجتماعية.. وروح المبادرة الإيجابية

عطية الويشي
باحث بوزارة الأوقاف الكويتية

الإيجابية وصف منحوت من المجاوبة بين إنسان وآخر، لمجرد ظهور علامة الموافقة والاستجابة. والإيجابية هنا: إنما تعكس معنى المطاوعة وسهولة الطبع ولين الجانب وإرخاء الجناح والتواضع، بما يؤدي إلى التفاعل المتكامل والمساعدة المتساندة بين الناس، لإقرار قيم البر والمعروف والعدل والإحسان بين أفراد المجتمع، وهذه معاني تمثل بطبيعتها: عصب الخدمة الاجتماعية والتطوعية المحتسبة.

والسمة الإيجابية المميزة للخدمة الاجتماعية في هذا السياق: تعبير عن روح مؤمنة مستجيبة لإلهامات الذكر الحكيم.. متسقة مع توجيهات الكتاب المستبين.. سخية في إيعازها لصاحبها بوقف نفسه خدمة للناس، ووضعها رهن حاجتهم ابتغاء مرضاة الله تعالى، فهي إيجابية متطوعة. فالإنسان الإيجابي ذو نفس سلسلة منقادة بطبيعتها إلى خير الناس أجمعين.. مرهونة لخدمتهم.. مكتوب على ناصية صاحبها «وقف لله تعالى»، فحيثما أمره الله وجده، وحيثما نهاه افتقده. وهذه الإيجابية المتطوعة: إنما تحمد في الفرد، وتكون أكثر حمدا في الجماعة..

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ..﴾ (الشورى:٢٦)، فحينئذ يعم الخير وتتسع رقعة

البر ويستأنس الناس بقيمة الإيمان في هذه الحياة.
ونستطيع أن نلخص المعنى العملي للإيجابية في الخدمة الاجتماعية متمثلا في: المبادرة إلى القول أو الفعل الخيري بباعث ذاتي يوجه الإنسان نحو تنمية المجتمع ورقيه وسعادة أفراده ورغد معيشتهم، وذلك بالتسديد والمقاربة ومعالجة الخلل ومداواة القصور، في إطار ما يمكن تسميته بثقافة الرضا الاجتماعي، التي تعكس امتنان المفعول لهم لمبادرة الفاعل؛ فنحن إزاء حالة من الإيجاب والقبول بين مكونات الجملة الفعلية الخيرية؛ فإذا رأى زيد عمرا يوشك أن يسقط فبادر زيد إلى إقالته من عثرته.. هنا يكون قبول عمرو أمرا مفترضا بالنظر لحاله التي استجاب لها زيد فساعده بتلقائية الفطرة السوية والسجية النبيلة والذوق السليم.
وأتصور أن الإيجابية لكي تتحقق بمفهومها التنموي الاجتماعي إنما تتطلب بداية:
قدرا معتبرا من احترام الحريات وحقوق الإنسان في المشاركة الاجتماعية، بمبادرة ذاتية أو من خلال مؤسسات المجتمع الأهلي، التي من شأنها أن تعزز في الإنسان روح الإقدام والمبادرة إلى الفعل الإيجابي، بما تقتضيه الفطرة السوية والبديهة الاجتماعية، دونما تهيب ولا تراجع أو انكماش.
نموذجا بشريا مؤمنا ذا استجابة عالية للتحديات، ولديه قابلية مشهودة للتفاعل الإيجابي الرشيد مع معطيات النهضة المدنية والبناء الحضاري المتميز..
والإنسان الإيجابي شخص متفان مقدام.. غير متهور.. سريع الاستجابة لدواعي النجدة والخدمة والعطاء الاجتماعي... أي سابق بالخيرات.. مستبق الناس إليها.. متسابق في مجالها.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (المؤمنون:٦١)؛ فالسابقون بالخيرات هم الذي يتحسسون حاجات الناس فيسعون إلى تغطيتها والوفاء بها... وهم الذين يتلمسون أسباب رقي مجتمعهم ورفعة أمتهم؛ فيستشعرون الواجب وينهضون لأدائه دون توان أو انتظار مقابل عما يعملون من خير.. إنهم بلسان حال وصف الذكر الحكيم يقولون: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان:٩).
وفي وصف أدق لإيمانية الخدمة الاجتماعية يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ (المؤمنون:٦٠).
ولقد ضرب رسل الله وأنبياؤه المثل الأعلى في الخدمة الاجتماعية المتفانية، وفي العمل التطوعي المخلص.. فرصد القرآن الكريم نماذج نبوية إصلاحية كم ضحت وتفانت بإخلاص لله تعالى في توعية وتبصير وإصلاح وخدمة مجتمعاتهم، من أجل بنائها بناء راسخا متينا متماسكا.. لم يتوخوا في ذلك أجرا ولا ثناء ولا شكورا.. ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء:١٠٩).
قال تعالى مصورا مشهد موسى عليه السلام وقد بادر الفتاتين سائلا إياهما حول موقفهما الذي يمتزج فيه الحياء القلق بقلة الحيلة إزاء تدافع السقاء على الماء دون مبالاة بالآخرين، ولاسيما إذا كن بنات يؤثرن العفة بالالتفات عن غوغائية الرعاء.. وقد استجاش مروءته واستثار همته موقف ابنتي شعيب -وهما تجيبانه عن ظروفهما بحديث وقور يستثير نخوة ومروءة كل ذي نفس أبية غيورة.. فيما تبدوان قليلتي الحيلة لا تستطيعان سقي أغنامهما وسط الزحام المتدافع.. وفي جو الحر الشديد.. وأبوهما فيما يبدو من حديثهما شيخ لا قدرة لديه على النهوض بهذه النوعية من الأعمال.. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَا﴾ (القصص:٢٣)؛
وإذا توقفنا قليلا عند قول موسى ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾، فهو سؤال ينم عما استرعاه من علامات الحرج التي بدت على الفتاتين كلتيهما.. حرجا ممتزجا بإيحاءات الخطاب الحيي الوقور الذي استلفت نخوته ومروءته فبادر بسؤالهما عن شأنهما وكلتاهما تعانيان حيرة الاضطرار.. فأفصحتا عما يهمهما حين تفرستا صدق لهجته وتبينتا أمارات رجولته البارة ونخوته الملتزمة.. حيث ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ (القصص:٢٣)؛ فما كان من موسى إلا أن بادر متطوعا بالسقي لهما دون سابق معرفة أو تحر لأجر أو انتظار لشكر مقابل موقفه الكريم.. ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ (القصص:٢٤).
ولعلنا نلاحظ أن ورود الفاء في صدر الجملة الفعلية الإيجابية: إنما يدل على فطرة الخير المتبادرة إلى التجاوب المتفاعل مع متطلبات الموقف بمسؤولية واقتدار متجرد،

ومهما كانت التضحيات.. فالإنسان الإيجابي رجل موقف، وقف لله تعالى على خدمة أهله ومجتمعه.. ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (هود:٥١).

وفي سياق موازٍ، نجد أن النص مشحون بمعان ودلالات اجتماعية بالغة العمق والحكمة والثراء.. إذ نلمس إشارات مقتضبة إلى أن المرأة المسلمة كانت تخرج للعمل والمشاركة في الخدمة العامة، بحسب متطلبات الحياة وضرورتها ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾.. ذلك على الرغم من أن ذلك المجتمع لم يكن في مجمله مسلما، ولم يكن متمتعا بقدر كاف من النزاهة والعدل والصلاح والعدالة الاجتماعية التي تغري بالاندماج فيه والتفاعل معه.. قال تعالى يصف حال مجتمع مدين وأوضاعهم العقدية والأخلاقية: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (الأعراف:٨٥).

لكن إيجابية شعيب النبي ومسؤولياته الإيمانية الأخلاقية عن مجتمعه.. كانت تقتضي الدعوة والإصلاح والتوجيه الاجتماعي والترشيد الأخلاقي توخيا للفلاح وتأملا في الخير والصلاح للبلاد.. فقد أفنى شعيب عمره في محاولات إصلاحه بمنطق الحكمة والموعظة الحسنة؛ ترغيبا وترهيبا، تشفقا بهم وتشوفا إلى هدايتهم.. ولم يزل على مبدئه.. يتخولهم بالموعظة والخطاب الأخوي الشفوق، ويتوخاهم بالرعاية الأخلاقية والمتابعة الدءوبة لأحوالهم حرصا عليهم.. وبذل النصيحة لهم تحذيرا وتبشيرا.. مبديا حرصه على الوحدة الاجتماعية والتوافق العام ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (هود:٨٨). وقد أدى شعيب خدماته الاجتماعية في إطار المهمة النبوية، رغم التعريض به وبمن معه، والانتقاص من شأنهم وتهديدهم وممارسة الإكراه الأيديولوجي عليهم، والتلويح بطردهم من وطنهم.. قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ (الأعراف:٨٨).

لكن كل ذلك لم يثن شعيبا والذين معه عن استمرارية الخدمة الاجتماعية كفطرة ورسالة، بل كانوا يتحرون أسباب كل باب ينفتح على الحوار معهم ويتيح لهم أكبر قدر من ممارسة واجباتهم تجاه مجتمعهم مهما كانت المعوقات.. ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ (الأعراف:٨٩).

وبرغم كل التحديات التي واجهته على الصعيد الاجتماعي العام، فهو لا يفتأ يذكر قومه بالرابطة الأخوية القومية والوطنية المشتركة، أملا في فلاحهم وصلاح أحوالهم الاجتماعية.. فيربأ بهم عن الشرك والظلم والغش والانحراف.. مبديا إشفاقه عليهم من سوء العاقبة.. وهو في ذلك يشجعهم ويستجيش فيهم نخوة الخير ويقظة الضمير.. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ (هود:٨٤). إنها المسؤولية الاجتماعية، كانت بمثابة ثقافة ونزعة إيجابية وسمة إصلاحية من سمات أسرة شعيب عليه السلام.

إيجابية المشاركة في العمل الاجتماعي

لكننا على الجانب الآخر، نجد أن الإيجابية فضلا عن كونها تحقق ذاتا محترمة للإنسان، فإنها في الوقت ذاته تشبع غريزته الاجتماعية وتنسجم مع مقتضى طبعه المدني، وتجعل هذا الإنسان رقما مهما في أية حسابات اجتماعية وسياسية وحضارية يصعب تجاهله أو تجاوزه.

الخدمة العامة: المنطق والمجالات.. وخرائط «العموميات»

هبة رؤوف عزت
أستاذة جامعية - مصر

تعرف الخدمة العامة بأنها المساهمة في أنشطة هدفها المصلحة العامة، ويشارك فيها الفرد كمواطن من دون توقع عائد مادي أو وجود مصلحة شخصية مباشرة. وهي خدمة تقوم على فلسفة التطوع والشعور بمسؤولية الانخراط في قضايا المجتمع وشؤونه وشجونه.



اعتبر فيلسوف الإغريق أرسطو أن الخدمة العامة شرط المواطنة، فمن لم يسهم في تقديم خدمة للمواطنين في أبنية الإدارة العامة أو الحكم، فقد افتقد ما يجمعه بالآخرين حول منافع عامة هي لب فكرة الجمهورية. وبالتالي، لم يعده مواطنا كاملا. وفي بعض البلدان يقوم كل المواطنين بأداء نوع ما من الخدمة العامة، التي تصبح معيارا للتقييم في الوظائف أو للفوز بمنح دراسية أو بفرص في التعيين في بعض المصالح أو الترقي في الوظيفة، فضلا عن الطلاب الذين يعتبرونها جزءا من بناء القدرات والمهارات وتكريس معنى الولاء والانتماء. وتستبدل بعض المجتمعات الخدمة العامة بالخدمة العسكرية، وتعتبرها خيارا مدنيا مناسبا في حال عدم رغبة الشخص في دخول الخدمة العسكرية لأسباب وظيفية أو أسرية أو دينية وثقافية.

وقد نشأ في العقود الأخيرة من القرن العشرين تقاطع بين الخدمة العامة والتنمية والعمل على بدائل في مجالات النهوض بالمجتمع، وانتقلت الخدمة العامة من مجال التطوع أو الإلزام إلى مجال الاختيار كمجال تخصص وعمل. فقد أدركت أجيال جديدة أن التنمية ليست الخطط والبرامج الاقتصادية التي تهدف إلى تحقيق النمو وسد الحاجات الأساسية وتحقيق تقدم المجتمع فقط، بل يمكن أن تكون مجالا للتخصص.

وتدار نهضة المجتمعات من المجتمع وليس بشكل مركزي من قمة الهرم، وإن رفع مستوى العامة من الناس ونوعية الحياة التي يعيشونها هو المؤشر الحقيقي للتقدم وليس الإحصاءات المعقدة التي تخفي واقع الفروق الطبقية والجهوية وفقر الخدمات وتفاوت النصيب من الثروة والقوة.

فالتنمية، التي تقودها الخطط الوطنية المركزية منذ الاستقلال، أهملت الجوانب المعنوية في حياة الإنسان، واعتبر البعض مراكمة التكنولوجيا مؤشرا للنهوض، في حين أن وضوح المرجعية وتعدد البدائل ومشاركة الناس من أهم البدايات.

العموم ودلالاته

حين نتحدث عن الخدمة العامة ودورها في النهضة، فإن الخدمة العامة لا تكون سد الثغرات، بل بناء القدرات وتحديد المسارات بمشاركة المواطنين في مساحات «العام». والسؤال عن أوجه العموم وخرائطه يصبح نقطة انطلاق مهمة.

وفي العالم المعاصر سلسلة متضافرة من مساحات «العام» تتنوع علاقة المواطن بها وتتفاوت، منها:

– المصلحة العامة، التي تسعى الخدمة العامة، بتعريفنا السابق، لتحريها وترشيد السلطة السياسية كي لا تستأثر بتقديرها وتحتكر تقريرها.

وعلى ذلك، فالخدمة العامة ليس دورها سد ثغرات تقصير الدولة ولملمة ما يتبعثر منها، بل المشاركة عبر تحديد المصلحة العامة التي تخدمها في إعادة تعريف تلك المصلحة ورسم خرائطها.

– الملكية العامة، حيث إن الخدمة العامة تعني شعورا بملكية الوطن وواجب رعايته، وهي في ذلك تدعم الحس الذي يقف وراء الحفاظ على الملكية العامة. لذلك، فالخدمة العامة قد تكون أيضا مشاركة في دعم توجهات أو التعبير عن تصورات تحافظ على الملكية العامة من التبديد في مجالات الاقتصاد والتعليم والثقافة على سبيل المثال.

– المجال العام – الجدل العام – الرأي العام، فبناء المشترك بين المواطنين خارج أبنية الدولة وخارج هموم «الخاص» يستلزم وجود مجال عام آمن للأفراد، وإتاحة جدل عام حر ومفتوح لا يشوبه الاحتكار؛ لبلورة توجهات الناس نحو المشترك بينهم من قيم ومصالح وسبل الحفاظ عليه. والخدمة العامة في مجال التثقيف والدفاع عن الحريات –مثلا– قد تكون بابا مهما لذلك.

– المكان العام، فحيث لا توجد مساحات مكانية مشتركة بين الناس (تتجاوز الأسواق) لا يوجد مجال عام. ومساحات السوق والاستهلاك ليست مكانا عاما في سياق حديثا، بل هي مساحات ضد فكرة المجال العام، لأنها تدور حول المتعة والاستهلاك المادي وليس العطاء والتشارك المعنوي.

– الحياة العامة، وهي وعي المواطن بأن هناك ما هو عام في حياته يتجاوز شؤونه الفردية. ومن المهم هنا أن نؤكد أنه لا حياة عامة من دون حياة خاصة، أي إن ميزان الخاص والعام في كل مجتمع هو الذي يحدد كلا المفهومين.

الخدمة العامة والتمكين

ليس غاية الخدمة العامة في زمن النهضة وتحدياتها الدوران في دعم أداء النظام السياسي وسياساته الاجتماعية من أسفل كما أشرنا؛ بل دعم مدنية المجتمع بالأساس، وتقوية شبكات المصلحة العامة في جذورها المجتمعية. وعلى ذلك، فقد شهد كثير من المجتمعات في نصف القرن الماضي صحوة لشبكات المواطنين التي تتولى ملفات متنوعة وتقوم بوضع العديد من البدائل تحت نظر صانع القرار في العديد من الملفات الاجتماعية، بل وبدأت تلك الشبكات المواطنية في مناقشة قضايا لم يكن المجتمع يتدخل



فيها، مثل: تحديد أولويات الأمن القومي، ونقاشات ملفات التسلح والحــرب، ومستقبل السياسات العلمية والتكنولوجية.

وعلى ذلك، فالخدمة العامة باتت درعا للمجتمع، ليس ضد انفراد الدولة بتحديد مسارات «العام» فقط، بل كذلك تحجيم الشركات العابرة للقارات التي لا تأخذ المصلحة العامة لكل مجتمع في الاعتبار، بل مصالحها الدولية.

وقد يقول قائل إن ما سبق هو حديث عن المجتمع المدني وليس الخدمة العامة، والحق أن مفهوم المجتمع المدني ذاته يتعرض إلى مراجعات شديدة، حيث إن سيطرة الأنظمة على التشريع وعلى المؤسسات جعلت المجتمع المدني يلعب دورا محددا في السياج المأذون له به، أما مفهوم الخدمة العامة، الذي نسعى هنا لإعادة بنائه، فيتجاوز مأسسة المجتمع المدني (ولا ينفيها)، كما يتجاوز جماعوية الحركات الاجتماعية، سواء في أشكالها القديمة (الحركات الاجتماعية الأيديولوجية الضخمة المهيكلة) أو صيغها الجديدة (الحركات التي تركز على أهداف بعينها للضغط، وصيغ رخوة للعضوية، وآليات متنوعة للضغط).

ما نقدمه من مفهوم هنا ينصب في الحقيقة على الفعل ذاته، وعلى الذات الفاعلة. وعليه، فالمفهوم ينبني على درجة أعلى:

– التلقائية: فالخدمة العامة ينبغي أن تكون دافعيتها الفرد ووعيه بإرادته الفردية ودورها في صياغة الإرادة العامة للناس.

– الشبكية: فالخدمة العامة بمفهومها الجديد تقوم على التشبيك وليس المأسسة، وتوظيف شبكات الاتصال في إشراك عدد أكبر من المواطنين، سواء في رفع الوعي أو التعبئة والحشد أو الإعلام بدوائر ومجالات الخدمة العامة، من أول عناوين المناطق التي تحتاج إلى خدمات حرمت منها، وصولا إلى تحديد أماكن اجتماعات دولية ينبغي التظاهر أمام مقرها دفاعا عن حق أو تأكيدا لموقف.

– المواطنية: إن هذا التصور يربط فاعلية المواطن لا بحيز ضيق من خطط الخدمة العامة التي كانت تقوم بها الدولة وتفرضها، بل بفضاء واسع من الخيارات يجعل من غير المقبول مشاركة المواطن في الشأن العام محصورة في توقيت أو عمر أو مجال أو قضية. وتحرير مشاركة المواطن من لحظة الاستحقاق الانتخابي إلى مسار الحياة اليومية ومنها لصناعة التاريخ.

– العالمية: فمع تقاطع المجالات في ظل عالم تتقارب فيه المسافات وتتقاطع الأجندات، لا يمكن حماية المصلحة العامة والمجال العام وبناء تصور للمستقبل من دون الانتقال من المواطنة القومية للحس الدقيق بالهوية والانتماء خارج الحدود القومية التي رسمها الاحتلال –القديم والحديث– للفعل الفردي والجمعي. ولذلك، لا غرابة أن تسمح بعض البلدان بأداء الخدمة العامة خارج حدودها في دول نامية، كما أنه ليس من المستغرب أن تتواصل روابط المواطنين عبر الحدود في جهود صياغة المصلحة العامة.. للعالم وللبشرية.

إن إعادة صياغة مفاهيم ما بعد الاستقلال التي حكمت تصوراتنا للفعل المدني والحضاري والعمراني، تحتاج إلى الكثير من الخيال.. والمزيد من الفعل الخادم لكل ما هو.. عام ويعم. ونحسب أن فهم تعقد خرائط المنافع والمصالح بالمعنى الشرعي واستعادة معنى الخلافة من السلطان للإنسان هو البداية التي تفرضها تحديات الواقع.. وآفاق المستقبل، وهي بداية تحتاج إلى اجتهاد ومجاهدة وإعادة صياغة الوعي بالذات الفردية والحضارية في عالم متغير.

حق البيئة على الإنسان



أ.د. حسن عبد الغني أبو غدة
كلية التربية - جامعة الملك سعود

إن كلمة «بيئة» كلمة قديمة وحديثة، أما كونها قديمة؛ فلأن العرب عرفوها واستعملوها في ألفاظهم بمعنى: الموضع الذي ينزل فيه الإنسان، سواء كان دارا، أو ساحة، أو شاطئ نهر، أو شاطئ بحر، في المدن، أو في الأرياف، أو في البراري.

وأما كونها حديثة؛ فلأنها نالت من اهتمام الدول والهيئات حظا كبيرا، وما من وقت يمر إلا ونسمع أحاديث وأخبارا عن البيئة وأهميتها، ووجوب العمل على سلامتها وحفظ نظافتها، ومنع تشويهها وتلويثها.

عناية إسلامية مبكرة بالبيئة

إن من يتتبع آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، يجد مقدار ما حظيت به البيئة من اهتمام الإسلام، بل إنه ليطيب نفسا فرحا بغزارة النصوص الداعية إلى رعاية البيئة والاهتمام بسلامتها ونظافتها، وكذلك النصوص المحذرة من الإساءة إلى البيئة، أو التسبب في إفسادها وتلويثها.

وإن أول ما يقرره الإسلام: أن الله تعالى خلق البيئة نقية، سليمة، نافعة، جميلة، تسر الناظرين، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ (ق:٦-٧). والبهيج: الشيء الجميل الذي يدخل البهجة والسعادة والسرور إلى من نظر إليه.

ثم تأتي بعدها آية أخرى فتقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ (ق: ٩-١١).

وفي الآية ٥ من سورة الحج يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ (النحل:١٠-١١). وقال: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن

﴿... فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾. (النحل:١٣-١٤)

وهكذا تشير هذه الآيات ونحوها إلى أن الله تعالى خلق الفضاء، والأرض، والبحار، والأشجار، ومصادر المياه، وغيرها من مظاهر البيئة وعناصرها، خلقها سليمة نقية طيبة نافعة للإنسان، بل إن هذه الآيات أضفت على هذه المذكورات بعدا جماليا وذوقيا لتنبه الإنسان إلى ضرورة مراعاة هذا الخلق النقي الجميل، والحرص على استمراره، والمحافظة عليه.

سلامة البيئة عبادة دينية وخلق كريم

إذا كان الأمر كذلك فإن في المحافظة على سلامة البيئة ونظافتها طاعة لله تعالى والتزاما بتوجيهاته، وفي ذلك كله الخير والثواب، كما أن في العدول عن ذلك - بالإساءة إلى البيئة وتلويثها وتشويه جمالها - مسؤولية دينية، لما يترتب عليها من ضرر وأذى.

وكثيرة هي النصوص المرغبة بالثواب الجزيل لمن أحسن إلى البيئة، وكذا النصوص المرهبة والمحذرة من الإساءة إلى البيئة وما يترتب على ذلك من مسؤولية وعقاب.

روى مالك ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جميل يحب الجمال»، ولاشك أن من الجمال الحرص على مظاهر البيئة التي خلقها الله تعالى زاهية بهيجة.

روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «عرضت علي أعمال أمتي: حسنها وسيئها، فوجدت من محاسن أعمالها، الأذى يماط عن الطريق، ووجدت من مساوئ أعمالها، النخاعة - أي: البصاق والبلغم - تكون في المسجد، لا تدفن». وفي الحديث إشارة وتنبيه للأفراد - وبخاصة المرضى - أن يجتنبوا البصق ونحوه في المستشفيات، والحدائق، والمدارس، والأسواق، وغيرها من الأماكن العامة وطرقات الناس ومرافقهم.

وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «إماطة الأذى عن الطريق صدقة». وهذا يشمل أن يكف الإنسان أذاه عن الطريق برمي الفضلات من السيارة أو الحافلة التي يركبها، أو من نافذة بيته، أو متجره، أو مصنعه.

وفي حديث رواه مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة - أي بسبب شجرة - قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي المسلمين».

وفي حديث آخر رواه مسلم أيضا أن النبي ﷺ قال: «اتقوا اللاعنين - أي: اجتنبوا الأفعال التي تسبب لعن الناس لفاعلها وسبهم له - قالوا: وما اللاعنان؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم»، أي: يتبول أو يقضي حاجته في طرقات الناس وشوارعهم، وعند شواطئ البحار والأنهار، وتحت الأشجار، وعند مواقف الحافلات ونحوها من الأماكن التي يسلكها الناس، أو يجلسون فيها، أو يتفيؤون ظلالها ويستريحون تحتها.

وفي حديث رواه مسلم: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يبال في الماء الراكد» وذلك لما يسببه من تلوث للبيئة، وعدوى للناس، ونشر للأمراض والأوبئة.

وإذا كان أكثر الآيات والأحاديث السابقة يوجب المحافظة على البيئة حفاظا على الصحة العامة، وتحريا للطهارة والنظافة، وتحقيقا للسعادة النفسية من خلال مشاهدة المناظر الجميلة التي خلقها الله تعالى، فهناك نصوص أخرى تنبه إلى أن للسمع، والشم، والذوق، نصيبا من حقوق البيئة العامة في الإسلام.

قال الله تعالى منفرا من رفع الإنسان صوته دون حاجة ولا سبب: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ (لقمان:١٩).

ولا يخفى ما للضجيج والضوضاء من أثر سيئ على البيئة، وتلويث لسمع الإنسان، وتشويش لصفائه، وتضييع لنعمة الهدوء والطمأنينة، وتشويش على ميزة التأمل وحسن التفكير، وتعويق للإنتاج والعطاء المثمر في حياة الناس.

وفي حديث رواه مسلم يقول النبي ﷺ: «من عرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الرائحة»، وفي هذا إرشاد إلى الحرص على الروائح الطيبة وإشاعتها بين الناس، وتهاديها، وتجميل البيئة بها، لتربي حاسة الشم عند المسلم على محاسن الأمور ومكارمها، فيسعى في محاربة البيئة الملوثة أيا كان مصدر تلويثها.

تنوع أساليب حسن التعامل مع البيئة

وهكذا نجد أن للبيئة أهمية ظاهرة ومكانة مرموقة ومبكرة في تعاليم الإسلام وتوجيهاته، وذلك من خلال نهيه عن تلويثها وتشويهها والإساءة إليها، بأي سبب من أسباب التلويث، ولو من مخلفات ونفايات الأفراد، أو الهيئات، أو المصانع، أو السيارات، أو المتاجر، أو الأسواق.

بل إن الإسلام سبق الاهتمام الإنساني المعاصر في الدعوة إلى المحافظة على نظافة البيئة والارتقاء بها، وزاد على ذلك بأن تميز عن الدعوات المعاصرة بأنه جعل رعاية البيئة والحفاظ عليها صورة من صور العبادات التي يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى، وذلك من خلال ترغيبه في تجميلها وتحسين مظاهرها وعناصرها، والمحافظة عليها نظيفة نقية، كما أوجدها الخالق العظيم.

وبهذا يتضح أيضا أن كلمة «البيئة» كلمة خفيفة على لسان الإنسان، ثقيلة في ميزانه، إن هو اتقى الله فيها، فأحسن التعامل معها، ووفّاها حقها الديني والصحي والاجتماعي، وابتعد عن تلويثها، وعمل على الارتقاء بها، وإضفاء مزيد من مظاهر الجمال فيها، ليسعد هو أولا بآثارها، وتفيض هي عليه وعلى من حوله بمزيد من أسباب السلامة والأمن والرفاهية والازدهار.



ترحيل المسؤولية.. الخطر الأكبر

د. خالد راتب
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

المسؤولية أمانة، منطلقها الإنسان، الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه، حيث سواه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وعلمه الأسماء كلها، وكرمه بالعقل، وجعله خليفة في الأرض، يخلف بعضهم بعضا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠). ومن مستلزمات هذه الخلافة وواجباتها تحمل المسؤولية بكل توابعها؛ لأنه قبل الأمانة حين رفضتها المخلوقات: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب:٧٢).

والمسؤوليات المنوطة بالإنسان تبدأ من الأمانة الكبرى.. أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله الذي لا يلوثه شرك ولا رياء. ومن هذه الأمانة الكبرى تنبثق سائر الأمانات التي يأمر الله أن تؤدى.

ومن هذه الأمانات: أمانة الشهادة لهذا الدين.. الشهادة له في النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له.. ترجمة حية في شعورها وسلوكها وأخلاقها، حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس، فيقولوا: ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه، وهو يصوغ غيره على هذا المثال من الخلق والكمال! فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون. والشهادة له بدعوة الناس إليه وبيان فضله ومزيته، ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض، منهجا للبشرية جميعا. وإقرار هذا المنهج في حياة البشر هو كبرى الأمانات بعد الإيمان بالله، ولا يعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة (١).

والمسؤولية الحقيقية قائمة على الرعاية الكاملة والشاملة لما استخلفنا الله عليه، ولا يستثنى أحد من هذه المسؤولية، قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (٢). والكل سيقف بين يدي الله –سبحانه– ليسأل عن أداء الأمانات: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الصافات:٢٤).

وقد عرف أسلافنا الأوائل قيمة المسؤولية وقامتها، وخطر التفريط فيها أو ترحيلها، وقاموا بتحمل المسؤولية بجميع أنواعها (٣)، وضحوا من أجلها بأغلى ما يملكون،

وشهد لهم الله بذلك، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ (الأحزاب:٢٣).

هذا هو حال سلفنا الصالح من المسؤولية، حتى جاء بعدهم أناس -إلا ما رحم ربي- اتسموا بالاتكالية والتطفل على نتاج الآخرين، ولم يقم كثير منهم بما يجب عليه تجاه دينه ووطنه، بل وتجاه نفسه. واتسم أكثرهم بالتنصل من المسؤوليات أو ترحيل المسؤوليات إلى ما يسمى بـ «الجيل القادم»، وعندما قدم هذا الجيل، فإنه أحال أيضا جزءا كبيرا من هذه الواجبات إلى الجيل الذي يليه، حتى تراكمت الواجبات والتكليفات، وأصبحنا نعيش عصر نوازل عامة، لا يشابهه عصر من العصور الإسلامية السابقة.

إننا نعيش في زمن إلقاء المسؤوليات على غيرنا، فالراعي والحاكم يلقي المسؤولية على شعبه، من دون أن يوفر لهم المناخ المناسب الذي يتسم بالعدالة والحرية والكرامة والكفاية الحياتية والإيمانية.. ولا يحدد لهم مسؤولياتهم، ولا يساعدهم على إنجازها على الوجه المطلوب، مع توفير الوسائل المساعدة. وكذلك الرعية، وكثير من أبناء الشعب، يلقون اللوم -كل اللوم- على حاكمهم وراعيهم من دون أن يقوموا بواجباتهم، ويعينوا الحاكم على إقامة دولة قوية يتحمل كل فرد فيها المسؤولية، ولا يرحلها إلى غيره.

وفي الجانب الأسري نرى ترحيل المسؤولية بين أفرادها، فالأزواج يريدون زوجات يعملن بـ«الريموت كنترول من دون توقف»، ويريدون منهن كل حقوقهم كاملة غير منقوصة، والزوجات كذلك يردن أزواجا بمواصفات معينة: «حنون - عطوف - رومانسي - تمتلئ خزائنه بما لذ وطاب...»! وكل من الأزواج والزوجات يطمح في أبناء على أعلى مستوى من التربية والثقافة، يفتخر العالم بهم في كل مكان.. ولكن من غير بذل جهد في تنشئة الأبناء تنشئة طيبة! وعندما يرون من أولادهم غير المأمول، ويفاجأون بتصرفاتهم العوجاء، يرمي الكل باللوم على الآخر، ويتهمه بالتقصير! وهذا لون من ترحيل المسؤولية، يضيع الأولاد بسببه، بدلا من أن يبدأوا صفحة جديدة وصادقة مبنية على المصارحة والمكاشفة؛ لتكون بداية جديدة -حتى ولو متأخرة- لمعرفة المسؤوليات المنوطة بهم، والسعي الجاد بحكمة واقتدار وعزم في تحقيقها.

وهذا المشهد من ترحيل المسؤوليات نجده مستشريا في محافل التعليم بمختلف توجهاته. فالخلل التعليمي والتربوي في العملية التعليمية نتاج محاولة كل من المعلم والمربي والمتعلم ترحيل المسؤولية، فالمتعلم يدفع عن نفسه الفشل والتقصير وعدم نجاحه «التربوي والعلمي» ليقذف به أستاذه ومعلمه، وكذلك المعلم والمربي لا يعترف بتقصيره، ولا يعترف بأنه إن كان صاحب رسالة وهدف فإن العملية التعليمية والتربوية ستؤتي ثمارها، وأن زرعنا هو نتاج ما وضعناه من الحب والبذر.

هذه نماذج من ترحيل المسؤوليات، وقس على ذلك بقية المسؤوليات.

إن كثيرا من الناس يريدون مجدا وحضارة وسعادة من غير جهد وعمل، ومن غير تحمل للمسؤولية. وقد ذكر الله لنا في كتابه الكريم نماذج عديدة من الذين يريدون الهروب من المسؤولية وترحيلها، فسكان السد بين الجبلين قالوا: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ (الكهف:٩٤).

فأراد هؤلاء القوم أن يعطوا المال لذي القرنين، من دون مباشرة العمل وبناء السد، وهذا ما رفضه ذو القرنين، وطلب منهم المعاونة بقوة الأبدان، ليشتركوا في تحمل المسؤولية ومواجهة المخاطر بأنفسهم. ولعل هنا ملمحا رائعا في إشراك القوم في العمل؛ وذلك حتى لا يتعودوا على الاتكالية والفرار من المسؤولية بترحيلها إلى غيرهم.

إن ترك المسؤولية أو ترحيلها إلى الغير، هروبا منها أو خوفا من الوقوع في خطأ ما، سلوك سلبي يؤدي إلى مزيد من التدهور وعدم الترقي، بل يجب الإقدام على العمل مع تصويب الأخطاء تدريجيا حتى يأتي اليوم الذي يكون فيه عمل المسلم والمسلمة كله حسنا، وتكون أخطاؤه نادرة أو منعدمة.

إن انعدام المسؤولية أو ترحيلها مرض خطير يهدد كيان المجتمعات وينذر بكارثة شديدة؛ لأن هذا الترحيل يؤدي إلى توارث الأعباء وتراكم المشكلات والأزمات، والكل يعرف أن تأخير وتأجيل وتصدير الأزمات إلى الأجيال الصاعدة يثقلها بالأعباء، ويعرقل حركة التقدم والحضارة، فينبغي أن نتربى على الشعور بالمسؤولية والقيام بما أوجبه الله علينا، والتخلص مما يحول دون ذلك، والمبادرة الذاتية، ونبذ الاتكالية والاعتماد على الآخرين. وليضع كل فرد بصمته في البناء الحضاري؛ لأنه سيخلد اسمه على جدران هذه الحضارة، فإما أن يكتبه بأحرف من نور يضيء للعالم كله الطريق، وإما أن يكتبه بالمداد الأسود، ليكون علامة بارزة على خذلان صاحبه وتخلفه عن ركب السابقين.

هوامش

١ - الظلال ٢/١٦٠، ١٦١ بتصرف.

٢ - متفق عليه.

٣ - المسؤولية لها أنواع متعددة، منها:

- المسؤولية الدينية: وهي التزام المرء بأوامر الله ونواهيه، وقبوله في حال المخالفة لعقوبتها، ومصدرها الدين.
- المسؤولية الاجتماعية: هي التزام المرء بقوانين المجتمع ونظمه وتقاليده. وقيل: هي المسؤولية الذاتية عن الجماعة. وتتكون من عناصر ثلاثة، هي: الاهتمام والفهم والمشاركة.
- المسؤولية الأخلاقية: هي حالة تمنح المرء القدرة على تحمل تبعات أعماله وآثارها، ومصدرها الضمير.

الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم

د. أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي



من طبيعة العقل الإنساني الاستفسار والتساؤل حول أية قضية أو موضوع يُطرح عليه، لاسيما في مجال العقيدة والاعتقاد، وهذا أمر لا يرفضه الدين الإسلامي الحنيف ولا يضيق به بحال من الأحوال.. بل إنه أجازه وربما حض العقل على ممارسته والإقدام عليه، إيمانا منه بأن الدين الحقيقي لا يقف ضد تطلعات العقل البشري الذي يسعى إلى الوعي بالدين وقضاياه الرئيسية والأساسية.. ويتعامل الإسلام مع هذا الأمر على هذا النحو، لأن التدين الصحيح يُبنى أول ما يُبنى على الإقناع والاقتناع؛ لذلك رفض ديننا الحنيف ممارسة أي شكل من أشكال الضغط أو الإكراه عند ممارسة الدعوة له في أي وقت من الأوقات، قال تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

والحق أن هناك عدة قضايا يثيرها بعض الذين لم تُتح لهم الفرصة الكافية لدراسة هذا الدين دراسة متعمقة، خلافا لما فعلوه عند دراستهم للفلسفات والأفكار الغربية، أو الرؤى والتصورات المستوردة من الخارج.. وغني عن البيان الإشارة إلى أننا لسنا ضد الاطلاع على ما عند الآخر من أفكار ورؤى وفلسفات، لأن في ذلك نوعا من أنواع التواصل الفكري والثقافي والمعرفي مع العقل الإنساني الذي احترمه الإسلام وأشاد به أينما كان وحيثما كان.. غير أن الذي ننادي به ونؤكد عليه هو ضرورة أن يمنح عشاق الفكر الغربي عقلهم الفرصة الكافية والوقت المستحق لدراسة الدين الإسلامي الحنيف وبذل الجهد في فهمه واستيعابه بنفس الدرجة والقدر الذي يعطونه لأنفسهم عند دراستهم للفلسفات الغربية أو الأفكار التي أنتجتها بيئات مغايرة لنا.. لأن من لا يدرس الإسلام بتؤدة وروية تتوقف حصيلته المعرفية عن هذا الدين الحنيف وأسسه ومفاهيمه وقضاياه عند حدود ضيقة، وأطر معرفية غير كافية لإدراك وفهم طبيعته وقضاياه؛ فهما متعمقا ووسطيا.

من هنا نرى بعضهم يكتب أو يتحدث عن بعض القضايا في الإسلام على عجل، ومن دون مخزون معرفي مناسب لها ولعمقها الديني والتشريعي، ولا مانع عنده من أن يغمز هنا أو يلمز هناك؛ معتمدا على الرمزية في الطرح أو الأسلوب غير المباشر في التناول.. وتأتي قضية المحكم والمتشابه في القرآن الكريم ضمن تلك القضايا التي يثيرها بعضهم من دون دراية كاملة بها، أو إدراك سليم لحقيقتها.. ويذهب هذا النفر إلى ترديد التساؤلات والاستفسارات التي يطرحها جماعة من المستشرقين أو بعض المثقفين من بني جلدتنا ممن قرأوا شيئا في علوم القرآن على عجل، ومن دون روية أو دربة على التعامل مع تراثنا وثقافتنا، فثمة تساؤل يتكرر على ألسنة هؤلاء وهؤلاء، مؤداه: ما الحكمة من وجود متشابه في القرآن الكريم لاسيما أن الله تعالى أنزل القرآن لتتحقق الهداية للعباد به كله، وليس ببعضه؟

والحق أن وقوفنا مع مثل هذا الموضوع يأتي لهدفين، هما:

أولا: الإجابة على تساؤل المتسائلين في هذا الموضوع، بهدف الرد عليهم ودحض الشبه التي يحاول بعضهم إثارتها حول ديننا الحنيف وقرآننا العظيم.

ثانيا: المساهمة في توضيح ما قد يغمض على أذهان بعض شباب المسلمين من قضايا ومسائل يثيرها بعض الناس حول هذا الموضوع، الأمر الذي يكرّس لصفائهم الروحي وسلامهم النفسي.

وليس ثمة غرابة في أن يتساءل العقل الإنساني المعاصر عن الحكمة من وجود متشابه في كتاب الله تعالى؛ لأن هذه القضية شغلت قطاعا كبيرا من علماء الأمة السابقين، وسُودت فيها العشرات وربما المئات من الصفحات، الأمر الذي يكشف النقاب عن اهتمام أهل العلم قديما ببيان تلكم المسألة في سبيل إيضاح مكنونها وإبراز جوهرها وحقيقتها.. ونظرا لدقة القضية واستفراغ العديد من علماء أمتنا الجهد في دراستها، فقد تعددت فيها الآراء وتباينت فيها وجهات النظر، ما يؤكد أن أهل الاجتهاد من السابقين أعملوا عقولهم وشحذوا هممهم وقدحوا قرائحهم من أجل إزالة التباسها بإلقاء الضوء عليها، وتجلية الغامض فيها.

ولما كانت بعض الفعاليات المعاصرة تثير مثل تلك التساؤلات فإن واجب المفكر المسلم في العصر الحديث أن يتتبع ما عندهم بالنقد والتحليل ليشفي الغليل المعرفي لمن استوقفته هذه الأقوال وشغلته تلكم الأطروحات.

لقد أورد الإمام السيوطي (٨٤٩هـ-٩١١هـ) في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» أنه «قد حكى ابن حبيب النيسابوري في المسألة -أي المحكم والمتشابه- ثلاثة أقوال، أحدها: أن القرآن كله مُحكم؛ لقوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ (هود:١).. الثاني: كله متشابه؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ (الزمر:٢٣).. الثالث -وهو الصحيح: انقسامه إلى مُحكم ومتشابه» (١).. ومن المؤكد أن الرأي الأخير يستند إلى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ ﴾ (آل عمران:٧).

وقد يتبادر إلى أذهان المستشرقين أو بعض المتعجلين من أمتنا أن ثمة تناقضا بين تلكم الآيات الثلاث، لكن الوعي السليم والصحيح بالقرآن الكريم يوضح كأفضل ما يكون الإيضاح، ويبين كأروع ما تكون الإبانة أنه ليس ثمة تناقض بالمرة، إذ يفهم من الآيات المذكورة أن «المراد بإحكامه إتقانه وعدم تطرق النقض والاختلاف إليه، وبتشابهه كونه يشبه بعضه بعضا في الحق والصدق والإعجاز» (٢).

الفرق بين المحكم والمتشابه

يرصد الباحث في هذا الموضوع أن هناك العديد من الفروق بين ما ورد محكما في كتاب الله تعالى وما هو متشابه، ويمكن الإشارة إلى تلك الفروق بإيجاز على النحو التالي:

أولا: المحكم هو ما نعرف المراد منه مباشرة، لوضوحه أمام العقل الإنساني، أو سهولة تأويله، والمتشابه هو ما حجب الله علمه عن العباد، كموعد الساعة، وخروج الدجال، والحروف التي وردت مقطعة في بدايات بعض سور القرآن الكريم.

ثانيا: لا يمكن تأويل المحكم على أكثر من وجه، بينما المتشابه يمكن تأويله على أكثر من رؤية أو وجهة نظر.

ثالثا: «أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي بن طلحة، عن ابن عباس قال: المحكمات ناسخُه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمَن به ويُعمل به، والمتشابهات منسوخه ومقدّمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به» (٣).

رابعا: إن المحكمات هي الآمرة الزاجرة، وما لم يُنسخ منه، وكل ما نُسخ هو متشابه.

خامسا: أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ابن حيان، قال: «المتشابهات فيما بلغنا: الم، والمص، والمر، والر» (٤).

سادسا: المحكم يُعلم مفصلا والمتشابه يعلم مجملا.

وننوه إلى أنه ليس من أهدافنا هنا دراسة قضية المحكم والمتشابه دراسة وافية متكاملة في هذا السياق، بل إن هدفنا الأسمى والأسنى هو الرد على الذين يتساءلون عن جدوى وجود المتشابه في القرآن الكريم.. ولهؤلاء ومن شابههم في التفكير نقول: أورد الإمام فخر الدين الرازي (٥٤٤ – ٦٠٤هـ) عدة وجوه –ذكرها السابقون– من أهل العلم في فوائد المتشابهات، منها:

«الوجه الأول: أنه متى كانت المتشابهات موجودة، كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب، قال الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ (آل عمران:١٤٢).

الوجه الثاني: لو كان القرآن محكما بالكلية لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلا لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما يُنفر أرباب المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه، فالانتفاع به إنما حصل لما كان مشتملا على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذ يطمح صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوي مذهبه، ويؤثر مقالته، فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب، فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات، فبهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق.

الوجه الثالث: أن القرآن إذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحيئذ يتخلص عن ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبيّنة، أما لو كان كله محكما لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد.

الوجه الرابع: لما كان القرآن مشتملا على المحكم والمتشابه، افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة، فكان إيراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد الكثيرة.

الوجه الخامس: وهو السبب الأقوى في هذا الباب أن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفي فوقع في التعطيل، فكان الأصلح أن يُخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول وهو الذي يُخاطبون به في أول الأمر يكون من باب المتشابهات، والقسم الثاني وهو الذي يُكشف لهم في آخر الأمر هو المحكمات» (٥).

وفي إجابته على تساؤل الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم ذهب الإمام السيوطي إلى افتراض أن هناك من المتشابه ما يمكن فهمه، ومنه ما لا يمكن فهمه.. وكشف النقاب عن أنه يمكننا التعامل مع الأمرين على النحو التالي: «إن كان مما يمكن علمه، فله فوائد: منها الحثّ للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه، والبحث عن دقائقه، فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب.. ومنه ظهور التفاضل، وتفاوت الدرجات، إذ لو كان القرآن كله محكما لا يحتاج إلى تأويل ونظر، لاستوت منازل الخلق، ولم يظهر فضل العالِم على غيره.. وإن كان مما لا يمكن فهمه فله فوائد: منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه، والتفويض والتسليم والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ، وإن لم يجز العمل بما فيه وإقامة الحجة عليهم، لأنه لما نزل بلسانهم ولغتهم وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم دلّ على أنه نزل من عند الله، وأنه الذي أعجزهم عن الوقوف على معناه» (٦).

وبإمكاننا أن نضيف إلى ما قاله السابقون من أهل العلم أن وجود المتشابه يعد دليلا على كون القرآن الكريم ليس من تأليف النبي ﷺ ولا من نتاج تأملاته، لأنه لوكان من إبداعه وتأليفه كما يزعم بعض الماديين والملاحدة لرفع منه تلك المتشابهات كي يجنبه نقد هؤلاء النقاد وتطاول هؤلاء المتطاولين، لكن القرآن الكريم مُنزّل من عند الله تعالى، ولا دخل للنبي ﷺ

في صياغته بالمرة، وكل دوره أنه يتلقاه من ملك الوحي ويقوم بإبلاغه إلى الصحابة، على النحو الذي نزل به من دون أي انتقاص منه أو أية إضافة إليه.. ثم يكون هو المثل والقدوة لهم -ولنا- في العمل به.

وقد يسأل سائل: لماذا لم يقم النبي ﷺ بتفسير المتشابهات في القرآن الكريم لكي يغلق الباب على المتسائلين والمتشككين؟.. ونقول في الرد على هذا الكلام:

أولا: إن النبي لم يقم بتفسير القرآن كله، وكل ما ورد في هذا السياق أنه كان يجيب الصحابة عن تساؤلاتهم الاستفسارية حول معنى بعض الآيات، ولو فسر الرسول ﷺ المتشابهات في القرآن الكريم لضاعت الحكمة من وجودها أصلا، فالله تعالى أنزل هذه المتشابهات لحكمة يعلمها، وأشرنا إلى بعضها سابقا، وتفسير النبي لها كان سيضيع هذه الحكمة ويُذهب المراد من نزولها.

ثانيا: ربما لم يقم النبي ﷺ بذلك لعلمه بأن المجتمع الإسلامي المتلقي لهذا الخطاب القرآني لم يكن مؤهلا وقتذاك لإدراك واستيعاب ما تشير إليه تلك النصوص، فلم يكن المسلمون قد امتلكوا الآليات العقلية والذهنية لاستيعاب كل مرامي ومدلولات الألفاظ والآيات القرآنية بعد.

ثالثا: ربما صمت النبي ﷺ عن ذلك لترك فَهم تلكم المواضع من القرآن الكريم لاجتهادات أهل العلم والعلماء بما يتماشى والروح العلمية والثقافية لأهل كل عصر من العصور، سيما وأن الإسلام يقر الاجتهاد ويفتح أبواب الأجر للمجتهدين من العلماء.

هل للمحكم مزية على المتشابه؟

لم يكن العقل النقدي في القديم -بعد عصر الرسالة- بأقل ضراوة من العقل النقدي الحديث، فلم يترك الأوائل -من خصوم ديننا الحنيف- شاردة ولا واردة إلا قالوا بها وتطرقوا إليها.. فقد تساءلوا قديما هل للمحكم مزية على المتشابه أم لا؟ وقالوا: فإن قلتم بالثاني فهو خلاف الإجماع، وإن قلتم بالأول فقد نقضتم ما اتفقت الأمة عليه من كون جميع كلامه سبحانه وتعالى سواء، وأنه منزّل بالحكمة!. وعلى مثل هذا التساؤل أجاب العلّامة عبدالله البكرباذيّ -فيما نقله لنا الإمام السيوطي- بقوله: «بأن المحكم كالمتشابه من وجه، ويخالفه من وجه، فيتّفقان في أن الاستدلال بهما لا يمكن إلا بعد معرفة حكمة الواضع... ويختلفان، في أن المحكم بوضع اللغة لا يحتمل إلا الوجه، فمن سمعه أمكنه أن يستدل به في الحال، والمتشابه يحتاج إلى فكرة ونظر، ليحمله على الوجه المطابق، ولأن المحكم أصل، والعلم بالأصل أسبق، ولأن المحكم يُعلم مفصلا، والمتشابه لا يُعلم إلا مجملا» (٧).

ولقد كان للعلّامة ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) رؤية في هذا السياق تنتهي إلى ما يلي: «الراسخون في العلم يقولون ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران:٧)، أي: إنهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: أي المتشابه ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: أي الجميع المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له، لأن الجميع من عند الله، وليس شيء من عند الله مختلف ولا متضاد كقوله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء:٨٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ (البقرة:٢٦٩)، أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة» (٨).

الخلاصة

إذا كان قد ظهر بعض أصحاب التشكيك والسفسطة في بعض جوانب عالمنا العربي والإسلامي من خلال تناول قضية المحكم والمتشابه، فلنا أن نستحضر أن رسول الله ﷺ حذرنا منهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ إلى قوله ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ (آل عمران:٧)، فقال: «إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم» (٩).

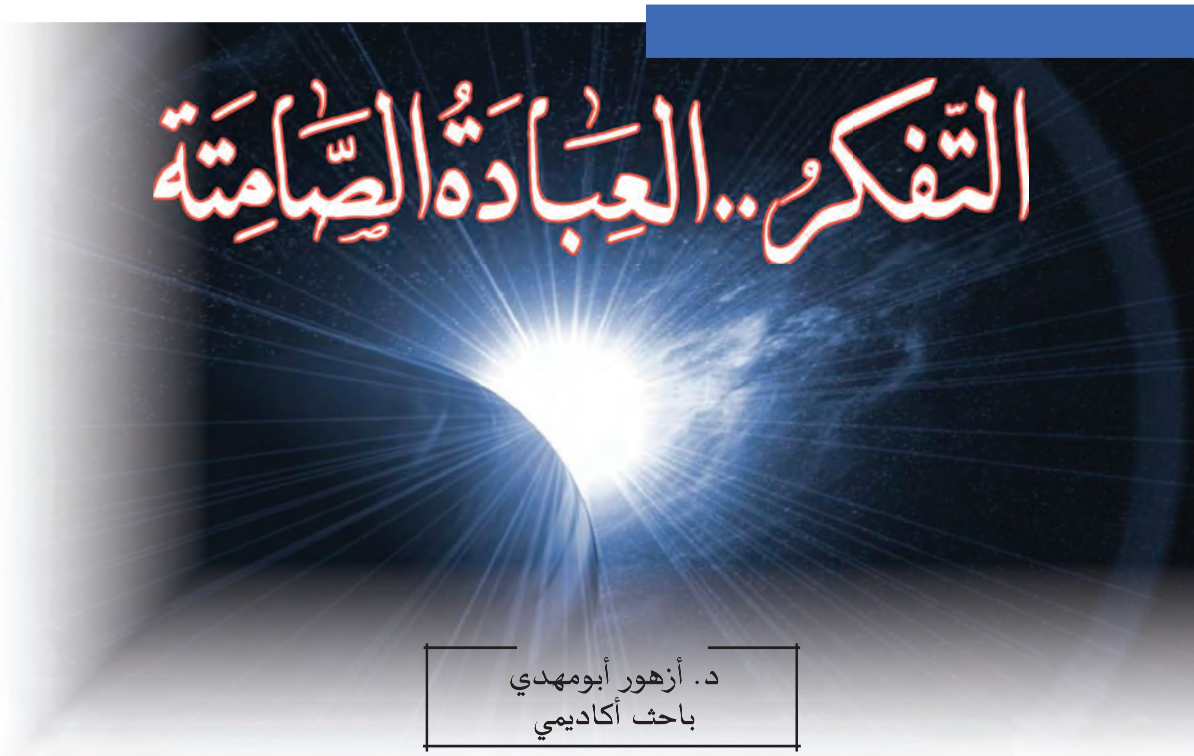
وفي النهاية؛ نشير إلى نقطتين:

أولاهما: أن القرآن الكريم نزل على النبي ﷺ وهو وسط قوم بُلغاء، وكانوا يبذلون جهدهم في الوقوف على أية ملاحظة عليه، غير أنه لم يرد أن كفار مكة أو يهود المدينة.. أو غيرهم، قد تناولوا هذا الموضوع، الأمر الذي يكشف لمن يسير في دربهم أن هذه النقطة لن يفيدهم تناولها والتحدث فيها.

أما الثانية: فقد انتهى علماء الأمة إلى أنه إذا أفاد ظاهر آيتين من كتاب ربنا وجود تعارض بينهما، وصعب الترتيب والجمع بينهما، فإننا نُقدِم العمل بالآية المتأخرة في النزول على المتقدمة، لأنها تكون بمثابة الناسخة لها، وإن تعذر علينا ذلك نعمل بما أجمعت عليه الأمة، لأن الآية التي أجمعت الأمة على العمل بها تعد هي الناسخة.. وبهذا نغلق الباب على كل من تسول له نفسه أن يلون القرآن الكريم بلونه الفكري أو يطليه بطلائه الثقافي.

هوامش

١- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، من دون تاريخ، ج٣، ص٥.
٢- الموضع نفسه.
٣- المصدر نفسه، ص٦.
٤- راجع: تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٩٤) رقم (٣١٦٩).
٥- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، قدم له هاني الحاج، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، المجلد الرابع، ج٧، ص١٦٦، ١٦٧.
٦- السيوطي، المرجع السابق، ص٣١.
٧- الموضع نفسه.
٨- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار التراث العربي، القاهرة، جـ١، ص٣٤٧.
٩- رواه الإمام أحمد وابن ماجة وابن حبان.. وغيرهم.



التفكر.. العبادة الصامتة

د. أزهور أبومهدي
باحث أكاديمي

التفكر في الكون فطرة في الإنسان، والأصل في الإنسان الدوام على التفكر، وقد وهبه الله تعالى العقل وميزه به عن سائر المخلوقات، ونبهه على ضرورة توظيفه لإدراك عظمة الخالق عز وجل وقدرته، من خلال التفكر في آيات الأنفس والآفاق.

يقول الله عز وجل: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾(آل عمران:١٩١).

وقال عزوجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج:٤٦). ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ (الرعد:٢-٤). ويقول عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ (النحل:١٠-١٦).

وغير ذلك الكثير الكثير من الآيات التي تحثنا على التدبر والتفكر في آيات الله وعظمته وقدرته.

فكل ما يحيط بالإنسان من عوالم المادة والفكر والجمال والنظام: هي حقائق تشهد لخالقها بالعظمة

والقدرة، ولسان ينطق بالتوحيد ويدعو إلى العبادة، ووجود يذكر بتجلي الله وعلمه وقدرته في روائع الخلق ومظاهر الإبداع.. يعيشها الفكر اليقظ، ويستوحي معانيها العقل الواعي؛ العقل الذي لا ينسى وجود خالقه، ولا يغيب عن وعيه آثار رحمة ربه، ويراه قائما على كل شيء، ويشهده موجودا في كل حقيقة.

يختلف الكثير من الناس في كنه التفكر، إيلاء منهم بعظيم مكانته، فبعضهم يعتقد أنه التفكير، وبعضهم يرى بأنه الاعتبار والتأمل، وبعضهم يعتقد أنه تدبر آيات القرآن الكريم، وبعضهم يرقى لمعرفة أن التفكر عبادة. ورغم هذه الأهمية فقد غفل عنها الكثيرون وقصروا فيها، وربما استهانوا بها، ظنا منهم أنها محصورة في أعمال الجوارح، وجهلوا أو تجاهلوا أن للقلب كذلك أعمالا يتعبد بها، وقد يكون العمل القلبي أفضل من بعض أعمال الجوارح، لأن «الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح» (١).

والتفكر في حقيقته اللغوية: «الفاء والكاف والراء تردد القلب في الشيء. يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبرا» (٢).

الفَكْرُ والفِكْرُ: إِعمال الخاطر في الشيء.

الفِكْرُ، بالكسر ويُفْتَحُ: إعمالُ النَّظَر في الشَيء، كالفِكْرَة والفِكرَى، بكسرهما.

قال الجوهري: التفكر التأمل (٣).

فجعل الفكر أعم من التفكر، وأدخل في معنى التفكر: الاعتبار إشارة إلى أنه شرط في حصول ثمرته، فالتفكر مشروط بالاعتبار فهو أخص، ولم يقتصر على العقل فقط، بل أشرك القلب والخاطر والنظر، فجولان الفكر يكون بموجب العقل، لأنه زمام التفكر فيقيه سبل الضلال، وأن الخاطر اليقظ والنظر الحصيف، والقلب السليم مستقر العبرة وملاك الانتفاع بها وهي ثمرته المرجوة منه، فالقلب مع العقل في صفاء التفكير مشتركان، والجوارح الأخرى تابعة حين تسخر خدمة له.

وهذا ما أكد عليه في مفهومه الاصطلاحي: كما جاء في التعريفات (٤): «التفكر تصرف القلب في معالي الأشياء لدرك المطلوب».

التفكر سراج القلب يرى به خيره وشره ومنافعه ومضاره، وكل قلب لا تفكر فيه فهو في ظلمات يتخبط. وقيل هو إحضار ما في القلب من معرفة الأشياء. وقيل التفكر تصفية القلب بموارد الفوائد. وقيل مصباح الاعتبار ومفتاح الاختبار (٥).

بين التذكر والتفكر

«وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر، فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت، ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلا عند القلب، فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه، ولهذا قال الحسن: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة».

فالتفكر والتذكر بذار العلم، وسقيه مطارحته، ومذاكرته تلقيحه، كما قال بعض السلف: ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها. فالمذاكرة به لقاح العقل.

فالخير والسعادة في خزانة، مفتاحها التفكر، فإنه لابد من تفكر وعلم يكون نتيجة للتفكر، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم.

فهاهنا خمسة أمور: الفكر وثمرته العلم، وثمرتهما الحالة التي تحدث للقلب، وثمرة ذلك الإرادة، وثمرتها العمل. فالفكر -إذن- هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها (٦). وهذا يعني أن التفكر هو إعمال الفكر إعمالا واسعا وعميقا ومنظما، اجتمع فيه ما هو روحي وما هو بصري وما هو فكري، ليرفع شأن العبد ويقربه من الله سبحانه وتعالى؛ فالتفكر هو التعمق والتركيز الموصل إلى المعرفة الحقيقية بالله سبحانه.

شرف التفكر

التفكر في مخلوقات الله عز وجل من أجل العبادات التي ينبغي للمؤمن أن يشتغل بها، وهو باب مهم للوصول إلى المعرفة الحقة، فهو زناد القلب وغذاء الروح ودم الحياة وروحها وضياؤها، فبه يزداد الإيمان، وتترسخ جذوره في القلب، وبه يعظم الله تعالى ويعرف له قدره، لذلك أثنى الله على عباده المؤمنين الذين يتفكرون في ملكوت الله وفي سنن الكون ونواميسه.

والتفكر عبادة قرآنية مسنونة عن نبينا محمد ﷺ وعن الأنبياء من قبله، وقد حرص الصحابة والصالحون اتباعا لمنهج النبي ﷺ على أن يتفكروا في ملكوت السموات والأرض، لأن ذلك يقود إلى تعميق معرفة الله في القلب، لذلك نجد أن القرآن الكريم والسنة المطهرة اهتما بموضوع التفكر، بالطريقة التي تملأ العقل والقلب بجلال الله سبحانه وتعالى، وتعبر بالإنسان إلى حقائق الوجود ودلالات التوحيد؛ فالتفكر في عظمة الله وتدبر آثار رحمته والإحساس بوجوده، يحول بين الإنسان وبين الانفكاك عن خالقه، فهو يشاهد ويرى تجلي أسماء الله تعالى، ويحس آثار كريم صفاته من عدل وقدرة وحكمة وإرادة، قد ملأت أبعاد كل شيء في هذا الوجود، وتجلت أنوارا ساطعة في كل حقيقة، لتشهد الوجود على نفسه أنه مخلوق من مخلوقات الله العلي العظيم «وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له» (٧)، وقد عدها العلماء عمودا فقريا لبناء الإيمان اليقيني، لأن «التفكر يوقع صاحبه من الإيمان ما لا يوقعه العمل المجرد، فإن التفكر يوجب له انكشاف حقائق الأمور وظهورها له، وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها، وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها...» (٨).

ولذلك كان التفكر من أفضل العبادات، فهو يورث الحكمة، وينشط العقول، ويحيي القلوب، ويغرس فيها الخوف والخشية من الله عز وجل.

من الآثار في فضله وشرفه

سئلت أم الدرداء عن أفضل عمل أبي الدرداء فقالت: التفكر. وقد روي عنه أنه قال: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» (٩).

وقال الحسن: طول الوحدة أتم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة. وقال أيضا: إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة.

قال وهب: ما طالت فكرة أحد قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبدالعزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة. وقال بشر: لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه. ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة (١٠).

قال علي بن الحسن: سئل بعض العلماء: ما الذي يفتح الفكر؟ قال: اجتماع الهم، لأن العبد إذا اجتمع همه فكر، فإذا فكر نظر، فإذا نظر أبصر، فإذا أبصر عمل، فهو متنقل في العمل. قيل له: كيف التنقل؟ قال: تنقله الرغبة في الفضائل حتى يبلغ منها غاية يذيقه الله لطفه به، ويرديه باللطف. فقيل: وما رداء اللطف؟ قال: الخشوع والوقار والسكينة والبر والتواضع، فإذا كان العبد كذلك أوصله ذلك إلى التعظيم له بهن، فإذا كان لله معظما سقاه الله من حبه شربة فتنقله في الأسباب، ثم أتبعه بالعمل له، فهو الذي يعطي ثواب سنة بفكر ليلة، وثواب ليلة بفكر سنة (١١).

منازل التفكر

التفكر له منزلان أو محلان لا ثالث لهما، فإما أن يكون في الدنيا وأمورها وشؤونها، وإما أن يكون في أمور الآخرة، وكل ما يقرب إلى الله عزوجل.

ومن أنفس ما قال ابن القيم: أصل الخير والشر من قبل التفكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض، وأنفع الفكر: الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار، هي أجل الأفكار، ويليها أربعة: فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء. ورأس القسم الأول: الفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه، وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته، من كتابه وسنة نبيه وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخستها وفنائها؛ أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت، وهذه الأفكار تعلي همته وتحييها بعد موتها وسفولها، وتجعله في واد والناس في واد، وبإزاء هذه الأفكار -الأفكار الرديئة- التي تجول في قلوب أكثر الخلق، كالفكر فيما لم يكلف الفكر فيه ولا أعطي الإحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع، كالفكر في كيفية ذات الرب وصفاته، وغيرها مما لا سبيل للعقول في إدراكه (١٢).

وبالجملة؛ فأصل كل طاعة إنما هي الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة؛ فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الأفكار الردية، فيتولد منه الإرادات والعزوم، فيتولد منها العمل، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له وفيما أمر به وفيما هيئ له وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبذره موضعا (١٣).

فـ «إياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك، فإنه يفسدها عليك فسادا يصعب تداركه. ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة. ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك، فملكها عليك... والذي يلقيه الشيطان في النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل في الوجود لو كان على خلاف ذلك، وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون. أو فيما يملك الفكر فيه من أنواع الفواحش والحرام. أو في خيالات وهمية لا حقيقة لها. وأما في باطل أو فيما لا سبيل إلى إدراكه من أنواع ما طوي عنه علمه، فيلقيه في تلك الخواطر التي لا يبلغ منها غاية ولا يقف منها على نهاية. فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح وهمه.

وجماع إصلاح ذلك أن تشغل فكرك في باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلى دخول الجنة والنار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها، وفي باب الإرادات والعزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته «كالتفكر في قبائح ذنوب قد تقدمت، فيوجب ذلك الفكر حركة الباطن وقلق القلب وندم النفس» (١٤)، وطرح إرادة ما يضرك إرادته، وعند العارفين أن تمني الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها أضر على القلب من نفس الخيانة، ولاسيما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها، فإن تمنيها يشغل القلب بها ويملؤه منها ويجعلها همه ومراده.

وبالجملة فالقلب لا يخلو قط من الفكر إما في واجب آخرته ومصالحها، وإما في مصالح دنياه ومعاشه، وإما في الوساوس والأماني الباطلة والمقدرات المفروضة (١٥).

لذلك وجب على المؤمن أن تكون همته متعلقة بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة، وكل من شغله شيء؛ فهمته شغله (١٦).

شروط مساعدة على تحقيق التفكر

ولكي يبلغ المؤمن هذه النظرة يحتاج إلى مجموعة أمور تعينه وتيسر له طريقه وتقربه إلى مرماه ومقصده، ومن أهمها:

- تقوية الصلة بالله عز وجل، إذ هي التي تورث التقوى والخشية والخشوع ودوام التوجه لله تعالى، الخالق البارئ الذي صور كل شيء فأحسن خلقه وتصويره،

فمخافة الله والشعور برقابته، والإحساس بدوام وجوده معه، يبعده عن التفكير في تجريب الخبائث، فيصرف فكره إلى كل ما يرضي الله عز وجل.

- محبة الله تعالى: فأصل المعرفة التفكر، وثمرة المعرفة المحبة، والمحبة غاية كل مؤمن صادق. ومحبة الله تحصل من التفكر في النعم التي أنعمها الله علينا، لأن النفس مجبولة على محبة من أحسن إليها.

- المداومة على تدبر القرآن الكريم، واستنطاق الآيات التي لها تعلق بما يحيي القلب ويصفي النفس.

- المداومة على الاعتبار وتذكر منازل الآخرة.

- المداومة على إعمال العقل والتأمل، وترك فضول القول والعمل، والانشغال بما ينفع.

- طلب العلم والتكثير منه وإعمال النظر فيه، واستجلاب المعرفة وتعليمها للناس، فالعلم هو الثمرة الخاصة للتفكر، وإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح إلى الأحسن والأفضل.

نسمات تفكرية تأملية

وبعد أن علمنا قيمة التفكر وشرفه، وما ورد بشأنه حري بنا أن نقف ساعة ونتفكر: من نحن، ومن خلقنا، وإلى أين المصير، أراحلون أم مقيمون، وإذا كنا راحلين، فإلى أين أإلى جنة أم إلى نار؟

فالحياة بغير الله سراب، ﴿ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ ﴾(النور:٣٩).

تفكر أيها الغادي في الموت والقبور والآخرة... واجعل الهموم هما واحدا، هو هم الآخرة.. وقد يطول بك العجب عندما ترى انشغالك في سفاسف أمور الدنيا، في الوقت الذي تجري فيه المذابح الجماعية للمسلمين هنا وهناك، والكثرة منهم لا تجد رصيفا آمنا تسكنه، فتفكر في أحوال إخوانك...



وما صرنا كالأيتام على موائد اللئام إلا بسبب حب الدنيا وكراهية الموت، ومن كانت الدنيا همه فرق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة.

تفكر.. فأنفاسك تعد، ورحالك تشد، وعاريتك ترد، والتراب من بعد ذلك ينتظر الخد، وعلى أثر من سلف يمشي من خلف، وما عقبى الباقي غير اللحاق بالماضي، وما ثم إلا أمل مكذوب وأجل مكتوب.

تفكر في نفسك وفي عظيم نعمة الله عليك، وكفى بنعمة الإسلام نعمة، فهل أديت شكر هذه النعم؟ تفكر فربما تشكر النعمة التي تعيشها وتنتهي عن البطر، وربما تستحي عندما ترى تقصيرك وتفريطك..

تفكر وتأمل في ملكوت الله، فمن شأنه أن يهدي الحيارى، ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي رفع السماء بلا عمد.. تأمل كيف رفع السماء فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها.. تأمل عجيب قدرة الله في خلقه، وكيف يسير الكون بنظام دقيق.. وتفكر وتفكر وتفكر.

هوامش

١- مفتاح السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة: شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، قدم له وضبط نصه وعلق عليه وخرج أحاديثه علي بن حسن الحلبي الأثري، راجعه بكر بن عبدالله أبوزيد دار ابن عفان، ط ١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦،ج١/ ٥٤٠.

٢- معجم مقاييس اللغة: أبوالحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ج٤/ ٤٤٦.

٣- لسان العرب: ابن منظور طبعة جديدة محققة ومشكولة ومذيلة بفهارس مفصلة، دار المعارف، القاهرة: ج٣٨/ ٣٤٥، القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي، وبهامشه تعليقات وشروح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج٢/ ١١٠.

٤- التعريفات: علي بن محمد الشريف الجرجاني، مع فهرست، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة ١٩٥٨.

٥- المصدر نفسه، ص: ٦٦.

٦- مفتاح السعادة: ج١/٥٤٥.

٧- المصدر نفسه، ج١/٥٤٦.

٨- نفسه، ج١/٥٤٠.

٩- مصنف ابن أبي شيبة، تقديم سعد بن عبدالله آل حميد، تحقيق حمد عبدالله الجمعة، محمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشد، ناشرون، ط ١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج ١٢/ ٢١٩.

١٠- مفتاح دار السعادة: ج١/٥٣٩-٥٤٠.

١١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبونعيم أحمد الأصفهاني، مكتبة الخانجي القاهرة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ج١ /١٤٤.

١٢- الفوائد: ابن قيم الجوزية، تحقيق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث القاهرة، ط ٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص: ٢٩٣- ٢٩٤.

١٣- مفتاح دار السعادة: ج ١/ ٥٤٦.

١٤- صيد الخاطر: أبوالفرج عبدالرحمن المعروف بابن الجوزي، تحقيق وتعليق عامر بن علي ياسين، دار ابن خزيمة، الرياض، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص: ٦٤١.

١٥- الفوائد: ابن القيم، (م س)، ص: ٢٥٩- ٢٦٠.

١٦- صيد الخاطر: ابن الجوزي، (م س)، ص: ٦٤٤.

ضياع الوقت: أسباب ومظاهره

د. أحمد خليل الشال
مدير مركز الدراسات والبحوث
الإسلامية ببورسعيد - مصر

مضيعات الوقت لا تخرج عند الإنسان عن أمرين: مضيعات جبرية، ومضيعات اختيارية.
أما المضيعات الجبرية وهي تقهر الإنسان رغما عنه، فلا يجد فكاكا منها بحكم كونه بشرا، فهي بدورها تتوزع بين مضيعات جبرية ذاتية، وأخرى خارجية.



أما الأولى: فهي تصيب الإنسان ذاته ونفسه رغما عنه، كالمرض والنوم والجوع وقضاء الحاجة.. فهذه أمور لا يملك المرء حيالها أي شيء لدفعها عند توفير الوقت، إذ هي تدخل في صميم فطرته البشرية التي لا يستطيع ردها بحال، ومن ثم نفهم وجه تنبيه النصوص الشرعية وغيرها من حث الناس على اغتنام أوقات فراغهم وصحتهم قبل انشغالهم ومرضهم.

أما الثانية: فهي أمور خارجة عن ذات الإنسان، ولكنه مكلف بها شرعا، ولا يملك حيالها كذلك دفعا ولا ردا، لأنها، كما ذكرت، جزء من حياته المأمور بسياستها رغما عنه شرعا، وذلك كرعاية ذوي الأرحام -كالوالدين ونحوهما- وإعالة زوجة وعيال، وكسب قوت، وضيافة زائر نزل عليك فجأة.

وعلاج هذا الجانب يكون بحسن التخطيط في إدارة الوقت كما سيأتي.

المضيعات الاختيارية

وهي التي يملك الإنسان زمام أمرها، إن شاء ردها ودفعها، وإن شاء رضي بها وأقبل عليها، وفي الأخرى تكون الطامة، إذ في ذلك ضياع حياته هدرا، وقد تكون سببا في ضياع حياته وآخرته أيضا، وهذا دأب من يعيش كالأنعام من الناس، ولا تجد عنده تقديرا لمعنى الوقت ولا قيمته، وإن أدركه وجدته يدركه بقياس غير صحيح، ومعيار غير سليم، فتجد حياته أضيع.

ومظاهر ضياع الوقت كثيرة، منها:

التسويف: وهو من أخطر مظاهر ضياع الوقت، وسببه في الغالب اعتقاد الإنسان أنه سيفرغ في قابل أيامه من الشواغل، ويصفو ذهنه من المكدرات والعوائق، وهذا وهم، لأنك كلما كبرت سنك، زادت التزاماتك، وتكاليفك، وازدحم وقتك بأعباء جديدة وشواغل كثيرة، إذن فالوقت في الكبر أضيق، والجسم فيه أضعف، والطاقة فيه أقل وأدنى. واعلم أن كل وقت له عمله، فإذا فات عمل اليوم اجتمع عليك عمل يومين.. وهكذا.

روي أنه قيل لعمر بن عبدالعزيز وقد مسه التعب من كثرة العمل: «أخر هذا العمل إلى الغد». فقال: «لقد أعياني عمل يوم واحد، فكيف إذا اجتمع علي عمل يومين».

بل كيف إذا علمت أنك لا تضمن أن تعيش إلى غد، وإن ضمنت ذلك، فهل ضمنت أنه لا يكون في الغد مزيد شغل وابتلاء. وصدق القائل: إن يوم العاجزين غد.

وهذ هو طول الأمل الذي حذرنا منه النبي ﷺ (انظر صحيح البخاري:٦٤١٧).

وأعراض التسويف كثيرة، منها:

اختراع الأعذار للهروب من إنجاز العمل.

التفكير في أي شيء آخر خلاف المهمة أو العمل المكلف به.

الاستجابة طواعية وبحث للمفاجآت والمعوقات التي تحول دون إنجاز وإتمام العمل.

الانشغال عن العمل الأصلي بأمور فرعية ليس لها صلة بالعمل الأصلي.

الاهتمام بإنجاز الأعمال الثانوية غير المهمة، بدلا من الاهتمام بما يجب إنجازه فقط.

شغل الوقت الطويل لإنجاز مهام يسيرة لا تحتاج مثل هذا الوقت.

التردد كثيرا قبل الإقدام على العمل خوفا من الفشل.

الكسل، فغالبا ما يقول المسوف: أنا غير مستعد لإنجاز هذا العمل اليوم.

ضياع الهدف: هب أن قائد سفينة يسير في البحر دون أن يعرف له وجهة أو هدفا، هل تظنه يفلح أو تفلح رحلته؟! فكذلك الإنسان إذا ضاع منه هدفه، فلا يعرف لحياته غاية ولا وجهة هو موليها، يعيش هملا، فهل لمثل ذلك قيمة لحياته.

ومن الناس من يضيع هدفه بين أهداف واتجاهات عدة، لا يعرف بأيها يبدأ، وعند أيها ينتهي، فتجده يتخبط بين اتجاهات عدة يضيع بسببها وقت كثير، ولو حدد المرء أهدافه وغايته لقصر عليه الطريق، ولانتفع بوقته كاملا من غير أن يضيع منه شيء، خاصة إذا علمنا أن غايات النفس لا تنتهي، فمن لم يضبطها ويحدد سبلها داهمه الأجل وهو لايزال في الأمل.

الانشغال بفضول الكسب لإشباع الرغبات والشهوات:

فرغبات الإنسان لا تنقضي ولا تنتهي، والناس فيها على ثلاثة أحوال كما ذكر الماوردي في كتابه النفيس أدب الدنيا والدين: «أحدها: أن يطلب منها قدر كفايته، من غير أن يتعدى إلى زيادة عليها، فهذه أحد أحوال الطالبين، وأعدل مراتب المقتصدين. وأما الأمر الثاني: أن يقصر عن طلب كفايته ويزهد في التماس مادته. وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة أوجه: فيكون تارة كسلا، (وهذا لن يعدم أن يكون كلا قصيا، أو ضائعا شقيا)، وتارة توكلا، (وذلك عجز قد غير اسمه، لأن الله تعالى أمرنا بالتوكل عند انقطاع الحيل)، وتارة زهدا وتقنعا، (وهذه حال من علم بتبعات الغنى، وخاف على نفسه بوائق الهوى، فآثر الفقر على الغنى).

وأما الأمر الثالث: فهو أن لا يقنع بالكفاية ويطلب الزيادة، فقد يدعو إلى ذلك أربعة أسباب:

أحدها: منازعة الشهوات التي لا تنال إلا بزيادة المال وكثرة المادة، حتى يصير كالبهيمة.

والسبب الثاني: أن يطلب الزيادة ليصرفها في وجوه الخير، فهذا أعذر وبالحمد أحرى وأجدر.

والسبب الثالث: أن يطلب الزيادة ليدخرها لولده، إشفاقا عليهم من كدح الطلب، وهذا شقي بجمعها، مأخوذ بوزرها، قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذي لب.

والسبب الرابع: أن يجمع المال ويطلبه استحلالا، وشغفا. فهذا أسوأ الناس حالا فيه، وأشدهم حزنا له». ا.هـ. بتصرف.

الجهل بقيمة الوقت: وهو كذلك من الأسباب التي لا تقل خطرا عن سابقيه، فهو أصل كل آفة في هذا الباب، ومنبع كل سوء فيه، وله مظاهر كثيرة يمكن إجمالها فيما يأتي:

أ- الإسراف في المباحات: كالأكل والشرب والنوم والزيارات.. فإن كثرة الأكل والشرب تدفع إلى الكسل والنوم، وكثرة النوم تصيب بالفتور والبلادة، وكثرة الزيارات تصيب الناس بالسآمة والملل والاستثقال، وكل ذلك يدل على عدم تقدير المرء لقيمة وقته، إذ لا يفعل ذلك إلا الفارغ الخاوي الذي لا يشغله شيء، فليس وقته عنده بشيء، ولا يعقل أن تصدر مثل هذه الأفعال من ذي اللب العاقل، الحريص على وقته، المشغول بهموم نفسه ودينه وأمته.

ب- فضول الكلام: جاء في الحكمة: «ما أوتي الرجل شرا من فضل لسانه». فما أكثر هذا الشر في هذا الزمان! فقد كثر كلام الناس حتى غلب أفعالهم، فصرنا نتكلم أكثر مما نفعل، فيزيد الاستطراد ويتفرع الحوار حتى تمضي فيه الساعات الطوال، وكأننا خلقنا للكلام، فما أن تقضى الصلاة حتى ترى إخوانك وقد تجاذبوا أطراف الحديث، وتأخذهم الساعة والساعتان -وأحيانا إلى الفرض التالي- فيما لو أنفق هذا الوقت في مراجعة أو قراءة جزء أو جزأين من كتاب الله، لكان خيرا. وما أن تبصر زميلك فور مقابلتك إياه في العمل أو في الجامعة حتى يسيل فيض زاخر من الحديث الساخن المتواصل الذي لا يكاد يقطعه إلا إشراف مشرف، أو محاضرة محاضر.

فإذا عاد إلى بيته تذكر إخوانه من قرابته وأصدقائه، فلا يتردد عقب غدائه من تفقد أحوالهم ومعرفة أخبارهم وقصصهم عبر سماعة الهاتف نحو الساعة أو يزيد.

هذا مع الأسف الشديد حال أكثر المسلمين اليوم، ولما يدر الواحد من هؤلاء أنه لو أحصى هذه الدقائق والساعات التي ضاعت في فضول الكلام لوجدها في النهاية شهورا وسنين ضاعت من عمره في غير نفع، في حين كان الأمر على النقيض عند أعداء دينه وأمته، فهم يتربصون بنا، يقلون الكلام، ويكثرون العمل في سبيل رفعة باطلهم ودحر ديننا، فاحذر أن تكون بذلك ممن وصفوا في الأثر بشرار الناس، وهم «الثرثارون المتشدقون» (البخاري في الأدب المفرد:١٣٠٨).

ج- الإقبال على ما لا نفع فيه: ما أحرص الشباب في هذا الزمان على مشاهدة مباريات الدوري العام المحلي، والدوري الإنجليزي، والإسباني.. فضلا عن الاستعداد التام لكأس العالم المقبلة التي جاءت عقب الانتهاء من كأس إفريقيا، أو كأس آسيا.. وما أحرصهم على متابعة أحدث الأفلام العربية والأميركية والهندية بمجالاتها المتعددة في الدراما الاجتماعية، والخيال العلمي، والتاريخ السياسي، والقضايا البوليسية.. والمعتدل منهم يكتفي بمتابعة يومية لأخبار الحوادث، والرياضة، وقراءة الروايات والألغاز، فضلا عن حل الكلمات المتقاطعة التي يقضي فيها ساعة كاملة.

ما كل هذا العبث والخطل في إهدار الوقت؟!، فهذا لا يدل إلا على سفاهة منقطعة النظير، وجهالة بالغة بقيمة الوقت الذي تضيع ساعاته هباء منثورا، فيما لا نفع من ورائه لأمة طال سباتها واغترت بأملها، وكيف يكون ذلك من أمة كان سلفها يستثقلون ساعات الأكل والنوم، فيوفرون منها لما عساه ينفع دينهم وأمتهم!!

فإنا لله وإنا إليه راجعون ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ (الحديد:١٦).

د- مصاحبة السفهاء: إن الله تعالى نهى المؤمنين أن يؤتوا السفهاء أموالهم، خشية ضياعها في غير أبوابها، فيقول: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ (النساء:٥).

فما بالك والوقت كما أسلفنا أثمن وأغلى من المال، تهبه السفهاء من أصدقاء السوء، يضيعونه لك

عن طيب نفس منك، رضا بما يصنعون، إن هذا لشيء عجاب!! فإن من يفعل ذلك يكون سفيها مثلهم بلاشك.. أن يؤتيهم عمره يبعثرونه له هنا وهناك في كل لهو وملذة لا نفع فيها ولا فائدة، حتى إذا ضاع عمرك عضضت على يديك نادما ندم هذا الجاهل الظالم لنفسه الذي جاء خبره في كتاب الله، إذ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفرقان:٢٧- ٢٩).

واعلم أن «الأرواح - كما قال النبي ﷺ - جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» (البخاري ٣٣٣٦)، وأنك «على دين خليلك» (مسند أحمد ٢/٣٠٣، ٣٠٤).

فانظر بعد ذلك من الذي ستأتلف عليه روحك فتتخذه خليلا، فإن ائتلاف روحك واتخاذ خليلك مرآة عقلك وقلبك، ولا تغفل بعد ذلك عن قول الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (الزخرف:٦٧).

هـ - فساد التصور: فإن بعض الناس تحكمه مفاهيم مغلوطة عن الوقت وقيمته، فتراه ينظر إلى الوقت بتصورات فاسدة شرعا وعقلا، فمنهم من ينتظر ما ستسفر عنه الأيام، فيما يخص مقدرات حياته ومستقبله، ومنهم من يركن أن كل ساعة تمر إنما هي مقدرة أزلا؛ وأن أي عمل فيها إنما هو تحصيل حاصل، إذ المرء مساق نحو أجله، لا فكاك من قيده وقدره. وهذا آخر تراه في انتظار فسحة من الوقت تنزل عليه في صورة ساعتين أو ثلاث ساعات، يطول بها يومه إلى ٢٦ أو٢٧ ساعة يضاعف فيها عمله..!!

بينما تجد طائفة أخرى تتعلل بعلة عجيبة، وهي قلة الوقت أو عدمه بقوله: ليس لدي وقت، أو: إن وقتي قليل.. عجبا! كيف ينعدم الوقت أو يقل، وقد جعله الله قسمة عادلة بين الناس جميعا، عالمهم وجاهلهم، غنيهم وفقيرهم.. إني أسأل بعد ذلك متعجبا؟! هل توقف الزمن عندك، فإذا يومك غير يومنا، ووقتك غير وقتنا..! ما هذا كله إلا مبررات متواكل، أو حجج عاطل، أو ترهات جاهل..

سوء التخطيط أو عدمه: وأعني بالتخطيط هنا تخطيط الوقت، وهو عملية نظرية يتم فيها تحديد الأهداف، ومعرفة السبل المؤدية إليها.

وسوء التخطيط أو غيابه من حياة الإنسان يؤدي إلى التخبط وضياع الوقت من غير طائل يرتجى ولا ثمرة تحصل، وقد قيل من لم يفكر لغده فليس له غد. وفي الأثر: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

وما التخطيط للمستقبل إلا من هذا الباب، فليس فيه ما ينافي الشرع، ولا يزهد في ذلك إلا من تفرغ قلبه من كل غاية يعيش من أجلها، وهذا يعني في النهاية عدم وجود قيمة لهذا الإنسان ولا لحياته، فهي حياة هائمة فاشلة.

وقد أثر عن بعضهم قوله: «الفشل في التخطيط هو تخطيط للفشل». وفي دراسة عن إدارة الوقت اتفق الباحثون فيها على أن سبب نجاح الناجحين هو تخطيطهم الدقيق، فهم يحددون أهدافهم، ثم يرسمون خططا توصلهم إليها. وقمة هذا الأمر أنك حين تحدد أهدافك، ثم تخطط لتنفيذها، تشعر بأنك في موقع التحكم المسيطر على مسيرة حياتك بإذن ربك، وهذا الشعور يورثك الإحساس بالراحة لأنك على علم بما تتجزه يوما بيوم.

ولكن من ينظر إلى حال أمتنا الإسلامية والعربية لا يجد للتخطيط السليم أثرا في حياتهم -هذا إن وجد التخطيط أصلا- وإن وجد فإنه لا يتجاوز الأيام والأسابيع، مع غفلة عظيمة عن الأهداف البعيدة، وهذا هو سر تقدم غير المسلمين ممن يطلق عليها المجتمعات المتقدمة، إذ إن التخطيط عندهم سمة أساسية في حياتهم ومؤسساتهم، يتعاون الجميع في تنفيذه من غير عراقيل أو عقبات تجدها في المجتمعات الإسلامية والعربية، وهذا يدل على مدى رقي ثقافات ومدركات هذه الشعوب والأمم.

والعجب أن الإسلام أشد الشرائع حرصا على قيمة الوقت من جهة، كما مر بنا في نصوص سابقة، والأمر بالتعاون على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ (المائدة:٢)، وهل هناك خير من التعاون على الحفاظ على وقت المسلم أن يضيع من غير فائدة تعود على المرء، وعلى دينه وأمته..

مراجع

- الفقيه والمتفقه، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، كلاهما للخطيب البغدادي.
- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر.
- إدارة الوقت بين التراث والمعاصرة، د. محمد أمين شحادة.
- فن إدارة الوقت لعبدالله بن مبارك البوصي.
- كتاب ضاعف حياتك، لعطا بركات.

الخبرة وموقعها في اجتهاد القاضي

د. أمينة مزيغة
أكاديمية مغربية

أكد العديد من القضاة على ضرورة الاستعانة بذوي الخبرة عند إجراء الأحكام الفقهية، نظرا لما لهم من دور وتأثير في تسديدها وإصابة المناسب منها على حسب الحالات والخصوصيات، فقد كان الفقيه الحسن بن رحال المعداني (١) «ينصح القضاة بالاجتهاد المبني على غلبة الظن عند الحكم بتضمين أحد الأجراء، لأن اليقين لا يتوفر غالبا، ولأن الاقتصار على تنفيذ أحكام الفقه بجمود دون إعمال الرأي وتقدير الملابسات، يؤدي إلى إضاعة الحق... فهو يقول مستنتجا في خاتمة تعاليقه على مسائل الأمناء والتضمين من حاشيته على شرح ميارة: المدار بحسب ما فهمنا من كلام الناس (يعني آثار الفقهاء) بعد التأمل الطويل، هو غلبة الظن، فإذا وقع للقاضي واقعة من هذه الأمور فليدع أهل العقول والمعرفة من الموضع الذي وقعت فيه الواقعة ويسألهم ما ظهر لهم في النازلة: هل الأمين صادق في ما دعاه من التلف أم لا؟ ألا ترى أن البيات بالسوق إذا ثبت أن رب حانوت ترك بحانوته حاجة ونظرها من كان عنده من الذين تصح شهادتهم، وأغلق البيات أبواب السوق بحضرتهم، وجزموا أن رب الحانوت لا يمكنه الرجوع لأخذ حاجته من حانوته، وفتحت الأبواب بحضرتهم صباحا فوجدوا ثقبا في الحانوت والسوق حصين غاية، بحيث يغلب على الظن أو يجزم بأن ذلك من البيات، فإنه يضمن الحاجة قطعا،... هكذا يدعو الحسن بن رحال القضاة والحكام إلى معرفة حياة الناس والاستعانة بأهل البصر والخبرة والمعرفة بالبيئة واستشارتهم لتتبين ملابسات النوازل، وقد يفضي النظر الدقيق المبني على ذلك إلى تضمين الأمين الذي حكم الفقهاء بعدم ضمانه كما في الصورة التي عرضها ابن رحال لحارس السوق المعروف عندهم بالبيات» (٢).

وذكر القاضي المكناسي في إشارة إلى اعتماد القاضي على الخبراء أنه من حقه «أن ينظر في شهود أهل البصر في المباني ويختبر أحوالهم في أجرتهم، ويشترط عليهم شروطا، منها أن لا يحكموا في حائط لأحد المتنازعين، وإنما يصفونه فقط بوصف يزيل الإشكال ويوضح بالبيان، فيصف الدار أو الحانوت أو الفندق أو غير ذلك بوصف لم يبق معه احتمال باعتبار الخشب والحيطان هل هي معقودة إليها أو جائزة عنها أو مقبلة في منتهى حدها، يصف ذلك من جهاتها الأربع إن كان ذلك البائع شَرَط على المشتري، وإن كان النزاع بين متنازعين نظر فيه القاضي بعد أداء شهادتهم فيه وحكم بمقتضاه» (٣).

وذكر وكيع في كتابه أخبار القضاة قال: «حدثنا عبدالله بن أبي الدنيا، قال: حدثنا محمد بن أبي عمرو، قال: حدثنا سفيان، عن ابن شبرمة، قال: كنت عند الشعبي، فقضى بين اثنين فبصر به، فرجع إلى قولي، قال سفيان: كان القضاة لا تستغني أن يجلس إليهم بعض العلماء، يقومونهم إذا اخطأوا» (٤).

بعض مجالات احتياج «ذوي الخبرة»

الملاحظ أن الفقهاء المغاربة عند تعاطيهم مع النوازل المعروضة عليهم وإلى جانب التحري والتقصي والاطلاع على ظروف الناس والمعرفة بأحوالهم، كثيرا ما كان يُلتجأ فيها وحسب الحالة، إلى ذوي الخبرة في مختلف المجالات، إذ قد يغيب على

القاضي وجه الصواب فيها.

أ- الخبرة في القسمة:

يتخذ القاضي قاسما يقوم بالتثبيت فيما يدعيه المتخاصمون في المساحات والمقادير، وكذلك بقسمة ما يحكم به القاضي في موضوع الخصومة إن حكم بالقسمة، وغير ذلك مما يحتاج إليه القاضي من أمور المساحات والحدود والمقادير، ويشترط فيه بالإضافة إلى ما يشترط في الكاتب أن يكون حاسبا، لأن الحساب عمله، وبه يتمكن من القسمة، فهو كالخط للكاتب، والفقه للحاكم، المقصود أن يكون خبيرا بكل ما يحتاج إليه عمله.

جاء في «التحفة» لابن عاصم:

وكل ما قسمته تعذر
تمنع كالتي بها تضرر
ويحكم القاضي بتسويق ومن
يريد أخذه يزيد في الثمن
وإن أبوا قومه أهل البصر (٥)
وآخذ له يقضي من يذر
وإن أبوا بيع عليهم بالقضا
واقتسموا الثمن كرها أو رضا (٦)

فالقسمة تحتاج إلى قاسم، وقد يتولى القسمة الشركاء أنفسهم إذا كانوا ذوي أهلية وملك وولاية، فيقسمون المال بينهم بالتراضي، وقد يتولى القسمة غير الشركاء ممن يعينونه أو ينبه عليه الحاكم.

واتفق الفقهاء على أنه يشترط في القاسم بجانب سائر الشروط أن يكون أمينا، عالما بالقسمة، عارفا بالحساب والمساحة، ليوصل إلى كل ذي حق حقه، لأنها من جنس عمل القضاء، ولابد من الاعتماد على قوله، والقدرة على القسمة، وذلك بالأمانة والعلم.

ولا يشترط أن يكون القاسم متعددا، فيكفي أن يكون شخصا واحدا ذا معرفة وخبرة عند جمهور الفقهاء، لأن طريقه الخبر عن علم يختص به قليل من الناس، كالقائف والطبيب والمترجم، إلا إذا كان في القسمة تقويم للسلعة فيجب أن يقوم بذلك قاسمان، لأن التقويم شهادة بالقيمة، فيشترط فيه التعدد.



ب- الخبرة في القضايا والنوازل المائية:

ويلحق بالخبير في القسمة؛ أهل المعرفة من مهندسين وأطباء، وتجار، وصناع، وزراع وغيرهم، وهم الخبراء بفنونهم وصناعاتهم، ومثال ذلك دور «المهندز»، (٧) في حل العديد من المشاكل التي تهم الشبكة المائية باعتبار أنه هو «الخبير بخبايا حرفة ما، هو المجرب، أو شيخ البصر أو العريف، وقد يكون ممارسا للمهنة وقد يكون غير ممارس، أي تقدم به السن أو اعتزل الممارسة اليدوية واحتفظ بالممارسة النظرية، وللإشارة فإن هذه الأخبار تورث أبا عن جد، وهذا ما يسمح بتراكم الخبرات والتجارب» (٨). ولابد لمثل هذا أن يكون ممن يستعان بخبرتهم قبل إصدار أحكام لقضايا خاصة ودقيقة، قد لا يكون المفتي أو القاضي ملما بجميع جوانبها، ومعلوم أن المسائل المائية قد احتلت حيزا مهما في كتب النوازل، إذ شكلت مادة فقهية غنية تعطي نموذجا لنوع المنازعات التي كان المجتمع يعيشها، لذلك نجد الفقهاء يعقدون أبوابا وفصولا مهمة في مؤلفاتهم خاصة بالسقي والنوبة ومد السواقي، وشق الترع، والأرحية، والنزاعات بين أصحاب العرصات وبين الأعالي والأسافل (٩)، وغيرها كثير، وإصدار الأحكام في مثل تلك المنازعات لا غنى فيه عن الخبراء.

ومن ذلك كذلك جواب القاضي عياض عن إحدى المسائل المائية التي قيد فيها الحكم والفتوى برأي وشهادة أهل الخبرة والبصر والمعرفة، تقول النازلة: «سؤال

عمن استخرج عين ماء نصب عليها رحى طحنت له مدة ثم إن صهرا له مجاورا في جنة أخرى استنبط (١٠) فيها عينا بينها وبين الأولى أزيد من خمسين ذراعا عرضا، ونصب عليها رحى، وضعفت عين الأول وتعطلت رحاه، وزعم أن ماء جاره المستنبط هو ماؤه، وماء هذا الجار الآخر ضعف ماء الأول، وكان يشتكي من ذلك إلا أنه لم يخاصمه ولم يعترضه في بنائه الرحى المذكورة والنفقة فيها واستغلالها نحو سنتين، إلا أنه يشتكي أنه صرف ماءه عن مجراه وعطل رحاه دون مخاصمة، فلما مات الآخر قام يخاصم، هل بناؤه للرحى بمحضره ونفقته فيها حوز يقطع دعواه في الماء... أم لا يقطعه إلى أمد الحوز المعلوم على التنازع في قدره، وقد علمت ما حكاه ابن سحنون عن أبيه فيمن يخاصم ويترك، أنه لا يدفع له الحوز إلا أن يقولوا لم يزل يخاصم ويطلب، أم لابد في هذه المسألة من الحيازة المعلومة في غيره، بينه مأجورا إن شاء الله» (١١)، وبعد النظر في المسألة كان جوابه كالآتي -آخذا بعين الاعتبار رأي أهل البصر والخبرة فيها-، قال: «الجواب: تصفحت السؤال ووقفت عليه، والذي أراه فيما سَألتَ عنه أن يحلف صاحب العين الأولى في مقطع الحق بالله الذي لا إله إلا هو، ما رضي بإسقاط حقه فيما أضر به صهره فيه بانتقاص ماء عينه، باستنباط العين في جنته، ولا سكت طول هذه المدة المذكورة إلا على أن يقوم بحقه متى شاء، فإن حلف على ذلك كان له أن يقوم عليه بردم العين التي استخرج في جنته، إن قال أهل البصر والمعرفة أنه أجرى بها ماء عين صهره، وأضر به في ذلك ضررا بينا؛ لا يشكون فيه، وبالله التوفيق.

جواب ثان على هذه المسألة: وإذا ثبت عند القاضي -وفقه الله- أن ضعف الماء من عين الأول وتعطيل رحاه إنما كان بما أحدث عليه صهره وحازه من العين التي احتفرها وأنه استفرغ بذلك ماء عين جاره وصهره إلى عينه التي أحدثها بشهادة من يعرف ذلك من العدول أهل البصر الذين لا مدفع فيهم، فللأول لأن يقوم بحثه ويغير بمقتضى الحكم ما أحدث عليه جاره من العين التي أضره بها، ولا يمنع من ذلك سكوته، ولم يكن منه في هذه المدة السالفة رضى بملك مطلوبه وإسقاط حقه. وقد قال -عليه السلام-: «لاضرر ولا ضرار». وقال -عليه السلام-: «لا يبطل حق امرئ مسلم وإن قدم» (١٢).

هوامش

١- الحسن بن رحال بن أحمد بن علي التدلاوي المعداني، عرف ابن رحال بأخلاق كريمة نبيلة، قال أبوعبدالله بن الطيب القادري: «كان كثير الإنصاف والتواضع، سليم الصدر كريم الأخلاق... بعيدا عن التصنع، مصيبا في الكلام، مفضالا جوادا». أخذ عن أعلام كثر منهم الحسن ابن مسعود اليوسي، عبدالسلام بن الطيب القادري الحسني، محمد بن محمد بن أبي القاسم بن سودة الفاسي، ومحمد بن الحسن المجاصي، وغيرهم كثر، ممن يعدون من أعلام المغرب، ومن تلاميذه :أبوالقاسم ابن سعيد العميري الجابري المكناسي، عبدالرحمن بن محمد الجامعي الفاسي، ومحمد بن المبارك الورديغي الفقيه النوازلي، وأحمد بن المبارك السجلماسي، وغيرهم. له تآليف مهمة، وصفها علامة المغرب عبدالله كنون بأنها «كلها في غاية التحرير والإتقان والجمع والتحصيل»، أشهرها شرحه على مختصر خليل بن إسحاق الجندي، الارتفاق في مسائل الاستحقاق رفع الالتباس عن شركة الخماس، تضمين الصناع، وغيرها كثير، سواء في الفقه أو في غيره، توفي رحمه الله سنة أربعين ومائة وألف. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي، الطبعة السابعة عشرة، ٢٠٠٧، دار العلم للملايين بيروت ١٩٠/٢، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن مخلوف، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م- ١٤٢٤هـ. دار الكتب العلمية لبنان. ٤٨٢/١ رقم ١٣٢٨.

٢ – تضمين الصناع لأبي رحال المعداني، دراسة وتحقيق محمد أبوالأجفان، الدار التونسية للنشر، ٥٧، ١٩٨٦.

٣ – شرح ميارة، باب في الضرر وسائر الجنايات ٤٩٧/٣.

٤ – أخبار القضاة لوكيع محمد بن خلف بن حيان، راجعه سعيد محمد اللحام، عالم الكتب.٤٨١/٢.

٥ – والشاهد في هذه الأبيات هي عبارة «أهل البصر»: الذين يتم الالتجاء إليهم في حل إشكالات المنازعات لإعطاء الحكم السديد للقضايا، اعتمادا على تقديراتهم وخبراتهم.

٦- البهجة في شرح التحفة لأبي الحسن التسولي على الأرجوزة المسماة بتحفة الحكام لابن عاصم، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٢٩/٢.

٧- الهندزة: مفهوم «لازال مستعملا في اللسان العامي للدلالة على إمعان النظر والتفكير قبل التطبيق. بمعنى آخر التوقف طويلا قبل اتخاذ قرار ما، وعادة هذا التوقف يكون أمام مشكل مائي قد يكون بسيطا أو معقدا، بمعنى، الهندزة هي اتخاذ قرار ما لحل مشكل». انظر دعوة الحق عدد ٣٩٢، السنة الحادية والخمسون، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م، مقال «من تاريخ شبكة توزيع المياه بمدينة فاس، للأستاذ ملولي إدريس عبدالرحمن، ص١٠٢.

٨- انظر دعوة الحق عدد ٣٩٢، السنة الحادية والخمسون، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م، مقال «من تاريخ شبكة توزيع المياه بمدينة فاس، للأستاذ ملولي إدريس عبدالرحمن، ص ١٠٢.

٩- المقصود بالأعالي والأسافل الحيز الذي تحتله عالية النهر وسافلته. انظر «التاريخ وأدب النوازل.. قضايا المياه بالمغرب الوسيط من خلال أدب النوازل»، لعمر بنميرة -كلية الآداب الرباط- هامش الصفحة ٧٧، فعالية النهر أو الوادي الحيز الأقرب بالنسبة لمنبع النهر، في حين سافلة الوادي الحيز الأبعد الذي يصل إليه ماء النهر.

١٠- استنبط: من النَّبَط: الماء الذي يَنْبُطُ من قعر البئر إذا حُفرت، وقد نبط ماؤها ينبط نبطا ونبوطا، وأنبطنا الماء أي استنبطناه، وانتهينا إليه... والنبط والنبيط: الماء الذي ينبط من قعر البئر إذا حفرت. لسان العرب «مادة نبط».

١١- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام للقاضي عياض وولده محمد، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور محمد بن شريفة، الطبعة الثانية: ١٩٩٧، دار الغرب الإسلامي: ص١٠٠.

١٢- مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ص:١٠١.

لماذا نتصدق؟

هائل سعيد
كاتب يمني

الصدقة طهارة تذهب الأنجاس، وبركة تنمي الإحساس.. فهي تزكية وتطهير، كما هي نماء وتكثير.. وهي برهان الإيمان الأول، وشجرة الإحسان الخالد، تتفتق منها ثمار المحبة كما تتفتق الزهور من أكمامها، فتذوي حظوظ النفس، وتربو بروائحها الزكية براعم الخير، كما تترعرع أخلاق المروءة، وينمو بماء الصدقة كل خلق حسن كما تنمو الزهور بماء الجداول.

كيف لا وهي تجسيد عملي، وبرهان حقيقي، لمعان إيمانية، ومبادئ قرآنية، تشي بما يحمل صاحبها من قيم.. وهي تحقيق للتقوى والمراقبة في أبهى صورهما.

فيا لله ما أعظم الصدقة! فهي تقيل العثرة، وتجبر الكسرة، وتعين على نوائب الدهر، بها تفرج الهموم وتدفع النوازل والغموم، و يبرأ بها العليل ويبارك بالقيل.

بها العقول تهدى والنفوس تشفى والحوائج تقضى، والنعيم المقيم في جنة عرضها السموات والأرض يرجى.. فلا غنى لمؤمل بالخيرات عنها، ولا لمحترس من السيئات منها، فهي الحافظ لمن يخشى النوائب، والمبلغ لمن يطلب المناقب، بها تحقق الآمال وتخفف الأحمال، سيقانها فارعة، وثمارها يانعة، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

فهي مرتع المجهدين وبيدر الطامعين، وهي عنوان المجدين ومستودع الأتقياء، تسمو بها الأرواح وتهمي بها الأفراح، وتواسى بها الجراح. فكم من لهفان أغاثت وهموم جلت، وكم بدلت فقر أناس غنى، وبؤسهم هناء.. وكم أحيت من أناس تشققت جلودهم، وأنحل الجوع أبدانهم، طوتهم الفاقة، وهم أعزاء، حتى جاءت الصدقة بسفينة الندى تحملها الأكف البيضاء، وتحفها الملائكة، جاءت لتحملهم من أزقة الفقر، وأخاديد النسيان، إلى بستان الكرماء، وحدائق المنفقين العظماء.. فلله در من أنفق، لقد أعادت إليهم أنفاسهم وبسماتهم التي خفيت، وأشواقهم التي بليت، فدبت الحياة الكريمة في أرجائهم كما يدب الفجر إذا تنفس، أي فضل سيناله الباذلون! ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا.

الصدقة كالبيضاء لا تخفى ثمارها على مبصر، ولا يجهلها إلا من عمي قلبه وزاغ بصره، أكمامها حانية وقطوفها دانية، وظلها وارف لكل طالب إليها زلفى، ملبيا لنداء من منحه من فضله ثم استقرضه سلفا بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (الحديد: ١١).

وقد جاءت مشروعية الصدقة موافقة للفطرة، فالإيمان بالخلف والعوض منزلة تبلغ بصاحبها أعلى المراتب؛ لأن النفس مفطورة على حب الربح العاجل والحرص عليه، فإن تحول الإنفاق ربحا في شعور المسلم، فقد رسخ يقينه وكمل إيمانه؛ تناغما مع فطرته التي تحب المزيد؛ فيصبح الإنفاق محبوبا يفرح صاحبه ويسره.. وفي الحديث «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن».

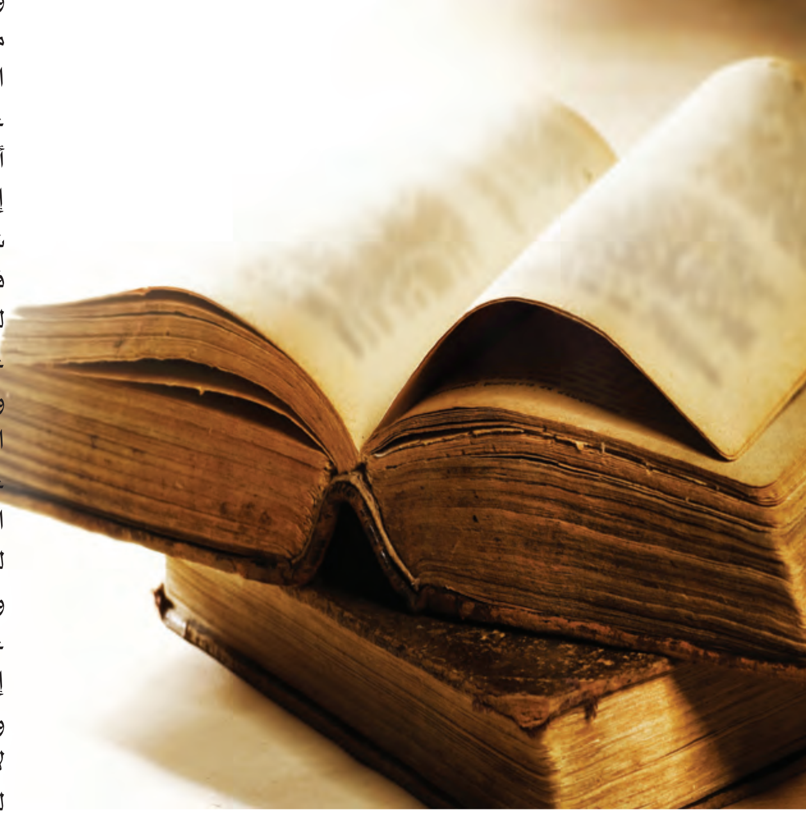
لماذا نتصدق إذن؟ لأننا بحاجة إلى أن تدوم نعم الله علينا، فالصدقة تحفظ النعم كما تحفظ الصخرة تماسك بنيتها، وكما يحفظ الغدير ماء المطر.. فهي حافظة للنعم جالبة للزيادة منها، قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ (إبراهيم: ٧)، فهي شكر عملي بالغ في تثبيت النعمة وزيادتها، وتركها كفران يذهب النعمة ويبددها، فنعم أجر العاملين.

نتصدق لأن الصادق المصدوق أخبرنا بأن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.. وتطفئ غضب الرب، وتوجب لنا محبته، فهو يحب المتصدقين.



القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٣)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



إن عبارة «اللغة العربية الفصحى عنوان الأمة» يجب أن تفهم كما تفهم العلامة السيمائية، التي تقتعد الصدارة وتبرز بروز العناوين على الأسفار المجسدة، لأنها هي لحمة الكيان العربي، ومستودع فكره وثقافته، ورمز هويته، وأداة معبرة عن آلامه وآماله، ومجسدة لروح عبقريته، وموحدة لكتله البشرية التي لا يوحدها أي شيء كما توحدها اللغة. بهذه النظرة اللغوية للحياة تتميز الأمم والشعوب. لاحظ مثلا كيف ينظر العرب إلى القمر نظرة يطبعها الضياء والجمال، بينما لا يرى فيه الإنسان الفرنسي سوى الشحوب والذبول، كما أن الثقافة العربية تُذكِّره، بخلاف الثقافة الفرنسية التي تؤنثه. ولهذا أكد الفيلسوف الألماني هردر أن لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين. كما أن قلب الشعب لا ينبض إلا في لغته، وروحه لا تتجلى إلا في لغة الآباء والأجداد. أما الفيلسوف هيدجر فيؤكد بصيغة الذات المتكلمة أن: لغتي هي مسكني وموطني ومستقري، وهي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها، وبأعينها أبصر بقية أرجاء الكون الفسيح (١)، لأن حدود اللغة مترامية لا نهاية لعوالمها، ولذلك سعى العلماء إلى الربط بين اتساع الفكر ورحابته، وبين اللغة التي تعد مظهرا من مظاهر الأمة التي تستعملها؛ كلما أظهرت الأمة بسطة في العلم والمعرفة، كان ذلك من عنايتها بلغتها، وإذا خبا الإبداع والابتكار في أمة من الأمم، انتقل ذلك الهجوع والهجود إلى لغتها التي يصيبها ما أصاب أمتها، لأن شمس الحضارة لا تضيء حياة الأمم، إلا إذا قرع أبناؤها ظنبوب الاجتهاد في استعمال لغتهم، كما يستعمل القطار سكته، إذا حاد عنها أورد الركاب موارد الهلاك.

وقبل أن نستيقظ على صفير قطار التنمية اللغوية، والمعرفة العلمية والتقنية، وقد غادر المحطة العربية دون أن يأخذ معه الفصحى ضمن لغات العولمة، التي حجزت لها مكانا مرضيا في سماوات العولمة وأرضها، ثم يخلفنا نعض أناملنا ندما على غفلتنا وتغافلنا عن الدركات التي هوت إليها الفصحى في وسائل إعلامنا المكتوبة والمسموعة والمرئية، وفي برامجنا التعليمية، لابد من التأكيد أن تطريز الأثواب الناصعة للعربية، التي تنزع عنها أغلال اللحن

والخطأ، وضروب العاميات، وإخراجها من أجداث البداوة بجوار الشيح والقيصوم والشغموم والدشت، ناهيك عن أمشاج اللهجات واللغات الأجنبية التي تظهر الفصحى عاجزة غير قادرة على تسمية المبتكرات الجديدة، من دون اللجوء إلى اقتراض ألفاظ أجنبية مثل أولاد العلات؛ تبدو على أثوابها الفضفاضة رقعا غريبة عن روح الأمة. إن ذلك التطريز يجب أن ينطلق من جهود الأمة كلها لأجل بناء رؤية محكمة، وفق سياسة لغوية صريحة تضع صوى ومنارات في السبيل المهيع السالكة التي تظهر صراط النجاح ليتبع، وتطرد اللحن والخطأ طردا مذؤوما مذموما مدحورا، لأنه ضلال حوله الاستعمال إلى صنم، ليس من الهين إبادته مما يغزله الصحافيون في ما يقولون وما يكتبون صباحا ومساء من كلام مضر بالفصحى، وما يخطه الشداة من سوءة صلعاء، تعرضت من خلاله الفصحى لكل ألوان الإخلال بالقواعد والقوانين والأنظمة، فاتحين الباب لهذا الوباء سبهللا لتمزيق أحشاء الفصاحة، دون أن ندرك أن الثقافة اللغوية التي لا تدعمها القواعد والأنظمة، ثقافة عرجاء، وأن كل شيء في اللغة يقعد ويمعير، فلا ينبغي أن نحيد عن هذه المعيرة التي تضمن الثبات للغة ما بقي الملوان.

وبما أن وسائل الإعلام المختلفة، والمؤسسات التعليمية بمختلف أسلاكها، هي المحضن الرئيسي المسؤول عن تهييء البيئة السماعية السليمة للفصحى، فإن جهود نابهة الأمة يجب أن تنصرف إلى إعداد الخطط والمشروعات التي تضمن أن ينظر كل عربي إلى الفصحى نظرة الأم الرؤوم التي يغذم لبانها، ويتفيأ ظلالها؛ بواسطتها يحيى، ومن أجلها يبذل المهج كي تبقى صافية شافية مبرأة من كل المغامز. إن توطئة هذا الحرث الإصلاحي، يجب إنماء بذرته في رياض الأطفال، وفي المؤسسات التعليمية الابتدائية، التي نبتت فيها نبتة الخطأ الشيطانية، وترعرعت في الإعدادي، واشتد عودها في التأهيلي، فبلغ أمرها المذمر في الجامعة، ثم فشت فشو الوباء في المجتمعات اللغوية التي انتقل إليها هؤلاء المتخرجون، الذين يكابدون عرق القربة في أثناء التحدث بالفصحى؛ لأننا أخطأنا اعتماد طرق تربوية جديدة تضمن اشتعال وقود الشادي في أثناء التعلم، بإطالة الاستماع إلى الفصحى، ولاسيما أن الوسائل التقنية الحديثة، والبرمجيات اللغوية تتيحان هذه الإطالة وبأشكال مختلفة، تبعد عن المتعلم إحساس الملل والفتور في أثناء التلقي الضمني لدروس اللغة التي تتضمنها النصوص، والتي يجب أن نكرر تسميعهم لها حتى تتقرر في أذهانهم، وتجري بها ألسنتهم دون تكلف. وقديما قيل: السماع أبو الملكات.

إن التمكين للعربية الفصحى لابد أن يؤسس له بإعداد هذه البيئة اللغوية السليمة من خلال تشنيف أسماع الشداة بالسور القرآنية القصيرة، وبالأناشيد العربية التي تذكي الحماسة لحب العربية والوطن والقيم الإسلامية الرفيعة، والتي تربطهم بعروبتهم التي لا غنى لهم عنها في هذا الزمن العولمي الساعي إلى التنميط الماحق، الذي يدخل الشطط في قواعد الفصحى، وفي الخصائص التي تمكنها من التعبير عن الدلالات المختلفة للكلمة الواحدة تبعا لاختلاف حركات مبانيها؛ حيث إن العربية -في هذا الشأن- تظهر قدرة عجيبة لا يتمارى في فرادتها، على شاكلة هذه الألفاظ -طويلة الذيل قليلة النيل- التي أكتفي منها بهذه الجردة المختصرة: ●النَّهْرُ: الماء الغزير. ●النَّهَرُ: السَّعة والضياء. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ (القمر:٥٤)
● النُّهَرُ: العنب الأبيض. ● المَلَّةُ: التراب الحار أو الرماد... ● المِلَّة: الشريعة أو الدِّين... ● المُلَّة: الخياطة الأولى قبل الكف. ● الثَّناء: المدح. ● الثناء: قيد الدابة ذو شقين. ● الثناء: اثنين اثنين.
● الدُّرَّة: اللؤلؤة أو الببغاء الصغيرة.
● الدَّرَّة: اللبن أو الكثير منه. ● الدِّرَّة السوط يضرب به، ومن معانيها: الرواج. يقال: للسوق درَّة. وقد نظم العلامة المغربي أبو محمد عبدالواحد ابن عبدالعزيز المكناسي بعض المثلثات اللغوية على طريقة أبي علي محمد بن المستنير المعروف بقطرب، قائلا في منظومة من ثمانية وثمانين بيتا:

القَسْطُ: جَوْرٌ رُفِضا
والقِسْطُ : عَدلٌ فُرِضا
والقُسْطُ: عود مُرتضى
لِعَرْفِه المطيب
وقال: أما الغَزال: فالرَّشَى
والحَبْل للدلو: الرِّشَى
وبَذلُ مالِ: الرُّشَى
لِحاكمٍ مُسْتَكْلِب

ولقد حرصت على ذكر بعض هذه المثلثات لتذكير صناع البرامج التعليمية، ومعدي الكتب المدرسية، ورجال الصحافة ونسائها بضرورة الانتباه إلى حركات المباني في أثناء النطق ببعض الكلمات التي يتغير معناها المراد من خلال تغير حركة مبناها، ولاسيما أن المشكل الآلي يوفر هذه الخدمة التي تزيل اللبس، كما هو الشأن بالنسبة إلى لفظة «الخدمات» التي ينطقونها بفتح الخاء والدال وهم يقصدون القيام بالحاجة، وهو مخالف للصواب، لأن الخَدَمَات والخدام جمع: خَدَمة: سير يشد في رسغ البعير والخلخال وجماعة القوم. يقال: فض الله خَدَمَتَهُم: فرق جمعهم. وفي المثل: «كالمهورة إحدى خَدَمَتَيْها». وقد اتخذت هند بنت عتبة من آذان الرجال وأنوفهم بعد معركة أحد خدما وقلائد. أما الخدمة التي يقصد بها القيام بالحاجة فتجمع هكذا: خِدْمات. ومن ثمة، فإن الصحيح الفصيح أن نقول: الخدمات الاجتماعية، والخِدمات القانونية.

هذا شعاع ولمع من ضياء فرائد حركات المباني التي تختص بها الفصحى. أرجو أن أفلح في ترغيب الزاهد، وتنشيط الفاتر إلى إدراك أن الخطأ في تسمية الأشياء يفضي إلى سوء الفهم، الذي تنجم عنه الفتن المفضية إلى هاوية التشرذم.

هامش

١ - نحو النهوض باللغة العربية، د. محمد بلاسي، مجلة اللسان العربي، العددان ٦٣ و٦٤، ص٣٢٣ و٣٢٤، مكتب تنسيق التعريب، محرم ١٤٣١هـ/ ديسمبر ٢٠٠٩م، الرباط.

اللغة العربية وفهم القرآن والسنة:
الطريق إلى النور!

د. خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

لقد كان مما انتشر واستقر حقيقة علمية في تاريخ العلم عند المسلمين، أن نزول القرآن الكريم كان باللسان العربي. وهو الأمر الذي أعلنه الذكر الحكيم في ملمح مهم من ملامح التعريف بنفسه، يقول تعالى ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل:١٠٣)، ويقول عزوجل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٥)، ويقول عزوجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢)، ويقول جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (الشورى:٧)، ويقول تبارك اسمه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف:٣).

وكان مما ترتب على هذا الإعلان المستفيض أن فهم العلماء أن منطق الأشياء يفرض أن يعتنى بالعربية وقوانينها وعلومها جميعا، ولم يفتأ العلماء على مر العصور يبينون ذلك ويكشفون عنه، حتى صارت قضية منطقية من لازم عمل العقل عند النظر في مقدماتها.. فترى الشافعي يقول في رسالته: (ص ٤٠ بتحقيق العلامة أحمد شاكر): «ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب»، وتطور الأمر عند المعاصرين فكان من نتائجه القول بأنه لولا القرآن ما كانت العربية -على حد تعبير العلامة رمضان عبدالتواب في كتابه «فصول في فقه العربية»-(ص١٠٨) قاصدا بها: «أن القرآن هو المحور» الذي فجر العلوم اللسانية والعربية وغيرها. ولم يزل هذا الناتج قائما يزداد مع مرور الأيام أنصارا حتى صح أن نقرر أن اللغة العربية لم يكن لها أن تصير لسانا عالميا إلا بفضل نزول الكتاب العزيز بها، ومن هنا فرض منطق الأشياء أن تتقدم المعرفة باللسان العربي، وتتحول إلى منظومة من علوم لسانية تستهدف جميعها خدمة قضية فهم الكتاب العزيز وما معه مما هو من مثله، وهو الحديث النبوي الشريف، حتى صار لازما عقليا القول بأن تحصيل فهم هذين الأصلين العظيمين غير محقق إلا بالتضلع والغوص الشديد والصبر الأكيد على تحصيل العلوم اللغوية والتوسع فيها وفي مقرراتها، من الصوت إلى النص، وأن كل توسع في هذا الباب عائده شهي إلى أبعد الحدود، لا يجادل في ذلك أحد على الإطلاق.

الوعي بقضية أهمية اللغة

وقد كان من أثر منطقية العلاقة وعضويتها بين نزول الوحي باللسان العربي المبين وترقي العلوم اللغوية العربية، ظهور مؤلفات مستقلة تفرغت لمناقشة هذا المشكل العلمي المتعلق ببيان أهمية اللغة العربية لفهم القرآن والسنة في التراث. وقد وصل إلينا من أدبيات هذا الوعي ما يلي:

- الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية لابن عبدالكريم الطوفي الصرصري الحنبلي المتوفى ٧١٦هـ.
- روضة الإعلان بمنزلة العربية من علوم الإسلام لابن الأزرق الحميري الأصبحي الغرناطي، المتوفى ٨٩٦هـ.

لقد اجتهد هذان العالمان في جمع الأسباب الموجبة للعناية باللغة العربية، وجمعا بسبب من تأخرهما الزمني أدلة كثيرة تثبت الحاجة الماسة لترقية علوم هذه اللغة من جوانب كثيرة، كان أهمها ما يتعلق بالكتاب العزيز والسنة المطهرة، وفيما يلي محاولة موجزة لقراءة أهم ما ورد من حقائق في كل منهما:

- الصعقة الغضبية للطوفي المتوفى ٧١٦هـ: حرص الطوفي على الانطلاق من أن إرادة صيانة اللسان من دواعي الفساد والتي بدت ملامحها بتأثير مسلمة الفتح ممن سماهم «هذه الحمراء»، وهو مقصد مهم جدا يمنع عند تأمله من تطرق مادة الفساد إلى الذكر الحكيم والسنة الشريفة، ثم جمع أدلة فضل العربية ووزعها على أنواع ثلاثة، هي: أدلة فضلها من الكتاب ومن السنة ومن صريح العقل، ثم عرج على ذكر فضل من حصل علوم هذه اللغة وبيان عيوب من أخطأ فيها وخلى منها. على أن أهم ما يستفاد من الكتاب في موضوعنا هو ما أورده المؤلف في الباب الرابع

من بيان كون العلم بهذه اللغة أصلا من أصول الدين، ومعتمدا من معتمدات الشريعة، وكشف في هذا الباب على امتداد فصول ثلاثة تأثير العلم باللغة في تحصيل مراد القرآن والسنة، وتخريج الأحكام بناء على قواعد العلم بها، للدرجة التي قرر معها (ص٦٣١) قائلا: «لو استقصينا المسائل الشرعية المعتمدة على القواعد العربية لكانت مقدار ثلث الفقه على ما تقرر»! وسواء صح هذا التقدير أو لم يصح، فإنه كاشف عن مدى الأهمية التي كان يستشعرها الوعي اللغوي في تراث دراسات هذه اللغة، وعبرت عنه أمثال كتاب الصعقة الغضبية في كثير جدا من المواضع.

- روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام، لابن الأزرق الحميري الأصبحي الغرناطي المتوفى سنة ٨٩٦هـ:

وإذا كان الوعي المشرقي، كما تجلى في كتاب «الصعقة الغضبية» ظهر وكشف عن حقيقة تقدير أهمية اللغة العربية لمن رام التعامل مع الكتاب والسنة والشريعة، فإن الوعي المغربي لم يكن بعيدا، وإن تأخر بطبيعة الحال نسبيا، وجاء مستفيدا ومواكبا منجز المشارقة في هذا الباب، وهو ما نلمسه من حجم كتاب ابن الأزرق، ومن تنظيمه الدقيق، فقد توسع في ذكر الفضائل العقلية والنقلية، والمركبة منهما، ثم قرر أن الاحتياج إليها في ملة الإسلام ضروري، وهو ما يعني احتياج الاعتقاد والشريعة إلى اللغة العربية، حتى تقرر عنده بالدليل أنه «يلزم الخوض فيهما (أي اللغة والنحو) بسبب الشرع؛ إذ جاءت الشريعة بلغة العرب. وكل شريعة فلا تظهر إلا بلغة أهلها».

إن هذين الكتابين المستقلين في بيان فضائل العربية، وأهمية تحصيل قواعدها يكشفان عن وعي حقيقي مدعوم بالأدلة والنماذج التطبيقية بقيمة اللغة العربية، وأهميتها لتحقيق الإيمان وتأسيسه، وفهم الكتاب والسنة جميعا!

أهمية اللغة العربية

إن من أكثر الأشياء صعوبة محاولة استيعاب القول في أهمية اللغة العربية لفهم الكتاب العزيز والسنة المشرفة، لتشعب الموضوع، واتساع مسائله، ولكن ربما كان كافيا في هذا السياق أن نشير إلى مجمل ملامح هذه الأهمية فيما يلي:

أولا: تأسيس الإيمان وفق الدليل اللغوي

إن أول الملامح التي تتجلى في سياق قراءة أهمية اللغة العربية في فهم الكتاب والسنة يكمن في أن تأسيس الإيمان لا يكون من دون استصحاب الدليل اللغوي، فقراءة ﴿ إِيَّاكَ ﴾ (الفاتحة:٥)، بكسر حركة الكاف مثلا يفضي إلى مشكلات عقدية مرعبة، تدخلنا إلى جر التأنيث عليه سبحانه مثلا، وهو ما يعني أن تحصيل قواعد اللغة ابتداء من الصوتيات فما فوقها أمر لازم لبناء اعتقاد صحيح مدعوم بالدليل، ومانع من الوقوع في مصايد الخلل الاعتقادي الذي قد يخرج الإنسان من الملة، أو يجره إلى مستنقع عدم تنزيه الله تعالى، أو تقدير ما يصدر عنه مما هو داخل في أصول الاعتقاد أو فروعه.

ثانيا: تحقيق حق التلاوة

لقد جاء الأمر الشرعي بتلاوة الذكر الحكيم حق تلاوته في سياق امتداح فعل من يفعل ذلك، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ (البقرة:١٢١)، وقد جاء في تفسير «حق تلاوته» رأيان، هما:

يقرأونه حق القراءة، ولا تكون إلا بتحصيل علوم لغة العرب، أصواتا وأبنية وإعرابا ونحوا.

يتبعونه حق اتباعه، ولا يكون إلا بعد فهمه، وتحصيل معناه، والاستنباط منه، وقد تقدم أن ذلك لا يتم بدون فهم لغة النص الكريم، مجموعا إليه ما ورد من شروح في السنة المشرفة.

ثالثا: تدبر الذكر الحكيم

لقد أمر الله تعالى بتدبر كتابه في أكثر من آية، يقول تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (ص:٢٩)، والتدبر مرتبة لا تكون إلا بعد الفهم، المنبني على تطبيق قواعد اللغة العربية واستثمارها. وإذا كان التدبر من الأسباب الحاكمة للتنزيل على ما قرره المفسرون فإن تحصيل قواعد اللغة تبعا لذلك يعد من الأسباب الحاكمة لصناعة التدبر، وبناء ملكته.

رابعا: التكاليف الشرعية

إن أهمية اللغة العربية في هذا الباب ظاهرة جدا، والعمل فيما نقلناه عن الطوفي الحنبلي يؤكد ذلك، إذ إنه قرر أن ثلث الفقه -في تقديره- معتمد على قواعد اللغة. وهذا الباب متسع جدا لدرجة أن مبحث حروف الجر أو حروف المعاني مؤثر جدا في كثير من مسائل الفقه الموزعة على الأبواب جميعا.

وقد توسع ابن الأزرق -عن حق- فقرر «أن حفظ الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال، من أعظم مقاصد الشرع... (و) أنها واجبة الحفظ في كل ملة، وحاصل حفظها يرجع إلى كل ما يقيم وجودها»، وقد خلص من هذا إلى أن العناية باللغة العربية والاهتمام بها من موجبات هذا الحفظ.

وقد نشأ من أجل ذلك تفريع للأحكام الفقهية المختلفة تبعا لاختلاف الفهوم للأدلة الشرعية من قرآن وسنة من جهة قواعد اللغة، ومما يدلك على بعض هذا خلافهم في معنى «من» في قوله تعالى في آية التيمم ﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ (المائدة:٦).

إذ حملها بعضهم على ابتداء الغاية، وحملها آخرون على التبعيض، مما كان منه اختلاف الحكم الفقهي المتعلق بالتيمم على رأيين هما:

حصول التيمم دون النظر إلى علوق التراب الطاهر باليد لمن فهم من (من) معنى ابتداء الغاية.
حصول التيمم بشرط علوق التراب الطاهر باليد لمن فهم منها معنى التبعيض. وبسبب من ذلك اتسعت مدونة الفقه وغنيت وتمتعت بثراء عريض دال على فضل العربية وأهميتها في تحليل الأصلين العظيمين وفهمهما والاستنباط منهما.

خامسا: شبهات المنحرفين

وقد ظهرت أهمية كبيرة للغة العربية في فهم الكتاب والسنة في مجال الرد على شبهات المنحرفين وأصحاب الأهواء من أهل الفرق والملل؛ إذ اعتمد كثير منهم على نصوص شرعية حرفوها لتسويغ مقالاتهم في الاعتقاد وغيره، من مثل احتجاج القدرية بالحديث المتفق عليه الذي رواه أبوهريرة عن رسول الله ﷺ قال: «احتج آدم موسى فقال: يا آدم أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال آدم: أنت الذي اصطفاك بكلامه.. تلومني على أمر قدره الله علي.. فحج آدم موسى» برفع «آدم» على أنه فاعل «حج» ونصب «موسى» على أنه «محجوج»، يقول الطوفي: «وبيان ذلك أن الله تعالى تقدم في سابق علمه إخراج آدم من الجنة بسبب الأكل من الشجرة بدليل ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠)، وما علمه الله أن سيكون فهو كائن لا محالة، إذ خلاف معلوم الله تعالى محال وحينئذٍ عدم عصيان آدم محال، وهذا أكبر دليل يحتج به لأهل السنة على إثبات القدر». ثم يقرر أن القدرية حرفوا الرواية ونصبوا آدم. وهو دليل حاسم على التفطن لأثر اللغة في توجيه الآراء والانتصار للاعتقادات. وأهل الأصلين (القرآن والسنة) يلزمهما التضلع من علوم اللغة لخطرها على ما يستنبط من هذين الأصلين في كل مجالات الدين والحياة.

سادسا: أهمية اللغة

إن أهم مصدر لتكوين الدعاة إلى الله تعالى وإمدادهم بمراده يتمثل في مداومة الاتصال بالكتاب العزيز والسنة المشرفة، وعلى هذا انعقد إجماع من أصل لثقافة الداعية من العلماء المعاصرين، ذلك أن القرآن والسنة لا يجودان بكنوزهما إلا لمن ملك مفاتيح التعامل معهما، وهي تلك المفاتيح المتمثلة في قواعد اللسان وأسراره. وتبرز أهمية اللغة في هذا المقام في ملامح بعينها من مثل:
ترقية ملكة البيان لدى الدعاة، مع دوام الاتصال بلغة الذكر الحكيم وسمت كلام النبي ﷺ القائم على الخلوص إلى القصد من أقرب طريق.
تحصيل مراد الله تعالى بدليله اللغوي، تمهيدا لبذله للناس.
ترقية مروءة الدعاة؛ إذ تحسين اللسان يزيد في مروءة الإنسان ويعلي من تأثيره في المدعوين.

سابعا: ترقية العمران

لقد استقر في دراسات الحضارة المعاصرة المرتبطة بالمرجعية الإسلامية تقرير أن القرآن والسنة مصدر لترقية العمران الإنساني، وفق قوانين هذا الدين الثابتة في الأصلين العظيمين. ومما أسهمت تطبيقات اللغة العربية في الكشف عنه في هذا الباب:
أن الظلم معيار وقانون مسقط للعمران.
أن العدل قانون يرقى بالعمران.
أن الفحش وسوء الخلق والسفه في استعمال الموارد مدمر للحضارة.
أن العمل اليدوي أصل ثابت في ترقي الحياة، فقد كشف التحليل اللغوي للقرآن والسنة امتداح العمل، والإخبار عن كثير من الأنبياء أنهم عملوا أعمالا يدوية من حدادة ونجارة وبناء وتشييد...إلخ.
لزوم الأخلاق الفاضلة لتقدم العمران.
العناية بالإنسان أصل كل عناية بالعمران.
إن فهم القرآن والسنة وفق مقررات اللغة وقواعدها كاشف عن أهميتها المركزية في استصدار قوانين العمران وفق التصور الحضاري في الإسلام.

ثامنا: أهمية اللغة في الكشف عن المنظومة الأخلاقية

ومما يعبر عن أهمية اللغة العربية في سياق فهم الكتاب والسنة أنها طريق للكشف عن المنظومة الأخلاقية التي أرساها وأسسها التصور الإسلامي. ومما يمكن بيانه في هذا الصدد ما يلي:
الكشف عن ثبات منظومة الأخلاق الإسلامية التي جاءت نصوصها في الكتاب والسنة مطلقة غير مقيدة بقيود لغوية تمتدح الصبر والصدق والعفة والأمانة والمسؤولية الفردية في السياقات جميعا.
إثبات مركزية بذل حسن الخلق للناس جميعا مؤمنين وغير مؤمنين، إحسانا وبرا في التصور الإسلامي.
إثبات مركزية رعاية الوجود كله في محيطه الإنساني والحيواني والبيئي، فقد تقرر من فهم الكتاب والسنة وفق قواعد اللغة الرفق بالحيوان، وتحريم فجيعة الطير بولده والحفاظ على البيئة وحسن استثمار مواردها.
الإعلاء من القيم الأخلاقية التي تصب في حفظ بدن الإنسان وتهذيب روحه وتأمين نفسه.
إن اللغة العربية في قضية توقف فهم الكتاب والسنة عليها ثم تفعيلهما في الوجود تصل إلى أن تكون محورا وعمادا أساسيا لا يمكن بدونه تصور إقامة الدين. وهو ما يعني أننا في طريقنا نحو النور القادم من الله تعالى يلزمنا أن نمتلئ بما تقرره أحكام اللغة العربية وقواعدها وأسرارها في مستوياتها جميعا.

سلمى تواجه الأرق

محمد ثابت توفيق
قاص وباحث

تستيقظ من نومها دون سبب معروف، تبحث عن الساعة بأناملها الصغيرة حتى تجدها، سلمى الصغيرة استذكرت دروسها وأدت صلواتها في وقت مبكر من موعد كل صلاة، وقامت ليلها بعدة ركعات، ثم قبلت أمها، ودعت معها لأبيها أن يعيده الله سالما، فهو مسافر في مهمة عمل دقيقة، بإحدى الدول البعيدة، تمتمت بدعاء النوم وراحت في سبات لم تفق منه إلا منذ لحظات.

الواحدة إلا ربعا من بعد منتصف الليل، وقد فر النوم تماما من عينيها، قامت من سريرها، حقيبتها المدرسية تنتظر أداءها صلاة الفجر ثم حملها بعد قرابة ساعتين من قراءة القرآن والاستذكار.. ثم الذهاب إلى المدرسة، والهدوء يلف الغرفة كلها الآن في انتظار ارتفاع نداء الحق مؤذنا بالصلاة..

صعدت بصرها في أركان الغرفة، آي الذكر الحكيم في مكانها بأعلى الحوائط ومكتبها، والنافذة مغلقة وتحيطها النافذة، قامت من مكانها.. غرفة أخيها الأصغر يلفها السكون هي الأخرى، وهي لا تريد أن تقلقه، فضلا عن إيقاظ أمها من النوم، جلست على الأريكة في ردهة المنزل ناظرة إلى السقف ذي اللون الأبيض مستغلة مساحة الضوء المعتدلة المتاحة هنا، الخافتة في سائر أرجاء المنزل.

- هل أتصل بإحدى صديقاتي لأصف لها مشكلتي مع عدم القدرة على النوم الآن؟ لعلها تجد لي حلا..

سألت نفسها، ولكنها عادت فقالت:

. ولكن هذا يعني أني سأقلقها.. بل سأقلق أفراد أسرتها برنين الهاتف الأرضي، فإن صديقاتي يغلقن هواتفهن المحمولة حال نومهن..

- هل أتصل بأبي على هاتفه الخاص؛ أستشيره فيما أفعل الآن؟

فقد تعودتُ كلما شعرت بالقلق أن أتواصل معه وأستشيره.. ولكن لماذا أحس هذه المرة أنني أفتقد كلمات مهمة قالها لي أبي؟

ترى أين أنت الآن يا أبي؟

دخلت سلمى غرفتها من جديد.. استلقت في سريرها، لكن النوم أبى أن يستجيب لها، احتارت ماذا تفعل؟!

كادت أن تبكي، فهي المرة الأولى التي تجد فيها نفسها وحيدة في مثل هذا الوقت، فيما الجميع نائم ولا تستطيع التصرف.

- نعم هناك شيء ينبغي لي أن أفعله.. الحمد لله بدأت أتذكره.. نعم استغفار الله.. ثم.. ثم أين ال..

هرعت إلى المذياع أدارت محطة القرآن الكريم.. استمعت إلى الآيات الكريمة من سورة الرعد، فاطمأنت نفسها، وسرت الراحة بين أرجائها، تمتمت بذكر الله كما اعتادت عند نومها، وابتسمت فقد كانت الآية، من وصية أبيها الأخيرة إليها قبل سفره بدقائق، أوصاها إن شعرت بما لا يسرها من أرق وغيره أن تذكر الله تعالى مصداقا لقوله:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ (الرعد:٢٨).



مِنْ جَمَالِ النَّظْمِ القُرْآنِيِّ فِي سُورَةِ الكَوْثَر

د. أحمد إسماعيل عبدالكريم
متخصص في اللغة العربية

سورة الكوثر من السور التي أنزلت على رسولنا الكريم ﷺ للتسرية عنه، والتخفيف من معاناته جراء عناد أعداء الدعوة من الكفار والمشركين، ووقوفهم له بالمرصاد، وهم لا يألون جهدا في محاولة ثنيه عن تأدية هذه المهمة. وقد تنزل عليه الذكر الحكيم يواسيه في كل موقف من المواقف التي تواجهه. وقد جاءت هذه السورة لتكمل فصل التسرية والمواساة، والذي بدأ بسورة الضحى، وأردف بسورة الشرح. وقد تحدى الله عزوجل أساطين الفصاحة والبيان أن يأتوا بمثلها، في إيجازها وإعجازها، وهي أقصر سور القرآن في عدد كلماتها وعدد حروفها، فآياتها ثلاث (١). وعلى قدر قصرها فإنها جاءت محكمة الصياغة، متسقة العبارة، غنية بالدلالة، وقد اعتبر قصرها من صور الإعجاز القرآني، فيقول الباقلاني: «... فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة، وإن كانت سورة الكوثر، فذلك معجز» (٢).

موضوع السورة

وقد تحدثت السورة عن عطاء الله عزوجل وعظيم فضله على رسوله الكريم ﷺ، وما أعده له من الخير الكثير في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة. وقد دعت السورة الرسول ﷺ إلى ألا يكترث بما يقولون، وعليه أن يصمد في أداء المهمة المنوطة به، ومداومة التقرب إلى الله سبحانه، ونحر الهدي شكرا لله الذي من عليه بهذا التكريم. وقد ختمت السورة ببشارة الرسول ووعده بخزي أعدائه، وبترهم من كل صنوف الخير، وإلحاق الذلة والمهانة بهم أينما حلوا، بينما ذكر الرسول ﷺ مرفوع، تنطق به كل الخلائق آناء الليل وأطراف النهار، وعلى مدار الساعة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ترتيب السورة

سور القرآن يترابط بعضها مع بعض برباط دقيق، وتنتظم في بناء متناسق كحبات العقد، فمن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها؛ لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة: البخل وترك الصلاة والرياء فيها ومنع الزكاة. فذكر هنا في مقابلة البخل «إنا أعطيناك الكوثر»، أي الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة «فصل»، أي: دم عليها، وفي مقابلة الرياء «لربك»، أي: لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون «وانحر»، وأراد به التصدق بلحم الأضاحي، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة (٣)، حتى قيل: إن هذه السورة كالمتممة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها.

وقد اختصت كل سورة بخصلة من التكريم لرسول الله ﷺ، بداية من سورة الضحى، والشرح، والتين، وهي على غرار السور المكية، نزلت مؤازرة للدعوة، مؤكدة على تأييد الله تعالى لرسوله ﷺ.

ما الكوثر؟

وقد اختلف في الكوثر، فقيل علم، وقيل وصف. وعلى العلمية قالوا: إنه علم على نهر في الجنة. وعلى الوصف قالوا الخير الكثير (٤). فالكوثر من الصيغة الصرفية «فوعل»، من الكثرة، وصف به للمبالغة في الكثرة، مثل: النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعرب يسمون كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثرا. ويقال: تكوثر الشيء: كثر كثرة متناهية. ومنه قول الشاعر:

وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا (٥)

فالمعنى على هذا: إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية. ومما استدل به على العلمية ما جاء في السنة من الأحاديث الصحاح ذكرها الإمام مسلم وغيره، حيث يذكر المحدثون أن الرسول ﷺ أغفى إغفاءة، فرفع رأسه متبسما، فقال: إنه أنزلت علي آنفا سورة، فقرأ حتى ختمها... ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟. قلنا: الله

ورسوله أعلم. قال: فإنه نهر في الجنة وعدنيه ربي عزوجل عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك» (٦).

النظم في السورة

هذه السورة بناء متكامل يمثل وحدة دلالية متماسكة؛ إذ مقصدية السورة واضحة، وجاءت كل آية في جملة بسيطة لكنها ممتلئة بالدلالات، فافتتحت السورة الكلام بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر، والإشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبي ﷺ (٧)، وجاءت «إن» مدغمة فيها «نا» بصيغة الجمع الدالة على التعظيم، وتكررت «إن» في الجملة الأولى في السورة، وفي الجملة الأخيرة، وقد أكدت الجملتان حقيقتين ثابتتين هما:

■ عطاء الله عزوجل لرسوله ﷺ عطاء غير مجذوذ، ولا محدود، ولا يعرف كنهه أحد غيره سبحانه، لأنه مهما قيل في معنى الكوثر من الدلالات اللغوية من الكثرة، فلن يصل إلى حدودها العقل البشري، لأن ما قدره الله عزوجل في الآخرة لم يخطر ببال بشر.

■ قضاء الله سبحانه بقطع كل من يبغض رسوله ﷺ وبتره من كل صنوف الخير، وبأوسع مما يفهمون من دلالة البتر لديهم.

وتكرار «إن» في سياق الجملتين يزيد الأمر توكيدا ليوازي القسم، يقول الكرماني: «قوله إنا أعطيناك الكوثر، وبعده إن شانئك، قيد الخبرين بأن تأكيدا، والخبر إذا أكد بأن قارب القسم» (٨). وقوله «أعطيناك»، ولم يذكر أي فعل آخر يرادفه؛ لقوة دلالة الفعل، أي: خولناك مع التمكين العظيم، ولم يقل: «آتيناك»، لأن الإيتاء أصله الإحضار، وإن اشتهر في معنى الإعطاء. «الكوثر» الذي هو من جملة الجود على المصدقين بيوم الدين. وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ (الكوثر:١)، بصيغة الماضي؛ لإفادة حتمية الوقوع لما وعد الله به رسوله ﷺ، وأن الله سبحانه لا يخلف وعده رسله، كما أن مجيء الفعل في هذه الصيغة، يحمل في طياته تقوية لعزيمة النبي ﷺ، وأن كل ما كتبه الله عزوجل في اللوح المحفوظ واقع لا محالة، فكل ما يحدث في هذه الحياة، وما بعد البعد كله دائر في تقدير الله عزوجل، ومن ثم يأخذ صيغة الماضي فيما جرى به القلم.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ (الكوثر:٢)، فعلى الرغم من أن الصلاة والنحر من العبادات المكلف بها العباد، فتناسبها صفة الألوهية، فإنه سبحانه ذكر لفظ «ربك» ولم يأت بلفظ آخر يحمل معنى «الألوهية» كلفظ الجلالة «الله» مثلا، لأن المقام مقام مواساة، وتثبيت وتقوية للعزيمة، وذلك لما في لفظ «ربك» من معنى الربوبية ودلالتها على تفضله عليه بالإنعام والتكريم، فالرب هو المالك وهو الخالق، وهو السيد، وهو المنعم والمربي والمصلح، وأن موقف الربوبية قبل موقف الألوهية. وفي ذكر لفظ «ربك» لفتة مهمة إلى تخليص الخلائق من عبادة غير الله عزوجل إلى عبادة الله وحده؛ لأن الرب هو الأحق بالعبادة والطاعة لا غيره، لأجل ربوبيته فضلا عن فرط إنعامه. والمخاطبة لرسول الله ﷺ في الغالب بضمير المخاطب لا الغائب، وفي هذا دليل على قرب الرسول ﷺ من الله عزوجل ومدى حبه تعالى له، بالإضافة إلى التكريم والتشريف اللذين حباه الله تعالى بهما. وقد اقتضت محافظة السورة على الفواصل حذف متعلق الفعل ﴿وَٱنْحَرْ﴾، حيث يقتضي التقدير: وانحر له، لأنه معطوف على سابقه ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، لكن دلالة السياق أغنت عن ذكر المتعلق مرة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ (مريم:٣٨).

ثم يقول سبحانه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر:٣)، والشانئ هو الشديد البغض لرسول الله ﷺ والدين الحق الذي ارتضاه الله تعالى لخلقه. وقد جاءت الآية محكمة قاطعة ببتر كل مبغض لما قضى الله وقدر، فاقتضى السياق أن تأتي الآية بأسلوب القصر؛ لأن ضمير الفصل «هو» يفيد قصر صفة الأبتر على الموصوف وهو «شانئ»، حيث قصر المسند على المسند إليه، وهو قصر قلب، أي هو الأبتر لا أنت. وقد اقتضت صيغة القصر إثبات صفة الأبتر لشانئ النبي ﷺ ونفيها عنه ﷺ. وقد جاءت السورة في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت أن الإسلام وأهله والدعاة إليه هم المنصورون، وأن الناقمين على الإسلام وأهله سينتظرهم الهلاك المحقق لا محالة.

هوامش

١ – الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ٣٧/١.

٢ – إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص ٢٥٤.

٣ – البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ٣٩/١.

٤ – أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ط ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ١٢٦/٩.

٥ – ينظر: اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الدمشقي الحنبلي، الشيخ عادل أحمد عبدالموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ٥٢/٢. فتح القدير، للشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ، ٦١٤/٥. مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق، ٢٨٧/٢. الشاهد لحسان بن نشيبة، والبيت في اللسان «كثر»، وأساس البلاغة «كثر»؛ وشرح الحماسة ١٧٧/١.

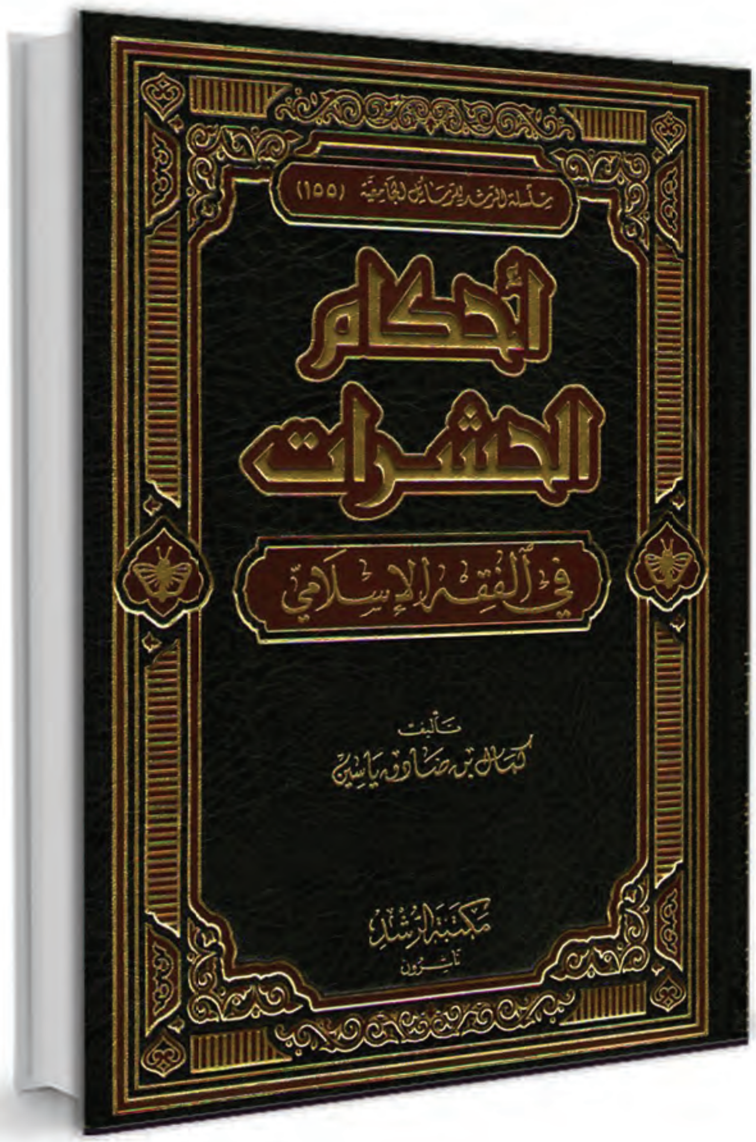
٦ – أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٩٢١، والبيهقي في سننه برقم ٢٤٧٥، والنسائي برقم ٤,٩، ٢,١١٧.

٧ – ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية، ط١، ١٩٨٤م، ٣٠/ ٥٧٢.

٨ – أسرار التكرار في القرآن، محمود بن حمزة ابن نصر الكرماني، تحقيق عبدالقادر احمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٦هـ، ص ٢٢٦.

أحكام الحشرات في الفقه الإسلامي

عرض وتحليل/ السيد المخزنجي



صدر كتاب بعنوان «أحكام الحشرات في الفقه الإسلامي» تأليف كمال بن صادق ياسين، عن مكتبة الرشد بالرياض، ضمن سلسلة الرشد للرسائل الجامعية – العدد ١٥٥ ، ويقع الكتاب في حوالي (٥٤٥ صفحة) من القطع المتوسط.

قسم المؤلف كتابه – الذي هو في الأصل رسالة جامعية قدمها إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – إلى خمسة فصول تناول فيها: أحكام الحشرات في العبادات، من خلال أربعة مباحث، وأحكام الحشرات في المعاملات، في مبحثين، وأحكام قتل الحشرات، في تمهيد وثلاثة مباحث، وأحكام الحشرات في الجناية وضمان المتلفات، في تمهيد ومبحثين، وأحكام الحشرات في الأطعمة والأشربة واللباس والأدوية والزينة، في تمهيد وست مباحث. وأسبق ذلك كله بـ «تمهيد» وفيه خمسة مباحث، عرض فيها لـ «تعريف الحشرات وإطلاقاتها»، والمراد بالحشرات في هذا البحث، وأنواع الحشرات، ومكانة الحشرات في الفقه الإسلامي وعناية الشارع بها، والأدعية والأذكار التي تقرأ لدفع ضرر الحشرات.

أهمية الموضوع

في «المقدمة» أوضح أهمية التصدي لبحث موضوع أحكام الحشرات في الفقه الإسلامي، وأسباب اختياره للموضوع،

فمن جهة أنه موضوع يعالج أحكام الحشرات التي تكون الجزء الأكبر من الحيوانات التي تعيش على الأرض، ويربو عدد أنواعها على جميع الحيوانات الأرضية أضعافا، وهي في الحقيقة ذات شأن كبير لاتصالها بحياتنا المعيشية اتصالا وثيقا، إذ تعيش حول الإنسان وتحيط به في معظم أحواله، فكان لزاما على طلاب العلم تناول أحكامها، ونشرها بين المسلمين.

وأشار أيضا إلى أن موضوع الحشرات قد بحث من النواحي الأخرى: الزراعية، والطبية، والاقتصادية، وغيرها في عشرات الأبحاث بين الرسائل والكتب، فكان حريا بطالب العلم الشرعي الكتابة في هذا الموضوع والتعريف بأحكامه الفقهية المختلفة.

كما أن في ذلك بيان عظمة الفقه الإسلامي وشموله لجميع جوانب الحياة البشرية، حيث وضع لأصغر الأشياء أحكاما تخصها، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وذكر لها حكما، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾ (الإسراء:١٢).

ومن جهة أخرى تتجلى أهمية هذا الموضوع في أن هناك أعدادا كبيرة من الناس في المجتمع يقطنون في البوادي والقرى، وهم أكثر الأفراد حاجة للإلمام بالأحكام الشرعية للحشرات، وذلك لانتشارها هناك بكثرة.

أيضا وجد المؤلف - بالبحث والدراسة العميقة - أن هذا الموضوع - موضوع الحشرات - يشمل كثيرا من أبواب الفقه الإسلامي، بدءا بالطهارة والصلاة ومرورا بالزكاة والحج والبيوع والمعاملات والجنايات والأطعمة والأشربة وغيرها من الأبواب، إلى جانب اشتماله على كثير من المسائل المتفرقة المهمة، ومن ثم فلا تخفى فائدة الموضوع والكتابة فيه للباحث والقارئ معا، كما أن القرآن الكريم والسنة النبوية جاء الحديث فيهما عن بعض الحشرات لحكمة عظيمة؛ فحرص المؤلف على أن يجمع الأحكام المذكورة في تلك النصوص، وكذلك فإن علماء الإسلام وفقهاء المسلمين - رحمهم الله - تعرضوا لهذا الجانب في مواضع متفرقة، فأراد المؤلف جمعها في كتاب واحد ليسهل الرجوع إليه.

نتائج علمية وفقهية

وقد خلص المؤلف في نهاية كتابه القيم إلى جملة نتائج عملية وفقهية مهمة، يجدر بالقارئ المسلم الإلمام بها ومعرفتها للاستفادة منها في كيفية أو طريقة تعامله مع تلك الحشرات النافع منها والضار، ومن أهم تلك النتائج: أن المراد بمصطلح الحشرات في هذا البحث: هي صغار دواب الأرض خلقة. وأن مصطلح الحشرات عند الفقهاء وعلماء اللغة - رحمهم الله - أعم وأوسع وأشمل مما هو عليه اليوم في المصطلح العلمي الحديث، حيث تشمل ما يعنيه لفظ الحشرات بتعريفها العلمي الحديث، إلى جانب الحيوانات الصغيرة الأخرى من الزواحف والقوارض والديدان ونحوها. وأن كل ما ليس له دم سائل من الحشرات فهو طاهر، لا ينجس ما وقع فيه من مائع أو جامد. كذلك إذا وقع شيء من الحشرات في الماء وخرج منه حيا فهو طاهر، ولا ينجس الماء. وأن سؤر ما يرد على البيوت من الحشرات، وغيرها مما يشق الاحتراز منها طاهر.

قتل الحشرات أثناء الصلاة

ويشير المؤلف إلى أن قتل الحية والعقرب جائز في الصلاة وبلا كراهة، ولو كثرت الحركات المقتضية لذلك. ويجوز إخراج وقتل الحشرات المؤذية في المسجد، حرصا على نظافة المسجد، وطمأنينة المصلين وخشوعهم، ويمكن ترك الحشرات غير المؤذية بالمسجد بضمان عدم التشويش على المصلين وعدم تقذير المسجد. كما تجب الزكاة في العسل «نتاج النحل»، والواجب فيه العشر، وتجب الزكاة في الحرير «نتاج دود القز»، وهو الحرير المعد للتجارة، وزكاته زكاة عروض التجارة وبشروطها، وأيضا تجب الزكاة في المال الذي هلك بعاهة الحشرات ونحوها من الآفات، إذا حصل التفريط من المزكي، وإذا لم يحصل التفريط، فلا شيء عليه.

أيضا يجوز للمحرم وغيره قتل الحشرات المؤذية والمضرة كالحية والعقرب في الحل والحرم، وكذلك ما في حكمها، بجامع الأذية أما ما لا يؤذي ولا يضر بطبعه من الحشرات فلا يشرع قتله، لا سيما الذي نهى عن قتله كالنحلة والنملة، إلا أن تحصل منها أذية بالفعل، كذلك لا يجب على المحرم الجزاء أو الكفارة في قتل الحشرات المؤذية، كالحية والعقرب والفأرة ونحوها؛ لأنها ليست بصيد، ولا خلاف في ذلك بين أهل العلم.

وأوضح المؤلف أنه يجوز استعمال المبيدات الحشرية لقتل الحشرات المضرة بواسطة الوسائل الحديثة، شريطة أن لا يؤدي استعمالها إلى الإضرار بالإنسان وصحته وبيئته، أو الحيوانات الأخرى غير المؤذية، وأن يسبق ذلك أخذ الاحتياطات والإجراءات الوقائية التي تقلل من الأضرار الجانبية، كما يجوز حبس الحشرات للزينة، والتمتع برؤيتها، واللعب بها، وسماع صوتها، بشرط توفير المواد اللازمة لإطعامها وسقيها وعدم تعذيبها، ويجوز بذل المال في سبيل ذلك (أي الإنفاق عليها ورعايتها).

وبعد.. فالكتاب يعد دراسة علمية فقهية تحسب لمؤلفه، كما أنه يشكل إضافة مهمة إلى المكتبة العربية الإسلامية لما فيه من فوائد علمية وفقهية تخدم القارئ والمثقف والباحث المسلم المتخصص. ومن ثم فهو جهد علمي نهنئ المؤلف عليه، سائلين الله أن يجزيه عنه خيرا وأن يجعله في ميزان حسناته.

يرى أن من بني جلدتنا من يحارب اقتصادنا

السالوس : الغرب موقن أننا على حق

حوار : محمد عبدالعزيز



أكد أستاذ الفقه والأصول الأستاذ الفخري في المعاملات المالية المعاصرة والاقتصاد الإسلامي من جامعة قطر الدكتور علي السالوس أن الاقتصاد الإسلامي يعد بمثابة طوق النجاة لكل الأزمات المالية التي قد تعصف بأي دولة في العالم، لافتا إلى أن الغرب يعلم قيمة العمل وفقا للمعاملات المالية الإسلامية، ويدرك أنها الأجدى. وأعرب في حواره مع «الوعي الإسلامي» إبان زيارته الأخيرة إلى الكويت عن أسفه لوجود مناوئين للعمل بالاقتصاد الإسلامي من بين المسلمين.. حيث يفضل الاقتصاد الوضعي الربوي عليه.

شرح السالوس الفروق الجوهرية بين كلا الاقتصادين، مشيرا إلى أن مؤسسي الاقتصاد الربوي بشر، منهم المقام مثل ريكاردو، وفيهم ماركس الذي كان يرى صالح البشرية في عدم النسل، متسائلا هل هؤلاء علماء يقدمون صالحا للبشرية؟!

وأشاد السالوس بالموسوعة الفقهية الكويتية، مؤكدا أنها من أفضل الموسوعات الإسلامية في العالم الحديث، بيد أنها لم تكن موفقة في علاج مسألة التورق، واستندت فيه إلى زلات بعض العلماء، لأن التورق لم يجزه أي من الأئمة.

وقال السالوس إن منا من زور التاريخ وزيف عقول الأبناء في المدارس والجامعات، بوصف عصر احتلال الغرب للشرق عبر نابليون وحملته الفرنسية على مصر بعصر النهضة، وهو في الحقيقة عصر التخلف، وبداية اندثار روعة العمل بالاقتصاد الإسلامي الذي كان مزدهرا منذ عهد النبوة، ومرورا بعصر الخلفاء الراشدين، حتى وقت الاستعمار الغربي الذي حاول طمس هوية الأمة في المجالات كافة، بما في ذلك المجال الاقتصادي، مشيرا إلى أن الكارثة في استسلامنا له وتسليمنا بالأمر الواقع، فتحول اقتصادنا إلى الأنظمة الغربية الربوية، حتى عدلت الأمور نسبيا قبل أربعين عاما من اليوم، وظهرت البنوك الإسلامية.

● كيف كانت بداياتكم العملية؟

- استهللت حياتي العملية عقب التخرج مباشرة عام١٩٥٧م، فعملت بالتدريس في التربية والتعليم بمصر، لمدة أربع سنوات، ثم سافرت إلى الكويت، حيث التحقت بالعمل في معهد المعلمين هناك في الفترة من ١٩٥٧-١٩٧٥م، وشاركت آنذاك في تأليف عدد من الكتب في طرق التدريس لمدرسي المرحلة الثانوية، كما أشرفت على تأليف عدد منها، حتى حصلت على الماجستير والدكتوراه. وبعد الدكتوراه اتجهت للتدريس في عدد من الجامعات، أذكر منها المستنصرية بالعراق، ثم عملت بالتدريس بالمعاهد العليا بالكويت لمدة ٥ سنوات، ثم بكلية الشريعة بجامعة قطر، ثم تفرغت للدعوة والأبحاث.

● وكيف كانت زيارتك الأخيرة إلى الكويت؟

- الكويت في القلب دوما، وحينما أزورها أشعر أنني في بلدي، فهي وطن حاضن لكل المسلمين، وشعبها مضياف، وهي ليست غريبة عني، وهي بلد طيب شقيق، زيارتي الأخيرة لها جعلتني أسترجع سنوات جميلة من عمري قضيتها هنا، قبل أربعين عاما.

وإذا كانت الكويت لها انطباع خاص لدي فمحافظة حولي لها انطباع أخص، حيث كنت أسكن بها في شبابي، وحينما آتي الكويت في أي وقت أشعر أني في بلدي، لأن لي بها أهلا وأحبة كثيرين، أقدرهم وأحبهم جميعا.

وعلى الصعيد الرسمي لزيارتي الأخيرة، فلم يكن قد سبق لي التعامل مع إدارة مساجد حولي من قبل، لكني في هذه الزيارة

تعرفت عليهم عن قرب، فلمست منهم الدقة في التنفيذ، وحسن تنظيم البرنامج المعد من القائمين على الإدارة، لاسيما مدير الإدارة الدكتور خالد الحيص الذي منحني فرصة للقاء عدد من علماء الكويت المتميزين وهو أحدهم.

● البعض يطلق عليكم خبيرا في مجمع الفقه والبعض يسبق اسمكم بوصف عضو المجمعين فأيهما أصح؟

- المسمى الصحيح عضو المجمعين، لأن كلمة خبير تطلق على من كان اختصاصيا في مجال ما، ثم رقي فأصبح خبيرا، ويظل هكذا إلى أن يصبح عضوا في رابطة العالم الإسلامي.

● عصفت الأزمة الاقتصادية العنيفة عام ٢٠٠٩ بالنظام الرأسمالي، وتبارى الاقتصاديون في تحليل الأسباب ما بين أسعار الفائدة، والرهن العقاري، مرورا بالاقتراض لمؤسسات وهمية، وفي خضم هذه الأزمة وكل أزمة للاقتصاد العالمي يلوح في الأفق الاقتصاد الإسلامي، كمنفذ للعالم من النفق المظلم. فإلى أي مدى يمكن للاقتصاد الإسلامي أن يكون بديلا للاقتصاد الربوي، وكيف السبيل إلى ذلك؟

- تغيير النظام التقليدي العالمي في الاقتصاد، وهو الربوي، والاستنجاد بالنظام الاقتصادي الإسلامي أمر ليس جديدا، لأن الغرب على يقين أنه نظام شرعي فيه النجاة لكل أزماتهم. وهنا لابد من العودة إلى الأساس الذي ارتكزت عليه فكرة البنوك الإسلامية، وهي حجر الزاوية في الاقتصاد الإسلامي، وهي عقود المضاربة، بأن يأخذ أموال المسلمين كمضارب أو كعامل، ومن ثم تتم المتاجرة بها في عمل حلال، وناتج الربح يقسم بين البنك والمودعين بنسبة متفق عليها آنفا.

ومن مميزات الاقتصاد الإسلامي أنه رباني المصدر، ونبيل الهدف، ويتحرى الحلال، ولا يتصور أن يصل أي اقتصاد آخر إلى مرتبته، لأن الشكل الآخر من الاقتصاد نظام وضعي بشري، ليس به أي جانب رباني. لهذا لا يُتأمل أي نهوض للأمة في ظل نظم اقتصادية تسير على نهج غير إسلامي.

الأفكار التي قدمها علماء الاقتصاد الذين أسسوا الاقتصاد الربوي عبر الزمن أمثال آدم سميث، كارل ماركس، جون كينز، ديفيد ريكاردو وغيرهم، أفكار ليست سوية، فعلى سبيل المثال يرى ماركس أن صالح البشرية يكمن في عدم النسل حتى يخفف العبء على الاقتصاد، وريكاردو كان مقامرا، فأنى لهؤلاء أن يقدموا نماذج ناجحة لاقتصاد دول - إن الله لا يصلح عمل المفسدين - وإن كان ثمة نجاح فلابد أنه سيزول مع الوقت، لأن الأساس الفكري غير رصين.

لهذا نعجب أن من المسلمين من لا يعرف قيمة الاقتصاد الإسلامي وقدرته على حل جميع مشكلات الدول المتعثرة.

والثابت أنه من أهم أسباب الأزمة المالية العالمية التي ضربت الاقتصاد العالمي الضرب بتعاليم الإسلام عرض الحائط، وعدم الامتناع عن الربا وفوائد البنوك التي كانت نتيجتها إفلاس العديد من تلك البنوك، وهو ما جعل علماء الاقتصاد العالمي يدعون من جديد إلى ضرورة أن تكون الفائدة صفرا وهو ما يعني العودة إلى الاقتصاد الإسلامي مرة أخرى، وإلى الشريعة الإسلامية وتعاليمها.

الموسوعة الفقهية الكويتية من أفضل الموسوعات في العالم

البديل

● لكن البعض يردد أن الاقتصاد الإسلامي ربما يكون صالحا لزمان غير زماننا هذا، فبم ترد على هذا الرأي؟

- نرد على هذه المزاعم الواهية بأن الإسلام جاء ليكون صالحا لكل عصر ومكان، إلى أن تقوم الساعة، فالإسلام ليس عبادات أو عقيدة أو معاملات فحسب، وإنما هو نظام شامل لكل مجالات الحياة، والحلال بين والحرام بين.

● وماذا قدم علماء الاقتصاد الإسلامي من نماذج بديلة للاقتصاد الوضعي؟

- كان لابد على علماء اختصاصيين في الاقتصاد الإسلامي طرح الحلول البديلة لطرق عمل الاستثمارات في البنوك الربوية، فوضعوا التصور الحالي الذي تسير عليه البنوك الإسلامية، والذي يستند على أن المودعين هم ذوو رأس المال. وقدمت عام ١٩٧٥ كل من مصر وباكستان مشروعين تمت دراستهما بعناية، ثم خرج أول بنك إسلامي يجمع الدول الإسلامية للنور عام ١٩٧٥م، وهو بنك التنمية الإسلامي.

والبنوك الإسلامية تمكنت من تقديم حلول لإشكالية جمع المال، بعد أن لجأت إلى عقود مضاربة شرعية، وقد خصصت بابا كاملا في الموسوعة الفقهية، عنوانه: «العقود البديلة للإقراض الربوي» يوضح كيف يقوم البنك الإسلامي بالاستثمار عبر طرق بديلة للإقراض الذي يتبعه البنك الربوي.

ولكي يتم سد كل باب أمام الناس للتعامل مع البنوك الربوية فكر علماء الاقتصاد الإسلامي في بديل لمسألة فتح الاعتماد التي تجبر بعض التجار المسلمين للتعامل مع البنوك الوضعية لمساعدتهم في شراء بضاعة وسلع، في ظل عدم وجود سيولة مالية تمكنهم من التجارة.

وهنا أتاح البنك الإسلامي للتاجر أن يفتح له أيضا اعتمادا كالبنك الربوي مع الفارق، ففتح الاعتماد في الأخير يعني أن تقترض بفائدة، ولكن يختلف عن القرض العادي بأن الفائدة فيه تبدأ من وقت الاقتراض، ولفتح الاعتماد عمولة.

أما البنك الإسلامي في هذه الحالة فينظر إلى المشروع ويدرسه، فإذا اطمأن إليه، وأنه يتفق مع أحكام الشريعة، يدخل مع المودع شريكا، ويتم شراء السلع مشاركة، ويبدأ العمل بحسب نوعه، والمغرم بالمغنم، حيث يقسم الربح أو الخسارة بين الاثنين.

● وماذا فعلت البنوك التجارية حيال ذلك؟

- البنوك الربوية لم تكن لديها مشكلة في استثمار أموال المودعين، ولا في فتح الاعتمادات من عدمه، لأنها عبارة عن منشأة تتاجر في الديون، ولا تتاجر في عروض أو

سلعة، ولا نقود، إنما في ديون، لذلك كل عملها إقراض واقتراض.

وماذا عن ريع المال المودع في تلك البنوك؟ وكيف يتصرف فيه المسلم المودع؟

فوائد البنوك ربا مقطوع بتحريمه، قولا واحدا، وقد أجمع على ذلك ٨٥ عالما من ٣٥ دولة إسلامية في فتواهم الصادرة عن المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٦٥، ثم تأكدت فتوى التحريم المستندة إلى نص الكتاب والسنة بقرارات أخرى خرجت عن مؤتمرات عديدة لاحقة، منها ما صدر عن المجمع الفقهي الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي، ومجمع الفقه الإسلامي الدولي بمنظمة المؤتمر الإسلامي، والمؤتمرات العالمية للاقتصاد الإسلامي.

وعلى ذلك فأي فائدة تخرج عن ما يودع في هذه البنوك فهو ربا، على المسلم أن يتخلص منه بنية الهدية وليس الصدقة، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا. والحكمة من ذلك أنه حينما يتخلص من هذه الأموال بنية إهداء للفقراء، لن يكون المال خبيثا إذا وصل للفقراء والمساكين. فقد جاء مال إلى رسول الله، فقيل يا رسول الله، هذا من مال الصدقة - وهي لا تحل له ﷺ ولا لآل بيته - فقال ﷺ للصحابية التي أتت له بالمال: «هو لها صدقة، ولنا هدية» وهنا يدخل في إطار تغيير طريقة الكسب.

طوق نجاة

• ومن ذلك هل نستطيع التأكيد على أن الاقتصاد الإسلامي طوق نجاة؟

- نعم الاقتصاد الإسلامي طوق نجاة لكل العالم، لكن للأسف وجد من بني جلدتنا من يحاربه ويدعي فشله، وأذكر ذات مرة كنت أحضر اجتماعا مهما للنظر في مناهج الاقتصاد في إحدى الجامعات العربية، بهدف إجراء مزج بين الاقتصادين الوضعي والإسلامي، ورئيس اللجنة كان وزير الاقتصاد في تلك الدولة ورئيس اللجنة المنبثقة لوضع المقررات الاقتصادية وجدته يطرح سؤالا استنكاريا مفاده: وهل الاقتصاد الإسلامي فيه ما يكون مقررا؟ فأحسست أن السائل من الطبقة التي تريد أن تتجاهل الاقتصاد الإسلامي ولا تقبل تطبيقه، وأحلته إلى عشرات من مراكز الاقتصاد الإسلامي الناجحة في العالم، وأكثر من ٥٠ رسالة لي في أوروبا عن الاقتصاد الإسلامي.

وقلت له: إن الاقتصاد الإسلامي كان هو المطبق في البلاد الإسلامية منذ بعثة النبي محمد ﷺ حتى الحملة الفرنسية، التي كانت حلقة مفصلية، جاءت لتغيبنا عن تعاليم ديننا في كل المجالات.

• على من تقع المسؤولية إذن في تضليل الحقائق؟

- المسؤولية تقع على الجميع، والغريب أن من بيننا من أسهم في تزييف وعي الناس، عبر تزييف التاريخ، فتجد في الدراسات المعاصرة كلمة عصر النهضة تموضعت للكناية عن العصر الذي دخل فيه نابليون إلى مصر، وحاول طمس معالم الإسلام، والصحيح أنه عصر التخلف والهيمنة الاستعمارية، وللأسف كان ذلك الفكر المسموم المضلل يدرس لأبنائنا في المدارس والجامعات.

وأمام كل ما سبق وللعودة للنظام الاقتصادي الإسلامي مطلوب منا العودة إلى الأصالة المتمثلة في التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وما إن تمسكنا بها هدينا إلى المعاملات الإسلامية الصحيحة، في كل مجالات حياتنا الاقتصادية وغيرها.

• لكن لماذا برأيك نجد من يناوئ فكرة تحول البنوك الوضعية إلى الاقتصاد الإسلامي؟

- ليس هناك عمل يمكن أن يكون كاملا وخاليا من النقص والعيب أبدا، فالمصارف الإسلامية بدأت قبل أكثر من ٣٠ عاما، بطريقة طيبة، غير أن بعضها انتكس بسبب سوء الأداء، وعدم إخلاص النوايا، والتحايل، فأصبحت تلك البنوك أقرب إلى الربوية منها إلى الإسلامية، وهذا شيء محزن جدا. ومع ذلك نجد أن قضية تحول بعض البنوك إلى المعاملات الإسلامية تسير بشكل جيد، لكن بعضها يصبح إسلاميا صحيحا، وبعضها يلجأ لذلك ليقينه أنها الأجدى له ولعملائه من الناحية الاقتصادية، والشرع حدد كل شيء، لكن هناك من يريد الشرع وهناك من يريد المال.

التورق

• كثيرون يلتبس عليهم الأمر في قضية التورق، لاسيما بعد ظهور فتوى مجمع الفقه الإسلامي قبل سنوات بجوازه، وسارت الموسوعة الفقهية الكويتية على نهجه، وأجازت التورق أيضا فكيف تقيم ذلك اللبس وما حكم التورق؟

- التورق اسم حديث، حيث لم يكن هذا الاسم موجودا من قبل أبدا، وقد ظهر للمرة الأولى على يد الإمام ابن تيمية، رحمه الله، ثم ما لبث أن ردها لأصلها، فذكر كلمة «عينة»، وقد نص عليها حديث نبوي بالنهي عنها، وهو صحيح عند الجمهور.

السالوس في سطور

الدكتور علي أحمد علي السالوس أستاذ الفقه والأصول وأستاذ فخري في المعاملات المالية المعاصرة، والاقتصاد الإسلامي من جامعة قطر. النائب الأول لرئيس مجمع فقهاء الشريعة بأميركا. خبير بمجمع الفقه منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، ثم اختير عضوا بالمجمع. خبير مجمع الفقه برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، ثم اختير عضوا بالمجمع. أحد الأمناء لمركز قطر الإسلامي بلندن. رئيس الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح بمصر، التي تضم كوكبة من صفوة علماء مصر.

درجته العلمية دكتوراه في الفقه المقارن وأصوله، بمرتبة الشرف الأولى، من كلية دار العلوم، جامعة القاهرة. ولد عام ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م، بمحافظة دمياط دلتا مصر.



ولما سئل الإمام أحمد: أرأيت إن اشترى وباع لغير البائع؟ قال: إنها عينة.

والمتأخرون من المذاهب الحنبلي والحنفي أجازوا التورق الشخصي، لا المصرفي منه.

وبالحديث عما يُستند إليه في جواز التورق من فتوى للمجمع الفقهي فلذلك تفسير، ففتوى مجمع الفقه لرابطة العالم الإسلامي بإجازة التورق كانت في مؤتمر حضره ٩ علماء من بين ٥٠ عضوا في المجمع، كان من بينهم العلامة الشيخ القرضاوي الذي جاء رأيه بالرفض، فأصبح العدد ٨ علماء من ٥٠ عالما، وبالتالي فقد خرجت الفتوى منقوصة، وأجازت التورق، وكان الشيخ ابن باز يرحمه الله أحد الحضور، وهو من تزعم رأي الإجازة، وأخذ عنه تلاميذه في غير دولة إسلامية هذا الرأي. لكن في مؤتمر لاحق شاركت فيه وبينت أنه لا يجوز أن ننسب للأئمة إباحة التورق. وخلصت الفتوى النهائية في المؤتمر اللاحق إلى عدم جواز التورق المنظم «المصرفي».

الموسوعة الفقهية

• لكن البعض يستند إلى الموسوعة الفقهية الكويتية في ذلك؟

- بالنسبة للموسوعة الفقهية الكويتية فإني أعدها من أفضل الموسوعات في التاريخ الإسلامي الحديث، لكن جانبها التوفيق تماما في شرح مسألة التورق، وكانت إجازتها له من أسوأ ما كتب فيها، لأنها نسبت لأمنا عائشة، رضي الله عنها، أنها تعاملت بالتورق، وأعتقد أن الموسوعة أخذت من كتابات غير دقيقة، وهي من زلات العلماء المؤثرة سلبا، وهذه زلة من زلات الموسوعة، فما كتبته عن التورق مخالف تماما للتورق.

لكن بيت التمويل الكويتي يتعامل بنظام التورق بناء على تلك الفتوى، وبناء على ما ورد في الموسوعة الفقهية.

أنا لا أعرف الصورة التي أجيزت لبيت التمويل لكي يتعامل بالتورق، ولا أدري ما يقوم به، إذا كان بناء على الموسوعة الفقهية أو بناء على اللجنة الشرعية الدائمة المنبثقة عنه، إنما ما أعرفه أن الفتوى استقرت على أن التورق المصرفي لا يجوز شرعا.

• بعض القانونيين يتحايلون في مسألة الشروط الجزائية في العقود، فما نظرة الشرع لها؟

- الشروط الجزائية التي تتعلق بالدَّين لا تجوز إطلاقا -إذا تأخر في السداد كان لزاما عليه أن يدفع كذا- هذا يعد من قبيل الأمور الجاهلية، فإما أن تقضي الدين أو تربي، هذا أمر جاهلية، وهو ربا محرم، سواء كان جعليا أو وضعيا، قول واحد.

إنما الشرط الجزائي في غير الدين يجوز، فعلى سبيل المثال، لو تم الاتفاق مع أحد المقاولين لتشييد مبنى ما في زمن عامين، وبعد انقضاء المدة لم يفعل شيئا، هنا تطبيق الشرط الجزائي حلال، ولا شيء فيه، لأنه يدفع جزاء تأخيره عن الوفاء بالعقد المشروط بمدة زمنية اتفق عليها الطرفان.

• خرجت بعض الفتاوى لتحل الفوائد البنكية، طالما هناك ضرورة بناء مسكن يأوي من لا سكن له، فكيف ينظر الشرع إلى ذلك؟

- في هذه المسألة قرر مجمع الفقه بمنظمة المؤتمر الإسلامي بإجماع العلماء الحضور أن مسكن الإنسان من الحاجات الضرورية الماسة للإنسان، وذلك ليس مدعاة للحصول عليه بأي وسيلة غير مشروعة، بل أهميته تلك مدعاة للحصول عليه بطريقة شرعية، وفق مال حلال لا شبهة فيه، وما الطرق التي تسلكها البنوك الإسكانية والعقارية وغيرها من إقراض بفوائد، مهما كانت نسبتها، إلا ربا محرم شرعا.

بعض العاملين في البنوك الإسلامية يسيئون إليها بسبب حب المال

الدعوة الإسلامية.. ومواقع التواصل الاجتماعي



د. عبدالصبور فاضل
عميد كلية الإعلام - جامعة الأزهر - القاهرة

الدعوة إلى الله -تعالى- هي مهمة ورسالة أشرف الخلق (الأنبياء والمرسلين) -عليهم الصلاة والسلام-، وهي سبب خيرية أمة الحبيب محمد ﷺ، ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين كان يقول: من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها. قالوا: وما شرط الله فيها يا أمير المؤمنين؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١).

والإسلام دين يصلح به كل زمان ومكان على مر العصور، حيث أخذ بكل الوسائل المتاحة لنشر الدعوة من الخطابة والرسائل والشعر والاتصال الجمعي في المساجد وموسم الحج والعمرة، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فهو الذي استخدم وسائل متنوعة منذ بعثته، مثل: الخطابة، والإشارة باليد والأصابع والعصي، كما استخدم الرسم على الأرض، فها هو ﷺ يستخدم التخطيط والرسم على الرمال، ليبين لأصحابه الصراط المستقيم الذي أمرنا الله تعالى بالسير عليه، حتى لا نضل ولا نفترق، ويتضح ذلك من حديث ابن مسعود رضي الله عنه إذ يقول: خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيما» ثم خط عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل ليس سبيل منها إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام:١٥٣)، وتارة تجده يستخدم الإشارة فيقول ﷺ فيما رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، مشيرا إلى قرب قيامها، ضاربا بذلك أعظم الأمثلة الإعلامية في استخدام مختلف الوسائل، من أجل توصيل الرسالة الاتصالية عن طريق استثارة الحواس جميعها.

كما اعتنى الإسلام ورسوله بالاتصال المواجهي من شخص إلى آخر، أو إلى مجموعة قليلة من الناس، علما أن نظام الدواوين،

والوقف والزكاة صنع إسلامي أصيل، حتى إن الإسلام استوعب ما سبقته إليه الأديان الأخرى من فضائل وإيجابيات، وبعضها أقرها كما هي والبعض الآخر طورها وصبغها بصبغة الإسلام، بما ينفع الناس كافة.

ومع التطورات المتلاحقة، وبخاصة ما يتعلق بالتقنيات الحديثة مثل الإنترنت التي أحدثت نقلة غير تقليدية في عالم الاتصال والتواصل، بوسائله المختلفة مثل الصحف والمواقع والإذاعات الإليكترونية المسموعة والمرئية، والمدونات، والشات، والمنتديات، والبريد الإليكتروني، والمجموعات، ومواقع التواصل الاجتماعي، فإن الدعوة الإسلامية أحوج ما تكون إلى استخدام هذه الوسائل وبفاعلية لشرح مبادئ، وقيم، وموقف الإسلام من القضايا المطروحة على الساحة في مختلف المجالات الدينية، والسياسية، والاقتصادية، والأخلاقية، والعسكرية، والإنسانية، وغيرها.

ويلاحظ أن مواقع التواصل الاجتماعي وبخاصة «الفيسبوك» و«تويتر» استحوذت على عقول كثير من الناس، وبخاصة الشباب منهم، مما يجعلنا نؤكد على ضرورة التوجه صوب هذه الوسيلة لاغتنامها في الدعوة الإسلامية، من خلال دعوة غير المسلمين للإسلام وتعريفهم به، ودعوة الشباب المسلم للتمسك بدينه وعدم الولوج في بحر الظلمات المليء بموبقات التواصل مع الآخرين، وهي لا تخفى على أحد، بل أكدتها الدراسات العلمية وغيرها، ومنها دراسة أجريت على عينة من طلاب الجامعة، حيث أكدوا أن الفيسبوك قد يتعارض مع الثقافة والقيم والمبادئ السائدة في مجتمعاتهم، ومع ذلك فهم لا يمكنهم الاستغناء عن متابعته (٢).

وحسب دراسة أجرتها شركة كيتشوم بلون عام ٢٠١١م بعنوان «الفيسبوك وحماية الخصوصية الفردية» تبين أن حوالي (٨٠٠) مليون يستخدمون الفيسبوك، وفي دراسة لشركة Surge ons digital المتخصصة بتسويق العلامات التجارية على الشبكات الاجتماعية عام ٢٠١٠م بينت أن أكثر من ٥٠٠ مليون مستخدم للفيسبوك، وأن حوالي ١٠٠ مليون مستخدم لتويتر.

كما توصلت إحدى الدراسات حول الطلاب والشبكات الاجتماعية عام ٢٠١٠م إلى أن ٤٠ في المئة من الطلاب موضوع الدراسة استخدموا الفيسبوك لاكتساب معارف وخبرات، و٢٠ في المئة للبحث عن أصدقاء، وأن نسبة ٥٠ في المئة منهم يستخدمون الفيسبوك كشبكة اجتماعية، وأن هذا الاستخدام يشغلهم عن الدراسة، وأن هذا الاستخدام يؤدي بهم إلى التكاسل والتراخي بنسبة ٣٠ في المئة. (٣).

وعلى الرغم من تلك الإيجابيات لمواقع التواصل الاجتماعي، فإن لها سلبيات خطيرة جدا على سلوك الشخصية المسلمة، وعلى عقيدتها وآدابها، وقيمها، وأخلاقياتها، لأنها ليس فيها حدود للتعامل بين المسموح والممنوع، أو بين الحلال والحرام؛ بل كل شخص حر فيما يطرحه من فكر أو سلوك أو اعتقاد، فتجد انتشارا كثيفا لتلك الصفحات التي تدعو إلى نشر الإباحية والإلحاد، وعقيدة الحرية الشخصية، وغير ذلك من الأفكار الخبيثة والدخيلة على هذا المجتمع المسلم الملتزم بحدود الله تعالى، بل هناك حرية شخصية تفعل ما تريد كيفما تريد، طالما لا تتعدى على حرية غيرها، وهذا مناف تماما للإسلام جملة وتفصيلا، وهدفه الوحيد هدم تلك الصلة القوية بين المسلم وبين دينه (٤).

لكن الأخطر من ذلك، ومن هذه الصفحات الإباحية والتي تهدف إلى نشر الفاحشة في الذين آمنوا، هي تلك الصفحات التي تشكك المسلمين في دينهم وفي عقيدتهم، وقد انتشرت تلك الصفحات الاجتماعية بكثافة كبيرة جدا، خصوصا في الأعوام الثلاثة المنصرمة، فتجد الصفحة تسمي اسمها في البداية بأي اسم علمي، ثم تأخذ في عرض مميزات الإسلام، والتي تتفق مع ما يريدونه من أهداف، كاحترام الإسلام للمرأة مثلا، وكيف أن الله عزوجل وصى بها وكرمها، ثم بعد ذلك يأتي بطرح شبهة تمس المرأة أيضا، وذلك بعد أن جذب روادا كثرا لتلك الصفحة، ثم شبهة أخرى، وغالبية تلك الشبهات إنما هي من كتب المستشرقين، ثم يأخذ في تشكيك المسلمين في دينهم عقائديا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا، حتى يرسخ عند المسلم فكرة أن هذا الدين إنما هو بينك وبين ربك، ولا يصلح أبدا أن يخرج إلى الحياة بعد هذا التطور العلمي الصارخ الذي لن يستطيع الإسلام مجاراته (٥).

كذلك من أخطار هذه المواقع على الشخصية المسلمة، أنها ضياع للأوقات بشكل كبير جدا، وأن هناك كثيرا من رواد تلك المواقع اكتفوا بالتواصل الافتراضي، واستغنوا به عن التواصل الحقيقي مع الناس العاديين، وحتى مع أقاربهم، مما يشكل خطرا شديدا على الصحة النفسية والاجتماعية، وكذلك القدرات العقلية، مع مرور الوقت، مما قد يجعل الشخص مصابا بمرض التوحد، وهذا الأمر أخطر ما يكون على الأطفال، بجانب أنها قد تكون مدخلا لإقامة علاقات شخصية محرمة.

فعلى سبيل المثال أكدت «سيتي هاريانتي» الأمينة في محكمة



شرعية في جونونج كيدول في إندونيسيا أن الفيس بوك وراء حمل المراهقات، أو في الزواج المبكر مؤكدة لوكالة «أنتارا» الإندونيسية الحكومية أنه السبب في تزايد حالات حمل المراهقات في البلاد، وقالت «هاريانتي» إن «الدخول على الفيس بوك بات سهلا، حتى في القرى مما يؤدي إلى أن تصبح الفتيات حوامل خارج نطاق الزواج» حيث يبلغ عدد مستخدمي «فيس بوك» في إندونيسيا ٣٥ مليون شخص، ما يجعلها ثاني أكبر سوق لاستخدام الموقع بعد الولايات المتحدة حسب موقع «جلوبال بوست» الأميركي على الإنترنت (٦).

ومن يطالع الصفحة العربية للفيسبوك يجدها من أسوأ الصفحات على مستوى لغات الفيسبوك قاطبة، سياسيا وأخلاقيا ولغويا وحواريا وأدبيا وقيميا.. صحيح أن الكثيرين محترمون يدركون الفرق بين حياتهم الخاصة والعامة، ويتصفون بالرقي في كتاباتهم وحواراتهم، ومع ذلك هناك من يصرون على تشويه كل ما هو جميل في حياتنا، فهل كتب علينا أن نكون دائما في ذيل القائمة؟!

فقد أوصت دراسة سعودية حديثة بضرورة تنمية الأخلاقيات الإيمانية ونشرها عبر مواقع التواصل الاجتماعي الإلكتروني، وتفعيل دور الجامعات السعودية في تقديم برامج تسهم في رفع مستوى هذه الأخلاقيات، حيث توصلت الدراسة التي أجراها الدكتور خالد بن علي القرشي من جامعة أم القرى على (١٩٣٩) طالبا من خمس جامعات، وكانت بعنوان «أخلاقيات التواصل الاجتماعي الإلكتروني لدى طلاب الجامعات السعودية».. توصلت هذه الدراسة إلى أن ٥ في المئة يستخدمون مواقع التواصل الاجتماعي الإلكتروني استخداما سلبيا، وأن ٧٥ في المئة من المستخدمين لمواقع التواصل الاجتماعي يهتمون بنشر الفضائح على «الفيسبوك»، بينما يهتم ٧٢ في المئة منهم بنشر الغيبة على «تويتر» (٧).

ويمكن توظيف مواقع التواصل الاجتماعي في خدمة الدعوة الإسلامية على النحو التالي: (٨).

أولا- الفيس بوك «Facebook»: وهو موقع اجتماعي شهير يدخل عليه الملايين على مستوى العالم، وهو ما يؤكد أهميته ورواجه الواقعي، ومن خلاله يمكن التواصل مع أي إنسان في أي مكان وزمان، ومن هنا فقد انتبه إليه دعاة كثر في زماننا، وتم عمل صفحات شخصية لهم عليه لمخاطبة جماهيرهم، ونشر الدين والدعوة داخل العالم العربي وخارجه، ولكن ليس

بالحجم المطلوب، ويمكن توظيفه دعويا من خلال القيام بالآتي:

١- عمل مجموعات «GROUPS» تقوم بالحث على الفضيلة ونشرها بين الناس.

٢- مراسلة جميع أصحاب الصفحات الموجودة لدى الداعية بما تريد توصيله من قيم وأخلاق وغيرها من أعمال فاضلة.

٣- التواصل مع غير المسلمين لدعوتهم إلى الدين الإسلامي العظيم؛ وذلك بإتقان لغة المخاطب، وتوضيح صورة الإسلام الصحيحة التي شوهها الغرب عبر إعلامهم. فقد تمكن داعية سعودي بالمكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بغرب الدمام (نور) من إقناع عروس كندية في العقد الثاني من عمرها بالإسلام عبر موقعي «الفيسبوك» و«سكايبي»، وأعلنت إسلامها تزامنا مع حفل زواجها في بداية العام الميلادي الحالي ٢٠١٤ بحضور والدها، وأكد فضيلة الشيخ يوسف الرشيد، مدير المكتب على ممارسة دعاة المكتب هذه الدعوة الإلكترونية باستخدام آخر وسائل التواصل الاجتماعي وبرامج المحادثات التقنية التي وجدت تفاعلا حقيقيا، حيث يوجد أكثر من ١٠٠ ألف طالب مستفيد من برامج الدعوة عبر الإنترنت، مع دعاة المكتب على مستوى العالم بأستراليا وبريطانيا والهند وبنجلاديش والفلبين، والتي حققت نتائج ممتازة (٩).

٤- محاربة المجموعات التي تقوم بتشويه صورة الإسلام والضغط على موقع الفيس بوك لإغلاقها، وهذا ما حدث بالفعل مرارا وتكرارا في مواقف مختلفة.

ثانيا- تويتر «TWITTER»: هو أحد المواقع التي تقدم خدمات مجانية للتواصل الاجتماعي والتدوين المصغر، ويسمح للمستخدمين بإرسال أهم اللحظات في حياتهم في شكل تدوينات نصية لا تزيد عن ١٤٠ حرفا؛ وذلك من خلال خدمة الرسائل النصية القصيرة، برامج التراسل الفوري، أو البريد الإلكتروني، ويتميز باستقطاب صفوة القوم، وقطاع لا بأس به من الشباب من الجنسين.

ثالثا- الإيميلات (E:mails) ومجموعات البريد الإلكتروني (Hotmail - Yahoo - maktoob - Gmail) التي يمكن من خلالها:

١- نشر فكرة إسلامية معينة، أو إرسال رسالة مؤثرة تصحح مفهوما أو تدعو إلى خلق فاضل.

٢- التذكرة بفضل المناسبات الإسلامية في وقتها، والدعوة إلى العمل الصالح فيها: ومثال ذلك: دعوة من لديك على بريدك الخاص إلى صيام الاثنين والخميس، أو إلى صدقة جارية أو قراءة القرآن.

٣- المشاركة في أعمال خير، أو أعمال اجتماعية تخدم المجتمعات الإسلامية من خلال التعاون الإيجابي على القيام بها، ودعوة رجال الأعمال للمشاركة فيها.

رابعا- المدونات (bloggers): التي يمكن من خلالها القيام بالآتي:

١- توصيل رسالة المدون إلى متصفحي مدونته وتوجيه أفكارهم نحو الصالح.

٢- يمكن من خلالها نشر مواعظ ومقالات وأخبار وتحليلات.

٣- مواكبة الأحداث الجارية ونشر فكرة المدون وتعليقاته على الأحداث؛ وهو ما يجعلها أكثر فعالية وواقعية. ويمكن استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في عمل حملات إيمانية متواصلة، مثل حملة «كلمني فجرا» (CALL ME DAWN): لإيقاظ أكبر عدد من المسلمين لصلاة الفجر في جماعة، حملة «لا للتحرش» (NO HARSSEMENT):، حملة «نصرة غزة وفلسطين» (HELP GAZA)، حملات الحجاب، حملة ضد البنطلون الساقط، حملة نصرة الرسول ﷺ، حملة علاج الفقراء، حملة نظافة البيئة، وحملة ضد ارتفاع الأسعار...الخ، وتوعية الشباب المسلم من الجنسين بعدم الوقوع في الرذيلة الافتراضية التي دمرت مستقبل كثير منهم، وتحذيرهم أشد التحذير من السقوط في شباك الأجهزة المشبوهة التي تجند فتيات في صورة أصدقاء، أو تطلب وظائف محددة ومغرية، فيتهافت إليها الشباب وسرعان ما يقعون فريسة لهذه الجهات.

هوامش

١- عادل عبدالله هندي، وسائل التكنولوجيا الحديثة في خدمة الدعوة، متوفر: http://islamselect.net/mat/87638.

٢- عبدالكريم العجمي الزياني، استخدامات وتمثلات الشباب الليبي لشبكات التواصل الاجتماعي والإشباعات المتحققة منها (الفيسبوك نموذجا). دراسة ميدانية على عينة من طلاب جامعتي الفاتح وناصر الأممية في ليبيا.

٣- صالحة الدماري، الطلاب والشبكات الاجتماعية -دراسة ميدانية في استخدامات وإشباعات طلاب كلية الفنون والإعلام للفيسبوك كشبكة اجتماعية، بحث مقدم ضمن متطلبات دبلوم الدراسات العليا، جامعة الفاتح، كلية الفنون والإعلام. 2010م.

٤- مواقع التواصل الاجتماعي وأثرها على الشخصية المسلمة، متوفربتاريخ2013/8/27 http://www.noslih.com/Article.aspx?Art_id=1790.

٥- المرجع السابق.

٦- موقع مصراوي، خبر بعنوان: «مسؤولة إندونيسية: الفيس بوك وراء حمل المراهقات والزواج المبكر» متوفر بتاريخ 2011/5/3م http://www.masrawy.com/News/Various/General/2011/august/4/indonesia_face.aspx

٧- - متوفر بتاريخ 5/1/ 2014 http://www.albushraa.com/?p=9771.

٨- عادل عبدالله هندي، المرجع السابق.

٩- صحيفة وطنيات الإليكترونية، خبر بعنوان «الدمام» داعية سعودي عبر الإنترنت يقنع كندية في كندا بدخولها الإسلام، متوفر بتاريخ الجمعة 16 ربيع الأول 1435 / 17 يناير 2014.
http://www.wtniaat.com/news-action-show-id-1738.htm

أثر العقيدة في تعديل السلوك

منتصر الخطيب
باحث مغربي

تعتبر العقيدة الموجه الرئيسي الذي يدفع بالناشئة إلى التزام طريق الاستقامة، والتعلق بقيم الفضيلة. والنفس البشرية، بحسب فطرتها، تميل إلى ما تمثله الفضيلة، فإذا انصرفت إلى الشر فبسبب انسياقها وراء غريزة بهيمية انطلقت بطريق خاطئ تحت ظروف نفسية قاهرة أدت بها إلى سلوكيات منحرفة، مما يستدعي معالجتها عن طريق التربية الدينية الصحيحة، لأنها هي الكفيلة بإصلاح الانحرافات السلوكية، ولأن أثرها ينعكس بطريقة إيجابية وسريعة على أخلاقية المجتمع، أفرادا وجماعات.

ومتى صحت عناصر الإيمان في الإنسان استقامت الأساسيات الكبرى لديه، وصار أطوع للاستقامة على طريق الحق والخير والرشاد، وأقدر على التحكم في أنواع سلوكه وضبطها فيما يدفع عنه الضر والألم المفسدة، وهذا ما يطلبه الإسلام، فللحيوان كوابح فطرية من غريزته إذا أشبعت حاجاته كف وعف، وللإنسان كوابح هي إرادته الحرة، فإذا أدرك ما ينفعه وما يضره استقام سلوكه، وإذا أخطأ في ذلك انقلب إلى غريزة حيوانية صرفة؛ بل إن الحيوان قد يكون أعف منه.

أثر العقيدة في تعديل السلوك

وانطلاقا من هذا الاعتبار، الذي يجعل العقيدة الموجه الرئيسي الذي يدفع بالناشئة إلى التزام طريق الاستقامة والتعلق بقيم الفضيلة؛ فإنه عندما تكون مناهج تدريسها سليمة فمن المؤكد أن أثرها سينعكس بطريقة إيجابية وسريعة على أخلاقية المجتمع، أفرادا وجماعات.

ولهذا، فإن النظرية التربوية الإسلامية تنطلق من منطلق الفطرة السليمة، فليس هناك أخيار بالطبع أو أشرار بالطبع، وإنما الناس نفوس خلقت على النقاء والصفاء، ثم تأتي الظروف البيئية وتحكم سيطرتها على النفوس وتطبعها بطابع الخير أو الشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ (الشمس:٧-١٠).

ويجب التذكير هنا بأن مرحلة المراهقة والشباب تعتبر من أهم مراحل دورة حياة الإنسان، لأنها المرحلة التي يتم

فيها العطاء بسخاء، وهي مرحلة نمو طبيعي. والمراهق لا يتعرض لأزمة من أزمات النمو طالما سار هذا النمو في مجراه الطبيعي، وفقا لاتجاهات المراهقة الانفعالية والاجتماعية، ولما تتميز به هذه الفترة من سمات الاندفاع والعناد وميل إلى مقاومة توجيه الآباء والمربين.

لذا، فالتربية الصحيحة للمراهق هي تلك التي تعترف بشخصية المراهق الجديدة النامية، وتساعده على تحقيق ما يتمناه بأسلوب تربوي رشيد. أما إذا حيل بينه وبين رغبته في تحقيق ذاته، فسوف يقع في براثن اليأس والقنوط والآلام النفسية.

إن أهم المشكلات التي يتعرض لها المراهق في حياته اليومية، والتي تحول بينه وبين التكيف السليم، هي علاقة المراهق بالراشدين -وعلى وجه الخصوص الآباء- ومكافحته التدريجية للتحرر من سلطتهم من أجل أن يصل إلى مستوى الكبار، ومتى كانت طريقة الآباء في التعرف على حاجة المراهق إلى الاستقلالية والتحرر سليمة، وساعدوه على إبراز ذاته والاعتماد على نفسه، مع رعايته وتوجيهه، أدى ذلك إلى خلق جو من الثقة في نفسية المراهق يمكنه من نمو صحيح متزن.

وبما أن الشباب يعتبر دعامة الأمة ورأسمالها، ومظاهر انحراف الشباب هي أكثر ذيوعا وانتشارا من باقي المراحل العمرية الأخرى للإنسان، لما توفره الساحة الثقافية والبيئة الاجتماعية من عناصر الإثارة والانحراف والغواية لأبناء هذه الفترة العمرية، التي تصادف هوى لدى المراهق يجعله يستجيب إليها بسرعة؛ لضعف نضجه العقلي والنفسي، ويدخل في ذلك جميع المظاهر السلبية التي تبتدئ بالسرقة، والكذب، والهروب من بيت الأسرة، والهدر المدرسي، والتمرد على المجتمع، والدعوة إلى التخريب والإجرام والعنف، والإدمان على المخدرات والجنس، وما يدور بين الشباب من التواصل البذيء عبر الفيسبوك والتويتر... وغيرهما، والإدمان على الدخول إلى المواقع الإباحية، مما أصبح منتشرا اليوم، ويمتد إلى بث قيم وأنماط سلوكية جديدة خطيرة تتمرد على كل ما هو أصيل باسم الحداثة والحرية، والمطالبة بتعديل القوانين وفق بعض السلوكيات المنحرفة، مما يجعل من الصعب وضع سدود أو حواجز أمام هذا السيل الجارف من هذه الأنماط السلوكية الجديدة.

فالمتأمل لحال بعض شبابنا اليوم يجدهم قد ساءت أخلاقهم، وضعف تمسكهم بالدين، وصاروا لا يبالون في سبيل تحقيق مآربهم بحلال أو حرام، فأصبح البعض يطالب بحرية المثليين، وحرية تغيير الجنس، والشذوذ الجنسي...! مما يهدد الفطرة السليمة التي خلقنا الله عليها، وأصبح معها الوضع ملحا للبحث عن طرق علاج لهذه المظاهر.

وعليه، فإن الدراسات الحديثة تؤكد أن العلاج يبدأ من التربية، لأن النفوس تقبل التغيير والتبديل من الشر إلى الخير أو العكس بفضل التربية. فالأشرار قد يصبحون أخيارا، والأخيار قد يصبحون أشرارا، ذلك أن النفس بحسب فطرتها تميل إلى ما تمثله الفضيلة. فإذا انصرفت إلى الشر بحسب الظروف النفسية والتربوية السلبية فهذا انصراف لا يعبر عن ميل فطري للانحراف، وإنما انسياق وراء غريزة انطلقت بطريق خاطئ تحت ظروف نفسية قاهرة نحو سلوكيات منحرفة، والدليل على أن الانحراف ليس أمرا فطريا أن النفس البشرية تضيق في البداية بأي سلوك منحرف، ولا تألفه، وتتمنى أن تنصرف عنه، لكنها قد تتمادى فيه إذا تعودت عليه فتألفه بعد ذلك عن طريق الاعتياد.

الخاتمة

نخلص إذن إلى أن غاية الدين -العقيدة الصحيحة- هي إعادة صياغة الفرد، عقائديا وفكريا وسلوكيا، بما ينسجم مع التصور الأمثل للسلوك الإنساني، ومن الطبيعي أن يكون أثر الدين في السلوك الإنساني إيجابي النتائج، لأن الدين يدعو إلى الأخلاق الفاضلة ويشجع عليها، ويحرم الرذيلة والانحراف ويعاقب عليهما، وهذا التوازن النفسي الذي يحدثه الدين في نفوس الناشئة يمنعهم من التعرض لمشكلات نفسية عميقة قد تؤثر في شخصيتهم وفي تكوين قدراتهم الذاتية في هذه المرحلة العمرية الحرجة، بل إن التوجيه الديني يتجاوز ذلك إلى الدعوة إلى المشاركة الإيجابية في تنمية المجتمع.

ولذلك، نرى أن أغلب الواجبات الدينية هي ذات طبيعة اجتماعية تؤكد أهمية البعد الإنساني في العقيدة الدينية (فالزكاة دعوة إلى المساعدة، والصيام دعوة إلى التكافل، والحج دعوة إلى التماسك والوحدة...).

وهكذا، فالعقيدة الصحيحة هي التي تكون قادرة على أن تعيد صياغة الفرد بشكل يمكنه من أن يكون النموذج الأفضل للإنسان من حيث الكمال السلوكي والنمو العقلي واليقظة الوجدانية.

أولادنا.. والتربية الجنسية

د. محمد محمود العطار
أستاذ مساعد - جامعة الباحة

تدور حوارات وتثار مناقشات تتناول شتى المجالات ومختلف الاتجاهات، ولكنها حوارات علمية ومناقشات موضوعية، تنشد الحقيقة، وتتحرى صائب المعرفة، وكثيرا ما يحتدم النقاش، ويشتد الحوار، ويتصارع الفكر. لكنه في البداية والنهاية، حوار فكر مع فكر، وصراع رأي مع رأي. وفوق هذا، فهو ينمي ثقافة، ويثري فكرا، ويوضح «مفاهيم»، ويأتي بالجديد المفيد، ولا يخلو -أحيانا- من إثارة تستفز، وعرض لقضايا تتحدى المشاعر وتمس ما ألف الإنسان وعرف، بل واعتقد. لكن صدق النية في عرض المشكلة ونزاهة القصد وأدب الحوار، تجعل الموقف والحوار فيه ممتعا آسرا، تتوالد فيه وبه الفكر والمناقشات في مجالات الدين والعلم والفن والأدب والأخلاق.

وموضوع الجنس موضوع حيوي يهتم به كل فرد، سواء كان ذكرا أو أنثى. فلا يوجد إنسان في هذا الوجود لم يهتم يوما بالتفكير في موضوع الجنس من جميع جوانبه المختلفة. ويلعب الجنس دورا مهما في حياة الإنسان، فالتوالد والتكاثر من أهم ظواهر الطبيعة، وهو طاقة من أكثر الطاقات الموجهة إلى مشاعر الناس وسلوكهم، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم:٢١).

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «النكاح سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، وتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعليه بالصيام فإن الصوم وجاء له» (رواه ابن ماجه).

والأبناء أمانة في أعناق الوالدين، والوالدان مسؤولان عن تلك الأمانة، فالأسرة هي المدرسة الأولى للأبناء، والمنزل هو اللبنة التي يتكون من أمثالها بناء المجتمع. وفي الأسرة الكريمة، التي تقوم على حماية حدود الله وحفظ شريعته، وعلى دعائم المودة والرحمة والمحبة والتعاون، ينشأ رجال الأمة ونساؤها، وقادتها وعظماؤها.

والتربية الجنسية ليس المقصود بها المعاشرة الجنسية كما يظن كثير من الناس من وجهة النظر الطبيعية، بل إن التربية الجنسية من وجهة النظر المستنيرة، هي كل ما يتعلق بسلوك وشعور ونظر كل من الذكر والأنثى إلى الآخر.

إن اهتمامات كل من الذكر والأنثى بالآخر تدخل تحت علم التربية الجنسية، هذا بجانب كل ما يتعلق بتطورات شكل وتركيب وتشريح فسيولوجيا جسم كل من الذكر والأنثى، فإنه يدخل تحت نطاق علم



التربية الجنسية، كذلك التغيرات المورفولوجية والسلوكية والوظيفية لكل من الجنسين تدخل تحت هذا العلم. لذلك، يجب على الآباء والأبناء أن يكونوا مسلمين بكل هذا حتى لا ينتابهم الذعر حين يحدث أي متغيرات في شكل ووظائف الأبناء أثناء مراحل حياتهم (١).

ولقد تميز الإسلام بشموليته في الطرح لجميع جوانب حياة المسلم، حتى قبل أن يولد، حين اهتم بالزواج والتناسل، ولم يتحرج في التطرق إلى كل ما يشغل تفكير المسلم في أمور حياته الخاصة.

إنه أمر فعله رسول الله ﷺ حين علّم الصحابة والصحابيات -رضوان الله عليهم أجمعين- بلغة راقية، وبأسلوب بسيط لا إفراط فيه ولا تفريط، كل ما يتعلق بالأمور الخاصة جدا، لأن الجنس جزء من الحياة، اعترف به الإسلام ووضع له الأطر الصحيحة للتعامل معه. قال النبي ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع».

لقد سعى ديننا الإسلامي الحنيف إلى الحفاظ على الناشئة، وإبعادهم عن المثيرات الجنسية، حتى لا يقعوا في دائرة الرذيلة. وأوصى المجتمع الإسلامي، بالحفاظ عليهم حتى لا يقعوا في شراك أولئك الملعونين من تجار الحرام.

إن الانفتاح المعلوماتي الذي أسقط كل جدران الرقابة الرسمية ورقابة الأسرة على أبنائها ليدعونا إلى المزيد من اليقظة حتى لا نفقد فلذات أكبادنا وبناة أوطاننا. فلنهب جميعا إلى نشر ثقافة العفة في مجتمعاتنا، ولنضرب بيد من حديد على أولئك الذين يريدون أن يحولوا مجتمعاتنا إلى أسواق مفتوحة للمتعة المحرمة، ولنقف جميعا مع أبنائنا، حتى يستمروا سواعد للخير والعطاء.

مفهوم التربية الجنسية

التربية الجنسية هي إمداد الفرد بالمعلومات العلمية والخبرات الصحيحة والاتجاهات السليمة إزاء المسائل الجنسية بقدر ما يسمح به النمو الجسمي والفسيولوجي والعقلي والانفعالي والاجتماعي، وفي إطار التعاليم الدينية والمعايير الاجتماعية والقيم الأخلاقية السائدة في المجتمع، مما يؤدي إلى حسن توافقه في المواقف الجنسية، ومواجهة مشكلاته الجنسية مواجهة واقعية تؤدي إلى الصحة النفسية (٢).

أهداف التربية الجنسية

لاشك في أن الهدف الأساسي للتربية الجنسية هو الإسهام في بناء الشخصية السوية، خلقيا واجتماعيا وعقليا وجسميا وشعوريا، والشخصية القادرة على القيام بواجبات الخلافة في الأرض بإعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

وهذا إنما يتأتى من خلال تحقيق مجموعة من الأهداف المباشرة أهمها ما يأتي (٣):

١ - أن يدرك الآباء والأبناء والمربون مفهوم التربية الجنسية وأهميتها ودورها في توجيه السلوك الإنساني وتفسيره دون مبالغة أو تفريط.

٢ - أن يدركوا خطورة الأفكار الغربية، التي تفسر السلوك الإنساني كله على أساس الجنس والغريزة الجنسية والجري وراء الشهوات.

٣ - القدرة على تهيئة جو الحوار والمناقشة مع الأبناء، وتشجيعهم على طرح الأسئلة، ومصارحتهم من خلال الإجابة عليها، ومساعدتهم على حل مشكلاتهم، وإعدادهم لاستقبال حياة البلوغ والشباب.

٤ - استيعاب الحقائق والمعلومات المتصلة بالجنس في مرحلة الصبا، كالبلوغ والاحتلام، والعادة الشهرية.. إلخ. ومساعدة الأبناء على حل مشكلات هذه الفترة، والمرور بها بطريقة يسيرة دون تعقيدات أو انحرافات.

٥ - توعية الآباء والأبناء والمربين بمشكلات الشباب الجنسية، كالاستمناء والزنا واللواط والسحاق، وبأسبابها، والنتائج المترتبة عليها على مستوى الفرد والجماعة.

التربية.. والجنس في الإسلام

إن رب العالمين قد ذكر في كتابه العزيز في أكثر من موضع آيات كثيرة تتحدث عن الاتصال بالجنس، وعن خلق الإنسان، وعن الفاحشة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ (المؤمنون:٥-٧).

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ



﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ...﴾ (البقرة:٢٢).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ (المؤمنون:١٢ و١٣).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء:٣٢).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ (الأعراف:٨٠ و٨١).

فهذه الآيات القرآنية تتحدث بوضوح عمن يحفظ فرجه وعمن لا يحفظه، وعن المحيض واعتزال النساء فيه، وعن النطفة وتكوينها في رحم المرأة، وعن الزنا وكونه فاحشة وساء سبيلا، وعمن يأتون الرجال شهوة من دون النساء.. إلى آخر هذه المعاني التي تتصل بالجنس، وترتبط بالغريزة (٤).

فهل نريد أن يمر أبناؤنا على هذه الآيات وغيرها من دون فهم، وتصبح سور القرآن نصوصا يحفظونها، من دون فهم أو إدراك لمعانيها؟

وفي عالم اليوم، هناك المئات من القنوات الإباحية التي تملأ الفضاء، وما دار في فلكها من أفلام ومسلسلات وأغنيات ومجلات ومطبوعات تدور حول الجنس الإباحي الصريح والهابط، علاوة على العدد غير المحدود من المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت، ومن المستحيل اعتراض هذا السيل المنهمر اعتراضا تقليديا مباشرا يعتمد على الرقابة الإعلامية بمفهومها البسيط بالمصادرة والتشويش والحجب.

إن التربية بجميع مجالاتها (دينية، اجتماعية، وطنية، جنسية) في حصن الدفاع الأول والأخير، ولا بد للمجتمعات الإسلامية -المحافظة على وجه التحديد- في عصر الفضاء المفتوح من تربية إسلامية تستوعب الجنس كجانب جوهري من الحياة الإنسانية، وتوجه هذه الغريزة والحاجة البشرية وجهة ربانية سليمة، تكفل السعادة للزوجين والحياة الأسرية للأبناء وحفظ النوع الإنساني للمجتمع ككل.. في وقت واحد.

ومن ناحية أخرى، قد يترتب على نقص التربية الجنسية، في إطار التربية الإسلامية ارتكاب محرمات، أو تجاوز حدود شرعية، أو تجاوز آداب وأحكام إسلامية، كالأحكام المتعلقة بالطهارة والجنابة والحيض والوضوء، ومحظورات الحج والاعتكاف في المساجد وغيرها.

في الإطار

ويمكن القول إن محتوى منهج التربية الجنسية في إطار التربية الإسلامية يجب أن يتناول كل ما يتعلق بحياة الذكر والأنثى من بني آدم، بدءا من الولادة، فالحمل، فالإرضاع، فالفطام، فستر عورة الصبي والفتاة، والتفريق بينهما في المضاجع، وتحجب النساء عن الأطفال الذين يطلعون على عوراتهن، واستئذان الذين لم يبلغوا الحلم من الأولاد إذا دخلوا على من هم أكبر منهم في الأوقات الثلاثة (من قبل صلاة الفجر وحين وضع الثياب من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء)، وكل الأحكام والسنن التي شرعها الخالق عز وجل، والأسئلة التي وجهها الصحابة والصحابيات المتعلقة بالزواج وحفظ الفرج إلى النبي ﷺ، كالاحتلام والغسل والحيض، والترغيب في الزواج الشرعي، وكل ما يدفع إليه، والباءة، وآداب الفراش، والإخوة من الرضاعة، والمحارم، وغض البصر، والتحذير من إشاعة ما يحصل بين الزوجين، والتحذير من فاحشة الزنا واللواط والشذوذ الجنسي.. وغيرها (٥).

إن التربية الجنسية جزء لا يتجزأ من التربية العامة، فالتربية العامة هي عملية إعداد الفرد للحياة، إذ إنه لن تتحقق النتائج التربوية المرجوة إذا لم يكن هناك فهم ومعرفة واسعة للمبادئ العامة: التربوية، والنفسية، والأخلاقية، والثقافية.

والتربية الجنسية، كأحد جوانب التربية العامة، تعتبر مسؤولية المنزل كما أنها مسؤولية المدرسة أيضا، ولكن بالنسبة إلى مجتمعنا، الشرقي والعربي، نجد أن المنزل لم يؤهل بعد للقيام بهذه المهمة، مما يلقي بالعبء الأكبر منها على المدرسة. ولكن ليس معنى ذلك أن المعلمين وحدهم هم الذين يحتكرون هذه المهمة، بل إن الأطباء ورجال الدين والاختصاصيين النفسيين والاختصاصيين الاجتماعيين يساهمون أيضا في أداء هذه الوظيفة، مع مشاركة ولي الأمر المستنير. المهم أن يكون الشخص المشارك على قدر كاف من الثقافة في العلوم المرتبطة بالتربية الجنسية، مثل: العلوم البيولوجية والعلوم الدينية والعلوم الاجتماعية. وأن يكون متمتعا أيضا بدرجة كافية من الاتزان الانفعالي والصفات الخلقية الطيبة (٦).

كما أن التسلسل الطبيعي في نقل الثقافة الجنسية لا بد من إحاطته برؤية تربوية صحية، تنقل الأطفال

من مرحلة نمو إلى مرحلة نمو أخرى، بشيء من الهدوء والتوازن، الأمر الذي يساعدهم على تقبل الأفكار الخاصة بالتربية الجنسية، من دون انفعالات أو حرج أو حياء علمي. وفي الوقت نفسه، يعطي الفرصة إلى كل من الأبوين والمدرسين للقيام بأدوارهم التربوية، من دون خجل (٧).

دور الأسرة

إن أسلوب الأبوين في التربية واتجاهاتهما نحو الطفل خلال الطفولة المبكرة تلعب دورا مهما في فكرة الطفل عن ذاته وفي اتجاهاته نحو جنسه ونحو الجنس الآخر.

وقد يلعب أسلوب التعامل بين الأب والأم دورا مهما في تكوين الاتجاهات الجنسية الإيجابية أو السلبية.

ولكي تحقق الأسرة دورها كاملا في التربية الجنسية لأبنائها تجب مراعاة الآتي (٨):

- البدء في تربية الطفل تربية جنسية منذ طفولته. والأم تستطيع أن تقوم بدور مهم في هذه الناحية عن طريق عملية الرضاعة، حيث إن هذه العملية تتصل بحاجة ملحة كبرى لدى الطفل في شهوره الأولى.
- حسن مواجهة الآباء لمسلك الأبناء جنسيا في الطفولة المبكرة، حيث إن الطفل يعتمد على حاسة اللمس في استكشاف العالم المحيط به.
- ضرورة تحري الصدق والأمانة في الإجابة عن تساؤلات الأطفال فيما يتعلق بالميلاد والتناسل، مع تحلي الآباء بسعة الصدر.
- ضرورة تقديم إجابات فورية لما يبديه الطفل أو يصدر عنه من تساؤلات. فتساؤلات الطفل، مهما كانت، تعد أمورا طبيعية، وهو على حق في توجيهها.

دور المدرسة

يعتبر دور المدرسة مكملا لدور الأسرة، ولا بد للمدرسة من دور في التربية الجنسية يكون بمنزلة امتداد طبيعي للتربية الجنسية التي يقوم بها الآباء وتكملة لها.

والتربية الجنسية في المدرسة يمكن أن تتم في صورة محاضرات أو ندوات تطرح فيها الأسئلة المتصلة بالتربية الجنسية ويجيب عنها المختصون، ويتحاور حولها التلاميذ، تحت إشراف المرشدين المتخصصين، وقد يدعى الآباء لحضور هذه الندوات والمحاضرات والمشاركة فيها، وبذلك يكونون أقدر على الإجابة عن تساؤلات الأبناء في البيت.

وقد تتم التربية الجنسية أيضا عن طريق التعرض للقضايا الخاصة بها من خلال علوم الشريعة أو التربية الدينية، حيث لا بد من أن تناقش من خلالها القضايا والأحكام والتشريعات الخاصة بالختان والسلام والاستئذان، والحيض والنفاس والحمل والولادة والزواج والطلاق...إلخ (٩).

والذي ينبغي التأكيد عليه هو أن التربية الجنسية في المدرسة لا تشكل بحال من الأحوال بديلا للتربية الجنسية داخل الأسرة، ولا ينبغي أن تتخذ ذريعة لأن ينفض الآباء يدهم عن مسؤولياتهم تجاهها.

خاتمة

في الوقت الذي تتحتم علينا مواكبة عصرنا وملاحقة الركب المتقدم، يتعين علينا أن نحافظ على ذاتيتنا وشخصيتنا المميزة لنا عن غيرنا، لأنها المحصنة لنا من الذوبان في غيرنا، ومن الشعور بالاستغلال لهويتنا، منها نحيا ونعتز ونتنافس ونجاهد. ومن ثم، نوصي بما يلي:

١ - تربية الأولاد على أسس الدين الإسلامي، عقيدة وعبادة، أخلاقا وآدابا.

٢ - تربية الأولاد على أساس القدوة الحسنة، فالقدوة الحسنة تفعل في النفس ما لا تفعله الكلمات وحدها.

٣ - وجود علاقة تمتاز بالدفء العاطفي والرعاية والحنان والمودة والرحمة، بين الطفل ووالديه.

٤ - تنشئة أولادنا تنشئة شاملة متكاملة، لا تقف عند حدود المعرفة فحسب، ولا تقف أيضا عند حدود التربية فحسب، وإنما تحققهما معا لفائدة جيل عربي مسلم ينبغي أن يعيش قلبا وقالبا إنسانية الإنسان.

٥ - أن نعطي لكل مرحلة من مراحل السن ما يناسبها من التربية الجنسية، فبعد الميلاد نهيئه للتربية الجنسية بالأذان والإقامة في أذنه، وحسن تسميته. وفي مرحلة الطفولة، نهيئ له جو الحوار والمناقشة ونشجعه على طرح الأسئلة ونهتم بإجابتها. وفي سن المراهقة، نعلمه آداب الاستئذان وفهم السلوك الراقي. وفي مرحلة الشباب، نعلمه آداب الاستعفاف وآداب التعامل مع الآخرين.

٦ - أن يكون منهج التربية الجنسية بعيدا عن إثارة الغرائز، وأن يهتم المنهج ببناء فكر الإنسان (الطفل - المراهق - البالغ) بشكل علمي مدروس، وذلك لكي نحافظ على سلامة عقول أولادنا ونفوسهم.

هوامش

١ - نظمي صبحي عريان (١٩٩٢)، التربية الجنسية عند الأطفال والمراهقين، سلسلة الأسرة والتربية الجنسية، ج٢، مكتبة المحبة، القاهرة، ص ٢ و٣.

٢ - السيد أحمد المخزنجي (١٩٩٩)، التأصيل التربوي للأبناء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ١٢٣.

٣ - علي مدكور (١٩٩٥)، التربية الجنسية للأبناء، سلسلة سفير التربوية، ١٣، شركة سفير، القاهرة، ص ١٢٣.

٤ - عبدالله ناصح علوان (٢٠٠٢)، تربية الأولاد في الإسلام، ج٢، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ص ٤٦٤.

٥ - مجلة المعرفة (٢٠٠٥)، العدد ١١٨، وزارة التربية والتعليم، المملكة العربية السعودية، ص ٥٩.

٦ - سليمان عبدالواحد يوسف (٢٠٠٥)، «التربية الجنسية للفتية والفتيات وإعدادهم للحياة»، مجلة النفس المطمئنة، السنة ٢٠، العدد ٨١، الجمعية العالمية الإسلامية للصحة النفسية، القاهرة، ص ١٥ و١٦.

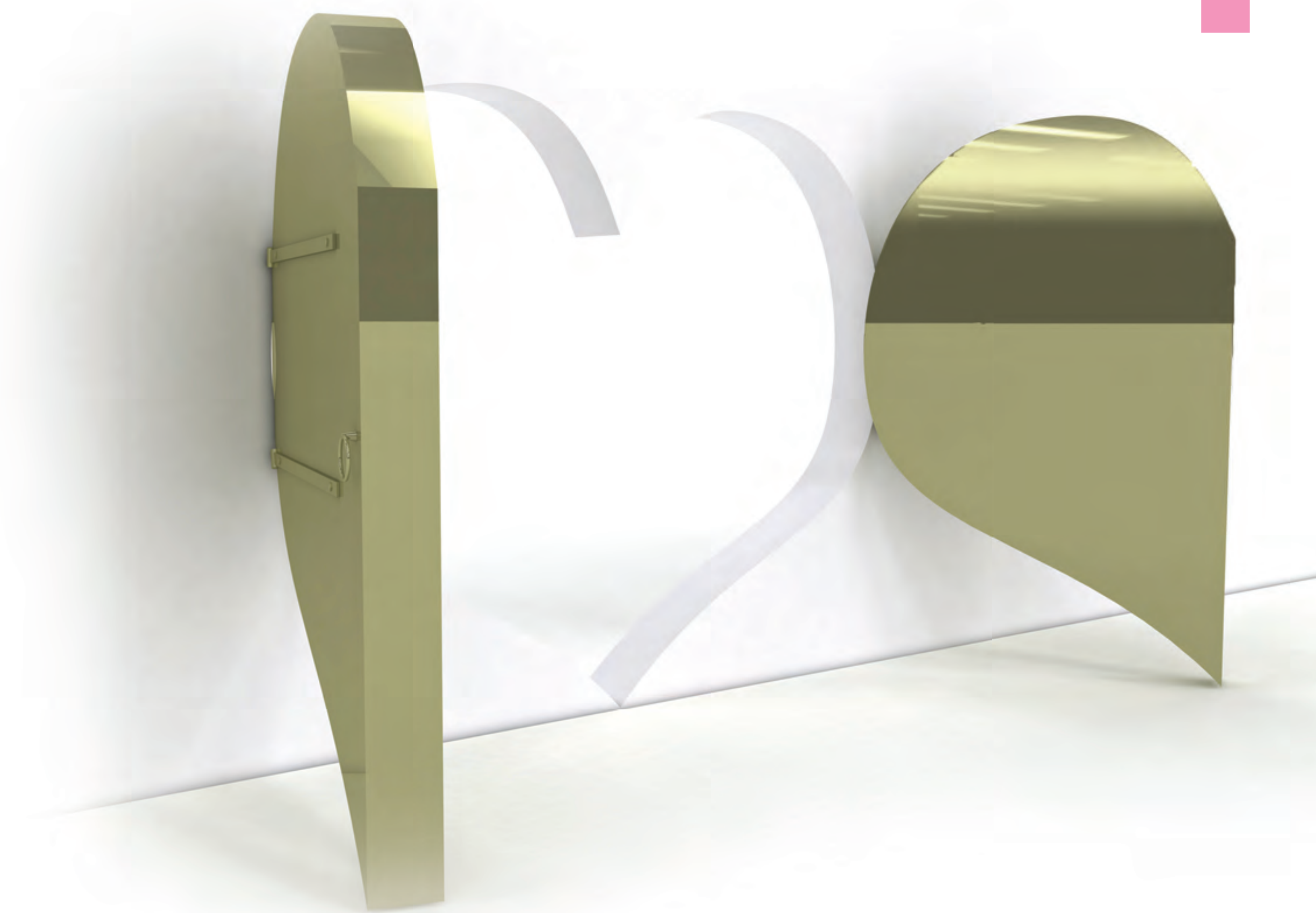
٧ - بيومي محمد الضحاوي (٢٠٠٥)، «البيت أولا»، مجلة زهرة الخليج، السنة ٢٧، العدد ١٣٦٤، أبو ظبي، ص ٢٢.

٨ - طلعت ذكري (١٤٢٣هـ)، مشكلات الأبناء النفسية والتربوية أسبابها وطرق علاجها، مكتبة المحبة، القاهرة، ص ١٤١.

٩ - المرجع سابق، ص ص ٥٨.

حسن إدارة الزوجة لبيتها

إحسان الدبش - كاتبة سورية



المنزل مؤسسة علاقات اجتماعية. تجري فيه خدمات عديدة، يحتاج إليها أفراد الأسرة جميعا. وهو أصغر حلقة من حلقات المجتمع الكبير الذي يتألف من أسر كثيرة.

إن العبء الملقى على عاتق الأم في إدارة المنزل لتحقيق طلبات أفراد الأسرة جميعا في مختلف المجالات، وبشكل عالي الأداء، ليس بالأمر السهل. خاصة في هذا الزمان الصعب الذي يأخذ فيه الإعلام حيزا لا يستهان به من أوقات الناس، كما أن عمل المرأة يأخذ حيزا كبيرا من وقتها -إن كانت تعمل- على حساب بيتها.

وعلى الأم أن تنجز أعمالا عديدة لإنجاح بيتها بشكل أمثل، فعمل الأم في المنزل يتطلب اختصاصات عديدة، ففيه «معهد للتربية» يتلقى فيه الأبناء أصول التربية وفروعها كما تعلمها وعاشها الأبوان، كما أن من مهام الأم أن تعد الطعام للأسرة، فهي أشبه ما تكون بمديرة «مطعم صغير» تعد فيه الوجبات الغذائية الثلاث يوميا لتغذية أفراد العائلة، وما يحتاجه هذا الإعداد من تنظيف للخضروات والفواكه وطهي للطعام، ومن ثم سكبه وتوزيعه وتنظيفه وترتيبه، والتفنن في أنواعه، كما أن المنزل أشبه ما يكون بـ«روضة أطفال» يتلقون فيها العلم، خاصة في البيوت كثيرة الأطفال، وما يحتاجه الأبناء من عناية واهتمام في مأكلهم وملبسهم ونظافتهم ولعبهم وتعليمهم، كما أن المنزل أشبه ما يكون بمحل «كي الثياب»، خاصة إذا كان دخل الأسرة محدودا.. وعندما

تقوم الأم بالعناية بأطفالها وتسريح شعورهم، وخاصة البنات، تقوم بعمل «صالون للعناية بالشعر»، ومن الأمهات من يتقن عمل الخياطة حتى لأزواجهن وأولادهن الكبار، فضلا عن الصغار، فيكون المنزل أشبه ما يكون بـ«ورشة للخياطة». ومن الأمهات من هن حريصات -وإن كن قلة- على تثقيف أنفسهن سواء بقراءة مجلات وكتب أو بحضور دروس علم خارج المنزل، فتكون بذلك أشبه ما تكون بمنتسبة إلى «معهد ثقافي أو شرعي»، وكذلك فإن المنزل «مكان للعبادة» لأداء واجباتها الدينية تجاه ربها، منها الصلاة خمسة أوقات يوميا. ولم يلزمها الشرع حضور الجمع والجماعات في المسجد كما ألزم الرجال. أضف إلى كل ذلك تنظيف البيت وترتيبه، الترتيب الجميل، وكأن في المنزل «ورشة نظافة».

فالمسؤوليات الملقاة على عاتق الأمهات كثيرة. ولإدارة هذه الأعمال المختلفة بنجاح تحتاج المرأة إلى حسن في الإدارة. ومن مميزات الإدارة الناجحة:

- التمتع بالنشاط اللازم لإنجاز هذه الأعمال.
- وضع سلم أولويات للأعمال المطلوب إنجازها.
- الاستيقاظ باكرا لإنجاز الأعمال الضرورية.
- عدم إضاعة وقتها على التلفاز والإنترنت.
- تنظيم علاقتها مع أهلها وجيرانها وصديقاتها.
- مراعاة ظروف الزوج المادية، خاصة إن كان محدود الدخل.
- ألا يلغي اهتمامها بأولادها اهتمامها بزوجها، وما يستحق من عنايتها.

وغير ذلك من متطلبات الإدارة الناجحة.

وصف رسول الله ﷺ نساء قريش فيما يرويه أبوهريرة، قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «خير نساء ركبن الإبل، نساء قريش، أحناه على ولد، وأرعاه على زوج في ذات يده» (فتح الباري شرح صحيح البخاري/ ٥٠٨٢)، إن حسن الإدارة في البيت وإعطاء كل عمل حقه من العناية والإنجاز، والصبر على إنجاز الأعمال المهمة، بنفس طيبة.. كل ذلك يساهم في أن يسود الأمان والاستقرار في البيت. إن الزوج الذي يأتي إلى البيت من عمله ليرتاح فيجد البيت غير مرتب، والأواني في المطبخ غير منظفة، والحمام وسخا، وغرفته وقد عبث بها الأطفال... سينزعج من هذه المناظر، ويصيبه توتر نفسي، خاصة إذا كان ممن يحبون النظافة والترتيب والنظام.

إن أهملت الزوجة شؤون بيتها وإنجاز الأعمال المهمة المطلوبة منها، فإن ذلك سيكون عامل إثارة للزوج، وبدء مرحلة من التوتر بينها وبين زوجها، والتي قد تتطور إلى صراع وخصومة، وهما في غنى عن ذلك.

هذه الأعمال العديدة المطلوبة من الزوجة لا يعني ذلك أن تقوم بها منفردة، بل على أفراد الأسرة مساعدتها في ذلك، والأب والأبناء مكلفون القيام بمساعدتها وعدم تركها تتدبر شؤون البيت وحدها، خاصة إن كانت الأم تمارس عملا خارج المنزل، فإنها تصل إلى المنزل متعبة تريد أن تأخذ راحتها من مشاق عملها. فضلا عن أن المرأة بشكل عام بما ينتابها قبل سن اليأس من الدورة الشهرية يصيبها شيء من الضعف كل شهر في جسمها لمدة لا تقل عن سبعة أيام، وقد يمتد إلى نفسيتها مما يتطلب مساعدتها حينذاك بشكل أكبر.

وتنتشر في بعض الأوساط الاجتماعية مفاهيم خاطئة عن مشاركة الرجل للزوجة في أعمال المنزل. تجعلهم يكفون عن مساعدة زوجاتهم، كما أن بعض الأبناء يأنفون من مساعدة أمهاتهم ويكلون تلك المهمة على عاتق الأخوات فقط. فإن تقاعس الزوج عن مساعدة زوجته والأبناء عن مساعدة أمهاتهم تراكم على الأم عبء كبير لا تطيقه.

وقد ضربت لنا فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أمثلة عن تفانيهما في خدمة الأهل. فأما فاطمة رضي الله عنها فكان يشق عليها أعمال البيت فأشار عليها زوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن تطلب خادما من رسول الله ﷺ يعينها في أعمالها، فقال لهما ﷺ «هل أدلكما على خير لكما من حمر النعم؟ قال علي: يا رسول الله، نعم. قال: تكبيرات وتسبيحات وتحميدات، فإنه حين تريدان أن تناما فتبيتا على ألف حسنة ومثلها حين تصبحان، فتقومان على ألف حسنة» (١).

وكذلك أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها، وما كانت تقوم به من خدمة زوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه بالإضافة إلى أعمالها داخل البيت، وما تقوم به من أعمال خارجه تقول «فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن» (٢).

نختم القول عن حسن الإدارة في البيت بأنه من الصفات المهمة لنجاح الزوجة، فهي تعتبر المسؤولة داخليا عنه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «والمرأة راعية على بيت زوجها وولده»، فبقدر ما تهتم ببيتها وزوجها وأبنائها تكون ناجحة، وكذلك بقدر إهمالها تفشل في إدارة بيتها. ولا يعني كونها مسؤولة عن إدارة البيت حتى سميت «ربة البيت» أن لا تلتفت لملاحظات زوجها وأولادها حول شؤون البيت، وإنما تتقبل ملاحظاتهم بكل رحابة صدر، وأن تعلم أن القرار النهائي في شؤون البيت للزوج.

هوامش

١- حلية الأولياء ٢/٣٩.

٢- صحيح البخاري/ ٥٢٢٤. غربه: دلوه، أي تخرج الماء من البئر.

شهادة التدريب على الحياة الزوجية

محمد شعطيط
استشاري تربوي



تبدأ الحياة الزوجية بين العروسين الشابين مليئة بالود والصفاء والرحمة والمودة.. يتبادلان المعاملة بمنتهى الرقة والأدب والمعاشرة بالمعروف، ثم بعد مرور ما يمكن تسميته بـ «شهر العسل» الذي قد يطول أو يقصر، تطفو المشاكل على السطح ويبدأ موسم التأنيب والتوبيخ والشجار لأتفه الأسباب، ويأخذ كل واحد منهم مجهر السخط يسلطه على أخطاء شريك حياته، فإذا هي كأمثال جبال تهامة، ويصبح ما كان بالأمس القريب لَمًا وصغائر، عيوبا وكبائر. فتتحول الحياة إلى جحيم، ويضرب الأهل والجيران كفا بكف مرددين القولة المشهورة: سبحان مبدل الأحوال.

فكيف السبيل لحياة زوجية سعيدة؛ لا نقول تنعدم فيها المشاكل، بل تتقلص إلى أضيق الحدود. يعامل فيها الزوج زوجه بأريحية وكرم وسخاء وأخلاق راقية، تذكر بأخلاق رسول الله ﷺ وأدبه مع أزواجه؟.

لا توجد وصفات سحرية لعلاج هذا الإشكال مادام أن العلاقات الزوجية هي علاقات إنسانية يتداخل فيها ما هو اجتماعي بما هو خلقي، وما هو تربوي بما هو نفسي، وما هو اقتصادي بما هو معيشي. لكن ترشح عدة اقتراحات ومبادرات من هنا وهناك لحل مثل هذه الإشكالات، منها ما تناقلته الأخبار من قيام بعض الدول المسلمة في جنوب شرق آسيا باشتراط حصول من يقبل على الزواج من الجنسين على شهادة التدريب على الحياة الزوجية، من أجل السماح له بالاقتران بزوجه، يدفعها مع غيرها من الوثائق للحصول على عقد الزواج. وهو اشتراط وجيه يعطي قيمة لهذه العلاقة القدسية التي جعلها الله عز وجل آية من آياته، فقال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:٢١).

ليس الزواج بابا ما إن يلجه العروسان حتى ينقلبا شخصين آخرين فيهما كل مواصفات الشخصية المسلمة المكتسبة لمجموع وافر من الصفات الحميدة والخلال الكريمة. بل الزواج بداية لامتحان أشخاص ألفوا العيش بانفراد ليعيشوا جماعة.. أفراد لهم أسرار خاصة، فإذا هي تفقد هذه السمة لتصبح شراكة بين اثنين.. اعتادوا أن يقوموا بكل شيء بمفردهم، فإذا كل ذلك ينقلب إلى عمل جماعي مراقب

ومدروس بقصد أو بغير قصد.

إن التدريب على شهادة الزواج لمن أهم المبادرات لأهم حدث في حياة الإنسان. فالمرء يقضي ثلث حياته تقريبا في الدراسة والتحصيل للحصول على شهادة تخول له وظيفة لا تأخذ منه إلا ثلث وقته اليومي، فكيف لا يخصص الوقت الكافي للتدرب على كيفية دخول «القفص» المسمى ذهبيا، وحتى يظل كذلك يحتاج صاحبه أن يتسلح بشتى أنواع المعرفة والخبرة في هذا المجال. دورات تدريبية شاملة لكل مناحي الحياة، حتى تعطي ثمارها على أكمل وجه. وهنا يمكن المشاركة ببعض الاقتراحات التي تسهم في تحقيق أهداف هذه المبادرة، وهي كما يلي:

١- دعوة وزارات التربية والتعليم في البلدان العربية والإسلامية إلى إدماج قضايا الزواج وثقافة الحياة الأسرية في مناهجها التعليمية، مع مراعاة التدرج من المستويات الدنيا إلى العليا.

٢- إدراج المعاشرة الزوجية أو ما يسمى بالتربية الجنسية في البرامج التدريبية، مع مراعاة خصوصيات المجتمعات المسلمة، بحيث تكون طبيعة الدراسة بطريقة راقية تتلمس تحقيق الهدف دون إثارة للغرائز أو تهييج للعواطف، خصوصا أن من يكون في دورات التدريب شباب في سن استحكام الشهوة. ولنا في كتاب الله عز وجل خير نموذج، فلو قرأت قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ (الأعراف:١٨٩)، لو ظللت تقرأها -كما قال بعض العلماء رحمهم الله- طوال الوقت لما حركت فيك غريزة الشهوة، ولا سببت لك في فتنة، وهذا من إعجاز كلام الله عزوجل، العليم الخبير.

٣- تدريب الشباب على مكارم الأخلاق، وهذا يقتضي القيام بمخيمات جماعية للمقبلين على الزواج، بمعية زمرة من العلماء للأخذ عنهم مباشرة، ومصاحبتهم والتلمذة عليهم، وسماع تجاربهم في معاملة الأزواج، وقد قيل:

إن الطباع تسرق الطباعا
فاختر لنفسك من أطاعا

وقال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» (أخرجه أبوداود والترمذي وحسنه ابن حجر).

٤- تدريب الشباب على تدبير ميزانية الأسرة وترشيد النفقات، فمن أعظم أسباب الشقاق بين الأزواج إسراف من جانب تضيع معه الحقوق، أو تقتير من جانب يشعل نار الحقد والبغضاء والقطيعة والفجور، كما قال ﷺ: «إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» (أخرجه أبوداود والحاكم وهو في «الصحيحة» (١٤٦٢).

٥- تخصيص وقت من برامج التدريب لتعليم الأزواج بعض الرياضات والأنشطة الترفيهية حسب اهتماماتهم وميولاتهم، فالعيش في البيت في جو رتيب وحياة مملة يقتل السعادة بين الزوجين، ويشغلهم بعضهم ببعض في مهاترات لا قيمة لها. فلو اشتغلوا بمعالي الأمور لما وجدوا وقتا للسفاسف، وقد قيل: نفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالباطل. وقل مثل ذلك عن الاهتمام بالكتب والرحلات والخرجات الأسرية، إضافة لفن التخييم وبروتوكول إقامة بعض الحفلات الهادفة، من حفلات حجاب البنات في الأسرة، أو ختان الابن، أو حفلات حفظ القرآن، أو الحديث، أو بعض المتون، أو الحصول على الشهادات المدرسية.. وقس على ذلك.

٦- الاهتمام بالوقت وحسن تنظيمه واستغلاله، فالوقت هو العمر. وكم نرى من أزواج يقضون الساعات الطوال على كراسي المقاهي تاركين زوجاتهم في بيوتهن وحيدات مع الأفلام والمسلسلات. ولو خصصوا بعضا من هذا الوقت في مجالسة زوجاتهم والاهتمام بهن، بل وإخراجهن في فسح ترفيهية أو مجاذبة أطراف الحديث معهن كما في قصة أبي زرع التي حكتها أمنا عائشة لرسول الله ﷺ وهي في الصحيح، أو مسابقتهن كما ورد في الحديث، أو صلة أقاربهما وأرحامهما، لكان سببا في زيادة أواصر المحبة والوئام بين الزوجين.

إن الحياة الزوجية جعلها الله عزوجل سببا للسعادة والمودة والرحمة والسكن، وقد جعلها بعض المسلمين مرتعا للشقاق وسوء الأخلاق، بحيث أصبحت المحاكم تعج بقضايا الطلاق والخلع ودعاوى اعتداء الأزواج على زوجاتهم. وذلك كله بسبب جهل المتزوجين بحقوقهم وواجباتهم. فلو تعلموا واكتسبوا خبرة قيادة سفينة الأسرة وأعطوا لهذا الموضوع نفس ما يعطونه من قيمة لرخص السياقة أو الشواهد العلمية لرأينا أمة مرصوصة البنيان شامخة الأركان، فالله المستعان. ولو فهم المسلم الغاية من الزواج وعرف أنه مشروع للآخرة قبل أن يكون للدنيا لما أهان زوجته ولأكرمها غاية الإكرام، ففي الحديث: «المقسطون يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين. الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» (صحيح مسلم).

فلنساعد الأزواج في تحقيق مقاصد الزواج، ولتتكاثف جهود الجمعيات النظامية والأهلية في تنزيل هذا المشروع المبارك الذي انبعثت فكرته من أشقائنا المسلمين في ماليزيا.. ولاشك أن هناك بعض المبادرات المشابهة في بعض بلاد المسلمين لكنها تحتاج إلى مزيد تفعيل وإنضاج. وإنه لعمل عسير لكنه يسير على من يسره الله عليه، إذا خلصت النوايا وصاحب العلم العمل.



شارل سان برو مدير معهد الدراسات الجيوسياسية الفرنسي بباريس:

الإسلام بحاجة إلى حكماء جدد

القاهرة- محمد عويس

شارل سان برو: مدير معهد الدراسات الجيوسياسية الفرنسي بباريس، صدر له مؤخرا كتاب (حركة الإصلاح في التراث الإسلامي) عن المركز القومي للترجمة-القاهرة، كما شارك في مؤتمر (تيار الإصلاح وقدرة الإسلام على مواجهة تحديات العالم الحديث)، والذي عقد مؤخرا بجامعة الأزهر بالقاهرة. يشير برو إلى أن الإسلام يضم أكثر من مليار ونصف المليار نسمة من الرجال والنساء في العالم، ورغم ذلك، مازال يعاني من سوء الفهم، ويختصر في صور غالبا ما تكون عدائية، ومن هذه الصور: الصورة المغلوطة عن الإسلام، تلك الصور المتكررة التي تؤكد على أنه يتعارض مع فكرة التطور، والجمود، وأيضا يتخيل العديد من الناس الإسلام كديانة منغلقة في عادات وتقاليد قديمة عاجز عن التأقلم مع العالم الحديث، وتتعارض هذه الرؤيا مع الطبيعة الحقيقية للإسلام. مجلة الوعي الإسلامي التقت شارل سان برو في هذا الحوار:

● برأيك أين يكمن الخطأ؟

- في الحقيقة يكمن الخطأ في تحميل الإسلام زلّات بعض العقول الضالة من أولئك الذين لم يرثوا شيئا عن الإسلام، ولا يستطيعون الحديث باسمه. يتعين أن يقودنا العقل إلى عدم فهم العالم الإسلامي من خلال قبضة المتشددين الذين استغلوا الإسلام لأغراض إجرامية. نحن نواجه مدعين، ومضطرين للقيام بتحليل علمي لهذه الظاهرة، ويتعين علينا التأكيد على أن الإسلام بعيد كل البعد عن الجمود، وأنه دين إصلاح مستمر في جوهره. والمقصد يكمن في التذكير بأن الإسلام بأركانه يؤكد على العمل، لأنه بني على العلاقة الوثيقة بين التراث والتقدم.

● ما رؤيتك لتيار الإصلاح؟

- في الواقع، إني أساند الفكرة الرئيسية التي تبين أن تيار الإصلاح ليس خيارا جديدا أو دوريا، بل على النقيض، إن الإصلاح يعتبر مفهوما يوجد في قلب الإسلام على وجه التحديد. ذلك هو تيار الإصلاح في الإسلام. أود المساعدة في تنقية الإسلام من الأفكار الغربية وتوضيح كيف تم تطبيق الإسلام عبر التاريخ بفضل التطور المستمر. إن التراث الإسلامي يتأقلم ليس فقط مع مفهوم الإصلاح، لكن من الملاحظ أنه إصلاحي في ذاته. ولا يجب إغفال فترات الجمود التي مر بها التاريخ الإسلامي، لكن من المناسب التأكيد على أن الإسلام في تطور دائم، لأن التراث الإسلامي الذي تم فهمه جيدا لا يقوم على تجميد المفاهيم الإسلامية الأولى في ثلاجة الموتى، لكنها مصدر الحياة والتقدم. فإن الإسلام ديناميكي في جوهره وينبغي تنشيطه باستمرار، لذلك فإن التراث والإصلاح يسيران جنبا إلى جنب.

● أين توظيف المصطلحات من ذلك؟

- لا يعبر لفظ إصلاح عن ثورة أو تغيير بل على النقيض، يعبر عن بذل الجهد من أجل الاستمرار منفصلا عن العيوب، والجمود، والتفسيرات الخاطئة، ولا يعني التراث أيضا التحجر كما لا يعني التقدم والحداثة، ولا تعبر السلفية عن الجمود، ولا تعبر أيضا عن العبادة والتقليد الأعمى لماض قد ولى. إن السلفية هي التمسك بالأصول والمبادئ الرئيسية، وفي ذات الوقت الوعد بالمستقبل. وإذا استبعدت السلفية فكرة القطيعة عن الماضي، فهي لا تنكر العقل والتقدم. تعتبر السلفية بمثابة العروة الوثقى بين الماضي والحاضر، فهي صالحة لكل زمان لأنها تقوم على التبليغ، ويتطلب ذلك الحفاظ على الأصل وعلى جوهره واستثماره بفضل التكيف المرجو. وتعتبر السلفية مبدأ يهدف إلى الحفاظ على الأصل والتجديد، فهي مجددة في ذاتها.

● إذن أين تقع الإشكالية؟

- تقع الإشكالية بالضبط في أهمية «تدبر الإسلام دون القطيعة مع الماضي»، أي في العلاقة الوثيقة بين الأصالة والتطورات الطبيعية التي

أهمية تدبر الإسلام دون القطيعة مع الماضي

يجب أن تؤخذ في الاعتبار. وفي هذا السياق، تعتبر العلاقة وثيقة بين التقدم والسلفية. وتكمن السلفية في مفهوم النقل، فإنها متجددة. ويعبر التقدم عن الاستمرار، وينشأ التقدم عن التراث كما نشأ التراث عن التقدم، وباعتبار أن التقدم استمد جوهره من التراث، فإن التقدم امتداد للتراث، وذلك حقيقة مؤكدة، وبخصوص الإسلام من الممكن القول إن التراث ينشط التقدم: «ويستثمره ليرقى بالمجتمع» ويحقق الرخاء للحضارة العربية الإسلامية. وعلى نقيض ما يدعيه المشعوذون الجهلاء. إن الإسلام يسعى إلى التقدم، ولا يتعارض التراث الإسلامي مع فكرة التقدم، فمن الواضح أن الإسلام شجع حركة تقدم ومعرفة علمية رائعة، تاركا للعلماء الحرية الكاملة في مجال عملهم. ويذكر المؤرخون أن العرب والمسلمين كانوا في ذروة الحضارة عندما كان الغرب يمر بمرحلة الظلام والاضمحلال. ولا يفهم هنا أن الأمر يتعلق بالدعوة إلى «إسلام التقدم» كما لو أن هناك فهذا الكلام من ضرب الخيال لأنه ينكر أن الحقيقة الطبيعية للإسلام تكمن في الإصلاح. ويستخدم البعض شعارات مثل إسلام التنوير وإسلام التقدم ليجذب انتباه النخبة المثقفة في الغرب. من الأفضل التأكيد على أن الإسلام يتعارض مع الجمود والتخلف، ولا يعد الإسلام المعتدل اختراعا لأن الإسلام وسطي، وأنه دين الوسطية. ولا يمكن اختراع وسائل الإصلاح لأن التراث الإسلامي مصلح في ذاته، ولا يعد الإصلاح خيارا من بين خيارات أخرى، بل هو حقيقة الإسلام، وتكمن المشكلة في السقوط في شَرَكِ اتباع الأيديولوجيات الرجعية، ومن أجل ذلك من الضروري التأكيد على عدم وجود الحد الأدنى من التناقض بين التراث الإسلامي والتقدم.

• وما الواجب اتخاذه من جانب المسلمين حاليا؟

– وبالنسبة للمسلمين في الوقت الراهن، يتعين عليهم البحث عن محرك التقدم في الإسلام، أي الوصول إلى حقيقة الإسلام وهي العلاقة الوثيقة بين الأصالة والأخذ بعين الاعتبار التطورات الطبيعية. ويجب التأكيد بقوة على ديناميكية التراث، تعبير عن إسلام فُهِمَ فهما صحيحا، يحقق التوافق بين الإخلاص للعقيدة الثابتة والأخذ بعين الاعتبار التطورات، ويؤدي ذلك إلى وجوب التذكير الدائم بأن الإصلاح يوجد في قلب الإسلام. ويجب هنا استحضار مفهوم، يعتبر أحد مفاتيح الفكر الإسلامي، والذي عرفه المفكر الكبير محمد إقبال باعتباره مبدأ للحركة في بناء الإسلام، ويقصد بذلك الاجتهاد، وهو بذل الجهد في التفسير الذي يسمح بالأخذ في الاعتبار التطورات من أجل إيجاد حلول ضرورية. وهنا أيضا، لا يعد الاجتهاد خيارا، ويعتبر ذلك حقيقة لأنه في كل مرة يتم استبعاد الاجتهاد لصالح التقليد الأعمى، يؤدي ذلك إلى الجمود والتخلف. ونقصد بذلك «إعادة تنشيط» فكر السلف من خلال الاجتهاد الذي كان دائما يسمح بإيجاد كل الديناميكية الكاملة والحيوية المؤدية للإبداع في الدين الإسلامي، وتبعت كل مرحلة خمول مرحلة إصلاح ديناميكي. ونستشهد بحديث النبي ﷺ بخصوص أن الإصلاح يكمن في قلب الإسلام: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». وصدق النبي ﷺ في قوله، فقد أتى مصلح على رأس كل قرن لتجديد الدين وأعطى نفحة لهذه الأمة.

• وكيف يمكننا علاج الجمود الذي أصاب الفكر الإسلامي؟

– لتعويض الجمود الذي أصاب الفكر الإسلامي، والهروب من أيديولوجية الإنكار التي روجها المتحالفون مع الغرب، يحتاج الإسلام إلى حكماء جدد يؤكدون على رسالته الحية والأبدية، ويقدمون حلولا تتكيف مع المواقف الجديدة. ومازال الإسلام يحتاج إلى الاجتهاد لتحقيق الإصلاح لمواصلة الجمع بين التراث السلفي الذي يختلط بالفلكلور القديم، والتقدم الذي لا يعني المثاقفة والبدع المكروهة، ويتطلب ذلك رفض شكلي التقليد اللذين يهددان الإسلام المعاصر وهما: التقليد الأعمى للماضي، والعادات العرفية دون أساس ديني، والتقليد الأعمى للغرب. وسيجد الإسلام- في جوهره وليس في النماذج الخارجية غير المقنعة- قوة مواجهة تحديات العالم المعاصر. وإذا أمعنا النظر، نجد أن العالم الإسلامي الذي شهد فترات تراجع عديدة، كان دائما يستقي من ذاته طاقة الإصلاح، معتمدا على الحقيقة وأصالة الرسالة التي تحث على رفض الركود والروتين. وفي الوقت الراهن، كما كان في الماضي، سيتيح الإصلاح، بمعنى «إعادة تنشيط» الفكر الإسلامي من خلال الاجتهاد، البحث عن الديناميكية وكل الحيوية الخلاقة للدين الإسلامي. وبذلك يصبح الإسلام مخلصا لدعوته. وفي الواقع، لم يقصد أبدا بالمطالبة بالالتزام بالتراث، واحترام التقاليد، نوع من أنواع التحجر الذي يمكن أن يتناقض مع الالتزام المنصوص عليه في الإسلام بأن يكون هناك ظهور لأمة وسط تدعو إلى الخير وتحارب الشر. كما أن الوحي لا يقتصر على فترة في التاريخ بل يستمر على مر الزمن، ويتطلب التقدم العمل الدؤوب للبشر، وبذل الجهد في سبيل الله. ولهذا السبب يعتبر الإسلام في الأساس دينا يهدف إلى الإصلاح.



العصبية القبلية والعشائرية

بشرى شاكر
إعلامية مغربية

يقول جون لونسدال في كتابه «العرقية.. روح وقبلية سياسية» Ethnicité morale et. tribalisme politique «إن القبلية هي إحدى وسائل التأثير الأيديولوجي المرتبط بنظام مهيمن أو سلطة. وهي الطريقة المستعملة الآن من قبل البورجوازية الأفريقية الجديدة للدفاع عن مصالحها الطبقية، إذ تجعل الفقراء فخورين ببعض مستغليهم، فهم يرون فيهم أبطالا كبارا يوفرون لهم المكسب والعمل داخل الدولة التجارية». ويقول كريستيان كولون: «إن الاختلاف العرقي ينظر إليه غالبا كمرض يفسر مصائب أفريقيا ويشكل عقبة في طريق الديموقراطية».

ويقول عيد بطاح الدويهيس «إن التعصب العرقي هو أحد معوقات التنمية على المستوى المحلي والقومي والعالمي، فأغلب خطط التنمية تعيش في دوائر عرقية وطنية». وأضاف: «إنه عدو مجهول، لا يدرك كثيرون خطورته وآثاره المدمرة، ويعتبرونه جزءا من الانتماء الوطني أو القبلي أو القومي، ولهذا يتمسكون به».

القبلية والعشائرية هي سبب الاقتتالات في أفريقيا الآن، سواء بنيت على أساس العرق أو الدين أو الانتماء إلى قبيلة معينة، مثلما يحدث حاليا في أفريقيا الوسطى ونيجيريا، ومالي قبلهما. ولكنها

أيضا توقف عجلة النمو السياسي والاقتصادي في عدد من الدول العربية والإسلامية، مثلما أثرت بشكل واضح على الانتخابات في إحدى الدول العربية، التي تقوم في غالبيتها على أساس التعصب الديني المذهبي أو على أساس الانتماء إلى العشيرة. والتقسيم العشائري واضح وجلي جدا في هذه الدولة الشقيقة، وفي دول أخرى مجاورة أيضا.

العصبية القبلية موجودة أيضا في دول أخرى، وتتبني هناك أساسا على العرق أو اللغة، وهي عصبية قبلية توغلت أكثر إبان فترات الاستعمار، حيث حاول المستعمر توسيع رقعة الفرقة بين القبائل، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن هذا النوع من القبلية وهذا التعصب يتغلغل في أوساط المجتمعات الإسلامية والعربية بشكل كبير.

ولكن إن كان الباحثون يتحدثون عن العصبية للقبيلة أو للمجموعة في زمننا، فهذا لا يعني أنها وليدة اليوم، فقد عرفتها أوروبا في نظرية «نقاء الجنس الآري»، الذي كان يدعي الألمان أنه سبب تفوقهم، أي نظرية نيتشه -السوبرمان- وهي التي توسعت في العديد من المناطق الأوروبية، وبنيت على أساس اللون والعرق والقوة الخارقة في تجاوز الأمور. ونظرية نيتشه تتحدث عن الإنسان Ubermensch وهي كلمة ألمانية تعني «الإنسان الأعلى»، وتشكل السلالة الكائنة في شمال غرب أوروبا، مثل العصبية التي بنت عليها الحركة الصهيونية أهدافها أيضا، أي نظرية العنصر السامي، إذ يعتقد اليهود أن الاختلاط بباقي الأجناس يفقدهم الصفاء الذي حافظوا عليه كجنس سام.

العصبية القبلية والعشائرية ولدت في تاريخ أبعد من هذا بكثير، حيث ولدت في المجتمع الجاهلي منذ آلاف السنين. وقد ورد في كتاب الإسلام والتمييز العنصري أن الذهنية البدوية الجاهلية لا تتصور الكائن الإنسان إلا داخل مجموعة شريعتها العصبية القبلية، حيث يعد أفرادها نسخا يطابق بعضها بعضا، ويذوب كل شخص في القبيلة، ولم تكن العصبية القبلية لتعترف بالتضامن والعلاقات الودية إلا بين من تجمعهم رابطة القرابة. وتبنى واقعية العصبية على تقديس الجد المشترك.

وهذه العصبية والعشائرية هي سبب الفتنة الآن جراء الانحياز والموالاة لطرف دون آخر إلى درجة التقديس أحيانا، والتجمع في دوائر مغلقة لا تقبل الآخر؛ إما باسم الطائفة الدينية والمعتقد وإما بناء على العرقية والانتماء إلى عشيرة معينة ونصرتها، سواء أكانت ظالمة أم مظلومة، فكان أن شاعت الفتنة وتسببت في الفرقة. ولذلك، حرمها الإسلام في كثير من سور القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، قال سبحان وتعالى:

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(آل عمران:١٠٣).وقد علم الرسول ﷺ أصحابه وأتباعه أنه لا يختار من معه على أساس العرق أو النسب بشكل عملي، ففي غزوة مؤتة -مثلا- عين عليه الصلاة والسلام ثلاثة قادة: اختار أن يكون أولهم زيد بن حارثة وجعله على رأس الجيش، رغم كونه مولى آنذاك، واعترض بعض الصحابة على ذلك، ولكنه أصر وأعرض عنهم. وكان من عينه نائبا ثانيا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ابن عمه عليه الصلاة والسلام، والقائد الثالث كان أنصاريا وهو عبدالله بن رواحة رضي الله عنه. وقد استشهدوا جميعا في هذه المعركة.

وما فتئ الرسول الكريم ينهى عن العصبية لعشيرة أو نسب، فقد كان أن سمع ﷺ أحد الصحابة من الأنصار ينادي: «يا للأنصار». فرد عليه أحد المهاجرين:«يا للمهاجرين». فقال عليه الصلاة والسلام: «ما بال دعوى الجاهلية؟». قالوا: «يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار». فقال: «دعوها فإنها منتنة». وقال أيضا عليه أفضل الصلوات والسلام: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية».

والعشائرية إذا ما تجاوزت الاهتمام بالنسب والتفاخر به فيما لا يضر الغير، وتحولت إلى نبذ للآخر وبناء للأحكام وفق العشيرة فقط دون الآخر، بل وإيذاء للآخر وبغضه وأذيته في ماله وجسده وروحه، فقد تصبح عصبية أهل النار، فقد قال في هذا رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام «إن الله عزوجل قد أذهب عنكم عُبِّيَةَ الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن».

بل إن في قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، دليلا على رحابة هذا الدين الذي لا يفرق بين الأشخاص بجنس أو عرق أو لون أو معتقد.. ومن رحمة بعثه عليه الصلاة والسلام أن قيل له أدع على المشركين. قال ﷺ: «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة».

التربية الجمالية في الإسلام

د. صهيب مصباح - باحث دراسات إسلامية

إن الجمال الذي نتحدث عنه في هذا السياق هو الجمال التربوي، الذي يمكن صناعته وإيجاده والسعي إليه. وبتعبير أدق، نستطيع القول إن الجمال المقصود هنا هو ما يمكن التعبير عنه بالتجمل، الذي يفيد طلب الجمال والسعي من أجله، إذ مهمة التربية أن توجه إليه وترغب فيه، وبالتالي يسعى الفرد في سبيل تحقيقه. وقد نعبر عنه بالزينة أو التزين، ذلك المفهوم الذي يعني الاهتمام بالإنسان في سلوكه ومحيطه الخاص.

الجمال التربوي والإسلام

لم يهتم دين من الأديان بأمر الجمال كاهتمام الدين الإسلامي به، فبعض الأديان لم تعر هذا الأمر أي اهتمام، وبعضها وقف في الطرف الآخر فاعتبر القبح فضيلة، واعتبر النظافة خروجا عن أوامر الدين.

أما الإسلام فهو الدين الوحيد الذي جعل من قضية الجمال موضوعا جديرا بالاهتمام، مؤطرا ضمن مواضيع الدين، فقرر له مكانته، وجعله ضمن الواجبات التي ينبغي على المسلم السعي من أجل تحقيقها، بل إن القرآن الكريم وقف موقفا صريحا ضد الحاملين على قضية الجمال الإنساني، فأضاف الحق -سبحانه وتعالى- الزينة لنفسه إضافة تشريف وتكريم، وفتح للإنسان مجالا واسعا من مجالات بناء ذاته، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأعراف:٣٢). والناظر إلى هذه الآية الجليلة يهتدي إلى أنها تقرر مبدأ عاما في المنهج الإسلامي، مفاده أن التجمل أمر يطلبه المنهج؛ لكونه من الفضائل المقصودة.

ولم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد بخصوص موضوع الجمال، بل تذهب الآية الكريمة إلى مدى أبعد من ذلك، لتجعل من الجمال والقبح، أو الطيب والخبث عللا للتحريم أو التحليل، فيصبح الجمال بهذا دليلا على التحليل، والخبث دليلا على التحريم، ومعينا على تمييز الخبيث من الطيب، والغث من السمين، وما الخبيث في ميدان الأطعمة إلا القبيح والسيئ، وما الطيب إلا الجميل.

ويتأكد هذا المعنى فيما بثه الله تعالى في القرآن الكريم من ومضات جمالية دلت عليها إشارات بيانية لآيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (المائدة:٩٠).

وقال أيضا: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ



﴿خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ (الأنعام:١٤٥). إن كلمة رجس في الآيتين العظيمتين، تشير بوضوح إلى علة التحريم، والرجس: هو القذر والنجس والقبيح، وبذلك يكون هو الوجه المقابل للجمال.

وهل رأيت دينا يجعل من الجمال والقبح علة أو حكمة في التحريم والتحليل؟ إنه الإسلام. فهل بعد ذلك من عناية بأمر الجمال؟ ولم ينحصر هذا في نطاق التنظير والتحليل، بل تجاوز ذلك إلى واقع الناس ومجال التنزيل، فقد اهتم المسلمون منذ الزمن الأول بأمر الهندام، وأولوه عناية كبيرة، ليتخذ أشكالا متنوعة وأسامي متعددة، بحسب الأعراف والعادات الموافقة لفحوى رسالة الإسلام في العناية بهذا الأمر، في إطار التوجيه القرآني والبيان النبوي في هذا الموضوع.

إنه تدريب وتربية للمسلم من خلال النص القرآني، أن يستعين بالمقياس الجمالي في إتيان الأشياء أو الابتعاد عنها، ألم يطلب القرآن الكريم من المسلم ألا يرفع صوته بغير ضرورة؟ فكان التعليل لذلك بالقبح، فقال تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ (لقمان:١٩).

وهذا التركيب يفيد عِلّيّة النهي، يقول المفسرون في مثل هذا المقام: إن وما بعدها في مقام التعليل (١).

وهكذا يكون التحريم بالقبح مقياسا جماليا يستعان به في سبر علل الأحكام. أليس هذا تربية على استعمال المقاييس الجمالية والاستعانة بالحس الجمالي في منظومة الاستنباط؟

المعيار الجمالي

خط القلم في ما تقدم كيف أن القرآن الكريم عول على الحس الجمالي كدليل. والآن، يتساءل القلم: كيف نقيس الجمال؟ أو كيف نتأكد من مدى واقعية المقياس الجمالي وصحته في الإنتاج؟ إن الحس لا يهتدي إلا بهاد يهديه، وإن العقل لا يسترشد إلا بمرشد يرشده ومن الزلل يحميه. ولذلك، كان لابد للحس من معالم يرجع إليها لضبط سلوكه في التصور الجمالي، فإن للصورة مفاهيم متباينة، تستدعي من الحس الناقد تقليبها على أوجهها وسبر مكوناتها المؤدية إلى النتيجة، حتى لا يزيغ الحس الجمالي في الإنتاج.

وقد أدى انعدام ضوابط القياس الجمالي وانحرافها في عالم الفن إلى فساد عظيم في مفهوم الجمال، حتى أصبح القبح جمالا أو كاد، كما هو ملاحظ في إنتاجات بعض المدارس الفنية، حيث وصل بها الفساد في الذوق الجمالي إلى فقدان التمييز بين الألوان الإبداعية في عالم الذوق الجمالي الهادف.

إن الفطرة السليمة يمكن أن تكون حكما في هذه القضية، وقد أتاح لها الإسلام أن تأخذ دورها الكبير في تحديد استقامة هذا الحس. بيد أنه لما كان انحرافها متوقعا، نتيجة للعوامل الكثيرة التي تحيط بها، فقد وضع المنهج الإسلامي قواعد عامة يرجع إليها في الحالات التي يشتبه بها، أو في الحالات التي يفسد فيها الذوق ويتبلد الحس.

إنه ليس إلغاء لدور الفطرة وإنما التوجيه لها، والأخذ بيدها، حيث تتاح لها حرية العمل في إطار المنهج الإسلامي العام، لأن الفطرة تتساق مساق العوامل الخارجية المحيطة بها.

وفي ميدان التربية الجمالية يحدد لنا المنهج المقاييس العامة لتصرفاتنا الجمالية، وقد لخص ابن قيم الجوزية -رحمه الله- الخطوط العامة للمنهج في هذا الميدان، فجعل الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم.

فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله، ونصر دينه، وغيظ عدوه. والمذموم منه، ما كان للدنيا والرياسة، والفخر والخيلاء، والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية المرء وأقصى مطلبه، فإن كثيرا من النفوس ليس لها همة إلا ذلك.

وأما ما لا يحمد ولا يذم، فهو ما خلا من هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين (٢).

من خلال هذا يتبين أن الحكم الجمالي يعتمد على عدد من العوامل، في مقدمتها أن يكون مسايرا للخط العام للمنهج، ومنها ما هو مرتبط بالوضع النفسي للإنسان، ومنها ما هو مرتبط بالحال والمناسبة اللتين يجري فيهما الحكم.

إن اللباس إذا اتخذ للتجمل وإظهار نعمة الله على الإنسان فهو محمود، وهذا اللباس نفسه إذا اتخذ بدافع الخيلاء والتعالي فهو مذموم، وهو ما يؤكد على أن العامل النفسي هو المؤطر الأساسي لهندام الإنسان، كما أن الفطرة قادرة على التمييز بين الحالين، ولكن وجود الضابط يمنحنا فرصة في إصدار الحكم.

أما الحديث عن البنية السميائية للباس فيأخذ بعدين: بعد جمالي وآخر وظيفي. وليس من المنهج تغليب أحد البعدين على الآخر، لما يؤدي ذلك من خلل في المظهر الإنساني، أو في الغاية الوقائية المنوطة باللباس. وعليه، فلابد من مراعاة عنصر الجمال وعنصر الوقاية في اختيار الهندام المناسب.

وعلى العموم يمكن القول: إن الظاهرة الجمالية في هذا الدين بناء متكامل، يشد بعضه بعضا في تناسق وتنظيم بديع، إنها ليست فلسفة فردية استحسنها الآخرون فأصبحت مذهبا، إنها كيان قائم في ذاتية هذا الدين، تدخل في لحمته وعمقه؛ ليظهر أثرها من خلال اللون والشكل، ومن خلال التناسق والتنظيم ومن خلال المواءمة والتعاون، فكل ما يرغب فيه هذا الدين أو يأمر به يوصل إلى جمال ظاهري أو باطني، إذا سلم المنهج في الأخذ، وانسجم البعد السميائي الجمالي مع البعد الوظيفي الوقائي، من غير تفريط ولا إفراط.

هوامش

١- فتح القدير للشوكاني ٢٧٢/٤، دار ابن كثير.
٢- الفوائد لابن القيم، ص١٨٦ دار الكتب العلمية.

مكتبة الأحقاف للمخطوطات ومركز النور للدراسات

كنزان تراثيان في حضرموت

حسين العيدروس
باحث بمركز النور للدراسات - اليمن

من دون شك إن حضرموت ذات تراث قديم، وحضارة أصيلة، تعمقت جذورها وسط قيم علم وفهم من معين صاف زلال. وانعكست مرايا تلك القيم والعلوم حتى ظهرت واضحة جلية في حب أهلها للعلم والتراث، ومحافظتهم على موروثهم العلمي؛ ليبقى نهرا تجدده عقول الأبناء وأفكارهم فوق أساس خبرة الآباء.

والمتعمق في موروثاتنا الأدبية من كتب ألفها أو جمعها آباؤنا السابقون، يتبين له مدى هذا العمق الحضاري والأدبي في حضرموت.

ولكي نثبت بعض ذلك سنتجول معك -أخي القارئ- وسط منارتين من منارات الموروث العلمي والنتاج الفكري للآباء لمئات السنين ألا وهما مكتبة الأحقاف للمخطوطات ومركز النور للدراسات والأبحاث في مدينة تريم بحضرموت.

أولا - مكتبة الأحقاف للمخطوطات

كنز ثمين يحتوي على مئات المخطوطات القيمة، وصرح شامخ ينير الطريق لرواد المعرفة. وعنها يحدثنا أمين المكتبة الأستاذ حسين ابن عمر الهادي بقلمه حيث كتب:

التكوين

في عام ١٩٧٢م تكونت مكتبة الأحقاف للمخطوطات في تريم من مجموعة مكتبات أهلية من مصادر متعددة لكل من: آل الكاف، آل بن يحيى، آل بن سهل، آل الجنيد، آل الحداد، رباط تريم، آل الحسيني، العيدروس من الحزم، مكتبة السلطان صالح القعيطي من المكلا ومصادر أخرى.

الأحقاف.. الاسم والدلالة

سميت المكتبة بـ «الأحقاف» تيمنا بهذا الاسم المبارك، الذي سميت به سورة في القرآن الكريم.



والأحقاف هو الاسم القديم لوادي حضرموت. والحقف (بكسر الحاء وسكون القاف) هو المرتفع من الرمل.

فنون المخطوطات

نظمت المخطوطات وفق فنون الموضوعات التي تحتويها وهي كالتالي: التفسير، الحديث، الفقه، التصوف، التراجم والسير والتاريخ، الأدب واللغة، الطب، المجاميع (مخطوطات تشتمل على أكثر من نص وموضوع).

عصر المخطوطات

معظم المخطوطات تعود إلى القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وأقدم المخطوطات المحفوظة في المكتبة يعود إلى القرن الخامس الهجري، ونذكر بعضها:

١ - نسخة من البيان في تفسير القرآن (الجزء الخامس) لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، نسخت سنة ٥٩٥هـ بخط نسخي مهمل النقط في الأكثر.

٢ - نسخة من الجزء الثاني من كتاب القانون في الطب لابن سينا نسخت سنة ٦٣٣هـ وبها حواش منقولة من نسخة المؤلف.

٣ - نسخة لخمسة أجزاء من الدر المنثور في التفسير لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي نسخت سنة ٨٩٧هـ ومزينة بالذهب، بالأسلوب المملوكي، وعليها إجازات مكتوبة بيد المؤلف.

٤ - نسخة في جزأين بخط بديع ومزين بالذهب لكتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي نسخت سنة ٧٦٣هـ.

٥ - كما لا ننسى مؤلفات العلماء الحضارم وخطوطهم الجميلة وتآليفهم الواعية التي احتوت المكتبة على جزء ليس بالقليل منها.

أقسام المكتبة

● قسم المخطوطات: يحتوي القسم على ستة آلاف ومئتي مخطوط مرتبة في الدواليب على حسب الفنون، ولكل مخطوط رقم وبطاقة خاصة به تعطي معلومات كاملة عنه، كما توجد فهارس على شكل جداول تعطي معلومات أولية للباحث. وبحمد الله أصبح فهرس المكتبة متاحا عبر شبكة النت تسهيلا لكل راغب وباحث.

● قسم المطبوعات: يحتوي على كثير من المراجع المتعلقة بالمخطوطات، وكذا فهارس بعض المكتبات العالمية، وكتب ومجلات خاصة بالمخطوطات وكذلك شتى العلوم. ويزيد عدد المطبوعات على ١٦٠٠ مطبوعة ولها فهرسة خاصة بها.

● قسم الكمبيوتر والتصوير: يحتوي على أجهزة كمبيوتر وآلة تصوير، حيث يخدم عملية صف وإعداد الفهارس وكذا تصوير المخطوطات لحفظها ولخدمة الباحثين (الفوتوكوبي والرقمي).

● قسم الصيانة: يحتوي على مواد وورشة متواضعة للتجليد.

مهام المكتبة

١ - خدمة الباحثين، وهي أهم الواجبات والأعمال اليومية التي تقدمها المكتبة إلى الباحثين الذين يفدون إليها من المؤسسات العلمية والجامعات الحكومية والأهلية والأجنبية.

٢ - التعريف بالتراث الثقافي اليمني، وإسهام اليمن في الحضارة الإنسانية، وذلك من خلال تعريف الوفود



الرسمية الكبيرة، كرؤساء الدول ورؤساء الحكومات والوزراء الذين لا تخلو برامجهم من زيارة المكتبة، وكذا الأفواج السياحية من جميع أنحاء العالم. كما يرتاد المكتبة بشكل يومي أعداد كبيرة من السياح المحليين وطلاب المدارس من محافظات الجمهورية.

وقد أعد لهذه الزيارات معرض صغير يحتوي على نماذج من نفائس المخطوطات إلى جانب الصور والتعريفات.

المستقبل

جدير بالذكر أن المعلوماتية علمت أن هناك مساعي حثيثة تعمل على بناء مبنى جديد للمكتبة، وإلى تحويل مجموعات من المخطوطات إلى صيغ رقمية، حيث يقع المبنى الحالي فوق أرضية مسجد الجامع بتريم.

ثانيا - مركز النور للدراسات والأبحاث

أما الصرح الثاني فهو مركز النور للدراسات والأبحاث بمدينة تريم، وهو مؤسسة علمية تعنى بالبحث العلمي وخدمة الموروث العلمي والأدبي والثقافي للأمة الإسلامية. نال اعتراف الدولة، من وزارة الثقافة في الجمهورية اليمنية، بتصريح وزاري رقم ٢٩ في شهر محرم ١٤٢٣هـ الموافق أبريل ٢٠٠٢م، فانطلق رافعا نصب عينيه الأهداف التالية:

- التعاون وتبادل المساهمات العلمية والخبرات مع المراكز والجهات صاحبة المجال والأهداف نفسها.
- الحفاظ والتوثيق والنشر والتحقيق لمهمات الكتب المشتملة على المؤلفات العلمية والأدبية والثقافية.
- إبراز التاريخ الإسلامي عموما، وتاريخ اليمن خصوصا.
- نشر التراث العلمي، وتدريب الناشئين الراغبين في التحقيق والبحث العلمي.

مكونات المركز وأقسامه

يتكون المركز من الأقسام التالية:

١ - قسم الدراسات والبحث العلمي.
٢ - قسم التاريخ.
٣ - قسم التوثيق وحفظ المخطوطات ورقمنتها.
٤ - قسم دراسة الأنساب العربية وتوثيقها.
٥ - قسم التجليد والترميم وصيانة الكتب والمخطوطات.

الأنشطة والوسائل التي يسعى المركز من خلالها إلى تحقيق أهدافه

يقوم المركز بأنشطة ووسائل يهدف منها إلى تحقيق أهدافه التي خطها، ومن تلك الأنشطة:

● التنظيم والتنسيق أو المشاركة في الأنشطة والمؤتمرات والندوات العلمية المختلفة.
● عقد الدورات التدريبية في مختلف الفنون العلمية المنصبة في زوايا أهداف المركز، خصوصا في المجالات التالية:
١ - قواعد البحث العلمي.
٢ - أصول التحقيق للمخطوطات.
٣ - تصنيف وفهرسة المخطوطات.
٤ - صيانة وترميم المخطوطات والوثائق.
٥ - تجليد الكتب والمخطوطات.
● دعم وتبني الدراسات المختلفة الخادمة لأهداف المركز.
● تحقيق ونشر مهمات الكتب العلمية والأدبية والثقافية.
● خدمة الباحثين وتيسير عملية البحث لهم من خلال توفير المراجع العلمية ونوادر الكتب.

الأعمال التوثيقية

في سبيل إتاحة الفرصة للباحث وإعانته في الحصول على معلومات أولية عن بعض المكتبات الأهلية العامة والخاصة في وادي حضرموت تم عمل مسح أولي لما يزيد على ٦٠ مكتبة داخل محافظة حضرموت باليمن وخارجها، ومتابعة جمع قوائم لمحتويات بعضها.

وقد تم جمع مجموعة من المخطوطات من خلال التواصل مع مجموعة من أرباب المكتبات الخاصة بعد إبدائهم النية بتسليم ما لديهم من مخطوطات بشكل عهدة يتعهدها المركز، ويتعهد الحفاظ عليها وصيانتها، وكذا الحفاظ على الحقين المعنوي والمادي لأصحابها عند التحقيق أو النشر، وذلك من خلال اتفاق يحفظ ذلك.

قام المركز بخدمة ٤٥ مكتبة من المكتبات الخاصة ومكتبات الأربطة من خلال القيام بالفهرسة والتصنيف لها والترميم والتجليد والتصوير لبعض محتوياتها المخطوطة أو المنسوخة حسب المتاح. ومن جملة المكتبات المهمة التي قام المركز بخدمتها:

● مكتبة الإمام المسند عيدروس بن عمر الحبشي بالغرفة بحضرموت.
● مكتبة العلامة عمر بن عبدالرحمن البار بمنطقة القرين بدوعن بحضرموت.
● مكتبة رباط الحداد بقيدون بحضرموت.
● مكتبة العلامة الشهيد محمد بن سالم بن حفيظ بتريم.
● مكتبة المشايخ آل با شيخ بدوعن.
● مكتبة المشايخ آل بلخير بدوعن.
● جزء من مكتبة الشيخ عبدالباري السروري بمحافظة تعز.
● مكتبة الشيخ عبدالرحمن با جرش بالحديدة.
● إضافة إلى عشرات المكتبات الأخرى في تريم وسيئون وشبام ودوعن وعينات والمكلا والحامي والشحر وقشن وغيرها من المدن الحضرمية واليمنية.

وبهذا بلغ نصيب المركز من عمليات توثيق المخطوطات الآتي:

● مخطوطات أصلية: ١٢١٧ عنوانا.
● مخطوطات مصورة رقميا: ما يزيد على ٤٠٠٠ عنوان.
● مخطوطات مصورة ورقيا: ٩٧٠ كتابا.
● إضافة إلى ما يزيد على ٣١٠٠ مكاتبة ووثيقة.
● وحوالي ١٢٠٠ مجلة وصحيفة قديمة، ومئات الكتب المطبوعة طباعة حجرية قديمة.
● كما يحتوي المركز على مكتبة ضخمة تحتوي على آلاف الكتب والمراجع المطبوعة.

من مشاريع المركز

بالتعاون مع الأخ أحمد مسعود





المفلحي (خبير ترميم المخطوطات في دار المخطوطات بالعاصمة صنعاء) تم تصنيع جهاز النور التجريبي للترميم الآلي للمخطوطات والوثائق كخطوة نحو تصنيع الجهاز في صورته النهائية، حيث تم إشهار الجهاز التجريبي في الحفل الذي أقيم في دار المخطوطات، صنعاء، وزارة الثقافة في شهر رجب ١٤٢٣هـ، تزامنا مع احتفالات سبتمبر ٢٠٠٢م، ثم جرى تسجيله برقم ١٦٢ لدى وزارة الصناعة. وهو أول جهاز من نوعه يتم تصنيعه في اليمن في مجال ترميم المخطوطات وصناعة الورق.

وبحمد الله وتوفيقه استطاع المركز استعادة الروح لمئات الكتب المخطوطة وترميمها، لتبقى الاستفادة منها، ومن ثم توثيقها وفهرستها، وبعد ذلك إما يتم إبقاؤها في المركز كوديعة، وإما إرجاعها إلى أربابها في حالة رغبتهم في ذلك.

كما أن المركز يعمل حاليا على إطلاق مشروع فهارس مكاتب حضرموت وبعض المؤلفات الحضرمية المنتشرة في مكتبات العالم العربي وغير العربي.

وفي مجال البحث العلمي فللمركز دور كبير في إصدار الكتب العلمية والتاريخية وطباعتها، سواء كانت تأليفا أو تحقيقا أو أبحاثا متفرقة.

ومن جملة الكتب التي خدمها المركز، طباعة وتنسيقا أو تحقيقا أو تأليفا:

١ - كتاب حواشي بغية المسترشدين للعلامة عبدالرحمن بن محمد المشهور (ت ١٣٢٠هـ).

٢ - فتاوى العلامة الشهيد محمد بن سالم بن حفيظ بن الشيخ أبوبكر بن سالم (ت ١٣٩٣هـ).

٣ - تحقيق كتاب العرف العاطر في معرفة الخواطر للعلامة عبدالرحمن ابن مصطفى العيدروس دفين مصر (ت ١١٩٢هـ).

٤ - تحقيق كتاب الروضة الخضراء للشيخ علي با رأس (من علماء القرن الحادي عشر الهجري).

٥ - تحقيق كتاب الفوائد السنية للعلامة أحمد بن حسن الحداد (ت ١٢٢٢هـ).

٦ - تحقيق كتاب الفوائد المكية للسيد علوي بن أحمد السقاف.

٧ - تحقيق كتاب لمحة من زاوية التاريخ الحضرمي للسيد عبدالله بلفقيه (ت ١٤٠٠هـ).

٨- المهندس علوي بن أبي بكر الكاف، رائد العمارة الطينية بحضرموت، جمع محمد الجنيد وحسين الكاف.

٩ - دراسة عن العلامة علوي بن طاهر الحداد قدمها الباحث منير با زهير.

وغير هذه من العناوين والتآليف.

كلمة يجب أن تقال

وفي ختام هذا المقال أحب أن أشير إلى كل قارئ أن مهمة حفظ الموروث العلمي لا تقتصر على مؤسسات أو مراكز أمثال هذه فحسب، بل هي واجب يتعلق في عنق كل غيور على موروثه الأصيل، فملاك الكتب والمكتبات يمكن تقسيمهم إلى أقسام:

● قسم حكروا رؤيتها والاطلاع على ما فيها على أنفسهم. وهي متى ما كانت علوما مفيدة يخاف عليهم أن يدخلوا في وعيد حديث المصطفى ﷺ «من كتم علما مما ينفع الله به في أمر الناس أمر الدين، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار» (رواه ابن ماجه). وربما لسوء الحفاظ عليها أصبحت تلك الكتب طبقا شهيا للأرضة وحشرات الكتب وتغيرات الطقس السلبي.

● وقسم أهملوها ما بين نهش دودة البق، حتى ضاقوا بها ذرعا فأحرقوها أو دفنوها، فليسوا بالذين استفادوا منها، وليسوا بالذين جعلوا الناس يستفيدون.

● وقسم ثالث حافظوا عليها وتعهدوها ونشروا النافع منها، سواء كانت أصلية أو مصورة، فهؤلاء ساهموا في استمرار عجلة الاستفادة العلمية، وحصلوا لأنفسهم ولمن تقدم الأجر والثواب إن شاء الله تعالى.

وإن مكتبة الأحقاف ومركز النور مستعدان لمساعدة كل من يهمه حفظ التراث بالإمكانات المتاحة لديهما، ويشجعان كل من يقوم بحفظ مخزونه العلمي والمعرفي بطرق علمية صحيحة، ويبديان الاستعداد للتبادل المعرفي بين المكاتب لتعم الفائدة رقعة كبيرة من روادها.

نسأل الله الكريم أن يحفظ للمسلمين تراثهم فينفعوا وينتفعوا بكل ما عندهم من موروث إسلامي أصيل، ويهيئ من أجيالنا الصاعدة من يجند نفسه خادما له، حفظا وتحقيقا ونشرا، والله ولي التوفيق.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

في الأدب العربي

العبقرية والقريحة
أو
شوقي وحافظ

بقلم احمد حسن الزيات

فجيعة الشعر العربى فى حافظ وشوقى يعز عليها الصبر، ويعوز منها العوض، ويصرف أساها الناقدين عن تقويم الميراث العزيز الى تعظيم الموروث الأعز. وليس مما يزكو بالمنصف أن يجشم نظره رؤية الحق من خلال الدموع، فان فى ذلك اعتداء على العقل أو إساءة إلى العاطفة. وهذه الكلمة انما نستجيز ذكرها اليوم لأنها إلى الهتاف بالعظيمين أقرب منها إلى النقد، ولأن مايكتب عنهما الساعة إنما هو تقييد لعفو الرأى وتمهيد لأسباب الحكم الصحيح.

شوقى شاعر العبقرية وحافظ شاعر القريحة. وتقرير الفرق بين الموهبتين هو تقرير الفرق بين الرجلين. فالقريحة ملكة يملك بها صاحبها الابانة عن نفسه بأسلوب يقره الفن ويرضاه الذوق. ومن خصائصها الوضوح والاتساق والأناقة والسهولة والطبعية والدقة. أما العبقرية فضرب من الالهام يستمر استمراراً تجددياً فتلازم أحياناً وتنفك حيناً. ومن أخص صفاتها الأصالة والابداع والخلق. فالرجل العبقرى إذن يعلو ثم يسفل تبعاً لقيام العبقرية به أو انفكاكها عنه. وهو يتشخب الشعر غالباً فيرسله من فيض الخاطر كما يجىء دون تنقيح له ولا تأنق فيه، ثم هو فى عظام الأمور سباق وفى محاقرها متخلف. لأن الجليل يوقظ خاطره ويحفز طبعه. والتافه الوضيع ينخزل عن مكانه فلا يبلغ موضع التأثير فيه. وقد يعنى لسبب من الأسباب بعامى الأشياء أو سوقى الآراء فيبعث فيه من روحه ما يحييه، ومن حرارته ما يقويه، ومن أشعته ما يظهر فيه الطرافة والجدة كما تظهر الشمس كرات التبر فى عروق الصخور! فالقريحة كما ترى توجد الصورة والعبقرية تبدع المخلوق. ومزية الأولى فى الصنعة وتقديرها فى التفصيل، ومزية الأخرى فى الابتكار وتقديرها فى الجملة. فاذا قرأت قصيدة لذى القريحة راقك منها جرس الحروف ونغم الكلمات واتساق الجمل وبراعة البيت، ولكنك تفرغ منها وليس لها أثر فى نفسك ولا صورة فى ذهنك. أما العبقريات فحسبك أن تذكر عنوانها لتشعر بها، وتتصور موضوعها لتتأثر منها.

ذو القريحة يقول مايقول الناس، ولكنه يصوره بقوة ويؤديه بدقة وينسقه بذوق ويهذبه بفن، وذوو العبقرية على نقيضه. ينظر ويشعر ويفكر ويقدر على طريقته الخاصة. فاذا وضع خطة أو رسم صورة أو بحث فكرة أخرجها على طراز فذ فتحسبها مبتكرة وقد تكون مسبوقة، لأنه استطاع بقوة لحظه ولقانة طبعه أن يريك فروقا لم ترها، ويقفك على تفاصيل لم تتصورها، ويفجر لك النهر من حيث لم يستطع غيره أن يفجر الجدول. والرجل العادى ينظر بالعين فكأنه لسطحيته لم ير! والعبقرى يرى باللمح فكأنه لزكانته لم ينظر!

على أن هناك فرصا للكمال تجتمع فيها على الوئام العبقرية والقريحة، فيسلم الفنان حينئذ من التفاوت القبيح بين إصعاده وإسفافه، أو بين جيده ورديئه. لأن العبقرية إذا غفت خلفتها القريحة، والقريحة إذا كبت سندتها العبقرية. على ذلك تستطيع أن تقول إن أبا نواس وأبا فراس والشريف من رجال القريحة وإن أبا تمام وأبا العتاهية والمتنبى من رجال العبقرية، وإن البحترى وابن الرومى ممن جمع فى الكثير الغالب بين الموهبتين. وتستطيع

كذلك أن تعلل أمثال قول البحترى فى أبى تمام: جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه؛ وقول الأصمعى فى أبى العتاهية: إن شعره كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والخزف والنوى، وقول الثعالبى فى المتنبى: كان كثير التفاوت فى شعره فيجمع بين الدرة والآجُرَّة، ويتبع الفقرة الغراء بالكلمة العوراء، وقولهم فى ابن الرومى: إنه امتاز بتوليد المعنى واستقصائه وسلامة شعره على الطول

أخطِرْ ببالك بعد ذلك حافظا تجد أول مايبهرك منه لفظه المونق وأسلوبه المشرق وقافيته المروضة وصوره الأخاذة. فأما الروح والموضوع فأصداء منبعثة من الماضى فى فردياته وآراء مقتبسة من الحاضر فى اجتماعياته، فحافظ لم يستطع لضيق مضطربه وقصور خياله وضعف ثقافته أن يعنى بغير الشكل والصورة، وكانت هذه العناية من اليقظة والحرص بحيث لم تغفل عن خلل ولم تعى بصقال. فاذا تهيأ للشعر أو للنثر عمد الى الآراء التى تختلج حينئذ فى النفوس وتستفيض فى المجامع وتتردد فى الصحف فيجمعها فى باله ويديرها فى خاطره ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ ويسبكها فيجيد السبك، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فاذا نسق مطرد واسلوب سائغ وشىء كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ ووسمه

وحافظ يتحمل من بناء القصيدة رهقاً شديداً، لأنه يلدها فكرة فكرة، ويبض بها قطرة قطرة، ويتصيد المعانى فيقيدها فى مفردات أو مقطوعات، فربما وقع له ختام القصيدة قبل مطلعها، وعثر على عجز البيت قبل صدره، ثم يعود فيرتب هذه الأبيات لأدنى ملابسة وأوهى صلة! وتجىء الصنعة البارعة فتخدعك عن الخلل بالطلاء، وعن التفكك بارتباط الأسلوب

ثم أخطِرْ ببالك بعد ذلك شوقى تجده غير محدود بالصنعة ولا مقيد بالشكل، وإنما هو فيض يسخر بالحدود، ونور ينفذ من الستور، والهام يتصل باللانهاية، وشاعر كالمتنبى أو كهوجو يفتح مطلع القصيدة فكأنما يفتح لك باب السماء! فأنت من شوقى حيال شاعر روحه أقوى من فنه، وشعره أوسع من علمه، وحكمته أمتن من خلقه، وقدرته أكبر من استعداده، فلا تشك فى أنه وسيط لروح خفية تقوده، ورسول لقوة إلهية تلهمه، ثم تفارقه حيناً تلك الروح وتفرق عنه هذه القوة فيعود رجلا أقل من الرجال، وشاعراً أضعف من الشعراء، فينظم فى افتتاح الجامعة ومشروع القرش وما الى ذلك، فيأتى بما لا وزن له فى النقد ولا مساغ له فى الذوق!

وشوقى تحت وحى العبقرية يتنزل عليه الموضوع جملة، ثم يشغله عن تفاصيله التفكير فى الغاية والتحديق فى الغرض فيرسله من فيض الخاطر شعراً متسلسلا متصلا تضيق عن معانيه ألفاظه كما تضيق شطئان الرمل عن الفيضان الجائش المزبد.. ومن ثَمَّ كان التجديد والتعقيد والتدفق والعمق من أقوى خصائص شوقى، كما كان التقليد والبساطة والكزازة والسطحية، من أبين خصائص حافظ.

وهنا نحجز القلم عن وجهه فلا نمعن فى تحليل شاعرينا اليوم، فان لذلك إبانه ومكانه، ثم نرسل العين هتانة المسارب أسى على ماض طويل انقطع، ونغم جميل تبدد، وحلم لذيذ تقضى، وكاهنين من كهان عطارد طواهما الخلود، ثم ترك بعدهما رسالة الشعر عرضة للشعوذة والجمود.

احمد حسن الزيات





إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

تغير الفتوى.. شروطه ومسوغاته وضوابطه (٢/٢)

ذكرنا في العدد السابق شروط تغير الفتوى وضوابطه، وشرعنا في ذكر المسوغات الشرعية لتبدل الفتاوى وتغيرها. ومن مسوغات تغير الفتوى:

ثالثا - تغير المصلحة: فتتغير الفتوى إذا اقتضت المصلحة ذلك. والأمر مقيد بما لا نص فيه ولا إجماع.

قال الدكتور شلبي في كتابه «تعليل الأحكام» (ص٣٨)، بعد أن سرد أمثلة تشهد لما ذكر: «وهذا دليل على أن من الأحكام ما يدور مع المصالح، ويتبدل بتبدلها، ومن أنكر ذلك فقد خالف إجماع الصحابة».

رابعا - تغير اجتهاد المفتي: من المقطوع به عند العلماء، جوازا ووقوعا، أن الاجتهاد يتغير؛ فيكون تغيره أحد مسوغات التغيير المذكور.

ومما يستدل به على هذا المسوغ: ما رآه بعض الصحابة من منع النساء من الخروج إلى المساجد لما تغيرت حالهن، وأحدثن ما لم يكن في عصر النبوة؛ مع ورود الإذن لهن بالخروج في السنة، (نيل الأوطار:٣/١٣٠).

خامسا - تغير أفكار الناس، وأوضاعهم، وتأثرهم بالعادات الجديدة: تغير أفكار الناس نتيجة لتأثرهم بأفكار غيرهم، واختلاطهم، ومطالعاتهم لكتبهم، ونتيجة لتلاحم الشعوب، وتزاوجها؛ فوسائل الاتصال الحديثة؛ كالإذاعة، والتليفزيون، والمطبوعات، والصحافة.. وغير ذلك، دفعت الناس دفعا إلى سرعة التأثر والتفاعل، وكل ذلك يؤثر على أعراف الناس، وينتقل هذا الأثر إلى الأحكام والقوانين.

الاستشارة عن الخاطب والمخطوبة

(رقم الفتوى ٧٠٥٤)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي: تقدم رجل لخطبة امرأة، وهو من قبيلة وهي من قبيلة أخرى، فاستشار أهلها رجلا بعيدا عن القبيلتين، فطعن في الخاطب وقبيلته، وكان كاذبا، وليس في الخاطب ولا في قبيلته شيء مما قال، والواقع أنهم أهل دين معروفون بذلك في بلدهم، فما الحكم الشرعي في هذا المستشار؟ وإلى أي حد يجوز للمستشار أن يتكلم في عرض من استشير فيه شرعا؟ وهل يحق للخاطب في هذه الحال أن يرفع أمر هذا المستشار إلى القاضي ليعزره؟ وجزاكم الله خيرا.

أجابت اللجنة بما يلي:

من استشير في خاطب أو مخطوبة؛ فعليه أن يذكر ما فيه أو فيها من مساوئ، شرعية أو عرفية، ولا يكون ذلك غيبة محرمة إذا قصد به النصيحة والتحذير لا الإيذاء؛ لقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله تعالى عنها فيمن خطباها: «أما معاوية فصعلوك لا مال له» (أخرجه مسلم)، ولقوله ﷺ: «إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه» (أخرجه أحمد)، وعنه ﷺ أنه قال: «المستشار مؤتمن»، (أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح)، وقال ﷺ: «الدين النصيحة» (رواه مسلم)، وقد روى الحاكم أن أخا لبلال رضي الله عنه خطب امرأة فقالوا: إن يحضر بلال زوجناك، فحضر، فقال: أنا بلال، وهذا أخي، وهو امرؤ سيئ الخلق والدين. (قال الحاكم: صحيح الإسناد).

وقد أوجب الإسلام عقوبة على الساب: الحد إن كان السب بالزنا، والتعزير إن كان بغيره من الألفاظ.

هذا، وإذا ثبت السب ثبت الحكم المقرر شرعا، ولا اعتبار لحسن النية أو عدمه، إلا في تخفيف عقوبة التعزير إذا رأى الإمام ذلك. والله أعلم.

النظر إلى المخطوبة للزواج ومحادثتها

(رقم الفتوى ١٨٧٢)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي: ما حدود المشاهدة والمخاطبة الجائزة في فترة الخطبة، خصوصا في المجتمع الأمريكي الذي يبيح في الغالب كل شيء في تلك الفترة؟

أجابت اللجنة بما يلي:

يجوز للخاطب أن ينظر من مخطوبته إلى الوجه والكفين من غير خلوة، وتجوز له مخاطبتها في غير خلوة؛ بما ليس فيه ريبة، ولا تعريض بفحش ولا تكسر. أما إذا كانت المرأة



ومما يدل على ذلك: ما ورد من نهي النبي ﷺ الصحابة عن كتابة الحديث، وكان سبب النهي خشية أن يختلط حفظ الحديث على الصحابة مع حفظ القرآن الكريم، وكتاب الله أولى بالحفظ، فلما اطمأن المسلمون إلى تدوين القرآن الكريم؛ ندب بعد ذلك إلى تدوين السنة.

وهناك مسوغات عامة وخاصة قد يدل عليها ما ذكر بوجه ما.

ولما ظهر بعض من يرى إطلاق العمل بمنطوق القاعدة ومفهومها من دون ضوابط تضبطها، أو أصول تأصلها؛ كان لا بد من بيان ذلك والإشارة إليه؛ فأقول:

إن من ضوابط العمل بقاعدة «تغير الفتوى بتغير الزمان» ما يلي:

الضابط الأول: وجوب اعتقاد أن الذي يجب أن يتغير هو الفتوى المتعلقة بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال، وأما الأحكام الشرعية المستندة إلى النصوص؛ فإنها ثابتة لا تتغير. ويشمل ذلك التوقيفات، والعبادات، والحدود والجنايات المقدرة شرعا. ويدخل فيه القواعد العامة، والكليات الشرعية.

الضابط الثاني: أن معنى تغير الفتوى أن علة الحكم ومدركه يتغيران، فيكون هناك حكم مناسب يقتضيه ذلك المدرك، وتلك العلة، فهو انتقال المجتهد من حكم إلى حكم آخر، وليس تغيرا للأحكام؛ أي: ليس نسخا للأحكام (تعليق الشيخ دراز على الموافقات:٢/٢٥٨).

الضابط الثالث: ألا يكون التغير في الفتوى ناتجا عن داعية الهوى والتشهي، واستحسان العباد، وإنما الواجب جعل التغير المتعلق بالزمان والمكان -مثلا- سببا يدعو المجتهد للنظر في أصول الشرع ومقاصده. (الموافقات:٢/١٦٨).

الضابط الرابع: أن الفتوى إنما يقوم بها أهل العلم المجتهدون؛ فلا يجوز أن ينازع في أمر الفتوى وتغييرها غير أهلها، وأهلها هم علماء الشريعة.

الضابط الخامس: أن القاعدة جارية بأنه لا اجتهاد مع النص، وأن الاجتهاد الذي يؤدي إلى تغير الفتوى إذا خالف النص أو الإجماع؛ فإنه لا يعتد به، ولا يعول عليه، ويحكم عليه بالنقض كما قرره علماء الأصول.

الضابط السادس: صحة النظر والاستدلال، وفهم الواقع والمآل، وتنزيل الحكم على الصورة المستفتى عنها بعد التأكد من سلامة الواقع المتغير.

سافرة؛ فإن الخاطب يقصر نظره على وجهها وكفيها. والله أعلم.

لبس الرجل أو المرأة خاتم الخطوبة

(رقم الفتوى ٤١٢٧)

عرض على «اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» في السعودية السؤال التالي:

ما حكم خاتم أو دبلة الزواج الذي يقوم كل من الزوج والزوجة بارتدائه، ويكتب على دبلة الرجل اسم الزوجة، وعلى دبلة الزوجة اسم الزوج، مع تاريخ الخطوبة؟ فهل هي بدعة أم أن لها أصلا؟ وهل قول الرسول ﷺ لأحد الصحابة: «التمس ولو خاتما من حديد» دليل على جواز لبس دبلة الزواج؟

أجابت اللجنة بما يلي:

أولا – ما ذكرت من لبس الخاطب والمخطوبة أو الزوجين خاتم أو دبلة الخطوبة، أو الزواج على الوصف المذكور، ليس له أصل في الإسلام، بل هو بدعة، قلد فيها جهلة المسلمين وضعفاء الدين الكفار في عاداتهم، وذلك ممنوع؛ لما فيه من التشبه بالكفار، وقد حذر منه النبي ﷺ.

ثانيا – ليس في قول النبي ﷺ لبعض الصحابة: «التمس ولو خاتما من حديد» (متفق عليه)، دليل على مشروعية ما ذكرت؛ لأنه ﷺ طلب ذلك منه ليكون مهرا لمن رغب في تزوجها. وبالله التوفيق، وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فسخ خطوبة أخت من الرضاع

(رقم الفتوى ٨٥٤)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي:

خطبت بنت عمي التي تصغرني بثماني سنوات، وبعد الخطوبة علمت أنها رضعت من والدتي مع أختي الصغيرة عني بسبع سنوات؛ علما بأن عمرها أثناء الرضاعة كان شهرين، واستمرت في الرضاعة من والدتي أكثر من أربعين يوما متتالية ومن دون انقطاع، وذلك لظروف والدتها الصحية.

أجابت اللجنة بما يلي:

بأن بنت عمه المخطوبة لا تحل له شرعا؛ لأنها أخته من الرضاع، وعليه فسخ الخطوبة. والله أعلم.

مسلمو جامايكا.. الهجرة المضيئة

تختلف الروايات وتتنوع حول دخول الإسلام إلى جزيرة جامايكا، لكن غالبيتها تؤكد أسبقية وصول المسلمين إلى دول الأميركتين والكاريبي عامة، وجزيرة جامايكا خاصة، قبل أن يصلها المستكشفون الأوروبيون. إن الدلائل على وجود مسلمين في جامايكا متعددة، حيث تتمثل في المنحوتات والكتابات المحفورة في تضاريسها الممتدة، كما تم العثور على عملات معدنية في المنطقة الجنوبية من الكاريبي، ومنها كمية كبيرة من العملات الرومانية ترجع إلى عهد أغسطس، من بينها قطعتان عربيتان. ولا ننسى أن العملات الرومانية ظلت مستخدمة في القرون الوسطى. وكل ذلك يدل على أن سفينة كان يستقلها مسلمون قدمت من إسبانيا أو شمال أفريقيا وعبرت الأطلسي خلال العام ٨٠٠م. وتعد هذه العملات بمنزلة دليل قوي على رجاحة ما يكتبه المؤرخون والجغرافيون المسلمون بشأن رحلات بحارة ومغامرين مسلمين عبر الأطلسي، كالشريف الإدريسي -أكبر جغرافيي الأندلس القديمة- في كتابه «جغرافيا الإدريسي». إذن، وصل المسلمون إلى أميركا قبل كولومبوس بمئات الأعوام، وجامايكا على وجه الخصوص. هذا، وقد أبرز باري فيل، عالم الآثار النيوزلندي في جامعة هارفرد، في كتابه «قصة أميركا»، أن المسلمين كانوا سريعي التأثير على أهل تلك المنطقة من العالم، فالكثير من الكلمات -على سبيل المثال- في لغة السكان أصلها عربي، كما وجدت نقوش إسلامية على الصخور في أماكن متعددة، عثر عليها باري فيل، وكولومبوس ذاته يذكر في سجلاته أن سكان الكاريبي كانوا «محمديين»، حيث كان يعلم بوجود مسلمين في العالم الجديد، وأن مسلمي الشاطئ الشرقي لأفريقيا هم من استقروا في الكاريبي وأميركا الوسطى والجنوبية. واعترف كولومبوس كذلك في مذكراته الشخصية بأنه بينما كانت سفينته تبحر بالقرب من جيبارا على الساحل الشمالي الشرقي لكوبا يوم ٢١ أكتوبر عام ١٤٩٢ رأى مسجدا، كما عثر على بقايا مساجد أخرى في كوبا والمكسيك وتكساس ونيفادا. وفي الرحلة الثانية لكولومبوس، أخبره هنود هايتي أن أشخاصا «سودا» قد وصلوا الجزيرة قبله، حيث قدموا لكولومبوس، كدليل على ذلك، رماح هؤلاء الزوار.

جملة القول، إن أول مسلمين في جامايكا هم إما من العبيد الذين استقدموا إلى جامايكا على متن السفن للعمل هناك، فقد معظمهم، بمرور الوقت، هويتهم الإسلامية؛ بسبب اختلاطهم القسري بمجموعات عرقية أخرى. وإما من مهاجرين من باكستان كعمال وكتجار، ومن بينهم محمد خان الذي وصل إلى جامايكا في عام ١٩١٥، وقد قام ببناء مسجد الرحمن هناك، ومحمد جولوب هاجر مع والده في سن السابعة، ساهم في تشييد مسجد الحسين في ويستن مورلاند. وقد قام المسلمون بوضع الأساس للمساجد الثمانية الأخرى التي أنشئت في جامايكا منذ ١٩٦٠م. وهكذا بدأت الأحوال العامة للمسلمين في الاستقرار، وأخذت الهجرة تتزايد وتتضاعف، وتتحول من هجرة عابرة إلى جالية مستقرة باحثة عن تحقيق وجودها الديني والحضاري.

• **لطفي بن نصر**



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:
info@alwaei.com
aelbarbary@live.com



الإخلاص.. بوابة الخلاص

لا يتخوف المرء المسلم من فقد شيء أكثر من فقدانه الإخلاص. وقد كان من الناس من يبدي الولاء الشديد للدين، ويجتهد أيما اجتهاد في قتال المشركين، فما يمنعه ذلك أن يعد من أصحاب السعير، فعن أبي هريرة ﷺ قال: «شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر، فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: هذا من أهل النار. فلما حضر القتال؛ قاتل الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة. فقيل: يا رسول الله، الذي قلت إنه من أهل النار فإنه قد قاتل اليوم قتالا شديدا، وقد مات. فقال النبي ﷺ: إلى النار. قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت ولكن به جراحا شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: الله أكبر، أشهد أني عبدالله ورسوله. ثم أمر بلالا فنادى بالناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

إن صلاح العمل والكينونة مع جماعة من الصادقين لا يغنيان عن المرء شيئا إلا أن يقترنا بصدق طلب القرب من الله عزوجل وإخلاص الوجهة له.

إن العمل الصالح يختزل في طياته العلم والعمل، إذ لا يمكن الحكم على عمل ما بالصلاح إلا أن يسند بعلم، والعلم الذي يحسن أو يقبح أفعال المكلفين هو العلم الشرعي الذي تؤخذ أحكامه من الكتاب والسنة. ولذلك، يكون العمل المطلوب من المكلف هو العمل الصالح، والعلم الذي يزنه علما شرعيا عمليا.

• **خالد العسري**

رسالة شكر وعرفان

إلى سعادة رئيس التحرير

عملا بقوله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله».

من هنا أتقدم بعظيم الشكر والامتنان.. ولو أنني أوتيت كل بلاغة، وأفنيت بحر النطق في النظم والنثر، لما كنت، بعد القول، إلا مقصرا ومعترفا بالعجز عن واجب الشكر.

سيدي الفاضل، أدام الله علاكم، وأطال بقاءكم، وجعلكم موئل الكرم، فقد وفيت سيدي من مطلبي ما لا غاية لمزيد بعده، ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده.

سأشكر نعماك التي انبسطت بها — يدي ولساني فهو بالمجد ينطق
وأثني لما أوليتني من صنيعة — ومن منة تغدو علي وتطرق
وكل امرئ يرجو نداك موفق — وكل امرئ يثني عليك مصدق

وفي الختام، دمتم سيدي للمكارم بدرا تم لا يناله خسوف وشمس فضل لا يلحقها كسوف.

• **عبدالغفور البودالي**

أسرار عجيبة للصلاة في مفاصل الركبتين

يفاجأ العالم اليوم بظهور ملايين المصابين في مفاصل الركبتين؛ بسبب تطور الحياة المعاصرة، وقلة حركة الإنسان بظهور وسائط النقل الحديثة، والسلالم الكهربائية، وآلات الحمل والحفر، والكراسي المتزحلقة في المكاتب والدوائر، وترك القيام والقعود لربات البيوت بظهور الطباخات والغسالات للعمل وقوفا. وقد تشكلت، وللمرة الأولى في التاريخ، معاهد واختصاصات طبية في أمراض مفاصل الركبتين، وتخرج أطباء واختصاصيون عالميون في مفاصل الركبتين.

وقد انخفضت حركة الإنسان في القيام والقعود والمشي وحمل الأثقال إلى درجة خطيرة، حتى أصبح الجسم معطلا خاويا تهدده الأمراض الخطيرة. إن مفاصل الركبتين هي التي تتحمل أعباء الجسم كافة أثناء المشي والحركة والقيام والقعود والصعود والنزول وحمل الأثقال وممارسة كل الأعمال اليومية، وهي وحدها المسؤولة عن حمل وزن الجسم عند أية حركة خفيفة أو عنيفة، كالقفز والأعمال الشاقة طوال الحياة. إن كسل مفاصل الركبتين يسبب التمزق المفصلي وتهشم الأنسجة الغضروفية وقطع الأربطة المفصلية عند القيام بأي حركة غير اعتيادية.

وتتضاعف الإصابات عند الإصابة بالسمنة المفرطة، والاعتياد على المرافق الغربية، والتبول وقوفا، وحرمان مفاصل الركبتين من تمارين القعود والقيام. وإن عدم طي هذه المفاصل يؤدي إلى الإصابة بداء التكلس المفصلي وهشاشة العظام وسوفان المفاصل. وللمرة الأولى في التاريخ تظهر اليوم عمليات جراحية لتبديل مفصل الركبة بمفصل بلاستيكي اصطناعي باهظ الثمن، كما يحدث اليوم لشخصيات بارزة من الأثرياء في العالم. كما سجلت الإحصائيات العالمية كثرة الإصابة بمفاصل الركبتين بسبب التعرض للحوادث والصدمات والإرهاق والحركات العنيفة وتحمل الصعوبات. إن جسم الإنسان به ٣٦٠ مفصلا، وان مفصل الركبة هو الوحيد اليوم الذي تفتح له عالميا معاهد واختصاصات متطورة ودراسات مركزة؛ بسبب ارتفاع خطير في إصابات هذا المفصل في الحياة المعاصرة، إذ إن أي خلل فيه قد يسبب إعاقة للإنسان؛ فيفقد القعود والقيام بسهولة وبشكل طبيعي، مما يضطره إلى استعمال الكرسي والمرافق الغربية والعصا الطبية وهو لايزال في مقتبل العمر.

• **إبراهيم الراوي**

إعداد: تركي النصر

المعاصي سبب المصائب

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ومن المعلوم بما أرانا الله في الآفاق وفي أنفسنا من آياته، وبما شهد به في كتابه: أن المعاصي سبب المصائب، فسيئات المصائب والجزاء من جنس سيئات الأعمال، وأن الطاعة سبب النعمة، فإحسان العمل سبب لإحسان الله».

وقال رحمه الله تعالى: «أسباب الضلال والغي: البدع في الدين والفجور في الدنيا، وهي مشتركة تعم جميع بني آدم، لما فيهم من الظلم والجهل».

(طريق الوصول للسعدي ص٢٤)

جواب مسكت

- سب رجل الشعبي بقبائح نسبها إليه، فقال الشعبي: إن كنت كاذبا فغفر الله لك، وإن كنت صادقا؛ فغفر الله لي.
- سب رجل بعض الحكماء، فقال الحكيم: لست أدخل في حروب، الغالب فيها شر من المغلوب.

(الكنز المدفون والفلك المشحون ص ٤٣ و٤٤)

شفاء القرآن

القرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده، كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه؛ فإن زكاة القلب مثل نماء البدن.

(فتاوى ابن تيمية ١٠/٩٦)

خلق رفيع

قال مطرف بن شخير لبعض إخوانه: «يا أبا فلان، إذا كانت لك حاجة فلا تكلمني واكتبها في رقعة؛ فإني أكره أن أرى في وجهك ذل السؤال».

(حياة السلف بين القول والعمل ص٧٩٤)

الشريعة عدل كلها

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله- في معرض كلامه عن الشريعة: «... هي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصلحة كلها، فأي مسألة خرجت من العدل إلى الجور، ومن الرحمة إلى ضدها، ومن المصلحة إلى المفسدة؛ فليست من الشريعة، وإن دخلت فيها بالتأويل».

(إعلام الموقعين ٣/١١)

حكمة بليغة

قال مالك بن دينار رحمه الله: «قرأت في الحكمة أن الله تبارك وتعالى يقول: أنا ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، ولا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم».

وقال أيضا: «ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب».

وقال أيضا: «إن الله إذا غضب على قوم؛ سلط عليهم صبيانهم».

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: «أوحى الله إلى بعض أنبيائه: إذا عصاني من يعرفني؛ سلطت عليه من لا يعرفني».

(موسوعة ابن أبي الدنيا ٤/٢٠٤، ٤٣٦، ٤٤٦، ٤٣٧)

أعجز الناس

كان يقال: أعجز الناس من فرّط في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

(عيون الأخبار ٣/٥)

فائدة في الأسماء

يقال لولد الفرس: مهر. ولولد الحمار: جحش. ولولد الناقة: حوار. ولولد البقر: عجل. ولولد المعز: جدي، وللأنثى: عناق. ولولد الضائنة: حمل، والأنثى: رخل. ولولد الشاة: سخلة. ولولد الظبي: خشف. ولولد الأرنبة: الخرنق. ولولد الثعلبة: التتفل. ولولد الخنزير: الخنوص. ولولد القرد: القشة. ولولد الضبع: الفرغل. ولولد الأسد: الشبل والحفص. ولولد الفأر: الدرص. ولولد الضب: الحسل والسمع. ولولد النعام: رأل. ولولد الحبارى: النهار.

(الكنز المدفون والفلك المشحون ص ٦٠)

ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاث

قال لقمان لابنه: ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاث: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا يعرف الشجاع إلا عند الحرب، ولا يعرف أخوك إلا عند الحاجة إليه.

(الكنز المدفون والفلك المشحون ص ٤٤)

من درر عمرو بن العاص رضي الله عنه

- الكلام كالدواء، إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل.
- إذا أنا أفشيت سري إلى صديقي فأذاعه؛ فهو في حل، فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: أنا كنت أحق بصيانته.
- ثلاثة لا أملهم: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملت رجلي.
- ثلاث لا أناة فيهن: المبادرة إلى العمل الصالح، ودفن الميت، وتزويج الكفء.
- ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يعرف خير الشرين.
- إمام غشوم خير من فتنة تدوم.

(مواعظ الصحابة ووصاياهم ص٢٥٣، ٢٥٤)

لن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره

كتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما: «فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره، فليكن كلامك ذكرا، وصمتك فكرا، ونظرك عبرا، فإن الدنيا تتقلب، وبهجتها تتغير، فلا تغتر بها، وليكن بيتك المسجد، والسلام»

(العقد الفريد ٣/١١٠)

العالم العامل أنفع صحبة

قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله: «لقيت مشايخ، أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته؛ العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه.

ولقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون ويعرفون، ولكنهم كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة، ويسرعون بالجواب، لئلا ينكسر الجاه، وإن وقع خطأ».

(صيد الخاطر ص١٥٨)

لا يخرج السياسي عن مجرى الاستقامة

لا يخرج السياسي عن مجرى الاستقامة، حيث يرى في سيرة الأمة عوجا يتعذر عليه تقويمه بالقوة، فيحجم عن مكافحته، ولكن يبذل حكمته في علاج ذلك المبدأ السقيم، حتى يأخذ صحته ولو بعد أمد طويل.

(الحديقة لمحب الدين الخطيب ٣/١٣٣١)

الحفظ في الصغر نقش في حجر

«... من رزق ولدا، فليجتهد معه، والتوفيق من وراء ذلك، فينبغي له أن يعوده النظافة والطهارة من الصغر، ويثقفه بالآداب، فإذا بلغ خمس سنين أخذه بحفظ العلم، فإن الحفظ في الصغر نقش في حجر، ومتى بلغ الصبي ولم يكن له همة تحثه على اكتساب العلم بعد؛ فلا فلاح له».

(الحث على حفظ العلم لابن الجوزي ص ٣٧)

مِسكُ الختام

سيدي العالم

محمد رامز الحموي
مدير تحرير مجلة التقوى - لبنان

أراني وأنا أخاطب فضيلتك، أُشَافِهُ منارة نوارة، أرادها نبينا ﷺ أن تكون القبس الهادي بعده، ترشد وتعلم وتهدي إلى الله حقا.

نعم سيدي، إنني أخاطب فيك «شرف يوسف عليه السلام» وصبره على بلاء الله تعالى وابتلاءاته، لينجح في ذلك الاختبار، وليغدو نموذجا ومثالا، وليترك لك رسالة واضحة المعالم: كن صبورا على شهواتك، قامعا لملذاتك، عنيفا في قهرك لنزواتك؛ لتغدو بذلك محط أنظار قومك ومركز ثقتهم، شعارك كلما واجهت إغراء أو ساورتك فتنة: «معاذ الله.. إنه ربي أحسن مثواي».

أخاطب فيك -سيدي- عزة سليمان -عليه السلام- حين أخضعت له شياطين الجن، وسيرت له الرياح والسحاب.. في أن تُخضِع لك شياطين الإنس، وتتقن تسييرهم، لا أن يتقنوا هم ذلك، وأن تكون فيهم الشريف العزيز «الممتطي» لا «الممتطى عليه».. لأن الله تعالى جعلك كذلك، فلا تفرط فيما آتاك الله.

أخاطب فيك ثبات نوح -عليه السلام- في حسمه لأمر الكفر وأمر الإيمان، غير راض -عليه السلام- أن يكون «رمادي» الهوى في تعامله مع كلا الفريقين.

أخاطب فيك -سيدي- بيان هارون وروعة إلقائه، ويقين موسى وحسن أدائه، حيث رأى موسى -عليه السلام- ضرورة أن يكون هارون معه ردءا وعضدا، ليتعانق بذلك «قول» هارون مع «فعل» موسى، فتكون المعجزة الكبرى في إيمان السحرة واندثار ملك فرعون، والتمكين لبني إسرائيل في الأرض.

أخاطب فيك «شرف إبراهيم» في نسله وأبنائه وأحفاده وأسباطه، حيث كانوا جميعا «إبراهيميي» المشرب والاتباع، حملوا دعوته وبلغوها، وكانوا نعم الخلف لخير السلف، صادقا فيهم قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران:٣٤).

أخاطب فيك «ندم يونس» وسرعة عودته إلى الله تعالى... فلا تترك الحبل على غاربه، واعلم أنك أحب الخلق إلى الخالق، فلا تتهاون في فهم هذه المعاني، ولا تتماد في تعديك على حرمات الله تعالى، بل كن أوابا، رجاعا على الدوام إلى ربك، باكيا على الصغيرة، وكأنها كفر بواح صراح.

أخاطب فيك -سيدي- «حُنُو محمد» ورحمته بأمته.. فلا تكن «مبتدعا حقا» فظا غليظ القلب، مدلهم الوجه، مقطب الحاجبين، منفرا منك حتى أهلك.. فعصر أبي جهل وأبي لهب وأم جميل وعقبة قد ولى إلى غير رجعة، ولم يعد ثمة مكان إلا «لسماحة» محمد ﷺ و«فضيلته» وصبره وحبه لأهل بيته وقومه والناس أجمعين.

فلا تكن سيدي «محمدي الظاهر حجاجي الانتماء»، فتحمل بذلك وزرين اثنين لا واحدا: وزر سوء عرضك لدعوتك، ووزر تنفير الناس من دينهم نتيجة خشونة أقوالك وصلف أفعالك.. وأنى لك ذلك.

سيدي، لعلك تتعجب من استرسالي في استقراء بعض أنبياء الله تعالى، وذكر بعض صفاتهم مخاطبا فيها شخصك الكريم.. سيدي، تذكر معي قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ (الأنعام:٩٠).

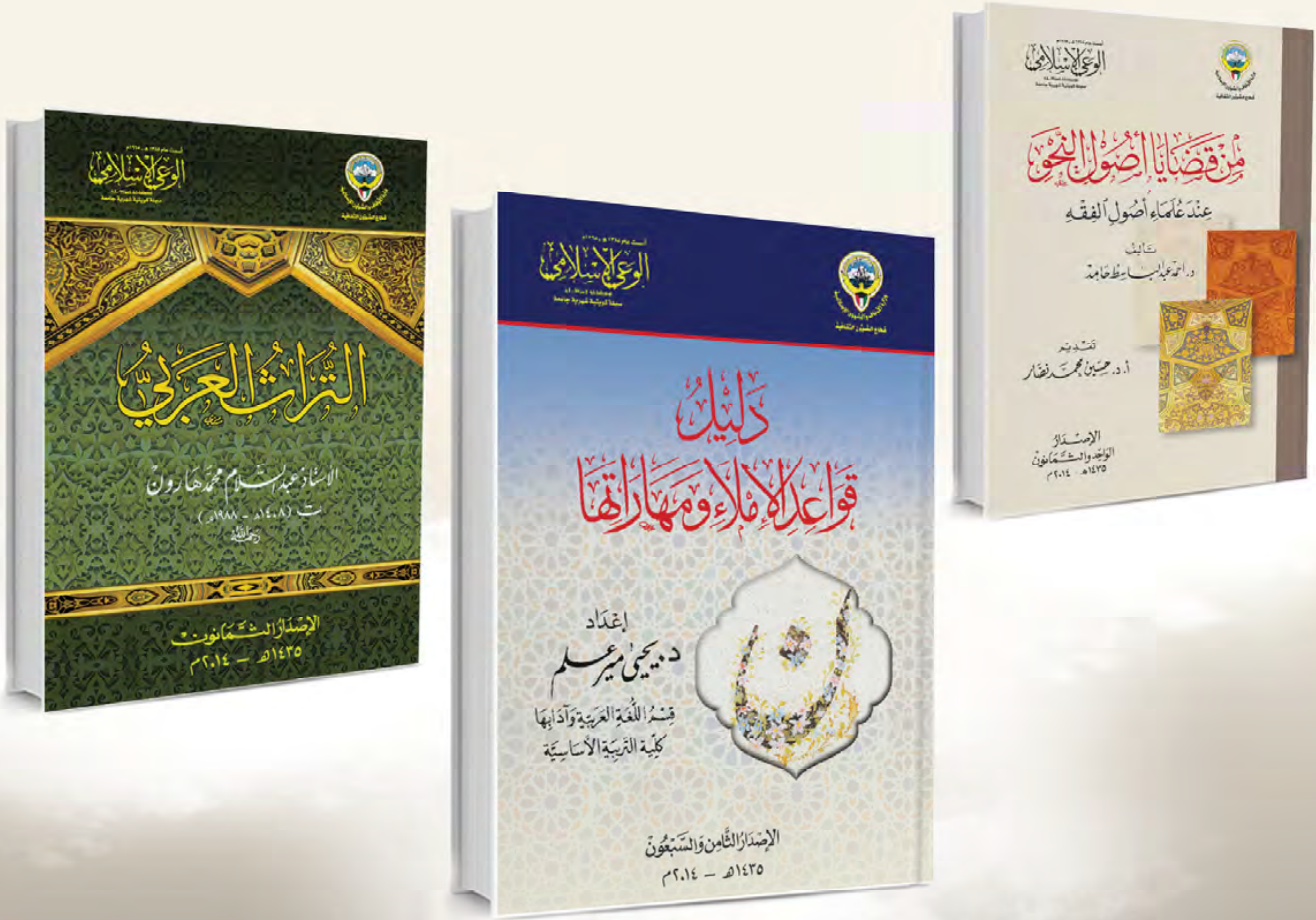
ولا تظنني بعيدا عن هذا النصح أو فوقه، معاذ الله، فأنا أولى الناس به وأحوجهم إليه.



مجلة

الوعي الإسلامي

تهديكم جديد إصداراتها



صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ الكويت هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦ فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

info@alwaei.com www.alwaei.gov.kw

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٩٠) شوال ١٤٣٥ هـ - أغسطس ٢٠١٤ م

مجانا مع العدد براعم الإيمان



الصداقة والصديق

- هذا الدرس الحضاري.. كيف نتعلمه؟
- هكذا نحسن التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم
- تكنولوجيا التحكم في الأمطار
- الجمعية الجغرافية المصرية.. صرح عالمي يوثق الزمان والمكان

هـدية العـدد :
ذخائر مجلة الوعي الإسلامي (٣)


الوعي الإسلامي
عيدكم مبارك

الافتتاحية

الصداقة والصديق

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الصديق والرفيق والصاحب والخليل والزميل.. كلها مترادفات في دلالاتها اللغوية، تدل على معان سامية، رفيعة القدر.

والاجتماع الإنساني ضرورة، فالإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع، وهو عمران العالم الذي تتكون منه المجتمعات. فالصداقة رمز هذا الاجتماع، وثمرة التواصل، فالأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

ولئن كانت الصداقة عذبة سائغة في أصلها، فلهي بين أهل الصلاح وإخوة الإيمان أقوى وألذ، لما فيها من الصلاح والائتلاف، والبعد عن الشقاق والاختلاف، وهي اجتماع على مصالح الأمور، والعمل على سلامة الصدور.. فالحذر الحذر من العداوة والبغضاء، فإن الله عقد بيننا أخوة الإيمان، وجعل بعضنا لبعض كالبنيان، ولم يشهد تاريخ مثل المؤاخاة في العهد الأول، وهو المثال الحي على هذا المستوى في الأرض، ومدى القدرة على أن تتمثل في سائر الخلق، فالمؤاخاة بالمودة، هي من أسباب الصداقة، لأنها تكسب بصادق الميل إخلاصا ومصافاة، وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماة، وهذا أعلى مراتب الصداقة والصديق، فإن في حفظ المودّات ورعاية الحرمات حسن الوفاء، وطيب الثناء.. وإياك من صحبة ومصادقة الأشرار والثقلاء والسفهاء، فإنها تورث سوء الظن بالأخيار؛ فمجالسة الثقيل حُمّى الروح. وقيل الجلساء ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحيانا، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبدا.

ومجالسة السفيه سفاه رأي
ومن عقلٍ مجالسة الحكيم
فإنك والقرين معا سواء
كما قُدّ الأديم من الأديم

وطريقة الاعتدال، الموافاة في الإخاء، والمساواة في الصفاء، ومقابلة كل حالة بما يضاهيها، أما المسامحة بالحقوق، والإعفاء عمن قصّر، والمحافظة على ودّ من فرّط، فهي من شيم الصداقة.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٠ | شوال ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
أغسطس ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم
مراد الموصل

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات

رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ - ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع
دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية
- المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



لئن كانت الصداقة عذبة سائغة في أصلها، فلهي بين أهل الصلاح وإخوة الإيمان أقوى وألذ، لما فيها من الصلاح والائتلاف، والبعد عن الشقاق والاختلاف.

التوزيع وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦-٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا : ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

كلمة العدد

الصداقة والأخوة

الصداقة من الروابط المهمة في الدين الإسلامي، لأن الإنسان اجتماعي بفطرته، ولا يمكن أن يعيش وحيدا منفردا ومنعزلا عن بقية البشر، لاسيما أن عمارة الأرض تحتاج إلى تكاتف الجميع، كما أن الصداقة ضرورة حياة، لأنها تغذي قيمة الإنسان، وتشعره بأهميته.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف:٦٧). وقال رسول الله ﷺ: «الخليل مرآة خليله فلينظر أحدكم من يخالل». وأنشد ابن الأعرابي:

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة
ولكن إخوان الثقات الذخائر

وقال آخر:

أخاك أخاك إن من لا أخا له
كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه
وهل ينهض البازي بغير جناح

ومتى حظي الإنسان بأصدقاء كثيرين، فقد ساقت له الأقدار خيرا كثيرا. وقد أوصى بعض الحكماء ابنه فقال: «يا بني، إذا دخلت المصر، فاستكثر من الصديق أما العدو فلا يهمنك».

ولا تنعقد الصداقة الصافية بين شخصين إلا أن يكون بين روحيهما تقارب، وفي آدابهما تشابه، فإن وجدت صحبة بين بخيل وكريم، أو جبان وشجاع، أو غبي وذكي، أو مهتد ومبتدع، فاعلم أن الصحبة لم تبلغ أن تكون صداقة بالغة.

ولا غنى للشعوب أن ترتبط بصلات تجعلها كأمة واحدة، تسير إلى غاية واحدة. وهذه الرابطة تتحقق بالصداقات التي تستوثق بين علمائها وزعمائها الناصحين.

ويؤكد علماء النفس والاجتماع أن أبناء المجتمعات العصرية أصبحوا في حاجة ماسة إلى تأسيس صداقة أساسها العاطفة الصادقة والوفاق، وتقارب وجهات النظر والاهتمامات، وتجنب العلاقات الواهية التي تحكمها المصالح المتبادلة.

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

الأخلاق بين التحلي والتعري



أحمد عقل محمود
كاتب صحفي

الإنسان في سعيه على طريق الله عليه أن يطرق كل أبواب الخير، فلا يعقل أن إنسانا يبيت لربه ساجدا قائما ثم يصبح يتكبر على غيره، أو أن يرد السفاهة بالسفاهة، أو أن يؤذي غيره، أو أن يكذب أو...

كثيرون من أبناء المجتمع الإسلامي يفرقون بين العبادات (الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج...)، والسلوك (التواضع، بشاشة الوجه، الصدق في التعامل، إفشاء السلام...). فالعبادات بدورها هي اصطفاء للإنسان وتجلية قلبه وعقله من عفن وشوائب الأخلاق السيئة؛ كي يصبح قادرا على ترجمة هذه العبادات -بعد أن يتصل بربه- إلى أسلوب حياة ومنهج متبع في تعاملاته.

فما يحويه القلب والعقل يظهر في خلق الإنسان وسلوكه من خلال تعامله مع الآخرين، «فكل إناء بما فيه ينضح». ولما كان الإنسان كائنا اجتماعيا لا يستطيع العيش وحيدا منعزلا عن غيره، وجب عليه أن يحسن كي يحسن إليه.

هذا الإحسان الذي يحسنه الإنسان، والذي يترجمه في سلوكه، إنما هو تطبيق فعلي عملي لما أملته عليه العبادات.

هذه الترجمة في مجموعها تشكل ما يسمى بـ «أخلاق الإنسان»، فإن قدم الإنسان سلوكا مقبولا مرغوبا فيه من أفراد مجتمعه، أصبح هذا الإنسان ذا أخلاق كريمة، وإن قدم الإنسان سلوكا مرفوضا مرغوبا عنه من أفراد مجتمعه، أصبح هذا الإنسان ذا أخلاق ذميمة.

فالأخلاق من أهم جوانب بنيان الإنسان؛ لأنها هي الأساس في بناء الفرد بناء شاملا، وإصلاح المجتمع

إصلاحا متكاملا. فسلامة المجتمع وقوة بنيانه وسمو مكانته وعزة أبنائه وصحة أفكاره ورصانة آرائه تكمن في تمسكه بالأخلاق الحميدة. فالأخلاق العالية هي روح الإسلام ولبه، وأساسه وغايته، لأن الدين ليس في كثرة العبادات فقط، بل إن الدين هو المعاملة، فالمعاملة الحسنة للناس قد يفوق ثوابها كثيرا من العبادات المعروفة، ويوضح الرسول ﷺ حينما سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: «تقوى الله وحسن الخلق» (١)، وأيضا حينما قال له رجل: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار». قال يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنها تصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «هي في الجنة» (٢).

والتربية هي علم سلوكي يرتكز إلى شتى صور وألوان السلوك الإنساني، ويسعى إلى محاولة التعرف على العوامل والأسباب التي تؤثر فيه داخل بيئة الإنسان التي يعيش فيها.

ومن أهم مجالات ذلك العلم (التربية)، مجال التربية الأخلاقية، والذي يستهدف في المقام الأول تربية النشء على الخلال الحميدة والشيم المرضية والصفات الكريمة، مثل: الجود، الحلم، الصبر، الوقار، التواضع، الصدق، الأمانة، العفة، طلاقة الوجه والتنزه عن دنيء الأمور. هذه الصفات وغيرها من شأنها أن تعلي من شأن الإنسان وصولا إلى مرتبة الإيمان، فالنظرة الكلية لمجموع هذه الصفات أولى وأوجب من النظرة الجزئية.

فـ«التربية الأخلاقية» هي: «تنشئة الطفل وتكوينه إنسانا متكاملا من الناحية الأخلاقية بحيث يصبح في حياته مفتاحا للخير ومغلاقا للشر في كل الظروف والأحوال، ويسارع إلى الخيرات ويتسابق فيها كما يسارع إلى إزالة الشرور» (٣).

وأيضا هي: «مجموعة من المبادئ الخلقية، والفضائل السلوكية والوجدانية التي يجب أن يتلقنها الطفل ويكتسبها ويعتاد عليها منذ تميزه وتعقله إلى أن يصبح مكلفا إلى أن يتدرج شابا إلى أن يخوض خضم الحياة» (٤).

وبشكل مجمل هي: «تعويد الناشئ على الأخلاق الفاضلة والشيم الحميدة حتى تصير له ملكات راسخة وصفات ثابتة يسعد بها في الدنيا والآخرة، وتخليصه من الأخلاق السيئة» (٥).

وتتمثل أهمية التربية الأخلاقية في ما يلي:

١- أنها امتثال لأمر الله عزوجل، وطاعة للرسول ﷺ، قال الله عزوجل: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف:١٩٩)، فلقد جمع الله سبحانه وتعالى مكارم الأخلاق في هذه الآية، وأمر بالأخذ بها، والتحلي بما ورد فيها. وكذلك فإن التحلي بالأخلاق الكريمة طاعة للرسول ﷺ، قال الرسول ﷺ: «وخالق الناس بخلق حسن» (٦).

٢- حسن الخلق عبادة، بل إن ثواب بعضه قد يفوق كثيرا من العبادات المعروفة، فمثلا التبسم في وجه المسلم عبادة، والكلمة الطيبة عبادة، وزيارة الأخ في الله عبادة، وعيادة المريض عبادة، ومصافحة المسلم عبادة، وصلة الرحم عبادة، وقضاء حوائج الناس عبادة، وكف الأذى عن الغير عبادة.

٣- أخلاق العبد السيئة وسلوكياته الشائنة تأكل خيراته، وتهدم حسناته، وتجعله مفلسا من الصالحات، وتحمله من الأوزار والسيئات، وتقذف به في الدركات، ولو قام وصام وعمل الصالحات، سأل النبي ﷺ يوما أصحابه فقال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار» (٧).

٤- كسب القلوب، فحُسن الخلق من أعظم الأسباب الداعية لكسب القلوب، فهو يحبب صاحبه للبعيد والقريب، فالناس على اختلاف مشاربهم يحبون ويقدرون محاسن الأخلاق، ويألفون أهلها، ويرغبون في مجالستهم، ويبغضون مساوئ الأخلاق، وينفرون من أهلها، ويرغبون عن مجالستهم ومخالطتهم، قال الله عزوجل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران:١٥٩).

ولعل ما دفعني إلى كتابة هذه الكلمات ما تلمسته من استضعاف لأولئك الذين ينتهجون منهج الله في تعاملهم مع غيرهم، راجين في ذلك ثواب الله، فالإساءة كل الإساءة عندما نرى أناسا لا يتخلقون بالأخلاق الحميدة الكريمة، ليس هذا فحسب، بل ينكرون على غيرهم التخلق بها.

هوامش

١- أخرجه الترمذي، في سننه، كتاب أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق، ج٤، ص٣٦٣، رقم الحديث ٢٠٠٤.

٢- أخرجه أحمد، في مسنده، ج١٥، ص٤٢٢، رقم الحديث ٩٦٧٦.

٣- مقداد يالجن، جوانب التربية الإسلامية الأساسية، لبنان، بيروت، دار الريحاني، ١٤٠٦هـ، ص ٣٠١.

٤- عبدالله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام، ط٣، سوريا، دمشق، دار السلام، ١٤٠١هـ، ص ١٧٧.

٥- حسن بن علي الحجاجي، الفكر التربوي عند ابن القيم، السعودية، الرياض، دار الهدى للنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ، ص ٢١٤.

٦- أخرجه الترمذي، في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، ج٤، ص٣٥٥، رقم الحديث ١٩٨٧.

٧- أخرجه مسلم، في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج٤، ص١٩٩٧، رقم الحديث ٢٥٨١.

د. محمد مورو: المسلمون أكثر إيمانا بالحرية من الغرب

«التشدد» ظاهرة إنسانية وليست إسلامية

إسلام لطفي
دار الإعلام العربية

أكد رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامي المفكر الدكتور محمد مورو، أن مفهوم الحرية في الإسلام هو الحرية المسؤولة لا المطلقة، مشددا على أن الإسلام أكثر إيمانا بقيم الحرية من الديموقراطية الغربية. وعلى الرغم من حالة المدنية والرقي التي يعيشها الغرب، فإنه لم يتقدم بل توصل إلى منتج مادي، وهو يعيش في صراع دائم على الرغم من كل ما حققه من منجزات دنيوية.

وأضاف مورو في حواره مع «الوعي الإسلامي» أن الحضارة الإسلامية تعاني من هزيمة تقنية، وبالتالي يجب أن ندرك هذه الإشكالية حتى تنهض الأمة.. وإلى تفاصيل الحوار:



● **يتباهى الغرب دوما بالديموقراطية، بينما سبق الإسلام كل الأمم بترسيخ مبادئ الشورى.. فهل هناك علاقة بين الديموقراطية والشورى؟**

- إذا كانت الديموقراطية تعني صندوق الانتخابات وتداول السلطة وحق الناس في اختيار حكامهم، فأهلا بها، وبذلك تعني الشورى. لكن لا علاقة بين الديموقراطية والشورى عند الغرب، فتحت مسمى الديموقراطية أبيدت أمم، فلا توجد لدينا حرية مطلقة، لكن هناك ما يسمى بالحرية المسؤولة، التي تعني المسؤولية عن الآخرين بقدر المسؤولية عن النفس.

ونجد أن الحرية في الإسلام هي المقدمة الأولى للشريعة الإسلامية، ولكل عمل إسلامي، وتوحيد الله سبحانه وتعالى. وبالتالي فنحن نؤمن بالحرية أكثر مما يؤمن بها الغرب بكثير، فكيف توحد الله وأنت غير حر؟! فلابد من وجود الحرية حتى تستطيع الاختيار، فالإسلام مع الحرية والعدالة الاجتماعية.

● **لكن وكمفكر إسلامي.. لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون؟**

- المجتمع العربي هو الذي تأخر، والغرب لم يتقدم، بل توصل إلى منتج مادي، فالتقدم هدفه السعادة، لكن الغرب ليس سعيدا، ويعيش في صراعات وحروب وطبقية مستمرة، فمثلا نجد أن المرأة الغربية غير سعيدة، ويتم انتهاك خصوصيتها، ولا تحصل على حقوقها، ولا تعين في المناصب الكبرى، فالوضع لدى الغرب قائم على اللذة وليس السعادة، بينما الحضارة الإسلامية تقدم إنسانا متكاملا، بمعنى أنه لا يعمل لنفسه بقدر ما يعمل للمجتمع والبشرية، وبالتالي يكون هناك مردود من السعادة عليه، وإذا سألنا أي مواطن غربي فسيقول إنه غير سعيد، كونه لا يحقق إنسانيته بل يحقق ماديته فقط، فالإنسان نفس وروح وجسد، ولابد من إشباع جميع احتياجاته بالتوازن. لذلك، قد نجد إنسانا بسيطا في الصحراء، يعيش على اللبن والتمر سعيدا جدا، ويصلي ويصوم ويعبد الله، ويوجد مليونير توافرت له كل السبل المادية لكنه يفتقد السعادة.

● **إذن.. كيف تقرأ الوضع الحالي في المجتمع الإسلامي؟**

- نحن أمة لم تخرج عن الإسلام في أي لحظة، ومستوى التدين خلال الخمسين عاما الأخيرة أعلى من مستواه في فترات تاريخية سبقتها، فالأمة الإسلامية لها سمات خاصة، ويلاحظ أن مستواها الحضاري انحدر بعد صعوده في كثير من الأوقات، ففي فترات كانت الحضارة الإسلامية تمتلك السيادة الحضارية على العالم، إلا أنها ومنذ ٢٠٠ عام شهدت حالة من الانحدار، مما يعني أننا في حالة هزيمة تقنية،

النهضة الإسلامية سبيلنا للوحدة والتفوق.. والفتاوى العشوائية ظاهرة مرضية

فالغرب أقوى منا عسكريا واقتصاديا وسياسيا، وبالتالي يجب أن ندرك هذه الإشكالية، حتى ننهض بالأمة.

التحدي الآن يتمثل في التأكيد على أن المجتمع ما زال مسلما ومتمسكا بالدين ومحبا لقيمه الحضارية، ويجب تغيير أسلوب المواجهة مع الآخرين.

● **ما الأسباب التي أدت إلى وصولنا إلى هذا المستوى؟**

- السبب الرئيسي يكمن في توقف انفتاحنا على الآخرين، فنحن أمة ملهمة للعالم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ (البقرة:١٤٣)، فمهمتنا تحرير الناس من الظلم الاقتصادي، والاستبداد السياسي، وأيضا من المؤسف أن نجد تقدمنا مرتبطا بالغرب.

● **إذن ما الحلول للخروج من هذه الأزمة؟**

- العالم اليوم يعاني من الرأسمالية، فعلينا التصدي لها، مع تقديم الإسلام كأيديولوجية للناس في العالم، وأن الاقتصاد الإسلامي أفضل من الرأسمالية، مع القيام بالدور الحضاري والانحياز للمستضعفين في العالم، فنجد أن الرسول ﷺ عندما ذهب إلى المدينة آخى بين كل اثنين، فعمل على التكافل. ومن الضروري في وقتنا الحالي العمل على إنهاء الرأسمالية، لكونها محنة الدول والشعوب والقارات، إضافة إلى أننا في حاجة إلى تقديم خطاب تحرري للعالم، وأن المجتمع الإسلامي يسعى إلى الحرية والعدالة الاجتماعية، وضد العنصرية، وعدم التفرقة بين المسلمين، فنحن أمة تسعى إلى تحرير العالم من الظلم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف:١٧٢)، فمعرفة الله موجودة بالفطرة.

● **كيف ترى ظاهرة التشدد والغلو؟**

- لابد من التأكيد على أن التشدد ظاهرة إنسانية وليست إسلامية، وهي ظاهرة مرفوضة شكلا ومضمونا، ولا تتفق مع روح الإسلام ولا منهجه. وفي رأيي إنها ظاهرة تعبر عن نوع من رد الفعل تجاه الظلم الدولي، فإذا نظرنا إلى الحضارة الغربية في آخر ٣٠٠ عام فسنجد أنها جنحت إلى العنف، فكان رد فعل ذلك ظهور التشدد، فالبعض يشعر أننا

أمة مظلومة فيتشدد، وهذا غير صحيح، لاحتياجنا إلى المزيد من التسامح ومواجهة الآخرين بالحوار.

● يطالب البعض بخطاب ديني موحد.. ما تعليقك؟

- ذلك مرفوض، فلا يوجد ما يسمى بخطاب ديني موحد، فهناك اختلاف بين الناس، ويجب التنوع والتدرج في الخطاب الديني، فما يصلح في مصر لا يصلح في الدول الأخرى، ولابد من احترام اختلاف بعضنا عن بعض.

● ما دور الأزهر في الفترة المقبلة؟

- يجب أن يؤدي دورا مهما في قيادة الوجدان الإسلامي باتجاه فهم أولويات المجتمع، فالله تعالى يقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ (النساء:١١٤)، إضافة إلى أن يكون للمسلمين دور اجتماعي في المجتمع، نريد أن ننتقل من الشكل إلى الجوهر، فما يعنينا حساب الناس على دورهم الاجتماعي، وما إذا كان يضر الآخرين، وسلوك العبادة والإيمان فالذي سيحاسب عليه هو الله تبارك وتعالى.. يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (العنكبوت:٦٩)، فوحدة الأمة تأتي عن طريق الجهاد في سبيل الله، ضد أعداء الإسلام والاستبداد الظالم، سلما أو حربا، والجهاد ليس بالضرورة بالقتال ، بل يمكن عن طريق إيجاد فكرة نجتمع عليها كمسلمين، غير ذلك لن نستطيع التوحد، ويقول الرسول ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»، والذي يكمن في التفرق والتشرذم، وتتداعى علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، لتركنا الفريضة الأساسية، التي تكمن في تحرير الناس من الاستبداد.

● كيف نعالج حالة الاحتقان والكراهية التي يعاني منها المجتمع الإسلامي؟

- الاحتقان ضد المسلمين يأتي بسبب أن القوى الاستكبارية في العالم على قناعة بأن الإسلام قادر على إنقاذ العالم من الاستعمار الفكري والرأسمالية، لذا يواجهون ذلك بتشويه الإسلام حتى لا يصبح الإسلام الدين السائد في العالم، وجذرا ثقافيا ضد الاستعمار بأشكاله. كما أن تصرفات بعض المسلمين تؤدي إلى الاحتقان ضد المجتمع الإسلامي، كالقتل على الهوية، أو لمجرد الاختلاف في الرأي.. فالأمر له شقان: الأول أن القوى الرأسمالية الاستعمارية تهاب الإسلام، والآخر في تصرفات بعض المسلمين وتشددهم.

● وكيف نعالج حالة الاحتقان؟

- بالانفتاح على العالم ومخاطبته بشكل من أشكال التواضع، وليس الاستكبار، وعلينا ألا نتمسك بآرائنا، لأن كلام الرسول ﷺ وحده الذي لا يرد، عدا ذلك فيحتمل الصواب والخطأ. والإسلام هو الحل الوحيد لكل مشاكل العصر، والعالم في أزمة أخلاقية حقيقية، ولكن ما نعانيه الآن من محاولات بعض المسلمين لفرض الإسلام على الناس، يعد شكلا من أشكال العمل الشيطاني.

● ما أهمية اللغة العربية في وضعنا الحالي؟

- اللغة العربية من أهم عناصر النهضة الإسلامية، والوحدة والتفوق، فاللغة وعاء الفكر، ولابد من الاهتمام باللغة العربية وتنظيم مسابقات في الأدب والشعر العربي، وجميع أفرع اللغة، والقصة القصيرة أيضا والرواية، ولابد أن نعلم أن فهم اللغة العربية سيقلل من التطرف.

● وكيف ترى وضعها الحالي وكيف نرتقي بها؟

- أقل مما يجب أن تكون عليه، ولابد من وضع تصور لتعليم اللغة بطريقة مبسطة، تجذب الجميع لدراستها.

● كيف ترى الوضع بين الحضارتين الغربية والإسلامية؟

- هناك صراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية منذ عهد رسول الله ﷺ حتى الآن، فالرسول خاض عدة معارك ضد دول الحضارة الغربية، منها غزوة تبوك، واستمر هذا الصراع مع الحضارة الرومانية، لكونه بين فكرتين أساسيتين: فكرة الحق والعدل والحرية في مقابل فكرة القهر والظلم والعنف والاستكبار الغربي، فالحضارة الغربية عنصرية، فالغرب أقام إسرائيل، والديموقراطية الغربية ليست ديموقراطية إلا بالنسبة إلى الغربيين فقط، وحينما يصل الأمر إلى الدول الإسلامية تتلاشى الديموقراطية.

● ما تلخيص رحلتك مع الفكر الإسلامي؟

- ولدت مسلما، لكني فكرت، وكلما اعترضت على شيء من المفاهيم الإسلامية، أبحث فيه، وأكتشف أنه ليس من الإسلام، فتكون ذلك مصدر سعادة لي، فلم أتخذ موقفا من غير تفكير، وما قدمته في الفكر الإسلامي كان بفضل الله سبحانه وتعالى، وليس بفضلي، ولي ٢٠٠ كتاب توجز رحلتي الفكرية.

هذا الدرس الحضاري .. كيف نتعلمه؟

عطية الويشي
باحث دراسات إسلامية بوزارة الأوقاف الكويتية

لم يولِ القرآن الكريم قضية عنايته واهتمامه مثلما أولى قضية موسى وقومه مع فرعون وملئه ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ (القصص:٣). تلك القضية الملحمة التي شاء الله تعالى أن تتمثل قرآنا تتلوه الأمة المسلمة في صلواتها وأورادها، ويتغنى بذكرياتها الصغار والكبار آناء الليل وأطراف النهار، فيتشكل من ثم وعي الإنسانية المؤمنة بتلك الهدايات الإلهية المقررة للحريات وحقوق الإنسان حتى يضحى أجدر وأقدر على تحديد اختياراته الإيمانية ودراسة مقرراته الاستخلافية بعيدا عن الضغوط والمضايقات والملاحقات.

فجر الدعوة الإسلامية، والذاكرة المسلمة الناشئة مشحونة بذكريات سيئة وانطباعات محزنة أليمة.. ما فتئ القرآن الكريم يتحدث عنها، ويعرض صورا ومشاهد منها، وهي تلخص معاناة الأجيال المؤمنة على امتداد التاريخ من لدن آدم عليه السلام، وما تعرضوا له من عنت وعناد وتنكيل واضطهاد وملاحقات وتشريد وقتل، بسبب عقيدتهم الإسلامية واختياراتهم الإيمانية وأفكارهم الرافضة لظلم الشرك وظلام الجاهليات الوثنية بمختلف صورها، وبسبب تعلقهم بالله تعالى وانحيازهم لنبواته ورسالاته ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ (القصص:٤).

ولقد كرس من تكثيف وتأثير تلك الصور الوحيوية في المخيلة والوجدان الإسلاميين: موجة العنف الظلامي التي اجتاحت تجمعات المسلمين الصغيرة على أيدي مخالفيهم من مشركي قريش وكفار مكة بوجه عام؛ فأيقن المؤمنون بأن ما يواجهونه من مخاطر وتحديات، وما يخوضونه من محن وامتحانات وفتن وابتلاءات.. إنما هو سنن وعادات ماضية في المجتمعات المؤمنة برسالتها في هذا الوجود منذ القدم.. يقول تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ (العنكبوت:٢).

ولعلنا نلاحظ أن الابتلاءات التمحيصية هي بمنزلة إجراءات قدرية تتغيا الفرز النوعي، وتخليص الصف المؤمن من أسباب ضعفه وتراجعه وانكساره وانحساره.. إنها التهيئة الصناعية على عين الرب - جل وعلا - ليكون المؤمنون أكمل إيمانا وأتم أهلية لحمل أمانة الله في الأرض، ويكونوا أكثر تهيؤا لمباشرة مهامهم الاستخلافية في هذا الوجود.. ذلك الذي يتطلع المستضعفون فيه إلى قوة ربانية تؤمن لهم الخروج من دين الطواغيت إلى الدخول في دين الله الواحد القهار.. قوة تخلصهم من هيمنة الكبراء، وتعتقهم من أسر الطواغيت، وتنقذهم من ملاحقة جبابرة الأرض، وتعفيهم من الوقوع تحت نيرهم، بل تنزههم عن شبه الركون إليهم والميل لهم، والافتتان بهم والانخداع بمكرهم، والاغترار بزينتهم وبهارجهم الكاذبة العارضة.. قوة تسمو بهم عن أن يزل بهم ضعفهم وقلة حيلتهم وهوانهم على الناس إلى ملاينة الباطل ومداهنته والرضوخ له والإذعان لأمره، ومجاراته في باطله أو التبوق له وتكثير سواده. كانوا يتطلعون إلى قوة ربانية تحقق لهم فرصا أفضل للحياة في ظل اختيار إيماني بأريحية واقتناع وطمأنينة وهدوء، بعيدا عن أجواء القسر والقهر والتعسف والعنف، وعن ملابسات الإغراء والإغواء والاستقطاب الأمني والأيديولوجي الذي يمارسه سدنة الطغاة مع ضعاف النفوس.

وعلى الجانب الآخر، نجد أن القرآن الكريم قد عبّأ المؤمنين بمشاعر النفور تجاه جميع أشكال الظلم والطغيان والاستبداد، وعمق من قناعاتهم الرافضة لكل صور العدوان على حرية الإنسان واستلاب حقوقه وانتهاك حرماته. ومن ثم، كانوا يتطلعون إلى تلك اللحظة التي تتكسر فيها أطواق الشر، وتتحطم فيها قيود الظلم، وتندك عروش الطغيان. وكانوا يستبشرون كلما تنزلت آية تشير إلى الخلاص من التهميش والحصار المضروب حولهم من كل اتجاه. كانوا يقرأون هذا القرآن، ويتغنون بآيات الحرية وحقوق الإنسان آناء الليل وأطراف النهار؛ أملا في الانعتاق والخلاص من التألهات الظالمة المفسدة في الأرض.

الدرس الحضاري من قصة فرعون

لقد كان غير واقعي تصريح فرعون، الذي نفى فيه علمه بإله للناس

غيره، بالنظر إلى عجزه عن حيازة أمر الكينونة التي تقول للشيء كن فيكون.. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (القصص:٣٨)، إذ كان مثل ذلك الادعاء محتاجا إلى قوة داعمة ترفعه عن مستوى الضعف والاضطراب، ولم يكن ثمة ما يدعم موقعه الإلهي المهزوز سوى أن يدعي الربوبية. ولقد كان لهذا الادعاء مقتضياته بأن يضيق على بعض الناس في أرزاقهم ويوسع على البعض الآخر بحسب درجات الولاء والتفاني في خدمة هواه التسلطي، وملاحقة الخارجين على الشرعية الدستورية، التي ضمن مادتها الأولى أن فرعون هو إله الناس وربهم الأعلى!

وهذا يعني أن المذكرة التفسيرية لهذا الدستور الجائر تضمنت مواجهة أي حركة نخبوية، أو أي اتجاه إلى اعتناق أي أيديولوجية أخرى مخالفة لعقيدة التأليه، إنما هو عمل من شأنه ازدراء نظام الحكم وتعطيل أحكام الدستور، والخروج على الشرعية وتهديد السلام الاجتماعي ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ (غافر:٢٦).

ولقد كان من توابع ذلك الموقف الإقصائي التلويح بإنزال أشد صنوف العذاب والعقاب على كل من يتعاطف مع موسى أو يميل إليه أو يدعو له أو ينوه به. ذلك، ولم يكن ثمة عقوبة أشد من سلب الإنسان حريته، وحرمانه حقوقه في الحصول على المعلومات والحقائق مجردة بلا مزايدات أو مداخلات أو مداهنات. فكان من أبشع ما ارتكبه فرعون حجب الحقائق عن الناس، أو تغييبها، أو تزييفها، وهي جريمة لا تغتفر. وأشد من ذلك جرما شحن عقلية العامة بزيوف وأراجيف وأكاذيب وإملاءات تخدم مركزية السلطة والثروة ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (الشعراء:٥٣ - ٥٦).

لفتة مبدئية

كان فرعون بطبيعته نموذجا إملائيا متحكما بغير جدارة، قويا بضعف الناس، قهارا بانقهارهم له، جبارا بإرادتهم المتداعية لجبروته. وعلى الرغم من إملاءاته المتناقضة التي تدل على خفة عقله وبداوة رأيه وتهافت حجته، بل تكشف عن ضعف شخصيته ضعفا يقدح في أهليته للحكم والملك، فإنه وجد من ينقاد إلى إملاءاته انقياد السوائم، ويعتاد تحكماته اعتياد الهوائم، حتى جاء موسى الذي يعرف خبايا البيت الفرعوني، ويعلم من حقائق الحياة الخاصة لفرعون ما لم يحط بها العامة والرعاع، فلم يلبث موسى في أهل مدين سنينا حتى رجح لديه خيار العودة وتبني مسار المقاومة والتصدي، بمشاركة أخيه، لمشروع الهيمنة والاستكبار الفرعوني؛ استخلاصا لقومه من نير الاستضعاف والهوان. وهنا ينبغي ألا ننسى تأثر موسى بالفكر الإصلاحي عند شعيب النبي -عليهما السلام- فترة خدمته، ولقد كانت السنوات العشر كافية لتشبع موسى بتلك الخبرة النبوية في الإصلاح والتأهيل الاجتماعي ومقاومة الفساد.

وبعد عودته إلى مصر، خاض موسى وهارون، في مقابل ذلك الهدف، ملاحم هائلة، ودورات نضالية لم تفتر أو تهدأ أو تهادن حتى تحقق لهما ما أراد الله ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (القصص:٥ و٦)، ثم ما أراداه هما للناس من حرية وكرامة وصلاح.. فهلك فرعون ومن معه من الظالمين أجمعين ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الزخرف:٥٥).

بينات على طريق الخلاص

ولقد اختلطت هذه الملحمة بمجموعة من الملابسات، نلقي مزيدا من الأضواء حولها، عسى أن تلوح منها عبرة لكل سالك سبيل الإصلاح:

أولا - معية الله تعالى ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ (طه:٤٥ و٤٦). وهذه المعية هي التي عكست معنى التعبئة الإيمانية؛ ثقة بالله ويقينا بصلاحية موقفهما وعدالة قضيتهما في مواجهة صنمية المتألهين وتبجحات مدعي الربوبية.. تلك الفرعونية التي استصحبت كل ما لديها من قوة جائرة، وقدرة بائرة، وعزوة موتورة، وتعويلات وسائلية واهية لا تغني من الحق شيئا ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ (غافر:٣٦ و٣٧).

ثانيا - معية المؤمنين؛ وهم السند «اللوجستي» المتخفي وراء الكواليس، إذ كشف القرآن الكريم عن نموذجين من هذا السند، هما: امرأة فرعون، والرجل الذي جاء من أقصى المدينة ناصحا إياه بالخروج أول مرة.. وغيرهما من الصداقات التي تكونت بين موسى والعاملين في دهاليز القصر. وهؤلاء في اللحظة المناسبة قد زودوا موسى وهارون بمعلومات

أسهمت في بلورة مشروع الخلاص حتى إتمامه.

ثالثا – لم تكن نجاة قوم موسى هي نهاية التحدي، إذ ظهرت لموسى وهارون نتوءات تمردية، تمثلت في نفوس ضعيفة كانت ترقب الإنجاز بضيق صدر حاقد، وقلب منقبض حاسد. وهي نفوس لم تفقد إيمانها جملة، لكن كبر عليها أن ترى الحق محمولا على غير أعناقها، ظاهرا بغير يديها. ذلك على الرغم من أنها في أتون المواجهة الإيمانية مع فرعون كانت مختبئة خائفة وجلة، ترقب الملحمة، وهي ملتبدة خلف جدران الحلبات. هذه النفوس هي التي انخنست عن المواجهة كلما افترض واقع التدافع الحسم والحزم: إما بدفع تكاليف وتقديم تضحيات، وإما بموقف شعاري واضح. فالسامري لم يكن كافرا بطبيعته، لكنه لما رأى في صرف الناس عن موسى وهارون شفاء لعليله وإطفاء لغليله.. لم يتورع عن صناعة الأصنام وصياغة الأوهام، حتى ولو كانت النتيجة المتوقعة وقوع الناس تحت طائلة الشرك جحودا بالذي نجاهم من فرعون وأطلقهم في فضاء الحرية يرفلون في نعيمها كراما آمنين. لكنه لم يتردد عن الغواية تلبية لنوازعه الغريزة الشريرة هو ومن كانوا على شاكلته في القوم.

وإن المتأمل في مسيرة بني إسرائيل لا يستبعد وجود عناصر أخرى مؤيدة للسامري في صفوف بني إسرائيل، فمثل هؤلاء أشبه ما يكونون بالكائنات الأميبية التي لا تنفك حياتها عن نظام التشبث الطفيلي، الذي يتغذى دوما من خلاصة عصب الناس ودمائهم دون طائل من ورائها إلا ضعف المجتمع وهزاله، بل إن منهم من يتحول إلى طبيعة المخلوقات الكربونية التي لا تنبعث منها إلا الغازات والأبخرة السامة. هؤلاء هم الذين خذلوا موسى عن بلوغ مأواهم وملاذهم الآمن بدخول القرية ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (المائدة:٢١ و٢٢)،

فاستحبوا التيه في بداوات الأرض على النزول عند أمر الله بالدخول موعودين بالنصر والتمكين. وهذه حال تبدو معقولة بالنظر إلى طول الأمد عليهم في مستنقعات القهر والمذلة والنكال.. فأمر الحياة الحرة الكريمة لا يعنيهم إذا كلفهم أدنى تكاليف، فلم يستجيبوا لنصائح إخوانهم، بل تجاهلوهم، مخاطبين موسى بخطاب يفيد ضرورة كفه عن هذا الأمر –قولا واحدا– ومن دون حاجة لوعظ المتحمسين معه عليه السلام ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (المائدة:٢٣ و٢٤).

رابعا – بينما كان موسى –عليه السلام– منهمكا في مواساة قومه، حاثا إياهم على التصبر والاستعانة بالله في مواجهة الأزمات ففي أعقابها فرج الانعتاق والتمكين ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (الأعراف:١٢٨ و١٢٩). وإذا كان من حق المظلومين أو المبتلين التعبير عن آلامهم ومظالمهم بصورة أو بأخرى، فإن الأولى التعبير بصورة تليق بهم بين يدي نبي مرسل يعظهم بالصبر على الابتلاء، ويعدهم بالخلاص والتمكين، لكن النفس الإنسانية جزوعة بطبيعتها، غير مدركة لحكم الابتلاءات وأسرار الامتحانات التي مثلما تطوي الألم فإنها تبعث الأمل وتبشر الصابرين ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة:١٥٥ و١٥٦). الصابرون الذين يفهمون الاسترجاع تراجعا عما لا يليق، ورجوعا إلى الله، ومراجعة مع النفس.

ولذلك، كان من الضروري أن تراجع الأمة المسلمة مواقفها بعد كل دورة حضارية وأخرى في ضوء الدروس، سواء التي تناولها القرآن أو تلك التي تعيد إنتاج نفسها عبرا مستفادة، مؤكدة صدق الوحي وحيوية صلاحيته التي تمكن الأمة من استمرارية تجديد عضويتها الفاعلة في الجماعة الإنسانية، وذلك من خلال ترديد عهدتها الاستخلافية على نحو يعكس مسؤولياتها والتزاماتها العقدية تجاه هذا الكون بما فيه ومن فيه.. ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (الحج:٤١). ومن ثم، تتهيأ لها أسباب خلاصها وحريتها، وتتوافر لها سوانح نهضتها إلى استئناف دورة جديدة من الفعل الحضاري الرشيد.

فقه الإصلاح

أحمد عبدالجواد زايدة
باحث دراسات إسلامية

يُعرّف الاقتصاديون علم الاقتصاد بأنه التوظيف الجيد، أو الأمثل للموارد المتاحة بالقدر الذي يلبي الحاجة. ويُلقّب بعض الأصوليين أصول الفقه بـ«علم اقتصاد الفقه»، لأنه الأدوات المنهجية القادرة على استخراج ما يلبي الحاجة المتجددة من تكييف الحوادث، وإعطاء النظر الشرعي فيها، ويواكبها من الموارد (أي الوحي: القرآن والسنة).



وإن كان للاقتصاد «علم» وللفقه أصول «منهجية»؛ فإن للحركة كذلك أصولا وفقه اقتصاد، بل فقه امتداد؛ فحين تكثر المستجدات وتتعدد الحاجات وتكثر الأزمات والمهمات وتتشعب المسارات، في حين تكون الموارد محدودة ومنابع الإصلاح معدودة والوقت مقيدا وضيقا والتحديات لا تنتهي والواجبات والمتطلبات متعاقبة والتوقعات متصاعدة، فأنت حينها بحاجة إلى علم أصول الحركة وعلم فقه الحركة واقتصادها.

كيف يمكننا استغلال الموارد بالقدر الذي يلبي الحاجات بطريقة تضمن لها الديمومة والاستمرار بشكل استراتيجي؟ وكيف يمكن ترشيد استخدام هذه الموارد لبناء المسارات الأساسية والرئيسية في عملية التغيير والإصلاح وفق رؤيتك وأهدافك ومقاصدك القصيرة والمتوسطة والبعيدة؟ هذا هو سؤال عملية «صناعة التغيير... هذا سؤال الحركة».

في الفقه والمقاصد تعلمنا أن قصد الشارع يهدف أولا إلى تحقيق الكليات، أي الضروريات، ثم تليها الحاجيات، ثم تعقبها في المرتبة التحسينات. وتعلمنا كذلك أثر هذا التقسيم على بيان الفقه من خلال استقراء المسائل والفروع والتنزيل الاجتهادي في بعض القضايا التي يندرج بعضها في باب السياسة الشرعية. وتعلمنا كذلك أنه لا يشترط بالضرورة أن تكون الصلة بين المراتب الثلاث صلة هرمية حدية، بل قد تكون الصلة صلة دائرية مركبة، هذه مؤثرة في تلك، ومجموع الأقل مرتبة فعال في الأعلى درجة. ولذا، تحدث الإمام الشاطبي أن فقدان مجموع أمر حاجي يرتفع به إلى مرتبة الضروريات؛ لكن تبقى للضروريات أوزانها وأحجامها المعتبرة في مسيرة الاجتهاد والنظر، سواء في اعتبار عقل الفقيه أو في اعتبار الواقع، ويبقى للحاجيات والتحسينات كذلك حجمها في المحل ذاته، باعتبارها دائرة حول «الأُس» و«المرتكزات الأساسية»، أعني: الضروريات؛ مع ما تتمدد له وبه أوعية هذه المراتب (الضروريات – الحاجيات – التحسينات) من مصطلحات جديدة تمثل حاجات متجددة لواقع وعالم اليوم بالاعتبار والنظر الشرعي، ويكون لنا سبق نحتنا من ذاتيتنا.

وأصول فقه الحركة في مساحات الأمة في واقع اليوم ليس بالضرورة علما يدرس كالاقتصاد وأصول الفقه، بل هو أقرب ما يكون إلى الحكمة التي توهب بعد مراس ودربة ومقدمات هي مسارات تعلم ومسارات نحت ملكات متعددة؛ حكمة بالعقول وبصيرة بالنفوس... ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ (العنكبوت:٦٩)؛ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (يوسف:٩٠)؛ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ (البقرة:٢٨٢)... هو جماع مسارات السلوك والتزكية؛ ورحلة تعلم أصول الفقه... بناء منطق ومنهج التفكير وأوعيته، وتأسيس عقلية المقاصد، وإحكام صنعة القواعد الفقهية وبناء المآلات في ضوء المقاصد المعتبرة بمراعاة المصالح والمفاسد المرعية بالقواعد المضبوطة والاعتبار الشرعي، ومعرفة تفاصيل الواقع وعمق طبقاته وتعددها ومساحاته شاملا الداخل والخارج.. نحن والعالم، ودراسة الفاعلين الأساسيين في الساحة الداخلية والخارجية ودراسة استراتيجيات الغير وخلفياتهم ومنطلقاتهم، لأن عملية الإصلاح والتغيير عملية بناء وتأسيس ومدافعة، تتحرك في مساحة العالم على خريطة يتحرك فيها المئات بآلاف الأهداف وآلاف الاستراتيجيات. فوجب عليك النظر والتمحيص لتعرف أين يكون التقاطع والتكامل، ومتى يكون التدافع، ومتى يستلزم أحيانا الصراع وتوقيتات ذلك. حينها ستعرف كيف تضبط النسب والأوزان. وحينها كذلك ستعرف كيف تسكن أولوياتك على سلم العمل وخريطة الإصلاح؛ فالإصلاح ليس عملية بسيطة بنوايا طيبة (أو ساذجة في بعض الأحوال)، الإصلاح عملية معقدة مركبة متراكمة. هذا هو التوكل وإلا صار تواكلا.. هذا لمن يسأل عن إحدى مُقدمات النصر.. والله أعلى وأعلم.

الأمالي والمجالس
في الحياة العلمية عند المسلمين

د. أحمد خليل الشال
مدير مركز الدراسات والبحوث الإسلامية في بورسعيد - مصر



مسجد بورصا - تركيا

كان المسجد هو الجامعة الأولى والمدرسة الأصيلة التي تخرج فيها العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه في المسجد، فكانوا يلتفون حوله مقبلين عليه وهو يعلمهم شرائع الإسلام وأخلاقه.
فلم يكن المسجد لمجرد الصلاة والعبادة فقط بل كان مدرسة أيضا، وفي ذلك دلالة على أن العلم لا ينفك عن العبادة، بل هو جزء منها. ومن ثم نالت المجالس العلمية شرفها، يقول الخطيب في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٠/٢)، في فصل: «عقد المجالس في المساجد»: «يستحب للمحدث أن يجعل تحديثه في المسجد.. عن عكرمة ابن عمار، قال: سمعت كتاب عمر ابن عبدالعزيز يقول: أما بعد، فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم فإن السنة كانت قد أميتت».ا.هـ.
وصارت تلك سنة توارثها العلماء عن النبي ﷺ من الصحابة والتابعين بعده ﷺ يعلمون الناس مما علمهم الله ورسوله. وروى الخطيب في «الفقيه والمتفقه» في فصل عقده لفضل تدريس الفقه في المساجد، عن أبي الأحوص قال: أدركنا الناس وما مجالسهم إلا المساجد.
وفي صحيح مسلم (برقم ٦٧١) أن رسول الله ﷺ قال: «أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها».
ومن المساجد الجامعة لهذا الأمر قديما المسجد النبوي، ومسجد عمرو بن العاص في مصر، والزيتونة في تونس والقرويين في فاس.. وغيرها، حتى أصبح هذا الأمر ظاهرة علمية سادت عصور المسلمين، بدأت في الانتشار بصورة واسعة من بدايات القرن الثالث، وذلك حين تنوعت العلوم والمعارف، وكان علماء الحديث واللغة هم أكثر الناس عملا بهذا الأمر، وهو عقد المجالس والأمالي.
يقول الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٥٥/٢) في باب «إملاء الحديث وعقد المجلس له»: «يستحب عقد المجالس لإملاء الحديث، لأن ذلك أعلى مراتب الراوين، ومن أحسن مذاهب المحدثين مع ما فيه من جمال الدين والاقتداء بسنن السلف الصالحين».
وروي عن الخليفة المأمون أنه قال: «ما أشتهي من لذات الدنيا إلا أن يجتمع أصحاب الحديث عندي ويجيء المستملي فيقول من ذكرت أصلحك الله».
وعن معروف الخياط قال: «رأيت واثلة بن الأسقع يملي على الناس الأحاديث فهم يكتبونها بين يديه».
وعن عبيدالله بن محمد الرقي قال: «قلت ليحيى بن معين: أحمد الله، قد أصبحت سيد الناس. فقال لي: اسكت، أصبح سيد الناس عاصم بن علي، في مجلسه ثلاثون ألف رجل».

صفة المجالس والأمالي

وصف خليفة الأمالي في كتابه «كشف الظنون» (١٦١/١) بقوله: «الأمالي هو جمع الإملاء، وهو أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس، فيتكلم بما فتح سبحانه وتعالى عليه من العلم، ويكتبه التلامذة، فيصير كتابا، ويسمونه الإملاء والأمالي. وكذلك كان أهل العلم من الفقهاء والمحدثين وأهل العربية وغيرها في علومهم، فاندرست لذهاب العلم والعلماء وإلى الله المصير. وعلماء الشافعية يسمون مثله التعليق».اهـ.
فتلك هي صفة المجلس أو الإملاء، وهي أن يجلس المعلم في المسجد، على مكان يراه منه الحضور جميعا كمنبر ونحوه، ويتخذ مكانا خاصا يعرف به ويذكر أنه مجلسه الخاص، فيرد عليه الطلاب والمتعلمون ممن يريدون الاستفادة منه وقد أحضروا كراساتهم وأقلامهم كما يفعل طلاب الجامعة الآن حين يذهبون إلى استماع المحاضرات ويعدون الأدوات لكتابتها.
وكانت من صفة هذه المجالس أن يكتب السامع في أول كل مجلس: «مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا»، ويذكر التاريخ، ثم يورد ما يسمع من الشيخ، تفسيرا كان أو حديثا أو نحوا أو لغة.

المستملون

وكانت هذه المجالس تختلف أعداد روادها من الطلبة باختلاف درجة الشيوخ ودرجة علمهم وقيمته، فكانت أحيانا تكون كثيرة جدا وأحيانا أخرى تقل.
وكانت حين تتسع هذه المجالس ويكثر روادها لم يكن لهذه الجموع من الحاضرين أن تسمع صوت الشيخ، إذ لم تكن مكبرات الصوت قد عرفت بعد في ذلك الزمان، ومن أجل ذلك ظهر ما يعرف بـ«المستملي أو المستملين»، وهم الذين يرددون كلمات الشيخ حتى يسمع الناس، ووظيفتهم تماما كالمبلغ في الصلاة.
وكانت أعداد هؤلاء المستملين تتفاوت بتفاوت كثرة المستمعين وقلتهم، فيروى أن مجلس القاضي المحاملي كان فيه أربعة مستملين يستملون عليه، وأن أبا مسلم الكجي كان في مجلسه سبعة مستملين يبلغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه، وكتب الناس عنه قياما بأيديهم المحابر، ثم مسحت الرحبة وحسب عدد من حضر بمحبرة، فبلغ ذلك

نيفا وأربعين ألف محبرة، وحينما قعد الصاحب بن عباد لإملاء الحديث حضر خلق كثير، وكان المستملي الواحد يضاف إليه ستة، كل يبلغ صاحبه.

وكان بعض هؤلاء المستملين يحتال ليسمع الناس عند كثرة عددهم. كما كان في مجلس عاصم بن علي، إذ كان هارون المستملي يركب نخلة معوجة ويستملي عليها.

كتب الأمالي والمجالس

وقد تمخضت مجالس الإملاء هذه عن كتب كثيرة ظهرت باسم الأمالي والمجالس، إذ كانت تجمع ما يكون فيها ثم تخرج للناس - بعد عرضها وقراءتها على الشيخ غالبا - كتابا.

وقد ذخرت المكتبة بكتب كثيرة تحمل هذا الاسم: الأمالي أو المجالس، منها: «أمالي أبي علي القالي في اللغة والأدب»، و«مجالس ثعلب» وهو أيضا في اللغة والأدب، و«أمالي القضاعي في الحديث» وغيرها.

وهناك من كتب الأمالي ما كان إملاء ولكن حمل اسما آخر غير اسم الأمالي ومنها: «المبسوط» للسرخسي في الفقه الحنفي، وهو مطبوع في ثلاثين مجلدا، فقد أملاه صاحبه وهو في السجن، وكان تلاميذه يذهبون إليه في أوقات معلومة من الليل والنهار، ويجلسون تحت نوافذ السجن العالية، وكان هو يحتال على التسلق ليسمعهم صوته، فأملاهم كتابه في بضع سنين لا يعتمد فيها إلا على حفظه.

ومنها بعض أجزاء من كتاب «الأم» للشافعي، فإن الأم عبارة عن مجموعة كتب صنفها الشافعي، وكثير منها إملاء منه على طلبته، ومنهم الربيع بن سليمان، والمزني، كما أثبت الدكتور رفعت فوزي عبدالمطلب في مقدمة تحقيقه لكتاب الأم.

بل أكثر من ذلك أن صُنّف من الكتب ما يوضح أدب الإملاء وشروطه في المملي والمستملي، ككتاب أدب الإملاء والاستملاء لمؤلفه عبدالكريم بن محمد بن منصور أبوسعد التميمي السمعاني، الذي جمع فيه آدابا عظيمة ينبغي أن يتحلى بها من سيقوم بدور المستملي.

الفرق بين المجالس والأمالي

ومن العلماء من يفرق بين المجالس والأمالي، ومنهم الأستاذ عبدالسلام هارون، إذ يقول في مقدمة تحقيقه لكتاب مجالس ثعلب: أرى أن هناك فرقا دقيقا بين هذين اللفظين في أصل استعمالهما، وكل منهما مظهر لما كان يدور من تدوين لأقوال العلماء والمتصدرين للتعليم. أما الأمالي فكان يمليها الشيخ أو من ينيبه عنه بحضرته، فيتلقفها الطلاب بالتقييد في دفاترهم. وفي هذا يكون الشيخ قد أعد ما يمليه أو ما يلقي إلى الطلبة ما يشاء من تلقاء نفسه. وأما المجالس فتختلف عن تلك بأنها تسجيل كامل لما كان يحدث في مجالس العلماء، ففيها يلقي الشيخ ما يشاء من تلقاء نفسه، وفيها كذلك يسئل الشيخ فيجيب، فيدون كل ذلك فيما يسمى مجلسا، وكثيرا ما يعثر القارئ في مجالس ثعلب هذه على ذلك المظهر العلمي الجليل، الذي يحاول ثعلب فيه أن يتقبل الأسئلة من طلابه، فيجيب الجواب السديد أحيانا، وحينا يتردد، وحينا يقول: لا أدري. كما أن رواة المجالس يعنون كذلك بإثبات سائر ما يحدث في المجلس مما له صلة بأداء النص.اهـ.

حلقة العلم

وقد كانت حلقات الدرس والتعليم عند سلفنا في غاية النظام، فلم تكن مجرد حلقة يتحلق فيها الطلبة حول شيخهم يستمعون حتى إذا انتهى انطلقوا ورحلوا، بل كان هناك نظام تعليمي ينظم هذه الحلقات الدراسية، والدروس العلمية، وكان يقوم على هذا النظام بعض المتدربين لهذه الوظائف التي تنظم الحلقة وتضبطها، منهم:

١ - المعيد: وهو من يعيد ما غمض من الدرس بعد انتهاء الشيخ من درسه لمن لم يفهمه، ويكون عليه قدر زائد على سماع الدرس.

٢ - المفيد: وهو الذي يأتي بمزيد بحث على بحث الجماعة وإخراج الفوائد من الدرس لإفادة الطلبة.

٣ - كاتب الغيبة: وهو الذي يثبت الحضور ويقيد الغياب.

٤ - كاتب غيبة السامعين: وهو الذي يثبت ويضبط أسماء سامعي الروايات والكتب على المشايخ من أجل الحصول على إجازات فيها ويتأمل من يسمع ومن لا يسمع.

٥ - من يرتب المجلس للشيخ بترتيب مجالس الحاضرين وتنظيمها، وإنصات الطلبة وإيقاظ النائم وتنبيه الغافل.

مراجع

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب.
- الفقيه والمتفقه، للخطيب.
- أدب الإملاء والاستملاء، للسمعاني.
- المخطوط العربي، للدكتور عبدالستار الحلوجي، ص١٣٧.
- الكتاب العربي المخطوط، للدكتور أيمن فؤاد سيد، ١/٨٥.
- الأمالي والمجالس في تاريخ الفكر الإسلامي، مقال لمحمد المدني في مجلة الوعي الإسلامي عدد ١٠ شوال ١٣٨٥هـ.

بالذي هو خير

صفاء محمد سليمان الأشقر
أديبة شابة

في قصة بني إسرائيل حينما أنزل الله عليهم المن والسلوى طلبوا من سيدنا موسى -عليه السلام- أن يخرج الله لهم من الأرض فوما وعدسا وبصلا وقثاء، فقال لهم ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة:٦١).

فهؤلاء (بنو إسرائيل) كان ينزل عليهم رزقهم من السماء مباشرة من دون أن يكلوا أو يتعبوا. لكن نفوسهم لم تحتمل هذا الرقي، ولم تكن أهلا له، فقد اعتادت شظف العيش والشقاء والعناء، فلم تأنس بنعمة كهذه، فطلبوا منه ما هو أدنى، وما يبذل فيه الجهد، ولا يرقى لمثل ما هم فيه. وهناك فرقان بين ما طلبوه وما هم عليه: كان ما هم عليه أفضل، وكان أيضا يأتيهم بلا تعب. وهاتان خاصيتان تكفيانهم ليحمدوا النعمة، بل وأكثر، لكنهم لم يرتاحوا لهذا. فهنالك نفوس لا ترتاح لما هو أفضل. فطلبوا الأقل، الذي لا يأتي إلا بتعب وشقاء، كما اعتادوا. فلم يجبرهم الله على رغد العيش، الذي لا تستطيع نفوسهم أن تهنأ به، بل سألهم سيدنا موسى سؤالا «أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟». والسؤال هنا للاستنكار عليهم، فهذا الأمر مما يُنكر بين البشر. ولغة في الاستبدال يدخل حرف الباء على المتروك، أي تتركون الذي هو خير.. الذي كرّمكم الله به لتأخذوا بدلا منه الأدنى والأقل منزلة.

استنكر عليهم ولم يجبرهم، بل قال ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ (البقرة:٦١). والهبوط هنا ليس ماديا فقط بل هو هبوط معنوي أيضا: فانزلوا من هذا المستوى الذي رفعكم الله إليه تكريما ورزقكم المن والسلوى منّة منه وفضلا إلى المنزلة الأدنى. فما قال اذهبوا أو ادخلوا بل اهبطوا.

وهنالك لفتات في هذه الآية:

أولا – ليس كل ما تسأل الله إياه هو أفضل. قد تراه في تلك اللحظة الأحسن والأفضل، لكن واقعيا قد تكتشف بعد ذلك أن ما كنت تطلبه هو أقل مما كنت عليه، فلا تبتئس إن تأخرت عليك الإجابة، لأن طلبك قد يكون لشيء أقل وأنت لا تعلم، أو تعلم لكن نفسك تهواه.

ثانيا – التفويض. انتبه إلى القرارات التي تأخذها والأمور التي تتخلى عنها، فليس كل جديد هو الأفضل، وليس كل قديم تنتظر الفرصة لهجره هو الأدنى. فقد يتغير الحال عليك، وتظن أن أمورك الآن سيئة، لكن فعليا هي المنّ والسلوى لك. وقد تحاول العودة عن خير أنت فيه لأن نفسك اعتادت الأدنى وترتاح له وليس لأنه في ذاته الأفضل. ففكر ووازن واسأل نفسك، ولعلك تدخل في حيرة حين تعزم على أمر، ففوّض الله أن يختار لك الأفضل «اللهم دبر لي فإني لا أحسن التدبير واختر لي فإني لا أحسن الاختيار». ونحن مأمورون بالاستخارة الشرعية، وقد كان الصحابة إذا أراد أحدهم أن يشتري نعلا استخار. فكم من أمور أكبر من ذلك، ولعلها تكون مصيرية، قد نغفل عن الاستخارة فيها. ففي دعاء الاستخارة «اللهم إني أستخيرك بعلمك»، لأن علمك أوسع من علمي، فمهما كان في علمي أن أمرا خير أو عكس ذلك فلا يعلم حقيقته وتبعاته إلا أنت. «وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تعلم ولا أعلم»، فكل علمي لا يتجاوز دراسات لخيارات وتبعات متوقعة لا ضمانات فيها وهي في علم الغيب، «وتقدر ولا أقدر وأنت علام الغيوب». فتفوض الله العليم أن يختار لك، لأن المستقبل بخيره وشره خارج نطاق علمك تماما. فلا يمكن، مهما كنت متأكدا أن أمرا ما سيكون خيرا لك، أن تكون قد زرت المستقبل، ولو بعد أشهر أو سنوات، لترى كيف ستكون حياتك في وجوده. فالقرارات بناء على دراسات للنتائج، والنتائج في المستقبل، وذلك في يد الله، فلا مفر من التفويض.



كما رآها الإمام العلامة محمد الخضر حسين -رحمه الله-

الصداقة *

عاطفة سامية القدر، غزيرة الفائدة، تلك هي الصداقة، والشارع رغب في أن تكون المعاملة بين المسلمين معاملة الصديق للصديق، ألا ترونه كيف أمر المسلم بأن يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه؟ بل استحب للمسلم أن يؤثر أخاه المسلم وإن كان به حاجة، وذلك أقصى ما يفعله الصديق مع صديقه.

هذا الأدب الإسلامي نبهني لأن أتحدث إليكم في هذه الليلة عن الصداقة:

ما هي الصداقة؟

المحبة إما أن تكون للمنفعة، وإما أن تكون للذة، وإما أن تكون للفضيلة، وقد يطلق على كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة اسم الصداقة.

صداقة المنفعة: هي أن يحب الإنسان شخصا لما يناله منه من منافع، وشأن هذه الصداقة أن تبقى معقودة بين الشخصين مادامت المنافع جارية.

صداقة اللذة: هي المحبة التي تثيرها الشهوة، وقد تشتد فتسمى عشقا، وشأن هذه الصداقة -أيضا- أن تنقطع عندما تنصرف النفس عن اللذة التي بعثتها.

صداقة الفضيلة: هي المحبة التي يكون باعثها اعتقاد كل من الشخصين أن صاحبه على جانب من كمال النفس، وهذه هي الصداقة التي يهمنا الحديث عنها في هذا المقام.

إن الذي يصح أن يعد خصلة شريفة هو الصداقة التي يبعثها في نفسك مجرد اعتقاد أن صاحبك يتحلى بخلق كريم.

الصداقة المتينة لا تحل في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة؛ فالمتكبر تنزل به الصداقة إلى أن يتواضع لأصدقائه، وسريع الغضب تضع الصداقة في نفسه شيئا من كظم الغيظ، ويجلس لأصدقائه في حلم وأناة، وربما اعتاد التواضع والحلم، فيصير بعد متواضعا حليما.

الداعي إلى اتخاذ الأصدقاء

في اتخاذ صديق حميم لذة روحية يدركها من يسر الله له أن انعقدت بينه وبين رجل من ذوي الأخلاق النبيلة، والآداب العالية مودة، ولا منشأ لهذه اللذة الروحية إلا الشعور بما بينه وبين ذلك الرجل النبيل المهذب من صداقة.

وصديق الفضيلة هو الذي يجد في لقاء صديقه ارتياحا وابتهاجا، ويعد الوقت الذي يقضيه في الأنس به من أطيب الأوقات التي لا تسمح بها الأيام إلا قليلا.

ثم إن الصداقة تستدعي بطبيعتها جلب المنفعة أو دفع الضرر؛ فإنها تبعث الصديق على أن يدفع عن صديقه الأذى بما عنده من قوة، وتهزه لأن يسعده في الشدائد بما أوتي من جاه أو سطوة... ولمثل هذا أوصى بعض الحكماء باتخاذ الأصدقاء؛ فقالوا: «أعجز الناس من فرط في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم».

الاستكثار من الأصدقاء

متى حظي الإنسان بأصدقاء كثيرين فقد ساقت له الأقدار خيرا كثيرا.

وقد أوصى بعض الحكماء ابنه فقال: «يا بني إذا دخلت المصر، فاستكثر من الصديق، أما العدو فلا يهمنك».

علامة الصداقة الفاضلة

ليس من علامة الصداقة الفاضلة أن يقوم لك الرجل مبتدرا، أو يلاقيك باسما، أو يثني عليك في وجهك مسهبا ومكررا؛ فذلك شيء يفعله كثير من الناس مع من يحملون له أشد العداوة والبغضاء.

وقد ذكر الأدباء للصداقة الخالصة علامات منها:

١. أن يدفع عنك وأنت غائب عنه.

قال العتابي:

وليس أخي من ودني رأي عينه

ولكن أخي من صدقته المغائب

٢. ومنها أن تكون مودته في حال استغنائك عنه واحتياجك إليه سواء.

قال الأحنف بن قيس: «خير الإخوان من إن استغنيت عنه لم يزدك في المودة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها».

٣. ومنها أن ينهض لكشف الكربة عنك ما استطاع كشفها، لا يحمله على ذلك إلا الوفاء بعهد الصداقة، قال بعضهم في صديق له:

وكنت إذا الشدائد أرهقتني

يقوم لها وأقعد أو أقوم

ونقرأ في تاريخ الأندلس أن الوزير هاشما بعثه السلطان محمد بن عبدالرحمن الأموي على رأس جيش، فوقع هذا الوزير أسيرا في يد العدو، وجرى ذكره يوما في مجلس السلطان محمد بن عبدالرحمن، فاستقصره السلطان، ونسبه للطيش والعجلة والاستبداد بالرأي، فلم ينطق أحد الحاضرين في الاعتذار عنه بكلمة، ما عدا صديقه الوليد؛ فإنه قال: «أصلح الله الأمير، إنه لم يكن على هاشم التخير في الأمور، ولا الخروج عن المقدور، بل قد استعمل جهده.. ولم يكن ملاك النصر بيده، فخذله من وثق به، ونكل عنه من كان معه، فلم يزحزح قدمه عن موطن حفاظه، حتى ملك مقبلا غير مدبر، ملبيا غير فشل، فجوزي خيرا عن نفسه وسلطانه؛ فإنه لا طريق للملامة عليه، وليس عليه ما جنته الحرب الغشوم...».

وقع هذا الاعتذار من السلطان موقع الإعجاب، وشكر للوليد وفاءه لهاشم، وترك تفنيد هاشم، وسعى في تخليصه.

ووصل خبر هذا الاعتذار إلى هاشم، فكتب خطاب شكر للوليد ومما يقول في هذا الخطاب: «الصديق من صدقك في الشدة لا في الرخاء، والأخ من ذب عنك في الغيب لا في المشهد، والوفي من وفى لك إذا خانك زمان».

فكتب إليه الوليد جوابا يقول فيه: «وصلني شكرك على أن قلت ما علمت، ولم أخرج عن النصح للسلطان بما ذكرته للسلطان من ذلك، والله شاهد على أني أتيت ذلك في مجالس غير المجلس المنقول إلى سيدي، إن خفيت عن المخلوق فما تخفى عن الخالق، ما أردت بها إلا أداء بعض ما أعتقده لك، وكم سهرت وأنا نائم، وقمت في حقي وأنا قاعد، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا».

الصداقة تقوم على التشابه

لا تنعقد الصداقة الصافية بين شخصين إلا أن يكون بين روحيهما تقارب، وفي آدابهما تشابه؛ فإن وجدت صحبة بين بخيل وكريم، أو جبان وشجاع، أو غبي وذكي، أو مهتد ومبتدع فاعلم أن الصحبة لم تبلغ أن تكون صداقة بالغة.

هذا، وينبغي للرجل أن يتخير لصداقته الفضلاء من الناس، فهؤلاء هم الذين تجد الصداقة فيهم قلوبا طيبة، فتنبت نباتا حسنا.

وكثيرا ما يقاس الرجل بأصدقائه، فإن رآه الناس يصاحب الفساق والمبتدعين سبق إلى ظنونهم أنه راض عن الابتداع ولا يتحرج من الفسوق.

الاحتراس من الصديق

قد يوصي بعض الأدباء بالاحتراس من الصديق، كما قال أحدهم:

أما العداة فقد أروك ظنونهم

واقصد بسوء ظنونك الإخوانا

وأتى على هذا المعنى آخر، وأبدى له وجها، هو الخوف من أن ينقلب الصديق إلى عدو، فيكون أدرى بوجه الضرر.

والقول الفصل في هذا: أن صديق المنفعة متى عرف الإنسان وجه صداقته كان له أن يحترس منه، ويكون هذا موضع الأشعار التي تنصح بالاحتراس مع الأصدقاء.

أما من انعقدت بينك وبينه صداقة الفضيلة، وكنت على يقين من أن هذا وجه صداقتكما – فلا موضع للاحتراس منه.

فإن اجتهدت أيها الألمعي رأيك في صداقة شخص، وبدا لك أنها صداقة فضيلة، ثم رأيت منه ما لم تكن تحتسب – فلا يحملك هذا الخطأ في الاجتهاد إلى الاحتراس من كل صداقة؛ فإن ما وقع إنما هو أمر نادر، والأمور النادرة لا تتخذ مقياسا في معاملة الأصدقاء، ولا تستدعي أكثر من أن تستعيذ بالله من شرها، ثم

تمضي مع أصدقائك الفضلاء في وداعة خلق، وسماحة نفس.

هل الصداقة اختيارية؟

الواقع أن الاختيار يرجع إلى فتح الصدر لها، وربط القلب عليها، والسير في الأقوال والأفعال على مقتضى عاطفتها؛ فإذا حمدت الرجل على صداقته فإنما تحمده على أن أقرها في صدره مغتبطا بها، ثم جرى على ما تستدعيه من نحو المواصلة والمؤانسة.

ويزعم بعض الأدباء أن الصداقة الخالصة من كل شائبة مفقودة، ومن هؤلاء من ينفيها من الدنيا بإطلاق، ومنهم من يشكو أهل زمانه، ويخبر بأنه لم يجد من بينهم من يصطفيه للصداقة.

الصديق المخلص عزيز

إن كان أصدقاء المنفعة كثيرا فإن الذي يحبك لفضلك، وتحبه لفضله حبا يبقى ما - بقيت الفضيلة - عزيز المنال.

وهذا الصديق هو الذي حثك الشاعر على التمسك به فقال:

وإذا صفا لك من زمانك واحد

فاشدد عليه وعش بذاك الواحد

وكلما قضى الإنسان مرحلة من عمره في الاعتبار والتجارب ازداد علما بأن أصدقاء الفضيلة لا تسمح بهم الأيام إلا قليلا.

وإذا بدا لك أن أصدقاءك في وقت الشباب أكثر من أصدقائك وأنت شيخ؛ فإن الشاب مقبل على الحياة في شيء كبير من النشاط والارتياح؛ فيكون أسرع إلى اتخاذ الأصدقاء من الشيخ الذي ترك طول السنين في عظامه فتورا، وأبقت الحوادث في صدره ضيقا.

وإن شئت فقل: إن الشباب لم يزل على الفطرة، فيقيم صداقته على الظواهر، ولا يبالغ في نقد الناس مبالغة الشيخ الذي يحمله طول التجارب على أن يتريث في اختيار الأصدقاء.

ويضاف إلى هذا أن الشيخ لا يبلغ السن الذي يبلغه حتى يأخذ الموت من أصدقائه فوجا أو أفواجا.

الإغماض عن عثرات الأصدقاء

يرى الباحثون في طبائع البشر أن ليس فيهم من يتخذ صديقا، ويرجى منه أن يسير على ما يرضي صديقه في كل حال، ودلتهم التجارب على أن الصديق - وإن بلغت صداقته المنتهى - قد يظهر لك من أمره ما لا يلائم



صلة الصداقة؛ فلو أخذت تهجر من إخوانك كل من صدرت منه هفوة لم تلبث أن تفقدهم جميعا، ولا يبقى لك على ظهر الأرض صديق غير نفسك التي بين جنبيك.

معاملة الأصدقاء بالمثل

يذهب بعض الناس إلى أن يسيروا مع الأصدقاء على مثل سيرتهم معهم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وأشار إلى هذا المذهب أبوالقاسم الحريري في مقاماته، بمثل قوله: «بل نتوازن بالمقال وزن المثقال، ونتحاذى في الفعال حذو النعال».

والقول الفصل في هذا أن ما يصدر من الصديق إن كان من قبيل العثرة التي تقع في حال غفلة، أو خطأ في اجتهاد الرأي- فذلك موضع الصفح والتجاوز، ولا ينبغي أن يكون له في نقض الصداقة أثر كثير أو قليل.

أما إن كان عن زهد في الصحبة، وانصراف عن الصداقة، فلك أن تزهد في صحبته، وتقطع النظر عن صداقته.

والتفريط في جانب الصديق ليس بالأمر الذي يستهان به؛ فلا ينبغي الإقدام عليه دون أن تقوم على قصده لقطع المودة بينة واضحة.

عتاب الأصدقاء

لا يخلو الرجل - وهو معرض للغفلة والضرورة والخطأ في الرأي - أن يخل بشيء من واجبات الصداقة؛ فإن كنت على ثقة من صفاء مودة صديقك أقمت له من نفسك عذرا، وسرت في معاملته على أحسن ما تقتضيه الصداقة.

فإن حام في قلبك شبهة أن يكون هذا الإخلال ناشئا عن التهاون بحق الصداقة، فهذا موضع العتاب؛ فالعتاب يستدعي جوابا، فإن اشتمل الجواب على عذر أو اعتراف بالتقصير، فاقبل العذر، وقابل التقصير بصفاء خاطر، وسماحة نفس.

قال أحد الأدباء:

أزور محمدا وإذا التقينا ... تكلمت الضمائر في الصدور

فأرجع لم ألمه ولم يلمني ... وقد رضي الضمير عن الضمير

فإن أكثر صاحبك من الإجحاف بحق الصداقة، ولم تجد له في هذا الإجحاف الكثير عذرا يزيل من نفسك الارتياب في صدق مودته فذلك موضع قول الشاعر:

أقلل عتاب من استربت بوده ... ليست تنال مودة بعتاب

كتم السر عن الأصدقاء

من المعروف أن الإنسان لا يكتم عن أصدقائه سرا يخشى من إفشائه ضررا، وقد يجد الرجل في نفسه شيئا متى شعر بأن صديقه قد كتم عنه بعض ما يعلم من الشؤون.

ومن الأدباء من ذهب في النصح بكتم السر الذي يخشى من إذاعته ضرر إلى حد أن نصح بكتمه حتى عن الأصدقاء.

ووجه هذا الرأي إنما هو الخوف من أن يكون لصديقك صديق لا يكتم عنه حديثا، وإذا انتقل السر إلى صديق لم يؤمن عليه أن يصبح خبرا مذاعا.

والقول الفصل في هذا أن الأمر يرجع إلى قوة ثقتك بصديق الفضيلة، وذكائه، وفهمه قصدك لأن يكون هذا السر في صدره، لا يتجاوزه إلى غيره؛ فإن كان صديقك على هذا المثال فأطلعه على ما في نفسك؛ فإنما أنت وهو روح واحدة، ولكنها في بدنين.

أثر البعد في الصداقة

شأن الصداقة أن تنعقد بين شخصين يقيمان في موطن، وتبقى حافظة المظاهر مادام الصديقان يتمتعان بأنس القرب والتزاور، فإن فرقت الأيام بين داريهما، وبدلتهما بالقرب بعدا، وبالأنس شوقا بقيت الصداقة في قوتها، وإنما يكون للبعد أثر في مظاهرها.

الصداقة صلة بين الشعوب

لا غنى للشعوب أن ترتبط بصلات تجعلها كأمة واحدة، تسير إلى غاية واحدة، وهذه الرابطة تتحقق بالصداقات التي تستوثق بين علمائها وزعمائها الناصحين.

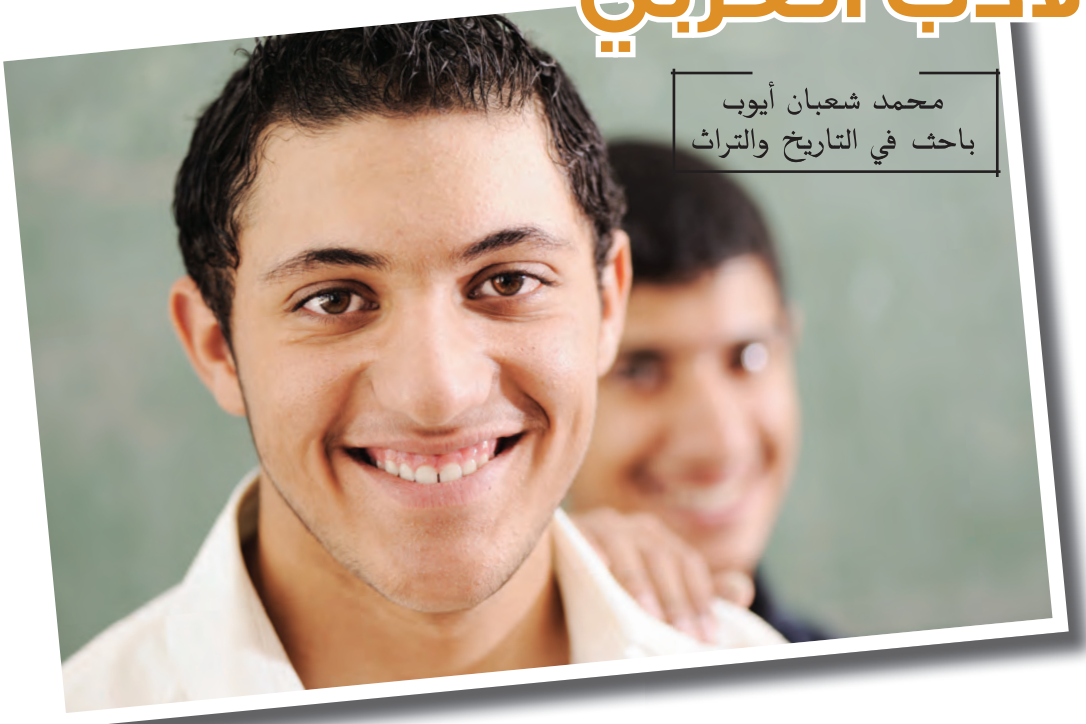
فالصداقة التي تنتظم بين طائفة من علماء الصين وطائفة من علماء المغرب الأقصى مثلا؛ تجعل القطرين في اتحاد أدبي، وللاتحاد الأدبي غايات سامية لا يستهان بها.

وإذا دلنا التاريخ أو المشاهدة على صداقة كانت بين علماء متباعدي الأقطار، ولم تعد على تلك الأقطار بفائدة؛ فإن هذا الزمن يدعونا إلى أن نعمل على تقوية روابط الصداقة بين علماء الشرق والغرب، ونوجه جانبا من هذه الصداقات إلى خدمة المصالح العامة، والتعاون على أسباب السعادة المشتركة في الحياة.

هامش

* انظر المقال كاملا في الجزء الرابع (ص١١٩-١٣٣) من «موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين» شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب، المتوفى سنة (١٣٧٧هـ). والموسوعة من إصدارات مجلة «الوعي الإسلامي»، وتقع في (١٥) مجلدا.

من صور الصداقة في الأدب العربي



محمد شعبان أيوب
باحث في التاريخ والتراث

في تراثنا الأدبي ذخائر تؤرخ للهامش، والهامش في عيون الساسة هم عامة الناس، تبتعد مصنفات الأدب عن جمود القصور وحياة الساسة، وإن كانت بين الخلفاء والسلاطين، فتقترب من الوجدان والمشاعر، وتستعرض تهامس الأحباب، وتسامر الخلان، وتسابق الأدباء.

وفي بحثنا في هذا الباب «الصداقة والصديق» قد هالنا ما وجدناه في عيون الأدب العربي من مادة تصلح لأن تكون مؤلفا كبيرا؛ نظرا لضخامة ما رأيناه من مادة، وكثرة ما استظرفناه واستطرفناه واستغربناه في هذا التجوال البديع، ولأهمية هذا التنوع فإننا نقف مع أربعة مصنفات، نستعرض بعض ما فيها حول هذا الأمر في عجالة المضطر، واضطرار المتعجل!

«أدب الكتاب» للصولي

كان محمد بن يحيى الصولي (ت٣٣٥هـ) من أكابر أرباب الأدب في عصره، ولهذه المكانة التي تمتع بها، فقد نادم ثلاثة من خلفاء بني العباس، وهم الراضي والمكتفي والمقتدر، والنديم رجل من حاشية الخلفاء لا يستغنى عنه في مجالسهم، لإلمامه بالشعر والأدب وطريف الأخبار مما كان يحب الخلفاء أن يسمعوه في ذلك العصر.

وقد ألف الصولي كتابه «أدب الكتاب» في عصر الخليفة الراضي بالله (ت٣٢٩هـ)؛ فقسمه على ثلاثة أجزاء.

وفي الجزء المخصص لمكاتبة الإخوان يستعرض الصولي نماذج مما كان في عصره في القرنين الثالث والرابع الهجريين بين الإخوان، وهو في هذا الباب يجمع كل ما قيل في

هذه العلاقة بين الأصدقاء من قول مستطرف، وشعر مستظرف؛ مع التزامه بمنهج الرواية في عصره، بسرد سلسلة السند كاملة في بعض الأحيان، فمثلا يقول: «حدثنا أبوالعيناء قال: حدثنا الأصمعي قال: قال هشام: قد مرت لذات الدنيا كلها على يدي وفعلي، فما رأيت ألذ من محادثة صديق ألقى التحفظ بيني وبينه» (١). وهكذا في بقية هذا الباب.

«التمثيل والمحاضرة» للثعالبي

اشتهر الثعالبي (ت٤٢٩هـ) بجاحظ نيسابور لنبوغه في الأدب العربي، فإذا كان الجاحظ أبوعثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ) صاحب التصانيف الأدبية البديعة هو درة الأدب العربي في القرن الثالث الهجري؛ فإن الثعالبي عبدالملك بن محمد بن إسماعيل من أبرز من نبغوا وأبدعوا في هذه الصناعة حتى وصف بجاحظ نيسابور.

وكتابه «التمثيل والمحاضرة» من عيون كتب الأمثال في الأدب العربي، وقد تفنن الثعالبي في تبويبها ودراستها، وتناولها من أوجه مختلفة، امتازت بالتبويب البارع الذي أخضع له منهج الكتاب فأبعده عن النسق المعجمي لكتب الأمثال (٢).

وفي الفصل الرابع من كتابه هذا وعنوانه «في سائر الفنون والأغراض» أفرد عنوانا مستقلا للأمثال التي تم تداولها من قبله وحتى عصره عن الصداقة والإخاء معنونة بـ«الإخوة والأصدقاء والمودة وما يتصل بها» نستعرض نتفا منها، فيقول: «العرب: أخوك من صدقك لا من صدقك. من اتخذ إخوانا كانوا له أعوانا. عمرو ابن العاص رضي الله عنه: من كثر إخوانه كثر غرماؤه. المغيرة: التارك للإخوان متروك» (٣). وينقل في موضع آخر من الباب عن ابن المعتز العباسي الشاعر (ت٢٩٦هـ) قوله: «إنما سمي الصديق صديقا لصدقه لك؛ والعدو عدوا لعدوانه عليك، لو ظفر بك. إخوان السوء كشجرة النار يحرق بعضها بعضا. علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب، ولا يبتدئ بالكتاب. لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له. إذا كثرت ذنوب الصديق تمحق السرور به، وتسلطت التهم عليه. من لم يقدم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأنس، أثمرت مودته ندما» (٤).

«التذكرة الحمدونية» لابن حمدون

يعود نسب محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون (ت٥٦٢هـ) إلى الحمدانيين من بني تغلب الذين حكموا شمال بلاد الشام في حلب وما جاورها في القرن الرابع الهجري، وقد كان هو ووالده وابنه من بعده ممن عملوا في وظائف مختلفة في الدواوين العباسية في بغداد، وفي جهازها الإداري بصفة خاصة، وكان للكاتب في ذلك الزمن مكانة كبيرة، ولهذه المكانة فقد ترقت الأحوال بابن حمدون حتى وصل إلى مرتبة الوزير، فلم يلبث أن يهنأ بها بسبب وشاية الوشاة والحساد.

في هذه الموسوعة التي عكف على إخراجها وتحقيقها العلامة المؤرخ إحسان عباس، يخصص ابن حمدون الباب الحادي والعشرين عن «المودة والإخاء والمعاشرة والاستزارة» وهو باب لطيف يقع في أربعين صفحة تقريبا، من المجلد الرابع من الكتاب.

يستفتح ابن حمدون هذا الباب فيقول: المودة والإخاء سبب للتآلف، والتآلف سبب القوة، والقوة حصن منيع وركن شديد، بها يمنع الضيم، ويدرك الوتر، وتنال الرغائب، وتنجح المطالب. وقد امتن الله -عزوجل- على قوم وذكرهم نعمته عندهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء، وردها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ (آل عمران:١٠٣) (٥).

فهو ينوع بين النقولات المتعددة من بين أقوال النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومشاهير الأدباء والناس، فهو ينقل: «قيل لابن السماك: أي الإخوان أخلق ببقاء المودة؟ فقال: الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملك على القرب، ولا ينساك على البعد، إن دنوت منه راعاك، وإن بعدت عنه اشتاقك، لا يقطعه عنك عسر ولا يسر، إن استعنته عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله، يستقل كثير المعروف من نفسه، ويستكثر قليل المودة من صاحبه» (٦). وينقل في موضع آخر قول أبي الأسود الدؤلي في صديق له فسد ما بينهما:

بليت بصاحب إن أدن شبرا
يزدني في تباعده ذراعا
أبت نفسي له إلا اتباعا
وتأبى نفسه إلا امتناعا
كلانا جاهد؛ أدنو وينأى
فذلك ما استطعت وما استطاعا (٧).

الهوامش

١- الصولي: أدب الكتاب، تحقيق محمد بهجة الأثري ص٢٣٧. المكتبة السلفية، مصر، ١٣٤١هـ.
٢- موقع الوراق على الشبكة العنكبوتية.
٣- الثعالبي: التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبدالفتاح الحلو ص٤٦١-٤٦٣. الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.
٤- الثعالبي: التمثيل والمحاضرة ص ٤٦٤.
٥- ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس ٣٥٠/٤. دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٧هـ.
٦- ابن حمدون: التذكرة ٣٧٧/٤.
٧- ابن حمدون: التذكرة ٣٧٣/٤.



أخلاق الصديق عند ابن المقفع

د. محمد المشطاوي
باحث بالمركز العالمي للوسطية

لا يخلو الإنسان من أن يكون صديقا لأحد، أو يكون غيره صديقا له.. وفي كلا الحالين يسأل نفسه عما حببه في صديقه أو أحبه فيه، أو ما ينبغي أن يفعله للمحافظة على صداقته، وكيف يتخلق الجميع بأخلاق المودة والجميل.

ولقد كان لحديث عبدالله بن المقفع عن الصداقة والصديق أهمية كبرى؛ إذ الصديق الصالح «يدل على الخير، ويشير بالنصح» (١)، وأخلاقه تعدي؛ وهل هناك من لا يحتاج إلى دلالة على خير أو إشارة بنصح، ومن ثم فقد اهتم ابن المقفع بالحديث عن الصديق وخلقه وكيفية اختياره.

ابن المقفع

اسمه عبدالله بن المقفع. كان مولد ابن المقفع في بلدة جور من بلاد فارس، ثم انتقل مع والده إلى البصرة إحدى حواضر الدولة الإسلامية في عصره وأزهاها، وفي جور كما في البصرة كان صاحبنا مهتما بالعلم والثقافة. تضلع بالفارسية في جور موطن نشأته، وبالعربية في البصرة التي التقى فيها بالفصحاء والبلغاء والأعراب، وكانت هي لغة الثقافة والحضارة آنئذ.

عاصر ابن المقفع الدولة الأموية في نهايتها، وكذلك نشأة الدولة العباسية وبداية عهدها، واشتغل بالكتابة لرجالات الدولتين، وأسلم على يد أحدهم، وهو عيسى بن علي بن عبدالله ابن عباس، وهو عم الخليفة العباسي السفاح، وتوفي مقتولا عن ست وثلاثين سنة، كما ذكر مترجموه، سنة اثنتين وأربعين ومائة من الهجرة (٢).

ويكاد يكون هناك إجماع على براعة ابن المقفع وتفرده أدبيا، وذكائه الفذ؛ فقد قال «محمد بن سلام: سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع» (٣). وعلى الرغم من أن القائل عد ابن المقفع عجميا، فقد فاته أنه خدم العربية بأفضل ما يخدمها به أبر أبنائها، وأن العربية عربية اللسان، فابن المقفع إن لم يكن عربي الأصل فهو عربي التكوين والإبداع.

صاحب ذا الدين

يقول مختصو التربية إن الطبع لص، وهذا ما يحدث مع الصديق الذي ننقل من أخلاقه ونسرق دون أن نشعر، ولذلك دعا ابن المقفع إلى حسن اختيار الصديق، وحدد صفاته التي يجب علينا مراعاتها حال اختياره.

يقول: «إذا نظرت حال من ترتئيه لإخائك، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيها؛ ليس بمراء ولا حريص، وإن كان من إخوان الدنيا؛ فليكن حرا ليس بجاهل ولا كذاب، ولا شرير ولا مشنوع، فإن الجاهل أهل لأن يهرب منه أبواه، وإن الكذاب لا يكون أخا صادقا، لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو فضل كذب قلبه، وإنما سمي الصديق من الصدق. وقد يتهم صدق القلب، وإن صدق اللسان، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان، وإن الشرير يكسبك العدو، ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة، وإن المشنوع شانع صاحبه» (٤).

انظر كيف نفى عن المتدين خلائق سيئة بمجرد دينه وتدينه، ولم يبق من الخلائق السيئة فيه إلا الحرص والمراء، وهي صفات كمال لا صفات دنية وشناعة. أما إذا كانت صداقته مبنية على مصالح دنيوية فإنك حري بأن يكون صديقك صاحب أخلاق فاضلة، على رأسها الصدق. ولعلك

لاحظت كيف علل لاختيار الصفات؛ وذلك أدعى في قبول قوله.

وعامة فعلى المصاحب «العاقل أن لا يخادن ولا يصاحب ولا يجاور من الناس ما استطاع إلا ذا فضل في الدين والعلم والأخلاق، فيأخذ عنه، أو موافقا له على إصلاح ذلك، فيؤيد ما عنده وإن لم يكن له عليه فضل؛ فإن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمى إلا بالموافقين والمهذبين والمؤيدين، وليس لذي الفضل قريب ولا حميم أقرب إليه ممن وافقه على صالح الخصال فزاده وثبته، ولذلك زعم بعض الأولين أن صحبة بليد نشأ مع العلماء أحب إليهم من صحبة لبيب نشأ مع الجهال» (٥).

ولعلك لاحظت كيف قسم المصاحبين إلى نوعين: نوع يفوقك دينا وخلقا، فهذا يعديك، ونوع آخر تتوافق معه على إصلاح ما في نفسيكما من قصور وتتعاونان في ذلك.

ويدعونا ابن المقفع إلى أن نتعرف «أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة فيكونوا هم إخوانك وأعوانك وبطانتك وثقاتك» (٦)، وأن الفخر الحقيقي للمرء هو إكرامه بسبب دينه ومروءته لا ماله وجاهه، يقول: «إذا أكرمت على دين أو مروءة فذلك فليعجبك؛ فإن المروءة لا تزايلك في الدنيا، وإن الدين لا يزايلك في الآخرة» (٧). فانظر رحمك الله إلى مقام الدين لدى من تصاحب، إذ «الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله إلى خلقه، وأعظمها منفعة وأحمدها في كل حكمة، فقد بلغ فضل الدين والحكمة أن مدحا على ألسنة الجهال على جهالتهم بهما وعماهم عنهما» (٨)، و«فضل العلم في غير الدين مهلكة، وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قائد إلى النار... والعقل غير الوازع عن الذنوب خازن الشيطان» (٩).

اصحب ذا العقل الكريم

ومن أهم صفات الصاحب الحسن عقله، يقول ابن المقفع: «الزم ذا العقل وذا الكرم، واسترسل إليهما، وإياك ومفارقتهما؛ واصحب الصاحب إذا كان عاقلا كريما أو عاقلا غير كريم؛ فالعاقل الكريم كامل، والعاقل غير الكريم اصحبه، وإن كان غير محمود الخليقة، واحذر من سوء أخلاقه وانتفع بعقله، والكريم غير العاقل، الزمه ولا تدع مواصلته، وإن كنت لا تحمد عقله، وانتفع بكرمه، وانفعه بعقلك؛ والفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق» (١٠).

وصاحب العقل الحسن لا يغفل عن آخرته؛ إذ «لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجد من لذة دنياه، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها» (١١).

وإجمالا فإن «العقل بإذن الله هو الذي يحرز الحظ، ويؤنس الغربة، وينفي الفاقة، ويعرف النكرة، ويثمر المكسبة، ويطيب الثمرة، ويوجه السوقة عند السلطان، ويستنزل للسلطان نصيحة السوقة، ويكسب الصديق، ويكفي العدو» (١٢)، ومن حرم العقل فهو فاقة؛ إذ «أشد الفاقة عدم العقل» (١٣)، و«المروءات كلها تبع للعقل... أصل العقل التثبت وثمرته السلامة» (١٤).

الزم ذا المروءة.. وابذل له

إن الإنسان لا يخلو في تعامله من أن يعامل صديقا، أو أحدا يعرفه، أو شخصا لا يعرفه، أو عدوا يشنؤه، فكيف نعامل كل صنف؟ أما الصديق فـ«ابذل لصديقك دمك، ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك وتحننك، ولعدوك عدلك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد» (١٥)، وابذل لكل بكرم وإفضال «فمن عاش ذا مال وكان ذا فضل وإفضال على أهله وإخوانه فهو – وإن قل عمره – طويل العمر، ومن كان في عيشه ضيق وقلة وإمساك على نفسه وذويه فالمقبور أحيا منه، ومن عمل لبطنه وقنع وترك ما سوى ذلك عد من البهائم» (١٦).

صاحب الجميع بمروءة

إذا كان الإنسان كائنا اجتماعيا فعليه أن يعامل الناس برقي، ليتم الأنس بين الجميع، وليكون الإنسان مقبولا اجتماعيا، محبوبا لدى الناس والأصدقاء، لذا «إن سمعت من صاحبك كلاما أو رأيت منه رأيا يعجبك فلا تنتحله تزينا به عند الناس، واكتف من التزين بأن تجتني الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه، واعلم أن انتحالك ذلك مسخطة لصاحبك، وأن فيه مع ذلك عارا وسخفا، فإن بلغ بك ذلك أن تشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع جمعت مع الظلم قلة الحياء، وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس، ومن تمام حسن الخلق والأدب في هذا الباب أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك وتنسب إليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك ما استطعت» (١٧).

أما إذا صاحبت العلماء فعليك أن تحرص على ألا تتقدمهم بكلام: «لتعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول» (١٨).

الهوامش

١- آثار ابن المقفع: ٦١-٦٢ (كليلة ودمنة)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٢- ينظر في ترجمته: كتاب الوزراء والكتاب: ٧٥-٧٦، الفهرست: ص: ١٧٢، وفيات الأعيان: ٢/١٥١-١٥٧، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ٩/١٩٨-٢٠٠، سير أعلام النبلاء: ٦/٢٠٨-٢٠٩، الأعلام: ٤/١٤٠، أمراء البيان: ٩٩-١٥٨، ابن المقفع أديب العقل: ٥-١٤، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية.. دراسات لكبار المستشرقين (التراجم الأرسطاطالية المنسوبة إلى ابن المقفع للأستاذ بول كروس): ١٠١-١٢٠.

٣- المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ٢/٣٤٤.

٤- آثار ابن المقفع: ٢٦٦ (الأدب الكبير).

٥- آثار ابن المقفع: ٢٨٧ (الأدب الصغير).

٦- آثار ابن المقفع: ٢٤٨ (الأدب الكبير).

٧- آثار ابن المقفع: ٢٧٤ (الأدب الكبير).

٨- آثار ابن المقفع: ٢٩٣ (الأدب الصغير).

٩- آثار ابن المقفع: ٣٠٢ (الأدب الصغير).

١٠- آثار ابن المقفع: ١١٦ (كليلة ودمنة).

١١- آثار ابن المقفع: ٣٠٠ (الأدب الصغير).

١٢- آثار ابن المقفع: ٢٩١ (الأدب الصغير).

١٣- آثار ابن المقفع: ٢٩١ (الأدب الصغير).

١٤- آثار ابن المقفع: ٢٩٩ (الأدب الصغير).

١٥- آثار ابن المقفع: ٢٦٢ (الأدب الكبير).

١٦- آثار ابن المقفع: ٧٥-٧٦ (كليلة ودمنة).

١٧- آثار ابن المقفع: ٢٦٢-٢٦٣ (الأدب الكبير).

١٨- آثار ابن المقفع: ٢٦٣ (الأدب الكبير).

الصاحب: مِنْ فَهْمِ الذات.. لتأسيس المجتمعات

د. هبة رءوف عزت
أستاذة جامعية - مصر

سؤال الصداقة لا ينفك عن سؤال السياسة، فهو سؤال في الطبيعة البشرية وسؤال في الخصال والشيم والأخلاق، وهو في جوهره سؤال عن منطق الاجتماع وغايته، وعلاقة الفرد بالمحيط الإنساني ودوائره، وكيف يمارس الإنسان وجوده من خلال بناء علاقة مع الآخرين لا تقوم على رابطة الرحم والدم.

والمتدبر في تاريخ الفكر السياسي يجد أن الصداقة كانت دوما عنصرا مركزيا في تصور المجتمع الفاضل، فالقانون وحده لا يبني الثقة المجتمعية التي لا تحيا المجتمعات الإنسانية إلا بها، ورابطة الدم وحدها لا تكفي لضمان العدالة، ولم تخل فلسفة سياسية من تصور للصداقة منذ تحدث عنها أرسطو في كتاب القيم كأساس متين لعلاقة الأفراد، يمثل الأساس الذي تتبنى عليه علاقة المواطنة، ثم اليهودية التي تعتبر دائرة القيم داخل الشعب المختار في حين للتعامل مع الأغيار منظومة قيم مختلفة، مرورا بالتصور المسيحي في فكر أوغسطين الذي يعتبر الأخوة المسيحية ورابطة العقيدة أساسا لتزكية النفس وفهم الذات، وتوما الاكويني الذي يذهب إلى أن معيار «الخيرية» هو العطاء، واعتبار الآخرين نظراء في البشرية.

ولكن صعود الحداثة وصعود الأيديولوجيات في القرون الخمسة الأخيرة قدم تصورات عن الاجتماع والاقتصاد والسياسة، جعلت المصلحة والمنفعة معيار التواصل والتفاعل الإنساني وليس التوافق والألفة، وتغيرت بناء على ذلك منظومة العلاقات الاجتماعية، بل والسكانية بنمو المدن التجارية، وصارت العقلانية معيار علاقة الإنسان بالآخرين وبالتساكن والارتباط برباط سياسي. العقلانية وليس العاطفية إذ أطاحت بمركزية الصداقة بكل ما تحمله من معان والتي تأسست على رابط العقيدة (دينية أم ثقافية)، أو الجيرة، أو الوفاء للذكريات المشتركة التي تقوم على الاختيار المحض والميل القلبي حتى حين تقف على أرضية روابط القبيلة أو الدم، وحل محلها علاقة «المواطنة» القانونية مع الدولة، وعلاقة التعاقد مع المجتمع (العقد الاجتماعي)، وعلاقات المنفعة في الاقتصاد، وأصبحت نظرية «الخيار الرشيد» التي تعتبر الإنسان كائنا يبحث عن تعظيم المنفعة الفردية هي الحاكمة، ويقابلها في الماركسية نظريات الصراع بين الطبقات والتنافس على القوة والمال، فتمت «علمنة» العلاقات الوجدانية كالصداقة، فضلا عن تجفيف مواردها بفضل المؤسسية التي صارت وعاءً للعلاقات، فمن يشارك بناية السكن ليس «الجار» بل هو الساكن، ومن يشارك مكان العمل هو زميل عمل، ومن يشارك المهنة عضو في نقابة، ومن يشارك المال مساهم في نفس الشركة- وهكذا.

ولكن حتى هذه الأفكار في تجليها الذي قلص من الروابط التي تقوم على المودة خارج المصلحة المادية لم تستطع أن تحل أزمة الثقة بين الأفراد و«فطرة الائتناس» التي فطر الله الناس عليها، فنجد في هوامش نظريات الحداثة مفهوم الإنسانية والخير العام، وتظهر بعد عقود طويلة في نظريات المواطنة فكرة سياسات التعاطف والرعاية، ونجد آثار ذلك في الفكر الماركسي مفهوم الرفاق وما يحيط به من معاني الترابط على غايات الماركسية ومقاومة المظالم لأن روابط القرابة



والقبيلة والدين في الماركسية كلها بِنى هيراركية.

إنما المؤمنون أخوة

وضع الرسول ﷺ أسس الحب بين المسلمين منذ أن آخى بين المسلمين فى مكة، وبين المهاجرين والأنصار في المدينة، ولأنه سيصلح بهم المجتمع بل الدنيا بأسرها فكان لا بد من آداب تحكم علاقاتهم وأخلاق تؤسس لتلك الرابطة. منها على سبيل المثال وليس الحصر كما ينص الكتاب وتبين وقائع السيرة: الإيثار- التناجي بالبر والتقوى وترك سوء الظن- الحب الخالص بغير استعلاء بنسب أو لون - عدم السخرية من أحد- ترك التنازع، وغيرها. ولاشك أن نموذج المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بالمدينة، خلق رباطا جديدا بين الأصحاب وصل إلى رباط النسب وأحيانا زاد عليه، وجعل التنافس في حسن الخلق والبذل والتناصر يصل إلى اقتسام المال والمسكن وترك مفهوم المنفعة المادية خارج علاقة الصداقة بالكلية وهو ما كان المقدمة لدستور يؤسس لعلاقة قانونية لا تتنكر للقبيلة وعرى القرابة التي وضع لها التشريع أحكاما وموازين دقيقة، لكنه جعل الرابطة الإيمانية مرتكزا أخلاقيا وعضويا ولحمة قلبية وطيدة تجمع المؤمنين في الدنيا وفي ظل العرش يوم القيامة.

واستمر الرسول ﷺ فى حياته يقوي هذا الرباط ويوصي به، ويجعله شرطا لبناء مجتمع السعادة في الدنيا وبابا للجنة في الآخرة.

الرسول ﷺ.. وأصاحبه رضي الله عنهم

لم يكن من قبيل الصدفة أن يسمى الرعيل الأول للدعوة بالصحابة، فالصحبة على طريق الإيمان بما تحمله من منزلة للصحابي في دائرة الرسول ﷺ، وبذل وتضحية و«ذلة» بين المؤمنين بعضهم البعض مقابل عزة على الكافرين، ثم ترتيب المنازل بدرجة السبق والبذل للدعوة: أهل بدر ثم من يليهم- يوضح معنى الصحبة وآدابها، كان سلوك الرسول صلوات الله وسلامه عليه هديا راقيا فى هذا المجال. فهو يتحدث عن أصدقائه أروع حديث ويضرب لنا المثل فى طيب الصحبة وصفاء الود، ومثال العلاقة بينه وبين أبي بكر الصِديق والصَديق نموذج فريد من المحبة والتصديق والمنزلة والحب.

وكان الرسول ﷺ من أكثر الناس عرفانا بالفضل، فكان يوصي بالأنصار ويدعو لهم، ويذكر أنهم فتحوا له ولأصحابه قلوبهم وبيوتهم،

وكانوا خير رفقة للمهاجرين، وفي آخر خطبة يقول ﷺ: «استوصوا بالأنصار خيرا، وكان يدعو لنسائهم».

وكان رسول الله ﷺ يتفقد أصحابه جميعا حتى أن أحدا منهم لم يكن يظن أن هناك من هو أكرم منه عند رسول الله ﷺ، وكان إذا جلس إلى أصحابه صبر حتى ينصرف عنه أصحابه، وكان يجيب من دعاه إلى داره، ويقبل الهدية، ويزور أصحابه، ويتعرف أحوالهم،ويعود مرضاهم،ويلاعب صبيانهم، وكان إذا جادلهم منه أحد صبر له، وما أخذ أحدٌ بيده إلا استبقاها الرسول ﷺ حتى يرسلها صاحبه، وكان ينادي الناس بأحب أسمائهم إليهم، ويُكنّيهم تكريما لهم.

وكان يتمثل في رسول الله ﷺ خلق الإيثار بأسمى درجاته، فلم يُعرف عنه قط أنه خص نفسه بشيء. وكان صلوات الله وسلامه عليه يدعو لحسن الخلق حتى في البيع والشراء كي لا تفسد المصالح والمنفعة منازل المودة والحب ورباط التقوى والتناصر، فرحم الله رجلا سمحا إذا باع، ورحم الله من يتصدق بدين له عند أخيه.

وكان ﷺ يحب الدعابة، ويبتسم لها، ويرى أنها تخفيف عن النفس من مشكلات الحياة، وينشر السرور والأمل.

من الصاحب بالجنب.. للتمدن الإسلامي

في تفسير الصاحب بالجنب أنه الزوجة، وفي أعلى منازل الفضائل تأتي الوصية بالجار. صحبة المعاشرة وصحبة السكن والجوار أعظم ركائز الأخلاق في التصور الإسلامي، لأنه أعمدة الرابطة الأخلاقية ذروة سنام الفضائل والشيم، ومن اللافت للتأمل أنها تعبر حدود الرابطة الإيمانية في التشريع، فالمسلم قد يتزوج الكتابية لا ينقص ذلك من حقوقها كزوجة، ورسول الله ﷺ أوصى بالجار وكان بارا به محسنا له حتى وإن خالفه في الدين، لا ينقص ذلك من حسن خلقه معه شيئا.

في دائرتي الأسرة والجيرة تتأسس مقومات المجتمع، وفي صلة الرحم ورعاية الأنساب في المواريث تتكرس شبكة الروابط، وما فلسفة المواريث وما يقترن بها من مسؤوليات الولاية وإشارات القسمة والفضل إلا تقديم للمعاني النبيلة على النوازع الأصيلة في النفس من حب التملك والأَثَرة، وقد أدرك الفقيه ذلك كما أدركه القاضي عبر تاريخ الإسلام كله.

لا يمكن في التصور الإسلامي فهم منطق التشريع إلا بالوعي بالمعنى الأخلاقي المركزي وبالمآل المدني لتلك الأحكام.

ليست الصداقة والصحبة والمؤاخاة إذن إلا لَبِنات في صرح أكبر هو صرح التمدن الإسلامي القائم على بناء «صرح الروح» كما وصفه فريد الأنصاري رحمه الله. وتصور المجتمع ثم السلطة والحكم والسياسة لا ينفك عن معاني الأخوة وصلة الرحم والقربى وطبيعة النسق الأخلاقي للجماعة، سلما.. وجهادا.

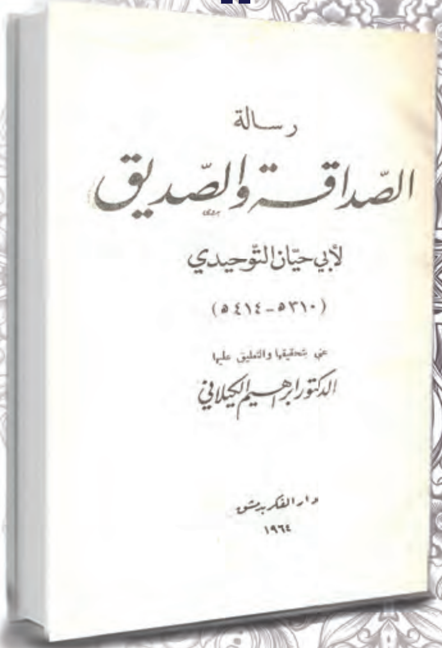
والناظر في كتابات المجتمع المدني ومدنية المجتمع في العلوم الاجتماعية اليوم وفي التراث الفلسفي الإنساني سيجد تفردا وتمايزا لتلك المعاني في التصور الإسلامي، ومعمارا متماسكا من الشمائل والحقوق تبدأ بالصحبة والصداقة وتمتد للأسرة والجيرة وتنتشر في الجماعة والأمة ثم تعلو لتصل للإنسانية والعالم دفاعا عن القيم، بل ونصرة للمستضعف لتثبيت أركان العدل في تصور للبشرية والإنسانية يدور مع الصلاح والمصالح في موازين بين الذاتي والجماعي والمجتمعي والعالم.

لا يمكن فهم فلسفة الأخوة إذن إلا في تصور أوسع للإنسان، وإدراك أعمق لطبيعة المنفعة والمصلحة، وميزان دقيق بين الدنيا والآخرة، فلا يوجد في عقيدة ما يوليه الإسلام لذكر الآخرة وارتباط السعي في الدنيا بالسعي للآخرة، وهذا المعنى حين يغيب في فلسفات الحداثة وما بعدها يتم نقض عرى الإيمان ذاته.

فالصف في الصلاة، والصف في القتال، والرابطة الممتدة والدوائر المتشابكة تعكس معمارا للتصور الإسلامي لا يمكن فصم مبانيه ومعانيه عن مقاصده وغاياته ومآلاته.

من هنا فإن فهم معنى الأخوة والصداقة والصحبة في الإسلام تأسيس ومسار تاريخي، ثم انفكاك وانحدار حضاري، ثم استعادة ونهوض، من أهم ملامح التقدم التي نؤسس عليها رؤيتنا للمستقبل الذي ننشده والعالم الذي نصبوا إليه.

من «الصداقة والصديق».. لأبي حيان التوحيدي



علاء عبدالفتاح

الكتاب يعد من ذخائر العرب الغالية. وفيه تظهر مقدرة أبي حيان، ومنزلته في الأدب والتاريخ. شرع في تأليفه كما صرح سنة (٣٧١هـ) بطلب من ابن سعدان، قبل أن يلي الوزارة. وتركه في مسوداته، إلى أن وجد الفرصة لتبييضه في رجب سنة (٤٠٠هـ). وكان صديقه زيد بن رفاعة كبير إخوان الصفاء سبب تأليف الكتاب. وجمع فيه ما استحسنه من الأخبار والأشعار التي تتصل بمواضيع الصداقة، أما المؤلف فهو علي بن محمد بن العباس التوحيدي، ولد ببغداد أو شيراز أو نيسابور حوالي سنة ٣١٢ هـ ، ودرس ببغداد والبصرة على أساتذة بارزين كأبي سعيد السيرافي وأبي حامد المروزي وآخرين، واتصل في شبابه بالوزير المهلبي ثم بابن العميد والصاحب بن عباد وغيرهم، وقام أبوحيان بمهمة النسخ لدى الوزراء وكان يمقتها ويعدها دون مستواه الفكري.

واعتزل التوحيدي في أواخر حياته عن الناس حتى عمد إلى إحراق كتبه، وقال إن الذين ألفها بناء على طلبهم، لم ير منهم حفظا للعهد، بالرغم من طول صحبته لهم، ولحسن الحظ، فإن نسخا من بعض كتبه كانت قد انتشرت قبل الإحراق.

وقيل إنه توفي سنة ٤١٤هـ بشيراز بعد أن امتدت حياته أكثر من قرن.

وقد امتاز القرن الرابع في ميدان الفكر بالثقافة الموسوعية التي كانت مقياسا لرجل الأدب والعلم على السواء، وتأثر أبوحيان بعصره فوسع دراسته في علوم مختلفة، فكان يتقن الأدب والفلسفة والنحو واللغة والمنطق وعلوما أخرى، وكان مثله الأعلى هو الجاحظ، فكان يشبهه حتى في عيوبه، فلم يشذ عن الأسلوب الأدبي حتى في بعض كتبه الفلسفية كالمقابسات، وكان الجاحظ لا يفتأ يخلط الأدب بالعلم حتى في كتبه العلمية، وهكذا لجأ التوحيدي إلى النوادر، يلقيها في عرضه الفلسفي، وفي رسالته المعنونة بـ «الصداقة والصديق» يتضح الأسلوب الأدبي قبل كل شيء، فموضوع الكتاب: يدور حول أقوال الحكماء والأدباء وغيرهم، في شروط الصديق ومزايا الصداقة وخيانة الأصدقاء وما إلى ذلك.

أما تاريخ تأليفه فكما جاء في خاتمته نفسها حوالي سنة ٤٠٠ هجرية، وكان ذلك بإيعاز من ابن سعدان قبل توليته الوزارة، أي سنة ٣٧١هـ-٩٨١م، بعد مرور ثلاثين سنة على هذه التوصية، وقد كان تأليفه لهذا الكتاب، نتيجة كذلك، للظروف العصيبة التي عاشها الكاتب معظم سني حياته، كما تدل على ذلك

شكواه وتذمره في مختلف كتبه.
وقد كفانا الكاتب مؤونة البحث عن دواعي تأليفه لهذا الكتاب الذي أورد في مقدمته قوله: كان سبب إنشاء هذا الكتاب، أني ذكرت منه شيئا لزيد بن رفاعة أبي الخير، فنماه إلى ابن سعدان أبي عبدالله سنة ٣٧١ هـ قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة، فقال لي ابن سعدان: قال لي عنك زيد كذا وكذا، فقلت: قد كان ذلك، فقال لي: دون هذا الكلام، وصله بصلاته مما يصح عندك ممن تقدم، فإن حديث الصديق حلو، ووصف الصاحب المساعد مطرب، فجمعت ما في هذه الرسالة.
أما الظروف التي تم فيها تأليفه الكتاب، فقد أوضحها أيضا في خاتمة كتابه، حتى إنه اعتذر بكيفية غير مباشرة عما يكتنفه من مظاهر التشاؤم والنكد، ورحم الله زكي مبارك إذ يقول: «ابتدأ هذا الكتاب بزفرة، وانتهى بزفرة».
وقد نشر الكتاب لأول مرة بالقسطنطينية (١٣٠١هـ / ١٨٨٢م)، بمطبعة الجوائب ثم بالقاهرة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م وأخيرا بدمشق، بتحقيق السيد إبراهيم الكيلاني.
وهكذا ابتدأت مقدمة أبي حيان في «الصداقة والصديق»:
«بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا، واستر علينا فقد أعوزنا، وارزقنا الألفة التي بها تصلح القلوب، وتتقي الجيوب حتى تتعيش في هذه الدار مصطلحين على خير مؤثرين للتقوى، عاملين شرائط الدين، آخذين بأطراف المروءة، آنفين من ملابسة ما يقدح في ذات البين، متزودين للعاقبة التي لابد من الشخوص إليها، ولا محيد عن الاطلاع عليها، إنك تؤتي من تشاء ما تشاء.
سمع مني في وقت بمدينة السلام كلام في الصداقة والعشرة، والألفة، وما يلحق بها من الدعاية والحفاظ، والوفاء والمساعدة، والنصيحة والبذل والمواساة، والجود والتكرم، مما قد ارتفع رسمه بين الناس، وعفا أكثره بين العام والخاص، وسئلت إثباته ففعلت، ووصلت ذلك بجملة مما قاله أهل الفضل والحكمة، وأصحاب الديانة والمروءة، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها وينتفع بها في المعاش والمعاد».
ثم يتحدث أبوحيان عن تجربة شيخه أبي سليمان السجستاني في حياة الصداقة السامية التي عاشها مع صديقه القاضي ابن سيار، ووقف طويلا على العداوة السامية أيضا التي عرفت بين القاضي أبي حامد المروزي وابن حروبة، وكيف استمرا على الجفاء أربعين سنة، من غير فحاشة ولا شناعة، وكيف كان كل منهما يثني على الآخر، مع ما بينهما من نبو لا ينادى وليده، وتعاد لا يلين شديده. واحتفظ في الكتاب بعشرات المراسلات بين معاصريه، وما عثر عليه من بديع مراسلات القدماء في الحنين إلى الأصدقاء.
كما يخاطب المهدي إليه شاكيا سوء حاله فيقول:
«إنا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ والكمد والومد، وذلك لعلمك بحالي، واطلاعك على دخيلتي واستمراري على هذا الإنفاض والعوز، اللذين نقضا قوتي، ونكثا مرتي وأفسدا حياتي، وقر تأني الأسى، وحجباني عن الأسى، لأني فقدت كل مؤنس وصاحب، ومرفق ومشفق.. والله لربما صليت في الجامع، فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقال أو عطار أو نداف أو قصاب».
أما طريقة العرض فيمكن القول عنها: إنه ليس لأبي حيان طريقة منظمة في العرض، إذ لا توجد عناوين ولا مواد مستقل بعضها عن بعض، لكنه ينتقل من فكرة إلى حكمة، ومن موضوع في الصداقة إلى آخر بعيد عنها، وحينما يشعر بأنه أطال في موضوع الصداقة الذي لم يسبق أن أطال فيه غيره، يعتذر عن ذلك، كما يعبر عن آلامه النفسية مباشرة أو على لسان غيره.
ولا تخلو الرسالة من روح الفكاهة والسخرية التي طبعت قسما مهما من أدب أبي حيان، ولو أن فكاهته لا تمثل روحا مرحة طبيعية، بل هو ينفس عن كربته بنفسه، متلذذا بالتهكم على أشخاص آخرين، فكان بحق، مصابا بمرض السادية المعروف عند علماء النفس.
وتكثر في الرسالة الاستشهادات حول موضوع الهجران وما يحدثه من آلام نفسية في الأصدقاء المهجورين، فيتمثل بقول شاعر:

أشكو إلى الله جفاء امرئ
ما كان بالجافي ولا بالملول
كان وصولا دائما عهده
خير الأخلاء الكريم الوصول

ويروي كذلك:

ما لي جفيت وكنت لا أُجفى
ودلائل الهجران لا تخفى
ما لي أراك نسيتني بطرا
ولقد عهدتك تذكر الإلفا

إن الخيانة علة تعدي

ويلاحظ أن أبا حيان يقدم عناصر رسالته بأسلوب شيق، فيه حسن التصوير، وعدم التصنع والموازنة بين اللفظ والمعنى، خلافا لمعظم الكتاب من معاصريه الذين كانت معانيهم محدودة، وألفاظهم للمعنى الواحد لا يحدها حصر.
ومن السهل أن نميز بين أسلوبه الخاص وأسلوب غيره، فما رواه عن أساتذته أو مناظريه أو رفقائه كله من أسلوبه، والباقي يمكن تمييزه باعتبار الزمن ومما ينسبه إلى قائله.
ولم يكد أبوحيان يترك شاذة ولا فاذة لم يتناولها في رسالته حول الصداقة، فقد تكلم في مزايا الأصدقاء وعيوبهم، وفي القطيعة والهجران، وحفظ العهد وتضحية الأصدقاء، وفي العداوة ومكر الأعداء، وفي النفاق والتزاور بين الأصدقاء،

والحنين وخيبة الفراق وما إلى ذلك.
قال بعضهم:

أنتم سروري وأنتم مشتكى حزني
وأنتم في سواد الليل سماري
أنتم وإن بعدت عنا منازلكم
نوازل بين أسراري وتذكاري
فإن تكلمت لم ألفظ بغيركم
وإن سكت فأنتم عقد إضماري
الله جاركم مما أحاذره
فيكم وحبي لكم من هجركم جاري

وفي العهد الأموي نجد ابن المقفع يتحدث كثيرا في الموضوع، في كل من الأدب الكبير والأدب الصغير، ثم كثر عدد الشعراء والكتاب الذين تناولوه في العصر العباسي من غير أن يخصصوه بكتاب مستقل، قبل ظهور رسالة التوحيدي هذه، ومن شعر بشار قوله:

فعش واحدا أو صل أخاك فإنه
مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وفي العصر العباسي توسع موضوع الإخوانيات التي لها ارتباط وثيق بالصداقة.

وشؤون الصداقة في القرن الرابع كانت تحتل المكانة المرموقة في علاقات الكتاب بين بعضهم البعض من جهة، وبين رجال السلطة من جهة أخرى، وهو عصر تنافس الأمراء فيه على قسم أكبر عدد من الشخصيات الأدبية البارزة لتشغل مهام التحرير والنسخ والمراسلات الإدارية، ولتشارك في المناظرات والمجالس التي يعقدها هؤلاء الأمراء، كما كان يحدث في بلاط البويهيين والحمدانيين، وهكذا كانت صلات الصداقة تربط بين رجال الفكر الذين تجمعهم روابط العمل المهني أو المجالات العلمية والمناظرات المختلفة، ومن ثم، اتسع أفق المراسلات فيما بينهم، والكل يعمل على إبداء براعته أسلوبا وأدبا وأفكارا.

صداقة أهل العلم

قال أبوحيان عن صداقة الكتاب وأهل العلم: إذا خلوا من التنافس، والتحاسد، والتماري، والتماحك، فربما صحت لهم الصداقة، وظهر منهم الوفاء، وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل.

فائدة في حوار صديقين

قال عمر بن شبة: التقى أخوان في الله، فقال أحدهما لصاحبه: والله يا أخي إني لأحبك في الله، فقال له الآخر: لو علمت مني ما أعلمه من نفسي لأبغضتني في الله. فقال: والله يا أخي لو علمت منك ما تعلمه من نفسك لمنعني من بغضك ما أعلمه من نفسي.

الصداقة عبر التاريخ

عالج القدماء موضوع الصداقة قبل أبي حيان شعرا ونثرا، وحكما أو موضوعات مستقلة، فتناوله الإغريقيون واللاتينيون كسيسيرون (ciceron) في حوار مع صديقه ليليوس (Lelius) حتى إن السيد كيلاني في ترجمته للتوحيدي وتحليله لكتبه، لاحظ التشابه بين ما كتبه التوحيدي وسيسيرون، ففي المحاورة المذكورة يتناول الصديقان مختلف المسائل التي تهم الصداقة من غير ترتيب، ويضربان في هذا الموضوع هنا وهناك، كما أن التوحيدي لم يترك شاذة ولا فاذة في موضوع الصداقة إلا تناولها، فاستشهد بأقوال الجاهليين والحكماء على اختلافهم، من عرب وغيرهم، قدماء ومعاصرين.

فقال لبيد بن ربيعة يوصي ابنتيه عند موته:

وقولا هو المرء الذي لا حليفه
أضاع ولا خان الصديق ولا غدر

الصداقة وفلسفة الحب في «المقابسات»

من المناسب أن يختم هذا التحليل بذكر بعض الآراء التي أوردها أبوحيان في هذا الموضوع في كتابه «المقابسات» حيث عرض للصداقة وفلسفة الحب في خاتمة هذه المقابسات، ومن آرائه فيها وهو يتحدث على لسان النوشجاني في محاورة طويلة ضمنها أفكارا أخرى:

١- أن الناس تختلف أمزجتهم وطبائعهم.

٢- الإنسان الواحد تختلف طبائعه وأخلاقه «لولا الكثرة التي تتوزعه لكنت تجده على هيئة واحدة» إما طلق المحيا كريم الأخلاق والشمائل، وإما عابس الوجه شرس الأخلاق، ولذلك قال أرسطو: «الصديق آخر هو أنت» (فبالموافقة يكون أحد الصديقين، الآخر، وبالمخالفة، يكون الشخص آخر).

٣- الفرق بين الألفة والصداقة أن الإنسان إذا ألف بآخر فقد أجرى ذلك مجرى إلفه للطعام والزي، وإذا صادقه فقد رفع من مكانه وميز قدره.

٤- الفرق بين المحبة والعشق أن هذا معناه تشوق بحركة دالة على صبوة المشاكل إلى مثله، وأما المحبة فهي على منوال العشق، مع محاولة الاتصال، برفع الكلفة. وقد تدرج التوحيدي على هذا المنوال في تعريف الكلف ثم الشغف والمعرفة والعلم، وانتهى بعد ذلك إلى التوحيد.

٥- التوحيد اعتراف النفس بالواحد لوجدانها إياه واحدا من حيث هو واحد، لا من حيث قيل إنه واحد.

٦- السعادة أن تعود النفس إلى معادها بريئة من كل دنس، خالصة من كل عارض.

أدب الانسحاب من مودة الأصحاب (*)

التحرير

لله ما أحسن التخالل بين الأحباب إذا كان المقصود منه مرضاة الله تعالى! فإن الخلة الصادقة هي الباقية النافعة يوم القيامة قال تعالى ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ (الزخرف:٦٧)، ولذلك حث النبي ﷺ على صدق الحب والتآخي، وجعله من مقررات حلاوة الإيمان؛ فعن أنس عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» (رواه البخاري)، بل إن المتآخيَيْن، على الحقيقة، مترفهون بظل الله يوم لا ظل إلا ظله؛ ففي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة؛ ذكر منهم النبي ﷺ: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» (رواه البخاري).



(*) المقال منشور في العدد رقم (٥٣٥) ربيع الأول ١٤٣١هـ - مارس ٢٠١٠م

وإذا ثبت هذا وتقرر؛ فإن من زكى الله تعالى دخيلة نفسه وميزه بالفهم لا يقرب منه صاحبا على سبيل المخاللة والمؤالفة إلا إذا تيقن أخلاقه، وتوافق طباعه مع طباعه، وغير ذلك مما لا تتم أخوة إلا به، كما لابد بعد التوافق في الخلال والطباع أن يحرص على ذي الفضل والعلم والدين؛ فإن العاقل – كما ذكر ابن المقفع في أدبه الصغير – لا يخادن ولا يصاحب – ما استطاع – إلا ذا فضل في العلم والدين والأخلاق؛ فيأخذ عنه، أو موافقا له على إصلاح ذلك فيؤيد ما عنده، وإن لم يكن له عليه فضل؛ فإن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمى إلا بالموافقين والمؤيدين، قال: ولذلك زعم بعض الأولين أن صحبة بليد نشأ مع العلماء أحب إليهم من صحبة لبيب نشأ مع الجهال.

والحصيف النبيه لا يجعل الناس كلهم في كفة ميزان واحد، ولكنه يصنفهم على حسب ما يليق بهم من الخيرية أو عكسها، أو العلمية وضدها، وهكذا؛ فمثلا يلبس للعامة لباس التحفظ وبعض الانقباض، ويلبس للخاصة من أهل العلم والأدب والشرف لباس اللطف والانبساط.

وهنا معنى بوب عليه العلماء في كتبهم، وهو الاقتصاد في الحب والبغض، وأصله ما رواه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا قال: «أحبب حبيبك هونا ما؛ عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما؛ عسى أن يكون حبيبك يوما ما».

ومعناه –كما قال الحافظ ابن العربي المالكي– أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن؛ فقد يعود الحبيب بغيضا وعكسه؛ فإذا أمكنته من نفسك حال الحب وعاد بغيضا؛ كان لمعالم مضارك أجدر لما اطلع منك حال الحب بما أفضيت إليه من الأسرار؛ ولذلك قال عمر رضي الله عنه: «لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا»، وفي هذا يقول الشاعر:

وأبغض إذا أبغضت بغضا مقاربا
فإنك لا تدري متى أنت راجع
وكن معدنا للخير واصفح عن الأذى
فإنك راء ما عملت وسامع
وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا
فإنك لا تدري متى أنت نازع

وقال الحسن البصري رحمه الله: «أحبوا هونا وأبغضوا هونا؛ فقد أفرط قوم في حب قوم فهلكوا، وأفرط قوم في بغض قوم فهلكوا».

سبحان الله! ما كان الغلو في شيء إلا أفسده، وقلب حلاوته مرارة.

إن الأخ المسلم يمكن أن يحب أخاه بصدق، ويفي له بحقوق الأخوة كاملة غير منقوصة، ولكن الأيام حبالى تلد كل عجيب، لذلك قد تنقلب مودته الكاملة إلى فتور، ويشوب صفو علاقته الأخوية مع أخيه شيء من البرود أو كثير منه.

لا ينكر هذا ولا يستغرب؛ فإن القلوب بيد الله تعالى، والمشاعر قد تتقلب كما القدر إذا استجمعت غليانا؛ لا عجب في هذا ولا منقصة.

لكن المنكور المستغرب أن ينسل الصاحب من مودة صاحبه بعنف وبلا تؤدة، وكأنه ما عرفه يوما ولا صافاه، وكأنه ما ساره يوما ولا ناجاه، وكأنه ما قربه يوما ولا أدناه!

وقد حدث هذا لإمام أهل الظاهر ومفخرة الأندلس الفقيه أبي محمد ابن حزم الظاهري؛ حيث قال في «مداواة النفوس»: «وأنا أعلمك أن بعض من خالصني المودة وأصفاني إياها غاية الصفاء؛ في حال الشدة والرخاء، والسعة والضيق، والغضب والرضا؛ تغير علي أقبح تغير بعد اثني عشر عاما متصلة في غاية الصفاء، ولسبب لطيف جدا ما قدرت قط أنه يؤثر مثله في أحد من الناس، وما صلح لي بعدها، ولقد أهمني ذلك سنين كثيرة هما شديدا».

عجيب أمر بعض الأصحاب، يقبل أحدهم على أخيه إقبال الرياح الهوج العاتية، ويدبر عنه إدبار الفرس المولية!

لا مرية في أن الفجاءة في الانفصال الأخوي قد تكون بسبب ذنب أحدثاه، أو أحدثه أحدهما؛ ففي مسند أحمد عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفس محمد بيده ما تواد اثنان ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما»، ومع ذلك فإن الذوق وحسن العهد وتمام المروءة وكمال الوفاء ألا يقطع الإنسان بمن يحب قطيعة العدو بعدوه، فذلك فجور في الصحبة ومنقصة في الأخلاق، ولذلك يتناءى عنه الكملة من الناس؛ لأنهم يدركون أن خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره؛ كما صح بذلك الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن مقتضيات هذه الخيرية في أقل حالاتها أن يحسن الواحد منا «الانسحاب من مودة الأصحاب»؛ لأن ذلك دليل على تأصل زكاء نفسه، وذهابها في المجد مذهبا

جميلا، وهذا عمرو بن معدكرب يقول:

ليس الجمال بمئزر
فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن
ومناقب أورثن مجدا

وقد ساق العرب، كما حكاه عنهم ابن المقفع، مثلا عجيبا في غدر الإخوان ببعضهم؛ قال: زعموا أنه كان بأرض كذا تاجر، فأراد الخروج إلى بعض الوجوه لابتغاء الرزق؛ وكان عنده مائة من حديد؛ فأودعها رجلا من إخوانه، وذهب في وجهه، ثم قدم بعد ذلك بمدة؛ فجاء والتمس الحديد، فقال له: إنه قد أكلته الجرذان؛ فقال: قد سمعت أنه لا شيء أقطع من أنيابها للحديد! ففرح الرجل بتصديقه على ما قال وادعى، ثم إن التاجر خرج، فلقي ابنا للرجل؛ فأخذه وذهب به إلى منزله؛ ثم رجع إليه الرجل من الغد فقال له: هل عندك علم بابني؟ فقال له التاجر: إني لما خرجت من عندك بالأمس رأيت بازيا قد اختطف صبيا، ولعله ابنك؛ فلطم الرجل على رأسه وقال: يا قوم، هل سمعتم أو رأيتم أن البزاة تخطف الصبيان؟ فقال: نعم، وإن أرضا تأكل جرذانها مائة من حديد ليس بعجب أن تختطف بزاتها الفيلة! قال له الرجل: أنا أكلت حديدك وهذا ثمنه فاردد علي ابني. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرت بصاحبك فلاشك أنك بمن سواه أغدر؛ وأنه إذا صاحب أحد صاحبا وغدر بمن سواه؛ فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضع؛ فلا شيء أضيع من مودة تمنح من لا وفاء له، وحباء يصطنع عند من لا شكر له، وأدب يحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه، وسر يستودع من لا يحفظه؛ فإن صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر؛ كالريح إذا مرت بالطيب حملت طيبا، وإذا مرت بالنتن حملت نتنا.

على من ابتلي بالصاحب الذي لا يحسن الانسحاب من الأصحاب؛ أن يعلم أن بعض الناس مدخولون في أمورهم؛ فهم كما قال الأول: «قائلهم باغ، وسامعهم عياب، وسائلهم متعنت، ومجيبهم متكلف، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف، يتناقضون الأنباء، ويتراقبون الدول، ويتعايبون بالهمز، مولعون في الرخاء بالتحاسد، وفي الشدة بالتخاذل» إلا من رحم الله.

وإن من الحكمة التي يلزم توخيها من أراد الانسحاب ما حدثنا به ابن الجوزي حين قال: «كان لنا أصدقاء وإخوان أعتد بهم، فرأيت منهم من الجفاء وترك شروط الصداقة والأخوة عجائب؛ فأخذت أعتب، ثم انتبهت لنفسي فقلت: وما ينفع العتاب، فإنهم إن صلحوا فللعتاب لا للصفاء؛ فهممت بمقاطعتهم، ثم تفكرت فرأيت الناس بين معارف وأصدقاء في الظاهر وإخوة مباطنين، فقلت: لا تصلح مقاطعتهم، إنما ينبغي أن تنقلهم من ديوان الأخوة، إلى ديوان الصداقة الظاهرة؛ فإن لم يصلحوا لها نقلتهم إلى جملة المعارف، وعاملتهم معاملة المعارف، ومن الغلط أن تعاتبهم».

أيها الصاحب المنسحب: ليس ضروريا من الأحوال إذا رغبت عن أخيك أن ترميه ولا تبالي به، بل ذلك لؤم لا يليق بكرام الناس، ومن المروءة أن تتدرج به في الترك حتى تأنس نفسه لبعدك، وتستسيغ فقدك؛ فإن طول المواصلة وكثرة المخالطة إذا أعقبهما قطع بات؛ أضرا وأديا إلى نقيض المقصود؛ فبدل الراحة ينشأ الهم، وربما وغرت الصدور فامتلأت بالحقد والشحناء.

وهذا ابن المقفع العاقل يوصيك بقوله في «أدبه الكبير»: «اجعل غاية تشبثك في مؤاخاة من تؤاخي، ومواصلة من تواصل؛ توطين نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك، وإن ظهر لك منه ما تكره، فإنه ليس كالمملوك تعتقه متى شئت، أو كالمرأة التي تطلقها إذا شئت، ولكنه عرضك ومروءتك؛ فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخدانه، فإن عثر الناس على أنك قطعت رجلا من إخوانك -وإن كنت معذرا- نزل ذلك عند أكبرهم بمنزلة الخيانة للإخاء، والملال فيه، وإن أنت مع ذلك تصبرت على مقاربته على غير الرضا؛ عاد ذلك إلى العيب والنقيصة؛ فالاتئاد الاتئاد، والتثبت التثبت!

فإذا عرفت فالزم.

هكذا نحسن التأسي برسول الله ﷺ

أ. د. أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي

لاشك أن من أولويات كل مسلم في مشرق الأرض أو مغربها، شمالها أو جنوبها، أن يحسن التأسي برسول الله ﷺ. لذا، تتوق روح كل مسلم ونفسه إلى العيش في هذه الحياة وفق المنهاج الإسلامي السليم الذي أشار إليه رسول الله ﷺ عندما خط على الأرض خطا مستقيما تتفرع منه عدة أفرع، وأشار ﷺ إلى الخط المستقيم وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام:١٥٣).

وكم يخشى المسلمون في مختلف أرجاء المعمورة ألا تكون طريقة حياتهم متوافقة مع الأسلوب أو التصور الذي وضعه الإسلام وأراد للمسلم أن يتعامل من خلاله مع هذه الدنيا ومعطياتها، وأحداثها، وأحوالها؛ لأن بعدهم عن المنهاج النبوي يجعلهم كمن اتبعوا السبل التي تباعد بين الإنسان والمنهج القويم.

والحق أن تلكم القضية غاية في الأهمية، من حيث الرغبة الكامنة داخل كل قلب مؤمن بالله ورسوله في التأسي بالنبي ﷺ والعيش وفق المنهاج الإسلامي السليم الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا غلو فيه ولا شطط.

وعلى قدر أهمية هذه القضية لكل مسلم صادق مع نفسه ومع الله تبارك وتعالى، وعلى قدر ضرورتها لنا جميعا، كأفراد وشعوب وأمم، على هذا القدر يجب أن يكون اهتمامنا بها وتركيزنا عليها؛ لأن الخسران والبهتان هما المآل النهائي لمن لا يوفق إلى العيش وفق منهاج الإسلام ورؤيته للوجود والحياة، بينما تكون السعادة الأبدية الخالدة هي المآل والمرسى الأخير لكل من ينجح في التأسي بالنبي الكريم بصورة سليمة وصحيحة وصادقة، وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١).

ولقد حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - أشد الحرص على العيش كما أراد لهم الإسلام أن يعيشوا، وكما تعلموا من مواقف الرسول ﷺ المتوالية، حيث كانوا يلاحظون سلوكياته على الدوام ويتعلمون من ردود أفعاله على المواقف والأحداث، وكثيرا ما كانوا يرجعون إليه في العديد من الأمور، رغم سعة أفقهم وقدرتهم العالية على التعامل مع الحياة. لكن الحرص على الائتمار بأمر الرسول والانصياع للتصور الإسلامي كان يدفعهم إلى استفتاء الرسول في كل شيء، وفي كل وقت وحين.

وغني عن البيان الإشارة إلى أن معالجة هذه القضية بحاجة ماسة إلى مزيد من التفصيل والتحليل كي ما نلم كل خيوطها، ونغطي كل جنباتها. لكن لا بأس من تناول عدة نقاط تفيد الراغب، وتهدي المشتاق، وتساهم في توعية من أراد أن يحيا وفق نمط حياتي يتماشى مع النمط المعيشي الذي شرعه الإسلام لأتباعه، وعلمه الرسول ﷺ لمن أراد أن يسير على دربه ويتمثل آدابه وأخلاقياته.

والحق أن التأسي برسول الله ﷺ هو غاية كل مسلم، وهدف كل مؤمن. لكن التأسي السليم البعيد عن الإفراط أو التفريط يتطلب الانطلاق من مجموعة أمور يمكننا الإشارة إليها على النحو التالي:

أولا - الإلمام ببعض قواعد الشريعة الإسلامية

فالسير على دربه ﷺ يقتضي قدرا معينا من المعرفة الصحيحة والسليمة بأسس وقواعد الدين الإسلامي الحنيف، كأن يدرك المسلم أن الإسلام الحنيف عندما شرع للحياة كان حريصا على المصلحة العليا للإنسان في الحياة الدنيا والآخرة، سواء بسواء. وقد يأتي ذلك على حساب بعض المتع واللذائذ المؤقتة والفانية التي تهواها النفس ويميل إليها الهوى البشري، فمثلا: حرم الشارع الحكيم تعاطي الخمور؛ لأنها مسكرة وتذهب بعقل الإنسان، الأمر الذي يجعله يتصرف بما يتعارض مع شريعة الله وما يتناقض مع كرامته الإنسانية. ومن هنا يتم - وفقا لهذا الدين الحنيف - تحريم كل مسكر. وبالتالي، ظهرت قاعدة ما أسكر كثيره فقليله حرام؛ إذ العلة تدور مع العلول، وجودا وعدما.

إن الوعي بمثل تلك المعارف والحقائق يجعل الإنسان المسلم يبتعد عن كل ما يغيب العقل، أو يؤثر سلبا على تركيزه، بينما بعض السطحيين لا يدركون هذا المعنى، فتراهم يجتنبون تعاطي الخمور دون غيرها من المشروبات المسكرة بحجة أن التحريم ورد لفظا في القرآن

الكريم بحق الخمر فقط! من هنا ينتشر بين بعض المسلمين للأسف تعاطي بعض المشروبات التي قد لا تحمل اسم الخمر ولكنها تحمل صفاتها وخصائصها.

ونشير إلى أنه لا يقتضي التحريم أن يحمل المشروب نفس صفات وخصائص الخمر بالضرورة لكي يتم تحريمه، بل يتم تحريم أي مشروب ثبت علميا أنه يؤثر سلبا على الصحة العامة للإنسان، حتى ولو على المدى البعيد، انطلاقا من قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥). ومن هذا المنطلق يذهب جمهور كبير من العلماء إلى تحريم التدخين - مثلا - لأنه يؤدي - بما لا يدع مجالا للشك - إلى حدوث أضرار بالجسم الإنساني. ومن هنا كان من المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية المحافظة على النفس.

من ثم يناط بالمسلم السعي قدر طاقته باتجاه تعلم العلم الديني والاطلاع على المعارف الإسلامية ما استطاع إلى ذلك من سبيل، لأن من إيجابيات المعرفة الصحيحة بالإسلام - أيضا - أنها تعين المرء منا على تأدية العبادات والمعاملات بالصورة أو بالشكل السليم الذي يرضي الله ورسوله. وإذا ما صعب أمر التعلم على المسلم فإن ثمة ضرورة لأن يلجأ بشكل دائم ومتواصل إلى أهل العلم والمعرفة، يراجعهم، ويستفسر منهم، ويستوضح الأمور من خلالهم؛ امتثالا لقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء:٧). وغيرها من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وإذا كان الإسلام قد ألزم غير المتعلم أو غير المتخصص بمراجعة المتخصصين من العلماء، فإنه قد أوجب في الوقت نفسه على العلماء أن يجيبوا عن تساؤلات المتسائلين واستفسارات المستفسرين، بل إن الدين الحنيف أوجب على أهل العلم والدراية المبادرة ببذل المزيد من الجهد في نشر العلوم الدينية الوسطية التي تساهم في توعية الناس بأمر دينهم السمح وعقيدتهم الصحيحة. هذا وإلا كانوا من المقصرين، انطلاقا من أنه لا يُسأل الجهلاء لم لم يتعلّموا حتى يُسأل العلماء لم لم يعلِموا. وفي الحديث أن العالم الذي يكتم علمه يلجمه الله تعالى بلجام من النار.

ثانيا - الإلمام الواعي ببعض جوانب السيرة النبوية

من المتفق عليه أنه لا يمكننا أن نتأسى برسول الله ﷺ حق التأسي من دون أن نكون على دراية وإلمام بقدر غير قليل من جوانب السيرة النبوية العطرة، كي ما يتسنى لنا المقاربة أو الربط بين مواقف حياتنا وسلوكياتنا وبين سلوكيات الرسول ﷺ عندما كان يتعرض إلى مسائل مشابهة لما يحدث لنا في حياتنا، لنتبين مدى توفيقنا أو نجاحنا في التأسي به عليه الصلاة والسلام.

ولن يتمكن أحد من الربط أو المقاربة بين سلوكياته ومواقفه من جهة وبين مواقف الرسول وسلوكياته من جهة أخرى من دون أن يكون على درجة جيدة من الإلمام بالمواقف الحياتية التي مر بها الرسول ﷺ على مدار حياته المباركة، أي إن الأمر يقتضي معرفة جانب كبير من سيرته عليه الصلاة والسلام.

والحق أنه لا يكفي الإلمام بأحداث سيرة وحياة الرسول ﷺ حتى نتمكن من القياس السليم عليها أو المقاربة الحقة معها، بل لابد من الوعي بطبيعة المرحلة الحضارية والظرف التاريخي الذي كان الرسول ﷺ يعيش فيه؛ لأن السياق التاريخي الذي يعيش فيه الإنسان يتدخل وبشكل فاعل من خلال العديد من المؤثرات في تشكيل سلوكه وصياغة مواقفه.

ولقد ألح القرآن الكريم إلى مثل هذا المعنى عندما طلب منا أن نعتبر ونتعلم من تاريخ الأمم السابقة علينا ولم يطلب منا تقليدهم، أو متابعتهم النعل بالنعل. من هنا فقد أمرنا الإسلام بالاتعاظ بالتاريخ لنأخذ منه العبرة ونتعلم منه العظة.. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران:١٣٧). وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (الحشر:٢).

ومن المنطلق نفسه نفهم ما ورد إلينا في الأثر ويفيد بل يؤكد ضرورة أن نربي أبناءنا بما يتوافق مع المرحلة الزمنية والحضارية التي سيعيشون فيها ويتعاملون معها، فهم -كما قيل- خلقوا لزمان غير زماننا. بالتالي لابد من إعدادهم الإعداد الذي يعينهم على مواجهة ظروفهم وأوضاعهم التي قد تتباين، شكلا ومضمونا، مع ظروفنا وأوضاعنا.

من هنا يفيدنا الوعي الصحيح بالسيرة العطرة في حل مشكلاتنا الحياتية، ويساعدنا في توظيف كل فئات المجتمع ومكوناته في صياغة الحركة المجتمعية وتشكيلها. وكثيرا ما أمدنا التاريخ النبوي -مثلا- بمواقف وأحداث استمع فيها الرسول ﷺ إلى رأي الشباب، واهتم به، وأجازه، وتحرك وفق رؤيتهم وتصورهم، مستفيدا بذلك من حماسهم وإقدامهم وبراءتهم.

إن الرسول ﷺ الذي كانت السماء تحدثه وكان الوحي يتنزل عليه ليلا ونهارا، كان في غنى عن رأي الآخرين، أيا ما كانوا، لكنه كان يعلّم الأمة من بعده - بسلوكه هذا - ضرورة إدراك أن أبناء كل مرحلة زمنية أو حضارية لديهم الوعي الخاص بطبيعة مرحلتهم وظروف واقعهم، الذي قد يكون الشيوخ قد ابتعدوا أو انفصلوا عنه ولو بعض الشيء بحكم تبدل ظروفهم وتغير أحوالهم.

أيضا يفيدنا الإلمام الواعي بجوانب السيرة وبالسياق التاريخي والمجتمعي الذي تعامل معه الرسول ﷺ وبالتفوق القيمي والأخلاقي لسلوكه على طبيعة الواقع المجتمعي المتصف

بالغلظة والقسوة، ويعلمنا ضرورة التعامل مع واقعنا بموضوعية وعقلانية منبثقين من تعاليم ديننا ومرجعيتنا الإسلامية، التي تم -للأسف- تنحيتها عن السلوك اليومي لدى كثير من الناس. فالراصد لواقع حياتنا يلحظ أن المسلم المعاصر قد يهتم بالعبادات ويجتهد في تأديتها كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكما أداها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام؛ فكثيرون هم أولئك الذين يترددون على المساجد، وكثيرون هم أولئك الذين يتابعون بين الحج والعمرة عملا بتعليمات كتاب ربنا وسنة نبينا.. بينما يغيب -للأسف- هذا الحرص، أو يتراجع في مجال المعاملات! الأمر الذي يبرهن على وجود خلل لدى بعضنا في فهم قضية التدين ذاتها، لأن الدين لا يجوز بحال أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه، إذ يجب على المسلم أن يبذل جهده في الالتزام بكل ما أمرنا به الله وحضنا على الإقدام عليه، وأن يجتهد بالمثل في ترك وهجر كل ما نهى الله عنه وحذرنا من الوقوع فيه، سواء كان ذلك في مجال الاعتقاد، أو العبادات، أو المعاملات.

أيضا يفيدنا الإلمام الواعي بالسيرة النبوية ومدلولات المواقف التي أقدم عليها الرسول ﷺ في معرفة أي المواقف النبوية كانت آتية في مجال التشريع، بالتالي يكون التأسي بها حقا وواجبا، وأي المواقف النبوية جاءت في إطار المسائل الحياتية التي لا يكون ثمة ضرورة للتأسي به ﷺ فيها. وأهل العلم والدراية على معرفة تامة بأن هناك سننا تشريعية وأقوالا أو أفعالا للنبي غير تشريعية، وغالبا ما يضرب المثل في هذا السياق بموقف النبي ﷺ من مسألة تأبير النخيل... وغيرها من المسائل التي ينطبق عليها القول الرائع الذي قاله الرسول ﷺ، والذي حفظته الأمة واشتهر بين عامتنا وخاصتنا ونحاجج به الأمم الأخرى وهو: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم».

من هنا ندرك أن من شروط التأسي السليم والصحيح بالرسول ﷺ الوقوف على الأبعاد والجوانب المتعددة لسلوكياته عليه الصلاة والسلام، كي ما نستطيع إصابة الهدف من التأسي به والالتزام بمنهجه، ألا وهو بناء وتكوين مجتمع أخلاقي، متسامح، متدين، وسطي.. مجتمع يدرك أن الدين جاء لإسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة، مجتمع يعي أن الناس -كل الناس- خلق من خلق الله، فهو بالتالي مجتمع متسامح.. مجتمع يعي أن المعاصرة لا تقتضي القطيعة مع الأصول والجذور، ويدرك أن التواصل مع ماضينا التليد لا يقتضي الانفصال عن الواقع الحضاري الراهن.. مجتمع لا يجرفه الحنين دوما إلى الماضي أو العيش في بوتقته، لأن ذلك يجعل الأمة تعيش على هامش التاريخ وتكون عالة على غيرها.

ونتوقف لنوضح أن من السلبيات التي تعتري فهمنا لمسألة التأسي أن بعضنا يظن أن اتباع الرسول ﷺ والسير على منهجه يقتضي العيش بصورة متماثلة من حيث الشكل والجوهر مع الحياة التي عاشها النبي ﷺ، ناسيا أو متناسيا أن واقعنا الحالي والمعاصر يختلف في العديد من الظروف والأحوال مع الواقع الذي عاشه الرسول عليه الصلاة والسلام.. ولو عاش النبي ﷺ زماننا لتعامل مع الواقع الحالي بصورة تتوافق مع المستوى الحضاري، والثقافي، والاجتماعي الراهن. ولنا أن نفعل ذلك من دون غضاضة ما دمنا لا نفرط في ثوابت ديننا وأخلاقيات عقيدتنا، فالرسول ﷺ كان يركب الناقة والدابة في سفره وترحاله، وهذه وسائل تجاوزها الواقع المعاصر ولا يليق التمسك بالسفر بهما في وقت توافرت فيه وسائل نقل أكثر سرعة وأكثر إراحة للمسافرين، كالسيارة والباخرة والطائرة.

أيضا من سلبيات فهمنا لمسألة التأسي أن بعضنا اختزل التأسي بالرسول ﷺ في الإكثار من مدحه والتغني بمحاسنه طوال الوقت.. إن التحدث بالكلام الطيب عن الرسول ﷺ، وحتى التغني بمحاسنه الخلقية والأخلاقية، كل هذه أمور طيبة ونتفق عليها جميعا ما في ذلك من شك، لكن الذي لا نتفق عليه هو أن نختزل تأسينا بالنبي ﷺ في كتابة القصائد تلو القصائد في مدحه من دون أن نلتزم سلوكيا بتعليماته، ومن دون أن نبني مواقفنا الحياتية على أخلاقياته الرفيعة، وشمائله الطيبة، وسنته الشريفة، وشرعه القويم.

ثالثا - توافر عنصر الإخلاص في التأسي

لعل من أهم الشروط الضرورية لإحسان التأسي برسول الله ﷺ هو الإخلاص؛ ذلك لأن غياب الإخلاص يجعل المرء يدخل - والعياذ بالله - في عداد المنافقين الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ (المنافقون:١).

فثمة خطأ يقع من العديد من الناس في زعمهم التأسي بالرسول ﷺ في مختلف جوانب حياتهم، بينما هم يتحركون في واقع الأمر بصورة ترمي إلى تحقيق أو إصابة أهداف لهم غير معلنة على الناس، مثل من يتعامل مع الناس ظاهريا بشكل طيب وصورة مثالية بهدف إدراك مديحهم والحصول على ثنائهم عليه، أو كمن يتودد إلى الناس ويحرص على مشاركتهم أفراحهم وأطراحهم من أجل الحصول على مكاسب مالية أو مصالح حياتية... إلخ. إن هذا النمط من الناس قد اشترى الدنيا بالآخرة، وأضحى يتحرك وفق مقتضيات المصالح المؤقتة والزائلة، ونسي أن يحرص على الأبقى، والأصلح، والأدوم.. وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الشورى:٣٦).

مشاهد حضارية من نظام التكافل الأسري

د. حميد مسرار
أكاديمي مغربي

عاشت الأمة الإسلامية حضارة سعدت بها البشرية كلها، وبلغت الآفاق بقيمها وأخلاقها، وسطع نجمها بين الخلائق بأحكامها وتشريعاتها، واعترفت بها الأمم الأخرى لدورها الفاعل في تكريم الإنسان والاعتراف بحقوقه الفردية والاجتماعية.

لقد كرست الحضارة الإسلامية دور الإنسان الفاعل، فلا حضارة دونه ولا رقي في مدارج التحضر دون تكريمه وتكليفه بدور الاستخلاف والتعمير، لذلك ضمنت له من الحقوق ما يؤهله للقيام بهذا الدور، وجعلتها حقوقا مرتبطة بقيم أخلاقية تربط مستعملها بعالم الآخرة، ليكون عمله قاصدا وجهده موفورا. لذلك فاستعادة الشهود الحضاري لهذه الأمة ينطلق حتما من تكريس القيم داخل الأسرة باعتبارها نواة المجتمع، ومحضن الأخلاق والتربية والتزكية، لينتقل الأفراد من الشهود الذاتي إلى الشهود الإنساني، ومن ثم إلى الشهود الحضاري. يقول الأستاذ عبيد حسنة: «إن الوعي بالذات والعكوف عليها وتحديد إصاباتها، ووضع البرامج والخطط لانتشالها، وإعادة إخراجها لمعاودة الشهود الحضاري، واستئناف الدور للانتقال من الشهود الذاتي إلى الشهود الإنساني في ضوء قيم ومعايير الكتاب والسنة، هي الخطوة الأولى على طريق الشهود الحضاري (١).

وبناء على ما سبق، فإن إحياء القيم التي تضمن اللحمة والأخوة المجتمعية شرط أساس لاستعادة الشهود الحضاري، لذلك كانت التنشئة على قيم التكافل داخل الأسرة من المداخل الأساس لبناء مجتمع متراص يتضامن أفراده لتحقيق مقصد الاستخلاف والتعمير، من هنا نسأل: ما أسس ومرتكزات الفعل التكافلي الأسري؟ وما المشاهد الحضارية المركوزة في أحكامه وتشريعاته؟



التكافل: منهج إسلامي أصيل وبناء مجتمعي متميز

حرص الإسلام على بناء مجتمع تسود فيه القيم والأخلاق، ويؤسس على روابط متينة، تصون لحمته وأخوته، ويتضامن أفراده في تحقيق الغاية من وجوده، إذ لا حصول لمقصد الاستخلاف إلا بالتضامن الاجتماعي الذي يجعل الفرد منخرطا في جماعته، والجماعة ضامنة لمصالح الأفراد، لذلك كان المجتمع بحاجة إلى نظام التكافل باعتباره نظاما يضمن تضامن أبناء المجتمع فيما بينهم، سواء أكانوا أفرادا أم جماعات، بدافع من شعور وجداني عميق، ينبع من أصل العقيدة ليعيش الفرد في كفالة الجماعة وتعيش الجماعة بمؤازرة الفرد (٢)، وبهدف تجاوز معنى الإحسان والصدقة والبر إلى مقصد حفظ المجتمع في خلق التماسك الاجتماعي الذي يعصم المجتمع من كل ما يفتك به.

إن حصول التماسك الاجتماعي، ومن ثم قوة المجتمع وقدرته على النمو، وقدرة الإنسان فيه على التعمير، يتطلب حتما حصول مجتمع التكافل والتضامن بأنواعه المختلفة، وذلك لردم الهوة بين طبقاته، ودرء التفرقة والاختلاف بين أفراده لئلا يؤول الأمر إلى تقاعس عن أداء وظيفة الأمة الحضارية، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ (آل عمران:١٠٣).

لذلك فإن التكافل منهج إسلامي أصيل، ينبع من أصل العقيدة ليمر عن طريق التزكية إلى مقصد الاستخلاف، وشواهد ذلك في القرآن والسنة كثيرة، من بينها:

- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:١٠)، ذلك بأن وصف الأخوة يستدعي أن تبث بين الموصوفين به خلال: الاتحاد والإنصاف والمساواة والصلة والنصح وحسن المعاملة، فتتقبلها جميع الأمة بالصدر الرحب، سواء في ذلك الشريف والمشروف والقوي والضعيف (٣).

- وقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ (المائدة:٢).

- وقوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات» (صحيح مسلم).

لقد أمكن للإسلام أن يغرس معنى التكافل في نفوس المؤمنين، وأمكن له أن يبني مجتمعا متراصا يحنو بعضه على بعض ويعين بعضه بعضا، لينتفي بذلك هاجس الطبقية، وينمحي بعد ذلك كل ما يشوش الأخوة الإيمانية.

إنه فعلا بناء مجتمعي متميز، يسعى بتضامن أفراده إلى حمل أمانة الاستخلاف، ومن ثم إلى بناء حضارة الإسلام الخالدة.

التكافل الأسري: نظرات في الأسس والمرتكزات

لا خلاف في أن بناء مجتمع التكافل ينطلق من الأسرة، فهي الخلية الأولى للتربية والتزكية، والمحضن الأساس لبناء اللحمة الأخوية وأواصر القرابة التراحمية، من هنا كانت التنشئة على الفعل التكافلي من أهم الأمور التي تجعل منه فكرا مؤصلا في وعي الناس، لا يتصنعونه ولا يتكلفونه، بل يمارسونه بسليقة، ويسارعون في أدائه امتثالا لمجموع الأحكام الشرعية الداعية إليه.

يقول عليه الصلاة السلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (صحيح مسلم). فالمؤمنون كمثل الجسد الواحد لا يحيا إلا بتضافر أعضائه وتكاملها، ولقد صدق رسول الله ﷺ حينما قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» (صحيح البخاري).

ونظرا لأهمية التكافل الأسري في بناء مجتمع التكافل، فما الأسس التي يقوم عليها حتى نضمن استمراره وديمومته؟

للإجابة عن هذا السؤال نقف عند بعض الأسس بمزيد من الشرح والتفصيل:

أساس المودة

شدد الإسلام في بنائه الأسري على الروح التي تجمع بين جميع أفراد الأسرة وتلف أواصرها، فبناها على المودة والمحبة، واعتبرها مقصدا عظيما لإنشاء الأسر، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الروم:٢١)، فالمودة روح تجمع بين أفراد الأسرة، تجعل كل واحد منهم يتودد للآخر بقدر ما يقدمه له من خدمة أو إعانة أو مساندة في أوقات الرخاء أو الشدة، وهي روح لا يتصور غيابها داخل الأسرة، فإذا غابت انتفى التكافل، بل إن غياب التكافل مؤشر حقيقي على غيابها، إذ لا معنى للمودة دون تكافل وتعاون وإيثار.

إن حصول المودة داخل الأسرة مآله إلى التكافل بجميع أنواعه، سواء أكان تكافلا عاطفيا أم ماديا أم معاشيا، ليحصل الدفء الأسري المنشود واللحمة الأسرية المبتغاة، فيعيش أفراد الأسرة في أمن وأمان ومحبة ووئام.

أساس التراحم

حرص الإسلام على إنشاء علاقات أسرية متينة لا يخترقها شيطان ولا يفك عقدها حاقد أو حاسد أو جبان، فأسسها على أساس التراحم واعتبره أساسا يقوم على رقة تقتضي الإحسان للمرحوم والعطف عليه والحنو، بل تقتضي إرادة المنفعة للغير وإعمار القلب بحب الخير والنفع والبذل والعطاء للآخرين (٤). وإذا كان عطف الآباء على أبنائهم وابتغاء الخير لهم هو من باب الفطرة التي جبل الإنسان

عليها، فقد أمر سبحانه وتعالى الأبناء ببر الآباء وخفض الجناح لهم، فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء:٢٣-٢٤).

بل أمر بصيانة علاقات الرحم والقرابة، وتوعد كل من عمل على هدمها بأشد العقوبات، واعتبر أن قبول الأعمال أو ردها رهين بوصل أو قطع العلاقات، قال عليه الصلاة والسلام: «الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله» (صحيح مسلم).

وبناء على ذلك، فإن حضور التراحم داخل الأسرة يؤول حتما إلى التكافل، فالتراحم صفة تبعث على حسن المعاملة في الأوقات الحالكة والصعبة، وهي صفة تجعل الأفراد مبادرين إلى المساعدة لإيجاد حلول للآخرين وابتغاء النفع لهم، بحل مشاكلهم والبحث عن مخارج لمعضلاتهم.

إن تربية النشء على قيم التراحم، وبناء أسر على صلة الأرحام، والعمل على صيانتها، يجعل العلاقات الأسرية علاقات متينة، يسود فيها التكافل بشتى أنواعه، لذلك كان على الأمة الحذر من القيم المجتمعية الدخيلة، التي غيرت القيم الأسرية الإسلامية وانتقلت بها من قيم المكارمة إلى المشاحة والمطالبة بالحقوق فقط. فنشأ بعد ذلك صراع بين الأزواج وتفكك أسري مرير، مازال المجتمع يئن تحت وطأته وآثاره.

إن دعوة الإسلام إلى التراحم هدفها حصول اللحمة الأخوية، وبناء قرابة تراحمية، ولاشك أن ذلك مآله إلى التكافل الأسري.

أساس الحقوق والواجبات

حمى الإسلام الأسرة من كل ما يعرقل دورها الحضاري، وذلك حينما حصنها بمنظومة الحقوق والواجبات، بل حينما منح الحق الأسري على أساس مصلحة الأسرة، لا على أساس مصالح الأفراد، وكذلك حينما جعل الحقوق متقابلة، فكل حق يقابله واجب، ليجعل الفرد يعطي بقدر ما يأخذ.

وعليه؛ فقد نظر الإسلام لمنظومة الحقوق نظرة مغايرة عن مثيلاتها الغربية، نظرة تتسم بالشمول، لتشمل الحقوق العقدية التعبدية والتربوية الأخلاقية والمالية المعيشية. وهو أمر واضح في أحكام الشرع وتشريعاته، فقد أمر سبحانه وتعالى بإنشاء الأسر على أساس الدين، وتربية الأهل على العقيدة الصحيحة من حب الله واستحضار الآخرة في جميع الأفعال والتصرفات، فقال عزوجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (التحريم:٦). قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ قال: علموهم، وأدبوهم. كما حث الشرع على تربية الأبناء على القيم الرفيعة، كالصدق والأمانة والشجاعة والحب والإيثار وغيرها.

وأما الحقوق المالية، فلاشك أن الإسلام كلف كل فرد بالإنفاق على نفسه، ومن يدخل في كفالته، فدعا الرجلَ إلى الإنفاق على زوجه وأبنائه ووالديه، إن كانوا فقراء، واعتبر ذلك من القربات التي يتقرب بها العبد إلى الله، بل دعا إلى التصدق على الأقارب، ومنح فاعله أجر الصدقة والقرابة. يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحتسبها كانت له صدقة» (صحيح البخاري).

إن منظومة الحقوق الأسرية الإسلامية منظومة متكاملة لا تقوم على المطالبة بالحقوق فقط، بل تروم ترسيخ القيم الأخلاقية من مكارمة وإيثار وإحسان ومشاركة، في كل ما يعود على الأسرة من خير، لذلك كان الحق الأسري حقا غيريا لا ذاتيا، يبتغي مصلحة الأسرة لا مصالح الأفراد.

أساس الكرامة الإنسانية

كرم الإسلام الإنسان وفضله على باقي المخلوقات، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء:٧٠).

ولاشك أن من تمام التكريم الاعتراف بحقوقه الفردية والاجتماعية، بل وتحقيق كرامته الإنسانية. ومن هنا فلا كرامة للإنسان دون الاهتمام بحاجاته النفسية والمادية، بل ودون مشاركة الجماعة له في ضمان العيش الكريم، وتتجلى خطورة تخلي الجماعة عن دورها التضامني، وعدم الاهتمام بأمر المسلمين في تحذير رسول الله ﷺ أهل العرصة الذين بات فيهم امرؤ جائع، فقال عليه الصلاة والسلام: «أيما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع، فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله» (المستدرك على الصحيحين، الحاكم، رقم ٢١٠١). ومن هنا نسأل: فكيف بالأهل المقربين؟ بل والأرحام الذين نشاركهم رابطة الدم ومعاني المحبة والمودة والسكن؟ لذلك كان التكافل الأسري مظهرا من مظاهر الكرامة الإنسانية، وذلك لما يلقاه الإنسان من مساندة الجماعة له، من الناحية العقدية والتربوية والمالية.

إن تكريم الإنسان داخل الأسرة يتطلب حتما حصول الفعل التكافلي ليكون فاعلا في مجتمعه، مشاركا في تفاعلاته، مجتنبا كل ما يعرقل مساهمته في حضارة أمته.

مشاهد حضارية من نظام التكافل الأسري

إن الحضارة هي إسهام أمة من الأمم في رصيد الأفكار وما ينتج عنها من اكتشافات واختراعات وصناعات، وشعر وفن ونظم ومؤسسات، وقيم ومبادئ (٥). وفي المنظور الإسلامي، هي: ما ينتج عنها من أنموذج إسلامي يستبطن قيم التوحيد والربوبية، ويروم بناءً فكريا سلوكيا في المجتمع، يشكل نمط القيم السائدة، ووجود نمط مادي يشمل جميع الأبعاد المادية في الحياة.

لذلك نسأل: ما المشاهد الحضارية التي يستبطنها نظام التكافل الأسري؟

المشهد الأول: تكريس العقيدة في الواقع المجتمعي

ينطلق مشروع الإسلام الحضاري من العقيدة، ويعتبرها عموده الفقري الذي إن أصيبت إحدى فقراته بالعجز تسلل الشلل إلى الجسد كله، يقول الفيلسوف «برنارد شو»: «كنت أعرف دائما أن الحضارة تحتاج إلى دين، كما أن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك، فالعقيدة لها دور مهم في ضبط سلوك الإنسان، فإذا انفلت بحيث لم يعد يضبطه دين ولا عقيدة، فسوف يفعل ما يحلو له، ومن هنا قد يتحول إلى عنصر هدم وفساد. فالانضباط الديني يشكل صمام أمان، لا تفرط فيه أمة عاقلة» (٦). وعليه فإن التكافل الأسري هو تكريس العقيدة في الحياة الأسرية، ومن ثم في المجتمع، وذلك بامتثال مجموع الأحكام الشرعية الداعية إلى التضامن والتعاون والرحمة.

كما أنه عمل إيماني رباني، يجعل الأفراد لا ينظرون إلى المسؤولية الملقاة على عاتقهم نظرة دنيوية فقط، بل يربط نظرهم بعالم الآخرة، فيسارعون إلى أدائها ابتغاء وجه الله والثواب الذي وعد به سبحانه كل من أقدم على فعله.

لقد أراد الإسلام أن تسري العقيدة والروح الإيمانية في جميع شعب التكافل، حتى يرتبط العمل بالله إيمانا واحتسابا، ويكون وراءه ذلك الباعث الروحي المؤدي إلى دوام التضحية وقوتها (٧). ومن ثم نقول: إن من أهم المشاهد الحضارية التي يكرسها الفعل التكافلي الأسري هو ترسيخ العقيدة الإسلامية وسريانها في جميع أوصال المجتمع، لتكون محرك الإنسان نحو العمل والمشاركة في بناء الصرح الحضاري لهذه الأمة.

المشهد الثاني: دعم القيم الأخلاقية في المجتمع

إن المعيار الذي يمكن أن تقاس به الحضارة هو موقع الإنسان فيها، وتصورها عنه، وطبيعة القيم التي يلتزم، ومدى احترامها لإنسانيته ومقوماتها. لذلك فالتكافل الأسري هو نظام قيمي بامتياز، نظام يكرس الأخلاق الرفيعة التي يجب أن تسود في المجتمع، من رحمة وأخوة ومحبة ومساندة في الأوقات الحرجة والصعبة، بل هو نظام يهدف إلى اجتثاث الأمراض القلبية التي قد تعصف بالمجتمع كله، من بخل وشح وأنانية وحب ذات، والذي قد ينجم عنه سلوكات مرضية تمنع من حصول معاني الأخوة والتضامن. إنه نظام يهدف إلى خلق أمن مجتمعي، تسود فيه قيم رفيعة، فيتضامن أفراده لتأدية دورهم الحضاري.

المشهد الثالث: التنمية المجتمعية المستدامة

من أهم المنجزات الحضارية التي قد يحققها الفعل التكافلي الأسري خلق تنمية مجتمعية مستدامة، باعتبارها حسب (باربير) (٨) أهم تطور في الفكر التنموي الحديث، وأبرز إضافة إلى أدبيات التنمية خلال العقود الأخيرة، ويعدد باربير أربع سمات أساسية للتنمية المستدامة، هي:

١- التنمية المستدامة تختلف عن التنمية بشكل عام في كونها أشد تداخلا وأكثر تعقيدا، بخاصة فيما يتعلق بما هو طبيعي وما هو اجتماعي في التنمية.

٢- التنمية المجتمعية تتوجه أساسا إلى تلبية متطلبات واحتياجات أكثر الشرائح فقرا في المجتمع، وتسعى إلى الحد من تفاقم الفقر في العالم.

٣- للتنمية المستدامة بعد نوعي يتعلق بتطوير الجوانب الروحية والثقافية، والإبقاء على الخصوصية الحضارية للمجتمعات.

٤- لا يمكن في حالة التنمية المستدامة فصل عناصرها وقياس مؤشراتها، لشدة تداخل الأبعاد الكمية (٩).

والناظر في السمات الأربع التي ذكرها باربير يتبين له مدى مساهمة التكافل الأسري في التنمية، فهو يخلق أخوة تضامنية بين جميع أفراد الأسرة، حيث يسعى كل فرد منها للمساعدة في حل مشكلات الآخر، كما يهدف إلى ردم الهوة بين الطبقات، وتجاوز كثير من المعضلات، وخاصة معضلة الفقر، بل يروم تثبيت الخصوصية الإسلامية القائمة على الأخوة الإيمانية. وخلاصة القول: فإن الممحص في نظام التكافل الأسري ليجده نظاما حضاريا بامتياز، فهو يقوم على صيانة العقيدة في المجتمع، ويكرس منظومة القيم فيه، بل يقوم على خلق تنمية مجتمعية مستدامة، تجعل جميع الأفراد يساهمون في بناء الصرح الحضاري لأمتهم.

هوامش

١- كتاب الأمة، العدد ٨٠، ص١٠.

٢ - التكافل الاجتماعي في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ص٩، دار السلام.

٣ - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، ص١٢١، الشركة التونسية للتوزيع.

٤ - التراحم بين الناس في السنة النبوية، عبداللطيف الجيلاني، ص١٧.

٥- الأطر العامة والمرتكزات الأساسية في بناء الحضارات، عصام البشير، مجلة المنار الجديد، ص١٤، أكتوبر ٢٠٠٤.

٦- نحن والحضارة والشهود، الدكتور نعمان عبدالرزاق السامرائي، كتاب الأمة، العدد ٨٠، السنة ١٤٢١هـ.

٧ - التكافل الاجتماعي في الإسلام، د.عبدالكبير العلوي المدغري، ص١٢١.

٨- يعتبر أول من حلل مفهوم التنمية الاقتصادية المستدامة في كتاب صدر له سنة ١٩٨٧.

٩- التنمية المستدامة والعلاقة بين البيئة والتنمية، د.عبدالخالق عبدالله، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي، ١٣ أغسطس ١٩٩٨، ص٢٢٧.



ميزان الاعتدال في الكسب والإنفاق..

د. محمد سعيد باه
أكاديمي سنغالي

نتناول الموضوع في ظلال هذه الآيات التي ترسم هالة عجيبة عن قضايا تدخل في صلب الإشكالية التي نحن بصددها هنا، وهي الآيات التي استهلت بها عروس القرآن:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ (الرحمن:١-١٣).

هنا حشد من الحقائق الأساسية، ولأننا لا نقدر على تسجيل كل تلك الدروس المهمة وتبويبها هنا، فلنمرر عليها نظرة سريعة: خلق الإنسان هو نقطة الارتكاز، تزويده بما يحتاج إليه لينهض بوظيفته الأساسية في الحياة من مصادر للمعرفة وأخرى ليقتات منها جسمه، موازين كونية يوظفها لضبط حركته في الحياة؛ ضربا للتكسب أو سعيا للتبصر، نصب الميزان المنضبط حماية للخليفة في الأرض من ارتكاب جريمة الجنوح، وأخيرا السؤال المستفز الذي جاء على شكل إيقاع مميز لهذه السورة (٣١) مرة.

من مميزات هذا العصر الذي نعيش تحت وطأته الضاغطة محددان أساسيان هما: «السرعة» أو بتعبير أدق «اللهاث»، وكثيرا ما يكون بلا اتجاه محدد ولا نهج مسدد، والمحدد الثاني يتمثل في «الشره» الذي يعبرون عنه تلطيفا بالاستهلاك، إلى درجة أن نشأت فلسفة تسند وتشرح مزايا هذا الشره المميت حسا ومعنى؛ وقد يبلغ الجنوح درجة أن يصبح هذا الميلان في التعاطي مع منافع الحياة (أخذا وصرفا) حد الجنون، أو تحويلها من مسخَر يستفاد منه في الحالتين إلى آلهة تنصب وتتحكم في نمط الحياة التي يتعاطاها هذا الصنف المبتلى، وأفظع مؤشر نجده لدى الأميركان الذين قالت التقارير الأخيرة بأن ما يصرفونه على الكلاب والقطط سنويا قد تجاوز (٥٠) مليار دولار أميركي.

وفي هذا السياق أقتبس مما كتبته سابقا:

«والسؤال الذي قفز إلى ذهني وأنا أقرأ هذه القصة التربوية بامتياز (الجنوح في الاستهلاك)، كان: لماذا لم يترب هؤلاء، في باب آداب الطعام، إلى جانب دعاء البدء والختم والأكل باليمين وما يلينا، أن الإسراف، بمعنى تجاوز الحاجة والحد المرسوم في الأكل إعدادا واستهلاكا، محرم مثل أكل لحم الخنزير، وأنه أشد نكرا من ترك البسملة والحمدلة؟» (١).

فحين نديم النظر في هذه الحالة المتردية من الانفلات، نلاحظ أنه قل من ينجو من قبضة هذا المارد الحديدية، فإن الإنسان المعاصر يستهلك كل شيء تقريبا هذا من وظيفته ومن مقومات وجوده، لكن الإشكال يبرز حين يتحول الاستهلاك من وسيلة للحياة في حدها الطبيعي، باعتبار تكوين الإنسان الفطري، بما في ذلك التذوق مما لم يحرم الله على خلقه من متع الدنيا، إلى غاية يتسابق الناس في تحقيقها لذاتها.

لو نظرنا إلى الإشكالية المعروضة من الناحية المصطلحية البحتة فسنلحظ بروز هذا الفرق في التصورين اللذين ينطلق منهما كل من النهجين، يأتي مصطلح «الإنفاق» الذي ارتضاه الإسلام وتكرر وروده في كتاب الله بصيغة الأمر فقط (٦) مرات، ما بين سورة البقرة والتغابن، فضلا عن الصيغ الأخرى بين ما ورد على الماضي أو ما ورد مقرعا للمتقاعسين عن إخراج الحقوق ومناولتها لأهلها؛ وقصد من الإنفاق أن يعكس معنى الإخراج الهادف الموزون الذي لا شطط فيه، بمعنى الحث على البذل وإعطاء الحقوق، وفي إزاء ذلك نجد الصف المقابل يقول: «الاستهلاك» الذي يشي بالإفراط والإفناء وما يتبعه من أشكال الازورار والبعد عن التوسط والاعتدال.

وهذا المنحنى هو الذي وصلنا إلى حافة التكالب التي نقف عليها اليوم، وهو ما يقتضي القيام بمراجعة شاملة لمفهوم وبُنى وتشكيلات الاستهلاك، وذلك في إطار المحددات التي يضعها النهج الإسلامي، بدءا بالتعامل مع المصالح الأساسية التي أودعها الله في كونه مسخرة لمنفعة الإنسان، تطالها يد كل من امتدت يده وعرفت كيف تمسك بالقوانين السارية وتفتح كوامن أسرارها، وصولا إلى استهلاك آخر قطرة ماء تشرب أو كومة تراب تشكل تلبية لمطالب الإنسان الحيوية.

تمثل «نزعة الاستهلاك» (٢)، وفق منظور الفلسفات المادية وما انتهى الأمر إليه من حيث التعاطي مع البيئة المحيطة، وما يحف بها من مصادر مضافة، معضلة تواجه البشرية استنزافا للموارد إلى درجة إحداث اختلالات خطيرة في بنية ما يتاخمنا من عناصر الكون، ما جعل عقلاء البشرية يرفعون عقيرة الاحتجاج، ويشيرون بأصبع الإنذار؛ ولا مثال أدل على هذا من ظاهرة الاحتباس الحراري التي تكاد تختنق بها الحياة، وتستنفد جهود العلماء، كما انعكس ذلك أخيرا في مؤتمر طوكيو الذي ناقش تقريرا عن آثار هذا الاستهلاك البشع، يقع في ٢٠٠٠ صفحة، عل وعسى أن يخرج من احتشد ثمة من العلماء بتصور متماسك وقابل للتفعيل، من أجل احتواء الكارثة التي نقبل عليها قبل فوات الأوان.

هذه نتف من تجليات الواقع الحرج، ننطلق منها لفتح الكتاب كله، حيث نقرأ السطر الأول:

يشخص كتاب الله النفس البشرية، ويرسم صورة دقيقة عن نزعة التملك المركوزة فيها، والمفضي إلى الاستهلاك غير المنضبط، بعد أن ينتقل الوضع من استهلاك لإشباع إحدى الضروريات إلى استهلاك من أجل الاستهلاك، وهذا ما جعل سورة الفجر تدور أساسا حول التنديد بهذا الجنوح في أبشع صوره، على شاكلة هذا القرع على الأذهان: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾﴾ (الفجر:١٥-٢٠).

وفي سورة العاديات صورة أكثر حدة من حيث ملامح الإنسان المرسومة ثمة وقد تجاوز حد الكفاية في إشباع الرغبات الطبيعية، وأخذ يمد حباله في كل اتجاه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ (العاديات:٨)

من أبسط مسلمات إيماننا الإيقان بأن الكون مائدة مفتوحة، بسطها الخالق لنا وطلب منا، بل قل حثنا حثا مدويا ومتكررا، على أن نمد يد الانتفاع حصادا وفيرا وجنيا دانيا بعد أن تكل يد «الاستعمار» كدحا وعطاء، فحين زاغ الفهم عن هذا النهج الذي كان عليه الأنبياء والرسل (صلوات الله وسلاماته عليهم) ومن تتبع آثارهم في أخذ الأنصبة من الأسواق التي كانوا يمشون فيها، جاء التوبيخ حادا مجلجلا متضمنا تحذيرا صارخا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف:٣٢).

والمحزن أن عدوى الاستهلاك قد انتقلت إلينا، رغم ما نملكه، نحن المسلمين، من ترسانة من القيم والمعايير كفيلة بأن تحمينا من الانزلاق أو الاصطدام بالعقبات التي تعثرت بها أقدام الآخرين، فأصبحت مجتمعاتنا، وليست فقط تلك التي عانت من التخمة الجماعية، بل سجلت ظاهرة الاستهلاك المنفلت حتى في البيئات الإسلامية التي تصنف ضمن دائرة المجتمعات «الفقيرة التي تعاني من الديون».

وهنا عاملان أساسيان وراء تفشي العقلية الاستهلاكية في هذه المجتمعات إلى حد يقرب من الوباء:

أولا، الضغط الثقافي الشرس الذي أحدث تبدلا في العقليات بصورة عميقة، والتي ساهمت بدورها في إيجاد هذا الشرخ في المفاهيم، وبالتبعية في القيم الحاكمة على السلوكات، الدعاية التي استطاعت التغلغل في تضاعيف المجتمعات حتى في حال غياب العامل اللغوي، فيتم التغلب على هذه العقبة بالصورة الحية والموسيقى الصاخبة والتقليعة الأكثر غرابة، وما يحف بهذه العناصر من مؤثرات وعوامل إغراء.

ثانيهما، النهج الجديد في الإغواء والاستهواء الذي يتزعمه المنتج الصيني وما شاكله، والقائم على إشباع جميع الرغبات الاستهلاكية على وجه التقريب، بغض النظر عن القدرة الشرائية، فأصبح الفقير في أقصى أريافنا، التي ظلت إلى عهد قريب في منأى من تأثيرات هذا المنكر، يحصل على المنتج المعدل (المزيف) الذي ظل الموسر يحتكره احتكارا بينما يسيل له لعاب ذاك الفقير اشتياقا.

من مخاطر انتشار العقلية الاستهلاكية في المجتمعات التي كانت تعرف بأنها مستقرة اجتماعيا، تغييب البعد التضامني الذي لا يمكن أن يجتمع مع النمط الاستهلاكي الذي يعتبر من إفرازات الاستفراد وصرف الفضل الذي كان النهج الإسلامي قد خصصه للآخر ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ (المعارج:٢٥)، في متع لا يمكن إشباعها لأن من طبيعتها التجدد والتمدد حتى لو ملك المستهلك واديين منها.

حين نتصفح القرآن من هذه الزاوية نلحظ العناية المتنامية التي يوليها لقضية الاستهلاك؛ انطلاقا من قاعدة التوازن الجامعة المطردة، التي وضعها لنا الخالق المدبر، لتكتسب حياتنا صبغتها الخاصة التي تجعلها متجاوبة مع سنن الله السارية في هذا الكون، والتي من بينها قانون الانضباط: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ (الأعراف:٣١).

لكن الرائع أن ورود هذا الميزان مرتين في آي القرآن قد ارتبط ارتباطا وثيقا بإشكالية التعامل مع المنافع استفادة وإنفاقا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (الأنعام:١٤١).

والطريف هنا أن هذا الميزان قد تم وضعه في سورة «الأنعام»، وهي ملاحظة لها دلالتها الواضحة، ويتعمق المعنى حين نضيف كون الآية الثانية قد جاءت في سياق لا تخطئه العين، سياق نزول البشر إلى الأرض وهي مهيئة لاستقبالهم ومأمورة بأن تحسن وفادتهم بعد أن زودت بالمواد والمكونات اللازمة لإنتاج احتياجاتهم من طعام وشراب وملابس وزينة، والسماح للوافد الجديد بالانتفاع، وذلك على هذا النحو:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الأعراف:٣١).

فعند التأمل يمكننا استخراج كل ما سردناه من المعاني من هذا المعيار القرآني البسيط الذي يستطيع كل فرد من البشر استيعابه والتقيد به:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ (الفرقان:٦٧).

وبهذا يعطينا القرآن الكريم، من خلال فلسفته في الكسب والإنفاق، ترياقا لسم الاستهلاك الساري في صفوف المجتمعات البشرية المنكوبة بالفكر المنحرف!.

هوامش

١- من مقال لنا بعنوان: «معالجة قرآنية لإشكالية الحفاظ على المصادر ومطلب القيمة الإضافية»، الاقتصاد الإسلامي، عدد ٣٦٨، ذوالقعدة ١٤٣٢هـ - أكتوبر ٢٠١١م.

٢- كما يعبر روجر نوز بلانت في كتابه «ثقافة الاستهلاك».



كيف ينظر إليها التشريع الإسلامي؟

تكنولوجيا التحكم بالأمطار

د. رضا عبدالحكيم
باحث أكاديمي

تسجل البشرية قفزات تقدمية على قدر كبير من الأهمية، وذلك في مجالات العلوم التجريبية، وتلك حقيقة واقعة، ولاسيما في البحوث والدراسات ذات الصلة بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان، فعلى مدى العقود القليلة المنصرمة، طبقت تجارب عدة على سند من التراكمات المعرفية التخصصية، كان مادتها «تكنولوجيا التحكم البيئي». وموجزها استخدام تقنيات فائقة التطور، تسبر البيئة ومكوناتها، فتجري تعديلات فيها.. وكما تؤكد مصادر المجتمع العلمي المعاصر، يتبدى ذلك في تطبيقات عدة، منها على سبيل المثال إحداث الزلازل الصناعية، وخزن ثنائي أكسيد الكربون بباطن الأرض (الصهاريج الكربونية في جوف الأرض). وصهر قمم الجبال الجليدية، والتلاعب بالدماغ، والتحكم في النيازك الفضائية، وخزن الطاقة الشمسية، والتحكم في الأعاصير.. وغير ذلك كثير؛ مما ينتشر في الدوريات العلمية المتخصصة.. وهذه الدراسة تتوقف عند أحد أهم هذه التطبيقات والتي يجري بالفعل تجربتها في بعض بلداننا العربية والإسلامية.. وهي تعديل الظروف المناخية، باستخدام تقنيات التحكم بالأمطار، فيما شاعت تسميتها بـ «الاستمطار» أو «الأمطار الاصطناعية»، حيث ثارت تساؤلات شرعية حول ممارساتها.

ونعلم أن الشريعة لا تصادر العلم النافع، وطالما تم مراعاة قواعدها الكلية، كون التطبيق العملي لا يهدر الحقوق الأساسية للإنسان، ويحقق صالح المجتمع وبيئته في ضوء المقاصد الشرعية التي نص عليها فقهاء الشريعة، قديما وحديثا، وصدق رب العالمين إذ يقول ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (فاطر:٢-٣).

قبل تعرف المفاهيم العلمية التطبيقية لتقانة التحكم بالأمطار لمعرفة حكم الشرع فيها؛ يحسن الإحاطة بادئ ذي بدء بشرح (مختصر) للفرضية العلمية التي تنص على تركيب الغلاف الجوي للأرض: فالغلاف الجوي atmosphere تعبير يطلق على الهواء المحيط بالكرة الأرضية. ويتكون الغلاف الجوي من ثلاث مناطق، تلي إحداها الأخرى عندما نبتعد عن سطح الأرض في اتجاه عمودي، أي صوب السماء. المنطقة الأولى تعرف باسم الغلاف المتجانس homsphere وترتفع إلى مسافة مائة كيلومتر تقريبا. أما المنطقة الثانية من الغلاف الجوي، وتسمى بـ الغلاف المتغاير heterosphere فتلي المنطقة الأولى مباشرة، بمعنى أنها تبدأ من عند ارتفاع مائة كيلومتر عن سطح الأرض، وتمتد في الفضاء عموديا إلى ارتفاع أربعمائة وخمسين كيلومترا عن سطح الأرض، أي أن ارتفاع الغلاف المغاير هو ثلاثمائة وخمسون كيلومترا. والغلاف المغاير هذا تتباين فيه درجات الحرارة بين الليل والنهار بشكل حاد. والمنطقة الثالثة والأخيرة من الغلاف الجوي تسمى الغلاف الخارجي exosphere وتمتد من ارتفاع أربعمائة وخمسين كيلومترا فوق سطح الأرض إلى الفضاء الخارجي، حيث تندمج فيما يسمى بـ «الفضاء بين الكواكب».

المجال التقني للتحكم بالأمطار

تقنيات التحكم بالأمطار حسب المصادر العلمية تجري داخل المنطقة الأولى من الغلاف الجوي، وهي «الغلاف المتجانس»، وهذا الأخير يقسمه العلماء إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى، وهي تلك التي تلامس سطح الأرض، وترتفع إلى مسافة سبعة

عشر كيلومترا عن خط الاستواء، وإلى مسافة ثمانية كيلومترات عند القطبين. وهذه الطبقة بالذات هي أهم طبقات الغلاف الجوي من حيث تأثيرها في المناخ السائد على الأرض. وفي هذه الطبقة توجد السحب، وفيها تتكون الأمطار. وتتميز المنطقة بانخفاض درجة الحرارة فيها كلما ابتعدنا عن سطح الأرض. وهذه الطبقة يسميها العلماء طبقة تروبوسفير troposphere. ويعلوها طبقتان هما تباعا ستراتوسفير stratosphere المتميزة بارتفاع تدريجي في درجة الحرارة كلما ابتعدنا عن سطح الأرض، والأخرى ميزوسفير mesosphere والتي تمتد مسافة خمسين كيلومترا في الفضاء، ومن العجيب - سبحان الله - أن درجة الحرارة تعود إلى الانخفاض من جديد في هذه الطبقة.

إذن تقنيات التحكم في الأمطار، تجري داخل طبقة «التروبوسفير» التي ترتفع عن الأرض حتى عدة كيلومترات تحسب على أساس اختلاف موقع البلدان، ففي الكويت ومصر مثلا، يكون سقف الطبقة متراوحا بين ١١ و١٣ كيلومترا تقريبا.

كيف يجري التحكم بالأمطار؟

يتمثل نمط هذا التصرف في إنتاج الأمطار الاصطناعية والتي عادة تباشر عبر عمليات زرع الغيوم أو بذر الغيوم cloud seeding والمقصود هنا كما يقرر علماء التخصص ليس تصنيع غيوم جديدة، بل الزراعة أو البذار لمواد كيماوية في الغيوم الموجودة فعليا فوق منطقة ما، لجعل هذه الغيوم ممطرة، وأحيانا اللجوء إلى تكثيف غيوم جديدة لإحداث نفس النتيجة. وهذه التقنية، يبررها القائمون عليها كونها تستهدف كسر الجفاف في منطقة تحتاج إلى المطر بسبب ندرته فيها.

ومن المواد التي يستهلكها الخبراء في هذه التقانة، ملح الطعام، وبودرة التلك، والثلج الكربوني، وغاز البروبان المسيل وغيرها. ولكن المادة الأكثر استخداما، التي أثبتت جدواها علميا، هي ملح الفضة المؤيد SILVERIODIDE الذي يتمتع بتركيبة بلورية وبتعطش إلى الماء، مثل ملح الطعام.

ينثر هذا الملح في القسم الأعلى من الغيم المراد إهطاله، فتمتص حبيباته البلورية رطوبة الغيم ورذاذاته المائية بسرعة. ثم تتبلل حبيبات الملح، وتكبر، وتثقل، مشكلة نقاطا كبيرة من الماء أو الثلج لا تلبث ان تهطل بسرعة نحو الأرض بتأثير الجاذبية. ويؤدي هطولها وبرودتها إلى تحفيز بقية أجزاء الغيم للتكثيف والهطول كمطر أو ثلج. ومن المستطاع نثر أملاح البذار في الغيوم باستخدام الطائرات. كما يمكن نفثها من مولدات بخارية على الأرض، أو حملها عبر صواريخ تنفجر في أعالي الغيم المقصود، فيما سماه بعض الخبراء، قصف السحب.

المطر في القرآن

المطر هو الماء النازل من السحاب، في مختار الصحاح، يقال: مطرت السماء، وأمطرها الله. وفي المعجم الوجيز، يقال: أمطرت السماء، أي نزل مطرها، ويقال كذلك: أمطرت السحب أو السماء القوم، بمعنى أصابتهم بالمطر. قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأعراف:٨٤) وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ (الشعراء:١٧٣) و(النمل:٥٨)، وقوله ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ (النساء:١٠٢).

والمطر يسمى كذلك الغيث، كما نص في مختار الصحاح والمعجم الوجيز، وجاء بالأخير: «المطر، أو الخاص منه بالخير، ويطلق مجازا على السماء والسحاب والكلأ». يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ (الشورى:٢٨).

حكم الاستمطار وضوابط ممارسته شرعا

«الاستمطار» بالمفهوم العلمي كما ذكر، تقنية تتحكم في الأمطار، بهدف إنزال الماء من السماء، من خلال إحداث تفاعل بين مكونات الطبيعة التي تجوب طبقة التروبوسفير، أي إحداث مهايأة من شأنها الحصول على الماء الذي خلقه الله، وخلق عناصره المتواجدة في مكامنها الطبيعية. فالاستمطار بهذا المعنى وهو الصحيح هو وسيلة للحصول على ما خلقه الله وهو الماء، وقد سمي في مختار الصحاح «الاستمطار» «الاستسقاء»، أي طلب المطر كما ذكر في المعجم الوجيز، الذي ورد فيه «استمطر» فلان.

من منظور أن الاستمطار يمثل اليوم تحكما في إحدى قوى المناخ، فإن سليمان عليه السلام، كان أول من تحكم في قوى المناخ المتمثلة في الريح، انظر قوله تعالى ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الأنبياء:٨١) قوله ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ (ص:٣٦).

في التفسير: سخر الله لسليمان الريح العاصفة، تجري بأرض الشام. ذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجن، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من

الأرض، فينزل وتوضع آلاته وحشمه.

وعن سعيد بن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ثم يأمر الطير فتظلهم ثم يأمر الريح فتحملهم، وقال عبدالله بن عبيد بن عمير كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم، كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة فترتفع حتى يصعد على فراشه ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء، وهو مطأطئ رأسه ما يلتفت يمينا ولا شمالا، تعظيما لله عزوجل، شكرا لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله عزوجل، حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه (١).

لقد عرفت شريعتنا «الاستمطار» بطلبه من المولى عزوجل، وذلك عند الحاجة، فهو تبارك القادر على كشف الجفاف، لينزل إلينا المطر، ألم يأمرنا رب العالمين باستغفاره والتوبة إليه حتى لا يمنع خيره عنا؟.. ذلك قوله عزوجل ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ۝٥٢﴾ (هود:٥٢)

أصاب الناس على عهد النبي ﷺ قحط، وتأخر نزول المطر عنهم، فطلبوا منه ﷺ سؤال ربه الغيث، فأجابهم لذلك كما روى البخاري وغيره عن أنس ابن مالك قال: «أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم جمعة قام أعرابي، فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه، وما نرى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل من منبره، حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ، فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، وبعد الغد الذي يليه حتى الجمعة الأخرى» (٢). كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه خرج بالناس يستقي، فصلى بهم ركعتين وحول رداءه، ورفع يديه، فدعا واستقى، واستقبل القبلة (٣).

إن اللجوء إلى تقنيات العلم الحديث بإنزال المطر، ليس فيه - والله أعلم - خروج على مبادئ الشارع عزوجل، لأن الأصل في الأشياء هي الإباحة، وتكنولوجيا التحكم بالمطر مباحة طالما لم يرد شيء عن تحريمها، فهي صناعة بشرية تستهدف توجيه عناصر البيئة التي خلقها الله، وذلك للمنفعة، ولاسيما مع معاناة كثير من البشر الذين قدر لهم العيش في المناخ الصحراوي الجاف. أو معاناة مجتمع ما من شح الموارد المائية نتيجة التوسع السكاني، وهل يصح تحريم تدخل العلم لمعالجة الجفاف ومحاربة التصحر من خلال تكنولوجيا إنزال الأمطار؟.

إن عملية الاستمطار تشبه عملية التلقيح الصناعي للمرأة، حيث التدخل البشري المحدود والمسموح به شرعا وأخلاقا، وكذلك طفل الأنابيب، فالمادة أساس الخلق خالقها الله عزوجل، وما التلقيح سوى التصرف فيما خلقه الله، ألم يقل ربنا ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ (الواقعة:٥٧-٥٩).

ومثل الاستمطار، تقانة تحلية المياه المالحة، عبر صناعة بشرية لآلية الدورة المائية الطبيعية، من خلال التبخير والتكثيف، وذلك أمر لا تعارض فيه مع المبادئ الشرعية، والتي ترى في الماء العذب ضرورة لصحة الإنسان، ألم يقل ربنا ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ۝٧٠﴾ (الواقعة:٧٠).

إن تكنولوجيا التحكم بالأمطار فيما توصلت إليه الدراسة هي تدخل بشري يعتمد عملية صناعية تمثل سببا تحت مشيئة الله، إن شاء الله أمضاه وإن شاء أبطله، قال بعزته ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ (التكوير:٢٩).

وإذا كانت هذه التقانة جائزة شرعا، فإنها ينبغي أن تكون محاطة بضوابط الشريعة في مادة المحافظة على حقوق الجوار الدولي، بحكم أنها من المشروعات العملاقة، تلك الحقوق التي تعرضت للافتئات من جانب أولئك الذين أسسوا تكنولوجيا التحكم البيئي فاستخدموها في غير الأغراض السلمية، كما في هندسة المناخ للأغراض العسكرية (٤)، بقصف السحب وحرب الأنواء وحرف الأعاصير والتفجيرات النووية الفضائية، وإحداث الزلازل الصناعية والقائمة تطول.

وصدق رب العالمين حيث يقول: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٩ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥١﴾ (الزمر:٤٩-٥١).

الهوامش

١- تفسير ابن كثير، الجزء الثالث، ص ١٨٣.

٢- (أخرجه البخاري) بهذا اللفظ في الجمعة باب الاستسقاء في الخطبة ١ / ٣١٥ رقم ٨٩١.

٣- (أخرجه البخاري) عن عباد بن تميم عن عمه عبدالله بن زيد بن عاصم في كتاب الاستسقاء باب تحويل الرداء في الاستسقاء ١: ٣٤١ رقم (٩٦٠). ومسلم في أول كتاب الاستسقاء ٢: ٦١١ رقم (٨٩٤).

٤- ألهمت تجارب تخصيب السحب إبان الحرب الباردة تنبؤات كبرى حول قدرة أميركا على التحكم في المناخ واستخدامه للزراعة وكسلاح ضد الخصوم.

THE CLIMATE Engineers ، the Wilson quarterly ، ٢٠٠٧.

عبقرية اللغة العربية

محمد المبارك
أستاذ فقه اللغة في كليتي الآداب والشريعة

اللغة من أفضل السبل لمعرفة الشخصية وخصائصها، فهي الأداة التي سجلت منذ أبعد العهود أفكارنا وأحاسيسنا، بل هي التي فرضت علينا من حيث نشعر ولا نشعر قوالب فكرية ومفاهيم وآراء وعواطف، فهي البيئة الفكرية التي نعيش فيها كما نعيش في أرضنا بجبالها وسهولها وصحرائها وغيطانها، ولا شك أن البيئة الفكرية أشد أثرا من البيئة الأرضية في العقول والنفوس، فعن طريقها عرفنا ماضينا القريب والبعيد، وعن طريقها تلقت الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة الآراء والعقائد والمفاهيم والعواطف جيلا بعد جيل، وعن طريقها كذلك سنعرّف الأجيال المقبلة بآرائنا وأفكارنا.

فاللغة تمثل إلى حد كبير خصائص الأمة، وتحتفظ بالكثير من صور تاريخها ورواسب ماضيها إلى جانب صورها الماثلة وأفكارها الحاضرة.

إن دراسة اللغة العربية في رأيي هي خير السبل لمعرفة الشخصية العربية في خطوطها وملامحها وسماتها خلال العصور، وهي السبيل إلى المتميز بين الجوهر الأصيل الثابت والعرض الطارئ المتبدل من هذه الشخصية، وقد كانت اللغة العربية عبر التاريخ مسايرة لشخصية الأمة العربية، تقوى إذا قويت وتضعف إن ضعفت، وكان انهزامها دوما أمام اللغات الأخرى وانحطاطها إلى درك العامّيّة مظهرا من مظاهر انهزام الشخصية العربية وانحطاطها، كما كان بعثها بفكرة القضاء على العربية بترجيح العامّيّة أو اللغات الأجنبية عليها، أو بإغراقها بسيل من الألفاظ والتعابير الدخيلة الغريبة.

وإن أشد ما يلفت النظر أن القرآن الذي جاءت صيغة الخطاب فيه في جميع المواطن والمجالات، إنسانية عامة لم يخاطب بها قبيلة أو قوما، قد وصف نفسه بكونه عربيا في مواطن كثيرة:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾.

ولذلك غدت العربية -وهي لسان الأمة العربية- لغة تحمل رسالة إنسانية بمفاهيمها وأفكارها، واستطاعت أن تكون لغة حضارة إنسانية واسعة اشتركت فيها أمم شتى، كان العرب نواتها الأساسية والموجهين لسفينتها، اعتبروها جميعا لغة حضارتهم وثقافتهم، فاستطاعت أن تكون لغة الحقائق الرياضية والطبيعية، ولغة الحكم والتشريع، ولغة التجارة والعمل، ولغة الفلسفة والمنطق، ولغة الروح بما فيها من أدق الخواطر وأرق الأحاسيس والعواطف، ولغة الأدب والفن.

لقد تجلت عبقرية اللغة العربية في مجموع آثارها التي ظهرت خلال العصور، وفي فنون أدبها وأساليبها البيانية، وفي طريقتها في نظم الكلام وتركيبه وربط أجزائه، وفي مفرداتها وألفاظها، وإن خصائصها المنطقية والفكرية والفنية لتتبدى وتتكشف في ذلك كله، ولهذا كان الكلام عن عبقريتها بوجه عام واسع الأطراف تحتاج دراسته إلى زمن طويل، ولا يكفي للإحاطة به الزمن القصير، لهذا فإني سأكتفي بدرس (الكلمة العربية)، التي هي الوحدة اللغوية الأساسية، وإلقاء ضوء على مجموع (المفردات العربية)، واستنتاج ما ينكشف وراء مظاهر الألفاظ والمفردات من حقائق مستورة وخصائص كامنة، محاولا أن أتجاوز الملاحظات الجزئية والخواطر العارضة التي عنت لفقهاء اللغة إلى وضع أسس نظرية عامة في المفردات العربية.

إن الكلمات في اللغات الحية ليست كائنات تعيش منفردة مستقلة، فإن هذه اللغات تقدم لنا كلماتها مصنفة في مجموعات ترتبط أفراد كل مجموعة منها بنوع من الرباط يختلف في قوته وضعفه وظهوره وخفائه من لغة إلى أخرى، وكلما ابتعدت اللغة عن الطور الابتدائي كان هذا الارتباط أوضح وأقوى.

وللغة العربية في هذه الناحية من الخصائص ما ليس لغيرها من اللغات الحية الراقية، وهو ما سنبيّنه في بحثنا هذا.

إن المعاجم العربية تقدم لنا مفردات اللغة في مجموعات تشترك أفراد كل مجموعة منها في حروف ثلاثة تعتبر المادة الأصلية لتلك المفردات، وفي معنى عام مشترك بينها، ثم تنفرد كل واحدة من مفردات المجموعة بصيغة تصاغ فيها تكسبها معنى خاص ضمن إطار المعنى المشترك، ويكون من بعد هذا لكل منها حياة وتاريخ خاص يكسبها شخصيتها وذاتيتها ومعناها المحدد الدقيق مع ما يحيط بها من هالات وظلال وما تبعثه في النفس من شعور خاص هو نتيجة ملابساتها وظروفها التاريخية.

وعلى هذا فإن الكلمة العربية تتكون من عناصر ثلاثة هي قوامها وهي التي تعطي باجتماعها كل ما في الكلمة من مادة ومعنى، وإليكم هذه العناصر:

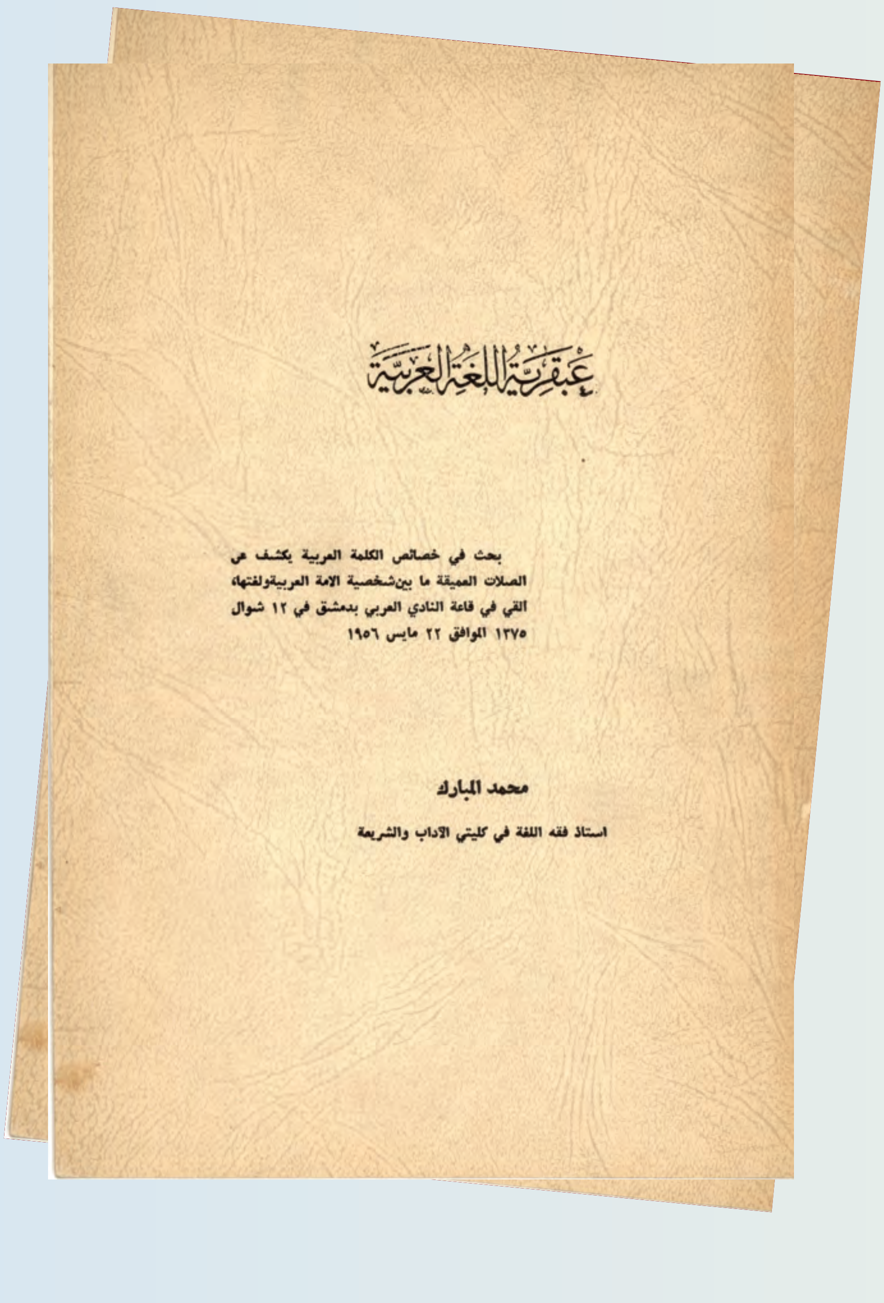
١- مادة تركيبها وهي الحروف أو الأصوات التي تتألف منها وهي على قسمين: نواة هي الحروف الثلاثة الأصلية التي تتركب منها جميع الكلمات العربية كالحروف (ق. ط. ع) في الكلمات: (اقتطاع. منقطع. قاطع. قطاع. مقطوعات. إقطاعية. انقطاع. قطيع. قطيعة. مقاطع).

والحروف الزائدة التي تتبدل مع ثبات هذه الحروف الثلاثة الثابتة كالميم والألف والتاء والنون والواو.

٢- معنى الكلمة، المتكون كذلك من معنى أصلي يتجلى في الحروف الثلاثة الأصلية والمعنى الزائد الناشئ عن تخصيص المعنى الأصلي وتحديده عن طريق الصيغة التي تصاغ فيها الكلمة، وذلك في مثل (مقطع وقاطع ومقطوع)، فهي كلها تتضمن معنى القطع بوجه عام، ولكن المقطع يدل على المكان الذي وقع فيه القطع، وقاطع تدل على فاعل القطع، ومقطوع تدل على ما وقع عليه القطع.

٣- المعنى الخاص للكلمة وهو الذي يكون شخصيتها الذاتية الناشئة عن ظروفها التاريخية وملابساتها والبيئة أو البيئات التي عاشت واستُعملت فيها، فدلالة (القطيع) على مجموعة من الغنم اقتطعت عن إخوانها، و(الإقطاعية) للدلالة أولا على إقطاع الأرض في عصر من العصور، ثم دلالتها أخيرا على نظام اجتماعي معين مبني على الملكية الكبيرة، كلها ناشئة عن ملابسات تاريخية لكل كلمة من هذه الكلمات.

ولو أخذنا مثلا آخر الألفاظ التالية:


عبقرية اللغة العربية

بحث في خصائص الكلمة العربية يكشف عن الصلات العميقة ما بين شخصية الامة العربية ولغتها، القي في قاعة النادي العربي بدمشق في ١٢ شوال ١٣٧٥ الموافق ٢٢ مايس ١٩٥٦

محمد المبارك

استاذ فقه اللغة في كليتي الآداب والشريعة

شـريـك، شـركـة، الـشـرك، الاشتراكية، الاشتراك، المشاركة، لوجدنا أن هـذه الألـفـاظ تتكرر فيها الحروف الثلاثة (ش ر ك)، كما يتكرر فيها كلها معنى التعدد والكثرة، ولكن (الشريك) يدل على أحد المتعددين المشتركين، و(الـشـركـة) تـدل عـلـى الصفة المجردة الناشئة عن الاشتراك أو التعدد، و(الـشـرك) يـدل على التـعـدد، ولـكـن كـلـمـة (الشرك) نـشـأت فـي مـلابـسـات تاريخية خـاصـة حـتـى أصـبـح معناها الاعتقاد بتعدد الآلهة، كما أن كلمة (الاشتراكية) أصبحت لها شخصيتها الخاصة الناشئة عن ظروف تاريخية خاصة، وأصبح لها مفهوم خاص محدد، فهي تعني مذهبا أو مذاهب اقتصادية وسياسية مبنية على فكرة العدالة الاجتماعية وعلى تدخل الدولة في تحديد الحرية الفردية في الميدان الاقتصادي.

١- مادة الكلمة وتركيبها:

تمتاز اللغة العربية عن غيرها مـن الـلـغـات وتفضلـهـا بوجود عنصر مشترك واضح بين أفراد المجموعة الـواحـدة، فالألفاظ العربية كالعرب أنفسهم تجتمع فـي قـبـائـل تـربـطـهـا لـحـمـة من النسب والقربى، والكلمة العربية تحمل دوما طابع نسبها ومسمى يـدل عـلـى أصـلـهـا وقرابتها، والـتـوالـد فـي اللغة العربية أو الاشتقاق كما يسميه اللغويون يقوم على الاحتفاظ دوما بالمادة الأصلية المتكونة من حروف ثلاثة تصب في قوالب متعددة متنوعة مع ما يضاف إليها من زوائد من الحـروف والحـركـات. قد تبتعد الكلمة عن أخواتها وقريباتها في المعنى، وقد تنتقل في الاستعمال إلى بيئة أخرى، ولكنها دوما تدل على نفسها بالدلالة على أصلها، فـأول مـقـوّمـات الشخصية عند العرب فـي مـفـردات لغتهم وفي أفرادهم هـي الصفة الجماعية، أي: صفة الانتماء إلـى جماعة، وأول مـا يفاجئنا مـن كـل لـفـظ عـربـي حـروف أصلية تـدل على المعنى الأصلـي الـقـديـم، وتدل على المجموعة التي تنتسب إليها الكلمة.

قـد تـبـتـعـد الـصـلـة بـين المعنى الأصلي للمادة والمعنى الحادث للكلمة حتى تكاد تخفى الصلة، ولـكـن الـصـلـة الـصـوتـيـة، أي: الاشتراك في الحروف، لا تخفى أبدا، وتكون هي سبيلنا إلى معرفة الأصـل، وذلـك بتقدير المراحل الضائعة التي مرت بها الكلمة من المعنى الأصلي القديم إلى المعنى الطارئ الحديث، وذلك ما حاوله أبـو الحـسـين أحـمـد بـن فـارس في معجمه مقاييس اللغة، فقد شـارك جميع أصـحـاب المعاجم العربية في جمع الكلمات المشتقة من مـادة واحـدة فـي بـاب واحـد، وزاد عليهم بتتبعه لمعاني مفردات الباب الواحد وإرجاعه إلى أصل واحد أو عدة أصول من المعاني.

إن الألفاظ العربية تبقى محافظة على أنسابها مهما نـأت ديارها، وذلك لأن الأصوات العربية أعني الحروف الملفوظة لم تتغير خلال عصور طويلة، فقد بقيت ثابتة في مخارجها وصفاتها منذ أقدم عهد وصلتنا آثاره حتى يوم الناس هذا، وكان للقرآن الكريم في ذلك الفضل الأكبر. ولا يعتد بما طرأ من تغيرات على الأصوات في اللهجات العامّيّة لبقاء الفصحى سليمة نعود إليها كلما ابتعدنا عنها.

وسبب آخر في محافظة الألفاظ العربية على أصولها وأنسابها؛ قلة الدخيل ومعرفة الغريب الذي دخل العربية ولا يزال حتى يومنا هـذا يـشـار إلـيـه، فـلا تستطيع تهجين الألفاظ العربية.

في حين أن ألفاظ العربية كالربا والـربـوة وأربـى عليه تـبـدو فيها الحـروف المشتركة ظاهـرة، وما على السامع إلا أن يفكر قليلا ليـعـلـم أنـهـا تـشـتـرك فـي معنى الـزيـادة والـنـمـو، وإن (العادة والاعـتـيـاد والـعـيـد والإعـادة والعودة والاستعادة) بينها حروف مشتركة، وقليل من التأمل يكفي لإدراك أن بينها معنى مشترك هو التكرار والعود.

ولا يقع الاشتباه في أصل الألفاظ العربية إلا في أحوال نادرة، لأن وجود العنصر الثابت في الكلمة الذي يتجلى في الحروف الثلاثة لا يدع مجالا للاشتباه.

وتكفي الملكة اللغوية عند العربي ليعرف أن التقوى من الوقاية، والـتـراث مـن ورث. هـذه نظرة ألقيناها على المادة الأساسية التي تتكون منها مجموعات الألفاظ أو المفردات العربية.

٢- معاني الألفاظ:

فـإن لكل مجموعة تشترك في الحـروف الثلاثة الأصلية معنى عـامـا يـؤلـف الطبقـة الأصلية المشتركة لمفردات المجموعة، ولكن الألفاظ قد تبتعد عن هذا المعنى الأصلي عن طريق التعميم أو التخصيص أو الانتقال للمعنى المجاور.

فالعقل هـو الـربـط، ثـم استعمل لالتقاط الذهن للأشياء، والوعي هـو الاستيعاب ومنه الـوعـاء، ثم

استعمل للاستيعاب الذهني أو النفسي.

وإن ثبات الحروف الأصلية في اللغة العربية يساعد على كشف العلاقات بين الألفاظ، بل يساعد على كشف العقلية العربية ومعرفة كثير من عادات العرب الغابرة، فمن ذلك مثلا: كلمتا (الجار) و(الجور)، والجار عند العرب هو الذي دخل في حمايتك وفي جوارك فأجرته، أي: أزلت عنه الجور وهو الظلم، كما تقول أشكيته أزلت شكايته وأعتبته أزلت عتبه، فمفهوم (المجاورة) عند العرب إذن ليس هو التقارب في المسكن فحسب بل هو بالدرجة الأولى الحماية والموالاة والمناصرة وإزالة الظلم.

ولو أخذت كلمة (صديق) في العربية لوجدتها في مادة (الصدق) مع أخواتها، فمفهوم الصداقة عند العرب مبني على (الصدق)، كما أن كلمة (العدو) وهو الخصم تجدها مع أخواتها عدا واعتدى، والعدوان وهو التجاوز والظلم.

يبدو لنا مما تقدم بحثه أن اللغة العربية تتجمع فيها المعاني العامة أو الكلية في مجموعات من الألفاظ ومعانيها، وهذا الثبات لم يمنع التطور الحيوي الذي تؤدي به اللغة وظيفتها، ولكنه أبقى الصلة مستمرة بين عصور اللغة، فبقيت جسما حيا واحدا مستمرا وتلقفتها الأجيال العربية جيلا بعد جيل، فانطبعت في ذهنها هذه المعاني الكلية، وبقيت هذه الصلات بين الألفاظ والروابط بين المعاني والمفاهيم مستمرة في نفوسهم تشعرهم بماضيهم وبأنفسهم دون أن تعوقهم عن النمو والتقدم.

٣- صيغ الألفاظ وأوزانها:

إن مادة الكلمة في اللغة العربية أعني أصواتها أو حروفها الثلاثة الأصلية نجدها مركبة في بناء، أو مصبوبة في قالب، أو مصوغة في صيغة، وهكذا تقدم لنا اللغة العربية مفرداتها فمادة (ك ت ب) نجدها في (كتاب وكتب ويكتب وكتبت ومكتب واستكتب ومكاتبة...)، ومادة (ع ل م) في (علم يعلم وتصاريفها، وعالم ومعلوم ومعلومات وعليم وعلامة واستعلم واستعلامات وتعليم وأعلام...).

فتوليد الكلمة من مادتها أو اشتقاقها من أصلها يكون بأخذ مادتها الأصلية، أي: أصواتها الثلاثة وتركيبها مع حروف أخرى زائدة في بناء معين، أو صياغتها في صيغة ذات وزن موسيقي معين، ويدخل في هذا التركيب حركاتها التي ليست في حقيقتها إلا حروف مد قصيرة وقد يكون الزائد أحد الحروف الأصلية نفسها، فيصبح الحرف الأصلي مشددا أو مضاعفا.

فبناء الكلمة العربية أشبه بهيكل البناء المبني أو بالمعدن المصوغ بعد إذابته أو المصبوب في قالب خاص. وتسمى هذه التراكيب الصوتية للألفاظ في اللغة العربية أبنية وصيغا وأوزانا. ذلك أنها من جهة (بناء) لكونها تركيبا خاصا للحروف، وهي (صيغة) باعتبار توزيع الحروف الأصلية والحركات والحروف الزائدة توزيعا خاصا يشبه إذابة المعدن وصياغته في قالب معين أو صيغة، وهي أخيرا (وزن) لأن جميع الكلمات التي تكون من صيغة واحدة لها وزن موسيقي واحد من الواجهة الصوتية، فالكلمات التي على صيغة فاعل مثل (صاحب وكاتب وشارك وعاتب وسافر) على وزن موسيقي واحد، وكذلك الكلمات التي على صيغة فعلان أو فعلول أو فاعول أو يفعل أو فعلت.. إلخ، فلكل كلمة عربية مادة وصورة ومعنى، فالصورة هي التي تتجلى في شكلها والتي يمكننا أن نسميها كما سماها القدماء بنية أو بناء وصيغة أو وزنا.

وإن للصيغ وظيفة فنية لا نظير لها في اللغات الأخرى، ذلك أن الكلام العربي يتألف من ألفاظ ترد كلها إلى (أوزان موسيقية) محددة، وأن الكلمات التي تصاغ في صيغة واحدة هي على وزن موسيقي واحد، بالإضافة إلى اشتراكها في معنى منطقي واحد؛ فيكون كل كلام عربي مجموعة من التراكيب الموسيقية تتألف من وحدات موسيقية متنوعة، فيها المتماثل والمتشابه والمختلف، حتى إن الكلام العربي ليبدو كأنه زخارف الفن العربي التزييني في صوره المتناظرة والمتشابهة والمتكررة التي ترجع إلى عدد من القوالب والأجزاء التزيينية، وهذا هو سر موسيقية اللغة العربية وجمال إيقاعاتها وحلاوة نغماتها، ولاسيما إذا وقع ناظم الكلام على أنواع خاصة من التأليف والمزاوجة من الألفاظ، وقد تجلى ذلك في شكله الأكمل في القرآن الكريم.

هذا عدا ما في وزن بعض الصيغ من علاقة واضحة بين معناها ووزنها كفعال للمبالغة، وتفعل للتأني والتمهل في فعل الشيء.

٤- إن طريقة اللغة العربية هذه في صياغة الكلمات وبناء الألفاظ تختلف اختلافا جوهريا عن طريقة اللغات الهندية والأوروبية، فإن هذه اللغات ليس فيها ما يشبه الصيغة في العربية، ذلك أن تصريف الكلمات فيها وتوليدها إنما يكون عن طريق إضافة السوابق واللواحق إلى الكلمات، أو دمج كلمتين ونحتهما في كلمة واحدة. كما أنها فاقدة للبناء الموحد والوزن الموحد لكل نوع من أنواع الكلمات الدالة على معنى منطقي واحد.

الدكتور أحمد بن محمد الضبيب مدير جامعة الملك سعود سابقا:

بعض وسائل الإعلام تهدد الفصحى

حوار: صابر رمضان

أكد الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الضبيب مدير جامعة الملك سعود سابقا وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة أن اللغة العربية تتعرض لهجمات شرسة، غير أن من أهم عوامل ضعفها ضعف الخيط الوجداني الذي يربطها بأهلها، بفعل محاولات القوى المعادية للإسلام، بغرض إبعاد العربي عن لغته وتراثه، وردا على اتهام لغة «الضاد» بالعجز وعدم مواكبة التطورات العلمية والحضارية، نفى «الضبيب» ذلك مؤكدا أن هذا القول غير صحيح وتنقصه الدقة، فاللغة العربية لغة غنية، ولها عمق حضاري، وكفاها شرفا أنها لغة القرآن، بالإضافة إلى أن لها امتدادا تاريخيا وغنى معجميا، واستطاعت في الماضي أن تواجه الحضارات العالمية وتأخذ منها وتضيف إليها، ولا تقل عن أي لغة حية في قدرتها على الاستجابة لمتطلبات العصر الحديث، واعتبر مدير جامعة الملك سعود السابق أن تعريب العلوم والطب تعد قضية الأمة الكبرى، ولن يكون للعرب تقدم ما لم تدرس العلوم والطب باللغة العربية، «الوعي الإسلامي» التقت الدكتور «الضبيب» على هامش مشاركته في دورة مجمع اللغة العربية الثمانين بالقاهرة، وقد كان هذا نص الحوار معه.

• بداية.. كيف تصف المشهد الثقافي في ظل ما تشهده الأنظمة العربية من متغيرات؟

- المشهد الثقافي في بلادنا العربية بشكل عام مشهد ملتبس، فيه الكثير من المتناقضات، وقد انبثق عن ذلك كثير من الدعوات والأفكار التي لا تخدم الأمة العربية، بل إن الهبوط في اللغة والثقافة والقيم يكاد يكون طابعا يطبع هذا المشهد.

• كيف تشخص مؤسساتنا التعليمية والمراكز البحثية في الوطن العربي، وما وصلت إليه الآن؟

- مؤسساتنا التعليمية في كثير منها تفتقر إلى الجدية والجودة، وتجتاحها موجة التقليد دون الابتكار، ولن تتمكن من الخروج من حالة التخلف الذي تعيشه معظم هذه المؤسسات ما لم تتخذ خطوات استراتيجية مهمة للخروج من حالة الجمود والركود والتقليد إلى حالة الانطلاق والمشاركة الفاعلة في الساحة العالمية، ومن أكثر الخطوات الاستراتيجية المهملة في هذه الجامعات خطوة «التعريب» والتدريس باللغة العربية، من أجل توطين العلم في المجتمع العربي، وإقدار العربي على الاختراع والابتكار.. وهي خطوة مهمة تحتاج إلى قرار سياسي.

• واقع حال الأزمة يؤكد أن قضية الثقافة أصبحت مهمشة، ربما عن قصد أو دون قصد، ما أدى إلى تخريج أجيال فارغة الذهن .. كيف يمكن رفع درجة الوعي الثقافي بشتى أنواعه لدى أبناء الأمة؟

- ليس هناك مواقف جدية لدى المسؤولين



في البلاد العربية من أجل تعميق الثقافة في المجتمع. وكل ما هو موجود هو الاعتناء بالقشور على حساب الثمار، فقد أصبحت الثقافة في البلاد العربية غناء وطبلا ورقصا، ولم تعد أدبا وفكرا، وأصبح الراقصون والمهرجون أبطالا ثقافيين. وتدهورت اللغة التي يكتب بها الأدباء والمثقفون، وأصبحت العامية سيدة الموقف، وبعضهم يمزج بين العامية والأجنبية.

● اللغة العربية تتعرض لحروب مستمرة وهجمات مغرضة.. ترى ما أهم عوامل ضعفها اليوم؟

– أهم عوامل ضعف اللغة العربية هو ضعف الخيط الوجداني الذي يربطها بأهلها، بفعل محاولات القوى المعادية إبعاد العربي عن لغته وتراثه، فاكتساح اللغة الأجنبية للسوق والمدرسة والجامعة والمستشفى والفندق، ووسائل الحياة الأخرى يضعف اللغة العربية ويجعلها مهمشة، بعيدة عن الاستعمال.

● في رأيك.. ما الآليات التي يمكن اعتمادها للرفع من مستوى أداء اللغة العربية عند الناشئة؟

– أهم هذه الآليات ربط الصغار باللغة العربية منذ النشأة، وذلك بغمرهم باللغة العربية في مدارس رياض الأطفال والمدارس الابتدائية، وتعليمهم الحديث باللهجة الفصيحة السهلة، فإذا ارتبط بها الناشئة منذ صغرهم فلا خوف عليهم من تعلم اللغات الأخرى فيما بعد، بل تكون هذه اللغات معينة لهم.

● هل هناك أثر للتحدث باللهجة العامية على حساب لغة القرآن الكريم، من وجهة نظرك؟

– اللغة دائما هي الوسيلة التي من خلالها يمكنك التواصل والتفاهم بين أفراد أي مجتمع، ولا يمكن أن تكون كذلك إلا من خلال الضوابط الحاكمة لاستخدام اللغة، خاصة أن أي لغة بلا قوانين تحكمها تعد بمثابة الجسد بلا روح.. لا يمكن أن يحيا، والفصحى هي المنوطة بالنظم والقواعد، وهي السليمة من الخطأ في كلماتها وضبط حروفها، والصحيحة بنية وشكلا، والفصحى تتمثل في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب الموثوق بهم نثرا وشعرا، إلى عصور الاحتجاج، وقد من الله على الفصحى بالخلود بأن جعلها لغة القرآن الكريم، وتمسكنا باللغة العربية الفصحى، ودفاعنا عنها يعد تمسكا بالإسلام ودفاعا عنه، لكن التحدث بالعامية يؤثر سلبا على لغة الضاد الجميلة، حتى بين أفراد المجتمع الواحد، وخاصة أن اللغة هي الهوية التي يجب ألا نفرط فيها بأي حال من الأحوال، وإذا كان المولى عزوجل قد شرف اللغة العربية وأعطاها هذه المكانة، فإنه يجب علينا أن نحافظ عليها.

● وماذا يجب علينا فعله تجاه لغة الضاد الجميلة؟

– ينبغي علينا – نحن المسلمين – أن نهب



وننتفض من أجل الحفاظ على لغتنا، بل أرى أن الحفاظ عليها والذود عنها فرض عين علينا جميعا، وهذا يتأتى بالعمل المثمر أفرادا وجماعات؛ نطقا وكتابة، كما يجب علينا أن نغرس الاعتزاز في نفوس الناطقين بها، وبقدر اعتزازنا بها ترقى، كما أن الفصحى من أقوى العوامل التي تساعد على نهضة الأمة، ومن هنا يقول أستاذنا عباس العقاد: «زوال اللغة في أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها، ولكن زوال العربية لا يبقي للعربي أو المسلم قواما يميزه عن سائر الأقوام، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم، فلا تبقى له باقية من بيان، ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان». كما أن دراستنا للغة العربية يجب ألا تقوم على أنها لغة تدرس فقط، بل يجب أن تكون على أساس أنها تتم من خلال وازع ديني، خاصة أن دفاعنا عن اللغة يعد دفاعا عن الإسلام.

● كيف ترى حال الترجمة الآن من وإلى اللغة العربية؟

– حال الترجمة كحال غيرها من الشؤون الثقافية من حيث الفوضى والالتباس، فالترجمة في البلاد العربية إلى جانب قلتها وضعفها، فهي أيضا مبددة ومشتتة وغير موجهة من أجل ترقية المجتمع العربي.

لو كان التدريس في جامعاتنا العربية باللغة العربية لكان للترجمة دور كبير في تقدم العلم وازدهار الفكر، وإذا توطن العلم باللغة العربية أصبح للترجمة دور كبير في تثقيف المجتمع.

● كيف تقيم قضية تعريب العلوم والطب؟

– قضية تعريب العلوم والطب هي قضية الأمة الكبرى، ولن يكون للعرب تقدم ما لم تدرس العلوم والطب باللغة العربية، كما يحدث في جميع دول العالم المتقدمة. فليس هناك تقدم لأي أمة إلا من خلال لغتها، لأن اللغة القومية أو الوطنية هي التي تختزل المعارف والمعلومات، كي تنقلها للأجيال إلى جانب أن نقل تلك العلوم للغة العربية يجعلها في كثير من الأحيان سهلة الفهم، من قبل الطلاب العرب، هذا إلى جانب أن العلم إذا تخلل العقل والفكر العربي سيكون أكثر تأثرا ومعرفة وتشبعا بهذا العلم من اللغات الأجنبية.

الهبوط في اللغة والثقافة والقيم أصبح طابعا في المشهد الثقافي

● وكيف ترى حملات تعريب اللغة العربية؟

- اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، وهي العامل الأساسي الذي من خلاله نستطيع الحفاظ على هوية الشعوب العربية، لكن هناك حالة لا مبالاة باللغة العربية، والتي تعد الركيزة الأساسية للحفاظ على هويتنا العربية والإسلامية، والحال أن كل الشعوب العربية أصبحت تهتم باللغات الأجنبية، تاركة لغتها الأم، ولم تمنحها الاهتمام.

● في رأيك.. كيف نستفيد من المصطلحات المعربة في واقعنا العملي؟

- بالتفاني في الكتابة والحديث ووسائل النشر، يمكن الاستفادة من كل تلك الوسائل في إحياء اللغة العربية والمصطلحات أيضا.

● كأكاديمي متخصص في اللغة العربية، كيف تقيم دور الأزهر الشريف لإحياء علوم اللغة؟

- بلاشك الأزهر الشريف هو منارة عظيمة في العالم الإسلامي، وقد حافظ على اللغة العربية خلال القرون الماضية، وهي رسالته المستمرة حتى الآن، وتنمية اللغة والدفع بها لتكون لغة العلم والمعرفة لهذا العصر.

● ما تعليقك على انتشار اللهجة العامية في وسائل الإعلام المختلفة؟

- مما لاشك فيه أن انتشار العامية في وسائل الإعلام يمثل ظاهرة تهدد الفصحى.. صحيح أن العامية هي لغة الشارع التي نتفاهم بها، لكن هذه اللهجة يجب ألا تتعدى ذلك.. وإذا كان لها أن تدخل في مجال الإعلام فيكون في مجالات محددة، كبعض



د. «الضبيب» في سطور

- أحمد بن محمد الضبيب، ولد بمكة المكرمة.
- أستاذ بقسم اللغة العربية كلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض.
- حصل على الدكتوراه من جامعة «ليدز» بالمملكة المتحدة ١٩٦٦م.
- عين رئيسا لقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود «الرياض» سابقا.
- عين وكيلا لجامعة الملك سعود للدراسات العليا والبحث.
- عين مديرا لجامعة الملك سعود.
- أسس جمعية اللهجات والتراث الشعبي في جامعة الملك سعود «الرياض» سابقا ١٣٨٦هـ، وهي أول جمعية علمية لجمع التراث الشعبي واللغوي في السعودية، وانتخب رئيسا لها.
- حصل على ميدالية الاستحقاق من الدرجة الأولى للمملكة العربية السعودية.
- عضو المجلس الأعلى للآثار في السعودية.
- عضو المجلس الأعلى للإعلام في السعودية.
- عضو المجلس الأعلى لجامعة الملك سعود «الرياض» سابقا.
- أمين عام جائزة الملك فيصل العالمية، اعتبارا من تاريخ إنشائها.
- عضو المجلس الأعلى لجامعة الملك فيصل.
- عضو أكاديمية المملكة المغربية منذ إنشائها عام ١٩٨٠م.
- عضو المجلس الاستشاري لمركز الدراسات العربية في جامعة جورج تاون بواشنطن.
- يكتب في العديد من الصحف والمجلات، وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات، داخل المملكة وخارجها.

المسلسلات أو الدراما، أما أن تكون لغة برامج الحوار، وكذلك ندوات الثقافة، فهو أمر مؤسف حقا.

● وما الدور المأمول من حكوماتنا العربية كي نعود باللغة لسابق عهدها؟

- نتمنى أن تكون هناك قرارات سياسية يتخذها المسؤولون في البلدان العربية من أجل إنصاف اللغة العربية والعناية بها من استشراء اللغات الأجنبية بالدرجة الأولى، ومن العاميات بالدرجة الثانية، وجعلها سهلة، واستخدامها ميسورا، وجعل الإعلام المؤثر الكبير في لغة الشعوب أقرب للغة العربية الفصحى السهلة الميسرة، وذلك كله يصب في مصلحة الدول العربية.

● هناك من يرى أن عمل مجامع اللغة العربية أصبح تقليديا، ولا جديد فيه.. فما ردكم على ذلك؟

- مجامع اللغة العربية لها أهداف محددة تسير عليها، ولا ترفض الجديد، بل إن مما يعاب على بعض هذه المجامع التساهل الشديد في بعض القضايا التي تخص اللغة العربية، وهذا يدل على أنها تتلمس الوسائل التي تسهم في ترقية اللغة وتنميتها.

● هل ترى أن التعليم باللغة الأجنبية يمثل خطرا على لغتنا العربية؟

- لاشك في أن التعليم باللغة الأجنبية فيه خطر شديد على لغتنا العربية.. وأكثر ما يكون ذلك الخطر عندما تكون الدروس باللغات الأجنبية في مرحلتي الروضة والتعليم الابتدائي، ففي ذلك غرس للغة أجنبية في ألسنة أبنائنا الصغار وانتزاع لغتهم العربية الوطنية من ألسنتهم.

لحظة بعمر الزمن

محمد أحمد عبدالقادر
شاعر وباحث إسلامي

أغمض عينيه، كأنه يريد أن يغوص بنورهما في أعماقه، كان يشعر أن دمه يجري في عروقه بسرعة تفوق سرعة الطائرة التي تقله إلى مسقط رأسه.. يا الله! سبع سنوات متصلة لم أرها. هل يا ترى سوف تعذرني لأني ظللت كل هذه الفترة في بلاد الغربة لأجلها وأجل إخوتي الصغار؟ أخشى أن تحمل عليّ كعادتها في كل مرة تجمعنا مكالمة هاتفية. كان يطمئنه الدعاء الذي كانت تودعه به في كل مكالمة «يكفيك شر ولاد الحرام»، والذي كانت تهطل معه دموعه كشلال لا يكاد أن يتوقف. لقد أحضر لها ملابس من الحرير، وطاقما ذهبيا، وسوف ينقلها من الشقة الضيقة إلى بيت واسع، وسوف يخصص لها مكانا فوق سطح البيت لتمارس هوايتها في تربية البط والأوز.

نادى المذيع الداخلي في الطائرة بالاستعداد للهبوط وربط حزام المقعد. خرج علي من المطار فتلقفت أمتعته أيدي سائقي الأجرة، كان المشهد غريبا، لكن لم يأبه به، ركب مع أحدهم سريعا. المسافة من القاهرة إلى مدينته في الصعيد تزيد على مئتي كيلومتر جنوبا.. لكن، ما لها قد تضاعفت هذه المرة؟! لقد تعودت عليها منذ كنت طالبا في الجامعة! كلما انتابه هذا الشعور طلب من السائق أن يسرع ولا ينشغل بالمذياع. كانت تصدر منه حركات غير إرادية، فيضغط بحذائه الجديد بقوة على أرض السيارة كأنه المتحكم في سرعتها. أخيرا، وصلت السيارة إلى بلدته.. نزل علي عند فم الشارع الذي تقطن فيه أسرته عندما اعتذر له السائق بأن السيارة لا تستطيع الدخول؛ فالشارع ضيق جدا. وبينما يتفحص علي البيوت التي ارتفعت، والحوانيت التي تبدلت، ووجوه المارة الذين لا يعرف أكثرهم، رأى أخاه الأصغر عمر يجري بسرعة هائلة كأنه يطلب شيئا.. العجيب أنه عبر الشارع من دون الوقوف للسلام عليه، كأنه لم يره! أسرع علي إلى الشقة التي تسكنها الأسرة. كانت الشقة مكتظة بالجيران من النساء والرجال والصبيان. يا إلهي! كل هؤلاء جاءوا لاستقبالي؟! ولم لا؟! يقول ذلك في نفسه وعيناه صوب الحجرة التي تبيت بها حبيبته، شعر بتثاقل أقدامه أمام تدافع الناس في الشقة، لحوم الجيران أشبه بأمواج البحر، لم يجد حيلة لنفسه إلا الصبر، كان يتقدم ويتأخر صوب الحجرة حسب ما تسمح به الأمواج البشرية، تحولت المسافة ما بين باب الشقة وباب غرفة الغالية كالمسافة بين بلدته وبلاد الغربة، أحس علي بما يشبه الاختناق من شدة الزحام، وخرجت منه عبارات متلعثمة: الهواء.. أصابه شيء من الإعياء عندما اصطدم جسده بالحائط، استشاط حنقا وغضبا، أطلق صيحات مجلجلة لامتناهية: افسحوا الطريق، أريد أن أراها، أنا علي، ألا تفهمون؟! لم يجبه أحد من الجيران وكأن جميع من في الشقة قد تحولوا للتو إلى شخص واحد يقول له في سخرية: اسكت. مرت اللحظات كعمر الزمن. وأخيرا، وجد نفسه وسط موجة بشرية عاتية انتهت به إلى باب الحجرة، لم يصدق نفسه أنه أمام حجرة الغالية، حاول الولوج في الحجرة اصطدم بجسد أخته نوال التي كانت خارجة من الحجرة باكية تقول في بكاء وحسرة: تأخرت كثيرا يا علي.. لقد ماتت أمك.

هذه النافذة.. هل أطللت منها؟

هذه الحادثة الحقيقية واحدة من خوالد الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي التي أوردها في كتابه الشهير «وحي القلم»، وليس لي إلا شرف صيدها وتقديمها إليك عزيزي القارئ، ثم التعقيب عليها. أما الأحداث فهي كما أخذها الرافعي بطريقته المدهشة، من تاريخ الرجل أيام الدولة الطولونية في مصر، لعل الشباب يتلقون القيمة الكبرى، واللغة الناصعة عن شيخ العربية، هذا الصادق الرافعي.

د. سعيد شوارب
شاعر وناقد أدبي

لاتزال ذاكرة التاريخ عامرة بذلك الخبر الذي استفاض في الناس، حتى جاوز مصر، فأرهفت له العواصم أسماعها على امتداد الأرض الإسلامية، ذلك الخبر، هو الحادثة التي وقعت لشيخ الديار المصرية «أبي الحسن بنان الحمال الزاهد الواسطي» (توفي عام٣١٦هـ)، وكان الطرف الآخر للحادثة، حاكم مصر المشهور «أحمد بن طولون»، مؤسس الدولة الطولونية، وربما كان مناسبا - ونحن في حضرة الأنابيش - أن أجعل القارئ الكريم يلتقي بالرجل الذي «نبش» عن الخبر، خبر بنان، وحققه، ثم أودعه قلوب الناس في مصر وذاكرة التاريخ، وأسماع العواصم.

بطل الحادثة هو الشيخ «أبوعلي أحمد بن محمد الروزابادي البغدادي» (توفي عام ٣٢٢هـ) وهو تلميذ ومريد لشيخ الديار المصرية «بنان الحمال» تتلمذ عليه زمنا، ثم خلفه بعد وفاته في مجلسه ووعظه ودرسه.

قال أبوعلي: هوت نفسي إلى مصر، لأرى «أبا الحسن بنان الحمال»، وآخذ عنه، لأحقق ما سمعت من خبره مع «ابن طولون» فلما لقيته، لقيت رجلا يتلألأ فيه نوره، ويعمل فيه سره، وعلامة الرجل من هؤلاء، أن يعمل وجوده فيمن حوله، أكثر مما يعمل هو بنفسه، كأن بين أرواح الناس وبينه نسبا شابكا، فله في الناس معنى أبوة الأب في أبنائه، لا يراه منهم أحد، إلا أحس أنه شخصه الأكبر، فهذا هو الذي تكون به التكملة الإنسانية للناس، وكأن الله -سبحانه- قد أتاحه لمن حوله، لإثبات أن غير المستطاع مستطاع.

قال أبوعلي: وهممت مرة، أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون، فقطعتني هيبته، ورأيت من كراماته التي يمنحها الله لعباده الصالحين ما صرفني عن سؤالي، فكنت كأني أرى بعيني رأسي كل ما سمعت.. غير أني لم أنصرف، حتى لقيت أبا جعفر القاضي أحمد بن عبدالله بن مسلم ابن قتيبة (توفي عام ٣٢٢هـ)، فقال لي: لعلك اشتفيت من خبر «بنان» مع أحمد بن طولون، فمن أجله زعمت جئت من وراء الأبعاد، فقلت: إنه تواضع فلم يخبرني، وتهيبته فلم أساله.. فقال أبوجعفر: تعال أحدثك الحديث!!

ثم ذكر ابن قتيبة للروزبادي، أطرافا من طبائع أحمد ابن طولون وأخباره، ظهر فيها هذا الحاكم على جانبي التناقض بشخصيته العجيبة، وكيف كان له عقل كأنه عقلان في رجلين مختلفين، فله يد مع الملائكة ضارعة، ويد مع الشياطين ضاربة، فهذا الرجل ينفق الأموال الطائلة على الفقراء والعلماء، ويكثر من قراءة القرآن والاعتكاف، وهو مع ذلك رجل طائش السيف، يحمل الناس على الجور والعسف، حتى بلغ عدد من قتلهم أو ماتوا في سجنه، ثمانية عشر ألفا أو يزيدون.

قال ابن قتيبة وهو يكمل الخبر للروزبادي تلميذ شيخنا بنان:

ولما ذهب شيخك أبوالحسن بنان إلى ابن طولون يعظه، وينهاه عن هذه النكراء، طاش عقل الحاكم، فأمر من توه بإلقاء الشيخ إلى الأسد، وهذا هو الخبر الذي جاء بك من بغداد، وطار في كل الدنيا!!

قال ابن قتيبة: وكنت حاضر أمرهم ذلك اليوم، فجيء بأحد الأسود من قصر «خمارويه» ابن هذا الحاكم الطائش، وكان الأسد الذي اختاروه أغلظ ما في أقفاص الأمير الذي كان يهوى صيد الأسود واقتناءها.. الأسد كان جسيما رهيبا، هراسا فراسا، يتلهب في عينه الدم وفي هيئته الفزع، أهرت الشدق (واسع الفم) كأن فمه كهف ينبئ أن وراءه مقبرة، فإذا واجهك أحسست أنه لفرط وحشيته، يوشك أن ينقذف على من يراه، فيحيله في لحظة، بقايا قصة حزينة!

وأجلسوا الشيخ في قاعة، وراحوا يشرفون عليها من عل لينظروا.

فتح باب القفص من أعلاه، وزجروا الأسد، فانطلق يزأر

زئيرا يوشك أن تتخلع له جدران القاعة، كأنه الرعد، ليس وراءه إلا الصاعقة، فتجمع الأسد في نفسه واقشعر، فأدركنا أنه ما بقي من عمر الشيخ إلا طرفة عين، والشيخ مع ذلك ساكن لا يطرف، مطرق لا ينظر إلى الأسد، وما من الحاضرين إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الرعب والإشفاق على الشيخ بنان.. ولم يرعنا إلا صمت الأسد وسكونه، كأنما ذهل فجأة عن وحشيته.. فأقعى الأسد على ذنبه، ثم لصق بالأرض يفرض ذراعيه، ثم نهض نهضة أخرى فمشى مترفعا ثقيل الخطو تسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته، وأقبل على الشيخ هادئا، وراح يحتك به ويشمه، كما يصنع الكلب الأليف مع صاحبه.. وكأن الأسد يعلن بهذا السلوك العجيب، أن ما نراه سوف لا يكون مصارعة بين هذا التقي والأسد، وإنما يصبح مبارزة بين إرادة الله، وإرادة ابن طولون!

وكأنما ضربت الأسد روح الشيخ، فلم يصبح بينه وبينه عمل، وكأنما الأسد الذي جوعوه لهذه المهمات، لم يعد بإزاء لحم ودم يفجر فيه غريزة الافتراس.. وكأن الشيخ في صمته وروحانيته، لا يحس لصورة الأسد معنى من معاني الفتك، ولا يرى فيه إلا قوة مسخرة للقوة العظمى التي علق أسبابه بأسبابها، وتوكل عليها، توكل النملة وما دونها على خالقها ومدبر أمرها!

فصار الشيخ يرى أنه ليس بين يدي الأسد، وفكه، بل هو والأسد بين يدى هذه القوة العالية، وكأني به، راح يتدثر بيقين قوله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور:٤٨). وكأن الأسد رأى رجلا هو خوف الله، فخاف منه.. فكما خرج الرجل من ذاته ومعانيه الناقصة الضعيفة، خرج الوحش من ذاته ومعانيه الوحشية الضارية، فليس في الرجل خوف ولا جزع ولا تعلق، وليس في الأسد فتك ولا فرس ولا سبع.. ولو أن خطرة من خطرات الدنيا مرت على قلب الشيخ في تلك الساعة، أو اختلجت في نفسه خالجة من خوالج الشك، لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد، فتمزق في أنيابه ومخالبه!

قال ابن قتيبة مكملا الخبر للروزبادي تلميذ هذا الشيخ التقي: وانصرفنا عن النظر في السبع، إلى النظر في الشيخ.. فإذا هو مطرق مفكر.. ثم رفعوه، وجعل كل منا يظن ظنه.. فيم كان يفكر الشيخ؟ فمن قائل: إن الخوف قد أذهله عن نفسه ففقد الحس فسكن، وقائل: إن الشيخ انصرف بعقله إلى الموت،.. وثالث: إنه قمع فكره، ليمنع الحركة عن جسده فلا يضطرب.. وآخر: إنه دخل في حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد، وذهبت الناس في تفسير الأمر قدرما أسعف كلا ظنه.. حتى سأله «ابن طولون»: فيم كنت تفكر؟.. فأجاب الشيخ: لم يكن علي بأس.. وإنما كنت أفكر في لعاب الأسد.. أطاهر هو أم نجس؟..!

عزيزي القارئ.. انتهى إلى هنا خبر الشيخ الورع «بنان الحمال» مع ابن طولون والأسد، ولكنه لم ينته معنا بعد، ولا أحسبه سينتهي.. فإن الخبر سيقع على عقول طائفة منا، فيحملونه على ما حملت عليه أساطير الأولين أو قصص الوعاظ في أحسن الفروض.. وسيقع في يقين آخرين، وقوع ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (الأنبياء:٦٩ -٧٠).

وسوف يظل اليقين في ذات الله والاطمئنان إليه، فاعلا في صاحبه قبل «إبراهيم» وبعد «بنان»، نفس ما فعله مع أبي الأنبياء، وما فعله مع أبي الحسن، وهو فاعل ذلك أيضا مع أصحاب «الروبوت» و«الساتلايت» والإنترنت، إذا انطوت صدورهم على مثل هذا القدر من اليقين في ذات الله، مهما ضرب الإنسان في أجواز الفضاء، أو في أعماق البحر، أو في أغوار البدائية، فإن الآية من آيات الله الأعظم، تتجلى لخلقه، فتحدث فعلا مزدوجا، فهي تعيد بعضنا إلى سواء الفطرة التي فطر الله خلقه عليها، وتلفته بقوة، إلى الرسالة التي حملتها هذه الآية أو الحادثة، وهي نفسها لا تزيد بعضنا من الظالمين والمتجبرين إلا غرورا، والآية هي هي، لم تتغير، ولكن الله سبحانه ييسر بعض الناس لليسرى كما ييسر بعض الناس للعسرى!!

والبلد الذي يخلو من رجل أو رجال من أهل الدين الصحيح الذي يجعلهم موصولين بنبع العناية الإلهية- يكون في جهله كالبلد الذي يخلو من جميع الكتب، وإن كان جميع أهله من المختصين في شتى العلوم، وإن جعلوا في كل شارع جامعة، وفي كل دار خزانة كتبًا، فالكتب لا تغني عن الرجال، إذ هي مجرد صواب أو خطأ ينتهي إلى العقل، ولكن الرجل من أهل الدين الصحيح والسلوك النظيف هو صواب ينتهي إلى الروح، وهو في تأثيره على الناس، أقوى من العلم، وما مثل الكتاب يتعلم فيه حقائق الأخلاق العلمية، إلا كمثل الإنسان يضع يده تحت إبطه يحاول أن يرتفع بجسمه عن الأرض، فهو يكدح لكنه لا يرتفع، ومن هنا كان شر الناس على الأمم هم علماؤها ومعلموها، إذا لم تكن أخلاقهم دروسا أخرى، تعمل عملا غير الكلام.

إن سر الأسرار في الأمر كله -عزيزي القارئ- هو خلوص القلب والوجه لله، ثم المشي في مناكب الأرض على شروطه، وأنت مفعم باليقين فيه والخلوص إليه، تلك هي حقيقة العصا التي كانت في يد «موسى» صلوات الله عليه:

كانت عزلاءَ
عادية
إلا من إصبع موسى العلوية
وشفاه تقتات الإخلاص.. سماوية
كن موسى.. تملك مثل عصاه
تقهر فرعون وتتحداه
تمشي في الأرض بقدر الله
تصبح أغصان الأرض
عصا موسى!.



رحيل

مياسة النخلاني
قاصة من اليمن

«تعال لتسلم على والدك».. أخرجه من شروده صوت عمه وهو يناديه، كان ذلك أحمد ابن الثالثة عشر ربيعا، تسمر في مكانه لحظات، لا يتنفس الحياة فيه سوى قلب يدق صدره بضربات مضطربة. ترك الزاوية التي ظل لصيقا بها منذ أن أخبروه أن والده على متن الطائرة العائدة إلى الوطن، وأنه سيكون بمقدوره ملاقاته خلال ساعات، وهو الذي انتظره أكثر من تسع سنوات ليلتقي به، بعد أن تركهم وسافر سعيا وراء لقمة العيش. اقترب من عمه، الذي شد على قبضة يده، ليسير الاثنان للقاء طارق.

لم تكن لطارق أية نية للزواج قبل أن ينهي دراسته الجامعية، لكن أمام إصرار والديه، واستعداد والده للتكفل بكل مصاريف الزواج، لم يجد بدا من الموافقة، خصوصا أنه سيعيش في بيت والده، ولن يكون ملزما بمصاريف بيت مستقل. أكمل دينه، وبعد تعثر دام عامين إضافيين، حمل شهادة جامعية ظنها ذات قيمة، احتفل لبعض الوقت، ثم بدأ مشوار البحث عن عمل يليق به لكن دون جدوى. في ليلة وضحاها أصبح هو رب البيت، بعد أن توفي والده.. تخلى عن حلمه، وعمل نهارا في محل لبيع الملابس الجاهزة، وليلا حارس أمن لمركز تجاري. ألحت عليه فكرة العمل خارج البلاد، رغبة في الحصول على عائد مادي يوفي جميع التزاماته، وعند أول فرصة حزم حقيبته وودع أهله.

غادر وابنه أحمد لا يتجاوز الأربع سنوات من عمره. لم ينس أن يأخذ له صورة قبل السفر تظل معه تؤنسه في وحدته وتخفف عليه أياما طويلة سيقضيها بعيدا عن الأحبة. في الغربة لم يكن الوضع يختلف كثيرا، فعمله لم يتعد عاملا في سوبر ماركت، لكن فارق تحويل العملة والتقشف لأبعد حد كانا كفيلين بأن يرسل مبلغا لا بأس به بداية كل شهر. لم تمض ستة أشهر على تسلمه العمل الجديد، حتى فز من نومه مرعوبا من طرقات عنيفة على باب غرفته، التي كانت في الأصل مخزنا تابعا للسوبر ماركت، اقتاده رجال الأمن وهو يجاهد لطرد النوم والخوف من عقله، ليصحو على اتهام يوجه إليه بسرقة مبلغ من خزينة صاحب المحل! دافع عن نفسه دون جدوى، واستقر به الحال في السجن بتهمة لم يرتكبها ولم يفكر حتى فيها.

لم يهون عليه محبسه وشعوره بالمرارة والقهر سوى تلك الرسائل التي كان يتبادلها مع زوجته وأخيه الذي ترك جامعته وحل محله في الاعتناء بأفراد الأسرة. مرت سنوات قبل أن تقع في يده رسالة خطتها يد صغيرة، تأخذ الكلمات مسارات متعرجة، والحروف



بالكاد تأخذ سمة الحروف الهجائية:
«بسم الله الرحمن الرحيم
بابا.. أحبك كثيرا، ومنتظر عودتك إلينا..
ابنك أحمد».
قرأ الحروف القليلة وأعاد القراءة ثم أعادها بعينيه ودموعه، وبعد كل قراءة يقرب الرسالة إلى وجهه، يشمها، يقبلها، ويغسلها بدموعه حتى اختفت الحروف وحلت محلها بقع من الحبر الأزرق.. طواها بحذر واحتفظ بها بجانب صورة أحمد التي التقطها له قبل أربع سنوات (آخر مرة رآه فيها). توالت المراسلات بين أحمد وأبيه تباعا، بدأ الخط يتشبث بالسطر أكثر وتقل انحناءاته، تكومت الرسائل على مدى أعوام، حكى كل منهما الكثير للآخر، وتعود طارق أن يعيش تفاصيل حياة ابنه، ضمت إحدى رسائل أحمد صورة له، كان في العاشرة من عمره حينها، أول مرة يرى فيها أحمد بعد أن تركه، بدا كبيرا جدا أو هكذا خيل إليه: شعره الأسود، وجهه الدائري، فمه الصغير، وذقنه الذي كاد يختفي في تدويرة وجهه. تحسس طارق وجهه، يحاول تجميع نقاط الشبه بينه وبين ابنه، لكنه عجز، فهو نفسه ما عاد كما كان.. وأخيرا طبع قبلة طويلة على الصورة قبل أن يضمها إلى صدره ويغيب في حضن طويل: «يا رب».. خرجت واهية من شفتيه المرتعشتين. رؤيته لصورة أحمد زادته شوقا إليه، تمنى لو باستطاعته دك جدران السجن والذهاب إليه ليضمه إلى صدره، يشمه، يلثمه، يصهره ويختزله في داخله، فلا يغادره. ارتعشت يداه وهو يتخيل أحمد يغوص في حضنه، أغمض عينيه وترك المجال لروحه أن تتشرب كل تفاصيل ذلك الجسد الغض.. «طارق.. طارق».. هزات عنيفة أتبعتها رشة ماء بارد أعادته لوعيه. فتح عينيه بصعوبة لتلتقي بالعيون التي تحدق فيه: «يا رجل وحد الله ما الذي حصل؟». قام مفزوعا يبحث عن الصورة التي سحبها أحدهم من يديه قبل أن يفسدها دلو الماء.
نام ليلتها شبه غائب عن الوعي، لا يكاد يميز أحدا ممن حوله، ارتفع السكر حتى كاد أن يدخل في غيبوبة أخرى، اعتصر الألم قلبه، تمنى لو عاد الزمان إلى الوراء واكتفى بالعمل أربع وعشرين ساعة، لكن لا يبتعد عن فلذة كبده، ما أقسى الظلم، وما أوحش الغربة، وما أمر الشوق، تتآكل سنوات عمره، ويقتات المرض على روحه وأطراف من جسده، «الغرغرينة» تكاد تنهي أصابعه، وتستمر بالصعود حتى تلتهم قدمه، لم يكن ليصمد أمامها كثيرا، أخذت روحه تتسرب منه، يحاول أن يبقيها في جسده لأجل أحمد، لكن الأجل عاجله، فسلم روحه لبارئها، ليتحقق حلمه بالعودة إلى وطنه لكن جسدا من دون روح!
توقف أحمد عن السير، وقف قبالة جسد سجي بكفن أبيض، لا يبدو منه إلا جزء من وجهه، أفلت يد عمه واقترب أكثر، يختلف المسجى كثيرا عن الصورة التي يحتفظ بها في ألبومه الخاص لأبيه، ولا تشبه حتى الصورة التي رسمها له في خياله من خلال كلماته التي تسلمها منه خلال أعوام: «هذا ليس أبي».. قالها وهو يهم بالمغادرة: «أحمد!» كان صوت عمه حازما بما فيه الكفاية ليطرد فكرة الرحيل. عاد مجددا، اقترب من الجثمان فزاد قلبه انقباضا، مسح بكم قميصه دمعة تدحرجت على خديه رغما عنه، جثا على ركبتيه وتحسس وجه أبيه، جبينه، عينيه المغمضتين، شفتيه الجافتين و...: «لماذا؟».. خرجت من حلقه غاضبة متحشرجة بدموع فاضت من عينيه: «لماذا كذبت علي.. قلت إنك ستعود، وسنقضي معا وقتا ممتعا. وعدتني أن تعوضني عن سنوات ابتعادك عني، لماذا لم تعد كما وعدت؟».. كان يهز والده المتصلب بغضب، محاولا إجباره على الإجابة، قول أي شيء يشعره بأن ما يراه ليس حقيقيا. جذبه عمه محاولا ضمه إليه، لكنه دفع به وجرى مبتعدا، أطلق لقدميه العنان دون وجهة، أراد أن يهرب من مشهد يعجز عن فهمه واستيعابه فقط، وأخيرا انتهى به المطاف إلى جدار أحد المنازل، أسند ظهره وانزلق ببطء، بكى كما لم يبك يوما، بكى سنوات عاشها يتيما على أمل أن يكون له أب يوما ما، حرمانا وقهرا ووحدة، بكى كلمات سطرت على الورق رسمت له دربا لمستقبل آمن، لكنه تبخر، بكى شوقا استوطن قلبه بعد كل رسالة من والده تجعله يرغب في عيش يوم إضافي ليستقبل المزيد من أب ليس له وجود سوى على الورق، لكنه كان كفيلا بتخفيف وطأة ابتعاده عنه، وها هو يذهب دون رجعة قبل حتى أن يأتي.
يد أمسكت بكتفه، أجبرته على رفع وجهه المبلل بدموعه، فإذا بعمه ينظر إليه معاتبا، جلس إلى جواره، وضع في



يده ظرفا لم يُفتح: «مات والدك قبل أن يرسله إليك، أحضروه مع متعلقاته الشخصية». قلب الظرف وفتحه دون تردد، قطب جبينه فهذا ليس خط أبيه، ومع ذلك واصل القراءة

«بسم الله الرحمن الرحيم

حبيبي أحمد...

ككل ليلة أعجز عن النوم دون أن أملأ عيني منك ومن كلماتك وعبيرك وأنفاسك.. أنتظر رسائلك كما ينتظر الغريق طوق النجاة.. لم يهون علي سجني سوى تخيلي لكل لحظة سأقضيها معك حينما أعود: ماذا سنفعل؟ وأين سنذهب؟ وماذا سيقول بعضنا لبعض؟ لكن.. إرادة الله جلا وعلا فوق كل شيء، أردنا شيئا وأراد هو شيئا آخر، قبل أسابيع ودعت قدمي اليمنى أو ما تبقى منها، لحقت بأجزائها التي غادرت على فترات، بالكاد أشعر بمن حولي، ولأول مرة أطلب من صديقي أن يكتب لك ما أمليه عليه، فما عدت قادرا حتى على حمل القلم.

أحمد سامحني يا بني، كافحت لأعيش فقط لأجلك، لأكون معك مجددا، لأعوضك عن حرمان سببته لك دون إرادة مني، لكن يبدو أن الله قد كتب علي أن ألقاه أولا.. كن رجلا يا بني، اعتن بنفسك ووالدتك ولا تنسني من صالح الدعاء.

والدك المحب.

٥ مايو ٢٠١١».

طوى أحمد الرسالة، شعر بألم في صدره، راسله والده كثيرا وزادت رسائله في الشهور الأخيرة، لكنه لم يذكر له يوما أمر مرضه، كان والده يتألم دون أن يشتكي أو يحاول إشراكه في ألمه، كان يموت في الوقت الذي يرسم لهما حياة جديدة لم يكتب لها أن تكون، لا يصدق أنه نعته للتو بالكاذب، عاتبه بقسوة لا تقل عن قسوة سنوات سجنه ومرضه: «أريد أن أعود لأرى أبي» قالها لعمه وهو يحاول الوقوف، عاد لوالده وهو يحمل رسالته الأخيرة في يده، هرب من أمامه طفلا قبل لحظات وعاد إليه رجلا يكافح ليبدو متماسكا أمام الجميع، ليحقق أمنية أبيه بأن يكون رجلا، أزاح الكفن عن وجهه كاملا، ظل يتأمله يتخيل اللحظات التي تألم فيها، تحسس وجهه، وانزلقت أصابعه للأسفل وصل للقدم التي ما عادت موجودة، اعتصره الفراغ الذي يحل محلها: «أحبك يا أبي» قالها وانكب عليه يبكي، تركه عمه قليلا ثم سحبه عندما شعر أن ابن أخيه لن يترك والده، انتزعه فشعر أحمد بقلبه يُنزع منه لكنه تحامل على نفسه وتحمل الألم.

انتهت مراسم الجنازة والدفن، عاد أحمد إلى الزاوية التي كان يجلس فيها، أعاد قراءة رسالة والده، مسح دموعه، أودعها قبلة طويلة قبل أن يضمها إليه، نام وهو يعانقها متخيلا أن والده هو من ينام إلى جانبه بعد عودته من سفره الطويل.

شهيد القدس

نجاح عبدالقادر سرور
شاعر مصري

تدفق نوره عجبا ... وأشرق في السما طربا!
عريس في ثياب النور ... ضم الغيث والسحبا!
يزف على جناح الخلد ... يمضي يهتك الحجبا!
تحيط به ملائكة ... وتنثر حوله قصبا!
وينشر عبر هذا الأفق مسكا عطر الكتبا!
مضى في العز متخذا ... سبيلا للسما عجبا!
ليمطر فوقنا عزا ... ويمطر فوقنا أدبا!
ويعلن: إن عرض القدس فينا بات مغتصبا!
ومسرى خير خلق الله ... يقضي الليل منتحبا!
فقدم نفسه طوعا ... لأجل الله محتسبا!
شهيد القدس والأقصى ... إلى الفردوس قد وثبا!
ونحو العرش سجل في قناديل المنى لقبا!
مكان ضم خير الخلق ... أبرار الورى النجبا!
وما في الغيد فكر بل ... لحور العين قد وهبا!
ويجلس فوق كرسي ... على هام المنى نصبا!
تراه تظنه علما ... بهام القدس منتصبا!
غضنفر في طفولته ... وقائد في أوان صبا!
خصيب دمعه درر ... دماه تنبت الرطبا!
فسل عن خصبه الليمون ... والزيتون والعنبا!
فكم رووا بدمعته ... وكان لحلوهم سببا!
شهيد في تنفسه ... هواء القدس قد شربا!
يصير وضوءها صبحا ... يبيت لنارها حطبا!
ويجعل شمسها أما ... ومن فجر البلاد أبا!
وليس يرى سوى الإيمان والأقصى له نسبا!
ويعجن في ثراه دما ... يضم اللحم والعصبا!
وعظما في هوى الأقصى ... تمزق في الثرى إربا!

الشخصية الحدية.. سماتها وعلاجها

بشرى شاكر
كاتبة وباحثة مغربية

أحيانا كثيرة نواجه أشخاصا متذبذبين في مشاعرهم وتصرفاتهم، فتارة هم ودودون وطيبون مع شخص ما إلى درجة أنهم يعتبرونه مثالا وقدوة، وفجأة - يكفي مثلا ألا يرد على مكالمة تلفونية - يتحول إلى عدو ويحاولون إيذاءه بالكلام السيئ ويشعرون برغبة في التقليل من قيمته بشتى السبل وينكمشون على أنفسهم، وأحيانا أخرى يتحولون إلى عدائيين ومندفعين، بل يصلون إلى حد الاكتئاب والإقدام على الانتحار والقيام بأشياء قد تؤذيهم أو تؤذي غيرهم.

هذا النوع من الشخصية يسمى الشخصية الحدية Borderline، وهي شخصية تتمركز بين الذهان والعصاب، تعاني يوميا من فرط انفعاليتها لدرجة تجعل من الصعب التنبؤ بردود أفعال أصحابها، ويشعر المريض باستمرار بعدم الأمان الداخلي، ويضع محيطه دائما في مجال اختبار، ومن بين وسائل دفاعه التصرف باندفاعية كوسيلة لتفريغ المشاعر والإفراج العاطفي.

وتُبين المنظمة العالمية للصحة أن قرابة ٢٪ من سكان العالم يعانون من هذا الاضطراب النفسي وخاصة النساء اللواتي يشكلن حوالي ثلاث حالات إصابة من بين كل أربع حالات.

ويعرف دليل التشخيص والإحصاء للاضطرابات العقلية الاصدار الرابع DSM-IV هذه الشخصية على أنها تشكل نمطا منتشرا من عدم الثبات في العلاقات الشخصية المتبادلة وصورة الذات والوجدان مع اندفاعية واضحة، واضطراب الهوية، وعدم الاستقرار في العلاقات مع الآخرين، حيث يمكن أن تتأرجح هذه العلاقات بين المثالية المطلقة إلى التحقير المسرف لنفس الشخص، فضلا عن الشعور المزمن بالفراغ ونوبات غضب شديدة، واستياء متكرر، والشعور بالإحباط والاكتئاب، وحالات كرب متكررة ناجمة عن شعور الشخص بالاضطهاد.

هؤلاء الأشخاص يميلون لكل ما هو حدي مثل: إنفاق المال بشكل مسرف، والاندفاع الجنسي، وتعاطي المخدرات، أو أي نوع مهلوس، والتدخين المسرف، وسياقة السيارة بشكل متهور والشره في الطعام.

الشخص المصاب هو دائم الشعور بأنه شخص مهدد من قبل الآخرين، بالانتقاص وسوء المعاملة، فيكفي أن يقابل ببعض الرفض أو بعدم اهتمام الطرف الآخر ليتحول من شخص مثالي رائع في نظره إلى عدو يسعى للانتقام منه، ولا يمكنه تقبل أن يترك من قبل الآخر، وحينما يرى في الآخر شخصا مثاليا فإنه يسعى إلى أن يرافقه دائما ويجعل منه محور حياته، بل يمكنه أن يتصل به عشرات أو حتى مئات المرات يوميا ويبعث له رسائل متلاحقة، والكثير من الأشخاص الذين يعانون من هذا الأمر يتسببون أحيانا في شعور الآخر بالاختناق والحنق لشدة ملاحقتهم له، وما أن يبدي تذمرا ولو بسيطا من تصرفاتهم أو حتى لا يرد على مكالمتهم حتى يشعرون إما بالعداء نحوه، أو الاكتئاب، أو بالفراغ لدرجة تشعرهم بعدم الرغبة في الحياة، ولذلك تجدهم يهددون بصفة متكررة بالانتحار، أو يوحون بأنهم سيؤذون أنفسهم وقد يؤذون أنفسهم فعلا ويشوهون أجسادهم وقد لا يكون ذلك للانتحار الفعلي، وإنما فقط لإثارة الانتباه،

فهم دائمو المواظبة على جعل الآخر يعتقد أنهم سيتخلصون من حياتهم في كل لحظة.

كما أسلفنا فإنه من الصعب جدا التنبؤ بردة فعل صاحب الشخصية الحدية، فتارة يبدو هادئا وساذجا مثل الطفل، وفجأة يتحول إلى شخص عنيف تتملكه ثورة الغضب، وتشكل سلوكياته نوعا من الخطر، ويبدي أفكارا انتحارية عند أول مضايقة يتعرض لها، ولذلك قال الأخصائي النفسي «ألان توغتوزا»: إن المصابين بهذا المرض هم بمثابة طنجرة ضغط مستعدة للانفجار في أية لحظة.

ويقول أيضا: إنه من الصعب التعرف بشكل مضبوط على الشخصية الحدية خاصة أن هذا الاضطراب يكون مصحوبا أكثر باضطرابات نفسية أخرى مثل التبعية العاطفية، إلا أن هناك أعراض مشتركة عند الذين يشتكون من هذا الاضطراب النفسي وأهمها:

- الشعور المزمن بالفراغ والخواء.
- صعوبة السيطرة على ثورة الغضب.
- انخفاض مستوى القدرة على التنبؤ بنتائج ردة الفعل لديه.
- اضطراب الهوية، المسائلة الدائمة للذات وصعوبة تحليل ما يشعر به.
- الميل نحو تمجيد الآخر وجعله مثالا عظيما وتحقيره والحط من قدره أيضا.
- اضطراب العلاقات مع الأشخاص بحيث يتغير سلوكه فجأة مع أصدقائه ويسعى للتلاعب بمشاعرهم.
- يشعر بخوف دائم وكبير من تخلي الآخر عنه والبعد والفراق.
- يشعر دائما بأنه يتعرض لمؤامرة.
- تكون لديه أفكار هدامة مثل إيذاء وتشويه الذات والانتحار.
- يصاب بنوبات سلوكية مثل الشره المرضي في الأكل bulimia، الرغبة في الكحول أو المخدرات.

كما أن أسباب اضطراب الشخصية الحدية متعددة أيضا، ومن بينها عوامل بيولوجية وكيميائية مثل: خلل في إنتاج هرمون السيروتونين، واستعدادات وراثية أيضا، إلا أن هذا المرض النفسي يظهر بشكل أكبر لدى الأشخاص الذين تعرضوا لاعتداءات سابقة، أو نقص عاطفي، أو انفصال صعب في طفولتهم، مما يحيل على نظرية قلق فقدان الموضوع والتي تجعل الشخص يشعر باستمرار بانعدام الأمن النفسي، ويضع على الدوام المحيطين به في محط اختبار، وتكون ردة فعله اندفاعية وعنيفة تصل إلى إيذاء وتشويه الذات والانتحار، بحيث إن الإحصائيات تبين أن ٨ إلى ١٠ ٪ من المصابين بهذا الاضطراب يقدمون على الانتحار.

أما علاج هذا النوع من الأمراض أو الاضطرابات النفسية فلا ينفع فقط بواسطة العقاقير، إذ إن هناك دراسة لمجلة «كوشران» أبانت أنه لا يوجد دواء أو عقار يؤثر بشكل واضح على المصابين بالشخصية الحدية.

وهناك العديد من الطرق لمساعدة هؤلاء الأشخاص منها: التحليل النفسي الذي يعتمد تقنية كان يستعملها فرويد والعديد بعده، استمدت من تقنية talking cure لجوزيف بروور ، وهي تقنية تعتمد أساسا على التداعي الحر، حيث يقوم المريض بالكلام ويشكل حديثه هيكلة لحياته النفسية؛ فيكتشف المحلل صراعات اللا شعور التي كانت وراء اضطراب شخصية المريض.

أما أحدث التقنيات العلاجية فهي العلاج السلوكي الجدلي Dialectical Behavior Therapy، وبدأت منذ سنة ١٩٨٠م من قبل البروفيسور «مارشا لينهان» في سياتل، وهي مؤلفة كتاب «وصف العلاج المرافق بدليل للتدريب على مهارات العلاج السلوكي الجدلي»، وهذا النوع من العلاج يساعد على إجلاء بعض اضطرابات هذه الحالة المرضية مثل: الاكتئاب ثنائي القطب، والقلق، واضطرابات الأكل المرافقة، وإيذاء الذات، وتعاطي المخدرات، والعلاقات الانفعالية السلبية تجاه الآخرين، وغيرها من الأعراض التي يعاني منها ذوو الشخصية الحدية. ولذلك يعتبر العلاج السلوكي الجدلي الأنجع إلى الآن في معالجة هذا المرض النفسي.

إلا أن هناك أساليب أخرى أيضا تستعمل لعلاج هذا النوع من الاضطراب مثل: العلاج النفسي الفردي، والتثقيف النفسي الإرشادي، وعلاج الأزواج، وطبعا العلاج بالعقاقير.



الأثرياء والأبناء

محمد شعطيط
باحث دراسات إسلامية



يعتزم بضعة عشر رجلا وامرأة من أغنى أثرياء العالم حرمان أبنائهم من ميراث تركتهم بعد انتقالهم إلى الدار الآخرة. وقد اختلفت مبررات اتخاذهم لمثل هذا القرار ما بين قائل: إن ابنه إن كان كفؤا فسيصنع ثروته، ولن يعدم الوسيلة في أن يصبح غنيا مثل والديه، أما إن كان غير ذلك فسيضيع الثروة التي تركتها له أسرته. وبين مدع أن أبناءه لا يستحقون ثروته لأنهم عاقون ولم يعاملوه معاملة الأبناء لآبائهم. بينما برر بعضهم هذا القرار بأنه لا يريد لأبنائه أن يكونوا أغنياء من ماله. وقال آخر بأنه يفضل دعم الفنون على أن يترك جيلا من الأبناء والأحفاد أثرياء.

ولئن بدت بعض هذه المبررات منطقية عند أصحابها وتريح «ضميرهم» كما يقال؛ إلا إن السؤال الذي لم يطرحه هؤلاء على أنفسهم: إذا كنتم أنتم قد نميتم هذه الثروة وجمعتموها وحافظتم عليها، فلماذا فشلتم في إنشاء جيل من أبنائكم يحذو حذوكم ويقتفي أثركم؟ على من يجب أن تلقى اللائمة؟ على من يولد على الفطرة البيضاء النقية الصافية الطاهرة، أم على الأبوين اللذين يظلان مشغولين في تصوير الأفلام والمسلسلات، أو الجري وراء الأسهم والبورصة والصفقات، واتباع آخر الصيحات والموضات، وعقوق الآباء والأمهات، وإهمال البنين البنات..

إن توجيه أصابع الاتهام إلى الأبناء لهو هروب إلى الأمام، ومحاكمة البريء وترك الجاني حرا طليقا. أو هو نوع من السعي لإراحة «ضمير» يعلم علم اليقين أنه هو المذنب.

إن كثيرا من أبناء هذا العصر يشكون من اليتم، وآباؤهم على قيد الحياة. وقد عبر الشاعر عن حالهم أصدق تعبير حين قال:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من
هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له
أما تخلت أو أبا مشغولا

حتى إذا وقعت الفأس في الرأس -كما يقال- ورأى الآباء من أبنائهم ما يقلقهم عمدوا إلى استعمال سياسة العصا، كما رأينا. ولو أنصفوا لرجعوا إلى أنفسهم وعاتبوها وقوموها وحاولوا تدارك ما فات. بالالتفات إلى أبنائهم وغمرهم برعايتهم وحنانهم، وتخصيص بعض من أوقاتهم لمجالستهم ومحاورتهم ومناقشتهم، ومحاولة إيجاد حلول لمشاكلهم بدل توكيلهم لمربين ومربيات لا يهمهم في النهاية إلا راتب آخر الشهر. وهم على أية حال لا يرون في أبناء غيرهم إلا متاعا يجب العناية بمظهره ومأكله ومشربه. أما المخبر فعلمه عند ربي في كتاب.

لقد أصبحت قصص الأغنياء وأبنائهم في الغرب، وعند بعض المسلمين -للأسف- تمر بمنعطف خطير. وهاهي ذي أخبارهم تملأ صفحات الجرائد والمجلات والمواقع الإخبارية. فهذه إحدى أغنى نساء الأرض بثروة تناهز ١٠٠ مليار دولار، يرفع عليها أبناؤها دعوى قضائية بتهمة البخل. وبنفس التهمة تقاضي فتاة أمها الفرنسية المليارديرة. وامرأة أخرى غنية تقاضي ابنتها لأنها لم تسترد المبلغ الذي اقترضته منها كاملا.

أي جفاف هذا، وأي برودة في العواطف والأحاسيس!. أهذا ما يريده لنا من يريدون أن نتبع الغرب حذو القذة بالقذة.

لقد امتن الله عزوجل على عباده بنعمتي المال والبنين في كثير من الآيات والأحاديث.. وإن هاتين الثروتين: البشرية والمادية لهما قوام الحضارة وأهم دعائمها. فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف:٤٦)، ومن الأحاديث قول الرسول ﷺ: «نعم المال الصالح للعبد الصالح». وتتحقق الزينة الواردة في الآية والنعمة الواردة في الحديث إذا استثمر العباد هذين العاملين: المال والبنون لتحقيق أرقى أنواع السعادة في الدين والدنيا. لكن في كثير من الأحيان تنقلب الآية رأسا على عقب، وتصبح النعمة نقمة والسعادة شقاء والحياة الطيبة معيشة ضنكا، بسوء تدبير العباد واستغلالهم لنعم الله في معصيته. وهنا بدل أن يكونا زينة يصبحان فتنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن:١٥).

والمال والبنون الواردان في الآية السابقة لا يجب فهمهما فهما يقتصر على مال مكنوز وأبناء كثر. وإنما يشمل هذان المفهومان القوة المادية والثروة البشرية في شتى تجلياتهما. ولعل آية الإسراء التي يتحدث فيها الله عزوجل عما أمد به بني إسرائيل بعد الإفساد الأول من مال وبنين لتوضح هذا الأمر أشد توضيح. فلو كان الأمر يقتصر على مجرد المال وكثرة الأبناء لما قامت لهذا الكيان قائمة. فالمال المدخر لا يصنع أمة. والكثرة الغثائية لا تحقق مجدا. ولذلك ذم الرسول ﷺ الكثرة الغثائية في الحديث، فقال حين سأله الصحابة عن سر تكالب الأمم على أمة الإسلام في آخر الزمان: «أوَمِن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل».

ولذلك جمع العلماء بين هذا الحديث وبين حديث: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم». بالتأكيد على أن الكثرة المطلوبة في الشرع هي الكثرة الفاعلة المؤثرة. وليس الكثرة الغثائية التي تقتات على أمجاد الآخرين.

فمتى إذن يكون الثراء المادي والبشري نعمة وقوة دافعة للأمة، ومتى يكونان سبيلا للهزيمة والانتكاسة والتخلف؟

يمكن إجمال بعض هذه الأسباب في النقاط التالية:

● أن يعرف الإنسان ما هو الهدف من تواجده على ظهر هذه البسيطة. وما الغاية من خلقه. فلو نظر المرء حواليه وتدبر في الآلات والأشياء التي تحيط به على بساطتها أحيانا لأيقن أن هذه الأشياء لم تخلق عبثا. وأن لها دورا تؤديه كيفما كان نوعها وحجمها. فكيف تنتفي هذه الصفة عن هذا المخلوق العجيب الخلق والتكوين؛ بدءا من عقله الذي لو تظاهرت كل حواسيب العالم لما اشتغلت بنفس كفاءة هذا المخلوق، كما يؤكد العلماء. فتبارك الله أحسن الخالقين!. وفي ذلك يقول الشاعر رحمه الله:

وتزعم أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

● ولها علاقة بالأولى: فإذا عرف العبد دوره في الحياة ارتقت بذلك آدميته وإنسانيته، وغلبت على صفاته الحيوانية، فبدل أن يرفع شعار: البقاء للأقوى، يصبح الشعار: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات:١٣). فتتحقق بذلك أرقى خصال الرأفة والرحمة والتعاون والتعارف والمودة. فتجد الغني يواسي الفقير، والكبير يرحم الصغير، وتجد الدولة القوية المصنعة تأخذ بيد الدولة المتخلفة؛ لا بمنطق إسعاف المحتاج الذي يقتضي انتظار العطف والإحسان. ولكن بمنطق المساعدة المستدامة التي تتطلب تقديم الدعم لهذه الدولة على توطين التكنولوجيا المتقدمة في بلدها لتستغني بنفسها عن غيرها، وتصبح هي من يصطاد السمكة بدل انتظار من يغدق عليها من فتات مائدته.

● النظر للحياة نظرة قوامها الإحسان والفضل والخير، وأنها حياة فانية، وأن نصيب المرء منها هو ما قدم من خير. فيسعى إلى المسابقة للخيرات، ويلتفت إلى محيطه وأقرب الأقربين إليه: والديه وأبنائه، فيحسن العشرة معهم. ويعتني بنبتة ابنه وابنته زرعا وسقيا وتهذيبا وتشذيبا، حتى تستغلظ وتستوي على سوقها. فيحصد بعدها برا وإحسانا، حتى إذا ما مات؛ مات مرتاحا مطمئن البال، لأنه على يقين، بإذن الله، أن البذور التي تركها ستنبت دعاء له وبرا وصلة ووفاء. وسيخلفه أبناؤه في أمواله وتجارته بخير. وسيسعون إلى إسعاد آبائهم وهم في عالم البرزخ، حيث سيبلغون المنازل الكبرى بدعاء أبنائهم.

● أكل الحلال وتجنيب الأبناء أكل الحرام: فـ«كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به». وقد عمت بلوى الربا المجتمعات الغربية والإسلامية، على حد سواء، إلا من رحم ربك. مما جلب على العالم ويلات الأزمات الاقتصادية والاجتماعية. فتظل الدول والأفراد في دوامة القروض، لا يخرجون من واحد إلا وقعوا في آخر، في مسلسل كئيب من الجدولة وإعادة الهيكلة لا نهاية له. وقد صرح أكثر من خبير أن أزمات العالم لن تحل إلا إذا صارت الفائدة صفرا في المئة. أي أن تصير منعدمة، وهذا ما يدعو إليه الإسلام، فلله الحمد والمنة.

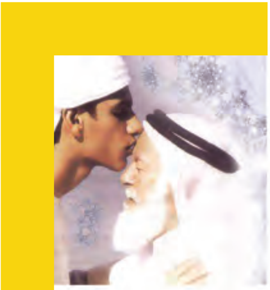
● فقه الأولويات وإعطاء كل ذي حق حقه. وتنزيل كل شيء منزلته الحقيقية، دون إفراط ولا تفريط. فالحياة ليست كلها أموالا وصفقات وشركات وأسفارا وأفلاما.. بل الحياة في أساسها إيمان ويقين وعقيدة صافية وعواطف وأحاسيس، وعائلة وأقارب وأرحام. وكل هؤلاء لهم حقوق يجب العناية بها والالتفات إليها. حتى لا نستيقظ ذات يوم ونجد الفتق قد اتسع على الراتق.

● تخصيص أوقات وبرامج عائلية لزيادة اللحمة بين أفراد الأسرة الواحدة. وهنا يمكن الاستعانة بالمال -بعد توفيق الله عزوجل- لا أن يكون المال سببا للفرقة والاختلاف والانشغال الزائد.

إن إعادة ترتيب العلاقة بين المال والأبناء تقتضي تغيير النظرة إلى وظيفة كل منهما. فهما نعمتان يجب تسخيرهما لتحقيق السعادة والزينة في الحياة الدنيا. لا أن يصير المرء عبدا للمال ويعيش حياته كلها يكد ويجد في تحصيله. حتى إذا بلغ من الكبر عتيا والتفت إلى أبنائه وجدهم قد خرجوا عن طوعه. أو وجد الفجوة بينه وبينهم قد اتسعت بحيث يكون الأوان قد فات.

إن أكبر استثمار يجب أن يستثمر فيه المرء حياته هم أبناؤه. لأنهم إن صلحوا صلح المال وطاب واستعمل في أبواب الخير، ونال الآباء نصيبهم منه، حتى بعد أن يتركوه لأبنائهم. أما إن فسدوا؛ عاد ذلك بالشقاء والتعاسة على الأبناء والآباء على حد سواء، وكان الحساب بين يدي رب الأرباب. نسأل الله العفو والعافية

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ (الفرقان:٧٤). والحمد لله رب العالمين.



صل رحمك.. واكسب

محمد رشيد العويد
استشاري أسري

قال أحمد لأخيه: لا تنس أننا سنزور عمنا أبا مصعب بعد أدائنا صلاة العصر في المسجد.

رد أخوه حسان: ولكني أريد أن أذهب إلى صديقي عمر في محل والده الذي يعمل فيه.

قال أحمد: لكن زيارة عمك أهم، وفيها صلة رحم.

رد حسان: والد صديقي عمر يكافئ كلًا منا خمسة دنانير، ولا أريد أن أخسرها.

سأل أحمد: وعلام يكافئك وولده عمر بالخمسة دنانير؟

أجاب حسان: على مساعدتنا له في ترتيب بعض السلع في المحل، وعلى مشاركتنا له في بيع الزبائن.

قال أحمد: لكنك أيضًا تكسب من زيارة عمك، فلماذا لا تؤثر هذا الكسب على ما تكسب من زيارة صديقك عمر؟

تساءل حسان متعجبًا: ولكن عمي لا يعطينا شيئًا إذا زرناه.. اللهم إلا في العيد!

قال أحمد: عمنا لا يعطينا، لكن الله ربنا يعطينا، أفليس عطاء الله خيرًا من عطاء الناس جميعًا؟

حسان: ربنا يعطينا أجرًا وثوابًا في الآخرة على صلتنا أرحامنا.

أحمد: ليس في الآخرة وحدها، بل في الدنيا أيضًا.

حسان: ماذا يعطينا في الدنيا؟

أحمد: ألا تريد الذهاب إلى صديقك عمر لمساعدة والده حتى يعطيك مالًا.. الله يعطيك مالًا وغيره من الخير والفضل في الدنيا قبل الآخرة.

حسان: كيف يعطينا ربنا مالًا في الدنيا؟

أحمد: أما قرأت حديث النبي ﷺ (من أحب أن يبسط له في رزقه، وأن يُنْسَأَ له في أثره؛ فليصل رحمه) متفق عليه.

حسان: والرزق يشمل المال.

أحمد: أجل، الرزق يشمل المال، ولهذا نجد أن من يصلون أرحامهم مرزوقون بالمال وغيره.

حسان: كيف؟

أحمد: لقد جعل البخاري هذا الحديث في باب سماه (باب من بُسط له في الرزق بصلة الرحم) فجعله في صيغة الماضي (من بُسط له) ولم يقل (من يبسط له) لأن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، ووعده متحقق بإذن الله.

وفي رواية أخرى للترمذي «إن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر» وفي رواية للبخاري في الأدب المفرد «من اتقى ربه ووصل رحمه نسئ له في عمره، وثرى ماله، وأحبه أهله».



المرأة المعاصرة بين «التقديس والتدنيس»

إسلام لطفي - القاهرة
دار الإعلام العربية



د.النجار: تتعرض المرأة لمظاهر سلبية عديدة كالتحرش والنظرة السلبية

ما بين «التقديس والتدنيس»، و«تكريم الإسلام وظلم التاريخ»، تقف المرأة المعاصرة في وجه كثير من التحديات والثقافات التي قد تؤثر سلبا على فكرها وشخصيتها، ووضعها في المجتمع، لاسيما في ظل دعوات لمساواتها مع الرجل في جميع أمور الحياة وتحريرها دون الالتفات إلى تعاليم الإسلام السمحة التي تعتمد على العفة والأخلاق، وعلى كون العلاقة «تكاملية لا تنافسية».. «الوعي الإسلامي» التقت عددا من العلماء لتقنين وضع المرأة الآني.. فإلى التفاصيل.

«من أهم تحديات المرأة المعاصرة القيام بدورها الاجتماعي إلى جانب دورها السياسي وسعيها لإثبات أنها على مستوى الحقوق التي حصلت عليها في الدساتير والمواثيق الدولية».. بهذه الكلمات، بدأ د. عبد الله النجار أستاذ الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، وعضو مجمع البحوث الإسلامية، موضحا: وإضافة إلى ما سبق، عليها أيضا أداء دورها الحقيقي في الخدمة العامة وعلى المستوى الخاص في المحافظة على الأسرة وعلى حقوق الزوج والأبناء حتى لا يكون انشغالها بالعمل العام سببا في تفريطها في رسالتها الاجتماعية، التي لا تقل أهمية عن رسالتها العملية وأنشطتها الأخرى.

مظاهر سلبية

واستنكر النجار بعض المظاهر السلبية التي تتعرض لها المرأة كالتحرش بها، والنظر إليها على أنها ما زالت مادة للمتعة، وأنه لا يجوز أن يخرج عن هذا النطاق، منوها إلى أن ذلك وفقا للثقافة السائدة وليس تبعا للمنهج الإسلامي في وضع ضوابط المساواة بين الرجل والمرأة.

وعن دورها الاجتماعي أكد أنه أمر خطير، إذ إن الأسرة تتعرض لهجمات كثيرة من الغرب عن طريق وسائل الاتصال المعاصر من أجل النيل منها، مما يلقي عبئا ثقيلا على المرأة في أن تجمع شتات البيت والمحافظة عليه، لافتا إلى أن الأسرة هي الكنز الباقي للمسلمين وللعرب؛ لكونها الحافظ للهوية، وأن أي تفريط فيها سيكون مقدمة لانتهاء خصوصية الشعوب.

وأكد النجار أن الإسلام حفظ حقوق المرأة، خاصة في الإطار الأخلاقي، حيث يوجد آيات عديدة في القرآن الكريم، تتحدث عن العلاقة بين الرجل والمرأة سواء كانت في الزواج أو في الطلاق أو الحقوق التي تهتم بشؤونها، منوها إلى أن الآيات القرآنية تنبه على ألا يكون الأمر تعسفا مع المرأة، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، إذ إنها تبث الحرص في قلب الرجل على ألا يستغل الحقوق التي منحها له الشرع كالقوامة في التعنت مع المرأة، وأن يكون حريصا عليها.

الجهل أخطر التحديات

إلى ذلك، أكد عضو مجمع البحوث الإسلامية وهيئة كبار العلماء د. محمود مهنا، أن الإسلام اعتبر الرجل والمرأة بعضهم من بعض، فقال تعالى عن كليهما: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، وقال الرسول ﷺ: «النساء شقائق الرجال»، مضيفا أن الإسلام جعل للمرأة أهلية خاصة وجعل لها حقوقا، تزيد عن حقوق الرجل في بعض الأحيان، ففي مسألة مثل الميراث قد تزيد المرأة عن الرجل أو تساويه في ثلاثة وثلاثين حالة، ذكرها الإمام ابن قدامة في المغني وسائر كتب المذاهب الأربعة.

وأكد مهنا أن الإسلام أكرم المرأة أُمّا، فذكرها في القرآن الكريم من أوله إلى آخره بآيات تحترم الأم وتقدمها وترفعها فوق مصاف الرجال، وكذلك في السنة النبوية الشريفة، ومن ذلك ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال أبوك»، واعتبر الإسلام البيت الذي ليس فيه امرأة خربا، حيث جاء في الأثر: «هن مصابيح البيوت».

وعن التحديات التي تواجه المرأة المعاصرة، أشار مهنا إلى أن أخطر تحد يواجهها هو الجهل بالدين وأموره، مشددا على أنه على المرأة أن تتقن علوم الدين أولا لأنها «أمٌّ»، وأن الأسرة التي تبنى على الدين تكون وطنية جهادية مؤمنة.

وأضاف: نحن في عالمنا المعاصر نعيش فجوة بين هذه التعاليم وبين الواقع المعاصر، فالأم لو أحسنت إعداد نفسها وتخرجت فاهمة لعلوم الدين والشريعة لنفعت نفسها وأسرتها وأمّتها في جميع الأمور.

وأوضح أنه من ضمن المعوقات التي تواجه المرأة، اقتصار النظر إليها على أنها نوع أقل من الرجل بكثير، لافتا إلى أن هؤلاء الناظرون

د.مهنا: أخطر تحد يواجهها هو الجهل بالدين وأموره

واهمون لكون المرأة نصف المجتمع أو يزيد، إضافة إلى أن الأزواج في كثير من البلدان العربية يفهمون القوامة على الأسرة بأنها قوامة قاهرة، وأنه على الزوجة أن تسمع دون مناقشة، وهذا ليس من الإسلام في شيء، بدليل أن أم سلمة أنقذت وضعا كان في أيام النبي ﷺ في الحديبية، يوم أن أخذ النبي ﷺ برأسها فأغاثت الأمة الإسلامية أجمع آنذاك.. كما كان الرسول ﷺ يستشير زوجاته ويأخذ بآرائهن ويبين أنهن كوامل إلا أن لهن أعذارا ليست للرجال وهذه أمور طبيعية فيها.

واستنكر د. مهنا المناداة بتحرير المرأة، مؤكدا أن المراد به عند الغرب أن تفعل ما تشاء حتى في عرضها، واختلاطها ومعانقتها للرجال، إلا أن الإسلام جعل لها حرية مرتبطة بالأخلاق والعادات والتقاليد، فالمرأة حرة فيما يخص شرفها وكبريائها، لأنه قد تقوم القيامة في أمّة من أجل أن مُس عرضها، لذلك ليس بغريب قيام الحروب التي كانت تدور في الزمن الأول في أيام المعتصم يوم أن أهينت امرأة كشفت ساقاها، حيث تحرك جيشه يوم أن سمعها تنادي «وا معتصماه»، مؤكدا أن الحرية التي يريدها الإسلام للمرأة أن تقول وتأمر ويسمع قولها وتطاع.

وعن دورها الاجتماعي قال: عليها أن تكون أمّا صالحة وطبيبة نافعة ومهندسة قويمة، وأن تمتاز بكل الصفات التي لا تمس عرضها أو كرامتها، وأعظم دور للمرأة هو تربية الأجيال الذين يَكونون رهبانا بالليل فرسانا بالنهار. وأنهى كلامه

د. إدريس: الإسلام منح المرأة الحرية وفقا لميزان سماوي دقيق

قائلا: على المرأة المعاصرة أن تحافظ على العفة واحترام نفسها والتزامها بالحجاب الإسلامي.

تحديات

من جانبه، أكد أستاذ الفقه المقارن بكلية الشريعة بجامعة الأزهر د. عبد الفتاح محمود إدريس، أن المرأة بصفة عامة تواجه تحديات قائمة في أكثر الآراء الفقهية، حيث تعاني من تباين آراء المفسرين لأحكام الشرع الإسلامي، وهناك تحديات كثيرة؛ منها إقناعها بأنها خدعت تحت ما يسمى المساواة، فأصبحت بعيدة عن كونها رجلا أو حتى امرأة، وانحسرت بين أعباء الشخصيتين ونالت من الصعوبات ما لم تنله في التاريخ الإسلامي الذي منحت فيه المرأة الحرية وفقا لميزان سماوي دقيق، جعل للمرأة شأنا كبيرا أيا ما كانت، أمّا أو زوجة أو غير ذلك.

وأشار إدريس، إلى أن المرأة لها حماية شرعية وقانونية في صحيح الإسلام، لكن لا تحصل عليها مجتمعيا، خاصة أن هذا كان أساسا لانطلاق الموجة التي ادعت كذبا وزورا أنها تريد أن تحرر نفسها من القيود الدينية؛ ليمنحوها قوانين وضعية سلبتها الكثير من الحماية الشرعية التي تمتعت بها في ظل أحكام الإسلام.

وأكد أن أهم تحد تواجهه المرأة المعاصرة أنها لا تنال بعض حقوقها مثل الميراث وما إلى ذلك، ما جعل البعض يتقول عليها، فوقعت في فخ أنها لابد أن تتولى مسئولية القوامة حتى تكون في وضع المساواة.

وعن دورها الاجتماعي في الحياة، قال إدريس: إنه غير مفعّل بالرغم من كونه هاما جدا في المجتمع. وشدد على ضرورة رفع القيود التي كبلت المرأة.

يقظة

وأبدى المفكر الإسلامي والعميد

د. هلال: الصحابيات شاركن في جميع شؤون الحياة.. وأنانية الرجل أبرز التحديات

السابق لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر د. عبد الغفار هلال، سعادته من اليقظة العالية التي تحظى بها المرأة في البلاد العربية في وقتنا الحالي، بعد أن تعرضت للكثير من الإهمال، وإبعادها عن صنع القرار والأنشطة، والتي مارستها الصحابيات في العهد النبوي، مؤكدا أنها لا تقل عن الرجل في مواهبها، سواء في العقل أو تحصيلها للعلم، وفي بعض الأحيان تتفوق على الرجل.

ونوه إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، حيث إن الخلافة هنا مكلف بها الرجل والمرأة، ولم يفرق سبحانه وتعالى بينهما، مشيرا إلى أن المرأة الصحابية شاركت في جميع ألوان الحياة آنذاك، كما أنها شاركت في بيعة العقبة وسميت بـ «بيعة النساء»، حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ على النساء هذا الميثاق لقضايا العقيدة والإيمان بالله ولا يعصين أمره، مشيرا إلى مشاركة المرأة في الغزوات أيضا.

وأكد أنه هناك عدة تحديات تواجه المرأة المعاصرة منها أنانية الرجل، إضافة إلى الموروث الثقافي والعرفي الاجتماعي الذي يقف حائلا أمام تقدمها، بأن دورها الحقيقي في المنزل، كأن الرجل لا يريد لها غير رعاية الأبناء فقط، ورغم عدم إنكار ذلك لكنه لا يقتصر دورها على المنزل فقط؛ لكونها كفيلة بكثير من الأمور.

اكتساب العفة

محمد فريد فراج
كاتب متخصص في الشؤون الإسلامية

«من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر» (البخاري ومسلم).

«الجزاء من جنس العمل» هذا هو الدرس الأول من الحديث الشريف.

فالله سبحانه وتعالى يكافئ العبد بما يتناسب مع عمله؛ خيرا، أو شرا.

فمن سلك طريق العلم النافع طلبا للهدى؛ هداه الله إلى الحق.

ومن أعرض عن الحق بعد أن تبين له؛ كوفئ بزيغ القلب، وطمس البصيرة!.

وهكذا في كل أمر؛ فمن تعفف عن المسألة رزقه الله القناعة.

ومن استغنى بالله؛ ملأ الله قلبه غنى، وفتح له من الرزق ما يغنيه عن كل من سوى الله.

وقوله ﷺ: «يستعفف، يستغن، يتصبر»؛ يفيد أن الفضائل تكتسب بالمجاهدة.

فإذا أصيب العبد ببلاء؛ فصبر وكتم الألم، ولم يبثه، لم يلبث أن يصير ذلك سجية، وعادة له بالرياضة، والمكافحة.

وللحديث قصة طريفة، وهي: أن أبا سعيد الخدري أصابه جوع حتى شد على بطنه حجرا.

فقالت له امرأته: لو أتيت رسول الله ﷺ فسألته؟!.

فقال: لا أسأله حتى لا أجد شيئا، فالتمس فلم يجد شيئا، فانطلق إليه فوافقه يخطب، فأدرك من قوله: «من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ...» الحديث.

فرجع، فقال: فما سألت أحدا بعده شيئا، فجاءت الدنيا، فما أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا. راجع مسند أبي داود الطيالسي (٣/٦٦٢).

ومن الطريف أن النبي ﷺ قال ذلك من غير أن يعلم ما جاء بأبي سعيد الخدري؛ فإذا ذهب الرجل إلى خطبة، وسمع الخطيب يتكلم في موضوع يخصه في بيته، لا يظن سوءا أن أحدا اشتكاه إلى الخطيب فعرض به في الخطبة، ولكن يعمل كما فعل أبوسعيد، إذ التزم بالموعظة، فنال بركة العمل بالعلم، ففتح الله عليه وبسط له الرزق. فالحقيقة أن العبد يتكلم، ولكن الموعظة من الله.

ومن أشهر الذين تعففوا فأعفهم الله: عبدالرحمن بن عوف، إذ قدم المدينة فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، وكان سعد ذا غنى.

فقال لعبدالرحمن: أقاسمك مالي نصفين، وأزوجك.

فقال عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك!. دلوني على السوق، فما رجع حتى استفضل أقطا (لبن مطبوخ بالتمر والدقيق) وسمنا، فأتى به أهل منزله، فمكث يسيرا، ثم تزوج من ثمرة عمله، وأولم منه. راجع البخاري (٢٠٤٩)، ومسلم (١٤٢٧).

فرحم الله الصحابيين؛ إذ أرانا سعد قمة الإيثار، بينما أرانا عبدالرحمن قمة التعفف، والاستغناء بالله؛ فأعفه الله، وأغناه من فضله.

اللهم اجعلنا من الذين يتعففون فتعفهم بفضلك.



كيف نحمي أبناءنا من الانحرافات الفكرية؟

عبدالرحمن ضاحي
باحث تربوي



يشتكي كثير من الآباء في الآونة الأخيرة من ظاهرة الانحراف الفكري لأبنائهم، وسلوكهم مسالك شاذة في التفكير وإبداء آرائهم في الأمور السياسية أو العقدية: فهذا الولد لا يرى تطبيق شرع الله إن رفضته غالبية الناس؛ لأنه «ليبرالي» الفكر، وآخر يجادل أباه في عدم صلاحية تطبيق الحدود في عصرنا الحالي، وثالث سحبته الشبهات إلى الولوج في بحر الإلحاد.

خطورة الانحراف الفكري

يكمن خطر الانحراف الفكري في أنه ليس كالانحراف الأخلاقي الذي يمكن علاجه بكلمات الوعظ والنصح، كما أن خطره من الممكن أن يصل إلى الخروج من الملة؛ لأنه يصطدم بمسألة الاعتقاد، فكل المناهج الأرضية، السياسية والاقتصادية، قائمة على فكرة مركزية تصطدم بأصل الدين، فعلى سبيل المثال: الليبرالية قائمة على «الحرية المطلقة»، و«تقديس الذات»، وهو ما اختصره المفكر الفرنسي لاشييه في قوله: «الليبرالية هي الانفلات المطلق»، وهو ما يصطدم مع أصل الإسلام وهو الحرية المنضبطة، فالشريعة لها قواعدها وثوابتها وأصولها لا تتغير ولا تتبدل عبر العصور.

وقد تسبب الانحراف الفكري والعقدي

قبل ذلك في زوال دول بأكملها نظرا لانحراف فكر أمرائها، وقد استشهد الإمام ابن تيمية بأن من أحد أسباب سقوط الدولة الأموية هو فساد فكر مروان بن محمد (آخر خلفاء بني أمية)، بسبب فساد مربيه الجعد بن درهم (صاحب الفكر المنحرف في اعتقاده بالأسماء والصفات)، فقال - رحمه الله - في مجموع الفتاوى «وهذا الجعد إليه ينسب مروان ابن محمد الجعدي، آخر خلفاء بني أمية، وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة؛ فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لهم».

أسباب الظاهرة

ترجع نشأة ذلك الانحراف إلى عوامل عدة، بعضها مرتبط ببعض، منها: ضعف التربية العقدية، وعدم تكوين «مناعة» تكون حائط صد مقابل الأفكار المنحرفة والشبه العقدية تجاه عقل الشخص، فإن لم يؤسس بناء العقيدة بشكل جيد ويتم حل كل معادلاته الصعبة عند الشخص وبلورة قضية الحاكمية في رأسه، فسيظل عرضة لأي شبهة تعرض عليه.

كما أن الانفتاح الشديد الذي نعيشه، والعولمة التي جعلت العالم كالغرفة الواحدة، جديران بأن يثيرا شبهات فكرية وعقدية كثيرة لمن لا يملك مناعة قوية منذ الصغر، وجديران بهدم قناعات قديمة تربى عليها الشخص مع أي ريح شبهة. ولبيان خطورة الأمر يقول الرئيس الأمريكي السابق كلينتون: «ليست العولمة مجرد قضية اقتصادية بل يجب النظر إلى أهمية مسائل البيئة والتربية والصحة».

ومن المعروف أن القوي يفرض ثقافته على الضعيف، بل إن الضعيف يلهث وراء تقليده حتى لو كانت بضاعة القوي مزجاة في بعض الجوانب، مثل: الدين أو الفكر السياسي والاقتصادي. فإن من بني الإسلام من يرون في تقليد الغرب وانتهاج مناهجه المنحرفة تقدما ومواكبة، فالفجوة التي بيننا وبين الغرب في الوقت الحالي فتنة لمن لم يترب على عقيدة صحيحة. وفي ذلك يقول ابن خلدون «ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في جلسته، ومركبه، وسلاحه، في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم، وكيف تجدهم متشبهين بهم دائما، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم، حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلبة عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو الحال في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلاقة (أي الإسبان)، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل على الجدران والمصانع والبيوت، حتى يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، فالأمر لله».

علاج الظاهرة

بلاشك، إن الانحرافين الفكري والعقدي وجهان لعملة واحدة، وإن سبب نشأتهما نابع من منبع واحد ألا وهو إهمال التربية العقدية التي تبلور عند الأبناء قضية الحاكمية، وتمحو من عندهم أي شبه متعلقة بقضية التوحيد «فنحن في أيامنا هذه أحوج ما نكون إلى ترسيخ هذه المعاني، حيث إن ما يسمعه الطفل ويردد في كثير من وسائل الإعلام بات خاليا من هذه الأمور الجوهرية، وحيث تجتاح العالم موجات اللهو والمرح واللعب والقصص والأعمال الدرامية التي شغلت أذهان الناشئة بكل شيء إلا قضية التوحيد وقضية الهدف الأكبر من الوجود!» (دليل التربية الأسرية، د. عبدالكريم بكار). فغالبية الشباب الذين تحاورت معهم من الملحدين أو الذين ينسبون أنفسهم إلى التيار الليبرالي أو الاشتراكي أو ما شابه ذلك، عندهم قصور رهيب في تربيتهم العقدية، فلا يعرفون شيئا عن الولاء والبراء، ولا يعلمون أساسيات لا يسع شخص مسلم جهلها في العقيدة، فلذلك يقعون في تلك الانحرافات بسبب نقص تلك المناعة التي تكون حائط الصد بالنسبة إلى أي شبه أو إشكاليات فكرية.

وفي ظل العولمة التي نحياها، لاسيما ونحن في موضع المتلقي من الحضارات الأخرى، وتقدم وسائل التكنولوجيا التي جعلت من المراقبة الكاملة أمرا شبه مستحيل، لا ضامن لاستقامة سلوك الإنسان المسلم إلا الاهتمام بالتربية العقدية التي تضبط بوصلة تفكير المسلم.

إشارة على الطريق

وحتى نضع اللبنة في مكانها الصحيح لابد للتربية العقدية أن تكون في سن مبكرة، فالطفل يتعلم في سنواته الأولى أكثر بكثير مما يتصوره الآباء، فإن «٩٠ في المئة من العملية التربوية تتم في السنوات الخمس الأولى» (مسؤولية الأب المسلم.. عدنان باحارث). وقد أكدت نسبة كبيرة من بحوث علم النفس أن قسما كبيرا من النمو العقلي واللغوي للطفل ونمو ذكائه وتفكيره يتم خلال الأعوام القليلة الأولى من عمره، كما أنه في السنوات الأولى يبني الضمير الإنساني مما يجعل الطفل يميز الخطأ من الصواب.

الشاهد من الكلام أنه كلما تم ترسيخ تلك المعاني للطفل في صغره انتظم تفكيره في الكبر، فالانحراف الصغير يكبر مع مرور الأيام ليصير كبيرا، فما بالك إن كان الانحراف كبيرا من الأساس بإهمالنا التربية العقدية؟!

وأخيرا، العقيدة تعد ضرورة من ضروريات الإنسان التي لا غنى عنها، كما أنه يميل إليها بحسب فطرته، فحري بنا، كمسلمين وأصحاب عقيدة فريدة، الاهتمام بالبناء العقدي لأبنائنا بداية من تعليقهم بالله، وإرشادهم إلى الإيمان بالله ومراقبته في السر والعلن، وغرس أمر الحاكمية في أذهانهم، ومحو كل شبهات الاعتقاد من تفكيرهم.

التربية الزراعية في ضوء القرآن الكريم

أ.د. مصطفى رجب

لم يرد مصطلح «المهنة» أو «الحرفة» في القرآن الكريم صريحا، ولكن وردت إشارات إلى كثير من المهن التي امتهنها الإنسان على مر العصور، مقرونة بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي من على الإنسان بتعليمه هذه المهنة أو تلك، وقد حث الإسلام أتباعه على العمل لأنه سبيل لتحصيل المعاش وسد المؤنة بالطريق الحلال، لذلك اهتم به واهتم بإتقانه، واهتم أيضا بأن يكون سبيلا للأجر والثواب من الله تعالى، ويظهر هذا في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من خلال المعايير الإسلامية للعمل اليدوي وهي:

١- الإخلاص في العمل

إن إخلاص العمل لله تعالى سبب أساسي لقبول العمل، والإثابة عليه، إذ يمثل الإخلاص العامل الأهم في حياة الناس، حيث يكون العمل به متقنا، ويمثل جانبا مهما من تحقيق العبودية لله تعالى، والحرص على إتمامه على أكمل وجه، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الحج:٣٧)، ففي الآية دلالة على أن الله تعالى يحب العمل المتقن الذي تتحقق فيه الغاية منه، فلن يصل الله شيءٌ من لحوم الذبائح أو دمائها، ولكن يصله سبحانه الغايةُ من ذبحها، وهي التزام أمره طلبا لرضوانه وعفوه.

٢- أهمية إتقان العمل

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ (البقرة:١٣٩).

وفي هذه الآية دلالة واضحة على أهمية سعي المسلم لنيل مرضاة الله تعالى، من خلال حرصه على القيام بأعماله المكلف بها. واستعداده لتحمل تبعة الطريقة التي أدى بها عمله. وفي قصة صنع ذي القرنين للسد بتفصيلاتها التي وردت في سورة الكهف نموذج رائع، وصورة دقيقة الملامح لما يجب أن يكون عليه المؤمن في حال عمله من حرص على الإتقان.

٣- استثمار الوقت

وهو باب مهم من أبواب الدعوة إلى العمل والكسب والامتهان، فقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ (الاسراء:١٢).

ففي الآية دليل على نعمة الله على الإنسان في خلقه النهار ليكون وقتا مناسبا بما فيه من ضوء ودفء وحرارة لطلب الرزق، والسعي في مناكب الأرض.

وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٤٧). فيه دلالة على نعمة الله وتيسير الكسب للإنسان من ناحية خلقه، سبحانه، الليل ليكون زمنا محددا للنوم والراحة للأبدان، لتستطيع القيام بالأعمال في النهار، وخلقه النهار ليكون وقتا لانتشار الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسباب رزقهم.

٤- السعي للتكسب والتجارة

هناك كثير من الآيات الحاثة على



السعي والعمل والتجارة، منها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء:٢٩). ففي الآية تشديد على تحريم تداول المال بين المسلمين تداولا محرما، كأن ينشأ كسب المال من ربا أو من قمار أو بيع خمر أو ما شابه ذلك، أو أن يشوب كسبه ظلم أو عدوان، بل جعل الله تعالى التجارة بين المسلمين هي وسيلة تداول المال وسيولته بين الأفراد.

وفي الحديث الشريف ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به من الناس، خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه ذلك؛ فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» (صحيح مسلم).

ففي الحديث حث على الأكل من عمل اليد، والاكتساب بالمباحات كالحطب والحشيش النابتين في الأرض الموات، وفيه تشجيع على أن يكون المسلم حريصا على الإحسان إلى غيره من المحتاجين، ولن يتأتى له الإحسان إلا عن فضل مال أو طعام أو كسوة.

٥- الله تعالى هو وحده الرزاق

وهذا أمر عظيم ومهم، وهو إدراك الإنسان بأن الرزق من عند الله وحده، فلا يخشى المسلم الحق من انقطاع رزقه بسبب أحد من خلق الله، ولا يخاف أن يفوته رزقه، لأن الرزق بيد الله تعالى، وسيحصله حتما إذا ما أخذ بالأسباب الشرعية، فبذلك يكون المؤمن قويا لا يخاف في قوله الحق لومة لائم، ويعيش مرتاح البال مطمئن النفس. قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (البقرة:٢١٢).

فالله تعالى يرزق أولياءه المؤمنين رزقا واسعا رغدا لا فناء له ولا انقطاع.

مبادئ التربية الزراعية في ضوء القرآن الكريم

وقد حث القرآن الكريم والسنة النبوية على الاهتمام بالزراعة، لأنها السبيل لإنتاج غذاء الإنسان ولباسه، وقد من الله تعالى على الإنسان بهذه النعمة: نعمة تسخير الأرض؛ والأرض جزء من الكون الكبير الذي يعيش فيه الإنسان، والنظرة الإسلامية إلى الأرض تفيض بالدلالات التي ينبغي على المسلم أن يتدبرها ويقف على ما توحي به تلك النظرة من القيم والمعاني التربوية..

فقد قال سبحانه وتعالى ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الأحقاف:٣)، فالكون وما فيه من سموات وأرض كله مخلوق لله، خلقه لهدف وغاية، وما كان اللعب والعبث باعثا على الخلق، وهذا نستمد منه ما يلي:

أ - ارتباط المسلم بخالق الكون وبالهدف الأسمى من الحياة، الذي خلق من أجله وهو عبادة الله وحده.

ب - تربية الإنسان على الجدية، فالكون كله أقيم على أساس الحق، ووجد لهدف معين وإلى أجل مسمى عند الله، وليس العبث واللهو من شأنه تعالى.

ج - ونتعلم من هذه النظرة ضرورة أن تولي البرامج التربوية عناية كبرى للأهداف التي تسعى التربية إلى تحقيقها.

د - كما نتعلم أن تلك الأهداف يجب أن تتسم بالوضوح والدقة والتنظيم.

هـ - وأن تكون الأهداف التربوية واضحة للمتعلم المستهدف بها.

العطاء التربوي القرآني في مضمار الزراعة

١- امتنان الله تعالى على الإنسان بالنبات الأخضر: باعتباره أساس نمو النبات وتحقيق النفع للإنسان.

فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:٩٩).

ففي الآية امتنان من الله تعالى على خلقه بإيجاد هذه المادة الخضراء التي هي أصل الحياة وأصل تنوع النباتات.

٢- بيان قدرة الله في تنوع النباتات واختلافها:

في قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد:٤).

ففي هذه الآية دليل على نعمة التنوع في التربية، مما ينتج تنوعا في أصناف النباتات مع وجودها إلى جنب بعضها، ومع كونها تسقى بالماء نفسه، غير أنها تعطي ثمارا مختلفة الطعوم، وبعضها أفضل من بعض.

٣- استفادة الإنسان من الحيوان:

الاهتمام بالحيوان والثروة الحيوانية يدخل في نطاق أنواع الزراعة والإنتاج لما يلزم منه من اهتمام بالمراعي وبأماكن وجود الماء، لسد حاجات الحيوان المختلفة، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٥-٨).

قال ابن عاشور: وتقديم الإراحة على التسريح لأن الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج، لأنها تقبل حينئذ ملأى البطون حافلة الضروع، مرحة بمسرة الشبع ومحبة الرجوع إلى منازلها من معاطن ومرابض. والإتيان بالمضارع في ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾ لأن ذلك من الأحوال المتكررة. وفي تكررها تكرر النعمة بمناظرها.

وقد أفاد ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ معنى تحملكم وتبلغكم، بطريقة الكناية القريبة من التصريح. ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾. وجملة ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ صفة لـ ﴿بَلَدٍ﴾، وهي مفيدة معنى البعد، لأن بلوغ المسافر إلى بلد بمشقة هو من شأن البلد البعيد، أي لا تبلغونه بدون الأنعام الحاملة أثقالكم (التحرير والتنوير - (ج٨/ ص١٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ (النحل:٦٦).

أي يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله، لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله. وقد قيل فيما رواه الزمخشري. (الكشاف - ج ٣/ ص ٣٧١): إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته، فكان أسفله فرثا، وأوسطه لبنا، وأعلاه دما. والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، وتبقي الفرث في الكرش. فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (النحل:٨٠).

وقوله: ﴿سَكَنًا﴾ أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره، إلا أن القول خرج على الغالب. وعُد هذا في جملة النعم. قال القرطبي: «فإنه لو شاء خلق العبد مضطربا أبدا كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد، لو خلقه ساكنا كالأرض لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقا يتصرف للوجهين، ويختلف حاله بين الحالتين» (تفسير القرطبي - ج ١٠/ ص ١٥٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ تدل على إذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز، كما أذن في الأعظم من ذلك، وهو ذبحها وأكل لحومها، ولم يذكر القطن والكتان لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عدد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عرفوا بما فهموا. وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل في الاستعمال والنعمة مدخلها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ فخاطبهم بالبرد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم، وسكت عن ذكر الثلج، لأنه لم يكن في بلادهم، وهو مثله في الصفة والمنفعة، وقد ذكرهما النبي ﷺ معا في التطهير فقال: «اللهم اغسلني بماء وثلج وبرد».

٤- اعتبار النباتات نعمة ولكن إذا تفاخر بها الإنسان واستغنى بها واستعلى بها على الناس كانت وبالا وإثما عليه، ومصدرا للعذاب والجزاء على اغتراره بها.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ (الكهف:٣٢-٣٣).

فقد أعطاه الله جنتين لهما منظر يسر النفس ويشرح الصدر، يصوره القرآن أروع تصوير، منظر حديقتين مثمرتين حافلتين بأنواع الفواكه محفوفتين بأشجار النخيل، تتوسطهما الزروع، وتجري بينهما الأنهار. فلما لم يصن النعمة، ويعترف بفضل ربه عليه، محق الله هذه النعمة وجعلها وبالا عليه لكفره، فأصبح من النادمين.

٥- الاهتمام بالزراعة وإحياء الأرض: إذا لم يستطع صاحب الأرض زراعتها والانتفاع بها، وجب عليه أن يدع غيره يزرعها على نسبة من الثمار التي تنتجها الأرض، أو مقابل مبلغ من المال مما يحقق الفائدة لصاحب الأرض وللزارع وللناس جميعا.

فقد روى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: كانوا يزرعونها بالثلث والربع والنصف، فقال النبي ﷺ: «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها، فإن لم يفعل فليمسك أرضه» (صحيح البخاري - ج ٨/ ص ١٥٢). قال ابن حجر مفسرا قوله «فليمسك أرضه»: أي فلا يمنحها ولا يكريها، وقد استشكل بأن في إمساكها بغير زراعة تضييعا لمنفعتها فيكون من إضاعة المال، وقد ثبت النهي عنها، وأجيب بحمل النهي عن إضاعة عين المال أو منفعة لا تخلف، لأن الأرض إذا تركت بغير زرع لم تتعطل منفعتها، فإنها قد تنبت من الكلأ والحطب والحشيش ما ينفع في الرعي وغيره، وعلى تقدير أن لا يحصل ذلك فقد يكون تأخير الزرع عن الأرض إصلاحا لها، فتخلف في السنة التي تليها ما لعله فات في سنة الترك، وهذا كله إن حمل النهي عن الكراء على عمومه، فأما لو حمل الكراء على ما كان مألوفا لهم من الكراء بجزء مما يخرج منها، ولا سيما إذا كان غير معلوم فلا يستلزم ذلك تعطيل الانتفاع بها في الزراعة، بل يكريها بالذهب أو الفضة كما تقرر ذلك. (فتح الباري لابن حجر - ج ٧/ ص ١٩٩).

الجمعية الجغرافية المصرية
صرح عالمي يوثق الزمان والمكان

فيصل يوسف العلي
تصوير: هدايت الله نثار

عندما تستمع إلى حديث رئيس الجمعية الجغرافية المصرية أ.د. محمد صفي الدين أبو العز، تجد نفسك أمام عالم جليل راسخ ودقيق في علمه وتحليلاته وعرضه، حيث تلاحظ بصماته من خلال تخصيص الجمعية ركنا للمجلدات الجغرافية المهمة الواردة من دول العالم الغربي.
والمتأمل لطريقة عرض محتويات الجمعية يستشعر كيف أن هذا المكان يعيش في وجدان د. أبو العز، الذي مشى معنا في أروقة الجمعية يشرح لنا بنفسه ويوضح لنا أبرز المعالم لكل زاوية.


رئيس التحرير (يسار الصورة) في حديث مع د. صفي الدين في مقر الجمعية

«الوعي الإسلامي» زارت الجمعية الجغرافية قبل أيام بوفد مكون من رئيس التحرير فيصل يوسف العلي، وأ.د. وليد عبدالله المنيس رئيس قسم الجغرافيا في جامعة الكويت.

وقد التقى الوفد برئيس الجمعية أ. د. محمد صفي الدين أبو العز للتعرف على طبيعة عمل الجمعية، والدور الذي تقوم به في خدمة القضايا الجغرافية في العالم.

وعن طبيعة عمل الجمعية وظروف تأسيسها قال أ. د. أبوالعز: «إن تاريخ إنشاء الجمعية الشامخة، التي ضربت عروقها في التاريخ، يرجع إلى عام ١٨٧١م، عندما أسسها الخديوي إسماعيل بمرسوم خديوي صدر في ١٩/٥/١٨٧٠م. وفي سنة ١٨٧١م صدر العدد الأول من مجلة الجمعية الجغرافية، وكان يومها باللغة الفرنسية، حيث كان لتلك اللغة اليد الطولى في النشر والتداول كما هو معلوم. وقد تضمن المرسوم بنودا، أهمها: اختيار رئيس الجمعية، وكذلك تسميتها بالجمعية الجغرافية، وتعيين رئيس لها. وكان أول رئيس لها هو الألماني جورج شفاين فورد، وخصص له راتب سنوي بمقدار ٥٠٠ جنيه، مما يدل على عراقتها وتاريخها الشامخ».

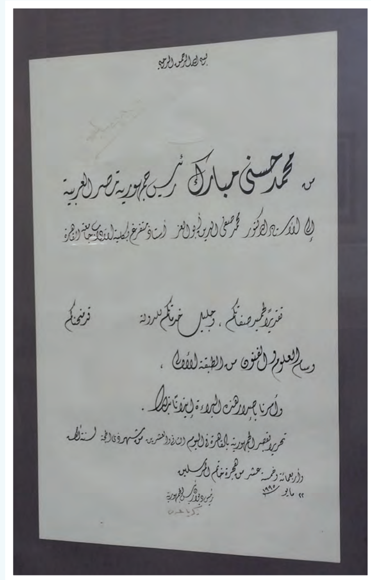
وأوضح د. أبوالعز حول دور الجمعية في ما يتعلق بالرسائل العلمية كالماجستير والدكتوراه، بأنه يتم توجيه الباحثين إلى إرسال نسخ من أطروحاتهم إلى الجمعية، وتم بالفعل توثيق أكثر من ألف عنوان حتى الآن.

وعندما تجولنا مع الدكتور أبوالعز في أروقة الجمعية، ذات المبنى التراثي الجميل، شاهدنا دقة تقسيم المبنى من الداخل، حيث احتوى على قاعة كبيرة، أشبه بالقاعات الملكية، ذات سقف عال مزخرف يأخذ بالألباب والبصر، وتحته مجموعة من الكراسي المرتبة ترتيبا دقيقا وحسنا، وكلها في واجهة منصة يجلس خلفها المحاضر أو الزائر ليستمع إليه الجالسون.

وذكر أن المبنى يشتمل على المكونات التالية:

مكتبة الجمعية

١ - الكتب والدوريات، وكانت نواتها ٢٥٠٠ مجلد أهداها الخديوي إسماعيل إلى الجمعية، ثم تلقت الجمعية بعض الهدايا والمكتبات لصفوة الأمراء (من





مكتبة محمود باشا الفلكي ٣٠٠ مجلد، ومكتبة الأمير حيدر فاضل ٧٠٠٠ مجلد، ومكتبة الأمير محمد علي توفيق (ولي العهد) ٧٠٠٠ مجلد)، ثم توالت الهدايا فيما بعد ذلك.

٢ - مكتبة الخرائط والأطالس، وتحتوي على ذخائر من الخرائط والمصورات القديمة والحديثة بعضها يرجع إلى عام ١٨٧٧م، وذلك لرغبة أبداها الخديوي إسماعيل، واشتملت على خلاصة الكشوف الجغرافية، منها خريطة طبعت بمقياس ١ : ٦٠٠٠٠٠٠.

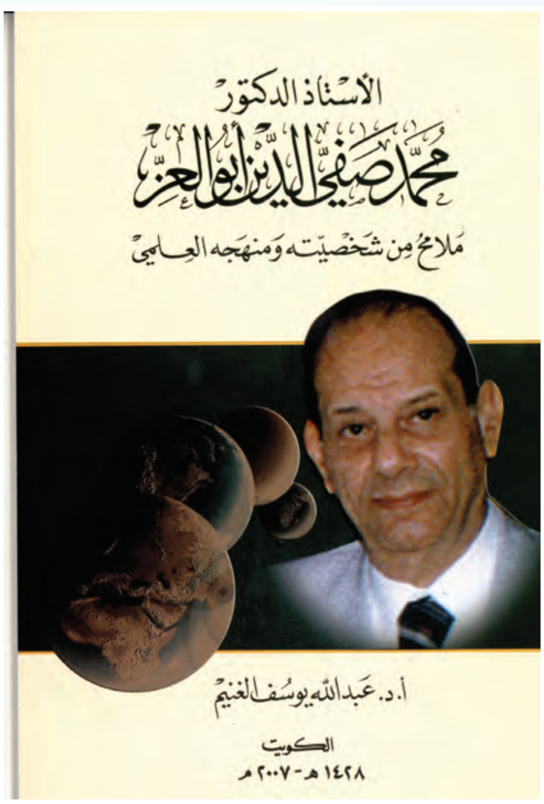
ومن الخرائط النادرة أيضا خرائط أركان حرب الجيش المصري، مثل: خريطة دارفور التي رسمها بوردي باشا، والخريطة التي رسمها محمود باشا الفلكي. يضاف إلى ذلك أن المكتبة تحتفظ بأطلس نادر هو أطلس الأمير يوسف كمال، ويضم خرائط قديمة نادرة لقارة أفريقيا. ومن الغرائب أيضا أطلس أسفل الأرض للأمير عمر طوسون.

متحف الجمعية وقاعاته

تجمع لدى الجمعية الجغرافية المصرية منذ إنشائها مجموعة قيمة من الموجودات والمجموعات والمعروضات التي أهداها عدد من الجغرافيون المصريون والأجانب وقوات الجيش المصري وضباطه الذين شاركوا في إعادة فتح السودان، فزودوها بالأسلحة والأدوات والصور. وفي عام ١٩٢٤م كلفت الجمعية أحد المتخصصين الإنجليز (الأستاذ إي. أس. توماس E.S. Thomas) بدراسة مقتنيات الجمعية وتصنيفها وتنظيمها وفهرستها، وشكلت هذه الدراسة الأساس الذي قام عليه هذا المتحف.

ومحتويات المتحف هي:

- قاعة القاهرة (صور من الحياة الشعبية): وتشتمل على مجموعة من المقتنيات التي تعكس العادات والتقاليد في مدينة القاهرة، والحياة اليومية والمنزلية، والحي البلدي، والأعياد.



كما اشتملت على المحمل النبوي الشريف، وهو من عصر الملك فؤاد الأول، وكانت مصر ترسله إلى الحجاز مع أستار الكعبة في موسم الحج، وهو من الحرير الثقيل، مكتوب عليه آية الكرسي بخيوط الذهب والفضة، ومزخرف بزخارف نباتية وهندسية غاية في الجمال.

- قاعة القاهرة (الحرف والصناعات): وتشتمل هذه القاعة على مجموعات عدة من نتاج الحرف والصناعات المصرية الأصيلة اليدوية كالخط العربي وصناعة النحاس والصناعات الحديدية، وصناعة الزجاج.. إلخ.

- قاعة أفريقيا: وتضم جميع المقتنيات التي أهديت إلى الجمعية من قبل الفريق مختار باشا رئيس هيئة أركان الجيش المصري وعدد من الرحالة الذين شاركوا في أنشطة الجمعية الجغرافية، وتشتمل على الحراب والسيوف والخناجر والدروع والأدوات المنزلية.. إلخ.

- قاعة قناة السويس: وهي من القاعات التي أبهرت الوفد، وذلك لأنها مصممة بطريقة تجعلها تتحرك في عين الناظر وذلك عبر النيل من الشمال إلى الجنوب في منظر خلاب، وتظهر أيضا الشخصيات التي عاصرت تلك الفترة مثل فيردناند ديليسبس (مهندس قناة السويس) والخديوي



وملكة فرنسا والمرافقين.

- المجسمات التذكارية: وعددها ٦ مجسمات، منها مقدمة باخرة من طراز ١٩٣٠م تجتاز قناة السويس من بورسعيد إلى السويس، ومجسم يمثل حفر قناة السويس في ميناء بورسعيد، كما تظهر ٤ مجسمات للإسماعيلية وبورسعيد وبور توفيق ورصيف أحد جانبي القناة، مجسمة لهذه المدن الثلاث في منظر خلاب يرجع بك إلى تلك الفترة بتفاصيلها.

- الخرائط المجسمة وغير المجسمة: يوجد في القاعة عدد من الخرائط المجسمة لبعض المدن المهمة في منطقة قناة السويس، كما كانت عام ١٩٣٠م بمنازلها وشوارعها، وهي تعتبر وثائق مهمة وثمينة عن قناة السويس وحالتها قبل الحرب وبعدها.

- الصور الملونة والرسوم البيانية: توجد بهذه القاعة مجموعتان من الصورة الملونة التي سجل عليها الفنان الشهير ريو Riou كل الاحتفالات بريشته، جميع الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة فتح قناة السويس، وهي ٣٧ لوحة معبرة على مر السنين، منذ عام ١٨٧٠م إلى عام ١٩٣٥م.

أنشطة الجمعية ومنجزاتها

وهي أنشطة كثيرة لا حصر لها، ويكفيها فخرا أن أول مؤتمر جغرافي في العالم عقد عام ١٩٢٥م في الجمعية. كما أن الجمعية لها إصدارات علمية من أهمها:

١ - مجلة الجمعية الجغرافية المصرية:

وهي دورية تصدر باللغتين الإنجليزية والفرنسية، علما بأن أول عدد لها صدر بالفرنسية عام ١٨٧٦م. وقد بلغ عدد مجلداتها حتى عام ١٩٩٧م حوالي ٧٠ مجلدا، مما يعني أنها الآن قد قاربت المائة مجلد.

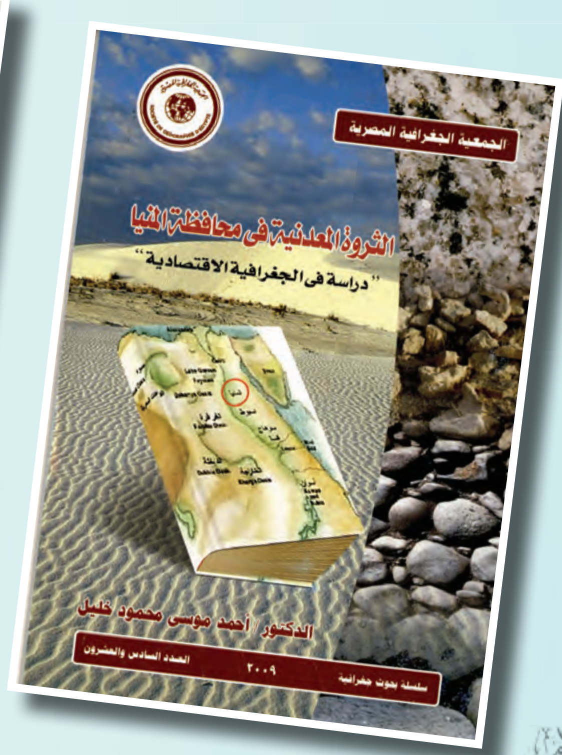
٢ - المجلة الجغرافية العربية:

صدر أول عدد منها عام ١٩٦٨م باللغة العربية، وقد قدم لها الأستاذ الدكتور سليمان حزين، رحمه الله.

٣ - سلسلة بحوث جغرافية:

وقد صدر أول عدد منها عام ١٩٩٦م، وتعبر عن الإسهامات المصرية الحديثة في مجال البحث







العلمي الجغرافي المتخصص.

٤ – الإصدارات الخاصة:

وهي تتناول نشر كتب المؤتمرات، وسجلات الإنتاج العلمي للجغرافيين المصريين، ودليل المتحف الإثنوجرافي.. إلخ.

٥ – الإصدارات غير العربية:

وهي تصدر على شكل مذكرات وإصدارات خاصة غير دولية لنشر بعض الأعمال المتميزة، على سبيل المثال: ما كتب عن ميناء السويس، والأطلس التاريخي لمدينة الإسكندرية، وما كتبه عمر طوسون عن جغرافية مصر، كل ذلك في مجال الأعمال المتميزة في تلك الفترة بدءا من عام ١٨٧٥م.

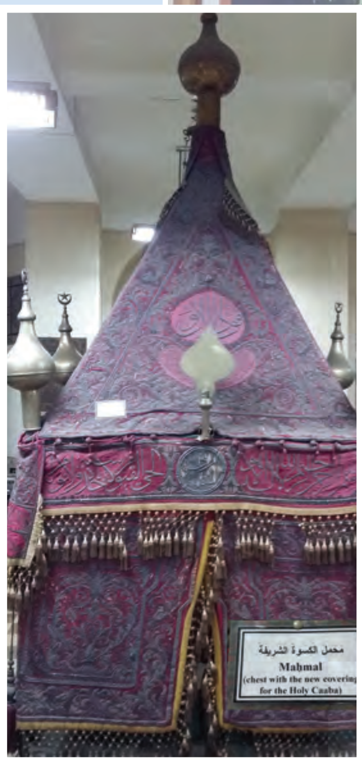
وبسؤاله أخيرا عن الدور الكبير الذي قام به أثناء الغزو العراقي ودفاعه عن الكويت، أوضح أن موقفه جاء من خلال منصبه في الجامعة العربية، حيث قام بدعوة كبار الجغرافيين وتم تأليف كتاب مهم يبين حق الكويت، ويفند أكاذيب الغزاة اسمه «الكويت وجودا وحدودا» الذي ترجم إلى عدة لغات لأهميته ووزع على دول العالم.

يذكر أن الدكتور أبوالعز زار الكويت في مايو ٢٠١٤م، وعمل له برنامج حافل، وتشرف بلقاء أمير البلاد صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد بصحبة الدكتور عبدالله الغنيم، وقد كان لهذه الزيارة أثر كبير في نفس الدكتور أبوالعز ولوحظ أنه وضع صورته مع أمير البلاد ود. الغنيم في مكان بارز.

وقد وضع تلميذه أ. د. عبدالله الغنيم كتابا حافلا عنه يُعّرف بمنهجه وسيرته العلمية ودوره في تنمية علم الجغرافية الطبيعية ومصطلحاته.



صورة لأول مؤتمر جغرافي في العالم أقيم في الجمعية عام ١٩٢٥م



من هو؟

الاسم: محمد صفي الدين أبو العز.

الميلاد: القاهرة ١٦ يناير ١٩٢٩م.

الحالة الاجتماعية: متزوج وله ثلاثة أولاد.

الوظيفة الحالية: أستاذ متفرغ بكلية الآداب – جامعة القاهرة، ورئيس الجمعية الجغرافية المصرية.

المؤهلات:

١ – ليسانس آداب مع مرتبة الشرف بقسم الجغرافيا – كلية الآداب – جامعة القاهرة، مايو ١٩٤٨.

٢ – دكتوراه في الفلسفة في العلوم البحتة (الجغرافيا) من جامعة درام (Durham) بإنجلترا سنة ١٩٥٣.

التدرج الوظيفي:

١ – معيد بقسم الجغرافيا في جامعة القاهرة عام ١٩٤٨.

٢ – عضو بعثة دراسية في إنجلترا (١٩٥٠–١٩٥٣).

٣ – مدرس بقسم الجغرافيا (١٩٥٤–١٩٥٩).

٤ – أستاذ مساعد بقسم الجغرافيا في جامعة القاهرة (١٩٥٩–١٩٦٦).

٥ – أستاذ كرسي الجغرافيا الطبيعية في جامعة القاهرة منذ سنة ١٩٦٦.

٦ – أستاذ الجغرافيا الطبيعية في جامعة الكويت (١٩٦٦–١٩٦٧).

٧ – وزير الشباب في جمهورية مصر العربية (١٩٦٨–١٩٧١).

٨ – أستاذ ورئيس قسم الجغرافيا في جامعة القاهرة (١٩٧١–١٩٧٤).

٩ – رئيس معهد البحوث والدراسات العربية ومدير عام مساعد في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (يناير ١٩٧٤–١٩٨٠).

١٠ – أستاذ ورئيس قسم الجغرافيا في جامعة الكويت (١٩٨٠–١٩٨٤).

١١ – عميد كلية الآداب في جامعة الإمارات وعضو المجلس الأعلى للجامعات من أكتوبر ١٩٨٤ إلى سبتمبر ١٩٨٥.

١٢ – رئيس معهد البحوث والدراسات العربية والمشرف العام على المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالقاهرة (١٩٨٦–١٩٩٣).

١٣ – رئيس الجمعية الجغرافية المصرية منذ مارس ١٩٩٤ وحتى الآن.

أبرز رواد الفكر الإسلامي في الصين:
الإمام تشنغ كه لي .. التزام بالحق

د. يونس عبدالله ما تشنغ بين الصيني
محاضر بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى البشرية، حمل الإنسان أمانة الخلافة، وأرسل من حين إلى حين الأنبياء والرسل، وكان الهدف من إرسال هؤلاء توجيه البشرية إلى الاستسلام للمنهج الرباني، وتأسيس الحياة على وجه الأرض على الاستقامة بما يحفظ البشرية، ويقودها إلى نيل السعادة في الدنيا والآخرة، وكان سيدنا محمد ﷺ آخر أنبياء الله ورسله إلى البشرية كافة، لتحقيق هذا الهدف. وبعد أن ختمت الرسالة والنبوة بالبعثة المحمدية، ترك الرسول ﷺ مهمة الدفاع عن هذه الرسالة، وتوصيلها إلى البشرية كافة على عاتق العلماء قائلا: «إن العلماء ورثة الأنبياء». (رواه أبوداود) ولكيلا تتفرق جهود هؤلاء العلماء في تحمل هذه الرسالة، وفهمها، ونشرها بين الناس، حثهم وجميع المسلمين المقرين بدين الله الحنيف على التمسك بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ قائلا: «تركت فيكم أمرين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه» (حسنه الألباني)، وأن يرجعوا إليهما كلما وقع بينهم خلاف ونزاع، كما دعا الله عزوجل في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ (النساء:٥٩). وبالفعل انتشر الإسلام شرقا وغربا، ومازال ينتشر هذا النور بالرغم من التحديات والعراقيل التي تحاول إطفاءه، كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨﴾ (الصف:٨).

وعندما نقرأ تاريخ أمة الإسلام، وازدهارها بين الأمم، واندثارها، نجد ذلك راجعا إلى مدى تمسك الأمة بكتاب الله، وتأسيها بسنة نبينا محمد ﷺ أو عدمه، وإن كان التقدم والتأخر والقوة والضعف من سنة الحياة، فلا يعني ذلك الاستسلام للواقع دون التحرك نحو تحقيق الكمال، لعل الرسول ﷺ أراد من الأمة المحمدية أن تسعى إلى تحقيق الكمال للمجتمع البشري بعد أن كمل الله دينه ببعثة النبي محمد ﷺ حيث قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ (المائدة:٣)، لعل الرسول ﷺ أراد ألا تصاب أمة الإسلام باليأس والانهزامية أمام تيار الكفر والإلحاد والنفاق عندما قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» (رواه أبوداود وصححه الألباني). فالتاريخ الإسلامي يؤكد لنا سلسلة من المجددين في الإسلام أمثال الخليفة عمر بن عبدالعزيز والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل والإمام الغزالي والإمام أحمد الفاروق السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني (١) رضي الله عنهم أجمعين. ومن لطف الله بعباده وحكمته في العناية بالمسلمين أن يبعث علماء ربانيين كلما أصاب الأمة بلاء أو سوء لحماية دينهم، ولتبصرة عقولهم، وإيقاظ هممهم، ولذلك نجد هؤلاء العلماء الربانيين ممن جدد الله بهم دين الإسلام؛ ظاهرين في مختلف البلدان، وسط العرب والأعجم، قديما

وحديثا، يربطهم جميعا رباط الإيمان والتقوى. وفي هذه السلسلة المباركة من أهل الله الذين جدد الله دينهم القويم في منطقة شرق آسيا، وبالتحديد في الصين الشعبية؛ إمامنا المفكر الإسلامي الشهيد يوسف تشنغ كه لي (Chen Ke Li) رحمه الله تعالى، الذي جمع بين حبر العلماء ودماء الشهداء، في سبيل الدين والحق، في أرض الصين، في القرن الماضي (٢). وإن جيل الإسلام وخاصة مسلمي الصين الذين ولدوا بعد الثورة الثقافية (١٩٦٦-١٩٧٩م) المشهورة، والمشؤومة بالنسبة لنا -معشر المسلمين- يتحتم عليهم، وعلى أمة الإسلام في العالم أن نعرف حياة هذا العالم الشهيد وجهوده في تبصير المسلمين، وتنوير عقولهم، وتقريبهم من الله، سبحانه وتعالى. وليس للعظمة مقياس خاص، فقد يكون العظيم عالما، أو فاتحا، أو مخترعا، أو مربيا روحيا، أو زعيما سياسيا؛ ولكن أجدر العظماء بالخلود هم الذين يبنون الأمم، وينشئون الأجيال، ويغيرون مجرى التاريخ (٣).

والإمام الشهيد يوسف تشنغ كه لي (Chen Ke Li) رحمه الله تعالى، يعتبر أحد هؤلاء الخالدين في تاريخ الصين خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة.

مفكر وعالم وإمام









ولد الشهيد يوسف تشنغ كه لي (Chen Ke Li) رحمه الله، عام ١٩٢٣م، بقرية تشانغ قه (Chang Ge) ببلدة ينغ تشياو(Ying Qiao) من محافظة شيانغ تشن (Xiang He)لمقاطعة خه نان(Chen Nan) بالصين. وبدأ يدرس اللغة العربية والدين الإسلامي وهو في التاسعة من عمره، في المسجد بقريته، ثم واصل دراسته للعلوم الإسلامية على أيدي العلماء الصينيين الأجلاء من مسجد إلى آخر، وسافر بعد بدء حرب المناضلة للغزاة اليابانيين إلى محافظة بينغ ليانغ، من مقاطعة قانسوا لمتابعة دراسته الدينية، ثم واصل دراسته في تخصص اللغة العربية بمدرسة المعلمين بشرق قانسوا، وفي عام ١٩٤٧م التحق بمعهد العلوم الإسلامية ببكين؛ لمواصلة الدراسة في العلوم الإسلامية. وبعد تخرجه منه عام ١٩٥٤م، عين إماما في مسجد ينغ تشياو (Ying Qiao) في قريته، وتم تعيينه كمدرس مساعد للغة العربية وآدابها في جامعة بكين عام ١٩٥٥م، بترشيح من أستاذه محمد مكين، رحمه الله. وغادر الجامعة ١٩٥٥م للتفرغ الكامل في ترجمة الكتب الدينية، ثم عين مدرسا في معهد العلوم الإسلامية عام ١٩٥٧م، وعاد إلى قريته في السنة نفسها، بعد مغادرته المعهد. فوقعت الطامة الكبرى على الشهيد ابتداء من عام ١٩٥٨م، حتى أعدم ظلما عام ١٩٧٠م.

إن حياة الشهيد المجيدة كانت خالصة لوجه الله؛ مدافعا عن الحق أينما كان وحل، وما كان ينحني أمام نفوذ الشر أو يخافه؛ بل كان يلتزم بالحق من البداية إلى النهاية، وقد فضل الموت بالعزة وهو مرفوع الرأس على الاستسلام، وحافظ على كرامة المثقفين المستقيمين. وما كان الشهيد نموذجا للمثقفين المسلمين الصينيين خاصة؛ بل كان مثلا بارزا للمثقفين الصينيين عامة، وقدوة وأسوة خالدة للمسلمين في الصين داخلها وخارجها.

تجديد الفكر الإسلامي من خلال التأليف والترجمة

إن للشهيد يوسف تشنغ كه لي إنجازات عظيمة في التأليف والترجمة حول الحضارة الإسلامية، والفكر الإسلامي، والسنة النبوية الشريفة. ومن أهم مؤلفاته كتابه المشهور «معرفة الإسلام عن طريق معرفة محمد ﷺ»، وقد نشر هذا الكتاب عام ١٩٥١م في بكين، وتم ترجمته إلى العديد من اللغات الأجنبية، منها: العربية والملايوية والأوردية (٤) وقد صار الكتاب معلما من معالم الطريق إلى الدين الإسلامي الصحيح بين المسلمين، وجعل المسلمين في الصين يفهمون الإسلام فهما صحيحا، من خلال قراءة محتوياته. والجدير بالذكر أن هذا الكتاب تم تأليفه في شهر سبتمبر عام ١٩٥٠م، وكان عالمنا في السابعة والعشرين من عمره، والكتاب يحتوي على مائتي ألف كلمة وأكثر. وفي هذا الكتاب ذكر الشهيد عظمة الرسول ﷺ، وإنجازاته الكبرى، كما بين تمييز الباطل من الحق، وكيفية معرفة جوهر الإسلام وأحكامه، وفي الكتاب ذكر المؤلف قضايا المسلمين المعاصرة،

وتصوره الكامل لحلها، والتغلب عليها في ضوء روح القرآن والسنة النبوية الشريفة، وهو كتاب متميز في تحليل سيرة النبي ﷺ. والكتاب لم يؤلف لفئة معينة من الناس، بل يخاطب جماهير الأمة بكاملها، واستخدم فيه الشيخ أسلوبا لغويا سهلا، ممتعا، مع مادة علمية غزيرة، وربط علوم الإسلام بعلوم الطبيعة.. إن عرض الإسلام بشموليته جعل للكتاب مكانة خالدة في قلوب القارئين له، على جميع المستويات بين المسلمين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكاتب قد خصص فصلا كاملا لبيان قضية المرأة، تحت موضوع «الكفاح من أجل منزلة المرأة وحقوقها»؛ حيث قال: «إن منزلة المرأة في المجتمع البشري رائعة في الأصل، وهي نصف المجتمع؛ ومن المبادئ الإسلامية يتضح أن الإسلام أنزل المرأة منزلة مكرمة، وأعطاها شخصية مستقلة لا يجوز الاستهانة بها أو إغفالها، ولها حقوقها، وعليها واجباتها، وهي كالرجل في الإنسانية سواء بسواء».

كان حزن الشيخ الشهيد على ضعف المسلمين وتفرقهم داخل الصين وخارجها شديدا، وحبه ورغبته في توحيد المسلمين كان واضحا في جميع كتاباته. ومن نصائحه دعوته إلى الاتحاد والتعاون على البر والتقوى، حيث قال في مقدمة الكتاب: «إخواني المسلمين، لا تحسدوا بعضكم بعضا، ولا تتفرقوا بالمسائل الفقهية الفرعية، ولا تتعصبوا فيها؛ بل علينا التعاون فيما بيننا بالحب والاحترام على أساس القرآن والسنة النبوية الشريفة». وقد دعا إلى تعلم القرآن الكريم، والعمل على خدمة دين الله بالإخلاص والتقوى، حيث قال: «إن القضايا التي أمامنا مقدسة، والعصر الذي نعيش فيه عظيم، والرسالة التي نحملها على عاتقنا شاقة، وطاقتنا وقوتنا ضعيفة كضعف ضوء الشمعة في الليل المظلم، كأن نداءنا جرس الناقة في الصحراء الواسعة لا يسمعه أحد». وباختصار فإن الشهيد كان يهدف من خلال كتاباته إلى تطوير حالة المسلمين إلى الأمام، ببث روح القرآن في قلوب المسلمين، ومحبته، واتخاذه أسوة وقدوة في حياتنا اليومية؛ حتى يكون الإسلام مهيمنا على جميع الناس.

ومن الأعمال التي ترجمها الشهيد والأكثر تأثيرا بين المسلمين كتاب «التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ للشيخ منصور علي ناصف»، ويعد هذا الكتاب فريدا من نوعه لشموله على جميع أبواب الفقه، ولم يسبق في تاريخ الصين ترجمة كتاب شامل من كتب السنة النبوية الشريفة، جمع أبواب الفقه كلها قبل كتابه هذا. ونشر الجزء الأول منه في بكين عام ١٩٤٥م، فبدأ المسلمون إحياء سنة النبي ﷺ من خلال هذا الكتاب، وإماتة البدعة والخرافات التقليدية التي توارثوها؛ حيث تأثرت ثقافة المسلمين الدينية بالمعتقدات والثقافات الصينية المحلية، وخاصة تلك الثقافة المتأصلة في المجتمع الصيني بشكل عام لدى جميع طبقات الشعب، النابعة من الكنفوشيوسية والطاوية والبوذية منذ مئات السنين (٥).

ومن اللطف الإلهي أن الشهيد يوسف تشن كه لي قد تعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية وتعمق فيها على أيدي العلماء المسلمين في الصين، بينما لم يسافر في حياته إلى البلاد الإسلامية والعربية لمواصلة الدراسة كبقية العلماء الذين تخرجوا من الجامعات الإسلامية والعربية، وبالأخص جامعة الأزهر الشريف.

وفاة الإمام

وقد رأى الشهيد الأضرار التي أحدثتها الثورة الثقافية على الدولة والشعب أيام الثورة الثقافية، فكتب رسالتين باسمه إلى وزير الخارجية ورئيس مجلس الدولة؛ مطالبا رجال الحكم بالكف عنها، وقد بين أن بعض الفكر الاشتراكي الصحيح منبعه من الإسلام، وأشار إلى أن الإسلام يمكن أن يكون منهجا ملائما لتطوير الصين، وتنميتها، وطلب من الحكومة توفير العمل له باعتباره مواطنا صينيا بدون شروط، حيث صار عاطلا عن العمل بعد الإفراج عنه من الحبس في مركز الإصلاح الإجباري، كما طالب من الحكومة أن ترسله إلى إحدى الدول العربية لمواصلة دراسته العربية والإسلامية نظرا لتخصصه، مع وعده بالعودة والمساهمة في تطوير الصين وتقدمها. ولم تشفع له كلماته ولا تعبيراته، كما لم يشفع صمته وسكوته أمام رجال الثورة الثقافية في إنقاذ حياته وإطلاق حريته؛ بل كلامه وسكوته كلاهما كان يعتبر تحديا وعنادا وإنكارا لفلسفة

الثورة الثقافية، فحكم عليه بالإعدام بحجة معارضته لتلك الثورة، ولم يحزن الشهيد بما حكم عليه. وفي اليوم الأول بعد الإعلان عن حكم الإعدام طلب الشهيد ممن كان يحرسه أوراقا وقلما لتسجيل خواطره الملتهبة؛ حتى يكون ذلك مساهمته الأخيرة لأمة الإسلام في حماية دينهم ومستقبل تقدمهم؛ لم يلق القبول من قبل الحراس، وفي اليوم الثاني طلب من رجال السجن السماح برؤية ولده وبنته؛ فرفض الطلب أيضا، وفي النهاية تم إعدامه في ٥ يوليو ١٩٧٠م، وقد نال الشهادة مرفوع الرأس قارئا سورة الفاتحة بصوت مرتفع، ناطقا بشهادة «لا إله إلا الله»، وكانت آخر كلمة خرجت من فمه «الله أكبر»!! وهكذا سقط نجم من نجوم المفكرين الإسلاميين بعد أن قدم دمه وفكره وعقله لدين الله -عزوجل- وهو في السادسة والأربعين من عمره، وقد وفى بقسمه: «أفضل الموت واقفا على الحياة راكعا». وإن مات الشهيد يوسف تشنغ كه لي فهو مازال حيا يقود الأمة المسلمة في الصين إلى الأمام، وتسير الأمة المسلمة في الصين قدما في الطريق المخضب بدماء الشهيد أبدا أبدا.. ونسأل الله أن يعطر مثواه ويحشره مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

ومن محاسن القول أن نجد هيئات إسلامية ومراكز بحوث علمية رسمية وأهلية قد بدأت تهتم بدراسة سيرة هذا الإمام وأفكاره. والجدير بالذكر أن حكومة الصين أعلنت عام ١٩٨٠م براءة الإمام من جميع التهم التي ألصقت به وقتل من أجلها، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء:٨١).

وإلى القارئ الكريم هذه القصيدة التي نظمها الشهيد يوسف تشنغ كه لي في ٥ يوليو ١٩٦٠م، وهي تحت عنوان: «شهادة عند القبر» في منجم الفحم شنشي تونغتشوان -مركز الإصلاح الإجباري: (مركز الإصلاح الإجباري عبارة عن مكان يحبس فيه السجناء ويكلفون بالعمل في منجم الفحم). وقد كتب الشهيد يوسف تشنغ كه لي قصيدته هذه لتكون تعبيرا عن كتابه المشهور «معرفة الإسلام عن طريق معرفة محمد ﷺ» وهو يعد أول كتاب من كتب الشهيد في حياته. ولقد قرأ هذه القصائد وحفظها آلاف من الشباب المسلمين الصينيين، مرارا وتكرارا، بحب وحماسة، وعيونهم تفيض من الدمع.

يقول الشهيد يوسف تشنغ كه لي في قصيدته الخالدة: «شهادة عند القبر»

زهرة شبابي تفتحت
لتجسد للناس الخيال
فواحة في الأرض سادت
من طيبها غار الجمال
لشباب الأمة هدي نور
للعلم غرس وصلاح فعال
زهرة جهدي لأمتي مبذولة
خذها يا مسلم هيا تعال
لعرب وأردو وملايو
ترجم صديقي هذا المقال
فأمة الصين لابد يوما
ستكون وزهرتي بوصال
وكل لغات الأرض حتما
ستنال من زهرتي المنال
تكون للناس رمز كرامة
للحق راية كبرى ومثال
يا يي فان ثائر متمرد
لا يرضى بظلم هذا محال
من حولي أراها الذنوب
جبالا شاهقة ثقال
ولابد من يوم سيأتي
ينادي صوتي ضمير الرجال
يا يي فان شخص طيب
إلى جنة الخلد كان المآل

هوامش

١- أبوالحسن علي الحسيني الندوي، الإمام السرهندي حياته وأعماله، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٨٣م، ص٣.

٢- الدكتور يونس عبدالله ما تشنغ بين الصيني، يوسف شنغ كه لي عالم صيني مسلم جمع بين حبر العلماء ودماء الشهداء، مجلة «الرابطة»، مكة المكرمة، السعودية: رابطة العالم الإسلامي، العدد ٥٥٦، يناير ٢٠١٣م، ص٦٥.

٣- مؤسسة البحوث والمشاريع الإسلامية، بإشراف فتحي يكن، الموسوعة الحركية: مؤسسة الرسالة، دون الناشر ومكان النشر، م١، ١٩٧٩م، ص٥٥.

٤- تشنغ كه لي (Chen Ke Li)، معرفة الإسلام عن طريق معرفة محمد ﷺ (الصين: د.ن، د.م، ط٣، أكتوبر ١٩٨٠م)، ص٢.

٥- عبيد ما جي تانغ (Ma Ji Tang)، سيرة تشنغ كه لي، الشركة المحدودة للكتب، تيان ما بهونغ كونغ، ٢٠٠٣م، ط١، ص٢٥١.



الإدارة المكتبية عند الرواد المسلمين

د. أشرف صالح محمد سيد
عضو هيئة التدريس - جامعة ابن رشد - هولندا

ظهرت أهم الدراسات التي أثرت في الفكر الإداري الإسلامي في عصر انحلال الدولة الإسلامية، مستهدفة تقويم الفساد الإداري الذي استشرى في سائر أرجائها، وإرشاد المسؤولين إلى ما ينبغي عمله في ضوء توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية. وتحفل المخطوطات الإسلامية بالتراث الفكري في مختلف مجالات الإدارة، سواء منها ما يتعلق بدراسات متخصصة في موضوعات معينة: كالإدارة الحكومية والإدارة المكتبية والإصلاح الإداري، أو ما يتعلق بمدارس فكرية اجتماعية وسلوكية ومثالية. فقد سبقَنا علماءُ الإدارة في الغرب إلى الإشارة بل والإشادة، في دراساتهم الحديثة للفكر الإداري وأطواره، بروّاده من المسلمين أمثال: ابن خلدون، والغزالي، والفارابي.

وسنعرض فيما يلي لأشهر رواد هذه الدراسات في حقل الإدارة المكتبية، ألا وهو القلقشندي (٧٥٦-٨٢١هـ/ ١٣٥٥-١٤١٨م).

ولد أبوالعباس القلقشندي سنة (٧٥٦هـ/١٣٥٥م) في قلقشندة إحدى قرى مصر إلى الشمال من القاهرة، ثم رحل إلى الإسكندرية، حيث تتلمذ على يد كبار علمائها، واشتغل بالإفتاء والتدريس وفق المذهب الشافعي، فظهر علمه وفضله، وأخرج بعض دراساته الفقهية. أسند إليه ديوان الإنشاء في سنة ٧٩١هـ، فاتجه إلى دراسة الإدارة المكتبية أو ما كان يعرف بصناعة الإنشاء. تأثر القلقشندي بعبدالحميد بن يحيى الكاتب، أول من وضع أصول الكتابة ومواصفات وظائفها كمهنة في الدولة الإسلامية في العصر الأموي، وتوفي القلقشندي سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م). وكان من أهم مؤلفاته؛ مؤلف ضخم باسم «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» ويعتبر من أهم مساهماته في الإدارة، فهو يعد مرجعا أساسيا لوظيفة الكتابة ومتطلباتها، والتنظيم المكتبي وأجزائه وتنظيم المكاتبات وتصنيفها.

وظيفة الكتابة

رفع القلقشندي من مستوى مهنة الكتابة، وجعلها من بين ثلاثة أشياء لا ينتظم الملك إلا بها (الكتابة، استخراج الأموال، تفريق الأموال)، وذكر أنها تتعلق برسم ما يجب أن يرسم، لكل من العمال والمكاتبين عن السلطان،

ومخاطبتهم بما تقتضيه السياسة من أمر، ونهي، وترغيب، ووعد، ووعيد، وإحماد، وإذمام. وهي من أشرف الصنائع لعظم عائداتها على السلطان ودولته. وقد حدد الصفات العامة والخاصة للكاتب، فالصفات العامة عشر منها: «الإسلام، والذكورة، الحرية، التكليف، الاستقامة، البلاغة، الكفاءة». وهناك صفات خاصة أخرى كأن يكون الكاتب: «قوي النفس، حاضر البديهة، جيد الحدس، حلو اللسان، جريء الجنان، ظاهر الأمانة، عظيم النزاهة، كريم الخلق، مأمون القائلة، مؤدب الخدم، مليح الزي، عطر الرائحة، تظهر عليه النعمة».

أخلاقيات الكاتب

بين المؤلف أخلاقيات الكاتب القائمة على حسن السيرة وحسن المعاشرة (المعاملة). أما أخلاقيات حسن السيرة فهي: «الإخلاص والنصيحة، وكتمان السر، والشكر، والوفاء، وحسن اختيار الوقت الذي يصلح للعرض والطلب، وحسن الواسطة في مرؤوسيه ونظرائه». أما حسن المعاشرة فهي خمس: معاشرة الملوك والعظماء (الرؤساء)، ومعاشرة الأكفاء والنظراء، ومعاشرة الأتباع والمرؤوسين، ومعاشرة الرعية على وجه العموم، ومعاشرة من يمت للكاتب بصلة، مهما كان نوعها.

المؤهلات العلمية

عرض للمؤهلات العلمية والعملية اللازم توافرها في الكاتب، أما مؤهلات المعرفة العلمية فتشمل الإحاطة بـ: علوم العربية، ومعرفة أنساب العرب والعجم، وتواريخ الأمة العربية وغيرها من الأمم، والثقافة الجغرافية، والإلمام باللغات الأخرى، وفن الوصف.. أما مؤهلات المعرفة العملية فتتعلق بالخط وآلاته وتوابعه ولواحقه.

التنظيم المكتبي

حدد وصفا وظيفيا دقيقا لموظفي ديوان الإنشاء، مبينا جملة الواجبات المفوضة بكل موظف؛ فصاحب الديوان أو كاتب الديوان، يختص باثني عشر أمرا هي: التوقيع على الرسائل والشكاوى، والنظر في الكتب الواردة عليه، وإعداد الأجوبة عنها، والنظر فيما تتفاوت به الرتب في الرسائل والمكاتبات، من الافتتاح والدعاء والألقاب ونوع الورق وقطعه ونحو ذلك، والنظر في كل ما يخرج من الديوان من مكاتبات وتصفحها قبل خروجها، والنظر في أمر الديوان، والنظر في أمر أبراج الحمام (البريد الجوي)، والنظر في أمر طائفة الإسماعيلية (كانت خطرا على الدولة الأيوبية)، والنظر في القصاد (حملة الرسائل من السعاة)، والنظر في الأمور العامة، فيما يعود نفعه على السلطان (إطلاع السلطات على الأخبار المتعلقة بجلب منفعة أو دفع ضرر في أسرع وقت).

أما مجموعة وظائف الكتاب: وتشمل سبعة أنواع من الكتاب هي: كاتب ينشئ (يحرر) ما يكتب من المكاتبات، وكاتب يكتب مكاتبات الملوك عن ملكه، وكاتب يكتب مكاتبات أهل الدولة ووكلائها وولاتها ووجوهها من نواب وقضاة وكتاب ومشرفين وعمال، وكاتب يكتب المناشير والنسخ، وكاتب يبيض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلى حسن الخط كالعهود والبياعات، وكاتب يتصفح ما يكتب في الديوان، وكاتب يكتب التذاكر والدفاتر المتضمنة لمتعلقات الديوان. وإضافة إلى تركيز القلقشندي على التخصص وتقسيم العمل، فإنه قدم وصفا وظيفيا دقيقا لهذه الوظائف.

تنظيم وتصنيف المكاتبات

بين القلقشندي كيفية تنظيم المكاتبات وتصنيفها، حيث خصص نحو ألف وخمسمائة صفحة (١٥٠٠) لمعالجة تنظيم المكاتبات، حيث عرض فيها لما ينبغي أن يراعى في مقدمات المكاتبات من أصول وهي: «حسن الافتتاح، ومراعاة الاستهلال، وتقديم مقدمة تناسب المكتوب والمكتوب إليه. والإتيان لكل مقصد من مقاصد المكاتبات بما يناسبه، وبيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البسط والإيجاز، وما يلائمها من المعاني، ومعرفة ما يختص من ذلك بالأجوبة وبيان ترتيبها. وبيان أصول المكاتبات وترتيبها ولواحقها ولوازمها، ومذاهب الكتاب فيما تفتتح به المكاتبات في القديم والحديث، وكيفية طي الكتاب، وفتحه، وحمله، وفضه وحفظه في الإضبارة».

لقد عرض القلقشندي لمختلف أنواع المكاتبات الحكومية والنماذج المختلفة من كل نوع؛ فهناك كتب الولايات والبيعات، والعهود الصادرة عن الخلفاء أو الملوك لأمثالهم من ملوك وأصحاب مناصب من عسكريين ومدنيين، وكتب الوصايا والمسامحات، والإطلاقات، والكتب الخاصة بالإقطاعات، وعقود أهل الذمة، وكتب الهدنة وغيرها من صنوف المكاتبات التي تتضمن أدق جوانب الإدارة المكتبية.

الحق أن كتاب «صبح الأعشى» يعتبر مرجعا للكاتب، يعود إليه في كل ما يلزم، حتى ولو كان أعشى (ضعيف البصر)، حيث شكل موسوعة علمية احتوت كل ما يحتاجه الكاتب من معلومات في الشكل والمضمون، والقيمة الأهم هي المصطلحات الرسمية التي ينبغي للكاتب استعمالها في المراسلات الحكومية، وهي الدستور الضروري والواجب معرفته من كل كاتب في ذلك الزمان. هذه المصطلحات التي جمعها «القلقشندي» ورتبها وبين أنواعها واختلاف أحوالها بين جيل وجيل. ولعلنا نتعرف من خلال قراءة هذا الكتاب، على تطور النثر واختلاف الأساليب، كما أن المضامين الفكرية في هذه النصوص، تعطي صورة عن الحياة السياسية والاجتماعية، وعن العلاقات بين الجهات الرسمية الداخلية والخارجية، وبذلك يصبح الكتاب حصيلة ثقافية، جمع المؤلف شتاتها من كل العصور التي سبقته.

المراجع:

١- حمدي أمين عبدالهادي، الفكر الإداري الإسلامي والمقارن، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٠. (ص ٢٠٦ - ٢١٥).
٢- موسوعة الإدارة العربية الإسلامية، القاهرة، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٤. (المجلد الثاني، ص ٢٨٤-٢٨٧).
٣- رواد الدراسات الإدارية، سعود سعد الجابري.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

بلاط الشـــــهداء

بعد الف ومائتى عام

للاستاذ محمد عبد الله عنان

في أواخر اكتوبر من العام الماضي . كان قد انقضى الف ومائتا عام كاملة على حادث كان له أعظم الآثار وأبعدها في تاريخ الاسـلام والنصرانية ، بل كان كلمة الفصل الحاسمة في مصاير الاسلام والنصرانية .

هذا الحادث الجلل ، هو موقعة بلاط الشهداء التي تعرف في التواريخ الفرنجية بموقعة « تور او بواتييه » ، والتي نشبت بين العرب والفرنج في سهول فرنسا على ضفاف اللوار في اكتوبر سنة ٧٣٢ .

وقد مضى علي بلاط الشهداء الف ومائتا عام ، وتغير وجه التاريخ ، ومحيت آثار الاسلام من غرب أوربا ومن الاندلس منذ نحو أربعة قرون . ومع ذلك فان ذكريات بلاط الشهداء مازالت حية في الغرب ، وما زالت وقائعها وآثارها التاريخية موضع التقدير والتأمل من جانب المؤرخ الغربي . وكان انقضاء الالف ومائتي عام على حدوثها ، ذكري جديدة نظمت من اجلها الاحتفالات في فرنسا ، وكانت مثار تأملات وتعليقات جديدة ، تدور كلها حول الصيحة التاريخية القديمة : لو لم يرد العرب والاسلام في سهول تور ، لما كانت ثمة أوربا نصرانية ، بل لعله ما بقيت نصرانية على الاطلاق ، ولكان الاسلام اليوم يسود أوربا ، وكانت أوربا الشمالية تموج اليوم بابناء الشعوب السامية ذوى العيون الدعج والشعور السود ، بدلا من أبناء الشعوب الآرية ذوى الشقرة والعيون الزرق

وهذا الحادث الجلل ، وهذه الذكريات والتأملات التي أثارها وما زال يثيرها ، هي موضوعنا في هذا الفصل . وسنعنى بشرح مقدماته وتفاصيله علي ضوء أوثق المصادر العربية والغربية ، وسيرى القارىء بعد إذ يتلو هذه التفاصيل ، ان التاريخ الاسلامي كله قد لا يقدم الينا حادثا له من الخطورة والاهمية وبعد الأثر ما لموقعة بلاط الشهداء

— ٢

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون ٤٢٩٩٢

الرسالة
مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون
تصدر مؤقتاً في أول كل شهر ونصفه

بدل الاشتراك
م
٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة في الخارج
١ ثمن العدد الواحد
الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العدد الثاني عشر « القاهرة في يوم السبت ٨ ربيع أول سنة ١٣٥٢ — أول يوليه سنة ١٩٣٣ » السنة الأولى

● مجلة الرسالة...

هي مجلة أدبية ثقافية، صدرت في مصر عام 1933م، وكان رئيس تحريرها الأديب المصري أحمد حسن الزيات (ولد سنة 1885م، وتوفي سنة 1968م)، وكان يكتب مقالاتها عباقرة الأدب العربي آنذاك؛ مثل: العقاد، والرافعي، وسيد قطب، وأحمد أمين، ومحمد فريد أبو حديد، وأحمد زكي، ومحمود محمد شاكر، وغيرهم.

● الكاتب: محمد عبد الله عنان..

(ولد في 7 يوليو 1898م. وتوفي في 20 يناير 1986م) مؤرخ مصري بارز، اشتهر بوجه خاص بأبحاثه ومؤلفاته وتحقيقاته في مجال الدراسات الأندلسية، تعلم منذ صباه الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وأضاف إليها الإسبانية لاحقًا، ونشر بعض المقالات في الصحف منذ سن مبكرة.

— ١ —

افتتح العرب اسبانيا ، وغنموا ملك القوط في سنة ٩٧ - ٩٨ هـ (٧١١ — ٧١٢ م) على يد الفاتحين العظيمين طارق بن زياد وموسى بن نصير ، فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وأضحت اسبانيا من ذلك التاريخ كمصر وافريقية ولاية من ولايات الخلافة الاموية ، وتعاقب عليها الولاة من قبل الخليفة الاموي ، ينظمون شئونها ، ويدفعون الغزوات الاسلامية الى ماوراء جبال البرنيه (البرت أو الممرات) فى غاله (جنوب فرنسا) ، فلم تمض عشرون عاما على افتتاح الاندلس حتي استطاع العرب أن يجتاحوا ولايات فرنسا الجنوبية ، وأن يبسطوا سلطانهم على سهول الرون وأن يتقدموا بعيداً فى قلب فرنسا

ولكن اسبانيا المسلمة على حداثة عهدها لم تلبث أن اضطرمت بالفتن والمنازعات الداخلية ، ولم تلبث النصرانية أن أفاقت من دهشتها الاولى ، وتأهبت للنضال والمقاومة ، ولقى العرب بعد فورة الظفر التى اجتاحت جنوب فرنسا ، هزيمتهم الاولى فى موقعة تولوشة (تولوز) فى ذى الحجه سنة ١٠٢ هـ (يونيه سنة ٧٢٢ م) وقتل أميرهم وقائدهم السمح بن مالك ، فارتدوا الى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم وسقط منهم عدة من الزعماء الا كابر

وقطعت الاندلس بعد ذلك زهاء عشرة أعوام من الاضطراب والفوضى ، وخبت ثورة الفتح ، وشغل الولاة بالشئون والمنازعات الداخلية ، حتى عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى واليا للاندلس في صفر سنة ١١٣ هـ (ابريل سنة ٧٣١ م)

ولسنا نعرف كثيرا عن سيرة الغافقى الاولى ، ولكننا نعرف انه من التابعين الذين دخلوا الى الاندلس، ثم نراه بعد ذلك من زعماء اليمانية وكبار الجند ونراه فى سنة ١٠٢ هـ ، على أثر موقعة تولوشة ومقتل السمح بن مالك ، يتولى قيادة الجيش وامارة الاندلس باختيار الزعماء والقادة مدى أشهر ، ثم لانسمع عنه بعد ذلك ، حتي يولى امارة الاندلس للمرة الثانية من قبل الخليفة سنة ١١٣ هـ (١) . على الذى لا ريب فيه هو ان عبد الرحمن الغافقى كان جنديا عظيما ظهرت مواهبه الحربية فى غزوات غاليا ، وحاكما قديراً ، بارعا فى شئون الحكم والادارة ، ومصلحا مستنيراً يضطرم رغبة فى الاصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الاندلس واقدرهم جميعاً . وتجمع الرواية الاسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله ، والاشادة بعدله وحلمه وتقواه (١) ، فرحبت الاندلس قاطبة بتعيينه ، وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيبته كلمة القبائل ، فتراضت مضر وحمير ، وساد الوئام نوعا فى الادارة والجيش ، واستقبلت الاندلس عهدا جديدا .

وبدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الاقاليم المختلفة فنظم شئونها وعهـد بادارتها الى ذوي الكفاية والعدل ، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، ورد الى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضى صدر ولايته فى اصلاح الادارة وتدارك ما سرى اليها فى عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل ، وعنى باصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة ، فحشد من الصفوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقا جديدة مختارة من فرسان البربر باشراف نخبة من الضباط العرب وحصن القواعد والثغور الشمالية وتأهب لاخماد كل نزعة الي الخروج والثورة (٢)

وكانت الثورة توشك أن تنقض في الواقع في الشمال ، وبطلها فى تلك المرة زعيم مسلم هو عثمان بن أبى نسعة الخثعمى حاكم الولايات الشمالية . وكان ابن ابى نسعة (أو منوزا أو مونز كما يسميه الافرنج) من زعماء البربر الذين دخلوا الاندلس عند الفتح مع طارق . وقد عين واليا للاندلس قبل ذلك بثلاثة أعوام ولم يطل أمد ولايته ، ثم عين حاكما لولايات البرنيه وسبتمانيا . وقد كان الخلاف يضطرم منذ الفتح بين العرب والبربر وكان البربر يحقدون على العرب إذ يرون انهم قاموا بمعظم أعباء الفتح واستأثر العرب دونهم بالمغانم الكبيرة ومناصب الرياسة . وكان ابن أبى نسعة كثير الاطماع شديد التعصب لبنى جنسه ، وكان يؤمل أن يعود الى ولاية الاندلس ، ولكن عبد الرحمن فاز بها دونه فزاد ذلك فى حقده وسخطه ، وأخذ يترقب الفرص للخروج والثورة .

« يتبع »

---

(١) تختلف الرواية الاسلامية فى تاريخ ولاية عبد الرحمن فيقول الضبى ان تعيينه كان فى حدود سنة ١١٠ هـ (بغية الملتمس رقم ١٠٢١) وكذا ابن بشكوال (نفح الطيب ٢ ص ٥٦) . ويقول ابن عذارى انه كان فى صفر سنة ١١٢ (ج ٢ ص ٢٨) . وابن حيان انه كان فى صفر سنة ١١٣ (نفح ج ٢ص ٥١) وهي أرجح رواية فيما نعتقد ومنها أخذنا لاتفاقها مع سير تواريخ الولاة المتقدمين

(١) راجع ابن عبد الحكم - ص ٢١٦ و ٢١٧ - بغية الملتمس للضبي (فى المكتبة الاندلسية) رقم ١٠٢١ ـ المقرى عن الحيدى (نفح الطيب ٢ ص ٥٦)

(٢) Condé—I P. 105



إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

رجوع المفتي عن فتواه (أسبابه وآثاره) (٢/١)

من تيسير الله تعالى للناس: أنه جعل الخطأ الصادر عن الاجتهاد والنظر في الأدلة الشرعية إذا تجرد صاحبه عن الهوى مغفورا بإذن الله، وأن تصحيحه ممكن غير متعذر، إذا سلك السبيل الشرعي، والهدي النبوي.

وبناء عليه؛ فإنه إذا ظهر للمفتي أن فتواه السابقة لم تكن على دليل شرعي قوي، فظهر له رجحان الاستدلال بما هو أقوى، أو يكون قد اطلع على فتوى مجتهد آخر؛ يرى أنه أعلم منه؛ فإنه يلزمه المصير إليه، والرجوع عن فتواه، وهذا كثير في فتاوى الصحابة رضي الله عنهم، والأئمة من بعدهم، وهو دليل صلاح المفتي، وخشيته، وإنابته.

قال الإمام الآجري رحمه الله في كتابه «أخلاق العلماء» (ص١١٦): «وإن أفتى بمسألة؛ فعلم أنه أخطأ، لم يستنكف أن يرجع عنها».

وروى الخطيب بسنده أن الإمام مالكا قال: «كان ابن هرمز رجلا كنت أحب أن أقتدي به، وكان قليل الكلام، قليل الفتيا، شديد التحفظ، وكان كثيرا ما يفتي الرجل، ثم يبعث في أثره من يرده إليه، حتى يخبره بغير ما أفتاه». «الفقيه والمتفقه» (٤٢٣/٢).

ومما ورد في السنة: ما جاء عن النبي ﷺ من حديث أبيض بن حمال رضي الله عنه أنه قال: «قدمت على رسول الله ﷺ، فاستقطعت (أي: طلب منه أن يملكه) الملح الذي بمأرب، فقطعه لي، فلما وليت قال له رجل: يا رسول الله، أتدري ما قطعت له؟ إنما قطعت له الماء العد

إعفاء اللحية والإجبار على حلقها

رقم الفتوى (٦١٥)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

ما رأي الدين في إطلاق اللحية؟ هل هي واجبة؟ وحلقها هل هو مكروه؟ وما حكم أخذ شيء من طولها أو من عرضها؟ وما حكم المجبر على حلقها؟

أجابت اللجنة بما يلي:

إن إطلاق اللحية واجب شرعا؛ فلا يجوز للمسلم حلقها.

وأما الأخذ منها طولا وعرضا لإزالة ما تشعث منها لتحسين منظرها فإنه جائز، بل مستحب لقول النبي ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»، وكذلك يجوز الأخذ منها جميعا، إذا خرج طولها عن القدر المعتاد؛ كما ورد عن ابن عمر: أنه كان يفعل ذلك.

وأما من أجبر على حلقها؛ فلا بأس له أن يفعل، والإثم على من أجبره، وعليه أن يسعى لإزالة هذا الإجبار، والله أعلم.

تطويل الشارب

رقم الفتوى (٣٥٣١)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

أرجو من سيادتكم التكرم مشكورين ببيان الحكم الشرعي في تطويل الشارب في مظهر حسن.

أجابت اللجنة بما يلي:

تكره إطالة الشارب بما يغطي الشفة العليا؛ لحديث النبي ﷺ: «أحفوا الشارب وأعفوا اللحى» (متفق عليه)، والله أعلم.

ختان المرأة

رقم الفتوى (٥١٥٧)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

يسعدنا أن نحيي جهودكم في خدمة الإسلام والمسلمين، كما نود سؤالكم عن التالي:

١) ختان المرأة في الإسلام، هل هو حرام أم حلال؟

٢) نرجو إيراد الأدلة الشرعية حول ذلك؟ علما بأنه تردنا في مستشفانا حالات تطلب إجراء ختان المرأة، رغم أن هذا يولد لنا إحراجا كبيرا، لكونه عادة متبعة في هذه المنطقة.

أجابت اللجنة بما يلي:

ختان المرأة مندوب عند أكثر الفقهاء، واستدلوا على ذلك بحديث ابن عباس مرفوعا: «الختان سنة للرجال، مكرمة للنساء»، وبحديث أبي هريرة مرفوعا الذي ذكر خصال الفطرة، وعد منها «الختان» مطلقا.

(أي: الماء الجاري الذي لا ينقطع)، فرجع عنه». رواه الترمذي أبو داود وابن ماجه وغيرهم.
قال الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٤٢١/٢): «الماء العد: الدائم الذي لا انقطاع له؛ مثل ماء العين والبئر، وهذا إذا لم يكن في ملك أحد؛ فالناس فيه شركاء، لا يختص به بعضهم دون بعض، ولهذا رجع النبي -ﷺ- فيه».
وقد وردت آثار كثيرة عن الصحابة، واشتهرت في هذا الباب؛ ومنها:
١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «كنت حدثتكم أن من أصبح جنبا فقد أفطر، فإنما ذلك من أبي هريرة، فمن أصبح جنبا؛ فلا يفطر». «الفقيه والمتفقه» (٤٢٢/٢).
٢- حديث أبي الجوزاء أنه قال: «سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يفتي في الصرف؛ قال: فأفتيت به زمانا. قال: ثم لقيته، فرجع عنه. قال: فقلت له: ولم؟ فقال: إنما هو رأي رأيته، حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ نهى عنه». رواه الإمام أحمد في «مسنده» (ح١١٠٢١).
٣- روى الإمام مالك عن نافع: «أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل عبد الله بن عمر رضي الله عنهم عما لفظ البحر؛ فنهاه عن أكله، قال نافع: ثم انقلب عبد الله، فدعا بالمصحف فقرأ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ (المائدة:٩٦). قال نافع: «فأرسلني عبد الله بن عمر إلى عبد الرحمن بن أبي هريرة: أنه لا بأس بأكله». (الموطأ (ح١٨١٥)، «الفقيه والمتفقه» (٤٢٤/٢)).
وعقد الإمام البيهقي في «السنن الكبرى» بابا؛ قال فيه: «باب من اجتهد، ثم رأى أن اجتهاده خالف نصا، أو إجماعا، أو ما في معناه رده على نفسه، وعلى غيره». (٢٠٤/١٠).
ثم روى بسنده عن إدريس الأودي أنه قال: «أخرج إلينا سعيد بن أبى بردة كتابا فقال: هذا كتاب عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما: أما بعد؛ لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس؛ راجعت الحق؛ فإن الحق قديم، لا يبطل الحق شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل» (ح٢٠٣٧٢).
وأما ما اشتهر من رجوع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عن فتواه بخصوص مهور النساء؛ فضعيف لا تقوم به حجة. ينظر: «إرواء الغليل» (٣٤٨/٦).

وتوصي اللجنة بالرجوع في أمر الختان إلى المختصين في ذلك، لتوقي ما قد يحصل من ضرر بسببه، والله أعلم.

إزالة شعر مواضع من الجسد بالليزر

رقم الفتوى (٥٤٨٢)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

نتقدم إليكم بخالص التحية والتقدير لما تبذله إدارتكم الموقرة من جهد في سبيل تقديم المشورة الشرعية لما تستفتون به، ونفيدكم علما بأن المركز الاستشاري بصدد فتح قسم خاص لإزالة الشعر بالليزر للرجال، ونرجو إفادتنا بالتالي:

١- إزالة شعر الإبط. ٢- إزالة شعر الرقبة. ٣- إزالة شعر الظهر. ٤- إزالة شعر الكتفين. ٥- إزالة الشعر الزائد على الوجنتين.

شريطة ألا يؤثر ذلك على المزيل بعد أن يخضع لفحص من أطباء ثقات.

أجابت اللجنة بما يلي:

لا مانع شرعا من إزالة الشعر المسؤول عنه بواسطة الليزر؛ ما لم يؤد ذلك إلى ضرر بالشخص المزال منه الشعر، أو إلى كشف عورته، والله أعلم.

تطييب جميع البدن

رقم الفتوى (٧٢٠٥)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

هل يجوز للإنسان أن يعطر جسمه بالكامل؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لا مانع من ذلك إذا لم يعد على الإنسان بالضرر، ولم يترتب عليه إسراف أو تبذير. والله أعلم.

قص المرأة شعرها

رقم الفتوى (٦٢٧)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

ما حكم قص شعر النساء؟

أجابت اللجنة بما يلي:

أنه إن كان القصد من قص الشعر التشبه بالرجال؛ فلا يجوز ذلك، وإن قصته لمجرد التخفيف أو الزينة على الطريقة الخاصة بالنساء؛ فلا مانع منه، والله أعلم.

أفق البديل

نعلم جميعا أن موضوع «البديل الإسلامي» كان خلاصة الرسالة التي سعت الصحوة الإسلامية لبعثها والتبشير بها، في سبيل العودة بالمجتمع الإسلامي إلى ربه عزوجل.. وكلمة «البديل» يفيد مقتضاها البديل عما انتهجت الأمة أو انتُهِجَ بها من سبل وشبه مناهج واتجاهات، تشترك في سمات أهمها «الأرضية –الدنيوية – حد الدين عن التأثير العميق؛ فضلا عن القيادة»، وهي بعض من معالم العلمانية الدنيوية.

والملاحظ من الوجهة العملية أن تلك المناهج الأرضية اعتسف في تطبيقها على الأرض الإسلامية بما لم يف بمبادئها وخصائصها ومقتضاها العملي، فكانت هي بدورها عرضة للظلم من قبل مسوقيها والمفتونين بها. وهو أحد أهم الأسباب المفضية لعدم إثمارها في الواقع الإسلامي، على نحو ما أثمرت به في جوانبها الفاعلة إيجابا في منشئها. لذا لاحظنا كيف أورثت «الديموقراطية» –مثلا– حكما ديكتاتوريا، و«الاشتراكية» غنى فاحشا عندنا. فظُلمت هذه الايديولوجيات عندنا ظلم ادعاء، وظُلمت الأمة ظلم خداع بها، فما نالها منها سوى مساوئها ورذائلها، والمظالم التي ارتكبت باسمها في جسم المجموع الإسلامي.

البديل الإسلامي حمل أشواقا وآمالا وأحلاما عذابا؛ فبث في أوصال المجتمع رفرفات الإيمان، وثبات اليقين، وتطلعات الحياة الإسلامية النقية السعيدة، على نهج النبوة وعهود الخيرية الأولى؛ فأشرقت الأرض بنور الالتزام الاجتماعي (الشباب خصوصا)، عبادة، وسمتا إسلاميا، وخُلقا كريما رفيعا، وأخوة جارفة صادقة قوية، حملت حرارة الأخوة الأولى من ذمة التاريخ المنير لحاضر الأمة المتأهبة لصنع البديل.

وعند هذا المستوى من «البديل الإسلامي» نقول صادقين مطمئنين لقوة حكمنا: لقد أوجدت الصحوة البديل الرائع العميق؛ إلى الحد الذي نجزم معه أن كل ما في مجتمعنا من بقية تدين والتزام وجريان ألفاظ وعبارات في الحيز الاجتماعي، ومظهر معلن عن تدين يعود مباشرة أو بغيرها لغرسها الإسلامي المبارك، وكل محاولة إنكار أو اعتراض عما نقول غير مجدية.

ومع أن هذه الحال التي صيرت لها الصحوة المجتمع من النواحي العقائدية والأخلاقية والاجتماعية كانت أقرب للمجتمع الفطري؛ فقد بقيت مراحل أخرى أبعد تقدما، وأوفق ملاءمة للمجتمع المتحضر الذي صار يُصاغ عبر المبادئ والأفكار والأيديولوجيات، بوسائل البحث الاجتماعي والبحث العلمي.

و«البديل الإسلامي» من هذه الوجهة لم يحظ بما هو أهل له، بالنظر لثراء وعظمة وقوة المبادئ الإسلامية والقيم التي تتضمنها ليُصاغ المجتمع الإسلامي الجديد عبرها. وإذا كان متعذرا تقصي الأسباب الموضوعية هاهنا، فلا يفوتنا ذكر سببين مهمين على الأقل، هما: ١– عدم دخولنا المرحلة العلمية؛ على نحو تصبح فيه كل قضايانا الاجتماعية وغيرها طوع المعالجة البحثية العلمية، وهو ما تدخر له المبادئ والأحكام والقيم الإسلامية ثروة نادرة من المناطات والموجهات الواعدة بنموذج اجتماعي متحضر وراق.

٢ – غياب الإطار المنهجي الذي نفهم من خلاله عمق وحقيقة المتغيرات السلبية والإيجابية للمجتمع الإسلامي المعاصر. ولعل السبب في هذا انسياقنا وإغراقنا في ما ينبغي أن يكون، دون تحليل جيد لما هو كائن، وكيف نسير به إلى ما ينبغي أن يكون.

أما فكرة البديل الإسلامي الجاهز للتطبيق، فأعتقد أن المسألة لا تخلو من نية إرباك عن قصد أو عن إدراك غير سليم؛ فالملائم لمشاريع التغيير أن تطرح فلسفتها ومبادئها، وميادينها التي تريد استهدافها. وتعمل في المقابل على الإعداد الفكري والعلمي (ومنه الخبرات العلمية) لإطاراتها ونخبتها الجيدة والممتازة. مع محاولة فهم الواقع فهما علميا دقيقا. وعلى ضوء كل هذا ترسم خطط عملها وحركتها الواقعية كي توجد في المجتمع القابلية لتلقي البديل الإسلامي، من خلال واقعه ومشكلاته، واحتياجاته، مع التعديل والتقويم المناسبين لأسسه العقائدية والأخلاقية على وجه الخصوص.

بقيت ملاحظة مهمة، هي أنه بقدر حاجة البديل الإسلامي لكنوزه الإسلامية، خصوصا المصادر الخالدة، فهو مطالب بالتفاعل العميق الواسع مع المنتج الفكري والبحثي والإبداعي المعاصر، دون تهيب ولا تحقير، وصدق الحق إذ يقول: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ (الأعراف:١٢٨).

د. محمد مراح

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:
info@alwaei.com
aelbarbary@live.com



رسالة الإعلام في الإسلام

الإعلام موجود بوجود الإنسان، فهو ليس أمرا حديثا، ووسائله هي التي يرد عليها التجديد والتغيير. والإسلام انتشر بالإعلام، وقد نص القرآن في كثير من آياته على أن الرسول مكلف من قبل الله تعالى بشيء واحد فقط هو تبليغ الناس هذه الرسالة الجديدة، وأنه ليس مسؤولا عن تصديق الناس لها أو عدم تصديقهم إياها، ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (المائدة:٩٩). وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (البقرة:٢٧٢).

إن النبي لما عرض نفسه على عشيرته الأقربين في باكورة الدعوى، إنما كان ذلك بوسيلة إعلامية، هي الخطاب المباشر، وما يعرف بالخطابة النبوية، وكان توسل النبي ﷺ المنبر عند الإلقاء باعتباره جهازا إعلاميا يساعد على توصيل الصورة والصوت بشكل يساهم في الإقناع، يقول د. عبداللطيف حمزة: «ومن ثم كانت خطبه ﷺ وأحاديثه من أكبر وسائل الإعلام والدعاية للإسلام وذلك بعد القرآن». كما كان الشعراء يستعينون بمن يسمون الرواة، فكان لكل شاعر راو أو أكثر يتميز بقوة حافظته وسرعة ذاكرته، ليحفظ ما ينشده الشاعر ثم ينشره بين الناس، إلا أن الإعلام بوسيلة الشعر كان دون القرآن الكريم والخطابة النبوية.

● **صهيب مصباح**

توقير سلطان الله من شعائر الله

ألا فإنه مما اتفقت عليه العقول، وأقره المنقول، افتقار البشر إلى الاجتماع، واحتياج الاجتماع إلى أمير.

وإن الأمير لا ينصلح إلا بحسن الطاعة، وبالغ التوقير.

ومما يستوجب شكر العلي القدير أن يحسن للأمة اختيار الأمير.

ولكن البعض، ممن يكفر النعمة ويجحد المنة، لا يقوم بحق الأمير من التوقير.

وشر من هذا أنه يدعي الإصلاح، ويزعم أنه يروم النصح والفلاح.

فيختلط عنده المتناقضان، ويلتبس في ذهنه الضدان.

ظلام الفتنة، ونور المناصحة التي هي أغلى من كل نعمة.

فلزم البيان، ووجب التبيان، حسبة لوجه الواحد الديان.

● **محمد فريد فرج**

ابن خلدون.. تربوي سبق عصره

ما من شك أن الفكر التربوي قد احتل مكانة كبيرة عند مبدعي الحضارة الإسلامية وفكرها وعلومها، ومن أبرز هؤلاء المبدعين عالم الاجتماع العربي ابن خلدون، الذي اتسم فكره بالنظرة المستقبلية للأمور، رؤية وتمحيصا، حتى أنه يمكن القول إن فكره سبق عصره بمراحل عديدة، بل وفاق ما جاءت به النظريات التربوية الحديثة.

وما بين أيدينا هو من روائع التراث التربوي لابن خلدون إزاء عالم الأطفال والصبية، تعليما وتهذيبا وتأديبا، وهو في الوقت ذاته وثيقة تربوية تخضع للدراسات النفسية والاجتماعية والإنسانية، محاولة الاستفادة منها كأصول وثوابت تربوية نابعة من فكر مستنير ورؤية صائبة فاقت، بل وسبقت في مضمونها ودعوتها التربية الحديثة وما صاحبها من نظريات تربوية فرضت نفسها على هويتنا العربية: إما عن طريق الترجمة والفكر المستورد، وإما عن طريق التقليد والمحاكاة. ومن هنا حدث التنافر، حيث لم تلق تلك النظريات، الدخيلة على فطرتنا وطبيعتنا وعقيدتنا، هوية لها، لا في عالم التربية، ولا في مجال التعليم.

إن فكر ابن خلدون يعتبر الصفات السيئة أمراضا اجتماعية تفتك بتلك النفس البشرية التي تتطلع وتطمح إلى ما هو أفضل، كيانا ومجتمعا، ولكنها وقعت فريسة لمثل هذا الأسلوب الأحمق والطائش في بناء الطفل وتربيته، فكان العقاب تلك العدوانية والشراسة والانتقام والقسوة، في حين أن الإسلام جعل العقاب ضربا من ضروب التأديب، الذي لا يخلو من الإقناع والمودة والرحمة والحب والتسامح، فعندما أمرنا الرسول الكريم ﷺ باستخدام أسلوب الضرب للصبية على ترك الصلاة في قوله ﷺ «مروهم بها لسبع واضربوهم عليها لعشر»، كان الضرب هنا نوعا من العتاب التربوي المقنع والقائم على الحجة والغضب الرقيق من الوالدين، وهذا تأكيد لأن العقاب ضروب وفنون ووسائل بعيدا عن أي عواقب يكون نتاجها تلك الشخصية المشوهة في ذاتها الكارهة لمن حولها.

● **عثمان إسماعيل**

صلة الصداقة، وهجرة الإخوان

قال الأستاذ العلامة محمد الخضر حسين - رحمه الله - في مقال بديع عن الصداقة والصديق:

«يرى الباحثون في طبائع البشر، أن ليس فيهم من يتخذ صديقا ويرجى منه أن يسير على ما يرضي صديقه في كل حال، ودلتهم التجارب على أن الصديق - وإن بلغت صداقته المنتهى - قد يظهر لك من أمره ما لا يلائم صلة الصداقة، فلو أخذت تهجر من إخوانك كل من صدرت منه هفوة، لم تلبث أن تفقدهم جميعا، ولا يبقى لك على ظهر الأرض صديق غير نفسك التي بين جنبيك، عرف هذا المعنى الشاعر الذي يقول:

أغمض للصديق عن المساوي ... مخافة أن أعيش بلا صديق

والذي يقول:

ومن يتتبع جاهدا كل عثرة ... يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

وقد عبر عن هذا المعنى بشار:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلقا الذي لا تعاتبه

فعش واحدا أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنبا مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت؛ وأي الناس تصفو مشاربه

(العتاب بين الأصدقاء لعلي آل نصية)

تغير الصديق

قال ابن حزم الأندلسي رحمه الله: «وأنا أعلمك أن بعض من خالصني المودة، وأصفاني إياها غاية الصفاء، في حال الشدة والرخاء والسعة والضيق والغضب والرضى؛ تغير علي أقبح تغير بعد اثنى عشر عاما متصلة في غاية الصفاء، ولسبب لطيف جدا ما قدرت قط أنه يؤثر مثله في أحد من الناس، وما صلح لي بعدها، ولقد أهمني ذلك سنين كثيرة هما شديدا.

ولكن، لا تستعمل مع هذا سوء المعاملة فتلحق بذوي الشرارة من الناس وأهل الحب منهم، ولكن هاهنا طريق وعرة المسلك شاقة المتكلف، يحتاج سالكها إلى أن يكون أهدى من القطا، وأحذر من العقعق حتى يفارق الناس راحلا إلى ربه تعالى، وهذه الطريق هي: طريق الفوز في الدين والدنيا، يحرز صاحبها صفاء نيات ذوي النفوس السليمة والعقود الصحيحة... ويحصل مع ذلك على سلامة الدهاة وتخلص الخبثاء ذوي النكراء والدهاء، وهي: أن تكتم سر كل من وثق بك وأن لا تفشي إلى أحد من إخوانك ولا من غيرهم من سرك ما يمكنك طيه بوجه ما من الوجوه، وإن كان أخص الناس بك...إلا لضرورة لا بد منها، واجتهد وعلى الله تعالى الكفاية».

(مداواة النفوس لابن حزم)

إعداد: تركي محمد النصر

طبع جامع

قال ثابت البناني: «جالست الناس خمسين سنة، فما جالست أحدا إلا وهو يحب أن تنقاد الناس لهواه، وإن الرجل ليخطئ فيحب أن تخطئ الناس كلهم».

(الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي)

عليك بصحبة هذا

قال عبد الله بن جعفر لصديق له: إن لم تجد من صحبة الرجال بدا؛ فعليك بصحبة من:

١. إذا صحبته زانك.
٢. وإن خففت له صانك.
٣. وإن احتجت إليه مانك. (أي: قام بمؤنتك).
٤. وإن رأى منك خلة سدها، أو حسنة عدها.
٥. وإن وعدك لم يخرصك (أي: لم يكذبك).
٦. وإن كبرت عليه لم يرفضك.
٧. وإن سألته أعطاك.
٨. وإن أمسكت عنه ابتداك.

(الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي)

فضائل أشبه بالرذائل

«ليس شيء من الفضائل أشبه بالرذائل من الاستكثار من الإخوان والأصدقاء، فإن ذلك فضيلة تامة متركبة، لأنهم لا يكسبون إلا بالحلم والجود والصبر والوفاء... إذا أحصيت عيوب الاستكثار منهم، وصعوبة الحال في إرضائهم، والغرر في مشاركتهم، وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض لهم، فإن غدرت بهم أو أسلمتهم، لؤمت وذممت، وإن وفيت؛ أضررت بنفسك، وربما هلكت، وهذا لا يرضى الفاضل بسواه إذا تشبث في الصداقة، وإذا تفكرت في الهم بما يعرض لهم وفيهم من موت أو فراق أو غدر من يغدر منهم، كاد السرور بهم لا يفي بالحزن المميض من أجلهم».

(مداواة النفوس لابن حزم)

إخوان الصفاء

قال عمر رضي الله عنه: «لقاء الإخوان؛ جلاء الأحزان».

وقال بعض الأدباء: «أفضل الذخائر؛ أخ وَفِيٌّ».

وقال بعض البلغاء: «صديق مساعد؛ عضد وساعد».

وقال بعض الشعراء:

هموم رجال في أمور كثيرة
وهمي من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت
فجسماهما جسمان والروح واحد.

(أدب الدنيا والدين)

عتاب على انقطاع المواصلة

قال الشيخ صالح بن أحمد النصيري الرادعي معاتبا الشيخ إسماعيل بن أحمد القحيف على انقطاعه عنه:

أنا أقضي عهدي بالتشاغل والصد
إلى ما التمادي؟ فالتشاغل لا يجدي
رعى الله قوما لم يخونوا عهودهم
مدى الدهر في قرب المحلة والبعد
كتبنا فلم يرجع جوابا لقولنا
كأني وأنتم بالجزيرة والهند
ولا ريب في ترك الجواب بأنه
يخبر عن نقض الصداقة والعهد

فأجاب عليه الشيخ إسماعيل بن أحمد القحيف بقوله:

ومما لواني عن هواه وصدني
كتاب أخ لي يخلط الهزل بالجد
ومن شيمتي حفظ الصداقة والإخاء
إذا ضيع الناس الإخاء على عمد
وخذ في عتابي ما استطعت فهذه
يميني أني لا أحول عن الود

عتاب الصديق

- العتاب للصديق كالسبك للسبيكة، فإما تصفو وإما تطير.
- من طوى من إخوانك سره الذي يعنيك دونك؛ أخون لك ممن أفشى سرك، لأن من أفشى سرك فإنما خانك فقط، ومن طوى سره دونك منهم فقد خانك واستخونك.
- لا ترغب فيمن يزهد فيك؛ فتحصل على الخيبة والخزي.
- لا تزهد فيمن يرغب فيك؛ فإنه باب من أبواب الظلم.

(مداواة النفوس لابن حزم)

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

قال رسول الله ﷺ: «إذا آخى الرجل الرجل؛ فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو، فإنه أوصل للمودة» (الترمذي ٢٣٩٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أحب في الله، وأبغض في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك».

وقال رضي الله عنه: «ولقد صار عامة مؤاخاة الناس اليوم على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا، ثم قرأ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. وقرأ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

قال البغوي في تفسيره: ﴿ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾: المتحابين في الله على طاعة الله.

(الآداب الشرعية لابن مفلح)

الصديق

- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما الدخان على النار بأدلّ من الصاحب على الصاحب».
- قال الخليل بن أحمد: «الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال».
- قيل للخليل: استفساد الصديق أهون من استفساد العدو؟ فقال نعم، كما أن تخريق الثوب أهون من نسجه.
- قال ميمون بن مهران: «صديق لا تنفعك حياته؛ لا يضرك موته».
- قيل لابن المقفع: «الصديق أحب إليك أم القريب؟ فقال: القريب أيضا يحب أن يكون صديقا».

(الحديقة لمحب الدين الخطيب)

مسك الختام

الإصلاح ضرورة دعوية واجتماعية وحياتية!!

د. إبراهيم نويري
أكاديمي جزائري

تحرص كل أمة من أمم المعمورة على أن يكون بناؤها من الداخل بناء سليما متينا، لارتباط ذلك ببقائها واستمرار وجودها، وأيضا حرصا منها على أن تكون قوية مهابة الجانب بين كل الأمم.

وهذا أمر مشهود معروف بالفطرة، غير أن الواقع لا يخلو أبدا من المفسدين.. فما برحت العصور تلد من الضالين المعاندين، والمضلين المخادعين، من يحاولون إثارة الفتن، وإطلاق النفوس من قيود وضوابط الأدب والعفاف والاستقامة؛ وفي كل عصر لا يفقد هؤلاء أولي عزم وإخلاص يقرعونهم بالحجة والبرهان، ويهتكون الستار عن مفاسدهم ومباذلهم؛ حفاظا على المصلحة العامة واستجابة لمقتضيات الإصلاح وضروراته المتعددة.

وبالنسبة للمسلمين؛ فيضاف إلى هذا الداعي الفطري الكامن في نحيزة –طبيعة– جميع الأمم والمجتمعات.. عامل آخر، هو واجب الدعوة وإصلاح الأوضاع العامة بهدي الدين الحنيف، ومقاصد الشريعة السمحة، وشعورهم بأن الدعوة إلى الله هي أبلغ مظاهر تعظيمه وتوقيره، سبحانه وتعالى.

ولقد تهيأت في هذا العصر لدعاة الإفساد من الوسائل والظروف، ما لم يتهيأ لغيرهم في العصور الغابرة، لذلك ينبغي على أهل الحكمة والرشاد في الأمة الإسلامية، أن يعدوا للدعوة والإصلاح ما استطاعوا من جهد وقوة.. كالتخطيط ودراسة الواقع وفهمه، ومحاولة التحكم في العوامل المؤثرة فيه؛ كي يستطيعوا تكسير شوكة النفوس المترعة بالشهوات، قبل أن تبلغ أمنيتها وضالتها. لأن الفساد سريع العدوى والانتشار بين أصحاب النفوس الضعيفة والأخلاق الواهنة الواهية.

علما أنه يوجد لفيف من الناس في جميع المجتمعات، لا يعد التمرد والانحراف من شيمهم وطبائعهم، وإنما تسرب إليهم مقدار من ذلك، نتيجة للجهل وعدم صفاء البصيرة، فوضعوا إلى جانب حقائق الإسلام الناصعة ما يتبرأ منه الإسلام.. ومن أيدي هؤلاء تولدت العديد من البدع، ومن ألسنتهم شاعت الكثير من الخرافات، ومن آرائهم الكليلة دخل في الكتاب والسنة ضرب من سوء التأويلات والأفهام!!

ولاشك أن جهود المصلحين، كما ينبغي أن تتجه إلى إنقاذ النفوس الزاكية من أن تقع في حبائل وشرك أولئك الذين يضلون عن سبيل الحياة الطيبة ويبغونها عوجا.. لابد أن تتجه أيضا إلى ضرورة تقويم مسالك أصحاب البدع، والكشف عن مجانبتها للشرع الحنيف والهدي النبوي الكريم. وبذل الوسع في إعادتها إلى الجادة وسواء السبيل.

وصفوة القول في هذا المقام أن نقول: إن كل دعوة تستهدف إعادة الناس إلى الدين الحق والنهج الأقوم، أي ما كان عليه زمن النبي ﷺ وصحبه الكرام، عن طريق التصدي للشركيات والخرافات والبدع والتقاليد والأعراف المنافية للشرع الحنيف، وتثبيت عقيدة التوحيد الرائقة الصافية في النفوس، وإقامة العدل بين الناس، ودعم قيم المحبة والإخاء والتضامن، هي دعوة إصلاحية مشروعة، ينبغي على مؤسسات الأمة تعضيد جهودها وتيسير تنفيذ برامجها ومناشطها.





أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة
العدد (٥٩١) ذو القعدة ١٤٣٥ هـ - سبتمبر ٢٠١٤ م

50 عاما من العطاء



مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ

- حملات الحج الكويتية
- الرحلات المغربية الحجازية
- طرق الحج ومسالكه
- رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين

مجانا مع العدد براعم الإيمان

هدية العدد
ذخائر الوعي الإسلامي (٤)



أول صورة ملونة للحرم الشريف والكعبة المكرمة (المجلة الجغرافية National Geographic) يوليو ١٩٥٣م

الافتتاحية

مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ

جعل الله لأهل طاعته مشهدا جامعا، يسعى إليه وفد الله من كل فج عميق وإقليم، ملبين بالإجابة دعوة أبيهم إبراهيم، فالحج نعمة ومنة على الأمة، لأنه يجمع عملا على بدن، وحقا في مال، فكان إيجابه تذكيرا بيوم الحشر، في مفارقة المال والأهل، ولولا الحج وانتظام أوقاته لما عمرت طريق المسلمين بالقوافل والتجارة.

فالرحلة والارتحال، والسفر والاغتراب عن الأهل والأوطان، سطر في كتب المصنفين، ودون في صحائف الرحالين، تصف ترحالهم من بلد إلى بلد، واجتهادهم بين أيدي العلماء على الركب، فتنوعت أخبارهم، وتعددت آثارهم، حسب ما قصدوه من ترحالهم. ومن أهم هذه الرحلات وأشهرها، والسير في مناكبها، ما كان للحج لبيت الله الحرام، والتجارة بين الأنام، ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (الحج:٢٧ و٢٨). إن ذكريات رحلات الحج التي دونها العلماء، من أشرف معالم العمر، وأعز وقائع الدهر، لأنها تحرك القلب الساكن، فترحل به إلى أشرف الأماكن، لتسترجع ذكريات شروق شمس الإسلام، وتستعيد ذكريات الرعيل الأول، وصبرهم الشديد وإيمانهم العميق. ومن يقرأ في هذه الروايات المسطورة في كتب الرحلات، سيجد ما يؤكد مدى الدقة فيما كتبوه وقيدوه، من أمانة علمية، ونفوس دينية، وإن اختلفت الجهات، وتعددت المسافات، بحرا وبرا، شرقا وغربا، يعودون بالذكريات، والفوائد والإفادات، ما بين منظوم ومنثور، ينقلونها لقومهم وللتاريخ. ومن عظيم الفائدة، وجليل العائدة، ما فيه عبرة لأولي الأبصار، وفيما سبق من الأخبار، شكر الله صنيعهم ومساعيهم، بالاعتناء بهذه الرحلات، على اختلاف أعصارهم، وتباعد أمصارهم.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩١ | ذو القعدة ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
سبتمبر ٢٠١٤ م

المراسلات
رئيس التحرير - مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ -
الكويت - هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي: ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة - متفرع من شارع جامعة الدول العربية - المهندسين - الدور الأول - مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



مهما تنوعت الرحلات واختلفت، فإن أعظم رحلة يقوم بها إنسان هي تلك الرحلة التي تسبق مشاعره فيها جوارحه، وترنو إليها روحه سابقة جسده، ويهيم بها فؤاده قبل الشروع فيها. ولا تجتمع هذه الصفات إلا لقاصدي البيت العتيق للحج

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦-٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) - فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر - القاهرة - شارع الصحافة - جريدة أخبار اليوم. - ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن - صنعاء - الدار العربية للنشر والتوزيع ت - ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان - شركة نعنوع الصحفية - ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا - دمشق - برامكة - ص.ب ١٢٠٣٥ - ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن - عمان - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ - ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب - الدار البيضاء - ص.ب ١٣٦٨٣ - ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس - ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ - الشركة الشريفية
- مملكة البحرين - المنامة - ص.ب ٣٢٦٢ - ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ - مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة - ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ - شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ - ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ - الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان - مسقط - ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ - ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ - مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر - الدوحة - ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا- شركة - المصطفى ميديا جروب سندرين برحد - ت- ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر - شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس - الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة - لندن - شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

● الكويت : ٥٠٠ فلس ● السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ● الأردن: دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ● اليمن : ١٠٠ ريال ● لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا : ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠ دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ● تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

كلمة العدد

إلى البيت العتيق

من كل فج عميق؛ ينطلق المسلمون يلبون دعوة أبيهم إبراهيم.. يؤدون الفريضة؛ من استطاع إليها سبيلا.. انطلقوا قديما يشقون أمواج البحار، أو في قوافل على ظهور الإبل، يتحملون المشاق طيلة الشهور والأيام.. يتعرضون لا لنقص ماء وغذاء فحسب، بل لنهب لصوص الطرق أيضا، ولخطر التيه في الصحراء، حيث العواصف العاتية والشمس الحارقة.. لكن كل تعب الرحلة يتبدد تماما حينما تلوح مكة من بعيد، ويتراءى البيت العتيق.

يحفظ التاريخ لنا بالوثائق والخرائط رحلات الحج القديمة، فنعرف منها كيف بدأت، وبماذا مرت، ومتى تطورت، وكيف.. وفي الكويت التي اعتبرت محطة مهمة على طريق الحج، وثق كتاب «حملات الحج الكويتية» الصادر قبل ٤ سنوات، كل هذه التفاصيل.

فعرفنا من خلاله أنه فقط في عام ١٩٥٤ توقفت حملات الحج على ظهور الإبل نهائيا، واتخذت حملات الحج الكويتية السيارات وسيلة للنقل، فصارت أيسر قليلا، وإن بقيت المشقة، وبقيت معها متعة أداء الفريضة، مع التوسعات المستمرة للحرمين الشريفين.. تسابق المسلمون منذ نزلت الآيات الكريمات بالأمر الإلهي ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾ (الحج:٢٧). وسيستمرون إلى يوم الدين يلبون النداء: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

من أدب الرحلات
رحلات الحج نموذجا



د. عبدالعزيز علي جامع

إن رحلات أهل العلم للطلب أو للمناسك أمر يطول تتبعه واستقصاؤه، ولما بدأت أجمع ذلك من تضاعيف كتب التواريخ سرعان ما أمسكت القلم، لأنه مما لا يدخل تحت العد..

وستجد في مثاني كتب السير وما زبره المؤرخون في مصنفاتهم ما هو فوق الوصف.

فمنهم من أفردها بالتصنيف استقلالا كابن جبير، ومنهم من ذكرها تبعا.

وقد كان حظ المغاربة فيها أوفر من المشارقة لبعد الدار وتجشم المتاعب والمصاعب، فكانوا يجدون في تصنيفها سلوى لما يلقون من برح الأسفار، واغتباطا بمثافنة الأشياخ والعلماء، فكانوا يجلسون للعلم والتعلم، ويأتون بجديد مصنفات المشارقة. فمن لم يتمكن من الرحلة لعارض وغيره، فاته من النصيب ما يستحق فيه العزاء!!

فقد نعى العلماء والحفاظ على الإمام ابن حزم حين لم يسمع بالترمذي -محمد بن عيسى- الإمام وقذه المؤرخون من كل جانب.

قال الذهبي في «ميزان الاعتدال»: «الإمام -يعني الترمذي- الحافظ العلم، صاحب الجامع، ثقة مجمع

عليه، ولا التفات إلى قول أبي محمد ابن حزم فيه: إنه مجهول، فإنه ما عرف ولا درى بوجود «الجامع» ولا العلل». انتهى بتصرف يسير.

وقال الحافظ في «تهذيب التهذيب»: «وأما أبومحمد ابن حزم فإنه نادى على نفسه بعدم الاطلاع، فقال في كتاب «الفرائض» من «الإيصال»: محمد بن عيسى بن سورة مجهول!، ولا يقولن قائل: لعله ما عرف الترمذي ولا اطلع على حفظه ولا تصانيفه، فإن هذا الرجل قد أطلق هذه العبارة في خلق من المشهورين من الثقات الحفاظ كأبي القاسم البغوي، وإسماعيل بن محمد الصفار، وأبي العباس الأصم، وغيرهم، والعجب أن الحافظ ابن الفرضي ذكره في كتابه «المؤتلف والمختلف»، ونبه على قدره، فكيف فات ابن حزم الوقوف عليه» انتهى.

قال العلامة أحمد شاكر معلقا: وأنا أظن أن هذا تحامل شديد من الحافظ على ابن حزم.. اهـ.

وكان عذره في ذلك كعذر غيره فإن «سنن الترمذي» و«ابن ماجة» كما نص الذهبي في «السير» لم تدخل الأندلس إلا بعد وفاته في (٤٥٦هـ) أي بعد مائتي عام من وفاة الترمذي!

وهذه من الغرائب، لأن الحافظ ابن عبدالبر -وهو عصري ابن حزم- يذكر الترمذي في سنده في كتاب «التمهيد» مع أنه لم يبرح الأندلس كأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) إمام القراءات الشهير.

فائدة: أفاد ابن بسام في «الذخيرة» وابن بشكوال - بفوت يسير - في «الصلة» أن أول من أدخل «سنن الترمذي» إلى الأندلس هو أبوحفص عمر بن الحسن الهوزني في (٤٤٠هـ) وانظر «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد.

ولما كانت هذه أيام الحج ارتأيت أن يقتصر المقال على «رحلات الحج» وما صنفه العلماء والأدباء في ذلك، فرأيته -هو الآخر- يطول فاختصرت الكلام على طائفة مختارة من رحلات المتقدمين والمعاصرين. وأرجو أن ينال نفعه القارئ الكريم.

رحلة ابن جبير

«اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» ط، دار صادر وحققه د. حسين نصار، لأبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي.

ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» باسم «رحلة الكناني»

ولد في «بلنسية» Valencia بالأندلس عام (١١٤٥م-٥٤٠هـ) . حفظ القرآن صغيرا ودرس الفقه والحساب واللغة والأدب، وكان شاعرا وناثرا، وله ديوان شعر يسمى «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان». وله أيضا «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» (نثر)، عمل كاتبا في غرناطة في أيام أبي سعيد عثمان بن عبدالمؤمن الموحدي أمير «الموحدين». واشتهر برحلاته الكثيرة وتدوينه لها:

رحلته الأولى: (عامان وثلاثة أشهر) وكانت عام ٥٧٩هـ من غرناطة إلى سبتة ومنها بحرا إلى الإسكندرية ثم إلى مكة والمدينة والكوفة وبغداد والموصل وحلب ودمشق، ثم ركب البحر إلى جزيرة صقلية عائدا إلى غرناطة عام ٥٨١هـ، وهي رحلته التي دون فيها مشاهداته في المناسك.

وله رحلة ثانية: إلى بلاد الشام، حيث صلاح الدين الأيوبي يجالد النصارى باسترداد بيت المقدس إلى حظيرة الإسلام.. كانت هذه الرحلة عام ٥٨٥هـ، وكان ابن جبير محبا لصلاح الدين وله فيه شعر.

والرحلة الثالثة: قام بها سلوة لحزنه من فراق زوجته، فأبحر من سبتة إلى القاهرة والشام ثم توفي رحمه الله بالإسكندرية عام ٦١٤هـ، ويرى شوقي ضيف أن مسجد سيدي جابر في «الإسكندرية» هو مسجده، وأنه تحرف على العامة بمرور الزمن فسمته -سيدي جابر-!!

ومن شعره:

لا تغترب عن وطن
واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا
ما فارق الأصل ذوى

ترجم له لسان الدين الخطيب في «الإحاطة في أخبار غرناطة» فقال: «إنه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة بالآداب، وله الرحلة المشهورة» اهـ. ولمزيد من أخباره انظر «نفح الطيب» للمقري.

ويذكر العلامة شوقي عبدالسلام ضيف رحمه الله في «الرحلات»: «ورحلة ابن جبير تقص ما شاهده في طريقه إلى حجه وعودته منه، وهي مكتوبة بشكل مذكرات يومية، فمع كل مشهد وكل بلدة التاريخ باليوم والشهر. ويظهر أنه كتبها في أوراق منفصلة، ولم يجمعها بنفسه بل جمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم «تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار» اهـ. وبالجملة فالرحلة مكتوبة بأسلوب سهل غير متكلف، وفيها شعور صادق.

رحلة ابن السبتي

«ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة» طبع بتونس، بتحقيق العلامة محمد الحبيب بن الخوجة، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي (٦٨٥-٧٢١هـ) وينسب إلى سبتة المغربية!! -فك الله أسرها- وعاش في أيام دولة بني مرين وبالتحديد في خلافة أبي سعيد عثمان المريني (ولي بين ٧١٠-٧٣١هـ).

درس على شيخ العربية أبي الحسين ابن أبي الربيع وأبي الحسن علي بن الخضار الكتامي والأديب الشاعر أبي الحكم مالك ابن المرحل المشهور صاحب النظم في الأمثال، وغير هؤلاء. وكانت فاس يومئذ غاصة بالعلماء، ومع ذلك رحل شرقا للحج والاستزادة من العلم، وكتب رحلته

المشار إليها ثم قفل راجعا إلى غرناطة، وعقد بها مجالس مشهودة، فاستدعاه السلطان إلى المغرب، وعينه إماما وخطيبا للجامع العتيق بمراكش، ثم استقدمه إلى فاس وجعله من خاصته، وكان معظما مقبول الشفاعة، وبقي كذلك إلى أن توفاه الله، ودفن بمقبرة المدينة.

وروى عنه العلم: محمد بن عبدالرازق (ت٧٤٩هـ) الذي كان يقرئ الموطأ والبخاري في القرويين، وأبوالبركات محمد بن الحاج البلفيقي(ت٧٧١هـ) الذي عده ابن خلدون شيخ المحدثين والأدباء، وعبدالمهيمن الحضرمي (ت٧٧٩هـ) الأديب الشاعر.

وللإمام السبتي مصنفات كثيرة كانت محل ثناء عاطر من العلماء:

ذكره لسان الدين بن الخطيب في «الإحاطة» فقال: «كان واسع الأسمعة، عالي الإسناد، صحيح النقل، أصيل الضبط، تام العناية بصناعة الحديث، قيما عليها، بصيرا بها، محققا فيها، ذاكرا فيها للرجال». وابن فرحون في «الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب»، ذكره قريبا من ذلك، فأشار إلى تضلعه من العربية والفقه والأدب والتاريخ والقراءات.

وأما ابن خلدون فقال عنه: «كبير مشيخة المغرب، وسيد أهله، وشيخ المحدثين والرحالة».

وقال الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة»: «واحتفل في صباه بالأدبيات حتى برع في ذلك، ثم رحل إلى فاس، فأقام بها وطلب الحديث فمهر فيه، وصنف الرحلة المشرقية في ست مجلدات، وفيه من الفوائد شيء كثير».

وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: «ولما رجع من رحلته سكن سبت ملحوظا عند العامة والخاصة» ورحلته هذه غزيرة الفوائد تستحق أن تفرد لمقالات متتابعة، وبها غرائب وعجائب!

ذكر رحمه الله: أنهم عندما كانوا في الطريق إلى مكة بعد الإحرام وعند قرية رابغ كانت الغزلان والأرانب تمر بين جمال القافلة وهي في غاية الأمن وعند عودتهم محلين تختفي.!!

رحلة ابن بطوطة اللواتي الطنجي: ت٧٧٩هـ «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» تحقيق د. عبدالهادي التازي. ذكر في رحلته ٦٠ صفحة فيما يتعلق بالحرمين الشريفين. وسأفرد لها مقالات تأتي تباعا فترقبها ولا تكن عجلا!

الرحلة الذهبية

لسلطان مالي (منسي موسى ١٣٠٧-١٣٣٢م) وهي وإن لم يصنف لها استقلالا فقد ذكرها المؤرخون لشهرتها وذيوعها. فقد خرج السلطان موسى يريد الحج ومعه آلاف من الحاشية وأحمال من الذهب يوزعها على المارة حتى رخص سعر الذهب في مصر، على ما ذكره النعيمي في «الدارس»، ويذكر ابن خلدون وابن حجر: أن «منسي موسى» حمل معه من بلاده للإنفاق على الرحلة مائة جمل من التبر، أي من الذهب، في كل جمل ثلاثة قناطير!! ووقعت حوادث مشهورة ودونت في مصادر التاريخ.

رحلة الورثيلاني

«نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار». للحسين بن محمد السعيد الورثيلاني - قبيلة ورثيلان قرب بجاية - المالكي المؤرخ، وذكر في رحلته ما شاهده من الأمكنة ومن اجتمع بهم من الأعيان في حجته سنة ١١٧٩هـ، ويعنى برحلته بوصف الآثار من المساجد والأودية والجبال والآبار وغيرها، ومن لقيه من العلماء.

الرحلة العياشية لأبي سالم العياشي (ت١٠٩٠هـ) يذكر من لقي من الأعيان والعلماء ويترجم لهم بإسهاب.

رحلة النابلسي

«الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز» لعبدالغني ابن إسماعيل النابلسي، وتوفي بعد (١٢٠٠هـ)

رحلة ابن مليح: أبي عبدالله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج «أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب»، وفيها فوائد، وفيها نفس أهل العلم وآداب وأشعار.

«مرآة الحرمين»: اللواء إبراهيم رفعت باشا. وهي قبل أكثر من ثمانية عقود، وفيها فوائد وملح. ثم «الرحلة السعودية الحجازية النجدية» لمحمد سعيد العوري، قاضي بيت المقدس، وفيها فوائد ومسائل في المناسك.

رحلة الشيخ صديق حسن خان: لأبي الطيب محمد صديق حسن خان القنوجي ابن الإمام المشهور. وكانت في ١٢٨٥هـ، وكانت من ممباي -في الهند- إلى جدة. استغرق سفره ثمانية أشهر، وعامة هذا الكتاب في المناسك.

رحلة خير الدين الزركلي

صاحب «الأعلام»، أشهر من أن يذكر. له كتاب «ما رأيت وما سمعت»، وهو عن رحلته الأولى من دمشق إلى فلسطين فالحجاز، وطبع سنة ١٩٢٣م.

رحلة شكيب أرسلان

«الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف»، وهي المسماة بـ«الرحلة الحجازية» ط. المنار، بعناية السيد رشيد رضا. للأديب الكبير أمير البيان شكيب أرسلان، ويذكر في مقدمتها: وبعد: فقد مضت علي حجج كثيرة وأنا أهم بأداء فريضة الحج، والعوائق تعوق، والموانع من حول إلى حول تحول، إلى أن يسر الله بلطفه وحسن توفيقه علي بأداء هذا الفرض في سنة ١٣٤٨هـ.. فكان قصدي إلى الحجاز من لوزان بسويسرة عن طريق نابولي بإيطالية، إذ ركبت منها البحر على باخرة إنكليزية إلى بورسعيد.. الخ، ثم الحجاز عن طريق رابغ.. إلى أن قال: وقد وجدت مناسبا أن أنشر ما ارتسم في مخيلتي من هذه

المشاهد، وما انطبع في لوح دماغي من مناظر تلك المشاعر المباركة والمعاهد، مقرونا بما يعن لي من الآراء، مشتملا على ما عندي من الملاحظات... ثم يقول: هذا ولما تسنى إكماله، وبلـغ الإبـدار هلاله، رأيت أن أتوجه باسم جلالة الملك الهمام، الذي هو غرة في جبين الأيام، عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها، تذكارا لجميل الأمن الذي مد على هذه البلدان سرادقه، وعرفانا لقدر العدل الذي وطد فيه دعائمه، وناط بالإجراء مواثقه... الخ كلامه.

وتكلم في رحلته عن مكة المكرمة وصفاتها الحسية والمعنوية، تضاريسها ومياهها في الجاهلية و الإسلام، وتناول باقي أصقاع الحجاز ومدنه، ونجد واليمن، وفي سياق كلامه عن العمران أكد أن الإسلام هو دين الحضارة والرقي وذكر أمثلة بحضارة قرطبة والأندلس، ويجدر بالذكر هنا أن شكيب أرسلان زار الأندلس أكثر من مرة، وألف فيها كتبا كثيرة.

وذكر أيضا شيئا من حضارة النيجر وتنبكتو وبلاد السودان (مالي) وهو ينقل عن ابن جبير كثيرا في وصفه للحجاز.

الرحلة الحجازية

لمحمد لبيب البتنوني (ت ١٩٣٧م) وهو أديب مصري مشتغل بالأدب والتاريخ، وكتابه هذا تسجيل لرحلة الخديوي عباس حلمي باشا برفقة أعيان الدولة مثل أحمد شفيق باشا المؤرخ محمد شاكر (وكيل مشيخة الأزهر) والذي يعتبر أول من شغل منصب قاضي قضاة مصر والسودان، وهو والد الإمامين الكبيرين أحمد ومحمود شاكر. وكانت الرحلة عام (١٩٠٩م) وتخلف عن هذه الرحلة أحمد شوقي لعذر ألم به، ولكنه سجلها بقصيدة طارت في الآفاق وهي «إلى عرفات».

تنبيه مهم: جاء في الرحلة: «إن الكسوة كانت تصنع في القاهرة سنويا، وعند الانتهاء منها يعمل لها موكب عظيم في نحو منتصف شهر ذي القعدة، يحضره جناب الخديوي أو من ينوب عنه، وينتهي بها الموكب إلى مسجد الحسين، حيث تسلم في مجلس يعقد في المسجد في حضور أمير الحج للسنة المرسلة فيها» اهـ!!

ومن المعلوم تاريخيا أن السلطان علي دينار رحمه الله (ت١٣٣٥هـ-١٩١٦م) هو من اشتهر عنه كسوة الكعبة المشرفة والمحمل، فهل كان ذلك يتم في القاهرة على نفقته ثم يحمل إلى الكعبة، أم الذي ذكره البتنوني من أمر الخديوي هو كسوة ومحمل آخرين؟ لم يظهر لي جوابه.. وأرجو من صديقي البحاثة د. خالد محمد فرح أن يشفينا جوابا.

رحلة علي الطنطاوي

لفقيد الأدب العلامة علي الطنطاوي سقى الله ثراه، وساقها بأسلوب فائق الحسن، كعادته رحمه الله.

رحلة محمد بهجة البيطار: علامة العراق المشهور، رحمه الله، له «الرحلة الحجازية»، وهو تلميذ العلامة الألوسي رحمه الله.



رحلة الإمام أبي الأشبال أحمد محمد شاكر

لم يفرد لها مصنفا مستقلا، وإنما أشار إلى مشاهدته في بلاد الحرمين سنة حجه. ومع أن هذا ليس من شرطي في هذه المقالة إلا إني سأذكرها لمسيس الحاجة إليها.

قال معلقا على حديث أبي سعيد في (سنن الترمذي:١/٤٣٢ ط/ الحلبي): «أيكم يتجر على هذا.. فقام رجل فصلى معه» ونقل كلام الشافعي في «الأم» وكراهيته له. وكلام مالك في «المدونة» والنهي عنها.

وقول القاضي أبي بكر بن العربي في «عارضة الأحوذي» ثم قال: «والذي ذهب إليه الشافعي من المعنى في هذا الباب صحيح جليل، ينبئ عن نظر ثاقب، وفهم دقيق، وعقل دراك لروح الإسلام ومقاصده... توحيد كلمة المسلمين وجمع قلوبهم على غاية واحدة.. وهي إعلاء كلمة الله، وتوحيد صفوفهم في العمل لهذه الغاية.

ثم قال: وقد رأى المسلمون بأعينهم آثار تفرق جماعاتهم في الصلاة، واضطراب صفوفهم، ولمسوا ذلك بأيديهم..

بل قد بلغنا أن هذا المنكر كان في الحرم المكي، وأنه كان يصلي فيه أربعة يزعمونهم للمذاهب الأربعة، ولكنا لم نر ذلك، إذ إننا لم ندرك هذا العهد بمكة، وإنما حججنا في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، وسمعنا أنه أبطل هذه البدعة، وجمع الناس في الحرم على إمام واحد راتب، ونرجو أن يوفق الله علماء الإسلام لإبطال هذه البدعة من جميع المساجد في البلدان بفضل الله وعونه، إنه سميع الدعاء» انتهى.

● هذه المقالة: نشرت قبل عامين في صحيفة «الأحداث» الغراء.



رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين

أحمد بن عبدالمحسن العساف

لأدب الرحلات مكانة عالية بين التصانيف المختلفة، وما ذاك إلا لما يحويه هذا التأليف من فوائد يندر اجتماعها في موضع آخر؛ ولذلك تجد إقبالا من أهل غالب الفنون، فلكتب الرحلات عناية بالشؤون الدينية الخاصة بطريق الرحلة، واهتمام بالأوضاع الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعلمية، لقاطني الديار التي يمر بها الرحالة، وفيها احتفال بالغرائب والعجائب، وحرص على ملاقاة من يستحق اللقاء من العلماء والأدباء، وإلمام بتاريخ المدن وأسماء البلدان وأخبارها، إضافة إلى أن طابعها يتسم بالإمتاع والمؤانسة، وما أجمل رفقة كتب الرحلات إبان السفر، أو حين انشغال الذهن، ففيها ترويح آمن، ومعلومات لطيفة لا تجلب الملل للناظر فيها.

ومهما تنوعت الرحلات واختلفت، فإن أعظم رحلة يقوم بها إنسان هي تلك الرحلة التي تسبق مشاعره فيها جوارحه، وترنو إليها روحه سابقة جسده، ويهيم بها فؤاده قبل الشروع فيها. ولا تجتمع هذه الصفات إلا لقاصدي البيت العتيق للحج والعمرة؛ ثم اهتبال فرصة القرب لزيارة المدينة النبوية والصلاة في مسجدها، ويا لها من رحلة تستعذبها الأرواح، وتستروح النفوس عبيرها، وتظل ذكراها الجميلة عالقة في ذهن منشئها زمنا طويلا.

وقد ألف بعض العلماء والأدباء



والبلدانيين والمؤرخين والمستشرقين كتبا عن رحلاتهم إلى الحج، فبعضها كتاب خاص عن رحلة الحج فقط، وبعضها كتاب رحلة عامة ضمنها مؤلفها حديثا عن رحلته إلى الحج والحجاز. ويرجع التأليف في هذا الباب إلى القرن السادس الهجري. واشتغال الأدباء به أكثر من اشتغال العلماء، لأن الأدباء يتوسعون في العبارة، ويكتبون عن الحادثة الواحدة صفحات طويلة ماتعة بسبب ما حباهم الله من أدب الدرس؛ والقدرة على تشقيق الكلام وإجادة الوصف، وهذا ما لا يتوافر لدى العلماء الذين يحسبون حساب الكلمة الواحدة، وليس لكثير منهم التفات نحو العبارات البلاغية والبيان الزائد على حد الإفهام؛ إضافة إلى انصرافهم نحو علم المناسك والأحكام، حيث منفعته أعظم وله الأولوية على غيره.

واتسعت خريطة الكتابة عن رحلات الحج حتى شملت مؤلفين من الأندلس والمغرب، ومصر والشام، والهند واليابان، وتركيا وغيرها من عدة بلاد أوروبية طبقا لجنسية المؤلف أو مكان إقامته. واختلفت أحوال المؤلفين ما بين رحلة شخصية، أو مرافقة لأمير أو ملك، أو على رأس وفد دولة أو أمير لموكب حجها، أو ضيف على حكام الحجاز، أو صاحب مشروع سياسي كما في كثير من رحلات المستشرقين. وقد يسر الله أن انبرى بعض الباحثين والمؤسسات الثقافية لخدمة ونشر بعض كتب رحلات الحج، ويبقى الجهد الأعظم في استقصاء جميع ما كتب عن رحلات الحج، ونشره محققا؛ ووضع فهارس كاشفة تعين القارئ على بلوغ مراده، ومعرفة المخطوط منها والمطبوع أو المفقود.

وشملت عناية بعض المؤلفين تتبع كتب رحلات الحج كما فعل الأستاذ الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - في مجلد واحد أسماه «أشهر رحلات الحج»، واختصر د. محمد بن حسن الشريف أكثر من عشرين كتابا من كتب رحلات الحج القديمة والحديثة في أربعة مجلدات بعنوان «المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية»، كما أصدر الأستاذ أحمد محمد محمود كتابا عنوانه «رحلات الحج» في ثلاثة أجزاء، وتحدث فيه عن جملة من كتب رحلات الحج خلال القرون الثلاثة الأخيرة.

وتأتي أهمية كتب رحلات الحج وزيارة الحرمين من عظم فائدتها العلمية وقيمتها لدى الباحثين؛ فضلا عن ارتباطها بالأماكن المقدسة. ومن جوانب أهميتها أنها بيان دقيق لحال المسلمين الدينية ومدى قربهم من الله واتباعهم السنة، خصوصا ما يتعلق بأهل الحرم، إضافة إلى وصف الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية؛ ونقل عادات السكان وطبيعتهم في الأفراح والأحزان، وتسجيل سيرة أمراء الحجاز مع الحجاج وطرق سياستهم للعامة، كما أنها تصف العاطفة ومعاني الأخوة في الدين عند الحجيج وسكان الحرمين، وفيها إيضاح قيمة الأدب ومبلغه؛ وقدر العناية باللغة وعلومها





في زمن الرحلة، كما أنها تخبر عن أمن الطريق إلى الحج عبر العصور، وقد تلمح إلى جهاد المسلمين وشؤونهم العسكرية، ومن خلالها يمكن الإلمام بشيء من تاريخ عمارة الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة، إلى غير ذلك من فوائد وفرائد يتلذذ بها العقل ويطرب لها السمع.

وتمتاز كتب الرحلات التي صنفها العلماء باحتوائها على مناسك الحج وأحكامه، بينما تهتم كتب الأدباء والمؤرخين بالطرف والأخبار الأنيسة، والأوصاف الشائقة، وربما لا تخلو من بدع أو خرافات أو معتقدات باطلة، ومن أشهر كتب الرحلات التي لم تسلم من البدع والمعتقدات الخاطئة رحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». ومن المفارقات أن هذه الرحلة قد ترجمت إلى بضع لغات عالمية! وبعض الرحلات ينكشف شأنها من عنوانها، مثل رحلة أبي عبدالله محمد بن أحمد القيسي، الشهير بالسراج، والملقب ابن مليح، واسمها «أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب».

وتعد رحلة ابن رشيد السبتي من أفضل كتب الرحلات التي دونها العلماء، لما أودعه فيه من متين العلم وأخبار ملاقاة العلماء ومذاكرتهم، وهذه الرحلة مطبوعة محققة في خمسة مجلدات، وعنوانها «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة». ومن الرحلات المهمة في هذا الباب رحلة الشيخ الشنقيطي، صاحب أضواء البيان، وعنوانها «رحلة الحج إلى بيت الله الحرام»، ورحلة محمد رشيد رضا بعنوان «رحلة الحجاز». ومن أفضل الرحلات المعاصرة التي أملاها الأدباء «مرآة الحرمين» من تأليف اللواء إبراهيم رفعت وكان أميرا على موكب الحج المصري، ورحلة الأمير شكيب أرسلان بعنوان «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف».

ومن طرائف كتب رحلات الحج أن أحدهم ألف كتابا عن رحلته للحج باللهجة المصرية العامية أسماه «يا هناء للوعد»، وهذا من الغرائب كما يقول الشيخ العلامة د. عبدالكريم الخضير، أمتع الله به. ومنها ما ذكره غلام رسول مهر في رحلة حجه عام ١٣٤٨ من شبه القارة الهندية بعنوان «يوميات رحلة في الحجاز»، حيث تعجب ومرافقيه من انتشار ركوب الحمير في الحج؛ ومن كثرتها التي تعود لانخفاض أجرتها مقارنة بالجمال؛ وهو الأمر الذي يراه أهل الهند عارا وعملا قبيحا، ثم تغير رأيه هو وأصحابه الذين كانوا معه وأصلحوا نظرتهم إلى الحمار كمركوب، بعد أن استخدموه لأداء فريضة الحج، ووصف هذا المنظر بأنه رائع، إذ لم يسبق لأحدهم أن خاض هذه التجربة من قبل!

ومن أعجب ما قرأته في رحلات الحج أن المصلين في الحرم كانوا يؤمنون بصوت خافت على دعاء الخطيب للخليفة أو لأمير مكة، فإذا بدأ الخطيب في الدعاء لصلاح الدين الأيوبي - رحمة الله عليه - ارتج المسجد الحرام بالتأمين والبكاء!

ومن ملح هذه الرحلات ما ذكره أحد الرحالة عن نفسه، إذ دخل الحجاز وخرج منها فما رأى وجه امرأة قط لانتشار الحجاب حينذاك! وقد كان حج الملوك والأمراء والكبراء قديما مع باقي الحجاج ولا ينفردون إلا في مواضع قليلة؛ مما جعلهم يطلعون بلا وسيط على أحوال المسلمين، وهذا بخلاف زعماء هذا الزمان الذين تختفي أشباحهم عن جمهرة الحجيج، فلا يرى بعضهم بعضا إلا خلف الشاشات؛ ومع ذلك يتسببون في زحام الطريق والتضييق على الحجاج وفيهم الضعيف والمريض والكبير.

وقد كان للمستشرقين والجواسيس رحلات حج مدونة، فمنها رحلة سرية للضابط الروسي عبدالعزيز دولتشين على أعتاب القرن العشرين الميلادي، ورحلة جوزيف بتس، وهو أول إنجليزي في التاريخ الحديث يزور مكة، ورحلة الفرنسي ليون روش في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي؛ وقد اتخذ اسما عربيا يتخفى تحته؛ فسمى نفسه عمر بن عبدالله، وكان غرضه سياسيا خالصا؛ حيث حاول الوصول إلى شريف مكة واستصدار فتوى شرعية تحرم الجهاد ضد الفرنسيين في الجزائر وتجعله من باب إلقاء النفس إلى التهلكة!

ومن عظم همة القوم ما قام به

المستشرق الهولندي سنوك، الذي تجشم العناء، وسافر إلى مكة، وأقام فيها بضعة أشهر، ثم كتب رسالته للدكتوراه عن الحج، وعلى أساس رحلته هذه وضعت هولندا استراتيجيتها لاحتلال بلاد المسلمين في جنوب شرق آسيا. وللإيطالي فارتيما رحلة في القرن العاشر الهجري، حيث دخل مكة باسم يونس العجمي، وكان جاسوسا لمصلحة البرتغال. ومن الرحلات المهمة رحلة بيرتون إلى مكة في ثياب درويش أفغاني بينما كان ضابطا إيرلنديا يعمل في الجيش البريطاني الموجود في الهند، وكانت رحلته في منتصف القرن الثالث عشر الهجري.

وللمسلمين من الغربيين كتب أخرى؛ فللكاتب النمساوي المسلم محمد أسد رحلة بعنوان «الطريق إلى مكة»؛ وقد ترجمت إلى أكثر من لغة؛ وهو كتاب يجذب قارئه ويمتعه. وقد أثرت رحلة الحج تأثيرا بالغا في الكاتب الأمريكي المسلم جفري لانج وسجل أحداثها في كتابه «الصراع من أجل الإيمان انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام»، حيث انبهر بالتنوع البشري في الحج. وكانت رحلة الحج سببا في تغيير أفكار الزعيم الأميركي المسلم مالكوم إكس عن الإسلام؛ حيث استبانت له ضلالة معتقداته السابقة، وعاد إلى بلاده داعية إلى الدين الحق الذي عرفه واقتنع به في بطاح مكة الطاهرة.

ومن الطريف أن رحلة الحج التي شرع بها الكاتب المصري محمد حسين هيكل كانت بسبب نصيحة من المسلم المجري عبدالكريم جرمانوس، الذي تبدلت حياته للأفضل بعد أن أدى فريضة الحج، ومن عظم بركة تلك الرحلة عليه أن وصفها في كتابه عن رحلة الحج بعنوان «الله أكبر» بأنها «لحظة من لحظات الإشراق». وقد وضع هيكل كتابا عن رحلته أسماه «في منزل الوحي»، واشتمل على معان إيمانية لم تكن معهودة في كتاباته من قبل.

ومما يجب اليقظة له الحذر من أن تكون البقاع المقدسة مقصدا للكفار الذين يتسترون بادعاء الإسلام؛ خصوصا أن قضية التحول من دين إلى آخر عملية سهلة لدى فئام من الغربيين لتحقيق أغراضهم وإرضاء نهمهم المعرفي.

وبعد هذا التجوال السريع في الكتب التي أفردت لحفظ رحلات أصحابها لأداء الحج، قد يعتقد بعضنا أن هذا النوع من الكتب قد انتهى بثورة المواصلات والاتصالات ويسر الوصول إلى الديار المقدسة؛ وليست الطريق هنالك! فمن الناس من يكدح عمرا طويلا لجمع نفقة الحج؛ وإن هذا الكدح لقمين بالتوثيق؛ ليعلم المقصرون من الأثرياء والمقتدرين، الذين لا يحجون، كبير فضل الله عليهم وقبح صنيعهم. كما أن للفضلاء من الدعاة جولات دعوية حقيقة بالتدوين؛ ليستفيد منها السابق بالخيرات والمقتصد؛ وعسى أن يهتدي بها كل ظالم لنفسه. ولا شيء يحول دون تسطير إبداعات علمائنا وكتابنا عن حجهم ومشاعرهم في الموسم الميمون في كتاب حافل، أو أن يكتب المسلم الذي كان الحج بالنسبة إليه رحلة من الضلالة إلى الهدى أخبار رحلته، ففي الحج منافع للناس؛ وإمتاع العقول منفعة وأي منفعة.

● نشر هذا المقال في مجلة البيان عدد شهر ذي الحجة عام ١٤٣١هـ.





رحلات أهل العلم في الحج

الشيخ عبدالكريم الخضير

اختلفت طرائق العلماء أثناء حجهم، وكل له طريقته ومنهجه؛ فمنهم من زاول في حجه العبادات الخاصة، واغتنم فضل الزمان والمكان، فأكثر من النوافل ومن الأذكار والابتهال، وقراءة القرآن على الوجه المأمور به، ولا شك أن هذا خير كثير لمن وفق له.

ومنهم من فعل ذلك وزاد عليه؛ بأن تصدر للنفع العام، ووقف نفسه ووقته وجهده لاستقبال الناس وإفتائهم وإرشادهم، والمقرر عند أهل العلم أن النفع المتعدي أفضل من اللازم في الجملة، ولذا صار طلب العلم عند جماهير أهل العلم أفضل من نوافل العبادات؛ لأن نفعه متعد ينتفع به الإنسان وينفع به غيره.

هؤلاء العلماء إذا وصلوا إلى تلك الأماكن، كل سلك مسلكه، وكل بحث عما يناسبه؛ فتجد القارئ يبحث عن القراء ويستفيد منهم ويفيدهم، وتجد المحدث يبحث عن المحدثين، ويستفيد منهم ويفيدهم، وتجد الفقيه كذلك، والمؤرخ كذلك، والأديب كذلك، وكل من له اهتمام بشيء بحث عن نظرائه، وحاورهم وطارحهم وناقشهم، واستفاد منهم وأفادهم، وهذا موجود في الرحلات.

وكثير من أهل العلم ما دونوا رحلاتهم وإن اشتملت على فوائد عظيمة، والسبب أن هذه المدونات جل مؤلفيها ممن له عناية بالأدب ممن يستطيع أن يصوغ المشاهدات، ولكن بعض الناس يشاهد؛ لكن لا يستطيع أن يعبر عما شاهد؛ أما من له عناية بالأدب فإنه يشاهد ربع ساعة؛ فيكتب ما يقرأ في ساعة، وهذا موجود إلى وقتنا هذا.

ومن هذه الرحلات المدونة، بل من أقدمها: «رحلة ابن جبير»، وهو أبوالحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة ببلنسية، أخذ القراءات وعني بالأدب؛ فبلغ الغاية فيه، وتقدم في صناعة القريظ والكتابة، يقول لسان الدين بن الخطيب في حقه: «إنه من علماء الأندلس بالفقه، والحديث، والمشاركة بالآداب، وله الرحلة المشهورة»؛ وقال التلمساني في نفح الطيب: «كان انفصاله من غرناطة بقصد الرحلة المشرقية، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (٥٧٨هـ)، ووصل الإسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة من السنة، فكانت إقامته على متن البحر



من الأندلس إلى الإسكندرية ثلاثين يوما»؛ ثلاثون يوما وهو في البحر، إقامته في البحر، وفي مجيئه من الأندلس إلى الإسكندرية ثلاثون يوما، لكن رجوعه إلى الأندلس على متن البحر الأبيض المتوسط ذكروا ستة أشهر؛ لأنه كلما قارب الوصول جاءت ريح ردته إلى مبتدئه، وعلينا أن نشكر هذه النعم التي نتقلب فيها، وكتب التاريخ مملوءة بالعجائب في أخبار الحجاج، وكانت الطرق غير آمنة، قل من يسلم فيها، وكثير منهم يعطب، ذكر الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عن رجل أنه حج تسعين مرة حافيا، وذكروا أيضا من الغرائب أن قدميه كقدمي العروس، مع هذه المدة، وإن كان الخبر ما يسلم من نكارة، ويبقى أن له أصلا... يحج عشر مرات أو عشرين مرة على قدميه من بغداد كثير.

مكث ابن جبير شهرا كاملا في البحر، من الأندلس إلى الإسكندرية، ومات - رحمه الله - سنة أربع عشرة وستمائة (٦١٤هـ).

وصف المنازل

جاء في تقدمة الدكتور حسين نصار لهذه الرحلة يقول: هذا الكتاب رحلة قام بها أندلسي للحج، استغرقت عامين وثلاثة أشهر ونصف، من التاسع عشر من شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (٥٧٨هـ)، إلى الثاني والعشرين من المحرم سنة إحدى وثمانين وخمسمائة (٥٨١هـ)، وزار فيها مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية، ووصف في هذه الرحلة المدن التي مر بها،

والمنازل التي حل فيها وصفا يختلف إسهابا وإيجازا وفقا لأهمية الموضع، وتختلف المظاهر التي عني بوصفها في المدن المتنوعة، تختلف أحيانا وتتفق أحيانا؛ فقد عني في جميع المدن التي وصفها بالمساجد وقبور الصحابة،والمشهورين،والمستشفيات، والمصحات، والآثار المعروفة، وعني في مصر خاصة ببعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية، وببلاد العرب بالناحية الدينية خاصة، وفي العراق بالوعظ والوعاظ، وفي الشام بالنواحي السياسية والاقتصادية والحروب بين المسلمين والصليبيين، وفي صقلية بالمسلمين تحت حكم الملك الكافر، وطبيعي أنه التفت في كل مدينة بالأمر الذي اشتهرت به، واهتم بوصفه كمنارة الإسكندرية وأهرام القاهرة، ومقياس جزيرة الروضة، وآثار مكة الإسلامية، والمسجد النبوي بالمدينة، ومسجد الكوفة، ونفط الموصل، وقلعة حلب، والمسجد الأموي بدمشق وما إلى ذلك، والحق أن الكتاب - كما يقول المقدم -: «يتضمن بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مؤرخ أو جغرافي أو أديب».

واهتم المؤلف في كل قطر نزل به بتقصي أحوال المغاربة فيه - أحوال قومه - وعلاقة أهله بهم، ووصف ذلك في رحلته وصفا مطولا، والكتاب اختلف في عنوانه؛ فجعله حاجي خليفة صاحب كشف الظنون: «رحلة الكناني»؛ لأن نسبته تنتهي إلى كنانة.

وهذا الكتاب طبع مرارا، مطبوع في أوروبا أكثر من مرة، وطبع في مصر أيضا ولبنان، وفيه فوائد كثيرة جدا، وفيه بعض المخالفات، لا سيما إذا وصف مشهدا أو مزارا، لكنه أخف بكثير من ابن بطوطة أو النابلسي على ما سيأتي.

رحلة ابن رشيد

ومن هذه الرحلات، بل من أهمها، ولو قلت: إنها أهم الرحلات لطالب العلم لما بعدت؛ «رحلة ابن رشيد» محمد بن عمر بن رشيد، أبي عبدالله الفهري السبتي، المولود سنة سبعة وخمسين وستمائة (٦٥٧هـ)، وقال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة: «واحتفل في صباه بالأدبيات حتى برع في ذلك، ثم رحل إلى «فاس»، فأقام بها وطلب الحديث فمهر فيه، وصنف الرحلة المشرقية في ست مجلدات، وفيه من



الفوائد شيء كثير - هذا كلام ابن حجر- وقفت عليه وانتخبت منه».

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: «ولما رجع من رحلته سكن سبتة ملحوظا عند العامة والخاصة»؛ يعني محل عناية من الناس، وذلك لما تميز به من العلم والعمل.

كان ورعا مقتصدا منقبضا عن الناس ذا هيبة ووقار، يسارع في حوائج الناس، يجلب المصالح، ويدرأ المفاسد، يؤثر الفقراء والغرباء والطلبة، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان مع ذلك على مذهب أهل الحديث، في الصفات يمرها ولا يتأول.

يقول عنه لسان الدين بن الخطيب: «كان فريد دهره، عدالة وجلالة وحفظا وأدبا وهديا، عالي الإسناد، صحيح النقل، تام العناية، عارفا بالقراءات، بارع الخط، كهفا للطلبة»؛ يقول: «وكل تواليفه مفيدة، وكانت وفاته في أواخر المحرم سنة إحدى وعشرين وسبعمائة (٧٢١هـ) بفاس -رحمه الله».

متين العلم

هذه الرحلة اسمها: «ملأ العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة»، ذكر فيها من الفوائد الحديثية ما لا يوجد عند غيره من التحريرات العلمية والاستنباطات الفقهية، والمباحثات والمطارحات الأدبية مع العلماء الذين لقيهم في رحلته، وعلى هذا يتحتم على طالب العلم أن يرجع إلى هذه الرحلة، لا سيما الحريص على الفوائد الحديثية، في مباحثات واستنباطات لا توجد عند غيره، وعول عليها من كتب في مصطلح الحديث ممن جاء بعده في كثير من تحرير المسائل.

ابن رشيد همته متجهة إلى متين العلم؛ ولذا لا تجده يصف المعالم التي شاهدها أو المزارات التي وقف عليها، غير شيء قليل، ولذا فإن الطابع المعهود في كثير من الرحلات لم يكن ملموسا في هذه الرحلة إلا قليلا جدا؛ وذلك لأن اهتمامه منصب على الجانب العلمي.

ومن هذه الرحلات رحلة ابن بطوطة المسماة: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة.

طبعات

قال ابن مرزوق: «ولا أعلم أحدا جال البلاد كرحلته، مات سنة تسع وسبعين وسبعمائة (٧٧٩هـ)، ورحلته على النقيض من رحلة ابن رشيد».

واستغرقت رحلته أكثر من ربع قرن، وطبعت الرحلة طبعات عديدة، واختصرت في عدة مختصرات، وطبعت وزارة المعارف العمومية بمصر مهذب رحلة ابن بطوطة،

سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وألف (١٩٣٨م)بمطبعة بولاق الأميرية.

ومن الرحلات المشهورة رحلة الورثيلاني، واسمها: «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار»، ومؤلفها الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني، مؤرخ من فقهاء المالكية، له اشتغال بالتصوف، نسبته إلى بني ورثيلان، قبيلة بالمغرب الأوسط، قرب بجاية في الجزائر، نشأ بها، وحج فأخذ عن علماء مصر والحجاز، وذكر في رحلته ما شاهده من الأمكنة، ومن اجتمع بهم من الأعيان في حجته سنة تسع وسبعين ومائة وألف (١١٧٩هـ)، وهذه الرحلة طبعت في تونس سنة (١٣٢١هـ) في ثلاثة أجزاء، لكنها طبعة قد لا يستفيد منها كثير من طلاب العلم؛ لأنها طبعة حجرية، وبالخط المغربي العتيق، ثم طبعت في الجزائر سنة (١٣٢٦هـ) في مجلد كبير، وقراءتها متيسرة لطلاب العلم من المشارقة، سهلة - يعني قراءتها - وإن كانت في رسمها وصورتها على الحروف المغربية وطريقتهم، وصورت بعد ذلك سنة (١٣٩٤هـ) في دار الكتاب العربي.

ويبدأ من صفحة ٣٨٥ دخوله مكة المشرفة إلى أن خرج من المدينة في صفحة ٥٣٢ يعني مائة وخمسين صفحة، وفيها فوائد كثيرة، فيها فوائد علمية، وفيها مبالغات وفيها غلو، ولا تسلم، ويعنى في رحلته بوصف الآثار من المساجد والأودية والجبال والآبار وغيرها، ومن لقيه من العلماء، وسمة التصوف ظاهرة في الكتاب.

ومن الرحلات المتداولة المطبوعة، رحلة أبي عبدالله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج، والملقب بابن مليح، هذه الرحلة اسمها: «أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب»؛ يعني ابتدأت من المغرب إلى أن انتهت بمدينة النبي ﷺ منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، ويظهر من العنوان أنه قصد في رحلته النبي ﷺ، وأيضا هي رحلة فيها الكلام عن مكة بما تحتويه من مشاعر، وفيه أيضا الحديث عن المدينة النبوية، ولا يسلم الكتاب مما وجد في سوابقه من التصوف والتعلق بالآثار.

وعلى كل حال، الرحلة هذه مطبوعة، وفيها فوائد وفيها نفس علمي وآداب وأشعار، لكن ليكن القارئ منها على حذر.



ومن رحلات المعاصرين: «مرآة الحرمين»، أو «الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية»، ألفها اللواء: إبراهيم رفعت باشا، وفيها وصف دقيق لكثير من المشاعر، وفيه أيضا صور فوتوغرافية لكثير مما يحتاجه من يريد أن يقف على هذه المشاعر، لا سيما أن هذه الرحلة متقدمة؛ يعني صار لها أكثر من ثمانين سنة، وهي مطبوعة في مجلدين، وفيها أخبار ونكات وطرائف أدبية وتاريخية، وفيها أيضا شيء من المخالفات، لكنها في الجملة فيها فوائد؛ فليكن القارئ فيها على حذر.

و«الرحلة السعودية الحجازية النجدية»، لمحمد سعيد العوري؛ قاضي مدينة بيت المقدس سابقا، فيها تفصيل لأحكام المناسك وآداب الحج، وفيها كلام على الآثار، فيها فوائد علمية كثيرة فقهية تتعلق بالمناسك.

ومن الرحلات المهمة في الباب: رحلة الشيخ صديق حسن خان، هذه الرسالة من تأليف الشيخ أبو الطيب السيد محمد صديق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، وتحتوي على مسائل هامة فيما يتعلق بأمر المسلمين، هذه الحجة صارت أو حصلت سنة (١٢٨٥هـ)، وفي ذلك التاريخ كانت رحلة الشيخ بالسفن الشراعية من بمباي إلى جدة، وصادف أن نزل بالحديدة في طريقه ذهابا وإيابا، وقد استغرق سفره ثمانية أشهر من يوم أن غادر جوجال إلى أن عاد إليها.

بدع شائعة

الرسالة أشبه ما تكون وأقرب إلى المناسك، منسك متكامل، فالرسالة تحتوي على ما يتعلق بالحج والعمرة، وزيارة المسجد النبوي؛ مستدلا في جميع ذلك بالكتاب والسنة، مشيرا إلى تلك البدع الشائعة، عكس الرحلات الأدبية الأخرى.

ومن الرحلات مما كتبه الشيخ العلامة المحقق محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - رحلته إلى حج بيت الله الحرام، هذه الرسالة أو هذه الرحلة مختصرة فيما يقارب أو يقرب من ثلاثمائة صفحة، وفيها فوائد علمية ومطارحات ومشاركات أدبية شعرية ونثرية شيء كبير؛ فالشيخ له يد في حفظ الشعر، يحفظ من القصائد الشيء الكثير، والتقى بكثير من أهل العلم في هذه الرحلة، وشاركهم وطارحهم في كثير من المسائل العلمية.

النور مؤمنة

ادفع فقط أجرة البريد

- في الكـــــــويت **1.5 دينار**
- الدول العـربيـــــة **3 دنانيــر**
- باقي دول العالـــم **8 دنانيـر**





تودع أجرة البريد في حساب المجلة

رقم الحساب المصرفي الدولي:

KW15KFHO 000000000011010074520

أو ترسل في شيك أو حوالة باسم مجلة «النور»
إلى عنوان المجلة المثبت أدناه

مجلة «النور» ص.ب 24989 الصفاة 13110 ـ الكويت

هاتف: 22964236 وفاكس: 22409414
شبكة الإنترنت: WWW.kfh.com
البريد الإلكتروني: alnoormag@kfh.com









رحلات الحج المغربية.. لذة التقصي وأمانة النقل

د. عبدالهادي التازي
كاتب مغربي

الحج أكبر وأعظم وأهم مؤسسة قدمها الإسلام للمسلمين أينما كانوا وحيثما كانوا، أعظم مؤسسة بما تشتمل عليه من تنوع زاد... الحج أبرز رسالة موجهة إلينا لمعرفة الآخر، ولاكتشاف الآخرين لحوار الحضارات.. مهما كتب الناس؛ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، فإنهم لن يصلوا إلى استجلاء جميع جوانب هذه المؤسسة الحضارية الكبرى...

ولا نحتاج هنا إلى التذكير بما زودنا به هذا الركن من أركان الإسلام من ثروة فقهية نادرة المثال... وعشرات النوازل، ومئات الحالات التي كان على الفقهاء أن يجدوا لها حلولا تتناسب وأهداف المشرع. ثقافة الحج وحدها تعبر عن فكر خلاق تجلى فيما قدمه الفقهاء لنا؛ سواء أكانوا ينتسبون إلى هذا المذهب أو ذاك، أم ينتسبون إلى هذه المدرسة أو تلك، وبخاصة عندما يمتزج الجانب الفقهي المتعلق بالحج بالجوانب الأخرى المتعلقة بالأسفار وآدابها، وقضايا الإيجار، والعلاقات بين الرجل والمرأة في هذه الفترة، ثقافة الحج التي تتضمن في صدر ما تتضمنه ضبط تلك العلاقات في أثناء الحج والتدريب على تحمل المتاعب ومواجهة المصاعب وتخليق الممارسات..

ولابد أن نذكر أن هذا التشريع - تشريع الحج - خلق للمسلمين عموما، وللمغاربة خصوصا، مرجعية مهمة لثقافتهم وعلمهم، ومن هنا كانوا يعتزون بالسند الذي يعودون به إلى بلادهم، وهم يرددونه في مجالسهم العلمية، يعود المغاربة ليؤدوا صورة صادقة عن طريق تلقنهم، وعن الدين، أو الذين تلقوا منهم تلك العلوم؛ وكان المغاربة القارون بالمغرب يشعرون بالمتعة تغمرهم وهم يقرأون عن الآصرة المقدسة التي تربط العالم الغربي من فاس أو سوس بالعالم من بخارى أو خراسان ... كان المغاربة يعودون بحمولة مهمة من الزاد العلمي والمعرفي، وكانت مكة المكرمة بالنسبة إليهم المرجعية التي يشعرون إزاءها بوجدانهم وآمالهم.

وإن من يقرأ في روايات الحجاج، وفي رحلات العائدين، سيجد ما يؤكد مدى إيمان المغاربة بمصداقية تلك المرجعية التي كانت تعني فضاء عاش فيه نبي الإسلام ﷺ، وصحابته وخلفاؤه الراشدون وعلماء الإسلام من مختلف جهات الدنيا.

كان الحُجاج يعودون وهم يحملون معهم ذكريات وإفادات، ينقلونها إلى المجتمع الذي ينتسبون إليه، هذا المجتمع الذي يستفيد من كل تلك المعلومات للاسترشاد بها والاستئناس بها، وإشاعتها، كانوا ينقلون بعض اللقطات التي يجب ألا يمر عليها القارئ مرور الكرام بوصفها لقطات دالة هادفة، وأحيانا مسلية أيضا!

وإذا كان بعض الحجاج المشارقة قد تألقوا في كتابة رحلاتهم؛ سواء كانوا عجما أو عربا، فإن الحجاج المغاربة بزوا زملاءهم كما وكيفا، فقد احتوت المكتبات المخطوطة والمطبوعة على العشرات والعشرات من الرحلات المغاربية المكتوبة، فيها المقتضب وفيها المسهب، فيها المنثور والمنظوم، والفصيح والعامي على ما سنرى، وما كان حديثا يفترى!

ولقد كان كراتشكوفسكي على حق عندما لاحظ أن المغاربة أحرزوا درجة





السبق في أدب الرحلات، وهي الحقيقة التي أبرزها الراحل الشيخ حمد الجاسر عندما كان – وفي كل مناسبة- يشيد بالتفوق المغربي في هذا الصدد.

إن كل رحلة من الرحلات المغربية تجُر وراءها أكواما من الروايات والحكايات المكتوبة، وإذا أضفنا إلى هذا المكتوب ما يردده المغاربة في رواياتهم الشفوية مما لا ينتهي ولن ينتهي فإننا نصل- في خاتمة المطاف- إلى الاقتناع بأن الزاد المغربي فيما يتصل بالحج وما يتصل بمكة المكرمة والكعبة المشرفة وزمزم والصفا والمروة، يحتاج وحده إلى تتبع؛ لأنه أدب متحف مليء بالعظة والإيمان.

إنها خصائص لا يمكن أن نجدها في رحلات أخرى مما قرأنا عنها بالمشرق، وهذا ما يؤكد حالة الخصوصية بالنسبة إلى المغرب، أو يؤكد مرة أخرى ضرورة عودة المؤرخ في الجزيرة العربية إلى ما سجلته الرحلات المغربية عن مكة المكرمة والمدينة المنورة، وعن «الأطر» التي كانت تقوم عليها مختلف الوظائف الدينية، ومرافق الحياة في تلك الديار المقدسة مما كان يقوم به الحجازيون، وكذا المجاورون والمجاورات. وهكذا تتوفر الرحلة المغربية مثلا على شمولية الموضوعات المطروحة من جهة، وهي من جهة أخرى – لكونها رحلات متتابعة متوالية متلاحقة – تغطي جميع سائر فصول السنة، ففيها ما كان يتم في الصيف، وفيها ما كان يتم في الشتاء أو الربيع أو الخريف، ومن ثم فقد كنا على خبرة من حالة البلاد الحجازية على طول الفصول الأربعة...

إن كثيرا من المعلومات والإفادات ما كان لها أن تعرف من خلال ما قرأناه في تواريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة لولا رجوعنا إلى ما حررته أياد مغربية ونقلته إلى الجناح الآخر من دار الإسلام، مما يعني أن تاريخ ذلك الإقليم يوجد – كما قلنا- موزعا في أقاليم أخرى، ومن أبرزها وأهمها بلاد المغرب الكبير، بما فيها الأندلس وطرابلس وتونس والجزائر وموريتانيا وغرب إفريقية على العموم.

وهكذا، فعلى نحو ما أسلفناه نردد هنا أنه منذ السنة التي شرع فيها الحج أصبحنا مدعوين للبحث عن تاريخ الجزيرة في جميع بلاد الدنيا، وحيث يوجد الإسلام؛ أي أن شبه الجزيرة لم تبق حدودها على ما كانت قبل السنة الثامنة من الهجرة، ولكنها حدود اتسعت وترامت وأمست – أو بعض أجزائها على الأقل – محرمة على كل من يريد اقتحامها؛ ما لم تتوافر فيه شروط الإقامة، التي كان من أبرزها وأهمها اعتناق الإسلام...!!

عجيب أمر ذلك التشريع – تشريع الحج – الذي غير أوضاع العالم، وفرض عليه تقنيات من واجبه أن يقبلها إن كان يريد مسالمة دار الإسلام ومعايشتها...

ومن الطريف أن نلمس صدى العلاقات الدولية في هذا الركن من أركان الإسلام، نلمسها في أمر المعاملات التجارية، في أمر التأشيرات والزيارات.

وأية رحلة حجازية في الدنيا سجلت حضور سيدات فضليات وأميرات عالمات جليلات حظين بشهادة قاضي مكة المكرمة ورئيس الموسم، حظين منه بشهادة مكتوبة تتحدث عن حضورهن في مكة المكرمة، وطوافهن وسعيهن ووقوفهن بعرفة، وبسط ذات اليد للفقير والمحتاج.. واقتنائهن العقار، وتحبيسه على أهل الخير والصلاح من المنقطعين والمتبتلين! ومتى كنا نعرف أن هناك مؤذنين على الجبال المحيطة بمكة المكرمة يُسمعون ذكر الله لمن كان وراء تلك الجبال.. ويعرفون أن لهم عطاءات خاصة لضمان وصول صدى تلك الأصوات، عطاءات تأتيهم مما وراء البحار.

إن المرء ليأسف اليوم وهو يرى أن الحديث عن أدب الرحلة في طريقه إلى النهاية إن لم يكن قد انتهى فعلا بسبب ما جد من تطورات حسنت وسائل أداء الفريضة، لكنها قضت على كثير من مظاهر جمالها وأسرار كمالها التي كانت تتمثل في تلك المبادرات التي أصبحت اليوم أثرا بعد عين، وأمست – فقط – حديثا خاطفا للحجاج المتعجلين، والمعتمرين العابرين.

● من مقدمة كتاب « مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة»

الرَّحلاتُ المَغربيَّةُ الحجازيَّةُ

رحلة للعبدري والورثيلاني والسنوسي

د. أحمد عيساوي
كاتب جزائري

اشتهر المغرب الإسلامي بكثرة عدد رحاليه، الذين وصلتنا أخبارهم، حيث فاقوا الثلاثين رحلة، لعلنا نذكر منها الآتي:

١- رحلة ابن حوقل (ت٣٢٧هـ)

هو أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي، رحالة مغربي، قام بالعديد من الرحلات دوّنها في كتابه الشهير «المسالك والممالك».

٢- رحلة أبي عبيد البكري (ت ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤م)

هو أبو عبدالله بن عبدالعزيز البكري المرسي القرطبي، أصله من مرسية، وقد سكن قرطبة زمنا، وهو مؤرخ ورحالة وجغرافي وفقيه ولغوي وعالم بالأنساب والأحساب، مغربي المستقر، له العديد من المؤلفات أشهرها «المسالك والممالك - المعرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب».

٣- رحلة أبي بكر الزهري الغرناطي (ت ٥٣٢هـ)

رحالة مغربي، ولد بغرناطة، ورحل في البلاد، ثم ألف كتابه عن طبائع أهل المغرب وليبيا ومصر. له كتاب في الرحلة أسماه «الاستبصار في عجائب الأمصار».

٤- رحلة الشريف الإدريسي (ت ٥٤٨هـ)

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس العلوي القرطبي الصقلي، ولد سنة ٤٩٣هـ في قرطبة، وبها تعلم، وطاف في



البلاد، ثم نزل على حاكم صقلية روجاير الثاني؛ فأجلّه وأعلاه لسعة علمه، وألف له كتابا في الجغرافيا أسماه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

٥- رحلة أبي حامد الغرناطي (ت ٥٦٤هـ)

هو أبو حامد محمد بن عبدالرحمن القيسي الغرناطي، ولد في مدينة غرناطة، ورحل إلى مصر فبغداد وخراسان وحلب، ثم جاء إلى دمشق ومات فيها. له كتابان في الرحلات هما «المُغرب في عجائب المغرب» و«تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب».

٦- رحلة ابن جبير الأندلسي (ت ٦١٤هـ)

هو أبو الحسن محمد بن جبير بن سعيد الكناني الأندلسي البلنسي، ولد في بلنسية عام ٥٣٩هـ، وتوفي في غرناطة سنة ٦١٤هـ، له رحلته الشهيرة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» المعروفة بـ «رحلة ابن جبير».

٧- رحلة أبي محمد العبدري (ت ٦٨٧هـ - ١٢٨٩م)

هو أبو محمد محمد بن محمد بن علي ابن أحمد بن مسعود العبدري البلنسي، لا تُعلم سنة ميلاده، وتُعلم سنة وفاته (بالتقريب سنة ٦٨٧هـ - ١٢٨٩م)، ورحلته وتاريخ ابتدائها يوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وستمائة. وقد حققها الأستاذ أحمد بن جدو (الأستاذ بكلية الآداب جامعة الجزائر) سنة ١٩٦٨م، وطبعت بمطابع البعث بقسنطينة سنة ١٩٧٠م.

وتعد وثيقة مهمة لمعرفة أحوال البلاد الإسلامية المغربية في عهد نهاية دولة الموحدين، وهي رحلة مغربية حجازية، ضاع الجزء الكبير منها والمتعلق ببلاد الحجاز، وإن كان الرحالة قد أشار في العديد من المواضع إلى بقائه بمكة وأخذه العلم على يد مشايخها، وسماها «ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق»، وقد سماها المحقق «الرحلة المغربية».

٨- رحلة ابن رشيد الأندلسي (ت ٧٢١هـ)

رحالة مغربي أندلسي مشهور،

قام بالعديد من الرحلات، ثم دونها في كتابه الشهير «ملء العيبة فيما اجتمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة».

٩- رحلة أبي البقاء البلوي (ت ٧٣٦هـ)

هو أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي، رحالة مغربي أندلسي مشهور، قام بالعديد من الرحلات ثم دونها في كتابه الشهير «تاج المعارف بتحلية علماء المشرق».

١٠- رحلة أبي محمد عبدالله التيجاني التونسي (ت ٧٥٠هـ)

هو أبو محمد عبدالله التونسي، ولد بين سنتي ٦٧٠ و٦٧٥هـ في تونس العاصمة، له رحلة مشهورة تسمى باسمه (رحلة التيجاني) طبعت في تونس سنة ١٩٥٨م بمراجعة المؤرخ التونسي حسن حسني عبدالوهاب.

١١- رحلة ابن بطوطة الطنجي (ت ٧٧٧هـ - ١٣٧٧م)

رحالة مغربي مشهور، هو محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللوتي الطنجي، ولد في طنجة ببلاد مراكش سنة ٧٠٣هـ - ١٣٠٤م، وقام بالعديد من الرحلات. دامت رحلاته سبعا وعشرين سنة، أملاها على الفقيه العلامة محمد بن جزي الكلبي، وانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٦م، وسماها «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

١٢- رحلة أحمد بن قاسم البوني (ت ١١٣٩هـ)

وصاحبها هو أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني (نسبة إلى مدينة بونة المعروفة اليوم باسم عنابة). وقد ولد بعنابة سنة ١٠٦٣هـ، وتوفي فيها سنة ١١٣٩هـ، وله عدة تآليف ذكرها في إجازته، ويعتبر من أهل الرأي والصلاح والعلم والفتوى في الجزائر في أواخر العهد العثماني، وقد ترك رحلة حجازية مغربية أسماها «الروضة الشهية في الرحلة الحجازية»، ولكن رحلته ضاعت.



١٣- رحلة عبدالرزاق بن حمادوش (ت ١١٩٧هـ)

ورحلته تسمى «لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال»، وقد ضاعت كلها، وطبع الجزء الثاني منها في الجزائر سنة ١٩٨٣م بتقديم وتحقيق وتعليق الأستاذ الدكتور أبوالقاسم سعدالله. وقد ولد عبدالرزاق بن حمادوش في الجزائر العاصمة سنة ١١٠٧هـ، في أسرة كانت تحترف مهنة الدباغة، وتوفي في مكان غامض بعد تسعين سنة، وقام برحلته الحجازية سنة ١١٢٥هـ.

١٤- رحلة العايشي (ت ١٦٧٩م)

وتسمى رحلته «ماء الموائد» المطبوعة بفاس في المغرب، وتشابه رحلة السنوسي رحلة العياشي في جزئها الثالث، حيث أفرد فيها الحديث عن العلم وأهله وفضله وترجم للعديد من رجاله، وأحيا فيها معالم طريق حج المغاربة والأماكن الآمنة لسير القوافل المغربية الحجازية.

١٥- رحلة أبي العباس الدرعي (ت ١٧١٧م)

صاحبها هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، صاحب الرحلة الحجازية المعروفة بـ «رحلة الدرعي» أو «الرحلة المراكشية»، التي تشابه رحلة العياشي، إذ سجل فيها خبر رحلاته الأربع إلى بلد الله الحرام، وكان يحفظ عن ظهر قلب نص رحلة العياشي التي تأثر بها أيما تأثر.

١٦- رحلة أحمد القادري (ت ١٧٢١م)

صاحب الرحلة المسماة «نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس».

١٧- رحلة ابن عمار (ت ١٢٣٤هـ)

وهي الرحلة التي كتبها مفتي المالكية بالجزائر في زمانه أحمد بن عمار الجزائري، المجهول تاريخ الولادة والوفاة. ويعد ابن عمار من صلحاء عصره وأهل الرأي والعلم فيه، وهو أديب وكاتب وناثر وشاعر فحل ومفت صاحب رأي واجتهاد في الدين والمجتمع، وله العديد من المؤلفات، وقد حج البيت سنة ١١٦٦هـ، وجاور بمكة مدة طويلة وصلت به إلى سنة ١١٧٢هـ. وقد ذكر في رحلته الكثير من القضايا التي لا يمكن للحجاج العابرين معرفتها، وعنوان رحلته «نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب»، والتي طبعت سنة ١٩٠٢م في الجزائر، وقد ترجم في رحلته لأكثر من مائتي عالم.

وقد قسم رحلته إلى ثلاثة أقسام، جعل في القسم الأول خزانة للأدب في أحوال مكة والمدينة والحجاز من شعر ونثر وحكمة، وقد ذكر فيه نيته في القيام بأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وتحدث فيه عن القسم الثاني والثالث. وقام بأداء فريضة الحج سنة ١٢٠٤هـ، وجاور في بلاد الحجاز ما يقارب اثنتي عشرة سنة، ثم عاد إلى الجزائر، وكتب الرحلة بعد ثلاثين سنة من عودته.

١٨- رحلة محمد أبو راس سنة ١٨٢٣م

ولد محمد بن أحمد بن عبدالقادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري، المعروف بأبي راس الناصر، بالقرب من معسكر سنة ١٧٣٤م، وتعلم في المغرب الأقصى، ووصل إلى درجة عالية من العلم، واحتل مكانة مرموقة بين علماء عصره،

ثم سافر إلى الحج أول مرة سنة ١٢٠٤هـ، وعاد سنة ١٢٠٥هـ، وألف كتابه الشهير «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار» سنة ١٢٠٦هـ، وقد نشرته مجلة المبشر الجزائرية على حلقات ابتداء من فاتح يناير سنة ١٨٨١م، وحج مرة ثانية سنة ١٢٢٦هـ، وعاد في السنة الموالية ١٢٢٧هـ، واسم رحلته الأولى «عدتي ونحلتي في تعداد رحلتي»، ورحلته الثانية عنوانها «فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته»، وقد أكثر فيهما من ذكر شيوخه وأساتذته، ومن جادلهم وناظرهم من العلماء. وقد سلك في رحلته طريق الحج العادي، ثم ركب البحر من مصر إلى ينبع، ومنها إلى مكة المكرمة، ثم عاد منها بعد أدائه لفريضة الحج، ودخل مصر بعد أن جلت عنها الحملة الفرنسية، ووصف أحوالها أيضا، كما وصف أحوالها قبل الحملة.

١٩- رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي

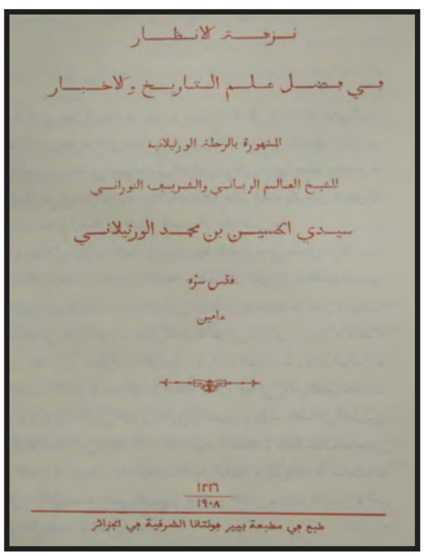
رحلة قام بها الحاج ابن الدين الأغواطي إلى بلاد السودان والشمال الإفريقي ومصر والحج، وذهب إلى «الدرعية» عاصمة الدولة السعودية الفتية آنذاك ووصفها بدقة، وكان الانتهاء من كتاب الرحلة بين سنتي ١٢٤٤-١٢٤٥هـ/ ١٨٢٨م-١٨٢٩م بعد أن عاد من الحج سنة ١٢٤٣هـ.

وقد بين الدكتور أبو القاسم سعدالله أهميتها في رسم صورة للمناطق التي زارها الأغواطي في العقد الثالث من القرن التاسع عشر، كما أنها تحتوي وصفا دقيقا للدرعية عاصمة الدولة السعودية سنة ١٨٢٧م - ١٢٤٣هـ.

٢٠- رحلة محمد بن عثمان السنوسي الحجازية (١٣١٨هـ - ١٩٠٠م)

ولد محمد بن عثمان بن محمد السنوسي بحاضرة تونس يوم ٢٢ ذي القعدة ١٢٦٧هـ الموافق ١٨ سبتمبر ١٨٥١م في أسرة شهيرة بالعلم والأدب والمكانة، يعود أصلها إلى جبل سنوس بالقرب من مستغانم في الغرب الجزائري، وانتقل أجداده مع الشيخ محمد ابن علي السنوسي إلى ليبيا سنة ١٨٢٩م - ١٢٤٤هـ واستقروا بها، ومنها انتقلوا إلى تونس العاصمة وتقلبوا في الوظائف الدينية والعلمية، وكان جده ووالده قاضيين مالكيين بالحاضرة التونسية.

التحق بجامع الزيتونة وكان من أنجب تلامذته، وتخرج منه يحمل شهادة التطويع سنة ١٨٧٠م - ١٢٨٧هـ، ودرس فيه سنين، ثم عينه باي تونس مؤدبا ومعلما لابنه الأمير محمد ناصر باي، وظل يتقلب في المناصب الحكومية، ومنها محرر لجريدة «الرائد التونسي»، ولما انتصبت الحماية الفرنسية على تونس سنة ١٨٨٢م تاقت نفسه للهجرة فمنعته السلطات التونسية من الهجرة فتعلل بأداء فريضة


نزهة الانظار
في فضل علم التاريخ والاخبار
المشهورة بالرحلة الورثيلانية
للشيخ العالم الرباني والشريف النوراني
سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني
قدس سره
آمين
١٣٢٦
١٩٠٨
طبع في مطبعة بيير فونتانا الشرقية في الجزائر

الحج فأذنت له بالسفر، وغادر تونس يوم ٧ رجب ١٢٩٩هـ الموافق ٢٥ مايو ١٨٨٢، وآب إليها من رحلته الحجازية في ٢٦ ربيع الأول ١٣٣٠هـ.

أما تاريخ كتابة هذه الرحلة الحجازية فقد أشار إليه في الصفحتين الثالثة والرابعة من نص الجزء الأول في موفى عام ١٨٨٥م. وقد كتبها في ثلاثة أجزاء، ذكر في الجزء الأول مزية السفر، ثم وصف رحلته إلى إيطاليا، وفي الجزء الثاني تكلم عن رحلته إلى الأستانة وآسيا الصغرى وبلاد الحجاز التي رآها في الأشهر الحرم.

وفي الجزء الثالث معلومات وأخبار وتراجم وتحقيقات وتعاريف بمختلف الصحف وبالرجال وبالنشاطات السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية والأدبية والصحفية للبلاد التي زارها.

رحلة العبدري (ت ٦٨٧-١٢٨٩م)

صاحب هذه الرحلة هو أبو محمد ابن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري البلنسي، لا تُعلم سنة ميلاده، كما تعرف رحلته، وتاريخ ابتدائها هو يوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وستمائة، وقد حققها الأستاذ أحمد بن جدو بكلية الآداب في جامعة الجزائر سنة ١٩٦٨م، وطبعت بمطابع البعث بقسنطينة سنة ١٩٧٠م.

وتعد هذه الرحلة وثيقة مهمة وأساسية لمعرفة أحوال البلاد الإسلامية المغربية في نهاية دولة الموحدين، وهي رحلة مغربية حجازية، ضاع الجزء الكبير منها، ولا سيما الجزء المتعلق ببلاد الحجاز والأماكن المقدسة في شبه

الجزيرة العربية، وإن كان الرحالة العبدري نفسه قد أشار في العديد من المواضع إلى مكة وأخذه العلم على يد علمائها وأشهر مشايخها، وسمى رحلته «ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق»، وقد سماها المحقق «الرحلة المغربية».

خلال العهد العثماني

قام الرحالة المغاربة برحلات عديدة خلال العهد العثماني لأداء فريضة الحج، ولكن غالبية هذه الرحلات ضاعت، ولم نعد نسمع بها وبأصحابها شيئا، ومنها ما بقي منه بعض الأجزاء وضاع بعض الأجزاء الأخرى، ومنها ما هو منظوم كقصيدة الشاعر الفصيح والملحون سعيد المنداسي، والتي تعرف بـ «العقيقة» التي نظمها سنة ١٠٨٨هـ – ١٦٧٧م، وموضوعها مدح الرسول ﷺ، ووصف البقاع المقدسة وآثار البلاد الحجازية، ومنزله وذكرياته الدينية الغابرة، والتي شرحها العديد من العلماء الجزائريين.

ومن هذه الرحلات ما هو منثور، وقد لخص المؤرخ الجزائري الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله دوافع الرحلات المغربية الحجازية باتجاه البلاد المقدسة بقوله «...إن الجزائريين الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية خلال العهد العثماني لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرخين أو سائحين وإنما توجهوا إليها حجاجا يؤدون الفريضة، ويزورون الحرم الآمن. لذلك، كانت قلوبهم إلى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم، وخيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم، وأشواقهم إليها تنسيهم آلام الطريق ووعثاء السفر..».

ولنحاول تقديم رحلة الورثيلاني نموذجا من هذه الرحلات مستعينين بما قدمه المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله عنها.

رحلة الورثيلاني (ت ١١٩٣هـ)

تعد رحلة الورثيلاني، المسماة «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار»، أهم رحلة مغربية عثمانية تتحدث وتصف أحوال الجزيرة العربية عموما وبلاد الحجاز ومكة والمدينة خصوصا، في القرن الثامن عشر الميلادي الثاني عشر الهجري.

وصاحبها هو الحسين بن محمد بن سعيد الورثيلاني (نسبة إلى بني ورثيلان بالقرب من سطيف بوسط الجزائر)، ولد سنة ١١٢٥هـ وتوفي فيها أيضا سنة ١١٩٣هـ في أسرة شريفة محافظة مشهورة بالعلم والرئاسة والأدب. وقد تعلم في قريته عند مشايخ بلدته، ثم طاف يطلب العلم في الجزائر حتى نشأ قوي الثقافة غزير العلم. حج ثلاث مرات، كانت الأولى سنة ١١٥٣هـ، والثانية سنة ١١٦٦هـ، والثالثة سنة ١١٧٩هـ. وكان يجمع ما وقعت عليه يداه من أخبار بلاد الحجاز في كل حجة وعن سائر بلاد الإسلام التي كان يمر بها، كتونس والمغرب وليبيا ومصر والحجاز، وقد سجل كل تلك الأخبار والمعلومات في رحلته.

ولم يكتب الورثيلاني رحلته بيده، ولكنه أملاها على تلامذته في حلقاته العلمية اليومية، كما جرت عادة المشايخ وقتئذ، ولذلك تعددت نسخها وتعددت التحويرات والتصحيفات فيها، وامتلأت بالاستطرادات والتكرار بسبب ضياع دفتره الأصلي الذي كان معه والذي كان يسجل فيه وقائع رحلته عندما تتوقف القافلة.

وقد ذكر ووصف رحلته لبلاد الحجاز وزيارة مدينة رسول الله ﷺ ثم رحلته إلى مكة وأدائه لمناسك الحج والعمرة وتعرفه فيها على «... الرباع والقفار والديار والمناطق والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان.. أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار..».

وقد ضمن رحلته ما قرأه وما حفظه عن الشيوخ والرحالة السابقين له، ممن سبقوه وألفوا في أدب الرحلات.

وقد كانت أحكام الورثيلاني وتصوراته وتقريراته على المسلمين قاسية جدا، وذلك لانتشار قطاع الطرق واللصوص وكثرة الاعتداءات، وانحدار القيم والأخلاق والمثل، فمنذ خروجه من الجزائر إلى مكة إلى عودته وهو في شكاية وتذمر من أوضاع المسلمين المتردية، وقد كان قاسيا، كسلفه العبدري، على الرغم من الفارق الزمني الكبير بينهما، كما كان حكمه قاسيا حتى على أهل بلده، فقال في قافلة الحج الجزائرية في الحجاز بأنهم غلاظ شداد، منها قوله: «.. وأهل وطننا فيهم الغلظة والجفاء وسوء الأدب، وعدم إذعانهم للحكم..». ومما جاء فيهم أيضا قوله: «.. وأما الركب الجزائري فلا حكم عندهم أصلا، ولا يتفقون عند الأمر والنهي»، مما اضطره إلى الانفصال عنهم والانضمام إلى الركب المصري.

وقد تعرض لوصف المدن والقرى والآبار وصهاريج المياه، وكذلك وصفه لمدينة رسول الله ﷺ، ووصفه لبدر ورابغ وجبل أحد، ووصفه لمكة وضواحيها، ولكنه لما عاد إلى المدينة المنورة جاور واستقر فيها بعض الوقت ليتسنى له زيارة الأماكن الشريفة.

وقد سجل عادات أهل مكة والمدينة وتقاليدهم، وأحوال الطرق والدروب والمسالك والمحطات، والعلماء الذين أخذ عنهم أو التقاهم، والتقى في جبل عرفات بعالم جليل من جزيرة البحرين، ودار بينهما سجال طويل، اعترف له الورثيلاني بالفضل والعلم. وفي المدينة تعرف على عالم جليل يدعى الشيخ السمان القرشي، وربطتهما علاقة ودية وعلمية، ثم عرج ليصف لنا طريق عودته ومكثه بمصر.

والرحلة قيمة ومفيدة بقدر ما تحتويه من أخبار ومعلومات عن أحوال المسلمين في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي.

مدير معهد المخطوطات العربية د. فيصل الحفيان:

طرق الحج القديمة ساهمت في التحضر

حوار: محسن عبدالفتاح



تعتبر فريضة الحج عامل توحيد للمسلمين، فبرغم المشاق والمعاناة والمخاطر التي كان قديما يتحملها الحجاج، حيث كانوا يعانون الأخطار والأهوال في طرق الحج القديمة وضروبه، الأمر الذي جعلها محفوفة بالخطر الدائم، كانوا يقدمون على أداء الفريضة دافعهم في ذلك الشوق إلى بلوغ الأرض المقدسة بصفاء روح ومتعة من التعبد الذي لا مثيل له.

كانت قوافل الحج تتحرك مبكرا من أركان الدنيا الأربعة، ومن قارّاتها الخمس، لتصل في توقيت مناسب مع بداية موسم الحج بالأراضي المقدسة، كانت رحلة - رغم مشاقها - فريدة مليئة بالعلم والمعرفة والثقافة والتي تمثل للحاج إضافات ثرية، وتجارب ومعارف ليس لها حد.

الناظر في وثائق التاريخ سوف يجد غنى واسعا لمادة تراث طرق الحج القديمة وآثارها الحضارية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية خاصة في وثائق الرحلات الحجازية وكتب الترجمة وكتب الفقه.

فقد نشرت قوافل الحجاج في طريقها العلم، وبنوا المساجد والمدارس الدينية والزوايا العامرة بالمشايخ والمريدين، وألّفوا في ذلك الكتب ونسخوها ونقلوها على رواحلهم زاد مسافر وتحفة قادم، في رحلة عمر.

عن طرق الحج قديما وأهمية تسليط الضوء عليها باعتبارها صفحات حضارية وتاريخية وثقافية للإسلام والمسلمين التقينا الدكتور فيصل الحفيان، مدير معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الاليكسو)، ليحدثنا عن هذا الموضوع التراثي المهم مركزا على طريق الحج القديم بين مينائي (عيذاب - جدة) على البحر الأحمر في مصر والمملكة العربية السعودية كنموذج لطرق الحج قديما.

● ماذا عن طرق الحج قبل الإسلام؟

- الطرق في زمن الجاهلية كانت مسلوكة إلى مكة المكرمة للحج أو التجارة، حيث يقام بالقرب منها سنويا ثلاثة أسواق هي (عكاظ، ومجنة، وذو المجاز)، وكانو يبتاعون في هذه الأسواق حتى حلول مناسك الحج، وعندما جاء الإسلام كان المسلمين قد كرهوا الاتجار في هذه الأسواق الجاهلية، فنزل قول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(البقرة: ١٩٨).

● ثم ماذا كان الوضع بعد ظهور الإسلام؟

- بعد ظهور الإسلام وانتشاره في أرجاء الجزيرة العربية، وخارجها كانت الجيوش الإسلامية تنطلق من المدينة المنورة عبر الطرق القديمة المعروفة لديهم، لأنهم أدرى بها وبمواردها

مـن غـيـرهـا، وعندما اتـسـعـت رقـعـة البلاد الإسـلامـيـة وتحولت قـاعـدة الـخـلافـة إلى كل من الشام والعراق؛ حرص الخلفاء والأمراء على عمارة طرق الحج وتحديد مساراتها وحفر الآبار وبرك المياه لتجميع مياه السيول وبناء القصور والمساكن فـي مـنـازل الـطـرق وفروعها.



وكان لفتح قناة السويس المصرية عام ١٨٦٩م، دور رئيسي في تغيير الأنماط الاقتصادية في مصر والحجاز والبحر الأحمر، وتحولت أعداد كبيرة من السفن التي كـانـت تـقـصـد رأس الـرجـاء الـصـالـح إلى طريق البحر الأحمر، وخلال كل هذه الفترات لـعـب هــذا الـطـريـق دورا رئيسيا في حركة التجارة والنقل خلال القرن التاسع عشر وبعده.

● وهل صعوبات طرق الحج القديمة حالت دون إتمام فريضة الحج للمسلم؟

– عندما تسمو الغايات تهون الصعوبات وتسهل الوسائل ويهرع الناس إلى الحج مستخدمين كل الأسباب والوسائل التي تساعدهم على إنجاح مقاصدهم، مستجيبين لدعوة الرحمن في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ (الحج: ٢٧-٢٨).

● وماذا عن أهم طرق الحج من مصر إلى مكة؟ ومتى نشأ؟

– أحد أهم طرق الحج المصري على البحر الأحمر في العصور الوسطى (عيذاب –جدة).

وعن تاريخ نشأة ميناء عيذاب وازدهاره في العصر الإسلامي يرجع في الغالب إلى أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، متأثرا في ذلك بتطور الحركة الملاحية في البحر الأحمر، وزادت أهمية عيذاب كطريق للحج إلى جدة، ابتداء من سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، بسبب الشدة العظمى، التي قاستها مصر في عهد الخليفة العبيدي، المستنصر بالله، وتحولت قوافل الحجاج المصريين والمغاربة والأندلسيين عن طريق شبه جزيرة سيناء إلى طريق النيل حتى إدفو أو أسوان، ومنها عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب، وقد كان لعيذاب شهرته العالمية زمن دولة العبيديين، وأصبح من أعظم مراسي الدنيا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي نتيجة رواج وازدهار تجارة البحر الأحمر.

● هل تطور هذا الطريق القديم بمرور الزمن؟

– نظرا للزيادة المطردة في الحركة و النقل للتجارة والحجاج على الطريق البحري (البحر الأحمر) احتاج الأمر إلى خدمات شركات ملاحية منتظمة، فتم إنشاء شركات مصرية للملاحة التجارية وحمل البضائع والمسافرين، وذلك عام ١٨٥٢م،

وماذا عن البعد الثقافي والحضاري لطرق الحج القديمة بشكل عام؟

هذه المواقع والطرق أصبحت بفضل عبور الحجاج منها طوال موسم الحج ذهابا وإيابا مراكز ثقافية وحضارية يجتمع فيها رجال العلم والتجار الذين تجمعهم الصدقة هناك.

إن أجمل ما يلاحظه المتتبع لمحطات الحج ومراكزه هو ما يقف على المرء من وجود هذه المراكز في قلب الصحراء مجتذبة إليها طلبة العلم ورجال الفكر والثقافة، بل والأكثر من ذلك نجد بعض هذه المحطات، وخاصة الكبرى تحتوي على عدد من المعاهد والمدارس التي أسستها جهات بعيدة عن تلك المحطات بقصد أن تكون مرجعا لمذهب من المذاهب التي تعتمدها تلك الجهات، وبهذا تصبح هذه المحطات مركز حوار بين المذاهب والآراء. ومن هنا نجد أهمية هذه المراكز، حيث أنها تعد تراثا ثقافيا لا نجد مثيلا له في الحضارات الأخرى، وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة، وهو في طريقه من المغرب لائحة بالمراكز العلمية من طنجة إلى الإسكندرية نرى من خلالها عددا من المدن التي كانت مستعدة لاستقبال الحجاج وتكريمهم وتزويدهم بمختلف الوسائل التي تساعدهم على التنقل من محطة إلى أخرى دون أن يتعرضوا إلى ما يهدد أمنهم، وفي كل هذه المحطات نسمع عن شخصيات علمية تقوم بواجبها في التنوير ونشر المعرفة.

لقد استحق درب الحج المصري القديم بين مينائي (عيذاب– جدة) وعن جدارة أن يكون أحد أهم المواقع الأثرية في سيناء و التي اعتبرتها منظمة اليونيسكو على قائمة التراث العالمي، فهذا الدرب العتيق شهد بانتظام قوافل الحج المباركة لأكثر من ٦٠٠ عام، ونال هذا الطريق اهتمام السلاطين وولاة المسلمين زمن ازدهاره، ووفّروا به كل سبل الراحة لرواده من الحجيج.

وليس أقل من تعاون المنظمات العربية والإسلامية المهتمة بالتراث الإسلامي فيما بينها من أجل إحياء هذا الطريق ودراسته وتوثيقه تاريخيا خدمة لعلمائنا وكنموذج يسري ويعمم فيما بعد على بقية طرق الحج القديمة تعميما للفائدة.

طرق الحج ومسالكه

تركي محمد النصر

تُعد طرق الحج منجزا حضاريا مهما من منجزات الحضارة الإسلامية، فقد سارت عليها قوافل الحجيج بروحانية كبيرة تبتغي مرضاة الله، متوجهة إلى رحاب البيت العتيق؛ استجابة لدعوة خليل الرحمن عليه السلام. ولم تكن هذه الطرق مجرد مسارات لعبور الناس والدواب والبضائع؛ بل كانت شرايين حياة تواصل الناس، وتنقل الأفكار والطباع والعادات والتقاليد من مجتمع إلى آخر.

وإن الحج كان - وما زال - نعمة كبرى على العالم الإسلامي. ولولا الحج وانتظام أوقاته لما عمرت طرق المسلمين بالقوافل والتجار؛ لأن كل بلد من بلاد الإسلام كان يرتب شؤون تجارته بحسب موقعه من الأراضي المقدسة، فأهل الأندلس والمغرب الأقصى - مثلا - كانوا يخرجون إلى الحج في قوافل ضخمة قبل موسم الحج بسنة ونصف السنة على الأقل! وكان كل حاج يحمل معه شيئا من محصولات بلاده المطلوبة في بلاد أخرى، ويبيع ويشتري على الطريق، وهكذا كانت ركبان الحج تعتبر من عوامل الرخاء الاقتصادي في العالم الإسلامي، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى منافع الحج إلى جانب ثواب أدائه.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ (الحج:٢٧-٢٩).

لقد تضمنت هذه الآية الكريمة: مشروعية الحج، والرحلة إليه، وطرقه، والفوائد المرجوة منه.

هذا، وتعد دراسة طرق الحج من أهم الدراسات الثقافية والجغرافية في التاريخ الإسلامي؛ وذلك لأنها تدعو إلى دراسة دقيقة عميقة للطرق والوسائل المؤدية إليه، والتعرف على خصائص البلاد والشعوب التي يمر بها الحاج منذ أن يغادر بلده حتى يبلغ بلاد الحرمين الشريفين.

ولعل هذا الاهتمام بطرق الحج يأتي في سياق ما للحج من فوائد: مادية وروحية واقتصادية واجتماعية وثقافية وتاريخية، وما للرحلة المباركة من دور في توثيق الصلة بين الشعوب الإسلامية، والعمل على الوحدة الثقافية والفكرية بين المسلمين، وذلك لما تتضمنه هذه الرحلة من لقاءات وحوارات في طرق الحج، وأثناء اللقاءات في رحاب الأراضي المقدسة.

والناظر إلى حال الجزيرة الجغرافية في العصر الإسلامي؛ يجد أنها قد شهدت ظهورا أو تطورا لسبعة طرق رئيسية للحج والتجارة، هي:

١. طريق الحج الكوفي.
٢. طريق الحج البصري.
٣. طريق الحج الشامي.
٤. طريق الحج المصري (وبلاد إفريقيا والمغرب).
٥. طريق الحج اليمني الساحلي.
٦. طريق الحج اليمني الداخلي.
٧. طريق الحج العماني.

وجميع هذه الطرق الرئيسية تتصل بعضها مع بعض في نقاط رئيسية أو فرعية، وقد لقيت هذه الطرق عناية ملموسة من قبل الخلفاء المسلمين وولاتهم وكذلك من بعض التجار المسلمين، على مر العصور؛ حيث أقيمت على طرق الحج منشآت عديدة مثل:

١. المساجد.
٢. المحطات العامة.
٣. منازل السكن ومرافقها.
٤. الآبار والعيون.
٥. الخانات.
٦. الأسواق.
٧. المنارات (لتوضيح مسار تلك الطرق وتفرعاتها، وهداية الحجاج إليها).

وبعض هذه الطرق استمر استخدامه حتى عهد قريب، فيما اندثر البعض الآخر لأسباب عديدة، منها: الظروف المناخية والتغيرات الجغرافية، والتنقلات

السكانية. وفيما يلي عرض موجز لهذه الطرق:

أولا - طريق الحج الكوفي (درب زبيدة)

يعد طريق الحج الكوفي إلى مكة المكرمة من أهم طرق التجارة والحج في العصر الإسلامي. وقد عرف هذا الطريق فيما بعد باسم «درب زبيدة»، نسبة إلى الفاضلة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي (ت ٢١٦هـ)، زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ) رحمه الله؛ حيث قامت رحمها الله بالإشراف على إعادة تنظيمه بطريقة هندسية انسيابية دقيقة.

تتمثل أهمية هذا الطريق، الذي يبلغ طوله حوالي ١٤٠٠ كيلومتر، في الخدمة العظيمة التي قدمها إلى حجاج بيت الله الحرام من عاصمة الدولة العباسية (بغداد)، إلى مكة المكرمة، مرورا بالكوفة.

وقد تمت الخدمة المتميزة للحجيج على هذا الطريق من خلال:

١. إنشاء منارات، ووضع علامات إرشادية على الطريق لإرشاد الحجاج.

٢. إنشاء برك لجمع ماء المطر ليستفيد منه الحجاج ويتزودوا به.

يمتد هذا الطريق من بغداد مرورا بالكوفة، حتى ينتهي في عين زبيدة التي تنبع من وادي نعمان، وكانت قد حفرتها واهتمت بمنشآتها السيدة زبيدة رحمها الله.

إلا أن بعض التغيير على مسار الطريق قد حدث بعد انتشار الإسلام في المشرق الإسلامي؛ حيث تحولت المنشآت التي أقيمت على الطريق إلى محطات رئيسية، وبدأ الطريق، الذي كان معروفا في عصري الخلافتين الراشدة والأموية، يزدهر بالتدريج، وقد أولاه الخلفاء العباسيون اهتماما ملحوظا، وأحدثوا فيه إصلاحات كبيرة، ولا سيما تأمينه وتسبيله.

ولم يستبعد المؤرخون أن يكون هذا الدرب قد كان معروفا قبل العصر الإسلامي؛ حيث كانت الحيرة عاصمة المناذرة بالقرب من الموقع الذي قامت فيه الكوفة فيما بعد سنة ١٤هـ.

وربما كانت القوافل التجارية من مكة والمدينة تتجه إلى الحيرة عبر هذا الطريق، وكانت توجد على الطريق مناهل للمياه قبل الإسلام، منها: القادسية، العذيب، الثعلبية، شرف، توقف في بعضها الجيش الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص قبل دخوله العراق.

ولعل القادم من الكوفة عبر درب زبيدة لابد أن يمر عبر «فيد» - هي قرية في نصف طريق مكة من الكوفة - وكان الحجاج القادمون من الكوفة وعبرها وما حولها يودعون ما يثقل من أمتعتهم عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوها، ووهبوا لمن أودعوها شيئا من ذلك. وتعتبر هذه القرية الصغيرة مهمة جدا بالنسبة إلى الحجاج؛ وذلك بسبب وجودها في موقع مقطوع.

ذكر ياقوت أن أهلها مغوثة الحاج في هذا الموضع المنقطع، ولا غرو في ذلك؛ فهم أحفاد حاتم الطائي.



ثانيا - طريق الحج البصري

تأسست مدينة البصرة بعد الفتح الإسلامي للعراق سنة ١٤هـ، وارتبطت بطريق مباشر مع مكة المكرمة. ويعد طريق البصرة من الطرق المهمة في العصر الإسلامي المبكر، ويبدو أن أهمية هذا الطريق تركزت في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. ويلتقي طريق البصرة مع طريق الكوفة في ذات عرق، ويلتقي الطريقان أيضا في معدن النقرة الذي يرتبط في هذه المحطة منطلقا من النباج.

ويلاحظ في كتابات الجغرافيين المسلمين قلة المعلومات التفصيلية عن طريق البصرة، ولعل سبب ذلك أن معظمهم عاش في القرن الثالث الهجري، وهي الفترة التي كان التركيز فيها على طريق الكوفة أكثر من طريق البصرة. ومع ذلك، لم يكن هذا الطريق بمنأى عن اهتمام الخلفاء المسلمين.

أما آثار الطريق فنشاهدها إلى اليوم في عدد من المواقع، ففي الأسياح عين ابن فهيد توجد أطلال قصر كبير مبني بالحجارة وله بقايا عقود نصف دائرية وغرف جلوس، وبالقرب منه آثار العيون والقنوات القديمة والبرك والسدود، وفي ضرية لا تزال آثار البلدة القديمة باقية لليوم، بالإضافة إلى العيون والبرك وتشاهد آثار الأعلام «الرجوم» المتراكمة على امتداد الطريق، خصوصا في المناطق السهلية المستوية. ويلاحظ أن بعض محطات الطريق استمر فيها أو بالقرب منها الاستيطان الحضاري؛ بسبب توافر المياه والمناطق الرعوية، كما أن بعض المحطات اختفت معالمها

تحت الكثبان الرملية.

ومن المحطات المهمة على طريق البصرة بركة الخرابة الواقعة عند التقاء الطريق مع طريق الكوفة بالقرب من ذات عرق، وهي عبارة عن بركة دائرية مدرجة من أعلاها إلى أسفلها، وتجاورها بركة مربعة مدرجة أيضا، وبينهما على مستوى سطح الأرض غرفة للمراقبة مقببة ولها أبواب ذات عقود نصف دائرية، ويمر من تحت مستوى الغرفة قناتا تصريف للمياه من البركة المربعة (المصفاة) إلى البركة الدائرية.

وتصل المياه إلى البركة بواسطة قناة أرضية مسقوفة تمتد من وادي العقيق لمسافة ١٥ كيلا تقريبا، وبالقرب من هذه النقطة توجد بركة العقيق الواقعة في محطة غمرة المشهورة. ولا يستبعد أن بركة الخرابة كانت تخدم المسافرين القادمين من البصرة والكوفة على حد سواء.

ويصل طول طريق البصرة - مكة حوالي ١٢٠٠ كيل، ولا تزال بعض محطاته القديمة محتفظة بأسمائها حتى يومنا هذا.

ومن هذه المواقع: حفر أبي موسى في موضع حفر الباطن الآن.

ثالثا - طريق الحاج الشامي

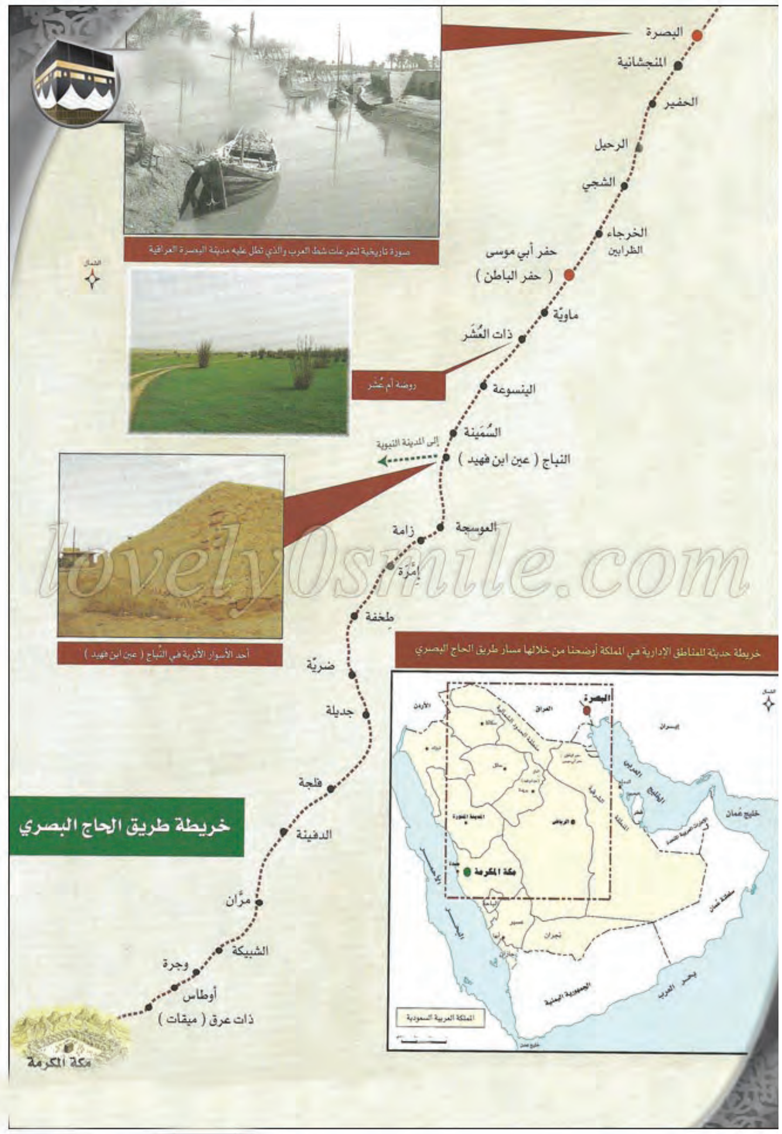
يعد هذا الطريق من الطرق الرئيسية المهمة، حيث يصل مدينة دمشق بالمدينة المنورة. وبلغ عدد محطاته بين المدينتين ٢٣ محطة، يقع معظمها داخل الأراضي السعودية، وقد تغيرت أحوال الطريق عبر العصور الإسلامية بسبب تغير الأحوال السياسية، الأمر الذي أدى إلى ظهور محطات ومرافق جديدة في العصور الإسلامية المتأخرة، وهي فترات الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وكان هذا سببا في اختفاء محطات ومرافق كانت عامرة في العصر الأموي والعباسي والفاطمي.

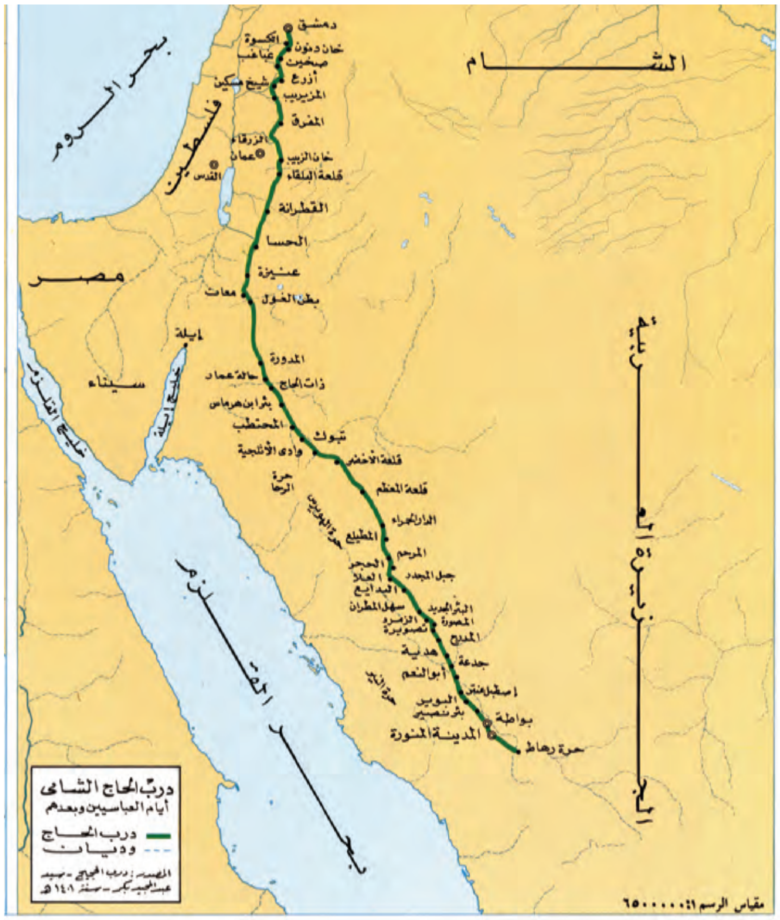
وتدل آثار الطريق الباقية على تطور الحضارة الإسلامية، فقد تم اكتشاف عشرات النقوش الإسلامية، التي يعود بعضها إلى القرن الأول الهجري، وهناك كتابات تأسيسية على منشآت الطريق من قلاع وبرك وآبار.

ومن أهم آثار الطريق:

١. قلعة ذات الحاج.
٢. قلعة تبوك.
٣. آثار الأخضر، وفيها مدينة إسلامية، وثلاث برك وقلعة.
٤. آثار المعظم وفيها قلعة وبركة وآثار البريكة، وكانت تسمى قديما بـ «الدار الحمراء»، وفيها بقايا قلعة وبركة.
٥. آثار الحجر والعلا، والتي يتبعها عدد من المرافق.
٦. قلعة زمرد.
٧. قلعة الصورة.
٨. أسطبل عنتر والفحلتين.
٩. آثار نصيف.
١٠. قلعة الحفيرة.

وتشاهد أيضا على امتداد طريق الحج الشامي آثار سكة حديد الحجاز التي تم تنفيذها في عهد السلطان عبدالحميد في الفترة ما بين عامي ١٩٠٠ و١٩٠٦م.





ومن الآثار الباقية للطريق: المحطات المبنية بالحجر وأجزاء من مسار السكة والجسور.

أما وصف تفاصيل طريق الحج الشامي؛ فلعل رحلة ابن بطوطة من الشام إلى الحجاز تكون نموذجا حيا يصف لنا هذا الطريق:

فبعد تجمع القوافل في دمشق تنطلق باتجاه الجنوب مرورا بالكسوة وإزرع ثم أذرعات (درعا)، ثم إلى قلعة البلقاء والقطرانة، ثم بعد الكرك والثنية يرتحلون إلى معان (وهي آخر بلاد الشام)، ثم من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها: «داخلها مفقود وخارجها مولود». وبعد مسيرة يومين ينزلون ذات حج، وهي حسيان لا عمارة بها، ثم إلى وادي بلدح ولا ماء به، ثم إلى تبوك وهو الموضع الذي غزاه رسول الله ﷺ، ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية، وفي وسطها الوادي الأخيضر، ومن هنالك ينزلون بركة المعظم، وهي ضخمة، ونسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب. وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون البئر الحجر حجر ثمود، وهي كثيرة الماء، ولكن لا يردها أحد من الناس، مع شدة عطشهم، اقتداء بفعل رسول الله ﷺ حين مر بها في غزوة تبوك.

وهناك قرية العلا، وهي قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة، يقيم فيها الحجاج أياما، يتزودون ويغسلون ثيابهم.

ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في الوادي المعروف بالعطاس، وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة.

ثم ينزلون البلد الكريم الشريف طيبة مدينة رسول الله ﷺ، ثم يتابعون دربهم الميمون إلى مكة الكرمة.

رابعا - طريق الحج المصري (وبلاد إفريقيا والمغرب)

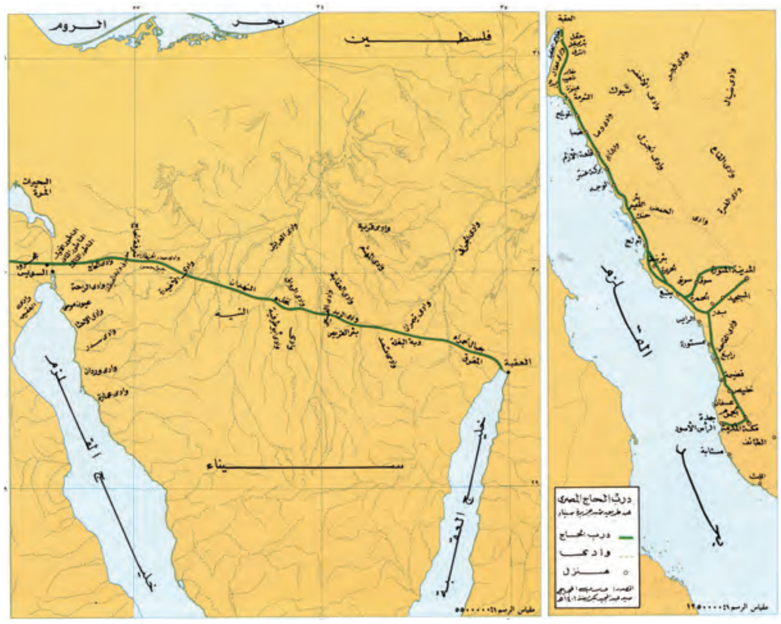
كانت مصر هي ملتقى حجاج المغرب والأندلس وجميع دول شمال إفريقيا، حيث يتجمعون هناك في عدة مناطق في القاهرة، مثل: جامع أحمد بن طولون، وعند بركة الحج (وهي الآن منطقة حدائق القبة)، ويأتي أمير الحج الذي سيكون مسؤولا عن بعثة الحجاج المصريين.

وتتجمع الشرطة في حضور عدد كبير من المواطنين، وهم يودعون كسوة الكعبة إلى الأراضي المقدسة.

لقد قسم الأستاذ الدكتور علي إبراهيم الغبان المراحل التي مر بها درب الحج المصري إلى أربع مراحل:

- المرحلة الأولى: وتمتد من الفتح الإسلامي لمصر وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، وكان للطريق خلالها مساران في الجزيرة العربية: أحدهما داخلي والآخر ساحلي.
- المرحلة الثانية: مرحلة طريق عيذاب، وتمتد من عام نيف وأربعين وأربعمائة إلى سنة ٦٦٦هـ، وخلال هذه الفترة توقف استخدام الطريق البري في شمال الحجاز، وكان الحجاج المصريون يركبون السفن النيلية إلى قوص، ثم يسافرون بالقوافل إلى عيذاب، ثم يعبرون البحر إلى جدة.
- المرحلة الثالثة: وتمتد من سنة ٦٦٧هـ إلى سنة ١٣٠١هـ، وخلالها عاد الحجاج إلى استخدام الطريق البري الساحلي.





- المرحلة الرابعة: من سنة ١٣٠١هـ إلى يومنا هذا.

كانت «الفسطاط» هي مركز التجميع في طريق الحج المصري، وكان ميناء عيذاب هو بداية الرحلة البحرية إلى بيت الله الحرام، وهو أهم الموانئ المصرية على البحر الأحمر، وكانت ترد إليه مراكب الهند واليمن وتغادره، بالإضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة، وقد ظل هذا الميناء طريق الحج الوحيد إلى مكة لفترة زمنية طويلة.

وكانت قوافل حجاج بلاد المغرب الإسلامي تبدأ بالانطلاق من مدن المغرب كمراكش وفاس وسلا، وأحيانا كانت تضم حجاج السنغال، وبعد تجمع الحجاج تنطلق قافلتهم سالكة إما الطريق البري المحاذي للبحر المتوسط، وإما الطريق البحري عبر البحر المتوسط.

واعتادت هذه القافلة أن تكون على موعد مع غيرها من قوافل الحج للحجاج الجزائريين والتونسيين والليبيين؛ وذلك لمرور طريق الحج بمدن المهدية وصفاقس وسوسة وطرابلس وبرقة وطبرق، ثم تعبر هذه القوافل مجتمعة الأراضي المصرية بمحاذاة الساحل حتى تصل إلى ميناء الإسكندرية ثم رشيد، وبعدها تركب قوافل الحجاج المراكب النيلية عبر فرع رشيد إلى أن تصل جميعها إلى القاهرة وتلتقي مع قافلة الحج المصرية حتى تأنس بها ذهابا وإيابا عند مكان شمال القاهرة كان يعرف آنذاك ببركة الحاج، وموقعه حاليا القرية المعروفة باسم البركة إحدى قرى مركز شبين القناطر في محافظة القليوبية.

ثم تواصل جميع القوافل مسيرتها برا حتى تصل إلى ميناء القلزم (السويس حاليا)، ومنه إما مواصلة الطريق البري عبر سيناء، ثم محاذاة البحر الأحمر برا إلى مدينة جدة، وإما تبحر القوافل في السفن عبر البحر الأحمر إلى ميناء جدة ومنه برا إلى المدينة ثم إلى مكة المكرمة.

خامسا - طريق الحج اليمني الساحلي

وينطلق هذا الطريق من صنعاء ويتجه بمحاذاة ساحل البحر الأحمر، وبين مكة وصنعاء ١٢ محطة. وقد أوضحت المسوحات والدراسات الأثرية الحديثة عددا من المواقع الأثرية التي كانت عامرة في العصور الإسلامية المبكرة.

ومن أهم هذه المواقع: سهى، وعثر، وعشم، والسرين. وكشفت الدراسات عن الآثار المعمارية بالإضافة إلى أدوات فخارية وخزفية ونقوش خطية وغيرها.

سادسا - طريق الحج اليمني الداخلي

يبدأ هذا الطريق من صنعاء مرورا بصعدة، ويسلك المناطق الجبلية لمنطقة عسير والحجاز مارا بالقرب من موقع جرش، ثم يتجمع إلى بيشة وتبالة وتربة حتى يصل قرن المنازل فمكة المكرمة.



وقد بلغت المحطات على هذا الطريق فيما بين صنعاء ومكة ٢٥ محطة رئيسية.

وكشفت الاستطلاعات والدراسات الأثرية عن جوانب مهمة تتمثل في الأعمال الهندسية من رصف للطريق في المناطق الوعرة والمنشآت المائية والكتابات الإسلامية الصخرية المبكرة وأحجار المسافة، ومن المناطق التي يمكن فيها مشاهدة آثار هذا الطريق منطقة الراكبة والمصلولة وكريف العلب.

سابعا - طريق الحج العماني والساحل الشرقي للجزيرة العربية

هناك طريقان داخليان من عمان إلى مكة، أحدهما يأخذ من عمان إلى يبرين ثم إلى اليمامة ثم إلى ضرية. وتذكر المصادر الجغرافية أن ضرية كانت ملتقى حجاج بصرة والبحرين



وهناك يفترقون إذا انصرفوا من الحج، فيأخذ حجاج البصرة طريق الشمال وحجاج البحرين طريق اليمن. وهناك طريق آخر من عمان يتجه إلى فرق ثم عوكلان ثم إلى ساحل هباة وبعدها إلى الشحر.

وبإمكان حجاج عمان أخذ أحد الطريقين من اليمن عن طريق الحج الساحلي الموازي لساحل البحر الأحمر الذي يمر بعدد من المخاليف والمنازل مثل: مخلاف عك والحردة ومخلاف حكم وعثر ومرسى وضنكان والسرين حتى الشعيبة ثم جدة فمكة.

كما يمكن لحجاج عمان أخذ الطريق الداخلي من اليمن إلى مكة مرورا بعدد من المنازل بعضها لا يزال معروفا حتى اليوم، مثل: رنية وتربة حتى يصل إلى مكة.

خاتمة

بين الأستاذ الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد من خلال دراسته لطرق الحج ووصفها، أن هذه الطرق تتركز في معظمها ضمن النطاق الجغرافي للمملكة العربية السعودية، وآثارها الإنشائية والمعمارية المختلفة لا تزال باقية حتى اليوم الحاضر كشاهد على اهتمام المسلمين بطرق الحج على مر العصور، كما أن اهتمام بلاد الحرمين بالمحافظة على هذه الآثار الخالدة نابع من اهتمام الدولة بتراث المسلمين كونه مصدرا من مصادر دراسة التاريخ الإسلامي للأجيال الحاضرة واللاحقة.

غير أن رحلة الحج إلى الأراضي المقدسة كانت على الدوام محفوفة بالمخاطر، خصوصا في العهود التي بدأت فيها الفتن تدب في الدولة الإسلامية وبداية اختلال الأمن بسبب الحروب والفتن وتعديات القبائل على الطرق وأعمال النهب والسلب والقتل وقطع الطرق منذ نهاية القرن الثالث الهجري؛ الأمر الذي أدى إلى انقطاع الحج لسنوات متصلة، بالإضافة إلى هدم وتخريب محطات طرق الحج، وتدمير الآبار والبرك، بل إن الأمر كان يتعدى إلى إثارة الذعر والخوف لحجاج بيت الله الحرام داخل المشاعر المقدسة أحيانا.

كما أن الحجاج كانوا يتعرضون لمخاطر الجوع والعطش في سفرهم على طرق الحج الطويلة، ويتعرضون أيضا لبعض الكوارث الطبيعية في أسفارهم، ومن ذلك العواصف والبرد الشديد والأمطار الغزيرة والسيول الجارفة.

ولقد أراد الله تعالى أن يكون لبلاد الحرمين الاهتمام بالحجاج وتأمين الطرق التي يسيرون عليها؛ حيث أصبح الحجاج آمنين عند أسفارهم وأثناء أدائهم لشعائر الحج، لدرجة أن الراكب كان يخرج وحده من اليمن وتهامة الحجاز والبصرة والبحرين وعمان وأنقرة والشام لا يحمل سلاحا، بل سلاحه عصاه لا يخشى كيد عدو ولا أحد يريده بسوء.

مراجع

● انظر كتاب: «معجم ما ألف عن الحج عبر العصور» للدكتور عبدالعزيز بن راشد السنيدي، وكتاب: «المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة» لأبي إسحاق الحربي، وتحقيق حمد الجاسر، ومعجم البلدان لياقوت الحموي. وكتاب: «طريق الحج البصري» لعوض بن صالح السرور، ودراسة بعنوان «طرق الحج القديمة» للدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد، و«أطلس تاريخ الإسلام» للدكتور حسين مؤنس.

من الإبل إلى السيارات.. وصف دقيق عن شهود عيان

حَمَلَاتُ الحَجِّ الكُوَيتِيَّة

التحرير

يوثق كتاب «حملات الحج الكويتية عبر التاريخ» الذي أعده كل من الكُتّاب عدنان سالم الرومي وصالح خالد المسباح ود. خالد يوسف الشطي، والصادر في الكويت عن دار «اقرأ» للنشر عام ١٤٣١هجرية ٢٠١٠ ميلادية الحملات التي قام بها أبناء الكويت منذ نشأتها، سواء على الإبل حيث خطورة قطع المفازة المهلكة، أو بواسطة السيارات حديثا، والكتاب غني بالتفاصيل والمعلومات الدقيقة، بل وبالطرائف أيضا التي حدثت في ذلك الوقت.

يبدأ المؤلفون بتحديد موقع الكويت لمن يجهله، فيذكر الكتاب الذي يقع في نحو ٥٤٠ صفحة من القطع المتوسط أن الكويت تقع على جون صالح للملاحة، محمي بجزيرة فيلكا، وهذا الموقع لم يعين ويحدد نشاط سكانها الاقتصادي، بل إنه هو الذي أمدها بأسباب البقاء وجعلها المرفأ الطبيعي لأراضي نجد والمنفذ للشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية، كما جعلها حلقة وصل تجاري يصل إيران بالجزيرة العربية، ويوضح المؤلفون أن «هذا ما يجعلهم يميلون إلى الرأي الذي يرى أن ميناء الكويت قديما لعب دورا واضحا كمحطة لعبور حجاج إيران والعراق إلى الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية».

ويذكر الكتاب أن أراضي الكويت اعتبرت -قديما- منزلا من منازل الحاج البصري، وخصوصا قرية الجهراء وما جاورها من الأراضي شمالا، مستشهدا بقصة وقعت في (١٢٦١هـ-١٨٤٥م) حينما «خرج حجاج كثر من بلاد فارس والبحرين والأحساء والقطيف والكويت، وبينما هم جادون في السير إلى بيت الله الحرام إذ خرج عليهم مجموعة من اللصوص حول الدهناء، على رأس سرية ضخمة فأوقعوا فيهم قتلا ونهبا، وذهب أكثر من نصف الحجاج قتلا، أما بقية الحجاج فإنهم هربوا هائمين على وجوههم في البراري، ومعظمهم ماتوا جوعا وعطشا، وغنموا منهم أموالا كثيرة، فلما علم بذلك الإمام فيصل جرد عليهم جيشا كبيرا، وخرج هذا الجيش من الرياض بقيادته، وبعد ذلك تبعه متعب بن عبدالله الرشيد أمير حائل بجيش كثيف من شمر».

ويقول المؤلفون: أقدم نص حصلنا عليه يوثق رحلات الحج في الكويت، النص الذي نشرته مجلة الدار في عددها الثاني عام ٢٠٠٦م الذي فيه «أن قافلة خرجت من الكويت (١٢١٨هـ- ١٧٩٨م) لأداء الحج حتى وصلت «ركبة» التي تقع بعد «الموية» حيث لم يأذن لهم الإمام سعود بن عبدالعزيز بالتقدم إلى مكة، وأمرهم مندوبه بالعودة إلى الكويت ولا يعلم السبب».



استقبال الحجاج الإيرانيين

كانت الكويت محطة أو منزلا لاستقبال الحجاج الإيرانيين، وكانت دولة بني خالد تقوم بهذا الدور، ومنها أن مدينة الكوفة قديما كانت من منازل الحاج العراقي والإيراني، وقد قامت بهذا الدور منذ القدم، وكان يتفرع منها طريقان: أحدهما يتجه إلى البصرة ثم إلى الحفر، وطريق آخر يتجه إلى حائل ثم المدينة. هكذا يؤكد الكتاب ويضيف المؤلفون أنه «بعد البحث في المراجع والمصادر التاريخية وجدنا أن في الكويت حملات حج على الإبل، منذ عام ١٨٠٠م، حيث كان للحاج فهد بن راشد الدويلة حملة منذ ذلك التاريخ، فقد ولد عام ١٧٧٢م وتوفي عام ١٨٤٥م.

وأما أقدم تاريخ الحجاج الكويت عن طريق البحر حصلنا عليه فهو سنة (١٢٧٠هـ-١٨٥٣م)، وفي هذه السنة حج والد الشيخ محمد الصالح الإبراهيم، وهو صغير عن طريق البحر، وكان معه الحاج شاهين الغانم، ووالد الشيخ يوسف بن عيسى القناعي».

عصابات تتربص

وينقل الكتاب ما ذكره الرحالة الضابط الروسي الحاج: عبدالعزيز دولشتين عام ١٨٩٨-١٨٩٩م مما شاهده في الطريق بين مكة والمدينة، حيث يقول: «في الطريق بين مكة وجدة، حيث الحركة دائمة تشكلت من شتى الأوباش عصابات كاملة من قطاع الطرق تنهب وتسلب، على الدوام رغم وجود المخافر، أما في الطريق بين مكة والمدينة المنورة وينبع، فإن هذا الشر يتطور أثناء حركة الحجاج، فهناك قبائل برمتها تتعاطى السلب والنهب، دون أن تعتبر البتة ذلك جريمة، وتبيع علنا وبكل حرية ما تحصل عليه من الأشياء بهذه الطريقة، وأثناء إحدى الوقفات في الطريق بين مكة والمدينة المنورة، ظهر رجل من بطن لهابة، وأخذ يتنقل بين الركب كله عارضا بيع سلاح وحزام وألبسة حج وغيرها، وبدلة حاج قتله قبل ذاك، الأمر الذي اعترف به بنفسه علنا، ورغم السعر التافه الذي طلبه، لم يعمد أحد من الركب إلى شراء المعروض.

وفيما بعد حين تغفو القافلة، يعمد هؤلاء البدو إلى السرقة، متسللين خفية، ويسلبون كل ما تقع عليه أيديهم، وهناك كثيرون يعتقدون وليس دون مبرر، أن مقترفي أعمال النهب والسلب هم سائقو جمال القافلة بالذات، الذين كما يقال: يعرفون الأشرار جيدا، ويعطونهم التعليمات عمن ينهبون وكيف ينهبون، وما إلى ذلك، ولهذا يحاول المسافرون بجميع الوسائل أن يستميلوا سائقي الجمال في قافلتهم، بإعطائهم يوميا (البخشيش) وبقايا الطعام.

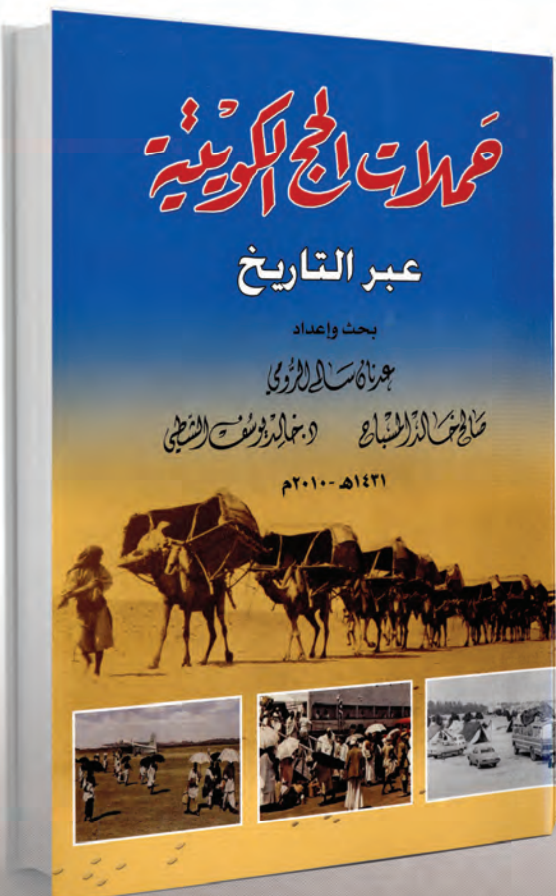
وباء رهيب

لعل أشهر أوبئة الكوليرا هو ما ظهر في سنة ١٨٣١م، والذي انتقل إلى الحجاز من الهند، وآنذاك كما يقال، مات ثلاثة أرباع الحجاج، وانتشر الوباء في عموم أوروبا، والوباء التالي نشب -كما يذكر الكتاب- في سنة ١٨٣٤م، ثم في سنة ١٨٣٧م وسنة ١٨٤٠م، ثم عاثت الكوليرا فسادا طوال خمس سنوات على التوالي -في سنوات ١٨٤٦، ١٨٤٧، ١٨٤٨، ١٨٤٩، ١٨٥٠م، ولكن وباء سنة ١٨٦٥م تميز بفتك شديد، وقد بدأ من الحجاج القادمين من الهند ودام في السنة التالية ١٨٦٦م.

ويقول شاهد عيان بحسب الكتاب: «كان الحج الكبير يوم الجمعة، الخامس من نيسان -أبريل عام ١٨٦٥م وقد توافد عدد خارق من الحجاج، للإقامة عند عرفات، كما بدا، جرت بسلامة، انتقلوا إلى منى، وهنا أيضا كان اليوم الأول هادئا، صحيح أن حجاجا ماتوا، ولكن عدد الموتى كان قليلا.

وآنذاك لم تكن قد ظهرت القاعدة القاضية بطمر الخرفان المذبوحة على سبيل التضحية، كان كل حاج يذبح ويرمي قرب خيمته، وقرب الخيمة أيضا كانوا يرمون بقايا الأغنام المذبوحة لأجل الأكل، قبيل مساء اليوم الأول انتشرت من تعفن جيف الاغنام رائحة كريهة إلى حد أنه كان من المستحيل التنفس.

وفي المساء ازداد في الحال عدد الموتى المنقولة جثثهم للدفن، وفي الخيام المجاورة لنا وقعت أيضا حالات مرض وموت، ولكن لم يخطر بعد في بالنا أن هذا وباء، في اليوم التالي، ازداد عدد الموتى إلى حد أنه لم يكن يتسنى دفنهم، وقبيل مساء



ذلك اليوم، كان شارع منى مكسوا كله بجثث الحجاج الذين ماتوا أثناء أداء شعيرة رمي الأحجار (الجمار)، ولأداء هذه الشعيرة كان يتعين السير على الجثث حقا وفعلا».

الاستعداد للحج قديما

يبدأ الاستعداد لرحلة الحج بإعداد الجمل ولوازم الرحلة، فيشتري صاحب الحملة الجمال قبل موسم الحج، ويضعها في الصحراء أو في حوطة يملكها، ويكون اختيار صاحب الحملة -عادة- الأنثى من الإبل، وذلك لما فيها من الصفات التي تؤهلها لتحمل مشاق الطرق أكثر من الذكر، ثم يقوم صاحب الحملة بوضع وسم الحملة على جزء من بدن الإبل، ليعرف صاحب الحملة إبله، إذا سرقت أو ضلت في الصحراء، وحفاظا على خوفها من التشقق بسبب السير الطويل في الطرق الصحراوية الوعرة فإنه يضع قطعة من الجلد على أخفافها، في حين يبدأ الحاج سواء صاحب حملة أو منفردا في إعداد بعض المواد اللازمة، والتي منها: شراء خيمة أو خيام سهلة الطي والنشر والنصب، وإعداد طقم -القهوة كاملا، من (فناجيل) ومحمصة ومدق وهاون وأوان لحفظ البن حبا ومسحوقا، وكانت هذه الأدوات تحفظ في كيس له جيوب، وكل جيب توضع فيه مادة من المواد، كما يقوم بشراء مؤن تكفي الفترة التي سيقضيها في هذه الرحلة: أرزا ودقيقا وبنا وسكرا، وتمرا يعمل على شكل «خبيصة».

إقامة الأفراح

ويوضح المؤلفون كيف أن الأفراح تعم إذا عُلِم أن رجلا في (الفريج) يريد الحج، فتكون الزيارات والتبريكات، ويوضع علم الكويت على سطح الدار.

فعندما تحين ساعة الرحيل يتم الوداع من الأهالي والأصدقاء والمعارف في (الفرجان)، وتنهمر الدموع لفراقهم، ولخشيتهم أن يصيبهم مكروه، لا قدر الله.

وبعد ذلك يبدأ أمير الحملة بتوجيه نداء إلى الحجيج بعدم مخالفة أوامره أو الإسراع وسبق الحملة أو التباطؤ عنها أو الانشغال بأمور ثانية بالبر مما يرهقه، وهو الشخص الذي همه الأول أن يصل إلى مكة المكرمة بالسلامة، مع عدم ضياع أحد من أفراد حملته، فبعد أن يتم وضع الزاد والماء على الإبل التي هي (الركوبة) التي بالإمكان ركوبها من دون خطورة، يبدأ مسير القافلة والكل يلوح لهم بالأيادي مودعين.

طرق الإبل

ويوضح الكتاب نقلا عن الشيخ سعد الربيعة الذي وصف طرق الإبل المعتاد من قديم الزمان وصفا دقيقا وافيا: إن الطريق كان يبدأ من الرقعي إلى مكة، وهو الطريق الذي سلكه أهل الكويت، وكان يسمى قديما بدرب زبيدة، وإليكم التفصيل، كما ورد بالكتاب: يتجمع الحاج عندما يحين موعد الانطلاق، في مكان قريب من منزل صاحب الحملة، أو قد يكون خارج سور البلد -غالبا- في منطقة الشامية الواقعة خارج السور، وهي تعتبر المحطة الأولى عندما يكون الانطلاق – بعد الخروج من دروازة نايف – وقد كانت هذه المحطة هي المحطة الأولى للقوافل التجارية الذاهبة إلى نجد والشام والقادمة منهما، حيث تتجمع فيها القوافل بعد أن ترتوي من مياه آبارها، ثم يتم الانطلاق باتجاه قرية الجهراء التي تبعد عن مدينة الكويت عشرين ميلا.

وصف دقيق

بينما يصف الحاج أحمد البزيع حملة والده بزيع يرحمه الله على الإبل في الثلاثينيات، ثم توقفت في نهاية حج عام ١٩٤٦م فيقول: حججت إلى بيت الله الحرام عام ١٩٤٦م على الإبل، أما صفة الطريق فقد سرنا من الكويت إلى الجهراء، ونزلنا على ماء فيها اسمها «السليل» ولايزال اسمه معروفا، وهو مورد للإبل والمواشي، ثم مررنا على الرقعي، ثم دخلنا حفر الباطن، وأقمنا فيه يومين أو ثلاثة للراحة والاستجمام وتخليص الأوراق الجمركية، وكان أمير الحفر آنذاك ابن عبدالواحد، ومن شعيب الباطن مررنا على ذنيب الذيب، وفيها بعض أشجار السدر المتشابك، ثم انطلقنا إلى «ثمامي» أول منطقة الدهناء، ثم مررنا على قرية «جبة» وهي مورد ماء فيه قبيلة حرب، ثم اتجهنا نحو منطقة الأسياح متجهين إلى منطقة القصيم (بريدة وعنيزة)، وكان من عادة أهل الكويت ترك بعض زادهم عند أهل القصيم؛ يأخذونه منهم حين عودتهم من الحج ليعينهم على مواصلة الطريق إلى الكويت، وقد تركت زادي عند يوسف الوابلي -رحمه الله- وهو الذي جعلني أميرا على صاحبي: علي بن خريص وابن وطيان، وكان عمري آنذاك ثماني عشرة سنة، وبعد منطقة القصيم مررنا «ركبة» ديار عتيبة، ومشينا فيها مدة طويلة حتى وصلنا إلى مدينة الطائف للإحرام في مكان يسمى «الضريبة» ويسمى اليوم بالسيل، هذا الطريق من الكويت إلى مكة قطعناه في شهر ونصف، ثم أدينا مناسك الحج، ومكثنا في مكة سبعة أو عشرة أيام، وسكنا في «الأبطح» حيث هو سكن الكويتيين

في مكة، وهو قرب قصر الأشراف.
وبعد الانتهاء من أداء مناسك الحج اتجهنا إلى المدينة المنورة، مرورا بمستورة ورابغ، على البحر الأحمر، فيما يقارب اثني عشر يوما، ثم مكثنا في المدينة المنورة ما يقارب سبعة أيام، ثم رجعنا إلى القصيم، وأخذنا ما تركناه من زاد، ثم رجعنا إلى الكويت، فكانت مدة الرحلة كلها ثلاثة شهور.

ظهور السيارات

بدأت رحلات الحج عن طريق السيارات في الكويت -كما يذكر الكتاب- منذ عام ١٩٣٢م، وقد أوردت صحيفة «صوت الحجاز» تعليقا عن خبر وصول عبدالوهاب بن خلف باشا النقيب من الكويت إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج عن طريق البر بالسيارات، وهي المرة الأولى التي تمر فيها سيارات من الكويت إلى مكة المكرمة ويراها الناس.
وفي عام ١٩٥٤ توقفت حملات الحج على الإبل نهائيا، واتخذت حملات الحج الكويتية جميعها السيارات وسيلة للنقل، ومنذ ذلك التاريخ وحملات الحج الكويتية تستخدم السيارات، ومازالت إلى يومنا تستخدم السيارات، ومع تيسر التنقل عبر الجو بدأت تنخفض رحلات الحج على السيارات اليوم حتى بلغت حاليا ١٠٪ من حجاج الكويت، حيث يفضل الأغلب السفر للحج عبر الطائرات، إذ هي وسيلة مريحة وسريعة وسهلة لانتقالهم لأداء مناسك الحج.

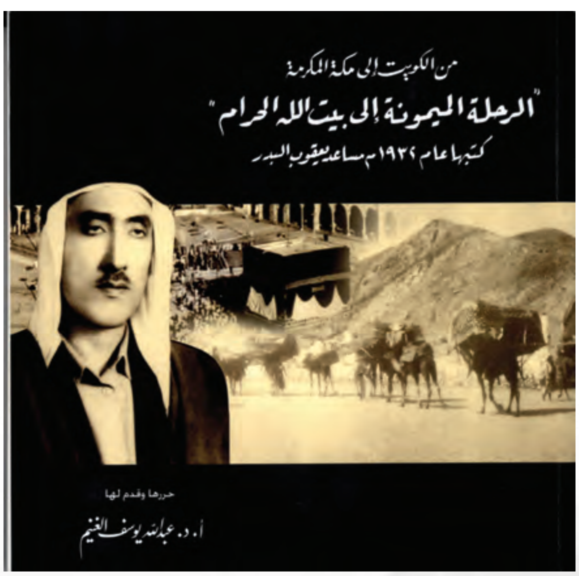
وصف الطريق

وكانت حملات حج السيارات تنطلق من الكويت في منتصف شهر ذي القعدة، وكانوا يغادرون الشدادية -مركز تجمعهم- إلى الصقعبي على الحدود السعودية، ثم يتوجهون إلى منطقة جرية فيمكثون طوال اليوم لإنهاء إجراءات الدخول والجمارك، ثم يتوجهون إلى أماكن معروفة بوجود آبار للماء فيها، مثل أم عقلة ورماح ومرات والمجمعة وعفيف، حيث يتفرع الطريق من هناك إلى اتجاهين: أحدهما إلى مكة المكرمة، حيث يتوجه الحجاج، من عفيف إلى الدوادمي ثم إلى مناطق أخرى تنتهي بالطائف، فمكة المكرمة.

وفيما يلي نماذج لبعض رحلات الحج الكويتية الموثقة:

رحلة عبد اللطيف البدر

المسماة: «الرحلة الميمونة إلى بيت الله الحرام» عام ١٩٣٢م (١).
تعد هذه الرحلة أول سجل موثق لمسار حجاج الكويت بواسطة الجمال، رصد فيها الكاتب حركة القافلة بالساعة والدقيقة منذ خروجها من الكويت نحو حفر الباطن فمدينة بريدة، فالمدينة المنورة، فمكة المكرمة، ثم العودة عبر سهل ركبة فمران وضرية، إلى مدينة بريدة، ومنها إلى الكويت، في رحلة استغرقت نحو ثلاثة أشهر.
وقد قدم الكاتب وصفا دقيقا لمعالم الطريق ومراحله المختلفة، والظاهرات الطبيعية التي مر بها: كالأودية والجبال والنباتات. وهو أمر لا نجده عند كثير ممن سجل رحلته لحج بيت الله الحرام، فأغلبهم يركز على المناسك والمشاهد في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة، أما الطريق فكانت أوصافهم له عامة، لا تقف عند التفصيلات الدقيقة لمسار الرحلة.
وتجدر الإشارة إلى أن أول تسجيل موثق لرحلة حجاج الكويت إلى مكة المكرمة كان القصيدة التي نظمها المرحوم الشيخ عبدالله خلف الدحيان، الذي غادر الكويت بمعية جماعة من آل البدر، بطريق البر في (١٦) من شوال عام (١٣٢٤هـ) الموافق: (٣ من ديسمبر ١٩٠٦م)، فوصل إلى المدينة المنورة يوم (١٩) من ذي القعدة (١٣٢٤هـ) الموافق: (٤ من يناير ١٩٠٧م)، وبعد أن مكث فيها نحو ثماني ليال غادرها إلى مكة المكرمة التي وصل إليها يوم (٦) من ذي الحجة الموافق: (١٢ من يناير ١٩٠٧م)، وبعد أن قضى مناسك الحج عادت الحملة بطريق البر، أما هو ورفاقه من آل البدر فقد سافروا من جدة بطريق البحر بالباخرة إلى بومبي، وبعد أن مكثوا هناك نحو أسبوع استقلوا مركبا آخر نقلهم إلى البصرة، ومنها إلى الكويت التي وصلوا إليها في (٢٦) من محرم عام (١٣٢٥هـ) الموافق: (١١ من مارس ١٩٠٧م).
وقد بلغ عدد أبيات القصيدة المذكورة (١٥٦) بيتا، وصف فيها أحوال الطريق منذ خروجهم من الكويت إلى حين عودتهم، ومدح فيها رفاقه في تلك الرحلة وركز على فضائل المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وفي مكة المكرمة وصف الكعبة والبيت الحرام ومناسك الحج والعمرة.



وتعد قصيدة الشيخ عبدالله الخلف حافزا دفع العديد من الحجاج إلى توثيق رحلاتهم المباركة إلى بيت الله العتيق، إلا أن الشيخ الدحيان رحمه الله تعالى لم يذكر من مراحل الطريق إلى المدينة المنورة سوى بريدة.
أما الفاضل مساعد البدر

رحمه الله تعالى فقد ذكر عشرات الأسماء، تفصيلا في رحلته.
كما أن الطريق من المدينة المنورة إلى مكة عند الشيخ الدحيان يمر بذي الحليفة، وهو محل الإحرام، في حين أن الطريق الذي سلكته حملات الحج التي صاحبها مساعد البدر من المدينة المنورة عبر شرقي حرة رهاط إلى بركة المسلح، ويكون الإحرام من ذات عرق أو الضريبة هو ميقات حجاج نجد. كما وصف مساعد البدر طريق العودة البري.
أما الشيخ عبدالله الخلف الدحيان فلم يذكر هذا الطريق البري في رحلته لأنه عاد عن طريق البحر.
وتعتبر هذه التفاصيل التي ذكرها الفاضل مساعد البدر، رحمه الله، من أهم الأمور التي ميزت رحلته التي تقدم صورة كاملة للحج بطريق البر، وبتفصيلات تفرد بها عمن سبقه.

مضمون الرحلة ومدتها

يصف الكاتب الطريق من الكويت إلى مكة المكرمة، والعودة منها بعد أداء فريضة الحج، وقد تم له ذلك على ظهور الإبل - قبل استخدام السيارات في حملات الحج -، وقد استغرقت تلك الرحلة نحو (٩٥) يوما، ابتداء من (١٨) من فبراير إلى (٢٣) مايو عام (١٩٣٢م).
وقد ذكر الكاتب من كان في صحبته من حجاج الكويت، فنص على ثلاث حملات: «لعثمان الراشد، وابن حمود، والفلاح».
كما ذكر من أسماء العائلات التي صاحبت حملتهم: «الصقر، والحميضي، والسمكة، والدويري، والعصفور، والفليج، والصميط، وجماعة من العوازم، والمفرح، وابن زوير، وابن مديرس، والمشاري».
أما الأشخاص الذين ذكرهم بالاسم فهم: «محمد بن محطب، وإبراهيم الحفيتي، وعلي حسين التمار، وشاهين الفودري، وإبراهيم بن سيار، ويوسف الصميط، وسبيكة الصميط».
وقدر عدد خيام الحجاج عند الحفر بنحو خمسين خيمة، وعند وصولهم إلى المدينة المنورة ذكر مجموعة من الحجاج الذين أتوا عن طريق البحر وهم: «محمد الزاحم، وفهد الزاحم، وإبراهيم الخميس، وأحمد ابل، وعبد العزيز الحمر، وابن سدحان».
ومما يذكر هنا أنه كان عدد من الحجاج يفضلون طريق البحر لأنه أكثر أمانا وراحة من عبور الصحراء، وكانوا يذهبون بالسفن الشراعية أو البخارية إلى بومبي، ويركبون باخرة أخرى توصلهم إلى جدة. ويزداد عدد أولئك الحجاج أو يقل تبعا لدرجة الأمان في الصحراء.
وتذكر الوثائق البريطانية أنه في عام (١٩٠٨م) أمر الشيخ جابر المبارك - نائب الشيخ مبارك، رحمهما الله - بمنع الحج عن طريق البر بسبب الحروب داخل الصحراء.
وذكر صاحب الرحلة، رحمه الله، بأنه كان معهم في طريق الحج في تلك السنة الشيخ صباح، ولم يذكر من هو صباح المقصود، كما أنه لم يشر إليه بصفته أميرا للحج، وإن كان تصرفه مع الحجاج يدل على تلك الصفة، فقد ذكر مرة أنه قد تأخر الشيخ صباح عن الركب بسبب ضياع ستة جمال للعوازم، وعندما تاه ابن زوير وابن مديرس عن الطريق بحث عنهم رجال الشيخ صباح وأرشدوهم إلى الطريق.
وتجدر الإشارة إلى أنه حتى عام (١٩٢٦م) كان أمير الحج الفاضل عبد العزيز بن حسن، الذي استمر في عمله هذا نحو عشرين عاما، وهو من آل مهنا من القصيم، وقد ذكر اسمه أميرا للحج في عام (١٩٠٦م) ضمن يوميات الخليج.
وتعد هذه الرحلة أول وصف دقيق للطريق المذكور، تتبع الكاتب منازله والمسافات بين تلك المنازل بالساعات والدقائق، وقدم تقريرا واضحا لمعالم سطح الأرض التي يمر بها الطريق مثل: الأودية، والشعاب، والجبال، والخبرات، والكثبان الرملية، والآبار، وذكر ما ينبت في أنحاء الطريق من النباتات كالعرفج، والحمض، والسدر، والدوم، وغير ذلك من أنواع الشجر والنبات.
وسجل الكاتب أسماء القرى والبلاد التي كانت على طريق الحج المذكور أو قريبة منه، وكان يذكر أحيانا سكانا من القبائل وعددهم وأميرهم في ذلك الوقت، وسجل أيضا أسماء الأودية والكثبان الرملية والجبال التي كانت في طريق رحلة الحج وأشكالها.
ويقول محرر الرسالة الدكتور عبدالله يوسف الغنيم: «ولقد كانت لي معرفة سابقة بالمناطق التي وصفها مساعد البدر-كاتب هذه الرحلة- فقد ذهبت إلى الحج بطريق السيارات القديم مرتين في عامي: (١٩٥٨ و١٩٥٩م)، ثم قمت بدراسة ميدانية علمية عن أشكال سطح الأرض في الجزيرة العربية عام (١٩٧٣م)، تنقلت فيها بين معظم المناطق التي سار فيها الكاتب مثل: مناطق «اللعاعة، وضرية، ومسكة، وجبال طمية، والأبانان، وعسعس، وشعبى، وعيده، وسواج، ورمال المظهور، وعريق الدسم»، وغير ذلك من المناطق التي لم يمحها الزمن من ذاكرتي وسجلتها في دراسة جغرافية نشرت عام (١٩٩٩م)».

ويستطرد قائلا: وأشهد أن مساعد البدر قد أحسن في وصف الطريق وأجاد، وأنه وثق مسارا مهما من طرق الحج بأسلوب دقيق لا نجده عند من سبقه من الرحالين الذين سجلوا خط سيرهم للحج إلى بيت الله الحرام، واتسم أسلوبه بالإيجاز، وبخلوه من المبالغات التي يلجأ إليها أحيانا كتاب الرحلات، وما أشار إليه من صعاب في رحلته لا يتجاوز الواقع الذي كانت عليه ظروف الطرق في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

مختصر مسار الرحلة

أما عن مسار الرحلة (ذهابا): فيبدأ من الكويت إلى الحفر، ومنها إلى بريدة عبر كثبان الدهناء، ومرورا بمحطة أساسية وهي قبة، ومن بريدة تتجه القافلة إلى المدينة المنورة مرورا بعقلة الصقور والنقرة وعرجا والحناكية، ومن المدينة المنورة لم تأخذ القافلة الطريق المعتاد إلى مكة – وهو طريق ذو الحليفة وبدر ورابغ الذي يسير في سهل تهامة إلى مكة – بل يعود الحجاج شرقا ليأخذوا طريق الحج القديم المعروف بطريق «زبيدة» – نسبة إلى الفاضلة زبيدة زوجة هارون الرشيد التي اعتنت بهذا الدرب لخدمة الحجاج –، وهو يأخذ بين حرتي رهاط وكشب، مارا بأفيعية وبركة المسلح، ومن ثم يحرم الحاج من الضريبة عند قرن المنازل أو السيل، وهو ميقات حجاج نجد، ومن هناك إلى مكة لقضاء مناسك الحج.

أما عن مسار الرحلة إيابا إلى الكويت: فيسير الطريق في مراحله الأولى باتجاه الشمال الشرقي إلى بركة العقيق، ثم يعبر هضبة ركبة إلى مران، ويتجه شمالا إلى الطرف الجنوبي من عريق الدسم (نفود العريق) الذي يقطعه بالاتجاه إلى ضرية شرقا، ثم يتحول إلى الشمال والشمال الشرقي إلى بريدة، حيث يعود من الطريق نفسه الذي سلكته القافلة في ذهابها إلى الحج، وأجزاء كثيرة من الطريق يتفق مع طريق الحج القديم (درب زبيدة).

وفي خاتمة هذه الرحلة الميمونة يقول الفاضل مساعد البدر، رحمه الله تعالى: «وفي الساعة الثانية عشرة صباحا تحركنا، وأصبحنا بمؤازرة حظائر ابن سعود، وفي شمال مدينة هجر الرقعي، ثم نزلنا لصلاة الفجر في شرق الرقعي، وسرنا من جديد، ووصلنا آبار الرقعي، وبعد ساعة وربع قطعنا الحرة (الأرض الصلبة)، وهناك تلقانا مستقبلا الأخ عبداللطيف بسيارة الشيخ عبدالله السالم، وسيارة الشيخ سعود، وانطلقنا بالسيارتين نحو الجهراء، وعندما وصلنا الجهراء تعطلنا لمدة ساعة ننتظر السيارة الثانية التي افترقت عنا، ثم وصلنا البيت في الكويت يوم الاثنين (٢٣ من مايو ١٩٣٢م)، ثم وصلت حملتنا (المحمولة على الجمال) في يوم الأربعاء الموافق (٢٥ من مايو ١٩٣٢م)».

أما رحلة الشيخ عبدالله خلف الدحيان عام ١٣٢٤هـ– التي تمت الإشارة إليها آنفا– فهي من أشهر الرحلات في تاريخ الكويت، وقد أرخها العلامة الدحيان بقصيدة طويلة وصف الرحلة وصفا قل نظيره، وكانت مجلة «الوعي الإسلامي» قد نشرت جزء من هذه القصيدة في عددها رقم (٤٠٠) في عام ١٤١٩هـ، وهذا مطلعها المبارك:

لنيل العلا والمجد سير الرواحل
يحثحثها بالجد كل حلاحل
ويسعى يطوف البيد لا متوانيا
ويرمي حصى التسويف رمي التكاسل
ألذُّ وأشهى من مواصلة الدُّمى
لديه دوام السير فوق الذلائل
وللبعملات اليوم يلتذ راكب
لقطع الفيافي غير وان وهازل
إذا زمزم الحادي ترامت إلى الحمى
ومدت لأعناق وراء الدلائل

ولما وقف عليها الفاضل الأديب الشيخ عبدالله بن الحاج محمد بن خليل قرظها بهذه الأبيات، مؤرخا عام الحج – شكر الله سعيه – وهذا قوله زاد فضله:

يا إمام العصر يا من قد سما
فوق هام المجد بالدر الأنيق
قد أضاء الكون لما أسفرت
رحلة الترحال منا للعقيق
ودعانا الأنس لما أرخوا
حل عبدالله في البيت العتيق

وأما الرحلة المباركة للعلامة عبدالله ابن الشيخ حسن الكوهجي، والتي وصلت تفاصيلها إلينا عبر قصيدته الرائعة المسمّاة «الرحلة الكويتية والنحلة المكية» عام ١٣٦٨هـ، وقد تم نشرها كاملة في العدد (٥٢٥) من أعداد مجلة «الوعي الإسلامي».

والشيخ عبدالله الكوهجي هو: من علماء بلدة كوهج الواقعة في بر فارس، وكان يتردد على الكويت للدعوة والإرشاد، واجتمع مع العلماء الفضلاء، الشيخ محمد بن مانع، والشيخ عبدالرحمن السعدي.

وكان الشيخ محمد بن سليمان الجراح، رحمه الله، حريصا على الاستفادة منه.

وأقتصر على هذه الأبيات الفريدة من مطلع قصيدته المباركة:

برب الورى خلاقنا الواحد العلي
أقول مقالا منبئا عن ترحلي
تنقلت من أرض الكويت لأربع
وعشرين من ذي قعدة متفضل
بثامن عام بعد ستين أتبعت
ثلاث مئين بعد ألف مكمل
فمذ سار ركبي بالكرام تنسمت
على الروح روحي ريح طيب مفضل
جرت عبرات القلب مني صبابة
إلى الحرم المكي مثوى الفضائل

هوامش:

(١) انظر: «الرحلة الميمونة إلى بيت الله الحرام من الكويت إلى مكة المكرمة» والتي كتبها مساعد يعقوب البدر، رحمه الله، وحررها وقدم لها الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم. والكتاب من إصدارات مركز البحوث والدراسات الكويتية ٢٠١١م.

مخطوطة نادرة
طريق الحج من إسطنبول إلى مكة



تعد هذه الخريطة من أقدم الخرائط الطبوغرافية لمنطقة الخليج العربي وبلاد ما بين النهرين، حيث ترجع إلى الثلث الأول من القرن السابع عشر الميلادي، وهي عبارة عن لفافة، يزيد طولها على ثلاثة أمتار.

وهي مرسومة بالحبر الأسود والألوان المائية، كانت قد رسمت لتوضيح المعالم والتضاريس الجغرافية، حيث أن الرسام وُفِّق في استخدام اللون الأزرق لتمييز المسطحات المائية من خلجان وبحار وأنهار، أما اليابسة فقد تركت من دون تلوين أي بلون الورق الأصلي، في حين استخدم اللون الأصفر والأخضر لتلوين الجبال والمرتفعات.

كما تم تلوين الطرق باللون الأسود، بينما كتبت



بيانات الخريطة باللغة التركية، بالخط العربي «الرقعة» بالحبر الأسود.

وترصد الخريطة المنطقة الممتدة من أعالي دجلة والفرات مرورا بالأراضي التركية والعراقية، فشط العرب والخليج العربي إلى بحر العرب جنوبا، متتبعة في ذلك طريق الملاحة البحري على محور واحد، حيث تبدأ الخريطة من شمال شرق تركيا بدءا من قلعة «أرض الروم» وعبر سلسلة جبال الأناضول إلى بحر العرب.

(يظهر هذا العمل قيمة المخطوطة المرسومة كوثيقة تاريخية وفنية)

• مركز التطوير الثقافي
المكتبة التراثية - قطر

في الحجة المكية والزورة المحمدية (١)

القصيدة الذهبية

١- أيَا عذَباتِ البَانِ منْ أيْمنِ الحِمى
رَعَى اللهُ عَيْشا في رُباكَ قَطعْناهُ

٢- سَرقناه منْ شرخ الشَباب ورَوْقِه
فَلَما سَرقْنا الصَفْوَ منه سُرقْناهُ

٣-وجاءَتْ جُيوشُ البَيْنِ يقدمُها القَضَا
فَـبَـدَّدَ شَـمْـلا بـالحِـجَـازِ نَظَمْناهُ

٤- حرام بذي الدنيا دوام اجتماعنا
فكم صرمت للشمل حَبْلًا وصلناهُ

٥- فَيَا أيـنَ أيَّـامٌ تـوَلَّتْ عَلَى الحِمى
ولَـيـلٌ مَـعَ الـعُـشَّـاقِ فـيـه سَـمَـرْنَـاهُ

٦- ونَـحـنُ لجـيـران المُحصَّب جيرَة
نُـوفِّـي لَـهُـم حُـسْـنَ الـوداد وَنَـرْعَـاهُ

٧- وَنَخْلو بِمنْ نَهوى إذا رَقَدَ الوَرَى
وَيـجْـلُـو عـلـيـنـا مَـنْ نُـحـبُّ مُـحَـيَّـاهُ

٨- فَـقُـرْبٌ ولاَ بُـعْـدٌ وشَـمْـلٌ مُجمَّع
وكَـأْسُ وصَـالٍ بَـيْـنَـنـا قَـدْ أدرْنَـاهُ

٩- فَهاتِيكَ أيَّـامُ الحَـيـاةِ وَغيرُها
مَمَاتٌ فَيَا لَيْتَ النَّوى ما شَهِدْناهُ!!

١٠- فَيَا مَا أمَرَّ البَيْنَ مَا أقْتَلَ الهَوَى
أمَا يَا الهَوى إنَّ الهنَا قَدْ سُلِبْناهُ

١١- فَوَاللهِ لَمْ يُبْقِ الفِرَاقُ لَذَاذَةً
فَـلَـوْ مَـنْ سَـبِـيـلٍ لِـلـفِـرَاقِ فَـرَقْـنَـاهُ

١٢- فكَمْ مِنْ قَتيلٍ بَيْنَنا بِسِهامِه
فَلَوْ أنَّنا نُعْطَى القِصَاصَ قَتَلْنَاهُ

١٣- فأحْبابُنا بالشَّوقِ بالحُبِّ بالجوى
لِحُرْمَةِ عَـقْـدٍ عِـنْـدَنـا مَـا حَـلَلْنَاهُ

١٤- لحقِّ هَـوانَـا فـيـكُـمُ ووِدَادنَـا
لِمِيـثَـاقِ عَـهْـدٍ صَـادِقٍ مَـا نَقَضْنَاهُ

١٥- أعيدُوا لَنَا أعيادَنَا بِربُوعِكُمْ
وَوَقْـتَ سُـرُورٍ في حِمَـاكُمْ قَضَيْنَاهُ

١٦- فَما العَيْشُ إلاَّ مَا قَضَيْنَا عَلَى الحِمى
فَذاكَ الذَّي مِنْ عُمرنا قَدْ عَدَدْنَاه

١٧- فَيا لَيْتَ عَنَّا أغْمَضَ البَيْنُ طَرْفَهُ
وَيَـا لَـيْـتَ وَقْـتَـا لِـلـفِـرَاقِ فَـقَـدْنَـاهُ

١٨- وَتَـرجِـعُ أيَّـامُ المُحَصَّبِ مِنْ منى
وَيـبـدُو ثَـراهُ لِـلْـعُـيُـونِ وحَـصْـبَـاهُ

١٩- وَتَسْرَحُ فيه العِيسُ بينَ ثُمامه
وتَـسْـتَـنْـشِـقُ الأرْوَاحُ نَـشْـر خُـزامَـاهُ

٢٠- وَنَشْكو إلى أحْبَابِنَا طُولَ شَوقنَا
إلَـيْـهِـمْ وَمَــاذا بـالـفِـرَاقِ لَقِـيـنَـاهُ

٢١- فَلاَ كَانَتِ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يُعايَنوا
هُمُ القَصْدُ في أُولَى المَشُوقِ وأخرَاهُ

٢٢- عليكُمْ سَلاَمُ اللهِ يَا سَاكِني الحِمى
بِكُمْ طَابَ رَيَّـاهُ بِكُم طَابَ سُكْنَاهُ

٢٣- وربِّـكُـمُ لَـوْلاكُـمُ مَـا نَـوَدُّهُ
وَلاَ الـقَـلْـبُ مِـنْ شَـوْقٍ إلـيْـهِ أذَبْـنَـاهُ

٢٤- أَسُكَّانَ وادي المُنْحَني زَادَ وَجْدُنَا
بِمَغْنَى حِمَاكُمْ ذَاكَ مَغْنىً شَغَفْنَاهُ

٢٥- نَـحـنُ إلـى تِـلْـكَ الـرَّبُـوعِ تَشَوُّقًا
فَـفِـيـهَـا لَـنَـا عَـهْـدٌ وعَـقْـدٌ عَـقَـدْنَـاهُ

(١) جزء من «القصيدة الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية» نظمها الإمام العلامة مجد الدين جمال الإسلام محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي (ت٦٦٢هـ) وللقصيدة بقية تتحدث بإبداع عن زيارة المدينة المنورة.

٢٦- وربِّ برانا ما سلوْنا ربُوعكُمْ
وما كان من رَبْع سِواهُ سلَوْناه

٢٧- فيَا هلْ إلى ربع الأعاريب عوْدَةٌ
فذاكَ وحقِّ الله ربْعٌ حببْناه

٢٨- قضيْنا معَ الأحْباب فيه مآربًا
إلى الحشْر لا تُنْسى سقى اللهُ مَرْعاه

٢٩- فشُدُّوا مطايانا إلى الرَّبْع ثانيًا
فإنَّ الهوى عنْ رَبْعهمْ ما ثنَيْناه

٣٠- ففي رِبْعهمْ لله بيْتٌ مُباركٌ
إليه قُلُوبُ الخلْق تهْوي وتهْواه

٣١- يطُوفُ به الجاني فيُغفرُ ذنبهُ
ويسْقُطُ عنْهُ جُرْمُهُ وخطاياه

٣٢- فكمْ لذَّة كمْ فرْحة لطوافه
فللَّه ما أحْلى الطَّواف وأهْناه

٣٣- نطُوفُ كأنَّا في الجنان نطوفُها
ولا همَّ لا غمَّ فذاكَ نفيْناه

٣٤- فيَا شوْقنا نحْو الطَّواف وطيبه
فذلك شوقٌ لا يُحاطُ بمعناه

٣٥- فمنْ لم يذُقْهُ لم يذقْ قطُّ لذَّةً
فذُقْهُ تذُقْ يا صاح ما قد أذقْناه

٣٦- فوالله ما ننْسى الحمى فقلوبُنا
هُناك تركْناها فيا كيف ننْساه

٣٧- ترى رجْعةً هل عودةٌ لطوافنا
وذاك الحمى قبل المنيَّة نغْشاه

٣٨- ووالله ما ننْسى زمان مسيرنا
إليه وكُلُّ الرَّكْب قدْ لذَّ مسْراه

٣٩- وقدْ نُسيتْ أولادُنا ونساؤُنا
وأموالُنا فالقلْب عنهُمْ شغلْناه

٤٠- تراءتْ لنا أعْلامُ وصْلٍ على اللِّوى
فمنْ أجْلها فالقلْبَ عنْهُم لويْناه

٤١- جعلْنا إلهَ العرْش نُصْبَ عيوننا
ومنْ دُونهُ خلفَ الظُّهُور نبذْناه

٤٢- وسرْنا نشُقُّ البِيدَ للبَلَد الذي
بجهْدٍ وشقٍّ للنُّفوس بلغْناه

٤٣- رجالًا وركْبانًا على كُلِّ ضامرٍ
ومنْ كُلِّ ذي فجٍّ عميقٍ أتيْناه

٤٤- نخوضُ إليه البَرَّ والبحرَ والدُّجى
ولا قاطعٌ إلا وعنهُ قطعْناهُ

٤٥- ونطْوي الفلا من شدَّة الشَّوق للِّقا
فتُمْسي الفلا تحكي سجِلًا قطعْناهُ

٤٦- ولا صدَّنا عن قصْدنا بُعْدُ أهْلنا
ولا هجْرُ جارٍ أو حبيبٍ ألفْناهُ

٤٧- وأموالُنا مبذُولةٌ ونُفُوسُنا
ولم نُبق شيئًا منهما ما بذلْناهُ

٤٨- عرفْنا الَّذي نبْغي ونطلُبُ فضلَهُ
فهانَ علينا كُلُّ شيءٍ بذلْناهُ

٤٩- فمَنْ عرفَ المطلوبَ هانتْ شدائدٌ
عليه ويهْوى كُلَّ ما فيه يلْقاهُ

٥٠- فيَا لو ترانا كُنتَ تنظُرُ عُصْبةً
حيارى سُكارى نحوَ مكَّة ولَّاهُ

٥١- فللَّه كم ليلٍ قطعْناهُ بالسُّرى
وبرٍّ بسيْر اليعْملات بريْناهُ

٥٢- وكمْ منْ طريقٍ مُفْزعٍ في مسيرنا
سلَكْنا ووادٍ بالمخُوفات جُزْناهُ

٥٣- ولو قيلَ إنَّ النَّارَ دُونَ مزاركُمْ
دُفعْنا إليها والعذُول دفعْناهُ

٥٤- فمولى الموالي للزِّيارة قد دعا
أنقْعُدُ عنها والمزُورُ هو اللهُ؟!

٥٥- ترادفت الأشْواقُ واضَّرمَ الحشَا
فمنْ ذا لهُ صبْرٌ وفي النَّار أحْشاهُ

٥٦- وأسْرى بنا الحادي فأمْعنَ في السُّرى
وولَّى الكرى نوْمَ الجُفون نفيْناهُ

٥٧- ولمَّا بدا ميقاتُ إحرام حجِّنا
نزلْنا به والعيسَ فيه أنخْناهُ

٥٨- ليغْتسلَ الحُجَّاجُ فيه ويُحْرمُوا
فمنْهُ نُلبِّي ربَّنا لا حُرمْناهُ

٥٩- ونادى مُنادٍ للحجيج ليُحْرمُوا
فلمْ يبْقَ إلا منْ أجابَ ولبَّاهُ

٦٠- وجُرِّدَت القمْصانُ والكُلُّ أحْرمُوا
ولا لُبسَ لا طيبَ جميعًا هجرْناهُ

٦١- ولا لهْوَ لا صيْدٌ ولا نقْربُ النِّسا
ولا رفثَ لا فسْقَ كُلًا رفضْناهُ

٦٢- وَصِرْنا كَأمْواتٍ لَفَفْنا جُسومَنا
بِأكْفانِنا كُلٌّ ذَليلٌ لِمَولاهُ

٦٣- لعلَّ يَرى ذُلَّ العبادِ وكَسْرَهُمْ
فَيرحَمُهُمْ رَبٌّ يُرَجُّونَ رُحْمَاهُ

٦٤- يُنادُونَهُ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ذا العُلى
وسَعْدَيْكَ كُلَّ الشِّرْكِ عَنكَ نَفَيْناهُ

٦٥- فَلَو كُنتَ يا هَذا تُشاهِدُ حالَهُمْ
لأَبْكاكَ ذاكَ الحالُ في حالِ مَرْآهُ

٦٦- وُجوهُهُمُ غُبرٌ وشُعثٌ رؤوسُهُمْ
فَلا رَأسَ إلا لِلإلَهِ كَشَفْناهُ

٦٧- لَبِسْنا دُرُوعًا مِن خُضوعٍ لِرَبِّنا
ومَا كانَ مِن دِرعِ المعاصِي خَلَعْناهُ

٦٨- وَذاكَ قَليلٌ في كثيرِ ذُنوبِنا
فيا طالَما رَبَّ العِبادِ عَصَيْناهُ

٦٩- إلى زَمزمٍ زُمَّتْ رِكابُ مَطيِّنا
ونَحوَ الصَّفا عِيسَ الوُفودِ صَفَفْناهُ

٧٠- نَـؤُمُّ مَقامًا للخَليلِ مُعظَّمًا
إلَيهِ استَبَقْنا والرِّكابَ حَثَثْناهُ

٧١- ونَحنُ نُلَبِّي في صُعودٍ ومَهْبِطٍ
كَذا حالُنا في كُلِّ مَرقًى رَقِيناهُ

٧٢- وكَم نَشزِ عالٍ عَلَتْهُ وُفُودُنا
وتَعْلُو بهِ الأصواتُ حِينَ عَلَوْناهُ

٧٣- نَحُجُّ لِبيتٍ حَجَّهُ الرُّسْلُ قَبْلَنا
لِنَشهَدَ نَفْعًا في الكتابِ وُعِدْناهُ

٧٤- دَعانا إلَيهِ اللهُ قَبلَ بِنائِه
فَقُلْنا لَهُ لَبَّيْكَ داعٍ أَجَبْناهُ

٧٥- أَتَيْناكَ لَبَّيْناكَ جِئْناكَ رَبَّنا
إلَيكَ هَرَبْنا والأنامَ تَرَكْناهُ

٧٦- وَوَجْهَكَ نَبْغي أنْتَ للقَلْبِ قِبْلَةٌ
إذا ما حَجَجْنا أنتَ للحَجِّ رُمْناهُ

٧٧- فَما البَيْتُ ما الأركانُ ما الحِجْرُ ما الصَّفا
وما زَمزَمٌ أنتَ الذي قَدْ قَصَدْناهُ

٧٨- وأنتَ مُنانا أنتَ غايَةُ سُؤْلِنا
وأنتَ الذي دُنْيا وأُخرى أرَدْناهُ

٧٩- إلَيكَ شَدَدْنا الرَّحْلَ نَخْتَرِقُ الفَلا
فَكَم سَدَّ سَدٍّ في سَوادٍ خَرَقْناهُ

٨٠- كذلكَ ما زِلْنا نُحاوِلُ سَيْرَنا
نَهارًا ولَيْلًا عِيسَنا ما أرَحْناهُ

٨١- إلى أنْ بَدَتْ إحدى المعالِمِ مِن مِنًى
وَهَبَّ نَسيمٌ بالوُصولِ نَشِقْناهُ

٨٢- ونادَى بِنا حادِي البِشارَةِ والْهَنا
فَهذا الحِمَى هَذا ثَراهُ غَشِيْناهُ

رُؤيةُ البَيت

٨٣- وما زالَ وفدُ اللهِ يَقصِدُ مَكَّةَ
إلى أن بَدا البيتُ العتيقُ ورُكْناهُ

٨٤- فَضجَّتْ ضُيوفُ اللهِ بالذِّكرِ والدُّعا
وكَبَّرَتِ الحُجَّاجُ حِينَ رَأيناهُ

٨٥- وَقد كادَتِ الأرواحُ تَزهَقُ فَرحَةً
لِما نَحنُ مِن عُظْمِ السُّرورِ وَجَدْناهُ

٨٦- تُصافِحُنا الأملاكُ مَن كانَ راكِبًا
وتَعتَنِقُ الماشِي إذا ثَمَّ تَلْقاهُ

طوافُ القُدوم

٨٧- فَطُفْنا بهِ سَبْعًا رَمَلْنا ثَلاثَةً
وأربعَةً مَشْيًا كما قَد أُمِرْناهُ

٨٨- كذلكَ طافَ الهاشِميُّ محمدٌ
طَوافَ قُدومٍ مِثلَ ما طافَ طُفْناهُ

٨٩- وَسالَتْ دُموعٌ مِن غَمامِ جُفونِنا
على ما مَضَى مِن إثمِ ذَنبٍ كَسَبْناه

٩٠- ونحنُ ضُيوفُ اللهِ جِئْنا لِبَيْتِه
نُريدُ القِرَى نَبْغي مِنَ اللهِ حُسْناهُ

٩١- فنادَى بِنا أهلًا ضُيوفي تَباشَرُوا
وَقَرُّوا عُيونًا فالحَجيجَ قَبِلْناهُ

٩٢- غدًا تَنْظُروني في جِنانِ خُلودِكم
وذاكَ قِراكُم مَعْ نَعيمٍ ذَخَرْناهُ

٩٣- فأيُّ قِرًى يَعلُو قِرانا لِضَيْفِنا
وأيُّ ثَوابٍ مِثلَ ما قَد أَثَبْناهُ

٩٤- وكُلُّ مُسيءٍ قد أَقَلْنا عِثارَهُ
ولا وِزْرَ إلا عَنكُمُ قَد وَضَعْناهُ

٩٥- ولا نَصَبٌ إلا وعِندي جَزاؤُهُ
وكُلُّ الذي أنفَقْتُمُوهُ حَسَبْناهُ

٩٦- سَأعطيكُمُ أَضْعافَ أَضْعافِ مِثْلِه
فَطِيبُوا نُفوسًا فَضْلَنا قد مَنَحْناهُ

٩٧- فيا مَرحَبًا بالقادِمينَ لِبَيْتِنا
إليَّ حَجَجْتُمْ لا لِبَيتٍ بَنَيْناهُ

٩٨- عليَّ الجَزا منِّي المثوبةُ والرِّضا
ثـوابُـكُـمُ يـومَ الجَـــزاءِ ضَـمِـنَّـاهُ

٩٩- فطِيبُوا سُرورًا وافرَحُوا وتَباشَرُوا
وتِيهُوا وهِيمُوا بابَنا قد فَتَحْناهُ

١٠٠- ولا ذنبَ إلا قد غفرناهُ عَنكمُ
وما كان مِنْ عيبٍ عليكُمْ سَتَرْناهُ

١٠١- فهذا الذي نِلْنا بيوم قُدومنا
وأوّلُ ضِيقٍ لـلـصُّـدورِ شَرَحْـنَـاهُ

المَبيت بمِنى والمَسير إلى عرفات

١٠٢- وبِتْنا بأقطارِ المُحَصَّبِ من منًى
فيَا طِيبَ ليلٍ بالمُحَصَّبِ بِتْنَاهُ

١٠٣- وفي يومنا سِرْنا إلى الجبَلِ الذي
مِنَ البُعْدِ جِئْناهُ لما قد وَجَدْناهُ

١٠٤- فلا حَجَّ إلا أنْ نكونَ بأرضِه
وُقوفًا وهـذا في الصَّحيح رويناهُ

١٠٥- إليهِ ابْتَدَرْنا قاصدينَ إلَهَنا
فَـلَـوْلاهُ مـا كُـنَّـا لِحَـجٍّ سَلَكْـنـاهُ

١٠٦- وَسِرْنا إليه قاصدين وُقوفَنا
عليـهِ ومِـن كـلِّ الجِـهـاتِ أَتَيْـنـاهُ

١٠٧- عَلى عَلَمَيْه للوُقوفِ جَلالةٌ
فلا زالَتا تُحْمَى وتُحْـرَسُ أرجـاهُ

١٠٨- وبَينهما جُزْنا إليه بزحْمَةٍ
فيَا طِيبَها ليتَ الزِّحامَ رَجَعْناهُ

١٠٩- ولَمَّا رأيْناهُ تَعالَى عَجيجُنا
نُلَبِّي وبالتَّهْليلِ منَّا مَلأْناهُ

١١٠- وفِيهِ نَزَلْنا بُكرَةً بذُنوبِنا
وما كانَ مِن ثُقْلِ المَعاصي حَمَلْناهُ

الوُقوفُ بعَرفة

١١١- وبعدَ زَوالِ الشَّمسِ كان وُقوفُنا
إلى الليلِ نَبكي والدعاءَ أَطَلْناهُ

١١٢- فكَمْ حامدٍ كم ذاكرٍ ومُسَبِّحٍ
وكَمْ مُذنبٍ يَشكو لِمَولاهُ بَلْواهُ

١١٣- فكم خاضعٍ كَمْ خاشعٍ مُتذَلِّلٍ
وكَم سائلٍ مُدَّتْ إلى اللهِ كَفَّاهُ

١١٤- وسَاوَى عَزيزٌ في الوُقوفِ ذَليلَنا
وكم ثَوبِ عِزٍّ في الوُقوفِ لَبِسْناهُ

١١٥- وربٌّ دَعانا ناظرٌ لِخُضوعِنا
خَبيرٌ عَليمٌ بالذي قد أرَدْناهُ

١١٦- ولَمَّا رأى تلكَ الدُّموعَ التي جرَتْ
وطُولَ خُشوعٍ معْ خُضوعٍ خَضَعْناهُ

١١٧- تَجلَّى علينا بالمَتابِ وبالرِّضا
وباهَى بنا الأمْلاكَ حينَ وَقَفْناهُ

١١٨- وقال انظُروا شُعْثًا وغُبْرًا جسومُهُم
أَجِرْنا أغِثْنا يا إلَهًا دَعَوْناهُ

١١٩- وقدْ هَجَرُوا أموالَهُم وديارَهُم
وأولادَهُم والكُلُّ يَرفَعُ شَكْواهُ

١٢٠- إلَيَّ فإنِّي ربُّهم ومَليكُهُمْ
لِمَن يَشتَكي المملوكُ إلا لِمَولاهُ

١٢١- ألا فاشْهَدوا أنِّي غَفرتُ ذُنوبَهُمْ
ألا فانْسَخُوا ما كان عَنْهُم نَسَخْناهُ

١٢٢- فقد بُدِّلَتْ تلكَ المَساوي مَحاسنًا
وذلكَ وَعْدٌ من لَدُنَّا وَعَدْناهُ

١٢٣- فيا صاحبي مَن مِثْلُنا في مَقامِنا
ومَن ذا الذي قدْ نالَ ما نحنُ نِلْناهُ

١٢٤- على عَرفاتٍ قد وَقَفْنا بمَوقفٍ
بهِ الذَّنبُ مَغفورٌ وفيهِ مَحَوْناهُ

١٢٥- وقد أَقْبَلَ الباري علينا بفَضْلِه
وقال ابْشِرُوا فالعفوُ فيكم نَشَرْناهُ

١٢٦- وعنكمْ ضَمِنَّا كُلَّ تابعَةٍ جرَتْ
عَلَيْكُمْ وأَمَّا حَقُّنا فوَهَبْناهُ

١٢٧- أَقَلْناكُم من كُلِّ ما قدْ جَنَيْتُمُ
وما كانَ مِن عُذرٍ لدَيْنا عَذَرْناهُ

١٢٨- فيا مَن أسَا يا مَن عَصَى لو رَأَيْتَنا
وأَوْزارُنا تُرْمَى ويَرْحَمُنا اللهُ

١٢٩- وَدِدْتُ بأنْ لو كُنتَ بين رِحالِنا
وترجو رحيمًا كُلُّنا يَتَرجَّاهُ

١٣٠- وقَفنا لديْه تائبِينَ مِنَ الخَطا
وغُفرانَنا مِن ربِّنا قد طَلَبْناهُ

١٣١- أُمِرنا بحُسْنِ الظنِّ واللهُ حثَّنا
عليهِ وهذا في الحديثِ رويناهُ

١٣٢- عليه اتَّكلْنا واطْمَأنَّتْ قُلوبُنا
لِما عِندَهُ مِن وُسْعِ عَفوٍ عَرَفْناهُ

١٣٣- فطوبى لِمَنْ ذاكَ المقامُ مقامُهُ
وبُشْراهُ في يومِ التَّغابُنِ بُشْراهُ
١٣٤- ترى موقفًا فيهِ الخزائنُ فُتِّحتْ
وأَوْلَى علينا اللهُ منها عَطاياهُ
١٣٥- فصالَحَ مَهْجورًا وَقرَّبَ مُبْعَدًا
وذاكَ مَقامُ الصُّلْحِ للصُّلْحِ قُمْناهُ
١٣٦- ودارَعلينا الكأسُ بالفضْلِ والرِّضا
سُقينا شَرابًا مِثْلَهُ ما سُقيناهُ
١٣٧- فإنْ شئتَ تُسْقى ماسُقينا على الحِمَى
فَخَلِّ الوَنَى واقْصِدْ مَقامًا قَصَدْناهُ
١٣٨- وفيهِ بسَطْنا للرَّحيمِ كُفُوفَنا
فقالَ كُفيتُمْ عَفْوَنا قد بَسَطْناهُ
١٣٩- وأعْتَقَنا كُلًّا وأَهْدَرَ ما مَضَى
وقالَ لنا كلَّ العتابِ طَوَيْناهُ

ذِكرُ خزيِ إبليسَ اللَّعين

١٤٠- فإبليسُ مَغمومٌ لكثرةِ ما يَرَى
مِنَ العتقِ مَحْقُورًا ذليلًا دَحَرْناهُ
١٤١- عَلى رأسِهِ يَحْثو التُّرابَ مُناديًا
بِأعْوانِهِ وَيْلاهُ ذا اليومَ وَيْلاهُ
١٤٢- وأظهَرَ منَّا حَسْرَةً وندامَةً
وكُلَّ بناءٍ قَدْ بَناهُ هَدَمْناهُ
١٤٣- تَركْناهُ يَبْكي بَعْدَما كانَ ضاحكًا
فكَمْ مُذنبٍ مِن كفِّهِ قد سَلَلْناهُ
١٤٤- وكَمْ أملٍ نلْناهُ يَومَ وُقوفِنا
وكَمْ مِن أسيرٍ للمَعاصي فَكَكْناهُ
١٤٥- وكَمْ قَد رَفَعْنا للإلهِ مَطالبًا
ولا أحَدًا مِمَّنْ نُحبُّ نَسيناهُ
١٤٦- وَخُصِّصَتِ الآباءُ والأهْلُ بالدُّعَا
وكَمْ صاحبٍ دانٍ وَناءٍ ذَكَرْناهُ
١٤٧- كذا فَعَلَ الحُجَّاجُ هاتيكَ عادَةً
وما فَعلَ الحُجَّاجُ فيهِ فَعَلْناهُ
١٤٨- وَظلَّ إلى وَقتِ الغُروبِ وُقوفُنا
وقيلَ ادْفعوا فالكُلُّ منكمْ قَبِلْناهُ

الإفاضَة والمَبيتُ بمُزدَلِفة وذِكرُ الله عندَ المَشْعَر

١٤٩- أَفيضُوا وأنتمْ حامِدونَ إلهَكُمْ
إلى مَشْعَرٍ جاءَ الكِتابُ بِذِكْراه
١٥٠- وسيرُوا إليهِ واذْكُرُوا اللهَ عِنْدَهُ
فَسِرْنا وفي وَقتِ العِشاءِ نَزَلْناهُ
١٥١- وفيهِ جَمَعْنا مَغربًا وعِشاءَها
تَرَى عائدًا جَمْعًا لِجَمْعِ جَمَعْناهُ
١٥٢- وبِتْنا بِهِ حتى لَقَطْنا جِمارَنا
وربًّا شَكَرْناهُ عَلى ما هَدَاناهُ
١٥٣- ومِنهُ أفَضْنا حيثُما النَّاسُ قَبْلَنا
أفاضُوا وغُفرانَ الإلهِ طَلَبْناهُ

نُزولُ مِنى والرَّمْيِ والحَلْقُ والنَّحر

١٥٤- ونَحْوَ مِنًى مِلْنا بها كانَ عيدُنا
ونِلْنا بها ما القلبُ كانَ تَمَنَّاهُ
١٥٥- فَمَنْ مِنكُمْ باللهِ عيَّدَ عيدَنا
فَعيدُ مِنًى رَبُّ البَرِيَّةِ أعْلاهُ
١٥٦- وفيهِ رَمَيْنا للعِقابِ جِمارَنا
ولا جُرْمَ إلا مَعْ جِمارٍ رَمَيْناهُ
١٥٧- وبِالجَمْرةِ القُصوى بَدَأْنا وعِنْدَها
حَلَقْنا وقَصَّرْنا لِشَعْرٍ حَضَرْناهُ
١٥٨- ولَمَّا حَلَقْنا حَلَّ لُبْسُ مَخيطِنا
فيا حلْقَةً منها المَخيطَ لَبِسْناهُ
١٥٩- وفيها نَحَرْنا الهَدْيَ طوْعًا لرَبِّنا
وإبْليسَ لَمَّا أنْ نَحَرْنا نَحَرْناهُ
١٦٠- ومِن بعدِها يَوْمانِ للرَّمْيِ عاجِلًا
ففيها رَمَيْنا والإلهَ دَعَوْناهُ
١٦١- وإيَّاهُ أرْضَيْنا بِرَمْيِ جِمارِنا
وشَيْطانَنا المَرْجومَ ثُمَّ رَجَمْناهُ
١٦٢- وبِالخَيْفِ أعْطانا الإلهُ أمانَنا
وأذْهَبَ عَنَّا كُلَّ ما نَحنُ نَخْشاهُ

النَّفرَةُ مِن مِنى

١٦٣- ورُدَّتْ إلى البيتِ الحرامِ وُفودُنا
نَحِنُّ لَهُ كالطَّيرِ حَنَّ لِمأواهُ
١٦٤- وطُفْنا طَوافًا للإفاضَةِ حَوْلَهُ
وَفُزْنا بِهِ بَعدَ الجِمارِ وَزُرْناهُ
١٦٥- ومِن بعدِ ما زُرْنا دَخلناهُ دَخْلَةً
كأنَّا دَخَلْنا الخُلْدَ حينَ دَخَلْناهُ
١٦٦- وَنِلْنا أمانَ اللهِ عِندَ دُخولِه
كذا أخبرَ القرآنُ فيما قَرَأْناهُ

١٦٧- فيا مَنزلًا قدْ كانَ أبْركَ مَنْزلٍ
نَزَلْناهُ في الدُّنيا وَبِيْتا حَجَجْناهُ

١٦٨- تَرى حَجَّةً أُخرى إليه ودَخْلةً
وهذا على ربِّ الورَى نَتَمنَّاهُ

١٦٩- فإخوانَنا ما كانَ أحْلَى دُخولَنَا
إليهِ وَلُبْثًا في ذُراهُ لَبِثْناهُ

طوافُ الإفاضَة

١٧٠- نَطوفُ به واللهُ يُحْصي طَوافَنا
لِيُسْقِطَ عَنَّا ما نَسينا وَأحْصاهُ

١٧١- وبِالحَجَرِ الميمونِ عُجْنَا فإنهُ
لِربِّ السَّما والأرضِ للخَلْقِ يُمْناهُ

١٧٢- نُقَبِّلُهُ مِن حُبِّنا لإلهِنا
وكَمْ لَثْمةً طَيَّ الطَّوافِ لَثَمْناهُ

١٧٣- وذاكَ لنا يومَ القيامةِ شاهدٌ
وفيهِ لنا للهِ عَهدٌ عَهِدْناهُ

١٧٤- ونَستَلِمُ الرُّكْنَ اليَمانيَّ طاعةً
ونَستَغْفِرُ المَولى إذا ما لَمَسْناهُ

١٧٥- ومُلْتَزَمٌ فيه الْتَزَمْنا لِربِّنا
عُهودًا وعَهْدَ اللهِ فيهِ لَزِمْناهُ

١٧٦- وكم موقفٍ فيه يُجابُ لنا الدُّعا
دَعَوْنا بِهِ والقَصْدَ فيهِ نَوَيْناهُ

الصَّلاةُ بِالمقامِ والشُّربُ مِن زَمزمَ والسَّعي

١٧٧- وصَلَّى بأركانِ المقامِ حَجيجُنا
وفي زَمزمٍ ماءً طَهُورًا وَرَدْناهُ

١٧٨- وفيهِ الشِّفا فيه بُلوغُ مُرادِنا
لِما نحنُ نَنْويهِ إذا ما شَرِبْناهُ

١٧٩- وبينَ الصَّفا والمروةِ الوفدُ قد سَعَى
فإنَّ تمامَ الحجِّ تكميلُ مَسْعاهُ

١٨٠- فسَبْعًا سَعاها سَيِّدُ الرُّسْلِ قبلَنا
ونحنُ تَبِعْناهُ فَسَبْعًا سَعَيْناهُ

١٨١- نُهَرْوِلُ في أثْنائِها كُلَّ مَرَّةٍ
فَهذاكَ مِن فعلِ الرَّسولِ فَعَلْناهُ

تَمامُ الحجِّ والتَّحلُّلُ الثَّاني

١٨٢- وبعدَ تَمامِ الحجِّ والنُّسْكِ كلِّها
حَلَلْنا وباقي عيسِنا قد أنَخْناهُ

١٨٣- فمَنْ شاءَ وافَى الصَّيْدَ والطِّيبَ والنِّسا
فقد تَمَّ حَجٌّ للإلهِ حَجَجْناهُ

١٨٤- ولما اعتَمَرْنا كانَ أبْرَكَ عُمْرِنا
زمانٌ نَراهُ باعتمارٍ عَمَرْناهُ

ذِكرُ أقسامِ الدُّعاءِ بعدَ تَمامِ النُّسُك

١٨٥- ولما قَضَيْنا للإلهِ مَناسكًا
ذَكَرْناهُ والمطلوبَ منهُ سَألْناهُ

١٨٦- فمِنْ طالبٍ حظًّا بدُنْيا فمَا لهُ
خَلاقٌ بِأُخْراهُ إذا اللهُ لاقاهُ

١٨٧- ومِن طالبٍ حُسْنًا بدُنْيا لدينِهِ
وحُسْنًا بِأُخْراهُ وذاكَ يُوَفَّاهُ

١٨٨- وآخَرَ لا يَبغي من اللهِ حاجةً
سوى نظرةٍ في وجهِهِ يومَ عُقْباهُ

طوافُ الوَداع

١٨٩- وباتَ حَجيجُ اللهِ بالبيتِ مُحْدِقًا
ورحمةُ رَبِّ العَرشِ إذْ ذاكَ تَغْشاهُ

١٩٠- تَداعَى رِفاقٌ بالرَّحيلِ فمَا تَرى
سِوى دَمعِ عينٍ بالدعاءِ مَزَجْناهُ

١٩١- لِفُرْقةِ بيتِ اللهِ والحجرِ الذي
لأجلِهِما صَعْبَ الأُمورِ سَلَكْناهُ

١٩٢- ووَدَّعَتِ الحُجَّاجُ بَيتَ إلهِها
وكُلُّهُمُ تَجري مِنَ الحُزنِ عَيناهُ

١٩٣- فَلِلَّهِ كم باكٍ وصاحِبِ حَسْرَةٍ
يَوَدُّ بأنَّ اللهَ كانَ تَوَفَّاهُ

١٩٤- فلو تَشْهَدُ التَّوديعَ يومًا لِبَيْتِهِ
فإنَّ فِراقَ البَيْتِ مُرًّا وَجَدْناهُ

١٩٥- فما فُرقَةُ الأولادِ واللهِ إنهُ
أمَرُّ وأدْهَى ذاكَ شَيْءٌ خَبَرْناهُ

١٩٦- فمَن لم يُجَرِّبْ ليسَ يعرِفُ قَدْرَهُ
فجَرِّبْ تَجِدْ تَصديقَ ما قد ذَكَرْناهُ

١٩٧- لقد صُدِعَتْ أكبادُنا وقُلوبُنا
لِما نحنُ مِن مُرِّ الفِراقِ شَرِبْناهُ

١٩٨- وواللهِ لولا أنْ نُؤَمِّلَ عَودةً
إليهِ لَذُقْنا الموتَ حينَ فُجِعْناهُ

كتب المناسك

رشيد ناجي الحسن - ياسين كتاني

الحج أحد أركان الإسلام، ومن أعظم الطاعات لرب الأنام، ومن أهم الطرق الموصلة إلى تكفير الذنوب، وطاعة علام الغيوب.

ولإتمام هذه الفريضة العظيمة، المشتملة على عبادات بدنية ومالية، وحسية ومعنوية، وجسمية وروحية - بخلاف سائر العبادات - بدأ اهتمام العلماء بتعريف الناس بهذا الركن العظيم، وإيضاح أحكامه ومسائله وأركانه وواجباته وسننه، وما يتبع ذلك من أعمال، وما ينبغي عليهم فيه من أمور معينة لبلوغ الأمل الأسمى؛ فعقدوا لذلك الأبواب الخاصة بالمناسك، كما أفردها جمع كبير من المؤلفين بكتب خاصة؛ فكثرت فيها المصنفات، وتنوعت بين مطول ومختصر ومتوسط، وبين مجرد من الأدلة ومقترن بها، وبين مختصر في مذهب واحد ومقارن لأقوال أئمة المذاهب الأخرى، وعُرف ذلك العلم بـ «علم المناسك».

وما هذه العناية الفائقة إلا لأهميتها ودقة أحكام الحج ومتعلقاته، ولاسيما أن النبي ﷺ لم يحج إلا مرة واحدة؛ فلأجل ذلك كثرت المسائل في المناسك، وتجددت بين الحين والآخر، حتى أضفت على علم المناسك شيئا من الصعوبة والدقة، مما يدل على أهمية هذا الجانب وضرورة التمرس فيه. ولعل هذا ما دفع بشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إلى أن يقول: «... وعلم المناسك أدق ما في العبادات» (منهاج السنة النبوية ٥/٤٩٧).

بل إنه قد جاء في الأثر عن أبي حنيفة -رحمه الله تعالى- أنه كان يراوده تردد في تحديد أفضل العبادات الإسلامية، وعندما حج قال: «أيقنت الآن أن الحج أفضل العبادات».

عناية العلماء بكتب المناسك

لقد تناول الفقهاء مناسك الحج بأسلوب علمي سهل، لأن تعليم الناس يقتضي ذلك. وقد اختلفت الكتب التي ألفت في هذا الشأن من مذهب إلى آخر.

ومؤلفات هذا الفن معروفة، وأكثرها متوافرة، ولا يمكن عرضها في هذه العجالة. وقلما تجد كل هذه العلوم على المذاهب الأربعة مجتمعة في مؤلف واحد كما جمعها الإمام العلامة عز الدين ابن جماعة الكناني (المتوفى سنة ٧٦٧هـ) -رحمه الله تعالى- في كتابه المسمى «هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك».

وفي ما يلي إطلالة على بعض كتب



المناسك التي ألفت في كل مذهب من المذاهب الأربعة:

أولا - عند الحنفية

١. «البحر العميق في مناسك المعتمر والحاج إلى بيت الله العتيق» للعلامة أبي البقاء، محمد بن أحمد بن محمد ابن الضياء الحنفي، المتوفى سنة ٨٥٤هـ، رحمه الله تعالى.

وهو كتاب من أنفس ما ألف في هذا الجانب، حيث توسع فيه مصنفه، وأسهب في مسائل المناسك، وأضاف إليه فنونا أخرى، كفضائل المسجد الأقصى.

٢. «المسالك في المناسك» للإمام العلامة محمد بن مكرم بن شعبان الكرماني الحنفي، المتوفى سنة ٩٧٥هـ، رحمه الله تعالى.

٣. «لباب المناسك وعباب المسالك»، المشهور بـ «المنسك المتوسط»، للإمام العلامة عبدالله بن إبراهيم العمري السندي المكي الحنفي، رحمه الله تعالى.

ثانيا - عند المالكية

١. «كتاب الحج من المسائل المستخرجة من الأسمعة مما ليس في المدونة» للإمام العلامة محمد بن أحمد بن عبدالعزيز الأموي القرطبي الأندلسي، أبي عبدالله المالكي، المتوفى سنة ٢٥٥هـ، رحمه الله تعالى.

٢. «مناسك الحج» للإمام العلامة خليل بن إسحاق الجندي، المتوفى سنة ٧٧٦هـ، رحمه الله تعالى.

٣. «إرشاد السالك إلى أفعال المناسك» للإمام العلامة برهان الدين إبراهيم بن فرحون المدني المالكي، المتوفى سنة ٧٩٩هـ، رحمه الله تعالى.

ثالثا - عند الشافعية

١. «شفاء الغليل ودواء العليل في حج بيت الرب العظيم الجليل» للإمام العلامة أبي بكر بن علي بن محمد بن ظهيرة القرشي المكي الشافعي، المتوفى سنة ٨٨٩هـ، رحمه الله تعالى.

٢. «الإيضاح في مناسك الحج والعمرة» للإمام العلامة أبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف الأذرعي النووي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ، رحمه الله تعالى.

٣. «الإفصاح على مسائل الإيضاح» للإمام العلامة ابن حجر الهيتمي، المتوفى سنة ٩٧٣ هـ، رحمه الله تعالى.

رابعا - عند الحنابلة

١. «بغية الناسك في أحكام المناسك» للإمام العلامة محمد بن أحمد بن علي البُهوتي، الشهير بـ «الخلوتي»، المتوفى سنة ١٠٨٨هـ، رحمه الله تعالى.

٢. «مصباح السالك إلى أحكام المناسك» للإمام العلامة سليمان بن علي بن مشرف النجدي، المتوفى سنة ١٠٧٩هـ، رحمه الله تعالى، وهو جد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله تعالى.

٣. «مفيد الأنام ونور الظلام في تحرير الأحكام لحج بيت الله الحرام» للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن جاسر النجدي التميمي الوهيبي الأشيقري المكي، المتوفى سنة ١٤٠١هـ، رحمه الله تعالى.

كتب على المذاهب الأربعة

١. «هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك» للإمام العلامة عز الدين بن جماعة الكناني، المتوفى سنة ٧٦٧هـ، رحمه الله تعالى. وقد سبق الإشارة إليه.

٢. «مناسك الحج على المذاهب الأربعة» للإمام العلامة الشيخ محمد بن مانع، رحمه الله تعالى، وآخرين.

٣. «الحج والعمرة وأعمالهما على المذاهب الأربعة وزيارة مسجد الرسول ﷺ» للشيخ العلامة محمد محيي الدين عبدالحميد، رحمه الله تعالى.

٤. «جامع المسالك في أحكام المناسك» للشيخ عبدالله بن سليمان آل بليهد.



في المنظور الإسلامي

طب العلاج الطبيعي

د. جمال الدين الفاروقي
كيرالا - الهند



الإنسان منذ بدأ حياته على وجه الأرض تعلق بالطبيعة، تفاعل بأوضاعها، واستلهم منها من العبر والدروس ما تقوم به حياته ويسد حاجاته، مما صار للطبيعة الكونية أثر في صياغة عاداته وتحديد أعماله والحفاظ على كيانه.

ومن هذا القبيل اهتمامه بالصحة وقضاياها. وقد هيأ الله الطبيعة بحيث يوفر للإنسان حياة ناعمة سالمة من الأمراض والأسقام. إن الوظائف الكونية ومواردها من الطاقة والحرارة والبرودة كلها تساهم في تهيئة البيئة المواتية لحياة الإنسان. والصحة الجسمية للإنسان موقوفة على مطابقة تصرفاته الحياتية لمقتضيات الطبيعة. حتى ولو خالفها، إما بجهله أو بسوء تصرفاته، فيتعرض للأمراض والأسقام، فإن الطبيعة الجسمية بذاتها تلجأ به إلى وسائل العلاج السليمة. والطب الطبيعي إذ أحرى أن يوصف بأنه أسلوب الحياة الأليفة بالطبيعة الإلهية، وليس معناه أن الطب الكيميائي واليوناني وغيرهما يخالف الطبيعة، ولكن في غالب الأحيان نرى علوم الطب الحديثة تلح الإنسان على اللجوء إلى معالجات طبية تضر بصحته وتذهب بحيويته، وتجعله رهينا للأمراض والأوجاع ما بقي الروح في جسمه.

خاصيات الموارد الطبيعية

إن الله أودع الموارد الطبيعية من الماء والهواء والحرارة بحيث تقوم بدورها في تشفية الأمراض وضمان الصحة الجسمية والنفسية للإنسان، والماء مثلا له فوائد طبية كثيرة، والله يقول:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (الفرقان: ٤٨)، ويقول أيضا: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (ق: ٩).

وخاصيات الماء الطبيعية تتوقف على عنصرين «الطهارة والبركة»، ولكليهما أثر كبير في تشفية الأمراض والمحافظة على الصحة، والقرآن يحكي لنا تجارب نبي الله أيوب عليه السلام حين مسه الضر، وقال: إني مسني الضر، فرد الله عليه قائلا:

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (سورة ص: ٤٢)، والماء كلما مس الجسم نشط عضلاته وحرك أوعيته وأوردته.. وكان النبي ﷺ يدلك يديه وقدميه حين يتوضأ. والصدمات اليسيرة التي تصيب الجسم يمكن أن يبرأ من ألمها بمجرد تدليك الجزء المصاب بالماء البارد. وهناك علاقة أخرى بين الماء والتراب، وذلك أن الماء الملوث لو جرى فوق التراب أزال عنه الأدناس والملوثات ويكون طهورا، وفي الماء فوائد طبية كثيرة ما لا يوجد في المشروبات المصطنعة التي تملأ الأسواق.

وكذلك حرارة الشمس، وقد جعل الله أشعة الشمس مصدرا للطاقة والعناصر الحيوية التي يحتاج إليها الإنسان، وينصح الأطباء أن يعرض المواليد الجدد لأشعة الشمس وقت الصباح والمساء لفترة قصيرة، والبشرة في الجسم الإنساني تقبل العناصر الحيوية من الأشعة وتمزجها بهورمونات مختلفة مما يستخلص منه الفيتامين. وقد أكد المتخصصون كذلك، أن استخدام أشعة الشمس غذاء ودواء سوف يخفف للإنسان وطأة الأمراض، ويسهل عليه معالجتها بصورة أيسر تكلفة وأكثر فاعلية، وأثبتت التجارب الطبية أن أشعة الشمس لها أثر في معالجة أمراض السرطان.

ويمكن التعرض للشمس بالجسم مباشرة بلبس ثياب القطن الأبيض، وعلماء الطب الطبيعي يداوون المصابين بالأمراض الجلدية بهذا الضوء، وديننا - الإسلام - أيضا أولى اهتماما بالغا بهذه الطريقة في العلاج، والتعرض للشمس صار في حياة المسلم شيئا عاديا إذ يخرج خمس مرات إلى المسجد، اثنان منها في بياض النهار، مما يتيح لجسمه الفرصة للتداوي الذاتي بضوء الشمس، والعبادات ليست أعمال تعبدية فحسب، بل هي عادات صحية سليمة.

كما أن الهواء النقي يشغل حيزا كبيرا من الآفاق الجوية، ويتوفر هذا الهواء في مساحة ٥٠ كم٢ من سطح الأرض، وهو دائما يتعرض لأعمال التصفية والتنقية، وذلك للحفاظ على وجود الحياة والأحياء فوق الأرض. وعملية التنفس التي تجري في كل حركاتنا وسكناتنا تقوم بدفع الهواء إلى داخل الجسم ويقبل منه المواد النافعة كما يترك المواد الضارة. والهواء النقي يصقل العقل ويزيد الجسم نشاطا كما يزيد من عدد الكريات الحمراء في الدم. ويقوي عضلات العين، وينظم الدوران الدموي مما يجعل الجسم بكافة أعضائه ووظائفه في نشاط وصحته.

الطعام المفرط يسبب الأمراض

إن أكبر ما يعتدي به المرء على النظام الطبيعي للصحة هو أسلوب حياته وتصرفاته الغذائية التي قام بترويجها الثقافة الاستهلاكية، ومن أخطر ظواهرها الإفراط في الطعام وعدم الالتزام بالحمية مما تتزاحم منه المعدة، ولا يجد الجسم وقتا لهضم هذه المواد الغذائية وتوصيل عناصرها الحيوية إلى الأعضاء الوظيفية. وقد جهز الله النظام الداخلي لمعالجة الغذاء بحيث يوفر لجميع أعضاء الجسم فوائده الصحية. والطعام الذي يتناوله الإنسان مرة يتطلب ثماني ساعات لهضمه وتوزيع عناصره الحيوية. ومعناه أنه لا يصح تناول وجبة ثانية إلا بعد مضي هذه الفترة. ولكن العادات الخاطئة التي يعمد إليها الإنسان والمتمثلة في تراكم الطعام في المعدة، تجلب إلينا الأمراض المستعصية والمزمنة، ويمكن القول: إن ٩٠ في المائة من الأمراض البدنية تأتي من جراء سوء التغذية وفساد عملية الهضم.

وقد أرشد الإسلام المسلمين إلى ثقافة غذائية متزنة منسجمة مع طبيعة جسمه ومتماشية مع متطلبات الجهاز الهضمي. وقد حذر الرسول ﷺ أمته من الإفراط في تناول الطعام. وقال «من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت»، وفي سياق الكلام عن الكافرين يقول القرآن:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد: ١٢)، والآية الكريمة تنبئنا أن الذين يأكلون ويشبعون دائما تكون دنياهم جحيما بالأمراض والأسقام. وتبيانا لهذه الحقيقة قال ﷺ ما معناه: أهل الشبع في الدنيا هم أهل الجوع غدا في الآخرة. وذات يوم رأى النبي ﷺ رجلا أكرش فقال له: يا حبذا لو أنفقت ما أنفقت لهذا البطن لأمر آخر.

التعليمات النبوية لحماية الصحة

والدين الحنيف يقدم للبشرية أساسا متينا لصيانة الصحة وتفادي الأمراض، وهو الذي يتمثل في قوله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يفعل فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»

(١). وهذا التوزيع الغذائي يسهل للمعدة عملية الهضم ويضمن لكافة الأعضاء في الجسم صحة وإتقانا في وظائفها، وقد جاء في كلام العرب ما يشير إلى الأسباب الرئيسة لجميع الأمراض. ومنه قولهم: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء، وأصل كل داء البرداء». والحمية تجعل الإنسان بصيرا بصحة جسمه ومراقبا على ما يطرأ عليه من الحالات المرضية، ومعنى البرداء هو إدخال الطعام على الطعام الذي هو الآخر عاملا في مضاعفة حدة المرض وإفساد المعدة.

وحين بعث الرسول ﷺ معاذا إلى اليمن قال له: «إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا متنعمين» (٢)، وهذا الحديث يبين لنا أسلوب الحياة المادية التي آثرها الرسول ﷺ لنفسه ولأمته. أضف إلى هذا أحوال بيته ﷺ، إذ كان لا يرفع من بيته الدخان لشهرين أو أكثر لعدم وجود ما يطبخ، وإنما كان طعامهم وشرابهم في هذه الفترة التمر والماء، ومع ذلك ما نقصت مناعتهم وما مرضوا وما وهنوا، وهذه الحقيقة إن دلت على شيء فإنها تدل على أن الجسم الإنساني ووظائف أعضائه وأجهزته أحوج إلى الإمساك منه إلى الشبع، ولم يرو في تاريخ البشرية موت أحد بالإمساك عن الطعام والقصد فيه، بل مات وهلك الملايين وصار أضعاف مضاعفتهم في أمراض مزمنة مستعصية نتيجة انهماكهم في شبع بطونهم وعدم اكتراثهم لنداء الطبيعة.

والأسلوب السليم للثقافة الغذائية يتمثل في قوله ﷺ وهو يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه؛ بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه؛ فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» (٣). وما دام الوازع الديني موجودا في ضمير المؤمن فإنه ينبهه بسلبيات الأكل المفرط. والحديث المذكور أجدر أن يسجل بأسطر ذهبية ليكون شعارا لصحة كل مسلم، ولم يجد البشرية ولن يجدوا إرشادا أغلى منه للحفاظ على الثقافة الغذائية الصحيحة التي تجنب الجوع والأمراض في وقت واحد، ولكن، هيهات إذ أصبح المسلمون يحملون معهم الأمراض في حلهم وترحالهم أكثر من غيرهم.

كما أن الرسول ﷺ يحذر بأضرار الإفراط والإسراف وقد قال عمر رضي الله عنه: «إياكم والبطنة، فإنها مفسدة للجسم، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم والقصد فإنه أصلح للجسد، وأبعد عن السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين». وهذه الأضرار تصيب الإنسان في ظاهر جسمه، أما الذي يصيبه باطنا فإن ذلك وارد في قوله ﷺ: «أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم وضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم». وأفكار لقمان عليه السلام هي الأخرى تبلور تلك الأضرار الباطنية، جاء ذلك في معرض كلامه لابنه وهو يقول: «يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة، وإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب».

النظام الصحي

توجد في الجسم الإنساني قوة إلهية، تعمل عمل الطبيب، وهي توجد كذلك داخل كل المخلوقات، وفي المنظور الديني نسميها الروح ووظيفتها أن تقوم بإصلاح العيوب والقصور الذي يحدث في الجسم وصيانة الخلايا من التلف والفساد. وتجري هاتان الوظيفتان دون انقطاع، إلا أن وصول الطعام بكمية كبيرة في المعدة يعوق انطلاقها، لأن الروح الواحد حين يقوم بوظيفتين في وقت واحد يستهلك مزيدا من الطاقة، وأيسر طريقة للعلاج هو تجنب الغذاء المفرط، وإذا لم يستعد الإنسان لذلك فإن الجسم بذاته يسحب خاصية الجوع ويدفع صاحبه إلى الإمساك عن الطعام.

والإمساك عن الطعام يتمثل في جميع الكائنات الحية، وهناك حيوانات وأشجار تترك الغذاء في أوقات معينة، والأشجار حين تسقط أوراقها في المواسم المعينة لكي تتنشط بعد ذلك، وتخرج أوراقا ناعمة أروع من الأولى، وتوجد فيها العناصر الحيوية أكثر مما كان من قبل، وكذلك الدودة، تترك الماء والغذاء لمدة واحد وعشرين يوما لتصير بعد ذلك فراشة جميلة، والدجاجة تحضن بيضها المخصب واحدا وعشرين يوما، تقضي هذه المدة في نوع من الإمساك، ولا تخرج فيها إلا لبعض الحاجات، والطاقة المكتسبة من خلال تغذيتها المستمرة تستهلك أيام الإمساك حتى تفقس الأفراخ، بينما تصبح الدجاجة الأم أكثر نشاطا وجمالا وغيرة على أفراخها. والحيوانات الأليفة التي نربيها تمتنع عن الطعام حين تنزل بها الأمراض. وكذلك نشاهد هذه الظاهرة في المرضى، إذ يمتنعون عن الطعام أيام المرض، يأتي في صورة الملل والتضجر تارة وبمرارة في الفم تارة أخرى، وهذا الملل يأتي إنذارا من داخل الجسم يخبر صاحبه أن الروح في شغل شاغل بصيانة الأعضاء والوظائف الداخلية، وأن الطعام الذي يدخل المعدة في هذه الأحوال سيضر تلك العمليات. والرسول ﷺ يقول: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم» (٤).

ومن هذا المنطلق صار يضرب المثل «صوموا تصحوا» (٥)، والصوم لا يطهر الجسم فحسب، بل يطهر القلب أيضا، والنفس دائما تشتهي الأطعمة، والصائم يملك نفسه أمام هذه الشهوات مع أن الأطعمة جاهزة لديه، والمسلم يستلهم نيته للصوم من قوته الإيمانية مما يكتسب بذلك الصفات المحمودة مثل الثبات والشجاعة والتفاؤل، وكل هذا يجعل

صدره منشرحا يمكنه من مواجهة الأزمات. وغزوة بدر التي وقعت في السنة الثانية للهجرة خير دليل على صحة ما ذكرنا، وفيها عبرة لأولي الأبصار كما أشار إليه القرآن، وعبرتها ليس مقصورة في انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، بل ينبغي أن نستلهم العبر أيضا من تضحيات النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، إذ كانوا يخرجون إلى ساحة القتال وهم صائمون. وإن فلسفة الحرب تتوقف على تزويد الجنود بما يحتاجون من الطعام بغض النظر إلى الحلال والحرام، حتى يكونوا على أتم الاستعداد النفسي واللياقة البدنية قبل الزحف، ولكن الإسلام قدم درسا جديد، وقد أقنع العالم بأن الصوم سيكسب لصاحبه من صفات الإقدام والحماسة وروح التضحية ما لا يناله لو كان شبعانا.

الأمراض تطهر الجسم

علماء الطب الطبيعي لهم اراؤهم المتميزة عن الأمراض، وذلك أن الأمراض ليست أعداء الإنسان، بل هي أصدقاؤه، ويقولون إن كل ما نسميه مرضا، فهو في الحقيقة وسائل تطهير الجسم ووظائفه، ولا يجوز أن نعيق انطلاقه بالأدوية الضارة، وبعبارة أخرى الأمراض يتمثل فيها العلاج الذي يقوم به الجسم تلقائيا، وهي إجراءات أمنية وعملية أليفة بالجسم، كما أنها من ضمن النظام الطبيعي الذي وضعه الخالق، ولا داعي لقمعها أو إبعادها عن الجسم. فمثلا القيء: هو من الإجراءات الأمنية التي يعمد إليها الجسم حين يدخل الجوف المأكولات التي يتعسر هضمها فتصير متعفنة مسمومة، والذي يشرب السم يقيء فورا. وإذا تمهل في ذلك فإن شفاءه في إيقائه، والحامل كذلك تقيء وقت الصباح، وذلك تجنبا لتسرب المواد المسمومة إلى جسم الجنين، فالقيء إذن رحمة، وهو من الوسائل الوقائية التي تجهز بها الجسم الإنساني، وكذلك الإسهال: الذي ينتج عن تراكم الملوثات من بقايا البراز والمسمومات مما تتخلى عنه الأمعاء، والجسم بذاته يقوم بهذه العمليات، وليس علينا إلا أن نطاوعه في مهماته ولا نقاومه بالأدوية، كما أن العطس هو الآخر من الإجراءات الوقائية التي يقوم بها الجسم، وذلك حينما يحمل الغبار مع التنفس فيصل إلى الرئة، والرئة أكثر الأعضاء الداخلية حاجة إلى الصيانة والتطهير الفوري، لذلك يأتي العطاس كرد فعل للجسم للحفاظ على الرئة والدفاع عن وظيفتها. ونظرا لأهمية هذه العملية وخطورتها ودورها في النظام الجسمي؛ أمر الرسول ﷺ أن يحمد الله عند العطاس، ولا نفطن إلى قيمة هذه النعمة الإلهية إلا حين نفقدها. وفي حالات الزكام يسيل الأنف، ويخرج منه المخاط والبلغم وهو ليس شيئا يخاف منه. بل هو مثل البول والبراز، وكل ما في الأمر أن الزكام يطهر المناخير والجيوب الأنفية، وإذا داويناه بالأدوية ذات الفاعلية الكيميائية ستكون عاقبته وخيمة، إذ ينشأ عنها الصداع وانسداد الأنف والربو، وكذلك السعال هو عملية إخراج البلغم المتراكم في الرئة، ولو لجأنا إلى الدواء حين تظهر أعراضه لأعقنا تلك العملية، ونتج عنه أمراض الرئة والربو. والأمراض الجلدية تظهر حين ينهض الجسم بمهمة إخراج الملوثات المتراكمة في الدم، وإذا تألم أي جزء من أجزاء الجسم فإنه يدل على أن ذلك الجزء يحتاج إلى ترميم وإصلاح.

ورسولنا الحبيب ﷺ يخبرنا عن الحمى وفاعليتها الإيجابية على المريض، وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ذكرت الحمى عند رسول الله، فسبها رجل، فقال رسول الله: لا تسبها، فإنها تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الحديد» (٦)، قال بعض السلف: إن الحمى تدخل في كل الأعضاء والمفاصل البالغ عددها ثلاثمائة وستين مفصلا، ومعنى ذلك أنها تدخل فيها وتخرج ما بها من الخبث والدنس وتطهرها من حالات الإصابات الداخلية. وقد أثبتت الاكتشافات أن حرارة الجسم المتزايدة تقضي على انتشار الفيروسات والباكتيريا. وإذا حم الجسم فليس علينا إلا أن نصبر وننتظر ماذا ستفعل بنا، وبعد البرء من الحمى يكتسب الجسم مزيدا من النشاط، وعلى هذا يقول أبقراط عالم الطب المشهور: «لو أعطيتموني الحمى سأقضي على كل الأمراض، وقول أبي هريرة رضي الله عنه يؤيد ما قال أبقراط، وهو يقول: ما من مرض يصيبني أحب إلي من الحمى، لأنها تدخل في كل عضو مني» (٧).

ولو عاش المسلم مراعيا لهذه الإرشادات النبوية والتعليمات الإلهية فإنه سيمكنه من الحمية والوقاية ما لا يبلغ إليه المعالجات الطبية الحديثة ذات التكلفة الباهظة. ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ.



هوامش

١- رواه ابن ماجة رقم الحديث ٣٣٤٩.
٢- رواه الإمام أحمد والبيهقى.
٣- منهاج المسلم / أبو بكر الجزائرى : ص. ١٠٤.
٤- رواه ابن ماجة. كتاب الطب.
٥- ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٢/٨٣.
٦- رواه ابن ماجة برقم : ٣٤٦٩.
٧- زاد المعاد / ابن قيم الجوزية . جـ ٤ ص: ٣٢.

مقصد التعارف وأثره في تقوية النسيج الاجتماعي

د. إبراهيم مهنا
باحث بوزارة الأوقاف الكويتية



التعارف: مصدر من عرف؛ بمعنى: علم، يقال: عرّفه الأمر: أعلمه إياه. وتعارف القوم: أي عرف بعضهم بعضا. وفي الحديث: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» (١).

التعارف من مقاصد الشريعة

للعلماء طرق عديدة في معرفة مقاصد الشريعة الإسلامية واكتشافها، وقد يسّر الله تعالى سبل الوصول إلى بعض حكمه البالغة، وأسرار أحكامه الباهرة، حيث نص بشكل واضح على كثير من العلل والحكم، وفي بعض الأحيان لا ينص الشارع على المقاصد من الأحكام بشكل مباشر، ولكن يمكن الوصول إليها بطرق؛ منها استقراء النصوص للتعرف على المقصد المطلوب.

وجل هذه الطرق تستند إلى دلالة الخطاب الشرعي، فتارة يستقل النص الشرعي بإفادة المقاصد، وتارة لا يفيد إلا بانضمامه مع قرائن أخرى، وتارة تستنبط عن طريق مسالك العلة، أو عن طريق استقراء النصوص الشرعية حيث تجتمع الدلائل على معنى مقاصدي مطلوب.

ويمكن أن تستند معرفة المقاصد إلى عمل النبي ﷺ، وفي هذا يقول د. عبد المجيد النجار: «إن الأفعال النبوية يمكن أن تكون بذاتها، أو بقرائن ظروفها وأحوالها، مسلكا يعرف منه المقصد الشرعي؛ وذلك لأن النبي ﷺ لما يداوم على إتيان فعل ما في مناسبات متعددة وفي ظروف مختلفة؛ فإن تلك المداومة يتحصل منها للناظر فيها أن تلك الأفعال إنما كانت لتحقيق هدف من أجله وقعت وتكررت، وذلك هو المقصد الشرعي منها، فيعرف إذن من خلال ذات تلك الأفعال المتكررة» (٢).

ونجد أن مقصد التعارف يمكن معرفته من دلالة النص الشرعي المباشرة، كما جاء في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (سورة الحجرات:١٣).

حيث بيّن الله عز وجل بشكل واضح العلة من خلق الناس شعوبا وقبائل فقال: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾.

وكذلك يمكن استنباط مقصد التعارف من دلالة فعل النبي ﷺ المتكرر، فقد كان حريصا على معرفة الناس والتعرف على أحوالهم وأخبارهم، يبادرهم بالسلام والابتسام، ونحو ذلك مما سيأتي بشيء من التفصيل لاحقا.

التعارف من مقاصد بعض العبادات والحدود

أولا- التعارف من مقاصد الحج

في الحج يتحقق معنى التعارف بين المسلمين، وإن اختلفت اللغات والأوطان والمشارب، فهم يجتمعون على صعيد واحد أياما متتاليات، ما جمعهم إلا طاعتهم لله عز وجل، فيتعارفون بينهم ويتراحمون، فيكون التعارف من أكبر أسباب الألفة بين أهل الإسلام. وفي الحج يتم التعرف على أحوال المسلمين في كل مكان، حيث يسمع المسلم من أخيه القادم من مشارق الأرض ومغاربها مباشرة عن أحوال المسلمين في بلاده، ويتبادلون المنافع والخبرات، والنصح والإرشاد.

ثانيا- التعارف من مقاصد صلوات الجمع والجماعات

كان المسجد حلقة الاتصال بين المسلمين، به يتم التعارف والتآلف، وقد شرع الله تعالى الاجتماع للصلوات الخمس والجمع والعيدين؛ لما في الاجتماع من حصول التنافس في الخيرات، والتنشط عليها والتعلم والتعليم لأحكامها، فإن العالم ينبه الجاهل، والجاهل يتعلم بالقول وبالفعل من العالم، ويقتدي الناس بعضهم ببعض. وكذلك لما يحصل في الاجتماع للصلوات في المساجد من تعارف وتواصل بين المسلمين، وتتوطد معرفة الجيران وأهل الحي الواحد بإتيانهم إلى الصلوات في المساجد.

ثالثا- التعارف من مقاصد تحريم الزنا

اختلاط الأنساب واضطرابها من نتائج جريمة الزنا الوخيمة، فكان ذلك من أسباب تحريم الزنا. وقد لحظ الإمام ابن القيم هذا المعنى في تحريم الزنا، فقال: «ولما كان الزنا من أمهات الجرائم وكبائر المعاصي؛ لما فيه من اختلاف الأنساب الذي يبطل معه التعارف والتناصر على إحياء الدين، وفي هذا هلاك الحرث والنسل فشاكل في معانيه أو في أكثرها القتل الذي فيه هلاك ذلك، فزجر عنه بالقصاص ليرتدع عن مثل فعله من يهم به، فيعود ذلك بعمارة الدنيا وصلاح العالم، الموصل إلى إقامة العبادات، الموصلة إلى نعيم الآخرة» (٣).

آداب إسلامية تعمق التعارف بين الناس

أولا- إفشاء السلام

التحية بوابة التعارف ومدخله الأمثل، ولا تحية أروع من السلام، ولقد حث الإسلام على إفشاء السلام قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» (٤). وجعل إفشاء السلام سبيلا للتحاب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلَا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (٥).

وبذل السلام وإفشاؤه يكون على جميع أفراد المجتمع من نعرف ومن لا نعرف، فقد سئل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ فقال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» (٦).

ويضاف لفضيلة إفشاء السلام استحباب المصافحة، وجعلها سببا لغفران الذنوب، قال رسول الله ﷺ: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما، كما تتحات الورق من الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما، ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر» (٧).

ثانيا- التبسم وبشاشة الوجه

إن كان السلام بوابة التعارف، فإن الابتسامة والبشاشة مفتاح القلوب، وبهما تتهيأ النفوس لتعميق التعارف، وتستعد للتواصل الإيجابي الفعال، والتبسم علامة على صفاء القلب ونقائه، وبشاشة الوجه دلالة على اللين والتسامح، وكان النبي ﷺ طلق الوجه، كثير التبسم، ويحض على ذلك، ويرغب فيه، ويجعله من المعروف، قال ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة» (٨)، وقال ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» (٩).

ثالثا- صلة الأرحام والقرابة

أولى الناس بتعزيز التعارف معهم هم ذوو الأرحام والقرابة، قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ (لقمان:١٥)، وعن علي



بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث ليس لأحد من الناس فيهن رخصة: بر الوالدين مسلما كان أو كافرا...» (١٠). وهذه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما تستفتي النبي ﷺ في صلة أمها المشركة التي جاءت لزيارتها بعد صلح الحديبية فيقول لها النبي ﷺ: «نعم صليها» (١١).

وقال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ (الإسراء: ٢٦)، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠)، وتأمل عموم لفظ ذي القربى، فيشمل المسلم وغير المسلم، إذ إن أخوال المسلم قد يكونون من أهل الكتاب من غير المسلمين؛ لجواز مناكحتهم.

رابعا- حسن الجوار

حرص الإسلام أشد الحرص على تحقيق الأمن المجتمعي، فكان من آدابه تعظيم شأن الجار، فقد وصى الله تعالى بجميع أنواع الجيران، ذي القرابة منهم والغريب، القريب والبعيد، المسلم وغير المسلم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ (النساء: ٣٦)، وجعل النبي ﷺ حسن الجوار من كمال الإيمان، فها هو يقسم بالله تعالى: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن! قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه» (١٢).

والإحسان إلى الجار يكون بمواساته، وحسن عشرته، وبكف الأذى عنه، وبالمحاماة دونه، وبتحمل أذاه، وفي الحديث: «خير الجيران عند الله خيرهم لجاره» (١٣).

خامسا- حسن الاستماع

حسن الاستماع للآخرين أساس مهم لتحقيق التعارف بين الناس، فإن حسن الاستماع دليل التقدير والاحترام، وهل يتواصل التعارف بين الناس وينجح من دون تقدير واحترام؟

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لجليسي عليّ ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له إذا جلس، وأصغي إليه إذا تحدث» (١٤). ومن وصايا الحسن البصري: «إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه» (١٥).

من ثمرات التعارف

التآلف والتحاب

التآلف والتحاب من ثمار التعارف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» (١٦)، وفي رواية عن سلمان رضي الله عنه: «القلوب» بدل «الأرواح» (١٧). والخير للمؤمن أن يكون ممن يألفه الناس ويأنسوا به، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مألفة ولا خير فيمن لا يَألف ولا يُؤلف» (١٨)، ولن يتحقق هذا التآلف والتحاب دون حصول تعارف حقيقي بين الناس.

التعاون والتكامل

لعل التعاون والتكامل بين الناس من أهم ثمار التعارف، فهو النتاج العملي للتعارف؛ إذ تتفاوت قدرات البشر وإمكاناتهم، ولا يمكن لإنسان أن يستغني عن الآخرين، فبعد التعارف يتكامل الناس ويتعاونون من أجل تحقيق أهدافهم المشتركة، ونشر قيم الحق وفضائله، ونبذ الباطل ورذائله، أو بعبارة أخرى: للتعاون على تطبيق العقد المدني (الدستور) الذي توافق عليه المواطنون على اختلاف دياناتهم وألوانهم وأشكالهم، وهذا التعاون والتكامل لن يحدث إلا إذا كان على أسس صحيحة متعارف عليها، فكلما كان محل التعاون قريبا من الحق والعدل، كان أدعى لتقارب الناس وتعاونهم على تحقيقه. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ (المائدة: ٢).

الهوامش

١- لسان العرب، المعجم الوسيط، مادة (عرف). والحديث متفق عليه. البخاري ح٣٣٦، ومسلم ح١٥٩.
٢- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص٣٤.
٣- إعلام الموقعين ٢/٨٣.
٤- رواه الدارمي (استئذان) ح٢٥١٨، (صلاة) ح١٤٢٤، والترمذي (أطعمة) ح١٧٧٨، (صفة القيامة) ح٢٤٠٩، وأحمد ح٧٥٩١، ٧٩٤٥، ٩٩٩٦، ٢٢٦٦٨، وابن ماجه (إقامة) ح١٣٢٤.
٥- رواه مسلم (إيمان) ح٨١.
٦- رواه البخاري (إيمان) ح١١، ٢٧، ومسلم (إيمان) ح٥٦.
٧- رواه الطبراني في الكبير ح٦١٥٠.
٨- رواه الترمذي (بر وصلة) ح١٨٧٩.
٩- رواه مسلم (استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء) ح١٤٤.
١٠- رواه البيهقي في شعب الإيمان.
١١- رواه البخاري (جزية) ح٢٩٤٦، ومسلم (زكاة) ح١٦٧٠، ١٦٧١.
١٢- رواه البخاري (أدب) ح٥٥٥٥، ٥٥٥٦.
١٣- رواه الترمذي (بر وصلة) ح١٨٦٧، وأحمد (المكثرين من الصحابة) ح٦٢٧٨ والدارمي (سير) ح٢٣٣٠.
١٤- عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري ١/٤٢٥.
١٥- رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، ح٧٣١.
١٦- سبق تخريجه.
١٧- رواه الخرائطي في اعتلال القلوب ح٤٦١.
١٨- رواه أحمد، والطبراني، وابن حبان، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان، وأبو الشيخ في الأمثال، والبيهقي في الشعب، انظر: مسند أحمد تحقيق الأرناؤوط ط الرسالة ٣٧/٤٩٢. وقال الأرناؤوط: متن الحديث حسن.

أسباب الانبهار بالغرب وتداعياته



أحلام عباسي
باحثة في الدراسات الإسلامية - المغرب

لا أحد يشك في أن تفاعل الحضارات يعتبر خاصية أساسية من خواص الحضارة الإنسانية، ويعبر عن الطبيعة التلقائية للحركة والعلاقات الاجتماعية بين المجتمعات. وللتفاعل الحضاري أسباب وعوامل، أهمها: الغزوات، والفتوحات، والعلاقات التجارية، وتبادل الخبرات المادية والمعنوية. ثم إن الأشياء والإنتاجات المادية والوسائل التقنية غالبا ما تكون أسرع انتقالا من الأفكار والعقائد والملل. ويلاحظ دارسو الحضارات أن قوة تأثر حضارة بحضارة ما تتعلق بموقف إحداهما من الأخرى، فإذا كان الموقف يعبر عن نوع من الندية، كان التأثير المتبادل قائما على التوازن السليم. في حين إذا كان الموقف موقف إعجاب وانبهار من طرف إزاء طرف آخر كان التأثر سريعا وعميقا من قبل الطرف الأول، وقد يصل إلى حد الذوبان والتماهي والانصهار في الطرف الثاني (١).

ولعل العلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، خير دليل مجسد لموقف الإعجاب والانبهار. ولقد تدرجت الشعوب الإسلامية -على طول هذه الفترة- في الانغماس في الحضارة الغربية، والتأثر بقيمها وعاداتها. كما سعت طبقة المترفين والمثقفين من المعجبين بمدنية الغرب، جيلا بعد جيل، إلى تحويل مجتمعها، ذي المرجعية الإسلامية، إلى مجتمع غربي، أو بالأحرى تابع للغرب خانع خاضع له في جميع المجالات والصعد الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية وحتى الثقافية.

فما هي إذن الأسباب التي كانت وراء هذا الاستتباع الحضاري للغرب، واللهث خلفه حتى الإعياء؟ وإلى متى سيظل العالم الإسلامي مبهورا مشدودا إلى الحضارة الغربية؟ وإلى متى سيظل مستهلكا لمنتجاتها وبضائعها؟

أسئلة حرجة آن لنا أن نوجهها إلى أنفسنا بكل صدق وإصرار؛ حتى نعرف الداء ويتيسر لنا البحث عن الدواء الشافي لهذا الداء العضال الذي يهدد كيان الأمة أجمع في هويتها وخصوصيتها.

ويمكن تقسيم الأسباب التي كانت وراء هذا الاستتباع الحضاري للغرب إلى أسباب خارجية وأخرى داخلية.

بالنسبة إلى الأسباب الخارجية، فقد كان للاستعمار العسكري والسياسي للبلاد الإسلامية دور بالغ في تحريك عجلة الاستغراب والدفع بها إلى الأمام، فجل بلدان العالم الإسلامي، كما هو معلوم، كانت تحت وطأة الاستعمار الأوروبي، الذي أعمل جهده في فصل الجيل الذي عاش في كنفه عن أرضه ومنبته الإسلامي السمح، حيث حاصر التعليم الإسلامي وحارب اللغة العربية، وأنشأ بدلا منه التعليم العلماني، الذي يتماشى مع برامجه، والقضاء الذي يحكم بقوانينه، والإدارة التي تسير بأنظمته، والإعلام الذي ينشر أفكاره وثقافته التوسعية الإمبريالية، والأوضاع التي ترسخ

قيمه وتقاليده -المتحررة- في نفوس المسلمين. ولم يكتف المستعمر بهذا الوجه، بل خلق لنا وجها جديدا، إلا أنه هذه المرة أكثر توسعا واجتياحا، وذلك من خلال الغزو الفكري والثقافي، مستغلا تفوقه العلمي، ومسخرا سيطرته السياسية للإسراع بالتحولات المدنية والثقافية التي يريدها بحيث تخرج الإدارة والجيوش وتبقى التبعية والخضوع. هذا الوجه من الغزو، الذي اخترق الأسوار والقفار والبحار، وغزا الأقطار، ودخل إلى كل بيت وتربع على قلوب أصحابه من دون استئذان أو استئناس منهم، فعمل على نشر أفكاره المدمرة للأخلاق والمفسدة للعقول والمبادئ التي يحث عليها ديننا الحنيف.

فخرج بذلك المستعمر وهو مطمئن إلى أن هذه الحملة قد آتت ثمارها، وأن مرحلة ما بعد الاستعمار ستكون امتدادا لمرحلة الاستعمار، تتحقق فيها مصالحه بصورة أفضل وبتكلفة أقل، فأينعت هذه المخططات الاستعمارية ثمارها السلبية المرجوة منها.

الأسـباب الداخلـية

أما بالنسبة إلى الأسباب الداخلية فيمكن حصرها في الضعف الفكري الذي أصاب العقل المسلم إبان عصر الجمود والانحطاط، الذي كان العالم الإسلامي يقبع تحته مقلدا متبعا معارضا لأي اجتهاد أو إبداع، الأمر الذي جعل عقل المسلم خاملا غائبا عن مجريات الأحداث وما يدور في الساحة العلمية من تحديات، مكتفيا بالمشاهدة والتعامل المجحف مع الواقع بشيء من اللامبالاة، وبقدر من عدم الاهتمام. إلى جانب الأنانية الفردية، التي عادة ما تقود الشخص إلى التمسك بما يملك من فكر، أو رأي، أو خبرة، أو حتى متاع الدنيا، ويحرص على الاكتفاء بأدنى ما يستطيع من المشاركة في إنتاجية مجتمعه (٢).

هذا الضعف والارتكاس الذي أصاب الفكر الإسلامي وسرى في عروقه، جعل المسلم يحس بعقدة النقص أمام الغرب، الذي وصل إلى ما وصل إليه من تقدم وازدهار علمي وتطور تكنولوجي مذهل؛ فانعدمت ثقته بنفسه وبقدراته على مسايرة هذا الركب الحضاري والتكنولوجي، وهذه الثورات العلمية والصناعية التي تعاقبت وتسارعت خطاها، وصار التغيير المترتب عليها يتم وفق متوالية هندسية؛ لأن كل اكتشاف علمي يحمل في ثناياه اكتشافات جديدة تتولد منه (٣).

فأوقف عجلة التقدم والانطلاق، وفتح أبوابه وأسواقه إلى المنتوجات الدخيلة، مستهلكا غير مصنع، مستورد غير مصدر، إذ تحدثت الإحصائيات سنة ٢٠٠٥ أن الواردات التي يستوردها العالم الإسلامي بلغت قيمتها ٤٣٠ مليار دولار، في حين بلغ حجم الصادرات ما قيمته ٣٦٠ مليار دولار (٤). هذا الفرق المهول بين قيمة الصادرات والواردات في العالم الإسلامي لخير شاهد على ما تعيشه الأمة من حالة الاستهلاك والتواكل والاستجداء من الغرب. إذ ما زلنا نعتمد -وللأسف الشديد- في غذائنا وكسائنا ودوائنا وسلاحنا على ما تنتجه لنا أمم أخرى، تتحكم بذلك في مستقبلنا ومصيرنا، بل نفتخر ونتباهى بكل منتوج غربي، ولو كان مضرا ومتعارضا مع عاداتنا وتقاليدنا الدينية، فالناس في المدن يطربون للموسيقى الغربية، ويفتخرون باللباس الغربي، ويتباهون بالسلوك الغربي المتحرر.. باختصار إنهم يلمسون في باطنهم ميلا إلى اقتناء أو ممارسة كل ما يجود به الغرب عليهم، ميلا إلى تقليده والاقتداء به إلا في العلم والمعرفة للأسف، وذلك لإحساس هؤلاء الدائم بأن الغرب أحسن منهم، أو بالأحرى أقوى منهم، الأمر الذي جعلهم يلعبون دور الضعيف المنهزم المولع بتقليد الغالب القوي كما يقول ابن خلدون «في شعاره، وزيه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده. والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو الكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء» (٥).

أنمــاط غـربيــة

هذه الحالة المتردية التي أصبحت تلف العالم الإسلامي لفا لا مفر له منها، وتحاصره في كل مكان، هي، وللأسف، مدعمة من طرف الغرب، الذي يتربص بالعالم الإسلامي في محاولة لنقله من تربته الإسلامية إلى تربة أخرى تتبنى أنماطا غربية في الحياة، وذلك حتى لا تقوم لهذه الأمة قائمة، وذلك بنشر التعطيل بين أبنائها، هذا الأمر الذي عبر عنه أحد المسؤولين في وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٥٢م بقوله: «فلنعط لهذا العالم -الإسلامي- ما يشاء، ولنقو في نفسه الرغبة في عدم الإنتاج الصناعي والفني حتى لا ينهض وينافسنا» (٦).

هذه السياسة الماكرة التي خطط لها الغرب نجحت إلى حد ما في العالم الإسلامي المأسوف عليه، خصوصا في صفوف الشباب الذين أصبحوا غربيين في لباسهم، وسلوكياتهم، ولغاتهم، ومبادئهم. وأصبحت القيم الإسلامية في نظرهم تقاليد قديمة لا تتناسب مع مجريات العصر ومع الحداثة، وأصبحت اللغة العربية، التي اصطفاها الله لتكون لغة كتابه الحكيم، لغة العوام التي تعبر عن التخلف والرجعية!

لكن هذه الحقيقة، وللأسف الشديد، لم يعها المسلمون، لم يعوا أنهم مستهدفون من طرف الغرب، لم يعوا بأن الحضارة الإسلامية، التي أضحى معتنقوها يرمون بأقبح الصفات والنعوت، ما كان لها أن تصاب بالتبلد الفكري والعجز العلمي، وهي التي كانت لها في التقدم العلمي والمعرفي

مشاركة لا تضاهيها مشاركة أية أمة من الأمم.

«هذه الأمة التي أنشأها الله عن قلة، ورفع شأوها إلى الذروة، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت عوالي الراسيات، وانشقت لهيبتها سرائر الجبابرة وذابت للرعب منها قلوب الأكاسرة والقياصرة، هال ظهورها الهائل كل نفس، وتحير في سبب هذا الظهور كل عقل، واهتدى للسبب أهل الحق، فقالوا: أولئك قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، ونصروا دين الله فنصرهم الله، واسترشدوا بهديه فأرشدهم» (٧).

فلما أصابها ما أصاب الأمم السابقة التي قال فيها عزوجل:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣١ و٣٢)، من فساد في الأخلاق، وهبوط مميت في القيم، وتسارع إلى اللهو والمجون والترف والفجور، أذهب الله عنهم ما كان لهم من عز وسلطان في المعرفة وسيادة لهم على الأمم، فصاروا من جملة الخدم لأسيادهم بعدما كانوا سادة لهم في سابق عزهم ومجدهم الضائع.

ولعل سبيل النجاة من هذه الورطة الحضارية، ومن هذه الأوهام والهواجس التي رانت على العقل المسلم ردحا من الزمان، والدواء الشافي له من هذا الداء العضال الذي مسه في جميع جوانبه الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، وحتى الاجتماعية... والتي جعلت منه قزما مفتونا أمام الدمى الإلكترونية واللعب الفضائية الوافدة عليه من الغرب من دون تمييز أو تمحيص منه، وكأهم خطوة للمجابهة الفعلية لهذا الهزال، هو أن نبني الإنسان البناء المتكامل ليكون في حجم التحدي، وتربيته على أخلاقيات عقدية تمنحه المناعة الحضارية المطلوبة ضد أي تيار وافد، وذلك تبعا لسنة الله في التغيير والنهوض، إذ يقول عز من قائل في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١). فالنهضة لها شروطها التي لا تتخلف، فمن أخذ بها نجح في تحقيق نهضته، ومن تخلى عن تلك الشروط وأهملها فشل في ذلك.

ومن أهم شروط تحقيق النهضة إعلاء شأن العقل من جديد في ثقافة المسلمين، بل في حياتهم كلها، وذلك بغية اللحاق بالتقدم العلمي والتكنولوجي الذي يشهده عصرنا الراهن في ظل العولمة والثورات العلمية في جميع الميادين، خصوصا مجال المواصلات والاتصال، وهذا لن يتم إلا إذا ارتبطنا بعقيدتنا، وتراثنا ولغتنا. وفي اتصالنا بالحضارة الغربية نعمل على تخير الجوانب العلمية، والخبرات الفنية التي من شأنها أن تبني الأمة بناء صحيحا متكاملا متميزا في مقوماته، مستقلا في إرادته، قويا في اقتصاده، ترتفع في ربوعه راية الإيمان ومنارة العلم.

فأمتنا اليوم مدعوة لبناء نفسها بناء حديثا، في شتى المجالات (الاجتماعية والاقتصادية والثقافية...)، والطريق إلى ذلك هو تعميق الثقة بالنفس انطلاقا من الثقة والإيمان بالله، وإبراز الكيان الفكري لأمتنا المتوافق بأصالته التربوية يمكن أجيالنا المقبلة أن ينهلوا من معين الحضارة ما يحتاجونه لبناء مجتمعهم واقتصادهم من دون أن تحمل هذه الاستفادة أخطار الذوبان والضياع في متاهات تبعدنا عن أرضنا الطيبة وتراثنا الفكري المشرق (٨).

فما علينا إذن إلا أن نعقد النية ونتحرك بهمة، فرب همة أحيت أمة. وهذه الهمة هي التي تنقل الأمة من حال السكون إلى الحركة، ومن الانكفاء على الماضي إلى التوجه للمستقبل، وهي التي تنقل الجيل كله من الحيرة والإحباط إلى الأمل واتساع الرجاء، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:١٠٥).

هـوامـش

١- الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر من خلال كتابات د. محمد عابد الجابري، د. عبدالله العروي د. فاطمة المرنيسي للمؤلف عبدالله الشارف، الطبعة الأولى، مارس ٢٠٠٣، طوب بريس، ص:١١، بتصرف.

٢- دراسة في البناء الحضاري، «محنة المسلم مع حضارة عصره»، كتاب الأمة، الدكتور محمود محمد سفر، ص: ٤٧، بتصرف.

٣- مجلة الوعي الإسلامي، مقال أسباب النهضة ليست سرا يستعصي على الأمة المسلمة، حوار مع المفكر الإسلامي الدكتور كمال أبو المجد حاوره محمد الدسوقي، ص: ٣١، العدد ٤٥٢، السنة ٤٠، ربيع الآخر ١٤٢٤هـ/ يونيو ٢٠٠٥م.

٤- إحصائيات قدمها الدكتور عبدالمجيد النجار بمؤتمر عمان.

٥- المقدمة للعلامة ابن خلدون، الفصل الثالث والعشرون، ص:١٤٧، الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٦- قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله، لعبدالودود يوسف، ص:٣٦-٣٧، بتصرف، ١٤١٣هـ/١٩٩٤م، دار السلام للطباعة والنشر، نقلا عن جند الله، ص:٢٢.

٧ - الرحلة المراكشية أو مرآة المساوئ الوقتية للعلامة محمد بن محمد بن عبدالله المؤقت، ص:٢٣.

٨ - أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، أحمد علي الملا، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق، ص:٢٣٣، بتصرف.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٤)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



لا يملك قطار هذه الحلقات اللغوية، الذي لم تُحدد له محطات وصول نهائية، إلا أن يسعى إلى الاستمرار في الاتجاه نحو بلوغ مدينة الفصاحة الفاضلة، التي تجمل العربية المعاصرة وتكمل زينتها وصفاءها ورونقها وخلابتها، من خلال ربطها بالمصادر المكينة والعيون الثرارة التي أمدتها بعناصر الحياة التي لا ينضب معينها ما توالى الملوان. وبما أن هذا المسعى يجب أن يكون فعلا جماعيا، لا يكتفى فيه بجهود الآحاد، فإن تباشير هذا المسعى بدأت تلوح في الأفق العربي لانبثاق صحوة تعيد للفصحى وهجها وألقها، ومن ثمة بدأ هلال تلك التباشير يتحول رويدا ليصبح بدرا مكتملا في جهود كثير من الهيئات والمؤسسات التي تعنى بالعربية الفصحى، مثل: المجلس الدولي للغة العربية، ومركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية، ومؤسسة الفكر العربي التي أطلقت مبادرة: «لننهض بلغتنا».. وغيرها من المراكز والهيئات والجمعيات التي جعلت وكدها وسدمها الانتصار للعربية الفصحى والدفاع عنها وتنقيتها من الشوائب والأحراش التي تعيق شجرتها عن النمو الأمثل، الذي يواكب حضارة العولمة ويمدها بالألفاظ والاصطلاحات الجديدة التي لا ينقطع نسلها عن المحتد العربي الصميم؛ باعتباره الضابط الذي يوحد ويوجه الجهود نحو كنس هذا التمزق اللغوي الذي عم فساده سماوات وأرضين الوطن العربي. ولكي لا يتحول وميض هذه الهيئات والمنظمات إلى سوى برق خلب لا يعد بشيء تناله الفصحى وتتقوى به، فإن العربية الفصحى بحاجة، بالإضافة إلى جهود أولي العزم من هذه الأمة، إلى قرار سياسي ملزم يدعو العرب جميعهم بألا يتكلموا مع العالم من حولهم إلا باللغة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم والشعر العربي البليغ؛ وعندما نمضي في هذه السبيل السالكة فإن العالم سيسمع صوتنا، وسيقدر لغتنا، وسينظر إلينا نظرة مخالفة لا يشوبها الذل الذي كان يلمحنا به طبقا لقاعدة: «ما ذل قوم، إلا ذلت لغتهم».

هذه هي القاعدة الذهبية التي يجب علينا، نحن العرب، أن نقرع لها ظنبوب الاجتهاد، ونخوض إليها الغمر والضحول، قبل أن نعض على أيدينا، ونقرع سن نادم على حيرتنا وتهيبنا ودعوتنا إلى قطع ذنب الأفعى وترك رأسها الذي يجر على لغتنا الشاعرة الويل والهلاك من لدن أعدائها اللد داخل أوطاننا وخارجها، والذين يشيعون عنها قالة السوء ويكيلون لها التهم جزافا وجحدا بآلائها، وإنكارا لمزياتها، وزعما

آفكا بقصورها وعدم قدرتها على مواكبة حداثة الغرب العولمية على هذه الشاكلة: «وتبدأ لغة الخشب عندنا في السنوات الأولى من التعليم الابتدائي، عندما يلقن الطفل دروسا بلغة مقعرة لا تمت إلى عصرنا بصلة، ثم يجبر التلميذ على حفظ أشعار ومنظومات كتاب موتى حقيقة ومجازا... وهذا ما يرسخ في الأجيال قناعة مفادها أن ما يتعلمه من لغة وأفكار لا علاقة له بالحياة العصرية، فهو منفصل عنها تماما.. وتتناغم لغة التعليم الأولى مع لغة مسجدية تلقينية ينقل فيها محسوبون على الخطابة نصوصا من كتب صفراء مليئة بالسجع» (١).

لابد من وضع مثل هذه الآراء الدبرية الملهوجة والدعوات المنكرة في أماكنها من سقط المتاع، وأن نأتي عليها من قواعدها، لأنها دعوات منكرة لا تنهض على حجج سليمة يمكن الإذعان لها، لأنها مجرد «عمل من أعمال الهدم الصراح عن سوء نية وخبث طوية، يتعمده المجاهرون به لتقويض معالم اللغة، ومحو آثار الأدب، وفصم العلاقة الفكرية بين روائع الثقافة العربية في مختلف العصور. وتلك شنشنة نعهدها في العصر الحاضر من دعاة الهدم المستترين وراء كلمات التقدم والتجديد. وأين يعمل هؤلاء عملهم الهادم إن لم يكن هذا عملهم المقصود من وراء الستار؟» (٢). لقد أفرخت بيضة أمثال هذا المنشئ، ومن ثمة بدت حجة أقوالهم الشنارة أضعف من حجة واقع تعلم اللغة العربية الفصحى، التي كان الأوائل يرون السبيل الناهجة لتحصيل ملكاتها تكمن في الإكثار من سماع القرآن الكريم والشعر العربي البليغ وأقوال الحكماء والخطباء وأمثالهم السائرة. هذا هو الحق الأبلج الذي لا جمجمة فيه، فمن أراد الفصحى وسعى لها سعيها، فإن مرآتها المجلوة محصورة في هذه الأصول التي ليس لنا بعدها التفات إلى دعوات فارغة يتولاها ألفاف منشئون يتحدثون بما لم يحيطوا به خبرا، وهذا هو الرأي القارح والغرة الشادخة في تعليم الفصحى وتعلمها. ومن التمسها في غير هذه المصادر، وبغير هذه الوسيلة السماعية التي تجعل الشداة ينشأون عليها حتى تصبح بضعة من كيانهم وتمتلئ بها قلوبهم، فيمحضون لها الحب، ويتشبعون بقواعدها وقوانينها التي اكتسبوها بالفطرة من دون اللجوء إلى ضوابط المتون اللغوية كالأجرومية والألفية، فإنه يجري خلف سراب بقيعة.

إذا ثبت أن لكل شيء بذرة، فإن بذرة الفصاحة لا تنمو ولا يشتد عودها ولا تزكو ثمارها إلا بإطالة الاستماع إلى الكلام العربي المبين، واللواذ بأقوال الحذاق المنصفين قبل أن ترحل الفصاحة عن الديار وتطير عن الأفواه كما طارت جرادة العيار؛ لأن اللحن في اللغة ثمنه مكلف، يعرض اللغة للهزال، ويؤدي إلى سوء الفهم، وسوء الفهم ينجم عنه جمود المعرفة والرضا بالجهل الذي يفضي إلى الصراع الضار بالسلم المجتمعي الذي ينذر بالكوارث الماحقة المضرة بالتعايش الإنساني. وقديما أكد أفلاطون أن فساد مدينته الفاضلة يبدأ من تحريف الكلمات في أثناء الاتصال والتواصل. ولكي لا يطم بحر هذا الفساد اللغوي، فإننا مدعوون إلى إعمال القواعد والقوانين التي ضمنت للفصحى جودة الفهم والإفهام، لكونها الضابط الموحد الذي يوجه نحو الصحة والفصاحة كما تتوجه الجعافر والأسرية والفوالج إلى الوادي الكبير، لأننا محاصرون بكثير من العبارات اللاحنة التي غمرت الشداة، فانتقل داؤها إلى أساتيذ الجامعات والمعاهد العليا، لم يسلم من حبائلها حتى كبار الأدباء الذين يؤتم بهديهم، على شاكلة هذه العبارة التي تتردد على الألسنة وتكتب على اللوحات واليافطات في أثناء الترحيب بالمشاركين في المؤتمرات والندوات العلمية التي تقام في أرجاء الوطن العربي. وبما أن هذه العبارة تكررت في الندوات التي شاركت فيها خلال شهري جمادى الآخرة ورجب حتى تكرجت، فقد آليت على نفسي أن أنبه أساتيذنا الفضلاء ومفكرينا البزلاء إلى أن فساد هذه العبارة: «مرحبا بالحضور الكريم»، ناتج عن الخلط بين صيغتي «المصدر» و«جمع الكثرة على وزن فعول»، والذي هو: «حضور»، وبما أن الحضور المراد من العبارة الآنفة ليس هو مصدر «حضر حضورا»، إذ لا يمكن أن نرحب بالمصدر الذي يدل على الحدث المجرد من الزمان، فإن المقصود من لفظة «حضور» جمع التكسير لـ«حاضر»، التي تقتضي أن تكون صفتها مطابقة للموصوف في الإفراد والتثنية والجمع والتذكير ثم التأنيث، إلا إذا كان الموصوف جمعا مما لا يعقل، فإنه يجوز أن تكون الصفة مفردة أو جمعا مثل قولنا: «شاهدت حدائق مزروعة أو مزروعات». أما إذا كان الموصوف من العقلاء، فإن الصفة توافق موصوفها موافقة تامة، ومن ثمة تصبح العبارة الصحيحة التي تخصص الحاضرين بالكرم هي: «مرحبا بالحضور الكرام» أو «مرحبا بالحضور الكرماء»، لكي توافق الصفة جمع «حاضر».

قال تعالى واصفا الملائكة بالكرام البررة: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ (عبس:١٥ و١٦). كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾ (الانفطار:١٠ و١١).

هذه نظرة من طرف خفي، وبرق وامض يَعد الذين يشيمون سحائبه بالغيث النَافع الذي ينمي شجرة الفصحى، غزوت من خلال هذا المرور الطائر اجتذاب مواكب القراء واستلطافهم لمصاحبتي راغبين هاشين مستعدين لشرب كلماتي التي أجلو بها عين الصواب ليقتدوا به، وأظهر لهم قحم طريق اللحن والفساد اللغوي لينصرفوا عنها ويطووا عنها الكشح، ملتمسا الفصاحة والبيان من مصادرهما التي اشتملت على أحرار الألفاظ وللآلئ العبارات، كلما زهت لفظة بخلابتها، تنفست أختها عن طيب نشرها في رياض العربية الفصحى الذفرة، التي ضمت من القول أحسنه، ومن المنطق أبينه، ومن المعنى أصحه وأتقنه.

الهوامش

١- اللعب بالكلمات، الخير شوار، مجلة الدوحة، عدد٧٩، ص:٢٨، رجب ١٤٣٥هـ/مايو ٢٠١٤م، وزارة الثقافة والفنون، الدوحة، قطر.

٢- اللغة الشاعرة، عباس محمود العقاد، كتاب المجلة العربية، عدد٢١١، ص:٣٦، الرياض ١٤٣٥هـ.

د. حسن بشير عضو مجمعي الخرطوم والقاهرة:

نحو مشروع قومي لإنشاء شهادة اللغة العربية الدولية

حوار: محمد عويس - القاهرة



علينا نحن العرب أن ندرك متطلبات الزمن المعاصر المستوعب بثورة المعلومات، المؤثر على جميع أوجه النشاط الحياتي الآني؛ قطريا وإقليميا ودوليا، وأساس هذه الثورة هندسة الاتصالات التي جعلت الكون كله قرية واحدة تتصل خطوطها داخل منحنى مغلق، والذي لا يحقق وجود لغته داخل القرية الدولية لا يستطيع تحقيق ذاته في هذه القرية، ومن يقبل الإبعاد للغته يقبله لشخصه، وموت اللغة لا يعني إلا موت الناطقين بها، بهذه العبارات بادرنا د. حسن بشير عضو مجمعي الخرطوم والقاهرة اللغويين، مضيفا: وفي سياق سعي اللغات للحياة كان صراع اللغات واستباقها إلى أفق التوطين بالنظم الحاسوبية، وإلى التوطين بشبكة المعلومات الدولية، وإلى تقديمها المبرمج للآخرين من الناطقين بلغات أخر، وكل ذلك تحاوله الأمم المتقدمة لإثبات حياتها وتعزيز مركزها. مجلة «الوعي الإسلامي» التقت د. بشير خلال مشاركته في الدورة المجمعية الثمانين بالقاهرة، وكان هذا الحوار:

• حاول بعض الباحثين أن يدخل قضية التعريب في كل الميادين الحياتية المتصورة، بما في ذلك أمن الأمة العربية.. ما رأيك في ذلك؟

- التعريب قضية أمن قومي لأمتنا العربية، وقضية كيان وهوية، وقضية تربوية ومجتمعية، يحافظ على الذاتية والثقافة، ويعزز الانتماء، ويصون وحدة الأمة في مواجهة هيمنة العولمة، ومحاولتها طمس هويات الشعوب، وتهديد ثقافتها بالذوبان والامحاء. ودعوتنا اليوم للتعريب الشامل، وفق سياسة لغوية قومية، هي وصل لتاريخنا الحديث بتاريخنا التليد؛ فإن نقل جميع «العلوم القديمة إلى اللغة العربية كان سياسة راسخة للدولة الإسلامية على اختلاف العهود والحكام. فالتعريب الذي كانت بداياته الأولى في عهد الأمويين، بدأ ينضج في عهد العباسيين، منذ عهد أبي جعفر المنصور والرشيد، وبات مشهورا في عهد المأمون. وتمثل هذا الدور في انتشار مؤسسات علمية متخصصة بالترجمة ونقل العلوم إلى العربية. فقد نشأت دار الحكمة ببغداد، في بداياتها الأولى في عهد الرشيد، وازدهرت في عهد المأمون، وأصبح الحصول على مخطوطات جميع العلوم القديمة مرتبطا بسياسة الدولة، ثم تكرر هذا النموذج في تاريخنا السياسي عبر العصور، خاصة في الأندلس. إذن دعوتنا للسياسة العربية القومية في عهدنا المعاصر تعتبر وصلا للجديد بالقديم.

• بوجهة نظرك لماذا الآن شهادة اللغة العربية الدولية ضرورة ملحة؟

- لتأكيد الثقة بأنفسنا وبلغتنا، تطوير اللغة العربية يتأتى بإدخالها إلى دائرة سباق اللغات الكوني، وبإنشاء شهادة دولية لها، وبتوطينها في أجهزة الحاسوب، وفي شبكة المعلومات الدولية. اللغة العربية مؤهلة للمشاركة الدولية؛ بتأصيلها التاريخي، وبإمكاناتها الصوتية والصرفية والنحوية والأسلوبية. ومؤهلة بشخصية الأمة العربية، وبالعدد الكوني الكبير للناطقين بها.

ميدان سباق اللغات الكوني لا يقبل إلا لغة حية بحياة أهلها، عزيزة بعزتهم؛ إذ لا توجد لغة عزيزة لأمة ذليلة. خمسة آلاف كلمة رصيد كاف لتأسيس التطور اللغوي الشامل. وهو قدر محصلة الدارسين لستة الكتب المقررة لست دورات شهادة اللغة العربية الدولية. شهادة اللغة العربية الدولية تمكن الناطق بغير العربية من التواصل مع آفاق الوطن العربي، في بناء المصالح المشتركة. مفتاح النجاح لشهادة اللغة العربية الدولية اعتراف العرب جميعا بها، ومطالبتهم المتعامل معهم من غير العرب بها، حتى يكون الحصول على «ض١» أو «ض٢» المدخل الأساس لعلاقات التعاون.



● نود إلقاء الضوء على المشروع القومي لإنشاء شهادة اللغة العربية الدولية؟

– من مشكلات اللغة العربية المعاصرة عدم وجود شهادة دولية لها؛ شهادة مصممة ومنفذة على الأساس القومي للأمة العربية. ذلك الأساس هو ما يلزم كل العرب في شتى أقطارهم أن يطلبوا من غيرهم الساعين لأفق العلاقات العربية؛ أن يطلبوا منهم الحصول على شهادة اللغة العربية الدولية، وأن يجعلوا هذا الطلب شرطا أوليا لربط العلاقات، والاشتراك في المصالح المختلفة. إنني أرى أن هذا المشروع ضرورة عصرية للدفع بلغتنا الفصيحة المشتركة إلى ميدان السباق الدولي للغات الحية. والأمر في تقديري صنو توطين العربية في نظم الحاسبات الآلية، وشبيه توطينها في شبكة المعلومات الدولية. وإنه علينا نحن العرب أن نبدأ ذلك في مختلف الميادين؛ وفق جدولة نجعل فاتحتها تصميم شهادة اللغة العربية الدولية وتنفيذها. إننا في هذا الأمر لسنا بدعا؛ فكل الأمم الحية المعاصرة تعنى بشهادة عالمية للغتها؛ ومن الأمثلة غير الحصرية.(IELTS) و(C.L.C) عند الإنجليز، و(TOEFL) عند الأميركان، و(DELF) و(DALF) عند الفرنسيين، و(TÖMER) عند الأتراك.

● ما هو الشكل المقترح لمشروع شهادة اللغة العربية الدولية؟

– الخطة التنفيذية الخاصة بتنزيل مشروع شهادة اللغة العربية الدولية للواقع العملي: تصميم ست دورات دراسية، مدتها اثنان وعشرون شهرا، مسلسلة وفق النظام المنهجي المتتابع؛ ينتقل الدارس على أساسه من الصوت العربي مخرجا وصفة، إلى المعجم العربي ثروة وذخيرة، إلى النص العربي حفظا وفهما وتذوقا ومزاجا، إلى البحث العلمي الأولي والمتوسط والمتقدم، باللغة العربية الصحيحة الفصيحة المشتركة، تأليف ستة كتب دراسية تشتمل على أساس المادة المطلوبة لامتحان شهادة اللغة العربية الدولية، وذلك وفق المنهج المقرر لكل دورة من ست دورات: الدورة الابتدائية الأولى، الثانية ثم الدورة المتوسطة الأولى، الثانية ثم الدورة المتقدمة الأولى، الثانية. وهناك تصميم ورقي وإلكتروني لامتحان شهادة اللغة العربية الدولية؛ «ض١» و«ض٢».

● ولكن من هم المستهدفون بهذه الشهادة؟

– المتعاملون مع الدول العربية، في المجالات غير العلمية، من الناطقين بغير العربية؛ مستهدفون بشهادة اللغة العربية الدولية العامة «ض١»، المتعاملون مع الدول العربية، في المجالات العلمية، من الناطقين بغير العربية؛ مستهدفون بشهادة اللغة العربية الدولية المتقدمة «ض٢». والجهة المصدرة للشهادة: تصدر شهادة اللغة العربية الدولية عن اتحاد المجامع العربية، وتوقع من رئيسه، وتوثق من جامعة الدول العربية، ومن وزارات الخارجية بكل أقطار الوطن العربي.

● ومن المنوط به وضع مقرر الشهادة، تصميم المنهج، وتأليف الكتب؟

– تؤلف الكتب المقررة الستة للدورات الستة باتحاد المجامع العربية. ولاتحاد المجامع أن يستعين في التصميم والتنفيذ بالمؤسسات التعليمية العربية المختصة بالشأن، مثل: معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ومعهد اللغة العربية بجامعة الملك سعود بالرياض، والمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، والمجلس الدولي للغة العربية ببيروت، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ووزارات التعليم بالوطن العربي. ومن المعروف أن تأليف الكتب الدراسية يؤسس على التوصيف المنهجي للمقرر، وهو أمر – وفق هذه الخطة – منوط باتحاد المجامع العربية.

● وما هي توصياتك بخصوص خروج المشروع للنور؟

– الاستعانة في الأمر بالمؤسسات العربية المتخصصة؛ مثل: معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ومعهد اللغة العربية بجامعة الملك سعود بالرياض، أن يعنى اتحاد المجامع العربية بالتخطيط والتنفيذ لشهادة اللغة العربية الدولية على أساس المشروع القومي الجامع، وعلى أساس اللغة العربية الصحيحة الفصيحة المشتركة بين أقطار الوطن العربي، وأن تفتح جامعة الدول العربية نافذة في مقرها الرئيس بالقاهرة؛ لاعتماد شهادة اللغة العربية الدولية وتوثيقها، وعمل الترتيبات اللازمة لاعتراف كل دول الوطن العربي بها، أيضا لوزراء الخارجية العرب دور بأن يفتحوا نوافذ في وزاراتهم؛ لاعتماد شهادة اللغة العربية الدولية وتوثيقها، وتنظم دورا رساليا للسفارات العربية بالخارج؛ بحيث يكون في كل سفارة مركز لامتحان شهادة اللغة العربية الدولية، ومعهد لتعليم العربية لغير العرب، ومكتبة عربية ورقية وإلكترونية.



الله كريم

مياسة النخلاني
قاصة يمنية

بعد يوم شاق قضاه هاني في عمله، ودع زملاءه وأوشك أن يأخذ طريق العودة إلى البيت، ليحصل أخيرا على وجبة غداء ساخنة، قضت زوجته جزءا من يومها تعدها له، «أبي لا تنس القطار!» رن صدى صوت طفله أحمد المتوسل تدللا في جوانب قلبه وهو يكرر طلبه للحصول على لعبته التي وعده بشرائها منذ أيام، لا يكف عن تذكيره كل صباح بوعده الذي يؤجله رغما عنه؛ تارة بسبب الانشغال، وتارة أخرى بسبب ضيق ذات اليد، حتى أشفق على نفسه أخيرا من نظرات الخيبة التي يلهبه بها صغيره كلما رآه عائدا خالي الوفاض، رغم أن معدته تصرخ من الجوع، والإنهاك يستبد بكل خلية من خلايا جسده، لكنه غير الطريق مقررا ألا يحرم ابنه من لحظات من السعادة تلامس جدران قلبه الصغير، لن يخذل ابنه أكثر مما خذله، خاصة أن أبناء أخيه، ميسور الحال، تلبى أمنياتهم من قبل حتى أن يطلبوها، ويعجز عن تحمل شعور ابنه بالقهر أمام رفاهيتهم التي يلمسها كلما تبادلوا الزيارات، تفقد محفظته وحمد الله أن ما بها كفيل بشراء القطار.

توسل معدته أن تصبر عليه لبعض الوقت، ووقف تحت أشعة الشمس الحارقة ينتظر الحافلة لتأخذه إلى السوق مبللا ريقه الجاف بلسانه الأكثر جفافا، وبينما هو كذلك تسلل صوت طفولي إلى أذنيه: «أرجوك ساعدني» لم يكن صدى صوت ابنه المنبعث من جنبات قلبه، بل صوتا آخر لا يقل رقة، التفت إلى مصدر الصوت فوقعت عيناه على طفل لا يتجاوز السابعة من عمره، حافي القدمين تنطق عيناه بنظرات الاستعطاف والتذلل، وهو يشير بيديه نحو فمه طلبا للطعام: «الله كريم!» قالها وعاد ليتابع الحافلات المكتظة التي تمر من أمامه محاولا العثور على واحدة خالية، كرر الطفل النداء دون جدوى، فبين معدة مشغولة بالطعام الذي لم تذقه منذ ساعات الصباح الأولى، وقلب مشغول بتخيل فرحة ابنه بقطاره لم ينتبه هاني أن الطفل أطال الوقوف بجانبه لوقت ليس بالقصير، أفاق أخيرا من شروده وبدأت صورة الصغير بحالته الرثة تتضح أكثر في مخيلته، لابد وأنه قد طاف على قدميه طويلا وتعرض للخذلان من الكثيرين، وهاهو يتجاهله بكل قسوة غير عابئ بجوعه ويده الممدودة له بانكسار!! باخلا عليه ببعض القروش التي ستشكل له فارقا كبيرا، ومعطيا جل اهتمامه لحصول ابنه على لعبة سيمل منها سريعا ويرميها في أحد أركان البيت بعد بضعة أيام.

تجاهل الحافلة التي توقفت له أخيرا، وتلفت حوله وكله أمل ألا يكون الطفل قد ابتعد كثيرا، وجده أخيرا مستندا على الواجهة الزجاجية للمطعم القريب، يراقب الجالسين على الموائد العامرة بقلب ينفطر كمدا، لوهلة شعر أنه ينظر لابنه أحمد وهو يقف محله، يستجدي لقمة لم تعرف طريقها إلى معدته.. ربما منذ أيام، دون أن يرأف لقلبه أحد، دارت به الأرض وكاد أن يقع من شدة الهلع من مجرد التخيل، تقدم بخطوات مترنحة نحو الصغير، نفحه بعض المال على استحياء ثم مضى ونظرة الامتنان التي ارتسمت على عينيه لا تفارق مخيلته..

اشترى لابنه لعبته التي يريدها وعاد للبيت، استقبل حضنه الصغير وسعادته البالغة بابتسامة باهتة، دخل غرفته دون أن يتناول طعامه وقلبه يرزح تحت وطأة الشعور بالذنب والخجل من نفسه أن تجاهل صغيرا أطال الوقوف بجانبه دون أن يرق له قلبه، انشغل بسعادة طفله عن إدخال البهجة لقلب طفل آخر بإعطائه بعض الاهتمام الذي يستحقه، والذي لن يكلفه الكثير، متمنيا من أعماق قلبه أن يلتقيه مرة أخرى ليعوضه بوجبة طعام سيتناولانها معا في المطعم ذاته.

حين تحب الناس جميعا

نجاح عبدالقادر سرور
شاعر مصري

حين تحب الناس جميعا
تشعر أنك مثل طيور!
طافت بالبيت المعمور!
حين تحب الناس جميعا
تشعر أن فؤادك نور!
عقلك نور!
بدد آفاق الديجور!
يشرق فينا مثل الشمس!
يفتح أبواب الفردوس!
يصعد في ملكوت الله
حول العرش يدور يدور
حين تحب الناس جميعا

****

حين تحب الناس جميعا
تشعر أنك عفو.. رحمة!
فجر.. نسمة!
طفل.. بسمة!
نفحات المسك المنثور!
تشعر أنك محض سلام!
محض فضاء!
ازدحمت فيه الأحلام!
نهر منساب رقراق!
خضر للناس الأيام!
جعل جميع العام ربيعا!
حين تحب الناس جميعا

****

حين تحب الناس جميعا
تشعر أنك محض وضوء!
محض صلاة!
قد باركها حب الله!
تشعر أنك نهر صيام!
نجم قيام!
أو أنك حج مبرور!
حين تحب الناس جميعا

حين تحب الناس جميعا
تشعر أنك طيب هواء
أو أنك بركات الماء
يشتاقك كل الأحياء
كجنين في رحم الكون!
عانق كل الكون جميعا!
حين تحب الناس جميعا

****

حين تحب الناس جميعا
تشعر أنك شمس أمان
أو أنك صفحة قرآن
رتلها نهر الريان!
نزلت كانت طوق نجاة
لحيارى في أرض الله!
تشعر أنك مثل سحاب
يهمي حبا بعد غياب
تشعر أن خطاك زروع
ولسانك قدس وخشوع
تملأ هذا الكون حبورْ
حين تحب الناس جميعا

****

حبن تحب الناس جميعا
تشعر أن الطير قريب!
تشعر أن الصخر حبيب!
والسر المكنون يجيب!
تشعر أنك روح وجود
امتدت من غير حدود
وارتادت عبر الآفاق
صارت في الآفاق عطور!
حين تحب الناس جميعا

****

حين تحب الناس جميعا
تمضي في ثقة لله
يجعلك الرحمن حياة
كدعاء في قلب الحور!

تشعر أن فؤادك نور!
عقلك نور!
حبك نور!
يشرق فينا مثل الشمس!
يفتح أبواب الفردوس!
يصعد في ملكوت الله.
حول العرش يدور يدور
حين تحب الناس جميعا



رؤى مغربية جريئة في مسألة التعريب

محمد سعيد صمدي
كاتب مغربي

يكاد يتحقق الإجماع في كل المنتديات والمناظرات الوطنية واللقاءات العامة والاجتماعات الخاصة، على خطورة إشكالية الازدواجية اللغوية الحاصلة في النظام التربوي المغربي؛ خاصة في تدريس المواد العلمية بين الثانوي والتعليم العالي. وتتقاسم الشكاوى والاختلالات الأطراف المتدخلة في العملية التعليمية بشكل كبير على مستوى المخرجات والنتائج المحصلة. ويبقى الطالب المغربي في معاناة أكبر أمام التعلم والاكتساب في السلك الثانوي بلسان أمته ووطنه، وفي الجامعي (كليات معاهد مدارس...) يتلقى العلوم الدقيقة بلسان فرنسي، خاصة أن حض امتلاكه في التواصل الشفهي أو المكتوب لا يرقى بتاتا أن يكون مصدر تعلم تخصصي يؤهله للتوفق والتفوق والنجاح في التقويمات الإشهادية المتخصصة. بل إن الكثير من أبنائنا في هذه المرحلة من التعلم التخصصي يهربون وينتقلون داخل بلادهم، أرادوا أم لم يريدوا، إلى الانخراط في اللسان الفرنسي وليس حتى الإنجليزي تعلما وبحثا وفكرا وتواصلا وتخلقا، مما يتماهى ويؤثر حتما في كل جوانب الحياة عندهم؛ فلا يكون حض العربية إلا التجلي التواصلي العامي اليومي فحسب.

وهذه بعض مؤشرات خطيرة ترهن مستقبل الناشئة في اغتراب وطني حقيقي، وقد بدأت بعض تجليات الاغتراب اللغوي داخل الوطن تبرز من خلال بعض النخب المسيرة لدواليب الشأن العام المغربي.

هوية اللغة ولغة الهوية

يعتبر كل نسق لغوي موحد لجماعة بشرية تعيش في نقطة من هذا الكون الفسيح، حقا هوياتيا يمثل مؤسسة لغوية اجتماعية متعددة الأبعاد؛ حضارية تاريخية سياسية، مختصة بفئة ما، أقلية كانت أو أغلبية تمثل أمة أو جنسا معينا (فرس، أمازيغ، أوردو، عبرية، كرد...). وتكتسب لغة ما هويتها من تواضع وتوافق الناطقين بأصوات دوالها على حقائق المدلولات وتوافقهم على تراكيبها ونبراتها وإيقاعاتها... وبمقتضى هذا التوافق والتداول يكتسب هذا اللسان أو ذاك حقه في الوجود وعدم الإقصاء، داخل لغة الأمة الموحدة. يمكن في هذا السياق استحضار نموذج الإمبراطورية الصينية التي تهيمن فيها اللغة الصينية في كل أصقاع أراضيها كلغة التواصل الإداري والإعلامي، بجوار اللغات واللهجات المحلية كحقوق لغوية للأقليات التي تشكل أغلبية في مناطق مختلفة كالإيغور والتركمان للساكنة المسلمة بغرب الصين مثلا.

وكلما بدا نزوع إلى اجتثاث هوية اللغة ولغة الهوية توقد فتيل المقاومة واشتعل لهيب الصمود وإثبات الوجود، وهذا ما ظهر جليا مثلا مع الحقوق اللغوية للألبان حينما مارس عليهم ميلوسوفيتش، أواخر الثمانينيات، إرهابا صربيا مقيتا، يقول أحد الباحثين الغربيين Lee M: «في أبريل ١٩٨٩ شرعت صربيا في إحداث تغييرات في السياسة اللغوية بكوسوفو. وهي سياسات جديدة ألغت استخدام اللغة الألبانية في الحكومة والمحاكم، وبدأ التطهير في ميدان التعليم، فأعلن المسؤولون الحكوميون عن إعفاء مئات الألبانيين من مناصبهم كإداريين وأساتذة جامعة ومدراء مدارس ومدرسين، وحل الصرب محل الألبانيين في نقابات العمال والوظائف الإدارية في الإقليم كله... يجب على ميلوسوفيتش أن يواجه المقاومة الحتمية، التي ستبديها القوميات الأخرى، بمزيد من الإجراءات القمعية».

إن كل مقاربة اجتثاثية تريد تبوىء حق لغوي يملك أسباب الهيمنة والتمكين على حساب حق لغوي أصيل، لن تحقق أهدافها إلا على قدر يسير من زمن التحكم والسلطان، ولن يكتب لها الحضور ولا الصمود أمام العمق اللغوي

المتجذر في كيان الإنسان المغتصب.
والعربية في تاريخها الطويل لم تقاوم لغة قوم أو لهجة جماعة، بل إن التسامح الذي أبداه الناطقون بها والمحتضنون لها مثل قمة في السلم والتعايش اللغويين. ثم إن اللغة العربية، إلى جانب قداسة لغة الوحي الإلهي، ارتوت ماء وحياة متجددة في انفتاحها وتأثرها إلى جانب تأثيرها ولم تحجر على نفسها منع دخول مفردة أعجمية إلى نسقها؛ مطوعة وفق أبنيتها وقواعدها الصوتية؛ والقرآن الكريم فيه نماذج من المعرب الذي استوعبه الخطاب القرآني المبين. يقول المرحوم الشيخ صبحي الصالح: «العربية ليست بدعا من اللغات الإنسانية، فهي جميعا تتبادل التأثر والتأثير... متى تجاورت أو اتصل بعضها ببعض على أي وجه، وبأي سبب، ولأي غاية. ومن يرم العربية مقصورةً على الإعراب محبوسة عن التعريب، ويزعم أيضا أنها بصيغها وأنواع اشتقاقها وحدها أعربت عن خصائصها الذاتية، وأنها إن أدخلت على نفسها بالتعريب مصطلحات الحضارة شوهت محاسنها وفقدت خصائصها وأنكرت نفسها بنفسها، فليس يريد لهذه العربية إلا الموت، وليس يعيش بعربيته إلا في بروج من العاج بناها له خياله السقيم».
والعربية من أمهات اللغات التي تمتلك هوية وكيانا عصيين على الإقصاء والمحو أو على الأقل التضييق والمزاحمة، بما تضطلع به من مقومات الحياة؛ التحدي والتجدد والتطوير والمواكبة. وأي تخطيط للسياسة اللغوية ببلادنا يرمي إلى تحييد مكانة هذه اللغة، مآله سوء تدبير وخيبة أمل وفشل في التقويم والنتائج. والسؤال الذي يطرح نفسه بكل جرأة هو: أحقا لا تستطيع اللغة العربية استيعاب مفاهيم ومعاجم العلوم البحتة، حتى يحرم أبناؤها من التعلم والتكوين بها؟ أو على الأقل بازدواجية لغوية، كما هو الحال في بعض الدول العربية الرائدة

التعريب يرتبط بالنهضة ومواكبة العصر

على مستوى نظام التربية والتكوين؟
إن أعقد اللغات تركيبا ونطقا ورسما هي اللغات الآسيوية، ومع ذلك يلحظ المتتبع للشأن اللغوي حضورها في الأنظمة التربوية بمختلف أسلاكها إلى جانب اللغة الإنجليزية، باعتبارها اللغة العلمية الأولى، وليس الفرنسية. بل يلحظ أيضا أن كل وسائل التقانة والحواسيب معبأة بشفرات ورموز اللسان القومي أولا، ثم الإنجليزي ثانيا، ولا فرق في هذا الشأن عندهم بين الدولة المتخلفة والمتقدمة.

هل من جرأة على التعريب؟

للإجابة عن هذا السؤال نؤثر أن نورد هنا بعض الأصوات المغربية التي أرقها تمزق الحقل اللغوي وفرض لغة الأجنبي في المنهاج التعليمي والتكويني بالتعليم العالي ببلادنا، وزاد من تعميق الإشكال التضييق على فرص الترجمة والتعريب ودعم المؤسسات والأفراد بهذا الخصوص. وهي مشاركات وأصوات لدارسين ومختصين أغنوا النقاش، وأثثوا بإسهاماتهم الفكرية الرزينة حقل البحث والتنظير في الشأن اللغوي.

• الأستاذ مصطفى محسن

بدوره الأستاذ الباحث مصطفى محسن، المعتني بالتنظير للشأن التربوي وقيم التمية والجودة في التعليم، يؤكد على الضرورة الحضارية لقضية التعريب، خاصة أن راهن المنظومة يزداد سوءا وترديا على مستوى نتائج الروائز والاختبارات الدولية التي يشارك فيها المغرب، يقول الدكتور مصطفى محسن أمد الله في عمره: «لقد أصبحت إشكالية التعريب في المغرب، كما في الوطن العربي بشكل عام، من بين أبرز الإشكالات وأخطرها وأكثرها تداولا، ولاسيما في الظرفية الراهنة التي تجتازها مجتمعاتنا الثالثية، والتي تأكد فيها بالملموس، وعبر التجارب الكونية المتعددة، أن المقومات الخصوصية لمجتمع ما ومن بين أهمها اللغة تعد الدعامة الأساسية لكل تنمية شاملة ومستديمة».
وفي أفق اتخاذ النخب المتحكمة قرار الحكمة والجرأة تجاه الوطنية الحقة والحسم لصالح التعريب؛ يظل المشهد يراوح لقطته المسرحية المعنونة بـ «الكراكيز والأيادي الخلفية». لنتأمل تشخيص مصطفى محسن لمقطع الحكاية: «ففي الوقت الذي ما تزال فيه بعض هذه النخب متشبثة بضرورة الحفاظ على الهوية الذاتية الوطنية والقومية، في الوقت الذي تتشبث فيه أيضا بلغة المستعمر وثقافته، التي تشكل سواء على مستوى وعيها أو لاوعيها نموذج التقدم والتحضر، ولعل في وضعية هذا التناقض الوجداني الغريب ما يفسر بعض سلوكات وممارسات أفراد هذه النخب. وعلى سبيل تقديم بعض الأمثلة المعبرة فقط؛ نجد العديد من الرموز الثقافية والسياسية في المغرب المعاصر ممن ينادي بالتعريب ويتحمس له على مستوى الخطاب، بينما يلجأ، على مستوى الممارسة، إلى إرسال أبنائه إلى مدارس البعثات الأجنبية والفرنسية منها بشكل خاص، والتي يعتبر تعليمها رمزا للتحضر وجسر عبور للترقي المهني والاجتماعي».
وبعد فحص دقيق للآلة المتحكمة في التخطيط والتدبير للشأن اللغوي/ الثقافي ببلادنا، يستخلص مصطفى محسن الاستشراف الذي يحمل مؤشرات بئيسة للمسألة المبحوثة: «إن مشكلات التربية والتعليم والثقافة، ومن ضمنها مشكلة التعريب، ستظل، حسب هذا الاستنتاج، معلقة بدون حل جذري

فعال، وعرضة باستمرار للتخبط والارتجال والحلول التوفيقية، بل التلفيقية، التي لا تؤدي إلى ما ينتظر منها من نتائج، والتي غالبا ما يتم التراجع عنها لإعادة التجربة من جديد، بكل ما يتطلبه ويستتبعه ذلك من كلفة مادية ومعنوية، ومن هدر لا مبرر له، ومن إحساس شعبي عام بأقصى مشاعر الإحباط وخيبة الأمل تجاه هذه التجارب الفاشلة، إحساس لا يوازيه سوى فقدان الأمل في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ذاتها.

وتبقى القناعة الأساسية التي يؤمن بها هذا الخبير التربوي هي أن التاريخ أثبت أن التنمية لن تستتبت في حلتها الطبيعية، إلا على بساط لغتها الوطنية، لا بـ«وساطة» لغوية أجنبية، خاصة وأن التعريب المنفتح والتفتح يعني إزاحة الوكالة والنيابة في مباشرة العلم والتكنولوجيا ومستحدثات وقضايا المجتمع.

• **الأستاذ عبدالقادر الفاسي الفهري**

يعد الأستاذ الفاسي الفهري من ألمع الباحثين المتخصصين في تحليل وتفكيك الدرس اللساني وقضايا التعريب واللغة، وتشهد كتاباته وأبحاثه على الدقة والعمق والأصالة والانفتاح. ويؤكد الباحث في حوار مطول معه أجرته مجلة «آفاق» أن اللغة العربية لم تكن لغة «علمية» إلا بعد مجيء الإسلام بلسان عربي مبين، يقول: «ومن المعلوم أن الناس دخلوا في الإسلام بموروثهم وبحمولاتهم الثقافية. وهم الذين نقلوا علومهم إلى العربية، فصارت اللغة العربية هي اللغة العلمية...، ويضيف ولكن التعريب الحقيقي هو الذي جاء عن طريق العلم، وعن طريق الممارسة العلمية للمسلمين أكثر من العرب، وحتى في شأن العناية باللغة العربية، لم تكن عناية العرب بها، تاريخيا، هي الأبرز. إن الذين عنوا بالعربية أكثر، وهو أمر معروف إذا ذكرنا الأسماء، هي الشعوب الإسلامية، حتى بين المغاربة. لقد اعتنى الأمازيغيون باللغة العربية وشغفوا بها أكثر مما اعتنى بها (العروبيون)...»

على مستوى استراتيجية تدبير حل مناسب لإشكال فرض «الفرنسة» كلغة للتعلم في التعليم العلمي العالي ببلادنا، يتحدث الدكتور الفاسي الفهري عن توجهات الميثاق الوطني للتربية والتكوين بشأن وضع اللغة الوطنية، وتصريف التعدد اللغوي في المنظومة، باعتباره شارك في نقاشاته وصياغته، ويتساءل بعد عشر سنوات على أجرأة الميثاق وتفعيله وبجرأة نادرة وخطاب صريح شفاف، عن مصير هذا التعاقد والتوافق الوطنيين، وأشارك معي قارئي الكريم في هذه المكاشفة/ الموثقة، التي يقول فيها: «إن الميثاق صودق عليه، وهو وثيقة مرجعية مهمة وتاريخية، ولكن عندما نريد تطبيقه نطبق ما نريد ونترك ما نريد. فقد ركزنا على أنه شمولي ووقعت عليه توافقات. فهو وثيقة تاريخية ووثيقة التوافقات السياسية والنقابية والخبراء أيضا، ووضعنا هذه الوثيقة، وفيه اختيارات لغوية. بالنسبة لعلاقة الثانوي بالتعليم العالي، اقترحنا في الميثاق بالواضح أن هناك تعليما أساسيا موحدا، وما فوق الأساسي يعطى للتلميذ الاختيار بحسب التوجيه، على أن تكون له القدرة على ذلك، أي الاختيار بين أن يدرس باللغة العربية أو اللغة الأجنبية. الميثاق يتحدث عن لغتين أجنبيتين، وليس لغة واحدة... فإذا اختار التلميذ الدراسة بالعربية، فليس لأحد الحق في حرمانه من ذلك بدعوى أنها غير صالحة، أو شيء من هذا القبيل. وكذلك إذا أراد أن تتاح له الفرص بلغة أخرى، يجب أن نترك له الاختيار،... وهذه الحلول موجودة ولكن لم نطبقها، إذن إذا دخلنا في نقاش آخر ووصلنا إلى نتيجة جديدة، ثم لم نطبقها فلماذا يصلح النقاش؟!».

وفي مساق آخر حرر بحثا نفيسا وسمه بـ «الإصلاح التربوي ولغات التدريس» أكد فيه على حقوق الطالب المغربي اللغوية، وهو الذي أطلق نعتا متميزا لهذه الحقوق اللغوية، فنعتها بالتعدد المغني لا المفقر، تعدد الإغناء والإثراء والتكامل، لا حضور فيه للإقصاء والمزاحمة وتنافر الوظائف. وبناء على هذا التصور، يقول الدكتور الفاسي الفهري: «فإننا لا نستسيغ تغييب تاريخنا ومعارفنا وثقافتنا في تعليمنا، بدعوى التقدم والرقي. فما معنى أن يجهل الطبيب أو الفيزيائي أو المهندس أو غيره من العلماء المغاربة أسماء عربية ومسلمة كثيرة، ونصوصها التي أثرت في التاريخ العلمي العالمي والتقانة والهندسة، من أمثال الرازي والبيروني والخوارزمي وابن سينا وابن رشد وابن ماسويه وحنين بن إسحاق والخيام والسموأل المغربي وابن خلدون وغيرهم كثير، وما ألفوه في الهندسة المدنية وتقنيات الري وجر المياه أو رفعها والسدود والجسور والطاقة المتولدة من الماء والريح ورياضيات الجبر والهندسة والحساب وعلوم البحار... الخ؟ ألا يجدر بالباحث المغربي ويحق له أن يطلع على هذه النصوص الباهرة؟»، ومازال الفاسي الفهري يشتغل على عدة واجهات بحثية ومحاضرات ترصد قضايا اللغة والتنمية الشاملة ببلادنا، غير آبه بتحديات الإقصاء والمزاحمة في زمن غربة العربية بحماها وديارها.

لغة الجسد في القرآن الكريم!

الكتاب العزيز أشار إليها قبل الغربيين

صلاح حسن رشيد
باحث مصري

يعد الاتصال من أهم سمات هذا العصر الذي نعيشه؛ فقد شهد ثورة معرفية كبرى في مجالات الاتصال، والتواصل؛ فتعددت وسائله، وأنواعه؛ لكن الملاحظ أنه يبقى ناقصا؛ لافتقاده لعناصر أخرى من وسائل التواصل المهمة، التي لها أكبر الأثر في إحداث الاستجابة، والتأثير، ويأتي على رأس هذه الوسائل الفاعلة؛ التواصل المرئي (غير المنطوق)؛ بأنواعه المختلفة، وصنوفه المتعددة.



وفي هذا الإطار؛ توصلت أطروحة علمية حديثة بجامعة النجاح بفلسطين، تقدم بها الباحث الفلسطيني/ أسامة جميل ربايعة إلى أن: اللغة وحدها لا تكفي - برغم أهميتها ودورها الرئيس - لإيصال المعرفة بشكلها الصحيح؛ وإنما يلزمها تواصل بصري؛ فهو القادر على إيصال العواطف، والانفعالات التي تغني هذه المعرفة، وتجعلها ذات معنى أكبر؛ فحركات الجسد التواصلية (لغة الجسد) ذات أهمية في التواصل البشري، وفي إيجاد تأثير عميق في الآخرين. ولذلك اهتم علماء النفس، والتربية، والاجتماع، والاتصال بهذا الموضوع المحوري؛ فكثرت الدراسات، والبحوث حوله؛ بصورة لافتة في الآونة الأخيرة.

وبرغم وجود بعض الدراسات حول أثر العلاقة بين لغة الجسد، والتواصل في كتاب الله العزيز، وفي السنة المطهرة؛ فإنها قليلة، وجاءت مبتسرة، وغير كافية، ولا مستوعبة لجوانب هذا الموضوع المديد، الذي أفرد له القرآن الكريم مساحات كبرى، وإشارات عظمى، وتنويعات لا حد لها، وسياقات ذات صلة؛ أتت جميعها لإيصال رسالة المولى عزوجل للمخاطبين، في كل العصور، والأمكنة! كما أن كلام سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ حمل دلالات عظيمة، وتوجيهات حميدة عبر وسائل لغة الجسد، وهي تحتاج إلى باحث جاد يعكف عليها؛ لإخراج دراسة متعمقة فيها.

أهمية الدراسة

يقول الباحث أسامة ربايعة: «وتكمن أهمية هذه الدراسة البكر؛ في كونها نواة لموضوع بحثي لم يتناوله إلا القليل من الكتاب، بشكل جزئي! وللإسهام في إثراء المكتبة القرآنية؛ بإطار نظري يتعلق بموضوع لغة الجسد في الكتاب الحكيم. ووضع إطار تصنيفي لإشارات لغة الجسد، ومدلولاتها، ومدى تأثيرها في الآخرين؛ لتشجيع الدعاة، والتربويين على توظيف هذه اللغة؛ لإيصال أفكارهم إلى الناس بطريقة أسهل، وأيسر، وعاطفة أكبر. وهناك الرغبة القوية في بيان موضوع لغة الجسد، كأسلوب قرآني فريد، ومتميز؛ قلما التفت إليه الدارسون في الإعلام، والاتصال، وعلوم الإنسان! والتأصيل لقضية؛ أن الاتصال الصامت (لغة الجسد) يوازي في الأهمية، والتأثير، والهدف الاتصال الناطق؛ إن لم يزد عليه!

قسم المؤلف الدراسة إلى مقدمة وستة فصول، تناولت: الفصل الأول: لغة الجسد؛ مفهومها ودلالاتها في السياق القرآني. وفي الفصل الثاني: لغة الجسد ودورها في الاتصال الإنساني. وفي الفصل الثالث: لغة العيون في القرآن الكريم (العين ودلالاتها، والبصر ودلالاته، والنظر ودلالاته، والهمز، واللمز، والغمز). وفي الفصل الرابع: لغة الوجه، وملامحه في القرآن الكريم؛ من خلال؛ وجوه السعداء، والأشقياء في الآخرة، والدلالات المتعلقة بوجوه أهل الدنيا.

الفصل الخامس؛ لغة الإشارات، وحركات الأعضاء: عن طريق لغة الجسد في حركات؛ اليد، والأصابع، والرأس، والأرجل. الفصل السادس؛ لغة الجسد في الهيئة، وأوضاع الجسم؛ من خلال: القيام، والوقوف، والقعود، والاستلقاء، والنوم، والمشي، والسير، والجري، وغيرها من الحركات، والإيماءات، والرموز.

فالناظر، والمتأمل في كتاب الله يدرك بكل وضوح استخدام القرآن الكريم الكثير من المصطلحات الدالة على لغة الجسد؛ وفي هذا الصدد يقول د. مهدي عرار في كتابه «البيان بلا لسان»: «يلقى القارئ في التنزيل العزيز آيات كريمات على أوصاف من الحركات الجسدية المؤدية إلى معان، وقد تكون تلك الحركة سبيلا من سبل وصف المعنى، وتشكيله، ويكون سبيلها الكناية؛ كتقليب الكفين، في مقام الندم، أو تقديم رجل، وتأخير أخرى في مقام الحيرة، والتردد في كلامنا اليومي».

ومن الآيات التي أشارت إلى هذا الموضوع، قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ (مريم:٢٩).

قال الإمام أبوالفرج ابن الجوزي في كتابه «زاد المسير في علم التفسير» تعليقا على هذه الآية الكريمة: «﴿فَأَشَارَتْ﴾ أي: فأومأت إليه، أي: إلى عيسى؛ فتكلم. وقيل المعنى: أشارت إليه أن كلموه».

في حين قال الإمام أبوالفضل محمود الآلوسي في كتابه «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»: «قال شيخ الإسلام؛ والظاهر: أنها بينت حينئذ نذرها؛ وأنها بمعزل من محاورة الإنس حسبما أمرت؛ ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها؛ بالإشارة، لا بالعبارة»! وقد دلت إشارة السيدة/ مريم -عليها السلام- على ما يؤديه الكلام من معان! لذلك فهم قومها منها؛ أنها تطلب منهم أن يكلموا عيسى عليه السلام؛ لذلك قالوا لها متعجبين: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾

إذن؛ فقد مثلت الإشارة نوعا من الاتصال عن طريق لغة الجسد؛ وهذا دليل على وجود التواصل دون كلام، وعلى سبق القرآن الكريم للغرب في هذا العلم بقرون عديدة؛ كما يقول الباحث.

ومن الآيات الكريمات التي تناولت لغة الجسد؛ قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ (آل عمران:٤١). قال الإمام

الزمخشري في كتابه «الكشاف»: «في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إلا إشارة بيد، أو رأس، أو غيرهما، وأصله التحرك». في حين قال الإمام البغوي في تفسيره «معالم التنزيل»: «والإشارة قد تكون باللسان، وبالعين، وباليد».

أثر القرآن الكريم في لغة الجسد

وعن أثر القرآن الفريد في إثراء وإغناء موضوع لغة الجسد بالمذخور القرآني القشيب؛ يقول د. محمد الأمين في كتابه «الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم»: «إن القرآن الكريم؛ يغني هذا العلم بالعديد من المفاهيم، والمواضيع التي تستحق الدراسة، ويزوده بأمثلة، لا يمكن جمعها من خلال أبحاثهم الميدانية»! ويقول أيضا: «تبين أن القرآن الكريم حافل بالأمثلة الكفيلة؛ بإثبات أن قناة الاتصال غير اللفظي؛ يمكن فهمها من خلال القرآن الكريم؛ بمعزل عن الدراسة الحديثة»! يقصد الدراسات الغربية، وغيرها التي أفردت لهذا العلم مجالات، ومساحات، وطرائق؛ ومن ثم؛ فلم تلتفت للغة الجسد الفاعلة، والمتحاورة، والإيجابية، والمؤثرة في الكتاب المهيمن، واستخراج المضامين المهمة، والمعاني الجديدة، والآثار النفسية، والتربوية، والاجتماعية غير المطروقة من قبل.

بل إن الدكتور الأمين زاد؛ فقال عن الإضافة القرآنية لهذا العلم الجديد: «وفي بعض الأحيان؛ يزودنا القرآن الكريم بنواة لمعجم عن مفردات قناة اتصالية غير لفظية بعينها»!

ولهذا قال الباحث: ويتضح مما سبق أن القرآن الكريم مرجع أساسي لهذا الموضوع؛ قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨)؛ وعليه سيأتي يوم يكون فيه هذا الفن؛ بكل مفرداته، ودلالاتها خاضعا للمعاني القرآنية العظيمة..

وحسب دراسة أنجزها المركز القومي المصري للبحوث الجنائية والاجتماعية؛ فإن: «تأثير الكلمة في الحوار يساوي نحو ٧ في المائة، وأن نبرة الصوت لها تأثير يساوي نحو ٣٨ في المائة، بينما تصل نسبة تأثير الحركات، والإشارات إلى نحو ٥٥ في المائة»!

وعن أهمية هذا العلم؛ يقول د.محمد بني يونس في كتابه «سيكولوجيا الواقعية والانفعالات»: «ولغة الجسد من الوسائل التي تحقق الكثير من التجاوب بين الناس؛ وهي أقوى بخمس مرات، من ذلك التأثير الذي تتركه الكلمات! فقد أثبتت الدراسات الحديثة؛ أن ما يقارب من نحو ٥٥ في المائة من الأهداف التي يطمح المرسل إلى تحقيقها، يصل إليها عن طريق الإيماءات، والحركات، بينما تحقق باقي العناصر النسبة المتبقية، أي ٤٥ في المائة»!

فتوحات قرآنية في هذا العلم

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ (الحج:٧٢).

ويشرح الشيخ الشنقيطي في كتابه «أضواء البيان» انفتاح الزاد القرآني بمعان عظيمة؛ من خلال توظيف لغة الجسد؛ فيقول تبشيعا لحال هؤلاء المخالفين: «وذلك المنكر الذي تعرفه في وجوههم؛ إنما هو لشدة كراهيتهم للحق! ومن الآيات الموضحة لكراهيتهم للحق؛ أنهم يمتنعون من سماعه، ويستعملون الوسائل التي تمنعهم من أن يسمعوه»

ويعلق الشيخ/ محمد متولي الشعراوي في «تفسيره» على هذه الصورة الإشارية؛ فيقول: «أي الكراهية تراها، وتقرأها في وجوههم عبوسا، وتقطيبا، وغضبا، وانفعالا، ينكر ما يسمعون، ويكاد يتحول الانفعال إلى نزوع غضبي؛ يفتك بمن يقرأ القرآن؛ لما بداخلهم من شر، وكراهية؛ لما يتلى عليهم»!

ويقول أسامة ربايعة: والحالة الجسدية هنا، التي تمثلها الآية الكريمة؛ فيها بلاغة عميقة، ودلالة واضحة على وصف حال وجوه الكافرين، الذين يرفضون الانصياع لأمر الله تعالى، والأخذ بما جاء في القرآن الكريم؛ فقد وصلت عداوتهم، وبغضهم، وحقدهم على الإسلام وأهله، وعلى كتاب الله إلى درجة خطيرة، وكبيرة؛ حتى يبدو الأمر في وجوههم من عبوس، وكلوح، وكراهية، وحقد! فقد دلت وجوههم على ما يدور في قلوبهم، وخلجات نفوسهم؛ حتى وصل الأمر إلى درجة رغبتهم الشديدة في البطش بأهل الإيمان، ومحاولة القضاء عليهم.

وقد توصلت الدراسة البحثية إلى نتائج، وتوصيات، منها: أن القرآن الكريم حرص على تنويع طرق إيصال المعاني للسامع، حسب لغة الجسد، غير المنطوقة؛ وذلك لأهمية هذا العلم، وقدرته المدهشة على توصيل الرسالة الربانية بأقصر الطرق، والوسائل إلى عموم البشر، في كل الأصقاع والأزمان، ومن هنا؛ فلابد من الاهتمام بتوظيف لغة الجسد كمقوم تربوي قرآني مهم ورئيس في مناحي الحياة، لاسيما في مراكز البحوث، والتعليم، والدعوة، والوعظ، والإرشاد، والتربية، والاجتماع؛ لما لها من أكبر الأثر في توصيل الرسالة المرجوة بأسرع الطرق، والوسائل.



معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية

د. طاهر خذيري

الفن: القواعد الفقهية والأصولية
سنة النشر: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م
رقم الطبعة: الأولى
عدد المجلدات: ٤١
إصدار: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية في دولة الإمارات

«معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية» عبارة عن موسوعة ضخمة، اجتمع على كتابتها مجموعة من العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، وتقع في واحد وأربعين مجلدا، مع مجلد آخر يحتوي على الأسطوانة الإلكترونية للموسوعة. وتعد هذه الموسوعة الأولى من نوعها؛ حيث تم إنجازها بالاشتراك بين مجمع الفقه الإسلامي الدولي، ومؤسسة زايد للأعمال الخيرية والإنسانية، واستمر العمل فيها سنين طويلة. هذا، وقد أشرف على المشروع من أوله إلى آخره كوكبة من العلماء من شتى بلدان العالم الإسلامي، وشارك في كتابة مواد الموسوعة ومراجعتها عشرات من العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، عدا الباحثين المتفرغين في مقر المشروع في جدة.





الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رحمه الله مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة

محتويات «المعلمة»

تحتوي «معلمة زايد للقواعد الفقهية» على ستة أقسام هي:

١- قسم المقدمات العامة.

٢- قسم المبادئ العامة والقواعد المقاصدية.

٣- قسم القواعد الفقهية.

٤- قسم الضوابط الفقهية.

٥- قسم القواعد الأصولية.

٦- قسم الفهارس العامة.

عمل «المعلمة» بين التقليد والاجتهاد

الأصل أن عمل الخبراء والباحثين في «المعلمة» تحكمه قواعد التقليد لا الاجتهاد بمفهومه المصطلحي، ولكن هذا المبدأ ليس على إطلاقه، فقد تم تقنينه على النحو التالي:

١- حيث يوجد اتفاق على صيغة القاعدة أو الضابط - وهذا نادرا ما يحدث- فلا مجال للاجتهاد.

٢- وحتى في هذه الحالة فقد يكون من الضروري التصرف في الصيغة المتفق عليها؛ لاعتبارات تستدعي ذلك.

٣- أما حيث لا يوجد اتفاق فيكون أمام القائم بالصياغة أن يختار من بين الصيغ المتنوعة أصلحها وفقا لمعايير حددها منهج الصياغة.

٤- وقد يكون له أن يتصرف في الصيغة التي يختارها بما يحقق هذه المعايير تحت إشراف الخبير.

٥- أما حيث لا توجد صيغة لقاعدة أو ضابط، فعليه أن يبحث عما هو كامن خلف الحكم أو الأحكام الجزئية من معنى كلي يجمعها غالبا ما يحدث في الضوابط، حيث يستظهر القائم بالصياغة هذا المعنى من خلال الشروط والتعاريف والتقاسيم وغيرها مما لم يورده الفقهاء أصلا كضابط فقهي، وهنا يكون مجال الاجتهاد فسيحا نسبيا، وقابلا للمناقشة والاعتراض بطبيعة الحال.

٦- ما سبق مقيد بوجود أحكام جزئية تفتقر إلى ضوابط تضم شتاتها، أما حيث لا يوجد حكم جزئي - وهو حال المسائل المستحدثة- فليس استحداث الأحكام مهمة مشروع «المعلمة»، بل هي مهمة المجامع الفقهية بأجهزتها وآلياتها المعروفة، والمؤتمرات المتخصصة، ولكن تكون مهمة «المعلمة» متابعة الجهود التي تبذلها هذه المجامع، حتى إذا استقر الرأي فيها على حكم فقهي لمسألة مستحدثة، فهنا يقوم مشروع «المعلمة» بمهمته على النحو الموضح سابقا.

آلية المراجعة في «معلمة القواعد»

بانتهاء مرحلة الصياغة أو قبلها يبدأ



الإعداد لمرحلة المراجعة، وعلى وجه الدقة المراجعة الخارجية؛ إذ إن الصياغة كانت تمر بمراجعة داخلية أولية من كل من الخبير (مسؤول اللجنة التي ينتمي إليها الباحث الذي قام بالصياغة) قبل أن يعتمدها، ومن مدير المشروع، الذي كان يراجع بعض العناصر للاطمئنان إلى سلامتها قبل اعتماده للصياغة.

ومن الأمور التي كان يُهتم بها في هذه المراجعة الأولية؛ غربلة التطبيقات في كل قاعدة من المسائل المكررة، والحرص على تنويع التطبيقات وشمولها لأقسام الفقه المختلفة، وكذلك استبعاد المسائل الغريبة وغير المقبولة التي تعد أقرب إلى الفقه الافتراضي منها إلى واقع الحياة، وكذلك الحرص على أن تتضمن التطبيقات بعض الأمور المعاصرة التي توضح أهمية القواعد في تقديم حلول شرعية للنوازل والمستجدات المعاصرة. ولم تكتف إدارة المشروع بهذه المستويات من المراجعة، بل أخضعت الصياغات لمراجعة جماعية يشارك فيها جميع خبراء «المعلمة»، وعنصر أو عنصران من علماء الأمة المشهورين والمتخصصين من خارج «المعلمة»؛ سواء بالمشاركة الفعلية في المناقشات وحضور الاجتماعات لمن يستطيعون ذلك، أو بإبداء الرأي مكتوبا لمن لا يستطيع الحضور، بعد أن ترسل إليه جميع نصوص صياغات القواعد المطلوب إبداء الرأي فيها، ولا



تكتمل للمراجعة قيمتها إلا بتنفيذ الملاحظات التي يبديها المراجعون، ومتابعة ذلك متابعة دقيقة في كل لجنة من لجان «المعلمة».

ما تميزت به «المعلمة»

يمكن أن توجز ميزات المعلمة في النقاط التالية:

١- بحوث المقدمات العلمية التي تكوّن في مجموعها مادة علمية كافية للبحث في القواعد كعلم شرعي مستقل، وقابل لتوليد علوم فرعية، وصالح لأن يدرس كمساق جامعي وتخصص علمي واعد.

٢- تركيز «المعلمة» على الأحكام الكلية دون تشتيت الذهن بين الجزئيات الفقهية الكثيرة، ومحاولة استيعاب أكبر قدر ممكن من الأحكام الكلية، سواء على مستوى مقاصد الشريعة ومبادئها وقيمها، أو على مستوى مناهجها الأصولية وأحكامها الفقهية الكلية بما لا يتوافر في عمل آخر على الأقل حتى وقتنا الحاضر.

٣- العمل لأول مرة على استخراج الضوابط الحاكمة للفروع الفقهية على مستوى أبواب الفقه متميزة عن القواعد الفقهية العامة،



بعد أن كانت ترد نماذج محدودة لها في كتب القواعد مختلطة بالقواعد الفقهية.

٤- بيان الصيغ المتنوعة التي وردت عن القاعدة في المراجع المختلفة، في محاولة لحصر المكررات اللفظية والمعنوية.

٥- بيان القواعد ذات العلاقة بالقاعدة محل البحث، وبيان وجه العلاقة بينهما، في محاولة لتوضيح شبكة العلاقات بين القواعد.

٦- بيان الآراء الفقهية المتنوعة، سواء بين المذاهب الكبرى أو داخل المذهب الواحد، مع محاولة إيراد الدليل الشرعي لكل رأي.

٧- إعطاء الصورة العملية بعرض تطبيقات متنوعة من الماضي والحاضر تؤكد صلاحية الشريعة -بمبادئها الكلية- للتطبيق في كل زمان ومكان.

٨- الإسهام في جهود توحيد الأمة بإصدار هذا العمل الموسوعي عن أكبر منظمة إسلامية تجمع المسلمين من سبع وخمسين دولة إسلامية، والذي شارك في إعداده ومراجعته علماء وباحثون من شتى بلاد الإسلام.

٩- الاستعانة بأساليب الإدارة العلمية في إعداد وإنجاز هذا المشروع، وكذلك الاستعانة بعلوم الحاسوب في التعامل مع العلوم الشرعية. ويعتبر هذا وذاك خطوة متقدمة يرجى أن تستمر، وتتلوها خطوات أخرى في المشاريع المماثلة.

أهمية «المعلمة»

تعتبر «معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية» أحد أهم مصادر استنباط الأحكام، كما يمكن وصفها بأنها موسوعة حضارية، تضم معظم القواعد الأساسية؛ لتحديد منهجية مختلف الشؤون الإنسانية، وفي شتى مضامين الحياة من عبادات ومعاملات وتطبيقات حياتية متنوعة، وهي ترسم الخطوط العامة التي بموجبها تسن الأحكام في سائر الجوانب المجتمعية، في الاقتصاد والسياسة، والصحة والتربية والتعليم، والشؤون الاجتماعية والأخلاقية، وفي مجال العلوم الإنسانية والتطبيقية على حد سواء.

فقد ضمت بين دفتيها الأقسام الأربعة للقواعد، فبدأت بالقواعد المقاصدية، التي تعنى بنوازع الخير التي غرسها المولى عزوجل في نفوس الخلق، كالحديث عن الصدق والأمانة والشرف والحرية والأخلاق عموما.

ثم بعد ذلك القواعد الأصولية، والتي بموجبها تم وضع القواعد الرئيسية لكل موضوع، فالأصل في كل شيء هو الإباحة، ما لم يرد فيه نص يقيده.

وبعد ذلك جاءت القواعد الفقهية، التي بموجبها يتم الحكم على العمل بالحل أو الحرمة أو الكراهة أو الاستحباب، في مجال العبادات أولا ثم المعاملات.

وهذه القواعد الكلية أو الفرعية، ليست عملا جديدا، ولكنها لأول مرة تجمع في كتاب واحد، وعلى مذاهب ثمانية (الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، والظاهرية والإباضية والزيدية والجعفرية).

وقد تم إعداد حوالي مئة ألف قاعدة، وتم العمل على تصنيفها وجمع موضوعاتها، ومطابقة المتشابه منها؛ لتصدر بعد ذلك بحوالي ٣٠٠٠ قاعدة. وقد تم وضع القاعدة الأكثر شهرة، ثم ما شابهها من قواعد في نفس المعنى أو الموضوع أو ذات علاقة، ثم شرحها، ومن ثم وضع أدلتها من القرآن والسنة وأقوال الصحابة وأفعالهم، ثم تم الشرح والتفصيل.

وأخيرا، تم التحليل واستنباط ما يستفاد من القاعدة. والجدير بالذكر أنه تصدّر «المعلمة» عدد من المقدمات التي تعتبر -في حد ذاتها- عملا جادا متميزا، حيث ظهر من خلالها كيف تم جمع القواعد، والتعريف بها واعتمادها.

كما ضم الكتاب فهارس للموضوعات والأعلام وتحقيقا شاملا للأحاديث الواردة فيها، فجاءت «المعلمة» مستوفية كل الشروط العلمية لبيان ما جاء فيها من قواعد أصولية ومقاصدية وفقهية وفق توثيق علمي دقيق.

الأدوار الأسرية في مراحل الطفل العمرية

د. مراد زهوي
باحث مغربي في الدراسات الإسلامية

تقوم رعاية الأبناء ومعاملتهم في مراحلهم العمرية الأساسية على مجموعة من الأصول والقواعد التربوية، أهمها تهذيب نفوسهم وتربية وجدانهم وتقويم ألسنتهم.

وتمكين كل فرد منهم أن يعمل بمقدار طاقته عملا يمكن للمجتمع أن يستفيد منه مستقبلا.

وغرس روح الجماعة في نفس كل فرد منهم، ليقوم -على أتم وجه وأكمله- بإعداد وإنجاز الأنشطة الاجتماعية، ولو بعد حين.

كذلك تعويدهم على تحمل المسؤولية وشحذ إراداتهم للتحكم في رغباتهم، حتى يكونوا على المستوى المأمول في بناء مجتمعهم وتنميته وحمايته (المواطنة الحقة)...

هذه أهم المعالم والعناصر المكونة للمنهج التربوي الإسلامي، والتي يجب أن ينشأ النشء في إطاره، وذلك بحسب الأطوار الثلاثة لمراحل سنه ومواهبه وقدراته واستعداداته وخواصه.

المرحلة العمرية الأولى وحاجياتها:

يجدر بالأسرة في هذه المرحلة أن تركز على تهذيب سلوكات الطفل وتقويم لسانه، وإيقاظ نباهته وتشجيعه على إعمال عقله وفكره بالتأمل والتفكر..



وتنشيط قدرته على الحفظ، ولفت انتباهه إلى ما يقع تحت بصره من الأمور والأشياء المتوافقة والمختلفة في حقائقها وصفاتها وألوانها وأحجامها ووظائفها.. وبعث كل استعداداته وقدراته العقلية والقلبية والنفسية الصالحة المعطاءة.. خاصة وأن الدراسات النفسية والتربوية تؤكد أن معالم شخصية الطفل المستقبلية، إنما تتكون في السنوات الأولى من عمره.. قال سهل بن عبدالله التستري (ت٢٨٣هـ): «كنت وأنا صبي ابن ثلاث سنين أقوم في الليل، فأنظر إلى خالي محمد بن سوار، فقال لي يوما: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت كيف أذكره؟ قال: قل ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك: الله معي، الله شاهدي، الله ناظر إلي. فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته. فقال: قل ذلك في كل ليلة سبع مرات، فقلته وأعلمته. فزادني إلى إحدى عشرة مرة، فقلته، ووقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك وداوم عليه، ثم قال لي: يا سهل، من كان الله معه وناظرا إليه هل يعصيه؟ قلت: لا. قال: إياك والمعصية، ثم لما بلغت ست سنين، حفظت القرآن كله، وكنت أصوم الكثير من الأيام...» (١).

وفي هذه المرحلة العمرية أيضا يحتاج الأبناء إلى إكسابهم عادة النطق السليم، وتزويدهم بعدد من الألفاظ اللغوية والمفردات والعبارات والجمل ذات الدلالات الفاضلة. وأفضل وأقصر وأخصر طريق لذلك ربطهم بكتاب الله تعالى، تلاوة وحفظا..

ومما يجب الحرص عليه في هذه المرحلة العمرية أيضا تعليم الأطفال فرائض الإسلام، وأركان الإيمان، وترغيبهم في الصلاة وتحبيبها لقلوبهم، وتعويد الصدق والأمانة والطهارة... وغير ذلك من الآداب المرضية والأخلاق الفطرية (القيم).

وبموازاة ذلك ينبغي توجيههم إلى ممارسة الرياضات النافعة اللطيفة المفيدة، وتشجيعهم عليها وتيسير انخراطهم في أنديتها والانتساب إليها، قال ﷺ، «روحوا القلوب ساعة وساعة» (٢).

وعن عبدالله بن الحارث رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يصف عبدالله وعبيدالله وكثير أبناء العباس، ثم يقول: من سبق إلي فله كذا وكذا، قال: فيتسابقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم» (٣). وإدراكا لقيمة الرياضة في بناء شخصية الطفل، قال عمر رضي الله عنه: «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل» (٤)، وإنما اقتصر الفاروق على هذه الأنواع لأنها المتوفرة المشتهرة في زمانه رضي الله عنه، وإلا فكل رياضة تظهر في كل زمان فهي مباحة مادامت لا عنف فيها..

إذن ففي مراعاة الأسرة لحاجيات الطفل المتقدمة والتزامها بها وتوفيرها له أهمية بالغة في نشأته مستقيم السلوك والخلق، صافي العقل وسالمه، قوي الإرادة وحازمها، متكامل النفس والجسم سليمهما.

المرحلة العمرية الثانية

أما في المرحلة العمرية الثانية (المراهقة) من عمر الابن والبنت فيجب مراعاة الميول والاتجاهات النفسية المناسبة، ويستثمر في الأبناء القدرات والاستعدادات الذهنية والإبداعية النظرية والعملية.. فمن ظهرت ميوله نحو الثقافة والتعلم شجع عليها ورغب فيها ويسرت له أسبابها، ومن بدت ميوله نحو الميادين والمهارات العملية أعين على ذلك، ومن كانت له ميول دون هذا أو ذاك وجه إلى ما يناسبه من أعمال يدوية (حرف)، لأن المجتمع بحاجة إلى كل هذه الاختصاصات والكفاءات، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له» (٥).

وهكذا تكون المرحلة العمرية الأولى من حياة الأبناء لبعث مواهبهم وتنشيطها، فضلا عن تثقيفهم وتسديد سلوكهم في المجالات والميادين الشخصية والاجتماعية، وتكون المرحلة الثانية من أعمارهم لتوجيههم وإرشادهم نحو المسارات العملية في الحياة المستقبلية، كل ذلك بالقدر الذي يناسب وينسجم مع ميولاتهم وقدراتهم واستعداداتهم النفسية والجسدية...

المرحلة العمرية الثالثة

يجب الاعتماد في هذه المرحلة على ميول الشباب من أجل استقرار التوجيه في الاختصاصات، مع ضرورة متابعة وتتبع مدى قدرة الشاب على الاستمرار في هذا التخصص، مع استحضار أنه لا ينبغي للوالدين أن يعاكسا أو يصادما طباعه واتجاهاته وقدراته، لأنه لن يوفق فيما أكره عليه منها وفرض..

يتضح مما تقرر قبل أهمية وحساسية الأدوار التربوية المنوطة بالأسرة؛ مما يستوجب معه تأهل الزوجين روحيا وفكريا ونفسيا وماديا... للاضطلاع بتلك الأدوار.

هوامش

١- إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي: ٣/ ٧٤.

٢- أخرجه القضاعي في مسند الشهاب: (٣٩٣/١) وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله، ص: ٤٣٤. والسيوطي في الفتح الكبير في ضم الزيادات للجامع الصغير: (١٣١/٢)، بلفظ: «روحوا القلوب ساعة فساعة» وقال عقبه: أي أريحوها بعض الأوقات من مكابدة العبادات، بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب. قال أبوالدرداء: «إني لأجِم فؤادي ببعض الباطل» أي اللهو الجائز «لأنشط للحق». وذكر عند المصطفى ﷺ القرآن والشعر، فجاء أبو بكر فقال: «أقراءة وشعر؟» فقال «نعم، ساعة هذا وساعة ذاك». وقال علي رضي الله عنه: «أجِمّوا هذه القلوب، فإنها تمل كما تمل الأبدان» أيِ تكل. وقال السخاوي في المقاصد الحسنة، ص٣٧٢: روحوا القلوب ساعة وساعة، الديلمي في الفردوس: (٢٥٣/٢) من جهة أبي نعيم ثم من حديث أبي الطاهر الموقري عن الزهري عن أنس رفعه بهذا، ويشهد له ما في صحيح مسلم وغيره من حديث: يا حنظلة ساعة وساعة. وذكره العجلوني في كشف الخفاء: (٤٩٧/١). وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة: (١٣٦/٨).

٣- أخرجه أحمد في المسند: (٢١٤/١).. وابن عساكر في تاريخ دمشق: (٤٧٥/٣٧). والهيثمي في مجمع الزوائد: (٢٦٣/٥) و(١٧/٩) و(٢٨٥/٩).

٤- رواه البيهقي (٤٠١/٦) ورواه الديلمي في مسند الفردوس: (٢ / ١١) ورواه ابن منده في المعرفة، وأبوموسى في الذيل.

٥- أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿فسنيسره للعسرى﴾. ومسلم رقم (٢٦٤٧) في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه. والبخاري في الأدب المفرد: (٣١١/١).



الطفل
غرس والِدَيْن.. وثمار تربية

صبحة بغورة
كاتبة جزائرية

ليس أصعب على الوالدين من أن يريا نتيجة غرسهما تذهب هباء منثورا، وليس أشقى عليهما من أن يريا فلذات كبدهما عاجزين عن الأخذ بأسباب القوة في الحياة التي تنتظرهم، متعثرين في مسارهم الدراسي، الذي هو السبيل للتزود بسلاح العلم والمعرفة، وليس هناك ما هو أكثر مرارة من أن يتفطنا متأخرَيْن إلى أنهما كانا السبب في بلوغ أبنائهما ما بلغوه من سوء الحال.

كثيرا ما يكتشف الآباء ضعف تحصيل أبنائهم لدروسهم بشكل مفاجئ، والذي قد يؤدي إلى الفشل الدراسي وضحالة المستوى الثقافي في ما بعد، فتضطرب قدرتهم على التفكير السليم في المستقبل والتخطيط الصحيح لحياتهم، مما يصيب الأسرة بانزعاج مستمر. والأصعب من ذلك، تلك المسؤولية التي تسقط على كاهلهم في متابعة الأبناء في المذاكرة.

وتعود مشكلة ضعف التحصيل، الذي يؤدي إلى الفشل في المسار الدراسي، في الأساس، إلى عدة أسباب وصعوبات، والتي قد تواجه بعض الأطفال فتعوقهم عن تحصيل نتائج مرضية، وأخطرها يبدأ من داخل الأسرة نفسها (باعتبارها الركيزة الأساسية في المجتمع)، والمدرسة، والأساتذة، وطبيعة النظام التربوي المتبع في الامتحانات.. كل هذه العوامل، وأخرى، مسؤولة عن هذه المشكلة.

اضطرابات نفسية

تعتبر الأسرة واحدة من أهم المؤسسات الاجتماعية الرئيسية، لديها وظائف حيوية في ما يتعلق بتربية الأطفال. وهذه المهام والوظائف هي: التعليم غير الرسمي، والتدريب، ونقل ثقافة الوالديْن، والمعرفة العملية والزمالة، وممارسة السيطرة، والحماية، وتحقيق الأمان النفسي. ويتضح أنه في حالة حدوث اضطراب في العلاقات بين الزوجين، فإن تأثيره لا يقتصر على الوالديْن فقط، وإنما يمتد إلى الأبناء، ويظهر هذا التأثير على شكل اضطرابات نفسية وانحرافات سلوكية تتجاوز مجرد التمتع باكتمال سلامتهم البدنية والعقلية، فليس الأمر مقتصرا على مجرد خلو الجسم من المرض، والتعافي من مظاهر العجز العضوي، وهذا ما يؤكد الارتباط بين النواحي البدنية والعقلية وبين الحالة النفسية والاجتماعية في آن واحد. وكذلك هناك تأثير متبادل بين كل جانب وآخر، واضطراب أي جانب ينعكس على حالة الفرد العامة. لذا، لابد لنا من وقفة مع أنفسنا بالمراقبة الدقيقة لردود أفعالنا إزاء تربيتنا لأبنائنا، والأخذ في الحسبان طبيعة الأطفال

الرهيفة بالامتناع عن النقاش الحاد والجدال العقيم أمامهم، وضرورة بقاء هيبة الوالدين في نفوسهم؛ لضمان دوام محبتهم، من منطلق أنه تقع على عاتق الأهل مسؤولية توفير الجو الأسري الآمن الخالي من المشاحنات والتوترات، وأخذ هدنة، ليس في أيام الامتحانات فقط، بل يجب أن تكون دائمة، بحيث لا يشعر الأطفال بالخلافات الزوجية أو يعرفون شيئا عنها. ومما لاشك فيه أن الأمر يزيد سوءا في حالات الطلاق، حيث يتولد لدى الأبناء شعور بفقدان شيء ما، وهذا الشعور يشغلهم ذهنيا كثيرا، ولفترة طويلة، وينعكس على حجم تحصيلهم المدرسي، وعلى أمنهم العاطفي، وعلى القدرة على الاستمرارية في إقامة علاقات اجتماعية سوية خالية من التوتر والخوف والقلق. ومن المشكلات الأسرية التي لها تأثير كبير على تحصيل الأبناء الدراسي، تحيز الوالدين لأحد الأولاد، وهذا في الواقع يتشكل لدى الوالدين في اللاوعي. والحقيقة أن عقلية التمييز بين الأبناء قد انتشرت وتنوعت أنماطها وأشكالها لتكون السبب المباشر في زرع بذور الغيرة بين الإخوة من دون التفكير في عواقب ذلك إلى أن يأتي يوم الحصاد عندما تنعدم مشاعر الإخوة والحب والحنان والتآزر في قلوبهم، لتتحول إلى مشاعر يصعب تصديقها، لأنها عبارة عن مشاعر الحقد والحسد التي غرسها آباء في نفوس أطفالهم، وظنوا أن تلك المعاملة القاسية شديدة الوطأة على قلب الطفل الضعيف ستجدي نفعا. ومثل هذه المعاملة نجده أكثر ما يكون عندما يوجد اختلاف في المستوى الفكري، وتباين في التحصيل المدرسي للأبناء، كأن يكون أحدهم يتسم بالذكاء والفطنة، والآخر عكسه تماما، وربما احتاج فرصة من يدفعه لاستغلال طاقته الإيجابية الدفينة ويحتاج إلى حنان الأم ورعاية الأب وتشجيعه، لتفجير مواهبه وتنميتها وإبراز ميوله، حيث إن الخالق ميز بين كل فرد بميزة قد لا توجد عند الآخر، تحتاج إلى من يسقيها بماء نقي ينعشها وهواء صافية حبيباته مثقلة بثقة النفس التي يجب على الآباء بعثها في نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم فقط، لأن التحيز الأسري سلوك هدام من شأنه أن يؤثر على دراسة الأبناء، ويجعلهم غير قادرين على التأقلم مع بيئتهم المدرسية، وعاجزين عن استيعاب دروسهم، حتى وإن كانوا أطفالا أذكياء، لأن الشعور بالإحباط، الذي زرع بداخلهم، جعلهم يشعرون بأنه لا يمكن لهم أن يكونوا ذوي فائدة وقدرة على أداء أي فعل كان، وذلك بسبب شعورهم بأنهم مهملون مقارنة بإخوتهم المميزين والمحبوبين من أهلهم.

صداع مزمن

الأسرة هي الركيزة الأساسية للتفوق على الضعف. ومع بداية كل عام دراسي تعيش الأسرة حالة من الطوارئ حتى نهاية السنة، فتشعر بصداع مزمن. قد يعتقد البعض أن اهتمام الوالدين بتدريس أبنائهما من المفترض أن يجعلهم في صفوف متقدمة، إلا أن الحالة النفسية التي يعيشها الطفل في منزل مضطرب تؤثر على نفسيته بشكل مباشر وعلى أدائه الدراسي، لأنه يصعب كثيرا على الطفل أن يفصل بين دراسته وبين همومه المنزلية، خصوصا في المرحلة الأولى، حيث يكون تكوينه النفسي والاجتماعي في مرحلة بدائية.

السلوك التربوي للطفل مرتبط بحياته داخل الأسرة والمدرسة والمجتمع الذي يعيش فيه، والأسرة والمحيط التربوي يتعهدانه بالتنشئة ويوفران له الحاجات النفسية والبدنية ومطالب الحياة اليومية، فيما يكتسب عن طريق أسرته اللغة القويمة والتراث الحضاري والروحي والتربوي للطفل المتوازن. ومع اقتراب الامتحانات، فإن للمشكلات الأسرية تأثيرها الكبير على التحصيل الدراسي للأبناء. وظاهرة التعثر الدراسي تعد ظاهرة مرضية، وأحد الاضطرابات التي تؤدي إلى إصابة الطفل بعدم المقدرة على ترجمة ما يراه أو يسمعه، أو عدم قدرته على ربط المعلومات في ذهنه. ولهذه الظاهرة أسباب نفسية واجتماعية تظهر من المشاكل الأسرية، مثل: الطلاق والتفكك الأسري وما يتبعهما من اضطرابات نفسية للأبناء. ومن مهام كل الأمهات والآباء الاهتمام بأطفالهم، سواء نفسيا أو اجتماعيا أو غذائيا، وذلك حتى يساعدوا أبناءهم في التركيز على التعليم وإبعادهم عن كل مسببات مشاكل التعثر الدراسي. وتعتبر الخلافات الزوجية من أخطر المنغصات التي تؤثر نفسيا على الأبناء، إذ إن هذه الخلافات تزرع الخوف داخل الأبناء والشعور بفقدان الاستقرار والأمان، فالأبناء أول من يحصد النتائج السلبية المترتبة على المشكلات الزوجية التي تلازم الأولاد الذين يعيشون في ظل أجواء عنيفة داخل العائلة، فحالة التوتر التي يعيش فيها الطفل توقعه، لا إراديا، في مشاكل وفي أزمات تجعله يفقد القدرة على السيطرة الذاتية في فعله، والتأقلم والتكيف لضمان صواب رد فعله، وبالتالي يصبح في حالة تؤدي إلى تعرضه لخطر مواجهة الفشل في الدراسة خاصة والإخفاق في مسار حياته. عموما لا يخلو بيت من الخلافات الزوجية، لكن على الأب والأم أن يخفياها بعيدا عن مسامع أولادهما، وألا ينشرا جو التوتر داخل المنزل، لأن ذلك ينعكس سلبا على نفسية الأطفال، وبالتالي على أدائهم الدراسي.

الحديث عن عالم الطفل أصبح يأخذ اهتماما متزايدا نظرا لأن سعادة الأسرة تنطلق من التوازن الموجود بداخلها، ذلك التوازن الذي يخلقه الأبوان من خلال التربية الصحيحة التي تقوم على أساس التقدير والاحترام وتعزيز الثقة من أجل سلامة الصحة النفسية للطفل والأسرة معا.

أدب الطفل وخطاب الهوية

أ.د أحمد يحيى علي
ناقد أدبي

تخضع المادة الأدبية في صياغتها لفضاء تساؤلي ينطلق بأنساقه اللغوية في اتجاهات عدة، منها ما يختص بصاحبه: واقعه، ثقافته، تجربته الخاصة، ثنائية «الدافع من وراء التأليف والغاية المرجو تحصيلها». ومع المؤلف يأتي فضاء التلقي: إلى من يتوجه الأديب بعمله؟ إلى شريحة بعينها بمواصفات ثقافية ونفسية واجتماعية محددة.. أم إلى قارئ عام يمثل في عموميته هذه كل فئات الجماعة؟ بل قد تمتد هذه العمومية لتتجاوز زمان الكاتب ومكانه إلى غيره، وهو ما يعني أن المؤلف يضع نصب عينيه ما يمكن تسميته «مستقبل القراءة»، إلى جانب مضارعها الذي يمثله زمنه وما فيه من مستقبلين. تضاف إلى ذلك أسئلة تتعلق بالقارئ نفسه: اختياراته، قناعاته، تجاربه، السياق الثقافي: الزماني والمكاني الخاص به.. والأثر الذي يغادره كل ذلك في تفاعله مع العمل (استجابة القارئ للنص). ومن ثم، فإن أبعادا عدة تتضافر لتشكل هوية النص على مستوى الاستقبال؛ مما يجعل من الدلالة الناجزة الناتجة عن ذلك ذات طبيعة قلقة: نسبية، قابلة للتغيير والتجاوز، أو وفق مصطلح التفكيكيين «دلالة مؤجلة» تنم عن إساءة قراءة، أو سوء ظن بالنص وما قد يفترض أنه ينطوي عليه من معان قد يبدو للمستقبل أنها تسكنه.

والكيلاني من مواليد القاهرة في العام ١٨٩٧م، أما عن الوفاة فكانت في العام ١٩٥٩م. درس الأدبين الإنجليزي والفرنسي، وانتسب إلى الجامعة المصرية وحصل من خلالها على ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية.

بدءا من العام ١٩٢٧م وجه اهتمامه إلى أدب الأطفال، وأصدر قصته الأولى بعنوان «السندباد البحري». كان له رأي في أن حوار قصص الأطفال يجب أن يكون بالفصحى. كان لتأليف القصص عنده روافد عدة: الأساطير، الأدب الشعبي، الأدب العالمي.. وكانت له كتاباته الشعرية أحيانا التي يقدم بها قصصه أو ينهيها بها. ويُنظر إليه على أنه رائد الكتابة القصصية للطفل في القرن العشرين.

كانت من بين دوافعه إلى ولوج هذا الميدان الخاص بالتأليف للطفل حماسته لروائع الأدب العربي؛ فقد دعاه أدب المعري وابن الرومي وابن زيدون إلى الحرص على أن يستمتع بالأدب العربي أبناء الجيل الجديد من المثقفين ثقافة عامة، وهداه فكره إلى أن ذلك لا يتحقق إلا بتنشئة الطفل تنشئة يتزود فيها بما يقرب إليه تلك المناهل.

من هذا المنطلق الكلاسيكي شرع الكيلاني في إنجاز عدد من الأعمال الأدبية، التي تعتمد هذه الصلة بين الماضي، تتم صياغتها في ثوب يلائم شريحة بعينها تعيش الحاضر ذا الطابع المضارع المتجدد.. وكأننا على موعد مع صوتين: ظاهر قريب يجسده ذاك الفاعل المرجعي/المؤلف، ومن ينوب عنه في داخل عالم الفن/الراوي.. وعميق يعكسه ما هو تراثي ترى الذات القاصة في إعادة إنتاجه ضرورة في عملية تشكيل الهوية بشقيها الفردي والجمعي، خصوصا إذا ما علمنا أن من بين مرتكزات تشكيل الهوية التراث.

هو أول من خاطب الأطفال عبر الإذاعة، وهو أول مؤسس لمكتبة الأطفال في مصر. ألّف وترجم ٢٥٠ قصة للأطفال منها: «مصباح علاء الدين» و«روبنسون كروزو» و«حي بن يقظان» و«نوادر جحا» و«شهرزاد» و«ألف ليلة» و«النحلة العاملة» و«بياض الثلج وحمرة الورد» و«الأرنب الذكي» وغيرها كثير. ترجمت قصصه إلى اللغات الصينية والروسية والإسبانية والإنجليزية والفرنسية.

له أعمال أدبية في مجالات أخرى غير أدب الطفل، منها كتاب في أدب الرحلات عنوانه «مذكرات الأقطار الشقيقة»، سجل فيه انطباعاته عن رحلاته في كل من فلسطين ولبنان وسوريا. كما قدم كتبا أخرى منها: «نظرات في تاريخ الإسلام»، «ملوك الطوائف»، «مصارع الخلفاء»، «مصارع الأعيان».

الصوت المحافظ

ومن ثم، يمكن القول إن كلاسيكية البارودي ورفاقه على مستوى الشعر، وعلي الجارم وعلي أحمد باكثير ورفاقهما على مستوى النثر الروائي، تليها، على مستوى الكتابة القصصية للأطفال، كلاسيكية كامل الكيلاني، الذي يمثل، وفق هذه الحال، جزءا مكونا للصوت المحافظ المنادي بأهمية الاحتفاء بالقديم وتدعيم الصلات به من منطقة الحاضر المعيش وتحولاته. فإذا كان السابقون عليه من أبناء هذا الصوت قد جعلوا من شريحة الكبار شغلهم الشاغل، فإن الكيلاني ومن على شاكلته قد وجهوا اهتمامهم إلى الصغار، أو هكذا يبدو أمرهم. ومن ثم، يرنو المشهد التواصلي مع الماضي إلى التكامل عندما تكون الجماعة عبر مكونيها العمريين (صغير، وكبير) على موعد مع لقاءات تجمعها بعدد من الأنساق التشكيلية الآتية من التراث وقد تم عرضها في أثواب جمالية يحرص ناسجوها على أن تأتي مناسبة لسياق التلقي في زمانهم.

إذن، فإن لزاما علينا التوقف مع تعبير «أدب الأطفال». إن هذا التركيب الإضافي يعني في بنائه الدلالي المباشر المادة الأدبية: شعرية، قصصية،

مسرحية.. الموجهة إلى هذه الفئة (الأطفال) التي تمثل نواة أساسية لا غنى عنها لأي مجتمع. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل الطفل في هذه العملية «مفعول/متلق» فحسب يجعله فاعل بعينه (المؤلف) محور اهتمامه خلال هذه العملية وبعدها، أم أنه (أي الطفل) يجب أن يكون هو الفاعل (الذي يؤلف لنفسه) والمفعول المستقبل في الوقت ذاته؟

إن القارئ المصاحب للمبدع يدخل في حوار مجازي معه خلال عملية التأليف، وبناء على توصيات هذا الحوار يخرج النص في شكله النهائي؛ فهل المؤلف يستحضر طفلا متخيلا خلال عملية الإبداع، أم أنه يجرد من نفسه هذا الطفل الساكن فيه في إطار من التماهي والتداخل بين شخصيتين، أو لو شئنا القول مرحلتين عمريتين: الأولى لها رتبة الماضي من حيث الزمن (مرحلة الطفولة) والثانية لها رتبة الحاضر (مرحلة الكبر)، ومن ثم يصبح الطفل الحقيقي المحتفي بإبداع الكاتب بمنزلة تجسيد حي لهذا الطفل الذي رحل أو هكذا يبدو أمامنا أنه غادر مكانه وفق منطق الأشياء؟

إن هذا التصور قد يأخذنا إلى إشكالية أعمق، ألا وهي الطفولة بالمعنى الرمزي الذي ينسجم وطبيعة الفن بصفة عامة، التي تعتمد على لعبة الخيال، التي تجعل من البناء السطحي أيقونة مشبعة «مكثفة» من حيث المعنى، وهو ما يسمح للفضاء التساؤلي المرتبط بهذا التعبير (أدب الأطفال) بالتمدد أكثر فأكثر ليضيف إليه: هل يمكن النظر إلى هذه المادة الفنية الموجهة إلى الطفل في جانب من جوانبها؛ بوصفها بناء جماليا يعتمد وفق منطوق البلاغيين على التورية؛ كأننا نطلقها في سياق الاستقبال متضمنة شريحتين: الأولى قريبة ليست هي المقصودة في حد ذاتها أو وحدها فحسب (الأطفال)، والثانية بعيدة هي المقصودة (الكبار)؟ وقد يكون لهذا النسق الاستفهامي وجاهته إذا ما عدنا إلى تراثنا العربي لنتوقف عند نموذج مثل «كليلة ودمنة» لابن المقفع (ت/١٤٢هـ)، الذي يبدو في ظاهر الكلام متنا قصصيا يعتمد صيغة السرد على ألسنة الحيوانات والطيور ليكون نموذجا مشوقا يقدم المتعة والقيمة الأخلاقية والتربوية لشريحة صغيرة السن. لكن هذا النموذج المستهدف يمثل - إلى حد كبير - حيلة فنية يراوغ بها الكاتب واقعه؛ ليسمح لنفسه بمساحة أوسع للحركة يتمكن من خلالها من تقديم الرؤى الفكرية التي يريد، ومن ثم قد تصير خصائص الكتابة للأطفال التي تميز المادة الفنية الموجهة إليهم - بدرجة كبيرة - مثل: وضوح العبارة، بساطة الأسلوب، الميل إلى الحوار غالبا، الصورة، شحنة الخيال العالية بمنزلة رموز سطحية تخفي رسالة أكثر عمقا تعتمد فكرة التقويم للطفل الكامن بداخل كل إنسان، سواء أكان كبيرا أم صغيرا، في عملية تعتمد على آلية الاسترجاع، تخاطب من خلالها روح الكاتب المبدعة ذاك الأساس، أو البذرة التي ينمو بناء عليها الإنسان؛ خصوصا أنه من بين سمات الطفولة الاستقبال من العالم بشكل مستمر، وهي مسلمة لا تفتأ تغادر الذات الإنسانية طيلة حياتها.





وتمثل هذه الرؤية افتراضا يبقى دائما مفتوحا على احتمالات عدة. وستسعى هذه الدراسة إلى مقاربة تحليلية لنماذج تطبيقية عند واحد من بين الذين اشتهروا بالكتابة للطفل، ألا وهو كامل كيلاني؛ بوصفه يمثل حلقة في سلسلة يمكن أن نؤرخ لها في الأدب في العصر الحديث بدءا من القرن التاسع عشر، ورفاعة الطهطاوي صاحب المرشد الأمين في تربية البنات والبنين، أحمد شوقي وشعره الموجه إلى الطفل، حجازي في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، محمود سالم صاحب «المغامرون الخمسة»، جار النبي الحلو، يوسف الشاروني.. وغيرهم من الكتاب الذين جعلوا من هذه الفئة في داخل المجتمع مدارا لمنجزات إبداعية أدبية، يرى فيها أصحابها قنوات للتواصل تتيح لهم الوصول إلى فضاء الاستقبال عبر أكثر من طريق لا يقتصر على هذه الكلمة «الكبار» القابلة للجدل والنقاش إلى حد كبير؛ بالنظر إلى هذا الحضور الرمزي للطفل.





الاقتصاد الإسلامي الأخضر

يتجه العالم اليوم بخطوات متسارعة إلى خضرنة الاقتصاد أو ما يسمى بالاقتصاد الأخضر، وذلك كاستجابة ملحة نحو مواجهة تفاقم المشكلات البيئية، والتي باتت تشكل تهديدا خطيرا لاستمرارية الحياة البشرية.

وقد وجد أن نشأة هذه المشكلات البيئية تعود إلى أسباب اقتصادية، والتي يمكن إيعازها بالدرجة الأولى إلى اعتماد الاقتصاد الوضعي المتأثر بفلسفة النظام الرأسمالي على المذهب الفردي، والذي يطلق العنان للفرد لممارسة النشاط الاقتصادي بما يحقق لنفسه أقصى إشباع ممكن، أو أقصى ربح ممكن، ومن ثم كنتيجة سلبية تنامى الجشع الاقتصادي إلى أن أصبح لا يعرف الحدود ولا القيود.

فقد ظل الاقتصاد الوضعي أسيرا لمقولات وقوانين تعزز المذهب الفردي وتدفع نحو تعظيم الأرباح، مثل مقولة آدم سميث «دعه يعمل دعه يمر»، وافتراضه أن سعي كل فرد لتحقيق مصلحته سوف يحقق المصلحة للمجتمع بكامله، وذلك بفعل آلية اليد الخفية التي تتدخل لتحدث التوازن التلقائي الطبيعي. وهناك قانون ساي للأسواق «كل عرض يخلق الطلب عليه»، والذي يعطي كل منتج المبرر لأن ينتج أي شيء دون التفات إلى نوعية المنتج وآثاره البيئية. والأمثلة كثيرة بهذا الصدد، المهم أنها في محصلتها النهائية شكلت دافعا أو حافزا كبيرا نحو تخريب البيئة واستنزافها. وذلك ما حصل بالفعل، ففي إطار سعي الرأسماليين المستمر لتعظيم أرباحهم ارتكبوا أبشع الجرائم الاقتصادية وأكثرها عبثية، فالذين لوثوا المحيطات والأنهار كانوا يسعون لزيادة الأرباح، وكذلك الذين تاجروا بالأغذية الفاسدة، وقاموا بإتلاف الكثير من المحاصيل الزراعية، كل ذلك من أجل زيادة السعر، وبالتالي زيادة المكاسب والأرباح.

ومن هنا انبثق الاقتصاد الأخضر، ليعمل على إعادة تشكيل وتصويب الأنشطة الاقتصادية لتكون أكثر مساندة للبيئة والتنمية الاجتماعية، وبما يؤدي إلى تحقيق التنمية المستدامة. حيث يعرف برنامج الأمم المتحدة للبيئة «الاقتصاد الأخضر» بأنه نظام أنشطة اقتصادية تتعلق بإنتاج وتوزيع واستهلاك البضائع والخدمات، ويفضي في الأمد البعيد إلى تحسن رفاه البشر، ولا يعرض في الوقت نفسه الأجيال المقبلة إلى مخاطر بيئية أو حالات ندرة إيكولوجية كبيرة.

ولكن في مقابل الاقتصاد الوضعي، نجد أن الاقتصاد الإسلامي له وضع مختلف تماما، وهذا ما سنعمل على توضيحه هنا.

هل الاقتصاد الإسلامي بحاجة إلى خضرنة؟

يتكون الاقتصاد الإسلامي من كلمتين. الكلمة الأولى «الاقتصاد» وتعني لغويا التوسط بين الإسراف والتقتير. جاء في مختار الصحاح: «القصد بين الإسراف والتقتير، يقال فلان مقتصد في النفقة». وجاء في الحديث النبوي الشريف «ما عال من اقتصد»، أي ما افتقر من اعتدل في إنفاقه، أما الذي يسرف في إنفاق المال فإن إسرافه سوف يقوده إلى الفقر وسؤال الناس، ويجعله عالة على غيره. وأما الكلمة الثانية «الإسلام» فهي الشريعة الدينية التي يستمد منها هذا الاقتصاد قواعده وأحكامه. ومن أبرز قواعد شريعة الدين الإسلامي عند الأصوليين: أن الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. يقول ابن القيم: «إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه».

ومما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة:٢٠٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف:٥٦).

وكلمة الفساد في القرآن شاملة جدا ويندرج تحتها تدمير البيئة وتدمير الإنسان نفسه.



د. عادل عبدالرشيد غلام
خبير اقتصادي

ولذلك نجد أن الشريعة الإسلامية لا تبيح إنتاج واستهلاك سلع الترف والكماليات التي تبدد الموارد. وهذا يتوافق مع حقيقة أن الحاجات في الإسلام لا تحدد أو تستمد مفهومها من رغبات الناس وشهواتهم، كما هو الحال في الاقتصاد الوضعي، وإنما يتحدد مفهومها على أساس مشروعية هذه الحاجة وتقريرها ضمن نصوص الشرع، أو ضمن أصوله وضوابطه العامة. بمعنى أن الإسلام يقرر الحاجات عن طريق الموازنة بين ما تدعو إليه أحكام الإسلام وما جبلت عليه النفوس البشرية من خصائص حب المال والميل للشهوات، من أجل تعزيز الجانب المادي والروحي والأخلاقي داخل المجتمع المسلم.

وعلى هذا النحو، نجد أن الاقتصاد الإسلامي هو الاقتصاد الوحيد الملزم في نشاطه الإنتاجي بإنتاج الطيبات وتجنب الخبائث، وأساس ذلك قوله تبارك وتعالى ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ (الاعراف:١٥٧). وتعرف السلعة الطيبة بأنها تلك السلعة التي يطلبها المسلم حرصا منه على طلب الحلال وتجنب الحرام، بحيث يترتب على استهلاكها صيانة لجسم الإنسان وحفظ للأخلاق والبيئة، بينما السلعة الخبيثة تعرف بأنها السلعة التي يترتب على استهلاكها تدمير لجسم الإنسان أو تدمير للأخلاق والبيئة. كما أنه في الجانب الاستهلاكي فإن الاقتصاد الإسلامي ملزم بالاعتدال والترشيد، ومن الأدلة على ذلك ما جاء في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ (الفرقان:٦٧).

وتحريم النبي ﷺ الإسراف بالماء ولو كنا على نهر جار.

ويختلف الاقتصاد الإسلامي عن الاقتصاد الوضعي الذي يهمل العديد من الأشياء ذات القيمة العالية، كالماء في المحيطات والبحار والأنهار، والهواء الجوي ويعتبرها سلعا حرة غير اقتصادية، وذلك لمجرد وفرتها، بينما يعطي للموارد التي تتصف بالندرة قيمة اقتصادية، ومما يسبب ذلك أن الأضرار بالسلع غير الاقتصادية لا يتم أخذها في الاعتبار. أما بالنسبة للاقتصاد الإسلامي فهو لا يعترف أصلا بوجود الندرة ولا يعدها مشكلة حقيقية، وهو يواجه ما يسمى بمشكلة الندرة في الاقتصاد الوضعي باستنهاض همة الإنسان واستلهام جهده وعمله، ليسلك الطريق الذي بينه الله سبحانه وتعالى في القيام بمهمة الاستخلاف من أجل عمارة الأرض، فالكون مليء بالنعم والخيرات التي تفي بحاجات الإنسان، كما جاء في القرآن الكريم، ومنها الآية الكريمة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (النحل:١٨). ولذلك لا يضر الاقتصاد الاسلامي بأي مورد مهما كان نوعه ودرجة توافره، لأنها نعمة من المولى، ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (القصص:٧٧).

وخلاصة القول، أنه لا يوجد في أحكام الشريعة الإسلامية ما يمكن أن يدفع الاقتصاد الإسلامي للإفساد والإضرار بالبيئة، بل أكثر من ذلك أن الاقتصاد الإسلامي ملزم بأن يحافظ على البيئة وفقا لهذه الشريعة التي تعتبر حماية البيئة ومواردها والمحافظة عليها وتنميتها واجبا دينيا يجب أن يلتزم به الكل، الحكام قبل الأفراد، بموجب مسؤوليتهم عن رعاية أنفسهم ومجتمعاتهم تجاه ربهم.

إذن فالاقتصاد الإسلامي هو اقتصاد أخضر في طبيعته محافظ على البيئة، لأنه في الأساس نابع من الشريعة الإسلامية التي تحث على حماية البيئة وتحرم الفساد بكل أشكاله وأنواعه.

لماذا يوجد ما يسمى بالاقتصاد الإسلامي الأخضر؟

وينبع هذا السؤال انطلاقا من ثبوت أن الاقتصاد الإسلامي هو اقتصاد أخضر في طبيعته، فلا يحتاج مثله مثل الاقتصاد الوضعي إلى خضرنة لتصويب أنشطته لتتوافق بيئيا، فما الداعي إذن من وجود ما يسمى بالاقتصاد الإسلامي الأخضر؟.

وتكمن الإجابة في أن وجود الاقتصاد الإسلامي الأخضر ليس للتصويب بل لزيادة الاهتمام. فالاقتصاد الإسلامي الأخضر ما هو إلا جزء لا يتجزأ من الاقتصاد الإسلامي، ولكن استدعى تمييزه وظهوره حديثا لتفاقم المشكلات البيئية التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية بسبب اتباعها أساليب الحياة



الغربية، وبحيث يختص تركيز الاقتصاد الإسلامي الأخضر كأحد فروع الاقتصاد الإسلامي في مواجهة هذه المشكلات، وبكيفية إعادة التعامل والتطبيق للقواعد والآليات المتعلقة بالمنظور الإسلامي لحماية البيئة والتنمية المستدامة في اقتصاديات الدول الإسلامية الحديثة.

يسعى الاقتصاد الإسلامي الأخضر كهدف أساسي إلى تحقيق التنمية المستدامة من منظور إسلامي، وخاصة أن هناك الكثير من الأدلة على أن اهتمام الإسلام لا ينصب على الجيل الحالي فحسب، بل يتجاوزه إلى الأجيال القادمة، جاء في الحديث النبوي: «إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم». وهناك الحديث النبوي: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها»، ومن الواضح أن هذا الحديث يحض المسلمين على العمل على استدامة التنمية دون توقف، مهما كانت الأسباب، مما يجعل جيل الأبناء يستفيد من ثمار ما أنتجه جيل الآباء، والذي استفاد بدوره من جيل الأجداد. وتشكل الأحاديث النبوية التي تدرج عند الفقهاء في باب «إحياء الموات» دافعا قويا نحو تحقيق التنمية المستدامة، لكونها اختصت في تحفيز الأفراد على العمل على إحياء الأرض الموات، وذلك من خلال منح حوافز دنيوية وأخروية. ومن أمثلتها: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»، «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

ومن جانب آخر، يحتكم الاقتصاد الإسلامي الأخضر إلى مجموعة من قواعد عامة تمنع الضرر وتدفع المفسدة عن الأفراد وعن المجتمع، وهي قواعد فقهية استنبطها علماء المسلمين من القرآن الكريم والسنة النبوية. وأهم هذه القواعد هي قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» المستمدة من الحديث النبوي: «لا ضرر ولا ضرار»، وتعني هذه القاعدة الفقهية بأن الضرر ممنوع في الإسلام في جميع صوره وأشكاله، ومن ثم يجب على أولياء الأمور والأفراد اتخاذ كافة الإجراءات المناسبة للحيلولة دون أن ينتج عن أعمالهم أضرار، وإذا ما حصل أي ضرر يوجب عليهم معالجته دون تأخير. إذن، وفقا لهذه القاعدة فإن إحداث أي ضرر بيئي مهما كان نوعه أو درجته هو ممنوع شرعا. وتوجد أيضا قاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، والتي تستند على أن الشريعة في الأصل جاءت لجلب المنافع، ودرء المفاسد، فإذا تعارضت مصلحة ومفسدة قدم دفع المفسدة غالبا؛ لأن الشرع حريص على دفع الفساد، ويعتني بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات. ومن ثم وفقا لهذه القاعدة، فإذا كان استغلال موارد البيئة لتحقيق منفعة ذاتية ومؤقتة سوف يتسبب في الإضرار بهذه الموارد بإفسادها أو استنزافها، فلا يسمح به، إذ إن منع الضرر والفساد يجب أن يقدم على أي منفعة عند استغلال البيئة.

كما نجد أن الاقتصاد الإسلامي الأخضر يستفيد من أحكام الفقه الإسلامي في التنظيم والحفاظ على مكونات البيئة. ومن أهمها على سبيل المثال المياه، وخاصة أنه قد تطورت الأحكام المتناثرة للمياه في كتابات الفقهاء أو في المحاكم الشرعية، لنرى الفقهاء وخبراء المياه يجمعون أحكام المياه في أبواب متكاملة، تعكس مدى ما وصلت إليه هذه الأحكام من تقدم، ومدى ما وصل إليه المسلمون من تقدم في حل مشكلات المياه.

وتعتبر كل من مؤسستي الأوقاف والحسبة من أهم الآليات المؤسسية التي يعمل الاقتصاد الإسلامي الأخضر على إعادة الاستفادة منها. فالمؤسسة الأولى تلعب دورا متميزا في تحقيق التنمية المستدامة، وبالإمكان استخدامها كأداة شعبية مهمة في تمويل الأنشطة البيئية، وخاصة أن التاريخ الإسلامي شاهد على وجود الكثير من الأوقاف في هذا المضمار. أما مؤسسة الحسبة فيمكن الاستفادة منها بشكل كبير في الرقابة البيئية على الأنشطة الاقتصادية، وكذلك التاريخ الإسلامي شاهد على الدور الرقابي المتميز للحسبة في مختلف الجوانب، ومن ضمنها الجانب البيئي.

وهناك الكثير مما يمكن أن نتناوله في إطار الاقتصاد الإسلامي الأخضر، ولكننا نختتم هنا بالإشارة إلى أن أهم ميزة للاقتصاد الإسلامي الأخضر تكمن في امتلاكه قيمة روحية، لكونه ينطلق من ثوابت دينية.





العقل في ضوء الوحي

خالد برادة
كاتب مغربي

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن العقل نعمة الله تعالى التي أهداها إلى الإنسان، ليكون خليفة في الأرض، يبني العمران، ويقيم صرح الحضارة وفق شرع الله تعالى، في علاقة لا تنفصم عراها بين الروح والمادة.

بيد أن كثيرا من الفرق التي ظهرت في التاريخ انحرفت عن جادة الصواب عندما اعتمدت على العقل وحده، وأعلت من شأنه، ومن هنا كان الانحراف الخطير عن الإسلام، كالمعتزلة مثلا، التي كانت من أول الفرق التي أباحت لنفسها الحرية الكاملة في إعلاء العقل المجرد، ومن ثم انطلقت في مناقشاتها العقيمة، وجدلها الذي لا طائل من ورائه، رافعة شعارا لطالما تردد على ألسنتهم: «فإن قُلتَ، قُلتُ»، ومرد ذلك هو التسلط على النصوص، وفهمها بعيدا عن منهج السلف، مما جعل تأويلاتهم مظنة للخطأ.

وليس المراد هاهنا الحديث عن المعتزلة وأضرابهم في الاعتداد بعقولهم، وإنما نريد لفت أنظار السادة القراء إلى الانحراف الخطير الذي يجعل العقل والوحي في انفصام نكد، ومرد ذلك هو الاعتماد على العقل وحده، في غفلة بل في تجاهل عن فهم الإسلام الأصيل الجامع بين العقل والوحي، ولقد انحرف الفكر البشري لأنه لم يجعل العقل يستتير بضوء الوحي وينتفع بجذوته، بل إن كثيرا من دعاة «العقلانية» قد اشتطوا، وركبوا مركبا وعرا، عندما تمردوا على الدين، ومنهم من يفصح عن عزمه للتخلي عنه في مقابل إيثاره عقله لأنه أصبح به متدينا، وهذا الكلام يردده أقطاب دعاة الحداثة والتغريب.

ومن المعروف أن الأفكار متعددة والثقافات مختلفة، فليس من الغريب أن يختلف العقل لذلك، ولكن الأنكى من ذلك أن يقدس العقل ويقدم على النقل، ومن كان هذا شأنه فإنه يتعامل مع نصوص الشرع بمنهج يجانب الصواب، حيث يجعل العقل هو الأصل المقدم، وبذلك يكون المرء قد أعطى الحرية الكاملة لنفسه للتسلط على نصوص الوحي، يقول ابن أبي العز الحنفي في هؤلاء: «إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه قبلوه، وإن خالفته أولوه، وهذا فتح باب الزندقة، نسأل الله العافية» (١).

ولذلك فإنه من الضروري أن يسلم العقل للنقل، وهذا هو المذهب الذي نراه أصوب.

وإني أقف مشيدا بعظمة الإسلام في جوهره الناصع للمعرفة، فهو لا يصادر العقل، وإنما يحميه مما قد يجمح به من سفن الضلال، حتى لا ترى شطحاته وهفواته، لأن الوحي هو صمام الأمان، وهو الضوء الذي يهتدي العقل به، حتى يمارس نشاطه الفكري مقدما للإنسانية ما فيه الخير العميم.

هامش

١- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص ٢٣٧.

الإسلام.. والخلاص الفردي

نجلاء محفوظ
استشارية ومفكرة إسلامية

يشع النور فيفيض على المكان كله ولا يخص جزءا بعينه، وكذلك الإسلام يدعو إلى إقامة حياة كاملة «تفيض» بالنور وبالخير على العالم بأسره.

يتنافسون ويتناسون

دخلت امرأة النار لحبسها قطة وغفر الله لبغي سقت كلبا، كما جاء في الحديث الشريف.

فما بالنا بمسلمين «ينسون» أن ديننا الحق لم يأت بالخلاص الفردي وجاء ليعم الخير الجميع؟!

فالكثيرون يتنافسون بالصلاة في أول أوقاتها وصيام التطوع وتكرار العمرة والحج، «ويتناسون» حقوق المسلمين عليهم، فالخالق عزوجل خاطبنا دائما بصيغ الجمع: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وفي الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وإذا تحول هذا الحديث إلى أفعال لاختفت الأنانية، وحدة الطباع، وسوء الخلق، والتعدي على الحقوق، والغيبة و.. و..

تجاوزات يومية

لنتدبر قولنا مرات يوميا ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦)، فندعو لأنفسنا وللجميع بالهداية التي تتعارض مع فكرة «أنا ومن بعدي الطوفان»، التي يطبقها الكثيرون بالتجاوزات اليومية عند التعامل بالبيع والشراء وفي وسائل المواصلات، وفي التعامل بين الأزواج وبين الأهل والأبناء والأقارب والزملاء.

يرفض الكثيرون منح الوقت للإصلاح بين الناس، ويتناسون قول رسول ﷺ «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة (أي درجة الصيام النافلة والصدقة النافلة والصلاة النافلة)، فقال أبو الدرداء: قلنا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين».

أحب الناس إلى الله

يغلق الكثيرون الأبواب تفرغا للتعبد، ويتناسون أن ديننا يتسع لإصلاح وتحسين كل جوانب الحياة، فلا رهبنة في الإسلام، ولا مجال للحديث عن الخلاص الفردي، ففي الحديث الشريف «إماطة الأذى عن الطريق صدقة»، وأن تدل الغريب على الطريق صدقة، وحديث «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى، والحديث الشريف «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عزوجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهرا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

مسؤولية المسلم

يهتم البعض بتنشئة أبنائه على الخلق القويم ويظن أنه قام بدوره، ويتناسى مسؤوليته الكبرى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (آل عمران:١١٠).

فالمسلم «الحق» يكون دليلا متحركا على إيجابية الإسلام ودوره الفعال لصنع حياة أفضل «لجميع» المسلمين وليس للدائرة المقربة منه فقط.

ولنتدبر تنافس الصحابة رضوان الله عليهم في التصدق لنشر الإسلام.

ووصل عشق التصدق بالصحابة

إلى تألم الصحابي الجليل أبي ضمضم لعدم وجود مال لديه يتصدق به، ففكر في التصدق بعرضه؛ فسامح من يتحدث عنه بسوء وتصدق بذلك، وهو ما نفتقده اليوم، فتقل الصدقات أو ترتبط بالمن، فنجد من يعطي إلى الفقير المال ويقول له: ادع لي! أو من يفتخر بصدقاته ويتناسى الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ (البقرة:٢٦٤).

يربح دينيا ودنيويا

يسمح البعض للغل بالإقامة في عقله وقلبه فلا يتسامح مع من أساء إليه، ويتناسى الصحابي الجليل الذي كان يسامح الناس قبل نومه فاستحق أن يكون من أهل الجنة.

ومن سامح الناس يريح نفسه من احتضان الألم والمشاعر السلبية فيربح دينيا ودنيويا والعكس صحيح.

فالتسامح يفيد المتسامح ويشيع في المجتمع المسلم المؤاخاة وعدم التحفز وطرد العدوانية التي تستهلك الطاقات فيما يضر الفرد والمجتمع فيخسر الجميع.

ولنتذكر الحديث الشريف: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

حاجز نفسي

يتجهم البعض طلبا للورع ويتناسون أن رسولنا الحبيب صلوات الله وسلامه عليه كان دائما مبتسما.

وهو القائل ﷺ «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق». وقال: «تبسمك في وجه أخيك صدقة».

يضع التجهم حاجزا نفسيا بين المسلم وأخيه المسلم وتشجع الابتسامة على التآلف والتراحم.

ويقلل البعض من أهمية الاندماج بين المجتمع، ويتناسون الحديث الشريف «يد الله مع الجماعة»، والآية ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران:١٠٣).

ويقل الاهتمام بصلة الرحم رغم مكانتها، ففي الحديث «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه».

تمنح صلة الرحم الإنسان إحساسا لطيفا بالرضا الإيجابي عن النفس ويخرج من سجن الانغماس بمطالبه الدنيوية فيمنحه «براحا» نفسيا يضاعف طاقاته ويستفيد دينيا ودنيويا والعكس صحيح.

تراحم ومغفرة

لنتفكر في أركان الإسلام، فالزكاة فرضت «ليحس» الغني بأخيه الفقير، وليؤدي حق الله بماله بأريحية، وليتحقق التكاتف والتراحم الإنساني بين المسلمين.

ونرى فريضة الحج صورة للتآلف بين قلوب المسلمين من العالم كله، فيتساوى الجميع عبادا للرحمن وحده، وتتلاشى الفروق بين الأجناس واللغات والمراكز الاجتماعية والمادية.

وفي الحديث: «تعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين، فيغفر الله عزوجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئا؛ إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: اركوا هذين حتى يصطلحا، اركوا هذين حتى يصطلحا».

وهي دعوة لتنقية القلوب وليسود الود والوئام بين المسلمين.

تعارض مع الإسلام

عندما ندعو لأخينا بظهر الغيب يقال: ولك مثله. وهي ترسيخ للخلاص الجماعي لكل المسلمين ونبذ الخلاص الفردي لتعارضه مع جوهر الإسلام.

ففي الصيام نحس جميعا بالجوع والعطش، ونزداد إحساسا بالفقراء، وتنمو أحاسيس الرحمة بداخلنا، ونتوقف عن الدوران وفق مصالحنا ورغباتنا الشخصية.

ونتأمل طويلا الحديث الشريف «الدين النصيحة» فيأمرنا بالاهتمام «بمصالح» المسلمين فنستقطع أوقاتا «نسخرها» لمصلحة مسلم، ونمنحه النصيحة بحب ليعيش أفضل.

ونصل لثواب القرض الحسن لدعم التراحم بين المسلمين ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (الحشر:٩).

ونتوقف عند حديث «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

ويدعو لصلاح الأمة كلها وليس الخلاص الفردي للمسلم وحده.

داخل الأسر

يتسع الخلاص الجماعي ليشمل الأسرة، ففي فضل طاعة المرأة لزوجها تجد حديث «إيما زوجة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة».

وحديث: «خيركم خياركم لأهله وأنا خياركم لأهلي».

وفضل إنفاق الأب على أولاده نعرفه من حديث: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك».

لنجدد النوايا لنصبح مسلمين صالحين ومصلحين، ولنأخذ بأيدي كل من نعرفهم.

فالخلاص الفردي يحولنا إلى جزر منفصلة يسهل على أعدائنا من شياطين الأنس والجن «اقتناص» كل منا على حدة.

ويجعلنا الحرص على الخلاص الجماعي قوى متماسكة «يستحيل» على الأعداء النيل منا، وهو ما يستحق بذل السعي المتواصل لتحقيقه دوما.

رِحْلَةُ البَحْثِ عَنِ الحَقِّ

د. محمد علي يوسف
باحث دراسات إسلامية

لم يكن ذلك الشاب اليافع أبدا شابا عاديا.

كان سيدا في قومه، وابنا لأحد أهم وجهائهم.

في الحقيقة، لقد كان بمنزلة أمير، وليس أي أمير.

لقد كان أميرا مقدسا، ترتبط قداسته بقداسة إلههم الذي يعبدون، والذي يعد والده كاهنه الأعظم، والمسؤول عن إبقائه – الإله المزعوم أعني – حيا قويا.

حياة ترف، ودعة، وإجلال من شعبه، وقوة، ومال، وجاه، وسلطان.

لكن كل هذا لم يكن يستهويه.

لم تشغله الأموال والضيعات عن رغبته، ولم تثنه المكانة بين الناس عن مطلبه.

كان قلبه، رغم كل ذلك، يتوق إلى شيء آخر.

نداء يتصاعد بشكل مستمر من أغوار سحيقة لفطرة لم تنجح نجاسات الوثنية في طمسها.

نداء يخبره أن ثمة حقيقة مختلفة، وأن نيرانا، تحتاج إلى والده كي تبقى جذوتها متقدة، لا يمكن أبدا أن تستحق عبوديته.

ولقد استمع إلى النداء.

وقرر أن يستجيب له.

أتراه ذلك الكنيس المتاخم لحدود مدينته الأصبهانية العتيقة؟

أتراهم أولئك الرهبان الزاهدين العابدين هم من يملكون ما يبحث عنه ويعرفون جوابا يتوق إليه؟

لقد تنصّت إلى ترانيمهم أكثر من مرة، ولقد وقعت من نفسه موقعا حسنا.

لاشك أن هذا خير مما هو عليه وأقرب إلى فطرته التي تتململ خلف غيوم المجوسية الحمقاء.

تهلل قلب مشتاق إلى الحق، وفرحت نفس طالما اشرأبت باحثة عن الصدق، ولم يستطع أن يكتم تلك الفرحة.

لقد أخبر والده.

– هذا الدين خير مما نحن عليه.

– بل دينك ودين آبائك خير منه.

كانت تلك إجابة الوالد القولية، والتي تبعتها إجابة عملية، تمثلت في قيود غليظة جعلها في رجل ولده؛ خشية أن تدفعه فطرته المتوثبة للذهاب إلى غير رجعة، طالبة مبتغاها الوحيد، طالبة للحق، الذي يعلم الوالد، في قرارة نفسه، أنه لا يملك إجاباته، ولا يحيط بمنطقه، وأن أضواء نيرانه المتراقصة لم تكف لكشفها لولده.

ولقد وقع ما كان يحذر.

لم يلبث الشاب الباحث عن الحقيقة إلا أن كسر قيده، وتخلص من آصار أغلال الحديد التي مهما بلغ ثقلها تظل أخف وأهون من آصار وعلائق أخرى غليظة قد ألقاها من قبل عن قلبه.

لقد رحل

قصد الشام مبتغيا أصل ذلك الدين الجديد عليه.

لكن الأمر لم يكن في البداية كما تصور.

إن ذلك الرجل، الذي أرسلوه إليه ليمكث عنده متعلما، ووصفوه بأنه أعلمهم بهذا الدين، لم يكن أبدا مثالا جيدا لحملة الحق، بل كان في الحقيقة شر مثال.

كان راهب سوء يأكل أموال الناس بالباطل ولا يؤديها لمستحقيها حتى اجتمعت لديه ثروة عظيمة.. و ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:٣٤).

لكن صاحبنا لم يصد.

لم يسارع إلى نمط النفور من الدين لخلل في حامليه، ولم يلجأ إلى فرضية العصمة التي تلبس للمتدينين وتكون عند انكسارها سبيلا إلى مغادرة الدين بحجة فساد أهله، ولم يعرف الحق أو يصد عنه بالرجال.

لقد استطاع بتجرد مذهل أن يصبر نفسه مع راهب السوء، ينهل مما لديه من الحق، ولا يخلطه بما عنده من الباطل حتى جاء أجل ذلك الراهب وحانت نهايته.

ثـم كانت الجائـزة

لقد أكرمه الله براهب آخر يخلف ذلك الفاسد، وشتان الفارق الذي كان بينهما.

وكذلك الصابر الصادق ييسر الله له سبل الهداية للحق حين يري الله من نفسه خيرا فيؤته خيرا.

مكث سلمان الفارسي لدى هذا الرجل الصالح ما شاء له الله أن يمكث، وتعلم من فعاله قبل أقواله، ثم حانت لحظة الفراق وجاء أجل الراهب.

لكن نهم المعرفة ورغبة البحث عن الحق لم تنطفئ جذوتهما بعد.

بل لعل وهجهما قد ازداد كلما اقترب.

سيدي، قد حضرتك الوفاة، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟

قال الراهب المحتضر: أي بني، والله

ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحق به.

الطـريق إذن لـم يـزل بعـد طــويــلا

سيرحل الباحث عن الحق إلى المشرق من جديد. وبغيته هذه المرة العراق، ليس ليقترب من موطنه وعز أبيه وجاه منصبه وترف سلطانه، ولكن لأجل غايته السامية التي لم يعد في نفسه غيرها.

غاية البحث عـن الحـق

سيمكث الباحث في الموصل ما شاء له الله أن يمكث، ثم يتكرر الأمر، ويأتي الأجل عابدها ليقطع عليه تعلمه، لكنه لم يقطع همته وشغفه وسينطلق من شاطئ دجلة إلى ضفاف الفرات بنصيبين العتيقة؛ لينهل من عابدها، ثم يحيله ذلك الأخير عند إتيان سكرات موته إلى الشام من جديد؛ ليمكث لدى عابد عمورية ما شاء له الله أن يمكث حتى يأتيه أجله أيضا، فلا تفلح الأعوام الطويلة والرحلات الشاقة المتكررة في كسر همة الباحث، أو طمس شوقه للحقيقة، وإذا به يسأل عابد عمورية على فراش موته سؤاله المعتاد:

سيدي، قد حضرتك الوفاة، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟

لكن الإجابة هذه المرة كانت مختلفة.

كانت فصلا بين عصرين، وحدا فاصلا بين زمانين.

عصر عباد حنفاء معدودين متفرقين، وزمان ندرة حق وقلة صدق وعز يقين قد آذن بالانتهاء، وليُظل الكون زمان جديد.

زمــان نبــي

أي بني، والله ما أعلم أحدا أصبح على ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حَرّتَيْن بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

هكذا بين الراهب تلك الحقيقة الفاصلة، واقتربت الرحلة الطويلة من نهايتها، وأكرم بها من نهاية.

لكن صعوبات الرحلة لم تنته بعد، وصدق الباحث عن الحقيقة سيتعرض لاختبار أشد وأصعب.

إنه القيد من جديد، لكنه هذه المرة قيد الظلم والعبودية والأسر.

لقد أسرته تلك القافلة التي لحق بها إلى جزيرة العرب، وباعته رقيقا إلى رجل من يهود بني قريظة.

وهنالك كانت بغيته، ووجد مراده ووجهته.

لقد بلغ أرض النخل التي بين حَرّتَيْن، وبقي أن يصل إليها نبي آخر الزمان.

لقد بلغ يثرب، التي ستدعى بعد حين مدينة رسول الله.

بلغها عبدا أسيرا، وكان يستطيع، وهو شريف النسب مرموق الآل، أن يرسل إلى أهله الأغنياء ليفتدوه بالذهب والفضة.

لكنــه لـم يفعـل!

صبر صاحبنا على مرار الأسر وضيم العبودية، لا لشيء إلا لتلك الغاية وذاك الهدف الذي قد اقترب.

ثم وصل.

وجاء النبي ﷺ إلى مدينته مهاجرا، وسارع إليه سلمان، وعرف صفته ونعته وخاتم النبوة وضيئا على ظهره، فانكب عليه يذرف دموعا ساخنة.. دموعا ترسم على وجنته بريق فرحة طال انتظارها، واحتمل الباحث في سبيلها مشاق وصعوبات يندر أن تجد من يحتملها.

هـا قـد وصل وأدرك المـنزل

«إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان».. هكذا أعلنها النبي ﷺ وجمع سلمان الفارسي الأعجمي بعيد النسب إلى جوار صاحبيه المهاجرين المجاهدين الباذلين المضحيين اللذين كانا على الأذى والصعوبات صابرين محتسبين.

جمعه إليهما مخبرا بشرفه العظيم ومكانه الكريم في جنة الخالدين التي تشتاق إلى لقائه.

وكيف لا وقد اشتاق إليها وسلك سبيلها مضحيا بكل غال ونفيس لأجل بلوغها وبلوغ طريقها.

طـريق الحــق

لقد كان سلمان نموذجا حيا لتلك القيمة التي تكاد تندثر اليوم خلف طبقات التعصب والتحزب وتقليد الآباء والمتبوعين.

قيمة البحث عن الحق وبذل كل ما يستطيع الإنسان ليصل إليه.

لقد تجلت تلك القيمة في جملة نبوية من أعجب ما يكون.. «اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

رسول الله ﷺ المعصوم، الذي يأتيه الوحي من السماء، والذي لا ينطق عن الهوى، يفتقر إلى مولاه ليهديه إلى الحق الذي اختلف فيه.

إنه درس عملي مذهل يدلنا من خلاله الحبيب ﷺ على تلك القيمة.

قيمة طلب الحق، والبحث عنه، وعدم الركون إلى المتوارث المتعارف عليه، وترك الاستسهال عند الخلاف.

بل افتقار ورغبة للوصول تتجلى في لفظه الجامع مناجيا به ربه «اهدني لما اختلف فيه من الحق».

تقرير لتلك الحقيقة وذلك الأصل أن هناك خلافا قد يحدث بين الناس، وكل يدعي وصلا بالحق، والله وحده يهدي إلى الحق.

لكن تلك الهداية قرينة الصدق وثمرة الافتقار والبذل.

هكذا رأينا في قصة سلمان.. ذلك الباحث عن الحق، وكذلك في حياة كل باحث بصدق عن الحق.

وهكذا وعد الملك الحق، فقال وقوله الحق ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩).

فلسطين الثروة الباقية!

شهاب الدين عبدالله المحمدي
عضو الهيئة الشعبية لنصرة فلسطين

■ الأرض تحبنا كما نحبها، وتفارقنا كما نفارقها، البين لنا وله، والوصل لها دائما، ونرجو أن يكون بعضه لنا.. تلك هي فلسطين، كلام في الذكرى وكلوم للتذكر، رحلت عنا فبقينا قبرا تزوره، وذهبنا إليها فبقينا طريق غايات في أنفسنا نريده ونسيره، لكنها فلسطين حكاية تقول فنسأل كل أحرفها عن كل الحكايات، وقصة تستعد للغضب فنستعد معها أفراح النهاية، ونرجو أن نلقى ونرغب أن نرى ونحب أن نجد.

■ كل شيء في فلسطين هو فلسطين فكيف يجتزأ؟! مثل الكمال تماما.. جرِّد الكمال من بعضه مثلا ثم أشر إليه قائلا: هذا هو الكمال، يضحك اللسان عندئذ فإنه بيان، ويغضب الكلام عندئذ لأنه قرآن، ويبقى الكلام عندئذ صوتا في الإشارة لكنه لن يكون أبدا حرفا في حروف المعنى وقد حدثونا وحدثونا ولم تكلمهم بعد، ألأننا فراغ في الكلام فلا يعرفونه! أم لأنه فضاء في أمنيات النجوم فلا نصل إليه؟ ولأن العالم ليس عربيا يصبح الظلم فنا في الكلام، ويصبح الحديث سلطانا في الظلم والظلام، كل شيء عندئذ يبقى يفسر نفسه بجهل غيره به، أو بحيرة سواه منه، أو بسخرية كل منطق من منطقه.

■ أيها العالم، إذن هل علينا أن نحملك على العروبة علما وعلى العروض وزنا وعلى الشعر حلما وعلى الضاد حكما؛ حتى تعلم أن كل شيء في فلسطين هو فلسطين، وأن كل شبر في فلسطين هو قصة فلسطين، ونفس فلسطين، وجسد فلسطين، وقلب فلسطين، وفؤاد فلسطين، وروح فلسطين، وسويداء فلسطين. إذا وقفت



على قبور الكلام فأحياها حياء الإمكان العربي والإسلامي من عدم ألا ممكن.

■ أريد فلسطين كعربي ومسلم كما أريد حياتي، أريد كمال فلسطين كما أحب أمنياتي وأتغيا (أجعلها غاية) أمنية فلسطين كما أتغيا مكة الإبراهيمية وأرحل في نور محمدي.

■ أيها العابثون بممكنات الكلام، قرارات سياسية وفيتوات اقتصادية واجتماعية ودينية وطائفية وعرقية وبيولوجية، أريد فلسطين عربية مثل كلامي، حبيبة مثل أحلامي، شجرة تفاح أو زيتون لا تقسم بمنشار السياسة، لأن الحياة كلٌّ واحدٌ كما تعلمنا من الله.

- أيها العابثون بممكنات الصور، هنا شعب رحل بعيدا، هنا معتقل، هنا شباب اختطفوا يهودا، هنا نسوة افترشن حصيرا، هنا طفل سقط شهيدا، هنا شيخ ارتقى إلى بارئه قعيدا، هنا زيتون يقتلع، هنا قرية تنتزع، وهنا وليس هنا بل هناك عندكم قتل ومنطق يبتدع.

■ أحب أن أرى الصور كما أحب أن أرى أمي، قدسا لا تقتسم، ومكة لا تغتنم، وطيبة ويثربا لكن قلبا يحترم، لي لساني ولي الكلام عالما، ولي الكون حروف قولي ذهبا وفضة وحديدا ونسيجا إدريسيا، قل للشمس كم خيطا في خزائنك! انظر عندئذ كم سيحجبك سؤالك عنها.

■ أيها العابثون بأمنيات القلب، أحب أمي فسموها، أعرف أنكم ستختارون اسما غير اسمها، ونسبا غير نسبها، وحبا غير حبها، وولدا غير ولدها، ستسمون كل شيء بأي شيء، لكنكم ستعجزون عن نطق اسم أمي، ستعجزون عن وصف وجه أمي، ستتركون كل غاية أحبها لغاية أخرى بحجم قولكم، فأي شيء منكم يحبها وأي شيء منها يحبكم، هنا فلسطين هنا فلسطين، فلسطين الثروة الباقية.

■ الآن.. الآن.. أذيع الخبر جاءنا ما يلي: فلسطين تعلن نفسها ساعة في يوم القيامة هي هي قالت بأنكم نسيتم الوقت وإنني وقلة ما زلنا نذكره، أريد أن أقول هنا جملة نطقتها عند يوم القيامة كل المكان فيها يأبى كل شيء إلا نفسه وكل الزمان معها يصاحب نفسه وحيدا إلا قلبه، هنا قلب فلسطين يعلن دمه ويبحث عن جسده، لذا تعلن فلسطين كل فلسطين أنها أم الضاد، وابنة الضاد، ونفس صرخت في جسد الضاد، وأن المترجمين كثر، كل العالم كما تقول فلسطين هو بابل، ووحدي أنا وفلسطين نشرب عروبة الضاد، وانتهى الخبر!



كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

﴿ الفتح ﴾ ٩

ماذا يريدون ؟

من وراء نشر الالحاد

هل الالحاد حاجة يتطلبها العقـل ، وهل هو نظام أخـلاقي يضمن سعادة البشر ، أم هو نظام تشريعي يكفل راحة المجتمع ؟ العقل يتطلب البرهان ويبحث عن الشيء وعن دليـله . فان وجد الدليـل اطمأن وأذعن ، وان لم يجده لم يقتنع ولم يطمئن . تلك سنة العقـل وفطرته التى فطره الله عليهـا . وكم عرضت عليه مذاهب فلسفية فرفضها ، ووضعت بين يديه آراء فلم يقبلها ، انقياداً لتلك السنـة ، ونزولا على حكم تلك الفطرة . وكل مذهب أو رأى حاول ارغامه على أن يقبله بدون دليل فمصيره الى الرفض ، ومآله الى الاباء والرد . وهو لايبالى فى تطبيق تلك القاعدة بعظمة عظيم أو إمارة أمير أو مكانة سلطان . لا شيء أمامه سوى الدليل ، ولا قبول عنده لغير الحجة

من أجل ذلك كان أول واجب فى الاسلام هو النظر وإعمال الفـكر وترتيب موادِ الدليل وتنظيم مقدماته كيما تـكون العقيدة قائمة على الحجة مؤسسة على البرهان مسبوقة بالنظر لئلا يؤثر فيها تشـكيك المشـككين ، وينال منهـا جدل المجادلين (قل انظروا ماذا في السموات والارض) (أفلم ينظروا في ملـكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) فالنظر فى السموات والارض هو أول واجب على كل مسلم ليخلص منه الى أن لهـذه المخلوقات خالقا عليما ومدبراً حكيما : فـكل عقيدة فى الاسلام لابد أن يسبقها نظر في مقدماتها وتفـكر في وسائلها فليس فيه عقيدة واحدة راجعة الي التقليد أو قائمة على المتابعـة فالعقائد الاسلاميـة من نوع العلم المبرهن عليه

من أجل ذلك فشل الملحدون حينما أرادوا تشـكيك المسلمين وخاب المبشرون يوم أرادوا تحويل المسلمين عن دينهم ، لأن الاسلام يتطلبه العقل ، لانه مبرهن عليه ، فهو وفق طلبته ومنطق على حاجته. يتطلب الاقناع ، وقد أقنعه ويحتاج الى الدليـل وبين يديه الدليل . أما الالحاد فقد ظهر من دعاته أن دليلهم محصور فى نقطة واحدة هى قولهم العـلم لايثبت وجود الله يريدون أن وجود الله لم يكتشف فى المعامل ولم يتضح لهم فى المصانع . وتلك جهالة لم يسمع بمثلها بنو آدم ، لان المصانع والمعامل تشتغل فى جزء يسير من الـكون وفرق واضح بين باحث فى الـكون ليخرج للناس مخترعات ومكتشفات ينتفعون بها في الحياة وبين من يبحث فى الـكون ليصل منه الى أن له خالقا وموجداً ، الاول يبحث ليخرج مصنوعات والثاني يبحث من جهة دلالة العالم على موجده ، ولو فهم طه حسين الفرق بين البحثين لمـا سقط تلك السقطة التي جعلته ملحداً جاهلا غير متذوق طعم العلم ودلت على أنه لم يتعلم شيئا من مبادىء المنطق

وفى الحق أن شهرة هذا الرجل بالعلم كانت في حاجة الي مجال مختبر فيه ، فجاءت تلك المسألة فاظهرت قيمته العلميـة ، وكشفت للناس عن حقيقته ، فاذا به لم يفهم معنى العلم الحديث ولا معنى العلم القديم . غاية الامر أنه قرأ في رواية أو كتـاب أن العـلم لا يثبت وجود الله فظن لجهله وسوء رأيه أن نقل هذه التحفة الى مصر يعتبر هدية للنشء ، وتجديداً في العلم فنقلهـا وكانت نـكبته على يديها . وما عهد الناس ملحداً يتصدر لدعوة الناس الي الالحاد وهو يجهل معنى مايقول الا طه حسين

لو كان الالحاد حاجة من حاجات العقل يتطلبها ويتوق اليهـا لحمد الناس لطه وأنصاره مسعاهم فى ارضاء العقل وابلاغه غايته بيد أن الالحاد لخلوه من الدليل لايحتـاج اليه العقل ولا يرغب فيه ولا ينطبق على فطرته بل ينبذه ويرده ومتى كان الالحاد منبوذاً من العقل كان أصحابه لامحالة منبوذين منه كذلك

هل الالحاد نظام أخلاقي يضمن سعادة البشر ؟ رأينا من دعاة الالحاد دعوة الى نبذ مكارم الاخلاق فـكثيراً ما كتب طه حسين (يوم كان يتولى تحرير الصفحة الادبيـة فى جريدة السياسة) فى



صاحب امتياز الصحيفة
محب الدين الخطيب
بشارع الاستئناف بالقاهرة

رئيس التحرير
عبد الباقي سرور نعيم
من علماء الازهر

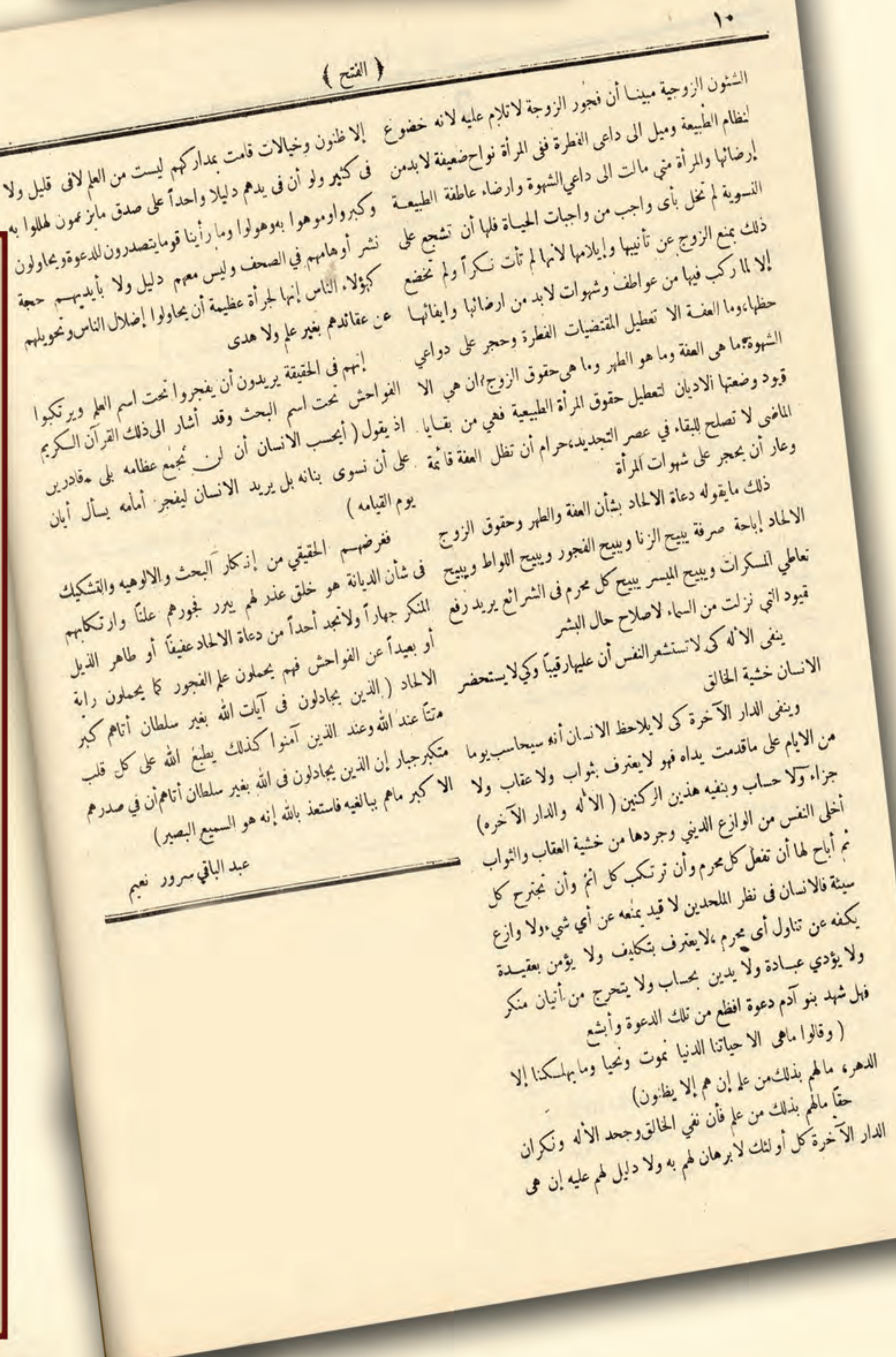
الفتح

الاشتراكات
في المملكة المصرية ٦٠ قرشاً
في الخارج جنيه انكليزي

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

صحيفة اسلامية علمية اخلاقية
تصدر يوم الخميس من كل اسبوع

(العدد ١١) القاهرة : الخميس ١٨ صفر سنة ١٣٤٥ — ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٦ (السنة الاولى)



الشئون الزوجية مبينا أن فجور الزوجة لاتلام عليه لانه خضوع لنظام الطبيعة وميل الى داعى الفطرة فى المرأة نواح ضعيفة لابد من إرضائها والمرأة متى مالت الى داعي الشهوة وارضاء عاطفة الطبيعة النسوية لم تخل بأى واجب من واجبات الحياة فلها أن تشجع على ذلك بمنع الزوج عن تأنيبها وإيلامها لانها لم تأت نكراً ولم تخضع إلا لما ركب فيها من عواطف وشهوات لابد من ارضائها وايفائها حظها، وما العفة الا تعطيل المقتضيات الفطرة وحجر على دواعي الشهوة، ما هى العفة وما هو الطهر وما هى حقوق الزوج، ان هي الا قيود وضعتها الاديان لتعطيل حقوق المرأة الطبيعية فهي من بقايا الماضى لا تصلح للبقاء في عصر التجديد، حرام أن تظل العفة قائمة وعار أن يحجر على شهوات المرأة

ذلك مايقوله دعاة الالحاد بشأن العفة والطهر وحقوق الزوج الالحاد إباحة صرفة يبيح الزنا ويبيح الفجور ويبيح اللواط ويبيح تعاطي المسكرات ويبيح الميسر يبيح كل محرم فى الشرائع يريد رفع قيود التي نزلت من السماء لاصلاح حال البشر

ينفى الاله كى لاتستشعر النفس أن عليها رقيباً وكي لايستحضر الانسان خشية الخالق

وينفى الدار الآخرة كى لايلاحظ الانسان أنه سيحاسب يوما من الايام على ماقدمت يداه فهو لايعترف بثواب ولا عقاب ولا جزاء ولا حساب وبنفيه هذين الركنين (الاله والدار الآخره) أخلى النفس من الوازع الديني وجردها من خشية العقاب والثواب ثم أباح لها أن تفعل كل محرم وأن ترتكب كل اثم وأن تجترح كل سيئة فالانسان فى نظر الملحدين لا قيد يمنعه عن أي شي، ولا وازع يكفه عن تناول أى محرم، لايعترف بتكليف ولا يؤمن بعقيدة ولا يؤدي عبادة ولا يدين بحساب ولا يتحرج من أتيان منكر فهل شهد بنو آدم دعوة افظع من تلك الدعوة وأبشع

(وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، مالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون)

حقاً مالهم بذلك من علم فأن نفي الخالق وجحد الاله ونكران الدار الآخرة كل أولئك لابرهان لهم به ولا دليل لهم عليه إن هى إلا ظنون وخيالات قامت بمداركهم ليست من العلم لافى قليل ولا فى كثير ولو أن فى يدهم دليلا واحداً على صدق مايزعمون لهللوا به وكبروا وموهوا بموهولوا وما رأينا قوما يتصدرون للدعوة ويحاولون نشر أوهامهم في الصحف وليس معهم دليل ولا بأيديهم حجة كهؤلاء الناس إنها لجرأة عظيمة أن يحاولوا إضلال الناس وتحويلهم عن عقائدهم بغير علم ولا هدى

إنهم فى الحقيقة يريدون أن يفجروا تحت اسم العلم ويرتكبوا الفواحش تحت اسم البحث وقد أشار الى ذلك القرآن الكريم اذ يقول (أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه بل يريد الانسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامه)

فغرضهم الحقيقي من إذكار البحث والالوهيه والتشكيك فى شأن الديانة هو خلق عذر لهم يبرر فجورهم علناً وارتكابهم المنكر جهاراً ولانجد أحداً من دعاة الالحاد عفيفاً أو طاهر الذيل أو بعيداً عن الفواحش فهم يحملون علم الفجور كما يحملون راية الالحاد (الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار إن الذين يجادلون فى الله بغير سلطان أتاهم أن في صدرهم الا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير)

عبد الباقي سرور نعيم

مجلة الفتح: منبر صحفي مهم، قامت سنة ١٩٢٦، وقد صدر أول عدد لها في ٢٩ ذي القعدة ١٣٤٤، وصاحب فكرتها نخبة من العلماء، منهم: محب الدين الخطيب وأحمد تيمور باشا ومحمد الخضر حسين، وكانت في موضوعاتها موجهة لرد شبه دعاة الغزو الفكري والتغريب والتنصير والاستشراق.

وكان من أعظم كتابها: أحمد محمود شاكر وأخوه محمود وشكيب أرسلان، ومصطفى الرافعي والخضر حسين وغيرهم.

عبدالباقي سرور نعيم: ولد سنة ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٢٨م وهو عالم مصري أزهري، ولد ومات بقراقص من قرى دمنهور، رأس تحرير مجلة الفتح، وكان معروفا بمواقفه الوطنية، وبعدائه الشديد للإنجليز.

أصيب بالسل ومات قبل أن يبلغ الخمسين من عمره، له كتاب «الإسلام ماضيه وحاضره» وغيره.



إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

رجوع المفتي عن فتواه (أسبابه وآثاره) (٢/٢).

أما الآثار المترتبة على رجوع المفتي عن فتواه؛ فيمكن إجمالها في مسائل ثلاثة:

- المسألة الأولى: حكم إعلام المفتي للمستفتي برجوعه عن الفتوى.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على أربعة أقوال: فمنهم من ألزم إعلامه؛ وهو مذهب ابن مسعود رضي الله عنه. ومنهم من لم يلزمه مطلقا؛ وهو مذهب بعض الحنابلة. ومنهم من فرق؛ فإن عمل المستفتي بفتوى المفتي؛ فلا يلزمه إعلامه، وإلا لزمه. ومنهم من فصل: فيلزم المفتي إعلام المستفتي برجوعه إذا كانت الفتوى الأولى واجبة النقض؛ بأن خالفت نصا من كتاب أو سنة أو إجماع. أما إذا كانت محل اجتهاد، وكان التغير لمخالفة مذهب، أو قول؛ فلا يلزم المفتي إعلام المستفتي.

وهذا هو القول الراجح، والله أعلم، وهو اختيار الخطيب البغدادي، وغيره من العلماء؛ مستدلين بما روي عن ابن مسعود، وعن الحسن بن زياد اللؤلؤي: «أنه استفتي في مسألة فأخطأ، فاكترى مناديا ينادي أنه: رجع عن فتواه في مسألة كذا وكذا، وانتظر حتى رجع المستفتي، فأعلمه بالرجوع» رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه»، وابن الجوزي في «تعظيم الفتيا».

- المسألة الثانية: حكم عمل المفتي نفسه بفتواه بعد رجوعه.

وصورتها: كمن تزوج امرأة بغير ولي، ثم تغير اجتهاده؛ فهل تحرم عليه، ويلزم تجديد العقد بولي.

أيضا اختلف العلماء في هذه المسألة على أقوال: فمنهم من ألزمه بالرجوع عن فتواه القديمة، وأبطل عمله بالأولى؛ وهو مذهب بعض الفقهاء؛

سن المحرم للحج

رقم الفتوى (١٩٧)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

أريد إرسال زوجتي مع ابني البالغ من العمر ١٥ سنة كمحرم لها ولابنتي البالغة من العمر عشرين سنة، وهناك من يعترض على ذهابهم للحج، فأرجو إفتائي بذلك.

أجابت اللجنة بما يلي:

إن الشاب البالغ من العمر خمس عشرة سنة، إذا سافر مع أمه أو أخته إلى الحج يتحقق به المحرم المطلوب شرعا لسفر المرأة، وبناء عليه؛ فلا مانع شرعا من سفرهما معه. والله أعلم.

ترك الحج بسبب الوباء

رقم الفتوى (١٩٨)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

الرسول ﷺ حذر من الوباء احتياطا من انتشاره. بما معناه: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا كنتم في أرض هو فيها فلا تخرجوا منها»؛ فكيف بالحجاج، وسيأتون من بلاد فيها وباء الكوليرا؟ وهل يباح للدولة السعودية أن تمنع دخول الحجاج من البلاد الموبوءة؟ وهل يترك من وجب عليهم الحج الحج؟

أجابت اللجنة بما يلي:

إذا ثبت علميا خطورة هذا التجمع، بقرار أهل الخبرة والعدالة من المسلمين المختصين، وأنه لا سبيل إلى منع انتشار هذا الوباء إلا بمنع التجمع، فلا مانع من أن تتخذ الإجراءات التي تراها الجهات المختصة، ومنها منع من يريد الحج من البلاد الموبوءة، أما من وجب عليه الحج إن منع من الحج بسبب الإجراءات الحكومية، فلا حرج عليه في التأخير.

وإذا لم يمنع؛ ولكن غلب على ظنه بسبب مقبول كاحتمال الإصابة بالوباء، فلا يأثم بالتأخير، حتى عند من يرى أن الحج واجب على الفور؛ لعدم الأمن، ولا عبرة بالخوف المبني على مجرد الوهم.

وإذا أخر من وجب عليه الحج الحج بسبب الوباء؛ فلا يسقط عنه الحج، وعليه أداؤه عند زوال المانع. والله أعلم.



من الحنفية، والمالكية، والحنابلة.
ومنهم من لم يلزمه الرجوع إلى فتواه القديمة، ولم يحرم عليه العمل بالأولى؛ وهو قول بعض الحنفية.
ومنهم من فصل:
فإن حكم القاضي بصحة الفتوى الأولى؛ ثبتت، ولا يبطل العمل بموجبها، وإن لم يحكم بها؛ وجب نقضها، وحرم العمل بها؛ وهو قول عند الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة.
وهذا القول هو الراجح، وهو اختيار جمع من العلماء منهم الخطيب البغدادي، والنووي رحمهم الله.
المسألة الثالثة: حكم عمل المستفتي بالفتوى الأولى بعد رجوع المفتي.
محل الخلاف في هذه الصورة ما إذا لم يحكم القاضي بمقتضى الفتوى الأولى؛ أما إذا حكم القاضي بالفتوى الأولى فإن حكمه يرفع الخلاف؛ إلا إذا خالف نصا.
وفي صورة محل الخلاف حالتان:
الحالة الأولى: إذا عمل المفتي بفتوى العالم؛ كالزواج بلا ولي؛ فمنهم من حرم على المستفتي العمل بالفتوى مطلقا؛ وهو قول لبعض الحنفية والشافعية. ومنهم من حرم عليه العمل بالفتوى إذا كان رجوع المفتي بناء على مخالفة مذهب إمامه، لا لمحض الاجتهاد، وهذا قول لبعض الحنابلة.
ومنهم من حرم عليه العمل بالفتوى إذا كان رجوعه بسبب مخالفة النص من كتاب أو سنة أو إجماع، لا لتغير اجتهاده وحسب؛ وهذا قول جماهير أهل العلم من أئمة المذاهب الأربعة.
والراجح - والله أعلم - هو المذهب الثالث؛ لموافقته فعل السلف.
الحالة الثانية: أن يعلم المستفتي برجوع المفتي عن فتواه قبل أن يعمل بالفتوى؛ فمنهم من حرم عليه العمل بعد علمه برجوع مفتيه مطلقا؛ وهو مذهب كثير من أئمة المذاهب الأربعة. ومنهم من فصل:
فإن سأل غيره من العلماء، وأفتاه بما يوافق الفتوى الأولى؛ عمل بها، ولا يلزمه الرجوع، وإن أفتاه بما يوافق الفتوى الثانية، أو لم يجد من يفتيه؛ فإنه حينئذ يحرم عليه العمل بالفتوى الأولى؛ ما لم تكن الفتوى الأولى مخالفة صريح الكتاب والسنة.
وهذا القول رجحه ابن القيم رحمه الله، وانتصر له.
يرجع في هذه المسألة إلى: «الفقيه والمتفقه» (٢/٤٢٤) وما بعدها، و«صفة الفتوى» (ص٣٦)، و«تعظيم الفتوى» (ص٩٣)، و«النهج الأقوى»؛ للعريني (٥٢٥) وما بعدها.

تأجيل الحج والعمرة بسبب عدوى متوقعة

رقم الفتوى (٥٩٤١)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

إذا حدث أن تصادف مع قرب موسم الحج تفشي مرض معد مثل: سارس، وغيره، وكان من الممكن انتقال العدوى إلى أي حاج أو معتمر، فهل هذا مسوغ لمن لم يقم بفرضه بالعدول عن الحج في ذلك العام؟

أجابت اللجنة بما يلي:
إذا كانت العدوى متوقعة أو يغلب على الظن وقوعها ولم يمكن التغلب عليها ببعض اللقاحات الناجعة، فيمكن تأجيل حج الفرض إلى عام قادم، لأن ذلك يعتبر عذرا شرعيا مبررا للتأجيل، عند من يرى وجوب فورية الأداء عند الاستطاعة، ومدار ثبوت ذلك على قول الأطباء المختصين، والسلطات الصحية في الدول الإسلامية. والله أعلم.

خروج المعتدة للحج

رقم الفتوى (٢٠٣)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

ما حكم المعتدة من الوفاة؛ هل يجوز أن تذهب إلى الحج؟

أجابت اللجنة بما يلي:
إنه لا يجوز أن تذهب إلى الحج مادامت في عدتها، سواء أكان حجها فرضا أو غير فرض، لأن المعتدة مأمورة بالاعتداد في منزلها ومنهية عن الخروج منه، إلا أن تخرج لحاجتها نهارا، على أن تبيت في منزلها، ولأن الاعتداد يفوت بفوات وقت العدة، والحج يمكن تداركه. والله أعلم.

حج المرأة عن الغير

رقم الفتوى (٢٠٩)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

هل يجوز توكيل المرأة بالحج عن الرجل؟

أجابت اللجنة بما يلي:
يجوز توكيل المرأة بالحج عن الرجل إذا كانت قد أدت حجة الفرض عن نفسها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الضحك والبكاء في القرآن الكريم

الإنسان يفرح ويحزن، ويضحك ويبكي، ويهدأ ويثور، ويرق ويقسو، ويظهر أن الانفعالات والمشاعر والأحاسيس أهم ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، فهو الإنسان الذي ميزه الله سبحانه وتعالى بالعقل، وأمره بالنظر والتفكر والتدبر.. والقرآن الكريم يلفت الأنظار إلى قدرة الله تعالى الذي يضحك ويبكي، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ (النجم:٤٣). يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «للضحك عدة أسباب، أكثرها يدور حول محور واحد هو الاغتباط بأنفسنا: اغتباطنا إما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذي نكشفه في سوانا. وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كان الاستهزاء لا يناله وحده، ومن العجيب أن نرى صاحب الجاه والسلطان وهو يبكي، ونرى صاحب الأموال والثروات وهو يبكي، ونرى الضعيف وهو يضحك، ونرى الصعلوك وهو يضحك.. إنه أمر بيد الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ (النجم:٤٣).

وقد كان كفار قريش يسمعون القرآن الكريم فيضحكون استهزاء وسخرية.. إنهم غافلون ضالون، لو علموا ما ينتظرهم من عقاب لبكوا.

قال تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠﴾ (النجم: ٥٩-٦٠). ويعرض القرآن الكريم مشهد الضحك والسخرية من المؤمنين والاستهزاء بهم.. هذا المشهد الذي يدل على فساد الكفار وجحودهم، وعنادهم، ووقوفهم في وجه الحق والخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩﴾ (المطففين:٢٩)، ويعرض القرآن الكريم المشهد المقابل، لقد تغير الوضع، وأصبح الكفار هم موضع الضحك والسخرية والاستهزاء، وأصبح المؤمنون في موضع العزة والكرامة والنعيم، قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤﴾ (المطففين:٣٤).

ومن مشاهد البكاء في القرآن الكريم مشهد إخوة يوسف عندما جاءوا أباهم عشاء يبكون، وهو بكاء تمثيل وخداع، عندما تخلصوا من أخيهم يوسف وألقوه في غيابة الجب، وادعوا أن الذئب قد أكله، قال تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝١٦﴾ (يوسف:١٦).

● د. يحيى سنبل

خادم القرآن الكريم والسنة النبوية

تاريخنا الإسلامي مليء بسير العظماء والنابهين، وحينما يتحدث عنهم هذا التاريخ يذكرهم في صفحاته بريشة الإكبار والتعظيم، لأنهم حليته وزينته، ومن أبرزهم محمد فؤاد عبدالباقي صالح، المولود في قرية ميت حلفا من أعمال مدينة قليوب بمحافظة القليوبية (مصر) في يوم الأربعاء الثامن من مارس سنة ١٨٨٢م، لأب صعيدي حل على القرية بحكم عمله بالإدارة المالية لوزارة الحربية، فأحاطته ميت حلفا بكل حب وود، واليوم تتوافد عليه القرية لتهنئته وعروسه بأول مولود يرزقانه «محمد فؤاد».

وفي سنة ١٨٩٩م وهو في السابعة عشرة من عمره ترك مدرسة الأميركان بعد أن استمر بها عامين، ويتضح أنه لم يتلق تعليما منتظما مألوفا؛ لأنه رغب أن يتلقى تعليما يتفق ومواهبه وهواه ورغبته واستعداده، فالتحق بالعمل مدرسا للغة العربية في إحدى المدارس الخاصة، ثم ناظرا لمدرسة أخرى سنة ١٩٠٣م، ولما تفتحت مواهب محمد فؤاد عبدالباقي وملكاته وبدأت تفصح عن نفسها؛ بدأ ينظم الشعر.

خلف لنا محمد فؤاد عبدالباقي تراثا فكريا خالدا؛ تمثل في تحقيقه وترجمته وتأليفه العديد من الكتب القيمة في مجال القرآن الكريم والسنة النبوية، نذكر منها ترجمته لكتاب «تفصيل آيات القرآن الكريم» للمستشرق الفرنسي جول لابوم، وهذا الكتاب مقسم إلى ثمانية عشر بابا، هي «التاريخ، محمد ﷺ، التبليغ، بنو إسرائيل، التوراة، النصارى، ما بعد الطبيعة، التوحيد، القرآن والدين، العقائد، العبادات، الشريعة، النظام الاجتماعي، العلوم والفنون، تهذيب الأخلاق، النجاح»، كتاب «معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري» والكتاب عبارة عن شرح الألفاظ التي أوردها البخاري في صحيحه، والتي أخذها عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة.

● محمد فؤاد علي



القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:
info@alwaei.com
aelbarbary@live.com

الصلح خير

في دنيا الناس كم تكون الحياة سعيدة إذا التأم شملهم، وتحابوا فيما بينهم، وتودد بعضهم إلى بعض. ولما للصلح من أثر إيجابي فقد حث عليه رب العالمين والنبي الأمين، وكثيرا ما تحدثت آيات القرآن وحثت على ذلك ليدوم الحب ويذهب الكره والتخاصم، نقرأ في مفتتح سورة الأنفال ما يوضح ذلك: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ (الأنفال:١)، وفي سورة النساء يتجلى حرص الإسلام على تصالح الأسرة والاهتمام بها، خاصة المرأة والعمل على إرضائها، إذ هي حجر الزاوية وهي الأم الودود، بصلاحها يصلح المجتمع والعكس، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ (النساء:٣٥)، وفي ذات السورة جاور الإصلاح التقوى، وكانا قرينين، وفي الآية يوصي الله الرجل بعدم ظلم المرأة لتدوم الحياة على الحب، بسبب الصلح يقول تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ (النساء:١٢٩)، ويعلمنا الله أهمية الصلح وأنه بدونه لا تستقيم الحياة ولا تسعد الجماعات، فنراه يأمر بالصلح: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ (الحجرات:٩)، ويؤكد في الآية التي تليها على أخوة المؤمنين، ويؤكد على القيام بالصلح؛ آمرا أيضا فيقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجرات:١٠)، والسنة لم تغفل أهمية الصلح، فهاهو ﷺ يتحدث عن ذلك.. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

● **طنطاوي عبدالقادر علي**

الهجرة وسنة التدافع

قد يحزن المسلم، وحق له أن يحزن، إذا رأى الضر يحيق بالمسلمين، والأذى يطالهم في غير موضع من عالمنا، تارة بالاضطهاد والأسر، وأخرى بالتعذيب والقتل، وغيرهما بالتهجير والطرد، وإرغامهم على ترك ديارهم وأموالهم وأوطانهم قسرا، ويزداد الحزن إذا رأى المسلم التطاول على الذات الإلهية أو الإساءة إلى رسول الله ﷺ، أو نبي من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم، غير أن المتدبر للقرآن الكريم وسيرة النبي الأمين، وكذا سير الأنبياء والمرسلين يعلم يقينا أن هذا كله يدخل في تلك السنة الإلهية التي بينها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج:٤٠)، وهذا التدافع من أجل حكمة جلت وعظمت لا يعلمها إلا الله وحده، وقد تتبين لنا تلك الحكمة بين الحين والحين.

في كل مرة من المرات التي تحدث فيها مواجهات بين أتباع الحق وأتباع الباطل، يحدث سجال ومناظرات، يعرض كل فريق بضاعته التي يدافع عنها، بكل ما أوتي من قوة؛ مما يجعل الناس تنتبه لدعوة الفريقين، وهي فرصة ثمينة للعقل السوي كي يميز بين الغث والسمين، والغي من الرشاد، وإذا قرأنا قصص دخول كبار الصحابة الإسلام نجد أن هؤلاء فكروا في هذا الدين وما يدعو إليه من أخلاق وآداب، كما جذبهم إليه عناد الكافرين واضطهاد أهله، فعلموا عن يقين واقتناع أنه دين الحق، ولعل إسلام عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبدالمطلب، والطفيل بن عمرو، وخالد بن الوليد وغيرهم، لأكبر دليل على أن الصراع والتدافع بين الحق والباطل ينتج عنه الخير دائما، حيث ينتصر الحق ويزهق الباطل.

● **كمال عبدالمنعم محمد خليل**

الحج ينفي الفقر

● ثلاثة تنفع في الدنيا مع ثوابها في الآخرة: الحج ينفي الفقر، والصدقة ترد البلاء، والبر يزيد في العمر.
● ثلاثة من كن فيه فقد أصاب البر: سخاء النفس، والصبر على الأذى، وطيب الكلام.
● ثلاث خلال من برئ منهن نال ثلاثة: من برئ من الشهرة نال العز، ومن برئ من البخل نال الشرف، ومن برئ من الكبر نال الكرامة.
● ثلاث من لم يرغب فيهن بُلي بست: من لم يرغب في الإخوان بلي بالعداوة والامتحان، ومن لم يرغب في السلامة بلي بالشدائد والامتهان، ومن لم يرغب في المعروف بلي بالندامة والخسران.

(إحياء التراث في ما جاء في السبع والثلاث للعلامة ابن عقيل النجدي)

الطواف (لا يشتبه عليك الأمران)

ذكر الشيخ عبدالرحمن بن قاسم في حاشيته على «الروض المربع» أن من بدع الطواف رفع الإنسان يديه إذا حاذى الحجر الأسود كرفعها لتكبيرة الإحرام. اهـ.

ومثله: رفعها عند الصفا والمروة، وكذلك رفعهما عند رؤية الهلال، كل هذه المواضع لا يشرع رفع اليدين فيها كرفعها لتكبيرة الإحرام، وإنما يشرع رفعهما للدعاء كما ترفع في قنوت الوتر، فتأمل، ولا يشتبه عليك الأمران، والله المستعان.

(كشكول ابن عقيل النجدي ص ٦٤)

مواضع الدعاء في الحج

يستحب الدعاء في الحج في ثلاثة عشر موضعا مجموعة في قول القائل:

خلف المقام ومنى وزمزم ... ومشعر والسعي والملتزم
وتحت ميزاب وعند عرفة ... والجمرات ثم في المزدلفة
وفي الصفا ومروة والطواف ... يندب في الحج الدعا لكل واف

(كشكول ابن عقيل النجدي ص ١٩٠)

إعداد: تركي النصر

المواقيت المكانية للحج

عرق العراق يلملم اليمن
وبذي الحليفة يحرم المدني
والشام جحفة إن مررت بها
ولأهل نجد قرن فاستبن

(كتاب الصبابات ص٤٨)

الاتعاظ من أعمال الحج

يقول الإمام موفق الدين ابن قدامة رحمه الله: إن في كل فعل من أفعال الحج تذكرة وعظة للمعتبرين، فمن ذلك:

● أنه يتذكر بتحصيل الزاد للسفر؛ التزود من الأعمال الصالحة لسفر الآخرة.
● فإذا فارق وطنه فليتذكر ميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام.
● وعند تجرده من المخيط والثياب إذا لبس المحرم رداءه؛ فليتذكر لبس كفنه بعد وفاته.
● وإذا رأى البيت الحرام استحضر عظمته في قلبه، وشكر الله على تبليغه رتبة الوافدين إليه ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ (مريم: ٨٥).
● وليستشعر عظمة الطواف فإنه صلاة.
● يعتقد عند استلام الحجر الأسود بأنه يبايع الله على طاعته.
● وليتذكر عند التعلق بأستار الحجر الأسود في الملتزم والتصاقه به لجوء المذنب إلى سيده وقرب المحب من حبيبه.
● وإذا سعى بين الصفا والمروة فينبغي أن يمثلها بكفتي الميزان وتردده بينهما بالتردد في عرصات يوم القيامة.
● أما الوقوف بعرفة وبجمع والاجتماع في منى؛ فإنه يتذكر فيها الاجتماع الأكبر، الذي يجمع الله فيه الخلق: الأولين والآخرين، وازدحامهم وارتفاع أصواتهم، واختلاف لغاتهم في موقف القيامة.

(كشكول ابن عقيل ص ٢٦٧)

المقصود من الحج

قال العلامة ابن تيمية رحمه الله: «المقصود من الحج عبادة الله وحده في البقاع التي أمر الله بعبادته فيها، ولهذا كان الحج شعار الحنيفية، حتى قال طائفة من السلف: حنفاء لله، أي: حجاجا، فإن اليهود والنصارى لا يحجون».

(اقتضاء الصراط المستقيم ١/٤٤٩)

الحجر الأسود

عن ابن عباس ﷺ مرفوعا: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم» (أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا مرفوعا: «إن لهذا الحجر لسانا وشفتين يشهدان لمن استلمه يوم القيامة بحق» (أخرجه ابن خزيمة، وقال الترمذي: حسن صحيح).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مسح الحجر والركن اليماني يحط الخطايا حطا» (رواه أحمد، وابن حبان).

وذكر صاحب تحفة الراكع والساجد (ص:٨٧): أن أبا طاهر القرمطي لما وافى مكة اقتلع الحجر من مكانه وحمله إلى الكوفة وهلك تحته في الطريق إليها أربعون جملا، ثم حمل الحجر إلى «هجر» سنة ٣١٧هـ، وبقي الحجر عند القرامطة اثنين وعشرين سنة إلا شهرا، ثم رد إلى مكانه في ذي الحجة سنة ٣٣٩هـ.

ما أراك تعرفه

«زكى رجل رجلا عند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له عمر: صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ فقال الرجل: لا. قال عمر: ما أراك تعرفه».

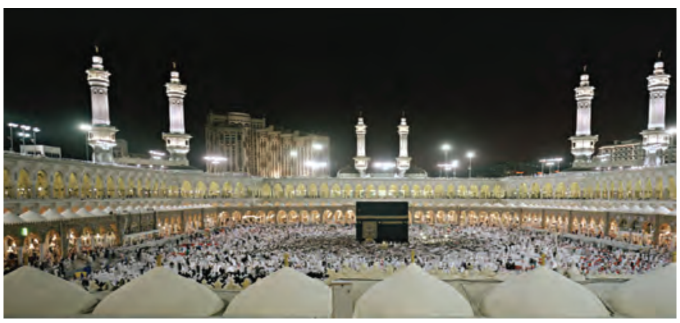
وعن بعض السلف: «إذا أثنى على الرجل معاملوه في الحضر، ورفقاؤه في السفر فلا تشكّوا في صلاحه إذ ذاك؛ لأن السفر يسيئ الأخلاق، ويكثر الضجر، ويخرج مكامن النفس من الشح والشره».

(الوعظ المطلوب للقاسمي)

تعلق القلوب ببيت الله

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «أخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطرا، فالقلوب عاكفة على محبته، دائمة الاشتياق إليه، متوجهة إليه حيث كانت».

(بدائع الفوائد ٤/٢٣٣)



الحج المبرور

قال أبو الشعثاء: «نظرت في أعمال البر، فإذا الصلاة تجهد البدن، والصوم كذلك، والصدقة تجهد المال، والحج يجهدهما».

والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» (متفق عليه).

والحج المبرور: هو الذي لا يخالطه إثم. وقيل: المتقبل. وقيل: الذي لا رياء فيه ولا سمعة، ولا رفث ولا فسوق. وقيل: علامة بر الحج أن تزداد بعده خيرا، ولا يعاود المعاصي بعد رجوعه. وعن الحسن البصري قال: «الحج المبرور أن يرجع زاهدا في الدنيا، راغبا في الآخرة».

مسك الختام

السنوسي محمد السنوسي
كاتب صحفي

الحج.. عبادة الأمة

عند التأمل والمقارنة بين العبادات الأساسية التي قام عليها الإسلام، ومثلت «الأركان» من بنيانه الشاهق، وصرحه المرتفع؛ فإننا نجد أن كل عبادة من هذه الأركان الخمسة قد تفردت بميزة عما سواها، وأن «الحج» قد جمع ميزات هذه العبادات كلها وزيادة.

فإذا كانت «الشهادتان» عبادة قولية يستفتح بهما المرء رحلته مع الإسلام والإيمان والإحسان.. وإذا كانت «الصلاة» عبادة بدنية تمثل محطات خمس في اليوم والليلة يقف فيها المسلم خاشعا متبتلا بين يدي ربه.. وإذا كانت «الزكاة» عبادة مالية واجبة على القادر؛ لتحقيق التكافل بين أبناء المجتمع المسلم.. وإذا كان «الصوم» عبادة جسدية، ليس ليستمتع الجسد بما لذ وطاب، بل لينفطم عن رغباته وشهواته جزءا من العام.. فإن «الحج» عبادة تجمع كل هذه المعاني؛ فهو يشتمل على التعبد القولي والقلبي والبدني والمالي.

يضاف إلى ذلك - وهذا هو المعنى المهم الذي يغيب عن كثيرين - أنه إذا كانت العبادات الأربع يغلب عليها أنها تؤدى بطابع فردي، أو في جماعة محدودة (مثل الصلاة)؛ فإن «الحج» هو «عبادة الأمة» كلها. ولذلك، يجب أن يؤدى في زمان واحد ووقت واحد بالصورة الجماعية التي لا تعرف البشرية لها مثيلا.

لقد أراد الله سبحانه بفريضة الحج أن يجمع المسلمين من شتى بقاع الأرض، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأحوالهم، وأن يكونوا جميعا في صعيد واحد؛ ملبين، مكبرين، مسبحين، متضرعين.

وهذا «الجمع» للمسلمين في الزمان الواحد والمكان الواحد، إنما هو جمع مقصود؛ ليذكر المسلمين بأنهم مهما تباعدت بلادهم واختلفت ألسنتهم وألوانهم، فإنهم أمة واحدة، وجسد واحد.

إن هذا المعنى - التأكيد على وحدة الأمة - هو من أهم المعاني التي يغرسها الإسلام من خلال شعائره المتعددة.. وهو - أي المعنى - في شعيرة الحج أكثر وضوحا، وأشد تأكيدا.

ولذلك، فإن الذين حاولوا - تحت ضغط البحث عن بدائل لحالات الزحام والاختناق التي حدثت في الحج في بعض الأعوام - أن «يجتهدوا» اجتهادا منفلتا وقالوا بضرورة تفرقة الحج على شهور العام؛ بحيث يُخصص لكل بلد، أو مجموعة بلاد، شهر يحج فيه أهله تفاديا للزحام.. هؤلاء قد غاب عنهم هذا المعنى، ولم يفهموا المقصد الأكبر من مقاصد الحج.

والسؤال الذي يجب أن نتلمس إجابته هو: لماذا لا يجعل المسلمون من الحج مؤتمرا جامعا للشعوب الإسلامية التي تأتي من كل حدب وصوب؟

وإذا كان «التعارف» أمرا ندب إليه الإسلام بين الناس جميعا، أفليس حريا بنا أن نحققه في هذه العبادة الجامعة، خصوصا مع الأقليات الإسلامية؟

إن حجيج بيت الله إذا انشغلوا بالذكر والتسبيح والصلاة فحسب، وحصروا همهم في هذه العبادات، التي من الممكن أن تؤدى في أي مكان - رغم أن ثوابها في البيت الحرام أعظم - فما الجديد الذي يمكن أن تضيفه شعيرة الحج إلى حياة المسلمين إلا أن يكون الحج بوتقة للتعارف، ومظهرا للتماسك، وتأكيدا للوحدة، وتجليا لقوة وفتوة هذه الأمة التي تجدد شبابها ووحدتها مرة كل عام.







أسست عام 1385 هـ - 1965 م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٩٢) ذو الحجة ١٤٣٥ هـ - أكتوبر ٢٠١٤ م

50 عاماً من العطاء

البهجة المطمئنة

- عندما يكون الأدب في خدمة الصهيونية
- العقيدة.. ودورها في التنمية الاقتصادية
- وظائف التأليف في الرقائق
- منهج الإقراء في الأندلس



مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

خمسون ربيعا
من قلب كويت الخير

خمسون ربيعا من وعي
في عمر «الوعي الإسلامي»

تمت فأتمت غايتها
وعيًا في دنيا الإعلام

من عمق الحُلْكة بارقها
قد أومض وسط الإظلام

فأنار الدرب لأمتنا
بضياء شموس الأقلام

لم تَكْبُ ركائب عزتها
في ساح المجد المترامي

من قلب كويت الخير مضت
عطرا في صدر الأنسام

للدنيا تعلن منهجها
«وسطية فكر الإسلام»

لَاهُمَّ وهذي سيرتها
مذ كانت عبر الأيام

ما حادت يوما عن رشد
أو مالت نحو الأوهام

لا ترجو إلا أن ترضى
فرضاك هو القصد السامي

أمين حميد

الافتتاحية

حصائد الألسنة

الإنسان إنما هو صورة ممثلة، أو ضالة مهملة؛ لولا اللسان. والكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر، ويخبر بمكنونات السرائر، فحق على العاقل أن يحترز من زلله بالإمساك عنه، أو بالإقلال منه. والله رفع درجة اللسان على سائر الجوارح، فليس منها شيء أعظم أجرا منه إذا أطاع، ولا أعظم ذنبا منه إذا جنى، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، وللكلام آداب، إن أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه، وطمس بهجة بيانه، فمن آدابه: ألا يتجاوز في مدح، ولا يسرف في ذم، وأن يتجافى هجر القول، ومستقبح الكلام، وقرنه بالتلطف واللين، لقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾.

تصدى رجل للرشيد فقال: إني أريد أن أغلظ عليك في المقال، فهل أنت محتمل؟ قال: لا؛ لأن الله تعالى أرسل من هو خير منك إلى من كان شرا مني، وأمره باللين، فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه:٤٤).

وواجب من يعظ أن لا يعنف، ومن يوعظ أن لا يأنف، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة:٨٣)، وجعل الإحسان لسائر الناس بالقول، لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به، على أن الله أمر بالإحسان الفعلي، حيث يتعين ويدخل تحت قدرة المأمور، وأمر بالإحسان القولي إذا تعذر الفعلي، على حد قول الشاعر:

«**فليسعد النطق إن لم تسعد الحال**»

وضبط اللسان وحبسه هو أصل الخير كله.. وإن من ملك لسانه فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه، وصدق رسول الله ﷺ «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟.. كف عليك هذا»، «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت».

فإن معصية النطق يدخل فيها الشرك، وهو أعظم الذنوب عند الله، ويدخل فيها القول على الله بغير علم، وهو قرين الشرك، وشهادة الزور، والقذف والكذب والنميمة والغيبة، لقوله ﷺ «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها؛ يزل في النار...»، فاللسان هو المورد للمرء موارد العطب، والصمت يكسب المحبة والوقار..

تعاهد لسانك إن اللسان … سريع إلى المرء في قتله
وهذا اللسان بريد الفؤاد … يدل الرجال على عقله

واللسان معيار أطاشه الجهل، وأرجحه العقل، وينبغي للعاقل أن يستميل قلوب الناس إليه بالمزاح، وترك التعبس، والمزاح منه ما يكره ويباح، ومنه المحمود الذي لا يكون بإثم ولا قطيعة رحم، ومنه المذموم الذي يثير العداوة ويذهب البهاء، والمزاح: المباسطة إلى الغير، على جهة التلطف والاستعطاف، دون أذية، والإكثار منه والخروج عن الحد مخل بالمروءة والوقار..

إنما السالم من ألـ … ـجم فاه بلجام
ربما يستفتح المـز … ح مغاليق الحمام

فالعاقل من حفظ لسانه، وكان كلامه لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضر. واللسان فيه خصال يجب على العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها في موضعها، أداة يظهر بها البيان، وناطق يرد به الجواب، وحاكم يفصل به الخطاب، وحاصد تذهب به الضغينة، ونازع يجذب المودة وغيرها من الخصال.

فرحم الله من قال خيرا فغنم، أو سكت فسلم.

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٢ | ذو الحجة ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
اكتوبر ٢٠١٤ مـ

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية – المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

في هذا العدد



السعادة، هي كمال البهجة، لا تدرك إلا بمعرفة الله، وعبادته، والقيام بأمره، واجتناب نهيه، ولا يكون الإنسان مبتهجا تمام البهجة، راضيا تمام الرضا إلا بهذا، وما عدا هذا فهو منغص على الروح بهجتها وأنسها.

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦–٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم. – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤–(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

•الكويت : ٥٠٠ فلس •السعودية: ٥ ريالات • البحرين : ٥٠٠ فلس • قطر : ٥ ريالات • الإمارات : ٥ درهم • سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة •الأردن:دينار واحد • مصر : ٢ جنيه •اليمن : ١٠٠ ريال •لبنان: ٢٠٠٠ ليرة • سوريا: ٣٠ ليرة • المغرب : ١٠دراهم • الجزائر: ٤ دينار جزائري •تونس: دينار واحد تونسي • المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني • باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

كلمة العدد

الابتهاج

إن الإنسان في هذه الحياة قد يكون مجبولا على فعل ما هو خير وحق ومحمود في نفسه، مثل أن يحب الإحسان إلى ذوي الحاجات، والعفو عن الزلات، ويحب الصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم.. وغيرها من الصفات الحسنة.

قد يحب هذه الأوصاف وإن لم يكن مسلما؛ لأن النفوس السوية تبتهج بالخير وتميل إليه، وتكره الشر وتنفر منه، هذه حال أكثر النفوس. على أن النفس إن كانت مسلمة؛ فإنها تزيد على الجبلة والطبيعة في فعل هذه المستحسنات طاعة الله وابتغاء الأجر، وإن لم تكن مسلمة فإن صاحبها يقبل على هذه الأمور وهو لا يتقرب بها إلى أحد من الخلق، ولا يطلب مدح أحد ولا خوفا من ذمه، بل لأنها من أسباب تنعم الحي وتلذذه بفعلها، فيجد بها فرحا وسرورا، كما يلتذ بمجرد سماع الأصوات الحسنة، أو شم الرائحة الطيبة.. هذه هي البهجة. قال أبو داود للإمام أحمد ابن حنبل: «جمعت هذا العلم لله؟ فقال: لله عزيز، ولكن حبب إلي أمر ففعلته».

إن السعادة، التي هي كمال البهجة، لا تدرك إلا بمعرفة الله، وعبادته، والقيام بأمره، واجتناب نهيه، ولا يكون الإنسان مبتهجا تمام البهجة، راضيا تمام الرضا إلا بهذا، وما عدا هذا فهو منغص على الروح بهجتها وأنسها.

فالهوى أكبر أدواء النفس البشرية، ومخالفته أعظم أدويتها. ولأن النفس تجهل وتظلم، فهي تتسبب في تلف ذاتها وعطبها، وتتعاطى داءها في موضع دوائها، فيتولد لها من ذلك أنواع من الأسقام والعلل؛ تحول بينها وبين سعادة الروح وبهجة النفس وسمو الإدراك وقمة العطاء، وإذا وصل العليل إلى هذه الحال، فلا مطمع في شفائه إلا برجوعه إلى ربه، واطراحه بين يديه؛ محبة لله، وإجلالا له، وخوفا منه، ورجاء فيه، فبذلك يحصل له من الابتهاج واللذة والسرور ما يدفع عنه آلام الكروب والهموم والغموم.

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

بحثا عن ولادة جديدة

محمد مصطفى ناصيف
باحث في مشروع تعظيم البلد الحرام

نسمات رقيقة ترفرف حول قلوب المسلمين، مضاءة بظلل إيمانية تغمر قلوب من استجابوا لنداء الله تأدية لمناسك الحج المفروض لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران:٩٧)، في اجتماع إيماني فريد، يجلببهم رداء ناصع واحد، تلهج ألسنتهم بنداء واحد، يقفون على مكان واحد، يلبون ربا أحدا واحدا.

فالحج: رحلة إيمانية، قوامها الاستطاعة، جسدية ومالية، وزادها التقوى بأن يبدأ الحج طاهرا، ظاهرا وباطنا، ثم يستمر على ذلك؛ لأنها الرحلة الوحيدة التي تحمل إلى



صاحبها روح الجنة، ويستروح في حياته بنسيمها ومباهجها.

الحــج: هو خامس الأركان في الإسلام، وآخر ما فرض الله من الشعائر والعبادات التي رسم حدودها ومعالمها، وفي أدائه يتضمن كل الأركان الأخرى، ففيه مضمون الشهادة السابقة من طاعة الله ورسوله، ومنه جوهر الصلاة من حيث الصلة الروحية بالله، وفيه معنى الزكاة من حيث التضحية بالمال، وفيه من أهداف الصوم من حيث منع النفس من مزاولة أشياء معينة في أثناء الحج.

الحج: يبدأ بالميقات الذي هو المكان المحدد للإحرام، والإحرام يتمثل بنية الحج.

الحــج: رحلة كريمة، ينتقل فيها المسلم ببدنه وقلبه إلى المكرمة «مكة»، البلد الأمين، الذي أقسم الله به في كتابه.

الحــج: غذاء روحي عظيم تمتلئ به جوانح المسلم خشية وتقى لله عزوجل، وعزما على طاعته، وندما على معصيته، فتنمو فيه عاطفة الحب لله ورسوله ولمن نصروه وعزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، لتوقظ فيها مشاعر الأخوة لأبناء دينه في كل مكان.

الحــج: تدريب على ركوب المشقات، ومفارقة الأهل والوطن، والتضحية بالراحة والدعة في الحياة الرتيبة بين الأهل والأصحاب.

الحــج: ابتلاء للنفوس بالطاعة في التوجه إلى البيت الموضوع ببكة، ليميز الطائعين من العاصين، وليتشبهوا بالطواف حوله بالطائفين بالبيت المعمور من ملائكة رب العالمين في ملكوت السماوات ارتقاء، ثم لقطع دابر أهل الفساد في الأرض.

الحــج: تدريب للمسلم على المبادئ الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام، ففي وحدة مظهر الحجاج في إحرامهم معنى المساواة في أحلى وأتم صورها ومظهرها.

الحــج: اجتماع روحي تلتقي فيه الأرواح قبل الأجساد عند غاية واحدة، والعمل لهدف واحد وهو رضا الله لتحقيق حكمته في خلقه.

الحــج: تصحيح المسار إلى الله المتفضل على هذه الأمة الإسلامية أن جعل لها نوافذ لتطهير النفوس وتزكيتها، حتى تنال رضاه سبحانه، ويجعل الحج المبرور من أوسع هذه النوافذ.

الحــج: أحاسيس ومشاعر تفرزها الروح مع صلة وثيقة مرتبطة بالمكان، حيث المناسك التي حدد معالمها هادي البشرية ﷺ بوقفة الضراعة الذليلة، أمام الصمدية العزيزة.

الحــج: مظهر من مظاهر السلام، فأرض الحج هي البلد الحرام، قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (آل عمران:٩٧)، فمنطقة الحج منطقة أمان، شملت الطير في الجو، والصيد في البر، والنبات على الأرض، إنها منطقة لا يصاد صيدها، ولا يروع طيرها ولا حيوانها، ولا يقطع شجرها ولا حشائشها.

الحــج: ترى فيه معنى الوحدة الإسلامية المطلوبة جليا واضحا، حيث شعور المسلمين فيه واحد، وشعائرهم واحدة، لا إقليمية، ولا عنصرية، ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة، جميعهم يلبون ربا واحدا.

الحــج: عبادة جماعية ميزت ديننا ونبينا، حيث لم يشرع لمجرد طواف المسلم منفردا حول بيت الله، ومشاهدة المقدسات فقط، بل ليكون السبيل لجمع المتفرق، ولم المتشتت، وتقابل الآراء؛ ليعود المجتمعون وقد حملوا مسؤولياتهم المشتركة، وأخذ كل منهم نصيبه منها، يعمل مع إخوانه المسلمين على تحقيقها والقيام بواجبها، ليتكون بعدها من جميعهم أمة أعلى الله شأنها ورفع ذكرها، باختيار الله لهذا الاجتماع الإيماني، ولتلك الرحلة الربانية الكريمة، وأماكن الذكريات ومهابط الرحمة الإيمانية لرسم طريق وحدة أمتنا، وتوحدها بعبودية واحدة ترتفع عن الزمان والمكان والأشخاص، متصلا حاضرها ومستقبلها بماضيها المضيء، ويصبغ كتلتها الموحدة بصبغة الوحدة، يتذكر فيها ضيوف الرحمن صفحة التبليغ الإلهي الذي قام به سيدنا علي رضي الله عنه مأمورا بأمر الرسول العظيم على رأس الحجيج المسلمين لأول مرة في العام التاسع بعد الفتح الكبير، ذلكم التبليغ الذي أعلنت به كلمة الإسلام النهائية في علاقة المشركين والبلد الحرام، وسجلته سورة التوبة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ (التوبة:٢٨)، وثيقة يجب على المسلمين في جميع العصور والأمكنة تعهدها والقيام بأحكامها مهما اختلفت بهم الأجناس والأقطار واللغات.

ويصبح شعارهم الدائم، وكلمتهم الصاعدة هذا الدعاء الإلهي الذي يعبرون به عن وضعهم أمام الله، وشعورهم بعظمته ونعمته وملكه وسلطانه.

«لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك»، حيث يصحبهم شعار الحج هذا في جميع مراحله، إذ يستحب لهم أن يرفعوا بالتلبية صوتهم، وكأنه استجابة للنداء الإلهي الأزلي الذي أذن به إبراهيم عليه السلام، لأن التلبية في حقيقتها هي النزوع بالنفس من عامل الظلم والطغيان إلى عامل العدل والإحسان، يسجل بها المؤمن على نفسه في جميع أوقاته معاني الخضوع والاستجابة لنداء مولاه، والاعتراف بوحدانيته، وأحديته في الملك والسلطان، والفضل والإنعام، والتدبير والتصرف، ويقر بأنه الواقف ببابه، الملبي لأوامره، المسارع لإجابته، المقسم على عهده ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢).

وبهذا يرجع من شذ عن غفلة إلى دين

الله، فلا يعبد سواه، ولا يلبي غيره، تنطلق بها الحناجر وأصوات الملايين المؤمنة فتصل ما بينهم وبين السماء، وهذه التلبية «شعار الإيمان» جعلت عنوانا خاصا بالحج؛ لتفرده بمزايا لا توجد في غيره، كما ستظل الشعار الدائم للحج والإيمان رغم أنف فلول المنافقين والمرجفين.

الحـج: محاولة فك أغلال غليظة قيدت الروح والجسد وحرمتهما من الانطلاق. وإذا كانت مناسك الحج وأفعاله فيما يعرفه العامة من الناس من إحرام وتجرد من المخيط، وطواف، وسعي، ووقوف بعرفة، ومبيت بمنى والمزدلفة، وذبح الهدي، في حقيقتها صور معان كامنة في صورتها وشكلها لمعنى الحج، إلا أن لها أبعادا وخلفيات روحانية تخالط الروح وتجعلها منيرة مضاءة، إنها خروج هذا العقل، إحدى المعجزات الإلهية في الإنسان، عن حدود المادة، وأن يسكب ضياء الإيمان على هذه الروح فيوقظها على عامل آخر لا يصل إليه العقل، وهو تلك النية الصادقة، مقصد الحج لما يريده الله سبحانه وتعالى.

فالإحرام والتجرد من المخيط والثياب التي يزهو بها الناس ويختالون، والاقتصار على إزار ورداء لا فخر فيهما لأحد على أحد، وليس خلع المخيط ولبس الثياب البيضاء فقط، بل لبس البياض من هذه الثياب؛ ليمازج معها بياض القلوب والألباب مع التجرد من شهوات النفس والهوى وحبسها عما سوى الله، وكذلك التجرد من الطبقية للتوحد والمساواة.

والكعبة المشرفة، وهي أول بيت أقيم في الأرض لعبادة الله تعالى، ليست ذلك البناء الذي يمكن بناؤه، وأستارها السوداء ليست نسيجا مطرزا بخيوط الذهب ينتجها مصنع كسوة الكعبة المشرفة في المكرمة مكة، وتزينها أيدي عمال التزيين المختصين، بل هي بيت الله العظيم، حفرت معانيها في الذاكرة، ووشمت على القلب، تستريح تحت الأهداب، فمنها ترتقي الروح إلى بارئها لتغيب في عظمته وجلاله، مستجيبة لأوامره، منتهية عن نواهيه، فلا يكاد يصل ضيف الرحمن إلى الكعبة المشرفة حتى يرسم بجسده حدودا بين مرحلتين، فقد جلب أوزاره معه ليتركها بجوار الباب مع حذائه، وليطوي صفحة الأمس مستشعرا أن ملخص حياته هو تلك الخطوات، وكيف يجب أن تكون في ضوء منهج عقدي ارتضاه الله ورسوله.

والطواف حول الكعبة المشرفة ليس ترديد كلمات خالية من الحس والشعور، كما أنه لا يعني هذه الحركة الجسمانية التي يزاحم بها الحاج أخاه، لكنه يعني التفاف القلوب ودورانها حول قدسية الله بكلمات وأدعية علمنا إياها معلم الإنسانية الخير ﷺ، تبثها من أعماق روحك، تظهر فيها خضوعك، راجيا فيها حاجتك من خالقك الذي لا يستطيع قضاءها سواه سبحانه، وألا تجعل بينك وبينه حاجزا وفاصلا، فهو وحده القريب السميع المجيب.

والسعي بين الصفا والمروة، لا يعني مجرد الهرولة بين الميلين الأخضرين، وقطع هذه المسافة ماشيا، وإنما التردد بين علمي الرحمة استمطارا لها، والتماسا للمغفرة والرضوان.

والسعي تأكيد وتوكيد بأن الله تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد، وأن الإنسان عليه قبل أن يرجو عونه - تبارك وتعالى - أن يتأكد من صحة مسعاه ويؤكده مرة أخرى؛ ليصيب مسعاه بعون الله مما هو في حاجة إليه.

والوقوف بعرفة لا يعني مجرد الإقامة عشية ونهارا وسط هذا الوادي اللافحة شمسه، إنما يعني بذل المهج في الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية، وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة لاهجة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة في أرحم الراحمين.

ورمي الجمرات، ليس إلا رمزا يعبر عن مقت البشر واحتقار نزعات الأنفس الأمارة بالسوء، وطرد وساوس الشيطان الرجيم، وهو رمز مادي يصور صدق عزيمته في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات بعدما أصبحنا في عصر يرجم فيه الأشقياء طهارة الأتقياء.

وذبح الهدي هو الخاتمة في درج الترقي إلى مكانة الطهر والصفاء، لأنه في حقيقته إراقة لدم الرذيلة بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة، وبقلب امتلأ إيمانا بالتضحية على مشهد من جند الله الأبرار الأطهار.

فهل استقر في قلوبنا بعض هذه الدروس والعبر في هذا المؤتمر الإسلامي السنوي، الذي تجتمع فيه القلوب قبل الأجساد؟

اللهم، هاهم ضيوفك بين يديك، وفدوا إليك، شعثا غبرا، وقد وقفوا وقوف الراجين، ونفروا نفور المؤملين، وباتوا مبيت الخاشعين، وضحوا تضحية تحلل المبتهجين، وطافوا طواف المودعين، فتقبل منهم ربنا، فأنت أكرم من أن ترفض دعاءهم وتضرعهم، فأنت وحدك الغفور البر الرحيم، وحقق لهم ما جاءوا من أجله، لأنها مرحلة غادروها مودعين، ليبدأوا مرحلة أخرى وفتح صفحة جديدة بعدما وضحت لهم معالم الطريق، يضيئون بهذه الشواهد ظلمات حياتهم وما رسب منها في الزوايا، وما تراكم على الجدران يمحوه قولك الكريم:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣).

هذا، وما أبعد الذين ينسلخون عن شعائر الإيمان، فلبيك اللهم لبيك، نملأ بها نفوسنا، ونقوم بها أعمالنا، ونسمعها العالم أجمع. ويبقى الحج رمزا خالدا لاتحاد المسلمين، فقوام الإسلام كلمة التوحيد، ووحدة الكلمة وتوحيدها.



الإعلام في عرفات
بين الواقع والمأمول

د. محمد مبارك البنداري
أستاذ مساعد في جامعة أم القرى بمكة المكرمة

حينما نتحدث عن الإعلام في المجتمع الإسلامي وفي يوم عرفة خاصة؛ فإننا نقرر حقيقة لا مراء فيها، وهي أن الإعلام ليس إضافة مستحدثة أو ضرورة تقتضيها ظروف العصر أو طبيعة التطور ليتزود بها المجتمع الإسلامي، بل هو جزء من الدعوة الإسلامية وسمة ظاهرة من سمات المجتمع الإسلامي، فالمجتمع الإسلامي هو مجتمع الاتصال الدائم، والوحدة الكاملة، والفكر الواحد والشعور الواحد والنظرة الواحدة إلى الأمور من منطلق العقيدة.

فالمجتمع الإسلامي يتميز بوجود الدعوة المتجددة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، والسعي إلى تحقيق ما ينفع الناس.

والإعلام في المجتمع الإسلامي يتميز بخصيصة فريدة، ذلك أنه إعلام متداخل متكامل؛ لأنه ينبع من منطلق العقيدة الإسلامية، ويتخلل حياة المجتمع بكل تفاصيلها ودقائقها، فهو أشبه ما يكون بخيوط النسيج المتداخل والمنتظم في حياة المجتمع الإسلامي.

إن الإسلام أرسى وحقق أنجح وأكمل وفعّل وسائل الاتصال بين أفراد المجتمع الإسلامي، في حين كانت كثير من الأمم تتخبط في ظلمات الجهل والخرافة والشائعات والعزلة الاجتماعية بين الأفراد والجماعات.

وبدأ الإعلام مع الدعوة الإسلامية، وظهر واضحا بهذا الأسلوب الإعلامي البسيط – آنذاك – حينما خرج الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ إلى الكعبة معلنين إسلامهم.

وكان الصحابة – رضوان الله عليهم – يستخدمون أدوات الإعلام المتاحة آنذاك، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يريد أن يُعلن إسلامه فيسأل عن الرجل الذي ينقل الخبر سريعا فقيل له جميل وهو معروف في مكة، فيأتيه ويقول له: أخبرك خبرا، لا تذعه، إني أسلمت، فصرخ في القوم: يا قوم، إن ابن الخطاب قد صبأ...

وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه يجهر بالقرآن عند الكعبة ليسمع الكفار – وكان أول من فعل ذلك –، فيلطمه أبو جهل...

والحوادث التي تدلل على الإعلام الإسلامي من قبل الصحابة كثيرة، وقد استخدموا فيها الوسائل المتاحة آنذاك.

الشعر آلة الإعلام

الشعر هو الكلام الموزون المقفى قصدا، والعرب اشتهروا بالفصاحة والبيان، وامتدحهم القرآن بذلك بقوله: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ (المنافقون: ٤)، فجعلوا من الشعر بضاعة لهم، وآلة إعلامية تخلّد آثارهم، وتمجّد أسيادهم، وتتحدث عن أيامهم وحروبهم.... فعقدوا الأسواق التي يتناشدون فيها الشعر، وعلقوا أجمل قصائدهم على الكعبة، وعقدوا الأفراح لبروز الشاعر منهم؛ لأنه آلة الإعلام للقبيلة قد يرفعها أو يخفضها ببيت من الشعر...

فهذه امرأة تريد أن تزوج بناتها فتستقبل الأعشى (ميمون قيس) الشاعر المعروف، وتذبح له ناقة، وتشتري له زقا من الخمر فيمدحهم، فيسارع سادة العرب لخطبتهم...

والحطيئة (جرول الشاعر) المعروف يمدح قبيلة أنف الناقة، فيفخرون بهذا اللقب بعدما كانوا لا يحبونه، وذلك أنه أنشد:

قوم هم الأنوف والأذناب غيرهم
ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا

وسجلوا حروبهم في شعرهم، وهو ما عرف بأيام العرب، وكانوا دائمي الإنشاد لهذا الشعر.

ولما جاء الإسلام استعان بآلة الإعلام هذه، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وهجا أبو سفيان و ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعري – قبل أن يسلموا – النبي ﷺ تصدى لهم إعلام المسلمين من شعراء النبي ﷺ: حسان ابن ثابت، عبد الله بن رواحة، كعب بن مالك... وردوا عليهم، وعقد النبي ﷺ لحسان منبرا في مسجده، وقال له: اهجهم وروح القدس معك...

وحينما كانوا يعقدون مسابقات إعلامية (أي: شعرية) كان حسان يرد عليهم، فلما قدم وفد بني تميم وقالوا للنبي ﷺ: ائذن لشاعرنا وخطيبنا فأذن لهم... ثم أرسل لحسان رضي الله عنه فجاء وهو ينشد عينيته المشهورة:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها من كانت سريرته
تقوى الإله والأمر الذي شرعوا

وهكذا أدى شعراء المسلمين دورهم الإعلامي في ظل الدولة الإسلامية الوليدة.

عند أداء مناسك الحج

لا ينبغي أن ننظر إلى الإعلام عند العرب على أنه مستحدث – خاصة عند أداء مناسك الحج – نعم، أصبح الإعلام في يوم عرفة يعنى بالأساليب الدعوية، وحياة المجتمع الإسلامي، ووظفه في موضعه الحقيقي، وبين وظيفته الشاملة في المجتمع الإسلامي.

لقد كانت الأسواق التي تعقد في الجاهلية على مقربة من مكة عقب موسم الحج مركزا إعلاميا للعرب كعكاظ (افتتح هذا العام في الطائف) ومجنة وذي المجاز... والعرب كانت تسعى إلى هذه الأسواق من كل حدب وصوب؛ ليشهدوا منافع لهم ويتناشدوا الأشعار ويذيعوا الخطب، ويتحاكموا في خصوماتهم، ويتفادوا الأسرى، ويعقدوا الصلح، أو يتفاخروا بالأحساب والمحامد والأمجاد.

فقد كان موسم الحج مكانا لنشر شعرهم في تجمعات العرب المختلفة عند البيت، بلغة يعرفها الجميع، وكانوا يضربون خيمة للحكم الذي يحكم بين الشعراء، فقد ورد أنهم ضربوا قبة من أدم (جلد) للنابغة الذبياني ليحكم على الشعراء، فأنشده حسان، والخنساء... ففضل عليه الخنساء (تماضر السلمية) فاعترض أمام الجميع وقال: أنا أشعر منك ومنها، فقال له، وماذا تقول، قال:

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له: قلت: «الجفنات» فقللت، ولو قلت الجفان كان أفضل، وقلت: «يقطرن» دما ولو قلت يجرين لكان أفضل، وقلت: «فأكرم بنا خالا»...

والعرب تفخر بمن ولدت من الولد...

هذه القصة تدل على أهمية الإعلام في موسم الحج في الجاهلية عن طريق الشعر، الأداة المعروفة آنذاك، ولماذا الشعر هو أداة الإعلام؟ لسهولة حفظه لأنه موزون مقفى، والطرب عند إنشاده أو سماعه لما فيه من موسيقى.

واستمر الوضع هكذا حتى مجيء الإسلام وتغيير النسك والمشاعر التي ابتدعها الجاهليون في الحج، وألغاها في حجة النبي ﷺ اليتيمة.

وسائله قديما

لما حج النبي ﷺ خطب في عرفات، وعرفت هذه الخطبة بخطبة الوداع، وقد أرسى فيها معالم الحريات، وحقوق الإنسان بقوله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا....» وقد كان خلف النبي ﷺ رجل يرفع صوته في الناس مبلغا الحجيج، لأن عددهم حوالي ١٠ آلاف حاج، وهذه هي وسيلة التغطية الإعلامية المتاحة آنذاك.

وظل هذا الأمر قائما إلى يومنا هذا؛ لأن النبي ﷺ قال: «خذوا عني مناسككم»، فلابد من جمع الصلاة، ثم إلقاء خطبة عرفات، أداة الإعلام في الحجيج.

ويمتاز هذا الموضع بخصائص إعلامية منها:

١ - تضمين الخطبة نصائح وإرشادات للحجيج عند أدائهم مناسك الحج.

٢ - أن الخطاب لجميع البلدان الإسلامية، وكل واحد ينقل ما سمع.

٣ - أن الحج مؤتمر إسلامي يجب تغطيته تغطية شاملة عن طريق نقل الخطبة بكل الوسائل.

ومع تقدم وسائل الإعلام تنقل قنوات العالم المسموعة والمرئية والمقروءة خطبة عرفات، ومضامينها، وأهدافها السامية وما تتضمنه من حقوق إنسانية أرسى مبادئها النبي ﷺ ... بيد أننا نجد قصورا في نقلها في وادي عرفات للحجيج أنفسهم، الجمهور المباشر للإعلام في خطبة عرفات!!

في عرفات

ذكرنا أن الإعلام في خطبة عرفات عالمي، ويغطى عبر وسائل الإعلام المعروفة بكل لغات العالم، بيد أننا وجدنا أن هناك مشكلة في الإعلام عن خطبة عرفات في وادي عرفات نفسه، فالحجيج وهم الفئة المستهدفة إعلاميا قبل غيرهم في المنازل والبلدان المختلفة، لا يسمعون خطبة عرفات! ولا أذان صلاتي الظهر والعصر...

مما أدى إلى ظهور كثير من البدع في كل مخيم، ولدى كل مجموعة من الناس حسب معتقداتهم وعاداتهم، التي غالبا ما تخالف العقيدة الصحيحة، عقيدة أهل السنة والجماعة.

فنجد رجلا يدعو بصوت مرتفع... وآخر يلهو ويلعب... لأنه لا يسمع خطيبا أو واعظا في مخيمه... فلا بد من العمل الجاد لنقضي على كل هذه البدع، عن طريق إرشاد أصحاب الفطر السليمة في إعلام عرفات، ويجب أن نراعي الضوابط الشرعية، وأن يقتصر دور الإعلام على نقل الخطبة والأذان لكل من في وادي عرفات، في المخيمات، والشوارع الرئيسية...

فالإعلام الإسلامي إعلام نابع من دين الله - عزوجل - الذي ارتضى لعباده، ومرتبط بهذا الدين علما وعملا وعقيدة، ومنهاج حياة، ومن الخطأ أن يسعى بعض الباحثين إلى تنظير الإعلام الإسلامي، فالإعلام الإسلامي غني عن التنظير والنظريات؛ لأن الإعلام الغربي قام على نظريات وضعية ومرتبط بفكر وعقول أشخاص، أما الإعلام الإسلامي فمرتبط بالدين الإسلامي والدعوة إليه، وما أدل على ذلك من إعلام خطبة عرفات.

وفي النهاية نقرر أن الإعلام الإسلامي لا يمكن أن تحتويه نظرية، مهما بذل فيها من جهد ودراسة وبحث، وأبلغ مثال على ذلك تعرض الباحثين لأساليب الدعوة، والقصص القرآني... ولكنهم يقفون عاجزين أمام بلاغة القرآن، وإنشاء نظرية للإعلام الإسلامي تضييق على الإعلام وجناية عليه.

المـــراجـــع

- الأدب الإسلامي (الواقع والطموح) بحوث المؤتمر الثاني لكلية الآداب بجامعة الزرقاء بالأردن جمع د. جميل بني عطا ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩م.
- الإعلام الإسلامي - المرحلة الشفهية، د. إبراهيم إمام، مكتبة الانجلو - مصر ط. ١، ١٩٨٠م.
- الإعلام الاسلامي وتطبيقاته العملية، د. محيي الدين عبد الحليم، ط القاهرة ١٩٨٠.
- الإعلام الهادف (أسسه وقضاياه) د. محمد الشاذلي - بحث مقدم في مؤتمر الاعلام والشباب بمصر.
- الإعلام في صدر الإسلام، د. عبداللطيف حمزة، ط ٢ دار الفكر العربي، ١٩٧٨م.
- الإعلام في المجتمع الإسلامي، حامد عبد الواحد، مجلة دعوة الحق، ع ذي الحجة ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م تصدر عن رابطة العالم الاسلامي.
- حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ، د. محمد الشاذلي البنداري.
- الشباب في موكب الدعوة/ محمود امبارك الشاذلي، مجلة صوت قنا ٢٠٠٥م.
- عمل جهاز مصغر لتلطيف الجو وتكييفه (مشروع نادي العلوم بمركز شباب قنا)/ محمود امبارك الشاذلي.
- ضوابط الإعلام في الشريعة الإسلامية وأنظمة المملكة العربية السعودية، د. يوسف محمد قاسم، نشر جامعة الملك سعود ١٣٩٩هـ.
- في الأدب الإسلامي (قضاياه وفنونه ونماذج منه)، د. محمد صالح الشنطي، ط. دار الأندلس بالسعودية.
- من قضايا الإعلام في القرآن، رمضان لاندو، مطبعة الهدف الكويت، ١٩٨٣ م.
- وسائل وأساليب الاتصال، د. زيدان عبدالباقي، مكتبة النهضة العربية ١٩٧٩م.



البيت الحرام وأثره في الاقتصاد العالمي

د. مجدي حسن
إمام وخطيب بوزارة الأوقاف الكويتية

أن يكون المسجد الحرام رمزا دينيا، وحوله وعنده تقوم شعائر الله، والناس يتوجهون إلى الله بعبادات متنوعة مختلفة من صلاة وطواف وذكر لله.. فهذا أمر طبيعي لا جدال فيه ولا عجب منه.

أما أن يكون المسجد الحرام له تأثير قوي في الاقتصاد العالمي وسوق المال فهذا الأمر الذي نتعجب منه، لكن لا نتحير فيه، لأن القرآن الكريم علمنا ذلك، ودلنا على أهمية المسجد الحرام الاقتصادية في دنيا الناس، الناس كلهم، على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وثقافتهم، بل وأديانهم.

فهي أساس عظيم أيضا تقوم عليه أمور الدنيا من معاش الناس، وحياتهم الدنيوية من تجارة وزراعة وصناعة وكل أشكال النشاط الاقتصادي.

قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المائدة:٩٧).

فالله تعالى جعل الكعبة البيت الحرام أصلا عظيما يقوم عليه الدين، ويقوم به الدين، فيتم إسلامهم بذلك، وتُغفر الذنوب، وتُضاعف الحسنات، ويكثر الإحسان الإلهي لضيوف الرحمن الذين أنفقوا الأموال واقتحموا الصعوبات ليؤموا البيت الحرام استجابة لأمر الله تعالى، وجاءوا من كل فج عميق؛ ليتعاونوا ويتشاوروا في المصالح العامة للأمة؛ ولتتعارف هذه الشعوب وهذه القبائل في ما بينهم فيزول ما بينهم من وحشة واغتراب، ويعيشوا تحت ظلال عقيدة التوحيد أمة واحدة.

ولكون البيت الحرام أقام دين الناس وكان سببا لقيام دين الناس، قال بعض العلماء إن حجه في كل عام فرض كفاية، فلو ترك الناس حجه أثم كل قادر.

وفي الكعبة البيت الحرام يأمن الخائف، وينصر الضعيف، ويتعبد المتعبد، فهي قبلتنا في الصلوات الخمس كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ (البقرة:١٤٤).

وحول الكعبة نطوف في الحج والعمرة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ (الحج:٢٩)، وحولها الراكع والساجد والقائم والذاكر لله جل وعلا، قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة:١٢٥)، فقد أقامت الكعبة الدين لارتباطه بها بأركانه من: الصلاة، والحج، والطواف، والسعي، وعمارة المسجد بالشعائر والمناسك المختلفة.

كذلك أقامت الكعبة معاش الناس وحياتهم الدنيوية، وكان لها تأثير اقتصادي كبير على حياة الناس من قديم، وكانت سببا قويا لتنشيط حركة الاقتصاد وسوق المال، فكانت سببا لقيام أمور الحياة وأمور المعاش.

قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ (قريش:١ - ٤).

ألا يتضح تأثير الكعبة الاقتصادي عندما نرى نشاط حركة المواصلات لنقل الحجاج والمعتمرين من بقاع الأرض المختلفة حتى يصلوا إلى بيت الله الحرام، سواء عبر الطائرات أو السفن أو السيارات؟!

وكذلك حركة النقل الداخلي في مكة وما حولها للقيام بمناسك الحج أو زيارة المسجد النبوي الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والسلام؟!

وما تحدثه الكعبة من نشاط في حركة التجارة والبيع والشراء لسائر البضائع من الأطعمة والمشروبات والملبوسات التي يستهلكها الحاج والمعتمر أو يقتنيها للهدايا.

إن الكعبة في مركز الأرض، وبسببها تحرك اقتصاد العالم كله، يزرعون ويصنعون ويصدرون إليها، ويجلبون إليها الخيرات من مشارق الأرض ومغاربها، وبسببها تنشط السياحة الداخلية، وتعمل الفنادق وترتفع درجة الإشغال فيها، وتتوافر فرص العمل للأيدي العاملة المسلمة بل وغير المسلمة، وتنشط حركة المال في سوق المال وأروقته، وتنشط تجارة الأنعام لتقديم الهدي والقرابين والأضاحي،

كما قال تعالى: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ (المائدة:٩٥).

لقد كانت الكعبة سببا عظيما لقيام الدين، وكانت سببا لقيام الدنيا وأسباب الحياة والمعاش، والآية قالت: ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ (المائدة:٩٧)، ولم تقل قياما للمؤمنين أو المسلمين، مما يدل على أن الخير يتعدى المؤمنين إلى غير المؤمنين ممن يعملون في أي مجال، سواء في مجال النقل والمواصلات أو الزراعة أو الصناعة.

ومادة «قيام» تسمى منها الله جل وعلا باسم القيوم، وهي صيغة مبالغة في القيام بالشيء والرعاية له والمحافظة والإصلاح. فهو سبحانه قائم بنفسه غير محتاج إلى خلقه لكمال غناه وقدرته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ (فاطر:١٥ - ١٧)، وهو سبحانه مقيم لغيره من سائر المخلوقات في السماوات وفي الأرض، فهي في حاجة دائمة متجددة إلى الله جل وعلا، فلا بقاء لها ولا صلاح لها إلا بالله تعالى، فكل المخلوقات والكائنات فقيرة وفي احتياج دائم إلى الله سبحانه.

إن رسالات السماء جاءت إلى الناس بكل خير، وبرغد العيش وسعادة الدنيا والآخرة ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ (المائدة:٦٦)، أي: إذا أقاموا ما في كتبهم من أحكام شريعة الله، ومنها الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ لتفجرت الخيرات لهم من كل مكان، ولتيسرت أسباب الرزق وزادت وكثرت وتنوعت.

كذلك كانت رسالة الإسلام خيرا على البشرية، فقد جاءت بسعة الرزق وكثرة الخير والغنى واليسار، وبرغم ذلك فإن البعض قابلها بالكفر والجحود، مع أنهم انتفعوا من الإسلام، واتسع رزقهم وكثر بعدما كانوا فقراء وعالة.

هذا ما وقع من المنافقين فقال تعالى عنهم: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾(التوبة:٧٤)، أي: ما عابوا وما أنكروا إلا ما يستحق المدح والثناء وهو إغناء الله لهم من فضله، وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق من العيش فلما قدم النبي ﷺ المدينة تيسرت معيشتهم وكثرت أموالهم.

إن الإسلام جاء لإصلاح حال الناس في الدنيا، ومواجهة الأزمات والملمات التي تقف حائلا بين الناس وسعادتهم، وإيجاد حلول لهذه المشكلات وإزالتها من طريق حياتهم. لذلك، وجه الإسلام الأمة إلى مساعدة ومعاونة الضعفاء منهم من الفقراء والمساكين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (التوبة:٦٠).

لقد كانت الكعبة البيت الحرام سببا للخير العميم على البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها، هي قائمة شامخة في مكانها ترفل في ثوب العز، والدنيا كلها تتحرك لأجلها، الكل يطوف حولها ما بين طواف شرعي، وطواف اقتصادي، إن جاز التعبير، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ (المائدة:٩٧).

بوركت يا بيت الله الحرام، وبوركت هذه الكعبة، شرفها الله بما تسببت فيه من خير للعالمين، سائلا المولى جل وعلا أن يهدي من انتفع من خيرها الدنيوي إلى أن ينتفع وينهل من خيرها الديني.

مغفرة مأمولة..
ودعاء مجاب.. ورب رحيم



الحج
رحلة حنين

محمد عبدالحميد توفيق
أديب مصري

كل الرحيل يذكرك بالغربة، والتسيار من بلد إلى بلد يبعث في النفس القلق، وحمل الأمتعة يثير مشاعر ذات نكهة غريبة.. إلا الرحيل إلى الحج، فهو مسيرة إلى السكينة، وترحال إلى الحنين عبر أشواق ملتاعة، وأنفاس متسارعة، تتوق إلى القرب من الرحمن وتنفيذ أمره بالطواف حول بيته الحرام، وسكب آهات الروح طلبا لمغفرته، وتطهيرا للجوارح والوجدان من الخطايا والآثام.

إنها بحق رحلة البداية، بداية البراءة والصفو والنقاء، وغسل الروح بأنداء التوبة والتطهر والقرب من الله، فكل حاج يتجرد من زخرف الدنيا، ويخلع ثيابه المعتادة، مرتديا ملابس الإحرام، ويرحل، جسدا وروحا، إلى ساحة الله الأكرم، وأماكنه المقدسة المختارة. وكما تجرد جسده من اللباس المعتاد، فإن روحه تخلع أوزارها، وتتلمس طريق أنوارها، وتعلي من سموها في رحلة الحب الإلهي، وهنا يتجلى بهاؤها، وتترقرق آمالها، وتزداد شغفا بنيل الفضل والثواب والدخول في رحاب الخالق من أوسع الأبواب، والجسد يرق ويطهر لتكتب له النجاة من العذاب.

حجاج بيت الله يشدون الرحال إلى رحلة نورانية، ويبزغ النور والحلم في قلوبهم المؤمنة، ليولدوا من جديد أنقياء من سقطات النفس وزلاتها، وليخلصوا أرواحهم من هفوات الجسد، ويعيدوا براءتها إلى فضاء الرحمة وأمكنة النور، مرددين آيات نورانية وأقوالا تقربهم من ربهم، وتلهج ألسنتهم بالمناجاة والطاعة «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك».

وبتأمل قول الله سبحانه ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ (الذاريات:٢٠)، نجد أنها مدعاة للتنقل والترحال والسفر في بقاع الدنيا.. ومن ذلك قوله عزوجل: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (التوبة:٢). لذا، كانت السياحة في الأرض والتأمل في عجائب المخلوقات مما يزيد من عمق الروح بالتأمل في ملامح الأمكنة ودلائل القدرة الربانية. ولكن يبقى للسفر تعب ومشقة، كما أنه يذكر بفراق الأهل والأحبة، ورب غروب للشمس يرسم على الوجدان هالة التذكار، ويملأ القلب شوقا بلقاء الصحبة. كما أن فراق المرء لبيته وأحبابه وتعرضه لما يخالف عاداته في يقظته ومنامه وشرابه وطعامه، كل ذلك يجعل السفر عملا ذا معاناة ومشقة.

الروح تطلب المغفرة..
والجسد يسمو في حضرة المشاعر

لكن في السفر إلى الحج لذة وأنس ومحبة وتحنان وشوق وأمان، فتلك الرحلة ليست غربة، بل ارتحال من حياة القلق والتعب إلى راحة النفس ونور البصيرة وهدى القلب وفرحة الروح بتطهرها وسموقها، وإن كان في الأمر فراق للأهل ومشقة الترحال وجهد الانتقال، فكل الأمور تهون في سبيل تنفيذ أمر الواحد الديان، وكل الجوارح تنقاد للوجدان الراغب في طلب المغفرة والصلاة في بيت الله الحرام والتي تعدل ألف صلاة في غيره من المساجد.

في الطريق إلى الحج تجد قلوبا مرفرفة، وأنفاسا محترقة، وأفئدة تكاد تنفطر شوقا إلى الوصول إلى أرض دبت عليها أقدام النبي محمد ﷺ.

هنا كانت حياة عامرة بالزهد، مفعمة بمشاق الدعوة إلى طريق الأرواح عبر تبيان الحقيقة. وهناك، وعلى هذه الأرض، ولدت الحقيقة واتحدت القلوب بالضياء، وأشرقت شمس الإيمان بإذن ربها فكانت النبوة امتدادا لدعوة الخليل إبراهيم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (إبراهيم:٣٧).

أيتها الأرض، اشهدي، هنا ابتدأ الحب رحلته، وعرفت الإنسانية معنى الحياة، وانبثقت من قلوب مؤمنة شجرة المعرفة بالله ربا، وبضمير التوحيد طريقا. وكانت مكة البلد الأمين، وأرض الرسالة، ومهبط الوحي، ولدى الوصول إلى البيت الحرام تنسكب العبرات.

هنا لا يأس من المغفرة.. ففي مشهد الوقوف بعرفة يتجلى الله غفارا، لا يقنط من ساحته آثم مهما تعاظم إثمه، ولا يطرد من رحمته مذنب مهما كبر ذنبه، ولا يرد من قصده، ولا يطرد من ساحة كرمه كل لائذ أواب.. وهناك يكون الغوث والنجاة والإشراق بالطهارة من الذنوب.

ولسان حال تجمع الحجاج: «ربنا أتيناك من كل بقاع الأرض وقد لبينا دعوتك عبر أنبيائك، وهرعنا، رجالا وركبانا، من كل فج عميق لنشهد أنك رب أوحد، وإله أعظم.. يا أكبر من كل كبير، ويا أكرم من كل كريم، يا صاحب عز لا يضام.. وجاه لا ينفد، يا ولي نعمة لا تحد، ويا ملكا أعلى من كل متعال، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ربنا اغفر وارحم وارض وتكرم إنك أنت الأعز الأكرم».

إن رحلة الحج درس عظيم في الإنسانية ونبل الضمير، ففي تلك الأماكن المقدسة خطب النبي ﷺ في حجة الوداع خطبته الجامعة وسط حشود من الناس، ولم يشأ أن ينفض هذا التجمع من دون استغلال أمثل لتقرير قواعد النبل والسلام والمحبة الخالصة من أجل خير الإنسانية «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.. ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع». ومن تلك البقاع الطيبة انطلقت رسالة المحبة والأمن لكل الناس «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم».

وفي المدينة المنورة يزور الحجاج مسجد الرسول ﷺ، ويصلون فيه، ويسلمون على الحبيب سلام شوق، ويحدثونه حديث صدق، ويستمع إلى نبضات أفئدتهم المترعة صفوا ووفاء.. ولسان حالهم يقول:

«السلام عليك يا سيد الصابرين، يا من ارتحلت دامعا من بيتك ووطنك وهاجرت من بلدك باحثا عن قلوب عامرة بالهداية.. ولتملأ الأرض عدلا بعدما ملئت قهرا وجورا.. السلام عليك يا من احتملت الأذى في سبيل قضيتك العادلة، وتجرعت مرارة الصد والجفاء من أجل الثبات على مبادئك التي أوحى الله بها إليك، وتركت الأرض المحببة إليك حيث أفضيت إليها بمحبتك وأنت خارج منها: الله يعلم أنك أحب بلاد الله إلي ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

هنالك في موضع قبر الرسول الكريم تسبق الدموع الأنفاس، وترتجف الأرواح خشوعا، وترق الأبدان، وتسمو عن الرذائل وتصعد إلى فضاءات الخير والوئام.

للحج نورانية غامرة، ومن استجابوا لنداء الطاعة وشدوا رحالهم لزيارة قبر الرسول ﷺ، وبعد أن أدوا مناسكهم وطافوا بالبيت العتيق، ارتحلت أبدانهم وذواتهم لتطوف طواف الوداع.. وعلى قبر الرسول ﷺ تنطرح الأشواق هداية ورحمة..

«جئناك يا رسول الله، ونشهدك أنا لسنا دعاة جهالة ولا قطيعة محبة، ولسنا الداعين إلى الجفوة مع الناس، ولسنا الشتامين ولا سافكي مياه المودة.. نحن أتباعك، وأنت أبدا لم تدع إلى القسوة والغلظة ولم ترهب الناس منك يا نبي الإنسانية، أيها القائل: «إنما أنا رحمة مهداة».

أكد أن علم التخريج لا يدرس حاليا على أسس صحيحة..

د. أحمد معبد: سخرني اللّه لتكوين مدرسة حديثية دقيقة

إسلام لطفي
القاهرة : دار الإعلام العربية

الدكتور أحمد معبد أستاذ الحديث بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر وعضو هيئة كبار العلماء، تعلم في وقت ابتعد فيه الكثير عن التعليم، لمشقته، إلا أنه تغلب على ذلك ولم يعمل بالزراعة كأهل قريته، لـ«نذر» والدته لتعليمه بالأزهر، واستمر فيه حتى سافر للعمل في المملكة العربية السعودية .. «الوعي الإسلامي» التقته فكان هذا الحوار.



● ما دافعك لدراسة الحديث؟

– في البداية درست في مرحلة الليسانس بكلية أصول الدين، شعبتي التفسير وعلومه والحديث وعلومه، وعند الاتجاه إلى التخصص في الدراسات العليا اتجهت إلى التخصص في التفسير أولا، ثم بعد ذلك تحولت إلى التخصص في علم الحديث، حيث كان لدي إلمام سابق به، وعندي كذلك رغبة للاستزادة من هذا العلم، فتحولت من تخصص التفسير إلى الحديث، وأكملت دراستي المتخصصة فيه، على مرحلتين، أولاهما الماجستير في كلية أصول الدين، ثم الدكتوراه في نفس الكلية، ثم اشتغلت بعد ذلك بالتدريس حتى الوقت الحالي.

وفي المرحلة الجامعية، كان من أبرز شيوخي الإمام الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق، رحمه الله، والدكتور محمد محمد السماحي أستاذ الحديث بكلية أصول الدين، وأستاذ الحديث د. محمد محمد أبو شهبه، ود. محمد مصطفى التازي، هؤلاء هم أبرز الأساتذة الذين درسوا لي، كذلك د. عبدالوهاب عبداللطيف، أستاذ الحديث ووكيل كلية أصول الدين في ذلك الوقت.

● لو عدنا إلى نشأتك الأولى.. ماذا تذكر منها؟

– ولدت في إحدى قرى محافظة الفيوم، وتسمى قرية الشيخ سعد عام ١٣٥٩ هجرية، يوافق عام ١٩٣٩ ميلادية، وعلى طريقة التعليم التي كانت موجودة آنذاك اتجهت إلى التعليم بعد وفاة والدي رحمه الله، ولم يكن الاتجاه إلى التعليم آنذاك كبيرا، بل كان من يتجه إلى طلب العلم أقلية من البنين أو البنات، وأراد الله لي أن أتجه إلى التعليم بدلا من الاشتغال بالزراعة، كما هو شأن القرية التي ولدت فيها.. فقد نذرت والدتي عند ولادتي أن توجهني إلى دراسة العلم ومواصلة التعليم في الأزهر الشريف،

> **كثير من الناس يظنون أن التجديد إتيان أشياء ليست موجودة في الشرع.. وهذا غير صحيح**

وبناء عليه تعلمت القراءة والكتابة في كتاب القرية، وكان القائم عليه الشيخ عبدالرحمن إسماعيل محمد، وبعد أن تعلمت على يديه القراءة والكتابة، وبعض سور القرآن الكريم توفاه الله، وتوقف هذا الكتاب، فاتجهت إلى مواصلة التعليم واستكمال حفظ القرآن الكريم.

وقد درست في المرحلة الابتدائية كتاب «التحفة السنية في قواعد العربية»، ثم كتاب «قطر الندى»، ثم كتاب «شذور الذهب»، ثم «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» كاملا، ثم «مغني اللبيب لابن هشام»، وهذه الكتب حاليا منها ما لا يدرس إلا في الدراسات العليا، كذلك كانت دراستي الشرعية، أني درست فقه المذهب الحنفي كاملا، ابتداء من الوضوء والصلاة إلى نهاية المواريث، ثم بعد حصولي على الشهادة الثانوية الأزهرية، التحقت بكلية أصول الدين بالقاهرة ودرست فيها مرحلة الليسانس تخصص التفسير والحديث وتخرجت عام ١٩٦٦ ميلادية، وكان من توفيق الله، أني حصلت على درجة الليسانس، بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف، لكني لم أعين معيدا في الكلية، حيث إن وظائف المعيدين لا تستغرق كل المتفوقين، وبناء عليه اتجهت إلى الدراسات العليا بعد الليسانس، والتحقت بالعمل في وزارة الأوقاف كإمام وخطيب ومدرس، وكان ذلك بناء على طلبي.

وبعد أن حصلت على الماجستير في الحديث الشريف، عينت في كلية أصول الدين معيدا ثم مدرسا مساعدا ثم مدرسا، وأكملت في كلية أصول الدين إلى أن ساعدت الظروف أن أخرج متعاقدا للعمل بالمملكة العربية السعودية، لكلية أصول الدين في الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد كانت النية عند خروجي أن أكون في هذا العمل سنة واحدة ثم أعود بعدها للعمل بكلية أصول الدين بالقاهرة التي خرجت منها، لكن تغيرت الظروف وطلب مني المسؤولون في الكلية أن أستمر معهم في العمل، وكان هذا من الأسباب التي جعلتني أستمر في العمل في كلية أصول الدين في الرياض نحو ثماني عشرة سنة، درست فيها في مرحلة الليسانس والدراسات العليا كما انتدبت للتدريس والإشراف والمناقشة للرسائل العلمية فيما كان معروفا في السعودية برئاسة التعليم للبنات، ثم بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ثم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وكانت هذه الفترة من أخصب فترات العمل التي أعانني الله سبحانه وتعالى، ورزقني بمجموعات من الطلاب المتفوقين الذين يعملون كمعيدين أو مدرسين مساعدين، وخلال هذه المدة أزعم أنني كونت مدرسة لعلم الحديث والتخصص فيه، وخاصة الجوانب الدقيقة في هذا العلم، وهي علم التخريج، وعلم علل الحديث، وكذلك تحقيق تراث الحديث الشريف خلال هذه الفترة.

وكان ممن تخرجوا على يدي عدد من الفتيات اللاتي يعتبرن الآن من أساتذة علم الحديث في المملكة العربية السعودية.

● وماذا عن نتاجك العلمي المطبوع والمنشور؟

– أرى أنني مقل في النتاج العلمي من وجهة نظري إذا قيس ما هو مطبوع بما كان ينبغي أن ينشر ويكون بأيدي الناس، وحققت شرح جامع الترمذي

للإمام ابن سيد الناس اليعمري، وأخرجت منه ثلاثة مجلدات معروفة بكتاب «النفح الشذي في شرح جامع الترمذي»، وقد طبع الكتاب في عام ١٤٠٩هـ في الرياض،كما أخرجت بعض المؤلفات التي تعتبر بحوثا متخصصة، منها كتاب «ألفاظ الجرح والتعديل بين الإفراد والتكرير والتركيب ودرجة دلالتها على درجة الراوي ودرجة حديثه»، وطبع منذ نحو ١٥ عاما، ولا أعرف من سبقني إلى التأليف في هذا الموضوع وأخرجت كتابا عن الحاسب الآلي واستخدامه في خدمة علوم السنة، وأخرجت آخر عن حديث عمار بن ياسر ونصه الراجح في صحيح البخاري، وآخر عن أجوبة حفاظ الحديث عن بعض الأسئلة الحديثية، كما أخرجت بحثا منشورا عن سيف بن عمر التميمي ودرجته في الجرح والتعديل ودرجة حديثه، ومثل هذه المؤلفات إذا قيست بحياتي العلمية تعتبر قليلة.. والسبب في قلتها انشغالي بالإشراف والمناقشة على الرسائل العلمية، وهذه المهمة هناك من يتهاون في شأنها ويعتبر أن البحث مسؤولية الطالب، وهذه حقيقة.. لكني لم أكن أفعل ذلك، فقد كنت أتولى الطالب وأقرأ له بحثه من أوله إلى آخره، وأسدد له أفكاره، وأصوب ما أراه بحاجة إلى تصويب، ومثل هذه المهمة كانت تستغرق علي وقتي، وأحمد الله أن الطلاب مازالوا حتى الآن يذكرونني ويعترفون بأني بذلت لهم من وقتي وعلمي ما لم يبذله لهم غيري، وهذا هو عزائي عن قلة تأليفي.

• إذا تطرقنا إلى الرسائل التي أشرفت عليها.. فما أبرز ما تذكر منها؟

– قد يصل عدد الرسائل التي أشرفت عليها إلى ألف رسالة ماجستير ودكتوراه وبحوث وسيطة بينهما، ومن أبرز ما أشرفت عليه، رسائل في تحقيق كتاب «الكامل للضعفاء» للإمام ابن عدي، وكنت أول من اقترح تسجيل رسائل في هذا الكتاب، ووصل التحقيق فيه إلى نحو ثلثي الكتاب قبل أن ينشر في أيدي الناس، كما اقترحت تحقيق كتاب «الأحاديث المختارة» للضياء المقدسي، وقد أخرجنا منها قبل أن تطبع عدة رسائل، علاوة على كتاب «مسند أبي يعلى الموصلي» قبل أن يطبع، وكان مما اقترحته لأول مرة تحقيق كتب علل الحديث لابن أبي حاتم الرازي، إضافة إلى موضوعات حديثية كثيرة غير تحقيق التراث، سواء في علم الحديث أو في علم الجرح والتعديل، أو في غيرها من المواد، وهذه الرسائل بعضها مازال على رفوف الجامعات التي درست فيها، وأرجو أن تخرج إلى النور ليستفيد منها العلماء والباحثون.

> **الشيخ أحمد شاكر رحمه الله صاحب فضل كبير في تحقيق كتب السنة خاصة مسند الإمام أحمد**

• بالحديث عن الدعوة.. هل ترى أنها بحاجة إلى التجديد؟

– مسألة التجديد تحتاج إلى الوقوف عندها، لأن كثيرا من الناس يفهمون من التجديد أننا نأتي بشيء ليس موجودا بأصول الشريعة، وهذا ليس صحيحا، إنما المعروف أن الدعوة قبل أي شيء جزء من النظام التعليمي التربوي، بمعنى أنك قد تكون في بعض المواقف الدعوية معلما فقط، مثل تعليم صلاة الجنازة والصلاة وغيرها، فيكون التجديد هنا في طريقة العرض فقط، لكن لا يمكن التغيير في الصلاة نفسها وسننها، ولكن في طريقة العرض المشوقة واستخدام عبارات وأسلوب يفهمه المخاطب، وتبسيط المعلومات، وهذا التبسيط يعد نوعا من التجديد، أيضا التجديد أن يعرض على الداعية خلق سيئ انتشر في المجتمع أو ظاهرة فاسدة أو تصور خاطئ لدى بعض الشباب، فعندما يواجهه يبين رأي الشرع بما يتفق مع الواقع الموجود، فهذا تجديد، فالتجديد عرض أمور الإسلام بطريقة مبسطة ووسطية يفهمها الناس وتناسب ظروفهم ولا ينبغي أن يفهم أن التجديد أن نغير ما أحله الله إلى حرام، أو نغير ما حرمه الله إلى حلال، أو نضيق ما وسعه الشارع أو نوسع ما ضيقه من وجوه المعاصي والانحلال والوقوع في الجرائم.

• هل هناك مؤسسات تعنى بجمع علماء الحديث على مستوى الأمتين العربية والإسلامية لتوثيق التعاون بينهم؟

– يوجد مؤسسات في بعض الدول، ففي مصر لدينا الأزهر الشريف، فيه لجنة في السنة النبوية وبها باحثون ولها مشاريع، وأيضا المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في وزارة الأوقاف، له لجنة للسنة النبوية، وفيها أساتذة يقومون بالرد على الشبهات التي تطعن في السنة النبوية وفي شخص الرسول ﷺ، وأيضا يقومون بتأليف موسوعات حديثية ميسرة، يستطيع أن يقرأها الشخص العادي ويستفيد منها في أمور الشرع، وتحقيق بعض كتب

الحديث وتأليفها، مثل كتاب الأحاديث القدسية وشرحها، والمنتخب من السنة النبوية، كما حققت لجنة السنة بالأزهر كتابا للإمام السيوطي يعرف بكتاب «جمع الجوامع»، أو «الجامع الكبير»، وهذا الكتاب يحتوي على خمسة وأربعين ألف حديث، وهو أوسع كتاب في الحديث حتى الآن، وأيضا موجود بالمملكة المغربية -حيث سافرت إليها في كثير من المناسبات- مؤسسة تسمى الرابطة المحمدية، ولها فروع في جميع أنحاء المملكة المغربية، وتعتني بالسنة النبوية، وتحقق التراث الموجود فيها، وكذلك المؤلفات، في مختلف العلوم الإسلامية ولها مطبوعات كثيرة موجودة في السنة والسيرة النبوية، كذلك هناك مركز للسنة النبوية في السعودية، وقد أخرج عدة مؤلفات تطبع لأول مرة من أمهات كتب السنة وإن كان قد توقف نشاطه الآن، لكن نرجو أن يعود إلى خدمة السنة النبوية من جديد، وأيضا في دولة الكويت لديهم نشاط للعناية بالسنة النبوية، وأقامت وزارة الأوقاف الكويتية في محافظات الدولة المختلفة دورات في المساجد للعناية بالسنة النبوية، وقد شاركت في إحدى هذه الدورات في علم التخريج، وشارك بعض طلابي في دورات أخرى في علم علل الحديث، كما تشارك أيضا كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في الكويت، واشتركت في بعض هذه الدورات، والمؤتمرات الحديثية ولهم في ذلك نشاط جيد، وهناك في الهند اعتناء بالسنة النبوية.

• ماذا عن منهج التحقيق في الحديث النبوي.. وهل هناك فارق بين المنهج القديم والحديث؟

- منهج التحقيق في الحديث النبوي، جزء من منهج تحقيق التراث عموما، إلا إن منهج التحقيق في الحديث يحتاج ضوابط يمكن ألا تتوافر في من يجيد تحقيق النصوص العامة،

أشرفت على أزيد من ألف رسالة ماجستير ودكتوراه في جامعات العالم الإسلامي

وأذكر من الأمثلة على مدى مسيرة التحقيق، في البداية عندما طبعت كتب السنة في مصر والهند، كان بعضها في أيدي الناس هو النص الوحيد، لكن عند النظر فيها الآن نجد أنهم لا يذكرون النسخ الخطية التي اعتمدوا عليها، ولا نجد في الكتاب إثبات فروق هذه النسخ، وأيضا لا نجد فيه توثيق نصوص الحديث من المصادر الأخرى، أيضا لا نجد الفهارس الفنية التي تخدم الكتاب وتدل على مشتملاته دون أن تضطر إلى قراءة الكتاب كاملا، فهناك سنن أبي داود وسنن الترمذي وسنن النسائي، فهذه الكتب عندما بدأت كانت بدون هذه الخدمة، وانتقلت في التطور إلى أنها خدمت ببعض الفهارس فقط، وفي الوقت الذي نحن فيه يعتبر تحقيق كتب السنة في أفضل أحواله، وصاحب الفضل الكبير في المنهج العلمي في تحقيق كتب السنة هو الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تحقيقه لمسند الإمام أحمد، حيث حقق قرابة نصف الكتاب، وكذلك تحقيقه لجامع الإمام الترمذي، وكان ينوي أن يحقق صحيح البخاري، وهذا الرجل يعتبر أول من أدخل المنهج العلمي الصحيح في تحقيق نصوص الحديث، ومن يراجع كتابه في هذا، سيجد أن المنهج متوفر، حيث يذكر فروق النسخ وتوثيق النصوص، ويبين درجات الحديث، وهذا هو الوضع الأمثل، فالمنهج المطلوب الآن لتحقيق كتب السنة هو أولا أن يتم تحقيق النص على قدر النسخ الخطية المعروفة للكتاب، وأن تثبت فروق النسخ ضمن التحقيق، وأن توثق نصوص الكتاب في تخريجه من المصادر الأخرى غير الكتاب المحقق، سواء السابقة لها أو اللاحقة، وأن يعلق على الحديث بشرح دون إسهاب ولا إطالة، وأن يذكر درجة الحديث إذا كان المحقق متأهلا لبيان درجة الحديث، كما نراه في عمل الشيخ أحمد شاكر، وإن كان عليه بعض الملاحظات.

• كلمة توجهها لشباب الأمة الإسلامية، خاصة المعنيين بدراسة الحديث.

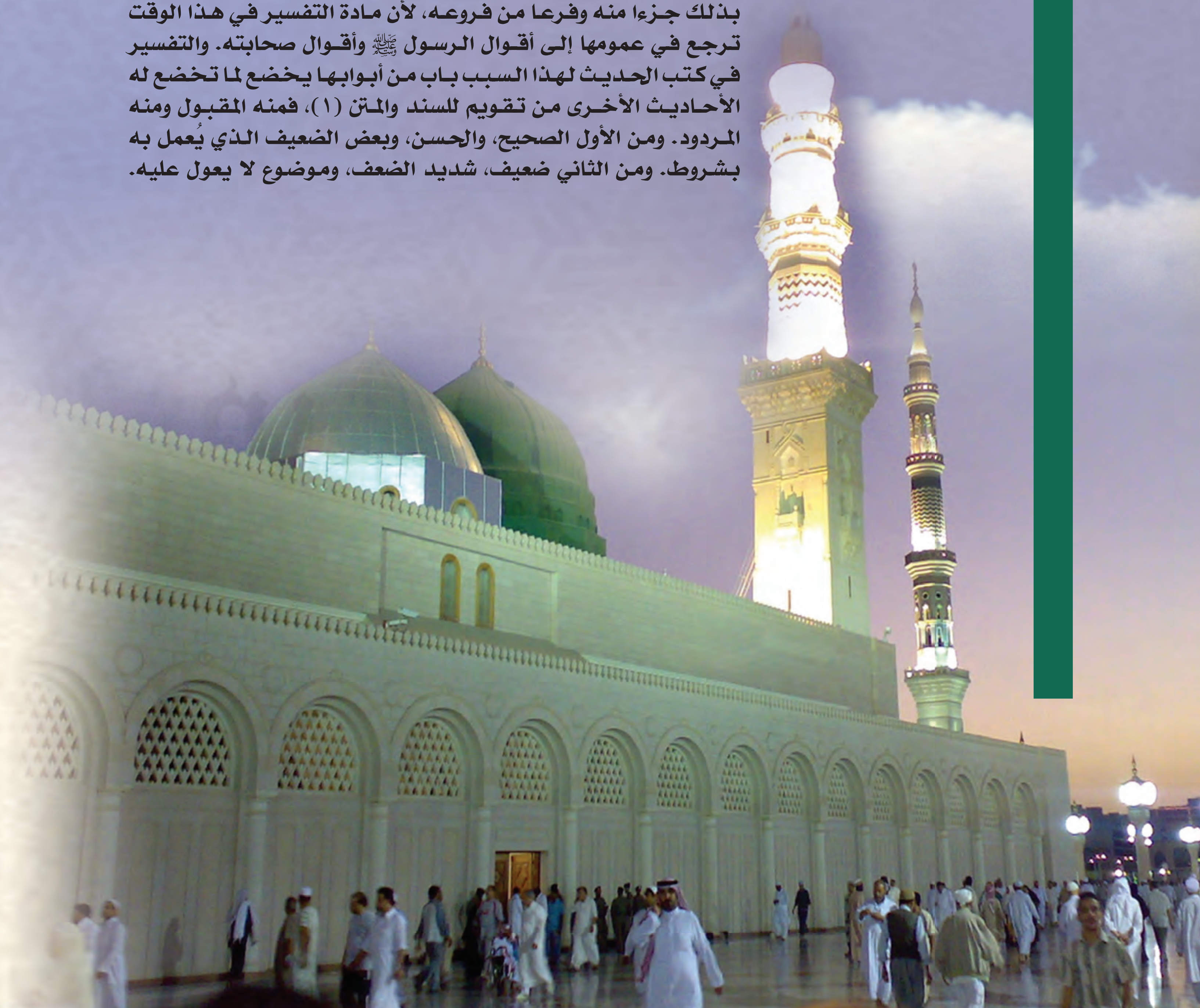
- أطالبهم بأن يدرسوا علوم الحديث دراسة متأنية، على من يأنسون فيه الكفاءة لذلك، سواء كان في قاعات الدراسة أو في دروس العلماء المعتبرين الذين يشهد الجميع بسلامة وعمق علمهم ووسطية تفكيرهم، بحيث لا يأخذون الناس إلى التشدد ولا يوجهونهم وجهة غير صالحة، ويأخذون بأيديهم إلى الصواب، وأن يكون لهم قراءة خاصة بكتب الحديث، لأن أوقات العلماء مهما كثفت لا يمكن أن تستوعب كل ما يحتاجه طالب العلم، إنما على الطالب أن يقرأ كتب السنة، وإذا صعب عليه شيء يعود إلى من يثق في علمه وخبرته ليستفهم عما يستشكل عليه؛ امتثالا لقول الله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ (الأنبياء:٧).. وأرجو من كل من يختص بالحديث أن يقرأ على الأقل كتابا في أصول الفقه، لأنها هي التي تعلم طلبة العلم الشرعي كيف يدل النص على الحكم.

أيضا لدينا كتاب من كتب الحديث كثير من المختصين لا يعطونه العناية، وهو كتاب صحيح ابن حبان، وألفه ابن حبان على أصول الأدلة، فذكر الأوامر، وأن لها في السنة مائة وعشر صيغ، والنواهي كذلك، وبين أن الأفعال النبوية لها عدد من الصيغ.

التفسير والحديث.. وبداية الانفصال

د. عبدالعزيز فارح
رئيس قسم الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بوجدة - المغرب

اتخذ الكلام المتعلق بتفسير آيات من القرآن في المراحل المبكرة شكل الحديث؛ يُنقل كما ينقل الحديث، ويدون في صحفه وكتبه. وصار بذلك جزءا منه وفرعا من فروعه، لأن مادة التفسير في هذا الوقت ترجع في عمومها إلى أقوال الرسول ﷺ وأقوال صحابته. والتفسير في كتب الحديث لهذا السبب باب من أبوابها يخضع لما تخضع له الأحاديث الأخرى من تقويم للسند والمتن (١)، فمنه المقبول ومنه المردود. ومن الأول الصحيح، والحسن، وبعض الضعيف الذي يُعمل به بشروط. ومن الثاني ضعيف، شديد الضعف، وموضوع لا يعول عليه.



يقول الدكتور مصطفى زيد: «ولابد من الرجوع إلى السنة للاستعانة بها على بيان المراد بالآيات التي تحاول تفسيرها. فقد كان الرسول ﷺ مبينا للقرآن، إلى جانب تبليغه للناس.. قرر القرآن الكريم هذا في آياته، وقرره الرسول ﷺ -وهو الصادق الأمين- حين قال للناس يعلمهم أمر دينهم: «إنما بعثت معلما» (٢).

ويقول أيضا: «وتبلغ الحاجة إلى السنة في التفسير أقصاها عندما تعترض المفسر آية تتناول بعض الأمور الغيبية، أو تحكي قصص الأمم السابقة، أو تخبر بشيء سبق، أو ما شاكل هذا مما لا مجال للعقل -وحده- فيه» (٣).

لذلك، كان عدد من رجال الحديث هم أهل التفسير وحملته إلى من بعدهم. ومع ذلك، فإن تدوين بعض التفسير مستقلا بدأ في وقت مبكر من النصف الثاني من القرن الأول، ولعل أقدم ما وصل إلينا هو ما ثبت عن ابن عباس (٦٨هـ) وأصحابه الآخذين عنه، خصوصا ما يتعلق بغريب القرآن، من ذلك صحيفة علي بن أبي طلحة (١٤٣هـ) عن عبدالله بن عباس، فإنها أصح ما نقل عنه رضي الله عنه (٤). وقد كانت هذه الصحيفة عند أبي صالح، كاتب الليث بن سعد بمصر، وعليها اعتمد الإمام ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر في تفاسيرهم. وهي التي قال عنها الإمام أحمد: «بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا» (٥).

ومن أقدم ما دون أيضا في التفسير ما ذكر عن الإمام مجاهد (١٠١هـ) أنه كتب عن ابن عباس تفسير القرآن كله في الألواح (٦)، وقد طبع تفسيره (٧).

ويذكر أبو علي الطبرسي (٥٤٨هـ) في مقدمة «مجمع البيان» أن أول كتاب مدون ظهر في التفسير الأثري كان لسعيد بن جبير (٩٥هـ). ثم كان تفسير عكرمة مولى ابن عباس (المتوفى سنة ١٠٥هـ)، وهو القائل: «لقد فسرت ما بين اللوحين» (٨).

ونقل التفسير أيضا عن عدد من التابعين وأتباعهم ومن جاء بعدهم كعطاء بن دينار وإسماعيل السدي، الذي يورد أقوالا بالأسانيد إلى ابن مسعود، وابن عباس. وعنه روى الأئمة مثل الثوري، وشعبة بن حجاج، وتفسيره أمثل التفاسير كما يقول الإمام السيوطي (٩).

ويرى الشيخ محمد الفاضل بن عاشور أن علم التفسير قد دخل حيز التدوين الكتابي مع عبدالملك ابن جريج (١٤٩هـ)، فقال: «فلما استهل القرن الثاني ودخلت العلوم الإسلامية في دور التدوين انبرى أحد الأئمة الثقات من رجال الحديث وهو عبدالملك بن جريج (المتوفى سنة ١٤٩هـ) إلى جمع تلك الأخبار في كتاب فكان أول من ألف في التفسير. وهو على ثقته المشهود بها عند ابن سعد ومن بعده من علماء الرجال، لم يتحر آثار تلك النقول، ولكنه أورد الأقوال في تفسير القرآن على علاتها، فعقب كل خبر بما قيل فيه من تجريح أو تعديل، فدخل علم التفسير بذلك إلى حيز التدوين الكتابي» (١٠).

ونقل عن الإمام مالك تفسير، قال الإمام الذهبي: «وقد وقع لنا جزء لطيف من التفسير عن مالك» (١١)، ووصلنا عن عبدالرزاق بن همام تفسير، وقد طبع (١٢).

وغالب تفاسير هؤلاء وأمثالهم تجمع أقوال الصحابة والتابعين، بل إن ذلك سيكون الطابع الغالب على كتب أهل التفسير في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ولا ضرر في ذلك، وقد رأى العلماء أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل حديث مسند له حكم المرفوع، رغم أن الإمام ابن الصلاح يقيد ذلك بما يرجع إلى أسباب النزول، أو بما لا مجال للرأي فيه مما لا يؤخذ إلا عن النبي ﷺ، يقول ابن الصلاح: «ما قيل من تفسير الصحابي حديث مسند فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول الآية يخبر به الصحابي أو نحو ذلك، فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى رسول الله ﷺ فمعدودة في الموقوفات، والله أعلم» (١٣).

ويقول العلامة ابن كثير (٧٧٤هـ) مبينا قيمة أقوال الصحابة: «وحينئذ لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولاسيما علماؤهم وكبراؤهم» (١٤).

وإلى مثل هذا ذهب الإمام بدر الزركشي (٧٩٤هـ)، حيث قال وهو يتحدث عن قول الصحابي: «فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ كما قاله الحاكم في تفسيره» (١٥). وقال أيضا: «واعلم أن القرآن قسمان: أحدهما ورد تفسيره بالنقل عمن يعتبر تفسيره. وقسم لم يرد. والأول ثلاثة أنواع: إما أن يرد التفسير عن النبي ﷺ، أو عن الصحابة أو عن رؤوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثاني في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان، فلاشك في اعتمادهم، وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلاشك فيه. وأما الثالث: وهم رؤوس التابعين إذا لم يرفعوه

إلى النبي ﷺ، ولا إلى أحد من الصحابة رضي الله عنهم، فحيث جاز التقليد فيما سبق، فكذا هنا وإلا وجب الاجتهاد» (١٦).

ومع ذلك، فقد شاع أن الإمام أحمد قد غض من شأن التفسير من جهة الرواية، إلى جانب كتب السير والملاحم، حيث نقل عنه قوله: «ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي والتفسير والملاحم». قال ابن حجر: «ينبغي أن يضاف إليها الفضائل» (١٧).

وقد فهم الخطيب قول الإمام أحمد على أنه قصد كتبا بعينها، أشهرها كتابان: للكلبي ولمقاتل بن سليمان. وقد قال الإمام أحمد في تفسير الكلبي: «من أوله إلى آخره كذب، لا يحل النظر فيه». وحمل كثير من أهل العلم كلام الإمام أحمد على أن ما صح في التفسير قليل بالنسبة لما لم يصح (١٨).

ويظهر، والله أعلم، أن الإمام أحمد إنما قصد التحذير من المدخول على كتب التفسير والمغازي، وإلا فقد تثبت أحاديث التفسير في المصادر الأصلية المشهورة كالكتب الستة وغيرها، ولم يجرؤ أحد على الطعن فيها، بل وجد من العلماء الأثبات من ألف في التفسير وفضائل القرآن وفضائل السور كأبي عبيد القاسم بن سلام والإمام النسائي وبقي بن مخلد القرطبي والإمام السيوطي وغيرهم. ولعل خروج بعض من تعاطى التفسير عن دائرة التفسير الأثري المتقيد أساسا بالتفسير النبوي وتفسير الصحابة والتابعين كان أيضا وراء الغض من قيمة كتب التفسير، وفي هذا المعنى يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور:

«وكوّن بُعد المفسرين بمنهجهم العلمي عن الطريقة الأثرية، حركة رد فعل هائل في وسط رجال الحديث وأهل الأثر، حصل منها تدافع بين الطائفتين مثل أو قريبا من الذي حدث في ميدان أصول الدين، أو الذي حدث في ميدان الفقه، فأصبح أهل الأثر يعرضون بأهل التأويل أو أهل التفسير بالرأي كما يعرض أهل السنة السلفيون بالمتكلمين، أو يعرض الفقهاء أصحاب الحديث بأهل القياس ويسمونهم أهل الرأي أيضا...» (١٩).

ورب قائل يقول: إن التفسير مما وقع فيه التساهل في قبول الأحاديث والأخبار ومنها الإسرائيليات، وقد أجاب الإمام الذهبي عن هذا مبينا معنى التساهل وجواز رواية الإسرائيليات فقال: « قلت: لهذا أكثر الأئمة في التشديد في أحاديث الأحكام والترخيص قليلا، لا كل الترخيص في الفضائل والرقائق، فيقبلون في ذلك ما ضعف إسناده، لا ما اتهم رواته، فإن الأحاديث الموضوعة والأحاديث الشديدة الوهن لا يلتفتون إليها، بل يروونها للتحذير منها والهتك لحالها، فمن دلسها أو غطى تبيانها فهو جان على السنة، خائن لله ورسوله، فإن كان يجهل ذلك فقد يعذر بالجهل، ولكن سلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» (٢٠).

وأما فيما يخص الإسرائيليات فقال الإمام الذهبي أيضا وهو يناقش قول ابن فديك (رأيت ابن إسحاق يكتب عن رجل من أهل الكتاب): «ما المانع من رواية الإسرائيليات عن أهل الكتاب مع قوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج. وقال: إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» (٢١)، فهذا إذنٌ نبوي في جواز سماع ما يأثرونه في الجملة، كما سمع منهم ما ينقلونه من الطب، ولا حجة في شيء من ذلك، إنما الحجة في الكتاب والسنة (٢٢).

هوامش

١ - أنظر كتب التفسير ورجاله للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، ص: ٢٥ وما بعدها، وكتاب رواية التفسير في القرن الأول، وتدوينه لعبدالله توفيق الصباغ، ص:٦، وكتاب دراسات في التفسير للدكتور مصطفى زيد، ص: ٢٠ و٢١.
٢ - دراسات في التفسير، ص:٢٠.
٣ - المرجع نفسه، ص:٢١.
٤ - أنظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٥-٢٠٧/٤.
٥ - المصدر نفسه، ٢٠٧/٤.
٦ - جامع البيان للطبري ٣٠/١، ومقدمة أصول التفسير لابن تيمية، ص: ٢٨.
٧ - نشره مجمع البحوث الإسلامية بباكستان بتحقيق عبدالرحمن الطاهر السورتي.
٨ - مقدمة مجمع البيان، وانظر أيضا التهذيب لابن حجر ١٩٨/٧.
٩ - المصدر نفسه ٢٠٨/٤.
١٠ - التفسير ورجاله، ص:٣٢ و٣٣.
١١ - سير أعلام النبلاء ٩/٧.
١٢ - بمكتبة الرشد عام ١٤١٠ محققا من طرف الأستاذ مصطفى مسلم محمد.
١٣ - علوم الحديث لابن الصلاح، ص:٥٠.
١٤ - تفسير القرآن العظيم ٣/١.
١٥ - البرهان في علوم القرآن ١٧٤/٢.
١٦ - المصدر نفسه ١٨٨/٢-١٨٩.
١٧ - لسان الميزان ١٣/١.
١٨ - البرهان ١٧٣/٢.
١٩ - التفسير ورجاله، ص: ٥٩-٦١.
٢٠ - سير أعلام النبلاء ٥٢٠/٨ تحقيق نذير حمدان، إشراف وتخريج الأحاديث شعيب الأرنؤوط.
٢١ - أخرجه الإمام البخاري في الاعتصام، باب قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ١٦٠/٨، وفي كتاب التوحيد، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها ٢١٣/٨.
٢٢ - ميزان الاعتدال ٤٧٠/٣.

تأريخ موسم الحج في بيت المقدس

التحرير

يتطرق كتاب «تأريخ موسم الحج في بيت المقدس» إلى الضروري من الجوانب الشرعية فقط، ومنها: نية الحج، وزيارة القبر الشريف، وتقديس الحجة، والخرافات التي أشيعت حول الصخرة المشرفة الكائنة في المسجد الأقصى.

وقد استند المؤلف (بشير عبدالغني بركات) في توثيق معلوماته إلى بيانات محفوظة في سجلات محكمة بيت المقدس، وهي مصدر موثوق يصف عدة أحداث بدقة، وخاصة فيما يتعلق بالحياة اليومية خلال موسم الحج؛ كازدياد الطلب على الخبز والماء، وكالتموين والتعاقد والنواحي العسكرية وغيرها.

كما استعان ببعض المخطوطات والمطبوعات التي تضم بيانات مهمة ذات علاقة بموضوعات كتابه، وعلاوة على ذلك فقد رجع إلى بعض المواقع البحثية على الشبكة المعلوماتية كموقع «مدونة الصحراء» الذي انتفع به كثيرا في استيضاح بعض الأمور المشكلة.

ومن الموضوعات المهمة التي أفاض فيها الكتاب: استئذان القاضي في أداء الفريضة، ونية الحج، وزيارة القبر الشريف، وتأثير موسم الحج على الحياة اليومية في بيت المقدس، ويشمل: «التجارة، ازدهار الصناعات المحلية، ارتفاع استهلاك المياه والمواد الغذائية، الضغوط الإدارية والأمنية والقضائية، إرشاد الحجاج ومرافقتهم بهدف الاسترزاق منهم، التبرع للمسجد الأقصى، اعتناق الإسلام»، واستعداد حجاج بيت المقدس لشد الرحال إلى الحجاز، ويشمل: «تبرئة الذمة، التعاقد مع المكاريين والخدام، وسائل الركوب، تأمين الأموال المنقولة قبل السفر»، والركب الشامي، ويشمل: «أمير الحج، قضاة الركب، تمويل القافلة وتجهيزها، مراسم الانطلاق، سفر شخصيات مهمة مع الركب، مسار الركب، تعطل خروج الركب»، والركب المصري، ويشمل: «الركب الرجبي، المحمل المصري يصل بيت المقدس»، والركب الغزاوي، والركب المقدسي، ويشمل: «وفيات الزائرين، سفر المقدسيات للحج، مسار الركب وكفالته، الانطلاق من بيت المقدس بعد افتتاح قناة السويس»، ومخاطر أداء فريضة الحج، ويشمل: «قطع الطريق، العطش وتردي الأحوال الجوية، الفقر، إهمال رعاية الحجاج، سوء الرعاية الصحية وانتشار الأوبئة،»، ووفيات حجاج مقدسيين، والجردة وعودة الحجاج، ويشمل: «الجردة وتطور مفهومها، التبشير وملاقاة الأقارب، التهنئة بسلامة العودة، فقدان أقارب وتخلف آخرين في الحجاز»، وتقديس الحجة، والحج من فلسطين بعد زوال العهد العثماني، ويشمل: «أداء الحج خلال الاحتلال البريطاني، رحلة الشيخ محمد سعود العوري، أداء الحج خلال العهد الأردني، أداء الحج خلال الاحتلال اليهودي».



كما اشتمل الكتاب على ملاحق مفيدة، منها:

- ملحق عن أمراء الركب الشامي.
- ملحق عن وفيات حجاج مقدسيين.
- ملحق عن مقدسيين وزائرين حجوا مع الركب المصري.
- ملحق عن قضاة من بيت المقدس أدوا فريضة الحج خلال ولاياتهم.



لنفرح ولنتعبد

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي مصري

لا يحتاج الباحث لكثير عناء حتى يدرك أن موضوعا مثل البهجة، أو الفرح، أو علاقة المسلم بالدنيا كإطار أوسع؛ هو من الموضوعات التي تعرضت لسوء فهم في تاريخ الفكر الإسلامي؛ حتى شاعت بعض الاتجاهات التي حسبت التقوى بلبس الرث من الثياب، والتبطل من الأعمال، وتأديب النفس لحد القسوة.

ذلك أن مركزية عقيدة الدار الآخرة في عقل المسلم؛ بما فيها من حساب، وعدل، وجزاء، وجنة ودار خلود ونعيم مقيم، وانتصاف للمظلومين والمحرومين.. هذه المركزية قد تجعل البعض يتصور أن الإسلام يخاصم الدنيا، ويتخذ موقفا سلبيا منها ومما فيها من زينة ومتاع وبهجة.

كما أن حث الإسلام على الجهاد طوال الوقت؛ سواء اتصل ذلك الجهاد بالنفس وبحملها على المكاره ومنعها مما تحب، أو بالأعداء ودفعهم عن الظلم والفساد في الأرض؛ يعزز تلك الفكرة.

والحقيقة، أن الإسلام كما هو يمد بصر المسلم إلى الآخرة، ويجعل قلبه معلقا بها؛ فهو أيضا يشتبك مع الدنيا ويتفاعل معها؛ إبداعا واستمتاعا؛ في توازن ووسطية تمثل معلما بارزا من معالم الإسلام تجاه القضايا المتعددة.

ومن هنا، نستطيع أن نفهم النصوص الواردة بشأن ذم الدنيا، والزهد فيها، والتخفف منها؛ وتلك التي تدعو للتمتع بالطيبات، وعدم نسيان نصيب الإنسان منها، وتستنكر تحريم «زينة الله»..

ومن تلك الآيات على سبيل المثال، قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣١-٣٢). ولاحظ معي إضافة «الزينة» إلى «لفظ الجلالة»، والدلالة المهمة لذلك!

وقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧). وقد جاءت تلك الآية الكريمة في سياق قصة قارون مع قومه بعد أن خرج عليهم في زينته مختالا فرحا؛ فقال له قومه: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦)، أي: «لا تبطر بما أنت فيه من الأموال. قال ابن عباس: يعني المرحين. وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

الفرح بين معنيين

الفرح هو «لذة في القلب لنيل المشتهى». وهو «أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته. والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه. والفرح بالشيء فوق الرضا به؛ فإن الرضا طمأنينة وسكون وانشراح. والفرح لذة وبهجة وسرور؛ فكل فرح راض، وليس كل راض فرحا؛ ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضا ضد السخط. والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام».

وقد ورد الفرح في القرآن والسنة ممدوحا ومذموما؛ فدل ذلك على أنه ليس له حكم بذاته، إنما يتحدد حكمه بما يرتبط به من أسباب، وما يترتب عليه من نتائج.

فمن الفرح المحمود الفرح بتحقيق طاعة الله، أو بالحصول على نعمة من نعمه التي لا تحصى؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ (يونس:٥٨). وقال عن حال الشهداء حين يطالعون

ما أعد الله لهم من جزاء ونعيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (آل عمران:١٦٩-١٧٠). أما الفرح المذموم فهو الفرح بمتاع الحياة الدنيا، والاغترار به، ونسيان صاحب الفضل والإحسان. قال تعالى عن هؤلاء المنشغلين بما آتاهم الله من نعم: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (الروم:٣٦). وقال أيضا: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ (الرعد:٢٦).

إذن، الفرح ليس ممدوحا ولا مذموما بذاته؛ وإن كان بعض العلماء يرون أنه إذا أطلق ينصرف للنوع المذموم؛ لأن نهي القرآن عن الفرح جاء بصيغة العموم: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ (القصص:٧٦)، بينما جاءت مواضع المدح مقيدة، مثل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس:٥٨).

لكن يجب ألا نغفل عن أن نهي القرآن عن الفرح وإن كان بصيغة العموم، فهو قد جاء تعقيبا على قصة تضرب المثل للفرح المذموم، وهي قصة قارون.. فتأمل!

في حياته ﷺ

لقد كان النبي ﷺ مع جهاده وغزواته، حريصا على أن يملأ حياته بالبهجة والفرح والاستبشار، حتى كانت نموذجا عمليا لحسن التعامل مع الطيبات، ومع ما يدخل السعادة على النفس وعلى الآخرين.

كان ﷺ يحب التفاؤل والتيامن، ويكره التشاؤم والتطير. يدعو إلى الرفق بالنفس، ويوافق سلمان الفارسي على قوله لأبي الدرداء: «إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا؛ فأعط كل ذي حق حقه».

بل يدعو إلى إسعاد الآخرين ويجعل ذلك قربة يتقرب بها المسلم لربه سبحانه؛ ويجيب عندما سئل عن أحب الأعمال: «سرور تدخله على مسلم».

لم يكن ﷺ فظا، ولا غليظا، ولا قاسيا، ولا متشائما؛ بل يدعو إلى الرفق في كل شيء، «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما؛ فإن كان إثما، كان أبعد الناس منه». كان رحيما، حتى بالحيوانات والجمادات، ويهدهد الجذع حين يبكي لفراقه! يحذر من العنف والقسوة، ويقول للأعرابي الذي استنكر تقبيل الصبيان: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟».

يعلن النبي ﷺ لأصحابه في غير خجل: «حبب إلي من الدنيا النساء، والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة». وحين يسأل ﷺ عن أحب الناس إليه - وهو بين أصحابه، لا بين أهل بيته!- يجيب: عائشة، ثم أبوها. ويسابقها مرتين؛ يترك لها المجال لتفوز في الأولى، ويداعبها في الثانية بقوله: «هذه بتلك».

يحب من الشاة كتفها، ويأنف أن يأكل الضب، مع حله، لكن يعتذر عنه قائلا: «لم يكن بأرض قومي؛ فأجدني أعافه». رائحته ﷺ أطيب من المسك، ووجهه الشريف يتلألأ مع عرقه الطاهر.

فهل كانت كل هذه الأقوال والأفعال - وغيرها كثير - متعارضة مع جهاده ﷺ، أو مع تبتله وعبوديته؟!

كلا؛ غاية ما هنالك أنه ﷺ كان يعطي لكل وقت حقه، ولكل حال حقه؛ حتى نعى على أصحاب الغلو والتشدد قائلا: «إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له؛ لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي، فليس مني».

من المباحات إلى العبادات

إن المسلم ليستطيع أن يضم مساحات المباحات والطيبات - التي أحلها الله لبني الإنسان كلهم - إلى دائرة العبادات؛ متى استحضر النية الصالحة قبل العمل.. فالنوم عبادة، والأكل والشرب عبادة، وإشباع رغبات النفس عبادة؛ حتى أرشدنا الحديث الشريف: «وفي بضع أحدكم صدقة». ولما سأل الصحابة متعجبين: «يا رسول الله؛ أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟»؛ أجاب ﷺ: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له أجرا».

وحينئذ تتمدد دائرة العبادات لتظلل حياة الإنسان كلها، وتجعلها طاعة لله؛ ومن ثم، يزول الحرج من قلب المسلم بأن ثمة شيء من المباحات يمكن أن يبعده عن العبادة ويحرمه من نيل الأجر.. متى كان ذلك -وهذا شرط ثان- باعتدال لا سرف معه؛ فالنية والتوسط بلا تبذير يحولان العادات إلى عبادات؛ ولذلك حذر القرآن من الإسراف في المباحات فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١).

فليكن شعار المسلم في الحياة: لنفرح.. ولنتعبد.. وليقبل على الطيبات وعلى «زينة الله» يشبع منها رغبات نفسه بلا إسراف، مستحضرا النية الصالحة، متذكرا أنه في كل حالاته ينبغي أن يكون عبدا لله، لا تستثنى حالة من تلك؛ سواء كان في محراب المسجد أو في ساحات الحياة؛ موقنا أن الله سبحانه لا يريد بعباده عسرا، ولا يوقعهم بتشريعاته في حرج؛ بل التيسير والرفق منهج الإسلام، وسعادة الإنسان في الدارين غايته..

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧).

البَهجةُ المطمئنة

د. هبة رءوف عزت
أكاديمية مصرية

تعامل الإسلام مع النفس الإنسانية في أطوارها وسياقاتها المتنوعة تعاملا رفيقا، وجعل توازنها وعافيتها من أهم المقاصد والغايات، لأن ذلك سبيلها لحسن القيام بالتكليف والعيش الطيب الذي ارتضاه الله لعباده.

وليست البهجة ترفا حين تشتد المحن، فتحصيل السعادة غاية كل إنسان، لكن المؤمن ينشد سعادة الدنيا والآخرة، فهو في لحظات السعادة لا يغتر بالفرح، وهو عند نقصانها مع تقلب أحوال العيش من الصابرين الشاكرين.

وتستوقفنا عند قراءة كتاب الله تلك الرابطة بين البهجة والكون وأصل النشأة والبعث والآخرة، فنجد البهجة تقترن بالنبات والزرع: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ (النمل:٦٠ و٦١).

وفي موضع ثان نجد هذه النقلة بين الخلق والبعث وآيات الله في الكون: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ (الحج:٥).

وفي موضع آخر يتكرر ذلك: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ (ق:٧).

وقد نظرت في سبب ارتباط البهجة التي يشعر بها الإنسان حين ينظر إلى النبات، فوجدت أن بيننا وبينه رابطة وصلة قويتين، فالله تعالى يقول في كتابه الحكيم: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ (نوح:١٧ و١٨).

ويصف مريم البتول وصفا مشابها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ﴾ (آل عمران:٣٧).

ووصف المؤمنين بالزرع: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفتح:٢٩).

فهناك رباط بين الإنسان والنبات يخلق هذه الوشيجة التي تضفي على النفس البهجة حين يجد نفسه في وسط اللون الأخضر، الذي جعله القرآن من أوصاف الجمال في الدنيا والآخرة.

البهجة إذن ليست الفرحة التي تقترن بزمن أو مناسبة كعيد ونحوه، بل هي انشراح النفس حين تنفتح على كون الله، ووعيها بأنها كالزرع تذبل وتموت إن لم ترتو بماء العبادة، وأن كل زرع يذبل، وتصبح صورة الماء الذي يحيي الزرع كالنعمة التي يحيي الله بها القلب، لذلك يقترن الماء بالبهجة والنبات، والغيث بالرحمة.

وتتعدد في كتاب الله الآيات التي تربط بين الماء والزرع والإحياء والبعث.

وفي سنة رسول الله ﷺ نجد هذا المعنى الباطن للبهجة المقترن بالتأمل والنظر، والذي يقترن فيه التفكر باليقين والتأمل بالعبادة والخشوع.

ولأن النفس لا تطيق غياب البهجة عنها، ذلك الشعور بالجمال وتلك الرؤية لآثار نعمة الله، نجد الآيات القرآنية تترفق بقلب الرسول ومن ورائه أمة الدعوة: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ (الكهف: ٦ و٧).

فمصدر البهجة للمؤمن هو مصدر الابتلاء للكافر.

ويقول تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ (فاطر:٨).

البهجة إذن زاد للنفس الطيبة، وهي من طيب الحياة التي ارتضاها الله لأهل الإيمان، لا تصرفهم عن العبادة، ولا تنسيهم الآخرة، وتربطهم بالكون.

لذلك، يمكننا أن نصف البهجة في الإسلام بأنها «البهجة المطمئنة»، ليست البهجة الصاخبة، بل البهجة السارية، التي تصاحبها السكينة ويرويها اليقين.

تلك الأحوال هي التي تعين تلك النفس المطمئنة على مواجهة الشدائد والصبر على الكدح والكبد، فهي بهجة غير مؤجلة ولا منسية، بل تسري في حياة المؤمن كما يجري الماء، وتورث قلبه اخضرارا وروحه عافية وقلبه سلامة، وتورثه تلك السعادة التي ينشدها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (هود:١٠٨).



غذاء الأرواح بالمزاح



التحرير

جاء في كتاب «غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح» أن النفس تمل، كما أن البدن يكل، وكما أن البدن إذا كل طلب الراحة، كذلك النفس إذا ملت طلبت الراحة.

وفي الكتاب:

١- قال بعض السلف: حادثوا هذه النفوس، فإنها سريعة الدثور.

كأنه أراد احتملوها واجلوا الصدى عنها، وأعدوها قابلة لودائع الخير، فإنها إذا دثرت، أي: تغطت، وصديت لم ينتفع بها.

٢- وقيل لخالد بن صفوان: أتمل الحديث؟ قال: إنما نمل العتيق.

والحديث معشوق الحسن بمعونة العقل، ولهذا يولع به حتى النساء والصبيان.

٣- وقال الإمام عمر بن عبدالعزيز: إن في المحادثة تلقيحا للعقول، وترويحا للقلب، وتسريحا للهم، وتنقيحا للأدب.

٤- وقال أبو سعيد السيرافي: سمعت ابن السراج يقول: دخلنا على ابن الرومي في مرضه الذي قضى فيه، فأنشدنا:

ولقد سئمت مآربي

فكأن أطيبها خبيث

إلا الحديث فإنه مثل اسمه أبدا حديث، لاسيما إذا كانت المحادثة والممازحة بين الإخوان أهل الصفاء، والمحبة والوفاء، فإن ذلك روح الروح وغذاء النفس.

٥- قال عبدالملك بن مروان رحمه الله لبعض جلسائه: قد قضيت الوطر من كل شيء إلا من محادثة الإخوان في الليالي الزهر على التلال العفر.

٦- وقال سليمان بن عبدالملك: قد ركبنا الفاره، وتبطنا الحرير، ولبسنا اللين، وأكلنا الطيب، وها أنا اليوم أحوج مني إلى جليس يضع عني مؤونة التحفظ، ويحدثني بما لا يمجه السمع، ويطرب إليه القلب.

إذا تقرر هذا، فاعلم أيدك الله، أنه لا بأس بالمزح الخالي عن سفاسف الأمور وعن مخالطة السفلة ومزاحمتهم، بل بين الإخوان أهل الصفاء بما لا أذى فيه ولا ضرر، ولا غيبة ولا شين، في عرض أو دين، بل ربما لو قيل: يندب، لم يبعد، إذا كان قاصدا به حسن العشرة والتواضع للإخوان، والانبساط معهم، ورفع الحشمة بينهم، من غير استهزاء أو إخلال بمروءة أو استنقاص بأحد منهم.

٧- وبالجملة، فإن المزح في مقام يقتضيه لا ملام فيه، بل قيل لسفيان: المزاح هجنة؟ فقال: بل سنة، لقوله عليه الصلاة والسلام:

«إنـي لأمـزح ولا أقـول إلا الحـق»، فالعاقل يتوخى بمزحه إحدى حالتين: إما إيناس المصاحبين، والتودد إلى المخاطبين.

٨- قال سعيد بن العاص لابنه: اقتصد في مزحك، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرئ السفهاء، وإن التقصير فيه يفض عنك المؤانسين، ويوحش منك المصاحبين.

وإما أن يزيل بالمزاح ما طرأ عليه من سأم أو ما حدث به من هم أو غم.

٩- وقيل للخليل بن أحمد: إنك تمازح الناس! فقال: الناس في سجن ما لم يتمازحوا.

١٠- وكان ابن عباس رضي الله عنه إذا أكثروا عليه في مسائل القرآن والحديث، يقول: خذوا في الشعر وأخبار العرب.

١١- وعن عطاء بن السائب، قال: كان سعيد بن جبير يقص علينا حتى يبكينا، وربما لم يقم حتى يضحكنا.

١٢- وسأل رجل الشعبي عن المسح على اللحية، فقال: خللها بأصابعك، فقال: أخاف أن لا تبلها، فقال الشعبي: إن خفت فانقعها من أول الليل.

١٣- وسأله آخر: هل يجوز للمحرم أن يحك بدنه؟ قال: نعم. قال: مقدار كم؟ قال: حتى يبدو العظم.

١٤- وسئل عن أكل لحم الشيطان، فقال: نحن نرضى منه بالكفاف.

١٥- وقال له رجل: ما اسم امرأة إبليس؟ فقال: ذاك نكاح ما شهدناه.

١٦- وقال: من فاتته ركعة الفجر فليلعن الثقلاء.

١٧- وكان حماد بن سلمة إذا رأى من يستثقله يقول: ﴿رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ (الدخان: ١٢).

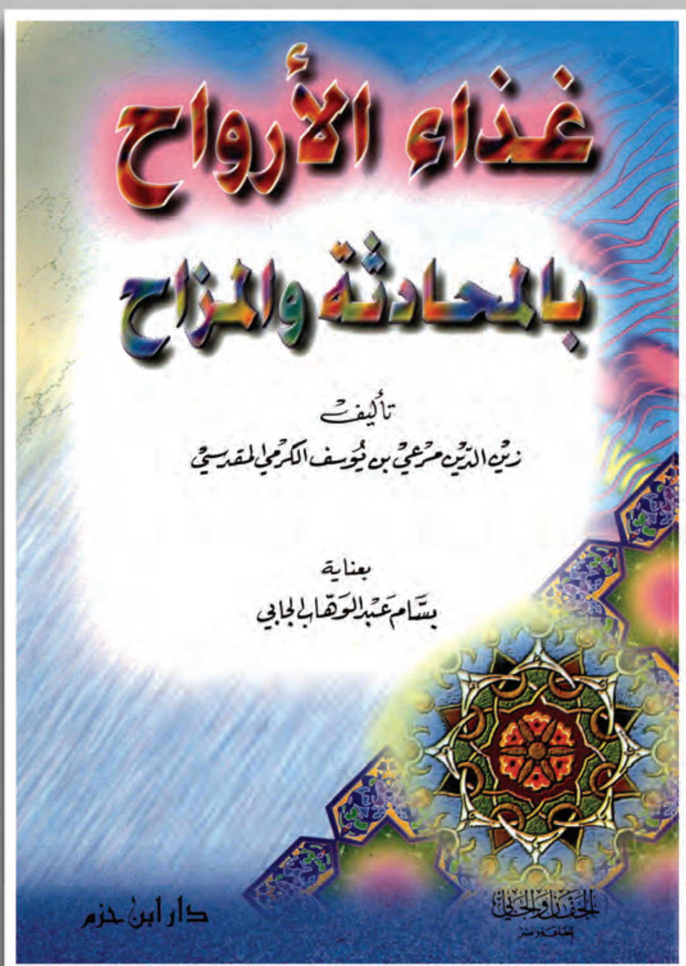
١٨- وقال ابن شهاب: إذا ثقل عليك الجليس فاصبر، فإنها ربطة في سبيل الله، فإذا أبرمك وملّك بحديثه، فجاهد بقيامه عنك أو قيامك عنه.

١٩- وكان يزيد بن هارون يقول للانسان إذا استثقله: اللهم لا تجعلنا ثقلاء.

٢٠- وحج الأعمش فلما أحرم لاحاه الجمال في شيء، فرفع عكازه، فشجه به، فقيل له: يا أبا محمد! وأنت محرم؟ فقال: إن من تمام الحج شج الجمال.

٢١- وقال ابن عياش: رأيت على الأعمش فروة مقلوبة، صوفها إلى خارج، فأصابنا مطر، فمررنا على كلب، فتنحى الأعمش، وقال: لا يحسبنا شاة.

٢٢- وسئل الأعمش عن الصلاة خلف الحائك، فقال: لا بأس على غير وضوء. قيل له: فما تقول في شهادته؟ فقال: تقبل مع شاهدي عدل.



٢٣- وقيل للأعمش: ما عوضك الله من ذهاب بصرك؟ قال: ألّا أرى به ثقيلا.

٢٤- وكان إذا رأى ثقيلا شرب الماء وقال: النظر إلى وجه الثقيل حمى نافض، والحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء.

٢٥- ويحكى أن رجلا ثقيلا كان يجلس إليه، فقال: والله إني لأبغض شقي الذي يليه إذا جلس إلي.

٢٦- ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة، فسأل بعض أصحابه، وقال لأبي حنيفة أن يصلح بينهما، فقال لها: هذا سيدنا وشيخنا أبو محمد، فلا يزهدنك فيه عمش عينيه، وحموشة ساقيه، وضعف ركبتيه، وقزل وجليه، وجعل يصف، فقال الأعمش: قم عنا قبحك الله، فقد ذكرت لها من عيوبي ما لم تكن تعرفه.

٢٧- وقال الربيع: دخلت على الشافعي رحمه الله وهو مريض، فقلت له: قوى الله ضعفك، فقال: لو قوى ضعفي قتلني.

فقلت: والله ما أردت إلا الخير. فقال: أعلم أنك لو تشتمني لم ترد إلا الخير.

٢٨- قال بعضهم: وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «وقو في رضاك ضعفي». وإنما أراد الشافعي مباسطة الربيع، وإن كان دعاؤه صحيحا.

٢٩- وكان القاضي أبو يوسف رحمه الله يجلس بجانبه رجل فيطيل الصمت، فقال له: ألا تتكلم! فقال: متى يفطر الصائم؟ فقال أبو يوسف: إذا غابت الشمس. قال: فإن لم تغب إلى نصف الليل؟ فضحك أبو يوسف، وقال: أصبت في صمتك وأخطأت أنا في استدعاء نطقك.

اللهو المباح في العصر الحديث

التحرير

يعتقد كثير من الناس أن كلمة اللهو لا تنصرف إلا إلى اللهو المحرم، وأنه لا توجد في الدين فسحة من الوقت للترويح عن النفس، ومن ثم فقد انصرفوا إلى ما يصدر عن الغرب يعبون منه عبا، وفي معتقدهم أنه يحمل صورة الكمال في كل شيء، لا فرق بين الغث والثمين، ولا الطيب والخبيث، مع أن ديننا لو نقبوا فيه لوجدوه لم يدع كبيرة ولا صغيرة فيها صلاح دنيانا وأخرانا إلا حثنا عليها، أفرادا وجماعات ودولا، فالإسلام منهج حياة تتحقق به أسباب السعادة في الدارين.

والنفس الهادئة المطمئنة تقبل على مواجهة الحياة وقد دب فيها الأمل، وشع فيها حب العمل من غير اكتئاب أو تقصير. وإن مجتمعا استقر واطمأنت نفوس أفراده هو مجتمع قادر على الخلق والإبداع في كل شؤون الحياة، ومن ثم يتحقق رقيه وتقدمه.

ولاشك في أن مجتمعا يأخذ أفراده بحظ من الترويح من دون إسراف أو مغالاة هو مجتمع متآلف متعاون على كل ما من شأنه تحقيق سوية هذا المجتمع، إذ لا يصل المجتمع إلى الذروة والهمم منحطة في نفوس أفراده، ولا تعلو لهم أو ترتفع العزائم إلا بقدر صفاء النفس وتوافر النشاط من بعد ترويح لا إسراف فيه.

أما الجانب الاقتصادي فمتوقف على مدى صلاحية الجانبين النفسي والاجتماعي، فالإتقان في العمل والزيادة في الإنتاج والكفاءة العالية في النهوض بالمهام، كل ذلك في حاجة إلى نفوس مطمئنة وادعة، وإلى مجتمع غير مغلوب على أمره أو يدفع إلى العمل دفعا.

صور من مزاح النبي ﷺ مع الأطفال

لم يكن مزاحه ﷺ ليقف عند الرجال والنساء، ولكنه كان مع الصغار يبش لهم ويبعث فيهم روح الدعابة والمرح، وهذا من شأنه بث الطمأنينة في نفوس الأطفال واستشعارهم الاطمئنان نحو شخص رسول الله ﷺ.

ومما يروى في هذا الصدد أن عبدالله بن الحارث رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يصف (أي يجعلهم صفوفا) عبدالله وعبيدالله وكثيرا بني العباس رضي الله عنهم ثم يقول: «من سبق إلي فله كذا وكذا»، فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم».

وقال أبو الدرداء: «إني لأستجم قلبي من اللهو «المباح» ليكون أقوى لي على الحق». ومن قول عبدالله بن مسعود: «إن للقلوب شهوة وإقبالا، وفترة وإدبارا، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها».

وكان يقال: «الملالة تفسخ المودة، وتولد البغضة، وتنغص اللذة».

وفي صحف إبراهيم عليه السلام: «وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون له على سائر الساعات».

يقول الإمام الغزالي في الإحياء، وهو من قدامى علماء الإسلام: «ينبغي أن يؤذن له (أي يصرح للصبي) بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب الكتب، وبحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب، وإرهاقه بالتعليم الدائم يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا». ومن المعلوم أن الحكمة من هذا اللعب إزالة ما يحس به الولد من السآمة والملل والتعب، وتجديد لنشاطه وحركته، وصفاء لذهنه، وترويض لجسمه من أن يصاب بالأمراض والآفات.

فضروب اللهو المباح إنما رخص فيها لا لتكون ديدن المسلم وعادته، بل ليستريح إليها من تعبه ونصبه، إذ إنه «لا بأس على المسلم أن يلهو ويمرح ويتفكه، على ألا يجعل ذلك عادته وخلقه، ويملأ بها صباحه ومساءه، فيهزل في موضع الجد ويعبث ويلغو في وقت العمل».

تحت هذا العنوان كتب د. فاخر عاقل «وهذا النوع من التربي نفتقده في المجتمع العربي. ولاشك أن من واجبات البيت أن يفسح المجال فيه للعمل كما يفسح المجال فيه للراحة، وهذا أمر مع الأسف لا يعترف به في البيت العربي. إن إحدى نقائصنا الكبرى أننا شعب لا نعرف كيف نلعب، ولا نعرف كيف نستجم، ولا نعرف كيف نستمتع بالراحة. وهنا نرجو أن نفرق بين الراحة والاستجمام واللعب بالمعنى التربوي الصحيح وبين هدر الوقت والانصراف عن العمل المجدي، ذلك بأن الفرق كبير جدا، وذلك بأن الراحة الصحيحة والاستجمام الصحيح لا تقل أهميتهما عن أهمية العمل الصحيح. والحق أن الذي لا يعرف كيف يرتاح



لا يعرف كيف يعمل، ولا يستطيع أن يعمل. والحقيقة أن مفاهيمنا عن اللعب والتعامل معه خاطئة. ففي بيوتنا اللعب محرم على الصغار بحجة أنهم يزعجون الكبار، واللعب محرم على الكبار بحجة ما يدعونه لأنفسهم من وقار. إذا لعب الطفل خرب وأضر، وإذا لعب الكبير أسف وألحق بعائلته الأذى. أما الرياضة والتريض والنزهة والاستجمام والرحلة والتخييم وما إلى ذلك من نشاط يعود على صاحبه بخير وفائدة فإنها أمور يجهلها معظمنا».

الآداب التي تجب مراعاتها عند اللهو

قبل أن نتعرض لأنواع اللهو المباح نتعرف على الآداب التي تجب مراعاتها عند اللهو بصفة عامة، وسوف نفرد لكل نوع منها آدابا خاصة والله الموفق:

أجمع الفقهاء والأئمة على أن مقاصد الشريعة الإسلامية تحث على:

حفظ الدين، حفظ العقل، حفظ النسل، حفظ النفس وحفظ المال.

لذا يراعى:

١- ألا يجعل المسلم الناس محل مزاحه لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ (الحجرات:١١).

٢- أن يحفظ اللاعب لسانه عن الفحش ورديء الكلام.

٣- عدم الإسراف في المال والوقت لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ (الفرقان:٦٧).

٤- لا يتخذ من مادة مزاحه الكذب ليضحك الناس، فلقد حذر رسول الله ﷺ من ذلك فقال: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب ويل له، ويل له».

٥- ألا يكون هذا اللهو هو داؤه وديدنه، فإنما أفلح المؤمنون لأنهم كانوا عن اللهو معرضين.

٦- ألا يؤخر بسببه - أي اللهو، شريطة أن يكون مباحا - عملا واجبا، وألا يسهر، لأنه ﷺ كره النوم قبل العشاء والحديث بعدها إلا أن يكون في مجلس علم.

٧- ألا يكون على قمار أو ما أشبه.

٨- أن يكون اللهو خاليا من الإثارة وأدوات الهدم.

٩- ألا يصاحبه محرم (آلات موسيقية - شرب خمر- مجون).

١٠- ليس فيه هدر لكرامة الإنسان.

١١- ألا تكشف فيه عورة.

١٢- ألا يكون فيه شيء من العنف الأعمى لمجرد الفوز، مثل ما يقال بالضربة القاضية، أي المعجزة القاتلة.

١٣- ألا يكون الغرض منه تمجيدا ومفاخرة وليس تمرينا ومثابرة.

اللعب بالمراجيح

يعد اللعب بالمراجيح للأطفال مما جوزه العلماء بعدما استدلوا على ذلك بحديث عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمة، فأتتني أمي أم رومان، وإني لفي أرجوحة، ومعي صواحب لي، فصرخت بي فأتيتها، لا أدري ما تريد بي فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين».

الرسم والأشغال وتربية الحيوان

وكما ضرب الله الأمثال للناس ليسهل عليهم فهم مقاصده، فإن رسول الله ﷺ انتهج هذا النهج التربوي في توضيح ما قد يستبهم أو يستغلق على فهم بعض المسلمين من صحابته رضوان الله عليهم، أو لتقريب مراده من الأذهان، وهذا المنهج في التعليم هو ما يسمى بوسائل الإيضاح في العصر الحديث.

● المرجع: «اللهو المباح في العصر الحديث بما يوافق الشرع الحنيف» للمؤلف إبراهيم بن محمد.

أسباب السعادة في سورة الانشقاق

خديجة أحمد
باحثة إسلامية

سورة الانشقاق من السور القرآنية العظيمة، التي يتبين فيها أسباب السعادة من خلال معنى نفس كلمة الانشقاق، والتي معناها في اللغة من مصدر انشق وهي الانفصال عن شيء.

والحقيقة أن السورة القرآنية والتي تعد آياتها مكية وعددها خمس وعشرون آية، تبين كيف يكون الانشقاق والانفصال طاعة لأمر الله تعالى، هو سر السعادة، وانفتاح الكون لما هو أفضل، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ «من ترك شيئا لله، عوضه الله خيرا منه» (قال الألباني إسناده صحيح). كما تبين كيف يكون الانشقاق عن طاعة الله تعالى هو طريق الهلاك، والعياذ بالله.

ومن أبواب السعادة التي يعلمنا الله تعالى في تلك السورة:

الطاعة وتقوى الله

يقول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ (الانشقاق:١-٥).

وهكذا تبدأ السورة برؤية السماء وهي تطيع أمر الله تعالى بالانشقاق إيذانا بموعد يوم القيامة، وكذلك تنشق الأرض عن عادتها وتطيع الله تعالى فيما أمر، دون تردد لتمتد وتلقي ما في بطنها من الأموات، وقد حق على الأرض والسماء الطاعة، فقد أشفقن من حمل الأمانة التي وافق الإنسان على حملها.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «فعرض الله هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال»، هذا قول ابن عباس وجماعة من التابعين وأكثر السلف، فقال لهن أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قال: إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن، فقلن: لا يا ربنا، نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثوابا ولا عقابا، وقلن ذلك خوفا وخشية وتعظيما لدين الله أن لا يقمن بها.. لا معصية ولا مخالفة، وكان العرض عليهن تخييرا لا إلزاما، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، والجمادات كلها خاضعة لله عزوجل، مطيعة ساجدة له، كما قال جل ذكره للسموات والأرض: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت:١١)، وقال للحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة:٧٤)، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ (الحج:١٨).

فيا ترى ماذا عن الإنسان؛ وقد قبل تلك الأمانة وعاهد الله تعالى على الطاعة والالتزام، وإن كان هناك شاهد على هذا الالتزام فهذه الصلوات الخمس قد شهدت بما هو عليه من الالتزام بوقتها وشروطها وأدائها دون إخلال أو تأجيل، فالصلاة عماد الدين، ومع بساطتها وقصر وقتها فهي تدل على فساد العمل أو صلاحه، فقد قال رسول الله ﷺ «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله» (قال المنذري: لا بأس بإسناده).

فيا ترى هل انشق الانسان عن أعمال



الدنيا كي يتفرغ للصلاة في وقتها، كما أطاعت السماء والأرض؟، فالحقيقة أن لزوم الصلاة وترك الأعمال الدنيوية لأدائها ما هو إلا بركة في تلك الأعمال، ففي الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود أنه سأل النبي ﷺ: أي العمل أو أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» وفي لفظ: «الصلاة لوقتها» وهو في الصحيحين.

وعند الترمذي: «على مواقيتها».

والمراد بذلك: الصلاة أول الوقت.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «قال ابن بطال: فيه أن البدار إلى الصلاة في أول وقتها أفضل من التراخي فيه».

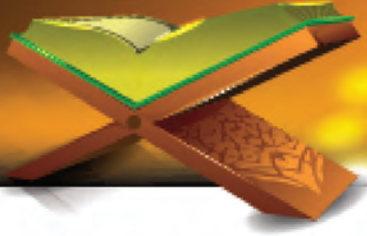
فعلى الإنسان تحري وجوه الطاعة، ومن أفضلها الصلاة، والتي كانت من أولويات ذكرها هنا، وغيرها من الأعمال الصالحة والطاعات، والتي ينشق فيها عن أهوائه لإقامتها والعمل بها، لتكون سببا في سعادته وهنائه في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (النحل:٣٠).

الالـــــتزام

ثم ينتقل الله تعالى إلى التيسير لتلك الطاعة، وهو تيسير له نتائج متعلقة في يوم القيامة، فيقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ (الانشقاق:٦-١٥).

فالإنسان قائم عامل في كل الأحوال، وهو في كل حياته يكون ساعيا مجتهدا، سواء كان عمله لله تعالى أو لغيره، والفرق أن العمل لله تعالى يكون مصحوبا بالسعادة والهناء في الدنيا والآخرة، وليس الدنيا فقط، حيث يقول الله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (البقرة:٢٠٠-٢٠٢).

فالحياة حلوة خضرة، وما يزيدها جمالا هو طاعة الله تعالى والإخلاص له، كما قال رسول الله ﷺ «الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها.



فينظر كيف تعملون» (صحيح مسلم).
فإخلاص النية لله في العمل هو ما يفرق بين الفائز والخاسر، وبين من استلم كتابه بيمينه وبين من استلمه بشماله وراء ظهره، والأمر لا يعدو سوى فصل الإنسان بين أهوائه وما أمر الله تعالى به، وهو أمر مع سهولته فهو يحتاج الاستعانة بالله تعالى، لما يواجه الإنسان من تحديات تحول بينه وبين تحقيق هدفه في إرضاء ربه وإرضاء نفسه في آن واحد، وهذا لن يحدث إلا بحرص الإنسان على عبادة الله وتقواه، والدعاء الدائم بالهداية وطلب العون من الله.. من ذلك ولذلك نذكر تلك الآيات الكريمة في كل صلاة ونقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٥-٦)، فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى، وهي التي تقود ليكون الإنسان في صف من أنعم الله تعالى عليهم، ولن يتحقق إلا بشعور الإنسان بوجود الله تعالى معه، وهو شعور لن يتولد إلا بطلب العون من الله، وطلب المساعدة وكثرة ذكر الله تعالى فيما يقوم به، ففي الحديث كان النبي ﷺ بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل فقال: «ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث، قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

التدريب العملي

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (الانشقاق:١٦-٢٥).

فالتدريب العملي يقوي الإيمان بما يحمله من مشاهدة حية تؤكد الفكرة وتثبتها في القلب، وتستأنس بها النفس، يقول الجرجاني في أسرار البلاغة في علم البيان: «إننا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر، فأنت إذا قلت للرجل: أنت مضيع للحزم في سعيك، وطالب لما لا تناله، ثم عقبته بقولك: وهل يحصل في كف القابض على الماء بشيء مما يقبض عليه؟ ولو كان الرجل على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل له سعيه على شيء فأدخل يده في الماء وقال: انظر هل حصل في كفي من الماء شيء؟ كذلك أنت في أمرك، كان لذلك ضرب من التأثير الزائد على القول والنطق بذلك دون العمل مما يدل على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنسا» فالأمر هنا لا يتعلق بالاختيار والالتزام بهذا الاختيار فقط، وإنما يقدم لنا الله تعالى آيات من التدريب العملي الذي يساعد على هذا الالتزام وتقوية الصلة بالله تعالى، سواء بالنظر لآيات الكون من حولنا أو بالإيمان بقضاء الله وقدره في أحوالنا، فيقسم الله تعالى بآيات الكون، ومن ذلك سجود الشمس لله تعالى بغروبها، ففي الحديث قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «تدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها، يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم» (صحيح البخاري).

ويقسم الله تعالى بالليل والقمر إذا تكامل نوره واستدار، وكلها آيات عملية للتأمل، والتأمل من أقوى العبادات، وهي تقرب الإنسان من الله تعالى، وتعينه على تلك الطاعات التي أمره بها، ولقد كان من عادة الرسول ﷺ أن ينظر ويتفكر ويرفع رأسه إلى السماء؛ ففي الحدث عن عبدالله بن عباس: «بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد، فنظر إلى السماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠)، ثم قام فتوضأ واستن، فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى الصبح».

ثم تنقلنا الآيات إلى السجود العملي لله تعالى، للتناغم مع آيات الكون وفعلها من الخضوع والخشوع، وهو سجود عملي تتطلبه الآيات القرآنية في قوله ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (الانشقاق:٢١)، وهي نفس الآيات التي تفرق عمليا بين من أطاع الله تعالى واختار طريق السعادة؛ وبين من أبى وكفر وعاند واختار طريق الشقاء، فكان من آمن وعمل صالحا بما آمن به من ذوي الحظ السعيد، ولكن مع كل ذلك يجب أن نعلم أنه في كل الأحوال؛ فإن الله عزوجل له المنة على أهل الجنة، فهم دخلوها بفضله ورحمته أولا وأخيرا، لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائما، فكانت ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس:١٠).

النور مؤمنة

ادفع فقط أجرة البريد

- في الكويت **1.5 دينار**
- الدول العربية **3 دنانير**
- باقي دول العالم **8 دنانير**





تودع أجرة البريد في حساب المجلة

رقم الحساب المصرفي الدولي:

KW15KFHO 0000000000011010074520

أو ترسل في شيك أو حوالة باسم مجلة «النور» إلى عنوان المجلة المثبت أدناه

مجلة «النور» ص.ب 24989 الصفاة 13110 ـ الكويت

هاتف: 22964236 وفاكس: 22409414

شبكة الإنترنت: WWW.kfh.com

البريد الإلكتروني: alnoormag@kfh.com









محنة القضاة: الخوارزمي نموذجا

د. محمود محمد خلف
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة الأزهر



القضاء هو الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي، وقطعا للنزاع بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة. وهو من أهم الوظائف التابعة للخلافة. يقول ابن خلدون: «فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى. أما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة، لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات».

ولست هنا بصدد الحديث عن شروط القاضي، وكيفية تعيينه وعزله، فذلك مذكور في كتب النظم الإسلامية، والذي يهمني في هذا التمهيد الموجز أن نوضح أن نظام القضاء في مصر نشأ بسيطا ثم أخذ يتطور بمرور الزمن، إذ لم تكن أحكام القضاة تدون في أول الأمر، حتى أصدر القاضي سليم بن عتر التُّجيبي أول سجل قضائي في مصر، وذلك في خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠ م)، ومن وقتها صار تقليدا لمن جاء بعده من القضاة. وكان القاضي يستمد أحكامه القضائية من مصادر الشريعة الإسلامية، ونعني بها: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، والاجتهاد، والقياس.

ومن الجدير بالذكر، أن أعمال القضاة كانت تمتد إلى الإشراف على ديوان الأحباس (الأوقاف) الذي عُرف في مصر منذ سنة (١١٨هـ/٧٣٦م) ويعد القاضي توبة بن نمر الحضرمي في خلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م) أول قاض بمصر يضع يده على الأحباس، بعد أن كانت تظل بأيدي أهلها وبأيدي أوصيائهم. فلما تولى توبة قال: «ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين، فأرى أن أضع يدي عليها حفظا لها من الضياع والتوارث». فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديوانا عظيما، فذلك أول إنشاء ديوان الأوقاف بمصر.

يضاف إلى ذلك، أن سلطة القاضي اتسعت حتى كان ينظر في حقوق المسلمين العامة، وفي مصالح الطرقات والأبنية، وقد تضاف إليه الشرطة، والمظالم، والحسبة.

- أبوبكر الخوارزمي (ت٢٥٠هـ/٨٦٤م):

هو القاضي محمد بن أبي الليث

ابن شداد الإيادي، أبوبكر الخوارزمي، أصله من خوارزم قدم إلى مصر عام (٢٠٥هـ/٨٢٠م) لطلب العلم، وكان يعمل وراقا على باب الواقدي، ثم صار فقيها حنفيا، فارتفع شأنه بين المصريين، وذاع صيته بين الناس، فولاه الخليفة المعتصم العباسي (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) في ربيع الآخر سنة (٢٢٦هـ/٨٤٠م) قضاء مصر.

كانت أول قضية نظر فيها الخوارزمي، مسألة الأحباس، فوضع يديه عليها مخالفا بذلك مذهبه الحنفي، وأرسل مناديا في ربوع مصر ينادي: «برئت الذمة من رجل كان في يده شيء من مال يتيم أو غائب إلا أحضره» فتسارع الناس إلى إخراج ما في أيديهم من هذه الأموال، وأدخلوه في بيت المال، خوفا من سطوته بهم. ومن الجدير بالذكر، أن القاضي كان يباشر الأحباس بنفسه، وجعل لها ديوانا بخطه، وقضى في كثير منها. وكان يقول: «لقد هممت أن أضع يدي على كل حبس بمصر يتولاه أهله مما ليس له ثبت في ديوان القضاة احتياطا له» ولكنه لم يفعل. قال الحارث بن مسكين؛ الذي ولي القضاء بعده: «ليته فعل ما عزم عليه من ذلك».

ولعل الذي حمله على وضع يده على الأحباس وإدخالها في بيت المال سوء تصرف بعض القضاة السابقين، ومنهم القاضي يحيى بن ميمون الحضرمي (١٠٥-١١٤هـ/٧٢٣-٧٣٢م) الذي عزله الخليفة هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤ ٧٤٣م) لما بلغه أنه لم ينصف يتيما احتكم إليه بعد بلوغه. كما اتهم هذا القاضي بأن كتبته كانوا يقبلون الرشوة، وهو يعلم ذلك ولا ينهاهم. وقيل كذلك إن القاضي عبدالرحمن بن عبدالله العمري (١٨٥-١٩٤هـ/٨٠١-٨٠٩م) جمع من الرشوة أموالا كثيرة.

كما حكم على القاضي السابق هارون ابن عبدالله (٢١٧-٢٢٦هـ/٨٣٢-٨٤٠م) برد الأموال التي أخذت من بيت المال، وذلك بعد أن ناظره مرة بعد أخرى، حتى ثبت أن القاضي كان يدع المفتاح مع بعض العاملين غير الثقات، فسرقوا بعض هذه الأموال، مع أن القاضي هارون بن عبدالله -والحق يقال- كان ثقة، عادلا في أحكامه. حتى قال بعض أهل مصر: «ما رأيت قاضيا مثل هارون بن عبدالله، ما استفاد عندنا إلا دارا، فلما انصرف باعها وتحمل ثمنها» إذن، كان الخطأ في سوء الأحوال الإدارية من جانب القاضي، حيث كان يعطي ثقته فيمن لا يستحق، وإن كان هو ثقة في نفسه.

على كل حال، بدأ القاضي الخوارزمي حكمه في مصر بإقامة العدل بين الرعية، فسعد به المصريون، حتى أطلت الفتنة برأسها على العالم



الإسلامي من مقر الخلافة الإسلامية (العباسية) ببغداد، وأعني بها فتنة خلق القرآن الكريم على يد الخليفة المأمون العباسي (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م)، ولكن مصر كانت في مأمن وقتئذ من هذه الفتنة. وعندما تولى المعتصم العباسي (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) الخلافة، حمل الناس على القول بخلق القرآن، وأرسل إلى واليه على مصر كيدر بن نصر بن عبدالله (٢١٧-٢١٩هـ/٨٣٢-٨٣٤م) في جمادى الآخرة سنة (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) يأمره بأخذ الناس بخلق القرآن.

ولعل المصريين لم يقوموا بمعارضة القاضي في البداية نظرا لعدله، أو لأن المحنة لم تطل أحدا من المصريين حتى ذلك الوقت. يذكر الكندي أن أمر المحنة كان سهلا في خلافة المعتصم «فلم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا أو أبوا، حتى مات المعتصم وقام الواثق سنة (٢٢٧هـ/٨٥١م) فأمر أن يؤخذ الناس بها، وورد كتابه على محمد بن أبي الليث بذلك «وكأنها نار أضرمت» في مصر».

كان الخليفة الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م) يقول بخلق القرآن عن علم وعقيدة، لأنه كان مثقفا ثقافة واسعة لا تقل عن المأمون إن لم تزد عليه، فمن ثم أمر بامتحان الناس. على حين كان قاضي مصر محمد ابن أبي الليث الخوارزمي، من أشد الناس تحمسا للقول بخلق القرآن، لذا فقد عذّب كل من خالفه الرأي، وكان رأسهم فقهاء المالكية والشافعية، فاضطهدهم، واستغل المحنة لتعذيبهم والإيقاع بهم. وكان بجانبه شاعر مصر، إذ ذاك الحسين بن عبدالسلام الجمل، يشيد بذكره ويتشفى ممن نكل به ولم يسلم أحد؛ من فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم، حتى أُخذ بالمحنة. فهرب كثير من الناس وملئت السجون ممن أنكر القول بخلق القرآن. ثم أمر القاضي الخوارزمي أن يكتب على المساجد: «لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق»، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المساجد وأمرهم ألا يقربوه.

محنة الفقهاء

ولا بأس أن ألقي بعض الضوء على محنة الفقهاء والعلماء المصريين الذين تعرضوا للفتن على يد القاضي الخوارزمي كي نثبت بالأدلة التاريخية التي لا تدع مجالا للشك أن العلماء والفقهاء المصريين قد تعرضوا لكثير من الفتن والاضطهاد، بما لا يقل عن علماء بغداد، وفي نفس الوقت، نرد على بعض الباحثين الذين ما فتئوا يكررون: «إن أمر المحنة في مصر كان سهلا خفيف الوطأة على المصريين، فلم يقاسوا بسببها إلا بضع سنوات في عهد الخليفة الواثق.. ولكننا لا نسمع عن كثير من حوادث قتل أو تعذيب كما كانت الحال في العراق» ولكي أؤكد أخيرا، أن هذه الفتنة كانت وبالا على العالم الإسلامي، فلم نجنِ منها سوى تدهور في الحركة العلمية، وقتل وتعذيب للعلماء والفقهاء. فما أدري، والله كيف وصلت المسألة إلى هذه الدرجة؟ وكيف ابتلي بها المسلمون كل هذا البلاء؟ وما الداعي إليها أصلا؟

أقول ذلك كي لا يُبتلى المجتمع الإسلامي بمثل هذه المسائل من جديد، ولنتعلم أدب الاختلاف، وأسلوب المناظرة.

وعلى كل، فأول من ابتلي بذلك من أهل مصر، فقهاء المالكية وعلى رأسهم قاضيها هارون بن عبدالله الزهري، الذي سُحب على وجهه في المسجد، وطيف به في طرقات الفسطاط. قال الكندي: حدثنا نصر بن مرزوق، قال: «كنت جالسا في المسجد فسمعت ضوضاء، ورأيت الناس قد حفلوا، فنظرت فإذا هارون بن سعيد، وطيلسانه تحت عضده، وعمامته في رقبته، ومطر غلام القاضي الخوارزمي يسوقه بعمامته، وهارون ينادي بأعلى صوته: القرآن كذا وكذا، ثم أخرجه من المسجد يُطاف به الطرق وهو على هذه الحالة».

كذلك صُنع بمحمد بن عبدالله ابن عبدالحكم، الفقيه المالكي ولم يكتف القاضي الخوارزمي بذلك، بل اتهم بني عبدالحكم بالوقوف مع ثورة عبدالعزيز بن الوزير بن ضابي المعروف بالجروي، وأمرهم برد الأموال التي ادعى أنهم نهبوها، وكانت تقدر بنحو مليون وأربعمائة ألف دينار، وعندما عجزوا عن السداد، هدم بيوتهم، وضرب كل واحد منهم خمسمائة سوط، ثم سجنهم، حتى توفي عبدالحكم بن عبدالله بن عبدالحكم في سجنه تحت وطأة التعذيب.

الهروب بالدين

وأمام كل هذا العذاب هرب بعض الفقهاء فارين بدينهم وعرضهم، ومنهم أحمد بن صالح، الذي هرب إلى اليمن. ولزم الفقيه يوسف بن أبي طيبة منزله فلم يخرج. وكذلك فعل الفقيه محمد بن سالم، ولما ظفروا به أرسلوه مكبلا إلى العراق.

كذلك لم يسلم فقهاء الشافعية بمصر من هذه المحنة، ومنهم يونس بن عبدالأعلى الصدفي الذى اتهمه القاضي الخوارزمي

بالاستيلاء على أموال اليتامى الوصي عليهم، وأحضر الشهود على ذلك. ثم حكم على ابن يونس بالسجن سبع سنوات.

الرمي بالبدع

وممن قاسى في هذه المحنة الفقيه الشافعي سعيد بن زياد المعروف بالقطاس، وكان من أهل الديانة والفضل، وكانت له حلقة في مسجد عمرو بن العاص، وكان يرمي الخوارزمي بالبدعة، ويدعو عليه. وعندما بلغ القاضي ذلك، أحضر الشهود الذين أقروا أن القطاس عبد مملوك لم يعتق، فحبسه ابن أبي الليث خمسة أيام، ثم أمر به فنودي عليه في سوق الرقيق فبلغ ثمنه دينارا. قال الطحاوي: «الذين شهدوا على القطاس لم يكونوا عدولا. وقال: أخبرني غير واحد من أهل الثقة أن الشهادة المذكورة كانت زورا».

هذا، وقد بلغت المحنة ذروتها، عندما تعرض الفقيه الشافعي يوسف بن يحيى المصري البويطي صاحب الشافعي للقتل على يد الخليفة الواثق بالله. تقول المصادر العربية: إن القاضي ابن أبي الليث الخوارزمي، كان يحسد البويطي ويعاديه، فأخرجه في وقت المحنة، فيمن أخرج من مصر إلى بغداد، ولم يخرج من أصحاب الشافعي غيره. قال الربيع ابن سليمان: رأيت البويطي على بغل، في عنقه غل وفي رجليه قيد، وبين الغل والقيد سلسلة من حديد، فيها طوبة وزنها أربعون رطلا، وهو يقول: «كلام الله غير مخلوق» ثم سجن في بغداد، فكان إذا سمع المؤذن، وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب السجن، فيقول له السجان: ارجع رحمك الله، فيقول البويطي: «اللهم إني أجبت داعيك فمنعوني».

كان البويطي قامة كبيرة في الفقه الشافعي، عابدا، مجتهدا، دائم الذكر، كبير القدر. قال الشافعي: ليس في أصحابي أعلم من البويطي. قال السيوطي: «أحد أئمة الإسلام وأركانه وزهاده، كان خليفة الشافعي في حلقته بعده».

استمر الإمام البويطي يعاني في سجنه الألم والتعذيب، وهو يقول: «فوالله لأموتن في حديدي حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم». مات رحمه الله تعالى، يوم الجمعة من شهر رجب سنة (٢٣١هـ/٨٤٥م) وكان الشافعي يتوقع منه ذلك، فقد قال له يوما: «أنت تموت في الحديد».

هذا قليل من كثير مما ابتلي به علماء وفقهاء مصر على يد القاضي ابن أبي الليث الخوارزمي، الذي أجمعت المصادر التاريخية على أنه كان «ظالما من رؤوس الجهمية».

دعاء الخلق

وبعد هذه الفترة العصيبة، مات الواثق سنة (٢٣٢هـ/٨٤٦م) وبويع المتوكل بالخلافة (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) فلم يتحمس للقول بخلق القرآن، ففترت حركة الامتحان. وفي سنة (٢٣٤هـ/٨٤٨م) نهى عن القول بخلق القرآن، وكتب بذلك إلى الآفاق. فتوفر دعاء الخلق له، وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له، حتى قال قائلهم، الخلفاء ثلاثة: أبوبكر الصديق يوم الردة، وعمر بن عبدالعزيز في رده المظالم والمتوكل في إحياء السنة. وفي شهر جمادى الآخرة من نفس العام، ورد كتاب المتوكل على هرثمة ابن النضر الجبلي، نائب مصر إذ ذاك من قِبل صاحب إقطاعها إيتاخ (٢٣٣-٢٣٤هـ/٨٤٧-٨٤٨م) يأمره بترك الجدل في القرآن وبإبطال المحنة.

ثم أمر نائب مصر أن يحلق رأس ولحية القاضي ابن أبي الليث الخوارزمي، وأن يضربه، ويطوف به على حمار. ثم سجن يوم الاثنين لإحدى عشرة بقيت من شهر رمضان سنة (٢٣٧هـ/٨٥١م) وفرح الناس بذلك فرحا شديدا، وعظموا المتوكل، ومدحه الشعراء. ووثب أهل مصر على مجلس الخوارزمي فرموا ما به من فرش وحصير وبالغوا في النظافة «حتى غسلوا موضعه بالماء». ولا غرابة في ذلك فأهل مصر، كما يقول المقريزي: «لهم خبرة بالكيد والمكر، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه... حتى صاروا مضرب المثل فيه بين الأمم». أما القاضي الخوارزمي فقد استمر في سجنه بمصر حتى عام (٢٤١هـ/٨٥٥م) ثم خرج منها إلى العراق، وولي قضاء مصر بعده الفقيه المالكي الحارث بن مسكين. عاش الخوارزمي في العراق مجهول الحال حتى توفي سنة (٢٥٠هـ/٨٦٤م). علق الإمام الذهبي على وفاته بقوله: «اللهم لا تأجره في مصيبته، فإنه كان ظالما».

زوال الغمة

هكذا، أزال الله تعالى الغمة عن علماء الأمة، ومضى ابن أبي الليث الخوارزمي، بعد ولاية دامت ما يقرب من تسع سنين، ذاق الشعب المصري فيها العنت والشقاء. وخرج الشعب منتصرا في النهاية، وذلك بعد أن عبر عن غضبه واحتجاجه، واستطاعت كلماته أن تصل إلى آذان الحكام مهما بعدت عنه، ويستطيع اللسان المصري أن يعبر عن نفسه بشتى الأساليب المختلفة، وتكون له الغلبة والنصرة في النهاية. فما من حاكم أو وال استطاع أن يقف أمام هذا الشعب العريق الفاهم لطبيعة ولاته، المدرك لزمانه الذي يحياه، فلكل عصر أسلوب، ولكل شعب طبيعة، ولكل مقاومة سمة.



انتصار المقاومة الريفية وآثاره على المجتمع الإسباني

أحمد لحميمي
باحث في التاريخ المعاصر للريف

في يوم ٢٢ يوليو من السنة القابلة، تكون قد مرت تسعون سنة على معركة أنوال، إحدى أهم المعارك التي كبدت فيها المقاومة الوطنية الريفية الجيش الاستعماري الإسباني خسائر فادحة، بشرية ومادية، كان لها أثر واضح على الحياة السياسية والاقتصادية لإسبانيا ولدول أخرى، ذلك الانتصار الذي أصبح متداولا في المراجع بمعركة «أنوال»، في حين لم تكن هذه المعركة إلا استمرارية لمجموعة من المعارك التي كانت قبيلة تمسمان مسرحا لها، إذ انطلقت يوم ١ يوليو ١٩٢١م معركة «أدهار أبران»، مرورا بمعركة «إغريبن» التي دارت رحاها ما بين ١٦ و٢١ يوليو ١٩٢١م، وانتهاء بمعركة «أنوال» التي وقعت ليلة ٢١ يوليو ١٩٢١م (١)، فضلا عن معارك أخرى كمعارك «بويمجان» و«سيدي إبراهيم» و«تليليت». كانت هذه المعارك انعكاسات ونتائج متنوعة سأقتصر في هذا المقال على إبراز وقعها على الأوضاع الداخلية لإسبانيا. وقبل ذلك أرى أنه من الضروري الإشارة إلى هذه المعارك مع التركيز على معركتين اثنتين لأهميتهما:



الأولى معركة «أدهار أبران»،
والثانية معركة «إغريبن».

انتصار المقاومة الريفية سنة ١٩٢١م

١- معركة «أدهار أبران»: بعد الزحف الإسباني بقيادة سلفستري على القبائل المجاورة لمليلية غربا (١٩١٩-١٩٢٠م)، كقلعية وبني سعيد وبني توزين وبني وليشك، تريث عند وصوله إلى قبيلة تمسمان، التي كان الاستيلاء عليها يعني التحكم في الطريق البري المختصر للسيطرة على قبيلة «بني ورياغل»، المعقل الأول للمقاومة بزعامة محمد بن عبدالكريم الخطابي. ففي يناير ١٩٢١م حط الجنرال سلفستري رحاله بشرق قبيلة «تمسمان»، وسيطر على هضبة «أنوال»، التي وضعها كمركز رئيسي لقواته الزاحفة برا نحو قبيلة «بني ورياغل». وفي مارس ١٩٢١م مسيطر على ميناء «سيدي إدريس» واتخذه منفذا بحريا لتحركاته، وفي ١ يوليو كلف أحد ضباطه (فيجار خيسوس) بمحاصرة قمة «أبران»، وعلى الرغم من تحذيرات بعض قادته بخطورة العمل المقدم عليه، فإنه انساق وراء تشجيعات بعض العملاء الذين قادوه إلى القمة المستهدفة. وبالفعل تم الوصول إليها من دون أي عارض يعوق الحملة العسكرية، مما جعله يستهزئ قادته الذين كانوا يعارضونه. وبعد الانتهاء من عملية السيطرة على «أبران» قرر الضابط فيجار العودة إلى «أنوال» مكتفيا بوضع المركز الجديد تحت أمر حامية عسكرية فقط، خصوصا أن مؤشرات المواجهة كانت منعدمة. وكانت لهذا العمل العسكري انعكاسات خطيرة، حيث سيهدم كل ما قامت به إسبانيا في غزو الريف الشرقي من ١٩٠٩م إلى ١٩٢١م. ففي مساء يوم ١ يوليو عمد المجاهدون إلى مواجهة القوة الإسبانية بمركز «أبران» وتحريره من السيطرة الإسبانية، ولم ينج من الجنود الإسبان إلا القلة القليلة التي تسربت إلى «أنوال» أو ميناء «سيدي إدريس»، وبذلك لم تعمر سيطرة الإسبان على «أبران» إلا ساعات معدودة. تتمثل أهمية هذه المعركة في وقعها الكبير على الجانبين: المقاوم المنتصر والغازي المنهزم، فبالنسبة إلى المجاهدين أصبحوا أقوياء: معنويا بتوافد مجاهدين جدد عززوا صفوفهم، وماديا بحيازتهم أسلحة مهمة وعتادا وفيرا غنموها من الحرب سيستعملونها في المعارك اللاحقة. وعلى الرغم من أن الأسلحة التي استعملوها في المعركة نفسها كانت بسيطة: بعض البنادق (موسى) وأسلحة بيضاء (مناجل) إن لم نقل بدائية (حجارة)، كما شهدت بذلك الكتابات الإسبانية نفسها.

أما بالنسبة إلى القوة الإسبانية الغازية المتمركزة في المركز الرئيسي (أنوال)، والتي كانت شاهدة على ما حدث في «أبران»، فقد أبرقت إلى الجنرال سلفستري بمليلية وإلى المفوض السامي بيرنكر في تطوان، تخبرهما بالانهزام، وكان هذا النبأ صعب التصديق، خصوصا من قبل سلفستري الذي لم يمض على مغادرته لأنوال يوم واحد، لكن كثرة البرقيات حول موضوع الهزيمة جعلته يصدق، خصوصا عندما وصلت البرقية الأخيرة التي تقول: «وصل الآن جنديان استطاعا الهروب من «أبران». ويحكيان كيف أن المركز قد دمر عن آخره، وقتل من كان به، وسقط بيد العدو كل المدافع والأسلحة والعتاد والعدة التي كانت به» (٢).

وبعد التأكد من الهزيمة، أصبح سلفستري يحسب للمجاهدين حسابهم ويحتاط منهم، إذ عزز مركز «أنوال» بقواته، التي كانت في المراكز المجاورة، مثل «الدريوش»، وحاول تغطية النكسة بزحفه على موقع استراتيجي جديد قريب من «أنوال»، وهو «ربوة إغريبن»، ولم يكلفه ذلك أي خسارة، مما جعل المسؤولين الإسبان يتكهنون لـ«إغريبن» بالمصير نفسه الذي لحق بـ«أبران»، وذلك ما تحقق فعلا (٣).

٢- معركة «إغريبن»: قبل هجوم المجاهدين على المركز الجديد، وفي إطار التخطيط لذلك، استرجعوا مراكز ثانوية مجاورة كانت بها حاميات عسكرية إسبانية كمركزي «بويمجان» و«سيدي إبراهيم» يوم ١٦ يونيو ١٩٢١م، بعد ذلك اقترب المجاهدون من موقع «إغريبن»، الذي برهنوا فيه على حنكتهم القتالية، إذ طبقوا عليه خطة الحصار التي رسمها لهم قائدهم عبدالكريم الخطابي والتي امتدت من ١٤ يوليو إلى ٢١ يوليو ١٩٢١م، وذلك بالتخندق حول «إغريبن» وقطع كل الإمدادات والتموين الآتية من «أنوال» التي تروم فك الحصار. وكانت

الضربة القاضية لمركز «إغريبن»
عندما أدرك المجاهدون نقطة ضعف الجنود الإسبان المحاصرين، المتمثلة في اعتمادهم على استهلاك مياه «عين عبدالرحمن» بوادي الحمام، الفاصل بين «إغريبن» و«أنوال»، فركزوا حصارهم حول هذا المنبع المائي، وبذلك أصبحت الحياة مستبعدة عند الجنود الإسبان المحاصرين، الذين لم يعودوا يفكرون في الطعام، بل أصبحوا يفكرون في الماء فقط لري عطشهم في موسم الصيف الحار، لدرجة أنهم اضطروا إلى شرب عصير التوابل والطماطم، بل والحبر المخصص للكتابة أيضا، وبعضهم كان يلعق الحجارة، وذهب الأمر بآخرين إلى شرب بولهم بعد تحليته بالسكر (٤).

وللوقوف أكثر على مدى حدة المأساة التي عاشها الجنود الإسبان المحاصرون، نورد تصريحات بعضهم والذين يئسوا من الحياة، ففي ذلك قال أحدهم: «لا يستطيع أحد الخروج من هذه المأساة، ولو وجد معنا الإله». وقال آخر: «لا يستريح في هذه المنطقة إلا الأموات». وفي موضوع الماء قال أحدهم: «إنه مقابل قطرة من الماء سأضحي بعشر سنوات من حياتي» (٥).

ورغم المحاولات المتعددة لفك الحصار على «إغريبن» انطلاقا من المركز الرئيسي «أنوال» وتحت إشراف الجنرال سلفستري نفسه، فإنها كانت تنتهي بالفشل، مما جعل هذا الأخير يبرق إلى الضابط بنيطس (قائد الحامية العسكرية الإسبانية في إغريبن) يأمره بالانسحاب.

وكانت عملية الانسحاب يوم ٢١ يوليو ١٩٢١م عبارة عن اندحار مأساوي أسود، إذ خرج ما تبقى من جنود الاحتلال في المركز المحاصر في حال فرار نحو «أنوال» طلبا للنجاة، وإنقاذا لما تبقى من الرمق في ظل مطاردة المقاومين لهم. وهكذا انتهت معركة «إغريبن» على هذه الصورة المخزية التي لم تخطر على بال الجنرال سلفستري الذي كان يتبجح بمهاراته القتالية ودهائه العسكري وقدرته على التخطيط والمناورة، فظل مشدوها أمام ما يجري تحت سمعه وبصره، في ظل عجزه التام عن القيام بأي مبادرة تنقذ ماء وجه القوة الاستعمارية الإسبانية وتعيد هيبتها، حيث اكتفى ليلة ٢٠-٢١ يوليو ١٩٢١م باستدعاء ضباطه معلنا الانسحاب من «أنوال» (المركز العسكري الاستراتيجي). فخرجت فلول العسكر الإسباني من «أنوال» في شكل مطبوع بالفوضى والارتجال والارتباك دال على ارتباك الضباط الإسبان وتخليهم عن مسؤولياتهم القيادية التنظيمية. بينما اكتفى المقاومون بملاحقتهم ومطاردة الغزاة الفارين في طريقهم نحو مليلية (٦)، التي كان سكانها يتوقعون دخول المقاومين الريفيين لها متتبعين آثار الغزاة الهاربين، بعد انتصارهم العسكري الذي رفع معنوياتهم كثيرا، وعزز صفوفهم بانضمام محاربين جدد إليهم. في حين كان الجنود الإسبان المنهزمون يتأملون البحر، ملاذهم الوحيد المتبقي لهم للوصول إلى وطنهم إسبانيا في حال مواجهة المقاومين الريفيين (٧).

وكان عدم اقتحام مدينة مليلية من بين الأخطاء التي يعترف عبدالكريم الخطابي باقترافها، ويبرر ذلك بقوله: «ولكنني أوصيت المجاهدين في نفس الوقت وبنفس التأكيد على ألا يحتلوا مليلية، اجتنابا لإثارة تعقيدات دولية، وأنا نادم على ذلك بمرارة، وكانت هذه غلطتي الكبرى» (٨)، فضلا عن أن المعارك أنهكت المقاومين، الذين قنعوا بما حققوه من انتصارات. ويصف أحد قادة المقاومة هذا الأمر بقوله: «إن المحاربين الجبليين ملوا قطع الرؤوس» (٩).

تلك كانت نظرة مقتضبة حول انتصار المقاومة الريفية الذي عرف بانتصار «أنوال»، في حين لم تكن «أنوال» إلا خاتمة الانتصار الحقيقي الذي تقرر في «إغريبن» كما بينا سابقا، بتطبيق خطة الحصار لمدة ستة أيام، لأن معركة «أنوال» لا تتوافر فيها حتى المواصفات الشكلية للمعركة، والمتمثلة في مواجهة بين جيشين متحاربين. هذه المعركة نجد جموعا من الجنود الإسبان المنسحبين الفارين إثر إعلان قائدهم الجنرال سلفستري عن ذلك ليلة ٢١-٢٢ يوليو ١٩٢١م، واكتفى المقاومون الريفيون بمطاردتهم من دون عناء.

وربما يرجع الصدى، الذي أصبح لـ«أنوال»، إلى كونها كانت المركز الرئيسي للقوة الإسبانية بالجبهة الزاحفة نحو معقل المقاومة الريفية بقبيلة «بني ورياغل»، خصوصا أن الكتابات الأولى عن هذه المقاومة أوروبية «إسبانية»، وقد يكون الأمر يتعلق بصعوبة نطق وكتابة الأجانب للمواقع السابقة، مثل: «أدهار أبران» و«إغريبن»، في حين يسهل نطق وكتابة «أنوال». وما يمكن أن يبرر هذه الفرضيات هو أن القصائد الشعرية المعاصرة لهذه المقاومة تشيد وتمجد بـ «أدهار أبران» و«إغريبن» ولا تشير إلى «أنوال» إلا بشكل عابر.

والخلاصة الثانية تتمثل في كون هذه المقاومة كثيرا ما توصف بحرب العصابات، في حين يمكن أن

نسميها فضلا عن ذلك بحرب الخطة العسكرية المتمثلة في خطة الحصار والتخندق حول مركز «إغريبن» لمدة تناهز الأسبوع، فضلا عن حرب العصابات كما حدث مع معركة «أبران» التي كانت مباغتة ولم يكن يتوقعها الغزاة الإسبان، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

انعكاسات انتصار المقاومة الريفية على المجتمع الإسباني

بعد استعراضنا لوقائع انتصار المقاومة الريفية على الجهاز العسكري الإسباني الغازي، نعرض فيما يلي لانعكاسات هذه الانتصارات على الأوضاع العامة في إسبانيا.

- اقتصاديا: يقول ميكيل مارتين في كتابه «الاستعمار الإسباني في المغرب» (١٨٦٠-١٩٥٦م) في سنة ١٩٢١م أصبحت الميزانية العسكرية تلتهم ٥١ من المائة من اعتمادات الدولة، وإن باب النفقات العسكرية المخصصة للمغرب تضاعف ثلاث مرات ونصف المرة في الفترة الممتدة ما بين ١٩١٣م و١٩٢١م، وكمثل على ذلك: افتداء الأسرى الإسبان الذي كلف ميزانية الدولة أربعة ملايين بسيطة، وصرح وزير الاقتصاد الإسباني بعدم قدرة الخزينة الإسبانية على تحمل مصاريف الحرب في المغرب (١٠).

- اجتماعيا: عم السخط جميع الفئات الاجتماعية، وأصبح المغرب ينعت بـ«مقبرة الشباب الإسباني» أو «البئر التي تبتلع ثروة إسبانيا»، وهكذا رفضت قوات من الجنود الإسبان الإبحار نحو المغرب، وطالبت هيئة نسائية الحكومة الإسبانية بالتخلي عن المغرب. الأكثر من ذلك، دعا الحزب الشيوعي الإسباني إلى إضراب تضامني مع المقاومين المغاربة، كما أقيمت مهرجانات خطابية ضد الحرب في المغرب (١١).

- سياسيا: دفعت الأصوات المنادية بإيقاف الحرب في المغرب الحكومة الإسبانية إلى تكليف لجنة برئاسة الجنرال بيكاسو للتحقيق في أسباب الهزيمة، وانتهت أبحاثها إلى تحميل مسؤولية الهزيمة إلى الجنرال سلفستري، ووصفت تصرفاته بـ«الجرأة التي تفتقد التبصر»، وطالبت اللجنة بمحاكمة المفوض السامي بيرنكر نظرا للخلاف الذي كان بينه وبين سلفستري، إلا أن الحكومة الإسبانية اكتفت بإقالته من دون محاكمة، كما اتهمت لجنة التحقيق الملك الإسباني ألفونسو ١٣ بالتورط في الهزيمة (١٢).

أما حدث افتداء أسرى الجيش الإسباني من يد المقاومة الريفية سنة ١٩٢٣م، فقد خلف إحساسا كبيرا بالمهانة، مما جعل تيار أنصار الحرب يظهر ويتقوى من جديد، معلنا تصميمه على الانتقام لكارثة «إغريبن» و«أنوال»، فلقيت هذه العملية العسكرية الانتقامية مصير المعارك السابقة نفسه، حيث منيت بهزيمة نكراء خلال معركة «تيزي عزا»، مما جعل مشاعر السخط تعم المجتمع الإسباني إلى حد الدعوة لإسبانيا بالموت وللمغرب بالحياة (١٣).

أمام هذه الوضعية المضطربة استطاع دوق برشلونة الجنرال بريمو دي ريفيرا تنظيم انقلاب عسكري، ودعا القوات الإسبانية إلى الانسحاب مع المغرب، مما أثار غضب الراغبين في الانتقام ومواصلة الحرب، وعلى رأسهم الجنرال فرانسيسكو فرانكو (١٤).

وسيتقوى هذا التيار سنة ١٩٢٤م، خصوصا عندما سيلقى دعما عسكريا وسندا سياسيا من قبل الدولة الفرنسية، انتهى بخوض غمار هجوم مشترك إسباني فرنسي، بمباركة دول أوروبية أخرى، استعملت فيه جميع أشكال الأسلحة الفتاكة من طائرات وقنابل مدمرة وأسلحة كيماوية سامة، تمت بعده السيطرة على الريف، ووُضع حد للمقاومة الريفية وأُرغم قائدها عبدالكريم الخطابي على الاستسلام سنة ١٩٢٦م.

هكذا أثر انتصار «إغريبن» و«أنوال» في مجريات أمور إسبانيا وتاريخها كما قال شارل بيتري في كتابه «تاريخ إسبانيا»: «... إنها أنوال أثرت في تاريخ إسبانيا بكيفية عميقة، فمن دونها لن يكون هناك مجلس عسكري حاكم، ومن دون مجلس عسكري لن تكون هناك جمهورية ثانية. وبناء على ذلك، لن تكون هناك حرب أهلية إسبانية..» (١٥). بل تعدى الأثر إسبانيا وشمل كل القوى الإمبريالية «فرنسا وإنجلترا»، إذ فزعت الدولتان من هذا الانتصار، في حين صفقت له دول أخرى، لاسيما المستضعفة، التي كانت تعاني ألم الخضوع للسيطرة الاستعمارية، حيث كانت ترى في هذا الانتصار الحلقة الأولى لتحريرها، وبذلك أصبحت هذه التجربة درسا للقوى التحررية في العالم، خصوصا التي اعتمدت حرب العصابات، كحركة ماوتسي تونغ وحركة تشي جيفارا.

الهوامش

١- محمد بن عزوز حكيم، معركة أنوال، الرباط ١٩٨١، ص ١٤.
٢- محمد بن عزوز حكيم، المرجع نفسه.
٣- المرجع المذكور نفسه.
٤- ميكيل مارتين، الاستعمار الإسباني في المغرب (١٨٦٠-١٩٥٦)، تعريب محمد الشاوني، نقلا عن مجلة جسور، عدد٢، مطبعة الأندلس، الدار البيضاء١٩٨١، ص٥٢.
٥- المرجع نفسه.
٦- ميكيل مارتين، مرجع سابق.
٧- محمد زنيبر، حرب الريف، ضمن مذكرات من تاريخ المغرب، الجزء ٥، ص ١٧٩.
٨- محمد زنيبر، المرجع نفسه.
٩- DAVID¨S WOOLMAN Abd EL-KRIM y la guerra del rif ١٩٧١ OIKOS-TAU sa Barcelona p ١١٢-١١٣.
١٠- ميكيل مارتين، مرجع مذكور، ص٥٨ - ٦٠.
١١- ميكيل مارتين، ص٥٩-٦٠.
١٢- ميكيل مارتين، ص٦٠.
١٣- جريدة الاتحاد الاشتراكي، عدد ٢٢ يوليو ١٩٨٣، ترجمة لرسالة عبدالرحمن اليوسفي المتعلقة بالمقاومة الريفية، ص٥.
١٤- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
١٥- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

منهج الإقراء في الأندلس



د. مراد زهوي
باحث دراسات إسلامية

يقتضي الكلام عن المدرسة الأندلسية التعرض لدخول الإسلام إلى هذا المصر من العالم الإسلامي فكيف تم ذلك؟

تم للعرب فتح الأندلس سنة ٩٢ للهجرة على يد طارق بن زياد في خلافة عبدالملك بن مروان، وقد وجدوا فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وجدوا فيها التربة الخصبة، والمياه العذبة والعيون الصافية، والأنهار الجارية، وكأنها أيكة وارفة الظلال دانية القطوف، يانعة الثمار.

ولقد غردت عنادل الأندلس فترة من الزمان، فملأت القلوب وقرعت الأسماع، وبهرت النفوس، وأخذت بالألباب، ولكن صداها تبدد في غياهب الدهور وعلى مرور الأيام، وتلاشى في غمار الأحداث، ولم يبق من هذه الألحان الساحرة إلا أنغام شاردة مهومة، ابتلعتها الأيام، وخلدها الزمن في طياته، وسجلها في صفحاته، فتهادت إلينا خلال القرون تثير كوامن الوجدان، وتحرك سواكن الأشجان:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد
ولا يدوم على حال لها شان
وصار ما كان من ملك ومن ملك
كما حكى عن خيال الطيف وسنان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
إن كان في القلب إسلام وإيمان (١)

وقد نزح إلى الأندلس كثير من القبائل العربية واستوطنوا أرضها، وانبثوا في ربوعها، وامتزجوا بأهل البلاد الأصليين، بالمصاهرة والمعاملة، فنشأ من الفريقين جيل جديد.

وكان من أثر هذا الفتح أن دخل كثير من أهل البلاد الأصليين في دين الله أفواجا، لأنه دين الفاتحين الذين أصبحوا يمثلون الأغلبية التي استوطنت البلاد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن سكان الأندلس الأصليين وجدوا في الدين الجديد منقذا خلصهم مما كانوا يرزحون تحته من ظلم حكامهم وعسفهم. ولمسوا في تعاليمه مبادئ الإخاء والمحبة والعدالة والمساواة والسلم والأمن، فاعتنقوه عن يقين لأنها السبيل إلى فهم القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين، فطلب فهمه إنما يكون من هذه الطريق خاصة. فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة (٢).

«فإن قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب وإنه عربي، وإنه لا عجمة فيه، فبمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة، وأساليب معانيها، وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام ويراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه، والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص، والظاهر يراد به غير الظاهر، وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره (السياق)، وتتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره، أو آخره عن أوله، وتتكلم بالشيء

يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة، وتسمي الشيء الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة باسم واحد، وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه هي ولا من تعلق بعلم كلامها» (٣).

وهكذا نطق بالعربية كل أندلسي لامسه الإسلام من قريب أو بعيد، ومن بقي من أهل الأندلس على دينهم الأول لم يجدوا مناصا من تعلم تلك اللغة أيضا حتى يسايروا أكثرية الناس في لسانهم وثقافتهم، وحتى يتهيأ لهم بسببها العيش، ووسائل الحياة، وليتمكنوا من الاتصال بالحكام فيما يتعلق بشؤونهم وأحوال دنياهم.

وقد زاد من عناية الناس بتحصيل اللغة، والإقبال على تعلم أساليبها أن الذين حكموا البلاد أولا، وهم بنو أمية، كانوا متعصبين للغتهم وآدابها، يحملون الناس على تحصيلها حملا، ويعقدون مجالس للأدب والشعر، ويشاركون في الحوار والمناقشة... فقد روي عن عبدالرحمن الداخل أنه رأى نخلة وحيدة فريدة في حديقة قصره بالرصافة فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي
يسح ويستمرى المساكين بالوبل (٤)

وهكذا رغب أمراء الأندلس أمثال عبد الرحمن الداخل في النهوض ببلادهم، وأرادوا لها أن تكون أثبت قدما وأعلى مكانة من دولة العباسين في المشرق في كل شأن من شؤون الحياة، فأوفدوا كثيرا من علمائهم إلى تلك البلاد لينهلوا من معينها ويغترفوا من بحار معارفها وعلومها، حتى إذا ما رجعوا إلى بلادهم الأندلس الناشئة الفتية كانوا مصدر إشعاع لكل راغب في فن أو طالب لمعرفة.

ومن هنا كانت رحلات الأندلسيين إلى المشرق ولقاؤهم العلماء والشيوخ أحد أقوى الأسباب التي أعانت على خلق البيئة الثقافية والعلمية. والمطلع على كتب التراجم والتاريخ التي تتحدث عن الأندلس، يلحظ أن الأندلسيين كانوا أكثر الناس رحلة إلى المشرق الذي كان إذ ذاك مركز إشعاع علمي وحضاري.

ومن مشاهير العلماء الذين رحلوا إلى المشرق: جودي النحوي جودي ابن عثمان (ت ١٩٨ هـ) (٥). زياد ابن عبدالرحمن اللخمي (ت ٢٠٤ هـ) (٦)، يحيى بن يحيى الليثي المتوفى (٢٣٤ هـ) (٧)، عبدالملك بن حبيب السلمي (ت ٢٣٨ هـ) (٨)، بقي بن مخلد (ت ٢٧٦ هـ) (٩)، مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني (ت ٤٣٧ هـ) (١٠)، أبو عمار المهدوي (ت ٤٤٠) (١١)، أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) (١٢) وأبو إسحاق الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ).

وبما أن المقال يرمي إلى إبراز معالم منهج الإقراء بالأندلس فلابد من التقديم بالمقدمات الآتية:

١- علم القراءات:

يعتبر علم القراءات أقدم العلوم الإسلامية نشأة وعهدا، لأن أول ما تعلمه الصحابة رضي الله عنهم من علوم الدين كان القرآن الكريم، قراءة وحفظا وفهما وتمثلا، ثم اختلف الناس في قراءة القرآن وضبط ألفاظه، فدعت الحاجة إلى علم يتميز به صحيح القراءات ومتواترها من شاذها وضعيفها، حفظا لألفاظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل، ودفعا للخلاف بين أهل القرآن.

فتأسس علم القراءات الذي تصدر له ولتدوينه أعلام أفذاذ فطاحلة فحول، فأفاد المسلمين فائدة عظيمة جمة، لأن البحث في القراءات ومباحثها ييسر تلاوة القرآن، ويسهل حفظه، ويستعان به على معرفة الأحكام الشرعية؛ إذ اختلاف القراءات يفيد الاختلاف في الأحكام، يقول السيوطي: «وهو علم عظيم يترتب عليه معرفة الأحكام الشرعية؛ إذ باختلاف القراء يظهر الاختلاف في الأحكام، لهذا بنى الفقهاء نقض وضوء الملموس وعدمه على اختلاف القراءة في ﴿لَمَسْتُمُ﴾ و«لمستمْ» (النساء: ٤٣)، وجواز وطء الحائض عند الانقطاع قبل الغسل وعدمه على الاختلاف في ﴿يَطْهُرْنَ﴾ (البقرة،: ٢٢٢)، وقد حكوا خلافا غريبا في الآية، إذ قرئت بقراءتين...» (١٣).

كما أنه أفاد في علم اللغة، ودفع الأمة إلى الاعتناء بها، والوقوف على مزاياها ودقائقها وقواعدها. ومما يؤكد ذلك أننا نجد الكثير من النحويين كانوا قراءا كالأخفش والكسائي...

٢ - القراءات في الأندلس:

كانت نواة العلوم الإسلامية لدى الصحابة والتابعين الذين دخلوا الأندلس مع جنود الفتح، وكانت مهمتهم تعليم القرآن والحديث، وبيان الأحكام، لذلك فقد قرأ أهل الأندلس على القراءات التي وصلتهم من المشرق منذ الفتح الإسلامي، وكانوا يأخذون هذه القراءات دون أن يلقوا بالا إلى تعليقات أو شروح، حتى جاء عهد رجل يعتبر من دعامات الفكر والمعرفة في هذا الجزء من البلاد الإسلامية، ألا وهو مجاهد العامري، الذي يرجع إليه الفضل في انتشار علم القراءات، حيث كان علما من أعلامها، وفتح الباب لعلماء هذا الفن وشجعهم وأكرمهم.

يقول ياقوت الحموي: «.. وكان من الكرماء على العلماء، يبذل لهم الرغائب، خصوصا على القراء، حتى صارت (دانية) معدن القراء بالمغرب» (١٤).

ويقول ابن خلدون: «ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودونت، فكتبت فيما كتب من العلوم، وصارت صناعة مخصوصة، وعلما منفردا، وتناقله الناس بالمشرق والأندلس، إلى أن ملك بشرق الأندلس «مجاهد» من موالي العامريين، وكان معتنيا بهذا الفن من بين فنون القرآن، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر، واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته، فكان

سهمه في ذلك وافرا» (١٥).

٣- دخول القراءات إلى الأندلس

جاء في طبقات النحوين واللغويين لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي أن أبا موسى الهواري الأندلسي رحل إلى المشرق فلقي مالكا ونظرائه، وكان أول من أدخل القراءات إلى الأندلس وألف فيها (١٦).

وتذكر كتب التاريخ أن أول قارئ أندلسي هو أبو محمد الغازي بن قيس (ت ١٩٩ هـ) الذي كان مؤدبا بقرطبة، ورحل إلى الحجاز فحج وأخذ عن الإمام نافع قراءته عرضا وسماعا، وصحح عليه مصحفه ثلاث عشرة مرة، وقد كان الغازي ضابطا لفقه مالك، وحفظ الموطأ حفظا متقنا، وكان لغويا ماهرا وعنه أخذ أصبغ بن خليل وعبدالملك بن حبيب وابنه عبدالله، ويذكر أن ابنه كان من علماء العربية.

وبعده اشتهر من القراء الأندلسيين محمد بن وضاح الذي روى القراءة عن عبدالصمد ابن عبدالرحمن العتقي، وسمع منه الاختلاف بين نافع وحمزة ومن تأليفه حمزة ونافع، وروى عنه عدد القرآن على المدني الأول، ومن عهده اعتمد أهل الأندلس رواية ورش، وكانوا قبله على رواية الغازي بن قيس.

ثم كانت وفادة أبي الحسن الأنطاكي علي بن محمد بن إسماعيل (ت ٣٧٧ هـ) التي كان لها بالغ الأثر في تطور علم القراءات في الأندلس، ذلك أن الأنطاكي لازم المقرئ الكبير إبراهيم بن عبدالرزاق ثلاثين سنة، وسمع من ابن الأخرم وأحمد بن صالح البغدادي وهو من أصحاب أبي جعفر النحاس، ثم قدم على الأندلس سنة ٣٥٢ هـ بطلب من الحاكم المستنصر بالله فكان فيها متصدرا، رأسا في القراءة لا يتقدمه أحد، وعنه أخذ محمد بن يوسف النجاد، وهو من شيوخ الداني وأبي مروان اليحصبي (ت ٤٠٥هـ) عبيد الله بن سلمة بن حزم، وهو الذي علم الداني كل القرآن، لكن أبا مروان روى أيضا عن عبدالله بن عطية الدمشقي المفسر والمظفر بن أحمد بن حمدان أبي غانم المصري، ومحمد بن الحسن الأنطاكي وعبد المنعم بن غلبون.

ثم إن هناك رواية تذكر أنه لم يكن ببلاد الأندلس شيء من هذه القراءات إلى أواخر المائة الرابعة، وأن أول من أدخلها إلى الأندلس أحمد بن محمد ابن عبدالله أبو عمر الطلمنكي (ت ٤٢٩ هـ)، الذي قرأ في المشرق على علي بن محمد الأنطاكي وعبدالمنعم ابن غلبون. وهو أول من صنف في القراءات في الأندلس (١٧).

يقول ابن الجزري: «... ولم يكن بالأندلس ولا ببلاد الغرب شيء من هذه القراءات إلى أواخر المائة الرابعة، فرحل منهم من روى القراءات بمصر ودخل بها، وكان أبو عمر أحمد بن عبدالله الطلمنكي مؤلف «الروضة» أول من أدخل القراءات إلى الأندلس، وتوفي سنة ٤٢٩هـ..» (١٨).

وجاء بعده مكي بن أبي طالب أبو محمد القيسي (ت ٤٣٧ هـ)، فصنف كتابه «التبصرة» و«الكشف»، ثم جاء بعدهما الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ) إمام هذه المدرسة وقطب رحاها وشيخ إقرائها في عصره، وقد بلغ الغاية في القراءات، ووقفت عليه معرفتها، وانتهت إليه رواية أسانيدها، وتعددت تآليفه فيها، وعول الناس عليها (١٩).

ثم ظهر بعد ذلك أبو القاسم الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ)، وعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه، فنظم كتاب التيسير في لاميته الموسومة بـ «حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع»، والتي ضمنها مسائل هذا الفن واستوعبها، وعني الناس بحفظها وتلقينها للطلاب، وجرى العمل على ذلك في سائر أمصار الأندلس، وكان لها الأثر الواضح في المدرسة الأندلسية.

٤- القراءة المعتمدة عند أهل الأندلس:

أنزل القرآن على سبعة أحرف، فكان الناس يقرأون منها ما يشاؤون، وبقدر ما يستطيعون، وقد تتبع العلماء أحرف القرآن وأوجه أداء بعض ألفاظه، فتكونت لديهم قراءات، وكان لكل قطر إمام، وبكل مصر قارئ واشتهر منهم القراء السبعة، أو القراءات السبع، وأوصلها بعضهم إلى العشر والأربع عشرة، فكان أهل مكة على قراءة ابن كثير، وأهل المدينة على قراءة نافع، وأهل البصرة على قراءة أبي عمرو البصري ويعقوب، وأهل الكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وأهل الشام على قراءة ابن عامر.

وجاء أبو بكر بن مجاهد على رأس المائة الثالثة، فوضع مكان يعقوب الكسائي، وجعل القراء سبعة وألف في ذلك، فاعتبر المسبع الأول (٢٠).

ولقد قرأ أهل الأندلس القرآن بالقراءات السبع يقول صاحب الحلل السندسية: «... وقراءة القرآن بالسبع، ورواية الحديث عندهم ـ أهل الأندلس ـ رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة» (٢١).

ومما يؤيد ذلك وجود مصحف عثمان بن عفان ﵁ الذي كان متداولا بينهم، وله عندهم منزلة رفيعة وشأن عظيم (٢٢).

وكان مكتوبا على طريقة تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن، مع عدم إعجامها أو شكلها.

أما القراءة المشهورة التي تلقاها

الناس في جميع مدن الأندلس وحواضرها، فهي قراءة نافع المدني، وهو أحد السبعة، يقول صاحب نفح الطيب: «أما القراءات في جميع الأقاليم فقراءة نافع المدني» (٢٣).

وقد تقرر علميا ومنهجيا أن لكل مدرسة علمية منهجها الذي يميزها عن غيرها من المدارس. ومن العناصر (التي قصرت البحث في هذا المقال عليها) المكونة لمنهج هذه المدرسة القرائية ما يلي:

- الثراء التأليفي، ويتمثل في كثرة المصنفات والأصول والأمهات.
- الخصومات العلمية التي نشبت بين أقطاب هذه المدرسة، خصوصا خصومة أبي عمرو الداني مع الإمام أبي عمار المهدوي.
- التأصيل المنهجي لدراسة علم القراءات بتقسيمه إلى أصول وفرش.

١- الثراء التأليفي

إن أشد ما ميز الأندلسيين كثرة احتفائهم واعتنائهم بالكتب والمصنفات، حتى كانت قرطبة: «أكثر بلاد الأندلس كتبا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة؛ يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب» (٢٤) .

وبلغ من رواج الكتب في قرطبة: «أنه إذا مات عالم بإشبيلية، فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها» (٢٥) .

٢-المناظرات العلمية:

من خصائص- منهج الإقراء بالأندلس - نشوب ما اصطلح عليه عند العلماء بالمناظرات/ الخصومات العلمية. هذه الخصومات التي قامت بين أقطاب هذه المدرسة، مما يؤكد قوتها وتصدرها وريادتها لفلك القراءات، وهذا واضح بيّن من خلال المكانة التي حازوها في هذا المصر الإسلامي.

وسأقدم في هذا العنصر نماذج من هذه المناظرات، الأولى بين الحافظ الداني والمهدوي، والثانية بين الحافظ الداني وأبي محمد بن سهل الأندلسي، والثالثة بين الحافظ الداني وأبي الحسن شريح ابن محمد. تدخل الأولى والثانية في إطار من زاحم الحافظ من القراء على المنصب والاختصاص، وتدخل الثالثة في إطار الموافقين للحافظ في الجملة، المخالفين له في بعض مواقفه وآرائه واختياراته.

خصومة الحافظ مع المهدوي (٤٤٠ هـ)

كانت رغبة الإمام أبي عمار المهدوي في الشهرة، سببا في حدوث خصومة علمية وردود بينه وبين الحافظ أبي عمرو الداني، كان البادئ فيها أبوعمار الذي كان يسعى إلى الحظوة عند الأمير مجاهد العامري، فعمل على إعنات خصمه وإفحامه بوضع مجموعة من المسائل وطرحها عليه، وهي عبارة عن معميات وألغاز، كما أنه كان ينكت على مذهب أبي عمرو الداني في تعليل نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها.

فكلف الأمير مجاهد أبا عمرو أن يجيب عن أسئلة المهدوي المحرفة، فأجاب عنها في جزء سماه «الأجوبة المحققة عن الأسولة المحرفة» ثم ألقى عليه الحافظ مسألة واحدة سماها الستينية، ضمنها ستين سؤالا في الهمزة المكسور ما قبلها، فسقط في يد المهدوي (٢٦).

وقد احتفظ لنا الإمام أبو عبدالله الصفار، وابن المجراد السلوي ببيان بوادر هذه الخصومة، قال الشيخ أبو عبدالله الصفار في الزهر اليانع: «وأظن أبا العباس ينكت على الإمام أبي عمرو، وبهذا قال، ولعله لم يقف له على القول الموافق له وهو أنها تحذف تخفيفا، قال: وعلى تقرير إن لم يكن للحافظ غير القول: بأنها حذفت لسكونها في اللفظ وسكون ما قبلها في الأصل، فيجاب عنه: بأن العرب تارة تعتد بالعارض، وتارة لا تعتد به، ألا تراهم قالوا لهم: جاء، فاستغنوا عن همزة الوصل اعتدادا منهم بحركة اللام وهي عارضة؛ إذ هي حركة الهمز، وقالوا أيضا: الأحمر جاء بهمزة الوصل ولم يعتدوا بحركة اللام، فجاء الحافظ رحمه الله بين المذهبين ليبيّن جوازهما، فاعتد تارة بالعارض في الهمزة وهو السكون، ولم يعتد به في الساكن وهو الحركة فتأمله فلا درك على الحافظ بهذا الاعتبار، قال: ومازال المهدوي قبل أن يعرف قدر الحافظ يعترض عليه حتى أنه كلف الأمير مجاهد - نضر الله وجهه - أن يكلف الحافظ الجواب على أسولة حرفها المهدوي، فأجابه عنها في جزء سماه «الأجوبة المحققة عن الأسولة المحرفة، فألقى عليه الحافظ مسألة واحدة سماها بـ «الستيتة» ضمنها ستينا سؤالا في الهمزة المضمومة المكسور ما قبلها، نحو «وبرىء»، فسقط في يد المهدوي، وتمنى أنه لم يسأله، وبقي فيها كيوم ولدته أمه، وعززها الحافظ بـ «رسالة التنبيه على الخطأ والجهل والتمويه»، وكتب بها إلى الموفق أبي الجيش في شأن المهدوي» (٢٧).

ذلك تلخيص أسباب الخصومة ووقائعها كما أجملها الإمام الصفار، ونقل عنه ابن المجراد، وهي أسباب تبدو ومعها الحملة من أبي عمرو وعلى خصمه أعنف طالما أننا لم نتمكن من الإطلاع على أسلحة



الهجوم التي استعملها خصمه، وبين أيدينا إلى اليوم «رسالة التنبيه» المذكورة لأبي عمرو من حصاد هذه الخصومة العلمية العنيفة.

وهكذا يمكن اعتبار خصومة المهدوي مع الداني مما أملاه التزاحم في الفن والاختصاص.

خصومة الحافظ مع أبي محمد بن سهل الأندلسي (ت ٤٠٨ هـ)

إن المعني بهذه الخصومة هذه المرة أبو محمد عبدالله بن سهل بن يوسف الأنصاري المرسي الأندلسي، أحد فحول الرواة عن الأئمة، مقرئ أهل الأندلس في زمنه «قرأ القراءات على أبي عمر الطلمنكي ومكي القيسي وأبي عمرو الداني، وعبد الجبار الطرسوسي بمصر، وخلف بن غصن الطائي، وعبد الباقي بن فارس بمصر، وعبد الرحمن بن الحسن الخزرجي، ومحمد بن سليمان الأبي». قال المحقق: «وهؤلاء شيوخ ما نعلم أحدا جمع بينهم» (٢٨).

ومن الطريف إلى جانب هذا ما جاء في ترجمته من أنه «لازم أبا عمرو الداني ثمانية عشر عاما» (٢٩).

فما سر الخصومة بينهما مع هذه الصحبة الطويلة التي تدل على استحكام الصلة وتوثقها الشديد؟

لعل مفتاح السر في ذلك هذا النبوغ الذي أحرزه أبو محمد بن سهل من خلال قراءته وأخذه على من أخذ عنهم من هؤلاء الكبار مما جمع فيه بين أمهات المدارس المعاصرة في القراءة، مما أعطاه شفوفا خاصا على أهل العصر في نبل المشيخة وعلو السند، وسعة الرواية، ومما يمكن أن يقف به مع أبي عمرو موقف الأنداد.

والظاهر أن أبا محمد كان يضع نصب عينيه – وهو في طريق عودته من رحلته– صورة أبي عمرو شيخه الذي انتهت إليه إمامة هذا الشأن في شرق الأندلس. إن لم نقل في الأندلس كلها في زمنه. ولا سيما بعد موت رجال من أمثال أبي عمر الطلمنكي، وأبي محمد مكي، فأراد أبو محمد أن يزاحم في الساحة، وأن يكون له مقامه اللائق به، فلما أراد أبو عمرو أن يكف من غربه التحمت بينهما الخصومة «وجرت بينه وبين شيخه الداني عند قدومه منافسة ومقاطعة» (٣٠).

والذي يبدو أن مبعث ذلك إحساس ابن سهل بما تأتى له في اختصاصه من رسوخ قدم، فكان كما قال ابن بشكوال: «ضابطا للقراءات وطرقها، عارفا بها، أخذ الناس عنه» (٣١)، لاسيما والدار غير بعيدة والطلاب يتنقلون بين المشايخ ينقلون أقوال هذا القارئ ومذاهبه إلى ذلك، ومنها الموافق والمخالف، فلا جرم أن تنشب بينه وبين شيخه القديم معركة، على الرغم من أن موجباتها لم تكن مذهبية ولا فنية في الظاهر، ولا قائمة على موقف أو اتجاه خاص، وإنما مردها إلى التنافس على امتلاك الجاه والحظوة في منطقة شرق الأندلس، وحرص الشيخ عليها لنفسه دون منافسيه.

ولعل أبا محمد – بحكم شبابه – كان أحرص على إثارة هذه الخصومة من شيخه، ولذلك نراه يستخدم هذا الأسلوب مع عامة مخالفيه، فيقف موقفا صلبا عرّضه في فترة كبيرة من عمره لمصاعب ومتاعب، ولقد وصف ذلك الإمام المحدث أبو علي بن سكرة في قوله فيه: «هو إمام وقته في فنه، لقيته بالمريه... وكان شديدا على أهل البدع، قوالا للحق مهيبا، جرت له في ذلك أخبار كثيرة، وامتحن وغرب، ولفظته البلاد، وغمزه كثير من الناس، فدخل سبته، وأقرأ بها مدة، ثم خرج إلى طنجة، ثم رجع إلى الأندلس فمات برندة» (٣٢).

وهكذا يمكن اعتبار خصومته مع أبي عمرو أملاها التنافس على المنصب والجاه، وجر إليه الإدلاء بالتفوق والمزاحمة في الفن والاختصاص.

خصومة الحافظ مع أبي الحسن شريح الرعيني (ت ٥٣٧ هـ)

ترتبط هذه المعارضة بمقرئ كبير، وشيخ جليل، حامل لواء والده أبي عبدالله بن شريح، إنه أبو الحسن ابن شريح، أحد أساطين المدرسة التوفيقية التي انتظمت عامة المدارس المغربية والمشرقية. والأثر الذي نقصده هنا يمثل المعارضة لأبي عمرو، وهو أثر يتناول خصوصية من خصوصيات الأداء في رواية ورش، ويتعلق الأمر فيها باختلاف المدرستين «الاتباعية» و«القيروانية»، أو المتأثرة ببعض مذاهبها كمدرسة شريح، وذلك في أصل عام لورش في الراء الساكنة إذا أتى بعدها ياء في لفظ «قرية» و«مريم».

مذهب أبي عمرو في الراء الساكنة في «قرية» و«مريم»

يقول أبو عمرو عارضا لمذهبه ومناقشا لمذهب من رقق الراء: «فأما الراء إذا سكنت وأتى بعدها ياء مفتوحة، فلا أعلم خلافا عن ورش ولا عن غيره في نص ولا تلاوة أن الراء في ذلك مفخمة، وذلك في نحو قوله «مريم» و «من قرية» و «من قريتكم» و«من قريتنا» و«من القريتين»، إلا ما حكاه بعض المغاربة عن ورش أنه يرقق الراء في ذلك، واعتل بوقوع الياء بعدها، وزعم آخرون منهم أن ترقيقهما لأجل ذلك إجماع من الأئمة».

قال الحافظ أبو عمرو: «وهذا الذي اعتلوا به غير صحيح، وذلك أن الياء إذا تحركت بالفتح صار حكمها كحكم سائر الحروف المتحركة به، لا توجب إمالة ولا ترقيقا، ولو كان هذا المذهب صحيحا لكانت الياء الساكنة والكسرة أولى به إذا كانتا توجبانه إذا سبقتا، فكان يجب

ترقيق «البحرين» «جرين» و«أغرينا» و«مرفقا» و«مرجعكم» و«ترجعون» وما أشبه ذلك، قال: وفي الإجماع على تفخيم الراء في ذلك دليل على خطأ من رقق الراء في ذلك فاعتل بمكان الياء، وأجيب عن ذلك بأن الحركات مقدرة بعد الحروف، وإذا اعتبر ذلك فيما ذكر وجدت الفتحة في نحو «البحرين» و «جرين» و«أغرينا» حائلة بين الراء والياء وفي نحو «مرفقا» «مرجعكم» و«مرجعكم» و«ترجعون» الحرف حائلا بين الراء والكسرة، وليس كذلك في باب «مـريم»، لأن الراء فيه شديدة الاتصال بالياء» (٣٣).

ذلك مذهب أبي عمرو في هذا الأصل من أصول ورش، وذلك احتجاجه له ورده على مذهب غيره.

مذهب شريح ومن نحا نحوه

والذي يهمنا هنا ما ألفه الإمام أبو الحسن بن شريح، وهو تأليف لم يبلغنا منه إلا اسمه، وهو (كتاب الانتصاف من الحافظ أبي عمرو الداني في رده ترقيق «قرية» و«مريم») (٣٤).

ولقد فاتنا بضياع الكتاب أن نتعرف على ما ساقه مؤلفه من الأدلة في تأييد مذهبه، ونقض مذهب أبي عمرو إلا أننا مع هذا لا يفوتنا أن نتمثل صورة عن هذا النشاط الزاخر الذي كان من آثار ما خلفه أبو عمرو من نظريات ومذاهب واختيارات حتى بعد اختفائه عن الساحة بعقود أو عهود مديدة من السنين، مما يدل على عمق أثره وبعد مداه في المدرسة الأندلسية وقوة التيار الذي خلفه، هذا التيار الذي سيصارع طويلا إلى أن يكتب له الانفراد بالساحة واحتواء باقي التيارات على ما كان لها من قوة ومدد، إلى أن استقل استقلالا كليا بالكراسي العلمية في هذا الفن في المشرق والمغرب على السواء.

وما نرى خصومة شريح ومن سبقه أو تلاه مع أبي عمرو، في هذه المسألة أو نحوها إلا من آثار الإشعاع القوي الذي كان لمذاهب أبي عمرو، والصدى البعيد الذي كان لمدرسته في الأندلس، والذي انطلق منها مع الإمام الشاطبي في الثلث الآخر من المائة السادسة ليفتح بها لهذه المدرسة في ديار المشرق ما لم يفتح مثله ولا قريب منه لمدرسة في هذا العلم، حيث لا تزال آثاره ماثلة في ميدان القراءات وعلومها إلى اليوم.

٣- التأصيل المنهجي لدراسة علم القراءات بتقسيمه إلى أصول وفرش

إن من عناصر إمامة الأندلسيين ومظاهر ريادتهم في علم القراءة، تأصيلهم المنهجي العملي التطبيقي لدراسة علم القراءات بتقسيمه إلى أصول وفرش. وإن كان المشارقة هم من بادر إلى تأسيس هذا المنهج مع الإمام أبي الحسن الدارقطني، يقول المحقق في ترجمته: «... وهو أول من وضع أبواب الأصول قبل الفرش...» (٣٥). ويقول فيه الحافظ الذهبي: «.... وهو من عمل الأبواب قبل فرش الحروف...» (٣٦).

إلا أن هذا التأصيل لم يتعد مستوى التنظير العلمي؛ إذ كانوا يذكرون أحكام القراءات على حسب ورودها في سور القرآن الكريم، كما فعل طاهر بن عبد المنعم بن غلبون في التذكرة وغيره، وهو يعتبر أيضا ممن أسسوا لهذا التقسيم.

ويعد الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني الواضع الحقيقي لهذا المنهج؛ إذ عرض أبواب الأصول كلها، ثم بعد ذلك ذكر فرش الحروف، نقف على ذلك من خلال كتبه الغزيرة، خصوصا التيسير وجامع البيان هذان الكتابان اللذان يعتبران من أهم أصول هذا العلم، فالأول منهما هو أشهر كتب الحافظ في المشرق والمغرب، وقد عني به أئمة الإقراء منذ ظهوره حيث تداولوه بالرواية والحفظ والشرح والنظم والتطرير عليه...

وأما الثاني فهو أوعى مصنف في هذا العلم الشريف (٣٧).

فكل من جاء بعد الحافظ من القراء والمصنفين صار على المنهج الذي أصله كالإمام الشاطبي والمحقق ابن الجزري...

إذن يعتبر الإمام الحافظ أول من فعّل هذا المنهج في علم القراءات في المغرب، فقد رتب لنسق خاص ما يزال عليه العمل إلى اليوم في القراءة والإقراء والأداء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب للمقري التلمساني: ٢٣٢/٦.
(٢) الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي: ٤٩/١.
(٣) نفسه: ٥٠/١.
(٤) نفح الطيب: ٧١٦/٢.
(٥) طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمد ابن الحسن الزبيدي ص: ٢٥٦.
(٦) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ص: ١٩٣.
(٧) نفح الطيب: ١١٣/٢.
(٨) نفسه:٢١٤/٢.
(٩) طبقات المفسرين لجلال الدين السيوطي ص: ٣٠-٣١.
(١٠) غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين محمد بن محمد بن الجزري: ٣٠٩/٢.
(١١) نفسه: ٩٢/١.
(١٢) نفسه: ٥٠٣/١.
(١٣) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي: ٢١٧/١-٢١٨.
(١٤) معجم الأدباء: ١٣٢/٦.
(١٥) مقدمة ابن خلدون ص: ٤٠٧-٤٠٨.
(١٦) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص: ٢٥٣-٢٥٤.
(١٧) النشر: ٣٤/١ تاريخ القراءات في المشرق والمغرب لمحمد المختار ولد أباه ص: ٢٤٩. القراء والقراءات بالمغرب لسعيد أعراب ص: ١٤ مجلة دار الحديث الحسنية العدد ١٢-١٩٩٥.
(١٨) النشر:٣٤/١.
(١٩) نفسه: ٣٤/١ القراء والقراءات بالمغرب ص: ١٤ تاريخ القراءات ص: ٢٥٠.
(٢٠) القراء والقراءات بالمغرب ص: ١٣.
(٢١) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية لشكيب أرسلان: ١٧٥/١.
(٢٢) نفح الطيب: ١٣٥/١.
(٢٣) نفسه: ٢٠٦/١.
(٢٤) نفح الطيب: ١٠/٢.
(٢٥) نفسه: ١١/٢.
(٢٦) رسالة التنبيه على الخطأ والجهل والتمويه ص: ٣٩٥.
(٢٧) الزهر اليانع في قراءة نافع (مخطوط)..
(٢٨) معرفة القراء ص: ٢٤٤، غاية النهاية: ٤٢٢/١.
(٢٩) معرفة القراء ص: ٢٤٤، غاية النهاية: ٤٢٢/١.
(٣٠) معرفة القراء ص: ٢٤٤.
(٣١) الصلة ص: ٢٣٩.
(٣٢) غاية النهاية: ٤٢٢/١.
(٣٣) اللآلئ الفريدة في شرح القصيدة لمحمد بن الحسن الفاسي في باب الراءات (مخطوط).
(٣٤) فهرسة ابن خير ص: ٣٧.
(٣٥) غاية النهاية: ٥٥٩/١.
(٣٦) معرفة القراء، ص١٩٧.
(٣٧) النشر: ٥٣/١.

وظائف التأليف في الرقائق

أ.د.خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

مدخل: في سبيل استعادة الإنسان يمثل العصر الحديث أخطر مرحلة في التاريخ الإنساني؛ تهددت فيه روحه، وتعرض فيه قلبه لمخاطر مرعبة، بسبب هيمنة المادة، وسطوتها. وقد كان ذلك حافزا لظهور مدارس فكرية، ومذاهب أدبية تحاول استعادة الإنسان في مواجهة عصر سعى جاهدا أن يستعبد الإنسان، وأن يخضعه باسم الآلة.

لقد شاهدت عناوين كثيرة باسم: كي لا نمضي بعيدا، وباسم: استنقاذ الروح، وباسم: العودة إلى المنابع، وباسم: الجذور، وبأسماء أخرى كثيرة.

ولم ينتبه كثيرون في هذا السعي المحموم أنه كان يصب في باب الانتصار للتصور الإسلامي الذي يعلي من قيمة طهارة القلب، ونقاء الروح. لقد ورثنا عن النبي ﷺ أن صلاح المضغة المسماة بالقلب إيذان بصلاح الإنسان وقبوله في الطاهرين، الفائزين، يقول ﷺ: (في الحديث المتفق عليه): «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله».

ومن أجل ذلك، وبعد تاريخ طويل من تدويخ الأيدولوجيات الغربية للنفس المسلمة بدءا من نحو قرنين ونصف القرن من الزمان - ولا يزال مستمرا - ظهرت اتجاهات كثيرة حاولت أن تتجاوز هذا العصر إلى عصور فهمت طبيعة الإنسان الحقيقية، وأرادت استعادته واستنقاذه من حالة الغياب والاغتراب.

الرقائق: مفهومها وأدبياتها

للرقائق مفهوم قديم استعمل بتسميات متعددة، وهو لفظ دال على ما به يقظة القلب ولينه ورحمته. وهو يرادف ألفاظا مثل: الزهد، وإصلاح القلب وإحياؤه. وقد غلب استعمال مصطلح الرقائق وصار علما على يقظة القلب ولينه وذهاب قسوته.

وقد كان التأليف فيه قديما في حضارة الأمة المسلمة، لكنه كثر في العصر الحديث، وتنوعت أشكاله ومنهجياته واتجاهاته ويمثله من هذه المؤلفات ما يلي:

- إبراهيم عمران: السكران في رقائق القرآن.
- أحمد فريد في كتابه: البحر الرائق في الزهد والرقائق.
- سعيد حوى في: المستخلص في تزكية الأنفس.
- صلاح الدين سلطان في كتابه: الوسائل العملية الخمسة لإصلاح قسوة القلوب.
- عبدالعزيز سلمان في كتابه: موارد الظمآن في دروس الزمان.
- فتحي يكن في كتابه: قوارب النجاة في حياة الدعاة.
- محمد الغزالي في كتابه: جدد حياتك.
- محمد الغزالي في كتابه: الجانب العاطفي في الإسلام.
- محمد الغزالي في كتابه: فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء.

وهذه نماذج غير حصرية بطبيعة الحال، لكنها دالة على غيرها باعتبار موضعها من التأليف المعاصر، شهرة وريادة. وفحصها منبئ عن مجموعة من العلامات المهمة على طريق قراءة هذا التراث المعاصر:

أولا- اتفاق التوجهات المختلفة على أهمية الرقائق في التكوين والبناء الإنساني للمسلم المعاصر، فقد أظهرت هذه القائمة المختارة أن التنوع في الانتماءات الفكرية مجتمع على قيمة هذا الباب العلمي، وهو ما تعكسه قراءة مذاهب المؤلفين.

ثانيا- الامتداد المكاني، بمعنى أن التأليف في الرقائق امتد فغطى مساحات شاسعة للعالم الإسلامي من المشرق والمغرب، والتوسع في استكمال القائمة يكشف عن هذا الذي نقرره؛ ذلك أن التأليف في الرقائق تجاوز الجغرافية العربية لتظهر أمثلة له في تركيا (سعيد النورسي) وفي شبه الجزيرة الهندية وإفريقيا وأوروبا.

ثالثا- الامتداد الزمني المعاصر؛ بمعنى أن التأليف في الرقائق تواصل وامتد زمنيا منذ فترة مبكرة في العصر الحديث، صحيح أنه زاد وتراكم في القرن العشرين وما بعده لاعتبارات كثيرة، لكنه لم يغب منذ ظهر في التاريخ الإسلامي القديم.

رابعا- غلبة الأبعاد الحركية على مؤلفي كتب الرقائق، وهو ما يؤكد تنامي العناية بالتأليف في الرقائق

لغايات تربوية وتكوينية وإصلاحية معا.

خامسا- التنوع المنهجي والتأليفي؛ ذلك أن كتب الرقائق في العصر الحديث اتخذت أشكالا منهجية، واتجاهات تأليفية متعددة يمكن إجمالها فيما يلي:

أ- اتجاه تلخيصي عمد إلى بعض من كتب التراث، فلخصها، وانتقى أوضح نصوصها: (أحمد فريد في البحر الرائق).

ب- اتجاه عملي عمد إلى تكثيف الوسائل وتركيزها وتمييز بعضها من بعض، والإرشاد إلى كيفية تحققها في النفس، وطرق تحصيلها: (صلاح الدين سلطان في: الوسائل الخمسة لإصلاح قسوة القلوب).

ج- اتجاه أسلمة المنجز الغربي، وأقصد به ما ظهر استجابة ومواجهة لعدد من الكتابات التي ترجمت إلى العربية تريد حمل الإنسان على استعادة حيويته وتجديد حياته، وهو المنهج الظاهر الذي حكم الشيخ الغزالي في تأليف كتابه: جدد حياتك، يقول (ص ١٢ من كتابه، القاهرة سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م): «لقد حرصت في كتابي (هذا) على إحياء الحكمة العربية الأولى، وإمتاع القراء بطرف منها في سياق المعارف الدينية والعلمية التي يجدونها. وإذا كان «دييل كارنيجي» يحيا بقرائه في جو أميركي بحت فمن الواجب أن أعيش مع قرائي في جو عربي خالص».

د- اتجاه تصحيحي، ويقصد به إعادة قراءة الموروث الإسلامي، وتنظيمه وتصحيح الأوهام التي علقت به في مسيرته الطويلة نحو العصر الحديث، ويمثله كتاب الجانب العاطفي في الإسلام.

هـ- اتجاه تأسيسي، ويعمد أصحابه إلى حياة النبي ﷺ بما أنه أسوة المسلمين المركزية، فيلتقطون ما به قيام منهج في إحياء القلوب، ومحاصرة قسوته وإعادته إلى اليقظة والرفق واللين والرحمة، ويمثله كتاب الغزالي: فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، وكتاب سعيد حوى: السيرة بلُغة الحب والشعر.

في خطاب المصادر

لم يكن التأليف في الرقائق في العصر الحديث منقطع الصلة بتاريخ العلم في الأمة، ولم يكن وليد هذا العصر الذي جثمت فيه على صدر النفس المسلمة صور من ركام مادي وشهواني كثيف جاءها من طبيعة هذا العصر، وجاءها من هجوم فاجر من قوى شر متعددة. لكنه استمرار لتراث عريق ممتد في رحم تاريخ المسلمين، وهو الأمر الذي يؤكده ويدعمه فحص المصادر المؤسسة للتأليف المعاصر في الرقائق، وتتلخص هذه المصادر المؤسسة فيما يلي:

أولا- الكتاب العزيز

يمثل الذكر الحكيم أهم مصدر يستهدف صلاح قلب المسلم ورعى لينه ورقته وتنزل الرحمة فيه، وبيّن وسائل تقواه، وأقام المسارات على ذهاب قسوته، وهو المصدر الذي تنبه إليه الكتّاب المعاصرون بما أثبتوه من آياته في مؤلفاتهم المختلفة في هذا الميدان.

إن واحدا من محددات زراعة اللين في القلوب تعيينا هو التمسك بالأمل ومحاربة اليأس والقنوط بالتشبث برحمة الله تعالى، وفي هذا السياق نرى الشيخ محمد الغزالي مستثمرا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف:٨٧)، يقول: «لقد تحمّل (يقصد يعقوب عليه السلام) المأساة الأخيرة بالعاطفة نفسها التي تحمّل بها الأولى، وظل على تشبثه برحمة الله، يرمق الغد، وفي فؤاده شعاع من رجاء لم تطفئه الأحداث، وقال لأبنائه:﴿وَلَا تَأْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف:٨٧).

لقد فطن التأليف المعاصر في الرقائق إلى أن المصدر المركزي التأسيسي الصانع لرقة القلوب ولينها هو الذكر



الحكيم في مستويات متعددة:

أ-في قصص الأنبياء الكرام وهم يواجهون قسوة أعباء البلاغ، وقسوة المعاندين من الكافرين والمنافقين بقلوب تفيض رقة ورحمة ولينا وإنسانية متدفقة نبيلة كاملة.

ب- في الحكم الربانية والقوانين الكلية التي اتصل ظهورها أصالة أو تعليلا أو تذليلا لمطالب هداية الإنسان وتوجيهه وإرشاده.

ج- في التعقيب على أسباب نجاح نفر من الناس رقت قلوبهم ولانت وتراحمت، فكانت جميعها أسبابا لنجاتهم.

د- في التعقيب على أسباب هلاك نفر آخر من الناس قست قلوبهم واستحجرت وجمدت فكانت جميعها سببا لهلاكهم.

هـ- في امتداح أصحاب القلوب الرقيقة الرحيمة اللينة.

و- في ذم أصحاب القلوب القاسية المتحجرة.

وقد تنبه الوعي المعاصر إلى أهمية استقلال رقائق القرآن الكريم في البناء التأسيسي للرقائق في العصر الحديث وهو ما نجده في كتاب: رقائق القرآن، لإبراهيم عمران السكران، الذي يقول في مقدمته (ص:٧): «وكون القرآن هو المعنى لتزكية النفوس، وترقيق القلوب، وتصفية الأرواح وانتشالها من الثقلة الأرضية ليس استنباطا أو وجهة نظر، بل هي حقيقة دل عليها القرآن ذاته كما قال الله تعالى:﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾(ق:٤٥).

ثانيا- السنة النبوية الشريفة

لقد فزع أصحاب مؤلفات الرقائق إلى السنة المطهرة بما أنها كنز

يتدفق بنصوص ومواقف تنفجر بدلالات الرحمة ورقة القلب، وهو أمر طبيعي في ظل الإيمان بأن النبي ﷺ الرحمة المهداة للعاملين، أي الرحمة العامة للخلق جميعا، بدءا باستدعاء الأحاديث التي تعلم ما به صلاح القلوب، يقول محمد أحمد الراشد (ص ٣٥): إن تقوى القلوب في الحقيقة هي التي تقود إلى تقوى الجوارح، كما قال النبي ﷺ: «التقوى هاهنا: وأشار إلى صدره»، إن الفزع إلى الحديث النبوي في مثل هذه السياقات متنوع الوظائف؛ فهو:

أ- يؤسس المعرفة بالقضية المطروحة.

ب- ويطمئن القارئ إلى أن المسألة ليست تهويما يهدف إلى تحقيق رقة القلب.

ج- ويشيع جوا من الإيمانية الآسرة باستحضار الحديث النبوي الكريم الذي يعين على الطاعة والتأسي والتزام حقيقة ما يحمله.

د- ويُذهب غرابة الدعوة إن استشعر المعاصرون غربة ما يدعوهم إليه الدعاة المعاصرون.

وأشكال الأحاديث التي يلجأ إليها المؤلفون المعاصرون خدمة لقضية الرقائق متنوعة يكثر منها:

أ- أحاديث التعليم وتقرير الحقائق على ما رأينا من حديث: «التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره الشريف ﷺ.

ب- أحاديث الترغيب، ولها تراث ممتد في تاريخ علم الحديث عند المسلمين، تبعث على استفزاز غريزة التعلق بالجميل والممدوح، ليتحول الإنسان إلى إنسانيته رقيق القلب، رحيما، لينا.

ج- أحاديث الترهيب والتخويف، ولها تراث ممتد في تاريخ العلم عن المسلمين تبعث على رد النفس عن القبيح بسبب ما جبلت عليه من الخوف من المؤلم، فترتد إلى مقامات الرحمة واللين والرقة، بسبب من الخوف والرهبة.

د- أحاديث السلوك والوسائل الدالة على تحصيل رقة القلوب ولينها من مثل قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها وهو مما استشهد به فتحي يكن في كتابه: بيان بعض وسائل الدعاة في تحقيق النجاة (ص ٩٩): إن الكرب العظيم يدفعه عن المؤمن صدق إيمانه، وصدق التزامه بدينه، وحسن ظنه بالله، وتقربه إليه بالصوم... وهذا ما جعل النبي ﷺ يوصي عائشة رضي الله عنها فيقول: «أديمي يا عائشة قرع باب الجنة بالجوع».

ثالثا- حكمة الكتب القديمة

لقد كانت الحضارة الإسلامية صاحبة فضل غير منكور على التراث الثقافي للعالم، فحفظت ما أمكنها حفظه، ولعل قراءة كتاب المحدث العظيم أبي عبيد القاسم ابن سلام الهروي (ت٢٤٤هـ) في الخطب والمواعظ الذي جمع فيه حكمة ما تبقى من الكتب القديمة دليل ظاهر على ما نقرره.

وقد استعمل بعض المعاصرين ممن ألفوا في الرقائق بعضا من حكم الكتب القديمة المروية عن بعض أنبياء الله تعالى، وبعض الزهاد والعباد.

وقد استثمر المعاصرون من المؤلفين في الرقائق عددا كبيرا من المؤلفات التراثية في المجال نفسه، وقد كانت الاتجاهات الغالبة على استثمارهم هي:

أ- كتب الزهد التراثية، ويأتي في مقدمتها كتاب الزهد لعبدالله بن المبارك، وكتاب الزهد لأحمد بن حنبل.

ب-كتب الوعظ أو المواعظ، وجاءت كتابات ابن الجوزي وابن قيم الجوزية في الصدارة، كصيد الخاطر، والفوائد.

ج- كتب الطبقات ولا سيما طبقات المحدثين، والأولياء من مثل: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، وسير أعلام النبلاء للذهبي.

د- كتب المختارات والمجالس، من مثل البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، وبهجة المجالس لابن عبدالبر، وربيع الأبرار للزمخشري، ونثر الدر للوزير الآبي.

مؤلفات الرقائق في العصر الحديث:

مقال في خطاب الوظائف

إن العناية بالتأليف في الرقائق في العصر الحديث انبنت على وعي ظاهر بقيمتها وأهميتها ووظائفها في الحياة المعاصرة، وهو الأمر الذي دللنا عليه في فترة سابقة، وفيما يلي محاولة تسعى إلى رصد ما توخته هذه المؤلفات من وظائف طمحت إلى تحقيقها:

أولا- الوظيفة الإيمانية

وهي أعلى الوظائف المطموح إليها، ذلك أن غلبة الوجه المادي للحياة حمل كثيرا من المفكرين والدعاة المعاصرين إلى العناية بما من شأنه إصلاح القلوب، وبعثها وطلب يقظتها ورقتها ولينها، وهو الأمر الذي يعيدها إلى مقام الإيمان؛ ذلك أن لله تعالى مرادا في أن تخشع القلوب له وتنيب إليه، وتعمر بالإيمان بعد أن تطهر وتتقى.

ثانيا- الوظيفة التربوية

لقد كان من غايات الإسلام ومقاصده المعلنة تزكية النفوس وترقيها في مدراج الرقي والكمال، وتعاليها عن البهيمية والشهوانية، وهو الأمر الذي سعت إليه هذه المؤلفات مستهدفة تربية الإنسان المسلم المعاصر على

قيم التراحم والسلوك المهذب الذي يفيض من القلوب الخاشعة العامرة على بقية الجوارح؛ فتثمر تعاونا وتقديرا للآخرين، وتتواصل تواصلا ناجحا وإنسانيا. يقول محمد أحمد الراشد (ص٦): إن تزكية النفس واحدة من مطامح العناية بالرقائق.

ثالثا- الوظيفة النفسية

لقد امتدح القرآن الكريم النفس المطمئنة، وهيأ الأسباب لكي تبلغ إلى الأمان، فكانت وجوه الأمان النفسي واحدة من غايات الإسلام. وكان ترقيق القلوب وصلاحها وفيضان الرحمة منها ظاهر العائد في تحقيق الأمان للإنسانية.

إن الرقائق -وهي تواجه أزمات هذا العصر المادي المتوتر الذي انشغل بالمادة انشغالا يوشك أن يغيب الإنسانية- تطمح عن طريق معالجة هذه الأزمات الطاحنة إلى أن تورث الإنسانية نوعا من الأمان تستعيد به عافيتها وسواءها النفسي.

رابعا- الوظيفة الاجتماعية (التوازن)

إن غلبة جانب على آخر في حياة الإنسان وحركته يظلم الوجود الاجتماعي الإنساني، ذلك أن الله سبحانه خلق الإنسان من مادة وروح، وهيأ له أسباب التوازن، ومن هنا فإن القيام على ترقيق القلب وتحقيق صفائه صانع للتوازن في الوظيفة الاجتماعية. يقول محمد أحمد الراشد (ص ٦): إن الأوقاف التي وقفها المسلمون على امتداد التاريخ القريب لأجزاء الحركة ابتعدت بهم عن الموازنة في أساليب التكوين والتربية وطغيانها على جوانب أخرى، فترى في منطقة غلبة الجانب التعبدي وتزكية النفس وفي أخرى ترفا فكريا وفي ثالثة ولعا بالمشاركة في أحداث السياسة اليومية، ومن هنا فإن إعادة الاعتبار لنقاء القلب ولينه وصفائه وترقيقه حاسم في خلق التوازن في حركة الإنسان الاجتماعية.

وتتجلى وظائف الرقائق من الوجهة الاجتماعية في أمور متعددة يمكن الإلماع إلى أشهرها في ما يلي:

أ- ضبط حركة الإنسان مجتمعيا، ليخلق توازنا بين احتياجات البدن واحتياجات الروح.

ب- تصحيح حركة العاملين للإسلام، وردهم إلى مقامات التناسق والموازنة من دون طغيان جانب على آخر.

ج- منح فرص للعلاقات الإنسانية الحميمية لتقوى، وتنشط، وتستعيد عافيتها بعد أن استعلنت الشكوى بتحجر المشاعر بين الآباء والأبناء، وبين الأزواج والزوجات، وبين أصحاب الأرحام. وهو ما يعني أن كتب الرقائق المعاصرة بإمكانها أن تساعد في تحقيق السلام الاجتماعي، عن طريق تحقيق التراحم بين الخلق.

خامسا- الوظيفة الحضارية

إن تحقيق الاطمئنان للإنسان من جانب التوازن من جانب آخر من شأنه الإسهام في تحقيق مجموعة من العلامات التي تصب في التقدم الحضاري للأمة، وهو ما ينعكس على تجديد الأعمال وإتقانها، والتطلع نحو عمران الحياة.

إن امتلاء القلب بالإيمان والخشية والخشوع والأمان له تأثيره البالغ على تجدد الأعمال وإنجازها وتنويع ما ينفع الوجود منها.

لقد أسهمت ثقافة القلوب الرقيقة منجزات حضارية بالغة الروعة في تاريخ الحضارة الإسلامية تمثلت في تجليات مؤسسة الوقف الإسلامي في مثل:

أ- الأوقاف التي وقفها المسلمون على امتداد التاريخ للحيوانات الضالة.

ب- الأوقاف التي وقفها المسلمون على امتداد التاريخ للإطعام والسقيا.

ج- الأوقاف التي وقفها المسلمون على امتداد التاريخ للمرضى المختلفين.

وقد كانت هذه الأنواع تعيينا، دافعها الأول هو الرحمة واللين والرقة التي تفيض من قلوب الواقفين الذين امتلئوا بمشاعر الرحمة للخلق جميعا.

مقاصد التأليف

إن فحص كتب الرقائق في العصر الحديث بتنوعها المنهجي وتوزعها المكاني والزماني تعلن عن مجموعة من المقاصد الشرعية، ومن العجيب أن نلحظ عددا من المقاصد التي تنتمي إلى قائمة الضروريات، وفيما يلي رصد إجمالي لعدد من هذه المقاصد المستعلنة:

أولا- خدمة مقصد تزكية النفس وتطهير القلب

وهذا المقصد هو أظهر المقاصد استعلانا من عناوين هذه الكتب ومقدماتها، والشواهد من الآيات والأحاديث النبوية التي تمتلئ بها.

ونظر الإسلام إلى القلب بما هو ملاك توجيه الجوارح والموجه لعملها يجعل من تزكية النفس وتطهير القلب مقصدا ضروريا من المقاصد الشرعية التي تسعى إلى تحقيقها هذه الكتب.

ثانيا- تحقيق اطمئنان النفس

إن حفظ النفس بما هو كلية من كليات الشريعة المتفق عليها بالاستقراء يدور في فلكها حفظها مطمئنة غير موزعة ولا مضطربة ولا قلقة، تتفرغ لتحقيق ما خلقها الله تعالى من أجله في هذا الوجود، من توحيده وسعيه في الأرض بالإعمار.

ويدور في فلك هذا المقصد مقاصد أخرى متولدة عنه من مثل:

أ- تحقيق السواء النفسي.

ب- تحقيق التوازن بين مطالب البدن والروح.

ج- تحقيق نوع من جودة الحياة بالتخفيف من المشكلات النفسية.

ثالثا- تحقيق مقصد السلام العالمي

إن مما ظهر في الحديث عن المصادر المعرفية لترقيق القلب أنها واردة من مصادر إسلامية ومسيحية ويهودية، وهو ما يمكن أن يخلق نوعا من قبول المشترك من هذه المصادر مما يمكن أن يخلق حالة من القبول بين الشعوب الإنسانية المختلفة، بما يسهم في تحقيق الأمن والسلم العالمية بين البشر جميعا، ويقلل من النزعات والخصومات والصراعات الدولية.

القَوْلُ المأْثُورُ فِي إِحياءِ الصَّوابِ المهْجُورِ (٢٥)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب



في خضم موجات ثورات التطلعات التي يشهدها العالم المعاصر المعولم، يحق لكاتب هذه الحلقات اللغوية أن يتطلع إلى مستقبل زاهر يهيئ للفصحى أسباب نمائها، ويوفر لها الأجواء العلمية والمعرفية التي تعدها بكثير من الانتصارات والفتوحات العلمية التي تظهرها نضرة مكيفة باسطة سلطانها على كافة مناحي الحياة، قد نضد معجمها وامتلأ باصطلاحات التقنيات الرقمية، لا يتصعدها التعبير عن أدق جزئياتها، مؤكدة للعالمين أكتعين أن المحن التي تعاقبت عليها من لدن خصوم الداخل وأعداء الخارج قد انسلت منها كما تنسل الأفعى من خرشائها، لم يمسسها سوء، بإذن ربها؛ بل إن كاتب هذه السطور لا يرتاب في العزة القعساء التي جعلها القرآن الكريم تاجا محفوظا لها من فوق سبع سموات، فكما خرجت مظفرة من دسائس الأعداء اللد في أثناء احتلال الأوطان العربية، فإنها قادرة على الانفكاك من المكر السيئ الذي يدبره لها الخصوم من أبناء جلدتها، كما خرج إبراهيم الخليل من نار «نمرود». فهل عزم الأمر أو مازال الشوط بطينا ليتخلى هؤلاء الخصوم عن أضغانهم وعن لحن أقوالهم لإدراك هذه البغية؟

سؤال جوابه البليغ ينجلي في إنعام النظر في ما تقذف به وسائل الإعلام العربية المرئية والمسموعة والمكتوبة -ولاسيما التي تعنى بالرياضة والغناء- من كلام بدأت تتضاءل فيه الفصحى وتتصاغر وتتكمش وتنزوي حتى بدت كلة وهنة، يحق نعتها في أجلى توصيف بأنها مجرد قناطير مقنطرة من الزؤان الذي تتخلله أكياس معدودة من الحنطة التي تنفع الناس في أرجاء الوطن العربي. وآية ذلك أن نبتة العاميات والدوارج وأمشاج اللغات الأجنبية بدأ عودها يشتد في ما يتفوه به كثير من رجال الإعلام، حيث تعرضت الفصحى -ومازالت تتعرض- لكل أشكال الإخلال بالقواعد والقوانين المتعارف عليها؛ فاتحة الباب للخطأ سبهللا؛ سواء بالنسبة إلى ما يبث من برامج وأخبار، أو بالنسبة إلى الشخصيات المضيفة من رجال ونساء الغناء والرياضة المتغنجين

في كلامهم، الذين هربت عنهم الفصاحة، فاستبدلوا بها الأشكال القزعية التي تنبت على رؤوسهم كأنها حماضة الديك. وبذلك تصبح تلك الوسائل التي لها من طرق الجذب والتأثير ما لا يتوفر في غيرها، أدوات لتقوية جند الغنج واللثغ واللحن وخلط الفصحى بالعامية والألفاظ الأجنبية، من دون إدراك حاجة من هذا الشوب الكلامي الذي يظهر حقائق أقوالهم التي تشفع السم بالعسل.

ولعل الذي يدعو المتتبع البصير بمساوئ هذه اللغة الأمشاج التي تنبجس من صنابير وسائل إعلامنا الرياضية والغنائية، هو الخشية على أبنائنا الذين تظل أعينهم مشدودة إلى أزيائهم وتصرفاتهم وما يتفوهون به من كلام مخسول مرذول، فيتحول ما يصنع هؤلاء وما يقولون، نموذجا يظهر له أبناؤنا الانشراح والحبور والانبهار، كما يتوضح ذلك في أفواههم التي يفغرونها، وفي علامات الرضا التي ترتسم على محياهم؛ لإظهار استعدادهم الكامل لشرب كلماتهم المتغنجة التي يمتحونها من أحواضهم اللغوية الضحلة، فتنطبع صور هذا التلقي في أذهانهم ومخيلاتهم، حتى إذا دعوا إلى الحديث في موضوع من الموضوعات؛ سالت ألسنتهم وأقلامهم بما عقلوه من كلام غث فشا فيه اللحن فشو الوباء الفتاك، لا يبرحونه إلا إذا أضافوا إليه بلوى أشد وأنكى، جراء احتطابهم الكلمات العامية التي يمزجونها ببعض كلمات الفصحى يتدون بها كلامهم، تماما كما يصنع أولئك المحسوبون على النجومية المفتراة. أما إذا أضفنا إلى هذا الشوب جيوش الكلم الأجنبي المحرف عن مواضعه، فإن الخطب يصبح أكثر إيلاما وأشد وبالا على الفصحى التي يؤخذ بخناقها وتضيق عليها منافسها، فلا يبقى سوى تشييعها إلى مثواها الأخير، لأن الأمة التي لا تتوحد حول لغتها الرسمية، التي تتلو بها القرآن الكريم، وتقضي بها حاجاتها المادية والوجدانية، تضيع منها بوصلة القيادة، وتفسد معاملاتها، وينكمش فكرها، وتتوزع روحها إلى أرواح متنافرة غير متآلفة، لا يمكن أن تسهم في النهوض بمجتمعاتها، بله شرك النفاق اللغوي الذي يوقعها فيه أولئك الأغتام، كما سبق للرسول ﷺ أن حذر من ذلك في قوله: «من يحسن أن يتكلم العربية، فلا يتكلم العجمية فإنه يورث النفاق».

وعلى الرغم من أن الوسائل الآنفة قد ذمرت شياطين الغناء والرياضة لتستبدل بالصحة سوسة الفساد اللغوي، فإن المشهد الإعلامي الراهن لا يخلو من بعض الإشعاعات الساطعة التي تمثل نجوم الهداية في سموات الإعلام العربي المسودة مثل حلك الغراب، ولاسيما بعض المجلات الرصينة، وبعض الفضائيات التي تضيف علماء حذاقيين مبرزين وأدباء بلغاء، وشعراء مفلقين ومفنين لوذعيين يمتحون من معين الفصاحة الذي لا ينضب. لكن العبرة بالكثرة الكاثرة التي مرغت ألفاظها في أوحال اللحن، التي أكتفي منها بقمش هذه العبارات الناكبة عن المراد الذي إليه يقصدون، مثل قولهم: «قدف اللاعب الكرة» وقولهم: «كرة ضائعة» أو قولهم: «الوقت بدل الضائع» وغيرها من العبارات اللاحنة التي لا تراعي الدقة في التعبير عن المراد، وآية ذلك أن القدف بالدال المهملة هو غرف الماء، أما القذف بالذال المعجمة فهو الرمي حقيقة أو مجازا، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ ...﴾ (طه:٣٨-٣٩)، وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء:١٩). أما القذف بالرجل فهو الركل. قال الثعالبي في ضروب الضرب بالأعضاء: «الضرب بالراحة على مقدم الرأس صقع، وعلى القفا صفع، وعلى الوجه صك، وبه نطق القرآن، وعلى الخد ببسط الكف لطم، وقبض الكف لكم، وبكلتا اليدين لدم، وعلى الذقن والحنك وهز ولهز، وعلى الصدر والجنب بالكف وكز ولكز، وعلى الجنب بالإصبع وخز، وعلى الصدر والبطن بالركبة زبن، وبالرجل ركل ورفس، وعلى العجز بالكف نخس، وعلى الضرع كسع، وعلى الاست بظهر القدم ضفن» (١) أما عبارة «ضائعة» فإن الضياع هو الفقد والإهمال. وإذا غزونا التعبير عن عدم إصابة الهدف فالصحيح الفصيح قول: كرة صائفة أو ضائفة أو طائشة. قال الخطيب الإسكافي عن الرمي بالسهام: «... وصائف: عادل عن الهدف، وطالع: يتجاوزه، وقاصر: لا يبلغه» (٢)، وقال الثعالبي في تفصيل هيئات السهم إذا رمي به: «... فإذا عدل عن الهدف يمينا وشمالا فهو ضائف وصائف، وكذلك العاضه والعادل الذي يعدل عن الهدف، فإذا جاوز الهدف فهو طائش وعائر وزاهق...» (٣) يتضح من هذه الاستشهادات أن اللغة العربية ليس بها حفف ولا ضفف ولا خصاصة في التعبير الصحيح عن كيفيات رمي الكرة على هذه الشاكلة: «ركل اللاعب الكرة» إذا ضربها برجله، و«كرة صائفة ضائفة» إذا عدلت عن الهدف يمينا أو شمالا، و«كرة طائشة» إذا جاوزت الهدف من الأعلى. أما عبارة: «الوقت بدل الضائع» التي تفتقد الحس اللغوي السليم فإن الفصيح هو أن نستبدل بها عبارة: «الوقت المستدرك» هذا مبلغي من العلم ببعض التصحيحات في المجال الرياضي، انتضيتها من أماكنها التي انزوت فيها بعيدة عن أعين الكسالى. مؤكدا أن غايتي لا ترمي إلى التخطئة، ولكن قصارى ما أرجوه أن أصحح النظرة إلى الحياة، من خلال تصحيح ما تقوله الكلمات، لتحقيق المراد من الاتصال والتواصل الإنساني.

الهوامش

١ – فقه اللغة وأسرار العربية. أبومنصور عبدالملك ابن محمد بن إسماعيل الثعالبي. شرح وتقديم. د. ياسين الأيوبي. ص٢٣٠. ط ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.

٢ – مبادئ اللغة مع شرح أبياته. أبوعبدالله محمد ابن عبدالله الخطيب الإسكافي. دراسة وتحقيق د. عبدالمجيد دياب. ص ١٧٤. دار الفضيلة.

٣ – فقه اللغة وأسرار العربية. ص ٢٣٢و٢٣٣.



من أوابد عرب الجاهلية وأكاذيبهم

محيي الدين عواد الظاهر
كاتب سوري

للعرب أوابد وعوائد كانوا يرونها فضلا، وقد دل على بعضها القرآن العظيم وكذّب الله دعاواهم فيها، فمن قوله عزوجل: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ (المائدة:١٠٣).

وقال أهل اللغة: البحيرة ناقة كانت إذا أنتجت خمسة أبطن وكان الأخير ذكرا بحروا أذنها، أي شقوها طولا، وامتنعوا عن ذكاتها، ولا تمنع من ماء ولا مرعى. والسائبة ناقة تسيب لنذر ونحوه. وقد قيل هي أم البحيرة، كانت الناقة إذا ولدت عشرة أبطن كلها إناث سيبت، فلم تركب، ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو الضيف حتى تموت. وقال بعض أهل اللغة: كان ينزع من ظهرها فقارة أو عظما، فتعرف بذلك، فكانت لا تحلأ عن ماء ولا كلأ، ولا تركب. وأغير على رجل من العرب فلم يجد دابة يركبها، فركب سائبة. فقيل له: أتركب حراما؟ فقال: «يركب الحرام من لا حلال له». فذهب قوله مثلا. وقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» في حديث للنبي ﷺ قال: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، وهو أول من سيب السوائب وبحر البحيرة».

أما الوصيلة: ففي الغنم كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم، وإن ولدت ذكرا وأنثى معا قالوا: «وصلت أخاها»، فلا يذبح الذكر لآلهتهم. وأما الحام، فالذكر من الإبل كان العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمي ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

ومن أوابدهم الأزلام: وهي سهام لهم مكتوب على بعضها «أمرني ربي»، وعلى بعضها «نهاني ربي»، فإذا أراد الرجل سفرا، أو أمرا يهتم به ضرب بتلك القداح، فإذا خرج الأمر مضى لحاجته، وإذا خرج النهي لم يمض.

الرتم: شجر معروف كان العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه، فيعقد منها غصنا، فإذا عاد من السفر بدأ بالشجرة ونظر إلى الغصن، فإن كان على حاله فإن زوجته لم تخنه، وإذا وجده قد انحل فهذا يعني بالنسبة إليه أن زوجته قد خانته في غيابه.

البلية: ناقة كان العرب إذا مات أحدهم عقلوا ناقة عند قبره وشدوا عينيها حتى تموت، حيث يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها.

إغلاق الظهر: كان الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمد إلى البعير الذي تمت به المائة فأغلق ظهره لئلا يركب ويعلم أن صاحبه قد أصبح عنده مائة من الإبل. وإغلاق ظهره أن ينزع سناسن فقره ويعقر سنامه.

التعمية والتفقئة: كان الرجل إذا بلغت إبله ألفا فقأ عين الفحل يقول إن ذلك يدفع عنها العين والغارة.

العتيرة: كان الرجل منهم يأخذ الشاة فيذبحها على رأس صنم، وتسمى الشاة العتيرة والمعتورة، وذلك يكون في رجب، وفيهم من يضن بالشاة فيذبح عنها الظباء.

العر: داء يأخذ الإبل شبيه بالجرب، كانوا يكوون السليم، ويزعمون أن ذلك يبرئ ذا العر.

عقد السلع والعشر: كانوا إذا استمطروا في الجدب يعمدون إلى البقر، فيعقدون في أذنابها السلع والعشر، ثم يضرمون فيها النار، ويصعدون على الجبل، ويزعمون أنهم يمطرون في الوقت نفسه. السلع نبات، وقيل شجر مر. والعشر نبت ضعيف يكون له ورق عريض إذا كسر يجري منه مثل اللبن رائحته نتنة.

دائرة المهقوع: وهي الدائرة التي تكون في عرض زور الفرس وتكره، ويقال: إن المهقوع لا يسبق أبدا. ويزعمون أنه إذا عرق صاحبه اغتلمت حليلته وطلبت الرجال.

وطء المقاليت: المقلات هي التي لا يعيش لها ولد. وقيل هي التي تلد واحدا ثم لا تلد بعد ذلك. وكان العرب يزعمون أن المقلات إذا وطئت رجلا كريما قتل غدرا، وعاش ولدها.

الهامة: زعموا أن الإنسان إذا قتل ولم يُطلب ثأره خرج من رأسه طائر يسمى الهامة، وصاح على قبره اسقوني إلى أن يدرك ثأره.

ضرب الثور عن البقر: كانوا إذا

امتنعت البقر عن شرب ضربوا الثور، ويزعمون أن الجن تركب الثيران، فتصد البقر عن الشرب.
ويقولون: إن الدبران خطب الثريا، وأراد القمر أن يزوجه فأبت عليه وولت عنه، وقالت: ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له؟ فجمع الدبران قلاصه يتمول بها، وهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها أمامه، يعنون القلاص. والسبروت هو المسكين والمحتاج، والقلاص هي النجوم.

الغيـلان والتغـول

للعرب في الغيلان والتغول أخبار وأقاويل، فيزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات في أنواع الصور، فيخاطبونها وتخاطبهم، وربما ضيفوها. وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشؤوم، وأنه خرج منفردا لم يستأنس، وتوحش، وطلب القفار، وهو يشبه الإنسان والبهيمة، ويتراءى لبعض السفار في أوقات الخلوات وفي الليل. فيتوهمون أنه إنسان فيتبعونه، فيزيلهم عن الطريق الذي هم عليه ويتيهم. وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه، فلم يكونوا يزولون عما كانوا عليه من القصد، فإذا صيح به شرد عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال.

قولهم في الشياطين ونحوها

للعرب كلام كثير في الغيلان والشياطين. يقول المسعودي في «مروج الذهب»: «ذكر أهل التواريخ والمصنفون لكتب البدو، كوهب بن منبه وابن إسحق وغيرهما، أن الله خلق الجان من نار السموم، وخلق منه زوجته، كما خلق حواء أم البشر من آدم، وأن بيضة من تلك البيض تفلقت عن قطربة، وهي: أم القطارب، وأن القطربة على صورة الهرة، وأن الأبالس من بيضة أخرى، منهم الحارث أبو مرة، وأن مسكنهم البحور، وأن المردة من بيضة أخرى مسكنهم الجزائر، وأن الغيلان من بيضة أخرى مسكنهم الخلوات والفلوات إلخ...».

الهــواتف والجــان

قال المسعودي: «أما الهواتف والجان فقد كثرت في العرب، واتصلت بديارهم، وكان أكثرها أيام مولد النبي ﷺ، وفي أولية مبعثه. ومن حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي».
وقد تنازع الناس في الهواتف والجان، فذكر فريق منهم أن ما تذكره العرب وتنبئ به من ذلك إنما يعرض لها من قبل التوحد في القفار، والتفرد في الأودية، والسلوك في المهامة والمروراة الموحشة، لأن الإنسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحد، وإذا هو تفكر وجل وجبن، وإذا جبن داخلته الظنون الكاذبة، والأوهام المؤذية، والسوداوية الفاسدة، فصورت له الأصوات، ومثلت له الأشخاص، وأوهمته المحال، بنحو ما يعرض لذوي الوسواس، وقطب ذلك وأسه سوء التفكير، وخروجه على غير نظام قوي، أو طريق سليم، لأن المتفرد في القفار والمتوحد في المروراة مستشعر للمخاوف، متوهم للمتالف، متوقع للحتوف، لقوة الظنون الفاسدة على فكره، وانغراسها في نفسه، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به، واعتراض الجان له.

قبر حاتم طيء يقري الضيف

قال بعض العرب: رأيت قبر حاتم طيء ببقة، وهو أعلى جبل له واد يقال له الخابل، وإذا قدر عظيمة من بقايا قدور حجر مكفأة في ناحية من القبر، وهي من القدور التي كان يطعم فيها الناس، وعن يمين قبره أربع جوار من حجارة، وعلى يساره أربع جوار من حجارة أيضا، كلهن صاحبات شعر منثور محتجرات على قبره كالنائحات عليه لم ير مثل بياض أجسامهن وجمال وجوههن. مثلهن الجن على قبره، ولم يكن قبل ذلك، والجواري بالنهار كما وصفنا، فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه، ونحن نسمع ذلك في منازلنا إلى أن يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر سكتن وهدأن، وربما مر المار فيراهن فيفتتن بهن فيميل إليهن عجبا بهن، فإذا دنا منهن وجدهن حجارة.
وكان رجل يكنى أبا البختري زعم أنه مر في نفر من قومه بقبر حاتم طيء، فنزلوا قريبا منه، فبات أبو البختري يناديه: يا أبا الجعد أقرنا، فقال قومه له: مهلا تكلم رمة بالية؟ قال: إن طيئا تزعم أنه لم ينزل به أحد قط إلا قراه، وناموا، فلما كان آخر الليل قام أبو البختري مذعورا فزعا ينادي واراحلتاه، فقال له أصحابه: ما بدا لك؟ قال: خرج حاتم طيء من قبره بالسيف وأنا أنظر حتى عقر ناقتي، قالوا له: كذبت، ثم نظروا إلى ناقته بين نوقهم مجندلة لا تنبعث، فقالوا له: قد والله قراك، فظلوا يأكلون من لحمها شواء وطبخا حتى أصبحوا، ثم أردفوه، وانطلقوا سائرين، فإذا راكب بعير قد لحقهم، فقال: أيكم أبو البختري؟ فقال أبو البختري: أنا ذلك، قال: أنا عدي بن حاتم، وإن حاتما جاءني الليلة في النوم ونحن نزول وراء هذا الجبل، فذكر شتمك إياه، وأنه قرى أصحابك براحلتك، وقد أمرني أن أحملك على بعير مكان راحلتك، فدونك البعير.

المراجـع

- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر.
- ابن حمدون، التذكرة الحمدونية.
- ابن كثير، البداية والنهاية.
- الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف.
- الجوهري، الصحاح.
- لسان العرب، ابن منظور.



قصة البناء والإعراب

محمود عبدالصمد الأسمائي
باحث دراسات لغوية

لكل منا ذكريات مع بداية تعلم اللغة.. وأنا كذلك لي تجربتي في هذا الشأن، فقد عانيت كثيرا جدا في بدايات طلب النحو؛ إذ كان المدرس يقول: «مبتدأ مرفوع/ خبر مرفوع/ فاعل مرفوع...»، فما من مرة إلا وتنظر عين تفكيري في الأعلى، مرفوع!! أين؟! فلم يرد على ذهني حينها إلا المعنى الحسي «للرفع» وهو كون الشيء عاليا أو في مرتفع عن مستوى ما...

أسأل المدرس: «ماذا يعني مرفوع؟».. فيقول: «هي هكذا.. احفظها كما هي.. اعرفها كما سمعتها...».. فظللت مدة غير قصيرة: لا أعرف معنى «مرفوع»، وأيضا، لم أكن أعرف حينها: معنى «منصوب»، و«مخفوض/ مجرور»، و«مجزوم».. لكن بحثي دائما كان عن «الرفع»، ربما لأنه مصطلح «العمد»... فكنا نحفظ كما أمر المدرس، وكنت لا أعقل كما هي طبيعة الحال، لاسيما «مصطلحات» الإعراب...

مرت هذه الفترة، وهي غير قصيرة، إلى أن قال لي أحدهم: «يا بني، الفرق بين الضم والرفع، والفتح والنصب، والكسر والجر، والسكون والجزم: أن هذه مصطلحات بناء وتلك مصطلحات إعراب».. أيضا، لم يقل لي: ما معنى أن الفاعل مثلا مرفوع؟ نعم، كنت أعرف أن «محمد» من «جاء محمد» فاعل، بمعنى أنه الذي فعل المجيء.. لكن، ما معنى



مرفوع هذه؟ «جاء» مفتوح، هذه سهلة، فقد تعلمنا الحركات مع حروف الهجاء في الصغر، وعرفنا أن هذا الرمز «ـَ» يسمى فتحة، مع أننا لم نعرف أيضا لماذا سموه فتحة!!

العجيب! أنه إلى الآن: ما من مدرس أو تلميذ أسأله ذلك السؤال.. إلا أجاب بمثل ما كان يجيب به مدرسي..

إلى أن جاءت مرحلة التعليم الذاتي؛ تلك، حينما يتجرد من الإنسان شخص آخر يعلمه ويبصره، ويأخذ بيده إلى أسواق المعارف، ومنتدى الثقافات..

ومن تلك الأسواق «سوق العربية».. فكان مما استفدته من ذلك الشخص، بفضل الله تعالى، أن أوقفني على مبتغاي، وأجاب عن سؤالي؛ بل شرح لي مصطلحات البناء والإعراب جميعا، فوجدت الأمر يسيرا جدا.. وهو الآتي:

● البناء:

الاستقرار والثبوت.

مثال: «جاء هذا»، «رأيت هذا»، «مررت بهذا».

كلمة «هذا» لم تتغير هيئتها في الجمل الثلاث؛ بل استقرت على حالة واحدة، وهي ملازمة «السكون»، وهكذا...

والأعراب كانوا قوما «رحلا»، بمعنى أنهم كانوا يرتحلون بأنعامهم من مكان إلى آخر تتبعا للماء، وطلبا للمراعي الخصبة، فإذا ما وجدوا مكانا يتوافر فيه الزرع والماء.. استقروا وبنوا. وكذلك يقال للرجل الذي تزوج: بنى. أي استقرت حياته.

● الضم:

سمي كذلك: لانضمام الشفتين معا حالة النطق به.

شكله: واو صغيرة، هكذا: (ـُ).

موضعها: العمل على وضعها فوق الحرف المحرك بها، هكذا: اكتُبُوا.

وكانت صغيرة؛ لتظهر مزية الأصل «و» على الفرع «ـُ».

● الفتح:

سمي كذلك: لأن المتكلم يفتح فاه عند النطق به.

شكله: ألف صغيرة مبطوحة ممتدة من اليمين إلى اليسار، هكذا: (ـَ).

موضعها: فوق الحرف المحرك به، هكذا: خَلَقَكم.

وقد كانت مبطوحة.. لئلا تلتبس بالألف الأصلية، وكانت صغيرة.. لتظهر مزية الأصل على الفرع.

● الكسر:

سمي «كسرا»: لما يحدث في «الفك» من «تكسير» و«تغيير» عن حالته الطبيعية، وذلك لأن الأضراس العلوية والسفلية تكتنف جنبتي الحنك وتضغطه، ويتباعد الحنك عن ظهر اللسان.

شكله: ياء معقوصة إلى الخلف، محذوف رأسها ونقطتاها، فتصير «جرة»، هكذا: (ـِ).

موضعها: تحت الحرف المحرك بها، هكذا: بِهِم.

● السكون:

سمي كذلك: للتوقف الذي يشمل «الحنك»، فلا هو بالمضموم ولا المفتوح ولا المكسور.

شكله: دائرة صغيرة، هكذا: (ـْ).

كعلامة «الصفر» عند علماء الحساب، فالصفر علامة على خلو «الخانة» من العدد.. والسكون علامة على خلو «الحرف» من الحركة.

موضعه: فوق الحرف، هكذا: منْ، اكتبْ.

● الإعراب:

سمي كذلك: قيل: لأنه يبين المعاني.

«أعرب الرجل عن حجته»: أي: أفصح، أظهر، بين..

وقيل: سمي كذلك: لأنه التغيير.

«عربت، أو أعربت معدة الفصيل»: أي: تغيرت.

والإعراب: «رفع»، و«جر/ خفض»، و«نصب»، و«جزم/ قطع/ وقف».

● الرفع:

استعملوا هذا «المصطلح» في المعربات دون المبنيات: من أجل التفرقة بين المعرب والمبني، فحركة الشفتين عند نطق «حيثُ» هي هي عند «محمدٌ»، لكنهم فرقوا في التسمية لئلا يختلط الأمر على المبتدئ بين ما هو معرب ومبني.. وسموه «رفعا»: لرفع الشفتين عند التلفظ بالحركة، وذلك برفع الحنك الأسفل عن مستواه الطبيعي قليلا إلى الحنك الأعلى.

إذن، يصدق على «حيثُ» أن تقول عنها «مرفوعة»؛ لكن الاصطلاح النحوي جرى على التفرقة بين المعربات والمبنيات، ليس غير.

فائدته: علامة «رمز» يدل به على وظيفة حاملها. ويقال هذا في الباقي.

● الجر/ الخفض:

سموه كذلك: لانخفاض الشفتين عند النطق بالحركة، وذلك بجر الحنك الأسفل إلى الخلف قليلا.

● النصب:

سمي «نصبا»: لانتصاب الشفتين حالة التلفظ بالحركة.

● الجزم/ الوقف/ القطع:

هو: توقف الشفتين وقطعها عن الحركة

■ باختصار، من بحثي: «في العلل»، ٢٠٠٧.



أنشودة المساء

مياسة النخلاني
قاصة يمنية

كما الشمس؛ تصحو الطيور باكرا، وتحلق أسرابا، تطرب الأسماع بألحانها الصباحية البهية، وتبحث لها عما يشبعها ويشبع صغارها.. وحين تنام الشمس تسارع إلى أعشاشها، تحتمي من الظلام وتنام بعد عناء يوم طويل، ولا يطير في المساء إلا الخفافيش التي تصالحت حواسها على الظلام..

هذا ما كانوا يخبروننا به وهم يسردون علينا قصص ما قبل النوم، ربما لنحلم أننا طيور صغيرة فننام بسلام!! لكن لا يدخل الإنسان يده في شيء إلا أفسده، فالبشر يتفننون بالتدمير.. تماما كما يبرعون في التعمير والبناء، فهذه هي الطبيعة البشرية التي لا مناص منها.

فبعد أن كنا لا نسمع في سواد الليل إلا أصوات الجنادب المزعجة، ومواء القطط الشاردة، التي تبحث عن فرائس ليلية.. تغير الحال وأصبح الليل مقرونا بالدمار والموت، فلا يكاد الليل يشعل مصابيحه الخافتة إلا وتحلق آلات القتل بوحشية تبحث لها عن ضحايا تسرق النوم من أعينهم والأمان من قلوبهم، وتتمادى في أوقات كثيرة لتسرق الأرواح من أجسادها.

وهكذا ما إن حان موعد زيارتها المسائية حتى زأرت محركاتها في الأفق معلنة بداية الحفلة الشيطانية، ولأنها خبيثة ويقودها ذئاب تحمل زورا بطائق آدمية؛ فلا يحلو لهم إرسال هداياهم العفنة إلا وقد حلقت فوق طرائدها مرات عدة، حتى يموتوا قبل الموت ألف مرة..

وفي الوقت الذي كانت الطيور تعود إلى أعشاشها وأشباه البشر يملؤون خزانات طائراتهم، ويشحنون صواريخهم، كانت هي تطعم أطفالها الثلاثة، فمنذ بداية الحرب والقصف المستمر وهي تحاول إطعامهم باكرا، لأنه وما إن يبدأ القمر بسرد حكايات المساء حتى يجن جنون الصمت ويخرج عن صمته، ترتعد أطرافهم الصغيرة من الخوف فلا يأكلون سوى شهقاتهم المرتدة إلى صدورهم والممزوجة بدموع الخوف.

أكلوا ما تيسر من الطعام وناموا، تمددت هي بجانبهم، تغني لهم حينا وتحكي لهم حينا آخر، لم يطل الأمر فما أسرع ما نام الصغار، نظرت



إليهم وهم نائمون بسلام «كم هم رائعون» تمتمت بها بحزن!
تخاف أن يموتوا أمام عينيها فتحملهم أشلاء متناثرة، تخاف أن يأخذها الموت ويتركهم فكيف لهم أن يعتنوا بأنفسهم، وليس لهم أحد سواها بعد رحيل والدهم، وهو يدافع عن وطنه وعنهم، تنهدت بعمق واحتضنتهم وحاولت النوم، فإنها تخشى إن طال تفكيرها أن تفقد عقلها بالكلية.
لم تكد تغمض عينيها حتى كانت الطائرات تغادر مدرجاتها وقد امتلأت بطونها تماما وشعرت بحاجة ماسة لتفريغها، حلقت عدة دورات فوق المنازل وكأنها تختار فريستها بعناية لتسدد ضرباتها القاتلة، وسرعان ما بدأت الحفلة واختلط هواء الليل برائحة الدم والبارود وصرخات مكتومة.
ساعات قليلة شهدت صراعا بين الموت والحياة، بكاء وعويلا، صرخة استغاثة وأشباح تتوارى خلف أي شيء، وتحت أي شيء كان، عله يحمي من موت محقق، غبار متصاعد، أشلاء متناثرة وحطام تكدس على الطرقات...
وأخيرا انتهت حفلة الليلة، وغادرت الطائرات بعد أن تقيأت عفنها على ما كان حيا عامرا بضحكات الأطفال، ما إن انسحبت بعيدا حتى تعالى الضجيج بين الحطام:
هنا مصاب..!
هنا قتيل..!
إنه يفقد النفس..!
أين الإسعاف..؟
لايزال قلبه ينبض..!
أين أبي..؟
أين أطفالي..؟!
وتحت ركام أحد المنازل؛ وجدوها أو بالأحرى وجدوهم، بقايا جثث مختلطة بركام البيت..
إنها للأم وأطفالها...
لا حول ولا قوة إلا بالله.. لقد ماتوا جميعا..
قتلوهم جميعا!!
كانوا يمسحون دموعهم ولا يعلمون أن القدر كان رحميا بها وبهم بما فيه الكفاية، فأخذهم جميعا ولم يبق أحدهم يعيش متحسرا على الآخر.. وككل صباح حلقت العصافير في السماء بحثا عن شيء تأكله، وتحتها جنازة لأشلاء أم وأطفالها الثلاثة ليدفنوا جميعا في لحد واحد؛ كما عاشوا من قبل في غرفة واحدة.



في حب الآباء للبنات

د. يوسف الحزيمري
باحث مغربي

اكتست معاملة العرب للبنات صورة باهتة تارة، ومجحفة تارة أخرى في الدراسات التاريخية والاجتماعية للحياة العربية، وربما كان الفهم الخاطئ لمسألة وأد البنات -التي نهى عنها القرآن الكريم- سببا آخر في تعميق ذلك الإجحاف وتعتيم تلك الصورة.

تنوير

إن مسألة وأد البنات كانت حالات متفرقة في الجاهلية العربية ولم تكن ظاهرة عامة مستشرية، وإلا لانقطع نسل العرب بسبب ذلك. ولما تحدث القرآن الكريم عن تلك الحالات ذكر أسبابها المباشرة وهي خوف الفقر، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ٣١﴾ (الإسراء:٣١)، «أي: خوف أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾. وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ﴾ أي: من فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾ (الأنعام:١٥١)، وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي: ذنبا عظيما» (١).

وقد صور القرآن الكريم الحالة النفسية للعربي عند ازدياد الأنثى له في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩﴾ (النحل:٥٨ و٥٩)، ﴿مُسْوَدًّا﴾ أي: كئيبا من الهم، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي: يئدها، وهو أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، وذلك في سياق الرد عليهم عندما نسبوا لله البنات بزعمهم، قال ابن كثير: أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟! ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ (الزخرف:١٧) (٢).

كما نجد القرآن الكريم في آيات أخرى يحث على رزق اليتامى والمساكين مخاطبا ذوي المال بهذا الخوف الذي كان يخافه العرب من عيلة البنات، قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٩﴾ (النساء:٩)، وقال في آية أخرى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ (البقرة:٢٦٦).

حب مسكون بالخوف

عبّر العرب عن هذا الخوف الناتج عن فرط المحبة للبنات في أشعار كثيرة، فقد أبى بعضهم الغزو مخافة أن تبقى البنات بلا راع يرعاهم وحام يحميهم، من ذلك

ما ذكره المبرد في طريف أخبار الخوارج؛ قول قطري بن الفجاءة المازني لأبي خالد القناني، وروي عن عمران بن حطان أيضا: (الطويل)

أبـا خـالـد إنـفـر فـلسـت بخالد
ومـا جـعـل الـرحـمـن عـذرا لقاعد

أتـزعـم أن الـخـارجـي عـلى الهدى
وأنــت مـقـيـم بـين راض وجـاحـد

فكتب إليه أبو خالد: (الوافر)

لـقـد زاد الـحـيــاة إلــي حبا
بـنـاتـي أنـهـن مـن الـضـعـاف

مـخـافـة أن يـريـن الـبـؤس بعدي
وأن يـشـربـن رنـقـا بـعـد صـاف

وأن يـعـريـن إن كـسـي الـجـواري
فـتـنـبـو الـعـين عـن كـرم عجاف

ولـــولا ذاك قـد سـومـت مـهـري
وفــي الـرحـمـن لـلـضـعـفـاء كـاف

أبـــانـا مــن لـنـا إن غـبـت عنا
وصـار الحي بعدك في اختلاف (٣)

ونحوه قول إسحاق بن خلف: (٤) (بسيط)

لـولا أمـيـمـة لـم أجـزع مـن العدم
ولم أجب في الليالي حندس الظلم

وزادنـي رغـبـة فـي الـعـيـش معرفتي
ذل الـيـتـيـمـة يـجـفـوهـا ذوو الرحم

أحـــاذر الـفـقـر يـومـا أن يـلـم بها
فيهتك الستر من لحم على وضم

تـهـوى حـيـاتـي وأهـوى مـوتـها شفقا
والمــوت أكـرم نـزال عـلى الحـرم

وقال أعرابي في ابنته: (بسيط)

يـا شـقـة الـنـفـس إن الـنـفـس والهة
حـرى عليك ودمـع الـعـين منسجم

قد كنت أخشى عليها أن تقدمني
إلـى الحمام فـيـبـدي وجـهـها العدم

فـــالآن نـمـت فـلا هـم يـؤرقـنـي
تـهـدا الـعـيـون إذا مـا أودت الحـرم

وقال عمر بن الوردي: (الكامل)

لـولا بـنـاتـي مـت مـن شـوقـي إلى
مـــوت أراح بـــه مـــن الأشــــرار

أقـسـمـت مـا دفـنـوا الـبـنـات تلاعبا
دفـنـوا الـبـنـات كـراهـة الأصـهـار

وأنشد ابن الأعرابي: (الوافر)

أحـــب بـــنـــيـــتـــي وودد أنـــي
دفـــنـــت بـــنـــيـــتـــي فـــي قـــاع لحد

ومـــا بـــي أن تـــهـــون عـــلـى لكن
مـــخـــافـــة أن تـــذوق الـــذل بعدي

فـــإن زوجـــتـــهـــا رجـــلا فـــقـــيـــرا
أراهـــا عـــنـــده والـــهـــم عـــنـــدي

وإن زوجـــتـــهـــا رجـــلا غـــنـــيـــا
فـــيـــلـــطـــم خـــدهـــا ويـــســـب جـــدي

ســـألـــت الـــلـــه يـــأخـــذهـــا قـــريـــبـــا
وإن كـــانـــت أحـــب الـــنـــاس عـــنـــدي

وقال البحتري: (المتقارب)

ومـــن نـــعـــم الـــلـــه لا شـــك فيه
حـــيـــاة الـــبـــنـــين ومـــوت الـــبـــنـــات

لـــقـــول الـــنـــبـــي عـــلـــيـــه الـــســـلام
مـــوت الـــبـــنـــات مـــن المـــكـــرمـــات (٥)

وبعد، فإن هذه الأبيات الشعرية، وما اختلج قلب قائليها من عواطف جياشة نحو فلذات الأكباد، تدعو قارئها إلى ضرورة إمعان النظر في آيات الذكر الحكيم ليتبين أن الله عزوجل قد ضمن الرزق لجميع العباد وقدر في الأرض أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، أي على قدر طلب الطالبين، فالخوف من الفقر هو من وعد الشيطان، كما أن استباق الغيب والتوقع بما ستؤول إليه حال الأنثى إذا ما تزوجت رجلا، أو إذا مات الأب، إنما هو من ضعف الإيمان واختلال الاعتقاد في الله أحكم الحاكمين، وما جاء الإسلام به من تكريم المرأة بما منحها من حقوق، أعظمها حق الحياة، وساواها بين الرجل في الأحكام، إلا ليشفي النفوس مما ران عليها من أوهام ووساوس، ويرتقي بها في مدارج الإيمان بالواحد الأحد الذي خلقنا من ذكر وأنثى وجعل بينهما نسبا وصهرا.

الهوامش

١- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، (٧٢/٥).

٢- تفسير ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، (٥٧٨/٤).

٣- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى (٥١٠/١٢).

٤- عيون الأخبار، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، (١٠٦/٣). ومنه باقي الأبيات.

٥- وهذا الحديث؛ أي «دفن البنات من المكرمات»، مثل مشهور ومثله المثل الآخر: نعم الصهر القبر!

وما يروى بأنه حديث: لا يصح، وجزم ابن حجر ببطلانه، وما يروى أيضا «للمرأة ستران القبر والزوج فأيهما أفضل قال: القبر» هو حديث موضوع.

والغالب أنه مثل، وقال الشاعر مضمنا هذا المثل:

الـقـبـر أخـفـى سـتـرة لـلـبـنـات
ودفـنـهـا يـروى مـن المـكـرمـات

أمـا رأيـت الـلـه عـز اسـمـه
قـد وضـع الـنـعـش بـجـنـب الـبـنـات!

انظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق عبدالرحمن يحيى المعلمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ، (ص: ١٢٢)، وتذكرة الموضوعات محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفتني (المتوفى: ٩٨٦هـ)، إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الأولى، ١٣٤٣هـ، (٢١٧/١).



عندما يكون الأدب في خدمة الصهيونية

المنشاوي الورداني
مترجم في التلفزيون المصري

لعلها من عجائب الزمان وغرائب التاريخ والأيام، أن تجد الشخصية الإنسانية تقتل وتدمر وكذلك تحرق وتسرق ثم تسوّق لنفسها في سوق الدعاية بأنها الحمل الوديع، هذه الغرائب السود هي ما تجنيه الصهيونية العالمية من جرائم في شتى بقاع الأرض، خاصة في فلسطين، ثم تسخر الأدب من خلال كتّاب الرواية والقصة أو إن شئت قل المطبلين والمزمرين بالدعاية الرخيصة للشخصية اليهودية بأنها الشخصية الرقيقة المتكاملة الإنسانية، كما تتمادى في غيها بتصوير الشخصية العربية مناقضة للإنسانية اليهودية، إذ إنها حسب الكتابات الأدبية التي تخدم المشروع الصهيوني شخصية عدائية متخلفة تتلذذ بالقتل والتدمير!

في أبريل عام ١٩٨٢م، وفي مجلة «النمسا اليوم»؛ كتب المؤلف الصهيوني النمساوي (جوزيف توتش) Josef toch قصة قصيرة باللغة الإنجليزية عنوانها: «إوزة نيكولزبرج»، وبجانبها مقدمة لمحرر تلك المجلة تكشفان مكر العقلية الصهيونية في التخطيط والدعاية، وتؤكدان نفوذ الصهيونية المتغلغل في مجالات النشر والتوزيع والإعلام والصحافة في أنحاء العالم، خاصة العالم الغربي، ويؤكد هذا المسلك من جديد الخطر الأكبر للغزو الثقافي الذي قد يكون أشد إيلاما وضررا من احتلال الأراضي، لقد صورت القصة الخداعة شخصية الرجل اليهودي بأنه ليس بخيلا أو متعصبا كما يشاع! فها هو الرجل في القصة زاهد في جمع المال، بل يعطي بلا حدود، «بقلب مؤمن عطوف رقيق مفتوح للجميع» (١)، وقد اتخذ المؤلف الكاذب من (حفل عيد الميلاد) مناسبة لحدث يوعز بأنه «فعل يهودي إنساني عظيم نبيل» (٢)، وقد تعمد كاتبها الصهيوني الخبيث أن يجيء هذا الحدث في يوم الجمعة، لعله بذلك يلعب أيضا بعواطف القارئ المسلم، إذ إن يوم الجمعة خير الأيام عند المسلمين وهو عشية يوم السبت!!!

ولنقتبس شيئا من سطور القصة:

«إذا وجد على الأرض رجل محنك بارع في فن البذل والعطاء، فهو جدي، كان تاجرا يهوديا ذا دخل متواضع، وكان جديرا بأن نصفه بالإنسان الحكيم العظيم المحب للخير... كان جوابه دائما «ليس من الخير جمع المال»، وكان جدي يرى أن خير ما يفعله هو أن يصون نفسه من شهوة حب المال ويحافظ على طهرها ونقائها!! وكان يتمسك بهدفين في هذا السبيل، لم يكن يسمح - أولا - لأحد أبنائه أن يعمل من أجله، وهي طريقة يستخدمها الفقراء في جمع المال، كما كان يضع - ثانيا - نصب عينيه أن يتعلم أبناؤه بالمدارس الثانوية ثم دراسة الطب والمحاماة في الجامعات، وعندما فرغ من مسؤولية تنشئتهم وإعالتهم، راح يساعد الآخرين ويغيثهم، بل فتح أبواب بيته، حجرة طعامه لتلاميذ المدارس الثانوية من أبناء الأسر الفقيرة بالمدينة!» (٣).

ولعل في طول القصة عبارات على هذا النحو الرقيق الذي يحاول به الكاتب تلبيس الحق بالباطل، ناسيا شخصية اليهودي الحقيقية في مجتمع «إسرائيل» والتي تقوم على المذابح والكذب والتضليل، وعلى اللعب بالعواطف من خلال «ثقافة مغرضة» و«آداب وفنون كاذبة ومفتعلة».

وفي عصرنا الحالي ازدادت الثقة بالوثيقة الأدبية وجدارتها واتجهت مجموعات من الباحثين في أوضاع المجتمعات الحديثة والمعاصرة إلى الاعتماد على الظاهرة الأدبية في الكشف عن مختلف الأوضاع في هذه المجتمعات، ومع مرور الوقت تطور هذا الاعتماد وتبلور عنه اتجاه نحو دراسة المجتمعات المعادية، والتعرف إليها عبر الوثيقة الأدبية (٤).

يشير الأستاذ حسين محمد حسنين في بحثه الذي يحمل عنوان: (تأثير الاحتلال على أدب الأطفال) إلى أن الصهيونية في الأراضي المحتلة وخارجها تعمل من خلال مرتكزات علمية مدروسة لاستغلال وتسخير كل القنوات الموصلة للفكر والأدب والثقافة والتعليم الموجه للأطفال، استغلالا وتسخيرا بشعا بغية خدمة الصهيونية وسلطاتها وأدواتها لتنمية الوعي الصهيوني لدى الأطفال، وغرس المبادئ، وخلق الولاءات الدائمة لهذا الكيان، ويرافق ذلك زرع الحقد والغل والكراهية وغيرها من الصور البشعة، والنظرة الفوقية ضد العرب، وتعميق مفاهيم القوة والعداوة، واستمرار تحقيق الانتصارات الدائمة على العرب (٥).

وحين دعا ناحوم جولد مان إلى الاهتمام بالعملية النفسية والتوجه إلى الأطفال، استجاب الصهاينة لهذه التوصيات، إذ إن «كتب الأطفال الموجهة للأطفال اليهود مكتوبة باللغة العبرية، وفي متناول أيدي الأطفال اليهود وتلاقي دعما حكوميا كبيرا من قبل وزارة الثقافة والتعليم في حكومة العدو، في نشرها وتوزيعها وطباعتها، وهي موجودة في المدارس والمكتبات العامة والخاصة، وبأسعار في متناول يد الجميع، وتركز على موضوع واحد، هو تصوير الأطفال اليهود على أنهم جبابرة عظماء لا يقهرون، وهم يهزمون أعداءهم العرب الأغبياء بسهولة ويسر لأنهم يريدون قتل اليهود من أجل المتعة الذاتية فقط!!» (٦).

وقد أشار نعمان هادي الهيتي إلى أن الكتابات الصهيونية للطفل تختلق نماذج وصورا من الانتصارات، محاولة بذلك تنمية الشعور بالمسؤولية لدى الأطفال في القضاء على العدو العربي من جهة، وإزالة أسباب التوتر والخوف لدى الأطفال اليهود من جهة ثانية، وحين تستعرض التاريخ بين العرب واليهود فإنها تصوره عداء دائما، وأن هذا العداء الطويل لا يمكن له أن يزول، لأن اليهود لم يثأروا حتى اليوم على الرغم من مضي الأحقاب الطويلة! وعليه فإن في أعناق الأطفال مسؤولية إكمال الثأر الناجز (٧).

وينشأ الطفل اليهودي على هذه المعاني ليكون جندي المستقبل الذي يذبح العرب الدخلاء المتخلفين الذين يريدون إخراجه من أرض الميعاد وفرض تخلفهم عليه!

وليس هذا الطرح مستغربا لأن التأليف في هذا المجال أسند إلى خبرات عسكرية ونفسية وتربوية، وقد اتضح كما تقول صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية ١٩٧٤/٩/٢٠م: إن (عيدان ستر) ليس إلا (حزاي لوف مان) رئيس تحرير مجلة الجيش الإسرائيلي سابقا!! وأن (أون سريغ) عضو منظمة (ليحي) سابقا، واسمه

الحقيقي (شارنما غفتي) وكتبهما من أوسع الكتب انتشارا، وكذلك (هازي لابين) كان محاربا في صفوف (البالماخ) عام ١٩٤٨م (٨).
- فماذا تقول هذه الكتب؟
- وماذا تعلم منها الطفل الصهيوني؟
هذا ما تجيب عنه بعض النماذج:
١- (قصة حسبة ولصوص الخيل) للكاتب الإسرائيلي (ايجال موسينزون)؛ تروي أنه عندما كان (مصطفى) يتسلل إلى داخل إحدى المغارات للسرقة، انقض عليه (منشه) أحد أبطال القصة، وفي أثناء التحقيق قال مصطفى بعبرية ركيكة: أنا لا يوجد خيل، أنا لا يوجد أعرف شيئ، لقد جاءت الخيل من تلقاء نفسها، إنني أبحث عن سحالي، إن جدتي مريضة للغاية، وعندما تضع عشرين سحلية على ظهرها فإنها تنهض من سريرها!
ومن الواضح أن هذه القصة تترك في نفس الطفل الإسرائيلي شعورا بأن العدو الذي تحاربه إسرائيل يتبنى قيما وعادات متخلفة، ويشعر بأن بلده لا يحتل أرض الآخرين، ولا يضطهد سكانها، وإنما يعمل على تخليص سكان هذه الأراضي من حالة التخلف الاقتصادي والحضاري التي يعيشون فيها (٩).
٢- وأما قصة (تحيا الشجاعة) للكاتب الإسرائيلي (مناحم تلمي) فتصور وحشية الجنود العرب من خلال الحوار الذي دار بين القناصة العرب الذين كانوا يوجهون نيرانهم صوب مستوطنة (يعاربا) وتباهى أحد القناصة قائلا: طلقة واحدة وأنتهي! وقال آخر: إنهم لا يجرؤون على مغادرة بيوتهم ... وعندما شاهد أحد القناصة امرأة في المستوطنة قال للآخرين: إنها غنيمة لنا، وسوف آخذ بعض أبقارهم الحلوب، وأستولي على إحدى فتياتهم!!
في هذه القصة وأمثالها تشويه لحقيقة الصراع وأهدافه، وهي تزرع في نفس الطفل الإسرائيلي الشعور بأن هزيمة إسرائيل في المعركة لن تؤدي إلى فقدان سيطرتها على الأراضي العربية فحسب، وإنما إلى العيش في حالة من الذل والاضطهاد هذا بالإضافة إلى الوقوع في أسر العرب الذين يعيشون كما تصفهم القصة في حالة مطلقة من التخلف (١٠).
٣- (مغامرات أوزيا أوز) للإسرائيلي (هازي لابين)، بطلها طفل إسرائيلي يهاجم أعداءه العرب، وينتصر عليهم دائما! فهم جبناء مصاصو دماء، لا يتورعون عن فعل أي شيء لإشباع رغبتهم في القتل، وفي أحد معارض الأطفال في إحدى دول أوروبا عرضت إسرائيل قصة كتكوت صغير يقف وحيدا وسط عدد من الديَكة المتوحشة التي تلتف حوله تريد الفتك به! وينادي الكتكوت أنه لا يريد شيئا، إنه يريد الحياة في سلام وسط الديكة المتوحشة المعتدية، وقد طبعت هذه القصة طباعة فاخرة مزدانة برسوم جميلة وكلمات بسيطة.. وستكون ثمرة هذه القصة أن الأطفال سيقفون إلى جانب الكتكوت (إسرائيل) ضد الديكة المتوحشة (العرب).
هذه الصورة البشعة التي يريدونها للعرب سواء في الصورة الأدبية أو الإعلامية هي الهدف المشترك للصهيونية العالمية، وتحاول رعايتها في كافة الأوعية - الأدب أو الإعلام أو السينما - التي تمتلكها بكل قوة حيث وضعت إسرائيل كالكتكوت المذعور المذكور في حجرها، وأخذت تشن حربها بكل الوسائل وعبر كل المنافذ، فسلطت هوليوود لتستغل كل الإمكانات في صناعة صورة بشعة للعربي والمسلم، وكان أول من تنبه لذلك باحث أمريكي من أصل عربي يدعى جاك شاهين، حيث قام بدراسة رائدة معروفة اسمها «Reel Bad Arab» وفي هذه الدراسة يستعرض خطورة الدور الذي لعبته هوليوود في هذا التشويه الخطير، ويحيلنا الدكتور أحمد بن راشد بن سعيد في دراسة له عن هذا الدور الإعلامي الخبيث إلى مصادر مهمة في هذا المجال ذكر منها: كتاب Media Are American وكتاب Selling The World The American Culture To Propaganda (١١).
إذن لا عجب أن ترى بسبب هذه الترسانة القوية من الأسلحة الثقافية العربي متوحشا وبدائيا، بل وإرهابيا بينما الآخرون يظهرون لنا عبر السطور أو من خلال الشريط السينمائي وهم في قمة الرقة والإنسانية، أو في صورة راعي البقر النبيل وسوبر مان وبات مان الشجاع، أو حتى الكتكوت المذعور!!

الهوامش

١- مجلة الأمة القطرية، العدد ٣٢، شعبان ١٤٠٣ / مايو ١٩٨٣م، ص ٧٠.
٢- نفس المصدر، ص ٧١.
٣- نفس المصدر، ص٧٢، نقلا عن مجلة Austria Today ٨٢/٤، ترجمة حسني بدوي.
٤- مجلة منار الإسلام الإماراتية، العدد ٣٦٢، صفر ١٤٢٦هـ/ مارس ٢٠٠٥م، يحي بشير حاج يحي.
٥- أدب الأطفال في الأردن (واقع وتطلعات) ص ٢١٠.
٦- أدب الأطفال في الأردن (تأثير الاحتلال الصهيوني على أدب الأطفال) ص ٢٢٤.
٧- مجلة منار الإسلام، العدد ٣٦٢، ص ٤٤.
٨- المصدر السابق.
٩- نفس المصدر ص ٤٤، ٤٥- نقلا عن مجلة القاهرة عدد ١٠٩ (أدب الأطفال المصري وعنصرية أدب الأطفال الصهيوني).
١٠- أدب الأطفال في الأردن (واقع وتطلعات) ص ٢٥٠.
١١- مجلة المنار الجديد، العدد ٥٧، صفر ١٤٣٣/ يناير ٢٠١٢م، ص ١٤٨، ١٤٩، القاهرة.



علماء يتحدثون عن كيفية أدائها

زكاة الفكر

عبدالله الشريف
القاهرة : دار الإعلام العربية

هذا مفكر وذاك مبدع، كل بأسلوبه وعلى طريقته يصب عصارة فكره وعلمه وذهنه بعد جهد جهيد من التمحيص والتدقيق، ليخرج عملا وعلما يفيد به الآخرين. وقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه أن النبي ﷺ قال في ضمن حديث طويل: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»، فهل على العلماء والمفكرين والمبدعين من زكاة لعلمهم وفكرهم وإبداعهم؟ وهل هذه الزكاة مادية أم معنوية؟

«الوعي الإسلامي» سألت عددا من العلماء، الذين أكدوا أن زكاة الفكر مفهوم روحي بالأساس، غاب عن المجتمع ويجب تسليط الضوء عليه.. وإليكم التفاصيل.

«الإبداع منة إلهية لا يحظى بها جميع البشر، وتتمثل زكاته في نشره وإفادة العالم منه».. بهذه الكلمات بدأ د. نور الدين عز، أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة جامعة دمشق، حديثه، مشيرا إلى قول الإمام الشافعي رحمه الله:

وأد زكاة الجاه واعلم بأنها
كمثل زكاة المال تم نصابها

وزكاة الإبداع إنما هي زكاة معنوية تتمثل في شكر نعمة الله عزوجل، والاعتراف بفضله، والبعد عن الكبر والإعجاب بالنفس، وهي أيضا تفرز تشجيع أصحاب المواهب

د. نور الدين: زكاة الفكر.. تتمثل في شكر نعمة الله وتجنب الكبر

والاستعدادات للتفوق.

وأشار إلى قول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة:١١)، موضحا أن هذه الآية تحمل تفسيرا لحديث «العلماء ورثة الأنبياء».

وأشار أيضا إلى حديث «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة»، ذلك أن أشرف العلم ما كان متصلا بالقرآن كما جاء في حديث البخاري ومسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». لكل ذلك، فإن نشر العلم هو نوع من زكاة الفكر، التي تدخل ضمن «الزكاة المعنوية».

بذله كله

يقول الدكتور صبري عبدالرؤوف، أستاذ الفقه المقارن في جامعة الأزهر، إن علم العالم وفكره يجب بذلهما كلهما زكاة خالصة لله عزوجل وليس جزءا منهما، إعمالا

لقول رسول الله ﷺ: «من كتم علما ألجم يوم القيامة بلجام من نار».
وأضاف أن العلم ما جاء ليحفظ في عقول العلماء أو الكتب وغيرها، لكن أعطاه الله ووزعه لأشخاص كثر مختلفين ليستعينوا به على إعمار الأرض، مشيرا إلى أن تزكية العلم زيادته وتفسيره، لأن العالم إذا علم مسألة قام عليها حتى بسطها للعامة وأخرج منها أكثر من شيء يفيدهم.
ولفت إلى أن مصطلح زكاة الفكر حديث، باعتباره يحفظ حقوقا لأصحابها، وهناك نظرة أخرى مادية لها حكم شرعي مثل زكاة مال عادية.
ويؤكد أنه لا فائدة من تعلم العلم من دون تبليغه للناس، ولم تنهض الأمة من دون وصول العلوم إلينا بمختلف أنواعها من العصور السابقة.
وأضاف أن زكاة العلم هي علاقة بين العبد وربه، فالعالم الذي يريد بعلمه نفع الأمة ودينها وتعليم الشباب، حسابه عند ربه، وهناك آخرون يريدون بعلمهم تحصيل مكاسب مادية فهؤلاء قبضوا نتيجة علمهم في الدنيا.
وأشار إلى أن العلماء الكبار الذين صدقوا مع الله كانوا لا ينطقون إلا بالحق خوفا من وصول كلمة خاطئة إلى الأجيال القادمة، وكانوا يؤدون علمهم كله زكاة لتعليم الناس ما أمرهم به الله.

تصحيح المسار

بدوره، يقول د. محمد الشحات الجندي، عضو مجمع البحوث الإسلامية والأمين العام الأسبق للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، إن مفهوم «زكاة الفكر» غير متداول، على الرغم من أهميته في ظل الظروف التي تعاني منها الأمة الإسلامية.
وأكد أن زكاة الفكر هي واجب العالم تجاه أمته، والإسلام يفرض على العالم أن يتعلم ويعلم من أجل خدمة الدين والحياة، مشيرا إلى أن هذا المفهوم أصبح متعينا وواجبا في ظل تعرض الإسلام لغزو فكري نرى فيه الأمة قد تراجعت.
وتابع أنه لو تأملنا قول الله عزوجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ (التوبة:١٢٢)، لوجدنا هذا المعنى، موضحا أن العلم وأداءه مسألة حتمية في ظل الظروف التي تعاني منها الأمة الآن من تشكيك وتشويه واغتيال معنوي من قبل أعدائها أو من قبل المسلمين أنفسهم.
وأضاف أن تأدية زكاة الفكر تكون بتصحيح المفاهيم، وما وصل إليه فكر الأمة، وبيان العلم الحقيقي، ومنهج الإسلام في قيادة الأمة وفي تصحيح مسار الحياة والواقع الذي تعيشه الأمة، وتفعيل منطق التفكر في الدين وليس مجرد الوقوف عند ظواهر النصوص، وتلمس المقاصد، والوقوف عند الأسرار، والنهوض بالأمة والأخذ بيدها في المراحل الفارقة، خصوصا أوقات التشتت والتفرق والاختلاف.
وأوضح أن من الأمثلة على زكاة الفكر إظهار محاسن الدين الإسلامي وحمايته من الأفكار الدخيلة عليه، وأن الإسلام يمنع الاقتتال، كما أنه ليس دين اصطدام، مشيرا إلى أن من زكاة الفكر أيضا ترسيخ مفاهيم التعايش والحوار وفقه الاختلاف إعمالا لقول الله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (النحل:١٢٥)، وقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران:٦٤).
وتابع أنه يجب على العالم أن يقوم بدوره في إظهار إسهامات الإسلام في أمور كثيرة، ونشر مفاهيم الإسلام الحضاري وإسلام التسامح الذي يقبل الآخر؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.
وأشار إلى أن الله جعل هناك تمايزا بين العلماء في الفكر والعلم، فمنهم من هو أكثر دراية من الآخر في العبادات والفقه الاقتصادي وتصحيح العقيدة وعلم التوحيد، لافتا إلى أن من أسباب عدم قبول العلم احتكاره وعدم نشره.
وأكد أنه لابد أن يتفق الجميع على خطة عمل لتقديم الدين الصحيح وإصلاح ذات البين.

> **صبري عبد الرؤوف: العلم يجب بذله كله زكاة خالصة لله**

> **د. أبو ليلة: تفعيل العلم في حياة عامة الناس لتيسير دنياهم وأخراهم**

فوائد زكاة العلم

أما د. حامد أبو طالب، العميد الأسبق لكلية الشريعة والقانون وعضو مجمع البحوث الإسلامية، فيؤكد أن لكل شيء زكاة تطهره وتنميه، وأن الزكاة من التزكية، وهي التطهير، وقد حدد الإسلام زكاة في المال والبدن.
وأضاف أن من أمثلة زكاة العلم والفكر أن يقوم العالم بتوجيه من حرم من التعليم، وكذلك بالنسبة إلى من يتعلم صنعة، فزكاة صنعته أن يعلم هذه الصنعة للصبية وغيرهم.
وقال: «إذا تدبرنا قول الله تعالى: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾ (الحشر:٧)، وهذا في زكاة المال، فسنجد أن الزكاة تجعل الأموال تنتقل من شخص إلى آخر ولا تحتكرها مجموعة من الناس، وكذلك العلم حتى ينتقل العلم من شخص إلى آخر وينتقل الثراء



من شخص إلى آخر، وبذلك تنتظم الحياة وتعمر الدنيا ويتنقل الخير بين الناس».

ويؤكد أن تعليم القرآن الكريم كله خير وزكاة لقول رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

وأضاف أن الصحابة تعلموا القرآن من رسول الله ﷺ وعلموه للأمة كلها، وقرأوه، ورتلوه، ولم يبخلوا على الأمة في شيء من أحكامه ولا قواعده، وأيضا التابعين حتى عصرنا الحالي، وهذه هي زكاتهم.

وقال: «لقد تعلمت على يد شيوخ وعلماء، وعلى الرغم من قسوة بعضهم في تعليمنا فإني مازلت أدعو لهم في كل صلاة، لأن مراعاتهم لله وخوفهم على الأمة جعلتهم يبذلون كل ما لديهم من علم في سبيل الأمة».

مبطلات زكاة الفكر

إلى ذلك، يوضح د. محمد أبو ليلة، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة الأزهر ورئيس جمعية التواصل الحضاري، أن زكاة العلم نشره، وأن حبسه أو التظاهر والتفاخر به أو الاستئثار به واحتكاره يؤدي إلى بطلانها.

وأضاف: «إن زكاة الفكر تقي العلم وتحفظه. ومن زكاة العلم تربية الناشئة، والنصح للحاكم والمحكومين، ومساعدة الناس»، موضحا أن الكلمة الطيبة من العالم تصنع مهابته في قلوب الناس، ويمكن للعالم استدرار عطف الغني على الفقير، وتنشيط

د. الجندي: علينا تصحيح المفاهيم وبيان منهج الإسلام في قيادة الأمة

د. أبوطالب: الصحابة تعلموا من رسول الله ولم يبخلوا بعلمهم على الأمة

همته على العطاء، المرتبط بالوعظ والحماسة الروحية التي يزرعها العالم بعلمه في الناس.

وأضاف أنه ليس فقط إلقاء المحاضرات أو نشر كتب وغيره، كل هذا له حسابه عند الله، ولكن الأهم من ذلك تفعيل العلم في حياة الناس العامة لتسهيل حياتهم ورفع المعاناة عنهم ودعوتهم للصبر والتحمل والسعي في مصالحهم.

وكان يقوم بذلك الرسول ﷺ وأصحابه والخلفاء والتابعون. والعلماء يتوسطون عند الحاكم لرفع الظلم ورد المغتصبات لأصحابها ويعتبرون ذلك من مبررات الدخول على السلاطين لقضاء المصالح.

وأوضح أن هناك نوعين من زكاة الفكر: القولية؛ لحث الناس على الخير، وهناك عملية ومنها الضغط الروحي والنفسي والأخلاقي على القادرين للإحسان إلى المساكين والمحتاجين، وتأمين الخائفين، ورد الظلم عن المظلومين، والصلح بين المتعادين، وإصلاح المجتمع، ولهذا تحمل العلماء أمانة العلم.

يزكى منفصلا

بيد أن د. حسن أحمد حفني، أستاذ الفقه المقارن في جامعة الأزهر، له رأي آخر يقول فيه إن إنتاج الفكر والإبداع هو في حقيقته جهد بشري، وإذا ترتب عليه ثراء مادي فإنه يدخل ضمن ماليات المسلم ويضم إلى ذمته المالية وزكاته السنوية. ويستند د. حفني إلى رأي «قدماء الفقهاء» بأن إنتاج الإبداع والفكر يزكى منفصلا بمجرد الحصول عليه؛ قياسا على العائد من أرباح المصانع أو المزارع، وزكاته تساوي ٢,٥ في المائة، لأنها زكاة مال، ولابد أن تكون هذه الزكاة على الربح فقط بعد استخراج قيمة التكاليف البحثية. ويلفت إلى أن الإبداع يجني ثمار أرباح لصاحبه تفوق كثيرا نصاب الزكاة لمشاريع إنتاجية واقتصادية، غير أن أصحاب هذا الإبداع يغفلون عن «زكاة الفكر» ظنا منهم أن هذا عمل إبداعي حديث العهد ليس له حكم شرعي في الإسلام، وهذا فهم خاطئ من جانبهم.

الطفل والولع بالصور المتحركة



د. إبراهيم نويري
باحث جامعي من الجزائر

مرت تقنية الصور المتحركة، أو أفلام الكرتون بعدة مراحل، شملت الشكل والمضمون على حد سواء. وقد أُنتجت في الأساس لعرضها في دور السينما، وذلك لارتباط ظهورها بالسينما، ثم أصبحت مستقلة لأول مرة سنة ١٩١٠م، وذلك بفضل جهود كل من «جون راندولف براي» الذي نجح في تحويل هذا الفن إلى وسيلة ترفيه وتسلية، لها أنصار كثيرون من الكبار والصغار معا، وكذلك صديقه «إيرل هيرد» الذي نجح في إبداع تقنيات جديدة تضطلع بمهمة تحريك الصور بمهارة فنية عالية.

ثم جاء بعدهما المخرج الأميركي «والتر ديزني» الذي يُعد أحد أكبر وأبرع رواد التحريك في العالم، وهو مؤسس شركة «والتر ديزني» المعروفة، ومخترع المنتزه العالمي المشهور أو ملهى الأطفال ذائع الصيت «ديزني لاند»، الذي يجد السائح له عدة نماذج بالمسمى نفسه، في مدن وعواصم كثيرة من دول العالم؛ وقد استطاع «والتر ديزني» فعلا أن يضع بصمته الخاصة على فن الصور المتحركة، من خلال شخصيات أفلامه الكرتونية المتحركة، مثل: «ميكي ماوس»، و«دونالد داك» وشخصية «أوسوالد» أو الأرنب المحظوظ، وغيرها من الشخصيات. أو من خلال إضافاته المتنوعة في هذا الفن الذي سحر الألباب، وجذب إليه وجدانات وأذواق الملايين من الصغار والكبار على السواء.

ومع مرور الوقت بدا أن صناعة هذا الفن لا يمكن الاستغناء عنها، لكثرة الطلب عليه، خاصة بعد التطور التقني النوعي الذي حصل في ميدان وسائل الاتصال

وتقنياته، وظهور القنوات التلفزية الفضائية والأرضية المتخصصة في شؤون الطفل وحاجاته الإعلامية.
لكن الذي لاريب فيه أن مجال إعلام الطفل، وحاجته الثابتة المتجددة، إلى الصور المتحركة مجال لا تخفى خطورته على المربين والمراقبين التعليميين والإعلاميين وأصحاب المسؤولية والرأي والتوجيه، لصلته المباشرة بتشكيل عقلية الطفل ووجدانه وتصوراته الذهنية والفكرية، ومن ثمة التأثير في سلوكه وتصرفاته وعلاقاته، في نطاق أسرته ومحيطه الاجتماعي والتربوي، ويتضاعف الخطر إذا وضعنا في الحسبان عامل «المستقبل» أي أن الطفل سيكون في المستقبل مسؤولا في الوطن، وصاحب قرار ومنزلة وشأن.
فإذا ما وقفنا على هذه الحقيقة الحساسة الساطعة، فلابد أن تنبثق من الأعماق فريضة التفكير بجد في وضع بديل «مضموني» في هذا المجال، يحل محل أفلام الرسوم المتحركة الغربية، تأمينا لأطفالنا؛ عدة المستقبل من الغزو الثقافي الحضاري، والاستلاب الإعلامي الفكري/ الوجداني الغربي.
وليس هناك من سبيل لتحقيق هذا الهدف إلا ربط الطفل برموز حضارته العربية والإسلامية، وبمضامين القيم في نطاق هذه المنظومة المعرفية والحضارية الإسلامية.. بل وبنماذج معينة من هذه المنظومة، حتى يشب الطفل في مجتمعاتنا العربية والإسلامية مرتبطا بأرومته الأولى، ويبني جلدته وأرضه، متمتعا بشخصيته القومية وهُويته الحضارية.
وفي هذا الصدد يقول المفكر الاجتماعي الدكتور رشدي فكار رحمه الله تعالى: «وأرى أن قضية الطفل حتى عمر الثانية عشرة، ينبغي أن تكون هي تحقيق انتمائه، وأتمنى أن يُمنع منعا باتا إعطاء أطفال هذه الأمة حتى تلك السن، أي انتماء أو نموذج أو قدوة، عدا انتمائه الحضاري، كما تفعل ذلك الأمم الأخرى، والدول التي تواجهنا الآن في حلبة الصراع الحضاري».
ويتابع قائلا: «كما أنه ليس من الحكمة أبدا أن نحدث أطفالنا قبل هذه السن عن سقراط وجان جاك روسو وشكسبير وغوتيه وسارتر وغاريبالدي ونابليون وغيرهم من رجالات الفكر الغربي والسياسيين الغربيين... فهذا لا يكون إلا بعد أن تنضج كل مدارك الطفل، وتصبح المرجعية الإحالية، أو القيم المرجعية لديه واضحة وثابتة تماما، وبعد أن يفهم قيم رجالاتنا الذين رسخوا دعائم الإسلام وصنعوا حضارته الباذخة».
وليس هنالك من شك في أن مفكرينا، ورجالات التربية والتوجيه والقادة في العالم العربي والإسلامي يدركون أهمية هذه الرؤية كل الإدراك، بل إن أكثر هؤلاء يعمل جاهدا بإخلاص وتفان من أجل توفير الحصانة الفكرية والتربوية لأطفالنا، وإتاحة المناخ الملائم لبناء شخصياتهم الحضارية المتميزة، وسمتهم الفكري والسلوكي المتفرد.
بيد أن الأمر الذي نطمح أو نتطلع إليه جميعا يتمثل في إعداد البدائل المتكاملة، ذات المستوى العلمي والمنهجي العالي والمدروس بعناية واقتدار، في مجالات «إعلام» الأطفال، و«تربية» الأطفال، و«أدب الأطفال» و«قراءات» الأطفال... الخ.
ولعل نظرة فاحصة في أفلام الرسوم المتحركة المتوفرة لأطفالنا على الصعيد العربي تجعلنا ندرك للوهلة الأولى حقيقة ذلك التقصير في إطار تقديم ذلك الفن، فمن المؤسف أننا لا نزال نعتمد على استيراد الأفلام الكرتونية المقدمة لأطفالنا، الواردة إلينا من الدول الغربية. ومن الطبيعي أن تكون هذه الأفلام غريبة الهوية والهوى والتوجه، مختلفة الطابع والغاية.. بمعنى أنها قد تجسد تلك الجوانب الاجتماعية والأخلاقية لمجتمعات وسلوكات اجتماعية وعلائقية دخيلة على حياتنا وأنساقنا.
لذلك يجب التعويل على جهودنا الذاتية، والعمل النوعي المتخصص من أجل توفير البدائل المناسبة في هذا المجال، أي إبداع أعمال درامية متحركة منسجمة وأخلاقيات البيئة العربية الأصيلة.
أما الكتاب والأدباء والإعلاميون، فينبغي أن يواصلوا أداء واجبهم الشرعي والقومي والمهني المتمثل في تنبيه المسؤولين وأصحاب القرار، إلى أهمية الميدان الإعلامي ومدى انعكاسات مضامينه على الطفل وسلوكه وفكره وروحه ووجدانه... كما ينبغي عليهم أيضا أن يفعلوا إسهاماتهم في الكتابة للطفل المسلم في شتى المجالات، وتقديم البدائل وبرامج الترفيه المناسبة لمنازعه الفطرية، وتوجهاته الحضارية والمعرفية.
وبعد.. فهل ستكون هذه الصرخة ذات صدى مثمر طيب؟.. فقد تعلمنا من توجيهات الإسلام وتعاليمه الراشدة، أن الكلمة الطيبة لابد وأن تَيْنَعَ وتُثمرَ ولو بعد حين.. وهل ستكون هذه الكلمة -الوجيزة- حافزا يجعل المخلصين الواعين من هذه الأمة -وما أكثرهم- يسارعون لإقامة مؤسسات متخصصة في «حضانة» و«حصانة» الطفل العربي المسلم، وإعداد البدائل المنهجية في كل المجالات والميادين، لبنائه بناء ثقافيا وعلميا وحضاريا، يؤهله لتحديد صورة المستقبل، المنسجم والمتناغم مع مطالب وطنه ومصالح أمته، وخصوصيات شخصيته القومية والحضارية.. نأمل ذلك، ونصر على الأمل دوما.. والله الموفق والمستعان.

واجبات الأم التربوية

إحسان الدبش
كاتبة صحفية

الرجل العازم على الزواج عليه أن يضع نصب عينيه اختيار الفتاة التي ستكون في المستقبل مربية لأبنائهما. لأن الأثر التربوي للأم يعادل دور الأب، بل قد يزيد عليه. ولأن معايشة الأم مع أولادها أكثر من معايشة الآباء لأبنائهم، خاصة عندما يكونون أطفالا، بسبب انشغال الأب في أكثر أوقاته في عمله. كما أن الأبناء أكثر ارتباطا بعواطفهم بأمهم من أبيهم، منذ ولدتهم ثم أرضعتهم ثم تكفلت بعنايتهم في مرحلة حضانتهم، ثم في طفولتهم بعد مرحلة الحضانة، حتى أصبحوا فتيانا ثم شبابا. كما أن صلة الأبناء ببيت جدهم (الجد والجدة والأخوال) من طرف أمهم أكثر من صلتهم ببيت جدهم طرف أبيهم (الجد والجدة والأعمام)، بسبب زيارة الأم لأهلها أكثر بكثير من زيارتها لأهل زوجها، فتجد راحتها أكثر في بيت أهلها.

إن الاهتمام التربوي بالأبناء مسؤولية عظيمة للأبوين، لأنهم الأقدر على غرس القيم النبيلة والفاضلة في نفوس الأبناء، أو العكس؛ تلقينهم المفاهيم الخاطئة والصفات السيئة.. هذه المسؤولية المهمة بينها الرسول ﷺ في قوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته» (صحيح البخاري). الحديث بدأ بالإمام ثم ثنى بالأب ثم الأم إلى آخر الحديث، كل بحسب مساحة موقعه. يلاحظ في الحديث النبوي تأكيد الرسول ﷺ على رعاية الأم للأولاد.

إن الغالبية العظمى من الناس تكتفي بالزاد التربوي الذي حصلوا عليه من الوسط الذي عاشوا فيه. سواء كان هذا الوسط البيت أو المدرسة أو زملاء العمل، أو تأثير الإعلام أو تأثير التقنية الحديثة، وغير ذلك من المؤثرات. فهم متأثرون تربويا من وسطهم أكثر منهم جادين في تربية أنفسهم نحو الأفضل. وهذه الجدية في بناء الشخصية البناء الذاتي نحو الأفضل هو ما يسمى «تزكية النفس» لأنه متى طهرت النفس حَسُنَ السلوك. وهذا منهج الإسلام الأساسي في التربية. قال سبحانه وتعالى:

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ (الشمس:٧-١٠). وتزكية النفس مرتبطة بطلب العلم من الكتاب والسنة، وإن كان هناك مفاهيم أخلاقية عامة يعلمها جميع الناس، لكن العلم شيء والتطبيق شيء آخر، وهو الأهم، بالإضافة إلى أمور تربوية مهمة لا تُعلَم إلا بالتعلم، ويجهلها كثير من الناس. كفنّ تعامل الزوجين مع بعضهما بعضا، وفن تربية الأبناء في مختلف المراحل، وآداب تلقي العلم، وغيرها من فنون التربية في مختلف مجالات الحياة.

إن تزود الأبوين بعلم التربية وفنونه ينزل منزلة الواجب لكل أم وأب.. إن كل رب أسرة وربة أسرة يجب أن يكونا مربيين ناجحين وهذا لا يتأتى إلا بتحصيل «علم التربية للأسرة» أي أن كل أب وأم يجب أن يكونا مختصين بعلم التربية، وما فاتهما من فن التربية في الأسرة يجب أن يحصلا عليه بجهدهما واجتهادهما. إن أفضل زاد تربوي هو المستقى من القرآن والسنة الموحى بهما من لدن حكيم عليم، هذا الزاد التربوي السليم، لا ينعكس على أفراد الأسرة فقط، وإنما على المجتمع عامة.

إن ضعف الزاد التربوي لأفراد المجتمع له دور أساسي في تخلف المجتمع، لأن التربية الحسنة من ضمن ما تعنيه: الالتزام بتطبيق القانون واتباع النظام، واحترام الآخر ومساعدته، ورفض الرشوة والتحيز، وإقامة العدل، ومنع الظلم... إلخ. إن عدم التزود بالزاد التربوي بشكل مستمر نحو الأفضل يصيب الأفراد والأسر والمجتمع ليس فقط بالركود الأخلاقي، وإنما أيضا بالتراجع الأخلاقي، وازدياد انتشار الفساد، وتمزيق المجتمع وخرابه، خاصة إذا انتشرت فيه أخلاق هدامة كالعصبية والعنصرية.

إن نجاح أو فشل الأسر يعود بشكل أساسي إلى تحسين الأداء التربوي، لأن الزاد التربوي المستمر يصحح المسار، ويزيد الألفة والمودة، ويقوي العلاقات بشكل أفضل. وقد ربط الاسلام بين الأخلاق الفاضلة من جهة والتقوى من جهة ثانية برباط وثيق، فجعل الأخلاق مرتبطة بالإيمان.

قال سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ (التوبة: ١٢٤)، وكلما ارتقى المسلم بأخلاقه ارتقى بإيمانه. وهذا منهج

الاسلام في التربية القائم على زيادة الزاد التربوي بشكل مستمر.

إن مسؤولية الأم في تربية الأبناء مسؤولية عظيمة وتنشئتهم النشأة التربوية الخلقية الرفيعة. وليتحقق هذا الهدف يجب أن يتوفر ثلاثة أمور:

أولا: أن تكون الأم متربية التربية الصحيحة من أخلاق حميدة وصفات نبيلة، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ثانيا: أن تتعلم أصول التربية السليمة في التعامل مع أولادها في مختلف الأعمار.

ثالثا: أن تسيطر على مشاعرها الأنثوية تجاه الآخر، إن كان زوجها أو حماتها أو غيرهما من الأقرباء، وتسيطر على عواطفها الجياشة في تربيتها لأولادها.

لتحقيق الأمر الثاني: (أن تتعلم أصول التربية السليمة في التعامل مع أولادها في مختلف الأعمار). يجب أن تخضع الأمهات وحتى الآباء إلى دورات تربوية عالية، لإعداد أولاد ناجحين في حياتهم. مطيعين لربهم، بارين بوالديهم، نافعين لأمتهم. والتركيز في هذه الدورات على أمور مهمة ومستقبلية، تنفعهم وتنفع أولادهم. أو قراءة الكتب التربوية النافعة. نضرب بعض الأمثلة على بعض المواضيع التي يجب طرحها في هذه الدورات، فيما يتعلق بواجبات الأم التربوية.

١- أصول التعامل مع الزوج: من حيث الاحترام والتقدير والطاعة بما لا يخالف أوامر الله عزوجل. والشكر على ما يبذله من تعب في سبيل خدمة الأسرة، لأن الأم بقدر ما تحترم زوجها وتقدره تؤثر إيجابا على أولادها.

٢- الخلافات الزوجية: تجنب المشادة بين الأبوين في حال نشوء أي خلاف أمام الأبناء، لأن الخلافات الحادة والمستمرة، تؤدي إلى عدم احترام الأبناء لأبويهم. وعدم الإصغاء لنصائحهم، بسبب التشتت النفسي الذي يصيبهم من جراء هذا الشجار، فينعدم بذلك تأثير الأسرة التربوي، ومن ثم يخضعون لمؤثرات نفسية داخلية سلبية لهم، ومؤثرات خارجية تشوه الصياغة التربوية السليمة لهم أيضا.

٣- عدم التمييز بين الأبناء: قد تميز الأم بين أولادها بما فيهم الأطفال لأسباب عدة، سواء تميز الإناث أكثر من الذكور، أو العكس، حيث تتحيز للذكور أكثر من الإناث، أو بين الذكور والإناث أنفسهم. مما يولد حقد الأبناء على بعضهم، ونشوء العداوة بينهم، وقد يؤدي إلى كراهة الولد غير المفضل لإخوته، وينعكس ذلك مستقبلا حتى على أمه أيضا، فلا يكون متعاونا معها أو سلبيا تجاهها، إن لم يسئ إليها.

٤- الغيرة الشديدة: الغيرة عند الأمهات تظهر بشكل واضح بعد الزواج بين الكنة -زوجة الابن- والحماة -أم الزوج-، إذا لم تُكتَم مشاعر الغيرة بينهما، وظهرت على شكل أحاديث ينال كل منهما من الآخر أمام الأبناء، وتصاعدت حدتها انقلبت الغيرة إلى عداوة، مما ينعكس على الأبناء وعلاقتهم مع جدهم وجدتهم وبقية أقاربهم، فتبقى رواسبه مع تقدمهم في السن مما قد يؤدي إلى قطيعة في الرحم. بين الأبناء وأقربائهم، تتحمل الأم المسؤولية في ذلك.

٥- التربية في مختلف المراحل العمرية:



لكل مرحلة من مراحل عمر الأبناء طبيعتها الخاصة وحاجياتها النفسية والجسمية، وبالتالي فإن تعامل المربي والمربية -الأم بشكل خاص- يجب أن يتناسب مع هذه المرحلة. قد لا تدرك الأم وحتى الأب الفروق في الأداء التربوي بين مرحلة وأخرى. مما يسيء للطفل، سواء وهو في مرحلة الطفولة أو في المستقبل عندما يصبح شابا ثم شيخا. لأن رواسب التربية الخاطئة في مرحلة الطفولة يصعب تغييرها مستقبلا، مثلا: الانتقال من مرحلة الحضانة إلى مرحلة الروضة وما بعدها، في مرحلة الروضة يستطيع الطفل بنفسه القيام بأعمال لم يكن يستطع القيام بها في مرحلة الحضانة، كتناول الطعام وحده مثلا، فعلى الأم أن تدعه يعتمد على نفسه في بعض الأعمال.. تجد بعض الأمهات من تستمر في العناية بولدها وكأنه مازال في مرحلة الحضانة، فيصبح اتكاليا لا يستغني عن خدمات أمه. مثال آخر: مرحلة المراهقة: يصيب الأبناء شيء من القلق بسبب التغيرات الجسمية والنفسية عليهم.. وهنا يجب أن يراعي المربي ذلك.. فلا يعامل الفتى وهو يشعر أنه أصبح رجلا معاملة الطفل.

لذا فإن حضور الدورات التربوية، أو القراءة في كتب تربوية موثوقة، مما يجعل الأم ذات كفاءة عالية في التربية، ولها دور كبير في نجاح أولاد المستقبل. ولا يخلو مجتمعنا من أمهات فاضلات حققن الأداء التربوي لأبنائهن وبناتهن بشكل جيد، وكن قدوة حسنة في ذلك، وإن لم يحضرن دورات، لكن الحاجة أصبحت ماسة في هذا العصر، خاصة بعد ظهور مؤثرات جديدة في التربية لم تكن فيما مضى، والتي ذكرت أثناء البحث.

قضايا المرأة في الصحافة الإسلامية

الواقع والطموح

سعاد بعوش - كاتبة جزائرية

تتعدد الرسائل الإعلامية الموجهة اليوم للفرد المسلم، في عالم أضحى ممتلئا بالقنوات الفضائية والإذاعات، الخارجية منها والمحلية، والصحافة المكتوبة والإلكترونية، فهو زمن الإعلام بامتياز. ومن ثم أصبحت الحياة تعج بالأخبار والمعلومات، الصحيحة والكاذبة، والرسائل المباشرة وغير المباشرة، وفيها ما يستهدف الأفكار والمعتقدات والتصورات، أو السلوك والأخلاق وأنماط الحياة، سواء بالتغيير أو بالتعزيز والتثبيت، تستعمل فيها كل أساليب الاتصال الإقناعي من المؤثرات الصوتية وتقنيات الصورة والإخراج الفني والتحرير الصحفي.

ولا تجد وسيلة إعلامية إلا وقد أعطت المرأة من مساحاتها الزمنية وبرامجها وأركانها واهتماماتها المتنوعة، نصيبا منها، يقل أو يكثر، إيمانا من الجميع بمدى تأثير المرأة في المجتمع، إن سلبا أو إيجابا، وحاولت أن توجه رسائل معينة لها، تتناسب ونظرتها للمرأة وفلسفتها حول المهام التي عليها أن تؤديها في المجتمع العام. وبناء على ذلك، تكثر التجاذبات في واقع المرأة المسلمة بين دعاة الإيمان ومقتضياته العملية، ودعاة التحرر من كل الأحكام الشرعية والأعراف المجتمعية الأصيلة والانطلاق نحو تحقيق الذات وإثبات الوجود وفقا لمنظومة القيم والتصورات الغربية وبعيدا عن منهج الله القويم.

وليس غريبا، بل من الأهمية بمكان أن نجد اهتماما واضحا بالمرأة وقضاياها من قبل الصحافة الإسلامية أيضا، شأنها في ذلك شأن كل الوسائل الإعلامية، وهي تلك «الصحافة التي تعالج مختلف قضايا الحياة وأحداثها من منظور إسلامي، استنادا إلى القرآن الكريم، وصحيح سنة رسول الله ﷺ، وما ارتضته الأمة من مصادر تشريعية في إطارها، وتقدم هذه القضايا والأحداث إلى الجماهير بلغة مناسبة، واستخدام الفنون الصحفية الملائمة، والإفادة من كل وسائل التكنولوجيا الحديثة. ويتولى عرض هذه القضايا محررون وكتاب مسلمون على معرفة عميقة بالإسلام وحقائقه، بما يخدم الأهداف والمثل والقيم الإسلامية، ويمثل ترجمة وقيادة لواقع المجتمع الذي تنشر فيه» (١). وهي أيضا صحافة عادة ما يشرف عليها علماء ودعاة ومصلحون، فهموا رسالة الإسلام، وتشبعوا من قيمها، ورأوا فيها دواء لكل أدواء الأمة الإسلامية، فنادوا بالعودة إليها، واتخذوا من الصحافة وسيلة للاتصال بالجماهير المسلمة كونها «وسيلة شعبية ناجحة، تستطيع أن تغير بمواضيعها وأساليبها العقول والأفكار والقيم والموازين، وأن توجه الرأي العام إلى ما تريده» (٢). وكانت المرأة من بين الفئات المستهدفة برسالتهم من خلال معالجة مواضيعها والوقوف على قضاياها.

وقد انطلقت الصحافة الإسلامية في اهتمامها بالمرأة وقضاياها من:

- مرجعيتها الإسلامية، وخلفيتها الفكرية، وأهدافها الرامية إلى العودة بالمجتمع المسلم إلى مقوماته الحضارية، وإحياء روح الانتماء فيه بالعودة إلى أحكام الإسلام، عقيدة وشريعة وأخلاقا، والشعور بالفخر والاعتزاز بهذا الانتماء، وبناء شخصية الفرد المسلم عليها.
- اهتمام الصحافة الإسلامية بقضايا المرأة من اهتمام الإسلام بالمرأة، وهو الدين الذي أعاد إلى المرأة كرامتها وحفظ حقوقها، وإدراكا لدورها المهم في الحياة وإعطائها الدعم الذي يؤهلها لأن تكون فردا صالحا في المجتمع وسندا قويا لشقيقها الرجل في معتركات الحياة وأما مربية تخرج للأمة العظماء من الرجال والنساء الذين يضطلعون بالحفاظ عليها والتضحية من أجلها.
- تخصيص المرأة بالخطاب بهدف لفت انتباهها، وتركيز اهتمامها، وتولي معالجة مشكلاتها انطلاقا من توجيه الخطاب إليها مباشرة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ (النور:٣١).

وقول النبي ﷺ: «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار. قالت امرأة منهن: مالنا أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي

لب منكن. قالت: ما نقصان العقل والدين؟ قال: شهادة امرأتين بشهادة رجل، وتمكث الأيام لا تصلي» (٣).
والأمثلة كثيرة.

● استهداف المرأة المسلمة من قبل أعداء الأمة وقوى التغريب، والتركيز عليها في عمليات الغزو الفكري والتغيير المنهج للمجتمع المسلم، مما يفرض القيام بمسؤولية الدعوة إلى الله في أوساط النساء، تبليغا وتعليما وتربية، باستعمال كل الوسائل المشروعة، ومن بينها الصحافة الإسلامية.

● إبراز المنهج الإسلامي في معالجة قضايا المرأة، وإثبات أحقيته وعدالته وعمقه ومناسبته للفطرة السليمة، والدفاع عنه، والإقناع به باستعمال وسيلة جماهيرية قادرة على التأثير وصناعة الرأي العام الذي تريد على المدى البعيد.

● إيجاد بديل إعلامي إسلامي وسطي معتدل يلبي احتياجات المرأة المسلمة إعلاميا، وفقا لهويتها الإسلامية ومكانتها في الإسلام وموقعها من المجتمع ودورها الاجتماعي والحضاري المنوط بها والمنتظر منها ضرورة في عالم اليوم.

وعلى أهمية هذا الاهتمام من الصحافة الإسلامية بالمرأة المسلمة وقضاياها، فإنه لا يخلو من وجوه نقص وصور تقصير، نجدها هنا أو هناك، خصوصا في بعض الصحف والمجلات الإسلامية الناشئة، أو التي ليس لها تجربة طويلة وخبرة متنوعة في الإعلام.

ودعما لها بالملاحظة العلمية والنقد الهادف إلى البناء والتقييم الرامي إلى التقويم والتطوير والتحسين، تم تسجيل بعض النقائص وأوجه القصور الظاهرة فيها وهي كالآتي:

● اضطراب الهدف المنشود من معالجة قضايا المرأة، وعدم وضوحه أحيانا لدى القائمين عليها، مما يجعل المواضيع عشوائية تخضع للمواد المتوافرة لدى الصحيفة أو المجلة.

● عدم توافر التخصص أحيانا في المشرفين على قضايا المرأة في الصحافة الإسلامية، وتواضع الثقافة الإسلامية لديهم، وعدم الإلمام بقضايا الأسرة ومكانتها في الإسلام وتاريخ المرأة المسلمة ودورها عبر مراحله البارزة، مما يضفي عليها نوعا من الإرباك في اختيار الأركان التي تقدم من أجل المرأة.

● صغر المساحة المكانية المخصصة لقضايا المرأة في كثير من الصحف والمجلات الإسلامية، وجعلها في الأغلب في الصفحات الأخيرة، وعدم تمييزها بإخراج مختلف عن الصفحات الأخرى.

● حصر قضايا المرأة في الأسرة وأمورها، وإغفال العديد من القضايا الأخرى التي تهم سائر النساء والفتيات، مثل قضايا بناء الشخصية والإبداع والعمل والدعوة والهداية، أو الانحراف والعنوسة والطلاق والترمل والفقر وغيرها.

● التركيز بكثرة على تربية الأبناء والواجبات والحقوق الزوجية من بين قضايا الأسرة كلها، فعلى الرغم من أهمية هذين الأمرين في حياة المرأة ومسؤوليتها فإنهما ليسا كل شيء في قضايا المرأة والأسرة.

● الاعتماد بكثرة على المقال وغياب أشكال وقوالب التحرير الصحفي المختلفة الأخرى، مثل الخبر والتقرير والتحقيق والحوار وغيرها.

● الإمعان في استحضار الشخصيات النسائية التاريخية واستظهارها من أجل الاقتداء والاستئناس بها، وإغفال الشخصيات النسائية المسلمة المعاصرة الناجحة، التي تجمع بين الدين الإسلامي، كالتزام وهوية ومنطلق لجميع الإنجازات والعمل والإنتاج والإبداع، وبذلك المساهمة في تهميشها وتغييبها عن حاضر الحياة العامة، رغم أن الاقتداء بها أيسر لتشابه الظروف الزمانية والمكانية.

● الاعتماد بكثرة من قبل بعض الصحف الإسلامية أو المجلات على شبكة الإنترنت كمصدر للمعلومات والمادة الصحفية الموجهة إلى المرأة، مما يفقدها الحيوية والفاعلية، ويجعلها ذات صبغة استهلاكية غير قابلة لأن تكون مادة للبناء الصحيح والمعالجة الناضجة، والتفاعل الهادف الصادق مع قضايا المرأة المنطلق من واقعها الحقيقي.

● معالجة بعض القضايا الهامشية في حياة المرأة، والانسياق وراء احتياجات السواد الأعظم من النساء، منافسة لبعض الصحف العامة واتباعا لها، وهي - في الأغلب - لا تحمل للإسلام هما ولا للتغيير الصحيح قضية، وذلك على حساب قضايا مصيرية تتعلق بنجاح المرأة في الحياة الدنيا أو الفلاح في الآخرة، خصوصا مع قلة المساحة المخصصة للمرأة.

وبناء على كل ما تقدم، وطلبا لمعالجة فاعلة وذات أثر لقضايا المرأة المسلمة في الصحافة الإسلامية، فإنه يمكن اقتراح ما يأتي:

● وضع أهداف محددة وواضحة لصفحة أو صفحات قضايا المرأة، وفق احتياجات المرأة في الدولة التي تصدر فيها الصحيفة، إن كانت محلية، أو احتياجات المرأة في العالم الإسلامي عامة.

● التركيز على تكوين شخصية المرأة المسلمة وبنائها، وإعلاء همتها، وحثها على التعلم والقراءة واكتساب الخبرات واستثمار تجارب غيرها، ومدها بالبرامج والنماذج والمقترحات العملية والحلول الموضوعية لمشكلاتها والتحديات التي تواجهها في الحياة، وعدم الاكتفاء بذكر الإشكاليات وتفصيل المشكلات والتعليق عليها والتذمر من واقعها.

● تعزيز قيم الإيجابية والأمل والطموح والعمل والتفاؤل والبناء والتنمية والتميز والنجاح والقوة والتسامح والتكامل والتواضع.. وغيرها من القيم، التي إن وجدت في النساء انعكست على الأسر ومن ثم على المجتمع العام.

• رصد النشاطات الإسلامية الدينية أو الثقافية أو الصحية أو الأسرية أو غيرها التي تقدم هنا وهناك من أجل المرأة خاصة، وتقديم ملخصات عنها؛ بهدف إفادة المرأة وإعلامها بما يقدم لمصلحتها، وتعريفها بالجهات الحريصة على مساعدتها والمستعدة لرعاية اهتماماتها.

• الحرص على ترقية اهتمامات المرأة المسلمة المعاصرة، وعدم الاكتفاء بتلبية احتياجاتها، لأن الأصل في الصحافة الإسلامية «ترقية اهتمامات الناس قبل تلبية احتياجاتهم. والسبق بهذه الترقية من أهم مبادئها، لأن مجرد تلبية الاهتمامات على ما هي عليه من دون قيد ولا شرط أو بعد إفسادها لا يمثل إلا منطق الباطل والهلاك» (٤).

• الاجتهاد في ترتيب أولويات المرأة بدقة وعناية، وبنظرة شاملة واعية بواقع المرأة المسلمة ومتطلباته الحقيقية، وبناء على الفروض العينية فالكفائية وما يحتاج إليه المجتمع المسلم من المرأة كفرد فاعل فيه وفقا للتصور الإسلامي القويم المتوازن.

• الوقوف على الإشكاليات المعاصرة الطارئة في عالم المرأة المسلمة، وتأصيلها التأصيل الشرعي من خلال البحث والدراسة، وسؤال العلماء، وطرح القضايا على المجامع الفقهية واتحادات العلماء ورابطاتهم؛ حتى يعم العلم ويفهم الحكم وتقام الحجة أمام الله تعالى.

• القيام بسبر آراء أو قياس الرأي، والاهتمام بالبحوث الميدانية وفق نظرية الاستخدامات والإشباع في الإعلام على القارئات، ومعرفة مختلف الآراء حول ما تقدمه الصحيفة أو المجلة من أركان ومواضيع خاصة بالمرأة، واستيضاح ما يردنه منها وما يقترحنه من أجلها.

• تنويع قوالب التحرير الصحفي، واستعمال أنماط التفاعل الجماهيري، والنزول إلى واقع المرأة الحقيقي وإبراز مشكلاتها ومعالجتها مع المختصين والمهتمين.

• جعل المساحة المخصصة لقضايا المرأة من صفحتين فأكثر، من أجل استيعاب الأركان والمواضيع والقضايا الخاصة بها والتمكن من التعرض لعدة جوانب حياتية مهمة، وتمييزها بألوان زاهية وإخراج جذاب ومكان مناسب.

• إبراز الشخصيات النسائية المتمكنة في مجالات معينة، خصوصا اللاتي جمعن بين التدين والعلم والنجاح في مجال من المجالات، ومناقشتهن في قضايا المرأة، من تعلم وتدين وعمل ومسؤوليات أسرية ونشاطات اجتماعية أو ثقافية أو سياسية أو غيرها، وتقديمهن كنماذج تستحق أن يقتدى بها.

• مناقشة وتحليل ما ينشره ويقدمه الإعلام المضلل من دعوات صريحة أو ضمنية للمرأة إلى الانحراف والانصراف عن كل ما له صلة بالعفة والستر والحياء، والارتقاء إلى المثل الإسلامية، نهيا عن المنكر وأمرا بالمعروف.

• استكتاب المرأة المسلمة، وإعطاؤها الفرصة لنشر كتاباتها كمساهمة في إيجاد خطاب نسوي إسلامي معاصر واع وقادر على استيعاب قضايا المرأة ومشكلاتها، ومواجهة دعاة التفلت والتحرر من أحكام الدين الإسلامي الحنيف، والرد على الشبهات التي ترد منهم هنا وهناك.

• الاستفادة من شبكة الإنترنت في نشر قضايا المرأة، وإقناع الرأي العام بها، وتوجيه مواقفه وتعديل اتجاهاته، وتوسيع دائرة جمهور القراء، وتحقيق الاستجابة، ومعرفة رجع الصدى واستثماره في اختيار المواضيع.

• محاولة العناية وتوجيه الخطاب لكل شرائح وفئات المجتمع النسائي من أجل احتواء أكبر عدد ممكن من النساء، وتحويل الصحيفة أو المجلة إلى مصدر من مصادر التأثير الاجتماعي في حياتهن ومسارهن.

• الالتفات إلى شريحة الفتيات ورعاية اهتماماتهن ومناقشة قضاياهن، كونها شريحة لا تزال في بداية التكوين بالنسبة إلى شخصياتهن وبناء الاعتقادات والتصورات ومتعطشة لاكتساب القيم والمبادئ والأخلاق، وهي أكثر الشرائح النسائية تفاعلا مع وسائل الاتصال الجديدة وتأثرا بسلبياتها، مما يتطلب وجود بدائل تربوية هادفة وواقعية لدى الصحافة الإسلامية.

• تشجيع المرأة الداعية، ومعالجة مشكلاتها، وتفعيل الدعوة في أوساط النساء؛ نظرا لأهمية القضية وحاجة الساحة الإسلامية إليها «فالدعوة بحاجة ماسة إلى المرأة وجهودها الدعوية، وإنه من دون مشاركة فاعلة قوية من قبلها فإن الدعوة لن تتقدم التقدم المرجو، ولن تخطو الخطوات المطلوبة القوية، وستظل عرجاء متعثرة..» (٥).

الهوامش

١- محمد منصور محمود هيبة، الصحافة الإسلامية في مصر بين عبدالناصر والسادات (١٩٥٢-١٩٨١م)، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٩٩٠م، ص٤٠.

٢- يوسف القرضاوي، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، دط، ١٩٨٤م، ص٣٠.

٣- أخرجه مسلم (٧٩). ذكره النووي في رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ، باب الاستغفار وفضله، طبعة بان الجوزي، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٤٣٩.

٤- عمارة نجيب، محاضرات في الإعلام ووظائفه: نقلا عن فؤاد توفيق العاني، الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٣م، ص٦٨.

٥- محمد بن موسى الشريف، مقدمة كتاب: المرأة الداعية «معالم وعقبات ومحاذير»، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، جدة، ط٣، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، ص٧.

مقتطفات من «الإنصاف»

التحرير

في كتابه «الإنصاف سبيل للائتلاف واجتماع الأمة»، الصادر عن دار الوطن للنشر بالرياض ضمن سلسلة الفوائد الذهبية من سير أعلام النبلاء، ذكر المؤلف عبيد بن أبي نفيع الشعبي أن حال الأقران، فيما بينهم، حال تستحق أن تفرد بالدراسة والبحث، فمنهم من يعظم أقرانه ويفضلهم على نفسه، ومنهم من يكون خلاف ذلك، وهكذا يبتلي الله الناس بعضهم ببعض.

ويفصل فيقول: «فهذا هشام بن يوسف يقول: كان عبدالرزاق أعلمنا وأحفظنا».

قال الذهبي: «هكذا كان النظراء يعترفون لأقرانهم بالحفظ».

فهذه صورة جميلة لحال الأقران المنصفين. وصورة أخرى لأقران كل منهما على مذهب، غير أن الخلاف بينهما ما أفسد للود قضية.

فانظر إلى هؤلاء الأبرار مع طول المناظرة والمحاورة إلا أن القلوب لم تزدد إلا حبا وتعظيما.. فما بال أقوام تمتلئ قلوبهم حقدا وحنقا على إخوانهم وأقرانهم على أقل محاورة وإقحام، ولم يوغل المرء صدره ويمتلئ غلا على أخيه فلا تراه إلا نكدا ضيق الصدر يطلق لسانه في حق أخيه ولا ينصفه. فاتق الله يا أيها المتحامل على أخيك، وكن زكي النفس، واشرح صدرك لأخيك، واكسب محبته وتقديره، وكن كالليث بن سعد، الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية، الذي كان يحسن وصل إخوانه وأقرانه، كالإمام مالك، مع ما بينهما من طول مناظرة ومراسلة علمية.

ويروى عن رجاء بن حيوة، قال: «من لم يؤاخ إلا من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بالإخلاص له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوه».

فيا سبحان الله، ما الذي يتسلل إلى نفوس الأقران خفية من دون أن يشعروا، ومع هذا يظن الأخ أنه منصف مع أخيه؟!

وينصح الشعبي إخوانه فيقول: «فيا عبدالله، أحسن الظن بأخيك، وعليك بما قاله رجاء ابن حيوة، واعمل به تبق سعيدا هنيئا».

وفي موضع آخر يقول: فارض بما قسمه الله لك، وادع لأخيك بالتوفيق، وقابل سيئته بالحسنة منك، ولا تشغل نفسك بالرد عليه، واستبق الخيرات؛ فأبوابها كثيرة. وأما قول الأئمة إن كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعول عليه إلا لعلمهم ما للمعاصرة والتنافس من إفساد المودة والأخوة بين المتعاصرين.

والخطأ قد يكون من طرف واحد لا من الطرفين، فواحد ينتقص والآخر منتقص منه، فقد يمن الله على المتأخر بالهداية والالتزام والإسلام وقد سبقه منافسه بالهداية والإسلام ثم هو اليوم يشاركه مرتبته العلمية والدعوية، والتفاف الخاصة والعامة حول دروسه وأطروحاته وكتبه على المستوى الكبير أو قيادة مجموعة صغيرة من الدعاة، فيتسلل مرض الأقران إلى السابق من دون أي يتسبب اللاحق في ذلك المرض من طريق مباشر بكلمة أو تصرف استفزازي من جانبه أو من جانب قيادتهما. فينبغي أن يعلم السابق أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وأن ذلك أيضا بسبب اجتهاد وإخلاص من اللاحق، فليتق الله ذلك العبد وليحب لأخيه ما يحب لنفسه، وليعلم أيضا أن سبقه إلى الخير محفوظ ولن ينسى أبدا.

كيف أنمي الحس الجمالي لدى الأطفال



د. آندي حجازي
أستاذ علم النفس التربوي

كنت أركب يوما مع والد وطفله في سيارتهما الفضية اللون، قاصدين معا شراء بعض الحاجيات، وفي الطريق لفت انتباهي أسلوب ذلك الوالد: يأخذ رأي طفله الصغير ذي الثماني سنوات في كل مبنى يشاهده أو شارع يمر به، ويسأله ما رأيك في هذا المبنى وتلك العمارة أو ذاك الشارع وتلك الحديقة؟ ويثني على رأي طفله، ويمدحه، ويبدي إعجابه بما يقدم من إجابات وملاحظات، بل يتعجب الأب ذاته من دقة ملاحظة طفله، فهو يطرح جوانب لم يلتفت إليها والده نفسه، ويجيب بإجابات تزيد من ثقة الأب بقدرات ابنه وتذوقه لمواطن الجمال من حوله، مما يجعله يستمر في طلب رأي طفله في تلك السيارة وذلك اللباس وذاك المسكن. أعجبت بذاك النموذج من التربية.. إنها تربية تقوم على تنمية الجوانب الحسية والجمالية لدى الطفل.

فالطفل زوده الله تعالى بمصادر لتلقي المعلومات، وهي تلك الحواس الخمس، وبتفاعلها مع العقل فإنها تنتج العلم والمعرفة والتواصل مع الآخرين. ولذا، إن اهتم الوالدان ومن يحيط بالطفل باستغلال تلك الحواس، من سمع وبصر وتذوق وشم ولمس، لتربية الطفل على الجوانب الحسية والجمالية، فإنه حتما سينشأ لدينا طفل ذو حساسية عالية للجمال في الكون والحياة، الأمر الذي هو مهم من أجل اكتشاف مواطن القوة والضعف، أينما كانت، وكذلك مواطن النقص والخلل وتعديلها ومحاولة إصلاحها، وذلك في كل نواحي الحياة. فإبداع الإنسان يأتي من تفهمه لتفاصيل الأشياء ودقائق الأمور، وجمالها وقبحها، وجوانب النقص والقصور من أجل استكمالها وتحسينها.

فالإنسان الذي يستشعر الجمال يسعى إلى إضفاء لمسات إنسانية راقية جميلة على ما يحيط به، فهو قادر على إحداث التغيير في عالمه نحو الأفضل، وما تلك الإبداعات والاختراعات الكثيرة في عالمنا اليوم إلا نتيجة رغبة الإنسان في تنمية الجانب الحسي والجمالي في حياته، مما يضفي عليها البهجة والحيوية والفائدة ويقلل المشقة والعناء.

دعوة لتذوق الجمال

إن بوادر تذوق الجمال والاستمتاع بالأشياء الجميلة والقيم السامية ما هي إلا أمور فطرية في الإنسان وتؤكد على الكيان الإنساني، ولكن تنميتها وتشجيعها أمر يحتاج إلى تدريب، وهو أمر مهم لتحقيق النمو السوي والنمو المتوازن والمتكامل للإنسان في جميع جوانب نموه العقلي والجسدي والنفسي والاجتماعي، فالإنسان هو المخلوق الوحيد القادر على التذوق الجمالي؛ لما أودعه الله تعالى فيه من قدرات ومواهب وأحاسيس، ودعاه إلى ذلك في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، لتنمية الجوانب الجمالية لما في ذلك من منفعة ومتعة وفائدة للإنسان، فعلى سبيل المثال لا الحصر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:٢٧ و٢٨). فدعا إلى اكتشاف أنواع الجبال والثمرات وألوانها وأنواع وأشكال الطيور والأنعام والمياه.

والإسلام هو الدين الوحيد الذي دعا الناس إلى الاهتمام بالجمال وإلى أن يكون شعارا للمسلم، في المظهر والملبس والمسكن والمأكل والنفس والأخلاق، مما يبعث في النفوس السرور والسعادة، ويضفي الرونق على الحياة. وقال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ (فاطر:١٠)، فطيب الكلام هو من الجمال في القول والتعبير والتفاهم مع الآخرين وإصلاح



ذات البين. وقال تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ (الكهف:١٩)، ففي هذه الآية دعوة لتذوق الطعام وانتقاء أطيبه وأكثره حلاة وطعما، وهنا يظهر الحس الجمالي في الآية في جانب من جوانب الحياة. وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما طابت رائحة عبد قط إلا قل غمه، ولا نظفت ثيابه قط إلا قل همه». وروي عن عامر ابن سعد أن النبي ﷺ قال: «إن الله نظيف يحب النظافة، وجميل يحب الجمال، وجواد يحب الجود، وكريم يحب الكرم، وطيب يحب الطيب». وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة» (رواه الترمذي).

إحساس الطفل بالجمال

يقع على عاتق الوالدين والمربين دور مهم في جعل الأطفال يستشعرون منذ نعومة أظفارهم أن هذا الكون الذي أوجدهم الله فيه ممتلئ بمظاهر الجمال وعلاماته، وأن يحركوا فيهم مشاعر التأمل في هذا الجمال الكامن في الإنسان والحيوان والنبات والبر والبحر بتناسق تام، فمثلا: تشجيعهم على إدراك الفرق بين مفهوم الجمال الحسي والجمال المعنوي كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ (النحل:٥ و٦).

فتنمية الحس الجمالي لدى الطفل بتذوق جمال الأشياء لا تكون من خلال مادة دراسية، وإنما من خلال جميع المواد الدراسية، ومواقف الحياة، ومن خلال التدريب والتعلم والتعرض المستمر للبيئة المفعمة بالأشياء من حولنا، والثناء ولفت النظر إلى المواطن الجمالية والفنية، وفي كل المواقف الحياتية واليومية. وهذا يبدأ منذ وقت مبكر من حياة الطفل، لأن مرحلة الطفولة هي المرحلة الأساسية لخلق الوجدان البديعي والحس الجمالي الراقي، مما يعني أهمية التنشئة الاجتماعية ودور مؤسسات التنشئة، كالأسرة والروضة والمدرسة ووسائل الإعلام، في إثراء بيئة الطفل بالمفردات وبالوسائل المحسوسة لتنمية إمكاناته الحسية والإدراكية.

وإذا عاش الطفل في عالم ينمي لديه الإحساس بجمال الأشياء، فلابد أن ينعكس ذلك على سلوكياته ونواحي حياته، فمثلا: يحسن انتقاء ملابسه، ويهتم بأناقته ونظافته وبمظهره وهندامه، ويعتني بحاجياته وألعابه وأماكن جلوسه وعيشه. وعموما، فإن الجمال يصاحب الترتيب والنظافة والتناسق والسلوك الجيد. والطفل الذواق هو الذي يهتم بذلك كله، ويشعر بالفرح والمتعة عندما يمارسه، وعندما تقع حواسه على الأشياء الجميلة، ويصبح يمارس هوايات تضفي على حياته الرونق والجمال، كالرسم والزخرفة والنحت وكتابة الشعر وزيارة المعارض وتصوير بعض المشاهد الجميلة من الطبيعة والكون من حوله.

والأهم من ذلك كله أن التأمل في جمال الكون وروعة الطبيعة بألوانها الساحرة من حولنا وعظمة مخلوقات الله تعالى بألوانها وأشكالها التي لا تعد ولا تحصى في البر والبحر والفضاء، يجعل الإنسان يدرك تماما أن لهذا الكون خالقا واحدا نظم الكون بانتظام واتساق وجمال تفوق الوصف، فمهما حاول الإنسان أن يرسم أشياء أو لوحات أو يبدع نماذج لمجسمات أو مخلوقات، فإنه لم ولن يستطيع يوما أن يخرج عن نطاق ما خلق الله في الكون. فخيال الإنسان مهما بلغ لن يخرج عن إطار مخلوقات الله تعالى، فانظر مثلا في تلك الأفلام الأجنبية التي تحاول إنتاج كائنات من صنع البشر للتمثيل، فإنها لابد أن تجعل لها من رأس وأيد وأرجل وحواس، ولم تستطع أن تبدع أكثر من ذلك، بل إنها

كثيرا ما تشوهها بدلا من أن تضفي جمالا عليها، وهذا حتى ينطبق على ما حاول الإنسان تصوره عن أشكال المخلوقات الفضائية التي يتوقع الإنسان أنها تعيش في عوالم أخرى في الكون.

طرق تدريب الحس الجمالي

إن الأسرة والمدرسة هما أهم طرفين يمكن أن يعملا على تنمية الناحية الجمالية والتذوق الحسي لما يواجهه الطفل، مع حرصهما على إبداء الرضا عن السلوك الجميل والشيء الجميل، والتنويه إلى مواطن الجمال دائما. وأقترح تاليا على الوالدين والمربين بعضا من الطرق التي أرجو أن تكون مفيدة في تنمية الطفل وتدريبه على التذوق الجمالي وإنعاش الحس الجمالي والفني لديه ومنها الآتي:

- اصطحب طفلك دوما إلى الطبيعة؛ لمشاهدة جمال الأشجار والأنهار أو البحار والجبال والكائنات، كالحيوانات والطيور، والثمار، كالفاكهة، والاستمتاع بألوان الطبيعة، ولفت نظر الطفل إلى تلك النواحي الجمالية والفنية، وتصويره معها، وجعله يتفاعل معها من خلال حواسه المختلفة، السمع والبصر واللمس، فيتلمس بعض ما يرى من الطبيعة، ومناقشته في جمالها، وفي ما يعجبه فيها، وفي ألوانها، وتذكيره بالخالق لها، وبقدرة الله تعالى في كونه.
- عود طفلك على احترام الأماكن العامة والطبيعية التي يزورها، والعناية بها، والمحافظة على سلامتها ونظافتها.
- اصطحب أبناءك لزيارة المتاحف والأماكن الأثرية والمعارض الفنية والثقافية المتنوعة؛ لرؤية ما أنتجته الحضارات السابقة والحالية وتذوق جمالها وفنها، كفسيفساء ونقوش ومنحوتات وحلي وأدوات فخارية وزجاجية ومعدنية وقدور ومسكوكات نقدية ورسومات.. مما قد يثير لدى الأبناء الجانب الإبداعي والإنتاجي وهو المأمول منهم.
- اعرض على الأطفال لوحات لصور من الطبيعة وناقشهم فيها. كما أنصح بذلك المعلمات داخل الصفوف الدراسية والروضة ومناقشة الأطفال فيها؛ لتنمية الجانب الجمالي في ما يشاهدونه في اللوحة.
- شجع أطفالك على رسم مشاهد جميلة من الطبيعة بألوانها الجذابة، لأن هذا الرسم هو دعوة للتفكر في الكون ومخلوقات الله تعالى وتذوق الجمال الذي تتضمنه.
- أظهر دوما الاهتمام بالعمران القديم والحديث وأشكاله وفنونه لمحاولة غرس هذا الجانب في نفوس الأبناء بالثناء على الأبنية الجميلة والجذابة أمام الأطفال، وتشجيعهم على إبداء الرأي فيها وفي جوانب الفن والإبداع الذي تتضمنه، فقد ينشأ من بين أبنائك مهندسون مهرة ومبدعون.
- قم دوما وقدر استطاعتك باصطحاب أبنائك في رحلات سفر خارج بلدهم من أجل مشاهدة البلدان الأخرى وجمال الطبيعة من بحار وأنهار وجبال ومدن أخرى، فالعالم كتاب مفتوح، ومن لا يسافر لا يقرأ غير صفحة أو صفحات قليلة منه، ولا يتفتح ذهنه إلا بقدر محدود.
- اسمع الأطفال قصصا متنوعة وناقشهم بها، لأنها تدرب لديهم الحس الجمالي الخيالي من خلال ما يسمعونه.
- شجع أبناءك الصغار والمراهقين على القراءة لأنها تنمي لديهم الحس المعنوي، وتعينهم على التصور الخيالي لما يقرأون، مع محاولة الانتقاء الجمالي والأدبي لشكل الكتاب ومضمونه.
- شجع أبناءك على العناية بالكتب والحفاظ عليها نظيفة مرتبة، وفي هذا نوع من أنواع التربية الجمالية ونوع من أنواع الارتقاء بالحس الفني.
- شجع أبناءك الذين ينظمون الشعر أو يتذوقونه، وعلى سماع أو كتابة بعض الأناشيد الهادفة التي تنمي لديهم الذوق السماعي، وكذلك التدرب على أحكام تجويد القرآن الكريم لتنمية الحس الجمالي والسماعي.
- حضور بعض المسرحيات الهادفة أو الثقافية أو التعليمية على المسرح، مما يعين على الاطلاع على كواليس المسرح من فنون الإضاءة والصوت والإخراج، فالمسرح قد يقوم بدور مهم في مجال التربية المعرفية والفنية والجمالية لدى الطفل، وهو من العوامل التربوية والثقافية المهمة إذا أحسن توظيفها للتربية، وكذلك التلفزيون والإنترنت وليس فقط للأطفال بل حتى للمراهقين، مع محاولة الانتقاء والمراقبة لما تعرضه هذه الوسائل حتى لا ندخل في الآثار السلبية.

وختاما

أؤكد على دور الأسرة أولا وأخيرا - وقبل المدارس - في تنمية الحس الجمالي السامي لدى الأبناء، فالأسرة هي القادرة على زراعة هذه البذور ورعايتها وصقلها بمختلف الوسائل والأساليب وأفضلها. فالأسرة التي لا يقرأ فيها الآباء الكتب والصحف، ولا يشاهدون البرامج الثقافية، ولا يسافرون، ولا يزورون المتاحف العلمية والتاريخية والطبيعية والمعارض الفنية والثقافية، ولا يمارسون هوايات معينة تضفي على حياتهم الرونق والجمال.. فإنهم لا يتمتعون بشكل كاف بالحس الجمالي وبالذوق الرفيع في التعامل مع الأشياء، وبالتالي سيصعب عليهم أن يوفروا للطفل ثقافة راقية وحسا جماليا عصريا، وهو ما نحتاج إليه في واقعنا الحالي، لعلنا نستعيد بعض أمجادنا العربية والإسلامية السالفة والرقي بنواتجنا قدما في عالم سريع متطور.



صلة الأرحام

واجب لا يقتصر على الأعياد

حسن بن محمد - كاتب تونسي

أولى الإسلام عناية كبيرة لبناء مجتمع إسلامي متماسك وقوي، تسوده روح المحبة والرحمة والتكافل بين كافة أفراده ومكوناته، وذلك من خلال دعوته إلى التمسك بصلة الأرحام، والتي تعتبر من أفضل القربات إلى الله، ومن أعجل الخير والثواب في الدنيا وفي الآخرة، ولقد جاءت العديد من آيات القرآن الكريم تحث على صلة القربى، وتدعو إلى التمسك بها، وتنهى عن قطعها، ومن ذلك ما ورد في سورة الأنفال حيث يقول الله تعالى ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ (الأنفال:٧٥)، وفي سورة النحل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٩٠).

كما حذر الله سبحانه وتعالى من العواقب الوخيمة لقطع الأرحام في الدنيا وفي الآخرة، حيث يقول في سورة محمد: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (محمد:٢٢-٢٣).

ولذلك فإن صلة الرحم هي عنصر بارز في منظومة الأخلاق في الإسلام، وهي تعتبر ضمانة لسلامة المجتمع وتماسكه وقوته، ولها معان عديدة، فهي تشمل القريب في النسب، والجار في السكن، ولقد أمر المسلم أن يكون واصلا لرحمه، محسنا لجاره، لأن تماسك المجتمع وسلامته يكمنان أساسا في الحفاظ على صلة الرحم وحسن الجوار.

وإن من بركات صلة الرحم أن الله سبحانه يوسع لواصل رحمه في رزقه ويدفع عنه ميتة السوء، حيث قال ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»، وحذرنا نبينا ﷺ من العواقب الوخيمة المترتبة عن قطع صلة الرحم، مهما كانت الأسباب الدافعة إلى ذلك، حيث أكد أن قاطع الرحم لا يدخل الجنة، ولذلك ينبغي على المسلم ألا يقوم باتباع مبدأ المعاملة بالمثل، وألّا يقابل السيئة بالسيئة، فالمعنى الحقيقي لصلة الأرحام أن يصل من قطعه، ولا يقصرها على من يصله فقط، حيث قال ﷺ «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها».

ويبقى الحديث النبوي الشريف «لا يدخل الجنة قاطع رحم» بمثابة الحافز والدافع القوي لجميع المسلمين لتكثيف التواصل الأسري والاجتماعي بين أفراد العائلة والأقارب، في الأيام العادية كما في الأعياد والمناسبات الخاصة، فالتزاور يدخل -عادة- الفرح والسعادة والسرور على القلوب، ويخفف من وطأة الشدائد والمحن.

ولكن اليوم نرى أن عددا كبيرا من المسلمين أصبحوا مقصرين في أداء هذا الواجب العظيم، وأصبح القيام به موسميا، ويكاد يصبح مقتصرا على الأعياد والمناسبات الخاصة، وهذا يعتبر من مظاهر الخلل والتقصير الذي نهى عنه الإسلام، لأن جعل صلة الأرحام مقصورة على الأعياد والمناسبات أمر غير محمود، وسلوك غير أصيل لكل مسلم متمسك بدينه وبسنة نبيه ﷺ، بالرغم من كثرة الأعذار التي يقدمها الناس اليوم، وتعللهم بأننا نعيش في زمن يوصف بعصر السرعة، حيث كثرة مشاغل الحياة وتعقد تفاصيلها، الأمر الذي لا يتيح الوقت الكافي للقيام بواجب صلة الأرحام.

إن صلة الأرحام كانت في الماضي تعتبر أحد الفروض الدينية والاجتماعية المقدسة لدى السلف الصالح، ولكنها اليوم بدأت تشهد فتورا وتراجعا بشكل ملحوظ، خاصة في ظل تسارع نسق الحياة وتعقد تفاصيلها، فاقتصر القيام بها على المناسبات العامة، مثل الأعياد والمناسبات الخاصة، كحفلات الزواج، وباستثناء تلك المناسبات لا توجد صلة رحم حقيقية ومستمرة بشكل دائم، كما كان الأمر سائدا في ماضي المسلمين، حيث كان التواصل حميميا ومتينا بين الأهل والأقارب في جميع الأوقات والمناسبات.

وقد شق الله سبحانه وتعالى لها اسما من أسمائه ووعد بوصل من يصلها، وقطع من يقطعها.



العقيدة..
ودورها في التنمية الاقتصادية

أحمد العبادي
باحث إسلامي

العقيدة هي اللبنة الأساسية التي ينبني على صرحها كل بناء متين، وبقدر صلاحها يصلح كل شيء في المجتمع والعكس بالعكس، فهي القوة المعنوية التي تبعث في الإنسان الحماس ليعمل بجد ونشاط، فالجندي -مثلا- «الذي يحمل أفتك الأسلحة إذا لم يتسلح بروح معنوية قوية مبعثها العقيدة لا تجدي معه الأسلحة الفتاكة شيئا» (١).

والكلام عن العقيدة ليس «استهواء خلابا يخدر عقول العامة وضمائر الجماهير بألفاظ ضخمة فقدت دلالتها ومعناها وفاعليتها، أو عبارات فخمة يلوكها مدعو عصرية، من باعة الكلمة وتجار القلم. وليس جذبة شطحات هائمة في تيه السراب، تسقط الأمة في غيبوبة عن الوعي، وتعطل إدراكها لسنن الكون والحياة، وتريحها من مكابدة هموم يقظتها وتكاليف وجودها ومسؤولية أمانتها وتبعات المصير» (٢).

وهذا ما يميز المسلم عن غيره، لأن كل نشاطه يتمحور حول العقيدة، فحركته وسكونه لله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ (الأنعام:١٦٢).

ويعلق سيد قطب -رحمه الله- على ذلك بقوله: «إنه التجرد الكامل لله بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة، بالصلاة والاعتكاف وبالمحيا والممات، بالشعائر التعبدية وبالحياة الواقعية، وبالممات وما وراءه، إنها تسبيحة التوحيد المطلق والعبودية الكاملة، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات وتخلصها لله وحده.. في إسلام كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يعبدها لله، ولا يحتجز دونه شيئا في الضمير ولا في الواقع» (٣).

إن استحضار هذا البعد يجعل الإنسان المؤمن يجد ويخلص في كل الأعمال التي يباشرها، مما يؤثر على مردوده إيجابا. والمتأمل في مكانة العقيدة في المنظومة الاقتصادية في حياة المسلم يجد أنها تتمحور حول جانبين اثنين:

الأول – ممارسة النشاط الاقتصادي كجزء من العقيدة، فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الجمعة: ١٠)، فالمشي في مناكب الأرض والانتشار فيها ابتغاء رزق الله وعطائه -عوامل إنتاجية- أوامر إلهية يعتبر النكوص عنها تحت أي مبرر من المبررات انحرافا عقديا. وبذلك فالمؤمن مطالب بأن يضع نصب عينيه كلما أقبل على عمل أو كلف بمهمة أنه مسؤول أمام الله قبل أن يكون مسؤولا عنه أمام مرؤوسيه. وهذا الوعي هو الذي يولد في نفس المسلم التفاني في العمل والإخلاص فيه، فينتقل بذلك من مزاولة العمل باعتباره عادة إلى جعله عبادة. بمعنى آخر، إن الواجب العقدي يملي على الإنسان ضرورة الانخراط في العمل التنموي حتى يصبح عنده خيارا لا محيد له عنه، لأن «اعتناق العقيدة الإسلامية يفرض على المسلم الاضطلاع بواجب التنمية الذي استخلف من أجله. كما يفرض على الجماعة الإسلامية وعلى الأمة الإسلامية القيام بهذا الواجب الديني الذي يضمن لها أن تظل كما وصفها الحق سبحانه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠) فكل فرد مسؤول عن جهده في القيام بالواجب» (٤). ويبين النبي ﷺ ارتباط البعد الديني بالدنيوي فيقول: «إن من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الوضوء ولا الحج ولا العمرة. قيل فما يكفرها يا رسول الله؟ قال: الهموم في طلب المعيشة» (٥)، تعبيدا منه عليه السلام للفعل الإنساني المحض.

الثاني – تشبع الممارس للنشاط الاقتصادي بتوجيهات العقيدة؛ ليشع نورها على سلوكه ومعاملاته. والناظر في أحكام المعاملات المالية وآدابها يلمس ذلك جليا، كما في الأمر بالتزام السماحة في البيع والشراء، والنهي عن التدليس والغش.. وهو ما عبر عنه النبي ﷺ في قوله للتجار وهم يتبايعون فناداهم ﷺ «يا معشر التجار» فاستجابوا لرسول الله ﷺ ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال ﷺ: «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق» (٦).

وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. قلنا: من هم يا رسول الله فقد خابوا وخسروا؟ فقال: المنان والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» (٧).

إن تتبع نصوص الشريعة يبين أنها تربط بين السلوكين العقدي والاقتصادي وفق حالتين اثنتين:

الأولى – الكفر والطغيان مقابل الشدة والعسر، كما في قصة شعيب عليه السلام مع أهل مدين ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ (هود:٨٤-٨٧).

لنتوقف عند الأمر الإلهي الأول ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فهو ربط للمخلوقين بالخالق، بعد ذلك حذرهم من سلوك اقتصادي مشين عرفوا به ألا وهو التطفيف في المكاييل والموازين ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، فكان رد فعل القوم ما عبروا عنه وكلهم دهشة واستنكار ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾، فكانت نتيجة بغيهم وعتوهم ما حكاه الحق عزوجل، فبعد نجاة الثلة المؤمنة، تحقق الوعد الإلهي حيث ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ (هود:٩٤-٩٥).

ولا تتغير سنة الله ولا تتبدل، ففي قصة أصحاب الجنتين عبرة أخرى نتبين من خلالها ارتباط العقدي بالاقتصادي ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ (الكهف:٤٢)، فاغترار هذا الجاهل بما ملّكه الله إياه قاده إلى العصيان والغي، فكانت النتيجة أن «أحاط الهلاك والجوع بثمره، وهي صنوف ثمار جنته التي كان يقول فيها ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ فأصبح هذا الكافر -صاحب الجنتين- يقلب كفيه ظهرا لبطن تلهفا وأسفا على ذهاب نفقته التي أنفق في جنتيه» (٨).

إنها النتيجة الطبيعية للأمن من مكر الله والاغترار بالنعمة وعدم شكرها.

الثانية - في مقابل هذا نجد للإيمان أثرا فعالا في الاستزادة من النعم والحفاظ عليها وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ (نوح:١٠-١٢). وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأعراف:٩٦).

ومنه يتضح قصور أي تصور يفصل الجانب العقدي عن عملية التأهيل الاقتصادي.

وبذلك تكون مقولة إن الإيمان شأن خاص يهم العبد بربه ولا صلة له بالشؤون الاقتصادية والسياسية والعسكرية... مجانبة للصواب، لأن من شأن هذا التفكير أن يخلق شرخا بين قناعات المرء وبين سلوكه العملي، هذا إذا تحدثنا بلغة الفرد، أما إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية الجماعة، فلنقل إن هذه المقاربة الوثنية هي التي سلخت الأمة عن فطرتها وجعلتها تعيش حالة من التيه والضياع لفترة ليست بالقصيرة.

ونافلة القول إنه يمكننا الجزم بأن تحقيق التنمية المادية لابد أن يقترن بتنمية القيم الروحية، لأن هذه الأخيرة بمنزلة الطاقة التي تمد الروح المعنوية بالقوة، وحيثما اجتمعتا سنكون على يقين من الرعاية والمعية الإلهية وذلك «بالتقاء عطاء الله من السماء والأرض: نماء وبركة، بعطاء الإنسان: طاعة وتقوى، فتكون النتيجة أن يحفظ الله الخيرات على أهل المجتمع» (٩)، ولهذا يجب على الأفراد والجماعات -الدولة- استحضار هذا البعد عند كل تخطيط اقتصادي، صغيرا كان أم كبيرا، لدوره الفاعل في الدفع بالعمل التنموي إلى الأمام، هذا في الدنيا، ثم لتحسين الصلة بالله تعالى وتجديد النية والعزم عند الإقبال على أي عمل كيفما كان نوعه لنحقق المثابتين، وبخلاف ذلك «فإسقاط البعد الغيبي بالمفهوم الإسلامي وتراجع فكرة الثواب والعقاب وعدم تجاوز عالم الشهادة إلى المستقبل الأبعد -عالم الغيب- والتحضير له عن خطط ومخططات التنمية بمفهومها الشامل تحت ضغط المجتمعات المادية أو التفسير المادي للحياة، واعتماد الإنسان الاستهلاكي ومساحة الاستهلاك مقياسا للنمو يؤدي إلى إصابات نفسية وسلوكية واجتماعية تعوق العمل التنموي» (١٠).

الهوامش

١ - العقيدة والقوة معا، محمد السمان، ص١٧٧، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ-١٩٨٤م، دار الجيل، بيروت.

٢ - انظر القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبدالرحمن، ص٤٠٥، الطبعة الأولى، يناير ١٩٧٢م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

٣ - في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٣، ص١٢٤٠-١٢٤١، الطبعة الرابعة والعشرون، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، دار الشروق.

٤ - الطريق إلى المعجزة الاقتصادية وتحول الدول النامية إلى دول متقدمة، أحمد علي دغيم، ص١٣٠، الشركة العربية للنشر والتوزيع.

٥ - كنز العمال رقم ١٦٦٤٠.

٦ - رواه الترمذي، كتاب البيوع، باب: ما جاء في تسمية التجار وتسمية النبي إياهم، رقم ٣٤٤٢.

٧ - رواه الحاكم في المستدرك، كتاب: الأشربة، ج٤، ص١٤٧.

٨ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ج١٥، ص٢٥٠، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م، دار الفكر، بيروت.

٩- التنمية من منظور إسلامي، زكريا القضاة، ج٢، ص٧٢٨، منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، الأردن ١٩٩٤.

١٠ - التنمية الاقتصادية في المنهج الإسلامي، سلسلة كتاب الأمة، ع١٧، ص١٢، مقدمة محمد عبيد حسنة.

المخطوطات القرآنية النادرة في المكتبات المغربية

ياسين محمد كتاني
باحث دراسات إسلامية

بعد أن تحدثنا عن خزائن الكتب المغربية وتقسيم محتوياتها - في مقال سابق - إلى فهارس ومجاميع وكناشات ها نحن نشرع اليوم في تسليط الضوء على درر من محتوياتها، ونخصص هذا المقال للمخطوطات النادرة والفريدة، وعلى رأسها المخطوطات القرآنية؛ حيث كان جمع القرآن وكتابته من أكثر اهتمامات المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وقد شاع استعمال «جمع القرآن» للدلالة على الكتابة والتدوين، وترتيب الآيات والسور في مصحف واحد.



ومن الطبيعي أن تكون عناية المغرب بالمصحف الشريف من أهم أسباب استقرار الإسلام بهذه البلاد، وقد كان في دعاء الإمام الفاتح، إدريس الثاني، بعد بناء مدينة فاس: «اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة، ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد فيها، ويتلى كتابك، وتقام فيها حدودك، وشرائع دينك، وسنة نبيك ﷺ ما بقيت الدنيا...».

ومدينة فاس هي مدينة مغربية شيدت سنة (١٩٢هـ - ٨٠٨م)، على يد الأمير إدريس الثاني ابن أمير المؤمنين إدريس الأول ابن عبدالله الكامل بن الحسن المثنى ابن أمير المؤمنين الحسن ابن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وتظهر عناية أهل المغرب بالمصاحف في كون النُسّاخ الكبار قد رسموا النسخ القرآنية وأكثروا منها، كما فعل ذلك الخلفاء أنفسهم في بعض الأحيان، فقد رسم العاهل الموحدي عمر المرتضى مصحفا من عشرة أجزاء، وأوقفه في أحد مساجد مراكش. وعمر المرتضى هو عمر بن أبي إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبدالمؤمن. اقتصر حكمه على مراكش من سنة ١٢٤٨م إلى وفاته سنة ١٢٦٦م، وهو آخر من اهتم بالخزانة الموحدية، التي صارت من بعد الموحدين إلى دولة المرينيين. ولا تزال حاليا بعض المؤلفات في خزانة القرويين برسم خزانة الخليفة عمر المرتضى، منها مخطوطتان تحت رقم (٢٩١-٢٩٦).

كما خصصت خزائن خاصة بالمصاحف، وأول من قام بهذا المشروع هو الخليفة المريني أبو عنان (ت ١٣٥٨م)، حيث أمر-بعد الانتهاء من بناء خزانة كبيرة للقرويين سنة ١٣٤٩م- ببناء خزانة كتب صغيرة تضم -فقط- نسخ القرآن الكريم.

ومن أنفس نسخ القرآن الكريم التي عثر عليها في المغرب وأندرها هي:

مصحف عثمان رضي الله عنه

بعد أن جمع عثمان رضي الله عنه القرآن الكريم في مصاحف ووزعها على الأمصار لتكون بمنزلة المرجع في قراءة القرآن وكتابته، عُثر على نسخة من هذه المصاحف في قرطبة في إسبانيا، وهي النسخة التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى البصرة أو الكوفة. وحين فتحت قرطبة وصارت تابعة للمغرب، قام العاهل الموحدي عبدالمؤمن سنة ١١٥٨م، بنقل هذه النسخة من المصحف إلى مراكش، عاصمة الدولة في ذاك الوقت. وقد ذكر ابن خلدون رحلة هذا المصحف إلى أن استقر في خزائن بني مرين، حيث قال: «... وإنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبدالرحمن الداخل، ثم صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليه من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس، ثم إلى خزائن الموحدين من خزائن لمتونة، وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين».

ولتاريخ هذا المصحف وارتباطه بعصر الصحابة كانت له مكانة رفيعة، خصوصا عند الموحدين، فقد كانوا يحملونه بين أيديهم أينما ذهبوا على ناقة حمراء محلاة بأنفس الثياب والديباج الفاخر، ويضعون تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها، إلى أن غاب هذا المصحف عن الأنظار، ولم نعد نسمع به منذ بداية القرن الرابع عشر.

مصحف محمد بن عبدالله ابن تومرت

يأتي هذا المصحف في المرتبة الثانية، بعد مصحف عثمان رضي الله عنه، من حيث المكانة، فقد جاء في كتاب «المعجب» للمراكشي، بعد أن ذكر مكانة مصحف عثمان: «... وخلف الناقة -التي كان يحمل عليها مصحف عثمان رضي الله عنه- بغل محلى أيضا، عليه مصحف آخر يقال إنه بخط ابن تومرت، دون مصحف عثمان في الجرم، محلى بفضة مموهة بالذهب». وتوجد أجزاء منه في دار الآثار بمدرسة الأوداية بالرباط، وأجزاء أخرى بخزانة كلية ابن يوسف بمدينة مراكش.

مصحف عقبة بن نافع

وهو مصحف كبير محلى بالذهب والياقوت، كتبه له أحد معاونيه بالقيروان الأولى، وهو أول مصحف معروف في المغرب. ظل محفوظا في المكتبة الملكية إلى أن أرسله الملك العلوي مولاي عبدالله إلى المدينة النبوية ووقفه هناك مع مجموعة من نفائس الكتب. وفي هذا يقول الزياني في «البستان» في سياق حوادث عام ١١٥٥هـ: «ولما سافر الركب النبوي وجه معه السلطان المولى عبدالله ثلاثة وعشرين مصحفا - بين كبير وصغير- كلها محلاة بالذهب، منبتة بالدر والياقوت، ومن جملتها «المصحف الكبير العقباني»، الذي كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثماني، وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري، نسخه في القيروان من المصحف العثماني، فوقع هذا المصحف بيد الأشراف الزيانيين يتداولونه بينهم، إلى أن بلغ إلى السلطان المولى عبدالله المذكور، فغربه من المغرب إلى المشرق، ورجع الدر إلى صدفه، والإبريز إلى معدنه». وقد غاب هذا المصحف أيضا عن الأنظار وصار في عداد النوادر المفقودة.

وما زالت الخزانات المغربية تحتفظ بمصاحف قديمة ونادرة، مثل المصحف المحفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم ١٣٣٠، مكتوب على رق الغزال في سنة ٥٧٣هـ، ومصحف يعتقد أنه يعود إلى القرون الأولى من الهجرة، مكتوب على الرق من دون سنة النسخ.

وفي المكتبة العامة بالرباط توجد نسخة مذهبة مكتوبة على رق الغزال لجزء من القرآن، للخليفة أبي زيان في تلمسان (ت ٦٣٣ هـ)، محفوظة تحت رقم (ز٣٥٩٢).

كما أن هناك عددا كبيرا من

المصاحف النادرة تم نقلها إلى المكتبات الأجنبية، نذكر منها:
١ - المصحف الذهبي المرسوم بمداد العنبر: كان في خزانة العاهل السعدي أحمد المنصور (ت١٠١٢هـ)، وانتهى به الأمر إلى خزانة الأسكوريال في إسبانيا.
٢ - المصحف المرسوم بماء الذهب: كان في خزانة الأمير علي، حفيد الملك العلوي مولاي إسماعيل، وهو محفوظ اليوم في دار الكتب في القاهرة.
٣ - مصحف آخر مرسوم بماء الذهب: كان في خزانة الخليفة عبدالله الغالب، وهو محفوظ اليوم في المتحف البريطاني في لندن.

المؤلفات الفريدة

تعد المخطوطات الفريدة أحد الكنوز الهائلة التي تحتوي عليها المكتبات المغربية، نذكر منها:
١ - مخطوط في علم الأنساب: كتاب عنوانه «حذف من نسب قريش»، ويعد أقدم مخطوط عربي في العالم، عثر عليه في خزانة كتب زاوية تمكروت -إحدى أغنى الخزانات المغربية- لمؤلفه مؤرج بن عمرو السدوسي (ت١٩٥هـ). وقد تم نقل هذا المخطوط إلى الخزانة العامة بالرباط سنة ١٩٥٨م، بأمر من ملك المغرب محمد الخامس (ت١٩٦١م).
٢ - مخطوط للجاحظ: كتاب عنوانه «البرصان والعميان والحولان والعرجان»، فُقِد هذا المخطوط لفترة طويلة حتى عثر عليه العلامة عبدالحي الكتاني (ت ١٩٦٣م) في مكتبة مسجد مدينة «بزو» -مدينة صغيرة في وسط المغرب- وهو محفوظ في خزانة القرويين في فاس.
٣ - سيرة ابن إسحاق (ت١٥١هـ - ٧٦٨م): مخطوط في أربعة مجلدات، مكتوب سنة ٢٧٠هـ، عثر عليه الحافظ العراقي (ت ٨٠٦هـ)، في قاعة قديمة مغبرة في خزانة القرويين.
٤ - مخطوط: عنوانه «الحوض» المشهور بـ«أوزال»، للعالم المغربي الحوزلي السوسي (ت١١٦٢هـ)، وهو ترجمة لـ«مختصر خليل» باللغة البربرية (الأمازيغية) -لغة أهل الجنوب المغربي- وهو محفوظ في الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٦٠١٤.

المخطوطات الملكية

وهي المخطوطات التي كتبها الملوك بأيديهم أو بإشارة منهم.
أولا - المخطوطات التي كتبها الملوك بأيديهم، منها:
١- مخطوط أمير المؤمنين ابن تومرت -صاحب المصحف النادر-: وهو أحد كنوز القرويين، كتاب في الحديث الشريف، يسمى «محاذي الموطأ»، محفوظ تحت رقم ١٨١، علما بأن أسماء المترجمين في المخطوط مكتوبة بماء الذهب على رق غزال مذهب.
٢- مخطوط السلطان العلوي مولاي إسماعيل (ت ١١٣٩هـ)، عنوانه «مجموعة أحاديث نبوية، وأسرار جلية، وأمثال عربية»، وهو محفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم ز١٩٨٢.
ثانيا - المخطوطات التي كتبت بإشارة من الملوك، منها:
١- ديوان في نسب الأشراف: كتاب ألفه العالمان إدريس بن عبدالوهاب العلمي وأحمد بن عمر العلمي، بإشارة من الملك مولاي سليمان (ت١٨٢٢م)، بهدف تمييز أحفاد الرسول ﷺ عن غيرهم من المنتسبين المدعين.
٢- إدراك الأماني من كتاب الأغاني: وهو صياغة جديدة لكتاب الأغاني للأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، وهو عمل عبدالقادر المدعو السلاوي بن عبدالرحمن الأندلسي ثم الفاسي، بتوجيه السلطان محمد بن عبدالله (ت ١٢٠٤هـ). والكتاب لا يزال مخطوطا في خمسة وعشرين جزءا، رقمه في الخزانة الملكية ٢٧٠٦.

المخطوطات الخزائنية

وهي المخطوطات التي كتبت بخط جميل مميز، بعناوين ملونة وأحرف كبيرة، ومجلدة بغلاف جميل، وقد تكون محلاة بالفضة في بعض الأحيان.
وقد تميزت بغلاء ثمنها، فكان المولعون بالكتب ينفقون مبالغ باهظة في سبيل الحصول عليها واقتنائها. والمكتبات المغربية غنية بهذه المخطوطات التي نذكر منها:
١- الجوهر الثمين في نخب سير الأمين: ألفه عبدالنبي بن جماعة، وهو مخطوط مكتوب بماء الذهب بخط مشرقي جميل، موضوع داخل صندوق مغشى بنسيج من الحرير. وهو محفوظ في الخزانة الملكية برقم ١١٦٩.
٢- شرح لامية الأفعال: ألفه العلامة أبو عبدالله محمد بن عبدالسلام الفاسي (ت١٢١٤هـ)، وكان أستاذ السلطان العلوي مولاي سليمان (ت١٨٢٣م)، مخطوط مكتوب بخط مغربي جميل، مزخرف العناوين، مغطى بغلاف ذهبي، محفوظ في الخزانة الملكية برقم ١٢٧٦.
وفي الختام، مهما تكلم الباحث في محتويات هذه الخزائن فلن يوفيها حقها؛ لما تحتويه من كنوز تعد بحق تاريخا تراثيا لا يمكن فصله عن أصل هذه الأمة العريقة، وإني إذ عرضت لبعض هذه النفائس فإني تركت ذكر الكثير منها لأحيل القارئ الكريم إلى المراجع التي ذكرتها بتفاصيلها، لتثبت لنا قيمة العلم والثقافة في أمتنا الإسلامية (أمة اقرأ).

المصدر: *كتاب «تاريخ خزائن الكتب بالمغرب» للدكتور أحمد شوقي بن بين، ترجمة الدكتور مصطفى طوبي. وإن أغلب ما ورد في هذا العرض المتواضع استقيته منه، بتصرف يسير.

العطاء في القرآن

د. محمد سعيد باه
مفكر سنغالي

سندير مناقشتنا للموضوع في ظلال قوله، جل شأنه، حيث يلخص لنا الرؤية المنهجية التي يجب أن تحكم فهم الإنسان المسلم ومسلكه، حين يتعلق الأمر بدوره في إسناد من هم في مسيس الحاجة إلى من يعينهم على تجاوز بعض لحظات القصور التي تنتاب كل إنسان:

﴿أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ (المؤمنون:٦١).

ثم، من المسلمات أن جل ما يتلقاه الإنسان المسلم من شحنات تربوية مرقية لذاته أو مهذبة لروحه، إنما يبدأ ويندرج في إطار السعي إلى تخليصه من معوقات نفسية تجعله يعيش في حالة انكفاء يوصف من يصاب به، وفق التعبير القرآني، بأنه ممن ﴿أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ (آل عمران: ١٥٤) (١). فهذا الصنف ممن ينتمون إلى الإسلام لم يستوعبوا جوهر رسالة الإسلام التي تقوم على ركائز، منها أن من يعيش لنفسه يعتبر عنصرا سلبيا لا يفي بالتزاماته تجاه الجماعة الحاضنة، التي يفرض عليه التزامه العقدي بأن يدخل معها في شراكة واسعة.

ومع نصاعة هذه الحقيقة وتضافر الأدلة المؤكدة لها، ظللنا، نحن المسلمين، طيلة السني الأخيرة نكثر من الجؤار من أن الآخر يستغل ثغرات العوز في صفوفنا، كي يتسلل إلى قلب الحصن، حاملا بذور الفتنة ليضعها وفسيلة الضلال ليزرعها هناك، أو ما أسميه بالامتداد في فراغ قائم ثمة، لكن السؤال الذي كان يطرح أقل من ذلك يتمثل في: ما الذي أوجد هذه الثغرة في جدارنا، أو ما الذي جعلنا قابلين للاختراق عبر هذه الثلمة بالذات ونحن نملك كل هذه الأرصدة من المحفزات على العطاء الثر وبأزهى صوره؟!

بعد طول تأمل في هذا الشق من أزمتنا الحضارية، وبالأخص في ما يتعلق بالعلاقة مع الغير المسيطر ونحن نحمل له متاعه الذي اختلسه من ديارنا، أو عندما نشتبك في صراع محتدم مع هذا الغير وقد بلغ التدافع أوجه، وجدت أن التوقف عن العطاء، بمعناه الشامل الأصيل، شكل ثلمة كبيرة ومتزايدة الحجم، مع أن النص الذي نتعبد الله به يجعل العطاء مرتكزا لا يحسن تديننا إلا باكتماله حتى إذا تخلف اعتبر ذلك منقصة وأي منقصة مع إدراج من نجا من التقصير ممن حقق شرط الانخراط في سلك الفالحين:

﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ (الحشر:٩).

من اللطيف واللافت هنا أن نسجل أن هذا المقطع الذي نستهدفه في الآية قد تكرر وروده في قوله تعالى:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ



﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن:١٦)، كما نلحظ أهمية السياق الذي جاء فيه هذان التوجيهان التربويان في مجال تنمية حس العطاء على المستويين الفردي والجماعي، وذلك في السورتين:

ففي سورة الحشر (٢) ورد التوجيه إثر ثلاث آيات تعالج قضايا الدفع إلى اقتسام ما يتوافر لدينا مع الآخر المحتاج، العمل الذي وصف في سورة البلد بأنه فعل من نوع خاص، ما برر اختيار مصطلح خاص للتعبير عمن ينجح في ذلك بأنه قد (اقتحم العقبة) فإذا قلبنا الصفحات في التغابن نجد التوجيه يندرج ضمن حشد من التعاليم العالية تتجمع لتشكل منظومة في مجال الحث على البذل والعطاء لمنفعة الآخر مع توظيف صيغة الأمر دون وجود قرينة صارفة له عن الوجوب، ولحق ذلك ترتيب ثواب دافع للتطلع إلى ما عند الله من مدخل إقراض الله الكريم المنان وانتظار المثوبة المضاعفة:

﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ (التغابن:١٧).

حين نستشعر بعمق وبجدية ما تتضمنه هذه التعاليم الربانية من معان جميلة ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ (الذاريات:١٩)، وأن ما لدينا من طاقة وقدرات وإمكانات مجرد عارية قد تسلب منا في أية لحظة مع تحمل تبعة الحساب على ذلك ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ (الحديد:٧)، فإن قناعة مختلفة ستنشأ في أعماق وعينا، ويظهر لذلك أثر ندي في المجتمع من حولنا، وهنا نستحق التزكية العالية التي رصدت لطائفة خاصة ممن يدعون تحقيق مطالب هذه الحقيقة:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون:٦٠).

أما إذا بحثنا عن صورة تطبيقية للنهج الذي اختطه الإسلام لجعل المجتمع الإيماني قادرا على تحقيق مطلب إحداث «حالة الاستنفار» لفعل الخير بدافع ذاتي تم تجريده من كل الحسابات التي اعتاد الناس أن يراعوها وهم يمدون يد العون لغيرهم، فقد لا نجد أروع من اللفتة التي قام بها الكليم وهو غريب طريد لكنه لم يتعلل بهذا كله، ها هو المشهد يرتسم أمامنا بكل تفاصيله:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (القصص:٢٣ و٢٤).

ومن أروع ما اختطه المنهج الإسلامي أنه لن يترك أحدا من أفراد المجتمع الإيماني يتسلل من دائرة العطاء، أو يعفيه من فريضة بسط كف العطاء لمن يساكنه أو يلتقيه، وذلك للحيلولة دون انشطار هذا المجتمع إلى فريقين: أحدهما يبسط كف العطاء بعد كل موسم حصاد، والآخر يحترف مد يد التسول مطأطئ الرأس. لاستجلاء هذا البعد فلنتابع هذا الحوار الشيق:

- عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ماذا ينجي العبد من النار؟
- قال: الإيمان بالله.
- قلت: يا رسول الله، إن مع الإيمان عملا؟
- قال: يرضخ مما رزقه الله.
- قلت: يا رسول الله، أرأيت إن كان فقيرا لا يجد ما يرضخ به؟
- قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.
- قلت: يا رسول الله، أرأيت إن كان عييا لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر؟
- قال: يصنع لأخرق.
- قلت: أرأيت إن كان أخرق لا يستطيع أن يصنع شيئا؟
- قال: يعين مغلوبا.
- قلت: إن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مغلوبا؟
- قال: ما تريد أن تترك في صاحبك من خير؟! يمسك عن أذى الناس.
- فقلت: يا رسول الله، إذا فعل ذلك دخل الجنة؟
- قال: ما من مسلم يفعل خصلة من هؤلاء إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة.

إن هذا النص النبوي، الذي أعود إلى قراءته بين فينة وأخرى في محاولة لاستجلاء بعض دروسه وفتق بعض مكنونه، يكاد يكون، لو فهمناه في مضامينه الجلية واستنطقناه في مراميه الخفية، دستورا متكاملا لفعل الخيرات والتسابق في ميادينها، واختراع أروع البرامج واستحداث أطرف الوسائل لتفعيل الشعار الرائع الذي كان الخليفة الحصيف دائم الترديد له: «انثروا القمح على رؤوس الجبال لكيلا يقال: جاع طير في بلاد المسلمين»!

هلا رفعنا الشعار القرآني الذي يمزج مصادر الكمالات: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الأنبياء:٧٣).

الهوامش

١ - هم الذين يقرعهم القرآن بطرائق شتى تناهت في التبكيت، منها ما جاء على هذا النحو: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (آل عمران:١٨٠).

٢ - تتميز هذه السورة، من بين أشياء أخر، بأنها التي أرست قاعدة ذهبية في حسن التعاطي مع الثروات للحيلولة دون تكدس رؤوس الأموال والثروات في أيدي حفنة ممن نخر فيهم داء الجشع من خلال قوله تعالي ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر:٧)، وللتوسع يمكن الرجوع إلى مقالنا المنشور في مجلة الاقتصاد الإسلامي بعنوان: «دور القيم في بناء منظومة اقتصادية صالحة لإسعاد البشرية».



إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

خطأ المفتِي- أثره وضمانه- (٢/١)

اتفق السلف ومن بعدهم من علماء الأمة على خطورة مقام المفتي وأهميته، وقد صور الإمام الشاطبي -رحمه الله- مكانة المفتي أدق تصوير بقوله: «المفتي هو القائم في الأمة مقام النبي ﷺ». (الموافقات ٢٣٥/٥).

ولذا؛ كان خطأ المفتي في فتواه ليس بالأمر الهين، بل كلما كان تعلقها عاما وموضوعها دقيقا؛ كان أثر الخطأ فيها عظيما!

ولا أبلغ في بيان مكانة المفتين في هذه الأمة من أن رب العالمين؛ أوجب على عموم المؤمنين طاعتهم بنص كتابه العزيز؛ قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ (النساء:٥٩).
فالمفتي -كما بينته الآية- موقع عن رب العالمين! وطبيعة عمله أنه يقول على الله ويخبر عنه، ثم يكون تشريعا بعد ذلك، فيتعبد المكلف به ربه تعالى، فإذا صدرت الفتوى من أهلها المعتبرين بشروطها المعتبرة كانت أقرب إلى الحق، بإذن الله؛ دالة على الخير والرشاد، وإذا كانت خلاف ذلك: ضل صاحبها وأضل!

قال ابن القيم: «فخطر المفتي عظيم، فإنه موقع عن الله ورسوله، زاعم أن الله أمر بكذا، وحرم كذا، أو أوجب كذا!». (إعلام الموقعين ١٨٩/٤).

إلا أن البشر مجبولون على الخطأ؛ لأن العصمة ليست لأحد في التشريع سوى رسول الله ﷺ، فإن أخطأ المفتي وكان من أهل العلم والاجتهاد والديانة؛ فإن خطأه مغفور، وله أجر عليه، كما ثبت بذلك الحديث. وأما إن كان من غير أهل العلم والفقه والديانة والتحري؛ فإن عليه وزر خطئه، ولا

عقوبة الاتهام بالباطل

(رقم الفتوى ٥٤٤٩)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي:
ما حكم الشرع في شخص افترى على زميل له في العمل بأمور غير صحيحة، وفيها طعن في ذمة زميله المالية، واتهامه بالرشوة والانتفاع غير المشروع من جهة العمل؟ وما الذي يجب على رب العمل فعله في مثل هذه الحالة؟

أجابت اللجنة بما يلي:
الاتهام بالباطل محرم شرعا، وفاعله آثم ويستحق عقوبة تعزيرية تتناسب مع ما اقترفه من جرم، إلا إذا سامحه المتهم.
وأما صاحب العمل، فعليه أن يتحقق من كل ما أثير من اتهامات، كالاتهام بالرشوة، أو الانتفاع غير المشروع، وأن يتخذ ما يراه محققا لمصلحة العمل نحو كل منهما في ضوء ما ينتهي إليه التحقيق في ضوء اللوائح والقوانين المطبقة. والله أعلم.

الحيوانات السائبة

(رقم الفتوى ٥٢٥)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي:
هل يجوز للبلدية الاستيلاء على الحيوانات السائبة في الشوارع؟ وهل يجوز بيع هذه الحيوانات في المزاد؟ وهل يجوز لنا شراء هذه الحيوانات السائبة التي استولت عليها البلدية؟

أجابت اللجنة بما يلي:
إذا كان صاحبها معروفا فلا يجوز بيعها إلا برضاه، وترد إليه، وتحصل منه الغرامة. أما إذا لم يعلم صاحبها فتجري عليها أحكام اللقطة، فمن تعرف عليها ردت إليه بعد تحصيل ما أنفق عليها. أما إذا لم يعرف صاحبها فتبقى مدة إلى أن يغلب على الظن أنه لن يطلبها أحد، ثم تباع ويحفظ ثمنها إلى فترة يغلب معها الظن ألا يطلبها أحد، ثم تنفق هذه الأموال بعد ذلك في المصالح العامة، والله أعلم.

عقوبة شاهد الزور

(رقم الفتوى ٥٤٥٠)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي:
هل هناك تعريف لشهادة الزور؟ وما هي عقوبة شاهد الزور؟
أجابت اللجنة بما يلي:
شهادة الزور: هي الشهادة على إنسان معين بأنه قال قولا أو فعل فعلا، وكانت هذه الشهادة كاذبة ومخالفة للواقع. وهذه الشهادة من أكبر الكبائر؛ لما رواه عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: «قال النبي ﷺ: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشهادة الزور - ثلاثا - أو قول الزور». فما زال

يعذر فيه، بل يأثم عليه.

● خطأ المفتي وما يترتب عليه:

إن خطأ المفتي في فتواه، ليس بالأمر الهين، وكلما كان تعلقها عاما وموضوعها دقيقا؛ كان أثر الخطأ عظيما!

ومما يترتب على هذا الخطأ أمور؛ منها:

١ - تأثيم المفتي إذا لم يكن من أهل الاجتهاد، أو أفتى فيما لا يحسنه من أبواب العلم، أو قصر في البحث وتلمس الحق، أو أفتى اتباعا للهوى أو ابتغاء عرض من الدنيا.

لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم: وتبعهم سلف الأمة؛ من أهل القرون المفضلة، كانوا يقدرون هذا الأمر حق قدره، وهذا ما يفسر تجنبهم وتدافعهم الفتوى قدر الإمكان.

قال الحافظ ابن عبدالبر، رحمه الله: «والذي أقول به: إن المجتهد المخطئ لا يأثم إذا قصد الحق، وكان ممن له الاجتهاد، وأرجو أن يكون له في قصده الصواب، وأراد به، له أجر واحد إذا صحت نيته في ذلك». (جامع بيان العلم ٢/١٤٩).

وينبني على هذا: أن من أفتى ولم يكن من أهل الفتوى فهو آثم عاص، ومن ولاه ذلك، وأقره؛ فهو آثم كذلك.

وقد حمى الله سبحانه جناب الفتوى، ورفع من شأنها، فنص كتاب الله على تحريم القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف:٣٣).

بل قال ابن الجوزي رحمه الله: «ويلزم ولي الأمر منعهم كما فعل بنو أمية، وهؤلاء بمنزلة من يدل الركب، وليس له علم بالطريق، وبمنزلة الأعمى الذي يرشد الناس إلى القبلة، وبمنزلة من لا معرفة له بالطب وهو يطب الناس، بل هو أسوأ حالا من هؤلاء كلهم، وإذا تعين على ولي الأمر منع من لم يحسن التطبب من مداواة المرضى، فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسنة، ولم يتفقه في الدين».

٢ - أن الفتوى غير الصحيحة ينسحب أثرها على تصرفات المكلفين، أو معتقداتهم، وتصوراتهم، وهذا له تعلق بمسألة «ضمان المفتي»؛ أي: من أفتى شخصا، فانبنى على فتواه إتلاف مال، أو تفويت مصلحة؛ فما عليه؟

وهو ما سنتحدث عنه في العدد القابل بإذن الله.

يكررها حتى قلنا ليته سكت» (رواه البخاري).

وعقوبة شاهد الزور التعزير من قبل القاضي بما يراه مناسبا لجريمته. والله أعلم.

هل يجوز إضراب السجناء عن الطعام

(رقم الفتوى ٦٨١٨)

عرض على «لجنة الفتوى» في دولة الكويت الاستفتاء التالي:

هل يجوز من الناحية الشرعية للسجناء القيام بالإضراب عن الطعام لتحقيق أهدافهم؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لقد أمرنا الله تعالى بالحفاظ على حياتنا وعدم تعريضها للهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء:٢٩).

وقد حرم الشرع أن يقتل الإنسان نفسه، قال ﷺ: «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا» (رواه الشيخان).

وقد نهى رسول ﷺ أصحابه الذين عزموا على الصيام أبدا والقيام أبدا وعدم تزوج النساء فقال: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (أخرجه البخاري في كتاب النكاح).

هذه هي نظرة الإسلام للحفاظ على النفس البشرية.

فإذا تعرض هؤلاء لظلم عجزت أمامه كل السبل لرفعه؛ فالتعبير عن عدم الرضا بما هم فيه من ظلم وقهر وعدم اعتداد بحقوق الإنسان التي كفلتها له جميع الشرائع السماوية والوضعية بالإضراب عن الطعام ليصل صوته إلى جميع العالم، إذا كان هذا الإضراب لفترة لا تؤدي إلى إتلاف النفس ولا تعرضها للهلاك، فلا مانع منه إذا كان هذا هو الوسيلة الوحيدة والناجعة لرفع صوتهم إلى العالم، وطلب نجدتهم والأخذ على يد الظالم، وقهر جبروته وطغيانه، بإعطاء هؤلاء حقوقهم المسلوبة.

أما إذا وصل هذا الإضراب إلى حد إزهاق الروح أو الإضرار بجزء من البدن فهذا لا يجوز شرعا، ويجب حينئذ على المضرب عن الطعام أن يرجع عن إضرابه، إلى أن يأتي الله بالفرج والنصر. والله أعلم.

إعداد: علاء عبدالفتاح

وما يعقلها إلا العالمون

ضرب المثل دائما سبب لهداية أقوام وضلال آخرين، إذ يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (البقرة:٢٦)، فهو سبب لهداية إنسان عاقل فهم الحكمة منه، وضلال غافل قصر عن إدراك مراميه وغاياته، فإن للأمثال حكمة يدركها أناس دون آخرين، وما يدركها إلا العالمون بالله تعالى. وقد حكى الإمام ابن كثير عن بعض السلف قول أحدهم: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي، لأن الله قال ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (العنكبوت:٤٣).

ومع ذلك فقد أخبر القرآن الكريم، أن الله، عزوجل، قد صرف للناس القول من أسلوب إلى أسلوب، فما زاد أكثرهم إلا نفورا وبعدا عن الحق، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾﴾ (الإسراء:٨٩)، أي: ضرب الله للناس الأمثال من كل نوع بما فيها من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فأبى أكثرهم إلا عنادا وكفرا وجحودا.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾﴾ (الكهف:٥٤)، غير أن الإنسان كما تشرحه هذه الآية؛ برغم تنوع أساليب ضرب المثل التي تحمله على معرفة الحق، والاتعاظ به، وسبيل الوصول إليه، كان أكثر معارضة وجدالا ومخاصمة.. ولقد ربط القرآن الكريم بين ضرب المثل و نعمة العقل حين نعلم ونعي قدرة المثل على التأثير العقلي في الإنسان، وتوجيهه إلى الامتثال، ومدى تأثيره في النفس، وقيامه مقام الدليل في الإقناع، ودلالة على ارتباط ضرب المثل بالوظائف العقلية قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٣).

● **د. محمد أحمد الدش**

الإخلاص.. بوابة الخلاص

لا يتخوف المرء المسلم من فقد شيء أكثر من فقدانه الإخلاص، وقد كان من الناس من يبدي الولاء الشديد للدين، ويجتهد أيما اجتهاد في قتال المشركين، فما يمنعه ذلك أن يعد من أصحاب السعير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر، فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: «هذا من أهل النار». فلما حضر القتال؛ قاتل الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة. فقيل: يا رسول الله، الذي قلت إنه من أهل النار؛ فإنه قد قاتل اليوم قتالا شديدا، وقد مات. فقال النبي ﷺ: «إلى النار». قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت ولكنَّ به جراحا شديدا، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «الله أكبر، أشهد أني عبدالله ورسوله». ثم أمر بلالا فنادى بالناس: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

إن صلاح العمل والكينونة مع جماعة من الصادقين لا يغنيان عن المرء شيئا إلا أن يقترنا بصدق طلب القرب من الله عزوجل، وإخلاص الوجهة له، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف:١١٠)، عمل صالح وإخلاص لله عزوجل، إيمان واستقامة.

● **خالد العسري**

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي تساهم في نشر الوعي وتثقيف الناس على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com



تنويه

ورد في عدد شهر شعبان ١٤٣٥هـ خطأ مطبعي في اسم كاتب موضوع «قبة الصخرة» حيث نشر اسم الكاتب: الحسن محمد والصحيح حسن بن محمد، لذا وجب التنويه.

المنظومة التربوية والتعليمية أساس نهضة الأمة



حتى تنجح المنظومة التربوية لابد أن تسطر من طرف خبراء وأخصائيين نفسانيين واجتماعيين ومتمرسين في علوم التربية، يدركون طبيعة التركيبة النفسية للطفل، وكذا الظروف الاجتماعية السائدة في الدولة، ولعل أهم السنوات التي يجب التركيز فيها على الجانب التربوي في المنظومة التعليمية هي السنوات الأولى التي يتلقى فيها الطفل تعليمه الأساسي، حيث إنه في هذه المرحلة يكون على استعداد لتلقي الأوامر والنواهي، وكذلك يعتبر ذهنه أرضية خصبة لزرع القيم الاجتماعية والدينية والأخلاقية، كما يجب أن تكون هذه المنظومة مسطرة وفقا لهوية الأمة، ولا يسمح إطلاقا باستيرادها وإسقاطها على المجتمع، فمهما تشابهت طبائع المجتمعات فإن هوياتها تختلف باختلاف قيمها وعاداتها وتقاليدها، فلكل أمة هويتها الخاصة، ولكل مجتمع قيمه وثقافته الخاصة كذلك.

كما أن المناهج التعليمية لابد أن تتماشى مع تطور ونمو الطفل، فيجب أن تكون مدروسة بطريقة علمية وحديثة.

● هواري عبدالقادر

كتاب الأغاني والتاريخ

يعتبر كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني موسوعة متكاملة وكتابا أدبيا ضخما ثريا وممتعا، يحتل مكانة مهمة في تاريخنا الأدبي وتراثنا الشعري.

والأصفهاني أديب كبير من أدباء اللغة العربية، لا يختلف عن كبار الأدباء في شيء، فقد كان موسوعي المعرفة ذا اطلاع واسع على العلوم المتداولة في العصر العباسي، من علوم نقلية أو عقلية، وكذلك على الفنون من أدب وشعر، وإن كان محل نقد في رواية الحديث.

لم يكتف أبوالفرج بما أخذه عن بعض أفراد عائلته من علوم وثقافات، إنما تتلمذ في الكوفة ثم في بغداد على طائفة كبيرة من علماء عصره، عرف عن أبي الفرج الأصفهاني إلمامه بأشتات من العلوم والمعارف، واتساع دراسته بالتاريخ العربي وحفظه لكثير من منثور الأدب ونظمه، ومعرفته بما يدور في المجتمع حوله.

وقد كان الهدف من الكتاب هو التسلية وتقديم صورة من صور المجتمع العربي في العصر العباسي، وبهذه الصفة، أي الكتاب الأدبي المسلي والممتع، أخذ الكتاب مكانته في عصره، وعلى ضوء هذا الفهم قرئ ونسخ وتداوله الناس، وما كان كتاب الأغاني هو الأدب العربي كله، وإنما جزء يسير من الأدب العربي الثري والواسع والمتنوع بكتابه وشعرائه واتجاهاته وميوله ومذاهبه ونصوصه.

● عبدالقادر رالة

إعداد: تركي النصر

المزاح

قال الزبيدي شارح القاموس: المزاح: المباسطة إلى الغير على جهة التلطف والاستعطاف دون أذية، حتى يخرج الاستهزاء والسخرية.

وقد قال الأئمة: الإكثار منه والخروج عن الحد مخل بالمروءة والوقار، والتنزه عنه والتقبض مخل بالسنة.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «الوقار في النزهة سخف»

وقال عبدالله بن المقفع: الإفراط في التواضع؛ يوجب المذلة، والإفراط في المؤانسة؛ يوجب المهانة»

(الذخائر والعبقريات ٢/١٨٢، ٢٠٨) (ديوان الشافعي).

مزاح العاقل

العاقل يتوخى بمزحه إحدى حالتين: إما إيناس المصاحبين والتودد إلى المخاطبين، وإما أن يزيل بالمزاح ما طرأ عليه من سأم أو حدث به من هم وغم.

وأنشد أبوالنواس:

أروح القلب ببعض الهزل
تجاهلا مني بغير جهل
أمزح فيه مزح أهل الفضل
والمزح أحيانا جلاء العقل

(غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح ص١٧).

اقتصد في مزحك

قال سعيد بن العاص لابنه: «اقتصد في مزحك؛ فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرئ السفهاء، وإن التقصير فيه يفض عنك المؤانسين، ويئيس منك المصاحبين»

(الخبر في محاضرات الأدباء).

المفاكهة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا بأس بالمفاكهة؛ يخرج بها الرجل عن حد العبوس».

وسئل النخعي: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم! والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي.

(المراح في المزاح ص٥٧، ٦٧).

مزاح الأدباء

قال ابن عياش: رأيت على الأعمش فروة مقلوبة، صوفها إلى خارج، فأصابنا مطر فمررنا على كلب فتنحى الأعمش وقال: لا يحسبنا شاة.

(الخبر في السير ٦/٢٣٩).

الابتسامة

كان أبوالدرداء لا يتحدث إلا وهو يتبسم، فقالت له امرأته أم الدرداء: إني أخاف أن يرى الناس أنك أحمق!

فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ حدث إلا وهو يتبسم في حديثه.

(المراح في المزاح ص ٦٩).

المهدي في ضيافة الأعرابي

خرج المهدي يتصيد، فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي، فقال يا أعرابي هل من قرى؟ فأخرج له قرص شعير فأكله.. وقال: أتدري من أنا؟ قال: لا. قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة.. ثم سقاه مرة أخرى فشرب. فقال: يا أعرابي، أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: لا، أنا من قواد أمير المؤمنين.. ثم سقاه الثالثة، فلما فرغ قال: يا أعرابي أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين. قال: لا، ولكني أمير المؤمنين. قال: فأخذ الأعرابي الركوة فوكأها، وقال: إليك عني، فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله! فضحك المهدي حتى غشي عليه.

(المستطرف ٢/٥٠٤).

أهل السنة لا يبتدعون قولا

قال العلامة ابن تيمية رحمه الله: «أهل السنة لا يبتدعون قولا، ولا يكفرون من اجتهد فأخطأ، وإن كان مخالفا لهم، مكفرا لهم، مستحلا لدمائهم، كما لم يكفر الصحابة الخوارج، مع تكفيرهم لعثمان وعلي ومن والاهما، واستحلالهم لدماء المسلمين المخالفين لهم».

(منهاج السنة النبوية ٥/٩٥).

صناعة الغناء

قال ابن خلدون عن صناعة الغناء: «لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره، فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفننا في مذهب الملذوذات».

(المقدمة ص٤٢٢).

فائدة في أنواع الولائم

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: الأطعمة المعتادة التي تجري مجرى الشكران كلها سبيلها الطبخ، ولها أسماء متعددة:

١ – فالقرى: طعام الضيفان.
٢ – والمأدبة: طعام الدعوة.
٣ – والتحفة: طعام الزائر.
٤ – والوليمة: طعام العرس.
٥– والخرس: طعام الولادة.
٦ – والعقيقة: الذبح عنه يوم حلق رأسه في السابع.
٧ – والغديرة: طعام الختان.
٨ – والوضيمة: طعام المأتم.
٩ – والنقيعة: طعام القادم من سفره.
١٠ – والوكيرة: طعام الفراغ من البناء، فكان الإطعام عند هذه الأشياء أحسن من تفريق اللحم.

(تحفة المودود بأحكام المولود ١/٧٦).

الحجاج والحرورية

أتي الحجاج بحرورية (من الخوارج)، فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه؟

قالوا: اقتلها، أصلح الله الأمير، ونكل بها غيرها!

فتبسمت الحرورية، فقال لها الحجاج: لم تبسمت؟!

فقالت: لقد كان وزراء أخيك فرعون خيرا من وزرائك ياحجاج!؛ استشارهم في قتل موسى فقالوا: أرجه وأخاه، وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي، فضحك الحجاج، وأمر بإطلاقها.

(العقد الفريد ٢/٤٨).

فائدة في صفات الخيل

أولا: العربي: وهو ما أبوه وأمه عربيان.
ثانيا: البرذون: عكسه، أبوه وأمه نبطيان.
ثالثا: المفرق: أمه عربية وأبوه نبطية.
رابعا: الهجين: عكسه، أبوه عربي وأمه نبطي.

(حواشي ابن قاسم ص ٢٨٠).

على قدر خوفك من الله يهابك الخلق

قال يحيى بن معاذ، رحمه الله تعالى:

«على قدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلى قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل الخلق بأمرك»

(صفة الصفوة ٤/٩٥).

ذو الوجهين

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: «إن شر الناس يوم القيامة ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه» (رواه أحمد).

قال العلامة ابن مفلح الحنبلي: «وهذا لأنه نفاق وخداع وكذب، وتحيل على اطلاعه على أسرار الطائفتين، لأنه يأتي كل طائفة بما يرضيها، ويظهر أنه معها، وهي مداهنة محرمة، ذكر ذلك العلماء».

(الآداب الشرعية ١/٢٤).

كتب المتقدمين

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «كتب المتقدمين وكلامهم وسيرهم أنفع لمن أراد الأخذ بالاحتياط في العلم، على أي نوع كان، وخصوصا علم الشريعة الذي هو العروة الوثقى».

(الموافقات ١/٩٩).

مسك الختام

العمران البشري

د. خالد راتب
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

أبجديات الوجود الإنساني قائمة على التعارف والاستخلاف وعمارة الأرض، من أجل ذلك عندما خلق الله آدم -عليه السلام- آنسه بحواء، وجعل منهما رجالا ونساء، فكان الاجتماع الإنساني هو أول اجتماع على وجه الأرض، وهذا الاجتماع ضرورة حياتية وحضارية، فلا حضارة بغير اجتماع وأمة، ولا حياة لأمة بلا حضارة واسعة النطاق الفكري والبشري، ومن هنا وقبل أن يصرح علماء الاجتماع بأن الإنسان كائن اجتماعي؛ أصل القرآن الكريم هذا الأمر وجعله بمثابة القاعدة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات:١٣)، لذا كان أشد عقاب على أي إنسان أن يعزل بعيدا عن الناس، وهذا ما فعله ﷺ مع المتخلفين عن الجهاد معه، حيث أمر المجتمع باعتزالهم، حتى ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ (التوبة:١١٨).

فما الأرض إلا بأهلها وبالقيم السائدة فيها، والوشائج والعلاقات بين أصحابها، والإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده أو أن يبني مجدا وحضارة بمعزل عن الناس، ولو ملك الأرض كلها.

وإذا تمسكت الأمة الإسلامية بقواعد الاجتماع الثلاثة (التعارف، التعاون، والتواصي بالحق والصبر والمرحمة) فستصبح قوية، ومعها المقومات التي تواجه بها التحديات الداخلية والخارجية، وهذا ما يدركه الأعداء جيدا، فهم يعلمون علم اليقين أن الأمة الإسلامية والعربية إذا اتحدت فإن ذلك يهدد كيانهم؛ لذا فإنهم يحاولون تمزيق جسد العرب والمسلمين.

وقد نجح الأعداء إلى حد كبير في الوصول إلى مآربهم، وقطع كل طريق يرى فيه العرب والمسلمون بصيصا لتحقيق وحدتهم، والخطر الأكبر ليس في المعوقات الخارجية وحدها، ولكن الخطر الحقيقي أن تكون الإعاقة من داخلنا، ومن أبرز هذه المعوقات في طريق الوحدة أن يكون عند العرب والمسلمين جاهزية الاختراق والتشبع والانقياد لكل ما يأتينا، دون نظر فيه، وتمحيص دقيق حتى نميز الخبيث من الطيب، فيكون الاتباع الأعمى والتقليد الذي يقضي على الهوية ويحطم الذاتية.

كما أن من معوقات الوحدة: التوجهات الفكرية المتناحرة القائمة على أحادية التوجه، وإقصاء كل من يخالف هذا الفكر والتوجه؛ لأن مخرجات هذه الأحادية في الفكر والتوجه هو التحزب المقوت، وعقد الانتماء للأحزاب والأفراد، وليس للإسلام ومصلحة الوطن والعباد.

وهذا الانتماء الخاطئ والاتباع والتقليد الأعمى يعالجان بإعادة التربية الاجتماعية برؤية شرعية.




الكشاف السنوي لمجلة
الوعي الإسلامي
١٤٣٥هـ
المرأة في الميزان
الدين والعلم
شهوة الاستهلاك
العمران الإسلامي
الخدمة ومنظومتها القيمية
الحرية والبناء الحضاري
الصداقة والصديق
البهجة المطمئنة
عندما يكون الأدب في خدمة الصهيونية
العقيدة.. ودورها في التنمية الاقتصادية
وظائف التأليف في الرقائق
منهج الإقراء في الأندلس

الافتتاحية

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	التربية والتعليم	التحرير	٥٨١	٣
٢	شقائق الرجال	فيصل يوسف العلي	٥٨٢	٣
٣	أنتم أعلم بأمور دنياكم	فيصل يوسف العلي	٥٨٣	٣
٤	التكافل والتكامل	فيصل يوسف العلي	٥٨٤	٣
٥	كناطح صخرة	فيصل يوسف العلي	٥٨٥	٣
٦	حرية أم فوضى	فيصل يوسف العلي	٥٨٦	٣
٧	وكان بين ذلك قواما	فيصل يوسف العلي	٥٨٧	٣
٨	منادمة الأطلال	فيصل يوسف العلي	٥٨٨	٣
٩	عمارة الأوقات	فيصل يوسف العلي	٥٨٩	٣
١٠	الصداقة والصديق	فيصل يوسف العلي	٥٩٠	٣
١١	من كل فج عميق	فيصل يوسف العلي	٥٩١	٣
١٢	حصائد الألسنة	فيصل يوسف العلي	٥٩٢	٣

كلمة العدد

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	صناعة التعليم	التحرير	٥٨١	٥
٢	المرأة	مصطفى صبري	٥٨٢	٥
٣	إنما بعثت معلما	التحرير	٥٨٣	٥
٤	المجتمع المدني	التحرير	٥٨٤	٥
٥	تعصب	د. عبدالمنعم النمر -رحمه الله- أول رئيس تحرير	٥٨٥	٥
٦	الحرية	الشيخ محمد الخطيب -مفتي الكرك بالأردن سابقا- العدد٢٣	٥٨٦	٥
٧	ترشيد الاستهلاك	التحرير	٥٨٧	٥
٨	الحضارة الإسلامية	التحرير	٥٨٨	٥
٩	تحية رمضان	الشيخ حسن مأمون، شيخ الجامع الأزهر الأسبق	٥٨٩	٥
١٠	الصداقة والأخوة	التحرير	٥٩٠	٥
١١	إلى البيت العتيق	التحرير	٥٩١	٥
١٢	الابتهاج	التحرير	٥٩٢	٥

فكر

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	دراسة المستقبل.. أولوية شرعية	د. إدريس مقبول	٥٨١	٦
٢	التسامح في التصور الإسلامي	د. أمان قحيف	٥٨١	١٦

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
٣	مسالك تقريب الخطاب الشرعي	د. أمينة مزيغة	٥٨٢	١٤
٤	منطق العمران بين التأنس والتوحش	د. هبة رءوف عزت	٥٨٢	٧٤
٥	الفطرة: خرائط المفهوم وبناء المستقبل	د. هبة رءوف عزت	٥٨٣	٥٢
٦	عود على بدء: عن النهضة	د. هبة رءوف عزت	٥٨٤	١٢
٧	مسارات الإصلاح	أحمد عبدالجواد زايدة	٥٨٦	٦٤
٨	التنوع الإسلامي في الغرب وإشكالية المرجعية الدينية	د. حسن عزوزي	٥٨٦	٧٨
٩	هذا الدرس الحضاري.. كيف نتعلمه؟	عطية الويشي	٥٩٠	١١
١٠	فقه الإصلاح	أحمد عبدالجواد زايدة	٥٩٠	١٤
١١	العقل في ضوء الوحي	خالد برادة	٥٩١	٨٣

دعوة

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	التعامل مع الوعود الربانية بين التصديق والتضييق	د. محمد علي يوسف	٥٨١	٨
٢	شبكة ملتقى الخطباء	التحرير	٥٨١	١٠
٣	المراقبة فريضة غائبة	رسمي عجلان	٥٨٢	٦
٤	التمتع بالطاعة	محمد فتحي النادي	٥٨٢	٧١
٥	الاعتصام بالإسلام	هناء ثابت	٥٨٤	٣٥
٦	لماذا نتصدق؟	هائل سعيد	٥٨٩	٥١
٧	الدعوة الإسلامية ومواقع التواصل الاجتماعي	د. عبدالصبور فاضل	٥٨٩	٦٦
٨	الأمالي والمجالس في الحياة العلمية عند المسلمين	د. أحمد الشال	٥٩٠	١٦
٩	الإسلام.. والخلاص الفردي	نجلاء محفوظ	٥٩١	٨٤

حوار

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	الحلواني: صراع الحضارات أصله عقائدي	محمد حبيب	٥٨١	١٢
٢	عميد كلية اللغة العربية السابق د. عبدالغفار هلال	إسلام لطفي	٥٨٢	٨
٣	د. مختار المهدي: تغليب المصلحة العامة يعيد للأمة ترابطها	إسلام لطفي	٥٨٣	١٤
٤	د. سعيد إسماعيل	محمد ثابت توفيق	٥٨٤	١٠

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
٥	الشيخ كامل سميع الله مفتي تترستان	مهدي عبدالستار	٥٨٥	١٠
٦	د. عبدالفتاح إدريس أستاذ الفقه المقارن	إسلام لطفي	٥٨٥	٦٦
٧	مدير مؤسسة جسور للتعريف بالإسلام فاضل سليمان	حسن يسري	٥٨٦	٩
٨	رئيس الاتحاد الدولي لحوار الثقافات د. علي السمان	إسلام لطفي	٥٨٦	٥٠
٩	السفير عبدالرحمن الموسى	إسلام لطفي	٥٨٧	١٢
١٠	الغنيم: مخطوطاتنا تقينا متاهات العولمة	إسلام لطفي	٥٨٨	١٠
١١	رئيس منظمة ماس الأميركية	علاء عبدالفتاح	٥٨٨	٧٠
١٢	وزير الأوقاف الأسبق راشد الفرحان	هاني عبدالله	٥٨٩	١٦
١٣	الخبير الاقتصادي د. علي السالوس	محمد عبدالعزيز	٥٨٩	٦٢
١٤	مدير معهد الدراسات الجيوسياسية الفرنسي	محمد عويس	٥٨٩	٨٠
١٥	د. محمد مورو: التشدد ظاهرة إنسانية وليست إسلامية	إسلام لطفي	٥٩٠	٨
١٦	د. أحمد معبد: سخرني الله لتكوين مدرسة حديثية دقيقة	إسلام لطفي	٥٩٢	١٦

ملف العدد

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	المعلم القدوة	رشيد الحسن	٥٨١	١٩
٢	التعليم.. بوابتنا للنهضة	السنوسي محمد	٥٨١	٢٠
٣	ثمار التعليم في عالمنا العربي	د. آندي حجازي	٥٨١	٢٣
٤	أدوار المعلم في عصر المعلوماتية	محمد عباس	٥٨١	٢٦
٥	أمة اقرأ.. واقع مؤلم وطموحات خلاقة	مياسة النخلاني	٥٨١	٢٨
٦	التعليم المحظور في بلادنا	محمد إلهامي	٥٨١	٣٢
٧	النشء المسلم.. أين موقعه في مناهج التعليم؟	هالة عبدالحافظ – منار محمد	٥٨١	٣٤
٨	النساء في الإسلام بين الماضي والحاضر	د. آندي حجازي	٥٨٢	١٨
٩	«هي» قضية الشخصية الإسلامية بكل أبعادها	د. محمد سعيد باه	٥٨٢	٢٢
١٠	المرأة بين الإسلام والغرب	السنوسي محمد	٥٨٢	٢٤
١١	التجارة بالمرأة في الغرب	التحرير	٥٨٢	٢٧
١٢	زينب زوجة الأمراء	محمد إلهامي	٥٨٢	٢٨
١٣	المرأة والعمل	جمال الدين عيار	٥٨٢	٣٠
١٤	الاغتصاب جريمة أعجمية المنشأ	عبدالعزيز العسكر	٥٨٢	٣٣
١٥	كواليس مطاردة شبح الطلاق والعنوسة	بسمة رمضان	٥٨٢	٣٤
١٦	شابة برتبة عانس	منى الشريف	٥٨٢	٣٨
١٧	مطلوب مقرر تربوي لمواجهة الطلاق	التحرير	٥٨٢	٤٠
١٨	الأسرة القدوة	رشيد ناجي الحسن	٥٨٢	٤٢

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١٩	موسوعة المرأة عبر العصور	علاء عبدالفتاح	٥٨٢	٤٥
٢٠	لماذا تأخر المسلمون	شكيب أرسلان	٥٨٣	٢٠
٢١	العلم أساس النهضة	هواري عبدالقادر	٥٨٣	٢٢
٢٢	كيف نهيئ أطفالنا للتفكير العلمي؟	الطيب أديب	٥٨٣	٢٤
٢٣	التعليم الذي ننشده	د. محمد سعيد باه	٥٨٣	٢٦
٢٤	فضل كفالة العالِم المعلم والطالب المتفرغ	د. محمد الأمسمي	٥٨٣	٢٩
٢٥	علم الكيمياء وتطبيقاته في الحضارة العربية والإسلامية	د. رفعت هلال	٥٨٣	٣٢
٢٦	إسهامات الحضارة العربية والإسلامية في علم الفلك	د. أحمد فؤاد باشا	٥٨٣	٣٧
٢٧	المسؤولية الاجتماعية والعمل العام	حسين المحمد	٥٨٤	٢٠
٢٨	الإسلام والمسؤولية الفردية	عطية الويشي	٥٨٤	٢٢
٢٩	الجمعيات الأهلية.. محاصرة برؤى ضيقة	هاني عبدالله	٥٨٤	٢٥
٣٠	برامج وجمعيات حقوق الأطفال	د. آندي حجازي	٥٨٤	٢٨
٣١	عرقلة المجتمع المدني	السنوسي محمد	٥٨٤	٣٢
٣٢	التعصب.. مفسد للدين والدنيا	السنوسي محمد	٥٨٥	٢٤
٣٣	الإيغال في دروب التدين: حالة جنوح..!	د. محمد سعيد باه	٥٨٥	٢٨
٣٤	التحصين الفكري ضد التشدد	د. إبراهيم نويري	٥٨٥	٣٠
٣٥	غلو العلمانية	محمد شعبان أيوب	٥٨٥	٣٢
٣٦	الحرية والبناء الحضاري	السنوسي محمد	٥٨٦	٢٠
٣٧	الحرية الشخصية فطرية أم متعلمة؟	د. آندي حجازي	٥٨٦	٢٤
٣٨	تحرير المرأة في عصر الرسالة	التحرير	٥٨٦	٢٧
٣٩	مغالطات في الحرية بين الغرب والإسلام	محمد إلهامي	٥٨٦	٢٨
٤٠	الحرية في العالم العربي بين التحذير والانطلاق	نشوة صالح	٥٨٦	٣٠
٤١	الحرية: مدخل إلى الخريطة المفاهيمية	د. هبة رءوف عزت	٥٨٦	٣٢
٤٢	كيف طغى الاستهلاك	محمد شعبان أيوب	٥٨٧	١٨
٤٣	الإنتاج وسؤال الحضارة	السنوسي محمد	٥٨٧	٢١
٤٤	ما بين الإبداع.. والمجتمعات الاستهلاكية	د. آندي حجازي	٥٨٧	٢٢
٤٥	بين منطق الاستخلاف.. وشهوة الاستهلاك	د. هبة رءوف عزت	٥٨٧	٢٥
٤٦	الإسراف.. الجذور والمسار والثمار	محمد إلهامي	٥٨٧	٢٨
٤٧	اقتصاد الأسرة: ضوابط شرعية وآداب مرعية	د. حسين شحاتة	٥٨٧	٣٠
٤٨	المزيدي: نسعى إلى نشر القيم الإيجابية في العالم	نشوة صالح	٥٨٧	٣٤
٤٩	لجنة التأليف والترجمة والنشر	علاء عبدالفتاح	٥٨٧	٣٦
٥٠	العمارة فن وذوق وأخلاق	التحرير	٥٨٨	١٤
٥١	ببليوجرافيا «الوعي» والعمران الإسلامي	التحرير	٥٨٨	١٧
٥٢	مساجد الكويت القديمة	تركي النصر	٥٨٨	١٨

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
٨٧	طرق الحج ومسالكه	تركي النصر	٥٩١	٢٦
٨٨	حملات الحج الكويتية	التحرير	٥٩١	٣٢
٨٩	طريق الحج من إسطنبول إلى مكة	التحرير	٥٩١	٣٨
٩٠	القصيدة الذهبية	العلامة مجد الدين البغدادي	٥٩١	٤٠
٩١	كتب المناسك	رشيد الحسن – ياسين كتاني	٥٩١	٤٦
٩٣	لنفرح ولنتعبد	السنوسي محمد	٥٩٢	٢٤
٩٤	البهجة المطمئنة	د. هبة رءوف عزت	٥٩٢	٢٦
٩٥	غذاء الأرواح بالمزاح	التحرير	٥٩٢	٢٨
٩٦	اللهو المباح في العصر الحديث	التحرير	٥٩٢	٣٠
٩٧	أسباب السعادة في سورة الانشقاق	خديجة أحمد	٥٩٢	٣٢

دراسات

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	آثار المعصية في الفرد والمجتمع	مختار لوح	٥٨١	٣٨
٢	حضارتنا المتألقة في العصور الوسطى	د. أشرف صالح	٥٨١	٤٢
٣	الشركات في الفقه الإسلامي	د. صالح سالم النهام	٥٨١	٤٨
٤	تقنيات كشف الكذب في تشريع الإجراءات الجنائية الإسلامي	د. رضا عبدالحكيم	٥٨٢	٤٦
٥	المعجزة العربية في الهندسة	مصطفى يعقوب	٥٨٢	٥٠
٦	وقفات مع عقد الحوالة	د. صالح سالم النهام	٥٨٢	٥٥
٧	النبي ﷺ وذوو الاحتياجات الخاصة	محمد فتحي النادي	٥٨٣	٤٠
٨	التكافؤ الاقتصادي بين الربا والتورق (٢-١)	د. سامي السويلم	٥٨٣	٤٤
٩	عقد الضمان في الفقه الإسلامي	د. صالح سالم النهام	٥٨٣	٤٨
١٠	عقد الوكالة	د. صالح سالم النهام	٥٨٤	٣٨
١١	عقد الاستصناع	د. حسن أبو غدة	٥٨٤	٤١
١٢	التكافؤ الاقتصادي بين الربا والتورق (٢-٢)	د. سامي السويلم	٥٨٤	٤٤
١٣	وظيفة الزكاة في المجتمع	د. عبدالله رمضاني	٥٨٤	٤٨
١٤	مذاهب العلماء في طرق التخلص من تعارض الأدلة	د. صالح سالم النهام	٥٨٥	٤٢
١٥	القوادح الكاشفة عن الخطأ في الاعتبار بالقاعدة الفقهية	د. لخضر بوغفور	٥٨٥	٤٦
١٦	الفكر الإصلاحي عند الإمام الشاطبي	د. عبدالرحيم باحمو	٥٨٥	٥١
١٧	أثر مباحث الحديث في العلوم الأخرى	رياض العيسى	٥٨٦	٣٦
١٨	الحقائق الشرعية حول السدرة	د. رضا رضوان	٥٨٦	٣٨
١٩	دراسة الجدوى	محمود زويل	٥٨٦	٤١
٢٠	الفتوحات الإسلامية	مصطفى يعقوب	٥٨٧	٤٠
٢١	التأصيل الإسلامي لعلم إدارة الأزمات	محمد الحريري	٥٨٧	٤٥

لغة وأدب

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١٧	البحث عن وطن	طارق نصار	٥٨٣	٥٩
١٨	من جمال النظم القرآني في سورة الإخلاص	د. أحمد إسماعيل	٥٨٣	٦٠
١٩	القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (١٨)	عبدالله أيت الأعشير	٥٨٤	٥٢
٢٠	عش.. بالتفاؤل	التحرير	٥٨٤	٥٤
٢١	أم العرب	جاك صبري شماس	٥٨٤	٥٥
٢٢	وأعرض عن الجاهلين	محمد السعيد الشيخ	٥٨٤	٥٦
٢٣	بسمة	محمد عباس	٥٨٤	٥٨
٢٤	بين ديموقراطية زكي وأرستقراطية تيمور	صلاح رشيد	٥٨٥	٥٦
٢٥	القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (١٩)	عبدالله أيت الأعشير	٥٨٥	٥٨
٢٦	براعة المنهج القرآني في استيعاب تزاحم المعاني	د. خالد فهمي	٥٨٥	٦٠
٢٧	المتنبي.. شاعر العربية ولسانها الحكيم	التحرير	٥٨٥	٦٣
٢٨	القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٠)	عبدالله أيت الأعشير	٥٨٦	٥٢
٢٩	جائزة البوكر.. دماء زرقاء في عروق الثقافة العربية	محمد أبو السعود	٥٨٦	٥٤
٣٠	رؤية الزمان والمكان في الرواية الإسلامية المعاصرة	عبداللطيف خروبة	٥٨٦	٥٦
٣١	مقام البداية والختام	محمد عباس	٥٨٦	٥٩
٣٢	البوابة الكبيرة	مياسة النخلاني	٥٨٦	٦٠
٣٣	في المفاضلة بين الشعر والنثر	إبراهيم نويري	٥٨٦	٦٢
٣٤	القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢١)	عبدالله أيت الأعشير	٥٨٧	٥٢
٣٥	قراءة في رواية ساق البامبو	محمد أبو السعود	٥٨٧	٥٤
٣٦	فضلك قد جرى	محمد عباس	٥٨٧	٥٧
٣٧	القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٢)	عبدالله أيت الأعشير	٥٨٨	٦٢
٣٨	القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٣)	عبدالله أيت الأعشير	٥٨٩	٥٢
٣٩	الطريق إلى النور	د. خالد فهمي	٥٨٩	٥٤
٤٠	سلمى تواجه الأرق	محمد ثابت توفيق	٥٨٩	٥٧
٤١	من جمال النظم القرآني في سورة الكوثر	د. أحمد عبدالكريم	٥٨٩	٥٨
٤٢	عبقرية اللغة العربية	محمد المبارك	٥٩٠	٥٠
٤٣	الضبيب: بعض وسائل الإعلام تهدد الفصحى	صابر رمضان	٥٩٠	٥٤
٤٤	لحظة بعمر الزمن	محمد عبدالقادر	٥٩٠	٥٧
٤٥	هذه النافذة.. هل أطللت منها؟	د. سعيد شوارب	٥٩٠	٥٨
٤٦	رحيل	مياسة النخلاني	٥٩٠	٦٠
٤٧	شهيد القدس	نجاح سرور	٥٩٠	٦٣
٤٨	القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٤)	عبدالله أيت الأعشير	٥٩١	٥٨
٤٩	نحو مشروع قومي لإنشاء شهادة اللغة العربية الدولية	محمد عويس	٥٩١	٦٠
٥٠	الله كريم	مياسة النخلاني	٥٩١	٦٢

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
٥١	حين تحب الناس جميعا	نجاح سرور	٥٩١	٦٣
٥٢	رؤى مغربية جريئة في مسألة التعريب	محمد سعيد صمدي	٥٩١	٦٤
٥٣	القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٥)	عبدالله أيت الأعشير	٥٩٢	٥٤
٥٤	من أوابد عرب الجاهلية وأكاذيبهم	محيي الدين عواد	٥٩٢	٥٦
٥٥	قصة البناء والإعراب	محمود عبدالصمد	٥٩٢	٥٨
٥٦	أغنية المساء	مياسة النخلاني	٥٩٢	٦٠
٥٧	في حب الآباء للبنات	د. يوسف الحزيمري	٥٩٢	٦٢
٥٨	عندما يكون الأدب في خدمة الصهيونية	المنشاوي الورداني	٥٩٢	٦٤

أنباء الكتب

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	أطلس الوقف	السيد المخزنجي	٥٨١	٦٥
٢	الذب عن مذهب مالك	د. الطاهر خذيري	٥٨٢	٧٢
٣	الوقف الإسلامي.. فنون إدارته والدعوة إليه	د. عيسى القدومي	٥٨٥	٤١
٤	المشترك الأسمى بين الشعوب	منتصر الخطيب	٥٨٧	٥٨
٥	قراءة في مشروع رعاية أجيال الكويت	التحرير	٥٨٨	٦٨
٦	أحكام الحشرات في الفقه الإسلامي	السيد المخزنجي	٥٨٩	٦٠
٧	معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية	د. الطاهر خذيري	٥٩١	٧٠

مناسبات وفعاليات

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	الإسلاميون وامتحان الدولة	التحرير	٥٨٦	١٨
٢	العلماء طوق نجاة الأمة	إسلام لطفي - محمد عبدالعزيز	٥٨٧	٦
٣	تأملات في آية الإسراء	د. أمان قحيف	٥٨٧	٨
٤	رمضان.. ثلاثية الفكر والعاطفة والحركة	السنوسي محمد	٥٨٩	٦
٥	بحثا عن ولادة جديدة	محمد ناصيف	٥٩٢	١٠
٦	الإعلام في عرفات	د. محمد البنداري	٥٩٢	١٣
٧	البيت الحرام.. وأثره في الاقتصاد العالمي	د. مجدي حسن	٥٩٢	١٦
٨	الحج.. رحلة حنين	محمد توفيق	٥٩٢	١٨

تراث

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	أجوبة لطيفة عن أربع سؤالات شريفة	صالح عبدالخالق	٥٨٣	٦٢
٢	مخطوطات دور الكتب المغربية	ياسين محمد كتاني	٥٨٥	١٨
٣	منظومة مخارج الحروف للديريني	صالح عبدالخالق	٥٨٦	٣٥
٤	المخطوطات النادرة في المكتبات المغربية	ياسين محمد كتاني	٥٩٢	٨٥

تحقيق واستطلاع

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	حكاية الشجرة الملعونة	بسمة رمضان	٥٨١	٨٠
٢	مضايقات مواقع التواصل الاجتماعي.. صداع المراهقين	منير أديب	٥٨٢	٨٢
٣	كيف اعتنى الإسلام بالمسنين	منى الموجي	٥٨٣	٨٢
٤	دعوة الحق.. مجلة الثقافة والفكر المغربي	رئيس التحرير	٥٨٤	٣٦
٥	مكتبة السقاط.. وقف خيري في خدمة البحث العلمي	بشرى شاكر	٥٨٤	٦٤
٦	متحف الفن الإسلامي في قطر	عبادة نوح - خالد خلاوي	٥٨٤	٨٠
٧	الخوف من الإسلام.. مسؤولية من؟!	ريهام عاطف	٥٨٥	٢١
٨	مؤسسة علال الفاسي.. منارة المغرب الثقافية	رئيس التحرير	٥٨٥	٣٨
٩	الجامعة النظيمية.. تلم الشمل وتؤهل طلاب الشريعة	عبادة نوح - علاء عبدالفتاح	٥٨٥	٨٤
١٠	مكتبة بايزيد في إسطنبول	التحرير	٥٨٦	٤٨
١١	سمرقند	د. محمد المحمدي	٥٨٧	٧٨
١٢	ثقافة الاعتذار بين الحق والكبرياء	منير أديب	٥٨٨	٨٢
١٣	زكاة الفكر	عبدالله الشريف	٥٩٢	٦٧

أسرة

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	زوجك جنتك أو نارك	شيماء فريج	٥٨١	٧١
٢	الإدمان في الأسرة	محمود حسانين	٥٨١	٧٢
٣	السعادة على أنقاض الآخرين	منير أديب	٥٨١	٧٤
٤	الأنشطة المدرسية بين اعتبارات التربية وضغوط الواقع	حمدي سعيد	٥٨٣	٦٧
٥	نعمة الذرية بين المنحة والمحنة	رضى الحمراني	٥٨٣	٧٠
٦	مذكرات الفتاة المسلمة	سعاد بعوش	٥٨٣	٧٢
٧	الأسرة بين الشرق والغرب	محمد شعطيط	٥٨٣	٧٤
٨	أخاف النوم وحدي	ريهام عاطف	٥٨٣	٧٦
٩	الخروج من الورطة التربوية	عبدالرحمن ضاحي	٥٨٤	٦٦

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١٠	أسرتك سر سعادتك	د. خالد النجار	٥٨٤	٦٨
١١	الخادمات وأسرار البيوت	منير أديب	٥٨٤	٧٠
١٢	التدرج الهرمي للعنف الأسري	كمال عبدالمنعم	٥٨٤	٧٢
١٣	أب فقد معناه	محمد عبدالقادر	٥٨٥	٦٩
١٤	التفوق الدراسي.. فن المنافسة على القمة	منى الشريف	٥٨٥	٧٠
١٥	الطفل بين الكذب والخيال	صبحة بغورة	٥٨٥	٧٢
١٦	أهمية العربية عند أطفالنا	د. مصطفى رجب	٥٨٥	٧٤
١٧	دور المرأة المسلمة في التنوير	د. الجيلاني سبيع	٥٨٦	٦٩
١٨	القراءة في الأسرة	محمد شعطيط	٥٨٦	٧٢
١٩	من معالم المدرسة النبوية في تعليم الأطفال	محمد شعبان	٥٨٦	٧٤
٢٠	إرشادات في تربية البنات	د. خالد النجار	٥٨٦	٧٦
٢١	نحو ثقافة مثلى للطفل العربي	رفعت بدوي	٥٨٧	٧٠
٢٢	الجميل: دمج مجهولي الأبوين في الأسر البديلة ضرورة	محمد عبدالعزيز	٥٨٧	٧٢
٢٣	ما يطلبه المراهقون	د. آندي حجازي	٥٨٨	٧٤
٢٤	الطفل بين الحياء والخجل	رندة السراج	٥٨٨	٧٨
٢٥	أثر العقيدة في تعديل السلوك	منتصر الخطيب	٥٨٩	٧٠
٢٦	أولادنا والتربية الجنسية	د. محمد العطار	٥٨٩	٧٢
٢٧	حسن إدارة الزوجة لبيتها	إحسان الدبش	٥٨٩	٧٦
٢٨	شهادة التدريب على الحياة الزوجية	محمد شعطيط	٥٨٩	٧٨
٢٩	الأثرياء والأبناء	محمد شعطيط	٥٩٠	٦٦
٣٠	صل رحمك.. واكسب	محمد رشيد العويد	٥٩٠	٦٩
٣١	المرأة المعاصرة بين التقديس والتدنيس	دار الإعلام العربية	٥٩٠	٧٠
٣٢	اكتساب العفة	محمد فراج	٥٩٠	٧٣
٣٣	كيف نحمي أبناءنا من الانحرافات الفكرية	عبدالرحمن ضاحي	٥٩٠	٧٤
٣٤	الأدوار الأسرية في مراحل الطفل العمرية	د. مراد زهوي	٥٩١	٧٤
٣٥	الطفل غرس والدين.. وثمار تربية	صبحة بغورة	٥٩١	٧٦
٣٦	أدب الطفل وخطاب الهوية	د. أحمد يحيى	٥٩١	٧٨
٣٧	الطفل والولع بالصور المتحركة	د. إبراهيم نويري	٥٩٢	٧٠
٣٨	واجبات الأم التربوية	إحسان الدبش	٥٩٢	٧٢
٣٩	قضايا المرأة في الصحافة الإسلامية	سعاد بعوش	٥٩٢	٧٤
٤٠	كيف أنمي الحس الجمالي لدى الأطفال	د. آندي حجازي	٥٩٢	٧٨

فتاوى الوعي

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٨١	٩٢
٢	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٨٢	٩٢
٣	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٨٣	٩٠
٤	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٨٤	٩٠
٥	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٨٥	٩٠
٦	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٨٦	٩٠
٧	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٨٧	٩٠
٨	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٨٨	٩٢
٩	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٨٩	٩٢
١٠	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٩٠	٩٢
١١	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٩١	٩٢
١٢	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش	٥٩٢	٩٢

بريد القراء

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	بريد القراء	التحرير	٥٨١	٩٤
٢	بريد القراء	-	٥٨٢	٩٤
٣	بريد القراء	علاء عبدالفتاح	٥٨٣	٩٤
٤	بريد القراء	التحرير	٥٨٤	٩٤
٥	بريد القراء	-	٥٨٥	٩٤
٦	بريد القراء	علاء عبدالفتاح	٥٨٦	٩٤
٧	بريد القراء	التحرير	٥٨٧	٩٤
٨	بريد القراء	التحرير	٥٨٨	٩٤
٩	بريد القراء	علاء عبدالفتاح	٥٨٩	٩٤
١٠	بريد القراء	التحرير	٥٩٠	٩٤
١١	بريد القراء	علاء عبدالفتاح	٥٩١	٩٤
١٢	بريد القراء	علاء عبدالفتاح	٥٩٢	٩٢

ينابيع المعرفة

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٨١	٩٦
٢	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٨٢	٩٦
٣	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٨٣	٩٦
٤	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٨٤	٩٦
٥	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٨٥	٩٦
٦	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٨٦	٩٦
٧	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٨٧	٩٦
٨	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٨٨	٩٦
٩	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٨٩	٩٦
١٠	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٩٠	٩٦
١١	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٩١	٩٦
١٢	ينابيع المعرفة	تركي النصر	٥٩٢	٩٤

كتب عربية علمت الإنسانية

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	كتب عربية علمت الإنسانية	خالد خلاوي	٥٨١	٩٠
٢	كتب عربية علمت الإنسانية	خالد خلاوي	٥٨٢	٩٠
٣	كتب عربية علمت الإنسانية	خالد خلاوي	٥٨٣	٩٢
٤	كتب عربية علمت الإنسانية (تاريخ الأمم والملوك للطبري)	خالد خلاوي	٥٨٤	٩٢
٥	كتب عربية علمت الإنسانية	خالد خلاوي	٥٨٥	٩٢
٦	كتب عربية علمت الإنسانية	خالد خلاوي	٥٨٦	٩٢
٧	كتب عربية علمت الإنسانية (مقدمة ابن خلدون)	خالد خلاوي	٥٨٧	٩٢
٨	كتب عربية علمت الإنسانية (الجامع الصحيح للإمام البخاري)	خالد خلاوي	٥٨٨	٨٦

مسك الختام

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	مالك بن نبي وأسئلة الاستعمار والنهضة	محمد صديق	٥٨١	٩٨
٢	أزمة الفعالية وأمتنا	أحمد عبدالجواد زايدة	٥٨٢	٩٨
٣	القلم أمانة	خالد برادة	٥٨٣	٩٨
٤	مكونات الإمام العادل	عثمان إسماعيل	٥٨٤	٩٨
٥	الحكمة ضالة المؤمن	السيد زرد	٥٨٥	٩٨
٦	الإسلام والغرب.. استمرارية التفاعل والصراع	محمد فتحي النادي	٥٨٦	٩٨
٧	فلا تظلموا فيهن أنفسكم	د. أحمد الدش	٥٨٧	٩٨
٨	حرية التعبير	د. السيد شعيب	٥٨٨	٩٨
٩	سيدي العالم	محمد رامز الحموي	٥٨٩	٩٨
١٠	الإصلاح ضرورة دعوية واجتماعية وحياتية	د. إبراهيم نويري	٥٩٠	٩٨
١١	الحج عبادة الأمة	السنوسي محمد	٥٩١	٩٨
١٢	العمران البشري	د. خالد راتب	٥٩٢	٩٦

متنوع

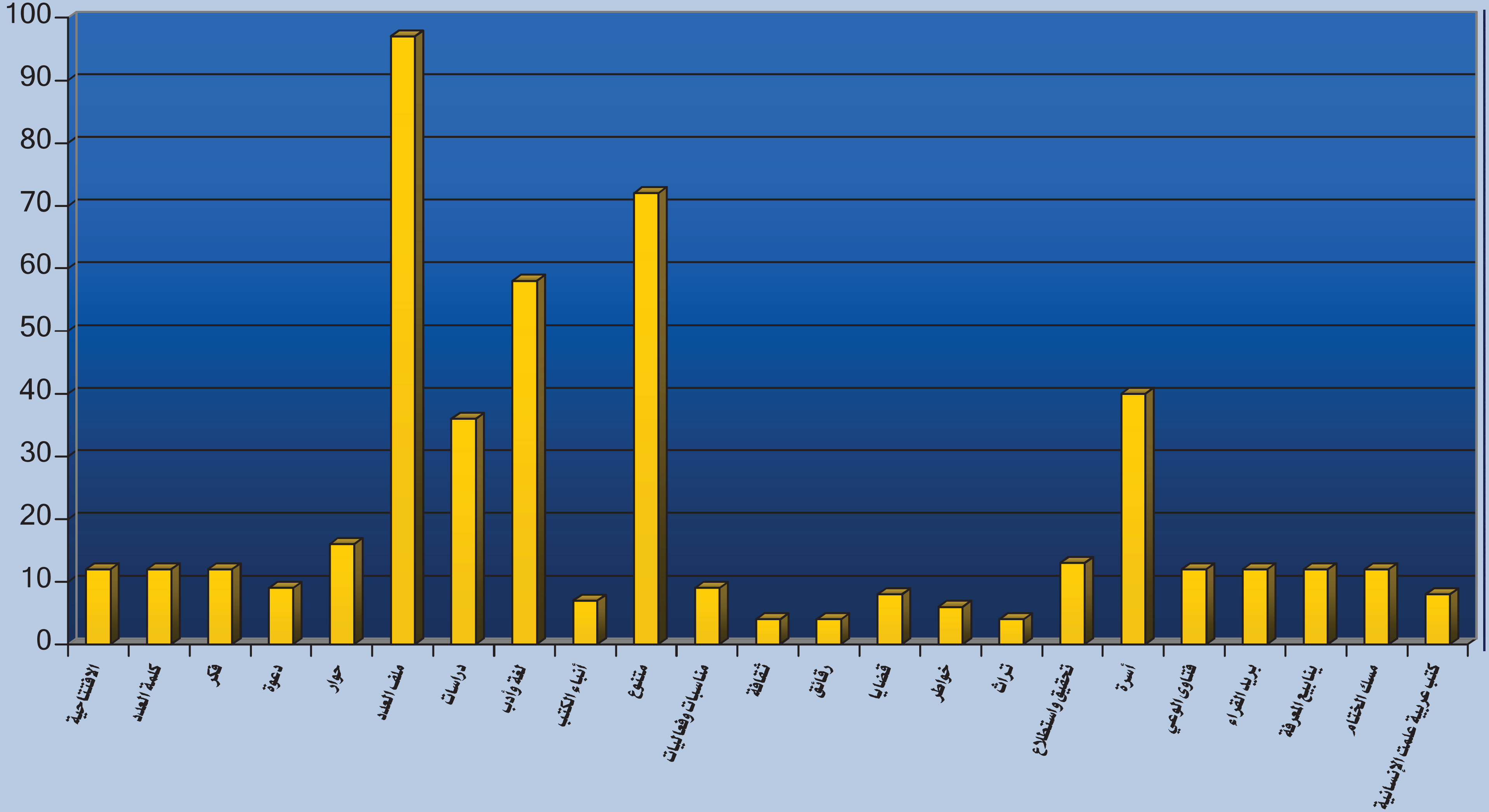
م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١	التفاعل الاجتماعي وتشكيل الشخصية	الزبير مهداد	٥٨١	٦٨
٢	الحب لغة الإسلام	عمر تدرارني	٥٨١	٧٦
٣	ضغط الدم.. القاتل الصامت	منى الموجي	٥٨١	٨٤
٤	حوار مع الخطاط المغربي محمد أهري	بشرى شاكر	٥٨١	٨٧
٥	طور نفسك	سلمان الكندري	٥٨١	٨٨
٦	النفاق الاجتماعي وخطره على الأمة	د. خالد راتب	٥٨٢	١٦
٧	السمنة وأعراضها	د. محمد عزيز الرحمن القاسمي	٥٨٢	٧٨
٨	أبي.. لسنا في ثكنة عسكرية	عبدالرحمن ضاحي	٥٨٢	٨٠
٩	عسل النحل.. فوائد غذائية وعلاجية لا حد لها	منى الموجي	٥٨٢	٨٤
١٠	تذكر أنك بشر	د. سلطان السهو	٥٨٢	٨٧
١١	القيم في الإسلام.. سورة الحجرات نموذجا	د. مراد زهوي	٥٨٣	٨
١٢	التاجر القدوة	رشيد الحسن	٥٨٣	١٧
١٣	معاني القعود في القرآن الكريم ودلالاتها التربوية	د. مصطفى رجب	٥٨٣	٦٤
١٤	إدارة الرقابة الشرعية الداخلية في الشركات	د. سلطان السهو	٥٨٣	٨٥
١٥	الماء.. فوائده الصحية والجمالية	منور عثمان	٥٨٣	٨٦
١٦	كتابة التاريخ الإسلامي ودعوات التنقية	د. أحمد الشال	٥٨٣	٨٨
١٧	شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعدالله	ياسين كتاني	٥٨٤	٩

م	الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
١٨	الشدياق صاحب الجوائب	علاء عبدالفتاح	٥٨٤	١٧
١٩	الدكتور حسنين محمود.. الأصولي الفقيه في ذمة الله	التحرير	٥٨٤	٥١
٢٠	الحياة مدرسة	إحسان الدبش	٥٨٤	٦٠
٢١	نظم المعلومات.. والرقابة الشرعية في الشركات	د. سلطان السهو	٥٨٤	٦٣
٢٢	أغذية الخمول والكسل	منى الموجي	٥٨٤	٧٤
٢٣	المدرسة الصولتية	د. محمد سعيد صمدي	٥٨٤	٨٢
٢٤	التفتيش والتصنيف ونقد الأصول	د. أحمد الشال	٥٨٤	٨٧
٢٥	مرض السكر	د. محمد عزيز الرحمن	٥٨٥	١٣
٢٦	أدب العلماء مع الله	رشيد الحسن	٥٨٥	١٤
٢٧	تجليات حفظ الشريعة لمقصد المال	د. أمينة مزيغة	٥٨٥	١٦
٢٨	١٠ طرق لمواجهة الإحباط واليأس	د. آندي حجازي	٥٨٥	٦٤
٢٩	محكمة المياه في بلنسية	محمد إلهامي	٥٨٥	٧٦
٣٠	كيف يتجنب المستهلك التأثير على نفسيته؟	بشرى شاكر	٥٨٥	٧٨
٣١	القراءة المتذوقة والفهم الصحيح	د. أحمد الشال	٥٨٥	٨١
٣٢	طور نفسك	سلمان الكندري	٥٨٥	٨٨
٣٣	العدل ومكانة الإنسان في الإسلام	يسري عبدالغني	٥٨٦	٦
٣٤	المواطنة من المنظور الإسلامي	رسمي عجلان	٥٨٦	١٤
٣٥	خلف أسوار الخطأ	د. محمد علي يوسف	٥٨٦	١٦
٣٦	السرد القصصي في القرآن	حسين المحمد	٥٨٦	٦٨
٣٧	صياغة الإستراتيجية التنموية	هواري عبدالقادر	٥٨٦	٨١
٣٨	مدخل إلى دراسة تاريخ الصحابة	د. أحمد الشال	٥٨٦	٨٢
٣٩	الشعير غذاء ودواء وبركة	د. درويش الشافعي	٥٨٦	٨٦
٤٠	إعجاز الخلية الحية	د. عبدالرحمن النمر	٥٨٧	٥٠
٤١	كيف يسمو مجتمعنا بالإنسانية	أحمد هريادي	٥٨٧	٦٢
٤٢	مطارق العسرة.. ومقامات الإيمان	د. خالد راتب	٥٨٧	٦٦
٤٣	محمد قطب في ذمة الله	التحرير	٥٨٧	٦٩
٤٤	الشعب النموذج	إسلام مهدي	٥٨٧	٧٥
٤٥	الشيخ لحبيب فارس	د. محمد مراح	٥٨٧	٨٢
٤٦	محدودية السياحة البينية بين الدول الإسلامية	عبدالحافظ الصاوي	٥٨٧	٨٤
٤٧	مقاومة السكري	د. محمد القاسمي	٥٨٧	٨٧
٤٨	طور نفسك	سلمان الكندري	٥٨٧	٨٨
٤٩	المخطوط العربي يستشرف المستقبل بتراث الأجداد	دار الإعلام العربية	٥٨٨	٦
٥٠	الشيخ رواس قلعجي والعلامة محمد هشام البرهاني	التحرير	٥٨٨	١٣
٥١	كسر الحاجز	مياسة النخلاني	٥٨٨	٦٤

الأخوة الكُتاب والقراء:

نضع بين أيديكم الرسم البياني الذي يوضح حجم المادة المنشورة في كل باب من أبواب الوعي الإسلامي

آملين إبداء ملاحظاتكم لنسترشد بها في خطتنا للعام الهجري الجديد ١٤٣٦هـ.





ناجحون
www.alwaeialshababy.com
الوعي الشبابي
www.alwaeialshababy.com
مواضيع حيوية ومعاصرة
حوارات حصرية مع الشباب المبدعين
مقالات لأبرز الكتاب الشباب
« الوعي الشبابي » مجلة شبابية
إلكترونية تصدر عن مجلة «الوعي الإسلامي»
رئيس التحرير : فيصل يوسف العلي
Shabab alwaei
@alwaeialshababy